١

من زوائد ابي الحسن علي ... افندي والسلم

المعروف بقبه زاده مصطفى

الفقير المجيد وزير محمد رحمة الله عليه



الملك لله دخل في حفظ عبده

الحاج بشير آغاء دار السعادة

الشريفة لسنة ثمان وخمسين

ومائة والف





هذه النسخة الجليلة من وقف حضرة آغا صاحب الخيرات الحسان جميل الجود والاحسان

منور مصابيح المقاصد بانوار العناية مصحح معاقد المراصد بمصابيح الكفاية جامع محاسن

العلم والعمل حائز مجامع الخير الاكمل الا وهو آغا دار السعادة الحاج بشير

وفقه الله تعالى للخير المزيد والاجر الكثير من هو على كل شيء قدير حرره الفقير

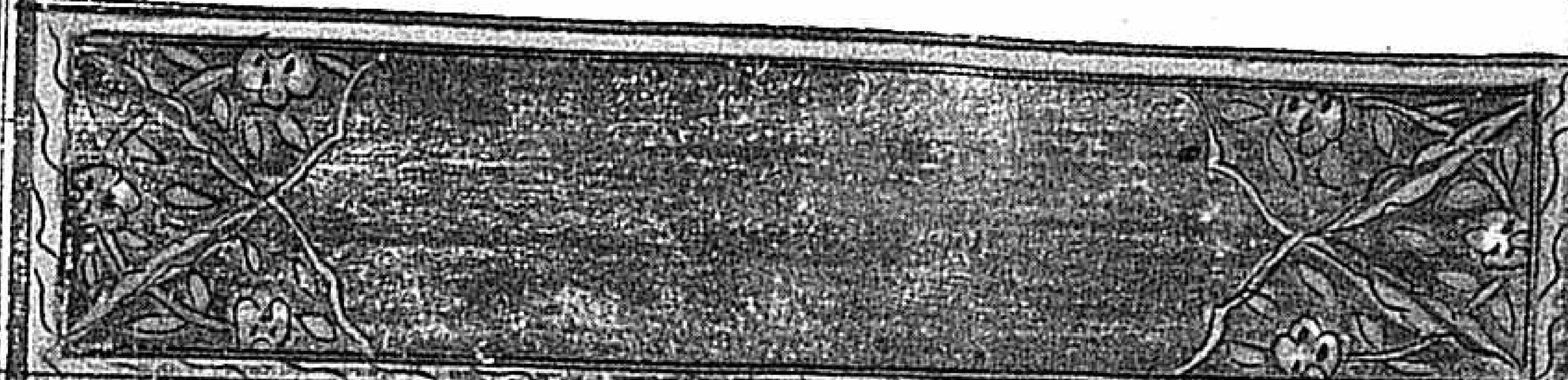
محمد امين المفتش باوقاف الحرمين المحترمين

غفر له



١٨

٧



بسم الله الرحمن الرحيم سبحان من ارسل رسوله بالهدى ودين الحق وبين له من شعائر الحق الشرايع كل ما جل ودق ● انزل عليه اظهر بينات وابهر حجج قرانا عربيا غير ذي عوج مصدقا لما بين يديه من الكتاب ليدبروا اياته وليتذكر اولوا الالباب ناطقا بكل امر رشيد هاديا الى صراط العزيز الحميد ● امرا بعبادة الصمد المعبود ● كتابا متشابها مثاني تقشعر منه الجلود ● لكاد الرواسي لهيبته تمور ويذوب منه الحديد ويميع صم الصخور ● حقيقا بان يسير به الجبال ويسير به كل صعب محال ● معجزا افحم كل مصقع من مهرة قحطان وبكت كل مغلق من سحرة البيان بحيث لو اجتمعت الانس والجن على معارضته ومباراته لعجزوا عن الاتيان بمثل آية من اياته نزل عليه على فترة من الرسل ليرشد الامة على اقوم السبل ● فهداهم الى الحق وهم في ضلال مبين فاضمحل دجى الباطل وسطع نور اليقين ● فمن اتبع هداه فقد فاز بمناه ● واما من عانده وعصاه ● واتخذ الهه هواه ● فقد هام في مهاوي الردى وتردى في مهاوي الزور ● ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ● صلى الله عليه وعلى آله الاخيار وصحبه الابرار ما تناوبت الانواء وتعاقبت الظلم والاضوا ● وعلى من تبعهم باحسان مدى الدهور والازمان

اما بعد فيقول العبد الفقير الى رحمة الهادي ابو السعود بن محمد العمادي ● ان الغاية القصوى من تحرير نسخة العالم وما كان حرف منها مسطورا والحكمة الكبرى في تخمير طينة آدم ولم يكن شيئا مذكورا ليست الا معرفة الصانع ● وعبادة الباري المبدئ المعيد ولا سبيل الى ذلك المطلب الجليل ● سوى الوقوف على مواقف التنزيل فانه عز سلطانه وجل برهانه وان سطر آيات قدرته في صحايف الاكوان ● ونصب رايات وحدته في صفايح الاعراض والاعيان ● وجعل كل ذرة من ذرات العالم ● وكل قطرة من قطرات العيلم وكل نقطة عليها جرى قلم الابداع ● وكل حرف رقم في لوح الاختراع ● مرآة لمشاهدة جماله ومطالعة صفات كماله حجة نيرة واضحة المكنون ● وآية بينة لقوم يعقلون ● برهانا جليا لا ريب فيه ومنهاجا سويا لا يضل من ينتحيه بل ناطقا يتلو آيات ربه فهل من سامع واع ومجيبا صادقا فهل له من داع ● يكلم الناس على قدر عقولهم ● ويرد جوابهم بحسب مقولهم يحاور تارة باوضح عبارة ● ويلوح اخرى بالطف اشارة لكن الاستدلال بتلك الايات والدلايل ● والاستشهاد بتلك الامارات والمخايل والتنبه لتلك الاشارات السرية ● والتفطن لمعاني تلك العبارات العبقرية ● وما في تضاعيفها من رموز اسرار القضاء والقدر ● وكنوز آثار التعاجيب والعبر ● مما لا يطيق به عقول البشر الا بتوفيق خلاق القوى والقدر ● فاذن مدار المراد ليس الا كلام رب العباد اذ هو المظهر لتفاصيل الشعائر الدينية والمفسر لمشكلات الايات التكوينية ● والكاشف عن خفايا خطاير القدس والمطلع على خبايا سرائر الانس ● وبه تكتسب الملكات الفاخرة ● وبه يتوصل الى سعادة الدنيا والآخرة خلا انه ايضا من علو الشان وسمو المكان ● ونهاية الغموض والاعضال ● وصعوبة المأخذ وعزة المنال ● في غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية ● اعز من بيض الانوق ● وابعد من مناط العيوق ● لا يتسنى العروج الى معارجه ولا يتأتى الرقي الى مدارجه المنيعة ● كيف لا وانه مع كونه متضمنا لدقايق العلوم النظرية والعملية ومنطويا على دقايق الفنون الخفية والجلية ● حاويا لتفاصيل الاحكام الشرعية ومحيطا بمناط الدلايل الاصلية والفرعية منبئا عن اسرار الحقايق والغيوب مخبرا باطوار الملك والملكوت ● عليه يدور فلك الاوامر والنواهي ● واليه يستند معرفة الاشياء كما هي قد نسج على اغرب منوال ● وابدع طراز واحتجبت طلعته بسبحات الاعجاز ● طويت حقايقه الابية عن العقول ● وذويت دقايقه الخفية عن اذهان الفحول ● يرد عيون العقول سبحانه ● ويخطف ابصار البصاير بريقه ولمعانه ● ولقد تصدى لتفسير غوامض مشكلاته اساطين ايمة التفسير في كل عصر من

الاعصار ● وتولى لتيسير معضلاته سلاطين اسرة التقرير والتحرير في كل قطر من الاقطار فغاصوا في لججه وخاضوا في ثبجه ● فنظموا فرائده في سلك التحرير ● وابرزوا فوائده في معرض التقرير وصنفوا كتبا جليلة الاقدار ● والفوا زبرا جميلة الآثار ● اما المتقدمون المحققون فاقتصروا على تمهيد المعاني وتشييد المباني ● وتبيين المرام وترتيب الاحكام حسبما بلغهم من سيد الانام عليه شرايف التحية والسلام ● واما المتاخرون المدققون فراموا مع ذلك اظهار مزاياه الرايقة وابداء خباياه الفايقة ليعاين الناس دلايل اعجازه ● ويشاهدوا شواهد فضله وامتيازه ● عن ساير الكتب الكريمة الربانية ● والزبر العظيمة السبحانية ● فدونوا اسفارا بارعة ● جامعة لفنون المحاسن الرايعة ● يتضمن كل منها فوائد شريفة ● تقر بها عيون الاعيان وعوائد لطيفة ● يتشنف بها آذان الاذهان لا سيما الكشاف ● وانوار التنزيل المتفردان بالشان الجليل والنعت الجميل فان كلا منهما قد احرز قصب السبق ايما احراز كانه ● مرآة لاجتلاء وجه الاعجاز صحايفهما مرايا المزايا الحسان ● وسطورهما عقود الجمان ● وقلايد العقيان ولقد كان في سوابق الايام وسوالف الدهور والاعوام اوان اشتغالي بمطالعتهما وممارستهما وزمان انتصابي لمفاوضتهما ومدارستهما ● يدور في خلدي على استمرار آناء الليل واطراف النهار ان انظم درر فوائدهما في سمط دقيق وارتب غرر فرائدهما على ترتيب انيق واضيف اليهما ما الفيته في تضاعيف الكتب الفاخرة من جواهر الحقايق وصادفته في اصداف العيالم الزاخرة من زواهر الدقايق واسلك خلالها بطريق الترصيع على نسق انيق واسلوب بديع حسبما يقتضيه جلالة شان التنزيل ويستدعيه جزالة نظمه الجليل ما سنح للفكر العليل بالعناية الربانية وسمح به النظر الكليل بالهداية السبحانية من عوارف معارف يمتد اليها اعناق الهمم من كل ماهر لبيب ● وعزائب رغايب ترنو لها احداق الامم ● من كل نحرير اريب وتحقيقات رصينة ● تقيل عثرات الافهام في مداحض الاقدام وتدقيقات متينة تزيل خطرات الاوهام ● من خواطر الانام في معارك افكار يشتبه فيها الشؤن ● ومدارك خفايا الرموز وخبايا الكنوز واهديها الى الخزانة العامرة الغامرة للبحار الزاخرة لجناب من خصه الله تعالى بخلافة الارض واصطفاه لسلطنتها في الطول والعرض ● الا وهو السلطان الاسعد الاعظم ● والخاقان الامجد الافخم ● مالك الامامة العظمى ● والسلطان الباهر وارث الخلافة الكبرى ● كابرا عن كابر رافع رايات الدين الازهر ● موضح آيات الشرع الانور ● مرغم انوف الفراعنة والجبابرة معفر جباه القياصرة والاكاسرة فاتح بلاد المشارق والمغارب بنصر الله العزيز وجنده الغالب الهمام الذي شرق عزمه المنير فانتهى الى المشرق الاقصى ● وغرب حتى بلغ مغرب الشمس او دنا بخميس عرمرم متراحم الافواج ● وعسكر خضم متلاطم الامواج فاصبح ما بين افقي الطلوع والغروب وما بين نقطتي الشمال والجنوب منتظما في سلك ولاياته الواسعة ومندرجا تحت ظلال راياته الرايعة فاصبحت منابر الربع المسكون مشرفة بتذكار اسمه الميمون فيا له من ملك استوعب مملكة البر البسيط ● واستغرق فلكه البحر المحيط ● فكانه فضاء ضربت فيه خيامه ● او نصبت عليه الوية واعلامه ● مالك ممالك العالم ● ظل الله الظليل على كافة الامم قاصم القياصرة وقاهر القروم ● سلطان العرب والعجم والروم سلطان المشرقين ● وخاقان الخافقين ● الامام المقتدر بالقدرة الربانية والخليفة المعتز بالعزة السبحانية المفتخر بخدمة الحرمين الجليلين المعظمين وحماية المقامين الجليلين المفخمين ناشر القوانين السلطانية عاشر الخواقين العثمانية السلطان بن السلطان السلطان سليمان خان ابن السلطان المظفر المنصور ● والخاقان الموقر المشهور ● صاحب المغازي المشهورة في اقطار الامصار والفتوحات المذكورة في صحايف الاسفار السلطان سليم خان ابن السلطان السعيد والخاقان المجيد السلطان بايزيد خان لا زالت سلسلة سلطنته متسلسلة الى انتهاء سلسلة الزمان وارواح اسلافه العظام مترجحة في روضة الرضوان وكنت اتردد في ذلك بين اقدام واحجام ● لقصور شاني وعزة المرام ● اين الحضيض من الذرى شتان بين الثريا



والثرى وهيهات اصطياد العنقاء بالشباك ۝ واقتياد الجوزاء من بروج الافلاك ۝ فمضت
عليه الدهور والسنون وتغيرت الاطوار وتبدلت الشؤون فابتليت بتدبير مصالح العباد
برهة في قضاء البلاد واخرى في قضاء العساكر والاجناد فحال بيني وبين ما
كنت اخال تراكم المهمات وتزاحم الاشغال ۝ وهجوم العوارض والعلائق وهجوم الصوارف
والعوائق والتردد الى المغازي والاسفار والتنقل من دار الى دار ۝ وكنت في تضاعيف
هاتيك الامور اقدر في نفسي ان انتهز نهزة من الدهور ۝ ويتسنى لي القرار ۝ وتطمئن
في الدار واظفر حينئذ بوقت خال ۝ اتبتل فيه الى جناب ذي العظمة والجلال واوجه اليه
وجهي واسلم له سري وعلانيتي ۝ وانظر الى كل شيء بعين الشهود واتعرف سر الحق
في كل موجود تلافيا لما قد فات ۝ واستعد للماهو آت واتصدى لتحصيل ما عزمت عليه
واتولى لتكميل ما توجهت اليه ۝ برفاهة واطمئنان ۝ وحضور قلب وفراغ جنان فبينما انا في
هذا الخيال اذ بدا لي ما لم يخطر بالبال تحولت الاحوال والدهر حول فوقعت في امر اشق
من الاول امرت بحل مشكلات الانام ۝ فيما شجر بينهم من النزاع والخصام ۝ فلقيت معضلة
طويلة الذيول وصرت كالهارب من المطر الى السيول ۝ فبلغ السيل الزبى وغمر ثيابي غمر غوارب
ما جرى بين زيد وعمرو ۝ فاصبحت في ضيق المجال وسعة الاشغال اشهر ممن يضرب بها
الامثال فجعلت اتمثل بقول من قال لقد كنت اشكو الحوادث برهة واستمرض الايام وهي
صحائح الى ان تغشتني وقيت حوادث تحقق ان السالفات منايح ۝ فلما انصرمت عرى الآمال
من الفوز بفراغ البال ورايت الفرصة على جناح الفوات وشمل الاسباب في شرف الشتات
وقد مستني الكبر وتضاءلت القوى والقدر ۝ ودنا الاجل من الحلول ۝ واشرفت شمس الحيوة
على الافول ۝ عزمت على انشاء ما كنت انويه ۝ وتوجهت الى املاء ما ظللت ابتغيه ناويا ان اسميه
عند تمامه بتوفيق الله تعالى وانعامه ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم فشرعت
فيه مع تفاقم المكاره علي وتزاحم المشاده بين يدي متضرعا الى رب العظمة والجبروت
خلاق عالم الملك والملكوت في ان يعصمني عن الزيغ والزلل ويقيني مصارع السوء في
القول والعمل ويوفقني لتحصيل ما ارومه وارجوه ويهديني الى تكميله على احسن الوجوه
ويجعله خير عدة وعتاد اتمتع به يوم المعاد فيا من توجهت وجوه الذل والابتهال ۝ نحو
بابه المنيع ورفعت ايدي الضراعة والسؤال ۝ الى جنابه الرفيع افض علينا شوارق انوار
التوفيق واطلعنا على دقائق اسرار التحقيق ۝ وثبت اقدامنا على مناهج هداك ۝ وانطقنا بما
فيه امرك ورضاك ولا تكلنا الى انفسنا في لحظة ولا آن وخذ بنواصينا الى الخير حيث
كان جئناك على جباه الاستكانة ضارعين ولابواب فضلك قارعين انت الملاذ في كل امر
مهم وانت المعاذ في كل خطب ملم لا رب غيرك ولا خير الا خيرك ۝ بيدك مقاليد الامور
لك الخلق والامر واليك النشور

سورة الفاتحة وهي سبع آيات مكية

الفاتحة في الاصل اول ما من شانه ان يفتح كالكتاب والباب ثم اطلقت عليه لكونه واسطة
في فتح الكل ثم اطلقت على اول كل شيء فيه تدريج بوجه من الوجوه كالكلام التدريجي حصولا والسلوك
والاوراق التدريجية قراءة وعدا والتاء للنقل من الوصفية الى الاسمية او هي مصدر بمعنى الفتح
اطلقت عليه تسمية للمفعول باسم المصدر اشعارا باصالته كانه نفس الفتح فان تعلقه به بالذات
وبالباقي بواسطته لكن لا على معنى انه واسطة في تعلقه بالباقي ثانيا حتى يرد انه لا يتسنى في الخاتمة
لما ان ختم الشيء عبارة عن بلوغ آخره وذلك انما يتحقق بعد انقطاع الملابسة عن اجزائه الاول
بل على معنى ان الفتح المتعلق بالاول فتح له اولا وبالذات وهو بعينه فتح للمجموع بواسطة كونه
جزءا منه وكذا الكلام في الخاتمة فان بلوغ آخر الشيء يعرض للآخر اولا وبالذات وللكل بواسطته
على الوجه الذي تحققته والمراد بالاول ما يعم الاضافي فلا حاجة الى الاعتذار بان اطلاق
الفاتحة على السورة الكريمة بتمامها باعتبار جزئها الاول والمراد بالكتاب هو المجموع الشخصي
لا القدر المشترك بينه وبين اجزائه على ما عليه اصطلاح اهل الاصول ولا ضير في اشتهار
السورة الكريمة بهذا الاسم في اوائل عهد النبوة قبل تحصل المجموع بنزول الكل لما ان التسمية
من جهة الله عز اسمه او من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم بالاذن فيكفي فيها تحصله

باعتبار تحققه في علمه عز وجل او في اللوح او باعتبار انه انزل جملة الى السماء الدنيا واملاه
جبريل عليه السلام على السفرة ثم كان ينزله على النبي صلى الله عليه وسلم نجوما في
ثلاث وعشرين كما هو المشهور والاضافة بمعنى اللام كما في جزء الشيء لا بمعنى من كما في خاتم
فضة لما عرفت ان المضاف جزء من المضاف اليه لا جزئي له ومدار التسمية كونه مبدأ للكتاب
على الترتيب المعهود لا في القراءة في الصلوة ولا في التعليم ولا في النزول لما ان الاول
مبني اذ ليس المراد بالكتاب القدر المشترك الصادق على ما يقرأ في الصلوة حتى يعتبر بالتسمية
مبدئيتها واما الاخيران فلان اعتبار المبدئية من حيث التعليم او من حيث النزول
كما قيل يستدعي مراعاة الترتيب في بقية اجزاء الكتاب من تينك الحيثيتين ولا ريب في
ان الترتيب التعليمي والترتيب النزولي ليسا على نسق الترتيب المعهود وتسمى ام القرآن
لكونها اصلا ومنشأ له اما لمبدئيتها له واما لاشتمالها على ما فيه من الثناء على الله
عز وعلا والتعبد بامره ونهيه وبيان وعده ووعيده او على جملة معانيه من الحكم
النظرية والاحكام العملية التي هي سلوك الصراط المستقيم والاطلاع على معارج السعداء
ومنازل الاشقياء والمراد بالقرآن هو المراد بالكتاب وتسمى ام الكتاب ايضا
ويسمى به اللوح المحفوظ ۝ لكونه اصلا لكل الكائنات والآيات الواضحة الدالة على معانيها
لكونها بينة تحمل عليها المتشابهات ومناط التسمية ما ذكر في ام القرآن لا ما اورده
الامام البخاري في صحيحه من انه يبدأ بقراءتها في الصلوة فانه مما لا تعلق له بالتسمية
كما اشير اليه وتسمى سورة الكنز لقوله عليه السلام انها انزلت من كنز تحت العرش او لما
ذكر في ام القرآن كما انه الوجه في تسميتها الاساس والكافية والوافية وتسمى سورة الحمد
والشكر والدعاء وتعليم المسألة لاشتمالها عليها وسورة الصلوة لوجوب قراءتها
فيها وسورة الشفاء والشافية لقوله عليه السلام هي شفاء من كل داء والسبع المثاني
لانها سبع آيات تثنى في الصلوة او لتكرر نزولها على ما روي انها انزلت مرة بمكة حين
فرضت الصلوة وبالمدينة اخرى حين حولت القبلة وقد صح انها مكية لقوله تعالى
ولقد آتيناك سبعا من المثاني وهو مكي بالنص ۝ بسم الله الرحمن الرحيم
اختلفت الامة في شان التسمية في اوائل السور الكريمة فقيل انها ليست من القرآن اصلا
وهو قول ابن مسعود رضه ومذهب مالك والمشهور من مذهب قدماء الحنفية
وعليه قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها وقيل انها آية فذة من القرآن
انزلت للفصل والتبرك بها وهو الصحيح من مذهب الحنفية وقيل هي آية تامة من كل
سورة صدرت بها وهو قول ابن عباس رضه وقد نسب الى ابن عمر ايضا رضي الله
عنهم وعليه يحمل اطلاق عبارة ابن الجوزي في زاد المسير حيث قال روي عن ابن
عمر رضه انها انزلت مع كل سورة وهو ايضا مذهب سعيد بن جبير والزهري وعطاء
وعبد الله بن المبارك وعليه قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما وهو القول الجديد
للشافعي رحه ولذلك يجهر بها عنده فلا عبرة بما نقل عن الجصاص من ان هذا القول
من الشافعي لم يسبقه اليه احد وقيل انها نزلت آية من الفاتحة مع كونها قرآنا في
سائر السور ايضا من غير تعرض لكونها جزءا منها او لا ولا لكونها آية تامة او لا وهو احد
قولي الشافعي على ما ذكره القرطبي ونقل عن الخطابي انه قول ابن عباس وابي هريرة و
قيل انها آية تامة في الفاتحة وبعض في البواقي وقيل بعض آية في الفاتحة وآية تامة في
البواقي وقيل انها بعض آية في الكل وقيل انها آيات من القرآن متعددة بعدد السور
المصدرة بها من غير ان تكون جزءا منها وهذا القول غير معزي في الكتب الى احد
وهناك قول آخر ذكره بعض المتأخرين ولم ينسبه الى احد وهو انها آية تامة في الفاتحة
وليست بقرآن في سائر السور لا باعتبار كونها آية تامة فكان ذلك احد محملي تردد الشافعي فانه
قد نقل عنه انها بعض آية في الفاتحة واما في غيرها فقوله فيها متردد فقيل بين ان يكون
قرآنا او لا وقيل بين ان يكون آية تامة او لا قال الامام الغزالي والصحيح من الشافعي هو
التردد الثاني وعن احمد بن حنبل في كونها آية كاملة وفي كونها من الفاتحة روايتان

ذكرهما ابن الجوزي ونقل انه مع مالك وغيره ممن يقول انها ليست من القران هذا والمشهور
من هذه الاقاويل هي الثلاثة الاول والاتفاق على اثباتها في المصاحف مع الاجماع على ان
ما بين الدفتين كلام الله عز وجل يقضي به في القول الاول وثبوت القدر المشترك بين
الاخيرين من غير دلالة على خصوصية احدهما فان كونها جزءا من القران لا يستدعي كونها
جزءا من كل سورة منه كما لا يستدعي كونها اية منفردة منه واما ما روي عن ابن عباس
رضي الله عنهما ان من تركها فقد ترك مائة واربع عشرة اية من كتاب الله تعالى وما روي عن ابي
هريرة من انه صلى الله عليه وسلم قال فاتحة الكتاب سبع ايات اولاهن بسم الله الرحمن الرحيم
وما روي عن ام سلمة من انه عليه السلام قرا سورة الفاتحة وعد بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين اية وان دل كل واحد منها على نفي القول الثاني فليس بشيء منها نصا
في اثبات القول الثالث اما الاول فلانه لا يدل الا على كونها ايات من كتاب الله تعالى
متعددة بعدد السور المصدرة بها لا على ما هو المطلوب من كونها اية تامة من كل واحدة
منها الا ان يلتجا الى ان يقال ان كونها ايات متعددة بعدد السور المصدرة بها من غير
ان تكون جزءا منها قول لم يقل به احد واما الثاني فساكت عن التعرض لحالها
في بقية السور واما الثالث فناطق بخلافه مع مشاركته للثاني في السكوت المذكور
والباء فيها متعلقة بمضمر ينبئ عنه الفعل المصدر بها كما انها كذلك في تسمية المسافر عند الحلول
والارتحال وتسمية كل فاعل عند مباشرة الافعال ومعناها الاستعانة والملابسة تبركا
اي بسم الله اقرا او اتلو وتقديم المعمول للاعتناء به والقصد الى التخصيص كما في اياك
نعبد وتقدير ابدا لاقتضائه اقتصار التبرك على البداية مخل بما هو المقصود اعني شمول
البركة للكل وادعاء ان فيه امتثالا بالحديث الشريف من جهة اللفظ والمعنى معا وفي
تقدير اقرا من جهة المعنى فقط ليس بشيء فان مدار الامتثال هو البدء بالتسمية لا تقدير فعله
اذ لم يقل في الحديث الكريم كل امر ذي بال لم يقل فيه او لم يضمر فيه ابدا وهذا الى اخر السورة الكريمة
مقول على السنة العباد تلقينا لهم وارشادا الى كيفية التبرك باسمه تعالى وهداية الى
منهاج العبد وسؤال الفضل ولذلك سميت السورة الكريمة بما ذكر من تعليم المسالة وانما
كسرت ومن حق الحروف المفردة ان تفتح لاختصاصها بلزوم الحرفية والجر كما كسرت لام الامر
ولام الاضافة داخلة على المظهر للفصل بينهما وبين لام الابتداء والاسم عند البصريين
من الاسماء المحذوفة الاعجاز المبنية الاوائل على السكون قد ادخلت عليها عند الابتداء
همزة لان من دابهم البدء بالمتحرك والوقف على الساكن ويشهد له تصريفهم على اسماء
وسمي وسميت وسمي كهدي لغة فيه والله اسماك سمي مباركا اثرك الله به ايثاركا
والقلب بعيد غير مطرد واشتقاقه من السمو لانه رفع للمسمى وتنويه له وعند الكوفيين
من السمة واصله وسم حذفت الواو وعوضت عنها همزة الوصل ليقل اعلالها ورد
عليه بان الهمزة لم تعهد داخلة على ما حذف صدره في كلامهم ومن لغاتهم سم وسم
قال فالله بسم الذي في كل سورة سمه وانما لم يقل بالله للفرق بين اليمين والتيمن او لتحقيق
ما هو المقصود بالاستعانة ههنا فانها تكون تارة بذاته تعالى وحقيقتها طلب المعونة
على ايقاع الفعل واحداثه اي افاضة القدرة المفسرة عند الاصوليين من اصحابنا بما يتمكن
به العبد من اداء ما لزمه المنقسمة الى ممكنة وميسرة وهي المطلوبة باياك نستعين و
تارة اخرى باسمه عز وجل وحقيقتها طلب المعونة في كون الفعل معتدا به شرعا فانه
ما لم يصدر باسمه تعالى يكون بمنزلة المعدوم ولما كانت كل واحدة من الاستعانتين واقعة
وجب تعيين المراد بذكر الاسم والا فالمتبادر من قولنا بالله عند الاطلاق لاسيما عند
الوصف بالرحمن الرحيم هي الاستعانة الاولى ان قيل فليحمل الباء على التبرك وليستغن
عن ذكر الاسم لما ان التبرك لا يكون الا به قلنا ذاك فرع كون المراد بالله هو الاسم وهل
التشاجر الا فيه فلا بد من ذكر الاسم لينقطع احتمال ارادة المسمى ويتعين حمل الباء
على الاستعانة الثانية او التبرك وانما لم تكتب الالف لكثرة الاستعمال قالوا وطولت
الباء عوضا عنها والله اصله الاله حذفت همزته على غير قياس كما ينبئ عنه وجوب

الادغام

الادغام وتعويض الالف واللام عنها حيث لزمها وجردا عن معنى التعريف ولذلك قيل
يا الله بالقطع فان المحذوف القياسي في حكم الثابت فلا يحتاج الى التدارك بما ذكر من
الادغام والتعويض وقيل على قياس تخفيف الهمزة فيكون الادغام والتعويض من
خواص الاسم الجليل ليمتاز بذلك عما عداه امتياز مسماه عما سواه بما لا يوجد فيه من
نعوت الكمال والاله في الاصل اسم جنس يقع على كل معبود بحق او باطل اي مع قطع النظر
عن وصف الحقية والبطلان لا مع اعتبار احدهما لا بعينه ثم غلب على المعبود بالحق
كالنجم والصعق واما الله بحذف الهمزة فعلم مختص بالمعبود بالحق لم يطلق على غيره
اصلا واشتقاقه من الالاهة والالوهة والالوهية بمعنى العبادة حسبما نص عليه
الجوهري على انه اسم منها بمعنى المالوه كالكتاب بمعنى المكتوب لا على انه صفة منها بدليل
انه يوصف ولا يوصف به حيث يقال اله واحد ولا يقال شيء اله كما يقال كتاب مرقوم ولا
يقال شيء كتاب والفرق بينهما ان الموضوع له في الصفة هو الذات المبهمة باعتبار
اتصافها بمعنى معين وقيامه بها فمدلولها مركب من ذات مبهمة لم يلاحظ معها
خصوصية اصلا ومن معنى معين قائم بها على ان ملاك الامر تلك الخصوصية فبايه
ذات يقوم ذلك المعنى يصح اطلاق الصفة عليها كما في الافعال ولذلك تعمل عملها كاسم
الفاعل والمفعول والموضوع له في الاسم المذكور هو الذات المعينة والمعنى الخاص فمدلوله
مركب من ذينك المعنيين من غير رجحان للمعنى على الذات كما في الصفة ولذلك لم يعمل
عملها وقيل اشتقاقه من اله بمعنى تحير لانه سبحانه يحار في شانه العقول والافهام
واما اله كعبد وزنا ومعنى فمشتق من الاله المشتق من اله بالكسر وكذا تاله واستاله اشتقاق
استنوق واستحجر من الناقة والحجر وقيل من اله الى فلان اي سكن اليه لاطمئنان القلوب بذكره
تعالى وسكون الارواح الى معرفته وقيل من اله اذا فزع من امر نزل به والهه غيره اذا اجاره اذ العائذ
به تعالى يفزع اليه وهو يجيره حقيقة او في زعمه وقيل اصله لاه على انه مصدر من لاه
يليه بمعنى احتجب وارتفع اطلق على الفاعل مبالغة وقيل هو اسم علم للذات الجليل ابتداء
وعليه مدار امر التوحيد في قولنا لا اله الا الله ولا يخفى ان اختصاص الاسم الجليل بذاته
سبحانه بحيث لا امكان لاطلاقه على غيره اصلا كاف في ذلك ولا يقدح فيه كون ذلك الاختصاص
بطريق الغلبة بعد ان كان اسم جنس في الاصل وقيل هو وصف في الاصل لكنه لما غلب
عليه بحيث لا يطلق على غيره اصلا صار كالعلم ويرده امتناع الوصف واعلم ان المراد
بالمنكر في كلمة التوحيد هو المعبود بالحق فمعناها لا فرد من افراد المعبود بالحق الا ذلك
المعبود بالحق وقيل اصله لاها بالسريانية فعرب بحذف الالف الثانية وادخال الالف
واللام عليه وتفخيم لامه اذا لم ينكسر ما قبله سنة وقيل مطلقا وحذف الفه لحن تفسد
به الصلوة ولا ينعقد به صريح اليمين وقد جاء لضرورة الشعر في قوله الا لا بارك الله في سهيل
اذا ما الله بارك في الرجال والرحمن الرحيم صفتان مشبهتان من رحم بعد جعله لازما
بمنزلة الغرائز بنقله الى رحم بالضم كما هو المشهور وقد قيل ان الرحيم ليس بصفة مشبهة
بل هي صيغة مبالغة نص عليه سيبويه في قولهم هو رحيم فلانا والرحمة في اللغة رقة
القلب والانعطاف ومنه الرحم لانعطافها على ما فيها والمراد بها ههنا التفضل و
الاحسان او ارادتهما بطريق اطلاق اسم السبب بالنسبة الينا على مسببه البعيد والقريب
فان اسماء الله تعالى تؤخذ باعتبار الغايات التي هي افعال دون المبادي التي هي انفعالات والاول
من الصفات الغالبة حيث لم يطلق على غيره تعالى وانما امتنع صرفه الحاقا له بالاغلب في بابه
من غير نظر الى الاختصاص العارض فانه كما حظر وجود فعلى حظر وجود فعلانة فاعتبارهما يوجب
اجتماع الصرف وعدمه فلزم الرجوع الى اصل هذه الكلمة قبل الاختصاص بان يقاس
الى نظائرها من باب فعل يفعل فاذا كان كلها ممتنعة من الصرف لتحقق وجود فعلى
فيها علم ان هذه الكلمة ايضا في اصلها مما تحقق فيها وجود فعلى فتمتنع من الصرف وفيه
من المبالغة ما ليس في الرحيم ولذلك قيل رحمن الدنيا والاخرة ورحيم الدنيا وتقديمه مع
كون القياس تاخيره رعاية لاسلوب الترقي الى الاعلى كما في قولهم فلان عالم نحرير وجواد

بدل
عماعداه

لا يمكن صح

باسل وجواد وفياض لانه باختصاصه به عز وجل صار حقيقا بان يكون قرينا للاسم الجليل الخاص
به تعالى ولان ما يدل على جلائل النعم وعظائمها واصولها احق بالتقديم مما يدل على
دقائقها وفروعها وافراد الوصفين الشريفين بالذكر لتحريك سلسلة الرحمة الحمد لله
الحمد لغة هو النعت بالجميل على الجميل اختياريا كان او مبديا له على وجه يشعر
بتوجهه الى المنعوت وبهذه الحيثية يمتاز عن المدح فانه خال عنها يرشدك الى ذلك ما ترى
بينهما من الاختلاف في كيفية التعلق بالمفعول في قولك حمدته ومدحته فان
تعلق الثاني بمفعوله على منهاج عامة الافعال بمفعولاتها واما الاول فتعلقه بمفعوله
منبئ عن معنى الانهاء كما في قولك كلمته فانه معرب عما يفيده لام التبليغ في قولك
قلت له ونظيره شكرته وعبدته وخدمته فان تعلق كل منها منبئ عن المعنى المذكور
وتحقيقه ان مفعول كل فعل في الحقيقة هو الحدث الصادر عن فاعله ولا يتصور في
كيفية تعلق الفعل به اي فعل كان اختلاف اصلا واما المفعول به الذي هو محله وموقعه
فلما كان تعلقه به ووقوعه عليه على انحاء مختلفة حسبما يقتضيه خصوصيات الافعال
بحسب معانيها المختلفة فان بعضها يقتضي ان يلابسه ملابسة تامة مؤثرة فيه كعامة
الافعال وبعضها يستدعي ان يلابسه ادنى ملابسة اما بالانتهاء اليه كالاعانة مثلا
او بالابتداء منه كالاستعانة مثلا اعتبر في كل نحو من انحاء تعلقه به كيفية لائقة
بذلك النحو مغايرة لما اعتبر في النحوين الاخيرين فنظم القسم الاول من التعلق في سلك
التعلق بالمفعول الحقيقي مراعاة لقوة الملابسة وجعل كل واحد من القسمين الاخيرين
من قبيل التعلق بواسطة الجار المناسب له فان قولك اعنته مشعر بانتهاء الاعانة اليه
وقولك استعنته بابتدائها منه وقد يكون لفعل واحد معنيان يتعلقان باحدهما على
الكيفية الاولى وبالاخر على الثانية او الثالثة كما في قولك حدثني الحديث وسألني المال
فان التحديث مع كونه فعلا واحدا قد تعلق به على الكيفية الثانية وبالحديث على الاولى
وكذا السؤال فانه فعل واحد وقد تعلق بك على الكيفية الثالثة وبالمال على الاولى ولا
ريب في ان اختلاف هذه الكيفيات الثلاث وتباينها واختصاص كل من المفاعيل
المذكورة بما نسب اليه منها مما لا يتصور فيه تردد ولا نكير وان كان لا يتضح حق الاتضاح
الا عند الترجمة والتفسير وان مدار ذلك الاختلاف ليس الا اختلاف الفعل واختلاف
المفعول. ولا اختلاف في مفعول الحمد والمدح تعين ان اختلافهما في كيفية التعلق
لاختلافهما في المعنى قطعا هذا وقد قيل المدح مطلق عن قيد الاختيار يقال مدحت
زيدا على حسنه ورشاقة قده واياما كان فليس بينهما ترادف بل اخوة من جهة
الاشتقاق الكبير وتناسب تام في المعنى كالنصر والتأييد فانهما متناسبان معنى من
غير ترادف لما ترى بينهما من الاختلاف في كيفية التعلق بالمفعول وانما مرادف النصر
الاعانة ومرادف التأييد التقوية فتدبر ثم ان ما ذكر من التفسير هو المشهور من معنى الحمد واللائق
بالارادة في مقام التعظيم واما ما ذكر في كتب اللغة من معنى الرضى مطلقا كما في قوله تعالى عسى
ان يبعثك ربك مقاما محمودا وفي قولهم بهذا الامر عاقبته حميدة وفي قول الاطباء بحران
محمود مما لا يختص بالفاعل فضلا عن الاختيار فبمعزل من استحقاق الارادة ههنا
استقلالا واستتباعا بحمل الحمد على ما يعم المعنيين اذ ليس في اثباته له عز وجل فائدة
يعتد بها واما الشكر فهو مقابلة النعمة بالثناء واداب الجوارح وعقد القلب على وصف
المنعم بنعت الكمال كما قال من قال افادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير
المحجبا فاذن هو اعم منهما من جهة واخص من اخرى ونقيضه الكفران ولما كان الحمد من
شعب الشكر ادخل في اشاعة النعمة والاعتداد بشأنها وادل على مكانها لما في عمل القلب من
الخفاء وفي اعمال الجوارح من الاحتمال جعل الحمد رأس الشكر وملاك الامر في قوله صلى الله عليه وسلم
الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لم يحمده وارتفاعه بالابتداء وخبره الظرف واصله النصب
كما هو شأن المصادر المنصوبة بافعالها المضمرة التي لا تكاد تستعمل معها نحو شكرا وعجبا
كانه قيل نحمد الله حمدا بنون الحكاية ليوافق ما في قوله تعالى اياك نعبد واياك نستعين لاتحاد الفعل

في الكل واما ما قيل من انه بيان لحمدهم له تعالى كانه قيل كيف تحمدون فقيل اياك نعبد
فمع انه لا حاجة اليه مما لا صحة له في نفسه فان السؤال المقدر لا بد ان يكون بحيث
يقتضيه انتظام الكلام وينساق اليه الاذهان والافهام ولا ريب في ان الحامد بعد
ما ساق حمده تعالى على تلك الكيفية اللائقة لا يخطر ببال احد ان يسأل عن كيفيته
على ان ما قدر من السؤال غير مطابق للجواب فانه مسوق لتعيين المعبود لا لبيان
العبادة حتى لا يتوهم كونه بيانا لحمدهم والاعتذار بان المعنى نخصك بالعبادة
وبه يتبين كيفية الحمد تعكيس للامر وتمحل لتوفيق المنزل المقرر بالموهوم المقدر بعد اللتيا
والتي ان فرض السؤال من جهته عز وجل فاتت نكتة الالتفات التي اجمع عليها السلف والخلف
وان فرض من جهة الغير يختل النظام لابتناء الجواب فانه مسوق ليعيد على خطابه وبهذا
يتضح فساد ما قيل انه استئناف جوابا للسؤال يقتضيه اجراء تلك الصفات العظام على
الموصوف بها فكانه قيل ما شأنكم معه وكيف توجهكم اليه فاجيب بحصر العبادة والاستعانة
فيه فان تناسي جانب السائل بالكلية وبناء الجواب على خطابه عز وجل مما يجب تنزيه
ساحة التنزيل عن امثاله والحق الذي لا محيد عنه انه استئناف صدر عن الحامد بمحض ملاحظة
اتصافه تعالى بما ذكر من النعوت الجليلة الموجبة للاقبال الكلي عليه من غير ان يتوسط هناك شيء
اخر كما ستحيط به خبرا وايثار الرفع على النصب الذي هو الاصل للايذان بان ثبوت الحمد له تعالى
لذاته لا لاثبات مثبت وان ذلك امر دائم مستمر لا حادث متجدد كما تفيده قراءة النصب وهو السر
في كون تحية الخليل للملائكة عليهم السلام احسن من تحيتهم له في قوله تعالى قالوا سلاما
قال سلام وتعريفه للجنس ومعناه الاشارة الى الحقيقة من حيث هي حاضرة في ذهن
السامع والمراد تخصيص حقيقة الحمد به تعالى المستدعي لتخصيص جميع افرادها به سبحانه
على الطريق البرهاني لكن لا بناء على ان افعال العباد مخلوقة له تعالى فتكون الافراد الواقعة
بمقابلة ما صدر عنهم من الافعال الجميلة راجعة اليه تعالى بل بناء على تنزيل تلك الافراد
ودواعيها في المقام الخطابي منزلة العدم كيفا وكما وقد قيل للاستغراق الحاصل بالقصد
الى الحقيقة من حيث تحققها في ضمن جميع افرادها حسبما يقتضيه المقام وقرئ الحمد لله
بكسر الدال اتباعا لها باللام وبضم اللام اتباعا لها بالدال بناء على تنزيل الكلمتين لكثرة
استعمالهما مقترنتين منزلة كلمة واحدة مثل المغيرة ومنحدر الجبل رب العالمين
بالجر على انه صفة لله فان اضافته حقيقية مفيدة للتعريف على كل حال ضرورة تعين ارادة
الاستمرار وقرئ منصوبا على المدح او بما دل عليه الجملة السابقة كانه قيل نحمد الله رب
العالمين ولا مساغ لنصبه بالحمد لقلة اعمال المصدر المحلى باللام وللزوم الفصل بين العامل
والمعمول بالخبر والرب في الاصل مصدر بمعنى التربية وهي تبليغ الشيء الى كماله شيئا فشيئا
وصف به الفاعل مبالغة كالعدل وقيل صفة مشبهة من ربه يربه مثل نمه ينمه بعد
جعله لازما بنقله الى فعل بالضم كما هو المشهور سمي به المالك لانه يحفظ ما يملكه ويربيه
ولا يطلق على غيره تعالى الا مقيدا كرب الدار ورب الدابة ومنه قوله تعالى فيسقي ربه خمرا
وقوله تعالى ارجع الى ربك وما في الصحيحين من انه صلى الله عليه وسلم قال لا يقل احدكم
اطعم ربك وضئ ربك ولا يقل احدكم ربي وليقل سيدي ومولاي فقد قيل
ان النهي فيه للتنزيه واما الارباب فحيث لم يمكن اطلاقه على الله تعالى جاز في اطلاقه
الاطلاق والتقييد كما في قوله تعالى ءارباب متفرقون خير الاية والعالم اسم لما يعلم به كالخاتم
والقالب غلب فيما يعلم به الصانع تعالى من المصنوعات اي في القدر المشترك بين اجناسها
وبين مجموعها فانه كما يطلق على كل جنس منها في قولهم عالم الافلاك وعالم العناصر و
عالم النبات وعالم الحيوان وغير ذلك يطلق على المجموع ايضا كما في قولنا العالم بجميع اجزائه
محدث وقيل هو اسم لاولي العلم من الملائكة والثقلين وتناوله لما سواهم بطريق الاستتباع
وقيل اريد الناس فقط فان كل واحد منهم من حيث اشتماله على نظائر ما في العالم الكبير من
الجواهر والاعراض يعلم بها الصانع كما يعلم بما فيه عالم على حياله ولذلك امر بالنظر في
كالنظر في الافاق فقيل وفي انفسكم افلا تبصرون والاول هو الاحق

الاظهر وايثار صيغة الجمع لبيان شمول ربوبيته تعالى لجميع الاجناس
والتعريف لاستغراق افراد كل منها باسرها اذ لو افرد لربما توهم
ان المقصود بالتعريف هو الحقيقة من حيث هي استغراق افراد جنس واحد على الوجه
الذي اشير اليه في تعريف الحمد وحيث صح ذلك بمساعدة التعريف نزل العالم وان لم ينطلق
على احاد مدلوله منزلة الجمع حتى قيل انه جمع لا واحد له من لفظه فكما ان الجمع المعرف
يستغرق احاد مفرده وان لم يصدق عليها كما في مثل قوله تعالى والله يحب المحسنين اي كل
محسن كذلك العالم يشمل افراد الجنس المسمى به وان لم ينطلق عليها كانها احاد مفرده
التقديري ومن قضية هذا التنزيل تنزيل جمعه منزلة جمع الجمع فكما ان الاقاويل يتناول
كل واحد من احاد الاقوال يتناول لفظ العالمين كل واحد من احاد الاجناس التي لا تكاد
تحصى روي عن وهب بن منبه قال الله تعالى ثمانية عشر الف عالم والدنيا عالم منها
وانما جمع بالواو والنون مع اختصاص ذلك بصفات العقلاء وما في حكمها من الاعلام
لدلالته على معنى العلم مع اعتبار تغليب العقلاء على غيرهم واعلم ان عدم انطلاق
اسم العالم على كل واحد من تلك الاحاد ليس الا باعتبار الغلبة والاصطلاح واما
باعتبار الاصل فلا ريب في صحة الاطلاق قطعا لتحقق المصداق حتما فانه كما يستدل
على الله سبحانه بمجموع ما سواه وبكل جنس من اجناسه يستدل عليه تعالى بكل جزء
من اجزاء ذلك المجموع وبكل فرد من افراد ذلك الاجناس لتحقق الحاجة الى المؤثر الواجب
لذاته في الكل فان كل ما ظهر في المظاهر مما عز وهان وحضر في هذه المحاضر كائنا ما
كان دليل لائح على الصانع المجيد وسبيل واضح الى عالم التوحيد واما شمول ربوبيته
عز وجل للكل فمما لا حاجة الى بيانه اذ لا شيء مما احدق به نطاق الامكان والوجود من العلويات
والسفليات والمجردات والماديات والروحانيات والجسمانيات الا وهو في حد ذاته
بحيث لو فرض انقطاع اثار التربية عنه لما وجد لما استقر له القرار ولا اطمأنت به الدار
الا في مطمورة العدم ومهاوي البوار لكن يفيض عليه من الجانب الاقدس تعالى شانه وتقدس
في كل زمان يمضي وكل ان يمر وينقضي من فنون الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وصفاته
وكمالاته ما لا يحيط به فلك التعبير ولا يعلمه الا العليم الخبير ضرورة انه كما لا يستحق شيء
من الممكنات بذاته الوجود ابتداء لا يستحقه بقاء وانما ذلك من جناب المبدا الاول عز وعلا
فكما لا يتصور وجوده ابتداء ما لم ينسد عليه انحاء عدمه الاصلي لا يتصور بقاؤه على
الوجود بعد تحققه بعلته ما لم ينسد عليه جميع انحاء عدمه الطاري لما ان الدوام من
خصايص الوجود الواجبي وظاهر ان ما يتوقف عليه وجوده من الامور الوجودية التي
علله وشرايطه وان كانت متناهية لوجوب تناهي ما دخل تحت الوجود لكن الامور العدمية
التي لها دخل في وجوده وهي المعبر عنها بارتفاع الموانع ليست كذلك اذ لا استحالة في ان
يكون لشيء واحد موانع غير متناهية يتوقف وجوده او بقاؤه على ارتفاعها اي بقائها
على العدم مع امكان وجودها في انفسها فابقاء تلك الموانع التي لا تتناهى على العدم تربية
لذلك الشيء من وجوه غير متناهية وبالجملة فاثار تربيته عز وجل الفائضة على كل
فرد من افراد الموجودات في كل ان من انات الوجود غير متناهية فسبحانه سبحانه ما اعظم
سلطانه لا تلاحظه العيون بانظارها ولا تطالعه العقول بافكارها شانه لا يضاهي
واحسانه لا يتناهى ونحن في معرفته حائرون وفي اقامة مراسم شكره قاصرون
نسالك اللهم الهداية الى مناهج معرفتك والتوفيق لاداء حقوق نعمتك لا نحصي ثناء
عليك لا اله الا انت نستغفرك ونتوب اليك الرحمن الرحيم صفتان لله فان اريد بما
فيهما من الرحمة ما يختص بالعقلاء من العالمين او ما يفيض على الكل بعد الخروج الى طور
الوجود من النعم فوجه تاخيرهما عن وصف الربوبية ظاهر وان اريد ما يعم الكل
في الاطوار كلها حسبما في قوله تعالى ورحمتي وسعت كل شيء فوجه الترتيب ان التربية لا تقتضي
المقارنة للرحمة فايرادهما في عقبها للايذان بانه تعالى متفضل فيها فاعل بمقتضى
رحمته السابقة من غير وجوب عليه وبانها واقعة على احسن ما يكون والاقتصار على نعته تعالى

بهما في

بهما في التسمية لما انه الانسب بحال المتبرك المستعين باسمه الجليل والاوفق لمقاصده مالك
يوم الدين صفة رابعة له تعالى وتاخيرها عن الصفات الاول مما لا حاجة الى بيان وجهه
وقرا اهل الحرمين المحترمين ملك من الملك الذي هو عبارة عن السلطان القاهر و
الاستيلاء الباهر والغلبة التامة على التصرف الكلي في امور العامة بالامر والنهي وهو
الانسب بمقام الاضافة الى يوم الدين كما في قوله تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار
وقرئ ملك بالتخفيف وملك بلفظ الماضي ومالك بالنصب على المدح او الحال وبالرفع منونا
ومضافا على انه خبر مبتدا محذوف وملك مضافا بالرفع والنصب واليوم في العرف عبارة
عما بين طلوع الشمس وغروبها من الزمان وفي الشرع عما بين طلوع الفجر الثاني وغروب
الشمس والمراد ههنا مطلق الوقت والدين الجزاء خيرا كان او شرا ومنه الثاني في المثل
السائر كما تدين تدان والاول في بيت الحماسة ولم يبق سوى العدوان دناهم كما دانوا
واما الاول في الاول واما الثاني في الثاني فليس بجزاء حقيقة وانما سمي به مشاكلة
او تسمية للشيء باسم مسببه كما سميت ارادة القيام والقراءة باسمها في قوله عز اسمه اذا
قمتم الى الصلوة وقوله تعالى فاذا قرات القران فاستعذ بالله ولعله هو السر في بناء المفاعلة
من الافعال التي تقوم اسبابها بمفعولها نحو عاقبت اللص ونظائره فان قيام السرقة
التي هي سبب للعقوبة باللص نزل منزلة قيام المسبب به وهي العقوبة فصار كانها قامت بالجانبين
وصدرت عنهما فبنيت صيغة المفاعلة الدالة على المشاركة بين الاثنين واضافة اليوم اليه
لادنى ملابسة كاضافة سائر الظروف الزمانية الى ما وقع فيها من الحوادث كيوم الاحزاب
وعام الفتح وتخصيصه من بين سائر ما يقع فيه من القيامة والجمع والحساب لكونه ادخل
في الترغيب والترهيب فان ما ذكر من القيمة وغيرها من مبادي الجزاء ومقدماته واضافة
مالك الى يوم اضافة اسم الفاعل الى الظرف على نهج الاتساع المبني على اجرائه مجرى المفعول
به مع بقاء المعنى على حاله كقولهم يا سارق الليل اهل الدار اي مالك امور العالمين كلها
في يوم الدين وخلو اضافته عن افادة التعريف المسوغ لوقوعه صفة للمعرفة انما هو اذا اريد
به الحال او الاستقبال واما عند ارادة الاستمرار الثبوتي كما هو اللائق بالمقام فلا ريب في كونها
اضافة حقيقية كاضافة الصفة المشبهة الى غير معمولها في قراءة ملك يوم الدين ويوم الدين
وان لم يكن مستمرا في جميع الازمنة الا انه لتحقق وقوعه وبقائه ابدا اجري مجرى المتحقق
المستمر ويجوز ان يراد به الماضي بهذا الاعتبار كما يشهد به القراءة على صيغة الماضي وما ذكر
من اجراء الظرف مجرى المفعول به انما هو من حيث المعنى لا من حيث الاعراب حتى يلزم كون
الاضافة لفظية الا يرى انك تقول في مالك عبده انه مضاف الى المفعول به على معنى انه
كذلك معنى لا انه منصوب به محلا وتخصيصه بالاضافة اما لتعظيمه وتهويله او لبيان تفرده تعالى
باجراء الامر فيه وانقطاع العلائق المجازية بين الملاك والاملاك حينئذ بالكلية واجراء
هاتيك الصفات الجليلة عليه سبحانه تعليل لما سبق من اختصاص الحمد به تعالى المستلزم
لاختصاص استحقاقه به تعالى وتمهيد لما لحق من اقتصار العبادة والاستعانة عليه فان كل واحدة
منها مفصحة عن وجوب ثبوت كل واحد منها له تعالى وامتناع ثبوتها لما سواه اما الاولى
والرابعة فظاهر لانهما متعرضتان صراحة لكونه تعالى ربا مالكا وما سواه مربوبا مملوكا له
تعالى واما الثانية والثالثة فلان اتصافه تعالى بهما ليس الا بالنسبة الى ما سواه من العالمين
وذلك يستدعي ان يكون الكل منعما عليهم فظهر ان كل واحدة من تلك الصفات كما دلت على
وجوب ثبوت الامور المذكورة له تعالى دلت على امتناع ثبوتها لما عداه على الاطلاق
وهو المعنى بالاختصاص اياك نعبد واياك نستعين التفات من الغيبة الى الخطاب
وتلوين للنظم من باب الى باب جار على نهج البلاغة في افتنان الكلام ومسلك البراعة
حسبما يقتضيه المقام لما ان التنقل من اسلوب الى اسلوب ادخل في استجلاب النفوس
واستمالة القلوب يقع من كل واحد من التكلم والخطاب والغيبة الى كل واحد من الاخرين
كما في قوله عز وجل الله الذي ارسل الرياح فتثير سحابا الاية وقوله تعالى حتى اذا كنتم في الفلك
وجرين بهم بريح الى غير ذلك من الالتفاتات الواردة في التنزيل لاسرار يقتضيها ومزايا

والقدرة صح

نستدعيها ومما استاثر به هذا المقام الجليل من النكت الرائقة الدالة على انه خصيص العبادة
والاستعانة به تعالى لما اجري عليه من النعوت الجليلة التي وجبت له تعالى اكمل تمييز واتم ظهور بحيث
تبدل خفاء الغيبة بجلاء الحضور فاستدعي استعمال صيغة الخطاب والايذان بان حق التالي
بعد ما تامل فيما سلف من تفرده تعالى بذاته الاقدس المستوجب للمعبودية وامتيازه بذاته
عما سواه بالكلية واستبداده بجلائل الصفات واحكام الربوبية المميزة له عن جميع افراد العالمين وافتقار
الكل اليه في الذات والوجود ابتداء وبقاء على التفصيل الذي مرت اليه الاشارة ان يترقى من
رتبة البرهان الى طبقة العيان وينتقل من عالم الغيبة الى معاد الشهود ويلاحظ نفسه في
حظائر القدس حاضرا في محاضر الانس كانه واقف لدى مولاه ماثل بين يديه وهو يدعو
بالخضوع والاخبات ويقرع بالضراعة باب المناجات قائلا يا من هذه شؤون ذاته وصفاته
نخصك بالعبادة والاستعانة فان كل ما سواك كائنا ما كان من استحقاق الوجود فضلا عن
استحقاق ان يعبد ويستعان ولعل هذا السر في اختصاص السورة الكريمة بوجوب القراءة في
كل ركعة من الصلوة التي هي مناجات العبد لمولاه ومنية للتبتل اليه بالكلية واياك ضمير
منفصل منصوب وما يلحقه من الكاف والياء والهاء حروف زيدت لتعيين
الخطاب والتكلم والغيبة لا محل لها من الاعراب كالتاء في انت والكاف في ارايتك
وما ادعاه الخليل من الاضافة محتجا عليه بما حكاه عن بعض العرب اذا بلغ الرجل الستين
فاياه وايا الشواب فمما لا يعول عليه وقيل هي الضمائر واياد عامة لها لتصيرها منفصلة
وقيل الضمير هو المجموع وقرئ اياك بالتخفيف وبفتح الهمزة والتشديد وهياك بقلب
الهمزة هاء والعبادة اقصى غاية التذلل والخضوع ومنه طريق معبد اي
مذلل والعبودية ادنى منها وقيل العبادة فعل ما يرضي به الله والعبودية
الرضى بما فعل الله تعالى والاستعانة طلب المعونة على الوجه الذي مر بيانه وتقديم
المفعول فيهما لما ذكر من القصر والتخصيص كما في قوله تعالى واياي فارهبون مع ما فيه
من التعظيم والاهتمام به قال ابن عباس رضه معناه نعبدك ولا نعبد غيرك وتكرير
الضمير المنصوب للتنصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة
ولابراز الاستلذاذ بالمناجات والخطاب وتقديم العبادة لما انها من مقتضيات مدلول
الاسم الجليل وان ساعده الجراة عليه ايضا واما الاستعانة فمن الاحكام المبنية
على الصفات المذكورة ولان العبادة من حقوق الله تعالى والاستعانة من حقوق المستعين
ولان العبادة واجبة حتما والاستعانة تابعة للمستعان فيه في الوجوب وعدمه وقيل
لان تقديم الوسيلة على المسئول ادعى الى الاجابة والقبول هذا على تقدير كون اطلاق
الاستعانة عن المفعول فيه ليتناول كل مستعان فيه كما قالوا وقد قيل انه لما ان المسئول
هو المعونة في العبادة والتوفيق لاقامة مراسمها على ما ينبغي وهو اللائق بشان التنزيل
والمناسب لحال الحامد فان استعانته مسبوقة بملاحظة فعل من افعاله ليستعينه تعالى
في ايقاعه ومن البين انه عند استغراقه في ملاحظة شؤونه تعالى واشتغاله باداء ما يوجبه
تلك الملاحظة من الحمد والثناء لا يكاد يخطر بباله من افعاله واحواله الا الاقبال الكلي عليه
والتوجه التام اليه ولقد فعل ذلك بتخصيص العبادة به تعالى اولا وباستدعاء الهداية
الى ما يوصل اليه آخرا فكيف يتصور ان يشتغل فيما بينهما بما لا يعنيه من امور دنياه او بما
يعمها وغيرها كانه قيل واياك نستعين في ذلك فانا غير قادرين على اداء حقوقه من غير
اعانة منك فوجوب الترتيب حينئذ واضح وفيه من الاشعار بعلو رتبة عبادته تعالى
وعزة منالها وبكونها عند العابد اشرف المباغي والمقاصد وبكونها من مواهبه تعالى لا من
اعمال نفسه ومن الملائمة لما يعقبه من الدعاء ما لا يخفى وقيل الواو للحال اي اياك نعبد
مستعينين بك وايثار صيغة المتكلم مع الغير في الفعلين للايذان بقصور نفسه وعدم لياقته
بالوقوف في مواقف الكبرياء منفردا وعرض العبادة واستدعاء المعونة والهداية مستقلا
وان ذلك انما يتصور من عصابة هو من جملتهم وجماعة هو من زمرتهم كما هو ديدن الملوك
او للاشعار باشتراك ساير الموحدين له في الحالة العارضة له بناء على تعاضد الادلة الملجئة

فانا

بدل اصح
من مواهبه

الى ذلك وقرئ نستعين بكسر النون على لغة بني تميم اهدنا الصراط المستقيم افراد لمعظم
افراد المعونة المسئولة بالذكر وتعيين لما هو الاهم او بيان لها كانه قيل كيف اعينكم فقيل
اهدنا والهداية دلالة بلطف على ما يوصل الى البغية ولذلك اختصت بالخير وقوله تعالى
فاهدوهم الى صراط الجحيم وارد على نهج التهكم والاصل تعديتها بالى واللام كما في
قوله تعالى قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق قل الله يهدي للحق فعومل معاملة اختار
في قوله تعالى واختار موسى قومه وعليه قوله تعالى لنهدينهم سبلنا وهداية الله تعالى مع
تنوعها الى انواع لا تكاد تحصر منحصرة في اجناس مترتبة منها انفسية كافاضة القوى
الطبيعية والحيوانية التي تصدر بها عن المرء افاعيله الطبيعية والحيوانية والقوى المدركة
والمشاعر الظاهرة والباطنة التي بها يتمكن من اقامة مصالحه المعاشية والمعادية ومنها
آفاقية فاما تكوينية معربة عن الحق بلسان الحال وهي نصب الادلة المودعة في كل
فرد من افراد العالم حسبما لوح به فيما سلف واما تنزيلية مفصحة عن تفاصيل الاحكام
النظرية والعملية بلسان المقال بارسال الرسل وانزال الكتب المنطوية على فنون الهدايات
التي من جملتها الارشاد الى مسلك الاستدلال بتلك الادلة التكوينية الآفاقية والانفسية
والتنبيه على مكانها كما اشير اليه مجملا في قوله تعالى وفي الارض ايات للموقنين وفي انفسكم
افلا تبصرون وفي قوله عز وجل ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات
والارض لايات لقوم يتقون ومنها الهداية الخاصة وهي كشف الاسرار على قلب المهدي
بالوحي والالهام ولكل مرتبة من هذه المراتب صاحب ينتحيها وطالب يستدعيها والمطلوب
اما زيادتها كما في قوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى واما الثبات عليها كما روي
عن علي وابي رضه اهدنا ثبتنا ولفظ الهداية على الوجه الاخير مجاز قطعا واما على الاول
فان اعتبر مفهوم الزيادة داخلا في المعنى المستعمل فيه كان مجازا ايضا وان اعتبر خارجا عنه
مدلولا عليه بالقرائن كان حقيقة لان الهداية الزائدة هداية كما ان العبادة الزائدة عبادة فلا
يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز وقرئ ارشدنا والصراط الجادة اصله السين قلبت صادا لمكان الطاء
كمصيطر في مسيطر من سرط الشيء اذا ابتلعه سميت به لانها تسترط السابلة اذا سلكوها كما
سميت لقما لانها تلتقمهم وقد تشم الصاد صوت الزاء تحريا للقرب من المبدل منه وقد قرئ
بهن جميعا وفصحاهن اخلاص الصاد وهي لغة قريش وهي الثابتة في الامام وجمعه صرط ككتاب
وكتب وهو كالطريق والسبيل في التذكير والتانيث والمستقيم المستوي والمراد به طريق الحق
وهي الملة الحنفية السمحة المتوسطة بين الافراط والتفريط صراط الذين انعمت عليهم
بدل من الاول بدل الكل وهو في حكم تكرير العامل من حيث انه المقصود بالنسبة وفائدته
التاكيد والتنصيص على ان طريق الذين انعم الله عليهم وهم المسلمون هو العلم في الاستقامة
والمشهود له بالاستواء بحيث لا يذهب الوهم عند ذكر الطريق المستقيم الا اليه واطلاق
الانعام لقصد الشمول فان نعمة الاسلام عنوان النعم كلها فمن فاز بها فقد حاز ها
بحذافيرها وقيل المراد بهم الانبياء عليهم السلام ولعل الاظهر انهم المذكورون في قوله
عز قائلا فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين
بشهادة ما قبله من قوله تعالى ولهديناهم صراطا مستقيما وقيل هم اصحاب موسى وعيسى
عليهما السلام قبل النسخ والتحريف وقرئ صراط من انعمت عليهم والانعام ايصال النعمة و
هي في الاصل الحالة التي يستلذ بها الانسان من النعمة وهي اللين ثم اطلقت على ما يستلذه النفس
من طيبات الدنيا ونعم الله تعالى مع استحالة احصائها ينحصر اصولها في دنيوي واخروي و
الاول قسمان وهبي وكسبي والوهبي ايضا قسمان روحاني كنفخ الروح فيه وحده بالعقل وما
يتبعه من القوى المدركة فانها مع كونها من قبيل الهدايات نعم جليلة في انفسها وجسماني
كتخليق البدن والقوى الحالة فيه والهيئات العارضة له من الصحة وسلامة الاعضاء والكسبي
تخلية النفس عن الرذائل وتحليتها بالاخلاق السنية والملكات البهية وتزيين البدن بالهيئات
المطبوعة والحلي المرضية وحصول المال والجاه والثاني مغفرة ما فرط منه والرضى عنه وتبوئته
في اعلى عليين مع المقربين والمطلوب هو القسم الاخير وما هو ذريعة الى نيله من القسم الاول

فان قيل المراد بالصراط المستقيم الاسلام
او القران او طريق الجنة والنقل والمؤمنون
مهتدون الى ذلك فما معنى قولهم اهدنا
الصراط المستقيم تحصيل الحاصل قلنا
معناه ثبتنا عليه وادمنا على سلوكه
خوفا من سوء الخاتمة نعوذ بالله
من ذلك كما يتطرق العرب فقف حتى
اتاك معناه دم على وقوفك واثبت
عليه او معناه طلب زيادة الهدى
كما قال تعالى والذين اهتدوا اهتدى
زادهم هدى ويزيد الله الذين
اسود له القران

اللهم ارزقنا ذلك بفضلك العظيم و رحمتك الواسعة غير المغضوب عليهم و لا الضالين
صفة للموصول على انه عبارة عن احدى الطوائف المذكورة المشهورة بالانعام عليهم
و باستقامة المسلك ومن ضرورة هذا الشهرة يشعر بقم بالمغايرة لما اضيف اليه كلمة
غير من المتصفين بضدي الوصفين المذكورين اعني مطلق المغضوب عليهم والضالين
فاكتسب بذلك تعرفا مصححا لوقوعها صفة للمعرفة كما في قولك عليك بالحركة
غير السكون بذلك تكملة لما قبله وايذانا بان السلامة مما ابتلي به اولئك نعمة جليلة في
نفسها اي الذين جمعوا بين النعمة المطلقة التي هي نعمة الايمان ونعمة السلامة من الغضب
والضلال وقيل المراد بالموصول طائفة من المؤمنين لا باعيانهم فيكون بمعنى النكرة كذا
اللام اذا اريد به الجنس في ضمن بعض الافراد لا بعينه وهو المسمى بالمعهود الذهني و بالمغضوب
عليهم ولا الضالين اليهود والنصارى كما ورد في مسند احمد والترمذي فيبقي لفظ غير على
ابهامه نكرة مثل موصوفه وانت خبير بان جعل الموصول عبارة عما ذكر من طائفة غير معينة
محل ببدلية ما اضيف اليه مما قبله فان مدارها كون صراط المؤمنين علما في الاستقامة
مشهودا بالاستواء على الوجه الذي حققته فيما سلف ومن البين ان ذلك من حيث اضافته
وانتسابه الى كلهم لا الى بعض مبهم منهم وبهذا تبين ان لا سبيل الى جعل غير المغضوب
عليهم بدلا من الموصول لما عرفت من ان شان البدل ان يفيد متبوعه مزيد تاكيد وتقرير
وفضل ايضاح وتفسير ولا ريب في ان قصارى ام ما نحن فيه ان يكتسي مما اضيف اليه نوع
تعرف مصحح لوقوعه صفة للموصول واما استحقاق ان يكون مقصودا بالنسبة مفيدا لما
ذكر من الفوائد فكلا وقرئ بالنصب على الحال والعامل انعمت او على المدح او على الاستثناء
ان فسر النعمة بما يعم القبيلتين والغضب هيجان النفس لارادة الانتقام وعند اسناده
الى الله سبحانه يراد به غايته بطريق اسم السبب بالنسبة الينا على مسببه القريب ان اريد به
الانتقام وعلى مسببه البعيد ان اريد به نفس الانتقام ويجوز حمل الكلام على التمثيل بان تشبه
الهيئة المنتزعة من سخطه تعالى للعصاة وارادة الانتقام منهم لمعاصيهم بما ينتزع من
حال الملك اذا غضب على الذين عصوه واراد ان ينتقم منهم ويعاقبهم وعليهم مرتفع
بالمغضوب قايم مقام فاعله والعدول عن اسناد الغضب اليه تعالى كالانعام جرى على
منهاج الاداب التنزيلية في نسبة النعم والخيرات اليه عز وعلا دون اضدادها كما في قوله
تعالى الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين واذا مرضت فهو يشفين وقوله
تعالى انا لا ندري اشر اريد بمن في الارض ام اراد بهم ربهم رشدا ولا مزيدة لتاكيد
ما افاده غير من معنى النفي كانه قيل لا المغضوب عليهم ولا الضالين ولذلك جاز انا زيدا
لا ضارب وان امتنع انا زيدا مثل ضارب والضلال هو العدول عن الصراط السوي
وقرئ غير الضالين وقرئ ولا الضألين بالهمزة على لغة من جد في الهرب عن التقاء الساكنين
آمين اسم فعل هو استجب وعن ابن عباس رضه سالت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى
آمين فقال افعل بني على الفتح كاين لالتقاء الساكنين وفيه لغتان مد الفه وقصرها قال ويرحم الله عبدا قال امينا
وقال امين فزاد الله ما بيننا بعدا عن النبي صلعم لقنني جبرائيل آمين عند فراغي من قراءة فاتحة الكتاب وقال انه كالختم
على الكتاب وليست من القران وفاقا ولكن ليس ختم السورة الكريمة بها والمشهور عن ابي حنيفة ان المصلي
ياتي بها مخافتة وعنه انه لا ياتي بها الامام لانه الداعي وعن الحسن مثله لاخبار عبد الله بن مغفل وانس
بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم وعند الشافعي يجهر بها لما روي وائل بن حجر ان النبي
صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأ ولا الضالين قال آمين ورفع بها صوته عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم انه قال لابي بن كعب الا اخبرك بسورة لم ينزل في التورية والانجيل والقران مثلها
قلت بلى يا رسول الله قال فاتحة الكتاب انها السبع المثاني والقران العظيم الذي اوتيته
وعن حذيفة بن اليمان ان النبي صلى الله عليه قال ان القوم ليبعث الله عليهم العذاب
حتما مقضيا فيقرا صبي من صبيانهم في الكتاب الحمد لله رب العالمين فيسمعه الله فيرفع
عنهم بذلك العذاب اربعين سنة ~~وقال صلى الله عليه وسلم ان القوم ليبعث الله عليهم العذاب~~
الم الالفاظ التي يعبر بها عن حروف الهجم التي من جملتها المقطعات المرقومة في فواتح

السور الكريمة اسماء لها لاندراجها تحت حد الاسم ويشهد به ما يعتريها من التعريف والتنكير
والجمع والتصغير وغير ذلك من خصايص الاسم وقد نص على ذلك اساطين ائمة العربية
وما وقع في عبارات المتقدمين من التصريح بحرفيتها محمول على المسامحة واما ما
روي عن ابن مسعود رضه من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى
فله حسنة والحسنة بعشر امثالها لا اقول الم حرف والكاف حرف بل الف حرف ولام حرف
وميم حرف وفي رواية الترمذي والدارمي لا اقول الم حرف ذلك الكتاب حرف ولكن
الالف حرف واللام حرف والميم حرف فلا تعلق له بما نحن فيه قطعا فان اطلاق الحرف على
ما يقابل الاسم والفعل عرف جديد اخترعه ائمة الصناعة وانما الحرف عند الاوائل ما يتركب
منه الكلم من الحروف المبسوطة وربما يطلق على الكلمة ايضا تجوزا فاريد بالحديث الشريف
دفع توهم التجوز وزيادة تعيين ارادة المعنى الحقيقي ليتبين بذلك ان الحسنة الموعودة
ليست بعدد الكلمات القرآنية بل عدد حروفها المكتوبة في المصاحف كما يلوح به ذكر كتاب الله
دون كلام الله والقران وليس هذا من تسمية الشيء باسم مدلوله في شيء كما قيل كيف لا
والمحكوم عليه بالحرفية واستتباع الحسنة انما هي المسميات البسيطة الواقعة في كتاب الله
عز وجل سواء عبر عنها باسمائها او بانفسها كما في قولك السين مهملة والشين معجمة مثلثة
وغير ذلك مما لا يصدق المحمول الا على ذات الموضوع لا اسماؤها المؤلفة كما قلت الالف مؤلفة من ثلاثة
احرف فكما ان الحسنات في قراءة قوله تعالى ذلك الكتاب بمقابلة حروفه البسيطة وموافقة لعددها
كذلك في قراءة قوله تعالى الم بمقابلة حروفه الثلاثة المكتوبة وموافقة لعددها لا بمقابلة عدد
اسمائها الملفوظة والالفاظ الموافقة في العدد اذ الحكم بان كلا منها حرف واحد مستلزم
للحكم بانه مستتبع لحسنة واحدة فالعبرة في ذلك بالمعبر عنه دون المعبر به ولعل السر فيه
ان استتباع منوط بافادة المعنى المراد بالكلمات القرآنية فكما ان سائر الكلمات الشريفة
لا تفيد معانيها الا بالتلفظ حروفها بانفسها كذلك الفواتح المكتوبة لا تفيد المعاني المقصودة
بها الا بالتعبير عنها باسمائها فجعل ذلك تلفظا بالمسميات كالقسم الاول من غير فرق بينهما
الا يرى الى ما في الرواية الاخيرة من قوله عليه السلام والذال حرف والكاف كيف عبر عن
طرفي ذلك باسميهما مع كونهما ملفوظين بانفسهما ولقد روعيت في هذه التسمية نكتة
رائقة حيث جعل كل مسمى لكونه من قبيل الالفاظ صدرا لاسمه ليكون هو المفهوم منه
اثر ذي اثير خلا ان الالف حيث تعذر الابتداء بها استعيرت مكانها الهمزة وهي معربة اذ
لا مناسبة بينهما وبين مبني الاصل لكنها ما لم تلها العوامل ساكنة الاعجاز على الوقف
كاسماء الاعداد وغيرها حين خلت عن العوامل ولذلك قيل صاد وقاف مجموعا فيهما بين
الساكنين ولم يعامل معاملة اين وكيف وهؤلاء وان وليها عامل مسها الاعراب وقصر ما
آخره الف عند التهجي لابتغاء الخفة لا لان وزانه وزان لا يقتصر تارة فتكون حرفا وتمد اخرى
فتكون اسما لها كما في قول حسان ما قال لا قط الا في تشهده لولا التشهد لم تسمع له لاء
وقد تكلموا في شان هذه الفواتح الكريمة وما اريد بها فقيل انها من العلوم المستورة
والاسرار المحجوبة روي عن الصديق رضه انه قال في كل كتاب سر وسر القران اوائل السور
وعن علي رضه ان لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي وعن ابن عباس رضه انه قال
عجز العلماء عن ادراكها وسئل الشعبي عنها فقال سر الله عز وجل فلا تطلبوه وقيل انها
اسماء الله تعالى وقيل كل حرف منها اشارة الى اسم من اسمائه تعالى او صفة من صفاته تعالى
وقيل انها صفات الافعال الالف الاؤه واللام لطفه والميم مجده وملكه قاله محمد بن
كعب القرظي وقيل انها من قبيل الحساب وقيل الالف من الله واللام من
جبرئيل والميم من محمد اي انزل الله الكتاب بواسطة جبرئيل على محمد وقيل هي اقسام
من الله تعالى بهذه الحروف المعجمة لشرفها من حيث انها اصول اللغات ومبادي كتبه المنزلة
ومباني اسمائه الكريمة وقيل اشارة الى انتهاء كلام وابتداء كلام اخر وقيل وقيل
لكن الذي عليه التعويل اما كونها اسماء للسور المصدرة بها وعليه اجماع الاكثر واليه ذهب
الخليل وسيبويه قالوا سميت بها ايذانا بانها كلمة عربية معروفة التركيب من مسميات هذه

الالفاظ فلولا انه وحي من الله عز وجل لما عجزوا عن معارضته ويقرب منه ما قال الكلبي و
والسدي وقتادة من انها اسماء للقرآن والتسمية بثلاثة اسماء فصاعداً انما تستنكر في لغة
العرب اذا ركبت وجعلت اسما واحداً كما في حضرموت فاما اذا كانت منثورة فلا استنكار
فيها والمسمى هو المجموع لا الفاتحة فقط حتى يلزم اتحاد الاسم والمسمى غاية الامر دخول
الاسم في المسمى ولا محذور فيه كما لا محذور في عكسه حسبما تحققته آنفا وانما كتبت في المصاحف
صور المسميات دون صور الاسماء لانه ادل على كيفية التلفظ بها وهي ان يكون على نهج
التهجي دون التركيب ولان فيه سلامة عن التطويل لاسيما في الفواتح الخماسية على ان خط
المصحف مما لا يناقش فيه بمخالفة القياس واما كونها مسرودة على نمط التعديد واليه جنح
اهل التحقيق قالوا انها وردت هكذا ليكون ايقاظا لمن تحدي بالقرآن وتنبيها لهم على انه منتظم
من عين ما ينظمون منه كلامهم فلولا انه خارج عن طوق البشر نازل من عند خلاق القوى
والقدر لما تطاولت قواهم ولا تساقطت قدرتهم وهم فرسان حلبة الحوار وامراء الكلام
في نادي الفخار دون الاتيان بما يدانيه فضلا عن المعارضة بما يساويه مع تظاهرهم في
المضادة والمضارة وتهالكهم على المعازة والمعارة اوليكون مطلع ما يتلى عليهم مستقلا
بضرب من الغرابة انموذجاً لما في الباقي من فنون الاعجاز فان النطق بانفس الحروف في
تضاعيف الكلام وان كان على طرف الثمام يتناوله الخاص والعام من الاعراب والاعجام لكن
التلفظ باسمائها انما يتأتى ممن درس وخط واما ممن لم يحم حول ذلك قط فاعز من بيض
الانوق وابعد من مناط العيوق لاسيما اذا كان على نمط عجيب واسلوب غريب منبئ عن سر
سري على نهج عبقري بحيث يحار في فهمه ارباب العقول ويعجز عن ادراكه الباب الفحول
كيف لا وقد وردت تلك الفواتح في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم مشتملة على
نصفها تقريبا بحيث ينطوي على انصاف اصنافها تحقيقا او تقريبا كما يتضح عند الفحص والتنقير
حسبما فصله بعض افاضل ائمة التفسير فسبحان من دقت حكمته من ان تطالعها الانظار وجلت
قدرته عن ان ينالها ايدي الافكار وايراد بعضها افرادي وبعضها ثنائية الى الخماسية
جري على عادة الافتنان مع مراعاة ابنية الكلم وتفريقها على السور دون ايراد كلها مرة لذلك
ولما في التكرير والاعادة من زيادة افادة وتخصيص كل منها بسورتها مما لا سبيل الى المطالبة
بتوجيهه وعد بعضها اية دون بعض مبني على التوقيف البحت اما الم فاية حيثما وقعت
وقيل في آل عمران ليست باية والمص اية والمر لم تعد آية والر ليست باية في شيء من
سورها الخمس وطسم اية في سورتيها وطه ويس آيتان وطس ليست باية وحم اية
في سورها كلها وكهيعص اية وحم عسق ايتان وص وق ون لم تعد منها واحدة اية
هذا على راي الكوفيين وقيل ان جميع الفواتح ايات عندهم في السور كلها بلا فرق
بينهما واما من عداهم فلم يعدوا شيئا منها اية ثم انها على تقدير كونها مسرودة على نمط التعديد
لا يشم رائحة الاعراب ويوقف عليها وقف التمام وعلى تقدير كونها اسماء للسور او للقرآن
كان لها حظ منه اما الرفع على الابتداء او على الخبرية واما النصب بفعل مضمر كاذكر
وبتقدير فعل القسم على طريقة الله لافعلن واما الجر بتقدير حرفه حسبما يقتضيه المقام
يستدعيه النظام ولا وقف فيما عدا الرفع على الخبرية والتلفظ بالكل على وجه الحكاية
ساكنة الاعجاز الا ان ما كانت منها مفردة مثل صاد وق ون يتأتى فيها الاعراب اللفظي ايضا وقد
قرئت بالنصب على اضمار فعل اي اذكروا اقرأ صاد وقاف ونون وانما لم ينون لامتناع الصرف وكذا
ما كانت منها موازنة لمفرد نحو حم ويس وطس الموازنة لقابيل وهابيل حيث اجاز سيبويه فيها مثل
ذلك قال في باب اسماء السور من كتابه وقد قرأ بعضهم ياسين والقرآن وقاف والقرآن فكانه
جعله اسما اعجميا ثم قال اذكر ياسين انتهى وحكى السيرافي ايضا عن بعضهم قراءة ياسين و
يجوز ان يكون في الكل تحريكا لالتقاء الساكنين ولا مساغ للنصب باضمار فعل القسم لان ما بعدها من
القرآن والقلم محلوف بهما وقد استكرهوا الجمع بين القسمين على مقسم عليه واحد قبل انقضاء
الاول وهو السر في جعل ما عدا الواو الاولى في قوله تعالى والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى وما
خلق الذكر والانثى عاطفة ولا مجال للعطف ههنا للمخالفة بين الاول والثاني في الاعراب نعم

يجوز ذلك بجعل الاول مجرورا باضمار باء القسمية مفتوحا لكونه غير منصرف وقرئ
صاد وقاف بالكسر على التحريك لالتقاء الساكنين ويجوز في طاسين ميم ان يفتح نونها
ويجعل من قبيل دار ابجرد ذكره سيبويه في كتابه واما ما عدا ذلك من الفواتح فليس فيها الا
الحكاية وسيجيء تفاصيل سائر احكام كل منها مشروحة في مواقعها باذن الله عز سلطانه
اما هذه الفاتحة الشريفة فان جعلت اسما للسورة او للقرآن فمحلها الرفع اما على انه خبر
لمبتدأ محذوف والتقدير هذا الم اي مسمى به وانما صحت الاشارة الى القرآن بعضا او كلا
مع عدم سبق ذكره لانه باعتبار كونه بصدد الذكر صار في حكم الحاضر المشاهد كما يقال هذا
ما اشترى فلان واما على انه مبتدأ اي المسمى به والاول هو الاظهر لان ما يجعل عنوان الموضوع
حقه ان يكون قبل ذلك معلوم الانتساب اليه عند المخاطب وان لا علم بالتسمية قبل تحققها الاخبار
بها واداء شهرتها بايراد التردد في ان المسمى هي السورة او كل القرآن ذلك ذا اسم اشارة واللام
عماد جيء به للدلالة على بعد المشار اليه والكاف للخطاب والمشار اليه هو المسمى فانه منزل منزلة
المشاهد بالحس البصري وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو شانه
وكونه في الغاية القاصية من الفضل والشرف اثر تنويهه بذكر اسمه وما قيل من انه باعتبار
التقضي او باعتبار الوصول من المرسل الى المرسل اليه في حكم المتباعد وان كان مصححا لايراده
لكنه بمعزل من ترجيحه على ايراد ما وضع للاشارة الى القريب وتذكيره على تقدير كون المسمى هي
السورة لان المشار اليه هو المسمى بالاسم المذكور من حيث هو مسمى به لا من حيث هو مسمى
بالسورة ولئن ادعي اعتبار الحيثية الثانية في الاولى بناء على ان التسمية لتمييز السور بعضها
من بعض فذلك لتذكير ما بعده وهو على الوجه الاول مبتدأ على حدة وعلى الوجه الثاني مبتدأ
ثان وقوله عز وعلا الكتاب اما خبر له او صفة اما اذا كان خبراً له فالجملة على الوجه الاول
مستانفة مؤكدة لما افاده الجملة الاولى من نباهة شان المسمى لا محل لها من الاعراب وعلى الوجه
الثاني في محل الرفع على انها خبر للمبتدأ الاول واسم الاشارة مغن عن الضمير الرابط والكتاب
اما مصدر سمي به المفعول مبالغة كالخلق والتصوير للمخلوق والمصور واما فعال بني للمفعول
كاللباس من الكتب الذي هو ضم الحروف بعضها الى بعض واصله الجمع والضم في الامور
البادية للحس البصري ومنه الكتيبة للعسكر كما ان اصل القراءة الجمع والضم في الاشياء
الخافية عليه واطلاق الكتاب على المنظوم عبارة لما ان ماله الكتابة والمراد به على تقدير
كون المسمى هي السورة جميع القرآن الكريم وان لم يتم تنزيله عند نزول السورة اما باعتبار
تحققه في علم الله عز وجل او باعتبار ثبوته في اللوح او باعتبار نزوله جملة الى السماء الدنيا حسبما
ذكر في فاتحة الفاتحة واللام للعهد والمعنى ان هذه السورة هو الكتاب اي العمدة القصوى
منه كانه في حاز الفضل كل الكتاب المعهود الغني عن الوصف بالكمال لاشتهاره به فيما
بين الكتب على طريقة قوله عليه السلام الحج عرفة وعلى تقدير كون المسمى كل القرآن فالمراد
بالكتاب الجنس واللام للحقيقة والمعنى ان ذلك هو الكتاب الكامل الحقيق بان يخص به اسم الكتاب
لغاية تفوقه على بقية الافراد في حيازة كمالات الجنس كان ما عداه من الكتب السماوية خارج
منه بالنسبة اليه كما يقال هو الرجل اي الكامل في الرجولية الجامع لما يكون في الرجال من
مرضي الخصال وعليه قول من قال هم القوم كل القوم يا ام خالد فالمدح كما ترى من جهة حصر
كمال الجنس في فرد من افراده وفي الصورة الاولى من جهة حصر كمال الكل في الجزء ولا مساغ
خيال لحمل الكتاب على الجنس كما ان فرده المعهود هو مجموع القرآن المقابل لسائر افراده من
الكتب السماوية لا بعضه الذي ينطلق عليه اسم الكتاب باعتبار كونه جزءا لهذا الفرد لا
باعتبار كونه جزئيا للجنس على حياله ولان حصر الكمال في السورة مشعر بنقصان سائر
السور وان لم يكن الحصر بالنسبة اليها لتحقق المغايرة بينهما هذا على تقدير كون الكتاب
خبرا لذلك واما اذا كان صفة فذلك الكتاب على تقدير كون الم خبر مبتدأ محذوف اما
خبر ثان او بدل من الخبر الاول او مبتدأ مستقل خبره ما بعده وعلى تقدير كونه مبتدأ
اما خبر له او مبتدأ ثان خبره ما بعده والجملة خبر للمبتدأ الاول والمشار اليه على كلا التقديرين
هو المسمى سواء كان هي السورة او القرآن ومعنى البعد ما ذكر من الاشعار بعلو شانه والمعنى

ذلك الكتاب العجيب الشان البالغ اقصى مراتب الكمال وقيل المشار اليه هو الكتاب الموعود فمعنى
البعد حينئذ ظاهر هذا انه ان كان المسمى هي السورة ينبغي ان يراد بالوعد ما في قوله تعالى
انا سنلقي عليك قولا ثقيلا كما قيل وان كان هو القرآن فهو ما في التورية والانجيل هذا
على تقدير كون الم اسما للسورة او للقرآن واما على تقدير كونها مسرودة على نمط التعديد
فذلك مبتداء والكتاب اما خبره او صفته والخبر ما بعده على نحو ما سلف او يقدر
مبتدا اي المؤلف من هذه الحروف ذلك الكتاب وقرئ الم تنزيل الكتاب وقوله
تعالى لا ريب فيه اما في محل الرفع على انه خبر لذلك الكتاب على الصور الثلاث المذكورة
او على انه خبر ثان لالم او لذلك على تقدير كون الكتاب خبره او للمبتداء المقدر اخر على
راي من يجوز كون الخبر الثاني جملة كما في قوله تعالى فاذا هي حية تسعى واما في محل النصب على
الحالية من ذلك او من الكتاب والعامل معنى الاشارة واما جملة مستانفة لا محل لها من الاعراب
مؤكدة لما قبلها وكلمة لا نافية للجنس مفيدة للاستغراق عاملة عمل ان بحملها عليها لكونها
نقيضا لها ولازمة للاسم لزومها واسمها مبني على الفتح لكونه مفردا نكرة لا مضافا
ولا شبيها به واما ما ذكره الزجاج انه معرب وانما حذف التنوين للتخفيف فمما لا تعويل
عليه وسبب بنائه تضمنه لمعنى لا الاستغراقية لا لانه ركب معها تركيب خمسة عشر كما توهم
وخبرها محذوف اي لا ريب موجود او نحوه كما في قوله تعالى لا عاصم اليوم من امر الله
والظرف صفة لاسمها ومعناه نفي الكون المطلق ولبه عن الريب المفروض في الكتاب او الخبر
هو الظرف ومعناه سلب الكون فيه عن الريب المطلق وقد جعل الخبر المحذوف ظرفا وجعل
المذكور خبرا لما بعده وقرئ لا ريب فيه على ان لا بمعنى ليس والفرق بينه وبين الاول
ان ذلك موجب للاستغراق وهذا مجوز له والريب في الاصل مصدر رابني اذا حصل
فيك الريبة وحقيقتها قلق النفس واضطرابها ثم استعمل في معنى الشك مطلقا
او مع تهمة لانه يقلق النفس ويزيل الطمانينة وفي الحديث دع ما يريبك الى ما لا
يريبك ومعنى نفيه عن الكتاب انه في علو الشان وسطوع البرهان بحيث ليس فيه مظنة
ان يرتاب في حقيته وكونه وحيا منزلا من عند الله تعالى لا انه لا يرتاب فيه احد اصلا
الا يرى كيف جوز ذلك في قوله تعالى وان كنتم في ريب مما نزلنا الخ فانه في قوة ان يقال وان
كان لكم ريب فيما نزلنا او وان ارتبتم فيما نزلنا الخ الا انه خولف في الاسلوب حيث فرض
كونهم في الريب لا كون الريب فيه لزيادة تنزيه ساحة التنزيل عنه مع نوع اشعار بان ذلك
من جهتهم لا من جهته العالية ولم يقصد ههنا ذلك الاشعار وبثبوت الريب
في سائر الكتب ليقتضي المقام تقديم الظرف كما في قوله تعالى لا فيها غول هدى مصدر
من هداه كالسرى والبكى وهو الدلالة بلطف على ما يوصل الى البغية اي ما من
شانه ذلك وقيل هي الدلالة الموصلة اليها بدليل وقوع الضلالة في مقابلته في قوله
تعالى اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى وقوله تعالى وانا او اياكم لعلى هدى
او في ضلال مبين ولا شك في ان عدم الوصول معتبر في مفهوم الضلال فيعتبر الوصول
في مفهوم مقابله ومن ضرورة اعتباره فيه اعتباره في مفهوم الهدى المتعدي
اذ لا فرق بينهما الا من حيث التاثير والتاثر ومحصله ان الهدى المتعدي هو التوجيه
الموصل لان اللازم هو التوجه الموصل بدليل ان مقابله الذي هو الضلال
توجه غير موصل قطعا وهذا كما ترى مبني على امرين اعتبار الوصول وجوبا في
مفهوم اللازم واعتبار وجود اللازم وجوبا في مفهوم المتعدي وكلا الامرين
بمعزل من الثبوت اما الاول فلان مدار التقابل بين الهدى والضلال ليس هو الوصول
وعدمه على الاطلاق بل هما معتبران في مفهوميهما على وجه مخصوص به يتحقق
التقابل بينهما وتوضيحه ان الهدى لا بد فيه من اعتبار التوجه عن علم الى ما من شانه
الايصال الى البغية كما ان الضلال لا بد فيه من اعتبار الجور عن القصد الى ما ليس
من شانه الايصال قطعا وهذه المرتبة من الاعتبار مسلمة بين الفريقين ومحققة
للتقابل بينهما وانما النزاع في ان امكان الوصول الى البغية هل هو كاف في تحصيل

مفهوم

مفهوم الهدى او لا بد فيه من خروج الوصول من القوة الى الفعل كما ان عدم الوصول
بالفعل معتبر في مفهوم الضلال قطعا اذا تقرر هذا فنقول ان اريد باعتبار الوصول
بالفعل في مفهوم الهدى اعتباره مقارنا له في الوجود زمانا حسب اعتبار
عدمه في مفهوم مقابله فذلك بين البطلان لان الوصول غاية للتوجه المذكور
فينتهي به قطعا لاستحالة التوجه بتحصيل الحاصل وما يبقى بعد ذلك فهو اما توجه
الى الثبات عليه واما توجه الى زيادته ولان التوجه الى المقصد تدريجي والوصول
اليه دفعي فيستحيل اجتماعهما في الوجود ضرورة واما عدم الوصول فحيث كان امرا
مستمرا مثل ما يقتضيه من الضلال وجب مقارنته له في جميع ازمنة وجوده اذ
لو فارقه في آن من آنات تلك الازمنة لقارنه في ذلك الآن مقابله الذي هو الوصول
فلما فرضناه ضلالا لا يكون ضلالا وان اريد اعتباره من حيث انه غاية له واجبة
الترتيب عليه لزم ان يكون التوجه المقارن لغاية الجد في السلوك الى ما من شانه الوصول
عند تخلفه عنه لمانع خارجي كاخترام المنية مثلا من غير تقصير ولا جور من قبل المتوجه
ولا خلل من جهة المسلك ضلالا اذ لا واسطة بينهما مع انه لا جور فيه عن القصد اصلا
فبطل اعتبار وجوب الوصول في مفهوم اللازم قطعا وتبين منه عدم اعتباره في مفهوم
المتعدي حتما واما اعتبار وجود اللازم فيه وجوبا وهو الامر الثاني فبيانه مبني على
تمهيد اصل وهو ان فعل الفاعل حقيقة هو الذي يصدر عنه ويتم من قبله لكن لما لم يكن له في
تحققه في نفسه بد من تعلقه بمفعول اعتبر ذلك في مدلول اسمه قطعا ثم لما كان له باعتبار
كيفية صدوره عن فاعله وكيفية تعلقه بمفعوله وغير ذلك آثار شتى مترتبة عليه متمايزة في
انفسها مستقلة باحكام مقتضية لافرادها باسماء خاصة وعرض له بالقياس الى كل اثر من تلك
الآثار اضافة خاصة ممتازة عما عداها من الاضافات العارضة له بالقياس الى سائرها وكانت
تلك الآثار تابعة له في التحقق غير منفكة عنه اصلا اذ لا مؤثر لها سوى فاعله عدت من متماته
واعتبرت الاضافة العارضة له بحسبها داخلة في مدلوله كالاعتماد المتعلق بالجسم مثلا وضع له
باعتبار الاضافة العارضة له من انكسار ذلك الجسم الذي هو اثر خاص لذلك الاعتماد اسم الكسر
وباعتبار الاضافة العارضة له من انقطاعه الذي هو اثر آخر له اسم القطع الى غير ذلك من
الاضافات العارضة له بالقياس الى آثاره الملازمة له وهذا امر مطرد في آثاره الطبيعية واما
الآثار التي له مدخل في وجودها في الجملة من غير ايجاب لها تترتب عليه تارة وتفارقه اخرى
بحسب وجود اسبابها الموجبة لها وعدمها كالآثار الاختيارية الصادرة عن مؤثراتها
بواسطة كونه داعيا اليها فحيث كانت تلك الآثار مستقلة في انفسها مستندة الى مؤثرات غير
لازمة له لزوم الآثار الطبيعية التابعة له لم تعد من متماته لم تعتبر الاضافة العارضة له بحسبها
داخلة في مدلوله كالاضافة العارضة للامر بحسب امتثال المامور والاضافة العارضة للدعوة
بحسب اجابة المدعو فان الامتثال والاجابة وان عدا من آثار الامر والدعوة باعتبار ترتبهما
عليهما غالبا لكنهما حيث كانا فعلين اختياريين للمامور والمدعو مستقلين في انفسهما غير
لازمين للامر والدعوة لم يعدا من متماتهما ولم تعتبر الاضافة العارضة لهما بحسبهما داخلة
في مدلول اسميهما اسم الامر واسم الدعوة بل جعلا عبارة عن نفس الطلب المتعلق بالمامور والمدعو
سواء وجد الامتثال والاجابة او لا اذا تمهد هذا فنقول كما ان الامتثال والاجابة فعلان مستقلان
في انفسهما صادران عن المامور والمدعو باختيارهما غير لازمين للامر والدعوة لزوم الآثار
الطبيعية التابعة للافعال الموجبة لها وان كانا مترتبين عليهما في الجملة كذلك هدى المهدي
الى التوجه الى ما ذكر من المسلك فعل مستقل له صادر عنه باختياره غير لازم للهداية اعني التوجيه
اليه لزوم ما ذكر من الآثار الطبيعية وان كان مترتبا عليها في الجملة فلما لم يعدا من متممات
الامر والدعوة ولم يعتبر الاضافة العارضة لهما بحسبها داخلة في مدلولهما علم انه
لم يعد الهدى من متممات الهداية ولم يعتبر الاضافة العارضة لها بحسبه داخلة في مدلولها
ان قيل ليس الهدى بالنسبة الى الهداية كالامتثال والاجابة بالقياس الى اصليهما فان تعلق الامر
والدعوة بالمامور والمدعو لا يقتضي اتصافهما بكونهما مامورا ومدعوا وليس من ضرورته

اتصافهما بالامتثال والاجابة اذ لا تلازم بينهما وبين الاولين اصلا بخلاف الهدي
اصلا بالنسبة الي الهداية كالامتثال والاجابة فان تعلقهما بالمهدي يقتضي اتصافه به
لان تعلق الفعل المتعدي المبني للفاعل بمفعوله يدل علي اتصافه بمصدره الماخوذ من المبني
للمفعول قطعا وهو مستلزم لاتصافه بمصدر الفعل اللازم وهل هو الا اعتبار وجود
اللازم في مدلول المتعدي حتما قلنا كما ان تعلق الامر والدعوة بالمامور والمدعو لا يستدعي
الا اتصافهما بما ذكر من غير تعرض للامتثال والاجابة ايجابا وسلبا كذلك تعلق الهداية التي
هي عبارة من الدلالة المذكورة بالمهدي لا يستدعي الا اتصافه بما ذكر من غير تعرض للامتثال
والاجابة ايجابا وسلبا كذلك تعلق الهداية التي هي عبارة عن الدلالة المذكورة بالمدلولية التي
هي عبارة عن المصدر الماخوذ عن المبني للمفعول من غير تعرض لقبوله لتلك الدلالة كما هو معني
الهدي اللازم والعدم فقوله بل الهداية عين الدعوة الي طريق الحق والاهتداء عين الاجابة فكيف يؤخذ
في مدلولها واستلزام الاتصاف بمصدر الفعل المتعدي المبني للمفعول للاتصاف بمصدر
الفعل اللازم مطلقا انما هو في الافعال الطبيعية كالمكسورية والانكسار والمقطوعية
والانقطاع واما الافعال الاختيارية فليست كذلك كما تحققته فيما سلف ان قيل التعلم
من قبيل الافعال الاختيارية مع انه معتبر في مدلول التعليم قطعا فليكن الهدي مع الهداية
كذلك قلنا ليس ذلك لكونه فعلا اختياريا علي الاطلاق ولا لكون التعليم عبارة عن تحصيل
العلم للمتعلم كما قيل فان المعلم ليس بمستقل في ذلك ففي اسناده اليه ضرب تجوز بل لان
كلا منهما مفتقر في تحققه وتحصله الي الآخر فان التعليم عبارة عن القاء المبادي العلمية
علي المتعلم وسوقها الي ذهنه شيئا فشيئا علي ترتيب يقتضيه الحال بحيث لا ينساق اليه بعض
منها الا بعد تلقيه لبعض آخر فكل منهما متمم للآخر معتبر في مدلوله واما الهدي الذي هو عبارة
عن التوجه المذكور فعل اختياري يستقل به فاعله لا دخل للهداية فيه سوي كونها داعية
الي ايجاده باختياره فلم يكن من متمماتها ولا معتبرا في مدلولها ان قيل التعليم نوع من انواع
الهداية والتعلم نوع من انواع الاهتداء فيكون اعتباره في مدلول التعليم اعتبارا للهدي
في مدلول الهداية قلنا اطلاق الهداية علي التعليم انما هو عند وضوح المسلك واستبداد
المتعلم بسلوكه من غير دخل للتعليم فيه سوي كونه داعيا اليه وقد عرفت جلية الامر علي
ذلك التقدير ان قيل ليس تخلف الهدي عن الهداية كتخلف التعلم عن التعليم يكون لقصور فيه كما
ان تخلف الانكسار عن الضرب بالضعيف لذلك واما تخلف الهدي عن الهداية ليس لشائبة
قصور من جهتها بل انما هو لفقد سببه الموجب له من جهة المهدي بعد تكامل ما يتم
من قبل الهادي وبهذا التحرير اتضح طريق الهداية وتبين انها عبارة عن مطلق الدلالة
علي ما من شانه الايصال الي البغية بتعريف معالمه وتبيين مسالكه من غير ان يشترط في
مدلولها الوصول والقبول وان الدلالة المقارنة لهما او لاحدهما والمفارقة عنهما كل
ذلك مع قطع النظر عن قيد المقارنة وعدمها افراد حقيقية لها وان ما في قوله تعالي انك لا تهدي
من احببت وقوله تعالي ولو شاء لهديكم ونحو ذلك مما اعتبر فيه الوصول من قبيل المجاز
والكشفات الدلالات التكوينية المنصوبة في الانفس والآفاق والبيانات الشرعية
الواردة في الكتب السماوية علي الاطلاق بالنسبة الي كافة البرية برها وفاجرها هدايات
حقيقية فايضة من عند الله سبحانه والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا
ان هدانا الله **للمتقين** اي المتصفين بالتقوي حالا او مآلا وتخصيص الهدي بهم
لما انهم المقتبسون من انواره المنتفعون بآثاره وان كان ذلك شاملا لكل ناظر من مؤمن
وكافر وبذلك الاعتبار قال تعالي هدي للناس والمتقي اسم فاعل من باب الافتعال من
الوقاية وهي فرط الصيانة والتقوي في عرف الشرع عبارة عن كمال التوقي عما يضره في الآخرة
وقال عليه السلام اجماع التقوي في حق له تعالي ان الله يامر بالعدل والاحسان الآية وعن عمر
بن عبد العزيز انه ترك ما حرم الله واداء ما فرض الله وعن شهر بن حوشب المتقي من يترك
ما لا باس به حذرا من الوقوع فيما فيه باس وعن ابي يزيد ان التقوي هو التورع عن كل
ما فيه شبهة وعن محمد بن حنيف انه مجانبة كل ما يبعدك عن الله تعالي وعن سهل المتقي من تبرا من

حوله وقدرته وقيل التقوي ان لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث امرك وعن
ميمون بن مهران لا يكون الرجل تقيا حتي يكون اشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح و
السلطان الجابر وعن ابي تراب بين يدي التقوي خمس عقبات لا يناله من لا يجاوزهن ايثار
الشدة علي النعمة وايثار الضعف علي القوة وايثار الذل علي العزة وايثار الجهد علي الراحة
وايثار الموت علي الحيوة وعن بعض الحكماء انه لا يبلغ الرجل سنام التقوي الي ان يكون
بحيث لو جعل ما في قلبه في طبق فطيف به في السوق لم يستحي ممن نظر اليه وقيل التقوي
ان يتزين سرك للحق كما تزين علانيتك للخلق والتحقيق ان للتقوي ثلاث مراتب الاولي
التوقي عن العذاب المخلد بالتبري عن الكفر وعليه قوله تعالي والزمهم كلمة التقوي والثانية
التجنب عن كل ما يؤثم من فعل او ترك حتي الصغائر عند قوم وهو المتعارف بالتقوي في الشرع
وهو المعني بقوله تعالي ولو ان اهل القري آمنوا واتقوا والثالثة ان يتنزه عن كل ما يشغل
سره عن الحق عز وجل ويتبتل اليه بكليته وهو التقوي الحقيقي المامور به في قوله تعالي
يا ايها الذين امنوا اتقوا الله حق تقاته ولهذه المرتبة عرض عريض يتفاوت فيها طبقات
اصحابها حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفايضة عليهم بموجب المشية الالهية المبنية
علي الحكم الابية اقصاها ما انتهي اليه همم الانبياء عليهم السلام والصلوة حيث جمعوا بذلك
بين رياستي النبوة والولاية وما عاقهم التعلق بعالم الاشباح عن العروج الي معالم الارواح
ولم يصدهم الملابسة بمصالح الخلق عن الاستغراق في شئون الحق لكمال استعداد نفوسهم
الزكية المؤيدة بالقوة القدسية وهداية الكتاب المبين شاملة لارباب هذه المراتب
اجمعين فان اريد بكونه هدي للمتقين ارشاده اياهم الي تحصيل المرتبة الاولي ف
نيلها فالمراد بهم المشارفون للتقوي مجازا لاستحالة تحصيل الحاصل وايثاره علي العبارة
المعربة عن ذلك للايجاز وتصدير السورة الكريمة بذكر اوليائه تعالي وتفخيم شانهم وان
اريد به ارشاده الي تحصيل احدي المرتبتين الاخيرتين فان عني بالمتقين اصحاب الطبقة
الاولي تعينت الحقيقة وان عني بهم اصحاب المرتبة الثالثة تعين المجاز ولفظ الهداية
حقيقة في جميع الصور وان اريد بكونه هدي لهم تثبيتهم علي ما هم عليه وارشادهم
الي الزيادة فيه علي ان يكون مفهوم مهادا خالا في المعني المستعمل فيه فهو مجاز لا محالة
ولفظ المتقين حقيقة علي كل حال واللام متعلقة بهدي او بمحذوف وقع صفة له او حالا
منه ومحل هدي الرفع علي انه خبر لمبتدا محذوف اي هو هدي او خبر مع لا ريب
فيه لذلك الكتاب او مبتدا خبره الظرف المقدم كما اشير اليه او النصب علي الحالية من
ذلك او من الكتاب والعامل معني الاشارة او من الضمير في فيه والعامل في الجار والمجرور
معني الفعل المنفي كانه قيل لم يحصل فيه الريب مع كونه هاديا علي انه قيد للنفي لا للمنفي
وحاصله انتفي الريب فيه حال كونه هاديا وتنكيره للتفخيم وحمله علي الكتاب اما للمبالغة
كانه نفس الهدي او لجعل المصدر بمعني الفاعل هذا والذي يستدعيه جزالة التنزيل في
شان ترتيب هذه الجمل ان تكون متناسقة تقرر اللاحقة منها السابقة ولذلك لم
تتخلل بينها عاطف فالم جملة براسها علي انها خبر لمبتدا مضمر او طايفة من حروف المعجم
مستقلة بنفسها دالة علي ان المتحدي به هو المؤلف من جنس ما يؤلفون منه كلامهم
وذلك الكتاب جملة ثانية مقررة لجهة التحدي لما دلت عليه من كونه منعوتا بالكمال الفايق
ثم يجل علي غاية فضله بنفي الريب فيه اذ لا فضل اعلي مما للحق واليقين وهدي للمتقين
بما يقدر له من المبتدا جملة مؤكدة لكونه حقا لا يحوم حوله شائبة شك ما ودالة علي تكميله
بعد كماله او يستتبع منها اللاحقة استتباع الدليل للمدلول فانه لما نبه اولا علي اعجاز
المتحدي به من حيث انه من جنس كلامهم وقد عجزوا عن معارضته بالمرة ظهر انه الكتاب
البالغ اقصي مراتب الكمال وذلك مستلزم لكونه في غاية النزاهة عن مظنة الريب
اذ لا انقص مما يعتريه الشك وما كان كذلك كان لا محالة هدي للمتقين وفي كل منها من
النكت الرايقة والمزايا الفايقة ما لا يخفي جلالة شانه حسبما تحققته الذين يؤمنون
بالغيب اما موصول بالمتقين ومحله الجر علي انه صفة مقيدة له ان فسر التقوي بترك المعاصي

فقط مترتبة عليه ترتب التحلية على التخلية وانما صحة ان فسر على ما هو المتعارف شرعا في المتبادر عرفا من فعل الطاعات وترك السيئات معا لانه حينئذ يكون تفصيلا لما انطوى في الحسنات من الايمان والصلوة والصدقة فانها امهات الاعمال النفسانية والعبادات البدنية والمالية المستتبعة لساير القرب الداعية الى التجنب عن المعاصي غالبا الا يرى الى قوله تعالى ان الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر وقوله عليه السلام الصلوة عماد الدين والزكوة قنطرة الاسلام او مادحة للموصوفين بالتقوى المفسر بما مر من فعل الطاعات وترك السيئات وتخصيص ما ذكر من الخصال الثلاث بالذكر لاظهار شرفها وانافتها على ساير ما انطوى تحت اسم التقوى من الحسنات او النصب على المدح بتقدير اعني او الرفع عليه بتقدير هم واما مفصول عنه مرفوع بالابتداء خبره الجملة المصدرة باسم الاشارة كما سيأتي بيانه فالوقف على المتقين حينئذ وقف تام لانه وقف على مستقل ما بعده ايضا مستقل واما على الوجوه الاول فحسن لاستقلال الموقوف عليه غير تام لتعلق ما بعده به وتبعيته له اما على تقدير الجر على الوصفية فظاهر واما على تقدير النصب او الرفع على المدح فلما تقرر من ان المنصوب والمرفوع مدحا وان خرجا عن التبعية لما قبلهما صورة حيث لم يتبعاه في الاعراب وبذلك سميا قطعا لكنهما تابعان له حقيقة الا يرى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدا في النصب والرفع روما لتصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات ما قبله وتنبيها على شدة الاتصال بينهما قال ابو علي اذا ذكرت صفات للمدح فكما مر وخولف في بعضها الاعراب فقد خولف للافتنان اي للتفنن الموجب لايقاظ السامع وتحريكه الى الجد في الاصغاء فان تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعاني وصرفه عن سننه المسلوك ينبئ عن اهتمام جديد بشانه من المتكلم ويستجلب مزيد رغبة فيه من المخاطب ان قيل لا ريب في ان حال الموصول عند كونه خبرا لمبتدا محذوف كحاله عند كونه مبتدا خبره اولئك على هدى في انه يتسبك به جملة اسمية مفيدة لاتصاف المتقين بالصفات الفاضلة ضرورة ان كلا من الضمير المحذوف والموصول عبارة عن المتقين وان كلا من اتصافهم بالايمان وفروعه واحرازهم للهدى والفلاح من النعوت الجليلة فما السر في انه جعل ذلك في الصورة الاولى من توابع المتقين وعد الوقف غير تام وفي الثانية مقتطعا عنه وعد الوقف تاما قلنا السر في ذلك ان المبتدا في الصورتين وان كانت عبارة عن المتقين لكن الخبر في الاولى كان تفصيلا لما تضمنه المبتدا اجمالا حسبما تحققته معلوم الثبوت له بلا اشتباه غير مفيد للسامع سوى فائدة التوصيل والتوضيح نظم ذلك في سلك الصفات مراعاة لجانب المعنى وان سمي قطعا مراعاة لجانب اللفظ كيف وقد اشتهر في الفن ان الخبر اذا كان معلوم الانتساب الى المخبر عنه حقه ان يكون وصفا له كما ان الوصف اذا لم يكن معلوم الانتساب الى الموصوف حقه ان يكون خبرا له حتى قالوا ان الصفات قبل العلم بها اخبار والاخبار بعد العلم بها صفات واما الخبر في الثانية فحيث لم يكن كذلك بل كان مشتملا على ما لا ينبئ عنه المبتدا من المعاني اللائقة كما ستحيط به خبرا مفيدا للمخاطب فوائد رائقة جعل ذلك مقتطعا عما قبله محافظة على الصورة والمعنى جميعا والايمان افعال من الامن المتعدي الى واحد يقال امنته وبالنقل تعدى الى اثنين يقال امنته غيري ثم استعمل في التصديق لان المصدق يؤمن المصدق اي يجعله امينا من التكذيب والمخالفة واستعماله بالباء لتضمينه معنى الاعتراف وقد يطلق على الوثوق فان الواثق يصير ذا امن وطمانينة ومنه ما حكي عن العرب ما امنت ان اجد صحابة اي ما صرت ذا امن وسكون وهو في الشرع لا يتحقق بدون التصديق بما علم ضرورة انه من دين نبينا صلى الله عليه وسلم كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظايرها وهل هو كاف في ذلك او لا بد من انضمام الاقرار اليه للمتمكن منه والاول راي الشيخ الاشعري ومن تابعه فان الاقرار عنده منشاء لاجراء الاحكام والثاني مذهب ابي حنيفة ومن تابعه وهو الحق فانه جعله جزئين له خلا ان الاقرار ركن محتمل للسقوط بعذر

كما

كما عند الاكراه وهو مجموع ثلثة امور اعتقاد الحق والاقرار به والعمل بموجبه عند جمهور المحدثين والمعتزلة والخوارج فمن اخل بالاعتقاد وحده فهو منافق ومن اخل بالاقرار فهو كافر ومن اخل بالعمل فهو فاسق اتفاقا وكافر عند الخوارج وخارج عن الايمان غير داخل في الكفر عند المعتزلة وقرئ يومنون بغير همزة والغيب اما مصدر وصف به الغائب مبالغة كالشهادة في قوله تعالى عالم الغيب والشهادة او فيعل خفف كقيل في قيل وهين في هين وميت في ميت لكن لم يستعمل فيه الاصل كما استعمل في نظايره واياما كان فهو ما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة بحيث لا يدرك بواحد منهما ابتداء بطريق البداهة وهو قسمان قسم لا دليل عليه وهو الذي اريد بقوله سبحانه وتعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو وقسم نصب عليه دليل كالصانع وصفاته والنبوات وما يتعلق بها من الشرايع والاحكام واليوم الاخر واحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء وهو المراد ههنا فالباء صلة للايمان اما بتضمينه معنى الاعتراف او بجعله مجازا من الوثوق وهو واقع موقع المفعول به واما مصدر على حاله كالغيبة فالباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من الفاعل كما في قوله تعالى الذين يخشون ربهم بالغيب وقوله تعالى ليعلم اني لم اخنه بالغيب اي يؤمنون ملتبسين بالغيبة اما عن المؤمن به اي غائبين عن النبي صلى الله عليه وسلم غير مشاهدين لما فيه من شواهد النبوة لما روي ان اصحاب ابن مسعود رضي الله عنه ذكروا اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وايمانهم فقال رضي الله عنه ان امر محمد كان بينا لمن راه والذي لا اله غيره ما امن مؤمن افضل من الايمان بغيب ثم تلا هذه الاية واما عن الناس اي غائبين عن المؤمنين لا كالمنافقين الذين اذا لقوا الذين امنوا قالوا امنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم وقيل المراد بالغيب القلب لانه مستور والمعنى يؤمنون بقلوبهم لا كالذين يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم فالباء للالة وترك ذكر المؤمن به على التقادير الثلاثة اما للقصد الى احداث نفس الفعل كما في قولهم فلان يعطي ويمنع اي يفعلون الايمان واما للاكتفاء بما سيجيء فان الكتب الالهية ناطقة بتفاصيل ما يجب الايمان به ويقيمون الصلوة اقامتها عبارة عن تعديل الاركان وحفظها من ان يقع في شيء من فرايضها وسننها وادابها زيغ من اقام العود اذا قومه وعدله وقيل عن المواظبة عليها ماخوذ من قامت السوق اذا انفقت واقمتها اذا جعلتها نافقة فانها اذا حوفظ عليها كانت كالنافق الذي يرغب فيه وقيل عن التشمر لادائها من غير فتور ولا توان من قولهم قام بالامر واقامه اذا جد فيه واجتهد وقيل عن ادائها عبر عنه بالاقامة لاشتماله على القيام كما عبر عنه بالقنوت الذي هو القيام وبالركوع والسجود والتسبيح والاول هو الاظهر لانه اشهر والى الحقيقة اقرب والصلوة فعلة من صلى اذا دعا كالزكوة من زكى وانما كتبتا بالواو مراعاة للفظ المفخم وانما سمي الفعل المخصوص بها لاشتمالها على الدعاء وقيل اصل صلى حرك الصلوين وهما العظمان الناتيان في اعلى الفخذين لان المصلي يفعله في ركوعه وسجوده واشتهار اللفظ في المعنى الثاني دون الاول لا يقدح في نقله عنه وانما سمي الداعي مصليا تشبيها له في تخشعه بالراكع والساجد ومما رزقناهم ينفقون الرزق في اللغة العطاء ويطلق على الحظ المعطى نحو ذبح ورعي للمذبوح والمرعي وقيل هو بالفتح مصدر وبالكسر اسم وفي العرف ما ينتفع به الحيوان والمعتزلة لما احالوا تمكين الله تعالى من الحرام لانه منع من الانتفاع به وامر بالزجر قالوا الرزق لا يتناول الحرام الا يرى انه تعالى اسند الرزق الى ذاته ايذانا بانهم ينفقون من الحلال الصرف فان انفاق الحرام بمعزل من ايجاب المدح وذم المشركين على تحريم بعض ما رزقهم الله تعالى بقوله قل ارايتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا واصحابنا جعلوا الاسناد المذكور للتعظيم والتحريض على الانفاق والذم لتحريم ما لم يحرم واختصاص ما رزقنا بالحلال للقرينة وتمسكوا لشمول الرزق لهما بما روي عنه عليه السلام في حديث عمرو بن قرة حين اتاه فقال يا رسول الله ان الله كتب علي الشقوة فلا اراني ارزق الا من دفي بكفي فأذن لي في الغناء من غير فاحشة من انه قال صلى الله عليه وسلم لا اذن لك ولا كرامة ولا نعمة كذبت اي عدو الله والله لقد رزقك الله حلالا طيبا

فاختنوت ماحرم الله عليك من رزقه مكان ما احل الله لك من حلاله وبانه لو لم يكن الحرام رزقا لم يكن المتغذي به طول عمره مرزوقا وقد قال تعالى وما من دابة في الارض الا على الله رزقها والانفاق والانفاد اخوان خلا ان في الثاني معنى الاذهاب بالكلية دون الاول والمراد بهذا الانفاق الصرف في سبيل الخير فرضا كان او نفلا ومن فسر بالزكوة ذكرا فضل انواعه والاصل فيه او خصصه بها لاقترانه بما هو شقيقها والجملة معطوفة على ما قبلها من الصلة وتقديم المفعول للاهتمام والمحافظة على رؤس الاي وادخال من التبعيضية عليه الكف عن التبذير هذا وقد جوز ان يراد به الانفاق من جميع المعادن التي منحهم الله تعالى من النعم الظاهرة والباطنة ويؤيده قوله عليه السلام ان علما لا ينال به ككنز لا ينفق منه واليه ذهب من قال ومما خصصناهم من انوار المعرفة يفيضون والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك معطوف على الموصول الاول على تقديري وصله بما قبله وفصله عنه مندرج معه في زمرة المتقين من حيث الصورة والمعنى معا ومن حيث المعنى فقط اندراج خاصين تحت عام اذ المراد بالاولين الذين امنوا بعد الشرك والغفلة عن جميع الشرايع كما يؤذن به التعبير عن المؤمن به بالغيب وبالاخرين الذين امنوا بالقران بعد الايمان بالكتب المنزلة قبل كعبد الله بن سلام واضرابه او على المتقين على ان يراد بهم الاولون خاصة ويكون تخصيصهم بوصف الاتقاء للايذان بتنزههم عن حالتهم الاولى بالجلية لما فيها من كمال القباحة والمباينة للشرايع كلها الموجبة للاتقاء عنها بخلاف الاخرين فانهم غير تاركين لما كانوا عليه بالمرة بل متمسكون باصول الشرايع التي لا تكاد تختلف باختلاف الاعصار ويجوز ان يجعل كلا الموصولين عبارة عن الكل مندرجا تحت المتقين ولا يكون توسيط العاطف بينهما لاختلاف الذوات بل لاختلاف الصفات كما في قوله الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم وقوله يا لهف زيابة للحارث الصابح فالغانم فالايب للايذان بان كل واحد من الايمانين الايمان بما اشير اليه من الامور الغائبة والايمان بما يشهد بثبوتها من الكتب السماوية نعت جليل على حياله له شان خطير مستتبع لاحكام جمة حقيق بان يعد له موصوف مستقل ولا يجعل احدهما تتمة للاخر وقد شفع الاول باداء الصلوة والصدقة اللتين هما من جملة الشرايع المندرجة تحت تلك الامور المؤمن بها تكملة له فان كمال العلم بالعمل وقرن الثاني بالايقان بالاخرة مع كونه منطويا تحت الاول تنبيها على كمال صحته وتعريضا بما في اعتقاد اهل الكتاب من الخلل كما سيأتي هذا على تقدير تعلق الباء بالايمان وقس عليه الحال عند تعلقها بالمحذوف فان كلا من الايمان الغيبي المشفوع بما يصدقه من العبادتين مع قطع النظر عن المؤمن به والايمان بالكتب المنزلة الشارحة لتفاصيل الامور التي يجب الايمان بها مقرون بما قرن به فضيلة باهرة مستدعية لما ذكر والله تعالى اعلم وقد جاز كل على معنى انهم الجامعون بين الايمان بما يدركه العقل جملة والاتيان بما يصدقه من العبادات البدنية والمالية وبين الايمان بما لا طريق له غير السمع وتكرير الموصول للتنبيه على تغاير القبيلين وتباين السبيلين فليتامل وان يراد بالموصول الثاني بعد اندراج الكل في الاول فريق خاص منهم وهم مؤمنو اهل الكتاب بان يخصوا بالذكر كتخصيص جبرئيل وميكائيل اثر جريان ذكر الملائكة عليهم السلام تعظيما لشانهم وترغيبا لامثالهم واقرانهم في تحصيل ما لهم من الكمال والانزال النقل من الاعلى الى الاسفل وتعلقه بالمعاني انما هو بتوسط تعلقه بالاعيان المستتبعة لها فنزول ما عدا الصحف من الكتب الالهية الى الرسل عليهم السلام والله اعلم بان يتلقاها الملك من جنابه عز وجل تلقيا روحانيا او يحفظها من اللوح المحفوظ فنزل بها الى الرسل فيلقيها عليهم السلام والمراد بما انزل اليك هو القران باسره والشريعة عن اخرها والتعبير عن انزاله بالماضي مع كون بعضه مترقبا حينئذ لتغليب المحقق على المقدر او لتنزيل ما في شرف الوقوع لتحققه منزلة الواقع كما في قوله تعالى انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى مع ان الجن ما كانوا سمعوا الكتاب جميعا ولا كان الجميع اذ ذاك نازلا وبما انزل من قبلك التورية والانجيل وساير الكتب السالفة وعدم التعرض لذكر من انزل اليه من الانبياء عليهم السلام لقصد الايجاز مع عدم تعلق

بيان روحانيا

العرض

الغرض بالتفصيل حسب تعلقه به في قوله تعالى قولوا امنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسمعيل الاية والايمان بالكل جملة فرض وبالقران تفصيلا من حيث انا متعبدون بتفاصيله فرض كفاية فان في وجوبه في الكل عينا حرجا بينا واخلالا بامر المعاش وبناء الفعلين للمفعول للايذان بتعيين الفاعل والجري على سنن الكبرياء وقد قرئا على البناء للفاعل وبالاخرة هم يوقنون الايقان اتقان العلم بالشيء بنفي الشك والشبهة عنه ولذلك لا يسمى علمه تعالى يقينا اي يعلمون علما قطعيا مزيحا لما كان اهل الكتاب عليه من الشكوك والاوهام التي من جملتها زعمهم ان الجنة لا يدخلها الا من كان هودا او نصارى وان النار لن تمسهم الا اياما معدودات واختلافهم في ان نعيم الجنة هل هو من قبيل نعيم الدنيا او لا وهل هو دائم ام لا وفي تقديم الصلة وبناء يوقنون على الضمير تعريض لمن عداهم من اهل الكتاب فان اعتقادهم في امور الاخرة بمعزل من الصحة فضلا عن الوصول الى مرتبة اليقين والاخرة تانيث الاخر كما ان الدنيا تانيث الادنى غلبتا على الدارين فجرتا مجرى الاسماء وقرئ بحذف الهمزة وابقاء حركتها على اللام وقرئ يؤقنون بقلب الواو همزة اجراء لضمة ما قبلها مجرى ضمتها في وجوه ووقتت ونظيره ما في قوله لحب المؤقدان الى موسى وجعدة اذا اضاءهما الوقود وقوله تعالى اولئك اشارة الى الذين حكيت خصالهم الحميدة من حيث اتصافهم بها وفيه دلالة على انهم متميزون بذلك اكمل تميز منتظمون بسببه في سلك الامور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم في الفضل فهو مبتدا وقوله عز وجل على هدى خبره وما فيه من الابهام المفهوم من التنكير بكمال تفخيمه كانه قيل على اي هدى هدى لا يبلغ كنهه ولا يقادر قدره وايراد كلمة الاستعلاء بناء على تمثيل حالهم في ملابستهم بالهدى بحال من يعتلي الشيء ويستولي عليه بحيث يتصرف فيه كيفما يريد او على استعارتها لتمسكهم بالهدى استعارة تبعية متفرعة على تشبيهه باعتلاء الراكب واستوائه على مركوبه او على جعلها قرينة للاستعارة بالكناية بين الهدى والمركوب للايذان بقوة تمكنهم منه وكمال رسوخهم فيه وقوله تعالى من ربهم متعلق بمحذوف وقع صفة له مبينة لفخامته الاضافية اثر بيان فخامته الذاتية مؤكدة لها اي على هدى كائن من عنده وهو شامل لجميع انواع هدايته تعالى وفنون توفيقه والتعرض لعنوان ربوبيته مع الاضافة الى ضميرهم لغاية تفخيم الموصوف والمضاف اليهم وتشريفهما ولزيادة تحقيق لمضمون الجملة وتقريره ببيان ما يوجبه ويقتضيه وقد ادغمت النون في الراء بغنة وبغير غنة والجملة على تقدير كون الموصولين موصولين بالمتقين مستقلة لا محل لها من الاعراب مقررة لمضمون قوله تعالى هدى للمتقين مع زيادة تاكيد له وتحقيق كيف وكون الكتاب هدى لهم فن من فنون ما منحوه واستقروا عليه من الهدى حسبما تحققته لا سيما مع ملاحظة ما يستتبعه من الفوز والفلاح وقيل واقعة موقع الجواب عن سؤال ربما ينشا عما سبق كانه قيل ما للمنعوتين بما ذكر من النعوت اختصوا بهداية ذلك الكتاب العظيم وهل هم احقاء بتلك الاثرة فاجيب بانهم بسبب اتصافهم بذلك ما يكون لزمام اصل الهدى الجامع لفنونه المستتبع للفوز والفلاح فاي ريب في استحقاقهم لما هو فرع من فروعه ولقد جاز على سنن الصواب من قال في تقرير الجواب ان اولئك الموصوفين غير مستبعد ان يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا وبالفلاح اجلا واما على تقدير كونهما مفصولين عنه فهي في محل الرفع على انها خبر للمبتدا الذي هو الموصول الاول والثاني معطوف عليه وهذه الجملة استيناف وقع جوابا عن سؤال ينساق اليه الذهن من تخصيص ما ذكر بالمتقين قبل مبادي استحقاقهم لذلك كانه قيل ما بال المتقين مخصوصين به فاجيب بشرح ما انطوى عليه اسمهم اجمالا من نعوت الكمال وبيان ما يستدعيه من النتيجة اي الذين هذه شؤنهم احقاء بما هو اعظم من ذلك كقولك احب الانصار الذين قارعوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلوا مهجتهم في سبيل الله اولئك سواد عيني وسويداء قلبي واعلم ان هذا المسلك يسلك تارة باعادة

اسم من استونف عنه الحديث كقولك احسنت الي زيد زيد حقيق بالاحسان و الاخري
باعادة صفته كقولك احسنت الي زيد صديقك القديم اهل لذلك ولا ريب في ان هذا
ابلغ من الاول لما فيه من بيان الموجب للحكم وايراد اسم الاشارة بمنزلة اعادة الموصوف
بصفاته المذكورة مع ما فيه من الاشعار بكمال تميزه بها وانتظامه بسبب ذلك في سلك
الامور المشاهدة والايماء الي بعد منزلته كما مر هذا وقد جوز ان يكون الموصول الاول
مجري علي المتقين حسبما فصل والثاني مبتداء واولئك الي خبره ويجعل اختصاصهم
بالهدي والفلاح تعريضا بغير المؤمنين من اهل الكتاب حيث كانوا يزعمون انهم علي الهدي
ويطمعون في نيل الفلاح **واولئك هم المفلحون** تكرير اسم الاشارة لاظهار مزيد
العناية بشان المشار اليهم وللتنبيه علي ان اتصافهم بتلك الصفات يقتضي نيل كل واحدة
من تينك الاثرتين وان كلا منهما كاف في تميزهم بها عمن عداهم ويؤيده توسط
العاطف بين الجملتين بخلاف ما في قوله تعالي اولئك كالانعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون
فان التسجيل عليهم بكمال الغفلة عبارة عما يفيده تشبيههم بالبهايم فيكون الجملة الثانية
مقررة للاولي واما الفلاح الذي هو عبارة عن الفوز بالمطلوب فلما كان مغايرا للهدي
نتيجة له وكان كل منهما في نفسه اعز مرام يتنافس فيه المتنافسون فعل ما فعل وهم
ضمير فصل يفصل الخبر عن الصفة ويؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسند بالمسند اليه
او مبتداء خبره المفلحون والجملة خبر لاولئك وتعريف المفلحون للدلالة علي ان المتقين هم
الناس الذين بلغك انهم المفلحون في الاخرة او اشارة الي ما يعرفه كل احد من حقيقة المفلحين
وخصايصهم هذا وفي بيان اختصاص المتقين بنيل هذه المراتب الفايقة علي فنون من الاعتبارات
الرايقة حسبما اشير اليه في تضاعيف تفسير الاية الكريمة من الترغيب في اقتفاء
اثرهم والارشاد الي اقتداء سيرهم ما لا يخفي مكانه والله ولي الهداية والتوفيق
ان الذين كفروا كلام مستانف سيق لشرح احوال الكفرة الغواة المردة العتاة اثر
بيان احوال اضدادهم المتصفين بنعوت الكمال الفايزين بمساعيهم في الحال والمال وانما ترك العاطف
بينهما ولم يسلك به مسلك قوله تعالي ان الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم لما بينهما من
التنافي في الاسلوب والتباين في الغرض فان الاولي مسوقة لبيان رفعة شان الكتاب
في باب الهداية والارشاد واما التعرض لاحوال المهتدين به فانما هو بطريق الاستطراد سواء
جعل الموصول موصولا بما قبله او مفصولا عنه فان الاستيناف مبني علي سؤال نشا من الكلام
المتقدم فهو من مستتبعاته لا محالة واما الثانية فمسوقة لبيان احوال الكفرة اصالة
وترامي امرهم في الغواية والضلالة الي حيث لا يجديهم الانذار والتبشير ولا يؤثر فيهم
العظة والتذكير فهم ناكبون في تيه الغي والفساد من منهاج العقول وراكبون في مسلك المكابرة
والعناد متن كل صعب وذلول الي حيث لا يجديهم الانذار والتبشير وانما اوثرت هذه الطريقة
ولم يؤسس الكلام علي بيان ان الكتاب هاد للاولين وغير مجد للاخرين لان العنوان
الاخير ليس مما يورثه كمالا حتي يتعرض له في اثناء تعداد كمالاته وان من الحروف التي تشابه
الفعل في عدد الحروف والبناء علي الفتح ولزوم الاسماء ودخول نون الوقاية عليها
كانني ولعلني ونظايرها واعطاء معانيه والمتعدي خاصة في الدخول علي اسمين ولذلك
اعملت عمله الفرعي وهو نصب الاول ورفع الثاني ايذانا بكونه فرعا في العمل خلافا لمن عند
الكوفيين لا عمل لها في الخبر بل هو باق علي حاله بقضية الاستصحاب واجيب بان ارتفاع
الخبر مشروط بالتجرد عن العوامل والا لما انتصب خبر كان وقد زال بدخولها فتعين
اعمال الحرف واثرها تاكيد النسبة وتحقيقها ولذلك يتلقي بها القسم ويصدر بها
الاجوبة ويؤتي بها في مواقع الشك والانكار ولدفع وروده قال المبرد قولك عبد الله
قايم اخبار عن قيامه وان عبد الله قايم جواب سايل عن قيامه بشك فيه وان
عبد الله لقايم جواب منكر لقيامه وتعريف الموصول اما للعهد والمراد ناس باعيانهم كابي
لهب وابي جهل والوليد بن المغيرة واضرابهم واحبار اليهود او للجنس فقد خص منه
بما اسند اليه من قوله تعالي سواء عليهم الخ والكفر في اللغة ستر النعمة واصله الكفر بالفتح اي

الستر منه

الستر منه قيل للزارع والليل كافر قال تعالي كمثل غيث اعجب الكفار نباته وعليه قول لبيد
في ليلة كفر النجوم غمامها ومنه المتكفر بسلاحه وهو الشاكي الذي غطي السلاح بدنه
وفي الشريعة انكار ما علم بالضرورة مجيء الرسول عليه السلام به وانما عد لبس الغيار وشد
الزنار بغير اضطرار ونظايرهما كفرا لدلالته علي التكذيب فان من صدق النبي صلي الله
عليه وسلم لا يكاد يجترئ علي امثال ذلك اذ لا داعي اليه كالزني وشرب الخمر واحتج
المعتزلة علي حدوث القرآن بما جاء به بلفظ الماضي علي وجه الاخبار فانه يستدعي سابقة
المخبر عنه لا محالة واجيب بانه من مقتضيات التعلق وحدوثه لا يستدعي حدوث
الكلام كما ان حدوث تعلق العلم بالمعلوم لا يستدعي حدوث العلم **سواء** هو اسم
بمعني الاستواء نعت به كما ينعت بالمصادر مبالغة قال تعالي تعالوا الي كلمة سواء بيننا
وبينكم وقوله تعالي **عليهم** متعلق به ومعناه عندهم وارتفاعه علي انه خبر لان وقوله
تعالي **ءانذرتهم ام لم تنذرهم** مرتفع به علي الفاعلية لان الهمزة وام مجردتان
عن معني الاستفهام لتحقيق الاستواء بين مدخوليهما كما جرد الامر والنهي لذلك عن
معنييهما في قوله عز وجل استغفر لهم او لا تستغفر لهم وحرف النداء في قولك اللهم
اغفر لنا ايتها العصابة عن معني الطلب لمجرد التخصيص كانه قيل ان الذين كفروا سواء
عليهم انذارك وعدمه كقولك ان زيدا مختصم اخوه وابن عمه او مبتدا وسواء عليهم
خبر قدم عليه اعتناء بشانه والجملة خبر لان والفعل انما يمتنع الاخبار منه عند بقائه
علي حقيقته اما الوارد بطريق الاتساع فهو كالاسم في الاضافة والاسناد اليه كما في قوله تعالي هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم
[المفعول ...]
وقوله تعالي واذا قيل لهم لا تفسدوا وفي قولهم تسمع بالمعيدي خير من ان تراه كانه قيل الانذار
وعدمه سيان عليهم والعدول الي الفعل لما فيه من ايهام التجدد والتوصل الي ادخال
الهمزة ومعادلها عليه لافادة تقرير معني الاستواء وتاكيده كما اشير اليه وقيل سواء مبتداء
وما بعده خبره وليس كذلك لان مقتضي المقام بيان كون الانذار وعدمه سواء لا بيان
كون المستوي الانذار وعدمه والانذار اعلام المخوف للاحتراز عنه افعال من نذر بالشيء
اذا علمه فحذره والمراد ههنا التخويف من عذاب الله تعالي وعقابه علي المعاصي والاقتصار
عليه لما انهم ليسوا باهل للبشارة اصلا ولان الانذار اوقع في القلوب واشد تاثيرا
في النفوس فان دفع المضار اهم من جلب المنافع فحيث لم يتاثروا به فلان لا يرفعوا
للبشارة راسا اولي وقرئ بتوسيط الف بين الهمزتين مع تحقيقهما وبتوسيطها و
الثانية بين بين وبتخفيف الثانية بين بين بلا توسيط وبحذف حرف الاستفهام
وبحذفه والقاء حركته علي الساكن قبله كما قرئ قد افلح وقرئ بقلب الثانية الفا وقد
نسب ذلك الي اللحن **لا يؤمنون** جملة مستقلة مؤكدة لما قبلها مبينة لما فيه من اجمال ما فيه
الاستواء فلا محل لها من الاعراب او حال مؤكدة له او بدل منه او خبر لان وما قبلها اعتراض
بما هو علة للحكم او خبر ثان علي راي من يجوز عند كونه جملة والاية الكريمة مما استدل به
علي جواز التكليف بما لا يطاق فانه تعالي قد اخبر عنهم بانهم لا يؤمنون فظهر استحالة ايمانهم
لاستلزامه المستحيل الذي هو عدم مطابقة اخباره للواقع مع كونهم مامورين
بالايمان باقين علي التكليف ولان من جملة ما كلفوه الايمان بعدم ايمانهم المستمر والحق
ان التكليف بالممتنع لذاته وان جاز عقلا من حيث ان الاحكام لا تستدعي اغراضا
لا سيما الامتثال لكنه غير واقع للاستقراء والاخبار بوقوع الشيء او بعدمه لا ينفي
القدرة عليه كاخباره تعالي عما يفعله هو او العبد باختياره وليس ما كلفوه الايمان بتفاصيل
ما نطق به القرآن حتي يلزم ان يكلفوا الايمان بعدم ايمانهم المستمر بل هو الايمان بجميع
ما جاء به النبي صلي الله عليه وسلم اجمالا علي ان كون الموصول عبارة عنهم ليس
معلوما لهم وفائدة الانذار بعد العلم بانه لا يفيد الزام الحجة واحراز الرسول
عليه السلام فضل الابلاغ ولذلك قيل سواء عليهم ولم يقل عليك كما قيل لعبدة
الاصنام سواء عليكم ادعوتموهم ام انتم صامتون وفي الاية الكريمة اخبار بالغيب

على ما هو به ان اريد بالموصول اشخاص باعيانهم فهي من المعجزات الباهرة ختم الله
على قلوبهم استيناف تعليلي لما سبق من الحكم وبيان لما يقتضيه او بيان وتاكيد له
والمراد بالقلب محل القوة العاقلة من الفؤاد والختم على الشيء الاستيثاق منه بضرب
الخاتم عليه صيانة له او لما فيه من التعرض له كما في البيت الفارغ والكيس المملو والاول
هو الانسب بالمقام اذ ليس المراد صيانة ما في قلوبهم بل احداث حالة تجعلها بسبب
تماديهم في الغي وانهماكهم في التقليد واعراضهم عن منهاج النظر الصحيح بحيث لا يؤثر
فيها الانذار ولا ينفذ فيها الحق اصلا اما على طريقة الاستعارة التبعية بان يشبه ذلك
بضرب الخاتم على نحو ابواب المنازل الخالية المبنية للسكنى تشبيه معقول بمحسوس
بجامع عقلي هو الاشتمال على منع القابل عما من شانه وحقه ان يقبله ويستعار الختم
ثم يشتق منه صيغة الماضي واما على طريقة التمثيل بان يشبه الهيئة المنتزعة من قلوبهم
وقد فعل بها ما فعل من احداث تلك الحالة المانعة من ان يوصل اليها ما خلقت هي
لاجله من الامور الدينية النافعة وحيل بينها وبينه بالمرة بهيئة منتزعة من محال
معدة لحلول ما يحلها حلولا مستتبعا لمصالح مهمة وقد منع ذلك بالختم عليها وحيل
بينها وبين ما اعدت لاجله بالكلية ثم يستعار لها ما يدل على الهيئة بها فيكون كل
من طرفي التشبيه مركبا من امور عدة قد اقتصر من جانب المشبه به على ما عليه يدور الامر
في تصوير تلك الهيئة وانتزاعها وهو الختم والباقي مراد قصدا بالفاظ متخيلة بها
يتحقق التركيب وتلك الالفاظ وان كان لها مدخل في تحقيق وجه الشبه الذي هو
امر عقلي منتزع منها وهو امتناع الانتفاع بما اعد له بسبب مانع قوي لكن ليس في
شيء منها على الانفراد تجوز باعتبار هذا المجاز بل هي باقية على حالها من كونها حقيقة
او مجازا او كناية وانما التجوز في المجموع وحيث كان المجموع مجموع ما في تلك الالفاظ
التي ليس فيها التجوز المعهود ولم تكن الهيئة المنتزعة منها مدلولا وضعيا لها
ليكون ما دل على الهيئة المشبه بها عند استعماله في الهيئة المشبهة مستعملا في غير ما وضع
له فيندرج تحت الاستعارة التي هي قسم من المجاز بل باقية على ما لها من كونها حقيقة
او مجازا او كناية وانما التجوز في المجموع اي اللغوي الذي عبارة عن الكلمة المستعملة في
غير ما وضع له ذهب قدماء المحققين كالشيخ عبد القاهر واحزابه الى جعل التمثيل قسما
براسه ومن رام تقليل الاقسام يجد تلك الهيئة المشبه بها من قبيل المدلولات الوضعية
ويجعل الكلام المفيد لها عند استعماله فيما يشبه بها من هيئة اخرى منتزعة من امور
اخر من قبيل الاستعارة ويسميه استعارة تمثيلية واسناد تلك الحالة في قلوبهم الى الله تعالى
جميع الحوادث عندنا من حيث الخلق اليه سبحانه وتعالى وورود الاية الكريمة ناعية عليهم
بسوء صنيعهم ووخامة عاقبتهم لكون افعالهم من حيث الكسب مستندة اليهم فان خلقها
منه سبحانه ليس بطريق الجبر بل بطريق الترتيب على ما اقترفوه من القبائح كما يعرب عنه قوله تعالى
بل طبع الله عليها بكفرهم ونحو ذلك واما المعتزلة فقد سلكوا مسلك التاويل وذكروا
في ذلك عدة من الاقاويل منها ان القوم لما اعرضوا عن الحق وتمكن ذلك في قلوبهم حتى صار كالطبيعة لهم شبه بالوصف
الخلقي المجبول عليه ومنها ان المراد به تمثيل قلوبهم بقلوب البهائم التي خلقها الله تعالى خالية عن الفطن او بقلوب
قد ختم الله تعالى عليها كما في سال به الوادي اذا هلك وطارت به العنقاء اذا طالت غيبته ومنها ان ذلك
فعل الشيطان او الكافر واسناده اليه سبحانه باعتبار كونه باقداره تعالى وتمكينه ومنها ان اعراقهم
لما رسخت في الكفر واستحكمت بحيث لم يبق الى تحصيل ايمانهم طريق سوى الالجاء والقسر ثم لم
يفعل ذلك محافظة على حكمة التكليف عبر عن ذلك بالختم لانه سد لطريق ايمانهم بالكلية
وفيه اشعار بترامي امرهم في الغي والعناد وتناهي انهماكهم في الشر والفساد ومنها ان
ذلك حكاية لما كانت الكفرة يقولون مثل قولهم قلوبنا في اكنة مما تدعونا اليه وفي اذاننا وقر
ومن بيننا وبينك حجاب تهكما بهم ومنها ان ذلك في الاخرة وانما اخبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه
ويعضده قوله تعالى ونحشرهم يوم القيمة على وجوههم عميا وبكما وصما ومنها ان المراد
بالختم وسم قلوبهم بسمة يعرفها الملائكة فيبغضونهم وينفرون عنهم وعلى سمعهم

سوى ثم

صنيعهم بيان

عطف

عطف على ما قبلها داخل في حكم الختم لقوله عز وجل وختم على سمعه وقلبه وللوفاق على الوقف
عليه لا على قلوبهم ولاشتراكهما في الادراك من جميع الجوانب واعادة الجار للتاكيد والاشعار
بتغاير الختمين وتقديم ختم قلوبهم للايذان بانها الاصل في عدم الايمان وللاشعار بان
ختمها ليس بطريق التبعية لختم سمعهم بناء على انه طريق اليها فالختم عليه ختم عليها بل هي مختومة
بختم على حدة لو فرض عدم الختم على سمعهم فهو باق على حاله حسبما يفصح عنه قوله تعالى
ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو اسمعهم لتولوا وهم معرضون والسمع ادراك القوة
السامعة وقد يطلق عليها وعلى العضو الحامل لها وهو المراد ههنا اذ هو المختوم عليه اصالة
وتقديم حاله على حال ابصارهم للاشتراك بينه وبين قلوبهم في تلك الحال ولان جنايتهم
من حيث السمع الذي يتلقى الاحكام الشرعية وبه يتحقق الانذار اعظم منها من حيث البصر
الذي به يشاهد الاحوال الدالة على التوحيد فبيانها بالتقديم اولى وانسب بالمقام قالوا السمع
افضل من البصر لانه عز وجل حيث ذكرهما قدم السمع على البصر ولان السمع شرط النبوة ولذلك
ما بعث الله تعالى رسولا اصم ولان السمع وسيلة الى استكمال العقل بالمعارف التي تتلقف من
اصحابها وتوحيده للامن عن اللبس واعتبار الاصل او لتقدير المضاف اي وعلى حواس
سمعهم والكلام في ايقاع الختم على ذلك كما مر من قبل وعلى ابصارهم غشاوة
الابصار جمع بصر والكلام فيه كما سمعته في السمع والغشاوة فعالة من التغشية اي التغطية
بنيت لما يشتمل على الشيء كالعصابة والعمامة وتنكيرها للتفخيم والتهويل وهي على راي سيبويه
مبتدا خبره الظرف المقدم والجملة معطوفة على ما قبلها وايثار الاسمية للايذان بدوام مضمونها
فان ما يدرك بالقوة الباصرة من الايات المنصوبة في الافاق والانفس حيث كانت مستمرة كان
تعاميهم عن ذلك ايضا كذلك واما الايات التي تتلقى بالقوة السامعة فلما كان وصولها
اليها حينا فحينا اوثر في بيان الختم عليها وعلى ما هي احد طريقي معرفته اعني القلب
الجملة الفعلية وعلى راي الاخفش مرتفع على الفاعلية مما تعلق به الجار والمجرور وقرئ
بالنصب على تقدير فعل ناصب اي وجعل على ابصارهم غشاوة وقيل على حذف الجار
وايصال الختم اليه والمعنى وختم على ابصارهم بغشاوة وقرئ بالضم والرفع وبالفتح والنصب
وهما لغتان وغشوة بالكسر مرفوعة وبالفتح مرفوعة ومنصوبة وعشاوة بالعين غير المعجمة
والرفع ولهم عذاب عظيم وعيد وبيان لما يستحقونه في الاخرة والعذاب كالنكال بناء
ومعنى يقال اعذب عن الشيء اذا امسك عنه ومنه الماء العذب لما انه يقمع العطش ويردعه
ولذلك سمي نقاخا فانه ينقخ العطش ويكسره وفراتا فانه يرفته على القلب ويكسره ثم اتسع فيه
فاطلق على كل الم فادح وان لم يكن عقابا يراد به ردع الجاني عن المعاودة وقيل اشتقاقه من التعذيب
الذي هو ازالة العذب كالتقذية والتمريض والعظيم نقيض الحقير والكبير نقيض الصغير
فمن ضرورة كون الحقير دون الصغير كون العظيم فوق الكبير ويستعملان في الجثث والاحداث
تقول رجل عظيم وكبير تريد جثته او خطره ووصف العذاب به لتاكيد ما يفيده التنكير من التفخيم
والتهويل والمبالغة في ذلك والمعنى ان على ابصارهم ضربا من الغشاوة خارجا عما يتعارفه
الناس وهي غشاوة التعامي عن الايات ولهم من الالام العظام نوع عظيم لا يبلغ كنهه ولا يدرك
غايته اللهم انا نعوذ بك من ذلك كله يا ارحم الراحمين ومن الناس شروع في بيان ان
بعض من حكيت احوالهم السالفة ليسوا بمقتصرين على ما ذكر من محض الاصرار على الكفر
والعناد بل يضمون اليه فنونا اخر من الشر والفساد وتعديد جناياتهم الشنيعة المستتبعة
لاهوال هائلة عاجلة واجلة واصل ناس اناس كما يشهد له انسان واناسي واناس حذفت همزته
تخفيفا كما قيل لوقه في الوقة وعوض عنها حرف التعريف ولذلك لا يكاد يجمع بينهما واما
ما في قوله ان المنايا يطلعن على الاناس الامنينا فشاذ وسموا بذلك لظهورهم وتعلق الايناس
بهم كما سمي الجن جنا لاجتنانهم وذهب بعضهم الى ان اصله النوس وهو الحركة انقلبت
واوه الفا لتحركها وانفتاح ما قبلها وبعضهم الى انه ماخوذ من نسي فقلبت لامه الى موضع العين
فصار نيسا ثم قلبت الفا سموا بذلك لنسيانهم ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال سمي
الانسان انسانا لانه عهد اليه فنسي واللام فيه اما للعهد او للجنس المقصور على المصرين

حسبما ذكر في الموصول كانه قيل ومنهم او من اولئك والعدول الى الناس للايذان بكثرتهم
كما ينبئ عنه التبعيض ومحل الظرف الرفع على انه مبتداء باعتبار مضمونه او نعت
لمقدر هو المبتداء كما في قوله عز وجل ومنا دون ذلك اي وجمع منا الخ ومن في قوله تعالى
من يقول موصولة او موصوفة ومحلها الرفع على الخبرية والمعنى وبعض الناس او و
بعض من الناس الذي يقول كقوله تعالى ومنهم الذين يؤذون النبي الخ او فريق
يقول كقوله تعالى من المؤمنين رجال الخ على ان يكون مناط الافادة والمقصود
بالاضافة اتصافهم بما في حيز الصلة او الصفة وما يتعلق به من الصفات جميعا
لا كونهم ذوات اولئك المذكورين واما جعل الظرف خبرا كما هو الشايع في موارد الاستعمال
فياباه جزالة المعنى لان كونهم من الناس ظاهر فالاخبار به عار عن الفايدة كما قيل فان
مبناه توهم كون المراد منه وانت خبير بان الناس عبارة عن المعهودين او عن الجنس
المقصور على المصرين واياما كان فالفايدة ظاهرة بل لان خبرية الظرف تستدعي ان
يكون اتصاف هؤلاء بتلك الصفات القبيحة المفصلة في ثلث عشر ايات عنوانا
للموضوع مفروغا عنه غير مقصود بالذات ويكون مناط الافادة كونهم من
اولئك المذكورين ولا ريب لاحد في انه يجب حمل النظم الجليل على اجزل المعاني واكملها
وتوحيد الضمير في يقول باعتبار لفظه من وجمعه في قوله تعالى امنا بالله وباليوم
الاخر وما بعده باعتبار معناها والمراد باليوم الاخر من وقت الحشر الى ما لا يتناهى
او الى ان يدخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار اذ لا اخر وراءه وتخصيصهم للايمان
بهما بالذكر مع تكرير الباء لادعاء انهم قد حازوا الايمان من قطريه واحاطوا به من
طرفيه وانهم قد امنوا بكل منهما على الاصالة والاستحكام وقد دسوا تحته ما هم
عليه من العقايد الفاسدة حيث لم يكن ايمانهم بواحد منهما ايمانا في الحقيقة اذ كانوا
مشركين بالله بقولهم عزير ابن الله وجاحدين باليوم الاخر بقولهم لن تمسنا النار
الا اياما معدودة ونحو ذلك وحكاية عبارتهم لبيان كمال خبثهم ودعارتهم
فان ما قالوا لو صدر عنهم لا على وجه الخداع والنفاق وعقيدتهم لم يكن ذلك
ايمانا فكيف وهم يقولونه تمويها على المسلمين واستهزاء بهم وما هم بمؤمنين
رد لما ادعوه ونفي لما انتحلوه وما حجازية فان جواز دخول الباء في خبرها للتاكيد
النفي اتفاقي بخلاف التميمية وايثار الجملة الاسمية على الفعلية الموافقة لدعواهم
المردودة للمبالغة في الرد بافادة انتفاء الايمان عنهم في جميع الازمنة لا في الماضي
فقط كما يفيده الفعلية ولا يتوهمن ان الجملة الاسمية الايجابية تفيد دوام الثبوت
فعند دخول النفي عليها يتعين الدلالة على نفي الدوام فانها بمعونة المقام تدل
على دوام النفي قطعا كما ان المضارع الخالي عن حرف الامتناع يدل على استمرار الوجود
وعند دخول حرف الامتناع عليه يدل على استمرار الامتناع لا على امتناع الاستمرار
كما في قوله عز وجل ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم اجلهم
فان عدم قضاء الاجل لاستمرار عدم التعجيل لا لعدم استمرار التعجيل واطلاق
الايمان عما قيدوه به للايذان بانهم ليسوا من جنس الايمان في شيء اصلا فضلا
عن الايمان بما ذكروا وقد جوز ان يكون المراد ذلك ويكون الاطلاق للظهور
ومدلول الاية الكريمة ان من اظهر الايمان واعتقاده بخلافه لا يكون مؤمنا فلا
حجة فيها على الكرامية القايلين بان من تفوه بكلمتي الشهادة فارغ القلب عما
يوافقه او ينافيه مؤمن يخادعون الله والذين امنوا بيان ليقول وتوضيح
لما هو غرضهم مما يقولون او استيناف وقع جوابا عن سؤال ينساق اليه الذهن
كانه قيل ما لهم يقولون ذلك وهم غير مؤمنين فقيل يخادعون الخ اي يخدعون
وقد قرئ كذلك وايثار صيغة المفاعلة لافادة المبالغة في الكيفية فان الفعل متى
غولب فيه بولغ فيه قطعا او في الكمية كما في الممارسة والمزاولة فانهم كانوا
مداومين على الخدع والخدع ان يوهم صاحبه خلاف ما يريد من المكروه ليوقعه

فيه

فيه من حيث لا يحتسب او يوهمه المساعدة على ما يريد هو به ليغتر بذلك فينجو منه
بسهولة من قولهم ضب خادع وخدع وهو الذي اذا امر الحارش يده على باب
جحره يوهمه الاقبال عليه فيخرج من بابه الاخر وكلا المعنيين مناسب للمقام
فانهم كانوا يريدون بما صنعوا ان يطلعوا على اسرار المؤمنين فيذيعوها الى
المنابذين وان يدفعوا عن انفسهم ما يصيب سائر الكفرة واياما كان فنسبته
الى الله تعالى اما على طريقة الاستعارة والتمثيل لافادة كمال شناعة جنايتهم اي
يعاملون معاملة الخادعين واما على طريقة المجاز العقلي بان ينسب اليه تعالى
ما حقه ان ينسب الى الرسول صلى الله عليه وسلم ابانة لمكانته عنده تعالى كما ينبئ عنه
قوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق ايديهم وقوله تعالى من يطع
الرسول فقد اطاع الله مع افادة كمال الشناعة كما مر واما بمجرد التوطئة والتمهيد
لما بعده من نسبته الى الذين امنوا والايذان بقوة اختصاصهم به تعالى كما في قوله تعالى
والله ورسوله احق ان يرضوه وقوله تعالى ان الذين امنوا بالله ورسوله وابقاء صيغة
المخادعة على معناها الحقيقي بناء على زعمهم الفاسد وترجمة عن اعتقادهم
الباطل كانه قيل يزعمون انهم يخدعون الله والله يخدعهم او على جعلها استعارة
تبعية او تمثيلا لما ان صورة صنيعهم مع الله تعالى والمؤمنين وصنعه تعالى معهم
باجراء احكام الاسلام عليهم وهم عنده اخبث الكفرة واهل الدرك الاسفل من النار
استدراجا لهم وامتثال الرسول عليه السلام والمؤمنين بامر الله تعالى في ذلك مجازاة
لهم بمثل صنيعهم صورة صنيع المتخادعين كما قيل مما لا يرتضيه الذوق السليم اما الاول
فلان المنافقين لو اعتقدوا ان الله تعالى يخدعهم بغتا بلة خدعهم له لم يتصور منهم
التصدي للخدع واما الثاني فلان مقتضى المقام ايراد حالهم خاصة وتصويرها
بما يليق بها من الصورة المستهجنة وبيان ان غايتها ايلة اليهم من حيث لا يحتسبون
كما يعرب عنه قوله تعالى وما يخدعون الا انفسهم فالتعرض لحال الجانب الاخر مما
يخل بتوفية المقام حقه وهو حال من ضمير يخادعون اي يفعلون ما يفعلون والحال
انهم ما يضرون بذلك الا انفسهم فان دايرة فعلهم مقصورة عليهم او ما يخدعون
حقيقة الا انفسهم حيث لا يغرونها بالاكاذيب فيلقونها في مهاوي الردى وقرئ وما
يخادعون والمعنى هو المعنى ومن حافظ على الصيغة فيما قيل قال وما يعاملون تلك المعاملة
الشبيهة بمعاملة المخادعين الا انفسهم لان ضررها لا يحيق الا بهم او ما يخادعون حقيقة
الا انفسهم حيث يمنونها الاباطيل وهي ايضا تغرهم وتمنيهم الاماني الفارغة و
قرئ وما يخدعون من التخديع وما يخدعون اي يختدعون ويخدعون ويخادعون
على البناء للمفعول ونصب انفسهم بنزع الخافض والنفس ذات الشيء وحقيقته وقد
يقال للروح لان نفس الحي به وللقلب ايضا لانه محل الروح او متعلقه وللدم ايضا
لان قوامها به وللماء ايضا لشدة حاجتها اليه والمراد هنا هو المعنى الاول لان
المقصود بيان ان ضرر مخادعتهم راجع اليهم لا يتخطاهم الى غيرهم وقوله تعالى
وما يشعرون حال من ضمير ما يخدعون اي يقتصرون على خدع انفسهم والحال انهم
ما يشعرون اي ما يحسون بذلك لتماديهم في الغواية وحذف المفعول اما للظهور
او لعمومه اي ما يشعرون بشيء اصلا جعل لحوق وبال ما صنعوا بهم في الظهور
بمنزلة الامر المحسوس الذي لا يخفى الا على مؤوف الحواس مختل المشاعر في قلوبهم مرض
المرض عبارة عما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال اللايق به ويوجب الخلل في افاعيله
ويؤدي الى الموت استعير ههنا لما في قلوبهم من الجهل وسوء العقيدة وعداوة
النبي صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من فنون الكفر المؤدي الى الهلاك الروحاني
والتنكير للدلالة على كونه نوعا مبهما غير ما يتعارفه الناس من الامراض والجملة مقررة
لما يفيده قوله تعالى وما هم بمؤمنين من استمرار عدم ايمانهم وتعليل له كانه
قيل ما لهم لا يؤمنون فقيل في قلوبهم مرض يمنعه فزادهم الله مرضا بان طبع على

قلوبهم لعلمه تعالى بانه لايؤثر فيها التذكير والانذار والجملة معطوفة على ما قبلها
والفاء للدلالة على ترتب مضمونها عليه وبه اتضح كون نفس من الكفرة المختوم على
قلوبهم مع زيادة بيان السبب وقيل زادهم كفرا بزيادة التكاليف الشرعية
لانهم كانوا كلما ازداد التكاليف بنزول الوحي يزدادون كفرا ويجوز ان يكون
المرض مستعارا لما يداخل قلوبهم من الضعف والجبن والخور عند مشاهدتهم
لعزة المسلمين فزيادته تعالى اياهم مرضا ما فعل بهم من القاء الروع وقذف الرعب في
قلوبهم عند اعزاز الدين بامداد النبي صلى الله عليه وسلم بانزال الملائكة وتأييده
بفنون النصر والتمكين فقوله تعالى في قلوبهم مرض الخ حينئذ استيناف تعليلي لقوله تعالى
يخادعون الله الخ كانه قيل ما لهم يخادعون الله ويداهنون ولم لا يجاهرون بما في
قلوبهم من الكفر فقيل في قلوبهم ضعف مضاعف هذه حالهم في الدنيا ولهم في الآخرة
عذاب اليم اي مولم يقال الم فهو اليم كوجع فهو وجيع وصف به العذاب للمبالغة
كما في قولهم تحية بينهم ضرب وجيع على طريقة جد جده فان الالم والوجع حقيقة للمولم
والمضروب كما ان الجد للجاد وقيل هو بمعنى المولم كالسميع بمعنى المسمع وليس ذلك بثبت
كما سيجيء في قوله تعالى بديع السموات والارض بما كانوا يكذبون الباء للسببية او للمقابلة
وما مصدرية داخلة في الحقيقة على يكذبون وكلمة كانوا مقحمة للافادة دوام كذبهم
وتجدده اي بسبب كذبهم او بمقابلة كذبهم المتجدد المستمر الذي هو قولهم امنا بالله
وباليوم الاخر وهم غير مؤمنين فانه اخبار باحداثهم الايمان فيما مضى لا انشاء للايمان
ولو سلم فهو متضمن للاخبار بصدوره عنهم وليس كذلك لعدم التصديق القلبي بمعنى
الاذعان والقبول قطعا ويجوز ان يكون محمولا على الظاهر بناء على راي من يجوز ان
يكون لكان الناقصة مصدر كما صرح به في قول الشاعر ببذل وحلم ساد في قومه الفتى
وكونك اياه عليك يسير اي لهم عذاب اليم بسبب كونهم يكذبون على الاستمرار وترتيب العذاب
عليه من بين سائر موجباته القوية اما لان المراد بيان العذاب الخاص بالمنافقين بناء على
ظهور شركتهم للمجاهرين فيما ذكر من العذاب العظيم حسب اشتراكهم فيما يوجبه من
الاصرار على الكفر كما ينبئ عنه قوله تعالى ومن الناس الخ واما للايذان بان لهم بمقابلة ساير
جناياتهم العظيمة من العذاب ما لا يوصف واما للرمز الى كمال سماجة الكذب نظرا الى
ظاهر العبارة المخيلة لانفراده بالسببية مع احاطة علم السامع بان لحوق العذاب بهم من
جهات شتى وان الاقتصار عليه للاشعار بنهاية قبحه والتنفير عنه المصدق به ورد
مرفوعا ايضا الى النبي صلى الله عليه وسلم اياكم والكذب فانه مجانب للايمان وما روي عن ابراهيم
عليه السلام كذب ثلاث كذبات فالمراد به التعريض وانما سمي به لشبهه به صورة وقيل ما
موصولة والعائد محذوف اي بالذي يكذبونه وقرئ يكذبون والمفعول محذوف ويجوز
ان يكون صيغة مفعول التفعيل للمبالغة كما في بين في بان وقلص في قلص او للتكثير كما في موتت
البهايم وبركت الابل وان يكون من قولهم كذب الوحشي اذا جرى شوطا ووقف لينظر وراءه فان
المنافق متوقف في امره متردد في رايه ولذلك قيل له مذبذب واذا قيل لهم لا تفسدوا
في الارض شروع في تعديد بعض من قبايحهم المتفرعة على ما حكي عنهم من الكفر والنفاق
واذا ظرف زمن مستقبل يلزمها معنى الشرط غالبا ولا يدخل الا في الامر المحقق او المرجح وقوعه
واللام متعلقة بقيل المتلفظ وقيل هو مضمر يفسره المذكور والفساد خروج الشيء عن الحالة اللائقة
به والصلاح مقابله والفساد في الارض هيج الحروب والفتن المستتبعة لزوال الاستقامة
عن احوال العباد واختلال امر المعاش والمعاد والمراد بما نهوا عنه ما يؤدي الى ذلك من
افشاء اسرار المؤمنين الى الكفار واغرائهم عليهم وغير ذلك من فنون الشرور كما يقال
للرجل لا تقتل نفسك بيدك ولا تلق نفسك في النار اذا اقدم على ما تلك عاقبته وهو
اما معطوف على يقول فان جعلت كلمة من موصولة فلا محل له من الاعراب ولا باس
بتخلل البيان او الاستيناف وما يتعلق بهما بين اجزاء الصلة فان ذلك ليس توسيطا
بالاجنبي وان جعلت موصوفة فمحله الرفع والمعنى ومن الناس من اذا نهوا من جهة المؤمنين

عقاهم

مقصورون بيان

عماهم عليه من الافساد في الارض قالوا ارادة للناهين ان ذلك غير صادر عنهم
مع ان مقصودهم الاصلي انكار كون ذلك افسادا وادعاء كونه اصلاحا محضا كما
سياتي توضيحه انما نحن مصلحون اي مقصورون على الاصلاح المحض بحيث لا يتعلق
به شائبة الافساد والفساد مشيرين بكلمة انما الى ان ذلك من الوضوح بحيث لا ينبغي ان
يرتاب فيه واما كلام مستانف سيق لتعديد شنايعهم واما عطفه على يكذبون بمعنى
ولهم عذاب اليم بكذبهم وقولهم حين نهوا عن الافساد انما نحن مصلحون كما قيل فياباه
ان هذا النحو من التعليل حقه ان يكون باوصاف ظاهرة العلية مسلمة الثبوت
للموصوف غنية عن البيان لشهرة الاتصاف بها عند السامع او لسبق ذكره صريحا كما في قوله
تعالى بما كانوا يكذبون فان مضمونه عبارة عما حكي عنهم من قولهم امنا بالله وباليوم
الآخر او لذكر ما يستلزمه استلزاما ظاهرا كما في قوله عز وجل ان الذين يضلون عن سبيل الله
لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب فان ذكر من الضلال عن سبيل الله مما يوجب حتما نسيان
جانب الآخرة التي من جملتها يوم الحساب وما لم يكن كذلك فحقه ان يخبر بعليته قصدا كما في
قوله ذلك بانهم قالوا لن تمسنا النار الآية وقوله تعالى ذلك بان الله نزل الكتاب بالحق الآية
الى غير ذلك لا ريب في ان هذه الشرطية وما بعدها من الشرطيتين المعطوفتين عليها ليس مضمون
شيء منها معلوم الانتساب اليهم عند السامعين بوجه من الوجوه المذكورة حتى تستحق
الانتظام في سلك التعليل المذكور فاذن حقها ان تكون مسوقة على سنن تعديد قبايحهم
على احد الوجهين مفيدة لاتصافهم بكل واحد من تلك الاوصاف قصدا واستقلالا
كيف لا وقوله عز وجل الا انهم هم المفسدون ينادي بذلك نداء جليا فانه رد
من جهته تعالى لدعواهم المحكية ابلغ رد وادله على سخط عظيم حيث سلك فيه مسلك
الاستيناف المودي الى زيادة تمكن الحكم في ذهن السامع وصدرت الجملة بحرفي التاكيد
الا المنبهة على تحقق ما بعدها فان الهمزة الانكارية الداخلة على النفي تفيد تحقيق
الاثبات قطعا كما في قوله تعالى اليس الله بكاف عبده ولذلك لا يكاد يقع ما بعدها من الجملة
الا مصدرة بما يتلقى به القسم واختها التي هي اما من طلايع القسم وقيل هما حرفان بسيطان
موضوعان للتنبيه والاستفتاح وان المقررة للنسبة وتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل
لرد ما في قصرهم انفسهم على الاصلاح من التعريض بالمؤمنين ثم استدرك بقوله تعالى
ولكن لا يشعرون للايذان بان كونهم مفسدين من الامور المحسوسة لكن لا حس
لهم حتى يدركوه وهكذا الكلام في الشرطيتين الآتيتين وما بعدهما من رد مضمونهما
ولولا ان المراد تفصيل جناياتهم وتعديد خبائثهم وهناتهم ثم اظهار فسادها و
ابانة بطلانها لما فتح هذا الباب والله اعلم بالصواب واذا قيل لهم من قبل
المؤمنين بطريق الامر بالمعروف اثر نهيهم عن المنكر اتماما للنصح واكمالا للارشاد
آمنوا حذف المؤمن به لظهوره او اريد افعلوا الايمان كما آمن الناس الكاف في محل
النصب على انه نعت لمصدر مؤكد محذوف اي آمنوا ايمانا مماثلا لايمانهم فما
مصدرية او كافة كما في ربما فانها تكف الحرف عن العمل وتصحح دخولها على الجملة
وتكون للتشبيه بين مضموني الجملتين اي حققوا ايمانكم كما تحقق ايمانهم واللام
للجنس والمراد بالناس الكاملون في الانسانية العاملون بقضية العقل فان اسم الجنس كما
يستعمل في مسماه يستعمل فيما يكون جامعا للمعاني الخاصة به المقصودة منه ولذلك
يسلب عما ليس كذلك فيقال هو ليس بانسان وقد جمعهما من قال اذ الناس ناس
والزمان زمان او للعهد والمراد به الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه او من
آمن من اهل جلدتهم كابن سلام واضرابه والمعنى آمنوا ايمانا مقرونا بالاخلاص متمحضا
عن شوائب النفاق مماثلا لايمانهم قالوا مقابلين للامر بالمعروف بالانكار المنكر
واصفين للمراجيح الرزان بضد اوصافهم الحسان انؤمن كما آمن السفهاء
مشيرين باللام الى من اشير اليهم في الناس من الكاملين او المعهودين او الى الجنس
باسره وهم مندرجون فيه على زعمهم الفاسد والسفه خفة وسخافة راي يورثهما

عقولهم

قصور العقل ويقابله الحلم والأناة وإنما نسبوهم إليه مع أنهم في الغاية القاصية
من الرشد والرزانة والوقار لكمال انهماكهم في السفاهة وتماديهم
في الغواية وكونهم ممن زين له سوء عمله فرآه حسناً فمن حسب الضلال هدى يسمي
الهدى لا محالة ضلالاً أو لتحقير شأنهم فإن كثيراً من المؤمنين كانوا فقراء ومنهم
موال كصهيب وبلال أو للتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم على تقدير كون المراد
بالناس عبد الله بن سلام وأمثاله وأياً ما كان فالذي يقتضيه جزالة التنزيل ويستدعيه
فخامة شأنه الجليل أن يكون صدور هذا القول عنهم بمحضر من المؤمنين الناصحين
لهم جواباً عن نصيحتهم وحيث كان فحواه تسفيه أولئك المشاهير الأعلام والقدح
في إيمانهم لزم كونهم مجاهرين لا منافقين وذلك مما لا يكاد يساعده السباق
والسياق وعن هذا قالوا ينبغي أن يكون فيما بينهم لا على وجه المؤمنين قال الإمام
الواحدي إنهم كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين فأخبر الله
نبيه عليه السلام والمؤمنين بذلك عنهم وأنت خبير بأن إبراز ما صدر عن أحد المتحاورين
في الخلاء في معرض ما جرى بينهما في مقام المحاورة مما لا عهد به في الكلام فضلاً عما هو
في منصب الإعجاز فالحق الذي لا محيد عنه أن قولهم هذا وإن صدر عنهم بمحضر من
الناصحين لا يقتضي كونهم مجاهرين فإنه ضرب من الكفر أنيق وفن في النفاق عريق
مصنوع على شاكلة قولهم اسمع غير مسمع فكما أنه كلام ذو وجهين محتمل للشر
بأن يحمل على معنى اسمع منا غير مسمع كلاماً ترضاه ونحوه وللخير بأن يحمل على معنى اسمع
غير مسمع مكروهاً كانوا يخاطبون به رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاءً به
مظهرين إرادة المعنى الأخير وهم مضمرون في أنفسهم المعنى الأول مطمئنون به
ولذلك نهي عنه كذلك هذا الكلام محتمل للشر كما ذكر في تفسيره وللخير بأن يحمل على ادعاء الإيمان
كإيمان الناس وإنكار ما اتهموا به من النفاق على معنى أنؤمن كما آمن السفهاء
والمجانين الذين لا اعتداد بإيمانهم لو آمنوا ولا نؤمن كإيمان الناس حتى تأمرونا بذلك
وقد خاطبوا به الناصحين استهزاءً بهم مرائين لإرادة المعنى الأخير وهم معولون
على الأول فرد عليهم ذلك بقوله عز وجل قائلاً ألا إنهم هم السفهاء ولكن
لا يعلمون أبلغ رد وجهلوا أشنع تجهيل حيث صدرت الجملة بحرفي التنبيه والتأكيد
حسبما أشير إليه فيما سلف وجعلت السفاهة مقصورة عليهم وبالغة إلى حيث لا يدرون
أنهم سفهاء وعن هذا اتضح لك سر ما مر في تفسير قوله تعالى إنما نحن مصلحون فإن
حمله على المعنى الأخير كما هو رأي الجمهور مناف لحالهم ضرورة أن مشافهتهم للناصحين
بادعاء كون ما نهوا عنه من الإفساد إصلاحاً كما مر إظهار منهم للشقاق وبروز بأشخاصهم
من نفق النفاق والاعتذار بأن المراد بما نهوا عنه مداراتهم للمشركين كما ذكر في بعض التفاسير
وبالإصلاح الذي يدعونه إصلاحاً كما مر إصلاح ما بينهم وبين المؤمنين وأن معنى قوله
تعالى ألا إنهم هم المفسدون أنهم في تلك المعاملة مفسدون لمصالح المؤمنين لإشعارها
بإعطاء الدنية وإنبائها عن ضعفهم الملجئ إلى توسيط من يتصدى لإصلاح ذات البين
فضلاً عن كونهم مصلحين مما لا سبيل إليه قطعاً فإن قوله تعالى ولكن لا يشعرون ناطق
بفساده كيف لا وأنه يقتضي أن يكون المنافقون في تلك الدعوى صادقين قاصدين للإصلاح
ويأتيهم الإفساد من حيث لا يشعرون ولا ريب في أنهم فيها كاذبون لا يباشرونها إلا
للإضرار بالدين وخيانة للمؤمنين فإذن طريق حل الإشكال ليس إلا ما أشير إليه فإن
قولهم إنما نحن مصلحون محتمل للحمل على الكذب وإنكار صدور الإفساد المنسوب إليهم
عنهم على معنى إنما نحن مصلحون لا يصدر عنا ما تنهوننا عنه من الإفساد وقد خاطبوا
به الناصحين استهزاءً بهم وإراءة لإرادة هذا المعنى وهم معرجون على المعنى الأول فرد
عليهم بقوله تعالى ألا إنهم هم المفسدون الآية والله سبحانه أعلم بما أودعه في
تضاعيف كتابه المكنون من السر المخزون نسأله العصمة والتوفيق والهداية إلى سواء
الطريق وتفصيل هذه الآية الكريمة بلا يعلمون لما أنه أكثر طباقاً لذكر السفه الذي هو

شأنهم صح

فن من فنون الجهل ولأن الوقوف على أن المؤمنين ثابتون على الحق وهم على الباطل
منوط بالتمييز بين الحق والباطل وذلك مما لا يتسنى إلا بالنظر والاستدلال وأما
النفاق وما فيه من الفتنة والإفساد وما يترتب عليه من كون من يتصف به مفسداً
فأمر بديهي يقف عليه من له شعور ولذلك فصلت الآية الكريمة السابقة بلا
يشعرون وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا بيان لتباين أحوالهم وتناقض أقوالهم
في أثناء المعاملة والمخاطبة حسب تباين المخاطبين وسياق ما صدرت به قصتهم لتحرير
مذهبهم والترجمة عن نفاقهم ولذلك لم يتعرض ههنا لمتعلق الإيمان فليس فيه
شائبة التكرير روي أن عبد الله بن أبي وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم
نفر من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فقال ابن أبي انظروا كيف أرد هؤلاء
السفهاء عنكم فلما دنوا منهم أخذ بيد أبي بكر فقال مرحباً بالصديق سيد بني
تيم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار الباذل نفسه
وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه وسيد بني هاشم ما خلا رسول
الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وقيل قال له علي رضي الله عنه يا عبد الله اتق الله ولا تنافق
فإن المنافقين شر خلق الله تعالى فقال له مهلاً يا أبا الحسن أنى تقول هذا والله إن إيماننا
كإيمانكم وتصديقنا كتصديقكم ثم افترقوا فقال ابن أبي لأصحابه كيف رأيتموني فعلت
فإذا رأيتموهم فافعلوا مثل ما فعلت فأثنوا عليه خيراً وقالوا ما نزال بخير ما عشت
فينا فرجع المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه بذلك فنزلت واللقاء
المصادفة يقال لقيته ولاقيته أي صادفته واستقبلته وإذا خلوا من خلوت إلى
فلان أي انفردت معه وقد يستعمل بالباء أو من خلا بمعنى مضى ومنه القرون
الخالية وقوله خلاك ذم أي جاوزك ومضى عنك وقد جوز كونه من خلوت به إذا
سخرت منه على أن تعديته بإلى في قوله تعالى إلى شياطينهم لتضمنه معنى الإنهاء أي
وإذا أنهوا إليهم السخرية الخ وأنت خبير بأن تقييد قولهم المحكي بذلك الإنهاء مما لا وجه
له والمراد بشياطينهم المماثلون منهم للشيطان في التمرد والعناد المظهرون لكفرهم
وإضافتهم إليهم للمشاركة في الكفر أو كبار المنافقين والقائلون صغارهم وجعل سيبويه
نون الشيطان تارة أصلية فوزنه فيعال على أنه من شطن إذا بعد فإنه بعيد من الخير والرحمة
ويشهد له قولهم تشيطن وأخرى زائدة فوزنه فعلان على أنه من شاط أي هلك أو بطل
ومن أسمائه الباطل وقيل معناه هاج واحترق قالوا إنا معكم أي في الدين والاعتقاد
لا نفارقكم في حال من الأحوال وإنما خاطبوهم بالجملة الاسمية المؤكدة لأن مدعاهم
تحقيق الثبات على ما كانوا عليه من الدين والتأكيد للإنباء عن صدق رغبتهم ووفور
نشاطهم لا لإنكار الشياطين بخلاف معاملتهم مع المؤمنين فإنهم إنما يدعون عندهم
إحداث الإيمان لجزمهم بعدم رواج ادعاء الكمال فيه أو الثبات عليه إنما نحن أي في إظهار
الإيمان عند المؤمنين مستهزؤون بهم من غير أن يخطر ببالنا الإيمان حقيقة وهو
استئناف مبني على سؤال ناشئ من ادعاء المعية كأنه قيل لهم عند قولهم إنا معكم فما
بالكم توافقون في الإتيان بكلمة الإيمان فقالوا إنما نحن مستهزؤون بهم فلا يقدح ذلك
في كوننا معكم بل يؤكده وقد ضمنوا جوابهم أنهم يهينون المؤمنين ويعدون ذلك نصرة لدينهم
أو تأكيد لما قبله فإن المستهزئ بالشيء مصر على خلافه أو بدل منه لأن من حقر الإسلام فقد
عظم الكفر والاستهزاء بالشيء السخرية منه يقال هزئت واستهزأت به بمعنى وأصله الخفة
من الهزء وهو القتل السريع وهزأ يهزأ مات مكانه وتهزأ به ناقته أي تسرع به وتخف
الله يستهزئ بهم أي يجازيهم على استهزائهم سمي جزاؤه باسمه كما سمي جزاء السيئة سيئة
إما للمشاكلة في اللفظ أو للمقارنة في الوجود أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم فيكونوا
كالمستهزأ بهم أو ينزل بهم الحقارة والهوان الذي هو لازم الاستهزاء أو يعاملهم
معاملة المستهزئ بهم أما في الدنيا فبإجراء أحكام المسلمين عليهم واستدراجهم بالإمهال والزيادة
في النعمة على التمادي في الطغيان وأما في الآخرة فبما يروى أنه يفتح لهم باب إلى الجنة فيسرعون نحوه فإذا

وفي نسخة إذا لاقوا

المؤمنين صح

صاروا اليه سد عليهم الباب وذلك قوله تعالى فاليوم الذين امنوا من الكفار يضحكون
وانما استونف للايذان بانهم بلغوا في المبالغة في استهزاء المؤمنين الى غاية ظهرت شناعته
عند السامعين وتعاظم ذلك عليهم حتى اضطرهم الى ان يقولوا ما مصير امر هؤلاء وما عاقبة
حالهم وفيه انه تعالى هو الذي يتولى امرهم ولا يحوجهم الى المعارضة بالمثل ويستهزئ بهم
الاستهزاء الابلغ الذي ليس استهزاؤهم عنده من باب الاستهزاء حيث ينزل بهم من النكال
ويحل عليهم من الذل والهوان ما لا يوصف وايثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد
والاستمرار كما يعرب عنه قوله عز [وجل] اولا يرون انهم يفتنون في كل عام مرة او مرتين
وما كانوا خالين في اكثر الاوقات من تهتك استار وتكشف اسرار ونزول في شانهم و
استشعار حذر من ذلك كما انبأ عنه قوله عز وجل يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة
تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزءوا ان الله مخرج ما تحذرون ويمدهم اي يزيدهم
ويقويهم من مد الجيش وامده اذا زاده وقواه ومنه مددت الدواة والسراج اذا
اصلحتهما بالحبر والزيت وايثاره على يزيدهم للرمز الى ان ذلك منوط بسوء اختيارهم
لما انه انما يتحقق عند الاستمداد وما يجري مجراه من الحاجة الداعية اليه كما في الامثلة المذكورة
وقرئ يُمدهم من الامداد وهو صريح في ان القراءة المشهورة ليست من المد في العمر على انه
يستعمل باللام كالاملاء قال تعالى ونمد له من العذاب مدا وحذف الجار وايصال الفعل الى
الضمير خلاف الاصل لا يصار اليه الا بدليل في طغيانهم متعلق بيمدهم والطغيان
مجاوزة الحد في كل امر والمراد افراطهم في العتو وغلوهم في الكفر وقرئ بكسر الطاء وهي لغة
فيه كلقيان لغة في لقيان وفي اضافته اليهم ايذان باختصاصه بهم وتاييد لما اشير اليه
من ترتب المد على سوء اختيارهم يعمهون حال من الضمير المنصوب والمجرور لكون
المضاف مصدرا فهو مرفوع حكما والعمه في البصيرة كالعمى في البصر وهو التحير والتردد
بحيث لا يدري اين يتوجه واسناد هذا المد الى الله تعالى مع اسناده في قوله تعالى واخوانهم
يمدونهم في الغي محقق لقاعدة اهل الحق مع ان جميع الاشياء مستندة من حيث الخلق اليه
سبحانه وان كانت افعال العباد من حيث الكسب مستندة اليهم والمعتزلة لما تعذر عليهم
اجراء النظم الكريم على مسلكهم نكبوا الى شعاب التاويل فاجابوا اولا بانهم لما اصروا على كفرهم
خذلهم الله تعالى ومنعهم الطافه فتزايد الرين في قلوبهم فسمي ذلك مددا في الطغيان
فاسند اليه تعالى ففي المسند مجاز لغوي وفي الاسناد عقلي لانه اسناد للفعل
الى المسبب والفاعل الحقيقي هم الكفرة وثانيا بانه اريد بالمد في الطغيان ترك القسر و
الالجاء الى الايمان كما في قوله تعالى ونذرهم في طغيانهم يعمهون فالمجاز في المسند فقط وثالثا
بان المراد به معناه الحقيقي وهو فعل الشيطان لكنه مجازا لانه بتمكينه تعالى
واقداره اولئك اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات
الشنيعة المميزة لهم عمن عداهم اكمل تمييز بحيث صاروا كانهم حضار مشاهدون
على ما هم عليه وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم في الشر وسوء الحال
ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى الذين اشتروا الضلالة بالهدى والجملة مسوقة
لتقرير ما قبلها وبيان لكمال جهالتهم فيما حكي عنهم من الاقوال والافعال باظهار
غاية سماجتها وتصويرها بصورة ما لا يكاد يتعاطاه من له ادنى تمييز بحيث صاروا
كانهم فضلا عن العقلاء والضلالة الجور عن القصد والهدى التوجه اليه وقد استعير
الاول للعدول عن الصواب في الدين والثاني للاستقامة عليه والاشتراء استبدال
السلعة بالثمن اي اخذها به لا بذل له لتحصيلها كما قيل وان كان مستلزما له فان المعتبر
في عقد الشراء ومفهومه هو الجلب دون السلب الذي هو المعتبر في عقد البيع ثم استعير
لاخذ شيء باعطاء ما في يده عينا كان كل منهما او معنى للاعراض عما في يده محصلا به
غيره كما قيل وان استلزمه لما مر سره ومنه قوله اخذت بالجمة راسا ازعرا وبالثنايا
الواضحات الدردرا وبالطويل العمر عمرا جيدرا كما اشترى المسلم اذ تنصرا فاشتراء الضلالة
بالهدى مستعار لاخذها بدلا منه اخذا منوطا بالرغبة فيها والاعراض عنه ولما اقتضى ذلك ان يكون

ما يجري

ما يجري مجرى الثمن حاصلا للكفرة قبل العقد وما يجري مجرى المبيع غير حاصل لهم اذ ذاك حسبما
هو في البيت ولا ريب في انهم بمعزل من الهدى مستمرون على الضلالة استدعى الحال تحقيق
ما جرى مجرى العوضين فنقول وبالله التوفيق ليس المراد بما تعلق به الاشتراء ههنا جنس
الضلالة الشاملة بجميع اصناف الكفرة حتى تكون حاصلة لهم من قبل بل هو فردها الكامل
الخاص بهؤلاء على ان اللام للعهد وهو عمههم المقرون بالمد في الطغيان المترتب على ما حكي
عنهم من القبائح وذلك انما يحصل لهم عند الياس عن اهتدائهم والختم على قلوبهم
وكذا ليس المراد بما في حيز الثمن نفس الهدى بل هو التمكن التام منه بتعاضد الاسباب وتاخذ
المقدمات المستتبعة له بطريق الاستعارة كانه نفس الهدى بجامع المشاركة في استتباع الجدوى
ولا مرية في ان هذه المرتبة من التمكن كانت حاصلة لهم بما شاهدوه من الايات الباهرة
والمعجزات القاهرة من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم وبما سمعوه من نصائح المؤمنين
التي من جملتها ما حكي من النهي عن الافساد في الارض والامر بالايمان الصحيح وقد نبذوها من
وراء ظهورهم واخذوا بدلها الضلالة الهائلة التي هي العمه في تيه الطغيان وحمل الهدى
على الفطرة الاصلية الحاصلة لكل احد ياباه ان اضاعتها غير مختصة بهؤلاء ولئن حملت على الاضاعة
التامة الواصلة الى حد الختم على القلوب المختصة بهم فليس في اضاعتها فقط من الشناعة
ما في اضاعتها مع ما يؤيدها من المؤيدات العقلية والنقلية على ان ذلك يفضي الى كون ذكر
ما فصل من اول السورة الكريمة الى هنا اجنبيا عما بعده من حمل اشتراء الضلالة بالهدى على مجرد
اختيارها عليه من غير اعتبار كونه في ايديهم بناء على انه يستعمل اتساعا في ايثار احد الشيئين
الكائنين في شرف الوقوع على الآخر فانه مع خلوه عن المزايا المذكورة مخل برونق الترشيح
الآتي هذا على تقدير جعل الاشتراء المذكور عبارة عن معاملتهم السابقة المحكية وهو
الانسب بتجاوب اطراف النظم الكريم واما اذا جعل ترجمة عن جناية اخرى من جناياتهم
فالمراد بالهدى ما كانوا عليه من معرفة صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وحقية دينه
بما كانوا يشاهدونه في التوراة من نعوته عليه السلام وقد كانوا على يقين منه حتى
كانوا يستفتحون به على المشركين ويقولون اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان
الذي نجد نعته في التوراة ويقولون لهم قد اظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا
فنقتلكم معه قتل عاد وارم فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به كما سياتي ولا مساغ لحمل الهدى
على ما كانوا يظهرونه عند لقاء المؤمنين فانها ضلالة مضاعفة فما ربحت تجارتهم
عطف على الصلة داخل في حيزها والفاء للدلالة على ترتب مضمونه عليها والتجارة صناعة
التجار وهو التصدي للبيع والشراء لتحصيل الربح وهو الفضل على راس المال يقال ربح فلان
في تجارته اي استشف فيها واصاب الربح واسناد عدمه الذي هو عبارة عن الخسران
اليها وهو لاربابها على التوسع المبني على ما بينهما من الملابسة وفائدته المبالغة في
تخسيرهم لما فيه من الاشعار بكثرة الخسار وعمومه المستتبع لسرايته الى ما يلابسهم و
ايرادهما اثر الاشتراء المستعار للاستبدال المذكور ترشيح للاستعارة وتصوير لما
فاتهم من فوائد الهدى بصورة خسارة التجارة الذي يتحاشى عنه كل احد للاشباع في
التحسر ولا ينافي ذلك ان التجارة في نفسها استعارة لا يقصد بها [illegible] كما في قولك
رأيت اسدا وافي البراثن فانك لا تريد به الا زيادة تصوير للشجاع وانه اسد كامل من غير
ان تريد بلفظ البراثن معنى آخر بل قد يكون مستعارا من ملائم المستعار منه لملائم
المستعار له ومع ذلك يكون ترشيحا لاصل الاستعارة كما في قوله فلما رأيت النسر عز
ابن داية وعشش في وكريه جاش له صدري فان لفظ الوكرين مع كونه مستعارا
من معناه الحقيقي الذي هو موضع يتخذه الطائر للتفريخ للراس واللحية او للفودين اعني
جانبي الراس ترشيح باعتبار معناه الاصلي لاستعارة لفظ النسر للشيب ولفظ ابن داية
للشعر الاسود وكذا لفظ التعشيش مع كونه مستعارا للحلول والنزول المستمرين
ترشيح لتينك الاستعارتين بالاعتبار المذكور وقرئ تجاراتهم وتعددها لتعدد
المضاف اليهم وما كانوا مهتدين اي الى طرق التجارة فان المقصود منها سلامة

رأس المال مع حصول الربح ولئن فات الربح في صفقة فربما يتدارك في صفقة اخرى لبقاء
الاصل واما اتلاف الكل بالمرة فليس من باب التجارة قطعاً فهؤلاء الذين كان رأس
مالهم الهدى قد استبدلوا بها الضلالة فاضاعوا كلتا الطلبتين فبقوا خائبين خاسرين
نائين عن طريق التجارة بالف منزل فالجملة راجعة الى الترشيح معطوفة على ما قبلها
مشاركة في الترتيب على الاشتراء المذكور والاولى عطفها على اشتروا مثلهم
اي زيادة كشف لحالهم وتصوير لها غب تصويرها بصورة ما يؤدي الى الخسار بحسب
المال بصورة ما يفضي الى الخسار من حيث النفس تهويلاً لها وابانة لفظاعتها فان
التمثيل الطف ذريعة الى تسخير الوهم للعقل واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه و
واقوى وسيلة الى تفهيم الجاهل الغبي وقمع سورة الجامح الابي كيف لا وهو رفع الحجاب
عن وجوه المعقولات الخفية وابراز لها في معرض المحسوسات الجلية وابراز للمنكر
في صورة المعروف واظهار للوحشي في هيئة المألوف والمثل في الاصل بمعنى المثل و
النظير يقال مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه ثم اطلق على القول السائر الذي مثل
مضربه بمورده وحيث لم يكن ذلك الا قولاً بديعاً فيه غرابة صيرته جديرا بالتسيير في البلاد
وخليقا بالقبول فيما بين كل حاضر وباد استعير لكل حال او صفة او قصة لها شأن عجيب وخطر
غريب من غير ان يلاحظ بينهما وبين شيء آخر تشبيه ومنه قوله عز وجل ولله المثل الاعلى
اي الوصف الذي له شأن عظيم وخطر جليل وقوله تعالى مثل الجنة التي وعد المتقون
اي قصتها العجيبة الشأن كمثل الذي استوقد اي الذين كما في قوله تعالى وخضتم
كالذي خاضوا خلا انه وحد الضمير في قوله تعالى استوقد نارا نظرا الى الصورة وانما
جاز ذلك مع عدم جواز وضع القائم مقام القائمين لان المقصود بالوصف هي الجملة
الواقعة صلة له دون نفسه بل انما هو وصلة لوصف المعارف بها ولانه حقيق بالتخفيف لاستطا
بصلته ولذلك بولغ فيه فحذف ياؤه ثم كسرته ثم اقتصر على اللام في اسماء الفاعلين
والمفعولين ولانه ليس باسم تام بل هو كجزئه فحقه ان لا يجمع ويستوي فيه الواحد
والمتعدد كما هو شان اخواته وليس الذين جمعه المصحح بل النون فيه مزيدة للدلالة
على زيادة المعنى ولذلك جاء بالياء ابدا على اللغة الفصيحة او قصد به جنس المستوقد
او الفوج او الفريق المستوقد والنار جوهر لطيف مضيء حار محرق واشتقاقها من نار
ينور اذا نفر لان فيها حركة واضطرابا واستيقادها طلب وقودها اي سطوعها وا
ارتفاع لهيبها وتنكيرها للتفخيم فلما اضاءت ما حوله الاضاءة فرط الانارة كما يعرب
عنه قوله تعالى هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وتجيء متعدية ولازمة والفاء
للدلالة على ترتبها على الاستيقاد اي فلما اضاءت النار ما حول المستوقد او فلما استضاءت
ما حوله والتانيث لكونه عبارة عن الاماكن والاشياء واضاءت النار نفسها فيما حوله
على ان ذلك ظرف لاشراق النار المنزل منزلتها لا لنفسها او ما مزيدة وحوله ظرف وتاليف
الحول للدوران وقيل للعام حول لانه يدور ذهب الله بنورهم النور ضوء كل نير و
اشتقاقه من النار والضمير للذي والجمع باعتبار المعنى اي اطفأ الله نارهم التي هي مدار
نورهم وانما علق الاذهاب بالنور دون نفس النار لانه المقصود بالاستيقاد لا
الاستدفاء ونحوه كما ينبئ عنه قوله تعالى فلما اضاءت حيث لم يقل فلما شب ضرامها
او نحو ذلك وهو جواب لما او استيناف اجيب به عن سؤال سائل يقول ما بالهم اشبهت
حالهم حال مستوقد انطفأت ناره او بدل من جملة التمثيل على وجه البيان والضمير على
الوجهين للمنافقين والجواب محذوف كما في قوله تعالى فلما ذهبوا به للايجاز والامن
من الالتباس كانه قيل فلما اضاءت ما حوله خمدت فبقوا في الظلمات خابطين متحيرين خائبين
بعد الكدح في احيائها واسناد الاذهاب الى الله تعالى اما لان الكل بخلقه تعالى واما لان الانطفاء
حصل بسبب خفي او امر سماوي كريح او مطر واما للمبالغة كما يؤذن به تعدية الفعل
بالباء دون الهمزة لما فيه من معنى الاستصحاب والامساك يقال ذهب السلطان بماله
اذا اخذه وما اخذه الله عز وجل فامسكه فلا مرسل له من بعده ولذلك عدل عن الضوء

لته

الذي

الذي هو مقتضى الظاهر الى النور لان ذهاب الضوء قد يجامع بقاء النور في الجملة لعدم
استلزام عدم القوي لعدم الضعيف والمراد ازالته بالكلية كما ينبئ عنه قوله تعالى وتركهم
في ظلمات فان الظلمة التي هي عدم النور وانطماسه بالمرة لا سيما اذا كانت متضاعفة
متراكمة متراكبا بعضها على بعض كما يفيده الجمع والتنكير التفخيمي وما بعدها من قوله تعالى
لا يبصرون لا يتحقق الا بعد ان لا يبقى من النور اثر واما لان المراد بالنار ما لا
يرضى به الله تعالى من النار المجازية التي هي نار الفتنة والفساد كما في قوله تعالى كلما اوقدوا
نارا للحرب اطفأها الله ووصفها باضاءة ما حول المستوقد من باب الترشيح او النار
الحقيقية التي يوقدها الغواة ليتوصلوا بها الى بعض المعاصي ويهتدوا بها في طرق العيث
والفساد فاطفأها الله تعالى وخيب آمالهم وترك في الاصل بمعنى طرح وخلى وله مفعول
واحد فضمن معنى التصيير فجرى مجرى افعال القلوب قال فتركته جزر السباع ينشنه
يقضمن حسن بنانه والمعصم والظلمة مأخوذة من قولهم ما ظلمك ان تفعل كذا اي
ما منعك لانها تسد البصر وتمنعه من الرؤية وقرئ في ظلمات بسكون اللام وفي ظلمة
بالتوحيد ومفعول لا يبصرون من قبيل المطروح كأن الفعل غير متعد والمعنى ان حالهم
العجيبة التي هي اشتراؤهم الضلالة التي هي عبارة عن ظلمتي الكفر والنفاق المستتبعين لظلمة
سخط الله تعالى وظلمة يوم القيمة يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين ايديهم
وبايمانهم وظلمة العقاب السرمدي بالهدى الذي هو النور الفطري المؤيد بما شاهدوه من
دلائل الحق وبالهدى الذي كانوا حصلوه من التورية حسبما ذكر كحال من استوقد نارا
عظيمة حتى كان ينتفع بها فاطفأها الله تعالى وتركه في ظلمات هائلة من دلائل الحق لا يتسنى
فيها الابصار صم بكم عمي اخبار لمبتدأ محذوف هو ضمير المنافقين او خبر واحد بالتاويل
المشهور كما في قولهم هذا حلو حامض والصمم آفة مانعة من السماع واصله الصلابة
واكتناز الاجزاء ومنه الحجر الاصم والقناة الصماء وصمام القارورة سدادها سمي به فقدان
حاسة السمع لان سببه اكتناز باطن الصماخ وانسداد منافذه بحيث لا يكاد يدخله
هواء يحصل الصوت بتموجه والبكم الخرس والعمى عدم البصر عما من شانه ان يبصر وصفوا
بذلك مع سلامة مشاعرهم المعدودة لما انهم حيث سدوا مسامعهم عن الاصاخة لما
يتلى عليهم من الآيات والذكر الحكيم وأبوا ان يتلقوها بالقبول وينطقوا بها
السنتهم ولم يجتلوا ما شاهدوا من المعجزات الظاهرة على يدي رسول الله صلى الله
عليه وسلم ولم ينظروا الى آيات التوحيد المنصوبة في الآفاق والانفس بعين التدبر واصروا
على ذلك بحيث لم يبق لهم احتمال للارعواء عنه صاروا كفاقدي تلك المشاعر بالكلية و
هذا عند مفلقي سحرة البيان من باب التمثيل البليغ المؤسس على تناسي التشبيه كما في قول من
قال ويصعد حتى يظن الجهول بان له حاجة في السماء لما ان المقدر في النظم في حكم الملفوظ
لا من قبيل الاستعارة التي يطوى فيها ذكر المستعار له بالكلية حتى لو لم يكن هناك قرينة
لحمل على المعنى الحقيقي كما في قول زهير لدى اسد شاكي السلاح مقذف له لبد اظفاره
لم تقلم فهم لا يرجعون الفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها اي بسبب
اتصافهم بالصفات المذكورة لا يعودون الى الهدى الذي تركوه وضيعوه او عن الضلالة التي
اخذوها والآية نتيجة للتمثيل مفيدة لزيادة تهويل وتفظيع فان قصارى امر التمثيل
بقاؤهم في ظلمات هائلة من غير تعرض لمشعري السمع والنطق والاختلال مشعر الابصار
وقيل الضمير المقدر وما بعده للموصول باعتبار المعنى كالضماير المتقدمة فالآية الكريمة
تتمة التمثيل وتكميل له بان ما اصابهم ليس مجرد انطفاء نارهم وبقائهم في ظلمات كثيفة
هائلة مع بقاء حاسة البصر بحالها بل اختلت مشاعرهم جميعا واتصفوا بتلك الصفات
على طريقة التشبيه او الحقيقة فبقوا جامدين في مكانهم لا يبرحون ولا يدرون ايتقدمون
ام يتاخرون وكيف يرجعون الى ما ابتدؤوا منه والعدول الى الجملة الاسمية للدلالة على
استمرار تلك الحالة فيهم وقرئ صما بكما عميا اما على الذم كما في قوله تعالى حمالة الحطب
المخصوص بالذم هم المنافقون او المستوقدون واما على الحالية من الضمير المنصوب

الذي صح

في تركهم او المرفوع في لا يبصرون واما على المفعولية لتركهم فالضمير للمستوقدين او كصيب
تمثيل لحالهم اثر تمثيل ليعم البيان منها كل دقيق وجليل ويوفي حقها من التفظيع و
التهويل فان تفننهم في فنون الكفر والضلال وتنقلهم فيها من حال الي حال حقيق بان
يضرب في شانه الامثال ويرخي في حلبته اعنة المقال ويمد لشرحه اطناب الاطناب
ويعقد لاجله فصول وابواب لما ان كل له حظ من البلاغة وقسط من الجزالة والبراعة
لابد ان يوفي فيه حق كل من مقامي الاطناب والايجاز فما ظنك في ذروة الاعجاز من
التنزيل الجليل ولقد نعي عليهم في هذا التمثيل تفاصيل جنايتهم وهو عطف على الاول
على حذف المضاف لما سياتي من الضماير المستدعية لذلك اي كمثل ذوي صيب وكلمة
او للايذان بتساوي القصتين في الاستقلال بوجه التشبيه وبصحة التمثيل بكل واحدة
منهما وبهما معا والصيب فيعل من الصوب ولعل الاول هو المراد ههنا لاستلزامه الثاني
وتنكيره وهو النزول الذي له وقع وتاثير يطلق على المطر وعلى السحاب قال الشماخ
وضافية نسج الجنوب مع الصبا واسحم دان صادق الرعد صيب ولعل المراد هو الاول
ههنا لاستلزامه الثاني وتنكيره لما انه اريد به نوع منه شديد هائل كالنار في التمثيل
الاول وامد به ما فيه من المبالغات من جهة مادته الاولى التي هي الصاد المستعلية والياء
المشددة والباء الشديدة ومادته الثانية اعني الصوب المنبئ عن شدة الانسكاب
ومن جهة بنائه الدال على الثبات وقرئ او كصايب من السماء متعلق بصيب او
بمحذوف وقع صفة له والمراد بالسماء هذه المظلة وهي في الاصل كل ما علاك من
سقف ونحوه وعن الحسن انها موج مكفوف اي ممنوع بقدرة الله عز وجل من
السيلان وتعريفها للايذان بان انبعاث الصيب ليس من افق واحد فان كل افق من
افاقها اي كل ما يحيط به كل افق منها سماء على حدة قال ومن بعد ارض بيننا وسماء
كما ان كل طبقة من طباقها سماء قال تعالى واوحى في كل سماء امرها والمعنى انه صيب عام
نازل من غمام مطبق اخذ بالافاق وقيل المراد بالسماء السحاب واللام لتعريف الماهية
فيه ظلمات اي انواع منها وهي ظلمة تكاثفه وانتساجه بتتابع القطر وظلمة
اظلاله ما يلزمه من الغمام الاسحم المطبق الاخذ بالافاق مع ظلمة الليل وجعله
محلا لها مع ان بعضها لغيره كظلمتي الغمام والليل لما انهما جعلتا من توابع ظلمته مبالغة في
شدته وتهويلا لامره وايذانا بانه من الشدة والهول بحيث تغني ظلمته ظلمات الليل
والغمام وهو السر في عدم جعل الظلمات هو الاصل المستتبع للبواقي مع ظهور ظرفيتها
للكل اذ لو قيل او كظلمات فيها صيب لما افاد ان للصيب ظلمة خاصة به فضلا عن كونها
غالبة على غيرها ورعد وهو صوت يسمع من السحاب والمشهور انه يحدث من
اصطكاك اجرام السحاب بعضها ببعض او من انقلاع بعضها عن بعض عند اضطرابها
بسوق الرياح اياه سوقا عنيفا وبرق وهو ما يلمع من السحاب من برق الشيء بريقا
اي لمع وكلاهما في الاصل مصدر ولذلك لم يجمعا وكونهما في الصيب باعتبار
كونهما في اعلاه ومصبه ووصول اثرهما اليه وكونهما في الظلمات الكاينة فيه
والتنوين في الكل للتفخيم والتهويل كانه قيل فيه ظلمات شديدة داجية ورعد قاصف
وبرق خاطف وارتفاع الجميع بالظرف على الفاعلية لتحقق شرط العمل بالاتفاق
وقيل بالابتداء والجملة اما صفة لصيب او حال منه لتخصصه بالصفة او بالعمل
فيما بعده من الجار او من المستكن في الظرف الاول على تقدير كونه صفة لصيب
والضماير في قوله عز وجل يجعلون اصابعهم في اذانهم للمضاف الذي اقيم
مقامه المضاف اليه فان معناه باق وان حذف لفظه تعويلا على الدليل كما في قوله
وكم من قرية اهلكناها فجاءها باسنا بياتا او هم قائلون فان الضمير للاهل
المدلول عليه بما اقام مقامه من القرية قال حسان رضي الله عنه يسقون من ورد البريص
عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل فان تذكير الضمير المستكن في يصفق
لرجوعه الى الماء المضاف الى بردى فالاناث حتما وايثار الجعل المنبئ عن دوام

الملابسة

الملابسة واستمرار الاستقرار على الادخال المفيد لمجرد الانتقال من الخارج الى الداخل للمبالغة
في بيان سد المسامع باعتبار الزمان كما ان ايراد الاصابع بدل الانامل للاشباع في بيان سدها
باعتبار الذات كانهم سدوها بجملتها لا بانامِلها فحسب كما هو المعتاد ويجوز ان يكون
هذا ايماء الى كمال حيرتهم وفرط دهشتهم وبلوغهم الى حيث لا يهتدون الى استعمال الجوارح
على النهج المعتاد وكذا الحال في عدم تعيين الاصبع المعتادة اعني السبابة وقيل ذلك لرعاية
الادب والجملة استيناف لا محل لها من الاعراب مبني على سؤال نشا من الكلام كانه قيل
عند بيان احوالهم الهائلة فماذا يصنعون في تضاعيف تلك الشدة فقيل يجعلون
الخ وقوله تعالى من الصواعق متعلق بيجعلون اي من اجل الصواعق المقارنة للرعد من قولهم
سقاه من الغيمة والصاعقة قصفة رعد هائل ينقض معها شقة نار لا تمر بشيء الا
اتت عليه من الصعق وهو شدة الصوت وبناؤها اما لان يكون صفة لقصفة او للرعد
والتاء للمبالغة كما في الرواية او مصدرا كالعافية وقد يطلق على كل هائل مسموع او مشاهد
يقال صعقته الصاعقة اذا اهلكته بالاحراق او بشدة الصوت وسد الاذان انما يفيد
على التقدير الثاني دون الاول وقرئ من الصواقع وليس ذلك بقلب من الصواعق لاستواء
كلا البنائين في التصرف يقال صقع الديك وخطيب مصقع اي مجهر بخطبته حذر الموت
منصوب بيجعلون على العلة وان كان معرفة بالاضافة كقوله واغفر عوراء الكريم ادخاره
واصفح عن شتم اللئيم تكرما ولا ضير في تعدد المفعول له فان الفعل يعلل بعلل شتى و
قيل هو نصب على المصدرية اي يحذرون حذرا مثل حذر الموت والحذر هو شدة
الخوف وقرئ حذار الموت والموت زوال الحيوة وقيل عرض يضادها لقوله تعالى خلق الموت
والحيوة ورد بان الخلق بمعنى التقدير والاعدام مقدرة والله محيط بالكافرين
اي لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط شبه شمول قدرته تعالى اياهم وانطواء
ملكوته عليهم باحاطة المحيط بما احاط به في استحالة الفوت او شبه الهيئة المنتزعة من
شؤونه تعالى معهم بالهيئة المنتزعة من احوال المحيط مع المحاط فالاستعارة المبنية على
على التشبيه الاول استعارة تبعية في الصفة متفرعة على ما في مصدرها من الاستعارة
المبنية على الثاني تمثيلية قد اقتصر من طرف المشبه به على ما هو العمدة في انتزاع الهيئة المشبه
بها اعني الاحاطة والباقي منوي بالفاظ متخيلة بها يحصل التركيب المعتبر في التمثيل كما مر
تحريره في قوله عز وجل ختم الله على قلوبهم والجملة اعتراضية منبهة على ان ما صنعوا من
سد الاذان بالاصابع لا يغني عنهم شيئا فان القدر لا يدافعه الحذر والحيل لا ترد باس الله
عز وجل وفائدة وضع الكافرين موضع الضمير الراجع الى اصحاب الصيب الايذان بان ما دهمهم
من الامور الهائلة المحكية بسبب كفرهم على منهاج قوله تعالى كمثل ريح فيها صر اصابت حرث
قوم ظلموا انفسهم فاهلكته فان الاهلاك الناشئ من السخط اشد وقيل هذا الاعتراض
من جملة احوال المشبه على ان المراد بالكافرين المنافقون وقد دل به على انه لا مدفع لهم من
عذاب الله تعالى في الدنيا والاخرة وانما وسط بين احوال المشبه به مع ان القياس تقديمه او تاخيره
لاظهار كمال العناية وفرط الاهتمام بشان المشبه يكاد البرق استيناف وقع جوابا
عن سؤال مقدر كانه قيل فكيف حالهم مع ذلك البرق فقيل يكاد ذلك يخطف ابصارهم
اي يختلسها ويستلبها بسرعة وكاد من افعال المقاربة وضعت لمقاربة الخبر من الوجود
لتاخذ اسبابه وتعاضد مباديه لكنه لم يوجد بعد لفقد شرط او لعروض مانع ولا يكون
خبرها الا مضارعا عاريا عن كلمة ان وشذ مجيئه اسما صريحا كما في قوله فابت الى فهم وما
كدت ايبا وكذا مجيئه مع ان حملا على عسى وقرئ يخطف بكسر الطاء ويختطف ويخطف بفتح الياء
والخاء بنقل فتحة التاء الى الخاء وادغامها في الطاء ويخطف بكسرها على اتباع الياء الخاء ويخطف
من صيغة التفعيل ويتخطف من قوله تعالى ويتخطف الناس من حولهم كلما اضاء لهم مشوا فيه
كلما ظرف وما مصدرية والزمان محذوف اي كل زمان اضاءة وقيل ما نكرة موصوفة معناها
الوقت والعائد محذوف اي كل وقت اضاء لهم فيه والعامل في كلما جوابها وهو استيناف
ثالث كانه قيل ما يفعلون في اثناء ذلك الهول ايفعلون بابصارهم ما فعلوا باذانهم ام لا فقيل

كلام صحيح

٩/

مادهشهم

كلما نور البرق ممشى ومسلكاً على ان اضاء متعدّ والمفعول محذوف او كلما لمع لهم على انه لازم ويؤيده قراءة كلما ضاء مشوا فيه اي في ذلك المسلك او في مطرح نوره خطوات يسيرة مع خوف ان يخطف ابصارهم وايثار مشى على ما فوقه من السعي والعدو للاشعار بعدم استطاعتهم لهما واذا اظلم عليهم اي خفي البرق واستتر والمظلم وان كان غيره لكن لما كان الاظلام دائراً على استتاره اسند اليه مجازاً تحقيقاً لما اريد من المبالغة في موجبات تخبطهم وقد جوز ان يكون متعدياً منقولاً من ظلم الليل ومنه ما جاء في قول ابي تمام هما اظلما حالي ثمت اجليا ظلاميهما عن وجه امرد اشيب ويعضده قراءة اظلم على البناء للمفعول قاموا اي وقفوا في اماكنهم على ما هم عليه من الهيئة متحيرين مترصدين بخفقة اخرى عسى يتسنى لهم الوصول الى المقصد او الالتجاء يعصمهم وايراد كلما مع الاضاءة واذا مع الاظلام للايذان بانهم حراص على المشي مترقبون لما يصححه فكلما وجدوا فرصة انتهزوها ولا كذلك الوقوف وفيه من الدلالة على كمال التحير ونطاير اللب ما لا يوصف ولو شاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم كلمة لو لتعليق حصول امر ماضي هو الجزاء بحصول امر مفروض فيه هو الشرط لما بينهما من الدوران حقيقة وادعاءً من قضية مفروضية الشرط دلالتها على انتفائه قطعاً والمنازع فيه مكابر واما دلالتها على انتفاء الجزاء فقد قيل والحق الذي لا محيد عنه انه ان كان ما بينهما من الدوران كلياً او جزئياً قد بنى الحكم على اعتباره فهي دالة عليه بواسطة مدلولها الوضعي لا محالة ضرورة استلزام انتفاء العلة لانتفاء المعلول اما في مادة الدوران الكلي كما في قوله تعالى عز جل ولو شاء لهداكم اجمعين وقولك لو جئتني لاكرمتك فظاهر لان وجود المشيئة علة لوجود الهداية حقيقة ووجود المجيء علة لوجود الاكرام ادعاءً وقد انتفيا بحكم المفروضية فانتفى معلولاهما حتماً ثم انه قد يساق الكلام لتعليل انتفاء الجزاء بانتفاء الشرط كما في المثالين المذكورين وهو الاستعمال الشايع لكلمة لو ولذلك قيل هي لامتناع الثاني لامتناع الاول وقد يساق للاستدلال بانتفاء الثاني للعلم بانتفاء الاول ومن لم يتنبه له زعم انه لانتفاء الاول لانتفاء الثاني واما في مادة الدوران الجزئي كما في قولك لو طلعت الشمس لوجد الضوء فلان الجزاء المنوط بالشرط الذي هو طلوعها ليس وجود اي ضوء كان كضوء القمر الجامع لعدم الطلوع مثلاً بل انما هو وجود الضوء الخاص الناشئ من الطلوع ولا ريب في انتفائه بانتفاء الطلوع هذا اذا بنى الحكم على اعتبار الدوران واما اذا بنى على عدمه فاما ان يعتبر هناك تحقق مدار آخر له او لا فان اعتبر فالدلالة تابعة لحال ذلك المدار فان كان بينه وبين انتفاء الاول منافاة تعين الدلالة كما اذا قلت لو لم تطلع الشمس لوجد الضوء فان وجود الضوء وان علق صورة بعدم الطلوع لكنه في الحقيقة معلق بسبب آخر له ضرورة ان عدم الطلوع من حيث هو ليس مداراً لوجود الضوء في الحقيقة وانما وضع موضع المدار لكونه كاشفاً عن تحقق مدار آخر له فكانه قيل لو لم تطلع الشمس لوجد الضوء بسبب آخر كالقمر مثلاً ولا ريب في ان هذا الجزاء منتف عند انتفاء الشرط لاستحالة وجود الضوء القمري عند طلوع الشمس وان لم يكن بينهما منافاة تعين عدم الدلالة كما في قوله صلى الله عليه وسلم في بنت ابي سلمة لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي انها لابنة اخي من الرضاعة فان المدار المعتبر في ضمن الشرط اعني كونها ابنة اخيه عليه السلام من الرضاعة غير مناف لانتفائه الذي هو كونها ربيبته عليه السلام بل مجامع له ومن ضرورته مجامعة اثريهما اعني الحرمة الناشئة من كونها ربيبته عليه السلام والحرمة الناشئة من كونها ابنة اخيه من الرضاعة وان لم يعتبر هناك تحقق مدار آخر بل بنى الحكم على اعتبار عدمه فلا دلالة لها على ذلك اصلاً كيف لا ومساق الكلام حينئذ لبيان ثبوت الجزاء على كل حال بتعليقه بما ينافيه ليعلم ثبوته عند وقوع ما لا ينافيه بالطريق الاولى كما في قوله عز وجل قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربي اذاً لامسكتم وقوله عليه السلام لو كان الايمان في الثريا لناله رجال من فارس وقول علي رضي الله عنه لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً

فان الاجزية المذكورة قد نيطت بما ينافيها ويستدعي نقائضها ايذاناً بانها في انفسها بحيث يجب ثبوتها مع فرض انتفاء اسبابها او تحقق اسباب انتفائها فكيف اذا لم يكن كذلك على طريقة لو الوصلية في مثل قوله تعالى يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ولها تفاصيل وتفاريع حررناها في تفسير قوله تعالى او لو كنا كارهين ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ان حمل على تعليق عدم العصيان في ضمن عدم الخوف بمدار آخر نحو الحياء والاجلال وغيرهما مما يجامع مع الخوف كان من قبيل حديث ابنة ابي سلمة وان حمل على بيان استحالة عصيانه مبالغة كان من هذا القبيل فالاية الكريمة واردة على الاستعمال الشايع مفيدة لكمال فظاعة حالهم وغاية هول ما دهمهم من المشاق وانها قد بلغت من الشدة الى حيث لو تعلقت مشيئة الله تعالى بازالة مشاعرهم لزالت لتحقق ما يقتضيه اقتضاءً تاماً وقيل كلمة لو فيها لربط جزائها بشرطها مجردة عن الدلالة على انتفاء احدهما لانتفاء الاخر بمنزلة كلمة ان ومفعول المشيئة محذوف جرياً على القاعدة المستمرة فانها اذا وقعت شرطاً وكان مفعولها مضموناً للجزاء فلا يكاد يذكر الا ان يكون شيئاً مستغرباً كما في قوله فلو شئت ان ابكي دماً لبكيته عليه ولكن ساحة الصبر اوسع اي لو شاء الله ان يذهب بسمعهم وابصارهم لفعل ولكن لم يقتضه من الحكم والمصالح وقرئ لاذهب باسماعهم على زيادة الباء كما في قوله تعالى ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة الاية والافراد في المشهورة لان السمع مصدر في الاصل والجملة الشرطية معطوفة الى ما قبلها من الجملة الاستينافية وقيل على كلما اضاء وقوله عز وجل ان الله على كل شيء قدير تعليل للشرطية وتقرير لمضمونها الناطق بقدرة الله تعالى على ازالة مشاعرهم بالطريق البرهاني والشيء بحسب مفهومه اللغوي يقع على كل ما يصح ان يعلم ويخبر عنه كائناً ما كان على انه في الاصل مصدر شاء اطلق على المفعول واكتفي في ذلك باعتبار المشيئة به من حيث العلم والاخبار عنه فقط وقد خص ههنا بالممكن موجوداً كان او معدوماً بما يقتضيه اختصاص تعلق القدرة به لما انها عبارة عن التمكن من الايجاد والاعدام الخاصين به وقيل هي صفة تقتضي ذلك التمكن والقادر هو الذي ان شاء فعل وان لم يشأ لم يفعل والقدير هو الفعال لكل ما يشاء كما يشاء ولذلك لم يوصف به غير الباري جل جلاله ومعنى قدرته تعالى على الممكن الموجود حال وجوده انه ان شاء ابقاه على الوجود ابقاه عليه فان علة الوجود هي علة البقاء وقد مر تحقيقه في تفسير قوله تعالى رب العالمين وان شاء اعدامه اعدمه ومعنى قدرته على المعدوم حال عدمه انه ان شاء ايجاده اوجده وان لم يشأ لم يوجده وقيل قدرة الانسان هيئة بها يتمكن من الفعل والترك وقدرة الله تعالى عبارة عن نفي العجز واشتقاق القدرة من القدر لان القادر يوقع الفعل بقدر ما يقتضيه ارادته او بقدر قوته وفيه دليل على ان مقدور العبد مقدور الله تعالى حقيقة لانه شيء وكل شيء مقدور له تعالى واعلم ان كل واحد من التمثيلين وان احتمل ان يكون من قبيل التمثيل المفرق كما في قوله كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي بان يشبه المنافقون في التمثيل الاول بالمستوقدين وهداهم الفطري بالنار وتاييدهم اياه بما شاهدوه من الدلائل باستيقادها وتمكنهم التام من الانتفاع به باضاءتها ما حولهم وازالته باذهاب النور الناري واخذ الضلالة بمقابلته بملابستهم الظلمات الكثيفة وبقائهم فيها ويشبهوا في التمثيل الثاني بالسابلة والقرآن وما فيه من العلوم والمعارف التي هي مدار الحياة الابدية بالصيب الذي هو سبب الحياة الارضية وما عرض لهم بنزوله من الغموم والاحزان وانكساف البال بالظلمات وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق وتصامهم عما يقرع اسماعهم من الوعيد بحال من يهوله الرعد والبرق فيخاف صواعقه فيسد اذنه منها ولا خلاص له منها واهتزازهم لما يلمع من رشد يدركونه او

يحرزونه بمشيهم في مطرح ضوء البرق كلما اضاء لهم وتحيرهم في امرهم حاين حل بهم
مصيبة في توقفهم اذا اظلم عليهم لكن الحمل على التمثيل المركب الذي لا يعتبر فيه تشبيه
كل واحد من المفردات الواقعة في الجانب الاخر على وجه التمثيل بل ينتزع منه من
المفردات الواقعة في جانب المشبه هيئة فتشبه بهيئة اخرى منتزعة من المفردات
الواقعة في جانب المشبه به بان ينتزع من المنافقين واحوالهم المفصلة في كل واحد
من التمثيلين هيئة على حدة وينتزع من كل واحد من المستوقدين واصحاب الصيب
واحوالهم المحكية هيئة بحيالها فتشبه كل واحدة من الاوليين بما يضاهيها من
الاخريين هو الذي يقتضيه جزالة التنزيل ويستدعيه فخامة شانه الجليل لاشتماله
على التشبيه الاول اجمالا مع امر زايد عليه هو تشبيه الهيئة بالهيئة وايذان بان اجتماع
تلك المفردات مستتبع لهيئة عجيبة حقيقة بان تكون مثلا في الغرابة يا ايها الناس
اعبدوا ربكم اثر ما ذكر الله تعالى علو طبقة كتابه الكريم وتحزب الناس في شانه
الى ثلاث فرق مؤمنة به محافظة على ما فيه من الشرايع والاحكام وكافرة قد نبذته
وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق واخرى مذبذبة بينهما بالمخادعة والنفاق ونعت
كل فرقة منها بما لها من النعوت والاحوال وبين ما لهم من المصير والمآل اقبل عليهم
بالخطاب على نهج الالتفات هزا لهم الى الاصغاء وتوجيها لقلوبهم نحو التلقي وجبرا
لما في العبادة من الكلفة بلذة الخطاب فامرهم كافة بعبادته ونهاهم عن الاشراك
به ويا حرف وضع لنداء البعيد وقد ينادى به القريب تنزيلا له منزلة البعيد اما اجلالا
كما في قول الداعي يا الله ويا رب وهو اقرب اليه من حبل الوريد استقصارا لنفسه
واستبعادا لها من محافل الزلفى ومنازل المقربين واما تنبيها على غفلته وسوء فهمه
وقد يقصد به التنبيه على ان ما يعقبه امر خطير يعتنى بشانه واي اسم مبهم جعل
وصلة الى نداء المعرف باللام لما لا على انه المنادى اصالة بل على انه صفة موضحة له مزيلة
لابهامه والتزم رفعه مع انتصاب موصوفه محلا اشعارا بانه المقصود بالنداء واقحمت
بينهما كلمة التنبيه تاكيدا لمعنى النداء وتعويضا عما يستحقه اي من المضاف اليه ولما ترى
من استقلال هذه الطريقة بضروب من اسباب المبالغة والتاكيد كثر سلوكها في
التنزيل المجيد كيف لا وكل ما ورد في تضاعيفه على العباد من الاحكام والشرايع وغير
ذلك خطوب جليلة حقيقة بان تقشعر منها الجلود وتطمئن بها القلوب الابية
ويتلقوها باذان واعية واكثرهم عنها غافلون فاقتضى الحال المبالغة والتاكيد في الايقاظ
والتنبيه والمراد بالناس كافة المكلفين الموجودين في ذلك العصر لما ان الجموع واسماءها
المحلاة باللام للعموم بدليل صحة الاستثناء منها والتاكيد بما يفيد العموم كما في قوله
تعالى فسجد الملائكة كلهم اجمعون واستدلال الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين
بعمومها شايعا ذايعا واما من عداهم ممن سيوجد منهم فغير داخلين في خطاب
المشافهة وانما دخولهم تحت حكمه لما تواتر من دينه صلى الله عليه وسلم ضرورة ان
مقتضى خطابه واحكامه شامل للموجودين من المكلفين ولمن سيوجد منهم الى قيام الساعة
ولا يقدح في العموم ما روي عن علقمة والحسن البصري من ان كل ما نزل فيه يا ايها الناس
فهو مكي اذ ليس من ضرورة نزوله بمكة شرفها الله تعالى اختصاص حكمه باهلها ولا من
قضيته اختصاصه بهم اختصاصه بالكفار اذ لم يكن كل اهلها حينئذ كفرة ولا ضير في تحقق العبادة
في بعض المكلفين قبل ورود هذا الامر لما ان المامور به القدر المشترك الشامل لانشاء
العبادة والثبات عليها والزيادة فيها مع انها متكررة حسب تكرر اسبابها ولا في انتفاء شرطها
في الاخرين منهم اعني الايمان لان الامر بها منتظم للامر بما لا يتم الا به وقد علم من الدين
ضرورة اشتراطها به فان امر المحدث بالصلوة مستتبع للامر بالتوضئ لا محالة وقد قيل المراد
بالعبادة ما يعم افعال القلب ايضا لما انها عبارة عن غاية التذلل والخضوع وروي
عن ابن عباس رضي الله عنه ان كل ما ورد في القران من العبادة فمعناها التوحيد وقيل معنى اعبدوا
وحدوا واطيعوا ولا خفاء في كون بعض من الفرقتين الاخريين ممن لا يجدي فيهم الانذار بموجب

النص

النص القاطع لما ان المقطع لما ان الامر لقطع الاعذار وليس فيه تكليفهم بما ليس في وسعهم
من الايمان بعدم ايمانهم اصلا اذ لا قطع لاحد منهم بدخوله في حكم النص قطعا ف
ورود النص بذلك لكونهم في انفسهم بسوء اختيارهم كذلك لا ان كونهم كذلك
لورود النص بذلك فلا جبر اصلا نعم لتخصيص الخطاب بالمشركين وجه لطيف ستقف
عليه عند قوله تعالى وانتم تعلمون وايراده تعالى بعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين
لتاكيد موجب الامر بالاشعار بعليتها للعبادة الذي خلقكم صفة اجريت عليه سبحانه
للتبجيل والتعليل اثر التعليل وقد جوز كونها للتقييد والتوضيح بناء على تخصيص
الخطاب بالمشركين وحمل الرب على ما هو اعم من الرب الحقيقي والالهة التي يسمونها
اربابا والخلق ايجاد على تقدير واستواء واصله التقدير يقال خلق النعل اي قدرها
وسواها بالمقياس وقرئ خلقكم بادغام القاف في الكاف والذين من قبلكم
عطف على الضمير المنصوب ومفهم لما قصد من التعظيم والتعليل فان خلق
اصولهم من موجبات العبادة كخلق انفسهم ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف اي كانوا
من زمان قبل زمانكم وقيل خلقهم من قبل خلقكم فحذف الخلق واقيم
الضمير مقامه والمراد بهم من تقدمهم من الامم السالفة كافة ومن ضرورة عموم
الخطاب بيان شمول خلقه تعالى للكل وتخصيصه بالمشركين يؤدي الى عدم التعرض
لخلق من عداهم من معاصريهم اخراج الجملة مخرج الصلة التي حقها ان تكون معلومة
الانتساب الى الموصول عندهم ايضا مع انهم غير معترفين بغاية الخلق وان اعترفوا
بنفسه كما ينطق به قوله تعالى ولئن سالتهم من خلقهم ليقولن الله للايذان بان
خلقهم للتقوى من الظهور بحيث لا يتاتى لاحد انكاره وقرئ وخلق من قبلكم و
قرئ والذين من قبلكم باقحام الموصول الثاني بين الاول وصلته توكيدا كما اقحم
اللام بين المتضايفين في لا ابا لك او بجعله موصوفا بالظرف خبرا لمبتدا محذوف اي الذين
هم اناس كائنون قبلكم لعلكم تتقون المعنى الوضعي لكلمة لعل هو انشاء توقع امر
متردد بين الوقوع وعدمه مع رجحان الاول اما محبوب فيسمى ترجيا او مكروه
فيسمى اشفاقا وذلك المعنى قد يعتبر تحققه بالفعل اما من جهة المتكلم في الملابس التام
بالكلام الجاري بينهما كما في قوله سبحانه فقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى وقد
يعتبر تحققه بالقوة بضرب من التجوز ايذانا بان ذلك الامر في نفسه منبه للتوقع متصف
بحيثية مصححة له من غير ان يعتبر هناك توقع بالفعل من متوقع اصلا فان روعيت
في الاية الكريمة جهة المتكلم يستحيل ارادة ذلك المعنى لامتناع التوقع من علام
الغيوب عز وجل فيصار اما الى الاستعارة بان يشبه طلبه تعالى من عباده التقوى مع كونهم
مئنة لها لتعاضد اسبابها برجاء الراجي من المرجو منه امرا هين الحصول في كون متعلق
كل منهما مترددا بين الوقوع وعدمه مع رجحان الاول فيستعار له كلمة لعل استعارة تبعية
حرفية للمبالغة في الدلالة على قوة الطلب وقرب المطلوب من الوقوع واما الى التمثيل بان
يلاحظ خلقه تعالى اياهم مستعدين للتقوى وطلبه اياها منهم وهم متمكنون
منها جامعون لاسبابها وينتزع من ذلك هيئة فتشبه بهيئة منتزعة من الراجي
ورجائه من المرجو منه شيئا سهل المنال فيستعمل في الهيئة الاولى ما حقه ان يستعمل في
الثانية فيكون هناك استعارة تمثيلية وقد صرح من الفاظها بما هو العمدة في انتزاع
الهيئة المشبهة اعني كلمة الترجي والباقي منوي بالفاظ متخيلة بها يحصل التركيب المعتبر
في التمثيل كما مر مرارا واما حمل المشبه ارادته تعالى في الاستعارة والتمثيل فامر مؤسس
على قاعدة الاعتزال القائلة بجواز تخلف المراد عن ارادته تعالى فالجملة حال اما من فاعل
خلقكم اي طالبا منكم التقوى او مفعوله وما عطف عليه بطريق تغليب المخاطبين على
الغائبين لانهم المامورون بالعبادة اي خلقكم واياهم مطلوبا منكم التقوى او
علة له فان خلقهم على تلك الحال في معنى خلقهم لاجل التقوى كانه قيل خلقكم لتتقوا
او كي تتقوا اما بناء على تجويز تعليل افعاله تعالى بالاغراض راجعة الى العباد كما ذهب اليه كثير

اللبس

سس

من اهل السنة واما تنزيلا لترتب الغاية على ما هي ثمرة له منزلة ترتب الغرض على ما هو
غرض له فان استتباع افعاله تعالى الغايات ومصالح متقنة جلية من غير ان تكون هي علة
غائية لها بحيث لولاها لما اقدم عليها مما لا نزاع فيه وتقييد خلقهم من الحال او العلة لتكميل
علية المأمور به وتأكيدها فان اتيانهم بما خلقوا له ادخل في الوجوب وايثار تتقون على تعبدون
مع موافقته لقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون للمبالغة في ايجاب العبادة و
التشديد في الزامها لما ان التقوى قصارى امر العابد ومنتهى جهده فاذا لزمتهم كان ما هو
ادنى منها الزم والاتيان به اهون وانسر ورعيت جهة المخاطب فلعل في معناها الحقيقي
والجملة حال من ضمير اعبدوا كانه قيل اعبدوا ربكم راجين للانتظام في زمرة المتقين الفائزين
بالهدى والفلاح على ان المراد بالتقوى مرتبتها الثالثة التي هي التبتل الى الله عز وجل بالكلية
والتنزه عن كل ما يشغل سره عن مراقبته وهي اقصى غايات العبادة التي يتنافس فيها المتنافسون
وبالانتظام القدر المشترك بين انشائه والثبات عليه ليرتجيه ارباب هذه المرتبة وما
دونها من مرتبتي التوقي عن العذاب الخالد والتجنب عن كل ما يؤثم من فعل او ترك كما مر
في تفسير المتقين ولعل توسيط الحال من الفاعل بين وصفي المفعول لما في التقديم من فوات
الاشعار بكون الوصف الاول معظم احكام الربوبية وكونه عريقا في ايجاب العبادة
وفي التاخير من زيادة طول الكلام هذا على تقدير تحقق التوقع بالفعل فاما ان اعتبر تحققه
بالقوة فالجملة حال من مفعول من مفعول خلقكم وما عطف عليه على الطريقة المذكورة اي
خلقكم واياهم حال كونكم جميعا بحيث يرجو منكم كل راج ان تتقوا فانه سبحانه وتعالى لما براهم
مستعدين للتقوى جامعين لمباديها الافاقية والانفسية كان حالهم بحيث يرجو منهم
كل راج ان يتقوا لا محالة وهذه الحالة مقارنة لخلقهم وان لم يتحقق الرجا قطعا واعلم
ان الاية الكريمة مع كونها بعبارتها ناطقة بوجوب توحيده تعالى وتحتم عبادته على كافة
الناس مرشدة لهم باشارتها الى ان مطالعة الايات التكوينية المنصوبة في الانفس
والافاق مما يقضي بذلك قضاء متقنا وقد بين فيها اولا من تلك الايات ما يتعلق
بانفسهم من خلقهم وخلق اسلافهم لما انه اقوى شهادة واظهر دلالة ثم عقب
بما يتعلق بمعاشهم فقيل الذي جعل لكم الارض فراشا وهو في محل النصب على
انه صفة ثانية لربكم موضحة او مادحة او على تقدير اخص او امدح او في محل الرفع
على المدح والتعظيم بتقدير المبتدا قال ابن مالك التزم حذف الفعل في المنصوب على المدح
اشعارا بانه انشاء كما في المنادى وحذف المبتدا في المرفوع اجرا للوجهين على سنن
واحد واما كونه مبتدا خبره فلا تجعلوا كما قيل فيستدعي ان يكون مناط النهي ما
في حيز الصلة فقط من غير ان يكون لما سلف من خلقهم وخلق قبلهم مدخل في ذلك
مع كونه اعظم شانا وجعل بمعنى صير والمنصوبان بعده مفعولاه وقيل هو بمعنى خلق وانتصاب
الثاني على الحالية والظرف متعلق به على التقديرين وتقديمه على المفعول الصريح لتعجيل
المسرة ببيان كون ما يعقبه من منافع المخاطبين وللتشويق اليه لان النفس عند تاخير
ما حقه التقديم لا سيما بعد الاشعار بمنفعته تبقى مترقبة له فيتمكن لديها عند وروده
عليها فضل تمكن او لما في المؤخر وما عطف عليه من نوع طول لو قدم لفات تجاوب
اطراف النظم الكريم ومعنى جعلها جعل بعضها بارزا من الماء مع اقتضاء طبعها
الرسوب وجعلها متوسطة بين الصلابة واللين صالحة للقعود عليها والنوم فيها
كالبساط المفروش وليس من ضرورة ذلك كونها سطحا حقيقيا فان كرية شكلها مع
عظم جرمها مصححة لافتراشها وقرئ بساطا ومهادا والسماء بناء عطف
على المفعولين السابقين وتقديم حال الارض لما ان احتياجهم اليها وانتفاعهم
بها اكثر واظهر اي جعلها قبة مضروبة عليكم والسماء اسم جنس يطلق على الواحد
والمتعدد او جمع سماوة او سماة والبناء في الاصل مصدر سمي به المبني بيتا كان او
قبة او خباء ومنه قولهم بنى على امرأته لما انهم كانوا اذا تزوجوا امرأة ضربوا عليها
خباء جديدا وانزل من السماء ماء فاخرج به عطف على جعل اي انزل من جهتها او

الى السحاب ومن السحاب الى الارض كما روي عنه عليه الصلوة والسلام والمراد من السماء
جهة العلو كما ينبئ عنه الاظهار في موقع الاضمار ومن على الاولين لزيادة التقرير
ومن لابتداء الغاية متعلقة بانزل او بمحذوف وقع حالا من المفعول اي كائنا من
السماء قدم عليه لكونه نكرة واما تقديم الظرف على الوجه الاول مع ان حقه التاخير عن
المفعول الصريح فاما لان السماء اصله ومبدأه واما لما مر من التشويق اليه مع ما فيه من
مزيد انتظام بينه وبين قوله تعالى فاخرج به اي بسبب الماء من الثمرات رزقا لكم
وذلك بان اودع في الماء قوة فاعلة وفي الارض قوة منفعلة فتولد من تفاعلهما اصناف
الثمار او بان اجرى عادته بافاضة صور الثمار وكيفياتها المتخالفة على المادة الممتزجة
منهما وان كان المؤثر في الحقيقة قدرته تعالى ومشيته فانه تعالى قادر على ان يوجد
جميع الاشياء بلا اسباب ومواد كما ابدع نفوس المبادي والاسباب لكن له عز وجل
في انشائها متقلبة في الاحوال ومتبدلة في الاطوار من بدائع حكم باهرة تجدد
لاولي الابصار عبرا ومزيد طمانينة الى عظيم قدرته ولطيف حكمته ما ليس في
ابداعها بغتة ومن للتبعيض لقوله تعالى فاخرجنا به ثمرات ولوقوعها بين منكرين
اعني ماء ورزقا كانه قيل وانزل من السماء بعض الماء فاخرج به بعض الثمرات ليكون
بعض رزقكم وهكذا الواقع اذ لم ينزل من السماء كل الماء ولا اخرج من الارض
كل الثمرات ولا جعل كل المرزوق ثمارا او للتبيين ورزقا مفعول بمعنى المرزوق ومن
الثمرات بيان له او حال منه كقولك انفقت من الدراهم الفا ويجوز ان يكون من الثمرات
مفعولا ورزقا حالا منه او مصدرا من اخرج لانه بمعنى رزق وانما ساغ ورود
الثمرات دون الثمار مع ان الموضع موضع كثرة لانه اريد بالثمرات جماعة الثمرة في
قولك ادركت ثمرة بستانه ويؤيده القراءة على التوحيد او لان الجموع يقع بعضها موقع
بعض كقوله تعالى كم تركوا من جنات وعيون وقوله ثلاثة قروء او لانها لما كانت محلاة باللام
خارجة عن حد القلة واللام متعلقة بمحذوف وقع صفة لرزقا على تقدير كونه
بمعنى المرزوق اي رزقا كائنا لكم او دعامة لتقوية عمل رزقا على تقدير كونه
مصدرا كانه قيل رزقا اياكم فلا تجعلوا لله اندادا اما متعلق بالامر السابق
مترتب عليه كانه قيل اذا امرتم بعبادة من هذا شانه من التفرد بهذه النعوت
الجليلة والافعال الجميلة فلا تجعلوا له شريكا وانما قيل اندادا باعتبار الواقع لا لان
مدار النهي هو الجمعية وقرئ ندا وايقاع الاسم الجليل موقع الضمير لتعيين المعبود
بالذات اثر تعيينه بالصفات وتعليل الحكم بوصف الالوهية التي عليها يدور امر الوحدانية
واستحالة الشرك والايذان باستتباعها لساير الصفات واما معطوف عليه كما في قوله
تعالى اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا والفاء للاشعار بعلية ما قبلها من الصفات المجراة
عليه تعالى للنهي او الانتهاء او لان مآل النهي هو الامر بتخصيص العبادة به تعالى المترتب
على اصلها كانه قيل اعبدوه وخصوها به والاظهار في موضع الاضمار لما مر آنفا
وقيل هو نفي منصوب باضمار ان جوابا للامر ويأباه ان ذلك فيما يكون الاول سببا
للثاني ولا ريب في ان العبادة لا تكون سببا للتوحيد الذي هو اصلها ومبناها و
قيل هو منصوب بلعل نصب فاطلع في قوله تعالى لعلي ابلغ الاسباب اسباب السموات فاطلع
الى اله موسى اي خلقكم لتتقوا وتخافوا عقابه فلا تشبهوه بخلقه وحيث كان مدار
هذا النصب تشبيه لعل في بعد المرجو بليت كان فيه تنبيه على تقصيرهم بجعلهم
المرجو القريب بمنزلة المتمنى البعيد وقيل هو متعلق بقوله تعالى الذي جعل الخ على تقدير
رفعه على المدح اي هو الذي خصكم بهذه الآيات العظام والدلائل النيرة فلا تتخذوا
له شركاء وفيه ما مر من لزوم كون خلقهم وخلق اسلافهم بمعزل من مناطية
النهي مع عراقتها فيها وقيل هو خبر للموصول بتأويل مقول في حقه وقد عرفت ما
فيه من لزوم المصير الى رأي الاخفش في تنزيل الاسم الظاهر منزلة الضمير كما في قول زيد
قام ابو عبد الله اذا كان ذلك كنيته والند المثل المناد من ند ندودا اذا نفر وناددته

خالفته خص بالمخالف المماثل بالذات كما خص المساوي بالمماثل في المقدار وتسمية ما يعبده المشركون من دون الله اندادا والحال انهم ما زعموا انها تماثله تعالى في صفاته ولا انها تخالفه في افعاله لما انهم تركوا عبادته تعالى الى عبادتها وسموها الهة شابهت حالهم حال من يعتقد انها ذوات واجبة بالذات قادرة على ان تدفع عنهم بأس الله عز وجل وتمنحهم ما لم يرد الله تعالى من خير فتهكم بهم وشنع عليهم ان جعلوا انداداً لمن يستحيل ان يكون له ند واحد وفي ذلك قال موحد الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل أرباً واحداً ام الف رب ادين اذا تقسمت الامور تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الرجل البصير وقوله تعالى وانتم تعلمون حال من ضمير لا تجعلوا بصرف التقييد الى ما افاده النهي من قبح المنهي عنه ووجوب الاجتناب عنه ومفعول تعلمون مطروح بالكلية كانه قيل لا تجعلوا ذلك فانه قبيح واجب الاجتناب عنه والحال انكم من اهل العلم والمعرفة بدقايق الامور واصابة الرأي او مقدر حسبما يقتضيه المقام نحو وانتم تعلمون بطلان ذلك او تعلمون انه لا يماثله شيء او تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت او تعلمون انها لا تفعل مثل افعاله كما في قوله تعالى هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء او غير ذلك وحاصله تنشيط المخاطبين وحثهم على الانتهاء عما نهوا عنه هذا هو الذي يستدعيه عموم الخطاب في النهي بجعل المنهي عنه القدر المشترك المنتظم لانشاء الانتهاء كما هو المطلوب من الكفرة وللثبات عليه كما هو شان المؤمنين حسبما مر مثله في الامر واما صرف التقييد الى نفس النهي فيستدعي تخصيص الخطاب بالكفرة لا محالة اذ لا يتسنى ذلك بطريق قصر النهي على حالة العلم ضرورة شمول التكليف للعالم والجاهل المتمكن من العلم بل انما يتاتى بطريق المبالغة في التوبيخ والتقريع بناء على ان تعاطي القبايح من العالمين بقبحها اقبح وذلك انما يتصور في حق الكفرة فمن صرف التقييد الى نفس النهي مع تعميم الخطاب للمؤمنين ايضاً فقد نأى عن التحقيق ان قلت اليس في تخصيصه بالكفرة في الامر والنهي خلاص من امثال ما مر من التكلفات وحسن انتظام بين السباق والسياق اذ لا محيد في اية التحدي من تجريد الخطاب وتخصيصه بالكفرة لا محالة مع ما فيه من رباء محل المؤمنين ورفع شانهم عن الانتظام في سلك الكفرة والايذان بانهم مستمرون على الطاعة والعبادة حسبما مر في صدر السورة الكريمة مستغنون في ذلك عن الامر والنهي قلت على انه وجه سري ونهج سوي لا يضل من ذهب اليه ولا يزل من ثبت قدمه عليه فتامل وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا شروع في تحقيق ان الكتاب الكريم الذي من جملته ما تلي من الايتين الكريمتين الناطقتين بوجوب العبادة والتوحيد منزل من عند الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم كما ان ما ذكر فيهما من الايات التكوينية الدالة على ذلك صادرة عنه تعالى لتوضيح اتصافه بما ذكر في مطلع السورة الشريفة من النعوت الجليلة من جملتها نزاهته عن ان يعتريه ريب والتعبير عن اعتقادهم في حقه بالريب مع انهم جازمون بكونه من كلام البشر كما يعرب قوله تعالى ان كنتم صادقين اما للايذان بان اقصى ما يمكن صدوره عنهم وان كانوا في غاية ما يكون من المكابرة والعناد هو الارتياب في شانه واما الجزم المذكور فخارج من دائرة الاحتمال كما ان تنكيره وتصديره بكلمة الشك للاشعار بان حقه ان يكون ضعيفاً مشكوك الوقوع واما للتنبيه على ان جزمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح دلايل الاعجاز ونهاية قوتها وانما لم يقل وان ارتبتم فيما نزلنا الخ لما اشير اليه فيما سلف من المبالغة في تنزيه ساحة التنزيل عن شائبة وقوع الريب فيه حسبما نطق به قوله تعالى لا ريب فيه والاشعار بان ذلك ان وقع فمن جهتهم لا من جهته العالية واعتبار استقرارهم فيه واحاطته بهم لا ينافي اعتبار ضعفه وقلته لما ان ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابستهم به لا قوته وكثرته ومن في مما ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لريب وحملها على السببية ربما يوهم كونه محلا للريب في الجملة وحاشاه ذلك وما موصولة كانت او موصوفة عبارة عن الكتاب الكريم لا عن القدر

المشترك بينه وبين ابعاضه وليس معنى كونهم في ريب منه ارتيابهم وبناء التحدي عليه ارخاء للعنان وتوسيعاً للميدان في استقامة معانيه وصحة احكامه بل في نفس كونه وحياً منزلاً من عند الله عز وعلا وايثار التنزيل المنبئ عن التدريج على مطلق الانزال لتذكير منشاء ارتيابهم وبناء التحدي عليه ارخاء للعنان وتوسيعاً للميدان فانهم كانوا اتخذوا نزوله منجماً وسيلة الى انكاره فجعل ذلك من مبادي الاعتراف به كانه قيل ان ارتبتم في شان ما نزلناه تنزيلاً تدريجياً فهاتوا انتم مثل نوبة فذة من نوبه ونجم فرد من نجومه فانه ايسر عليكم من ان ينزل جملة واحدة ويتحدى بالكل وهذا كما ترى غاية ما يكون في التبكيت وازاحة العلل وفي ذكره صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية مع الاضافة الى ضمير الجلالة من التشريف والتنويه والتنبيه على اختصاصه به عز وجل وانقياده لاوامره تعالى ما لا يخفى وقرئ على عبادنا والمراد هو عليه السلام وامته او جميع الانبياء عليهم السلام ففيه ايذان بان الارتياب فيه ارتياب فيما انزل من قبله لكونه مصدقاً له ومهيمناً عليه والامر في قوله تعالى فأتوا بسورة من باب التعجيز والقام الحجر كما في قوله تعالى فات بها من المغرب والفاء للجواب وسببية الارتياب للامر والاتيان بالمامور به لما اشير اليه من انه عبارة عن خروجهم المذكور فانه سبب للاول مطلقاً وللثاني على تقدير الصدق كانه قيل ان كان الامر كما زعمتم من كونه كلام البشر فأتوا بمثله لانكم تقدرون على ما يقدر عليه ساير بني نوعكم والسورة الطائفة من القران العظيم المترجمة واقلها ثلاث ايات وواوها اصلية منقولة من سور البلد لانها محيطة بطائفة من القران مفرزة محوزة على حيالها او محتوية على فنون رائقة من العلوم احتواء سور المدينة على ما فيها او من السورة التي هي الرتبة قال ولرهط حراب وقد سورة في المجد ليس غرابها بمطار فان سور القران مع كونها في انفسها رتبا من حيث الفضل والشرف او من حيث الطول والقصر فهي من حيث انتظامها مع اخواتها في المصحف مراتب يترقى اليها القاري شيئاً فشيئاً وقيل واوها مبدلة من الهمزة فمعناها البقية من الشيء ولا يخفى ما فيه ومن في قوله تعالى من مثله بيانية متعلقة بمحذوف وقع صفة لسورة والضمير لما نزلنا اي بسورة كائنة من مثله في علو الرتبة وسمو الطبقة والنظم الرايق والبيان البديع وحيازة ساير نعوت الاعجاز وجعلها تبعيضية يوهم ان له مثلا محققاً قد اريد تعجيزهم عن الاتيان ببعضه كانه قيل فأتوا ببعض ما هو مثل له فلا يفهم منه كون المماثلة من تتمة المعجوز عنه فضلا عن كونها مدار العجز مع انه المراد وبناء الامر على المجاراة معهم بحسب حسبانهم حيث كانوا يقولون لو نشاء لقلنا مثل هذا او على التهكم بهم باباه ما سبق من تنزيله منزلة الريب فان مبنى التهكم على تسليم ذلك منهم وتسويغه ولو بغير جد وقيل هي زائدة على ما هو راي الاخفش بدليل قوله تعالى فأتوا بسورة مثله بعشر سور مثله وقيل هي ابتدائية فالضمير حينئذ للمنزل عليه حتما لما ان رجوعه الى المنزل يوهم ان له مثلا محققاً قد ورد الامر التعجيزي بالاتيان بشيء منه وقد عرفت ما فيه بخلاف رجوعه الى المنزل عليه فان تحقق مثله عليه السلام في البشرية والعربية والامية يهون الخطب في الجملة خلا ان تخصيص التحدي بفرد يشاركه عليه السلام فيما ذكر من الصفات المنافية للاتيان بالمامور به لا يدل على عجز من ليس كذلك من علمائهم بل ربما يوهم قدرتهم على ذلك في الجملة فرادى او مجتمعين مع انه يستدعي عراء المنزل عما فصل من النعوت الموجبة لاستحالة وجود مثله فاين هذا من تحدي امة جمة وامرهم بان يحتشدوا في حلبة المعارضة بخيلهم ورجلهم حسبما ينطق به قوله تعالى وادعوا شهداءكم من دون الله وتعاونوا على الاتيان بقدر يسير مماثل في صفات الكمال لما اتى بجملته واحد من ابناء جنسهم والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر او القائم بالشهادة او الناصر ومعنى دون ادنى مكان من الشيء يقال هذا دون ذاك اذا

على مهل

رفع

بنية

كان احط منه قليلا ثم استعير للتفاوت في الاحوال والرتب فقيل زيد دون عمرو اي في الفضل
والرتبة ثم اتسع فاستعمل في كل تجاوز حد الى حد وتخطى حكم الى حكم من غير ملاحظة
انحطاط احدهما من الآخر فجرى مجرى اداة الاستثناء وكلمة من اما متعلقة بادعوا
فتكون لابتداء الغاية والظرف مستقر والمعنى ادعوا متجاوزين الله تعالى للاستظهار
من حضركم كائنا من كان او الحاضرين في مشاهدكم ومحاضركم من رؤسائكم واشرافكم
الذين تفزعون اليهم في الملمات وتعولون عليهم في المهمات او القائمين بشهاداتكم
الجارية فيما بينكم من امنائكم المتولين لاستخلاص الحقوق بتنفيذ القول عند الولاة
والقائمين بنصرتكم حقيقة او زعما من الانس والجن ليعينوكم واخراجه سبحانه و
تعالى من حكم الدعاء في الاول مع اندراجه في الحضور لتاكيد تناوله لجميع ما عداه
لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه فان ذلك مما يوهم انهم لو دعوه تعالى لاجابهم
اليه واما في سائر الوجوه فللتصريح من اول الامر ببراءتهم منه تعالى وكونهم في عدوة
المحادة والمشاقة له قاصرين استظهارهم على ما سواه والالتفات لادخال الروعة
وتربية المهابة وقيل المعنى ادعوا من دون اولياء الله شهداءكم الذين هم وجوه الناس
وفرسان المقاولة والمناقلة ليشهدوا لكم ان ما اتيتم به مثله ايذانا بانهم يابون
ان يرضوا لانفسهم الشهادة بصحة ما هو بين الفساد وجلي الاستحالة وفيه انه يؤذن
بعدم شمول التحدي لاولئك الرؤساء وقيل المعنى ادعوا شهداءكم فصحوا بهم دعوكم
ولا تستشهدوا بالله تعالى قائلين الله يشهد ان ما ندعيه حق فان ذلك ديدن المحجوج وفيه
انه ان اريد بما يدعون حقيته ما هم عليه من الدين الباطل فلا مساس له بمقام التحدي
وان اريد مثلية ما اتوا به للمتحدى به ففيه مع عدم ملابسته لابتداء التحدي يوهم انهم
قد تصدوا للمعارضة واتوا بشيء مشتبه الحال متردد بين المثلية وعدمها وانهم ادعوا
مستشهدين في ذلك بالله سبحانه اذ عند ذلك تمس الحاجة الى الامر بالاستشهاد بالناس
والنهي عن الاستشهاد به تعالى وانى لهم ذلك وما نبض لهم عرق ولا نبسوا ببنت شفة
واما متعلقة بشهداءكم والمراد بهم الاصنام ودون بمعنى التجاوز على انها ظرف
مستقر وقع حالا من ضمير المخاطبين والعامل ما دل عليه شهداءكم اي ادعوا اصنامكم الذين
اتخذتموهم آلهة متجاوزين الله تعالى في اتخاذها كذلك وكلمة من ابتدائية فان
الاتخاذ ابتداء من التجاوز والتعبير عن الاصنام بالشهداء لتعيين مدار الاستظهار
بها بتذكير ما زعموا من انها [illegible] من الله تعالى وانها تنفعهم بشهادتها لهم انهم على
الحق فان ما هذا شانه يجب ان يكون ملاذا لهم في كل امر مهم وملجأ ياوون
اليه في كل خطب ملم كانه قيل اولئك عدتكم فادعوهم لهذه الداهية التي دهمتكم
فوجه الالتفات الايذان بكمال سخافة عقولهم حيث آثروا على عبادة من له الالوهية
الجامعة لجميع صفات الكمال عبادة ما لا احقر منه وقيل لفظة دون مستعارة من معناها
الوضعي الذي هو ادنى مكان من الشيء لمعنى امام كما في قول الاعشى تريك القذى من دونها
وهي دونه اي تريك القذى قدامها وهي قدام القذى فتكون ظرفا لغوا معمولا لشهداءكم
لكفاية رائحة الفعل فيه من غير حاجة الى اعتماد ولا الى تقدير يشهدون اي ادعوا
شهداءكم الذين يشهدون لكم بين يدي الله تعالى ليعينوكم في المعارضة وايرادها بهذا
العنوان لما مر من الاشعار بمناط الاستعانة بها ووجه الالتفات تربية المهابة و
ترشيح ذلك المعنى فان ما يقوم بهذا الامر في ذلك المقام الخطير حقه ان يستعان به
في كل مرام وفي امرهم على الوجهين بان يستظهروا في معارضة القرآن الذي اخرس
كل منطيق بالجماد من التهكم بهم ما لا يوصف وكلمة من هاهنا تبعيضية لما انهم
يقولون جلس بين يديه وخلفه بمعنى في لانهما ظرفان للفعل ومن بين يديه ومن خلفه لان
الفعل انما يقع في بعض تينك الجهتين كما تقول جئته من الليل تريد بعض الليل وقد نقل كلمة من
الداخلة على دون في جميع المواقع بمعنى في كما في سائر الظروف التي لا تتصرف فتكون منصوبة
على الظرفية ابدا ولا تجر الا بمن خاصة وقيل المراد بالشهداء مدرة القوم ووجوه المحافل

والحاضر

والحاضرون ظرف مستقر ومن ابتدائية اي ادعوا الذين يشهدون لكم ان ما اتيتم به
مثله متجاوزين في ذلك اولياء الله ومحصله شهداء مغايرين لهم ايذانا بانهم ايضا لا
يشهدون بذلك وانما قدر المضاف الى الله رعاية للمقابلة فان اولياء الله تعالى يقابلون اولياء
الاصنام كما ان ذكر الله تعالى يقابل ذكر الاصنام والمقصود بهذا الامر ارخاء العنان والاستدراج
الى غاية التبكيت كانه قيل تركنا الزامكم بشهداء لا ميل لهم الى احد الجانبين كما هو المعتاد
واكتفينا بشهداءكم المعروفين بالذب عنكم فانهم ايضا لا يشهدون لكم حذرا من اللائمة وانفة
من الشهادة البينة البطلان كيف لا وامر الاعجاز قد بلغ من الظهور الى حيث لم يبق الى
انكاره سبيل قطعا وفيه ما مر من عدم الملاءمة لابتداء التحدي وعدم تناوله لاولئك
الشهداء وايهام انهم تعرضوا للمعارضة واتوا بشيء احتاجوا في اثبات مثليته للمتحدى به الى
الشهادة وشتان بينهم وبين ذلك ان كنتم صادقين اي في زعمكم انه من كلامه
عليه السلام وهو شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق عليه اي ان كنتم صادقين فاتوا بسورة من
مثله واستلزام المقدم للتالي من حيث ان صدقهم في ذلك الزعم يستدعي قدرتهم على الاتيان
بمثله بقضية مشاركتهم له عليه السلام في البشرية والعربية مع ما بهم من طول
الممارسة للخطب والاشعار وكثرة المزاولة لاساليب النظم والنثر والمبالغة في حفظ الوقائع
والايام لا سيما عند المظاهرة والتعاون ولا ريب في ان القدرة على الشيء من موجبات الاتيان
به ودواعي الامر به فان لم تفعلوا اي ما امرتم به من الاتيان بالمثل بعد ما بذلتم في
السعي غاية المجهود وجاوزتم في الجد كل حد متشبثين بالذيول راكبين متن كل صعب
وذلول وانما لم يصرح به ايذانا بعدم الحاجة اليه بناء على كمال ظهور تهالكهم وانما اورد
في حيز الشرط مطلق الفعل وجعل مصدر الفعل المامور به مفعولا له للايجاز البديع
المغني عن التطويل والتكرير مع سر سري استقل به المقام وهو الايذان بان المقصود
بالتكليف هو ايقاع نفس الفعل المامور به لاظهار عجزهم عنه لا تحصيل المفعول اي
المأتي به ضرورة استحالته وان مناط الجواب في الشرطية اعني الامر باتقاء النار هو
عجزهم عن ايقاعه لا فوت حصول المفعول فان مدلول لفظ الفعل هو نفس الافعال
الخاصة لازمة كانت او متعدية من غير اعتبار تعلقاتها بمفعولاتها الخاصة فاذا
علق بفعل خاص متعد فانما يقصد به ايقاع نفس ذلك الفعل واخراجه من القوة الى الفعل
واما تعلقه بمفعوله المخصوص فهو خارج عن مدلول الفعل المطلق وانما يستفاد ذلك
من الفعل الخاص ولذلك تراهم يتوسلون بذلك الى تجريد الافعال المتعدية عن مفعولاتها
وتنزيلها منزلة الافعال اللازمة فيقولون مثلا معنى فلان يعطي ويمنع يفعل الاعطاء والمنع
يرشدك الى هذا قوله تعالى فان لم تاتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون بعد قوله تعالى ائتوني
باخ لكم من ابيكم فانه لما كان مقصود يوسف عليه السلام بالامر وما نحا عنه بالتكليف
استحضار بنيامين لم يكتف في الشرطية الداعية لهم الى الجد في الامتثال والسعي في تحقيق المامور به بالاشارة
الاجمالية الى الفعل الذي ورد به الامر بان يقول فان لم تفعلوا بل اعاده بعينه متعلقا بمفعوله
تحقيقا للمطلوب واعرابا عن مقصده هذا وقد قيل اطلق الفعل واريد به الاتيان مع ما يتعلق
به اما على طريقة التعبير عن الاسماء الظاهرة بالضمائر الراجعة اليها حذرا من التكرار وعلى
طريقة ذكر اللازم وارادة الملزوم لما بينهما من التلازم المصحح للانتقال بمعونة قرائن الحال
فتدبر وايثار كلمة ان المفيدة للشك على اذا مع تحقق الجزم بعدم فعلهم مجاراة معهم بحسب
حسبانهم قبل التجربة او تهكم بهم ولن تفعلوا كلمة لن لنفي المستقبل كلا الا ان في لن
بزيادة تاكيد وتشديد واصلها عند الخليل لا ان وعند الفراء لا ابدلت الفها نونا وعند
سيبويه حرف مقتضب لمعنى المذكور وهي احدى الروايتين عن الخليل والجملة اعتراض بين
جزئي الشرطية مقرر لمضمون مقدمها ومؤكد لايجاب العمل بتاليها وهذه معجزة باهرة حيث
اخبر بالغيب الخاص علمه به عز وجل وقد وقع الامر كذلك كيف لا ولو عارضوه بشيء يدانيه
في الجملة لتناقله الرواة خلفا عن سلف فاتقوا النار جواب للشرط على ان اتقاء النار
كناية عن الاحتراز من العناد اذ بذلك يتحقق تسببه عنه وترتبه عليه كانه قيل فاذا

مرمي بيانه
في الامتثال بياه

عجزتم عن الاتيان بمثله كما هو المقرر فاحترزوا عن انكار كونه منزلا من عند الله سبحانه
فانه مستوجب للعقاب بالنار لكن اوثر عليه الكناية المذكورة المبنية على تصوير العناد
بصورة النار وجعل الاتصاف به عين الملابسة بها للمبالغة في تهويل شانه وتفظيع
امره واظهار كمال العناية بتحذير المخاطبين منه وتنفيرهم عنه وحثهم على الجد في تحقيق
المكنى عنه وفيه من الايجاز البديع ما لا يخفى حيث كان الاصل فان لم تفعلوا فقد صح صدقه
عندكم واذا صح ذلك كان لزومكم العناد وترككم الايمان به سببا لاستحقاقكم العقاب بالنار
فاحترزوا منه فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة صفة للنار مورثة لها
زيادة هول وفظاعة اعاذنا الله من ذلك والوقود ما توقد به النار وترفع من
الحطب وقرئ بضم الواو وهو مصدر سمي به المفعول مبالغة كما يقال فلان فخر قومه
وزين بلده والمعنى انها من الشدة بحيث لا تبقي شيئا من رطب ويابس الا احرقته لكن نيران
الدنيا تفتقر في الالتهاب الى وقود من حطب وحشيش وانما جعل هذا الوصف صلة
للموصول مقتضية لكون انتسابها الى ما نسبت هي اليه معلوما للمخاطب بناء على انهم سمعوه
من اهل الكتاب قبل ذلك او من الرسول صلى الله عليه وسلم قبلا او سمعوا قبل هذه الاية
المدنية قوله تعالى نارا وقودها الناس والحجارة فاشير هاهنا الى ما سمعوه اولا وكون سورة
التحريم مدنية لا يستلزم كون جميع اياتها كذلك كما هو المشهور واما ان الصلة ايضا
يجب ان تكون معلومة الانتساب الى الموصوف عند المخاطب فالخطب فيه هين لما ان
هناك المؤمنون وظاهر انهم سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد
بالحجارة الاصنام وبالناس انفسهم حسبما ورد في قوله تعالى انكم وما تعبدون من
دون الله حصب جهنم الاية اعدت للكافرين اي هيئت للذين كفروا بما
نزلنا وجعلت عدة لعذابهم والمراد اما جنس الكفار والمخاطبون داخلون فيهم
دخولا اوليا واما هم خاصة ووضع الكافرين موضع ضميرهم لذمهم وتعليل
الحكم بكفرهم وقرئ اعتدت من العتاد بمعنى العدة وفيه دلالة على ان النار مخلوقة
موجودة الآن والجملة استيناف لا محل لها من الاعراب مقررة لمضمون ما قبلها ومؤكدة
لايجاب العمل به ومبينة لمن اريد بالناس رافعة لاحتمال العموم وقيل حال باضمار قد
من النار لا من ضميرها في وقودها لما في ذلك من الفصل بينهما بالخبر وقيل صلة بعد
صلة او عطف على الصلة بترك العاطف وبشر الذين امنوا اي بانه منزل من عند الله
عز وجل وهو معطوف على الجملة السابقة لكن لا على ان المقصود عطف نفس الامر
حتى يطلب له مشاكل يصح عطفه عليه بل على انه عطف قصة المؤمنين بالقران و
وصف ثوابهم على قصة الكافرين به وكيفية عقابهم جريا على السنة الالهية من
شفع الترغيب بالترهيب والوعد بالوعيد وكان تغيير السبك لتخييل كمال التباين بين
حالي الفريقين وقرئ وبشر على صيغة الفعل مبنيا للمفعول عطفا على اعدت فيكون
استينافا وتعليق التبشير بالموصول للاشعار بانه معلل بما في حيز الصلة من الايمان
والعمل الصالح لكن لا لذاتهما فانهما لا يكافئان النعم السابقة فضلا عن ان يقتضيا
ثوابا فيما يستقبل بل بجعل الشارع ومقتضى وعده وجعل صلته فعلا للحدوث بعد
ايراد الكفار بصيغة الفاعل لحث المخاطبين بالاتقاء على احداث الايمان وتحذيرهم
من الاستمرار على الكفر والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وقيل لكل من يتاتى منه
التبشير كما في قوله عليه السلام بشر المشائين الى المساجد في ظلم الليالي بالنور التام يوم
القيمة فانه عم لم يامر بذلك واحدا بعينه بل كل احد ممن يتاتى منه ذلك وفيه رمز
الى ان الامر لعظمه وفخامة شانه حقيق بان يتولى التبشير به كل من يقدر عليه والبشارة
الخبر السار الذي يظهر به اثر السرور في البشرة وتباشير الصبح اوائل ضوئه وعملوا
الصالحات الصالحة كالحسنة في الجريان مجرى الاسم وهي كل ما استقام من الاعمال
بدليل العقل والنقل واللام للجنس والجمع لافادة ان المراد بها جملة من الاعمال الصالحة
التي اشير الى امهاتها في مطلع السورة الكريمة وطائفة منها متفاوتة حسب تفاوت

حال المكلفين

حال المكلفين في مواجب التكليف وفي عطف العمل على الايمان دلالة على تغايرهما و
اشعار بان مدار استحقاق البشارة مجموع الامرين فان الايمان اساس والعمل الصالح كالبناء
ولا اعتناء باس لا بناء به ان لهم جنات منصوب بنزع الخافض وافضاء الفعل
اليه او مجرور باضماره مثل الله لافعلن والجنة هي المرة من مصدر جنه اذا ستره تطلق
على النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف اغصانه قال زهير كأن عيني في غربي مقتلة من
النواضح تسقي جنة سحقا اي نخلا طوالا كانها لفرط تكاثفها والتفافها وتغطيتها
لما تحتها بالمرة نفس السترة وعلى الارض ذات الشجر قال الفراء الجنة ما فيه النخيل والفردوس
ما فيه الكرم فحق المصدر حينئذ ان يكون ماخوذا من الفعل المبني للمفعول وانما سميت
دار الثواب بها مع ان فيها ما لا يوصف من الغرفات والقصور لما انها مناط نعيمها
ومعظم ملاذها وجمعها مع التنكير لانها سبع على ما ذكره ابن عباس رضه جنة
الفردوس وجنة عدن وجنة نعيم ودار الخلد وجنة المأوى ودار السلام
وعليون وفي كل واحدة منها مراتب ودرجات متفاوتة حسب تفاوت الاعمال
واصحابها تجري من تحتها الانهار في حيز النصب على انه صفة جنات فان اريد بها الاشجار
فجريان الانهار من تحتها ظاهر وان اريد بها الارض المشتملة عليها فلا بد من تقدير
مضاف اي من تحت اشجارها وان اريد بها مجموع الارض والاشجار فاعتبار التحتية
بالنظر الى الجزء الظاهر المصحح لاطلاق اسم الجنة على الكل عن مسروق انهار الجنة
تجري في غير اخدود واللام في الانهار للجنس كما في قولك لفلان بستان فيه الماء الجاري
والتين والعنب وعوض عن المضاف اليه كما في قوله تعالى واشتعل الرأس شيبا وللعهد
والاشارة الى ما ذكر في قوله عز وعلا انهار من ماء غير آسن الاية والنهر بفتح الهاء
وسكونها المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كالنيل والفرات والتركيب للسعة
والمراد بها ماؤها على الاضمار او على المجاز اللغوي او المجاري انفسها وقد اسند
اليها الجريان مجازا عقليا كما في سال الميزاب كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا
هذا الذي رزقنا من قبل صفة اخرى لجنات اخرت عن الاولى لان جريان الانهار
وصف لها باعتبار ذاتها وهذا وصف لها باعتبار المتنعمين بها او خبر مبتدا محذوف
او جملة مستانفة كانه حين وصفت الجنات بما ذكر من الصفة وقع في ذهن
السامع ان ثمارها كثمار جنات الدنيا او لا فبين حالها وكلما نصب على الظرفية ورزقا
مفعول به ومن الاولى والثانية للابتداء واقعتان موقع الحال كانه قيل كل وقت رزقوا
مرزوقا مبتدا من الجنات مبتديا من ثمرة على ان الرزق مقيد بكونه مبتديا من
الجنات وابتداؤه منها مقيد بكونه مبتديا من ثمرة فصاحب الحال الاولى رزقا وصاحب
الثانية ضميره المستكن في الحال ويجوز كون من ثمرة بيانا قدم على المبين كما في قولك رايت
منك اسدا وهذا اشارة الى ما رزقوا وان وقعت على فرد معين منه كقولك مشيرا الى نهر
جار هذا الماء لا ينقطع فانك وان اشرت الى ما تعاينه بحسب الظاهر لكنك انما تعني بذلك
النوع المعلوم المستمر فالمعنى هذا مثل الذي رزقناه من قبل اي من قبل هذا في الدنيا ولكن
لما استحكم الشبه بينهما جعل ذاته ذاته وانما جعل ثمر الجنة كثمار الدنيا لتميل النفس
اليه حين تراه فان الطباع مائلة الى المالوف متنفرة عن غير المعروف وليتبين لها مزيته
وكنه النعمة فيه اذ لو كان جنسا غير معهود لظن انه لا يكون الا كذلك او مثل الذي
رزقناه من قبل في الجنة لان طعامها متشابه الصور كما يحكى عن الحسن رضه ان احدهم
يؤتى بالصحفة فياكل منها ثم يؤتى باخرى فيراها مثل الاولى فيقول ذلك فيقول الملائكة
كل فاللون واحد والطعم مختلف وكما روي انه صلى الله عليه وسلم قال والذي
نفسي بيده ان الرجل من اهل الجنة ليتناول الثمرة لياكلها فما هي واصلة الى فيه حتى يبدل الله
مكانها مثلها والاول انسب لمحافظة عموم كلما فانه يدل على ترديدهم هذه المقالة
كل مرة رزقوا لا فيما عدا المرة الاولى يظهرون بذلك التبجح وفرط الاستغراب لما بينهما من
التفاوت العظيم من حيث اللذة مع اتحادهما في الشكل واللون كانهم قالوا هذا عين

ما رزقنا في الدنيا فمن اين له هذه الرتبة من اللذة والطيب ولا يقدح فيه ما روي
عن ابن عباس رضه من انه ليس في الجنة من اطعمة الدنيا الا الاسم فان ذلك لبيان كمال
التفاوت بينهما من حيث اللذة والحسن والهيئة لا لبيان ان لا اشتباه بينهما اصلا
كيف لا واطلاق الاسماء منوط بالاتحاد النوعي قطعا هذا وقد فسرت الاية الكريمة
بان مستلذات اهل الجنة بمقابلة ما رزقوه في الدنيا من المعارف والطاعات متفاوتة
الحال فيجوز ان يريد والله هذا ثواب الذي رزقناه في الدنيا من الطاعات ولا يساعده
تخصيص ذلك بالثمرات فان الجنة وما فيها من فنون الكرامات من قبيل الثواب
واتوا به متشابها اعتراض مقرر لما قبلها والضمير المجرور على الاول راجع الى ما دل
عليه فحوى الكلام مما رزقوا في الدارين كما في قوله تعالى ان يكن غنيا او فقيرا فالله اولى
بهما اي بجنسي الغني والفقير وعلى الثاني الى الرزق ولهم فيها ازواج مطهرة اي مما
في نساء الدنيا من الاحوال المستقذرة كالحيض والدرن ودنس الطبع وسوء الخلق
فان التطهير يستعمل في الاجسام والاخلاق والافعال وقرئ مطهرات وهما لغتان
فصيحتان يقال النساء فعلت وفعلن وهن فاعلة وفواعل قال واذا العذارى بالدخان
تقنعت واستعجلت نصب القدور فملت فالجمع على اللفظ والافراد على تاويل الجماعة
وقرئ مطهرة بتشديد الطاء وكسر الهاء بمعنى متطهرة ومطهرة ابلغ من طاهرة و
متطهرة للاشعار بان مطهرا طهرهن وما هو الا الله سبحانه وتعالى واما التطهر
فيحتمل ان يكون من قبل انفسهن كما عند اغتسالهن والزوج يطلق على الذكر والانثى وهو
في الاصل لما له قرين من جنسه وليس في مفهومه اسم الزوج حتى يخل ذلك بالطلاقه
ثمار الجنة وهم فيها خالدون اي دائمون والخلود في الاصل الثبات المديد
دام او لم يدم ولذلك قيل للاثافي والاحجار الخوالد وللجزء الذي يبقى من الانسان على حاله
خلد ولو كان وضعه للدوام لما قيد بالتابيد في قوله جل وعلا خالدين فيها ابدا ولما
استعمل حيث لا دوام فيه لكن المراد ههنا الدوام قطعا لما يقضي به من الايات والسنن
وقيل من ان الابدان مؤلفة من الاجزاء المتضادة في الكيفية معرضة للاستحالات المؤدية
الى الانحلال والانفكاك مدارة قياس ذلك العالم الكامل بما نشاهد في عالم الكون و
الفساد على انه يجوز ان يعيد الخالق تعالى بحيث لا يعتورها الاستحالة ولا يعتريها
الانحلال قطعا بان يجعل اجزاءها متقاومة في الكيفيات متعادلة بحيث لا يقوى
شيء منها عند التفاعل على احالة الاخر متعانقة متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض
ويبقى هذه النسبة محفوظة فيما بينها ابدا لا يعتريها التغير بالاكل والشرب والحركات
وغير ذلك واعلم ان معظم اللذات الحسية لما كان مقصورا على المساكن والمطاعم
والمناكح حسبما يقضي به الاستقراء وكان ملاك جميع ذلك الدوام والثبات اذ كل
نعمة وان جلت حيث كانت في شرف الزوال ومعرض الاضمحلال فانها منغصة
غير صافية من شوائب الالم بشر المؤمنين بها وبدوامها تكميلا للبهجة والسرور اللهم
وفقنا لمراضيك وثبتنا على ما يؤدي اليها من العقد والعمل ان الله لا يستحيي
ان يضرب مثلا ما بعوضة شروع في تنزيه ساحة التنزيل عن تعلق ريب
خاص اعتراهم من جهة ما وقع فيه من ضرب الامثال وبيان لحكمته وتحقيق
للحق اثر تنزيهها عما اعتراهم من مطلق الريب بالتحدي والقام الحجر افحام كافة
البلغاء من اهل المدر والوبر روى ابو صالح عن ابن عباس رضه ان المنافقين طعنوا
في ضرب الامثال بالنار والظلمات والرعد والبرق وقالوا الله اجل واعلى من ضرب
الامثال وروى عطاء عنه رضه ان هذا الطعن كان من المشركين وروي عنه ايضا انه
لما نزل قوله تعالى يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له الاية وقوله تعالى مثل الذين اتخذوا
من دون الله اولياء الاية قالت اليهود اي قدر للذباب والعنكبوت حتى يضرب الله تعالى
بهما المثل وجعلوا ذلك ذريعة الى انكار كونه من عند الله تعالى مع انه لا يخفى على احد ممن له تمييز انه
ليس مما يتصور فيه التردد فضلا عن النكير بل هو من ادلة كونه خارجا عن طوق

ماء

البشر

البشر نازلا من عند خلاق القوى والقدر كيف لا والتمثيل كما مر ليس الا ابراز المعنى المقصود
في معرض الامر المشهود وتحلية المعقول بحلية المحسوس وتصوير اوابد المعاني بهيئة
المانوس لاستمالة الوهم واستنزاله عن معارضته للعقل واستعصائه عليه في ادراك
الحقايق الخفية وفهم الدقايق الابية كي يتابعه فيما يقتضيه ويشايعه الى ما يرتضيه
ولذلك شاعت الامثال في الكتب الالهية والكلمات النبوية وذاعت في عبارات البلغاء
واشارات الحكماء ومن قضيته وجوب التماثل بين الممثل والممثل به في مناط التمثيل تمثيل
العظيم بالعظيم والحقير بالحقير وقد مثل في الانجيل غل الصدر بالنخالة ومعارضة
السفهاء باثارة الزنابير وجاء في عبارات البلغاء اجمع من ذرة واجرأ من ذباب واسمع
من قراد واضعف من بعوضة الى غير ذلك مما لا يكاد يحصر والحياء تغير النفس وانقباضها
عما يعاب به او يذم عليه يقال حيي الرجل وهو حي واشتقاقه من الحيوة اشتقاق
شظي وحشي ونسي من الشظا والنسا والحشا يقال شظي الفرس ونسي وحشي اذا اعتلت منه تلك
الاعضاء كان من يعتريه الحياء يعتل قوته الحيوانية وتنتقص واستحيى بمعناه خلا انه
يتعدى بنفسه وبحرف الجر يقال استحييته واستحييت منه والاول لا يتعدى الا بحرف
الجر وقد يحذف منه احدى اليائين ومنه قوله لا يستحي منا الملوك ويتقي محارمنا
لا يبوء الدم بالدم وقوله اذا ما استحين الماء يعرض نفسه كرعن بسبت في اناء من الورد
فكما انه اذا اسند اليه سبحانه بطريق الايجاب في مثل قوله صلى الله عليه وسلم ان الله
يستحيي من ذي الشيبة المسلم ان يعذبه وقوله عليه السلام ان الله حيي كريم يستحيي
اذا رفع اليه العبد يديه ان يردهما صفرا حتى يضع فيهما خيرا يراد به الترك الخاص
على طريقة التمثيل حيث مثل في الحديثين الكريمين تركه تعذيب ذي الشيبة وتخييب
العبد من عطائه بترك من يترك ما حياء كذلك اذا نفي عنه تعالى في المواد الخاصة كما في
هذه الاية الشريفة وفي قوله تعالى ان الله لا يستحيي من الحق يراد به سلب ذلك الترك
الخاص المضاهي لترك المستحيي عنه لا سلب وصف الحياء عنه تعالى راسا كما في قولك
ان الله لا يوصف بالحياء لان تخصيص السلب ببعض المواد يوهم كون الايجاب ثابتا
في الجملة فالمراد ههنا عدم ترك ضرب المثل المماثل لترك من يستحيي من ضربه وفيه
رمز الى تعاضد الدواعي الى ضربه وتاخذ البواعث اليه اذ الاستحياء انما يتصور
في الافعال المقبولة للنفس المرضية عندها يجوز ان يكون وروده على طريقة
المشاكلة فانهم كانوا يقولون اما يستحيي رب محمد ان يضرب مثلا بالاشياء المحقرة
كما في قول من قال من مبلغ افناء يعرب كلها اني بنيت الجار قبل المنزل وضرب
المثل استعماله في مضربه وتطبيقه به لا صنعه وانشاؤه في نفسه والا لكان انشاء
الامثال السائرة في مواردها ضربا لها دون استعمالها بعد ذلك في مضاربها
تطبيقا بها كان المضارب قوالب يضرب الامثال على شاكلتها لكن لا بمعنى انها
تنشأ بحسبها بعد ان لم تكن كذلك بمعنى انها تورد منطبقة عليها سواء كان
انشاؤها كعامة الامثال التنزيلية فان مضاربها قوالبها وقبل ذلك كسائر
الامثال السائرة فانها وان كانت مصنوعة من قبل الا ان تطبيقها الى ايرادها
منطبقة على مضاربها انما يحصل عند الضرب واما من ضرب الطين على الجدار
ليلتزق به بجامع الالصاق كان من يستعملها يلصقها بمضاربها ويجعلها ضربة
لازب لا تنفك عنها لشدة تعلقها بها ومحل ان يضرب على تقدير تعديته يستحيي بنفسه
النصب على المفعولية واما على تقدير تعديته بالجار فعند الخليل الخفض باضمار من
وعند سيبويه النصب بافضاء الفعل اليه بعد حذفها ومثلا مفعول ليضرب وما
اسمية ابهامية تزيد ما يقارنه من الاسم المنكر ابهاما وشياعا كما في قولك اعطني
كتابا ما كانه قيل مثلا من الامثال اي مثل كان فهي صفة لما قبلها او حرفية مزيدة
لتقوية النسبة وتوكيدها كما في قوله تعالى فبما رحمة من الله وبعوضة بدل من
مثلا او عطف بيان عند من يجوزه في النكرات او مفعول ليضرب ومثلا حال

تقدمت عليها لكونها نكرة او هما مفعولاه لتضمنه معنى الجعل والتصيير وقرئ بالرفع
على انه خبر مبتدأ محذوف اي هو بعوضة والجملة على تقدير كون ما موصولة صلة
لها محذوفة الصدر كما في قوله تعالى تماما على الذي احسن على قراءة الرفع وعلى تقدير
كونها موصوفة صفة لها كذلك ومحل ما على الوجهين النصب على انه بدل من مثلا او
على انه مفعول ليضرب واما على تقدير كونها ابهامية صفة لمثلا واما على تقدير كونها استفهامية
فهي خبرها كانه لما رد استبعادهم ضرب المثل قيل ما بعوضة واي مانع فيها حتى لا يضرب بها
المثل بل له تعالى ان يمثل بما هو اصغر منها واحقر كجناحها على ما وقع في قوله صلى الله عليه وسلم
لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء والبعوض
فعول من البعض وهو القطع كالبضع والعضب غلب على النوع كالخموش في لغة هذيل من
هذا ح
الخمش وهو الخدش فما فوقها عطف على بعوضة على تقدير نصبها على الوجوه
المذكورة وما موصولة او موصوفة صلتها او صفتها الظرف واما على تقدير رفعها فهو
عطف على ما الاولى على تقدير كونها استفهامية فهو عطف على خبرها اعني بعوضة لا على
نفسها كما قيل والمعنى ما بعوضة فالذي فوقها او فشيء فوقها حتى لا يضرب بها المثل وكذا
على تقدير كونها صفة للنكرة او زايدة وبعوضة خبر للمضمر وذكر البعوضة فما فوقها من بين
افراد المثل انما هو بطريق التمثيل دون التعيين والتخصيص فلا يخل بالشيوع بل يقرره ويؤكده
بطريق الاولوية والمراد بالفوقية اما الزيادة في المعنى الذي اريد بالتمثيل اعني الصغر والحقارة
واما الزيادة في الجسم والجثة لكن لا بالغا ما بلغ بل في الجملة كالذباب والعنكبوت وعلى التقدير
الاول ان يكون ما الثانية خاصة استفهامية انكارية والمعنى ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلا
يجوز
ما بعوضة فاي شيء فوقها في الصغر والحقارة فاذن له تعالى ان يمثل بكل ما يريد ونظيره في احتمال
الامرين ما روي ان رجلا بمنى خر على طنب فسطاط فقالت عايشة رض حين ذكر لها ذلك
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما مسلم يشاك شوكة فما فوقها الا كتب له بها
درجة ومحيت عنه بها خطيئة فانه يحتمل ما يجاوز الشوكة في القلة كنخبة النملة بقوله
عليه السلام ما اصاب المؤمن من مكروه فهو كفارة لخطاياه حتى نخبة النملة وما تجاوزها في الالم
كامثال ما حكي من الخرور فاما الذين امنوا شروع في تفصيل ما يترتب على ضرب المثل من الحكم
اثر تحقيق حقيقة صدوره عنه تعالى والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما يدل عليه ما قبلها
كانه قيل فيضرب بها فاما الذين الخ وتقديم بيان حال المؤمنين على ما حكي من الكفرة مما لا يفتقر
الى بيان السبب وفي تصدير الجملتين باما من احماد امر المؤمنين وذم الكفرة ما لا يخفى
وهو حرف متضمن لمعنى اسم الشرط وفعله بمنزلة مهما يكن من شيء ولذلك يجاب بالفاء
وفايدته توكيد ما صدر به وتفصيل ما في نفس المتكلم من الاقسام فقد يذكر جميعا
وقد يقتصر على واحد منها كما في قوله عز من قائل فاما الذين في قلوبهم زيغ الخ قال
سيبويه اما زيد فذاهب معناه مهما يكن من شيء فهو ذاهب لا محالة وانه منه عزيمة
وكان الاصل دخول الفاء على الجملة لانها الجزاء لكن كرهوا ايلاءها حرف الشرط فادخلوها
الخبر وعوض المبتدأ عن الشرط لفظا والمراد بالموصول فريق المؤمنين المعهودين كما ان المراد
بالموصول الاتي فريق الكفرة لا من يؤمن بضرب المثل ومن يكفر به لاختلال المعنى اي
فاما المؤمنون فيعلمون انه الحق من ربهم كساير ما ورد منه تعالى والحق هو الثابت
الذي يحق ثبوته لا محالة بحيث لا سبيل للعقل الى انكاره لا الثابت مطلقا واللام للدلالة
على انه مشهود له بالحقية وان له حكما ومصالح ومن لابتداء الغاية المجازية وعاملها
محذوف وقع حالا من الضمير المستكن في الحق او من الضمير العايد الى المثل او الى ضربه اي كاينا
وصادرا من ربهم والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم لتشريفهم و
للايذان بان ضرب المثل تربية لهم وارشاد الى ما يوصلهم الى كمالهم اللايق بهم
والجملة سادة مسد مفعولي يعلمون عند الجمهور ومسد مفعوله الاول والثاني محذوف
عند الاخفش اي فيعلمون حقيته ثابتة ولعل الاكتفاء بحكاية علمهم المذكور
عن حكاية اعترافهم بموجبه كما في قوله تعالى والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من

عند ربنا

عند ربنا للاشعار بقوة ما بينهما من التلازم وظهوره المغني عن الذكر واما الذين
كفروا ممن حكيت احوالهم واقوالهم فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلا اوثر
يقولون على لا يعلمون حسبما يقتضيه ظاهر قرينته دلالة على كمال غلوهم في الكفر
وترامي امرهم في العتو فان مجرد عدم العلم بحقيته ليس بمثابة انكارها والاستهزاء
به صريحا تمهيدا لتعداد ما نعي عليهم في تضاعيف الجواب من الضلال والفسق و
نقض العهد وغير ذلك من شنايعهم المترتبة على قولهم المذكور على ان عدم
العلم بحقيته لا يعم جميعهم فان منهم من يعلم بها وانما يقول ما يقول مكابرة
وعنادا او حمله على عدم الاذعان فالقبول الشامل للجهل والعناد تعسف ظاهر هذا
وقد قيل كان من حقه واما الذين كفروا فلا يعلمون ليطابق قرينه ويقابل قسيمه لكن
لما كان قولهم هذا دليلا واضحا على جهلهم عدل اليه على سبيل الكناية ليكون كالبرهان
عليه فتامل وكن على الحق المبين وماذا اما مؤلفة من كلمة استفهام وقعت مبتدأ
خبره بمعنى الذي وصلته ما بعده والعائد محذوف فالاحسن ان يجيء جوابه مرفوعا
منزلة
واما منزلة اسم واحد بمعنى اي شيء فالاحسن في جوابه النصب والارادة نزوع
النفس وميلها الى الفعل بحيث يحملها اليه او القوة التي هي مبدأوه والاول
مع الفعل والثاني قبله وكلاهما مما لا يتصور في حقه تعالى لذلك اختلفوا في ارادته
عز وجل فقيل ارادته تعالى لافعاله كونه غير ساه فيه ولا مكره ولافعال غيره امره
بها فلا يكون المعاصي بارادته تعالى وقيل هي علمه باشتمال الامر على النظام الاكمل والوجه
الاصلح فانه يدعو القادر الى تحصيله والحق انه عبارة عن ترجيح احد المقدورين
على الاخر وتخصيصه بوجه دون وجه او معنى يوجبه وهي اعم من الاختيار فانه ترجيح
مع تفضيل وفي كلمة هذا تحقير للمشار اليه واسترذال ومثلا نصب على التمييز او على الحال كما
في قوله تعالى ناقة الله لكم اية وليس مرادهم بهذه العظيمة استفهام الحكمة في ضرب المثل
ولا القدح في اشتماله على الفائدة مع اعترافهم بصدوره عنه جل وعلا بل غرضهم
التنبيه بادعاء انه من الدناءة بحيث لا يليق بان يتعلق به امر من الامور الداخلة
والحقارة ح
تحت ارادته تعالى على استحالة ان يكون ضرب المثل به من عنده سبحانه فقوله
عز من قائل يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا جواب عن تلك المقالة الباطلة و
رد لها ببيان انه مشتمل على حكمة جليلة وغاية جميلة هي كونه ذريعة الى هداية
المستعدين للهداية واضلال المنهمكين في الغواية ووضع الفعلين موضع الفعل الواقع
في الاستفهام مبالغة في الدلالة على تحققهما فان ارادتهما دون وقوعهما بالفعل
وتجافيا عن نظم الاضلال مع الهداية في سلك الارادة لايهامه تساويهما في
تعلقهما وليس كذلك فان المراد بالذات من ضرب المثل هو التذكر والاهتداء كما ينبئ
عنه قوله تعالى وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ونظايره واما الاضلال فهو امر
عارض مترتب على سوء اختيارهم وايثار صيغة الاستقبال ايذانا بالتجدد والاستمرار
وقيل وضع الفعلان موضع مصدريهما كانه قيل اراد اضلال كثير وهداية كثير
وقدم الاضلال على الهداية مع تقدم حال المهتدين على حال الضالين فيما قبله ليكون
اول ما يقرع اسماعهم من الجواب امرا فظيعا يسوؤهم ويفت في اعضادهم وهو
السر في تخصيص هذه الفايدة بالذكر وقيل هو بيان للجملتين المصدرتين باما
وتسجيل بان العلم بكونه حقا هدى وان الجهل بوجه ايراده والانكار لحسن مورده
ضلال وفسوق وكثرة كل فريق انما هي بالنظر الى انفسهم لا بالقياس الى مقابليهم فلا يقدح
في ذلك قلة اهل الهدى بالنسبة الى اهل الضلال حسبما نطق به قوله تعالى وقليل
من عبادي الشكور ونحو ذلك او باعتبار كثرتهم الذاتية دون قلتهم الاضافية لتكميل
فايدة ضرب المثل وتكثيرها ويجوز ان يراد في الاولين الكثرة من حيث العدد وفي الاخرين
من حيث الفضل والشرف كما في قول من قال ان الكرام كثير في البلاد وان قلوا كما غيرهم
قليل وان كثروا واسناد الاضلال اي خلق الضلال اليه سبحانه مبني على ان جميع

الاشياء مخلوقة له تعالى وان كان افعال العباد من حيث الكسب مستندة اليهم وجعله من
قبيل اسناد الفعل الى سببه لانه بطريق التسبيب بالسبب وقرئ يُضَلّ به كثير ويُهدى به كثيرٌ
على البناء للمفعول وتكريره مع جواز الاكتفاء بالاول لزيادة تقرير السببية و
تأكيدها وما يُضِلّ به اي بالمثل او بضربه الا الفاسقين عطف على ما قبله وتكملة
للجواب والرد وزيادة تعيين لمن اريد اضلالهم ببيان صفاتهم القبيحة المستتبعة
له واشارة الى ان ذلك ليس اضلالا ابتدائيا بل هو تثبيت على ما كانوا عليه من فنون
الضلال وزيادة فيه وقرئ وما يُضَلّ به الا الفاسقون على البناء للمفعول والفسق
في اللغة الخروج يقال فسقت الرطبة عن قشرها والفارة من جحرها اي خرجت قال رؤبة
يذهبن في نجد وغورا غائرا فواسقا عن قصدها جوائرا وفي الشريعة الخروج عن
طاعة الله عز وجل بارتكاب الكبيرة التي من جملتها الاصرار على الصغيرة وله طبقات
ثلاث الاولى التغابي وهو ارتكابها احيانا مستقبحا لها والثانية الانهماك في تعاطيها
والثالثة المثابرة عليها مع جحود قبحها وهذه الطبقة من مراتب الكفر فما لم يبلغها الفاسق
لا يسلب عنه اسم المؤمن لاتصافه بالتصديق الذي عليه يدور الايمان ولقوله تعالى وان
طائفتان من المؤمنين اقتتلوا والمعتزلة لما ذهبوا الى ان الايمان عبارة عن مجموع التصديق
والاقرار والعمل والكفر عن تكذيب الحق وجحوده لم يتسن لهم ادخال الفسق في احدهما فجعلوه
قسما بين قسمي المؤمن والكافر لمشاركته كل واحد منهما في بعض احكامه والمراد
بالفاسقين ههنا العاتون المارِدون في الكفر الخارجون عن حدوده ممن حكى
عنهم ما حكى من انكار كلام الله تعالى والاستهزاء به وتخصيص الاضلال بهم
مترتبا على صفة الفسق وما اجرى عليهم من القبائح للايذان بان ذلك هو الذي
اعدهم للاضلال وادى بهم الى الضلال فان كفرهم وعدولهم عن الحق
واصرارهم على الباطل صرفت وجوه انظارهم عن التدبر في حكمة المثل الى حقارة الممثل
حتى رسخت به جهالتهم وازدادت ضلالتهم فانكروه وقالوا فيه ما قالوا
الذين ينقضون عهد الله صفة للفاسقين للذم وتقرير ما هم عليه
من الفسق والنقض فسخ التركيب من المركبات الحسية كالحبل والغزل ونحوهما
واستعماله في ابطال العهد من حيث استعارة الحبل له لما فيه من ارتباط احد كلامي
المتعاهدين بالآخر فان شفع بالحبل واريد به العهد كان ترشيحا للمجاز وان قرن
بالعهد كان رمزا الى ما هو من روادفه وتنبيها على مكانه وان المذكور قد
استعير له كما يقال شجاع يفترس اقرانه وعالم يغترف منه الناس تنبيها على انه اسد في
شجاعته وبحر في افاضته والعهد الموثق يقال عهد اليه كذا اذا وصاه به ووثقه عليه
والمراد ههنا اما العهد المأخوذ بالعقل وهو الحجة القائمة على عباده الدالة على
وجوده تعالى ووحدته وصدق رسوله عليه السلام وبه اول قوله تعالى واشهدهم
على انفسهم الست بربكم قالوا بلى وهو المعنى الظاهر منه او المأخوذ من جهة الرسل
على الامم بانهم اذا بعث اليهم رسول مصدق بالمعجزات صدقوه واتبعوه ولم يكتموا
امره وذكره في الكتب المتقدمة ولم يخالفوا حكمه كما ينبئ عنه قوله عز وجل واذ
اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ونظائره وقيل
عهود الله تعالى ثلاثة الاول ما اخذه على جميع ذرية آدم عليه السلام بان يقروا على
ربوبيته والثاني ما اخذه على الانبياء عليهم السلام بان يقيموا الدين ولا يتفرقوا
فيه والثالث ما اخذه على العلماء بان يبينوا الحق ولا يكتموه من بعد ميثاقه الميثاق اما
اسم لما يقع به الوثاقة والاحكام واما مصدر بمعنى التوثقة والاحكام كالميعاد بمعنى الوعد
فعلى الاول ان رجع الضمير الى العهد كان المراد بالميثاق ما وثقوه به من القبول والالتزام
وان رجع الى لفظ الجلالة يراد به آياته وكتبه وانذار رسله عليهم السلام والمضاف
محذوف على الوجهين اي من بعد تحقق ميثاقه وعلى الثاني ان رجع الضمير الى العهد
والميثاق مصدر من المبني للفاعل فالمعنى من بعد ان وثقوه بالقبول والالتزام

من بعد ان

٢٠

من بعد ان وثقه الله عز وجل بانزال الكتب وارسال الرسل وان كان مصدرا من المبني للمفعول
فالمعنى من بعد كونه موثقا اما بتوثيقهم اياه بالقبول واما بتوثيقه تعالى اياه بانزال
الكتب وانذار الرسل ويقطعون ما امر الله به ان يوصل يحتمل كل قطيعة لا يرضى
بها الله سبحانه كقطع الرحم وموالاة المؤمنين والتفرقة بين الانبياء عليهم السلام
والكتب في التصديق وترك الجماعات المفروضة وسائر ما فيه رفض خير او تعاطي شر فانه
يقطع ما بين الله تعالى وبين العبد من الوصلة التي هي المقصودة بالذات من كل وصل
وفصل والامر هو القول الطالب للفعل مع العلو وقيل بالاستعلاء وبه سمي الامر
الذي هو واحد الامور تسمية للمفعول بالمصدر فانه مما يؤمر به كما يقال له شأن وهو القصد
والطلب لما انه يقصد ويطلب وكذا يقال له شيء وهو مصدر شاء لما انه اثر للمشيئة ومحل ان يوصل
اما النصب على انه بدل من الموصول او من ضميره والثاني اولى لفظا ومعنى ويفسدون
في الارض بالمنع عن الايمان والاستهزاء بالحق وقطع الوصل التي عليها يدور فلك نظام العالم
وصلاحه اولئك اشارة الى الفاسقين باعتبار اتصافهم بما فصل من الصفات
القبيحة وفيه ايذان بانهم متميزون بها اكمل تميز ومنتظمون بسبب ذلك في سلك الامور
المحسوسة وما فيه من معنى البعد للدلالة على بعد منزلتهم في الفساد هم الخاسرون
الذين خسروا باهمال العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحيوة الابدية واستبدال
الانكار والطعن في الآيات بالايمان بها والتأمل في حقائقها والاقتباس من انوارها
واشتراء النقض بالوفاء والفساد بالصلاح والقطيعة بالصلة والعقاب بالثواب كيف
تكفرون بالله التفات الى خطاب المذكورين مبني على ايراد ما عدد من قبائحهم
السابقة لتزايد السخط الموجب للمشافهة بالتوبيخ والتقريع والاستفهام انكاري بمعنى
انكار الوقوع كما في قوله تعالى كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله الخ بل بمعنى
انكار الواقع واستبعاده والتعجيب منه وفيه من المبالغة ما ليس في توجيه الانكار الى
نفس الكفر بان يقال أتكفرون لان كل موجود يجب ان يكون وجوده على حال من الاحوال
قطعا فاذا انتفى وجوده على الطريق البرهاني وقوله عز وجل وكنتم امواتا الى آخر
الآية حال من ضمير المخاطب في تكفرون مؤكدة للانكار والاستبعاد بما عدد فيها
من الشؤون العظيمة الداعية الى الايمان الرادعة من الكفر من حيث كونها نعمة عامة ومن
حيث دلالتها على قدرة تامة كقوله تعالى وقد خلقكم اطوارا وكيف منصوبة على التشبيه
بالظرف عند سيبويه وبالحال عند الاخفش اي في اي حال او على اي حال تكفرون
به تعالى والحال انكم كنتم امواتا اي اجساما لا حيوة لها عناصر واغذية ونطفا
ومضغا مخلقة وغير مخلقة والاموات جمع ميت كالاقوال جمع قيل واطلاقه على تلك
الاجسام باعتبار عدم الحيوة مطلقا كما في قوله تعالى بلدة ميتا وقوله تعالى وآية لهم
الارض الميتة فاحياكم بنفخ الروح فيكم والفاء للدلالة على التعقيب فان الاحياء حاصل
اثر كونهم امواتا وان توارد عليهم في تلك الحالة اطوار مترتبة بعضها متراخ عن بعض كما اشير
اليه آنفا ثم يميتكم اي عند انقضاء آجالكم وكون الاماتة من دلائل القدرة ظاهر واما
كونها من النعم فلكونها وسيلة الى الحيوة الثانية التي هي الحيوان والنعمة العظمى والتراخي المستفاد
من كلمة ثم بالنسبة الى زمان الاحياء دون زمان الحيوة فان زمان الاماتة غير متراخ عنه
ثم يحييكم بالنشور يوم ينفخ في الصور او للسؤال في القبور واياما كان فهو متراخ
من زمان الاماتة وان كان اثر زمان الموت المستمر ثم اليه ترجعون بعد الحشر لا الى
غيره فيجازيكم باعمالكم ان خيرا فخير وان شرا فشر واليه تنشرون من قبوركم للحساب
وهذه الافعال وان كان بعضها ماضيا وبعضها مستقبلا لا مقارنة منها لما هو حال منه في
الزمان لكن الحال في الحقيقة هو العلم المتعلق بها كانه قيل كيف تكفرون بالله وانتم عالمون
بهذه الاحوال المانعة منه ومآله التعجيب من وقوعه مع تحقق ما ينفيه وانما نظم ما ينكرونه
من الاحياء الاخير والرجع في سلك ما يعترفون به من الاحياء الاول والاماتة تنزيلا
لتمكنهم من العلم لما عاينوه من الدلائل القاطعة منزلة العلم بذلك بالفعل

شان صح

بالحق صح

بالصلاح

يكم

في ازاحة العلل والاعذار والحيوة حقيقة في القوة الحساسة او ما يقتضيها وبها سمي الحيوان
حيوانا مجاز في القوة النامية لكونها من طلايعها وكذا فيما يخص الانسان من العقل و
العلم والايمان من حيث انه كمالها وغايتها والموت بازائها يطلق على ما يقابل كلا من مرتبة
من تلك المراتب قال تعالى قل الله يحييكم ثم يميتكم وقال تعالى اعلموا ان الله يحيي الارض بعد
موتها وقال اومن كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس وعند وصفه
تعالى بها يراد بها صحة اتصافه تعالى بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فينا او معنى قائم
بذاته تعالى مقتض لذلك وقرئ ترجعون بفتح التاء والاول هو الاليق بالمقام هو الذي
خلق لكم ما في الارض جميعا تقرير للانكار وتاكيد له من الحيثيتين المذكورتين غير
سبكه عن سبك ما قبله مع اتحادهما في المقصود ابانة لما بينهما من التفاوت فان ما
يتعلق بذواتهم من الاحياء والاماتة والحشر ادخل في الحث على الايمان والكف عن الكفر
مما يتعلق بمعايشهم وما يجري مجراها وفي جعل الضمير مبتدأ والموصول خبرا من الدلالة
على الجلالة ما لا يخفى وتقديم الظرف على المفعول الصريح لتعجيل المسرة ببيان كونه نافعا
للمخاطبين والتشويق اليه كما سلف اي خلق لاجلكم جميع ما في الارض من الموجودات لتنتفعوا
بها في امور دنياكم بالذات وبالواسطة وامور دينكم بالاستدلال بها على شئون الصانع
تعالى شانه والاستشهاد بكل واحد منها على ما يلايمه من لذات الاخرة والامها وما يعم
جميع ما في الارض لا نفسها الا ان يراد بها جهة السفل كما يراد بالسماء جهة العلو نعم يعم كل
جزء من اجزائها فانه من جملة ما فيها ضرورة وجود الجزء في الكل وجميعا حال من الموصول الثاني
مؤكدة لما فيه من العموم فان كل فرد من افراد ما في الارض بل كل جزء من اجزاء العالم له مدخل
في استمراره على ما هو عليه من النظام اللائق الذي عليه يدور انتظام مصالح الناس اما
من جهة المعاش فظاهر واما من جهة الدين فلما انه ليس في العالم شيء مما يتعلق به
النظر وما لا يتعلق به النظر الا وهو دليل على القادر الحكيم جل جلاله كما مر في تفسير
قوله تعالى رب العالمين وان لم يستدل به احد بالفعل ثم استوى الى السماء اي قصد
اليها بارادته ومشيئته قصدا سويا بلا صارف يلويه ولا عاطف يثنيه من ارادة خلق
شيء اخر في تضاعيف خلقها او غير ذلك ماخوذ من قولهم استوى اليه كالسهم المرسل
وتخصيصه بالذكر ههنا اما لعدم تحققه في خلق السفليات لما روي من تخلل خلق
السموات بين خلق الارض ودحوها عن الحسن رضي الله عنه خلق الله تعالى الارض في موضع
بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان يلتزق بها ثم اصعد الدخان وخلق منه السموات
وامسك الفهر في موضعها وبسط الارض منها وذلك قوله تعالى كانتا رتقا ففتقناهما
واما لاظهار كمال العناية بابداع العلويات وقيل استوى استولى وملك
والاول هو الظاهر وكلمة ثم للايذان بما فيه من المزية والفضل على خلق السفليات
لا للتراخي الزماني فان تقدمه على خلق ما في الارض المتاخر عن دحوها مما لا مرية
فيه لقوله تعالى والارض بعد ذلك دحيها ولما روي عن الحسن والمراد بالسماء اما الاجرام
العلوية فان القصد اليها بالارادة لا يستدعي سابقة الوجود واما جهات
العلو فسويهن اي اتممهن وقومهن وخلقهن ابتداء مصونة عن العوج
والفطور لا انه تعالى سواهن بعد ان لم يكن كذلك ولا يخفى ما في مقارنة التسوية
والاستواء من حسن الموقع وفيه اشارة الى ان لا تغير فيهن بالنمو والذبول كما في
السفليات والضمير على الوجه الاول للسماء فانها في معنى الجنس وقيل هي جمع سماءة
او سماوة وعلى الوجه الثاني مبهم يفسره قوله تعالى سبع سموات كما في قولهم
ربه رجلا وهو على الوجه الاول بدل من الضمير وتاخير ذكر هذا الصنع البديع عن ذكر
خلق ما في الارض مع كونه اقوى منه في الدلالة على كمال القدرة القاهرة كما نبه عليه لما
ان المنافع المنوطة بما في الارض اكثر وتعلق مصالح الناس بذلك اظهر وان كان في ابداع
العلويات ايضا من المنافع الدينية والدنيوية مما لا يحصى هذا ما قالوا وسياتي
في حم السجدة مزيد تحقيق وتفصيل باذن الله تعالى وهو بكل شيء عليم اعتراض

تذييلي

تذييلي مقرر لما قبله من خلق السموات والارض وما فيها على هذا النمط البديع المنطوي
على الحكم الفائقة والمصالح اللائقة فان علمه عز وجل بجميع الاشياء ظاهرها وباطنها
بارزها وكامنها وما يليق بكل واحد منها يستدعي ان يخلق كل ما يخلقه على الوجه الرائق
وقرئ وهو بسكون الهاء تشبيها له بعضد واذ قال ربك بيان لامر اخر من جنس
الامور المتقدمة المؤكدة للانكار والاستبعاد فان خلق ادم عليه السلام وما خصه
به من الكرامات السنية المحكية من اجل النعم الداعية لذريته الى الشكر والايمان الناهية
عن الكفر والعصيان وتقرير لمضمون ما قبله من قوله تعالى خلق لكم ما في الارض جميعا وتوضيح
لكيفية التصرف والانتفاع بما فيها وتلوين الخطاب بتوجيهه الى النبي صلعم خاصة للايذان بان
فحوى الكلام ليس مما يهتدي اليه بادلة العقل كالامور المشاهدة التي نبه عليها الكفرة بطريق
الخطاب بل انما طريقه الوحي الخاص به عليه السلام وفي التعرض لعنوان الربوبية عن التبليغ
الى الكمال مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من الانباء عن تشريفه عليه السلام ما لا يخفى
واذ ظرف موضوع لزمان نسبة ماضية وقع فيه نسبة اخرى مثلها كما ان اذا موضوع
لزمان نسبة مستقبلة تقع فيه اخرى مثلها ولذلك يجب اضافتهما الى الجمل وانتصابه بمضمر صرح
بمثله في قوله عز وجل واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم وقوله تعالى واذكروا اذ جعلكم خلفاء
من بعد عاد وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع انها المقصودة
بالذات للمبالغة في ايجاب ذكرها لما ان ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني
ولان الوقت مشتمل عليها فاذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها كانها مشاهدة عيانا وقيل
ليس انتصابه على المفعولية على تاويل اذكر الحادث فيه بحذف المظروف واقامة الظرف مقامه
واياما كان فهو معطوف على مضمر اخر ينسحب عليه الكلام كانه قيل له عليه السلام غب ما اوحي اليه
ما خوطب به الكفرة من الوحي الناطق بتفاصيل الامور السابقة الزاجرة عن الكفر به تعالى ذكرهم
بذلك واذكر لهم هذه النعمة ليتنبهوا بذلك لبطلان ما هم فيه وينتهوا عنه واما ما قيل
من ان المقدر هو اشكر النعمة في خلق السموات والارض او تدبر ذلك فغير سديد ضرورة
ان مقتضى المقام تذكير المخاطبين بما يوجب الشكر وتنبيههم على ما يقتضيه واين ذلك من
مقامه الجليل صلى الله عليه وسلم وقيل انتصابه بقوله تعالى قالوا وياباه انه يقتضي
ان يكون هو المقصود بالذات دون سائر القصة وقيل بما سبق اليه من قوله تعالى وبشر
الذين امنوا ولا يخفى بعده وقيل بمضمر دل عليه مضمون الاية المتقدمة مثل وبدء
خلقكم اذ قال الخ ولا ريب في انه لا فائدة في تقييد بدء الخلق بذلك الوقت وقيل بخلقكم
او باحياكم مضمرا وفيه ما فيه واذ زائد ويعزى ذلك الى ابي عبيدة ومعمر وقيل انه بمعنى
قد والكلام في قوله عز قائلا للملائكة للتبليغ وتقديم الجار والمجرور في هذا الباب
مطرد لما في المقول من الطول غالبا مع ما فيه من الاهتمام بما قدم والتشويق الى ما
اخر كما مر مرارا والملائكة جمع ملك باعتبار اصله الذي هو ملاك على ان الهمزة مزيدة
كالشمائل في جمع شمال والتاء لتاكيد تانيث الجماعة واشتقاقه من ملك لما فيه من
معنى الشدة والقوة وقيل على انه مقلوب مالك من الالوكة وهي الرسالة اي
موضع الرسالة او مرسل على انه مصدر بمعنى المفعول فانهم وسائط بين الله
تعالى وبين الناس فهم رسله عز وجل او بمنزلة رسله عليهم السلام واختلف العقلاء
في حقيقتهم بعد اتفاقهم على انها ذوات موجودة قائمة بانفسها فذهب اكثر
المتكلمين الى انها اجسام لطيفة قادرة على التشكل باشكال مختلفة مستدلين
بان الرسل كانوا يرونهم كذلك عليهم السلام وذهب الحكماء الى انهم جواهر مجردة
مخالفة للنفوس الناطقة في الحقيقة وانهم اكمل منها قوة واكثر علما جارية منها مجرى
الشمس من الاضواء منقسمة الى قسمين قسم شانهم الاستغراق في معرفة الحق و
التنزه عن الاشتغال بغيره كما نعتهم الله عز وجل بقوله يسبحون الليل والنهار
لا يفترون وهم العليون المقربون وقسم يدبر الامر من السماء الى الارض حسبما
جرى عليه قلم القضاء والقدر وهم المدبرات امرا فمنهم سماوية ومنهم ارضية

وقالت طائفة من النصارى هي النفوس الفاضلة البشرية المفارقة للابدان ونقل في شرح كثير منهم انه عليه السلام قال اطت السماء وحق لها ان تاط ما فيها موضع قدم الا وفيه ملك ساجد او راكع وروي ان بني ادم عشر الجن وهما عشر حيوانات البر والكل عشر الطيور والكل عشر حيوانات البحار وهؤلاء كلهم عشر ملائكة الارض الموكلين وهؤلاء كلهم عشر ملائكة السماء الدنيا وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية وهكذا الى السماء السابعة ثم كل ولئك في مقابلة ملائكة الكرسي نزر قليل ثم جميع هؤلاء عشر ملائكة سرادق واحد من سرادقات العرش التي عددها ستمائة الف طول كل سرادق وعرضه وسمكه اذا قوبلت به السموات والارض وما فيهما وما بينهما لا يكون لها عنده قدر محسوس وما منه من مقدار شبر الا وفيه ملك ساجد وراكع او قائم لهم زجل بالتسبيح والتقديس ثم كل هؤلاء في مقابلة الملائكة الذين يحومون حول العرش كالقطرة في البحر ثم ملائكة اللوح الذين هم اشياع اسرافيل عليه السلام والملائكة الذين هم جنود جبرئيل عليه السلام لا يحصي اجناسهم ولا مدة اعمارهم ولا كيفيات عباداتهم الا بارئهم العليم الخبير على ما قال وما يعلم جنود ربك الا هو وروي انه عليه السلام حين عرج به الى السماء راى ملائكة في موضع بمنزلة شرف يمشي بعضهم تجاه بعض فسال رسول الله صلى الله عليه وسلم جبرئيل الى اين يذهبون فقال جبرئيل عليه السلام لا ادري الا اني اراهم منذ خلقت ولا ارى واحدا منهم قد رايته قبل ذلك ثم سالا واحدا منهم منذ كم خلقت فقال لا ادري غير ان الله عز وجل يخلق في كل اربعمائة الف سنة كوكبا وقد خلق منذ خلقني اربعمائة الف كوكب فسبحانه من اله ما اعظم قدرته وما اوسع ملكوته واختلف في الملائكة الذين قيل لهم ما قيل فقيل هم ملائكة الارض وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه انهم المختارون مع ابليس حين بعثه الله عز وجل لمحاربة الجن حيث كانوا سكان الارض فافسدوا فيها وسفكوا الدماء فقتلوهم الا قليلا قد اخرجوهم من الارض والحقوهم بجزائر البحار وقلل الجبال وسكنوا الارض وخفف الله العبادة واعطى ابليس ملك الارض وملك السماء الدنيا وخزانة الجنة فكان يعبد الله تعالى تارة في الارض وتارة في السماء واخرى في الجنة فاخذه العجب فكان من امره ما كان وقال اكثر الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم انهم كل الملائكة لعموم اللفظ وعدم المخصص وقوله تعالى انى جاعل في الارض خليفة في حيز النصب على انه مقول قال وصيغة الفاعل بمعنى المستقبل ولذلك عملت عمله وفيها ما ليس في صيغة المضارع من الدلالة على انه فاعل ذلك لا محالة وهي من الجعل بمعنى التصيير المتعدي الى المفعولين فقيل اولهما خليفة وثانيهما الظرف المقدم على ما هو مقتضى الصناعة فان مفعولي التصيير في الحقيقة اسم صار وخبره اولهما الاول وثانيهما الثاني وهما مبتدأ وخبر والاصل في الارض خليفة ثم قيل صار في الارض خليفة ثم مصير في الارض خليفة فمعناه بعد اللتيا والتي اني جاعل في الارض خليفة من الخلائق او خليفة بعينه كائنا في الارض فان خبر صار في الحقيقة هو الكون المقدر العامل في الظرف ولا ريب في ان ذلك ليس مما يقتضيه المقام اصلا وانما الذي يقتضيه هو الاخبار بجعل ادم خليفة فيها كما يعرب عنه جواب الملائكة عليهم السلام فاذن قوله تعالى خليفة مفعول ثان والظرف متعلق بجاعل قدم على المفعول الصريح لما مر من التشويق الى ما اخر او بمحذوف وقع حالا مما بعده لكونه نكرة واما المفعول الاول فمحذوف تعويلا على القرينة الدالة عليه كما في قوله عز وجل ولا تؤتوا السفهاء اموالكم التي جعل الله لكم قياما حذف فيه المفعول الاول وهو ضمير الاموال لدلالة الحال عليه وكذا في قوله تعالى ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم حيث حذف فيه المفعول الاول لدلالة يبخلون عليه اي لا يحسبن البخلاء بخلهم هو خيرا لهم ولا ريب في تحقق القرينة ههنا ان حمل على الحذف عند وقوع المحكي فهو واضح لوقوعه في اثناء

ذكره م

ذكره عليه السلام على ما سنفصله كانه اني خالق بشرا من طين وجاعل في الارض خليفة واما ان حمل على انه لم يحذف هناك بل قيل مثلا وجاعل اياه خليفة في الارض لكنه حذف عند الحكاية فالقرينة ما ذكر من جواب الملائكة عليهم السلام قال العلامة الزمخشري في تفسير قوله تعالى واذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من طين ان قلت كيف صح ان يقول لهم بشرا وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قلت وجهه ان يكون قد قال لهم اني خالق خلقا من صفته كيت وكيت ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم انتهى فحيث جاز الاكتفاء عند الحكاية عن ذلك التفصيل بمجرد الاسم من غير قرينة تدل عليه فما ظنك بما نحن فيه ومعه قرينة ظاهرة ويجوز ان يكون من الجعل بمعنى الخلق المتعدي الى مفعول واحد هو خليفة وحال الظرف في التعلق والتقديم كما مر فتح لا يكون ما سيأتي من كلام الملائكة مترتبا عليه بالذات بل بالواسطة فانه روي انه تعالى لما قال لهم اني جاعل في الارض خليفة قالوا ربنا وما يكون ذلك الخليفة قال تعالى يكون له ذرية يفسدون في الارض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا فعند ذلك قالوا ما قالوا والله تعالى اعلم والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه فعيل بمعنى الفاعل والتاء للمبالغة والمراد به اما ادم عليه السلام وبنوه وانما اقتصر عليه استغناء بذكره عن ذكرهم كما يستغنى عن ذكر القبيلة بذكر ابيها كمضر وهاشم ومنه الخلافة في قريش واما من يخلف وخلف يخلف فيعم عليه السلام وغيره من خلفاء ذريته والمراد بالخلافة اما الخلافة من جهته سبحانه في اجراء احكامه وتنفيذ اوامره بين الناس وسياسة الخلق لكن لا لحاجة به تعالى الى ذلك بل لقصور استعداد المستخلف عليهم وعدم لياقتهم بقبول الفيض بالذات فتختص بالخواص من بنيه واما الخلافة ممن كان في الارض قبل ذلك فتعم حينئذ الجميع قالوا استئناف وقع جوابا عما ينساق اليه الاذهان كانه قيل فماذا قالت الملائكة حينئذ فقيل قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها وهو ايضا من الجعل المتعدي الى اثنين فقيل فيهما ما قيل في الاول والظاهر ان الاول كلمة من والثاني محذوف ثقة بما ذكر في الكلام السابق كما حذف الاول ثمة تعويلا على ما ذكر هنا قال قائلهم لا تخلنا على غراتك انا طالما قد وشى بنا الاعداء بحذف المفعول الثاني اي لا تخلنا جازعين على غراتك والمعنى اتجعل فيها من يفسد فيها خليفة والظرف الاول متعلق بتجعل وتقديمه لما مر والثاني بيفسد وفائدته تاكيد الاستبعاد لما ان في استخلاف المفسد في محل افساده من البعد ما ليس في استخلافه في غير هذا وقد جوز كونه من الجعل بمعنى الخلق المتعدي الى مفعول واحد هو كلمة من وانت خبير بان مدار تعجبهم ليس خلق من يفسد في الارض كيف لا وان ما يعقبه من الجملة الحالية الناطقة بدعوى احقيتهم منه يقضي ببطلانه حتما اذ لا صحة لدعوى الاحقية منه بالخلق وهم مخلوقون بل مداره ان يستخلف لعمارة الارض واصلاحها باجراء احكام الله تعالى واوامره او يستخلف مكان المطبوعين على الطاعة من من شان بني نوعه الافساد وسفك الدماء وهو عليه السلام وان كان منزها عن ذلك الا ان استخلافه مستتبع لاستخلاف ذريته التي لا تخلو عنه غالبا وانما اظهروا تعجبهم استكشافا عما خفي عليهم من الحكم التي بنيت على تلك المفاسد والغتها واستخبارا عما يزيح شبهتهم ويرشدهم الى معرفة ما فيه عليه السلام من الفضائل التي جعلته اهلا لذلك كسؤال المتعلم عما ينقدح في ذهنه لا اعتراضا على فعل الله سبحانه ولا تشكيكا في اشتماله على الحكمة والمصلحة اجمالا ولا طعنا فيه عليه السلام ولا في ذريته على وجه الغيبة فان منصبهم اجل من ان يظن بهم امثال ذلك قال تعالى بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون وانما عرفوا ما قالوا اما باخبار من الله تعالى حسبما نقل من قبل او بتلق من اللوح او باستنباط عما ارتكز في عقولهم من اختصاص العصمة بهم او بقياس لاحد الثقلين على الاخر ويسفك الدماء السفك والسفح والسكب والسبك انواع من الصب والاولان مختصان بالدم بل لا يستعمل اولهما الا في المحرم اي بقتل النفوس المحرمة بغير حق والتعبير عنه بسفك الدماء لما انه اقبح انواع القتل وافظعه وقرئ يسفك بضم الفاء ويسفك ويسفك

من سفك وسفك وقرئ يسفك على البناء للمفعول وحذف الراجع الى من موصولة اي يسفك
الدماء فيهم ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك جملة حالية مقررة للتعجب السابق مؤكدة
له على طريقة قول من يجد في خدمة مولاه وهو يأمر به غيره استخدم العصاة وانا مجتهد فيها
كانه قيل اتستخلف من من شأن ذريته الفساد مع وجود من ليس من شأنه ذلك اصلا
والمقصود عرض احقيتهم منهم بالخلافة واستفسار عما رجحهم عليهم مع ما هو متوقع
منهم من الموانع لا العجب والتفاخر فكأنهم شعروا بما فيهم من القوة العقلية وغير ذلك
التي رذيلتها الافراط الفساد في الارض والقوة الغضبية التي رذيلتها الافراط
سفك الدماء فقالوا ما قالوا وذهلوا عما اذا سخرتهما القوة العقلية ومرنتهما على الخير
يحصل بذلك من علو الدرجة ما يقصر عن بلوغ رتبته القوة العقلية عند انفرادها في
افاعيلها كالاحاطة بتفاصيل احوال الجزئيات واستنباط الصناعات واستخراج ما في
الكائنات من القوة الى الفعل وغير ذلك مما نيط به امر الخلافة والتسبيح تنزيه الله تعالى وتبعيده
اعتقادا وقولا وعملا عما لا يليق بجنابه سبحانه من سبح في الارض والماء اذا ذهب فيهما وابعد
ومنه فرس سبوح اي واسع الجري وكذلك تقديسه من قدس في الارض اذا ذهب فيها وابعد
ويقال قدسه اي طهره فان مطهر الشيء مبعده عن الاقذار والباء في بحمدك متعلقة بمحذوف
وقع حالا من الضمير اي ننزهك عن كل ما لا يليق بشأنك ملتبسين بحمدك على ما انعمت به علينا
من فنون النعم التي من جملتها توفيقنا لهذه العبادة فالتسبيح لاظهار صفات الجلال
والحمد لتذكير صفات الانعام واللام في لك اما مزيدة والمعنى نقدسك واما صلة
للفعل كما في سجدت لله واما للبيان كما في سقيا لك فيكون متعلقة بمحذوف اي نقدس
تقديسا لك اي نصفك بما يليق بك من العلو والعزة وننزهك عما لا يليق بك وقيل
المعنى نطهر نفوسنا عن الذنوب لاجلك كأنهم قابلوا الفساد الذي اعظمه الاشراك بالتسبيح
وسفك الدماء الذي هو تلويث النفوس باقبح الجرائم بتطهير النفس عن الآثام لا تمدحا بذلك و
اظهارا للمنة بل بيانا للواقع قال استئناف كما سبق اني اعلم ما لا تعلمون ليس المراد
به بيان انه تعالى يعلم ما لا يعلمونه من الاشياء كائنا ما كان فان ذلك مما لا شبهة لهم فيه
حتى يفتقروا الى التنبيه عليه لا سيما بطريق التوكيد بل بيان ان فيه عليه السلام معاني مستدعية
لاستخلافه اذ هو الذي خفي عليهم وبنوا عليه ما بنوا من التعجب والاستبعاد فما موصولة
كانت او موصوفة عبارة عن تلك المعاني والمعنى اني اعلم ما لا تعلمون من دواعي الخلافة فيه
وانما لم يقتصر على بيان تحققها فيه عليه السلام بان قيل مثلا ان فيه ما يقتضيه من غير
تعرض لاحاطته تعالى به وغفلتهم عنه تفخيما لشأنه وايذانا بابتناء امره تعالى على العلم
الرصين والحكمة المتقنة وصدوره عن الغفلة وقيل معناه اني اعلم من المصالح
في استخلافه ما هو خفي عليكم وان هذا ارشاد للملائكة الى العلم بان افعاله تعالى كلها
حسنة وحكمة وان خفي عليهم وجه الحسن والحكمة وانت خبير بانه مشعر بكونهم غير عالمين
بذلك من قبل ويكون تعجبهم مبنيا على ترددهم في اشتمال هذا الفعل لحكمة
ما وذلك مما لا يليق بشأنهم فانهم عالمون بان ذلك متضمن لحكمة ما ولكنهم مترددون في انها
ماذا هل هو امر راجع الى محض حكم الله عز وجل او الى فضيلة من جهة المستخلف فبين سبحانه
وتعالى لهم اولا على وجه الاجمال والابهام ان فيه فضائل غائبة عنهم ليتشوقوا اليها ثم
ابرز لهم طرفا منها ليعاينوه جهرة ويظهر لهم بديع صنعه وحكمته ويزيح شبهتهم
بالكلية وعلم آدم الاسماء كلها شروع في تفصيل ما جرى بعد الجواب الاجمالي تحقيقا
لمضمونه وتفسيرا لابهامه وهو عطف على بعد خلقه عليه السلام بمحضر منه وهو الانسب
بوقوف الملائكة على احواله عليهم السلام بان قيل اثر نفخ الروح فيه اني جاعل اياه خليفة
فقيل ما قيل كما اشير اليه وايراده عليه السلام باسمه العلمي لزيادة تعيين المراد بالخليفة
ولان ذكره بعنوان الخلافة لا يلائم مقام تمهيد مباديها وهو اسم اعجمي والاقرب ان وزنه
فاعل كشالخ وعازر وعابر وفالخ لا افعل والتصدي لاشتقاقه من الادمة او الادمة
بالفتح بمعنى الاسوة او من اديم الارض بناء على ما روي عنه صلى الله عليه وسلم من انه تعالى قبض

قبضة

قبضة من جميع الارض سهلها وحزنها فخلق منها آدم ولذلك اختلفت الوان ذريته او
من الادم او الادمة بمعنى الالفة تعسف كاشتقاق ادريس من الدرس ويعقوب من العقب
وابليس من الابلاس والاسم باعتبار الاشتقاق ما يكون علامة للشيء ودليلا يرفعه
الى الذهن من الالفاظ والصفات والافعال واستعماله عرفا في اللفظ الموضوع
لمعنى مفردا كان او مركبا مخبرا عنه او خبرا او رابطة واصطلاحا في المفرد الدال على معنى
في نفسه غير مقترن بالزمان والمراد ههنا اما الاول او الثاني وهو مستلزم للاول
اذ العلم بالالفاظ الدالة على المعاني مسبوق بالعلم بها والتعليم حقيقة عبارة عن فعل
يترتب عليه العلم بلا تخلف عنه ولا يحصل ذلك بمجرد افاضة المعلم بل يتوقف على
استعداد المتعلم لقبول الفيض وتلقيه من جهته كما مر في تفسير الهدى فهو السر
في ايثاره على الاعلام والانباء فانهما يتوقفان على سماع الخبر الذي يشترك فيه
البشر والملك وبه يظهر احقيته بالخلافة منهم عليهم السلام لما ان جبلتهم
غير مستعدة للاحاطة بتفاصيل احوال الجزئيات الجسمانية خبرا فمعنى تعليمه تعالى اياه
ان يخلق فيه اذ ذاك بموجب استعداده علما ضروريا تفصيليا باسماء جميع المسميات واحوالها
وخواصها اللائقة بكل منها او يلقي في روعه تفصيلا ان هذا فرس وشأنه كيت وكيت
وذاك بعير وحاله ذيت وذيت الى غير ذلك من احوال الموجودات فيتلقاها عليه السلام
حسبما يقتضيه استعداده ويستدعيه قابليته المتفرعة على فطرته المنطوية على طبائع
متباينة وقوى متخالفة وعناصر متغايرة قال ابن عباس رضه وعكرمة وقتادة ومجاهد
وابن جبير رضه علمه اسماء جميع الاشياء حتى القصعة والقصيعة وحتى الجفنة والمحلب
وانحى منفعة كل شيء الى جنسه وقيل اسماء ما كان وما سيكون الى يوم القيامة وقيل
معنى قوله تعالى وعلم آدم الاسماء خلقه من اجزاء مختلفة وقوى متباينة مستعدا لادراك
انواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والمتخيلات والموهومات والهمه معرفة
ذوات الاشياء واسمائها وخواصها ومعارفها واصول العلم وقوانين الصناعات
وتفاصيل آلاتها وكيفيات استعمالاتها فيكون ما مر من المقاولة قبل عليه السلام قبل
التعليم على ظاهره ولكن هناك جملا مطوية عطف عليها المذكور اي فخلقه فسواه و
نفخ فيه الروح وعلمه الخ ثم عرضهم على الملائكة الضمير للمسميات المدلول عليها
بالاسماء كما في قوله تعالى واشتعل الراس شيبا والتذكير لتغليب العقلاء على غيرهم وقرئ
عرضهن وعرضها اي عرض مسمياتهن او مسمياتها في الحديث انه تعالى عرضهم امثال الذر
ولعله عز وجل عرض عليهم من افراد كل نوع ما يصلح ان يكون انموذجا يتعرف منه احوال
البقية واحكامها فقال انبئوني باسماء هؤلاء تبكيتا لهم واظهارا لعجزهم عن
اقامة ما علقوا به رجاءهم من امر الخلافة فان التصرف والتدبير واقامة المعدلة
بغير وقوف على مراتب الاستعدادات ومقادير الحقوق مما لا يكاد يمكن والانباء اخبار
فيه اعلام ولذلك يجري مجرى كل منهما والمراد ههنا ما خلا عنه وايثاره على الاخبار للايذان
برفعة شأن الاسماء وعظم خطرها فان الانباء انما يطلق على الخبر الخطير والامر العظيم
ان كنتم صادقين اي في زعمكم انكم احقاء بالخلافة ممن استخلفته كما ينبئ
عنه مقالكم والتصديق كما يتطرق الى الكلام باعتبار منطوقه قد يتطرق اليه باعتبار
ما يلزمه من الاخبار فان ادنى مراتب الاستحقاق هو الوقوف على اسمائها في الارض و
اما ما قيل من ان المعنى في زعمكم اني استخلف في الارض مفسدين سفاكين للدماء
فليس مما يقتضيه المقام وان اول بان يقال في زعمكم ان استخلف من غالب امره
الافساد وسفك الدماء من غير ان يكون له مزية من جهة اخرى اذ لا يتعلق له بامرهم
بالانباء وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه قالوا استئناف واقع موقع الجواب
كانه قيل فماذا قالوا حين عجزوا هل خرجوا عن عهدة ما كلفوه ام لا فقيل قالوا سبحانك قيل هو علم للتسبيح لا يكاد يستعمل الا مضافا
وقد جاء غير مضاف على الشذوذ وغير منصرف للتعريف والالف والنون المزيدتين كما في قوله سبحان من علقمة الفاخر واما ما

كغفران بيانه

في قوله سبحانه ثم سبحانًا يعود فقيل صرفه للضرورة وقيل لانه مصدر منكر كغفران لا اسم
مصدر ومعناه على الاول نسبحك عما لا يليق بشانك الاقدس من الامور التي من جملتها
علمنا فعالك من الحكم والمصالح وعنوا بذلك نسبحك تسبيحًا ناشيًا عن كمال طمانينة النفس والايقان
باشتمال استخلاف ادم عليه السلام على الحكم البالغة وعلى الثاني تنزهت عن ذلك
تنزهًا ناشيًا عن ذاتك واراد وابه انهم قالوه عن اذعان لما علموا اجمالًا بانه عليه السلام
يكلف مما كلفوه وانه يقدر على ما قد عجزوا عنه مما يتوقف عليه الخلافة وقوله عز وعلا
لا علم لنا الا ما علمتنا اعتراف منهم بالعجز عما كلفوه اذ معناه لا علم لنا الا ما
علمتناه بحسب قابليتنا من العلوم المناسبة لعالمنا ولا قدرة بنا على ما هو خارج
عن دايرة استعدادنا حتى لو كنا مستعدين لذلك لافضته علينا وما في علمتنا موصولة
حذف من صلتها عايدها او مصدرية ولقد نفوا عنهم العلم بالاسماء على وجه
المبالغة حيث لم يقتصروا على بيان عدمه بان قالوا مثلا لا علم بها بل جعلوه من جملة
ما لا يعلمونه واشعروا بان كونه من تلك الجملة غني عن البيان انك انت العليم
الحكيم الذي لا يخفى عليه خافية وهذا اشارة الى تحقيقهم لقوله تعالى اني اعلم
ما لا تعلمون الحكيم اي المحكم لمصنوعاته الفاعل لها حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة
وهو خبر بعد خبر او صفة للاول وانت ضمير الفصل لا محل له من الاعراب او له محل
منه مشارك لما قبله كما قاله الفراء او لما بعده كما قاله الكسائي وقيل تاكيد للكاف
كما في قولك مررت بك انت وقيل مبتدا خبره ما بعده والجملة خبر ان وتلك الجملة
تعليل لما سبق من قصر علمهم بما علمهم الله تعالى وما يفهم من ذلك من علم
ادم عليه السلام بما خفي عليهم فكانهم قالوا انت العالم بكل المعلومات التي من
جملتها استعداد آدم عليه السلام لما نحن بمعزل من الاستعداد له من العلوم الخفية
المتعلقة بما في الارض من انواع المخلوقات التي يدور عليها فلك الخلافة الحكيم الذي
لا يفعل الا ما يقتضيه الحكمة ومن جملته تعليم ادم عليه السلام ما هو قابل له من
العلوم الكلية والمعارف الجزئية المتعلقة بالاحكام الواردة على ما في الارض وبناء
امر الخلافة عليها قال استيناف كما سلف يا ادم انبئهم اي اعلمهم او تر على
انبئني كما وقع في امر الملائكة عليه السلام مع حصول المراد معه ايضا وهو ظهور
فضل آدم عليهم السلام ابانة لما بين الامرين من التفاوت الجلي وايذانا بان
علمه عليه السلام بها امر واضح غير محتاج الى ما يجري مجرى الامتحان وانه عليه السلام
حقيق بان يعلمها غيره وقرئ بقلب الهمزة ياء وبحذفها ايضا والهاء مكسورة فيهما
باسمائهم التي عجزوا عن علمها واعترفوا بتقاصر هممهم عن بلوغ مرتبتها
فلما انباهم باسمائهم الفاء فصيحة عاطفة للجملة الشرطية على محذوف
يقتضيه المقام وينسحب عليه الكلام للايذان بتقرره وغناه عن الذكر وللاشعار بتحققه
في اسرع ما يكون كما في قوله عز وجل فلما رآه مستقرا عنده بعد قوله سبحانه
انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك واظهار الاسماء في موقع الاضمار لاظهار كمال
العناية بشانها والايذان بانه عليه السلام انباهم بها على وجه التفصيل دون الاجمال
والمعنى فانباهم باسمائهم مفصلة وبين احوال كل منهم وخواصه واحكامه
المتعلقة بالمعاش والمعاد فعلموا ذلك لما راوا انه عليه السلام لم يتلعثم في شيء من
التفاصيل التي ذكرها مع مساعدة ما بين الاسماء والمسميات من المناسبات والمشاكلات
وغير ذلك من القراين الموجبة لصدق مقالاته عليه السلام فلما انباهم بذلك قال
عز وجل تقريرا لما مر من الجواب الاجمالي واستحضارا له الم اقل لكم اني اعلم
غيب السموات والارض لكن لا لتقريره نفسه كما في قوله تعالى الم يعدكم ربكم وعدا حسنا ونظايره
بل لتقرير ما يفيده من تحقق دواعي الخلافة في آدم عليه السلام بظهور مصداقه وايراد ما لا يعلمون
بعنوان الغيب مضافا الى السموات والارض للمبالغة في بيان كمال شمول علمه المحيط وغاية سعته
مع الايذان بان ما ظهر من عجزهم وعلمه عليهم السلام من الامور المتعلقة باهل

السموات

باهل السموات واهل الارض دليل واضح على ان المراد بما لا تعلمون فيما سبق ما اشير اليه هناك
كانه قيل الم اقل لكم اني اعلم فيه من دواعي الخلافة ما لا تعلمونه فيها هو هذا الذي
عاينتموه وقوله تعالى واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون عطف على جملة الم اقل
لكم لا على اعلم اذ هو غير داخل تحت القول وما في الموضعين موصولة حذف عايدها
اي ما تبدونه وما تكتمونه وتغيير الاسلوب للايذان باستمرار كتمهم قيل المراد بما
يبدون قولهم اتجعل الخ وبما يكتمون استبطانهم انهم احقاء بالخلافة وانه تعالى لا يخلق
خلقا افضل منهم روي ان الله تعالى لما خلق ادم رات الملائكة فطرته العجيبة وقالوا ليكن
ما شاء فلن يخلق ربنا خلقا الا كنا اكرم عليه منه وقيل هو ما اسره ابليس في نفسه
من الكبر وترك السجود فاسناد الكتمان الى الجميع من قبيل قولهم بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل
واحد من بينهم قالوا في الاية الكريمة دلالة على شرف الانسان ومزية العلم وفضله على
العبادة وان ذلك هو المناط للخلافة وان التعليم يصح اطلاقه على الله تعالى وان لم يصح
اطلاق المعلم عليه لاختصاصه عادة بمن يحترف به وان اللغات توقيفية اذ الاسماء
تدل على الالفاظ بخصوص او عموم وتعليمها ظاهر في القائها على المتعلم مبينا له معانيها
وذلك يستدعي سابقة وضع وما ذلك الا من الله تعالى وان مفهوم الحكمة زايد على مفهوم العلم
والا لزم التكرار وان علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة والحكماء منعوا ذلك في الطبقة
العليا منهم وحملوا على ذلك قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم وان آدم افضل من هؤلاء
الملائكة عليهم لانه اعلم منهم وانه تعالى يعلم الاشياء قبل حدوثها واذ قلنا
للملائكة عطف على الظرف الاول منصوب بما نصبه من المضمر او بناصب مستقل
معطوف على ناصبه عطف القصة على القصة اي واذكر وقت قولنا لهم وقيل دل
عليه الكلام اي اطاعوا وقت قولنا الخ وقد عرفت ما في امثاله وتخصيص هذا القول بالذكر مع
كون مقتضى الظاهر ايراده على منهاج ما قبله من الاقوال المحكية المتصلة به للايذان بان ما
في حيزه نعمة جليلة مستقلة حقيقة بالذكر والتذكير على حيالها والالتفات الى التكلم لاظهار
الجلالة وتربية المهابة مع ما فيه من تاكيد الاستقلال وكذا اظهار الملائكة في موقع
الاضمار ورد الكلام في اللام وتقديمها مع مجرورها على المفعول كما مر وقرئ بضم تاء الملائكة
اتباعا لضم الجيم في قوله تعالى اسجدوا لادم كما قرئ بكسر الدال في قوله تعالى الحمد لله
اتباعا لكسر اللام وهي لغة ضعيفة والسجود في اللغة الخضوع والتطامن وفي الشرع وضع
الجبهة على الارض على قصد العبادة فقيل امروا بالسجود لله تعالى وانما كان ادم قبلة
لسجودهم تفخيما لشانه او سببا لوجوبه فكانه تعالى لما براه انموذجا للمبدعات كلها
ونسخة منطوية على تعلق العالم الروحاني بالعالم الجسماني وامتزاجهما على نمط بديع
امرهم بالسجود له تعالى لما عاينوا من عظيم قدرته فاللام فيه كما في قول حسان رضي الله عنه اليس
اول من صلى لقبلتكم واعرف الناس بالقرآن والسنن او في قوله تعالى اقم الصلوة لدلوك
الشمس والاول هو الاظهر وقوله عز وجل فسجدوا عطف على قلنا والفاء لافادة
مسارعتهم الى الامتثال وعدم تلعثمهم في ذلك روي عن وهب ان اول من سجد
جبريل ثم ميكائيل ثم اسرافيل ثم عزرائيل ثم ساير الملائكة عليهم السلام وقوله
تعالى الا ابليس استثناء متصل لما انه كان جنيا مفردا مغمورا بالوف من الملائكة
متصفا بصفاتهم فغلبوا عليه في فسجدوا ثم استثني استثناء واحد منهم او لان من
الملائكة جنسا يتوالدون يقال لهم الجن كما روي عن ابن عباس رضي الله عنه وهو منهم او لان
الجن كانوا ايضا مامورين بالسجود له لكن استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم ومنقطع
وهو اسم اعجمي ولذلك لم ينصرف ومن جعله مشتقا من الابلاس وهو الياس قال انه شبه
بالعجمة حيث لم يسم به احد فكان كالاسم الاعجمي واعلم ان الذي يقتضيه هذه الاية
الكريمة والتي في سورة الاعراف من قوله تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم الاية
ان سجود الملائكة انما يترتب على الامر التنجيزي الوارد بعد خلقه وتسويته ونفخ
الروح فيه البتة قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الاية والتي في سورة

بني اسرائيل وسورة الكهف وسورة طه من قوله تعالى كما يلوح به حكاية امتثالهم بعبارة السجود دون الوقوع الذي به ورد الامر التعليقي وكذا ما في سورة الحجر من قوله عز وعلا واذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم اجمعون وما في سورة ص من قوله تعالى اذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من طين الى آخر الآية يستدعيان بظاهرهما ترتبه على ما فيهما من الامر التعليقي من غير ان يتوسط بينهما شيء غير ما يفصح عنه الفاء الفصيحة من الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه عليه السلام وقد روي عن وهب انه كان السجود كما نفخ فيه الروح بلا تأخير وتاويل الآيات السابقة بحمل ما فيها من الامر على حكاية الامر التعليقي من غير ان يتوسط بينهما شيء غير ما يفصح عنه الفاء والاعتذار بحمل التراخي على الرتبي او التراخي في الاخبار بعد تحقق المعلق به اجمالا فانه حينئذ يكون في حكم التنجيز يأباه ما في سورة الاعراف من كلمة ثم المنادية بتأخر ورود الامر عن التصوير المتاخر عن الخلق المتاخر عن الامر التعليقي والاعتذار بحمل التراخي على الرتبي او التراخي في الاخبار او بان الامر التعليقي قبل تحقق المعلق به لما كان في عدم ايجاب المأمور به بمنزلة العدم جعل كانه انما حدث بعد تحققه فحكي على صورة التنجيز يؤدي بعد اللتيا والتي الى ان ما جرى بينه وبينهم في شأن الخلافة وما قالوا فيه وما سمعوا انما جرى بعد السجود المسبوق بمعرفة جلالة منزلته عليه السلام وخروج ابليس من البين باللعن المؤبد لعناده وبعد مشاهدتهم لذلك كله عيانا وهل هو الا خرق لقضية العقل والنقل والالتجاء في التفصي عنه الى تاويل نفخ الروح بحمله على ما يعم افاضة ما به حياة النفوس التي من جملتها تعليم الاسماء تعسف يتبنى عن ضيق المجال والذي يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظر الانيق بعد التصفح في مستودع الكتاب المكنون والتفحص عما فيه من السر المخزون ان سجودهم له عليه السلام انما ترتب على الامر التنجيزي المتفرع على ظهور فضله المبني على المحاورة المسبوقة بالاخبار بخلافته المنتظم جميع ذلك في سلك ما ينطبق به الامر التعليقي من التسوية ونفخ الروح اذ ليس من قضية وجوب السجود عقيب نفخ فيه فان الفاء الجزائية ليست بنص في وجوب وقوع مضمون الجزاء عقيب وجود الشرط من غير تراخ للقطع بعدم وجوب السعي عقيب النداء لقوله تعالى اذا نودي للصلوة من يوم الجمعة فاسعوا الآية وبعدم وجوب اقامة الصلوة عقيب الاطمينان لقوله تعالى فاذا اطمأننتم فاقيموا الصلوة بل انما الوجوب عند دخول الوقت كيف لا والحكمة الداعية اليهما ورد فيما نحن فيه من الامر التعليقي انما هي حمل الملائكة عليهم السلام على التأمل في شأنه عليه السلام ليتدبروا في احواله طرا ويحيطوا بما لديه خبرا ويستفهموا ما عسى يشتبه عليهم في امره عليه السلام لابتنائه على حكم ابية واسرار خفية طويت على علومهم ويقفوا على جلية الحال قبل ورود الامر التنجيزي وتحتم الامتثال فقد قالوا بحسب ذلك ما قالوا وعاينوا ما عاينوا وعدم نظم الامر التنجيزي في سلك الامور المذكورة في السورتين عند الحكاية لا يستلزم عدم انتظامه فيه عند وقوع المحكي كما ان عدم ذكر الامر التعليقي عند حكاية الامر التنجيزي في السور الكريمة المذكورة لا يوجب عدم مسبوقيته به فان حكاية كلام واحد على اساليب مختلفة حسبما يقتضيه المقام ويستدعيه حسن الانتظام ليست بعزيزة في الكتاب العزيز وناهيك بما نقل في توجيه قوله تعالى بشرا مع عدم سبق معرفة الملائكة بذلك حيث صير اليه مع انه لم يرد به نقل فما ظنك بما قد وقع التصريح به في مواضع عديدة فلعله قد القي اليهم ابتداء جميع ما يتوقف عليه الامر التنجيزي اجمالا بان قيل مثلا اني خالق بشرا من كذا وكذا وجاعل اياه خليفة في الارض فاذا سويته ونفخت فيه من روحي وتبين لكم شأنه فقعوا له ساجدين فخلقه فسواه ونفخ فيه الروح فقالوا عند ذلك ما قالوا او القي اليهم خبر الخلافة بعد تحقق الشرائط المعدودة بان قيل اثر نفخ الروح فيه اني جاعل هذا خليفة في الارض فهناك ذكروا في حقه عليه السلام ما ذكروا فايده الله عز وعلا بتعليم الاسماء فشاهدوا منه ما شاهدوا فعند ذلك ورد الامر التنجيزي اعتناء بشأن المأمور به وتعيينا لوقته وقد حكى بعض الامور في بعض المواطن وبعضها في بعض اكتفاء بما ذكر في موطن عما

ترك

ترك في موطن آخر والذي يحسم مادة الاشتباه ان ما في سورة ص من قوله تعالى اذ قال ربك للملائكة الخ بدل من قوله تعالى اذ يختصمون فيما قبله من قوله تعالى ما كان لي من علم بالملإ الاعلى اذ يختصمون اي بكلامهم عند اختصامهم والمراد بالملإ الاعلى الملائكة وآدم عليه السلام وعناد ابليس وما تبعه من لعنه واخراجه من بين الملائكة وما جرى بعده من الافعال والاقوال اذ ليس تمام الاختصام بعد سجود الملائكة ومكابرة ابليس المستتبعة لطرده من بينهم لما عرفت من انه احد المختصمين كما انه ليس قبل الخلق ضرورة استحالة الانباء بالاسماء فهو اذن بعد نفخ الروح وقبل السجود حتما باحد الطريقين والله سبحانه اعلم بحقيقة الامر ابى واستكبر استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء وانه لم يكن للتردد او للتأمل والاباء الامتناع بالاختيار والتكبر ان يرى نفسه اكبر من غيره والاستكبار طلب ذلك بالتشبع اي امتنع عما امر به واستكبر من ان يعظمه او يتخذه وصلة في عبادة ربه وتقديم الاباء على الاستكبار مع كونه مسببا عنه لظهوره ووضوح اثره واقتصر في سورة ص على ذكر الاستكبار اكتفاء به وفي سورة الحجر على ذكر الاباء حيث قيل ابى ان يكون مع الساجدين وكان من الكافرين اي في علم الله تعالى او كان اصله من كفرة الجن فلذلك ارتكب ما ارتكبه على ما افصح عنه قوله تعالى كان من الجن ففسق عن امر ربه فالجملة اعتراضية مقررة لما سبق من الاباء والاستكبار او صار منهم باستقباح امره تعالى اياه بالسجود لآدم عليه السلام زعما منه انه افضل منه والافضل لا يحسن ان يؤمر بالخضوع للمفضول كما يفصح عنه قوله انا خير منه حين قيل ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي استكبرت ام كنت من العالين لا بترك الواجب وحده فالجملة معطوفة على ما قبلها وايثار الواو على الفاء للدلالة على ان محض الاباء كفر لا انهما سببان له كما يفيده الفاء وقلنا شروع في حكاية ما جرى بينه تعالى وبين آدم عليه السلام بعد تمام ما جرى بينه تعالى وبين الملائكة من الاقوال والافعال وقد تركت حكاية توبيخ ابليس وجوابه ولعنه واستنظاره وانظاره اجتزاء بما فصل في سائر السور الكريمة وهو عطف على قلنا للملائكة ولا يقدح في ذلك اختلاف وقتيهما فان المراد بالزمان المدلول عليه بكلمة اذ زمان ممتد واسع للقولين وقيل هو عطف على اذ قلنا باضمار اذ وهذا تذكير لنعمة اخرى موجبة للشكر مانعة من الكفر وتصدير الكلام بالنداء في قوله تعالى يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة للتنبيه على الاهتمام بتلقي المأمور به وتخصيص اصل الخطاب به عليه السلام للايذان باصالته في مباشرة المأمور به واسكن من السكنى وهو الاقامة والاستقرار دون السكون الذي هو ضد الحركة وانت ضمير اكد به المستكن ليصح العطف عليه واختلف في وقت خلق زوجه وذكر السدي عن ابن مسعود رضي الله عنه وابن عباس رضي الله عنهما وناس من الصحابة رضي الله عنهم ان الله تعالى لما اخرج ابليس من الجنة واسكنها آدم بقي فيها وحده وما كان معه من يستأنس به فالقى الله تعالى النوم ثم اخذ من ضلعه من جانبه الايسر ووضع مكانه لحما وخلق حواء منه فلما استيقظ وجدها عند رأسه قاعدة فسألها ما انت قالت امرأة قال ولم خلقت قالت لتسكن الي فقالت الملائكة تجربة لعلمه من هذه قال امرأة قالوا لم سميت مرأة قال لانها من المرء اخذت فقالوا ما اسمها قال حواء قالوا لم سميت حواء قال لانها خلقت من شيء حي وروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال بعث الله جندا من الملائكة فحملوا آدم وحواء على سرير من ذهب كما يحمل الملوك ولباسهما النور حتى ادخلوهما الجنة وهذا كما ترى يدل على خلقها قبل دخول الجنة والمراد بها دار الثواب لانها المعهودة وقيل هي جنة بارض فلسطين او بين فارس وكرمان خلقها الله تعالى امتحانا لآدم عليه السلام وحمل الاهباط على النقل منها الى ارض الهند كما في قوله تعالى اهبطوا مصرا لما ان خلقه عليه السلام كان في الارض بلا خلاف ولم يذكر في هذه القصة رفعه الى السماء ولو وقع ذلك لكان اولى بالذكر

والتذكير لما انه من اعظم النعم ولانها لو كانت دار الخلد لما دخلها ابليس وقيل انها كانت في السماء السابعة بدليل اهبطوا ثم ان الاهباط الاول كان منها الي السماء الدنيا والثاني منها الي الارض وقيل الكل ممكن والادلة النقلية متعارضة فوجب التوقف وترك القطع وكلا منها اي من ثمارها وانما وجه الخطاب اليهما تعميما للتشريف والترفيه ومبالغة في ازالة العلل والاعذار وايذانا بتساويهما في مباشرة المامور به فان حوا اسوة لادم في الاكل بخلاف السكنى فانها تابعة له فيه رغدا صفة للمصدر المؤكد اي اكلا واسعا رافها حيث شئتما اي اي مكان اردتما منها وهذا كما ترى اطلاق كلي حيث ابيح لهما الاكل منها على وجه التوسعة البالغة المزيحة للعلل ولم يحظر عليهما بعض الاكل ولا بعض المواضع الجامعة للماكولات حتى لا يبقى لهما عذر في تناول ما منعا منه بقوله تعالى ولا تقربا بفتح الراء من قربت الشئ بالكسر اقربه بالفتح اذا تلبست به وتعرضت له قال الجوهري قرب بالضم يقرب قربا اي دنا وقربته بالكسر قربانا دنوت هذه الشجرة نصب على انه بدل من اسم الاشارة او نعت له بتاويلها بمشتق اي هذه الحاضرة من الشجرة اي لا تاكلا منها وانما علق النهي بالقربان منها للمبالغة في تحريم الاكل ووجوب الاجتناب عنه والمراد بها الحنطة او العنبة وقيل هي شجرة من اكل منها احدث والاولى عدم تعيينها من غير قاطع وقرئ هذي بالياء وبكسر شين الشجرة وتاء تقربا وقرئ الشيرة بكسر الشين وفتح الياء فتكونا من الظالمين مجزوم على انه معطوف على تقربا او منصوب على انه جواب للنهي واياما كان فالقرب اي الاكل منها سبب لكونهما من الظالمين اي الذين ظلموا انفسهم بارتكاب المعصية او نقصوا حظوظهم بمباشرة ما يخل بالكرامة والنعيم او تعدوا حدود الله تعالى فازلهما الشيطان عنها اي اصدر زلتهما وحملهما على الزلة بسببها ونظيره عن هذه ما في قوله تعالى وما فعلته عن امري او ازلهما عن الجنة بمعنى اذهبهما وابعدهما عنها ذل عني كذا اذا ذهب عنك ويعضده قراءة ازالهما وهما متقاربان في المعنى فان الازلال اي الازلاق يقتضي زوال الزائل عن موضعه البتة وازلاله قوله لهما هل ادلكم على شجرة الخلد وملك لا يبلى وقوله ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين ومقاسمته لهما اني لكما لمن الناصحين وهذه الايات مشعرة بانه عليه السلام لم يؤمر بسكنى الجنة على وجه الخلود بل على وجه التكرمة والتشريف لما قلد من خلافة الارض الى حين البعث اليها واختلف في كيفية توصله اليها بعد ما قيل له اخرج منها فانك رجيم فقيل انه انما منع من الدخول على وجه التكرمة كما تدخلها الملائكة ولم يمنع من الدخول للوسوسة ابتلاء لادم وحواء وقيل قام عند الباب فناداهما وقيل تمثل بصورة دابة فدخل ولم يعرفه الخزنة وقيل دخل في فم الحية فدخلت معها وقيل ارسل بعض اتباعه فازلهما والعلم عند الله سبحانه فاخرجهما مما كانا فيه اي من الجنة ان كان ضمير عنها للشجرة والتعبير عنها بذلك للايذان بفخامتها وجلالتها وملابستهما له اي من المكان العظيم الذي كانا مستقرين فيه او من الكرامة والنعيم ان كان الضمير للجنة وقلنا اهبطوا الخطاب لادم وحواء بدليل قوله تعالى قال اهبطا منها جميعا وجمع الضمير لانهما اصل الجنس فكانهما الجنس كلهم وقيل لهما وللحية وابليس على انه اخرج منها ثانيا بعد ما كان يدخلها للوسوسة او يدخلها مسارقة او اهبط من السماء وقرئ بضم الباء بعضكم لبعض عدو حال استغني فيها عن الواو بالضمير اي متعادين يبغي بعضكم على بعض بتضليله او استئناف لا محل له من الاعراب وافراد العدو اما للنظر الى لفظ البعض واما لان وزانه وزان المصدر كالقبول ولكم في الارض التي هي محل الاهباط والظرف متعلق بما تعلق به الخبر اعني لكم من الاستقرار مستقر اي استقرار او موضع استقرار ومتاع اي تمتع بالعيش وانتفاع به الى حين هو حين الموت على ان المغيا تمتع كل فرد من المخاطبين

او القيمة

ظلمهم صح

او القيمة على انه تمتع الجنس في ضمن بعض الافراد والجملة كما قبلها في كونها حالا اي مستحقين للاستقرار والتمتع واستئنافا فتلقى آدم من ربه كلمات اي استقبلها بالاخذ والقبول والعمل بها حين علمها ووفق لها وقرئ آدم ورفع كلمات دلالة على انها استقبلته وبلغته وهي قوله تعالى ربنا ظلمنا انفسنا الاية وقيل سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك لا اله الا انت ظلمت نفسي فاغفر لي انه لا يغفر الذنوب الا انت وعن ابن عباس رضي الله عنه قال يا رب الم تخلقني بيدك قال بلى قال يا رب الم تنفخ في من روحك قال بلى قال يا رب الم تسبق رحمتك غضبك قال بلى قال الم تسكني جنتك قال بلى قال يا رب ان تبت واصلحت اراجعي انت الى الجنة قال نعم والفاء للدلالة على ان التوبة حصلت عقيب الامر بالهبوط قبل تحقق المامور به والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة اليه عليه السلام للتشريف والايذان بعليته لالقاء الكلمات المدلول عليه بتلقيها فتاب عليه اي رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة والفاء للدلالة على ترتبه على تلقي الكلمات المتضمن لمعنى التوبة التي هي عبارة عن الاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على عدم العود اليه واكتفي بذكر شان آدم عليه السلام لان حوا تبع له في الحكم ولذلك طوي ذكر النساء في اكثر مواقع الكتاب والسنة انه هو التواب اي الرجاع على عباده بالمغفرة او الذي يكثر اعانتهم على التوبة واصل التوب الرجوع واذا وصف به العبد كان رجوعا عن المعصية واذا وصف به الباري عز وعلا اريد به الرجوع عن العقاب الى المغفرة الرحيم المبالغ في الرحمة وفي الجمع بين الوصفين وعد بليغ للتائب بالاحسان مع العفو والغفران والجملة تعليل لقوله تعالى فتاب عليه قولـه قلنا استئناف مبني على سؤال ينسحب عليه الكلام كانه قيل فماذا وقع بعد قبول توبته فقيل قلنا اهبطوا منها جميعا كرر الامر بالهبوط ايذانا بتحتم مقتضاه وتحققه لا محالة ودفعا لما عسى يقع في امنيته عليه السلام من استتباع قبول التوبة للعفو عن ذلك واظهار النوع رافة به عليه السلام لما بين الامرين من الفرق النيركيف لا والاول مشوب بضرب سخط مذيل ببيان ان مهبطهم دار بلية وتعاد لا يخلدون فيها والثاني منها الى الارض والتعرض مقرون بوعد ايتاء الهدى المؤدي الى النجاة والنجاح واما ما فيه من وعيد العقاب فليس بمقصود من التكليف قصدا اوليا بل انما هو دائر على سوء اختيار المكلفين قيل وفيه تنبيه على ان الحازم يكفيه في الردع عن مخالفة حكم الله تعالى مخافة الاهباط المقترن باحد هذين الامرين فكيف بالمقترن بهما فتامل وقيل الاول من الجنة الى السماء الدنيا والثاني منها الى الارض ويأباه التعرض لاستقرارهم في الارض في الاول ورجوع الضمير الى الجنة في الثاني وجميعا حال في اللفظ وتاكيد في المعنى كانه قيل اهبطوا انتم اجمعون ولذلك لا يستدعي الاجتماع على الهبوط في زمان واحد كما في قولك جاؤا جميعا بخلاف قولك جاؤا معا فاما ياتينكم مني هدى الفاء لترتيب ما بعدها على الهبوط المفهوم من الامر به واما مركبة من ان الشرطية وما المزيدة المؤكدة لمعناها والفعل في محل الجزم بالشرط لانه مبني لاتصاله بنون التاكيد وقيل معرب مطلقا مبني مطلقا والصحيح التفصيل ان باشرته النون بني والا اعرب نحو هل يقومان وتقديم الظرف على الفاعل لما مر غير مرة والمعنى ان ياتينكم مني هدى برسول ابعثه اليكم وكتاب انزله عليكم وجواب الشرط قوله تعالى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون كما في قولك ان جئتني فان قدرت احسنت اليك وايراد كلمة الشك مع تحقق الاتيان لا محالة للايذان بان الايمان بالله والتوحيد لا يشترط فيه بعثة الرسل وانزال الكتب بل يكفي في وجوبه افاضة العقل ونصب الادلة الافاقية والانفسية والتمكين من النظر والاستدلال او للجري على سنن العظماء في ايراد عسى ولعل في مواقع القطع والجزم والمعنى ان من تبع هداي منكم فلا خوف عليهم في الدارين من لحوق مكروه ولا هم يحزنون من فوات مطلوب اي لا يعتريهم ما يوجب ذلك لا انه يعتريهم ذلك لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ولا انه

منصب صح

القطع صح

لايعتريهم نفس الخوف والحزن اصلاً بل يستمرون على السرور والنشاط كيف لا واستشعار
الخوف والخشية استعظامًا لجلال الله سبحانه وهيبته واستصغارًا للجد والسعي
في اقامة حقوق العبودية من خصايص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما
لابيان دوام انتفا... دوامهما كما يتوهم من كون الخبر في الجملة الثانية مضارعًا
لما تقرر في موضعه ان النفي وان دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب
المقام واظهار الهدى مضافا الى ضمير الجلالة لتعظيمه وتاكيد وجوب اتباعه ولان
المراد بالثاني ماهو اعم من الهدايات التشريعية وما ذكر من افاضة العقل ونصب الادلة
الافاقية والانفسية كما قيل وقرئ هديّ على لغة هذيل ولاخوف بالفتح والذين كفروا و
كذبوا باياتنا عطف على من تبع الخ قسيم له كانه قيل ومن لم يتبعه وانما اوثر عليه
ماذكر تفظيعًا لحال الضلالة واظهارًا لكمال قبحها وايراد الموصول بصيغة الجمع للاشعار
بكثرة الكفرة والجمع بين الكفر والتكذيب للايذان بتنوع الهدى الى ما ذكر من النوعين و
ايراد نون العظمة لتربية المهابة وادخال الروعة واضافة الايات اليها لاظهار كمال قبح
التكذيب بها اي والذين كفروا برسلنا المرسلة اليهم وكذبوا باياتنا المنزلة عليهم وقيل المعنى كفروا بالله
وكذبوا باياته التي انزلها على الانبياء او اظهرها بايديهم من المعجزات وقيل كفروا بالايات
جنانا وكذبوا بها لسانا فيكون كلا الفعلين متوجها الى الجار والمجرور والاية في الاصل العلامة
الظاهرة قال النابغة توهمت ايات لها فعرفتها لستة اعوام وذا العام سابع وتقال
للمصنوعات من حيث دلالتها على الصانع تعالى وعلمه وقدرته ولكل طايفة من كلمات
القران المتميزة عن غيرها بفصل لانها علامة لانفصال ما قبلها مما بعدها وقيل لانها
تجمع كلمات منه فيكون من قولهم خرج بنو فلان بايتهم اي بجماعتهم قال خرجنا
من البيتين لاحي مثلنا باياتنا نزجي النعاج المطافلا واشتقاقها من اي لانها تبين ايا من اي
او من اوى اليه اي رجع واصلها اوية او اية فابدلت عينها الفا على غير قياس او
اوية او ايية كرمكة فاعلت او ائية كقايلة فحذفت الهمزة تخفيفا اولئك اشارة
الى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة من الكفر والتكذيب وفيه اشعار بتميزهم
بذلك الوصف تميزا مصححا للاشارة الحسية وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد
منزلتهم فيه وهو مبتداء وقوله عز وجل اصحاب النار اي ملازموها وملابسوها
بحيث لايفارقونها خبره والجملة خبر للموصول او اسم الاشارة بدل من الموصول او
عطف بيان له واصحاب النار خبر له وقوله تعالى هم فيها خالدون في حيز النصب
على الحالية لورود التصريح به في قوله تعالى اصحاب النار خالدين فيها وقد جوز كونه
حالا من النار لاشتماله على ضميرها والعامل معنى الاضافة او اللام المقدرة او في
محل الرفع على انه خبر اخر لاولئك على راي من جوز وقوع الجملة خبرا ثانيا وفيها
متعلق بخالدون والخلود في الاصل المكث الطويل وقد انعقد الاجماع على ان
المراد به الدوام يابني اسرائيل تلوين الخطاب وتوجيه له الى طايفة خاصة من
الكفرة المعاصرين للنبي عليه السلام لتذكيرهم بفنون النعم الفايضة عليهم
بعد التوجيه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وامره بتذكير كلهم بالنعمة العامة
لبني ادم قاطبة بقوله تعالى واذ قال ربك الخ واذ قلنا للملائكة الى اخره لان المعنى كما
اشير اليه بلغهم كلامي واذكر لهم اذ جعلنا اباهم خليفة في الارض ومسجودا للملائكة
عليهم السلام وشرفناه بتعليم الاسماء وقبلنا توبته والابن من البناء لانه مبنى
ابيه ولذلك ينسب المصنوع الى صانعه فيقال ابو الحرب وبنت فكر واسرائيل لقب
يعقوب عليه السلام ومعناه بالعبرية صفوة الله وقيل عبد الله وقرئ اسرائل
بحذف الياء واسرال بحذفهما واسرايل بقلب الهمزة ياء واسرائل بهمزة مفتوحة
واسرئل بهمزة مكسورة بين الراء واللام وتخصيص هذه الطائفة بالذكر والتذكير
لما انهم اوفر الناس نعمة واكثرهم كفرا بها اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم
بالتفكر فيها والقيام بشكرها وفيه اشعار بانهم قد نسوها بالكلية ولم يخطروها

بالبال لا انهم اخلوا بشكرها فقط واضافة النعمة الى ضمير الجلالة لتشريفها وايجاب تخصيص
شكرها به تعالى وتقييد النعمة بهم لما ان الانسان مجبول على حب النعمة فاذا نظر
الى ما فاض عليه من النعم حمله ذلك على الرضا والشكر قيل اريد بها ما انعم
به على ابائهم من النعم التي سيجيء تفصيلها وعليهم من فنون النعم التي اجلها ادراك
عصر النبي صلى الله عليه وسلم وقرئ اذكروا من الافتعال ونعمتي باسكان الياء
واسقاطها في الدرج في مذهب من لا يحرك الياء المكسور ما قبلها واوفوا بعهدي
بالايمان والطاعة اوف بعهدكم بحسن الاثابة والعهد يضاف الى كل واحد
ممن يتولى طرفيه ولعل الاول مضاف الى الفاعل والثاني الى المفعول فانه تعالى عهد
اليهم بالايمان والعمل الصالح بنصب الدلايل وارسال الرسل وانزال الكتب ووعد
لهم بالثواب على حسناتهم وللوفاء بهما عرض عريض فاول مراتبه مناهو الاتيان بكلمتي
الشهادة ومن الله تعالى حقن الدماء والاموال واخرها منا الاستغراق في بحر التوحيد
بحيث نغفل عن انفسنا فضلا عن غيرنا ومن الله تعالى الفوز باللقاء الدايم واما ما
روي عن ابن عباس رضي الله عنه اوفوا بعهدي في اتباع محمد عليه السلام اوف بعهدكم
في رفع الاصار والاغلال عن عنقه اوفوا باداء الفرايض وترك الكباير اوف بالمغفرة
والثواب او اوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم اوف بالكرامة والنعيم المقيم
فبالنظر الى الوسايط وقيل كلاهما مضاف الى المفعول والمعنى اوفوا بما عاهدتموني
من الايمان والتزام الطاعة اوف بما عاهدتكم من حسن الاثابة وتفصيل العهدين
قوله تعالى ولقد اخذ الله ميثاق بني اسرائيل الى قوله ولادخلنكم جنات الخ وقرئ
اوف بالتشديد للمبالغة والتاكيد واياي فارهبون فيما تأتون وما تذرون
خصوصا في نقض العهد وهو اكد في افادة التخصيص من اياك نعبد لما فيه من التقديم
من تكرير المفعول والفاء الجزائية الدالة على تضمن الكلام معنى الشرط كانه قيل
ان كنتم راهبين شيئا فارهبوني والرهبة خوف معه تحرز والاية متضمنة للوعد
والوعيد دالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد وان المؤمن ينبغي ان لا يخاف
الا الله تعالى وامنوا بما انزلت افراد الايمان بالقران بالامر به لما انه العمدة القصوى
في شان الوفاء بالعهد مصدقا لما معكم من التورية والتعبير عنها بذلك للايذان
بعلمهم بتصديقه لها فان المعية مئنة لتكرر المراجعة اليها والوقوف على ما في
تضاعيفها المؤدي الى العلم بكونه مصدقا لها ومعنى تصديقه للتورية انه نازل
حسبما نعت فيها او من حيث انه موافق لها في القصص والمواعيد والدعوة الى التوحيد
والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش واما ماتراءى من مخالفته لها
في بعض جزئيات الاحكام المتفاوتة بسبب تفاوت الاعصار فليست بمخالفة في الحقيقة
بل هي موافقة لها من حيث ان كلا منها حق بالاضافة الى عصره وزمانه متضمن للحكمة
التي عليها يدور فلك التشريع وليس في التورية دلالة على ابدية احكامها المنسوخة
حتى يخالفها ما ينسخها وانما تدل على مشروعيتها مطلقا من غير تعرض لبقائها وزوالها
بل نقول هي ناطقة بنسخ تلك الاحكام فان نطقها بصحة القران الناسخ لها نطق
بنسخها فاذن مناط المخالفة في الاحكام المنسوخة انما هو اختلاف العصر حتى لو تأخر
نزول المتقدم لنزل على وفق المتأخر ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم قطعا
ولذلك قال عليه السلام لو كان موسى حيا لما وسعه الا اتباعي وتقييد المنزل بكونه
مصدقا لما معهم لتاكيد وجوب الامتثال بالامر فان ايمانهم بما معهم مما يقتضي
الايمان بما يصدقه قطعا ولا تكونوا اول كافر به اي لا تسارعوا الى الكفر
به فان وظيفتكم ان تكونوا اول من امن به لما انكم تعرفون شانه وحقيقته بطريق
التلقي مما معكم من الكتب الالهية كما تعرفون ابناءكم وقد كنتم تستفتحون به
وتبشرون بزمانه كما سيجيء فلا تضعوا موضع ما يتوقع منكم ويجب عليكم ما لا
يتوهم صدوره عنكم من كونكم اول كافر به ووقوع اول كافر به خبرا عن ضمير الجمع

بتاويل اول او فوج او بتاويل لا يكن كل واحد منكم اول كافر به كقولك كسانا حلة
ونهيهم عن التقدم في الكفر به مع ان مشركي العرب اقدم منهم لما ان المراد به التعريض
لا الدلالة على ما نطق الظاهر كقولك اما انا فلست بجاهل او لان المراد نهيهم
كونهم اول كافر به من اهل الكتاب او ممن كفر بما عنده فان من كفر بالقران فقد كفر
بما يصدقه او مثل من كفر من مشركي مكة واول افعل لا فعل له وقيل اصله اوأل من وال
انبه اذا نجا وخلص فابدلت الهمزة واوًا تخفيفا غير قياسي او اول من ال فقلبت همزته
واوا وادغمت ولا تشتروا بآياتي اي لا تاخذوا لانفسكم بدلا منها ثمنا قليلا
هي الحظوظ الدنيوية فانها وان جلت قليلا لا مسترذلة بالنسبة الى ما فات عنهم
من حظوظ الاخرة بترك الايمان قيل كانت لهم رياسة في قومهم ورسوم وهدايا
فخافوا عليها لو اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختاروها على الايمان وانما عبر عن
المشتري الذي هو العمدة في عقود المعاوضة والمقصود فيها بالثمن الذي شانه ان يكون
وسيلة فيها وقرنت الايات التي حقها ان يتنافس فيها المتنافسون بالباء التي تصحب
الوسايل ايذانا بتعكيسهم حيث جعلوا ما هو المقصد الاصلي وسيلة والوسيلة مقصدا
وإياي فاتقون بالايمان واتباع الحق والاعراض عن حطام الدنيا ولما كانت الاية السابقة
مشتملة على ما هو كالمبادي لما في الاية الثانية فصلت بالرهبة التي هي من مقدمات
التقوى ولان الخطاب بها لما عم العالم والمقلد امر فيها بالرهبة المتناولة للفريقين واما
الخطاب بالثانية فحيث خص بالعلماء امر فيها بالتقوى الذي هو المنتهى ولا تلبسوا الحق
بالباطل عطف على ما قبله واللبس الخلط وقد يلزمه الاشتباه بين المختلطين والمعنى
لا تخلطوا الحق بالباطل الذي تخترعونه وتكتبونه حتى يشتبه احدهما بالاخر ولا تجعلوا
الحق ملتبسا بسبب الباطل الذي تكتبونه في تضاعيفه او تذكرونه في تأويله و
تكتموا الحق مجزوم داخل تحت حكم النهي كانهم امروا بالايمان وترك الضلال
ونهوا عن الاضلال بالتلبيس على من سمع الحق والاخفاء عمن لم يسمعه او منصوب باضمار
ان على ان الواو للجمع اي لا تجمعوا بين لبس الحق بالباطل وبين كتمانه ويعضده انه في
مصحف ابن مسعود رضي الله عنه وتكتمون اي وانتم تكتمون اي كاتمين وفيه اشعار بان استقباح
اللبس لما يصحبه من كتمان الحق وتكرير الحق اما لان المراد بالاخير ليس عين الاول بل
هو نعت النبي صلى الله عليه وسلم الذي كتموه وكتبوا مكانه غيره كما سيجيء في قوله تعالى
فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم واما لزيادة تقبيح المنهي عنه اذ في التصريح باسم الحق
ما ليس في ضميره وانتم تعلمون اي حال كونكم عالمين بانكم لابسون
كاتمون او وانتم تعلمون انه حق او وانتم من اهل العلم وليس ايراد
الحال لتقييد النهي به كما في قوله تعالى ولا تقربوا الصلوة وانتم سكارى بل لزيادة
تقبيح حالهم اذ الجاهل عسى يعذر واقيموا الصلوة وآتوا الزكوة اي صلوة
المسلمين وزكوتهم فان غيرهما بمعزل من كونه صلوة وزكوة امرهم الله تعالى
بفروع الاسلام بعد الامر باصوله واركعوا مع الراكعين اي في جماعتهم
فان صلوة الجماعة تفضل على صلوة الفذ بسبع وعشرين درجة لما فيها من تظاهر
النفوس في المناجات وعبر عن الصلوة بالركوع احترازا عن صلوة اليهود وقيل
الركوع الخضوع والانقياد لما يلزمهم الشارع قال الاضبط بن قريع السعدي
لا تهين الفقير علك ان تركع يوما والدهر قد رفعه اتامرون الناس بالبر تجريد للخطاب
وتوجيه له الى بعضهم بعد توجيهه الى الكل والهمزة فيها تقرير مع توبيخ وتعجيب
والبر التوسع في الخير من البر الذي هو الفضاء الواسع يتناول جميع اصناف الخيرات
ولذلك قيل البر ثلثة بر في عبادة الله تعالى وبر في مراعاة الاقارب وبر في معاملة
الاجانب وتنسون انفسكم اي تتركونها من البر تجريد المخاطب وتوجيه
كالمنسيات عن ابن عباس رضي الله عنه انها نزلت في احبار المدينة كانوا يامرون سرا
من نصحوه باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يتبعونه طمعا في الهدايا

والصلات التي كانت تصل اليهم من اتباعهم وقيل كانوا يامرون بالصدقة ولا
يتصدقون وقال السدي انهم كانوا يامرون الناس بطاعة الله تعالى وينهونهم عن معصيته وهم
يتركون الطاعة ويقدمون على المعصية وقال ابن جريج كانوا يامرون الناس بالصلوة
والزكوة وهم يتركونها ومدار الانكار والتوبيخ هي الجملة المعطوفة دون ما عطفت
هي عليه وانتم تتلون الكتاب تبكيت لهم كقوله وانتم تعلمون اي
والحال انكم تتلون التورية الناطقة بنعوته صلى الله عليه وسلم الآمرة
بالايمان به او بالوعد بفعل الخير والوعيد على الفساد والعناد وترك البر ومخالفة
القول العمل افلا تعقلون اي اتتلونه فلا تعقلون ما فيه او قبح ما تصنعون
حتى ترتدعوا عنه فالانكار متوجه الى عدم العقل بعد تحقق ما يوجبه فالمبالغة
من حيث الكيف او الا تتاملون فلا تعقلون فالانكار متوجه الى كلا الامرين والمبالغة
حينئذ من حيث الكم والعقل في الاصل المنع والامساك ومنه العقال الذي يشد به
وظيف البعير الى ذراعه لحبسه عن الحراك سمي به النور الروحاني الذي به يدرك
النفس العلوم الضرورية والنظرية لانه يحبسه عن تعاطي ما يقبح ويعقله على ما يحسن والاية
كما ترى ناعية على كل من يعظ غيره ولا يتعظ بسوء صنيعه وعدم تاثره وان فعله
فعل الجاهل بالشرع او الاحمق الخالي عن العقل والمراد بها كما اشير اليه حثه على
تزكية النفس والاقبال عليها بالتكميل لتقوم بالحق فيقيم غيرها لا منع الفاسق عن
الوعظ يروى انه كان عالم من العلماء مؤثر الكلام قوي التصرف في القلوب
وكان كثيرا ما يموت من اهل مجلسه واحد واثنان من شدة تاثير وعظه
وكان في بلده عجوز لها ابن صالح رقيق القلب سريع الانفعال وكانت تحترز عليه
وتمنعه من حضور مجلس الواعظ فحضره يوما على حين غفلة منها فوقع من امر
الله تعالى ما وقع ثم ان العجوز لقيت الواعظ يوما في الطريق فقالت لتهدي الانام
ولا تهتدي الان ذلك لا ينفع فما حجر الشحذ حتى متى تشحذ الحديد ولا يقطع فلما سمعه
الواعظ شهق شهقة فخر من فرسه مغشيا عليه فحملوه الى بيته فتوفي الى رحمة
الله تعالى واستعينوا بالصبر والصلوة متصل بما قبله كانهم لما كلفوا ما فيه
مشقة من ترك الرياسة والاعراض عن المال عولجوا بذلك والمعنى استعينوا
على حوايجكم بانتظار النجح والفرج توكلا على الله تعالى او بالصوم الذي هو الصبر
عن المفطرات لما فيه من كسر الشهوة وتصفية النفس والتوسل بالصلوة والالتجاء
اليها فانها جامعة لانواع العبادات النفسانية والبدنية من الطهارة وستر العورة
وصرف المال فيهما والتوجه الى الكعبة والعكوف على العبادة واظهار الخشوع بالجوارح
واخلاص النية بالقلب ومجاهدة الشيطان ومناجاة الحق وقراءة القرآن والتكلم
بالشهادة وكف النفس عن الاطيبين حتى تجابوا الى تحصيل المآرب وجبر المصايب
روي انه عليه السلام كان اذا حزبه امر فزع الى الصلوة ويجوز ان يراد بها
الدعاء وانها اي الاستعانة بهما او الصلوة وتخصيصها برد الضمير اليها
لعظم شانها واشتمالها على ضروب من الصبر كما في قوله تعالى واذا راوا تجارة
او لهوا انفضوا اليها او جملة ما امروا بها ونهوا عنها لكبيرة لثقيلة شاقة
كقوله تعالى كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الا على الخاشعين الخشوع الاخبات
ومنه الخشعة للرملة المتطامنة والخضوع اللين والانقياد ولذلك يقال الخشوع
بالجوارح والخضوع بالقلب وانما لم تثقل عليهم لانهم يتوقعون ما اعد لهم
بمقابلتها فتهون عليهم ولانهم يستغرقون في مناجات ربهم فلا يدركون
ما يجري عليهم من المشاق والمتاعب لذلك قال عليه الصلاة والسلام
وقرة عيني في الصلوة والجملة حالية او اعتراض تذييلي الذين يظنون انهم
ملاقوا ربهم وانهم اليه راجعون اي يتوقعون لقاءه تعالى ونيل ما
عنده من المثوبات والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة اليهم للايذان

بنيفعان احسانه اليهم او يتيقنون انهم يحشرون اليه للجزاء فيعملون على حسب ذلك
رغبة ورهبة واما الذين لا يوقنون بالجزاء ولا يرجون الثواب ولا يخافون
العقاب كانت عليهم مشقة خالصة فتثقل عليهم كالمنافقين والمرائين فالتعرض
للعنوان المذكور للاشعار بعلية الربوبية والمالكية للحكم ويؤيده ان في
مصحف ابن مسعود رضه يعلمون وكان الظن لما شابه العلم في الرجحان اطلق
عليه لتضمين معنى التوقع قال فارسلته مستيقن الظن انه مخالط ما بين الشرا
سيف جايف وجعل خبران في الموضعين اسما للدلالة على تحقق اللقاء والرجوع و
تقررهما عندهم يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم كرر التذكير للتأكيد
ولربط ما بعده من الوعيد الشديد به واني فضلتكم عطف على نعمتي عطف
الخاص على العام لكماله اي فضلت اباءكم على العالمين اي عالمي زمانهم بما
منحتهم من العلم والايمان والعمل الصالح وجعلتهم انبياء وملوكا مقسطين
وهم اباؤهم الذين كانوا في عصر موسى عم وبعده قبل ان يغيروا واتقوا يوما
اي حساب او عذاب يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئا اي لا تقضي عنها شيئا من
الحقوق فانتصاب شيئا على المفعولية او شيئا من الجزاء فيكون نصبه على المصدرية
وقرئ لا تجزي اي لا يغني عنها فيتعين النصب على المصدرية وايراده منكرا مع تنكير
النفس للتعميم والاقناط الكلي والجملة صفة يوما والعائد منها محذوف اي لا تجزي
فيه ومن لم يجوز الحذف قال اتسع فيه بحذف الجار واجري المجرور مجرى
المفعول به ثم حذف كما حذف في قول من قال فما ادري اغيرهم تناء وطول
العهد ام مال اصابوا اي اصابوه ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل
اي من النفس الثانية العاصية او من الاولى والشفاعة من الشفع كان المشفوع له
فردا فجعله الشفيع شفعا والعدل الفدية وقيل البدل واصله التسوية سمي به
الفدية لانها تساوي الفدى وتجزي مجزاه ولا هم ينصرون اي يمنعون من عذاب
الله عز وجل والضمير لما دلت عليه النفس الثانية المنكرة الواقعة في سياق
النفي من النفوس الكثيرة والتذكير لكونها عبارة عن العباد والاناسي و
النصرة ههنا اخص من المعونة لاختصاصها بدفع الضرر وكانه اريد بالاية نفي
ان يدفع العذاب احد عن احد من كل وجه محتمل فانه اما ان يكون قهرا اولا والاول
النصرة والثاني اما ان يكون باداء عين ما كان عليه وهو ان يجزي عنه او باداء غيره
وهو ان يعطي عنه عدلا وقد تمسكت المعتزلة بهذه الاية على نفي الشفاعة لاهل
الكبائر والجواب انها خاصة بالكفار للايات الواردة في الشفاعة والاحاديث
المروية عنها ويؤيده ان الخطاب معهم ولرد عليهم عما كانوا عليه من اعتقاد
ان اباءهم الانبياء يشفعون لهم واذ نجيناكم من آل فرعون تذكير لتفاصيل
ما اجمل في قوله تعالى نعمتي التي انعمت عليكم من فنون النعماء وصنوف الالاء اي واذكروا
وقت تنجيتنا اياكم اي اباءكم فان تنجيتهم تنجية لاعقابهم وقرئ انجيتكم
واصل آل اهل لان تصغيره اهيل وخص بالاضافة الى اولي الخطر كالانبياء عليهم
السلام والملوك وفرعون لقب لمن ملك العمالقة ككسرى لملك الفرس وقيصر لملك
الروم وخاقان لملك الترك ولعتوه اشتق منه تفرعن الرجل اذا عتا وتمرد وكان
فرعون موسى عليه السلام مصعب بن ريان وقيل ابنه وليد من بقايا عاد وقيل
انه كان عطارا اصفهانيا ركبته الديون فافلس فاضطر الى الخروج فلحق بالشام
فلم يتسن له المقام به فدخل مصر فراى في ظاهره حملا من البطيخ بدرهم وفي
نفسه بطيخا بدرهم فقال في نفسه ان تيسر لي اداء الديون فهذا طريقه فخرج الى
السواد فاشترى حملا بدرهم فتوجه به الى السوق فكل من لقيه من المكاسين اخذ
منه بطيخا فدخل البلد وما معه الا بطيخة فباعها بدرهم ومضى لوجهه و
راى اهل البلد متروكين سدى لا يتعاطى احد سياستهم وكان قد وقع بهم وباء عظيم

فتوجه

فتوجه نحو المقابر فرأى ميتا يدفن فتعرض لاوليائه فقال انا امين المقابر فلا ادعكم
تدفنونه حتى تعطوني خمسة دراهم فدفعوها اليه ومضى لاخر واخر حتى جمع في ثلاثة
اشهر مالا عظيما ولم يتعرض له احد قط الى ان تعرض يوما لاولياء ميت فطلب منهم
ما كان يطلب من غيرهم فابوا ذلك فقالوا من نصبك هذا المنصب فذهبوا به الى فرعون
فقال من انت ومن اقامك بهذا المقام قال لم يقمني احد وانما فعلت ما فعلت
ليحضرني احد الى مجلسك فانبهك على اختلال حال قومك وقد جمعت بهذا الطريق
هذا المقدار من المال فاحضره ودفعه الى فرعون فقال ولني امورك ترني امينا
كافيا فولاه اياها فسار بسيرة حسنة فانتظمت مصالح العسكر واستقامت احوال
الرعية ولبث فيهم دهرا طويلا وتراخى امره في العدل والصلاح فلما مات فرعون
اقاموه مقامه فكان من امره ما كان وكان فرعون يوسف عم ريان وكان بينهما اكثر
من اربعمائة سنة يسومونكم اي يبغونكم من سامه خسفا اذا اولاه ظلما
واصله الذهاب في طلب الشيء سوء العذاب اي افظعه واقبحه بالنسبة الى سايره
والسوء مصدر من ساء يسوء ونصبه على المفعولية ليسومونكم والجملة حال من الضمير
في نجيناكم او من آل فرعون او منهما جميعا لاشتمالها على ضميريهما يذبحون
ابناءكم ويستحيون نساءكم بيان ليسومونكم ولذلك ترك العاطف بينهما
وقرئ يذبحون بالتخفيف وانما فعلوا [بهم ما فعلوا صح] لما ان فرعون راى في المنام او اخبره الكهنة
انه سيولد منهم من يذهب بملكه فلم يرد اجتهادهم من قضاء الله عز وجل
شيئا قيل قتلوا بتلك الطريقة تسعمائة الف مولود وتسعين الفا وقد اعطى الله
عز وجل نفس موسى عليه السلام من القوة على التصرف ما كان يعطيه اولئك
المقتولين لو كانوا احياء ولذلك كانت معجزاته ظاهرة باهرة وفي ذلكم اشارة
الى ما ذكر من التذبيح والاستحياء [او الى الانجاء صح] منه وجمع الضمير للمخاطبين فعلى الاول
معنى قوله تعالى بلاء محنة وبلية وكون استحياء نسائهم اي استبقائهن
على الحيوة محنة مع انه عفو وترك للعذاب لان ذلك كان للاستعمال في الاعمال
الشاقة وعلى الثاني نعمة واصل البلاء الاختبار ولكن لما كان ذلك في حقه سبحانه
محالا وكان يجري مجرى الاختبار لعباده تارة بالمحنة واخرى بالمنحة اطلق عليهما
وقيل يجوز ان يشار بذلكم الى الجملة ويراد بالبلاء القدر المشترك الشامل لهما من ربكم
من جهته تعالى بتسليطهم عليكم او ببعث موسى عليه السلام وتوفيقه لتخليصكم
منهم او بهما معا عظيم صفة لبلاء وتنكيرهما للتفخيم وفي الاية الكريمة تنبيه على ان
ما يصيب العبد من السراء والضراء من قبيل الاختبار فعليه الشكر في المسار و
الضراء من قبيل الاختبار فعليه الشكر في المسار والصبر على المضار واذ فرقنا
بكم البحر بيان لسبب التنجية وتصوير لكيفيتها [لكيفيتها بدل] اثر تذكيرها وبيان عظمها
وهولها وقد بين في تضاعيف ذلك نعمة جليلة اخرى هي الانجاء من الغرق اي
واذكروا اذ فلقنا بسلوككم او ملتبسا بكم كقوله تعالى تنبت بالدهن او لسبب انجائكم
وفصلنا بين بعضه وبعض حتى حصلت مسالك وقرئ بالتشديد للتكثير لان المسالك
كانت اثني عشر بعدد الاسباط فانجيناكم اي من الغرق باخراجكم الى الساحل
كما يلوح به العدول الى صيغة الافعال بعد ايراد التخليص من فرعون بصيغة التفعيل
وكذا قوله تعالى واغرقنا آل فرعون اريد فرعون وقومه وانما اقتصر على ذكرهم
للعلم بانه اولى به منهم وقيل شخصه كما روي ان الحسن رضه كان يقول اللهم صل
على آل محمد اي شخصه واستغنى بذكره عن ذكر قومه وانتم تنظرون ذلك اي غرقهم
واطباق البحر عليهم او انفلاق البحر عن طرق يابسة مذللة او جثثهم التي قذفها البحر
الى الساحل او ينظر بعضكم بعضا روي انه تعالى امر موسى عم ان يسري ببني اسرائيل
فخرج بهم فصبحهم فرعون وجنوده وصادفوهم على شاطئ البحر فاوحى الله تعالى اليه ان
اضرب بعصاك البحر فضرب به فظهر فيه اثنا عشر طريقا يابسا فسلكوها فقالوا نخاف

ان يعرف بعض اصحابنا فلا نعلم به ففتح الله فيها كوى فتراءوا وتسامعوا حتى عبروا البحر فلما وصل اليه فرعون فرآه منفلقا اقتحمه هو وجنوده فغشيهم ما غشيهم واعلم ان هذه الواقعة كما انها لموسى عليه السلام معجزة عظيمة تخر لها صم الجبال ونعمة عظيمة لاوائل بني اسرائيل موجبة عليهم شكرها كذلك اقتصاصها على ما هي عليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزة جليلة تطمئن بها القلوب الابية وتنقاد لها النفوس الغبية موجبة لاعقابهم ان يتلقوها بالاذعان فلا تأثرت اوائلهم بمشاهدتها ورؤيتها ولا تذكرت اواخرهم بتذكيرها وروايتها فيالها من عصابة ما اعصاها وطايفة من اطغاها ﴿واذ واعدنا موسى اربعين ليلة﴾ لما عاد الى مصر بعد هلاك فرعون وعد الله موسى عليه السلام ان يعطيه التورية وضرب له ميقاتا ذا القعدة وعشر ذي الحجة وقيل وعد عليه السلام بني اسرائيل وهو بمصر ان اهلك الله عدوهم اتاهم بكتاب من عند الله تعالى فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فامره بصوم ثلثين وهو شهر ذي القعدة ثم زاد عشرا من ذي الحجة وعبر عنها بالليالي لانها غرر الشهور وصيغة المفاعلة بمعنى الثلاثي وقيل على اصلها تنزيلا لقبول موسى عليه السلام منزلة الوعد واربعين ليلة مفعول ثان لواعدنا على حذف المضاف اي تمام اربعين ليلة وقرئ وعدنا ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ بتسويل السامري الها ومعبودا وثم للتراخي الرتبي ﴿من بعده﴾ اي من بعد مضيه الى الميقات على حذف المضاف ﴿وانتم ظالمون﴾ باشراككم ووضعكم للشيء في غير موضعه وهو حال من ضمير اتخذتم او اعتراض تذييلي اي وانتم قوم عادتكم الظلم ﴿ثم عفونا عنكم﴾ حين تبتم والعفو محو الجريمة من عفاه درسه وقد يجيء لازما قال عرفت المنزل الخالي عفا من بعد احوال عفاه كل حنان كثير الوبل هطال وقوله تعالى ﴿من بعد ذلك﴾ اي من بعد الاتخاذ الذي هو متناه في القبح للايذان بكمال بعد العفو بعد تلك المرتبة من الظلم ﴿لعلكم تشكرون﴾ لكي تشكروا نعمة العفو وتستمروا بعد ذلك على الطاعة ﴿واذ اتينا موسى الكتاب والفرقان﴾ اي التورية الجامعة بين كونها كتابا وحجة تفرق بين الحق والباطل وقيل بالفرقان معجزاته الفارقة بين المحق والمبطل في الدعوى او بين الكفر والايمان وقيل الشرع الفارق بين الحلال والحرام او النصر الذي فرق بينه وبين عدوه كقوله تعالى ﴿يوم الفرقان﴾ يريد به يوم بدر ﴿لعلكم تهتدون﴾ لكي تهتدوا بالتدبر فيه والعمل بما يحويه ﴿واذ قال موسى لقومه﴾ بيان لكيفية وقوع العفو المذكور ﴿يا قوم انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل﴾ اي معبودا ﴿فتوبوا﴾ اي فاعزموا على التوبة ﴿الى بارئكم﴾ اي الى من خلقكم بريئا من العيوب والنقصان والتفاوت ميز بعضكم من بعض بصور وهيئات مختلفة واصل التركيب الخلوص عن الغير اما بطريق التفصي كما في برئ المريض او بطريق الانشاء كما في برأ الله ادم من الطين والتعرض لعنوان البارئية للاشعار بانهم بلغوا من الجهالة اقصاها ومن الغباوة منتهاها حيث تركوا عبادة العليم الحكيم الذي خلقهم بلطيف حكمته بريئا من التفاوت والتنافر الى عبادة البقر الذي هو مثل في الغباوة وان من لم يعرف حقوق منعمه حقيق بان تسترد هي منه ولذلك امروا بالقتل وفك التركيب ﴿فاقتلوا انفسكم﴾ تماما لتوبتكم بالبخع او بقطع الشهوات وقيل امروا ان يقتل بعضهم بعضا وقيل امر من لم يعبد العجل بقتل من عبده يروى ان الرجل كان يرى قريبه فلم يقدر على المضي لامر الله تعالى فارسل ضبابة وسحابة سوداء لا يتباصرون بها فاخذوا يقتلون من الغداة الى العشي حتى دعا موسى وهرون عليهما السلام فكشفت السحابة ونزلت التوبة وكانت القتلى سبعين الفا والفاء الاولى للتسبيب والثانية للتعقيب ﴿ذلكم﴾ اشارة الى ما ذكر من التوب والقتل ﴿خير لكم عند بارئكم﴾ لما انه طهرة عن الشرك ووصلة الى الحيوة

الابدية

الابدية والبهجة السرمدية ﴿فتاب عليكم﴾ عطف على محذوف على انه خطاب منه سبحانه على نهج الالتفات من التكلم الذي يقتضيه سياق النظم الكريم وسياقه فان مبنى الجميع على التكلم الى الغيبة ليكون ذريعة الى اسناد الفعل الى ضمير بارئكم المستتبع للايذان بعلية عنوان البارئية والخالقية والاحياء لقبول التوبة التي هي عبارة عن العفو عن القتل تقديره ففعلتم ما امرتم به فتاب عليكم بارئكم وانما لم يقل فتاب عليهم على ان الضمير للقوم لما ان ذلك نعمة اريد التذكير بها للمخاطبين لا لاسلافهم هذا وقد جوز ان يكون فتاب عليكم متعلقا بمحذوف على انه من كلام موسى عليه السلام لقومه تقديره ان فعلتم ما امرتم به فقد تاب عليكم ولا يخفى انه بمعزل من اللياقة بجلالة شان التنزيل كيف لا وهو حينئذ حكاية لوعد موسى عليه السلام قومه بقبول التوبة منه تعالى لا لقوله تعالى حتما وقد عرفت ان الاية الكريمة تفصيل لكيفية القبول المحكي فيما قبل وان المراد تذكير المخاطبين بتلك النعمة ﴿انه هو التواب الرحيم﴾ تعليل لما قبله اي الذي يكثر توفيق المذنبين للتوبة ويبالغ في قبولها منهم وفي الانعام عليهم ﴿واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك﴾ تذكير لنعمة اخرى عليهم بعد ما صدر عنهم من الجناية العظيمة التي هي اتخاذ العجل اي لن نؤمن لاجل قولك ودعوتك او لن نقر لك والمؤمن به هو اعطاء الله اياه التورية او تكليمه اياه او انه نبي او انه تعالى جعل توبتهم بقتلهم انفسهم ﴿حتى نرى الله جهرة﴾ اي عيانا وهي في الاصل مصدر قولك جهرت بالقراءة استعيرت للمعاينة لما بينهما من الاتحاد في الوضوح والانكشاف الا ان الاول في المسموعات والثاني في المبصرات ونصبها على المصدرية لانها نوع من الرؤية او حال من الفاعل او المفعول وقرئ بفتح الهاء على انها مصدر كالغلبة او جمع كالكتبة فيكون حالا من الفاعل لا غير والقائلون هم السبعون المختارون لميقات التوبة عن عبادة العجل روي انهم لما ندموا على ما فعلوا وقالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين امر الله تعالى موسى عليه السلام ان يجمع سبعين رجلا ويحضر معهم الطور يظهرون فيه تلك التوبة فلما خرجوا الى الطور وقع عليه عمود من الغمام وتغشاه كله فكلم الله موسى عليه السلام يأمره وينهاه وكان كلما كلمه سبحانه اوقع على جبهته نورا ساطعا لا يستطيع احد من السبعين النظر اليه وسمعوا كلامه تعالى مع موسى عليه السلام افعل ولا تفعل فعند ذلك طمعوا في الرؤية فقالوا ما قالوا كما سيأتي في سورة الاعراف ان شاء الله تعالى وقيل عشرة الاف من قومه ﴿فاخذتكم الصاعقة﴾ لفرط العناد والتعنت وطلب المستحيل فانهم ظنوا انه سبحانه وتعالى مما يشبه الاجسام ويتعلق به الرؤية تعلقها بها على طريق المقابلة في الجهات والاحياز ولا ريب في استحالته انما الممكن في شانه تعالى الرؤية المنزهة عن الكيفيات وذلك للمؤمنين في الاخرة وللافراد من الانبياء الذين بلغوا من صفاء الجوهر الى حيث تراهم كانهم وهم في جلابيب من ابدانهم قد نضوها وتجردوا عنها الى عالم القدس في بعض الاحوال في الدنيا قيل جاءت نار من السماء فاحرقتهم وقيل صيحة وقيل جنود سمعوا بحسيسها فخروا صعقين ميتين يوما وليلة وعن وهب انهم لم يموتوا بل لما راوا تلك الهيئة الهائلة اخذتهم الرعدة ورجفوا حتى كادت تبين منها مفاصلهم وتنقض ظهورهم واشرفوا على الهلاك فعند ذلك بكى موسى عليه السلام ودعا ربه فكشف الله عز وجل عنهم ذلك فرجعت اليهم عقولهم ومشاعرهم ولم يكن صعقة موسى عليه السلام موتا بل غشية لقوله تعالى ﴿فلما افاق﴾ ﴿وانتم تنظرون﴾ اي ما اصابكم بنفسه او باثره ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ بتلك الصاعقة قيد البعث به لما انه قد يكون من الاغماء وقد يكون من النوم كما في قوله ثم بعثناهم لنعلم الخ ﴿لعلكم تشكرون﴾ اي نعمة البعث او ما كفرتموه بما رايتم من باس الله تعالى ﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ اي جعلناها بحيث تلقي عليكم ظلها وذلك انه تعالى سخر لهم السحاب يسير بسيرهم وهم في التيه يظلهم من الشمس وينزل بالليل عمود من نار يسيرون في ضوئه وثيابهم لا تتسخ ولا تبلى ﴿وانزلنا عليكم المن﴾

والسلوى الجنوب أي الترجبين والسماني قيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر
الى الطلوع لكل انسان صاع ويبعث عليهم السماني فيذبح الرجل عنهم ما يكفيه كلوا
على ارادة القول اي قائلين لهم او قيل لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم من
مستلذاته وما موصولة كانت او موصوفة عبارة عن المن والسلوى وما ظلمونا
كلام عدل به عن نهج الخطاب السابق للايذان باقتضاء جنايات المخاطبين للاعراض
عنهم وتعداد قبايحهم عند غيرهم على طريق المباثة معطوف على مضمر قد حذف
للايجاز والاشعار بانه امر محقق غني عن التصريح به اي فظلموا بان كفروا تلك النعم
الجليلة وما ظلمونا بذلك ولكن كانوا انفسهم يظلمون بالكفران اذ لا يتخطاهم
ضرره وتقديم المفعول للدلالة على القصر الذي يقتضيه النفي السابق وفيه ضرب
تهكم بهم والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على تماديهم في الظلم
واستمرارهم على الكفر واذ قلنا تذكير لنعمة اخرى من جنابه تعالى وكفرة اخرى
لاسلافهم اي واذكروا وقت قولنا لابائكم اثر ما انقذناهم من التيه
ادخلوا هذه القرية منصوبة على الظرفية عند سيبويه وعلى المفعولية عند الاخفش
وهي بيت المقدس وقيل اريحا فكلوا منها حيث شئتم رغدا اي واسعا
هنيئا ونصبه على المصدرية او الحالية من ضمير المخاطبين وفيه دلالة على ان
المامور به الدخول على وجه الاقامة والسكنى فيلائم ما بسورة الاعراف من قوله
اسكنوا هذه القرية وادخلوا الباب اي باب القرية على ما روي من انهم دخلوا
اريحا في زمن موسى عليه السلام كما سيجيء في سورة المائدة او باب القبة التي يصلون
اليها فانهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه السلام سجدا اي متطامنين
مخبتين او ساجدين لله شكرا على اخراجهم من التيه وقولوا حطة اي
مسئلتنا او امرك حطة وهي فعلة من الحط كالجلسة وقرئ بالنصب على الاصل
بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة او على انها مفعول قولوا اي قولوا هذه الكلمة وقيل
معناه امرنا حطة اي ان نحط رحالنا في هذه القرية ونقيم بها نغفر لكم خطاياكم
لما تفعلون من السجود والدعاء وقرئ بالياء والتاء على البناء للمفعول واصل
خطايا خطايئ كخطايع فعند سيبويه ابدلت الياء الزائدة همزة لوقوعها بعد الالف
واجتمعت همزتان وابدلت الثانية ياء ثم قلبت الفا وكانت الهمزة بين الفين
فابدلت ياء وعند الخليل قدمت الهمزة على الياء ثم فعل بها ما ذكر وسنزيد
المحسنين ثوابا جعل الامتثال توبة للمسيء وسببا لزيادة الثواب للمحسن واخرج
ذلك عن صورة الجواب الى الوعد ايذانا بان المحسن بصدد ذلك وان لم يفعله
فكيف اذا فعله وانه يفعله لا محالة فبدل الذين ظلموا بما امروا به من التوبة
والاستغفار بان اعرضوا عنه واوردوا مكانه قولا اخر مما لا خير فيه
روي انهم قالوا مكان حطة حنطة وقيل قالوا بالنبطية حطا شقاثا يعنون
حنطة حمراء استخفافا بامر الله عز وجل غير الذي قيل لهم نعت لقولا وانما
صرح به مع استحالة تحقق التبديل بلا مغايرة تحقيقا لمخالفتهم وتنصيصا على المغايرة
من كل وجه فانزلنا اي عقيب ذلك على الذين ظلموا بما ذكر من التبديل
وانما وضع الموصول موضع الضمير العائد الى الموصول الاول للتعليل والمبالغة
في الذم والتقريع وللتصريح بانهم بما فعلوا قد ظلموا انفسهم بتعريضها
لسخط الله تعالى رجزا من السماء اي عذابا مقدرا منها والتنوين للتهويل
والتفخيم بما كانوا يفسقون بسبب فسقهم المستمر حسبما يفيده الجمع بين صيغتي
الماضي والمستقبل وتعليلا انزال الرجز به بعد الاشعار بتعليله بظلمهم للايذان
بان ذلك فسق وخروج عن الطاعة وغلو في الظلم وان تعذيبهم بجميع ما ارتكبوا
من القبائح لا بعدم توبتهم فقط كما يشعر به ترتيبه على ذلك بالفاء والرجز
في الاصل ما يعاف عنه وكذلك الرجس وقرئ بالضم وهو لغة فيه والمراد به الطاعون

روي انه مات في ساعة واحدة اربعة وعشرون الفا واذ استسقى موسى لقومه تذكير
لنعمة اخرى وكفروها وكان ذلك في التيه حين استولى عليهم العطش الشديد
وتغيير الترتيب كما اشير اليه مرارا من الامور المعدودة في معرض مستقل واجب التذكير
والتذكر ولو روعي الترتيب الوقوعي لفهم ان الكل امر واحد امر بذكره واللام متعلقة
بالفعل اي استسقى لاجل قومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر روي انه كان حجرا طوريا
مكعبا حمله معه وكانت ينبع من كل وجه منه ثلاث اعين تسيل كل عين في جدول
الى كل سبط وكانوا ستمائة الف وسعة المعسكر اثني عشر ميلا او كان حجرا اهبطه الله
تعالى مع ادم عليه السلام من الجنة ووقع الى شعيب عليه السلام فاعطاه موسى
عليه السلام مع العصا او كان هو الحجر الذي فر بثوبه حين وضعه عليه ليغتسل وبرأه
الله تعالى به عما رموه به من الادرة فاشار اليه جبريل ان يحمله او كان حجرا من الحجارة
وهو الاظهر في الحجة قيل لم يؤمر عليه السلام بضرب حجر بعينه ولكن لما قالوا كيف بنا لو
افضينا الى ارض لا حجارة بها حمل حجرا في مخلاته وكان يضرب به بعصاه اذا نزل فيتفجر ويضربه
اذا ارتحل فييبس فقالوا ان فقد موسى عصاه متنا عطشا فاوحى الله تعالى اليه
ان لا تقرع الحجر وكلمه يطعك لعلهم يعتبرون وقيل كان الحجر من رخام حجمه ذراع
في ذراع والعصا عشرة اذرع على طوله عليه السلام من اس الجنة ولها شعبتان
تتقدان في الظلمة فانفجرت عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام قد حذف للدلالة
على كمال سرعة تحقق الانفجار كانه حصل عقيب الامر بالضرب اي فضرب فانفجرت
منه اثنتا عشرة عينا واما تعلق الفاء بمحذوف اي فان ضربت فقد انفجرت فغير حقيق
بجلالة شان النظم الكريم كما لا يخفى على احد وقرئ عشرة بكسر الشين وفتحها وهما
ايضا لغتان قد علم كل اناس مشربهم عينهم الخاصة لهم كلوا واشربوا على ارادة
القول من رزق الله هو ما رزقهم من المن والسلوى والماء وقيل هو الماء وحده
لانه يؤكل ما ينبت به من الزروع والثمار ويأباه ان المامور به اكل النعمة العتيدة لا
ما سيطلبونه واضافته اليه تعالى مع اسناد الكل اليه خلقا وملكا اما للتشريف واما
لظهوره بغير سبب عادي وانما لم يقل من رزقنا كما يقتضيه قوله تعالى فقلنا ايذانا
بان الامر بالاكل والشرب لم يكن بطريق الخطاب بل بواسطة موسى عليه السلام
ولا تعثوا في الارض العثي اشد الفساد كما في مقابلة الظالم المعتدي فقيل لهم
لا تتمادوا في الفساد حال كونكم مفسدين وقيل انما قيد به لما ان العثي في الاصل
مطلق التعدي وان غلب في الفساد وقد يكون في غير الفساد كما في مقابلة الظالم
المعتدي بفعله وقد يكون فيه صلاح راجح كقتل الخضر عليه السلام للغلام وخرقه
للسفينة ونظيره العبث خلا انه غالب فيما يدرك حسا واذ قلتم تذكير لجناية
اخرى لاسلافهم وكفرانهم لنعمة الله عز وجل واخلادهم الى ما كانوا فيه من
الدناءة والخساسة واسناد القول المحكي الى اخلافهم وتوجيه التوبيخ اليهم لما
بينهم من الاتحاد يا موسى لن نصبر على طعام واحد لعلهم لم يريدوا بذلك
جمع ما طلبوه مع ما كان لهم من النعمة ولا زوالها وحصول ما طلبوا مكانها اذ يأباه
التعرض للوحدة بل ارادوا ان يكون هذا تارة وذاك اخرى روي انهم كانوا فلاحة
فنزعوا الى عكرهم فاجموا ما كانوا فيه من النعمة العتيدة لوحدتها النوعية واطرادها
وتاقت انفسهم الى الشقاء فادع لنا ربك اي سله لاجلنا بدعائك اياه والفاء
لسببية عدم الصبر للدعاء والتعرض لعنوان الربوبية لتمهيد مبادي الاجابة يخرج
لنا اي يظهر لنا ويوجد والجزم لجواب الامر مما تنبت الارض اسناد مجازي
باقامة القابل مقام الفاعل ومن تبعيضية والتي في قوله تعالى من بقلها وقثائها
وفومها وعدسها وبصلها بيانية واقعة موقع الحال اي كائنا من بقلها الى اخره
وقيل بدل باعادة الجار والبقل ما انبتت الارض من الخضر والمراد به اطايبه التي
تؤكل كالنعناع والكرفس والكراث واشباهها والفوم الحنطة وقيل الثوم

وقرئ قثايها بضم القاف وهو لغة فيه قال الله تعالى او موسى انكار عليهم وهو استيناف
وقع جوابا عن سؤال مقدر كانه قيل فماذا قال لهم فقيل اتستبدلون الذي
اي تاخذونه لانفسكم وتختارون الذي هو ادنى اي اقرب منزلة وادون قدرا
سهل المنال وهين الحصول لعدم كونه مرغوبا فيه وكونه تافها مرذولا قليل القيمة
واصل الدنو القرب في المكان فاستعير للخسة كما استعير البعد للشرف والرفعة فقيل
بعيد المحل وبعيد الهمة وقرئ ادنا من الدناءة وقد حملت المشهورة على ان الفها
مبدلة من الهمزة بالذي هو خير اي بمقابلة ما هو خير فان الباء تصحب الذاهب الزائد دون الآتي
الحاصل كما في التبدل والتبديل في مثل قوله عز وجل ومن يتبدل الكفر بالايمان وقوله
وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي اكل خمط وليس فيه ما يدل قطعا على انهم ارادوا
زوال المن والسلوى بالمرة وحصول ما طلبوا مكانه لتحقق الاستبدال فيما فيه من
صورة المناوبة اهبطوا مصرا امروا به بيانا لدناءة همتهم ومطلبهم او اسعافا
لمرامهم اي انحدروا اليه من التيه يقال هبط الوادي وقرئ بضم الباء والمصر البلد
العظيم واصله الحد بين الشيئين وقيل اريد به العلم وانما صرف لسكون وسطه او
لتاويله بالبلد دون المدينة ويؤيده انه في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه غير منون وقيل
اصله مصرايم فعرب فان لكم ما سألتم تعليل للامر بالهبوط اي فان لكم فيه ما سألتموه ولعل
التعبير عن الاشياء المسؤلة بما للاستهجان بذكرها كانه قيل فانه كثير فيه مبتذل ينال
كل احد بغير مشقة وضربت عليهم الذلة والمسكنة اي جعلنا محيطتين بهم احاطة
القبة بمن ضربت عليه او الصقتا بهم وجعلتا ضربة لازم لا تنفكان عنهم مجازاة
لهم على كفرانهم من ضرب الطين على الحائط بطريق الاستعارة بالكناية واليهود
في غالب الامر اذلاء مساكين اما على الحقيقة واما لخوف ان يضاعف جزيتهم وباءو
اي رجعوا بغضب عظيم وقوله تعالى من الله متعلق بمحذوف هو صفة لغضب مؤكدة
لما افاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية اي بغضب كاين من الله تعالى او صاروا
احقاء به من قولهم باء فلان بفلان اي صار حقيقا بان يقتل بمقابلته ومنه قول من قال
بوء بشسع نعل كليب واصل البوء المساواة ذلك اشارة الى ما سلف من ضرب الذلة والمسكنة
والبوء بالغضب العظيم بانهم بسبب انهم كانوا يكفرون على الاستمرار بايات الله
الباهرة التي هي المعجزات الساطعة الظاهرة على يدي موسى عليه السلام مما عد وما لم يعد ويقتلون
النبيين بغير الحق كشعيا وزكريا ويحيى عليهم السلام وفايدة التقييد مع ان قتل الانبياء
يستحيل ان يكون بحق الايذان بان ذلك عندهم ايضا بغير الحق اذ لم يكن احد معتقدا
بحقية قتل احد منهم عليهم السلام وانما حملهم على ذلك حب الدنيا واتباع الهوى
والغلو في العصيان والاعتداء كما يفصح عنه قوله تعالى ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون
اي جرهم العصيان والتمادي في العدوان الى ما ذكر من الكفر وقتل الانبياء عليهم
السلام وانما حملهم على ذلك حب الدنيا فان صغار الذنوب اذا دووم عليها ادت الى
كبارها كما ان مداومة صغار الطاعات مؤدية الى تحري كبارها وقيل كررت الاشارة للدلالة
على ان ما لحقهم كما ان سبب الكفر والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصي واعتدائهم حدود
الله تعالى وقيل الاشارة الى الكفر والقتل والباء بمعنى مع ويجوز الاشارة الى المتعدد
بالمفرد بتاويل ما ذكر او تقدم كما في قول رؤبة بن العجاج فيها خطوط من سواد وبلق
كانه في الجلد توليع البهق اي كان ما ذكر والذي حسن ذلك في المعمرات والمبهمات ان تثنيتها
وجمعها ليسا على الحقيقة ولذلك جاء الذي بمعنى الذين ان الذين امنوا اي بالسنتهم
فقط وهم المنافقون بقرينة انتظامهم في سلك الكفرة والتعبير عنهم بذلك دون عنوان
النفاق للتصريح بان تلك المرتبة وان عبر عنها بالايمان لا تجديهم نفعا اصلا ولا تنقذهم
من ورطة الكفر قطعا والذين هادوا اي تهودوا من هاد اذا دخل في اليهودية ويهود
اما عربي من هاد اذا تاب سموا بذلك حين تابوا من عبادة العجل وخصوا به لما كانت توبتهم
توبة هائلة واما معرب يهوذا كانهم سموا باسم اكبر اولاد يعقوب عليه السلام والنصارى

الفخامة بدل
بفلان صح
دخل صح
صح

جمع نصران كندامى جمع ندمان يقال رجل نصران وامراة نصرانة والياء في نصراني للمبالغة كما في
احمري سموا بذلك لانهم نصروا المسيح عليه السلام او لانهم كانوا معه في قرية يقال لها
نصران فسموا باسمها او نسبوا اليها والياء للنسبة وقال الخليل واحد النصارى نصري كمهري
ومهاري والصابئين هم قوم بين النصارى والمجوس وقيل اصل دينهم دين نوح عليه
السلام وقيل هم عبدة الكواكب وقيل هم عبدة الملائكة فهو ان كان عربيا فمن صبا اذا
خرج من دين الى آخر وقرئ بالياء اما بالتخفيف واما لانه من صبا اذا مال لما انهم مالوا من
ساير الاديان الى ما هم فيه او من الحق الى الباطل من امن بالله واليوم الاخر اي من
احدث من هذه الطوايف ايمانا خالصا بالمبدا والمعاد على الوجه اللايق وعمل عملا صالحا
حسبما يقتضيه الايمان بما ذكر فلهم بمقابلة ذلك اجرهم الموعود لهم عند ربهم اي مالك امرهم
ومبلغهم الى كمالهم اللايق ومن اما في محل الرفع على الابتداء خبره جملة فلهم اجرهم عند
ربهم والفاء لتضمن الموصول معنى الشرط كما في قوله تعالى ان الذين فتنوا المؤمنين الاية وجمع الضماير
الثلاثة باعتبار معنى الموصول كما ان افراد الضمير ما في الصلة باعتبار لفظه والجملة كما
هي خبر ان والعائد الى اسمها محذوف اي من امن منهم الخ واما في محل النصب على البدلية
من اسم ان وما عطف عليه وخبرها فلهم اجرهم وعند متعلق بما تعلق به لهم من معنى
الثبوت وفي اضافته الى الرب المضاف الى ضميرهم مزيد لطف بهم وايذان بان اجرهم
متيقن الثبوت مامون عن الفوات ولا خوف عليهم عطف على جملة فلهم اجرهم
اي لا خوف عليهم حين يخاف الكفار العقاب ولا هم يحزنون حين يحزن المقصرون
على تضييع العمر وتفويت الثواب والمراد بيان ابتناء دوامهما كما يوهمه كون الخبر في الجملة
الثانية مضارعا لما مر من النفي وان دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب
المقام هذا وقد قيل المراد بالذين امنوا المتدينون بدين الاسلام المخلصون منهم والمنافقون
فحينئذ لابد من تفسير من امن بمن اتصف منهم بالايمان الخالص بالمبدا والمعاد على الاطلاق
سواء كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه كايمان المخلصين او بطريق احداثه وانشائه
كايمان من عداهم من المنافقين وساير الطوايف وفايدة التعميم للمخلصين مزيد ترغيب
الباقين في الايمان ببيان ان تاخرهم في الاتصاف به غير مخل بكونهم اسوة لاولئك الاقدمين
في استحقاق الاجر وما يتبعه من الامن الدايم واما ما قيل في تفسيره من كان منهم في
دينه قبل ان ينسخ مصدقا بقلبه بالمبدا والمعاد عاملا بمقتضى شرعه فمما لا سبيل اليه
اصلا لان مقتضى المقام هو الترغيب في دين الاسلام واما بيان حال من مضى على دين آخر
قبل انتساخه فلا ملابسة له بالمقام قطعا بل ربما يخل بمقتضاه من حيث دلالته
على حقيقته في زمانه في الجملة على ان المنافقين والصابئين لا يتسنى في حقهم ما ذكر اما
المنافقون فان كانوا من اهل الشرك فلا امر بين وان كانوا من اهل الكتاب فمن مضى منهم
قبل النسخ ليسوا بمنافقين واما الصابئون فليس لهم دين يجوز رعايته في وقت من
الاوقات ولو سلم انه كان لهم دين سماوي ثم خرجوا عنه فمن مضى من اهل ذلك
الدين قبل خروجهم منه ليسوا من الصابئين فكيف يمكن ارجاع الضمير الرابط بين اسم ان وخبرها
اليهم والى المنافقين وارتكاب ارجاعه الى مجموع الطوايف من حيث هو مجموع لا الى
كل واحد منها قصدا الى درج الفريق المذكور فيه ضرورة ان كان من اهل الكتاب عاملا
بمقتضى شرعه قبل نسخه من مجموع الطوايف بحكم اشتماله على اليهود والنصارى وان
لم يكن من المنافقين والصابئين مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن امثاله على ان المخلصين
مع اندراجهم في حيز اسم ان ليس لهم في حيز خبرها عين ولا اثر فتامل وكن
على الحق المبين واذ اخذنا ميثاقكم تذكير لجناية اخرى لاسلافهم اي واذكروا
وقت اخذنا ميثاقكم بالمحافظة على ما في التورية ورفعنا فوقكم الطور عطف على
اخذنا او حال اي وقد رفعنا فوقكم الطور كانه ظلة روي ان موسى عليه السلام لما جاءهم بالتورية
فراوا ما فيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم فابوا قبولها فامر جبريل عليه السلام فقلع الطور
فظلله عليهم حتى قبلوا خذوا على ارادة القول ما اتيناكم من الكتاب بقوة بجد وعزيمة

مين
ثم صح
والصابئين صح

واذكروا ما فيه اي احفظوه ولا تنسوه او تفكروا فيه فانه ذكر بالقلب واعملوا به لعلكم تتقون لكي تتقوا المعاصي او لتنجوا من هلاك الدارين او رجاء منكم ان تنتظموا في سلك المتقين او طلبا لذلك وقد مر تحقيقه ثم توليتم اي اعرضتم عن الوفاء بالميثاق من بعد ذلك من بعد اخذ ذلك الميثاق المؤكد فلولا فضل الله عليكم ورحمته بتوفيقكم للتوبة او بمحمد صلى الله عليه وسلم حيث يدعوكم الي الحق ويهديكم اليه لكنتم من الخاسرين اي المغبونين بالانهماك في المعاصي والخبط في مهاوي الضلال عند الفترة وقيل لولا فضله تعالى عليكم بالامهال وتاخير العذاب لكنتم من الهالكين وهو الانسب بما بعده وكلمة لولا اما بسيطة او مركبة من لو الامتناعية وحرف النفي ومعناها امتناع الشي لوجود غيره كما ان لو لامتناع غيره والاسم الواقع بعدها عند سيبويه مبتداء خبره محذوف وجوبا لدلالة الحال عليه وسد الجواب مسده والتقدير لولا فضل الله حاصل وعند الكوفيين فاعل فعل محذوف اي لولا ثبت فضل الله تعالى عليكم ولقد علمتم اي عرفتم الذين اعتدوا منكم في السبت روي انهم امروا بان يتمحضوا يوم السبت للعبادة ويتجردوا لها ويتركوا الصيد فاعتدي فيه اناس منهم في زمن داود عم فاشتغلوا بالصيد وكانوا يسكنون قرية بساحل البحر يقال لها ايلة فاذا كان يوم السبت لم يبق في البحر حوت الا برز واخرج خرطومه فاذا مضي تفرقت فحفروا حياضا وشرعوا اليها الجداول وكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصطادونها يوم الاحد فالمعني وبالله لقد علمتموهم حين فعلوا من قبيل حينا يأتكم ما فعلوا فلم نمهلهم ولم نؤخر عقوبتهم بل عجلناها فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين اي جامعين بين صورة القردة والخسوء وهو الطرد والصغار على ان خاسئين نعت لقردة وقيل حال من اسم كونوا عند من يجيز عمل كان في الظروف والحال وقيل من الضمير المستكن في قردة لانه في معني ممسوخين وقال مجاهد ما مسخت صورهم ولكن قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار في قوله تعالى كمثل الحمار يحمل اسفارا والمراد بالامر بيان سرعة التكوين وانهم صاروا كذلك كما اراد عز وجل وقرئ قردة بفتح القاف وكسر الراء وخاسين بغير همز فجعلناها اي المسخة والعقوبة نكالا عبرة تنكل المعتبر بها اي تمنعه وتردعه ومنه النكل للقيد لما بين يديها وما خلفها لما قبلها وما بعدها من الامم اذا ذكرت حالهم في زبر الاولين واشتهرت قصصهم في الآخرين او لمعاصريهم ومن بعدهم او لما بحضرتها من القري وما تباعد عنها او لاهل تلك القرية وما حواليها او لاجل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تاخر منها وموعظة للمتقين من قومهم او لكل متق سمعها واذ قال موسي لقومه توبيخ آخر لاخلاف بني اسرائيل بتذكير بعض جنايات صدرت عن اسلافهم اي واذكروا وقت قول موسي عم لاجدادكم ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة وسببه انه كان في بني اسرائيل شيخ موسر فقتله بنو عمه طمعا في ميراثه فطرحوه على باب المدينة ثم جاؤا يطالبون بديته فامرهم الله تعالى ان يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها فيحيي ويخبرهم بقاتله قالوا مه استيناف وقع جوابا كما ينساق اليه الكلام كانه قيل فماذا صنعوا هل سارعوا الي الامتثال اولا فقيل قالوا أتتخذنا هزوا بضم الزاء وقلب الهمزة واوا وقرئ بالهمزة مع الضم والسكون اي تجعلنا مكان هزؤ او اهل هزؤ او مهزوا بنا والهزء نفسه استبعادا لما قاله واستخفافا به قال استيناف كما سبق اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين لان الهزؤ في اثناء تبليغ امر الله سبحانه جهل وسفه نفي عنه عليه السلام ما نوهموه من قبله علي ابلغ وجه وآكده باخراجه مخرج ما لا مكروه وراه بالاستعاذة منه استفظاعا له واستعظاما لما اقدموا عليه من العظيمة التي شافهوه عليه السلام قالوا استيناف كما مر كانه قيل فماذا قالوا بعد ذلك فقيل توجهوا نحو الامتثال وقالوا ادع لنا اي لاجلنا ربك يبين لنا ما هي ما مبتداء وهي خبره والجملة في حيز النصب اي يبين لنا جواب هذا السؤال وقد سألوا عن حالها وصفتها لما قرع اسماعهم ما لم يعهدوه من

بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيي فان ما وان شاعت في طلب مفهوم الاسم والحقيقة كما في ما الشارحة والحقيقة لكنها قد يطلب بها الصفة والحال تقول ما زيد فيقال طبيب او عالم وقيل كان حقه ان يستفهم باي لكنهم لما راوا ما امروا به على حالة مغايرة لما عليه الجنس اخرجوه عن الحقيقة فجعلوه جنسا على حياله قال اي موسي عم بعد ما دعا ربه عز وجل بالبيان واتاه الوحي انه تعالى يقول انها اي البقرة المامور بذبحها بقرة لا فارض ولا بكر اي لا مسنة ولا فتية يقال فرضت البقرة فروضا اي اسنت من الفرض بمعني القطع كانها قطعت سنها وبلغت آخرها وتركيب البكر للاولية ومنه البكرة والباكورة عوان اي نصف لا فخم ولا ضرع قال طوال مثل اعناق الهوادي نواعم بين ابكار وعون بين ذلك اشارة الي ما ذكر من الفارض والبكر ولذلك اضيف اليه بين لاختصاصه بالاضافة الي المتعدد فافعلوا امر من جهة موسي عليه السلام متفرع على ما قبله من بيان صفة المامور به ما تؤمرون اي ما تؤمرونه بمعني تؤمرون به كما في قوله امرتك الخير فافعل ما امرت به فان حذف الجار قد شاع في هذا الفعل حتى لحق بالافعال المتعدية الي مفعولين وهذا الامر منه عليه السلام لحثهم على الامتثال وزجرهم عن المراجعة ومع ذلك لم يقتنعوا به وقوله تعالى قالوا استيناف كما مر كانه قيل ما ذا صنعوا بعد هذا البيان الشافي والامر المكرر فقيل قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها حتى يتبين لنا البقرة المامور بها قال اي موسي عم بعد المناجاة الي الله تعالى ومجيء البيان انه تعالى يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها اسناد البيان في كل مرة الى الله عز وجل لاظهار كمال المساعدة في اجابة مسؤلهم بقولهم يبين لنا وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة والفقوع نصوع الصفرة وخلوصها ولذلك يؤكد به ويقال اصفر فاقع كما يقال اسود حالك واحمر قاني وفي اسناده الي اللون مع كونه من احوال الملون لملابسته به ما لا يخفي من فضل تاكيد كانه قيل صفراء شديدة الصفرة صفرتها كما في جد جده وعن الحسن رضي الله عنه سوداء شديدة السواد وبه فسر قوله تعالى جمالة صفر قيل ولعل التعبير عن السواد بالصفرة لما انها من مقدماته واما الان سواد الابل يعلوه صفرة ويأباه وصفها بقوله تعالى تسر الناظرين كما يأباه وصفها بفقوع اللون والسرور لذة في القلب عند حصول نفع او توقعه من السر عن علي رضي الله عنه من لبس نعلا اصفر قل همه قالوا استيناف كنظائره ادع لنا ربك يبين لنا ما هي زيادة استكشاف عن حالها كانهم سألوا بيان حقيقتها بحيث تمتاز عن جميع ما عداها مما تشاركها في الاوصاف المذكورة والاحوال المشروحة في اثناء البيان وكذلك عللوه بقولهم ان البقر تشابه علينا يعنون ان الاوصاف المعدودة يشترك فيها كثير من البقر ولا نهتدي بها الي تشخيص ما هو المامور بها ولذلك لم يقولوا ان البقرة تشابهت علينا بان النعوت المعدودة ليست بمشخصة للمامور بها بل صادقة علي افراد الجنس وقرئ ان الباقر وهو اسم لجماعة البقر والاباقر والبواقر ويتشابه بالياء والتاء ويشابه بطرح التاء والادغام على التذكير والتانيث او تشابهت مخففا ومشددا وتشبه بمعني تتشبه ويشبه بالتذكير ومتشابها ومتشابهة ومشتبه ومشتبهة وفيه دلالة علي انهم ميزوها عن بعض ما عداها في الجملة وانما بقي اشتباه بشرف الزوال كما ينبئ عنه قولهم وانا ان شاء الله لمهتدون مؤكدا بوجوه من التوكيد اي لمهتدون بما سألنا من البيان الي المامور بذبحها وفي الحديث لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الابد قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الارض ولا تسقي الحرث اي لم تذلل للكراب وسقي الحرث ولا ذلول صفة لبقرة بمعني غير ذلول ولا الثانية لتاكيد الاولي والفعلان صفتا ذلول كانه قيل لا ذلول مثيرة وساقية وقرئ لا ذلول بالفتح اي حيث هي كقولك مررت برجل لا بخيل ولا جبان اي حيث هو وقرئ تسقي من اسقي مسلمة اي سلمها الله تعالى من العيوب او اهلها من العمل او اخلص لها لونها من سلم له كذا اذا خلص

له ويؤيده قوله تعالى لا شية فيها اي لا لون فيها يخالف لون جلدها حتى قرنها وظلفها وهي في الاصل مصدر وشاه يشيه وشيا وشية اذا خلط بلونه لونا آخر قالوا عند ما سمعوا هذه النعوت الآن جئت بالحق اي بحقيقة وصف البقرة بحيث ميزتها عن جميع ما عداها ولم يبق لنا في شأنها اشتباه اصلا بخلاف المرتين الاوليين فان ما جئت به فيهما لم يكن في التعيين بهذه المرتبة ولعلهم كانوا قبل ذلك قد رأوها ووجدوها جامعة لجميع ما فصل من الاوصاف المشروحة في المرات الثلاث من غير مشارك لها فيما عد في المرة الاخيرة والا فمن اين عرفوا اختصاص النعوت الاخيرة بها دون غيرها وقرئ آلآن بالمد على الاستفهام والآن بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام فذبحوها الفاء فصيحة كما في فانفجرت اي فحصلوا البقرة فذبحوها وما كادوا يفعلون كاد من افعال المقاربة وضع لدنو الخبر من الحصول والجملة حال من ضمير ذبحوا اي فذبحوها والحال انهم كانوا قبل ذلك بمعزل منه او اعتراض تذييلي ومآله استثقال استقصائهم واستبطاء لهم وانهم لفرط تطويلهم وكثرة مراجعاتهم ما كاد ينتهي خيط اسهابهم فيها قيل مضى من اول الامر الى الامتثال اربعون سنة وقيل وما كادوا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها روي انه كان في بني اسرائيل شيخ صالح له عجلة فاتى بها الغيضة وقال اللهم اني استودعكها لابني حتى يكبر وكان برا بوالديه فشب الفتى وشبت العجلة فكانت من احسن البقر واسمنها فساوموها اليتيم وامه حتى اشتروها بملء مسكها ذهبا لما كانت وحيدة بالصفات المذكورة وكانت البقرة اذ ذاك بثلاثة دنانير واعلم انه لا خلاف في ان مدلول ظاهر النظم الكريم بقرة مطلقة مبهمة وان الامتثال في اول الامر انما وقع بذبح بقرة معينة حتى لو ذبحوا غيرها ما خرجوا عن عهدة الامر لكن اختلف في ان المراد المأمور به اثر ذي اثير هل هو المعينة وقد اخر البيان عن وقت الخطاب او المبهمة ثم لحقها التغيير الى المعينة بسبب تثاقلهم في الامتثال وتماديهم في التعمق والاستكشاف فذهب بعضهم الى الاول تمسكا بان الضماير في الاجوبة اعني انها بقرة الخ للمعينة قطعا ومن قضيته ان يكون في السؤال ايضا كذلك ولا ريب في ان السؤال انما هو عن البقرة المأمور بذبحها فتكون هي المعينة وهو مدفوع بانهم لما تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيى ظنوها معينة خارجة عما عليه الجنس من الصفات والخواص فسألوا عنها فرجعت الضماير الى المعينة في زعمهم واعتقادهم فعينها الله تعالى تشديدا عليهم وان لم يكن المراد من اول الامر هي المعينة والحق انها كانت في اول الامر مبهمة بحيث لو ذبحوا آية كانت لحصل الامتثال بدلالة ظاهر النظم الكريم وتكريرا لامر قبل بيان اللون وما بعده من كونها مسلمة الخ وقد قال عليه السلام لو اعترضوا ادنى بقرة فذبحوها لكفتهم وروي مثله عن رئيس المفسرين عبد الله بن عباس ثم رجع الحكم الاول منسوخا بالثاني والثاني بالثالث تشديدا عليهم لكن على وجه ارتفاع حكم المطلق بالكلية وانتقاله الى المعين بل على طريقة تقييده وتخصيصه به شيئا فشيئا كيف لا ولو لم يكن كذلك لما عدت مراجعاتهم المحكية من قبيل الجنايات بل من قبيل العبادة فان الامتثال بالامر بدون الوقوف على المأمور به مما لا يكاد يتسنى فيكون سؤالا لا انهم من باب الاهتمام بالامتثال واذ قتلتم نفسا منصوب بمضمر كما مرت نظايره والخطاب لليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم واسناد القتل والتدارء اليهم لما مر من نسبة جنايات الاسلاف الى الاخلاف توبيخا وتقريعا وتخصيصهما بالاسناد دون ما مر من ههنا لظهور قبح القتل واسناده الى الغير اي اذكروا وقت قتلكم نفسا محترمة فادارأتم فيها اي تخاصمتم في شأنها اذ كل واحد من الخصماء يدافع الآخر وتدافعتم بان طرح كل واحد قتلها الى الآخر واصله تدارأتم فادغمت التاء في الدال واجتلبت لها همزة الوصل والله مخرج ما كنتم تكتمون اي مظهر لما تكتمونه لا محالة والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار وانما اعمل مخرج لانه حكاية حال ماضية

فقلنا

فقلنا اضربوه عطف على فادارأتم وما بينهما اعتراض والالتفات لتربية المهابة والضمير للنفس والتذكير باعتبار انها عبارة عن الرجل او بتأويل الشخص والقتيل ببعضها اي ببعض البقرة اي بعض كان وقيل باصغريها وقيل بلسانها وقيل بفخذها اليمنى وقيل باذنها وقيل بعجبها وقيل بالعظم الذي يلي الغضروف وهذا اول القصة كما ينبئ عنه الضمير الراجع الى البقرة كانه قيل واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها وانما غير الترتيب عند الحكاية لتكرير التوبيخ وتثنية التقريع فان كل واحد من قتل النفس المحرمة والاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم والافتيات على امره وترك المسارعة الى الامتثال به جناية عظيمة حقيقة بان تنعى عليهم بحيالها ولو حكيت القصة على ترتيب الوقوع لما علم استقلال كل منها بما يخص بها من التوبيخ وانما حكي الامر بالذبح عن موسى عليه السلام مع انه من الله عز وجل كالامر بالضرب لما ان جناياتهم كانت بمراجعتهم اليه عليه السلام والافتيات على رأيه كذلك يحيي الله الموتى على ارادة قول معطوف على مقدر يستدعيه الكلام اي فضربوه فحيي وقلنا كذلك الخ فحذفت الفاء الفصيحة في فحيي مع ما عطف بها وما عطف هو عليه لدلالة كذلك على ذلك فالخطاب في كذلك للحاضرين عند حيوة القتيل ويجوز ان يكون ذلك للحاضرين عند نزول الآية الكريمة فلا حاجة حينئذ الى تقدير القول بل تنتهي الحكاية عند قوله تعالى ببعضها مع ما قدر بعده فالجملة معترضة اي مثل ذلك الاحياء العجيب يحيي الله الموتى يوم القيمة ويريكم آياته ودلائله الدالة على انه تعالى على كل شيء قدير ويجوز ان يراد بالآيات هذا الاحياء والتعبير عنه بالجمع لاشتماله على امور بديعة من ترتب الحيوة على عضو ميت واخباره بقاتله وما يلابسه من الامور الخارقة للعادات لعلكم تعقلون اي لكي تكملوا عقولكم وتعلموا ان من قدر على احياء نفس قدر على احياء الانفس كلها او تعملوا على قضية عقولكم ولعل الحكمة في اشتراط ما اشترط في الاحياء مع ظهور كمال قدرته على احيائه ابتداء بلا واسطة اصلا اشتماله على التقرب الى الله تعالى واداء الواجب ونفع اليتيم والتنبيه على بركة التوكل على الله تعالى والشفقة على الاولاد ونفع بر الوالدين وان من حق الطالب ان يقدم قربة ومن حق المتقرب ان يتحرى الاحسن ويغالي بثمنه كما يروى عن عمر رضي الله عنه انه ضحى بنجيبة اشتراها بثلاثمائة دينار وان المؤثر هو الله تعالى وانما الاسباب امارات لا تأثير لها وان من رام ان يعرف اعدى عدوه الساعي في اماتته الموت الحقيقي فطريقه ان يذبح بقرة نفسه التي هي قوته الشهوية حين زال عنه شره الصبى ولم يلحقها ضعف الكبر وكانت معجبة رائقة المنظر غير مذللة في طلب الدنيا مسلمة عن دنسها لا سمة بها من قبايحها بحيث يتصل اثره الى نفسه فيحيى بها حيوة طيبة ويعرب عما به ينكشف الحال ويرتفع ما بين العقل والوهم من التدارء والجدال ثم قست قلوبكم الخطاب لمعاصري النبي عليه السلام والقسوة عبارة عن الغلظ والجفاء والصلابة في الحجر استعيرت لنبو قلوبهم عن التأثر بالعظات والقوارع التي تميع منها الجبال وتلين بها الصخور وايراد الفعل المفيد لحدوث القساوة مع ان قلوبهم لم تزل قاسية لما ان المراد بيان بلوغهم الى مرتبة مخصوصة من مراتب القساوة حادثة واما لان الاستمرار على شيء بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه امر جديد وصنيع حادث وثم لاستبعاد القسوة بعد مشاهدة ما يزيلها كقوله تعالى ثم الذين كفروا بربهم يعدلون من بعد ذلك اشارة الى ما ذكر من احياء القتيل او الى جميع ما عدد من الآيات الموجبة للين القلوب وتوجهها نحو الحق اي من بعد سماع ذلك وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته وعلو طبقته وتوحيد حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين اما بتأويل الفريق او لان المراد مجرد الخطاب لا تعيين المخاطب كما هو المشهور فهي كالحجارة في القساوة او اشد منها قسوة اي هي في القسوة مثل الحجارة او زايد عليها فيها او انها مثلها او مثل ما هو اشد منها

وصنع بياه

قسوة كالحديد فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه ويعضده القراءة بالجر عطفا على
الحجارة وايراد الجملة اسمية مع كون ما سبق فعلية للدلالة على استمرار قساوة قلوبهم
والفاء اما لتفريع مشابهتها لها على ما ذكر من القساوة تفريع التشبيه على بيان وجه
الشبه في قولك احمر خده فهو كالورد واما للتعليل كما في قولك اعبد ربك فالعبادة
حق له وانما لم يقل واشد قسوة لما في التصريح من الشدة من زيادة مبالغة ودلالة
ظاهرة على اشتراك القسوتين في الشدة واشتمال المفضل على زيادة او على التخيير
او للترديد بمعنى ان من عرف حالها شبهها بالحجارة او بما هو اقسى ومن عرفها شبهها
بالحجارة او قال هي اقسى من الحجارة وترك ضمير المفضل عليه للامن من الالتباس وان من
الحجارة لما يتفجر منه الانهار بيان لاشدية قلوبهم من الحجارة في القساوة
وعدم التاثير واستحالة صدور الخير منها يعني ان الحجارة ربما تتاثر حيث يكون منها
ما يتفجر منه المياه العظيمة وان منها لما يشقق اي يتشقق فيخرج منه الماء اي العيون
وان منها لما يهبط من خشية الله اي يتردى من الاعلى الى الاسفل بقضية
ما اودعه الله عز وجل فيها من الثقل الداعي الى المركز وهو مجاز من الانقياد لامره
تعالى والمعنى ان الحجارة ليس منها فرد الا وهو منقاد لامر الله تعالى آت بما خلق له من
غير استعصا وقلوبهم ليست كذلك فتكون اشد منها قسوة لا محالة واللام في
لما لام الابتداء دخلت على اسم ان لتقدم الخبر وقرئ ان على انها مخففة من
الثقيلة واللام فارقة وقرئ يهبط بالضم وما الله بغافل عما تعملون عن متعلقة
بغافل وما موصولة والعائد محذوف او مصدرية وهو وعيد شديد على ما هم عليه
من قساوة القلوب وما يترتب عليها من الاعمال السيئة وقرئ بالياء على الالتفات
قوله تعالى افتطمعون تلوين للخطاب وصرف له عن اليهود اثر ما عددت هناتهم ونعيت
عليهم جناياتهم الى النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين والهمزة لانكار
الواقع واستبعاده كما في قولك اتضرب اباك لا لانكار الوقوع كما في قوله اضرب ابي
والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه نظام الكلام لكن لا على
توجيه الانكار الى المعطوفين معا كما في افلا تبصرون على تقدير المعطوف منفيا
اي الا تنظرون فلا تبصرون فالمنكر كلا الامرين بل الى ترتب الثاني على الاول مع وجوب
ان يترتب عليه نقيضه كما اذا قدر الاول مثبتا اي اتنظرون فلا تبصرون فالمنكر
ترتب الثاني على الاول مع وجوب ان يترتب عليه نقيضه اي اتسمعون اخبارهم
وتعلمون احوالهم فتطمعون ومآل المعنى ابعد ان علمتم تفاصيل شؤونهم المؤيسة
عنهم تطمعون ان يؤمنوا فانهم متمادون في شدة الشكيمة والاخلاق الذميمة
لا يتأتى من اخلافهم الا مثل ما اتى من اسلافهم وان مصدرية حذف عنها الجار
والاصل في ان يؤمنوا وهي مع ما في حيزها في محل النصب والجر على الخلاف المعروف
واللام في لكم لتضمين معنى الاستجابة كما في قوله عز وجل فآمن له لوط اي في
ايمانهم مستجيبين لكم او للتعليل اي في ان يحدثوا الايمان لاجل دعوتكم وصلة
الايمان محذوفة لظهور ان المراد به معناه الشرعي وستقف على ما فيه من المزية
باذن الله تعالى وقد كان فريق منهم الفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه كالرهط
والقوم والجار والمجرور في محل الرفع على انه صفة لفريق اي فريق كائن منهم وقوله تعالى
يسمعون كلام الله خبر كان وقرئ كلم الله والجملة حالية مؤكدة للانكار حاسمة
لمادة الطمع مثل احوالهم الشنيعة المحكية فيما سلف على منهاج قوله تعالى وهم لكم
عدو بعد قوله تعالى افتتخذونه وذريته اولياء من دوني اي والحال ان طائفة
منهم قال ابن عباس رضي الله عنهم قوم من السبعين المختارين للميقات كانوا يسمعون
كلامه سبحانه حين كلم موسى عليه السلام بالطور وما امر به ونهى عنه ثم يحرفونه عن
مواضعه لا لقصور فهمهم عن الاحاطة بتفاصيله على ما ينبغي لاستيلاء الدهشة
والمهابة حسبما يقتضيه مقام الكبرياء بل من بعد ما عقلوه اي فهموه وضبطوه بعقولهم

ولم تبق لهم في مضمونه ولا في كونه رب العزة ريبة اصلا فلما رجعوا الى
قومهم اداه الصادقون اليهم كما سمعوا وهؤلاء قالوا سمعنا الله تعالى يقول
في اخر كلامه ان استطعتم ان تفعلوا هذه الاشياء فافعلوا وان شئتم فلا تفعلوا فلا
بأس فثم لتراخي الزمان او الرتبة وقال القفال رحمه الله سمعوا كلام الله وعقلوا مراده
تعالى منه فاولوه تاويلا فاسدا وقيل هم رؤساء اسلافهم الذين تولوا تحريف التورية
بعد ما احاطوا بما فيها علما وقيل هم الذين غيروا نعت النبي صلى الله عليه وسلم
في عهده وبدلوا اية الرجم ويأباه الجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل الدال على وقوع
السماع والتحريف فيما سلف الا ان يحمل ذلك على تقدمه على زمان نزول الاية الكريمة
لا على تقدمه على عهده صلى الله عليه وسلم هذا والاول هو الانسب بالسماع والكلام
اذ التورية وان كانت كلام الله عز وعلا لكنها باسم الكتاب اشهر واثر التحريف فيه
اظهر ووصف اليهود بتلاوتها اكثر لا سيما رؤساؤهم المباشرون للتحريف فان وظيفتهم
التلاوة دون السماع فكان الانسب حينئذ ان يقال يتلون كتاب الله تعالى فالمعنى افتطمعون في ان
يؤمن هؤلاء بواسطتكم ويستجيبوا لكم والحال ان اسلافهم الذين فعلوا لهم في حلال
السوء كانوا يسمعون كلام الله تعالى بلا واسطة ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه اي ما علموه يقينا ولا
يستجيبون له هيهات ومن ههنا ظهر ان ايثار لكم على بالله من الفخامة والجزالة
قوله عز وعلا وهم يعلمون انهم كاذبون ومفترون واذا لقوا جملة مستأنفة
سيقت اثر بيان ما صدر عن اشباههم لبيان ما صدر عنهم بالذات من الشنايع
المؤيسة عن ايمانهم من نفاق بعض وعتاب آخرين عليهم او معطوفة على ما سبق
من الجملة الحالية والضمير لليهود لما ستقف على سره لا لمنافقيهم خاصة كما قيل تحرزا
لاتحاد الفاعل في فعلي الشرط والجزاء حقيقة الذين امنوا من اصحاب النبي صلى الله
عليه وسلم قالوا اي اللاقون لكن لا بطريق تصدي الكل للقول حقيقة بل بمباشرة
منافقيهم وسكوت الباقين كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد منهم وهذا ادخل
في تقبيح حال الساكتين اولا لما تبين ثانيا لما فيه من الدلالة على نفاقهم واختلاف
احوالهم وتناقض ارائهم من اسناد القول الى المباشرين خاصة بتقدير المضاف
اي قال منافقوهم امنا لم يقتصروا على ذلك بل عللوه بانهم وجدوا نعت النبي
صلى الله عليه وسلم في التورية وعلموا انه النبي المبشر به وانما لم يصرح به تعويلا على
شهادة التوبيخ الاتي واذا خلا بعضهم الى بعض المذكورين وهم اي الساكتون منهم
اذا فرغوا عن الاشتغال بالمؤمنين متوجهين ومنضمين الى بعض اخر منهم وهم
منافقوهم بحيث لم يبق معهم غيرهم وهذا نص على اشتراك الساكتين في لقاء
المؤمنين كما اشير اليه انفا اذ الخلو انما يكون بعد الاشتغال ولان عتابهم معلق
بمحض الخلو ولولا انهم حاضرون عند المقاولة لوجب ان يجعل سماعهم لها من
تمام الشرط ولان فيه زيادة تشنيع لهم على ما اتوا من السكوت ثم العتاب قالوا اي
الساكتون موبخين لمنافقيهم على ما صنعوا اتحدثونهم يعنون المؤمنين
بما فتح الله عليكم ما موصولة والعائد محذوف اي بينه لكم خاصة في التورية
من نعت النبي صلى الله عليه وسلم والتعبير عنه بالفتح للايذان بانه سر مكنون
وباب مغلق لا يقف عليه احد وتجويز كون هذا التوبيخ من جهة المنافقين لاعقابهم
اراءة للتصلب في دينهم كما ذهب اليه عصابة مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل
واللام في قوله عز وجل ليحاجوكم به متعلقة بالتحديث دون الفتح والمراد
تأكيد النكير وتشديد التوبيخ فان التحديث بذلك وان كان منكرا في نفسه لكن التحديث
به لاجل هذا الغرض مما لا يكاد يصدر عن العاقل اي اتحدثونهم بذلك ليحتجوا
عليكم به فيبكتوكم والمحدثون به وان لم يحوموا حول ذلك الغرض لكن فعلهم
ذلك لما كان مستتبعا له البتة جعلوا فاعلين للغرض المذكور اظهارا لكمال سخافة
عقولهم وركاكة ارائهم عند ربكم اي في حكمه وكتابه كما يقال هو عند الله

كذا في كتابه وشرعه وقيل عند ربكم يوم القيمة ورد عليه بان الاخفاء لا يدفعه اذ هم عالمون بانهم محجوبون يومئذ حدثوا به ولم يحدثوا والاعتذار بان الزام المؤمنين اياهم وتبكيتهم بان يقولوا لهم تحدثونا بما في كتابكم في الدنيا من حقية ديننا وصدق نبينا اخش فيجوز ان يكون المحذور عندهم هذا الالزام بارجاع الضمير في به الى التحديث دون المحدث به ولا ريب في انه مدفوع بالاخفاء لا يساعده الآية الكريمة الآتية كما ستقف عليه باذن الله عز وجل افلا تعقلون من تمام التوبيخ والعتاب والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام اي الا تلاحظون فلا تعقلون هذا الخطاء الفاحش وشيئا من الاشياء التي من جملتها هذا فالمنكر عدم التعقل بعد الفعل هذا واما ما قيل من انه خطاب من جهة الله سبحانه للمؤمنين متصل بقوله تعالى افتطمعون والمعنى افلا تعقلون حالهم وان لا مطمع لكم في ايمانهم فيأباه قوله تعالى اولا يعلمون فانه الى آخره تجهيل لهم من جهته تعالى فيما حكى عنهم فيكون توسيط خطاب المؤمنين في اثنائه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه على ان في تخصيص الخطاب بالمؤمنين من التعسف وفي تعميمه للنبي ايضا صلى الله عليه وسلم كما في اتطمعون من سوء الادب ما لا يخفى والهمزة للانكار والتوبيخ كما قبلها والواو للعطف على مقدر ينساق اليه الذهن والضمير للموبخين اي ايلومونهم على التحديث المذكور مخافة المحاجة ولا يعلمون ان الله يعلم ما يسرون اي يسرونه فيما بينهم من المؤمنين او ما يضمرونه في قلوبهم فيثبت الحكم في ذلك بالطريق الاولى وما يعلنون اي يظهرونه للمؤمنين او لاصحابهم حسبما سبق فحينئذ يظهر الله تعالى للمؤمنين ما ارادوا اخفاءه بواسطة الوحي الى النبي صلى الله عليه وسلم فيحصل المحاجة ويقع التبكيت كما وقع في آية الرجم وتحريم بعض المحرمات عليهم فاي فائدة في اللوم والعتاب ومن ههنا تبين ان المحذور هو المحاجة بما فتح الله عليهم وهي حاصلة في الدارين حدثوا به ام لا لا بالتحديث به حتى يندفع بالاخفاء وقيل الضمير للمنافقين فقط او لهم وللموبخين او لا بانهم المحرفين اي اتفعلون ما تفعلون ولا يعلمون ان الله يعلم جميع ما يسرون وما يعلنون ومن جملته اسرارهم الكفر واظهارهم الايمان واخفاء ما فتح الله عليهم واظهار غيره وكتم امر الله واظهار ما اظهروه افتراء وانما قدم الاسرار على الاعلان للايذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من اول الامر والمبالغة في بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات كان علمه بما يسرونه اقدم منه بما يعلنونه مع كونهما في الحقيقة على السوية فان علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل شيء في نفسه علم بالنسبة اليه تعالى وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الاشياء البارزة والكامنة ونظيره قوله عز وعلا قل ان تخفوا ما في انفسكم او تبدوه يعلمه الله حيث قدم فيه الاخفاء على الابداء لما ذكر من السر على عكس ما وقع في قوله تعالى وان تبدوا ما في انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله فان الاصل في تعلق المحاسبة به هو الامور البادية دون الخافية ويجوز ان يكون ذلك باعتبار ان مرتبة السر مقدمة على مرتبة العلن اذ ما من شيء يعلن الا هو او مباديه قبل ذلك مضمر في القلب يتعلق به الاسرار غالبا فتعلق علمه تعالى بحالته الاولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية ومنهم اميون وقرئ بتخفيف الياء جمع امي وهو لا يقدر على الكتابة والقراءة واختلف في نسبته فقيل الى الام بمعنى انه شبيه بها في الجهل بالكتابة والقراءة فانهما ليستا من شؤون النساء بل من خلال الرجال او بمعنى انه باق على سذاجتها خال عن معرفة الاشياء كقولهم عامي اي على عادة العامة روي عن عكرمة والضحاك ان المراد بهم نصارى العرب وقيل هم قوم من اهل الكتاب رفع كتابهم لذنوب ارتكبوها فصاروا اميين وعن علي رضي الله عنه هم المجوس والحق الذي لا محيد عنه انهم جهلة اليهود والجملة مستأنفة مسوقة لبيان قبائحهم اثر

بيان شنايع الطوايف السالفة وقيل هي معطوفة على الجملة الحالية فان مضمونها مناف لرجاء الخير منهم وان لم يكن فيه ما يحسم مادة الطمع عن ايمانهم كما هو مضمون الجملة الحالية وما بعدها فان الجهل بالكتاب في منافاة الايمان ليس بمثابة تحريف كلام الله بعد سماعه والعلم بمعانيه كما وقع من الاولين او النفاق والنهي عن اظهار ما في التورية كما وقع من الفرقتين الاخريين اي ومنهم طايفة جهلة غير قادرين على الكتابة والتلاوة لا يعلمون الكتاب اي لا يعرفون التورية ليطالعوها ويتحققوا ما في تضاعيفها من دلايل النبوة فيؤمنوا الكتاب على الكتابة يأباه سياق النظم وسباقه الا اماني بالتشديد وقرئ بالتخفيف جمع امنية اصلها امنوية افعولة من منى قدر او بمعنى تلا كما في قوله تمنى كتاب الله اول ليلة فاعلت اعلال سيد وميت ومعناها على الاول ما يقدره الانسان في نفسه ويتمناه وعلى الثاني ما يتلوه وعلى التقديرين فالاستثناء منقطع اذ ليس ما يتمنى وما يتلى من جنس علم الكتاب اي لا يعلمون الكتاب لكن يتمنون اماني حسبما منتهم احبارهم من ان الله سبحانه يعفو عنهم وان اباءهم الانبياء يشفعون لهم وغير ذلك من اماينهم الفارغة المستندة الى الكتاب على زعم رؤسائهم او لا يعلمون الكتاب لكن يتلقونه قدر ما يتلى عليهم فيقبلونه من غير ان يتمكنوا من التدبر فيه واما حمل الاماني على الاكاذيب المختلفة على الاطلاق من غير ان يكون لها ملابسة بالكتاب فلا يساعده النظم الكريم وان هم الا يظنون ما هم الا قوم قصارى امرهم الظن والتقليد من غير ان يصلوا الى رتبة العلم فاني يرجى منهم الايمان المؤسس على قواعد اليقين ولما بين هؤلاء في تمسكهم بحبال الاماني واتباع الظن عقب ببيان حال الذين اوقعوهم في تلك الورطة وبكشف كيفية اضلالهم لهم وتعيين مرجع الكل بالاخرة فقيل على وجه الدعاء عليهم فويل هو وامثاله من ويح وويس وويب وويك وعول من المصادر المنصوبة بافعال من غير لفظها لا يجوز اظهارها البتة فان اضيف نصب نحو ويلك وويحك واذا فصل عن الاضافة رفع نحو ويل له ومعنى الويل شدة الشر قاله الخليل وقال الاصمعي الويل التفجع والويح الترحم وقال سيبويه ويل لمن وقع في الهلكة وويح لمن اشرف على الهلاك وقيل الويل الحزن وهل ويح وويب وويس بذلك المعنى او بينه وبينها فرق وقيل ويل في الدعاء عليه وويح وما بعده في الترحم عليه وقال ابن عباس رضي الله عنه الويل العذاب الاليم وعن سفيان الثوري انه صديد اهل جهنم وروى ابو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر اربعين خريفا قبل ان يبلغ قعره وقال سعيد ابن المسيب انه واد في جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لماعت من شدة حره وقال ابن بريدة جبل قيح ودم وقيل صهريج في جهنم وحكى الزهراوي انه باب من ابواب جهنم وعلى كل حال فهو مبتدأ خبره قوله عز وعلا للذين يكتبون الكتاب اي المحرف او ما كتبوه من التاويلات الزايغة بايديهم تاكيد لدفع توهم المجاز كقولك كتبته بيميني ثم يقولون هذا اي جميعا على الاول وخصوصه على الثاني من عند الله روي ان احبار اليهود خافوا ذهاب ماكلهم وزوال رياستهم حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فاحتالوا في تعويق اسافل اليهود عن الايمان فعمدوا الى صفة النبي صلى الله عليه وسلم في التورية وكانت هي فيها حسن الوجه حسن الشعر اكحل العينين ربعة فغيروها وكتبوا مكانها طوال ازرق سبط الشعر فاذا سألهم سفلتهم عن ذلك قرؤا عليهم ما كتبوا فيجدونه مخالفا لصفته عليه السلام فيكذبونه وثم للتراخي الرتبي فان نسبة المحرف والتاويل الزايغ الى الله تعالى سبحانه صريحا اشد شناعة من نفس التحريف والتاويل ليشتروا به اي ياخذوا لانفسهم بمقابلته ثمنا هو ما اخذوه من الرشى بمقابلة ما فعلوا من التحريف والتاويل وانما عبر عن المشترى الذي هو المقصود بالذات في عقد المعاوضة بالثمن الذي هو وسيلة فيه ايذانا بتعكيسهم حيث جعلوا المقصود بالذات وسيلة والوسيلة مقصودا بالذات قليلا لا يعبأ به

فان ذلك وان جلّ في نفسه فهو اقل قليل عند ما استوجبوا به من العذاب الخالد
فويل لهم تكرير لما سبق للتاكيد وتصريح بتعليله بما قدمت ايديهم بعد الاشعار به فيما
سلف بايراد بعضه في حيز الصلة وبعضه في معرض الغرض والفاء للايذان بترتبه عليه
ومن في قوله عز وجل مما كتبت ايديهم تعليلية متعلقة بويل او بالاستقرار في الخبر
وما موصولة اسمية والعائد محذوف اي كتبته او مصدرية والاول ادخل في الزجر
عن تعاطي المحرّف والثاني في الزجر عن التحريف وويل لهم مما يكسبون الكلام فيه
كالذي فيما قبله والتكرير لما مرّ من التاكيد والتشديد والقصد الي التعليل بكل من
الجنايتين وعدم التعرض لقولهم هذا من عند الله لما انه من مبادي ترويج ما كتبت
ايديهم فهو داخل في التعليل به وقالوا بيان لبعض آخر من جناياتهم وفصله عما
قبله مشعر بكونه من الاكاذيب التي اختلقوها ولم يكتبوها في الكتاب لن تمسنا النار
في الاخرة الا اياما معدودة قليلة محصورة عددا ايام عبادتهم العجل اربعين
يوما غيبة موسى عليه السلام عنهم وحكي الاصمعي عن بعض اليهود ان عدد ايام عبادتهم
العجل سبعة ايام وروي عن ابن عباس ومجاهد ان اليهود قالوا عمر الدنيا سبعة الاف
سنة وانما نعذب بكل الف سنة يوما واحدا وروي الضحاك عن ابن عباس رضه ان
اليهود زعمت انهم وجدوا في التورية ان ما بين طرفي جهنم مسيرة اربعين سنة
الي ان ينتهوا الي شجرة الزقوم وانهم يقطعون في كل يوم مسيرة سنة فيكملونها
قل تبكيتا لهم وتوبيخا اتخذتم باسقاط الهمزة المجتلبة لوقوعها في الدرج وباظهار
الذال وقرئ بادغامها في التاء عند الله عهدا خبرا او وعدا بما تزعمون فان ما
تدعون لا يكون الا بناء علي وعد قوي ولذلك عبر عنه بالعهد فلن يخلف الله عهده
الفاء فصيحة معربة عن شرط محذوف كما في قول من قال قالوا خراسان اقصى ما يراد
بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا اي ان كان الامر كذلك فلن يخلفه والجملة
اعتراضية والاسم الجليل للاشعار بعلة الحكم فان عدم الاخلاف من قضية
الوهية واظهار العهد مضافا الي ضميره عز وجل لما ذكر ولان المراد به جميع عهوده
لعمومه بالاضافة فيدخل فيه العهد المعهود دخولا اوليا وفيه تجاف عن التصريح
بتحقق مضمون كلامهم وان كان معلقا بما لم يكد يشم رائحة الوجود قطعا
اعني اتخاذ العهد ام تقولون مفترين علي الله ما لا تعلمون وقوعه وانما علق
التوبيخ باسنادهم اليه سبحانه ما لا يعلمون وقوعه مع ان ما اسندوه اليه تعالي
من قبيل ما يعلمون عدم وقوعه للمبالغة في التوبيخ والتنكير فان التوبيخ علي الادني
مستلزم للتوبيخ علي الاعلي بطريق الاولي وقولهم المحكي وان لم يكن تصريحا بالافتراء
عليه سبحانه لكنه مستلزم له لان ذلك الجزم لا يكون الا باسناد سببه اليه تعالي وام اما
ام متصلة والاستفهام للتقرير المؤدي الي التبكيت لتحقق العلم بالشق الاخير كانه
قيل ام لم تتخذوه بل تتقولون عليه تعالي واما منقطعة والاستفهام لانكار
الاتخاذ ونفيه ومعني بل فيها الاضراب والانتقال من التوبيخ بالانكار علي
اتخاذ العهد الي ما تفيده همزتها من التوبيخ علي التقول علي الله سبحانه كما في قوله
عز وعلا قل الله اذن لكم ام علي الله تفترون بلي اي الامر جواب عن قولهم المحكي و
ابطاله من جهته تعالي وبيان لحقيقة الحال تفصيلا في ضمن تشريع كلي شامل لهم ولساير
الكفرة بعد اظهار كذبهم اجمالا وتفويض ذلك الي النبي صلى الله عليه وسلم لما ان المحاجة
والالزام من وظائفه عليه السلام مع ما فيه من الاشعار بانه امر هين لا يتوقف
علي التوقيف وبلي حرف ايجاب مختص بجواب النفي خبرا واستفهاما من كسب سيئة
فاحشة من السيئات اي كبيرة من الكباير ككذب هؤلاء الكفرة والكسب استجلاب
النفع وتعليقه بالسيئة علي طريقة فبشرهم بعذاب اليم واحاطت به من جميع جوانبه
بحيث لم يبق له جانب من قلبه ولسانه وجوارحه الا وقد اشتملت واستولت عليه
خطيئته التي كسبها وصارت خاصة من خواصه كما ينبئ عنه الاضافة اليه وهذا انما

بتحقق

بدل
المجتلبة

يتحقق في الكافر ولذلك فسرها السلف بالكفر حسبما اخرجه ابن ابي حاتم عن ابن عباس رضه
وابي هريرة وابن جرير عن ابي وائل ومجاهد وقتادة وعطاء والربيع وقيل السيئة الكفر
والخطيئة الكبيرة وقيل بالعكس وقيل الفرق بينهما ان الاولي قد تطلق علي ما يقصد
بالذات والثانية تغلب علي ما يقصد بالعرض لانها من الخطاء وقرئ خطيته وخطياته
علي القلب والادغام فيهما وخطيئاته وخطاياه وفي ذلك ايذان بكثرة فنون
كفرهم فاولئك مبتداء اصحاب النار خبره والجملة خبر المبتداء والفاء لتضمنه معني
الشرط وايراد اسم الاشارة المنبئ عن استحضار المشار اليه بما له من الاوصاف
للاشعار بعليتها لصاحبية النار وما فيه من معني البعد للتنبيه علي بعد منزلتهم
في الكفر والخطايا وانما اشير اليهم بعنوان الجمعية مراعاة بجانب المعني في كلمة من
بعد مراعاة جانب اللفظ في الضماير الثلاثة لما ان ذلك هو المناسب لما اسند اليهم
في تينك الحالتين فان كسب السيئة واحاطت خطيئته به في حالة الانفراد وصاحبية
النار في حالة الاجتماع اي اولئك الموصوفون بما ذكر من كسب السيات واحاطة
خطاياهم بهم اصحاب النار اي ملازموها في الاخرة حسب ملازمتهم في الدنيا
لما يستوجبها من الاسباب التي من جملتها ما هم عليه من تكذيب ايات الله تعالي وتحريف
كلامه والافتراء عليه وغير ذلك وانما لم يخص الجواب بحالهم بان يقال مثلا بلي انهم
اصحاب النار الخ لما في التعميم من التهويل وبيان حالهم بالبرهان والدليل مع ما مر
من قصد الاشعار بالتعليل هم فيها خالدون دائما ابدا فاني لهم التفصي
عنها بعد خلود سبعة ايام او اربعين كما زعموا فلا حجة في الاية الكريمة علي
صاحب الكبيرة لما عرفت من اختصاصها بالكافر ولا حاجة الي حمل الخلود علي اللبث الطويل
علي ان فيه تهوين الخطب في مقام التهويل والذين امنوا وعملوا الصالحات اولئك
اصحاب الجنة هم فيها خالدون جرت السنة الالهية علي شفع الوعد بالوعيد
مراعاة لما يقتضيه الحكمة في ارشاد العباد من الترغيب تارة والترهيب اخري و
التبشير مرة والانذار اخري واذ اخذنا ميثاق بني اسرائيل شروع في تعداد
بعض اخر من قبايح اسلاف اليهود مما ينادي بعدم ايمان اخلافهم وكلمة اذ نصب
باضمار فعل خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ليؤديهم التامل في
احوالهم الي قطع الطمع عن ايمانهم اي اليهود الموجودون في عهد النبوة توبيخا
لهم بسوء صنيع اسلافهم اي اذكروا اذ اخذنا ميثاقهم لا تعبدون الا الله علي ارادة
القول اي وقلنا او قائلين لا تعبدون الخ وهو اخبار في معني النهي كقوله تعالي
ولا يضار كاتب ولا شهيد وكما تقول تذهب الي فلان وتقول كيت وكيت وهو ابلغ
من صريح النهي لما فيه من اعتناء بشأن المنهي حتى كانه سارع الي الانتهاء عما نهي
عنه فكانه انتهي عنه فيخبر به الناهي ويؤيده قراءة لا تعبدوا وعطف قوله عليه
وقيل تقديره ان لا تعبدوا الخ فحذف الناصب ورفع الفعل كما في قوله الا ايهذا
الزاجري احضر الوغي وان اشهد اللذات هل انت مخلدي ويعضده قراءة ان
لا تعبدوا فيكون بدلا من الميثاق او معمولا بحذف الجار وقيل انه جواب قسم
دل عليه المعنى كانه قيل وحلفناهم كانه قيل لا تعبدوا الا الله وقرئ بالياء
لانهم غيب وبالوالدين احسانا متعلق بمضمر اي وتحسنون او احسنوا
وذي القربي واليتامي والمساكين عطف علي الوالدين ويتامي جمع يتيم كندامي جمع
نديم وهو قليل ومسكين مفعيل من السكون كان الفقر اسكنه عن الحراك واثخنه
عن التقلب وقولوا للناس حسنا اي قولا حسنا سماه حسنا مبالغة وقرئ كذلك
وحسنا بضمتين وهي لغة اهل الحجاز وحسني كبشري والمراد به ما فيه تخلق وارشاد واقيموا
الصلوة واتوا الزكوة هما ما فرض عليهم في شريعتهم ثم توليتم ان جعلناه ظرف
خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فهذا التفات الي خطاب بني اسرائيل جميعا
بتغليب اخلافهم علي اسلافهم لجريان ذكرهم كلهم حينئذ علي نهج الغيبة فان الخطابات

فان قيل التوبيخ والاعراض واحد فكيف قال الا قليلا منكم وانتم معرضون قلنا معناه ثم توليتم عن الوفاء بالميثاق والعهد وانتم معرضون عن التدبر والنظر في عاقبة ذلك
اسعد القران

السابقة لاسلافهم محكية داخلة في حيز القول المقدر قبل لا تعبدون كانهم استحضروا
عند ذكر جناياتهم فنعيت هي عليهم وان جعل خطابا لليهود المعاصرين لرسول الله
صلي الله عليه وسلم فهذا تعميم للخطاب بتنزيل الاسلاف منزلة الاخلاف كما انه
تعميم للتوبيخ بتنزيل الاخلاف منزلة الاسلاف للتشديد في التوبيخ اي اعرضتم عن المضي
علي مقتضي الميثاق ورفضتموه الا قليلا منكم وهم من الاسلاف من اقام اليهودية
علي وجهها قبل النسخ ومن الاخلاف من اسلم كعبد الله بن سلام واضرابه وانتم
معرضون جملة تذييلية اي وانتم قوم عادتكم الاعراض عن الطاعة ومراعاة
حقوق الميثاق واصل الاعراض الذهاب عن المواجهة والاقبال الي جانب العرض واذ اخذنا ميثاقكم
منصوب بفعل مضمر خوطب به اليهود قاطبة علي ما ذكر من التغليب ونعي عليهم اخلالهم
بمواجب الميثاق الماخوذ منهم في حقوق العباد علي طريقة النهي اثر بيان ما فعلوا بالميثاق
الماخوذ منهم في حقوق الله سبحانه وما يجري مجراه علي سبيل الامر فان المقصود الاصلي من النهي عن
عبادة غير الله تعالي هو الامر بتخصيص العبادة به تعالي اي واذكروا وقت اخذنا ميثاقكم في التوراة
وقوله تعالي لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم كما قبله اخبار في معني
النهي غير المسبك اليه لما ذكر من نكتة المبالغة والمراد به النهي الشديد عن تعرض بعض بني اسرائيل لبعض
بالقتل والاجلاء والتعبير عن ذلك بسفك الدماء دماء انفسهم واخراجها من ديارهم
بناء علي جريان كل واحد مجري انفسهم لما بينهم من الاتصال القوي نسبا ودينا للمبالغة
في الحمل علي مراعاة حقوق الميثاق بتصوير المنهي عنه بصورة تكرهها كل نفس وتنفر عنها كل
طبيعة فضمير انفسكم للمخاطبين حتما اذ به يتحقق تنزيل المخرجين منزلتهم كما ان ضمير
دياركم للمخرجين قطعا اذ المحذور انما هو اخراجهم من ديارهم لا من ديار المخاطبين من حيث انهم
مخاطبون كما يفصح عنه ما سياتي من قوله تعالي من ديارهم وانما الخطاب ههنا باعتبار تنزيل

بناءً صح

ديارهم منزلة ديار المخاطبين بناء علي تنزيل انفسهم منزلتهم لتاكيد المبالغة وتشديد التشنيع
واما ضمير دماءكم فيحتمل للوجهين مفاد الاول كون المسفوك دماء ادعائية للمخاطبين
حقيقة ومفاد الثاني كونه دماء حقيقية للمخاطبين ادعاء وهما متقاربان في افادة
المبالغة فتدبر واما ما قيل من ان المعني لا تباشروا ما يؤدي الي قتل انفسكم قصاصا
او ما يبيح سفك دماءكم واخراجكم من دياركم او لا تفعلوا ما يرديكم ويصرفكم
عن الحيوة الابدية فانه القتل في الحقيقة ولا تقترفوا ما تحرمون به عن الجنة التي هي
داركم فانه الجلاء الحقيقي فمما لا يساعده النظم الكريم بل هو نص فيما قلناه كما ستقف عليه
ثم اقررتم اي بالميثاق بوجوب المحافظة عليه وانتم تشهدون توكيد للاقرار
كقولك اقر فلان شاهدا علي نفسه وقيل وانتم ايها الحاضرون تشهدون اليوم
علي اقرار اسلافكم بهذا الميثاق ثم انتم هؤلاء خطاب خاص بالحاضرين فيه توبيخ
وتشديد واستبعاد قوي لما ارتكبوه بعد ما كان من الميثاق والاقرار به والشهادة
عليه فانتم مبتدء وهؤلاء خبره ومناط الافادة اختلاف الصفات المنزلة منزلة اختلاف
الذات والمعني انتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون الناقضون المتناقضون حسبما يعرب
عنه الجمل الاتية فان قوله عز وجل تقتلون انفسكم الخ بيان له وتفصيل لاحوالهم
المنكرة المندرجة تحت الاشارة ضمنا كانهم قالوا كيف نحن فقيل تقتلون انفسكم
اي الجارين مجري انفسكم كما اشير اليه وقرئ تقتلون بالتشديد للتكثير وتخرجون
فريقا منكم الضمير اما للمخاطبين والمضاف محذوف اي من انفسكم واما للمقتولين والخطاب
باعتبار انهم جعلوا انفس المخاطبين والا فلا يتحقق التكافؤ بين المقتولين والمخرجين
في ذلك العنوان الذي عليه يدور ذلك المبالغة في تاكيد الميثاق حسبما نص عليه
ولاظهار كمال قباحة جنايتهم في نقضه من ديارهم الضمير للفريق وايثار الغيبة
مع جواز الخطاب ايضا بناء علي اعتبار العنوان المذكور كما مر في الميثاق للاحتراز
عن توهم كون المراد اخراجهم من ديار المخاطبين من حيث هي ديارهم لا من حيث هي
ديار المخرجين وقيل هؤلاء موصول والجملتان في حيز الصلة والمجموع هو الخبر لانتم

تظاهرون عليهم بحذف احدي التائين وقرئ باثباتهما وبالادغام وتظهرون
بطرح عند التائين من تتظهرون ومعني الكل تتعاونون وهو حال من فاعل تخرجون
او من مفعوله او منهما جميعا مبينة لكيفية الاخراج دافعة لتوهم اختصاص الحرمة
بالاخراج بطريق الاصالة والاستقلال دون المظاهرة والمعاونة بالاثم متعلق
بتظاهرون حال من فاعله اي ملتبسين بالاثم وهو الفعل الذي يستحق فاعله الذم
واللوم وقيل هو ما يتنفر عنه النفس ولا يطمئن اليه القلب والعدوان وهو التجاوز
في الظلم وان ياتوكم اسارى جمع اسير وهو من يوخذ قهرا فعيل بمعني مفعول
من الاسر اي الشد او جمع اسري وهو جمع اسير كجرحي وجريح وقرئ اسري ومحله
النصب علي الحالية تفادوهم اي تخرجوهم من الاسر باعطاء الفداء وقرئ
تفدوهم قال السدي ان الله تعالي اخذ علي بني اسرائيل في التوراة ان لا يقتل بعضهم
بعضا ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم وايما عبد او امة وجد تموه من بني اسرائيل
فاشتروه واعتقوه وكانت قريظة حلفاء الاوس والنضير حلفاء الخزرج حين كان
بينهما ما كان من العداوة والشنان فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه فاذا غلبوا خربوا
ديارهم واخرجوهم منها ثم اذا اسر رجل من الفريقين جمعوا له مالا فيفدونه فعيرتهم
العرب وقالت كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم فيقولون امرنا ان نفديهم وحرم
علينا قتالهم ولكنا نستحيي ان نخذل حلفاءنا فذمهم الله تعالي علي المناقضة وهو
محرم عليكم اخراجهم هو ضمير الشان وقع مبتداء ومحرم فيه ضمير قائم مقام الفاعل
وقع خبرا من اخراجهم والجملة خبر لضمير الشان وقيل محرم خبر لضمير الشان واخراجهم
مرفوع علي انه مفعول ما لم يسم فاعله وقيل الضمير مبهم تفسره اخراجهم او راجع الي ما يدل
عليه تخرجون من المصدر واخراجهم تاكيد او بيان والجملة حال من الضمير في تخرجون
او من فريقا او منهما كما مر بعد اعتبار التقييد بالحال السابقة وتخصيص بيان الحرمة
ههنا بالاخراج مع كونه قرينا للقتل عند اخذ الميثاق لكونه مظنة للمساهلة في
امره بسبب قلة خطره بالنسبة الي القتل ولان مساق الكلام لذمهم وتوبيخهم علي
جناياتهم وتناقض افعالهم معا وذلك مختص بصورة الاخراج حيث لم ينقل عنهم
تدارك القتلي بشيء من دية او قصاص وهو السر في تخصيص التظاهر به فيما سبق وا

مع صح

تاخيره من الشرطية المعترضة ان حقه التقديم كما ذكره الواحدي فالان نظم افاعيلهم
المتناقضة في سمط واحد من الذكر ادخل في اظهار بطلانها افتؤمنون ببعض
الكتاب اي التورية التي اخذ فيها الميثاق المذكور والهمزة للانكار المذكور التوبيخي
والفاء للعطف علي مقدر يستدعيه المقام اي تفعلون ذلك فتؤمنون ببعض الكتاب
وهو المفاداة وتكفرون ببعض وهو حرمة القتال والاخراج مع ان من قضية الايمان
ببعضه الايمان بالباقي لكون الكل من عند الله داخلا في الميثاق فمناط التوبيخ كفرهم
بالبعض مع ايمانهم بالبعض حسبما يفيده ترتيب النظم الكريم فان التقديم يستدعي
في المقام الخطابي اصالة المقدم وتقدمه بوجه من الوجوه حتما واذ ليس ذلك ههنا
باعتبار الانكار والتوبيخ عليه فهو باعتبار الوقوع قطعا لا لايمانهم بالبعض مع كفرهم
بالبعض كما هو المفهوم لو قيل افتكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض ولا مجرد

المفهوم

كفرهم بالبعض وايمانهم بالبعض كما يفيده ان يقال افتجمعون بين الايمان ببعض الكتاب
والكفر ببعض او بالعكس فما جزاء من يفعل ذلك ما نافية ومن ان جعلت موصولة
فلا محل ليفعل من الاعراب وان جعلت موصوفة فمحله الجر علي انه صفتها وذلك
اشارة الي الكفر ببعض الكتاب مع الايمان ببعض او الي ما فعلوا من القتل والاجلاء
مع مفاداة الاسارى منكم حال من فاعل يفعل الا خزي استثناء مفرغ وقع خبرا
للمبتداء والخزي الذل والهوان مع الفضيحة والتنكير للتفخيم وهو قتل بني قريظة
واجلاء بني النضير الي اذرعات واريحا من الشام وقيل الجزية في الحيوة الدنيا في
حيز الرفع انه صفة خزي اي خزي كائن في الحيوة الدنيا او في حيز النصب علي انه ظرف لنفس الخزي

ولعل بيان جزائهم بطريق القصر على ما ذكر لقطع اطماعهم الفارغة من ثمرات ايمانهم
ببعض الكتاب واظهار انه لا اثر له اصلا مع الكفر ببعض ويوم القيمة يردون وقرئ
بالتاء وايثار صيغة الجمع نظرا الى معنى من بعد ما اوثر الافراد نظرا الى لفظها لما ان الرد
انما يكون بالاجتماع الى اشد العذاب لما ان معصيتهم اشد المعاصي وقيل اشد العذاب
بالنسبة الى ما لهم في الدنيا من الخزي والصغار وانما غير سبك النظم الكريم حيث لم
يقل مثلا واشد العذاب يوم القيمة للايذان بكمال التنافي بين جزائي النشأتين وتقديم يوم
القيمة على ذكر ما يقع فيه لتهويل الخطب وتفظيع الحال اول الامر وما الله بغافل عما
تعملون من القبائح التي من جملتها هذا المنكر وقرئ بالياء على نهج يردون وهو
تاكيد للوعيد اولئك الموصوفون بما ذكر من الاوصاف القبيحة وهو مبتداء خبره
قوله تعالى الذين اشتروا الحيوة الدنيا واستبدلوها بالاخرة واعرضوا عنها
مع تمكنهم من تحصيلها فان ما ذكر من الكفر ببعض احكام الكتاب انما كان لمراعاة جانب
خلفائهم لما يعود اليهم منهم من بعض المنافع الدنية الدنيوية فلا يخفف عنهم
العذاب دنيويا كان او اخرويا ولا هم ينصرون بدفعه عنهم شفاعة او جبرا و
الجملة معطوفة على ما قبلها عطف الاسمية على الفعلية او ينصرون مفسر لمحذوف قبل
الضمير فيكون من عطف الفعلية على مثلها ولقد اتينا موسى الكتاب شروع في بيان آخر
من جناياتهم وتصديره بالجملة القسمية لاظهار كمال العناية به والمراد بالكتاب التورية
عن ابن عباس رضه ان التورية لما نزلت جملة واحدة امر الله عز وجل موسى عليه السلام
بحملها فلم يطق بذلك فبعث بكل حرف منها ملكا فلم يطيقوا بحملها فخففها الله تعالى
لموسى عليه السلام فحملها وقفينا من بعده بالرسل يقال قفاه به اذا اتبعه اياه
اي ارسلناهم على اثره كقوله تعالى ثم ارسلنا رسلنا تترى وهم يوشع واشمويل
وشمعون وداود وسليمان وشعيا وارميا وعزير وحزقيل والياس واليسع ويونس وزكريا
ويحيى وغيرهم عليهم السلام واتينا عيسى بن مريم البينات المعجزات الواضحات
من احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص والاخبار بالمغيبات او الانجيل وعيسى
بالسريانية ايشوع ومعناه المبارك ومريم بمعنى الخادم وهو بالعربية من النساء
كالزير من الرجال وبه فسر قول روبة لزير لم تصله مريمه ضليل اهواء الصبا تندمه
ووزنه مفعل اذ لم يثبت فعيل وايدناه اي قويناه وقرئ ايدناه بروح القدس بضم
الدال وقرئ بسكونها اي بالروح المقدسة وهي روح عيسى عليه السلام كقولك حاتم
جود ورجل صدق وانما وصفت بالقدس للكرامة او لانه عليه السلام لم تضمه الاصلاب
والارحام الطوامث وقيل بجبريل عم وقيل بالانجيل كما قيل في القران وروحا من
امرنا وقيل باسم الله الاعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره وتخصيصه من بين الرسل
عليه السلام بالذكر ووصفه بما ذكر من ايتاء البينات والتاييد بروح القدس
لما ان بعثهم كانت لتنفيذ احكام التورية وتقريرها واما عيسى عليه السلام
فقد نسخ بشرعه كثير من احكامها ولحسم مادة اعتقادهم الباطل في حقه عم
ببيان حقيقته واظهار كمال قبح ما فعلوا به عليه السلام افكلما جاءكم رسول
من اولئك الرسل بما لا تهوى انفسكم من الحق الذي لا محيد عنه اي لا تحبه
من هوي كرضي اذا احب والتعبير عنه بذلك الايذان بان مدار الرد والقبول عندهم
هو المخالفة لاهواء انفسهم والموافقة لها لا شيء اخر وتوسيط الهمزة بين الفاء و
ما تعلقت من الافعال السابقة لتوبيخهم على تعقيبهم ذلك بهذا وللتعجيب من شانهم
ويجوز كون الفاء للعطف على مقدر يناسب المقام اي لم تطيعوهم وكلما جاءكم
رسول منهم بما لا تهوى انفسكم استكبرتم عن الاتباع له والايمان بما جاء به
من عند الله تعالى ففريقا منهم كذبتم من غير ان تتعرضوا لهم بشيء اخر من المضار
والفاء للسببية او للتعقيب وفريقا اخر منهم تقتلون غير مكتفين بتكذيبهم
كزكريا ويحيى وغيرهما عم وتقديم فريقا في الموضعين للاهتمام وتشويق السامع الى

ما فعلوا بهم للفظ وايثار صيغة الاستقبال في القتل لاستحضار صورته الهائلة او للايماء
الى انهم بعد على تلك النية حيث هموا بما لم ينالوا من جهته عليه السلام وسحروه وسموا
له الشاة حتى قال صلى الله عليه وسلم ما زالت اكلة خيبر تعادني فهذا اوان قطعت ابهري
وقالوا قلوبنا غلف اخر من قبائحهم على طريقة الالتفات الى الغيبة اشعارا بابعادهم عن رتبة الخطاب
بما فصل من مخازيهم الموجبة للاعراض عنهم وحكاية نظائرها لكل من يفهم بطلانها و
قباحتها من اهل الحق والقائلون هم الموجودون في عصر النبي صلى الله عليه وسلم
قلوبنا غلف جمع اغلف مستعار من الاغلف الذي لم يختن اي هي مغشاة باغشية جبلية
لا يكاد يصل اليها ما جاء به محمد عليه السلام ولا تفقهه كقوله قلوبنا في اكنة مما
تدعونا اليه وقيل هو تخفيف غلف جمع غلاف ويؤيده ما روي عن ابي عمرو من القراءة
بضمتين يعنون ان قلوبنا اوعية للعلوم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره قاله ابن
عباس رضه وعطاء وقال الكلبي يعنون ان قلوبنا لا يصل اليها حديث الا وعته ولو
في حديثك خير لوعته ايضا بل لعنهم الله بكفرهم رد لما قالوه او تكذيب لهم في ذلك
والمعنى على الاول بل ابعدهم الله سبحانه عن رحمته بان خذلهم وخلاهم وشانهم
بسبب كفرهم العارض وابطالهم لاستعدادهم بسوء اختيارهم بالمرة وكونهم بحيث
لا ينفعهم الالطاف اصلا بعد ان خلقهم على الفطرة والتمكن من قبول الحق وعلى الثاني
بل ابعدهم من رحمته فاني لهم ادعاء العلم الذي هو اجل اثاره وعلى الثالث بل ابعدهم
من رحمته فلذلك لا يقبلون الحق المؤدي اليها فقليلا ما يؤمنون وهو ايمانهم
ببعض الكتاب وقيل فزمانا قليلا يؤمنون وهو ما قالوا امنوا بالذي انزل على الذين
امنوا وجه النهار واكفروا اخره وكلاهما ليس بايمان حقيقة وقيل اريد بالقلة
العدم والفاء لسببية اللعن لعدم الايمان ولما جاءهم كتاب هو القران و
تنكيره للتفخيم ووصفه بقوله عز وجل من عند الله اي كائن من عنده للتشريف
مصدق لما معهم من التورية عبر عنها بذلك لما ان المعية من موجبات
الوقوف على ما في تضاعيفها المؤدي الى العلم بكونه مصدقا لها وقرئ مصدقا
على انه حال من كتاب لتخصصه بالوصف وكانوا من قبل اي من قبل مجيئه يستفتحون
على الذين كفروا اي وقد كانوا قبل مجيئه يستفتحون به على المشركين ويقولون اللهم
انصرنا بالنبي المبعوث في اخر الزمان الذي نجد نعته في التورية ويقولون لهم قد اظل
زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وارم قال ابن عباس رضه وقتادة
والسدي نزلت في بني قريظة والنضير كانوا يستفتحون على الاوس والخزرج برسول الله
صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه وقيل معنى يستفتحون يفتحون عليهم ويعرفونهم
بان نبيا يبعث منهم قد قرب وانه والسين للمبالغة كما في استعجب اي يسألون من انفسهم
الفتح عليهم او يسأل بعضهم بعضا ان يفتح عليهم وعلى التقديرين فالجملة حالية مفيدة
لكمال مكابرتهم وعنادهم وقوله عز وعلا فلما جاءهم تكرير للاول لطول العهد بتوسط
الجملة الحالية وقوله تعالى ما عرفوا عبارة عما سلف من الكتاب لان معرفة من انزل هو
عليه معرفة له والاستفتاح به وايراد الموصول دون الاكتفاء بالاضمار لبيان كمال
مكابرتهم فان معرفة ما جاءهم من مبادي الايمان به ودواعيه لا محالة والفاء للدلالة
على تعقيب مجيئه للاستفتاح به من غير ان يتخلل بينهما مدة منسية وقوله تعالى
كفروا به جواب لما الاولى كما هو راي المبرد او جوابهما معا كما قاله ابو البقا وقيل
جواب الاولى محذوف لدلالة المذكور عليه فيكون قوله تعالى وكانوا الخ جملة معطوفة
على الشرطية عطف القصة على القصة والمراد بما عرفوا النبي صلى الله عليه وسلم كما هو المراد بما كانوا
يستفتحون به فالمعنى ولما جاءهم كتاب مصدق لكتابهم كذبوه وكانوا من قبل مجيئه
يستفتحون بمن انزل عليه ذلك الكتاب فلما جاءهم النبي الذي عرفوا كفروا به فلعنة
الله على الكافرين اللام للعهد اي عليهم ووضع المظهر موضع المضمر للاشعار
بان حلول اللعنة عليهم بسبب كفرهم كما ان الفاء للايذان بترتبها عليه او للجنس وهم داخلون

في الحكم دخولا اوليا اذ الكلام فيهم واما ما كان فهو محقق بمضمون قوله تعالى بل لعنهم
الله بكفرهم بئسما اشتروا به انفسهم ما نكرة بمعنى شيء منصوبة مفسرة لفاعل
بئس واشتروا صفته اي بئس شيئا باعوا به انفسهم وقيل اشتروها به في زعمهم
حيث يعتقدون انهم بما فعلوا خلصوها من العقاب ويأباه انه لابد ان يكون المذموم
ما كان حاصلا لهم لا ما كان زائلا عنهم والمخصوص بالذم قوله تعالى ان يكفروا بما انزل
الله اي بالكتاب المصدق لما معهم بعد الوقوف على حقيقته وتبديل الانزال
بالمجيء للايذان بعلو شأنه الموجب للايمان به بغيا حسدا وطلبا لما ليس لهم وهو
علة لان يكفروا حتما دون اشتروا لما قيل من الفصل بما هو اجنبي بالنسبة اليه وان لم
يكن اجنبيا بالنسبة الى فعل الذم وفاعله ولان البغي مما لا تعلق له بعنوان البيع
قطعا لاسيما وهو معلل بما سيأتي من تنزيل الله من فضله على من يشاؤه واما الذي
بينه وبينه علاقة فهو كفرهم بما انزل الله والمعنى بئس شيئا باعوا به انفسهم كفرهم
المعلل بالبغي الكائن لاجل ان ينزل الله من فضله الذي هو الوحي على من يشاء اي يشاؤه
ويصطفيه من عباده المستأهلين لتحمل اعباء الرسالة ومآله تعليل كفرهم بالمنزل
بحسدهم للمنزل عليه وايثار صيغة التفعيل ههنا للايذان بتجدد بغيهم حسب تجدد
الانزال وتكثره حسب تكثره فباؤا بغضب على غضب اي رجعوا ملتبسين بغضب
كائن على غضب مستحقين له حسب ما اقترفوا من كفر على كفر فانهم كفروا بنبي الحق وبغوا
عليه وقيل كفروا بمحمد عليه السلام بعد عيسى وقيل بعد قولهم عزير ابن الله
وقولهم يد الله مغلولة وغير ذلك من فنون كفرهم وللكافرين اي لهم و
الاظهار في موقع الاضمار للاشعار بعلية كفرهم لما حاق بهم عذاب مهين
يراد به اهانتهم واذلالهم لما ان كفرهم بما انزل الله تعالى كان مبنيا على الحسد
المبني على طمع النزول عليهم وادعاء الفضل على الناس والاستهانة بما انزل
عليه السلام واذا قيل من جانب المؤمنين لهم اي لليهود وتقديم الجار والمجرور
قد مر وجهه لاسيما في مقام التبليغ آمنوا بما انزل الله من الكتب الالهية جميعا
والمراد به الامر بالايمان بالقرآن لكن سلك مسلك التعميم ايذانا بتحتم الامتثال من
حيث مشاركته لما آمنوا به فيما في حيز الصلة وموافقته له في المضمون وتنبيها
على ان الايمان بما عداه من غير ايمان به ليس بايمان بما انزل الله قالوا نؤمن
اي نستمر على الايمان بما انزل علينا يعنون به التوراة وما نزل على انبياء
بني اسرائيل عليهم السلام لتقرير حكمها ويدسون فيه ان ما عدا ذلك غير منزل عليهم ومرادهم
بضمير المتكلم اما انفسهم فمعنى الانزال عليهم تكليفهم بما في المنزل من الاحكام
واما انبياء بني اسرائيل عليهم السلام وهو الظاهر لاشتماله على مزية الايذان
بان عدم ايمانهم بالفرقان لما مر من بغيهم وحسدهم على نزوله على من ليس
منهم ولان مرادهم بالموصول وان كان هو التوراة وما في حكمها خاصة
لكن ايرادها بعنوان الانزال عليهم مبني على ادعاء ان ما عداها ليس كذلك على وجه
التعريض كما اشير اليه فلو اريد بالانزال عليهم ما ذكر من تكليفهم يلزم من مغايرة
القرآن لما انزل عليهم حسبما يعرب عنه قوله عز وعلا ويكفرون بما وراءه
عدم كونهم مكلفين بما فيه كما يلزم عدم كونه نازلا على واحد من بني اسرائيل
على الوجه الاخير بجريان الموصول عند الاضمار مجرى ما عرضوا به تعسف لا يخفى والوراء
في الاصل مصدر جعل ظرفا ويضاف الى الفاعل فيراد به ما يتوارى به وهو خلفه
والى المفعول فيراد به ما يواريه وهو امامه والجملة حال من ضمير قالوا بتقدير
مبتدأ اي قالوا ما قالوا وهم يكفرون بما عداه وليس المراد به مجرد بيان ان
افرادهم بما انزل عليهم بالذكر لنفي ايمانهم بما وراءه بل بيان ان ما ادعوه
من الايمان ليس بايمان بما انزل عليهم حقيقة فان قوله عز اسمه وهو الحق اي المعروف
بالحقية الحقيق بان يخص به اسم الحق على الاطلاق حال من فاعل يكفرون وقوله تعالى

يخفى بعد

مصدقا

مصدقا حال مؤكدة لمضمون الجملة وصاحبها اما ضمير الحق وعاملها ما فيه من معنى الفعل قاله
ابو البقاء واما ضمير دل عليه الكلام وعاملها فعل مضمر اي احقه مصدقا لما معهم من
التوراة والمعنى قالوا نؤمن بما انزل علينا وهم يكفرون بالقرآن والحال انه حق مصدقا
لما آمنوا به فيلزمهم الكفر بما آمنوا به ومآله انهم ادعوا الايمان بالتوراة والحال انهم
يكفرون بما يلزم من الكفر به الكفر بها قل تبكيتا لهم من جهة الله عز وجل من قبل ببيان
التناقض بين اقوالهم وافعالهم بعد بيان التناقض في اقوالهم فلم اصله لما حذفت عنه
الالف فرقا بين الاستفهامية والخبرية تقتلون انبياء الله من قبل الخطاب للحاضرين من
اليهود والماضين على طريق التغليب وحيث كانوا مشاركين في العقد والعمل كان الاعتراض على
اسلافهم اعتراضا على اخلافهم وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية وهو جواب شرط
محذوف اي قل لهم ان كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعمون فلاي شيء كنتم تقتلون انبياء الله
من قبل وهو حرام في التوراة وقرئ انبئاء الله مهموزا وقوله تعالى ان كنتم مؤمنين تكرير للاعتراض
لتأكيد الالزام وتشديد التهديد اي ان كنتم مؤمنين فلم تقتلونهم وقد حذف من كل واحدة
من الشرطيتين ما حذف ثقة بما اثبت في الاخرى وقيل لا حذف فيه بل تقديم الجواب على
الشرط وذلك لا يتأتى الا على رأي الكوفيين وابي زيد وقيل ان نافية اي ما كنتم
مؤمنين والا لما قتلتموهم ولقد جاءكم موسى بالبينات من تمام التبكيت والتوبيخ
داخل تحت الامر لا تكرير لما قص في تضاعيف تعداد النعم التي من جملتها العفو عن
عبادة العجل واللام للقسم اي وبالله لقد جاءكم موسى ملتبسا بالمعجزات الظاهرة التي
هي العصا واليد والسنون ونقص الثمرات والدم والطوفان والجراد والقمل والضفادع
وفلق البحر وقد عد منها التوراة وليس بواضح فان المجيء بها بعد قصة العجل ثم
اتخذتم العجل الها من بعده اي من بعد مجيئه بها وقيل من بعد ذهابه الى الطور فتكون
التوراة حينئذ من جملة البينات وثم للتراخي في الرتبة والدلالة على نهاية قبح ما
صنعوا وانتم ظالمون حال من ضمير اتخذتم اي اتخذتم العجل ظالمين بعبادته واضعين لها في
غير موضعها او بالاخلال بحقوق آيات الله تعالى او اعتراض اي وانتم قوم عادتكم الظلم
واذ اخذنا ميثاقكم توبيخ من جهة الله سبحانه وتكذيب لهم في ادعائهم الايمان
بما انزل عليهم بتذكير جناياتهم الناطقة بكذبهم اي واذكروا حين اخذنا ميثاقكم
ورفعنا فوقكم الطور قائلين خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا اي خذوا ما
امرتم به في التوراة واسمعوا ما فيها سمع طاعة وقبول قالوا استئناف مبني على
سؤال السائل كانه قيل فماذا قالوا فقيل قالوا سمعنا قولك وعصينا امرك
فاذا قابل اسلافهم مثل ذلك الخطاب المؤكد مع مشاهدتهم مثل تلك المعجزة
الباهرة بمثل هذه العظيمة الشنعاء وكفروا بما يتضمن التوراة فكيف يتصور من
اخلافهم الايمان بما فيها واشربوا في قلوبهم العجل على حذف المضاف واقامة المضاف
اليه مقامه للمبالغة اي تداخلهم حبه ورسخ في قلوبهم صورته لفرط شغفهم به
وحرصهم على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب والشراب اعماق البدن وفي قلوبهم
بيان لمكان الاشراب كما في قوله تعالى انما يأكلون في بطونهم نارا والجملة حال من ضمير
قالوا بتقدير قد بكفرهم بسبب كفرهم السابق الموجب لذلك قيل كانوا مجسمة
او حلولية ولم يروا جسما اعجب منه فتمكن في قلوبهم ما سول لهم السامري
قل توبيخا لحاضري الجماعة يعني اليهود اثر ما تبين احوال رؤسائهم الذين بهم
يقتدون في كل ما يأتون وما يذرون بئسما يأمركم به ايمانكم بما انزل عليكم
من التوراة حسبما تدعون والمخصوص بالذم محذوف اي ما ذكر من قولهم سمعنا
وعصينا وعبادتهم العجل وفي اسناد الامر الى الايمان تهكم بهم واضافة الايمان اليهم
للايذان بانه ليس بايمان حقيقة كما ينبئ عنه قوله تعالى ان كنتم مؤمنين فانه قدح
في دعواهم الايمان بما انزل عليهم من التوراة وابطال لها وتقريره ان كنتم مؤمنين
بها عاملين فيما ذكر من القول والعمل بما فيها فبئسما يأمركم به ايمانكم بها واذ لا يسوغ

واعتراضا صح

الايمان بمثل تلك القبايح فلستم بمؤمنين بها قطعا وجواب الشرط كما ترى محذوف لدلالة
ما سبق عليه وقيل كرر الكلام مع ترتب العهد بالامر السابق لما انما مر تبكيتهم واظهار
كذبهم في فن آخر من اباطيلهم لكنه لم يحك عنهم قبل الامر بابطاله بل اكتفى بالاشارة
اليه في تضاعيف الكلام حيث قيل ان كانت لكم الدار الاخرة اي الجنة او نعيم
الدار الاخرة عند الله خالصة اي سالمة لكم خاصة بكم كما تزعمون انه لن يدخل الجنة
الا من كان هودا ونصبها على الحالية من الدار وعند ظرف للاستقرار في الخبر اعني لكم
وقوله تعالى من دون الناس في محل النصب بخالصة يقال خلص لي كذا من كذا واللام
للجنس اي الناس كافة او للعهد اي المسلمين فتمنوا الموت فان من ايقن بدخول الجنة
اشتاق الى التخلص اليها من دار البوار وقرارة الاكدار لا سيما اذا كانت خالصة له
كما قال علي كرم الله وجهه لا ابالي اسقطت على الموت او سقط الموت علي وقال
عمار بن ياسر بصفين الآن الاقي الاحبة محمدا وحزبه وقال حذيفة بن اليمان حين
احتضر وقد كان يتمنى الموت قبل جاء حبيب على فاقة لا افلح من ندم اي على التمني وقوله تعالى
ان كنتم صادقين تكرير للكلام لتشديد الالزام وللتنبيه على ان ترتب الجواب
ليس على تحقق الشرط في نفس الامر فقط بل في اعتقادهم ايضا فانهم قد ادعوا ذلك
والجواب محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه اي ان كنتم صادقين فتمنوه وقوله تعالى
ولن يتمنوه ابدا كلام مستانف غير داخل تحت الامر سيق من جهته سبحانه
لبيان ما يكون منهم من الاحجام عما دعوا اليه الدال على كذبهم في دعويهم بما
قدمت ايديهم بسبب ما عملوا من المعاصي الموجبة لدخول النار كالكفر بالنبي عم
والقران وتحريف التورية ولما كانت اليد من بين جوارح الانسان مناط عامة
صنايعه ومدار اكثر منافعه عبر بها تارة عن النفس واخرى عن القدرة والله عليم
بالظالمين اي بهم وايثار الاظهار على الاضمار لذمهم والتسجيل عليهم بانهم ظالمون في جميع
الامور التي من جملتها ادعاء ما ليس لهم ونفيه عن غيرهم والجملة تذييل لما قبلها مقررة لمضمونه
اي عليم بهم وبما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصي المفضية الى فانين العذاب وبما
سيكون منهم من الاحتراز عما يؤدي الى ذلك فوقع الامر كما ذكر فلم يتمن منهم موته احد
اذ لو وقع ذلك لنقل واشتهر وعن النبي صلى الله عليه وسلم لو تمنوا الموت لغص كل انسان
بريقه فمات مكانه وما بقي يهودي على وجه الارض ولتجدنهم احرص الناس على حيوة
من الوجدان العقلي وهو جار مجرى العلم خلا انه مختص بما يقع بعد التجربة ونحوها
مفعولاه الضمير واحرص والتنكير في قوله تعالى على حيوة للايذان بان مرادهم نوع خاص منها
وهي الحيوة المتطاولة وقرئ بالتعريف ومن الذين اشركوا عطف على ما قبله بحسب المعنى كانه قيل
احرص الناس ومن الذين اشركوا وافرادهم بالذكر مع دخولهم في الناس للايذان
بامتيازهم من بينهم بشدة الحرص للمبالغة في توبيخ اليهود فان حرصهم وهم
معترفون بالجزاء لما كان اشد من حرص المشركين المنكرين له دل ذلك على جزمهم بمصيرهم
الى النار ويجوز ان يحمل على حذف المعطوف ثقة بانباء المعطوف عليه عنه اي واحرص
من الذين اشركوا فقوله تعالى يود احدهم بيان لزيادة حرصهم على طريقة الاستيناف ويجوز
ان يكون في حيز الرفع صفة لمبتدا محذوف وخبره الظرف المتقدم على ان يكون المراد
بالمشركين اليهود لقولهم عزير ابن الله اي ومنهم طائفة يود احدهم اي كان اي كل
واحد منهم لو يعمر الف سنة وهو حكاية لودادتهم كانه قيل ليتني اعمر وانما
اجري على الغيبة لقوله تعالى يود كما تقول حلف بالله ليفعلن ومحله النصب على انه مفعول
يود اجراء له مجرى القول لانه فعل قلبي وما هو بمزحزحه من العذاب ما حجازية
والضمير العايد الى احدهم اسمها وبمزحزحه خبرها والباء زايدة وان يعمر فاعل
مزحزحه اي وما احدهم بمن يزحزحه اي يبعده وينجيه من العذاب تعميره وقيل
الضمير لما دل عليه يعمر من المصدر وان يعمر بدل منه وقيل مبهم وان يعمر مفسره والجملة
حال من احدهم والعامل يود لا يعمر على انها حال من ضميره لفساد المعنى واعتراض

واصل

واصل سنة سنوة لقولهم سنوات وسنية وقيل سنهة كجبهة لقولهم سانهته و
سنيهة وتسنهت النخلة اذا اتت عليها السنون والله بصير بما يعملون البصير في كلام
العرب العالم بكنه الشيء الخبير به ومنه قولهم فلان بصير بالفقه اي عليم بخفيات اعمالهم فهو
مجازيهم وقرئ بتاء الخطاب التفاتا وفيه تشديد للوعيد قل من كان عدوا لجبريل
نزل في عبد الله بن صوريا من احبار فدك حاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله
عمن ينزل عليه بالوحي فقال عليه السلام جبريل عم فقال هو عدونا ولو كان غيره
لآمنا بك وفي بعض الروايات ورسولنا ميكائيل فلو كان هو الذي يأتيك لآمنا بك
وقد عادانا مرارا واشدها انه انزل على نبينا ان بيت المقدس سيخربه بخت نصر
فبعثنا من يقتله فلقيه ببابل غلاما مسكينا فدفع عنه جبريل عم وقال ان كان ربكم
امره بهلاككم فانه لا يسلطكم عليه والا فباي حق تقتلونه وقيل امره الله تعالى ان يجعل
النبوة فينا فجعلها في غيرنا وروي انه كان لعمر رضي الله عنه ارض باعلى المدينة وكان ممره على مدارس اليهود
فكان يجلس اليهم ويسمع كلامهم فقالوا يا عمر قد احببناك وانا لنطمع فيك والله ما اجئ
احبكم لحبكم ولا اسألكم لشك في ديني وانما ادخل عليكم لازداد بصيرة في امر محمد صلعم
وارى آثاره في كتابكم ثم سألهم عن جبريل عليه السلام فقالوا ذاك هو عدونا يطلع
محمدا على اسرارنا وهو صاحب كل خسف وعذاب وميكائيل يجيء بالخصب والسلام فقال لهم
وما منزلتهما عند الله قالوا جبريل اقرب منزلة هو عن يمينه وميكائيل عن يساره وهما
متعاديان فقال عمر رضي الله عنه ان كان كما تقولون فما هما بعدوين ولانتم اكفر من الحمير ومن
كان عدوا لاحدهما فهو عدو للآخر ومن كان عدوا لهما كان عدوا لله سبحانه ثم رجع
عمر فوجد جبريل عليه السلام قد سبقه بالوحي فقال النبي صلى الله عليه وسلم لقد وافقك
ربك يا عمر قال عمر رضي الله عنه لقد رايتني في دين الله بعد ذلك اصلب من الحجر وقرئ جبريل كسلسبيل
وجبريل كجحمرش وجبرئل وجبرال وجبرائيل كجبراعيل ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة
وقيل معناه عبد الله فانه نزله تعليل لجواب الشرط قايم مقامه والبارز الاول
لجبريل عليه والثاني للقران اضمر من غير ذكر ايذانا بفخامة شانه واستغنائه عن الذكر
ايذانا بكمال شهرته ونباهته لا سيما عند ذكر شيء من صفاته على قلبك زيادة
تقرير للتنزيل ببيان محل الوحي فانه القابل الاول له ومدار الفهم والحفظ وايثار الخطاب
على التكلم المبني على حكاية كلام الله تعالى بعينه كما في قوله تعالى قل يا عبادي الذين اسرفوا
على انفسهم لما في النقل بالعبارة من زيادة تقرير لمضمون المقالة باذن الله بامره او
تيسيره مستعار من تسهيل الحجاب وفيه تلويح بكمال توجه جبريل عليه السلام الى تنزيله
وصدق عزيمته عليه وهو حال من فاعل نزله وقوله تعالى مصدقا لما بين يديه اي
من الكتب الالهية التي معظمها التورية حال من مفعوله وكذا قوله تعالى وهدى
وبشرى للمؤمنين والعامل في الكل نزله والمعنى من عادى جبريل من اهل الكتاب
فلا وجه لمعاداته بل يجب عليه محبته فانه نزل عليك كتابا مصدقا لكتبهم او
فالسبب في عداوته تنزيله كتابا مصدقا لكتابهم موافقا له وهم له كارهون ولذلك
حرفوا كتابهم وجحدوا موافقته له لان الاعتراف بها يوجب الايمان وذلك يستدعي
انتكاس احوالهم وزوال رياستهم وقيل ان الجواب فقد خلع ربقة الانصاف وقد كفر
بما معه من الكتاب او فليمت غيظا او فهو عدو لي وانا عدو له من كان عدوا لله اريد
بعداوته تعالى مخالفة امره عنادا والخروج عن طاعته مكابرة او عداوة خواصه ومقربيه
لكن صدر الكلام بذكره الجليل تفخيما لشانهم وايذانا بان عداوتهم عداوته عز وجل
كما في قوله عز وعلا والله ورسوله احق ان يرضوه ثم صرح بالمرام فقيل وملائكته
ورسله وجبريل وميكال وانما افردا بالذكر مع انهما اول من يشمله عنوان الملكية
والرسالة لاظهار فضلهما كانهما عليهما السلام من جنس آخر اشرف مما ذكر تنزيلا
للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الجنس وللتنبيه على ان عداوة احدهما عداوة للآخر
حسما لمادة اعتقادهم الباطل في حقهما حيث زعموا انهما متعاديان وللاشارة الى ان

والحفظ بيان

معاداة الواحد والكل سواء في الكفر واستتباع العداوة من جهة الله سبحانه وان من عادى
احدهم فكانما عادى الجميع وقوله تعالى فان الله عدو للكافرين اي لهم جواب الشرط والمعنى
من عاداهم عاداه الله وعاقبه اشد العقاب وايثار الاسمية للدلالة على التحقيق
والثبات ووضع الكافرين موضع المضمر للايذان بان عداوة المذكورين كفر وان ذلك بين
لا يحتاج الى الاخبار به وان مدار عداوته تعالى لهم وسخطه المستوجب لاشد العقوبة والعذاب
هو كفرهم المذكور وقرئ ميكائل كميكاعل وميكائيل كميكاعيل وميكئل كميكعل وميكئيل
كميكعيل ولقد انزلنا اليك آيات بينات واضحات الدلالة على معانيها وعلى كونها
من عند الله عز وجل وما يكفر بها الا الفاسقون اي المتمردون في الكفر الخارجون
عن حدوده فان من ليس على تلك الصفة من الكفرة لا يجترئ على الكفر بمثل هاتيك البينات
قال الحسن اذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي وقع على اعظم افراد ذلك النوع من كفر
او غيره وعن ابن عباس رضه انه قال قال ابن صوريا لرسول الله صلى الله عليه وسلم
ما جئتنا بشيء نعرفه وما انزل عليك من آية فنتبعك لها فنزلت واللام للعهد اي الفاسقون
المعهودون وهم اهل الكتاب المحرفون لكتابهم الخارجون عن دينهم او للجنس وهم داخلون
فيه دخولا اوليا اوكلما عاهدوا عهدا الهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه
المقام اي اكفروا بها وهي في غاية الوضوح وكلما عاهدوا عهدا ومن جملة ذلك ما اشير
اليه في قوله تعالى وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا من قولهم للمشركين قد اظل زمان
نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وارم وقرئ بسكون الواو على ان تقدير
النظم الكريم وما يكفر بها الا الذين فسقوا او نقضوا عهودهم مرارا كثيرة وقرئ
عوهدوا وعهدوا وقوله تعالى عهدا اما مصدر مؤكد لعاهدوا من غير لفظه او مفعول
له على انه معنى اعطوا العهد نبذه فريق منهم اي رموا بالزمام ورفضوه وقرئ
نقضه واسناد النبذ الى فريق منهم لان منهم من لم ينبذه بل اكثرهم لا يؤمنون اي
بالتورية وهذا دفع لما يتوهم من ان النابذين هم الاقلون وان لم ينبذه جهارا فهم
يؤمنون بها سرا ولما جاءهم رسول هو النبي صلى الله عليه وسلم والتنكير للتفخيم من
عند الله متعلق بجاء او بمحذوف وقع صفة لرسول لافادة مزيد تعظيمه بتاكيد ما افاده
التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية مصدق لما معهم من التورية من حيث انه
صلى الله عليه وسلم قرر صحتها وحقق حقية نبوة موسى عليه السلام بما انزل عليه او
من حيث انه عليه السلام جاء على وفق ما نعت فيها نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب
اي التورية وهم اليهود الذين كانوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم متى كانوا يستفتحون
به قبل ذلك لا الذين كانوا في عهد سليمان عليه السلام كما قيل لان النبذ عند مجيء النبي صلى الله عليه
وسلم لا يتصور منهم فافراد هذا النبذ بالذكر مع اندراجه تحت قوله عز وجل اوكلما عاهدوا
عهدا نبذه فريق منهم لانه معظم جناياتهم ولانه تمهيد لذكر اتباعهم لما تتلو الشياطين
وايثارهم له عليه والمراد بايتائها اما ايتاؤها بالدراسة والحفظ والوقوف على ما فيها
فالموصول عبارة عن علمائهم واما مجرد انزالها عليهم فهو عبارة عن الكل وعلى التقديرين
فوضعه موضع الضمير للايذان بكمال التنافي بين ما اثبت لهم في حيز الصلة وبين ما صدر
منهم من النبذ كتاب الله اي الذي اوتوه قال السدي لما جاءهم محمد صلى الله عليه
وسلم عارضوه بالتورية فاتفقت التورية والفرقان فنبذوا التورية واخذوا بكتاب
آصف وسحر هاروت وماروت فلم يوافق فهذا قوله تعالى ولما جاءهم رسول من عند الله
الخ وانما عبر عنها بكتاب الله تشريفا لها وتعظيما لحقها عليهم وتهويلا لما اجترؤوا عليه
من الكفر بها وقيل كتاب الله القرآن نبذوه بعدما لزمهم تلقيه بالقبول لا سيما بعد ما
كانوا يستفتحون به من قبل فان ذلك قبول له وتمسك به فيكون الكفر به عند مجيئه
نبذا له كانه قيل كتاب الله الذي جاء به فان مجيء الرسول معرب عن مجيء الكتاب وراء ظهورهم
مثل لتركهم واعراضهم عنه بالكلية مثل بما يرمى به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات
اليه كانهم لا يعلمون جملة حالية اي نبذوه وراء ظهورهم متشبهين بمن

وع

علمائهم صح

لا يعلمه

لا يعلمه فان اريد بهم احبارهم فالمعنى كانهم لا يعلمونه على وجه الاتقان ولا يعرفون ما
فيه من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ففيه ايذان بان علمهم به رصين لكنهم يتجاهلون
او كانهم لا يعلمون انه كتاب الله او لا يعلمونه اصلا كما اذا اريد بهم الكل وفي هذين الوجهين
زيادة مبالغة في اعراضهم عما في التورية من دلائل النبوة هذا وان اريد بما نبذوه من كتاب
الله القرآن فالمراد بالعلم المنفي في قوله تعالى كانهم لا يعلمون هو العلم بانه كتاب الله ففيه
ما في الوجه الاول من الاشعار بانهم متيقنون في ذلك وانما يكفرون به مكابرة وعنادا قيل
ان جيل اليهود اربع فرق ففرقة امنوا بالتورية وقاموا بحقوقها كمؤمني اهل الكتاب
وهم الاقلون المشار اليهم بقوله عز وجل بل اكثرهم لا يؤمنون وفرقة جاهروا بنبذ
العهود وتعدي الحدود تمردا وفسوقا وهم المعنيون بقوله تعالى نبذه فريق منهم و
فرقة لم يجاهروا بنبذها ولكن نبذوها لجهلهم بها وهم الاكثرون وفرقة تمسكوا
بها ظاهرا ونبذوها خفية وهم المتجاهلون واتبعوا ما تتلوا الشياطين عطف على
جواب لما اي نبذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحرة التي كانت تقرؤها الشياطين وهم
المتمردون من الجن وتتلو حكاية حال ماضية والمراد بالاتباع التوغل والتمحض فيه والاقبال
عليه بالكلية والا فاصل الاتباع كان حاصلا قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم
فلا يتسنى عطفه على جواب لما ولذلك قيل هو معطوف على الجملة وقيل على اشربوا على ملك
سليمن اي في عهد ملكه قيل كانت الشياطين يسترقون السمع ويضمون الى ما سمعوا
اكاذيب يلفقونها ويلقونها الى الكهنة وهم يدونونها ويعلمونها الناس وفشا ذلك
في سليمان عليه السلام حتى قيل ان الجن يعلم الغيب وكانوا يقولون هذا علم سليمان وما
تم له ملكه الا بهذا العلم وبه سخر الانس والجن والطير والريح التي تجري بامره وقيل ان سليمان
عليه السلام كان قد دفن كثيرا من العلوم التي خصه الله تعالى تحت سرير ملكه فلما مضت
على ذلك مدة توصل اليها قوم من المنافقين فكتبوا في خلال ذلك اشياء من فنون السحر
تناسب تلك الاشياء المدفونة من بعض الوجوه ثم بعد موته واطلاع الناس على تلك الكتب
اوهموهم انه من عمل سليمان عليه السلام وانه ما بلغ هذا المبلغ الا بسبب هذه الاشياء
وما كفر سليمن تنزيه لساحته عليه السلام عن السحر وتكذيب لمن افترى عليه بان
كان يعتقده ويعمل به والتعرض لكونه كفرا للمبالغة في اظهار نزاهته عليه السلام وكذب
باهتيه بذلك ولكن الشياطين وقرئ بتخفيف لكن ورفع الشياطين والواو عاطفة
للجملة الاستدراكية على ما قبلها وكون المخففة عند الجمهور انما هو عند عدم الواو وكون
ما بعدها مفردا كفروا باستعماله وتدوينه يعلمون الناس السحر اغواء واضلالا والجملة في محل
النصب على الحالية من ضمير كفروا او من الشياطين فان ما في لكن من رائحة الفعل كاف في العمل في
الحال او في محل الرفع على انه خبر ثان للكن او بدل من الخبر الاول وصيغة الاستقبال للدلالة على
استمرار التعليم وتجدده او جملة مستانفة هذا على تقدير كون الضمير للشياطين واما
على تقدير رجوعه الى فاعل اتبعوا فهي اما حال منه واما استينافية فحسب واعلم ان السحر
انواع منها سحر الكلدانيين الذين كانوا في قديم الدهر وهم قوم يعبدون الكواكب
ويزعمون انها هي المدبرة لهذا العالم ومنها تصدر الخيرات والشرور والسعادة
والنحوسة ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى
الارضية وهم الذين بعث الله تعالى ابراهيم عليه السلام لابطال مقالتهم وهم ثلاث
فرق ففرقة منها يزعمون ان الافلاك والنجوم واجبة الوجود لذواتها وهم
الصابئة وفرقة يقولون بالهية الافلاك ويتخذون لكل واحد منها هيكلا ويشتغلون بخدمتها
وهم عبدة الاوثان وفرقة اثبتوا للافلاك والكواكب فاعلا مختارا لكنهم قالوا انه
اعطاها قوة عالية نافذة في هذا العالم وفوض تدبيره اليها ومنها سحر اصحاب الاوهام
والنفوس القوية فانهم يزعمون ان الانسان يبلغ روحه بالتصفية في القوة والتاثير
الى حيث يقدر على الايجاد والاعدام والاحياء والاماتة وتغيير البنية والشكل
ومنها سحر من يستعين بالارواح الارضية وهو المسمى بالعزايم وتسخير الجن

و

منها التخيلات الآخذة بالعيون وتسمى الشعوذة ولا خلاف بين الامة في ان من اعتقد الثاني
وهو اصحاب الاوهام والنفوس القوية واما ان اعتقد ان الانسان يبلغ بالتصفية وقراءة العزايم
والرقى الى حيث يخلق الله سبحانه وتعالى عقيب ذلك على سبيل جريان العادة بعض الخوارق والمعتزلة
اتفقوا على انه كافر لانه لا يمكنه بهذا الاعتقاد معرفة صدق الانبياء والرسل بخلاف غيرهم ولعل
التحقيق ان ذلك الانسان ان كان خيرا متشرعا في كل ما ياتي ويذر وكان من يستعين بهم من الارواح
الخيرة وكانت عزايمه ورقاه غير مخالفة لاحكام الشريعة الشريفة ولم يكن فيما ظهر في يده من
الخوارق ضرر شرعي لاحد فليس ذلك من قبيل السحر وان كان شريرا غير متمسك بالشريعة فظاهر
ان من يستعين به من الارواح الخبيثة الشريرة لا محالة ضرورة امتناع تحقق النظام والتعاون
بينهما من غير اشتراك في الخبث والشرارة فيكون كافرا قطعا واما الشعوذة وما يجري
مجراها من اظهار الامور العجيبة بواسطة ترتيب الآلات الهندسية وخفة اليد
والاستعانة بخواص الادوية والاحجار فاطلاق السحر عليها بطريق التجوز او لما فيها
من الدقة لانه في الاصل عبارة عن كل ما لطف مأخذه وخفي سببه او من الصرف عن الجهة
المعتادة لما انه في اصل اللغة الصرف على ما حكاه الازهري عن الفراء ويونس وما انزل
على الملكين عطف على السحر اي ويعلمونهم ما انزل عليهما والمراد بهما واحد والعطف
لتغاير الاعتبار او هو نوع اقوى منه او على ما تتلوا وما بينهما اعتراض اي واتبعوا ما انزل
الخ وهما ملكان انزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس كما ابتلي قوم طالوت بالنهر او
تمييزا بينه وبين المعجزة لئلا يغتر به الناس او لان السحر كثر في ذلك الزمان واستنبطت
ابوابا غريبة من السحر وكانوا يدعون النبوة فبعث الله الملكين ليعلما الناس ابواب السحر حتى
يتمكنوا من معارضة اولئك الكذابين واظهار امرهم على الناس واما ما يحكى من ان الملائكة
عليهم السلام لما راوا ما يصعد من ذنوب بني آدم عيروهم وقالوا لله سبحانه هؤلاء الذين
اخترتهم بخلافة الارض يعصونك فيها فقال عز وجل لو ركبت فيكم ما ركبت فيهم
لعصيتموني قالوا سبحانك ما ينبغي لنا ان نعصيك قال تعالى فاختاروا من خياركم ملكين
فاختاروا هاروت وماروت وكانا من اصلحهم واعبدهم فاهبطا الى الارض بعد
ما ركب فيهم ما في البشر من الشهوة وغيرها من القوى ليقضيا بين الناس نهارا ويعرجا
ليلا الى السماء وقد نهيا عن الاشراك والقتل بغير الحق وشرب الخمر والزنا وكانا
يقضيان بينهم نهارا فاذا امسيا ذكرا اسم الله الاعظم فصعدا الى السماء فاختصمت
اليهما ذات يوم امرأة من اجمل النساء تسمى زهرة وكانت من لخم وقيل كانت من اهل فارس
ملكة في بلدها وكانت خصومتها مع زوجها فلما رأياها افتتنا بها فراوداها عن
نفسها فابت فالحا عليها فقالت لا الا ان تقضيا لي على خصمي ففعلا ثم سألاها ما سألا فقالت
لا الا ان تقتلاه ففعلا ثم سألاها ما سألا فقالت لا الا ان تشربا الخمر وتسجدا للصنم ففعلا
كلا من ذلك بعد التمنع والتأبي ثم سألاها ما سألا فقالت لا الا ان تعلماني ما تصعدان به الى السماء
فعلماها الاسم الاعظم فدعت به وصعدت الى السماء فمسخها الله تعالى كوكبا فهما
بالعروج حسب عادتهما فلم تطعهما اجنحتهما فعلما ما حل بهما وكان في عهد ادريس عم
فالتجأ اليه ليشفع لهما ففعل فخيرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا الاول
لانقطاعه عما قليل فهما معذبان ببابل قيل معلقان بشعورهما وقيل منكوسان
يضربان بسياط الحديد الى قيام الساعة فمما لا تعويل عليه لما ان مداره رواية اليهود مع
ما فيه من المخالفة لادلة النقل والعقل ولعله من مقولة الامثال والرموز التي قصد بها
ارشاد اللبيب الاريب بالترغيب والترهيب وقيل هما رجلان سميا ملكين لصلاحهما ويعضده
قراءة الملكين بالكسر ببابل الباء بمعنى في وهي متعلقة بانزل او بمحذوف وقع حالا
من الملكين او من الضمير في انزل وهي بابل العراق وقال ابن مسعود رضه بابل ارض الكوفة
وقيل جبل دماوند ومنع الصرف للعجمة والعلمية او للتانيث والعلمية هاروت وماروت
عطف بيان للملكين علمان لهما ومنع صرفهما للعجمة والعلمية ولو كانا من الهرت والمرت
بمعنى الكسر لانصرفا واما من قرأ الملكين بالكسر او قال كانا رجلين صالحين فقال هما اسمان

لهما

لهما وقيل هما اسما قبيلتين من الجن هما المراد من الملكين بالكسر وقرئ بالرفع على هما هاروت
وماروت وما يعلمان من احد من مزيدة في المفعول به لافادة تاكيد الاستغراق الذي
يفيده احد لا لافادة نفس الاستغراق كما في قولك ما جاءني من رجل وقرئ يعلمان من
الاعلام حتى يقولا انما نحن فتنة الفتنة الاختبار والامتحان وافرادها مع تعددهما
لكونها مصدرا وحملها عليهما مواطاة للمبالغة كانهما نفس الفتنة والقصر لبيان انه ليس
لهما فيما يتعاطيانه شان سواها لينصرف الناس عن تعلمه اي وما يعلمان ما انزل عليهما من
السحر احدا من طالبيه حتى ينصحاه قبل التعليم ويقولا له انما نحن فتنة وابتلاء من الله عز
وجل فمن عمل بما تعلم منا واعتقد حقيته كفر ومن توقى عن العمل به او اتخذه ذريعة للاتقاء
عن الاغترار بمثله بقي على الايمان فلا تكفر باعتقاد حقيته وجواز العمل به والظاهر ان
غاية النهي ليست هذه المقالة فقط بل من جملتها التزام المخاطب بموجب النهي لكن لم يذكر
لظهوره وكون الكلام في بيان اعتناء الملكين بشان النصح والارشاد والجملة في محل النصب
على الحالية من ضمير يعلمون لا معطوفة عليه كما قيل اي ولكن الشياطين كفروا يعلمون
الناس ما انزل على الملكين ويحملونهم على العمل به اغواء واضلالا والحال انهما ما يعلمان
احدا حتى ينهياه عن العمل به والكفر بسببه واما ما قيل من ان ما في قوله تعالى وما انزل الخ
نافية والجملة معطوفة على قوله تعالى وما كفر سليمان جيء بها لتكذيب اليهود في القصة اي لم ينزل
على الملكين اباحة السحر وان هاروت وماروت بدل من الشياطين على انهما قبيلتان من الجن خصتا
بالذكر لاصالتهما وكون باقي الشياطين اتباعا لهما وان المعنى ما يعلمان احدا حتى يقولا انما
نحن فتنة فلا تكفر فتكون مثلنا فيأباه ان مقام وصف الشياطين بالكفر واضلال الناس
مما لا يلائمه وصفهم وسايرهم بما ذكر من النهي مع ما فيه من الاخلال بنظام الكلام
فان الابدال في حكم تنحية المبدل منه فيتعلمون منهما عطف على الجملة المنفية فانها
في قوة المثبتة كانه قيل يعلمانهم بعد قولهما انما نحن الخ والضمير لاحد حملا على المعنى كما
في قوله تعالى وما منكم من احد عنه حاجزين ما يفرقون به اي بسببه وباستعماله بين
المرء وقرئ بضم الميم وكسرها مع الهمزة وبتشديد الراء بلا همزة وزوجه بان يحدث الله
تعالى بينهما التباغض والفرك والنشوز عند ما فعلوا ما فعلوا من السحر على حسب جري
العادة الالهية من خلق المسببات عقيب حصول الاسباب العادية ابتلاء لا ان السحر
هو المؤثر في ذلك وقيل فيتعلمون منهما ما يعملون به فيراه الناس ويعتقدون انه حق
فيكفرون فتبين ازواجهم وما هم بضارين به اي بما تعلموه واستعملوه من السحر من
احد اي احدا ومن زائدة لما ذكر في قوله تعالى وما يعلمان من احد والمعهود وان
كان زيادتها في معمول فعل منفي الا انه حملت الاسمية في ذلك على الفعلية كانه
قيل وما يضرون به من احد الا باذن الله لانه وغيره من الاسباب بمعزل
من التاثير بالذات وانما هو بامره تعالى فقد يحدث عند استعمالهم السحر فعلا من
افعاله ابتلاء وقد لا يحدثه والاستثناء مفرغ والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من
ضمير ضارين او من مفعوله وان كان نكرة لاعتمادها على النفي او الضمير المجرور في به او ما
يضرون به احدا الا مقرونا باذن الله تعالى وقرئ بضاري على الاضافة بجعل الجار جزء
من المجرور وفصل ما بين المتضايفين بالظرف ويتعلمون ما يضرهم لانهم يقصدون
به العمل او لان العلم يجر الى العمل غالبا ولا ينفعهم صرح بذلك ايذانا بانه ليس من
الامور المشوبة بالنفع والضرر بل هو شر بحت وضرر محض لانهم لا يقصدون به
التخلص عن الاغترار باكاذيب من يدعي النبوة مثلا من السحرة او تخليص الناس منه
حتى يكون فيه نفع في الجملة وفيه ان الاجتناب عما لا تؤمن غوائله كتعلم الفلسفة
التي لا يؤمن ان تجر الى الغواية وان قال من قال عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف
الشر من الناس يقع فيه ولقد علموا اي اليهود الذين حكيت جناياتهم لمن اشتراه
اي استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله عز وجل واللام الاولى جواب قسم محذوف
والثانية لام ابتداء علق به علموا عن العمل ومن موصولة في حيز الرفع بالابتداء واشتراه

يدعي

من قال صح للشرح

صنها و قوله تعالى ما له في الاخرة من خلاق اي من نصيب جملة من مبتداء وخبر ومن مزيدة
في المبتداء وفي الاخرة متعلق بمحذوف وقع حالاً منه ولو اخر عنه لكان صفة له والتقدير
ما له خلاق في الاخرة وهذه الجملة في محل الرفع على انها خبر للموصول والجملة في حيز النصب
سادة مسد مفعولي علموا ان جعل متعدياً الى اثنين او مفعوله الواحد ان جعل متعدياً
الى واحد فجملة ولقد علموا الخ مقسم عليها ودون جملة لمن اشتراه الخ هذا ما عليه الجمهور
وهو مذهب سيبويه وقال الفراء وتبعه ابو البقاء ان اللام الاخيرة موطئة للقسم و
من شرطية مرفوعة بالابتداء واشتراه خبرها و ما له في الاخرة من خلاق جواب القسم
وجواب الشرط محذوف اكتفاءً عنه بجواب القسم لانه اذا اجتمع الشرط والقسم يجاب
سابقهما غالباً فح يكون الجملتان مقسماً عليهما ولبئس ما شروا به انفسهم اي باعوها
واللام جواب قسم محذوف والمخصوص بالذم محذوف اي وبالله لبئسما باعوا
به انفسهم السحر والكفر وفيه ايذان بانهم حيث نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم فقد
عرضوا انفسهم للهلكة وباعوها بما لا يزيدهم الا تباراً وتجويز كون الشراء بمعنى الاشتراء
بما لا سبيل اليه لان المشتري متعين وهو ما تتلوا الشياطين ولان متعلق الذم هو
المأخوذ لا المنبوذ كما اشير اليه في تفسير قوله تعالى بئسما اشتروا به انفسهم ان يكفروا
بما انزل الله لو كانوا يعلمون اي يعلمون بعلمهم جعلوا غير عالمين لعدم عملهم بموجب
علمهم او لو كانوا يتفكرون او يعلمون فيحمله على اليقين وحقيقة ما يتبعه من العذاب
على ان المثبت وعلى التوكيد القسمي العقلي الغريزي او العلم الاجمالي بقبح الفعل او
ترتب العقاب عليه من تحقيق وجواب لو محذوف اي لما فعلوا ما فعلوا ولو انهم امنوا
غير صح
اي بالرسل الموجه اليه في قوله تعالى ولما جاءهم رسول من عند الله الخ او بما انزل اليه
من الايات المذكورة في قوله تعالى ولقد انزلنا اليك ايات بينات وما يكفر بها الا الفاسقون
او بالتورية التي اريدت بقوله تعالى نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب كتاب الله وراء
ظهورهم فان الكفر بالقران والرسول عليه السلام كفر بها واتقوا المعاصي المحكية عنهم لمثوبة
من عند الله خير جواب لو واصله لاثيبوا مثوبة من عند الله خير مما شروا به انفسهم
فحذف الفعل وغير السبك الى ما عليه النظم الكريم دلالة على ثبات المثوبة لهم والجزم بخيريتها
وحذف المفضل عليه اجلالاً للمفضل من ان ينسب اليه وتنكير المثوبة للتقليل ومن متعلقه
بمحذوف وقع صفة تشريفية لمثوبة اي لشيء ما من المثوبة لهم والجزم بخيريتها كما ينبئ
من عند الله خير وقيل جواب لو محذوف اي لاثيبوا وما بعده جملة مستانفة فان
وقوع الجملة الابتدائية جواباً للو غير معهود في كلام العرب وقيل لو للتمني ومعناه انهم
من فظاعة الحال بحيث يتمنى العارف ايمانهم واتقاهم تلهفاً عليهم وقرئ لمثوبة وانما
امام
سمي الجزاء ثواباً ومثوبة لان المحسن يثوب اليه لو كانوا يعلمون ان ثواب الله خير نسبوا
الى الجهل لعدم العمل بموجب العلم يا ايها الذين امنوا خطاب للمؤمنين فيه ارشاد
لهم الى الخير واشارة الى بعض اخر من جنايات اليهود لا تقولوا راعنا المراعاة المبالغة
في الرعي وهو حفظ الغير وتدبير اموره وتدارك مصالحه وكان المسلمون اذا القى
عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من العلم يقولون راعنا يا رسول الله اي راقبنا
وانتظرنا وتان بنا حتى نفهم كلامك ونحفظه وكانت لليهود كلمة عبرانية او سريانية
يتسابون بها فيما بينهم وهي راعنا قيل معناها اسمع لا سمعت فلما سمعوا بقول المؤمنين
ذلك افترصوه واتخذوه ذريعة الى مقصدهم فجعلوا يخاطبون به النبي صلى الله عليه
وسلم يعنون به تلك المسبة او نسبته عليه الصلاة والسلام الى الرعن وهو الحمق والهوج
روي ان سعد بن عبادة رضي الله عنه سمعها منهم فقال يا اعداء الله عليكم لعنة الله والذي
نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لاضربن
لو صح
عنقه قالوا اولستم تقولونها فنزلت الاية ونهي فيها المؤمنون عن ذلك قطعاً لالسنة
اليهود عن التدليس وامروا بما في معناها ولا يقبل التلبيس وقولوا انظرنا اي انظر
الينا بالحذف والايصال او انتظرنا على انه من نظره اذا انتظره وقرئ انظرنا من الانظار

اي امهلنا حتى نحفظ وقرئ راعونا على صيغة الجمع للتوقير وراعناً على صيغة الفاعل اي قولاً ذا
رعن كدارع ولابن لانه لما اشبه قولهم راعنا وكان سبباً للسب بالرعن اتصف به واسمعوا و
احسنوا سماع ما يكلمكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلقي عليكم من المسائل باذان واعية و
اذهان حاضرة حتى لا تحتاجوا الى الاستعادة وطلب المراعاة او واسمعوا ما كلفتموه من
النهي والامر بجد واعتناء حتى لا ترجعوا الى ما نهيتم عنه او واسمعوا سماع طاعة وقبول
ولا يكن سماعكم مثل سماع اليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا وللكافرين اي اليهود
الذين توسلوا بقولكم المذكور الى كفرياتهم وجعلوه سبباً للتهاون برسول الله صلى الله
عليه وسلم وقالوا ما قالوا عذاب اليم لما اجترؤا عليه من العظيمة وهو تذييل
لما سبق فيه وعيد شديد لهم ونوع تحذير للمخاطبين عما نهوا عنه ما يود الذين
كفروا اي ود حب الشيء مع تمنيه ولذلك يستعمل في كل منهما ونفيه كناية عن الكراهة و
وضع الموصول موضع الضمير للاشعار بعلية ما في حيز الصلة لعدم ودهم ولعل تعلقه بما قبله
من حيث ان القول المنهي عنه كثيراً ما كان يقع عند تنزيل الوحي المعبر عنه في هذه الاية بالخير فكانه
اشير الى ان سبب تحريفهم له الى ما حكي عنهم لوقوعه في اثناء حصول ما يكرهونه من تنزيل
الخير وقيل كان فريق من اليهود يظهرون للمؤمنين محبة فيزعمون انهم يودون لهم الخير
فنزلت تكذيباً لهم في ذلك ومن في قوله تعالى من اهل الكتاب ولا المشركين للتبيين كما
في قوله عز وجل لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين ولا مزيدة لما ستعرفه ان
ينزل عليكم في حيز النصب على انه مفعول يود وبناء الفعل للمفعول للثقة بتعيين الفاعل و
التصريح الاتي وقوله تعالى من خير هو القائم مقام فاعله ومن مزيدة للاستغراق والنفي وان لم
يباشر ظاهراً لكنه منسحب عليه معنى والخير الوحي وحمله على ما يعمه وغيره من العلم والنصرة
كما قيل يأباه وصفه فيما سيأتي بالاختصاص وتقديم الظرف عليه مع ان حقه التاخر
عنه لاظهار كمال العناية به لانه المدار لعدم ودهم ومن في قوله تعالى من ربكم
ابتدائية والتعرض لعنوان الربوبية للاشعار بعليته لتنزيل الخير والاضافة الى ضمير
المخاطبين لتشريفهم وليست كراهتهم لتنزيله على المخاطبين من حيث تعبدهم بما فيه
وتعريضهم بذلك لسعادة الدارين كيف لا وهم من تلك الحيثية من جملة من نزل عليهم
الخير بل من حيث وقوع ذلك التنزيل على النبي صلى الله عليه وسلم وصيغة الجمع للايذان
بان مدار كراهتهم ليس معنى خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم بل وصف مشترك بين الكل
بل صح
هو الخلو عن الدراسة عند اليهود وعن الرياسة عند المشركين والمعنى انهم
يرون انفسهم احق بان يوحى اليهم فيحسدونكم ويكرهون ان ينزل عليكم شيء
من الوحي اما اليهود فبناء على انهم اهل الكتاب وابناء الانبياء الناشئون في مهابط
الوحي وانتم اميون واما المشركون فادلالاً بما كان لهم من الجاه والمال زعماً
منهم ان رياسة الرسالة كساير الرياسات الدنيوية منوطة بالاسباب الظاهرة
ولذلك قالوا لولا نزل هذا القران على رجل من القريتين عظيم ولما كانت اليهود بهذا
الداء اشهر لا سيما في اثناء ذكر ابتلائهم به لم يلزم من نفي ودادهم لما ذكر نفي
ودادة المشركين له فزيدت كلمة لا لتاكيد النفي والله يختص برحمته جملة ابتدائية
لتقرير ما سبق من تنزيل الخير والتنبيه على حكمته وارغام الكارهين له والمراد برحمته
الوحي كما في قوله سبحانه اهم يقسمون رحمة ربك عبر عنه باعتبار نزوله على المؤمنين
بالخير وباعتبار اضافته اليه تعالى بالرحمة قال علي رضي الله عنه بنبوته خص بها محمداً صلى الله
عليه وسلم فالفعل متعد وصيغة الافتعال للانباء عن الاصطفاء وايثاره على التنزيل
المناسب للسياق الموافق لقوله تعالى ان ينزل الله من فضله على من يشاء لزيادة تشريفه
صلى الله عليه وسلم واقناطهم مما علقوا اطماعهم الفارغة والباء داخلة على المقصور
اي يؤتي رحمته من يشاء من عباده ويجعلها مقصورة عليه لاستحقاقه الذاتي الفايض
عليه بحسب ارادته تعزز وعلا تفضلاً لا تتعداه الى غيره وقيل الفعل لازم ومن يشاء
فاعله والضمير العايد اليه محذوف على التقديرين وقوله تعالى والله ذو الفضل العظيم

تذييل لما سبق مقرر لمضمونه وفيه ايذان بان ايتاء النبوة من فضله العظيم كقوله تعالى
ان فضله كان عليك كبيرا وان حرمان من حرم ذلك ليس لضيق ساحة فضله بل لمشيئته الجارية
على سنن الحكمة البالغة وتصدير الجملتين بالاسم الجليل للايذان بفخامة مضمونيهما وكون
كل منهما مستقلة بشانها فان الاضمار في الثانية منبئ عن توقفها على الاولى ما ننسخ
من اية او ننسها كلام مستانف مسوق لبيان سر النسخ الذي هو فرد من افراد تنزيل
الوحي وابطال مقالة الطاعنين فيه اثر تحقيق حقيقة الوحي ورد كلام الكارهين له راسا
قيل نزلت حين قال المشركون الاية بيان انتهاء التعبد بقراءتها او بالحكم المستفاد منها او
بهما جميعا او اليهود الا ترون الى محمد عليه السلام يامر اصحابه بامر ثم ينهاهم عنه
ويامر بخلافه والنسخ في اللغة الازالة والنقل يقال نسخت الريح الاثر اي ازالته ونسخت الكتاب
اي نقلته ونسخ الاية بيان انتهاء التعبد بقراءتها او بالحكم المستفاد منها او بهما جميعا
او انساؤها اذهابها من القلوب وما شرطية جازمة لننسخ منتصبة به على المفعولية
وقرئ ننسخ من انسخ اي نامرك او جبريل بنسخها او نجدها منسوخة وننساها من
النساء اي نؤخرها وننسها بالتشديد وتنسها على خطاب الرسول صلى الله
عليه وسلم مبنيا للفاعل وللمفعول وقرئ ما ننسخ من اية او ننسكها وقرئ ما ننسك
من اية او ننسخها والمعنى ان كل اية نذهب بها على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من
ازالة لفظها وحكمها او كليهما معا الى بدل او الى غير بدل نأت بخير منها اي بنوع آخر
هو خير للعباد بحسب الحال في النفع والثواب من الذاهبة وقرئ بقلب الهمزة الفا او
مثلها اي فيما ذكر من النفع والثواب وهذا الحكم غير مختص بنسخ الاية التامة فما
فوقها بل جار فيما دونها ايضا وتخصيصها بالذكر باعتبار الغالب والنص كما ترى دال
على جواز النسخ كيف لا وتنزيل الايات التي عليها يدور فلك الاحكام الشرعية انما هو بحسب
ما يقتضيه من الحكم والمصالح وذلك يختلف باختلاف الاحوال ويتبدل حسب
تبدل الاشخاص والاعصار كاحوال المعاش فرب حكم تقتضيه الحكمة في حال يقتضي
في حال آخر نقيضه فلو لم يجز النسخ لاختل ما بين الحكمة والاحكام من النظام الم تعلم
الهمزة للتقرير كما في قوله سبحانه اليس الله بكاف عبده وقوله تعالى الم نشرح لك صدرك
والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى ان الله على كل شيء قدير ساد مسد
مفعولي تعلم عند الجمهور ومسد مفعوله الاول والثاني محذوف عند الاخفش
والمراد بهذا التقرير الاستشهاد بعلمه بما ذكر على قدرته تعالى على النسخ وعلى الاتيان بما
هو مثله لان ذلك من جملة الاشياء المقهورة تحت قدرته سبحانه فمن علم شمول قدرته
لجميع الاشياء علم قدرته على ذلك قطعا والالتفات بوضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية
المهابة والاشعار بمناط الحكم فان شمول القدرة لجميع الاشياء من احكام الالوهية فكذا الحال
في قوله عز سلطانه الم تعلم ان الله له ملك السموات والارض فان عنوان الالوهية مدار
احكام ملكوتهما والجار والمجرور خبر مقدم وملك السموات والارض مبتدا والجملة خبر لان و
ايثاره على ان يقال ان لله ملك السموات والارض للقصد الى تقوي الحكم بتكرير الاسناد وهو اما
تكرير للتقرير واعادة للاستشهاد على ما ذكر وانما لم يعطف ان مع ان ما في حيزها على
ما سبق من مثلها روما لزيادة التاكيد واشعارا باستقلال بكل منهما وكفايته في الوقوف
على ما هو المقصود واما تقرير مستقل للاستشهاد على قدرته تعالى على جميع الاشياء اي الم تعلم
ان الله له السلطان القاهر والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة التامة على التصرف
الكلي فيهما ايجادا واعداما وامرا ونهيا حسبما تقتضيه مشيئته لا معارض لامره ولا
معقب لحكمه فمن هذا شانه كيف يخرج عن قدرته شيء من الاشياء وقوله تعالى
وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير معطوف على الجملة الواقعة خبرا لان
داخل معها تحت تعلق العلم المقرر وفيه اشارة الى تناول الخطاب من السابقين
للامة ايضا وانما افراده عليه السلام بهما لما ان علومهم مستندة الى علمه عليه السلام
ووضع الاسم الجليل موضع الضمير الراجع الى اسم ان لتربية المهابة والايذان بمقارنة الولاية

والنصرة للقوة والعزة والمراد به الاستشهاد بما تعلق به من العلم على تعلق ارادته تعالى بما ذكر
من الاتيان بما هو خير من المنسوخ او بمثله فان مجرد قدرته تعالى على ذلك لا يستدعي حصوله
البتة وانما الذي يستدعيه كونه تعالى مع ذلك وليا ونصيرا لهم فمن علم انه تعالى وليه ونصيره
على الاستقلال يعلم قطعا انه لا يفعل به الا ما هو خير له فيفوض امره اليه تعالى ولا يخطر بباله ريبة
في امر النسخ وغيره اصلا والفرق بين الولي والنصير ان الولي قد يضعف عن النصرة والنصير
قد يكون اجنبيا من المنصور وما اما تميمية لا عمل لها ولكم خبر مقدم ومن ولي مبتدا مؤخر
زيدت فيه كلمة من للاستغراق واما حجازية ولكم خبرها المنصوب عند من يجيز تقديمه
واسمها من ولي ومن مزيدة لما ذكر ومن دون الله في حيز النصب على الحالية من اسمها لانه
في الاصل صفة له فلما قدم انتصب حالا ومعناه سوى الله والمعنى ان قضية العلم بما ذكر
من الامور الثلاثة من الجزم والايقان بانه تعالى لا يفعل بهم في امر من امور دينهم او دنياهم
الا ما هو خير لهم والعمل بموجبه من الثقة به والتوكل عليه وتفويض الامر اليه من غير اصغاء
الى اقاويل الكفرة وتشكيكاتهم التي من جملتها ما قالوا في امر النسخ وقوله تعالى ام تريدون
تجريد للخطاب عن النبي صلى الله عليه وسلم وتخصيص له بالمؤمنين وام منقطعة ومعنى بل
فيها الاضراب والانتقال عن حملهم على العمل بموجب علمهم بما ذكر عند ظهور بعض مخايل
المساهلة منهم في ذلك وامارات التاثر من اقاويل الكفرة وتشكيكاتهم الى التحذير من
ذلك ومعنى الهمزة انكار وقوع الارادة منهم واستبعاده لما ان قضية الايمان وازعة
عنها وتوجيه الانكار الى الارادة دون متعلقها للمبالغة في انكاره واستبعاده ببيان
انه مما لا يصدر عن العاقل ارادته فضلا عن صدوره نفسه والمعنى بل اتريدون ان
تسالوا وانتم مؤمنون رسولكم وهو في تلك الرتبة من علو الشان وتقترحوا عليه
ما تشتهون غير واثقين في اموركم بفضل الله تعالى حسبما يوجبه قضية علمكم بشؤونه سبحانه
قيل لعلهم كانوا يطلبون منه عليه السلام بيان تفاصيل الحكم الداعية الى النسخ وقيل
سأله عليه السلام قوم من المسلمين ان يجعل لهم ذات انواط كما كانت للمشركين وهي
شجرة كانوا يعبدونها ويعلقون عليها الماكول والمشروب وقوله تعالى كما سئل موسى
مصدر تشبيهي اي نعت لمصدر مؤكد محذوف وما مصدرية اي سؤالا مشبها بسؤال
موسى حيث قيل له اجعل لنا الها كما لهم الهة وارنا الله جهرة وغير ذلك ومقتضى الظاهر
ان يقال كما سال موسى لان المشبه هو المصدر من المبني للفاعل اعني سائلية المخاطبين
لا من المبني للمفعول اعني مسؤولية الرسول عليه السلام حتى تشبه بمسؤولية موسى عليه السلام
فلعله اريد التشبيه فيهما معا ولكنه اوجز النظم فذكر في جانب المشبه السائلية و
في جانب المشبه به المسؤولية واكتفي بما ذكر في كل موضع عما ترك في الموضع الاخر
كما ذكر في قوله تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد
لفضله وقد جوز ان تكون ما موصولة على ان العائد محذوف اي كالسؤال الذي سأله موسى عليه السلام
وقوله تعالى من قبل متعلق بسئل جيء به للتاكيد وقرئ سيل بالياء وكسر السين و
بتسهيل الهمزة بين بين ومن يتبدل الكفر بالايمان اي يختره ويأخذه لنفسه بالايمان
بمقابلته بدلا منه وقرئ ومن يبدل من ابدل وكان مقتضى الظاهر ان يقال ومن يفعل ذلك
اي السؤال المذكور وارادته وحاصله ومن يترك الثقة بالايات البينة المنزلة بحسب
المصالح التي من جملتها الايات الناسخة التي هي خير محض وحق بحت واقترح غيرها
فقد ضل سواء السبيل اي عدل وجار من حيث لا يدري عن الطريق المستقيم الموصل
الى معالم الحق والهدى وتاه في تيه الهوى وتردى في مهاوي الردى وانما اوثر على
ذلك ما عليه النظم الكريم للتصريح من اول الامر بانه كفر وارتداد وان كونه كذلك امر
واضح غني عن الاخبار به بان يقال ومن يفعل ذلك يكفر حقيق بان يعد من المسلمات و
يجعل مقدما للشرطية روما للمبالغة في الزجر والافراط في الردع وسواء السبيل من اضافة
الوصف الى الموصوف لقصد المبالغة في بيان قوة الاتصاف كانه نفس السواء على منهاج حصول الصورة
في الصورة الحاصلة وقيل الخطاب لليهود حين سالوا ان ينزل الله عليهم كتابا من السماء و

قيل الخطاب لليهود حين سألوا ان ينزل الله عليهم كتابا من السماء وقيل للمشركين حين
قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة تفجر لنا من الارض ينبوعا الى افاضة الرسول صلى الله عليه
وسلم اليهم على القولين باعتبار انهم من امة الدعوة ومعنى تبدل الكفر بالايمان وهو
بمعزل من الايمان ترك صرف قدرتهم اليه مع تمكنهم من ذلك وايثارهم للكفر عليه ود
كثير من اهل الكتاب هم رهط من احبار اليهود روي ان فنحاص بن عازورا وزيد
بن قيس ونفرا من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة احد الم تروا
ما اصابكم ولو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعوا الى ديننا فهو خير لكم وافضل ونحن
اهدى منكم سبيلا فقال عمار كيف نقض العهد فيكم قالوا شديد قال فاني عاهدت ان لا اكفر
بمحمد صلى الله عليه وسلم ما عشت فقالت اليهود اما هذا فقد صبا وقال حذيفة اما
انا فقد رضيت بالله ربا وبمحمد نبيا وبالاسلام دينا وبالقران اماما وبالكعبة
قبلة وبالمؤمنين اخوانا ثم اتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم واخبراه فقال اصبتما
خيرا وافلحتما فنزلت لو يردونكم حكاية لودادتهم ولو في معنى التمني وصيغة
الغيبة كما في قوله حلف ليفعلن وقيل هي بمنزلة ان الناصبة فلا يكون لها جواب و
ينسبك منها ومما بعدها مصدر يقع مفعولا لود والتقدير ردكم وقيل
هي على حقيقتها وجوابها محذوف تقديره لو يردونكم كفارا لسروا بذلك من بعد
ايمانكم متعلق بيردونكم وقوله تعالى كفارا مفعول ثان له على تضمين الرد
معنى التصيير اي يصيرونكم كفارا كما في قوله رمى الحدثان نسوة السعد بمقدار سمدن
له سمودا فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا وقيل هو
حال من مفعوله والاول ادخل لما فيه من الدلالة صريحا على كون الكفر المفروض بطريق
القسر وايراد الظرف مع عدم الحاجة اليه ضرورة كون المخاطبين مؤمنين واستحالة
تحقق الرد الى الكفر بدون سبق الايمان مع توسيطه بين المفعولين لاظهار كمال
ما ارادوه وغاية بعده من الوقوع اما لزيادة قبحه الصارف للعاقل عن مباشرته
واما للممانعة الايمان له كانه قيل من بعد ايمانكم الراسخ وفيه من تثبيت المؤمنين
ما لا يخفى حسدا علة لود او حال اريد به نعت الجمع اي حاسدين لكم والحسد الاسف
على من له خير بخيره من عند انفسهم متعلق بود اي ودوا ذلك من تشهيهم وحظوظ
انفسهم لا من قبل التدين والميل مع الحق ولو على زعمهم او بحسدا اي حسدا منبعثا
من اصل نفوسهم بالغا اقصى مراتبه من بعد ما تبين لهم الحق بالمعجزات الساطعة
وبما عاينوا في التورية من الدلايل حا علموا انكم متمسكون به وهم منهمكون
في الباطل فاعفوا واصفحوا العفو ترك المواخذة والعقوبة والصفح ترك التثريب
والتانيب حتى ياتي الله بامره الذي هو قتل بني قريظة واجلاء بني النضير واذلا
لهم بضرب الجزية عليهم او الاذن في القتال وعن ابن عباس رضه انه منسوخ باية السيف
ولا يقدح في ذلك ضرب الغاية لانها لا تعلم الا شرعا ولا يخرج الوارد بذلك
من ان يكون ناسخا كانه قيل فاعفوا واصفحوا الى ورود الناسخ ان الله على كل شيء قدير
فينتقم منهم اذا حان حينه وان اوانه فهو تعليل لما دل عليه ما قبله واقيموا الصلوة
واتوا الزكوة عطف على فاعفوا امروا بالصبر والمداراة والالتجاء الى الله تعالى بالعبادة البدنية
والمالية وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه كصلوة او صدقة او غير ذلك
اي اي شيء من الخيرات تقدموه لمصلحة انفسكم تجدوه عند الله اي تجدوا ثوابه
وقرئ تقدموا من اقدم ان الله بما تعملون بصير فلا يضيع عنده عمل فهو وعد
للمؤمنين وقرئ بالياء فهو وعيد للكافرين وقالوا عطف على ود والضمير لاهل
الكتابين جميعا لن يدخل الجنة الا من كان هودا او نصارى اي قالت اليهود لن
يدخل الجنة الا من كان هودا والنصارى لن يدخل الجنة الا من كان نصارى فلف بين
القولين ثقة بان السامع يرد كلا منهما الى قائله ونحوه وقالوا كونوا هودا او نصارى
تهتدوا وليس مرادهم باولئك من اقام اليهودية والنصرانية قبل النسخ والتحريف على وجهها

بل انفسهم

بل انفسهم على ما هم عليه لانهم انما يقولونه لاضلال المؤمنين وردهم الى الكفر والهود جمع
هائد كعود جمع عائد وبزل جمع بازل والافراد في كان باعتبار لفظ من والجمع في خبره باعتبار
معناه وقرئ الا من كان يهوديا او نصرانيا تلك امانيهم الاماني جمع امنية وهي ما
يتمنى كالاعجوبة والاضحوكة والجملة معترضة مبينة لبطلان ما قالوا وتلك اشارة اليه
والجمع باعتبار صدوره عن الجميع وقيل فيه حذف مضاف اي امثال تلك الامنية
امانيهم وقيل تلك اشارة اليه والى ما قبله من ان لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم
وان يردوهم كفارا ويرده قوله تعالى قل هاتوا برهانكم فانهما ليسا مما يطلب له
البرهان ولا مما يحتمل الصدق والكذب قيل هاتوا اصله آتوا قلبت الهمزة هاء اي
احضروا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة ان كنتم صادقين في دعواكم هذا ما
يقتضيه المقام بحسب النظر الجليل والذي يستدعيه اعجاز التنزيل ان يحمل الامر التبكيتي
على طلب البرهان على اصل الدخول الذي يتضمنه دعوى الاختصاص به فان قوله
تعالى بلى الى اخره اثبات من جهته تعالى لما نفوه مستلزم لنفي ما اثبتوه واذ ليس الثابت
به مجرد دخول غيرهم الجنة ولو معهم ليكون المنفي مجرد اختصاصهم به مع بقاء اصل
الدخول على حاله بل هو اختصاص غيرهم بالدخول كما ستعرفه باذن الله تعالى ظهر
ان المنفي اصل دخولهم ومن ضرورته ان يكون هو الذي كلفوا اقامة البرهان عليه
لا اختصاصهم به ليتحد مورد الاثبات والنفي وانما عدل عن ابطال صريح ما ادعوه وسلك
هذا المسلك ابانة لغاية حرمانهم مما علقوا به اطماعهم واظهارا لكمال عجزهم عن
اثبات مدعاهم لان حرمانهم من الاختصاص بالدخول وعجزهم عن اقامة البرهان
عليه لا يقتضيان حرمانهم من اصل الدخول وعجزهم عن اثباته واما نفس الدخول
فحيث ثبت حرمانهم منه وعجزهم عن اثباته فهم من الاختصاص به ابعد وعن اثباته
اعجز وانما الفائز به من انتظمه قوله سبحانه من اسلم وجهه لله اي اخلص
نفسه له تعالى لا يشرك به شيئا عبر عنها بالوجه لانه اشرف الاعضاء ومجمع المشاعر وموضع
السجود وموضع اثار الخضوع الذي هو من اخص خصايص الاخلاص او توجهه
وقصده بحيث لا يلوي عزيمته الى شيء غيره وهو محسن حال من ضمير اسلم اي والحال انه
انه محسن في جميع اعماله التي من جملتها الاسلام المذكور وحقيقة الاحسان الاتيان بالعمل
على الوجه اللائق وهو حسنه الوصفي التابع لحسنه الذاتي حال من ضمير اسلم اي والحال
انه محسن في جميع اعماله وقد فسره صلى الله عليه وسلم بقوله ان تعبد الله كانك تراه
فان لم تكن تراه فانه يراك فله اجره الذي وعد له على عمله وهو عبارة عن دخول الجنة
او عما يدخل هو فيه دخولا اوليا واياما كان فتصويره بصورة الاجر للايذان بقوة ارتباطه
بالعمل واستحالة نيله بدونه وقوله تعالى عند ربه حال من اجره والعامل فيه معنى الاستقرار
في الظرف والعندية للتشريف ووضع اسم الرب مضافا الى ضمير من اسلم موضع ضمير الجلالة
لاظهار مزيد اللطف به وتقرير مضمون الجملة فله اجره عند مالكه ومدبر اموره ومبلغه
الى كماله والجملة جواب من ان كانت شرطية وخبرها ان كانت موصولة والفاء لتضمنها معنى
الشرط فيكون الرد بقوله تعالى بلى وحده ويجوز ان يكون من فاعل الفعل مقدر اي بلى
يدخلها من اسلم وقوله تعالى فله اجره معطوف على ذلك المقدر واياما كان فتعليق
ثبوت الاجر بما ذكر من الاسلام والاحسان المختصين باهل الايمان قاض بان اولئك المدعين
من دخول الجنة بمعزل من الاختصاص به بالف منزل ولا خوف عليهم في الدارين من لحوق
مكروه ولا هم يحزنون من فوات مطلوب اي لا يعتريهم ما يوجب ذلك لا انه يعتريهم
لكنهم لا يخافون ولا يحزنون والجمع في الضماير الثلاثة باعتبار معنى من كما ان الافراد في الضماير
الاول باعتبار اللفظ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء بيان لتضليل كل فريق صاحبه
بخصوصه اثر بيان تضليله كل من عداه على وجه العموم نزلت لما قدم وفد نجران على رسول الله
صلى الله عليه وسلم واتاهم احبار اليهود فتناظروا فارتفعت اصواتهم فقالوا لهم لستم
على شيء اي امر يعتد به من الدين او على شيء ما منه اصلا مبالغة في ذلك كما قالوا قل من

لاشيء وكفروا بعيسى والانجيل وقالت النصارى ليست اليهود على شيء على الوجه المذكور
وكفروا بموسى والتورية لما انهم قالوا ذلك بناء للامر على منسوخية التورية وهم
يتلون الكتاب الواو للحال واللام للجنس اي قالوا ما قالوا والحال ان كل فريق منهم من اهل
العلم والكتاب اي كان حق كل منهم ان يعترف بحقية دين صاحبه حسبما ينطق به كتابه
فان كتب الله تعالى متصادقة كذلك اي مثل ذلك الذي سمعت به والكاف في محل
النصب اما على انها نعت لمصدر محذوف قدم على عامله لافادة القصر اي قولا مثل ذلك القول
بعينه لا قولا مغايرا له قال الذين لا يعلمون من عبدة الاصنام والمعطلة ونحوهم
من الجهلة اي قالوا لاهل كل دين ليسوا على شيء واما على انها حال من المصدر المضمر المعرف
الدال عليه قال اي قال القول الذين لا يعلمون حال كونه مثل ذلك القول الذي سمعت به مثل
قولهم اما بدل من محل الكاف واما مفعول للفعل المنفي قبله اي مثل ذلك القول
قال الجاهلون بمثل مقالة اليهود والنصارى وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا انفسهم
مع علمهم في سلك من لا يعلم اصلا فالله يحكم بينهم اي بين اليهود والنصارى
فان مساق النظم لبيان حالهم وانما التعرض لمقالة غيرهم لاظهار كمال بطلان
مقالهم ولان المحاجة المحوجة الى الحكم انما وقعت بينهم يوم القيمة متعلق
بيحكم وكذا ما قبله وما بعده ولا ضير فيه لاختلاف المعنى فيما كانوا فيه يختلفون
بما يقسم لكل فريق ما يليق به من العقاب وقيل حكمه بينهم ان يكذبهم ويدخلهم
النار والظرف الاخير متعلق بيختلفون قدم عليه للمحافظة على رؤس الآي
لا بكانوا ومن اظلم ممن منع مساجد الله انكار واستبعاد لان يكون احد
اظلم ممن فعل ذلك او مساويا له وان لم يكن سلك التركيب متعرضا لانكار المساوات
ونفيها يشهد به العرف الفاشي والاستعمال المطرد فاذا قيل من اكرم من فلان او لا افضل
من فلان فالمراد به حتما انه اكرم من كل كريم وافضل من كل فاضل وهذا الحكم عام
لكل من فعل ذلك في اي مسجد كان وان كان سبب النزول فعل طايفة معينة في مسجد
مخصوص روي ان النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الاذى ويمنعون الناس ان يصلوا
فيه وان الروم غزوا اهله فخربوه واحرقوا التورية وقتلوا وسبوا وقد نقل عن ابن عباس
رضه ان طيطوس الرومي ملك النصارى واصحابه غزوا بني اسرائيل وقتلوا مقاتلهم و
سبوا ذراريهم واحرقوا التورية وخربوا بيت المقدس وقذفوا فيه الجيف وذبحوا فيه
الخنازير ولم يزل خرابا حتى بناه المسلمون في عهد عمر رضه وانما اوقع المنع على
المساجد وان كان الممنوع هو الناس لما ان فعلهم من طرح الاذى والتخريب ونحوهما
متعلق بالمسجد لا بالناس مع كونه على حاله وتعلق الاية الكريمة بما قبلها من حيث انها
مبطلة لدعوى النصارى اختصاصهم بدخول الجنة وقيل هو منع المشركين رسول الله صلى الله
عليه وسلم ان يدخل المسجد الحرام عام الحديبية فتعلقها بما يتقدمها من جهة ان المشركين
من جملة الجهلة القائلين لكل من عداهم ليسوا على شيء ان يذكر فيها اسمه ثاني
مفعولي منع كقوله تعالى وما منع الناس ان يؤمنوا وقوله تعالى وما منعنا ان نرسل
الآيات ان كذب بها الاولون ويجوز ان يكون ذلك بحذف الجار مع ان وان يكون ذلك
مفعولا له اي كراهة ان يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها بالهدم والتعطيل بانقطاع الذكر
اولئك المانعون الظالمون الساعون في خرابها ما كان لهم ان يدخلوها الا خائفين
اي ما كان ينبغي لهم ان يدخلوها الا بخشية وخضوع فضلا عن الاجتراء على تخريبها
تعطيلها او ما كان الحق ان يدخلوها الا على حال التهيب وارتعاد الفرائص من جهة المؤمنين
ان يبطشوا بهم فضلا ان يستولوا عليها ويلوها ويمنعوهم منها اي وما كان لهم
في علم الله تعالى وقضائه بالاخرة الا ذلك فيكون وعدا للمؤمنين بالنصر واستخلاص
ما استولوا عليه منهم وقد انجز الوعد ولله الحمد روي انه لا يدخل بيت المقدس احد من
النصارى الا متنكرا مسارقة وقيل معناه النهي عن تمكينهم من الدخول في المسجد
واختلف الايمة في ذلك فجوزه ابو حنيفة مطلقا ومنعه مالك مطلقا وفرق الشافعي بين المسجد

الحرام

الحرام وغيره لهم اي لاولئك المذكورين في الدنيا خزي اي خزي فظيع لا يوصف
بالقتل والاذلال والسبي بضرب الجزية عليهم ولهم في الاخرة عذاب عظيم
وهو عذاب النار لما ان سببه ايضا وهو ما حكي من ظلمهم كذلك في العظم وتقديم الظرف
في الموضعين للتشويق الى ما يذكر بعده من الخزي والعذاب لما مر من ان تاخير ما حقه التقديم
موجب لتوجه النفس اليه فيتمكن فيها عند وروده فضل تمكن كما في قوله تعالى الم نشرح
لك صدرك وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج الى غير ذلك ولله المشرق والمغرب
اي له كل الارض التي هي عبارة عن ناحيتي الشرق والغرب لا يختص به من حيث الملك والتصرف
ومن حيث المحلية لعبادته مكان منها دون مكان فان منعتم من اقامة العبادة في المسجد
الاقصى او المسجد الحرام فاينما تولوا اي ففي اي مكان فعلتم تولية وجوهكم شطر
القبلة فثم وجه الله ثم اسم اشارة للمكان البعيد خاصة مبني على الفتح ولا يتصرف
سوى الجر بمن وهو خبر مقدم ووجه الله مبتداء والجملة في محل الجزم على انها
جواب الشرط اي هناك جهته التي امر بها فان امكان التولية غير مختص بمسجد دون مسجد
او مكان دون آخر او فثم ذاته بمعنى الحضور العلمي اي فهو عالم بما يفعل فيه ومثيب لكم
على ذلك وقرئ بفتح التاء واللام اي فاينما توجهوا القبلة ان الله واسع باحاطته بالاشياء
او برحمته يريد التوسعة على عباده عليم بمصالحهم واعمالهم في الاماكن كلها
والجملة تعليل لمضمون الشرطية وعن ابن عمر رضه نزلت في صلوة المسافرين على الراحلة اينما
توجهوا وقيل في قوم عميت عليهم الظلام فصلوا الى انحاء مختلفة فلما اصبحوا تبينوا خطاءهم
وعلى هذا لو اخطاء المجتهد ثم تبين له الخطاء لم يلزمه التدارك وقيل هي توطية لنسخ
القبلة وتنزيه للمعبود عن ان يكون في جهة وقالوا اتخذ الله ولدا حكاية لطرف
اخر من مقالاتهم الباطلة المحكية فيما سلف معطوفة على ما قبلها من قوله تعالى وقالت اليهود
لا على صلة من لما بينهما من الجمل الكثيرة الاجنبية والضمير لليهود والنصارى ومن شاركهم
فيما قالوا من الذين لا يعلمون وقرئ بغير واو على الاستيناف نزلت حين قالت اليهود
عزير ابن الله والنصارى المسيح ابن الله ومشركوا العرب الملائكة بنات الله والاتخاذ
اما بمعنى الصنع والعمل فلا يتعدى الا الى واحد واما بمعنى التصيير والمفعول الاول محذوف
اي صير بعض مخلوقاته ولدا سبحانه تنزيه وتبرئة له تعالى عما قالوا وسبحان
علم للتسبيح كعثمان لرجل وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه اي اسبح
سبحانه اي انزهه تنزيها لائقا به وفيه من التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق
من السبح الذي هو الذهاب والابعاد في الارض ومن جهة النقل الى التفعيل ومن
جهة العدول من المصدر الى الاسم الموضوع له خاصة لا سيما العلم المشير الى الحقيقة
الحاضرة الى الذهن ومن جهة اقامته مقام المصدر مع الفعل ما لا يخفى وقيل هو
مصدر كغفران بمعنى التنزه اي تنزه بذاته تنزها حقيقا به ففيه مبالغة من حيث
اسناد البرات الى الذات المقدسة وان كان التنزيه اعتقادا او نزاهته تعالى عما
لا يليق به لا اثباتها له وقوله تعالى بل له ما في السموات والارض رد لما زعموا و
تنبيه على بطلانه وكلمة بل للاضراب عما يقتضيه مقالتهم الباطلة من مجانسته
سبحانه وتعالى الشيء من مخلوقاته ومن سرعة فنائه المحوجة الى اتخاذ ما يقوم مقامه
فان مجرد الامكان والفناء لا يوجب ذلك الا يرى ان الاجرام الفلكية مع امكانها وفنائها
بالاخرة مستتبعة بدوامها وطول بقائها عما يجري مجرى الولد من الحيوان اي ليس
الامر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها عزير والمسيح والملائكة
كل التنوين عوض عن المضاف اليه اي كل ما فيهما كائنا ما كان من اولي العلم وغيرهم
له قانتون منقادون لا يستعصي شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيته ومن
كان هذا شانه لم يتصور مجانسته لشيء ومن حق الولد ان يكون من جنس الوالد
وانما جيء بما المختصة بغيرا ولي العلم تحقيرا لشانهم وايذانا بكمال بعدهم عما نسبوا الى
بعض منهم وصيغة جمع العقلاء في قانتون للتغليب او كل من جعلوه لله ولدا له

قانتون اي مطيعون عابدون له معترفون بربوبيته تعالى كقوله تعالى اوليك الذين يبتغون
الي ربهم الوسيلة بديع السموات والارض اي مبدعهما ومخترعهما بلا مثال يحتذيه
ولا قانون ينتحيه فان البديع كما يطلق على المبتدع يطلق على المبتدع نص عليه اساطين
اهل اللغة وقد جاء بدعه كمنعه بمعنى انشاه كابتدعه كما ذكر في القاموس وغيره ونظيره
السميع بمعنى المسمع في قوله امن ريحانة الداعي السميع وقيل هو من اضافة
الصفة المشبهة الى فاعلها للتخفيف بعد نصبه على تشبيهها باسم الفاعل كما هو المشهور
اي بديع سمواته من بدع اذا كان على شكل فايق وحسن رايق وهو حجة اخرى لابطال
مقالتهم الشنعاء تقريرها ان الوالد عنصر الولد المنفعل بانفصال مادته
عنه والله سبحانه مبدع الاشياء كلها على الاطلاق منزه عن الانفعال فلا يكون والدا
ورفعه على انه خبر لمبتدا محذوف اي هو بديع الخ وقرئ بالنصب على المدح و
بالجر على انه بدل من الضمير في له على راي من يجوز الابدال من الضمير المجرور كما في قوله
على حودة لضن بالماء حاتم واذا قضى امرا اي اراد شيا كقوله تعالى انما امره اذا اراد شيئا
واصل القضاء الاحكام اطلق على الارادة الالهية المتعلقة بوجود الشي لايجابها
اياه البتة وقيل الامر ومنه قوله تعالى وقضى ربك الخ فانما يقول له كن فيكون
كلاهما من الكون التام اي احدث فيحدث وليس المراد به حقيقة الامر والامتثال
وانما هو تمثيل لسهولة تاتي المقدورات بحسب تعلق مشيته تعالى وتصوير
لسرعة حدوثها بما هو علم في الباب من طاعة المامور المطيع للامر القوي المطاع
وفيه تقرير لمعنى الابداع وتلويح لحجة اخرى لابطال ما زعموه بان اتخاذ الولد شان
من يفتقر في تحصيل مراده الى مبادي يستدعي ترتيبها مرور زمان وتبدل اطوار
وفعله تعالى متعال عن ذلك وقال الذين لا يعلمون ◦ حكاية لنوع آخر من قبايحهم
وهو قدحهم في امر النبوة بعد حكاية قدحهم في شان التوحيد بنسبة الولد اليه
سبحانه وتعالى واختلف في هؤلاء القائلين فقال ابن عباس رضه هم اليهود وقال
مجاهد هم النصارى ووصفهم بعدم العلم علمهم بالتوحيد والنبوة كما ينبغي
او لعدم عملهم بموجب علمهم او لما ان ما يحكى عنهم لا يصدر عمن له شايبة علم اصلا
وقال قتادة واكثر اهل التفسير هم مشركوا العرب لقوله تعالى فليأتنا باية كما ارسل الاولون
وقالوا لولا انزل علينا الملائكة او نرى ربنا لولا يكلمنا الله اي هلا يكلمنا بلا واسطة
امرا ونهيا كما يكلم الملايكة او هلا يكلمنا تنصيصا على نبوتك او تاتينا اية حجة تدل على
صدقك بلغوا من العتو والاستكبار الى حيث املوا نيل مرتبة المفاوضة الالهية من غير
توسط الرسول والملك ومن العناد والمكابرة الى حيث لم يعدوا ما اتاهم من البينات الباهرة
التي تخر لها صم الجبال من قبيل الايات قاتلهم الله انى يؤفكون كذلك مثل ذلك القول
الشنيع الصادر عن العناد والفساد قال الذين من قبلهم من الامم الماضية مثل
قولهم هذا الباطل الشنيع فقالوا ارنا الله جهرة وقالوا لن نصبر على طعام واحد الاية
وقالوا هل يستطيع ربك الخ وقالوا اجعل لنا الها الخ تشابهت قلوبهم اي قلوب هؤلاء
واوليك في العمى والعناد والا لما تشابهت اقاويلهم الباطلة قد بينا الايات اي نزلناها
بينة بان جعلناها كذلك في انفسها كما في قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر
الفيل لا انا بيناها بعد ان لم تكن بينة لقوم يوقنون اي يطلبون اليقين ويوقنون
بالحقايق لا يعتريهم شبهة ولا ريبة وهذا رد لطلبهم الاية وفي تعريف الايات
وجمعها وايراد التبيين المفصح عن كمال التوضيح مكان الاتيان الذي طلبوه ما لا يخفى
من الجزالة والمعنى انهم اقترحوا اية فذة ونحن قد بينا الايات العظام لقوم يطلبون
الحق واليقين وانما لم يتعرض لرد قولهم لولا يكلمنا الله ايذانا بانه من ظهور البطلان
بحيث لا حاجة له الى الرد والجواب انا ارسلناك بالحق اي ملتبسا بالقران كما في قوله
كذبوا بالحق لما جاءهم او بالصدق كما في قوله تعالى احق هو وقوله تعالى بشيرا ونذيرا
حال من المفعول باعتبار تقييده بالحال الاولى اي ارسلناك ملتبسا بالقران حال كونك بشيرا

لمن امن

لمن آمن بما انزل عليك وعمل به ونذيرا لمن كفر به وارسلناك صادقا حال كونك بشيرا لمن صدقك
بالثواب ونذيرا لمن كذبك بالعذاب ليختاروا لانفسهم ما احبوا لا قاسرا لهم على الايمان
فلا عليك ان اصروا وكابروا ولا تسال عن اصحاب الجحيم ما لهم لم يؤمنوا بعد ما بلغت
ما ارسلت به وقرئ لن تسال وما تسال وقرئ لا تسال على صيغة النهي ايذانا بكمال شدة عقوبة
الكفار وتهويلا لها كانها لغاية فظاعتها لا يقدر المخبر على اجرايها على لسانه او لا يستطيع
السامع ان يسمع خبرها وحمله على نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال ابويه
مما لا يساعده النظم الكريم والجحيم المتاجج من النار وفي التعبير عنهم بصاحبية الجحيم دون
الكفر والتكذيب ونحوهما وعيد شديد لهم وايذان بانهم مطبوع عليهم لا يرجى منهم
الايمان قطعا وقوله تعالى ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم بيان لكمال شدة
شكيمة هاتين الطايفتين خاصة اثر بيان ما يعمهما والمشركين من الاصرار على ما هم عليه
الى الموت وايراد النافية بين المعطوفين لتاكيد النفي لما مر من ان تصلب اليهود
في امثال هذه العظايم اشد من النصارى وللاشعار بان رضى كل منهما مباين لرضى الاخرى
اي لن ترضى عنك اليهود ولو خليتهم وشانهم حتى تتبع ملتهم ولا النصارى ولو تركتهم
ودينهم حتى تتبع ملتهم فاوجز النظم ثقة بظهور المراد وفيه من المبالغة في اقناطه
صلى الله عليه وسلم من اسلامهم ما لا غاية وراءه فانهم حيث لم يرضوا عنه عليه السلام
ولو خلاهم يفعلون بل املوا عنه صلى الله عليه وسلم ما لا يكاد يدخل تحت الامكان
من اتباعه عليه السلام لملتهم فكيف يتوهم اتباعهم لملته عليه السلام وهذه
حالتهم في انفسهم ومقالتهم فيما بينهم واما انهم اظهروا للنبي صلى الله عليه و
سلم وشافهوه بذلك وقالوا لن نرضى عنك وان بالغت في طلب رضانا حتى تتبع ملتنا
كما قيل فلا يساعده النظم الكريم بل فيه ما يدل على خلافه عز وجل قل ان هدى الله هو
الهدى صريح في ان ما وقع هنا جوابا عنه ليس عين تلك العبارة ما يستلزم مضمونها
او يلزمه من الدعوة الى اليهودية والنصرانية وادعاء ان الاهتداء فيهما كقوله عز وعلا
حكاية عنهم كونوا هودا او نصارى تهتدوا اي قل ردا عليهم ان هدى الله الذي هو
الاسلام لهو الهدى بالحق والذي يحق ان يسمى هدى وهو الهدى كله ليس وراءه هدى وما
تدعون اليه ليس بهدى بل هو هوى كما يعرب عنه قوله تعالى ولئن اتبعت اهواءهم اي اراءهم
الزائغة الصادرة عنهم بقضية شهوات انفسهم وهي التي عبر عنها فيما قبل بملتهم
اذ هي التي ينتمون اليها واما ما شرعه الله تعالى لهم من الشريعة على لسان الانبياء وهو المعنى
الحقيقي للملة فقد غيروها تغييرا بعد الذي جاءك من العلم اي الوحي والدين المعلوم صحته
ما لك من الله من جهته العزيزة من ولي يلي امرك عموما ولا نصير يدفع عنك عقابه
وحيث لم يستلزم نفي الولي نفي النصير وسط بينهما حرف النفي للتاكيد وهذا من باب التهييج
والالهاب والافادة يتوهم امكان اتباعه عليهم السلام لملتهم وهو جواب للقسم الذي
وطاه اللام واكتفى به عن جواب الشرط الذين اتيناهم الكتاب هم مؤمنو
اهل الكتاب كعبد الله بن سلام واحزابه يتلونه حق تلاوته بمراعاة لفظه عن التحريف
وبالتدبر في معانيه والعمل بما فيه وهو حال مقدرة والخبر ما بعده او خبر وما بعده مقرر له
اولئك اشارة الى الموصوفين بايتاء الكتاب وتلاوته كما هو حقه وما فيه من معنى
البعد للايذان ببعد منزلتهم في الفضل يؤمنون به اي بكتابهم دون المحرفين
فانهم بمعزل من الايمان فانه لا يجامع الكفر ببعض منه ومن يكفر به بالتحريف والكفر
بما يصدقه فاولئك هم الخاسرون حيث اشتروا الكفر بالايمان يا بني اسرايل
اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم ومن جملتها التورية وذكر النعمة انما يكون بشكرها و
شكرها الايمان بجميع ما فيها ومن جملته نعت النبي صلى الله عليه وسلم ومن ضرورة الايمان
بها الايمان به عليه السلام واني فضلتكم على العالمين افردت هذه النعمة بالذكر
مع كونها مندرجة تحت النعمة السالفة لانافتها فيما بين فنون النعم واتقوا ان لم تؤمنوا
يوما لا تجزي في ذلك اليوم نفس من النفوس عن نفس اخرى شيئا من الاشياء

حتى تتبع

او شيئًا من الجزاء ولا يقبل منها عدل اي فدية ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون وتخصيصهم بتكرير التذكير واعادة التحذير للمبالغة في النصح وللايذان بان ذلك فذلكة القصة والمقصود من القصة لما ان نعم الله عز وجل عليهم اعظم وكفرهم بها اشد واقبح واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات شروع في تحقيق ان هدى الله هو ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم من التوحيد والاسلام الذي هو ملة ابراهيم عليه السلام وان ما عليه اهل الكتابين اهواء زائغة وان ما يدعونه من انهم على ملته عليه السلام فرية بلا مرية ببيان ما صدر عن ابراهيم وابنائه الانبياء عليهم السلام من الاقاويل والافاعيل الناطقة بحقية التوحيد والاسلام وبطلان الشرك وبصحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وبكونه ذلك النبي الذي استدعاه ابراهيم واسمعيل عليهما السلام بقولهما ربنا وابعث فيهم رسولا منهم الاية فاذ منصوب على المفعولية بمضمر مقدم خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين اي واذكر لهم وقت ابتلائه عليه السلام ليتذكروا بما وقع فيه من الامور الداعية الى التوحيد الوازعة عن الشرك فيقبلوا الحق ويتركوا ما هم فيه من الباطل وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع انها المقصود بالذات قد مر وجهه في اثناء تفسير قوله تعالى واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة وقيل على الظرفية بمضمر مؤخر اي واذ ابتلاه كان كيت وكيت وقيل بما جيء من قوله تعالى قال الخ والاول هو الاليق بجزالة التنزيل ولا يبعد ان ينتصب بمضمر معطوف على اذكروا خوطب بنو اسرائيل ليتاملوا فيما يحكى عمن ينتمون الى ملته من ابراهيم وابنائه عليهم السلام من الافعال والاقوال فيقتدوا بهم ويسيروا سيرتهم والابتلاء في الاصل الاختبار بطلب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لامر يشق عليه غالبا فعله وتركه وذلك انما يتصور حقيقة ممن لا وقوف له على عواقب الامور واما من العليم الخبير فلا يكون الا مجازا من تمكينه للعبد من اختيار احد الامرين قبل ان يرتب عليه شيئا هو من مباديه العادية كمن يختبر عبده لتعرف حاله من الكياسة فيامره بما يليق بحاله من مصالحه وابراهيم اسم اعجمي قال السهيلي كثيرا ما يقع الاتفاق والتقارب بين السرياني والعربي الا يرى ان ابراهيم تفسيره اب راحم ولذلك جعل هو وزوجته سارة كافلين لاطفال المؤمنين الذين يموتون صغارا الى يوم القيمة على ما روى البخاري في حديث الرؤيا ان النبي صلى الله عليه وسلم راى في الروضة ابراهيم عليه السلام وحوله اولاد الناس وهو مفعول مقدم لاضافة فاعله الى ضميره والتعرض لعنوان الربوبية تشريف له عليه السلام وايذان بان ذلك الابتلاء تربية له وترشيح لامر خطير والمعنى عامله سبحانه معاملة المختبر حيث كلفه اوامر ونواهي يظهر بحسن قيامه بحقوقها قدرته على الخروج عن عهدة الامامة العظمى وتحمل اعباء الرسالة وهذه المعاملة وتذكيرها للناس لارشادهم الى طريق اتقان الامور ببنائها على التجربة وللايذان بان بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ايضا مبنية على تلك القاعدة الرضية واقعة بعد ظهور استحقاقه عليه السلام للنبوة العامة كيف لا وهي التي اجيب بها دعوة ابراهيم عليه السلام كما سيأتي واختلف في الكلمات فقال مجاهد هي المذكورة بعدها ورد بانه يأباه الفاء في فاتمهن ثم الاستيناف وقال طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما هي عشر خصال كانت فرضا في شرعه وهن سنة في شرعنا خمس في الرأس المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس وقص الشارب والسواك وخمس في البدن الختان وحلق العانة ونتف الابط وتقليم الاظفار والاستنجاء بالماء وفي الخبر ان ابراهيم عليه السلام اول من قص الشارب واول من اختتن واول من قلم الاظفار وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما لم يبتل احد بهذا الدين فاقامه كله الا ابراهيم ابتلاه الله تعالى بثلثين خصلة من خصال الاسلام عشر منها في سورة براءة التائبون الخ وعشر في الاحزاب ان المسلمين والمسلمات الخ وعشر في المؤمنون وسأل سائل الى قوله عز وجل والذين هم على صلواتهم يحافظون وقيل ابتلاه الله بسبعة اشياء بالشمس والقمر والنجوم والختان على الكبر

والنار

والنار وذبح الولد والهجرة فوفى بالكل وقيل هن محاجته قومه والصلوة والزكوة والصوم والضيافة والصبر عليها وقيل هي مناسك الحج كالطواف والسعي والرمي والاحرام والتعريف وغيرهن وقيل هي قوله عليه السلام الذي خلقني فهو يهدين الايات ثم قيل انما وقع هذا الابتلاء قبل النبوة وهو الظاهر وقيل بعدها لانه يقتضي سابقة الوحي واجيب بان مطلق الوحي لا يستلزم البعثة الى الخلق وقرئ برفع ابراهيم ونصب ربه اي دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه اليهن اولا فاتمهن اي قام بهن حق القيام واداهن احسن التأدية من غير تفريط وتوان كما في قوله تعالى وابراهيم الذي وفى وعلى القراءة الاخيرة فاعطاه الله تعالى ما سأله من غير نقص ويعضده ما روي عن مقاتل انه فسر الكلمات بما سأل ابراهيم ربه بقوله رب اجعل الايات وقوله عز وجل قال على تقدير انتصاب اذ بمضمر جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ من الكلام فان الابتلاء تمهيد لامر معظم وظهور فضيلة المبتلى من دواعي الاحسان اليه فبعد حكايتهما تترقب النفس الى ما وقع بعدهما كانه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال اني جاعلك للناس اماما او بيان لقوله تعالى ابتلى على رأي من جعل الكلمات عبارة عما ذكر اثره من الامامة وتطهير البيت ورفع قواعده وغير ذلك وعلى تقدير انتصاب اذ بقال فالجملة معطوفة على ما قبلها عطف القصة على القصة والواو في المعنى داخلة على قال اي وقال اذ ابتلى الخ والجعل بمعنى التصيير احد مفعوليه الضمير والثاني اماما واسم الفاعل بمعنى المضارع واوكد منه لدلالته على انه جاعل له البتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه وللناس متعلق بجاعلك اي لاجل الناس او بمحذوف وقع حالا من اماما اذ لو تأخر عنه لكان صفة له والامام اسم لمن يؤتم به وكل نبي امام لامته وامامته عليه السلام عامة مؤبدة اذ لم يبعث بعده نبي الا كان من ذريته مأمورا باتباع ملته قال استيناف مبني على سؤال مقدر كانه قيل فماذا قال ابراهيم عليه السلام عنده فقيل قال ومن ذريتي عطف على الكاف ومن تبعيضية متعلقة بجاعل بعض ذريتي كما تقول وزيدا لمن يقول ساكرمك او بمحذوف اي واجعل فريقا من ذريتي اماما وتخصيص البعض بذلك لبداهة استحالة امامة الكل وان كانوا على الحق وقيل النقدير وماذا يكون من ذريتي الذرية نسل الرجل فعولة من ذروت او ذريت والاصل ذرووة فاجتمع في الاولى واوان زائدة واصلية فقلبت الاصلية ياء فصارت كالثانية فاجتمعت واو وياء وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وادغمت الياء في الياء فصارت ذرية او فعيلة منهما والاصل في الاولى ذريوة فقلبت الواو ياء لما سبقت من اجتماعهما وسبق احداهما بالسكون فصارت ذرية كالثانية فادغمت الياء في مثلها فصارت ذرية او فعيلة من الذرء بمعنى الخلق والاصل ذريئة فخففت الهمزة بابدالها ياء كهمزة خطيئة ثم ادغمت الياء الزائدة في المبدلة او فعلية من الذر بمعنى التفريق والاصل ذريرة قلبت الراء الاخيرة ياء لتوالي الامثال كما في تسريت وتقضي وتظني فادغمت الياء في الياء كما مر او فعولة منه والاصل ذرورة فقلبت الراء الاخيرة ياء فجاء الادغام وقرئ بكسر الذال وهي لغة فيها وقرأ ابو جعفر المدني بالفتح وهي ايضا لغة فيها قال استيناف مبني على سؤال ينساق اليه الذهن كما سبق لا ينال عهدي الظالمين ليس هذا ردا لدعوته عليه السلام بل اجابة خفية لها وعدة اجمالية منه تعالى بتشريف بعض ذريته عليه السلام بنيل عهد الامامة حسبما وقع في استدعائه عليه السلام من غير تعيين لهم بوصف مميز لهم عن جميع من عداهم فان التنصيص على حرمان الظالمين منه بمعزل من التمييز اذ ليس معناه انه ينال كل من ليس بظالم منهم ضرورة استحالة ذلك كما اشير اليه فلعل ايثار هذه الطريقة على تعيين الجامعين لمبادي الامامة من ذريته اجمالا او تفصيلا وارسال الباقين لئلا ينتظم المقتدون بالائمة من الامة في سلك المحرومين وفي تفصيل كل فرقة من

الحج

او ذروية صح

الاطناب ما لا يخفى مع ما في هذه الطريقة من تخييب الكفرة الذين كانوا يتمنون النبوة وقطع
المطامع الفارغة من نيلها وايماء ونثر النيل على الجعل ايماء الى ان امامة الانبياء من
ذرية آدم عليه السلام كاسمعيل واسحق ويعقوب ويوسف وموسى وهرون
وداود وسليمان وايوب ويونس وزكريا ويحيى وعيسى وسيدنا محمد صلى الله عليه
وسلم تسليما كثيرا ليست بجعل مستقل بل هي حاصلة في ضمن امامة ابراهيم عليه السلام
تنال كلا منهم في وقت قدرة الله عز وجل وقرئ الظالمون على ان عهدي مفعول قدم
على الفاعل اهتماما ورعاية للفواصل وفيه دليل على عصمة الانبياء عليهم السلام من الكبائر
على الاطلاق وعدم صلاحية الظالم للامامة وقوله تعالى واذ جعلنا البيت اي الكعبة
المعظمة غلب عليها غلبة النجم على الثريا معطوف على اذ والعامل فيه هو العامل
فيه او مضمر مستقل معطوف على المضمر الاول والجعل اما بمعنى التصيير فقوله عز وجل
مثابة اي مرجعا يثوب اليه الزوار بعد ما تفرقوا عنه وامثالهم او موضع ثواب يثابون
بحجه واعتماره مفعوله الثاني واما بمعنى الابداع فهو حال من مفعوله واللام في قوله
تعالى للناس متعلقة بمحذوف وقع صفة لمثابة اي مثابة كائنة للناس او بجعلنا اي
جعلنا للناس وقرئ مثابات باعتبار تعدد الثائبين وامنا اي آمنا كما في قوله تعالى
حرما آمنا على ايقاع المصدر موقع اسم الفاعل للمبالغة او على تقدير المضاف اي ذا
امن او على الاسناد المجازي اي آمنا من حجه من عذاب الآخرة من حيث ان الحج يجب ما قبله
او من دخله من التعرض له بالعقوبة وان كان جانيا حتى يخرج على ما هو رأي ابي حنيفة
رح ويجوز ان يعتبر الامن بالقياس الى كل شيء كائنا ما كان ويدخل فيه من الناس حولا
اوليا وقد اعتيد فيه من الصيد حتى ان الكلب كان يهم بالصيد خارج الحرم فيفر منه وهو
يتبعه فاذا دخل الصيد الحرم لم يتبعه الكلب واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى على ارادة
قول هو عطف على جعلنا او حال من فاعله اي وقلنا او قائلين لهم واتخذوا الخ و
قيل هو بنفسه معطوف على الامر الذي يتضمنه قوله عز وجل مثابة للناس كانه
قيل ثوبوا اليه واتخذوا الخ وقيل على المضمر العامل في اذ وقيل هي جملة مستأنفة
والخطاب على الوجوه الاخيرة له عليه السلام ولامته والاول هو الاليق بجزالة النظم الكريم
والامر ما كان او مفهوما من الحكاية للاستحباب ومن تبعيضية والمقام اسم مكان
وهو الحجر الذي على اثر قدمه عم والموضع الذي كان عليه حين قام ودعا الناس الى
الحج او حين رفع قواعد البيت وهو موضعه اليوم والمراد بالمصلى ما هو موضع الصلوة
او موضع الدعاء روي انه صلى الله عليه وسلم اخذ بيد عمر رضه فقال هذا مقام
ابراهيم فقال عمر رضه افلا نتخذه مصلى فقال لم اومر بذلك فلم تغب الشمس حتى نزلت و
قيل المراد به الامر بركعتي الطواف واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وللشافعي في وجوبهما
قولان وقيل مقام ابراهيم الحرم كله وقيل مواقف الحج عرفة والمزدلفة والجمار و
اتخاذها مصلى ان يدعى فيها ويتقرب الى الله عز وجل وقرئ واتخذوا على صيغة الماضي
عطفا على جعلنا اي واتخذ الناس من مكان ابراهيم الذي وسم به لاهتمامه به و
اسكان ذريته عنده قبلة يصلون اليها وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل اي امرناهما
امرا مؤكدا ان طهرا بيتي بان طهراه على ان ان مصدرية حذف عنها الجار جوازا
مطردا لجواز كون صلتها امرا او نهيا كما في قوله عز وجل وان اقم وجهك للدين
حنيفا لان مدار جواز كونها فعلا انما هو دلالته على المصدر وهي متحققة فيهما ووجوب
كونها خبرية في صلة الموصول الاسمي انما هو للتوصل الى وصف المعارف بالجمل وهي لا يوصف
بها الا اذا كانت خبرية واما الموصول الحرفي فليس كذلك ولما كان الخبر والانشاء في الدلالة
على المصدر سواء ساغ وقوع الامر والنهي صلة حسب وقوع الفعل فيتجرد عند ذلك
عن معنى الامر والنهي نحو تجرد صلة الفعلية عن معنى المضي والاستقبال او ان طهراه
على ان ان مفسرة لتضمن العهد معنى القول واضافة البيت الى ضمير الجلالة للتشريف
وتوجيه الامر بالتطهير ههنا اليهما عليهما السلام لا ينافي ما في سورة الحج من تخصيصه

بالجمل

بابراهم

بابراهيم عليه السلام فان ذلك واقع قبل بناء البيت كما يفصح عنه قوله تعالى واذ بوأنا
لابراهيم مكان البيت وكان اسمعيل عم حينئذ بمعزل من مثابة الخطاب وظاهر ان هذا
بعد بلوغه الامر والنهي وتمام البناء بمباشرته كما ينبئ عنه ايراده اثر حكاية جعله مثابة
للناس الخ والمراد تطهيره من الاوثان والانجاس وطواف الجنب والحائض وغير ذلك
مما لا يليق به للطائفين حوله والعاكفين المجاورين المقيمين عنده او المعتكفين او
القائمين في الصلوة كما في قوله عز وعلا للطائفين والقائمين والركع السجود جمع راكع
وساجد اي للطائفين والمصلين لان القيام والركوع والسجود من هيئات المصلي ولتقارب
الاخيرين ذاتا وزمانا ترك العاطف بين موصوفيهما والاخلاص لهؤلاء لئلا يغشاه غيرهم
وفيه ايماء الى ان ملابسة غيرهم به وان كانت مع مقارنة مباح من قبيل تلويثه و
تدنيسه واذ قال ابراهيم عطف على ما قبله من قوله واذ جعلنا الخ اما بالذات او
بعامله المضمر كما مر رب اجعل هذا بلدا امنا ذا امن كعيشة راضية آمنا اهله كليله
نائم اي اجعل هذا الوادي من البلاد الآمنة وكان ذلك اول ما قدم عم مكة كما روى
سعيد بن جبير عن ابن عباس رضهما انه عليه السلام لما اسكن اسمعيل وهاجر هناك وعاد
متوجها الى الشام تبعته هاجر فجعلت تقول الى من تكلنا في هذا البلقع وهو لا يرد عليها جوابا
حتى قالت آلله امرك بهذا فقال نعم قالت اذا لا يضيعنا فرضيت ومضى حتى اذا استوى على
ثنية كداء اقبل على الوادي فقال ربنا اني اسكنت الآية وتعريف البلد مع جعله صفة
لهذا في سورة ابراهيم ان حمل على تعدد السؤال لما انه عم سأل اولا كلا الامرين البلدية
والامن فاستجيب له في احدهما وتأخر الآخر الى وقته المقدر له لما يقتضيه من الحكمة
الباهرة ثم كرر السؤال حسبما هو المعتاد في الدعاء والابتهال او كان المسؤول اولا
البلدية ومجرد الامن المصحح للسكنى كما في سائر البلاد وقد اجيب الى ذلك وثانيا الامن
المعهود او كان هو المسؤول اولا ايضا وقد اجيب اليه لكن السؤال الثاني لاستدامته
والاقتصار على سؤال مع جعل البلد صفة لهذا لانه المقصد الاصلي او لان المعتاد
في البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الامن وان حمل على وحدة السؤال وتكرر
الحكاية كما هو المتبادر فالظاهر ان المسؤول كلا الامرين وقد حكي ذلك ههنا واقتصر
هناك على حكاية سؤال الامن اكتفاء عن حكاية سؤال البلدية بحكاية سؤال جعل
افئدة الناس تهوي اليه كما سيأتي تفصيله هناك باذن الله عز وجل وارزق اهله
من الثمرات من انواعها بان تجعل بقرب منه قرى يحصل فيها ذلك او يجبى اليه من
الاقطار الشاسعة وقد حصل كلاهما حتى يجتمع الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية
في يوم واحد روي عن ابن عباس رضهما ان الطائف كانت من ارض فلسطين فلما
دعا ابراهيم عليه السلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى فوضعها حيث وضعها رزقا
للحرم وعن الزهري انه تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة ابراهيم
عليه السلام من امن منهم بالله واليوم الآخر بدل من اهله بدل البعض خصهم
بالدعاء اظهارا لشرف الايمان وابانة لخطره واهتماما بشأن اهله ومراعاة لحسن
الادب وفيه ترغيب لقومه في الايمان وزجر عن الكفر كما ان في حكايته ترغيبا و
ترهيبا لقريش وغيرهم من اهل الكتاب قال استئناف مبني على السؤال كما مر
مرارا وقوله تعالى ومن كفر عطف على مفعول فعل محذوف تقديره ارزق من
امن ومن كفر وقوله تعالى فامتعه معطوف على ذلك الفعل او في محل رفع بالابتداء
وقوله تعالى فامتعه خبره اي فانا امتعه وانما دخلته الفاء تشبيها له بالشرط والكفر
وان لم يكن سببا للتمتيع المطلق لكنه يصلح سببا للتقليل وكونه موصولا بعذاب
النار وقيل هو عطف على من امن عطف تلقين كانه قيل قل وارزق من كفر
فانه ايضا محال كانه عليه السلام قاس الرزق على الامامة فنبهه تعالى على انه رحمة
دنيوية شاملة للبر والفاجر بخلاف الامامة النامة بالخواص وقرئ فامتعه من امتع
وقرئ فنمتعه قليلا تمتيعا قليلا او زمانا قليلا ثم اضطره الى عذاب النار اي

الزه اليه لئن المضطر لكفره وتضييعه ما متعته به من النعم وقرئ ثم نضطره على وفق قراءة
فنمتعه وقرئ فامتعه قليلاً ثم اضطره بلفظ الامر فيهما على انهما من دعاء ابراهيم عم
وفي قال ضميره وانما فصله لكونه دعاء على الكفرة وتغيير سبكه للايذان بان الكفر سبب
لاضطرارهم الى عذاب النار واما رزق من آمن فانما هو على طريقة التفضل والاحسان
وقرئ بكسر الهمزة على لغة من يكسر حرف المضارعة واطره بادغام الضاد في الطاء وهي لغة
مرذولة بان حروف ضم شفر يدغم فيها ما يجاورها بلا عكس وبئس المصير
المخصوص بالذم محذوف اي بئس المصير النار او عذابها واذ يرفع ابراهيم
القواعد من البيت عطف على ما قبله من قوله عز وعلا واذ قال ابراهيم
على احد الطرفين المذكورين في واذ جعلنا وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية
لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة والقواعد جمع قاعدة وهي الاساس
صفة غالبة من القعود بمعنى الثبات ولعله مجاز من مقابل القيام ومنه قعدك الله
ورفعها البناء عليها لانه ينقلها من هيئة الانخفاض والارتفاع حقيقة وان كان
هو الذي بني عليها لكنهما لما التأما صارا شيئاً واحداً فكانها نمت وارتفعت
وقيل المراد بها ساقات البناء فان كل ساق قاعدة لما يبنى عليه وبرفعها
بناء بعضها على بعض وقيل برفعها رفع مكانة البيت واظهار شرفه ودعاء
الناس الى حجه وفي ابهامها اولاً ثم تبيينها من تفخيم شانها ما لا يخفى وقيل
المعنى واذ يرفع ابراهيم ما قعد من البيت واستوطأ يعني يجعل هيئة
القاعدة المستوطأة مرتفعة عالية بالبناء روي ان الله عز وجل انزل البيت ياقوتة
من يواقيت الجنة له بابان من زمرد شرقي وغربي وقال لادم اهبطت لك ما يطاف
به كما يطاف حول عرشي فتوجه ادم من ارض الهند اليه ماشياً وتلقته الملائكة
فقالوا بر حجك يا ادم لقد حججنا هذا البيت قبلك بالفي عام وحج ادم عليه السلام
اربعين حجة من ارض الهند الى مكة على رجليه فكان على ذلك الى ان رفعه الله
ايام الطوفان الى السماء الرابعة فهو البيت المعمور وكان موضعه خالياً الى زمن
ابراهيم عليه السلام فامره سبحانه ببنائه وعرفه جبريل عليه السلام مكانه وقيل
بعث الله السكينة لتدله عليه فتبعها ابراهيم عليه السلام حتى اتيا مكة المعظمة و
قيل بعث الله سحابة على قدر البيت وسار ابراهيم في ظلها الى ان وافت مكة المعظمة
فوقفت على موضع البيت فنودي ان ابن على ظلها لا تزد ولا تنقص وقيل بناه من
خمسة اجبل طور سينا وطور زيتا ولبنان واسسه من حراء وجاء جبريل بالحجر الاسود
من السماء وقيل تمخض ابو قبيس فانشق عنه وقد خبئ فيه في ايام الطوفان وكان ياقوتة
بيضاء من يواقيت الجنة فلما لمسته الحيض في الجاهلية اسود وقال الفاسي في مبشر الغرام في
تاريخ البلد الحرام والذي يحصل من جملة ما قيل في عدد بناء الكعبة انها بنيت عشر مرات منها
بناء الملائكة عليهم السلام ذكره النووي في تهذيب الاسماء واللغات والازرقي في تاريخه
وذكر انه كان قبل خلق ادم عليه السلام ومنها بناء آدم عم ذكره البيهقي في دلائل النبوة
وروي فيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعث الله
عز وجل جبريل الى آدم عليهما السلام فقال له ولحواء ابنيا لي بيتاً فخط جبريل
ادم عم يحفر وحوا تنقل التراب حتى اذا اصاب الماء نودي من تحته حسبك يا آدم
فلما بناه اوحي اليه ان يطوف به فقيل له انت اول الناس وهذا اول بيت و
وهكذا ذكر الازرقي في تاريخه وعبد الرزاق في مصنفه ومنها بناء بني آدم عند
ما رفعت الخيمة التي عزى الله تعالى بها ادم عم وكانت ضربت في موضع البيت فبنى
بنوه مكانها بيتاً من الطين والحجارة فلم يزل معموراً يعمرونه هم ومن بعدهم
الى ان مسه الغرق في عهد نوح عليه السلام ذكره الازرقي بسنده الى وهب بن منبه
ومنها بناء الخليل عليه السلام وهو منصوص عليه في القران مشهور رفيعاً بين قاص
ودان ومنها بناء العمالقة ومنها بناء جرهم ذكرهما الازرقي بسنده الى علي بن ابي

طالب رضي الله عنه ومنها بناء قصي بن كلاب ذكره الزبير بن بكار في كتاب النسب
ومنها بناء قريش وهو مشهور ومنها بناء عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ومنها
بناء الحجاج بن يوسف وما كان ذلك بناء لكلها بل للجدار من جدرانها وقال الحافظ
السهيلي ان بناءها لم يكن في الدهر الا خمس مرات الاولى حين بناها شيث عليه السلام
انتهى والله سبحانه اعلم واسماعيل عطف على ابراهيم ولعل تأخره عن المفعول
للايذان بان الاصل في الرفع هو ابراهيم واسماعيل تبع له قيل انه كان يناوله
الحجارة وهو يبنيها وقيل كانا يبنيانه من طرفين ربنا تقبل منا على ارادة
القول اي يقولان وقرئ به على انه حال منهما عليهما السلام وقيل على انه هو العامل
في اذ والجملة معطوفة على ما قبلها والتقدير ويقولان ربنا تقبل منا اذ نرفعها
اي وقت رفعها وقيل اسماعيل مبتدأ خبره قول محذوف وهو العامل في ربنا
تقبل منا فيكون ابراهيم هو الرافع واسماعيل هو الداعي والجملة في محل النصب على
الحالية اي واذ يرفع ابراهيم القواعد والحال ان اسماعيل يقول ربنا تقبل منا
والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن افاضة ما فيه صلاح المربوب مع الاضافة الى ضميرهما
عليهما السلام لتحريك سلسلة الاجابة وترك مفعول تقبل مع ذكره في قوله تعالى
ربنا وتقبل دعاء ليعم الدعاء وغيره من القرب والطاعات التي من جملتها ما هما بصدده من
البناء كما يعرب عنه جعل الجملة الدعائية حاليه انك انت السميع لجميع المسموعات التي من
جملتها دعاؤنا العليم بكل المعلومات التي من زمرتها نياتنا في جميع اعمالنا والجملة تعليل
لاستدعاء التقبل لا من حيث ان كونه تعالى سميعاً لدعائهما مصحح للتقبل في الجملة بل من
حيث ان علمه تعالى بصحة نياتهما واخلاصهما في اعمالهما مستدع له بموجب الوعد تفضلاً
وتاكيد الجملة لغرض كمال قوة يقينهما بمضمونها وقصر نعتي السمع والعلم عليه تعالى لاظهار اختصاص
دعائهما به تعالى وانقطاع رجائهما عما سواه بالكلية واعلم ان الظاهر ان اول ما جرى
من الامور المحكية هو الابتلاء وما يتبعه ثم دعاء البلدية والامن وما يتعلق به ثم
رفع قواعد البيت وما يتلوه ثم جعله مثابة للناس والامر بتطهيره ولعل تغيير الترتيب
الوقوعي في الحكاية لنظم الشؤون الصادرة عن جنابه تعالى في سلك مستقل ونظم الامور
الواقعة من جهة ابراهيم واسماعيل عليه السلام من الافعال والاقوال في سلك اخر
واما قوله تعالى ومن كفر فانما وقع في تضاعيف الاحوال المتعلقة بابراهيم لاقتضاء
المقام واستجاب ما سبق من الكلام ذلك بحيث لم يكن بد منه اصلاً كما ان وقوع قوله
عليه السلام ومن ذريتي في خلال كلامه سبحانه لذلك ربنا واجعلنا مسلمين لك
مخلصين لك او مسلمين من اسلم اذا استسلم وانقاد واياً ما كان فالمطلوب الزيادة
والثبات على ما كانا عليه من الاخلاص والاذعان وقرئ مسلمين على صيغة الجمع بادخالها
غيرهما في الدعاء او لان التثنية من مراتب الجمع ومن ذريتنا امة مسلمة لك
اي واجعل بعض ذريتنا وانما خصاهم بالدعاء لانهم احق بالشفقة ولانهم اذا صلحوا
صلح الاتباع وانما خصا بعضهم لما علما ان منهم ظلمة وان الحكمة الالهية لا تقتضي
اتفاق الكل على الاخلاص والاقبال الكلي على الله عز وجل فان ذلك مما يخل بامر المعاش
ولذلك قيل لولا الحمقى لخربت الدنيا وقيل اراد بالامة المسلمة امة محمد صلى الله
عليه وسلم وقد جوز ان تكون من مبينة قدمت على المبين وفصل بها بين العاطف
والمعطوف كما في قوله تعالى ومن الارض مثلهن والاصل وامة مسلمة لك من
من ذريتنا وارنا من الرؤية بمعنى الابصار او بمعنى التعريف اي بصرنا او عرفنا
مناسكنا اي متعبداتنا في الحج او مذابحنا والنسك في الاصل غاية العبادة وشاع في الحج لما
فيه من الكلفة والبعد من العادة وقرئ ارنا قياساً على فخذ وفيه اجحاف لان الكسرة منقولة
من الهمزة الساقطة دليل عليها وقرئ بالاختلاس وتب علينا استتابة لذريتهما وحكاية
عنهما للترغيب للكفرة في التوبة والايمان او توبة لهما عما فرط منهما سهواً ولعلهما قالاه هضماً
لانفسهما وارشاداً لذريتهما انك انت التواب الرحيم وهو تعليل للدعاء ومزيد استدعاء

للاجابة قيل اذا اراد العبد ان يستجاب له فليدع الله عز وجل بما يناسبه من اسمائه و صفاته ربنا وابعث فيهم اي في الامة المسلمة رسولا منهم اي من انفسهم فان البعث فيهم لا يستلزم البعث منهم ولم يبعث من ذريتهما غير النبي صلى الله عليه وسلم فهو الذي اجيب به دعوتهما عليهما السلام روي انه قيل له قد استجيب لك وهو في آخر الزمان قال عليه السلام انا دعوة ابي ابراهيم وبشرى عيسى ورؤيا امي وتخصيص ابراهيم عليه السلام بالاستجابة له لما انه الاصل في الدعاء واسمعيل تبع له عليهما السلام يتلو عليهم اياتك يقرء عليهم ويبلغهم ما نوحي اليه من البينات ويعلمهم بحسب قوتهم النظرية الكتاب اي القران والحكمة وما يكمل به نفوسهم من احكام الشريعة والمعارف الحقة ويزكيهم بحسب قوتهم العملية اي يطهرهم عن دنس الشرك وفنون المعاصي انك انت العزيز الذي لا يقهر ولا يغلب على ما يريد الحكيم الذي لا يفعل الا ما يقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تعليل للدعاء واجابة المسؤل فان وصف الحكمة مقتض لافاضة ما يقتضيه الحكمة من الامور التي من جملتها بعث الرسول ووصف العزة مستدع لامتناع وجود المانع بالمرة ومن يرغب عن ملة ابراهيم انكار واستبعاد لان يكون في العقلاء من يرغب التي هي الحق الصريح والدين الصحيح اي لا يرغب عن ملته الواضحة الغراء الا من سفه نفسه اي اذلها واستمهنها واستخف بها وقيل خسر نفسه وقيل اوبق او اهلك او جهل نفسه قال المبرد وثعلب سفه بالكسر متعد وبالضم لازم ويشهد له ما ورد في الخبر الكبر ان تسفه الحق وتغمض الناس وقيل معناه ضل من قبل نفسه وقيل اصله سفه نفسه بالرفع فنصب على التمييز نحو غبن رأيه والم راسه ونحو قوله ونأخذ بعده بذناب عيش اجب الظهر ليس له سنام ونحو ما انشده ثعلبة ابن سعد ولا بقارة الشعر الرقابا وذلك لانه اذا رغب عما لا يرغب عنه احد من العقلاء فقد بالغ في اذلال نفسه واذلتها واهانتها حيث خالف بها كل نفس عاقلة روي ان عبد الله بن سلام دعا ابني اخيه سلمة ومهاجرا الى الاسلام فقال لهما قد علمتما ان الله تعالى قال في التوراة اني باعث من ولد اسماعيل نبيا اسمه احمد فمن امن به فقد اهتدى ورشد ومن لم يؤمن به فهو ملعون فاسلم سلمة وابى مهاجر فنزلت ولقد اصطفيناه في الدنيا اي اخترناه بالنبوة والحكمة من بين ساير الخلق واصله اتخاذ صفوة الشيء كما ان اصل الاختيار اتخاذ خيره واللام لجواب قسم محذوف والواو اعتراضية والجملة مقررة لمضمون ما قبلها اي و بالله لقد اصطفيناه وقوله تعالى وانه في الاخرة لمن الصالحين اي من المشهود لهم بالثبات على الاستقامة والخير والصلاح معطوف عليها داخل في حيز القسم مؤكد لمضمونها مقرر لما تقرر ولا حاجة الى جعلها اعتراضا اخر او حالا مقدرة فان من كان صفوة للعباد في الدنيا مشهودا له بالصلاح في الاخرة كان حقيقا بالاتباع لا يرغب عن ملته الا سفيه وسفه اذل نفسه بالجهل والاعراض عن النظر والتأمل وايثار الاسمية لما ان انتظامه في زمرة صالحي اهل الاخرة امر مستمر في الدارين لا انه يحدث في الاخرة والتأكيد بان واللام لما ان الامور الاخروية خفية عند المخاطبين فحاجتها الى التأكيد اشد من الامور التي تشاهدونها وكلمة في متعلقة بالصالحين على ان اللام للتعريف وليست بموصولة حتى يلزم تقديم بعض الصلة عليها على انه قد يغتفر في الظرف ما لا يغتفر في غيره كما في قوله ربيته حتى اذا تمعدد كان جزاي بالعصاء ان اجلد او بمحذوف من لفظها اي وانه لصالح في الاخرة نحو ذلك بعد رعيا وقيل هي متعلقة باصطفيناه على ان في النظم الكريم تقديما وتأخيرا تقديره ولقد اصطفيناه في الاخرة وانه لمن الصالحين اذ قال له ظرف لاصطفيناه في الدنيا انما هو للنبوة وما يتعلق بصلاح الاخرة او تعليل له او منصوب باذكر كأنه قيل اذكر ذلك الوقت لتقف على انه المصطفى الصالح المستحق للامامة والتقدم وانه ما نال ما نال الا بالمبادرة الى الاذعان والانقياد لما امر به واخلاص سره على احسن ما يكون حين قيل له ربه اسلم اي لربك قال اسلمت لرب العالمين وليس الامر على حقيقته بل هو تمثيل

والمعنى

والمعنى اخطر ببالك دلائل التوحيد المؤدية الى المعرفة الداعية الى الاسلام من الكواكب والقمر والشمس وقيل اسلم اي اذعن واطع وقيل اثبت على ما انت عليه من الاسلام والاخلاص او استقم وفوض امورك الى الله تعالى فالامر على حقيقته والالتفات مع التعرض لعنوان الربوبية والاضافة اليه عليه السلام لاظهار مزيد اللطف به والاعتناء بتربيته واضافة الرب في جوابه عليه السلام الى العالمين للايذان بكمال قوة اسلامه عم حيث ايقن حين النظر بشمول ربوبيته للعالمين قاطبة لا لنفسه وحده كما هو المامور به ووصى بها ابراهيم بنيه شروع في بيان تكميله عم لغيره اثر بيان كماله في نفسه لوجوب الرغبة في ملته عم والتوصية التقدم الى الغير بما فيه خير وصلاح للمسلمين من اوقاله واصلها الوصلة يقال وصاه اذا وصله وفصاه اذا فصله كان الموصي يصل فعله بفعل الموصى والضمير في بها للملة او قوله اسلمت لرب العالمين بتاويل الكلمة كما عبر بها عن قوله تعالى انني براء مما تعبدون الا الذي فطرني في قوله عز وجل وجعلها كلمة باقية في عقبه وقرئ اوصى والاول ابلغ ويعقوب عطف على ابراهيم اي وصى بها هو ايضا بنيه وقرئ بالنصب عطفا على بنيه يا بني على اضمار القول عند البصريين وبتعلق بوصى عند الكوفيين لانه في معنى القول كما في قوله رجلان من ضبة اخبرانا انا راينا رجلا عريانا فهو عند الاولين بتقدير القول وعند الاخرين متعلق بالاخبار الذي في معنى القول وقرئ ان يا بني وبنوا ابراهيم عم كانوا اربعة اسماعيل واسحق ومدين ومدان وقيل ثمانية وقيل اربعة وعشرين وكان بنوا يعقوب اثني عشر روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا ويشسوخور وزبولون وزوانا وتفتونا وكوزا واوشير وبنيامين ويوسف عليه السلام ان الله اصطفى لكم الدين دين الاسلام الذي هو صفوة الاديان ولا دين غيره عنده تعالى فلا تموتن الا وانتم مسلمون ظاهره النهي عن الموت على خلاف حال الاسلام والمقصود الامر بالثبات على الاسلام الى حين الموت اي فاثبتوا عليه ولا تفارقوه ابدا كقولك لا تصل الا وانت خاشع وتغيير العبارة للدلالة على ان موتهم لا على الاسلام موت لا خير فيه وان حقه ان لا يحل بهم وانه يجب ان يحذروه غاية الحذر ونظيره مت وانت شهيد روي ان اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم الست تعلم ان يعقوب اوصى بنيه باليهودية يوم مات فنزلت ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت ام منقطعة مقدرة ببل والهمزة والخطاب لاهل الكتاب الراغبين عن ملة ابراهيم عليه السلام وشهداء جمع شهيد وشاهد بمعنى الحاضر واذ ظرف لشهداء والمراد بحضور الموت حضور اسبابه وتقديم يعقوب عليه السلام للاهتمام به اذ المراد بيان كيفية وصيته لبنيه بعدما بين ذلك اجمالا ومعنى بل الاضراب والانتقال عن توبيخهم على رغبتهم عن ملة ابراهيم عم الى توبيخهم على افترائهم على يعقوب عم باليهودية حسبما حكي عنهم واما تعميم الافتراء ههنا لسائر الانبياء عليهم السلام كما قيل فيأباه تخصيص يعقوب عم بالذكر وما سيأتي من قوله عز وجل ام يقولون ان ابراهيم الخ ومعنى الهمزة انكار وقوع الشهود عند احتضاره عليه السلام وتبكيتهم وقوله تعالى اذ قال لبنيه بدل من اذ حضر اي ما كنتم حاضرين عند احتضاره عم وقوله تعالى لبنيه ما تعبدون من بعدي اي اي شيء تعبدونه بعد موتي فمن اين لكم ان تدعوا عليه السلام ما تدعون رجما بالغيب وعند هذا تم التوبيخ والانكار والتبكيت ثم بين ان الامر قد جرى على خلاف ما زعموا وانه عم اراد بسؤاله ذلك تقرير بنيه على التوحيد والاسلام واخذ ميثاقهم على الثبات عليهما اذ به يتم وصيته بقوله فلا تموتن الا وانتم مسلمون وما يسئل به كل شيء ما لم يعرف فاذا عرف خص العقلاء بمن اذا سئل عن شيء بعينه وان سئل عن وصفه قيل ما زيد افقيه ام طبيب فقوله تعالى قالوا استيناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن حكاية سؤال يعقوب عم كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا نعبد الهك واله ابائك ابراهيم واسمعيل واسحق حسبما كان مراد ابيهم عم بالسؤال اي نعبد الاله المتفق على وجوده والهيته

ووجوب عبادته وعدّ اسماعيل من ابائه تغليبًا للاب والجدّ لقوله عليه السلام الرجل
صنو ابيه وقوله عليه السلام في العباس هذا بقيّة ابائي وقرئ ابيك على انه جمع بالواو
والنون كما في قوله فلمّا تبيّن اصواتنا بكين وفدّيننا بالابينا وقد سقطت النون بالاضافة
او مفرد وابراهيم عطف بيان له واسماعيل واسحق معطوفان على ابيك الهًا
واحدًا بدل من الٰه اباءك كقوله تعالى بالناصية ناصية كاذبة وفائدته التصريح بالتوحيد
ودفع التوهم الناشئ من تكرير المضاف لتعذر العطف على المجرور او نصب على الاختصاص
ونحن له مسلمون حال من فاعل نعبد او من مفعوله او منهما معًا ويحتمل ان
يكون اعتراضًا محققًا لمضمون ما سبق تلك امّة مبتدأ وخبر والاشارة الى
ابراهيم ويعقوب وبنيهما الموحدين والامة هي الجماعة التي تؤمّها فرق الناس اي يقصدونها
قد خلت صفة للخبر اي مضت بالموت وانفردت عمّن عداها واصله صارت الى الخلاء
وهي الارض التي ليس انيس بها لها ما كسبت جملة مستانفة لا محل لها من
الاعراب او صفة اخرى لامّة او حال من الضمير في خلت وما موصولة او موصوفة
والعائد اليها محذوف اي لها ما كسبته من الاعمال الصالحات المحكية لا تتخطاها الى
غيرها فان تقديم المسند يوجب قصر المسند اليه عليه كما هو المشهور ولكم ما كسبتم
عطف على نظيرتها على الوجه الاول وجملة مبتداة على الوجهين الاخيرين اذ لا رابط
فيها ولا بدّ منه في الصفة ولا مقارنة في الزمان ولا بدّ منها في الحال اي لكم ما كسبتموه
لا ما كسبه غيركم فان تقديم المسند قد يقصد به قصره على المسند اليه كما قيل
في قوله تعالى لكم دينكم ولي دين اي ولي ديني لا دينكم وحمل الجملة الاولى على هذا القصر
على معنى ان اولئك لا ينفعهم الا ما اكتسبوا كما قيل مما لا يساعده المقام اذ لا يتوهم متوهم
انتفاعهم بكسب هؤلاء حتى يحتاج الى بيان امتناعه وانما الذي يتوهم انتفاع هؤلاء بكسبهم
فبيّن امتناعه بان اعمالهم الصالحة مخصوصة بهم لا تتخطاهم الى غيرهم وليس لهؤلاء
الا ما كسبوا فلا ينفعهم انتسابهم اليهم وانما ينفعهم اتباعهم لهم في الاعمال كما قال
عليه السلام يا بني هاشم لا ياتيني الناس باعمالهم وتاتوني بانسابكم ولا تسألون عمّا
كانوا يعملون ان اجري السؤال على ظاهره فالجملة مقررة لمضمون ما مرّ من الجملتين تقريرًا
ظاهرًا وان اريد به مسببه اعني الجزاء فهو تتميم لما سبق جار مجرى النتيجة له وايًّا
ما كان فالمراد تخييب المخاطبين وقطع اطماعهم الفارغة عن الانتفاع بحسنات
الامة الخالية وانما اطلق العمل لاثبات الحكم بالطريق البرهاني في ضمن قاعدة كلية
هذا وقد جعل السؤال عبارة عن المؤاخذة والموصول عن السيئات فقيل اي لا تؤاخذون
بسيئاتهم كما لا تثابون بحسناتهم ولا ريب في انه مما لا يليق بشان التنزيل
كيف وهم منزّهون من كسب السيئات فمن اين يتصور تحميلها على غيرهم
حتى يتصدّى لبيان انتفائه وقالوا شروع في بيان فنّ اخر من فنون كفرهم وهو
اضلالهم لغيرهم اثر بيان ضلالهم في انفسهم والضمير لاهل الكتابين على طريقة
الالتفات المؤذن باستيجاب حالهم لابعادهم من مقام المخاطبة والاعراض
عنهم وتعديد جناياتهم عند غيرهم اي قالوا للمؤمنين كونوا هودًا او نصارى
ليس هذا القول مقولًا لكلّهم او لايّ طائفة كانت من الطائفتين بل هو موزّع
اليهما على وجه خاص يقتضيه حالهما اقتضاءً مغنيًا عن التصريح به اي قالت اليهود
كونوا هودًا او نصارى اي كونوا نصارى فنعل بالنظم الكريم ما فعل بقوله تعالى
وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودًا او نصارى اعتمادًا على ظهور المرام
تهتدوا جواب للامر اي تكونوا كذلك تهتدوا قل خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم
اي قل لهم على سبيل الردّ عليهم وبيان ما هو الحق لديهم وارشادهم اليه بل ملة
ابراهيم اي لا نكون كما تقولون بل نكون اهل ملته عليه السلام وقيل بل
نتبع ملته عليه السلام وقد جوّز ان يكون المعنى بل اتبعوا انتم ملته او كونوا
اهل ملته وقرئ بالرفع اي بل ملتنا او امرنا ملته اي اهل ملته حنيفًا اي مائلًا

عن

عن الباطل الى الحق وهو حال من المضاف اليه كما في رايت وجه هند قائمة وفي قوله تعالى
ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانًا الى الخ وما كان من المشركين تعريض بهم
وايذان ببطلان دعواهم اتباعه عليه السلام مع اشراكهم بقولهم عزير ابن الله
والمسيح ابن الله قولوا خطاب للمؤمنين بعد خطابه عليه السلام بردّ مقالتهم
الشنعاء على الاجمال وارشاد لهم الى طريق التوحيد والايمان على ضرب من التفصيل اي قولوا
لهم بمقابلة ما قالوا تحقيقًا وارشادًا ضمنيًا لهم اليه امنّا بالله وما انزل الينا
يعني القران قدّم على ساير الكتب الالهية مع تاخرها عنها نزولًا لاختصاصه بنا وكونه
سببًا للايمان بها وما انزل على ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط
الصحف وان كانت نازلة الى ابراهيم عليه السلام لكن من بعده عليهم السلام حيث
كانوا متعبدين بتفاصيلها داخلين تحت احكامها جعلت منزلة اليهم كما جعل القران
منزلًا الينا والاسباط جمع سبط وهو الحافد والمراد بهم حفدة يعقوب عليه السلام
او ابناؤه الاثنا عشر وذراريهم فانهم حفدة ابراهيم واسحق وما اوتي موسى
وعيسى من التورية والانجيل وساير المعجزات الباهرة الظاهرة بايديهما حسبما فصّل
في التنزيل الجليل وايراد الايتاء لما اشير اليه من التعميم وتخصيصهما بالذكر لما ان
الكلام مع اليهود والنصارى وما اوتي النبيّون اي جملة المذكورين وغيرهم
من ربهم من الايات البيّنات والمعجزات الباهرة لا نفرّق بين احد منهم كدأب
اليهود والنصارى امنوا ببعض وكفروا ببعض وانما اعتبر عدم التفريق بينهم مع ان
الكلام فيما اوتوه لاستلزام عدم التفريق بينهم بالتصديق والتكذيب لعدم التفريق
بين ما اوتوه وهمزة احد اما اصلية فهو اسم موضوع لمن يصلح ان يخاطب يستوي
فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث ولذلك صحّ دخول بين عليه كما في مثل
المال بين الناس ومنه ما قوله صلى الله عليه وسلم ما احلت الغنائم لاحد سود
الرؤس غيركم حيث وصف بالجمع واما مبدلة من الواو فهو بمعنى واحد وعمومه
لوقوعه في حيّز النفي وصحة دخول بين عليه باعتبار معطوف قد حذف لظهوره
اي بين احد منهم وبين غيره كما في قول النابغة فما كان بين الخير لو جاء سالمًا ابو
حجر الا ليال قلائل اي بين الخير وبيني وفيه من الدلالة صريحًا على تحقق عدم التفريق
بين كل فرد فرد منهم ومنهم من عداه كائنًا من كان ما ليس في ان يقال لا نفرق بينهم
والجملة حال من الضمير في امنّا وقوله عز وجل ونحن له مسلمون اي مخلصون له و
مذعنون حال اخرى منه او عطف على امنّا فان امنوا الفاء لترتيب ما بعدها
على ما قبلها فان ما تقدّم من ايمان المخاطبين على الوجه المحرّر مظنّة لايمان اهل
الكتابين لما انه مشتمل على ما هو مقبول عندهم بمثل ما امنتم به اي بما امنتم
به على الوجه الذي فصّل على ان المثل مقحم كما في قوله تعالى وشهد شاهد من بني
اسرائيل على مثله اي عليه ويعضده قراءة ابن مسعود بما امنتم به وقراءة ابيّ بالذي
امنتم به ويجوز ان يكون الباء للاستعانة على ان المؤمن به محذوف لظهوره بمروره
آنفًا او على ان الفعل جرى مجرى اللازم اي فان امنوا بما مرّ مفصّلًا او فان فعلوا الايمان بشهادة
مثل شهادتكم وان يكون الاولى زائدة والثانية صلة لامنتم وما مصدرية اي
فان امنوا ايمانًا مثل ايمانكم بما ذكر مفصّلًا وان تكون للملابسة اي فان امنوا
ملتبسين بمثل ما امنتم ملتبسين به او فان امنوا ايمانًا ملتبسًا بمثل ما امنتم ايمانًا ملتبسًا به
من الاذعان والاخلاص وعدم التفريق بين الانبياء عليهم السلام فان ما وجد فيهم
وصدر عنهم من الشهادة والاذعان غير ذلك مثل ما للمؤمنين لا عينه بخلاف المؤمن
به فانه لا يتصوّر فيه التعدّد فقد اهتدوا اي الى الحق واصابوه كما اهتديتم وحصل
بينكم الاتحاد والاتفاق واما ما قيل من ان المعنى فان تحرّوا الايمان بطريق يهدي
الى الحق مثل طريقكم فقد اهتدوا فان وحدة المقصد لا تابى تعدّد الطريق فنابٍ عنه
ان مقام تعيين طريق الحق وارشادهم اليه بعينه لا يلائم تجويز ان يكون له طريق آخر

ورآه وان تولوا اي اعرضوا عن الايمان على الوجه المذكور بان اخلوا بشيء من ذلك كان
امنوا ببعض وكفروا ببعض كما هو دينهم وديدنهم فانما هم في شقاق المشاقة
و الشقاق من الشق كالمخالفة والخلاف من الخلف والمعاداة والعداوة من العدوة اي الجانب
فان احد المخالفين يعرض عن الآخر صورة او معنى ويولّيه خلفه ويأخذ في شق
غير شقه وعدوة غير عدوته والتنوين للتفخيم اي هم مستقرون في خلاف عظيم
بعيد من الحق وهذا لدفع ما يتوهم من احتمال الوفاق بسبب ايمانهم ببعض
ما آمن به المؤمنون والجملة اما جواب الشرط كما هي على ان المراد مشاقتهم الحادثة
بعد توليهم عن الايمان كجواب الشرط الاولى وانما اوثرت الجملة الاسمية للدلالة
على ثباتهم واستقرارهم في ذلك واما بتأويل فاعلموا انما هم في شقاق هذا
هو الذي يستدعيه فخامة شأن التنزيل الجليل وقد قيل قوله تعالى فان امنوا الخ
من باب التعجيز والتبكيت على منهاج قوله تعالى فأتوا بسورة من مثله والمعنى فان
حصلوا دينا آخر مثل دينكم مماثلا له في الصحة والسداد فقد اهتدوا واذ لا
امكان له فلا امكان لاهتدائهم ولا ريب في انه مما لا يليق بجلالة النظم الكريم
عليه ولما دل تنكير الشقاق على امتناع الوفاق وان ذلك مما يؤدي الى الجدال
والقتال لا محالة عقب ذلك بتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفريح المؤمنين
بوعد النصر والغلبة وضمان التأييد والاعزاز بالسين الدالة على تحقق الوقوع البتة
فقيل فسيكفيكهم الله اي سيكفيك شقاقهم فان الكفاية لا يتعلق بالاعيان
بل الافعال وانجز عز وعلا وعده الكريم بقتل بني قريظة وسبيهم واجلاء بني النضير
وتلوين الخطاب بتجريده للنبي صلى الله عليه وسلم مع ان ذلك كفاية منه سبحانه للكل
لما انه الاصل والعمدة في ذلك وللايذان بان القيام بامور الحروب وتحمل المؤن والمشاق
ومقاساة الشدائد في مناهضة الاعداء من وظائف الرؤساء فنعمته تعالى
في الكفاية والنصر في حقه عليه السلام اتم واكمل وهو السميع العليم تذييل
لما سبق من الوعد وتأكيد له والمعنى انه تعالى يسمع ما تدعو به ويعلم ما في نيتك
من اظهار الدين فيستجيب لك ويوصلك الى مرادك او وعيد للكفرة اي يسمع ما ينطقون
به ويعلم ما يضمرونه في قلوبهم مما لا خير فيه وهو معاقبهم عليه ولا يخفى ما فيه من
تأكيد الوعد السابق فان وعيد الكفرة وعد للمؤمنين صبغة الله الصبغة من الصبغ
كالجلسة من الجلوس وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ عبر بها عن الايمان بما ذكر على الوجه
الذي فصل لكونه تطهيرا للمؤمنين من اوضار الكفر وحلية تزينهم باثاره الجميلة
ومتداخلا في قلوبهم كما ان شأن الصبغ بالنسبة الى الثوب كذلك وقيل للمشاكلة
التقديرية فان النصارى كانوا يغمسون اولادهم في ماء اصفر يسمونه المعمودية
ويزعمون انه تطهير لهم وبه يحق نصرانيتهم واضافتها الى الله عز وجل مع ان
استناده فيما سلف الى ضمير المتكلمين للتشريف والايذان بانها عطية منه سبحانه لا يستقل
العبد بتحصلها فهي اذن مصدر مؤكد لقوله تعالى آمنا داخل معه في حيز قولوا منتصب عنه
انتصاب وعد الله عما تقدمه لكونه بمثابة فعله كأنه قيل صبغنا الله وقيل هي منصوبة
بفعل الاغراء اي الزموا صبغة الله وانما وسط بينهما الشرطيتان وما بعدهما اعتناء
ببيان انه الايمان الحقيق به الاهتداء ومسارعة الى تسليته عم ومن احسن من الله
مبتدأ وخبر والاستفهام للانكار والنفي وقوله تعالى صبغة نصب على التمييز من
احسن منقول من المبتدأ والتقدير ومن صبغته احسن من صبغته تعالى فالتفضيل
جار بين الصبغتين لا بين فاعليهما اي لا صبغة احسن من صبغته على انها احسن
من كل صبغة على ما اشير اليه في قوله تعالى ومن اظلم ممن منع الخ وحيث كان مدار التفضيل
على تعميم الحسن الحقيقي والفرضي على زعم الكفرة لم يلزم منه ان يكون في صبغة غيره تعالى
حسن في الجملة والجملة اعتراضية مقررة لما في صبغة الله من معنى التبجح والابتهاج ونحن
له اي لله الذي اولانا تلك النعمة الجليلة عابدون شكرا لها ولسائر نعمه وتقديم

صبغة صح

للاهتمام

للاهتمام ورعاية الفواصل وهو عطف على امنا داخل معه تحت الامر وايثار الاسمية للاشعار
بدوام العبادة او على فعل الاغراء بتقدير القول اي الزموا صبغة الله وقولوا نحن له
عابدون فقوله تعالى ومن احسن من الله صبغة يجري مجرى التعليل للاغراء قل اتحاجوننا
تجريد الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم عقيب الكلام الداخلة تحت الامر الوارد بالخطاب
العام لما ان المامور به من الوظائف الخاصة به عليه السلام وقرئ بادغام النون والهمزة
للانكار والتوبيخ اي اتجادلوننا في الله اي في دينه وتدعون ان دينه الحق اليهودية
والنصرانية وتبنون دخول الجنة والاهتداء عليها وتقولون تارة لن يدخل الجنة الا من
كان هودا او نصارى وتارة كونوا هودا او نصارى تهتدوا وهو ربنا وربكم
جملة حالية وكذلك ما عطف عليها اي اتجادلوننا والحال انه لا وجه للمجادلة اصلا لانه
تعالى ربنا اي مالك امرنا وامركم ولنا اعمالنا الحسنة الموافقة لامره ولكم اعمالكم
السيئة المخالفة لحكمه ونحن له مخلصون في تلك الاعمال لا نبتغي بها الا وجهه فاني لكم
المحاجة وادعاء حقيقة ما انتم عليه والطمع في دخول الجنة بسببه ودعوة الناس اليه
كلمة ام في قوله تعالى ام تقولون اما معادلة للهمزة في قوله تعالى اتحاجوننا داخلة في حيز
الامر على معنى اي الامرين تأتون اقامة الحجة وتنوير البرهان على حقية ما انتم عليه والحال
ما ذكر ام التشبث بذيل التقليد والافتراء على الانبياء عليهم السلام وتقولون ان ابراهيم واسمعيل
واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هودا فنحن بهم مقتدون والمراد انكار كلا الامرين
والتوبيخ عليهما واما منقطعة مقدرة ببل والهمزة على الاضراب والانتقال من التوبيخ
على المحاجة الى التوبيخ على الافتراء على الانبياء عليهم السلام وقرئ ام يقولون على صيغة
الغيبة فهي منقطعة لا غير داخلة تحت الامر واردة من جهته تعالى توبيخا لهم وانكارا
عليهم لا من جهته عليه السلام على نهج الالتفات كما قيل هذا واما ما قيل من ان المعنى اتحاجوننا
في شأن الله واصطفائه نبيا من العرب دونكم لما روي ان اهل الكتاب قالوا الانبياء
كلهم منا فلو كنت نبيا لكنت منا فنزلت ومعنى قوله تعالى وهو ربنا وربكم ولنا اعمالنا
ولكم اعمالكم انه لا اختصاص له تعالى بقوم دون قوم يصيب برحمته من يشاء من عباده فلا
يبعد ان يكرمنا باعمالنا كما اكرمكم باعمالكم كأنه الزمهم على كل مذهب ينتحونه افحاما و
تبكيتا فان كرامة النبوة اما تفضل من الله تعالى على من يشاء فالكل فيه سواء واما افاضة
حق على المستحقين لها بالمواظبة على الطاعة والتحلي بالاخلاص فكما ان لكم اعمالا
ربما يعتبرها الله تعالى في اعطائها فلنا ايضا اعمال ونحن له مخلصون اي لا انتم فمع عدم
ملاءمته لسياق النظم الكريم وسياقه لا يساعد تقدير كون كلمة ام معادلة للهمزة غير صحيح في نفسه
لان المراد بالاعمال من الطرفين ما اشير اليه من الاعمال الصالحة والسيئة ولا ريب في ان امر
الصلاح والسوء يدور على موافقة الدين المبني على البعثة ومخالفته فكيف يتصور اعتبار
تلك الاعمال في استحقاق النبوة واستعدادها المتقدم على البعثة بمراتب قل أانتم اعلم
ام الله اعادة الامر ليست لمجرد تأكيد التوبيخ وتشديد الانكار عليهم بل للايذان بان ما
بعده ليس متصلا بما قبله بل بينهما كلام للمخاطبين مترتب على ما سبق مستتبع لما لحق حذف عنه
الذكر صفحا للظهور وهو تصريحهم بما نحوا عليه من الافتراء على الانبياء عليهم
السلام كما في قوله عز وجل قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون قال فما خطبكم
ايها المرسلون وقوله عز قائلا قال أأسجد لمن خلقت طينا قال ارأيتك هذا الذي
كرمت علي فان تكرير قال في الموضعين لتوسيطه بين قولي قائل واحد للايذان بان
بينهما كلاما لصاحبه متعلقا بالاول والثاني بالتبعية والاستتباع كما حرر في محله اي
كذبهم في ذلك وبكتهم قائلا ان الله يعلم وانتم لا تعلمون وقد نفى عن ابراهيم عليه
السلام كلا الامرين حيث قال ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا واحتج عليه بقوله
تعالى وما انزلت التورية والانجيل الا من بعده وهؤلاء المعطوفون عليه عليهم
السلام اتباعه في الدين وفاقا فكيف تقولون ما تقولون سبحان الله عما
يصفون ومن اظلم انكار لان يكون احد اظلم ممن كتم شهادة

او نصارى

ثابتة عنده كاينة من الله وهي شهادته تعالى عليه السلام بالحنيفية والبراءة من اليهودية والنصرانية حسبما تلي آنفاً فعنده صفة لشهادة وكذا من الله جيء بهما لتعليل الانكار وتاكيده فان ثبوت الشهادة عنده وكونها من جناب الله عز وجل من اقوى الدواعي الى اقامتها واشد الزواجر عن كتمانها وتقديم الاول مع انه متاخر في الوجود لمراعاة طريقة الترقي من الادنى الى الاعلى والمعنى انه لا احد اظلم من اهل الكتاب حيث كتموا هذه الشهادة واثبتوا نقيضها بما ذكر من الافتراء وتعليق الاظلمية بمطلق الكتمان للايماء الى ان مرتبة من يردها ويشهد بخلافها في الظلم خارجة عن دائرة البيان ولا احد اظلم منا ان كتمناها فالمراد بكتمها عدم اقامتها في مقام المحاجة وفيه تعريض بغاية اظلمية اهل الكتاب على نحو ما اشير اليه وفي اطلاق الشهادة مع ان المراد بها ما ذكر من الشهادة المعينة تعريض بكتمانهم شهادة الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم في التورية والانجيل وما الله بغافل عما تعملون من فنون السيئات فيدخل فيها كتمانهم لشهادته سبحانه وافتراؤهم على الانبياء عليهم السلام دخولاً اولياً اي هو محيط بجميع ما تاتون وما تذرون فيعاقبكم بذلك اشد عذاب وعقاب وقرئ عما يعملون على الغيبة فالضمير اما لمن كتم باعتبار المعنى واما لاهل الكتاب وقوله تعالى ومن اظلم الخ مسوق من جهته تعالى لوصفهم بغاية الظلم وتهديدهم بالوعيد تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون تكرير للمبالغة في الزجر عما هم عليه عن الافتخار بالاباء والاتكال على اعمالهم وقيل الخطاب السابق وهذا لنا تحذيراً عن الاقتداء بهم وقيل المراد بالامة الاولى الانبياء عليهم السلام وبالثانية اسلاف اليهود سيقول السفهاء اي الذين خفت احلامهم واستمهنوها بالتقليد والاعراض عن التدبر والنظر من قولهم ثوب سفيه اذا كان خفيف النسج وقيل السفيه البهات الكذاب المتعمد خلاف ما يعلم وقيل الظلوم الجهول والمراد بالسفهاء هم اليهود على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد رضيه قالوه انكاراً للنسخ وكراهة للتحويل حيث كانوا ياتسون بموافقته لهم في القبلة وقيل المنافقون وهو الانسب بقوله عز وجل الا انهم هم السفهاء وانما قالوا لمجرد الاستهزاء والطعن لا لاعتقادهم حقية القبلة الاولى وبطلان الثانية اذ ليس كلهم من اليهود وقيل هم المشركون ولم يقولوه كراهة للتحويل الى مكة بل طعناً في الدين فانهم يقولون رغب عن ملة آبائه ثم رجع اليها وليرجعن الى دينهم ايضاً وقيل هم القادحون في التحويل منهم جميعاً فيكون قوله تعالى من الناس اي الكفرة لبيان ان ذلك القول المحكي لم يصدر عن كل فرد من تلك الطوائف الثلث بل عن اشقيائهم المعتدين للخوض في فنون الفساد وهو الاظهر لو اريد بهم طائفة مخصوصة منهم لما كان لبيان كونهم من الناس مزيد فائدة وتخصيص بعض منها بالذكر لا يقتضي تسليم الباقين للتحويل وارتضاءهم اياه بل عدم التفوه بالقدح مطلقاً او بالعبارة المحكية ما ولاهم اي اي شيء صرفهم والاستفهام للانكار والنفي عن قبلتهم القبلة فعلة من المقابلة كالوجهة من المواجهة وهي الحال التي يقابل الشيء غيره كالجلسة للحالة التي يقع عليها الجلوس يقال لا قبلة له ولا دبرة اذا لم يهتد لجهة امره غلبت على الجهة التي يستقبلها الانسان في الصلوة والمراد بها ههنا بيت المقدس واضافتها الى ضمير المسلمين ووصفها بقوله تعالى التي كانوا عليها اي ثابتين مستمرين على التوجه اليها ومراعاتها واعتقاد حقيتها لتاكيد الانكار فان الاختصاص بالشيء والاستمرار عليه باعتقاد حقيته مما ينافي الانصراف عنه فان اريد بالقائلين اليهود فمدار الانكار كراهتهم للتحويل عنها وزعمهم انه خطاء وان اريد بهم المشركون فمداره مجرد القصد الى الطعن في الدين والقدح في احكامه واظهار ان كلا من التوجه اليها والانصراف عنها واقع بغير داع اليه لا لكراهتهم الانصراف عنها والتوجه الى مكة

وتقليق

وتقليق الانكار بما يوليهم عنها لا بما يوجههم الى غيرها مع تلازمهما في الوجود لما ان ترك الدين القديم ابعد عند العقول وانكار سببه ادخل للايذان بان المنكرين هم اليهود بناء على ان المنكر عندهم هو التحويل عن خصوصية بيت المقدس الذي هو القبلة الحقة عندهم لا التوجيه الى خصوصية قبلة اخرى او هم المشركون بناء على ان المنكر عندهم ترك القبلة القديمة على وجه الطعن والقدح لا التوجه الى الكعبة لانه الحق عندهم فانه بمعزل من ذلك كيف لا والمنافقون من احد الفريقين لا محالة والاخبار بذلك قبل الوقوع مع كونه من دلائل النبوة حيث وقع كما اخبر لتوطين النفوس واعداد ما يبكتهم فان مفاجاة المكروه على النفس اشق واشد والجواب العتيد لشغب الخصم الالد ارد وقوله عز وجل قل لله المشرق والمغرب استيناف مبني على السؤال كانه قيل فماذا اقول عند ذلك فقيل قل الخ اي لله تعالى ناحيتا الارض اي الجهات كلها ملكاً وملكاً وتصرفاً فلا اختصاص لناحية منها لذاتها بكونها قبلة دون ما عداها بل انما هو بامر الله سبحانه ومشيته يهدي من يشاء اي يهديه مشية تابعة للحكم الخفية التي لا يعلمها الا هو الى صراط مستقيم موصل الى سعادة الدارين وقد هدانا الى ذلك حيث امرنا بالتوجه الى بيت المقدس تارة والى الكعبة اخرى حسبما يقتضيه مشيته المقارنة لحكم ابية ومصالح خفية وكذلك جعلناكم توجيه للخطاب الى المؤمنين بين الخطابين المختصين بالرسول صلى الله عليه وسلم لتاييد ما في مضمون الكلام من التشريف وذلك اشارة الى مصدر جعلناكم لا الى جعل آخر مفهوم مما سبق كما قيل وتوحيد الكاف مع القصد الى المؤمنين لما ان المراد مجرد الفرق بين الحاضر والمنقضي دون تعيين المخاطبين وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه وبعد منزلته في الفضل وكمال تميزه به وانتظامه بسببه في سلك الامور المشاهدة والكاف لتاكيد ما افاده اسم الاشارة من الفخامة ومحلها في الاصل نصب على انه نعت لمصدر محذوف واصل التقدير جعلناكم امة وسطاً جعلا كائنا مثل ذلك الجعل فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة فصار نفس المصدر المؤكد لا نعتاً له اي ذلك الجعل البديع جعلناكم امة وسطاً لا جعلا آخر ادنى منه والوسط في الاصل اسم لما يستوي نسبة الجوانب اليه كمركز الدائرة ثم استعير للخصال المحمودة البشرية لكن لا لان اطرافها يتسارع اليها الخلل والاعوان والاوساط محمية محوطة كما قيل واستشهد عليه بقول ابن اوس الطائي كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت بها الحوادث حتى اصبحت طرفاً فان تلك العلاقة بمعزل من الاعتبار في هذا المقام اذ لا ملابسة بينهما وبين اهلية الشهادة التي جعلت غاية للجعل المذكور بل لكون تلك الخصال اوساطاً للخصال الذميمة المكتنفة بها من طرفي الافراط والتفريط كالعفة التي طرفاها الفجور والخمود وكالشجاعة التي طرفاها التهور والجبن وكالحكمة التي طرفاها الجربزة والبلادة وكالعدالة التي هي كيفية متشابهة حاصلة من اجتماع تلك الاوساط المحفوفة باطرافها ثم اطلق على المتصف بها مبالغة كانه نفسها وسوي فيه المفرد والجمع والمذكر والمؤنث رعاية لجانب الاصل كدأب سائر الاسماء التي يوصف بها وقد روعيت ههنا نكتة رائقة هي ان الجعل المشار اليه عبارة عما تقدم ذكره من هداية الله تعالى الى الحق الذي عبر عنه بالصراط المستقيم الذي هو الطريق السوي الواقع في وسط الطرق الجائرة عن القصد الى الجوانب فانا اذا فرضنا خطوطاً كثيرة واصلة بين نقطتين متقابلتين فالخط المستقيم انما هو الخط الواقع في وسط تلك الخطوط المنحنية ومن ضرورة كونه وسطاً بين الطرق الجائرة كون الامة المهدية اليه امة وسطاً بين الامم السالكة الى تلك الطرق الزائغة اي متصفة بالخصال الحميدة خياراً وعدولاً مزكين بالعلم والعمل لتكونوا شهداء على الناس بان الله عز وجل قد اوضح السبل وارسل الرسل فبلغوا ونصحوا

سول

وذكروا فهل من مدكر وهو غاية للجعل المذكور مترتبة عليه فان العدالة كما اشير اليه حيث كانت هي الكيفية المتشابهة المتألفة من العفة التي هي فضيلة القوة الشهوية البهيمية والشجاعة التي هي فضيلة القوة الغضبية السبعية والحكمة التي هي فضيلة القوة العقلية الملكية المشار الى رتبتها بقوله عز وعلا ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا كان المتصف بها واقفا على الحقائق المودعة في الكتاب المبين المنطوي على احكام الدين واحوال الامم اجمعين حاويا لشرائط الشهادة عليهم روي ان الامم يوم القيمة يجحدون تبليغ الانبياء عليهم السلام فيطالبهم الله تعالى بالبينة وهو اعلم اقامة للحجة على المشركين وزيادة لخزيهم بان كذبهم من بعدهم الامم فيؤتى بامة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون فيقول الامم من اين عرفتهم فيقولون علمنا ذلك باخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق فيؤتى عند ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم ويسأل عن حال امته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم وذلك قوله عز قائلا ويكون الرسول عليكم شهيدا وكلمة الاستعلاء في الشهيد من معنى الرقيب والمهيمن وقيل لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يقبل فيه الشهادة الا من العدول الاخيار وتقديم الظرف للدلالة على اختصاص من شهادته عليه السلام بهم وما جعلنا القبلة التي كنت عليها جرد الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم رمزا الى ان مضمون الكلام من الاسرار الخفية بان يختص معرفته به عليه السلام و ليس الموصول صفة للقبلة بل هو مفعول ثان للجعل وما قيل من ان الجعل تحويل الشئ من حالة الى اخرى فالملتبس بالحالة الثانية هو المفعول الثاني كما في قولك جعلت الطين خزفا فينبغي ان يكون المفعول الاول هو الموصول والثاني هو القبلة فكلام صنا عي ينساق اليه الذهن بحسب النظر الجليل ولكن التأمل اللائق يهدي الى العكس فان المقصود افادته ليس جعل الجهة قبلة لا غير كما يفيده ما ذكر بل هو جعل القبلة المحققة الوجود هذه الجهة دون غيرها والمراد بالموصول هي الكعبة فانه عليه السلام كان يصلي اليها اولا ثم لما هاجر امر بالصلوة الى الصخرة تألفا لليهود او هي الصخرة لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من ان قبلته عليه السلام بمكة كان بيت المقدس الا انه كان يجعل الكعبة بينه وبينه وعلى هذه الرواية لا يمكن ان يراد بالقبلة الاولى الكعبة واما الصخرة فيتأتى ارادتها على الروايتين والمعنى على الاول وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها اثر ذي اثير وهي الكعبة وعلى الثاني وما جعلناها التي كنت عليها قبل هذا الوقت وهي الصخرة الا لنعلم استثناء مفرغ من اعم العلل اي وما جعلنا ذلك لشئ من الاشياء الا لنمتحن الناس اي نعاملهم معاملة من يمتحنهم ونعلم حينئذ من يتبع الرسول في التوجه الى ما امر به من الدين او القبلة والالتفات الى الغيبة مع ايراده عليه السلام بعنوان الرسالة للاشعار بعلية الاتباع ممن ينقلب على عقبيه يرتد عن دين الاسلام او لا يتوجه الى القبلة الجديدة او لنعلم الآن من يتبع الرسول ممن لا يتبعه وما كان لعارض يزول وعلى الاول ما رددناك الى ما كنت عليه الا لنعلم الثابت على الاسلام والناكص على عقبيه لقلقه وضعف ايمانه والمراد بالعلم ما يدور عليه فلك الجزاء من العلم الحالي اي ليتعلق علمنا به موجودا بالفعل وقيل المراد علم الرسول عليه السلام والمؤمنين واسناده سبحانه لما انهم خواصه او لتمييز الثابت عن المتزلزل كقوله تعالى ليميز الله الخبيث من الطيب فوضع العلم موضع التمييز الذي هو مسبب عنه ويشهد له قراءة ليعلم على بناء المجهول من صيغة الغيبة والعلم اما بمعنى المعرفة او معلق بما في من من معنى الاستفهام او مفعوله الثاني ممن ينقلب اي لنعلم من يتبع الرسول متميزا ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة اي شاقة ثقيلة وان هي المخففة من المثقلة دخلت على ناسخ الابتداء والخبر واللام هي الفارقة بينها وبين النافية كما في قوله تعالى ان كان وعد ربنا لمفعولا وزعم الكوفيون انها نافية واللام بمعنى الا اي ما كانت الا كبيرة والضمير الذي هو اسم كان راجع الى ما دل عليه قوله تعالى

وما جعلنا القبلة التي كنت عليها من الجعلة والتولية او التحويلة او الردة او القبلة وقرئ لكبيرة بالرفع على ان كان مزيدة كما في قوله واخوان لنا كانوا كرام واصله وان هي لكبيرة كقولك ان زيد لمنطلق الا على الذين هدى الله اي الى سر الاحكام الشرعية المبنية على الحكم والمصالح اجمالا وتفصيلا هم المهديون الى الصراط المستقيم الثابتون على الايمان واتباع الرسول عليه السلام وما كان الله ليضيع ايمانكم اي ما صح وما استقام له ان يضيع ثباتكم على الايمان بل شكر صنيعكم واعد لكم الثواب العظيم وقيل ايمانكم بالقبلة المنسوخة وصلوتكم اليها لما روي انه عليه السلام لما توجه الى الكعبة قالوا كيف حال اخواننا الذين مضوا وهم يصلون الى بيت المقدس فنزلت واللام في ليضيع اما متعلقة بالخبر المقدر لكان كما هو رأي البصرية وانتصاب الفعل بعدها بان المقدرة اي ما كان مريدا او متصديا لان يضيع الخ ففي توجيه النفي الى ارادة الفعل تأكيد ومبالغة ليس في توجيهه الى نفسه واما مزيدة للتأكيد ناصبة للفعل بنفسها كما هو رأي الكوفية ولا يقدح في ذلك زيادتها كما لا يقدح زيادة حروف الجر في عملها وقوله تعالى ان الله بالناس لرؤف رحيم تحقيق وتقرير للحكم وتعليل له فان اتصافه عز وجل بهما يقتضي لا محالة ان لا يضيع اجورهم ولا يدع ما فيه صلاحهم والباء متعلقة برؤف وتقديمه على رحيم مع كونه ابلغ منه لما مر في وجه تقديم الرحمن على الرحيم وقيل الرحمة اكثر من الرأفة في الكمية والرأفة اقوى منها في الكيفية لانها عبارة عن ايصال النعم الصافية عن الآلام والرحمة ايصال النعمة مطلقا وقد يكون مع الالم كقطع العضو المتأكل قد نرى تقلب وجهك وربما نرى بمعنى نرى كقوله قد نرى تقلب وجهك في السماء اي تردده وتصرف نظرك في جهتها تطلعا للوحي وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقع في روعه ويتوقع من ربه عز وجل ان يحوله الى الكعبة لانها قبلة ابراهيم عليه السلام وادعى للعرب الى الايمان لانها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم ولمخالفة اليهود فكان يراعي نزول جبرائيل عليه السلام بالوحي بالتحويل فلنولينك قبلة الفاء للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها في الحقيقة داخلة على قسم محذوف يدل عليه اللام اي فوالله لنولينك اي لنعطينكها ولنمكننك من استقبالها من قولك وليته كذا اذا صيرته واليا له او لنجعلنك تلي جهتها او لنحولنك على ان نصب قبلة بحذف الجار اي الى قبلة وقيل هو متعد الى مفعولين ترضاها تحبها وتشتاق اليها لمقاصد دينية وافقت مشيئته تعالى وحكمتها فول وجهك الفاء لتفريع الامر بالتولية على الوعد الكريم وتخصيص التولية بالوجه لما انه مدار التوجه ومعياره وقيل المراد به كل البدن اي فاصرفه شطر المسجد الحرام اي نحوه وهو نصب على الظرفية من ولى او بنزع الخافض او على انه مفعول ثان له وقيل الشطر في الاصل اسم لما انفصل من الشئ ودار شطور اذا كانت منفصلة عن الدور ثم استعمل لجانبه وان لم ينفصل كالقطر والحرام المحرم اي محرم فيه القتال او ممنوع من الظلمة ان يتعرضوا له وذكر المسجد الحرام دون الكعبة ايذان بكفاية مراعاة الجهة لان في مراعاة العين من البعيد حرجا عظيما بخلاف القريب روي عن البراء بن عازب ان النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا ثم وجه الى الكعبة وقيل كان ذلك في رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين ورسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجد بني سلمة وقد صلى باصحابه ركعتين من صلوة الظهر فتحول في الصلوة واستقبل الميزاب وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فسمي المسجد مسجد القبلتين وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره خص الرسول صلى الله عليه وسلم بالخطاب تعظيما لجنابه وايذانا باسعاف مرامه ثم عمم الخطاب للمؤمنين مع التعرض لاختلاف اماكنهم تأكيدا للحكم وتصريحا بعمومه لكافة العباد من كل حاضر وباد وحثا للامة على المتابعة وحيثما شرطية وكنتم في محل الجزم بها وقوله تعالى فولوا جوابها وتكون هي منصوبة على الظرفية بكنتم نحو قوله تعالى اينما تدعوا

فلله الاسماء الحسنى وان الذين اوتوا الكتاب من فريقي اليهود والنصارى ليعلمون انه اي التحويل والتوجه المفهوم من التولية الحق لاغير لعلمهم بان عادته سبحانه وتعالى جارية على تخصيص كل شريعة بقبلة ومعاينتهم لما هو المسطور في كتبهم من انه صلى الله عليه وسلم يصلي الى القبلتين كما يشعر بذلك التعبير عنهم بالاسم الموصول بايتاء الكتاب وانّ مع اسمها وخبرها سادّ مسدّ مفعولي يعلمون او مسدّ مفعوله الواحد على ان العلم بمعنى المعرفة وقوله تعالى من ربهم متعلق بمحذوف وقع حالا من الحق اي كائنا من ربهم او صفة له على رأي من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته اي الكائن من ربهم وما الله بغافل عما تعملون وعد ووعيد للفريقين والخطاب للكل تغليبا وقرئ على صيغة الغيب فهو وعيد لاهل الكتاب ولئن اتيت الذين اوتوا الكتاب وضع الموصول موضع المضمر للايذان بكمال سوء حالهم من العناد مع تحقق ما يزعمهم منه من الكتاب الناطق بحقيقته ما كابروا في قبوله بكل اية اي حجة قطعية دالة على حقية التحويل واللام موطئة للقسم وقوله تعالى ما تبعوا قبلتك جواب للقسم المضمر سادّ مسدّ جواب الشرط والمعنى انهم ما تركوا قبلتك لشبهة تزيلها الحجة وانما خالفوك مكابرة وعنادا وتجريد الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بعد تعميمه للامة لما ان المحاجة والاتيان بالاية من الوظائف الخاصة به عليه السلام وقوله تعالى وما انت بتابع قبلتهم جملة معطوفة على الجملة الشرطية لا على جوابها مسوقة لقطع اطماعهم الفارغة حيث قالت اليهود لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجوا ان تكون صاحبنا الذي ننتظره تغريرا له عليه السلام وطمعا في رجوعه وايثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام مضمونها واستمراره وافراد قبلتهم مع تعددها باعتبار اتحادها في البطلان ومخالفة الحق ولئلا يتوهم ان معارض النفي هو التعدد وقرئ بتابع قبلتهم على الاضافة وما بعضهم بتابع قبلة بعض فان اليهود تستقبل الصخرة والنصارى مطلع الشمس ولا يرجى توافقهم كما لا يرجى موافقتهم لك لتصلب كل فريق فيما هو فيه ولئن اتبعت اهواءهم الزائغة المخالفة من بعد ما جاءك من العلم ببطلانها وحقية ما انت عليه وهذه الشرطية الفرضية واردة على منهاج التهييج والالهاب للثبات على الحق اي ولئن اتبعت اهواءهم فرضا انك اذا لمن الظالمين وفيه لطف للسامعين وتحذير لهم عن متابعة الهوى فان من ليس من شانه ذلك اذا نهي عنه ورتب على فرض وقوعه ما رتب من الانتظام في سلك الراسخين في الظلم فما ظن من ليس كذلك واذن حرف جواب وجزاء توسطت بين اسم ان وخبرها لتقرير ما بينهما من النسبة اذ كان حدها ان تتقدم او تتاخر فلم تتقدم لئلا يتوهم انها لتقرير النسبة التي بين الشرط وجوابها المحذوف لان المذكور جواب القسم ولم تتاخر لرعاية الفواصل ولقد بولغ في التاكيد من وجوه تعظيما للحق المعلوم وتحريضا على اقتضائه وتحذيرا من متابعة الهوى واستعظاما لصدور الذنب من الانبياء عليهم السلام الذين اتيناهم الكتاب اي علماؤهم اذ هم العمدة في ايتائه ووضع الموصول موضع المضمر مع قرب العهد للاشعار بعلية ما في حيز الصلة للحكم والضمير المنصوب في قوله تعالى يعرفونه للرسول صلى الله عليه وسلم والالتفات الى الغيبة للايذان بان المراد ليس معرفتهم له عليه السلام من حيث ذاته بل من حيث كونه مسطورا في الكتاب منعوتا فيه بالنعوت التي من جملتها انه عليه السلام يصلي الى القبلتين كانه قيل الذين اتيناهم الكتاب يعرفون من وصفناه فيه وبهذا يظهر جزالة النظم الكريم وقيل هذا هو اضمار قبل الذكر للاشعار بفخامة شانه عليه السلام وانه علم معلوم بغير اعلام فتأمل وقيل الضمير للعلم او سببه الذي هو الوحي والقرآن او التحويل ويؤيد الاول قوله عز وعلا كما يعرفون ابناءهم اي يعرفونه عليه السلام باوصافه الشريفة المكتوبة في كتابهم

لايشتبه

لايشتبه عليهم كما لايشتبه ابناؤهم وتخصيصهم بالذكر دون ما يعم البنات لكونهم اعرف عندهم منهن بسبب كونهم احب اليهم عن عمر رضي الله عنه انه سأل عبد الله بن سلام رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انا اعلم به مني بابني قال ولم قال لاني لست اشك فيه انه نبي فاما ولدي فلعل والدته خانت فقبل عمر راسه رضي الله عنهما وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون هم الذين كابروا وعاندوا الحق والباقون هم الذين امنوا منهم فانهم يظهرون الحق فلا يكتمونه واما الجهلة منهم فليست لهم معرفة الكتاب ولا بما في تضاعيفه فما هم بصدد الاظهار ولا بصدد الكتم وانما كفرهم على وجه التقليد الحق بالرفع على انه مبتدأ وقوله تعالى من ربك خبره واللام للعهد والاشارة الى ما عليه السلام او الى الحق الذي يكتمونه او للجنس والمعنى ان الحق ما ثبت انه من الله تعالى كالذي انت عليه لا غيره كالذي عليه اهل الكتاب او على انه خبر مبتدأ محذوف وهو اي هو الحق وقوله تعالى من ربك اما حال او خبر وقرئ بالنصب على انه بدل من الاول او مفعول ليعلمون وفي التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من اظهار اللطف به عليه السلام ما لا يخفى فلا تكونن من الممترين اي الشاكين في كتمانهم الحق عالمين به وقيل في انه من ربك وليس المراد به نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن الشك فيه لانه غير متوقع منه عليه السلام وليس بقصد واختيار بل اما تحقيق الامر وانه بحيث لا يشك فيه ناظر او امر الامة باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الابلغ ولكل اي لكل امة من الامم على ان التنوين عوض عن المضاف اليه وجهة اي قبلة وقد قرئ كذلك او لكل قوم من المسلمين جانب من جوانب الكعبة هو موليها احد المفعولين محذوف اي موليها وجهه او الله موليها اياه وقرئ ولكل وجهة بالاضافة والمعنى ولكل وجهة الله موليها اهلها واللام مزيدة للتاكيد وجبر ضعف العامل وقرئ مولاها اي مولي تلك الجهة قد وليها فاستبقوا الخيرات اي تسابقوا اليها بنزع الجار كما في قوله ثنائي عليكم آل حرب ومن يمل سواكم فاني مهتد غير مائل وهو ابلغ من الامر بالمسارعة لما فيه من الحث على احراز قصب السبق والمراد بالخيرات جميع انواعها من امر القبلة وغيره مما ينال به سعادة الدارين او الفاضلات من الجهات وهي المسامتة للكعبة اينما تكونوا يات بكم الله جميعا اي في اي موضع تكونوا من موافق ومخالف مجتمع الاجزاء او متفرقها يحشركم الله تعالى الى المحشر للجزاء او اينما تكونوا من اعماق الارض وقلل الجبال يقبض ارواحكم او اينما تكونوا من الجهات المختلفة المتقابلة يجعل صلواتكم كانها صلوة الى جهة واحدة ان الله على كل شيء قدير فيقدر على الاماتة والاحياء والجمع فهو تعليل للحكم السابق ومن حيث خرجت تاكيد لحكم التحويل وتصريح بعدم تفاوت الامر في حالتي السفر والحضر ومن متعلقة بقوله تعالى فول او بمحذوف عطف عليه اي من اي مكان خرجت اليه للسفر فول وجهك عند صلوتك شطر المسجد الحرام او افعل ما امرت به من اي مكان خرجت اليه فول الخ وانه اي هذا الامر للحق من ربك اي الثابت الموافق للحكمة وما الله بغافل عما تعملون فيجازيكم بذلك احسن جزاء فهو وعد للمؤمنين وقرئ يعملون على صيغة فهو وعيد للكافرين ومن حيث خرجت اليه في اسفارك ومغازيك من المنازل القريبة والبعيدة فول وجهك شطر المسجد الحرام الكلام فيه كما مر انفا وحيثما كنتم من اطراف الارض مقيمين او مسافرين حسبما يعرب عنه ايثار كنتم على خرجتم فان الخطاب عام لكافة المؤمنين المنتشرين في الافاق من الحاضرين والمسافرين فلو قيل وحيثما خرجتم لما تناول الخطاب المقيمين في الاماكن المختلفة من حيث اقامتهم فيها فولوا وجوهكم من محالكم شطره والتكرير لما ان القبلة لها شأن خطير والنسخ من مظان الشبهة والفتنة فبالحري ان يؤكد امرها مرة بعد اخرى مع انه قد ذكر في كل مرة حكمة مستقلة لئلا يكون للناس عليكم حجة متعلق بقوله تعالى فولوا وقيل بمحذوف يدل عليه الكلام كانه قيل فعلنا ذلك لئلا الخ والمعنى ان التولية عن الصخرة تدفع

احتجاج اليهود بان النعوت في التورية من اوصافه انه يحوّل الي الكعبة او احتجاج المشركين
بانه يدّعي ملّة ابراهيم ويخالف قبلته الا الذين ظلموا منهم وهم اهل مكة اي
لئلا يكون لاحد من الناس حجة الا المعاندين منهم الذين يقولون ما تحوّل الي الكعبة الا
ميلا الي دين قومه وحبّا لبلده وبداله فرجع الي قبلة آبائه ويوشك ان يرجع الي
دينهم وتسمية هذه الكلمة الشنعاء حجّة مع انها افحش الباطل من قبيل ما في قوله تعالي
حجّتهم داحضة حيث يسوقونها مساق الحجّة وقيل الحجة بمعنى مطلق الاحتجاج وقيل
الاستثناء للمبالغة في نفي الحجّة راسًا كالذي في قوله ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم فيهنّ
فلول من قراع الكتائب ضرورة ان لا حجة للظالم وقرئ الا الذين بحرف التنبيه علي انه
استيناف فلا تخشوهم فان مطاعنهم لا تضرّكم شيئًا واخشوني فلا تخالفوا امري
ولاتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون علة لمحذوف يدلّ عليه النظم لكريم اي وامرتكم
بما مرّ لاتمامي النعمة عليكم لما انه نعمة جليلة ولارادتي اهتداءكم لما انه صراط مستقيم
مؤدّ الي سعادة الدارين كما اشير اليه في قوله عزّ وعلا يهدي من يشاء الي صراط مستقيم وفي
التعبير عن الارادة بكلمة لعلّ الموضوعة للترجي علي طريقة الاستعارة التبعية من الدلالة علي كمال العناية بالهداية
ما لا يخفي او عطف علي علة مقدرة اي واخشوني لاحفظكم عنهم ولاتمّ الخ او علي قوله تعالي
لئلا يكون الخ او توسيط قوله تعالي فلا تخشوهم الخ بينهما للمسارعة الي التسلية والتثبيت
وفي الخبر تمام النعمة دخول الجنّة وعن علي رضه تمام النعمة الموت علي الاسلام كما ارسلنا
فيكم رسولا منكم متصل بما قبله والظرف الاوّل متعلق بالفعل قدّم علي مفعوله الصريح
لما في صفاته من الطول والظرف الثاني متعلق بمحذوف وقع صفة لرسولا مبيّنة لتمام
النعمة اي ولاتمّ نعمتي عليكم في امر القبلة او في الآخرة اتمامًا كائنًا كاتمامي لها بارسال
رسول كائن منكم فان ارسال الرسول لا سيّما المجانس لهم نعمة لا يكافؤها نعمة قطّ وقيل
متصل بما بعده اي كما ذكرتكم بالارسال فاذكروني الخ وايثار صيغة المتكلم مع الغير
بعد التوحيد فيما قبله افتنان وجريان علي سنن الكبرياء يتلو عليكم اياتنا صفة ثانية
لرسولا كاشفة لكمال النعمة ويزكّيكم عطف علي يتلو اي يحملكم علي ما تصيرون ازكياء
ويعلّمكم الكتاب والحكمة صفة اخري مترتبة في الوجود علي التلاوة وانما وسّط بينهما
التزكية التي عبارة عن تكميل النفس بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرّع علي تكميلها بحسب القوة
النظرية الحاصل بالتعليم المترتب علي التلاوة للايذان بانّ كلا من الامور المترتبة نعمة
جليلة علي حيالها مستوجبة للشكر فلو روعي ترتيب الوجود كما في قوله تعالي وابعث فيهم
رسولا منهم يتلو عليهم اياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز
الحكيم لتبادر الي الفهم كون الكل نعمة واحدة كما مرّ نظيره في قصة البقرة وهو السرّ
في التعبير عن القرآن تارة بالايات واخري بالكتاب والحكمة رمزًا الي انه باعتبار كل عنوان
نعمة علي حدة ولا يقدح فيه شمول الحكمة لما في تضاعيف الاحاديث الشريفة من الشرائع
وقوله عزّ وجلّ ويعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون صريح في ذلك فان الموصول مع كونه
عبارة عن الكتاب والحكمة قطعًا قد عطف تعليمه علي تعليمها وما ذلك الا لتفصيل فنون
النعم في مقام يقتضيه كما في قوله تعالي ونجيناهم من عذاب غليظ عقيب قوله تعالي
نجينا هودًا والذين امنوا معه برحمة منّا والمراد بعدم علمهم انه ليس من شانهم
ان يعلموه بالفكر والنظر وغير ذلك من طرق العلم لانحصار الطريق في الوحي فاذكروني
الفاء للدلالة علي ترتب الامر علي ما قبله من موجباته اي فاذكروني في الطاعة اذكركم
بالثواب وهو تحريض علي الذكر مع الاشعار بما يوجبه واشكروا لي ما انعمت به عليكم
من النعم ولا تكفرون بجحدها وعصيانا امرتكم به يا ايها الذين امنوا وصفهم
بالايمان اثر تعداد ما يوجبه ويقتضيه تنشيطًا لهم وحثًا علي مراعاة ما يعقبه
من الامر استعينوا ما يأتون وما يذرون بالصبر علي الامور الشاقة علي النفس
التي من جملتها معاداة الكفرة ومقاتلتهم المؤدية الي مقاتلتهم والصلوة التي هي
امّ العبادات ومعراج المؤمنين ومناجاة ربّ العالمين ان الله مع الصابرين تعليل

للامر

للامر بالاستعانة بالصبر لم يفتقر الامر بالاستعانة بها الي التعليل ومعني المعية الولاية
الدائمة المستتبعة للنصرة واجابة الدعوة ودخول مع علي الصابرين لما انهم المباشرون
للصبر حقيقة فهم متبوعون من تلك الحيثية ولا تقولوا عطف علي استعينوا مسوق
لبيان ان لا غائلة للمامور به وان الشهادة التي ربّما يؤدّي اليها الصبر حيوة ابدية لمن
يقتل في سبيل الله اموات اي هم اموات بل احياء اي بل هم احياء ولكن لا تشعرون
بحياتهم وفيه رمز الي انها ليست ممّا يشعر به بالمشاعر الظاهرة من الحيوة الجسمانية وانما
هي امر روحاني يدرك بالعقل بالوحي وعن الحسن رح ان الشهداء احياء عند الله
تعرض ارزاقهم علي ارواحهم فيصل اليهم الروح والفرح كما تعرض النار علي ال فرعون
غدوًا وعشيًا فيصل اليهم الالم والوجع قلت رائيت في المنام سنة تسع وثلثين وتسعمائة
اني ازور قبور شهداء احد رضي الله تعالي عنهم وانا اتلو هذه الآية وما في سورة آل عمران و
اردّدها متفكرًا في امرهم في نفسي ان حيوتهم روحانية لا جسمانية فبينما انا علي ذلك
اذ رايت شابًا منهم قاعدًا في قبره تام الجسد كامل الخلقة في احسن ما يكون من الهيئة
والمنظر ليس علي شيء من اللباس قد برز منه ما فوق السرة والباقي في القبر خلا اني
اعلم يقينا ان ذلك ايضا كما ظهر وانما لا يظهر لكونه عورة فنظرت الي وجهه فرايته ينظر
الي متبسما كانه ينبهني علي ان الامر بخلاف رايي فسبحان من علت كلمته وجلت حكمته وقيل
الآية نزلت في شهداء بدر وكانوا اربعة عشر وفيها دلالة علي ان الارواح جواهر قائمة
بانفسها مغايرة لما يحسّ به من البدن تبقي بعد الموت درّاكة وعليه جمهور الصحابة
والتابعين رضوان الله تعالي عليهم اجمعين وبه نطقت الايات والسنن وعلي هذا فتخصيص
الشهداء بذلك لما يستدعيه مقام التحريض علي مباشرة مبادي الشهادة لاختصاصهم
بمزيد القرب من الله عزّ وعلا ولنبلونّكم لنصيبنّكم اصابة من يختبر احوالكم اتصبرون
علي البلاء وتستسلمون للقضاء بشيء من الخوف والجوع اي بقليل من ذلك فان ما
وقاهم عنه اكثر بالنسبة الي ما اصابهم بالف مرة وكذا ما يصيب به معانديهم وانما اخبر به قبل
الوقوع ليوطّنوا عليه نفوسهم ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له حسبما اخبر به ليعلموا انه شيء
يسير له عاقبة حميدة ونقص من الاموال والثمرات عطف علي شيء وقيل علي الخوف وعن
الشافعي الخوف خوف الله والجوع صوم رمضان ونقص من الاموال الزكوة والصدقات
ومن الانفس الامراض ومن الثمرات موت الاولاد وعن النبي صلى الله عليه وسلم اذا مات
ولد العبد قال الله تعالي للملائكة اقبضتم ولد عبدي فيقولون نعم فيقول عزّ وجلّ اقبضتم
ثمرة قلبه فيقولون نعم فيقول الله تعالي ماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجع فيقول
الله عزّ وجلّ ابنوا لعبدي بيتًا في الجنّة وسمّوه بيت الحمد وبشّر الصابرين الذين
اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون الخطاب لرسول صلى الله
عليه وسلم او لكل من يتاتّى منه البشارة والمصيبة ما يصيب الانسان من مكروه لقوله
عليه السلام كل شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة وليس الصبر هو الاسترجاع باللسان بل
بالقلب بان يتصوّر ما خلق له وانه راجع الي ربه ويتذكر نعم الله تعالي عليه ويري ان ما ابقي عليه
اضعاف ما استردّ منه فيهون ذلك علي نفسه ويستسلم والمبشر به محذوف دلّ عليه ما بعده
اولئك اشارة الي الصابرين باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت ومعني البعد فيه
للايذان بعلوّ رتبتهم عليهم صلوات من ربهم ورحمة الصلوة من الله تعالي المغفرة و
الرأفة وجمعها للتنبيه علي كثرتها وتنوعها والجمع بينها وبين الرحمة للمبالغة كما في قوله
تعالي رأفة ورحمة رؤف رحيم والتنوين فيها للتفخيم والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الي ضميرهم
لاظهار مزيد العناية بهم اولئك الموصوفون بما ذكر من النعوت الجليلة عليهم فنون الرأفة الفائضة
من مالك امورهم ومبلّغهم الي كمالاتهم اللائقة بهم وعن النبي صلى الله عليه وسلم من
استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته واحسن عقباه وجعل له خلفًا صالحا يرضاه واولئك
اشارة اليهم امّا بالاعتبار السابق والتكرير لاظهار كمال العناية بهم وامّا باعتبار
حيازتهم لما ذكر من الصلوات والرحمة المترتب علي الاعتبار الاوّل فعلي الاوّل المراد بالاهتداء

في قوله عز وجل هم المهتدون هو الاهتداء للحق والصواب مطلقاً لا الاهتداء لما ذكر
من الاسترجاع والاستسلام خاصة لما انه متقدم عليهما فلا بد لتاخيره عما هو نتيجة
لهما من داع يوجبه وليس بظاهر والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله اولئك هم
المختصون بالاهتداء لكل حق وصواب ولذلك استرجعوا واستسلموا لقضاء الله تعالى
وعلى الثاني هو الاهتداء والفوز بالمطالب والمعنى اولئك هم الفائزون بمانيهم الدينية
والدنيوية فان من نال رافة الله تعالى ورحمته لم يفته مطلب ان الصفا والمروة
علمان لجبلين بمكة المعظمة من شعائر الله من اعلام مناسكه جمع شعيرة وهي العلامة
فمن حج البيت او اعتمر الحج في اللغة القصد والاعتمار الزيارة مطلقا وفي الشريعة على
قصد البيت وزيارته على الوجهين المعروفين كالبيت والنجم في الاعيان وحيث اظهر
البيت وجب تجريدهما عن التعلق به فلا جناح عليه ان يطوف بهما اي في ان يطوف
بهما اصله يتطوف قلبت التاء طاء فادغم الطاء في الطاء وفي ايراد صيغة التفعل ايذان
بان من حق الطايف ان يتكلف في الطواف ويبذل فيه جهده وهذا الطواف واجب عندنا
وعند مالك والشافعي رح انه ركن وايراده بعدم الجناح المشعر بالتخيير لما انه كان في عهد
الجاهلية على الصفا صنم يقال له اساف وعلى المروة اخر اسمه نايلة وكانوا اذا سعوا
بينهما مسحوا بهما فلما جاء الاسلام وكسر الاصنام وتحرج المسلمون ان يطوفوا بينهما
لذلك فنزلت وقيل هو تطوع ويعضده قراءة ابن مسعود فلا جناح ان لا يطوف
بهما ومن تطوع خيراً اي فعل طاعة فرضاً كان او نفلا او زاد على ما فرض عليه
من حج او عمرة او طواف وخيراً نصب على انه صفة لمصدر محذوف اي تطوعاً
خيراً او على حذف الجار وايصال الفعل اليه او على تضمين معنى فعل وقرئ يطوع واصله
يتطوع مثل يطوف وقرئ ومن يتطوع بخير فان الله شاكر اي مجاز على الطاعة
عبر عن ذلك بالشكر مبالغة في الاحسان الى العباد عليم مبالغ في العلم بالاشياء
فيعلم مقادير اعمالهم وكيفياتها فلا ينقص من اجورهم شيئاً وهو علة لجواب الشرط
قايم مقامه كانه قيل ومن تطوع خيراً جازاه الله واثابه فان الله شاكر عليم
ان الذين يكتمون قيل نزلت في احبار اليهود الذين كتموا ما في التورية من نعت
النبي صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من الاحكام وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة
والحسن والسدي والربيع والاصم انها نزلت في اهل الكتاب من اليهود والنصارى
وقيل نزلت في كل من كتم شيئاً من احكام الدين لعموم الحكم للكل والاقرب هو الاول
فان عموم الحكم لا يأبى خصوص السبب والكتم والكتمان ترك اظهار الشيء قصداً مع
مساس الحاجة اليه وتحقق الداعي الى اظهاره وذلك قد يكون بمجرد ستره واخفائه
وقد يكون بازالته ووضع شيء آخر في موضعه وهو الذي فعله هؤلاء ما انزلنا من
البينات من الايات الواضحة الدالة على امر محمد صلى الله عليه وسلم والهدى
اي والايات الهادية الى كنه امره ووجوب اتباعه والايمان به عبر عنها بالمصدر
مبالغة ولم يجمع مراعاة للاصل وهي المرادة بالبينات ايضا والعطف لتغاير العنوان
كما في قوله عز وجل هدى للناس وبينات الخ وقيل المراد بالهدى الادلة
العقلية ويأباه الانزال والكتم من بعد ما بيناه متعلق بيكتمون والمراد
بالناس الكل لا الكاتمون فقط واللام متعلقة ببيناه وكذا الظرف في قوله تعالى
في الكتاب فان تعلق جارين بفعل واحد عند اختلاف المعنى مما لا ريب في جوازه او الاخير
متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعوله اي كائناً في الكتاب وتبيينه لهم تلخيصه او
ايضاحه بحيث يتلقاه كل احد منهم من غير ان يكون له فيه شبهة وهذا عنوان مغاير
لكونه بيناً في نفسه وهدى مؤكد لقبح الكتم او تفهيمه لهم بواسطة موسى عم والاول
انسب بقوله تعالى في الكتاب والمراد بكتمه ازالته ووضع غيره في موضعه فانهم محوا
نعته صلى الله عليه وسلم وكتبوا مكانه ما يخالفه كما ذكرناه في تفسير قوله عز وعلا فويل للذين
يكتبون الكتاب الخ اولئك اشارة اليهم باعتبار ما وصفوا به للاشعار بعليته

لما حاق بهم من ماميه من معنى البعد للايذان بترامي امرهم وبعد منزلتهم في الفساد يلعنهم
الله اي يطردهم ويبعدهم من رحمته والالتفات الى الغيبة باظهار اسم الذات الجامع للصفات
لتربية المهابة وادخال الروعة والاشعار بان مبدأ صدور اللعن عنه سبحانه صفة الجلال
المغايرة لما هو مبدأ الانزال والتبيين من وصف الجمال والرحمة ويلعنهم اللاعنون
اي الذين يتأتى منهم اللعن اي الدعاء عليهم باللعن من الملائكة ومؤمني الثقلين والمراد
بيان دوام اللعن واستمراره وعليه يدور الاستثناء المتصل في قوله تعالى الا الذين
تابوا اي عن الكتمان واصلحوا اي ما افسدوا بان ازالوا الكلام المحرف وكتبوا مكانه
ما كانوا ازالوه عند التحريف وبينوا للناس معانيه فانه غير الاصلاح المذكور او بينوا
لهم ما وقع منهم اولا واخرا فانه ادخل في ارشاد الناس الى الحق وصرفهم عن طريق
الضلال الذي كانوا اوقعوهم فيه او بينوا توبتهم ليمحوا به سمة ما كانوا فيه ويقتدي
بهم اضرابهم وحيث كانت هذه التوبة المقرونة بالاصلاح والتبيين مستلزمة للتوبة
عن الكفر مبنية عليها لم يصرح بالايمان وقوله تعالى فاولئك اشارة الى الموصول باعتبار
اتصافه بما في حيز الصلة للاشعار بعليته للحكم والفاء لتاكيد ذلك اتوب عليهم
اي بالقبول وافاضة المغفرة والرحمة وقوله تعالى وانا التواب الرحيم اي المبالغ
في قبول التوبة ونشر الرحمة اعتراض تذييلي محقق لمضمون ما قبله والالتفات الى التكلم
للافتنان في النظم الكريم مع ما فيه من التلويح والرمز الى ما مر من اختلاف المبدا في فعله تعالى
السابق واللاحق ان الذين كفروا جملة مستانفة سيقت لتحقيق بقاء اللعن فيما وراء
الاستثناء وتاكيد دوامه واستمراره على غير التائبين حسبما يفيده الكلام والاقتصار على ذكر
الكفر في الصلة من غير تعرض لعدم التوبة والاصلاح والتبيين مبني على ما اشير اليه فكما
ان وجود تلك الامور الثلثة مستلزم للايمان الموجب لعدم الكفر كذلك وجود الكفر
مستلزم لعدمها جميعاً اي ان الذين استمروا على الكفر المستتبع للكتمان وعدم التوبة
وماتوا وهم كفار لا يرعوون عن حالتهم الاولى اولئك الكلام فيه كما فيما قبله
عليهم اي مستقر عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين بمن يعتد بلعنتهم و
هذا بيان لدوامها الثبوتي بعد بيان دوامها التجددي وقيل الاول لعنتهم
احياء وهذا لعنتهم امواتا وقرئ والملائكة والناس اجمعون عطفا على محل اسم الله
لانه فاعل في المعنى كقولك اعجبني ضرب زيد وعمرو تريد من ان ضرب زيد وعمرو
وكانه قيل اولئك عليهم ان لعنهم الله والملائكة الخ وقيل هو فاعل لفعل
مقدر اي يلعنهم الملائكة خالدين فيها اي في اللعنة او في النار على انها اضمرت
من غير ذكر تفخيما لشانها وتهويلا لامرها لا يخفف عنهم العذاب اما مستانف
لبيان كثرة عذابهم من حيث الكيف اثر بيان كثرته من حيث الكم او حال
من الضمير في خالدين على وجه التداخل او من الضمير في عليهم على طريقة الترادف
ولا هم ينظرون عطف على ما قبله جار فيه ما جرى فيه وايثار الجملة الاسمية
لافادة دوام النفي واستمراره اي لا يمهلون ولا يؤجلون او لا ينتظرون ليعتذروا
او لا ينظر اليهم نظر رحمة والهكم خطاب عام لكافة الناس اي المستحق منكم
للعبادة اله واحد اي فرد في الالهية لا صحة لتسمية غيره الها اصلا لا اله
الا هو خبر ثان للمبتدأ او صفة اخرى للخبر او اعتراض واياما كان فهو مقرر للوحدانية
ومزيح لما عسى يتوهم ان في الوجود الها لكن لا يستحق العبادة الرحمن الرحيم
خبران آخران للمبتدأ او لمبتدأ محذوف وهو تقرير للتوحيد فانه تعالى حيث كان موليا
لجميع النعم اصولها وفروعها جليلها ودقيقها وكان ما سواه كائنا ما كان مفتقرا
اليه في وجوده وما يتفرع عليه من كمالاته تحققت وحدانيته بلا ريب وانحصر
استحقاق العبادة فيه تعالى قطعا قيل كان للمشركين حول الكعبة المكرمة ثلثمائة وستون
صنما فلما سمعوا هذه الآية تعجبوا وقالوا ان كنت صادقا فأت باية نعرف بها صدقك
فنزلت ان في خلق السموات والارض اي في ابداعهما على ما عليه مع ما فيهما من

تعاجيب العبر بدايع صنايع يعجز عن فهمها عقول البشر وجمع السموات لما هو المشهور من انها طبقات مختلفة الحقايق دون الارض واختلاف الليل والنهار اي اعتقابهما وكون كل منهما خلفاً للاخر كقوله تعالى وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة او اختلاف كل منهما في انفسهما ازدياداً وانتقاصاً على ما قدره الله تعالى والفلك التي تجري في البحر عطف على ما قبله وتانيثه اما بتاويل السفينة او بانه جمع فان ضمة الجمع مغايرة لضمة الواحد في التقدير اذ الاولى كما في حمر والثانية كما في قفل وقرئ بضم اللام بما ينفع الناس اي ملتبسه بالذي ينفعهم مما يحمل فيها من انواع المنافع او بنفعهم وما انزل الله من السماء من ماء عطف على الفلك وتاخيره عن ذكرها مع كونه اعم منها نفعاً لما فيه من مزيد تفصيل وقيل المقصود الاستدلال بالبحر واحواله وتخصيص الفلك بالذكر لانه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجايبه ولذلك قدم على ذكر المطر والسحاب لان منشاءهما البحر في غالب الامر ومن الاولى ابتدائية والثانية بيانية او تبعيضية وايا ما كان فتاخيرها لما مر مراراً من التشويق والمراد بالسماء الفلك والسحاب او جهة العلو فاحيي به الارض بانواع النبات والازهار وما عليها من الاشجار بعد موتها باستيلاء الموت عليها حسبما يقتضيه طبيعتها كما يوذن به ايراد الموت في مقابلة الاحياء وبث فيها اي فرق ونشر من كل دابة من العقلاء وغيرهم والجملة معطوفة على انزل داخلة تحت حكم الصلة وقوله تعالى فاحيي الخ متصل بالمعطوف عليه بحيث كانا في حكم شيء واحد كانه قيل وما انزل في الارض من ماء وبث فيها الخ او على احيي بحذف الجار والمجرور العايد الى الموصول وان لم يتحقق الشرايط المعهودة كما في قوله ان لساني شهدة يشتفي بها وكن على من صبه الله علقم اي علقم وقوله لعل الذي اصعد بي ان يرد في الارض ان يقدر الخير قادر على معنى فاحيي بالماء الارض وبث به فيها من كل دابة فانهم ينمون بالخصب ويعيشون بالحياة وتصريف الرياح عطف على ما انزل اي تقليبها من مهب الى اخر او من حال الى اخرى وقرئ على الافراد والسحاب عطف على تصريف او الرياح وهو اسم جنس واحده سحابة سمي بذلك لانسحابه في الجو المسخر بين السماء والارض صفة للسحاب باعتبار لفظه وقد يعتبر معناه فيوصف بالجمع كما في قوله تعالى سحاباً ثقالاً وتسخيره تقليبه في الجو بواسطة الرياح بحسب ما يقتضيه مشية الله تعالى ولعل تاخير تصريف الرياح وتسخير السحاب في الذكر عن جريان الفلك وانزال الماء مع انعكاس الترتيب الخارجي لما مر في قصة البقر من الاشعار باستقلال كل من الامور المعدودة في كونها آية ولو روعي الترتيب الخارجي لربما توهم كون المجموع المترتب بعضه على بعض آية واحدة لايات اسم لادخلت اللام لتاخره عن خبرها والتنكير للتفخيم كماً وكيفاً اي ايات عظيمة كثيرة دالة على القدرة والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة المقتضية لاختصاص الالوهية به سبحانه لقوم يعقلون اي يتفكرون فيها وينظرون اليها بعيون العقول وفيه تعريض بجهل المشركين الذين اقترحوا على النبي صلى الله عليه وسلم اية تصدقه في قوله تعالى والهكم اله واحد وتسجيل عليهم بسخافة العقول الا فمن تامل في تلك الايات وجد كلا منها ناطقة بوجوده تعالى ووحدانيته وساير صفاته الكمالية الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى واستغنى بها عن سايرها فان كل واحد من الامور المعدودة قد وجد على وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ما عداه مستتبعاً لاثار معينة واحكام مخصوصة من غير ان يقتضي ذاته وجوده فضلاً عن وجوده على نمط معين مستتبع لحكم مستقل فاذن لا بد له حتماً من موجد قادر حكيم يوجده حسبما يقتضيه حكمته ويستدعيه مشيته متعال عن معارضة الغير اذ لو كان معه آخر يقدر على ما يقدر عليه لزم اما اجتماع المؤثرين على اثر واحد او التمانع المؤدي الى فساد العالم ومن الناس من يتخذ من دون الله بيان لكمال ركاكة اراء المشركين اثر

تقرير وحدانيته سبحانه وتحرير الايات الباهرة الملجية للعقلاء الى الاعتراف بها القاضية باستحالة ان يشاركه شيء من الموجودات في صفة من صفات الكمال فضلاً عن المشاركة في صفة الالوهية والكلام في اعرابه كما فصل في قوله تعالى ومن الناس من يقول امنا بالله وباليوم الاخر الخ ومن دون الله متعلق بيتخذ اي من الناس من يتخذ من دون ذلك الاله الواحد الذي ذكرت شؤنه الجليلة وايثار الاسم الجليل لتعينه تعالى بالذات غب تعيينه بالصفات اندادا اي امثالاً وهي رؤساؤهم الذين يتبعونهم فيما ياتون وما يذرون لاسيما في الاوامر والنواهي كما يفصح عنه ما سياتي من وصفهم بالتبرؤ من المتبعين وقيل هي الاصنام وارجاع ضمير العقلاء اليها في قوله عز وعلا يحبونهم مبني على ارائهم الباطلة في شانها من وصفهم بما لا يوصف به الا العقلاء والمحبة ميل القلب من الحب استعير لحبة القلب ثم اشتق منه الحب لانه اصابها ورسخ فيها والفعل منها احب على حد مد لكن الاستعمال المستفيض على احب حباً ومحبة فهو محب وذاك محبوب ومحب قليل وحاب اقل منه ومحبة العبد لله سبحانه ارادة طاعته في اوامره ونواهيه والاعتناء بتحصيل مراضيه فمعنى يحبونهم يطيعونهم ويعظمونهم والجملة في حيز النصب اما صفة لانداداً او حالاً من فاعل يتخذ وجمع الضمير باعتبار معنى من كما ان افراده باعتبار لفظها كحب الله مصدر تشبيهي او نعت لمصدر مؤكد للفعل السابق ومن قضيته كونه مبنياً للفاعل كونه ايضاً كذلك والظاهر اتحاد فاعلهما فانهم كانوا يقرون به تعالى ايضاً ويتقربون اليه فالمعنى يحبونهم حباً كائناً كحب الله تعالى اي يسوون بينه تعالى وبينهم في الطاعة والتعظيم وقيل فاعل الحب المذكور هم المؤمنون فالمعنى حباً كائناً كحب المؤمنين له تعالى فلا بد من اعتبار المشابهة بينهما في اصل الحب لا في وصفه كماً وكيفاً لما سياتي من التفاوت البين وقيل هو مصدر من المبني للمفعول اي كما يحب الله تعالى ويعظم وانما استغنى عن ذكر من يحبه لانه غير ملتبس وانت خبير بانه لا مشابهة بين محبتهم لاندادهم وبين محبوبيته تعالى فالمصير حينئذ ما اسلفناه في تفسير قولهم عز قايلاً كما سئل موسى من قبل واظهار الاسم الجليل في مقام الاضمار لتربية المهابة وتفخيم المضاف وابانة كمال قبح ما ارتكبوه والذين امنوا اشد حباً لله جملة مبتداة جيء بها توطئة لما يعقبها من بيان رخاوة حبهم وكونه حسرة عليهم والمفضل عليه محذوف اي المؤمنون اشد حباً له تعالى منهم لاندادهم ومآله ان حب اولئك له تعالى اشد من حب هؤلاء لاندادهم وفيه من الدلالة على كون الحب مصدراً من المبني للفاعل ما لا يخفى وانما لم يجعل المفضل عليه حبهم الله تعالى لما ان المقصود بيان انقطاعه وانقلابه بغضاً وذلك انما يتصور في حبهم لاندادهم لكونه منوطاً بمباد فاسدة ومباد موهومة يزول بزوالها ولذلك كانوا يعدلون عنها عند الشدايد الى الله تعالى وكانوا يعبدون صنماً اياماً فاذا وجدوا اخر رفضوه اليه وقد اكلت باهلة الهها عام المجاعة وكان من حيس وانت خبير بان مدار ذلك اعتبار احتلال حبهم لها في الدنيا وليس الكلام فيه بل في انقطاعه في الاخرة عند ظهور حقيقة الحال ومعاينة الاحوال كما سياتي في اعتباره مخل بما يقتضيه مقام المبالغة في بيان كمال قبح ما ارتكبوه وعظم ما اقترفوه وايثار الاظهار في موضع الاضمار لتفخيم الحب والاشعار بعلته ولو يرى الذين ظلموا اي باتخاذ الانداد ووضعها موضع المعبود اذ يرون العذاب المعد لهم يوم القيمة اي لو علموا اذ عاينوه وانما اوثر صيغة المستقبل لجريها مجرى الماضي في الدلالة على التحقق في اخبار علام الغيوب ان القوة لله جميعاً ساد مسد مفعولي يرى وان الله شديد العذاب عطف عليه وفايدته المبالغة في تهويل الخطب وتفظيع الامر فان اختصاص القوة به تعالى لا يوجب شدة العذاب لجواز تركه عفواً مع القدرة عليه وجواب لو محذوف للايذان بخروجه عن دائرة البيان اما لعدم الاحاطة بكنهه واما لضيق العبارة عنه واما لايجاب ذكره ما لا

يستطيعه المعبر او المسمع من الضجر والتجنّو عليه اي علموا اذ راوا العذاب قد حل بهم
ولم ينقذهم منه احد من انداد هم ان القوة لله تعالى جميعًا ولا يدخل لاحد في شيء اصلا
لوقعوا من الحسرة والندم فيما لا يكاد يوصف وقرئ ولو ترى بالتاء الفوقانية على
ان الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ولكل احد ممن يصلح للخطاب فالجواب حينئذ
لرايت امرا لا يوصف من الهول والفظاعة وقرئ اذ يرون على البناء للمفعول
وان الله شديد العذاب على الاستيناف او اضمار القول اذ تبرّأ الذين اتّبعوا
بدل اذ يرون اي اذ تبرّأ الرؤساء من الذين اتبعوا من الاتباع بان اعترفوا
ببطلان ما كانوا يدّعون في الدنيا ويدعونهم اليه من فنون الكفر والضلال
واعتزلوا عن مخالطتهم وقابلوهم باللعن كقول ابليس اني كفرت بما اشركتمون من قبل
وقرئ بالعكس اي تبرّأ الاتباع من الرؤساء والواو في قوله عز وجل ورأوا العذاب
حالية وقد مضمرة وقيل عاطفة على تبرّأ والضمير في رأوا للموصولين جميعا وتقطعت
بهم الاسباب والوصل التي كانت بينهم من التبعية والمتبوعية والاتفاق على الملة
الزائغة والاغراض الداعية الى ذلك واصل السبب الحبل الذي يرتقى به النخل ونحوه
والجملة معطوفة على تبرّأ وتوسيط الحال بينهما لتنبيه على علة التبري وقد جوّز
عطفها على الجملة الحالية وقال الذين اتّبعوا حين عاينوا تبرّأ الرؤساء منهم وندموا
على ما فعلوا من اتباعهم لهم في الدنيا ولو ان لنا كرّة اي ليت لنا رجعة الى الدنيا
فنتبرّأ منهم هناك كما تبرّءوا منّا اليوم كذلك اشارة الى مصدر الفعل الذي
بعده لا الى شيء مفهوم مما سبق وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه
وبعد منزلته مع كمال تميّزه مما عداه وانتظامه في سلك الامور المشاهدة والكاف
مقحمة لتاكيد ما افاده اسم الاشارة من الفخامة ومحله النصب على المصدرية اي ذلك
الاراء الفظيع يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم اي ندامات شديدة فان الحسرة
شدة الندم والكمد وهي تألم القلب وانحساره عما يؤمله واشتقاقها من قولهم
بعير حسير اي منقطع القوة وهي ثالث مفاعيل يري ان كان من رؤية القلب والا فهي حال
والمعنى ان اعمالهم تنقلب حسرات عليهم فلا يرون الا حسرات مكان اعمالهم وما هم
بخارجين من النار كلام مستانف لبيان حالهم بعد دخولهم النار والاصل وما
يخرجون والعدول الى الاسمية لافادة دوام نفي الخروج والضمير للدلالة على قوة امرهم
فيما اسند اليهم كما في قوله هم يفرشون اللبد كل طمرة واجرد سباق يبذ المغاليا يا ايها
الناس كلوا مما في الارض اي بعض ما فيها من اصناف الماكولات التي من جملتها
ما حرمتموه افتراء على الله من الحرث والانعام قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في قوم من ثقيف
وبني عامر بن صعصعة وخزاعة وبني مدلج حرّموا على انفسهم ما حرّموا من الحرث
والبحائر والسوائب والوصائل والحام وقوله تعالى حلالا حال من الموصول اي كلوه
حال كونه حلالا او مفعول لكلوا على ان من ابتدائية وقد جوّز كونه نعتا لمصدر مؤكد
اي اكلا حلالا ويؤيد الاولين قوله تعالى طيبا فانه صفة له ووصف الاكل به غير
معتاد وقيل نزلت في قوم من المؤمنين حرّموا على انفسهم رفيع الاطعمة والملابس
ويرده قوله عز وجل ولا تتبعوا خطوات الشيطان اي لا تقتدوا بها في اتباع
الهوى فانه صريح في الخطاب للكفرة كيف لا وتحريم الحلال على نفسه تزهدا ليس
من باب اتباع خطوات الشيطان فضلا عن كونه تقولا وافتراء على الله
تعالى وانما الذي نزل فيهم ما في سورة المائدة من قوله تعالى يا ايها الذين امنوا
لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم الاية وقرئ خطوات بسكون الطاء وهما
لغتان في جمع خطوة وهي ما بين قدمي الخاطي وقرئ بضمتين وهمزة جعلت
ضمة الطاء كانها على الواو وبفتحتين على انها جمع خطوة وهي المرة من الخطو
انه لكم عدو مبين تعليل للنهي اي ظاهر العداوة عند ذوي البصيرة وان كان
يظهر الولاية لمن يغويه ولذلك سموا وليا في قوله تعالى اولياؤهم الطاغوت انما يامركم بالسوء

والفحشاء

والفحشاء استيناف لبيان كيفية عداوته وتفصيل لفنون شره وافساده وانحصار معاملته
معهم في ذلك والسوء في الاصل مصدر ساء يسوء سوءا ومساءة اذا احزنه يطلق على جميع
المعاصي سواء كانت من اعمال الجوارح وافعال القلوب لاشتراك كلها في انها تسوء صاحبها
والفحشاء اقبح انواعها واعظمها مساءة وان تقولوا على الله ما لا تعلمون عطف
على الفحشاء اي وبان تفتروا على الله تعالى بانه حرّم هذا وذاك ومعنى لا تعلمون ما لا تعلمون
ان الله تعالى امر به وتعليق امره بتقولهم على الله تعالى ما لا يعلمون وقوعه منه تعالى
لا بتقولهم عليه ما لا يعلمون عدم وقوعه منه تعالى مع ان حالهم ذلك للمبالغة
في الزجر فان التحذير من الاول مع كونه في القبح والشناعة دون الثاني تحذير عن الثاني
على ابلغ وجه واكده وللايذان بان العاقل يجب عليه ان لا يقول على الله ما لا يعلم وقوعه
منه تعالى مع الاحتمال فضلا عن ان يقول عليه ما يعلم عدم وقوعه منه قالوا وفيه دليل
على المنع من اتباع الظن راسا واما اتباع المجتهد لما ادى اليه ظنه فمستند الى
مدرك شرعي فوجوبه قطعي والظن في طريقه واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله
التفات الى الغيبة تسجيلا بكمال ضلالهم وايذانا بايجاب تعداد ما ذكر من جناياتهم
لصرف الخطاب عنهم وتوجيهه الى العقلاء وتفصيل مساوي احوالهم على نهج المباثة
اي اذا قيل لهم على وجه النصيحة والارشاد اتبعوا كتاب الله الذي انزل قالوا
لا نتبعه بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا اي وجدناهم عليه منصوب اما على الظرف
متعلق بمحذوف وقع حالا من آباءنا والفينا متعد الى واحد واما على انه مفعول ثان مقدم
على الاول نزلت في المشركين امروا باتباع القران وسائر ما انزل الله تعالى من الحجج
الظاهرة والبينات الباهرة فجنحوا للتقليد والموصول اما عبارة عما سبق من اتخاذ
الانداد وتحريم الطيبات ونحو ذلك واما باق على عمومه وما ذكر داخل فيه دخولا
اوليا وقيل نزلت في طائفة اليهود دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الاسلام
فقالوا بل نتبع ما وجدنا عليه اباءنا لانهم كانوا خيرا منا واعلم فعلى هذا يعم ما انزل
الله تعالى لانها ايضا تدعو الى الاسلام وقوله عز وجل اولو كان اباؤهم لا
يعقلون شيئا ولا يهتدون استيناف مسوق من جهته تعالى ردا لمقالتهم الحمقاء
واظهارا لبطلان ارائهم والهمزة لانكار الواقع واستقباحه والتعجب منه لا لانكار
الوقوع كالتي في قوله تعالى ولو كنا كارهين وكلمة لو في امثال هذا المقام ليست لبيان انتفاء
الشيء في الزمان الماضي لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما
قبلها بل هي لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق بالذات او بالواسطة من الحكم
الموجب والمنفي على كل حال مفروض من الاحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها
على ابعدها وانئدها منافاة له ليظهر بثبوته او انتفائه معه ثبوته او انتفاؤه مع ما
عداه من الاحوال بطريق الاولوية لما ان الشيء متى تحقق مع المنافي القوي فلان يتحقق
مع غيره اولى وكذلك لا يذكر معه شيء من سائر الاحوال ويكتفي عنه بذكر الواو العاطفة
للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الاحوال المغايرة لها وهذا معنى قولهم
انها لاستقصاء الاحوال على سبيل الاجمال وهذا المعنى ظاهر في الموجب والمنفي والامر
والنهي كما في قولك فلان جواد يعطي ولو كان فقيرا وبخيل لا يعطي ولو كان غنيا وقولك
احسن اليه ولو اساء اليك ولا تهنه ولو اهانك لبقائه على حاله واما فيما نحن فيه
ففيه نوع خفاء ناشئ من ورود الانكار عليه لكن الاصل في الكل واحد لان كلمة
لو في الصور المذكورة متعلقة بنفس الفعل المذكور قبلها وان ما يقصد بيان تحققه
على كل حال هو نفس مدلوله وان الجملة حال من ضميره او مما يتعلق به وان ما في حيز
لو باق على ما هو عليه من الاستبعاد غالبا بخلاف ما نحن فيه لما ان كلمة لو متعلقة
فيه بفعل مقدر يقتضيه المذكور وان ما يقصد بيان تحققه على كل حال مدلوله
لا مدلول المذكور من حيث هو مدلوله وان الجملة حال مما يتعلق به لا مما
يتعلق بالمذكور من حيث هو متعلق به وان المقصود الاصلي انكار مدلوله

باعتبار مقارنته للحال المذكورة واما تقدير مقارنته لغيرها فلتوسيع الدائرة وانّ
ما في حيّز لولا يقصد استبعاده في نفسه بل يقصد الاشعار بانه امر محقق الا انه اخرج
مخرج الاستبعاد معاملة مع المخاطبين على معتقدهم لئلا يلبسوا من التصريح بنسبة
ابائهم الى كمال الجهالة والضلالة جلد النمر نيرمتين العناد ومبالغة في الانكار من
جهة ان اتباعهم لابائهم حيث كان منكرًا مستقبحًا عند احتمال كون ابائهم كما ذكر
احتمالًا بعيدًا فلان يكون منكرًا عند تحقق ذلك والتقدير ايتبعون ذلك ولو لم يكن
اباؤهم لا يعقلون شيئا من الدين ولا يهتدون للصواب ولو كانوا كذلك في الجملة في حيّز
النصب على الحالية من ابائهم على طريقة قوله تعالى ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا كانه قيل ايتبعون
دين ابائهم حال كونهم عاقلين وجاهلين ضالين انكارًا لما افاده كلامهم من الاتباع
على اي حالة كانت من الحالتين غير انه اكتفى بذكر الحالة الثانية تنبيهًا على انها هي الواقعة
في نفس الامر وتعويلا على اقتضائها الحالة الاولى اقتضاءً بيّنا فانّ اتباعهم الذي
تعلّق به الانكار حين تحقق مع كون ابائهم جاهلين ضالين فان يتحقق مع كونهم
عاقلين ومهتدين اولى ان قلت الانكار المستفاد من الاستفهام الانكاري بمنزلة
النفي ولا ريب في انّ الاولوية في صورة النفي معتبرة بالنسبة الى النفي الا ترى ان الاولى
بالتحقق فيما ذكر من مثال النفي عند الحالة المسكوت عنها اعني عدم الغنى هو عدم الاعطاء
لا نفسه فكان ينبغي ان يكون الاولى بالتحقق فيما نحن فيه عند الحالة المسكوت عنها
وهي حالة كون ابائهم عاقلين ومهتدين انكار الاتباع لا نفسه اذ هو الذي يدل
عليه ايتبعون الخ فلم اختلف الحال بينهما قلت لما انّ مناط الاولوية هو الحكم الذي اريد
بيان تحققه على كل حال وذلك في مثال النفي عدم الاعطاء المستفاد من الفعل المنفي
واما فيما نحن فيه فهو نفس الاتباع المستفاد من الفعل المقدّر اذ هو الذي يقتضيه الكلام
السابق اعني قولهم بل نتبع الخ واما الاستفهام فخارج عنه وارد عليه لانكار ما يفيده
واستقباح ما يقتضيه لا انه من تمامه كما في صورة النفي وكذا الحال فيما اذا كانت الهمزة
لانكار الوقوع ونفيه مع كونه بمنزلة صريح النفي كما سياتي تحقيقه في قوله تعالى اولو
كنّا كارهين وقيل الواو حالية ولكن التحقيق ان المعنى يدور على معنى العطف
في سائر اللغات ايضًا ومثل الذين كفروا جملة ابتدائية واردة لتقرير ما قبلها
بطريق التصوير وفيها مضاف قد حذف لدلالة ما قبل عليه ووضع الموصول
موضع الضمير الراجع الى ما يرجع اليه الضمائر السابقة لذمّهم بما في حيّز الصلة
وللاشعار بعلّة ما اثبت لهم من الحكم والتقدير مثل ذلك القائل وحاله الحقيقة لغرابتها
بان تسمّى مثلا وتسير في الافاق فيما ذكر من دعوته اياهم الى اتباع الحق وعدم رفعهم اليه
رأسا لانهماكهم في التقليد واخلادهم الى ما هم عليه من الضلالة وعدم فهمهم
من جهة الداعي الا النداء من غير ان يلقوا اذهانهم الى ما يلقى عليهم كمثل الذي ينعق
بما لا يسمع الا دعاءً ونداءً من البهائم فانها لا تسمع الا الصوت الذي يجد هتفه بها من غير
فهم كلامه اصلا وقيل انما حذف المضاف من الموصول الثاني لدلالة كلمة ما عليه
فانها عبارة عنه مشعرة مع ما في حيّز الصلة بما هو مدار التمثيل اي مثل الذين كفروا
فيما ذكر من انهماكهم فيما هم فيه وعدم التدبر فيما القي اليهم من الايات كمثل البهائم التي
ينعق بها وهي لا تسمع منه الا جرس النغمة ودوي الصوت وقيل المراد تمثيلهم
في اتباع ابائهم على ظاهر حالهم جاهلين بحقيقتها بالبهائم التي تسمع الصوت
ولا تفهم ما تحته وقيل تمثيلهم في دعائهم الاصنام بالناعق في نعقه و
هو تصويته على البهائم وهذا غني عن الاضمار لكن لا يساعده قوله الا دعاء
ونداء فان الاصنام بمعزل من ذلك وقد عرفت انّ حسن التمثيل فيما تشابه افراد
الطرفين صمّ بكم عمي بالرفع على الذم اي هم صم الى اخره فهم لا يعقلون
شيئا لان طريق التعقل هو التدبر في مبادي الامور المعقولة والتامل في ترتيبها
وذلك انما يحصل باستماع ايات الله ومشاهدة حججه الواضحة والمفاوضة

مع من يؤخذ منه العلوم فاذا كانوا صمًّا بكمًا عميًا فقد انسدّ عليهم ابواب التعقل وطرق
الفهم بالكلية يا ايها الذين امنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم اي مستلذاته
واشكروا لله الذي رزقكموها والالتفات لتربية المهابة ان كنتم اياه تعبدون
فان عبادته تعالى لا تتم الا بالشكر له وعن النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل
اني والانس والجن في نبأ عظيم اخلق ويُعبد غيري وارزق ويشكر غيري انما حرّم
عليكم الميتة اي اكلها والانتفاع بها وهي التي ماتت على غير ذكوة والسمك والجراد
خارجان عنها بالعرف او استثناء الشرع خروج الطحال من الدم والدم ولحم الخنزير
انما خصّ لحمه مع ان سائر اجزائه ايضا في حكمه لانه معظم ما يؤكل من الحيوان و
سائر اجزائه بمنزلة التابع له وما اهلّ به لغير الله اي رفع به الصوت عند ذبحه
للصنم والاهلال اصله رؤية الهلال لكن لما جرت العادة برفع الصوت بالتكبير
عندها سمّي اهلالا ثم قيل لرفع الصوت وان كان لغيره فمن اضطر غير باغ بالاستئثار
على مضطر اخر ولا عاد سدّ الرمق والجوعة وقيل غير باغ على الوالي ولا عاد
بقطع الطريق وعلى هذا لا يباح للعاصي بالسفر وهو ظاهر مذهب الشافعي وقول
احمد رحمه الله فلا اثم عليه في تناوله ان الله غفور لما فعل رحيم بالرخصة
ان قيل كلمة انما تفيد قصر الحكم على ما ذكر وكم من حرام لم يذكر قلنا المراد قصر الحرمة على ما
ذكر مما استحلوه لا مطلقا وقصر حرمته على حال الاختيار كانه قيل انما حرّم عليكم
هذه الاشياء ما لم تضطروا اليها ان الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب المشتمل على
فنون الاحكام التي من جملتها احكام المحللات والمحرمات حسبما ذكر انفا وقال ابن
عباس رضي الله عنهما نزلت في رؤساء اليهود حين كتموا نعت النبي صلى الله عليه وسلم ويشترون
به اي يأخذون بدله ثمنا قليلا عوضا حقيرًا وقد مرّ سرّ التعبير عن ذلك بالثمن
الذي هو وسيلة في عقود المعاوضة وقوله تعالى اولئك اشارة الى الموصول باعتبار
اتصافه بما في حيّز الصلة من الوصفين الشنيعين المميزين لهم عمّن عداهم اكمل تمييز
الجاعلين بحيث كانهم حضار مشاهدون على ما هم عليه وما فيه من معنى البعد
للايذان بغاية بعد منزلتهم في الشر والفساد وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ما ياكلون
في بطونهم الا النار والجملة خبر لانّ او اسم الاشارة مبتدأ ثان او بدل من الاول
والخبر ما ياكلون الخ ومعنى اكلهم النار انهم ياكلون في الحال ما يستتبع النار و
يستلزمها فكانه عين النار واكله اكلها كقوله اكلت دمًا ان لم ارعك بضرة بعيدة مهوى
القرط طيبة النشر او ياكلون في المال يوم القيمة عين النار عقوبة على اكلهم الرشى في
الدنيا وفي بطونهم متعلق بياكلون وفائدته تاكيد الاكل وتقريره ببيان مقر الماكول وقيل
معناه ملء بطونهم كما في قولهم اكل في بطنه واكل في بعض بطنه ومنه كلوا في بعض
بطنكم تعفوا فلا بدّ من الالتجاء الى تعليقه بمحذوف وقع حالا مقدّرة من النار مع تقديمه
على حرف الاستثناء والا فتعليقه بياكلون يؤدي الى قصر ما ياكلون الى الشبع على النار
والمقصود قصر ما ياكلون مطلقا عليها ولا يكلمهم الله يوم القيمة عبارة عن غضبه
العظيم عليهم وتعريض بحرمانهم ما ابيح للمؤمنين من فنون الكرامات السنية والزلفى
ولا يزكيهم لا يثني عليهم ولهم مع ما ذكر عذاب اليم مؤلم اولئك
اشارة الى ما اشير اليه بنظيره بالاعتبار المذكور خاصة لا مع ما يتلوه من احوالهم العظيمة
اذ لا دخل لها في الحكم الذي يراد اثباته ههنا فان المقصود تصوير ما باشروه من
المعاملة بصورة قبيحة تنفر منها الطباع ولا يتعاطاها عاقل اصلا ببيان حقيقة ما نبذوه
واظهار كنه ما اخذوه وابدا فظاعة تبعاته وهو مبتدأ خبره الموصول اي اولئك
المشترون بكتاب الله عز وجل ثمنا قليلا ليسوا بمشترين وان قيل لهم الذين اشتروا
بالنسبة الى الدنيا الضلالة التي ليست مما يمكن اي يشترى قطعا بالهدى الذي
ليس من قبيل ما يبذل بمقابلة شيء وان جلّ والعذاب اي اشتروا بالنظر الى
الاخرة العذاب الذي لا يتوهم كونه مما يشترى بالمغفرة التي يتنافس فيها المتنافسون

فما اصبرهم على النار تعجب من حالهم الهائلة التي هي ملابستهم بما يوجب النار ايجابا
قطعيا كانه عينها واما عند سيبويه نكرة تامة مفيدة لمعنى التعجب مرفوعة بالابتداء و
تخصصها كتخصص الشر في شر اهر ذا ناب خبرها ما بعدها اي شيء ما عظيم جعلهم صابرين على
النار وعند الفراء استفهامية وما بعدها خبرها اي اي شيء اصبرهم على النار وقيل
هي موصولة وقيل موصوفة بما بعدها والخبر محذوف اي الذي اصبرهم على النار
او شيء اصبرهم على النار امر عجيب فظيع ذلك العذاب بان الله نزل الكتاب اي
جنس الكتاب بالحق اي ملتبسا به فلاجرم يكون من يرفضه بالتكذيب والكتمان
ويركب متن الجهل والغواية مبتلي بمثل هذا من افانين العذاب وان الذين اختلفوا في
الكتاب اي في جنس الكتاب الالهي بان امنوا ببعض كتب الله تعالى وكفروا ببعضها او في التوراة
بان امنوا ببعض آياتها وكفروا ببعض كالايات المغيرة المشتملة على امر بعثة النبي صلى الله
عليه وسلم ونعوته الكريمة فمعنى الاختلاف التخلف عن الطريق الحق او الاختلاف
في تاويلها او في القرآن بان قال بعضهم انه سحر وبعضهم انه شعر وبعضهم اساطير كما
حكي عن المفسرين لفي شقاق بعيد عن الحق والصواب مستوجب لاشد العذاب
ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب البر اسم جامع لمراضي الخصال
والخطاب لاهل الكتابين فانهم كانوا اكثروا الخوض في امر القبلة حين حولت الى الكعبة
وكان كل فريق يدعي خيرية التوجه الى قبلة من القطرين المذكورين وتقديم المشرق على
المغرب مع تاخر زمان الملة النصرانية اما لرعاية ما بينهما من الترتيب المتفرع على ترتيب
الشروق والغروب واما لان توجه اليهود الى المغرب ليس لكونه مغربا بل لكون بيت المقدس
من المدينة المنورة واقعا في جانب الغرب فقيل لهم البر ما ذكرتم من التوجه الى تينك
الجهتين على ان البر خبر ليس مقدما على اسمها كما في قوله سلي ان جهلت الناس عني وعنهم
فليس سواء عالم وجهول وقوله اليس عظيما ان تلم ملمة وليس علينا في الخطوب معول وانما
اختير ذلك لما ان المصدر المؤول اعرف من المحلى باللام لانه يشبه الضمير من حيث انه لا يوصف
به والاعرف احق بالاسمية ولان في الاسم طولا فلو روعي الترتيب المعهود لفات تجاوب
اطراف النظم الكريم وقرئ برفع البر على انها اسمها وهو اقوى بحسب المعنى لان كل فريق
يدعي ان البر فيجب ان يكون الرد موافقا لدعواهم وما ذلك الا بكون البر اسما كما
يفصح عنه جعله مخبرا عنه في الاستدراك بقوله عز وجل ولكن البر من آمن بالله وهو
تحقيق للحق بعد بيان بطلان الباطل وتفصيل خصال البر مما لا يختلف باختلاف الشرايع
وما يختلف باختلافها اي ولكن البر المعهود الذي يحق ان يهتم بشانه ويجد في
تحصيله بر من آمن بالله وحده ايمانا بريئا من شائبة الاشراك لا كايمان اليهود
والنصارى المشركين بقولهم عزير ابن الله وقولهم المسيح ابن الله واليوم الاخر اي على ما
هو عليه لا كما يزعمون من ان النار لن تمسهم الا اياما معدودة وان اباءهم
الانبياء يشفعون لهم ففيه تعريض بان ايمان اهل الكتابين حيث لم يكن كما ذكر من الوجه
الصحيح لم يكن ايمانا في تعليق البر بهما من اول الامر عقيب نفيه عن التوجه الى المشرق
والمغرب من الجزالة ما لا يخفى كانه قيل ولكن البر هو التوجه الى المبدا والمعاد الذين
هو المشرق والمغرب في الحقيقة والملائكة اي وامن بهم وبانهم عباد مكرمون
متوسطون بينه تعالى وبين انبيائه بالقاء الوحي وانزال الكتب والكتاب اي جنس
الكتاب الذي من افراده الفرقان الذي نبذوه وراء ظهورهم وفيه تعريض بكتمانهم
نعوت النبي صلى الله عليه وسلم واشترائهم بما انزل الله تعالى ثمنا قليلا والنبيين
جميعا من غير تفرقة بين احد منهم كما فعل اهل الكتابين ووجه توسيط الكتاب
من حملة الوحي وبين النبيين واضح وسياتي في قوله تعالى كل آمن بالله وملائكته و
كتبه ورسله واتى المال على حبه حال من الضمير في اتى والضمير المجرور للمال
اي آتاه كائنا على حب المال في قوله صلى الله عليه وسلم حين سئل اي الصدقة افضل
ان تؤتيه وانت صحيح شحيح وقول ابن مسعود رضي الله عنه ان تؤتيه وانت صحيح شحيح تامل

العيش

العيش وتخشى الفقر ولا تمهل حتى اذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقيل الضمير
لله تعالى اي آتاه كائنا على محبته تعالى لا على قصد الشر والفساد ففيه نوع تعريض لباذلي
الرشي واخذيها لتغيير التورية وقيل للمصدر اي كائنا على حب الايتاء ذوي القربى
مفعول اول لآتي قدم عليه مفعوله الثاني اعني المال للاهتمام به او لان في الثاني مع ما عطف
عليه طولا وقيل المفعول الثاني واليتامى اي المحاويج منهم على ما يدل عليه الحال و
تقديم ذوي القربى عليهم لما ان ايتاءهم صدقة وصلة والمساكين جمع مسكين وهو
الدائم السكون لما ان الخلة اسكنته بحيث لا حراك به او دائم السكون الى الناس وابن
السبيل اي المسافر سمي به لملازمته اياه كما سمي القاطع ابن الطريق وقيل الضيف
والسائلين الذين الجاتهم الحاجة والضرورة الى السؤال قال عليه السلام اعطوا السائل
ولو جاء على فرس وفي الرقاب اي وضعه في فك الرقاب بمعاونة المكاتبين حتى يفكوا
رقابهم وقيل في فك الاسارى وقيل في ابتياع الرقاب واعتاقها واياما كان فالعدول
عن ذكرهم بعنوان مصحح للمالكية كالذين من قبلهم اما للايذان بعدم قرار ملكهم
فيما اوتوا كما في الوجهين الاولين او بعدم ثبوته راسا كما في الوجه الاخير واما للاشعار
برسوخهم في الاستحقاق والحاجة لما ان في للظرفية المنبئة عن محليتهم لما يؤتي
واقام الصلوة اي المفروضة منها واتى الزكوة اي المفروضة على ان المراد بما مر
من ايتاء المال التنفل بالصدقات قدم على الفريضة مبالغة في الحث عليه او المراد بهما
المفروضة والاول لبيان المصارف والثاني لبيان وجوب الاداء والموفون بعهدهم
عطف على من امن فانه في قوة ان يقال ومن اوفوا بعهدهم وايثار صيغة الفاعل
للدلالة على وجوب استمرار الوفاء والمراد بالعهد ما لا يحرم حلالا ولا يحلل حراما
من العهود الجارية فيما بين الناس وقوله تعالى اذا عاهدوا للايذان بعدم كونه
من ضروريات الدين والصابرين نصب على الاختصاص غير سبكه عما قبله
تنبيها على فضيلة الصبر ومزيته وهو في الحقيقة معطوف على ما قبله قال ابو علي اذا
ذكرت صفات للمدح او الذم فخولف في بعضها الاعراب فقد خولف للافتنان ويسمى ذلك قطعا
لان تغيير المالوف يدل على زيادة ترغيب في استماع المذكور ومزيد اهتمام بشانه
كما مر في صدر السورة وقد قرئ والصابرون كما قرئ والموفين في الباساء اي في
الفقر والشدة والضراء اي المرض والزمانة وحين الباس اي وقت مجاهدة العدو
في مواطن الحرب وزيادة الحين للاشعار بوقوعه احيانا وسرعة انقضائه اولئك
اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم بالنعوت الجميلة المذكورة وما فيه من معنى
البعد لما مر مرارا من التنبيه على علو طبقتهم وسمو رتبتهم الذين صدقوا اي
في الدين واتباع الحق وتحري البر حيث لم يغيرهم الاحوال ولم يزلزلهم الاهوال
واولئك هم المتقون عن الكفر وسائر الرذائل وتكرير الاشارة لزيادة تنويه شانهم
وتوسيط الضمير للاشارة الى انحصار التقوى فيهم والاية الكريمة كما ترى حاوية
لجميع الكمالات البشرية برمتها تصريحا او تلويحا لما انها مع تكثر فنونها وتشعب
شجونها منحصرة في خلال ثلث صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة مع العباد وتهذيب
النفس وقد اشير الى الاولى بالايمان بما فصل والى الثانية بايتاء المال والى الثالثة باقامة
الصلوة الخ ولذلك وصف الحائزون لها بالصدق نظرا الى ايمانهم واعتقادهم
وبالتقوى اعتبارا بمعاشرتهم مع الخلق ومعاملتهم مع الحق واليه يشير قوله صلى الله
عليه وسلم من عمل بهذه الاية فقد استكمل الايمان يا ايها الذين امنوا شروع
في بيان بعض الاحكام الشرعية على وجه التلافي لما فرط من المخلين بما ذكر من اصول
الدين وقواعده التي عليها بني اساس المعاش والمعاد كتب عليكم اي فرض والزم
عند مطالبة صاحب الحق فلا يقدح فيه قدرة الولي على العفو فان الوجوب انما اعتبر
بالنسبة الى الحكام والقاتلين القصاص في القتلى اي بسبب قتلهم كما في قوله صلى الله عليه
وسلم ان امراة دخلت النار في هرة ربطتها اي بسبب ربطها اياها الحر بالحر والعبد

بالعبد والانثى بالانثى كان في الجاهلية بين حيين من احياء العرب دماء وكان لاحدهما
طول فاقسموا لنقتلن منكم الحر بالعبد والذكر بالانثى فلما جاء الاسلام تحاكموا الى
رسول صلى الله عليه وسلم فنزلت فامرهم ان يتباووا وليس فيها دلالة على عدم
قتل الحر بالعبد الشافعي ايضا لان اعتبار المفهوم حيث لم يظهر للتخصيص بالذكر وجه
سوى اختصاص الحكم بالمنطوق وقد راينا الوجه ههنا وانما يتمسك في ذلك
هو ومالك بما روي على رضيه ان رجلا قتل عبده فجلده رسول الله صلى الله عليه وسلم
ونفاه سنة ولم يقده وبما روي عنه رضيه الله قال من السنة ان لا يقتل مسلم بذي
عهد ولا حر بعبد وبان ابا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا لا يقتلان الحر بالعبد بين اظهر
الصحابة من غير نكير وبالقياس على الاطراف وعندنا يقتل الحر بالعبد لقوله تعالى ان
النفس بالنفس فان شريعة من قبلنا اذا قصت علينا من غير دلالة على نسخها فالعمل بها واجب
على انها شريعة لنا ولان القصاص يعتمد المساواة في العصمة وهي بالدين او بالدار وهما
سيان فيهما وقرئ كتب على البناء للفاعل ونصب القصاص فمن عفي له من اخيه شيء
اي شيء من العفو لان عفا لازم وفائدته الاشعار بان بعض العفو بمنزلة كله في اسقاط
القصاص وهو النافع ايضا في العادة اذ كثيرا ما يقع العفو من بعض الاولياء فهو شيء
من العفو وقيل بمعنى ترك وشيء مفعول به وهو ضعيف اذ لم يثبت عفاه
بمعنى تركه بل اعفاه وحمل العفو على المحو كما في قول من قال ديار عفاها هاجر كل معانر
وقوله عفاه كل حنان كثير الوبر هطال فيكون المعنى فمن محي له من اخيه شيء عن
العبارة المتداولة في الكتاب والسنة عن معناه المشهور المعهود الى ما ليس بمعهود
فيهما وفي استعمال الناس فانهم لا يستعملون العفو في باب الجنايات الا فيما ذكر من قبل
وعفا يعدى بعن الى الجاني والذنب قال تعالى عفا الله عنك وقال عفا الله عنها
فاذا تعدى الى الذنب قيل عفوت لفلان عما جنى كانه قيل فمن عفي له عن
جنايته من جهة اخيه يعني ولي الدم وايراده بعنوان الاخوة الثابتة
بينهما بحكم كونهما من بني ادم عليه السلام لتحريك سلسلة الرقة والعطف
عليه فاتباع بالمعروف فالامر اتباع او فليكن اتباع والمراد وصية العافي
بالمساهلة ومطالبة الدية بالمعروف من غير تعنيف وقوله عز وعلا واداء اليه
باحسان حث بالمعفو عنه على ان يؤديها باحسان من غير مماطلة وبخس
ذلك اي ما ذكر من الحكم تخفيف من ربكم ورحمة لما فيه من التسهيل
والنفع وقيل كتب على اليهود القصاص وحده وحرم عليهم العفو والدية وعلى
النصارى العفو على الاطلاق وحرم عليهم القصاص والدية وخيرت هذه الامة
بين الثلث تيسيرا عليهم وتنزيلا للحكم على حسب المنازل فمن اعتدى بعد ذلك
بان قتل القاتل بعد ورود هذا الحكم او قتل القاتل بعد العفو او اخذ الدية
فله باعتدائه عذاب اليم اما في الدنيا فبالاقتصاص بما قتله بغير حق
واما في الاخرة فبالنار ولكم في القصاص حيوة بيان لمحاسن الحكم المذكور
على وجه بديع لا تنال غايته حيث جعل الشيء محلا لضده وعرف القصاص ونكر
الحيوة ليدل على ان في هذا الجنس نوعا من الحيوة عظيما لا يبلغه الوصف وذلك لان
العلم به يردع القاتل عن القتل فيتسبب لحيوة نفسين ولانهم كانوا يقتلون غير
القاتل والجماعة بالواحد فتثور الفتنة بينهم فاذا اقتص من القاتل سلم الباقون
فيكون ذلك سببا لحيوتهم وعلى الاول فيه اضمار وعلى الثاني تخصيص وقيل المراد
بالحيوة هي الاخروية فان القاتل اذا اقتص منه في الدنيا لم يؤاخذ في الاخرة
والظرفان اما خبران لحيوة او احدهما خبر والاخر صلة له او حال من المستكن فيه
وقرئ في القصص اي فيما قص عليكم من حكم القتل حيوة او في القران حيوة للقلوب
يا اولي الالباب اي ذوي العقول الخالصة عن شوب الاوهام خوطبوا بذلك بعد
ما خوطبوا بعنوان الايمان تنشيطا لهم الى التامل في حكمة القصاص لعلكم تتقون

اي تتقون انفسكم من المساهلة في امره والاهمال في المحافظة عليه والحكم به والاذعان له
او من القصاص فتكفوا عن القطع المؤدي كتب عليكم بيان لحكم اخر من الاحكام
المذكورة اذا حضر احدكم الموت اي حضر اسبابه وظهر اماراته او دنا نفسه من
الحضور وتقديم المفعول لافادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت وروده عليها ان
ترك خيرا اي مالا وقيل مالا كثيرا لما روي عن علي رضيه ان مولى له اراد ان يوصي
وله سبعمائة درهم فمنعه وقال قال الله تعالى ان ترك خيرا وان هذا الشيء يسير فاتركه
لعيالك وعن عايشه رضيها ان رجلا اراد الوصية وله عيال واربعمائة دينار فقالت
ما ارى فيه فضلا واراد اخر ان يوصي فسالته كم مالك فقال ثلثة الاف درهم قالت
كم عيالك قال اربعة قالت انما قال الله تعالى ان ترك خيرا وان هذا الشيء يسير فاتركه لعيالك
الوصية للوالدين والاقربين مرفوع بكتب اخر عما بينهما مرارا وايثار تذكير الفعل
مع جواز تانيثه ايضا للفصل او على تاويل ان يوصي او الايصاء ولذلك ذكر الضمير
في قوله تعالى فمن بدله بعد ما سمعه واذا ظرف محض والعامل فيه كتب لكن لا من حيث
صدور الكتب عنه تعالى بل من حيث تعلقه بهم تعلقا فعليا مستتبعا لوجوب الاداء كما ينبئ
عنه البناء للمفعول وكلمة ايجاب ولا مساغ لجعل العامل هو الوصية لتقدمه عليها
وقيل هو مبتدأ خبره للوالدين والجملة جواب الشرط باضمار الفاء كما في قوله من يفعل
الحسنات الله يشكرها ورد بانه ان صح فمن ضرورة الشعر ومعنى كتب فرض وكان
هذا الحكم في بدء الاسلام ثم نسخ عند نزول اية المواريث بقوله عم ان الله قد
اعطى كل ذي حق حقه الا لا وصية لوارث فانه وان كان من اخبار الاحاد لكن حيث
تلقته الامة بالقبول انتظم في سلك المتواتر في صلاحيته للنسخ عند ايمتنا على ان التحقيق
ان الناسخ حقيقة هي اية المواريث وانما الحديث مبين لجهة نسخها ببيان انه تعالى كان قد
كتب عليكم ان تؤدوا الى الوالدين والاقربين حقوقهم بحسب استحقاقهم من غير تبيين
لمراتب استحقاقهم ولا تعيين لمقادير انصبائهم بل فوض ذلك الى ارائكم حيث
قال بالمعروف اي بالعدل فالان قد رفع ذلك الحكم عنكم وتولى لتبيين طبقات
استحقاق كل واحد منهم وتعيين مقادير حقوقهم بالذات واعطى كل ذي حق
منهم حقه الذي يستحقه بحكم القرابة من غير نقص ولا زيادة ولم يدع لكم شيئا فيه
مدخل لرايكم اصلا حسبما يعرب عنه الجملة المنفية بلا النافية للجنس وتصديرها بكلمة
التنبيه اذا تحققت هذا ظهر لك ان ما قيل من ان اية المواريث لا تعارضه بل تحققه
وتؤكده من حيث انها تدل على تقديم الوصية مطلقا والحديث من الاحاد وتلقي الامة
اياها بالقبول لا يلحقه بالمتواتر ولعله احترز عنه من فسر الوصية بما اوصى به الله عز
وجل من توريث الوالدين والاقربين بقوله تعالى يوصيكم الله او بايصاء المحتضر لهم
بتوفير ما اوصى به الله تعالى عليهم بمعزل من التحقيق وكذا ما قيل من ان الوصية للوارث
كانت واجبة بهذه الاية من غير تعيين لانصبائهم فلما نزلت اية المواريث بيانا
للانصباء بلفظ الايصاء فهم منها بتبيينه النبي صلى الله عليه وسلم ان المراد منه هذه
الوصية التي كانت واجبة كانه قيل ان الله تعالى اوصى بنفسه تلك الوصية ولم يفوضها
اليكم فقام الميراث مقام الوصية فكان هذا معنى النسخ لا ان فيها دلالة على رفع ذلك
الحكم فان مدلول اية الوصية حيث كان تفويضا للامر الى اراء المكلفين على الاطلاق
وتنحي المفروج عن عهدة التكليف باداء ما ادى اليه اراؤهم بالمعروف فكون اية
المواريث الناطقة بمراتب الاستحقاق وتفاصيل مقادير الحقوق القاطعة بامتناع
الزيادة والنقص بقوله تعالى فريضة من الله ناسخة لها رافعة لحكمها مما لا يشتبه
على احد وقوله تعالى حقا على المتقين مصدر مؤكد اي حق ذلك حقا فمن
بدله اي غيره من الاوصياء والشهود بعد ما سمعه اي بعد ما وصل اليه
وتحقق لديه فانما اثمه اي اثم الايصاء المغير او اثم التبديل على الذين
يبدلونه لانهم خانوا وخالفوا حكم الشرع ووضع الموصول في موضع الضمير

فان قيل كيف قال الوصية للوالدين
والاقربين عطف الاقربين على الوالدين
وهما اقرب الاقربين والعطف يقتضي
المغايرة قلنا الوالدان ليسا من الاقربين
لان القريب من يدلي الى غيره بواسطة
كالاخ والعم ونحوهما والوالدان
ليسا كذلك ولعل كانا منهم لكن
خصا بالذكر كقوله تعالى وملائكته
ورسله وجبريل وميكائيل
اسم له [illegible]

الراجع الي من لتاكيد الايذان بعليته ما في حيز الصلة الاولي وايثار الجمع للاشعار بتعدد
المبدلين انواعا اوكثرتهم افرادا والايذان بشمول الاثم لجميع الافراد ان الله
سميع عليم وعيد شديد للمبدلين فمن خاف من موص اي توقع وعلم
من قولهم اخاف ان يرسل السماء وقرئ من موص جنفا اي ميلا بالخطأ في الوصية
اواثما اي تعمدا للحيف فاصلح بينهم اي بين الموصي لهم باجرائهم علي منهاج
الشريعة الشريفة فلا اثم عليه اي في هذا التبديل لانه تبديل باطل الي حق بخلاف
الاول ان الله غفور رحيم وعد للمصلح وذكر المغفرة لمطابقة ذكر الاثم وكون
الفعل من جنس ما يؤثم يا ايها الذين امنوا كتب عليكم الصيام بيان لحكم اخر من
الاحكام الشرعية وتكرير النداء لاظهار مزيد الاعتناء به والصيام والصوم الامساك
عما تنازع اليه النفس ومنه قوله تعالي اني نذرت للرحمن صوما فلن اكلم الاية وقيل هو
الامساك عن الشئ مطلقا ومنه صامت الريح اي امسكت عن الهبوب والفرس اي
امسك عن العدو وقال خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج واخري تعلك
اللجاما وفي الشريعة هو الامساك نهارا عن المفطرات المعهودة التي هي معظم ما تشتهيه
الانفس كما كتب في حيز النصب علي انه نعت للمصدر المؤكد اي كتابا كائنا كما كتب او علي
انه حال من المصدر المعرفة اي كما كتب عليكم الصيام الكتب مشبها بما كتب فما علي
الوجهين مصدرية او علي انه نعت لمصدر من لفظ الصيام اي صوما مماثلا للصوم المكتوب
علي من قبلكم فما موصولة او علي انه حال من الصيام اي حال كونه مماثلا لما كتب علي
الذين من قبلكم من الانبياء عليهم السلام والامم من لدن ادم عليه السلام وفيه
تاكيد للحكم وترغيب فيه وتطييب لانفس المخاطبين فان الشاق اذا عم سهل عمله و
المراد بالمماثلة اما المماثلة في اصل الوجوب واما في الوقت والمقدار كما يروي ان
صوم رمضان كان مكتوبا علي اليهود والنصاري اما اليهود فقد تركته وصامت يوما
من السنة زعموا انه يوم غرق فرعون وكذبوا في ذلك فانه كان يوم عاشوراء
واما النصاري فانهم صاموا رمضان حتي صادفوا حرا شديدا فاجتمعت اراء علمائهم
علي تعيين فصل واحد بين الصيف والشتاء فجعلوه في الربيع وزادوا عليه عشرة ايام
كفارة لما صنعوا فصار اربعين ثم مرض ملكهم او وقع فيهم موتان فزادوا عشرة
ايام فصار خمسين لعلكم تتقون اي المعاصي فان الصوم يكسر الشهوة الداعية اليها
كما قال عليه السلام فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء او تتقون الاخلال باداية لاصالته
او تصلون بذلك الي رتبة التقوي اياما معدودات موقتات بعدد معلوم او
قلائل فان القليل من المال يعد عدا والكثير يهال هيلا والمراد بها اما رمضان او ما وجب
في بدء الاسلام ثم نسخ به من صوم عاشوراء وثلثة ايام من كل شهر وانتصابه ليس
بالصيام كما قيل لوقوع الفصل بينهما باجنبي بل بمضمر دل هو عليه اعني صوموا اما علي
الظرفية او المفعولية اتساعا وقيل بقوله كما كتب علي الوجهين وفيه ان الايام ليست
محلا له بل للمكتوب فلا يتحقق الظرفية ولا المفعولية المتفرعة عليها اتساعا فمن كان
منكم مريضا اي مرضا يضره الصوم او يعسر معه او علي سفر مستمر عليه وفيه
تلويح ورمز الي ان من سافر في اثناء اليوم لم يفطر فعدة اي فعليه صوم عدة
ايام المرض والسفر من ايام اخر ان افطر حذف الشرط والمضاف ثقة بالظهور
وقرئ بالنصب اي فليصم عدة وهذا علي سبيل الرخصة وقيل علي الوجوب واليه ذهب
الظاهرية وبه قال ابو هريرة رضي الله عنه وعلي الذين يطيقونه اي وعلي المطيقين
للصيام ان افطروا فدية اي اعطاء فدية وهي طعام مسكين وهو نصف
صاع من بر او صاع من غيره عند اهل العراق ومد عند اهل الحجاز فكان ذلك في بدء الاسلام
لما انه قد فرض عليهم الصوم وما كانوا متعودين له فاشتد عليهم فرخص لهم بالافطار
والفدية وقرئ يطوقونه اي يكلفونه ويقلدونه ويتطوقونه ويطوقونه بادغام
التاء في الطاء ويطيقونه ويطيقونه بمعني يتطيقونه واصلهما يطيوقونه ويتطيوقونه

من فيعل

من فيعل وتفيعل من الطوق فادغمت الياء في الواو بعد قلبها ياء كقولهم تديرا لمكان وما
بها ديار وفيه وجهان احدهما نحو معني يطيقونه والثاني يكلفونه علي جهد منهم وعجزهم
الشيوخ والعجائز وحكم هؤلاء الافطار والفدية وهو علي هذا الوجه غير منسوخ ويجوز ان يكون هذا
معني يطيقونه اي يصومونه جهدهم وطاقتهم ومبلغ وسعهم فمن تطوع خيرا
فزاد في الفدية فهو اي التطوع او الخير الذي تطوعه خير له وان تصوموا ايها
المطيقون او المطوقون وتحملوا علي انفسكم وتجهدوا طاقتكم او ايها المرخصون
في الافطار من المرضي والمسافرين خير لكم من الفدية او من تطوع الخير او منهما
او من التاخير الي ايام اخر والالتفات الي الخطاب للحث والتنشيط ان كنتم تعلمون
اي ما في صومكم مع تحقق المبيح للافطار من الفضيلة والجواب محذوف ثقة بظهوره
اي اخترتموه او سارعتم اليه وقيل معناه ان كنتم من اهل العلم والتدبر علمتم
ان الصوم خير من ذلك شهر رمضان مبتدأ خبره ما بعده او خبر لمبتدأ محذوف
اي ذلك شهر رمضان او بدل من الصيام علي حذف المضاف اي صيام شهر رمضان
وقرئ بالنصب علي اضمار صوموا او علي انه مفعول تصوموا او بدل من اياما معدودات
والرمضان مصدر رمض اذا احترق من الرمضاء فاضيف اليه الشهر وجعل علما ومنع
الصرف للتعريف والالف والنون كما قيل ابن داية للغراب فقوله عليه السلام من صام
رمضان الحديث وارد علي حذف المضاف للامن من الالتباس وانما سموه بذلك اما
لارتماضهم فيه من الجوع والعطش واما لارتماض الذنوب فيه او لوقوعه
في ايام رمض الحر عند نقل اسماء الشهور عن اللغة القديمة الذي انزل فيه القران
خبر للمبتدأ علي الوجه الاول وصفة لشهر رمضان علي الوجوه الباقية ومعني انزاله فيه
انه ابتدئ انزاله فيه وكان ذلك ليلة القدر او انزل فيه جملة الي السماء الدنيا ثم نزل
منجما الي الارض حسبما تقتضيه المشية الربانية او انزل في شانه القران وهو قوله عز وجل
كتب عليكم وعن النبي صلي الله عليه وسلم نزلت صحف ابراهيم اول ليلة من رمضان
وانزلت التورية لست مضين منه والانجيل لثلث عشرة والقران لاربع وعشرين
هدي للناس وبينات من الهدي والفرقان حالان من القران اي انزل حال كونه
هداية للناس بما فيه من الاعجاز وغيره وايات واضحة مرشدة الي الحق فارقة بينه
وبين الباطل بما فيه من الحكم والاحكام فمن شهد منكم الشهر اي حضر فيه ولم يكن
مسافرا ووضع الظاهر موضع الضمير للتعظيم والمبالغة في البيان والفاء للتفريع والترتيب
او لتضمن المبتدأ معني الشرط او زائدة علي تقدير كون شهر رمضان مبتداء والموصول
صفة له وهذه الجملة خبر له وقيل هي جزائية كانه قيل لما كتب عليكم الصيام في
ذلك الشهر فمن حضر فيه فليصمه اي فليصم فيه بحذف الجار وايصال الفعل الي
المجرور اتساعا وقيل من شهد منكم هلال الشهر فليصمه علي انه مفعول به كقولك
شهدت الجمعة اي صلاتها فيكون ما بعده مخصصا له كانه قيل ومن كان مريضا
وان كان مقيما حاضرا فيه او علي سفر وان كان صحيحا فعدة من ايام اخر
اي فعليه صيام ايام اخر لان المريض والمسافر ممن شهد الشهر ولعل التكرير لذلك
او لئلا يتوهم نسخه كما نسخ قرينه يريد الله بكم اليسر اي يريد ان ييسر عليكم ولا
يريد بكم العسر لغاية رأفته وسعة رحمته ولتكملوا العدة ولتكبروا الله علي ما
هديكم ولعلكم تشكرون علل للفعل المحذوف ودل عليه ما سبق اي ولهذه الامور
شرع ما مر من امر الشاهد بصوم الشهر وامر المرخص له بمراعاة عدة ما افطر فيه ومن
الترخيص فيما ابيح له الفطر فقوله لتكملوا علة الامر بمراعاة العدة ولتكبروا علة لما
ما علم من كيفية القضاء ولعلكم تشكرون علة الترخيص والتيسير وتعدية فعل التكبير بعلي
لتضمنه معني الحمد كانه قيل ولتكبروا الله حامدين علي ما هديكم ويجوز ان تكون
معطوفة علي علة مقدرة مثل ليسهل عليكم او لتعلموا ما تعملون ولتكملوا الخ ويجوز
عطفها علي اليسر اي يريد بكم لتكملوا الخ كقوله تعالي يريدون ليطفؤا الخ والمعني بالتكبير تعظيمه

تعالى بالحمد والثناء عليه وقيل تكبير يوم العيد وقيل التكبير عند رؤية الهلال وما يحتمل المصدرية
والموصول اي هدايته اياكم او على الذي هداكم اليه وقرئ ولتكملوا بالتشديد وَإِذَا
سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي في تلوين الخطاب وتوجيهه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
ما لا يخفى من تشريفه ورفع محله فَإِنِّي قَرِيبٌ اي فقل لهم اني قريب وهو تمثيل
لكمال علمه بافعال العباد واقوالهم واطلاعه على احوالهم بحال من قرب مكانه روي
ان اعرابيا قال للرسول صلى الله عليه وسلم اقريب ربنا فنناجيه ام بعيد فنناديه
فنزلت أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ تقرير للقرب وتحقيق له ووعد للداعي
بالاجابة فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي اذا دعوتهم للايمان والطاعة كما اجيبهم اذا دعوني
لمهماتهم وَلْيُؤْمِنُوا بِي امر بالثبات على ما هم عليه لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ
راجين اصابة الرشد اي الحق وقرئ بفتح الشين وكسرها ولما امرهم الله تعالى بصوم
الشهر ومراعاة العدة وحثهم على القيام بوظايف التكبير والشكر عقبه بهذه الاية
الكريمة الدالة على انه تعالى خبير باحوالهم سميع باقوالهم مجيب لدعائهم مجازيهم
على اعمالهم تاكيدا له وحثا عليه ثم شرع في بيان احكام الصيام فقال أُحِلَّ لَكُمْ
لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ روي ان المسلمين كانوا اذا امسوا حل لهم
الاكل والشرب والجماع الى ان يصلوا العشاء الاخيرة او يرقدوا ثم ان عمر رضي الله عنه
باشر بعد العشاء فندم واتى النبي صلى الله عليه وسلم واعتذر اليه فقام رجال
فاعترفوا بما صنعوا بعد العشاء فنزلت وليلة الصيام الليلة التي يصبح منها صائما
والرفث كناية عن الجماع لانه لا يكاد يخلو من رفث وهو الافصاح بما يجب ان يكنى
عنه وعدي بالى لتضمنه معنى الافضاء والانهاء وايثاره ههنا لاستقباح ما ارتكبوه
ولذلك سمي خيانة وقرئ الرفوث وتقديم الظرف على القائم مقام الفاعل لما مر مرارا
من التشويق فان ما حقه التقديم اذا اخر بقي النفس مترقبة اليه فيتمكن عندها وقت
وروده فضل تمكن هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ استيناف مبين لسبب الاحلال
وهو صعوبة الصبر عنهن مع شدة المخالطة وكثرة الملابسة بهن وجعل كل من الرجل
والمراة لباسا للاخر لاعتناقهما واشتمال كل منهما على الاخر بالليل قال اذا ما الضجيع ثنى
عطفها تثنت فكانت عليه لباسا او لان كلا منهما يستر حال صاحبه ويمنعه
عن الفجور عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ استيناف اخر مبين لما ذكر
من السبب والاختيان ابلغ من الخيانة كالاكتساب من الكسب ومعنى تختانون
تظلمونها بتعريضها للعقاب وتنقيص حظها من الثواب فَتَابَ عَلَيْكُمْ عطف
على علم اي تاب عليكم لما تبتم مما اقترفتموه وَعَفَا عَنْكُمْ اي محا اثره عنكم
فَالْآنَ لما نسخ التحريم بَاشِرُوهُنَّ المباشرة الزاق البشرة بالبشرة كني بها عن الجماع
الذي يستلزمها وفيه دليل على جواز نسخ الكتاب للسنة وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ
اي واطلبوا ما قدره الله لكم واثبته في اللوح من الولد وفيه ان المباشر ينبغي ان يكون
غرضه الولد فانه الحكمة في خلق الشهوة وشرع النكاح لا قضاء الشهوة وقيل فيه نهي
عن العزل وقيل عن غير المأتى والتقدير وابتغوا المحل الذي كتب الله لكم وَكُلُوا وَاشْرَبُوا
حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ شبها اول ما يبدو
من الفجر المعترض في الافق وما يمتد معه من غلس الليل بخيطين ابيض واسود واكتفى
ببيان الخيط الابيض بقوله تعالى من الفجر عن بيان الخيط الاسود لدلالته عليه وبذلك
خرجا عن الاستعارة الى التمثيل ويجوز ان يكون من للتبعيض فان ما يبدو بعض الفجر
وما روي من انها نزلت ولم ينزل من الفجر فعمد رجال الى خيطين ابيض واسود
وطفقوا ياكلون ويشربون حتى يتبينا لهم فنزلت فلعل ذلك كان قبل دخول رمضان
وتاخير البيان الى وقت الحاجة جائز او اكتفى اولا باشتهارهما في ذلك ثم صرح بالبيان
لما التبس على بعضهم وفي تجويز المباشرة الى الصبح دلالة على جواز تاخير الغسل اليه وصحة
صوم رمضان وغيره من اصبح جنبا ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ بيان لاخر وقته ولا

يخلو

تبا

تباشروهن وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ اي معتكفون فيها والمراد بالمباشرة الجماع
وعن قتادة كان الرجل يعتكف فيخرج الى امراته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك وفيه دليل
على ان الاعتكاف يكون في المسجد غير مختص ببعض دون بعض وان الوطء فيه حرام
ومفسد له لان النهي في العبادات يوجب الفساد تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ اي الاحكام
المذكورة حدود وضعها الله تعالى لعباده فَلَا تَقْرَبُوهَا فضلا عن تجاوزها نهى
ان يقرب الحد الحاجز بين الحق والباطل مبالغة في النهي عن تخطيها كما قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لكل ملك حمى وحمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى
يوشك ان يقع فيه ويجوز ان يراد بحدود الله تعالى محارمه ومناهيه كَذَلِكَ اي
مثل ذلك التبيين البليغ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ الدالة على الاحكام التي شرعها لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ مخالفة اوامره ونواهيه وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ نهي
عن اكل بعضهم لاموال بعض على خلاف حكم الله عز وجل بعد النهي عن اكل اموال
انفسهم في نهار رمضان اي لا ياكل بعضكم مال بعض بالوجه الذي لم يحكم به الله
تعالى وبين نصب على الظرفية او الحالية من اموالكم وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ
عطف على المنهي منه والنصب باضمار ان والادلاء الالقاء اي ولا تلقوا حكومتها
الى الحكام لِتَأْكُلُوا بالتحاكم اليهم فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ بما
يوجب اثما كشهادة الزور واليمين الفاجرة وملتبسين بالاثم وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ
انكم مبطلون فان ارتكاب المعاصي مع العلم اقبح روي ان عبدان الحضرمي
ادعى على امرئ القيس الكندي قطعة ارض ولم يكن له بينة فحكم رسول الله صلى الله
عليه وسلم بان يحلف امرؤ القيس فهم به فقرأ عليه السلام ان الذين يشترون بعهد الله
وايمانهم ثمنا قليلا الاية فارتدع عن اليمين فسلم الارض الى عبدان فنزلت وروي
انه اختصم اليه خصمان فقال عليه السلام انما انا بشر مثلكم وانتم تختصمون الي
ولعل بعضكم الحن بحجته من بعض فاقضي له على نحو ما اسمع منه فمن قضيت له بشيء
من حق اخيه فانما اقضي له قطعة من النار فبكيا فقال كل واحد منهما حقي لصاحبي فقال
اذهبا فتوخيا ثم استهما ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ
سأله معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم فقالا ما بال الهلال يبدو دقيقا كالخيط ثم يزيد حتى
يستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ كانوا قد سألوه
عليه السلام عن الحكمة في اختلاف حال القمر وتبدل امره فامره العزيز الحكيم ان يجيبهم
بان الحكمة الظاهرة في ذلك ان يكون معالم للناس في عباداتهم لا سيما الحج فان الوقت مراعى فيه
اداء وقضاء وكذا في معاملاتهم على حسب ما يتفقون عليه والمواقيت جمع ميقات من الوقت
والفرق بينه وبين المدة والزمان ان المدة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها الى
منتهاها والزمان مدة مقسومة الى الماضي والحال والمستقبل والوقت الزمان المفروض
لامر وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا كانت الانصار اذا احرموا لم يدخلوا
دارا ولا فسطاطا من بابه وانما يدخلون ويخرجون من نقب او فرجة وراءها ويعدون
ذلك برا فبين لهم انه ليس ببر فقيل وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى اي بر من اتقى المحارم
والشهوات ووجه اتصاله بما قبله انهم سألوا عن الامرين او انه لما ذكر انها مواقيت
للحج ذكر عقيبه ما هو من افعالهم في الحج استطرادا او انهم لما سألوا عما لا يعنيهم
ولا يتعلق بعلم النبوة فانه عليه السلام مبعوث لبيان الشرائع لا لبيان حقائق الاشياء
وتركوا السؤال عما يعنيهم ويختص بعلم الرسالة عقب بذكره جواب ما سألوا عنه
تنبيها على ان اللائق بهم ان يسألوا عن امثال ذلك ويهتموا بالعلم بها او اريد به التنبيه
على تعكيسهم بالسؤال وكونه من قبيل دخول البيت من ورائه والمعنى وليس البر بان
تعكسوا في مسائلكم ولكن البر من اتقى ذلك ولم يجترئ على مثله وَأْتُوا الْبُيُوتَ
مِنْ أَبْوَابِهَا اذ ليس في العدول بر وباشروا الامور من وجوهها وَاتَّقُوا اللَّهَ
في تغيير احكامه او في جميع اموركم امر بذلك صريحا بعد بيان ان البر بر من اتقى اظهارا

لزيادة اعتناء بشان التقوي وتمهيداً لقوله تعالى لعلكم تفلحون اي لكي تظفروا بالبر والهدي
وقاتلوا في سبيل الله اي جاهدوا لاعزاز دينه واعلاء كلمته وتقديم الظرف على المفعول
الصريح لابراز كمال العناية بشان المقدم الذين يقاتلونكم قيل كان ذلك قبل ما امروا
بقتال المشركين كافة المقاتلين منهم والمحاجزين وقيل معناه الذين يناصبونكم القتال
ويتوقع منكم ذلك دون غيرهم من المشايخ والصبيان والرهابنة والنساء او الكفرة
جميعاً فان الكل بصدد قتال المسلمين ويؤيد الاول ما روي ان المشركين صدوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية وصالحوه على ان يرجع من قابل فيخلوا له مكة شرفها الله
تعالى ثلثة ايام فرجع لعمرة القضاء فخاف المسلمون ان لا يفوا لهم ويقاتلوهم في الحرم والشهر
الحرام وكرهوا ذلك فنزلت ويعضده ايراده في اثناء بيان احكام الحج ولا تعتدوا
بابتداء القتال او بقتال المعاهد والمفاجاة من غير دعوة او بالمثلة وقتل من نهيتم
عن قتله من النساء والصبيان ومن يجري مجراهم ان الله لا يحب المعتدين اي لا يريد
بهم الخير وهو تعليل للنهي واقتلوهم حيث ثقفتموهم اي حيث وجدتموهم
من حل وحرم واصل الثقف الحذق في ادراك الشيء علماً او عملاً وفيه معنى
الغلبة ولذلك استعمل فيها قال فاما تثقفني فاقتلوني فمن اثقف فليس الى خلود و
اخرجوهم من حيث اخرجوكم اي من مكة وقد فعل بهم ذلك يوم الفتح بمن لم يسلم من
كفارها والفتنة اشد من القتل اي المحنة التي يفتتن بها الانسان كالاخراج من الوطن
اصعب من القتل لدوام تعبها وبقاء تالم النفس بها وقيل شركهم في الحرم وصدهم
لكم عنه اشد من قتلكم اياهم فيه ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام اي
لا تفاتحوهم بالقتل هناك ولا تهتكوا حرمة المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان
قاتلوكم ثمه فاقتلوهم فيه ولا تبالوا بقتالهم ثمه لانهم الذين هتكوا حرمته
فاستحقوا اشد العذاب وفي العدول عن صيغة المبالغة التي بها ورد النهي والشرط
عدة بالنصر والغلبة وقرئ ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم فان قتلوكم فاقتلوهم والمعنى
حتى يقتلوا بعضكم كقولهم قتلنا بنو اسد كذلك جزاء الكافرين يفعل بهم مثل ما
فعلوا بغيرهم فان انتهوا عن القتال والكفر بعد ما رأوا قتالكم فان الله غفور
رحيم يغفر لهم ما قد سلف وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة اي شرك ويكون الدين لله
خالصاً ليس للشيطان فيه نصيب فان انتهوا بعد مقاتلتكم عن الشرك فلا عدوان
الا على الظالمين اي فلا تعتدوا عليهم اذ لا يحسن الظلم الا من ظلم فوضع العلة
موضع الحكم وتسمية الجزاء بالعدوان للمشاكلة كما في قوله عز وجل فمن اعتدى عليكم
فاعتدوا عليه او انكم ان تعرضتم للمنتهين صرتم ظالمين وتنعكس الحال عليكم والفاء
الاولى للتعقيب والثانية للجزاء الشهر الحرام بالشهر الحرام قاتلهم المشركين
عام الحديبية في ذي القعدة فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء في ذي القعدة ايضا
وكراهتهم القتال فيه هذا الشهر الحرام بذلك الشهر الحرام وهتكه بهتكه فلا تبالوا به والحرمات
قصاص اي كل حرمة وهي ما يجب المحافظة عليه يجري فيه القصاص فلما هتكوا حرمة
شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله وادخلوا عليهم عنوة فاقتلوهم ان قاتلوكم كما قال تعالى
فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وهو فذلكة مقررة لما
قبلها واتقوا الله في شان الانتصار واحذروا ان تعتدوا الى ما لم يرخص لكم واعلموا
ان الله مع المتقين فيحرسهم ويصلح شؤونهم بالنصر والتمكين وانفقوا في سبيل الله
امر بالجهاد بالمال بعد الامر به بالنفس اي لا تمسكوا كل الامساك ولا تلقوا بايديكم
الى التهلكة بالاسراف وتضييع وجه المعاش او بالكف عن الغزو والانفاق فيه فان
ذلك مما يقوي العدو ويسلطهم عليكم ويؤيده ما روي عن ابي ايوب الانصاري
رضي الله عنه انه قال لما اعز الله الاسلام وكثر اهله رجعنا الى اهالينا واموالنا نقيم فيها
ونصلحها فنزلت او بالامساك وحب المال فانه يؤدي الى الهلاك المؤبد ولذلك
سمي البخل هلاكاً وهو في الاصل انتهاء الشيء في الفساد والالقاء طرح الشيء وتعديته بالى

لتضمنه

لتضمنه معنى الانتهاء والباء مزيدة والمراد بالايدي الانفس والتهلكة مصدر كالتضرة
والتسرة وهي الهلكة والهلاك واحد اي لا توقعوا انفسكم في الهلاك وقيل معناه
لا تجعلوها آخذة بايديكم انفسكم اليها فحذف المفعول واحسنوا اي اعمالكم
واخلاقكم او تفضلوا على الفقراء ان الله يحب المحسنين اي يريد بهم
الخير وقوله تعالى واتموا الحج والعمرة لله بيان لوجوب اتمام افعالهما عند التصدي لادائهما
وارشاد للناس الى تدارك ما عسى يعتريهم من الخلل من العوارض المخلة بذلك من الاحصار ونحوه
من غير تعرض لحالهما في انفسهما من الوجوب وعدمه كما في قوله تعالى اتموا الصيام الى الليل
فانه بيان لوجوب مد الصيام الى الليل من غير تعرض لوجوب اصله وانما هو بقوله تعالى
كتب عليكم الصيام الاية كما ان وجوب الحج بقوله تعالى ولله على الناس حج البيت الاية فان الامر
باتمام فعل من الافعال ليس امراً باصله ولا مستلزماً له اصلاً فليس فيه دليل على وجوب
العمرة قطعاً وادعاء ان الامر باتمامهما امر باتيانهما تامين حسبما يقتضيه قراءة واقيموا
الحج والعمرة وان الامر للوجوب ما لم يدل على خلافه دليل مما لا سداد له ضرورة
ان ليس البيان مقصوراً على افعال الحج المفروض حتى يتصور ذلك بل الحق ان تلك القراءة
ايضاً محمولة على المشهورة ناطقة بوجوب اقامة افعالهما كما ينبغي من غير تعرض لحالهما
في انفسهما فالمعنى اكملوا اركانهما وشرائطهما وسائر افعالهما المعروفة شرعاً لوجه الله
تعالى من غير اخلال منكم بشيء منهما وقد قيل اتمامهما ان تحرم بهما من دويرة
اهلك روي ذلك عن علي وابن عباس وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم وقيل ان تفرد
لكل واحد منهما سفراً كما قال محمد حجة كوفية وعمرة كوفية افضل
وقيل هو جعل نفقتهما حلالاً وقيل ان تخلصوهما للعبادة ولا يشوبهما شيء من
الاغراض الدنيوية وايا ما كان فلا تعرض في الاية الكريمة لوجوب العمرة اصلاً واما
ما روي من ان ابن عباس رضي الله عنهما قال ان العمرة لقرينة الحج وقول عمر رضي الله عنه هديت لسنة
نبيك حين قال له رجل وجدت الحج والعمرة مكتوبين علي اهللت بهما وفي رواية اهللت
بهما جميعاً فبمعزل من افادة الوجوب مع كونه معارضاً بما روي عن جابر انه قال يا
رسول الله العمرة واجبة مثل الحج قال لا ولكن ان تعتمر خير لك وبقوله الحج جهاد والعمرة
تطوع فتدبر فان احصرتم اي منعتم من الحج يقال حصره العدو واحصره اذا حبسه و
منعه من المضي لوجهه مثل صده واصده والمراد منع العدو عند مالك والشافعي لقوله
تعالى فاذا امنتم ولنزوله في الحديبية ولقول ابن عباس رضي الله عنهما لا حصر الا حصر
العدو وكل منع من عدو او مرض او غيرهما عند ابي حنيفة رحمه الله لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
من كسر او عرج فعليه الحج من قابل فما استيسر من الهدي اي فعليكم او فالواجب
ما استيسر او فاهدوا ما استيسر والمعنى ان المحرم اذا احصر واراد ان يتحلل تحلل بذبح
هدي تيسر عليه من بقرة او بدنة او شاة حيث احصر عند الاكثر وعندنا يبعث به الى
الحرم ويجعل للمبعوث بيده يوم امارة فاذا جاء اليوم وظن انه ذبح تحلل لقوله تعالى
ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدي محله اي لا تحلوا حتى تعلموا ان الهدي المبعوث
الى الحرم بلغ مكانه الذي يجب فيه ان ينحر وحمل الاولون بلوغ الهدي محله على ذبحه
حيث يحل به ذبحه فيه حلا كان او حرما ومرجعهم في ذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
ذبح عام الحديبية بها وهي من الحل قلنا كان محصره عليه السلام طرف الحديبية الذي
الى اسفل مكة وهو من الحرم وعن الزهري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نحر هديه
في الحرم وقال الواقدي الحديبية هي طرف الحرم على تسعة اميال من مكة والمحل بالكسر
يطلق على المكان والزمان والهدي جمع هدية كجدي وجدية وقرئ من الهدي
جمع هدية كمطي ومطية فمن كان منكم مريضاً مرضاً محوجاً الى الحلق او به
اذى من راسه كجراحة او قمل ففدية اي فعليه فدية ان حلق من صيام او
صدقة او نسك بيان لجنس الفدية واما قدرها فقد روي انه صلى الله عليه وسلم
قال لكعب بن عجرة لعلك اذاك هوامك قال نعم يا رسول الله قال احلق وصم ثلثة ايام

اولا تلقوا بايديكم

او صدقة بفرق على ستة مساكين او انسك شاة والفرق ثلثة اصوع فاذا امنتم اى
الاحصار او كنتم في حال سعة فمن تمتع بالعمرة الى الحج اي فمن انتفع بالتقرب الى الله
تعالى بالعمرة قبل الانتفاء بتقربه بالحج في اشهره وقيل من استمتع بعد التحلل عن عمرة
باستباحة محظورات الاحرام الى ان يحرم بالحج فما استيسر من الهدي اي فعليه دم استيسر
عليه بسبب التمتع وهو دم جبران يذبحه اذا احرم بالحج ولا ياكل منه عند الشافعي وعند
هو كالاضحية فمن لم يجد اي الهدي فصيام ثلثة ايام في الحج اي في اشهره بين الاحرامين
وقال الشافعي ايام الاشتغال باعماله بعد الاحرام قبل التحلل والاحب ان يصوم سابع
ذي الحجة وثامنه وتاسعه فلا يصح يوم النحر وايام التشريق وسبعة اذا رجعتم اي
نفرتم وفرغتم من اعماله وفي احد قولي الشافعي اذا رجعتم الى اهليكم وقرئ وسبعة
بالنصب عطفا على محل ثلثة ايام تلك عشرة فذلكة الحساب وفائدتها ان لا يتوهم
ان الواو بمعنى او كما في قولك جالس الحسن وابن سيرين وان يعلم العدد جملة كما علم
تفصيلا فان اكثر العرب لا يعرف الحساب وان المراد بالسبعة هو العدد المخصوص دون الكثرة
كما يراد بها ذلك ايضا كاملة صفة مؤكدة لعشرة تفيد المبالغة في المحافظة على العدد
او مبينة لكمال العشرة فانها اول عدد كامل اذ به ينتهي الاحاد ويتم مراتبها او مقيدة
تفيد كمال بدليتها من الهدي ذلك اشارة الى التمتع عندنا والى الحكم المذكور عند
الشافعي لمن لم يكن اهله حاضري المسجد الحرام وهو من كان من الحرم على مسافة القصر
عند الشافعي ومن كان مسكنه وراء الميقات عندنا واهل الحل عند طاوس وغير اهل مكة
عند مالك واتقوا الله في المحافظة على اوامره ونواهيه لا سيما في الحج واعلموا ان الله
شديد العقاب لمن لم يتقه كي يصدكم العلم به عن العصيان واظهار الاسم الجليل
في موقع الاضمار لتربية المهابة وادخال الروعة الحج اي وقته اشهر معلومات معروفات
بين الناس هي شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة عندنا وتسعة بليلة النحر عند الشافعي
وكله عند مالك ومدار الخلاف ان المراد بوقته وقت احرامه او وقت اعماله
ومناسكه او ما لا يحسن فيه غيره من المناسك مطلقا فان مالكا كره العمرة في بقية ذي
الحجة وابو حنيفة وان صحح الاحرام به قبل شوال فقد استكرهه وانما سمي شهران
وبعض شهر اشهرا اقامة للبعض مقام الكل او اطلاقا للجمع على ما فوق الواحد وصيغة
جمع المذكر في غير العقلاء تجيئ بالالف والتاء فمن فرض فيهن الحج اي اوجبه على
نفسه بالاحرام فيهن او التلبية او بسوق الهدي فلا رفث ولا فسوق اي لا جماع
او فلا فحش من الكلام ولا خروج من حدود الشرع بارتكاب المحظورات وقيل
بالسباب والتنابز بالالقاب ولا جدال لا مراء مع الخدم والرفقة في الحج
اي في ايامه والاظهار في مقام الاضمار لاظهار كمال الاعتناء بشانه والاشعار
بعلة الحكم فان زيارة البيت المعظم والتقرب بها الى الله تعالى من موجبات ترك
الامور المذكورة وايثار النفي للمبالغة في النهي والدلالة على ان ذلك حقيق بان لا يكون
فان ما كان منكرا مستقبحا في نفسه ففي تضاعيف الحج افحش كلبس الحرير في الصلوة والتطريب
بقراءة القران لانه خروج عن مقتضى الطبع والعادة الى محض العبادة وقرئ الاولان
بالرفع على معنى لا يكون رفث ولا فسوق والثالث بالفتح على معنى الاخبار بانتفاء الخلاف
في الحج وذلك ان قريشا كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام فارتفع الخلاف بان
امروا بان يقفوا ايضا بعرفات وما تفعلوا من خير يعلمه الله فيجزي به خير جزاء
وهو حث على فعل الخير اثر النهي عن الشر وتزودوا فان خير الزاد التقوى اي تزودوا
لمعادكم التقوى فانه خير زاد وقيل نزلت في اهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون
ويقولون نحن المتوكلون فيكونون كلا على الناس فامروا ان يتزودوا ويتقوا الابرام
في السؤال والتثقيل على الناس واتقون يا اولي الالباب فان قضية اللب
استشعار خشية الله عز وجل وتقواه حثهم على التقوى ثم امرهم بان يكون
المقصود بذلك هو الله تعالى فيتبرءوا من كل شئ سواه وهو مقتضى العقل المعرى عن شوائب

الهوى

الهوى ولذلك خص بهذا الخطاب اولوا الالباب ليس عليكم جناح ان تبتغوا اى في ان
تبتغوا اي تطلبوا فضلا من ربكم عطاء ورزقا عنه اي الربح بالتجارة وقيل كان
عكاظ ومجنة وذو المجاز اسواقهم في الجاهلية يقيمونها ايام مواسم الحج وكانت
معايشهم منها فلما جاء الاسلام تاثموا منه فنزلت فاذا افضتم من عرفات اي
دفعتم منها بكثرة من افضت الماء اذا صببته بكثرة واصله افضتم انفسكم فحذف المفعول
حذفه من دفعت من البصرة وعرفات جمع سمي به كاذرعات وانما نون وكسر وفيه
علمية وتانيث لما ان تنوين الجمع تنوين المقابلة لا تنوين التمكن ولذلك جمع مع اللام
وذهاب الكسرة يتبع ذهاب التنوين من غير عوض لعدم الصرف وهنا ليس كذلك
او لان التانيث اما بالتاء المذكورة وهي ليست بتاء التانيث وانما هي مع الالف التي
قبلها علامة جمع المؤنث او بتاء مقدرة كما في سعاد ولا سبيل اليه لان المذكورة تابى
تقديرها لما انها كالبدل منها لاختصاصها بالمؤنث كتاء بنت وانما سمي الموقف عرفة
لانه نعت لابراهيم عليه السلام فلما ابصره عرفه او لان جبريل عليه السلام كان يدور به في
المشاعر فلما اراه قال عرفت او لان آدم وحواء التقيا فيه فتعارفا او لان الناس
يتعارفون فيه وهي من الاسماء المرتجلة الا ان يجعلها جمع عارف قيل وفيه دليل
على وجوب الوقوف بها لان الافاضة لا تكون الا بعده وهي مامور بها بقوله تعالى
ثم افيضوا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم الحج عرفة فمن ادرك عرفة فقد ادرك
الحج او مقدمة للذكر المامور به وفيه نظر اذ الذكر غير واجب والامر به غير
مطلق فاذكروا الله بالتلبية والتهليل والدعاء وقيل بصلوة العشائين عند
المشعر الحرام هو جبل يقف عليه الامام ويسمى قزح وقيل بين ماء في عرفة
ووادي محسر ويؤيد الاول ما روى جابر انه عليه السلام لما صلى الفجر يعني بالمزدلفة
بغلس ركب ناقته حتى اتى المشعر الحرام فدعا فيه وكبر وهلل ولم يزل واقفا حتى اسفر وانما
سمي مشعرا لانه معلم العبادة ووصف بالحرام لحرمته ومعنى عند المشعر الحرام ما يليه ويقرب
منه فانه افضل والا فالمزدلفة كلها موقف الا وادي محسر واذكروه كما هداكم
اي كما علمكم او اذكروه ذكرا حسنا كما هداكم هداية حسنة الى المناسك وغيرها وما
مصدرية او كافة وان كنتم من قبله من قبل ما ذكر من هدايته اياكم لمن الضالين
غير العالمين بالايمان والطاعة وان هي المخففة واللام هي الفارقة وقيل هي نافية واللام
بمعنى الا كما في قوله عز وعلا وان نظنك لمن الكاذبين ثم افيضوا من حيث افاض الناس
اي من عرفة لا من المزدلفة والخطاب لقريش لما كانوا يقفون بجمع وسائر الناس بعرفة
ويرون ذلك ترفعا عليهم فامروا بان يساووهم وثم لتفاوت ما بين الافاضتين
كما في قولك احسن الى الناس ثم لا تحسن الا الى كريم وقيل من مزدلفة الى منى بعد الافاضة
من عرفة شرع قديم فلا تغيروه واستغفروا الله من جاهليتكم في تغيير المناسك
ان الله غفور رحيم يغفر ذنب المستغفر وينعم عليه فهو تعليل للاستغفار او للامر
به فاذا قضيتم مناسككم عباداتكم المتعلقة بالحج وفرغتم منها فاذكروا الله كذكركم
اباءكم اي فاكثروا ذكره تعالى وبالغوا في ذلك كما تفعلون بذكر اباءكم ومفاخرهم
وايامهم وكانت العرب اذا قضوا مناسكهم وقفوا بمنى بين المسجد والجبل فيذكرون
مفاخر آبائهم ومحاسن ايامهم او اشد ذكرا اما مجرور معطوف على الذكر بجعله
ذكرا على المجاز والمعنى فاذكروا الله ذكرا كائنا مثل ذكركم اباءكم او كذكر اشد
منه وابلغ او على ما اضيف اليه بمعنى او كذكر قوم اشد منكم ذكرا او منصوب بالعطف
على اباءكم اي ذكر من فعله المذكور بمعنى او كذكركم اشد مذكورية من اباءكم او بمضمر
دل عليه المعنى تقديره او كونوا اشد ذكرا لله منكم لاباءكم فمن الناس تفصيل
للذاكرين الى من لا يطلب بذكر الله الا الدنيا والى من يطلب به خير الدارين والمراد به
الحث على الاكثار والانتظام في سلك الاخيرين من يقول اي في ذكره ربنا
آتنا في الدنيا اي اجعل ايتاءنا ومنحتنا في الدنيا خاصة وما له في الاخرة من

خلاق اي من حظ ونصيب لاقتصار همه على الدنيا فهو بيان لحاله في الآخرة او طلب
خلاق فهو بيان لحاله في الدنيا وتأكيد لتقصير دعائه على المطالب الدنيوية ومنهم من يقول
ربنا آتنا في الدنيا حسنة هي الصحة والكفاف والتوفيق للخير وفي الآخرة حسنة
هي الثواب والرحمة وقنا عذاب النار بالعفو والمغفرة وروي عن علي كرم الله
وجهه ان الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة وفي الآخرة الحوراء وعذاب النار امرأة السوء
وعن الحسن ان الحسنة في الدنيا العلم والعبادة وفي الآخرة الجنة وقنا عذاب النار معناه
احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية الى النار اولئك اشارة الى الفريق الثاني
باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجميلة وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا من
الاشارة الى علو درجتهم وبعد منزلتهم في الفضل وقيل اليهما معا فالتنوين في
قوله تعالى لهم نصيب مما كسبوا على الاول للتفخيم وعلى الثاني للتنويع اي لكل منهم
نوع نصيب من جنس ما كسبوا او من اجله كقوله تعالى مما خطيئاتهم اغرقوا او مما دعوا
به نعطيهم منه ما قدرناه وتسمية الدعاء كسبا لما انه من الاعمال والله سريع الحساب
يحاسب العباد على كثرتهم وكثرة اعمالهم في مقدار لمحة فاحذروا من الاخلال بطاعة من
هذا شأن قدرته او يوشك ان يقوم القيامة ويحاسب الناس فبادروا الى الطاعات واكتساب
الحسنات واذكروا الله اي كبروه في اعقاب الصلوات وعند ذبح القرابين ورمي
الجمار وغيرها في ايام معدودات هي ايام التشريق فمن تعجل اي استعجل
في النفر او النفر فان التفعل والاستفعال يجيئان لازمين ومتعديين يقال تعجل في الامر
واستعجل فيه وتعجله واستعجله والاول اوفق للتأخر كما في قوله قد يدرك المتأني
بعض حاجته وقد يكون من المستعجل الزلل في يومين اي تمام يومين بعد يوم النحر وهو
يوم القر ويوم الرؤس واليوم بعده ينفر اذا فرغ من رمي الجمار فلا اثم عليه بتعجله
ومن تأخر في النفر حتى رمى في اليوم الثالث قبل الزوال او بعده وعند الشافعي بعده
فقط فلا اثم عليه بما صنع من التأخر والمراد التخيير بين التعجل والتأخر ولا يقدح
فيه افضلية الثاني وانما ورد بنفي الاثم تصريحا بالرد على اهل الجاهلية حيث كانوا
مختلفين فمن مؤثم للمتعجل ومؤثم للمتأخر لمن اتقى خبر لمبتدأ محذوف اي الذي
ذكر من التخيير ونفي الاثم عن المتعجل والمتأخر او من الاحكام لمن اتقى لانه الحاج على
الحقيقة والمنتفع به او لاجله حتى لا يتضرر بترك ما يهمه منهما واتقوا الله في
مجامع اموركم بفعل الواجبات وترك المحظورات ليعبأ بكم وتنتظموا في سلك
المتقين بالاحكام المذكورة والرخص واحذروا الاخلال بما ذكر من الاحكام وهو
الانسب بقوله عز وجل واعلموا انكم اليه تحشرون اي للجزاء على اعمالكم بعد الاحياء
والبعث واصل الحشر الجمع وضم المتفرق وهو تأكيد للامر بالتقوى وموجب للامتثال
به فان من علم بالحشر والمحاسبة والجزاء كان ذلك من اقوى الدواعي الى ملازمة التقوى
ومن الناس من يعجبك قوله تجريد للخطاب وتوجيه له اليه عليه السلام وهو كلام
مبتدأ سيق لبيان تحزب الناس في شأن التقوى الى حزبين وتعيين مآل كل منهما ومن
موصولة او موصوفة واعرابه كما بين في قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله
وباليوم الآخر ومنهم من يروقك كلامه ويعظم موقعه في نفسك لما تشاهد فيه
من ملاءمة الفحوى ولطف الاداء والتعجب حيرة تعرض الانسان بسبب عدم الشعور بسبب ما يتعجب
منه في الحياة الدنيا متعلق بقوله اي ما يقوله في حق الحياة الدنيا ومعناها فانها الذي يريد
بما يدعيه من الايمان ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم وفيه اشارة الى ان له فيها اغراضا ليس
بهذه الصفة او بيعجبك اي يعجبك قوله في الدنيا بحلاوته وفصاحته لا في الآخرة لما
انه يظهر هناك كذبه وقبحه وقيل لما يرهقه من الحبسة واللكنة وانت خبير
بانه لا مبالغة في سوء حاله فان ماله بيان حسن كلامه في الدنيا وقبحه في الآخرة
وقيل معنى الحياة الدنيا مدة الحياة الدنيا اي لا يصدر منه فيها الا القول الحسن ويشهد الله
على ما في قلبه اي بحسب دعائه حيث يقول الله يعلم ان ما في قلبي موافق لما في

لساني وهو عطف على يعجبك وقرئ ويشهد الله فالمراد بما في قلبه ما فيه حقيقة ويؤيده
قراءة ابن عباس رضي الله عنهما والله يشهد على ما في قلبه على ان كلمة على لكون المشهود به مضرا
له فالجملة اعتراضية وقرئ ويستشهد الله وهو الد الخصام اي شديد العداوة
والخصومة للمسلمين على ان الخصام مصدر واضافة الالد اليه بمعنى في كقولهم ثبت
الغدر او اشد الخصوم لهم خصومة على انه جمع خصم كصعب وصعاب قيل نزلت في الاخنس
بن شريق الثقفي وكان حسن المنظر حلو المنطق يوالي رسول الله صلى الله عليه وسلم و
يدعي الاسلام والمحبة وقيل في المنافقين والجملة حال من الضمير المجرور في قوله او من
المستكن في يشهد وعطف على ما قبلها على القراءتين المتوسطتين واذا تولى اي من
مجلسك وقيل اذا صار واليا سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل
كما فعله الاخنس بثقيف حيث بيتهم واحرق زروعهم واهلك مواشيهم او كما يفعله
ولاة السوء بالقتل والاتلاف او بالظلم حتى يمنع الله تعالى بشؤمه القطر فيهلك الحرث
والنسل وقرئ ويهلك الحرث والنسل على اسناد الهلاك اليهما عطفا على سعى وقرئ
بفتح اللام وهي لغة وقرئ على البناء للمفعول من الاهلاك والله لا يحب الفساد
اي لا يرتضيه ويبغضه ويغضب على من يتعاطاه وهو اعتراض تذييلي واذا قيل له
على وجه العظة والنصيحة اتق الله واترك ما باشرته من الفساد والنفاق واحذر
سوء مغبته اخذته العزة بالاثم حملته الانفة وحمية الجاهلية على الاثم
الذي نهي عنه لجاجا وعنادا من قولك اخذته بكذا اذا حملته عليه والزمته اياه
فحسبه جهنم مبتدأ وخبر اي كافيه جهنم وقيل جهنم فاعل لحسبه ساد مسد
خبره وهو مصدر بمعنى الفاعل وقوي لاعتماده على الفاء الرابطة للجملة بما قبلها وقيل
حسب اسم فعل ماض اي كفته جهنم ولبئس المهاد جواب قسم مقدر والمخصوص بالذم
محذوف لظهوره وتعينه والمهاد الفراش وقيل ما يوطأ للجنب والجملة اعتراض
ومن الناس من يشري نفسه مبتدأ وخبر كما مر اي يبيعها يبذلها في الجهاد و
مشاق الطاعات وتعريضها للمهالك في الحروب ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر
وان ترتب عليه القتل ابتغاء مرضات الله اي طلبا لرضاه وهذا كمال التقوى
وايراده قسيما للاول من حيث ان ذلك يأنف من الامر بالتقوى وهذا يأمر بذلك
وان ادى الى الهلاك وقيل نزلت في صهيب بن سنان الرومي اخذه المشركون
وعذبوه ليرتد فقال اني شيخ كبير ان كنت معكم لم انفعكم وان كنت عليكم لم اضركم
فخلوني وما انا عليه وخذوا مالي فقبلوا منه ماله فاتى المدينة فيشري ح بمعنى يشتري
لجريان الحال على صورة الشرى والله رؤوف بالعباد ولذلك يكلفهم التقوى
ويعرضهم للثواب والجملة اعتراض تذييلي يا ايها الذين آمنوا ادخلوا في السلم
اي الاستسلام والطاعة وقيل الاسلام وقرئ بفتح السين وهي لغة فيه وبفتح اللام
ايضا وقوله تعالى كافة حال من الضمير في ادخلوا او من السلم او منهما معا كما في
قوله خرجت بها تمشي تجر وراءنا على اثرينا ذيل مرط مرحل وهي في الاصل اسم للجماعة
تكف مخالفها ثم استعملت في معنى جميعا وتاؤها ليست للتأنيث حتى يحتاج الى جعل
السلم مؤنثا مثل الحرب كما في قوله عز وجل وان جنحوا للسلم فاجنح لها وفي قوله
السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب يكفيك من انفاسها جرع وانما هي للنقل كما
في عامة وخاصة وقاطبة والمعنى استسلموا لله تعالى واطيعوه جملة ظاهرا و
باطنا والخطاب للمنافقين او ادخلوا في الاسلام بكليته ولا تخلطوا به غيره والخطاب لمؤمني
اهل الكتاب فانهم كانوا يراعون بعض احكام دينهم القديم بعد اسلامهم او في
شرائع الله تعالى كلها بالايمان بالانبياء والكتب جميعا والخطاب لاهل الكتاب كلهم
ووصفهم بالايمان اما على طريقة التغليب واما بالنظر الى ايمانهم القديم او في
شعب الاسلام واحكامه كلها فلا تخلوا بشيء منها والخطاب للمسلمين وانما
خوطب اهل الكتاب بعنوان الايمان مع انه لا يصح الايمان الا بما كلفوه الآن

ايذانا بان ما يدعون لا يتم بدونه ولا تتبعوا خطوات الشيطان بالتفرق والتفريق او مخالفة
ما امرتم به انه لكم عدو مبين ظاهر العداوة او مظهر لها وهو تعليل للنهي او الانتهاء
فان زللتم اي عن الدخول في السلم وقرئ بكسر اللام وهي لغة فيه فاعلموا ان الله
عزيز غالب على امره لا يعجزه الانتقام منكم حكيم لا يترك ما يقتضيه الحكمة من
مؤاخذة المجرمين المستعصين على اوامره هل ينظرون استفهام انكاري في معنى النفي
اي ما ينتظرون بما يفعلون من العناد والمخالفة في الامتثال بما امروا به والانتهاء عما
نهوا عنه الا ان يأتيهم الله اي امره وبأسه او يأتيهم الله بامره وبأسه فحذف المأتي
به لدلالة الحال عليه والالتفات الى الغيبة للايذان بان سوء صنيعهم موجب للاعراض عنهم
وحكاية جناياتهم لمن عداهم من اهل الانصاف على طريق المباثة وايراد الانتظار
للاشعار بانهم لانهماكهم فيما هم فيه من موجبات العقوبة كانهم طالبون لها
مترقبون لوقوعها في ظلل جمع ظلة كقلل في جمع قلة وهي ما اظلك وقرئ في ظلال
كقلال في جمع قلة من الغمام اي السحاب الابيض وانما اتاهم العذاب فيه مظنة
الرحمة فاذا اتى منه العذاب كان افظع واقطع للمطامع فان اتيان الشر من حيث لا
يحتسب صعب فكيف باتيانه من حيث يرجى منه الخير والملائكة عطف على الاسم الجليل و
يأتيهم الملائكة فانهم وسائط في اتيان امره تعالى بل هم الاتون ببأسه على الحقيقة وتوسيط
الظرف بينهما للايذان بان الاتي اولا من جنس ما يلابس الغمام ويترتب عليه عادة واما
الملائكة وان كان اتيانهم مقارنا لما ذكر من الغمام لكن ذلك ليس بطريق الاعتبار وقرئ
بالجر عطفا على ظلل والغمام وقضي الامر اي اتم امر اهلاكهم وفرغ منه وهو
عطف على يأتيهم داخل في حيز الانتظار وانما عدل الى صيغة الماضي دلالة على تحققه
فكانه قد كان او جملة مستأنفة جيء بها انباء عن وقوع مضمونها وقرئ وقضاء الامر
عطفا على الملائكة والى الله لا الى غيره ترجع الامور بالتانيث على البناء للمفعول
من الرجوع وقرئ بالتذكير وعلى البناء للفاعل بالتانيث من الرجوع سل بني اسرائيل
الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل احد من اهل الخطاب والمراد بالسؤال
تبكيتهم وتقريعهم بذلك او تقرير لمجيء البينات كم اتيناهم من اية
بينة معجزة ظاهرة على ايدي الانبياء عليهم السلام واية ناطقة بحقية
الاسلام المامور بالدخول فيه وكم خبرية او استفهامية مقررة ومحلها
النصب على المفعولية او الرفع بالابتداء على حذف العائد من الخبر واية مميزها
ومن يبدل نعمة الله التي هي اياته الباهرة فانها سبب للهدى الذي هو اجل
النعم وتبديلها جعلها سببا للضلالة وازدياد الرجس او تحريفها او تأويلها
الزائغ من بعد ما جاءته اي وصلت اليه وتمكن من معرفتها والتصريح بذلك
التبديل بتصوير قبل المجيء للاشعار بانهم قد بدلوها بعد ما وقفوا على تفاصيلها
كما في قوله عز وجل ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون وقيل تقديره فبدلوها
ومن يبدل وانما حذف للايذان بعدم الحاجة الى التصريح به لظهوره فان الله
شديد العقاب تعليل للجواب كانه قيل ومن يبدل نعمة الله عاقبه اشد عقوبة
فانه شديد العقاب واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال الروعة زين
للذين كفروا الحيوة الدنيا اي حسنت في اعينهم واشربت محبتها في قلوبهم حتى
تهالكوا عليها وتهافتوا فيها معرضين عن غيرها والتزيين من حيث الخلق والايجاد
مستند الى الله تعالى كما يعرب عنه القراءة على البناء للفاعل اذ ما من شيء الا وهو خالقه
ولكل من الشيطان والقوى الحيوانية وما في الدنيا من الامور البهية والاشياء المشتهية تزيين
بالعرض ويسخرون من الذين امنوا عطف على زين وايثار صيغة الاستقبال
للدلالة على استمرار السخرية منهم وهم فقراء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب كانوا
يسترذلونهم ويستهزءون بهم على رفضهم الدنيا واقبالهم على العقبى ومن
ابتدائية فكانهم جعلوا السخرية مبتدئة منهم والذين اتقوا هم الذين امنوا

بعينهم

بعينهم وانما ذكروا بعنوان التقوى للايذان بان اعراضهم عن الدنيا للاتقاء عنها لكونها
مخلة بتبتلهم الى جناب القدس شاغلة عنه فوقهم يوم القيمة لانهم في اعلى عليين
وهم في اسفل سافلين او لانهم في اوج الكرامة وهم في حضيض الذل والمهانة او
لانهم يتطاولون عليهم في الاخرة فيسخرون منهم كما سخروا منهم في الدنيا والجملة معطوفة
على ما قبلها وايثار الاسمية للدلالة على دوام مضمونها والله يرزق من يشاء اي
في الدارين بغير حساب بغير تقدير فيوسع في الدنيا استدراجا تارة وابتلاء اخرى
كان الناس امة واحدة متفقين على كلمة الحق ودين الاسلام وكان ذلك بين ادم
وادريس او نوح عليهم السلام او بعد الطوفان فبعث الله النبيين اي فاختلفوا الخ
وهي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه وقد حذف تعويلا على ما يذكر عقيبه مبشرين ومنذرين
عن كعب الذي علمته عن عدد الانبياء عليهم السلام مائة واربعة وعشرون الفا والمرسل
منهم ثلثمائة وثلثة عشر والمذكور في القران ثمانية وعشرون وقيل كان الناس
امة واحدة متفقة على الكفر والضلال في فترة ادريس او نوح فبعث الله النبيين فاختلفوا
عليهم والاول هو الانسب بالنظم الكريم وانزل معهم الكتاب اي جنس الكتاب او
مع كل واحد منهم ممن له كتاب كتابه الخاص به لا مع كل واحد منهم على الاطلاق اذ
لم يكن لبعضهم كتاب وانما كانوا يأخذون بكتب من قبلهم وعموم النبيين لا ينافي خصوص
الضمير العائد اليه بمعونة المقام بالحق حال من الكتاب اي ملتبسا بالحق او متعلق بانزل
كقوله عز وعلا وبالحق انزلناه وبالحق نزل ليحكم اي الكتاب او الله سبحانه وتعالى
او كل واحد من النبيين بين الناس اي المذكورين والاظهار في موقع الاضمار لزيادة
التعيين فيما اختلفوا فيه اي في الحق الذي اختلفوا فيه او فيما التبس عليهم وما اختلف
فيه اي في الحق او في الكتاب المنزل ملتبسا به والواو حالية الا الذين اوتوه اي الكتاب
المنزل لازالة الاختلاف وازاحة الشقاق والتعبير عن الانزال بالايتاء للتنبيه من اول
الامر على كمال تمكنهم من الوقوف على ما في تضاعيفه من الحق فان الانزال لا يفيد تلك
الفائدة اي عكسوا الامر حيث جعلوا ما انزل لازالة الاختلاف سببا لاستحكامه ورسوخه
من بعد ما جاءتهم البينات اي رسخت في عقولهم ومن متعلقة بمحذوف يدل
عليه الكلام اي فاختلفوا وما اختلف فيه الخ وقيل بالملفوظ بناء على عدم منع الا عنه
كما في قولك ما قام الا زيد يوم الجمعة بغيا بينهم متعلق بما تعلقت به من اي اختلفوا
بغيا وتهالكا على الدنيا فهدى الله الذين امنوا بالكتاب لما اختلفوا فيه اي للحق الذي
اختلف فيه من اختلف من الحق بيان لما وفي ابهامه اولا وتفسيره ثانيا ما لا يخفى
من التفخيم باذنه بامره او بتيسيره ولطفه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم موصل الى
الحق وهو اعتراض مقرر لمضمون ما سبق ام حسبتم خوطب به رسول الله صلى الله عليه
وسلم ومن معه من المؤمنين حثا لهم على الثبات على المصابرة على مخالفة الكفرة وتحمل
المشاق من جهتهم اثر بيان اختلاف الامم على الانبياء عليهم السلام وقد بين فيه مآل
اختلافهم وما لقي الانبياء ومن معهم من قبلهم من مكابدة الشدائد ومقاساة الهموم وان عاقبة
امرهم النصر وام منقطعة والهمزة فيها للانكار والاستبعاد اي بل احسبتم ان تدخلوا
الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم من الانبياء ومن معهم من المؤمنين
اي والحال انه لم يأتكم مثلهم بعد ولم تبتلوا بما ابتلوا به من الاحوال الهائلة التي هي مثل
في الفظاعة والشدة وهو متوقع ومنتظر مستهم استئناف وقع جوابا عما ينساق
اليه الذهن كانه قيل كيف كان مثلهم فقيل مستهم الباساء اي الشدة من الخوف
والفاقة والضراء اي الالام والامراض وزلزلوا اي ازعجوا ازعاجا شديدا بما
دهمهم من الاهوال والافزاع حتى يقول الرسول والذين امنوا معه اي انتهى امرهم من
الشدة الى حيث اضطرهم الضجر الى ان يقول الرسول وهو اعلم الناس بشؤن الله تعالى
واوثقهم بنصره والمؤمنون المقتدون باثاره المستضيئون بانواره متى اي متى يأتي
نصر الله طلبا وتمنيا واستطالة لمدة الشدة والعناء وقرئ حتى يقول بالرفع على انه

حكاية حال ماضية وهذا كما ترى غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية كيف لا والرسل
مع علو كعبهم في الثبات والاصطبار حيث عيل صبرهم وبلغوا هذا المبلغ من الضجر والضجيج
علم ان الامر بلغ الى غاية لا مطمح وراءها الا ان نصر الله قريب على تقدير القول اي
فقيل لهم حينئذ ذلك اسعافا لمرامهم والمراد بالقرب القرب الزماني وفي ايثار الجملة الاسمية على
الفعلية المناسبة لما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه والتاكيد من الدلالة على تحقق
مضمونها وتقرره ما لا يخفى واختيار حكاية الوعد بالنصر لما انها في حكم انشاء الوعد
لرسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتصار على حكايتها دون حكاية نفس النصر مع تحققه
للايذان بعدم الحاجة اليه لاستحالة الخلف ويجوز ان يكون هذا واردا من جهته تعالى
عند الحكاية على نهج الاعتراض لا واردا عند وقوع المحكي وفيه رمز الى ان الوصول الى جناب
القدس لا يتسنى الا برفض اللذات ومكابدة المشاق كما ينبئ عنه قوله عليه السلام حفت
الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات يسئلونك ماذا ينفقون اي من اصناف
اموالهم قل ما انفقتم من خير ما اما شرطية واما موصولة حذف العائد اليها اي
ما انفقتموه من خير اي خير كان ففيه تجويز الانفاق من جميع انواع الاموال وبيان لما
في السؤال الا انه جعل من جملة ما في حيز الشرط او الصلة وابرز في معرض البيان المصرف
حيث قيل فللوالدين والاقربين للايذان بان الاهم بيان المصارف المعدودة
لان الاعتداد بالانفاق بحسب وقوعه وعن ابن عباس رضي الله عنهما انه جاء عمرو بن
الجموح وهو شيخ هرم له مال عظيم فقال يا رسول الله ماذا ننفق من اموالنا واين نضعها
فنزلت واليتامى اي المحتاجين منهم والمساكين وابن السبيل ولم يتعرض للسائلين
والرقاب اما اكتفاء بما ذكر في المواقع الاخر واما بناء على دخولهم تحت عموم قوله تعالى وما
تفعلوا من خير فانه شامل لكل خير واقع في اي مصرف كان فان الله به عليم فيوفي
ثوابه وليس في الاية ما ينافيه فرض الزكوة لينسخ به كما نقل عن السدي كتب عليكم
القتال ببناء الفعل للمفعول ورفع القتال اي قتال الكفرة وقرئ ببنائه للفاعل وهو الله
عز وجل ونصب القتال وقرئ عليكم القتل الكفرة والواو في قوله تعالى وهو كره لكم
حالية اي والحال انه مكروه لكم طبعا على ان الكره مصدر وصف به المفعول مبالغة او بمعنى
المفعول كالخبز بمعنى المخبوز وقرئ بالفتح على انه بمعنى المضموم كالضعف والضعف او على انه
بمعنى الاكراه مجازا كانهم اكرهوا عليه لشدة كراهتهم له ومشقته عليهم وعسى ان تكرهوا
شيئا وهو خير لكم وهو جميع ما كلفوه من الامور الشاقة التي من جملتها القتال
فان النفوس تكرهه وتنفر عنه والجملة اعتراضية دالة على ان في القتال خيرا لهم وعسى
ان تحبوا شيئا وهو شر لكم وهو جميع ما نهوا عنه من الامور المستلذة وهو معطوف
على ما قبله لا محل لها من الاعراب والله يعلم ما هو خير لكم فلذلك يأمركم
به وانتم لا تعلمون اي لا تعلمونه ولذلك تكرهونه او والله يعلم ما هو خير وشر لكم
وانتم لا تعلمونهما فلا تتبعوا في ذلك رايكم وامتثلوا بامره تعالى يسئلونك عن الشهر الحرام
روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن جحش على سرية في جمادى الاخرة
قبل قتال بدر بشهرين ليترصدوا عيرا لقريش فيهم عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه
فقتلوه واسروا اثنين واستاقوا العير بما فيها من تجارة الطائف وكان ذلك اول يوم
من رجب وهم يظنونه من جمادى الاخرة فقالت قريش قد استحل محمد الشهر الحرام شهرا يامن
فيه الخائف ويبذعر فيه الناس الى معايشهم فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم العير وعظم
ذلك على اصحاب السرية وقالوا ما نبرح حتى تنزل توبتنا ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم العير
والاسارى وعن ابن عباس رضي الله عنه لما نزلت اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنيمة و
المعنى يسئلك الكفار او المسلمون عن القتال في الشهر الحرام على ان قوله تعالى قتال فيه
بدل الاشتمال من الشهر وتنكيره لما ان سؤالهم كان عن مطلق القتال الواقع في الشهر الحرام
لا عن القتال المعهود ولذلك لم يقل يسئلونك عن القتال في الشهر الحرام وقرئ عن قتال
فيه بتكرير العامل كما في قوله تعالى للذين استضعفوا لمن امن منهم وقرئ قتل فيه قل في جوابهم

قتال

قتال فيه كبير جملة من مبتدأ وخبر محلها النصب بقل وانما جاز وقوع قتال مبتدأ مع كونه
نكرة لتخصصه اما بالوصف ان تعلق الظرف بمحذوف وقع صفة له اي قتال كائن فيه
واما بالعمل ان تعلق به وانما اوثر التنكير احترازا عن توهم التعيين وايذانا بان المراد
مطلق القتال الواقع فيه اي قتال كان عن عطاء انه سئل عن القتال في الشهر الحرام فحلف
بالله ما يحل للناس ان يغزوا في الحرم ولا في الشهر الحرام الا ان يقاتلوا فيه وما نسخت واكثر
الاقاويل على انها منسوخة بقوله تعالى فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وصد عن سبيل
الله مبتدأ قد تخصص بالعمل فيما بعده اي ومنع عن الاسلام الموصل للعبد الى الله
تعالى وكفر به عطف على صد عامل فيما بعده مثله اي وكفر المذكور ولا يحسن عطف
قوله تعالى والمسجد الحرام على سبيل الله تعالى لانه ليس باجنبي محض وقيل هو ايضا
معطوف على صد بتقدير المضاف اي وصد المسجد الحرام واخراج اهله وهو النبي
صلى الله عليه وسلم والمؤمنون منه اي المسجد الحرام وهو عطف على وكفر به اكبر
عند الله خبر للاشياء المعدودة كبائر السائلين اكبر عند الله مما عنوا بالسؤال
وهو ما فعلته السرية خطاء وبناء على الظن وافعل يستوي فيه الواحد والجمع المذكر
والمؤنث والفتنة اي ما ارتكبوه من الاخراج والشرك وصد الناس عن الاسلام
ابتداء وبقاء اكبر من القتل اي افظع من قتل الحضرمي ولا يزالون يقاتلونكم
بيان لاستحكام عداوتهم واصرارهم على الفتنة في الدين حتى يردوكم عن دينكم
الحق الى دينهم الباطل واضافة الدين اليهم لتذكير تاكد ما بينهما من العلاقة الموجبة
لامتناع الافتراق ان استطاعوا اشارة الى تصلبهم في الدين وثبات قدمهم فيه
كانه قيل وانى لهم ذلك ومن يرتدد منكم عن دينه تحذير من الارتداد
اي ومن يفعل ذلك باضلالهم واغوائهم فيمت وهو كافر بان لم يرجع الى الاسلام
وفيه ترغيب في الرجوع الى الاسلام بعد الارتداد فاولئك اشارة
الى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة من الارتداد والموت عليه وما فيه
من معنى البعد للاشعار ببعد منزلتهم في الشر والفساد والجمع للنظر الى المعنى اي اولئك
المصرون على الارتداد الى حين الموت حبطت اعمالهم الحسنة التي كانوا عملوها
في حالة الاسلام حبوطا لا تلافي له قطعا في الدنيا والاخرة بحيث لم يبق
لها حكم من الاحكام الدنيوية والاخروية واولئك الموصوفون بما ذكر سابقا
ولاحقا من القبائح اصحاب النار اي ملابسوها وملازموها هم فيها
خالدون كدأب سائر الكفرة ان الذين امنوا نزلت في اصحاب السرية لما ظن
بهم انهم ان سلموا من الاثم فلا اجر لهم والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل
الله كرر الموصول مع ان المراد بهما واحد لتفخيم شان الهجرة والجهاد فكانهما مستقلان
في تحقيق الرجاء اولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة يرجون بما
لهم من مبادي الفوز رحمت الله اي ثوابه اثبت لهم الرجاء دون الفوز
بالمرجو للايذان بانهم عالمون بان العمل غير موجب للاجر وانما هو على طريق التفضل
منه سبحانه لا لان في فوزهم اشتباها والله غفور مبالغ في مغفرة ما فرط
من عباده خطاء رحيم يجزل لهم الاجر والثواب والجملة اعتراض محقق
لمضمون ما قبلها ويسئلونك عن الخمر والميسر تواردت في شان الخمر اربع ايات
نزلت بمكة ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا فطفق
المسلمون يشربونها ثم ان عمر رضي الله عنه ومعاذا ونفرا من الصحابة رضوان الله عليهم
اجمعين قالوا افتنا يا رسول الله في الخمر فانها مذهبة للعقل فنزلت هذه الاية فشربها
قوم وتركها اخرون ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسا منهم فشربوا فسكروا فام
احدهم فقرأ قل يا ايها الكافرون اعبد ما تعبدون فنزلت لا تقربوا الصلوة وانتم
سكارى الاية فقل من يشربها ثم دعا عتبان بن مالك سعد بن وقاص في نفر فلما سكروا
تفاخروا وتناشدوا حتى انشد سعد شعرا فيه هجاء الانصار فضربه انصاري

بلى بعير فشجه موضحة فشكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم بين لنا في الخمر
بيانا شافيا فنزلت انما الخمر والميسر الى قوله فهل انتم منتهون فقال عمر رضي الله عنه انتهينا
يا رب وعن علي رضي الله عنه لو وقعت قطرة منها في بئر فبنيت في مكانها منارة لم أؤذن
عليها ولو وقعت في بحر ثم جف فنبت فيه الكلأ لم ارعه وعن ابن عمر رضي الله عنه لو
ادخلت اصبعي فيها لم تتبعني وهذا هو الايمان والتقى حقا رضي الله تعالى عليهم
اجمعين والخمر مصدر خمره اي ستره سمي به من عصير العنب ما غلى واشتد وقذف
بالزبد لتغطيتها العقل والتمييز كانها نفس الستر كما سميت سكرا لانها تسكرهما
اي تحجزهما والميسر مصدر ميمي من يسر كالموعد والمرجع يقال يسرته اذا قمرته
واشتقاقه اما من اليسر لانه اخذ المال من غير كد وتعب واما من اليسار
لانه سلب له وصفته انه كانت لهم عشرة اقداح هي الازلام والاقلام والفذ
والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد
لكل منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزئونها عشرة اجزاء وقيل
ثمانية وعشرين الا لثلاثة هي المنيح والسفيح والوغد للفذ سهم وللتوأم سهمان
وللرقيب ثلاثة وللحلس اربعة وللنافس خمسة وللمسبل ستة وللمعلى سبعة
يجعلونها في الربابة وهي خريطة ويضعونها على يدي عدل ثم يجلجلها ويدخل
يده فيخرج باسم رجل قدحا قدحا فمن خرج له قدح من ذوات الانصباء اخذ النصيب
المعين لها ومن خرج له من تلك الثلاثة غرم ثمن الجزور مع حرمانه وكانوا يدفعون
تلك الانصباء الى الفقراء ولا ياكلون منها ويفتخرون بذلك ويذمون من لا يدخل
فيه ويسمونه البرم وفي حكمه جميع انواع القمار من النرد والشطرنج وغيرهما
وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم وهاتين اللعبتين المشؤومتين فانهما ميسر
العجم وعن علي كرم الله وجهه ان النرد والشطرنج من الميسر وعن ابن سيرين كل
شيء فيه خطر فهو من الميسر والمعنى يسألونك عن حكمهما وعما في تعاطيهما قل فيهما
اثم كبير اي تعاطيهما ذلك لما ان الاول مسلبة للعقول التي هي قطب الدين والدنيا
مع كون كل منهما متلفة للاموال ومنافع للناس من كسب الطرب والتلذذ و
مصاحبة الفتيان وتشجيع الجبان وتقوية الطبيعة وقرئ اثم كثير بالمثلثة وفي تقديم
بيان اثمه ووصفه بالكبر وتأخير ذكر منافعه مع تخصيصها بالناس من الدلالة
على غلبة الاول ما لا يخفى على ما نطق به قوله تعالى واثمهما اكبر من نفعهما اي المفاسد
المترتبة على تعاطيهما اعظم من الفوائد المترتبة عليه وقرئ اقرب من نفعهما ويسألونك
ماذا ينفقون عطف على يسألونك عن الخمر الخ عطف القصة على القصة اي اي شيء
ينفقونه قيل سائله ايضا عمرو بن الجموح سأل اولا عن اي جنس ينفق من اجناس
الاموال فلما بين جواز الانفاق من جميع الاجناس سأل ثانيا من اي اصنافها ينفق
امن خيارها ام من غيرها او سأل عن مقدار ما ينفقه فقيل قل العفو بالنصب
اي ينفقون العفو او انفقوا العفو وقرئ بالرفع على ان ما استفهامية وذا موصولة
صلتها ينفقون اي الذي ينفقونه العفو قال الواحدي اصل العفو في اللغة الزيادة
وقال القفال العفو ما تسهل وتيسر مما فضل من الكفاية وهو قول قتادة و
عطاء والسدي وكانت الصحابة رضوان الله تعالى عليهم اجمعين يكسبون المال ويمسكون قدر
النفقة ويتصدقون بالفضل وروي ان رجلا اتى النبي صلى الله عليه وسلم ببيضة من ذهب
اصابها في بعض المغانم فقال خذها مني صدقة فاعرض عنه فكرر ذلك مرارا حتى
قال عليه السلام مغضبا هاتها فاخذها فحذفها عليه حذفا لو اصابته لشجته ثم قال
يأتي احدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس انما الصدقة عن ظهر غنى كذلك
اشارة الى مصدر الفعل الآتي وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه
في الفضل وكمال تميزه وانتظامه بسبب ذلك في سلك الامور المشاهدة والكاف لتأكيد
ما افاده اسم الاشارة من الفخامة وافراد حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين باعتبار القبيل

ذهب

او الفريق

او الفريق او لعدم القصد الى تعيين المخاطب كما مر ومحل النصب على انه نعت لمصدر محذوف
اي مثل ذلك البيان الواضح الذي هو عبارة عما مضى في اجوبة الاسئلة السابقة
يبين الله لكم الآيات الدالة على الاحكام الشرعية المذكورة لا بيانا ادنى منه وقد
مر تمام تحقيقه في قوله تعالى وكذلك جعلناكم امة وسطا وتبيين الآيات تنزيلها مبينة
المحتوى واضحة المدلول لانه تعالى يبينها بعد ان كانت مشتبهة ملتبسة وصيغة الاستقبال
لاستحضار الصورة لعلكم تتفكرون لكي تتفكروا فيها وتقفوا على مقاصدها و
تعملوا بما في تضاعيفها وقوله تعالى في الدنيا والآخرة متعلق اما بيبين اي يبين لكم
فيما يتعلق بالدنيا والآخرة الآيات واما بمحذوف وقع حالا من الآيات اي يبينها لكم
كائنة فيهما اي مبينة لاحوالكم المتعلقة بهما وانما قدم عليه التعليل لمزيد الاعتناء
بشأن التفكر واما بقوله تعالى تتفكرون اي تتفكرون في الامور المتعلقة بالدنيا والآخرة
في الاحكام الواردة في اجوبة الاسئلة السابقة فتختارون منها ما يصلح لكم
فيهما وتجتنبون عن غيره وهذا تخصيص المناسب للمقام تعدادا للاحكام الجزئية و
يجوز التعميم لجميع الامور المتعلقة بالدنيا والآخرة فذلك حينئذ اشارة الى ما مر
من البيانات كلا او بعضا لا الى مصدر ما بعده فانه حينئذ فعل مستقل ليس بعبارة عن تلك
البيانات والمراد بالآيات غير ما ذكر والمعنى مثل ذلك البيان الوارد في الاجوبة المذكورة
يبين الله لكم الآيات والدلائل لعلكم تتفكرون في اموركم المتعلقة بالدنيا والآخرة
وتأخذون بما يصلح لكم فيهما وتذرون ما يضركم حسبما يقتضيه تلك الآيات المبينة
ويسألونك عن اليتامى عطف على ما قبله من نظيره روي انه لما نزلت ان
الذين ياكلون اموال اليتامى ظلما الآية تجافى الناس عن مخالطة اليتامى وتعهد اموالهم
فشق عليهم ذلك فذكروه للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت قل اصلاح لهم خير
اي التعرض لاحوالهم واموالهم على طريق الاصلاح خير من مجانبتهم اتقاء وان تخالطوهم
وتعاشروهم على وجه ينفعهم فاخوانكم اي فهم اخوانكم
اي في الدين هو اقوى من العلاقة النسبية ومن حقوق الاخوة ومواجبها المخالطة
بالاصلاح والنفع وقد حمل المخالطة على المصاهرة والله يعلم المفسد من
المصلح العلم بمعنى المعرفة المتعدية الى واحد لتضمينه معنى التمييز اي يعلم من يفسد
في امورهم عند المخالطة او من يقصد بمخالطته الخيانة والافساد مميزا له ممن
يصلح فيها او يقصد الاصلاح فيجازي كلا منهما بعمله ففيه وعد ووعيد خلا
ان في تقديم المفسد مزيد تهديد وتأكيد للوعيد ولو شاء الله لاعنتكم
اي لو شاء ان يعنتكم اي يكلفكم ما يشق عليكم من العنت وهو المشقة لفعل ولم
يجوز لكم مداخلتهم ان الله عزيز غالب على امره لا يعز عليه امر من الامور
التي من جملتها اعناتكم فهو تعليل لمضمون الشرطية وقوله عز وعلا حكيم اي
فاعل للافعال حسبما تقتضيه الحكمة الداعية الى بناء التكليف على اساس الطاقة دليل
على ما يفيده كلمة لو من انتفاء مقدمها ولا تنكحوا المشركات اي لا تتزوجوهن
وقرئ بضم التاء من الانكاح اي لا تزوجوهن من المسلمين حتى يؤمن و
المراد بهن اما ما يعم الكتابيات ايضا حسبما يقتضيه عموم التعليل الآتي
لقوله تعالى وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله الى قوله
سبحانه عما يشركون فالآية منسوخة بقوله تعالى والمحصنات من الذين اوتوا
الكتاب من قبلكم واما غير الكتابيات فهي ثابتة وروي ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم بعث مرثد بن ابي مرثد الغنوي الى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين
وكان يهوى امرأة في الجاهلية اسمها عناق فاتته فقالت الا تخلو
فقال ويحك ان الاسلام حال بيننا فقالت هل لك ان تتزوج بي قال نعم ولكن
ارجع الى النبي صلى الله عليه وسلم فاستأمره فنزلت ولأمة
مؤمنة تعليل للنهي عن مواصلتهن وترغيب في مواصلة المؤمنات صدر باللام

الابتداء الشبهة بلام القسم في افادة التاكيد مبالغة في الحمل على الانزجار واصل امة
امو حذف لامها على غير قياس وعوض منه تاء تانيث ودليل كون لامها واوا
رجوعها في الجمع قال الكلابي اما الاماء فلا يدعونني ولدا اذا تداعي بنو الاموات
بالعار وظهورها بالمصدر يقال هي امة بينة الاموة واقرت له بالاموة وقد
وقعت مبتدأ لما فيها من معنى الابتداء والوصف اي ولامة مؤمنة مع ما بها
من خساسة الرق وقلة الخطر خير بحسب الدين والدنيا من مشركة اي
امراة مشركة مع ما لها من شرف الحرية ورفعة الشان ولو اعجبتكم
قد مر ان كلمة لو في امثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاء الشيء في الماضي لانتفاء
غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما قبلها عليه مع انصباب المعنى
على تقديره بل هي لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم على كل حال مفروض من
الاحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على ابعدها منه واشدها منافاة له
ليظهر بثبوته معه ثبوته مع ما عداه من الاحوال بطريق الاولوية لما ان الشيء متى تحقق
مع المنافي القوي فلان يتحقق مع غيره اولى ولذلك لا يذكر معه شيء من سائر
الاحوال ويكتفي عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لجميع الاحوال
المغايرة لها وهذا معنى قولهم انها لاستقصاء الاحوال على وجه الاجمال كانه قيل
لو لم تعجبكم ولو اعجبتكم والجملة في حيز النصب على الحالية من مشركة اذ المراد والامة مؤمنة
خير من امراة مشركة حال عدم اعجابها وحال اعجابها اياكم بجمالها ونسبها وبغير
ذلك من مبادي الاعجاب وموجبات الرغبة فيها اي على كل حال وقد اقتصر على ذكر ما
هو اشد منافاة للخيرية تنبيها على انها حيث تحققت معه فلان تتحقق مع غيره اولى
وقيل الواو حالية وليس بواضح وقيل اعتراضية وليس بسديد والحق انها عاطفة
مستتبعة لما ذكر من الاعتبار اللطيف نعم يجوز ان يكون للجملة الاولى مع ما عطف
عليها مستانفة مقررة لمضمون ما قبلها ولا تنكحوا المشركين من الانكاح والمراد بهم
الكفار على الاطلاق لما مر اي لا تزوجوا منهم المؤمنات سواء كن حرائر واماء حتى
يؤمنوا ويتركوا ما هم فيه من الكفر ولعبد مؤمن مع ما به من ذل المملوكية
خير من مشرك مع ما له من عز المالكية ولو اعجبكم بما فيه من دواعي الرغبة
فيه الراجعة الى ذاته وصفاته اولئك استئناف مقرر لمضمون التعليلين
الماضيين اي اولئك المذكورون من المشركات والمشركين يدعون من يقارنهم
ويباشرهم [الى النار] والله يدعو بواسطة عباده المؤمنين من يقارنهم الى الجنة
والمغفرة اي الاعتقاد الحق والعمل الصالح الموصلين وتقديم الجنة على المغفرة
مع ان حق التخلية ان تقدم على التحلية لرعاية مقابلة النار ابتداء باذنه
متعلق بيدعو اي يدعو ملتبسا بتوفيقه الذي من جملته ارشاد المؤمنين
لمقارنتهم الى الخير ونصيحتهم اياهم فهم احقاء بالمواصلة ويبين اياته
المشتملة على الاحكام الفائقة والحكم الرائقة للناس لعلهم يتذكرون
اي لكي يتذكروا ويعملوا بما فيها فيفوزوا بما دعوا اليه من الجنة والغفران هذا وقد
قيل معناه والله يدعو اولياء الله يدعون وهم المؤمنون على حذف المضاف
واقامة المضاف اليه مقامه تشريفا لهم وانت خبير بان الضمير في المعطوف
على الخبر اعني قوله تعالى ويبين الله تعالى فيلزم التفكيك وقيل معناه والله يدعو
باحكامه المذكورة الى الجنة والمغفرة فانها موصلة فمن عمل بها اليهما وهذا وان
كان مستقيما لاتحاد مرجع الضميرين الكائنين في الجملتين المتعاطفتين الواقعتين
خبرا للمبتدأ لكن يفوت حسن المقابلة بينه وبين قوله تعالى اولئك يدعون
الى النار ولعل الطريق الاسلم ما اوضحناه اولا وايراد التذكر ههنا للاشعار
بانه واضح لا يحتاج الى التفكر في الاحكام السابقة ويسئلونك عن المحيض
عطف على ما تقدم من مثله ولعل حكاية هذه الاسولة الثلثة بالعطف لوقوع الكل

عند

عند السؤال عن الخمر وحكاية ما عداها بغير عطف لوقوع كل من ذلك في وقت على حدة والمحيض
مصدر من حاضت المراة كالمجيء والمبيت روي ان الجاهلية لا يساكنون الحيض ولا يؤاكلوهن
كداب اليهود والمجوس واستمر الناس على ذلك الى ان سأل عن ذلك ابو الدحداح في نفر من
الصحابة رضوان الله تعالى عليهم اجمعين فنزلت قل هو اذى اي شيء يستقذر منه و
يؤذي من يقربه منه وكراهة فاعتزلوا النساء في المحيض اي فاجتنبوا مجامعتهن في حالة
الحيض قيل اخذ المسلمون بظاهر الاعتزال فاخرجوهن من بيوتهم فقال ناس من الاعراب
يا رسول الله البرد الشديد والثياب قليلة فان اثرناهن هلك سائر اهل البيت وان
استاثرنا هلكت الحيض فقال صلى الله عليه وسلم انما امرتم ان تعتزلوا مجامعتهن
اذا حضن ولم يامركم باخراجهن من البيوت كفعل الاعاجم وقيل ان النصارى
كانوا يجامعوهن ولا يبالون بالحيض واليهود كانوا يفرطون في الاعتزال فامر المسلمون
بالاقتصاد بين الامرين ولا تقربوهن حتى يطهرن تاكيد لحكم الاعتزال وتنبيه على
ان المراد به عدم قربانهن لا عدم القرب منهن وبيان لغايته وهو انقطاع الدم عند
ابي حنيفة رح فان كان ذلك في اكثر المدة حل القربان كما انقطع والا فلا بد من الاغتسال
او من مضي وقت صلوة وعند الشافعي ان يغتسل بعد الانقطاع كما يفصح عنه القراءة بالتشديد
وينبئ عنه قوله تعالى فاذا تطهرن فان التطهر هو الاغتسال فاتوهن من حيث امركم
الله من المأتى الذي حلله لكم وهو القبل ان الله يحب التوابين مما عسى يندر
منهم من ارتكاب بعض ما نهوا عنه ومن سائر الذنوب ويحب المتطهرين اي
المتنزهين عن الفواحش والاقذار وفي ذكر التوبة اشعار بمساس الحاجة اليها
بارتكاب بعض الناس لما نهوا عنه وتكرير الفعل لمزيد العناية بامر التطهر نساؤكم
حرث لكم اي مواضع حرث لكم شبهن بها لما بين ما يلقى في ارحامهن وبين البذور من
المشابهة من حيث ان كلا منهما مادة لما يحصل منه فاتوا حرثكم لما عبر عنهن بالحرث
عبر عن مجامعتهن بالاتيان وهو بيان لقوله تعالى فاتوهن من حيث امركم الله انى
شئتم من اي جهة شئتم روي ان اليهود كانوا يزعمون ان من اتى امراته
في قبلها من دبرها ياتي ولده احول فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم
فنزلت وقدموا لانفسكم اي ما يدخر لكم الثواب وقيل هو طلب الولد وقيل
هو التسمية عند المباشرة واتقوا الله بالاجتناب عن معاصيه التي من جملتها
ما عد من الامور واعلموا انكم ملاقوه فتعرضوا لتحصيل ما تنتفعون به واجتنبوا
اقتراف ما تفتضحون به وبشر المؤمنين الذين تلقوا ما خوطبوا به من الاوامر و
النواهي بحسن القبول والامتثال بما يقصر عنه البيان من الكرامة والنعيم المقيم بكل
ما يبشر به من الامور التي تسر بها القلوب وتقر بها العيون وفيه مع ما في تلوين الخطاب
وجعل المبشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من المبالغة في تشريف المؤمنين ما لا يخفى ولا تجعلوا
الله عرضة لايمانكم قيل نزلت في عبد الله بن رواحة حين حلف ان لا يكلم ختنه
بشير بن النعمان ولا يصلح بينه وبين اخته وقيل في الصديق رضه حين حلف ان لا ينفق
على مسطح لخوضه في حديث الافك والعرضة فعلة بمعنى مفعول كالقبضة والغرفة تطلق
ما يعرض دون الشيء فيصير حاجزا منه كما يقال فلان عرضة للخير وعلى المعرض للامر كما في قوله
فلا تجعلوني عرضة للوائم فالمعنى على الوجه الاول لا تجعلوا الله مانعا للامور الحسنة
التي تحلفون على تركها وعبر عنها بالايمان لملابستها بها كما في قوله عم لعبد الله بن
سمرة اذا حلفت على يمين فرايت غيرها خيرا منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك وقوله
تعالى ان تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس عطف بيان لايمانكم او بدل منها لما
عرفت انها عبارة عن الامور المحلوف عليها واللام في ايمانكم متعلقة بالفعل او
بعرضة لما فيها من معنى الاعتراض اي لا تجعلوا الله لبركم وتقواكم واصلاحكم بين
الناس عرضة اي برزخا حاجزا بان تحلفوا به تعالى على تركها او لا تجعلوه تعالى عرضة اي شيئا
يعترض الامور المذكورة ويحجزها بما ذكر من الحلف به تعالى على تركها ويجوز ان يكون اللام

للتعليل ويتعلق ان تبروا الى بالفعل او بعرضة فيكون الايمان بمعناها وانت خبير بانه يؤدي الى الفصل
بين العامل ومعموله باجنبي وعلى الوجه الثاني لا تجعلوا الله معرضا لايمانكم تبتذلونه بكثرة الحلف
به ولذلك ذم من نزل فيه ولا تطع كل حلاف مهين باشنع المذام وجعل الحلاف مقدمتها
وان تبروا علة للنهي اي ارادة ان تبروا وتتقوا وتصلحوا لان الحلاف مجترئ على الله
سبحانه غير معظم له فيكون برا متقيا ثقة بين الناس فيكون بمعزل عن التوسط في اصلاح
ذات البين والله سميع يسمع ايمانكم عليم يعلم نياتكم فحافظوا على ما كلفتموه
لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم اللغو ما سقط من الكلام عن درجة الاعتبار
والمراد به في الايمان ما لا عقد معه ولا قصد كما ينبئ عنه قوله تعالى ولكن يؤاخذكم
بما عقدتم الايمان وهو المعني بقوله عز وجل ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم
وقد اختلف فيه فعندنا هو ان يحلف على شيء يظنه على ما حلف عليه ثم يظهر خلافه
فانه لا قصد فيه الى الكذب وعند الشافعي هو قول العرب لا والله وبلى والله مما يؤكدون
به كلامهم من غير اخطار الحلف بالبال فالمعنى على الاول لا يؤاخذكم الله اي لا يعاقبكم
بلغو اليمين الذي يحلفه احدكم ظانا انه صادق فيه ولكن يعاقبكم بما اقترفته قلوبكم من
اثم القصد الى الكذب في اليمين وذلك في الغموس وعلى الثاني لا يلزمكم الكفارة بما لا قصد معه
الى اليمين ولكن يلزمكموها بما نوت قلوبكم وقصدت به اليمين ولم يكن كسب اللسان فقط
والله غفور حيث لم يؤاخذكم باللغو مع كونه ناشئا من عدم التثبت وقلة المبالاة
حليم حيث لم يعجل بالمؤاخذة والجملة اعتراض مقرر لمضمون قوله لا يؤاخذكم الخ وفيه
ايذان بان المراد بالمؤاخذة المعاقبة لا ايجاب الكفارة اذ هي التي يتعلق بها المغفرة والحلم
دونه للذين يؤلون من نسائهم الايلاء الحلف وحقه ان يستعمل بعلى واستعماله بمن
لتضمينه معنى البعد اي للذين يحلفون متباعدين من نسائهم ويحتمل ان يراد لهم من
نسائهم تربص اربعة اشهر كقولك لي منك كذا وقرئ الوا من نسائهم وقرئ
يقسمون من نسائهم والايلاء من المرأة ان يقول والله لا اقربك اربعة اشهر فصاعدا
على التقييد بالاشهر او لا اقربك على الاطلاق ولا يكون فيما دون ذلك وحكمه
انه ان فاء اليها في المدة بالوطء ان امكن او بالقول ان عجز عنه صح الفيء وحنث
القادر ولزمته كفارة اليمين ولا كفارة على العاجز وان مضت الاربعة بانت
بتطليقة والتربص الانتظار والتوقف اضيف الى الظرف اتساعا اي لهم ان
ينتظروا في هذه المدة من غير مطالبة بفيء او طلاق فان فاؤا اي رجعوا عن
اليمين بالحنث والفاء للتفصيل كما اذا قلت انا نزيلكم هذا الشهر فان احمدتكم
اقمت عندكم الى آخره والا لم البث الا ريثما اتحول فان الله غفور رحيم
يغفر للمولي بفيئته التي هي كتوبته اثم حنثه عند تكفيره او ما قصد بالايلاء من ضرار
المرأة وان عزموا الطلاق واجمعوا عليه فان الله سميع لما جرى منهم من الطلاق
وما يتعلق به من الدمدمة والمقاولة التي لا تخلو عنها الحال عادة عليم بنياتهم
وفيه من الوعيد على الاصرار وترك الفيئة ما لا يخفى والمطلقات اي ذوات
الاقراء من الحرائر المدخول بهن لما قد بين ان لا عدة على غير المدخول بها وان عدة
من لا تحيض لصغر او كبر او حمل بالاشهر ووضع الحمل وان عدة الامة قرءان او
شهران يتربصن خبر في معنى الامر مفيد للتاكيد باشعاره بان المامور به مما يجب
ان يتلقى بالمسارعة الى الاتيان به فكانهن امتثلن بالامر بالتربص فخبر به موجودا متحققا
وبناؤه على المبتدأ مفيد لزيادة تاكيد بانفسهن الباء للتعدية اي يقمعنها و
يحملنها على ما لا تشتهيه بل يشق عليها من التربص وفيه مزيد حث لهن على ذلك لما فيه من الانباء
عن الاتصاف بما يستنكفن منه من كون نفوسهن طوامح الى الرجال فيحملهن ذلك على الاقدام
على الاتيان بما امرن به ثلثة قروء نصب على الظرفية او المفعولية بتقدير مضاف اي يتربصن
مضي ثلاثة قروء وهو جمع قرء والمراد به الحيض بدليل قوله عليه السلام دعي الصلوة
ايام اقرائك وقوله عليه السلام طلاق الامة تطليقتان وعدتها حيضتان

وقوله تعالى واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلثة اشهر ولان المقصود
الاصلي من العدة استبراء الرحم ومداره الحيض دون الطهر ويقال اقرأت المرأة اذا حاضت
وقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن معناه مستقبلات لعدتهن وهي الحيض الثلاث وايراد
جمع الكثرة في مقام جمع القلة بطريق الاتساع فان ايراد كل من الجمعين مكان الآخر شائع
ذائع وقرئ ثلثة قرو بغير همزة ولا يحل لهن ان يكتمن ما خلق الله في ارحامهن
من الحيض والولد استعجالا في العدة وابطالا لحق الرجعة وفيه دليل على قبول قولهن
في ذلك نفيا واثباتا ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر جواب الشرط محذوف يدل عليه
ما قبله دلالة واضحة اي فلا يجترئن على ذلك فان قضية الايمان بالله تعالى واليوم الآخر الذي
يقع فيه الجزاء والعقوبة منافية له قطعا وبعولتهن البعولة جمع بعل وهو في الاصل
السيد المالك والتاء لتانيث الجمع كما في الحزونة والسهولة او مصدر بتقدير مضاف
اي اهل بعولتهن اي ازواجهن الذين طلقوهن طلاقا رجعيا كما ينبئ عنه التعبير عنهم
بالبعولة فالضمير لبعض افراد المطلقات احق بردهن الى ملكهم بالرجعة اليهن في ذلك
اي في زمان التربص وصيغة التفضيل لافادة ان الرجل اذا اراد الرجعة والمرأة تاباها
وجب ايثار قوله على قولها لا ان لها ايضا حقا في الرجعة ان ارادوا اي الازواج
بالرجعة اصلاحا لما بينهم وبينهن واحسانا اليهن ولم يريدوا مضارتهن
وليس المراد شرطية قصد الاصلاح بصحة الرجعة بل هو الحث عليه والزجر عن قصد
الضرار ولهن عليهم من الحقوق مثل الذي لهم عليهن بالمعروف من الحقوق
التي يجب مراعاتها ويتحتم المحافظة وللرجال عليهن درجة اي زيادة في الحق لان
حقوقهم في انفسهن وحقوقهن في المهر والكفاف وترك الضرار ونحوها او مزية
في الفضل لانهم قوامون عليهن حراس لهن ولما في ايديهن يشاركونهن فيما هو
الغرض من الزواج ويستبدون بفضيلة الرعاية والانفاق والله عزيز يقدر على
الانتقام ممن يخالف احكامه حكيم تنطوي شرائعه على الحكم والمصالح الطلاق
هو بمعنى التطليق كالسلام بمعنى التسليم والمراد به الرجعي لما ان السابق الاقرب
حكمه ولما روي انه عليه السلام سئل عن الثالثة فقال عليه السلام او تسريح باحسان
وهو مبتدأ بتقدير مضاف خبره ما بعده اي عدد الطلاق الذي يستحق الزوج فيه الرد والرجعة
حسبما بين آنفا مرتان اي اثنان وايثار ما ورد به النظم الكريم عليه للايذان بان حقهما
ان يقعا مرة بعد مرة لا دفعة واحدة وان كان حكم الرد ثابتا حينئذ ايضا فامساك
اي فالحكم بعدهما امساك لهن بالرجعة بمعروف اي بحسن عشرة ولطف معاملة
او تسريح باحسان بالطلقة الثالثة كما روي عنه صلى الله عليه وسلم او بعدم الرجعة
الى ان تنقضي العدة فتبين وقيل المراد به الطلاق الشرعي بالمرتين مطلق التكرير لا التثنية
بعينها كما في قوله تعالى ثم ارجع البصر كرتين اي كرة بعد كرة والمعنى ان التطليق الشرعي تطليقة بعد
تطليقة على التفريق دون الجمع بين الطلقتين او الثلث فان ذلك بدعة عندنا فقوله تعالى
فامساك الخ حكم مبتدأ وتخيير مستأنف والفاء فيه للترتيب على التعليم كانه قيل اذا علمتم
كيفية التطليق فامركم احد الامرين ولا يحل لكم ان تأخذوا منهن بمقابلة الطلاق
مما آتيتموهن اي من الصدقات وتخصيصها بالذكر وان شاركها في الحكم سائر
اموالهن اما لرعاية العادة او للتنبيه على انه اذا لم يحل لهم ان يأخذوا مما آتوهن
بمقابلة البضع عند خروجه عن ملكهم فلان لا يحل ان يأخذوا مما لا يتعلق بالبضع اولى
واحرى شيئا اي نزرا يسيرا فضلا عن الكثير وتقديم الظرف عليه لما مر مرارا والخطاب مع الحكام
واسناد الاخذ والايتاء اليهم لانهم الآمرون بهما عند المرافعة وقيل مع الازواج
وما بعده مع الحكام وذلك مما يشوش النظم الكريم على القراءة المشهورة الا ان
يخافا اي الزوجان وقرئ ان يظنا وهو مؤيد لتفسير الخوف بالظن الا يقيما
حدود الله اي الا يراعيا مواجب احكام الزوجية وقرئ يخافا على البناء للمفعول
وابدال ان بصلته من الضمير بدل الاشتمال وقرئ تخافا وتقيما بتاء الخطاب فان خفتم

فان قيل كيف قال وبعولتهن احق
بردهن ولا حق لهن في الرجعة وافعل
يقتضي الاشتراك قلنا المراد ان الزوج
وابت المرأة وجب ايثار قوله على
قولها لا ان لها حقا في الرجعة
اسوله الراه

ايها الحكام ان لا يقيما اي الزوجان حدود الله بمشاهدة بعض الامارات والمخايل فلا جناح عليهما اي على الزوجين فيما افتدت به لا على الزوج في اخذ ما افتدت به ولا عليها في اعطائه اياه روي ان جميلة بنت عبد الله ابن ابي ابن سلول كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس فاتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا انا ولا انا ولا ثابت لا يجمع رأسي ورأسه شيء والله ما اعيب عليه في دين ولا خلق ولكن اكره الكفر في الاسلام ما اطيقه بغضا اني رفعت جانب الخباء فرأيته اقبل في عدة فاذا هو اشدهم سوادا واقصرهم قامة واقبحهم وجها فنزلت فاختلعت منه بحديقة كان اصدقها اياها تلك اي الاحكام المذكورة حدود الله فلا تعتدوها بالمخالفة والرفض ومن يتعد حدود الله فاولئك المتعدون والجمع باعتبار معنى الموصول هم الظالمون اي لانفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعقابه ووضع الاسم الجليل في المواقع الثلثة الاخيرة موضع الضمير لتربية المهابة وادخال الروعة وتعقيب النهي بالوعيد للمبالغة في التهديد فان طلقها اي بعد الطلقتين السابقتين فلا تحل له من بعد اي من بعد هذا الطلاق حتى تنكح زوجا غيره اي حتى تتزوج غيره فان النكاح ايضا يسند الى كل منهما وتعلق بظاهره من اقتصر على العقد والجمهور على اشتراط الاصابة لما روي ان امراة رفاعة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان رفاعة طلقني فبت طلاقي وان عبد الرحمن بن الزبير تزوجني وان ما معه مثل هدبة الثوب فقال صلى الله عليه وسلم اتريدين ان ترجعي الى رفاعة قالت نعم قال عليه السلام لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق من عسيلتك وبمثله يجوز الزيادة على الكتاب وقيل النكاح بمعنى الوطئ والعقد مستفاد من لفظ الزوج والحكمة من هذا التشريع الردع عن المسارعة الى الطلاق والعود الى المطلقة ثلثا والرغبة فيها والنكاح بشرط التحليل مكروه عندنا ويروى عدم الكراهية فيما لم يكن الشرط مصرحا به وفاسد عند الاكثرين لقوله صلعم لعن الله المحلل له فان طلقها اي الزوج الثاني فلا جناح عليهما اي على الزوج الاول والمراة ان يتراجعا اي يرجع كل منهما الى الاخر بالعقد ان ظنا ان يقيما حدود الله التي اوجب مراعاتها على الزوجين من الحقوق ولا وجه لتفسير الظن بالعلم لما ان العواقب غير معلومة ولان ان الناصبة للتوقع المنافي للعلم ولذلك لا يكاد يقال علمت ان يقوم زيد وتلك اشارة الى الاحكام المذكورة الى هنا حدود الله اي احكامه المعينة المحمية عن التعرض لها بالتغيير والمخالفة يبينها بهذا البيان اللائق او يبينها فيما سياتي بناء على ان بعضها يلحقه زيادة كشف وبيان بالكتاب والسنة والجملة خبر ثان عند من يجوز كونه جملة كما في قوله تعالى فاذا هي حية تسعى او حال من حدود الله والعامل معنى الاشارة لقوم يعلمون اي يفهمون وتخصيصهم بالذكر مع عموم الدعوة والتبليغ لما انهم المنتفعون او لان ما يلحق بعض النصوص من البيان لا يقف عليه الا الراسخون في العلم فاذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن اي اخر عدتهن فان الاجل كما ينطلق على المدة ينطلق على منتهاها والبلوغ هو الوصول الى الشيء وقد يقال للدنو منه اتساعا وهو المراد ههنا لقوله عز وجل فامسكوهن بمعروف او سرحوهن بمعروف اذ لا امكان للامساك بعد تحقق بلوغ الاجل اي فراجعوهن بغير ضرار او خلوهن حتى ينقضي اجلهن باحسان من غير تطويل وهذا كما ترى اعادة للحكم في بعض صوره اعتناء بشانه ومبالغة في ايجاب المحافظة عليه ولا تمسكوهن ضرارا تاكيد للامر بالامساك بمعروف وتوضيح لمعناه وزجر صريح عما كانوا يتعاطونه اي لا تراجعوهن ارادة الاضرار بهن كان المطلق يترك المعتدة حتى اذا شارفت انقضاء الاجل يراجعها لا لرغبة فيها بل ليطول عليها العدة فنهي عنه بعد ما امر بضده لما ذكر وضرارا نصب على العلية او الحالية اي لا تمسكوهن للمضارة او مضارين واللام في قوله تعالى لتعتدوا متعلقة بضرارا اي لتظلموهن بالالجاء الى الافتداء ومن يفعل ذلك اي ما ذكر من الامساك المؤدي الى الظلم وما فيه من

معنى

معنى البعد للدلالة على بعد منزلته في الشر والفساد فقد ظلم نفسه في ضمن ظلمه لهن بتعريضها للعقاب ولا تتخذوا ايات الله المنطوية على الاحكام المذكورة او اياته وهي داخلة فيها دخولا اوليا هزوا اي مهزوا بها بان تعرضوا عنها وتتهاونوا في المحافظة على ما في تضاعيفها من الاحكام والحدود من قولهم لمن لم يجد في الامر انما انت هازئ كانه نهي عن الهزء بها واريد ما يستلزمه من الامر بضده اي جدوا في الاخذ بها والعمل بما فيها وارعوها رعايتها والا فقد اخذتموها هزوا ولعبا ويجوز ان يراد به النهي عن الامساك ضرارا فان الرجعة بلا رغبة فيها عمل بموجب ايات الله بحسب الظاهر دون الحقيقة وهو معنى الهزء وقيل كان الرجل ينكح ويطلق ويعتق ثم يقول انما كنت العب فنزلت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ثلث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والعتاق واذكروا نعمت الله عليكم حيث هداكم الى ما فيه سعادتكم الدينية والدنيوية اي قابلوها بالشكر والقيام بحقوقها والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من نعمة الله اي كائنة عليكم او صفة لها على راي من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته اي الكائنة عليكم ويجوز ان يتعلق بنفسها ان اريد بها الانعام لانها اسم مصدر كنبات من انبت ولا يقدح في عمله تاء التانيث لانه مبني عليها كما في قوله فلولا رجاء النصر منك ورهبة عقابك قد كانوا لنا كالموارد وما انزل عليكم عطف على نعمة الله وما موصولة حذف عائدها من الصلة ومن في قوله عز وجل من الكتاب والحكمة بيانية اي من القران والسنة او القران الجامع للعنوانين على ان العطف لتغاير الوصفين كما في قوله الى الملك القرم وابن الهمام وفي ابهامه اولا ثم بيانه من التفخيم ما لا يخفى وفي افراده بالذكر مع كونه اول ما دخل في نعمة المامور بذكرها ابانة لخطره ومبالغة في البعث على مراعاة ما ذكر قبله من الاحكام يعظكم به اي بما انزل حال من فاعل انزل او من مفعوله او منهما معا واتقوا الله في شان المحافظة عليه والقيام بحقوقه الواجبة واعلموا ان الله بكل شيء عليم فلا يخفى عليه شيء مما تاتون وتذرون فيؤاخذكم بافانين العقاب واذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فلا تعضلوهن بيان لحكم ما كانوا يفعلونه عند بلوغ الاجل حقيقة بعد بيان حكم ما كانوا يفعلونه المسارعة اليه والعضل الحبس والتضييق ومنه عضلت الدجاجة اذا نشب بيضها ولم يخرج والمراد المنع والخطاب اما للاولياء روي انها نزلت في معقل بن يسار حين عضل اخته جميلة ان ترجع الى زوجها الاول بالنكاح وقيل نزلت في جابر بن عبد الله حين عضل ابنة عم له واسناد التطليق اليهم لتسببهم فيه كما ينبئ عنه تصديهم للعضل ولعل التعرض لبلوغ الاجل مع جواز التزوج بالزوج الاول قبله ايضا لوقوع العضل المذكور حينئذ وليس فيه دلالة على ان ليس للمراة ان تزوج نفسها والا لما احتيج الى نهي الاولياء لدفع الضرر عنهن فانهن وان قدرن على تزويج انفسهن لكنهن يحترزن عن ذلك مخافة اللوم والقطيعة واما للازواج حيث كانوا يعضلون مطلقاتهم ولا يدعونهن يتزوجن ظلما ونشر الحمية الجاهلية واما للناس كافة فان اسناد ما فعله واحد منهم الى الجميع شائع مستفيض والمعنى اذا وجد منكم طلاق فلا يقع فيما بينكم عضل سواء كان ذلك من قبل الاولياء او من جهة الازواج او من غيرهم وفيه تهويل لامر العضل وتحذير منه وايذان بان وقوع ذلك بين ظهرانيهم وهم ساكتون عنه بمنزلة صدوره عن الكل في استتباع اللائمة وسراية الغائلة ان ينكحن اي من ان ينكحن فمحله النصب عند سيبويه والفراء والجر عند الخليل على الخلاف المشهور وقيل هو بدل الاشتمال من الضمير المنصوب في تعضلوهن وفيه دلالة على صحة النكاح بعبارتهن ازواجهن ان اريد بهم المطلقون فالزوجية اما باعتبار ما كان واما باعتبار ما يكون والا فبالاعتبار الاخير اذا تراضوا ظرف للا تعضلوا وصيغة التذكير باعتبار تغليب الخطاب على النساء وتقييد به لانه المعتاد لا لتجويز المنع قبل تمام التراضي وقيل ظرف لان ينكحن وقوله تعالى بينهم ظرف للتراضي

مفيد لرسوخه واستحكامه بالمعروف الجميل عند الشرع المستحسن عند الناس
والباء اما متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل تراضوا او نعتا لمصدر محذوف اي تراضيا
كائنا بالمعروف واما بتراضوا اي تراضوا بما يحسن في الدين والمروة اشعار بان المنع
من التزوج بغير كفو او بما دون مهر المثل ليس من باب العضل ذلك اشارة الى ما فصل
من الاحكام وما فيه من معنى البعد لتعظيم المشار اليه والخطاب لجميع المكلفين كما في
بعده والتوحيد اما باعتبار كل واحد منهم واما بتاويل القبيل والفريق واما لان
الكاف لمجرد الخطاب والفرق بين الحاضر والمنقضي دون تعيين المخاطبين او للرسول صلعم كما في
قوله تعالى يا ايها النبي اذا طلقتم النساء للدلالة على ان حقيقة المشار اليه امر لا يكاد يعرفه كل احد
يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الاخر فسارع الى الامتثال باوامره
ونواهيه اجلالا لله وخوفا من عقابه وقوله تعالى منكم ذلكم اي الاتعاظ به والعمل
بمقتضاه ازكى لكم اي انمى وانفع واطهر من ادناس الاثام واوضار الذنوب
والله يعلم ما فيه من الزكاة والطهر وانتم لا تعلمون ۞ ذلك او والله
يعلم ما فيه صلاح اموركم من الاحكام والشرايع التي من جملتها ما بينه ههنا
وانتم لا تعلمونها فدعوا ارائكم وامتثلوا امره تعالى ونهيه في كل ما تاتون وما تذرون
والوالدات يرضعن اولادهن شروع في بيان الاحكام المتعلقة باولادهن خصوصا
واشترا وهو امر اخرج مخرج الخبر مبالغة في الحمل على تحقيق مضمونه ومعناه الندب او
الوجوب ان خص بمادة عدم قبول الصبي ثدي الغير او فقدان الظئر او عجز الولد عن
الاستيجار والتعبير عنهن بالعنوان المذكور لهز عطفهن نحو اولادهن والحكم عام للمطلقات
وغيرهن وقيل خاص بهن اذ الكلام فيهن حولين كاملين التاكيد بصفة الكمال لبيان
التقدير تحقيقي لا تقريبي مبني على المسامحة المعتادة لمن اراد ان يتم الرضاعة
وفيه دلالة على جواز النقص وقيل اللام متعلقة بيرضعن فان الاب يجب عليه
الارضاع كالنفقة والام ترضع له كما يقال ارضعت فلانة لفلان ولده وعلى المولود
له اي الوالد فان الولد يولد له وينسب اليه وتغيير العبارة للاشارة الى المعنى المقتضي
لوجوب الارضاع ومؤنة المرضعة عليه رزقهن وكسوتهن اجرة لهن و
اختلف في استيجار الام وهو غير جايز عندنا ما دامت في النكاح او العدة وجائز عند الشافعي
بالمعروف حسبما يراه الحاكم ويفي به وسعه لا تكلف نفس الا وسعها تعليل
لايجاب المؤن بالمعروف او تفسير للمعروف وهو نص على انه تعالى لا يكلف العبد ما لا يطيقه
وذلك لا ينافي امكانه لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده تفصيل لما قبله
وتقرير له اي لا يكلف كل واحد منهما الاخر ما لا يطيقه ولا يضاره بسبب ولده وقرئ
لا تضار بالرفع بدلا من لا تكلف واصله على القرائتين لا تضارر بالكسر على البناء للفاعل
وبالفتح على البناء للمفعول وعلى الوجه الاول يجوز ان يكون بمعنى تضر والباء من صلته
اي لا يضر الوالدان بالولد فيفرط في تعهده ويقصر فيما ينبغي له وقرئ لا تضار بالسكون
مع التشديد على نية الوقف به مع التخفيف على انه من ضاره يضيره واضافة الولد الى
كل منهما لاستعطافهما اليه وللتنبيه على انه جدير بان يتفقا على استصلاحه ولا ينبغي
ان يضرا به او يتضارا بسببه وعلى الوارث مثل ذلك عطف على قوله تعالى وعلى
المولود له رزقهن الخ وما بينهما تعليل او تفسير معترض والمراد به وارث الصبي ممن
كان ذا رحم محرم منه وقيل عصابته وقال الشافعي هو وارث الاب وهو الصبي
اي تمان المرضعة من ماله عند موت الاب ولا نزاع فيه وانما الكلام فيما اذا لم يكن للصبي
مال وقيل الباقي من الابوين من قوله عليه السلام واجعل الوارث منا وذلك اشارة الى
ما وجب على الاب من الرزق والكسوة فان ارادا اي الوالدان فصالا اي فطاما
عن الرضاع قبل تمام الحولين والتنكير للايذان بانه فصال غير معتاد عن تراض متعلق
بمحذوف ينساق اليه الذهن اي صادرا عن تراض منهما اي من الوالدين لا من
احدهما فقط لاحتمال اقدامه على ما يضر بالولد بان تمل المرأة الارضاع ويبخل الاب باعطاء

الاجرة وتشاور في شان الولد وتفحص عن احواله واجماع منهما على استحقاقه للفطام
والتشاور من المشورة وهي استخراج الراي من شرت العسل اذا استخرجته وتنكيرها للتفخيم
فلا جناح عليهما في ذلك لما ان تراضيهما انما يكون بعد استقرار رايهما واجتهادهما
على ان صلاح الولد في الفطام وقلما يتفقان على الخطاء وان اردتم بيان لحكم عدم
اتفاقهما على الفطام والالتفات الى خطاب الاباء لهزهم الى الامتثال بما امروا به
ان تسترضعوا اولادكم بحذف المفعول الاول استغناء عنه اي ان تسترضعوا المراضع
اولادكم يقال ارضعت المرأة الصبي واسترضعتها اياه وقيل انما يتعدى الى الثاني بحرف
الجر يقال استرضعت المرأة للصبي اي ان تسترضعوا المراضع لاولادكم فحذف حرف الجر
ايضا كما في قوله تعالى واذا كالوهم اي كالوا لهم فلا جناح عليكم اي في الاسترضاع
وفيه دلالة على ان للاب ان يسترضع للولد ويمنع الام من الارضاع اذا سلمتم
الى المراضع ما اتيتم اي ما اردتم ايتاءه كما في قوله تعالى فاذا قرات القران فاستعذ
بالله وقرئ ما اتيتم من اتى اليه احسانا اذا فعله وقرئ ما اوتيتم اي من جهة الله عز
وجل كما في قوله تعالى وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه وفيه مزيد بعث لهم الى التسليم
بالمعروف متعلق بسلمتم اي بالوجه المتعارف المستحسن شرعا وجواب الشرط محذوف
لدلالة المذكور عليه وليس التسليم بشرط للصحة والجواز بل هو ندب الى ما هو الاليق والاولى
فان المراضع اذا اعطين ما قدر لهن ناجزا يدا بيد كان ذلك ادخل في استصلاح شؤون
الاطفال واتقوا الله في شان مراعاة الاحكام المذكورة واعلموا ان الله بما تعملون بصير
فيجازيكم بذلك واظهار الاسم الجليل في موضع الاضمار لتربية المهابة وفيه
من الوعيد والتهديد ما لا يخفى والذين على حذف المضاف اي وازواج الذين يتوفون
منكم اي يقبض ارواحهم بالموت فان التوفي هو القبض يقال توفيت مالي من فلان
واستوفيته منه اي اخذته وقبضته والخطاب لكافة الناس بطريق التلوين
ويذرون ازواجا يتربصن بانفسهن اربعة اشهر وعشرا او على حذف العائد
الى المبتداء في الخبر اي يتربصن بعدهم كما في قولهم السمن منوان بدرهم اي منوان
منه وقرئ يتوفون بفتح الياء اي يستوفون اجالهم وتانيث العشر باعتبار الليالي
لانها غرر الشهور والايام ولذلك تراهم لا يكادون يستعملون التذكير في مثله اصلا
حتى انهم يقولون صمت عشرا ومن البين في ذلك قوله تعالى ان لبثتم الا عشرا ان لبثتم
الا يوما ولعل الحكمة في هذا التقدير ان الجنين اذا كان ذكرا يتحرك غالبا لثلثة اشهر
وان كانت انثى يتحرك لاربعة فاعتبر اقصى الاجلين وزيد عليه العشر استظهارا اذ
ربما يضعف الحركة فلا يحس بها وعموم اللفظ يقتضي تساوي المسلمة والكتابية و
الحرة والامة في هذا الحكم ولكن القياس اقتضى التنصيف في الامة وقوله عز وعلا واولات
الاحمال خص الحامل منه وعن علي وابن عباس رضي الله عنهما انها تعتد بابعد الاجلين
احتياطا فاذا بلغن اجلهن اي انقضت عدتهن فلا جناح عليكم ايها الائمة
الحكام والمسلمون جميعا فيما فعلن في انفسهن من التزين والتعرض للخطاب وسائر
ما على المعتدة بالمعروف بالوجه الذي لا ينكره الشرع وفيه اشارة الى انهن لو فعلن ما
ينكره الشرع فعليهم ان يكفوهن عن ذلك والا فعليهم الجناح والله بما تعملون خبير
فلا تعملوا كائدا خلاف ما امرتم به ولا جناح عليكم خطاب للكل فيما عرضتم به التعريض
والتلويح ايهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازا كقول السائل جئتك لاسلم عليك
واصله امالة الكلام عن نهجه الى عرض منه اي جانب والكناية هي الدلالة على الشئ بذكر
لوازمه وروادفه كقولك طويل النجاد للطويل وكثير الرماد للمضياف من خطبة النساء
الخطبة بالكسر كالعقدة والجلسة ما يفعل الخاطب من الطلب والاستلطاف بالقول والفعل
فقيل هي ماخوذة من الخطب اي الشان الذي له خطر لما انها شان من الشؤون ونوع من
الخطوب وقيل من الخطاب لانها نوع مخاطبة تجري بين جانب الرجل وجانب المراة والمراد
بالنساء المعتدات للوفاة والتعريض بخطبتهن ان يقول لها انك لجميلة او صالحة او نافعة

ومن غرضي ان اتزوج ونحو ذلك مما يوهم انه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه
ان رغبت فيه ولا يصرح بالنكاح او اكننتم في انفسكم اي اضمرتم في قلوبكم فلم
تذكروه تصريحا ولا تعريضا علم الله انكم ستذكرونهن ولا تصبرون على السكوت
عنهن وعن اظهار الرغبة فيهن وفيه نوع توبيخ لهم على قلة التثبت ولكن لا تواعدوهن
سرا استدراك عن محذوف دل عليه ستذكرونهن اي فاذكروهن ولكن
لا تواعدوهن نكاحا اكتفوا بما رخص لكم من التعريض والتعبير عن النكاح بالسر لان
سببه الذي هو الوطء مما يسر به وايثاره على اسمه للايذان بانه مما ينبغي ان يستر به
ويكتم وحمله على الوطء ربما يوهم الرخصة في المحظور الذي هو التصريح بالنكاح وقيل انتصاب
سرا على الظرفية اي لا تواعدوهن في السر على المراد بذلك المواعدة بما يستهجن وفيه ما فيه
الا ان تقولوا قولا معروفا استثناء مفرغ مما يدل عليه النهي اي لا تواعدوهن مواعدة
ما الا مواعدة معروفة غير منكرة شرعا وهي ما يكون بطريق التعريض والتلويح او الا
مواعدة بقول معروف او لا تواعدوهن بشيء من الاشياء الا بان تقولوا قولا معروفا
وقيل هو استثناء منقطع من سرا وهو ضعيف لادائه الى جعل التعريض موعودا وليس
كذلك ولا تعزموا عقدة النكاح من عزم الامر اذا قصده قصدا جازما وحقيقته
القطع بدليل قوله عليه السلام لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل وروي لم يبيت
الصيام والنهي عنه للمبالغة في النهي عن مباشرة عقدة النكاح اي لا تعزموا عقد عقدة النكاح
حتى يبلغ الكتاب اجله اي العدة المكتوبة المفروضة آخرها وقيل معناه لا تقطعوا
عقدة النكاح اي لا تبرموها ولا تلزموها ولا تقدموا عليها فيكون نهيا عن نفس الفعل
لا عن قصده واعلموا ان الله يعلم ما في انفسكم من ذوات الصدور التي من
جملتها العزم على ما نهيتم عنه فاحذروه بالاجتناب عن العزم ابتداء او اقلاعا
عنه بعد تحققه واعلموا ان الله غفور يغفر لمن يقلع عن عزمه خشية منه تعالى
حليم لا يعاجلكم بالعقوبة فلا تستدلوا بتاخيرها على ان ما نهيتم عنه من العزم
ليس مما يستتبع المؤاخذة واظهار الاسم الجليل في موضع الاضمار لادخال الروعة
لا جناح عليكم اي لا تبعة من مهر وهو الاظهر وقيل من وزر لا بدعة في الطلاق قبل
المسيس وقيل كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر النهي عن الطلاق فظن ان فيه جناحا
فنفي ذلك ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن اي ما لم تجامعوهن وقرئ تماسوهن
بضم التاء في جميع المواقع اي مدة عدم مسيسكم اياهن على ان ما مصدرية ظرفية
بتقدير المضاف ونقل ابو البقاء انها شرطية بمعنى ان فيكون من باب اعتراض الشرط فيكون
الثاني قيدا للاول كما في قولك ان تأتني ان تحسن الي اكرمك اي ان تأتني محسنا الي والمعنى
ان طلقتموهن غير ماسين لهن وهذا المعنى اقصر من الاول لما ان ما الظرفية انما يحسن
موقعها فيما اذا كان المظروف امرا ممتدا منطبقا على ما اضيف اليها من المدة او الزمان
كما في قوله تعالى خالدين فيها ما دامت السموات والارض وقوله تعالى وكنت عليهم شهيدا ما دمت
فيهم ولا يخفى ان التطليق ليس كذلك وتعليق الظرف بنفي الجناح ربما يوهم امكان
المسيس بعد الطلاق فالوجه ان يقدر الحال مكان الزمان والمدة او تفرضوا لهن
فريضة اي الا ان تفرضوا لهن او حتى تفرضوا لهن عند العقد مهرا على ان فريضة
فعيلة بمعنى مفعول والتاء لنقل اللفظ من الوصفية الى الاسمية وانتصابه على المفعولية ويجوز
ان يكون مصدرا صيغة واعرابا والمعنى انه لا تبعة على المطلق بمطالبة المهر اصلا اذا كان الطلاق
قبل المسيس على كل حال الا في تسمية المهر فان عليه ح نصف المسمى وفي حال عدم تسميته عليه
المتعة لا نصف مهر المثل واما اذا كان بعد المساس فعليه في صورة التسمية تمام المسمى وفي صورة
عدمها تمام مهر المثل وقيل كلمة او عاطفة لدخولها على ما قبلها من الفعل المجزوم على معنى ما لم يكن
منكم مسيس ولا فرض مهر ومتعوهن عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام اي فطلقوهن
ومتعوهن والحكمة في ايجاب المتعة جبر ايحاش الاطلاق وهي درع وملحفة وخمار
على حسب الحال كما يفصح عنه قوله تعالى على الموسع قدره وعلى المقتر قدره اي ما يليق بحال

كل منهما وقرئ بسكون الدال وهي جملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب مبينة لمقدار المتعة
بالنظر الى حال المطلق ايسارا واقتارا او حال من فاعل متعوهن بحذف الرابط اي على
الموسع منكم الخ او على جعل الالف واللام عوضا من المضاف اليه عند من يجوزه اي
موسعكم الخ وهذا اذا لم يكن مهر مثلها اقل من ذلك فان كان اقل فلها الاقل من نصف
مهر المثل ومن المتعة ولا ينقص من خمسة دراهم متاعا اي تمتيعا بالمعروف اي بالوجه
الذي يستحسنه الشريعة والمروءة حقا صفة لمتاعا او مصدر مؤكد اي حق ذلك
حقا على المحسنين اي الذين يحسنون الى انفسهم بالمسارعة الى الامتثال او الى المطلقات
بالتمتيع المعروف وانما سموا محسنين اعتبارا للمشارفة ترغيبا وتحريضا وان
طلقتموهن من قبل ان تمسوهن وقد فرضتم لهن قبل ذلك فريضة اي وان طلقتموهن
قبل المسيس حال كونكم مسمين فريضة فيما سبق اي عند النكاح مهرا على ان الجملة من
فاعل طلقتموهن ويجوز ان يكون حالا من مفعوله لتحقق الرابط بالنسبة اليهما
ونفس الغرض من المبني للفاعل والمفعول وان لم يقارن حالة التطليق لكن اتصاف المطلق
بالفارضية فيما سبق مما لا ريب في مقارنته لها وكذا الحال في اتصاف المطلقة بكونها
مفروضا لها فيما سبق فنصف ما فرضتم اي فلهن نصف ما سميتم لهن من المهر او فالواجب
عليكم ذلك وهذا صريح في ان المنفي في الصورة السابقة انما هو تبعة المهر وقرئ بالنصب
اي فادوا نصف ما فرضتم ولعل تاخير حكم التسمية مع انها الاصل في العقد والاكثر
في الوقوع لما ان الآية الكريمة نزلت في انصاري تزوج امراة من بني حنيفة وكانت
مفوضة فطلقها قبل الدخول بها فتخاصما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عليه السلام
عند اظهار ان لا شيء له متعها بقلنسوتك الا ان يعفون استثناء مفرغ من اعم الاحوال
اي فلهن نصف المفروض معينا في كل حال الا حال عفوهن فانه يسقط ذلك حينئذ عند وجوبه وظاهر
الصيغة في نفسها يحتمل التذكير والتانيث وانما الفرق في الاعتبار والتحقيق فان الواو
في الاولى ضمير والنون علامة الرفع والثانية لام الفعل والنون ضمير والفعل مبني ولذا لم
يؤثر فيه ان تاثيره فيما عطف على محله من قوله تعالى او يعفو بالنصب وقرئ بسكون الواو
الذي بيده عقدة النكاح اي يترك الزوج المالك لعقده وحله ما يعود اليه من نصف
المهر الذي ساقه اليها كاملا على ما هو المعتاد تكرما فان ترك حقه عليها عفو بلا شبهة او
سمي ذلك عفوا في صورة عدم السوق مشاكلة تغليبا لحال السوق على عدمه فرجع الاستثناء
ح الى منع الزيادة في المستثنى منه كما انه في صورة الاولى الى منع النقصان اي فلهن هذا القدر بلا
نقصان ولا زيادة في جميع الاحوال الا في حال عفوهن فانه ح لا يكون لهن القدر المذكور
بل ينتفي ذلك او ينحط او في حال عفو الزوج فانه ح يكون لهن الزيادة على ذلك القدر هذا على
التفسير الاول واما على التفسير الثاني فلا بد من المصير الى جعل الاستثناء منقطعا لان في صورة
عفو الزوج لا يتصور الوجوب عليه هذا عندنا وفي القول القديم للشافعي ان المراد
عفو الولي الذي بيده عقد نكاح الصغيرة وهو ظاهر المأخذ خلا ان الاول انسب بقوله تعالى
وان تعفوا اقرب للتقوى الخ فان اسقاط حق الصغيرة ليس في شيء من التقوى وعن جبير
بن مطعم رضي الله عنه انه تزوج امراة وطلقها قبل الدخول واكمل لها الصداق وقال انا
احق بالعفو وقرئ بالياء ولا تنسوا الفضل بينكم اي لا تتركوا ان يتفضل بعضكم
على بعض كالشيء المنسي وقرئ بكسر الواو والخطاب في الفعلين للرجال والنساء جميعا بطريق
التغليب ان الله بما تعملون بصير فلا يكاد يضيع ما عملتم من التفضل والاحسان
حافظوا على الصلوات اي داوموا على ادائها لاوقاتها من غير اخلال بشيء منها كما ينبئ
عنه صيغة المفاعلة المفيدة للمبالغة ولعل الامر بها في تضاعيف بيان احكام الازواج والاولاد
قبل الاتمام للايذان بانها حقيقة بكمال الاعتناء بشانها والمثابرة عليها من غير اشتغال عنها بشان
بل بشأن انفسهم ايضا كما يفصح عنه الامر بها في حالة الخوف ولذلك امر بها في خلال بيان
ما يتعلق بهم من الاحكام الشرعية المتشابكة الآخذ بعضها بحجزة بعض والصلوة الوسطى
اي المتوسطة بينها او الفضلى منها وهي العصر لقوله صلى الله عليه وسلم يوم الاحزاب شغلونا

عن الصلوة الوسطى صلوة العصر ملأ الله بيوتهم نارا وقال عليه السلام انها الصلوة
التي شغل عنها سليمان بن داود عليهما السلام وفضلها لكثرة اشتغال الناس في وقتها
بتجاراتهم ومكاسبهم واجتماع ملائكة الليل وملائكة النهار وقيل هي صلوة الظهر
لانها في وسط النهار وكانت اشق الصلوات عليهم لما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
كان يصليها بالهاجرة فكانت افضلها لقوله صلى الله عليه وسلم افضل العبادات احمزها و
قيل هي صلوة الفجر لانها بين صلوتي الليل والنهار والواقعة في الحد المشترك بينهما ولانها
مشهودة كصلوة العصر وقيل صلوة المغرب لانها متوسطة من حيث العدد ومن حيث الوقوع
بين صلوتي النهار والليل ووتر النهار ولا تنقص في السفر وقيل هي صلوة العشاء لانها
بين الجهريتين الواقعتين في طرفي الليل وعن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما انه عليه
السلام يقرأ والصلوة الوسطى وصلوة العصر فتكون ح احدى الاربع قد خصت بالذكر
مع العصر لانفرادها بالفضل وقرئ وعلى الصلوة الوسطى وقرئ بالنصب على المدح
وقرئ الوسطى وقوموا لله اي في الصلوة قانتين ذاكرين له تعالى في القيام لان
القنوت هو الذكر فيه وقيل هو اكمال الطاعة واتمامها بغير اخلال بشيء من اركانها و
قيل خاشعين وقال ابن المسيب ح المراد به القنوت في الصبح فان خفتم اي من عدو
او غيره فرجالا جمع راجل كقيام وقائم او رجل بمعنى راجل وقرئ بضم الراء مع
التخفيف وبضمها مع التشديد ايضا وقرئ فرجالا اي راجلا او ركبانا جمع راكب اي
فصلوا راجلين او راكبين حسبما يقتضيه الحال ولا تخلوا بها ما امكن الوقوف في الجملة و
جوز الشافعي اداءها حال المسايفة ايضا فاذا امنتم بزوال الخوف فاذكروا الله
اي فصلوا صلوة الامن عبر عنها بالذكر لانه معظم اركانها كما علمكم متعلق
بمحذوف وقع وصفا لمصدر محذوف اي ذكرا كائنا كما علمكم اي كتعليمه اياكم ما لم
تكونوا تعلمون من كيفية الصلوة والمراد بالتشبيه ان يكون الصلوة المؤداة موافقة
لما علمه الله تعالى وايرادها بذلك العنوان لتذكير النعمة واشكروا الله تعالى شكرا يوازي
تعليمه اياكم ما لم تكونوا تعلمون من الشرائع والاحكام التي من جملتها كيفية اقامة حالتي
الخوف والامن هذا وفي ايراد الشرطية الاولى بكلمة ان المنبئة لمشكوكية وقوع الخوف
وندرته وتصدير الشرطية الثانية بكلمة اذا المنبئة عن تحقق وقوع الامن وكثرته مع الايجاز
في جواب الاولى والاطناب في جواب الثانية المبنيين على تنزيل مقام وقوع المامور به
فيهما منزلة مقام وقوع الامر تنزيلا مستدعيا لاجراء مقتضى المقام الاول في كل
منهما مجرى مقتضى المقام الثاني من الجزالة ولطف الاعتبار ما فيه عبرة لاولي الابصار
والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا عود الى بيان بقية الاحكام المفصلة
فيما سلف اثر بيان احكام وسطت بينها لما اشير اليه من الحكمة الداعية الى ذلك وصية
لازواجهم اي يوصون او ليوصوا او كتب الله عليهم وصية ويؤيد هذا قراءة
من قرأ كتب عليكم الوصية لازواجكم وقرئ بالرفع على تقدير مضاف في المبتدأ او
الخبر اي حكم الذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا وصية لازواجهم او والذين يتوفون
اهل وصية لازواجهم او كتب عليهم وصية او عليهم وصية وقرئ متاع لازواجهم
بدل وصية متاعا الى الحول منصوب بيوصون ان اضمرته وبالوصية او بمتاع
على القراءة الاخيرة غير اخراج بدل منه او مصدر مؤكد كما في قولك هذا القول
غير ما تقول او حال من ازواجهم اي غير مخرجات والمعنى يجب على الذين يتوفون ان يوصوا
قبل الاحتضار لازواجهم بان يمتعن بعدهم حولا بالنفقة والسكنى وكان ذلك اول
الاسلام ثم نسخت المدة بقوله تعالى اربعة اشهر وعشرا فانه وان كان متقدما في التلاوة
متأخر في النزول وسقطت النفقة بتوريثها الربع والثمن وكذلك السكنى عندنا وعند
الشافعي هي باقية فان خرجن عن منزل الازواج باختيارهن فلا جناح عليكم ايها
الائمة فيما فعلن في انفسهن من معروف لا ينكره الشرع كالتزين والتطيب وترك الحداد
والتعرض للخطاب وفيه دلالة على ان المحظور اخراجها عند ارادة القرار وملازمة مسكن الزوج

والحداد

والحداد من غير ان يجب عليها ذلك وانها كانت مخيرة بين الملازمة مع اخذ النفقة وبين
الخروج مع تركها والله عزيز غالب على امره يعاقب من خالفه حكيم يراعي في احكامه
مصالح عباده وللمطلقات سواء كن مدخولا بهن اولا متاع اي مطلق المتعة
الشاملة للواجبة والمستحبة واوجبها سعيد بن جبير وابو العالية والزهري للكل وقيل المراد
بالمتاع نفقة العدة وقيل اللام للعهد والمراد غير المدخول بهن والتكرير للتاكيد بالمعروف شرعا
وعادة حقا على المتقين اي مما لا ينبغي كذلك اي مثل ذلك البيان الواضح يبين الله
لكم اياته الدالة على احكامه التي شرعها لعباده لعلكم تعقلون لكي تفهموا
ما فيها وتعملوا بموجبها الم تر تقرير لمن سمع بقصتهم من اهل الكتاب وارباب
الاخبار وتعجيب من شأنهم البديع فان سماعهم لها بمنزلة الرؤية النظرية او العلمية
او لكل احد ممن له حظ من الخطاب ايذانا بان قصتهم من الشهرة والشيوع بحيث يحق لكل
احد ان يحمل على الاقرار برؤيتهم وسماع قصتهم ويعجب بها وان لم يكن ممن راهم
او سمع بقصتهم فان هذا الكلام قد جرى مجرى المثل لما انه شبه حال غير الرائي
لشيء عجيب بحال الرائي له بناء على ادعاء ظهور امره وجلائه بحيث استوى في ادراكه
الشاهد والغائب ثم اجري الكلام معه لما يجري مع الرائي قصدا الى المبالغة في شهرته
وعراقته في التعجب وتعدية الرؤية بالى في قوله تعالى الى الذين خرجوا من ديارهم على
تقدير كونها بمعنى الابصار باعتبار معنى النظر وعلى تقدير كونها ادراكا قلبيا لتضمين
معنى الوصول والانتهاء على معنى الم ينته علمك اليهم وهم الوف اي الوف كثيرة
قيل عشرة آلاف وقيل ثلثون وقيل سبعون الفا والجملة حال من خرجوا وقوله عز وجل
حذر الموت مفعول له روي ان اهل داوردان قرية قبل واسط وقع فيهم الطاعون
فخرجوا منها هاربين فاماتهم الله ثم احياهم ليعتبروا ويعلموا ان لا مفر من حكم الله
عز سلطانه وقضائه وقيل مر عليهم حزقيل بعد زمان قليل وقد عريت عظامهم
وتفرقت اوصالهم فلوى شدقيه واصابعه تعجبا مما راى من امرهم فاوحي اليه ناد
فيهم ان قوموا باذن الله تعالى فنادى فاذا هم قيام يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لا اله
الا انت وقيل هم قوم من بني اسرائيل دعاهم ملكهم الى الجهاد فهربوا حذرا من
الموت فاماتهم الله عز وجل ثمانية ايام ثم احياهم وقوله عز وجل فقال لهم الله
موتوا اما عبارة عن تعلق ارادته تعالى بموتهم دفعة واما تمثيل لاماتته تعالى اياهم
ميتة نفس واحدة في اقرب وقت وادناه واسرع زمان واوحاه بامر آمر مطاع
لمامور مطيع كما في قوله تعالى انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون ثم
احياهم عطف اما على مقدر يستدعيه المقام اي فماتوا ثم احياهم وانما حذف للدلالة
على الاستغناء عن ذكره لاستحالة تخلف مراده تعالى عن ارادته واما على قال لانه عبارة عن الاماتة و
فيه تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض لاسباب الشهادة وان الموت حيث لم يكن منه بد
ولم ينفع منه المفر فاولى ان يكون في سبيل الله تعالى ان الله لذو فضل عظيم على الناس
قاطبة اما اولئك فقد احياهم ليعتبروا بما جرى عليهم فيفوزوا بالسعادة العظمى
واما الذين سمعوا قصتهم فقد هداهم الى مسلك الاعتبار والاستبصار ولكن
اكثر الناس لا يشكرون اي لا يشكرون فضله كما ينبغي ويجوز ان يراد بالشكر الاعتبار
والاستبصار واظهار الناس في مقام الاضمار لمزيد التشنيع وقاتلوا في سبيل الله
عطف على مقدر يعينه ما قبله كانه قيل فاشكروا فضله بالاعتبار بما قص عليكم وقاتلوا
في سبيله لما علمتم ان الفرار لا ينجي من الحمام وان المقدر لا مرد له فان كان قد حان
الاجل فموت في سبيل الله عز وجل والا فنصر عزيز وثواب واعلموا ان الله سميع يسمع
مقالة السابقين والمتخلفين عليم بما يضمرونه في انفسهم وهو من وراء الجزاء خيرا او شرا
فسارعوا الى الامتثال واحذروا المخالفة والمساهلة من ذا الذي يقرض الله من
استفهامية مرفوعة المحل بالابتداء وذا خبره والموصول صفة له او بدل منه واقراض الله تعالى
مثل لتقديم العمل العاجل طلبا للثواب الآجل والمراد ههنا اما الجهاد الذي هو عبارة عن بذل

في مقام التعجب صح

النفس والمال في سبيل الله عزّ وجلّ لمرضاته واما مطلق العمل الصالح المنتظم له انتظامًا اوّليًا
قرضًا حسنًا اي اقراضًا مقرونًا بالاخلاص وطيب النفس او مقرضًا حلالًا طيبًا فيضاعفه
له بالنصب على جواب الاستفهام حملًا على المعنى فانه في معنى ايقرضه وقرئ بالرفع اي يضاعف
اجره وجزاؤه جعل ذلك مضاعفة له بناءً على ما بينهما من المناسبة بالسببية والمسببية
ظاهرًا وصيغة المفاعلة للمبالغة وقرئ فيضعّفه بالرفع والنصب اضعافًا جمع ضعف
ونصبه على انه حال من الضمير المنصوب او مفعول بان يضمّن المضاعفة معنى التصيير
او مصدر مؤكد على انّ الضعف اسم للمصدر والجمع للتنويع كثيرةً لا يعلم قدرها
الا الله تعالى وقيل الواحد بسبعمائة والله يقبض ويبسط اي يقتّر على بعض ويوسّع
على بعض او يقتّر تارة ويوسّع اخرى حسبما يقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح فلا
تبخلوا عليه بما وسّع عليكم كيلا يبدّل احوالكم ولعل تاخير البسط عن القبض في الذكر للايماء
الى انه يعقبه في الوجود تسلية للفقراء وقرئ يبصط بالصاد لمجاورة الطاء واليه ترجعون
فيجازيكم على ما قدّمتم من الاعمال خيرًا وشرًّا الم تر تقرير وتعجيب كما سبق وقطع عنه
للايذان باستقلاله في التعجّب مع انّ له مزيد ارتباط بما وسّط بينهما في الامر بالقتال
الى الملا من بني اسرائيل الملا من القوم وجوههم واشرافهم وهو اسم للجماعة
لا واحد له من لفظه كالرهط والقوم سمّوا بذلك لانهم يملؤن العيون مهابة و
المجالس بهاء او لانهم مليّون بما يبتغي منهم ومن تبعيضية وما في قوله تعالى من بعد موسى
ابتدائية وعاملها مقدّر وقع حالًا من الملا اي كائنين بعض بني اسرائيل من بعد
وفات موسى عليه السلام ولا ضير في اتحاد الحرفين لفظًا عند اختلافهما معنى اذ قالوا
منصوب بمضمر يستدعيه المقام اي الم تر الى قصّة الملا او حديثهم حين قالوا لنبيٍّ لهم
هو يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليه السلام وقيل شمعون بن صفية بن علقمة من
ولد لاوي بن يعقوب عليه السلام وقيل اشمويل بن بالي بن علقمة وهو بالعبرانية اسمعيل
فقال مقاتل هو من نسل هرون عليه السلام وقال مجاهد اشمويل بن هلقايا ابعث
لنا ملكًا نقاتل في سبيل الله اي انهض معنا اميرًا نصدر في تدبير امر الحرب عن رائه
وقرئ نقاتل بالرفع على انه حال مقدّرة اي ابعثه لنا مقدّرين القتال او استيناف
مبني على السؤال وقرئ يقاتل بالياء مجزومًا ومرفوعًا على الجواب للامر والوصف لملكا
قال استيناف وقع عن سؤال ينساق اليه الذهن كانه قيل فماذا قال لهم النبي حينئذ
فقيل قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال الا تقاتلوا فصل بين عسى وخبره بالشرط للاعتناء
به اي هل قاربتم ان لا تقاتلوا كما اتوقّعه منكم والمراد تقرير ان المتوقع كائن وانما لم
يذكر في معرض الشرط ما التمسوه بان قيل هل عسيتم ان بعث لكم ملكًا ملكًا مع انه
الظاهر تعلقًا بكلامهم بل ذكر كتابة القتال عليهم للمبالغة في بيان تخلفهم عنه فانهم اذا لم
يقاتلوا عند فرضيته القتال عليهم بايجاب الله تعالى فلان لا يقاتلوا عند عدم فرضيته اولى
ولانّ ايراد ما ذكروه ربما يوهم انّ سبب تخلفهم عن القتال هو المبعوث لا نفس القتال
وقرئ عسيتم بكسر السين وهي ضعيفة قالوا استيناف كما سبق وما لنا ان لا
نقاتل اي ايّ سبب لنا في ان لا نقاتل في سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا
وابنائنا اي والحال انه قد عرض لنا ما يوجب القتال ايجابًا قويًّا من الاخراج
عن الديار والاوطان والاغتراب من الاهل والاولاد وافراد الابناء بالذكر لمزيد
تقوية اسباب القتال وذلك ان جالوت رأس العمالقة وملكهم وهو جبار من
اولاد عمليق بن عاد كان هو ومن معه من العمالقة يسكنون ساحل بحر الروم بين
مصر وفلسطين وظهروا على بني اسرائيل واخذوا ديارهم وسبوا اولادهم
واسروا من ابناء ملوكهم اربعمائة واربعين نفسًا وضربوا عليهم الجزية
واخذوا توراتهم فلما كتب عليهم القتال بعد سؤال النبي عليه السلام ذلك
وبعث الملك تولوا اي اعرضوا وتخلفوا لكن لا في ابتداء الامر بل بعد مشاهدة
كثرة العدو وشوكته كما سيجيء تفصيله وانما ذكرهنا مآل امرهم اجمالًا اظهارًا لما

القتال

بين

بين قولهم من التنافي والتباين الا قليلًا منهم وهم الذين اكتفوا بالغرفة من النهر
وجاوزوه وهم ثلثمائة وثلثة عشر بعدد كعدد بدر والله عليم بالظالمين
وعيد لهم على ظلمهم بالتولي عن القتال وترك الجهاد وتنافي اقوالهم وافعالهم
والجملة اعتراض تذييلي وقال لهم نبيهم شروع في تفصيل ما جرى بينه عليه
السلام وبينهم من الاقوال والافعال اثر الاشارة الاجمالية الى مصير حالهم اي قال
لهم بعد ما اوحي اليه ما اوحي. ان الله قد بعث لكم طالوت ملكًا طالوت علم
عبري كداود وجعل فعلوتًا من الطول يأباه منع صرفه وملكًا حال منه روي انه
عليه السلام لما دعى ربه ان يجعل لهم ملكًا اتي بعصًا يقاس بها من يملك عليهم فلم
يساوها الا طالوت قالوا استيناف كما مرّ انى يكون له الملك علينا اي من
اين يكون او كيف يكون ذلك ونحن احق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال
الواو الاولى حالية والثانية عاطفة جامعة للجملتين في الحكم اي كيف يتملك علينا والحال انه
لا يستحق التملك لوجود من هو احق منه ولعدم ما يتوقف عليه الملك من المال وسبب هذا
الاستبعادات النبوة كانت مخصوصة بسبط معيّن من اسباط بني اسرائيل وهو سبط
لاوي بن يعقوب عليه السلام وسبط المملكة بسبط يهوذا ومنه داود وسليمان عليهما
السلام ولم يكن طالوت من احد هذين السبطين بل من ولد بنيامين قيل كان راعيًا وقيل
دبّاغًا وقيل سقّاءً قال ان الله اصطفاه لمّا استبعدوا تملكه بسقوط نسبه
وبفقره ردّ عليهم ذلك اوّلًا بان ملاك الامر هو اصطفاء الله تعالى وقد اختاره عليكم
وهو اعلم بالمصالح منكم وثانيًا بانّ العمدة فيه وفور العلم ليتمكن به من معرفة الامور
السياسية وجسامة البدن ليعظم خطره في القلوب ويقدر على مقاومة الاعداء
ومكابدة الحروب وقد خصه الله تعالى منهما بحظ وافر وذلك قوله عز وعلا وزاده بسطة
في العلم اي العلم المتعلق بالملك او به وبالديانات ايضًا وقيل قد اوحي اليه ونبّئ والجسم
قيل بطول القامة فانه كان اطول من غيره برأسه ومنكبيه حتى ان الرجل القائم كان يمد
يده فينال رأسه وقيل بالجمال وقيل بالقوة والله يؤتي ملكه من يشاء لانه مالك
الملك والملكوت فعال لما يريد فله ان يؤتيه من يشاء من عباده والله واسع
يوسّع على الفقير ويغنيه عليم بمن يليق بالملك ممن لا يليق به واظهار الاسم الجليل
لتربية المهابة وقال لهم نبيهم توسيط فيما بين قوليه المحكيين عنه عليه السلام
للاشعار بعدم اتصال احدهما بالآخر وتخلل كلام من جهة المخاطبين متفرع
على السابق المستتبع للاحق كانهم طلبوا منه عليه السلام آية تدل على انه تعالى اصطفى
طالوت وملكه عليهم روي انهم قالوا ما آية ملكه فقال ان آية ملكه ان يأتيكم
التابوت اي الصندوق وهو فعلوت من التوب الذي هو الرجوع لما انه لا يزال
يرجع اليه منه وتاؤه مزيدة لغير التانيث كملكوت ورهبوت والمشهور ان يوقف
على تائه من غير ان تقلب هاءً ومنهم من يقلبها اياها والمراد به صندوق التورية
فكان قد رفعه الله عز وجل بعد وفاة موسى عليه السلام سخطًا على بني اسرائيل
لما عصوا واعتدوا فلما طلب القوم من نبيهم آية تدل على ملك طالوت قال لهم
ان آية ملكه ان يأتيكم التابوت من السماء والملائكة يحفظونه فأتاهم كما وصف
والقوم ينظرون اليه حتى نزل عند طالوت وهذا قول ابن عباس وقال ارباب الاخبار
ان الله انزل على آدم تابوتًا فيه تماثيل الانبياء عليهم السلام من اولاده وكان
من عود الشمشاد نحوًا من ثلثة اذرع في ذراعين فكان عند آدم عم الى ان
توفّي فتوارثه اولاده واحد بعد واحد الى ان وصل الى يعقوب عليه السلام ثم بقي
في ايدي بني اسرائيل الى ان وصل الى موسى عليه السلام فكان عليه السلام يضع فيه
التورية وكان اذا قاتل قدّمه فكانت تسكن اليه نفوس بني اسرائيل وكان عنده الى ان توفي
ثم تداولته ايدي بني اسرائيل وكانوا اذا اختلفوا في شيء تحاكموا اليه فيكلّمهم ويحكم بينهم
وكانوا اذا حضروا القتال يقدّمونه بين ايديهم ويستفتحون به على عدوّهم وكان الملائكة

طرّ تداولته

فان قيل كيف قال والله يؤتي ملكه
من يشاء والله لا يؤتي ملكه احدًا
قلنا المراد بهذه السلطنة و
الرياسة التي انكروا اعطاءها
لطالوت وليس المراد به يؤتي
كل ملكه لاحد لان سياق الآية
يمنعه اسعله القرآن

تحمله فوق العسكر ثم يقاتلون العدو فاذا سمعوا من التابوت صيحة استيقنوا النصر فلما عصوا
وافسدوا سلّط الله عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت وسلبوه وجعلوه في موضع
البول والغائط فلما اراد الله تعالى ان يملك طالوت سلط عليهم البلاء حتى ان كل من بال
عنده ابتلي بالبواسير وهلك من بلادهم خمس مدائن فعلم الكفار ان ذلك بسبب استهانتهم
بالتابوت فاخرجوه وجعلوه على ثورين فاقبل الثوران يسيران ووكل الله تعالى بهما
اربعة من الملائكة يسوقونهما حتى اتوا منزل طالوت فلما سألوا نبيهم البينة على ملك
طالوت قال لهم النبي ان اية ملكه انكم تجدون التابوت في داره فلما وجدوه عنده
ايقنوا بملكه فيه سكينة من ربكم اي في اتيانه سكون لكم وطمانينة كائنة من ربكم
او في التابوت ما يسكنون اليه وهو التورية المودعة فيه بناء على ما من ان موسى عليه السلام
اذا قاتل قدمه فتسكن اليه نفوس بني اسرائيل وقيل السكينة صورة كانت فيه من زبرجد
او ياقوت لها رأس وذنب كرأس الهرة وذنبه وجناحان فتأن فيزف التابوت نحو العدو
وهم يمضون معه فاذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر وعن علي رضي الله عنه كان لها
وجه كوجه الانسان وفيها ريح هفافة وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون
هي رضاض الالواح وعصى موسى وثيابه وشيء من التورية وكان قد رفعه الله تعالى
بعد وفاة موسى عليه السلام والآل مقحم لتفخيم شانهما او ابناؤهما وانفسهما والآل مقحم
او انبياء بني اسرائيل تحمله الملائكة حال من التابوت اي ان اية ملكه اتيانه
حال كونه محمولا للملائكة وقد مر كيفيته ذلك ولعل حمل الملائكة على الرواية الاخيرة
عبارة عن سوقهم للثورين الحاملين له ان في ذلك اشارة الى ما ذكر من شان التابوت
فهو من تمام كلام النبي لقومه او الى نقل القصة وحكايتها فهو ابتداء كلام من جهة الله
تعالى جيء به قبل تمام القصة اظهارا لكمال العناية به وافراد حرف الخطاب مع تعدد
المخاطبين على التقدير بتاويل الفريق او غيره كما سلف لاية عظيمة لكم دالة على
ملك طالوت او على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حيث اخبر بهذه التفاصيل على
ما هي عليه من غير سماع من البشر ان كنتم مؤمنين اي مصدقين بتكميله عليكم
او بشيء من الايات وان شرطية والجواب محذوف ثقة بما قبله هي بمعنى اذ فلما فصل
طالوت بالجنود اي انفصل بهم عن بيت المقدس والاصل فصل نفسه ولما اتحد
فاعله ومفعوله شاع استعماله محذوف المفعول حتى نزل منزلة القاصر كانفصل وقيل
فصل فصولا وقد جوز كونه اصلا براسه ممتازا من المتعدي بمصدره كوقف وقوفا
ووقفه وقفا وكصد صدودا وصده صدا ورجع رجوعا ورجعه رجعا والباء
متعلق بمحذوف وقع حالا من طالوت اي ملتبسا بهم ومصاحبا لهم روي انه قال
لقومه لا يخرج معي رجل بنى بناء لم يفرغ منه ولا تاجر مشتغل بالتجارة ولا متزوج
امراة لم يبن عليها ولا ابتغي الا الشاب النشيط الفارغ فاجتمع اليه مما اختاره ثمانون
الفا وكان الوقت قيظا وسلكوا مفازة فسألوا ان يجري الله تعالى لهم نهرا فبعد ما ظهر له
ما تعلقت به مشيئته تعالى من جهة النبي عم او بطريق الوحي عند من يقول بنبوته قال
ان الله مبتليكم بنهر بفتح الهاء وقرئ بسكونها فمن شرب منه اي مبتداء
شربه من النهر بان كرع لانه الشرب منه حقيقة فليس مني اي من جملتي واتباع
المؤمنين وقيل ليس بمتصل بي ومتحد معي من قولهم فلان مني كانه بعضه لكمال
اختلاطهما ومن لم يطعمه اي لم يذقه من طعم الشيء اذا ذاقه ماكولا كان او
مشروبا او غيرهما وان شئت حرمت النساء سواكم وان شئت لم اطعم نقاخا ولا بردا
اي نوما فانه مني الا من اغترف غرفة بيده استثناء من قوله تعالى فمن شرب منه فليس
مني وانما اخر من الجملة الثانية لابراز كمال العناية ومعناه الرخصة في اغتراف الغرفة
باليد دون الكروع والغرف ما يغرف وقرئ بفتح الغين على انها مصدر والباء متعلقة
باغترف او بمحذوف وقع صفة لغرفة اي غرفة كائنة بيده يروى ان الغرفة كانت تكفي
الرجل لشربه واداوته ودوابه واما الذين شربوا منه فقد اسودت شفاههم وغلبهم

العطش فشربوا منه عطف على مقدر يقتضيه المقام اي فابتلوا به فشربوا منه
الا قليلا منهم وهم المشار اليهم فيما سلف بالاستثناء من التولي وقرئ الا قليل منهم
ميلا الى جانب المعنى وهو اعراض عن عدوة اللفظ فان قوله تعالى فشربوا منه في قوة ان يقال
فلم يطيعوه فحق ان يرد المستثنى مرفوعا كما في قول الفرزدق وعض زمان يا ابن مروان لم
يدع من المال الا مسحت او مجلف فان قوله لم يدع في حكم لم يبق فلما جاوزه اي النهر
هو اي طالوت والذين امنوا معه عطف على الضمير المتصل المؤكد بالمنفصل والظرف متعلق
بجاوز لا بامنوا وقيل الواو حالية والظرف متعلق بمحذوف وقع خبرا من الموصول كانه
قيل فلما جاوزه والحال ان الذين امنوا كائنون معه وهم اولئك القليل وفيه اشارة
الى من عداهم بمعزل من الايمان قالوا اي بعض من معه من المؤمنين لبعض لا
طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده اي بمحاربتهم ومقاومتهم فضلا عن ان يكون لنا غلبة
عليهم لما شاهدوا منهم من الكثرة والشدة قيل كانوا مائة الف مقاتل شاكي السلاح
قال استيناف مبني على السؤال كانه قيل فماذا قال مخاطبهم فقيل قال الذين
يظنون انهم ملاقوا الله قيل اي الخلص منهم الذين يتيقنون لقاء الله بالبعث ويتوقعون
ثوابه وافرادهم بذلك الوصف لا ينافي ايمان الباقين فان درجات المؤمنين في التيقن
والتوقع متفاوتة او الذين يعلمون انهم يستشهدون عما قريب فيلقون الله تعالى وقيل
الموصول عبارة عن المؤمنين كافة والضمير في قالوا للمنخزلين عنهم كانهم قالوا اعتذارا
عن تخلف النهر بينهما كم من فئة اي فرقة وجماعة من الناس من فاوت راسه
اذا شقها او من فاء اليه اذا رجع فوزنها على الاول فعة وعلى الثاني فلة قليلة غلبت
فئة كثيرة وكم خبرية كانت او استفهامية مفيدة للتكثير وهي في حيز الرفع بالابتداء
خبرها غلبت اي كثير من الفئات القليلة غلبت الفئات الكثيرة باذن الله اي بحكمه
وتيسيره فان دوران كافة الامور على مشيئته تعالى فلا يذل من نصره وان قل عدده ولا
يعز من خذله وان كثر اسبابه وعدده وقد روعي في الجواب نكتة بديعة حيث لم يقل
التقت بفئة كثيرة حسبما وقع في كلام اصحابهم مبالغة في رد مقالتهم وتسكين
قلوبهم وهذا كما ترى جواب ناشئ من كمال ثقتهم بنصر الله تعالى وتوفيقه ولا دخل
في ذلك لظن لقاء الله تعالى بالبعث لاسيما بالاستشهاد فان العلم به ربما يورث الناس
من الغلبة ولا يتوقع ثوابه تعالى ولا ريب في ان ما ذكر في حيز الصلة ينبغي ان يكون مدارا
للحكم الوارد على الموصول لا اقل من ان يكون وصفا ملائما فلعل المراد بلقائه تعالى
نصره وتاييده عبر عنه بذلك مبالغة كما عبر عن مقارنة نصره تعالى بمقارنته سبحانه
حيث قيل والله مع الصابرين فان المراد به معية نصره وتوفيقه حتما وحملها على المعية
بالاثابة كما فعل يأباه انهم انما قالوه تتميما لجوابهم وتاييدا له بطريق الاعتذار التذييلي
تشجيعا لاصحابهم وتثبيتا لهم على الصبر المؤدي الى الغلبة ولا تعلق له بما ذكر من المعية
بالاثابة قطعا وكذا الحال اذا جعل ذلك ابتداء كلام من جهة الله تعالى جيء تقريرا لكلامهم
والمعنى قال الذين يظنون ويعلمون من جهة النبي او من جهة التابوت والسكينة انهم
ملاقو نصر الله العزيز كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله تعالى فنحن
ايضا نغلب جالوت وجنوده وايراد خبران اسما مع ان اللقاء مستقبل للدلالة على
تقرره وتحققه ولما برزوا اي ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين وصاروا
الى براز من الارض في موطن الحرب لجالوت وجنوده وشاهدوا ما هم
عليه من العدد والعدد وايقنوا انهم غير مطيقين بهم عادة قالوا اي جميعا
بعد تقوي قلوب الفريق الاول منهم بقول الفريق الثاني متضرعين الى الله تعالى
مستعينين به ربنا افرغ علينا صبرا على مقاساة شدائد الحرب واقتحام موارده
الصعبة الضيقة وفي التوسل بوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال وايثار
الافراغ المعرب عن الكثرة وتنكير الصبر المفصح عن التفخيم من الجزالة ما لا يخفى وثبت
اقدامنا في مداحض القتال ومزال النزال وثبات القدم عبارة عن كمال القوة

والرسوخ عند المقارعة وعدم التزلزل وقت المقاومة لا مجرد التقرر في حيز واحد
وانصرنا على القوم الكافرين بقهرهم وهزمهم ووضع الكافرين موضع الضمير العائد
الى جالوت وجنوده للاشعار بعلة النصر عليهم ولقد راعوا في الدعاء ترتيبا بديعا
حيث قدموا سؤال افراغ الصبر الذي هو ملاك الامر ثم سؤال تثبيت القدم المتفرع عليه
ثم سؤال النصر الذي هو الغاية القصوى فهزموهم اي كسروهم بلا مكث
باذن الله بنصره وتأييده اجابة لدعائهم وايثار هذه الطريقة على طريقة قوله
عز وجل فآتاهم الله ثواب الدنيا للمحافظة على مضمون قولهم غلبت فئة كثيرة
باذن الله تعالى وقتل داود جالوت كان ايشا ابو داود في عسكر طالوت
معه ستة من بنيه وكان داود عليه السلام سابعهم وكان صغيرا يرعى الغنم
فاوحى الله تعالى الى نبيهم انه الذي يقتل جالوت فطلبه من ابيه فجاء وقد مر في
طريقه بثلثة احجار قال له كل واحد منها احملنا فانك بنا تقتل جالوت فحملها في مخلاته
قيل لما ابطأ على ابيه خبر اخوته في المصاف ارسل داود اليهم ليأتيهم بخبرهم
فاتاهم وهم في القراع وقد برز جالوت بنفسه الى البراز ولا يكاد يبارزه احد
مكان ظله ميلا فقال داود لاخوته ما فيكم من يخرج الى هذا الاقلف فزجروه
فجاء ناحية اخرى ليس فيها اخوته وقد مر به طالوت وهو يحرض الناس على القتال
فقال له داود ما تصنعون بمن يقتل هذا الاقلف قال طالوت انكحه ابنتي واعطيه شطر
مملكتي فبرز له داود فرماه بما معه من الاحجار بالمقلاع فاصاب به في صدره فنفذ
الاحجار منه وقتلت بعده ناسا كثيرا وقيل انما كلمه الاحجار عند بروزه لجالوت في
المعركة فانجز له طالوت ما وعده وقيل انه حسده واخرجه من مملكته ثم ندم
على ما صنع فذهب يطلبه الى ان قتل وملك داود واعطي النبوة وذلك قوله عز
وجل واتاه الله الملك اي ملك بني اسرائيل في مشارق الارض المقدسة ومغاربها
والحكمة اي النبوة ولم يجتمع في بني اسرائيل الملك والنبوة قبله الا له بل كان
الملك في سبط والنبوة في سبط آخر وما اجتمعوا قبله على ملك قط وعلمه مما يشاء
اي مما يشاء الله تعالى تعليمه اياه لا مما يشاء داود عليه السلام كما قيل لان معظم
ما علمه تعالى اياه مما لا يكاد يخطر ببال احد ولا يقع في امنية بشر ليتمكن من طلبه
ومشيئته كالسرد بالانة الحديد ومنطق الطير والدواب ونحو ذلك من الامور الخفية
ولولا دفع الله الناس بعضهم الذين يباشرون الشر والفساد ببعض آخر منهم
بردهم عما هم عليه بما قدر الله تعالى من القتل كما في القصة المحكية او غيره وقرئ دفاع
الله على ان صيغة المغالبة للمبالغة لفسدت الارض وبطلت منافعها وتعطلت
مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الارض ويصلحها وقيل لولا ان الله
ينصر المؤمنين على الكفار لفسدت الارض بعيثهم وقتلهم المسلمين او لو لم
يدفعهم بالمسلمين لعم الكفر السخط فاستؤصل اهل الارض قاطبة ولكن الله
ذو فضل عظيم لا يقادر قدره على العالمين كافة وهذا اشارة الى قياس
استثنائي مؤلف من وضع نقيض المقدم منتج لنقيض التالي خلا انه قد وضع موضعه
ما يستتبعه ويستوجبه اعني كونه تعالى ذا فضل على العالمين ايذانا بانه تعالى
متفضل بذلك الدفع من غير ان يجب عليه ذلك وان فضله تعالى غير منحصر فيه
بل هو فرد من افراد فضله العظيم كانه قيل ولكنه تعالى يدفع فساد بعضهم
ببعض فلا يفسد الارض وينتظم به مصالح العالم وتنصلح احوال الامم
تلك اشارة الى ما سلف من حديث الالوف وخبر طالوت على التفصيل المرقوم
وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو شأن المشار اليه آيات الله المنزلة
من عنده تعالى والجملة مستأنفة وقوله تعالى نتلوها عليك اي بواسطة جبريل
عم اما حال من الآيات والعامل معنى الاشارة واما جملة مستقلة لا محل لها من
الاعراب بالحق في حيز النصب على انه حال من مفعول نتلوها اي ملتبسة باليقين الذي

لا يرتاب فيه احد من اهل الكتاب وارباب التواريخ لما يجدونها موافقة لما في كتبهم
او من فاعله اي نتلوها عليك ملتبسين بالحق والصواب او من الضمير المجرور اي ملتبسا
بالحق والصدق وانك لمن المرسلين اي جملة الذين ارسلوا الى الامم لتبليغ رسالاتنا
واجراء اوامرنا واحكامنا عليهم فان هذه المعاملة لا تجري بيننا وبينهم اي بين غيرهم
ففي شهادة منه سبحانه برسالته صلى الله عليه وسلم اثر بيان ما يستوجبها والتأكيد
من مقتضيات مقام الجاحدين تلك الرسل استيناف فيه رمز الى انه صلى الله عليه
وسلم من افاضل الرسل العظام عليهم الصلوة والسلام اثر بيان كونه من جملتهم
والاشارة الى الجماعة الذين من جملتهم النبي صلى الله عليه وسلم فاللام في الرسل للاستغراق
وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم وقيل الى الذين ذكرت
قصصهم في السورة وقيل الى الذين ثبت علمه عليه السلام بهم فضلنا بعضهم
على بعض في مراتب الكمال بان خصصناه حسبما تقتضيه مشيئتنا بمآثر جليلة خلا عنها
غيره منهم من كلم الله تفصيل للتفضيل المذكور اجمالا اي فضله بان كلمه
تعالى بغير سفير وهو موسى عليه السلام حيث كلمه تعالى ليلة الحيرة وفي الطور وقرئ
كلم الله بالنصب وقرئ كالم الله من المكالمة فانه كلم الله تعالى كما كلمه ويؤيده كليم الله
بمعنى مكالمه وايراد الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة والرمز الى ما بين
التكليم والرفع وبين ما سبق من مطلق التفضيل وما لحق من ايتاء البينات والتأييد بروح
القدس من التفاوت ورفع بعضهم درجات اي ومنهم من رفعه على غيره
من الرسل المتفاوتين في معارج الفضل بدرجات قاصية ومراتب نائية وتغيير الاسلوب
لتربية ما بينهم من اختلاف الحال في درجات الشرف والظاهر انه رسول الله صلى الله
عليه وسلم كما ينبئ عنه الاخبار بكونه عليه السلام منهم فان ذلك في قوة بعضهم
فانه قد خص بالدعوة العامة والحجج الجمة والمعجزات المستمرة والآيات المتعاقبة بتعاقب
الدهور والفضائل العملية والعلمية للحصر والابهام لتفخيم شانه وللاشعار بانه العلم
الفرد الغني عن التعيين وقيل انه ابراهيم عم حيث خصه تعالى بكرامة الخلة وقيل
ادريس عم حيث رفعه مكانا عليا وقيل اولو العزم من الرسل عليهم السلام واتينا
عيسى ابن مريم البينات الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة من احياء الموتى وابراء الاكمه
والابرص والاخبار بالمغيبات والانجيل وايدناه اي قويناه بروح القدس بضم
الدال وقرئ بسكونها اي بالروح المقدسة كقولك رجل صدق وهي روح عيسى وانما
وصفت بالقدس للكرامة او لانه عليه السلام لم تضمه الاصلاب والارحام الطوامث
وقيل بجبريل عليه السلام وقيل بالانجيل كما مر وافراده عليه السلام بما ذكر لرد ما
بين اهل الكتاب في شانه عليه السلام من التفريط والافراط والآية ناطقة بان
الانبياء عليهم السلام متفاوتة الاقدار فيجوز تفضيل بعضهم على بعض ولكن بقاطع
ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم اي جاؤا من بعد الرسل من الامم المختلفة
اي لو شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا بان جعلهم متفقين على اتباع الرسل المتفقة
على كلمة الحق فمفعول المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء على القاعدة المعروفة وقيل تقديره
لو شاء هدى الناس جميعا ما اقتتل الخ وليس بذلك من بعد ما جاءتهم من جهة
اولئك الرسل البينات المعجزات الواضحة والآيات الظاهرة الدالة
على حقية الحق الموجبة لاتباعهم الزاجرة عن الاعراض عن سننهم المؤدي
الى الاقتتال ومن متعلقة باقتتل ولكن اختلفوا استدراك من الشرطية اشير
به الى قياس استثنائي مؤلف من وضع نقيض مقدمها منتج لنقيض تاليها الا انه قد
وضع فيه الاختلاف موضع نقيض المقدم المترتب عليه للايذان بان الاقتتال ناشئ من
قبلهم لا من جهته تعالى ابتداء كانه قيل ولكن لم يشأ عدم اقتتالهم لانهم اختلفوا
اختلافا فاحشا فمنهم من آمن اي بما جاءت به اولئك الرسل من البينات وعملوا
به ومنهم من كفر بذلك كفرا لا ارعواء له عنه فاقتضى الحكمة عدم مشيئته تعالى

لعدم اقتتالهم فاقتتلوا بموجب اقتضاء احوالهم ولو شاء الله عدم اقتتالهم بعد هذه
المرتبة ايضا من الاختلاف والشقاق المستتبعين للاقتتال بحسب العادة ما اقتتلوا وما
نبض منهم عرق التطاول والتعادي لما ان الكل تحت ملكوته تعالى فالتكرير ليس للتاكيد كما ظن
بل للتنبيه على ان اختلافهم ذلك ليس موجبا لعدم مشيته تعالى لعدم اقتتالهم كما يفهم
ذلك من وضعه في الاستدراك موضعه بل هو سبحانه مختار في ذلك حتى لو شاء بعد
ذلك عدم اقتتالهم ما اقتتلوا كما يفصح عنه الاستدراك بقوله عز وجل ولكن الله
يفعل ما يريد اي من الامور الوجودية والعدمية التي من جملتها عدم مشيته عدم
اقتتالهم فان الترك ايضا من جملة الافعال اي يفعل ما يريد حسبما يريد من غير ان يوجبه عليه
موجب او يمنعه منه مانع وفيه دليل بين على ان الحوادث تابعة لمشيته سبحانه خيرا كان او شرا
ايمانا كان او كفرا يا ايها الذين امنوا انفقوا في سبيل الله مما رزقناكم اي شيئا مما
رزقناكموه على ان ما موصولة حذف عائدها والتعرض لوصوله منه تعالى للحث على الانفاق
كما في قوله تعالى وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه والمراد به الانفاق الواجب بدلالة ما بعده
من الوعيد من قبل ان ياتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة كلمة من متعلقة بما تعلقت
به اختها ولا ضير فيه لاختلاف معنيهما فان الاولى تبعيضية وهذه لابتداء الغاية اي انفقوا
بعض ما رزقناكم من قبل ان ياتي يوم لا تقدرون على تلافي ما فرطتم به اذ لا تبايع
فيه حتى تبتاعوا ما تنفقونه او تفتدون به من العذاب ولا خلة حتى يسامحكم به اخلاؤكم
او يعينوكم عليه ولا شفاعة الا لمن اذن له الرحمن ورضي له قولا حتى تتوسلوا بشفعاء
يشفعون لكم في حط ما في ذممكم وانما رفعت الثلثة مع قصد التعميم لانها في التقدير
جواب هل فيه بيع او خلة او شفاعة وقرئ بفتح الكل والكافرون اي والتاركون
للزكوة وايثاره عليه للتغليظ والتهديد كما في قوله تعالى ومن كفر مكان ومن لم يحج وللايذان
بان ترك الزكوة من صفات الكفار قال تعالى وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكوة هم
الظالمون الذين ظلموا انفسهم بتعريضها للعقاب ووضعوا المال في غير موضعه
وصرفوه الى غير وجهه الله لا اله الا هو مبتدا وخبر اي هو المستحق للعبودية لا غير
وفي اضمار خبر لا مثل في الوجود او يصح او يوجد كلام للنحاة معروف الحي
الباقي الذي لا سبيل عليه للموت والفناء وهو اما خبر ثان او خبر مبتدا محذوف
او بدل من لا اله الا هو او بدل من الله او صفة له ويعضده القراءة بالنصب على المدح
لاختصاصه بالنعت القيوم فيعول من قام بالامر اذا حفظه اي دائم القيام بتدبير
الخلق وحفظه وقيل هو القائم بالذات المقيم لغيره لا تاخذه سنة ولا نوم السنة
ما يتقدم النوم من الفتور قال عدي بن الرقاع العاملي وسنان اقصده النعاس فرنقت
في عينه سنة وليس بنائم والنوم حالة تعرض للحيوان من استرخاء اعصاب الدماغ
من رطوبات الابخرة المتصاعدة بحيث تقف المشاعر الظاهرة عن الاحساس راسا والمراد
بيان انتفاء اعتراء شيء منهما له سبحانه لعدم كونهما من شانه تعالى لانهما قاصران بالنسبة
الى القوة الالهية فانه بمعزل من مقام التنزيه فلا سبيل الى حمل النظم الكريم على طريقة
المبالغة والترقي بناء على ان القادر على دفع السنة قد لا يقدر على دفع النوم القوي كما
في قولك فلان يقظ لا تغلبه سنة ولا نوم وانما تاخير النوم للمحافظة على ترتيب الوجود
الخارجي وتوسيط كلمة لا للتنصيص على شمول النفي لكل منهما كما في قوله عز وعلا ولا
ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة الاية واما التعبير عن عدم الاعتراء والعروض بعدم
الاخذ فلمراعاة الواقع اذ عروض السنة والنوم لمعروضهما انما يكون بطريق الاخذ
والاستيلاء وقيل هو من باب التكميل والجملة تاكيد لما قبلها من كونه تعالى حيا قيوما
فان من يعتريه احدهما يكون موت الحيوة قاصر الحفظ والتدبير وقيل استيناف مؤكد لما سبق
وقيل حال مؤكدة من الضمير المستكن في القيوم له ما في السموات وما في الارض تقرير
لقيوميته تعالى واحتجاج به على تفرده في الالوهية والمراد بما فيهما ما هو اعم
من اجزائهما الداخلة فيهما ومن الامور الخارجة عنها المتمكنة فيهما من العقلاء وغيرهم

من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه بيان لكبرياء شانه وانه لا يدانيه احد ليقدر على تغيير
ما يريد شفاعة وضراعة فضلا من ان يدافعه عنادا او مناصبة يعلم ما بين ايديهم
وما خلفهم اي ما قبلهم وما بعدهم او بالعكس لانك مستقبل المستقبل ومستدبر الماضي
او امور الدنيا وامور الاخرة او بالعكس او ما يحسونه وما يعقلونه او ما يدركونه وما لا يدركونه
والضمير لما في السموات والارض بتغليب ما فيهما من العقلاء على غيرهم او لما دل عليه
من ذا الذي من الملائكة والانبياء عليهم السلام ولا يحيطون بشيء من علمه
اي من معلوماته الا بما شاء ان يعلموه وعطفه على ما قبله لما انهما جميعا دليل على تفرده
تعالى بالعلم الذاتي التام الدال على وحدانيته وسع كرسيه السموات والارض
الكرسي ما يجلس عليه ولا يفضل عن مقعد القاعد وكانه منسوب الى الكرس الذي هو
الملبد وليس ثمة كرسي ولا قاعد ولا قعود وانما هو تمثيل لعظمة شانه عز وجل وسعة
سلطانه واحاطة علمه بالاشياء قاطبة على طريقة قوله عز وجل قائلا وما قدروا الله
حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيمة والسموات مطويات بيمينه وقيل كرسيه مجاز
عن علمه اخذا من كرسي العالم وقيل عن ملكه اخذا من كرسي الملك فان الكرسي كلما
كان اعظم يكون عظمة القاعد اكثر واوفر فعبر عن شمول علمه او عن بسطة ملكه وسلطانه
بسعة كرسيه واحاطته بالاقطار العلوية والسفلية وقيل هو جسم بين يدي العرش
محيط بالسموات السبع لقوله عليه السلام ما السموات والارضون السبع مع الكرسي الا
كحلقة في فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة ولعله الفلك
الثامن وعن الحسن البصري انه العرش ولا يؤده اي لا يثقله ولا يشق عليه حفظهما
اي حفظ السموات والارض وانما لم يتعرض لذكر ما فيهما لما ان حفظهما مستتبع لحفظه وهو
العلي المتعالي بذاته عن الاشياه والانداد العظيم الذي يستحقر بالنسبة اليه
كل ما سواه ولما ترى من انطواء هذه الاية الكريمة على امهات المسائل الالهية المتعلقة
بالذات العلية والصفات الجلية فانها ناطقة بانه تعالى موجود متفرد بالالهية متصف
بالحيوة واجب الوجود لذاته موجد لغيره لما ان القيوم هو القائم بذاته المقيم لغيره منزه
عن التحيز والحلول مبرا عن التغير والفتور لا مناسبة بينه وبين الاشباح ولا
يعتريه ما يعتري النفوس والارواح مالك الملك والملكوت ومبدع الاصول والفروع والبطش
الشديد لا يشفع عنده الا من اذن له فيه العالم وحده بجميع الاشياء جليها وخفيها
كليها وجزئيها واسع الملك والقدرة لكل ما من شانه ان يملك ويقدر عليه لا يشق عليه
شاق ولا يشغله شان عن شان متعال عما يناله الاوهام عظيم لا يحدق به الافهام
تفردت بفضائل رائقة وخواص فائقة خلت عنها اخواتها قال صلى الله عليه وسلم
ان اعظم اية في القران اية الكرسي من قراها بعث الله تعالى ملكا يكتب من حسناته ويمحو
من سيئاته الى الغد من تلك الساعة وقال عليه السلام ما قرئت هذه الاية في دار
الا هجرته الشياطين ثلثين يوما ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة اربعين ليلة يا علي
علمها ولدك واهلك وجيرانك فما نزلت اية اعظم منها وقال صلى الله عليه وسلم
من قرا اية الكرسي في دبر كل صلوة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة الا الموت ولا يواظب
عليها الا صديق او عابد ومن قراها اذا اخذ مضجعه امنه الله تعالى على نفسه وجاره
وجار جاره والابيات حوله وقال عليه السلام سيد البشر ادم وسيد العرب محمد ولا فخر
وسيد الفرس سلمان وسيد الروم صهيب وسيد الحبشة بلال وسيد الجبال الطور وسيد
الايام يوم الجمعة وسيد الكلام القران وسيد القران سورة البقرة وسيد البقرة
اية الكرسي وتخصيص سيادته صلى الله عليه وسلم للعرب بالذكر في اثناء تعداد
السادات الخاصة لا يدل على نفي ما دلت عليه الاخبار المستفيضة وانعقد عليه الاجماع
من سيادته عليه السلام لجميع افراد البشر لا اكراه في الدين جملة مستانفة
جيء بها اثر بيان تفرده سبحانه وتعالى بالشؤن الجليلة الموجبة للايمان به وحده
ايذانا بان من حق العاقل ان لا يحتاج الى التكليف والالزام بل يختار الدين الحق

من غير تردد و تلعثم و قيل هو خبر في معنى النهي اي لا تكرهوا في الدين فقيل منسوخ بقوله تعالى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم و قيل خاص باهل الكتاب حيث حصنوا انفسهم باداء الجزية وروي انه كان لانصاري من بني سالم بن عوف ابنان قد تنصرا قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم ثم قدما المدينة فلزمهما ابوهما و قال والله لا ادعكما حتى تسلما فابيا فاختصموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت فخلاهما قد تبين الرشد من الغي استيناف تعليلي صدر بكلمة التحقيق لزيادة تقرير مضمونه كما في قوله تعالى قد بلغت من لدني عذرا اي اذ قد تبين بما ذكر من نعوته تعالى التي يمتنع توهم اشتراك غيره في شيء منها الايمان الذي هو الرشد الموصل الى السعادة الابدية من الكفر الذي هو الغي المؤدي الى الشقاوة السرمدية فمن يكفر بالطاغوت هو بناء مبالغة من الطغيان كالملكوت والجبروت قلب بكان عينه ولامه فقيل هو في الاصل مصدر واليه ذهب الفارسي و قيل اسم جنس مفرد مذكر وانما الجمع والتانيث لارادة الالهة وهو راي سيبويه و قيل هو جمع وهو مذهب المبرد وقيل يستوي فيه الافراد والجمع والتذكير والتانيث اي فمن يعمل اثر ما تميز الحق من الباطل بموجب الحجج الواضحة والآيات البينة و يكفر بالشيطان او بالاصنام او بكل ما عبد من دون الله تعالى وصد عن عبادته تعالى لما تبين له كونه بمعزل من استحقاق العبادة ويؤمن بالله وحده لما شاهد من نعوته الجليلة المقتضية لاختصاص الالوهية به عز وجل الموجبة للايمان والتوحيد و تقديم الكفر بالطاغوت على الايمان به تعالى لتوقفه عليه فان التخلية متقدمة على التحلية فقد استمسك بالعروة الوثقى اي بالغ في التمسك بها كانه هو ملتبس به يطلب من نفسه الزيادة فيه والثبات عليه لا انفصام لها الفصم الكسر بغير ابانة كما ان القصم هو الكسر بابانة ونفي الاول يدل على انتفاء الثاني بالاولوية والجملة اما استيناف مقرر لما قبلها من وثاقة العروة واما حال من العروة والعامل استمسك او من الضمير المستتر في الوثقى ولها في حيز الخبر اي كائن لها والكلام تمثيل مبني على تشبيه الهيئة العقلية المنتزعة من ملازمة الاعتقاد الحق الذي لا يحتمل النقيض اصلا لثبوته بالبراهين النيرة القطعية بالهيئة الحسية المنتزعة من التمسك بالحبل المحكم المأمون انقطاعه فلا استعارة في المفردات ويجوز ان يكون العروة الوثقى مستعارة للاعتقاد الحق الذي هو الايمان والتوحيد لا للنظر الصحيح المؤدي اليه كما قيل فانه غير مذكور في حيز الشرط والاستمساك بها مستعار لما ذكر من الملازمة او ترشيح للاستعارة الاولى والله سميع بالاقوال عليم بالعزائم والعقائد والجملة اعتراض تذييلي حامل على الايمان رادع من الكفر والنفاق بما فيه من الوعد والوعيد الله ولي الذين آمنوا اي معينهم او متولي امورهم والمراد بهم الذين ثبت في علمه تعالى ايمانهم في الجملة مآلا او حالا يخرجهم تفسير للولاية او خبر ثان عند من يجوز كونه جملة او حال من الضمير في ولي من الظلمات التي هي اعم من الظلمات الكفر والمعاصي وظلمات الشبه بل مما في بعض مراتب العلوم الاستدلالية من نوع ضعف وخفاء بالقياس الى مراتبها القوية الجلية بل مما في جميع مراتبها بالنظر الى مرتبة العيان كما ستعرفه الى النور الذي يعم نور الايمان ونور الايقان بمراتبه ونور العيان اي يخرج بهدايته وتوفيقه كل واحد منهم من الظلمة التي وقع فيها الى ما يقابلها من النور وافراد النور لوحدة الحق كما ان جمع الظلمات لتعدد فنون الضلال والذين كفروا اي الذين ثبت في علمه تعالى كفرهم اولياؤهم الطاغوت اي الشياطين وسائر المضلين عن طريق الحق فالموصول مبتدأ واولياؤهم مبتدأ ثان والطاغوت خبره والجملة خبر للاول والجملة الحاصلة معطوفة على ما قبلها ولعل تغيير السبك للاحتراز عن وضع الطاغوت في مقابلة الاسم الجليل ولقصد المبالغة بتكرير الاسناد مع الايماء الى التباين بين الفريقين من كل وجه حتى من جهة التعبير ايضا يخرجونهم بالوساوس وغيرها من طرق الاضلال والاغواء من النور الفطري الذي جبل عليه الناس كافة او من نور البينات التي يشاهدونها من جهة النبي صلى الله عليه وسلم بتنزيل تمكنهم من الاستضاءة

بها

بها منزلة نفسها الى الظلمات ظلمات الكفر والانهماك في الغي و قيل نزلت في قوم ارتدوا عن الاسلام والجملة تفسير لولاية الطاغوت او خبر ثان كما مر و اسناد الاخراج من حيث السببية الى الطاغوت لا يقدح في اسناده من حيث الخلق الى قدرته سبحانه اولئك اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة وما يتبعه من القبائح اصحاب النار اي ملابسوها وملازموها بسبب ما لهم من الجرائم هم فيها خالدون ماكثون ابدا الم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه استشهاد على ما ذكر من ان الكفرة اولياؤهم الطاغوت وتقرير له على طريقة قوله تعالى الم تر انهم في كل واد يهيمون كما ان ما بعده استشهاد على ولايته تعالى للمؤمنين وتقرير لها وانما بدئ بهذا لرعاية الاقتران بينه وبين مدلوله واستقلاله بامر عجيب حقيق بان يصدر به المقال وهو اجتراؤه على المحاجة في الله عز وجل وما اتى بها في اثنائها من العظيمة المنادية بكمال حماقته ولان فيما بعده تعددا و تفصيلا يورث تقديمه انتشار النظم على انه قد اشير في تضاعيفه الى هداية الله تعالى ايضا بواسطة ابراهيم عليه السلام فان ما يحكى عنه من الدعوة الحق وادحاض حجة الكافر من آثار ولايته تعالى وهمزة الاستفهام لانكار النفي وتقرير المنفي اي الم تنظر او لم ينته علمك الى هذا الطاغوت المارد كيف تصدى لاضلال الناس واخراجهم من النور الى الظلمات اي قد تحققت الرؤية وتقررت بناء على ان امره من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على احد ممن له حظ من الخطاب فظهر ان الكفرة اولياؤهم الطاغوت وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام تشريف له وايذان بتأييده في المحاجة ان آتاه الله الملك اولان آتاه اي لان آتاه حيث ابطره ذلك وحمله على المحاجة او حاجة لاجله وضعا للمحاجة التي هي اقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه من الشكر كما يقال عاديتني لان احسنت اليك او وقت ان آتاه الله الملك وهو حجة على من منع ايتاء الله الملك للكافر اذ قال ابراهيم ظرف لحاج او بدل من آتاه على الوجه الاخير ربي الذي يحيي ويميت بفتح ياء ربي وقرئ بحذفها روي انه عليه السلام لما كسر الاصنام سجنه ثم اخرجه فقال من ربك الذي تدعو اليه فقال ربي يحيي ويميت اي يخلق الحياة والموت في الاجساد قال استيناف مبني على السؤال كانه قيل كيف حاجه في هذه المقالة القوية الحقة فقيل قال انا احيي واميت روي انه دعا برجلين فقتل احدهما واطلق الآخر فقال ذلك قال ابراهيم استيناف كما سبق كانه قيل فماذا قال ابراهيم لمن في هذه المرتبة في الحماقة وبماذا افحمه فقيل قال فان الله يأتي بالشمس من المشرق حسبما يقتضيه مشيئته فأت بها من المغرب ان كنت قادرا على مثل مقدوراته تعالى لم يلتفت عليه السلام الى ابطال مقالة اللعين ايذانا بان بطلانها من الجلاء والظهور بحيث لا يكاد يخفى على احد وان التصدي لابطالها من قبيل السعي في تحصيل الحاصل واتى بمثال لا يجد اللعين فيه مجالا للتمويه والتلبيس فبهت الذي كفر اي صار مبهوتا وقرئ على بناء الفاعل على ان الموصول مفعوله اي فغلب ابراهيم الكافر واسكته وايراد الكفر في حيز الصلة للاشعار بعلة الحكم والتنصيص على كون المحاجة كفرا والله لا يهدي القوم الظالمين تذييل مقرر لمضمون ما قبله اي لا يهدي الذين ظلموا انفسهم بتعريضها للعذاب المخلد بسبب اعراضهم عن قبول الهداية الى مناهج الاستدلال او الى سبيل النجاة او الى طريق الجنة يوم القيمة او كالذي مر على قرية استشهاد على ما ذكر من ولايته تعالى للمؤمنين وتقرير له معطوف على الموصول السابق وايثار او الفارقة على الواو الجامعة للاحتراز عن توهم اتحاد المستشهد عليه من اول الامر والكاف اما اسمية كما اختاره قوم جيء بها للتنبيه على تعدد الشواهد وعدم انحصارها فيما ذكر كما في قولك الفعل الماضي مثل نصر واما زائدة كما ارتضاه آخرون والمعنى او لم تر الى مثل الذي او الى الذي مر على قرية كيف هداه الله تعالى واخرجه من ظلمة الاشتباه الى نور العيان والشهود اي قد رايت ذلك وشاهدته فاذن لا ريب في ان الله ولي الذين آمنوا الى هنا واما جعل الهمزة لمجرد التعجب على ان يكون المعنى في الاول

فان قيل كيف انتقل ابراهيم عم الى حجة اخرى وعدل عن نصرة الاول مع انها لم ينقطع بما عارضه به نمرود من قتل احد المحبوسين واطلاق الآخر فان ما اراد هنه الاحياء ابراهيم عم ما لانه رأى خصمه قاصر الفهم عن ادراك معنى الاحياء والامانة قلنا اما لانه والامانة التي اضافها ابراهيم عم الى الله تعالى حيث عارض معارضة لفظية وعمي عن اختلاف المعنيين او لانه علم انه فهم الحجة لكنه قصد التمويه والتلبيس على اتباعه واشباعه فعدل ابراهيم عم الى امر ظاهر يفهمه كل واحد ولا يقع فيه تمويه ولا تلبيس اسوله الفرا

الم تنظر الي الذي حاجّ الي اخره انظر اليه وتعجّب من امره وفي الثاني او ارايت مثل الذي
مرّ الخ ايذانا بانّ حاله وما جري عليه في الغرابة بحيث لا يري له مثل كما استقرّ عليه راي
الجمهور غير خليق بجزالة التنزيل وفخامة شانه الجليل فتدبّر والمارّ هو عزير بن شرخيا قاله
قتادة والربيع وعكرمة وناجية بن كعب وسليمان بن بريدة والضحاك والسدّي وقيل
هو ارميا بن حلقيا من سبط هارون عليه السلام قاله وهب وعبد الله بن عمير وقيل
ارميا هو الخضر بعينه وقال مجاهد كان المارّ رجلا كافرا بالبعث وهو بعيد والقرية بيت
المقدس قاله وهب وعكرمة والربيع وقيل هي دير هرقل علي شطّ دجلة وقال الكلبي هي
دير سابر اباد وقال السدّي هي دير سلما باد والاوّل هو الاظهر والاشهر روي ان بني اسرائيل
لما بالغوا في تعاطي الشرّ والفساد وجاوزوا في العتوّ والطغيان كلّ حدّ معتاد سلّط الله
تعالي عليهم بخت نصّر البابلي فسار اليهم في ستمائة الف راية حتي وطئ الشام وخرّب بيت المقدس
وجعل بني اسرائيل اثلاثا ثلثا منهم قتلهم وثلثا اقرّهم بالشام وثلثا منهم سباهم وكانوا مائة الف
غلام بالغ وغير بالغ فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فاصاب كلّ ملك منهم اربعة
غلمة وكان عزير من جملتهم فلمّا نجّاه الله تعالي منهم بعد حين مرّ بحماره علي بيت المقدس فراه
علي افظع مرأي واوحش منظر وذلك قوله تعالي وهي خاوية علي عروشها اي ساقطة
علي سقوفها بان سقطت العروش ثم الحيطان من خوي البيت اذا سقط او من خوت الارض
اي تهدّمت الجملة حال من ضمير مرّ او من قرية عند من يجوّز الحال من النكرة مطلقا قال اي
تلهّفا عليها وتشوّقا الي عمارتها مع استشعار الياس عنها انّي يحيي هذه الله وهي علي
ما يري من الحالة العجيبة المباينة للحيوة وتقديمها علي الفاعل للاعتناء بها من حيث ان
الاستبعاد ناشئ من جهتها لا من جهة الفاعل وانّي نصب علي الظرفية ان كانت بمعني متي وعلي الحالية
من هذه ان كانت بمعني كيف والعامل يحيي وايّاما كان فالمراد استبعاد عمارتها بالبناء والسكان
من بقايا اهلها الذين تفرّقوا ايدي سبا ومن غيرهم وانّما عبّر عنها بالاحياء الذي هو علم في
البعد عن الوقوع عادة تهويلا للخطب وتاكيدا للاستبعاد كما انه لاجله عبّر عن خرابها
بالموت حيث قيل بعد موتها وحيث كان هذا التعبير معربا عن استبعاد الاحياء بعد الموت
علي ابلغ وجه واكده اراه الله عزّ وجلّ ابعد الامرين في نفسه ثم في غيره اراه ما استبعده
من غير مبالغة في ازاحة ما عسي يختلج في خلده وانّما حمل احياءها علي احياء اهلها فيا بإه
التعرّض لحال القرية دون حالهم والاقتصار علي ذكر موتهم دون كونهم ترابا وعظاما مع كونه
ادخل في الاستبعاد لشدّة مباينته للحيوة وغاية بعده عن قبولها علي انه لم يتعلّق ارادته تعالي
باحيائهم كما تعلّقت بعمارتها ومعاينة المارّ لها كما ستحيط به خبرا فاماته الله والبثه
علي الموت مائة عام روي انه لمّا دخل القرية ربط حماره وطاف بها ولم ير بها احدا فقال
ما قال وكانت اشجارها قد اثمرت فتناول من التين والعنب وشرب من عصيره ونام فاماته
الله تعالي في منامه وهو شابّ واماتت حماره وبقيت تينه وعنبه وعصيره عنده ثم اعمي الله
تعالي عنه عيون المخلوقات فلم يره احد فلمّا مضي من موته سبعون سنة وجّه الله عزّ
وعلا ملكا عظيما من ملوك فارس يقال له يوشك الي بيت المقدس ليعمره ومعه الف قهرمان
مع كلّ قهرمان ثلثمائة الف عامل فجعلوا يعمرونه واهلك الله بخت نصّر ببعوضة دخلت دماغه
ونجّي الله من بقي من بني اسرائيل وردّهم الي بيت المقدس وتراجع اليه من تفرّق منهم في الاكناف
فعمروه ثلثين سنة وكثروا وكانوا كاحسن ما كانوا عليه فلمّا تمّت المائة من موت عزير احياه الله
تعالي وذلك قوله تعالي ثم بعثه وايثاره علي احياه للدلالة علي سرعته وسهولته علي الباري
تعالي كانه بعثه من النوم وللايذان بانه اعاده كهيئته يوم موته عاقلا فاهما مستعدّا للنظر
والاستدلال قال استيناف مبني علي السؤال كانه قيل فماذا قال له بعد بعثه فقيل قال
كم لبثت ليظهر له عجزه عن الاحاطة بشئونه تعالي وان احياءه ليس بعد مدّة يسيرة ربّما
يتوهّم انه هيّن بالجملة بعد مدّة طويلة وينحسم به مادّة استبعاده بالمرّة ويطّلع في تضاعيفه
علي امر اخر من بدائع اثار قدرته تعالي وهو ابقاء الغذاء المتسارع الي الفساد بالطبع علي ما
كان عليه دهرا طويلا من غير تغيّر ما وكم نصب علي الظرفية مميّزها محذوف اي كم وقتا

لبث

لبثت والقائل هو الله تعالي او ملك مامور بذلك من قبله تعالي قيل نودي من السماء يا عزير كم لبثت
بعد الموت قال لبثت يوما او بعض يوم قاله بناء علي التقريب والتخمين او استقصارا للمدّة لبثه
وانّما يقال من انه مات ضحي وبعث بعد المائة قبيل الغروب فقال قبل النظر الي الشمس يوما
ثم التفت اليها فراي منها بقيّة فقال او بعض يوم علي وجه الاضراب بمعزل من التحقيق اذ لا وجه
للجزم بتمام اليوم ولو بناء علي حسبان الغروب لتحقّق النقصان من اوّله قال استيناف كما سلف
بل لبثت مائة عام عطف علي مقدّر اي ما لبثت ذلك القدر بل هذا المقدار فانظر
لتعاين امرا اخر من دلائل قدرتنا الي طعامك وشرابك لم يتسنّه اي لم يتغيّر
في هذه المدّة المتطاولة مع تداعيه الي الفساد روي انه وجد تينه وعنبه كما جني وعصيره
كما عصر والجملة المنفية حال بغير واو كقوله تعالي لم يمسسهم سوء امّا من الطعام والشراب
وافراد الضمير لجريانهما مجري الواحد كالغذاء وامّا من الاخير اكتفاء بدلالة حاله علي حال
الاوّل ويؤيّده قراءة من قرا وهذا شرابك لم يتسنّه والهاء اصلية او هاء سكت واشتقاقه
من السنة لما انّ لامها هاء او واو وقيل اصله يتسنّن من الحما المسنون فقلبت
نونه حرف علّة كما في تقضّي البازي وقد جوّز ان يكون معني لم يتسنّه لم تمرّ عليه السنون
التي مرّت لا حقيقة بل تشبيها اي هو علي حاله كان لم يلبث مائة عام وقري لم يسّنّه
بادغام التاء في السين وانظر الي حمارك كيف نخرت عظامه وتفرّقت وتقطّعت
اوصاله ومزّقت لتتبيّن لك ما ذكر من لبثك وتطمئنّ به نفسك وقوله تعالي ولنجعلك
اية للناس عطف علي مقدّر متعلّق بفعل مقدّر قبله بطريق الاستيناف مقرّر لمضمون ما سبق
اي فعلنا ما فعلنا من احيائك بعدما ذكر لتعاين ما استبعدته من الاحياء بعد دهر طويل
ولنجعلك اية للناس الموجودين في هذا القرن بان يشاهدوك وانت من اهل القرون الخالية
وياخذوا منك ما طوي عنهم منذ احقاب من علم التورية كما سياتي او متعلّق بفعل مقدّر
بعده اي ولنجعلك اية لهم علي الوجه المذكور فعلنا ما فعلنا فهو علي التقديرين تذييل علي ما
ذكر من اللبث المديد ولذلك قرن بينه وبين الامر بالنظر الي حماره وتكرير الامر في قوله تعالي
وانظر الي العظام مع انّ المراد عظام الحمار ايضا لما انّ المامور به اوّلا هو النظر اليها
من حيث دلالتها علي ما ذكر من اللبث المديد وثانيا هو النظر اليها من حيث تعتريها الحيوة
ومباديها اي وانظر الي عظام الحمار لتشاهد كيفية الاحياء في غيرك بعد ما شاهدت نفسه
في نفسك كيف ننشزها بالزاء المعجمة اي نرفع بعضها الي بعض ونردّها الي اماكنها
من الجسد فنركّبها تركيبا لائقا بها وقال الكسائي نلينها ونعظّمها ولعلّ من فسّره بنحييها
اراد بالاحياء هذا المعني وكذا من قرا ننشرها بالراء من انشر الله تعالي الموتي اي احياها لا المعني
الحقيقي لقوله تعالي ثم نكسوها لحما اي نسترها به كما يستر الجسد باللباس وامّا من قرا
ننشرها بفتح النون وضمّ الشين فلعلّه اراد به ضدّ الطيّ كما قال الفرّاء فالمعني كيف نبسطها
والجملة امّا حال من العظام اي وانظر اليها مركّبة مكسوّة لحما او بدل اشتمال اي وانظر الي العظام
كيفية انشازها وبسط اللحم عليها ولعلّ عدم التعرّض لكيفية نفخ الروح لما انها ممّا تقتضي
الحكمة روي انه نودي ايّتها العظام البالية انّ الله يامرك ان تجتمعي فاجتمع كلّ جزء من
اجزائها التي ذهب بها الطير والسباع وطارت بها الرياح من كلّ سهل وجبل فانضمّ بعضها
الي بعض والتصق كلّ عضو بما يليق به الضلع والذراع بمحلّهما والراس بموضعه ثم الاعصاب
والعروق ثم انبسط عليه اللحم ثم الجلد ثم خرجت منه الشعور ثم نفخ فيه الروح فاذا هو
قائم ينهق فلمّا تبيّن له اي ما دلّ عليه الامر بالنظر اليه من كيفية الاحياء ومباديه والفاء
للعطف علي مقدّر يستدعيه الامر المذكور وانّما حذف للايذان بظهور تحقّقه واستغنائه
عن الذكر وللاشعار بسرعته ووقوعه كما في قوله عزّ وعلا فلمّا راه مستقرّا عنده بعد قوله انا
اتيك به قبل ان يرتدّ اليك طرفك كانه قيل فانشزها الله تعالي وكساها لحما فنظر اليها فتبيّن
له كيفيته فلمّا تبيّن له ذلك اي اتّضح اتّضاحا تامّا قال اعلم انّ الله علي كلّ شيء قدير من الاشياء
التي من جملتها ما شاهده في نفسه وفي غيره من تعاجيب الاثار قدير لا يستعصي عليه امر من الامور
وايثار صيغة المضارع للدلالة علي انّ علمه بذلك مستمرّ نظرا الي انّ اصله لم يتغيّر ولم يتبدّل بل انّما تبدّل

بالعيان وصفه وفيه اشعار بانه انما قال ما قال بناء على الاستبعاد العادي او استعظاما لما للامر وقد قيل فاعل تبين مضمر يفسره مفعول اعلم اي فلما تبين له ان الله على كل شيء قدير قال اعلم ان الله على كل شيء قدير فتدبر وقرئ تبين له على صيغة المجهول وقرئ قال اعلم على صيغة الامر روي انه ركب حماره واتى محلته وانكره الناس وانكر المنازل فانطلق على وهم منه حتى اتى منزله فاذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد ادركت من عزير فقال لها عزير يا هذه هذا منزل عزير قالت نعم واين ذكرى عزير قد فقدناه منذ كذا وكذا فبكت بكاء شديدا قال فاني عزير قالت سبحان الله اني يكون ذلك قال قد اماتني الله مائة عام ثم بعثني قالت ان عزيرا كان رجلا مستجاب الدعوة فادع الله تعالى يرد علي بصري حتى اراك فدعا ربه ومسح بيده عينيها فصحتا فاخذ بيدها فقال لها قومي باذن الله تعالى فقامت صحيحة كانما نشطت من عقال فنظرت اليه فقالت اشهد انك عزير فانطلقت الى بني اسرائيل وهم في انديتهم وكان في المجلس ابن لعزير قد بلغ مائة وثمانية عشر سنة وبنو بنيه شيوخ فنادت هذا عزير قد جاءكم فكذبوها فقالت انظروا فاني بدعائه رجعت الى هذه الحالة فنهض الناس فاقبلوا اليه فقال ابنه كان لابي شامة سوداء بين كتفيه مثل الهلال فكشف فاذا هو كذلك وقد كان قتل بخت نصر ببيت المقدس من قراء التوراة اربعين الف رجل ولم يكن يومئذ بينهم نسخة من التورية ولا احد يعرف التوراة فقرأها عليهم عن ظهر قلبه من غير ان يخرم منها حرفا فقال رجل من اولاد المسبيين ممن ورد بيت المقدس بعد مهلك بخت نصر حدثني ابي عن جدي انه دفن التوراة يوم سبينا في خابية في كرم فان اريتموني كرم جدي اخرجتها لكم فذهبوا الى كرم جده ففتشوها فوجدوها فعارضوها بما املى عليهم عزير من ظهر القلب فما اختلفا في حرف واحد فعند ذلك قالوا هو ابن الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وإذ قال ابراهيم دليل آخر على ولايته تعالى للمؤمنين واخراجه لهم من الظلمات الى النور وانما لم يسلك به مسلك الاستشهاد كما قبله بان يقال او كالذي قال رب الخ لجريان ذكره عليه السلام في اثناء المحاجة ولانه لا دخل لنفسه عليه السلام في اصل الدليل كدأب عزير عليه السلام فان ما جرى عليه من احيائه بعد مائة عام من جملة الشواهد على قدرته تعالى وهدايته والظرف منتصب بمضمر صرح بمثله في نحو قوله تعالى واذكروا اذ جعلكم خلفاء اي واذكر وقت قوله عليه السلام وما وقع حينئذ من تعاجيب صنع الله عز وجل لتقف على ما مر من ولايته تعالى وهدايته وتوجيه الامر بالذكر في امثال هذه المواقع الى الوقت دون ما وقع فيه من الواقعات مع انها المقصودة بالتذكير لما ذكر غير مرة من المبالغة في ايجاب ذكرها لما ان ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني ولان الوقت مشتمل عليها مفصلة فاذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها بحيث لا يشذ عنها شيء مما ذكر عند الحكاية او لم يذكر كانها مشاهدة عيانا رب كلمة استعطاف قدمت بين يدي الدعاء مبالغة في استدعاء الاجابة ارني من الرؤية البصرية المتعدية الى واحد وبدخول همزة النقل طلبت مفعولا آخر هو الجملة الاستفهامية المعلقة بها فانها تعلق كما تعلق النظر البصري اي اجعلني مبصرا كيف تحيي الموتى بان تحييها وانا انظر اليه وكيف في محل النصب على التشبيه بالظرف عند سيبويه وبالحال عند الاخفش والعامل فيها تحيي اي في اي حال او على اي حال تحيي قال القرطبي الاستفهام بكيف انما هو سؤال عن حال شيء متقرر الوجود عند السائل والمسؤول والاستفهام ههنا عن هيئة الاحياء المتقرر عند السائل بصر في كيفية احيائك للموتى وانما سأله عليه السلام ليتأيد ايقانه بالعيان ويزداد قلبه اطمئنانا واما ما قيل من ان نمرود لما قال انا احيي واميت قال ابراهيم عليه السلام ان احياء الله برد الارواح الى الاجساد فقال نمرود هل عاينته فلم يقدر على ان يقول نعم فانتقل الى تقرير آخر ثم سأل ربه ان يريه ذلك فيأباه تعليل السؤال بالاطمئنان قال استئناف كما مر غير مرة اولم تؤمن عطف على مقدر اي الم تعلم ولم تؤمن باني قادر على الاحياء كيف اشاء حتى تسألني اراءته قاله عز وعلا وهو اعلم بانه عليه السلام اثبت الناس ايمانا واقواهم يقينا ليجيب بما اجاب به فيكون ذلك لطفا للسامعين قال بلى علمت وامنت بانك قادر على الاحياء على اي كيفية شئت ولكن سألت ليطمئن قلبي بمضامة العيان الى الايمان والايقان واذ

والبصيرة بما شاهدته على كيفية معينة قال فخذ الفاء لجواب شرط محذوف اي ان اردت ذلك فخذ اربعة من الطير قيل هو اسم لجمع طائر كركب وسفر وقيل جمع له كتاجر وتجر وقيل هو مصدر سمي به الجنس وقيل هو تخفيف طير بمعنى طائر كهين في هين ومتعلقه بخذ او بمحذوف وقع صفة لاربعة اي اربعة كائنة من الطير وقيل هي طاوس وديك وغراب وحمامة وقيل نسر بدل الاخير وتخصيص الطير بذلك لانه اقرب الى الانسان واجمع لخواص الحيوان ولسهولة تأتي ما يفعل به من التجزية والتفريق وغير ذلك فصرهن من صاره يصوره اي اماله وقرئ بكسر الصاد من صاره يصيره اي املهن واضممهن وقرئ فصرهن بضم الصاد وكسرها وتشديد الراء من صره يصره اذا جمعه وقرئ فصرهن من التصرية بمعنى الجمع اي اجمعهن اليك لتتأملها وتعرف شأنها مفصلة حتى تعلم بعد الاحياء ان جزءا من اجزائها لم ينتقل من موضعه الاول اصلا روي انه امر ان يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ويفرق اجزاءها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها ويمسك رؤوسها ثم امر بان يجعل اجزاءها على الجبال وذلك قوله تعالى ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا اي جزئهن وفرق اجزاءهن على ما بحضرتك من الجبال قيل كانت اربعة اجبل وقيل سبعة فجعل على كل جبل ربعا وسبعا من كل طائر وقرئ جزءا بضمتين وجزا بالتشديد بطرح همزته تخفيفا ثم تشديده عند الوقف ثم اجراء الوصل مجرى الوقف ثم ادعهن يأتينك في حيز الجزم على انه جواب الامر ولكنه بني لاتصاله بنون جمع المؤنث سعيا اي ساعيات مسرعات او ذوات سعي طيرانا او مشيا وانما اقتصر على حكاية اوامره عز وجل من غير تعرض لامتثاله عليه السلام ولا لما ترتب عليه من عجائب آثار قدرته تعالى كما روي انه عليه السلام فعل ما امر به فجعل كل جزء منهن يطير الى صاحبه حتى صارت جثثا ثم اقبلن الى رؤوسهن فانضمت كل جثة الى رأسها فعادت كل واحدة منهن الى ما كانت عليه من الهيئة للايذان بان ترتيب تلك الامور على الاوامر الجليلة واستحالة تخلفها عنها من الجلاء والظهور بحيث لا حاجة له الى الذكر اصلا وناهيك بالقصة دليلا على فضل الخليل وبين المراعة في الدعاء وحسن الادب في السؤال حيث اراه الله ما سأله في الحال على ايسر ما يكون من الوجوه واري عزيرا ما اراه بعد ما اماته مائة عام عليهما السلام واعلم ان الله عزيز غالب على امره لا يعجزه شيء عما يريده حكيم ذو حكمة بالغة في افاعيله فليس بناء افعاله على الاسباب العادية لعجزه عن ايجادها بطريق آخر خارق للعادات بل لكونه متضمنا للحكم والمصالح مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله اي في وجوه الخيرات من الواجب والنفل كمثل حبة لابد من تقدير مضاف في احد الجانبين اي مثل نفقتهم كمثل حبة او مثلهم كمثل باذر حبة انبتت سبع سنابل اي اخرجت ساقا تشعب منها سبع شعب لكل واحدة منها سنبلة في كل سنبلة مائة حبة كما يشاهد ذلك في الذرة والدخن في الاراضي المغلة بل اكثر من ذلك واسناد الانبات الى الحبة مجازي كاسناده الى الارض والربيع وهذا التمثيل تصوير للاضعاف كانها حاضرة بين يدي الناظر والله يضاعف تلك المضاعفة وفوقها الى ما شاء الله تعالى لمن يشاء ان يضاعف له بفضله على حسب حال المنفق من اخلاصه وتعبه ولذلك تفاوتت مراتب الاعمال في مقادير الثواب والله واسع لا يضيق عليه ما يتفضل به من الزيادة عليم بنية المنفق ومقدار انفاقه وكيفية تحصيل ما انفقه الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله جملة مبتدأة جيء بها لبيان كيفية الانفاق الذي بين فضله بالتمثيل المذكور ثم لا يتبعون ما انفقوا اي ما انفقوه او انفاقهم منا ولا اذى المن ان يعتد على من احسن اليه باحسانه ويريه انه اوجب عليه حقا والاذى ان يتطاول عليه بسبب انعامه عليه وانما قدم المن لكثرة وقوعه وتوسيط كلمة لا للدلالة على شمول النفي لاتباع كل واحد منهما وثم لاظهار علو رتبة المعطوف وقيل نزلت في عثمان رضي الله عنه حين جهز جيش العسرة بالف بعير باقتابها واحلاسها وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه حين اتى النبي صلى الله عليه وسلم باربعة آلاف درهم صدقة ولم يكن يخطر ببالهما شيء من المن والاذى لهم اجرهم

اي حسبما وعد لهم في ضمن التمثيل وهو جملة مبتداء وخبر وقعت جزاء من الموصول وفي تكرير
الاسناد وتقييد الاجر بقوله عند ربهم من التاكيد والتشريف ما لا يخفي وتخلية الخبر عن
الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها للايذان بان ترتب الاجر علي ما ذكر من الانفاق وترك
اتباع المن والاذي امر بين لا يحتاج الي التصريح بالسببية واما لايهام انهم اهل لذلك وان لم
يفعلوا فكيف بهم اذا فعلوا فيأباه مقام الترغيب في الفعل والحث عليه ولا خوف عليهم
في الدارين من لحوق مكروه من المكاره ولا هم يحزنون لفوات مطلوب من المطالب
قل او جل اي لا يعتريهم ما يوجبه لا انه يعتريهم ذلك لكنهم لا يخافون ولا انه لا يعتريهم
خوف وحزن اصلا بل يستمرون علي النشاط والسرور كيف لا واستشعار الخوف والخشية
استعظاما لجلال الله تعالى وهيبته واستصغار الجد والسعي في اقامة حقوق العبودية
خواص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامها كما يوهمه
كون الخبر في الجملة الثانية مضارعا لما ان النفي وان دخل علي نفس المضارع يفيد الدوام
والاستمرار بحسب المقام قول معروف اي كلام جميل يقبله القلوب ولا تنكره يرد
به السائل من غير اعطاء شئ ومغفرة اي ستر لما وقع من السائل من الالحاح في المسألة
وغيره مما يثقل علي المسئول وصفح عنه وانما صح الابتداء بالنكرة في الاول لاختصاصها
بالوصف وفي الثاني بالعطف او بالصفة المقدرة اي ومغفرة كائنة من المسؤل خير اي للسائل
من صدقة يتبعها اذي لكونها مشوبة بضرر ما يتبعها وخلوص الاولين من الضرر والجملة
مستأنفة مقررة لاعتبار ترك اتباع المن والاذي وتفسير المغفرة بنيل مغفرة من الله تعالى
بسبب الرد الجميل والسائل بناء علي اعتبار الخيرية بالنسبة الي المسؤل يؤدي الي ان يكون
في الصدقة الموصوفة بالنسبة اليه خير في الجملة مع بطلانها بالمن والله غني لا يحوج
الفقراء الي تحمل مؤنة المن والاذي ويرزقهم من جهة اخري حليم لا يعاجل اصحاب
المن والاذي بالعقوبة لا انهم لا يستحقونها بسببهما والجملة تذييل لما قبلها مشتمل علي
الوعد والوعيد مقرر علي اعتبار الخيرية بالنسبة الي السائل قطعا يا ايها الذين امنوا
اقبل عليهم بالخطاب اثر بيان ما بين بطريق الغيبة مبالغة في ايجاب العمل بموجب النهي لا تبطلوا
صدقاتكم بالمن والاذي اي لا تحبطوا اجرها بواحد منهما كالذي في محل النصب
اما علي انه نعت لمصدر محذوف اي لا تبطلوها ابطالا كابطال الذي ينفق ماله رئاء
الناس واما علي انه حال من فاعل لا تبطلوا اي لا تبطلوها مشابهين الذي ينفق اي الذي
يبطل انفاقه بالرياء وقيل من ضمير المصدر المقدر علي ما هو راي سيبويه وانتصاب رئاء
اما علي انه علة لينفق اي لاجل رئائهم او علي انه حال من فاعله اي ينفق ماله مرائيا والمراد
به المنافق لقوله تعالى ولا يؤمن بالله واليوم الاخر حتى يرجو ثوابا او يخشى عقابا فمثله
الفاء لربط ما بعدها بما قبلها اي فمثل المرائي في الانفاق وحالته العجيبة
كمثل صفوان اي حجر املس عليه تراب اي شئ يسير منه فاصابه وابل اي مطر
عظيم القطر فتركه صلدا املس ليس عليه شئ من الغبار اصلا لا يقدرون على شئ
مما كسبوا لا ينتفعون بما فعلوا رياء ولا يجدون له ثوابا قطعا كقوله تعالى فجعلناه هباء منثورا
والجملة استيناف مبني علي السؤال كانه قيل فماذا يكون حالهم حينئذ فقيل لا يقدرون الخ ومن
ضرورة كونهم مثلهم كما ذكر كون مثل من يشبههم وهم اصحاب المن والاذي كذلك والضمير
الاخير للموصول باعتبار المعني كما في قوله عز وجل وخضتم كالذي خاضوا لما ان المراد
به الجنس او الجمع او الفريق كما ان الضمائر الاربعة السابقة له باعتبار اللفظ والله لا يهدي القوم
الكافرين الي الخير والرشاد والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله وفيه تعريض بان كلا من
الرياء والمن والاذي من خصائص الكفار ولا بد للمؤمنين ان يجتنبوها ومثل الذين
ينفقون اموالهم ابتغاء مرضات الله اي لطلب رضاه وتثبيتا من انفسهم اي
ولتثبيت بعض انفسهم علي الايمان فمن تبعيضية كما في قولهم هز من عطفه وحرك من نشاطه
فان المال شقيق الروح فمن بذل ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه
فقد ثبتها كلها او وتصديقا للاسلام وتحقيقا للجزاء من اصل انفسهم فمن ابتدائية كما في

قوله تعالى حسدا من عند انفسهم ويحتمل ان يكون المعنى وتثبيتا من انفسهم عند المؤمنين انها صادقة
الايمان مخلصة فيه ويعضده قراءة من قرأ وتبيينا من انفسهم وفيه تنبيه علي ان حكمة الانفاق
للمؤمنين المنفقين تزكية النفس عن البخل وحب المال الذي هو راس كل خطيئة كمثل جنة بربوة
الربوة بالحركات الثلث وقد قرئ بها المكان المرتفع اي مثل نفقتهم في الزكاء كمثل بستان كائن
بمكان مرتفع مامون من يصطليه البرد للطافة هوائه بهبوب الرياح الملطفة له فان اشجار
الربي تكون احسن منظرا وازكى ثمرا واما الاراضي المنخفضة فقلما تسلم ثمارها من البرد لكثافة
هوائها بركود الرياح وقرئ كمثل حبة اصابها وابل مطر عظيم القطر فاتت اكلها
ثمرتها وقرئ بسكون الكاف تخفيفا ضعفين اي مثلي ما كانت تثمر في سائر الاوقات بسبب
ما اصابها من الوابل والمراد بالضعف المثل وقيل اربعة امثال ونصبه علي الحال من اكلها اي
مضاعفا فان لم يصبها وابل فطل اي فطل يكفيها لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها
وقيل فيصيبها طل هو المطر الصغير القطر وقيل فالذي يصيبها طل والمعنى ان نفقات هؤلاء
ذاكية عند الله تعالى لا يضيع بحال وان كانت تتفاوت باعتبار ما يقارنها من الاحوال
ويجوز ان يعتبر التمثيل بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرة والقليلة و
بين الجنة المعهودة باعتبار ما اصابها من المطر الكثير واليسير فكما ان كل واحد من المطرين
يضعف اكلها فكذلك نفقتهم جلت او قلت بعد ان يطلب بها وجه الله تعالى زاكية زائدة
في زلفاهم وحسن حالهم عند الله تعالى والله بما تعملون بصير لا يخفى عليه شئ منه
وهو ترغيب في الاخلاص مع التحذير من الرياء ونحوه ايود احدكم الود حب الشئ
مع تمنيه ولذلك يستعمل استعمالهما والهمزة لانكار الوقوع كما في قوله اأضرب ابي لا لانكار
الواقع كما في قولك اتضرب اباك علي ان المناط الانكار ليس جميع ما تعلق الود بل انما هو اصابة
الاعصار وما يتبعها من الاحتراق ان تكون له جنة وقرئ جنات من نخيل واعناب
اي كائنة منهما علي ان يكون الاصل والركن فيها هذين الجنسين الشريفين الجامعين لفنون المنافع
والباقي من المستتبعات لا علي ان يكون فيها غيرهما كما ستعرفه والجنة تطلق علي الاشجار الملتفة
المتكاثفة قال زهير كان عيني في غربي مقتلة من النواضح تسقي جنة سحقا وعلي الارض
المشتملة عليها والاول هو الانسب بقوله عز وجل تجري من تحتها الانهار اذ علي
الثاني لا بد من تقدير مضاف اي من تحت اشجارها وكذا لا بد من جعل اسناد الاحتراق
اليها فيما سيأتي مجازيا والجملة في محل الرفع علي انها صفة جنة كما ان قوله تعالى من نخيل واعناب
كذلك او في محل النصب علي انه حال والثالث مبتدا اي صفة للمبتدا قائمة مقامه اي له فيها
رزق من كل الثمرات كما في قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم اي وما منا احد الا له الخ وليس
المراد بالثمرات العموم بل انما هو التكثير كما في قوله تعالى واوتيت من كل شئ واصابه الكبر اي
كبر السن الذي هو مظنة شدة الحاجة الي منافعها ومئنة كمال العجز عن تدارك اسباب المعاش
والواو حالية اي وقد اصابه الكبر وله ذرية ضعفاء حال من الضمير في اصابه الكبر والحال
ان له ذرية صغارا لا يقدرون علي الكسب وترتيب مبادي المعاش وقرئ ضعاف فاصابها اعصار
اي ريح عاصفة تستدير في الارض ثم تنعكس منها ساطعة الي السماء علي هيئة العمود فيه
نار شديدة فاحترقت عطف علي اصابها وهذا كما ترى تمثيل لحال من يعمل اعمال البر
والحسنات ويضم اليها ما يحبطها من القوادح ثم يجدها يوم القيمة عند كمال حاجته الي
ثوابها هباء منثورا في التحسر والتاسف عليها كذلك توحيد الكاف مع كون المخاطب جمعا
قد مر وجهه مرارا اي مثل ذلك البيان الواضح الجاري في الظهور مجرى الامور المحسوسة
يبين الله لكم الايات لعلكم تتفكرون كي تتفكروا فيها وتعتبروا بما فيها من العبر وتعملوا
بموجبها يا ايها الذين امنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم بيان لحال ما ينفق منه اثر بيان اهل
الانفاق وكيفيته اي انفقوا من حلال كسبتم وجياده لقوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ومما اخرجنا لكم من الارض
اي من طيبات ما اخرجنا لكم من الحبوب والثمار والمعادن فحذف لدلالة ما قبله عليه ولا تيمموا بفتح التاء اصله ولا تتيمموا و
قرئ بضمها وقرئ ولا تاموا والكل بمعنى القصد اي ولا تقصدوا الخبيث اي الردي الخسيس وهو كالطيب من الصفات الغالبة التي لا تذكر
موصوفاتها منه تنفقون الجار متعلق بتنفقون والضمير للخبيث والتقديم للتخصيص والجملة حال من فاعل تيمموا اي لا تقصدوا الخبيث

قاصرين الانفاق عليه او من الخبيث اي مختصًّا به الانفاق وايا ما كان فالتخصيص لتوبيخهم بما كانوا يتعاطونه من انفاق الخبيث خاصة لا للتسويغ انفاقه مع الطيب عن ابن عباس رضي الله عنهما انهم كانوا يتصدّقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه وقيل متعلق بمحذوف وقع حالا من الخبيث والضمير للمال المدلول عليه بحسب المقام او للموصولين على طريقة قوله كانه في الجلد توليع البهق او للثاني وتخصيصه بذلك لما ان التفاوت فيه اكثر وتنفقون حال من الفاعل المذكور اي ولا تقصدوا الخبيث كائنا من المال او مما كسبتم ومما اخرجنا لكم او مما اخرجنا لكم منفقين اياه وقوله تعالى ولستم باخذيه حال على كل حال من واو تنفقون اي تنفقون والحال انكم لا تاخذونه في معاملاتكم في وقت من الاوقات او بوجه من الوجوه الا ان تغمضوا فيه اي الا وقت اغماضكم فيه او الا باغماضكم وهو عبارة عن المسامحة بطريق الكناية او الاستعارة يقال اغمض بصره اذا غضّه وقرئ على البناء للمفعول على معنى الا ان تحملوا على الاغماض وتدخلوا فيه وتوجدوا مغمضين وقرئ تغمضوا بضم الميم وكسرها وقيل تم الكلام عند قوله تعالى ولا تيمموا الخبيث ثم استونف فقيل على التوبيخ والتقريع منه تنفقون والحال انكم لا تاخذونه الا اذا اغمضتم فيه ومآله للاستفهام الانكاري فكانه قيل امنه تنفقون الخ واعلموا ان الله غنيّ عن انفاقكم وانما يامركم به لمنفعتكم وفي الامر بان يعلموا ذلك مع ظهور علمهم به توبيخ لهم على ما يصنعون من اعطاء الخبيث وايذان بان ذلك من الجهل بشانه تعالى فان اعطاء مثله انما يكون عادة عند اعتقاد المعطي ان الاخذ محتاج الى ما يعطيه اليه حميد مستحق للحمد على نعمه العظام وقيل حامد بقبول الجيّد والاثابة عليه الشيطان يعدكم الفقر الوعد هو الاخبار بما سيكون من جهة المخبر في الانفاق للفقر ويقول ان عاقبة انفاقكم ان تفتقروا وانما عبّر عن ذلك بالوعد مع ان الشيطان لم يضف مجئ الفقر الى جهته للايذان بمبالغته في الاخبار بتحقق مجيئه كانه نزله في تقرير الوقوع منزلة افعاله الواقعة بحسب ارادته او لوقوعه في مقابلة وعده تعالى على طريقة المشاكلة وقرئ بضم الفاء والسكون وبضمتين وبفتحتين ويامركم بالفحشاء اي بالخصلة الفحشاء اي ويغريكم على البخل ومنع الصدقات اغراء الآمر للمامور على فعل المامور والعرب تسمي البخيل فاحشا قال طرفة بن العبد ارى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدّد وقيل بالمعاصي والسيّئات والله يعدكم اي في الانفاق مغفرة لذنوبكم والجار في قوله تعالى منه متعلق بمحذوف هو صفة لمغفرة مؤكدة لفخامتها التي افادها تنكيرها اي مغفرة اي مغفرة كائنة منه عز وجل وفضلا صفة محذوف لدلالة المذكور عليها كما في قوله تعالى فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ونظائره اي وفضلا كائنا منه تعالى اي خلفا مما انفقتم زائدا عليه في الدنيا وفيه تكذيب للشيطان وقيل ثوابا في الآخرة والله واسع قدرة وفضلا فيحقق ما وعدكم به من المغفرة واخلاف ما تنفقونه عليم مبالغ في العلم فيعلم انفاقكم فلا يكاد يضيع اجركم ما سيكون من المغفرة والفضل فلا احتمال للخلف في الوعد والجملة تذييل مقرّر لمضمون ما قبله يؤتي الحكمة قال مجاهد الحكمة هي القران والعلم والفقه وروي عن ابن جبير انها الاصابة في القول والحكمة وعن ابراهيم النخعي انها معرفة معاني الاشياء وفهمها وقيل هي معرفة حقائق الاشياء وقيل هي الاقدام على الافعال الحسنة الصائبة وعن مقاتل انها تفسّر في القران باربعة اوجه فتارة بمواعظ القران واخرى بما فيه من عجائب الاسرار ومرة بالعلم والفهم واخرى بالنبوة ولعل الانسب بالمقام ما ينتظم الاحكام المبيّنة في تضاعيف الآيات الكريمة من احد الوجهين الاولين ومعنى ايتائها تبيينها والتوفيق للعلم والعمل بها اي يبيّنها ويوفق للعلم والعمل بها من يشاء من عباده ان يؤتيها اياه بموجب سعة فضله واحاطة علمه كما اتاكم ما بينه في ضمن الآي من الحكم البالغة التي عليها يدور فلك منافعكم فاغتنموها وسارعوا الى العمل بها والموصول مفعول اول اخّر عن الثاني للعناية به والجملة مستانفة مقرّرة لمضمون ما قبلها ومن يؤت الحكمة على بناء المفعول وقرئ على البناء للفاعل اي ومن يؤته الله الحكمة والاظهار في مقام الاضمار لاظهار الاعتناء بشانها والاشعار بعلة الحكم فقد اوتي خيرا كثيرا اي اي

خير

خير كثير فانه قد حاز خير الدارين وما يذكر اي وما يتعظ بما اوتي من الحكم او وما يتفكّر فيها الا اولوا الالباب اي العقول الخالصة عن شوائب الوهم والركون الى متابعة الهوا وفيه من الترغيب في المحافظة على الاحكام الواردة في شان الانفاق ما يخفى والجملة اما حال او اعتراض تذييلي وما انفقتم من نفقة بيان لحكم كلي شامل لجميع افراد النفقات وفي حكمها اثر بيان حكم ما كان منها في سبيل الله وما اما شرطية او موصولة حذف عائدها من الصلة اي وما انفقتموه من نفقة اي اي نفقة كانت في حق او باطل في سر او علانية قليلة او كثيرة او نذرتم من نذر النذر عقد الضمير على شئ والتزامه وفعله كضرب ونصر من نذر اي نذر كان في طاعة او معصية بشرط او بغير شرط متعلق بالمال او بالافعال كالصيام والصلوة ونحوها فان الله يعلمه الفاء على الاول داخلة على الجواب وعلى الثاني مزيدة في الخبر وتوحيد الضمير مع تعدّد متعلق العلم لاتحاد المرجع بناء على كون العطف بكلمة او كما في قولك زيد او عمر واكرمته ولا يقال اكرمتهما ولهذا صير الى التاويل في قوله تعالى ان يكن غنيا او فقيرا فالله اولى بهما يعاد الضمير تارة الى المقدم رعاية للاولية كما في قوله عز وعلا واذا راوا تجارة او لهوا انفضوا اليها واخرى الى المؤخر رعاية للقرب كما في هذه الآية الكريمة وفي قوله تعالى ومن يكسب خطيئة او اثما ثم يرم به بريئا وحمل النظم على تاويلهما بالمذكور ونظائره او على حذف الاول ثقة بدلالة الثاني عليه كما في قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله وقوله نحن بما عندنا وانت بما عندك راض والراي مختلف ونحوهما مما عطف فيه بالواو الجامعة تعسّف مستغنى عنه نعم يجوز ارجاع الضمير على تقدير كونها موصولة وتصدير الجملة بان لتاكيد مضمونها افادة لتحقيق الجزاء اي فانه تعالى يجازيكم عليه البتة ان خيرا فخير وان شرا فشر فهو ترغيب وترهيب ووعد ووعيد وما للظالمين بالانفاق والنذر في المعاصي او بمنع الصدقات وعدم الوفاء بالنذور او بانفاق الخبيث او بالرياء والمن والاذى ونحو ذلك مما ينتظمه معنى الظلم الذي هو عبارة عن وضع الشئ في غير موضعه الذي يحق ان يوضع فيه من انصار اي اعوان ينصرونهم من باس الله وعقابه لا شفاعة ولا مدافعة وايراد صيغة الجمع لمقابلة الظالمين اي وما لظالم من الظالمين من نصير من الانصار والجملة استيناف مقرّر لما قبله فيما اتى له من الوعيد مفيد لفظاعة حال من يفعل ما يفعل من الظالمين بتحصيل الاعوان ورعاية الخلان ان تبدوا الصدقات فنعما هي نوع تفصيل لبعض ما اجمل في الشرطية وبيان له ولذلك ترك العطف بينهما اي ان تظهروا الصدقات فنعم شيئا ابداؤها بعد ان لم يكن رياء وسمعة وقرئ بفتح النون وكسر العين على الاصل وقرئ بكسر النون وسكون العين وقرئ بكسر النون واخفاء حركة العين وهذا في الصدقات المفروضة واما في صدقة التطوع فالاخفاء افضل وهي التي اريد بقوله تعالى وان تخفوها ان تعطوها خفية وتؤتوها الفقراء ولعل التصريح بايتائها الفقراء مع انه واجب في الابداء ايضا لما ان الاخفاء مظنة الالتباس والاشتباه فان الغني ربما يدعي الفقر ويقدم على قبول الصدقة سرا ولا يفعل ذلك عند الناس فهو خير لكم اي فالاخفاء خير لكم من الابداء وهذا في التطوع ومن لم يعرف بالمال واما في الواجب فالامر بالعكس لدفع التهمة عن ابن عباس رضي الله عنهما صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفا وصدقة الفريضة علانيتها افضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا ويكفر عنكم من سيئاتكم اي والله يكفر او الاخفاء ومن تبعيضية اي شيئا من سيئاتكم كما سيتحقق هاوقيل مزيدة على راي الاخفش وقرئ بالتاء مرفوعا ومجزوما على ان الفعل للصدقات وقرئ بالنون مرفوعا عطفا على محل ما بعد الفاء او على انه خبر مبتدأ محذوف اي ونحن نكفر او على انها جملة مبتداة من فعل وفاعل وقرئ مجزوما عطفا على محل الفاء وما بعده لانه جواب الشرط والله بما تعملون من الاسرار والاعلان خبير فهو ترغيب في الاسرار ليس عليك هداهم اي لا يجب عليك ان تجعلهم مهديين الى الاتيان بما امروا به من المحاسن والانتهاء عما نهوا عنه من القبائح المعدودة وانما الواجب عليك الارشاد الى الخير والحث عليه والنهي عن الشر والردع عنه بما اوحي اليك من الآيات والذكر الحكيم ولكن الله يهدي هداية خاصة موصلة

لكم

جب

الي المطلوب حتمًا من يشاء هدايته الي ذلك ممّن يتذكّر بما ذكر ويتبع الحق ويختار الخير والجملة
معترضة جي بها علي طريقة تلوين الخطاب وتوجيهه الي رسول الله صلي الله عليه وسلّم مع الالتفات
الي الغيبة فيما بين الخطابات المتعلّقة بالمكلّفين مبالغة في حملهم علي الامتثال فان الاخبار
بعدم وجوب تدارك امرهم علي النبي صلي الله عليه وسلّم مؤذن بوجوبه عليهم حسبما ينطق
به ما بعده من الشرطيّة وقيل كان فقراء المسلمين يسألون رسول الله صلي الله عليه وسلّم المسلمين
عن التصدّق علي المشركين كي يحملهم الحاجة علي الدخول في الاسلام فنزلت اي ليس لك
هداية من خالفك حتي تمنعهم الصّدقة لاجل دخولهم في الاسلام فلا التفات حينئذ في الكلام
وضمير الغيبة للمعهودين من فقراء المشركين بل فيه تلوين فقط وقوله تعالي وما تنفقوا من خير
علي الاوّل الالتفات من الغيبة الي خطاب المكلّفين لزيادة هزّهم نحو الامتثال وعلي الثاني
تلوين للخطاب بتوجيهه اليهم وصرفه عن النبي صلي الله عليه وسلّم وما شرطيّة جازمة لتنفقوا
منتصبة به علي المفعوليّة ومن تبعيضيّة متعلّقة بمحذوف وقع صفة لاسم الشرط مبيّنة
ومخصّصة له اي اي شيء تنفقوا كائن من مال فلانفسكم اي فهو لانفسكم لا ينتفع به غيركم
فلا تمنّوا علي ما اعطيتموه ولا تؤذوه ولا تنفقوا من الخبيث او فنفعه الديني لكم لا لغيركم
من الفقراء حتي تمنعوه ممّن لا ينتفع به من حيث الدّين من فقراء المشركين وما تنفقون
الّا ابتغاء وجه الله استثناء من اعمّ العلل او اعمّ الاحوال اي ليست نفقتكم لشيء من الاشياء الا لابتغاء وجه الله
او ليست في حال من الاحوال الا حال ابتغاء وجه الله فما بالكم تمنّون بها وتنفقون الخبيث الذي لا
يوجّه مثله الي الله تعالي وقيل هو نفي في معني النهي وما تنفقوا من خير يوفّ اليكم
اي اجره وثوابه اضعافا مضاعفة حسبما فصّل فيما قبل فلا عذر لكم في ان ترغبوا عن انفاقه
علي احسن الوجوه واجملها فهو تأكيد وبيان للشرطيّة السابقة او يوفّ اليكم ما يخلفه وهو
من نتايج دعائه عليه السلام بقوله اللّهمّ اعط للمنفق خلفا وللممسك تلفا وقيل حجّت اسماء
بنت ابي بكر فاتتها امّها تسألها وهي مشركة فابت ان تعطيها وعن سعيد بن جبير انهم كانوا
يتّقون ان يرضخوا لقراباتهم من المشركين وروي ان ناسا من المسلمين كانت لهم اصهار في
اليهود ورضاع كانوا ينفقون عليهم قبل الاسلام فلما اسلموا كرهوا ان ينفقوهم فنزلت وهذا
في غير الواجب وامّا الواجب فلا يجوز صرفه الي الكافر وان كان ذمّيًّا وانتم لا تظلمون
لا تنقصون شيئا ممّا وعدتم من الثواب المضاعف او من الخلف للفقراء متعلّق بمحذوف
ينساق اليه الكلام كما في قوله عزّ وجلّ في تسع ايات الي فرعون اي اعمدوا للفقراء واجعلوا
ما تنفقونه للفقراء او صدقاتكم للفقراء الذين احصروا في سبيل الله بالغزو والجهاد
لا يستطيعون لاشتغالهم به ضربا في الارض اي ذهابا فيها للكسب والتجارة
وقيل هم اهل الصّفة رضوان الله تعالي عليهم اجمعين كانوا نحوا من اربعمائة من فقراء
المهاجرين يسكنون صفّة المسجد يستغرقون اوقاتهم بالتعلّم والجهاد وكانوا يخرجون
في كلّ سريّة بعثها رسول الله صلي الله عليه وسلّم يحسبهم الجاهل بحالهم
اغنياء من التعفّف اي من اجل تعفّفهم عن المسألة تعرفهم بسيماهم
اي تعرف فقرهم واضطرارهم بما تعاين منهم من التعفّف ورثاثة الحال والخطاب لرسول الله
صلي الله عليه وسلّم او لكلّ احد ممّن له حظّ من الخطاب مبالغة في بيان وضوح فقرهم لا يسألون
الناس الحافا اي الحاحا وهو ان لا يلازم السائل حتي يعطيه من قولهم لحفني من فضل لحافه
اي اعطاني من فضل ما عنده والمعني لا يسألون شيئا وان سألوا الحاجة اضطرّتهم اليه لم يلحّوا
وقيل هو نفي لكلا الامرين جميعا علي طريقة قوله علي لاحب لا يهتدي لمناره اي لا منار ولا
اهتداء وما تنفقوا من خير فان الله به عليم فيجازيكم بذلك احسن جزاء فهو ترغيب في
التصدّق لا سيّما علي هؤلاء الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سرّا وعلانية اي يعمّون
الاوقات والاحوال بالخير والصّدقة وقيل نزلت في شان الصّديق رض حيث تصدّق باربعين
الف دينار عشرة آلاف منها بالليل وعشرة بالنهار وعشرة سرّا وعشرة علانية وقيل في علي
كرّم الله وجهه حين لم يكن عنده الا اربعة دراهم فتصدّق بكلّ واحد منها علي وجه من الوجوه
المذكورة ولعلّ تقديم الليل علي النهار والسرّ علي العلانية للايذان بمزيّة الاخفاء علي الاظهار وقيل

في رباط

في رباط الخيل والانفاق عليها فلهم اجرهم عند ربّهم خبر للموصول والفاء للدلالة علي
سببيّة ما قبلها لما بعدها وقيل للعطف والخبر محذوف اي ومنهم الذين الخ ولذلك
جوّز الوقف علي علانية ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون تقدّم تفسيره الذين
يأكلون الرّبوا اي يأخذونه والتعبير عنه بالاكل لما انه معظم ما قصد به ولشيوعه
في المطعومات مع ما فيه من زيادة تشنيع لهم وهو الزيادة في المقدار او في الاجل حسبما فصّل في
كتب الفقه وانما كتب بالواو كالصّلوة علي لغة من يفخّم في امثالها وزيدت الالف تشبيها
بواو الجمع لا يقومون اي من قبورهم اذا بعثوا الا كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان
اي الا قياما كقيام المصروع وهو وارد علي ما يزعمون ان الشيطان يخبط الانسان فيصرع والخبط
الضرب بغير استواء كخبط العشواء من المسّ اي الجنون وهذا ايضا من زعماتهم ان الجنّي
يمسّه فيختلط عقله فلذلك قال جنّ الرجل وهو متعلّق بما قبله من الفعل المنفي اي لا يقومون
من المسّ الذي بهم بسبب اكلهم الربوا او بيقوم او يتخبّطه فيكون نهوضهم وسقوطهم
كالمصروعين لا لاختلال عقولهم بل لما ان الله تعالي اربي في بطونهم ما اكلوا من الرّبوا
فاثقلهم فصاروا مخبّلين ينهضون ويسقطون تلك سيماهم يعرفون بها عند اهل الموقف
ذلك اشارة الي ما ذكر من حالهم وما في اسم الاشارة من معني البعد للايذان بفظاعة
المشار اليه بانهم قالوا انما البيع مثل الرّبوا اي ذلك العقاب بسبب انهم نظموا الرّبوا
والبيع في سلك واحد لافضائهما الي الربح فاستحلّوه استحلاله وقالوا يجوز بيع درهم
بدرهمين كما يجوز بيع ما قيمته درهم بدرهمين بل جعلوا الرّبوا اصلا في الحلّ وقاسوا به البيع
مع وضوح الفرق بينهما فان احد الدّرهمين في الاوّل ضائع حتما وفي الثاني بمساس الحاجة
الي السّلعة او بتوقّع رواجها واحلّ الله البيع وحرّم الرّبوا انكار من جهة الله تعالي
لتسويتهم وابطال للقياس لوقوعه في مقابلة النصّ مع ما اشير اليه من عدم الاشتراك
في المناط والجملة ابتدائيّة لا محلّ لها من الاعراب فمن جاءه موعظة اي فمن بلغه وعظ
وزجر كالنهي عن الرّبوا وقرئ جاءته من ربّه متعلّق بجاءه او بمحذوف وقع صفة لموعظة
والتعرّض للربوبيّة مع الاضافة للاشعار بكون مجيء الموعظة للتربية فانتهي عطف علي
جاءه اي فاتّعظ بلا تراخ وتبع النهي فله ما سلف اي ما تقدّم اخذه التحريم ولا
يستردّ منه وما مرتفع بالظرف ان جعلت من موصولة وبالابتداء ان جعلت شرطيّة علي رأي
سيبويه لعدم اعتماد الظرف علي ما قبله وامره الي الله يجازيه علي انتهائه ان كان عن
قبول الموعظة وصدق النيّة وقيل يحكم في شانه ولا اعتراض لكم عليه ومن عاد اي الي تحليل
الرّبوا فاولئك اشارة الي من عاد والجمع باعتبار المعني كما ان الافراد في عاد باعتبار اللفظ
وما فيه من معني البعد للاشعار ببعد منزلتهم في الشرّ والفساد اصحاب النار اي ملازموها
هم فيها خالدون ماكثون ابدا والجملة مقرّرة لما قبلها يمحق الله الرّبوا اي يذهب
ببركته ويهلك المال الذي يدخل فيه ويربي الصّدقات يضاعف ثوابها ويبارك
فيها ويزيد المال الذي اخرجت منه الصّدقة روي عنه صلي الله عليه وسلّم ان الله
يقبل الصدقة ويربيها كما يربي احدكم مهره وعنه عليه السلام ما نقصت زكوة من مال
قطّ والله لا يحبّ اي لا يرضي لان الحبّ مختصّ بالتوّابين كلّ كفّار مصرّ علي تحليل المحرّمات
اثيم منهمك في ارتكابه ان الذين امنوا بالله ورسوله وبما جاءهم به وعملوا
الصّالحات واقاموا الصّلوة واتوا الزكوة تخصيصهما بالذكر مع اندراجهما في الصّالحات
لفضلهما علي سائر الاعمال الصّالحة علي طريقة ذكر جبريل وميكال عقيب الملائكة عليهم السلام
لهم اجرهم جملة من مبتدا وخبر واقعة خبرا لان اي اجرهم الموعود لهم وقوله
تعالي عند ربّهم حال من اجرهم وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الاضافة الي ضميرهم
مزيد لطف وتشريف لهم ولا خوف عليهم من مكروه آت ولا هم يحزنون
من محبوب فات يا ايّها الذين امنوا اتّقوا الله اي قوا انفسكم عقابه وذروا ما بقي
من الرّبوا اي واتركوا بقايا ما شرطتم منه علي الناس تركا كلّيا ان كنتم مؤمنين علي
الحقيقة فان ذلك مستلزم لامتثال ما امرتم به البتّة وهو شرط حذف جوابه ثقة بما قبله

اي ان كنتم مؤمنين فاتقوه ودروا الحرام روي انه كان لثقيف مال على بعض قريش فطالبوهم عند
المحل بالمال والربوا فان لم تفعلوا اي ما امرتم به من الاتقاء وترك البقايا اما مع
انكار حرمته واما مع الاعتراف بها فاذنوا بحرب من الله ورسوله اي فاعلموا
بها من اذن بالشيء اذا علم به اما على الاول فكحرب المرتدين واما على الثاني فكحرب البغاة وقرئ
فآذنوا اي فاعلموا غيركم قيل هو الاذن وهو الاستماع فانه من طرق العلم وقرئ فايقنوا و
هو مؤيد لقراءة العامة وتنكير حرب للتفخيم ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لها مؤكدة
لفخامتها اي بنوع من الحرب عظيم لا يقادر قدره كائن من عند الله تعالى ورسوله روي انه
لما نزلت قالت ثقيف لا يدي بحرب الله ورسوله وان تبتم من الارتباء مع الايمان بحرمتها
بعد ما سمعتموه من الوعيد فلكم رؤس اموالكم تاخذونها كملا لا تظلمون غرماءكم
باخذ الزيادة والجملة اما مستأنفة لا محل لها من الاعراب او حال من الضمير في لكم والعامل
ما تضمنه الجار من الاستقرار ولا تظلمون عطف على ما قبله اي لا تظلمون انتم من قبلهم
بالمطل والنقص ومن ضرورة تعليق هذا الحكم بتوبتهم عدم ثبوته عند عدمها لان
عدمها ان كان مع انكار الحرمة فهم مرتدون ومالهم المكسوب في حال الردة في للمسلمين عند
ابي ح رح وكذا اموالهم عند الشافعي وعندهما لورثتهم ولا شيء لهم على كل حال وان
كان مع الاعتراف بها فان كان لهم شوكة فهم على شرف القتل لم تسلم لهم رؤسهم فكيف
برؤس اموالهم والا فكذلك عند ابن عباس رضهما فانه يقول من عامل الربوا يستتاب
والا ضرب عنقه واما عند غيره فهم لورثتهم وان كان ذو عسرة اي ان وقع غريم
من غرمائكم ذو عسرة على ان كان تامة وقرئ ذا عسرة على انها ناقصة فنظرة اي فالحكم
نظرة او فعليكم نظرة او فليكن نظرة وهي الانظار والامهال وقرئ فناظره اي فالمستحق
ناظره اي منتظره او فصاحب نظرة على طريق النسب وقرئ فناظره امرا من المفاعلة اي
فسامحه بالنظرة الى ميسرة الى يسار وقرئ بضم السين وهما لغتان كمشرقة ومشرقة
وقرئ بهما مضافين بحذف التاء عند الاضافة كما في قوله واخلفوك عد الامر الذي
وعدوا وان تصدقوا بحذف احدى التائين وقرئ بتشديد الصاد اي وان تصدقوا على
معسري غرمائكم بالابراء خير لكم اي اكثر ثوابا من الانظار او خير مما تاخذونه لمضاعفة
ثوابه ودوامه فهو ندب الى ان يتصدقوا برؤس اموالهم كلا او بعضا على غرمائهم المعسرين
كقوله تعالى وان تعفوا اقرب للتقوى وقيل المراد بالتصدق الانظار لقوله عليه السلام
لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره الا كان له بكل يوم صدقة ان كنتم تعلمون جوابه محذوف
اي ان كنتم تعلمون انه خير لكم عملتموه واتقوا يوما هو يوم القيامة وتنكيره للتفخيم و
التهويل وتعليق الاتقاء به للمبالغة في التحذير عما فيه من الشدائد والاهوال ترجعون
فيه على البناء للمفعول من الرجع وقرئ على البناء للفاعل من الرجوع والاول ادخل في
التهويل وقرئ بالياء على طريق الالتفات وقرئ تردون وكذا تصيرون الى الله لمحاسبة
اعمالكم ثم توفى كل نفس من النفوس والتعميم للمبالغة في تهويل اليوم اي تعطى كملا
ما كسبت اي جزاء ما عملت من خير او شر وهم لا يظلمون حال من كل نفس بقيد ان
المعاقبين وان كانت عقوباتهم مؤبدة غير مظلومين في ذلك لما انه من قبل انفسهم و
جمع الضمير لانه انسب بحال الجزاء كما ان الافراد اوفق بحال الكسب عن ابن عباس رضهما آخر
اية نزل بها جبرائيل عم وقال ضعها في رأس المائتين والثمانين من البقرة وعاش رسول الله
صلى الله عليه وسلم بعدها احدى وعشرين يوما وقيل احدا وثمانين وقيل بسبعة ايام
وقيل ثلث ساعات يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين شروع في بيان حال
المداينة الواقعة في تضاعيف المعاملات الجارية فيما بينهم ببيع السلع بالنقود بعد
بيان حال الربوا اي اذا داين بعضكم بعضا وعامله نسيئة معطيا او آخذا وفائدة ذكر
الدين دفع توهم كون التداين بمعنى المجازاة والتنبيه على انه تنوعه الى الحال والمؤجل وانه
الباعث على الكتبة وتعيين المرجع للضمير المنصوب بالامر الى اجل متعلق بتداينتم او بمحذوف
وقع صفة لدين مسمى بالايام او الاشهر ونظائرهما مما يفيد العلم ويرفع الجهالة لا

بالحصاد

بالحصاد والدياس ونحوهما مما لا يرفعها فاكتبوه اي الدين باجله لانه اوثق وادفع للنزاع
والجمهور على استحبابه وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان المراد به السلم وقال لما حرم الله
تعالى الربوا اباح في السلم وليكتب بينكم كاتب بيان لكيفية الكتابة المأمور بها وتعيين
لمن يتولاها اثر الامر بها اجمالا وحذف المفعول اما لتعينه او للقصد الى ايقاع نفس الفعل
اي ليفعل الكتابة وقوله تعالى بينكم للايذان بان الكاتب ينبغي ان يتوسط بين المتداينين ويكتب
كلامهما ولا يكتفي بكلام احدهما وقوله تعالى بالعدل متعلق بمحذوف هو صفة لكاتب
اي كائن بالعدل اي وليكن المتصدي للكتابة من شأنه ان يكتب بالسوية من غير ميل الى احد
الجانبين لا يزيد ولا ينقص وهو امر للمتداينين باختيار كاتب فقيه دين حتى يجيء كتابه
موثقا به معدلا بالشرع ويجوز ان يكون حالا منه اي ملتبسا بالعدل وقيل متعلق
بالفعل اي فليكتب ولا يأب كاتب ولا يمتنع احد من الكتاب ان يكتب كتاب
الدين كما علمه الله على طريقة ما علمه من كتبة الوثائق او كما بينه بقوله تعالى بالعدل
او لا يأب ان ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله تعالى بتعليم الكتابة كقوله تعالى واحسن كما
احسن الله اليك فليكتب تلك الكتابة المعلمة امر بها بعد النهي عن اباءها تاكيدا لها
ويجوز ان يتعلق الكاف بالامر على ان يكون النهي عن الامتناع منها مطلقة ثم الامر بها
مقيدة وليملل الذي عليه الحق الاملال هو الاملاء اي وليكن المملي من عليه الحق لانه
المشهود عليه فلا بد ان يكون هو المقر وليتق الله ربه جمع الاسم الجليل والنعت الجميل
للمبالغة في التحذير اي وليتق المملي دون الكاتب كما في قوله تعالى ولا يبخس منه اي من الحق
الذي يمليه على الكاتب شيئا فانه الذي يتوقع منه البخس خاصة واما الكاتب فيتوقع
منه الزيادة كما يتوقع منه النقص فلو اريد نهيه لنهي عن كليهما وقد فعل ذلك حيث امر
بالعدل وانما شدد في تكليف المملي حيث جمع فيه بين الاتقاء والنهي عن البخس لما فيه من الدواعي
الى المنهي عنه فان الانسان مطبوع على دفع الضرر عن نفسه وتخفيف ما في ذمته بما امكن فان كان
الذي عليه الحق صرح بذلك في موضع الاضمار لزيادة الكشف والبيان لا لان الامر والنهي
لغيره سفيها ناقص العقل مبذرا مجازفا او ضعيفا صبيا او شيخا مختلا او لا يستطيع ان
يمل هو او غير مستطيع للاملاء بنفسه لخرس او عي او جهل او غير ذلك من العوارض
فليملل وليه اي الذي يلي امره ويقوم مقامه من قيم او وكيل او
مترجم بالعدل اي من غير نقص ولا زيادة لم يكلف بين ما كلف به من عليه الحق
لانه يتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه البخس واستشهدوا شهيدين اي
اطلبوهما ليتحملا الشهادة على ما جرى بينكما من المداينة وتسميتهما شهيدين لتنزيل
المشارف منزلة الكائن من رجالكم متعلق باستشهدوا ومن ابتدائية او بمحذوف
وقع صفة لشهيدين ومن تبعيضية اي شهيدين كائنين من رجال المسلمين الاحرار اذ الكلام
في معاملاتهم فان خطابات الشرع لا تنتظم العبيد بطريق العبارة كما بين في موضعه واما
اذا كانت المداينة بين الكفرة او كان من عليه الحق كافرا فيجوز استشهاد الكافر عندنا فان
لم يكونا اي الشهيدان جميعا على طريقة نفي الشمول النفي رجلين اما لاعوازهما
او لسبب آخر من الاسباب فرجل وامرأتان اي فليشهد رجل وامرأتان او
فرجل وامرأتان يكفون وهذا فيما عدا الحدود والقصاص عندنا وفي الاموال خاصة
عند الشافعي رح ممن ترضون متعلق بمحذوف وقع صفة لرجل وامرأتان اي كائنون
مرضيين عندكم وتخصيصهم بالوصف المذكور مع تحقق اعتباره في كل شهيد لقلة
اتصاف النساء به وقيل نعت لشهيدين اي كائنين ممن ترضون ورد بانه يلزم الفصل
بينهما بالاجنبي وقيل بدل من رجالكم بتكرير فرد بما ذكر من الفصل وقيل متعلق بقوله
تعالى فاستشهدوا فيلزم الفصل بين اشتراط المرأتين وبين تعليله وقوله عز وجل من
الشهداء متعلق بمحذوف وقع حالا من الضمير المحذوف الراجع الى الموصول اي ممن
ترضونهم كائنين من بعض الشهداء لعلمكم بعد التهم وثقتكم بهم وادراج النساء
في الشهداء بطريق التغليب ان تضل احديهما فتذكر احديهما الاخرى تعليل

لاعتبار العدد في النساء والعلة في الحقيقة هي التذكير ولكن الضلال لما كان سببا له نزل
منزلته كما في قولك اعددت السلاح ان يجيء عدو فادفعه كانه قيل لاجل ان تذكر احديهما الاخرى
ان ضلت الشهادة بان نسيتها ولعل ايثار ما عليه النظم الكريم على ان يقال ان تضل
احديهما فتذكرها الاخرى لتاكيد الابهام للمبالغة في الاحتراز عن توهم اختصاص
الضلال باحديهما بعينها والتذكير بالاخرى وقرئ فتذكر من الاذكار وقرئ فتذاكر
وقرئ ان تضل على الشرط فتذكر بالرفع كقوله تعالى ومن عاد فينتقم الله منه ولا
يأب الشهداء اذا ما دعوا لاداء الشهادة او لتحملها وتسميتهم شهداء قبل التحمل
لما مر من تنزيل المشارف منزلة الواقع وما مزيدة عن قتادة انه كان الرجل يطوف في الحواء
العظيم فيه القوم فلا يتبعه منهم احد فنزلت ولا تسأموا اي لا تملوا من كثرة
مداينا تكم ان تكتبوه اي الدين او الحق او الكتاب وقيل كنى به عن الكسل الذي هو صفة المنافق
كما ورد في قوله تعالى واذا قاموا الى الصلوة قاموا كسالى وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول
المؤمن كسلت صغيرا او كبيرا حال من الضمير اي حال كونه صغيرا او كبيرا اي قليلا او
كثيرا او مجملا او مفصلا الى اجله متعلق بمحذوف وقع حالا من الهاء في تكتبوه اي
مستقرا في الذمة الى وقت حلوله الذي اقر به المديون ذلكم اشارة الى ما امر به من
الكتب والخطاب للمؤمنين اقسط اي اعدل عند الله اي في حكمه تعالى واقوم
للشهادة اي اثبت لها واعون على اقامتها وهما مبنيان من اقسط واقام فانه قياسي
عند سيبويه او من قاسط بمعنى ذي قسط وقويم وانما صحت الواو في اقوم كما صحت
في التعجب لجموده وادنى ان لا ترتابوا واقرب الى انتفاء ريبكم في جنس الدين وقدره واجله
وشهوده ونحو ذلك الا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم استثناء منقطع من
الامر بالكتابة اي لكن وقت تداينكم او تجارتكم حاضرة بحضور البدلين تديرونها
بينكم بتعاطيهما يدا بيد فليس عليكم جناح ان لا تكتبوها اي فلا باس بان لا تكتبوها لبعده
عن التنازع والنسيان وقرئ برفع تجارة على انها اسم كان وحاضرة صفتها وتديرونها خبرها
او على انها تامة واشهدوا اذا تبايعتم اي هذا التبايع او مطلقا لانه احوط
والاوامر الواردة في الاية الكريمة للندب عند الجمهور وقيل للوجوب ثم اختلف في احكامها
ونسخها ولا يضار كاتب ولا شهيد نهي عن المضارة محتمل للبنائين كما ينبئ عنه
قراءة من قرأ ولا يضارر بالكسر والفتح وهو نهيهما عن ترك الاجابة والتغيير والتحريف
في الكتبة والشهادة او نهي الطالب عن الضرار بهما بان يعجلهما عن مهمهما او يكلفهما
الخروج عما حد لهما او لا يعطي الكاتب جعله وقرئ بالرفع على انه نفي في معنى النهي وان
تفعلوا ما نهيتم عنه من الضرار فانه اي فعلكم ذلك فسوق بكم اي خروج
عن الطاعة ملتبس بكم واتقوا الله في مخالفة اوامره ونواهيه التي من جملتها نهيه
عن المضارة ويعلمكم الله احكامه المتضمنة لمصالحكم والله بكل شيء عليم
فلا يكاد يخفى عليه حالكم وهو مجازيكم بذلك كرر لفظ الجلالة في الجمل الثلث لادخال الروعة
وتربية المهابة وللتنبيه على استقلال كل منها بمعنى على حياله فان الاولى حث على التقوى
والثانية وعد بالانعام والثالثة تعظيم لشانه تعالى وان كنتم على سفر اي مسافرين او
متوجهين اليه ولم تجدوا كاتبا في المداينة وقرئ كتابا وكتابا فرهان مقبوضة اي
فالذي يستوثق به او فعليكم او فليؤخذ او فالمشروع رهان مقبوضة وليس هذا التعليق
لاشتراط السفر في شرعية الارتهان كما حسبه مجاهد والضحاك لانه صلى الله عليه وسلم رهن درعه
في المدينة من يهودي بعشرين صاعا من شعير واخذه لاهله بل لاقامة التوثق بالارتهان
مقام التوثق بالكتبة في السفر الذي هو مظنة اعوازها وانما لم يتعرض لحال الشاهد
لما انه في حكم الكاتب توثقا واعوازا والجمهور على وجوب القبض في تمام الرهن غير مالك
وقرئ فرهن كسقف وكلاهما جمع رهن بمعنى مرهون وقرئ بسكون الهاء تخفيفا فان
امن بعضكم بعضا اي بعض الدائنين بعض المديونين لحسن ظنه به واستغنى بامانته
عن الارتهان وقرئ فان اومن بعضكم اي امنه الناس ووصفوه بالامانة

قيل

قيل فيكون انتصاب بعضا حينئذ على نزع الخافض او على متاع بعض فليؤد الذي اؤتمن
وهو المديون وانما عبر عنه بذلك العنوان لتعينه طريقا للاعلام ولحمله على الاداء امانته
اي دينه وانما سمي امانة لائتمانه عليه بترك الارتهان به وقرئ ايتمن بقلب الهمزة ياء
وقرئ بادغام الياء بالتاء وهو خطاء لان المنقلبة من الهمزة لا تدغم لانها في حكمها وليتق
الله ربه في رعاية حقوق الامانة وفي الجمع بين عنوان الالوهية وصفة الربوبية
من التاكيد والتحذير ما لا يخفى ولا تكتموا الشهادة ايها الشهود او المديون
اي شهادتكم على انفسكم عند المعاملة ومن يكتمها فانه اثم قلبه اثم خبر ان وقلبه
مرتفع به على الفاعلية كانه قيل يأثم قلبه او مرتفع بالابتداء واثم خبر مقدم والجملة خبر ان
واسناد الاثم الى القلب لان الكتمان مما اقترفه ونظيره نسبة الزنا الى العين والاذن
او للمبالغة لانه رئيس الاعضاء وافعاله اعظم الافعال كانه قيل تمكن الاثم في نفسه وملك
اشرف مكان فيه وفاق سائر ذنوبه عن ابن عباس رضي الله عنهما ان اكبر الكبائر الاشراك
بالله لقوله تعالى فقد حرم الله عليه الجنة وشهادة الزور وكتمان الشهادة وقرئ قلبه
بالنصب كما في سفه نفسه وقرئ اثم قلبه اي جعله اثما والله بما تعملون عليم فيجازيكم
به ان خيرا فخير وان شرا فشر لله ما في السموات وما في الارض من الامور الداخلة
في حقيقتهما والخارجة عنهما المتمكنة فيهما من اولي العلم وغيرهم اي كلها له تعالى خلقا
وملكا وتصرفا لا شركة لغيره في شيء منها بوجه من الوجوه وان تبدوا ما في انفسكم من
السوء والعزم عليه بان تظهروه للناس بالقول او بالفعل او تخفوه بان تكتموه منهم
ولا تظهروه باحد الوجهين ولا يندرج فيه ما لا يخلو عنه البشر من الوساوس واحاديث
النفس التي لا عقد ولا عزيمة فيها اذ التكليف بحسب الوسع يحاسبكم به الله يوم القيمة
وهو حجة على منكري الحساب من المعتزلة والروافض وتقديم الجار والمجرور على الفاعل
للاعتناء به واما تقديم الابداء على الاخفاء على عكس ما في قوله عز وجل قل ان تخفوا
ما في صدوركم او تبدوه يعلمه الله فلما ان المعلق بما في انفسهم ههنا هو المحاسبة
والاصل فيها الاعمال البادية واما العلم فتعلقه بها كتعلقه بالاعمال الخافية كيف لا
وعلمه سبحانه بمعلوماته متعال من ان يكون بطريق حصول الصور بل وجود كل شيء
في نفسه في اي طور كان علم بالنسبة اليه تعالى وهذا لا يختلف الحال بين الاشياء البارزة والكامنة
خلا ان مرتبة الاخفاء متقدمة على مرتبة الابداء اذ ما من شيء الا وهو او مباديه قبل ذلك
مضمر في النفس فتعلق علمه تعالى بحالته الاولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية وقد مر في تفسير
قوله تعالى او لا يعلمون ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون فيغفر بالرفع على الاستئناف اي فهو يغفر
بفضله لمن يشاء ان يغفر له ويعذب بعدله من يشاء ان يعذبه حسبما تقتضيه مشيته
المبنية على الحكم والمصالح وتقديم المغفرة على التعذيب لتقدم رحمته على غضبه وقرئ بجزم
الفعلين عطفا على جواب الشرط وقرئ بالجزم من غير فاء على انهما بدل من الجواب بدل البعض او الاشتمال
ونظيره الجزم على البدلية من الشرط ما في قوله متى تاتنا تلمم بنا في ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا
تاججا وادغام الراء في اللام لحن والله على كل شيء قدير تذييل مقرر لمضمون ما قبله
فان كمال قدرته تعالى على جميع الاشياء موجب لقدرته سبحانه على ما ذكر من المحاسبة وما
فرع عليه من المغفرة والتعذيب امن الرسول لما ذكر في فاتحة السورة الكريمة ان ما انزل
الى الرسول صلى الله عليه وسلم من الكتاب العظيم الشان هدى للمتقين بما فصل هناك من الصفات
الفاضلة التي من جملتها الايمان به وبما انزل قبله من الكتب الالهية وانهم حائزون لاثرتي الهدى
والفلاح من غير تعيين لهم بخصوصهم ولا تصريح بتحقق اتصافهم بها اذ ليس فيما ذكر
في حيز الصلة حكم بالفعل وعقب ذلك ببيان حال من كفر به من المجاهرين والمنافقين ثم
شرع في تفاصيلهما من فنون الشرايع والاحكام والمواعظ والحكم واخبار الامم السالفة
وغير ذلك مما يقتضي الحكمة شرعه عين في خاتمتها المتصفون بها وحكم باتصافهم بها
على طريق الشهادة لهم من جهته عز وجل بكمال الايمان وحسن الطاعة وذكر رسول الله صلى الله
عليه وسلم بطريق الغيبة مع ذكره هناك بطريق الخطاب لما ان حق الشهادة الباقية على مر الدهور

هو

ان لايخاطب بها المتشهود له ولم يتعرض ههنا لبيان فوزهم بمطالبهم التي من جملتها ما حكي عنهم من
الدعوات الآتية ايذانا بانه امر محقق غني عن التصريح به لاسيما بعد ما نص عليه فيما سلف
وايراده بعنوان الرسالة المنبئة عن كونه عليه السلام صاحب كتاب مجيد وشرع جديد تمهيد
لما يعقبه من قوله تعالى بما انزل اليه ومزيد توضيح لاندراجه في الرسل المؤمن بهم
عليهم السلام والمراد بما انزل اليه ما يعم كل جزء من اجزائه ففيه تحقيق لكيفية ايمانه
صلى الله عليه وسلم وتعيين لعنوانه اي آمن الرسول عليه السلام بكل ما انزل اليه من ربه
ايمانا تفصيليا متعلقا بجميع ما فيه من الشرائع والاحكام والقصص والمواعظ واحوال الرسل
والكتب وغير ذلك من حيث انه منزل منه تعالى واما الايمان بحقية احكامه وصدق اخباره
ونحو ذلك فمن فروع الايمان به من الحيثية المذكورة وفي هذا الاجمال اجلال لمحله عليه السلام
واشعار بان تعلق ايمانه بتفاصيل ما انزل اليه واحاطته بجميع ما انطوى عليه من الظهور
بحيث لا حاجة الى ذكره اصلا وكذا العنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام
تشريف له وتنبيه على ان انزاله اليه تربية وتكميل له صلى الله عليه وسلم والمؤمنون اي
الفريق المعروفون بهذا الاسم فاللام عهدية لا موصولة لافضائها الى خلو الكلام عن الجزء
وهو مبتداء وقوله عز وجل كل مبتداء ثان وقوله تعالى آمن خبره والجملة خبر للمبتداء
الاول والرابط بينهما الضمير الذي ناب منابه التنوين وتوحيد الضمير في آمن مع رجوعه
الى كل المؤمنين لما ان المراد بيان ايمان كل فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع كما اعتبر ذلك
في قوله تعالى وكل اتوه داخرين وتغيير سبك النظم الكريم عما قبله لتاكيد الاشعار بما بين ايمانه
عليه السلام المبني على المشاهدة والعيان وبين ايمانهم الناشئ عن الحجة والبرهان من التفاوت
البين والاختلاف الجلي كانهما مختلفان من كل وجه حتى في هيئة التركيب الدال عليهما وما
فيه من تكرير الاسناد لما في الحكم بالايمان على كل واحد منهم على الوجه الآتي من نوع خفاء
محوج الى التقوية والتاكيد اي كل واحد منهم من آمن بالله وحده من غير شريك له في
الالوهية والعبودية وملائكته اي من حيث انهم عباد مكرمون له تعالى من شانهم
التوسط بينه تعالى وبين الرسل بانزال الكتب والقاء الوحي فان مدار الايمان بهم ليس
خصوصيات ذوات انفسهم بل هو اضافتهم اليه تعالى من الحيثية المذكورة كما يلوح
به الترتيب في النظم وكتبه ورسله اي من حيث مجيئهما من عنده تعالى لارشاد الخلق
الى ما شرع لهم من الدين بالاوامر والنواهي لا على الاطلاق بل على ان كل واحد من تلك
الكتب منزل منه تعالى الى رسول معين من اولئك الرسل عليهم السلام حسبما فصل في قوله
تعالى قولوا آمنا بالله وما انزل الينا الى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما
اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم الآية ولا على ان مناط الايمان خصوصية
ذلك الكتاب او ذلك الرسول بل انه على ان الايمان بالكل مندرج في الايمان بالكتاب المنزل الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم ومستند اليه لما تلي من الآية الكريمة ولا على ان احكام الكتب
السابقة وشرايعها باقية بالكلية ولا ان الباقي معتبر بالاضافة اليها بل على ان احكام
كل واحد منها كانت حقة ثابتة الى ورود كتاب آخر ناسخ له وان لم ينسخ منها الى الآن من
الشرايع والاحكام ثابتة من حيث انها من احكام الكتاب المصون عن النسخ الى يوم القيمة وانما لم
يذكر ههنا الايمان باليوم الآخر كما ذكر في قوله تعالى ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر و
الملائكة والكتاب والنبيين لاندراجه في الايمان بكتبه وقرئ وكتابه على ان المراد منه
القران او جنس الكتاب كما في قوله تعالى فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم
الكتاب والفرق بينه وبين الجمع انه شايع في افراد الجنس والجمع في جموعه ولذلك قيل الكتاب اكثر
من الكتاب وهذا نوع تفصيل لما اجمل في قوله تعالى بما انزل اليه من ربه اقتصر عليه ايذانا بكفايته
في الايمان الاجمالي المتحقق في كل فرد من افراد المؤمنين من غير نفي للزيادة ضرورة اختلاف
طبقاتهم وتفاوت ايمانهم بالامور المذكورة في مراتب التفصيل تفاوتا فاحشا فان الاجمال
في الحكاية لا يوجب الاجمال في المحكي كيف لا وقد اجمل في حكاية ايمانه عليه السلام بما انزل
اليه من ربه مع بداهة كونه متعلقا بتفاصيل ما فيه من الجلائل والدقائق ثم ان الامور المذكورة

حيث كانت من الامور الغيبية التي لا يوقف عليها الا من جهة العليم الخبير كان الايمان بها
مصداقا لما ذكر في صدر السورة الكريمة من الايمان بالغيب واما الايمان بكتبه تعالى فاشارة
الى ما في قوله تعالى يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك هذا هو اللائق بشان التنزيل
والحقيق بمقداره الجليل ويجوز ان يكون قوله تعالى والمؤمنون معطوفا على الرسول فيوقف
عليه والضمير الذي عوض عنه التنوين راجع الى المعطوفين معا كانه قيل آمن الرسول والمؤمنون
بما انزل اليه من ربه ثم فصل ذلك وقيل كل واحد من الرسول والمؤمنين آمن بالله الى خلا
انه قدم المؤمن به على المعطوف اعتناء بشانه وايذانا باصالته عليه السلام في الايمان
به ولا يخفى انه مع خلوه عما في الوجه الاول من كمال اجلال شانه عليه السلام
وتفخيم ايمانه مخل بجزالة النظم الكريم لانه ان حمل كل من الايمانين على ما يليق بشانه
صلى الله عليه وسلم من حيث الذات ومن حيث التعلق بالتفاصيل استحال اسنادهما الى غيره
وضاع التكرير وان حملا على ما يليق بشان آحاد الامة كان ذلك حطا لرتبته العلية
عليه السلام واما حملهما على ما يليق بكل واحد ممن نسبا اليه من الآحاد ذاتا وتعلقا
بان يحملا بالنسبة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان العياني المتعلق بجميع التفاصيل
وبالنسبة الى الامة على الايمان المكتسب من جهته عليه السلام اللائق بحالهم في الاجمال
والتفصيل فاعتساف بين ينبغي تنزيه ساحة التنزيل عن امثاله وقوله تعالى لا نفرق
بين احد من رسله في حيز النصب بقول مقدر على صيغة الجمع رعاية لجانب المعنى
منصوب على انه حال من ضمير آمن او مرفوع على انه خبر آخر لكل اي يقولون لا نفرق بينهم
بان نؤمن ببعض منهم ونكفر باخرين بل نؤمن بصحة رسالة كل واحد منهم قيدوا به
ايمانهم تحقيقا وتخطئة لاهل الكتابين حيث اجمعوا على الكفر بالرسول صلى الله عليه وسلم
واستقلت اليهود بالكفر بعيسى عليه السلام ايضا على ان مقصودهم الاصلي ابراز ايمانهم بما كفروا
من رسالته صلى الله عليه وسلم لا اظهار موافقتهم لهم فيما آمنوا به وهذا كما ترى صريح
في ان القائلين آحاد المؤمنين خاصة اذ لا يمكن ان يسند اليه عليه السلام ان يقول لا نفرق
بين احد من رسله وهو يريد به اظهار ايمانه برسالة نفسه وتصديقه في دعواها وعدم
التعرض لنفي التفريق بين الكتب لاستلزام المذكور اياه وانما لم يعكس مع تحقق التلازم
من الطرفين لما ان الاصل في تفريق المفرقين هو الرسل وكفرهم بالكتب متفرع على كفرهم وقرئ
بالياء على اسناد الفعل الى كل وقرئ لا يفرقون حملا على المعنى كما في قوله تعالى وكل اتوه داخرين
فالجملة نفسها حال من الضمير المذكور وقيل ثان لكل كما قيل في القول المقدر فلا بد من
اعتبار الكلية بعد النفي دون العكس اذ المراد شمول النفي لا نفي الشمول في الكلام
احد في دخول بين عليه قد مر تفصيله عند قوله تعالى لا نفرق بين احد منهم
وفيه من الدلالة صريحا على تحقيق عدم التفريق بين كل فرد منهم وبين من
عداه كائنا من كان ما ليس في ان يقال لا نفرق بين رسله وايثار اظهار الرسل على
الاضمار الواقع مثله في قوله تعالى وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد
منهم اما للاحتراز عن توهم اندراج الملائكة في الحكم او للاشعار بعلة عدم التفريق
او للايماء الى عنوانه لان المعتبر عدم التفريق من حيث الرسالة دون سائر الحيثيات
الخاصة وقالوا عطف على آمن وصيغة الجمع باعتبار جانب المعنى وهو حكاية
لامتثالهم بالاوامر اثر حكاية ايمانهم سمعنا اي فهمنا ما جاءنا من
الحق وتيقنا بصحته واطعنا ما فيه من الاوامر والنواهي وقيل سمعنا اجبنا
دعوتك واطعنا امرك غفرانك ربنا اي اغفر لنا غفرانك او نسالك غفرانك
ذنوبنا المتقدمة او ما لا يخلو عنه البشر من التقصير في مراعاة حقوقك وتقديم
ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران لما ان تقديم الوسيلة على المسئول ادعى الى الاجابة
والقبول والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة اليهم للمبالغة في التضرع والجؤار
واليك المصير اي الرجوع بالموت والبعث لا الى غيرك وهو تذييل قبله مقرر لما للحاجة
الى المغفرة لما ان الرجوع للحساب والجزاء وقوله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها

جملة مستقلة جيء بها اثر حكاية تلقيهم لتكاليفه تعالى بحسن الطاعة اظهاراً لما له تعالى عليهم
في ضمن التكليف من محاسن آثار الفضل والرحمة ابتداء لا بعد السؤال كما سيجيء هذا
وقد روي انه لما نزل قوله تعالى وان تبدوا ما في انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله الآية
اشتد ذلك على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتوه عليه السلام ثم بركوا على
الركب فقالوا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلفنا من الاعمال ما نطيق من الصلوة والصيام
والحج والجهاد وقد انزل اليك الآية ولا نطيقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
اتريدون ان تقولوا كما قال اهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا
واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير فقرأها القوم فانزل الله عز وجل آمن الرسول بما
انزل اليه من ربه الى قوله تعالى غفرانك ربنا واليك المصير فبشر لهم الغفران المعلق
بمشيئته عز وجل في قوله فيغفر لمن يشاء ثم انزل الله تعالى لا يكلف الله نفساً الا وسعها
تهويناً للخطب عليهم ببيان ان المراد بما في انفسهم ما عزموا عليه من السوء خاصة
لا يعم الخواطر التي لا يستطاع الاحتراز عنها والتكليف التزام ما فيه كلفة ومشقة والوسع
ما يسع الانسان ولا يضيق عليه اي سنته تعالى انه لا يكلف نفساً من النفوس الا ما يتسع
فيه طوقها ويتيسر عليها دون مدى الطاقة والمجهود فضلاً منه تعالى ورحمة لهذه
الامة كقوله تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وقرئ وسعها بالفتح وهذا يدل
على عدم وقوع التكليف بالمحال لا على امتناعه وقوله تعالى لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت
للترغيب في المحافظة على مواجب التكليف والتحذير عن الاخلال بها ببيان ان تكليف
كل نفس مع مقارنته لنعمة التخفيف والتيسير يتضمن مراعاته منفعة زائدة وانها
تعود اليها لا الى غيرها ويستتبع الاخلال به مضرة تحيق بها لا بغيرها فان اختصاص
منفعة الفعل بفاعله من اقوى الدواعي الى تحصيله واقتصار مضرته عليه من اشد
الزواجر عن مباشرته اي لها ثواب ما كسبت من الخير الذي كلفت فعله لا لغيرها استقلالاً
او اشتراكاً ضرورة شمول كلمة ما لكل جزء من اجزاء مكسوبها وعليها لا على غيرها
باحد الطريقين المذكورين عقاب ما اكتسبت من الشر الذي كلفت تركه وايراد
الاكتساب في جانب الشر لما فيه من اعتمال ناشئ من اعتقاد النفس بتحصيل الشر وسعياً
في طلبه ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا شروع في حكاية بقية دعواتهم
اثر بيان سر التكليف اي لا تؤاخذنا بما صدر عنا من الامور المؤدية الى النسيان والخطاء من
تفريط وقلة مبالاة ونحوهما مما يدخل تحت التكليف او بانفسهما من حيث ترتبهما على ما
ذكر او مطلقاً اذ لا امتناع في المؤاخذة بهما عقلاً فان المعاصي كالسموم فكما ان تناولها
ولو سهواً او خطاء مؤد الى الهلاك فتعاطي المعاصي ايضاً لا يبعد ان يفضي الى العقاب
وان لم يكن عن عزيمة ووعده تعالى بعدمه لا يوجب استحالة وقوعه فان ذلك من آثار
فضله ورحمته كما ينبئ عنه الرفع في قوله عليه السلام رفع عن امتي الخطاء والنسيان
وقد روي ان اليهود كانوا اذا نسوا شيئاً عجلت لهم العقوبة فدعاؤهم بعد العلم
بتحقق الموعود للاستدامة والاعتداد بالنعمة في ذلك كما في قوله تعالى ربنا آتنا ما وعدتنا
على رسلك ربنا ولا تحمل علينا اصراً عطف على ما قبله وتوسيط النداء بينهما
لابراز مزيد الضراعة والاصر العبء الثقيل الذي يأصر صاحبه اي يحبسه مكانه
والمراد به التكاليف الشاقة وقيل الاصر الذنب الذي لا توبة له فالمعنى اعصمنا
من اقترافه وقرئ آصاراً وقرئ ولا تحمّل بالتشديد للمبالغة كما حملته على الذين
من قبلنا في حيز النصب على انه صفة لمصدر محذوف اي حملاً مثل حملك اياه على من قبلنا
او على انه صفة لاصراً اي اصراً مثل الاصر الذي حملته على من قبلنا وهم بنو اسرائيل من بخع
النفس في التوبة وقطع موضع النجاسة وخمسين صلوة في يوم وليلة وصرف ربع المال للزكوة
وغير ذلك من التشديدات فانهم كانوا اذا اتوا بخطيئة حرم عليهم من الطعام بعض
ما كان حلالاً لهم قال تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم
وقد عصم الله عز وجل بفضله ورحمته هذه الامة عن امثال ذلك وانزل في شأنهم

ويضع

ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم وقال عليه السلام بعثت بالحنيفية السهلة
السمحة وعن العقوبات التي عوقب بها الاولون من المسخ والخسف وغير ذلك قال عليه السلام
رفع عن امتي الخسف والمسخ والغرق ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به عطف على ما
قبله واستعفاء عن العقوبات التي لا طاقة بعد الاستعفاء عما يؤدي اليها التفريط
فيه من التكاليف الشاقة التي لا يكاد من كلفها يخلو عن التفريط فيها كانه قيل لا تكلفنا
تلك التكاليف ولا تعاقبنا بتفريطنا في المحافظة عليها فيكون التعبير عن انزال العقوبات
بالتحميل باعتبار ما يؤدي اليها وقيل هو تكرير الاول وتصوير للاصر بصورة ما لا يستطاع
مبالغة وقيل هو استعفاء عن التكليف بما لا تفي به الطاقة البشرية حقيقة فيكون دليلاً
على جوازه عقلاً والا لما سئل التخلص عنه والتشديد ههنا لتعدية الفعل الى مفعول ثان
واعف عنا اي امح آثار ذنوبنا واغفر لنا واستر عيوبنا ولا تفضحنا على رؤس الاشهاد
وارحمنا وتعطف بنا وتفضل علينا وتقديم طلب العفو والمغفرة على طلب الرحمة لما ان التخلية سابقة
على التحلية انت مولانا سيدنا ونحن عبيدك او ناصرنا او متولي امورنا فانصرنا على القوم
الكافرين فان من حق المولى ان ينصر عبده ومن يتولى امره على اعدائه والمراد به عامة
الكفرة وفيه اشارة الى ان اعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله تعالى حسبما امر في تضاعيف السورة
الكريمة غاية مطالبهم روي انه صلى الله عليه وسلم لما دعا بهذه الدعوات قيل له
عند كل دعوة قد فعلت وعنه عليه السلام انزل الله آيتين من كنوز الجنة كتبهما الرحمن
بيده قبل ان يخلق الخلق بالفي عام من قرأهما بعد العشاء الآخرة اجزأتاه عن قيام الليل وعنه
عليه الصلوة والسلام من قرأ الآيتين من سورة البقرة كفتاه وهو حجة على من استكره
ان يقول سورة البقرة وقال ينبغي ان يقال السورة التي يذكر فيها البقرة كما قال عليه السلام
السورة التي يذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها فان تعلمها بركة وتركها حسرة
ولن يستطيعها البطلة قيل وما البطلة قال عليه الصلوة والسلام السحرة

سورة آل عمران مائتا آية مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الم الله لا اله الا هو قد سلف ان ما لا يكون من هذه الفواتح مفردة كص وق ون
ولا موازنة لمفرد كحاميم وطاسين وياسين الموازنة لقابيل وكطاسين ميم الموازنة لدارا
بجرد ذكره سيبويه في الكتاب فطريق التلفظ بها الحكاية فقط ساكنة الاعجاز على الوقف
سواء جعلت اسماء او مسرودة على نمط التعديد وان لزمها التقاء الساكنين لما انه مغتفر
في باب الوقف قطعاً فحق هذه الفاتحة ان يوقف عليها ثم يبدأ بما بعدها كما نقله ابو بكر
رواية عن عاصم واما ما فيها من الفتح على القراءة المشهورة فانما هي حركة همزة الجلالة القيت
على الميم لتدل على ثبوتها اذ ليس اسقاطها للدرج بل للتخفيف فهي لبقاء حركتها في حكم الثابت
المبتدأ به والميم بكون الحركة لغيرها في حكم الموقوف على السكون دون الحركة كما توهم واعترض بانه غير
معهود في الكلام وقيل هي حركة لالتقاء السواكن التي هي الياء والميم ولام الجلالة بعد سقوط
همزتها وانت خبير بان سقوطها مبني على وقوعها في الدرج وقد عرفت ان سكون
الميم وقفي موجب لانقطاعها عما بعدها مستدع لثبات الهمزة على حالها لا كما في الحروف
والاسماء المبنية على السكون فان حقها الاتصال بما بعدها وضعاً واستعمالاً فيسقط بها
همزة الوصل ويحرك اعجازها لالتقاء الساكنين ثم ان جعلت مسرودة على نمط التعديد
فلا محل لها من الاعراب كسائر الفواتح وان جعلت اسماً للسورة فمحلها اما الرفع على انها
خبر مبتدأ محذوف واما النصب على اضمار فعل يليق بالمقام كاذكر او اقرأ ونحوهما
اما الرفع بالابتداء او النصب بتقدير فعل القسم او الجر بتقدير حرفه فلا مساغ لشيء منها
لما ان ما بعدها صالح للخبرية ولا للاقسام عليه فان الاسم الجليل مبتدأ وما بعده
خبره والجملة مستأنفة اي هو المستحق للمعبودية لا غير وقوله عز وجل الحي القيوم خبر
آخر له او لمبتدأ محذوف اي هو الحي القيوم لا غير وقيل هو صفة للمبتدأ او بدل منه

او من الخبر الاول او هو الخبر وما قبله اعتراض بين المبتدأ والخبر مقرر لما يفيده الاسم الجليل او حال
واياما كان فهو كالدليل على اختصاص استحقاق العبودية به سبحانه وتعالى لما مر من ان
معنى الحي الباقي الذي لا سبيل عليه للموت والفناء ومعنى القيوم الدائم القيام بتدبير الخلق
وحفظه ومن ضرورة اختصاصه تعالى بذينك الوصفين به تعالى اختصاص استحقاق المعبودية
به تعالى لاستحالة تحققه بدونهما وقد روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اسم
الله الاعظم في ثلث سور في سورة البقرة الله لا اله الا هو الحي القيوم وفي آل عمران الم الله
لا اله الا هو الحي القيوم وفي طه وعنت الوجوه للحي القيوم وروي ان بني اسرائيل
سألوا موسى عليه السلام عن اسم الله الاعظم قال الحي القيوم ويروى ان عيسى عليه السلام
كان اذا اراد احياء الموتى يدعو بيا حي يا قيوم ويقال ان آصف بن برخيا حين اتى بعرش بلقيس
دعا بذلك وقرئ الحي القيام وهذا رد على من زعم ان عيسى عليه السلام كان ربا فانه روي
ان وفد نجران قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا ستين راكبا فيهم اربعة عشر
رجلا من اشرافهم ثلثة منهم اكابر اليهم يؤول امرهم احدهم اميرهم وصاحب مشورتهم
العاقب واسمه عبد المسيح وثانيهم وزيرهم ومشيرهم السيد واسمه الايهم وثالثهم
اصبرهم واشفقهم وصاحب مدراسهم ابو حارثة بن علقمة احد بني بكر بن وائل وقد كان
ملوك الروم شرفوه ومولوه واكرموه لما شاهدوا من علمه واجتهاده في دينهم وبنوا له كنائس
فلما خرجوا من نجران ركب ابو حارثة يسير اذ عثرت فقال كرز تعسا للابعد يريد به رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال له ابو حارثة بل تعست امك فقال كرز ولم يا اخي قال انه والله النبي الذي
كنا ننتظره فقال له كرز فما يمنعك عنه وانت تعلم هذا قال لان هؤلاء الملوك اعطونا
اموالا كثيرة واكرمونا فلو امنا به اخذوا منا كلها فوقع ذلك في قلب كرز واضمره الى ان اسلم
فكان يحدث بذلك فاتوا المدينة ثم دخلوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلوة
العصر عليهم ثياب الحبرات جبب واردية فاخرة يقول بعض من راهم من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم
ما راينا وفدا مثلهم وقد حانت صلوتهم فقاموا ليصلوا في المسجد فقال عليه السلام دعوهم
فصلوا الى المشرق ثم تكلم اولئك الثلثة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا تارة
عيسى هو الله لانه يحيي الموتى ويبرئ الاسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير
فينفخ فيه فيكون طيرا وتارة اخرى هو ابن الله اذ لم يكن له اب يعلم وتارة اخرى انه ثالث ثلثة
لقوله تعالى فعلنا وقلنا ولو كان واحدا لقال فعلت وقلت فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
اسلموا قالوا اسلمنا قبلك قال عليه السلام كذبتم يمنعكم من الاسلام دعاؤكم لله ولدا
قالوا ان لم يكن ولدا لله فمن ابوه فقال عليه السلام الستم تعلمون انه لا يكون ولد الا ويشبه اباه
فقالوا بلى قال الستم تعلمون ان ربنا حي لا يموت وان عيسى يأتي عليه الفناء قالوا بلى قال
عليه السلام الستم تعلمون ان ربنا قيوم على كل شيء يحفظه ويرزقه قالوا بلى قال عليه السلام
فهل يملك عيسى من ذلك شيئا قالوا لا قال الستم تعلمون ان الله تعالى لا يخفى عليه شيء
في الارض ولا في السماء قالوا بلى قال فهل يعلم عيسى من ذلك الا ما علم قالوا لا
قال عليه السلام الستم تعلمون ان ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء وان ربنا لا
يأكل ولا يشرب ولا يحدث قالوا بلى قال الستم تعلمون ان عيسى عليه السلام حملته امه
كما تحمل المرأة ووضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذي كما يغذى الصبي ثم كان يطعم
الطعام ويشرب ويحدث قالوا بلى قال عليه السلام فكيف يكون هذا كما زعمتم
فسكتوا فابوا الا جحودا فانزل الله عز وجل من اول السورة الى نيف وثمانين اية تقريرا لما احتج
به عليه السلام عليهم واجاب به من شبهتهم وتحقيقا للحق الذي فيه يمترون نزل
عليك الكتاب اي القرآن عبر عنه باسم الجنس ايذانا بكمال تفوقه على بقية الافراد في
حيازة كمالات الجنس كانه هو الحقيق بان يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عداه كما يلوح
به التصريح باسمي التوراة والانجيل وصيغة التفعيل للدلالة على التنجيم وتقديم الظرف
على المفعول لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر والجملة اما مستأنفة او خبر
آخر من الاسم الجليل او هي الخبر وقوله تعالى لا اله الا هو الحي اعتراض او حال وقوله عز وجل الحي

القيوم

القيوم صفة او بدل كما مر وقرئ نزل عليك الكتاب بالتخفيف ورفع الكتاب فالظاهر حينئذ
ان تكون مستأنفة وقيل يجوز كونها خبرا بحذف العائد اي نزل الكتاب من عنده بالحق
حال من الفاعل والمفعول اي نزله محقا في تنزيله على ما هو عليه او ملتبسا بالعدل في احكامه
او بالصدق في اخباره التي من جملتها خبر التوحيد وما يليه في وعده ووعيده او بما يحقق
انه من عند الله تعالى من الحجج البينة مصدقا حال من الكتاب بالاتفاق على تقدير كون
قوله تعالى بالحق حالا من فاعل نزل واما على تقدير حاليته من الكتاب فهو عند من يجوز تعدد
الحال بلا عطف وليته حال منه بعد حال واما عند من يمنعه فقد قيل انه حال من
محل الحال الاولى على البدلية وقيل من المستكن في الجار والمجرور لانه حين تحمل ضمير القائم مقام
عامله المتحمل له فيكون حالا متداخلة وعلى كل حال فهي حال مؤكدة وفائدة تقييد التنزيل بها حث
اهل الكتابين على الايمان بالمنزل وتنبيههم على وجوبه فان الايمان بالمصدق موجب للايمان
بما يصدقه حتما لما بين يديه مفعول لمصدقا واللام دعامة لتقوية العمل نحو فعال لما
يريد اي مصدقا لما قبله من الكتب السالفة وفيه ايماء الى حضورها وكمال ظهور امرها بين
الناس وتصديقه اياها في الدعوة الى الايمان والتوحيد وتنزيه الله تعالى عما لا يليق بشأنه الجليل
والامر بالعدل والاحسان وكذا في انباء الانبياء والامم الخالية وكذا في نزوله على النعت المذكور
فيها وكذا في الشرائع التي تختلف باختلاف الامم والاعصار ظاهر لا ريب فيه واما في الشرائع
المختلفة باختلاف فهما من حيث ان الاحكام في كل واحد منها واردة حسبما يقتضيه الحكمة التشريعية
بالنسبة الى خصوصيات الامم المكلفة بها مشتملة على المصالح اللائقة بشأنهم وانزل
التوراة والانجيل تعيين لما بين يديه وتبيين لرفعة محله تأكيدا لما قبله وتمهيدا
لما بعده اذ بذلك يترقى شأن ما يصدقه رفعة ونباهة ويزداد في القلوب قبولا ومهابة
ويتفاحش حال من كفر بهما في الشناعة واستتباع ما سيذكر من العذاب الشديد والانتقام
اي انزلهما جملة على موسى وعيسى عليهما السلام وانما لم يذكر لان الكلام في الكتابين لا فيمن
انزلا عليه وهما اسمان اعجميان الاول عبري والثاني سرياني ويعضده القراءة بفتح همزة
الانجيل فان افعيل ليس من ابنية العرب والتصدي لاشتقاقهما من الوري والنجل تعسف
من قبل متعلق بانزل اي انزلهما من قبل تنزيل الكتاب والتصريح به مع ظهور الامر
للمبالغة في البيان هدى للناس في حيز النصب على انه علة للانزال اي انزلهما لهداية
الناس او على انه حال منهما اي انزلهما حال كونهما هدى لهم والافراد لما انه مصدر
جعل نفس الهدى مبالغة او حذف المضاف منه اي ذوي هدى ثم ان اريد بهدايتهما
بجميع ما فيهما من حيث هو جميع فالمراد بالناس الامم الماضية من حين نزولهما الى زمان
نسخهما وان اريد هدايتهما على الاطلاق وهو الانسب بالمقام فالناس على عمومه لما ان
هدايتهما بما عدا الشرائع المنسوخة من الامور التي يصدقها القرآن فيها ومن جملتها
البشارة بنزوله ببعث النبي صلى الله عليه وسلم تعم الناس قاطبة وانزل الفرقان في الاصل
مصدر كالغفران اطلق على الفاعل مبالغة والمراد به ههنا اما جنس الكتب الالهية عبر عنها بوصف
شامل لما ذكر منها وما لم يذكر على طريق التتميم بالتعميم اثر تخصيص بعض مشاهيرها بالذكر
كما في قوله عز وجل فانبتنا فيها حبا وعنبا الى قوله تعالى وفاكهة واما نفس الكتب المذكورة اعيد
ذكرها بوصف خاص لم يذكر فيما سبق على طريقة العطف بتكرير لفظ الانزال تنزيلا للتغاير
الوصفي منزلة التغاير الذاتي كما في قوله سبحانه وتعالى فلما جاء امرنا نجينا هودا والذين معه برحمة
منا ونجيناهم من عذاب غليظ واما الزبور فانه مشتمل على المواعظ الفارقة بين الحق والباطل
الداعية الى الخير والرشاد الزاجرة عن الشر والفساد وتقديم الانجيل عليه مع تأخره عنه
نزولا لقوة مناسبته للتوراة في الاشتمال على الاحكام والشرائع لشيوع اقترانهما في الذكر
واما القرآن نفسه ذكره بنعت مادح له بعد ما ذكر باسم الجنس تعظيما لشأنه ورفعا لمكانه
وقد بين اولا تنزيله التدريجي الى الارض وثانيا انزاله الدفعي الى السماء الدنيا واريد
بالانزال القدر المشترك العاري عن قيد التدريج وعدمه واما المعجزات المقرونة بانزال
الكتب المذكورة الفارقة بين المحق والمبطل ان الذين كفروا بايات الله

وضع موضع الضمير العائد الى فصل من الكتب المنزلة او منها ومن المعجزات الايات مضافة الى
الاسم الجليل تعيينا لحيثية كفرهم وتهويلا لامرهم وتاكيدا لاستحقاقهم العذاب الشديد
وايذانا بان ذلك الاستحقاق لا يشترط فيه الكفر بالكل بل يكفي فيه الكفر ببعض منهما والمراد
بالموصول اما اهل الكتابين وهو الانسب بمقام المحاجة معهم او جنس الكفرة وهم داخلون فيه دخولا
اوليا اي ان الذين كفروا بما ذكر من ايات الله الناطقة بالحق لا سيما بتوحيده تعالى وتنزيهه عما لا
لا يليق بشانه الجليل كلا او بعضا مع ما بها من النعوت الموجبة للايمان بهما بان كذبوا بالقران
اصالة وسائر الكتب الالهية تبعا لما ان تكذيب المصدق موجب لتكذيب ما يصدقه حتما او اصالة
ايضا بان كذبوا باياتها الناطقة بالتوحيد والتنزيه وباياتها المبشرة بنزول القران
وبعث النبي صلى الله عليه وسلم وغيروها لهم بسبب كفرهم بها عذاب مرتفع اما على
الفاعلية من الجار والمجرور على الابتداء والجملة خبر ان والتنوين للتفخيم اي اي عذاب
عذاب شديد لا يقادر قدره وهو وعيد جيء به اثر تقرير امر التوحيد الذاتي والوصفي
والاشارة الى ما ينطق بذلك من الكتب الالهية حملا على القبول والاذعان وزجرا عن
الكفر والعصيان والله عزيز لا يغالب يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ذو انتقام
عظيم خارج عن افراد جنسه وهو افتعال من النقمة وهي السطوة والتسلط يقال انتقم
منه اذا عاقبه بجنايته والجملة اعتراض تذييلي مقرر للوعيد ومؤكد له ان الله لا
يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء استيناف كلام سيق لبيان سعة علمه تعالى واحاطته
بجميع ما في العالم من الاشياء التي من جملتها ما صدر عنهم من الكفر والفسوق سرا وجهرا
اثر بيان كمال قدرته وعزته تربية لما قبله من الوعيد وتنبيها على ان الوقوف على
بعض المغيبات كما كان في عيسى عليه السلام بمعزل من بلوغ رتبة الصفات الالهية وانما
عبر عن علمه عز وجل بما ذكر لعدم خفائه عليه كما في قوله سبحانه وما يخفى على الله من شيء
في الارض ولا في السماء ايذانا بان علمه تعالى بمعلوماته وان كانت في اقصى الغايات الخفية ليس
من شانه ان يكون على وجه يمكن ان يقارنه شائبة خفاء بوجه من الوجوه كما في علوم
المخلوقين بل هو في غاية الوضوح والجلاء والجملة المنفية خبر لان وتكرير الاسناد لتقوية الحكم
وكلمة في متعلقة بمحذوف وقع صفة لشيء مؤكدة لعمومه المستفاد من وقوعه في سياق النفي
اي لا يخفى عليه شيء ما كائن في الارض ولا في السماء اعم من ان يكون ذلك بطريق الاستقرار فيهما
او الجزئية منهما وقيل متعلقة بيخفى وانما عبر بهما عن كل العالم لانهما قطراه وتقديم الارض
على السماء لاظهار الاعتناء بشان احوال اهلها وتوسط حرف النفي بينهما للدلالة
على الترقي من الادنى الى الاعلى باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة
الى علومنا وقوله عز وجل هو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء جملة مستانفة
ناطقة ببعض احكام قيوميته تعالى وجريان احوال الخلق في اطوار الوجود حسب مشيته
المبنية على الحكم البالغة مقررة لكمال علمه مع زيادة بيان لتعلقه بالاشياء قبل دخولها
تحت الوجود ضرورة وجوب علمه تعالى بالصور المختلفة المترتبة على التصوير المترتب على
المشية قبل تحققها بمراتب وكلمة في متعلقة بيصوركم او بمحذوف وقع حالا من ضمير المفعول
اي يصوركم وانتم في الارحام مضغ وكيف معمول ليشاء والجملة في محل النصب على الحالية
اما من فاعل يصوركم كائنا على مشيته تعالى اي مريدا او من مفعوله اي يصوركم كائنين على
مشيته تعالى تابعين لها في قبول الاحوال المتغايرة من كونكم نطفا ثم علقا ثم مضغا غير
مخلقة ثم مخلقة وفي الاتصاف بالصفات المختلفة من الذكورة والانوثة والحسن والقبح
وغير ذلك من الصفات وفيه من الدلالة على بطلان زعم من زعم ربوبية عيسى
عليه السلام وهو جملة ابناء النواسيت المتقلبين في هذه الاطوار على مشية الباري
عز وعلا وكمال ركاكة عقولهم ما لا يخفى وقرئ تصوركم على صيغة الماضي من التفعل
اي صوركم لنفسه وعبادته لا اله الا هو اذ لا يتصف بشيء مما ذكر من الشؤون العظيمة
الخاصة بالالوهية احد ليتوهم الالوهية العزيز الحكيم المتناهي في القدرة
والحكمة ولذلك يخلقكم على ما ذكر من النمط البديع هو الذي انزل عليك الكتاب شروع

في ابطال

في ابطال شبههم الناشئة عما نطق به القران في نعت عيسى عليه السلام بطريق الاستيناف اثر بيان
اختصاص الربوبية ومناطها به سبحانه وتعالى تارة بعد اخرى وكون كل من عداه مقهورا
تحت ملكوته تابعا لمشيته فيل ان وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم الست
تزعم يا محمد ان عيسى كلمة الله وروح منه قال عليه السلام بلى قالوا فحسبنا ذلك فنعى
عليهم زيغهم وفتنتهم وبين ان الكتاب مؤسس على اصول رصينة وفروع مبنية عليها
ناطقة بالحق قاضية ببطلان ما هم عليه من الضلال والمراد بالانزال القدر المشترك المجرد
عن الدلالة على قيد التدريج وعدمه ولام الكتاب للعهد وتقديم الظرف عليه لما اشير اليه فيما
قبل من الاعتناء بشان بشارته عليه السلام تشريف الانزال عليه ومن التشويق الى ما
انزل فان النفس عند تاخير ما حقه التقديم لا سيما بعد الاشعار برفعة شانه او بمنفعته
تبقى مترقبة فيتمكن لديها عند وروده عليها فضل تمكن وليتصل به تقسيمه الى قسميه
منه ايات الظرف خبر وآيات مبتدا او بالعكس بناء على ما مر تحقيقه في قوله تعالى ومن
الناس من يقول الاية والاول اوفق بقواعد الصناعة والثاني ادخل في جزالة المعنى اذ
المقصود الاصلي انقسام الكتاب الى القسمين المعهودين لا كونهما من الكتاب فتدبر
والجملة مستانفة او في حيز النصب على الحالية من الكتاب اي هو الذي انزل الكتاب كائنا
على هذه الحال منقسما الى محكم ومتشابه او الظرف هو الحال وحده وآيات مرتفع على الفاعلية
محكمات صفة ايات اي قطعية الدلالة على المعنى المراد محكمة بالعبارة محفوظة من الاحتمال
والاشتباه هن ام الكتاب اي اصل فيه وعمدة يرد اليها غيرها فالمراد بالكتاب كله
والاضافة بمعنى في كما في واحد العشرة لا بمعنى اللام فان ذلك يؤدي الى كون الكتاب عبارة عما
عدا المحكمات والجملة اما صفة لما قبلها او مستانفة وانما افرد الام مع تعدد الايات لما ان
المراد بيان اصلية كل واحدة منها او بيان ان الكل بمنزلة اية واحدة كما في قوله تعالى وجعلناها
وابنها اية للعالمين وقيل اكتفي بالمفرد عن الجمع كما في قول الشاعر بها جيف الحسرى فاما عظامها
فبيض واما جلدها فصليب اي واما جلودها واخر نعت لمحذوف معطوف على ايات
اي وآيات اخر وهي جمع اخرى وانما لم ينصرف لانه وصف معدول عن الاخر او من
اخر من متشابهات صفة لاخر وفي الحقيقة صفة لمحذوف اي محتملات لمعان متشابهة
لا يمتاز بعضها من بعض في استحقاق الارادة بها ولا يتضح الامر الا بالنظر
الدقيق والتامل الانيق فالتشابه في الحقيقة وصف لتلك المعاني وصف به الايات
على طريقة وصف الدال بوصف المدلول وقيل لما كان من شان الامور المتشابهة ان
يعجز العقل عن التمييز بينها سمي كل ما لا يهتدي اليه العقل متشابها وان لم يكن ذلك بسبب
التشابه كما ان المشكل في الاصل ما دخل في اشكاله وامثاله ولم يعلم بعينه ثم اطلق على
كل غامض وان لم يكن غموضه من تلك الجهة وانما جعل ذلك كذلك ليظهر فضل العلماء
ويزداد حرصهم على الاجتهاد في التدبر وتحصيل العلوم التي نيط بها استنباط ما اريد
بها من الاحكام الحقة فينالوا بها وباتعاب القرائح في استخراج مقاصدها الرائقة
ومعانيها اللائقة المدارج العالية ويعرجوا بالتوفيق بينها وبين المحكمات من اليقين و
الاطمئنان الى المعارج القاصية واما قوله عز وجل الر كتاب احكمت اياته فمعناه انها
حفظت من اعتراء الخلل او من النسخ او ايدت بالحجج القاطعة الدالة على حقيتها او جعلت
حكيمة لانطوائها على جلائل الحكم البالغة ودقائقها وقوله تعالى كتابا متشابها مثاني
معناه متشابه الاجزاء اي يشبه بعضها بعضا في صحة المعنى وجزالة النظم وحقيقة
المدلول فاما الذين في قلوبهم زيغ اي ميل عن الحق الى الاهواء الباطلة قال الراغب
الزيغ الميل عن الاستقامة الى احد الجانبين وفي جعل قلوبهم مقرا للزيغ مبالغة في عدولهم
عن سنن الرشاد واصرارهم على الشر والفساد فيتبعون ما تشابه منه معرضين عن
المحكمات اي يتعلقون بظاهر المتشابه من الكتاب او بتاويل باطل لا تحريا للحق بعد الايمان
بكونه من عند الله تعالى بل ابتغاء الفتنة اي طلب ان يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك
والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه كما نقل عن الوفد وابتغاء تاويله اي

وطلب ان يؤوّلوه حسبما يشتهونه من التأويلات الزائغة والحال انهم بمعزل من تلك الرتبة وذلك قوله عزّ وجلّ وما يعلم تأويله الّا الله والرّاسخون في العلم فانه حال من ضمير يتبعون باعتبار العلة الاخيرة اي يتبعون المتشابه لابتغاء تأويله والحال انه مخصوص به تعالى وبمن وفقه له من عباده الرّاسخين في العلم اي الذين ثبتوا وتمكّنوا فيه ولم يتزلزلوا في مزالّ الاقدام وفي تعليل الاتباع بابتغاء تأويله دون نفس تأويله وتجريد التأويل عن الوصف بالصحة او الحقية ايذان بانهم ليسوا من التأويل في شيء وان ما يبتغونه ليس بتأويل اصلًا لا انه تأويل غير صحيح قد يعذر صاحبه ومن وقف على الّا الله فسّر المتشابه بما استأثر الله عزّ وجلّ بعلمه كمدّة بقاء الدّنيا ووقت قيام السّاعة وخواص الاعداد كعدد الزبانية او بما دلّ القاطع على عدم ارادة ظاهره ولم يدلّ على ما هو المراد يقولون امنّا بالله اي بالمتشابه وعدم التعرّض لا يمانهم بالمحكم لظهوره او بالكتاب والجملة على الاوّل استيناف موضح لحال الرّاسخين او حال منه وعلى الثاني خبر لقوله تعالى والراسخون وقوله تعالى كلّ من عند ربنا من تمام المقول مقرّر لما قبله ومؤكّد له اى كلّ واحد منهم ومن المحكم او كلّ واحد من متشابهه ومحكمه منزل من عنده لا مخالفة بينهما او امنّا به ونحقّقه على مراده تعالى وما يذّكّر حقّ التذكّر الّا اولوا الالباب اي العقول الخالصة عن الركون الى الاهواء الزائغة وهو تذييل سيق من جهته تعالى مدحًا للرّاسخين بجودة الذّهن وحسن النظر واشارة الى ما به استعدّوا للاهتداء الى تأويله من تجرّد العقل عن غواشي الحسّ وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث انّها جواب عمّا تشبّث به النصارى من نحو قوله تعالى وكلمته القاها الى مريم وروح منه على وجه الاجمال وسيجيء الجواب المفصّل بقوله تعالى انّ مثل عيسى عند الله كمثل ادم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ربّنا لا تزغ قلوبنا من تمام مقالة الرّاسخين اي لا تزغ قلوبنا عن نهج الحقّ الى اتباع المتشابه بتأويل لا ترضيه قال صلى الله عليه وسلّم قلب ابن آدم بين اصبعين من اصابع الرحمن ان شاء اقامه على الحق وان شاء ازاغه عنه وقيل معناه لا تبتلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا بعد اذ هديتنا اي الى الحقّ والتأويل الصحيح او الى الايمان بالقسمين وبعد نصب بلا تزغ على الظرفيّة واذ في محلّ الجرّ باضافته اليه خارج من الظرفيّة اي بعد وقت هدايتك ايّانا وقيل انه بمعنى ان وهب لنا من لدنك كلا الجارّين متعلق بهب وتقديم الاوّل لما مرّ مرارًا ويجوز تعلق الثاني بمحذوف هو حال من المفعول اي كائنة من لدنك ومن لابتداء الغاية المجازيّة ولدن في الاصل ظرف بمعنى اوّل غاية زمان او مكان او غيرهما من الذوات نحو من لدن زيد وليست مرادفة لعند اذ قد يكون فضلة وكذا لدى وبعضهم يخصّها بظرف المكان وتضاف الى صريح الزمان كما في قوله تنفض المهد عنه في ظهري من لدن الظهر الى العصر ولا تقطع عن الاضافة بحال واكثر ما تضاف الى المفردات وقد تضاف الى ان وصلتها كما في قوله ولم تقطع صلاة من لدن ان وليتنا قرابة ذي رحم ولاحق مسلم اي من لدن ولايتك ايانا وقد تضاف الى الجملة الاسميّة كما في قوله تذكّر نعماه لدن انت يافع والى الجملة الفعليّة ايضًا كما في قوله لزمنا لدن سالمتمونا وفاقكم فلا يك منكم للخلاف جنوح وقلما تخلو من من كما في البيتين الاخيرين رحمة واسعة تزلفنا اليك ونفوز بها عندك او توفيقًا للثبات على الحق وتأخير المفعول الصريح عن الجارّين لما مرّ مرارًا من الاعتناء بالمقدّم والتشويق الى المؤخّر فانّ ما حقه التقديم اذا اخّر تبقى النفس مترقبة لوروده لاسيّما عند الاشعار بكونه من المنافع باللّام فاذا وردها تمكّن عندها فضل تمكّن انك انت الوهّاب تعليل للسؤال او لاعطاء المسؤول وانت امّا مبتدأ او فصل او تأكيد لاسم انّ والاطلاق الوهّاب ليتناول كلّ موهوب وفيه دلالة على انّ الهدى والضلال من قبله تعالى وانه متفضّل بما ينعم به على عباده من غير ان يجب عليه شيء ربّنا انك جامع الناس ليوم اي لحساب يوم او لجزاء يوم حذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه تهويلا له وتفظيعا لما يقع فيه لا ريب فيه اى في وقوعه ووقوع ما فيه من الحشر والحساب والجزاء ومقصودهم بهذا عرض كمال افتقارهم الى الرحمة وانها المقصد الاسنى عندهم والتأكيد لاظهار ما

هم عليه

هم عليه من كمال الطمأنينة وقوّة اليقين باحوال الآخرة انّ الله لا يخلف الميعاد تعليل لمضمون الجملة المؤكدة او لانتفاء الريب والتأكيد لما مرّ واظهار الاسم الجليل مع الالتفات لابراز كمال التعظيم والاجلال الناشئ من ذكر اليوم المهيب الهائل بخلاف ما في اخر السورة الكريمة فانه مقام طلب الانعام كما سيأتي وللاشعار بعلة الحكم فان الالوهيّة منافية للاخلاف وقد جوّز ان تكون الجملة مسوقة من جهته تعالى لتقرير قول الرّاسخين والميعاد مصدر كالميقات واستدلّ به الوعيديّة واجيب بان وعيد الفساق مشروط بعدم العفو بدلائله مفصّلة كما هو مشروط بعدم التوبة وفاقًا انّ الذين كفروا اثر ما بيّن الدين الحقّ والتوحيد وذكر احوال الكتب الناطقة به وشرح شأن القرآن العظيم وكيفيّة ايمان العلماء الرّاسخين به شرع في بيان حال من كفر به والمراد بالموصول جنس الكفرة الشامل لجميع الاصناف وقيل نصارى نجران او اليهود من قريظة والنضير او مشركوا العرب لن تغني عنهم اي لن تنفعهم وقرئ بالتذكير وبسكون الياء جدًّا في استثقال الحركة على حروف اللين اموالهم التى يبذلونها في جلب المنافع ودفع المضارّ ولا اولادهم الذين بهم يتناصرون في الاحوال المهمّة وعليهم يعوّلون في الخطوب الملمّة وتأخير الاولاد عن الاموال مع توسيط حرف النفي بينهما امّا لعراقة الاولاد في كشف الكروب او لان الاموال اوّل عدّة يفزع اليها عند نزول الخطوب من الله من عذابه تعالى شيئًا اي شيئًا من الاغناء وقيل كلمة من بمعنى البدل والمعنى بدل رحمة الله او بدل طاعته كما في قوله تعالى انّ الظنّ لا يغني من الحق شيئًا اي بدل الحق ومنه قوله ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ اي لا ينفعه جدّه بدلك اي بدل رحمتك كما في قوله تعالى وما اموالكم ولا اولادكم بالتى تقرّبكم عندنا زلفى وانت خبير بانّ احتمال سدّ اموالهم واولادهم مسدّ رحمة الله تعالى او طاعته مما لا يخطر ببال احد حتى يتصدّى لنفيه والاوّل هو الاليق بتفظيع حال الكفرة وتهويل امرهم والانسب لما بعده واولئك هم وقود النار من قوله تعالى فاخذهم الله اى اولئك المتصفون بالكفر حطب النار وحصبها الذي تسعّر به فان اريد بيان حالهم عند التسعير فايثار الجملة الاسميّة للدّلالة على تحقّق الامر وتقرّره والّا فهو للايذان بانّ حقيقة حالهم ذلك وانّ احوالهم الظاهرة بمنزلة العدم فهم حال كونهم في الدّنيا وقود النار باعيانهم وفيه من الدّلالة على كمال ملابستهم بالنار ما لا يخفى وهم يحتمل الابتداء وان يكون ضمير الفصل والجملة امّا مستأنفة مقرّرة لعدم الاغناء او معطوفة على خبر انّ وايًّا ما كان ففيه تعيين للعذاب الذي بيّن انّ اموالهم واولادهم لا تغني عنهم منه شيئًا وقرئ وقود النار بضمّ الواو وهو مصدر اى اهل وقودها كدأب آل فرعون الدأب مصدر دأب في العمل اذا كدح فيه ونقل غلب استعماله في معنى الشأن والحال والعادة ومحلّ الكاف الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف وقد جوّز النصب بلن تغني او بالوقود اي لن تغني عنهم كما لم تغن عن اولئك او توقد بهم النار كما توقد بهم وانت خبير بانّ المذكور في تفسير الدأب انما هو التعذيب والاخذ من غير تعرّض لعدم الاغناء لاسيّما على تقدير كون من بمعنى البدل كما هو رأي المجوّز ولا لايقاد النار فيحمل على التعليل وهو خلاف الظاهر على انه يلزم الفصل بين العامل والمعمول بالاجنبيّ على تقدير النصب بلن تغني وهو قوله تعالى واولئك هم وقود النار الّا ان يجعل استينافًا لا معطوفًا على خبر انّ فالوجه الرفع على الخبريّة اي دأب هؤلاء في الكفر وعدم النجاة من اخذ الله تعالى وعذابه كدأب آل فرعون والذين من قبلهم اي من قبل آل فرعون من الامم الكافرة فالموصول في محلّ الجرّ عطفًا على ما قبله وقوله تعالى كذّبوا بآياتنا بيان وتفسير لدأبهم الذي فعلوا على طريقة الاستيناف المبنيّ على السؤال كانه قيل كيف كان دأبهم فقيل كذّبوا بآياتنا وقوله تعالى فاخذهم الله تفسير لدأبهم الذي فعل بهم اى فاخذهم الله وعاقبهم ولم يجدوا من بأس الله ملاذًا فدأب هؤلاء الكفرة ايضًا كدأبهم وقيل كذّبوا الخ حال من آل فرعون والذين من قبلهم على اضمار قد اى دأب هؤلاء كدأب اولئك وقد كذّبوا الخ وامّا كونه خبرًا من الموصول كما قيل فممّا يذهب برونق النظم الكريم والالتفات الى التكلم اوّلًا للجري

على سنن الكبرياء والى الغيبة ثانيا باظهار الجلالة لتربية المهابة وادخال الروعة بذنوبهم
ان اريد بها تكذيبهم بالآيات فالباء للسببية جيء بها تاكيدا لما يفيده الفاء من سببية
ما قبلها لما بعدها وان اريد سائر ذنوبهم فالباء للملابسة جيء بها للدلالة على ان لهم
ذنوبا أخر اي فاخذهم ملتبسين بذنوبهم غير تائبين عنها كما في قوله تعالى وتزهق انفسهم
وهم كافرون والذنب في الاصل التلو والتابع وسمي الجريمة ذنبا لانها تتلو اي تتبع عقابها
فاعلها والله شديد العقاب تذييل مقرر لمضمون ما قبله من الاخذ وتكملة له
قل للذين كفروا المراد بهم اليهود لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ان يهود
المدينة لما شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين يوم بدر قالوا والله انه
النبي الامي بشرنا به موسى عليه السلام وفي التورية نعته وهموا باتباعه فقال بعضهم
لا تعجلوا حتى ننظر الى وقعة له اخرى فلما كان يوم احد شكوا وقد كان بينهم وبين رسول
الله صلى الله عليه وسلم عهد الى مدة فنقضوه وانطلق كعب بن الاشرف في ستين راكبا
الى اهل مكة فاجمعوا امرهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وعن سعيد
بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم لما اصاب قريشا ببدر
ورجع الى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع فحذرهم ان ينزل بهم ما نزل بقريش
فقالوا لا يغرنك انك لقيت قوما اغمارا لا علم لهم بالحرب فاصبت منهم فرصة لئن قاتلتنا
لعلمت انا نحن الناس فنزلت اي قل لهم ستغلبون البتة عن قريب في الدنيا وقد
صدق الله عز وجل بقتل قريظة واجلاء بني النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على من
عداهم وهو من اوضح شواهد النبوة واما ما روي عن مقاتل من انها نزلت قبل بدر
وان الموصول عبارة عن مشركي مكة ولذلك قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم
بدر ان الله غالبكم وحاشركم الى جهنم وبئس المهاد فيؤدي الى انقطاع الآية الكريمة
عما بعدها لنزوله بعد وقعة بدر وتحشرون اي في الآخرة الى جهنم وقرئ الفعلان
بالياء على انه امر بان يحكي لهم ما اخبر الله تعالى به من وعيدهم بعبارته كانهم قيل ادّ اليهم
هذا القول وبئس المهاد اما من تمام ما يقال لهم او استيناف لتهويل جهنم وتفظيع
حال اهلها والمخصوص بالذم محذوف اي وبئس المهاد او ما مهدوه لانفسهم قد كان
لكم جواب قسم محذوف وهو من تمام القول المأمور به جيء به لتقرير مضمون ما قبله و
تحقيقه والخطاب لليهود ايضا والظرف خبر كان على انها ناقصة ولتوسطه بينها وبين
اسمها ترك التانيث كما في قوله ان امرأ غره منكن واحدة بعدي وبعدك في الدنيا
لمغرور وعلى ان التانيث ههنا غير حقيقي او هو متعلق بكان على انها تامة وانما قدم على
فاعلها لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق الى ما أخر اي والله قد كان لكم
ايها المغترون بعددهم وعددهم آية عظيمة دالة على صدق ما اقول لكم انكم
ستغلبون في فئتين اي فرقتين او جماعتين فان المغلوبة منهما مدلة بكثرتها
معجبة بعزتها وقد لقيها ما لقيها فيصيبكم ومحل الظرف الرفع على انه صفة لآية وقيل
النصب على خبرية كان والاول متعلق بمحذوف وقع حالا من آية التقتا في حيز الجر
على انه صفة فئتين اي تلاقتا بالقتال يوم بدر فئة بالرفع خبر مبتدأ محذوف
اي احديهما فئة كما في قوله اذا مت كان الناس حزبين شامت وآخر مثن بالذي كنت
اصنع اي احدهما شامت وآخر مثن وقوله حتى اذا ما استقل النجم في غلس وغودر البقل ملوي
ومحصود والجملة مع ما عطف عليها مستانفة لتقرير ما في الفئتين من الآية وقوله تعالى
تقاتل في سبيل الله في محل الرفع على انه صفة فئة كانه قيل فئة مؤمنة ولكن
ذكر مكانه من احكام الايمان ما يليق بالمقام مدحا لهم واعتدادا بقتالهم وايذانا بانه
المدار في تحقق الآية وهي رؤية القليل كثيرا وقرئ يقاتل على تأويل الفئة بالقوم او الفريق
واخرى نعت لمبتدأ محذوف معطوف على ما حذف من الجملة الاولى اي فئة اخرى
وانما نكرت والقياس تعريفها كقرينتها لوضوح ان التفريق لنفس المثنى المقدم
ذكره وعدم الحاجة الى التعريف وقوله تعالى كافرة خبر لمبتدأ محذوف وانما لم توصف

هذه الفئة

هذه الفئة بما يقابل صفة الفئة الاولى اسقاطا لقتالهم عن درجة الاعتبار وايذانا
بانهم لم يتصدوا للقتال لما اعتراهم من الرعب والهيبة وقيل كل من المتعاطفين بدل من
الضمير في التقتا وما بعدهما صفة فلا بد من ضمير محذوف عائد الى المبدل منه مسوغ لوصف
البدل بالجملة العارية عن ضمير اي فئة منهما تقاتل الخ وفئة اخرى كافرة ويجوز ان يكون
كل منهما مبتدأ وما بعدهما خبرا اي فئة منهما تقاتل الخ وفئة اخرى كافرة وقيل
كل منهما مبتدأ محذوف الخبر اي منهما فئة تقاتل الخ وقرئ فئة بالجر على البدلية من
فئتين بدل بعض من كل وقد مر انه لا بد من ضمير عائد الى المبدل منه ويسمى بدل التفصيل
كما في قول كثير وكنت كذي رجلين رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت وقرئ
فئة الخ بالنصب على المدح والذم او على الحالية من ضمير التقتا كانه قيل التقتا مؤمنة و
كافرة فيكون فئة واخرى توطئة لما هو الحال حقيقة اذ المقصود بالذكر وصفاهما كما في
قولك جاءني زيد رجلا صالحا يرونهم اي يرى الفئة الاخيرة الفئة الاولى وايثار
صيغة الجمع للدلالة على شمول الرؤية لكل واحد من آحاد الفئة والجملة في محل الرفع
على انه صفة للفئة الاخيرة او مستانفة مبينة لكيفية الآية مثليهم اي مثلي
عدد الرائين قريبا من الفين اذ كانوا قريبا من الف كانوا تسعمائة وخمسين بعيرا ومن
اصناف الاسلحة عدد لا يحصى عن محمد بن ابي الفرات عن سعد بن اوس انه قال اسر المشركون
رجلا من المسلمين فسألوه كم كنتم قال ثلثمائة وبضعة عشر قالوا ما كنا نراكم الا تضعفون
علينا او مثلي عدد المرئيين اي ستمائة ونيفا وعشرين حيث كانوا ثلثمائة وثلثة عشر
رجلا سبعة وسبعون رجلا من المهاجرين ومائتان وستة وثلثون من الانصار رضوان
الله تعالى عليهم اجمعين وكان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرين
علي بن ابي طالب رضي الله عنه وصاحب راية الانصار سعد بن عبادة الخزرجي رضي
الله عنه وكان في العسكر سبعون بعيرا وفرسان احدهما للمقداد بن عمرو والآخر
لمرثد بن ابي مرثد وست ادرع وثمانية سيوف وجميع من استشهد يومئذ من
المسلمين اربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين وثمانية من الانصار رضوان الله تعالى عليهم
اجمعين اراهم الله عز وجل كذلك مع قلتهم ليهابوهم ويجتنبوا عن قتالهم مددا
لهم منه سبحانه كما امدهم بالملائكة عليهم السلام وكان ذلك عند التقاء الفئتين
بعد ان قللهم في اعينهم عند ترائيهما ليجترؤا عليهم ولا يهربوا من اول الامر حين يجيئهم
الهرب وقيل يرى الفئة الاولى الفئة الاخيرة مثلي انفسهم مع كونهم ثلثة امثالهم
ليثبتوا ويطمئنوا بالنصر الموعود في قوله تعالى ان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين والاول
هو الاولى لان رؤية المثلين غير متعينة من جانب المؤمنين بل حقه رؤية المثل بل اقل منه ايضا
فانه روي ان ابن مسعود رضي الله عنه قال قد نظرنا الى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا
اليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا ثم قللهم الله ايضا في اعينهم حتى
رأوهم عددا يسيرا اقل من انفسهم قال ابن مسعود رضي الله عنه لقد قللوا في اعيننا يوم بدر حتى
قلت لرجل الى جنبي تراهم سبعين قال اراهم مائة فاسرنا منهم رجلا فقلنا كم كنتم
قال الفا فلو اريد رؤية المؤمنين المشركين اقل من عددهم في نفس الامر كما في سورة الانفال
لكانت رؤيتهم اياهم اقل من انفسهم احق بالذكر في كونها آية من رؤيتهم مثليهم
على ان ابانة آثار قدرة الله تعالى وحكمته للكفرة باراءة القليل كثيرا والضعيف قويا
والقاء الرعب في قلوبهم بسبب ذلك ادخل في كونها آية لهم وحجة عليهم واقرب
الى اعتراف المخاطبين بذلك لكثرة مخالطتهم الكفرة المشاهدين للحال وكذا تعلق الفعل
بالفاعل اشد من تعلقه بالمفعول فجعل اقرب المذكورين السابقين فاعلا وابعدهما
مفعولا سواء جعل الجملة صفة او مستانفة اولى من العكس هذا ما يقتضيه جزالة
التنزيل على قراءة الجمهور ولا يسوغ جعل الخطاب لمشركي مكة كما قيل اما ان جعل الوعيد
عبارة عن هزيمة بدر كما صرحوا به فظاهر لاستقرار به واما ان جعل عبارة عن هزيمة اخرى
فلان الفئة التي شاهدت تلك الآية الهائلة هم المخاطبون فالتعبير عنهم بفئة مبهمة تارة

وموصوفة اخرى ثم اسناد المشاهدة اليهم مع كون اسنادها الى المخاطبين اوقع في الزام الحجة واشد في التبكيت مما لا داعي اليه وبهذا يتبين حال جعل الخطاب الثاني للمؤمنين واما قراءة ترونهم بتاء الخطاب فظاهرها وان اقتضى توجيه الخطاب الثاني الى المشركين لكنه ليس بنص في ذلك لانه وان اندفع به المحذور الاخير فالاول باق بحاله فلعل رؤية المشركين نزلت منزلة رؤية اليهود لما بينهم من الاتحاد في الكفر والاتفاق في الكلمة لاسيما بعد ما وقع بينهم بواسطة كعب بن الاشرف من العهد والميثاق فاسندت الرؤية اليهم مبالغة في البيان وتحقيقا لعروض مثل تلك الحالة لهم فتدبروا وقيل المراد جميع الكفرة ولا ريب في صحته وسداده وقرئ يرونهم وترونهم على البناء للمفعول من الاراءة اي يريهم او يريكهم الله تعالى رأي العين مصدر مؤكد ليرونهم ان كان الرؤية بصرية او مصدر تشبيهي ان كانت قلبية اي رؤية ظاهرة مكشوفة جارية مجرى رؤية العين والله يؤيد اي يقوي بنصره من يشاء اي يؤيده من غير توسيط الاسباب العادية كما ايد الفئة المقاتلة في سبيله بما ذكر من النصر وهو من تمام القول المأمور ان في ذلك اشارة الى ما ذكر من رؤية القليل كثيرا المستتبعة لغلبة القليل العديم العدة على الكثير الشاكي السلاح وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه في الفضل لعبرة العبرة فعلة من العبور كالركبة من الركوب والجلسة من الجلوس والمراد بها الاتعاظ فانه نوع من العبور اي لعبرة عظيمة لاولي الابصار لذوي العقول والبصائر وقيل لمن ابصرهم وهي اما من تمام الكلام الداخل تحت القول مقرر لما قبله بطريق التذييل واما وارد من جهته تعالى تصديقا لمقالته صلى الله عليه وسلم زين للناس كلام مستأنف سيق لبيان حقارة شان الحظوظ الدنيوية باصنافها وتزهيد الناس فيها وتوجيه رغباتهم الى ما عنده تعالى اثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها والمراد بالناس الجنس حب الشهوات الشهوة نزوع النفس الى ما تريده والمراد ههنا المشتهيات عبر عنها بالشهوات مبالغة في كونها مشتهاة مرغوبا فيها كانها نفس الشهوات او ايذانا بانهماكهم في حبها بحيث احبوا شهواتها كما في قوله تعالى اني احببت حب الخير واسترذالها فان الشهوة مسترذلة مذمومة من صفات البهائم والمزين هو الباري سبحانه وتعالى اذ هو الخالق لجميع الافعال والدواعي والحكمة في ذلك ابتلاؤهم قال تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم الاية فانها ذريعة لنيل سعادة الدارين عند كون تعاطيها على نهج الشريعة الشريفة ووسيلة الى بقاء النوع وايثار الصيغة المبني للمفعول للجري على سنن الكبرياء وقرئ على البناء للفاعل وقيل المزين هو الشيطان لما ان مساق الاية الكريمة على ذمها وفرق الجبائي بين المباحات واسند تزيينها اليه تعالى وبين المحرمات فنسب تزيينها الى الشيطان من النساء والبنين في محل النصب على انه حال من الشهوات وهي مفسرة لها في المعنى وقيل من لبيان الجنس وتقديم النساء على البنين لعراقتهن في معنى الشهوة فانهن حبائل الشيطان وعدم التعرض للبنات لعدم الاطراد في حبهن والقناطير المقنطرة جمع قنطار وهو المال الكثير وقيل مائة الف دينار وقيل ملء مسك ثور وقيل سبعون الفا وقيل اربعون الف مثقال وقيل ثمانون الفا وقيل مائة رطل وقيل الف ومائتا مثقال وقيل الف دينار وقيل مائة من ومائة رطل ومائة مثقال ومائة درهم وقيل دية النفس واختلف في ان وزنه فعلال او فنعال ولفظ المقنطرة مأخوذ منه للتاكيد كقولهم بدرة مبدرة وقيل المقنطرة المحكمة المحصنة وقيل الكثيرة المنضدة بعضها على بعض او المدفونة وقيل المضروبة المنقوشة من الذهب والفضة بيان للقناطير او حال والخيل عطف على القناطير قيل هو جمع لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط والواحد فرس وقيل واحده خائل وهو مشتق من الخيلاء المسومة المعلمة وهي من العلامة او المرعية من اسام الدابة و

سومها

سوّمها اذا ارسلها وسيبها للرعي والمهيئة التامة الخلق والانعام اي الابل والبقر والغنم والحرث اي الزرع مصدر بمعنى المفعول ذلك اي ما ذكر من الاشياء المعهودة متاع الحيوة الدنيا اي ما يتمتع به في الحيوة الدنيا اياما قلائل سريعا انقضى سريعا والله عنده حسن المآب حسن المرجع وفيه دلالة على ان ليس فيما عدد عاقبة حميدة وفي تكرير الاسناد وجعل الجلالة مبتدأ واسناد الجملة الظرفية اليه زيادة تاكيد وتفخيم ومزيد اعتناء بالترغيب فيما عند الله عز وجل من النعيم المقيم والتزهيد في ملاذ الدنيا وذكر ما عنده تعالى من المآب اجمالا امر النبي صلى الله عليه وسلم بتفصيل ذلك المجمل للناس مبالغة في الترغيب فقال والخطاب للجميع والهمزة للتقرير اي اخبركم بما هو خير مما فصل من تلك المستلذات المزينة لكم وابهام الخير للتفخيم بشانه والتشويق اليه وقوله تعالى للذين اتقوا عند ربهم جنات استئناف مبين لذلك المبهم على ان جنات مبتدأ والجار خبره او على ان جنات مرتفع به على الفاعلية عند من لا يشترط في ذلك اعتماد الجار كما فصل في محله والمراد بالتقوى هو التبتل الى الله تعالى والاعراض عما سواه على ما ينبئ عنه النعوت الاتية وتعليق حصول الجنات وما بعدها من فنون الخيرات به للترغيب في تحصيله والثبات عليه وعند نصب على الحالية من جنات او متعلق بما تعلق به الجار من معنى الاستقرار مفيد لكمال علو رتبة الجنات وسمو طبقتها والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير المتقين لاظهار مزيد اللطف بهم وقيل اللام متعلقة بخير وكذا الظرف وجنات خبر لمبتدأ محذوف والجملة مبينة لخير وكذا يؤيده قراءة جنات بالجر على البدلية من خير ولا يخفى ان تعليق الاخبار والبيان بما هو خير لطائفة ربما يوهم ان هناك خيرا آخر لآخرين تجري في محل الرفع او الجر صفة لجنات على حسب القراءتين من تحتها الانهار متعلق بتجري فان اريد بالجنات نفس الاشجار كما هو الظاهر فجريانها من تحتها ظاهر وان اريد بها مجموع الارض والاشجار فهو باعتبار جزئها الظاهر كما مر تفصيله مرارا خالدين فيها حال مقدرة من المستكن في للذين والعامل ما فيه من معنى الاستقرار وازواج مطهرة عطف على جنات اي مبرأة مما يستقذر من النساء من الاحوال البدنية والطبعية ورضوان التنوين للتفخيم وقوله تعالى من الله متعلق بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما افاده التنوين من الفخامة اي رضوان واي رضوان لا يقادر قدره كائن من الله عز وجل وقرئ بضم الراء والله بصير بالعباد وباعمالهم فيثيب ويعاقب حسبما يليق بها او بصير باحوال الذين اتقوا فلذلك اعد لهم ما ذكر وفيه اشعار بانهم المستحقون للتسمية باسم العبد الذين يقولون ربنا اننا آمنا في محل الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف كانه قيل من اولئك المتقون الفائزون بهذه الكرامات السنية فقيل هم الذين الخ او النصب على المدح او الجر على انه تابع للمتقين نعتا او بدلا او للعباد كذلك والاول اظهر وقوله تعالى والله بصير بالعباد حينئذ معترضة وتاكيد الجملة لاظهار ان ايمانهم ناشئ من وفور الرغبة وكمال النشاط وفي ترتيب الدعاء بقولهم فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار على مجرد الايمان دلالة على كفايته في استحقاق المغفرة والوقاية من النار الصابرين هو على تقدير كون الموصول في محل الرفع منصوب على المدح باضمار اعني واما على تقدير كونه في محل النصب والجر فهو نعت له والمراد بالصبر الصبر على مشاق الطاعات وعلى البأساء والضراء وحين البأس والصادقين في اقوالهم ونياتهم وعزائمهم والقانتين المداومين على الطاعات المواظبين على العبادات والمنفقين اموالهم في سبيل الله والمستغفرين بالاسحار قال مجاهد وقتادة والكلبي اي المصلين بالاسحار وعن زيد بن اسلم هم الذين يصلون الصبح في جماعة وقال الحسن مدوا الصلوة الى السحر ثم استغفروا وقال نافع كان ابن عمر رضي الله عنه يحيي الليلة ثم يقول يا نافع اسحرنا فاقول لا فيعاود الصلوة فاذا قلت نعم قعد يستغفر الله ويدعو حتى يصبح وعن الحسن كانوا يصلون في اول الليل حتى اذا كان السحر اخذوا في الدعاء والاستغفار وتخصيص الاسحار بالاستغفار لان الدعاء فيها اقرب الى الاجابة اذ العبادة اشق والنفس اصفى والروح اجمع لاسيما

للمتعددين وتوسيط الواو بين الصفات المعدودة للدلالة على استقلال كل منها وكمالهم فيها او لتغاير الموصوفين بها شهد الله انه بفتح الهمزة اي بانه او على انه لا اله
الا هو اي بين وحدانيته بنصب الدلائل التكوينية في الافاق والانفس وانزال الآيات التشريعية الناطقة بذلك عبر عنه بالشهادة على طريقة الاستعارة ايذانا بقوته
في اثبات المطلوب واشعارا بانكار المنكر وقرئ انه بكسر الهمزة اما باجراء شهد مجرى قال واما بجعل الجملة اعتراضا وايقاع الفعل على قوله تعالى ان الدين الخ على قراءة ان بفتح الهمزة
كما سيأتي وقرئ شهداء الله بالنصب على انه حال من المذكورين او على المدح وبالرفع على انه خبر مبتداء محذوف ومآله الرفع على المدح اي هم شهداء الله وهو اما جمع شهيد
كظرفاء جمع ظريف او جمع شاهد كشعراء في جمع شاعر والملائكة عطف على الاسم الجليل بحمل الشهادة على معنى مجازي شامل للاقرار والايمان بطريق عموم المجاز اي اقروا بذلك
واولوا العلم اي استدلوا واحتجوا بما ذكر من الادلة التكوينية والتشريعية قيل المراد بهم الانبياء عليهم السلام وقيل المهاجرون والانصار وقيل علماء مؤمني اهل
الكتاب كعبد الله بن سلام واضرابه وقيل جميع علماء المؤمنين الذين عرفوا وحدانيته تعالى بالدلائل القاطعة وارتفاعهما على القراءتين الاخيرين قيل بالعطف على الضمير في شهداء
لوقوع الفصل بينهما وانت خبير بان ذلك على قراءة النصب على الحالية يؤدي الى تقييد حال المذكورين بشهادة الملائكة واولي العلم وليس فيه كثير جدوى فالوجه كون ارتفاعهما
بالابتداء والخبر محذوف لدلالة الكلام عليه اي والملائكة واولوا العلم شهداء بذلك ولك ان تحمل القراءتين على المدح نصبا ورفعا لحسن العطف في المستتر على كل
حال وقوله تعالى قائما بالقسط اي مقيما للعدل في جميع اموره بيان لكماله تعالى في افعاله اثر بيان كماله في ذاته وانتصابه على الحالية من الله تعالى وهو الحق مصدقا
وانما جاز افراده مع عدم جواز زيد عمرو راكبا للتبس كقوله تعالى ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة ولعل تاخيره عن المعطوفين للدلالة على علو رتبتهما وقرب منزلتهما
والمسارعة لاقامة شهود التوحيد اعتناء بشانه ورفعا لمحله وهو السر في تقديمه على المعطوفين مع ما فيه من الايذان باصالته تعالى في الشهادة به كما
مر في قوله تعالى امن الرسول بما انزل اليه من ربه او من هو وهو الاوجه والعامل فيها معنى الجملة اي تفرد واحقه لانها مؤكدة او على المدح وقيل على انه
صفة للمنفي اي لا اله قائما الخ والفصل بينهما من قبيل توسعاتهم وهو مندرج في المشهود به اذا جعل صفة او حالا من الضمير او نصبا على المدح منه وقرئ
القائم بالقسط على البدلية من هو فيلزم الفصل بينهما كما في الصفة او على انه خبر لمبتداء محذوف وقرئ قيما بالقسط لا اله الا هو تكرير للتاكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة
ادلة التوحيد والحكم به بعد اقامة الحجة وليجري عليه قوله تعالى العزيز الحكيم فيعلم ان المنعوت بهما ووجه الترتيب تقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته
تعالى ورفعهما على البدلية من الضمير او الوصفية لفاعل شهد او الخبرية لمبتداء مضمر وقد روي في فضلها انه عليه السلام قال يجاء بصاحبها يوم القيمة فيقول
الله عز وجل ان لعبدي هذا عندي عهدا وانا احق من وفى بالعهد ادخلوا عبدي الجنة وهو دليل على فضل علم اصول الدين وشرف اهله وروي عن سعيد بن جبير
كان حول البيت ثلثمائة وستون صنما فلما نزلت هذه الآية الكريمة خررن سجدا وقيل نزلت في نصارى نجران وقال الكلبي قدم على النبي صلى الله عليه وسلم حبران من احبار
الشام فلما ابصرا المدينة قال احدهما ما اشبه هذه المدينة بمدينة النبي الذي يخرج في اخر الزمان فلما دخلا عليه عرفاه بالصفة فقالا له عليه السلام انت محمد قال عليه السلام
نعم قالا وانت احمد قال عليه السلام نعم انا محمد واحمد قالا فانا نسألك عن شيء فان اخبرتنا به آمنا بك وصدقناك فقال عليه السلام سلا فقالا اخبرنا عن اعظم الشهادة
في كتاب الله تعالى فانزل الله هذه الآية فاسلم الرجلان ان الدين عند الله الاسلام

جملة

جملة مؤكدة مستأنفة للاولى اي لا دين مرضيا لله تعالى سوى الاسلام الذي هو التوحيد والتدرع بالشريعة الشريفة وعن قتادة انه شهادة ان لا اله الا الله والاقرار بما جاء من
عند الله تعالى وقرئ ان الدين الخ على انه بدل من انه بدل الكل ان فسر الاسلام بالايمان او بما يتضمنه وبدل الاشتمال ان فسر بالشريعة او على ان شهد واقع عليه على تقدير قراءة
انه بالكسر كما اشير اليه وما اختلف الذين اوتوا الكتاب نزلت في اليهود والنصارى حين تركوا الاسلام الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وانكروا نبوته والتعبير عنهم
بالموصول وجعل ايتاء الكتاب صلة له لزيادة تقبيح حالهم فان الاختلاف ممن اوتي ما يزيله ويقطع شأفته في غاية القبح والسماجة وقوله عز وجل الا من بعد ما جاءهم العلم
استثناء مفرغ من اعم الاحوال او اعم الاوقات اي وما اختلفوا في حال من الاحوال او في وقت من الاوقات الا بعد ان علموا بانه الحق الذي لا محيد عنه او بعد ان علموا
حقيقة الامر وتمكنوا من العلم بها بالحجج النيرة والآيات الباهرة وفيه من الدلالة على ترامي حالهم في الضلالة ما لا مزيد عليه فان الاختلاف بعد حصول تلك المرتبة
مما لا يصدر عن العاقل وقوله تعالى بغيا بينهم اي حسدا كائنا بينهم وطلبا للرياسة لا لشبهة وخفاء في الامر تشنيع اثر تشنيع ومن يكفر بآيات الله اي باياته الناطقة
بما ذكر من ان الدين عند الله هو الاسلام ولم يعمل بمقتضاها او باية اية كانت من اياته تعالى على ان يدخل فيها ما نحن فيه دخولا اوليا فان الله سريع الحساب قائم
مقام جواب الشرط علة له اي ومن يكفر باياته فانه تعالى يجازيه ويعاقبه عن قريب فانه سريع الحساب اي يأتي حسابه عن قريب او يتم ذلك بسرعة واظهار الجلالة
لتربية المهابة وادخال الروعة وفي ترتيب العقاب على مطلق الكفر باياته تعالى من غير تعرض لخصوصية حالهم من كون كفرهم بعد ايتاء الكتاب وحصول الاطلاع على ما فيه
وكون ذلك للبغي دلالة على كمال شدة عقابهم فان حاجوك اي في كون الدين عند الله الاسلام او جادلوك فيه بعد ما اقمت عليهم الحجج فقل اسلمت وجهي اي اخلصت
نفسي وقلبي وجملتي وانما عبر عنها بالوجه لانه اشرف الاعضاء الظاهرة ومظهر القوى والمشاعر ومجمع معظم ما يقع به العبادة من السجود والقراءة وبه يحصل التوجه
الى كل شيء لله لا اشرك به فيها غيره والدين القويم الذي قامت عليه الحجج ودعت اليه الآيات والرسل عليهم السلام ومن اتبعن عطف على المتصل في اسلمت وحسن
ذلك لمكان الفصل الجاري مجرى التاكيد بالمنفصل اي واسلم من اتبعني او مفعول معه وقل للذين اوتوا الكتاب اي من اليهود والنصارى وضع الموصول
موضع الضمير لرعاية التقابل بين وصفي المتعاطفين والاميين اي الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب أاسلمتم متبعين لي كما فعل المؤمنون فانه قد اتاكم من
البينات ما يوجبه ويقتضيه لا محالة فهل اسلمتم وعملتم بقضيتها او انتم على كفركم بعد كما يقول من لخص لصاحبه المسئلة ولم يدع من طرق التوضيح والبيان مسلكا الا سلكه فهل
فهمتها على منهاج قوله تعالى فهل انتم منتهون اثر تفصيل الصوارف عن تعاطي الخمر والميسر وفيه من استقصارهم وتعييرهم بالمعاندة وقلة الانصاف وتوبيخهم بالبلادة وكلة
القريحة ما لا يخفى فان اسلموا اي كما اسلمتم وانما لم يصرح به كما في قوله تعالى فان امنوا بمثل ما آمنتم به خفاء لباب اطلاق اسم الاسلام على شيء آخر بالكلية فقد اهتدوا
اي فازوا بالحظ الاوفر ونجوا عن مهاوي الضلال فان تولوا اي اعرضوا عن الاتباع وقبول الاسلام فانما عليك البلاغ قائم مقام الجواب اي لم يضروك شيئا اذ ما
عليك الا البلاغ وقد فعلت على ابلغ وجه روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية على اهل الكتاب قالوا اسلمنا فقال صلى الله عليه وسلم لليهود أتشهدون
ان عيسى كلمة الله وعبده ورسوله فقالوا معاذ الله وقال عليه السلام للنصارى أتشهدون ان عيسى عبد الله ورسوله فقالوا معاذ الله ان يكون عيسى عبدا وذلك قوله عز وجل
وان تولوا والله بصير بالعباد عالم بجميع احوالهم وهو تذييل فيه وعد ووعيد

ان الذين يكفرون بايات الله اي آية كانت فيدخل فيهم الكافرون بالايات الناطقة بحقية
الاسلام على الوجه الذي مر تفصيله دخولا اوليا ويقتلون النبيين بغير حق هم
اهل الكتاب قتل اوائلهم الانبياء عليهم السلام وقتلوا اتباعهم وهم راضون بما
فعلوا وكانوا قاتلهم الله تعالى حائمين حول قتل النبي عليه السلام لولا ان عصمه الله عز و
جل بساحته المنيعة وقد اشير اليه بصيغة الاستقبال وقرئ بالتشديد للتكثير والتقييد
بغير حق للايذان بانه كان عندهم ايضا بغير حق ويقتلون الذين يامرون بالقسط
من الناس اي بالعدل ولعل تكرير الفعل للاشعار بما بين القتلين من التفاوت او باختلافهما
في الوقت عن ابي عبيدة بن الجراح قلت يا رسول الله اي الناس اشد عذابا يوم القيمة
قال رجل قتل نبيا او رجلا امر بمعروف ونهى عن منكر ثم قراها ثم قال يا ابا عبيدة قتلت
بنو اسرائل ثلثة واربعين نبيا من اول النهار في ساعة واحدة فقام مائة واثنى عشر
رجلا من عباد بني اسرائل فامروا قاتليهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا من آخر
النهار وقرئ ويقاتلون الذين فبشرهم بعذاب اليم خبران والفاء لتضمن اسمها
معنى الشرط فانها بالنسخ لا تغير معنى الابتداء بل تزيده تاكيدا وكذا الحال في ان المفتوحة
كما في قوله تعالى واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وكذا النسخ بلكن كما في
قوله فوالله ما فارقتكم عن ملالة ولكن ما يقضى فسوف يكون وانما يتغير معنى الابتداء
في النسخ بليت ولعل وقد ذهب سيبويه والاخفش الى منع دخول الفاء عند النسخ مطلقا
فالخبر عندهما قوله تعالى اولئك الذين حبطت اعمالهم في الدنيا والاخرة كما في قولك
الشيطان احذره عدو مبين وعلى الاول هو استيناف واسم الاشارة مبتداء وما
فيه من معنى البعد للدلالة على ترامي امرهم في الضلال وبعد منزلتهم في فظاعة الحال
والموصول مع ما في حيز صلته خبره اي اولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة
او المبتلون باسوء الحال الذين بطلت اعمالهم التي عملوها من البر والحسنات
ولم يبق اثر في الدارين بل بقي لهم اللعنة والخزي في الدنيا وعذاب اليم في الاخرة
وما لهم من ناصرين ينصرونهم من باس الله وعذابه في احدى
الدارين وصيغة الجمع لرعاية ما وقع في مقابلته لا لنفي تعدد الانصار
من كل واحد منهم كما في قوله تعالى وما للظالمين من انصار الم تر تعجيب
لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل من يتاتى منه الرؤية من حال اهل
الكتاب وسوء صنيعهم وتقرير لما سبق من ان اختلافهم في الاسلام انما كان
بعد ما جاءهم العلم بحقيته الم تنظر الى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب اي
التورية على ان اللام للعهد وحمله على جنس الكتب الالهية تطويل للمسافة اذ
تمام التقريب ح يكون التورية من جملتها لان مدار التشنيع والتعجيب انما هو اعراضهم
من المحاكمة الى ما دعوا اليه وهم لم يدعوا الا الى التورية والمراد بما اوتوه منها
ما بين لهم فيها من العلوم والاحكام التي من جملتها ما علموه من نعوت النبي
صلى الله عليه وسلم وحقية الاسلام والتعبير عنه بالنصيب للاشعار بكمال اختصاصه
بهم وكونه حقا من حقوقهم التي يجب مراعاتها والعمل بموجبه وما فيه
من التنكير للتفخيم وحمله على التحقير لا يساعده مقام المبالغة في تقبيح حالهم يدعون
الى كتاب الله الذي اوتوا نصيبا منه وهو التورية والاظهار في مقام الاضمار
لايجاب الاجابة واضافته الى الاسم الجليل لتشريفه وتاكيد وجوب المراجعة اليه
والجملة استيناف مبين لمحل التعجب مبني على سؤال نشا من صدر الكلام كانه قيل
ماذا يصنعون حتى ينظر اليهم فقيل يدعون الى كتاب الله تعالى وقيل حال من
الموصول ليحكم بينهم وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مدارسهم فدعاهم
الى الايمان فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد على اي دين انت قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم على ملة ابراهيم قالا ان ابراهيم كان يهوديا قال عليه السلام لهما ان
بيننا وبينكم التورية فهلموا اليها فابيا وقيل نزلت في الرجم وقد اختلفوا فيه وقيل كتاب

الله القرآن فانهم قد علموا انه كتاب الله لم يشكوا فيه وقرئ ليحكم على بناء المجهول فيكون
الاختلاف بينهم بان بعضهم كعبد الله بن سلام واضرابه وعاداهم الاخرون ثم
يتولى فريق منهم استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع اليه وهم معرضون
اما حال من فريق لتخصصه بالصفة اي يتولون من المجلس وهم معرضون بقلوبهم او
اعتراض اي وهم قوم ديدنهم الاعراض عن الحق والاصرار على الباطل ذلك اشارة الى
ما مر من التولي والاعراض وهو مبتداء خبره قوله تعالى بانهم اي حاصل بسبب انهم
قالوا لن تمسنا النار باقتراف الذنوب وركوب المعاصي الا اياما معدودات وهي
مقدار عبادتهم العجل ورسخ اعتقادهم على ذلك وهون عليهم الخطوب وغرهم
في دينهم ما كانوا يفترون من قولهم ذلك وما اشبهه من قولهم ان
اباءنا الانبياء عليهم السلام يشفعون لنا او ان الله تعالى وعد يعقوب عليه السلام ان
لا يعذب اولاده الا تحلة القسم فلذلك ارتكبوا ما ارتكبوا من القبائح فكيف رد
لقولهم المذكور وابطال لما غرهم باستعظام ما سيدهمهم وتهويل ما سيحيق بهم من الاهوال
اي فكيف يكون حالهم اذا جمعناهم ليوم اي لجزاء يوم لا ريب فيه اي في
وقوعه ووقوع ما فيه روي ان اول راية ترفع يوم القيمة من رايات الكفر راية اليهود
فيفضحهم الله عز وجل على رؤس الاشهاد ثم يامر بهم الى النار ووفيت كل نفس
ما كسبت اي جزاء ما كسبت من غير نقص اصلا كما يزعمون وانما وضع المكسوب
موضع جزائه للايذان بكمال التلازم بينهما كانهما شيء واحد وفيه دلالة على ان العبادة
لا تحبط وان المؤمن لا يخلد في النار لان توفية جزاء ايمانه وعمله لا يكون في النار ولا قبل
دخولها فاذن هي بعد الخلاص منها وهم اي كل الناس المدلول عليهم بكل نفس لا يظلمون
بزيادة عذاب او بنقص ثواب بل يصيب لدخوله عليه مع حرف التعريف وقطع همزته ودخول
قل اللهم الميم عوض من يا ولذلك لا يجتمعان وهذه من خصائص هذا الاسم
تاء القسم عليه وقيل اصله يا الله امنا بخير اي اقصدنا به فخفف بحذف حرف النداء و
متعلقات الفعل وهمزته مالك الملك اي مالك جنس الملك على الاطلاق حقيقة
تتصرف فيه كيفما تشاء ايجادا واعداما واحياء واماتة وتعذيبا واثابة من غير
مشارك ولا ممانع وهو نداء ثان عند سيبويه فان الميم عنده تمنع الوصفية تؤتي
الملك بيان لبعض وجوه التصرف الذي يستدعيه مالكية الملك وتحقيق لاختصاصها
به تعالى حقيقة وكون مالكية غيره بطريق المجاز كما ينبئ عنه ايثار الايتاء الذي هو مجرد الاعطاء
على التمليك المؤذن بثبوت المالكية حقيقة من تشاء اي ايتاءه اياه وتنزع الملك
ممن تشاء اي نزعه منه فالملك الاول حقيقي عام ومملوكية حقيقية والاخران مجازيان
خاصان ونسبتهما الى صاحبهما مجازية وقيل الملك الاول عام والاخران بعضان
منه فتامل وقيل المراد بالملك النبوة ونزعها نقلها من قوم الى آخرين وتعز من
تشاء ان تعزه في الدنيا او في الاخرة او فيهما بالنصر والتوفيق وتذل من تشاء
تذله في احديهما او فيهما من غير ممانعة من الغير ولا مدافعة بيدك الخير تعريف الخير
للتعميم وتقديم الخبر للتخصيص اي بقدرتك الخير كله لا بقدرة احد من غيرك تتصرف
فيه قبضا وبسطا حسبما تقتضيه مشيتك وتخصيص الخير بالذكر لما انه مقضي بالذات
واما الشر فمقضي بالعرض اذ ما من شر جزئي الا وهو متضمن لخير كلي اولان في حصول الشر دخلا
لصاحبه في الجملة لانه من اجزية اعماله واما الخير ففضل محض ولرعاية الادب اولان الكلام فيه فانه
روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خط الخندق عام الاحزاب وقطع لكل عشرة من اهل
المدينة اربعين ذراعا واخذوا يحفرونه خرج من بطن الخندق صخرة كالتل لم تعمل فيها
المعاول فوجهوا سلمان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فجاء عليه السلام واخذ
منه المعول فضربها ضربة صدعتها وبرق منها برق اضاء ما بين لابتيها لكان مصباحا في
جوف الليل المظلم فكبر وكبر معه المسلمون وقال اضاءت لي قصور الحيرة كانها انياب الكلاب
ثم ضرب الثانية فقال اضاءت لي منه القصور الحمر من ارض الروم ثم ضرب الثالثة فقال
اضاءت لي قصور صنعاء واخبرني جبريل عليه السلام ان امتي ظاهرة على كلها فابشروا

فقال المنافقون الا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم انه يبصر من يثرب قصور
الحيرة ومدائن كسرى وانها تفتح لكم وانتم تحفرون الخندق من الخوف لا تستطيعون ان
تبرزوا فنزلت انك على كل شيء قدير تعليل لما سبق وتحقيق له تولج الليل
في النهار اي تدخله فيه بتعقيبه اياه او بنقص الاول وزيادة الثاني وتولج النهار
في الليل على احد الوجهين وتخرج الحي من الميت اي تنشئ الحيوانات من موادها
او من النطفة وقيل تخرج المؤمن من الكافر وتخرج الميت من الحي اي تخرج
النطفة من الحيوان وقيل تخرج الكافر من المؤمن وترزق من تشاء بغير حساب
قال ابو العباس المقري ورد لفظ الحساب في القران على ثلثة اوجه بمعنى التعب قال تعالى
وترزق من تشاء بغير حساب وبمعنى العدد قال تعالى في القران انما يوفى الصابرون اجرهم
بغير حساب وبمعنى المطالبة قال فامنن او امسك بغير حساب والباء متعلقة بمحذوف
وقع حالا من فاعل ترزق او من مفعوله وفيه دلالة على ان من قدر على امثال هاتيك
الافاعيل العظام المحيرة للعقول والافهام فقدرته على ان ينزع الملك من العجم ويذلهم
ويؤتيه العرب ويعزهم اهون من كل هين عن علي رضي الله عنه انه قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم ان فاتحة الكتاب واية الكرسي وايتين من ال عمران شهد الله انه لا اله
الا هو الى قوله ان الدين عند الله الاسلام وقل اللهم الى قوله تعالى بغير حساب معلقات
ما بينهن وبين الله تعالى حجاب قلن يا رب تهبطنا الى ارضك والى من يعصيك قال الله
تعالى اني حلفت انه لا يقرأكن احد دبر كل صلوة الا جعلت الجنة مثواه على ما كان منه
واسكنته في حظيرة القدس ونظرت اليه بعيني كل يوم سبعين مرة وقضيت له سبعين
حاجة ادناها المغفرة واعذته من كل عدو وحاسد ونصرته عليهم وفي بعض الكتب
انا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي فان العباد اطاعوني جعلتهم لهم رحمة
وان العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا الي
اعطفهم عليكم وهو معنى قوله عليه السلام كما تكونوا يولى عليكم لا يتخذ المؤمنون الكافرين
اولياء نهوا عن موالاتهم لقرابة او صداقة جاهلية ونحوهما من اسباب المصادقة
والمعاشرة كما في قوله سبحانه يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء
وقوله تعالى لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء حتى لا يكون حبهم ولا بغضهم الا لله
تعالى او الاستعانة في الغزو وسائر الامور الدينية من دون المؤمنين في موضع
الحال اي متجاوزين المؤمنين اليهم استقلالا او اشتراكا وفيه اشارة الى انهم
الاحقاء بالموالاة وان في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة ومن يفعل ذلك
اي اتخاذهم اولياء والتعبير بالفعل للاختصار او لايهام الاستهجان بذكره فليس
من الله اي من ولايته تعالى في شيء يصح ان يطلق عليه اسم الولاية فان موالاة
المتعاديين مما لا يكاد يدخل تحت الوقوع قال تود عدوي ثم تزعم انني صديقك ليس
النوك عنك بعازب والجملة اعتراضية وقوله تعالى الا ان تتقوا على صيغة الخطاب
بطريق الالتفات استثناء مفرغ من اعم الاحوال والعامل فعل النهي معتبرا فيه الخطاب
كانه قيل لا تتخذوهم اولياء ظاهرا او باطنا من الاحوال الا حال اتقائكم
منهم اي من جهتهم تقاة اي اتقاء او شيئا يجب اتقاؤه على ان المصدر واقع
موقع المفعول فانه يجوز اظهار الموالاة مع اطمئنان النفس بالعداوة والبغضاء
وانتظار زوال المانع من قشر العصا واظهار ما في الضمير كما قال عليه السلام كن وسطا
وامش جانبا واصل تقاة وقية ثم ابدلت الواو تاء كتخمة وتهمة وقلبت الياء الفا
وقرئ تقية ويحذركم الله نفسه اي ذاته المقدسة فان جواز اطلاق لفظة
النفس مرادا بالذات عليه سبحانه بلا مشاكلة مما لا كلام فيه عند المتقدمين وقد
صرح بعض محققي المتأخرين بعدم الجواز وان اريد به الذات الا مشاكلة وفيه من
التهديد ما لا يخفى عظمه وذكر النفس للايذان بان له عقابا هائلا لا يؤبه دونه ما يحذر
من الكفرة والى الله المصير تذييل مقرر لمضمون ما قبله ومحقق لوقوعه حتما قل ان تخفوا

ما في صدوركم من الضمائر التي من جملتها ولاية الكفرة او تبدوه فيما بينكم يعلمه الله
فيؤاخذكم بذلك عند مصيركم اليه وتقديم الاخفاء على الابداء قد مر سره في تفسير
قوله تعالى وان تبدوا ما في انفسكم او تخفوه وقوله تعالى يعلم ما يسرون وما يعلنون ويعلم
ما في السموات وما في الارض كلام مستأنف غير معطوف على جواب الشرط وهو من باب
ايراد العام بعد الخاص تاكيدا له وتقريرا والله على كل شيء قدير فيقدر على عقوبتكم
بما لا مزيد عليه ان لم تنتهوا عما نهيتم عنه واظهار الاسم الجليل في موضع الاضمار
لتربية المهابة وتهويل الخطب وهو تذييل لما قبله مبين لقوله تعالى ويحذركم الله نفسه بان
ذاته المقدسة المتميزة عن سائر الذوات المتصفة بما لا يتصف به شيء منها من العلم الذاتي
المتعلق بجميع المعلومات متصفة بالقدرة الذاتية الشاملة لجميع المقدورات بحيث لا يخرج
من ملكوته شيء قط يوم تجد كل نفس اي من النفوس المكلفة ما عملت من خير محضرا
عندها بامر الله تعالى وفيه من التهويل ما ليس في حاضرا وما عملت من سوء عطف
على ما عملت والاحضار معتبر فيه ايضا الا انه خص بالذكر في الخير للاشعار بكون الخير
مرادا بالذات وكون احضار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية تود عامل في الظرف
والمعنى تود وتتمنى يوم تجد صحائف اعمالها من الخير والشر او اجزيتها محضرة لو ان
بينها وبينه اي بين ذلك اليوم امدا بعيدا لغاية هوله وفي اسناد الودادة
الى كل نفس سواء كان لها عمل سيء او لا بل كانت متمحضة في الخير من الدلالة على كمال
فظاعة ذلك اليوم وهول مطلعه ما لا يخفى اللهم انا نعوذ بك من ذلك ويجوز ان يكون
انتصاب يوم على المفعولية باضمار اذكروا وتود اما حال من كل نفس او استيناف مبني
على السؤال اي اذكروا يوم تجد كل نفس ما عملت من خير وشر محضرا وادة ان بينها وبينه
امدا بعيدا او كان سائلا قال حين امروا بذكر ذلك اليوم فماذا يكون اذ ذاك فقيل
تود لو ان بينها الخ او تجد مقصور على ما عملت من خير وتود خبر ما عملت من سوء ولا تكون
ما شرطية لارتفاع تود وقرئ ودت فيجوز كونها شرطية لكن الحمل على الخبر اوقع معنى لانها حكاية
حال ماضية واوفق للقراءة المشهورة ويحذركم الله نفسه تكرير لما سبق واعادة له لكن
لا للتاكيد فقط بل لافادة ما يفيده قوله عز وجل والله رؤوف بالعباد من ان تحذيره
تعالى من رأفته بهم ورحمته الواسعة او ان رأفته بهم لا تمنع تحقيق ما حذرهموه من
عقابه وان تحذيره ليس مبنيا على تناسي صفة الرأفة بل هو متحقق مع تحققها ايضا
كما في قوله تعالى يا ايها الانسان ما غرك بربك الكريم فالجملة على الاول اعتراض وعلى الثاني
حال وتكرير الاسم الجليل لتربية المهابة قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني المحبة ميل النفس
الى الشيء لكمال ادركته فيه بحيث يحملها على ما يقربها اليه والعبد اذا علم ان الكمال الحقيقي
ليس الا لله عز وجل وان كل ما يراه كمالا من نفسه او من غيره فهو من الله تعالى وبالله والى الله
لم يكن حبه الا لله وفي الله وذلك يقتضي ارادة طاعته والرغبة فيما يقربه اليه فلذلك
فسرت المحبة بارادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم
عبادته والحرص على مطاوعته يحببكم الله اي يرضى عنكم ويغفر لكم ذنوبكم
اي يكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم فيقربكم من جناب عزه ويبوئكم في
جوار قدسه عبر عنه بالمحبة بطريق الاستعارة او المشاكلة والله غفور رحيم اي لمن يتحبب
اليه بطاعته ويتقرب اليه باتباع نبيه صلى الله عليه وسلم فهو تذييل مقرر لما قبله مع زيادة
وعد الرحمة ووضع الاسم الجليل موضع الضمير للاشعار باستتباع وصف الالوهية للمغفرة
والرحمة روي انها نزلت لما قالت اليهود نحن ابناء الله واحباؤه وقيل نزلت في وفد نجران
لما قالوا انا نعبد المسيح حبا لله تعالى وقيل في اقوام زعموا على عهده عليه السلام انهم يحبون
الله تعالى فامروا ان يجعلوا لقولهم مصداقا من العمل وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما
ان النبي صلى الله عليه وسلم وقف على قريش وهم في المسجد الحرام يسجدون للاصنام
وقد علقوا عليها بيض النعام وجعلوا في اذانها الشنوف فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم يا معشر قريش لقد خالفتم ملة ابراهيم واسمعيل عليهما السلام فقالت قريش

انما نعبدها حبا لله تعالى ليقربونا الى الله زلفى فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل ان
كنتم تحبون الله تعالى وتعبدون الاصنام لتقربكم اليه فاتبعوني اي اتبعوا شريعتي وسنتي
يحببكم الله فانا رسوله اليكم وحجته عليكم قل اطيعوا الله واطيعوا الرسول اي
في جميع الاوامر والنواهي فيدخل في ذلك الطاعة في اتباعه عليه السلام دخولا اوليا وايثار
الاظهار على الاضمار بطريق الالتفات لتعيين حيثية الاطاعة والاشعار بعلتها فان
الاطاعة المامور بها اطاعته عليه السلام من حيث انه رسول الله لا من حيث ذاته ولا ريب
في ان عنوان الرسالة من موجبات الاطاعة ودواعيها فان تولوا اما من تمام
مقول القول فهي صيغة المضارع المخاطب بحذف احدى التائين اي تتولوا واما كلام متفرع عليه مسوق من
جهته تعالى فهي صيغة الماضي الغايب وفي ترك ذكر احتمال الاطاعة كما في قوله فان اسلموا تلويح الى انه غير
محتمل منهم فان الله لا يحب الكافرين نفي المحبة كناية عن بغضه تعالى لهم وسخطه عليهم اي لا
يرضى عنهم ولا يثني عليهم وايثار الاظهار على الاضمار لتعميم الحكم لكل الكفرة والاشعار
بعلته فان سخطه تعالى عليهم بسبب كفرهم والايذان بان التولي عن الطاعة كفر وبان محبته
عز وجل مخصوصة بالمؤمنين ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على
العالمين لما بين الله عز وجل ان الدين المرضي عنده هو الاسلام والتوحيد وان
اختلاف اهل الكتابين فيه انما هو للبغي والحسد وان الفوز برضوانه ومغفرته ورحمته
منوط باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم طاعته شرع في تحقيق رسالته وكونه من اهل بيت
النبوة القديمة فبدأ ببيان جلالة اقدار الرسل عليهم السلام كافة واتبعه ذكر مبدأ
امر عيسى عليه السلام وامه وكيفية دعوته للناس الى التوحيد والاسلام تحقيقا للحق
وابطالا لما عليه اهل الكتابين في شانهما من الافراط والتفريط ثم بين بطلان محاجتهم
في ابراهيم عم وادعائهم الانتماء الى ملته ونزه ساحته العلية عما هم عليه من اليهودية
والنصرانية ثم نص على ان جميع الرسل عليهم السلام دعاة الى عبادة الله عز وجل
وطاعته منزهون عن احتمال الدعوة الى عبادة انفسهم او الى عبادة غيرهم من
الملائكة والنبيين وان اممهم قاطبة مامورون بالايمان بمن جاءهم من رسول الله
مصدق لما معهم تحقيقا لوجوب الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وكتابه المصدق
لما بين يديه من التورية والانجيل وحتم الطاعة له حسبما سيأتي تفصيله
وتخصيص آدم عليه السلام بالذكر لانه ابو البشر ومنشأ النبوة وكذا حال نوح عم فانه
آدم الثاني واما ذكر آل ابراهيم فلترغيب المعترفين باصطفائهم في الايمان بنبوة النبي صلى الله
عليه وسلم واستمالتهم نحو الاعتراف باصطفائه بواسطة كونه من زمرتهم مع ما مر
من التنبيه على كونه عليه السلام عريقا في النبوة من زمرة المصطفين الاخيار واما ذكر
آل عمران مع اندراجهم في آل ابراهيم فلاظهار مزيد الاعتناء بتحقيق امر عيسى عليه السلام
بكمال رسوخ الخلاف في شانه فان نسبته الاصطفاء الى الاب الاقرب ادل على تحقيقه
في الآل وهو الداعي الى اضافة الآل الى ابراهيم دون نوح وآدم عليهم السلام والاصطفاء
والاصطفاء اخذ ما صفا من الشيء كالاستصفاء مثل به اختياره اياهم بالنفوس
القدسية وما يليق بها من الملكات الجسمانية المستتبعة للرسالة في نفس المصطفى كما في
كافة الرسل عليهم السلام او فيمن يلابسه وينشأ منه كما في مريم وقيل اصطفى آدم
عليه السلام بان خلقه بيده في احسن تقويم وبتعليم الاسماء واسجاد الملائكة اياه و
واسكان الجنة واصطفى نوحا عليه السلام بكونه اول من نسخ الشرايع اذ لم يكن قبل تزويج
المحارم حراما وباطالة عمره وجعل ذريتهم الباقين واستجابة دعوته في حق الكفرة
والمؤمنين وحمله على متن الماء والمراد بآل ابراهيم اسماعيل واسحاق والانبياء من
اولادهما الذين من جملتهم النبي صلى الله عليه وسلم واما اصطفاء نفسه عليه السلام
فمفهوم من اصطفائهم بطريق الاولوية وعدم التصريح به للايذان بالغنى عنه لكمال شهرة
امره في الخلة وكونه امام الانبياء وقدوة الرسل عليهم السلام وكون اصطفاء آله بدعوته
بقوله ربنا وابعث فيهم رسولا منهم الاية ولذلك قال عليه السلام انا دعوة ابي

ابراهيم

ابراهيم وبآل عمران عيسى وامه مريم ابنة عمران بن ماثان بن العازار بن ابي هوذ بن زربابل
بن ساليان بن يوحيا بن اوشا بن اموز بن ميشك بن حاد فا بن يوثام بن عزريا بن يوزان
بن ساقط بن ايشا بن راحعيم بن سليمان بن داود عليهما السلام ابن ايشا بن عويل بن
سلمون بن ياعز بن يحشون بن عمياد بن رام بن حصروم بن فارض بن يهوذا بن يعقوب عم
وقيل موسى وهرون عليهما السلام ابنا عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوي بن يعقوب
عليه السلام وبين العمرانين الف وثمانماية سنة فيكون اصطفاء عيسى عم بالاندراج في
آل ابراهيم عليه السلام والاول هو الاظهر بدليل تعقيبه بقصة مريم واصطفاء موسى
وهرون عليهما السلام بالانتظام في سلك آل ابراهيم عليه السلام انتظاما ظاهرا
والمراد بالعالمين اهل زمان كل واحد منهم اي اصطفى كل واحد منهم على عالمي زمانه
ذرية نصب على البدلية من الآلين او على الحالية منهما وقد مر بيان اشتقاقها في قوله تعالى
ومن ذريتي وقوله تعالى بعضها من بعض في محل النصب على انه صفة لذرية اي
اصطفى الآلين حال كونهم ذرية متسلسلة متشعبة البعض من البعض في النسب كما ينبئ عنه التعرض
لكونهم ذرية وقيل بعضها من بعض في الدين فالاستمالة على الوجه الاول نسبية
وعلى الثاني برهانية والله سميع لاقوال العباد عليم باعمالهم البادية والخافية
فيصطفي من بينهم لخدمته من يظهر استقامته قولا وفعلا على نهج قوله تعالى الله اعلم حيث
يجعل رسالته والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها اذ قالت امرأة عمران في حيز النصب
على المفعولية بفعل مقدر على طريقة الاستيناف لتقرير اصطفاء آل عمران وبيان كيفيته اي اذكر
لهم وقت قولها الخ وقد مر مرارا وجه توجيه التذكير الى الاوقات مع ان المقصود تذكير ما
وقع فيها من الحوادث وقيل هو منصوب على الظرفية لما قبله اي سميع لقولها الحكي عليم بضميرها
المنوي وقيل هو ظرف لمعنى الاصطفاء المدلول عليه باصطفى المذكور كانه قيل واصطفى
آل عمران اذ قالت الخ فكان من عطف الجمل على الجمل دون عطف المفردات على المفردات ليلزم
كون اصطفاء الكل في ذلك الوقت وامرأة عمران حنة بنت فاقوذ جدة عيسى عليه السلام
وكان لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم اكبر من موسى وهرون عليهما السلام فظن ان مريم
زوجته وليس بذاك فان قصة كفالة زكريا عليه السلام قاضية بانها زوجة عمران بن
ماثان لانه عليه السلام كان معاصرا له وقد تزوج ايشاع اخت حنة ام يحيى عليه السلام
واما قوله عم في شان يحيى وعيسى عليهما السلام هما ابنا خالة فقيل تاويله ان الاخت كثيرا ما
تطلق على بنت الاخت وبهذا الاعتبار جعلا عم ابني خالة وقيل كانت ايشاع اخت حنة
من الام واخت مريم من الاب على ان عمران نكحا والام حنة فولدت لهما ايشاع ثم نكح حنة
بناء على حل نكاح الربايب في دينهم فولدت مريم فكانت ايشاع اخت مريم من الاب وخالتها
من الام لانها اخت حنة من الام روي انها كانت عجوزا عاقرا فبينما هي ذات يوم في شجرة
اذ رات طائرا يطعم فرخه فحنت الى الولد وتمنته وقالت اللهم ان لك علي نذرا ان رزقتني
ولدا ان اتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وكان هذا النذر مشروعا عندهم
في الغلمان ثم هلك عمران وهي حامل وحينئذ قولها رب اني نذرت لك ما في بطني لا بد
من حمله على التكرير لتاكيد نذرها واخراجه على صورة التعليق الى هيئة التنجيز والتعرض لوصف الربوبية
المنبئة عن افاضة ما فيه صلاح المربوب مع الاضافة الى ضميرها لتحريك سلسلة الاجابة و
لذلك قيل اذا اراد العبد ان يستجاب له دعاؤه فليدع الله بما يناسبه من اسمائه وصفاته
وتاكيد الجملة لابراز وفور الرغبة في مضمونها وتقديم الجار والمجرور لكمال الاعتناء به واما
عبر عن الولد بما لابهام امره وقصوره عن درجة العقلاء محررا اي معتقا لخدمة
بيت المقدس لا يشغله شأن آخر او مخلصا للعبادة ونصبه على الحالية من الموصول والعامل
فيه نذرت وقيل من ضميره في الصلة والعامل فيه معنى الاستقرار فانها في قوة ما استقر
في بطني ولا يخفى ان المراد تقييد فعلها بالتحرير ليحصل به التقرب اليه تعالى لا تقييد ما لا دخل لها
فيه من الاستقرار في بطنها فتقبل مني اي ما نذرته والتقبل اخذ الشيء على وجه
الرضى وهذا في الحقيقة استدعاء للولد اذ لا يتصور التقبل بدون تحقق المقبول بل للولد

الذكر لعدم قبول الانثى انك انت السميع لجميع المسموعات التي من جملتها تضرعي ودعائي العليم
بكل المعلومات التي من زمرتها ما في ضميري لا غير وهو تعليل لاستدعاء القبول لا من حيث ان كونه
تعالى سميعا للدعاء عليما بما في ضميرها مصحح للتقبل في الجملة بل من حيث ان علمه تعالى بصحة نيتها
واخلاصها مستدع لذلك تفضلا واحسانا وتاكيد الجملة لعرض قوة يقينها بقبولها وقصر
صفتي السمع والعلم عليه تعالى لعرض اختصاص دعائها به تعالى وانقطاع رجائها عما عداه بالكلية
مبالغة في الضراعة والابتهال فلما وضعتها اي ما في بطنها وتانيث الضمير العائد اليه لما ان
المقام يستدعي ظهور انوثته واعتباره في حيز الشرط اذ عليه يترتب جواب لما اعني قوله تعالى
قالت رب اني وضعتها انثى لا على وضع ولد ما كانه قيل فلما وضعت بنتا قالت الخ وتانيثه
لان ما في بطنها كان انثى في علم الله تعالى ولانه مؤول بالحبلة او بالنفس والنسمة وانت خبير
بان اعتبار شيء مما ذكر في حيز الشرط لا يكون مدارا للترتب للجواب عليه وقوله تعالى انثى حال
مؤكدة من الضمير او بدل منه وتانيثه لمسارعة ما دهمها من خيبة الرجاء او لما مر من
التاويل بالحبلة او النسمة فالحال منه مبينة وانما قالته تحزنا وتحسرا على خيبة رجائها وعكس
تقديرها لما كانت ترجو ان تلد ذكرا ولذلك نذرته محررا للسدانة والتاكيد للرد على اعتقادها
الباطل والله اعلم بما وضعت تعظيم من جهته تعالى لموضوعها وتفخيم لشانه وتجهيل
لها بقدره اي والله اعلم بالشيء الذي وضعته وما علق به من عظائم الامور وجعله وابنه
آية للعالمين وهي غافلة عن ذلك والجملة اعتراضية وقرئ وضعت على خطاب الله تعالى لها اي
انك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما اودع الله فيه من علو الشان وسمو المقدار وقرئ
وضعت على صيغة التكلم مع الالتفات من الخطاب الى الغيبة اظهار الغاية الاجلال فيكون
ذلك منها اعتذارا الى الله تعالى حيث اتت بمولود لا يصلح لما نذرته من السدانة وتسلية
لنفسها على معنى لعل لله تعالى فيه سرا وحكمة ولعل هذه الانثى خير من الذكر فوجه الالتفات
ح ظاهر وقوله تعالى وليس الذكر كالانثى اعتراض آخر مبين لما في الاول من تعظيم الموضوع
ورفع منزلته واللام في الذكر والانثى للعهد اي ليس الذي كانت تطلبه وتتخيل فيه كمالا
قصاراه ان يكون كواحد من السدنة كالانثى التي وهبت لها فان دائرة علمها وامنيتها لا تكاد
تحيط بما فيها من جلائل الامور هذا على القراءتين الاوليين واما على التفسير الاخير للقراءة الاخيرة
فمعناه وليس الذكر كهذه الانثى في الفضيلة بل ادنى منها واما على التفسير الاول لها فمعناه
تاكيد الاعتذار ببيان ان الذكر ليس كالانثى في الفضيلة والمزية وصلاحية خدمة المتعبدات
فانهن بمعزل من ذلك فاللام للجنس وقوله تعالى واني سميتها مريم عطف على اني وضعتها
انثى وغرضها من عرضها على علام الغيوب التقرب اليه تعالى واستدعاء العصمة لها فان مريم
في لغتهم العابدة قال القرطبي معناه خادم الرب واظهار انها غير راجعة عن نيتها وان كان
وضعته انثى وانها ان لم تكن خليقة بسدانة بيت المقدس فلتكن من العابدات فيه واني
اعيذها بك عطف على اني سميتها وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار اي اجيرها بحفظك
وقرئ بفتح ياء المتكلم في المواضع التي بعدها همزة مضمومة الا في موضعين بعهدي اوف
وآتوني افرغ وذريتها عطف على الضمير وتقديم الجار والمجرور عليه لابراز كمال العناية
به من الشيطان الرجيم اي المطرود واصل الرجم الرمي بالحجارة عن النبي صلى الله عليه وسلم
ما من مولود يولد الا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مسه الا مريم
وابنها ومعناه ان الشيطان يطمع في اغواء كل مولود بحيث يتاثر منه الا مريم وابنها
فان الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة فتقبلها اي اخذ مريم ورضي بها في النذر مكان
الذكر ربها مالكها ومبلغها الى كمالها اللائق وفيه من تشريفها ما لا يخفى بقبول
حسن قيل الباء زائدة والقبول مصدر مؤكد للفعل السابق بحذف الزوائد اي
تقبلها قبولا حسنا وانما عدل عن الظاهر للايذان بمقارنة التقبل لكمال الرضى وموافقته
للعناية الذاتية فان صيغة التفعل مشعرة بحسب اصل الوضع بالتكلف وكون الفعل
على خلاف طبع الفاعل وان كان المراد بها في حقه تعالى ما يترتب عليه من كمال قوة
الفعل وكثرته وقيل القبول ما يقبل به الشيء كالسعوط واللدود لما يسعط به ويلد

وهو

وهو اختصاصه تعالى اياها باقامتها مقام الذكر في النذر ولم تقبل قبلها انثى او بان تسلمها
من امها عقيب الولادة قبل ان تنشا وتصلح للسدانة روي ان حنة حين ولدتها لفتها
في خرقة وحملتها الى المسجد ووضعتها عند الاحبار ابناء هرون وهم في بيت المقدس
كالحجبة في الكعبة فقالت لهم دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لانها كانت بنت امامهم
وصاحب قربانهم فان بني ماثان كانت رؤس بني اسرائيل وملوكهم وقيل لانهم وجدوا
امرها وامر عيسى عليه السلام في الكتب الالهية فقال زكريا انا احق بها عندي خالتها
فابوا الا القرعة وكانوا تسعة وعشرين فانطلقوا الى نهر فالقوا فيه اقلامهم فطفا قلم
زكريا عليه السلام ورسب اقلامهم فتكفلها وقيل هو مصدر وفيه مضاف مقدر اي
فتقبلها بذي قبول اي بامر ذي قبول حسن وقيل تقبل بمعنى استقبل كتقضي بمعنى استقصى و
تعجل بمعنى استعجل اي استقبلها في اول امرها حين ولدت بقبول حسن وانبتها مجاز عن
تربيتها بما يصلحها في جميع احوالها نباتا حسنا مصدر مؤكد للفعل المذكور بحذف الزوائد
وقيل بل لفعل مضمر يوافقه تقديره فنبتت نباتا حسنا وكفلها زكريا اي جعله عليه
السلام كافلا لها وضامنا لمصالحها قائما بتدبير امورها لا على طريقة الوحي بل على ما ذكر من
التفصيل فان رغبته عليه السلام في كفالتها وطفو قلمه ورسوب اقلامهم وغير ذلك من
الامور الجارية بينهم كلها من آثار قدرته وقرئ اكفلها وقرئ زكريا بالنصب والمد وقرئ بتخفيف
الفاء وكسرها ورفع زكريا ممدودا وقرئ وتقبلها ربها وانبتها وكفلها على صيغة الامر
في الكل ونصب ربها على الدعاء اي فاقبلها يا ربها ورببها تربية حسنة واجعل زكريا كافلا
لها فهو تعيين لجهة التربية قيل بنى عليه السلام لها محرابا في المسجد اي غرفة يصعد اليها
بسلم وقيل المحراب اشرف المجالس ومقدمها كانها وضعت في اشرف موضع من بيت المقدس
وقيل كانت مساجدهم تسمى المحاريب روي انه كان لا يدخل عليها الا هو وحده واذا خرج
غلق عليها سبعة ابواب كلما دخل عليها زكريا المحراب تقديم الظرف على الفاعل
لاظهار كمال العناية بامرها ونصب المحراب على التوسع وكلمة كلما ظرف على ان ما مصدرية
والزمان محذوف او نكرة موصوفة معناه الوقت والعائد محذوف والعامل فيها
جوابها اي كل زمان دخوله عليها او كل وقت دخل عليها فيه وجد عندها رزقا
اي نوعا منه غير معتاد اذ كان ينزل ذلك من الجنة وكان يجد عندها في الصيف فاكهة الشتاء
وفي الشتاء فاكهة الصيف ولم ترضع ثديا قط قال استيناف مبني على السؤال كانه
قيل فماذا قال زكريا عليه السلام عند مشاهدة هذه الاية فقيل قال يا مريم
انى لك هذا من اين يجيء لك هذا الذي لا يشبه ارزاق الدنيا والابواب مغلقة دونك
وهو دليل على جواز الكرامة للاولياء ومن انكرها جعل هذا ارهاصا وتاسيسا لرسالة
عيسى عليه السلام واما جعله معجزة لزكريا عليه السلام فياباه اشتباه الامر عليه وانما
خاطبها عليهما السلام بذلك مع كونها بمعزل من رتبة الخطاب لما علم بشاهد
انها مؤيدة من عند الله تعالى بالعلم والقدرة قالت استينافا كما قبله كانه قيل
فماذا صنعت مريم وهي صغيرة لا قدرة لها على فهم السؤال ورد الجواب فقيل
قالت هو من عند الله فلا تعجب ولا تستبعد ان الله يرزق من يشاء
اي يرزقه بغير حساب اي بغير تقدير لكثرته او بغير استحقاق تفضلا منه تعالى وهو
تعليل لكونه من عند الله اما من تمام كلامها فيكون في محل النصب واما من تمام كلامه
عز وجل فهو مستانف روي ان فاطمة الزهراء رضي الله عنها اهدت الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم رغيفين وبضعة لحم فرجع بها اليها فقال هلمي يا بنية فكشفت عن الطبق
فاذا هو مملوء خبزا ولحما فقال لها انى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق
من يشاء بغير حساب فقال الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة بني اسرائيل ثم جمع
عليا والحسن والحسين رضوان الله تعالى عليهم اجمعين وجميع اهل بيته فاكلوا وشبعوا
وبقي الطعام كما هو فاوسعت على جيرانها هنالك كلام مستانف وقصة مستقلة سيقت
في تضاعيف حكاية مريم لما بينهما من قوة الارتباط وشدة الاشتباك مع ما في ايرادها

من تقرير ما سبقت له حكايتها من بيان اصطفاء آل عمران فان فضائل بعض الاقرباء ادلة على
فضائل الاخرين وهنالك ظرف مكان واللام للدلالة على البعد والكاف للخطاب اي في ذلك المكان
حيث هو قاعد عند مريم في المحراب او في ذلك الوقت اذ يستعار هنا وثمة وحيث للزمان
دعا زكريا ربه لما راي كرامة مريم على الله تعالى ومنزلتها منه تعالى رغب في ان يكون له من
ايشاع ولد مثل ولد حنة في النجابة والكرامة على الله تعالى وان كانت عاقرا عجوزا فقد كانت
حنة كذلك وقيل لما راي الفواكه في غير اوانها تنبه لجواز ولادة العاقر من الشيخ الفاني
فاقبل على الدعاء من غير تاخير كما ينبئ عنه تقديم الظرف على الفعل لا على معنى ان ذلك كان
هو الموجب للاقبال على الدعاء فقط بل كان جزءا اخيرا من العلة التامة التي من جملتها كبر
سنه عليه السلام وضعف قواه ومواليه حسبما فصل في سورة مريم قال تفسير للدعاء وبيان
لكيفيته لا محل لها من الاعراب رب هب لي من لدنك كلا الجارين متعلق بهب لاختلاف
معنييهما فاللام صلة له ومن لابتداء الغاية مجازا اي اعطني من محض قدرتك من غير وسط
معتاد ذرية طيبة كما وهبتها لحنة ويجوز ان يتعلق من بمحذوف وقع حالا من ذرية
اي كائنة من لدنك والذرية النسل تقع على الواحد والجمع والذكر والانثى والمراد ههنا
ولد واحد فالتانيث في الصفة لتانيث لفظ الموصوف كما في قول من قال ابوك خليفة ولدته
اخرى وانت خليفة ذلك الكمال وهذا اذا لم يقصد به واحد معين اما اذا قصد به المعين
امتنع اعتبار اللفظ نحو طلحة وحمزة فلا يجوز ان يقال جاءت طلحة وذهبت حمزة انك
سميع الدعاء اي مجيبه وهو تعليل لما قبله وتحريك لسلسلة الاجابة فنادته الملائكة
كان المنادي جبرائيل عم كما يفصح عنه قراءة من قرا فناداه جبريل والجمع كما في قولهم فلان يركب
الخيل ويلبس الثياب وماله غير فرس وثوب قال الزجاج اي اتاه النداء من هذا الجنس
الذين هم الملائكة وقيل لما كان جبريل رئيسهم عبر عنه باسم الجماعة تعظيما له وقيل
الرئيس لا بد له من اتباع فاسند النداء الى الكل مع كونه صادرا عنه خاصة وقرئ فناداه بالامالة
وهو قائم جملة حالية من مفعول النداء مقررة لما افاده الفاء من حصول البشارة
عقيب الدعاء وقوله تعالى يصلي اما صفة لقائم او خبر ثان عند من يرى تعدده عند
كون الثاني جملة كما في قوله تعالى فاذا هي حية تسعى او حال اخرى منه على القول بتعددها
بلا عطف ولا بدلية او حال من المستكن في قائم وقوله تعالى في المحراب اي في المسجد
او في غرفة مريم متعلق بيصلي او بقائم على تقدير كون يصلي حالا من ضمير قائم لان
العامل فيه وفي الحال حينئذ فلا يلزم الفصل بالاجنبي كما يلزم على التقادير الباقية
ان الله يبشرك بيحيى اي بان الله وقرئ بكسر الهمزة على تقدير القول او اجراء النداء
مجراه لكونه نوعا منه وقرئ يبشرك من الابشار ويبشرك من الثلاثي وايا ما كان ينبغي
ان يكون هذا الكلام محكيا بعبارته عز وجل على منهاج قوله عز وجل قل يا عبادي الذين
اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الاية كما يلوح به مراجعته عليه السلام
في الجواب اليه تعالى بالذات لا بواسطة الملك والعدول عن اسناد التبشير الى نون العظمة
حسبما وقع في سورة مريم للجري على سنن الكبرياء كما في قول الخلفاء امير المؤمنين يرسم لك
كذا وللايذان بان ما حكي هناك من النداء والتبشير وما يترتب عليه من المحاورة كان كل
ذلك بتوسط الملك بطريق الحكاية منه سبحانه لا بالذات كما هو المتبادر وبهذا يتضح اتحاد
المعنى في السورتين الكريمتين فتامل ويحيى اسم اعجمي وان جعل عربيا فمنع صرفه للتعريف
ووزن الفعل روي عن ابن عباس رضي الله عنهما انما سمي يحيى لان الله تعالى احيى به
عقر امه وقال قتادة لان الله تعالى احيى قلبه بالايمان قال القرطبي كان اسمه في الكتاب
الاول حيا ولا بد من تقدير مضاف يعود اليه الحال اي بولادة يحيى فان التبشير لا يتعلق
بالاعيان مصدقا حال مقدرة من يحيى بكلمة من الله اي بعيسى عم وانما سمي كلمة
لانه وجد بكلمة كن من غير اب فشابه البديعيات التي هي عالم الامر ومن لابتداء الغاية
مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لكلمة اي بكلمة كائنة منه تعالى قيل هو اول من آمن
به وصدق بانه كلمة الله وروح منه وقال السدي لقيت ام يحيى ام عيسى فقالت يا مريم

اشعرت بحبلي فقالت مريم وانا ايضا حبلى قالت فاني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك
فذلك قوله تعالى مصدقا بكلمة الخ وقال ابن عباس رضي الله عنهما ان يحيى كان اكبر من
عيسى عم بستة اشهر وقيل بثلث سنين وقتل قبل رفع عيسى عليه السلام بمدة يسيرة وعلى كل
تقدير يكون بين ولادة يحيى وبين البشارة بها زمان مديد لما ان مريم ولدت وهي بنت
ثلث عشرة سنة او بنت عشر سنين وقيل بكلمة من الله اي بكتاب الله سمي كلمة كما قيل كلمة الحويدرة
لقصيدة وسيدا عطف على مصدقا اي رئيسا يسود قومه ويفوقهم في الشرف وكان
فائقا للناس قاطبة فانه لم يلم بخطيئة ولم يهم بمعصية فيا لها من سيادة ما اسناها و
حصورا عطف على ما قبله اي مبالغا في حصر النفس وحبسها عن الشهوات مع القدرة روي
انه مر في صباه بصبيان فدعوه الى اللعب فقال ما للعب خلقت ونبيا عطف على ما قبله
مترتب على ما عدد من الخصال الحميدة من الصالحين اي ناشئا منهم لانه كان من
اصلاب الانبياء عليهم السلام او كائنا من جملة المشهورين بالصلاح كما في قوله تعالى
وانه في الاخرة لمن الصالحين والمراد بالصلاح ما فوق الصلاح الذي لا بد منه في منه
في منصب النبوة البتة من اقاصي مراتبه وعليه مبنى دعاء سليمان عم وادخلني برحمتك
في عبادك الصالحين قال استئناف مبني على السؤال كانه قيل فماذا قال زكريا عليه
السلام فقيل قال يا رب لم يخاطب الملك المنادي له مع ملابسة انه المباشر للخطاب
وان كان ذلك بطريق الحكاية تعالى بل جرى على نهج دعائه السابق مبالغة في التضرع
والمناجاة وجدا في التبتل اليه تعالى واحترازا عما عسى يوهم خطاب الملك من توهم
ان علمه سبحانه بما يصدر عنه يتوقف على توسطه كما يتوقف وقوف البشر على ما يصدر
عنه سبحانه على توسطه في عامة الاحوال وان لم يتوقف عليه في بعضها انى يكون لي
غلام فيه دلالة على انه قد اخبر بكونه غلاما عند التبشير كما في قوله تعالى انا نبشرك بغلام
اسمه يحيى وانى بمعنى كيف او من اين وكان تامة وانى واللام متعلقتان بها وتقديم
الجار على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق الى ما اخر اي كيف او من اين
يحدث لي غلام ويجوز ان يتعلق اللام بمحذوف وقع حالا من غلام اذ لو تاخر لكان صفة
واسمها ظاهر وخبرها اما انى واللام متعلقة بمحذوف كما مر او هو الخبر وانى منصوب
على الظرفية وقد بلغني الكبر حال من ياء المتكلم اي ادركني كبر السن واثر في كقولهم ادركته
السن واخذته السن وفيه دلالة على ان كبر السن من حيث كونه من طلائع الموت طالب
للانسان لا يكاد يتركه قيل كان له تسع وتسعون سنة وقيل اثنتان وتسعون وقيل مائة و
عشرون وقيل ستون وقيل خمس وستون وقيل سبعون وقيل خمس وسبعون وقيل خمس
وثمانون ولامراته ثمان وتسعون وامراتي عاقر اي ذات عقر وهو ايضا حال
من ياء لي عند من يجوز تعدد الحال او من ياء بلغني اي كيف يكون لي ذلك والحال اني
وامراتي على حالة منافية له كل المنافاة وانما قاله عم مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة
الله تعالى عليه لا سيما بعد مشاهدته عليه السلام للشواهد السالفة استعظاما لقدرة
الله تعالى وتعجبا منها واعتدادا بنعمته عز وجل عليه في ذلك لا استبعادا له وقيل بل كان
ذلك للاستبعاد حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة وكان قد نسي دعاءه وهو
بعيد وقيل كان ذلك استفهاما عن كيفية حدوثه قال استئناف كما سلف كذلك
اشارة الى مصدر يفعل في قوله عز وجل الله يفعل ما يشاء اي ما يشاء ان يفعله من
تعاجيب الافاعيل الخارقة للعادات فالله مبتدا ويفعل خبره والكاف في محل النصب على انها
في الاصل نعت لمصدر محذوف اي الله يفعل ما يشاء ان يفعله فعلا مثل ذلك الفعل
العجيب والصنع البديع الذي هو خلق الولد من شيخ فان وعجوز عاقر فقدم على العامل
لافادة القصر بالنسبة الى ما هو ادنى من المشار اليه واعتبرت الكاف مقحمة لتاكيد افادة
اسم الاشارة من الفخامة وقد تحقيقه في تفسير قوله تعالى وكذلك جعلناكم امة
وسطا او على انها حال من ضمير المصدر المقدر معرفة اي يفعل الفعل كائنا مثل ذلك
او في محل الرفع على انها خبر والجلالة مبتدا اي على نحو هذا الشان البديع شان الله تعالى

ويفعل ما يشاء بيان لذلك المبهم او كذلك خبر لمبتداء محذوف اي الامر كذلك وقوله تعالى
يفعل ما يشاء بيان له قال رب اجعل لي اية اي علامة تدلني على تحقق المسؤل ووقوع
الحبل وانما سألها لان العلوق امر خفي لا يوقف عليه فاراد ان يطلعه الله تعالى ليتلقى تلك
النعمة الجليلة من حين حصولها بالشكر ولا يؤخره الى ان يظهر ظهورا معتادا ولعل هذا
السؤال وقع بعد البشارة بزمان مديد اذ به يظهر ما ذكر من كون التفاوت بين سني
يحيى وعيسى عليهما السلام ستة اشهر وبثلث سنين لان ظهور العلامة كان عقيب
تعيينها لقوله تعالى في سورة مريم فخرج على قومه من المحراب فاوحى اليهم الاية اللهم
الا ان يكون المحاورة بين زكريا ومريم في حالة كبرها وقد عدت من جملة من تكلم في الصغر
بموجب قوله تعالى المحكي والجعل ابداعي واللام متعلقة به وتقديم لما مر مرارا من الاعتناء
بما قدم والتشويق الى ما اخر او بمحذوف وقع حالا من اية وقيل هو بمعنى التصيير المستدعي
لمفعولين اولهما اية وثانيهما الظرف والتقديم لانه لا مسوغ لكون اية مبتداء عند انحلال الجملة
الى مبتدا وخبر سوى تقديم الجار فلا يتغير حالهما بعد دخول الناسخ قال ايتك الا تكلم الناس
اي ان لا تقدر على تكليمهم ثلثة ايام اي متوالية لقوله تعالى في سورة مريم ثلث ليال سويا مع
القدرة على الذكر والتسبيح وانما جعلت اية ذلك لتخليص المدة لذكر الله تعالى وشكره قضاء
لحق النعمة كانه قيل اية حصول المطلوب ووصول النعمة ان يحتبس لسانك الا عن شكرها
واحسن الجواب ما اشتق من السؤال الا رمزا اي اشارة بيد او رأس او نحوهما واصله
التحرك يقال ارتمز اي تحرك ومنه قيل للبحر الراموز وهو استثناء منقطع لان الاشارة ليست من قبيل
الكلام او متصل على ان المراد ما فهم منه المرام ولا ريب في كون الرمز من ذلك القبيل وقرئ
رمزا بفتحتين على انه جمع رامز كخدم وبضمتين على انه جمع رموز كرسل على انه حال منه ومن
الناس معا بمعنى مترامزين كقوله تعالى فيمما تلقى فرديين ترجف روانف اليتيك وتستطارا
واذكر ربك اي في ايام الحبسة شكرا لحصول التفضل والانعام كما يؤذن به التعرض لعنوان
الربوبية كثيرا اي ذكرا كثيرا وسبح اي سبحه تعالى والمراد التسبيح بالعشي من الزوال الى الغروب
وقيل من العصر الى ذهاب صدر الليل والابكار من طلوع الفجر الى الضحى قيل المراد بالتسبيح الصلوة
بدليل تقييده بالوقت كما في قوله تعالى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وقيل الذكر باللسان
كما ان المراد بالذكر القلبي وقرئ الابكار بفتح الهمزة على انه جمع بكر بفتحتين كسحر واسحار واذ قالت الملائكة
شروع في شرح بقية احكام اصطفاء ال عمران الاشارة الى نبذ من فضايل بعض اقاربهم
اعني زكريا ويحيى عليهما السلام لاستدعاء المقام اياها حسبما اشير اليه وقرئ بتذكير الفعل
والمراد بالملائكة جبريل عليه السلام وقد مر ما فيه من الكلام واذ منصوب بمضمر معطوف
على المضمر السابق عطف القصة على القصة وقيل معطوف على الظرف السابق اعني قوله تعالى
اذ قالت امراة عمران منصوب بناصبه فتدبر اي واذكر ايضا من شواهد اصطفائهم وقت
قول الملائكة يا مريم وتكرير التذكير للاشعار بمزيد الاعتناء بما يحكى من احكام الاصطفاء
والتنبيه على استقلالها وانفرادها عن الاحكام السابقة فانها من احكام التربية الجسمانية
اللائقة بحال صغر مريم وهذه من باب التربية الروحانية بالتكاليف الشرعية المتعلقة بحال
كبرها قيل كلموها شفاها كرامة لها وارهاصا لنبوة عيسى عليه السلام لمكان الاجماع على
انه تعالى لم يستنبئ امراة وقيل الهموها ان الله اصطفيك اولا حين تقبلك من امك
بقبول حسن ولم يتقبل غيرك انثى وربّاك في حجر زكريا عليه السلام ورزقك من رزق الجنة وخصك
بالكرامات السنية وطهرك اي مما يستقذر من الاحوال والافعال ومما قذفك به اليهود
بانطاق الطفل واصطفاك اخرا على نساء العالمين بان وهب لك عيسى عليه السلام من غير اب
ولم يكن ذلك لاحد من النساء وجعلكما اية للعالمين فعلى هذا ينبغي ان يكون تقديم حكاية
هذه المقاولة على حكاية بشارتها بعيسى عليه السلام لما مر مرارا من التنبيه على ان كلا منهما مستحق
للاستقلال بالتذكير ولو روعي الترتيب الخارجي لتبادر كون الكل شيئا واحدا وقيل المراد
بالاصطفائين واحد والتكرير للتاكيد وتبيين من اصطفاها عليهن فحينئذ لا اشكال في ترتيب
النظم الكريم اذ يحمل حينئذ الاصطفاء على ما ذكر اولا ويجعل هذه المقاولة قبل بشارتها بعيسى

عليه السلام ايذانا بكونها قبل ذلك متوفرة على الطاعة والعبادات حسبما امرت بها مجتهدة
مقبلة على الله تعالى متبتلة اليه تعالى منسلخة عن احكام البشرية مستعدة لفيضان الروح عليها
يا مريم تكرير النداء للايذان بان المقصود بالخطاب ما يرد بعده وان ما قبله من تذكير
النعم كان تمهيدا لذكره وترغيبا في العمل بموجبه اقنتي لربك اي دومي في الصلوة
او اطيلي القيام لربك فيها والتعرض لعنوان ربوبيته تعالى لها للاشعار بعلة وجوب الامتثال بالامر
واسجدي واركعي مع الراكعين امرت بالصلوة بالجماعة بذكر اركانها مبالغة في ايجاب
رعايتها وايذانا بفضيلة كل منها واصالته وتقديم السجود على الركوع اما لكون الترتيب
في شريعتهم كذلك واما لكون السجود افضل اركان الصلوة واقصى مراتب الخضوع ولا
يقتضي ذلك كون الترتيب الخارجي كذلك بل اللائق به الترقي من الادنى الى الاعلى واما لان
اركعي بالراكعين للاشعار بان لا ركوع في صلوتهم ليسوا مصلين واما ما قيل من ان الواو
لا يوجب الترتيب فغايته التصحيح لا الترجيح من وتجريد الامر بالركنين الاخرين عما قيد به الاول
بما ان المراد تقييد الامر بالصلوة بذلك وقد فعل حيث قيد به الركن الاول منها وقيل المراد
بالقنوت ادامة الطاعات كما في قوله تعالى امن هو قانت اناء الليل ساجدا وقائما وبالسجود
الصلوة لما مر من انه افضل اركانها وبالركوع الخشوع والاخبات قيل لما امرت بذلك
قامت في الصلوة حتى ورمت قدماها وسالت دما وقيحا ذلك اشارة الى ما سلف
من الامور البديعة وما فيه من معنى البعد للتنبيه على علو شان المشار اليه وبعد منزلته
في الفضل وهو مبتداء خبره قوله تعالى من انباء الغيب اي من الانباء المتعلقة بالغيب والجملة
مستأنفة لا محل لها من الاعراب وقوله تعالى نوحيه اليك جملة مستقلة مبينة للاولى وقيل
الخبر هو الجملة الثانية ومن انباء الغيب اما متعلق بنوحيه او حال من ضميره اي نوحي من انباء
الغيب ونوحيه حال كونه من جملة انباء الغيب وصيغة الاستقبال للايذان بان الوحي
لم ينقطع بعد وما كنت لديهم اي عند الذين اختلفوا وتنازعوا في تربية مريم وهو
تقرير وتحقيق لكونه وحيا على طريقة التهكم بمنكريه كما في قوله تعالى وما كنت بجانب الغربي
الاية وما كنت ثاويا في اهل مدين الاية فان طريق معرفة امثال هاتيك الحوادث والوقائعات
اما المشاهدة واما السماع وعدمه محقق عندهم فنفي احتمال المعاينة المستحيلة ضرورة
فنفيت تهكما بهم اذ يلقون اقلامهم ظرف للاستقرار العامل في لديهم واقلامهم
اقداحهم التي اقترعوا بها قيل اقترعوا باقلامهم التي كانوا يكتبون بها التورية تبركا
ايهم يكفل مريم متعلق بمحذوف دل عليه يلقون اقلامهم اي يلقونها ينظرون
او يعلموا ايهم يكفلها وما كنت لديهم اذ يختصمون اي في شأنها اوفي كفالتها
حسبما ذكر فيما سبق وتكرير ما كنت لديهم مع تحقق المقصود بعطف اذ يختصمون على اذ
يلقون كما في قوله عز وجل نحن اعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى للدلالة
على ان كل واحد من عدم حضوره صلى الله عليه وسلم عند القاء الاقلام وعدم حضوره عند
الاختصام مستقل بالشهادة على ان نبوته عليه السلام لا سيما اذا اريد باختصامهم
تنازعهم قبل الاقتراع فان تغيير الترتيب في الذكر مؤكد له اذ قالت الملائكة شروع
في قصة عيسى عليه السلام وهو بدل من واذ قالت الملائكة منصوب بناصبه وما بينهما اعتراض
جيء به تقريرا لما سبق وتنبيها على استقلاله وكونه حقيقا بان يعد على حياله من شواهد النبوة
وترك العطف بينهما بناء على اتحاد المخاطب والمخاطب ايذانا بتقارن الخطابين او تقاربهما
في الزمان وقيل منصوب بمضمر معطوف على ناصبه وقيل بدل من اذ يختصمون كانه قيل
ما كنت حاضرا في ذلك الزمان المديد الذي وقع في طرف منه الاختصام وفي طرف
اخر هذا الخطاب اشعارا باحاطته عليها السلام بتفاصيل احوال مريم من اولها الى
اخرها والقائل جبريل عليه السلام وايراد صيغة الجمع لما مر يا مريم ان الله يبشرك
بكلمة منه من لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لكلمة اي بكلمة كائنة
منه عز وجل اسمه ذكر الضمير الراجع الى الكلمة لكونها عبارة عن مذكر وهو مبتدا خبره
المسيح وقوله تعالى عيسى بدل منه او عطف بيان وقيل خبر اخر وقيل خبر مبتدا محذوف

وقيل منصوب باضمار اعني مدحا وقوله تعالى ابن مريم صفة لعيسى قيل المراد بالاسم ما به
يتميز المسمى عمن سواه فالخبر مجموع الثلثة اذ هو المميز له عليه السلام تمييزا عن جميع
ما عداه والمسيح لقبه عليه السلام وهو من الالقاب المشرفة كالصديق واصله بالعبرية مشيحا
ومعناه المبارك وعيسى معرب من ايشوع والتصدي لاشتقاقهما من المسح والعيس وتعليله
بانه عليه السلام مسح بالبركة او بما يطهره من الذنوب او مسحه جبريل عليهما السلام او
مسح الارض ولم يقم في موضع او كان عليه السلام يمسح ذا العاهة فيبرأ وبانه كان في لونه
عيس اي بياض يعلوه حمرة من قبيل الرقم على الماء وانما قيل ابن مريم مع كون الخطاب لها
تنبيها على انه يولد من غير اب فلا ينسب الا الى امه وبذلك فضلت على نساء العالمين
وجيها في الدنيا والآخرة الوجيه ذو الجاه وهو القوة والمنعة والشرف وهو حال مقدرة
من كلمة فانها وان كانت نكرة لكنها صالحة لان ينتصب بها الحال وتذكيرها باعتبار المعنى
والوجاهة في الدنيا النبوة والتقدم على الناس وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة
في الجنة ومن المقربين اي من الله عز وجل قيل هو اشارة الى رفعه الى السماء وصحبة
الملائكة وهو عطف على الحال الاولى وقد عطف عليه قوله تعالى ويكلم الناس
في المهد وكهلا اي يكلمهم حال كونه طفلا وكهلا كلام الانبياء من غير تفاوت والمهد
مصدر سمي به ما يمهد للصبي اي يسوى من مضجعه وقيل انه رفع شابا والمراد
وكهلا بعد نزوله وفي ذكر احواله المختلفة المتنافية اشارة الى انه بمعزل من الالوهية
ومن الصالحين حال اخرى من كلمة معطوفة على الاحوال السالفة او من الضمير في
يكلم قالت استيناف مبني على السؤال كانه قيل فماذا قالت مريم حين قالت الملائكة
ما قالت فقيل قالت متضرعة الى ربها رب انى يكون اي كيف يكون او من اين يكون لي
ولد على وجه الاستبعاد العادي والتعجب واستعظام قدرة الله عز وجل وقيل على
وجه الاستفهام والاستفسار بانه بالتزوج او بغيره ويكون اما تامة وانى واللام
متعلقتان بها وتاخير الفاعل عن الجار لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر
ويجوز ان يتعلق اللام بمحذوف وقع حالا من ولد اذ لو تاخر لكان صفة له واما ناقصة
واسمها ولد وخبرها انى واللام متعلقة بمضمر وقع حالا كما مر وانى نصب على الظرفية
وقوله تعالى ولم يمسسني بشر جملة محققة للاستبعاد اي والحال اني على حالة منافية
للولادة قال استيناف كما سلف والقائل هو الله تعالى او جبريل ع م كذلك الله يخلق
ما يشاء الكلام في اعرابه كما مر في قصة زكريا بعينه خلا ان ايراد يخلق ههنا
مكان يفعل هناك لما ان ولادة العذراء من غير ان يمسها بشر ابدع واغرب من ولادة عجوز
عاقر من شيخ فان فكان الخلق المنبئ عن الاختراع انسب بهذا المقام من مطلق زايد من ههنا
الشرط محذوف لانصباب المعنى اليه او دلالة المذكور عليه اي انفعتكم بها ان كنتم ممن
يتاتى منهم الايمان دالتكم على صحة رسالتي والايمان بها ومصدقا لما بين يديه من
التورية عطف على المضمر الذي تعلق به قوله تعالى بآية اي قد جئتكم ملتبسا بآية ومصدقا لما بين الخ
او على رسولا على الوجوه الثلثة فان مصدقا فيه معنى النطق كما في رسولا اي ويجعله مصدقا
ناطقا باني اصدق الخ او ويقول ارسلت رسولا باني قد جئتكم الخ ومصدقا الخ او حال كونه
مصدقا ناطقا باني اصدق الخ او منصوب باضمار فعل دل عليه قد جئتكم مصدقا الخ وقوله
تعالى من التورية اما حال من الموصول والعامل مصدقا واما من ضميره المستتر في الظرف الواقع
صلة والعامل الاستقرار المضمر في الظرف او نفس الظرف لقيامه مقام الفعل ولاحل لكم
معمول لمضمر دل عليه ما قبله اي وجئتكم لاحل الخ وقيل عطف على معنى مصدقا كقولهم
جئته معتذرا ولاجتلب رضاه كانه قيل قد جئتكم لاصدق ولاحل الخ وقيل عطف على
بآية من ربكم ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم اي في شريعة موسى عليه السلام
من الشحوم والثروب والسمك ولحوم الابل والعمل في السبت قيل احل لهم من السمك والطير
ما لا صيصية له واختلف في احلال السبت وقرئ حرم على تسمية الفاعل وهو ما بين يديه او الله عز
وجل وقرئ حرم بوزن كرم وهذا يدل على ان شرعه كان ناسخا لبعض احكام الخ هنا زايد

الفعل

الفعل ولو لك عقب بيان كيفيته فقيل اذا قضى امرا من الامور اي اراد شيئا كما في قوله
تعالى انما امره اذا اراد شيئا واصل القضاء الاحكام اطلق على الارادة الالهية القطعية المتعلقة
بوجود الشيء لايجابها اياه البتة وقيل الامر ومنه قوله تعالى وقضى ربك فانما يقول له
كن فيكون من غير ريث وهو كما ترى تمثيل لكمال قدرته تعالى وسهولة تاتي المقدورات
حسبما تقتضيه مشيئته وتصوير لسرعة حدوثها بما هو علم فيها من طاعة المامور المطيع
للامر القوي المطاع وبيان لانه تعالى كما يقدر على خلق الاشياء مدرجا باسباب ومواد
معتادة يقدر على خلقها دفعة من غير حاجة الى شيء من الاسباب والمواد ويعلمه الكتاب
اي الكتابة وجنس الكتب الالهية والحكمة اي العلوم وتهذيب الاخلاق والتورية
والانجيل افرادهما بالذكر على تقدير كون المراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة لزيادة
فضلهما وانافتهما على غيرهما والجملة عطف على يبشرك او على وجيها او على يخلق وهو
كلام مبتدأ سيق تطييبا لقلبها وازاحة لما اهمها من خوف الملامة لما علمت انها تلد من غير
زوج وقرئ ونعلمه بالنون ورسولا الى بني اسرائيل منصوب بمضمر يقود اليه المعنى معطوف
على يعلمه اي ويجعله رسولا الى بني اسرائيل اي كلهم وقال بعض اليهود انه مبعوث الى قوم
مخصوصين ثم قيل كان رسولا حالة الصبى وقيل بعد البلوغ وكان اول انبياء بني اسرائيل
يوسف وآخرهم عيسى عليهما السلام وقيل اولهم موسى وآخرهم عيسى
عليهما السلام وقوله تعالى اني قد جئتكم معمول لرسولا لما فيه من معنى النطق اي رسولا
ناطقا باني الخ وقيل منصوب بمضمر معمول لقول مضمر معطوف على يعلمه اي ويقول ارسلت
رسولا باني قد جئتكم الخ وقيل معطوف على الاحوال السابقة ولا يقدح فيه كونها
في حكم الغيبة مع كون هذا في حكم التكلم لما عرفت من ان فيه معنى النطق كانه قيل حال
كونه وجيها ورسولا ناطقا باني الخ وقرئ ورسول بالجر عطفا على كلمة والباء في قوله
تعالى بآية متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل الفعل على انها للملابسة والتنوين
للتفخيم دون الوحدة لظهور تعددها وكثرتها وقرئ بآيات او بجئتكم على انها للتعدية
ومن في قوله تعالى من ربكم لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لآية اي
وقد جئتكم ملتبسا بآية عظيمة كائنة من ربكم او اتيتكم آية عظيمة منه تعالى
والتعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لتاكيد ايجاب الامتثال بما
سيأتي من الاوامر وقوله تعالى اني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير بدل من قوله
تعالى اني قد جئتكم ومحلها النصب على نزع الجار عند سيبويه والفراء والجر على راي الخليل
والكسائي او بدل من آية وقيل منصوب بفعل مقدر اي اعني اني الخ وقيل مرفوع على انه خبر
مبتدأ محذوف اي هي اني اخلق لكم وقرئ بكسر الهمزة على الاستيناف اي اقدر لكم اي
لاجل تحصيل ايمانكم ودفع تكذيبكم اياي من الطين شيئا مثل صورة الطير فانفخ فيه
الضمير للكاف اي في ذلك الشيء المماثل بهيئة الطير وقرئ فانفخ فيها على ان الضمير للهيئة المقدرة
اي اخلق لكم من الطين هيئة كهيئة الطير فانفخ فيها فيكون طيرا حيا طيارا كسائر
الطيور باذن الله بامره تعالى اشار بذلك الى ان احياءه من الله تعالى لا منه قيل
لم يخلق غير الخفاش لانه اكمل الطير خلقا وابلغ دلالة روي انه عليه السلام لما ادعى
النبوة واظهر المعجزات طالبوه بخلق خفاش فاخذ طينا وصوره ونفخ فيه فاذا هو يطير
بين السماء والارض قال وهب كان يطير ما دام الناس ينظرون اليه فاذا غاب عن اعينهم
يسقط ميتا ليتميز من خلق الله تعالى قيل انما طلبوا خلق الخفاش لانه اكمل الطير خلقا وابلغ
دلالة على قدرته لان له ثديا واسنانا وهي تحيض وتطهر وتلد كسائر الحيوان وتضحك
كما يضحك الانسان ويطير بغير ريش ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل وانما
يرى في ساعتين ساعة بعد الغروب وساعة بعد طلوع الفجر وقيل خلق انواعا من
الطير وابرئ الاكمه اي الذي ولد اعمى او ممسوح العين والابرص المبتلى بالبرص
لم يكن العرب تنفر من شيء نفرتها منه يقال له الوضح ايضا وتخصيص هذين الدائين لانهما
مما اعيى الاطباء وكانوا في غاية الحذاقة في زمنه عليه السلام فاراهم الله تعالى المعجزة

من ذلك الجنس روي انه ربما كان يجتمع عليه السلام الوف من المرضى من اطاق منهم اتاه
ومن لم يطق اتاه عيسى عليه السلام وما يداويه الا بالدعاء واحيي الموتى باذن
الله كرره مبالغة في دفع وهم من توهم فيه اللاهوتية قال الكلبي كان عليه السلام يحيي
الموتى بيا حي يا قيوم احيى عازر وكان صديقا له فعاش وولد له ومر على ابن عجوز ميت
فدعا الله تعالى فنزل على سريره حيا ورجع الى اهله وبقي وولد له ولد وبنت العاشر
احياها وولدت بعد ذلك فقالوا انك تحيي من كان قريب العهد من الموت فلعلهم
لم يموتوا بل اصابهم سكتة فاحي لنا سام ابن نوح فقال دلوني على قبره ففعلوا فقام
على قبره فدعا الله عز وجل فقام من قبره وقد شاب راسه فقال عليه السلام كيف شبت ولم
يكن في زمانكم شيب قال يا روح الله لما دعوتني سمعت صوتا يقول اجب روح الله فظننت
ان الساعة قد قامت فمن هول ذلك شبت فسأله عن النزع قال يا روح الله ان مرارته لم
تذهب من حنجرتي وكان بينه وبين موته اكثر من اربعة الاف سنة وقال للقوم صدقوه فانه
نبي فامن بعضهم وكذبه آخرون فقالوا هذا سحر فارنا اية فقال يا فلان اكلت كذا ويا فلان
خبئ لك كذا وذلك قوله وانبئكم بما تاكلون وما تدخرون في بيوتكم اي بالمغيبات
من احوالكم التي لا تشكون فيها وقرئ تذخرون بالذال والتخفيف ان في ذلك اشارة الى ما
ذكر من الامور العظام لآية عظيمة وقرئ لآيات لكم دالة على صحة رسالتي دلالة
واضحة ان كنتم مؤمنين جواب الشرط محذوف لانصباب المعنى اليه ودلالة المذكور
عليه اي انتفعتم بها او ان كنتم ممن يتاتى منهم الايمان دلتكم على صحة رسالتي والايمان
بها ومصدقا لما بين يدي من التورية عطف على الضمير الذي تعلق به قوله تعالى باية اي قد
جئتكم ملتبسا باية الخ وعلى رسولا على الاوجه الثلاثة فان مصدقا فيه معنى
النطق كما في رسولا اي ويجعله مصدقا ناطقا باني اصدق الخ او يقول ارسلت رسولا باني
قد جئتكم الخ ومصدقا الخ او حال كونه مصدقا ناطقا باني اصدق الخ او منصوب باضمار
فعل دل عليه قد جئتكم اي وجئتكم مصدقا الخ وقوله من التورية اما حال من الموصول
والعامل مصدقا واما من ضميره المستتر في الظرف الواقع صلة والعامل الاستقرار المضمر
في الظرف او نفس الظرف لقيامه مقام الفعل ولاحل لكم معمول لمضمر دل عليه ما قبله
اي وجئتكم لاحل الخ وقيل عطف على معنى مصدقا كقولهم جئته معتذرا ولاجتلب رضاه
كانه قيل جئتكم لاصدق ولاحل الخ وقيل عطف على باية اي جئتكم باية من ربكم ولاحل
لكم بعض الذي حرم عليكم اي في شريعة موسى عليه السلام من الشحوم والثروب
والسمك ولحوم الابل والعمل في السبت قيل احل لهم من السمك والطير ما لا صيصة
له واختلف في احلال السبت وقرئ حرم على تسمية الفاعل وهو ما بين يدي او الله عز وجل
وقرئ حرم بوزن كرم وهذا يدل على ان شرعه كان ناسخا لبعض احكام التورية ولا يخل
ذلك بكونه مصدقا لها لما ان النسخ في الحقيقة بيان وتخصيص في الازمان وتاخير المفعول
من الجار والمجرور لما مر مرارا من ان المبادرة الى ذكر ما يسر المخاطبين والتشويق الى ما
اخر وجئتكم باية من ربكم شاهدة على صحة رسالتي وقرئ بآيات فاتقوا الله في عدم
قبولها ومخالفة مدلولها واطيعون فيما آمركم به وانهاكم عنه بامر الله تعالى وتلك الاية
هي قوله ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فانه الحق الصريح الذي اجمع عليه
الرسل قاطبة فتكون اية بينة على انه عليه السلام من جملتهم وقرئ ان الله بالفتح بدلا
من آية او قد جئتكم باية على ان الله ربي وربكم وقوله تعالى فاتقوا الله واطيعون اعتراض
والظاهر انه تكرير لما سبق اي قد جئتكم باية بعد آية مما ذكرت لكم من خلق الطير وابراء
الاكمه والاحياء والانباء بالخفيات وبغيره من ولادتي بغير اب ومن كلامي في المهد ومن
غير ذلك والاول لتمهيد الحجة والثاني لتقريبها الى الحكم ولذلك رتب عليه بالفاء قوله تعالى
فاتقوا الله واطيعون اي لما جئتكم بالمعجزات الباهرة والايات الظاهرة فاتقوا الله في
المخالفة واطيعون فيما ادعوكم اليه ومعنى قراءة من فتح ولان الله ربي وربكم فاعبدوه
كقوله تعالى لايلاف قريش ثم شرع في الدعوة واشار اليها بالقول المجمل فقال ان الله

ربي وربكم اشارة الى استكمال القوة العلمية النظرية بالاعتقاد الحق الذي غايته التوحيد وقال
فاعبدوه اشارة الى استكمال القوة العملية فانه بملازمة الطاعة التي هي الاتيان بالاوامر والنواهي
والانتهاء عن المناهي ثم قرر ذلك بان بين ان الجمع بين الامرين هو الطريق المشهود له
بالاستقامة ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم قل امنت ثم استقم فلما احس عيسى منهم الكفر
شروع في بيان ما آل اليه احواله عليه السلام اثر ما اشير الى طرف منها بطريق النقل عن الملئكة والفاء
فصيحة تفصح عن تحقق جميع ما قالته الملائكة عليهم السلام وخروجه من القوة الى الفعل حسبما
شرحته كما في قوله تعالى فلما راه مستقرا عنده بعد قوله تعالى انا اتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك
كانه قيل فحملت به فولدته فكان كيت وكيت وقال ذيت وذيت وانما لم يذكر اكتفاء بحكاية الملائكة
وايذانا بعدم الخلف وثقة بما فصل في المواضع الاخر واما عدم نظم بقية احواله عليه
السلام في سلك النقل فاما للاعتناء بامرها او لعدم مناسبتها لمقام البشارة لما فيها من
ذكر مقاساته عليه السلام للشدائد ومعاناته للمكابدة والمراد بالاحساس الادراك القوي
الجاري مجرى المشاهدة وبالكفر اصرارهم عليه وعتوهم ومكابرتهم فيه مع العزيمة على
قتله عليه السلام كما ينبئ عنه الاحساس فانه انما يستعمل في امثال هذه المواقع عند كون متعلقه
امرا محذورا مكروها كما في قوله عز وجل فلما احسوا باسنا اذا هم منها يركضون وكلمة
من متعلقة باحس والضمير المجرور لبني اسرائيل اي ابتداء الاحساس من جهتهم وتقديم الجار
والمجرور على المفعول الصريح لما مر غير مرة من الاعتناء به والتشويق الى المؤخر وقيل متعلقة
بمحذوف وقع حالا من الكفر قال اي لخلص اصحابه لا لجميع بني اسرائيل لقوله تعالى كما قال
عيسى بن مريم للحواريين الاية وقوله تعالى فامنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة ليس
بنص في توجيه الخطاب الى الكل بل يكفي فيه بلوغ الدعوة اليهم من انصاري الى الله
جمع نصير كاشراف جمع شريف الى الله متعلق بمحذوف وقع حالا من الياء اي من انصاري
متوجها الى الله ملتجئا اليه او بانصاري مضمنا معنى الاضافة كانه قيل من الذين يضيفون
انفسهم الى الله عز وجل ينصرونني كما ينصرني وقيل الى بمعنى في اي في سبيل الله وقيل بمعنى
اللام وقيل بمعنى مع قال استيناف مبني على السؤال ينساق اليه الذهن كانه قيل فماذا
قالوا في جوابه عليه السلام فقيل قال الحواريون جمع حواري يقال فلان حواري
اي صفوته وخالصته من الحور وهو البياض الخالص ومنه الحواريات للحضريات لخلوص الوانهن
ونقائهن سمي به اصحاب عيسى عليه السلام لخلوص نياتهم ونقاء سرائرهم وقيل لما
عليهم من آثار العبادة وانوارها وقيل كانوا ملوكا يلبسون البيض وذلك ان واحدا من
الملوك صنع طعاما وجمع الناس عليه وكان عيسى عم على قصعة لا يزال ياكل منها ولا تنقص
فذكروا ذلك للملك فاستدعاه عليه السلام فقال له من انت قال عيسى ابن مريم وترك
ملكه فتبعه مع اقاربه فاولئك هم الحواريون وقيل كانوا صيادين يصطادون السمك
يلبسون الثياب البيض فيهم شمعون ويعقوب ويوحنا فمر بهم عيسى عم فقال لهم انتم
تصيدون السمك فان اتبعتموني صرتم بحيث تصيدون الناس بالحيوة الابدية قالوا
من انت قال عيسى بن مريم عبد الله ورسوله فطلبوا منه المعجزة وكان شمعون قد رمى
شبكته تلك الليلة فما اصطاد شيئا فامر عيسى عم بالقائها في الماء مرة اخرى ففعل فاجتمع
في الشبكة من السمك ما كادت تتمزق واستعانوا باهل سفينة اخرى وملأوا السفينتين
فعند ذلك آمنوا بعيسى عم وقيل كانوا اثني عشر رجلا آمنوا به عليه السلام واتبعوه
وكانوا اذا جاعوا قالوا جعنا يا روح الله فيضرب بيده الارض فيخرج منها لكل واحد رغيفان
واذا عطشوا قالوا عطشنا فيضرب بيده الارض فيخرج منها الماء فيشربون فقالوا من
افضل منا قال عليه السلام افضل منكم من يعمل بيده وياكل من كسبه فصاروا يغسلون
الثياب بالاجرة فسموا حواريين وقيل ان امه سلمته الى صباغ فاراد الصباغ يوما ان
يشتغل ببعض مهماته فقال له عليه السلام ههنا ثياب مختلفة قد جعلت لكل واحد منها
علامة معينة فاصبغها بتلك الالوان فغاب فجعل عم كلها في جب واحد وقال كوني باذن
الله كما اريد فرجع الصباغ فسأله فاخبره بما صنع فقال افسدت علي الثياب قال قم فانظر

فجعل يخرج ثوبا احمر وثوبا اصفر وثوبا اخضر الى ان اخرج الجميع على احسن ما يكون حسبما كان
يريد فتعجب منه الحاضرون وآمنوا به عليه السلام وهم الحواريون قال القفال ويجوز ان
يكون بعض هؤلاء الحواريين الاثني عشر من الملوك وبعضهم من صيادي السمك وبعضهم
من القصارين وبعضهم من الصباغين والكل سموا بالحواريين لانهم كانوا انصار
عيسى عليه السلام واعوانه والمخلصين في طاعته ومحبته نحن انصار الله اي انصار
دينه ورسوله آمنا بالله استئناف جار مجرى العلة لما قبله فان الايمان به تعالى موجب لنصرة
دينه والذب عن اوليائه والمحاربة مع اعدائه واشهد بانا مسلمون مخلصون
في الايمان منقادون لما تريد منا من نصرتك طلبوا منه عليه السلام الشهادة بذلك
يوم القيمة يوم تشهد الرسل عليهم لاممهم وعليهم ايذانا بان مرمى غرضهم الشهادة
الاخروية ربنا آمنا بما انزلت تضرع الى الله عز وجل وعرض لحالهم عليه تعالى بعد
عرضها على الرسول مبالغة في اظهار امرهم واتبعنا الرسول اي في كل ما يأتي ويذر
من امور الدين فيدخل فيه الاتباع في النصرة دخولا اوليا فاكتبنا مع الشاهدين اي مع
الذين يشهدون بوحدانيتك او مع الانبياء الذين يشهدون لاتباعهم او مع امة محمد
صلى الله عليه وسلم فانهم شهداء على الناس قاطبة وهو حال من مفعول اكتبنا ومكروا اي
الذين علم عيسى عليه السلام كفرهم من اليهود بان وكلوا به من يقتله غيلة ومكر الله
بان رفع عيسى عم والقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل والمكر من حيث انه في
الاصل حيلة يجلب بها غيره الى مضرة لا يمكن اسناده اليه سبحانه الا بطريق المشاكلة روي
عن ابن عباس رضه ان ملك بني اسرائيل لما قصد قتله عليه السلام امر جبريل عليه السلام
ان يدخله في روزنة فرفعه جبريل عليه السلام من تلك الروزنة الى السماء فقال الملك لرجل
خبيث منهم ادخل عليه فاقتله فدخل البيت فالقى الله عز وجل شبهه عليه فخرج يخبرهم
انه ليس في البيت فقتلوه وصلبوه وقيل انه عليه السلام جمع الحواريين ليلة واوصاهم
ثم قال ليكفرن بي احدكم قبل ان يصيح الديك ويبيعني بدراهم يسيرة فخرجوا وتفرقوا
وكانت اليهود تطلبه فنافق احدهم فقال لهم ما تجعلون لي ان دللتكم على المسيح فجعلوا له
ثلثين درهما فاخذها ودلهم عليه فالقى الله عز وجل عليه شبه عيسى عم ورفعه الى السماء
فاخذوا المنافق وهو يقول انا دليلكم فلم يلتفتوا الى قوله وصلبوه ثم قالوا وجهه يشبه وجه
عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبنا فان كان هذا صاحبنا فاين عيسى فان كان هذا عيسى
فاين صاحبنا فوقع بينهم قتال عظيم وقيل لما صلب المصلوب جاءت مريم ومعها
امرأة ابرأها الله من الجنون بدعاء عيسى عم وجعلتا تبكيان على المصلوب فانزل الله
عيسى عم فجاءهما فقال على من تبكيان قالتا عليك فقال ان الله رفعني ولم يصبني الا خير وان
هذا شيء شبه لهم قال محمد بن اسحاق ان اليهود عذبوا الحواريين بعد رفع عيسى عليه السلام
ولقوا منهم الجهد فبلغ ذلك ملك الروم وكان ملك اليهود من رعيته فقيل له ان رجلا
من بني اسرائيل ممن تحت امرك كان يخبرهم انه رسول الله واراهم احياء الموتى وابراء الاكمه
والابرص وفعل ما فعل لو علمت ذلك ما خليت بينهم وبينه ثم بعث الى الحواريين
فانتزعهم من ايديهم وسألهم عن عيسى عم فاخبروه فبايعهم على دينهم وانزل المصلوب
فغيبه واخذ الخشبة فاكرمها ثم غزا بني اسرائيل وقتل منهم خلقا عظيما ومنه ظهر اصل
النصرانية في الروم ثم جاء بعده ملك آخر يقال له طيطوس وغزا بيت المقدس بعد رفع
عيسى عم بنحو من اربعين سنة فقتل وسبى ولم يترك في مدينة بيت المقدس حجرا
على حجر فخرج عند ذلك قريظة والنضير الى الحجاز قال اهل التواريخ حملت مريم بعيسى عليه
السلام ولها ثلاث عشرة سنة وولدته ببيت لحم من ارض اوري شلم لمضي خمس و
ستين سنة من غلبة الاسكندر على ارض بابل واوحى الله تعالى اليه على رأس ثلثين سنة
ورفعه اليه من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلثين سنة و
عاشت امه بعد رفعه ست سنين والله خير الماكرين اقواهم مكرا وانفذهم كيدا واقدرهم
على ايصال الضرر من حيث لا يحتسب واظهار الجلالة في موقع الاضمار لتربية المهابة والجلالة

تذييل

تذييل مقرر لمضمون ما قبله اذ قال الله ظرف لمكر الله او لمضمر نحو وقع ذلك يا عيسى اني متوفيك
اي مستوفي اجلك ومؤخرك الى اجلك المسمى عاصما لك من قتلهم او قابضك من الارض من توفيت مالي او
متوفيك نائما اذ روي انه رفع وهو نائم وقيل مميتك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن او مميتك
من الشهوات العائقة عن العروج الى عالم الملكوت وقيل اماته الله سبع ساعات ثم رفع الى السماء واليه
ذهبت النصارى قال القرطبي والصحيح ان الله تعالى رفعه من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد وهو اختيار الطبري
وهو الصحيح عن ابن عباس رضه واصل القصة ان اليهود لما عزموا على قتله عم اجتمع الحواريون وهم اثنا عشر رجلا
في غرفة فدخل عليهم المسيح من مشكوة الغرفة فاخبر بهم ابليس جميع اليهود فركب منهم اربعة
آلاف فاخذوا باب الغرفة فقال المسيح للحواريين ايكم يخرج ويقتل ويكون معي في الجنة فقال
واحد منهم انا يا نبي الله فالقى عليه مدرعة من صوف وعمامة من صوف وناوله عكازه
والقي عليه شبه عيسى عم فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه واما عيسى عم فكساه الله الريش
والنور والبسه النور وقطع عنه شهوة المطعم والمشرب وذلك قوله تعالى اني متوفيك
فطار مع الملائكة ثم ان اصحابه حين رأوا ذلك تفرقوا ثلث فرق فقالت فرقة كان الله فينا
ثم صعد الى السماء وهم اليعقوبية وقالت فرقة اخرى كان فينا ابن الله ثم رفعه الله اليه
وهم النسطورية وقالت فرقة اخرى منهم كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم
رفعه الله اليه وهؤلاء المسلمون فتظاهرت عليهم الفرقتان الكافرتان فقتلوهم فلم
يزل الاسلام منطمسا الى ان بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم ورافعك الي اي الى
محل كرامتي ومقر ملائكتي ومطهرك من الذين كفروا اي من سوء جوارهم وخبث
صحبتهم ودنس معاشرتهم وجاعل الذين اتبعوك قال قتادة والربيع والشعبي ومقاتل والكلبي
هم اهل الاسلام الذين صدقوه واتبعوا دينه من امة محمد صلى الله عليه وسلم دون الذين
كذبوه وكذبوا عليه من النصارى فوق الذين كفروا وهم الذين مكروا به عليه السلام و
من تسير بسيرتهم من اليهود فان اهل الاسلام فوقهم ظاهرين بالعزة والمنعة والحجة وقيل
هم الحواريون فينبغي ان يحمل فوقيتهم على فوقية المسلمين بحكم الاتحاد في الاسلام والتوحيد
وقيل هم الروم وقيل هم النصارى فالمراد بالاتباع مجرد الادعاء والمحبة والا فاولئك
الكفرة بمعزل من اتباعه عليه السلام الى يوم القيمة غاية للجعل او للاستقرار المقدر في
الظرف لا على معنى ان الجعل او الفوقية ينتهي حينئذ ويتخلص الكفرة من الذلة بل على معنى
ان المسلمين يعلونهم الى تلك الغاية فاما بعدها فيفعل الله بهم ما يريد ثم الي مرجعكم
اي رجوعكم بالبعث وثم للتراخي وتقديم الجار والمجرور للقصر المفيد لتأكيد الوعد والوعيد
والضمير لعيسى عم وغيره من المتبعين له والكافرين به على تغليب المخاطب على الغائب في ضمن
الالتفات فانه ابلغ في التبشير والانذار فاحكم بينكم يومئذ اثر رجوعكم الي فيما
كنتم فيه تختلفون من امور الدين وفيه متعلق بتختلفون وتقديمه عليه لرعاية
الفواصل فاما الذين كفروا فاعذبهم عذابا شديدا تفسير للحكم الواقع بين
الفريقين وتفصيل لكيفيته والبداية ببيان حال الكفرة لما ان مساق الكلام لتهديدهم
وزجرهم عما هم عليه من الكفر والفساد وقوله تعالى في الدنيا والآخرة متعلق
باعذبهم لا بمعنى ايقاع كل واحد من التعذيب في الدنيا والتعذيب في الآخرة واحدا منهما
يوم القيمة لا بمعنى انهما مجموعهما يومئذ وقيل ان المرجع اعم من الدنيوي والاخروي
وقوله تعالى الى يوم القيمة غاية للفوقية لا للجعل والرجوع متراخ من الجعل وهو غير
محدود لا من الفوقية المحدودة على نهج قولك ساعيرك سكنى هذا البيت شهرا ثم
اخلع عليك بجعله لزم تأخر الخلع عن الاعادة لا عن الشهر وما لهم من ناصرين
يخلصونهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة وصيغة الجمع لمقابلة ضمير الجمع اي
ليس لواحد منهم ناصر واحد واما الذين آمنوا بما ارسلت به وعملوا الصالحات
كما هو دين المؤمنين فيوفيهم اجورهم اي يعطيهم اياها كاملة ولعل الالتفات
الى الغيبة للايذان بما بين مصدري التعذيب والاثابة من الاختلاف من حيث الجلال
والجمال وقرئ فنوفيهم جريا على سنن العظمة والكبرياء والله لا يحب الظالمين اي

يبغضهم فان هذه الكناية فاشية في جميع اللغات جارية مجرى الحقيقة وايراد الظلم
للاشعار بانهم بكفرهم متعدون متجاوزون عن الحدود واضعون للكفر مكان الشكر
والايمان والجملة تذييل لما قبله مقرر لمضمونه ذلك اشارة الى ما سلف من نبأ عيسى
عليه السلام وما فيه من معنى البعد للدلالة على عظم شان المشار اليه وبعد منزلته في
الشرف وعلى كونه في ظهور الامر ونباهة الشان بمنزلة المشاهد المعاين وهو مبتدأ وقوله
عز وعلا نتلوه خبره وقوله تعالى عليك متعلق بنتلوه وقوله تعالى من الآيات حال من
الضمير المنصوب او خبر بعد خبر او هو الخبر وما بينهما حال من اسم الاشارة او ذلك
خبر لمبتدأ مضمر اي الامر ذلك ونتلوه حال كما مر وصيغة الاستقبال اما لاستحضار
الصورة او على معناها اذ التلاوة لم يتم بعد والذكر الحكيم المشتمل على الحكم
او المحكم الممنوع من تطرق الخلل اليه والمراد به القران فمن تبعيضية او بعض مخصوص منه
فمن بيانية وقيل هو اللوح المحفوظ فمن ابتدائية ان مثل عيسى اي شانه البديع المنتظم
لغرابته في سلك الامثال عند الله اي في تقديره وحكمه كمثل آدم اي كحاله العجيبة
التي لا يرتاب فيها مرتاب ولا ينازع فيها منازع خلقه من تراب تفسير لما ابهم في المثل
وتفصيل لما اجمل فيه وتوضيح للتمثيل ببيان وجه التشبيه بينهما وحسم لمادة شبه
الخصوم فان انكار خلق عيسى عم بلا اب ممن اعترف بخلق آدم عم بغير اب وام مما لا يكاد
يصح والمعنى قالبه خلق من تراب ثم قال له كن اي انشاه بشرا كقوله تعالى ثم
انشاناه خلقا آخر او قدره من التراب ثم كونه ويجوز كون ثم لتراخي الاخبار لا لتراخي
المخبر به فيكون حكاية حال ماضية روي ان وفد نجران قالوا لرسول الله
صلى الله عليه وسلم ما لك تشتم صاحبنا قال وما اقول قالوا تقول انه عبد قال اجل هو
عبد الله ورسوله وكلمته القاها الى العذراء البتول فغضبوا وقالوا هل رايت انسانا
من غير اب فحيث سلمت انه لا اب له من البشر وجب ان يكون ابوه هو الله تعالى فقال صلى الله
عليه وسلم ان آدم عليه السلام ما كان له اب وام ولم يلزم من ذلك كونه ابنا
لله سبحانه وتعالى فكذا حال عيسى عم الحق من ربك خبر لمبتدأ محذوف اي هو
الحق اي ما قصصنا عليك من نبأ عيسى عم وامه والظرف اما حال اي كائنا من ربك
او خبر ثان اي كائن منه تعالى وقيل هما مبتدأ وخبر اي الحق المذكور من الله تعالى و
التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطب لتشريفه عم والايذان بان
تنزيل هذه الآيات الحقة الناطقة بكنه الامر تربية له عليه السلام ولطف به فلا تكن
من الممترين في ذلك والخطاب اما للنبي صلى الله عليه وسلم على طريقة الالهاب والتهييج
لزيادة التثبت والاشعار بان الامتراء في المحذورية بحيث ينبغي ان ينهى عنه من
لا يكاد يمكن صدوره عنه فكيف بمن هو بصدد الامتراء واما لكل من له صلاحية
الخطاب فمن حاجك اي من النصارى اذ هم المتصدون للمحاجة فيه اي في شان
عيسى عم وامه زعما منهم انه ليس على الشان المحكي من بعد ما جاءك من العلم
اي ما يوجبه ايجابا قطعيا من الآيات البينات وسمعوا ذلك منك فلم يرعووا عما هم
عليه من الغي والضلال فقل لهم تعالوا اي هلموا بالراي والعزيمة ندع ابناءنا
وابناءكم اكتفى بهم عن ذكر البنات لظهور كونهم اعز منهن واما تعلقهن من [margin: التمام]
جهة اخرى ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم اي ليدع كل منا ومنكم
نفسه واعزة اهله والصقهم بقلبه الى المباهلة ويحملهم عليها وتقديمهم على النفس
في اثناء المباهلة التي هي من باب المهالك ومظان التلف مع ان الرجل يخاطرهم
بنفسه ويحارب دونهم للايذان بكمال امنه صلى الله عليه وسلم وتمام ثقته بامره وقوة
يقينه بان لن يصيبهم في ذلك شائبة مكروه اصلا وهو السر في تقديم جانبه
صلى الله عليه وسلم على جانب المخاطبين في كل من المقدم والمؤخر مع رعاية
الاصل في الصيغة فان غير المتكلم تبع له في الاسناد ثم نبتهل اي نتباهل بان
نلعن الكاذب منا والبهلة بالضم والفتح اللعنة واصلها الترك من قولهم بهلت

الناقة اي تركتها بلا صرار فنجعل لعنة الله على الكاذبين عطف على نبتهل مبين لمعناه
روي انهم لما دعوا الى المباهلة قالوا حتى نرجع وننظر فلما تخالفوا قالوا للعاقب وكان
ذا رايهم يا عبد المسيح ما ترى قال والله لقد عرفتم يا معشر النصارى ان محمدا نبي مرسل
ولقد جاءكم بالفصل من امر صاحبكم والله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم
ولئن فعلتم لتهلكن فان ابيتم الا الف دينكم والاقامة على ما انتم عليه فوادعوا الرجل
وانصرفوا الى بلادكم فاتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضنا الحسين آخذا
بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي خلفهما رضي الله عنهم اجمعين اذا انا دعوت فامنوا
فقال اسقف نجران يا معشر النصارى اني لارى وجوها لو شاء الله تعالى ان يزيل جبلا من
مكانه لازاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الارض نصراني الى يوم القيمة
فقالوا يا ابا القاسم راينا ان لا نباهلك وان نقرك على دينك ونثبت على ديننا قال صلى الله
عليه وسلم فاذا ابيتم المباهلة فاسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما على المسلمين
فابوا قال فاني اناجزكم فقالوا ما لنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على ان لا تغزونا
ولا تردنا عن ديننا على ان نؤدي اليك كل عام الفي حلة الفا في صفر والفا في رجب وثلثين
درعا عادية من حديد فصالحهم على ذلك وقال والذي نفسي بيده ان الهلاك قد تدلى
على وفد اهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي نارا
ولاستاصل الله نجران واهله حتى الطير على رؤس الشجر ولما حال الحول على النصارى
كلهم حتى هلكوا ان هذا ما قص من نبأ عيسى وامه لهو القصص الحق
دون ما عداه من اكاذيب النصارى فهو ضمير الفصل دخلته اللام لكونه اقرب
الى المبتدأ من الخبر واصلها ان تدخل المبتدأ وقرئ لهو بسكون الهاء والقصص خبر
ان وخبره والحق صفته او هو مبتدأ والقصص خبره والجملة خبر لان وما من اله الا
الله صرح فيه بمن الاستغراقية تاكيدا للرد في تبكيتهم وان الله لهو العزيز
القادر على جميع المقدورات الحكيم المحيط بالمعلومات لا احد يشاركه
في القدرة والحكمة ليشاركه في الالوهية فان تولوا عن التوحيد وقبول الحق الذي
عليك بعد ما عاينوا تلك الحجج النيرة والبراهين الساطعة فان الله عليم بالمفسدين
اي بهم واغا وضع موضعه ما وضع للايذان بان الاعراض عن التوحيد والحق الذي
لا محيد عنه بعد ما قامت به الحجج افساد للعالم وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى قل
يا اهل الكتاب امر بخطاب اهل الكتابين وقيل بخطاب وفد نجران وقيل بخطاب يهود
المدينة تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم لا يختلف فيها الرسل والكتب
وهي ان لا نعبد الا الله اي نوحده بالعبادة ونخلص فيها ولا نشرك به شيئا
اي لا نجعل غيره شريكا له في استحقاق العبادة ولا نراه اهلا لان يعبد ولا يتخذ بعضنا
بعضا اربابا من دون الله بان نقول عزير ابن الله والمسيح ابن الله ولا نطيع الاحبار
فيما احدثوا من التحريم والتحليل لان كلا منهم بعضنا بشر مثلنا روي انه لما نزلت
اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله قال عدي بن حاتم ما كنا نعبدهم
يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم اليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتاخذون
بقولهم قال نعم قال عليه الصلوة والسلام هو ذاك فان تولوا عما دعوتهم اليه
من التوحيد وترك الاشراك فقولوا اي قل لهم انت والمؤمنون اشهدوا بانا مسلمون
اي لزمتكم الحجة فاعترفوا بانا مسلمون دونكم او اعترفوا بانكم كافرون لما نطقت
به الكتب وتطابقت عليه الرسل عليهم السلام تنبيه انظر الى ما روعي في هذه القصة
من المبالغة في الارشاد وحسن التدرج في المحاجة حيث بين اولا احوال عيسى عم وما
توارد عليه من الاطوار المنافية للالهية ثم ذكر كيفية دعوته للناس الى التوحيد والاسلام
فلما ظهر عنادهم دعوا الى المباهلة بنوع من الاعجاز ثم لما اعرضوا عنها وانقادوا
بعض الانقياد دعوا الى ما اتفق عليه عيسى عم والانجيل وسائر الانبياء والكتب ثم لما
ظهر عدم اجدائه ايضا امر بان يقال لهم اشهدوا بانا مسلمون يا اهل الكتاب من

اليهود والنصارى لم تحاجون في ابراهيم اي في ملته وشريعته تنازعت اليهود والنصارى
في ابراهيم عليه السلام وزعم كل منهم انه عليه السلام وترافعوا الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فنزلت والمعنى لم تدعون انه عليه السلام كان منكم وما انزلت التورية
على موسى ع م والانجيل على عيسى ع م الا من بعده حيث كان بينه وبين
موسى عليهما السلام الف سنة وبين موسى وعيسى عليهما السلام الفا سنة فكيف
يمكن ان يتفوه به عاقل افلا تعقلون اى الا تتفكرون فلا تعقلون بطلان مذهبكم
او تقولون ذلك فلا تعقلون بطلانه ها انتم هؤلاء جملة من مبتدا وخبر صدرت
بحرف التنبيه ثم بينت بجملة مستانفة اشعارا بكمال غفلتهم اي انتم هؤلاء الاشخاص
الحمقى حيث حاججتم فيما لكم به علم في الجملة حيث وجدتموه في التورية والانجيل
فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم اصلا اذ لا ذكر لدين ابراهيم في احد الكتابين
قطعا وقيل هؤلاء بمعنى الذي وحاججتم صلته وقيل ها انتم اصله ءانتم على
الاستفهام للتعجب قلبت الهمزة هاء والله يعلم ما حاججتم فيه او كل شيء فيدخل
فيه ذلك دخولا اوليا وانتم لا تعلمون اي محل النزاع او شيئا من الاشياء
التي من جملتها ذلك ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا تصريح بما نطق به
البرهان المقرر ولكن كان حنيفا اي مائلا عن العقائد الزائغة كلها مسلما
اى منقادا لله تعالى وليس المراد انه كان على ملة الاسلام والا لاشترك الالزام
وما كان من المشركين تعريض بانهم مشركون بقولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله
ورد لادعاء المشركين انهم على ملته عليه السلام ان اولى الناس بابراهيم
اي اقربهم واخصهم به للذين اتبعوه اي في زمانه وهذا النبي و
الذين امنوا لموافقتهم في اكثر ما شرعه لهم على الاصالة وقرئ النبي بالنصب
عطفا على الضمير في اتبعوه وبالجر عطفا على ابراهيم والله ولي المؤمنين ينصرهم
ويجازيهم الحسنى بايمانهم وتخصيص المؤمنين بالذكر ليثبت الحكم في النبي ع م بدلالة النص
ودت طائفة من اهل الكتاب لو يضلونكم نزلت في اليهود حين دعوا حذيفة
وعمارا ومعاذا الى اليهودية ولو بمعنى ان وما يضلون الا انفسهم جملة حالية جيء
بها للدلالة على كمال رسوخ المخاطبين وثباتهم على ما هم عليه من الدين القويم اي وما
يتخطاهم الاضلال ولا يعود وباله الا اليهم لما انه يضاعف به عذابهم وقيل وما
يضلون الا انفسهم ويأباه قوله وما يشعرون اي باختصاص وباله وضرره بهم
يا اهل الكتاب لم تكفرون بايات الله اى بما نطقت به التورية والانجيل ودلت
على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وانتم تشهدون اى والحال انكم تشهدون
انها ايات الله او بالقران وانتم تشهدون نعته في الكتابين او تعلمون بالمعجزات انه حق
يا اهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل بتحريفكم وابراز الباطل في صورته او بالتقصير
في التمييز بينهما وقرئ تلبسون بالتشديد وتلبسون بفتح الباء اي تلبسون الحق بالباطل كما
في قوله عليه السلام كلابس ثوبي زور وتكتمون الحق اي نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته
وانتم تعلمون اي حقيقته وقالت طائفة من اهل الكتاب وهم رؤساؤهم
ومفسدوهم لاعقابهم امنوا بالذي انزل على الذين امنوا اى اظهروا الايمان
بالقران المنزل عليهم وجه النهار اي اوله واكفروا اخره اي اظهروا ما انتم عليه
من الكفر به اخره مرائين لهم انكم امنتم به بادي الرأي من غير تامل ثم تاملتم فيه
فوقفتم على خلل رايكم الاول فرجعتم عنه لعلهم اي المؤمنين يرجعون عما هم
عليه من الايمان به كما رجعتم والمراد بالطائفة كعب بن الاشرف ومالك بن الصيف قالا
لاصحابهما لما حولت القبلة امنوا بما انزل عليهم من الصلوة المكتوبة الى الكعبة وصلوا
اليها اول النهار ثم صلوا الى الصخرة اخره لعلهم يقولون هم اعلم منا وقد رجعوا فيرجعون
وقيل هم اثنا عشر رجلا من احبار خيبر تقاولوا بان يدخلوا في الاسلام اول النهار
ويقولوا اخره نظرنا في كتابنا وشاورنا علماءنا فلم نجد محمدا صلى الله عليه وسلم بالنعت

الذي ورد في التوراة لعل اصحابه يشكون فيه ولا تؤمنوا اي لا تقروا بتصديق قلبي الا
لمن اتبع دينكم اي لاهل دينكم او لا تظهروا ايمانكم وجه النهار الا لمن كان على دينكم
من قبل فان رجوعهم ارجى واهم قل ان الهدى هدى الله يهدي به من يشاء
الى الايمان ويثبته عليه ان يؤتى احد مثل ما اوتيتم متعلق بمحذوف اى دبرتم
ذلك وقلتم لان يؤتى احد مثل ما اوتيتم او بلا تؤمنوا اي ولا تظهروا ايمانكم بان يؤتى
احد مثل ما اوتيتم الا لاشياعكم ولا تفشوه الى المسلمين لئلا يزيد ثباتهم ولا الى المشركين
لئلا يدعوهم الى الاسلام وقوله ان الهدى هدى الله اعتراض مفيد لكون كيدهم غير
مجد لطائل او خبر ان على ان هدى الله بدل من الهدى وقرئ ان يؤتى على ان الاستفهام
التقريري وهو مؤيد للوجه الاول اي الان يؤتى احد الخ دبرتم وقرئ ان على انها نافية
فيكون من كلام الطائفة اي ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم وقولوا لهم ما يؤتى احد
مثل ما اوتيتم او يحاجوكم عند ربكم عطف على ان يؤتى على الوجهين الاولين وعلى الثالث
معناه حتى يحاجوكم عند ربكم فيدحضوا حجتكم والواو ضمير احد لانه في معنى الجمع اذ المراد
غير اتباعهم قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم رد
لهم وابطال لما زعموا بالحجة الباهرة يختص برحمته اى مقصورة على من يشاء والله
ذو الفضل العظيم كلاهما تذييل لما قبله مقرر لمضمونه ومن اهل الكتاب
شروع في بيان خيانتهم في المال بعد بيان خيانتهم في الدين والجار والمجرور في محل الرفع
على الابتداء حسبما مر تحقيقه في تفسير قوله ومن الناس من يقول الخ وقوله تعالى من ان
تأمنه بقنطار يؤده اليك على ان المقصود بيان اتصافهم بمضمون الجملة الشرطية
لا كونهم ذوات المذكورين كانه قيل بعض اهل الكتاب بحيث ان تأمنه بقنطار اي بمال كثير
يؤده اليك كعبد الله بن سلام استودعه قرشي الفا ومائتي اوقية ذهبا فاداه اليه
ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك كفنحاص بن عازوراء استودعه قرشي اخر دينارا فجحده
وقيل المأمونون على الكثير النصارى اذ الغالب فيهم الامانة والخائنون في القليل اليهود اذ الغالب فيهم
الخيانة الا ما دمت عليه قائما استثناء مفرغ من اعم الاحوال او الاوقات اي لا يؤده
اليك في حال من الاحوال او في وقت من الاوقات الا في حال دوام قيامك او في وقت دوام
قيامك على رأسه مبالغا في مطالبته بالتقاضي واقامة البينة ذلك اشارة الى ترك
الاداء المدلول عليه بقوله تعالى لا يؤده وما فيه من معنى البعد للايذان بكمال غلوهم في
الشر والفساد بانهم اي بسبب انهم قالوا ليس علينا في الاميين اي في شان من ليس من
اهل الكتاب سبيل اي عتاب ومؤاخذة ويقولون على الله الكذب بادعائهم ذلك
وهم يعلمون انهم كاذبون على الله تعالى مفترون على الله تعالى وذلك لانهم استحلوا ظلم من خالفهم
وقالوا لم يجعل في التورية في حقهم حرمة وقيل عامل اليهود رجالا من قريش فلما اسلموا تقاضوهم
فقالوا سقط حقكم حيث تركتم دينكم وزعموا انه كذلك في كتابهم وعن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال عند نزولها كذب اعداء الله ما من شيء في الجاهلية الا هو تحت قدمي الا الامانة
فانها مؤداة الى البر والفاجر بلى اثبات لما نفوه اي بلى عليهم فيهم سبيل وقوله تعالى من اوفى
بعهده واتقى فان الله يحب المتقين استئناف مقرر للجملة التي سدت بلى مسدها والضمير المجرور
لمن او لله تعالى وعموم المتقين نائب مناب الراجع من الجزاء الى من ومشعر بان التقوى ملاك
الامر عام للوفاء وغيره من اداء الواجبات والاجتناب عن المناهي ان الذين يشترون اي
يستبدلون ويأخذون بعهد الله اى بدل ما عاهدوا من الايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم
والوفاء بالامانات وايمانهم وبما حلفوا به من قولهم لنؤمنن به ولننصرنه ثمنا قليلا
هو حطام الدنيا اولئك الموصوفون بتلك الصفات القبيحة لا خلاق لا نصيب لهم
في الاخرة من نعيمها ولا يكلمهم الله اى بما يسرهم او بشيء اصلا وانما يقع ما يقع من
السؤال والتوبيخ والتقريع في اثناء الحساب من الملائكة عليهم السلام او لا ينتفعون بكلمات الله تعالى
واياته والظاهر انه كناية عن شدة غضبه وسخطه نعوذ بالله تعالى من ذلك لقوله تعالى ولا
ينظر اليهم يوم القيمة فانه مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم متفرع على الكناية في حق

من يجوز عليه النظر لان من اعتدّ بالانسان التفت اليه واعاره نظر عينيه ثم كثر حتى صار عبارة
عن الاعتداد والاحسان وان لم يكن ثمة نظر ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجردا لمعنى الاحسان
مجازا عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر ويوم القيمة متعلق بالفعلين وفيه تهويل
للوعيد ولا يزكيهم اي لا يثني عليهم ولا يطهرهم من اوضار الاوزار ولهم
عذاب اليم على ما فعلوه من المعاصي قيل انها نزلت في ابي رافع ولبابة بن ابي الحقيق
وحيي بن اخطب حرفوا التورية وبدلوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم واخذوا
الرشوة على ذلك وقيل نزلت في الاشعث بن قيس حيث كان بينه وبين رجل نزاع في بئر
فاختصما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له شاهداك او يمينه فقال الاشعث
اذن يحلف ولا يبالي فقال صلى الله عليه وسلم من حلف على يمين يستحق بها مالا هو فيها فاجر
لقي الله وهو عليه غضبان وقيل في رجل اقام سلعة في السوق فحلف لقد اشتراها به
وان منهم اي من اليهود المحرفين لفريقا ككعب بن الاشرف ومالك بن الصيف و
اضرابهما يلوون السنتهم بالكتاب اي يفتلونها بقراءته فيميلونها من المنزل الى المحرف
او يعطفونها بشبه الكتاب وقرئ يلوّون بالتشديد ويلون بقلب الواو المضمومة همزة
ثم تخفيفها بحذفها والقاء حركتها على ما قبلها من الساكن لتحسبوه اي المحرف المدلول عليه
بقوله تعالى يلوون الخ وقرئ بالياء والضمير للمسلمين من الكتاب اي من جملته وقوله تعالى
وما هو من الكتاب حال من الضمير المنصوب اي والحال انه ليس منه في نفس الامر وفي
اعتقادهم ايضا ويقولون مع ما ذكر من اللي والتحريف على طريقة التصريح لا بالتورية
والتعريض هو اي المحرف من عند الله اي منزل من عند الله وما هو من عند الله
حال من ضمير المبتدا في الخبر اي والحال انه ليس من عنده تعالى في اعتقادهم ايضا وفيه من المبالغة
في تشنيعهم وتقبيح امرهم وكمال جراءتهم ما لا يخفى واظهار الاسم الجليل والكتاب في محل
الاضمار لتهويل ما اقدموا عليه من القول ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون
انهم كاذبون ومفترون على الله تعالى وهو تاكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله تعالى والتعمد
فيه وعن ابن عباس رضي الله عنهما هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الاشرف وغيروا التورية وكتبوا
كتابا بدلوا فيه صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم اخذت قريظة ما كتبوا فخلطوا بالكتاب
الذي عندهم ما كان لبشر بيان لافترائهم على الانبياء عليهم السلام حيث قالوا
نصارى نجران ان عيسى عليه السلام امرنا ان نتخذه ربا حاشاه عليه السلام وابطال له اثر بيان
افترائهم على الله سبحانه وابطاله اي ما صح وما استقام لاحد وانما قيل لبشر اشعارا
بعلة الحكم فان البشرية منافية للامر الذي اسند الكفرة اليهم ان يؤتيه الله الكتاب
الناطق بالحق الامر بالتوحيد الناهي عن الاشراك والحكم الفهم والعلم والحكمة وهي السنة
والنبوة ثم يقول ذلك البشر بعد ما شرفه الله عز وجل بما ذكر من التشريفات وعرفه الحق
واطلعه على شؤونه العالية للناس كونوا عبادا لي الجار متعلق بمحذوف هو صفة عبادا
اي عبادا كائنين لي من دون الله متعلق بلفظ عبادا لما فيه من معنى الفعل او صفة ثانية
له ويحتمل الحالية لتخصص النكرة بالوصف اي متجاوزين الله تعالى سواء كان ذلك استقلالا
او اشتراكا فان التجاوز متحقق فيهما حتما قيل ان ابا رافع القرظي والسيد النجراني
قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اتريد ان نعبدك ونتخذك ربا فقال عليه السلام معاذ
الله ان نعبد غير الله وان نأمر بعبادة غيره تعالى فما بذلك بعثني ولا بذلك امرني فنزلت
وقيل قال رجل من المسلمين يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض افلا نسجد
لك قال عليه الصلوة والسلام لا ينبغي لاحد ان يسجد من دون الله ولكن اكرموا نبيكم واعرفوا
الحق لاهله ولكن كونوا اي ولكن يقول كونوا ربانيين الرباني منسوب الى الرب بزيادة
الالف والنون كاللحياني والرقباني وهو الكامل في العلم والعمل الشديد التمسك بطاعة
الله ودينه بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون اي بسبب مثابرتكم على تعليم
الكتاب ودراسته اي قراءته فان جعل خبر كان مضارعا للافادة الاستمرار التجددي وفي
تكرير بما كنتم للايذان باستقلال كل من استمرار التعليم واستمرار القراءة بالفضل وتحصيل الربانية

وتقديم التعليم على الدراسة لزيادة شرفه عليها او لان الخطاب الاول لرؤسائهم والثاني
لمن دونهم وقرئ تعلمون بمعنى عالمين وتدرسون من التدريس وتدرسون من الادراس
بمعنى التدريس كاكرم بمعنى كرّم ويجوز ان يكون القراءة المشهورة ايضا بهذا المعنى
على تقدير بما تدرسونه على الناس ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين
اربابا بالنصب عطفا على ثم يقول ولا مزيدة لتاكيد معنى النفي في قوله تعالى
ما كان لبشر اي ما كان لبشر ان يستنبئه الله تعالى ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ويأمر
او يأمر باتخاذ الملائكة والنبيين اربابا وتوسيط الاستدراك بين المعطوفين للمسارعة
الى تحقيق الحق ببيان ما يليق بشانه ويحق صدوره عنه اثر تنزيهه عما لا يليق به و
يمتنع صدوره عنه واما ما قيل من انها غير مزيدة على معنى انه ليس له ان يأمر بعبادته
ولا يأمر باتخاذ اكفائه اربابا بل ينهى عنه وهو ادنى من العبادة فيقضي بفساده ما ذكر
من توسيط الاستدراك بين الجملتين المتعاطفتين ضرورة انهما في حكم جملة واحدة
وكذا قوله تعالى ايأمركم بالكفر فانه صريح في ان المراد بيان انتفاء كلا الامرين قصدا لا بيان
انتفاء الاول لانتفاء الثاني ويعضده قراءة الرفع على الاستيناف وتجويز الحالية بتقدير المبتدا
اي وهو لا يأمركم الخ بين الفساد لما عرفت آنفا وقوله تعالى بعد اذ انتم مسلمون يدل
على ان الخطاب للمسلمين وهم المستاذنون للسجود له عليه السلام واذ اخذ الله ميثاق
النبيين منصوب بمضمر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم اي اذكر وقت اخذه تعالى ميثاقهم
لما اتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قيل
هو على ظاهره واذا كان هذا حكم الانبياء كان الامم بذلك اولى واحرى وقيل معناه اخذ
الميثاق من النبيين واممهم واستغنى بذكرهم وقيل اضافة الميثاق الى النبيين اضافته
الى الفاعل والمعنى واذ اخذ الله الميثاق الذي وثقه الانبياء على اممهم وقيل المراد
اولاد النبيين على حذف المضاف وهم بنو اسرائيل وسماهم نبيين تهكما بهم لانهم
كانوا يقولون نحن اولى بالنبوة من محمد صلى الله عليه وسلم لانا اهل الكتاب والنبيون
كانوا منا واللام في لما موطئة للقسم لان اخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف وما يحتمل الشرطية
ولتؤمنن ساد مسد جواب القسم والشرط ويحتمل الخبرية وقرئ بالكسر على ان ما
مصدرية اي لاجل ايتائي اياكم بعض الكتاب ثم لمجيء رسول مصدق اخذ الله الميثاق
لتؤمنن به ولتنصرنه او موصولة والمعنى اخذه للذي آتيتكموه وجاءكم رسول مصدق
له وقرئ لما بمعنى حين آتيتكم او لمن اجل ما آتيتكم على ان اصله لمن ما بالادغام فحذف
احدى الميمات الثلث استثقالا قال اي الله تعالى ما اخذ الميثاق أأقررتم بما ذكر و
اخذتم على ذلكم اصري اي عهدي سمي به لانه يؤصر اي يشد وقرئ بضم الهمزة و
هي اما لغة فيه كعبر وعبر او جمع اصار وهو ما يشد به قالوا استيناف مبني على السؤال
كانه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا اقررنا وانما لم يذكر اخذهم الاصر
اكتفاء بذلك قال تعالى فاشهدوا اي فليشهد بعضكم لبعض بالاقرار وقيل
الخطاب فيه للملائكة وانا معكم من الشاهدين اي وانا ايضا على اقراركم ذلك
وتشاهدكم شاهد وادخال مع على المخاطبين لما انهم المباشرون للشهادة حقيقة
وفيه من التاكيد والتحذير ما لا يخفى فمن تولى اي اعرض عما ذكر بعد ذلك الميثاق
والتوكيد بالاقرار والشهادة ومعنى البعد في اسم الاشارة لتفخيم الميثاق
فاولئك اشارة الى من والجمع باعتبار المعنى كما ان الافراد في تولى
باعتبار اللفظ وما فيه من معنى البعد للدلالة على ترامي هم في السوء وبعد
منزلتهم في الشر والفساد اي فاولئك المتولون المتصفون بالصفات القبيحة هم
الفاسقون المتمردون الخارجون عن الطاعة من الكفرة فان الفاسق من كل طائفة
من كان متجاوزا عن الحد افغير دين الله يبغون عطف على مقدر اي ايتولون فيبغون
غير دين الله وتقديم المفعول لانه المقصود انكاره او على الجملة المتقدمة والهمزة متوسطة
بينهما للانكار وقرئ بتاء الخطاب على تقدير وقيل لهم وله اسلم من في السموات

والارض جملة حالية مفيدة لوكادة الانكار طوعًا وكرهًا اي طايعين بالنظر واتباع
الحجة وكارهين بالسيف و معاينة ما يلجئ الى الاسلام كنتق الجبل وادراك الغرق والاشراف
على الموت او مختارين كالملائكة والمؤمنين و مسخرين كالكفرة فانهم لا يقدرون على الامتناع
عما قضي عليهم واليه ترجعون اي من فيها والجمع باعتبار المعنى و قرئ بتاء
الخطاب والجملة اما معطوفة على ما قبلها منصوبة على الحالية واما مستانفة سيقت
للتهديد والوعيد قل امنا بالله امر للرسول صلى الله عليه وسلم بان يخبر عن نفسه ومن
معه من المؤمنين بما ذكر وجمع الضمير في قوله تعالى وما انزل علينا وهو القران لما انه
منزل عليهم ايضا بتوسط تبليغه اليهم ولان المنسوب الى واحد من الجماعة قد ينسب الى
الكل او عن نفسه فقط وهو الانسب لما بعده والجمع لاظهار جلال قدره ورفعة محله
بامره بان يتكلم عن نفسه على ديدن الملوك و يجوز ان يكون الامر عاما والافراد لتشريفه صلعم
والايذان بانه عليه السلام اصل في ذلك كما في قوله تعالى يا ايها النبي اذا طلقتم النساء وما
انزل على ابراهيم واسمعيل واسحاق ويعقوب والاسباط من الصحف والنزول كما يعدى
بالى لانتهائه الى الرسل يعدى بعلى لانه من فوق ومن رام الفرق بان على لكون الخطاب للنبي صلى
الله عليه وسلم والى لكون الخطاب للمؤمنين فقد تعسف الا يرى الى قوله تعالى بما انزل
اليك الخ وقوله آمنوا بالذي انزل على الذين امنوا وانما قدم المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم
على ما انزل على سائر الرسل عليهم السلام مع تقدمه عليه نزولا لانه المعرف له والمعيار
عليه والاسباط جمع سبط وهو الحافد والمراد بهم حفدة يعقوب عليه السلام وابناؤه الاثنى
عشر وذرياتهم فانهم حفدة ابراهيم عليه السلام وما اوتي موسى وعيسى من التورية
والانجيل وسائر المعجزات الظاهرة بايديهما كما ينبئ عنه ايثار الايتاء على الانزال الخاص
بالكتاب تخصيصهما بالذكر لما ان الكلام مع اليهود والنصارى والنبيون عطف على موسى
وعيسى عليهما السلام اي بها اوتي النبيون من المذكورين وغيرهم من ربهم من الكتب
والمعجزات لا نفرق بين احد منهم كدأب اليهود والنصارى امنوا ببعض وكفروا ببعض
بل نؤمن بصحة نبوة كل منهم و بحقيقة ما انزل اليهم في زمانهم وعدم التعرض لنفي
التفريق بين الكتب لاستلزام المذكور اياه وقد مر تفصيله في تفسير قوله تعالى لا نفرق بين احد
من رسله وهمزة احد اما اصلية فهو اسم موضوع لمن يصلح ان يخاطب يستوي فيه المفرد
والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث و لذلك صح دخول بين عليه كما في مثل المال بين الناس
واما مبدلة من الواو فهو بمعنى واحد وعمومه لوقوعه في حيز النفي وصحة دخول
بين عليه باعتبار معطوف قد حذف لظهوره اي بين احد منهم و غيره كما في قول النابغة
فما كان بين الخير اذ جاء سالما ابو حجر الا ليال قلائل اي بين الخير وبيني ونحن له مسلمون
اي منقادون مخلصون له تعالى انفسنا لا نجعل له شريكا فيها وفيه تعريض بايمان اهل
الكتاب فانه بمعزل من ذلك ومن يبتغ غير الاسلام دينا اي غير التوحيد والانقياد
لحكم الله تعالى كدأب المشركين صريحا والمدعين للتوحيد مع اشراكهم كاهل الكتابين دينا
ينتحل اليه وهو نصب على انه مفعول ليبتغ وغير الاسلام حال منه لما انه كان صفة له
فلما قدمت عليه انتصبت حالا او هو المفعول ودينا تمييز لما فيه من الابهام او بدل من
غير الاسلام فلن يقبل ذلك منه ابدا بل يرد اشد رد واقبحه وقوله تعالى وهو
في الاخرة لمن الخاسرين اما حال من الضمير المجرور واستئناف لا محل له من الاعراب
اي من الواقعين في الخسران والمعنى ان المعرض عن الاسلام والطالب لغيره فاقد للنفع واقع
في الخسران بابطال الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها وفي ترتيب الرد والخسران على مجرد
الطلب دلالة على ان حال من تدين بغير الاسلام واطمأن بذلك افظع واقبح واستدل
به على ان الايمان هو الاسلام اذ لو كان غيره لم يقبل والجواب انه ينفي قبول كل دين يغايره
لا قبول كل ما يغايره كيف يهدي الله الى الحق قوما كفروا بعد ايمانهم قيل هم
عشرة رهط ارتدوا بعد ما امنوا ولحقوا بمكة وقيل هم يهود قريظة والنضير ومن دان
بدينهم كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد ان كانوا مؤمنين به قبل مبعثه وشهدوا ان الرسول

حتى وجاءهم

حق وجاءهم البينات استبعاد لان يهديهم الله تعالى فان الحائد عن الحق بعد ما وضح له منهمك
في الضلال بعيد عن الرشاد وقيل نفي وانكار له وذلك يقتضي ان لا يقبل توبة المرتد
وقوله تعالى وشهدوا عطف على ايمانهم باعتبار انحلاله الى جملة فعلية كما في قوله تعالى
ان المصدقين والمصدقات واقرضوا الله الخ فانه في قوة بعد ان امنوا وحال من
ضمير كفروا باضمار قد وهو دليل على ان الاقرار باللسان خارج عن حقيقة الايمان والله
لا يهدي القوم الظالمين اي الذين ظلموا انفسهم بالاخلال بالنظر ووضع الكفر
موضع الايمان فكيف من جاءهم الحق وعرفه ثم اعرض عنه والجملة اعتراضية او حالية
اولئك اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم بما مر من الصفات الشنيعة وما
فيه من معنى البعد لما مر مرارا وهو مبتداء وقوله تعالى جزاؤهم مبتداء ثان وقوله تعالى
ان عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين خبره والجملة خبر لاولئك وهذا يدل
بمنطوقه على جواز لعنهم وبمفهومه ينفي جواز لعن غيرهم ولعل الفرق بينهم وبين غيرهم
انهم مطبوع على قلوبهم ممنوعون من الهدى آيسون من الرحمة راسا بخلاف غيرهم
والمراد بالناس المؤمنون او الكل فان الكافر ايضا يلعن منكر الحق والمرتد عنه ولكن لا يعرف
الحق بعينه خالدين فيها في اللعنة والعقوبة او النار وان لم تذكر لدلالة الكلام عليها
لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون اي يمهلون الا الذين تابوا من بعد ذلك
اي من بعد الارتداد واصلحوا اي ما افسدوا او دخلوا في الصلاح
فان الله غفور رحيم فيقبل توبتهم ويتفضل عليهم وهو تعليل لما دل عليه الاستثناء
وقيل نزلت في حارث بن سويد حين ندم على ردته فارسل الى قومه ان يسئلوا هل لي
من توبة فارسل اليه اخوه الجلاس الاية فرجع الى المدينة فتاب ان الذين كفروا بعد ايمانهم
ثم ازدادوا كفرا كاليهود كفروا بعيسى والانجيل بعد الايمان بموسى والتورية ثم ازدادوا كفرا
بمحمد عم والقران او كفروا به عليه السلام بعد ما امنوا به قبل بعثته ثم ازدادوا كفرا بالاصرار
عليه والطعن فيه والصد عن الايمان ونقض الميثاق او كقوم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم ازدادوا كفرا
بقولهم نتربص بهم ريب المنون او نرجع اليه فننافقه باظهار الايمان لن تقبل توبتهم لانهم
لا يتولون الا عند اشرافهم على الهلاك فكنى عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظا في
شانهم وابرازا لحالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة او لان توبتهم لا تكون الا نفاقا لارتدادهم
وازديادهم كفرا ولذلك لم يدخل فيه الفاء واولئك هم الضالون الثابتون على الضلال
ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من احدهم ملء الارض ذهبا ولو افتدى به
لما كان الموت على الكفر سببا لامتناع قبول التوبة زيدت الفاء ههنا للاشعار به وملء
الشيء ما يملأ به وذهبا تمييز وقرئ بالرفع على انه بدل من ملء او خبر لمحذوف ولو افتدى
محمول على المعنى كانه قيل فلن يقبل من احدهم فدية ولو افتدى بملء الارض ذهبا او معطوف
على مضمر تقديره فلن يقبل من احدهم ملء الارض ذهبا لو تصدق به في الدنيا ولو افتدى
به من العذاب في الاخرة والمراد ولو افتدى بمثله كقوله تعالى ولو ان للذين ظلموا ما في الارض
جميعا ومثله معه والمثل يحذف ويراد كثيرا لان المثلين في حكم شيء واحد اولئك اشارة
الى المذكورين باعتبار اتصافهم بالصفات الشنيعة المذكورة لهم عذاب اليم هو لاسم الاشارة
مبتداء والظرف خبره ولاعتماده على المبتداء ارتفع به عذاب اليم على الفاعلية وما لهم من
ناصرين في رفع العذاب عنهم او في تخفيفه ومن مزيدة للاستغراق وصيغة الجمع لمراعاة
الضمير اي ليس لواحد منهم ناصر واحد لن تنالوا البر من ناله نيلا اذا اصابه والخطاب
للمؤمنين وهو كلام مستانف سيق لبيان ما ينفع المؤمنين ويقبل منهم اثر بيان ما لا ينفع
الكفرة ولا يقبل منهم اي لن تبلغوا حقيقة البر الذي تتنافس فيه المتنافسون ولن تدركوا
شاوه وتلحقوا بزمرة الابرار او تنالوا بر الله وهو ثوابه ورحمته ورضاه وجنته حتى
تنفقوا اي في سبيل الله عز وجل رغبة فيما عنده ومن في قوله تعالى مما تحبون تبعيضية ويؤيده
قراءة من قرأ بعض ما تحبون وقيل بيانية وما موصولة او موصوفة اي مما تهوون
ويعجبكم من كرائم اموالكم واحبها اليكم كما في قوله تعالى انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا

وغيرها من الاعمال والمحبة على ان المراد بالانفاق مطلق البذل وفيه من الايذان بعزة منال البر ما لا يخفى وكان السلف رضي الله عنهم اجمعين اذا احبوا شيئا جعلوه لله عز وجل وروي انها لما نزلت جاء ابو طلحة فقال يا رسول الله ان احب اموالي الي بيرحا فضعها يا رسول الله حيث اراك الله فقال صلى الله عليه وسلم بخ بخ ذاك مال رابح او رايح فاني ارى ان تجعلها في الاقربين فقسمها في اقاربه وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها فقال هذه في سبيل الله فحمل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم اسامة بن زيد فوجد في نفسه وقال انما اردت ان اتصدق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اما ان الله تعالى قد قبلها منك قيل وفيه دلالة على ان انفاق احب الاموال على اقرب الاقارب افضل وكتب عمر رضي الله عنه الى ابي موسى الاشعري رضي الله عنه ان يشتري له جارية من سبي جلولا يوم فتحت مدائن كسرى فلما جاءت اعجبته فقال ان الله تعالى يقول لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون فاعتقها وروي ان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كانت لزوجته جارية بارعة الجمال وكان عمر راغبا فيها وكان قد طلبها منها مرارا فلم تعطها اياه ثم لما ولي الخلافة زينتها وارسلتها اليه فقالت قد وهبتكها يا امير المؤمنين فلتخدمك قال من اين ملكتها قالت جئت بها من بيت ابي عبد الملك ففتش عن كيفية تملكه اياها فقيل انه كان على فلان العامل ديون فلما توفي اخذت من تركته ففتش عن حال العامل واحضر ورثته وارضاهم جميعا باعطاء المال ثم توجه الى الجارية وكان يهواها هوى شديدا فقال انت حرة لوجه الله تعالى فقالت يا امير المؤمنين وقد زحت عن امرها كل شبهة قال لست اذن ممن نهى النفس عن الهوى وما تنفقوا من شيء ما شرطية جازمة لتنفقوا منتصبة به على المفعولية ومن تبعيضية متعلقة بمحذوف هو صفة لاسم الشرط اي اي شيء تنفقوا كائن من الاشياء فان المفرد في مثل هذا الموضع واقع موقع الجمع وقيل محل الجار والمجرور النصب على التمييز اي اي شيء تنفقوا طيب تحبونه او خبيث تكرهونه فان الله به عليم تعليل لجواب الشرط واقع موقعه اي فيجازيكم بحسبه جيدا كان او رديئا فانه تعالى عليم بكل شيء تنفقونه علما كاملا بحيث لا يخفى عليه شيء من ذاته وصفاته وتقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل وفيه من الترغيب في انفاق الجيد والتحذير عن انفاق الردي ما لا يخفى كل الطعام اي كل افراد المطعوم وكل انواعه كان حلا لبني اسرائيل اي حلالا لهم فان الحل مصدر نعت به ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كما في قوله تعالى لا هن حل لهم الا ما حرم اسرائيل على نفسه استثناء متصل من اسم كان اي كل المطعومات كان حلالا لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل اي يعقوب عليه السلام على نفسه وهو لحوم الابل والبانها قيل كان به وجع النساء فنذر لئن شفي لا ياكل احب الطعام اليه وكان ذلك احبه اليه وقيل فعل ذلك للتداوي واشارة الاطباء واحتج به من جوز للنبي الاجتهاد وللمانع ان يقول كان ذلك باذن الله تعالى فيه وهو كتحريمه ابتداء من قبل ان تنزل التورية متعلق بقوله تعالى كان حلا ولا ضير في توسيط الاستثناء بينهما وقيل متعلق بحرم وفيه ان تقييد تحريمه عليه السلام بقبلية تنزيل التورية ليس فيه مزيد فائدة اي كان ما عدا المستثنى حلالا لهم قبل ان تنزل التورية مشتملة على تحريم ما حرم عليهم لظلمهم وبغيهم عقوبة وتشديدا وهو رد على اليهود في دعواهم البراءة عما نعى عليهم قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم وقوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر الايتين بان قالوا لسنا اول من حرمت عليه وانما كانت محرمة على نوح وابراهيم ومن بعده حتى انتهى الامر الينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا وتبكيت لهم في منع النسخ والطعن في دعوى الرسول صلى الله عليه وسلم موافقته لابراهيم عليه السلام بتحليله لحوم الابل والبانها قل فاتوا بالتورية فاتلوها امر عليه السلام بان يحاجهم بكتابهم الناطق بان تحريم ما حرم عليهم تحريم حادث مترتب على ظلمهم وبغيهم كلما ارتكبوا معصية من المعاصي التي اقترفوها حرم عليهم نوع من الطيبات عقوبة لهم ويكلفهم اخراجه وتلاوته ليبكتهم ويلقمهم الحجر ويظهر كذبهم واظهار اسم التورية لكون الجملة كلاما مع اليهود منقطعا

عما قبله

عما قبله وقوله تعالى ان كنتم صادقين اي في دعواكم انه تحريم قديم وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه اي ان كنتم صادقين فاتوا بالتورية فاتلوها فان صدقكم مما تدعونه الى ذلك البتة روي انهم لم يجسروا على اخراج التورية فبهتوا وانقلبوا صاغرين وفي ذلك من الحجة النيرة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم وجواز النسخ الذي يجحدون ما لا يخفى والجملة مستانفة مقررة لما قبلها فمن افترى على الله الكذب اي اختلقه عليه سبحانه بزعمه انه حرم ما ذكر قبل نزول التورية على بني اسرائيل ومن تقدمهم من الامم من بعد ذلك من بعد ما ذكر من امرهم باحضار التورية وتلاوتها وما ترتب عليه من التبكيت والالزام والتقييد به للدلالة على كمال القبح فاولئك اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة والجمع باعتبار معناه كما ان الافراد في الصلة باعتبار لفظه وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم في الضلال والطغيان اي فاولئك المصرون على الافتراء بعدما ظهرت حقيقة الحال وضاقت عليهم حلبة المحاجة والجدال هم الظالمون المفرطون في الظلم والعدوان المبعدون فيهما والجملة مستانفة لا محل لها من الاعراب مسوقة من جهته تعالى لبيان كمال عتوهم وقيل هي في محل النصب داخل تحت القول عطفا على قوله فاتوا بالتورية قل صدق الله اي ظهر وثبت صدقه تعالى فيما انزل في شان التحريم وقيل في قوله تعالى ما كان ابراهيم يهوديا الخ او صدق في كل شان من الشؤون وهو داخل في ذلك دخولا اوليا وفيه تعريض بكذبهم الصريح فاتبعوا ملة ابراهيم اي ملة الاسلام التي هي في الاصل ملة ابراهيم عليه السلام فانكم ما كنتم متبعين لملته كما تزعمون او فاتبعوا مثل ملته حتى تتخلصوا عن اليهودية التي اضطرتكم الى التحريف والمكابرة وتلفيق الاكاذيب لتسوية الاغراض الدنيوية والزمتكم تحريم طيبات محللة لابراهيم عليه السلام ومن تبعه وانما للدلالة على ان ظهور صدقه تعالى موجب للاتباع وترك ما كانوا عليه حنيفا اي مائلا عن الاديان الزائغة كلها وما كان من المشركين اي في امر من امور دينهم اصلا وفرعا وفيه تعريض باشراك اليهود وتصريح بانه عليه السلام ليس بينه وبينهم علاقة دينية قطعا والغرض بيان ان النبي صلى الله عليه وسلم على دين ابراهيم عليه السلام في الاصول لانه لا يدعو الا الى التوحيد والبراءة عن كل معبود سواه سبحانه وتعالى والجملة تذييل لما قبلها ان اول بيت وضع للناس شروع في بيان كفرهم ببعض آخر من شعائر ملته عليه السلام اثر بيان كفرهم بكون كل المطعومات حلالا له عليه السلام روي انهم قالوا بيت المقدس اعظم من الكعبة لانه مهاجر الانبياء وفي الارض المقدسة وقال المسلمون بل الكعبة اعظم فبلغ ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ان اول بيت وضع للعبادة وجعل متعبدا لهم والواضع هو الله تعالى ويؤيده القراءة على البناء للفاعل وقوله تعالى للذي ببكة خبر لان وانما اخبر بالمعرفة مع كون اسمها نكرة لتخصصها بسببين الاضافة والوصف بالجملة بعدها اي للبيت الذي ببكة اي فيها وفي ترك الموصوف من التفخيم ما لا يخفى وبكة لغة في مكة فان العرب تعاقب بين الباء والميم كما في قولهم ضربة لازب ولازم والنميط والنبيط في اسم موضع بالدهناء وقولهم امر راتب وراتم وسبد راسه وسمدها واغبطت الحمى واغمطت وهي علم للبلد الحرام من بكه اذا زحمه لازدحام الناس فيه وعن قتادة يبك الناس بعضهم بعضا او لانها تبك اعناق الجبابرة اي تدقها لم يقصدها جبار الا قصمه الله عز وجل وقيل بكة اسم لبطن مكة وقيل لموضع البيت وقيل للمسجد نفسه ومكة اسم للبلد كله وايد هذا بان التباك وهو الازدحام انما يقع عند الطواف وقيل مكة اسم للمسجد والمطاف وبكة اسم للبلد لقوله تعالى للذي ببكة روي انه عليه السلام سئل عن اول بيت وضع للناس فقال المسجد الحرام ثم بيت المقدس وسئل كم بينهما فقال اربعون سنة وقيل اول من بناه ابراهيم عليه السلام وقيل آدم عليه السلام وقد استوفينا ما فيه من الاقاويل في سورة البقرة وقيل اول بيت بالشرف لا بالزمان مباركا كثير الخير والنفع لما يحصل لمن حجه واعتمره واعتكف دونه وطاف حوله من

الثواب وتكفير الذنوب وهو حال من المستكن في الظرف لان التقدير للذي ببكة هو والعامل
فيه ما قدر في الظرف من فعل الاستقرار وهدى للعالمين لانه قبلتهم ومتعبدهم
ولان فيه آيات عجيبة دالة على عظم قدرته تعالى وبالغ حكمته كما قال فيه آيات بينات
واضحات كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الاعصار ومخالطة ضواري السباع
الصيود في الحرم من غير تعرض لها وقهر الله تعالى لكل جبار قصده بسوء كاصحاب الفيل
والجملة مفسرة للهدى او حال اخرى مقام ابراهيم اي اثر قدميه عليه السلام في
الصخرة التي كان عليه السلام يقوم عليها وقت رفع الحجارة لبناء الكعبة عند ارتفاعه
او عند غسل راسه على ما روي انه عم جاء زائرا من الشام الى مكة فقالت له امراة
اسمعيل عم انزل حتى اغسل راسك فلم ينزل فجاءته بهذا الحجر فوضعته على شقه الايمن
فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق راسه ثم حولته الى شقه الايسر حتى غسلت الشق
الاخر فبقي اثر قدميه عليه وهو اما مبتدأ حذف خبره اي منها مقام ابراهيم او بدل
آيات بدل البعض من الكل او عطف بيان اما وحده باعتبار كونه بمنزلة آيات كثيرة لظهور
شانه وقوة دلالته على قدرة الله تعالى وعلى نبوة ابراهيم عم كقوله تعالى ان ابراهيم كان
امة قانتا او باعتبار اشتماله على آيات كثيرة فان كل واحد من اثر قدمه في صخرة صماء وغوصه
فيها الى الكعبين والانة بعض الصخرة دون بعض وابقائه دون سائر آيات الانبياء
عليهم السلام وحفظه مع كثرة الاعداء الوف سنة آية مستقلة ويؤيده القراءة على
التوحيد واما بما يفهم من قوله عز وجل ومن دخله كان آمنا فانه وان كانت جملة مستانفة
ابتدائية او شرطية لكنها في قوة ان يقال وامن داخله فتكون بحسب المعنى والمال معطوفة
على مقام ابراهيم ولا يخفى ان الاثنين نوع من الجمع فيكتفى بذلك او يحمل على انه ذكر من تلك
الآيات اثنتان وطوى ذكر ما عداهما دلالة على كثرتها ومعنى امن داخله امنه من التعرض له
كما في قوله تعالى اولم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم وذلك بدعوة
ابراهيم عم رب اجعل هذا البلد آمنا وكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجا الى الحرم لم يطلب وعن عمر
رضه لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه ولذلك قال ابو حنيفة من لزمه
القتل في الحل بقصاص او ردة او زنى فالتجا الى الحرم لم يتعرض له الا انه لا يؤوى ولا يطعم
ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر الى الخروج وقيل امنه من النار وعن النبي عم من مات في احد
الحرمين بعث يوم القيمة امنا وعنه عليه السلام الحجون والبقيع يؤخذ باطرافهما وينثران
في الجنة وهما مقبرتا مكة والمدينة وعن ابن مسعود رضه وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم
على ثنية الحجون وليس بها يومئذ مقبرة فقال يبعث الله تعالى من هذه البقعة ومن هذا
الحرم كله سبعين الفا وجوههم كالقمر ليلة البدر يدخلون الجنة بغير حساب يشفع كل واحد
منهم في سبعين الفا وجوههم كالقمر ليلة البدر وعن النبي صلى الله عليه وسلم من صبر على
حر مكة ساعة من نهار تباعدت منه جهنم مسيرة مائتي عام ولله على الناس حج البيت
جملة من مبتدا هو حج البيت وخبر هو لله وقوله تعالى على الناس متعلق بما تعلق به الخبر من
الاستقرار او بمحذوف هو حال من الضمير المستكن في الجار والعامل فيه ذلك الاستقرار ويجوز
ان يكون على الناس هو الخبر ولله متعلق بما تعلق به الخبر ولا سبيل الى ان يتعلق بمحذوف
هو حال من الضمير المستكن في على الناس لاستلزامه تقديم الحال على العامل المعنوي وذلك
مما لا مساغ له عند الجمهور وقد جوزه ابن مالك اذا كانت هي ظرفا او حرف جر وعاملها
كذلك بخلاف الظرف وحرف الجر فانهما يتقدمان على عاملهما المعنوي واللام في البيت
للعهد وحجه قصده للزيارة على الوجه المخصوص المعهود وكسر الحاء لغة نجد وقيل هو
اسم للمصدر وقرئ بفتحها من استطاع اليه سبيلا في محل الجر على انه بدل من الناس
بدل البعض مخصص لعمومه فالضمير العائد الى المبدل منه محذوف اي من استطاع منهم وقيل
بدل الكل على ان المراد بالناس هو البعض المستطيع فلا حاجة الى الضمير وقيل في محل الرفع
على انه خبر مبتدا مضمر اي هم من استطاع الخ وقيل في حيز النصب بتقدير اعني وقيل
كلمة من شرطية والجزاء محذوف لدلالة المذكور عليه وكذا العائد الى الناس اي من استطاع

منهم

منهم اليه سبيلا فلله عليه حج البيت وقد رجح هذا بكون ما بعده شرطية والضمير المجرور في اليه
راجع الى البيت او الحج والجار متعلق بالسبيل قدم عليه اهتماما بشانه كما في قوله عز وجل
فهل الى خروج من سبيل وهل الى مرد من سبيل لما فيه من معنى الافضاء والايصال كيف لا
وهو عبارة عن الوسيلة من مال او غيره فانه قد روي عن انس بن مالك عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم انه قال السبيل الزاد والراحلة وروي ابن عمر رضي الله عنهما
ان رجلا قال يا رسول الله ما السبيل قال الزاد والراحلة وهو المراد بما روي انه عليه السلام
فسر الاستطاعة بالزاد والراحلة وهكذا روي عن ابن عباس وابن عمر رضي الله تعالى عنهم
وعليه اكثر العلماء وخلا ان الشافعي رح اخذ بظاهره فاوجب الاستنابة على الزمن
القادر على اجرة من ينوب عنه والظاهر ان عدم تعرضه عم لصحة البدن لظهور الامر كيف
لا والمفسر في الحقيقة هو السبيل الموصل لنفس المستطيع الى البيت وذا لا يتصور بدون الصحة
وعن ابن الزبير انه على قدر القوة ومذهب مالك ان الرجل اذا وثق بقوته لزمه وعنه
ذلك على قدر الطاقة وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر وقد يقدر عليه
من لا راحلة له ولا زاد وعن الضحاك انه اذا قدر ان يوجر نفسه فهو مستطيع ومن كفر
وضع من كفر موضع من لم يحج تاكيدا لوجوبه وتشديدا على تاركه قال عليه السلام
من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا او نصرانيا وروي على بن ابي طالب رضه انه عم
قال في خطبته ايها الناس ان الله فرض الحج على من استطاع اليه سبيلا ومن لم يفعل
فليمت على اي حال شاء يهوديا او نصرانيا او مجوسيا فان الله غني عن العالمين وعن
عبادتهم وحيث كان من كفر من جملتهم داخلا فيها دخولا اوليا اكتفى بذلك عن الضمير الرابط
بين الشرط والجزاء ولقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبارات المعربة عن كمال الاعتناء بامر
الحج والتشديد على تاركه ما لا مزيد عليه حيث اوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقق وابرزت
في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار على وجه يفيد انه حق واجب لله سبحانه في ذمم
الناس لا انفكاك لهم عن ادائه والخروج عن عهدته وسلك بهم مسلك التعميم ثم التخصيص و
الابهام ثم التبيين والاجمال ثم التفصيل لما في ذلك من مزيد تحقيق وتقرير وعبر عن تركه بالكفر
الذي لا قبيح وراءه وجعل جزاءه استغناءه تعالى المؤذن بشدة المقت وعظم السخط لا عن تاركه
فقط فانه قد ضرب عنه صفحا اسقاطا له عن درجة الاعتبار واستهجانا بذكره بل عن جميع العالمين
ممن فعل وترك ليدل على نهاية شدة الغضب هذا وقال ابن عباس رضه والحسن وعطاء ومن كفر اي جحد
فرض الحج وزعم انه ليس بواجب وعن سعيد بن المسيب نزلت في اليهود فانهم قالوا الحج الى مكة غير واجب
وروي انه لما نزل قوله تعالى ولله على الناس حج البيت جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم اهل الاديان
كلهم فخطبهم فقال ان الله كتب عليكم الحج فحجوا فامنت به ملة واحدة وهم المسلمون وكفرت به ملل
قالوا لا نؤمن به ولا نصلي اليه ولا نحجه فنزلت ومن كفر وعن النبي صلى الله عليه وسلم حجوا قبل ان لا تحجوا
فانه قد هدم البيت مرتين ويرفع الى السماء في الثالثة وروي حجوا قبل ان يمنع البر جانبه وعن ابن
مسعود رضه حجوا هذا البيت قبل ان ينبت في البادية شجرة لا تاكل منها دابة الا نفقت وعن عمر
رضه لو ترك الناس الحج عاما ما نوظروا قل يا اهل الكتاب هم اليهود والنصارى وانما خوطبوا
بعنوان اهل الكتاب الموجبة للايمان به وبما يصدقه من القرآن العظيم مبالغة في تقبيح حالهم
في كفرهم بهما وقوله عز وعلا لم تكفرون بآيات الله توبيخ وانكار لان يكون لكفرهم
بها سبب من الاسباب وتحقيق لما يوجب الاجتناب عنه بالكلية والمراد بآياته تعالى ما يعم
الآيات القرآنية التي من جملتها ما تلي في شان الحج وغيره وما في التورية والانجيل من
شواهد نبوته صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى والله شهيد على ما تعملون حال من فاعل
تكفرون مفيدة لتشديد التوبيخ وتاكيد الانكار واظهار الجلالة في موقع الاضمار لتربية المهابة
وتهويل الخطب وصيغة المبالغة في شهيد للتشديد في الوعيد وكلمة ما اما عبارة عن كفرهم
او هي على عمومها وهو داخل فيها دخولا اوليا والمعنى لاي سبب تكفرون بآياته عز وجل والحال
انه تعالى مبالغ في الاطلاع على جميع اعمالكم وفي مجازاتكم عليها ولا ريب في ان ذلك يسد جميع
انحاء ما تاتونه ويقطع اسبابه بالكلية قل يا اهل الكتاب امر بتوبيخهم بالاضلال اثر توبيخهم

بالضلال والتكرير للمبالغة في حمله عليه على تقريعهم وتوبيخهم وترك العطف على الامر السابق
للايذان باستقلالهما كما ان قطع قوله تعالى لم تصدون عن قوله تعالى لم تكفرون للاشعار بان
كل واحد من كفرهم وصدهم شناعة على حيالها مستقلة في استتباع اللائمة والتقريع وتكرير
الخطاب بعنوان اهلية الكتاب لتاكيد الاستقلال وتشديد التشنيع فان ذلك العنوان كما
يستدعي الايمان بما هو مصدق لما معهم يستدعي ترغيب الناس فيه فصدهم عنه في اقصى مراتب
القباحة ولكون صدهم في بعض الصور بتحريف الكتاب والكفر بالايات الدالة على نبوته عم وقرئ
تصدون من اصده عن سبيل الله اي دينه الحق الموصل الى السعادة الابدية وهو
التوحيد وملة الاسلام من امن مفعول لتصدون قدم عليه الجار والمجرور للاهتمام
به كانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدهم عنه ويمنعون من اراد الدخول
فيه بجهدهم ويقولون ان صفته عم ليست في كتابهم ولا تقدمت البشارة عندهم
وقيل اتت اليهود الاوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم في الجاهلية من
العداوات والحروب ليعودوا الى ما كانوا عليه تبغونها على اسقاط الجار وايصال
الفعل الى الضمير كما في قوله فتولى غلامهم ثم نادي اظليما اصيدكم ام حمارا يعني
اصيد لكم اي تطلبون لسبيل الله التي هي اقوم السبل عوجا اعوجاجا بان تلبسوا على
الناس وتوهموا ان فيه ميلا عن الحق بنفي النسخ وتغيير صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن وجهها ونحو ذلك والجملة حال من فاعل تصدون وقيل من سبيل الله وانتم
شهداء حال من فاعل تصدون باعتبار تقيده بالحال الاولى او من فاعل تبغونها
اي والحال انكم شهداء تشهدون بانها سبيل الله لا يحوم حولها شائبة اعوجاج
وان الصد عنها اضلال قال ابن عباس رضه اي شهداء ان في التورية ان دين الله
الذي لا يقبل غيره هو الاسلام او وانتم عدول فيما بينكم يثقون باقوالكم
ويستشهدونكم في القضايا وعظائم الامور وما الله بغافل عما تعملون اعتراض
تذييلي فيه تهديد ووعيد شديد قيل لما كان صدهم للمؤمنين بطريق الخفية ختمت
الاية الكريمة بما يحسم مادة حيلتهم من احاطة علمه تعالى باعمالهم كما ان كفرهم بايات الله
تعالى لما كان بطريق العلانية ختمت الاية السابقة بشهادته تعالى على ما تعملون يا ايها الذين
امنوا ان تطيعوا فريقا من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين تلوين
للخطاب وتوجيه له الى المؤمنين تحذيرا لهم عن طاعة اهل الكتاب والافتتان بفتنتهم
اثر توبيخهم بالاغواء والاضلال ردعا لهم عن ذلك وتعليق الرد بطاعة فريق منهم
للمبالغة في التحذير عن طاعتهم وايجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالكلية فانه
في قوة ان يقال لا تطيعوا فريقا الخ كما ان تعميم التوبيخ فيما قبله للمبالغة في الزجر
او للمحافظة على سبب النزول فانه روي ان نفرا من الاوس والخزرج كانوا جلوسا يتحدثون
فمر بهم شاس بن قيس اليهودي وكان عظيم الكفر شديد الحسد للمسلمين فغاظه ما راى
منهم من تألف القلوب واتحاد الكلمة واجتماع الراي بعد ما كان بينهم ما كان من
العداوة والشنان فامر شابا يهوديا كان معه بان يجلس اليهم ويذكرهم يوم بعاث
وكان ذلك يوما عظيما اقتتل فيه الحيان وكان الظفر فيه للاوس وينشدهم ما قيل
فيه من الاشعار ففعل فتفاخر القوم وتغاضبوا حتى تواثبوا وقالوا السلاح السلاح
فاجتمع من القبيلتين خلق عظيم فعند ذلك جاءهم النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه
فقال اتدعون الجاهلية وانا بين اظهركم بعد ان اكرمكم الله تعالى بالاسلام وقطع
به عنكم امر الجاهلية والف بينكم فعلموا انها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم
فالقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال الامام الواحدي اصطفوا للقتال فنزلت الاية الى قوله تعالى لعلكم
تهتدون فجاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى قام بين الصفين فقراهن ورفع صوته
فلما سمعوا صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم انصتوا له وجعلوا يستمعون له فلما فرغ
القوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون وقوله تعالى كافرين اما مفعول

ثان ليردوكم على تضمين الرد معنى التصيير كما في قوله رمى الحدثان بمقدار سمدن
له سمودا فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا او حال من
مفعوله والاول ادخل في تنزيه المؤمنين عن نسبتهم الى الكفر لما فيه من التصريح بكون
الكفر المفروض بطريق القسر وايراد الظرف مع عدم الحاجة اليه ضرورة سبق الخطاب
بعنوان المؤمنين واستحالة تحقق الرد الى الكفر بدون سبق الايمان مع توسيطه بين
المفعولين لاظهار كمال شناعة الكفر وغاية بعده من الوقوع اما لزيادة قبحه الصارف
للعاقل عن مباشرته او لممانعة الايمان له كانه قيل بعد ايمانكم الراسخ وفيه من تثبيت
المؤمنين ما لا يخفى وكيف تكفرون استفهام انكاري بمعنى انكار الوقوع كما في قوله تعالى
كيف يكون للمشركين عهد الخ لا بمعنى انكار الواقع كما في قوله تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم
امواتا الخ وفي توجيه الانكار والاستبعاد الى كيفية الكفر من المبالغة ما ليس في توجيهه
الى نفسه بان يقال اتكفرون لان كل موجود لا بد ان يكون وجوده على حال من الاحوال
فاذا انكروا نفي جميع احوال وجوده فقد انتفى وجوده بالكلية على الطريق البرهاني
وقوله عز وجل وانتم تتلى عليكم ايات الله جملة وقعت حالا من ضمير المخاطبين
في تكفرون مؤكدة للانكار والاستبعاد بما فيها من الشؤون الداعية الى الثبات على
الايمان الوازعة عن الكفر وقوله تعالى وفيكم رسوله معطوف عليها داخل في
حكمها فان تلاوة ايات الله تعالى عليهم وكون رسوله عم بين اظهرهم يعلمهم الكتاب والحكمة
ويزكيهم بتحقيق الحق وازاحة الشبه من اقوى الزواجر عن الكفر وعدم اسناد التلاوة
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم للايذان باستقلال كل منهما في الباب ومن يعتصم
بالله اي ومن يتمسك بدين الحق الذي بينه باياته على لسان رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو الاسلام والتوحيد المعبر عنه فيما سبق بسبيل الله فقد هدي
جواب للشرط وقد لافادة معنى التحقيق كان الهدى قد حصل فهو يخبر عنه حاصلا ومعنى
التوقع فيه ظاهر فان المعتصم به تعالى متوقع للهدى كما ان قاصد الكريم متوقع للندى
الى صراط مستقيم موصل الى المطلوب والتنوين للتفخيم والوصف بالاستقامة للتصريح
بالرد على الذين يبغون له عوجا وهذا وان كان هو دينه الحق في الحقيقة والاهتداء
اليه هو الاعتصام به بعينه لكن لما اختلف الاعتباران وكان العنوان الاخير مما
يتنافس فيه المتنافسون ابرز في معرض الجواب للحث والترغيب على طريقة قوله تعالى
فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز يا ايها الذين امنوا تكرير الخطاب بعنوان
الايمان تشريف اثر تشريف اتقوا الله الاتقاء افتعال من الوقاية وهي فرط الصيانة
حق تقاته اي حق تقواه وما يجب منها وهو استفراغ الوسع في القيام بالواجب
والاجتناب عن المحارم كما في قوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم وعن ابن مسعود
رضه هو ان يطاع ولا يعصى ويذكر ولا ينسى ويشكر ولا يكفر وقد روي مرفوعا
اليه عليه السلام وقيل ان لا تأخذه في الله لومة لائم ويقوم بالقسط ولو على
نفسه او ابنه او ابيه وقيل هو ان ينزه الطاعة عن الالتفات اليها وعن توقع
المجازاة وقد مر تحقيق الحق في ذلك عند قوله عز وجل هدى للمتقين والتقاة من
اتقى كالتؤدة من اتأد اصلها وقية قلبت واوها المضمومة تاء كما في تهمة وتخمة
وياؤها المفتوحة الفا ولا تموتن الا وانتم مسلمون اي مخلصون نفوسكم لله
لله عز وجل لا تجعلون فيها شركة لما سواه كما في قوله تعالى ومن احسن دينا ممن اسلم
وجهه لله وهو استثناء مفرغ من اعم الاحوال اي لا تموتن على حال من الاحوال الا حال
تحقق اسلامكم وثباتكم عليه كما ينبئ عنه الجملة الاسمية ولو قيل الا مسلمين
لم يفد فائدتها والعامل في الحال ما قبل الا بعد النقض وظاهر النظم الكريم وان
كان نهيا عن الموت المقيد بقيد وهو الكون على حال غير حال الاسلام لكن المقصود
هو النهي عن ذلك القيد عند الموت المستلزم للامر بضده الذي هو الكون على حال
الاسلام ح وحيث كان الخطاب للمؤمنين كان المراد ايجاب الثبات على الاسلام الى الموت

وتوجيه النهي الى الموت للمبالغة في النهي عن قيده المذكور فان النهي عن المقيد في امثاله نهي عن
القيد ورفع له عن اصله بالكلية مفيدة لما لا يفيده النهي عن نفس المقيد فان قولك لا تصل
الا وانت خاشع يفيده من المبالغة في ايجاب الخشوع في الصلوة ما لا يفيده قولك لا تترك
الخشوع في الصلوة لما ان هذا نهي عن ترك الخشوع فقط وهذا نهي عنه وعما يقارنه
ومفيد لكون الخشوع هو العمدة في الصلوة بدونه حقها ان لا تفعل وفيه تحذير عما وراء
الموت وقوله عز وعلا واعتصموا بحبل الله اى بدين الاسلام او كتابه لقوله ع م
القران حبل متين لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد من قال به صدق ومن عمل
به رشد ومن اعتصم به هدي الى صراط مستقيم اما تمثيل للحالة الحاصلة من استظهارهم
به ووثوقهم بحمايته بالحالة الحاصلة من تمسك المتدلي من مكان رفيع بحبل وثيق
مامون الانقطاع من اعتبار مجاز في المفردات واما استعارة للحبل لما ذكر من الدين
او الكتاب والاعتصام ترشيح لها او مستعار للوثوق به والاعتماد عليه جميعا حال
من فاعل اي مجتمعين في الاعتصام ولا تفرقوا اي لا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف
بينكم كاهل الكتاب او كما كنتم متفرقين في الجاهلية يحارب بعضكم بعضا او لا تحدثوا
ما يوجب التفرق ويزيل الالفة التى انتم عليها واذكروا نعمة الله مصدر مضاف الى
الفاعل وقوله تعالى عليكم متعلق به او بمحذوف وقع حالا منه وقوله تعالى اذ كنتم
ظرف له او للاستقرار في عليكم اى اذكروا انعامه عليكم او اذكروا انعامه مستقرا عليكم
وقت كونكم اعداء في الجاهلية بينكم الاحن والعداوات والحروب المتواصلة وقيل
هم الاوس والخزرج كانا اخوين لاب وام فوقعت بين اولادهما العداوة والبغضاء
وتطاولت الحروب فيما بينهم مائة وعشرين سنة فالف بين قلوبكم بتوفيقكم للاسلام
فاصبحتم اي فصرتم بنعمته التى هي ذلك التاليف اخوانا خبر اصبحتم اي اخوانا
متحابين مجتمعين على الاخوة في الله متراحمين متناصحين متفقين على كلمة الحق وقيل معنى فاصبحتم
فدخلتم في الصباح متعلق بمحذوف وقع حالا من الفاعل وكذا اخوانا اي فاصبحتم ملتبسين بنعمته
تعالى حال كونكم اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار شفا الحفرة وشفتها حرفها اي كنتم
مشرفين على الوقوع في نار جهنم لكفركم اذ لو ادرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم فيها فانقذكم بان
هداكم للاسلام منها الضمير للحفرة او للنار او للشفا والتانيث للمضاف اليه كما في قوله كما شرقت
صدر القناة من الدم او لانه بمعنى الشفة فان شفا البئر وشفتها جانبها كالجانب والجانبة واصل شفو
قلبت الواو الفا في المذكر وحذفت في المؤنث كذلك اشارة الى مصدر الفعل الذي بعده وما فيه من معنى
البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه وبعد منزلته في الفضل وكمال تميزه به عما عداه وانتظامه بسببه
في سلك الامور المشاهدة والكاف مقحمة لتاكيد ما افاده اسم الاشارة من الفخامة ومحلها النصب على
انها صفة لمصدر محذوف اي مثل ذلك التبيين الواضح يبين الله لكم اياته اى دلائله لعلكم
تهتدون طلبا لثباتكم على الهدي وازديادكم فيه ولتكن منكم امة يدعون الى الخير
امرهم الله سبحانه بتكميل الغير وارشاده اثر امرهم بتكميل النفس وتهذيبها بما قبله من الاوامر
والنواهي تنبيها للكل على مراعاة ما فيها من الاحكام بان يقوم بعضهم بواجبها ويحافظ على
حقوقها وحدودها ويذكرها الناس كافة وينزعهم عن الاخلال بها والجمهور على اسكان لام الامر وقرئ
بكسرها على الاصل ومن ان كانت التامة ومن تبعيضية متعلقة بالامر او بمحذوف وقع حالا من الفاعل
وهو امة ويدعون صفتها اى لتوجد منكم امة داعية الى الخير والامة هي الجماعة التى يؤمها
فرق الناس اى يقصدونها ويقتدون بها او من الناقصة وامة اسمها ويدعون
خبرها اي لتكن منكم امة داعين الى الخير واياما كان فتوجيه الخطاب الى الكل مع اسناد
الدعوة الى البعض لتحقيق معنى فرضيتها على الكفاية وانها واجبة على الكل لكن بحيث
ان اقامها البعض سقطت عن الباقين ولو اخل بها الكل اثموا جميعا لا بحيث يحتم على الكل
اقامتها على ما ينبئ عنه قوله عز وجل وما كان المؤمنون لينفروا كافة الاية ولانها من
عظائم الامور وعزائمها التى لا يتولاها الا العلماء باحكامه تعالى ومراتب الاحتساب وكيفية
اقامتها فان من لا يعلمها يوشك ان يامر بمنكر وينهى عن معروف ويغلظ في مقام الغلظة

وينكر على من لا يزيده الانكار الا التمادي والاصرار وقيل من بيانية كما في قوله تعالى وعد الله
الذين امنوا وعملوا الصالحات منهم الاية والامر من كان الناقصة والمعنى كونوا امة يدعون
الاية كقوله تعالى كنتم خير امة اخرجت للناس الاية ولا يقتضي ذلك كون الدعوة فرض عين فان الجهاد
من فروض الكفاية مع ثبوته بالخطابات العامة والدعاء الى الخير عبارة عن الدعاء الى ما فيه
صلاح ديني او دنيوي فعطف الامر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه بقوله تعالى ويامرون
بالمعروف وينهون عن المنكر مع اندراجهما فيه من باب عطف الخاص على العام لاظهار
فضلهما وانافتهما على سائر الخيرات كعطف جبريل وميكال على الملائكة عليهم السلام وحذف
المفعول الصريح من الافعال الثلاثة اما للايذان بظهوره اي يدعون الناس ويامرونهم
وينهونهم واما للقصد الى ايجاد نفس الفعل كما في قولك فلان يعطي ويمنع اي
يفعلون الدعاء الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر واولئك اشارة الى
الامة المذكورة باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الفاضلة وكمال تميزهم بذلك عمن
عداهم وانتظامهم بسببه في سلك الامور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للاشعار
بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل والافراد في كاف الخطاب اما لان المخاطب كل من
يصلح للخطاب واما لان التعيين غير مقصود اى اولئك الموصوفون بتلك الصفات
الكاملة هم المفلحون اي هم الاخصاء بكمال الفلاح وهم ضمير فصل يفصل بين الخبر
والصفة ويؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسند بالمسند اليه او مبتدا خبره المفلحون
والجملة خبر لاولئك وتعريف المفلحين اما للعهد او للاشارة الى ما يعرفه كل احد من حقيقة
المفلحين وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سئل عن خير الناس فقال امرهم
بالمعروف وانهاهم عن المنكر واتقاهم لله واوصلهم اي للرحم وعنه عليه السلام
من امر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في ارضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه
وعنه صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لتامرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر او
ليوشكن الله ان يبعث عليكم عذابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم وعن علي رضي الله عنه
افضل الجهاد الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن شنئ الفاسقين وغضب لله له والامر
بالمعروف في الوجوب والندب تابع للمامور به واما النهي عن المنكر فواجب كله لان جميع
ما انكره الشرع حرام والعاصي يجب عليه النهي عما ارتكبه اذ يجب عليه تركه وانكاره فلا يسقط
بترك احدهما وجوب شئ منهما والتوبيخ في قوله تعالى اتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم
انما هو نسيان انفسهم لا على امرهم وعن السلف مروا بالخير وان لم تفعلوا ولا تكونوا
كالذين تفرقوا هم اهل الكتاب حيث تفرقت اليهود فرقا والنصارى فرقا واختلفوا
باستخراج التاويلات الزائغة وكتم الايات الناطقة وتحريفها بما اخلدوا اليه من
حطام الدنيا الدنية من بعد ما جاءهم البينات اى الايات الواضحة المبينة
للحق الموجبة للاتفاق عليه واتحاد الكلمة فالنهي متوجه الى المتصدين للدعوة
اصالة والى اعقابهم تبعا ويجوز تعميم الموصول للمختلفين من الامم السالفة المشار
اليهم بقوله عز وجل وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات اي
الايات الواضحة للحق وقيل هم المبتدعة من هذه الامة وقيل هم الحرورية وعلى كل
تقدير فالمنهي عنه انما هو الاختلاف في الاصول دون الفروع الا ان يكون
مخالفا للنصوص البينة او الاجماع لقوله عليه السلام اختلاف امتي رحمة وقوله ع م
من اجتهد فاصاب فله اجران ومن اخطا فله اجر واحد واولئك اشارة الى
المذكورين باعتبار اتصافهم بما في حيز الصلة وهو مبتدا وقوله تعالى لهم
خبره وقوله تعالى عذاب عظيم مرتفع بالظرف على الفاعلية لاعتماده على المبتدا
او مبتدا والظرف خبره والجملة خبر للمبتدا الاول وفيه من التاكيد والمبالغة في وعيد
المتفرقين والتشديد في تهديد المتشبهين بهم ما لا يخفى يوم تبيض وجوه اي وجوه
كثيرة وهي تبياض وتسود وجوه كثيرة وهي تسواد وعن عطاء تبيض
وجوه المهاجرين والانصار وتسود وجوه بني قريظة والنضير ويوم منصوب على انه

ظرف للاستقرار في لهم اي لثبوت العذاب العظيم لهم او على انه مفعول لمضمر خوطب به المؤمنون تحذيرا لهم عن عاقبة التفرق بعد مجيء البينات وترغيبا في الاتفاق على التمسك بالدين اي اذكروا يوم تبيض الخ وبياض الوجه وسواده كنايتان عن ظهور البهجة والسرور وكآبة الخوف فيه وقيل يوسم اهل الحق ببياض الوجه والصحيفة واشراق البشرة وسعي النور بين يديه وبيمينه واهل الباطل باضداد ذلك فاما الذين اسودت وجوههم تفصيل لاحوال الفريقين بعد الاشارة اليها اجمالا وتقديم بيان هؤلاء لما ان المقام مقام التحذير عن التشبه بهم مع ما فيه من الجمع بين الاجمال والتفصيل والافضاء الى ختم الكلام بحسن حال المؤمنين كما بدئ ذلك عند الاجمال اكفرتم بعد ايمانكم على ارادة القول اي فيقال لهم ذلك والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم والظاهر انهم اهل الكتابين وكفرهم بعد ايمانهم كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ايمان اسلافهم او ايمان انفسهم به قبل مبعثه ام او جميع الكفرة حيث كفروا بعد ما اقروا بالتوحيد يوم الميثاق او بعد ما تمكنوا من الايمان بالنظر الصحيح والدلائل الواضحة والايات البينة وقيل المرتدون وقيل اهل البدع والاهواء والفاء في قوله عز وعلا فذوقوا العذاب اي العذاب المعهود الموصوف بالعظم للدلالة على ان الامر بذوق العذاب على طريق الاهانة مترتب على كفرهم المذكور كما ان قوله تعالى بما كنتم تكفرون صريح في ان نفس الذوق معلل بذلك والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار كفرهم او على مضيه في الدنيا واما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله اعني الجنة والنعيم المخلد عبر عنها بالرحمة تنبيها على ان المؤمن وان استغرق عمره في طاعة الله تعالى فانه لا يدخل الجنة الا برحمته تعالى وقرئ ابياضت كما قرئ اسوادت هم فيها خالدون استيناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من السياق كانه قيل كيف يكونون فيها فقيل هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون وتقديم الظرف للمحافظة على رؤس الاي تلك اشارة الى الايات المشتملة على تنعيم الابرار وتعذيب الكفار ومعنى البعد للايذان بعلو شانها وسمو مكانها في الشرف وهو مبتدأ وقوله تعالى آيات الله خبره وقوله تعالى نتلوها جملة حالية من الايات والعامل فيها معنى الاشارة او هي الخبر وآيات الله بدل من اسم الاشارة والالتفات الى التكلم بنون العظمة مع كون التلاوة على لسان جبريل لابراز كمال العناية بالتلاوة وقرئ يتلوها على اسناد الفعل الى ضميره تعالى وقوله تعالى عليك متعلق بنتلوها وقوله تعالى بالحق حال مؤكدة من فاعل نتلوها او من مفعوله اي ملتبسين او ملتبسة بالحق والعدل ليس في حكمها شائبة جور بنقص ثواب المحسن او بزيادة عقاب المسيء او بالعقاب من غير جرم بل كل ذلك موفى لهم حسب استحقاقهم باعمالهم بموجب الوعد والوعيد وقوله تعالى وما الله يريد ظلما للعالمين تذييل مقرر لمضمون ما قبله على ابلغ وجه واكده فان تنكير الظلم وتوجيه النفي الى ارادته بصيغة المضارع دون نفسه وتعليق الحكم باحاد الجمع المعرف والالتفات الى الاسم الجليل اشعار بعلة الحكم بيان لكمال نزاهته عز وجل عن الظلم بما لا مزيد عليه اي ما يريد فردا من افراد الظلم لفرد من افراد العالمين في وقت من الاوقات فضلا عن ان يظلمهم فان المضارع كما يفيد الاستمرار في الاثبات يفيده في النفي بحسب المقام كما ان الجملة الاسمية تدل بمعونة المقام على دوام الثبوت وعند دخول حرف النفي تدل على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام وفي سبك الجملة نوع ايماء الى التعريض بان الكفرة هم ظلموا انفسهم بتعريضها للعذاب الخالد كما في قوله تعالى ان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون ولله ما في السموات وما في الارض اي له تعالى وحده من غير شركة اصلا ما فيهما من المخلوقات الفانية للحصر ملكا وخلقا احياء واماتة واثابة وتعذيبا وايراد كلمة ما اما لتغليب غير العقلاء على العقلاء واما لتنزيلهم منزلة غيرهم اظهارا لحقارتهم في مقام بيان عظمته والى الله اي الى حكمه وقضائه لا الى غيره شركة واستقلالا ترجع الامور اي امورهم فيجازي كلا منهم بما وعد له واوعد من غير دخل في ذلك لاحد قط فالجملة مقررة لمضمون ما ورد في جزاء الفريقين وقيل هي معطوفة

علما

على ما قبلها مقررة لمضمونه فان كون العالمين عبيده تعالى ومخلوقه ومرزوقه يستدعي ارادة الخير بهم كنتم خير امة كلام مستأنف سيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق والدعوة الى الخير وكنتم من كان الناقصة التي تدل على تحقق شيء بصفة في الزمان الماضي من غير دلالة على سابق او لاحق كما في قوله تعالى كان الله غفورا رحيما وقيل كنتم كذلك في علم الله تعالى وفي اللوح او فيما بين الامم السالفة وقيل معناه انتم خير امة اخرجت للناس صفة لامة واللام متعلقة باخرجت اي اظهرت لهم وقيل بخير امة اي كنتم خير الناس للناس فهو صريح في ان الخيرية بمعنى النفع للناس وان فهم ذلك من الاخراج لهم ايضا اي اخرجت لاجلهم ومصلحتهم قال ابو هريرة رضي الله عنه معناه كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل فتدخلونهم في الاسلام وقال قتادة هم امة محمد صلى الله عليه وسلم لم يؤمر نبي قبله بالقتال فهم يقاتلون الكفار فيدخلونهم في الاسلام فهم خير امة للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر استيناف مبين لكونهم خير امة كما يقال زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بمصالحهم او خبر ثان لكنتم وصيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار وخطاب المشافهة وان كان خاصا بمن شاهد الوحي من المؤمنين لكن حكمه عام للكل قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد امة محمد صلى الله عليه وسلم وقال الزجاج اصل هذا الخطاب لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعم سائر امته وروى الترمذي عن بهز بن حكيم عن ابيه عن جده انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول في قوله تعالى كنتم خير امة اخرجت للناس انتم تتمون سبعين امة انتم خيرها واكرمها على الله تعالى وظاهر ان المراد بكل امة اوائلهم واواخرهم لا اوائلهم فقط فلا بد ان يكون اعقاب هذه الامة ايضا داخلة في الحكم وكذا الحال فيما روي ان مالك ابن الصيف ووهب بن يهوذا اليهوديين مرا بنفر من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم ابن مسعود وابي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى حذيفة رضي الله تعالى عنهم فقالا لهم نحن افضل منكم وديننا خير مما تدعوننا اليه وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما كنتم خير امة الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة وروي عن الضحاك انهم اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة الرواة والدعاة الذين امر الله المسلمين بطاعتهم وتؤمنون بالله اي ايمانا متعلقا بكل ما يجب ان يؤمن به من رسول وكتاب وحساب وجزاء وانما لم يصرح به تفصيلا لظهور انه الذي يؤمن به المؤمنون وللايذان بانه الايمان بالله تعالى حقيقة وان ما خلا عن شيء من ذلك كايمان اهل الكتاب ليس من الايمان به تعالى في شيء قال تعالى ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا اولئك هم الكافرون حقا وانما اخر ذلك عن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مع تقدمه عليهما وجودا ورتبة لان دلالتهما على خيريتهم للناس اظهر من دلالته عليها وليقترن به قوله تعالى ولو آمن اهل الكتاب لكان خيرا لهم اي لو آمنوا كايمانكم لكان ذلك خيرا لهم مما هم عليه من الرياسة واستتباع العوام ولازدادت رياستهم وتمتعهم بالحظوظ الدنيوية مع الفوز بما وعدوه على الايمان من ايتاء الاجر مرتين وقيل مما هم فيه من الكفر فالخيرية انما هي باعتبار زعمهم وفيه ضرب تهكم بهم وانما لم يتعرض للمؤمن به اصلا للاشعار بظهور انه الذي يطلق عليه اسم الايمان لا يذهب الوهم الى غيره ولو فصل المؤمن به ههنا او فيما قبل لربما فهم ان لاهل الكتاب ايضا ايمانا في الجملة لكن ايمان المؤمنين خير منه وهيهات ذلك منهم المؤمنون جملة مستأنفة سيقت جوابا عما نشأ من الشرطية الدالة على انتفاء الخيرية لانتفاء الايمان عنهم كانه قيل هل منهم من آمن او كلهم على الكفر فقيل منهم المؤمنون المعهودون الفائزون بخير الدارين كعبد الله بن سلام واصحابه واكثرهم الفاسقون المتمردون في الكفر الخارجون عن الحدود لن يضروكم الا اذى استثناء مفرغ من المصدر العام

اي لن يضروكم ابدًا ضررًا ما الا ضررًا ايذاءً يبالي به من طعن وتهديد لا اثر له وان يقاتلوكم يولوكم الادبار اي ينهزموا من غير ان ينالوا منكم شيئًا من قتل واسر ثم لا ينصرون عطف على الشرطية وثم للتراخي في الرتبة اي لا ينصرون من جهة احد ولا يمنعون منكم قتلا واخذا وفيه تثبيت لمن امن منهم فانهم كانوا يؤذونهم بالتلهي بهم وتوبيخهم وتضليلهم وتهديدهم وبشارة لهم بانهم لا يقدرون على ان يتجاوزوا الاذى بالقول الى ضرر يعبأ به مع انه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم وان عاقبة امرهم الخذلان والذل وانما لم يعطف نفي منصورتيهم على الجزاء لان المقصود هو الوعد بنفي النصر مطلقا ولو عطف عليه لكان مقيدا بمقاتلتهم كتولية الادبار وكم بين الوعدين كانه قيل ثم شأنهم الذي اخبركم عنه وابشركم به انهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعد ذلك بجناح ولا يقومون على ساق ولا يستقيم لهم امر وكان ذلك حيث لقي بنو قريظة والنضير وبنو قينقاع ويهود خيبر ما لقوا ضربت عليهم الذلة اي هدر النفس والمال والاهل او ذل التمسك بالباطل اينما ثقفوا اي وجدوا الا بحبل من الله وحبل من الناس استثناء من اعم الاحوال اي ضربت عليهم الذلة ضرب القبة على من هي عليه في جميع الاحوال الا حال كونهم معتصمين بذمة الله او كتابه الذي اتاهم وذمة المسلمين او بذمة الاسلام واتباع سبيل المؤمنين وباؤا بغضب من الله اي رجعوا به مستوجبين له والتنكير للتفخيم والتهويل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لغضب مؤكدة لما افاده التنكير من الفخامة والهول اي كائن من الله عز وجل وضربت عليهم المسكنة فهي محيطة بهم من جميع جوانبهم واليهود كذلك في غالب الحال مساكين تحت ايدي المسلمين والنصارى ذلك اشارة الى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة عليهم والبوء بالغضب العظيم بانهم كانوا يكفرون بايات الله اي ذلك الذي ذكر كائن بسبب كفرهم المستمر بايات الله الناطقة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتحريفهم لها وبسائر الايات القرانية ويقتلون الانبياء بغير حق اي في اعتقادهم ايضا واسناد القتل اليهم مع انه فعل اسلافهم لرضاهم به كما ان التحريف مع كونه من افعال احبارهم ينسب الى كل من يسير بسيرهم ذلك اشارة الى ما ذكر من الكفر والقتل بما عصوا وكانوا يعتدون اي كائن بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى على الاستمرار فان الاصرار على الصغائر يفضي الى مباشرة الكبائر والاستمرار عليها يؤدي الى الكفر وقيل معناه ان ضرب الذلة والمسكنة في الدنيا واستيجاب الغضب في الاخرة كما هو معلل بكفرهم وقتلهم فهو مسبب عن عصيانهم واعتدائهم من حيث انهم مخاطبون في الفروع من حيث المؤاخذة ليسوا سواء جملة مستانفة سيقت تمهيدا لتعداد محاسن مؤمني اهل الكتاب وتذكيرا لقوله تعالى منهم المؤمنون والضمير في ليسوا لاهل الكتاب جميعا لا للفاسقين منهم خاصة وهو اسم ليس وخبره سواء وانما افرد لانه في الاصل مصدر والمراد بنفي المساواة نفي المشاركة في اصل الاتصاف بالقبائح المذكورة لا نفي المساواة في مراتب الاتصاف بها مع تحقق المشاركة في اصل الاتصاف بها اي ليس جميع اهل الكتاب المتشاركين في الاتصاف بما ذكر من القبائح والابتلاء بما يترتب عليها من العقوبات وقوله تعالى من اهل الكتاب امة قائمة استئناف مبين لكيفية عدم تساويهم ومزيل لما فيه من الابهام كما ان ما سبق من قوله تعالى تأمرون بالمعروف الاية مبين لقوله تعالى كنتم خير امة الخ ووضع اهل الكتاب موضع الضمير العائد اليهم لتحقيق ما به الاشتراك بين الفريقين والايذان بان تلك الامة ممن اوتي نصيبا وافرا من الكتاب لا من ارذالهم والقائمة المستقيمة العادلة من اقمت العود فقام بمعنى استقام وهم الذين اسلموا منهم كعبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيد واسد بن عبيد واضرابهم وقيل هم اربعون رجلا من اهل نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثلاثة من الروم كانوا على دين عيسى عليه السلام وصدقوا محمدا صلى الله عليه وسلم وكان من الانصار فيهم عدة قبل قدوم النبي

صلى الله عليه وسلم منهم اسعد بن زرارة والبراء بن معرور ومحمد بن سلمة وابو قيس صرمة بن انس كانوا موحدين يغتسلون من الجنابة ويقومون بما يعرفون من شرائع الحنيفية حتى بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم فصدقوه ونصروه وقوله تعالى يتلون ايات الله في محل الرفع على انه صفة اخرى لامة وقيل في محل النصب على انه حال منها لتخصصها بالنعت والعامل فيه الاستقرار الذي يتضمنه الجار او من ضميرها في قائمة او من المستكن في الجار لوقوعه خبرا لامة والمراد بايات الله القران وقوله تعالى اناء الليل ظرف ليتلون اي في ساعاته جمع انى بزنة عصا او انى بزنة معى او انى بزنة ظبي او انى بزنة نحى وانو بزنة جرو وهم يسجدون اي يصلون اذ لا تلاوة في السجود قال صلى الله عليه وسلم الا اني نهيت ان اقرأ راكعا وساجدا وتخصيص السجود بالذكر من بين سائر اركان الصلوة لكونه ادل على كمال الخضوع والتصريح بتلاوتهم ايات الله في الصلاة مع انها مشتملة عليها قطعا لزيادة تحقيق المخالفة وتوضيح عدم المساواة بينهم وبين الذين وصفوا انفا بالكفر بها وهو السر في تقديم هذا النعت على نعت الايمان والمراد بصلاتهم التهجد اذ هو ادخل في مدحهم وفيه يتسنى لهم التلاوة فانها في المكتوبة وظيفة الامام واعتبار حالهم عند الصلاة على الانفراد يأباه مقام المدح وهو الانسب بالعدول عن ايرادها باسم الجنس المتبادر منه الصلوات المكتوبة وبالتعبير عن وقتها بالاناء المبهمة وقيل صلوة العشاء لان اهل الكتاب لا يصلونها لما روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اخرها ليلة ثم خرج فاذا الناس ينتظرون الصلوة فقال اما انه ليس من اهل الاديان احد يذكر الله هذه الساعة غيركم وقرأ هذه الاية وايراد الجملة الاسمية للدلالة على الاستمرار وتكرير الاسناد لتقوية الحكم وتاكيده وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والجملة حال من فاعل يتلون وقيل هي مستانفة والمعنى انهم يقومون تارة ويسجدون اخرى يبتغون الفضل والرحمة بانواع ما يكون في الصلوة من الخضوع لله عز وجل كما في قوله تعالى والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما وقيل المراد بالسجود هو الخضوع كما في قوله تعالى ولله يسجد من في السموات والارض يؤمنون بالله واليوم الاخر صفة اخرى لامة مبينة لمباينتهم اليهود من جهة اخرى اي يؤمنون بهما على الوجه الذي نطق به الشرع والاطلاق للايذان بالغنى عن التقييد لظهور انه الذي يطلق عليه الايمان بهما لا يذهب الوهم الى غيره وللتعريض بان ايمان اليهود بهما مع قولهم عزير ابن الله وكفرهم ببعض الكتب والرسل ووصفهم اليوم الاخر بخلاف صفته ليس من الايمان بهما في شئ اصلا ولو قيد بما ذكر لربما توهم ان المنتفى عنهم هو القيد المذكور مع جواز اطلاق الايمان على ايمانهم بالاصل وهيهات ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر صفتان اخريان لامة اجريتا عليهم تحقيقا لمخالفتهم اليهود في الفضائل المتعلقة بتكميل الغير اثر بيان مباينتهم لهم في الخصائص المتعلقة بتكميل النفس وتعريضا بمداهنتهم في الاحتساب بل بتعكيسهم في الامر باضلال الناس وصدهم عن سبيل الله فانه امر بالمنكر ونهي عن المعروف ويسارعون في الخيرات صفة اخرى لامة جامعة لفنون المحاسن المتعلقة بالنفس وبالغير والمسارعة في الخير فرط الرغبة فيه لان من رغب في الامر سارع في توليه والقيام به واثر الفور على التراخي اي يبادرون مع كمال الرغبة في فعل اصناف الخيرات اللازمة والمتعدية وفيه تعريض بتباطؤ اليهود فيها بل بمبادرتهم الى الشرور وايثار كلمة في على ما وقع في قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة الخ للايذان بانهم مستقرون في اصل الخير متقلبون في فنونه المترتبة في طبقات الفضل لا انهم خارجون عنها منتهون اليها واولئك اشارة الى الامة باعتبار اتصافهم بما فصل من النعوت الجليلة وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم في الفضل وايثاره على الضمير للاشعار بعلة الحكم والمدح اي اولئك المنعوتون بتلك الصفات الفاضلة بسبب اتصافهم بها من الصالحين اي من جملة من صلحت احوالهم عند الله عز وجل واستحقوا رضاه وثناءه وما يفعلوا من خير كائنا ما كان مما ذكر او لم يذكر فلن يكفروه اي لن تعدموا ثوابه البتة عبر عنه بذلك كما عبر عن توفية الثواب

بالشكر اظهار الكمال تنزهه سبحانه وتعالى عن ترك اصابتهم بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره
عنه تعالى من القبائح وتعديته الى مفعولين بتضمين معنى الحرمان وايثار صيغة البناء للمفعول
للجري على سنن الكبرياء وقرئ الفعلان على صيغة الخطاب والله عليم بالمتقين تذييل
مقرر لمضمون ما قبله فان علمه تعالى باحوالهم يستدعي توفية اجورهم لا محالة والمراد بالمتقين
اما الامة المعهودة وضع موضع الضمير العائد اليهم مدحا لهم وتعيينا لعنوان تعلق العلم
بهم واشعارا بمناط اثابتهم وهو التقوى المنطوي على الخصائص السالفة واما جنس
المتقين عموما مندرجون تحت حكمه اندراجا اوليا ان الذين كفروا اي بما يجب ان يؤمن
به قال ابن عباس رضي الله عنهما هم بنو قريظة والنضير فان معاندتهم كانت لاجل المال وقيل هم
مشركو قريش فان ابا جهل كان كثير الافتخار بماله وقيل ابو سفيان واصحابه فانه انفق
مالا كثيرا على الكفار يوم بدر واحد وقيل هم الكفار كافة فانهم فاخروا بالاموال
والاولاد حيث قالوا نحن اكثر اموالا واولادا وما نحن بمعذبين فرد الله عز وجل عليهم
وقال لن تغني عنهم اي لن تدفع عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله اي
من عذابه تعالى شيئا اي شيئا يسيرا منه او شيئا من الاغناء واولئك اصحاب النار
اي مصاحبوها على الدوام وملازموها هم فيها خالدون ابدا مثل ما ينفقون في
هذه الدنيا بيان لكيفية عدم اغناء اموالهم التي كانوا يعولون عليها في جلب المنافع و
دفع المضار ويعلقون بها اطماعهم الفارغة وما موصولة اسمية حذف عائدها اي حال
ما ينفقه الكفرة قربة او مفاخرة وسمعة او المنافقون رياء وخوفا وقصته العجيبة التي تجري
مجرى المثل في الغرابة كمثل ريح فيها صر اي برد شديد فانه في الاصل مصدر وان شاع
اطلاقه على الريح الباردة كالصرصر وقيل كلمة في تجريدية كقوله تعالى لقد كان لكم في رسول الله
اسوة حسنة اصابت حرث قوم ظلموا انفسهم بالكفر والمعاصي فباؤوا بغضب من
الله تعالى وانما وصفوا بذلك لان الاهلاك عن السخط اشد وافظع فاهلكته عقوبة لهم
ولم تدع منه اثرا ولا اثيرا والمراد تشبيه ما انفقوا في ضياعه وذهابه بالكلية من غير
ان يعود اليهم نفع ما بحرث كفار ضربته صر فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما
بوجه من الوجوه وهو من التشبيه المركب الذي مر تفصيله في تفسير قوله تعالى كمثل الذي
استوقد نارا ولذلك لم يبال بايلاء كلمة التشبيه الريح دون الحرث ويجوز ان يراد
مثل اهلاك ما ينفقون كمثل اهلاك ريح او مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح وهو
الحرث وقرئ تنفقون وما ظلمهم الله بما بين من ضياع ما انفقوا من الاموال ولكن
انفسهم يظلمون لما انهم اضاعوها بانفاقها لا على ما ينبغي وتقديم المفعول
لرعاية الفواصل لا للتخصيص اذ الكلام في الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول
اي ما ظلمهم الله ولكن ظلموا انفسهم وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار
وقد جوز ان يكون المعنى وما ظلمهم الله تعالى اصحاب الحرث باهلاكه ولكنهم ظلموا
انفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة ويأباه انه قد مر التعرض له تصريحا و
اشعارا وقرئ ولكن بالتشديد على ان انفسهم اسمها ويظلمون خبرها والعائد محذوف
للفاصلة اي ولكن انفسهم يظلمونها واما تقدير ضمير الشان فلا سبيل اليه لاختصاصه
بالشعر ضرورة كما في قوله ولكن من يبصر جفونك يعشق يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا
بطانة بطانة الرجل ووليجته من يعرفه اسراره ثقة به شبه ببطانة الثوب كما شبه
بالشعار قال عليه السلام الانصار شعار والناس دثار قال ابن عباس رضي الله عنهما
كان رجال من المؤمنين يواصلون اليهود لما بينهم من القرابة والصداقة والحلف
فانزل الله تعالى هذه الآية وقال مجاهد نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يواصلون المنافقين
فنهوا عن ذلك ويؤيده قوله تعالى واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل
وهي صفة المنافقين واياما كان فالحكم عام للكفرة كافة من دونكم اي من دون
المسلمين وهو متعلق بلا تتخذوا او بمحذوف وقع صفة لبطانة اي كائنة من دونكم
مجاوزة لكم لا يألونكم خبالا جملة مستأنفة مبينة لحالهم داعية الى الاجتناب

عنهم

عنهم او صفة لبطانة يقال ألا في الامر اذا قصر فيه ثم استعمل معدى الى مفعولين في قولهم
لا آلوك نصحا ولا آلوك جهدا على تضمين معنى المنع والنقص والخبال الفساد اي لا يقصرون لكم في
الفساد ودوا ما عنتم اي تمنوا عنتكم اي مشقتكم وشدة ضرركم وهي ايضا استئناف
مؤكد للنهي موجب لزيادة الاجتناب عن المنهي عنه قد بدت البغضاء من افواههم استئناف آخر
مفيد لمزيد الاجتناب عن المنهي عنه اي قد ظهرت البغضاء في كلامهم لما انهم لا يتمالكون مع مبالغتهم
في ضبط انفسهم وتحاملهم عليها ان ينفلت من السنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين وقرئ
قد بدا البغضاء والافواه جمع فم فاصله فوه فلامه هاء يدل على ذلك جمعه على افواه وتصغيره
على فويه والنسبة اليه فوهي وما تخفي صدورهم اكبر مما بدا لان بدوه ليس عن روية واختيار
قد بينا لكم الآيات الدالة على وجوب الاخلاص في الدين وموالاة المؤمنين ومعاداة
الكافرين ان كنتم تعقلون اي ان كنتم من اهل العقل او ان كنتم تعقلون ما بين
لكم من الآيات فالجواب محذوف لدلالة المذكور عليه ها انتم اولاء جملة من
مبتدأ وخبر صدرت بحرف التنبيه اظهارا لكمال العناية بمضمونها اي انتم اولاء الخاطئون
في موالاتهم وقوله تعالى تحبونهم ولا يحبونكم بيان لخطئهم في ذلك وهو
خبر ثان لانتم كقولك انت زيد تحبه او صلة له او حال والعامل معنى الاشارة
ويجوز ان ينتصب اولاء بفعل يفسره ما بعده ويكون الجملة خبرا وتؤمنون بالكتاب كله
اي بجنس الكتب جميعا وهو حال من ضمير المفعول في لا يحبونكم والمعنى لا يحبونكم
والحال انكم تؤمنون بكتابهم فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم وفيه
توبيخ بانهم في باطلهم اصلب منكم في حقكم واذا لقوكم قالوا آمنا نفاقا واذا
خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ اي من اجله تأسفا وتحسرا حيث لم يجدوا
الى التشفي سبيلا قل موتوا بغيظكم دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف
قوة الاسلام واهله الى ان يهلكوا به او باشتداده الى ان يهلكهم ان الله عليم
بذات الصدور فيعلم ما في صدوركم من العداوة والبغضاء والحنق وهو يحتمل
ان يكون من المقول اي وقل لهم ان الله تعالى عليم بما هو اخفى مما تخفونه من عض
الانامل غيظا وان يكون خارجا عنه بمعنى لا تتعجب من اطلاعي اياك على اسرارهم فاني
عليم بذات الصدور وقيل هو امر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطيب النفس
وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله تعالى ان يهلكوا غيظا باعزاز الاسلام واذلالهم
به من غير ان يكون ثمة قول كانه قيل حدث نفسك بذلك ان تمسسكم
حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها بيان لتناهي عداوتهم الى حد حسدوا
ما نالهم من خير ومنفعة وشمتوا بما اصابهم من ضر وشدة وذكر المس مع الحسنة
والاصابة مع السيئة اما للايذان بان مدار مساءتهم ادنى مراتب اصابة الحسنة
ومناط فرحهم تمام اصابة السيئة واما لان المس مستعار بمعنى الاصابة وان
تصبروا اي على عداوتهم او على مشاق التكاليف وتتقوا ما حرم الله تعالى عليكم
ونهاكم عنه لا يضركم كيدهم مكرهم وحيلتهم التي دبروها لاجلكم وقرئ لا يضركم
بكسر الضاد وجزم الراء على جواب الشرط من ضاره يضيره بمعنى ضره يضره وضمة الراء
في القراءة المشهورة للاتباع كضمة مد شيئا نصب على المصدرية اي لا يضركم شيئا من
الضرر بفضل الله وحفظه الموعود للصابرين والمتقين ولان المجد في الامر المتدرب بالاتقاء و
الصبر يكون جريئا على الخصم ان الله بما يعملون في عداوتكم من الكيد محيط علما فيعاقبهم
على ذلك وقرئ بالتاء الفوقانية اي بما تعملون من الصبر والتقوى فيجازيكم بما انتم اهله
واذ غدوت كلام مستأنف سيق للاستشهاد بما فيه من استتباع عدم الصبر والتقوى للضرر على ان
وجودهما مستتبع لما وعد من النجاة عن مضرة كيد الاعداء واذ نصب على المفعولية بمضمر خوطب
به النبي صلى الله عليه وسلم خاصة مع عموم الخطاب فيما قبله وما بعده له وللمؤمنين
لاختصاص مضمون الكلام به عليه السلام اي واذكر لهم وقت غدوك ليتذكروا ما وقع فيه من
الاحوال الناشئة من عدم الصبر فيعلموا انهم ان لزموا الصبر والتقوى لا يضرهم كيد الكفرة

وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع انها المقصودة بالذات للمبالغة
في ايجاب ذكرها واستحضار الحادثة بتفاصيلها كما سلف بيانه في تفسير قوله تعالى
واذ قال ربك للملائكة والمراد به خروجه عليه السلام الى احد وكان ذلك من منزل
عائشة رضي الله عنها وهو المراد بقوله تعالى من اهلك اي من عند اهلك تبوئ المؤمنين اي
تنزلهم وتهيئ لهم وتسوي لهم مقاعد ويؤيده قراءة من قرأ تسوي المؤمنين
والجملة حال من فاعل غدوت لكن لا على انها حال مقدرة اي ناويا وقاصدا للتبوئة
كما قيل بل على ان المقصود تذكير الزمان الممتد المتسع لابتداء الخروج والتبوئة
وعدم الصبر وما ترتب عليها اذ هو المذكر للقصة وانما عبر بالغدو الذي هو الخروج
غدوة مع كون خروجه بعد صلوة الجمعة كما ستعرفه واذ حينئذ وقت التبوئة لانها
هي العمدة في الباب اذ المقصود بتذكير الوقت تذكير مخالفتهم لامر النبي صلى الله عليه وسلم
وتزايلهم عن احيازهم المعينة لهم عند التبوئة وعدم صبرهم وبهذا يتبين خلل
راي من احتج به على جواز اداء صلوة الجمعة قبل الزوال واللام في قوله تعالى للقتال
اما متعلقة بتبوئ اي لاجل القتال واما بمحذوف وقع صفة لمقاعد اي كائنة ومقاعد
القتال اماكنه ومواقفه فان استعمال المقعد والمقام بمعنى المكان اتساعا شايع ذايع
كما في قوله تعالى في مقعد صدق وقوله تعالى قبل ان تقوم من مقامك روي ان المشركين
نزلوا باحد يوم الاربعاء فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم اصحابه ودعا عبد
الله بن ابي بن سلول ولم يكن دعاه قبل ذلك فاستشاره فقال عبد الله واكثر الانصار
يا رسول الله اقم بالمدينة ولا تخرج اليهم فوالله ما خرجنا منها الى عدو قط
الا اصاب منا ولا دخل علينا الا اصبنا منه فكيف وانت فينا فدعهم فان اقاموا
اقاموا بشر محبس وان دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان
بالحجارة وان رجعوا رجعوا خائبين وقال بعضهم يا رسول الله اخرج بنا الى هؤلاء الا
كلب لا يرون انا قد جبنا عنهم وقال عليه الصلوة والسلام اني قد رايت في منامي
بقرا مذبحة حولي فاولتها خيرا ورايت في ذباب سيفي ثلما فاولته هزيمة ورايت
كاني ادخلت يدي في درع حصينة فاولتها المدينة فان رايتم ان تقيموا بالمدينة
فتدعوهم فقال رجال من المسلمين قد فاتتهم بدر واكرمهم الله تعالى بالشهادة يومئذ
اخرج بنا الى اعدائنا وقال النعمان بن مالك الانصاري رضي الله عنه يا رسول الله لا تحرمني
الجنة فوالذي بعثك بالحق لادخلن الجنة ثم قال بقول اشهد ان لا اله الا الله
واني لا افر من الزحف فلم يزالوا به عليه السلام حتى دخل فلبس لامته فلما راوه
كذلك ندموا وقالوا بئسما صنعنا نشير على رسول الله والوحي ياتيه وقالوا اصنع
يا رسول الله ما رايت فقال ما ينبغي لنبي ان يلبس لامته فيضعها حتى يقاتل فخرج
يوم الجمعة بعد صلوة الجمعة واصبح من احد يوم السبت للنصف لسنة ثلاث من الهجرة
فمشى على رجليه فجعل يصف اصحابه للقتال كانما يقوم بهم القدح ان راى
صدرا خارجا قال تاخر وكان نزوله في عدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره الى
احد وامر عبد الله بن جبير على الرماة وقال لهم انضحوا عنا بالنبل لا ياتونا
من ورائنا ولا تبرحوا مكانكم فلن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم والله سميع
لاقوالكم عليم بضمائركم والجملة اعتراض للايذان بان صدر عنهم هناك من الاقوال
والافعال ما لا ينبغي صدوره عنهم اذ همت بدل من اذ غدوت مبين لما هو المقصود
بالتذكير او ظرف لسميع عليم على معنى انه تعالى جامع بين سماع الاقوال والعلم
بالضمائر في ذلك الوقت اذ لا وجه لتقييد كونه تعالى سميعا عليما بذلك الوقت قال الفراء
معنى قولك ضربت واكرمت زيدا منصوب وانهما تسلطا عليه معا طائفتان منكم
ان تفشلا متعلق بهمت والباء محذوفة اي بان تفشلا اي تجبنا وتضعفا وهما حيان
من الانصار بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الاوس وهما الجناحان من عسكر
رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا الفا وقيل تسعمائة وخمسين وعدهم رسول

الله صلى

الله صلى الله عليه وسلم الفتح ان صبروا فلما قاربوا عسكر الكفرة وكانوا ثلاثة الاف انخزل
عبد الله بن ابي بثلث الناس فقال يا قوم علام نقتل انفسنا واولادنا فتبعهم عمرو بن
حزم الانصاري فقال انشدكم الله تعالى في نبيكم وانفسكم فقال عبد الله لو نعلم قتالا
لاتبعناكم فهم الحيان باتباع عبد الله فعصمهم الله تعالى فمضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
وعن ابن عباس رضي الله عنهما اضمروا ان يرجعوا فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا والظاهر انها
ما كانت الا همة وحديث نفس قلما تخلو النفس عنه عند الشدائد والله وليهما اي
عاصمهما عن اتباع تلك الخطرة والجملة اعتراض ويجوز ان يكون حالا من فاعل همت او من
الضمير في تفشلا مفيدة لاستبعاد فشلهما او همهما به مع كونهما في ولاية الله عز وجل
وقرئ والله وليهم كما في قوله تعالى وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا وعلى الله وحده
دون ما عداه مطلقا استقلالا او اشتراكا فليتوكل المؤمنون في جميع امورهم فانه
حسبهم واظهار الاسم الجليل للتبرك والتعليل فان الالوهية من موجبات التوكل
عليه تعالى واللام في المؤمنين للجنس فيدخل فيه الطائفتان دخولا اوليا وفيه اشعار بان
وصف الايمان من دواعي التوكل وموجباته ولقد نصركم الله ببدر جملة مستأنفة
سيقت لايجاب الصبر والتقوى بتذكير ما ترتب عليهما من النصر اثر ترتيب تذكير ما ترتب
على عدمهما من الضرر وقيل لايجاب التوكل على الله تعالى بتذكير ما يوجبه وبدر اسم
ماء بين مكة والمدينة كان لرجل اسمه بدر بن كلدة فسمي باسمه وقيل سمي به لصفائه
كالبدر واستدارته وقيل هو اسم الموضع او الوادي وكانت وقعة بدر في السابع عشر
من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة وانتم اذلة حال من فاعل نصركم واذلة جمع
ذليل وانما جمع جمع قلة للايذان باتصافهم حينئذ بوصف القلة والذلة اذ كانوا ثلثمائة
وبضعة عشر وكان ضعف حالهم في الغاية خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير
الواحد ولم يكن في العسكر الا فرس واحد وقيل فرسان للمقداد ومرثد وتسعون بعيرا
وست ادرع وثمانية سيوف وكان العدو زهاء الف ومعهم مائة فرس والشكة والشوكة
فاتقوا الله اقتصر على الامر بالتقوى مع كونه مشفوعا بالصبر فيما سبق وما لحق للاشعار
باصالته وكون الصبر من مباديه اللازمة له ولذلك قدم عليه في الذكر وفي ترتيب
الامر بالتقوى على الاخبار بالنصر ايذان بان نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم اي اذا كان
الامر كذلك فاتقوا الله كما اتقيتم يومئذ لعلكم تشكرون اي راجين
ان تشكروا ما ينعم به عليكم بتقواكم من النصرة كما شكرتم فيما قبل او لعلكم ينعم الله
عليكم بالنصر كما فعل ذلك من قبل فوضع الشكر موضع سببه الذي هو الانعام اذ
تقول تلوين للخطاب بتخصيصه برسول الله صلى الله عليه وسلم لتشريفه والايذان
بان وقوع النصر كان ببشارته عليه السلام واذ ظرف لنصركم قدم عليه الامر
بالتقوى لاظهار كمال العناية به والمراد به الوقت الممتد الذي وقع فيه ما ذكر بعده
وما طوي ذكره تعويلا على شهادة الحال مما يتعلق به وجود النصر وصيغة المضارع
لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها اي نصركم وقت قولك للمؤمنين حين
اظهروا العجز عن المقاتلة قال الشعبي بلغ المؤمنين ان كرز بن جابر الحنفي يريد ان يمد
المشركين فشق ذلك على المؤمنين فنزل حينئذ ثم حكى ههنا الن يكفيكم ان يمدكم
ربكم بثلاثة الاف الكفاية سد الخلة والقيام بالامر والامداد في الاصل اعطاء
الشيء حالا بعد حال قال المفضل ما كان منه بطريق التقوية والاعانة يقال فيه امده
امدادا وما كان بطريق الزيادة يقال فيه مده مدا ومنه والبحر يمده من بعده
سبعة ابحر وقيل المد في الشر كما في قوله تعالى ويمدهم في طغيانهم يعمهون وقوله
ونمد له من العذاب مدا والامداد في الخير كما في قوله تعالى وامددناكم باموال وبنين
والتعرض لعنوان الربوبية ههنا وفيما سياتي من الاضافة الى ضمير المخاطبين لاظهار
العناية بهم والاشعار بعلة الامداد والمعنى انكار عدم كفاية الامداد بذلك
المقدار ونفيه وكلمة لن للاشعار بانهم كانوا حينئذ كالآيسين من النصر لضعفهم

وقلتهم وقوة العدو وكثرتهم من الملائكة بيان او صفة لآلاف او لما اضيف اليه اي
كائنين من الملائكة منزلين صفة لثلاثة آلاف وقيل حال من الملائكة وقرئ منزلين
بالتشديد للتكثير او للتدريج قيل امدهم الله تعالى اولا بالف ثم صاروا ثلاثة آلاف
ثم خمسة آلاف وقرئ مبنيا للفاعل من الصيغتين اي منزلين النصر بلى ايجاب لما بعد
لن وتحقيق له اي بلى يكفيكم ذلك ثم وعدهم الزيادة بشرط الصبر والتقوى
حثا لهم عليهما وتقوية لقلوبهم فقال ان تصبروا على لقاء العدو ومناهضتهم
وتتقوا معصية الله ومخالفة نبيه عليه السلام ويأتوكم اي المشركون من
فورهم هذا اي من ساعتهم هذه وهو في الاصل مصدر فارت القدر اي اشتد غليانها
ثم استعير للسرعة ثم اطلق على كل حالة لا ريب فيها اصلا ووصفه بهذا لتأكيد السرعة
بزيادة تعيينه وتقريبه ونظم اتيانهم بسرعة في سلك شرطي الامداد المستتبعين
له وجودا او عدما مع ان الصبر والتقوى مع تحقق الامداد لا محالة سواء اسرعوا او ابطأوا
لتحقيق سرعة الامداد لا لتحقيق اصله او لبيان تحققه على اي حال فرض على ابلغ وجه وآكده
بتعليقه بابعد التقادير ليعلم تحققه على سايرها بالطريق الاولى فان هجوم الاعداء و
اتيانهم بسرعة من مظان عدم لحوق المدد عادة فعلق بذلك الامداد ايذانا بانه حيث تحقق مع
ما ينافيه عادة فلان يتحقق بدونه اولى واحرى كما اذا اردت وصف درع بغاية الحصانة
تقول ان لبستها وبارزت بها الاعداء فضربوك بايدي شداد وسيوف حداد لم تتأثر منها
قطعا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين من التسويم الذي هو
اظهار سيماء الشيء اي معلمين انفسهم وخيلهم فقد روي انهم بعمايم بيض الا جبريل
عليه السلام فانه كان بعمامة صفراء على مثال الزبير بن العوام وروي انهم كانوا على خيل
بلق قال عروة بن الزبير كانت الملائكة على خيل بلق عمائم بيض قد ارسلوها بين اكتافهم وقال
هشام بن عروة عمائم صفر وقال قتادة والضحاك وكانوا قد علموا بالعهن في نواصي الخيل
واذنابها وروي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه رض تسوموا فان الملائكة قد
تسومت وقرئ مسومين على البناء للمفعول ومعناه معلمين من جهته سبحانه وتعالى
وقيل مسومين من التسويم بمعنى الاسامة وما جعله الله كلام مبتدأ غير داخل في حيز القول
مسوق من جنابه تعالى لبيان ان الاسباب الظاهرة بمعزل من التأثير وان حقيقة النصر مختص به
عز وجل ليثق به المؤمنون ولا يقنطوا منه عند فقدان اسبابه وامارته معطوف على
فعل مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام فان الاخبار بوقوع النصر على الاطلاق
وتذكير وقته وحكاية الوعد بوقوعه على وجه مخصوص هو الامداد بالملائكة مرة بعد
اخرى وتعيين وقته فيما مضى يقضي بوقوعه حتما قضاء قطعيا لم يصرح به تعويلا على تضافر
الدلائل وتآخذ الامارات والمخايل وايذانا بكمال الغنى عنه بل احترازا عن شائبة التكرير
او عن ايهام احتمال الخلف في الوعد المحتوم كانه قيل عقيب قوله تعالى يمددكم ربكم
بخمسة آلاف من الملائكة مسومين فامدكم بهم وما جعله الله الخ متعد الى واحد
هو الضمير العائد الى مصدر ذلك الفعل المقدر واما عوده الى المصدر المذكور اعني
قوله تعالى ان يمدكم او الى المصدر المدلول عليه بقوله تعالى يمددكم كما قيل فغير حقيق
بجزالة التنزيل لان العلة البسيطة متقدمة على المركبة فبيان العلة الغائية لوجود
الامداد كما هو المراد بالنظم الكريم حقه ان يكون بعد بيان وجوده في نفسه ولا
ريب في ان المصدرين المذكورين غير معتبرين من حيث الوجود والوقوع كمصدر الفعل
المقدر حتى يتصدى لبيان احكام وجودهما بل الاول معتبر من حيث الكفاية والثاني من
حيث الوعد على ان الاول هو الامداد بخمسة آلاف وقوله تعالى الا بشرى لكم
استثناء مفرغ من اعم العلل وتلوين الخطاب لتشريف المؤمنين وللايذان بانهم
المحتاجون الى البشارة وتسكين القلوب بتوفيق الاسباب الظاهرة وان رسول الله
صلى الله عليه وسلم غني عنه بما له من التأييد الروحاني اي وما جعل امدادكم بانزال
الملائكة عيانا لشيء من الاشياء الا بشرى لكم بانكم تنصرون ولتطمئن قلوبكم به

اى بالامداد وتسكن اليه كما كانت السكينة لبني اسرائيل كذلك فكلاهما علة غائية للجعل
وقد نصب الاول لاجتماع شرائطه من اتحاد الفاعل والزمان وكونه مصدرا مسوقا للتعليل
وبقي الثاني على حاله لفقدها وقيل للاشارة ايضا الى اصالته في العلية واهميته في نفسه
كما في قوله تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة وفي قصر الامداد عليهما اشعار
بان الملائكة عليهم السلام لم يباشروا يومئذ القتال وانما كان امدادهم بتقوية قلوب
المباشرين بتكثير السواد ونحوه كما هو رأي بعض السلف رح وقيل الجعل متعد الى اثنين وقوله
عز وجل الا بشرى لكم استثناء من اعم المفاعيل اي وما جعله الله تعالى شيئا من الاشياء
الا بشارة لكم فاللام في قوله تعالى ولتطمئن متعلقة بمحذوف تقديره ولتطمئن قلوبكم
به فعل ذلك وما النصر اي حقيقة النصر على الاطلاق فيندرج في حكمه النصر
المعهود اندراجا اوليا الا من عند الله اي الا كائن من عنده تعالى من غير ان يكون
فيه شركة من جهة الاسباب والعدد وانما هي مظاهر له بطريق جريان سنته تعالى او وما
النصر المعهود الا من عنده تعالى لا من عند الملائكة فانهم بمعزل من التأثير وانما قصارى
امرهم ما ذكر من البشارة وتقوية القلوب العزيز اي الذي لا يغالب في حكمه وقضيته
واجراء هذا الوصف عليه تعالى للاشعار بعلة اختصاص النصر به تعالى كما ان وصفه تعالى بقوله
الحكيم اي الذي يفعل كل ما يفعل حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة للايذان بعلة جعل النصر
بانزال الملائكة عليهم السلام فان ذلك من مقتضيات الحكم البالغة ليقطع متعلق
بقوله تعالى ولقد نصركم وما بينهما تحقيق لحقيقته وبيان لكيفية وقوعه والمقصود
على التعليل بما ذكر من البشرى والاطمئنان انما هو الامداد بالملائكة على الوجه المذكور فلا يقدح
ذلك في تعليل النصر بالقطع وما عطف عليه او بما تعلق به الخبر في قوله عز وعلا وما النصر
الا من عند الله على تقدير كونه عبارة عن النصر المعهود وقد اشير الى ان المعلل بالبشارة
والاطمئنان انما هو الامداد الصوري لا ما في ضمنه من النصر المعنوي الذي هو ملاك الامر
واما تعلقه بنفس النصر كما قيل فمع ما فيه من الفصل بين المصدر ومعموله باجنبي هو
الخبر مخل بسداد المعنى كيف لا ومعناه قصر النصر المخصوص المعلل معينة على الحصول من
جهته تعالى وليس المراد الا قصر حقيقة النصر او النصر المعهود على ذلك والمعنى لقد
نصركم الله يومئذ او وما النصر الظاهر عند امداد الملائكة الا ثابت من عند الله ليقطع
اي يهلك وينقص طرفا من الذين كفروا اي طائفة منهم بقتل واسر وقد وقع
ذلك حيث قتل من رؤسائهم وصناديدهم سبعون واسر سبعون او يكبتهم اي
يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة فان الكبت شدة غيظ او وهن يقع في القلب من كبته
بمعنى كبده اذا ضرب كبده بالغيظ والحرقة وقيل الكبت الاصابة بمكروه وقيل هو الصرع
للوجه واليدين فالتاء غير مبدلة واو للتنويع فينقلبوا خائبين اي فينهزموا منقطعي
الآمال غير فائزين من مبتغاهم بشيء كما في قوله تعالى ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم
ينالوا خيرا ليس لك من الامر شيء اعتراض وسط بين المعطوف عليه المتعلق بالعاجل
لتحقيق ان لا تأثير للمنصورين اثر بيان ان لا تأثير للناصرين وتخصيص النفي برسول الله صلى الله عليه
وسلم على طريق تلوين الخطاب للدلالة على الانتفاء من غيره بالطريق الاولى وانما خص الاعتراض
بموقعه لان ما قبله من القطع والكبت من مظان ان يكون فيه لرسول الله صلى الله عليه
وسلم ولسائر مباشري القتال مدخل في الجملة او يتوب عليهم او يعذبهم عطف
على يكبتهم والمعنى ان مالك امرهم على الاطلاق هو الله تعالى نصركم عليهم ليهلكهم
او يكبتهم او يتوب عليهم ان اسلموا او يعذبهم ان اصروا وليس لك من امرهم شيء
انما انت عبد مأمور بانذارهم وجهادهم والمراد بتعذيبهم التعذيب الشديد الاخروي
المخصوص باشد الكفرة كفرا والا فمطلق التعذيب الاخروي متحقق في الفريقين الاولين
ايضا ونظم التوبة والتعذيب المذكور في سلك العلة الغائية للنصر المترتبة عليه
في الوجود من حيث ان قبول توبتهم فرع تحققها الناشئ من علمهم بحقية الاسلام
بسبب غلبة اهله المترتبة على النصر وان تعذيبهم بالعذاب المذكور مترتب على اصرارهم

على الكفر بعد تبين الحق على الوجه المذكور هذا وقيل ان عتبة بن ابي وقاص شج رسول الله
صلى الله عليه وسلم يوم احد وكسر رباعيته فجعل عليه السلام يمسح الدم عن وجهه و
سالم مولى ابي حذيفة يغسل عن وجهه الدم وهو يقول كيف يفلح قوم خضبوا وجه
نبيهم بالدم وهو يدعوهم الى ربهم فنزلت ليس لك من الامر شيء الآية كانه نوع معاتبة
على انكاره عليه السلام لفلاحهم وقيل اراد ان يدعو عليهم فنهاه الله تعالى لعلمه بان
منهم من يؤمن فقوله تعالى او يتوب عليهم عطف على الامر او على شيء باضمار ان اي
ليس لك من امرهم شيء او من التوبة عليهم او من تعذيبهم شيء او ليس لك من امرهم او
من التوبة عليهم او تعذيبهم ونقل عن الفراء وابن الانباري ان او بمعنى الا ان والمعنى ليس لك
من امرهم شيء الا ان يتوب الله عليهم فتفرح به او يعذبهم فتشفى منهم واياما كان
فهو كلام مستأنف سيق لبيان بعض الامور المتعلقة بغزوة احد اثر بيان بعض ما يتعلق بغزوة
بدر لما بينهما من التناسب الظاهر لان كلا منهما مبني على اختصاص الامر كله بالله
تعالى ومبني عن سلبه عمن سواه واما تعلق كل القصة بغزوة احد على ان قوله تعالى اذ تقول
بدل ثان من اذ غدوت وان ما حكي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقع يوم احد وان
الامداد الموعود كان مشروطا بالصبر والتقوى فلما لم يفعلوا لم يتحقق الموعود كما قيل فلا يساعده
النظم الكريم اما اولا فلان المشروط بالصبر والتقوى انما هو الامداد بخمسة آلاف لا بثلاثة
آلاف مع انه لم يقع الامداد يومئذ ولو بملك واحد واما ثانيا فلانه كان ينبغي ان ينعى
عليهم جنايتهم وحرمانهم بسببها تلك النعمة الجليلة ودعوى ظهوره مع عدم دلالة
السياق والسباق عليه بل مع دلالتهما على خلافه مما لا يكاد يسمع واما ثالثا فلانه لا
سبيل الى جعل الضمير في قوله تعالى وما جعله الله تعالى عائدا الى الامداد الموعود لانه لم يتحقق فكيف يبين
علته الغائية ولا الى الوعد به على انه تعالى انما جعل ذلك الوعد لبشارتكم واطمئنان
قلوبكم فلم تفعلوا ما شرط عليكم من الصبر والتقوى فلم يقع انجاز الموعود لما ان قوله
تعالى وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم صريح في انه قد وقع الامداد الموعود لكن اثره
انما هو مجرد البشارة والاطمئنان وقد حصل واما النصر الحقيقي فليس ذلك الا من عنده
تعالى وجعله استينافا مقررا لعدم وقوع الامداد على معنى ان النصر الموعود مخصوص به تعالى
فلا ينصر من خالف امره بترك الصبر والتقوى اعتساف بين يجب تنزيه التنزيل عن امثاله
على ان قوله تعالى ليقطع طرفا الآية متعلق حينئذ بما تعلق به قوله تعالى من عند الله من الثبوت و
الاستقرار ضرورة ان تعلقه بقوله تعالى ولقد نصركم الله ببدر الآية مع كون ما بينهما من الفصل
متعلقا بوقعة احد من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه فلا بد من اعتبار وجود النصر قطعا
لان تفصيل الاحكام المترتبة على وجود شيء بصدد بيان انتفائه مما لم يعهد في كلام
الناس فضلا عن الكلام المجيد فالحق الذي لا محيد عنه ان قوله تعالى اذ تقول ظرف لنصركم
وان ما حكي في اثنائه الى قوله تعالى خائبين متعلق بيوم بدر قطعا وما بعده محتمل للوجهين
المذكورين وقوله تعالى فانهم ظالمون تعليل على كل حال لقوله تعالى او يعذبهم مبين
لكون ذلك من جهتهم وجزاء لظلمهم ولله ما في السموات وما في الارض كلام
مستأنف سيق لبيان اختصاص ملكوت كل الكائنات عز وجل اثر بيان اختصاص طرف
من ذلك به تقريرا لما سبق وتكملة له وتقديم الجار للقصر وكلمة ما شاملة للعقلاء
ايضا تغليبا اي له ما فيهما من الموجودات خلقا وملكا لا مدخل فيه لاحد اصلا فله الامر
كله يغفر لمن يشاء ان يغفر له مشيئته على الحكم والمصالح ويعذب من يشاء ان
يعذبه بعلمه مشيئته كذلك وايثار كلمة من في الموضعين لاختصاص المغفرة والتعذيب
بالعقلاء وتقديم المغفرة على التعذيب للايذان بسبق رحمته تعالى غضبه وبانها من مقتضيات
الذات دونه فانه من مقتضيات سيئات العصاة وهذا صريح في نفي وجوب التعذيب و
التقييد بالتوبة وعدمها كالمنافي له والله غفور رحيم تذييل مقرر لمضمون قوله تعالى
يغفر لمن يشاء مع زيادة وفي تخصيص التذييل به دون قرينه من الاعتناء بشأن
المغفرة والرحمة ما لا يخفى يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا كلام مبتدأ مشتمل على ما

هو ملاك الامر في كل باب لا سيما في باب الجهاد من التقوى والطاعة وما بعدهما من الامور
المذكورة على نهج الترغيب والترهيب جاء به في تضاعيف القصة مسارعة الى ارشاد
المخاطبين الى ما فيه وايذانا بكمال وجوب المحافظة عليه فيما هم فيه من الجهاد فان الامور
المذكورة فيه مع كونها مناطا للفوز في الدارين على الاطلاق عمدة في امر الجهاد عليها يدور
فلك النصرة والغلبة كيف لا ولو حافظوا على الصبر والتقوى وطاعة الرسول لما لقوا ما
لقوا ولعل ايراد النهي عن الربا في اثنائها لما ان الترغيب في الانفاق في السراء والضراء الذي
عمدته الانفاق في سبيل الجهاد متضمن للترغيب في تحصيل المال فكانه مظنة مبادرة
الناس الى طرق الاكتساب ومن جملتها الربا فنهوا عن ذلك والمراد باكله اخذه وانما عبر عنه
بالاكل لما انه معظم ما يقصد بالاخذ ولشيوعه في المأكولات مع ما فيه من زيادة تشنيع
وقوله عز وجل اضعافا مضاعفة ليس لتقييد النهي به بل لمراعاة ما كانوا عليه من العادة
توبيخا لهم بذلك اذ كان الرجل يربي الى اجل فاذا حل قال للمديون زدني في المال حتى ازيدك
في الاجل فيفعل وهكذا عند محل كل اجل فيستغرق بالشيء الطفيف ماله بالربا كلية ومحله
النصب على الحالية من الربا وقرئ مضعفة فاتقوا الله فيما نهيتم عنه من الامور التي
من جملتها الربا لعلكم تفلحون راجين للفلاح واتقوا النار التي اعدت للكافرين
بالتحرز عن متابعتهم وتعاطي ما يتعاطونه كان ابو حنيفة رح يقول هي اخوف آية في القرآن
حيث اوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين ان لم يتقوه في اجتناب محارمه و
اطيعوا الله في كل ما امركم به ونهاكم عنه والرسول الذي يبلغكم اوامره ونواهيه
لعلكم ترحمون راجين لرحمته عقب الوعيد بالوعد ترهيبا عن المخالفة وترغيبا في الطاعة
وايراد لعل في الموضعين للاشعار بعزة منال الفلاح والرحمة قال محمد بن اسحق هذه الآية
معاتبة للذين عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين امرهم بما امرهم يوم احد و
سارعوا عطف على اطيعوا وقرئ بغير واو على وجه الاستيناف اي بادروا واقبلوا و
قرئ وسابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة اي الى ما يؤدي اليهما وقيل الى الاسلام
وقيل الى التوبة وقيل الى الاخلاص وقيل الى الجهاد وقيل الى اداء جميع الواجبات
وترك جميع المنهيات فيدخل فيها ما مر من الامور المأمور بها والمنهي عنها دخولا اوليا
وتقديم المغفرة على الجنة لما ان التخلية متقدمة على التحلية ومن متعلقة بمحذوف
وقع صفة لمغفرة اي كائنة من ربكم والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير
المخاطبين لاظهار مزيد اللطف بهم وقوله تعالى عرضها السموات والارض اي كعرضهما
صفة لجنة وتخصيص العرض بالذكر للمبالغة في وصفها بالسعة والبسطة على طريقة التمثيل
فان العرض في العادة ادنى من الطول وعن ابن عباس رضه كسبع سموات وسبع ارضين لو
وصل بعضها ببعض اعدت للمتقين في حيز الجر على انه صفة اخرى لجنة او في محل النصب
على الحالية منها لتخصصها بالصفة اي هيئت لهم وفيه دليل على ان الجنة مخلوقة الآن وانها
خارجة عن هذا العالم الذين ينفقون في محل الجر على انه نعت للمتقين مادح لهم او بدل منه
او بيان في حيز النصب والرفع على المدح ومفعول ينفقون محذوف ليتناول كل ما يصلح
للانفاق او متروك بالكلية كما في قولك يعطي ويمنع في السراء والضراء في حالتي
الرخاء والشدة واليسر والعسر او في الاحوال كلها اذ الانسان لا يخلو عن مسرة او مضرة
اي لا يخلون في حال ما قدروا عليه من قليل او كثير والكاظمين الغيظ عطف على
الموصول والعدول الى صيغة الفاعل للدلالة على الاستمرار واما الانفاق فحيث كان امرا
متجددا عبر عنه بما يفيد الحدوث والتجدد والكظم الحبس يقال كظم غيظه اي حبسه قال
المبرد تاويله انه كتمه على امتلائه منه يقال كظمت السقاء اذا ملأته وشددت عليه اي
الممسكين عليه الكافين عن امضائه مع القدرة عليه وعن النبي صلى الله عليه وسلم من كظم غيظا
وهو قادر على انفاذه ملأ الله قلبه امنا وايمانا والعافين عن الناس اي التاركين
عقوبة من استحق مؤاخذته روي انه ينادي مناد يوم القيمة اين الذين كانت اجورهم
على الله تعالى فلا يقوم الا من عفا وعن النبي صلى الله عليه وسلم ان هؤلاء في امتي قليل

الا من عصمه الله وقد كانوا اكثر في الامم التي مضت وفي هذين الوصفين اشعار بكمال
حسن موقع عفوه عليه السلام عن الرماة وترك مؤاخذتهم بما فعلوا من مخالفة امره
عليه الصلوة والسلام وندب له عليه السلام الى ترك ما عزم عليه من مجازاة
المشركين بما فعلوا بحمزة رضي حيث قال حين رآه قد مثل به لامثلن بسبعين مكانك والله
يحب المحسنين اللام اما للجنس وهم داخلون فيه دخولا اوليا واما للعهد
عبر عنهم بالمحسنين ايذانا بان النعوت المعدودة من باب الاحسان الذي هو الاتيان
بالاعمال على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها الذاتي وقد فسره
صلى الله عليه وسلم ان تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك والجملة تذييل
مقرر لمضمون ما قبلها والذين مرفوع على الابتداء وقيل مجرور ومعطوف على
ما قبله من صفات المتقين وقوله تعالى والله يحب المحسنين اعتراض بينهما مشير الى ما بينهما
من التفاوت فان درجة الاولين من التقوى اعلى من درجة هؤلاء وحظهم اى في من
من حظهم او على نفس المتقين فيكون التفاوت اكثر واظهر اذا فعلوا فاحشة اى فعلة
بالغة في القبح كالزنا او ظلموا انفسهم بان اتوا ذنبا اى ذنب كان وقيل الفاحشة
الكبيرة وظلم النفس الصغيرة او الفاحشة ما يتعدى الى الغير وظلم النفس ما ليس كذلك
قيل قال المؤمنون يا رسول الله كانت بنوا اسرائيل اكرم على الله منا كان احدهم اذا اذنب
ذنبا اصبحت كفارة ذنبه مكتوبة في عتبة داره افعل كذا فانزل الله تعالى هذه الآية وقيل
ان نبهان التمار اتته امراة حسناء تطلب منه تمرا فقال لها هذا التمر ليس بجيد وفي البيت اجود
منه فذهب بها الى بيته فضمها الى نفسه وقبلها فقالت له اتق الله فتركها وندم على
ذلك واتى النبي صلى الله عليه وسلم وذكر له ذلك فنزلت وقيل جرى مثل هذا بين انصاري
وامراة رجل ثقفي كان بينهما مواخاة فندم الانصاري وحثا على راسه التراب وهام
على وجهه وجعل يسيح في الجبال تائبا مستغفرا ثم اتى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت وايا
ما كان فاطلاق اللفظ ينتظم ما فعله الرماة انتظاما اوليا ذكروا الله تذكروا
حقه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء او وعيده او حكمه وعقابه فاستغفروا
لذنوبهم بالتوبة والندم والفاء للدلالة على ان ذكره تعالى مستتبع للاستغفار لا محالة
ومن يغفر الذنوب استفهام انكاري والمراد بالذنوب جنسها كما في قولك فلان يلبس
الثياب ويركب الخيل الا كلها حتى يخل بما هو المقصود من استحالة صدور مغفرة فرد
منها عن غيره تعالى وقوله تعالى الا الله بدل من الضمير المستكن في يغفر اي لا يغفر
جنس الذنوب احد الا الله خلا ان دلالة الاستفهام على الانتفاء اقوى وابلغ لايذانه
بان كل احد ممن له حظ من الخطاب يعرف ذلك الانتفاء فيسارع الى الجواب والمراد به وصفه
سبحانه بغاية سعة الرحمة وعموم المغفرة والجملة معترضة بين المعطوفين او بين الحال
وصاحبها لتقرير الاستغفار والحث عليه والاشعار بالوعد بالقبول ولم يصروا عطف على
فاستغفروا او تاخيره عنه مع تقدم عدم الاصرار على الاستغفار رتبة لاظهار
الاعتناء بشان الاستغفار واستحقاقه المسارعة اليه عقيب ذكره تعالى او حال من فاعله
اى ولم يقيموا او غير مقيمين على ما فعلوا اى ما فعلوه من الذنوب فاحشة كانت
او ظلما او على فعلهم روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه ما اصر من استغفر وان عاد
في اليوم سبعين مرة وانه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار وهم يعلمون
حال من فاعل يصروا اى لم يصروا على ما فعلوا وهم عالمون بقبحه وبالنهي عنه والوعيد
عليه والتقييد بذلك لما انه قد يعذر من لا يعلم ذلك اذا لم يكن عن تقصير في
تحصيل العلم به اولئك اشارة الى المذكورين آخرا باعتبار اتصافهم بما مر من الصفات
الحميدة وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلتهم وعلو طبقتهم في الفضل
وهو مبتداء وقوله تعالى جزاؤهم بدل اشتمال منه وقوله تعالى مغفرة خبر له او
جزاؤهم مبتدا ثان ومغفرة خبره والجملة خبر لاولئك وهذه الجملة خبر لقوله تعالى
والذين اذا فعلوا الخ على الوجه الاول وهو الاظهر الانسب بنظم المغفرة المنبئة عن سابقة

انتهى

الذنب

الذنب في سلك الجزاء اذ على الوجهين الاخيرين يكون قوله تعالى اولئك الخ جملة مستانفة مبينة
لما قبلها كاشفة عن حال كلا الفريقين المحسنين والتائبين ولم يذكر من اوصاف الاولين
ما فيه شائبة الذنب حتى يذكر في مطلع الجزاء الشامل لهما المغفرة وتخصيص الاشارة بالآخرين
مع اشتراكهما في حكم اعداد الجنة لهما تعسف ظاهر من ربهم متعلق بمحذوف وقع
صفة لمغفرة مؤكدة لما افادها التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية اى كائنة
من جهته تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم للاشعار بعلة الحكم
والتشريف وجنات تجري من تحتها الانهار عطف على مغفرة والتنكير المشعر بكونها
ادنى من الجنة السابقة مما يؤيد رجحان الوجه الاول خالدين فيها حال مقدرة من الضمير
في جزاؤهم لانه مفعول به في المعنى لانه في قوة يجزيهم الله جنات خالدين فيها ولا مساغ
لان يكون حالا من جنات في اللفظ وهي لاصحابها في المعنى اذ لو كان كذلك لبرز الضمير
ونعم اجر العاملين المخصوص بالمدح محذوف اي ونعم اجر العاملين ذلك اي ما ذكر
من المغفرة والجنات والتعبير عنهما بالاجر المشعر بانهما يستحقان بمقابلة العمل وان كان
بطريق التفضل لمزيد الترغيب في الطاعات والزجر عن المعاصي والجملة تذييل مختص
بالتائبين حسب اختصاص التذييل السابق بالاولين وناهيك بمضمونهما دليلا على ما
بين الفريقين من التفاوت النير والتباين البين شتان بين المحسنين الفائزين بمحبة الله تعالى
وبين العاملين الحائزين لاجرتهم وعمالتهم قد خلت من قبلكم سنن رجوع الى تفصيل
بقية القصة بعد تمهيد مبادي الرشد والصلاح وترتيب مقدمات الفوز والفلاح والخلو
المضي والسنن الوقائع وقيل الامم والظرف اما متعلق بخلت او بمحذوف وقع حالا من
سنن اي قد مضت من قبل زمانكم او كائنة من قبلكم وقائع سنها الله تعالى في الامم المكذبة
كما في قوله عز وجل وقتلوا تقتيلا سنة الله في الذين خلوا الخ والفاء في قوله تعالى فسيروا في
الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين للدلالة على سببية خلوها للسير والنظر
ان كان خاصا بالمؤمنين او للامر بهما وقيل المعنى على الشرط اي ان شككتم فسيروا الخ وكيف
خبر مقدم لكان معلق لفعل النظر والجملة في محل النصب بعد نزع الخافض لان الاصل استعماله
بالجار هذا اشارة الى ما سلف من قوله قد خلت الخ بيان للناس اي تبيين لهم على
ان اللام متعلقة بالمصدر او كائن لهم على انها متعلق بمحذوف وقع صفة له وتعريف
الناس للعهد وهم المكذبون اي هذا ايضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب فان
الامر بالسير والنظر وان كان خاصا بالمؤمنين لكن العمل بموجبه غير مختص بواحد دون
واحد ففيه حمل للمكذبين ايضا على ان ينظروا في عواقب من قبلهم من اهل التكذيب
ويعتبروا بما يعاينون من آثار دمارهم وان لم يكن الكلام مسوقا لهم وهدى وموعظة
اي وزيادة بصيرة وموعظة لكم وانما قيل للمتقين للايذان بعلة الحكم فان مدار
كونه هدى وموعظة لهم انما هو تقواهم ويجوز ان يراد بالمتقين الصائرون الى التقوى
فالهدى والموعظة على ظاهرهما اى هذا بيان لمآل امر الناس وسوء عاقبة وهداية
لمن اتقى منهم وزجر لهم عما هم عليه من التكذيب وان يراد به ما يعمهم وغيرهم من
المتقين بالفعل ويراد بالهدى والموعظة ايضا ما يعم ابتداءهما والزيادة فيهما وانما
قدم كونه بيانا للمكذبين مع انه غير مسوق له على كونه هدى وموعظة للمتقين مع
انهما المقصود بالسياق لان اول ما يترتب على مشاهدة آثار هلاك اسلافهم ظهور حال
اخلافهم واما زيادة الهدى او اصله فانه مترتب عليه وتخصيص البيان بالناس
مع شموله للمتقين ايضا لما ان المراد به مجرد البيان العاري عن الهدى والعظة و
الاقتصار عليهما في جانب المتقين مع ترتبهما على البيان لما انهما المقصد الاصلي ويجوز
ان يكون التعريف للجنس اي هذا بيان للناس كافة وهدى وموعظة للمتقين منهم
خاصة وقيل كلمة هذا اشارة الى ما لخص من امر المتقين والتائبين والمصرين
وقوله تعالى قد خلت الخ اعتراض للبعث على الايمان وما يستحق به ما ذكر من اجر العاملين
وانت خبير بان الاعتراض لا بد ان يكون مقررا لمضمون ما وقع في خلاله ومعاينة آثار

ملاك المكذبين مما لا تعلق له بحال احد الاصناف الثلثة للمؤمنين وان كان باعثا على
الايمان فاجرا على التكذيب وقيل اشارة الى القران ولا تخفى بعده ولا تهنوا ولا تحزنوا
تشجيع للمؤمنين وتقوية لقلوبهم وتسلية عما اصابهم يوم احد من القتل والقرح
وكان قد قتل يومئذ خمسة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه ومصعب
بن عمير صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن جحش ابن عمة النبى
صلى الله عليه وسلم وعثمان بن شماس وسعد مولى عتبة رضى الله عنهم ومن الانصار سبعون
رجلا رضوان الله تعالى عليهم اجمعين اى لا تضعفوا عن الجهاد بما نالكم من الجراح
ولا تحزنوا على من قتل منكم وانتم الاعلون جملة حالية من فاعل الفعلين اى والحال
انكم الاعلون الغالبون دون عدوكم فان مصير امرهم الى الدمار حسبما شاهدتم
من احوال اسلافهم فهو تصريح بالوعد بالنصر والغلبة بعد الاشعار به فيما سبق او
وانتم المعهودون بغاية علو الشان لما انكم على الحق وقتالكم لله عز وجل وقتلاكم
فى الجنة وهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاهم فى النار وقيل انتم الاعلون
حالا منهم حيث اصبتم منهم يوم بدر مما اصابوا منكم اليوم ان كنتم مؤمنين
متعلق بالنهى او بالاعلون وجوابه محذوف لدلالة ما يتعلق به عليه اى ان كنتم
فلا تهنوا ولا تحزنوا فان الايمان يوجب قوة القلب والثقة بصنع الله تعالى وعدم المبالاة
باعدائه او ان كنتم مؤمنين فانتم الاعلون فان الايمان يقتضى العلو لا محالة او ان كنتم
مصدقين بوعد الله فانتم الاعلون واياما كان فالمقصود تحقيق المعلق به كما فى قول
الاجير ان كنت عملت لك فاعطنى اجرى ولذلك قيل معناه اذ كنتم مؤمنين وقيل معناه ان
بقيتم على الايمان ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله القرح بالضم والفتح لغتان
كالضعف والضعف وقرئ بهما وقيل هو بالفتح الجراح وبالضم المها وقرئ بفتحتين وقيل القرح
والقرح كالطرد والطرد والمعنى ان نالوا منكم يوم احد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر ثم لم
يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال فانتم احق بان لا تضعفوا
فانكم ترجون من الله ما لا يرجون وقيل كلا المسين كان يوم احد فان المسلمين نالوا
منهم قبل ان يخالفوا امر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلوا منهم نيفا وعشرين رجلا
منهم صاحب لوائهم وجرحوا عددا كثيرا وعقروا عامة خيلهم بالنبل وتلك
الايام اشارة الى الايام الجارية فيما بين الامم الماضية والآتية كافة لا الى الايام المعهودة
خاصة من يوم بدر ويوم احد بل هى داخلة فيها دخولا اوليا والمراد بها اوقات الظفر
والغلبة نداولها بين الناس نصرفها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء اخرى كقول
من قال فيوما علينا ويوما لنا ويوما نساء ويوما نسر والمداولة كالمعاورة يقال
داولته بينهم فتداولوها اى عاورته فتعاوروه واسم الاشارة مبتدأ والايام
اما صفة له او بدل منه او عطف بيان له ونداولها خبره او خبر فنداولها حال من
الايام والعامل معنى اسم الاشارة او خبر بعد خبر وصيغة المضارع الدالة على التجدد
والاستمرار للايذان بان تلك المداولة سنة مسلوكة فيما بين الامم قاطبة سابقتها
ولاحقتها وفيه ضرب من التسلية وقوله عز وجل وليعلم الله الذين امنوا اما
من باب التمثيل اى ليعاملكم معاملة من يريد ان يعلم المخلصين الثابتين على الايمان
من غيرهم او العلم فيه مجاز عن التمييز بطريق اطلاق اسم السبب على المسبب اى ليميز
الثابتين على الايمان من غيرهم كما فى قوله تعالى ما كان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه حتى
يميز الخبيث من الطيب او هو على حقيقته معتبر من حيث تعلقه بالمعلوم من حيث انه
موجود بالفعل اذ هو الذى يدور عليه فلك الجزاء لا من حيث انه موجود بالقوة واطلاق
الايمان مع ان المراد هو الرسوخ والاخلاص فيه للايذان بان اسم الايمان لا ينطلق
على غيره والالتفات الى الغيبة باسناده الى اسم الذات المستجمع للصفات لتربية
المهابة والاشعار بان صدور كل واحد مما ذكر بصدد التعليل من افعاله تعالى
باعتبار منشأ معين من صفاته تعالى مغاير لمنشأ الآخر والجملة علة لما هو فرد من افراد

مطلق المداولة التى نطق بها قوله تعالى نداولها بين الناس من المداولة المعهودة الجارية بين
فريقى المؤمنين والكافرين واللام متعلقة بما دل عليه المطلق من الفعل المقيد بالوقوع
بين الفريقين المذكورين او بنفس الفعل المطلق باعتبار وقوعه بينهما والجملة معطوفة على
علة اخرى لها معتبرة اما على الخصوص والتعيين محذوفة لدلالة المذكور عليها لكونها
من مباديها كانه قيل نداولها بينكم وبين عدوكم ليظهر امركم وليعلم الخ فان ظهور
اعمالهم وخروجها من القوة الى الفعل من مبادى تمييزهم عن غيرهم ومواجب تعلق
العلم الازلى بها من تلك الحيثية وكذا الحال فى باب التمثيل فتأمل واما على العموم والابهام
للتنبيه على ان العلل غير منحصرة فيما عد من الامور وان العبد يسوؤه ما يجرى عليه من النوائب
ولا يشعر بان لله تعالى فى ذلك من الالطاف الخفية ما لا يخطر بالبال كانه قيل نداولها
بينكم من المصالح كيت وكيت وليعلم الخ وفيه من تاكيد التسلية ومزيد التبصرة ما لا يخفى
وتخصيص البيان بعلة هذا الفرد من مطلق المداولة دون سائر افرادها الجارية فيما بين
بقية الامم تعيينا او ابهاما لعدم تعلق الغرض ببيانها ولك ان تجعل المحذوف
المبهم عبارة عن علل سائر افرادها للاشارة اجمالا الى ان كل فرد من افرادها له علة داعية
اليه كانه قيل نداولها بين الناس كافة ليكون كيت وكيت من الحكم الداعية الى تلك الافراد
وليعلم الخ فاللام الاولى متعلقة بالفعل المطلق باعتبار تقيده بتلك الافراد والثانية
باعتبار تقيده بالفرد المعهود وقيل هى متعلقة بمحذوف مؤخر تقديره وليعلم الله
الذين امنوا فعل ذلك ويتخذ منكم شهداء جمع شهيد اى ويكرم ناسا منكم
بالشهادة وهم شهداء احد ومن ابتدائية او تبعيضية متعلقة بيتخذ او بمحذوف
وقع حالا من شهداء او جمع شاهد اى ويتخذ منكم شهودا معدلين بما ظهر منهم من
الثبات على الحق والصبر على الشدائد وغير ذلك من شواهد الصدق ليشهدوا على الامم
يوم القيمة فمن بيانية لان تلك الشهادة وظيفة الكل دون المستشهدين فقط وايا
ما كان ففى لفظ الاتخاذ المبنى على الاصطفاء والتقريب من تشريفهم وتفخيم شانهم ما لا
يخفى وقوله تعالى والله لا يحب الظالمين اعتراض مقرر لمضمون ما قبله ونفى المحبة كناية
عن البغض وفى ايقاعه على الظالمين تعريض بمحبته تعالى لمقابليهم والمراد بهم اما غير
الثابتين على الايمان فالتعريض من حيث ان بغضه تعالى لهم من دواعى اخراج المخلصين المصطفين
للشهادة من بينهم واما الكفرة الذين اديل لهم فالتعريض من حيث ان ذلك ليس بطريق
النصرة لهم فانها مختصة باوليائه تعالى لما ذكر من الفوائد العائدة الى المؤمنين وقوله تعالى
وليمحص الله الذين امنوا اى ليصفيهم ويطهرهم عن الذنوب عطف على يتخذ وتكرير
اللام لتذكير التعليل لوقوع الفصل بينهما بالاعتراض واظهار الاسم الجليل فى موقع
الاضمار لابراز مزيد الاعتناء بشان التمحيص وهذه الامور الثلثة علل للمداولة
المعهودة باعتبار كونها على المؤمنين قدمت فى الذكر لانها المحتاجة الى البيان ولعل
تاخير العلة الاخيرة عن الاعتراض لئلا يتوهم اندراج المذنبين فى الظالمين او ليقترن بقوله
عز وجل ويمحق الكافرين فان التمحيص فيه محو الآثار وازالة الاوزار كما ان المحق
عبارة عن النقص والاذهاب قال المفضل هو ان يذهب الشئ بالكلية حتى لا يرى منه شئ ومنه قوله
تعالى يمحق الله الربوا اى يستأصله وهذه علة للمداولة باعتبار كونها على الكافرين والمراد بهم
الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم احد واصروا على الكفر وقد محقهم الله
عز وجل ام حسبتم كلام مستانف مسوق لبيان ما هى الغاية القصوى من المداولة
والنتيجة لما ذكر من تمييز المخلصين وتمحيصهم واتخاذ الشهداء واظهار عزة منالها والخطا
للذين انهزموا يوم احد وام منقطعة وما فيها من كلمة بل للاضراب عن التسلية ببيان
العلل فيما لقوا من الشدة الى تحقيق انها من مبادى الفوز بالمطلب الاسنى والهمزة للانكار
والاستبعاد اى بل احسبتم ان تدخلوا الجنة وتفوزوا بنعيمها وقوله تعالى ولما يعلم
الله الذين جاهدوا منكم حال من ضمير تدخلوا مؤكدة للانكار فان رجاء الاجر بغير
عمل ممن يعلم انه منوط به مستبعد عند العقول وعدم العلم كناية عن عدم المعلوم لما

بينهما من اللزوم المبني على لزوم تحقق الاول لتحقق الثاني ضرورة استحالة تحقق شيء بدون
علمه تعالى به وايثارها على التصريح للمبالغة في تحقيق المعنى المراد فانها اثبات لعدم جهادهم
بالبرهان للايذان بان مدار ترتيب الجزاء على الاعمال انما هو علم الله تعالى بها كانه قيل والحال
انه لم يوجد الذين جاهدوا منكم وانما وجه النفي الى الموصوفين مع ان المنفي هو الوصف
وكان يكفي ان يقال ولما يعلم الله جهادكم كناية عن نفي ولما تجاهدوا للمبالغة في بيان انتفاء
الوصف وعدم تحققه اصلا وفي كلمة لما ايذان بان الجهاد متوقع منهم فيما يستقبل الا انه
غير معتبر في تاكيد الانكار وقرئ يعلم بفتح الميم على ان اصله يعلمن فحذفت النون او على
طريقة اتباع الميم لما قبلها في الحركة لابقاء تفخيم اسم الله تعالى ومنكم حال من الذين ويعلم
الصابرين منصوب باضمار ان على ان الواو للجمع كما في قولك لا تاكل السمك وتشرب اللبن
اي لا يكن منك اكل السمك وشرب اللبن والمعنى ام حسبتم ان تدخلوا الجنة والحال انه لم
يتحقق منكم الجهاد والصبر اي الجمع بينهما وايثار اسم الفاعل على الموصول للدلالة على ان
المعتبر هو الاستمرار على الصبر والمحافظة على الفواصل وقيل المجزوم معطوف على المجزوم قبله
قد حرك لالتقاء الساكنين بالفتح للخفة والاتباع كما مر ويؤيده القراءة بالكسر على ما هو
الاصل في تحريك الساكن وقرئ يعلم بالرفع على ان الواو للحال وصاحبها الموصول والمبتدا
محذوف اي وهو يعلم الصابرين كانه قيل ولما تجاهدوا وانتم صابرون ولقد
كنتم تمنون الموت اي تتمنون الحرب فانها من مبادي الموت او الموت بالشهادة
والخطاب للذين لم يشهدوا بدرا وكانوا يتمنون ان يشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم مشهدا لينالوا ما نال شهداء بدر من الكرامة فالحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم
في الخروج ثم ظهر منهم خلاف ذلك من قبل ان تلقوه متعلق بتمنون مبين لسبب اقدامهم
على التمني اي من قبل ان تشاهدوه وتعرفوا هوله وشدته وقرئ تلاقوه فقد رايتموه
اي ما تتمنونه من اسباب الموت او الموت بمشاهدة اسبابه وقوله تعالى وانتم تنظرون
حال من ضمير المخاطبين وفي ايثار الرؤية على الملاقاة وتقييدها بالنظر مزيد مبالغة في
مشاهدتهم له والفاء فصيحة كانه قيل ان كنتم صادقين في تمنيكم ذلك فقد رايتموه معاينين
له حين قتل بين ايديكم من قتل من اخوانكم واقاربكم وشارفتم ان تقتلوا فلم فعلتم
ما فعلتم وهو توبيخ لهم على تمنيهم الحرب وتسببهم لها ثم جبنهم وانهزامهم لا على تمني
الشهادة بناء على تضمنها لغلبة الكفار لان مطلب من يتمناها نيل كرامة الشهداء من غير
ان يخطر بباله شيء غير ذلك فلا يستحق العتاب من تلك الجهة وما محمد الا رسول
مبتدا وخبر ولا عمل لما بالاتفاق لانتقاض نفيه بالا وقوله تعالى قد خلت من قبله الرسل
صفة لرسول منبئة عن كونه في شرف الخلو فان خلو مشاركيه في منصب الرسالة من شواهد خلوه
لا محالة كانه قيل قد خلت من قبله امثاله فسيخلو كما خلوا والقصر قلبي فانهم لما انقلبوا
على اعقابهم فكانهم اعتقدوا انه عليه السلام رسول لا كسائر الرسل في انه يخلو كما
خلوا ويجب التمسك بدينه بعده كما يجب التمسك بدينهم بعدهم فرد عليهم بانه ليس
الا رسولا كسائر الرسل وقيل هو قصر افرادي فانهم لما استعظموا عدم بقائه عليه السلام
لهم نزلوا منزلة المستبعد لهلاكه كانهم يعتقدون فيه عليه السلام الرسالة والبعد عن
الهلاك فرد عليهم بانه مقصور على الرسالة لا يتجاوزها الى البعد عن الهلاك فلا بد
حينئذ من جعل قوله تعالى قد خلت الخ كلاما مبتدا مسوقا لتقرير عدم براءته عليه السلام
من الهلاك وبيان كونه اسوة لمن قبله من الرسل عليهم السلام وايا ما كان فالكلام خرج
على خلاف مقتضى الظاهر افإن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم انكار لارتدادهم
وانقلابهم عن الدين بخلوه بموت او قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم
متمسكا به وقيل الفاء للسببية والهمزة لانكار ان يجعلوا خلو الرسل قبله سببا لانقلابهم
بعد وفاته مع كونه سببا في الحقيقة لثباتهم على الدين وايراد الموت بكلمة ان مع العلم
به البتة لتنزيل المخاطبين منزلة المترددين فيه لما ذكر من استعظامهم اياه وهكذا
الحال في سائر الموارد فان كلمة ان في كلام الله تعالى لا تجري على ظاهرها قط ضرورة علمه تعالى بالوقوع

او

او اللاوقوع بل تحمل على اعتبار حال السامع او امر آخر يناسب المقام وتقديم تقدير الموت
القتل هو الذي ثار منه الفتنة وعظم فيه المحنة لما ان الموت في شرف الوقوع فزجر الناس
عن الانقلاب عنده وحملهم على التثبت هناك اهم ولان الوصف الجامع بينه وبين الرسل
عليهم السلام هو الخلو بالموت دون القتل روي انه لما التقى الفئتان حمل ابو دجانة في نفر
من المسلمين على المشركين فقاتل قتالا شديدا وقاتل علي بن ابي طالب رضه قتالا عظيما حتى التوى
سيفه وكذا سعد بن ابي وقاص فقتلوا جماعة من المشركين وهزموهم فلما نظر الرماة اليهم
ورأوا انهم قد انهزموا اقبلوا على النهب ولم يلتفتوا الى نهي اميرهم عبد الله بن جبير فلم يبق
منهم عنده الا ثمانية نفر فلما راهم خالد بن الوليد قد اشتغلوا بالغنيمة حمل عليهم
في مائتين وخمسين فارسا من المشركين من قبل الشعب وقتلوا من بقي من الرماة ودخلوا
خلف اقفية المسلمين ففرقوهم وهزموهم وحملوا على اصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقاتلوهم حتى اصيب هناك نحو ثلاثين رجلا كل منهم يجثو بين يديه ويقول
وجهي لوجهك وفاء ونفسي لنفسك فداء وعليك سلام الله غير مودع ورمى عبد الله
بن قميئة الحارثي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتلوهم حتى اصيب هناك بحجر فكسر
رباعيته وشج وجهه الكريم فذب عنه مصعب بن عمير رضه وكان صاحب الراية
حتى قتله ابن قميئة وهو يزعم انه قتل النبي صلى الله عليه وسلم فقال قتلت محمدا
وصرخ صارخ قيل انه ابليس الا ان محمدا قد قتل فانكفأ الناس وجعل رسول الله
صلى الله عليه وسلم يدعو الي عباد الله قال كعب بن مالك كنت انا اول من عرف رسول
الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين فناديت باعلى صوتي يا معشر المسلمين هذا رسول الله
صلى الله عليه وسلم فانحاز اليه ثلثون من اصحابه وحموه حتى كشفوا عنه المشركين وتفرق
الباقون وقال بعضهم ليت ابن ابي ياخذ لنا امانا من ابي سفيان وقال اناس من
المنافقين لو كان نبيا لما قتل ارجعوا الى اخوانكم والى دينكم فقال انس بن النضر وهو
عم انس بن مالك يا قوم ان كان قتل محمد فان رب محمد حي لا يموت وما تصنعون
بالحيوة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوا ما قاتل عليه وموتوا كراما على ما مات
عليه ثم قال اللهم اني اعتذر اليك مما يقول هؤلاء وابرا اليك مما جاء به هؤلاء
ثم شد بسيفه وقاتل حتى قتل وتجويزهم لقتله عليه السلام مع قوله تعالى والله
يعصمك من الناس لما ان كل اية ليس يسمعها كل احد ولا كل من يسمعها يستحضرها في كل
مقام لاسيما في مثل ذلك المقام الهائل وقد غفل عمر رضه عن هذه الاية الكريمة عند
وفاته صلى الله عليه وسلم وقام في الناس فقال ان رجالا من المنافقين يزعمون ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم توفي وان رسول الله ما مات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى
بن عمران فغاب عن قومه اربعين ليلة ثم رجع والله ليرجعن رسول الله فلاقطعن ايدي
رجال وارجلهم يزعمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ولم يزل يكرر
ذلك الى ان قام ابو بكر رضي الله عنهما فحمد الله عز وجل واثنى عليه ثم قال ايها
الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله تعالى فان الله عز وجل حي
لا يموت ثم تلا وما محمد الا رسول الاية قال الراوي والله لكان الناس لم يعلموا ان
هذه الاية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تلاها ابو بكر رضه وقال عمر رضه
والله ما هو الا ان سمعت ابا بكر رضي الله تعالى عنه يتلو فعقرت حتى ما يحملني رجلاي
وعرفت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ومن ينقلب على عقبيه بادباره عما كان
يقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجهاد وغيره وقيل بارتداده عن الاسلام
وما ارتد يومئذ احد من المسلمين الا ما كان من المنافقين فلن يضر الله بما
فعل من الانقلاب شيئا من الضرر وانما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب
وسيجزي الله الشاكرين اي الثابتين على دين الاسلام الذي هو اجل نعمة
واعز معروف سموا بذلك لان الثبات عليه شكر له وعرفان لحقه وفيه ايماء على
كفران المنقلبين وروي عن ابن عباس رضهما ان المراد بهم الطايعون لله عز وجل من

المهاجرين والانصار وعن على رضه ابو بكر واصحابه وعنه رضه انه قال ابو بكر من الشاكرين
ومن احباء الله تعالى واظهار الاسم الجليل لابراز مزيد الاعتناء بشان جزائهم وما
كان لنفس ان تموت كلام مستانف سيق للتنبيه على خطائهم فيما فعلوا حذرا من
قتلهم وبناء على الارجاف بقتله صلى الله عليه وسلم ببيان ان موت كل نفس منوط بمشية الله
عز وجل لايكاد يقع بدون تعلقها به وان خوضت موارد الحتوف واقتحمت مضايق
كل هايل مخوف وقد اشير بذلك الى انها لم تكن متعلقة بموتهم فى الوقت الذى حذروه
فيه ولذلك لم يقتلوا حينئذ لا لاحجامهم عن مباشرة القتال وكلمة كان ناقصة اسمها
ان تموت وخبرها الظرف على انه متعلق بمحذوف وقوله تعالى الا باذن الله استثناء
مفرغ من اعم الاسباب اى وما كان الموت حاصلا لنفس من النفوس بسبب من الاسباب
الا بمشية الله تعالى على ان الاذن مجاز منها لكونها من لوازمه او الا باذنه لملك الموت
فى قبض روحها وسوق الكلام مساق التمثيل بتصوير الموت بالنسبة الى النفوس بصورة
الافعال الاختيارية التى لايتسنى للفاعل ايقاعها والاقدام عليها بدون اذنه تعالى او بتنزيل
اقدامها على مباديه اعنى القتال منزلة الاقدام على نفسه للمبالغة فى تحقيق المرام فان
موتها حين استحال وقوعه عند اقدامها عليه او على مباديه وسعيها فى ايقاعه فلان
يستحيل عند عدم ذلك اولى واظهر وفيه من التحريض على القتال ما لايخفى كتابا
مصدر مؤكد لمضمون ما قبله اى كتبه الله كتابا مؤجلا موقتا بوقت معلوم لايتقدم
ولايتاخر ولو ساعة وقرئ موجلا بالواو بدل الهمزة على قياس التخفيف وبعد تحقيق
ان مدار الموت والحيوة محض مشية الله تعالى من غير ان يكون فيه مدخل لاحد اصلا اشير الى ان توفية ثمرات
الاعمال دائرة على اراداتهم ليصرفوها عن الاغراض الدنية الى المطالب السنية ففيل
ومن يرد اى بعمله ثواب الدنيا نؤته بنون العظمة على طريق الالتفات منها
اى من ثوابها ما نشاء ان نؤتيه اياه كما فى قوله عز وجل من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها
ما نشاء لمن نريد وهو تعريض بمن شغلتهم الغنائم يومئذ وقد مر تفصيله ومن يرد اى
بعمله ثواب الاخرة نؤته منها اى من ثوابها ما نشاء من الاضعاف حسبما جرى
به الوعد الكريم وسنجزى الشاكرين نعمة الاسلام الثابتين عليه الصارفين لما اتاهم
الله تعالى من القوى والقدر الى ما خلقت هى لاجله من طاعة الله عز وجل لايلويهم عن ذلك
صارف اصلا والمراد بهم اما المجاهدون المعهودون من الشهداء وغيرهم واما جنس
الشاكرين وهم داخلون فيه دخولا اوليا والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله ووعد
بالمزيد عليه وفى تصديرها بالسين وابهام الجزاء من التاكيد والدلالة على فخامه شان
الجزاء وكونه بحيث يقصر عنه البيان ما لايخفى وقرئ الافعال الثلثة بالياء وكاين كلام
مبتداء ناع عليهم تقصيرهم وسوء صنيعهم فى صدورهم من سنن الربانيين
المجاهدين فى سبيل الله مع الرسل الخالية عليهم السلام وكاين لفظة مركبة من كاف
التشبيه واى حدث فيها بعد التركيب مع التكثير كما حدث فى كذا وكذا والنون تنوين اثبت
فى الخط على غير قياس وفيها خمس لغات هى احديهن والثانية كائن مثل كاعن والثالثة
كاين مثل كعين والرابعة كيئن بياء ساكنة بعدها همزة مكسورة وهى قلب ما
قبلها والخامسة كان مثل كعن وقد قرئ بكل منها ومحلها الرفع بالابتداء وقوله
تعالى من نبى تمييز لها لانها مثل كم الخبرية وقد جاء تمييزها منصوبا كما فى قوله اطرد
الياس بالرجاء فكاين املا لاهم يسره بعد عسر وقوله تعالى قاتل معه ربيون كثير خبر
لها على ان الفعل مسند الى الظاهر والرابط هو الضمير المجرور فى معه وقرئ قتل وقتل
على صيغة المبنى للمفعول مخففة ومشددة والربى منسوب الى الرب كالربانى وكسر الراء
من تغييرات النسب وقرئ بضمها وفتحها ايضا على الاصل وقيل هو منسوب الى الربة
وهى الجماعة اى كثير من الانبياء قاتل معه لاعلاء كلمة الله واعزاز دينه علماء اتقياء
او عابدون او جماعات كثيرة فالظرف متعلق بقاتل او بمحذوف وقع حالا من فاعله
كما فى القراءتين الاخيرتين اذ لا احتمال فيهما لتعلقه بالفعل اى قتلوا او قتلوا كائنين معه

فى القتال لا فى القتل قال سعيد بن جبير رضه ما سمعنا بنبى قتل فى القتال وقال الحسن البصرى
وجماعة من العظماء لم يقتل نبى فى حرب قط وقيل الفعل مسند الى ضمير النبى صلى الله
عليه وسلم والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا منه والربط هو الضمير المجرور الراجع
اليه وهذا واضح على القراءة المشهورة بلا اختلاف اى كم من نبى قاتل كائنا معه فى القتال
ربيون كثير واما على القراءتين الاخيرتين فغير ظاهر لاسيما على قراءة التشديد وقد وجه
بعضهم بانه بان مدار التوبيخ انخذالهم للارجاف بقتله صلى الله عليه وسلم اى كم من
نبى قتل كائنا معه فى القتل او فى القتال ربيون الخ وقوله تعالى فما وهنوا عطف
على قاتل على ان المراد به عدم الوهن المتوقع من القتال كما فى قولك وعظته فلم
يتعظ وصحت به فلم ينزجر فان الاتيان بالشئ بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وان كان
استمرارا عليه بحسب الظاهر لكنه بحسب الحقيقة صنع جديد مصحح لدخول الفاء المرتبة له على
ما قبله اى فما فتروا وما انكسرت همتهم لما اصابهم فى اثناء القتال وهو علة للمنفى
دون النفى نعم يشير بعلته قوله تعالى فى سبيل الله فان كون ذلك فى سبيله عز وجل
يقوى قلوبهم ويزيل وهنهم وما موصولة او موصوفة فان جعل الضمير لجميع
الربيين فهى عبارة عما عدا القتل من الجراح وساير المكابدة المعترية للكل وان جعلا للبعض الباقين
بعد ما قتل الآخرون كما هو الانسب بمقام توبيخ المنخزلين بعد ما استشهد الشهداء
فهى عبارة عما ذكر مع ما اعتراهم من قتل اخوانهم من الخوف والحزن وغير ذلك هذا
على القراءة المشهورة واما على القراءتين الاخيرتين فان اسند الفعل الى الربيين فالضميران
للباقين منهم حتما وان اسند الى الضمير النبى صلى الله عليه وسلم كما هو الانسب بالتوبيخ على
الانخزال بسبب الارجاف بقتله صلى الله عليه وسلم فهما للباقين ايضا ان اعتبر كون الربيين مع
النبى فى القتل وللجميع ان اعتبر كونهم معه فى القتال وما ضعفوا عن العدو وقيل عن الجهاد
وقيل فى الدين وما استكانوا اى وما خضعوا للعدو واصله استكن من السكون
لان الخاضع يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريده والالف من اشباع الفتحة او استكون من الكون
لانه يطلب ان يكون لمن يخضع له وهذا تعريض بما اصابهم من الوهن والانكسار عند
استيلاء الكفرة عليهم والارجاف بقتل النبى عليه السلام وبضعفهم عند ذلك عن
مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم حين ارادوا ان يعتضدوا بابن ابى المنافق فى طلب
الامان من ابى سفيان والله يحب الصابرين اى على مقاساة الشدايد ومعاناة
المكاره فى سبيل الله فينصرهم ويعظم قدرهم والمراد بالصابرين المعهودون والاظهار
فى موضع الاضمار للثناء عليهم بحسن الصبر والاشعار بعلة الحكم واما الجنس وهم
داخلون فيه دخولا اوليا والجملة تذييل لما قبلها وما كان قولهم كلام مبين لمحاسنهم
القولية معطوف على ما قبله من الجمل المبينة لمحاسنهم الفعلية وقولهم بالنصب خبر
لكان واسمها ان وما بعدها فى قوله تعالى الا ان قالوا والاستثناء مفرغ من اعم الاشياء
اى ما كان قولا لهم عند لقاء العدو واقتحام مضايق الحراب واصابة ما اصابهم من فنون
الشدائد والاهوال شئ من الاشياء الا ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا اى صغايرنا
واسرافنا فى امرنا اى تجاوزنا الحد فى ركوب الكبائر اضافوا الذنوب والاسراف
الى انفسهم مع كونهم ربانيين براء من التفريط فى جنب الله تعالى هضما لها واستقصارا
لهممهم واسنادا لما اصابهم الى اعمالهم وقدموا الدعاء بغفرها على ما هو الاهم
بحسب الحال من الدعاء بقولهم وثبت اقدامنا اى فى مواطن الحرب بالتقوية والتاييد
من عندك او ثبتنا على دينك الحق وانصرنا على القوم الكافرين تقريبا له الى حيز القبول
فان الدعاء المقرون بالخضوع الصادر من زكاء وطهارة اقرب الى الاستجابة والمعنى
لم يزالوا مواظبين على هذا الدعاء من غير ان يصدر عنهم قول يوهم شائبة الجزع
والخور والتزلزل فى مواقف الحرب ومراصد الدين وفيه من التعريض بالمنهزمين ما
لايخفى وقرأ ابن كثير وعاصم فى رواية عنهما برفع قولهم على انه الاسم والخبر ان
وما فى حيزها اى ما كان قولهم حينئذ شيئا من الاشياء الا هذا القول المبنى عن احاسن

المحاسن وهذا كما ترى انسب بحسب المعنى واوفق بمقتضى المقام لما ان الاخبار بكون قولهم المطلق خصوصية قولهم المحكى عنهم مفصلا كما تفيد قراءتهما اكثر افادة للسامع من الاخبار بكون خصوصية قولهم المذكور قبلهم لما ان مصب الفائدة وموقع البيان فى الجمل الخبرية هو الخبر فالاحق بالخبرية ما هو اكثر افادة واظهر دلالة على الحدث واوفر اشتمالا على نسب خاصة بعيدة من الوقوع فى الخارج وفى ذهن السامع ولا يخفى ان ذلك ههنا فى ان مع ما فى حيزها اتم واكمل واما ما يفيده الاضافة من النسبة المطلقة الاجمالية فحيث كانت سهلة الحصول خارجا وذهنا كان حقها ان تلاحظه ملاحظة اجمالية وتجعل عنوانا للموضوع لا مقصودا بالذات فى باب البيان وانما اختار الجمهور ما اختاروه لقاعدة صناعية هى انه اذا اجتمع معرفتان فالاعرف منهما احق بالاسمية ولا ريب فى اعرفية ان قالوا لدلالته على جهة النسبة وزمان الحدث ولانه يشبه المضمر من حيث انه لا يوصف به وقولهم مضاف الى مضمر بمنزلة العلم فتأمل فاتاهم الله سبب دعائهم ذلك ثواب الدنيا اى النصر والغنيمة والعز والذكر الجميل وحسن ثواب الاخرة اى وثواب الاخرة الحسن وهو الجنة والنعيم المخلد وتخصيص وصف الحسن به للايذان بفضله ومزيته وانه المعتد به عنده تعالى والله يحب المحسنين تذييل مقرر لمضمون ما قبله فان محبة الله تعالى للعبد عبارة عن رضاه عنه وارادة الخير به فهى مبدأ لكل سعادة واللام اما للعهد وانما وضع المظهر موضع الضمير المعهودين للاشعار بان ما حكى عنهم من الافعال والاقوال من باب الاحسان واما للجنس وهم داخلون فيه دخولا اوليا وهذا انسب بمقام ترغيب المؤمنين فى تحصيل ما حكى عنهم من المناقب الجليلة يا ايها الذين امنوا شروع فى زجرهم عن متابعة الكفار ببيان استتباعها لخسران الدنيا والاخرة اثر ترغيبهم فى الاقتداء بانصار الانبياء عليهم السلام ببيان افضائه الى فوزهم بسعادة الدارين وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه لاظهار الاعتناء بما فى حيزه ووصفهم بالايمان لتذكير حالهم وتثبيتهم عليها باظهار مباينتها لحال اعدائهم كما ان وصف المنافقين بالكفر فى قوله تعالى ان تطيعوا الذين كفروا كذلك قصدا الى مزيد التنفير عنهم والتحذير عن طاعتهم قال على رضى الله عنه نزلت فى قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا الى اخوانكم وادخلوا فى دينهم فوقوع قوله تعالى يردوكم على اعقابكم جوابا للشرط مع كونه فى قوة ان يقال ان تطيعوهم فى قولهم ارجعوا الى اخوانكم وادخلوا فى دينهم يدخلوكم فى دينهم باعتبار كونه تمهيدا لقوله تعالى فتنقلبوا خاسرين اى للدنيا والاخرة غير فائزين بشىء منهما واقعين فى العذاب الخالد على ان الارتداد على العقب علم فى انتكاس الامر ومثل فى الحور بعد الكور وقيل المراد بهم اليهود والنصارى حيث كانوا يستغوونهم ويوقعون لهم الشبه فى الدين ويقولون لو كان نبيا حقا لما غلب ولما اصابه واصحابه ما اصابهم وانما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يوما عليه ويوما له وقيل ابو سفيان واصحابه والمراد بطاعتهم استمالتهم والاستكانة لهم وقيل الموصول على عمومه والمعنى نهى المؤمنين عن طاعتهم فى امر من الامور حتى لا يجروهم الى الارتداد عن الدين فلا حاجة على هذه التقادير الى ما مر من البيان بل الله مولاكم اضراب عما يفهم من مضمون الشرطية كانه قيل فليسوا انصاركم حتى تطيعوهم بل الله ناصركم لا غيره فاطيعوه واستغنوا به عن موالاتهم وقرئ بالنصب كانه قيل فلا تطيعوهم بل اطيعوا الله مولاكم وهو خير الناصرين فخصوه بالطاعة والاستعانة سنلقى بنون العظمة على طريقة الالتفات جريا على سنن الكبرياء لتربية المهابة وقرئ بالياء والسين لتاكيد الالقاء فى قلوب الذين كفروا الرعب بسكون العين وقرئ بضمها على الاصل وهو ما قذف فى قلوبهم من الخوف يوم احد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب ولهم القوة والغلبة وقيل ذهبوا الى مكة فلما كانوا ببعض الطريق قالوا ما صنعنا شيئا قتلنا منهم ثم تركناهم ونحن قاهرون ارجعوا فاستأصلوهم فعند ذلك القى

الله تعالى فى قلوبهم الرعب فامسكوا فلابد من كون نزول الاية فى تضاعيف الجواب وعقيب انقضائه وقيل هو ما القى فى قلوبهم من الرعب يوم الاحزاب بما اشركوا بالله متعلق بنلقى دون وما مصدرية اى بسبب اشراكهم به تعالى فانه من موجبات خذلانهم ونصر المؤمنين عليهم وكلاهما من دواعى الرعب ما لم ينزل به اى باشراكه سلطانا اى حجة سميت به لوضوحها وانارتها او لقوتها وحدتها ونفوذها وذكر عدم تنزيلها مع استحالة تحققها فى نفسها من قبيل قوله ولا ترى الضب بها ينجحر اى لا ضب ولا انجحار وفيه ايذان بان المتبع فى الباب هو البرهان السماوى دون الاراء والاهواء الباطلة ومأويهم بيان لاحوالهم فى الاخرة اثر بيان احوالهم فى الدنيا وهى الرعب اى ما يأوون اليه فى الاخرة النار لا ملجأ لهم غيرها وبئس مثوى الظالمين اى مثواهم وانما وضع موضعه المظهر المذكور للتغليظ والتعليل والاشعار بانهم فى اشراكهم ظالمون واضعون للشىء فى غير موضعه والمخصوص بالذم محذوف اى بئس مثوى الظالمين النار وفى جعلها مثواهم بعد جعلها مأواهم نوع رمز الى خلودهم فيها فان المثوى مكان الاقامة المنبئة عن المكث واما المأوى فهو المكان الذى يأوى اليه الانسان ولقد صدقكم الله وعده نصب على انه مفعول ثان لصدق صريحا وقيل بنزع الجار اى فى وعده نزلت حين قال ناس من المؤمنين عند رجوعهم الى المدينة من اين اصابنا هذا وقد وعدنا الله تعالى بالنصر وهو ما وعدهم على لسان نبيه عليه السلام من النصر حيث قال للرماة لا تبرحوا مكانكم فلن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم وفى رواية اخرى لا تبرحوا عن هذا المكان فانا لا نزال غالبين ما دمتم فى هذا المكان وقد كان كذلك فان المشركين لما اقبلوا جعل الرماة يرشقونهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على اثارهم يقتلونهم قتلا ذريعا وذلك قوله تعالى اذ تحسونهم اى تقتلونهم قتلا كثيرا فاشيا من حسه اذا ابطل حسه وهو ظرف لصدقكم وقوله تعالى باذنه اى بتيسيره وتوفيقه لتحقيق ان قتلهم بما وعدهم الله تعالى من النصر وقيل هو ما وعدهم بقوله تعالى ان تصبروا وتتقوا الاية وقد مر تحقيق ان ذلك يوم بدر كيف لا والموعود بما ذكر امداده عز وجل بانزال الملائكة عليهم السلام وتقييد وعده تعالى بوقت قتلهم باذنه تعالى صريح فى ان الموعود هو النصر المعنوى والتيسير لا الامداد بالملائكة وقيل هو ما وعده تعالى بقوله سنلقى الخ وانت خبير بان القاء الرعب كان عند تركهم القتال ورجوعهم من غير سبب وبعد ذلك فى الطريق على اختلاف الروايتين واياما كان فلا سبيل الى كونه مغيا بقوله تعالى حتى اذا فشلتم اى جبنتم وضعف رأيكم او ملتم الى الغنيمة فان الحرص من ضعف القلب وتنازعتم فى الامر فقال بعض الرماة حين انهزم المشركون وولوا هاربين والمسلمون على اعقابهم قتلا وضربا فما موقفنا ههنا بعد هذا وقال اميرهم عبد الله بن جبير رضى الله عنه لا نخالف امر رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبت مكانه فى نفر دون العشرة من اصحابه ونفر الباقون للنهب وذلك قوله تعالى وعصيتم من بعد ما اريكم ما تحبون اى من الظفر والغنيمة وانهزام العدو فلما راى المشركين ذلك حملوا عليهم من قبل الشعب وقتلوا امير الرماة ومن معه من اصحابه حسبما فصل فى تفسير قوله تعالى افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم وجواب اذا محذوف وهو منعكم نصره وقيل هو امتحنكم ويرده جعل الابتلاء غاية للصرف المترتب على منع النصر وقيل هو انقسمتم الى قسمين كما ينبئ عنه قوله تعالى منكم من يريد الدنيا وهم الذين تركوا المركز واقبلوا على النهب ومنكم من يريد الاخرة وهم الذين ثبتوا مكانهم حتى نالوا شرف الشهادة هذا على تقدير كون اذا شرطية وحتى ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية وقيل اذا اسم كما فى قولهم اذا يقوم زيد اذا يقوم عمرو وحتى حرف جر بمعنى الى متعلقة بقوله تعالى صدقكم باعتبار تضمنه لمعنى النصر كانه قيل لقد نصركم الله الى وقت فشلكم وتنازعكم الخ وعلى هذا فقوله تعالى ثم صرفكم عنهم عطف على ذلك وعلى الاول عطف على

الجواب المحذوف كما اشير اليه و الجملتان الظرفيتان اعتراض بين المتعاطفين اي كفكم عنهم حتى حالت الحال ودالت الدولة وفيه من اللطف بالمسلمين ما لا يخفى ليبتليكم اي يعاملكم معاملة من يمتحنكم بالمصائب ليظهر ثباتكم على الايمان عندها ولقد عفا عنكم تفضلا ولما علم من ندمكم على المخالفة والله ذو فضل على المؤمنين تذييل مقرر لمضمون ما قبله ومؤذن بان ذلك العفو بطريق التفضل والاحسان لا بطريق الوجوب عليه اي شانه ان يتفضل عليهم بالعفو او هو متفضل عليهم في جميع الاحوال اديل لهم او اديل عليهم اذ الابتلاء ايضا رحمة والتنكير للتفخيم والمراد بالمؤمنين اما المخاطبون والاظهار في موقع الاضمار للتشريف والاشعار بعلة الحكم واما الجنس وهم داخلون في الحكم دخولا اوليا اذ تصعدون من الفعل بطرح الثاني متعلق بصرفكم او بقوله تعالى ليبتليكم او بمقدر كما ذكروا والاصعاد الذهاب في الارض وقرئ تصعدون من الثلاثي اي في الجبل وقرئ يصعدون بالالتفات الى الغيبة ولا تلوون على احد اي لا تلتفتون الى ما وراءكم ولا يقف واحد منكم لواحد وقرئ تلون بواو واحدة بقلب الواو المضمومة همزة وحذفها تخفيفا وقرئ يلوون كيصعدون والرسول يدعوكم كان صلى الله عليه وسلم يدعوهم الي عباد الله انا رسول الله من يكر فله الجنة وايراده عليه السلام بعنوان الرسالة للايذان بان دعوته عليه السلام كانت بطريق الرسالة من جهته سبحانه اشباعا في توبيخ المنهزمين في اخراكم في ساقتكم وجماعتكم الاخرى فاثابكم عطف على صرفكم اي فجازاكم الله تعالى بما صنعتم غما موصولا بغم من الاغتمام بالقتل والجرح وظفر المشركين والارجاف بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم وفوت الغنيمة فالتنكير للتكثير او غما بمقابلة غم اذ قتموه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعصيانكم له لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما اصابكم اي لتتمرنوا على الصبر في الشدائد فلا تحزنوا على نفع فائت وضر آت وقيل لا زائدة والمعنى لتتاسفوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة وعلى ما اصابكم من الجرح والهزيمة عقوبة لكم وقيل الضمير في اثابكم للرسول صلى الله عليه وسلم اي واساكم في الاغتمام فاغتم بما نزل عليكم كما اغتممتم بما نزل عليه ولم يثربكم على عصيانكم تسلية لكم وتنفيسا عنكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر وما اصابكم من الجراح وغير ذلك والله خبير بما تعملون اي عالم باعمالكم وبما قصدتم بها ثم انزل عليكم عطف على قوله تعالى فاثابكم والخطاب للمؤمنين حقا من بعد الغم اي الغم المذكور والتصريح بتاخر الانزال عنه مع دلالة ثم عليه وعلى تراخيه عنه لزيادة البيان وتذكير عظم النعمة كما في قوله تعالى ثم تابوا من بعد ذلك واصلحوا الآية امنة اي امنا نصب على المفعولية وقوله تعالى نعاسا بدل منها او عطف بيان وقيل مفعول له او هو المفعول وامنة حال منه متقدمة عليه او مفعول له او حال من المخاطبين على تقدير مضاف اي ذوي امنة او على انه جمع آمن كبار وبررة وقرئ بسكون الميم كانها مرة من الامن وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر غير مرة من الاعتناء بشان المقدم والتشويق الى المؤخر وتخصيص الخوف من بين فنون الغم بالازالة لانه المهم عندهم حينئذ لما ان المشركين لما انصرفوا كانوا يتوعدون المسلمين بالرجوع فلم يامنوا كرتهم وكانوا تحت الحجف متاهبين للقتال فانزل الله تعالى عليهم الامنة فاخذهم النعاس قال ابن عباس رضه امنهم يومئذ بنعاس يغشاهم بعد خوف وانما ينعس من آمن والخائف لا ينام وقال الزبير رضه كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف فانزل الله علينا النوم والله اني لاسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني ما اسمعه الا كالحلم يقول لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ههنا وقال ابو طلحة رضه رفعت راسي يوم احد فجعلت لا ارى احدا من القوم الا وهو يميد تحت حجفته من النعاس قال وكنت ممن القي عليه النعاس يومئذ فكان السيف يسقط من يدي فآخذه ثم يسقط السوط من يدي فآخذه وفيه دلالة على ان من المؤمنين من لم يلق عليه النعاس كما ينبئ عنه قوله عز وجل يغشى طائفة منكم قال ابن عباس رضه هم المهاجرون وعامة الانصار ولا يقدح ذلك في عموم الانزال للكل والجملة في محل النصب

على

على انها صفة لنعاسا وقرئ بالتاء على انها صفة لامنة وفيه ان الصفة حقها ان تتقدم على البدل وعطف البيان وان لا يفصل بينها وبين الموصوف بالمفعول له وان المعهود ان يحدث عن البدل دون المبدل منه وطائفة قد اهمتهم انفسهم اي اوقعتهم في الهموم والاحزان او ما يهمهم الا هم انفسهم وقصد خلاصها من قولهم اهمني الشيء اي كان من همتي وقصدي والقصر مستفاد بمعونة المقام وطائفة مبتداء وما بعدها اما خبرها وانما جاز ذلك مع كونها نكرة لاعتمادها على واو الحال كما في قوله سرينا ونجم قد اضاء فمذ بدا محياك اخفى ضوءه كل شارق او لوقوعها في موقع التفصيل كما في قوله اذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وشق عندنا لم يحول واما صفتها والخبر محذوف اي ومعكم طائفة او قيل تقديره ومنكم طائفة وفيه انه يقتضي دخول المنافقين في الخطاب بانزال الامنة واياما كان فالجملة اما حالية مبينة لفظاعة الهول مؤكدة لعظم النعمة في الخلاص عنه كما في قوله تعالى او لم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم واما مستانفة مسوقة لبيان حال المنافقين وقوله عز وجل يظنون بالله حال من ضمير اهمتهم او من طائفة لتخصصها بالصفة او صفة اخرى لها او خبر او استيناف مبين لما قبله وقوله تعالى غير الحق في حكم المصدر اي يظنون به تعالى غير الظن الحق الذي يجب ان يظن به سبحانه وقوله تعالى ظن الجاهلية بدل منه وهو الظن المختص بالملة الجاهلية والاضافة كما في حاتم الجود ورجل الصدق وقوله تعالى يقولون بدل من يظنون لما ان مسالتهم كانت صادرة عن الظن اي يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم على صورة الاسترشاد هل لنا من الامر اي من الله تعالى ووعده من النصر والظفر من شيء اي من نصيب قط او هل لنا من التدبير من شيء وقوله تعالى قل ان الامر كله لله اي الغلبة بالآخرة لله تعالى ولاوليائه فان حزب الله هم الغالبون او ان التدبير كله لله تعالى فانه تعالى قد دبر الامر كما جرى في سابق قضائه فلا مرد له وقرئ كله بالرفع على الابتداء وقوله تعالى يخفون في انفسهم اي يضمرون فيها او يقولون فيما بينهم بطريق الخفية ما لا يبدون لك استيناف او حال من ضمير يقولون وقوله تعالى قل ان الامر الخ اعتراض بين الحال وصاحبها اي يقولون ما يقولون يظهرون انهم مسترشدون طالبون للنصر مبطنين الانكار والتكذيب وقوله تعالى يقولون استيناف وقع جوابا عن سؤال نشأ مما قبله كانه قيل اي شيء يخفون فقيل يحدثون انفسهم او يقول بعضهم لبعض فيما بينهم خفية لو كان لنا من الامر شيء كما وعد محمد عليه السلام من ان الغلبة لله تعالى ولاوليائه وان الامر كله لله او لو كان لنا من التدبير والراي شيء ما قتلنا ههنا اي ما غلبنا او ما قتل من قتل منا في هذه المعركة على ان النفي راجع الى نفس القتل لا الى وقوعه فيها فقط او لما برحنا من منازلنا كما راه ابي ويؤيده تعيين مكان القتل وكذا قوله تعالى قل لو كنتم في بيوتكم اي لو لم تخرجوا الى احد وقعدتم بالمدينة كما تقولون لبرز الذين كتب عليهم القتل اي في اللوح المحفوظ بسبب من الاسباب الداعية الى البروز الى مضاجعهم الى مصارعهم التي قدر الله قتلهم فيها وقتلوا هنالك البتة ولم تنفع العزيمة على الاقامة بالمدينة المنورة قطعا فان قضاء الله تعالى لا يرد وحكمه لا يعقب وفيه مبالغة في رد مقالتهم الباطلة حيث لم يقتصر على تحقيق نفس القتل كما في قوله عز وجل اينما تكونوا يدرككم الموت بل عين مكانه ايضا ولا ريب في تعين زمانه ايضا لقوله تعالى فاذا جاء اجلهم لا يستاخرون ساعة ولا يستقدمون روي ان ملك الموت حضر مجلس سليمان عليهما السلام فنظر الى رجل من اهل المجلس نظرة هائلة فلما قام قال الرجل من هذا فقال سليمان عليه السلام ملك الموت قال ارسلني مع الريح الى عالم آخر فاني رايت منه مرآها هائلا فامرها عليه السلام فالقته في قطر سحيق من اقطار العالم فما لبث ان عاد ملك الموت الى سليمان عليهما السلام فقال كنت امرت بقبض روح ذلك الرجل في هذه الساعة في ارض كذا فلما وجدته في مجلسك قلت متى يصل هذا اليها وقد ارسلتها بالريح الى ذلك المكان فوجدته هناك فقضى امر الله عز وجل في زمانه ومكانه من غير اخلال بشيء من ذلك وقرئ كتب على البناء للفاعل ونصب القتل وقرئ كتب عليهم القتال

وقرئ لبرّز بالتشديد على البناء للمفعول وليبتلي الله ما في صدوركم اي ليعاملكم
معاملة من يبتلي ما في صدوركم من الاخلاص والنفاق ويظهر ما فيها من السرائر وهو
علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علل لها اخرى مطوية للايذان بكثرتها كانه قيل
فعل ما فعل لمصالح جمة وليبتلي الخ وجعلها علة لابرز يأباه الذوق السليم فان مقتضى
المقام بيان حكمة ما وقع يومئذ من الشدة والهول لا بيان حكمة البروز المفروض ولفعل
مقدر بعدها اي وللابتلاء المذكور فعل ما فعل لا لعدم العناية بامر المؤمنين ونحو
ذلك وتقديره لفعل مقدما خال عن هذه المزية وليمحص ما في قلوبكم من مخفيات
الامور ويكشفها او يخلصها من الوساوس والله عليم بذات الصدور اي السرائر
والضمائر الخفية التي لا تكاد تفارق الصدور بل تلازمها وتصاحبها والجملة اما اعتراض
للتنبيه على ان الله تعالى غني عن الابتلاء وانما يبرزه صورة الابتلاء لتمرين المؤمنين واظهار
حال المنافقين او حال من متعلق الفعلين اي فعل ما فعل للابتلاء والتمحيص والحال انه تعالى
غني عنهما محيط بخفيات الامور وفيه وعد ووعيد ان الذين تولوا منكم يوم
التقى الجمعان وهم الذين انهزموا يوم احد حسبما مرت حكاياتهم انما استزلهم الشيطان
اي انما كان سبب انهزامهم ان الشيطان طلب منهم الزلل ببعض ما كسبوا من الذنوب
والمعاصي التي هي مخالفة امر النبي صلى الله عليه وسلم وترك المركز والحرص على الغنيمة او الحيوة
فحرموا التأييد وقوة القلب وقيل استزلال توليهم وذلك بذنوب تقدمت لهم
فان المعاصي يجر بعضها الى بعض كالطاعة وقيل استزلهم بذنوب سبقت منهم
وكرهوا القتل قبل اخلاص التوبة والخروج من المظلمة ولقد عفا الله عنهم لتوبتهم
واعتذارهم ان الله غفور للذنوب حليم لا يعاجل بعقوبة المذنب ليتوب
والجملة تعليل لما قبلها على سبيل التحقيق وفي اظهار الجلالة تربية للمهابة وتأكيد
للتعليل يا ايها الذين امنوا لا تكونوا كالذين كفروا وهم المنافقون القائلون لو كان لنا من
الامر شيء ما قتلنا ههنا وانما ذكر في صدر الصلة كفرهم تصريحا بمباينة حالهم لحال
المؤمنين وتنفيرا عن مماثلتهم اثر ذي اثير وقوله تعالى وقالوا لاخوانهم تعيين لوجه الشبه
والمماثلة التي نهوا عنها اي قالوا لاجلهم وفي حقهم ومعنى اخوتهم اتفاقهم نسبا او مذهبا
اذا ضربوا في الارض اي سافروا فيها وابعدوا للتجارة او غيرها وايثار اذا المفيدة لمعنى
الاستقبال على اذ المفيدة لمعنى المضي لحكاية الحال الماضية اذ المراد بها الزمان المستمر
المنتظم للحال الذي عليه يدور امر استحضار الصورة قال الزجاج اذا ههنا تنوب عما
مضى من الزمان وما يستقبل يعني انها لمجرد الوقت او يقصد بها الاستمرار وظرفيتها
لقولهم انما هي باعتبار ما وقع فيها بل التحقيق انها ظرف له لا لقولهم كانه قيل قالوا لاجل
ما اصاب اخوانهم حين ضربوا الخ او كانوا اي اخوانهم غزى جمع غاز كعفى جمع عاف
قال ومغبرة الآفاق خاشعة الصوى لها قلب عفى الحياض اجون وقرئ بتخفيف الزاي
على حذف التاء من غزاة وافراد كونهم غزاة بالذكر مع اندراجه تحت الضرب في الارض
لانه المقصود بيانه في المقام وذكر الضرب في الارض توطئة له وتقديمه لكثرته ووقوعه على انه
قد يوجد بدون الضرب في الارض اذ المراد به السفر البعيد وانما لم يقل او غزوا للايذان
باستمرار اتصافهم بعنوان كونهم غزاة او بانقضاء ذلك اي كانوا غزاة فيما مضى وقوله
تعالى لو كانوا عندنا اي مقيمين ما ماتوا وما قتلوا مفعول لقالوا ودليل على
ان هناك مضمرا قد حذف ثقة به اي اذا ضربوا في الارض فماتوا او كانوا غزى فقتلوا
وليس المقصود بالنهي عدم مماثلتهم في النطق بهذا القول بل في الاعتقاد بمضمونه
والحكم بموجبه كما انه المنكر على قائليه الا يرى الى قوله عز وجل ليجعل الله ذلك
حسرة في قلوبهم فانه الذي جعل حسرة فيها قطعا واليه اشير بذلك كما نقل عن الزجاج
انه اشارة الى ظنهم انهم لو لم يحضروا القتال لم يقتلوا وتعلقه بقالوا ليس باعتبار نطقهم
بذلك القول بل باعتبار ما فيه من الحكم والاعتقاد واللام لام العاقبة كما في قوله تعالى
ليكون لهم عدوا وحزنا اي قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة في قلوبهم والمراد بالتعليل

بدل باعتبار

المذكور

المذكور بيان عدم ترتب فائدة ما على ذلك اصلا وقيل هو تعليل للنهي بمعنى لا تكونوا مثلهم
في النطق بذلك القول واعتقاده ليجعله الله تعالى حسرة في قلوبهم خاصة ويصون منها
قلوبكم فذلك كما مر اشارة الى ما دل عليه قولهم من الاعتقاد ويجوز ان يكون اشارة
الى ما دل عليه النهي اي لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة في قلوبهم
فان مضادتكم لهم في القول والاعتقاد مما يغمهم ويغيظهم والله يحيي ويميت
رد لقولهم الباطل اثر بيان غائلته اي هو المؤثر في الحيوة والممات وحده من غير ان يكون
للاقامة او السفر مدخل في ذلك فانه تعالى قد يحيي المسافر والغازي مع اقتحامهما
لموارد الحتوف ويميت المقيم والقاعد مع حيازتهما لاسباب السلامة والله بما تعملون
بصير تهديد للمؤمنين على ان يماثلوهم وقرئ بالياء على انه وعيد للذين كفروا وما يعملون
عام متناول لقولهم المذكور ولمنشائه الذي هو اعتقادهم ولما ترتب على ذلك من
الاعمال ولذلك تعرض لعنوان البصر لا لعنوان السمع واظهار الاسم الجليل في موقع الاضمار
لتربية المهابة والقاء الروعة والمبالغة في التهديد والتشديد في الوعيد ولئن
قتلتم في سبيل الله او متم شروع في تحقيق ان ما يحذرون ترتبه على الغزو
والسفر من القتل والموت في سبيل الله تعالى ليس مما ينبغي ان يحذر بل مما يجب ان يتنافس
فيه المتنافسون اثر ابطال ترتبه عليهما واللام هي الموطئة للقسم وما في قوله تعالى
لمغفرة من الله ورحمة لام الابتداء والتنوين في الموضعين للتقليل ومن متعلقة
بمحذوف وقع صفة للمبتدأ وقد حذفت صفة رحمة لدلالة المذكور عليها والجملة
جواب للقسم ساد مسد جواب الشرط والمعنى ان السفر والغزو ليس مما يجلب الموت و
يقدم الاجل اصلا ولئن وقع ذلك بامر الله تعالى لنفحة يسيرة من مغفرة ورحمة كائنتين من الله
عز وجل بمقابلة ذلك خير مما يجمعون اي الكفرة من منافع الدنيا وطيباتها مدة اعمارهم
وعن ابن عباس رضي الله عنهما خير من طلاع الارض ذهبة حمراء وقرئ بالتاء اي مما تجمعونه انتم
لو لم تموتوا والاقتصار على بيان خيريتهما من ذلك بلا تعرض للاخبار بحصولهما لهم
للايذان بعدم الحاجة اليه بناء على استحالة التخييب منه تعالى بعد الاطماع وقد قيل لابد
من حذف آخر اي لمغفرة لكم من الله الخ وحينئذ ايضا يكون اخراج المقدر مخرج الصفة
دون الخبر لنحو ما ذكر من ادعاء الظهور والغنى عن الاخبار به وتغيير الترتيب الواقع
في قولهم ما ماتوا وما قتلوا المبني على كثرة الوقوع وقلته للمبالغة في الترغيب في الجهاد
ببيان زيادة مزية القتل في سبيل الله وانافته في استجلاب المغفرة والرحمة دلالة واضحة على ما
مر من ان المقصود بالنهي انما هو عدم مماثلتهم في الاعتقاد بمضمون القول المذكور
والعمل بموجبه لا في النطق به واضلال الناس به ولئن متم او قتلتم اي على اي وجه
اتفق هلاككم حسب تعلق الارادة الالهية وقرئ متم بكسر الميم من مات يمات لالى الله
اي الى المعبود بالحق العظيم الشان الواسع الرحمة الجزيل الاحسان تحشرون لا الى غيره فيوفي
اجوركم ويجزل لكم عطاءكم والكلام في هذه الجملة كما مر في اختها فبما رحمة من الله
لنت لهم تلوين للخطاب وتوجيه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والفاء لترتيب مضمون
الكلام على ما ينبئ عنه السياق من استحقاقهم للائمة والتعنيف بموجب الجبلة البشرية
او من سعة ساحة مغفرته تعالى ورحمته والباء متعلقة بلنت قدمت عليه للقصر وما
مزيدة للتاكيد او نكرة ورحمة بدل منها مبين لابهامها والتنوين للتفخيم ومن متعلقة
بمحذوف وقع صفة لرحمة اي فبرحمة عظيمة لهم كائنة من الله تعالى وهي ربطه على جأشه و
تخصيصه بمكارم الاخلاق كنت لين الجانب لهم وعاملتهم بالرفق والتلطف بهم حيث اغتممت
لهم بعد ما كان منهم ما كان من مخالفة امرك واسلامك للعدو ولو لم تكن كذلك
بل كنت فظا جافيا في المعاشرة قولا وفعلا وقال الراغب الفظ هو الكريه الخلق وقال
الواحدي هو الغليظ الجانب السيء الخلق غليظ القلب قاسيه وقال الكلبي فظا في القول
غليظ القلب في الفعل لانفضوا من حولك لتفرقوا من عندك ولم يسكنوا اليك وتردوا
في مهاوي الردى والفاء في قوله عز وجل فاعف عنهم لترتيب العفو والامر به على ما

قبله اى اذا كان الامر كما ذكر فاعف عنهم فيما يتعلق بحقوقك كما عفا الله عنهم واستغفر
واستغفر لهم الله فيما يتعلق بحقوقه تعالى اتماما للشفقة عليهم واكمالا للبر بهم وشاورهم
فى الامر اى فى امر الحرب اذ هو المعهود او فيه وفى امثاله مما يجرى فيه المشاورة عادة استظهارا
بارائهم وتطييبا لقلوبهم وتمهيدا لسنة المشاورة للامة وقرئ وشاورهم فى بعض
الامر فاذا عزمت اى عقيب المشاورة واطمأنت به نفسك فتوكل على الله فى امضاء
امرك على ما هو ارشد لك واصلح فان علمه مختص به سبحانه وتعالى وقرئ فاذا عزمت على
صيغة التكلم اى عزمت لك على شئ وارشدتك اليه فتوكل علىّ ولا تشاور بعد ذلك
احدا والالتفات لتربية المهابة وتعليل التوكل والامر به فان عنوان الالوهية الجامعة
لجميع صفات الكمال مستدع للتوكل عليه تعالى والامر به ان الله يحب المتوكلين عليه تعالى
فينصرهم ويرشدهم الى ما فيه خير لهم وصلاح والجملة تعليل للتوكل عليه تعالى وقوله تعالى
ان ينصركم الله فلا غالب لكم جملة مستأنفة سيقت بطريق تلوين الخطاب تشريفا
للمؤمنين لايجاب توكلهم عليه تعالى وحثهم على الالتجاء اليه وتحذيرهم عما يفضى الى
خذلانه اى ان ينصركم كما نصركم يوم بدر فلا احد يغلبكم على طريق نفى الجنس المنتظم لنفى
جميع افراد الغالب ذاتا وصفة ولو قيل فلا يغلبكم احد لدل على نفى الصفة فقط ثم
المفهوم من ظاهر النظم الكريم وان كان نفى مغلوبيتهم من غير تعرض لنفى المساواة ايضا وهو
الذى يقتضيه المقام لكن المفهوم منه فهما قطعيا هو نفى المساواة واثبات الغالبية للمخاطبين
فاذا قلت لا اكرم من فلان او لا افضل منه فالمفهوم منه حتما انه اكرم من كل فاضل وهذا
امر مطرد فى جميع اللغات ولا اختصاص له بالنفى الصريح بل هو مطرد فيما ورد على طريق الاستفهام
الانكارى كما فى قوله تعالى ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا فى مواقع كثيرة من التنزيل
ومما هو نص قاطع فيما ذكرنا ما وقع فى سورة هود حيث قيل فى حقهم لا جرم انهم فى الآخرة
هم الاخسرون فان كونهم اخسر من كل خاسر يستدعى قطعا كونهم اظلم من كل ظالم
وان يخذلكم كما فعله يوم احد وقرئ يخذلكم من اخذله اذا جعله مخذولا فمن
ذا الذى ينصركم استفهام انكارى مفيد لانتفاء الناصر ذاتا وصفة بطريق المبالغة
وعلى الله فليتوكل المؤمنون تقديم الجار والمجرور على الفعل لافادة قصره عليه تعالى
والفاء لترتيبه او ترتيب الامر به على ما مر من غلبة المخاطبين على تقدير نصرته تعالى لهم
ومغلوبيتهم على تقدير خذلانه تعالى فان العلم بذلك مما يقتضى قصر التوكل عليه تعالى
لا محالة والمراد بالمؤمنين اما الجنس والمخاطبون داخلون فيه دخولا اوليا واما هم
خاصة بطريق الالتفات واياما كان ففيه تشريف لهم بعنوان الايمان اشتراكا واستقلالا
وتعليل لتحتم التوكل عليه تعالى فان وصف الايمان مما يوجبه قطعا وما كان لنبى اى وما
صح لنبى من الانبياء عليهم السلام ولا استقام له ان يغل ان يخون فى المغنم فان
النبوة تنافيه منافاة بينة يقال غل شيئا من المغنم يغل غلولا واغل اغلالا اذا اخذه
خفية والمراد اما تنزيه ساحة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما ظن به الرماة يوم
احد حين تركوا المركز وافاضوا فى الغنيمة وقالوا نخشى ان يقول رسول الله صلى الله
عليه وسلم من اخذ شيئا فهو له ولا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر فقال لهم
النبى صلى الله عليه وسلم الم اعهد اليكم ان لا تتركوا المركز حتى يأتيكم امرى فقالوا تركنا
بقية اخواننا وقوفا فقال عليه السلام بل ظننتم انا نغل ولا نقسم بينكم واما
المبالغة فى النهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما روى انه بعث طلائع فغنم النبى
بعدهم غنائم فقسمها بين الحاضر ولم يترك للطلائع شيئا فنزلت والمعنى ما كان لنبى
ان يعطى قوما من العسكر ويمنع آخرين بل عليه ان يقسم بين الكل بالسوية وعبر عن
حرمان بعض الغزاة بالغلول تغليظا واما ما قيل من ان المراد تنزيهه عليه السلام عما
تفوه به بعض المنافقين اذ روى ان قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض المنافقين لعل
رسول الله صلى الله عليه وسلم اخذها فبعيد جدا وقرئ على البناء للمفعول والمعنى
ما كان لنبى ان يوجد غالا او ينسب الى الغلول ومن يغلل يأت بما غل يوم القيمة يأت بالذى

غله

غله [illegible] على عنقه كما ورد فى الحديث الشريف روى انه عليه السلام قال الا لا اعرفن
احدكم يأتى ببعير له رغاء وبقرة لها خوار وشاة لها ثغاء فينادى يا محمد يا محمد
فاقول لا املك لك من الله شيئا قد بلغتك اى يأت بما احتمل من اثمه ووباله ثم توفى
كل نفس ما كسبت اى تعطى وافيا جزاء ما كسبت خيرا او شرا كثيرا او يسيرا ووضع المكسوب
موضع جزائه [illegible] بينهما من تمام التناسب كما وكيفا كانهما شئ واحد
وفى اسناد التوفية الى كل كاسب وتعليقها بكل مكسوب مع ان المقصود بيان حال الغال
عند اتيانه بما غل يوم القيمة من الدلالة على فخامة شأن اليوم وهو مطلعه والمبالغة
فى بيان فظاعة حال الغال ما لا يخفى فانه حين وفى كل كاسب جزاء ما كسبه ولم ينقص
منه شئ وان كان جرمه فى غاية القلة والحقارة فلأن لا ينقص من جزاء الغال شئ وجرمه
من اعظم الجرائم اظهر واجلى وهم اى كل الناس المدلول عليه بكل نفس لا يظلمون
بزيادة عقاب او بنقص ثواب افمن اتبع رضوان الله اى سعى فى تحصيله او تحرى
نحوه حيثما كان بفعل الطاعات وترك المنكرات كالنبى ومن يسير بسيرته كمن باء
اى رجع بسخط عظيم لا يقادر قدره كائن من الله تعالى بسبب معاصيه كالغال
ومن يدين بدينه والمراد تاكيد نفى الغلول من النبى عليه السلام وتقريره بتحقيق المباينة الكلية
بينه وبين الغال حيث وصف كل منهما بنقيض ما وصف به الآخر فحقق بل رضوانه تعالى
بسخطه والاتباع بالبوء والجمع بين الهمزة والفاء لتوجيه الانكار الى ترتب توهم المماثلة
بينهما والحكم بها على ما ذكر من حال الغال كانه قيل ابعد ظهور حاله يكون من ترقى
الى اعلى عليين كمن تردى الى اسفل سافلين واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لادخال
الروعة وتربية المهابة ومأواه جهنم اما كلام مستأنف مسوق لبيان مآل امر
من باء بسخطه تعالى واما معطوف على قوله تعالى باء بسخط عطف الصلة الاسمية على الفعلية
واياما كان فلا محل له من الاعراب وبئس المصير اعتراض تذييلى والمخصوص بالذم محذوف
اى وبئس المصير جهنم والفرق بينه وبين المرجع ان الاول يعتبر فيه الرجوع على
خلاف الحالة الاولى بخلاف الثانى هم راجع الى الموصولين باعتبار المعنى درجات
عند الله اى طبقات متفاوتة فى علمه وحكمه شبهوا فى تفاوت الاحوال وتباينها
بالدرجات مبالغة وايذانا بان بينهم تفاوتا ذاتيا كالدرجات او ذوو درجات
والله بصير بما يعملون من الاعمال ودرجاتها فيجازيهم بحسبها لقد من الله
جواب قسم محذوف اى والله لقد من الله اى انعم على المؤمنين اى من
قومه عليه السلام اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم اى من نسبهم
او من جنسهم عربيا مثلهم ليفقهوا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على حاله فى الصدق
والامانة مفتخرين به وفى ذلك شرف لهم عظيم قال تعالى وانه لذكر لك ولقومك وقرئ
من انفسهم اى اشرفهم فانه عليه السلام كان من اشرف قبائل العرب وبطونها
وقرئ لمن من الله على المؤمنين اذ بعث الخ على انه خبر لمبتدأ محذوف اى منه اذ بعث
الخ او على ان اذ فى محل الرفع على الابتداء بمعنى لمن من الله على المؤمنين وقت بعثه وتخصيصهم
بالامتنان مع عموم نعمة البعثة للاسود والاحمر لما مر من مزيد انتفاعهم بها وقوله تعالى
من انفسهم متعلق بمحذوف وقع صفة لرسولا اى كائنا من انفسهم وقوله تعالى
يتلو عليهم آياته صفة اخرى اى يتلو عليهم القرآن بعد ما كانوا اهل جاهلية لم يطرق
اسماعهم شئ من الوحى ويزكيهم عطف على يتلو اى يطهرهم من دنس الطبائع
وسوء العقائد واوضار الاوزار ويعلمهم الكتاب والحكمة اى القرآن والسنة
وهو صفة اخرى لرسولا مترتبة فى الوجود على التلاوة وانما وسط بينهما التزكية التى
هى عبارة عن تكميل النفس بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية
الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة للايذان بان كل واحد من الامور المترتبة نعمة جليلة
على حيالها مستوجبة للشكر فلو روعى ترتيب الوجود كما فى قوله تعالى ربنا وابعث فيهم رسولا
منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم لتبادر الى الفهم عد الجميع نعمة

واحدة وهو السر في التعبير عن القرآن بالآيات تارة وبالكتاب والحكمة اخرى رمزا الى انه باعتبار كل
عنوان نعمة على حدة ولا يقدح في ذلك شمول الحكمة لما في مطاوي الاحاديث الكريمة من الشرائع كما سلف
في سورة البقرة وان كانوا من قبل اي قبل بعثته عم وتزكيته وتعليمه لفي ضلال مبين اي بين لا ريب في
كونه ضلالا وان هي المخففة من ان المثقلة وضمير الشأن محذوف واللام فارقة بينها وبين النافية
والظرف الاول لغو متعلق بكان والثاني خبرها وهي مع خبرها لأن المخففة التي حذف اسمها اعني
ضمير الشأن وقيل هي نافية واللام بمعنى الا اي وما كانوا من قبل الا في ضلال مبين وايا ما كان فالجملة
اما حال من الضمير المنصوب في يعلمهم او مستانفة وعلى التقديرين فهي مبينة لكمال النعمة وتمامها
اولما اصابتكم مصيبة قد اصبتم مثليها قلتم انى هذا كلام مبتدأ مسوق لابطال
بعض ما صدر عنهم من الظنون الفاسدة والاقاويل الباطلة الناشئة منها اثر ابطال بعض
آخر منها والهمزة للتقرير والتقريع والواو عاطفة لمدخولها على محذوف قبلها ولما ظرف لقلتم
مضاف الى ما بعده وقد اصبتم في محل الرفع على انه صفة لمصيبة والمراد بها ما اصابهم يوم
احد من قتل سبعين منهم وبمثليها ما اصاب المشركين يوم بدر من قتل سبعين منهم
واسر سبعين وانى هذا مقول قلتم وتوسيط الظرف وما يتعلق به بينه وبين الهمزة مع انه
المقصود انكاره والمعطوف بالواو حقيقة لتأكيد النكير وتشديد التقريع فان فعل القبيح في
غير وقته قبيح والانكار على فاعله ادخل والمعنى احين اصابكم من المشركين نصف ما قد اصابهم
منكم قبل ذلك جزعتم وقلتم من اين اصابنا هذا وقد تقدم الوعد بالنصر على توجيه الانكار
وتقريع الصدور ذلك القول عنهم في ذلك الوقت خاصة بناء على عدم كونه مظنة له داعيا
اليه بل على كونه داعيا على عدمه فان كون مصيبة عدوهم ضعف مصيبتهم مما يهون الخطب
ويورث السلوة او فعلتم ما فعلتم ولما اصابتكم غائلته قلتم انى هذا على توجيه الانكار
الى استبعادهم لحادثة مع مباشرتهم لسببها وتذكير اسم الاشارة في انى هذا مع كونه اشارة
الى المصيبة ليس لكونها عبارة عن القتل ونحوه بل لما ان اشارتهم الا الى ما شاهدوه في
المعركة من حيث هو هو من غير ان يخطر ببالهم تسميته باسم ما فضلا عن تسميته باسم
المصيبة وانما هي عند الحكاية وقوله عز وجل قل هو من عند انفسكم امر لرسول الله صلى الله
عليه وسلم بان يجيب عن سؤالهم الفاسد اثر تحقيق فساده بالانكار والتقريع وتبكيتهم ببيان
ان ما نالهم انما نالهم من جهتهم بتركهم المركز وحرصهم على الغنيمة وقيل باختيارهم
الخروج من المدينة ياباه ان الوعد بالنصر كان بعد ذلك كما ذكر عند قوله تعالى ولقد صدقكم الله
وعده الآية وان عمل النبي صلى الله عليه وسلم بموجبه قد رفع الخطر عنه وخفف جنايتهم
فيه على ان اختيار الخروج والاصرار عليه كان ممن اكرمهم الله تعالى بالشهادة يومئذ
واين هم من التفوه بمثل هذه الكلمة وقيل باخذهم الفداء يوم بدر قبل ان يؤذن
لهم والاول هو الاظهر الاقوى وربما يعضده توسيط خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
بين الخطابين المتوجهين الى المؤمنين وتفويض التبكيت اليه عليه السلام فان توبيخ الفاعل على
الفعل اذا كان ممن نهاه عنه كان اشد تاثيرا ان الله على كل شيء قدير ومن جملته النصر
عند الطاعة والخذلان عند المخالفة وحيث خرجتم عن الطاعة اصابكم منه تعالى ما اصابكم
والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها داخل تحت الامر وما اصابكم رجوع الى خطاب
المؤمنين اثر خطابه عليه السلام لسر يقتضيه وارشاد لهم الى حقيقة الحق فيما سألوا عنه
وبيان لبعض ما فيه من الحكم والمصالح ودفع لما عسى يتوهم من قوله تعالى هو من عند انفسكم
من استقلالهم في وقوع الحادثة والعدول عن الاضمار الى ما ذكر للتهويل وزيادة
التقرير يوم التقى الجمعان اي جمعكم وجمع المشركين فباذن الله
اي هو كائن بقضائه وتخليته الكفار سمي ذلك اذنا لكونها من لوازمه وليعلم المؤمنين
عطف على قوله تعالى فباذن الله عطف السبب على المسبب والمراد بالعلم التمييز والاظهار فيما بين الناس وليعلم
الذين نافقوا عطف على ما قبله من مثله واعادة الفعل لتشريف المؤمنين وتنزيههم عن الانتظام في قرن
المنافقين وللايذان باختلاف حال العلم بحسب التعلق بالفريقين فانه متعلق على نهج تعلقه
السابق وبالمنافقين على وجه جديد وهو السر في ايراد الاولين بصيغة اسم الفاعل المنبئة

عن الاستمرار

عن الاستمرار والاخيرين بموصول صلته فعل دال على الحدوث والمعنى وما اصابكم يومئذ
فهو كائن لتمييز الثابتين على الايمان والذين اظهروا النفاق وقيل لهم عطف على
نافقوا داخل معه في حيز الصلة او كلام مبتدأ قال ابن عباس رضي الله عنهما هم عبد الله
بن ابي واصحابه حيث انصرفوا يوم احد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم
عبد الله بن عمرو بن حزام اذكركم الله ان تخذلوا نبيكم وقومكم ودعاهم الى القتال في
ذلك قوله تعالى تعالوا قاتلوا في سبيل الله او ادفعوا قال السدي ادفعوا عنا العدو
بتكثير سوادنا ان لم تقاتلوا معنا وقيل او ادفعوا عن اهلكم وبلدكم وحريمكم ان لم تقاتلوا
في سبيل الله تعالى وترك العطف بين تعالوا وقاتلوا لما ان المقصود بهما واحد وهو الثاني
وذكر الاول توطئة له وترغيب فيه لما فيه من الدلالة على التظاهر والتعاون قالوا
استئناف وقع جوابا عن سؤال ينسحب عليه الكلام كانه قيل فماذا صنعوا حين خيروا بين
الخصلتين المذكورتين فقيل قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم اي لو نحسن قتالا ونقدر
عليه وانما قالوه دغلا واستهزاء وانما عبر عن نفي القدرة على القتال بنفي العلم به لما ان القدرة
على الافعال الاختيارية مستلزمة للعلم بها او لو نعلم ما يصح ان يسمى قتالا لاتبعناكم
ولكن ما انتم بصدده ليس بقتال اصلا وانما هو القاء النفس الى التهلكة وفي جعلهم التالي
مجرد الاتباع دون القتال الذي هو المقصود بالدعوة دليل على كمال تثبطهم عن القتال
حيث لا ترضى نفوسهم بجعله تاليا للمقدم مستحيل الوقوع هم للكفر يومئذ اقرب
منهم للايمان الضمير مبتدأ واقرب خبره واللام في للكفر وللايمان متعلقة به وكذا
يومئذ ومنهم وعدم جواز تعلق حرفين متحدين لفظا ومعنى بعامل واحد بلا عطف
او بدلية انما هو فيما عدا افعل التفضيل من العوامل لاتحاد حيثية عملها واما افعل
التفضيل فحيث دل على اصل الفعل وزيادته جرى مجرى عاملين كانه قيل قربهم
للكفر زائد على قربهم للايمان وقيل تعلق الجارين به لشبههما بالظرفين اي هم للكفر
يوم اذ قالوا ما قالوا اقرب للايمان فانهم كانوا قبل ذلك يتظاهرون بالايمان وما
ظهرت منهم امارة مؤذنة بكفرهم فلما انخذلوا عن عسكر المسلمين وقالوا ما قالوا
تباعدوا بذلك عن الايمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر وقيل هم لاهل الكفر اقرب
نصرة منهم لاهل الايمان لان تقليل سواد المسلمين بالانخزال تقوية للمشركين وقوله
تعالى يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم جملة مستانفة مقررة لمضمون ما قبلها
وذكر الافواه والقلوب تصوير لنفاقهم وتوضيح لمخالفة ظاهرهم لباطنهم وما عبارة
عن القول والمراد به اما نفس الكلام الظاهري في اللسان تارة وفي القلب اخرى فالمثبت
والمنفي متحدان ذاتا وان اختلفا مظهرا واما القول الملفوظ فقط فالمنفي حينئذ
منشأه الذي لا ينفك عنه القول اصلا وانما عبر عنه ابانة لما بينهما من شدة الاتصال
اي يتفوهون بقول لا وجود له او لمنشئه في قلوبهم اصلا من الاباطيل التي من جملتها
ما حكي عنهم آنفا فانهم اظهروا فيه امرين ليس في قلوبهم شيء منهما احدهما عدم
العلم بالقتال والآخر الاتباع على تقدير العلم به وقد كذبوا فيهما كذبا بينا حيث كانوا
عالمين مصرين مع ذلك على الانخزال عازمين على الارتداد وقوله عز وجل والله اعلم
بما يكتمون زيادة تحقيق لكفرهم ونفاقهم ببيان اشتغال قلوبهم بما يخالف اقوالهم
من فنون الشر والفساد اثر بيان خلوها عما يوافقها وصيغة التفضيل لما ان بعض ما يكتمونه
من احكام النفاق وذم المؤمنين وتخطئة آرائهم والشماتة بهم وغير ذلك يعلمه المؤمنون
على وجه الاجمال وان تفاصيل ذلك وكيفياته مختصة بالعلم الالهي الذين قالوا
مرفوع على انه بدل من واو يكتمون او خبر لمبتدأ محذوف وقيل مبتدأ خبره قل فادرءوا
بحذف العائد تقديره قل لهم الخ او منصوب على الذم او على انه نعت للذين نافقوا
او بدل منه وقيل مجرور على انه بدل من ضمير افواههم او قلوبهم كما في قوله على
جوده لضن بالماء حاتم والمراد بهم عبد الله بن ابي واصحابه لاخوانهم اي لاجلهم
وهم من قتل يوم احد من جنسهم او من اقاربهم فيندرج فيهم بعض الشهداء

وقعدوا حال من ضمير قالوا بتقدير قد اى قالوا وقد قعدوا عن القتال بالانخذال لو اطاعونا
اى فيما امرناهم به ووافقونا فى ذلك ما قتلوا كما لم نقتل وفيه ايذان بانهم امروهم
بالانخذال حين انخزلوا واغووهم كما غووا وحمل القعود على ما استصوبه ابن ابى
عند المشاورة من الاقامة بالمدينة ابتداء وجعل الاطاعة عبارة عن قبول رايه والعمل
يرده كون الجملة حالية فانها لتعيين ما فيه العصيان والمخالفة مع ان ابن ابى ليس من
القاعدين فيها بذلك المعنى على ان تخصيص عدم الطاعة باخوانهم ينادى باختصاص
الامر ايضا بهم فيستحيل ان يحمل على ما خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم عند المشاورة
قل تبكيتا لهم واظهارا لكذبهم فادرؤا عن انفسكم الموت جواب لشرط قد حذف
تعويلا على ما بعده من قوله تعالى ان كنتم صادقين كما انه شرط حذف جوابه لدلالة
الجواب المذكور عليه اى ان كنتم صادقين فيما ينبئ عنه قولكم من انكم قادرون على دفع
القتل عمن كتب عليه فادفعوا عن انفسكم الموت الذى كتب عليكم معلقا بسبب خاص موقتا
بوقت معين بدفع سببه فان اسباب الموت فى امكان المدافعة بالحيل وامتناعها سواء
وانفسكم اعز عليكم من اخوانكم وامرها اهم لديكم من امرهم والمعنى ان عدم قتلكم
كان بسبب انه لم يكن مكتوبا عليكم لا بسبب انكم دفعتموه بالقعود مع كتابته عليكم فان
ذلك مما لا سبيل اليه بل قد يكون القتال سببا للنجاة والقعود مؤديا الى الموت روى انه
مات يوم قالوا ما قالوا سبعون منافقا وقيل ان كنتم صادقين فى مضمون
الشرط والمعنى انهم لو اطاعوكم وقعدوا لقتلوا قاعدين كما قتلوا مقاتلين فقوله
تعالى فادرؤا عن انفسكم الموت استهزاء بهم اى ان كنتم رجالا دفاعين عن
اسباب الموت فادرؤا جميع اسبابه حتى لا تموتوا كما درأتم فى زعمكم هذا السبب الخاص
ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا كلام مستأنف مسوق لبيان
ان القتل الذى يحذرونه ويحذرون الناس منه ليس مما يحذر بل هو من اجل المطالب
التى يتنافس فيها المتنافسون اثر بيان ان الحذر لا يغنى ولا يجدى وقرئ لا تحسبن بكسر السين
والمراد بهم شهداء احد وكانوا سبعين رجلا اربعة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب
ومصعب بن عمير وعثمان بن شهاب وعبد الله بن جحش وباقيهم من الانصار رضوان
الله تعالى عليهم اجمعين والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل احد ممن له حظ
من الخطاب وقرئ بالياء على الاسناد الى ضميره عليه السلام او ضمير من يحسب وقيل الى الذين
قتلوا والمفعول الاول محذوف لانه فى الاصل مبتدأ جائز الحذف عند القرينة والتقدير
ولا يحسبنهم الذين قتلوا امواتا اى لا يحسبن الذين قتلوا انفسهم على ان المراد من توجيه
النهى اليهم تنبيه السامعين على انهم احقاء بان يسلوا بذلك ويبشروا بالحيوة الابدية
والكرامة السنية والنعيم المقيم لكن فى جميع اوقاتهم بل عند ابتداء القتل اذ بعد تبين
حالهم لهم لا يبقى لاعتبار تسليتهم وتبشيرهم فائدة ولا للتنبيه السامعين وتذكيرهم
وجه وقرئ بالتشديد قتّلوا لكثرة المقتولين بل احياء اى بل هم احياء وقرئ منصوبا
اى بل احسبهم احياء على ان الحسبان بمعنى اليقين كما فى قوله حسبت التقى والجود خير تجارة
رباحا اذا ما المرء اصبح ثاقلا او على انه وارد على طريق المشاكلة عند ربهم فى محل
الرفع على انه خبر ثان للمبتدأ المقدر او صفة لاحياء او فى محل النصب على انه من الضمير فى احياء
وقيل هو الظرف لاحياء او للفعل بعده والمراد بالعندية التقرب والزلفى وفى التعرض لعنوان
الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضميرهم مزيد تكرمة لهم
يرزقون اى من الجنة وفيه تاكيد لكونهم احياء وتحقيق لمعنى حياتهم قال الامام
الواحدى الاصح فى حيوة الشهداء ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من ان ارواحهم
فى اجواف طير خضر وانهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم
انه قال لما اصيب اخوانكم باحد جعل الله ارواحهم فى اجواف طير خضر تدور فى انهار
الجنة وروى ترد انهار الجنة الخ وتأكل من ثمارها وتسرح من الجنة حيث شاءت وتأوى
الى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش وفيه دلالة على ان روح الانسان جسم لطيف

لا يفنى

لا يفنى بخراب البدن ولا يتوقف عليه ادراكه وتألمه والتذاذه ومن قال بتجرد النفوس البشرية
يقول المراد ان نفوس الشهداء تتمثل طيرا خضرا وتتعلق بها فتلتذ بما ذكر وقيل
المراد انها تتعلق بالافلاك والكواكب فتلتذ بذلك وتكتسب زيادة كمال فرحين
بما آتاهم الله من فضله وهو شرف الشهادة والفوز بالحيوة الابدية والزلفى
من الله عز وجل والتمتع بالنعيم المخلد عاجلا ويستبشرون يسرون بالبشارة
بالذين لم يلحقوا بهم اى باخوانهم الذين لم يقتلوا بعد فى سبيل الله فيلحقوا بهم
من خلفهم متعلق بيلحقوا والمعنى انهم بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم او بمحذوف
وقع حالا من فاعل يلحقوا اى لم يلحقوا بهم حال كونهم متخلفين عنهم باقين فى الدنيا
ان لا خوف عليهم ولا هم يحزنون بدل من الذين بدل اشتمال مبين لكون
استبشارهم بحال اخوانهم لا بذواتهم وان هى المخففة من ان واسمها ضمير الشان
المحذوف وخبرها الجملة المنفية اى يستبشرون بما تبين لهم من حسن حال اخوانهم الذين
تركوهم وهو انهم عند قتلهم يفوزون بحيوة ابدية لا يكدرها وقوع محذور
ولا حزن فوات مطلوب او لا خوف عليهم فى الدنيا من القتل فانه عين الحيوة التى
يجب ان يرغب فيها فضلا عن ان تخاف وتحذر اى لا يعتريهم ذلك لكنهم لا يخافون
ولا يحزنون والمراد بيان دوام انتفاء الخوف لا بيان انتفاء دوامها كما يوهمه كون الخبر
فى الجملة الثانية مضارعا فان النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار
بحسب المقام يستبشرون بنعمة كرر لبيان ان الاستبشار المذكور ليس بمجرد عدم
الخوف والحزن بل به وبما يقارنه من نعمة عظيمة لا يقادر قدرها وهى ثواب اعمالهم
وقد جوز ان يكون الاول متعلقا بحال اخوانهم وهذا بحال انفسهم بيانا لبعض
ما اجمل فى قوله تعالى فرحين بما آتاهم الله من فضله من الله متعلق بمحذوف وقع صفة
لنعمة مؤكدة لما افادها التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية اى كائنة
منه تعالى وفضل اى زيادة عظيمة كما فى قوله تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة وان
ان الله لا يضيع اجر المؤمنين بفتح ان عطف على فضل منتظم معه فى سلك المستبشر به
والمراد بالمؤمنين اما الشهداء والتعبير عنهم بالمؤمنين للايذان بسمو رتبة الايمان
وكونه مناطا لما نالوه من السعادة واما كافة اهل الايمان من الشهداء وغيرهم
ذكرت توفية اجورهم على ايمانهم وعدت من جملة ما يستبشر به الشهداء بحكم
الاخوة فى الدين وقرئ بكسرها على انه استئناف معترض دال على ان ذلك اجرهم لهم
على ايمانهم مشعر بان من لا ايمان له اعماله محبطة لا اجر لها وفيه من الحث على الجهاد والترغيب
فى الشهادة والبعث على ازدياد الطاعة وبشرى المؤمنين بالفلاح ما لا يخفى الذين استجابوا
لله وللرسول من بعد ما اصابهم القرح صفة مادحة للمؤمنين لا مخصصة او نصب
على المدح او رفع على الابتداء والخبر قوله تعالى للذين احسنوا منهم واتقوا اجر عظيم
بجملته ومن للبيان والمقصود من الجمع بين الوصفين المدح والتعليل لا التقييد لان
المستجيبين كلهم محسنون ومتقون روى ان ابا سفيان واصحابه لما انصرفوا من
احد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع فبلغ ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
فاراد ان يرهبهم ويريهم من نفسه واصحابه قوة فندب اصحابه للخروج فى طلب ابى سفيان
وقال لا يخرجن معنا الا من حضر يومنا بالامس فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جماعة
حتى بلغوا حمراء الاسد وهى من المدينة على ثمانية اميال وكان باصحابه القرح فتحاملوا على
انفسهم حتى لا يفوتهم الاجر والقى الله الرعب فى قلوب المشركين فذهبوا فنزلت الذين قال
لهم الناس يعنى الركب الذى استقبلوهم من عبد قيس او نعيم بن مسعود الاشجعى و
اطلاق الناس عليه لما انه من جنسهم وكلامه كلامهم يقال فلان يركب الخيل ويلبس
الثياب وما له سوى فرس واحد ولانه انضم اليه ناس من المدينة واذاعوا كلامه
ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم روى ان ابا سفيان نادى عند انصرافه من احد
يا محمد موعدنا موسم بدر لقابل ان شئت فقال عليه السلام ان شاء الله تعالى

تفسير ابن كمال

فلما كان القابل خرج ابو سفيان في اهل مكة حتى نزل مر الظهران فالقى الله تعالى في قلبه الرعب وبدا
له ان يرجع فمر به ركب من بني عبد قيس يريدون المدينة للميرة فشرط لهم حمل بعير من
زبيب ان ثبطوا المسلمين وقيل لقي نعيم بن مسعود وقد قدم معتمرا فسأله ذلك
فالتزم له عشرا من الابل وضمنها منه سهيل بن عمرو فخرج نعيم و وجد المسلمين
يتجهزون للخروج فقال لهم اتوكم في دياركم فلم يفلت منكم احد الا شريدا افترون
ان تخرجوا وقد جمعوا لكم ففتروا فقال عليه السلام والذي نفسي بيده لاخرجن ولو لم يخرج
معي احد فخرج في سبعين راكبا كلهم يقولون حسبنا الله ونعم الوكيل قيل هي الكلمة
التي قالها ابراهيم عليه السلام حين القي في النار فزادهم ايمانا الضمير المستكن
للمقول او لمصدر قال او لفاعله ان اريد به نعيم وحده والمعنى انهم لم يلتفتوا الى
ذلك بل ثبت به يقينهم بالله تعالى وازداد اطمئنانهم واظهروا حمية الاسلام واخلصوا
النية عنده وهو دليل على ان الايمان يتفاوت زيادة ونقصانا فان ازدياد اليقين
بالالف وكثرة التأمل وتناصر الحجج مما لا ريب فيه ويعضده قول ابن عمر رضي الله عنهما قلنا يا
رسول الله الايمان يزيد وينقص قال نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل
صاحبه النار وقالوا حسبنا الله اي محسبنا الله وكافينا من احسبه اذا كفاه
والدليل على انه بمعنى المحسب انه لا يستفيد بالاضافة تعريفا في قولك هذا رجل حسبك
ونعم الوكيل اي نعم الموكول اليه والمخصوص بالمدح محذوف اي الله عز وجل
فانقلبوا عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام اي فخرجوا اليهم ووافوا الموعد روي
انه عليه السلام وافى بجيشه بدرا واقام بها ثماني ليال وكانت معهم تجارات
فباعوها واصابوا خيرا كثيرا والباء في قوله تعالى بنعمة متعلقة بمحذوف وقع حالا من
الضمير في فانقلبوا والتنوين للتفخيم اي فرجعوا من مقصدهم ملتبسين بنعمة عظيمة
لا يقادر قدرها وقوله عز وجل من الله متعلق بمحذوف وقع صفة لنعمة مؤكدة
لفخامتها الذاتية التي يفيدها التنكير بالفخامة الاضافية اي كائنة من الله تعالى وهي
العافية والثبات على الايمان والزيادة فيه وحذر العدو منهم وفضل اي ربح في
التجارة وتنكيره ايضا للتفخيم لم يمسسهم سوء حال اخرى من الضمير في فانقلبوا
او من المستكن في الحال كانه قيل منعمين حال كونهم سالمين عن السوء والحال اذا كان
مضارعا منفيا بلم وفيه ضمير ذي الحال جاز فيه دخول الواو كما في قوله تعالى او قال اوحي
الي ولم يوح اليه شيء وعدمه كما في هذه الاية الكريمة وفي قوله ورد الله الذين كفروا بغيظهم
لم ينالوا خيرا واتبعوا في كل ما اتوا من قول تعالى وفعل رضوان الله الذي هو مناط
الفوز بخير الدارين والله ذو فضل عظيم حيث تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة
الايمان والتوفيق للمبادرة الى الجهاد والتصلب في الدين واظهار الجرأة على العدو وحفظهم
عن ما يسوؤهم مع اصابة النفع الجليل وفيه تحسير لمن تخلف عنهم واظهار
لخطاء رأيهم حيث حرموا انفسهم ما فاز به هؤلاء وروي انهم قالوا هل يكون
هذا غزوا فاعطاهم الله عز وجل ثواب الغزو ورضي عنهم انما ذلكم اشارة
الى المثبط او الى من حمله على التثبيط والخطاب للمؤمنين وهو مبتدأ وقوله تعالى الشيطان
اما خبره وقوله تعالى يخوف اولياءه جملة مستأنفة مبينة لشيطنته او حال كما في
قوله تعالى على تقدير مضاف اي انما ذلكم قول الشيطان اي ابليس والمستكن في يخوف اما
للمقدر واما للشيطان بحذف الراجع الى المقدر اي يخوف به والمراد باوليائه اما ابو
سفيان واصحابه فالمفعول الاول محذوف اي يخوفكم اولياءه كما هو قراءة ابن عباس
وابن مسعود رضي الله عنهم ويؤيده قوله تعالى فلا تخافوهم اي اولياءه وخافون في مخالفة
امري واما القاعدون فالمفعول الثاني محذوف اي يخوفهم الخروج مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم والضمير البارز في فلا تخافوهم للناس الثاني اي فلا تخافوهم فتقعدوا عن
القتال وتجبنوا وخافوني فجاهدوا مع رسولي الى ما يأمركم به والخطاب لفريقي
الخارجين والقاعدين والفاء لترتيب النهي او الانتهاء على ما قبلها فان كون المخوف

شيطانا

شيطانا مما يوجب عدم الخوف والنهي عنه ان كنتم مؤمنين فان الايمان يقتضي ايثار
خوف الله عز وجل على خوف غيره ويستدعي الامن من شر الشيطان واوليائه ولا يحزنك
تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتشريفه بتخصيصه بالتسلية
والايذان باصالته في تدبير امور الدين والاهتمام بشؤونه الذين يسارعون في الكفر
اي يقعون فيه سريعا لغاية حرصهم عليه وشدة رغبتهم فيه وايثار كلمة في على ما
وقع في قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة الاية للاشعار باستقرارهم في الكفر ودوام
ملابستهم له في مبدأ المسارعة ومنتهاها كما في قوله اولئك يسارعون في الخيرات
فان ذلك مؤذن بملابستهم للخيرات وتقلبهم في فنونها في طرفي المسارعة وتضاعيفها
واما ايثار كلمة الى في قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة الخ فان المغفرة والجنة
منتهى المسارعة وغايتها والمراد بالموصول المنافقون من المتخلفين وطائفة من اليهود
حسبما عين في قوله تعالى يا ايها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين
قالوا امنا بافواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا وقيل قوم ارتدوا
عن الاسلام والتعبير عنهم بذلك للاشارة بما في حيز الصلة الى مظنة وجود المنهي
عنه واعتراته لرسول الله صلى الله عليه وسلم اي لا يحزنك مسارعتهم في مبادي
الى تمشية احكامه ومظاهرتهم لاهله وتوجيه النهي الى جهتهم مع ان المقصود
نهيه عليه السلام عن التأثر منهم للمبالغة في ذلك لما ان النهي عن التأثير نهي عن
التأثر باصله ونفي له بالمرة وقد يوجه النهي الى اللازم والمراد هو النهي عن الملزوم كما في
في قولك لا ارينك ههنا وقرئ لا يحزنك من احزن المنقول من حزن بكسر الزاي والمعنى واحد وقيل
معنى حزنه جعل فيه حزنا كما في دهنه اي جعل فيه دهنا ومعنى احزنه جعله حزينا وقيل
معنى حزنه احدث له الحزن ومعنى احزنه عرضه للحزن انهم لن يضروا الله تعليل للنهي
وتكميل للتسلية بتحقيق نفي ضررهم ابدا اي لن يضروا بذلك اولياء الله البتة وتعليق
نفي الضرر به تعالى لتشريفهم والايذان بان مضارتهم بمنزلة مضارته سبحانه وفيه
مزيد مبالغة في التسلية وقوله تعالى شيئا في حيز النصب على المصدرية اي شيئا من
الضرر والتنكير لتأكيد ما فيه من القلة والحقارة وقيل على نزع الجار اي بشيء ما اصلا وقيل
المعنى لن ينقصوا بذلك من ملكه تعالى وسلطانه شيئا كما روى ابو ذر عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم انه قال لو ان اولكم واخركم وجنكم وانسكم كانوا على اتقى قلب رجل
منكم ما زاد ذلك في ملك الله شيئا ولو ان اولكم واخركم وجنكم وانسكم كانوا على افجر قلب
رجل منكم ما نقص من ملك الله جناح بعوضة والاول هو الانسب بمقام التسلية
والتعليل يريد الله ان لا يجعل لهم حظا في الاخرة استئناف مبين لسر ابتلائهم
بما هم فيه من الانهماك في الكفر وفي ذكر الارادة من الايذان بكمال خلوص الداعي الى
حرمانهم وتعذيبهم حيث تعلقت بهما ارادة ارحم الراحمين ما لا يخفى وصيغة الاستقبال
للدلالة على دوام الارادة واستمرارها اي يريد الله بذلك ان لا يجعل لهم في الاخرة
حظا ما من الثواب ولذلك تركهم في طغيانهم يعمهون الى ان يهلكوا على الكفر ولهم
مع ذلك الحرمان الكلي عذاب عظيم لا يقادر قدره قيل لما دلت المسارعة
في الشيء على عظم شأنه وجلالة قدره عند المسارع وصف عذابه بالعظم رعاية
للمناسبة وتنبيها على حقارة ما سارعوا فيه وخساسته في نفسه والجملة اما مبتدأة
مبينة لحظهم من العقاب اثر بيان ان لا شيء لهم من الثواب واما حال من الضمير في لهم
اي يريد الله حرمانهم من الثواب معدا لهم عذاب عظيم ان الذين اشتروا
الكفر بالايمان اي اخذوه بدلا منه رغبة فيما اخذوه واعراضا عما تركوه وقد مر
تحقيق القول في هذه الاستعارة في تفسير قوله عز وجل اولئك الذين اشتروا الضلالة
بالهدى مستوفى لن يضروا الله شيئا تفسيره كما مر خلا ان فيه تعريضا ظاهرا
باقتصار الضرر عليهم كانه قيل وانما يضرون انفسهم فان جعل الموصول عبارة
عن المسارعين المعهودين بان يراد باشتراء الكفر بالايمان ايثاره عليه اما باخذه بدلا من

الايمان الحاصل بالمعجزات كما هو حال المرتدين او بالقوة القريبة منه الحاصلة بمشاهدة دلائله في التوراة كما هو شأن اليهود ومنافقيهم فالتكرير لتقرير الحكم وتأكيده ببيان علته بتغيير عنوان الموضوع فان ما ذكر في حيز الصلة من الاشتراء المذكور صريح في لحوق ضرره بانفسهم وعدم تعديه الى غيرهم اصلا كيف لا وهو علم في الخسران الكلي والحرمان الابدي دال على كمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم فكيف يتأتى منهم ما يتوقف على قوة الحزم ورزانة الرأي ورصانة التدبير من مضارة حزب الله تعالى وهي اعز من الابلق العقوق وامنع من عقاب الجو وان اجرى الموصول على عمومه بان يراد بالاشتراء المذكور القدر المشترك الشامل للمعنيين المذكورين والاخذ بالكفر بدلا مما نزل منزلة نفس الايمان من الاستعداد القريب له الحاصل بمشاهدة الوحي الناطق وملاحظة الدلائل المنصوبة في الآفاق والانفس كما هو دأب جميع الكفرة فالجملة مقررة لمضمون ما قبلها تقرير القواعد الكلية لما اندرج تحتها من جزئيات الاحكام هذا وقد جوز كون الموصول الاول عاما للكفار والثاني خاصا بالمعهودين وانت خبير بانه مع خلوه عن النكت المذكورة مما لا يليق بفخامة شأن التنزيل فان صدور المسارعة في الكفر بالمعنى المذكور وكونها مظنة لايراث الحزن لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما يفهم من النهي عنه انما يتصور ممن علم اتصافه بها واما من لا يعرف حاله من الكفرة الكائنين في الاماكن البعيدة فاسناد المسارعة المذكورة اليهم واعتبار كونها من مبادي حزنه عليه السلام مما لا وجه له وقوله تعالى ولهم عذاب اليم جملة مبتدأة مبينة لكمال فظاعة عذابهم بذكر غاية ايلامه بعد ذكر نهاية عظمه قيل لما جرت العادة باغتباط المشتري بما اشتراه وسروره بتحصيله عند كون الصفقة رابحة وبتألمه عند كونها خاسرة وصف عذابهم بالايلام مراعاة لذلك ولا يحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خير لانفسهم عطف على قوله تعالى ولا يحزنك الذين الآية والفعل مسند الى الموصول وان لما في حيزها سادة مسد مفعوليه عند سيبويه لتمام المقصود بها وهو تعلق الفعل القلبي بالنسبة بين المبتدأ والخبر وفي مسد احدهما والآخر محذوف عند الاخفش وما مصدرية او موصولة حذف عائدها وصلها في الكتابة لاتباع الامام اي لا يحسبن الكافرون ان املاءنا لهم او ان ما نمليه لهم خير لانفسهم او لا يحسبن الكافرون خيرية املائنا لهم او خيرية ما نمليه لهم ثابتة او واقعة ومآله نهيهم عن السرور بظاهر املائه تعالى لهم بناء على حسبان خيريته لهم وتحسيرهم ببيان انه شر بحت وضرر محض كما ان مآل المعطوف عليه نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن الحزن بظاهر حال الكفرة بناء على توهم الضرر من قبلهم وتسليته عليه السلام ببيان عجزهم عن ذلك بالكلية والمراد بالموصول اما جنس الكفرة فيندرج تحت حكمه الكلي احكام المعهودين اندراجا اوليا واما المعهودون خاصة فايثار الاظهار على الاضمار لرعاية المقارنة الدائمة بين الصلة وبين الاملاء الذي هو عبارة عن امهالهم وتخليتهم وشأنهم دهرا طويلا فان المقارن له دائما انما هو الكفر المستمر لا المسارعة المذكورة ولا الاشتراء المذكور فانهما من الاحوال المتجددة المنقضية في تضاعيف الكفر المستمر وقرئ ولا تحسبن بالتاء والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الانسب بمقام التسلية او لكل من يتأتى منه الحسبان قصدا الى اشاعة حالهم والموصول مفعول وانما نملي لهم اما بدل منه وحيث كان التعويل على البدل وهو ساد مسد المفعولين كما في قوله تعالى ام تحسب ان اكثرهم يسمعون اقتصر على مفعول واحد كما في قولك جعلت المتاع بعضه فوق بعض واما مفعول ثان بتقدير مضاف اما فيه اي لا تحسبن الذين كفروا ان الاملاء خير لانفسهم او في المفعول الاول اي لا تحسبن حال الذين كفروا ان الاملاء خير لانفسهم ومعنى التفضيل باعتبار زعمهم انما نملي لهم ليزدادوا اثما استئناف مبين لحكمة الاملاء وما كافة واللام لام الارادة وعند المعتزلة لام العاقبة وقرئ بفتح الهمزة ههنا على ايقاع الفعل عليه وكسرها فيما سبق على انه اعتراض بين الفعل

ومعموله مفيد لمزيد الاعتناء بابطال الحسبان ورده على معنى لا يحسبن الكافرون ان املاءنا لهم لازدياد الاثم حسبما هو شأنهم بل انما هو لتلافي ما فرط منهم بالتوبة والدخول في الايمان ولهم في الآخرة عذاب مهين لما تضمن الاملاء التمتع بطيبات الدنيا وزينتها وذلك مما يستدعي التعزز والتجبر وصف عذابهم بالاهانة فيكون جزاؤهم جزاء وفاقا والجملة اما مبتدأة مبينة لحالهم في الآخرة اثر بيان حالهم في الدنيا واما حال من الواو اي ليزدادوا اثما معدا لهم عذاب مهين وهذا متعين على القراءة الاخيرة ما كان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه كلام مستأنف مسوق لوعد المؤمنين ووعيد المنافقين بالعقوبة الدنيوية التي هي الفضيحة والخزي اثر بيان عقوبتهم الاخروية والمراد بالمؤمنين المخلصون واما الخطاب فقد قيل انه لجمهور المصدقين من اهل الاخلاص واهل النفاق ففي ضمن التلوين والمراد بما هم عليه اختلاط بعضهم ببعض واستواؤهم في اجراء احكام الاسلام عليهم اذ هو القدر المشترك بين الفريقين وقيل انه للكفار والمنافقين وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك ومقاتل والكلبي رضي الله عنهم واكثر المفسرين ففيه تلوين فقط ولعل المنافقين عطف تفسيري للكفار والآية نزلت في شركة بين المؤمنين المهاجرين في امر من الامور والمراد بما هم عليه ما مر من القدر المشترك فانه كما يجوز النسبة الى الفريقين معا يجوز النسبة الى كل منهما لا الكفر والنفاق كما قيل فان المؤمنين ما كانوا مشاركين لهم في ذلك حتى لا يتركوا عليه وقيل انه للمؤمنين خاصة وهو قول اكثر اهل المعاني ففيه تلوين والتفات كما مر والتعرض لايمانهم قبل الخطاب للاشعار بعلة الحكم والمراد بما هم عليه ما مر غير مرة والاول هو الاقرب واليه جنح المحققون من اهل التفسير لكونه صريحا في كون المراد بما هم عليه ما ذكر من القدر المشترك بين الفريقين من حيث هو مشترك بينهما بخلاف القولين الاخيرين فانهما بمعزل من ذلك كيف والمفهوم مما عليه المنافقون هو الكفر والنفاق ومما عليه المؤمنون هو الايمان والاخلاص لا القدر المشترك بينهما ولئن فهم ذلك فانما يفهم من حيث الانتساب الى احدهما لا من حيث الانتساب اليهما معا وعليه يدور الامر فان المحوج الى الافراز واللام في ليذر اما متعلقة بالخبر المقدر فكان هو رأي البصرية وانتصاب الفعل بعدها بان المقدرة اي ما كان الله مريدا او متصديا لان يذر المؤمنين الخ ففي توجيه النفي الى ارادة الفعل تأكيد ومبالغة ليست في توجيهه الى نفسه واما مزيدة للتأكيد ناصبة للفعل بنفسها كما هو رأي الكوفية ولا يقدح في ذلك زيادتها كما يقدح زيادة حروف الجر في عملها وقوله عز وجل حتى يميز الخبيث من الطيب غاية لما يفيده النفي المذكور كانه قيل ما يتركهم الله على ذلك الاختلاط بل يقدر الامور ويرتب الاسباب حتى يعزل المنافق من المؤمن وفي التعبير عنهما بما ورد به النظم الكريم تسجيل على كل منهما بما يليق به واشعار بعلة الحكم وافراد الخبيث والطيب مع تعدد ما اريد بكل منهما وتكثره لا سيما بعد ذكر ما اريد باحدهما عن المؤمنين بصيغة الجمع للايذان بان مدار افراز احد الفريقين من الآخر هو اتصافهما بوصفهما لا خصوصية ذاتهما وتعدد آحادهما كما في مثل قوله تعالى ذلك ادنى الا تعولوا ونظيره قوله تعالى أتى هل كل مرضعة عما ارضعت حيث قصد الدلالة على الاتصاف بالوصف من غير تعرض لكون الموصوف من العقلاء او غيرهم وتعليق الميز بالخبيث المعبر به عن المنافق مع ان المتبادر مما سبق من عدم ترك المؤمنين على الاختلاط تعليقه بهم وافرازهم عن المنافقين لما ان الميز الواقع بين الفريقين انما هو بالتصرف في المنافقين وتغييرهم من حال الى حال مغايرة للاولى مع بقاء المؤمنين على ما كانوا عليه من اهل الايمان وان ظهر مزيد اخلاصهم بالتصرف فيهم وتغييرهم من حال الى حال اخرى مع بقاء المنافقين على ما هم عليه من الاستتار ولان فيه مزيد تأكيد للوعيد كما اشير اليه في قوله تعالى والله يعلم المفسد من المصلح وانما نسب عدم الترك اليهم لما انه مشعر بالاعتناء بشأن من نسب اليه فان المتبادر منه عدم الترك على حالة غير ملائمة كما يشهد به الذوق السليم وقرئ حتى يميز من التمييز وقوله تعالى وما كان الله

ليطلعكم على الغيب تمهيد لبيان الميز الموعود على طريق تجريد الخطاب للمخلصين تشريفا لهم
وقوله عز وجل ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء اشارة الى كيفية وقوعه
على سبيل الاجمال واظهار الاسم الجليل في الموضعين لتربية المهابة فالمعنى ما كان الله
ليترك المخلصين على الاختلاط بالمنافقين بل يرتب المبادي حتى يخرج المنافقين من بينهم
وما يفعل ذلك باطلاعكم على ما في قلوبهم من الكفر والنفاق ولكنه تعالى يوحي الى رسوله
عليه السلام فيخبره بذلك وبما ظهر منهم من الاقوال والافعال حسبما حكى عنهم بعضه
فيما سلف فيفضحهم على رؤس الاشهاد ويخلصكم من خسة الشركاء وسوء جوارهم
والتعرض للاجتباء للايذان بان الوقوف على امثال تلك الاسرار الغيبية لا يتأتى الا لمن
رشحه الله تعالى لمنصب جليل تقاصرت عنه همم الامم واصطفاه على الجماهير لارشادهم
وتعميم الاجتباء لسائر الرسل عليهم السلام للدلالة على ان شأنه عليه السلام
في هذا الباب امر متين له اصل اصيل جار على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين الرسل الخالية
عليهم السلام وتعميم الامر في قوله تعالى فآمنوا بالله ورسله مع ان سوق النظم
الكريم للايمان بالنبي عليه السلام لايجاب الايمان به بالطريق البرهاني وللاشعار بان
ذلك مستلزم للايمان بالكل لانه مصدق لما بين يديه من الرسل وهم شهداء لصحة
نبوته عليه السلام والمأمور به الايمان بكل ما جاء به عليه السلام فيدخل فيه تصديقه
عليه السلام فيما اخبر به من احوال المنافقين دخولا اوليا هذا هو الذي يقتضيه جزالة
النظم الكريم وقد جوز ان يكون المعنى لا يترككم مختلطين حتى يميز الخبيث من الطيب بان
يكلفكم التكاليف الصعبة التي لا يصبر عليها الا الخلص الذين امتحن الله قلوبهم كبذل
الارواح في الجهاد وانفاق الاموال في سبيل الله فيجعل ذلك عيارا على عقائدكم و
شاهدا بضمائركم حتى يعلم بعضكم ما في قلب بعض بطريق الاستدلال لا من جهة
الوقوف على ذات الصدور فان ذلك مما استأثر الله تعالى به وانت خبير بان الاستدراك
باجتباء الرسل المنبئ عن مزيد مزيتهم وفضل معرفتهم على الخلق اثر بيان قصور
رتبتهم عن الوقوف على خفايا السرائر صريح في ان المراد اظهار تلك السرائر
بطريق الوحي لا بطريق التكليف بما يؤدي الى خروج اسرارهم عن رتبة الخفاء و
اقرب من ذلك حمل الآية الكريمة على ان تكون مسوقة لبيان الحكمة في املائه
تعالى للكفرة اثر بيان شريته لهم فالمعنى ما كان الله ليذر المخلصين على الاختلاط
ابدا كما تركهم كذلك الى الآن لسر يقتضيه بل يفرز عنهم المنافقين ولذلك فعله يومئذ
حيث خلى الكفرة وشأنهم فابرز لهم صورة الغلبة فاظهر في قلوبهم مرض ما فيها
من الخبائث وافتضحوا على رؤس الاشهاد وقيل قال الكافرون ان كان محمد صادقا
فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر فنزلت وان تؤمنوا اي بما ذكر حق الايمان
وتتقوا اي عدم مراعاة حقوقه اي النفاق فلكم بمقابلة ذلك الايمان والتقوى
اجر عظيم لا يبلغ كنهه ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من
فضله هو خيرا لهم بيان لحال البخل وخامة عاقبته وتخطئة لاهله في
توهم خيريته حسب بيان حال الاملاء وايراد ما بخلوا به بعنوان ايتاء الله تعالى
اياه من فضله للمبالغة في بيان سوء صنيعهم فان ذلك من موجبات بذله في سبيله
كما في قوله تعالى وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه والفعل مسند الى الموصول و
المفعول الاول محذوف لدلالة الصلة عليه وضمير الفعل راجع اليه اي لا يحسبن الباخلون
بما آتاهم الله من فضله من غير ان يكون لهم مدخل فيه او استحقاق له هو خيرا لهم
من انفاقه وقيل الفعل مسند الى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم او الى ضمير من يحسب
والمفعول الاول هو الموصول بتقدير مضاف والثاني ما ذكر كما هو كذلك على قراءة
الخطاب اي ولا تحسبن بخل الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم
بل هو شر لهم التنصيص على شريته لهم مع انفهامها من نفي خيريته للمبالغة
في ذلك والتنوين للتفخيم وقوله تعالى سيطوقون ما بخلوا به يوم القيمة بيان

كيفية

لكيفية شريته اي سيلزمون وبال ما بخلوا به الزام الطوق على انه حذف المضاف واقيم
المضاف اليه مقامه للايذان بكمال المناسبة بينهما وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال من رجل لا يؤدي زكوة ماله الا جعل الله له شجاعا في عنقه يوم القيمة وقيل
يجعل ما بخل به من الزكوة حية في عنقه تنهشه من قرنه الى قدمه وتنقر رأسه وتقول انا
مالك ولله وحده لا لاحد غيره استقلالا او اشتراكا ميراث السموات والارض اي
ما يتوارثه اهلهما من مال وغيره من الرسالات التي يتوارثها اهل السموات فما لهم
يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله او انه يرث منهم ما يمسكون ولا ينفقونه في سبيله
تعالى عند هلاكهم وتبقى عليهم الحسرة والندامة والله بما تعملون من المنع والبخل
خبير فيجازيكم على ذلك واظهار الاسم الجليل في موضع الاضمار لتربية المهابة والالتفات
للمبالغة في الوعيد والاشعار باشتداد غضب الرحمن الناشئ من ذكر قبائحهم وقرئ بالياء
على الظاهر لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن اغنياء قالت اليهود لما
سمعوا قوله تعالى من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا وروي انه عليه السلام كتب مع
ابي بكر رضي الله عنه الى يهود بني قينقاع يدعوهم الى الاسلام واقام الصلوة وايتاء الزكوة وان
يقرضوا الله قرضا حسنا فقال فنحاص ان الله فقير حين سألنا القرض فلطمه ابو بكر رضي الله عنه
في وجهه وقال لولا الذي بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك فشكاه الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم وجحد ما قاله فنزلت والجمع مع كون القائل واحدا لرضى الباقين
بذلك والمعنى انه لم يخف عليه تعالى واعد له من العقاب كفاءه والتعبير عنه بالسماع
للايذان بانه من الشناعة والسماجة بحيث لا يرضى قائله بان يسمعه سامع وتوكيد
القسمي للتشديد في التهديد والمبالغة في الوعيد سنكتب ما قالوا اي سنكتب ما قالوه من
العظيمة الشنعاء في صحائف الحفظة او سنحفظه ونثبته في علمنا لا ننساه ولا نهمله كما يثبت
المكتوب والسين للتاكيد اي لن يفوتنا ابدا تدوينه واثباته لكونه في غاية العظم والهول
كيف لا وهو كفر بالله تعالى واستهزاء بالقرآن العظيم والرسول الكريم ولذلك عطف عليه قوله
تعالى وقتلهم الانبياء ايذانا بانهما في العظم اخوان وتنبيها على انه ليس باول جريمة
ارتكبوها بل لهم فيه سوابق وان من اجترأ على قتل الانبياء لم يستبعد منه امثال هذه
العظائم والمراد بقتلهم الانبياء رضاهم بفعل اسلافهم وقوله تعالى بغير حق
متعلق بمحذوف وقع حالا من قتلهم اي كائنا بغير حق في اعتقادهم ايضا كما هو
في نفس الامر وقرئ سيكتب على البناء للفاعل وسيكتب على البناء للمفعول وقتلهم بالرفع
ونقول ذوقوا عذاب الحريق اي وننتقم منهم بعد الكتبة بان نقول لهم ذوقوا
العذاب المحرق كما اذقتم المسلمين الغصص وفيه من المبالغات ما لا يخفى وقرئ
ويقول بالياء ويقال على البناء للمفعول ذلك اشارة الى العذاب المذكور وما فيه من
معنى البعد للدلالة على عظمه وبعد منزلته في الهول والفظاعة وهو مبتدأ خبره
قوله تعالى بما قدمت ايديكم اي بسبب ما اقترفتموه من قتل الانبياء والتفوه
بمثل تلك العظيمة وغيرهما من المعاصي والتعبير عن الانفس بالايدي لما ان عامة افاعيلها
تزاول بهن ومحل ان في قوله تعالى وان الله ليس بظلام للعبيد الرفع على انه
خبر مبتدأ محذوف والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبلها اي والامر
انه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعبير عن ذلك بنفي الظلم مع ان تعذيبهم
بغير ذنب ليس بظلم على ما تقرر من قاعدة اهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغا لبيان
كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه
من الظلم كما يعبر عن ترك الاثابة على الاعمال باضاعتها مع ان الاعمال غير
موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها وصيغة المبالغة لتاكيد هذا المعنى
بابراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب في صورة المبالغة في الظلم وقيل هي لرعاية
جمعية العبيد من قولهم فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده على انها للمبالغة
كما لا كيفا هذا وقد قيل محل ان الجر بالعطف على ما قدمت وسببيته للعذاب

من حيث ان نفي الظلم مستلزم للعدل المقتضي لاثابة المحسن ومعاقبة المسيء وفساده ظاهر
فان ترك التعذيب من مستحقه ليس بظلم شرعًا ولا عقلا حتى ينتهض نفي الظلم سببا للتعذيب
حسبما ذكره القايل في سورة الانفال وقيل سببيته ذنوبهم لعذابهم مقيدة بانضمام
انتفاء ظلمه تعالى اليها اذ لولاه لامكن ان يعذبهم بغير ذنوبهم وانت خبير بان امكان
تعذيبه تعالى العبيد بغير ذنب بل وقوعه لا ينافي كون تعذيب هولاء الكفرة بسبب ذنوبهم
حتى يحتاج الى اعتبار عدمه معه وانما يحتاج الى ذلك ان لو كان المدعى ان جميع
تعذيباته تعالى بسبب ذنوب المعذبين الذين قالوا نصب او رفع على الذم وهم كعب
بن الاشرف ومالك بن صيفي وحيي بن اخطب وفنحاص بن عازوراء ووهب بن
يهودا ان الله عهد الينا اي امرنا في التورية واوصانا ان لا نؤمن لرسول
حتى يأتينا بقربان تأكله النار كما كان عليه امر انبياء بني اسرائيل حيث كان يقرب بالقربان
فيقوم النبي فيدعو فتنزل نار من السماء فتأكله اي تحيله الى طبعها بالاحراق و
هذا من مفترياتهم واباطيلهم فان اكل النار القربان لم يوجب الايمان الا لكونه معجزة
فهو وسائر المعجزات سواء ولما كان محصل كلامهم الباطل ان عدم ايمانهم برسول
الله صلى الله عليه وسلم لعدم اتيانه بما قالوا ولو تحقق الاتيان لتحقق الايمان رد عليهم بقوله
تعالى قل اي تبكيتا لهم واظهارا لكذبهم قد جاءكم رسل كثيرة العدد كبيرة
المقدار من قبلي بالبينات اي بالمعجزات الواضحة وبالذي قلتم بعينه من
القربان الذي تأكله النار فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين اي فيما يدل عليه
كلامكم من انكم تؤمنون لرسول يأتيكم بما اقترحتموه فان زكريا ويحيى وغيرهما
من الانبياء عليهم الصلوة والسلام قد جاؤكم بما قلتم في معجزات اخر فما لكم
لم تؤمنوا لهم حتى اجترأتم على قتلهم فان كذبوك شروع في تسلية رسول الله صلى الله
عليه وسلم اثر ما اوحي عليه ما يحزنه عليه السلام من مقالات الكفرة من المشركين
واليهود وقوله تعالى فقد كذب رسل من قبلك تعليل لجواب الشرط فتسل كذب الرسل ومن
متعلقة بكذب او بمحذوف هو صفة لرسل اي كائنة من قبلك جاؤا بالبينات اي
المعجزات الواضحات لرسل والزبر هو جمع زبور وهو الكتاب المقصور على الحكم
من زبرته اذا احسنته وقيل الزبر المواعظ والزواجر من زبرته اذا زجرته والكتاب
المنير قيل اي التورية والانجيل والزبور والكتاب في عرفان القرآن ما يتضمن الشرائع
والاحكام ولذلك جاء الكتاب والحكمة متعاطفين في عامة المواقع وقرئ وبالزبر
باعادة الجار دلالة على انها مغايرة بالذات للبينات كل نفس ذائقة الموت وعد
ووعيد للمصدق والمكذب وقرئ ذائقة الموت بالتنوين وعدمه كما في قوله و لا
ذكر الله الا قليلا وانما توفون اجوركم اي تعطون اجزية اعمالكم على التمام والكمال
يوم القيمة اي يوم قيامكم من القبور وفي لفظ التوفية اشارة الى بعض اجورهم يصل
اليهم قبله كما ينبئ عنه قوله عليه السلام القبر روضة من رياض الجنة او حفرة من حفر
النيران فمن زحزح عن النار اي بعد عنها يومئذ ونحي والزحزحة في الاصل
تكرير الزح وهو الجذب بعجلة وادخل الجنة فقد فاز بالنجاة ونيل المراد والفوز
الظفر بالبغية وعن النبي صلى الله عليه وسلم من احب ان يزحزح عن النار ويدخل الجنة
فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويؤتى الى الناس ما يحب ان يؤتى
اليه وما الحيوة الدنيا اي لذاتها وزخارفها الا متاع الغرور شبهت
بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويغر حتى يشتريه وهذا لمن آثرها على الآخرة فاما
من طلب بها الآخرة فهي له متاع بلاغ والغرور اما مصدر او جمع غار لتبلون
شروع في تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين عما سيلقونه
من جهة الكفرة من المكاره اثر تسليتهم عما وقع منهم ليوطنوا انفسهم على
احتماله عند وقوعه ويستعدوا للقائه ويقابلوه بحسن الصبر والثبات فان هجوم
الاوجال مما يزلزل اقدام الرجال والاستعداد للكروب مما يهون الخطوب واصل

الابتلاء

الابتلاء الاختبار اي تطلب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لامر يشق عليه غالبا ملابسته او مقارنته
وذلك انما يتصور حقيقة ممن لا وقوف له على عواقب الامور واما من جهة العليم الخبير
فلا يكون الا مجازا من تمكينه للعبد من اختيار احد الامرين او الامور قبل ان يرتب عليه
شيئا هو من مباديه العادية كما مر والجملة جواب قسم محذوف اي والله لتبلون اي لتعاملن
معاملة المختبر ليظهر ما عندكم من الثبات على الحق والاعمال الحسنة وفائدة التوكيد اما
تحقيق معنى الابتلاء تهوينا للخطب واما تحقيق وقوع المبتلى به مبالغة في الحث على ما اريد
منهم من التهيؤ والاستعداد في اموالكم بما يقع فيها من ضروب الآفات المؤدية الى
هلاكها واما انفاقها في سبل الخير مطلقا فلا يليق نظمه في سلك الابتلاء لما انه من
باب الاضعاف لا من قبيل الاتلاف وانفسكم بالقتل والاسر والجراح وما يرد عليها
من اصناف المتاعب والمخاوف والشدائد ونحو ذلك وتقديم الاموال لكثرتها ووقوع
الهلكة فيها ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم اي من قبل ايتائكم القرآن
وهم اليهود والنصارى عبر عنهم بذلك للاشعار بمدار الشقاق والايذان بان بعض
ما يسمعونه منهم مستند على زعمهم الى الكتاب كما في قوله تعالى ان الله عهد الينا الخ والتصريح
بالقبلية لتاكيد الاشعار وتقوية المدار فان قدم نزول كتابهم مما يؤيد تمسكهم
به ومن الذين اشركوا اذى كثيرا من الطعن في الدين الحنيف والقدح في احكام الشرع
الشريف وصد من اراد ان يؤمن وتخطئة من امن وما كان من كعب بن الاشرف
واضرابه من هجاء المؤمنين وتحريض المشركين على مضارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو
ذلك مما لا خير فيه وان تصبروا اي على تلك الشدائد والبلوى عند ورودها وتقابلوها
بحسن التحمل وتتقوا اي تتبتلوا الى الله تعالى بالكلية معرضين عما سواه بالمرة بحيث
تساوى عندكم وصول المحبوب ولقاء المكروه فان ذلك اشارة الى الصبر والتقوى
وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهما وبعد منزلتهما وتوحيد حرف الخطاب
اما باعتبار كل واحد من المخاطبين واما لان المراد بالخطاب مجرد التنبيه من غير ملاحظة
خصوصية احوال المخاطبين من عزم الامور من معزوماتها التي يتنافس فيها
المتنافسون اي مما يجب ان يعزم عليه كل احد لما فيه من كمال المزية والشرف او مما عزم
الله تعالى عليه وامر به وبالغ فيه يعني ان ذلك عزمة من عزمات الله تعالى لا بد ان تصبروا وتتقوا
والجملة تعليل لجواب الشرط واقع موقعه كانه قيل وان تصبروا وتتقوا فهو خير لكم او فاعلوا
فقد احسنتم او فقد اصبتم فان ذلك الخ ويجوز ان يكون ذلك اشارة الى صبر المخاطبين
وتقواهم فالجملة ح جواب الشرط وفي ابراز الامر بالصبر والتقوى في صورة الشرط
من اظهار كمال اللطف بالعباد ما لا يخفى واذ اخذ الله كلام مستانف سيق
لبيان بعض اذياتهم وهو كتمانهم ما في كتابهم من شواهد نبوته صلى الله عليه وسلم
وغيرها واذ منصوب على المفعولية بمضمر امر به النبي صلى الله عليه وسلم خاصة بطريق
تجريد الخطاب اثر الخطاب الشامل له عليه السلام وللمؤمنين لكون مضمونه من الوظائف الخاصة
به عليه السلام وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع انها
المقصودة بالذات للمبالغة في ايجاب ذكرها على ما مر بيانه في تفسير قوله تعالى واذ قال ربك
للملائكة اني جاعل الخ اي واذكر وقت اخذه تعالى ميثاق الذين اوتوا الكتاب وهم
علماء اليهود والنصارى ذكروا بعنوان ايتاء الكتاب مبالغة في تقبيح حالهم لتبيننه
حكاية لما خوطبوا به والضمير للكتاب وهو جواب لقسم ينبئ عنه اخذ الميثاق كانه قيل لهم
بالله لتبيننه للناس وتظهرن جميع ما فيه من الاحكام والاخبار التي من جملتها
امر نبوته صلى الله عليه وسلم وهو المقصود بالحكاية وقرئ بالياء لانهم غيب ولا تكتمونه
عطف على الجواب وانما لم يؤكد بالنون لكونه منفيا كما في قولك والله لا يقوم زيد
قيل الكنى بالتاكيد في الاول لانه تاكيد له وقيل هو حال من ضمير المخاطبين اما على اضمار
مبتداء بعد الواو وانتم لا تكتمونه واما على رأي من جوز دخول الواو على المضارع
المنفي ووقوعه حالا اي لتبيننه غير كاتمين والنهي عن الكتمان بعد الامر بالبيان اما

للمبالغة في ايجاب المأمور به واما لان المراد بالبيان المأمور به ذكر الآيات الناطقة بنبوته عم
وبالكتمان المنهي عنه القاء التأويلات الزائغة والشبهات الباطلة وقرئ بالياء كما قبله
فنبذوه النبذ الرمي والابعاد اي طرحوا ما اخذ منهم من الميثاق الموثق بفنون
التأكيد والقوة وراء ظهورهم ولم يراعوه ولم يلتفتوا اليه اصلا فان نبذ
الشيء وراء الظهر مثل في الاستهانة به والاعراض عنه بالكلية كما ان جعله نصب العين
علم في كمال العناية به وفيه من الدلالة على تحتم بيان الحق على علماء الدين واظهار
ما علموه من العلم للناس اجمعين وحرمة كتمانه لغرض من الاغراض الفاسدة او طمع
في عرض من الاعراض الفانية الكاسدة ما لا يخفى وعن النبي صلى الله عليه وسلم من كتم علما
من اهله الجم بلجام من النار وعن طاوس انه قال لوهب بن منبه اني ارى الله سوف
يعذبك بهذه الكتب وقال والله لو كنت نبيا فكتمت العلم كما تكتمه لرأيت ان الله سيعذبك
بهذه الكتب وعن محمد بن كعب لا يحل لاحد من العلماء ان يسكت على علمه ولا يحل لجاهل ان يسكت
على جهله حتى يسأل وعن علي رضه ما اخذ الله على اهل الجهل ان يتعلموا حتى اخذ على اهل العلم
ان يعلموا واشتروا به اي بالكتاب الذي امروا ببيانه ونهوا عن كتمانه فان ذكر نبذ
الميثاق يدل على ذلك دلالة واضحة وايقاع الفعل على الكل مع ان المراد به كتم بعضه كذكر
نبوته عليه السلام ونحوها لما ان ذلك الكل اذ به يتم الكتاب كما ان رفض بعض اركان
الصلوة رفض لكلها او بمنزلة كتم الكل من حيث انهما سيان في الشناعة واستجرار العقاب
كما في قوله تعالى وان لم تفعل فما بلغت رسالته والاشتراء مستعار لاستبدال متاع الدنيا
بما كتموا اي تركوا ما امروا به واخذوا بدله ثمنا قليلا اي شيئا تافها حقيرا من حطام
الدنيا واعراضها وفي تصوير هذه المعاملة بعقد المعاوضة لا سيما بالاشتراء المؤذن بالرغبة
في المأخوذ والاعراض عن المعطى والتعبير عن المشترى الذي هو العمدة في العقد والمقصود
بالمعاملة بالثمن الذي شانه ان يكون وسيلة اليه وجعل الكتاب الذي حقه ان يتنافس
فيه المتنافسون مصحوبا بالباء الداخلة على الآلات والوسائل من نهاية الجزالة والدلالة
على كمال فظاعة حالهم وغاية قبحها بايثارهم الدنيء الحقير على الشريف الخطير وتعكيسهم
بجعلهم المقصد الاصلي وسيلة والوسيلة مقصدا ما لا يخفى جلالة شانه ورفعة
مكانه فبئس ما يشترون ما نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس ويشترون صفته
والمخصوص بالذم محذوف اي بئس شيئا يشترونه ذلك الثمن لا تحسبن الخطاب
لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل احد ممن يصلح له الذين يفرحون بما اتوا
اي بما فعلوا كما في قوله تعالى انه كان وعده مأتيا ويدل عليه قراءة ابي يفرحون بما فعلوا
وقرئ بما آتوا بمعنى اعطوا وبما اوتوا اي اوتوه من العلم التورية قال ابن عباس رضي الله عنهما
هم اليهود حرفوا التورية وفرحوا بذلك واحبوا ان يوصفوا بالديانة والفضل
وروي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شيء مما في التورية فكتموا
الحق واخبروه بخلافه واروه انهم صدقوه واستحمدوا اليه وفرحوا بما فعلوا وقيل
فرحوا بكتمان النصوص الناطقة بنبوته عليه السلام واحبوا بان يحمدوا بانهم
متبعون ملة ابراهيم عليه السلام فالموصول عبارة عن المذكورين او عن مشاهيرهم
موضوع موضع ضميرهم والجملة مسوقة لبيان ما يستتبعه اعمالهم المحكية من العقاب
الاخروي اثر بيان قباحتها وقد ادمج فيها بيان بعض آخر من شنائعهم وهو اصرارهم
على ما هم عليه من القبائح وفرحهم بذلك ومحبتهم بان يوصفوا بما ليس فيهم
من الاوصاف الجميلة وقد نظم ذلك في سلك الصلة التي حقها ان تكون معلومة
الثبوت للموصول عند المخاطب ايذانا بشهرة اتصافهم بذلك وقيل هم قوم
تخلفوا عن الغزو ثم اعتذروا بانهم رأوا المصلحة في ذلك واستحمدوا به وقيل
هم المنافقون كافة وهو الانسب بظاهر قوله تعالى ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا
لشهرة انهم كانوا يفرحون بما فعلوا من اظهار الايمان وقلوبهم مطمئنة بالكفر
ويستحمدون الى المسلمين بالايمان وهم عن فعله بالف منزل وكانوا يظهرون محبة

المؤمنين

المؤمنين وهم في الغاية القاصية من العداوة فالموصول عبارة عن طائفة معهودة من
المذكورين وغيرهم فان اكثر المنافقين كانوا من اليهود ولعل الاولى اجراء الموصول على عمومه
شاملا لكل من يأتي من الحسنات فيفرح به فرح اعجاب ويود ان يمدحه الناس بما هو عار
منه من الفضائل منتظما للمعهودين انتظاما اوليا واياما كان فهو مفعول اول
لتحسبن وقوله تعالى فلا تحسبنهم تأكيد له والفاء زائدة والمفعول الثاني قوله تعالى
بمفازة من العذاب اي ملتبسين بنجاة منه على ان المفازة مصدر ميمي ولا يضر
تأنيثها بالتاء لما انها مبنية عليها وليست للدلالة على الوحدة كما في قوله فلولا رجاء
النصر منك ورهبة عقابك قد كان لنا بالموارد ولا سبيل الى جعلها اسم مكان على
ان الجار متعلق بمحذوف وقع صفة لها اي بمفازة كائنة من العذاب لانها ليست من العذاب
وتقدير فعل خاص يصح به المعنى اي بمفازة منجية من العذاب مع كونه خلاف الاصل
تعسف مستغنى عنه وقرئ بضم الباء في الفعلين على ان الخطاب شامل للمؤمنين ايضا
وقرئ بياء الغيبة وفتح الباء فيهما على ان الفعل له عم او لكل احد ممن يتأتى منه الحسبان
ومفعولاه كما ذكر وقرئ بضم الباء في الثاني فقط على ان الفعل للموصول والمفعول الاول
محذوف لكونه عين الفاعل والثاني بمفازة اي لا يحسبن الذين يفرحون انفسهم
فائزين وقوله تعالى فلا يحسبنهم تأكيد للاول والفاء زائدة كما مر ويجوز ان
يجعل الفعل الاول على حذف المفعولين معا اختصارا لدلالة مفعولي الثاني عليهما
على عكس ما في قوله باي كتاب ام باية سنة ترى حبهم عارا علي وتحسب حيث حذف فيه
مفعولا الثاني لدلالة مفعولي الاول عليهما او على ان الفعل الاول للرسول صلى الله
عليه وسلم او لكل حاسب ومفعوله الاول الموصول والثاني محذوف لدلالة
مفعول الفعل الثاني عليه والفعل الثاني مسند الى ضمير الموصول والفاء للعطف لظهور
تفرع عدم حسبانهم على عدم حسبانه عم ومفعولاه الضمير المنصوب وقوله تعالى
بمفازة وتصدير الوعيد بنهيهم عن الحسبان المذكور للتنبيه على ان بطلان آرائهم
الركيكة وقطع اطماعهم الفارغة حيث كانوا يزعمون انهم ينجون بما صنعوا من
عذاب الآخرة كما نجوا به من المؤاخذة الدنيوية وعليه كان مبنى فرحهم واما
نهيه صلى الله عليه وسلم فللتعريض بحسبانهم المذكور لا لاحتمال وقوع الحسبان
من جهته عليه السلام ولهم عذاب اليم بعدما اشير الى عدم نجاتهم من
مطلق العذاب حقق ان لهم فردا منه لا غاية له في المدة والشدة كما يلوح به الجملة
الاسمية والتنكير التفخيمي والوصف ولله خاصة ملك السموات والارض اي
السلطان القاهر فيهما بحيث يتصرف فيهما وفيما فيهما كيف يشاء ويريد ايجادا او
اعداما واحياء واماتة تعذيبا واثابة من غير ان يكون لغيره شائبة دخل في شيء من
ذلك بوجه من الوجوه فالجملة مقررة لما قبلها وقوله تعالى والله على كل شيء قدير
تقرير لاختصاص ملك العالم الجسماني المعبر عنه بقطريه به سبحانه وتعالى فان كونه
تعالى قادرا على الكل بحيث لا يشذ من ملكوته شيء من الاشياء يستدعي كون ما سواه
كائنا ما كان مقدورا له ومن اختصاص القدرة به تعالى فاستحال ان يشاركه شيء من
الاشياء في القدرة على شيء من الاشياء فضلا عن المشاركة في ملك السموات والارض
وفيه تقرير لما مر من ثبوت العذاب الاليم لهم وعدم نجاتهم منه اثر تقرير واظهار
الاسم الجليل في موقع الاضمار لتربية المهابة والاشعار بمناط الحكم فان شمول
القدرة لجميع الاشياء من احكام الالوهية مع ما فيه من الاشعار باستقلال كل من
الجملتين بالتقرير ان في خلق السموات جملة مستأنفة سيقت لتقرير ما سبق من اختصاصه
تعالى بالسلطان القاهر والقدرة التامة صدرت بكلمات التأكيد اعتناء بتحقيق مضمونها
اي في انشائها على ما هي عليه في ذواتها وصفاتها من الامور التي يحار في فهم
اجلاها العقول والارض على ما هي عليه ذاتا وصفة واختلاف الليل و
النهار اي في تعاقبهما في وجه الارض وكون كل منهما خلفة للآخر بحسب طلوع

الشمس وغروبها التابعين لحركات السموات وسكون الارض وفي تفاوتهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر وانتقاصه بازدياده باختلاف حال الشمس بالنسبة الينا قرباً وبعداً بحسب الازمنة او في اختلافهما بحسب الامكنة اما في الطول والقصر فان البلاد القريبة من القطب الشمالي ايامها الصيفية اطول ولياليها الصيفية اقصر من ايام البلاد البعيدة منه ولياليها واما في نفسها فان كرية الارض تقتضي ان تكون بعض الاوقات في بعض الاماكن ليلاً وفي مقابله نهاراً وفي بعضها صباحاً وفي بعضها ظهراً او عصراً وغير ذلك والليل قيل انه اسم جنس يفرق بين واحده وجمعه بالتاء كتمر وتمرة والليالي جمع جمع والصحيح انه مفرد ولا يحفظ له جمع والليالي جمع ليلة وهو جمع غريب كانهم توهموا انها ليلاة كما في كيكة وكياكي كانها جمع كيكاة والنهار اسم لما بين طلوع الفجر وغروب الشمس قال الراغب وقال ابن فارس هو ضياء ما بينهما وتقديم الليل على النهار اما لانه الاصل فان غرر الشهور تظهر في الليالي واما لتقدمه في الخلقة حسبما ينبئ عنه قوله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار اي نزيله عنه فيخلفه لآيات اسم ان دخلته اللام لتأخره عن خبرها والتنكير للتفخيم كما وكيفا اي لآيات كثيرة عظيمة لا يقادر قدرها دالة على تعاجيب شؤونه التي من جملتها ما مر من اختصاص الملك العظيم والقدرة التامة به سبحانه وعدم التعرض لما ذكر في سورة البقرة من الفلك والمطر وتصريف الرياح والسحاب لما ان المقصود ههنا بيان استبداده تعالى بما ذكر من الملك والقدرة فاكتفي بمعظم الشواهد الدالة على ذلك واما هنالك فقد قصد في ضمن بيان اختصاصه تعالى بالالوهية بيان اتصافه تعالى بالرحمة الواسعة فنظمت دلائل الفضل والرحمة في سلك دلائل التوحيد فان ما فصل هنالك من آيات رحمته تعالى كما انه من آيات الالوهية ووحدته لاولي الالباب اي لذوي العقول المجلوة الخالصة عن شوائب الحس والوهم المتجردين عن العلائق النفسانية المتخلصين عن العوائق الظلمانية المتأملين في احوال الحقائق واحكام النعوت المراقبين في اطوار الملك واسرار الملكوت المتفكرين في بدائع صنائع الملك الخلاق المتدبرين في روائع حكمه المودعة في الانفس والآفاق الناظرين الى العالم بعين الاعتبار والشهود المتفحصين عن حقيقة سر الحق في كل موجود مثابرين على مراقبته وذكراه غير ملتفتين الى شيء مما سواه الا من حيث انه مرآة لمشاهدة جماله وآلة لملاحظة كمال صفاته فان كل ما ظهر في مظاهر الابداع وحضر في محاضر التكوين والاختراع سبيل سوي الى عالم التوحيد ودليل قوي على الصانع المجيد ناطق بآيات قدرته فهل من سامع واع ومخبر بآيات علمه وحكمته فهل له من داع يكلم الناس على قدر عقولهم ويدرج جوابهم بحسب مقولهم يحاور تارة باوضح عبارة ويلوح اخرى بالطف اشارة مراعياً في الجواب ايمائهم وتصريحهم وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم فتأمل في هذه الشؤون والاسرار ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار وعن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هل لك يا عائشة ان تأذني لي الليلة في عبادة ربي فقلت يا رسول الله اني لاحب قربك واحب هواك فقد اذنت لك فقام الى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء ثم قام يصلي فقرأ من القرآن وجعل يبكي حتى بلغ الدموع حقويه ثم جلس فحمد الله تعالى واثنى عليه وجعل يبكي ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلت الارض فاتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي فقال له يا رسول الله اتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال يا بلال افلا اكون عبداً شكوراً ثم قال ومالي لا ابكي وقد انزل الله تعالى في هذه الليلة ان في خلق السموات والارض الخ ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها وروي ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأمل فيها وعن علي رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا قام من الليل يتسوك ثم ينظر الى السماء ثم يقول ان في خلق السموات والارض الخ الذين يذكرون الله الموصول اما موصول باولي الالباب مجرور على انه نعت كاشف له بما في حيز الصلة واما مفصول عنه مرفوع

او منصوب

او منصوب على المدح او مرفوع على انه خبر لمبتدأ محذوف وقيل هو موضوع على الابتداء والخبر هو القول المقدر قبل قوله تعالى ربنا وفيه من تفكيك النظم الجليل ما لا يخفى واياما كان فقد اشير باختيار صلته ان المراد بهم الذين لا يغفلون عنه تعالى في عامة اوقاتهم لاطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم في مراقبته لما ايقنوا بان كل ما سواه فائض منه وعائد اليه فلا يشاهدون حالاً من الاحوال في انفسهم واليه اشير بقوله عز وجل قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ولا في الآفاق واليه اشير بما بعده الا وهم يعاينون في ذلك شأناً من شؤونه تعالى فالمراد به ذكره تعالى مطلقاً سواء كان ذلك من حيث الذات او من حيث الصفات والافعال وسواء قارنه الذكر اللساني او لا واما ما يحكى عن ابن عمر وعروة بن الزبير وجماعة رضوان الله عليهم اجمعين من انهم خرجوا يوم العيد الى المصلى فجعلوا يذكرون الله تعالى فقال بعضهم اما قال الله تعالى يذكرون الله قياماً وقعوداً فقاموا يذكرون الله تعالى على اقدامهم فليس مرادهم به تفسير الآية وتحقيق مصداقها على التعيين وانما ارادوا به التبرك بنوع موافقة لها في ضمن الاتيان بفرد من افراد مدلولها وانما حمل الذكر على الصلوة في هذه الاحوال حسب الاستطاعة كما قال عليه السلام لعمران ابن الحصين صل قائماً فان لم تستطع فقاعداً فان لم تستطع فعلى جنب تومئ ايماء فمما لا يساعده سياق النظم الجليل ولا سياقه والقيام والقعود جمع قائم وقاعد كنيام ورقود جمع نائم وراقد وانتصابهما على الحالية من ضمير يذكرون اي يذكرونه قائمين وقاعدين وقوله تعالى وعلى جنوبهم متعلق بمحذوف معطوف على الحالين اي وكائنين على جنوبهم اي مضطجعين والمراد تعميم الذكر للاوقات كما مر وتخصيص الاحوال المذكورة بالذكر ليس لتخصيص الذكر بها بل لانها الاحوال المعهودة التي لا يخلو عنها الانسان غالباً ويتفكرون في خلق السموات والارض عطف على يذكرون منتظم معه في حيز الصلة فلا محل له من الاعراب وقيل محله النصب على انه معطوف على الاحوال السابقة وليس بظاهر وهو بيان لتفكرهم في افعاله سبحانه اثر بيان تفكرهم في ذاته تعالى على الاطلاق واشارة الى نتيجة التي يؤدي اليها من معرفة احوال المعاد حسبما نطقت به السنة الرسل وآيات الكتب كما ان تلك آيات تشريعية هادية للخلق الى معرفته تعالى ووجوب طاعته كذلك المخلوقات آيات تكوينية مرشدة لهم الى ذلك فالاولى منبهات لهم على الثانية وداع الى الاستشهاد بها كهذه الآية الكريمة ونحوها مما ورد في مواقع غير محصورة من التنزيل والثانية مؤيدات للاولى وشواهد دالة على صحة مضمونها وحقية مكنونها فان من تأمل في تضاعيف خلق العالم على هذا النمط البديع قضى باتصاف خالقه تعالى بجميع ما نطقت به الرسل والكتب من الوجوب الذاتي والوحدة الذاتية والملك القاهر والقدرة التامة والعلم الشامل والحكمة البالغة وغير ذلك من صفات الكمال وحكم بان من قدر على انشائه بلا مثال يحتذيه او قانون ينتحيه فهو على اعادته بالبعث اقدر وحكم بان ذلك ليس الا لحكمة باهرة جزاء المكلفين بحسب استحقاقهم المنوط باعمالهم اي علومهم واعتقاداتهم التابعة لانظارهم فيما نصب لهم من الحجج والدلائل والامارات والمخائل وسائر اعمالهم المتفرعة على ذلك فان العمل غير مختص بعمل الجوارح بل متناول بالعمل القلبي بل هو اشرف افراده لما ان لكل من القلب والقالب عملاً خاصاً به ومن قضية كون الاول اشرف من الثاني كون عمله ايضاً اشرف من عمله كيف لا ولا عمل ابرون معرفته تعالى التي هي اول الواجبات على العباد والغاية القصوى من الخلق على ما نطق به قوله عز وجل وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون اي ليعرفون كما اعرب عنه قوله عليه السلام كنت كنزاً مخفياً فاحببت ان اعرف فخلقت الخلق لاعرف وانما طريقها النظري التفكر فيما ذكر من شؤونه تعالى وقد روي عنه عليه السلام لا تفضلوني على يونس بن متى فانه كان يرفع له كل يوم مثل عمل اهل الارض قالوا وانما كان ذلك التفكر في امر الله تعالى ولذلك قال عليه السلام لا عبادة مثل التفكر وقد عرفت انه مستتبع لتحقيق

مما جاءت به الشريعة الحقة والآثار المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى وهو الذي
خلق السموات والارض في ستة ايام وكان عرشه على الماء ليبلوكم ايكم احسن عملا بقوله
ايكم احسن عملا واورع عن محارم الله تعالى فان التورع عن محارمه سبحانه
موقوف على معرفة الحلال والحرام المنوط بالكتاب والسنة في تصادق الآيات التكوينية
وتوافق الادلة السمعية وهو السر في نظم ما حكي عن المتفكرين من الامور المستدعية
للايمان بالشريعة في سلك نتيجة تفكرهم كما ستقف عليه واظهار خلق السموات والارض
مع كفاية الاضمار لابراز كمال العناية ببيان حالهم وللايذان بكون تفكرهم على وجه
التحقيق والتفصيل وعدم التعرض لادراج اختلاف الملوين في سلك التفكر مع
ذكره فيما سلف اما للايذان بظهور اندراجه فيه لما ان ذلك من الاحوال التابعة
لاحوال السموات والارض كما اشير اليه واما للاشعار بمسارعتهم الى الحكم بالنتيجة بمجرد
تفكرهم في بعض الآيات من غير حاجة الى بعض آخر منها في اثبات المطلوب والخلق
مصدر على حاله اي يتفكرون في انشائهما وابداعهما بما فيهما من عجائب المصنوعات
وقيل بمعنى المخلوق على ان الاضافة بمعنى في اي يتفكرون فيما خلق فيهما اعم من ان يكون
بطريق الجزئية منهما او بطريق الحلول فيهما او على انها بيانية ربنا ما خلقت هذا
باطلا كلمة هذا اشارة الى السموات والارض متضمنة لضرب من التعظيم كما في قوله تعالى
ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم والتذكير لما انهما باعتبار تعلق الخلق بهما في معنى المخلوق
والى الخلق على تقدير كونه بمعنى المخلوق وباطلا اما صفة لمصدر مؤكد محذوف او حال من
المفعول به اي ما خلقت هذا المخلوق البديع العظيم الشان عبثا عاريا عن الحكمة خاليا
عن المصلحة كما ينبئ عنه اوضاع الغافلين عن ذلك المعرضين عن التفكر فيه بل منتظما
لحكم جليلة ومصالح عظيمة من جملتها ان يكون مدارا لمعايش العباد ومنارا يرشدهم
الى معرفة احوال المبدأ والمعاد حسبما افصحت عنه الرسل والكتب الالهية كما تحققته
مفصلا والجملة بتمامها في حيز النصب بقول مقدر هو على تقدير كون الموصول نعتا لاولي الالباب
استئناف مبين لنتيجة التفكر ومدلول الآيات ناشئ مما سبق فان النفس عند سماع تخصيص
الآيات المنصوبة في خلق العالم باولي الالباب ثم وصفهم بذكر الله تعالى والتفكر في محال الآيات
تبقى مترقبة لما يظهر منهم من آثارها واحكامها كانه قيل فماذا يكون عند تفكرهم
في ذلك وماذا يترتب عليه من النتيجة فقيل يقولون كيت وكيت مما ينبئ عن وقوفهم على سر
الخلق المؤدي الى معرفة صدق الرسل وحقية الكتب الناطقة بتفاصيل الاحكام الشرعية
على التفصيل الذي وقفت عليه هذا واما جعله حالا من المستكن في الفعل كما اطبق عليه
الجمهور فمما لا يساعده جزالة النظم الكريم لما ان ما في حيز الصلة وما هو قيد له حقه
ان يكون من مبادي الحكم الذي اجري على الموصول ودواعي ثبوته له كذكرهم الله عز وجل
في عامة اوقاتهم وتفكرهم في خلق السموات والارض فانهما مما يؤدي اجتلاء تلك
الآيات والاستدلال بها على المطلوب ولا ريب في ان قولهم ذلك ليس من مبادي الاستدلال
المذكور بل من نتائجه المترتبة عليه فاعتباره قيدا لما في حيز الصلة مما لا يليق بشان التنزيل الجليل
نعم هو حال من ذلك على تقدير كون الموصول مرفوعا او منصوبا على المدح او مرفوعا على انه
خبر لمبتدأ محذوف اذ لا اشتباه في ان قولهم ذلك من مبادي مدحهم ومحاسن مناقبهم
وفي ابراز هذا القول في معرض الحال دون الخبر اشعار بمقارنته لتفكرهم من غير تلعثم وتردد
في ذلك قوله تعالى سبحانك اي تنزيها لك مما لا يليق بك من الامور التي من جملتها
خلق ما لا حكمة فيه اعتراض مؤكد لمضمون ما قبله وممهد لما بعده من قوله تعالى فقنا عذاب
النار فان معرفة سر خلق العالم وما فيه من الحكمة البالغة والغاية الحميدة والقيام بما يقتضيه
من الاعمال الصالحة وتنزيه الصانع تعالى عن العبث من دواعي الاستعاذة مما يحيق بالمخلين
بذلك من وجهين احدهما الوقوف على تحقق العذاب فالفاء لترتيب الدعاء على ما ذكر والثاني
الاستعداد لقبول الدعاء فالفاء لترتيب المدعو اعني الوقاية على ذلك كانه قيل واذ قد
عرفنا سرك واطعنا امرك ونزهناك عما لا ينبغي فقنا عذاب النار الذي هو جزاء

الذين لا يعرفون ذلك ربنا انك من تدخل النار فقد اخزيته مبالغة في استدعاء الوقاية
وبيان لسببه وتصدير الجملة بالنداء للمبالغة في التضرع والجؤار وتأكيدها لاظهار كمال
اليقين بمضمونها وللايذان بشدة الخوف واظهار النار في موضع الاضمار لتهويل امرها
وذكر الادخال في مورد العذاب لتعيين كيفيته وتبيين غاية فظاعته قال الواحدي للاخزاء
معان متقاربة يقال اخزاه الله اي ابعده وقيل اهانه وقيل اهلكه وقيل فضحه قال ابن
الانباري الخزي لغة الهلاك بتلف او بانقطاع حجة او بوقوع في بلاء والمعنى فقد
اخزيته خزيا لا غاية وراءه كقولهم من ادرك مرعى الصمان فقد ادرك اي المرعى
الذي لا مرعى بعده وفيه من الاشعار بفظاعة العذاب الروحاني ما لا يخفى وقوله تعالى
وما للظالمين من انصار تذييل لاظهار نهاية فظاعة حالهم ببيان خلود
عذابهم بفقدان من ينصرهم ويقوم بتخليصهم وغرضهم تأكيد الاستدعاء ووضع
الظالمين موضع ضمير المدخلين لذمهم وللاشعار بتعليل دخولهم النار بظلمهم
ووضعهم الاشياء في غير مواضعها وجمع الانصار بالنظر الى جمع الظالمين اي ما لظالم
من الظالمين نصير من الانصار والمراد به من ينصر بالمدافعة والقهر وليس في الآية دلالة
على نفي الشفاعة على ان المراد بالظالمين هم الكفار ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي
للايمان حكاية لدعاء آخر لهم مبني على تأملهم في الدليل السمعي بعد حكاية دعائهم
السابق المبني على التفكر في الادلة العقلية وتصدير مقدمة الدعاء بالنداء لاظهار كمال
الضراعة والابتهال والتأكيد للايذان بصدور المقال عنهم بوفور الرغبة وكمال
النشاط والمراد بالنداء الدعاء وتعديتهما بالى لتضمنهما معنى الانتهاء وباللام لاشتمالها
على معنى الاختصاص والمراد بالمنادي الرسول صلى الله عليه وسلم وتنوينه للتفخيم وايثاره
على الداعي للدلالة على كمال اعتنائه بشان الدعوة وتبليغها الى الداني والقاصي لما فيه
من الايذان برفع الصوت وينادي صفة لمناديا عند الجمهور كما في قولك سمعت رجلا
يقول كيت وكيت ولو كان معرفة لكان حالا منه كما اذا قلت زيدا يقول الخ ومفعول ثان
لسمعنا عند الفارسي واتباعه وهذا اسلوب بديع يصار اليه للمبالغة في تحقيق السماع
والايذان بوقوعه بلا واسطة عند صدور المسموع عن المتكلم وللتوسل به الى تفصيل
واستحضار صورته وقد اختص النظم الكريم بمزية زائدة على ذلك حيث عبر عن
المسموع منه بالمنادي ثم وصف بالنداء للايمان على طريقة قولك سمعت متكلما يتكلم
بالحكمة لما ان التفسير بعد الابهام والتقييد بعد الاطلاق اوقع عند النفس وآخذ
بالقبول وقيل المنادي القرآن العظيم ان آمنوا اي آمنوا على ان ان تفسيرية
او بان آمنوا على انها مصدرية بربكم بمالككم ومتولي اموركم ومبلغكم الى الكمال
وفي اطلاق الايمان ثم تقييده تفخيم لشانه فآمنا اي فامتثلنا بامره واجبنا نداءه
ربنا تكرير للتضرع واظهار لكمال الخضوع وعرض للاعتراف بربوبيته مع الايمان
به والفاء في قوله تعالى فاغفر لنا لترتيب المغفرة او الدعاء بها على الايمان به تعالى والاقرار
بربوبيته فان ذلك من دواعي المغفرة والدعاء بها ذنوبنا اي كبائرنا فان الايمان
يجب ما قبله وكفر عنا سيئاتنا اي صغائرنا فانها مكفرة عن مجتنب الكبائر وتوفنا
مع الابرار اي مخصوصين بصحبتهم مغتنمين بجوارهم معدودين من زمرتهم وفيه
اشعار بانهم كانوا يحبون لقاء الله من احب لقاء الله احب الله لقاءه والابرار جمع بار او
بر كاصحاب وارباب ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك حكاية لدعاء آخر لهم
مسبوق بما قبله معطوف عليه لتأخر التحلية عن التخلية وتكرير النداء لما مر مكررا
والمراد بالموعود الثواب وعلى اما متعلقة بالوعد كما في قولك وعد الله الجنة على الطاعة
اي وعدتنا على تصديق رسلك او بمحذوف وقع صفة لمصدر مؤكد محذوف اي
وعدتنا وعدا كائنا على السنة رسلك وقيل التقدير منزلا على رسلك او محمولا
على رسلك ولا يخفى ان تقدير الافعال الخاصة في مثل هذه المواقع تعسف وجمع الرسل
مع ان المنادي هو الرسول صلى الله عليه وسلم وحده لما ان دعوته عم لا سيما في باب

التوحيد وما اجمع الكل من الشرائع منطوية على دعوة الكل فتصديقه تصديق لهم عليهم
السلام كيف لا وقد اخذ منهم الميثاق بالايمان عليه السلام لقوله تعالى واذ اخذ الله ميثاق
النبيين لما آتيتكم من كتاب الآية وكذا الموعود على لسانه من الثواب موعود على السنة الكل
وايثار الجمع لاظهار كمال الثقة بانجاز الموعود بناء على كثرة الشهود ولا تخزنا يوم القيمة
قصدوا بذلك تذكير وعده تعالى بقوله يوم لا يخزي الله النبي والذين امنوا معه مظهرين انهم
ممن آمن معه رجاء للانتظام في سلكهم يومئذ وقوله تعالى انك لا تخلف الميعاد
تعليل لتحقيق ما نظموا في سلك الدعاء وهذه الدعوة او في تضاعيفها من كمال الضراعة
والابتهال ليست لخوفهم من اخلاف الميعاد بل لخوفهم من ان لا يكونوا من جملة الموعودين
بتغير الحال وسوء الخاتمة والمال فمرجعها الى الدعاء بالتثبيت او للمبالغة في التعبد و
الخشوع والميعاد الوعد وعن جعفر الصادق وعن ابن عباس رضي الله عنهما انه البعث بعد الموت
وفي الآثار من حزبه امر فقال ربنا خمس مرات انجاه الله مما يخاف واعطاه ما اراد وقرأ
هذه الآية فاستجاب لهم ربهم الاستجابة بمعنى الاجابة وقال تاج القراء الاجابة
عامة والاستجابة خاصة باعطاء المسؤل ويتعدى باللام وبنفسها كما في قوله فلم
يستجبه عند ذلك مجيب وهو عطف على الاستيناف المقدر فيما سلف مترتب على ما في حيزه من الادعية
كما ان قوله عز وجل ثم قيل للذين ظلموا الخ عطف على قيل المقدر قبل الآن اي قيل لهم
الآن آمنتم به ثم قيل الآية وكما ان قوله تعالى في سورة الاعراف ونطبع على قلوبهم معطوف
على ما دل عليه معنى اولم يهد الخ كانه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع الخ ولا ضير
في اختلافهما صيغة لما ان صيغة المستقبل هناك للدلالة على الاستمرار المناسب لمقام الدعاء
وصيغة الماضي ههنا للايذان بتحقق الاستجابة وتقررها كما لا ضير في الاختلاف بين قوله
تعالى اذ تستغيثون ربكم وبين ما عطف عليه من قوله تعالى فاستجاب لكم كما سيأتي ويجوز
ان يكون معطوفا على مضمر ينساق اليه الذهن اي دعوا بهذه الادعية فاستجاب الخ واما على
تقدير كون المقدر حالا فهو عطف على يتفكرون باعتبار مقارنته لما وقع حالا من فاعله اعني
قوله ربنا ربنا الخ فان الاستجابة مترتبة على دعواتهم لا على مجرد تفكرهم وحيث كانت هي من
اوصافهم الجميلة المترتبة على اعمالهم بالآخرة استحقت الانتظام في سلك محاسنهم المعدودة
في اثناء مدحهم واما على تقدير كون الموصول نعتا لاولي الالباب فلا مساغ لهذا العطف
اصلا لما عرفت من ان حق ما في حيز الصلة ان يكون من مبادي جريان الحكم على الموصول وقد
عرفت ان دعواتهم السابقة ليست كذلك فاين الاستجابة المتاخرة عنها وفي التعرض لعنوان
الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضميرهم من تشريفهم واظهار اللطف
بهم ما لا يخفى اني لا اضيع عمل عامل منكم اي باني وهكذا قرأ ابي رضه والباء للسببية كانه
قيل فاستجاب لهم ربهم بسبب انه لا يضيع عمل عامل منهم اي سنته السنية مستمرة على ذلك
والالتفات الى التكلم والخطاب لاظهار كمال الاعتناء بشان الاستجابة وتشريف الداعين بشرف
الخطاب والمراد تاكيدها ببيان سببها والاشعار بان مدارها اعمالهم التي قدموها على
الدعاء لا مجرد الدعاء وتعميم الوعد لسائر العاملين وان لم يبلغوا درجة اولي الالباب لتاكيد
استجابة الدعوات المذكورة والتعبير عن ترك الاثابة بالاضاعة مع انه ليس باضاعة حقيقة
اذ الاعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك
بتصوير ما يستحيل صدوره عنه من القبائح وابراز الاثابة في معرض الامور الواجبة عليه وقرئ
بكسر الهمزة على ارادة القول اي قائلا اني الخ فلا التفات حينئذ وقرئ لا اضيع بالتشديد ومن
متعلق بمحذوف وقع صفة لعامل اي عامل كائن منكم وقوله تعالى من ذكر او انثى بيان
لعامل وتاكيد لعمومه وقوله تعالى بعضكم من بعض جملة معترضة مبينة لسبب انتظام
النساء في سلك الرجال في الوعد فان كون كل منهما من الآخر لتشعبهما من اصل واحد او
لفرط الاتصال بينهما او لاتفاقهما في الدين والعمل مما يستدعي الشركة والاتحاد في ذلك
روي ان ام سلمة رضي الله عنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم اني اسمع الله
تعالى يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء فنزلت فقوله تعالى والذين هاجروا الخ

تفصيل لما اجمل في العمل وتعداد لبعض احاسن افراده على وجه المدح والتعظيم اي فالذين
هاجروا الشرك والاوطان والعشاير للدين وقوله تعالى واخرجوا من ديارهم
على الاول عبارة عن نفس الهجرة وعلى الثاني كيفيتها وكونها بالقسر والاضطرار و
اوذوا في سبيلي اي بسبب ايمانهم بالله ومن اجله وهو متناول لكل اذية نالتهم
من قبل المشركين وقاتلوا اي الكفار في سبيل الله وقتلوا استشهدوا في القتال
وقرئ بالعكس لما ان الواو لا تستدعي الترتيب او لان المراد قتل بعضهم وقتال آخرين اذ
ليس المعنى على اتصاف كل فرد من افراد الموصول المذكور بكل واحد مما ذكر في حيز الصلة على
اتصاف الكل بالكل في الجملة سواء كان ذلك باتصاف كل فرد من الموصول بواحد من الاوصاف
المذكورة او باثنين منها او باكثر اما بطريق التوزيع او بطريق حذف بعض الموصولات من
البين كما هو راي الكوفيين كيف لا ولو اريد الحكم على اتصاف كل فرد بالكل لكان قد اضيع عمل
من اتصف بالبعض وقرئ قتلوا بالتشديد لاكفرن عنهم سيئاتهم جواب قسم
محذوف اي والله لاكفرن والجملة القسمية خبر للمبتدأ الذي هو الموصول وهذا
تصريح بوعد ما سأله الداعون بخصوصه بعدما وعد ذلك عموما وقوله تعالى ولادخلنهم
جنات تجري من تحتها الانهار اشارة الى ما عبر عنه الداعون فيما قيل بقولهم
وآتنا ما وعدتنا على رسلك وقوله تعالى ثوابا مصدر مؤكد لما قبله فان تكفير السيئات
وادخال الجنة في معنى الاثابة وقوله تعالى من عند الله متعلق بمحذوف هو صفة له مبينة
لشرفه اي لاثيبنهم اثابة كائنة او تثويبا كائنا من عنده تعالى بالغا الى المرتبة
القاصية من الشرف وقوله تعالى والله عنده حسن الثواب اعتراض تذييلي مقرر
لمضمون ما قبله والاسم الجليل مبتدأ خبره عنده وحسن الثواب مرتفع بالظرف على الفاعلية
لاعتماده على المبتدأ او هو مبتدأ ثان والظرف خبره والجملة خبر للمبتدأ الاول والعندية
عبارة عن الاختصاص به مثل كونه بقدرته تعالى وفضله بحيث لا يقدر عليه غيره بحال
شيء يكون بحضرة احد لا يد عليه لغيره فالاختصاص مستفاد من التمثيل سواء جعل
عنده خبرا مقدما لحسن الثواب اولا وفي تصدير الوعد الكريم بعدم اضاعة العمل ثم
تعقيبه بمثل هذا الاحسان الذي لا يقادر قدره من لطف المسلك المنبئ عن عظم شان المحسن
ما لا يخفى لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد بيان لقبح ما اوتي الكفرة من حظوظ الدنيا
وكشف عن حقارة شانها وسوء مغبتها اثر بيان ما اوتي المؤمنون من الثواب والخطاب
للنبي صلى الله عليه وسلم على ان المراد تثبيته على ما هو عليه كقوله تعالى ولا تطع المكذبين او على ان المراد
نهي المؤمنين كما يوجه الخطاب الى مداره القوم ورؤسائهم والمراد افنائهم او
لكل ممن يصلح للخطاب من المؤمنين والنهي للمخاطب وانما جعل للتقلب مبالغة اي الى
ما عليه الكفرة من السعة ووفور الحظ ولا تغتر بظاهر ما ترى منهم من التبسط
في المكاسب والمتاجر والمزارع روي ان بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين في رخاء و
لين عيش فيقولون ان اعداء الله تعالى فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد فنزلت
وقرئ لا يغرنك بالنون الخفيفة متاع قليل خبر لمبتدأ محذوف اي هو متاع قليل
لا قدر له في جنب ما ذكر من ثواب الله تعالى قال عليه السلام ما الدنيا في الآخرة الا مثل
ما يجعل احدكم اصبعه في اليم فلينظر بم يرجع فاذن لا يجدي وجوده لواجديه ولا
يضر فقده لفاقديه ثم ماواهم اي مصيرهم الذي ياوون اليه لا يبرحون
جهنم التي لا يوصف عذابها وقوله تعالى وبئس المهاد ذم لها وايذان بان مصيرهم
اليها مما جنته انفسهم وكسبته ايديهم والمخصوص بالذم محذوف اي بئس ما
مهدوا لانفسهم جهنم لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الانهار
خالدين فيها بيان لكمال حسن حال المؤمنين غب بيان وتكرير له اثر تقرير مع زيادة خلودهم
في الجنات ليتم بذلك سرورهم ويزداد تحسرهم ويتكامل به سوء حال الكفرة وايراد
التقوى في حيز الصلة للاشعار بكون الخصال المذكورة من باب التقوى والمراد به الاتقاء
من الشرك والمعاصي فالموصول مبتدأ والظرف خبره وجنات مرتفع على الفاعلية للاعتماد على المبتدأ

او الظرف خبر لجنات والجملة خبر للموصول و خالدين فيها اى فى الجنات حال مقدرة من الضمير او من جنات لتخصصها بالوصف والعامل ما فى الظرف من معنى الاستقرار نزلا من عند الله وقرئ بسكون الزاى وهو ما يعد للنازل من طعام وشراب وغيرهما قال ابو الشعر الضبى وكنا اذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا وانتصابه على الحالية من جنات لتخصصها بالظرف والعامل فيه ما فى الوصف من الاستقرار وقيل هو مصدر مؤكد كانه قيل رزقا او عطاء من عند الله تعالى وما عند الله خير مبتداء وخبر وقوله تعالى للابرار متعلق بمحذوف هو صفة لخير اى ما عنده تعالى من الامور المذكورة الدائمة خير كائن للابرار اى مما يتقلب فيه الفجار من المتاع القليل الزائل والتعبير عنهم بالابرار للاشعار بان الصفات المعدودة من اعمال البر كما انها من قبيل التقوى والجملة تذييل لما قبلها وان من اهل الكتاب لمن يؤمن بالله جملة مستانفة سيقت لبيان ان اهل الكتاب ليس كلهم كمن حكيت هنا تهم من نبذ الميثاق وتحريف الكتاب وغير ذلك بل منهم من له مناقب جليلة قيل هم عبد الله بن سلام واصحابه وقيل هم اربعون من اهل نجران واثنان وثلثون من الحبشة وثمانية من الروم كانوا نصارى فاسلموا وقيل المراد به اصحمة النجاشى فانه لما مات نعاه جبريل عليه السلام الى النبى عليهما السلام فقال عليه السلام اخرجوا فصلوا على اخ لكم مات بغير ارضكم فخرج الى البقيع فنظر الى ارض الحبشة فابصر سرير النجاشى وصلى عليه واستغفر له فقال المنافقون انظروا الى هذا يصلى على علج نصرانى لم يره قط وليس على دينه فنزلت وانما دخلت لام الابتداء على اسم ان لفصل الظرف بينهما كما فى قوله تعالى وان منكم لمن ليبطئن وما انزل اليكم من القران وما انزل اليهم من الكتابين وتاخير ايمانهم بهما عن ايمانهم بالقران فى الذكر مع ان الامر بالعكس فى الوجود لما انه عيار ومهيمن عليهما فان ايمانهم بهما انما يعتبر بتبعية ايمانهم به اذ لا عبرة باحكامهما المنسوخة وما لم ينسخ منها انما يعتبر من حيث ثبوته بالقران ولتعلق ما بعده بهما والمراد بايمانهم بهما ايمانهم بهما من غير تحريف ولا كتم كما هو ديدن المحرفين واتباعهم من العامة خاشعين لله حال من فاعل يؤمن والجمع باعتبار المعنى لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا تصريح بمخالفتهم للمحرفين والجملة حال كما قبله وتوسيطها فى سلك محاسنهم ليس من حيث عدم الاشتراء فقط بل لتضمن ذلك لاظهار ما فى الكتابين من شواهد نبوته عم اولئك اشارة اليهم من حيث اتصافهم بما عد من صفاتهم الحميدة وما فيه من معنى البعد للدلالة على علو رتبتهم وبعد منزلتهم اى فى الشرف والفضيلة وهو مبتداء خبره قوله تعالى لهم وقوله اجرهم اى المختص بهم الموعود لهم بقوله تعالى اولئك يؤتون اجرهم مرتين وقوله تعالى يؤتكم كفلين من رحمته مرتفع بالظرف على الفاعلية او على الابتداء او الظرف خبره والجملة خبر لاولئك وقوله تعالى عند ربهم نصب على الحالية من اجرهم والمراد به التشريف كالصفة ان الله سريع الحساب لنفوذ علمه بجميع الاشياء فهو عالم بما يستحقه كل عامل من الاجر من غير حاجة الى تامل والمراد بيان سرعة وصول الاجر الموعود اليهم يا ايها الذين امنوا اثر بيان فى تضاعيف السورة الكريمة فنون الحكم والاحكام ختمت بما يوجب المحافظة عليها فقيل اصبروا على مشاق الطاعات وغير ذلك من المكاره والشدائد وصابروا اى غالبوا اعداء الله تعالى بالصبر فى مواطن الحروب واعدى عدوكم بالصبر على مخالفة الهوى وتخصيص المصابرة بالامر بعد الامر بمطلق الصبر لكونها اشد منه واشق ورابطوا اى اقيموا فى الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين للغزو مستعدين له ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وعن النبى صلى الله عليه وسلم من رابط يوما وليلة فى سبيل الله كان كعدل صيام شهر رمضان وقيامه لا يفطر ولا ينفتل عن صلاته الا لحاجة واتقوا الله فى مخالفة امره على الاطلاق فيندرج فيه ما ذكر فى تضاعيف السورة الكريمة لعلكم تفلحون كى تنظموا فى زمرة المفلحين الفائزين بكل مطلوب الناجين عن كل الكروب عن النبى صلى الله

مهيمن

منه

عليه

عليه وسلم من قرأ سورة آل عمران اعطى بكل آية منها امانا على جسر جهنم وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وسلم والملائكة حتى تغيب الشمس والحمد لله رب العالمين

سورة النساء مدنية وهى مائة وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

يا ايها الناس خطاب يعم حكمه المكلفين عند النزول ومن ينتظم فى سلكهم من الموجودين حينئذ والحادثين بعد ذلك الى يوم القيمة عند انتظامهم فيه لكن لا بطريق الحقيقة فان خطاب المشافهة لا يتناول القاصرين عن درجة التكليف الا عند الحنابلة بل اما بطريق تغليب الفريق الاول على الآخرين واما بطريق تعميم حكمه لما بدليل خارجى فان الاجماع منعقد على ان آخر الامة مكلف بما كلف به اولها كما ينبئ عنه قوله عليه السلام الحلال ما جرى على لسانى الى يوم القيمة والحرام ما جرى على لسانى الى يوم القيمة وقد فصل فى موضعه واما الامم الدارجة قبل النزول فلا حظ لهم فى الخطاب لاختصاص الاوامر والنواهى بمن يتصور منه الامتثال واما ادراجهم فى خطاب ما عداهما مما له دخل فى تاكيد التكليف وتقوية الايجاب فستعرف حاله ولفظ الناس ينتظم الذكور والاناث حقيقة واما صيغة جمع المذكر فى قوله عز وجل اتقوا ربكم فواردة على طريقة التغليب لعدم تناولها حقيقة للاناث عند غير الحنابلة واما دخولهن فى الامر بالتقوى بما ذكر من الدليل الخارجى وان كان فيه مراعاة جانب الصيغة لكنه يستدعى تخصيص لفظ الناس ببعض افراده والمامور به اما مطلق التقوى التى هى التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك واما التقوى فيما يتعلق بحقوق ابناء الجنس اى اتقوه تعالى فى مخالفة اوامره ونواهيه على الاطلاق او فى مخالفة تكاليفه الواردة ههنا واياما كان فالتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لتاييد الامر وتاكيد الايجاب للامتثال به على طريقة الترغيب والترهيب وكذا وصف الرب بقوله تعالى الذى خلقكم من نفس واحدة فان خلقه تعالى اياهم على هذا النمط البديع لانبائه عن قدرة شاملة لجميع المقدورات التى من جملتها عقابهم على معاصيهم وعن نعمة كاملة لا يقادر قدرها من اقوى الدواعى الى الاتقاء من موجبات نقمته واتم الزواجر عن كفران نعمته وكذا جعله تعالى اياهم صنوانا مفرعة من ارومة واحدة هى نفس آدم عليه السلام من موجبات الاحتراز عن الاخلال بمراعاة ما بينهم من حقوق الاخوة وتعميم الخطاب فى ربكم وخلقكم للامم السالفة ايضا مع اختصاصه فيما قبل بالمامورين بناء على تذكير شمول ربوبيته تعالى وخلقه للكل من مؤكدات الامر بالتقوى وموجبات الامتثال به تفكيك للنظم الكريم مع الاستغناء عنه لان خلقه تعالى للمامورين من نفس آدم عليه السلام حيث كان بواسطة ما بينهم وبينه عليه السلام من الآباء والامهات كان التعرض لخلقهم متضمنا للتعرض لخلق الوسائط جميعا وكذا التعرض لربوبيته تعالى لهم متضمن للتعرض لربوبيته تعالى لاصولهم قاطبة لا سيما وقد نطق بذلك قوله عز وجل وخلق منها زوجها فانه مع ما عطف عليه صريح فى ذلك وهو معطوف اما على مقدر ينبئ عنه سوق الكلام لان تفريع الفروع من اصل واحد يستدعى انشاء ذلك الاصل لا محالة كانه قيل خلقكم من نفس واحدة خلقها اولا وخلق منها زوجها الخ وهو استئناف مسوق لتقرير وحدة المبداء وبيان كيفية خلقهم منه وتفصيل ما اجمل اولا او صفة لنفس مفيدة لذلك واما على خلقكم داخل فى حيز الصلة معرر مبين لما ذكر واعادة الفعل مع جواز عطف مفعوله على مفعول الفعل الاول كما فى قوله تعالى يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم الخ لاظهار ما بين الخلقين من التفاوت فان الاول بطريق التفريع من الاصل والثانى بطريق الانشاء من المادة فانه تعالى خلق حواء من ضلع آدم عليهما السلام روى انه عز وجل لما خلقه عليه السلام واسكنه الجنة القى عليه النوم فبينما هو بين النائم واليقظان خلق حواء من ضلع من اضلاعه اليسرى فلما انتبه وجدها عنده وتاخير ذكر خلقها عن ذكر خلقهم لما ان تذكير خلقهم ادخل فى تحقيق ما هو المقصود من حملهم على الامتثال بالامر بالتقوى

سورة النساء

من تذكير خلقها وتقديم الجار والمجرور للاعتناء ببيان مبدئيته عليه السلام لهما مع ما فيه
من التشويق الى المؤخر كما مر مرارا وايرادها بعنوان الزوجية تمهيد لما بعده من التناسل
وبث منهما اي نشر من تلك النفس وزوجها المخلوقة منها بطريق التوالد والتناسل
رجالا كثيرا نعت لرجالا مؤكد لما افاده التنكير من الكثرة والافراد باعتبار معنى الجمع او العدد
وقيل هو نعت لمصدر مؤكد للفعل اى بثا كثيرا ونساء اي كثيرة وترك وترك التصريح بها
للاكتفاء بالوصف المذكور وايثارهما على ذكورا واناثا لتأكيد الكثرة والمبالغة فيها بترشيح
كل فرد من الافراد المبثوثة لمبدئية غيره وقرئ وخالق وباث على حذف المبتدأ اي وهو
خالق وباث واتقوا الله الذي تساءلون به تكرير للامر وتذكير لبعض آخر من موجبات
الامتثال به فان سؤال بعضهم بعضا بالله تعالى بان يقولوا اسألك بالله على سبيل الاستعطاف
يقتضي الاتقاء من مخالفة اوامره ونواهيه وتعليق الاتقاء بالاسم الجليل لمزيد التأكيد
والمبالغة في الحمل على الامتثال بتربية المهابة وادخال الروعة ولوقوع التساؤل به لا بغيره
من اسمائه تعالى وصفاته وتساءلون اصله تتساءلون فطرحت احدى التائين تخفيفا وقرئ
بادغام تاء التفاعل في السين لتقاربهما في الهمس وقرئ تسألون من الثلاثي اي
تسألون به غيركم وقد فسر به القراءة الاولى والثانية وحمل صيغة التفاعل على اعتبار الجمع
كما في قولك رأيت الهلال وتراءيناه وبه فسر عن يتساءلون على وجه وقرئ تسلون
بنقل حركة الهمزة الى السين والارحام بالنصب عطفا على محل الجار والمجرور كقولك
مررت بزيد وعمرا وينصره قراءة تساءلون به وبالارحام فانهم كانوا يقرنونها
في السؤال والمناشدة بالله عز وجل ويقولون اسألك بالله وبالرحم او عطفا على الاسم
الجليل اى اتقوا الله والارحام وصلوها ولا تقطعوها فان قطيعتها مما يجب ان يتقى
وهو قول مجاهد وقتادة والسدي والضحاك والفراء والزجاج وقد جوز الواحدي
نصبه على الاغراء اى والزموا الارحام وصلوها وقرئ بالجر عطفا على الضمير المجرور و
بالرفع على انه مبتدأ محذوف الخبر تقديره والارحام كذلك اي مما يتقى ويتساءل به
ولقد نبه سبحانه وتعالى حيث قرنها باسمه الجليل على ان صلتها بمكان منه كما في قوله تعالى
ان لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا وعنه صلى الله عليه وسلم الرحم معلقة بالعرش
تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله ان الله كان عليكم رقيبا اي مراقبا
وهي صيغة مبالغة من رقب يرقب رقبا ورقوبا ورقبانا اذا احد النظر لامر يريد
تحقيقه اى حافظا مطلعا على جميع ما يصدر عنكم من الافعال والاقوال وعلى ما في
ضمائركم من النيات مريدا لمجازاتكم بذلك وهو تعليل للامر ووجوب الامتثال به واظهار
الاسم الجليل لتأكيده وتقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل وآتوا اليتامى
اموالهم شروع في تفصيل موارد الاتقاء ومظانه بتكليف ما يقابلها امرا ونهيا
عقيب الامر بنفسه مرة بعد اخرى وتقديم ما يتعلق باليتامى لاظهار كمال العناية بامرهم
ولملابستهم بالارحام اذ الخطاب للاولياء والاوصياء وقلما يفوض الوصاية الى الاجانب
واليتيم من مات ابوه من اليتم وهو الانفراد ومنه الدرة اليتيمة وجمعه على يتامى
اما لانه لما جرى مجرى الاسماء جمع على يتائم ثم قلب فقيل يتامى ولانه ما كان من وادي
الآفات جمع على يتمى ثم جمع يتمى على يتامى والاشتقاق يقتضي صحة اطلاقه على
الكبار ايضا واختصاصه بالصغار مبني على العرف واما قوله عليه السلام لا يتم بعد
الحلم فتعليم للشريعة لا تعيين لمعنى اللفظ اى لا يجري على اليتيم بعد الحلم الايتام والمراد
بايتاء اموالهم قطع المخاطبين اطماعهم الفارغة عنها وكف اكفهم الخاطفة عن
اختزالها وتركها على حالها غير متعرض لها بسوء حتى تأتيهم وتصل اليهم سالمة كما ينبئ عنه
ما بعده من النهي عن التبدل والاكل لا الاعطاء بالفعل فانه مشروط بالبلوغ وايناس الرشد
على ما ينطق به قوله تعالى حتى اذا بلغوا الآية وانما عبر عما ذكر بالايتاء مجازا للايذان بانه
ينبغي ان يكون مرادهم بذلك ايصالها اليهم لا مجرد ترك التعرض لها فالمراد بهم
اما الصغار على ما هو المتبادر خاص بمن يتولى امرهم من الاولياء والاوصياء

وشمول

وشمول حكمه للاولياء من كان بالغا عند نزول الاية بطريق الدلالة دون العبارة واما من
جرى عليه اليتم في الجملة مجازا اعم من ان يكون كذلك عند النزول او بالغا فالامر
شامل للاولياء الفريقين صيغة موجب عليهم ما ذكر من حفظ اموالهم والتحفظ عن
اضاعتها مطلقا واما وجوب الدفع الى الكبار فمستفاد مما سيأتي من الامر به وقيل
المراد بهم الصغار وبالايتاء الاعطاء في الزمان المستقبل وقيل اطلق اسمهم على الكبار
بطريق الاتساع لقرب عهدهم باليتم حثا للاولياء على المسارعة الى دفع اموالهم اليهم
اول ما بلغوا قبل ان يزول عنهم اسمهم المعهود فالايتاء بمعنى الاعطاء بالفعل ويأباهما
ما سيأتي من قوله تعالى وابتلوا اليتامى الخ فان ما فيه من الامر بالدفع وارد على وجه التكليف
الابتدائي لا على وجه تعيين وقته او بيان شرطه فقط كما هو مقتضى القولين واما تعميم
الاسم للصغار والكبار مجازا بطريق التغليب مع تعميم الايتاء للايتاء حالا وللايتاء مآلا
وتعميم الخطاب للاولياء كلا الفريقين على ان من بلغ منهم فوليه مأمور بالدفع اليه بالفعل
وان من لم يبلغ بعد فوليه مأمور بالدفع اليه عند بلوغه رشيدا فمع ما سبق تكلف لا يخفى
فالانسب ما تقدم من حمل ايتاء اموالهم اليهم على ما يؤدي اليه من ترك التعرض لها بسوء
كما يلوح به التعبير عن الاعطاء بالفعل بالدفع سواء اريد باليتامى الصغار او ما يعم الصغار
والكبار حسبما ذكر آنفا واما ما روي من ان رجلا من غطفان كان معه مال كثير لابن
اخ له فلما بلغ طلب منه ماله فمنعه فنزلت فلما سمعها قال اطعنا الله واطعنا الرسول
نعوذ بالله من الحوب الكبير فغير قادح في ذلك لما ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب
ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب نهي عن اخذ مال اليتيم على الوجه المخصوص بعد النهي الضمني
عن اخذه على الاطلاق وتبدل الشيء بالشيء واستبداله به اخذ الاول بدل الثاني بعد ان
كان حاصلا له او في شرف الحصول يستعملان ابدا بافضائهما الى الحاصل بانفسهما والى
الزائل بالباء كما في قوله تعالى وبدلناهم بجنتيهم جنتين الخ واخرى بالعكس كما في قولك بدلت
الحلقة بالخاتم اذا اذبتها وجعلتها خاتما نص الازهري عليه وتارة اخرى بافضائه الى المفعول به
بنفسه كما في قوله تعالى يبدل الله سيئاتهم حسنات والمراد بالخبيث والطيب ان كان هو
الحلال والحرام فالمنهي عنه استبدال مال اليتيم بمال انفسهم مطلقا كما قاله الفراء والزجاج
وقيل معناه لا تذروا اموالكم الحلال وتأكلوا الحرام من اموالهم فالمنهي عنه اكل ماله
مكان مالهم المحقق او المقدر وقيل هو اختزال ماله مكان حفظه وايا ما كان وانما عبر
عنهما بهما تنفيرا عما اخذوه وترغيبا فيما اعطوه وتصويرا لمعاملتهم بصورة ما لا يصدر
عن العاقل وان كان هو الردي والجيد فمورد النهي ما كانوا عليه من اخذ الجيد من مال
اليتيم واعطاء الردي من مال انفسهم وبه قال سعيد بن المسيب والنخعي والزهري والسدي
وتخصيص هذه المعاملة بالنهي لخروجها مخرج العادة لا لاباحة ما عداها واما التعبير عنها
بتبدل الخبيث بالطيب مع انها تبديله به او تبدل الطيب بالخبيث فللايذان بان الاولياء
حقهم ان يكونوا في المعاوضات عاملين لليتيم لا لانفسهم مراعين لجانبه قاصدين جلب
المجلوب اليه مشتري كان او ثمنا لا لسلب المسلوب عنه ولا تأكلوا اموالهم الى اموالكم
نهي عن منكر آخر كانوا يتعاطونه اى لا تأكلوها مضمومة الى اموالكم ولا تسووا بينهما وهذا
حلال وذاك حرام وقد خص من ذلك مقدار اجر المثل عند كون الولي فقيرا انه اي
الاكل المفهوم من النهي كان حوبا اى ذنبا عظيما وقرئ بفتح الحاء وهو مصدر حاب حوبا
وقرئ حابا وهو ايضا مصدر كقال قولا وقالا كبيرا مبالغة في بيان عظم ذنب الاكل
المذكور كانه قيل من كبائر الذنوب العظيمة لا من افنائها وان خفتم ان لا تقسطوا
في اليتامى الاقساط العدل وقرئ بفتح التاء فقيل هو من قسط اى جار ولا مزيد كما في
قوله تعالى لئلا يعلم وقيل هو بمعنى اقسط فان الزجاج حكى ان قسط يستعمل استعمال
اقسط والمراد بالخوف العلم كما في قوله تعالى فمن خاف من موص جنفا عبر عنه بذلك ايذانا بكون
المعلوم مخوفا محذورا لا معناه الحقيقي لان الذي علق به الجواب هو العلم بوقوع الجور المخوف
لا الخوف منه والا لم يكن الامر شاملا لمن يصر على الجور ولا يخافه وهذا شروع في النهي

عن منكر كانوا يباشرونه متعلق بانفس اليتامى اصالة وباموالهم تبعا عقيب النهي عما يتعلق
باموالهم خاصة وتأخيره عنه لقلة وقوع المنهي عنه بالنسبة الى الاول ونزوله منه
منزلة المركب من المفرد وذلك انهم كانوا يتزوجون من يحل لهم من اليتامى اللاتي
يلونهن لكن لا لرغبة فيهن بل في مالهن ويسيئون في الصحبة والمعاشرة ويتربصون بهن
ان يمتن فيرثوهن وهذا قول الحسن وقيل هي اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في مالها
وجمالها ويريد ان ينكحها بادنى من سنة نسائها فنهوا ان ينكحوهن الا ان
يقسطوا لهن في اكمال الصداق وامروا ان ينكحوا ما سواهن من النساء وهذا قول الزهري
رواية عن عروة عن عائشة رضي الله عنها واما اعتبار اجتماع عدد كثير منهن كما اطبق
عليه اكثر اهل التفسير حيث قالوا كان الرجل يجد اليتيمة لها مال وجمال او يكون وليها فيتزوجها
ضنا بها عن غيره فربما اجتمعت عنده عشر منهن الخ فلا يساعده الامر بنكاح غيرهن
فان المحذور حينئذ يندفع بتقليل عددهن اي وان خفتم ان لا تعدلوا في حق
اليتامى اذا تزوجتم بهن باساءة العشرة او بنقص الصداق فانكحوا ما طاب
لكم ما موصولة او موصوفة ما بعدها صلتها او صفتها واوثرت على من ذهابا الى
الوصف وايذانا بان المقصود بالذات والغالب في الاعتبار لا بناء على ان الاناث من
العقلاء يجرين مجرى غير العقلاء لاخلاله بمقام الترغيب فيهن وقرأ ابن ابي عبلة من طاب
ومن في قوله عز وجل من النساء بيانية وقيل تبعيضية والمراد بهن غير اليتامى
بشهادة قرينة المقام اي فانكحوا من استطابتها نفوسكم من الاجنبيات وفي ايثار الامر بنكاحهن
على النهي عن نكاح اليتامى مع انه المقصود بالذات مزيد لطف في استنزالهم عن ذلك فان
النفس مجبولة على الحرص على ما منعت منه كما ان وصف النساء بالطيب على الوجه الذي
اشير اليه فيه مبالغة في الاستمالة اليهن والترغيب فيهن وكل ذلك للاعتناء بصرفهم
عن نكاح اليتامى وهو السر في توجيه النهي الضمني الى النكاح المترقب مع ان سبب النزول
هو النكاح المحقق لما فيه من المسارعة الى دفع الشر قبل وقوعه فرب واقع لا يرفع والمبالغة
في بيان حال النكاح المحقق فان محظورية المترقب حيث كانت للجور المترقب فيه
فمحظورية المحقق مع تحقق الجور فيه اولى وقيل المراد بالطيب الحلال اي ما حل لكم شرعا
لان ما استطابوه شامل للمحرمات ولا مخصص له بمن عداهن وفيه فرار من محذور ووقوع فيما
افظع منه لان ما حل لهم مجمل وقد تقرر ان النص اذا تردد بين الاجمال والتخصيص يحمل
على الثاني لان العام المخصوص حجة في غير محل التخصيص والمجمل ليس بحجة قبل ورود البيان
اصلا ولئن جعل قوله تعالى حرمت الخ دالا على التفصيل بناء على ادعاء تقدمه في التنزيل
فليجعل دالا على التخصيص مثنى وثلاث ورباع معدولة عن اعداد مكررة غير منصرفة
لما فيها من العدلين عدلها من صيغها وعدلها عن تكررها وقيل للعدل والصفة فانها
بنيت صفات وان لم يكن اصولها كذلك وقرئ وثلث وربع على القصر من ثلاث ورباع
ومحلهن النصب على انها حال من فاعل طاب مؤكدة لما افاده وصف الطيب من الترغيب فيهن
والاستمالة اليهن بتوسيع دائرة الاذن اي فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد
ثنتين ثنتين وثلاثا ثلاثا واربعا اربعا حسبما تريدون على معنى ان لكل واحد منهم ان
يختار اي عدد شاء من الاعداد المذكورة لا ان بعضها لبعض منهم وبعضها لبعض اخر كما
في قولك اقسموا هذه البدرة درهمين درهمين وثلاثة ثلاثة واربعة اربعة ولو افردت
لفهم منه تجويز الجمع بين تلك الاعداد دون التوزيع ولو ذكرت بكلمة او لفات تجويز
الاختلاف في العدد هذا وقد قيل في تفسير الآية الكريمة لما نزلت الآية في اليتامى وما
في اكل اموالهم من الحوب الكبير اخذ الاولياء يتحرجون من ولايتهم خوفا من لحوق الحوب
بترك الاقساط مع انهم كانوا لا يتحرجون من ترك العدل في حقوق النساء حيث كان
تحت الرجل منهم عشر منهن فقيل لهم ان خفتم ترك العدل في حقوق اليتامى
فتحرجتم منها فخافوا ايضا ترك العدل بين النساء فقللوا عدد المنكوحات لان من
تحرج من ذنب وتاب عنه وهو مرتكب مثله فهو غير متحرج ولا تائب عنه وقيل كانوا

لا يتحرجون

لا يتحرجون من الزنا وهم يتحرجون من ولاية اليتامى فقيل ان خفتم الجور في حق اليتامى
فخافوا الزنا فانكحوا ما احل لكم من النساء ولا تحوموا حول المحرمات ولا يخفى انه لا يساعدهما
جزالة النظم الكريم لابتنائهما على تقدم نزول الآية الاولى وشيوعها بين الناس مع ظهور
توقف حكمها على ما بعدها من قوله تعالى ولا تؤتوا السفهاء الى قوله تعالى وكفى بالله حسيبا
فان خفتم ان لا تعدلوا اي فيما بينهن ولو في اقل الاعداد المذكورة كما خفتموه في حق
اليتامى او كما لم تعدلوا في حقهن او كما لم تعدلوا فيما فوق هذه الاعداد فواحدة
اي فالزموا او فاختاروا واحدة وذروا الجمع بالكلية وقرئ بالرفع اي فالمقنع واحدة
او فحسبكم واحدة او ما ملكت ايمانكم اي من السراري بالغة ما بلغت من مراتب
العدد وهو عطف على واحدة على ان اللزوم والاختيار فيه بطريق التسري لا بطريق
النكاح كما فيما عطف عليه لاستلزامه ورود ملك النكاح على اليمين بموجب اتحاد المخاطبين
في الموضعين بخلاف ما سيأتي من قوله تعالى ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات
فمما ملكت ايمانكم فان المأمور بالنكاح هناك غير المخاطبين بملك اليمين وانما سوى في
السهولة واليسر بين الحرة الواحدة وبين السراري من غير حصر في عدد لقلة تبعتهن وعدم وجوب
القسم فيهن وقرئ او من ملكت ايمانكم وما في القراءة المشهورة للايذان بقصور رتبتهن
عن رتبة العقلاء ذلك اشارة الى اختيار الواحدة والتسري ادنى ألا تعولوا
العول الميل من قولهم عال الميزان عولا اذا مال وعال في الحكم اي جار والمراد ههنا الميل
المحظور المقابل للعدل اي ما ذكر من اختيار الواحدة والتسري اقرب بالنسبة الى ما عداهما
من ان لا تميلوا ميلا محظورا لانتفائه رأسا بانتفاء محله في الاول وانتفاء خطره في الثاني
بخلاف اختيار العدد في المهائر فان الميل المحظور متوقع فيه لتحقق المحل والخطر ومن
ههنا تبين ان مدار الامر هو عدم العول لا تحقق العدل كما قيل وقد فسر بان لا يكثر
عيالكم على انه من عال الرجل عياله يعولهم اي مانهم فعبر عن كثرة المؤنة على طريقة الكناية
ويؤيده قراءة ان لا تعيلوا من اعال الرجل اذا كثر عياله ووجه كون التسري مظنة قلة العيال
مع جواز الاستكثار من السراري انه يجوز العزل عنهن بغير رضاهن ولا كذلك المهائر
والجملة مستأنفة جارية مما قبلها مجرى التعليل وآتوا النساء اي اللاتي امر
بنكاحهن صدقاتهن جمع صدقة كسمرة وهي المهر وقرئ بسكون الدال على التخفيف
وبضم الصاد وسكون الدال جمع صدقة كغرفة وبضمهما على التوحيد وهو تثقيل صدقة
كظلمة في ظلمة نحلة قال ابن عباس وقتادة وابن جريج وابن زيد فريضة من الله
تعالى لانها مما فرضه تعالى في النحلة اي الملة والشرعة والديانة فانتصابها على الحالية من
الصدقات اي اعطوهن مهورهن حال كونها فريضة منه تعالى وقال الزجاج تدينا فانتصابها
على انها مفعول له اي اعطوهن ديانة وشرعة وقال الكلبي نحلة اي هبة وعطية من الله
تعالى وتفضلا منه عليهن فانتصابه على الحالية منها ايضا وقيل عطية من جهة
الازواج من نحله كذا اذا اعطاه اياه ووهبه له عن طيبة من نفسه نحلة ونحلا والتعبير
عن ايتاء المهور بالنحلة مع كونها واجبة على الازواج لافادة معنى الايتاء عن كمال الرضا
وطيب الخاطر وانتصابها على المصدرية لان الايتاء والنحلة بمعنى الاعطاء كانه
قيل وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة اي اعطوهن مهورهن عن طيبة انفسكم او
على الحالية من ضمير آتوا اي آتوهن صدقاتهن ناحلين طيبي النفوس بالاعطاء او من الصدقات
منحولة معطاة عن طيبة الانفس فالخطاب للازواج وقيل للاولياء لانهم كانوا ياخذون
مهور بناتهم وكانوا يقولون هنيئا لك النافجة لمن يولد له بنت يعنون تأخذ مهرها فتنفج
به مالك اي تعظمه فان طبن لكم عن شيء منه الضمير للصداق وتذكيره لاجرائه مجرى
ذلك فانه قد يشار به الى المتعدد كما في قوله عز وجل قل اؤنبئكم بخير من ذلكم بعد
ذكر الشهوات المعدودة وقد روي عن رؤبة انه حين قيل له في قوله فيها خطوط
من سواد وبلق كانه في الجلد توليع البهق ان اردت الخطوط ينبغي ان تقول كانها وان
اردت السواد والبلق ينبغي ان تقول كانهما قال لكني اردت كان ذلك او للصداق الواقع

موقعه صدقاتهن كانه قيل وآتوا النساء صدقاتهن كما في قوله تعالى فاصدق واكن حيث
عطف اكن على ما دل عليه المذكور ووقع موقعه كانه قيل فاصدق واكن واللام متعلقة
بالفعل وكذا عن لكن بتضمينه معنى التجاوز ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لشيء
اى كائن من الصداق وفيه بعث لهن الى تقليل الموهوب نفسا تمييز والتوحيد لما ان
المقصود بيان الجنس اى ان وهبن لكم شيئا من الصداق متجافيا عنه نفوسهن طيبات
غير خبيثات مما يظهرن الى البذل من شكاسة اخلاقكم وسوء معاشرتكم لكن عدل
عن لفظ الهبة والسماحة الى ما عليه النظم الكريم ايذانا بان العمدة في الامر انما هو
طيب النفس وتجافيها عن الموهوب بالمرة فكلوه اى فخذوا ذلك الشيء الذى طابت به
نفوسهن وتصرفوا فيه تملكا وتخصيص الاكل بالذكر لانه معظم وجوه التصرفات المالية
هنيئا مريئا صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ اذا كان سائغا لا تنغيص فيه وقيل الهنئ
الذي يلذه الاكل والمرئ ما يحمد عاقبته وقيل ما ينساغ في مجراه الذى هو المرئ وهو
ما بين الحلقوم الى فم المعدة سمي بذلك لمرور الطعام فيه اى انسياغه ونصبهما على
انهما صفتان للمصدر اى اكلا هنيئا مريئا او على انهما حال من الضمير المنصوب اى كلوه
وهو هنئ مرئ وقد يوقف على كلوه ويبتدأ هنيئا مريئا على الدعاء وعلى انهما صفتان
اقيمتا مقام المصدرين كانه قيل هنأ مرأ وهذه عبارة عن التحليل والمبالغة في
الاباحة وازالة التبعة روى ان ناسا كانوا يتأثمون ان يقبل احدهم من زوجته
شيئا مما ساقه اليها فنزلت ولا تؤتوا السفهاء اموالكم رجوع الى بيان بقية
الاحكام المتعلقة باموال اليتامى وتفصيل ما اجمل فيما سبق من شرط ايتائها ووقته
وكيفيته اثر بيان بعض الاحكام المتعلقة بانفسهن اعني نكاحهن وبيان بعض الحقوق
المتعلقة بغيرهن من الاجنبيات من حيث النفس ومن حيث المال استطرادا والخطاب للاولياء
نهوا ان يؤتوا المبذرين من اليتامى اموالهم مخافة ان يضيعوها وانما اضيفت اليهم
وهي لليتامى لا لنظر الى كونها تحت ولايتهم كما قيل فانها غير مصححة لاتصافهما بالوصف الآتي
بل تنزيلا لاختصاصها باصحابها منزلة اختصاصها بالاولياء فكأن اموالهم لما بينهم
وبينهم من الاتحاد الجنسي والنسبي مبالغة في حملهم على المحافظة عليها كما في قوله تعالى
ولا تقتلوا انفسكم اى لا يقتل بعضكم بعضا حيث عبر عن بني نوعهم بانفسهم مبالغة في
زجرهم عن قتلهم فكان قتلهم قتل انفسهم وقد ايد ذلك حيث عبر عن جعلها مناطا
لمعاش اصحابها بجعلها مناطا لمعاش الاولياء فقيل التي جعل الله لكم قياما اي
جعلها الله شيئا تقومون به وتنتعشون على حذف المفعول الاول فلو ضيعتموه لضعتم
ثم زيد في المبالغة حتى جعل ما به القيام قياما فكأنها في انفسها قيامكم وانتعاشكم
وقيل انما اضيفت الى الاولياء لانها من جنس ما يقيم الناس معايشهم حيث لم يقصد
بها الخصوصية الشخصية بل الجنسية التي هي معنى ما يقام به المعاش وتميل اليه القلوب
ويدخر لاوقات الاحتياج وهي بهذا الاعتبار لا تختص باليتامى وانت خبير بان ذلك
بمعزل من حمل الاولياء على المحافظة المذكورة كيف لا والوحدة الجنسية المالية ليست
مختصة بما بين اموال اليتامى واموال الاولياء بل هي متحققة بين اموالهم واموال الاجانب
فاذن لا وجه لاعتبارها اصلا وقرئ اللاتي واللواتي وقرئ قيما بمعنى قياما كما جاء عوذا
بمعنى عياذا وقرئ قواما بالكسر القاف وهو ما يقام به الشيء او مصدر قاوم وقرئ بفتحها
وارزقوهم فيها واكسوهم اى واجعلوها مكانا لرزقهم وكسوتهم بان تتجروا
وتتربحوا حتى تكون نفقاتهم من الارباح لا من صلب المال وقيل الخطاب لكل احد
كائنا من كان والمراد نهيه عن ان يفوض امر ماله الى من لا رشد له من نسائه واولاده
ووكلائه وغير ذلك ولا يخفى ان ذلك مخل بجزالة النظم الكريم وقولوا لهم قولا
معروفا اى كلاما لينا تطيب به نفوسهم وعن سعيد بن جبير ومجاهد وابن جريج
عدوهم عدة جميلة بان تقولوا اذا صلحتم ورشدتم سلمنا اليكم اموالكم وكل
ما سكنت اليه النفس لحسنه شرعا او عقلا من قول او عمل فهو معروف وما انكرته لقبحه شرعا

او عقلا

او عقلا فهو منكر وابتلوا اليتامى شروع في تعيين وقت تسليم اموال اليتامى اليهم
وبيان شرطه بعد الامر بايتائها على الاطلاق والنهي عنه عند كون اصحابها سفهاء اي
واختبروا من ليس منهم بين السفه قبل البلوغ بتتبع احوالهم في صلاح الدين و
الاهتداء الى ضبط المال وحسن التصرف فيه وجربوهم بما يليق بحالهم فان كانوا من
اهل التجارة فبان تعطوهم من المال ما يتصرفون فيه بيعا وابتياعا وان كانوا ممن له
ضياع واهل وخدم فبان تعطوهم منه ما يصرفونه الى نفقة عبيدهم وخدمهم
واجرائهم وسائر مصارفهم حتى يتبين لكم كيفية احوالهم حتى اذا بلغوا النكاح
بان يحتلموا لانهم يصلحون عنده للنكاح فان آنستم اى شاهدتم وتبينتم وقرئ
احستم بمعنى احسستم كما في قول من قال خلا ان العتاق من المطايا احسن به فهن اليه
شوس منهم رشدا اى اهتداء الى وجوه التصرفات من غير عجز وتبذير وتقديم
الجار والمجرور على المفعول للاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر او للاعتداد بمبدائه له
والتنوين للدلالة على كفاية رشد في الجملة وقرئ بفتح الراء والشين وبضمها فادفعوا
اليهم اموالهم من تاخير عن حد البلوغ وفي ايثار الدفع على الايتاء الوارد في اول
الامر ايذان بتفاوتهما بحسب المعنى كما اشير اليه فيما سلف ونظم الآية الكريمة ان حتى هي
التي تقع بعدها الجمل كالتي في قوله فما زالت القتلى تمج دماءها بدجلة حتى ماء دجلة اشكل
وما بعدها جملة شرطية جعلت غاية للابتلاء وفعل الشرط بلغوا وجوابه الشرطية الثانية
كانه قيل وابتلوا اليتامى الى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفع اموالهم اليهم بشرط
ايناس الرشد منهم وظاهر الآية الكريمة ان من بلغ غير رشيد اما بالتبذير او
بالعجز لا يدفع اليه ماله ابدا وبه اخذ ابو يوسف ومحمد وقال ابو حنيفة رحمهم الله تعالى
ينتظر الى خمس وعشرين سنة لان البلوغ بالسن ثماني عشرة سنة فاذا زادت عليها
سبع سنين وهي مدة معتبرة في تغير احوال الانسان لما قال عليه السلام مروهم بالصلوة
لسبع دفع اليه ماله اونس منه رشد او لم يونس ولا تأكلوها اسرافا وبدارا ان يكبروا
اي مسرفين ومبادرين كبرهم او لاسرافكم ومبادرتكم كبرهم تفرطون في انفاقها
وتقولون ننفق كما نشتهي قبل ان يكبر اليتامى فينتزعوها من ايدينا والجملة تأكيد للامر
بالدفع وتقرير لها وتمهيد لما بعدها من قوله تعالى ومن كان غنيا فليستعفف
اي من كان من الاولياء والاوصياء غنيا فليتنزه من اكلها وليقتنع بما آتاه الله تعالى
من الغنى والرزق اشفاقا على اليتيم وابقاء على ماله ومن كان من الاولياء
والاوصياء فقيرا فليأكل بالمعروف بقدر حاجته الضرورية واجرة سعيه وخدمته
وفي لفظ الاستعفاف والاكل بالمعروف ما يدل على ان للوصي حقا لقيامه عليها
عن النبي صلى الله عليه وسلم ان رجلا قال له عليه السلام ان في حجري يتيما افآكل من
ماله قال بالمعروف غير متأثل مالا ولا واق مالك بماله وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان ولي اليتيم
قال له افأشرب من لبن ابله قال ان كنت تبغي ضالتها وتلوط حوضها وتهنأ جرباها
وتسقيها يوم ورودها فاشرب غير مضر بنسل ولا ناهك في الحلب وعن محمد بن كعب
كما يتقرم البهيمة وينزل نفسه منزلة الاجير فيما لا بد منه وعن الشعبي يأكل من ماله بقدر
ما يعين فيه وعنه كالميتة يتناول عند الضرورة ويقضي وعن مجاهد يستسلف فاذا
ايسر ادى وعن سعيد بن جبير ان شاء شرب فضل اللبن وركب الظهر ولبس ما يستره
من الثياب واخذ القوت ولا يجاوزه فان ايسر قضاه وان اعسر فهو في حل وعن عمر
بن الخطاب رضي الله عنه اني انزلت نفسي من مال الله عز وجل منزلة والي اليتيم ان استغنيت
استعففت وان افتقرت اكلت بالمعروف واذا ايسرت قضيت واستعفف ابلغ من عف
كانه يطلب زيادة العفة فاذا دفعتم اليهم اموالهم بعد ما راعيتم الشرائط
المذكورة وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح للاهتمام به فاشهدوا عليهم
بانهم تسلموها وقبضوها وبرئت عنها ذممكم لما ان ذلك ابعد من التهمة وانفى
للخصومة وادخل في الامانة وبراءة الساحة وان لم يكن ذلك واجبا عند اصحابنا

فان الوصي مصدق في الدفع مع اليمين خلافاً لمالك والشافعي رحمهما الله تعالى وكفى بالله
حسيباً اي محاسباً فلا تخالفوا ما امرتم به ولا تجاوزوا ما حد لكم للرجال نصيب
مما ترك الوالدان والاقربون شروع في بيان احكام المواريث بعد بيان احكام اموال
اليتامى المنتقلة اليهم بالارث والمراد بالاقربين المتوارثون منهم ومن في مما متعلقة
بمحذوف وقع صفة لنصيب اي لهم نصيب كائن مما ترك وقد جوز تعليقها بنصيب و
للنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون ايراد حكمهن على الاستقلال دون
الدرج في تضاعيف احكامهم بان يقال للرجال والنساء الخ للاعتناء بامرهن والايذان باصالتهن
في استحقاق الارث والاشارة من اول الامر الى تفاوت ما بين نصيبي الفريقين والمبالغة في ابطال
حكم الجاهلية فانهم ما كانوا يورثون النساء والاطفال ويقولون انما يرث من يحارب
ويذب عن الحوزة روي ان اوس بن ثابت الانصاري خلف زوجته ام كجة وثلث
بنات فزوى ابنا عمه سويد وعرفطة او قتادة وعرفجة ميراثه عنهن على سنة الجاهلية
فجاءت ام كجة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكت اليه فقال ارجعي حتى انظر ما يحدث الله
تعالى فنزلت فارسل اليهما ان الله قد جعل لهن نصيباً ولم يبين فلا تفرقا من مال
اوس شيئاً حتى يبين فنزل يوصيكم الله الخ فاعطى ام كجة الثمن والبنات الثلثين والباقي
لابن العم وهو دليل على جواز تأخير البيان عن الخطاب وقوله تعالى مما قل او كثر بدل
من ما الاخيرة باعادة الجار واليها يعود الضمير المجرور وهذا البدل مراد في الجملة الاولى
ايضا محذوف للتعويل على المذكور وفائدته دفع توهم اختصاص بعض الاموال ببعض
الورثة كالخيل والات الحرب للرجال وتحقيق ان لكل من الفريقين حقاً من كل ما جل ودق
نصيباً مفروضاً نصب على انه مصدر مؤكد كقوله تعالى فريضة من الله كانه قيل
قسمة مفروضة او على الحالية اذ المعنى ثبت لهم نصيب كائن مما ترك الوالدان والاقربون
حال كونه مفروضاً او على الاختصاص اي اعني نصيباً مقطوعاً مفروضاً واجباً لهم
وفيه دليل على ان الوارث لو اعرض عن نصيبه لم يسقط حقه واذا حضر القسمة
اي قسمة التركة وانما قدمت مع كونها مفعولا لانها المبحوث عنها ولان في الفاعل تعدداً
فلو روعي الترتيب يفوت تجاذب اطراف الكلام اولوا القربى ممن لا يرث واليتامى
والمساكين من الاجانب فارزقوهم منه اي اعطوهم شيئاً من المال المقسوم
المدلول عليه بالقسمة وقيل الضمير لما وهو امر ندب كلف به البالغون من الورثة
تطييباً لقلوب الطوائف المذكورة وتصدقاً عليهم وقيل امر وجوب ثم اختلف في
نسخه وقولوا لهم قولاً معروفاً وهو ان يدعوا لهم ويستقلوا ما اعطوهم
ويعتذروا من ذلك ولا يمنوا عليهم وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية
ضعافاً خافوا عليهم امر للاوصياء بان يخشوا الله تعالى ويتقوه في امر اليتامى
فيفعلوا بهم ما يحبون ان يفعل بذراريهم الضعاف بعد وفاتهم او لمن حضر المريض
من العواد عند الايصاء بان يخشوا ربهم او يخشوا اولاد المريض ويشفقوا عليهم
شفقتهم على اولادهم فلا يتركوا ان يضروا بهم بصرف المال عنهم او للمورثة
بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الاقارب واليتامى والمساكين متصورين
انهم لو كانوا اولادهم بقوا خلفهم ضعافاً مثلهم هل يجوزون حرمانهم او للمؤمنين
ان ينظروا للورثة فلا يسرفوا في الوصية ولو بما في حيزها صلة الذين على معنى
وليخش الذين حالهم وصفتهم انهم لو شارفوا ان يخلفوا ورثة ضعافاً خافوا
عليهم الضياع وفي ترتيب الامر عليه اشارة الى المقصود منه والعلة فيه وبعث على
الترحم وان يحب لاولاد غيره ما يحب لاولاد نفسه وتهديد للمخالف بحال اولاده و
قرئ ضعفاء وضعافى وضعافى فليتقوا الله في ذلك الفاء لترتيب ما بعدها
على ما قبلها وليقولوا قولاً سديداً امرهم بالتقوى التي هي غاية الخشية بعد
ما امرهم بها مراعاة للمبدأ والمنتهى اذ لا نفع للاول بدون الثاني ثم امرهم
بان يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لاولادهم بالشفقة وحسن الادب او للمريض ما

يصده

يصده عن الاسراف في الوصية وتضييع الورثة ويذكره التوبة وكلمة الشهادة او لحاضري
القسمة عذراً ووعداً حسناً او يقولوا في الوصية ما لا يؤدي الى تجاوز الثلث وقوله
تعالى ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً اي على وجه الظلم او ظالمين استئناف
جيء به لتقرير مضمون ما فصل من الاوامر والنواهي انما يأكلون في بطونهم اي ملء
بطونهم ناراً اي ما يجر الى النار ويؤدي اليها وعن ابي بردة انه قال قال صلى الله عليه وسلم
يبعث الله قوماً من قبورهم تأجج افواههم ناراً فقيل من هم فقال عليه السلام
الم تر ان الله يقول ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم ناراً
وسيصلون سعيراً اي سيدخلون ناراً هائلة مبهمة الوصف وقرئ بضم الياء
مخففاً ومشدداً من الاصلاء والتصلية يقال صلي النار قاسى حرها وصليته واصليته
وصليته ألقيته فيها والسعير فعيل بمعنى مفعول من سعرت النار اذا ألهبتها روي
ان آكل مال اليتيم يبعث يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وانفه واذنيه
وعينيه فيعرف الناس انه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا وروي انه لما نزلت هذه
الآية ثقل ذلك على الناس فاحترزوا عن مخالطة اليتامى بالكلية فصعب الامر على اليتامى
فنزل قوله تعالى وان تخالطوهم فاخوانكم الآية يوصيكم الله شروع في تفصيل
احكام المواريث المجملة في قوله عز وجل للرجال نصيب الخ واقسام الورثة ثلاثة قسم
لا يسقط بحال وهم الآباء والاولاد والازواج فهؤلاء قسمان والثالث الكلالة
اي يأمركم ويعهد اليكم في اولادكم اي في اولاد كل واحد منكم اي في شأن ميراثهم
بدئ بهم لانهم اقرب الورثة الى الميت واكثرهم بقاء بعد المورث للذكر مثل حظ
الانثيين جملة مستأنفة جيء بها لتبيين الوصية وتفسيرها وقيل محلها النصب
بيوصيكم على ان المعنى يفرض عليكم ويشرع لكم هذا الحكم وهذا قريب مما راده
الفراء فانه يجري ما كان بمعنى القول من الافعال مجراه في حكاية الجملة بعده ونظيره قوله
تعالى وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة الآية وقوله تعالى للذكر لا بد له
من ضمير عائد الى الاولاد محذوف ثقة بظهوره كما في قولهم السمن منوان بدرهم اي
للذكر منهم وقيل الالف واللام قائم مقامه والاصل لذكرهم ومثل صفة لموصوف
محذوف اي للذكر منهم حظ مثل حظ الانثيين والبداية ببيان حكم الذكر لاظهار
مزيته على الانثى كما انها المناط في تضعيف حظه وايثار اسمي الذكر والانثى على ما
ذكر اولاً من الرجال والنساء للتنصيص على استواء الكبار والصغار من الفريقين
في الاستحقاق من غير دخل للبلوغ والكبر في ذلك اصلاً كما هو زعم اهل الجاهلية
حيث كانوا لا يورثون الاطفال كالنساء فان كن اي الاولاد والتأنيث باعتبار
الخبر وهو قوله تعالى نساء اي خلصاً ليس معهن ذكر فوق اثنتين خبر ثان او
صفة نساء اي نساء زائدات على اثنتين فلهن ثلثا ما ترك اي المتوفى المدلول
عليه بقرينة المقام وان كانت اي المولودة واحدة اي امرأة واحدة
ليس معها اخ ولا اخت وعدم التعرض للموصوف لظهوره مما سبق فلها النصف
مما ترك وقرئ واحدة على كان التامة واختلف في البنتين فقال ابن عباس حكمهما
حكم الواحدة لانه تعالى جعل الثلثين لما فوقهما وقال الجمهور حكمهما حكم ما فوقهما لانه
تعالى لما بين ان حظ الذكر مثل حظ الانثيين اذا كان معه انثى وهو الثلثان اقتضى ذلك
ان فرضهما الثلثان ثم لما اوهم ذلك ان يزاد النصيب بزيادة العدد رد بقوله تعالى
فان كن نساء فوق اثنتين ويؤيد ذلك ان البنت الواحدة لما استحقت الثلث مع
اخيها الاقوى منها في الاستحقاق فلأن تستحقه مع مثلها اولى واحرى وان البنتين
امس رحماً من الاختين وقد فرض الله تعالى لهما الثلثين حيث قال فلهما الثلثان
مما ترك ولابويه اي لابوي الميت غير النظم الكريم لعدم اختصاص حكمه بما
قبله من الصور لكل واحد منهما بدل منه بتكرير العامل وسط بين المبتدأ والذي
هو قوله تعالى السدس وبين خبره الذي هو لابويه ونقل الخبرية اليه تنصيصا على

استحقاق كل منهما السدس وتأكيد له بالتفصيل بعد الاجمال وقرئ السدس بسكون الدال
تخفيفا وكذلك الثلث والربع والثمن مما ترك متعلق بمحذوف وقع حالا من السدس
والعامل الاستقرار المعتبر في الخبر اي كائنا مما ترك المتوفى ان كان له ولد او ولد ابن
ذكرا كان او انثى واحدا او متعددا غير ان الاب في صورة الانوثة بعد ما اخذ فرضه المذكور
ياخذ ما بقي من ذوي الفروض بالعصوبة فان لم يكن له ولد ولا ولد ابن وورثه
ابواه فحسب فلامه الثلث مما ترك والباقي للاب وانما لم يذكر لعدم الحاجة اليه
لانه لما فرض انحصار الوارث في ابويه وعين نصيب الام علم ان الباقي للاب وتخصيص
جانب الام بالذكر واحالة جانب الاب على دلالة الحال مع حصول البيان بالعكس ايضا
لما ان حظها اخص واستحقاقها اتم واوفر ولان استحقاقه بطريق العصوبة دون
هذا اذا لم يكن معهما احد الزوجين اما اذا كان معهما ذلك فللام ثلث ما بقي بعد فرض
احدهما لا ثلث الكل كما قاله ابن عباس رضه فانه يفضي الى تفضيل الام على الاب مع كونه
اقوى منها في الارث بدليل اضعافه عليها عند انفرادهما عن احد الزوجين وكونه
صاحب فرض وعصبة وذلك خلاف وضع الشرع فان كان له اخوة اي عدد ممن له
اخوة من غير اعتبار التثليث سواء كان من جهة الابوين او من جهة احدهما وسواء كانوا
ذكورا او اناثا او مختلطين وسواء كان لهم ميراث او كانوا محجوبين فلامه السدس
واما السدس الذي حجبوها عنه فهو للاب عند وجوده ولهم عند عدمه وعليه الجمهور
وعن ابن عباس رضه انه لهم على كل حال خلا ان هذا الحجب عنده لا يتحقق بما دون
الثلث وبالاخوات الخلص وقرئ فلامه بكسر الهمزة اتباعا لما قبلها من بعد وصية
خبر مبتدأ محذوف والجملة متعلقة بما تقدم جميعا لا بما يليها وحده اي هذه الانصباء
للورثة من بعد اخراج وصية يوصي بها اي الميت وقرئ مبنيا للمفعول مخففا و
مبنيا للفاعل مشددا وفائدة الوصف الترغيب في الوصية والندب اليها او دين عطف
على وصية الا انه غير مقيد بما قيدت به من الوصف بل هو مطلق يتناول ما ثبت بالبينة
والاقرار في الصحة وايثار او المفيدة للاباحة على الواو للدلالة على تساويهما في الوجوب
وتقدمهما على القسمة مجموعين او مفردين وتقديم الوصية على الدين ذكرا مع
تأخرها عنه حكما لاظهار كمال العناية بتنفيذها لكونها مظنة للتفريط في ادائها و
اطرادها بخلاف الدين آباؤكم وابناؤكم لا تدرون ايهم اقرب لكم نفعا الخطاب
للورثة فاباؤكم مبتدأ وابناؤكم عطف عليه ولا تدرون خبره وايهم مبتدأ
واقرب خبره ونفعا نصب على التمييز منه وهو منقول من الفاعلية كانه قيل ايهم
اقرب لكم نفعه والجملة في حيز النصب بلا تدرون والجملة الكبيرة اعتراضية مؤكدة
لوجوب تنفيذ الوصية اي اصولكم وفروعكم الذين يتوفون لا تدرون ايهم انفع
لكم امن يوصي ببعض ماله فيعرضكم لثواب الآخرة بتنفيذ وصيته ام من لا يوصي
بشيء فيوفر عليكم عرض الدنيا وليس المراد بنفي الدراية عنهم بيان اشتباه الامر
عليهم وكون انفعية كل من الاول والثاني في حيز الاحتمال عندهم من غير رجحان
احدهما على الآخر كما في قوله صلى الله عليه وسلم مثل امتي مثل المطر لا يدرى اوله
خير ام آخره فان ذلك بمعزل من افادة التاكيد المذكور والترغيب في تنفيذ الوصية
بل تحقيق انفعية الاول في ضمن التعريض بان لهم اعتقادا بانفعية الثاني مبنيا على عدم
الدراية وقد اشير الى ذلك حيث عبر عن الانفعية باقربية النفع تذكيرا لمناط زعمهم
وتعيينا لمنشأ خطئهم ومبالغة في الترغيب المذكور بتصوير الثواب الآجل بصورة العاجل لما
ان الطباع مجبولة على حب الخير الحاضر كانه قيل لا تدرون ايهم انفع لكم فتحكمون نظرا الى
ظاهر الحال وقرب المنال بانفعية الثاني مع ان الامر بخلافه فان ثواب الآخرة لتحقق
وصوله الى صاحبه ودوام تمتعه به مع غاية قصر مدة ما بينهما من الحيوة الدنيا اقرب و
احضر وعرض الدنيا لسرعة نفاده وفنائه ابعد واقصى وقيل الخطاب للمورثين والمعنى
لا تعلمون من انفع لكم ممن يرثكم من اصولكم وفروعكم عاجلا وآجلا فتحروا في شأنهم ما

اوصاكم

اوصاكم الله تعالى به ولا تعمدوا الى تفضيل بعض وحرمان بعض روي ان احد المتوالدين
ارفع درجة من الآخر في الجنة سأل ان يرفع اليه صاحبه فيرفع اليه بشفاعته فالجملة
الاعتراضية حينئذ مؤكدة لامر القسمة وانت خبير بانه مشعر بان مدار الارث ما ذكر من
اقربية النفع مع انه العلاقة النسبية فريضة من الله نصبت نصب مصدر مؤكد لفعل
محذوف اي فرض الله ذلك فرضا او لقوله تعالى يوصيكم الله فانه في معنى يأمركم ويفرض
عليكم ان الله كان عليما اي بالمصالح والرتب حكيما في كل ما قضى وقدر فيدخل فيه
الاحكام المذكورة دخولا اوليا ولكم نصف ما ترك ازواجكم من المال شروع في بيان
احكام القسم الثاني من الورثة ووجه تقديم حكم ميراث الرجال مما لا حاجة الى ذكره
ان لم يكن لهن ولد اي ولد وارث من بطنها او من صلب بنيها او بني بنيها وان سفل
ذكرا كان او انثى واحدا كان او متعددا لان لفظ الولد ينتظم الجمع منكم او من غيركم
والباقي لورثتهن من ذوي الفروض والعصبات او لغيرهم او لبيت المال ان لم يكن لهن
وارث آخر اصلا فان كان لهن ولد على نحو ما فصل والفاء لترتيب ما بعدها على
ما قبلها فان تقدير ذكر عدم الولد وبيان حكمه مستتبع لتقدير وجوده وبيان حكمه
فلكم الربع مما تركن من المال والباقي للورثة من بعد وصية متعلق بكلتا الصورتين
لا بما يليه وحده يوصين بها في محل الجر على انه صفة لوصية وفائدتها ما مر من ترغيب
الميت في الوصية وحث الورثة على تنفيذها او دين عطف على وصية سواء كان
ثبوتها بالبينة او بالاقرار وايثار او على الواو لما مر من الدلالة على تساويهما في الوجوب
والتقدم على القسمة وكذا تقديم الوصية على الدين ذكرا لما ذكر من ابراز كمال العناية
بتنفيذها ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد على التفصيل المذكور آنفا والباقي
لبقية ورثتكم من اصحاب الفروض والعصبات او ذوي الارحام او لبيت المال ان لم يكن لكم وارث
آخر اصلا فان كان لكم ولد على النحو الذي فصل فلهن الثمن مما تركتم من المال
والباقي للباقين من بعد وصية توصون بها او دين الكلام فيه كما فصل في نظيرته
فرض للرجل بحق الزواج ضعف ما فرض للمرأة كما في النسب لمزيته عليها وشرفه الظاهر
ولذلك اختص بتشريف الخطاب وهكذا قياس كل رجل وامرأة اشتركا في الجهة والقرب
ولا يستثنى منه الا اولاد الام والمعتق والمعتقة وتستوي الواحدة والعدد منهن
في الربع والثمن وان كان رجل شروع في بيان احكام القسم الثالث من الورثة
المحتملة للسقوط ووجه تأخيره عن الاولين بين والمراد بالرجل الميت وقوله تعالى يورث
على البناء للمفعول من ورث لا من اورث خبر كان اي يورث منه كلالة الكلالة في
الاصل مصدر بمعنى الكلال وهو ذهاب القوة من الاعياء استعيرت للقرابة من غير
جهة الوالد والولد لضعفها بالاضافة الى قرابتهما وتطلق على من لم يخلف ولدا ولا
والدا وعلى من ليس بوالد ولا ولد من المخلفين بمعنى ذي كلالة كما تطلق القرابة على
ذوي القرابة وقد جوز كونها صفة كالهجاجة والفقاقة للاحمق فنصبها اما على انها
مفعول له اي يورث منه لاجل القرابة المذكورة او على انها حال من ضمير يورث اي حال
كونه ذا كلالة او على انها خبر لكان ويورث صفة لرجل اي ان كان رجل موروث ذا
كلالة ليس له والد ولا ولد وقرئ يورث على البناء للفاعل مخففا ومشددا فانتصاب
كلالة اما على انها حال من ضمير الفعل والمفعول محذوف اي يورث وارثه حال كونه
ذا كلالة واما على انها مفعول به اي يورث ذا كلالة واما على انه مفعول له اي يورث
لاجل الكلالة او امرأة عطف على رجل مقيد بما قيد به اي او امرأة تورث كذلك
ولعل فصل ذكرها عن ذكره للايذان بشرفه واصالته في الاحكام وله اي للرجل وفيه
تأكيد للايذان المذكور حيث لم يتعرض لها بعد جريان ذكرها ايضا وقيل
الضمير لكل منهما اخ او اخت اي من الام فحسب وقد قرئ كذلك فان احكام
بني الاعيان والعلات هي التي ذكرت في آخر السورة الكريمة والجملة في محل النصب على انها
حال من ضمير يورث او من رجل على تقدير كون يورث صفة له ومساقها لتصوير

المسئلة وذكر الكلالة لتحقق جريان الحكم المذكور وان كان مع ذكر ورثة اخرى بطريق الكلالة
واما جريانه فى صورة الام او الجدة مع قرابتهما ليست بطريق الكلالة فبالاجماع فلكل واحد
منهما من الاخ والاخت السدس من غير تفضيل للذكر على الانثى لان الادلاء الى الميت
بمحض الانوثة فان كانوا اكثر من ذلك اى اكثر من الاخ والاخت المنفردين بواحد او باكثر والفاء
لما مر من ذكر احتمال الانفراد مستتبع لذكر احتمال التعدد فهم شركاء فى الثلث
يقتسمونه بالسوية والباقى لبقية الورثة من اصحاب الفروض والعصبات هذا واما تجويز
ان يكون يورث فى القراءة المشهورة مبنيا للمفعول من اورث على ان المراد به الوارث والمعنى
وان كان رجل يجعل وارثا لاجل الكلالة او ذا كلالة اى غير والد او ولد ولذلك الوارث
اخ او اخت فلكل واحد من ذلك الوارث واخيه او اخته السدس فان كانوا اكثر من ذلك
اى من الاثنين بان كانوا ثلاثة او اكثر فهم شركاء فى الثلث الموزع للاثنين لا يزاد عليه
شئ فيجوز من السداد اما اولا فلان المعتبر على ذلك التقدير انما هى الاخوة بين الوارث
وبين شريكه فى الارث من اخيه او اخته لا ما بينه وبين مورثه من الاخوة التى عليها يترتب
حكم الارث وبها يتم تصوير المسئلة وانما المعتبر بينهما الوراثة بطريق الكلالة وهى عامة
لجميع صور القرابات التى لا تكون بالولاد فلا يكون نصيبه ولا نصيب شريكه ما ذكر بعينه
ومن ادعى اختصاصها بالاخوة لام متمسكا بالاجماع على ان المراد بالكلالة ههنا اولاد
الام فقد اعترف ببطلان رايه من حيث لا يحتسب كيف لا ومبناه انما هو الاجماع على ان
المراد بالاخوة فى قوله تعالى وله اخ او اخت هو الاخوة خاصة حسبما شهدت به القراءة
المحكية والاية الاتية فى اخر السورة الكريمة ولولا ان الرجل عبارة عن الميت والاخوة
معتبرة بينه وبين ورثته لما امكن كون الكل اولاد الام ثم ان الكلالة كما نبهت عليه
باقية على اطلاقها ليس فيها شائبة اختصاص باولاد الام فضلا عن الاجماع على ذلك
والا لاقتصر البيان على حكم صورة انحصار الورثة فيهم وانما الاجماع فيما ذكر من ان المراد
بالاخ والاخت من كان لام خاصة وانت خبير بان ذلك فى قوة الاجماع على ان يورث
من ورث لا من اورث فتدبر واما ثانيا فلان يقتضى ان يكون المعتبر فى استحقاق
الورثة للفرض المذكور اخوة بعضهم لبعض من جهة الام فقط لما ذكر من الاجماع مع ثبوت
الاستحقاق على تقدير الاخوة من الجهتين واما ثالثا فلان حكم صورة انفراد
الوارث عن الاخ والاخت يبقى حينئذ غير مبين وليس من ضرورة كون حظ كل منهما
السدس عند الاجتماع كونه كذلك عند الانفراد الا يرى ان حظ كل من الاختين
الثلث عند الاجتماع والنصف عند الانفراد واما رابعا فلان تخصيص احد الورثة
بالتوريث وجعل غيره تبعا له فيه مع اتحاد الكل فى الادلاء الى المورث مما لا عهد
به من بعد وصية يوصى بها او دين الكلام فيه كالذى مر فى نظائره خلا
ان الدين ههنا موصوف بوصف الوصية جريا على قاعدة تقييد المعطوف بما
قيد به المعطوف عليه لاتفاق الجمهور على اعتبار عدم المضارة فيه ايضا وذلك
انما يتحقق فيما يكون ثبوته بالاقرار فى المرض كانه قيل او دين يوصى به غير مضار
حال من فاعل فعل مضمر يدل عليه المذكور وما حذف من المعطوف اعتمادا عليه
ان رجال فى قوله عز وجل يسبح له فيها بالغدو والاصال رجال على المبنى للمفعول
فاعل لفعل ينبئ عنه المذكور و من فاعل الفعل المذكور والمحذوف اكتفاء به على قراءة
المبنى للمفعول اى يوصى بما ذكر من الوصية والدين حال كونه غير مضار للورثة بان يوصى
بما زاد على الثلث او يكون الوصية لقصد الاضرار بهم دون القربة وبان يقر فى المرض
بدين كاذبا وتخصيص هذا القيد بهذا المقام لما ان الورثة مظنة لتفريط الميت فى
حقهم وصية من الله مصدر مؤكد لفعل محذوف وتنوينه للتفخيم ومن
متعلقة بمضمر وقع صفة له مؤكدة لفخامته الذاتية بالفخامة الاضافية اى يوصيكم
بذلك وصية كائنة من الله تعالى كقوله تعالى فريضة من الله ولعل السر فى تخصيص كل منهما
بمحله الاشعار بما بين الاحكام المتعلقة بالاصول والفروع وبين الاحكام المتعلقة بغيرهم من

التفاوت حسب التفاوت الفرضية والوصية وان كانت كلتاهما واجبة المراعاة او منصوب
بغير مضار على انه مفعول به فانه اسم فاعل معتمد على ذى الحال او منفى معنى فيعمل فى المفعول
الصريح ويعضده القراءة بالاضافة اى غير مضار لوصية الله وعهده لا فى شأن الاولاد فقط كما
قيل اذ لا تعلق لهم بالمقام بل فى شأن الورثة المذكورة ههنا فان الاحكام المفصلة كلها
مندرجة تحت قوله تعالى يوصيكم الله جارية مجرى تفسيره وبيانه ومضارتها الاخلال
بحقوقهم ونقصها بما ذكر من الوصية بما زاد على الثلث والوصية لقصد الاضرار دون القربة
والاقرار بالدين كاذبا وايقاعها على الوصية مع انها واقعة على الورثة حقيقة كما فى قوله
يا سارق الليلة اهل الدار للمبالغة فى الزجر عنها باخراجها مخرج مضارة امر الله تعالى
ومضادته وجعل الوصية عبارة عن الوصية بالثلث فما دونه يقتضى ان يكون غير مضار
حالا من ضمير الفعل المتعلق بالوصية فقط وذلك يؤدى الى الفصل بين الحال وعاملها
باجنبى هو المعطوف على وصية مع انه لا تمس به مادة المضارة لبقاء الاقرار بالدين على
اطلاقه والله عليم بالمضار وغيره حليم لا يعاجل بالعقوبة فلا يغتر بالامهال و
ايراد الاسم الجليل مع كفاية الاضمار لادخال الروعة وتربية المهابة تلك اشارة الى
الاحكام التى تقدمت فى شؤون اليتامى والمواريث وغير ذلك حدود الله اى شرائعه
المحدودة التى لا يجوز مجاوزتها ومن يطع الله ورسوله فى جميع الاوامر والنواهى التى من
جملتها ما فصل ههنا واظهار الاسم الجليل لما ذكر انفا يدخله جنات نصب على الظرفية
عند الجمهور وعلى المفعولية عند الاخفش تجرى من تحتها الانهار صفة لجنات منصوبة
حسب انتصابها خالدين فيها حال مقدرة من مفعول يدخله وصيغة الجمع
بالنظر الى جمعية من بحسب المعنى كما ان افراد الضمير بالنظر الى افراده لفظا وذلك اشارة
الى ما مر من دخول الجنات الموصوفة بما ذكر على وجه الخلود وما فيه من معنى البعد
للايذان بكمال علو درجته الفوز العظيم الذى لا فوز وراءه وصف الفوز وهو
الظفر بالخير بالعظيم اما باعتبار ذاته فان الفوز بالعظيم عظيم والجملة اعتراض
ومن يعص الله ورسوله ولو فى بعض الاوامر والنواهى قال مجاهد فيما اقتص
من المواريث وقال عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما من لم يرض بقسم الله ويتعد
ما قاله الله وقال الكلبى يعنى ومن يكفر بقسمة المواريث ويتعد حدوده استحلالا
والاظهار فى موقع الاضمار للمبالغة فى الزجر بتهويل الامر وتربية المهابة ويتعد
حدوده شرائعه المحدودة فى جميع الاحكام فيدخل فيها ما نحن فيه دخولا اوليا
يدخله وقرئ بنون العظمة فى الموضعين نارا اى عظيمة هائلة لا يقادر قدرها
خالدا فيها حال كما سبق ولعل ايثار الافراد ههنا نظرا الى ظاهر اللفظ واختيار الجمع
هناك نظرا الى المعنى للايذان بان الخلود فى دار الثواب بصفة الاجتماع اجلب للانس
كما ان الخلود فى دار العذاب بصفة الانفراد اشد فى استجلاب الوحشة وله عذاب
مهين اى وله مع عذاب الحريق الجسمانى عذاب اخر منهم لا يعرف كنهه وهو العذاب
الروحانى كما يؤذن به وصفه والجملة حالية واللاتى يأتين الفاحشة من
نسائكم شروع فى بيان بعض اخر من الاحكام المتعلقة بالنساء اثر بيان احكام المواريث
واللاتى جمع التى بحسب المعنى دون اللفظ وقيل جمع على غير قياس والفاحشة الفعلة
القبيحة اريد بها الزنا لزيادة قبحه والاتيان الفعل والمباشرة يقال اتى الفاحشة اى
فعلها وباشرها وكذا جاءها ورهقها وغشيها وقرئ بالفاحشة فالاتيان بمعناه
المشهور ومن متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل يأتين اى اللاتى يفعلن الزنا كائنة
من نسائكم اى من ازواجكم كما فى قوله تعالى والذين يظاهرون من نسائهم وقوله تعالى
من نسائكم اللاتى دخلتم بهن وبه قال السدى فاستشهدوا عليهن اربعة منكم
خبر للموصول والفاء للدلالة على سببية ما فى حيز الصلة للحكم اى فاطلبوا ان يشهد
عليهن باتيانها اربعة من رجال المؤمنين واحرارهم فان شهدوا عليهن بذلك
فامسكوهن فى البيوت اى فاحبسوهن فيها واجعلوها سجنا عليهن

حتى يتوفاهن الى ان يستوفى ارواحهن الموت وفيه تهويل للموت وابراز له فى صورة
من يتولى قبض الارواح وتوفيها او يتوفاهن ملئكة الموت او يجعل الله لهن سبيلا
اى يشرع لهن حكما خاصا بهن ولعل التعبير عنه بالسبيل للايذان بكونه طريقا مسلوكا
فليس فيه دلالة على كونه اخف من الحبس كما قاله ابو مسلم واللذان يأتيانها منكم هما
الزانى والزانية بطريق التغليب قاله السدى اريد بهما البكران منهما كما ينبئ عنه كون عقوبتهما
اخف من الحبس المخلد وبذلك يندفع التكرار خلا انه يبقى حكم الزانى المحصن مبهما
لخفاء الشركة فى المناط فآذوهما اى بالتوبيخ والتقريع وقيل بالضرب بالنعال ايضا
والظاهر ان اجراء هذا الحكم ايضا انما يكون بعد الثبوت لكن ترك ذكره تعويلا على ما ذكر
آنفا فان تابا عما فعلا من الفاحشة بسبب ما لقيا من زواجر الاذية وقوارع التوبيخ
كما ينبئ عنه الفاء واصلحا اى اعمالهما فاعرضوا عنهما بقطع الاذية والتوبيخ
فان التوبة والصلاح مما يمنع استحقاق الذم والعقاب وقد جوز ان يكون الخطاب للشهود
الواقفين على هناتهما ويراد بالايذاء ذمهما وتعنيفهما وتهديدهما بالرفع الى الولاة و
بالاعراض عنهما ترك التعرض لهما بالرفع اليهم قيل كانت عقوبة الفريقين المذكورين فى اوائل
الاسلام على ما مر التفصيل ثم نسخ بالحد لما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال خذوا عنى
قد جعل الله لهن سبيلا الثيب يرجم والبكر يجلد وقيل هذه الآية سابقة على الاولى
نزولا وكانت عقوبة الزنا مطلق الاذى ثم الحبس ثم الجلد ثم الرجم وقد جوز ان يكون
الامر بالحبس غير منسوخ بان يترك ذكر الحد لكونه معلوما بالكتاب والسنة ويوصى بامساكهن
فى البيوت بعد اقامة الحد صيانة لهن عن مثل ما جرى عليهن بسبب الخروج من البيوت والتعرض
للرجال ولا يخفى انه مما لا يساعده النظم الكريم وقال ابو مسلم وقد عزاه الى مجاهد
ان الاولى فى السحاقات وهذه فى اللواطين وما فى سورة النور فى الزناة والزوانى
متمسكا بان المذكور فى الاولى صيغة الاناث خاصة وفى الثانية صيغة الذكور ولا ضرورة
الى المصير الى التغليب على انه لا امكان له فى الاولى ويأباه الامر باستشهاد الاربعة فانه غير
معهود فى الشرع فيما عدا الزنا ان الله كان توابا مبالغا فى قبول التوبة رحيما واسع
الرحمة وهو تعليل للامر بالاعراض انما التوبة على الله استيناف مسوق لبيان ان
قبول التوبة من الله تعالى ليس على اطلاقه كما ينبئ عنه وصفه تعالى بكونه توابا رحيما
بل هو مقيد بما سينطق به النص الكريم فقوله تعالى التوبة مبتدأ وقوله تعالى للذين يعملون السوء
خبره وقوله تعالى على الله متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار فان تقديم الجار والمجرور على
عامله المعنوى مما لا نزاع فى جوازه وكذا الظرف او بمحذوف وقع حالا من ضمير المبتدأ
المستكن فيما تعلق به الخبر على رأى من جوز تقديم الحال على عاملها المعنوى عند كونها
ظرفا او حرف جر كما سبق فى تفسير قوله تعالى ولله على الناس حج البيت واياما كان فمعنى
كون التوبة عليه سبحانه صدور القبول عنه تعالى وكلمة على للدلالة على التحقق البتة بحكم جرى
العادة وسبق الوعد حتى كانه من الواجبات عليه سبحانه وهذا مراد من قال كلمة
على بمعنى من وقيل هى بمعنى عند وعن الحسن يعنى التوبة التى يقبلها الله تعالى وقيل اى
التوبة التى اوجب الله تعالى على نفسه بفضله قبولها وهذا يشير الى ان قوله تعالى على الله
صفة للتوبة بتقدير متعلقه معرفة على رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته اى
انما التوبة الكائنة على الله تعالى والمراد بالسوء المعصية صغيرة كانت او كبيرة وقيل الخبر
على الله وقوله تعالى للذين متعلق بما تعلق به الخبر او بمحذوف وقع حالا من الضمير المستكن فى
متعلق الخبر وليس فيه ما فى الوجه الاول من تقديم الحال على العامل المعنوى الا ان الذى يقتضيه
المقام ويستدعيه النظام هو الاول لما ان ما قبله من وصفه تعالى بكونه توابا انما
يقتضى بيان اختصاص قبول التوبة منه تعالى بالمذكورين وذلك انما يكون بجعل قوله تعالى
للذين الخ خبرا الا يرى الى قوله عز وجل وليست التوبة للذين
يعملون السيئات الخ فانه ناطق بما قلنا كانه قيل انما التوبة
لهؤلاء لا لهؤلاء بجهالة متعلق بمحذوف وقع حالا

من فاعل

من فاعل يعملون اى يعملون السوء ملتبسين بها اى جاهلين سفهاء او بيعملون على ان الباء
سببية اى يعملونه بسبب الجهالة لان ارتكاب الذنب مما يدعو اليه الجهل وليس المراد به
عدم العلم بكونه سوءا بل عدم التفكر فى العاقبة كما يفعل الجاهل قال قتادة اجمع اصحاب
الرسول صلى الله عليه وسلم فرأوا ان كل شئ عصى به ربه فهو جهالة عمدا كان او خطاء
وعن مجاهد من عصى الله تعالى فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته وقال الزجاج يعنى
بقوله بجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية ثم يتوبون من قريب اى من
زمان قريب وهو ما قبل حضور الموت كما ينبئ عنه ما سيأتى من قوله تعالى حتى اذا
حضر الخ فانه صريح فى ان وقت الاحتضار هو الوقت الذى لا يقبل فيه التوبة فبقى
ما وراءه فى حيز القبول وعن ابن عباس رضى الله عنه قبل ان ينزل به سلطان الموت وعن
الضحاك كل توبة قبل الموت فهو قريب وعن ابراهيم النخعى ما لم يؤخذ بكظمه وهو
مجرى النفس وروى ابو ايوب عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الله يقبل توبة العبد
ما لم يغرغر وعن عطاء ولو قبل موته بفواق ناقة وعن الحسن ان ابليس قال حين
اهبط الى الارض وعزتك لا افارق ابن آدم ما دام روحه فى جسده فقال تعالى
وعزتى لا اغلق عليه باب التوبة ما لم يغرغر ومن تبعيضية اى يتوبون بعض زمان
قريب كانه سمى ما بين وجود المعصية وبين حضور الموت زمانا قريبا ففى اى جزء
تاب من اجزاء هذا الزمان فهو تائب فاولئك اشارة الى المذكورين من حيث
اتصافهم بما ذكر وما فيه من معنى البعد باعتبار كونهم بانقضاء ذكرهم فى
حكم البعيد والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل احد ممن يصلح للخطاب
وهو مبتدأ وخبره قوله تعالى يتوب الله عليهم وما فيه من تكرار الاسناد لتقوية
الحكم وهذا وعد بقبول توبتهم اثر بيان ان التوبة لهم والفاء للدلالة على سببيتها
للقبول وكان الله عليما حكيما مبالغا فى العلم والحكمة فيبنى احكامه وافعاله
على اساس الحكمة والمصلحة والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها واظهار الاسم الجليل
فى موضع الاضمار للاشعار بعلة الحكم فان الالوهية منشأ لاتصافه تعالى بصفات
الكمال وليست التوبة للذين يعملون السيئات تصريح بما فهم من قصر القبول على توبة
من تاب من قريب وزيادة تعيين له ببيان توبة من عداهم بمنزلة العدم وجمع
السيئات باعتبار تكرر وقوعه فى الزمان المديد لا لان المراد بها جميع انواعها وبما
مر من السوء نوع منها حتى اذا حضر احدهم الموت قال انى تبت الآن حتى حرف
ابتداء والجملة الشرطية بعدها غاية لما قبلها اى ليس قبول التوبة للذين يعملون
السيئات الى حضور موتهم وقولهم حينئذ انى تبت الآن وذكر الآن لمزيد تعيين الوقت
وايثار قال على تاب لاسقاط ذلك عن درجة الاعتبار والتحاشى عن تسميته توبة
ولا الذين يموتون وهم كفار عطف على الموصول الذى قبله اى ليس
قبول التوبة لهؤلاء ولا لهؤلاء وانما ذكر هؤلاء مع انه لا توبة لهم رأسا
مبالغة فى بيان عدم قبول توبة المسوفين وايذانا بان وجودها كعدمها بل فى تكرير
حرف النفى فى المعطوف اشعار خفى بكون حال المسوفين فى عدم استتباع الجدوى
اقوى من حال الذين يموتون على الكفر والمراد بالموصولين اما الكفار خاصة واما
الفساق وحدهم وتسميتهم فى الجملة الحالية كفارا للتغليظ كما فى قوله تعالى ومن كفر
فان الله غنى عن العالمين واما من يعم الفريقين جميعا فالتسمية للتغليب ويجوز ان
يراد بالاول الفسقة وبالثانى الكفرة ففيه مبالغة اخرى اولئك اشارة الى الفريقين
وما فيه من معنى البعد للايذان بترامى حالهم فى الفظاعة وبعد منزلتهم فى السوء
وهو مبتدأ خبره اعتدنا لهم اى هيأنا لهم عذابا اليما تكرير الاسناد لما مر من
تقوية الحكم وتقديم الجار والمجرور على الصريح لاظهار الاعتناء بكون العذاب معدا لهم
وتنكير العذاب ووصفه للتفخيم الذاتى والوصفى يا ايها الذين آمنوا لا يحل لكم ان
ترثوا النساء كرها كان الرجل اذا مات قريبه يلقى ثوبه على امرأته او على خبائها ويقول

ارث امرأته كما ارث ماله فيصير بذلك احق بها من كل احد ثم ان شاء تزوجها بلا صداق
غير الصداق الاول وان شاء زوجها غيره واخذ صداقها ولم يعطها منه شيئا وان
شاء عضلها لتفتدي بما ورثت من زوجها وان ذهبت المرأة الى اهلها قبل القاء الثوب
فهي احق بنفسها فنهوا عن ذلك وقيل لهم لا يحل لكم ان تأخذوهن بطريق الارث
على زعمكم كما تحاز المواريث وهن كارهات لذلك او مكروهات عليه وقيل كانوا
يمسكونهن حتى يمتن ويرثوا منهن فقيل لهم لا يحل لكم ذلك وهن راضيات بامساككم
وقرئ لا تحل بالتاء الفوقانية على ان ترثوا بمعنى الوراثة وقرئ كرها بضم الكاف وهي
لغة كالضعف والضعف وكان الرجل اذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حبسها
مع سوء العشرة والقهر وضيق عليها لتفتدي منه بمالها وتختلع فقيل لهم ولا
تعضلوهن عطفا على ترثوا ولا لتأكيد النفي والخطاب للازواج والعضل الحبس والتضييق
ومنه عضلت المرأة بولدها اذا احتبست رحمها فخرج بعضه وبقي اي ولا ان تضيقوا
عليهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن اي من الصداق بان يدفعن اليكم بعضه
اضطرارا فتأخذوه منهن وانما لم يتعرض لفعلهن ايذانا بكونه بمنزلة العدم لصدوره
عنهن اضطرارا وانما عبر عن ذلك بالذهاب به لا بالاخذ ولا بالاذهاب للمبالغة
في تقبيحه ببيان تضمنه لامرين كل منهما محظور شنيع الاخذ والاذهاب لانه عبارة
عن الذهاب مستصحبا به الا ان يأتين بفاحشة مبينة على صيغة الفاعل من بين
بمعنى تبين وقرئ على صيغة المفعول وعلى صيغة الفاعل من ابان بمعنى تبين القبح من
النشوز وشكاسة الخلق وايذاء الزوج واهله بالبذاء والسلاطة ويعضده قراءة ابي
الا ان يفحشن عليكم وقيل الفاحشة الزنى وهو استثناء من اعم الاحوال او اعم الاوقات
او اعم العلل ولا يحل لكم عضلهن في حال من الاحوال او في وقت من الاوقات او لعلة
من العلل الا في حال اتيانهن بفاحشة او الا في وقت اتيانهن بها او الا لاتيانهن
بها فان السبب حينئذ يكون من جهتهن وانتم معذورون في طلب الخلع وعاشروهن
بالمعروف خطاب للذين يسيئون العشرة معهن والمعروف ما لا ينكره الشرع والمروءة والمراد
ههنا النصفة في المبيت والنفقة والاجمال في المقال ونحو ذلك فان كرهتموهن وسئمتم
صحبتهن بمقتضى الطبيعة من غير ان يكون من قبلهن ما يوجب ذلك من الامور المذكورة
فلا تفارقوهن بمجرد كراهة النفس واصبروا على معاشرتهن فعسى ان تكرهوا شيئا
ويجعل الله فيه خيرا كثيرا علة للجزاء اقيمت مقامه للايذان بقوة استلزامها اياه كانه
قيل فان كرهتموهن فاصبروا عليهن مع الكراهة فلعل لكم فيما تكرهونه خيرا كثيرا ليس
فيما تحبونه وعسى تامة رافعة لما بعدها مستغنية عن تقدير الخبر اي فقد قربت كراهتكم شيئا و
جعل الله فيه خيرا كثيرا فان النفس ربما تكره ما هو اصلح في الدين واحمد عاقبة وادنى
الى الخير وتحب ما هو بخلافه فليكن نظركم الى ما فيه خير وصلاح دون ما تهوى انفسكم
وذكر الفعل الاول مع الاستغناء عنه وانحصار العلية في الثاني للتوسل الى تعميم
مفعوله ليفيد ان ترتيب الخير الكثير من الله تعالى ليس مخصوصا بمكروه دون مكروه بل
هو سنة الهية جارية على الاطلاق حسب اقتضاء الحكمة وان ما نحن فيه مادة من
موادها وفيه من المبالغة في الحمل على ترك المفارقة وتعميم الارشاد ما لا يخفى وقرئ
ويجعل مرفوعا على انه خبر لمبتدأ محذوف والجملة حالية تقديره وهو اي ذلك الشيء
يجعل الله فيه خيرا كثيرا وقيل تقديره والله يجعل الله بوضع المظهر موضع المضمر
وتنوين خيرا للتفخيم الذاتي ووصفه بالكثرة لبيان فخامته الوصفية والمراد به ههنا
الولد الصالح وقيل الالفة والمحبة وان اردتم استبدال زوج اي تزوج امرأة
ترغبون فيها مكان زوج ترغبون عنها بان تطلقوها وآتيتم احداهن اي
احدى الزوجات فان المراد بالزوج هو الجنس والجملة حالية باضمار قد لا معطوفة على
الشرط اي وقد آتيتم التي تريدون ان تطلقوها قنطارا اي مالا كثيرا فلا تأخذوا
منه اي من ذلك القنطار شيئا يسيرا فضلا عن الكثير أتأخذونه بهتانا واثما

مبينا

مبينا استيناف مسوق لتقرير النهي والتنفير عن المنهي عنه والاستفهام للانكار والتوبيخ اي
أتأخذونه باهتين وآثمين او للبهتان وللاثم فان احدهم كان اذا تزوج امرأة بهت
التي تحته بفاحشة حتى يلجئها الى الافتداء منه بما اعطاها ليصرفه الى تزوج الجديدة فنهوا
عن ذلك والبهتان الكذب الذي يبهت المكذوب عليه ويدهشه وقد يستعمل في الفعل الباطل
ولذلك فسر ههنا بالظلم وقوله عز وجل وكيف تأخذونه انكار لاخذه اثر انكار وتنفير عنه
عقب تنفير وقد بولغ فيه حيث وجه الانكار الى كيفية الاخذ ايذانا بانه مما لا سبيل له الى التحقق
والوقوع اصلا لان ما يدخل تحت الوجود لا بد ان يكون على حال من الاحوال فاذا لم يكن لشيء
حال اصلا لم يكن له حظ من الوجود قطعا وقوله عز وجل وقد افضى بعضكم الى بعض
حال من فاعل تأخذونه مفيدة لتأكيد النكير وتقرير الاستبعاد اي على اي حال او في اي حال تأخذونه
والحال انه قد جرى بينكم وبينهن احوال منافية له من الخلوة وتقرر المهر وثبوت حق خدمتهن
لكم وغير ذلك واخذن منكم ميثاقا غليظا عطف على ما قبله داخل في حكمه اي اخذن منكم
عهدا وثيقا وهو حق الصحبة والمعاشرة او ما اوثق الله تعالى عليهم في شأنهن بقوله تعالى
فامساك بمعروف او تسريح باحسان او ما اشار اليه النبي صلى الله عليه وسلم اخذتموهن بامانة الله
واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم شروع في بيان من
يحرم نكاحها من النساء ومن لا يحرم وانما خص هذا النكاح بالنهي ولم ينظم في سلك
نكاح المحرمات الآتية مبالغة في الزجر عنه حيث كانوا مصرين على تعاطيه قال ابن عباس
رضي الله عنهما وجمهور المفسرين كان اهل الجاهلية يتزوجون بازواج آبائهم فنهوا
عن ذلك واسم الآباء ينتظم الاجداد مجازا فتثبت حرمة ما نكحوها نصا واجماعا
ويستقل في اثبات هذه الحرمة نفس النكاح اذا كان صحيحا واما اذا كان فاسدا فلا بد
في اثباتها من الوطء او ما يجري مجراه من التقبيل والمس بشهوة ونحوهما بل هو
المثبت لها في الحقيقة حتى لو وقع شيء من ذلك بحكم ملك اليمين او بالوجه المحرم تثبت
به الحرمة عندنا خلافا للشافعي رح في المحرم اي لا تنكحوا التي نكحها آباؤكم وايثار ما
على من للذهاب الى الوصف وقيل مصدرية على ارادة المفعول من المصدر
من النساء بيان لما نكح على الوجهين الا ما قد سلف استثناء مما نكح مفيد
للمبالغة في التحريم باخراج الكلام مخرج التعليق بالمحال على طريقة قوله ولا عيب فيهم غير
ان سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب والمعنى لا تنكحوا حلائل آبائكم الا من
ماتت منهن والمقصود سد طريق الاباحة بالكلية ونظيره قوله تعالى حتى يلج الجمل في سم
الخياط وقيل هو استثناء مما يستلزمه النهي ويستوجبه مباشرة معناه لكن ما قد
سلف لا مؤاخذة عليه لا انه مقرر وثابت قوله تعالى انه كان فاحشة ومقتا فانه
تعليل للنهي وبيان لكون المنهي عنه في غاية القبح مبغوضا اشد البغض فانه لم يزل في حكم الله
تعالى وعلمه موصوفا بذلك ما رخص فيه لامة من الامم فلا يليق ان يوسط
بينهما ما يهون امره من ترك المؤاخذة على ما سلف منه وساء سبيلا في كلمة ساء
قولان احدهما انها جارية مجرى بئس في الذم والعمل ففيها ضمير مبهم يفسره ما بعده والمخصوص
بالذم محذوف تقديره وساء سبيلا سبيل ذلك النكاح كقوله تعالى بئس الشراب اي ذلك
الماء وثانيهما انها كسائر الافعال وفيها ضمير يعود الى ما عاد اليه ضمير انه وسبيلا
تمييز والجملة اما مستأنفة لا محل لها من الاعراب او معطوفة على خبر كان محكية
بقول مضمر هو المعطوف في الحقيقة تقديره ومقولا في حقه ساء سبيلا فان السنة
الامم كافة لم تزل ناطقة بذلك في الاعصار والامصار وقيل مراتب القبح ثلاث
القبح العقلي والقبح الشرعي والقبح العادي وقد وصف الله تعالى هذا النكاح بكل ذلك
فقوله تعالى فاحشة مرتبة قبحه العقلي وقوله تعالى ومقتا مرتبة قبحه الشرعي وقوله
تعالى وساء سبيلا مرتبة قبحه العادي وما اجتمع فيه هذه المراتب فقد بلغ اقصى
مراتب القبح حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم
وبنات الاخ وبنات الاخت ليس المراد تحريم ذواتهن بل تحريم نكاحهن

وما يقصد به من التمتع بهن وبينا امتناع ورود ملك النكاح عليهن وانتفاء محليتهن له رأساً واما حرمة التمتع بهن بملك اليمين في المواد التي يتصور فيها قرار الملك كما في بعض المعطوفات على تقدير رقهن فثابتة بدلالة النص لاتحاد المدار الذي هو عدم محلية ابضاعهن للملك لا بعبارته بشهادة سياق النظم الكريم وسياقه وانما لم يوجب المدار المذكور امتناع ورود ملك اليمين عليهن رأساً ولا حرمة سببه الذي هو العقد او ما يجري مجراه كما اوجب حرمة عقد النكاح وامتناع ورود حكمه عليهن لان مورد ملك اليمين ليس هو البضع الذي هو مورد ملك النكاح حتى يفوت بفوات محليته له للملك فانه حيث كان مورده ذلك فات بفوات محليته قطعاً وانما مورده الرقبة الموجودة في كل رقيق فيتحقق محله حتماً ثم يزول بوقوع العتق في المواد التي سبب حرمتها محض القرابة النسبية كالمذكورات ويبقى في البواقي على حاله مستتبعاً لجميع احكامه المقصودة منه شرعاً واما حل الوطء فليس من تلك الاحكام فلا ضير في تخلفه عنه كما في المجوسية و الامهات تعم الجدات وان علون والبنات تتناول بناتهن وان سفلن والاخوات ينتظمن الاخوات من الجهات الثلث وكذا الباقيات والعمة كل انثى ولدها من ولد والدك والخالة كل انثى ولدها من ولد والدتك قريباً او بعيداً وبنات الاخ وبنات الاخت تتناول القربى والبعدى وامهاتكم اللاتي ارضعنكم من الرضاعة نزل الله تعالى الرضاعة منزلة النسب حتى سمى المرضعة اماً للرضيع والمراضعة اختاً وكذلك زوج المرضعة ابوه وابواه جداه واخته وعمته وكل ولد ولده من غير المرضعة قبل الرضاع وبعده فهم اخوته و اخواته لابيه وام المرضعة جدته واختها خالته وكل من ولد لها من هذا الزوج فهو اخوته واخواته لابيه وامه ومن ولد لها من غيره فهم اخوته واخواته لامه ومنه قوله عليه السلام يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب وهو حكم كلي جار على عمومه واما ام اخيه لاب واخت ابيه لام وام ام ابنه وام عمته وام خالته لاب فليست حرمتهن من جهة النسب حتى يخل بعمومه ضرورة حلهن في صورة الرضاع بل من جهة المصاهرة الا يرى ان الاولى موطوءة ابيه والثانية بنت موطوءته والثالثة ام موطوءته والرابعة موطوءة جده الصحيح والخامسة موطوءة جده الفاسد وامهات نسائكم شروع في بيان المحرمات من جهة المصاهرة اثر بيان المحرمات من جهة الرضاعة التي لها لحمة كلحمة النسب والمراد بالنساء المنكوحات على الاطلاق سواء كن مدخولاً بهن اولا وعليه جمهور العلماء وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في رجل تزوج امرأة ثم طلقها قبل ان يدخل بها لا باس بان يتزوج امها وعن عمران بن الحصين ان الام تحرم بنفس العقد وعن مسروق هي مرسلة فارسلوا ما ارسل الله وعن ابن عباس رضي الله عنهما ابهموا ما ابهم الله خلا انه روي عنه وعن علي وزيد وابن عمر وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم انهم قرؤا وامهات نسائكم اللاتي دخلتم بهن وعن جابر روايتان وعن سعيد بن المسيب عن سعيد زيد انه اذا ماتت عنده فاخذ ميراثها كره ان يخلف على امها واذا طلقها قبل ان يدخل بها فان شاء فعل اقام الموت في ذلك مقام الدخول كما اقام مقامه في باب المهر والعدة ويلحق بهن الموطوءات بوجه من الوجوه المعدودة فيما سبق والممسوسات ونظائرهن والامهات تعم المرضعات كما تعم الجدات حسبما ذكر وربائبكم اللاتي في حجوركم الربائب جمع ربيبة فعيل بمعنى مفعول والتاء للنقل الى الاسمية والربيب ولد المرأة من آخر سمي به لانه يربه غالباً كما يرب ولده وان لم يكن ذلك امراً مطرداً وهو المعنى بكونهن في الحجور فان شأنهن الغالب المعتاد ان يكن في حضانة امهاتهن تحت حماية ازواجهن لا كونهن كذلك بالفعل وفائدة وصفهن بذلك تقوية علة الحرمة وتكميلها كما انها النكتة في ايرادهن باسم الربائب دون بنات النساء فان كونهن بصدد احتضانهم لهن وفي شرف التقلب في حجورهم وتحت حمايتهم وتربيتهم مما يقوي الملابسة والشبه بينهن وبين اولادهم ويستدعي اجراءهن مجرى بناتهم لا تقييد الحرمة بكونهن في حجورهم بالفعل

وأخواتكم صح

ابنتها ولا يحل له أن يتزوج صح

كما روي عن علي رضي الله عنه وبه اخذ داود ومذهب جمهور العلماء ما ذكر اولا لاجل الاختلاف ما في قوله تعالى من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فانه لتعيين ما به قطعاً فان كلمة من متعلقة بمحذوف وقع حالاً من ربائبكم او من ضميرها المستكن في الظرف لانه ما وقع صلة تحمل ضميراً اي وربائبكم اللاتي استقررن في حجوركم كائنات من نسائكم الخ ولا مساغ لجعله حالاً من امهات او مما اضيفت هي اليه خاصة وهو بين لا سترة به ولا مع ما ذكر اولاً ضرورة ان حاليته من ربائبكم او من ضميرها يقتضي كون كلمة من ابتدائية وحاليته من امهات او نسائكم كونها بيانية وادعاء كونه اتصالية منتظمة لمعنى الابتداء والبيان او جعل الموصول صفة للنسائين مع اختلاف عاملهما مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن امثاله مع انه سعي في اسكات ما نطق به النبي صلى الله عليه وسلم واتفق عليه الجمهور حسبما ذكر فيما قبل واما ما نقل من القراءة فضعيفة الرواية على تقدير الصحة محمولة على النسخ ومعنى الدخول بهن ادخالهن الستر والباء للتعدية وهي كناية عن الجماع كقولهم بنى عليها وضرب عليها الحجاب وفي حكمه اللمس ونظائره كما مر فان لم تكونوا اي فيما قبل دخلتم بهن اصلاً فلا جناح عليكم اي في نكاح الربائب وهو تصريح بما اشعر به ما قبله والفاء الاولى لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان بيان حكم الدخول مستتبع لبيان حكم عدمه وحلائل ابنائكم اي زوجاتهم سميت الزوجة حليلة لحلها للزوج او لحلولها في محله وقيل لحل كل منهما ازار صاحبه وفي حكمهن من بنائهم ومن يجري مجراهن من الممسوسات ونظائرهن قوله تعالى الذين من اصلابكم لاخراج الادعياء دون ابناء الاولاد والابناء من الرضاع فانهم فانهن وان سفلوا في حكم الابناء الصلبية وان تجمعوا بين الاختين في حيز الرفع عطفاً على ما قبله من المحرمات والمراد به جمعهما في النكاح لا في ملك اليمين واما جمعهما في الوطء بملك اليمين فلحق به بطريق الدلالة لاتحادهما في المدار لقوله عليه السلام من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجمعن ماءه في رحم اختين لا في نفس ملك اليمين فانه ليس في معنى النكاح في الافضاء الى الوطء مستلزماً له ولذلك يصح شراء المجوسية دون نكاحها حتى لو وطئهما لا يحل له وطء احداهما حتى يحرم عليه وطء الاخرى بسبب من الاسباب وكذا لو تزوج اخت امته الموطوءة حكماً فكانه جمعهما وطئاً واسناد الحرمة الى جمعهما لا الى الثانية منهما بان يقال واخوات نسائكم للاحتراز عن افادة الحرمة المؤبدة كما في المحرمات السابقة ولكونه بمعزل من الدلالة على حرمة الجمع بينهما على سبيل المعية ويشترك في هذا الحكم بين المرأة وعمتها ونظائرها فان مدار حرمة الجمع بين الاختين افضاؤه الى قطع ما امر الله بوصله وذلك متحقق في الجمع بين هؤلاء بل اولى فان العمة والخالة بمنزلة الام فقوله صلى الله عليه وسلم لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا ابنة اخيها ولا على ابنة اختها من قبيل بيان التغيير وقيل هو مشهور يجوز به الزيادة على الكتاب الا ما قد سلف استثناء منقطع اي لكن ما قد مضى لا تؤاخذون به ولا سبيل الى جعله متصلاً لقصد التأكيد والمبالغة كما مر فيما سلف لان قوله تعالى ان الله كان غفوراً رحيماً تعليل لما افاده الاستثناء فيتحتم الانقطاع وقال عطاء والسدي معناه الا ما كان من يعقوب عليه السلام فانه جمع بين ليا ام يهوذا وبين راحيل ام يوسف عليه السلام لا يساعده التعليل لما ان ما فعله يعقوب عليه السلام كان حلالاً في شريعته وقال ابن عباس رضي الله عنهما كان اهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله تعالى الا امرأة الاب والجمع بين الاختين وروى هشام بن عبيد الله عن محمد بن الحسن رحمه الله انه قال كان اهل الجاهلية يعرفون هذه المحرمات الا اثنين نكاح امرأة الاب والجمع بين الاختين الا يرى انه قد عقب النهي عن كل منهما بقوله تعالى الا ما قد سلف وهذا يشير الى كون الاستثناء فيهما على سنن واحد ويأباه اختلاف التعليلين والمحصنات بفتح الصاد وهن ذوات الازواج احصنهن التزوج او الازواج او الاولياء اي اعفهن عن الوقوع في الحرام وقرئ على صيغة اسم الفاعل فانهن احصن فروجهن من غير ازواجهن او احصن ازواجهن وقيل الصيغة للفاعل على القراءة الاولى ايضاً وفتح الصاد محمول

على الشذوذ كما في نظريته متلوح ومسهب من القح واسهب قيل قد ورد الاحصان في القرآن
بازاء اربعة معان الاول التزوج كما في هذه الآية الكريمة الثاني العفة كما في قوله تعالى محصنين
غير مسافحين الثالث الحرية كما في قوله تعالى ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات
والرابع الاسلام كما في قوله تعالى فاذا احصن قيل في تفسيره اى اسلمن وهي معطوفة
على المحرمات السابقة وقوله تعالى من النساء متعلق بمحذوف وقع حالا منها اي
كائنات من النساء وفائدته تأكيد عمومها لا دفع توهم شمولها للرجال بناء على كونها
صفة للانفس كما توهم الا ما ملكت ايمانكم استثناء من المحصنات استثناء
النوع من الجنس اي مملوكة واسناد الملك الى الايمان لما ان سببه الغالب هو الصفقة الواقعة
بها وقد اشتهر ذلك في الارقاء لاسيما في امائهم وهن المرادة ههنا رعاية للمقابلة
بينه وبين ملك النكاح الوارد على الحرائر والتعبير عنهن بما لاسقاطهن بما فيهن من
قصور الرق عن رتبة العقلاء وهي اما عامة بحسب عموم صلتها فالاستثناء ح ليس
لاخراج جميع افرادها من حكم التحريم بطريق شمول النفي بل بطريق نفي الشمول
المستلزم لاخراج بعضها اى حرمت عليكم المحصنات على الاطلاق الا المحصنات اللاتي تحت
ملكتموهن فانهن ليست من المحرمات على الاطلاق بل فيهن من لا يحرم نكاحهن في الجملة وهن المسبيات
بغير ازواجهن او مطلقا حسب اختلاف الرأيين واما خاصة بالمذكورات فالمعنى حرمت
عليكم المحصنات الا اللاتي سبين فان نكاحهن مشروع في الجملة اي لغير ملاكهن واما
حلهن لهم بملك اليمين فمفهوم بدلالة النص لاتحاد المناط لا بعبارته لما عرفت من ان
مساق النظم الكريم لبيان حرمة التمتع بهن بحكم ملك اليمين بطريق دلالة النص وذلك
مما لا يجري فيه الاستثناء قطعا واما عدتهن من ذوات الازواج مع تحقق الفرقة
بينهن وبين ازواجهن قطعا بالتباين او بالسبي على اختلاف الرأيين فمبني على اعتقاد
الناس حيث كانوا حينئذ غافلين عن الفرقة الا يرى الى ما روي عن ابي سعيد الخدري
رضي الله عنه انه قال اصبنا يوم اوطاس سبايا لهن ازواج فكرهنا ان نقع عليهن فسألنا
النبي صلى الله عليه وسلم وفي رواية عنه قلنا يا رسول الله كيف نقع على نساء قد عرفنا
انسابهن وازواجهن فنزلت والمحصنات من النساء الا ما ملكت ايمانكم فاستحللناهن
وفي رواية اخرى عنه ونادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم الا لا توطأ حامل حتى
تضع ولا حائل حتى تحيض فاباح وطأهن بعد الاستبراء وليس في ترتيب هذا الحكم على نزول
الآية الكريمة ما يدل على كونها مسوقا لها فان ذلك انما يتوقف على افادتها له بوجه
من وجوه الدلالات لا على افادتها بطريق العبارة او نحوها هذا وقد روي عن ابي سعيد
رضي الله عنه انه قال انها نزلت في نساء كن يهاجرن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهن
ازواج فيتزوجهن بعض المسلمين ثم تقدم ازواجهن مهاجرين فنهي عن نكاحهن فالمحصنات
حينئذ عبارة عن مهاجرات يتحقق او يتوقع من ازواجهن الاسلام والمهاجرة ولذلك
لم يزل عنهن اسم الاحصان والنهي لتحريم المحقق وتعرف حال المتوقع والا فما عداهن
بمعزل من الحرمة واستحقاق اطلاق الاسم عليهن كيف لا وحيث انقطعت العلاقة بين
المسبية وزوجها مع اتحادهما في الدين فلأن ينقطع ما بين المهاجرة وزوجها اقوى واولى
كما يفصح عنه قوله تعالى فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حل
لهم ولا هم يحلون لهن الآية كتاب الله مصدر مؤكد اى كتب الله عليكم تحريم
هؤلاء كتابا وفرضه فرضا وقيل منصوب على الاغراء بفعل مضمر اي الزموا كتاب
الله وعليكم متعلق اما بالمصدر او بمحذوف وقع حالا منه وقيل هو اغراء آخر
مؤكد لما قبله قد حذف مفعوله لدلالة المذكور عليه او بنفس عليكم على رأي من جوز
تقديم المنصوب في باب الاغراء كما في قوله يا ايها المائح دلوي دونكا اني رأيت الناس
يحمدونكا وقرئ كتب الله بالجمع والرفع اى هذه فرائض الله عليكم وقرئ كتب الله بلفظ الفعل
واحل لكم عطف على حرمت عليكم الخ وتوسيط قوله تعالى كتاب الله عليكم بينهما
للمبالغة في الحمل على المحافظة على المحرمات المذكورة وقرئ على صيغة المبني للفاعل فيكون معطوفا

على الفعل

على الفعل المقدر وقيل بل على حرمت الخ فانهما جملتان متقابلتان مؤسستان للتحريم و
التحليل المنوطين بامر الله تعالى ولا ضير في اختلاف المسند اليه لفظا لاسيما بعد
ما اكدت الاولى بما يدل على ان المحرم هو الله تعالى ما وراء ذلكم اشارة الى
ما ذكر من المحرمات المعدودة اى احل لكم نكاح ما سواهن انفرادا وجمعا ولعل
ايثار اسم الاشارة المتعرض لوصف المشار اليه وعنوانه على الضمير للذات فقط للتذكير
بما في كل واحدة منهن من العنوان الذي عليه يدور حكم الحرمة فيفهم مشاركة من
في معناهن لهن فيها بطريق الدلالة فان حرمة الجمع بين المرأة وعمتها وبينها
وبين خالتها ليست بطريق العبارة بل بطريق الدلالة كما سلف وقيل ليس المراد
بالاحلال مطلقا اى على جميع الاحوال حتى يرد انه يلزم منه حل الجمع بين المرأة
وعمتها وبينها وبين خالتها بل انما هو المراد احلالهن في الجملة اى على بعض الاحوال
ولا ريب في حل نكاحهن بطريق الانفراد ولا يقدح في ذلك حرمته بطريق الجمع الا يرى
ان حرمة نكاح المعتدة والمطلقة ثلثا والخامسة ونكاح الامة على الحرة ونكاح الملاعنة
لا يقدح في حل نكاحهن بعد العدة وبعد التحليل وبعد تطليق الرابعة وانقضاء العدة
وبعد تطليق الحرة وبعد اكذاب الملاعن نفسه وانت خبير بان الحل يجب ان يتعلق
ههنا بما تعلق به الحرمة فيما سلف وقد تعلق هناك بالجمع فلا بد ان يتعلق الحل ههنا
به ايضا ان تبتغوا متعلق بالفعلين المذكورين على انه مفعول له لكن لا باعتبار ذاتيهما
بل باعتبار بيانهما واظهارهما اى بين لكم تحريم المحرمات المعدودة واحلال ما سواهن
ارادة ان تبتغوا باموالكم والمفعول محذوف اى تبتغوا النساء او متروك اى تفعلوا
الابتغاء باموالكم بصرفها الى مهورهن او بدل من ما وراء ذلكم بتقدير ضمير المفعول
محصنين حال من فاعل تبتغوا والاحصان العفة وتحصين النفس عن الوقوع فيما يوجب
اللوم والعقاب غير مسافحين حال ثانية منه او حال من الضمير في محصنين والسفاح الزنا
والفجور من السفح الذي هو صب المني سمي به لانه الغرض منه ومفعول الفعلين محذوف
اى محصنين فروجكم غير مسافحين الزواني وهي في الحقيقة حال مؤكدة لان المحصن غير
مسافح البتة وما في قوله عز وجل فما استمتعتم به منهن اما عبارة عن النساء او
عما يتعلق بهن من الافعال وعلى التقديرين فهي اما شرطية ما بعدها شرطها واما موصولة
ما بعدها صلتها وايا ما كان فهي مبتداء خبرها على تقدير كونها شرطية اما فعل الشرط او جوابه
او كلاهما على الخلاف المشهور والمعروف وعلى تقدير كونها موصولة قوله تعالى فآتوهن اجورهن
والفاء لتضمن الموصول معنى الشرط ثم على تقدير كونها عبارة عن النساء فالعائد الى المبتدأ
هو الضمير المنصوب في فآتوهن سواء كانت شرطية او موصولة ومن بيانية او تبعيضية محلها
النصب على الحالية من الضمير المجرور في به والمعنى فاى فرد استمتعتم به او فالفرد الذي
استمتعتم به حال كونه من جنس النساء او بعضهن فآتوهن اجورهن وقد روعي تارة
جانب اللفظ فافرد الضمير اولا واخرى جانب المعنى فجمع ثانيا وثالثا واما على تقدير كونها
عبارة عما يتعلق بهن فمن ابتدائية متعلقة بالاستمتاع والعائد الى المبتدأ محذوف
والمعنى اي فعل استمتعتم به من جهتهن من نكاح او خلوة او نحوهما او فالفعل الذي استمتعتم
به من قبلهن من الافعال المذكورة فآتوهن اجورهن لاجله او بمقابلته والمراد بالاجور
المهور فانها اجور ابضاعهن فريضة حال من الاجور بمعنى مفروضة او نعت لمصدر
محذوف اى ايتاء مفروضا او مصدر مؤكد اى فرض ذلك فريضة اى لهن عليكم ولا
جناح عليكم فيما تراضيتم اى لا اثم عليكم فيما تراضيتم به من الحط عن المهر او
الابراء منه على طريقة قوله تعالى فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه اثر قوله تعالى وآتوا
النساء صدقاتهن وقوله الا ان يعفون وتعميمه للزيادة على المسمى لا يساعده رفع
الجناح لانها ليست مظنة الجناح الا ان يجعل الخطاب للازواج تغليبا فان اخذ الزيادة
على المسمى مظنة الجناح على الزوجة وقيل فيما تراضيتم به من نفقة ونحوها وقيل
من مقام او فراق ولا يساعده قوله تعالى من بعد الفريضة اذ لا تعلق لهما بالفريضة الا

ان يكون الفراق بطريق المخالعة وقيل نزلت في المتعة التي هي النكاح الى وقت معلوم من يوم او
اكثر سميت بذلك لان الغرض منها مجرد الاستمتاع بالمرأة واستمتاعها بما يعطى وقد ابيحت
ثلثة ايام حين فتحت مكة شرفها الله تعالى ثم نسخت لما روي انه صلى الله عليه وسلم اباحها
ثم اصبح يقول يا ايها الناس اني كنت امرتكم بالاستمتاع من هذه النساء الا ان الله حرم
ذلك الى يوم القيمة وقيل ابيح مرتين وحرم مرتين وروي عن ابن عباس رضي الله عنه انه رجع
عن القول بجوازه عند موته وقال اللهم اني اتوب اليك من قولي بالمتعة وقولي في الصرف
ان الله كان عليما بمصالح العباد حكيما فيما شرع لهم من الاحكام ولذلك شرع لكم هذه
الاحكام اللائقة بحالكم ومن لم يستطع منكم من اما شرطية ما بعدها شرطها او
موصولة ما بعدها صلتها والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يستطيع اي
حال كونه منكم وقوله تعالى طولا اي غنى وسعة واعتلاء ونيلا واصله الزيادة والفضل
مفعول يستطيع وقوله عز وجل ان ينكح المحصنات المؤمنات اما مفعول صريح لطولا
فان اعمال المصدر المنون شايع ذائع كما في قوله تعالى او اطعام في يوم ذي مسغبة يتيما
ذا مقربة كانه قيل ومن لم يستطع منكم ان ينال نكاحهن واما بتقدير حرف الجر اي ومن
لم يستطع منكم غنى الى نكاحهن او لنكاحهن فالجار في محل النصب صفة لطولا اي طولا
موصلا اليه او كائنا له او على نكاحهن على ان الطول بمعنى القدرة في القاموس الطول والطائل
والطائلة الفضل والقدرة والغنى والسعة ومحل ان بعد حرف الجر نصب عند سيبويه والفراء
وجر عند الكسائي والاخفش واما بدل من طولا لان الطول فضل والنكاح قدرة واما مفعول
ليستطيع وطولا مصدر موكد له لانه بمعناه اذ الاستطاعة هو الطول او تمييز اي ومن
لم يستطع منكم نكاحهن استطاعة او من جهة الطول والغنى لا من جهة الطبيعة والمزاج
فان عدم الاستطاعة من تلك الجهة لا تعلق له بالمقام والمراد بالمحصنات الحرائر بدليل
مقابلتهن بالمملوكات فان حريتهن احصنتهن عن ذل الرق والابتذال وغيرهما من صفات
القصور والنقصان وقوله تعالى فمما ملكت ايمانكم اما جواب للشرط او خبر للموصول
والفاء لتضمنه معنى الشرط والجار متعلق بفعل مقدر حذف مفعوله وما موصولة اي
فلينكح امرأة او امة من النوع الذي ملكته ايمانكم وهو في الحقيقة متعلق بمحذوف
وقع صفة لذلك المفعول المحذوف ومن تبعيضية اي فلينكح امرأة كائنة من ذلك
النوع وقيل من زائدة والموصول مفعول للفعل المقدر اي فلينكح ما ملكته ايمانكم وقوله تعالى
من فتياتكم المؤمنات في محل النصب على الحالية من الضمير في ملكت الراجع الى ما وقيل
هو المفعول للفعل المقدر على زيادة من ومما ملكت متعلق بنفس الفعل ومن لابتداء الغاية
او بمحذوف وقع حالا من فتياتكم ومن للتبعيض اي فلينكح فتياتكم كائنات بعض ما
ملكت ايمانكم والمؤمنات صفة لفتياتكم على كل تقدير وقيل هو المفعول للفعل
المقدر ومما ملكت على ما تقدم آنفا ومن فتياتكم حال من العائد المحذوف وظاهر النظم
الكريم يفيد عدم جواز النكاح الامة للمستطيع كما ذهب اليه الشافعي رح وعدم جواز
نكاح الامة الكتابية اصلا كما هو رأي اهل الحجاز وقد جوزهما ابو حنيفة رح متمسكا بالعمومات
فحمل الشرط والوصف على الافضلية ولا نزاع فيها لاحد وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه انه قال
ومما وسع الله تعالى على هذه الامة نكاح الامة واليهودية والنصرانية وان كان موسرا
وقوله تعالى والله اعلم بايمانكم جملة معترضة جيء بها لتأنيسهم بنكاح الاماء واستنزالهم
من رتبة الاستنكاف منه ببيان ان مناط التفاضل ومدار التفاخر هو الايمان دون
الاحساب والانساب على ما نطق به قوله عز قائلا يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر
وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقيكم والمعنى انه تعالى
اعلم منكم بمراتبكم في الايمان الذي به ينتظم احوال العباد وعليه يدور فلك المصالح
في المعاش والمعاد ولا تعلق له بخصوص الحرية والرق فرب امة يفوق ايمانها ايمان
الحرائر وقوله تعالى بعضكم من بعض ان اريد به الاتصال من حيث الدين فهو بيان
لتناسبهم من تلك الحيثية اثر بيان تفاوتهم في ذلك وان اريد به الاتصال من حيث النسب

فهو اعتراض آخر موكد للتأنيس من جهة اخرى والخطاب في الموضعين اما لمن كما في الخطاب الذي
يعقبه قد روعي فيما سبق جانب اللفظ وههنا جانب المعنى والالتفات للاهتمام بالترغيب
والتأنيس واما لغيرهم من المسلمين كالخطابات السابقة لحصول الترغيب بخطابهم
ايضا واياما كان فاعادة الامر بالنكاح على وجه الخطاب في قوله تعالى فانكحوهن مع
انفهامه من قوله تعالى فمما ملكت ايمانكم حسبما ذكر لزيادة الترغيب في نكاحهن و
تقييده بقوله تعالى باذن اهلهن وتصديره بالفاء للايذان بترتبه على ما قبله اي واذ
قد وقفتم على جلية الامر فانكحوهن باذن مواليهن ولا تترفعوا عنهن وفي اشتراط اذن
الموالي دون مباشرتهم للعقد اشعار بجواز مباشرتهن له وآتوهن اجورهن اي مهورهن
بالمعروف متعلق بآتوهن اي ادوا اليهن مهورهن بغير مطل وضرار والجاء الى الاقتضاء
واللز حسبما يقتضيه الشرع والعادة ومن ضرورته ان يكون الاداء اليهن باذن الموالي
فيكون ذكر ايتائهن لبيان جواز الاداء اليهن لا لكون المهور لهن وقيل اصله
آتوا مواليهن فحذف المضاف واوصل الفعل الى المضاف اليه محصنات حال من فاعل
مفعول فانكحوهن اي حال كونهن عفائف عن الزنا غير مسافحات حال موكدة اي
غير مجاهرات به ولا متخذات اخدان عطف على مسافحات ولا لتأكيد ما في غير من
معنى النفي والخدن الصاحب قال ابو زيد الاخدان الاصدقاء على الفاحشة والواحد خدن
وخدين والجمع للمقابلة بالانقسام على معنى ان لا يكون لواحدة منهن خدن لا على معنى
ان لا يكون لها اخدان اي غير مجاهرات بالزنا ولا مسرات له وكان الزنا في الجاهلية
منقسما الى هذين القسمين فاذا احصن اي بالتزويج وقرئ على البناء للفاعل اي
احصن فروجهن او ازواجهن فان اتين بفاحشة اي فعلن فاحشة وهي الزنا
فعليهن اي فثابت عليهن شرعا نصف ما على المحصنات اي الحرائر الابكار من العذاب
من الحد الذي هو جلد مائة فنصفه خمسون كما هو كذلك قبل الاحصان فالمراد بيان
عدم تفاوت حدهن بالاحصان كتفاوت حد الحرائر فالفاء في فان اتين جواب اذا و
الثانية جواب ان والشرط الثاني مع جوابه مترتب على وجود الاول كما في قولك اذا
اتيتني فان لم اكرمك فعبدي حر ذلك اي نكاح الاماء لمن خشي العنت منكم اي لمن خاف
وقوعه في الاثم الذي اليه غلبة الشهوة واصل العنت انكسار العظم بعد الجبر فاستعير لكل
مشقة وضرر يعتري الانسان بعد صلاح حاله ولا ضرر اعظم من مواقعة المآثم بارتكاب افحش
القبايح وقيل اريد به الحد لانه اذا هويها يخشى ان يواقعها فيحد والاول هو اللائق
بحال المؤمن دون الثاني لايهامه ان المحذور عنده الحد لا ما يوجبه وان تصبروا
اي عن نكاحهن متعففين كافين انفسكم عما تشتهيه من المعاصي خير لكم من نكاحهن
وان سبقت كلمة الرخصة فيه لما فيه من تعريض الولد للرق قال عمر رضي الله عنه ايما حر تزوج بامة
فقد ارق نصفه وقال سعيد بن جبير ما نكاح الامة من الزنا الا قريب ولان حق المولى
فيها اقوى فلا تخلص للزوج خلوص الحرائر ولان المولى يقدر على استخدامها كيفما يريد
في السفر والحضر وعلى بيعها للحاضر والبادي وفيه من اختلال حال الزوج واولاده
ما لا مزيد عليه ولانها ممتهنة مبتذلة خراجة ولاجة وذلك كله ذل ومهانة
سارية الى الناكح والعزة هي اللائقة بالمؤمنين ولان مهرها لمولاها فلا تقدر على التمتع
به ولا هبته للزوج فلا ينتظم امر المنزل وقد قال عليه السلام الحرائر صلاح البيت
والاماء هلاك البيت والله غفور مبالغ في المغفرة فيغفر لمن لم يصبر عن نكاحهن ما في
ذلك من الامور المنافية لحال المؤمنين رحيم مبالغ في الرحمة ولذلك رخص لكم
في نكاحهن يريد الله ليبين لكم استيناف مسوق لتقرير ما سبق من الاحكام
وبيان كونها جارية على مناهج المهتدين من الانبياء والصالحين قيل اصل النظم
الكريم يريد الله ان يبين لكم فزيدت اللام لتأكيد معنى الاستقبال اللازم
للارادة ومفعول يبين محذوف ثقة بشهادة السياق اي يريد الله ان يبين لكم
ما هو خفي عنكم من مصالحكم وافاضل اعمالكم او ما تعبدكم به من الحلال و

الحرام وقيل مفعول يريد محذوف تقديره يريد الله تشريع ما شرع من التحريم والتحليل
لاجل التبيين لكم وهذا مذهب البصريين ويعزى الى سيبويه وقيل ان اللام بنفسها
ناصبة للفعل من غير اضمار ان وهي وما بعدها مفعول للفعل المتقدم فان اللام قد
تقام مقام ان في فعل الارادة والامر فيقال اردت لاذهب وان اذهب وامرتك لتقوم وان
تقوم قال الله تعالى يريدون ليطفئوا نور الله وفي موضع يريدون ان يطفئوا وقال تعالى
وامرنا لنسلم وفي موضع وامرت ان اسلم وفي آخر وامرت لاعدل بينكم اي اعدل
وهذا مذهب الكوفيين ومنعه البصريون وقالوا ان وظيفة اللام هي الجر والنصب فيما
قالوا باضمار ان اي امرنا بما امرنا لنسلم ويريدون ما يريدون ليطفئوا وقيل يؤول الفعل
الذي قبل اللام بمصدر مرفوع بالابتداء ويجعل ما بعده خبرا له كما في تسمع بالمعيدي
خير من ان تراه اى ان تسمع به ويعزى هذا الرأي الى بعض البصريين ويهديكم سنن الذين
من قبلكم من الانبياء والصالحين لتقتدوا بهم ويتوب عليكم اذا تبتم اليه تعالى عما
يقع منكم من التقصير والتفريط في مراعاة ما كلفتموه من الشرائع فان المكلف قلما يخلو
من تقصير يستدعي تلافيه بالتوبة ويغفر لكم ذنوبكم او يرشدكم الى ما يرد عليكم
عن المعاصي ويحثكم على التوبة او الى ما يكون كفارة لسيئاتكم وليس الخطاب لجميع المكلفين
حتى يتخلف مراده تعالى عن ارادته فيمن لم يتب منهم بل لطائفة معينة حصلت لهم هذه
التوبة والله عليم مبالغ في العلم بالاشياء التي من جملتها ما شرع لكم من الاحكام حكيم
مراع في جميع افعاله الحكمة والمصلحة والله يريد ان يتوب عليكم جملة مبتدأة مسوقة
لبيان كمال منفعة ما اراده الله تعالى وكمال مضرة ما يريده الفجرة لا لبيان ارادته تعالى لتوبته
عليهم حتى يكون من باب التكرير للتقرير ولذلك غير الاسلوب الى الجملة الاسمية دلالة
على دوام الارادة ولم يفعل ذلك في قوله تعالى ويريد الذين يتبعون الشهوات للاشارة
الى الحدوث وللايماء الى كمال المباينة بين مضموني الجملتين كما مر في قوله تعالى الله ولي الذين
امنوا الآية والمراد بمتبعي الشهوات الفجرة فان اتباعها الائتمار بها واما المتعاطي لما سوغه
الشرع من المشتهيات دون غيره فهو متبع له لا لها وقيل هم اليهود والنصارى وقيل
المجوس حيث كانوا يحلون الاخوات من الاب وبنات الاخ وبنات الاخت فلما حرمهن
الله تعالى قالوا فانكم تحلون بنت الخالة وبنت العمة مع ان العمة والخالة عليكم حرام فانكحوا
بنات الاخ والاخت فنزلت ان تميلوا عن الحق بموافقتهم على اتباع الشهوات
واستحلال المحرمات وتكونوا زناة مثلهم وقرئ بالياء التحتانية والضمير للذين يتبعون
الشهوات ميلا عظيما اى بالنسبة الى ميل من اقترف خطيئة على ندرة بلا استحلال
يريد الله ان يخفف عنكم بما مر من الرخص وما في عهدتكم من مشاق التكاليف والجملة مستانفة
لا محل لها من الاعراب وخلق الانسان ضعيفا عاجزا عن مخالفة هواه غير قادر على مقابلة
دواعيه وقواه حيث لا يصبر عن اتباع الشهوات ولا يستخدم قواه في مشاق الطاعات
وعن الحسن رح ان المراد ضعف الخلقة ولا يساعده المقام فان الجملة اعتراض
تذييلي مسوق لتقرير ما قبله من التخفيف بالرخصة في نكاح الاماء وليس لضعف البنية
مدخل في ذلك وانما الذي يتعلق به التخفيف في العبادات الشاقة وقيل المراد ضعفه
في امر النساء خاصة حيث لا يصبر عنهن وعن سعيد بن المسيب ما ايس الشيطان من بني
آدم قط الا اتاهم من قبل النساء فقد اتى علي ثمانون سنة وذهبت احدى عيني وانا اعشو بالاخرى وان اخوف ما اخاف على فتنة النساء وقرأ ابن عباس رضهما وخلق
الانسان على البناء للفاعل والضمير لله تعالى وعنه رضه ثماني آيات في سورة النساء هي خير
لهذه الامة مما طلعت عليه الشمس وغربت يريد الله ليبين لكم والله يريد ان يتوب
عليكم يريد الله ان يخفف عنكم ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ان الله لا يغفر ان يشرك
به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها
ومن يعمل سوءا او يظلم نفسه ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم يا ايها الذين
آمنوا لا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل شروع في بيان بعض المحرمات المتعلقة بالاموال

والانفس

والانفس اثر بيان المحرمات المتعلقة بالابضاع وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه لاظهار
كمال العناية بمضمونه والمراد بالباطل ما يخالف الشرع كالغصب والسرقة والخيانة والقمار
وعقود الربوا وغير ذلك مما لم يبحه الشرع اى لا يأكل بعضكم اموال بعض بغير طريق شرعي
الا ان تكون تجارة عن تراض منكم استثناء منقطع وعن متعلقة بمحذوف وقع
صفة لتجارة اي الا ان تكون التجارة صادرة عن تراض كما في قوله اذا كان يوما ذا كواكب
اشنعا اي اذا كان اليوم يوما الخ او الا ان تكون الاموال تجارة وقرئ تجارة بالرفع
على ان كان تامة اي ولكن اقصدوا كون تجارة عن تراض اى وقوعها او ولكن وجود تجارة
عن تراض غير منهي عنه وتخصيصها بالذكر من بين سائر اسباب الملك لكونها معظمها واغلبها
وقوعا واوفقها لذوي المروات والمراد بالتراضي مراضاة المتبايعين بما تعاقدا عليه
في حال المبايعة وقت الايجاب والقبول عندنا وعند الشافعي رح حالة الافتراق عن
مجلس العقد ولا تقتلوا انفسكم اى من كان من جنسكم من المؤمنين فان كلهم
كنفس واحدة عن الحسن رح لا تقتلوا اخوانكم والتعبير عنهم بالانفس للمبالغة في الزجر
عن قتلهم بتصويره بصورة ما لا يكاد يفعله عاقل او لا تهلكوا انفسكم بتعريضها للعقاب
باقتراف ما يفضي اليه فانه القتل الحقيقي لها كما يشعر به ايراده عقيب النهي عن اكل الحرام
فمقرر للنهي السابق وقيل لا تقتلوا انفسكم بالبخع كما يفعله بعض الجهلة او بارتكاب ما يؤدي
الى القتل من الجنايات وقيل بالقائها في التهلكة وايد بما روي عن عمرو بن العاص انه
تأول له بالتيمم لخوف البرد فلم ينكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقرئ لا تقتلوا
بالتشديد للتكثير وقد جمع في التوصية بين حفظ النفس وحفظ المال لما انه شقيقها من حيث
انه سبب لقوامها وتحصيل كمالاتها واستيفاء فضائلها وتقديم النهي عن التعرض له لكثرة
وقوعه ان الله كان بكم رحيما تعليل للنهي بطريق الاستئناف اي مبالغا في الرحمة
والرأفة ولذلك نهاكم عما نهى فان ذلك رحمة عظيمة لكم بالزجر عن المعاصي وللذين هم في معرض
التعرض لهم بحفظ اموالهم وانفسهم وقيل معناه انه كان بكم يا امة محمد رحيما حيث امر
بني اسرائيل بقتلهم انفسهم ليكون توبة لهم وتمحيصا لخطاياهم ولم يكلفكم تلك التكاليف
الشاقة ومن يفعل ذلك اشارة الى القتل خاصة او ما قبله من اكل الاموال وما فيه
من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهما في الفساد عدوانا وظلما اى افراطا في التجاوز
عن الحد واتيانا بما لا يستحقه وقيل اريد بالعدوان التعدي على الغير وبالظلم الظلم
على النفس بتعريضها للعقاب ومحلهما النصب على الحالية او على العلية اي متعديا وظالما او
للعدوان والظلم وقرئ عدوانا بكسر العين فسوف نصليه جواب للشرط اى ندخله
وقرئ بالتشديد من صلى وبفتح النون من صلاه يصليه ومنه شاة مصلية بالياء والضمير
لله تعالى او لذلك من حيث انه سبب للصلي نارا اى نارا مخصوصة هائلة شديدة
العذاب وكان ذلك اى اصلاؤه النار على الله يسيرا لتحقق الداعي وعدم الصارف
واظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة وتأكيد استقلال الاعتراض
التذييلي ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه اى كبائر الذنوب التي نهاكم الشرع عنها
مما ذكر ههنا وما لم يذكر وقرئ كبير على ارادة الجنس نكفر عنكم بنون العظمة على طريقة
الالتفات وقرئ بالياء بالاسناد اليه تعالى والتكفير اماطة المستحق من العقاب بثواب ازيد
او بتوبة اي يغفر لكم سيئاتكم صغائركم ونمحها عنكم قال المفسرون الصلوة الى الصلوة
والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن من الصغائر اذا اجتنبت
الكبائر واختلف في الكبائر والاقرب ان الكبيرة كل ذنب رتب الشارع عليه الحد او صرح
بالوعيد فيه وقيل ما علم حرمته بقاطع وعن النبي صلى الله عليه وسلم انها سبع الاشراك
بالله تعالى وقتل النفس التي حرمها الله وقذف المحصنة واكل مال اليتيم والربوا و
الفرار من الزحف وعقوق الوالدين وعن علي رضه التعرب بعد الهجرة مكان عقوق
الوالدين وزاد ابن عمر السحر واستحلال البيت الحرام وعن ابن عباس رضهما ان رجلا قال
له الكبائر سبع قال هي الى سبعمائة اقرب منها الى سبع وروي عنه الى السبعين اذ لا صغيرة

مع الاصرار ولاكبيرة مع الاستغفار وقيل اريد به انواع الشرك لقوله تعالى ان الله لا يغفر
ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك وقيل صغائر الذنوب وكبائرها بالاضافة الى ما فوقها وما
تحتها وبحسب فاعلها بل بحسب الاوقات والاماكن ايضا فاكبر الكبائر الشرك واصغر
الصغائر حديث النفس وما بينهما وسائط يصدق عليه الامران فمن عن له امران
منها ودعت نفسه اليهما بحيث لا يتمالك فكفها عن اكبرهما كفر عنه ما ارتكبه لما استحق
على اجتناب الاكبر من الثواب وندخلكم مدخلا بضم الميم اسم مكان هو الجنة كريما
اى حسنا مرضيا او مصدر ميمي اى ادخالا مع كرامة وقرئ بفتح الميم وهو ايضا يحتمل
المكان والمصدر ونصبه على الثاني بفعل مقدر مطاوع للمذكور اى ندخلكم فتدخلون
مدخلا او دخولا كريما كما في قوله وعضة دهر يا ابن مروان لم يدع من المال الا مجلف
اى لم يدع فلم يبق الا مسحت الخ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض اى
عليكم ولعل ايثار الابهام عليه للتفادي عن المواجهة بما يشق عليهم قال القفال لما
نهاهم الله تعالى عن اكل اموال الناس بالباطل وقتل النفس عقبه بالنهي عما يؤدي
اليه من الطمع في اموالهم وتمنيها وقيل نهاهم اولا عن التعرض لاموالهم بالجوارح
ثم عن التعرض لها بالقلب على سبيل الحسد لتطهير اعمالهم الظاهرة والباطنة فالمعنى
لا تتمنوا ما اعطاه الله تعالى بعضكم من الامور الدنيوية كالجاه والمال وغير ذلك مما
يجري فيه التنافس دونكم فان ذلك قسمة من الله تعالى صادرة عن تدبير لائق
باحوال العباد مترتب على الاحاطة بجلائل شؤنهم ودقائقها فعلى كل احد من
المفضل عليهم ان يرضى بما قسم له ولا يتمنى حظ الفضل ولا يحسده عليه لما انه
معارضة لحكم القدر المؤسس على الحكم البالغة لا لان عدمه خير له ولا لانه لو كان خلافه
لكان مفسدة له كما قيل اذ لا يساعده ما سيأتي من الامر بالسؤال من فضله تعالى فانه
ناطق بان المنهي عنه تمني نصيب الغير لا ما زاد على نصيبه مطلقا هذا وقد قيل لما
جعل الله تعالى في الميراث للذكر مثل حظ الانثيين قالت النساء نحن احوج ان يكون
لنا سهمان وللرجال سهم واحد لانا ضعفاء وهم اقوياء واقدر على طلب المعاش منا
فنزلت وهذا هو الانسب بتعليل النهي بقوله عز وجل للرجال نصيب مما اكتسبوا
وللنساء نصيب مما اكتسبن فانه صريح في جريان التمني بين فريقي الرجال والنساء ولعل
صيغة المذكر في النهي لما عبر عنهن بالبعض والمعنى لكل من الفريقين في الميراث نصيب
معين المقدار مما اصابه بحسب استعداده وقد عبر عنه بالاكتساب على طريقة
الاستعارة التبعية المبنية على تشبيه اقتضاء حاله لنصيبه باكتسابه اياه تاكيدا لاستحقاق
كل منهما للنصيب وتقوية لاختصاصه به بحيث لا يتخطاه الى غيره فان ذلك مما يوجب
الانتهاء عن التمني المذكور وقوله تعالى واسئلوا الله من فضله عطف على النهي وتوسيط
التعليل بينهما لتقرير الانتهاء مع ما فيه من الترغيب في الامتثال بالامر كانه قيل لا
تتمنوا ما يختص بغيركم من نصيبه المكتسب واسئلوا الله تعالى من خزائن نعمه التي لا نفاد
لها وحذف المفعول الثاني للتعميم اي واسئلوه ما تريدون فان الله تعالى يعطيكموه
او لكونه معلوما من السياق واسئلوه مثله وقيل من زائدة والتقدير واسئلوا فضله
وقد جاء في الحديث لا يتمنين احدكم مال اخيه ولكن ليقل اللهم ارزقني اللهم اعطني مثله
وعن ابن مسعود رضه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سلوا الله من فضله فانه
يحب ان يسئل وافضل العبادة انتظار الفرج وحمل النصيب على الاجر الاخروي وابقاء
الاكتساب على حقيقته بجعل سبب النزول ما روي ان ام سلمة رضها قالت ليت الله
كتب علينا الجهاد كما كتبه على الرجال فيكون لنا من الاجر مثل ما لهم على ان المعنى
لكل من الفريقين نصيب خاص به من الاجر مترتب على عمله فللرجال اجر بمقابلة ما يليق
بهم من الاعمال كالجهاد ونحوه وللنساء اجر بمقابلة ما يليق بهن من الاعمال
كحفظ حقوق الازواج ونحوه فلا يتمنين النساء خصوصية اجر الرجال وليسئلن من
خزائن رحمته تعالى ما يليق بحالهن من الاجر لا يساعده سياق النظم الكريم المتعلق بالمواريث

وفضائل

وفضائل الرجال ان الله كان بكل شيء عليما ولذلك جعل الناس على طبقات ورفع بعضهم
على بعض درجات حسب مراتب استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة على الحكم
الابية ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والاقربون جملة مبتدأة مقررة لمضمون ما قبلها
ولكل مفعول ثان لجعلنا قدم عليه لتاكيد الشمول ودفع توهم تعلق الجعل بالبعض دون
البعض كما في قوله تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا اي ولكل تركة جعلنا ورثة متفاوتة
في الدرجة يلونها ويحرزون منها انصباءهم بحسب استحقاقهم المنوط بما بينهم وبين
المورث من العلاقة ومما ترك بيان لكل قد فصل بينهما بما عمل كما فصل في قوله تعالى
قل اغير الله اتخذ وليا فاطر السموات والارض بين لفظ الجلالة وبين صفته بالعامل فيما اضيف
اليه اعني غير او ولكل قوم جعلناهم موالي اي وراثا نصيب معين مغاير لنصيب قوم
آخرين مما ترك الوالدان والاقربون على ان جعلنا موالي صفة لكل والضمير الراجع اليه
محذوف والكلام مبتدأ وخبر على طريقة قولك لكل من خلقه الله انسانا من رزق الله
اى حظ منه واما ما قيل من ان المعنى لكل احد جعلنا موالي مما ترك ورثا منه على ان من
صلة موالي لانه في معنى الوراث في ترك ضمير مستكن عائد الى كل وقوله تعالى الوالدان والاقربون
استيناف مفسر للموالي كانه قيل من هم فقيل الوالدان الخ ففيه تفكيك للنظم الكريم
لان بيان الموالي ذكر يفوت الابهام المصحح لاعتبار التفاوت بينهم وبه يتحقق الانتظام
كما اشير اليه في تقرير الوجهين الاولين مع ما فيه من خروج الاولاد من الموالي اذ لا يتناولهم
الاقربون كما يتناول الوالدين والذين عقدت ايمانكم هم موالي الموالاة كان الحليف
يورث السدس من مال حليفه فنسخ بقوله تعالى واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض وعند
ابي حنيفة رح اذا اسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على ان يرثه ويعقل عنه صح وعليه
عقله وله ارثه ان لم يكن له وارث اصلا واسناد العقد الى الايمان لان المعتاد هو المماسحة
بها عند العقد والمعنى عقدت ايمانكم عهودهم فحذف المعهود واقيم المضاف اليه مقامه
ثم حذف وقرئ عقدت بالتشديد وعاقدت بمعنى عاقدتهم ايمانكم ماسحتموهم
وهو مبتدأ متضمن لمعنى الشرط ولذلك صدر الخبر اعني قوله تعالى فآتوهم نصيبهم
بالفاء او منصوب بمضمر يفسره ما بعده كقولك زيدا فاضربه او مرفوع معطوف على
الوالدان والاقربون وقوله تعالى فآتوهم الخ جملة مبينة للجملة قبلها ومؤكدة لها
والضمير للموالي ان الله كان على كل شيء من الاشياء التي من جملتها الايتاء والمنع شهيدا
ففيه وعد ووعيد الرجال قوامون على النساء كلام مستأنف مسوق لبيان
سبب استحقاق الرجال الزيادة في الميراث تفصيلا اثر بيان تفاوت استحقاقهم
اجمالا وايراد الجملة اسمية والخبر على صيغة المبالغة للايذان بعراقتهم في الاتصاف بما
اسند اليهم ورسوخهم فيه اي شانهم القيام عليهن بالامر والنهي قيام الولاة على
الرعية وعلل ذلك بامرين موهبي وكسبي فقيل بما فضل الله بعضهم على بعض
الباء سببية متعلقة بقوامون او بمحذوف وقع حالا من ضميره وما مصدرية والضمير
البارز لكلا الفريقين تغليبا اي قوامون عليهن بسبب تفضيل الله تعالى اياهم عليهن
او متلبسين بتفضيله تعالى الخ ووضع البعض موضع الضميرين للاشعار بغاية ظهور
الامر وعدم الحاجة الى التصريح بالمفضل والمفضل عليه اصلا ولمثل ذلك لم يصرح
بما به التفضيل من صفات كماله التي هي كمال العقل وحسن التدبير ورزانة الرأي ومزيد
القوة في الاعمال والطاعات ولذلك خصوا بالنبوة والامامة والولاية واقامة الشعائر
والشهادة في جميع القضايا ووجوب الجهاد والجمعة ونحو ذلك وبما انفقوا من اموالهم
الباء متعلقة بما تعلقت به الاولى وما مصدرية او موصولة حذف عائدها
من الصلة ومن تبعيضية او ابتدائية متعلقة بانفقوا او بمحذوف وقع حالا من
العائد المحذوف اى وبسبب انفاقهم من اموالهم او وبسبب ما انفقوا من
اموالهم او كائنا من اموالهم وهو ما انفقوه من المهر والنفقة روي ان سعد
بن الربيع احد نقباء الانصار رضه نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن ابي زهير فلطمها

فانطلق بها ابوها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكى فقال عليه السلام لتقتص منه فنزلت فقال عليه السلام اردنا امرا واراد الله امرا والذى اراد الله خير فالصالحات شروع في تفصيل احوالهن وبيان كيفية القيام عليهن بحسب اختلاف احوالهن اى فالصالحات منهن قانتات اى مطيعات لله تعالى قائمات بحقوق الازواج حافظات للغيب اى لمواجب الغيب اى لما يجب عليهن حفظه فى حال غيبة الازواج من الفروج والاموال عن النبى صلى الله عليه وسلم خير النساء امرأة ان نظرت اليها سرتك وان امرتها اطاعتك واذا غبت عنها حفظتك فى مالها ونفسها وتلا الاية وقيل لاسرارهم واضافة المال اليها للاشعار بان ماله فى حق التصرف فى حكم مالها كما فى قوله تعالى ولا تؤتوا السفهاء اموالكم الاية بما حفظ الله ما مصدرية اى بحفظ تعالى اياهن بالامر بحفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد والتوفيق له او موصولة اى بالذى حفظ الله لهن عليهم من المهر والنفقة والقيام بحفظهن والذب عنهن وقرئ بما حفظ الله بالنصب على حذف المضاف اى بالامر الذى حفظ حق الله تعالى وطاعته وهو التعفف والشفقة على الرجال واللاتى تخافون نشوزهن خطاب للازواج وارشاد لهم الى طريق القيام عليهن والخوف حالة تحصل فى القلب عند حدوث امر مكروه او عند الظن او العلم بحدوثه وقد يراد به احدهما اى تظنون عصيانهن وترفعهن عن مطاوعتكم من النشز وهو المرتفع من الارض فعظوهن فانصحوهن بالترغيب والترهيب واهجروهن بعد ذلك ان لم ينفع الوعظ والنصيحة فى المضاجع اى فى المراقد فلا تدخلوهن تحت اللحف ولا تباشروهن فيكون كناية عن الجماع وقيل المضاجع المبايتات اى لا تبايتوهن وقرئ فى المضجع وفى المضطجع واضربوهن ان لم ينجع ما فعلتم من العظة والهجران ضربا غير مبرح ولا شائن فان اطعنكم بذلك كما هو الظاهر لانه منتهى ما يعد زاجرا فلا تبغوا عليهن سبيلا بالتوبيخ والاذية اى فازيلوا عنهن التعرض واجعلوا ما كان منهن كان لم يكن فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له ان الله كان عليا كبيرا فاحذروه فانه تعالى اقدر عليكم منكم على من تحت ايديكم او انه تعالى على علو شانه يتجاوز عن سيئاتكم ويتوب عليكم عند توبتكم وانتم احق بالعفو عن ازواجكم عند اطاعتهن لكم او انه يتعالى ويتكبر ان يظلم احدا او ينقص حقه وعدم التعرض لعدم اطاعتهن لهم للايذان بان ذلك ليس مما ينبغى ان يخفى او يفرض تحققه وان الذى ينبغى ان يتوقع منهن ويليق بشانهن لاسيما بعد ما كان من الزواجر هو الاطاعة ولذلك صدرت الشرطية بالفاء المنبئة عن سببية ما بعدها لما قبلها وان خفتم شقاق بينهما تلوين للخطاب وتوجيه له الى الحكام وارد على ابتناء الامر على التقدير المسكوت عنه اعنى عدم الاطاعة المؤدى الى المخاصمة والمرافعة اليهم والشقاق المخالفة اما لان كلا منهما يريد ما يشق على الاخر او لان كلا منهما فى شق اى جانب غير شق الاخر والخوف ههنا بمعنى العلم قاله ابن عباس رضى الله عنه والجزم بوجود الشقاق لا ينافى بعث الحكمين لانه لرجاء ازالته لا لتعرف وجوده بالفعل وقيل بمعنى الظن وضمير التثنية للزوجين وان لم يجر لهما ذكر لجرى ما يدل عليهما واضافة الشقاق الى الظرف اما على اجرائه مجرى المفعول به كما فى قوله يا سارق الليلة او مجرى الفاعل كما فى قولك نهاره صائم اى ان علمتم او ظننتم تأكد المخالفة بحيث لا يقدر الزوج على ازالتها فابعثوا اى الى الزوجين لاصلاح ذات البين حكما رجلا وسطا صالحا للحكومة والاصلاح من اهله من اهل الزوج وحكما اخر على صفة الاول من اهلها فان الاقارب اعرف ببواطن الاحوال واطلب للصلاح وهذا على وجه الاستحباب ولو نصبا من الاجانب جاز واختلف فى انهما هل يليان الجمع والتفريق ان رأيا ذلك فقيل لهما ذلك وهو المروى عن على رضى الله عنه وبه قال الشعبى وعن الحسن يجمعان ولا يفرقان وقال مالك لهما ان يتخالعا ان كان الصلاح فيه ان يريدا اى الحكمان اصلاحا اى ان قصدا اصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله تعالى يوفق الله بينهما يوقع بين الزوجين

الموافقة والالفة والقى فى نفوسهما المودة والرافة وعدم التعرض لذكر عدم ارادتهما الاصلاح لما ذكر من الايذان بان ليس مما ينبغى ان يفرض صدوره عنهما وان الذى يليق بشانهما ويتوقع صدوره عنهما هو ارادة الاصلاح وفيه مزيد ترغيب للحكمين فى الاصلاح وتحذير عن المساهلة كيلا ينسب اختلال الامر الى عدم ارادتهما فان الشرطية الناطقة بدوران وجود التوفيق على وجود الارادة منبئة عن دوران عدمه على عدمها وقيل كلا الضميرين للحكمين اى ان قصدا الاصلاح يوفق الله بينهما فيتفق كلمتهما ويحصل مقصودهما وقيل كلاهما للزوجين اى اذا ارادا اصلاح ما بينهما من الشقاق اوقع الله تعالى بينهما الالفة والوفاق وفيه تنبيه على ان من اصلح نيته فيما يتوخاه وفقه الله تعالى لمبتغاه ان الله كان عليما خبيرا بالظواهر والبواطن فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا كلام مبتدأ مسوق لبيان الاحكام المتعلقة بحقوق الوالدين والاقارب ونحوهم اثر بيان الاحكام المتعلقة بحقوق الازواج صدر بما يتعلق بحقوق الله عز وجل التى هى اكد الحقوق واعظمها تنبيها على جلالة شان حقوق الوالدين بنظمها فى سلكها كما سائر المواقع وشيئا نصب على انه مفعول اى لا تشركوا به شيئا من الاشياء صنما او غيره او على انه مصدر اى لا تشركوا به شيئا من الاشراك جليا او خفيا وبالوالدين احسانا اى احسنوا بهما احسانا وبذى القربى اى بصاحب القرابة من اخ او عم او خال او نحو ذلك واليتامى والمساكين من الاجانب والجار ذى القربى اى الذى قرب جواره وقيل الذى له مع الجوار قرب واتصال بنسب او دين وقرئ بالنصب على الاختصاص تعظيما لحق الجار ذى القربى والجار الجنب اى البعيد او الذى لا قرابة له وعنه صلى الله عليه وسلم الجيران ثلثة فجار له ثلثة حقوق حق الجوار وحق القرابة وحق الاسلام وجار له حقان حق الجوار وحق الاسلام وجار له حق واحد وهو حق الجوار وهو الجار من اهل الكتاب وقرئ والجار الجنب والصاحب بالجنب اى الرفيق فى امر حسن كتعلم وتصرف وصناعة وسفر فانه صحبك وحصل بجانبك ومنهم من قعد بجنبك فى مسجد او مجلس او غير ذلك من ادنى صحبة التامت بينك وبينه وقيل هى المرأة وابن السبيل هو المسافر المنقطع به او الضيف وما ملكت ايمانكم من العبيد والاماء ان الله لا يحب من كان مختالا اى متكبرا يأنف عن اقاربه وجيرانه واصحابه ولا يلتفت اليهم فخورا يتفاخر عليهم والجملة تعليل للامر السابق الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل بضم الباء وسكون الخاء وقرئ بفتح الاول وبفتحهما وبضمهما والموصول بدل من قوله من كان او نصب على الذم او رفع عليه اى هم الذين او مبتدأ خبره محذوف تقديره الذين يبخلون ويفعلون ويصنعون احقاء بكل ملامة ويكتمون ما آتاهم الله من فضله اى من المال والغنى او من نعوته صلى الله عليه وسلم التى بينها لهم فى التورية وهو انسب بامرهم للناس بالبخل فان احبارهم كانوا يكتمونها ويأمرون اعقابهم بكتمها واعتدنا للكافرين عذابا مهينا وضع الظاهر موضع الضمير اشعارا بان من هذا شانه فهو كافر بنعمة الله تعالى ومن كان كافرا بنعمته تعالى فله عذاب يهينه كما اهان النعمة بالبخل والاخفاء والاية نزلت فى طائفة من اليهود كانوا يقولون للانصار بطريق النصيحة لا تنفقوا اموالكم فانا نخشى عليكم الفقر وقيل فى الذين كتموا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبلها والذين ينفقون اموالهم رئاء الناس اى للفخار وليقال ما اسخاهم وما اجودهم لا لابتغاء وجه الله تعالى وهو عطف على الذين يبخلون او على الكافرين وانما شاركوهم فى الذم والوعيد لان البخل والسرف الذى هو الانفاق فيما لا ينبغى من حيث انهما طرفا تفريط وافراط سواء فى القبح واستتباع اللائمة والذم ويجوز ان لا يكون العطف بناء على اجراء التغاير الوضعى مجرى التغاير الذاتى كما فى قوله الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتائب فى المزدحم او مبتدأ خبره محذوف يدل عليه قوله تعالى ومن يكن الخ كانه قيل والذين ينفقون اموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ليتحروا بالانفاق مراضيه تعالى وثوابه وهم مشركو مكة المنفقون اموالهم

في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل المنافقون ۞ ومن يكن الشيطان له قرينا
فساء قرينا اي فقرينهم الشيطان وانما حذف للايذان بظهوره واستغنائه عن
التصريح به والمراد به ابليس واعوانه حيث حملوهم على تلك القبائح وزينها لهم
كما في قوله تعالى ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ويجوز ان يكون وعيدا لهم بان
الشيطان يقرن بهم في النار وماذا عليهم اي على من ذكر من الطوائف لو امنوا
بالله واليوم الاخر وانفقوا مما رزقهم الله ابتغاء لوجه الله وانما لم يصرح به
تعويلا على التفصيل السابق واكتفاء بذكر الايمان بالله واليوم الاخر فانه يقتضي ان
يكون الانفاق لابتغاء وجهه تعالى وطلب ثوابه البتة اي وما الذي عليهم او واي
تبعة ووبال عليهم في الايمان بالله والانفاق في سبيله وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان
المنفعة والاعتقاد في الشيء بخلاف ما هو عليه وتحريض على التفكر لطلب الجواب لعله يؤدي
بهم الى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة والعوائد الجميلة وتنبيه على ان المدعو الى امر
لا ضرر فيه ينبغي ان يجيب اليه احتياطا فكيف اذا كان فيه منافع لا تحصى وتقديم الايمان
بهما لاهميته في نفسه ولعدم الاعتداد بالانفاق بدونه واما تقديم انفاقهم رئاء
الناس على عدم ايمانهم بهما مع كون المؤخر اقدم من المقدم فلرعاية المناسبة بين انفاقهم
ذلك وبين ما قبله من بخلهم وامرهم للناس به وكان الله بهم وباحوالهم المحققة عليما
فهو وعيد لهم بالعقاب او باعمالهم المفروضة فهو بيان لاثابته تعالى اياهم لو كانوا
قد امنوا وانفقوا كما ينبئ عنه قوله تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة المثقال مفعال من
الثقل كالمقدار من القدر وانتصابه على انه نعت للمفعول قائم مقامه سواء كان الظلم
بمعنى النقص او بمعنى وضع الشيء في غير موضعه اي لا ينقص من الاجر ولا يزيد في العقاب شيئا
مقدار ذرة او على انه نعت للمصدر المحذوف نائب منابه اي لا يظلم ظلما مقدار ذرة و
هي النملة الصغيرة او كل جزء من اجزاء الهباء في الكوة وهو الانسب بمقام المبالغة فان
قلته في الثقل اظهر من قلة النملة فيه وعن ابن عباس رضي الله عنهما انه ادخل يده في التراب ثم نفخ فيه فقال
كل واحدة من هؤلاء ذرة وان تك حسنة اي وان تك مثقال ذرة حسنة انث لتانيث
الخبر ولاضافته الى الذرة وحذف النون من غير قياس تشبيها بحروف العلة وتخفيفا لكثرة
الاستعمال وقرئ حسنة بالرفع على ان كان تامة يضاعفها اي يضاعف ثوابها جعل
ذلك مضاعفة لنفس الحسنة تنبيها على كمال الاتصال بينهما واتحاد وقرئ يضعفها وكلا
بمعنى واحد وقرئ نضاعفها بنون العظمة على طريقة الالتفات عن عثمان النهدي انه
قال لابي هريرة رض بلغني عنك انك تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تعالى
يعطي عبده المؤمن بالحسنة الف الف حسنة قال ابو هريرة لا بل سمعته صلى الله عليه وسلم
يقول يعطيه الفي الف حسنة ثم تلا هذه الاية الكريمة والمراد الكثرة لا التحديد ويؤت من
لدنه ويعط صاحبها من عنده على نهج التفضل زائدا على ما وعده في مقابلة
العمل اجرا عظيما عطاء جزيلا وانما سماه اجرا لكونه تابعا للاجر مزيدا عليه ۞ فكيف
محلها اما الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف واما النصب بفعل محذوف على التشبيه
بالحال كما هو رأي سيبويه او على التشبيه بالظرف كما هو مذهب الاخفش فكيف حال هؤلاء
الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم او كيف يصنعون اذا جئنا يوم القيمة من كل امة
من الامم بشهيد يشهد عليهم بما كانوا عليه من فساد العقائد وقبائح الاعمال
وهو نبيهم كما في قوله تعالى وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم والعامل في الظرف
مضمون المبتدأ والخبر من هول الامر وعظم الشأن او الفعل المقدر وهو متعلقه
بجئنا وجئنا بك يا محمد على هؤلاء اشارة الى الشهداء المدلول عليهم بما ذكر
شهيدا تشهد على صدقهم لعلمك بعقائدهم لاستجماع شرعك لمجامع قواعدهم
وقيل الى المكذبين المستفهم عن حالهم تشهد عليهم بالكفر والعصيان كما تشهد
سائر الانبياء على اممهم وقيل الى المؤمنين كما في قوله تعالى لتكونوا شهداء على
الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول

استينا

استيناف لبيان حالهم التي اشير الى شدتها وفظاعتها بقوله تعالى فكيف فان اريد بهم المكذبون
لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالتعبير عنهم بالموصول لاسيما بعد الاشارة اليهم
بهؤلاء لذمهم بما في حيز الصلة والاشعار بعلة ما اعتراهم من الحال الفظيعة والامر
الهائل وايراده عليه السلام بعنوان الرسالة لتشريفه وزيادة تقبيح حال مكذبيه
فان حق الرسول ان يؤمن به ويطاع لا ان يكفر به ويعصى وان اريد بهم جنس
الكفرة فهم داخلون في زمرتهم دخولا اوليا والمراد بالرسول حينئذ الجنس المنتظم
للنبي صلى الله عليه وسلم انتظاما اوليا واياما كان ففيه من تهويل الامر وتفظيع الحال
ما لا يقادر قدره وقوله تعالى وعصوا عطف على كفروا داخل معه في الصلة والمراد
معاصيهم المغايرة لكفرهم ففيه دلالة على ان الكفار مخاطبون بفروع الشرائع في حق
المؤاخذة وقيل حال من ضمير كفروا وقيل صلة لموصول آخر اي يود في ذلك اليوم
الذين جمعوا بين الكفر وعصيان الرسول والذين كفروا وقد عصوا الرسول او الذين كفروا
عصوا الرسول ولو في قوله تعالى لو تسوى بهم الارض ان جعلت مصدرية فالجملة
مفعول ليود اي يودون ان يدفنوا فتسوى بهم الارض كالموتى وقيل يودون انهم
لم يبعثوا او لم يخلقوا وكانوا هم والارض سواء وقيل تصير البهائم ترابا فيودون
حالها وان جعلت جارية على بابها فالمفعول محذوف لدلالة الجملة عليه اي يودون
تسوية الارض بهم وجواب لو ايضا محذوف ايذانا بغاية ظهوره اي لسروا بذلك
وقوله تعالى ولا يكتمون الله حديثا عطف على يود اي ولا يقدرون على كتمانه لان جوارحهم
تشهد عليهم وقيل الواو للحال اي يودون ان يدفنوا في الارض وهم لا يكتمون منه تعالى
حديثا ولا يكذبونه بقولهم والله ربنا ما كنا مشركين اذ روي انهم اذا قالوا ذلك
ختم الله على افواههم فتشهد عليهم جوارحهم فيشتد الامر عليهم فيتمنون ان تسوى
بهم الارض وقرئ تسوى على ان اصله تتسوى فادغم التاء في السين وقرئ تسوى
بحذف التاء الثانية يقال سويته فتسوى يا ايها الذين امنوا لا تقربوا الصلوة وانتم سكارى
حتى تعلموا ما تقولون لما نهوا فيما سلف عن الاشراك به تعالى نهوا ههنا عما يؤدي اليه
من حيث لا يحتسبون فانه روي ان عبد الله بن عوف صنع طعاما وشرابا حين كان الخمر
مباحة فدعا نفرا من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم اجمعين فاكلوا وشربوا حتى ثملوا وجاء وقت
صلوة المغرب فتقدم احدهم ليصلي بهم فقرأ اعبد ما تعبدون فنزلت وتصدير
الكلام بحرف النداء والتنبيه للمبالغة في حملهم على العمل بموجب النهي وتوجيه النهي الى قربان
الصلوة مع ان المراد هو النهي عن اقامتها للمبالغة في ذلك وقيل المراد النهي عن قربان
المساجد لقوله عليه السلام جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم ويأباه قوله تعالى
حتى تعلموا ما تقولون فالمعنى لا تقربوها في حالة السكر حتى تعلموا من قبل الشروع ما
تقولونه اذ بتلك التجربة يظهر انهم يعلمون ما سيقرؤنه في الصلوة وحمل ما تقولون
على ما في الصلوة يستدعي تقدم الشروع فيها على غاية النهي وحمل العلم على ما بالقوة على معنى حتى تكونوا
بحيث تعلمون ما ستقرؤنه في الصلوة تطويل بلا طائل لان تلك الحيثية انما تظهر بما ذكر من
التجربة على ان ايثار ما تقولون على ما تقرؤن حينئذ يكون عاريا عن الداعي وقيل المراد بالسكر
سكر النعاس وغلبة النوم واياما كان فليس مرجع النهي هو المقيد مع بقاء القيد مرخصا
بحاله بل انما هو القيد مع بقاء المقيد على حاله ان الصلوة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا
كانه قيل يا ايها الذين امنوا لا تسكروا في اوقات الصلوة وقد روي انهم كانوا بعد
ما نزلت الاية لا يشربون الخمر في اوقات الصلوة فاذا صلوا العشاء يشربونها فلا يصبحون الا
وقد ذهب عنهم السكر وعلموا ما يقولون ولا جنبا عطف على قوله وانتم سكارى
كانه في حيز النصب كانه قيل لا تقربوا الصلوة سكارى ولا جنبا والجنب من اصابه
الجنابة يستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع لجريانه مجرى المصدر الا عابري
سبيل استثناء مفرغ من اعم الاحوال محله النصب على انه حال من ضمير لا تقربوا باعتبار
تقيده بالحال الثانية دون الاولى والعامل فيه فعل النهي اي لا تقربوا الصلوة جنبا في حال من

الا موالا احال كونكم مسافرين على معنى أنّ فى حالة السفر ينتهى حكم النهى لكن لا بطريق شمول
النفى لجميع صورها بل بطريق نفى الشمول فى الجملة من غير دلالة على انتفاء خصوصية البعض
المنفى وكا بقاء خصوصية البعض الباقى ولا على ثبوت نقيضه لا كليا ولا جزئيا فان الاستثناء
لا يدل على ذلك عبارة نعم يشير الى مخالفة حكم ما بعده لما قبله اشارة اجمالية يكتفى بها فى
المقامات الخطابية لا فى اثبات الاحكام الشرعية فان ملاك الامر فى ذلك انما هو الدليل
وقد ورد عقيبه على طريقة البيان وقيل هو صفة لجنبا على ان الا بمعنى غير اى لا جنبا غير
عابرى سبيل ومن حمل الصلوة على مواضعها فسر بالاجتياز بها وجوز للجنب عبور
المسجد وبه قال الشافعى رح وعندنا لا يجوز ذلك الا ان يكون الماء والطريق فيه وقيل ان رجالا من الانصار كانت ابوابهم فى المسجد وكان تصيبهم الجنابة ولا يجدون
ممرا الا فى المسجد فرخص لهم ذلك حتى تغتسلوا غاية للنهى عن قربان الصلوة حالة
الجنابة ولعل تقديم الاستثناء عليه للايذان من اول الامر بان حكم النهى فى هذه الصورة
ليس على الاطلاق كما فى صورة السكر تشويقا الى البيان وروما لمزيد تقرره فى الاذهان
وفى الآية الكريمة اشارة الى ان المصلى حقه حقه ان يتحرز عما يلهيه ويشغل قلبه وان
يزكى نفسه عما يدنسها ولا يكتفى بادنى مراتب التزكية عند امكان اعاليها وان كنتم
مرضى شروع فى تفصيل ما اجمل فى الاستثناء وبيان ما هو فى حكم المتثنى من الاعذار والاقتصار فيما قبل على استثناء السفر مع مشاركة الباقى له فى حكم الترخيص للاشعار
بانه العذر الغالب المبنى على الضرورة التى عليها يدور امر الرخصة كانه قيل ولا جنبا الا
مضطرين واليه يرجع ما قيل من آية جعل عابرى سبيل كناية عن مطلق المعذور والمراد
بالمرض ما يمنع من استعمال الماء مطلقا سواء كان ذلك يتعذر الوصول اليه ويتعذر استعماله
او على سفر عطف على مرضى اى او كنتم على سفر ما طال او قصر وايراده صريحا مع سبق ذكره
بطريق الاستثناء لبناء الحكم الشرعى عليه وبيان كيفيته فان الاستثناء كما اشير اليه
بمعزل من الدلالة على ثبوته فضلا عن الدلالة على كيفيته وتقديم المرض عليه للايذان
باصالته واستقلاله باحكام لا توجد فى غيرها كالاشتداد باستعمال الماء ونحوه او جاء
احد منكم من الغائط هو المكان الغائر المطمئن والمجيء منه كناية عن الحدث المعتاد من
يريده يذهب اليه ليوارى شخصه عن اعين الناس واسناد المجيء منه الى واحد مبهم
من المخاطبين دونهم للتفادى عن التصريح بنسبتهم الى ما يستحى منه او يستهجن التصريح
به وكذلك ايثار الكناية فيما عطف عليه من قوله تعالى او لامستم النساء على التصريح
بالجماع ونظمها فى سلك سببى سقوط الطهارة والمصير الى التيمم مع كونهما سببى وجوبهما
ليس باعتبار انفسهما بل باعتبار قيدهما المستفاد من قوله تعالى فلم تجدوا ماء
بل هو السبب فى الحقيقة وانما ذكرتمهيدا له وتنبيها على انه سبب للرخصة بعد انعقاد
سبب الطهارة الصغرى والكبرى كانه قيل او لم تكونوا مرضى او مسافرين بل كنتم
الفاقدين الماء بسبب من الاسباب مع تحقق ما يوجب استعماله وتخصيص ذكره بهذه الصورة
مع انه معتبر فى صورة المرض والسفر ايضا لندرة وقوعه فيها واستغنائهما عن ذكره
اما لان الجنابة معتبرة فيهما قطعا فيعلم من حكمها حكم الحدث الاصغر بدلالة النص
لان تقدير النظم لا تقربوا الصلوة فى حال الجنابة الا حال كونكم مسافرين فان كنتم مرضى الخ
واما لما قيل من ان عموم اعواز الماء فى حق المسافر غالب والعجز عن استعمال الماء القائم
مقام عدمه فى حق المريض مغن عن ذكره لفظا وما قيل من ان هذا القيد راجع الى الكل
وان قيد وجوب التطهر المكنى عنه بالمجيء من الغائط والملامسة معتبر فى الكل مما لا يساعده
النظم الكريم فتيمموا صعيدا طيبا فتعمدوا شيئا من وجه الارض طاهرا قال الزجاج الصعيد
وجه الارض ترابا او غيره وان كان صخرا لا تراب عليه لو ضرب المتيمم يده عليه ومسح لكان ذلك
طهوره وهو مذهب ابى حنيفة وعند الشافعى لا بد ان يعلق شيء من التراب فامسحوا بوجوهكم
وايديكم اى الى المرفقين لما روى انه صلى الله عليه وسلم تيمم ومسح يديه الى مرفقيه
ولانه بدل من الوضوء فيتقدر بقدره ان الله كان عفوا غفورا تعليل للترخيص والتيسير

وتقرير

وتقرير لهما فان من عادته المستمرة ان يعفو عن الخاطئين ويغفر للمذنبين لا بد ان يكون ميسرا
لا معسرا وقيل هو كناية عنهما فان الترخيص والمسامحة من روادف العفو والتوابع الغفران
الم تر الى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب كلام مستأنف مسوق لتعجيب المؤمنين من سوء
حالهم والتحذير عن موالاتهم والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية من المؤمنين وتوجيه
اليه ههنا مع توجيه فيما بعد الى الكل معا للايذان بكمال شهرة شناعة حالهم وانها بلغت
من الظهور الى حيث يتعجب منها كل من يراها والرؤية اى الم تنظر اليهم فانهم احقاء
بان تشاهدهم وتتعجب من احوالهم وتجويز كونها قلبية على ان الى لتضمنها
معنى الانتهاء كما فعلوه يأباه مقام تشهير شناعتهم ونظمها فى سلك الامور المشاهدة
والمراد بهم احبار اليهود وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انها نزلت فى حبرين من
احبار اليهود كانا يأتيان رأس المنافقين عبد الله بن ابى ورهطه يثبطانهم عن الاسلام
وعنه رضى الله ايضا انها نزلت فى رفاعة بن زيد ومالك بن دخشم كانا اذا تكلم رسول الله
عليه السلام لويا لسانهما وعاباه والمراد بالكتاب هو التوراة وحمله على جنس الكتاب المنتظم
لها انتظاما اوليا تطويل للمسافة وبالذى اوتوه ما بين لهم فيها من الاحكام والعلوم
التى من جملتها ما علموه من نعوت النبى صلى الله عليه وسلم وحقية الاسلام والتعبير عنه
بالنصيب المبنى عن كونه حقا من حقوقهم التى تجب مراعاتها والمحافظة عليها للايذان بكمال
ركاكة آرائهم حيث ضيعوه تضييعا وتنوينه تفخيمى مؤيد للتشنيع عليهم والتعجيب من
حالهم فالتعبير عنهم بالموصول للتنبيه بما فى حيز الصلة على كمال شناعتهم والاشعار بمكان
ما طوى ذكره فى المعاملة المحكية عنهم من الهدى الذى هو احد العوضين وكلمة من متعلقة
اما باوتوا او بمحذوف وقع صفة لنصيبا مبنية لفخامته الاضافية اثر بيان فخامته الذاتية
اى نصيبا كائنا من الكتاب وقوله عز وجل يشترون الضلالة قيل هو حال مقدرة من
واو اوتوا ولا ريب فى ان اعتبار تقدير اشترائهم المذكور فى الايتاء مما لا يليق
بالمقام وقيل هو حال من الموصول اى الم تنظر اليهم حال اشترائهم الخ وانت خبير بانه
خال عن افادة ان مادة التشنيع والتعجيب هو الاشتراء المذكور وما عطف عليه والذى يقتضيه
جزالة النظم الكريم انه استيناف مبين لمناط التشنيع ومدار التعجيب المفهومين من صدر الكلام
على وجه الاجمال والابهام مبنى على سؤال نشأ منه كانه قيل ماذا يصنعون حتى ينظر
اليهم فقيل يأخذون الضلالة ويتركون ما اوتوه من الهداية وانما طوى ذكر المتروك
لغاية ظهور الامر لا سيما بعد الاشعار المذكور والتعبير عن ذلك بالاشتراء الذى هو عبارة
عن استبدال السلعة بالثمن اى اخذها بدلا منه اخذا ناشئا من الرغبة فيها والاعراض
عنه للايذان بكمال رغبتهم فى الضلالة التى حقها ان يعرض عنها كل الاعراض واعراضهم
عن الهداية التى يتنافس فيها المتنافسون وفيه التسجيل على نهاية سخافة عقولهم وغاية
ركاكة آرائهم ما لا يخفى حيث صورت حالهم بصورة ما لا يكاد يتعاطاه احد ممن له ادنى
تمييز وليس المراد بالضلالة جنسها الحاصل لهم من قبل حتى يخل بمعنى الاشتراء المبنى عن
تأخرها عنه بل هو فردها الكامل وهو عنادهم وتماديهم فى الكفر بعد ما علموا بشأن
النبى صلى الله عليه وسلم وتيقنوا بحقية دينه وانه هو النبى العربى المبشر به فى التوراة
ولا ريب فى ان هذه المرتبة لم تكن حاصلة لهم قبل ذلك وقد مر فى اوائل سورة البقرة
ويريدون عطف على يشترون شريك له فى بيان محل التشنيع والتعجيب وصيغة المضارع
فيهما للدلالة على الاستمرار التجددى فان تجدد حكم اشترائهم المذكور وتكرر العمل بموجبه
فى قوة تجدد نفسه وتكرره اى لا يكتفون بضلال انفسهم بل يريدون بما فعلوا من كتمان
نعوته صلى الله عليه وسلم ان تضلوا انتم ايضا ايها المؤمنون السبيل المستقيم الموصل
الى الحق والله اعلم اعلم منكم باعدائكم جميعا ومن جملتهم هؤلاء وقد اخبركم بعداوتهم لكم وما يريدون بكم لتكونوا على حذر منهم ومن مخالطتهم وهو اعلم بما لهم و
مآل امرهم والجملة معترضة لتقرير ارادتهم المذكورة وكفى بالله وليا فى جميع اموركم
ومصالحكم وكفى بالله نصيرا فى كل المواطن فثقوا به واكتفوا بولايته ونصرته ولا تتولوا غيره

بعربيّة ح

ولاتبالوا بهم وبما يسومونكم من السوء فانه تعالى يكفيكم مكرهم وشرهم ففيه وعد ووعيد
والباء مزيدة في فاعل كفى لتاكيد الاتصال الاسنادي الا الاضافي وتكرير الفعل في الجملتين مع
اظهار الجلالة في مقام الاضمار لاسيما في الثاني لتقوية استقلالهما المناسب للاعتراض و
تاكيد كفايته عز وجل في كل من الولاية والنصرة والاشعار بعلتهما فان الالوهية من موجباتهما
لا محالة من الذين هادوا قيل هو بيان لاعدائكم وما بينهما اعتراض وفيه انه لا وجه
لتخصيص علمه سبحانه بطائفة من اعدائهم لاسيما في معرض الاعتراض الذي حقه العموم
والاطلاق وانتظام ما هو المقصود في المقام انتظاما اوليا كما اشير اليه وقيل هو صلة
لنصيرا اي ينصركم من الذين هادوا كما في قوله تعالى فمن ينصرني من الله وفيه ما فيه من
تحجير واسع نصرته عز وجل مع انه لا داعي الى وضع الموصول موضع ضمير الاعداء لان ما
في حيز الصلة ليس بوصف ملائم للنصر وقيل هو خبر مبتدا محذوف وقوله تعالى
يحرفون الكلم عن مواضعه صفة له اي من الذين هادوا قوم او فريق يحرفون الخ وفيه
ان يقتضي كون الفريق السابق بمعزل من التحريف الذي هو المصداق لاشترائهم في الحقيقة
فالذي يليق بشأن التنزيل الجليل انه بيان للموصول الاول المتناول بحسب المفهوم لاهل
الكتابين قد وسط لمزيد الاعتناء ببيان محل التشنيع والتعجيب والمسارعة الى تنفير المؤمنين
منهم وتحذيرهم عن مخالطتهم والاهتمام بحملهم على الثقة بالله عز وجل والاكتفاء بولايته
ونصرته وان قوله تعالى يحرفون بما عطف عليه بيان لاشترائهم المذكور وتفصيل لفنون
ضلالتهم وقد روعيت في النظم الكريم طريقة التفسير بعد الابهام والتفصيل اثر الاجمال
روما لزيادة تقرير يقتضيه الحال والكلم اسم جنس واحده الكلمة ككلم وتمرة وتذكير
ضميره اعتبارا لافراده لفظا وجمعية مواضعه باعتبار تعدده معنى وقرئ بكسر الكاف و
سكون اللام جمع كلمة تخفيف كلمة وقرئ يحرفون الكلام والمراد به ههنا اما ما في التورية
خاصة واما ما هو اعم منه واما ما يحكى عنهم من الكلمات المعهودة الصادرة عنهم
في اثناء المحاورة مع رسول الله عليه السلام ولا مساغ لارادة تلك الكلمات خاصة ان يجعل
عطف قوله تعالى ويقولون سمعنا وعصينا الخ على ما قبله عطفا تفسيريا لما ستقف على
سره فان اريد به الاول كما هو رأي الجمهور فتحريفه ازالته عن مواضعه التي وضعه الله
تعالى فيها من التورية كتحريفهم في نعت النبي صلى الله عليه وسلم اسمر ربعة عن مواضعه
في التورية بان وضعوا مكانه آدم طوال وكتحريفهم الرجم بوضعهم بدله الحد او صرفه
عن المعنى الذي انزله الله تعالى فيه الى ما لا صحة له بالتاويلات الزائغة الملائمة لشهواتهم
الباطلة وان اريد به الثاني فلا بد من ان يراد بمواضعه ما يليق به مطلقا سواء كانت
ذلك بتعيينه تعالى كمواضع ما في التورية او بتعيين العقل والدين كمواضع غيره
واما ما كان فقولهم سمعنا وعصينا ينبغي ان يجري على اطلاقه من غير تقييد بزمان او
مكان ولا تخصيص بمادة دون مادة بل وان يحمل على ما هو اعم من القول الحقيقي ومما
يترجم عنه عنادهم ومكابرتهم ليندرج ما نطقت به السنة حالهم عند تحريف التورية
فان من لا يتفوه بتلك العظيمة لا يكاد يتجاسر على مثل هذه الجناية والا يحمل على ما قالوه
في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم من القبائح خاصة يستدعي اختصاص حكم الشرطية الآتية
وما بعدها بهن من غير تعرض لتحريفهم التورية مع انه معظم جناياتهم المعدودة
من ههنا انكشف لك السر الموعود فتامل اي يقولون في كل امر مخالف لاهوائهم الفاسدة
سواء كان بمحضر النبي صلى الله عليه وسلم او لا بلسان المقال او الحال سمعنا وعصينا
عنادا وتحقيقا للمخالفة وقوله تعالى واسمع غير مسمع عطف على سمعنا وعصينا
داخل تحت القول اي ويقولون ذلك في اثناء مخاطبة صلى الله عليه وسلم خاصة وهو
كلام ذو وجهين محتمل للشر بان يحمل على معنى اسمع حال كونك غير مسمع كلاما اصلا
بصمم او موت اي مدعوا عليك بلا سمعت او غير مسمع كلاما ترضاه فيجوز يكون
نصبه على المفعولية وللخير بان يحمل على اسمع منا غير مسمع مكروها كانوا يخاطبون
به النبي صلى الله عليه وسلم استهزاء به مظهرين له عليه السلام ارادة المعنى الاخير وهم

مضمرون في انفسهم المعنى الاول مطمئنون به وراعنا عطف على اسمع غير مسمع اي ويقولون
في اثناء خطابهم له صلى الله عليه وسلم هذا ايضا يوردون كلا من العظائم الثلث في مواقعها
وهو ايضا كلمة ذات جهتين محتملة للخير بحملها على معنى ارقبنا وانتظرنا نكلمك و للشر
بحملها على السب بالرعونة اي الحمق او باجرائها مجرى ما يشبهها من كلمة عبرانية او
سريانية كانوا يتسابون بها وهي راعينا كانوا يخاطبونه عليه السلام بذلك ينوون الشتيمة
والاهانة ويظهرون التوقير والاحترام ومصيرهم الى مسلك النفاق في القولين الاخيرين
مع تصريحهم بالعصيان في الاول لما قالوا يواجهون نسمن ان جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر
والعصيان ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء وقيل كانوا يقولون الاول فيما بينهم
وقيل يجوز ان ينطقوا بذلك و لكنهم لما لم يؤمنوا به جعلوا كانهم نطقوا به ليا
بالسنتهم اي فتلا بها وصرفا للكلام عن نهجه الى نسبة السب حيث وضعوا غير مسمع
موضع لا اسمعت مكروها واجروا راعنا المشابهة لراعنا مجرى انظرنا او فتلا بها وضما ما
يظهرونه من الدعاء والتوقير الى ما يضمرونه من السب والتحقير وطعنا في الدين اي
قدحا فيه بالاستهزاء والسخرية وانتصابهما على العلية ليقولون باعتبار تعلقه بالقولين
الاخيرين اي يقولون ذلك لصرف الكلام عن وجهه الى السب والطعن في الدين او على الحالية
اي لاوين وطاعنين في الدين ولو انهم عندما سمعوا شيئا من اوامر الله تعالى ونواهيه
قالوا بلسان المقال او بلسان الحال مكان قولهم سمعنا وعصينا سمعنا واطعنا انما
اعيد سمعنا مع انه متحقق في كلامهم وانما الحاجة الى وضع اطعنا مكان عصينا للتنبيه
على عدم اعتباره بل على اعتبار عدمه كيف لا وسماعهم سماع الرد ومرادهم حكاية
اعلام ان عصيانهم للامر بعد سماعه والوقوف عليه فلا بد من ازالته واقامة سماع
القبول مقامه واسمع اي لو قالوا عند مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم بدل قولهم
اسمع غير مسمع وانظرنا اي لو قالوا ذلك بدل قولهم راعنا ولم يدسوا تحت كلامهم
شرا وفسادا اي لو ثبت انهم قالوا هذا مكان ما قالوا من الاقوال لكان قولهم ذلك
خيرا لهم مما قالوا واقوم اي اعدل واسد في نفسه صيغة التفضيل اما على بابها
واعتبار اصل الفضل في المفضل عليه بناء على اعتقادهم او بطريق التهكم واما بمعنى
اسم الفاعل وانما قدم في البيان حاله بالنسبة اليهم على حاله في نفسه لان همهم مقصور
على ما ينفعهم ولكن لعنهم الله بكفرهم اي ولكن لم يقولوا ذلك واستمروا على
كفرهم فخذلهم الله تعالى وابعدهم عن الهدى بسبب كفرهم ذلك فلا يؤمنون
بعد ذلك الا قليلا قيل اي الا ايمانا قليلا لا يعبأ به وهو الايمان ببعض الكتب
والرسل الا زمانا قليلا وهو زمان الاحتضار فانهم يؤمنون حين لا ينفعهم
الايمان قال تعالى وان من اهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته كلاهما ليس بايمان
قطعا وقد جوز ان يقال بالقلة العدم بالكلية على طريقة قوله تعالى لا يذوقون فيها الموت
الا الموتة الاولى اي ان كان الايمان المعدوم ايمانا فهم يحدثون شيئا من الايمان فهو
في المعنى تعليق بالمحال وانت خبير بان الكل يأباه ما يعقبه من الامر بالايمان بالقرآن الناطق
بهذا لافضائه حينئذ الى التكليف بالمحال الذي هو ايمانهم بعد ايمانهم المستمر اما على الوجه
الاخير فظاهر واما على الاولين فلان امرهم بالايمان المنجز بجميع الكتب والرسل تكليف
لهم بايمانهم بعد ايمانهم ببعض الكتب والرسل وبعدم ايمانهم الى وقت الاحتضار
فالوجه ان يحمل القليل على من يؤمن بعد ذلك لكن لا يجعل المستثنى منه ضمير الفاعل في
لا يؤمنون لافضائه وقوع ايمان من لعنه الله تعالى وخذله مع ما فيه من نسبة القراء
الى الاتفاق على غير المختار بل يجعله ضمير المفعول في لعنهم اي ولكن لعنهم الله الا فريقا
قليلا فانه تعالى لم يلعنهم فلم يسد عليهم باب الايمان وقد آمن بعد ذلك فريق من
الاحبار كعبد الله بن سلام وكعب واضرابهما كما سيأتي يا ايها الذين اوتوا الكتاب
تلوين للخطاب وتوجيه له اما الى من حكيت احوالهم واقوالهم خاصة بطريق الالتفات
ووصفهم تارة بايتاء الكتاب اي التورية واخرى بايتاء نصيب منها لتوفية كل من

اي

المقامين حظه فان المقصود فيما سبق بيان اخذهم الضلالة وازالة ما اوتوه بمقابلتها
بالتحريف وليس ما ازالوه بذلك كلها حتى يوصفوا بايتائه بل هو بعضها فوصفوا بايتائه
واما هيهنا فالمقصود تاكيد ايجاب الامتثال بالامر الذي بعقبه والتحذير عن مخالفته من
حيث ان الايمان بالمصدق موجب للايمان بما يصدقه والكفر بالثاني مقتض للكفر بالاول قطعا ولا ريب
في ان المحذور عندهم انما هو لزوم الكفر بالتورية نفسها لا ببعضها وذلك انما يتحقق
بجعل القرآن مصدقا لكلها المتضمن له حتما واما اليهم والى غيرهم قاطبة وايا ما كان
فتفصيل ما فصل لما كان من مظان اقلاع كل من الفريقين عما كانوا عليه من الضلالة
عقب ذلك بالامر بالمبادرة الى سلوك محجة الهداية مشفوعا بالوعيد الشديد على
المخالفة فقيل امنوا بما نزلنا من القرآن عبر عنه بالموصول تشريفا له بما في حيز الصلة
وتحقيقا لكونه من عنده عز وجل مصدقا لما معكم من التورية عبر عنها بذلك
للايذان بكمال وقوفهم على حقيقة الحال فان المعية المستدعية لدوام تلاوتها وتكرر
المراجعة اليها من موجبات العثور على ما في تضاعيفها المؤدى الى العلم بكون القرآن
مصدقا لها ومعنى تصديقه اياها نزوله حسبما نعت لهم فيها او كونه موافقا لها في
القصص والمواعيد والدعوة الى التوحيد والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش واما
ما يتراءى من مخالفته لها في جزئيات الاحكام بسبب تفاوت الامم والاعصار فليست بمخالفة
في الحقيقة بل هي عين الموافقة من حيث ان كلا منها حق بالاضافة الى عصره متضمن للحكمة
التي عليها يدور فلك التشريع حتى لو تاخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتاخر لوافق
المتقدم قطعا ولذلك قال عليه السلام لو كان موسى حيا لما وسعه الا اتباعي من قبل
ان نطمس وجوها متعلق بالامر مفيد للمسارعة الى الامتثال والجد في الانتهاء عن مخالفته
بما فيه من الوعيد الشديد الوارد على ابلغ وجه واكده حيث لم يعلق وقوع المتوعد به
بالمخالفة ولم يصرح بوقوعه عندها تنبيها على ان ذلك امر محقق غني عن الاخبار
به وانه على شرف الوقوع متوجه نحو المخاطبين وفي تنكير الوجوه المفيد للتكثير تهويل للخطب
وفي ابهامها لطف بالمخاطبين وحسن استدعاء لهم الى الايمان واصل الطمس محو الاثار
وازالة الاعلام اي امنوا من قبل ان نمحو تخطيط صورها ونزيل اثارها قال ابن عباس رضي الله عنهما
نجعلها كخف البعير او كحافر الدابة وقال قتادة والضحاك نعميها كقوله تعالى فطمسنا اعينهم
وقيل نجعلها منابت الشعر كوجوه القردة فنردها على ادبارها فنجعلها على هيئة ادبارها
واقفائها مطموسة مثلها فالفاء للتسبيب او ننكسها بعد الطمس فنردها الى موضع
الاقفاء والاقفاء الى موضعها وقد اكتفى بذكر اشدهما فالفاء للتعقيب وقيل المراد بالوجوه
الوجهاء على ان الطمس بمعنى مطلق التغيير اي من قبل ان نغير احوال وجهائهم فنسلب
اقبالهم ووجاهتهم ونكسوهم صغارا وادبارا او نردهم من حيث جاؤا منه وهي اذرعات
الشام فالمراد بذلك اجلاء بني النضير ولا يخفى انه لا يساعده تشديد الوعيد وتعميم
التهديد للجميع فالوجه ما سبق من الوجوه وقد اختلف في ان الوعيد هل كان بوقوعه
في الدنيا او في الاخرة فقيل كان بوقوعه في الدنيا ويؤيده ما روي ان عبد الله بن سلام
لما قدم من الشام وقد سمع هذه الآية اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ان ياتي اهله
فاسلم وقال يا رسول الله ما كنت ارى ان اصل اليك حتى يتحول وجهي الى قفاي وفي رواية
جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم ويده على وجهه واسلم وقال ما قال وكذا ما روي ان عمر
رضه قرأ هذه الآية على كعب الاحبار فقال كعب يا رب امنت يا رب اسلمت مخافة ان يصيبه
وعيدها ثم اختلفوا فقيل انه منتظر بعد ولا بد من طمس في اليهود ومسخ [illegible]
وفيه ان انصراف العذاب الموعود عن اوائلهم وهم الذين باشروا اسباب نزوله وموجبات
حلوله حيث شاهدوا شواهد النبوة في رسول الله صلى الله عليه وسلم فكذبوهما وفي التورية
فحرفوها واصروا على الكفر والضلالة وتعلق بهم خطاب المشافهة بالوعيد ثم نزوله على
من وجد بعد مئات من السنين من اعقابهم الضالين باضلالهم العاملين بما مهدوا من قوانين
الغواية بعيد من حكمة الله عز وجل العزيز الحكيم وقيل ان وقوعه كان مشروطا بعدم الايمان

وقد

وقد امن من احبارهم المذكوران وامثالهما فلم يقع وفيه ان اسلام بعضهم ان لم يكن سببا
لتاكد نزول العذاب على الباقين لتشديدهم التكبر والعناد بعد ازدياد الحق وضوحا وقيام
الحجة عليهم بشهادة اماثلهم العدول فلا اقل من ان يكون سببا لرفعه عنهم وقيل
كان الوعيد بوقوع احد الامرين كما ينطق به قوله تعالى او نلعنهم كما لعنا اصحاب السبت
فان لم يقع الامر الاول فلا نزاع في وقوع الثاني كيف لا وهم ملعونون بكل لسان في كل زمان
وتفسير اللعن بالمسخ ليس بمقرر البتة وانت خبير بان المتبادر من اللعن المشبه بلعن اصحاب
السبت وليس في عطفه على الطمس والرد على الادبار شائبة دلالة على عدم ارادة المسخ
ضرورة انه تغيير مغاير لما عطف عليه على ان المتوعد به لا بد ان يكون امرا حادثا مترتبا
على الوعيد محذورا عندهم ليكون مزجرة عن مخالفة الامر ولم يعهد انه وقع عليهم
لعن بهذا الوصف انما الواقع عليهم ما تداولته الالسنة من اللعن المستمر الذي
القوم بمعزل من صلاحيته لان يكون حكما لهذا الوعيد ومزجرة للعنيد وقيل انما كان
الوعيد بوقوع ما ذكر في الآخرة عند الحشر وسيقع فيها لا محالة احد الامرين او كلاهما
على سبيل التوزيع واما ما روي عن عبد الله بن سلام وكعب رضه فمبني على الاحتياط
اللائق بشانهما والحق ان النظم الكريم ليس بنص في احد الوجهين بل المتبادر منه بحسب
المقام هو الاول لانه ادخل في الزجر وعليه مبني ما روي عن الحبرين لكن لما لم يتضح وقوعه
علم ان المراد هو الثاني والله اعلم وايا ما كان فلعل السر في تخصيصهم بهذه العقوبة
من بين العقوبات مراعاة المشاكلة بينها وبين ما اوجبها من جناياتهم التي هي التحريف
والتغيير والله تعالى هو العليم الخبير وكان امر الله اي ما امر به كائنا ما كان او امره
بايقاع شيء ما من الاشياء مفعولا نافذا كائنا لا محالة فيندرج فيه ما اوعدتم به
دخولا اوليا فالجملة اعتراض تذييلي مقرر لما سبق ووضع الاسم الجليل موضع الضمير بطريق
الالتفات لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية ما في الاعتراض من الاستقلال ان الله لا يغفر
ان يشرك به كلام مستانف مسوق لتقرير ما قبله من الوعيد وتاكيد وجوب الامتثال
بالامر بالايمان ببيان استحالة المغفرة بدونه فانهم كانوا يفعلون ما يفعلون من التحريف
ويطمعون في المغفرة كما في قوله تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ياخذون عرض
هذا الادنى اي على التحريف ويقولون سيغفر لنا والمراد بالشرك مطلق الكفر المنتظم لكفر
اليهود انتظاما اوليا فان الشرع قد نص على اشراك اهل الكتاب قاطبة وقضى بخلود اصناف
الكفرة في النار ونزوله في حق اليهود كما قال مقاتل وهو الانسب بسياق النظم الكريم وسياقه
لا يقتضي اختصاصه بكفرهم بل يكفي اندراجه فيه قطعا بل لا وجه له اصلا لاقتضائه
جواز مغفرة ما دون كفرهم في الشدة من انواع الكفر اي لا يغفر الكفر لمن اتصف به بلا
توبة وايمان لان الحكمة التشريعية مقتضية لسد باب الكفر وجواز مغفرته بلا ايمان
مما يؤدي الى فتحه ولان ظلمات الكفر والمعاصي انما يسترها نور الايمان فمن لم يكن له ايمان لم
يغفر له شيء من الكفر والمعاصي ويغفر ما دون ذلك عطف على خبر ان وذلك اشارة الى الشرك
وما فيه من معنى البعد مع قربه في الذكر للايذان ببعد درجته وكونه في اقصى مراتب القبح
اي ويغفر ما دونه في القبح والمعاصي صغيرة كانت او كبيرة تفضلا من لدنه واحسانا من
غير توبة عنها لكن لا لكل احد بل لمن يشاء اي لمن يشاء ان يغفر له ممن اتصف به فقط لا
بما فوقه فان مغفرتهما لمن اتصف بهما سواء في استحالة الدخول تحت المشية المبنية على
الحكمة التشريعية فان اختصاص مغفرة المعاصي من غير توبة باهل الايمان من متممات
الترغيب فيه والزجر عن الكفر ومن علق المشية بكلا الفعلين وجعل الموصول الاول عبارة
عمن لم يتب والثاني عمن تاب فقد ضل سبيل الصواب كيف لا وان مساق النظم الكريم
لاظهار كمال عظم جريمة الكفر وامتيازه عن سائر المعاصي ببيان استحالة مغفرته وجواز مغفرتها
فلو كان الجواز على تقدير التوبة لم يظهر بينهما فرق للاجماع على مغفرتهما بالتوبة ولم يحصل
ما هو المقصود من الزجر البليغ عن الكفر والطغيان والحمل على التوبة والايمان ومن يشرك بالله
اظهار الاسم الجليل في موضع الاضمار لزيادة تقبيح الاشراك وتفظيع حال من يتصف به فقد

افترى اثما عظيما اى افترى واختلق مرتكبا اثما لا يقادر قدره ويستحقر دونه جميع الاثام
يتعلق به المغفرة قطعا الم تر الى الذين يزكون انفسهم تعجيب من حالهم المنافية لما
هم عليه من الكفر والطغيان والمراد بهم اليهود الذين يقولون نحن ابناء الله واحباؤه
وقيل ناس من اليهود جاؤا باطفالهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا هل على هؤلاء
ذنب قال عليه السلام لا قالوا ما نحن الا كهيئتهم ما عملنا بالنهار كفر عنا بالليل وما عملنا
بالليل كفر عنا بالنهار اى انظر اليهم فتعجب من ادعائهم انهم ازكياء عند الله تعالى مع
ما هم عليه من الكفر والاثم العظيم او من ادعائهم التكفير مع استحالة ان يغفر للكافر
شيء من كفره او معاصيه وفيه تحذير من اعجاب المرء بنفسه وبعلمه بل الله يزكي من يشاء
عطف على مقدر ينساق اليه الكلام كانه قيل هم لا يزكونها فى الحقيقة لكذبهم وبطلان
اعتقادهم بل الله يزكي من يشاء تزكيته من يستاهلها من المرتضين من عباده المؤمنين
اذ هو العليم الخبير بما ينطوى عليه البشر من المحاسن والمساوى وقد وصفهم بما هم متصفون به
من القبائح واصل التزكية نفي ما يستقبح بالفعل او بالقول ولا يظلمون عطف على الجملة
قد حذفت تعويلا على دلالة الحال عليها وايذانا بانها غنية عن الذكر اى يعاقبون بتلك الفعلة
القبيحة ولا يظلمون فى ذلك العقاب فتيلا اى ادنى ظلم واصغره وهو الخيط الذي في
شق النواة يضرب به المثل فى القلة والحقارة وقيل [illegible] ولا ينقصون من ثوابهم
اصلا ولا يساعده المقام الوعيد انظر كيف يفترون على الله الكذب كيف نصب اما على التشبيه
بالظرف او بالحال على الخلاف المشهور بين سيبويه والاخفش والعامل يفترون وبه يتعلق
على اى فى اى حال او على اى حال يفترون عليه تعالى الكذب والمراد بيان شناعة تلك الحال
كمال فظاعتها والجملة فى محل النصب بعد نزع الخافض والنظر متعلق بها وهو تعجيب
اثر تعجيب وتنبيه على ان ما ارتكبوه متضمن لامرين عظيمين موجبين للتعجب ادعاؤهم
الاتصاف بما هم متصفون بنقيضه وافتراؤهم على الله تعالى فان ادعاءهم الزكاء
عنده تعالى عن ذلك علوا كبيرا ويكون هذا اشنع من الاول جرما واعظم قبحا لما فيه من
نسبته سبحانه الى ما يستحيل عليه بالكلية من قبول الكفر وارتضائه لعباده ومغفرة كفر
الكافر وسائر معاصيه وجه النظر الى كيفيته تشديدا للتشنيع وتاكيدا للتعجب والتصريح
بالكذب مع ان الافتراء لا يكون الا كذبا للمبالغة فى تقبيح حالهم وكفى به اى بافترائهم
هذا من حيث هو افتراء عليه تعالى مع قطع النظر عن مقارنته لتزكية انفسهم وسائر
آثامهم العظام اثما مبينا ظاهرا بينا كونه اثما والمعنى كفى ذلك وحده فى كونهم
اشد اثما من الكفار اثيم او فى استحقاقهم لاشد العقوبات لما مر سره وجعل الضمير لزعمهم
مما لا مساغ له لاخلاله بتهويل امر الافتراء فتدبر الم تر الى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب
تعجيب من حال اخرى لهم ووصفهم بما ذكر من ايتاء النصيب لما مر من منافاته لما صدر
عنهم من القبائح وقوله عز وجل يؤمنون بالجبت والطاغوت استئناف مبين لمادة
التعجب مبني على سؤال ينساق اليه الكلام كانه قيل ماذا يفعلون حتى ينظر اليهم فقيل يؤمنون
الخ والجبت الاصنام وكل ما عبد من دون الله وقيل اصله الجبس وهو الذي لا خير عنده فابدل
السين تاء وقيل الجبت الساحر بلغة الحبشة والطاغوت الشيطان وقيل هو فى الاصل كل
ما يطغى الانسان وكان حيي بن اخطب وكعب بن الاشرف اليهوديين خرجا الى مكة في
سبعين راكبا من اليهود ليحالفوا قريشا على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم وينقضوا
العهد الذي كان بينهم وبينه عليه السلام فقالوا انتم اهل الكتاب وانتم اقرب الى محمد منكم
الينا فلا نامن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن اليكم ففعلوا فهذا ايمانهم
بالجبت والطاغوت لانهم سجدوا للاصنام واطاعوا ابليس فيما فعلوا وقال ابو سفيان
لكعب انك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن اميون لا نعلم فاينا اهدى طريقا نحن
ام محمد فقال ماذا يقول محمد فقال يامر بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك قال وما
دينكم قالوا نحن ولاة البيت نسقي الحاج ونقري الضيف ونفك العاني وذكروا افعالهم
قال انتم اهدى سبيلا وذلك قوله تعالى ويقولون للذين كفروا اى لاجلهم وفي

حقهم

حقهم هؤلاء يعنونهم اهدى من الذين آمنوا سبيلا اى اقوم دينا وارشد طريقة
وايرادهم بعنوان الايمان ليس من قبل القائلين بل من جهة الله تعالى تشريفا لهم بالوصف
الجميل وتخطئة لمن رجح عليهم المتصفين بافنح القبائح اولئك اشارة الى القائلين
وما فيه من معنى البعد مع قربهم فى الذكر للاشعار ببعد منزلتهم فى الضلال وهو
مبتدا خبره قوله تعالى الذين لعنهم الله اى ابعدهم عن رحمته وطردهم والجملة
مستانفة لبيان احوالهم واظهار مصيرهم ومآلهم ومن يلعن الله اى يبعده عن رحمته
فلن تجد له نصيرا يدفع عنه العذاب دنيويا او اخرويا بالشفاعة ولا بغيرها وفيه تنصيص
على حرمانهم مما طلبوا من قريش وفى كلمة لن وتوجيه الخطاب الى كل احد يتسنى له الخطاب
وتوحيد النصير منكرا والتعبير عن عدمه بعدم الوجدان المبني عن سبق الطلب مسند
الى المخاطب العام من الدلالة على حرمانهم الابدي بالكلية ما لا يخفى ام لهم نصيب
من الملك شروع فى تفصيل بعض آخر من قبائحهم وام منقطعة وما فيها بل للاضراب
والانتقال من ذمهم بتزكيتهم انفسهم وغيرها مما حكي عنهم الى ذمهم بادعائهم
نصيبا من الملك وببخلهم المفرط وشحهم البالغ والهمزة لانكار ان يكون لهم ما يدعونه و
ابطال لما زعموا ان الملك سيصير اليهم وقوله تعالى فاذن لا يؤتون الناس نقيرا بيان
لعدم استحقاقهم الحرمان منه بسبب انهم من البخل والدناءة بحيث لو اوتوا شيئا من
ذلك لما اعطوا الناس منه اقل قليل ومن حق من اوتى الملك ان يؤثر الغير بشئ منه فالفاء
للسببية الجزائية لشرط محذوف اى ان جعل لهم نصيب منه فاذن لا يؤتون الناس
مقدار نقير وهو ما فى ظهر النواة من النقرة يضرب به المثل فى القلة والحقارة وهذا هو البيان الكاشف
عن كنه حالهم واذا كان شانهم كذلك وهم ملوك فما ظنك بهم وهم اذلاء متفاقرون
ويجوز ان لا تكون الهمزة لانكار الوقوع بل لانكار الواقع والتوبيخ عليه اى لعده منكرا
غير لائق بالوقوع على ان الفاء للعطف والانكار متوجه الى مجموع المعطوفين على معنى
الهم نصيب وافر من الملك حيث كانوا اصحاب اموال وبساتين وقصور مشيدة كالملوك
فلا يؤتون الناس مع ذلك نقيرا كما تقول لغني لا يراعي اباه الك هذا القدر من المال فلا
تنفق على ابيك شيئا وفائدة اذن تاكيد الانكار والتوبيخ حيث يجعلون ثبوت النصيب سببا
للمنع مع كونه سببا للاعطاء وهي ملغاة عن العمل كانه قيل فلا يؤتون الناس اذن وقرئ
فاذن لا يؤتوا بالنصب على اعمالها ام يحسدون الناس منقطعة ايضا مفيدة للانتقال عن
توبيخهم بما سبق الى توبيخهم بالحسد الذي هو شر الرذائل واقبحها لا سيما على ما هم
بمعزل من استحقاقه واللام فى الناس للعهد والاشارة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
والمؤمنين وحمله على الجنس ايذانا بحيازتهم للكمالات البشرية قاطبة فكانهم هم الناس
لا غير لا يلايمه ذكر حديث آل ابراهيم فان ذلك لتذكير ما بين الفريقين من العلاقة
الموجبة لاشتراكهما فى استحقاق الفضل والهمزة لانكار الواقع واستقباحه فانهم كانوا
يطمعون ان يكون النبي الموعود منهم فلما خص الله تعالى بتلك الكرامة غيرهم حسدوهم
بل يحسدونهم على ما آتاهم الله من فضله يعني النبوة والكتاب وازدياد العز و
النصر يوما فيوما وقوله تعالى فقد آتينا تعليل للانكار والاستقباح والزام لهم
بما هو مسلم عندهم وحسم لمادة حسدهم واستبعادهم المبنيين على توهم عدم
استحقاق المحسود لما اوتي من الفضل ببيان استحقاقه له بطريق الوراثة كابرا
عن كابر واجراء الكلام على سنن الكبرياء بطريق الالتفات لاظهار كمال العناية بالامر والمعنى
ان حسدهم المذكور فى غاية القبح والبطلان فانا قد آتينا من قبل هذا آل ابراهيم
الذين هم اسلاف محمد عليه السلام وابناء عمه الكتاب والحكمة اى النبوة و
آتيناهم مع ذلك ملكا عظيما لا يقادر قدره فكيف يستبعدون نبوته عليه السلام
ويحسدونه على ايتائها وتكرير الاعطاء لما يقتضيه مقام التفصيل مع الاشعار بما بين
النبوة والملك من المغايرة فان اريد به الايتاء بالذات فالمراد بآل ابراهيم انبياؤهم عليهم
السلام خاصة والضمير المنصوب فى الفعل الثاني لبعضهم اما بحذف المضاف او بطريق

الاستخدام لما ان الملك لم يؤت كلهم قال ابن عباس رضي الله عنهما الملك في آل ابراهيم ملك يوسف وداود وسليمان عليهم السلام وان اريد به ما يعمه وغيره من الابناء بالواسطة وهو اللائق بالمقام والاوفق لما قبله من نسبة ايتاء الفضل الى الناس فالمراد بآل ابراهيم كلهم فان تشريف البعض بما ذكر من ابناء النبوة والملك تشريف للكل لاعتنائهم باثاره واقتباسهم من انواره وفي تفصيل ما اوتوه وتكرير الفعل ووصف الملك بالعظم وتنكيره التفخيمي من تاكيد الالزام وتشديد الانكار ما لا يخفى هذا هو المتبادر من النظم الكريم واليه جنح جمهور ائمة التفسير لكن الظاهر حينئذ ان يكون قوله تعالى فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه حكاية لما صدر عن اسلافهم عقيب وقوع المحكي من غير ان يكون له دخل في الالزام الذي سيق له الكلام اي فمن جنس هؤلاء الحاسدين وآبائهم من آمن بما اوتي آل ابراهيم ومنهم من اعرض عنه واما جعل الضميرين لما ذكر من حديث آل ابراهيم فيستدعي تراخي الآية الكريمة عما قبلها نزولا كيف لا وحكاية ايمانهم بالحديث المذكور واعراضهم عنه بصيغة الماضي انما تتصور بعد وقوع الايمان والاعراض المتأخرين عن سماع الحديث المتأخر عن نزوله وكذا جعلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم اذ الظاهر بيان حالهم بعد هذا الالزام وحمله على حكاية حالهم السابقة لا يساعده الفاء المرتبة لما بعدها على ما قبلها ولا يبعد كل البعد ان تكون الهمزة لتقرير حسدهم وتوبيخهم بذلك ويكون قوله تعالى فقد آتينا الآية تعليلا له بدلالته على اعراضهم عما اوتي آل ابراهيم وان لم يذكر كونه بطريق الحسد كانه قيل بل ايحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ولا يؤمنون به وذلك دينهم المستمر فانا قد آتينا آل ابراهيم ما آتينا فمنهم اي من جنسهم من آمن بما آتيناهم ومنهم من اعرض عنه ولم يؤمن والله سبحانه اعلم وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكفى بجهنم سعيرا نارا مسعرة يعذبون بها والجملة تذييل لما قبلها ان الذين كفروا بآياتنا ان اريد بهم الذين كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم فالمراد بالآيات اما القرآن او ما يعم كله وبعضه او ما يعم سائر معجزاته ايضا وان اريد بهم الجنس المتناول لهم اولياء فالمراد بالآيات ما يعم المذكورات وسائر الشواهد التي اوتيها الانبياء عليهم الصلوة والسلام سوف نصليهم نارا قال سيبويه سوف كلمة تذكر للتهديد والوعيد وينوب عنها السين وقد يذكران في الوعد فيفيدان التاكيد اي ندخلهم نارا عظيمة هائلة كلما نضجت جلودهم اي احترقت وكلما ظرف زمان والعامل فيه بدلناهم جلودا غيرها من قبيل بدله بخوفه امنا لا من قبيل يبدل الله سيئاتهم حسنات اي اعطيناهم مكان كل جلد محترق عند احتراقه جلدا جديدا مغايرا للمحترق صورة وان كان عينه مادة بان يزال عنه الاحتراق ليعود احساسه للعذاب والجملة في محل النصب على انها حال من ضمير نصليهم وقد جوز كونها صفة لنارا على حذف العائد اي كلما نضجت فيها جلودهم ضمنها قوله تعالى ليذوقوا العذاب ليدوم ذوقه ولا ينقطع كقولك للعزيز اعزك الله وقيل يخلق مكانه جلدا آخر والعذاب للنفس العاصية لا لآلة ادراكها قال ابن عباس رضي الله عنهما يبدلون جلودا بيضاء كامثال القراطيس وروي ان هذه الآية قرئت عند عمر رضي الله عنه فقال للقارئ اعدها فاعادها وكان عنده معاذ بن جبل فقال معاذ عندي تفسيرها تبدل في ساعة مائة مرة فقال عمر رضي الله عنه هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الحسن تاكلهم النار كل يوم سبعين الف مرة كلما اكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا وروى ابو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان بين منكبي الكافر مسيرة ثلثة ايام للراكب المسرع وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرس الكافر او ناب الكافر مثل احد وغلظ جلده مسيرة ثلثة ايام والتعبير عن ادراك العذاب بالذوق ليس لبيان قلته بل لبيان ان احساسهم بالعذاب في كل مرة كاحساس الذائق بالمذوق من حيث انه لا يدخله نقصان بدوام الملابسة وللاشعار بمرارة العذاب مع ايلامه او للتنبيه على شدة تأثيره من حيث ان القوة الذائقة اشد الحواس تاثرا او على سرايته للباطن ولعل السر في تبديل الجلود مع قدرته تعالى على ابقاء ادراك العذاب وذوقه بحاله مع الاحتراق او مع ابقاء

ابدانهم على حالها مصونة عن الاحتراق ان النفس ربما تتوهم زوال الادراك بالاحتراق ولا تستبعد كل الاستبعاد ان تكون مصونة عن التألم والعذاب صيانة بدنها عن الاحتراق ان الله كان عزيزا لا يمتنع عليه ما يريده ولا يمانعه حكيما يعاقب من يعاقبه على وفق حكمته والجملة تعليل لما قبلها من الاصلاء والتبديل واظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتهويل الامر وتربية المهابة وتعليل الحكم فان عنوان الالوهية مناط لجميع صفات كماله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات عطف ببيان سوء حالهم الكفرة ببيان حسن حال المؤمنين تكميلا لمساءة الاولين ومسرة الآخرين اي الذين آمنوا بآياتنا وعملوا بمقتضاها وهو مبتدأ خبره قوله تعالى سندخلهم جنات تجري من تحتها الانهار وقرئ سيدخلهم بالياء ردا على الاسم الجليل وفي السين تاكيد للوعد خالدين فيها ابدا حال مقدرة من الضمير المنصوب في سندخلهم وقوله عز وعلا لهم فيها ازواج مطهرة اي مما في نساء الدنيا من الاحوال المستقذرة البدنية والادناس الطبيعية في محل النصب على انه حال من جنات او حال ثانية من الضمير المنصوب او على انه صفة لجنات بعد صفة او في محل الرفع على انه خبر للموصول بعد خبر وندخلهم ظلا ظليلا اي فينانا لا جوب فيه دائما لا تنسخه شمس اللهم ارزقنا ذلك بفضلك وكرمك يا ارحم الراحمين والظليل صفة مشتقة من لفظ الظل للتاكيد كما في ليل اليل ويوم اليوم وقرئ يدخلهم بالياء وهو عطف على سيدخلهم ولعل انه غير الادخال الاول بالذات بل بالعنوان كما في قوله تعالى ولما جاء امرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها في تصدير الكلام بكلمة التحقيق واظهار الاسم الجليل وايراد الامر على صورة الاخبار من الفخامة وتاكيد وجوب الامتثال به والدلالة على الاعتناء بشأنه ما لا مزيد عليه وهو خطاب يعم حكمه المكلفين قاطبة كما ان الامانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بذممهم من حقوق الله تعالى وحقوق العباد سواء كانت فعلية او قولية او اعتقادية وان ورد في شأن عثمان بن طلحة بن عبد الدار سادن الكعبة المعظمة وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح اغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح وابى ان يدفع المفتاح اليه وقال لو علمت انه رسول الله لم امنعه فلوى علي بن ابي طالب رضي الله عنه يده واخذه منه وفتح ودخل النبي صلى الله عليه وسلم وصلى ركعتين فلما خرج سأله العباس ان يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة فنزلت فامر عليا ان يرده الى عثمان ويعتذر اليه فقال عثمان لعلي رضي الله عنه اكرهت وآذيت ثم جئت ترفق فقال لقد انزل الله في شأنك قرآنا فقرأ عليه الآية فقال عثمان اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فهبط جبرائيل عليه السلام واخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان السدانة في اولاد عثمان ابدا وقرئ الامانة على التوحيد والمراد الجنس لا المعهود وقيل هو امر للولاة باداء الحقوق المتعلقة بذممهم من المناصب وغيرها الى مستحقيها كما ان قوله تعالى واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا امر لهم بايصال الحقوق المتعلقة بذمم الغير الى اصحابها وحيث كان المأمور به ههنا مختصا بوقت المرافعة قيد به بخلاف المأمور به اولا فانه لما لم يتعلق بوقت دون وقت اطلق اطلاقا فقوله تعالى ان تحكموا عطف على ان تؤدوا وقد فصل بين العاطف والمعطوف بالظرف المعمول له عند الكوفيين والمقدر يدل هو عليه عند البصريين لان ما بعد ان لا يعمل فيما قبلها عندهم اي وان تحكموا اذا حكمتم الخ وقوله تعالى بالعدل متعلق بتحكموا او بمقدر وقع حالا من فاعله اي ملتبسين بالعدل والانصاف ان الله نعما يعظكم به ما اما منصوبة موصوفة بيعظكم به او مرفوعة موصولة به اي نعم شيء يعظكم به ذلكم وهو المأمور به من اداء الامانات والعدل في الحكومات وقرئ نعما بفتح النون والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها متضمنة لمزيد لطف بالمخاطبين وحسن استدعاء لهم الى الامتثال بالامر واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة ان الله كان سميعا لاقوالكم بصيرا بافعالكم فهو وعد ووعيد واظهار الجلالة لما ذكر آنفا فان فيه تاكيدا لكل من الوعد والوعيد يا ايها الذين آمنوا بعدما امر الولاة بطريق العموم او بطريق الخصوص باداء الامانات والعدل في الحكومات امر سائر

الناس بطاعتهم لكن لا مطلقا بل في ضمن طاعة الله عز وجل وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم
حيث قيل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم وهم أمراء الحق وولاة
العدل كالخلفاء الراشدين ومن يقتدي بهم من المهتدين وأما أمراء الجور فبمعزل من استحقاق
العطف على الله تعالى والرسول عليه السلام في وجوب الطاعة لهم وقيل هم علماء الشرع لقوله
تعالى ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ويأباه قوله
تعالى فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله إذ ليس للمقلد أن ينازع المجتهد في حكمه إلا أن يجعل
الخطاب لأولي الأمر بطريق الالتفات وفيه بعد وتصدير الشرطية بالفاء لترتبها على ما قبلها
فإن بيان حكم طاعة أولي الأمر عند موافقتها لطاعة الله تعالى وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم
يستدعي بيان حكمها عند المخالفة أي إن اختلفتم أنتم وأولو الأمر منكم في أمر من أمور
الدين فراجعوا فيه إلى كتاب الله والرسول أي إلى سنته وقد استدل به منكر
القياس وهو في الحقيقة دليل على حجيته كيف لا ورد المختلف فيه إلى المنصوص عليه
إنما يكون بالتمثيل والبناء عليه وهو المعني بالقياس ويؤيده الأمر بطاعة الله تعالى
وطاعة رسوله عليه السلام فإنه يدل على أن الأحكام ثلاثة ثابت بالكتاب وثابت
بالسنة وثابت بالرد إليهما بالقياس إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر متعلق بالأمر
الأخير الوارد في محل النزاع إذ هو المحتاج إلى التحذير من المخالفة وجواب الشرط محذوف عند
جمهور البصريين ثقة بدلالة المذكور عليه أي إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فردوه إلى فإن
الإيمان بهما يوجب ذلك أما الإيمان بالله تعالى فظاهر وأما باليوم الآخر فلما فيه من العذاب على
المخالفة ذلك أي الرد المأمور به خير لكم وأصلح وأحسن في نفسه تأويلا
أي عاقبة ومآلا وتقديم خيريته لهم على أحسنيته في نفسه لما مر من تعلق أنظارهم
بما ينفعهم والمراد بيان اتصافه في نفسه بالخير الكامل والحسن الكامل في حد ذاته
من غير اعتبار فضله على شيء يشاركه في أصل الخيرية والحسن كما ينبئ عنه التحذير السابق
ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك تلوين للخطاب و
توجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجيبا له من حال الذين يخالفون ما مر من الأمر
المحتوم ولا يطيعون الله ورسوله ووصفهم بادعاء الإيمان بالقرآن وبما أنزل من قبله
أعني التوراة لتأكيد التعجيب وتشديد التوبيخ والاستقباح ببيان كمال المباينة بين دعواهم
وبين ما صدر عنهم وقرئ الفعلان على البناء للفاعل وقوله عز وجل يريدون أن
يتحاكموا إلى الطاغوت استئناف سيق لبيان محل التعجيب مبني على سؤال نشأ من صدر
الكلام كأنه قيل ماذا يفعلون فقيل يريدون الخ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن منافقا
خاصم يهوديا فدعاه اليهودي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاه المنافق إلى كعب
بن الأشرف ثم إنهما احتكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرض به المنافق فدعاه إلى عمر
بن الخطاب رضي الله عنه فقال اليهودي قضى لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرض بقضائه
فقال عمر رضي الله عنه للمنافق أهكذا قال نعم فقال عمر مكانكما حتى أخرج إليكما فدخل فاشتمل على
سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد ثم قال هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله
ورسوله فنزلت فهبط جبريل عليه السلام وقال إن عمر فرق بين الحق والباطل فقال
رسول الله أنت الفاروق فالطاغوت كعب بن الأشرف سمي به لإفراطه في الطغيان و
عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو على التشبيه بالشيطان والتسمية باسمه أو جعل
اختيار التحاكم إلى غير النبي صلى الله عليه وسلم على التحاكم إليه تحاكما إلى الشيطان وقال الضحاك
المراد بالطاغوت كهنة اليهود وسحرتهم وعن الشعبي أن المنافق دعا خصمه إلى كاهن
في جهينة فتحاكما إليه وعن السدي أن الحادثة وقعت في قتيل بين بني قريظة والنضير
فتحاكم المسلمون من الفريقين إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأبى المنافقون منهما إلا التحاكم
إلى أبي بردة الكاهن الأسلمي فتحاكموا إليه فيكون الاقتصار حينئذ في معرض التعجيب
والاستقباح على ذكر إرادة التحاكم دون نفسه مع وقوعه أيضا للتنبيه على أن إرادته
مما يقضى منه العجب ولا ينبغي أن يدخل تحت الوقوع فما ظنك بنفسه وهذا أنسب

بوصف المنافقين بادعاء الإيمان بالتوراة فإنه كما يقتضي كونهم من منافقي اليهود يقتضي كون
ما صدر عنهم من التحاكم ظاهر المنافاة لادعاء الإيمان بالتوراة وليس التحاكم إلى كعب
بن الأشرف بهذه المثابة من الظهور وأيضا فالمتبادر من قوله تعالى وقد أمروا أن يكفروا
به كونهم مأمورين بكفره في الكتابين وما ذاك إلا الشيطان وأولياؤه المشهورون بولايته
كالكهنة ونظائرهم لا من عداهم ممن لم يشتهر بذلك وقرئ أن يكفروا بها على أن الطاغوت
جمع كما في قوله تعالى أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم والجملة حال من ضمير يريدون مفيدة
لتأكيد التعجيب وتشديد الاستقباح كالوصف السابق وقوله عز وعلا ويريد
الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا عطف على يريدون داخل في حكم التعجيب فإن
اتباعهم لمن يريد إضلالهم وإعراضهم عمن يريد هدايتهم أعجب من كل عجيب وضلالا
إما مصدر مؤكد للفعل المذكور بحذف الزوائد كما في قوله تعالى فأنبتها الله نباتا حسنا
أي إضلالا بعيدا وإما مصدر مؤكد لفعله المدلول عليه بالمذكور أي فيضلون ضلالا
وأياما كان فوصفه بالبعد الذي هو نعت موصوفه للمبالغة وقوله تعالى وإذا قيل لهم
تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول تكملة لمادة التعجيب ببيان إعراضهم صريحا عن
التحاكم إلى كتاب الله تعالى ورسوله إثر بيان إعراضهم عن ذلك في ضمن التحاكم إلى
الطاغوت وقرئ تعالوا بضم اللام على أنه حذف لام الفعل تخفيفا كما في قولهم ما باليت بالة
أصلها بالية كعافية وكما قالوا في آية إن أصلها أيية فحذفت اللام ووقعت واو الجمع
بعد اللام في تعالى فضمت فصار تعالوا ومنه قول أهل مكة للمرأة تعالي بكسر اللام وعليه
قول أبي فراس الحمداني أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي
رأيت المنافقين إظهار المنافقين في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالنفاق وذمهم
به والإشعار بعلة الحكم والرؤية بصرية وقوله تعالى يصدون عنك حال من
المنافقين وقيل الرؤية قلبية والجملة مفعول ثان لها والأول هو الأنسب لظهور حالهم
وقوله تعالى صدودا مصدر مؤكد لفعله أي يعرضون عنك إعراضا وأي إعراض وقيل
اسم للمصدر الذي هو الصد والأظهر أنه مصدر لصد اللازم والصد مصدر
للمتعدي يقال صد عنه صدودا أي أعرض عنه وصده عنه صدا أي منعه منه وقوله
تعالى فكيف شروع في بيان غائلة جناياتهم المحكية ووخامة عاقبتها أي كيف
يكون حالهم إذا أصابتهم مصيبة أي وقت إصابة المصيبة إياهم بانتقام منهم
بظهور نفاقهم بما قدمت أيديهم بسبب ما عملوا من الجنايات التي من جملتها
التحاكم إلى الطاغوت والإعراض عن حكمك ثم جاؤوك للاعتذار عما صنعوا من القبائح
وهو عطف على أصابتهم والمراد تفظيع حالهم وتهويل ما دهمهم من الخطب واعتراهم
من شدة الأمر عند إصابة المصيبة وعند المجيء للاعتذار يحلفون بالله حال من فاعل
جاؤوك إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا أي ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك إلا الفصل
بالوجه الحسن والتوفيق بين الخصمين ولم نرد مخالفة لك ولا سخطا لحكمك فلا تؤاخذنا
بما فعلنا وهذا وعيد لهم على ما فعلوا وأنهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم
ولا يغني عنهم الاعتذار وقيل جاء أولياء المنافق يطلبون بدمه وقد أهدره الله
تعالى فقالوا ما أردنا إلا ما أراد صاحبنا المقتول بالتحاكم إلى عمر رضي الله عنه إلا أن يحسن إليه ويوفق
بينه وبين خصمه أولئك إشارة إلى المنافقين وما فيه من معنى البعد للتنبيه على بعد
منزلتهم في الكفر والنفاق وهو مبتدأ خبره الذين يعلم الله ما في قلوبهم أي من
فنون الشرور والفسادات المنافية لما أظهروا من الأكاذيب فأعرض عنهم جواب شرط
محذوف أي إذا كان حالهم كذلك فأعرض عن قبول معذرتهم وقيل عن عقابهم
لمصلحة في استبقائهم ولا تظهر لهم علمك بما في بواطنهم ولا تهتك سترهم حتى يبقوا
على وجل وحذر وعظهم أي ازجرهم عن النفاق والكيد وقل لهم في أنفسهم
أي في حق أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على الشرور التي يعلمها الله تعالى أو في أنفسهم
خاليا بهم ليس معهم غيرهم مسارا بالنصيحة لأنها في السر أنجع قولا بليغا مؤثرا

واصلاً الى كنه المراد مطابقاً لما سيق له من المقصود فالظرف على التقديرين متعلق بالامر
وقيل متعلق ببليغاً على رأي من يجيز تقديم معمول الصفة على الموصوف اي قل لهم
قولاً بليغاً في انفسهم مؤثراً في قلوبهم يغتمون به اغتماماً ويستشعرون منه الخوف
استشعاراً وهو التوعد بالقتل والاستئصال والايذان بان ما في قلوبهم من مكنونات
الشر والنفاق غير خاف على الله تعالى وان ذلك مستوجب لاشد العقوبات وانما هذه الكافة
والتأخير لاظهارهم الايمان والطاعة واضمارهم الكفر ولئن اظهروا الشقاق وبرزوا
باشخاصهم من نفق النفاق ليمسنهم العذاب ان الله شديد العقاب وما ارسلنا
من رسول الا ليطاع باذن الله كلام مبتدأ جيء به تمهيداً لبيان خطائهم في الاشتغال
بستر جناياتهم بالاعتذار بالاباطيل وعدم تلافيها بالتوبة اي وما ارسلنا رسولاً من
الرسل لشيء من الاشياء الا ليطاع بسبب اذنه تعالى في طاعته وامره المرسل اليهم بان يطيعوه
ويتبعوه لانه مؤد عنه تعالى فطاعته طاعة الله تعالى ومعصيته معصيته تعالى من يطع الرسول
فقد اطاع الله او بتيسير الله تعالى وتوفيقه في طاعته ولو انهم اذ ظلموا انفسهم
وعرضوها لعذاب النفاق بترك طاعتك والتحاكم الى غيرك جاؤك من غير تأخير كما
يفصح عنه تقديم الظرف متوسلين بك في التنصل عن جناياتهم القديمة والحادثة
ولم يزدادوا جناية بالقصد الى سترها بالاعتذار الباطل والايمان الفاجرة فاستغفروا الله
بالتوبة والاخلاص وبالغوا في التضرع اليك حتى انتصبت شفيعاً لهم الى الله تعالى واستغفرت
لهم وانما قيل واستغفر لهم الرسول على طريقة الالتفات تفخيماً لشأن رسول الله
صلى الله عليه وسلم وتعظيماً لاستغفاره وتنبيهاً على ان شفاعته في حيز القبول لوجدوا
الله تواباً رحيماً لعلموه مبالغاً في قبول توبتهم والتفضل عليهم بالرحمة وان فسر
الوجدان بالمصادفة كان قوله تعالى تواباً حالاً ورحيماً بدلاً منه او حالاً من الضمير فيه
وايّاً ما كان ففيه فضل ترغيب للسامعين في المسارعة الى التوبة والاستغفار ومزيد
تنديم لاولئك المنافقين على ما صنعوا لما ان ظهور تباشير قبول التوبة وحصول الرحمة
لهم ومشاهدتهم لآثارها نعمة زائدة عليها موجبة لكمال الرغبة في تحصيلها وتمام
الحسرة على فواتها فلا وربك اي فوربك ولا مزيدة لتاكيد معنى القسم لا لتاكيد النفي
في جوابه اعني قوله تعالى لا يؤمنون لانها تزاد في الاثبات ايضاً كما في قوله تعالى فلا اقسم
بمواقع النجوم ونظائره حتى يحكموك اي يتحاكموا ويترافعوا اليك وانما جيء بصيغة
التحكيم مع انه عليه السلام حاكم بامر الله سبحانه ايذاناً بان حقهم ان يجعلوه
حكماً فيما بينهم ويرضوا بحكمه وان قطع النظر عن كونه حاكماً على الاطلاق فيما شجر بينهم
اي فيما اختلف بينهم من الامور واختلط ومنه الشجر لتداخل اغصانه ثم لا يجدوا
عطف على مقدر ينساق اليه الكلام اي فتقضي بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً
ضيقاً مما قضيت به او من قضائك وقيل شكاً لان الشاك في ضيق من امره ويسلموا
اي ينقادوا لامرك ويذعنوا له تسليماً تاكيد للفعل بمنزلة تكريره اي تسليماً تاماً
بظاهرهم وباطنهم يقال سلّم لامر الله واسلم له بمعنى وحقيقته سلّم نفسه له واسلمها
اذا جعلها سالمة له خالصة اي ينقادوا لحكمك انقياداً لا شبهة فيه بظاهرهم وباطنهم
قيل نزلت في شان المنافق واليهودي وقيل في شان الزبير ورجل من الانصار حين اختصما
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شراج من الحرة كانا يسقيان بها النخل فقال عليه السلام
اسق يا زبير ثم ارسل الماء الى جارك فغضب الانصاري وقال لان كان ابن عمتك فتغير
وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع الى الجدر
واستوف حقك ثم ارسله الى جارك كان قد اشار الى الزبير براي فيه سعة له وللخصم
فلما احفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعب للزبير حقه في صريح الحكم ثم خرجا فمرا
على المقداد فقال لمن القضا فقال الانصاري قضي بينهم وايم الله لقد اذنبنا ذنباً مرة
في حيوة موسى فدعانا الى التوبة منه وقال اقتلوا انفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين
الفاً في طاعة ربنا حتى رضي عنا فقال ثابت بن قيس بن شماس اما والله ان الله ليعلم

منى

مني الصدق لو امرني محمد ان اقتل نفسي لقتلتها وروي انه قال ذلك ثابت وابن مسعود وعمار
بن ياسر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده ان من امتي رجالاً الايمان اثبت
في قلوبهم من الجبال الرواسي فنزل في شان هؤلاء ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم
او اخرجوا من دياركم اي لو اوجبنا عليهم مثل ما اوجبنا على بني اسرائيل من قتلهم انفسهم
او خروجهم من ديارهم حين استتابهم من عبادة العجل وان مصدرية او مفسرة
لان كتبنا في معنى امرنا ما فعلوه اي المكتوب المدلول عليه بكتبنا او احد مصدري الفعلين
الا قليل منهم اي الا اناس قليل منهم وهم المخلصون من المؤمنين وروي عمر رضي انه
قال والله لو امرنا ربنا لفعلنا والحمد لله الذي لم يفعل بنا ذلك وقيل معنى اقتلوا انفسكم
تعرضوا بها للقتل بالجهاد وهو بعيد وقرئ الا قليلاً بالنصب على الاستثناء او الا فعلا
قليلاً ولو انهم فعلوا ما يوعظون به من متابعة الرسول عليه السلام وطاعته
والانقياد لما يراه ويحكم به ظاهراً وباطناً وسميت اوامر الله تعالى ونواهيه مواعظ
لاقترانها بالوعد والوعيد لكان اي فعلهم ذلك خيراً لهم عاجلاً واجلاً واشد
تثبيتاً لهم على الايمان وابعد من الاضطراب فيه او اشد تثبيتاً لثواب اعمالهم
واذاً لآتيناهم من لدنا اجراً عظيماً جواب لسؤال مقدر كانه قيل وماذا يكون
لهم بعد التثبيت فقيل واذاً لو ثبتوا لآتيناهم فان اذاً جواب وجزاء ولهديناهم
صراطاً مستقيماً يصلون بسلوكه الى عالم القدس ويفتح لهم ابواب الغيب قال صلى الله عليه
وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ومن يطع الله والرسول كلام
مستأنف فيه فضل ترغيب في الطاعة ومزيد تشريف لهما ببيان ان نتيجتها اقصى ما
ينتهي اليه همم الامم وارفع ما يمتد اليه اعناق عزائمهم من مجاورة اعظم الخلائق
مقداراً وارفعهم مناراً متضمن لتفسير ما ابهم في جواب الشرطية السابقة وتفصيل ما
اجمل فيه والمراد بالطاعة هو الانقياد التام والامتثال الكامل بجميع الاوامر والنواهي
فاولئك اشارة الى المطيعين والجمع باعتبار معنى من كما ان الافراد في فعل الشرط
باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع القرب في الذكر للايذان بعلو درجتهم
وبعد منزلتهم في الشرف وهو مبتدأ خبره مع الذين انعم الله عليهم والجملة جواب
للشرط وترك ذكر المنعم به للاشعار بقصور العبارة عن تفصيله وبيانه من النبيين
بيان للمنعم عليهم والتعرض لمعية سائر الانبياء عليهم الصلوة والسلام مع ان الكلام
في بيان حكم طاعة نبينا صلى الله عليه وسلم لجريان ذكرهم في سبب النزول مع ما فيه من
الاشارة الى ان طاعته عليه السلام متضمنة لطاعتهم لاشتمال شريعته على شرائعهم التي لا تتغير
بتغير الاعصار روي ان نفراً من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا رسول الله
ان صرنا الى الجنة تفضلنا بدرجات النبوة فلا نراك وقال الشعبي جاء رجل من الانصار
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فقال ما يبكيك يا فلان فقال يا رسول الله
بالله الذي لا اله الا هو لانت احب الي من نفسي واهلي ومالي وولدي واني لاذكرك وانا
في اهلي فيأخذني مثل الجنون حتى اراك وذكرت موتي وانك ترفع مع النبيين واني
ان ادخلت الجنة كنت في منزلة ادنى من منزلتك فلم يرد النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت
وروي ان ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب له عليه السلام
قليل الصبر فاتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن في وجهه
فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حاله فقال يا رسول الله ما بي من وجع
غير اني اذا لم ارك اشتقت اليك واستوحشت وحشة شديدة حتى القاك فذكرت
الآخرة فخفت ان لا اراك هناك لاني عرفت انك ترفع مع النبيين واذا ادخلت الجنة
كنت في منزل دون منزلك وان لم ادخل فذاك حين لا اراك ابداً فقال صلى الله عليه وسلم
والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى اكون احب اليه من نفسه وابويه واهله وولده و
الناس اجمعين وحكى ذلك عن جماعة من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم اجمعين
وروي ان انساً قال يا رسول الله الرجل يحب قوماً ولم يلحق بهم قال المرء مع

منى

من احب والصديقين اى المتقدمين فى تصديقهم البالغين فى الصدق والاخلاص فى
الاقوال والافعال وهم افاضل اصحاب الانبياء عليهم السلام واماثل خواصهم المقربين
كابى بكر الصديق والشهداء الذين بذلوا ارواحهم فى طاعة الله تعالى واعلاء كلمته
والصالحين الصارفين اعمارهم فى طاعته واموالهم فى مرضاته وليس المراد بالمعية
الاتحاد فى الدرجة ولا مطلق الاشتراك فى دخول الجنة بل كونهم فيها بحيث يتمكن كل واحد
منهم من رؤية الاخر وزيارته متى اراد وان بعد ما بينهما من المسافة وحسن
اولئك رفيقا الرفيق الصاحب ماخوذ من الرفق وهو لين الجانب واللطافة فى المعاشرة قولا وفعلا
فان جعل اولئك اشارة الى النبيين ومن بعدهم على ان ما فيه من معنى البعد لما مر مرارا فرفيقا
اما تمييز او حال على معنى انهم وصفوا بالحسن من جهة كونهم رفقاء للمطيعين او حال كونهم
رفقاء لهم وافراده لما انه كالصديق والخليط والرسول يستوى فيه الواحد والمتعدد
اولانه اريد حسن كل واحد منهم رفيقا وان جعل اشارة الى المطيعين فهو تمييز على معنى
انهم وصفوا بحسن الرفيق من النبيين ومن بعدهم لا بنفس الحسن فلا يجوز دخول من عليه كما
يجوز فى الوجه الاول والجملة تذييل مقرر لما قبله موكد للترغيب والتشويق قيل فيه معنى
التعجب كانه قيل وما احسن اولئك رفيقا ولاستقلاله بمعنى التعجب قرئ وحسن بسكون السين
ذلك اشارة الى ما للمطيعين من عظيم الاجر ومزيد الهداية ومرافقة هولاء المنعم
عليهم او الى فضلهم ومزيتهم وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو رتبته
وبعد منزلته فى الشرف وهو مبتدا وقوله تعالى الفضل صفته وقوله تعالى من الله
خبره اى ذلك الفضل العظيم من الله تعالى لا من غيره او الفضل خبره ومن الله متعلق بمحذوف
وقع حالا منه والعامل فيه معنى الاشارة اى ذلك الذى ذكر فضل كائنا من الله تعالى
لا ان اعمال المكلفين توجبه وكفى بالله عليما بجزاء من اطاعه وبمقادير الفضل واستحقاق
اهله يا ايها الذين امنوا خذوا حذركم الحذر والحذر كالاثر والاثر والشبه
والشبه اى تيقظوا واحترزوا من العدو ولا تمكنوه من انفسكم يقال اخذ حذره
اذا تيقظ واحترز من المخوف كانه جعل الحذر آلته التى يقى بها نفسه وقيل هو ما
يحذر به من السلاح والحزم اى استعدوا للعدو فانفروا بكسر الفاء وقرئ بضمها
اى اخرجوا الى الجهاد عند خروجكم ثبات جمع ثبة وهى الجماعة من الرجال فوق العشرة
ووزنها فى الاصل فعلة كحطمة حذفت لامها وعوض منها تاء التانيث وهل هى واو
او ياء فيه قولان قيل انها مشتقة من ثبا يثبو كحلا يحلو اى اجتمع وقيل من ثبيت على
الرجل اذا اثنيت عليه كانك جمعت محاسنه وتجمع ايضا على ثبين جبرا لما حذف من عجزه
ومحلها النصب على الحالية اى انفروا جماعات متفرقة سرية بعد سرية او انفروا جميعا
اى مجتمعين كوكبة واحدة ولا تتخاذلوا فتلقوا بانفسكم الى التهلكة وان منكم لمن
ليبطئن اى ليتثاقلن وليتخلفن عن الجهاد من بطأ بمعنى ابطأ كعتم بمعنى اعتم والخطاب
لعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم المؤمنين منهم والمنافقين والمبطئون
منافقوهم الذين تثاقلوا وتخلفوا عن الجهاد او ليبطئن غيره ويثبطنه من بطأ منقولا
من بطؤ كثقل كما بطأ ابن ابى ناسا يوم احد والاول انسب لما بعده واللام الاولى
للابتداء دخلت على اسم ان للفصل بالخبر والثانية جواب قسم محذوف والقسم صلة
من والراجع اليه ما استكن فى ليبطئن والتقدير وان منكم لمن اقسم بالله ليبطئن
فان اصابتكم مصيبة كقتل وهزيمة قال اى المبطئ فرحا بصنعه وحامدا
لرأيه قد انعم الله على اى بالقعود اذ لم اكن معهم شهيدا اى حاضرا فى
المعركة فيصيبنى ما اصابهم والفاء فى الشرطية لترتيب مضمونها على ما قبلها فان ذكر
التبطئة مستتبع لذكر ما يترتب عليها كما ان نفس التبطئة مستدعية لشئ ينتظر المبطئ
وقوعه ولئن اصابكم فضل كفتح وغنيمة من الله متعلق باصابكم او بمحذوف
وقع صفة لفضل اى فضل كائن من الله تعالى ونسبته اصابة الفضل الى جناب الله تعالى
دون اصابة المصيبة من العادات الشريفة التنزيلية كما فى قوله سبحانه واذا مرضت فهو

يشفين وتقديم الشرطية الاولى لما ان مضمونها لمقصدهم اوفق واثر نفاقهم فيها اظهر
ليقولن ندامة على تثبطه وقعوده وتهالكا على حطام الدنيا وتحسرا على فواته وقرئ
ليقولن بضم اللام اعادة للضمير الى معنى من وقوله تعالى كان لم تكن بينكم وبينه مودة
اعتراض وسط بين الفعل ومفعوله الذى هو يا ليتنى كنت معهم فافوز فوزا عظيما
لئلا يفهم من مطلع كلامه ان تمنيه لمعية المؤمنين لنصرتهم ومظاهرتهم حسبما
يقتضيه ما فى البين من المودة بل هو للحرص على المال كما ينطق به اخره وليس اثبات المودة
فى البين بطريق التحقيق بل بطريق التهكم وقيل التشبيهية حال من ضمير ليقولن اى شبيها
بمن لا مودة بينكم وبينه وقيل هى داخلة فى المقول اى ليقولن المثبط لمن ثبطه من
المنافقين وضعفة المؤمنين كان لم تكن بينكم وبين محمد صلى الله عليه وسلم مودة حيث
لم يستصحبكم فى الغزو حتى تفوزوا بما فاز يا ليتنى كنت معهم وغرضه القاء العداوة بينهم
وبينه صلى الله عليه وسلم وتاكيدها وكان مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشان وهو
محذوف وقرئ لم يكن بالياء والمنادى فى يا ليتنى محذوف اى يا قوم وقيل يا اطلق للتنبيه
على الاتساع وقوله تعالى فافوز نصب على جواب التمنى وقرئ بالرفع على انه خبر مبتدا محذوف
اى فانا افوز فى ذلك الوقت او على انه معطوف على كنت داخل معه تحت التمنى فليقاتل
فى سبيل الله قدم الظرف على الفاعل للاهتمام به الذين يشرون الحيوة الدنيا بالاخرة
اى يبيعونها بها وهم المؤمنون فالفاء جواب شرط مقدر اى ان ابطا هؤلاء عن القتال
فليقاتل المخلصون الباذلون انفسهم فى طلب الاخرة او الذين يشترونها ويختارونها على الاخرة
وهم المبطئون فالفاء للتعقيب اى ليتركوا ما كانوا عليه من التثبط والنفاق وليعقبوه بالقتال
فى سبيل الله ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه بنون العظمة
التفاتا اجرا عظيما لا يقادر قدره وتعقيب القتال باحد الامرين للاشعار بان المجاهد
حقه ان يوطن نفسه باحدى الحسنيين ولا يخطر بباله القسم الثالث اصلا وتقديم
القتل للايذان بتقدمه فى استتباع الاجر روى ابو هريرة رضه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال تكفل الله تعالى لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه الا الجهاد فى سبيله وتصديق
كلمته ان يدخله الجنة او يرجعه الى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من اجر وغنيمة
وما لكم خطاب للمامورين بالقتال على طريقة الالتفات مبالغة فى التحريض عليه و
تاكيد لوجوبه وهو مبتدا وخبر وقوله عز وجل لا تقاتلون فى سبيل الله حال
عاملها ما فى الظرف من معنى الفعل والاستفهام للانكار والنفى اى اى شئ لكم غير
مقاتلين اى لا عذر لكم فى ترك المقاتلة والمستضعفين عطف على اسم الله اى فى
سبيل المستضعفين ويجوز نصبه على الاختصاص فان سبيل الله يعم ابواب الخير و
تخليص ضعفة المؤمنين من ايدى الكفرة اعظمها واخصها من الرجال والنساء و
الولدان بيان للمستضعفين او حال منهم وهم المسلمون الذين بقوا بمكة بصد المشركين
او لضعفهم عن الهجرة مستذلين ممتحنين وانما ذكر الولدان معهم تكميلا للاستعطاف
واستجلاب المرحمة وتنبيها على تناهى ظلم المشركين بحيث بلغ اذاهم الصبيان لارغام آبائهم
وامهاتهم وايذانا باجابة الدعاء الآتى واقتراب زمان الخلوص ببيان شركتهم
فى التضرع الى الله تعالى كل ذلك للمبالغة فى الحث على القتال وقيل المراد بالولدان العبيد
والاماء اذ يقال لهما الوليد والوليدة وقد غلب الذكور على الاناث فاطلق الولدان
على الولائد ايضا الذين محله الجر على انه صفة للمستضعفين او لما فى حيز البيان او النصب
على الاختصاص يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها بالشرك
الذى هو ظلم عظيم وباذية المسلمين وهى مكة والظالم صفتها وتذكيره لتذكير
ما اسند اليه فان اسم الفاعل والمفعول اذا جرى على غير من هو له كان كالفعل فى التذكير
والتانيث بحسب ما عمل فيه واجعل لنا من لدنك وليا كلا الجارين متعلق باجعل
لاختلاف معنييهما وتقديم المجرور على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء بهما وابراز الرغبة فى المؤخر
بتقديم احواله فان تاخير ما حقه التقديم عما هو من احواله المرغبة فيه كما يورث شوق السامع الى

وروده ينبئ عن كمال رغبة المتكلم فيه واعتنائه بحصوله لا محالة وتقديم اللام على من
للمسارعة الى ابراز كون المسئول نافعا لهم مرغوبا فيه لديهم ويجوز ان يتعلق كلمة
من بمحذوف وقع حالا من وليا قدمت عليه لكونه نكرة وكذا الكلام في قوله تعالى
واجعل لنا من لدنك نصيرا قال ابن عباس رضي الله عنهما اي ول علينا واليا من المؤمنين
يوالينا ويقوم بمصالحنا ويحفظ علينا ديننا وشرعنا وينصرنا على اعدائنا ولقد
استجاب الله عز وجل دعاءهم حيث يسر لبعضهم الخروج الى المدينة وجعل لمن
بقي منهم خير ولي واعز ناصر ففتح مكة على يدي نبيه صلى الله عليه وسلم فتولاهم اي
تولى ونصرهم اي نصرة ثم استعمل عليهم عتاب ابن اسيد فحماهم ونصرهم حتى
صاروا اعز اهلها وقيل المراد واجعل لنا من لدنك ولاية ونصرة اي كن انت ولينا و
ناصرنا وتكرير الفعل ومتعلقيه للمبالغة في التضرع والابتهال الذين امنوا يقاتلون
في سبيل الله كلام مبتدأ سيق لترغيب المؤمنين في القتال وتشجيعهم ببيان كمال
قوتهم بامداد الله تعالى ونصرته وغاية ضعف اعدائهم اي المؤمنون انما يقاتلون في
دين الله الحق الموصل لهم الى الله عز وجل وفي اعلاء كلمته وليهم وناصرهم لا محالة
والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت اي فيما يوصلهم الى الشيطان فلا ناصر
لهم سواه والفاء في قوله تعالى فقاتلوا اولياء الشيطان لبيان استتباع ما بعدها لما قبلها
بهذا العنوان للدلالة على ان ذلك نتيجة لقتالهم في سبيل الشيطان والاشعار بان المؤمنين
اولياء الله لما ان قتالهم في سبيله وكل ذلك لتاكيد رغبة المؤمنين في القتال وتقوية
عزائمهم عليه فان ولاية الله تعالى علم في العزة والقوة كما ان ولاية الشيطان مثل في الذلة
والضعف كانه قيل اذا كان الامر كذلك فقاتلوا يا اولياء الله الشيطان ثم صرح بالتعليل
فقيل ان كيد الشيطان كان ضعيفا اي في حد ذاته فكيف بالقياس الى قدرته عز وجل ولم
يتعرض لبيان قوة جنابه تعالى ايذانا بظهورها قالوا فائدة ادخال كان في امثال هذه المواقع
التاكيد ببيانه انه منذ كان كذلك فالمعنى ان كيد الشيطان منذ كان كان كذلك موصوفا
بالضعف الم تر الى الذين قيل لهم كفوا ايديكم تعجيب لرسول الله صلى الله عليه
وسلم من احجامهم عن القتال مع انهم كانوا قبل ذلك راغبين فيه حراصا عليه
بحيث كادوا يباشرونه كما ينبئ عنه الامر بكف الايدي فان ذلك مشعر بكونهم
بصدد بسطها الى العدو بحيث يكادون يسطون بهم قال الكلبي ان جماعة من اصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم عبد الرحمن بن عوف الزهري والمقداد بن اسود الكندي و
قدامة بن مظعون الجمحي وسعد بن ابي وقاص الزهري رضي الله تعالى عنهم كانوا يلقون
من مشركي المكة قبل الهجرة اذى شديدا فيشكون ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون
ائذن لنا في قتالهم فيقول لهم النبي صلى الله عليه وسلم كفوا ايديكم واقيموا الصلوة و
اتوا الزكوة فاني لم اومر بقتالهم وبناء القول للمفعول مع ان القائل هو النبي صلى الله
عليه وسلم للايذان بكون ذلك بامر الله سبحانه ولان المقصود بالذات والمعتبر في التعجيب
انما هو كمال رغبتهم في القتال وكونهم بحيث احتاجوا الى النهي عنه وانما ذكر في حيز الصلة
الامر بكف الايدي لتحقيقه وتصويره على طريقة الكناية فلا يتعلق ببيان خصوصيته
الامر غرض وكانوا في مدة اقامتهم بمكة مستمرين على تلك الحالة فلما هاجروا مع رسول
الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وامروا بالقتال في وقعة بدر كرهه بعضهم
وشق ذلك عليه لكن لا لشك في الدين ولا رغبة عنه بل نفورا عن الاخطار
بالارواح وخوفا من الموت بموجب الجبلة البشرية وذلك قوله تعالى فلما كتب عليهم القتال
الخ وهو عطف على قيل لهم كفوا ايديكم باعتبار مدلوله الكنائي اذ حينئذ يتحقق التباين
بين مدلولي المعطوفين وعليه يدور فلك التعجيب كانه قيل الم تر الى الذين كانوا حراصا
على القتال فلما كتب عليهم كرهه بعضهم وقوله تعالى اذا فريق منهم يخشون الناس
جواب لما على ان فريق مبتدأ ومنهم متعلق بمحذوف وقع صفة له ويخشون خبره وتصديره
باذا المفاجاة لبيان مسارعتهم الى الخشية اثر ذي اثير من غير تلعثم وتردد اي فاجأ فريق منهم

ان يخشوا الكفار ان يقتلوهم ولعل توجيه التعجيب الى الكل مع صدور الخشية عن بعضهم
للايذان بانه ما كان ينبغي ان يصدر عن احدهم ما ينافي حالتهم الاولى وقوله
تعالى كخشية الله مصدر مضاف الى المفعول محله النصب على انه حال من فاعل يخشون
اي يخشونهم مشبهين لاهل خشية الله تعالى وقوله تعالى او اشد خشية عطف عليه بمعنى
او اشد خشية من اهل خشية الله او على انه مصدر مؤكد على جعل الخشية ذات خشية مبالغة
كما في جد جده اي يخشونهم خشية مثل خشية الله او خشية اشد خشية من خشية الله
واياما كان فكلمة او اما للتنويع على معنى ان خشية بعضهم كخشية الله وخشية
بعضهم اشد منها واما للابهام على السامع وهو قريب مما في قوله تعالى وارسلناه الى مائة الف
او يزيدون يعني ان من يبصرهم يقول انهم مائة الف او يزيدون وقالوا عطف على جواب لما اي
فلما كتب عليهم القتال فاجأ فريق منهم خشية الناس وقالوا ربنا لما كتبت علينا القتال
في هذا الوقت لا على وجه الاعتراض على حكمه تعالى والانكار لايجابه بل على طريق تمني التخفيف
لولا اخرتنا الى اجل قريب استزادة في مدة الكف واستمهال الى وقت اخر حذرا عن
الموت وقد جوز ان يكون هذا مما نطقت به السنة حالهم من غير ان يتفوهوا به صريحا قل
اي تزهيدا لهم فيما يؤملونه بالقعود من المتاع الفاني وترغيبا فيما ينالونه بالقتال من
النعيم الباقي متاع الدنيا اي ما يتمتع وينتفع به في الدنيا قليل سريع وشيك
الانصرام وان اخرتم الى ذلك الاجل والاخرة اي ثوابها الذي من جملته الثواب المنوط بالقتال
خير اي لكم من ذلك المتاع القليل لكثرته وعدم انقطاعه وصفائه عن الكدورات وانما
قيل لمن اتقى حثا لهم على اتقاء العصيان والاخلال بمواجب التكليف ولا تظلمون فتيلا
عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام اي تجزون فيها ولا تنقصون ادنى شيء من اجور اعمالكم
التي من جملتها مساعيكم في شأن القتال فلا ترغبوا عنه والفتيل ما في شق النواة من الخيط
يضرب به المثل في القلة والحقارة وقرئ يظلمون بالياء اعادة للضمير الى ظاهر من اينما تكونوا
يدرككم الموت كلام مبتدأ مسوق من قبله تعالى بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم الى المخاطبين اعتناء بالزامهم اثر بيان حقارة الدنيا وعلو شأن الاخرة بواسطته
فلا محل له من الاعراب او في محل النصب داخل تحت القول المأمور به اي اينما تكونوا في الحضر
والسفر يدرككم الموت الذي لاجله تكرهون القتال زعما منكم انه من مظانه وتحبون القعود
عنه على زعم انه منجاة منه وفي لفظ الادراك اشعار بانهم في الهرب من الموت وهو مجد
في طلبهم وقرئ بالرفع على حذف الفاء كما في قوله من يفعل الحسنات الله يشكرها او على اعتبار
وقوع اينما كنتم في موقع اينما تكونوا او على انه كلام مبتدأ واينما تكونوا متصل بلا تظلمون
اي لا تنقصون شيئا مما كتب من اجالكم اينما تكونوا في ملاحم الحروب ومعارك الخطوب
ولو كنتم في بروج مشيدة في حصون رفيعة او قصور محصنة وقال السدي وقتادة
بروج السماء يقال شاد البناء واشاده وشيده رفعه وقرئ مشيدة بكسر الياء وصفا لها
بفعل فاعلها مجازا كما في قصيدة شاعرة ومشيدة من شاد القصر اذا رفعه او طلاه
وهو الجص وجواب لو محذوف اعتمادا على دلالة ما قبله عليه اي لو كنتم في بروج مشيدة
يدرككم الموت والجملة معطوفة على اخرى مثلها اي لو لم تكونوا في بروج مشيدة ولو كنتم
الخ وقد اطرد حذفها لدلالة المذكورة عليها دلالة واضحة فان الشيء تحقق عند وجود
المانع فلان يتحقق عند عدمه اولى وعلى هذه النكتة يدور ما في الواصلية في ان الوصلية من
التاكيد والمبالغة وقد مر تحقيقه في تفسير قوله تعالى اولو كان اباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون
وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله كلام مبتدأ جيء به عقيب ما حكي من المسلمين
لما بينهما من المناسبة في اشتمالها على اسناد ما يكرهونه الى بعض الامور وكراهتهم له بسبب
ذلك والضمير لليهود والمنافقين روي انه كان قد بسط عليهم الرزق فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة
فدعاهم الى الايمان فكفروا امسك عنهم بعض الامساك فقالوا ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا
ومزارعنا منذ قدم هذا الرجل واصحابه وذلك قوله تعالى وان تصبهم سيئة يقولوا هذه
من عندك اي وان تصبهم نعمة ورخاء نسبوها الى الله عز وجل وان تصبهم بلية من

لغة

جدب وغلاء اضافوها اليك كما حكى عن اسلافهم بقوله تعالى وان تصبهم سيئة يطيروا
بموسى ومن معه فامر النبي صلى الله عليه وسلم بان يرد زعمهم الباطل ويرشدهم الى الحق ويلقمهم
الحجر ببيان استناد الكل اليه تعالى على الاجمال اذ لا يجترؤن على معارضة امر الله عز وجل حيث
قيل قل كل من عند الله اى كل واحدة من النعمة والبلية من جهة الله تعالى خلقا و
ايجادا من غير ان يكون لي مدخل في وقوع شيء منهما بوجه من الوجوه كما تزعمون بل وقوع
الاولى منه تعالى بالذات تفضلا ووقوع الثانية بواسطة ذنوب من ابتلي بها عقوبة
كما سيأتي بيانه فهذا الجواب المجمل في معنى ما قيل ردا على اسلافهم من قوله تعالى الا انما
طائرهم عند الله اى بسبب خيرهم وشرهم او سبب اصابة السيئة التي هي ذنوبهم عند الله
تعالى لا عند غيره حتى يسندوها اليها ويطيروا به وقوله تعالى فما لهؤلاء القوم الخ كلام
معترض بين المبين وبيانه مسوق من جهته تعالى لتعييرهم بالجهل وتقبيح حالهم والتعجيب
من كمال غباوتهم والفاء لترتيبه على ما قبله وقوله تعالى لا يكادون يفقهون حديثا حال
من هؤلاء والعامل فيها ما في الظرف من معنى الاستقرار اى وحيث كان الامر كذلك فاي
شيء حصل لهم حال كونهم بمعزل من ان يفقهوا حديثا او سببا فالمبنى على سوء الانشاء
من الاستفهام كانه قيل ما بالهم وماذا يصنعون حتى يتعجب منه او سؤال عن
سببه فقيل لا يكادون يفقهون حديثا من الاحاديث اصلا فيفوهون بما يفوهون اذ لو فقهوا
شيئا من ذلك لفهموا هذا النص وما في معناه وما هو اوضح منه من النصوص القرآنية الناطقة
بان الكل فائض من عند الله تعالى وان النعمة منه تعالى بطريق التفضل والاحسان والبلية
بطريق العقوبة على ذنوب العباد ولا سيما النص الوارد عليهم في صحف موسى وابراهيم الذي
وفى الا تزر وازرة وزر اخرى ولم يسندوا جناية انفسهم الى غيرهم وقوله تعالى ما
اصابك من مصيبة الخ بيان للجواب المجمل المأمور به واجراؤه على لسان النبي صلى الله عليه وسلم
ثم سوق البيان من جهته عز وجل بطريق تلوين الخطاب وتوجيهه الى كل احد من الناس
والالتفات لمزيد الاعتناء به والاهتمام برد مقالتهم الباطلة والايذان بان مضمونه
مبني على حكمة دقيقة حقيقة بان يتولى بيانها علام الغيوب وتوجيه الخطاب الى كل
واحد منهم دون كلهم كما في قوله تعالى وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم للمبالغة
في التحقيق بقطع احتمال سببية معصية بعضهم لعقوبة الآخرين اي ما اصابك من
نعمة من النعم فمن الله اى فهي منه تعالى بالذات تفضلا واحسانا من غير استيجاب
لها من قبلك كيف لا وان كل ما يفعله المرء من الطاعات التي يرجو كونها ذريعة الى اصابة نعمة
ما فهي بحيث لا تكاد تكافئ نعمة الحياة المقارنة لادائها ولا نعمة اقداره تعالى اياه على ادائها
فضلا عن استيجابها النعمة اخرى ولذلك قال عليه الصلوة والسلام ما احد يدخل الجنة
الا برحمة الله قيل ولا انت يا رسول الله قال ولا انا وما اصابك من سيئة اي بلية من
البلايا فمن نفسك اى فهي منها بسبب اقترافها المعاصي الموجبة لها وان كانت من
حيث الايجاد منتسبة الى الله تعالى نازلة من عنده عقوبة كقوله تعالى وما اصابكم من مصيبة
فبما كسبت ايديكم ويعفوا عن كثير وعن عائشة رضـ ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب
حتى الشوكة يشاكها وحتى انقطاع شسع نعله الا بذنب وما يعفو الله اكثر وقيل الخطاب
لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما قبله وما بعده لكن لا لبيان حاله عليه السلام بل لبيان حال
الكفرة بطريق التصوير ولعل ذلك لاظهار كمال السخط والغضب عليهم والاشعار
بانهم لفرط جهلهم وبلادتهم بمعزل من استحقاق الخطاب لا سيما بمثل هذه الحكمة الانيقة
وارسلناك للناس رسولا بيان لجلالة منصبه صلى الله عليه وسلم ومكانته عند الله عز
وجل بعد بيان بطلان زعمهم الفاسد في حقه عم بناء على جهلهم بشأنه الجليل
وتعريف الناس للاستغراق والجار اما متعلق برسولا قدم عليه للاختصاص الناظر الى
قيد العموم اي مرسل لكل الناس لا لبعضهم فقط كما في قوله تعالى وما ارسلناك الا كافة
للناس واما بالفعل ورسولا حال مؤكدة وقد جوز ان يكون مصدرا مؤكدا كما في قوله لقد كذب
الواشون ما فهت عندهم بسر وما ارسلتهم برسول اي بارسال اي برسالة وكفى بالله شهيدا

اي على رسالتك بنصب المعجزات التي من جملتها هذا النص الناطق والوحي الصادق والالتفات
لتربية المهابة وتقوية الشهادة والجملة اعتراض تذييلي من يطع الرسول فقد اطاع
الله بيان لاحكام رسالته صلى الله عليه وسلم اثر بيان تحققها وثبوتها وانما كان كذلك
لان الآمر والناهي في الحقيقة هو الله تعالى وانما هو عليه السلام مبلغ لامره ونهيه فمرجع
الطاعة وعدمها هو الله سبحانه روي انه عليه السلام قال من احبني فقد احب الله ومن
اطاعني فقد اطاع الله تعالى فقال المنافقون الا تسمعون ما يقول هذا الرجل قد قارف الشرك
وهو ينهى ان يعبد غير الله تعالى ما يريد الا ان نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى فنزلت
والتعبير عنه عليه السلام بالرسول دون الخطاب للايذان بان مناط كون طاعته عم طاعة
له تعالى ليس خصوصية ذاته عليه السلام بل حيثية رسالته واظهار الجلالة لتربية المهابة
وتأكيد وجوب الطاعة بذكر عنوان الالوهية وحمل الرسول على الجنس المنتظم له عليه السلام
انتظاما اوليا يأباه تخصيص الخطاب به عليه السلام في قوله تعالى ومن تولى فما ارسلناك
عليهم حفيظا وجواب الشرط محذوف والمذكور تعليل له اى ومن اعرض عن الطاعة
فاعرض عنه انا ارسلناك رسولا مبلغا لا حفيظا مهيمنا تحفظ عليهم اعمالهم و
تحاسبهم عليها وتعاقبهم بحسبها وحفيظا حال من الكاف وعليهم متعلق به قدم عليه
رعاية للفاصلة وجمع الضمير باعتبار معنى من كما ان الافراد في تولى باعتبار لفظه و
يقولون شروع في بيان معاملتهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بيان وجوب طاعته اى
يقولون اذا امرتهم بشيء طاعة اى امرنا وشأننا طاعة او منا طاعة والاصل
النصب على المصدر والرفع للدلالة على الثبات كسلام فاذا برزوا من عندك اي خرجوا
من مجلسك بيت طائفة منهم اى من القائلين المذكورين وهم رؤساؤهم غير
الذي تقول اي زورت طائفة منهم وسوت خلاف ما قالت لك من القبول وضمان
الطاعة لانهم مصرون على الرد والعصيان وانما يظهرون ما يظهرون على وجه النفاق
او خلاف ما قلت لها والتبييت اما من البيوتة لانه قضاء الامر وتدبيره بالليل يقال هذا
امر بيت بليل واما من بيت الشعر لان الشاعر يسويه وتذكير الفعل لان تأنيث الطائفة غير حقيقي
وادغام التاء في الطاء لتقاربهما في المخرج واسناده الى طائفة منهم لبيان انهم المتصدون له
بالذات والباقون اتباع لهم في ذلك لا لان الباقين ثابتون على الطاعة والله يكتب ما
يبيتون اى يكتب في جملة ما يوحى اليك فيطلعون على اسرارهم فلا يحسبوا ان مكرهم يخفى
عليكم فيجدون بذلك الى الاضرار بكم سبيلا او يثبته في صحائفهم فيجازيهم عليه واياما
كان فالجملة اعتراضية فاعرض عنهم اى لا تبال بهم وبما صنعوا او تجاف عنهم
ولا تتصد للانتقام منهم والفاء لسببية ما قبلها لما بعدها وتوكل على الله في كل ما تأتي
وما تذر لا سيما في شأنهم واظهار الجلالة في مقام الاضمار للاشعار بعلة الحكم وكفى
بالله وكيلا فيكفيك معرتهم وينتقم لك منهم والاظهار ههنا ايضا لما مر وللتنبيه على
استقلال الجملة واستغنائها عما عداها من كل وجه افلا يتدبرون القرآن انكار و
استقباح لعدم تدبرهم القرآن واعراضهم عن التأمل فيما فيه من موجبات الايمان وتدبر
الشيء تأمله والنظر في ادباره وما يؤول اليه في عاقبته ومنتهاه ثم استعمل في كل تفكر ونظر والفاء
للعطف على مقدر اى ايعرضون عن القرآن فلا يتأملون فيه ليعلموا كونه من عند الله تعالى
بمشاهدة ما فيه من الشواهد التي من جملتها هذا الوحي الصادق والنص الناطق بنفاقهم
المحكي على ما هو عليه ولو كان اي القرآن من عند غير الله كما يزعمون لوجدوا فيه
اختلافا كثيرا بان يكون بعض اخباره غير مطابق للواقع اذ لا علم بالامور الغيبية
ماضية كانت او مستقبلة لغيره سبحانه وحيث كان كلها مطابقة للواقع تعين كونه
من عنده تعالى قال الزجاج ولولا انه من عند الله تعالى لكان ما فيه من الاخبار مما يسره المنافقون
وما يبيتونه مختلفا بعضه حق وبعضه باطل لان الغيب لا يعلمه الا الله وقال ابو بكر الاصم ان
هؤلاء المنافقين كانوا يتواطؤن في السر على انواع كثيرة من الكيد والمكر وكان الله تعالى يطلع الرسول عم
على ذلك ويخبره بها مفصلة فقيل لهم ان ذلك لو لم يحصل باخبار الله تعالى لما اطرد الصدق

فيه ولو قوع فيها الاختلاف فحيث لم يقع ذلك قط علم انه باعلامه تعالى هذا هو الذي يستدعيه
جزالة النظم الكريم واما حمل الاختلاف على التناقض وتفاوت النظم في البلاغة بان كان
دالا على معنى صحيح عند علماء المعاني وبعضه على معنى فاسد غير ملتئم وبعضه بالغا حد
الاعجاز وبعضه قاصرا عنه يمكن معارضته كما جنح اليه الجمهور فمما لا يساعده السياق
ولا السباق ومن دام التقريب وقال لعل ذكره ههنا للتنبيه على ان اختلاف ما سبق من الاحكام
ليس لتناقض في الحكم بل لاختلاف في الحكم والمصالح المقتضية لذلك فقد ابعد عن الحق بمراحل
واذا جاءهم امر من الامن او الخوف اذاعوا به يقال اذاع السر واذاع به اي اشاعه وافشاه
وقيل معنى اذاعوا به فعلوا به الاذاعة وهو ابلغ اذاعوه وهو كلام مسوق لدفع ما عسى
يتوهم في بعض المواد من شائبة الاختلاف بناء على عدم فهم المراد ببيان ان ذلك لعدم وقوفهم
ودقة فهم على معنى الكلام لا لتخلف مدلوله عنه وذلك ان ناسا من ضعفة المسلمين الاخيرة لهم
بالاحوال اذا اخبرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بما اوحي اليه من وعد بالظفر وتخويف من الكفرة
يذيعونه من غير فهم لمعناه ولا ضبط لفحواه على حسب ما كانوا يفهمونه ويحملونه عليه من
المحامل وعلى تقدير الفهم قد يكون ذلك مشروطا بامور تفوت بالاذاعة فلا يظهر اثره المتوقع
فيكون ذلك منشأ لتوهم الاختلاف فنعى عليهم ذلك وقيل ولو ردوه اي ذلك
الامر الذي جاءهم الى الرسول اي عرضوه على رايه عليه السلام مستكشفين لمعناه وما
ينبغي له من التدبير والالتفات لما ان عنوان الرسالة من موجبات الرد والمراجعة الى رايه
صلى الله عليه وسلم والى اولي الامر منهم وهم كبار الصحابة البصراء في الامور رضي الله عنهم
لعلمه اي يعلم الرادون معناه وتدبيره وانما وضع ضميرهم الموصول فقيل الذين يستنبطونه
منهم للايذان بانه ينبغي ان يكون قصدهم برده اليهم استكشاف معناه واستيضاح فحواه
اي يعلمه اولئك الرادون الذين يستنبطونه اي يتلقونه ويستخرجون علمه وتدبيره اي
من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم واولي الامر من صحابته رضوان الله تعالى عليهم اجمعين
ولما فعلوا ما فعلوا في حقه فلم يقع فيه ما وقع من الاشتباه وتوهم الاختلاف وقيل لعلمه
الذين يستخرجون تدبيره بفطنتهم وتجاربهم ومعرفتهم بامور الحرب ومكائدها فكلمة
من في منهم بيانية وقيل انهم كانوا اذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم من
امن وسلامة او خوف وخلل اذاعوا به وكانت اذاعتهم مفسدة ولو ردوا ذلك الخبر
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى اولي الامر لعلم تدبير ما اخبروا به الذين يستنبطونه
اي يستخرجونه بفطنتهم وتجاربهم ومعرفتهم بامور الحرب ومكائدها وقيل كانوا يقفون
من رسول الله صلى الله عليه وسلم واولي الامر على امن ووثوق بالظهور على بعض الاعداء او على خوف
فيذيعونه فينتشر فيبلغ الاعداء فيعود اذاعتهم مفسدة ولو ردوه الى الرسول والى اولي الامر
وفوضوه اليهم وكانوا كان لم يسمعوا لعلم الذين يستنبطونه تدبيره كيف يدبرونه وما
يذرون فيه وقيل كانوا يسمعون من افواه المنافقين شيئا من الخبر السرايا مظنونا غير
معلوم الصحة فيذيعونه فيعود ذلك وبالا على المؤمنين ولو ردوه الى الرسول صلى الله
عليه وسلم والى اولي الامر وقالوا نسكت حتى نسمعه منهم ونعلم هل هو مما يذاع او لا يذاع
لعلم صحته وهل هو مما يذاع او لا يذاع هؤلاء المذيعون وهم الذين يستنبطونه من الرسول
واولي الامر اي يتلقونه منهم ويستخرجون علمه من جهتهم فمساق النظم الكريم حينئذ
لبيان جناية تلك الطائفة وسوء تدبيرهم اثر بيان جناية المنافقين ومكرهم والخطاب
في قوله تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته للطوائف المذكورة على طريقة الالتفات
اي لولا فضله تعالى عليكم ورحمته بارشادكم الى طريق الحق الذي هو المراجعة في مظان
الاشتباه الى الرسول صلى الله عليه وسلم والى اولي الامر لاتبعتم الشيطان وعملتم باراء المنافقين
فيما تاتون وما تذرون ولم تهتدوا الى سنن الصواب الا قليلا وهم اولو الامر
الواقفون على اسرار الكتاب الراسخون في معرفة احكامه فالاستثناء منقطع وقيل و
لولا فضله تعالى عليكم ورحمته بارسال الرسول وانزال الكتاب لاتبعتم الشيطان وبقيتم على
الكفر والضلالة الا قليلا منكم قد تفضل الله عليه بعقل راجح اهتدى به الى طريق الحق والصواب

وعصمه

وعصمه عن متابعة الشيطان كقس بن ساعدة الايادي وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل
واضرابهم فالخطاب للكل والاستثناء متصل وقيل المراد بالفضل والرحمة النصرة والظفر
بالاعداء ولولا حصول النصر والظفر على التواتر والتتابع لاتبعتم الشيطان وتركتم الدين
الا قليلا منكم وهم اولو البصائر النافذة والنيات القوية والعزائم الماضية من افاضل
المؤمنين الواقفين على حقية الدين البالغين الى درجة حق اليقين المستغنين عن مشاهدة
اثار حقيته من الفتح والظفر وقيل الا اتباعا قليلا فقاتل في سبيل الله تلوين
للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الالتفات وهو جواب شرط
محذوف ينساق اليه النظم الكريم اي اذا كان الامر كما حكي من عدم طاعة المنافقين
وكيدهم وتقصير الاخرين في مراعاة احكام الاسلام فقاتل انت وحدك غير مكترث
بما فعلوا وقوله عز وجل لا تكلف الا نفسك اي الا فعل نفسك استئناف مقرر لما قبله
فان اختصاص تكليفه عليه السلام بفعل نفسه من موجبات مباشرته للقتال وحده
وفيه دلالة على ان ما فعلوا من التثبط لا يضره عليه السلام ولا يؤاخذ به وقيل هو حال من
فاعل قاتل اي فقاتل غير مكلف الا نفسك وقرئ لا تكلف بالجزم على النهي وقيل على جواب الامر
وقرئ بنون العظمة اي لا نكلف الا فعل نفسك لا على معنى لا نكلف احدا الا نفسك وحرض
المؤمنين عطف على امر السابق داخل في حكمه فان كون حال الطائفتين كما حكي سبب للامر
بالقتال وحده وبتحريض خلص المؤمنين والتحريض على الشيء الحث عليه والترغيب فيه قال
الراغب كانه في الاصل ازالة الحرض وهو ما لا خير فيه ولا يعتد به اي رغبهم في القتال ولا
تعنف بهم وانما لم يذكر المحرض عليه لغاية ظهوره وقوله تعالى عسى الله ان يكف باس الذين كفروا
عدة منه سبحانه وتعالى محققة الانجاز بكف شدة الكفرة ومكرهم وفي انما صدر بلعل وعسى
مقرر الوقوع من جهته عز وجل وقد كان كذلك حيث روي ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم واعد ابا سفيان بعد حرب احد موسم بدر الصغرى في ذي القعدة فلما
بلغ الميعاد دعا الناس الى الخروج فكرهه بعضهم فنزلت فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم
في سبعين راكبا فوافوا الموعد والقى الله تعالى في قلوب الكفرة الرعب فرجعوا من مر
الظهران ويروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وافى بجيشه بدرا واقام بها ثماني
ليال وكانت معهم تجارات فباعوها واصابوا خيرا كثيرا وقد مر في سورة آل عمران
والله اشد باسا اي من قريش واشد تنكيلا اي تعذيبا وعقوبة تنكل
من يشاهدها عن مباشرة ما يؤدي اليها والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبلها واظهار
الاسم الجليل لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة وتكرير الخبر لتاكيد
التشديد وقوله تعالى من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها اي من ثوابها
جملة مستانفة سيقت لبيان ان له عليه السلام فيما امر به من تحريض المؤمنين حظا موفورا
فان الشفاعة هي التوسط بالقول في وصول شخص الى منفعة من المنافع الدنيوية
او الاخروية او خلاصه عن مضرة ما كذلك من الشفع كان المشفوع له كان فردا
فجعله الشفيع شفعا والحسنة منها ما كانت في امر مشروع روعي بها حق مسلم
ابتغاء لوجه الله تعالى من غير ان يتضمن غرضا من الاغراض الدنيوية واي منفعة اجل
مما قد حصل للمؤمنين بتحريضه عليه السلام على الجهاد من المنافع الدنيوية و
الاخروية واي مضرة اعظم مما تخلصوا عنه بذلك من التثبط عنه ويندرج فيها
الدعاء للمسلم فانه شفاعة الى الله سبحانه وعليه مساق آية التحية الاتية روي
انه عليه الصلوة والسلام قال من دعا لاخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك
ولك مثل ذلك وهذا بيان لمقدار النصيب الموعود ومن يشفع شفاعة سيئة وهي
ما كانت بخلاف الحسنة يكن له كفل منها اي نصيب من وزرها مساو لها في المقدار
من غير ان ينقص منه شيء وكان الله على كل شيء مقيتا اي مقتدرا من اقات على
الشيء اذا اقتدر عليه او شهيدا حفيظا واشتقاقه من القوت فانه يقوي البدن و
يحفظه والجملة تذييل مقرر لما قبلها على كلا المعنيين واذا حييتم بتحية ترغيب في

جزء شايع من افراد الشفاعة الحسنة اثر ما رغب فيها على الاطلاق وحذر عما يقابلها من
الشفاعة السيئة وارشاد الى توفية حق الشفيع وكيفية ادائه فان تحية الاسلام من
المسلم شفاعة منه لاخيه الى الله عز وجل والتحية مصدر حيى اصلها تحيية كتسمية
من سمى واصل الاصل تحيي بثلث ياءات فحذفت الاخيرة وعوض عنها تاء التأنيث وادغمت
الاولى في الثانية بعد نقل حركتها الى الحاء قال الراغب اصل التحية الدعاء بالحياة وطولها
ثم استعملت في كل دعاء وكانت العرب اذا لقي بعضهم بعضا يقول حياك الله ثم استعملها الشرع
في السلام وهي تحية الاسلام قال تعالى تحيتهم فيها سلام وقال تحيتهم يوم يلقونه
سلام وقال فسلموا على انفسكم تحية من عند الله قالوا في السلام مزية على التحية
لما انه دعاء بالسلامة عن الآفات الدينية والدنيوية وهو مستلزم لطول الحيوة
وليس في الدعاء بطول الحيوة ذلك ولان السلام من اسمائه تعالى فالبداية بذكره
مما لا ريب في فضله ومزيته اي اذا سلم عليكم من جهة المؤمنين فحيوا باحسن
منها بتحية احسن منها بان تقولوا وعليكم السلام ورحمة الله ان اقتصر المسلم على
الاول وبان تزيدوا وبركاته ان جمعها المسلم وهي النهاية لانتظامها لجميع فنون المطالب
التي هي السلامة عن المضار ونيل المنافع ودوامها ونماؤها او ردوها اي اجيبوها بمثلها
روي ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليك فقال وعليك السلام ورحمة الله و
قال الآخر السلام عليك ورحمة الله فقال وعليك السلام ورحمة الله وبركاته وقال
الآخر السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقال عليه السلام وعليك فقال الرجل نقصتني
فاين ما قال الله تعالى وتلا الآية فقال عليه السلام انك لم تترك لي فضلا فرددت
عليك مثله وجواب التسليم واجب وانما التخيير بين الزيادة وتركها وعن النخعي ان السلام سنة
والرد فريضة وعن ابن عباس رضي الله عنه الرد واجب ما من رجل يمر على قوم مسلمين فيسلم عليهم ولا يردون
عليه الا نزع عنهم روح القدس وردت عليه الملائكة ولا يرد في الخطبة وتلاوة القرآن
جهرا ورواية الحديث وعند دراسة العلم والاذان والاقامة ولا يسلم على لاعب النرد
والشطرنج والمغني والقاعد لحاجته والمطير الحمام والعاري في الحمام وغيره قالوا ويسلم
الرجل على امرأته لا على الاجنبية والسنة ان يسلم الماشي على القاعد والراكب على الماشي وراكب
الفرس على راكب الحمار والصغير على الكبير والقليل على الكثير واذا التقيا ابتدرا وعن ابي حنيفة رح
لا يجهر بالرد يعني الجهر الكثير وعن النبي صلى الله عليه وسلم اذا سلم عليكم اهل الكتاب فقولوا وعليكم
ما قلتم حيث كان يقول بعضهم السام عليكم وروي لا تبتدئ اليهودي بالسلام وان بدأك
فقل وعليك وعن الحسن انه يجوز ان يقول للكافر وعليك السلام دون الزيادة وقيل
التحية بالاحسن عند كون المسلم مسلما ورد مثلها عند كونه كافرا ان الله كان على كل
شيء حسيبا فيحاسبكم على كل شيء من اعمالكم التي من جملتها ما امرتم به من التحية
فحافظوا على مراعاتها حسبما امرتم به الله لا اله الا هو مبتدأ وخبره قوله تعالى
ليجمعنكم الى يوم القيمة جواب قسم محذوف اي والله ليحشرنكم من قبوركم الى حساب
يوم القيمة وقيل الى بمعنى في والجملة القسمية اما مستأنفة لا محل لها من الاعراب او
خبر ثان للمبتدأ او هي الخبر ولا اله الا هو اعتراض وقوله تعالى لا ريب فيه اي في يوم القيمة
اي في الجمع حال من اليوم او صفة من المصدر اي جمعا لا ريب فيه ومن اصدق من
الله حديثا انكار لان يكون احد اصدق منه تعالى في وعده وسائر اخباره وبيان
لاستحالته كيف لا والكذب محال عليه سبحانه دون غيره فما لكم مبتدأ وخبر و
الاستفهام للانكار والنفي والخطاب لجميع المؤمنين لكن ما فيه من معنى التوبيخ
متوجه الى بعضهم وقوله تعالى في المنافقين متعلق اما بما تعلق به الخبر اي اي شيء كائن
لكم فيهم اي في امرهم وشأنهم فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه واما بما يدل
عليه قوله تعالى فئتين من معنى الافتراق اي فما لكم تفترقون في المنافقين واما بمحذوف
وقع حالا من فئتين في المنافقين لانه في الاصل صفة فلما قدمت انتصبت حالا
كما هو شأن صفات النكرات على الاطلاق او من الضمير في تفترقون وانتصاب

فئتين عند البصريين على الحالية من المخاطبين والعامل ما في لكم من معنى الفعل كما في قوله عز وجل
فما لهم عن التذكرة معرضين وعند الكوفيين على خبرية كان مضمرة اي فما لكم في المنافقين
كنتم فئتين والمراد انكار ان يكون للمخاطبين شيء مصحح لاختلافهم في امر المنافقين وبيان
وجوب بت القول بكفرهم واجرائهم مجرى المجاهرين بالكفر في جميع الاحكام وذكرهم
بعنوان النفاق باعتبار وصفهم السابق روي انهم قوم من المنافقين استأذنوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج الى البدو معتلين باجتواء المدينة فلما خرجوا
لم يزالوا راحلين مرحلة فمرحلة حتى لحقوا بالمشركين فاختلف المسلمون في امرهم وقيل
هم قوم هاجروا من مكة الى المدينة ثم بدا لهم فرجعوا وكتبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
انا على دينك وما اخرجنا الا اجتواء المدينة والاشتياق الى بلدنا وقيل هم ناس اظهروا
الاسلام وقعدوا عن الهجرة وقيل هم قوم خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم احد
ثم رجعوا ويأباه ما سيأتي من جعل هجرتهم غاية للنهي عن توليهم وقيل هم العرنيون
الذين اغاروا على السرح وقتلوا راعي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرده ما سيأتي من
الآيات الناطقة بكيفية المعاملة معهم من السلم والحرب وهؤلاء قد اخذوا وفعل بهم
ما فعل من المثلة والقتل ولم ينقل في امرهم اختلاف المسلمين والله اركسهم حال
من المنافقين مفيدة لتأكيد الانكار السابق واستبعاد وقوع المنكر ببيان وجود النافي بعد
بيان عدم الداعي وقيل من ضمير المخاطبين والرابط هو الواو اي اي شيء يدعوكم الى
الاختلاف في كونهم مع تحقق ما يوجب اتفاقكم على كفرهم وهو ان الله تعالى قد ردهم
في الكفر كما كانوا بما كسبوا بسبب ما كسبوه من الارتداد واللحوق بالمشركين والاحتيال
على رسول الله صلى الله عليه وسلم وما عائد الى الموصول محذوف وقيل ما مصدرية اي بكسبهم
وقيل معنى اركسهم نكسهم بان صيرهم للنار واصل الركس رد الشيء مقلوبا وقرئ ركسهم
مشددا وركسهم ايضا مخففا اتريدون ان تهدوا من اضل الله تجريد للخطاب
وتخصيص له بالقائلين بايمانهم من الفئتين وتوبيخ لهم على زعمهم ذلك واشعار بانه
يؤدي الى محاولة المحال الذي هو هداية من اضله الله تعالى وذلك لان الحكم بايمانهم
وادعاء اهتدائهم وهم بمعزل من ذلك سعي في هدايتهم وارادة لها ووضع الموصول
موضع ضمير المنافقين لتشديد الانكار وتأكيد استحالة الهداية بما ذكر في حيز الصلة وتوجيه
الانكار الى الارادة لا الى متعلقها بان يقال اتهدون الخ للمبالغة في انكاره ببيان انه مما لا يمكن
ارادته فضلا عن امكان نفسه وحمل الهداية والاضلال على الحكم بهما يأباه قوله عز وجل
ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا اي ومن يخلق فيه الضلال كائنا من كان فلن
تجد له سبيلا من السبل فضلا عن ان تهديه اليه وفيه من الافصاح عن كمال الاستحالة
ما ليس في قوله تعالى ومن يضلل الله فما له من هاد ونظائره وحمل اضلاله تعالى على حكمه و
قضائه بالضلال مخل بحسن المقابلة بين الشرط والجزاء وتوجيه الخطاب الى كل واحد من
المخاطبين للاشعار بشمول عدم الوجدان للكل على طريق التفصيل والجملة اما حال
من فاعل تريدون او تهدوا والرابط هو الواو او اعتراض تذييلي للانكار السابق
ومؤكد لاستحالة الهداية فح يجوز ان يكون الخطاب لكل احد ممن يصلح له من المخاطبين
وغيرهم ودوا لو تكفرون كلام مستأنف مسوق لبيان غلوهم وتماديهم
في الكفر وتصديهم لاضلال غيرهم اثر بيان كفرهم وضلالهم في انفسهم وكلمة لو مصدرية
غنية عن الجواب وهي مع ما بعدها نصب على المفعولية اي ودوا ان تكفروا وقوله تعالى
كما كفروا نصب على انه نعت لمصدر محذوف اي كفرا مثل كفرهم او حال من ضمير ذلك المصدر
كما هو رأي سيبويه وقوله تعالى فتكونون سواء عطف على تكفرون داخل في حكمه اي ودوا
ان تكفروا فتكونوا سواء مستوين في الكفر والضلال وقيل كلمة لو على بابها وجوابها محذوف
كمفعول ودوا اي تقدير ودوا كفركم والتقدير ودوا كفركم لو تكفرون كما كفروا لسروا بذلك
فلا تتخذوا منهم اولياء الفاء جواب شرط محذوف وجمع اولياء لمراعاة جمعية
المخاطبين فان المراد نهي ان يتخذ واحد من المخاطبين وليا واحدا اي اذا كان حالهم ما

ذكر من ودادة كفرهم فلا تتولوهم حتى يهاجروا في سبيل الله اي حتى يؤمنوا وتحققوا
ايمانهم بهجرة كائنة لله تعالى ورسوله عليه السلام لا لغرض من اغراض الدنيا فان
تولوا اي عن الايمان المظاهر بالهجرة المستقيمة فخذوهم اذا قدرتم عليهم واقتلوهم
حيث وجدتموهم من الحل والحرم فان حكمهم حكم سائر المشركين اسرا وقتلا ولا
تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا اي جانبوهم مجانبة كلية ولا تقبلوا منهم ولاية ولا
نصرة ابدا الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق استثناء من قوله تعالى
فخذوهم واقتلوهم اي الا الذين يتصلون وينتهون الى قوم عاهدوكم ولم
يحاربوكم وهم الاسلميون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت خروجه الى مكة قد
وادع هلال بن عويمر الاسلمي على ان لا يعينه ولا يعين عليه وعلى ان من وصل الى هلال ولجأ اليه
فله من الجوار مثل الذي لهلال وقيل هم بنو بكر بن زيد مناة وقيل هم خزاعة او جاؤكم
عطف على الصلة اي او الذين جاؤكم كافين عن قتالكم وقتال قومهم استثنى من المامور
باخذهم وقتلهم فريقان احدهما من ترك المحاربين ولحق بالمعاهدين والآخر من اتى
المؤمنين وكف عن قتال الفريقين او على صفة قوم كانه قيل الا الذين يصلون الى قوم
معاهدين او الى قوم كافين عن القتال لكم والقتال عليكم والاول هو الاظهر لما سيأتي من
قوله تعالى فان اعتزلوكم الخ فانه صريح في ان كفهم عن القتال احد سببي استحقاقهم لنفي التعرض
لهم وقرئ جاؤكم بغير عاطف على انه صفة بعد صفة او بيان ليصلون او استئناف حصرت
صدورهم حال باضمار قد بدليل انه قرئ حصرة صدورهم وحصرات صدورهم
وقيل صفة لموصوف محذوف هو حال من فاعل جاؤا اي جاؤكم قوما
حصرت صدورهم وقيل هو بيان لجاؤكم وهم بنو مدلج جاؤا رسول الله صلى الله
عليه وسلم غير مقاتلين والحصر الضيق والانقباض ان يقاتلوكم او يقاتلوا
قومهم اي عن ان يقاتلوكم او لان يقاتلوكم او كراهة ان يقاتلوكم الخ ولو شاء
الله لسلطهم عليكم جملة مبتدأة جارية مجرى التعليل لاستثناء الطائفة الاخيرة
من حكم الاخذ والقتل ونظمهم في سلك الطائفة الاولى الجارية مجرى المعاهدين
مع عدم تعلقهم بنا ولا بمن عاهدنا كالطائفة الاولى اي لو شاء الله لسلطهم
عليكم ببسط صدورهم وتقوية قلوبهم وازالة الرعب عنها فلقاتلوكم عقيب
ذلك ولم يكفوا عنكم واللام جواب لو على التكرير او الابدال من الاولى وقرئ
فلقتلوكم بالتخفيف والتشديد فان اعتزلوكم ولم يتعرضوا لكم فلم يقاتلوكم
مع ما علمتم من تمكنهم من ذلك بمشيئة الله تعالى والقوا اليكم السلم اي الانقياد
والاستسلام وقرئ بسكون اللام فما جعل الله لكم عليهم سبيلا طريقا
بالاسر او القتل فان مكافتهم عن قتالكم وان لم يقاتلوا قومهم ايضا والقاءهم
اليكم السلم وان لم يعاهدوكم كافية في استحقاقهم لعدم تعرضكم لهم ستجدون
آخرين يريدون ان يأمنوكم ويأمنوا قومهم هم قوم من اسد وغطفان كانوا
اذا اتوا المدينة اسلموا وعاهدوا ليأمنوا المسلمين فاذا رجعوا الى قومهم كفروا
ونكثوا عهودهم ليأمنوا قومهم وقيل هم بنو عبد الدار وكان غرضهم ما ذكر
كلما ردوا الى الفتنة اي دعوا الى الكفر وقتال المسلمين اركسوا فيها قلبوا فيها
اقبح قلب واشنعه وكانوا فيها شرا من كل عدو وشرير فان لم يعتزلوكم بالكف عن
التعرض لكم بوجه ما ويلقوا اليكم السلم اي لم يلقوا اليكم الصلح والعهد بل نبذوه
اليكم ويكفوا ايديهم ان لم يكفوها عن قتالكم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم
اي تمكنتم منهم واولئكم الموصوفون بما عدد من الصفات القبيحة جعلنا
لكم عليهم سلطانا مبينا حجة واضحة في الايقاع بهم قتلا وسبيا لظهور
عداوتهم وانكشاف حالهم في الكفر والغدر واضرارهم باهل الاسلام او
تسلطا ظاهرا حيث اذنا لكم في اخذهم وقتلهم وما كان لمؤمن اي وما صح وما
لاق بحاله ان يقتل مؤمنا بغير حق فان الايمان زاجر عن ذلك الا خطأ فانه ربما

يقع

يقع لعدم دخول الاحتراز عنه بالكلية تحت الطاقة البشرية وانتصابه اما على انه حال اي ما كان
له ان يقتل مؤمنا في حال من الاحوال الا في حال الخطأ او على انه مفعول له اي ما كان له ان
يقتله لعلة من العلل الا للخطأ او على انه صفة للمصدر اي الا قتلا خطأ وقيل
الا بمعنى ولا والتقدير وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمنا عمدا ولا خطأ وقيل ما كان نفي
في معنى النهي والاستثناء منقطع اي لكن ان قتله خطأ فجزاؤه ما يذكر والخطأ ما لا
يقارنه القصد الى الفعل او الى الشخص او لا يقصد به زهوق الروح غالبا او لا يقصد به
محذور كرمي مسلم في صف الكفار مع الجهل باسلامه وقرئ خطاء بالمد وخطا كعصا بتخفيف
الهمزة وروي ان عياش بن ابي ربيعة وكان اخا ابي جهل لامه اسلم وهاجر الى المدينة
خوفا من اهله وذلك قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم فاقسمت امه لا تأكل ولا تشرب ولا
يأويها سقف حتى يرجع فخرج ابو جهل ومعه الحارث بن زيد بن ابي انيسة فاتياه وهو
في أطم ففتل منه ابو جهل في الذروة والغارب فقال أليس محمد يحثك على صلة الرحم
انصرف وبر امك وانت على دينك حتى نزل وذهب معهما فلما فسحا من المدينة كتفاه
وجلد كل واحد منهما مائة جلدة فقال للحارث هذا اخي فمن انت يا حارث لله علي ان
وجدتك خاليا ان اقتلك وقدما به على امه فحلفت لا يحل كتافه او يرتد ففعل
بلسانه ثم هاجر بعد ذلك واسلم الحارث وهاجر فلقيه عياش بظهر قباء ولم يشعر
باسلامه فانحى عليه فقتله ثم اخبر باسلامه فاتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قتلته
ولم اشعر باسلامه فنزلت ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة اي فعليه اي فموجبه تحرير
رقبة اي اعتاق نسمة عبر عنها بها كما يعبر عنها بالرأس مؤمنة محكوم باسلامها
وان كانت صغيرة ودية مسلمة الى اهله مؤداة الى ورثته يقتسمونها كسائر المواريث
لقول ضحاك بن سفيان الكلابي اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرني ان اورث امرأة اشيم
الضبابي من عقل زوجها الا ان يصدقوا اي يتصدق اهله عليه سمي العفو عنها صدقة
حثا عليه وتنبيها على فضله وعن النبي صلى الله عليه وسلم كل معروف صدقة وقرئ الا ان يتصدقوا
وهو متعلق بعليه او بمسلمة اي يجب الدية او يسلمها الى اهله الا وقت تصدقهم عليه فهو
في محل النصب على الظرفية او الا حال كونهم متصدقين عليه فهو حال من الاهل او القاتل فان كان
اي المقتول من قوم عدو لكم كفار محاربين وهو مؤمن ولم يعلم به القاتل
لكونه بين اظهر قومه بان اسلم فيما بينهم ولم يفارقهم او بان اتاهم بعد ما فارقهم لمهم
من المهمات فتحرير رقبة مؤمنة اي فعلى قاتله الكفارة دون الدية اذ لا وراثة بينه
وبين اهله لانهم محاربون وان كان اي المقتول المؤمن من قوم كفرة بينكم و
بينهم ميثاق اي عهد موقت او مؤبد فدية اي فعلى قاتله دية مسلمة الى اهله
من اهل الاسلام ان وجدوا ولعل تقديم هذا الحكم ههنا مع تأخيره فيما سلف للاشعار
بالمسارعة الى تسليم الدية تحاشيا عن توهم نقض الميثاق وتحرير رقبة مؤمنة
كما هو حكم سائر المسلمين ولعل افراده بالذكر مع اندراجه في حكم ما سبق من قوله تعالى
ومن قتل مؤمنا خطأ الخ لبيان ان كونه فيما بين المعاهدين لا يمنع وجوب الدية
كما منعه كونه فيما بين المحاربين وقيل المراد بالمقتول الذمي والمعاهد لئلا يلزم التكرار
بلا فائدة ولا التوريث بين المسلم والكافر وقد عرفت عدم لزومهما فمن لم يجد
اي رقبة لتحريرها بان لم يملكها ولا ما يتوصل به اليها فصيام اي فعليه صيام
شهرين متتابعين لم يتخلل بين يومين من ايامهما افطار توبة نصب على انه
مفعول له اي شرع ذلك لكم توبة اي قبولا لها من تاب الله عليه اذا قبل توبته
او مصدر مؤكد لفعل محذوف اي تاب عليكم وقيل على انه حال من الضمير المجرور في عليه
بحذف المضاف اي فعليه صيام شهرين ذا توبة وقوله تعالى من الله متعلق بمحذوف
وقع صفة لتوبة اي كائنة منه تعالى وكان الله عليما بجميع الاشياء حكيما فيما شرعه في
شأنه ومن يقتل مؤمنا متعمدا لما بين حكم القتل خطأ وفصل اقسامه الثلاثة عقبه
ذلك ببيان القتل عمدا خلا ان حكمه الدنيوي لما بين في سورة البقرة اقتصر ههنا على حكمه الاخروي

روي ان مقيس بن صبابة الكناني وكان قد اسلم هو واخوه هشام فوجد اخاه قتيلا في بني
النجار فاتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر له القصة فارسل عليه السلام معه زبير
بن عياض الفهري وكان من اصحاب بدر الى بني النجار يأمرهم بتسليم القاتل الى مقيس ليقتص
منه ان علموه وباداء الدية ان لم يعلموه فقالوا سمعا وطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله
عليه وسلم ما نعلم له قاتلا ولكنا نؤدي ديته فاتوه بمائة من الابل فانصرفا راجعين
الى المدينة حتى اذا كانا ببعض الطريق اتى الشيطان مقيسا فوسوس اليه فقال اتقبل
دية اخيك فيكون مسبة عليك اقتل الذي معك فيكون نفسا بنفس وفضل الدية
فتغفل الفهري فرماه بصخرة فشدخه ثم ركب بعيرا من الابل واستاق بقيتها راجعا الى مكة
كافرا وهو يقول قتلت به فهرا وحملت عقله سراة بني النجار ارباب فارع وادركت
ثأري واضطجعت موسدا وكنت الى الاوثان اول راجع فنزلت فهو الذي استثناه
رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ممن آمنه فقتل وهو متعلق باستار
الكعبة وقوله تعالى متعمدا حال من فاعل يقتل وروي عن الكسائي سكون التاء كانه فر
من توالي الحركات فجزاؤه الذي يستحقه بجنايته جهنم وقوله تعالى خالدا فيها حال
مقدرة من فعل مقدر يقتضيه المقام كانه قيل فجزاؤه ان يدخل جهنم خالدا فيها وقيل
هو حال من ضمير يجزاها وقيل من مفعول جزاه وايد ذلك بانه انسب بعطف ما بعده
عليه لموافقته له صيغة ولا يخفى ان ما يقدر للحال او للعطف عليه حقه ان يكون مما
يقتضيه المقام اقتضاء ظاهرا ويدل عليه الكلام دلالة بينة وظاهر ان يكون جزاؤه ما
ذكر لا يقتضي وقوع الجزاء البتة كما ستقف عليه حتى يقدر يجزاها او جازاه بطريق الاخبار
عن وقوعه واما قوله تعالى وغضب الله عليه فعطف على مقدر يدل عليه الشرطية دلالة
واضحة كانه قيل بطريق الاستئناف تقريرا وتأكيدا لمضمونها حكم الله بان جزاءه
ذلك وغضب عليه اي انتقم منه ولعنه اي ابعده عن الرحمة بجعل جزائه ما ذكر
وقيل هو وما بعده معطوف على الخبر بتقدير ان وحمل الماضي على معنى المستقبل كما في قوله
تعالى ونفخ في الصور ونظائره اي فجزاؤه جهنم وان يغضب الله عليه الخ واعد له
في جهنم عذابا عظيما لا يقادر قدره ولما ترى في الآية الكريمة من التهديد الشديد
والوعيد الاكيد وفنون الابراق والارعاد وقد تأيدت بما روي من الاخبار الشداد
كقوله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لزوال الدنيا اهون عند الله من قتل
مؤمن وقوله عليه السلام لو ان رجلا قتل بالمشرق وآخر رضي بالمغرب لاشرك في دمه
وقوله صلى الله عليه وسلم من اعان على قتل مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيمة مكتوب بين عينيه
آيس من رحمة الله ونحو ذلك من القوارع تمسكت الخوارج والمعتزلة بها في خلود من قتل
المؤمن عمدا في النار ولا متمسك لهم فيها لا لما قيل من انها في حق المستحل كما هو رأي
عكرمة واضرابه بدليل انها نزلت في مقيس بن صبابة الكناني المرتد حسبما مر حكايته
فان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب بل لان المراد بالخلود هو المكث الطويل لا الدوام
لتظاهر النصوص الناطقة بان عصاة المؤمنين لا يدوم عذابهم وما روي عن ابن
عباس رضي الله عنهما انه لا توبة لقاتل المؤمن عمدا وكذا ما روي عن سفيان ان اهل العلم كانوا
اذا سئلوا قالوا لا توبة له محمول على الاقتداء بسنة الله تعالى في التشديد والتغليظ
وعليه يحمل ما روي عن انس رضي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ابى الله ان يجعل لقاتل المؤمن
توبة كيف لا وقد روي عن ابن عباس رضي ان رجلا سأله القاتل المؤمن
توبة قال لا وسأله آخر القاتل المؤمن توبة فقال نعم فقيل له قلت لذلك كذا
ولهذا كذا فقال كان الاول لم يقتل بعد فقلت ما قلت كيلا يقتل وكان هذا قد قتل
فقلت له ما قلت لئلا ييأس وقد روي عنه جواز المغفرة بلا توبة ايضا حيث قال في قوله
تعالى فجزاؤه جهنم الآية هي جزاؤه فان شاء عذبه وان شاء غفر له وروي مرفوعا
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال هو جزاؤه ان جازاه وبه قال عون بن عبد الله
وبكر بن عبد الله وابو صالح قالوا قد يقول الانسان لمن يزجره عن امر ان فعلته فجزاؤك

القتل

القتل والضرب ثم ان لم يجازه بذلك لم يكن ذلك منه كذبا قال الواحدي والاصل في ذلك
ان الله عز وجل يجوز ان يخلف الوعيد وان امتنع ان يخلف الوعد وبهذا وردت السنة عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث انس رضي انه عليه السلام قال من وعده الله على
عمله ثوابا فهو منجز له ومن وعده على عمله عقابا فهو بالخيار والتحقيق انه لا ضرورة الى
تفريع ما نحن فيه على الاصل المذكور لانه اخبار منه تعالى بان جزاءه ذلك لا بانه يجزيه
بذلك كيف لا وقد قال الله عز وجل وجزاء سيئة سيئة مثلها ولو كان هذا اخبارا بانه
تعالى يجزي كل سيئة بمثلها لعارضه قوله تعالى ويعفو عن كثير يا ايها الذين آمنوا
اثر ما بين حكم القتل بقسميه وان ما يتصور صدوره عن المؤمن انما هو القتل خطأ شرع
في التحذير عما يؤدي اليه من قلة المبالاة في الامور اذا ضربتم في سبيل الله اي
سافرتم للغزو ولما في اذا من معنى الشرط صدر قوله تعالى فتبينوا بالفاء اي فاطلبوا بيان
الامر في كل ما تأتون وما تذرون ولا تعجلوا فيه بغير تدبر وروية وقرئ فتثبتوا اي اطلبوا
ثباته وقوله عز وجل ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام نهي عما هو نتيجة لترك
المأمور وتعيين لمادة مهمة من المواد التي يجب فيها التبيين وقرئ السلم بغير الف
بكسر السين وسكون اللام اي لا تقولوا بغير تأمل لمن حياكم بتحية الاسلام او لمن القى اليكم
مقاليد الاسلام والانقياد لست مؤمنا وانما اظهرت ما اظهرت متعوذا بل اقبلوا
منه ما اظهره وعاملوه بموجبه وقرئ مؤمنا بالفتح اي مبذولا لك الامان وهذا انسب
بالقراءتين الاخيرتين والاقتصار على ذكر تحية الاسلام في القراءة الاولى مع كونها مقرونة
بكلمتي الشهادة كما سيأتي في سبب النزول للمبالغة في النهي والزجر والتنبيه على
كمال ظهور خطائهم ببيان ان تحية الاسلام كانت كافية في المكافة والانزجار عن
التعرض لصاحبها فكيف وهي مقرونة بهما وقوله تعالى يبتغون عرض الحيوة الدنيا حال
فاعل لا تقولوا منبئ عما يحملهم على العجلة وترك التأني لكن لا على ان يكون النهي راجعا
الى القيد فقط كما في قولك لا تطلب العلم تبتغي به الجاه بل اليهما جميعا اي لا تقولوا
له ذلك حال كونكم طالبين لماله الذي هو حطام سريع النفاد وقوله تعالى فعند الله
مغانم كثيرة تعليل للنهي عن ابتغاء ماله بما فيه من الوعد الضمني كانه قيل لا تبتغوا
ماله فعند الله مغانم كثيرة يغنمكموها فيغنيكم عن ارتكاب ما ارتكبتموه وقوله تعالى كذلك
كنتم من قبل فمن الله عليكم تعليل للنهي عن القول المذكور ولعل تأخيره لما فيه من نوع
تفصيل ربما يخل تقديمه بتجاوب اطراف النظم الكريم مع ما فيه من مراعاة المقارنة
بين التعليل السابق وبين ما علل به كما في قوله تعالى يوم تبيض وجوه وتسود وجوه
فاما الذين اسودت وجوههم الخ وتقديم خبر كان للقصر المفيد لتأكيد المشابهة بين
طرفي التشبيه وذلك اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة والفاء في فمن
للعطف على كنتم اي مثل ذلك الذي القى اليكم السلام كنتم انتم ايضا في مبادي اسلامكم لا
يظهر منكم للناس غير ما ظهر منه لكم من تحية الاسلام ونحوها فمن الله عليكم بان قبل منكم تلك
المرتبة وعصم بها دماءكم واموالكم ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم والفاء في قوله تعالى
فتبينوا فصيحة اي اذا كان الامر كذلك فاطلبوا بيان هذا الامر البين وقيسوا حاله بحالكم
وافعلوا به ما فعل بكم في اوائل اموركم من قبول ظاهر الحال من غير وقوف على تواطئ الظاهر
والباطن هو الذي يقتضيه جزالة التنزيل ويستدعيه فخامة شأنه الجليل ومن
حسب ان المعنى اول ما دخلتم في الاسلام سمعت من افواهكم كلمة الشهادة فحصنت
دماءكم واموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطاة قلوبكم لالسنتكم فمن الله
عليكم بالاستقامة والاشتهار بالايمان والتقدم فيه وان صرتم اعلاما فيه فعليكم
ان تفعلوا بالداخلين في الاسلام كما فعل بكم وان تعتبروا ظاهر الاسلام في المكافة ولا
تقولوا الخ فقد ابعد عن الحق لان المراد كما عرفت بيان ان تحصين الدماء والاموال حكم
مترتب على ما فيه المماثلة بينه وبينهم من مجرد التفوه بكلمة الشهادة واظهار ان ترتبه
عليه في حقهم يقتضي ترتبه عليه في حقه ايضا الزاما لهم واظهارا لخطائهم ولا يخفى

ان ذلك انما يتأتى بتفسيره منه تعالى عليهم المرتب على كونهم مثلكم بتحصين دمائهم واموالهم
حسبما ذكرت حتى يظهر عندهم وجوب تحصين دمه وماله ايضا بحكم المشاركة فيما يوجبه
وحيث لم يفعل ذلك بل فسر به لم يبق في النظم الكريم ما يدل على ترتب تحصين دمائهم
واموالهم على ما ذكر فمن اين له ان يقول فحصنت دماؤكم واموالكم حتى يتأتى البيان
وارتكاب تقديره بناء على اقتضاء ما ذكر في تفسير المن اياه بناء على اساس واه كيف لا وان
ما ذكره بصدد التفسير وان كان امرا متفرعا على ما فيه المماثلة مبنيا عليه في حقهم لكنه
ليس بحكم اريد اثباته في حقه بناء على ثبوته في حقهم كالتحصين المذكور حتى ينبغي ان
يتعرض له ولا يأمر له دخل في وجوب اعتبار ظاهر الاسلام من المتظاهرين به حتى يصح نظمه
في سلك ما فرع عليه قوله فعليكم ان تفعلوا الخ وحمل الكلام على معنى انكم في اول
الامر كنتم مثله في قصور الرتبة في الاسلام فمن الله عليكم وبلغت هذه الرتبة العالية
منه ولا تستنقصوا حاله نظرا الى حالتكم هذه بل اعتدوا بها نظرا الى حالتكم السابقة يرده
ان قتله لم يكن لاستنقاص اسلامه بل لتوهم عدم مطابقة قلبه للسانه فان الاية
الكريمة نزلت في شان مرداس بن نهيك من اهل فدك وكان قد اسلم من قومه غيره فغزتهم
سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم غالب بن فضالة الليثي فهربوا وبقي مرداس
لثقته باسلامه فلما رأى الخيل الجأ غنمه الى عاقول من الجبل وصعد فلما تلاحقوا وكبروا
كبر ونزل وقال لا اله الا الله محمد رسول الله السلام عليكم فقتله اسامة بن زيد
واستاق غنمه فاخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد وجدا شديدا وقال
قتلتموه ارادة ما معه فقال اسامة انه قال بلسانه دون قلبه وفي رواية انما قالها خوفا
من السلاح فقال عليه السلام هلا شققت عن قلبه وفي رواية افلا شققت عن قلبه
ثم قرأ الاية على اسامة فقال يا رسول الله استغفر لي فقال فكيف بلا اله الا الله قال اسامة
فما زال صلى الله عليه وسلم يعيدها حتى وددت ان لم اكن اسلمت الا يومئذ ثم استغفر
لي وقال اعتق رقبة وقيل نزلت في رجل قال يا رسول الله كنا نطلب القوم وقد هزمهم
الله فقصدت رجلا فلما احس بالسيف قال اني مسلم فقتلته فقال له يا رسول الله صلى الله
عليه وسلم اقتلت مسلما قال انه كان متعوذا فقال عليه السلام افلا شققت عن قلبه
ان الله كان بما تعملون من الاعمال الظاهرة والخفية وبكيفياتها خبيرا فيجازيكم
بحسبها ان خيرا فخير وان شرا فشر فلا تتهاونوا في القتل واحتاطوا فيه والجملة تعليل لما
قبلها بطريق الاستئناف وقرئ بفتح ان على انها معمولة لتبينوا او على حذف لام التعليل
لا يستوي القاعدون بيان لتفاوت طبقات المؤمنين بحسب تفاوت درجات مساعيهم
في الجهاد بعد ما مر من الامر به وتحريض المؤمنين عليه ليأنف القاعد عنه ويترفع بنفسه
عن انحطاط رتبته فيهتز له رغبة في ارتفاع طبقته والمراد بهم الذين اذن لهم في القعود
عن الجهاد اكتفاء بغيرهم قال ابن عباس رضهم هم القاعدون عن بدر والخارجون اليها
وهو الظاهر الموافق لتاريخ النزول لا ما روي عن مقاتل من انهم الخارجون الى تبوك
فانه مما لا يوافقه التاريخ ولا يساعده الحال اذ لم يكن للمتخلفين يومئذ هذه الرخصة
وقوله تعالى من المؤمنين متعلق بمحذوف وقع حالا من القاعدين اي كائنين من المؤمنين
وفائدتها الايذان من اول الامر بعدم اخلال وصف القعود بايمانهم والاشعار بعلة
استحقاقهم لما سيأتي من الحسنى غير اولي الضرر بالرفع صفة للقاعدون لجريانه
مجرى النكرة حيث لم يقصد به قوم باعيانهم او بدل منه وقرئ بالنصب على انه
حال منه او استثناء وبالجر على انه صفة للمؤمنين او بدل منه والضرر المرض والعاهة
من عمى او عرج او زمانة او نحوها وفي معناه العجز عن الاهبة عن زيد بن ثابت
رضه انه قال كنت الى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فغشيته السكينة فوقعت فخذه
على فخذي حتى خشيت ان ترضها ثم سري عنه فقال اكتب فكتبت لا يستوي القاعدون
من المؤمنين غير اولي الضرر والمجاهدون فقال ابن مكتوم وكان اعمى يا رسول الله وكيف
بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين فغشيته السكينة كذلك ثم سري عنه فقال اكتب لا يستوي

القاعدون من المؤمنين غير اولي الضرر والمجاهدون ايرادهم بهذا العنوان دون الخروج
المقابل لوصف المعطوف عليه كما وقع في عبارة ابن عباس رضه وكذا تقييد المجاهدة بكونها
في سبيل الله باموالهم وانفسهم لمدحهم بذلك والاشعار بعلة استحقاقهم
لعلو الرتبة مع ما فيه من حسن موقع السبيل في مقابلة القعود وتقديم القاعدين في
الذكر للايذان من اول الامر بان القصور الذي ينبئ عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من
جهة مقابليهم فان مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانا وان
جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب قصور القاصر وعليه قوله تعالى
هل يستوي الاعمى والبصير ام هل تستوي الظلمات والنور الى غير ذلك واما قوله تعالى
هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون فلعل تقديم الفاضل فيه لان صلته ملكة
لصلة المفضول وقوله عز وجل فضل الله المجاهدين باموالهم وانفسهم على القاعدين
درجة استئناف مسوق لتفصيل ما بين الفريقين من التفاضل المفهوم من ذكر عدم
استوائهما اجمالا ببيان كيفيته وكميته مبني على سؤال ينساق اليه المقال كانه قيل كيف وقع
ذلك فقيل فضل الله الخ واما تقدير ما لهم لا يستوون فانما يليق بجعل الاستئناف
تعليلا لعدم الاستواء مسوقا لاثباته وفيه تعكيس ظاهر فان الذي يحق ان يكون مقصودا
بالذات انما هو بيان تفاضل الفريقين على درجات متفاوتة واما عدم استوائهما فقصارى
امره ان يكون توطئة لذكره ولام المجاهدين والقاعدين للعهد فقيد كون الجهاد في سبيل الله
معتبر في الاول كما ان قيد عدم الضرر معتبر في الثاني ودرجة نصب على المصدرية لوقوعها
موقع المرة من التفضيل اي فضل الله تفضيلة او على نزع الخافض اي بدرجة وقيل على التمييز
وقيل على الحالية من المجاهدين اي ذوي درجة وتنوينها للتفخيم وقوله تعالى وكلا
مفعول اول لوعد قدم عليه لافادة القصر تاكيدا للوعد اي كلا من المجاهدين والقاعدين
وعد الله الحسنى اي المثوبة الحسنى وهي الجنة لا احدهما فقط كما في قوله تعالى وارسلناك
للناس رسولا على ان اللام متعلقة برسولا والجملة اعتراض جيء به تداركا لما عسى يوهمه
تفضيل احد الفريقين على الاخر من حرمان المفضول وقوله عز وجل وفضل الله
المجاهدين على القاعدين عطف على قوله تعالى فضل الله الخ واللام في الفريقين مغنية لهما
عن ذكر القيود التي تركت على سبيل التدريج وقوله تعالى اجرا عظيما مصدر مؤكد
لفضل على انه بمعنى اجر وايثاره على ما هو مصدر من فعله للاشعار بكون ذلك التفضيل
اجرا لاعمالهم او مفعول ثان له بتضمينه معنى الاعطاء اي اعطاهم زيادة على
القاعدين اجرا عظيما وقيل هو منصوب بنزع الخافض اي فضلهم باجر عظيم وقوله
تعالى درجات بدل من اجرا بدل الكل مبين لكمية التفضيل وقوله تعالى منه متعلق
بمحذوف وقع صفة لدرجات دالة على فخامتها وجلالة قدرها اي درجات كائنة
منه تعالى قال ابن محيريز هي سبعون درجة ما بين كل درجتين عدو الفرس الجواد المضمر سبعين
خريفا وقال السدي هي سبعمائة درجة وعن ابي هريرة رضه ان النبي صلى الله عليه وسلم
قال ان في الجنة مائة درجة اعدها الله للمجاهدين في سبيله بين الدرجتين كما بين
السماء والارض ويجوز انتصاب درجات على المصدرية كما في قولك ضربه اسواطا
اي ضربات كانه قيل فضلهم تفضيلات وقوله تعالى ومغفرة بدل من اجرا بدل
البعض لان بعض الاجر ليس من باب المغفرة اي مغفرة لما يفرط منهم من الذنوب التي
لا يكفرها سائر الحسنات التي يأتي بها القاعدون ايضا حتى تعد من خصائصهم وقوله تعالى
ورحمة بدل الكل من اجرا مثل درجات ويجوز ان ينتصبا باضمار فعلهما
اي غفر لهم مغفرة ورحمهم رحمة هذا ولعل تكرير التفضيل بطريق العطف المنبئ
عن المغايرة وتقييده تارة بدرجة واخرى بدرجات مع اتحاد المفضل والمفضل
عليه حسبما يقتضيه الكلام ويستدعيه حسن الانتظام اما لتنزيل الاختلاف العنواني
بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات منزلة الاختلاف الذاتي تمهيدا لسلوك
طريقة الابهام ثم التفسير روما لمزيد التحقيق والتقرير كما في قوله تعالى فلما جاء امرنا

نجيناهودا والذين امنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ كانه قيل وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة لا يقادر قدرها ولا يبلغ كنهها وحيث كان تحقق هذا البون البعيد بينهما موهما لحرمان القاعدين قيل وكلا وعد الله الحسنى ثم اريد تفسيرها افاده التنكير بطريق الابهام بحيث يقطع احتمال كونه للوحدة فقيل ولله در شان التنزيل واما الاختلاف بالذات بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات على ان المراد بالتفضيل الاول ما خولهم الله تعالى عاجلا في الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر الجميل الحقيق بكونه درجة واحدة وبالتفضيل الثاني ما انعم به في الاخرة من الدرجات العالية الفائتة للحصر كما ينبئ عنه تقديم الاول وتاخير الثاني وتوسيط الوعد بالجنة توضيحا لحالهما ومسارعة الى تسلية المفضول والله سبحانه اعلم هذا ما بين المجاهدين وبين القاعدين غير اولي الضرر واما اولي الضرر فهم مساوون المجاهدين عند القائلين بمفهوم الصفة وبان الاستثناء من النفي اثبات واما عند من لا يقول بذلك فلا دلالة لعبارة النص عليه وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد خلفتم في المدينة اقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم وهم الذين صحت نياتهم ونصحت جيوبهم وكانت افئدتهم تهوي الى الجهاد وبهم ما يمنعهم من المسير من ضرر او غيره وبعبارة اخرى ان في المدينة لاقواما ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد الا كانوا معكم فيه قالوا يا رسول الله وهم بالمدينة قال نعم وهم بالمدينة حبسهم العذر قالوا وهذه المساواة مشروطة بشريطة اخرى سوى الضرر قد ذكرت في قوله تعالى ليس على الضعفاء ولا على المرضى الى قوله تعالى اذا نصحوا لله ورسوله وقيل القاعدون الاول هم الاضراء والثاني غيرهم وفيه من تفكيك النظم الكريم ما لا يخفى ولا ريب في ان الاضراء افضل من غيرهم درجة كما لا ريب في انهم دون المجاهدين بحسب الدرجة الدنيوية وكان الله غفورا رحيما تذييل مقرر لما وعد من المغفرة ان الذين توفاهم الملائكة بيان لحال القاعدين عن الهجرة اثر بيان حال القاعدين عن الجهاد وتوفاهم يحتمل ان يكون ماضيا ويؤيده قراءة من قرأ توفتهم وان يكون مضارعا قد حذف منه احدى التائين واصله تتوفاهم على حكاية الحال الماضية والقصد الى استحضار صورتها ويعضده قراءة من قرأ توفاهم على مضارع وفيت بمعنى ان الله تعالى يوفي الملائكة انفسهم فيتوفونها اي يمكنهم من استيفائها فيستوفونها ظالمي انفسهم حال من ضمير توفاهم فانه وان كان مضافا الى المعرفة الا انه نكرة في الحقيقة لان المعنى على الانفصال وان كان موصولا في اللفظ كما في قوله تعالى غير محلي الصيد وهديا بالغ الكعبة وثاني عطفه اي محلين الصيد وبالغا الكعبة وثانيا عطفه كانه قيل ظالمين انفسهم وذلك بترك الهجرة واختيار مجاورة الكفرة الموجبة للاخلال بامور الدين فانها نزلت في ناس من مكة قد اسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضة قالوا اي الملائكة عليهم السلام للمتوفين تقريرا لهم بتقصيرهم في اظهار اسلامهم واقامة احكامه من الصلاة ونحوها وتوبيخا لهم بذلك فيم كنتم اي في اي شيء كنتم من امور دينكم قالوا استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية سؤال الملائكة كانه قيل فماذا قالوا في الجواب فقيل قالوا متجانفين عن الاقرار الصريح بما هم فيه من التقصير متعللين بما يوجبه على زعمهم كنا مستضعفين في الارض اي في ارض مكة عاجزين عن القيام بواجب الدين فيما بين اهلها قالوا ابطالا لتعللهم وتبكيتا لهم الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها الى قطر آخر منها تقدرون فيه على اقامة امور الدين كما فعله من هاجر الى المدينة والى الحبشة واما حمل تعللهم على اظهار العجز عن الهجرة وجعل جواب الملائكة تكذيبا لهم في ذلك فيرده ان سبب العجز لا ينحصر في فقدان دار الهجرة بل قد يكون لعدم الاستطاعة للخروج بسبب الفقر او بعدم تمكين الكفرة منه فلا يكون بيان سعة الارض تكذيبا لهم وردا عليهم بل لا بد من بيان استطاعتهم ايضا حتى يتم التبكيت وقيل كانت الطائفة المذكورة قد خرجوا مع المشركين الى بدر منهم قيس بن الفاكه بن المغيرة وقيس بن الوليد بن المغيرة واشباههما فقتلوا فيها فضربت الملائكة وجوههم وادبارهم وقالوا لهم ما قالوا فيكون ذلك منهم تقريعا وتوبيخا لهم بما كانوا فيه من

كما

معا

سؤال الملائكة

مساعدة

مساعدة الكفرة بانتظامهم في عسكرهم ويكون جوابهم بالاستضعاف تعللا بانهم كانوا مقهورين تحت ايديهم وانهم اخرجوهم كارهين فرد عليهم بانهم كانوا بسبيل من الخلاص عن قهرهم متمكنين من المهاجرة فاولئك الذين حكيت احوالهم الفظيعة ماواهم اي في الاخرة جهنم كما ان ماواهم في الدنيا دار الكفرة لتركهم الفريضة المحتومة فماواهم مبتدا وجهنم خبره والجملة خبر لاولئك وهذه الجملة خبر ان والفاء فيه لتضمن اسمها معنى الشرط وقوله تعالى قالوا فيم كنتم حال من الملائكة باضمار قد عند من يشترطها او هو الخبر والعائد منه محذوف اي قالوا لهم والجملة المصدرة بالفاء معطوفة عليه مستنتجة منه ومما في حيزه وساءت مصيرا اي مصيرهم او جهنم وفي الاية الكريمة ارشاد الى وجوب المهاجرة من موضع لا يتمكن الرجل من اقامة امور دينه باي سبب كان وعن النبي صلى الله عليه وسلم من فر بدينه من ارض الى ارض وان كان شبرا من الارض استوجبت له الجنة وكان رفيق ابيه ابراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام الا المستضعفين استثناء منقطع لعدم دخولهم في الموصول وضميره والاشارة اليه ومن قوله تعالى من الرجال والنساء والولدان متعلقة بمحذوف وقع حالا من المستضعفين اي كائنين منهم وذكر الولدان ان اريد بهم المماليك والمراهقون ظاهر واما ان اريد بهم الاطفال فللمبالغة في الهجرة وايهام انها بحيث لو استطاعها غير المكلفين لوجبت عليهم والاشعار بانه لا محيص لهم عنها البتة يجب عليهم كما بلغوا حتى كانها واجبة عليهم قبل البلوغ لو استطاعوا وان قوام امرهم يجب عليهم ان يهاجروا بهم متى امكنت وقوله تعالى لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا صفة للمستضعفين فان ما فيه من اللام ليس للتعريف او حال منه او من الضمير المستكن فيه وقيل تفسير لنفس المستضعفين لكثرة وجوه الاستضعاف واستطاعة الحيلة وجدان اسباب الهجرة ومباديها واهتداء السبيل معرفة طريق الموضع المهاجر اليه بنفسه او بدليل فاولئك اشارة الى المستضعفين الموصوفين بما ذكر من صفات العجز عسى الله ان يعفو عنهم جيء بكلمة الاطماع ولفظ العفو ايذانا بان الهجرة من تاكيد الوجوب بحيث ينبغي ان يعد تركها ممن تحقق عدم وجوبها عليه ذنبا يجب طلب العفو عنه رجاء وطمعا لا جزما وقطعا وكان الله عفوا غفورا تذييل مقرر لما قبله ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغما كثيرا ترغيب في المهاجرة وتانيس لها اي يجد فيها متحولا ومهاجرا وانما عبر عنه بذلك تاكيدا للترغيب لما فيه من الاشعار بكون ذلك المتحول بحيث يصل فيه المهاجر من الخير والنعمة الى ما يكون سببا لرغم انف قومه الذين هاجرهم والرغم الذل والهوان واصله لصوق الانف بالرغام وهو التراب وقيل يجد فيها طريقا يراغم بسلوكه قومه اي يفارقهم على رغم انوفهم وسعة اي من الرزق ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت اي قبل ان يصل الى المقصد وان كان خارج بابه كما ينبئ عنه ايثار الخروج من بيته على المهاجرة وهو عطف على فعل الشرط وقرئ بالرفع على انه خبر مبتدا محذوف وقيل هو حركة الهاء نقلت الى الكاف على نية الوقف كما في قوله من عنزي سبني لم اضربه وقرئ بالنصب على اضمار ان كما في قوله سابترك منزلي لبني تميم والحق بالحجاز فاستريحا فقد وقع اجره على الله اي ثبت ذلك عنده تعالى ثبوت الامر الواجب روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث بالايات المتقدمة الى مسلمي مكة قال جندب بن ضمرة لبنيه وكان شيخا كبيرا احملوني فاني لست من المستضعفين واني لاهتدي الطريق والله لا ابيت الليلة بمكة فحملوه على سرير متوجها الى المدينة فلما بلغ التنعيم اشرف على الموت فصفق بيمينه على شماله ثم قال اللهم هذه لك وهذه لرسولك ابايعك على ما بايعك رسولك فمات حميدا فبلغ خبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا لو توفي بالمدينة لكان اتم اجرا فنزلت قالوا كل هجرة في غرض ديني من طلب علم او حج او جهاد او نحو ذلك فهي هجرة الى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وكان الله غفورا مبالغا في المغفرة فيغفر له ما فرط منه من الذنوب التي

صدره

من جملتها القعود عن الهجرة الى وقت الخروج رحيماً مبالغاً في الرحمة فيرحمه بإكمال ثواب هجرته وإذا ضربتم في الأرض شروع في بيان كيفية الصلوة عند الضرورة في السفر ولقاء العدو والمطر والمرض وفيه تأكيد لعزيمة المهاجر على المهاجرة وترغيب له فيها لما فيه من تخفيف المؤنة اي اذا سافرتم اي مسافرة كانت ولذلك لم يقيد به المهاجرة فليس عليكم جناح اي حرج ومأثم ان تقصروا اي في ان تقصروا والقصر خلاف المد يقال قصرت الشيء اي جعلته قصيراً بحذف بعض اجزائه او اوصافه فمتعلق القصر حقيقة انما هو ذلك الشيء لا بعضه فانه متعلق الحذف دون القصر وعلى هذا فقوله من الصلوة ينبغي ان يكون مفعولاً لتقصروا على زيادة من حسبما رآه الاخفش واما على تقدير ان تكون تبعيضية ويكون الفعل محذوفاً كما هو رأي سيبويه اي شيئاً من الصلوة فينبغي ان يصار الى وصف الجزء بصفة الكل او يراد بالقصر معنى الحبس يقال قصرت الشيء اي حبسته او يراد بالصلوة الجنس ليكون المقصور بعضاً منها وهي الرباعيات اي فليس عليكم جناح في ان تقصروا بعض الصلوة بتنصيفها وقرئ تقصروا من الاقصار وتقصروا من التقصير الكل بمعنى وادنى مدة السفر الذي يتعلق به القصر عند ابي حنيفة رح مسيرة ثلثة ايام ولياليها بسير الابل ومشي الاقدام بالاقتصار وعند الشافعي رح مسيرة يومين وظاهر الآية الكريمة التخيير وافضلية الاتمام وبه تعلق الشافعي رح وبما روي عن النبي صلعم انه اتم في السفر وعن عائشة رضه انها اتمت تارة وقصرت اخرى وعن عثمان رضه انه كان يتم ويقصر وعندنا يجب القصر لا محالة خلا ان بعض مشايخنا سماه عزيمة وبعضهم رخصة اسقاط بحيث لا مساغ للاتمام لا رخصة ترفيه اذ لا معنى للتخيير بين الاخف والاثقل وهو قول عمر وعلي وابن عباس وجابر رضوان الله تعالى عليهم اجمعين وبه قال الحسن وعمر بن عبد العزيز وقتادة وهو قول مالك وقد روي عن عمر رضه صلوة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم عليه السلام وعن انس رضه خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة الى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا الى المدينة وعن عمران بن حصين ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في السفر الا ركعتين وصلى بمكة ركعتين ثم قال اتموا فانا قوم سفر وحين سمع ابن مسعود ان عثمان رضه صلى بمنى اربع ركعات استرجع ثم قال صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى ركعتين وصليت مع ابي بكر رضه بمنى ركعتين وصليت مع عمر رضه بمنى ركعتين فليت حظي من اربع ركعات ركعتان متقبلتان وقد اعتذر عثمان رضه عن اتمامه بانه تأهل بمكة وعن الزهري انه انما اتم لانه ازمع الاقامة بمكة وعن عائشة رضه اول ما فرضت الصلوة ركعتين ركعتين فاقرت في السفر وزيدت في الحضر وفي صحيح البخاري انها قالت فرض الله الصلوة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر فاقرت في صلوة السفر وزيدت في صلوة الحضر واما ما روي عنها من الاتمام فقد اعتذرت عنه وقالت انا ام المؤمنين فحيث حللت فهي داري وانما ورد ذلك بنفي الجناح لما انهم الفوا الاتمام فكانوا مظنة ان يخطر ببالهم ان عليهم نقصاناً في القصر فرفع عنهم ليطيب به نفوسهم ويطمئنوا اليه كما في قوله تعالى فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما مع ان ذلك الطواف واجب عند نا ركن عند الشافعي وقوله تعالى ان خفتم ان يفتنكم الذين كفروا جواب محذوف لدلالة ما قبله عليه اي ان خفتم ان يتعرضوا لكم بما تكرهونه من القتال وغيره فليس عليكم جناح الخ وهو شرط معتبر في شرعية ما يذكر بعده من صلوة الخوف المؤداة بالجماعة واما في حق مطلق القصر فلا اعتبار له اتفاقاً لتظاهر السنن على مشروعيته حسبما وقفت على تفصيلها وقد ذكر الطحاوي في شرح الآثار مسنداً الى يعلى بن امية انه قال قلت لعمر بن الخطاب رضه انما قال الله فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلوة ان خفتم ان يفتنكم الذين كفروا وقد امن الناس فقال عمر رضه عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته وفيه دليل على عدم جواز الاكمال لان التصدق بما لا يحتمل التمليك اسقاط محض لا يحتمل الرد كما حقق في موضعه ولا يتوهمن انه مخالف للكتاب

لان التقييد

لان التقييد بالشرط عندنا انما يدل على ثبوت الحكم عند وجود الشرط واما عدمه عند عدمه فمسكوت عنه فان وجد له دليل ثبت عنده ايضاً والا يبقى على حاله لعدم تحقق دليله لا لتحقق دليل عدمه وناهيك ما سمعت من الادلة الواضحة واما عند القائلين بالمفهوم فلانه انما يدل على نفي الحكم عند عدم الشرط اذا لم يكن له فائدة اخرى وقد خرج الشرط ههنا مخرج الاغلب كما في قوله تعالى ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصناً بل نقول ان الآية الكريمة مجملة في حق مقدار القصر وكيفيته وفي حق ما يتعلق به من الصلوات وفي مقدار مدة الضرب الذي نيط به القصر فكل ما ورد منه صلى الله عليه وسلم من القصر في حال الامن وتخصيصه بالرباعيات على وجه التنصيف وبالضرب في المدة المعينة بيان لاجمال الكتاب وقد قيل انه قوله تعالى ان خفتم الخ متعلق بما بعده من صلوة الخوف منفصل عما قبله فانه روي عن ابي ايوب الانصاري رضه انه قال نزل قوله تعالى واذا ضربتم في الارض فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلوة ثم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حول فنزل ان خفتم الخ اي ان خفتم ان يفتنكم الذين كفروا فليس عليكم جناح الخ وقد قرئ من الصلوة ان يفتنكم بغير ان خفتم على انه مفعول له لما دل عليه الكلام كانه قيل شرع لكم ذلك كراهة ان يفتنكم الخ فان استمرار الاشتغال بالصلوة مظنة لاقتدارهم على ايقاع الفتنة وقوله تعالى ان الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً تعليل لذلك باعتبار تعلله بما ذكر او لما يفهم من الكلام وكونوا فتنتهم متوقعة لان كمال عداوتهم للمؤمنين من موجبات التعرض لهم بسوء وقوله تعالى واذا كنت فيهم بيان لما قبله من النص المجمل الوارد في مشروعية القصر بطريق التفريع وتصوير لكيفية عند الضرورة التامة وتخصيص البيان بهذه الصورة مع ان الاكتفاء فيما عداها بالبيان بطريق السنة لمزيد حاجتها اليه لما فيها من كثرة التغيير عن الهيئة الاصلية ومن ههنا ظهر لك ان مورد النص الشريف هي المقصورة وحكم ما عداها مستفاد من حكمها والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التجريد وبظاهره تعلق من لا يرى صلوة الخوف بعده صلى الله عليه وسلم ولا يخفى ان الائمة بعده نوابه وعليه السلام قوام بما كان يقوم به فيتناولهم حكم الخطاب الوارد له عليه السلام كما في قوله تعالى خذ من اموالهم صدقة وقد روي ان سعيد بن العاص لما اراد ان يصلي بطبرستان صلوة الخوف قال من شهد منكم صلوة الخوف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام حذيفة بن اليمان فوصف له ذلك فصلى بهم كما وصف وكان ذلك بحضرة الصحابة رضي الله عنهم فلم ينكره احد فحل محل الاجماع وروي في السنن انهم غزوا مع عبد الله بن سمرة كابل فصلى بهم صلوة الخوف فاقمت لهم الصلوة اي اردت ان تقيم الصلوة فلتقم طائفة منهم معك بعد ان جعلتهم طائفتين ولتقف الطائفة الاخرى بازاء العدو ليحرسوكم وانما لم يصرح به لظهوره وليأخذوا اي الطائفة القائمة معك اسلحتهم اي لا يضعوها ولا يلقوها وانما عبر عن ذلك بالاخذ للايذان بالاعتناء باستصحابها كانهم يأخذونها ابتداء فاذا سجدوا اي القائمون معك واتموا الركعة فليكونوا من ورائكم اي فلينصرفوا الى مقابلة العدو للحراسة ولتأت طائفة اخرى لم يصلوا بعد وهي الطائفة الواقفة تجاه العدو للحراسة وانما لم تعرف لما انها لم تذكر فيما قبل فليصلوا معك الركعة الباقية ولم يبين في الآية الكريمة حال الركعة الباقية لكل من الطائفتين وقد بين ذلك بالسنة حيث روي عن ابن عمر وابن مسعود رضي الله عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم حين صلوة الخوف صلى بالطائفة الاولى ركعة وبالطائفة الاخرى ركعة كما في الآية ثم جاءت الطائفة الاولى بقراءة حتى صار لكل طائفة ركعتان وليأخذوا اي هذه الطائفة حذرهم واسلحتهم لعل زيادة الامر بالحذر في هذه المرة لكونها مظنة لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبي صلى الله عليه وسلم في شغل شاغل واما قبلها فربما يظنون قائمين للحراب وتكليف كل من الطائفتين بما ذكر لان الاشتغال بالصلوة مظنة

لالقاء السلاح والاعراض عن غيرها قائلين ومنية لهجوم العدو كما ينطق به قوله تعالى
ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة فانه
استيناف مسوق لتعليل الامر المذكور والخطاب للفريقين بطريق الالتفات اي تمنوا
ان ينالوا منكم غرة وينتهزوا فرصة فيشدوا عليكم شدة واحدة والمراد بالامتعة ما يتمتع
به في الحرب لا مطلقا وهذا الامر للوجوب لقوله تعالى ولا جناح عليكم ان كان بكم اذى من مطر
او كنتم مرضى ان تضعوا اسلحتكم حيث رخص لهم في وضعها اذا ثقل عليهم
استصحابها بسبب مطر او مرض وامروا مع ذلك بالتيقظ والاحتياط فقيل وخذوا
حذركم كيلا يهجم العدو عليهم غفلة روى الكلبي عن ابي صالح ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم غزا محاربا وبني انمار فنزلوا ولا يرون من العدو احدا فوضع الناس
اسلحتهم واخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة له وقد وضع سلاحه حتى قطع
الوادي والسماء ترش فحال الوادي بينه عليه السلام وبين اصحابه فجلس رسول الله
صلى الله عليه وسلم فبصر به غورث بن الحارث المحاربي فقال قتلني الله ان لم اقتلك
ثم انحدر من الجبل ومعه السيف فلم يشعر به رسول الله صلى الله عليه وسلم الا وهو
قائم على راسه عليه السلام وقد سل سيفه من غمده فقال يا محمد من يعصمك مني
الان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله عز وجل ثم قال اللهم اكفني غورث
بن الحارث بما شئت ثم اهوى بالسيف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضربه
فاكب لوجهه من زلخة زلخها بين كتفيه فندر سيفه فقام رسول الله صلى الله
عليه وسلم فاخذه ثم قال يا غورث من يمنعك مني الآن قال لا احد قال عليه السلام
تشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله واعطيك سيفك قال لا ولكن
اشهد ان لا اقاتلك ابدا ولا اعين عليك عدوا فاعطاه رسول الله صلى الله عليه
وسلم سيفه فقال غورث والله لانت خير مني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
انا احق بذلك منك فرجع غورث الى اصحابه فقص عليهم قصته فامن بعضهم
قال وسكن الوادي فقطع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اصحابه واخبرهم
بالخبر وقوله تعالى ان الله اعد للكافرين عذابا مهينا تعليل للامر باخذ الحذر
اي اعد لهم عذابا مهينا بان يخذلهم وينصركم عليهم فاهتموا باموركم ولا تهملوا
في مباشرة الاسباب كي يحل بهم عذابه بايديكم وقيل لما كان الامر بالحذر من العدو
موهما لتوقع غلبته واعتزازه نفى ذلك الايهام بان الله تعالى ينصرهم ويهين عدوهم
لتقوى قلوبهم فاذا قضيتم الصلوة صلوة الخوف اي اديتموها على الوجه
المبين وفرغتم منها فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم اي فداوموا
على ذكره تعالى وحافظوا على مراقبته ومناجاته ودعائه في جميع الاحوال حتى في حال
المسايفة والقتال كما في قوله تعالى اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون
فاذا اطمأننتم سكنت قلوبكم من الخوف وامنتم بعد ما وضعت الحرب اوزارها
فاقيموا الصلوة اي الصلوة التي دخل وقتها حينئذ اي ادوها بتعديل اركانها ومراعاة
شرائطها وقيل المراد بالذكر في الاحوال الثلثة الصلوة فيها اي فاذا اردتم اداء
الصلوة فصلوا قياما عند المسايفة وقعودا جاثين على الركب عند المراماة وعلى
جنوبكم مثخنين بالجراح فاذا اطمأننتم في الجملة فاقضوا ما صليتم في تلك الاحوال
التي هي احوال القلق والانزعاج وهو راي الشافعي رحمه وفيه من البعد ما لا يخفى ان الصلوة
كانت على المؤمنين كتابا موقوتا اي فرضا موقتا قال مجاهد وقته الله تعالى
عليهم فلا بد من اقامتها في حالة الخوف ايضا على الوجه المشروح وقيل مفروضا
مقدرا في الحضر اربع ركعات وفي السفر ركعتين فلا بد ان تؤدى في كل وقت حسبما
قدر فيه ولا تهنوا في ابتغاء القوم اي لا تضعفوا ولا تتوانوا في طلب الكفار
بالقتال والتعرض لهم بالحراب وقوله تعالى ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون
وترجون من الله ما لا يرجون تعليل للنهي وتشجيع لهم اي ليس ما تقاسونه من الآلام

مختصا

مختصا بل هو مشترك بينكم وبينهم ثم انهم يصبرون على ذلك فما لكم لا تصبرون مع
انه اولى به منهم حيث ترجون من الله من اظهار دينكم على الاديان ومن الثواب
في الآخرة ما لا يخطر ببالهم وقرئ ان تكونوا بفتح الهمزة اي لا تهنوا لان تكونوا تألمون
وقوله تعالى فانهم تعليل للنهي عن الوهن لاجله والآية نزلت في بدر الصغرى وكان
الله عليما مبالغا في العلم فيعلم اعمالكم وضمائركم حكيما فيما يأمر وينهى فجدوا
في الامتثال بذلك فان فيه عواقب حميدة انا انزلنا اليك الكتاب بالحق روي ان
رجلا من الانصار يقال طعمة بن ابيرق من بني ظفر سرق درعا من جاره قتادة بن النعمان
في جراب دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه فخبأها عند زيد بن السمين اليهودي
فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما اخذها وما له بها علم فتركوه واتبعوا
اثر الدقيق حتى انتهى الى منزل اليهودي فاخذوها فقال دفعها الي طعمة وشهد له
ناس من اليهود فقالت بنو ظفر انطلقوا بنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه
ان يجادل عن صاحبهم وشهدوا ببراءته وسرقة اليهودي فهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم ان يفعل فنزلت وروي ان طعمة هرب الى مكة وارتد ونقب حائطا
بمكة ليسرق اهله فسقط الحائط عليه فقتله وقيل نزل على رجل من بني سليم من
اهل مكة يقال له الحجاج بن علاط فنقب بيته فسقط عليه حجر فلم يستطع الدخول
ولا الخروج فاخذ ليقتل فقيل دعه فانه قد لجأ اليك فتركه واخرجوه من مكة
فالتحق بتجار من قضاعة نحو الشام فنزلوا منزلا فسرق بعض متاعهم وهرب
فاخذوه ورموه بالحجارة حتى قتلوه وقيل انه ركب السفينة الى جدة فسرق فيها كيسا
فيه دنانير فاخذ فالقي في البحر لتحكم بين الناس بما اراك الله اي بما عرفك
واوحى به اليك ولا تكن للخائنين اي لاجلهم والذب عنهم وهم طعمة ومن
يعينه من قومه او هو ومن يسير بسيرته خصيما مخاصما للبراء اي لا تخاصم
اليهود لاجلهم والنهي معطوف على امر ينسحب عليه النظم الكريم كانه قيل فاحكم به ولا
تكن الخ واستغفر الله مما هممت به تعويلا على شهادتهم ان الله كان غفورا
رحيما مبالغا في المغفرة والرحمة لمن يستغفر ولا تجادل عن الذين يختانون
انفسهم اي يخونونها بالمعصية كقوله تعالى علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم
جعلت معصية العصاة خيانة منهم لانفسهم كما جعلت ظلما لها لرجوع ضررها
اليهم والمراد بالموصول اما طعمة وامثاله واما هو ومن عاونه وشهد ببراءته
من قومه فانهم شركاء له في الاثم والخيانة ان الله لا يحب من كان خوانا مفرطا
في الخيانة مصرا عليها اثيما منهمكا فيه وتعليق عدم المحبة الذي هو كناية عن
البغض والسخط بالمبالغ في الخيانة والاثم ليس لتخصيصه به بل لبيان افراط طعمة
وقومه فيهما يستخفون من الناس يستترون منهم حياء وخوفا من ضررهم
ولا يستخفون من الله اي لا يستحيون منه سبحانه وهو احق بان يستحيى منه
ويخاف من عقابه وهو معهم عالم بهم وباحوالهم فلا طريق الى الاستخفاء
منه سوى ترك ما يستقبحه ويؤاخذ عليه اذ يبيتون يدبرون ويزورون
ما لا يرضى من القول من رمي البريء والحلف الكاذب وشهادة الزور وكان
الله بما يعملون من الاعمال الظاهرة والباطنة محيطا لا يعزب عنه شيء منها
ولا يفوت ها انتم هؤلاء تلوين للخطاب وتوجيه اليهم بطريق الالتفات
ايذانا بان تعديد جناياتهم يوجب مشافهتهم بالتوبيخ والتقريع والجملة
مبتدأ وخبر وقوله تعالى جادلتم عنهم في الحيوة الدنيا جملة مبينة لوقوع
اولاء خبرا ويجوز ان يكون اولاء اسما موصولا بمعنى الذين وجادلتم الخ صلة له
والمجادلة اشد المخاصمة والمعنى هبوا انكم خاصمتم عن طعمة واشكاله في الدنيا
فمن يجادل الله عنهم يوم القيمة فمن يخاصم عنهم يومئذ عند تعذيبهم
وعقابهم ام من يكون عليهم وكيلا حافظا ومحاميا من بأس الله تعالى

وانتقامه ومن يعمل سوءا قبيحا يسوء به غيره كما فعل طعمة بقتادة واليهود او يظلم نفسه
بما يختص به كالحلف الكاذب وقيل السوء ما دون الشرك والظلم الشرك وقيل
هما الصغيرة والكبيرة ثم يستغفر الله بالتوبة الصادقة يجد الله غفورا لذنوبه
كائنة ما كانت رحيما متفضلا عليه وفيه مزيد ترغيب لطعمة وقومه في التوبة و
الاستغفار لما ان مشاهدة التائب لآثار المغفرة والرحمة نعمة زائدة كما مر ومن يكسب
اثما من الآثام فانما يكسبه على نفسه بحيث لا يتعدى ضرره ووباله الى غيره فليحترز عن
تعريضها للعقاب والعذاب عاجلا او آجلا وكان الله عليما مبالغا في العلم حكيما
مراعيا للحكمة في كل ما قدر وقضى ولذلك لا يحمل وازرة وزر اخرى ومن يكسب
خطيئة صغيرة او ما لا عمد فيه من الذنوب وقرئ ومن يكسب بكسر الكاف وتشديد
السين واصله يكتسب او اثما كبيرة او ما كان عن عمد ثم يرم به اي يقذف
به ويسنده وتوحيد الضمير مع تعدد المرجع لمكان او وتذكيره لتغليب الاثم
على الخطيئة كانه قيل ثم يرم باحدهما وقرئ بهما وقيل الضمير للكسب المدلول
عليه بقوله تعالى يكسب وثم للتراخي في الرتبة بريئا اي مما رماه به ليحمله عقوبته
العاجلة كما فعل طعمة بزيد فقد احتمل اي بما فعل من تحميل جريرته على البريء
بهتانا وهو الكذب على الغير بما يبهت منه ويتحير عند سماعه لفظاعته وهوله
وقيل هو الذي يتحير في عظمه واثما مبينا اي بينا فاحشا وهو صفة لاثما و
اكتفى ببيان عظم البهتان بالتنكير التفخيمي كانه قيل بهتانا لا يقادر قدره واثما مبينا
على ان وصف الاثم بما ذكر بمنزلة وصف البهتان به لانهما عبارة عن امر واحد
هو رمي البريء بجناية نفسه قد عبر عنه بهما تهويلا للامر وتفظيعا لحاله فمدار العظم
والفخامة كون المرمي به للرامي فان رمي البريء بجناية ما خطيئة كانت او اثما بهتان
واثم في نفسه اما كونه بهتانا فظاهر واما كونه اثما فلان كون الذنب بالنسبة الى
من فعله خطيئة لا يلزم منه كونه بالنسبة الى من نسبه الى البريء منه ايضا كذلك
بل لا يجوز ذلك قطعا كيف لا وهو كذب محرم في جميع الاديان فهو في نفسه
بهتان واثم لا محالة وبكون تلك الجناية للرامي يتضاعف ذلك شدة ويزداد
قبحا لكن لا لانضمام جنايته المكسوبة الى رمي البريء والا لكان الرمي بغير جناية
مثله في العظم ولا لمجرد اشتماله على تبرئة نفسه الخاطئة والا لكان الرمي بغير جناية
مع تبرئة نفسه كذلك في العظم بل لاشتماله على قصد تحميل جنايته على البريء واجراء
عقوبتها عليه كما ينبئ عنه ايثار الاحتمال على الاكتساب ونحوه لما فيه من الايذان
بانعكاس تقديره مع ما فيه من الاشعار بثقل الوزر وصعوبة الامر نعم بما ذكر من
انضمام كسبه وتبرئة نفسه الى رمي البريء يزداد الجناية قبحا لكن تلك الزيادة
وصف للمجموع لا للاثم ولولا فضل الله عليك ورحمته باعلامك ما هم عليه
بالوحي وتنبيهك على الحق وقيل بالنبوة والعصمة لهمت طائفة منهم اي من
بني ظفر وهم الذابون عن طعمة وقد جوز ان يكون المراد بالطائفة كلهم ويكون الضمير
راجعا الى الناس وقيل هم وفد بني ثقيف قد حاوروا رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقالوا جئناك لنبايعك على ان لا نكسر اصنامنا ولا نعشر فردهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم ان يضلوك اي بان يضلوك عن القضاء بالحق مع علمهم بكنه الامر
والجملة جواب لما وانما نفي همهم مع ان المنفي انما هو تأثيره فقط ايذانا بانتفاء
تأثيره بالكلية وقيل المراد هو الهم المؤثر ولا ريب في انتفائه حقيقة وقيل الجواب
محذوف اي لاضلوك وقوله عز وجل لهمت جملة مستأنفة اي لقد همت طائفة
الخ وما يضلون الا انفسهم لاقتصار وبال مكرهم من غير ان يصيبك منه
شيء والجملة اعتراض وقوله تعالى وما يضرونك من شيء عطف عليه
ومحل الجار والمجرور النصب على المصدرية اي وما يضرونك شيئا من الضرر
لما انه تعالى عاصمك واما ما خطر ببالك فكان عملا منك بظاهر الحال ثقة باقوال القائلين

من غير

من غير ان يعلم بان الحقيقة على خلاف ذلك وانزل الله عليك الكتاب والحكمة
اي القرآن الجامع بين العنوانين وقيل المراد بالحكمة السنة وعلمك بالوحي من خفيات
الامور التي من جملتها وجوه ابطال كيد المنافقين او من امور الدين واحكام الشرع
ما لم تكن تعلم ذلك الى وقت التعليم وكان فضل الله عليك عظيما اذ لا فضل
اعظم من النبوة العامة والرياسة التامة لا خير في كثير من نجواهم اي في كثير
من تناجي الناس الا من امر الا في نجوى من امر بصدقة او معروف وقيل المراد بالنجوى
المتناجون بطريق المجاز وقيل النجوى جمع نجي نقله الكرماني وايا ما كان فالاستثناء
متصل ويجوز ان يكون الانقطاع ايضا على معنى لكن من امر بصدقة الخ ففي نجواه الخير والمعروف كل
ما يستحسنه الشرع ولا ينكره العقل فينتظم اصناف الجميل وفنون اعمال البر وقد فسر ههنا
بالقرض واغاثة الملهوف وصدقة التطوع على ان المراد بالصدقة الصدقة الواجبة او
اصلاح بين الناس عند وقوع المشاقة والمعاداة بينهم من غير ان يجاوز في ذلك حدود
الشرع الشريف وبين اما متعلق بنفس الاصلاح يقال اصلحت بين القوم او بمحذوف
هو صفة له اي كائن بين الناس عن ابي ايوب الانصاري رضه ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال له الا ادلك على صدقة خير لك من حمر النعم فقال بلى يا رسول الله
قال تصلح بين الناس اذا تفاسدوا وتقرب بينهم اذا تباعدوا قالوا ولعل السر في افراد
هذه الاقسام الثلثة بالذكر ان عمل الخير المتعدي الى الناس اما لايصال المنفعة او
لدفع المضرة والمنفعة اما جسمانية كاعطاء المال واليه الاشارة بقوله عز وجل
الا من امر بصدقة واما روحانية واليه الاشارة بالامر بالمعروف واما دفع الضرر
فقد اشير اليه بقوله تعالى او اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك اشارة الى الامور
المذكورة اعني الصدقة والمعروف والاصلاح فانه يشار به الى متعدد وما فيه
من معنى البعد مع قرب العهد بها للايذان ببعد منزلتها ورفعة شأنها وترتيب
الوعد على فعلها اثر بيان خيرية الامر بها لما ان المقصود الاصلي هو الترغيب في الفعل
وبيان خيرية الامر به للدلالة على خيريته بالطريق الاولى لما ان مدار حسن الامر وقبحه
حسن المأمور به وقبحه فحيث ثبت خيرية الامر بالامور المذكورة فخيرية فعلها اثبت وفيه
تحريض للامر بها على فعلها او اشارة الى الامر بها كانه قيل ومن يأمر بها فالكلام في
ترتب الوعد على فعله كالذي مر في الخيرية فان استتباع الامر بها للاجر العظيم انما
هو لكونه ذريعة الى فعلها فاستتباعه له اولى واحق ابتغاء مرضات الله علة
للفعل والتقييد به لان الاعمال بالنيات وان من فعل خيرا لغير ذلك لم يستحق به غير
الحرمان فسوف نؤتيه بنون العظمة على الالتفات وقرئ بالياء اجرا عظيما يقصر
عنه الوصف ومن يشاقق الرسول التعرض لعنوان الرسالة لاظهار كمال شناعة
ما اجترؤا عليه من المشاقة والمخالفة وتعليل الحكم الآتي بذلك من بعد ما تبين له
الهدى ظهر له الحق بالوقوف على المعجزات الدالة على نبوته ويتبع غير سبيل المؤمنين
اي غير ما هم مستمرون عليه من عقد وعمل وهو الدين القيم نوله ما تولى اي نجعله
واليا لما تولاه من الضلال ونخذله بان نخلي بينه وبين ما اختاره ونصله جهنم
اي ندخله اياها وقرئ بفتح النون من صلاها وساءت مصيرا اي جهنم وفيها
دلالة على حجية الاجماع وحرمة مخالفته ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما
دون ذلك لمن يشاء قد مر تفسيره فيما سبق وهو تكرير للتأكيد والتشديد او لقصة
طعمة وقد مر موته كافرا وقد روي عن ابن عباس رضهما ان شيخا من العرب جاء الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال اني شيخ منهمك في الذنوب الا اني لم اشرك بالله شيئا منذ
عرفته وآمنت به ولم اتخذ من دونه وليا ولا واقعت المعاصي جراءة على الله تعالى وما
توهمت طرفة عين اني اعجز الله هربا واني لنادم تائب مستغفر فما ترى حالي عند الله
تعالى فنزلت ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا عن الحق فان الشرك اعظم انواع
الضلالة وابعدها عن الصواب والاستقامة كما انه افتراء واثم عظيم ولذلك جعل



الجزاء في هذه الشرطية فقد ضل الخ و فيما سبق فقد افترى اثمًا عظيمًا حسبما يقتضيه ساق النظم الكريم وسياقه ان تدعون اى ما يعبدون من دونه عز وجل الا اناثًا هي اللات والعزى ومناة ونحوها عن الحسن انه لم يكن من احياء العرب حي الا كان لهم صنم يعبدونه ويسمونه انثى بني فلان قيل لانهم كانوا يقولون في اصنامهم هن بنات الله وقيل لانهم كانوا يلبسونها انواع الحلي و تزيينها على هيئات النسوان وقيل المراد الملائكة لقولهم الملائكة بنات الله وقيل تسميتها اناثًا لتأنيث اسمائها او لانها في الاصل جماد والجمادات تؤنث من حيث انها ضاهت الاناث لانفعالها وايرادها بهذا الاسم للتنبيه على فرط حماقة عبدتها وتناهي جهلهم والاناث جمع انثى كرباب وربى وقرئ على التوحيد وانثًا ايضًا على انه جمع انيث كقليب و قلب او جمع اناث كثمار وثمر وقرئ وثنًا واثنًا بالتخفيف والتثقيل جمع وثن كقولك اسد واسد على الاصل وقلب الواو الفًا نحو اجوه في وجوه وان يدعون وما يعبدون بعبادتها الا شيطانًا مريدًا اذ هو الذي امرهم بعبادتها واغراهم عليها فكانت طاعتهم له عبادة والمريد والمارد هو الذي لا يعلق بخير واصل التركيب للملامسة ومنه صرح ممرد وشجرة مرداء للتي تناثر ورقها لعنه الله صفة ثانية لشيطانًا وقال لاتخذن من عبادك نصيبًا مفروضًا عطف على الجملة المتقدمة اى شيطانًا مريدًا جامعًا بين لعنة الله تعالى وهذا القول الشنيع الصادر عنه عند اللعن والمقدر برهن على ان عبادة الاصنام غاية الضلال بطريق التعليل بان ما يعبدونها ينفعل ولا يفعل فعلا اختياريًا وذلك ينافي الالوهية غاية المنافاة ثم استدل عليه بان ذلك عبادة الشيطان وهذا افظع الضلال من وجوه ثلثة الاول انه منهمك في الغي لا يكاد يعلق بشيء من الخير والهدي فيكون طاعته ظلالا بعيدًا من الحق والثاني انه ملعون لضلاله فلا يستتبع مطاوعته سوى اللعن والضلال والثالث انه في غاية السعي في اهلاكهم واضلالهم فموالاة من هذا شأنه غاية الضلال فضلا عن عبادته والمفروض المقطوع اى نصيبًا قدر لي وفرض من قولهم فرض له في العطاء ولاضلنهم ولامنينهم الاماني الباطلة كطول الحيوة وان لا بعث ولا عقاب ونحو ذلك ولامرنهم فليبتكن آذان الانعام اى فليقطعنها بموجب امري ويشقنها من غير تلعثم في ذلك ولا تأخير وذلك ما كانت العرب تفعله بالبحائر والسوائب ولامرنهم فليغيرن خلق الله عن نهجه صورة او صفة وينتظم فيه ما قيل من فقء عين الحامي وخصي العبيد والوشم ونحو ذلك وعموم اللفظ يمنع الخصاء مطلقًا لكن الفقهاء رخصوا في البهائم لمكان الحاجة وهذه الجمل المحكية عن اللعين مما نطق به لسانه مقالا او حالا وما فيها من اللامات كلها للقسم والمأمور به في الموضعين محذوف ثقة بدلالة النظم عليه ومن يتخذ الشيطان وليًا من دون الله بايثار ما يدعوه اليه على ما امر الله تعالى به ومجاوزته عن طاعة الله تعالى الى طاعته فقد خسر خسرانًا مبينًا لانه ضيع رأس ماله بالكلية واستبدل مكانه من الجنة مكانه من النار يعدهم اى ما لا يكاد ينجزه ويمنيهم الاماني الفارغة او يفعل لهم الوعد والتمنية على طريقة فلان يعطي ويمنع والضميران لمن والجمع باعتبار معناها كما ان الافراد في يتخذ وخسر باعتبار لفظها وما يعدهم الشيطان الا غرورًا وهو اظهار النفع فيما فيه الضرر وهذا الوعد اما بالقاء الخواطر الفاسدة او بالسنة اوليائه وغرورًا اما مفعول ثان للوعد او مفعول لاجله او نعت لمصدر محذوف اى وعدًا ذا غرور او مصدر على غير لفظ المصدر لان يعدهم في قوة يغرهم بوعده والجملة اعتراض وعدم التعرض للتمنية لانها باب من الوعد اولئك اشارة الى اولياء الشيطان وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلتهم في الخسران وهو مبتداء وقوله تعالى مأواهم مبتداء ثان وقوله تعالى جهنم خبر للثاني والجملة

خبر للاول ولا يجدون عنها محيصًا اى معدلا ومهربًا من حاص الحمار اذا عدل وقيل خلص ونجا وقيل الحيص هو الروغان بنفور وعنها متعلق بمحذوف وقع حالا من محيصًا اى كائنًا عنها ولا مساغ لتعلقه بمحيصًا اما اذا كان اسم مكان فظاهر واما اذا كان مصدرًا فلانه لا يعمل فيما قبله والذين امنوا وعملوا الصالحات مبتداء خبره قوله تعالى سندخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ابدًا قرن وعيد الكفرة بوعد المسلمين زيادة لمسرة هؤلاء ومساءة اولئك وعد الله حقًا اي وعده وعدًا وحق ذلك حقًا فالاول مؤكد لنفسه لان مضمون الجملة الاسمية وعد والثاني مؤكد لغيره ويجوز ان ينتصب الموصول بمضمر يفسره ما بعده و ينتصب وعد الله بقوله تعالى سندخلهم لانه في معنى نعدهم ادخال جنات الخ وحقًا على انه حال من المصدر ومن اصدق من الله قيلا جملة مؤكدة بليغة والمقصود من الاية معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله تعالى الصادق لاوليائه والمبالغة في تأكيده ترغيبًا للعباد في تحصيله والقيل مصدر كالقول والقال وقال ابن السكيت القيل والقال اسمان لا مصدران ونصبه على التمييز وقرئ باشمام الصاد وكذا كل صاد ساكنة بعدها دال ليس باما نيكم ولا اماني اهل الكتاب اى ليس ما وعدها الله من الثواب يحصل باما نيكم ايها المسلمون ولا اماني اهل الكتاب و انما يحصل بالايمان والعمل الصالح ولعل نظم اماني اهل الكتاب في سلك اماني المسلمين مع ظهور حالها للايذان بعدم اجراء اماني المسلمين اصلا كما في قوله تعالى ولا الذين يموتون وهم كفار كما سلف وعن الحسن ليس الايمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ان قومًا الهتهم اماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم قالوا نحسن الظن بالله وكذبوا لو احسنوا الظن لاحسنوا العمل وقيل ان المسلمين واهل الكتاب افتخروا فقال اهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن اولى بالله منكم وقال المسلمون نحن اولى منكم نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على الكتب المتقدمة فنزلت وقيل الخطاب للمشركين ويؤيده تقدم ذكرهم اى ليس الامر باماني المشركين وهو قولهم لا جنة ولا نار وقولهم ان كان الامر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيرًا منهم واحسن حالا وقولهم لاوتين مالا وولدا ولا اماني اهل الكتب وقولهم لن يدخل الجنة الا من كان هودًا او نصارى وقولهم لن تمسنا النار الا ايامًا معدودات ثم قرر ذلك بقوله تعالى من يعمل سوء يجز به عاجلا او آجلا لما روي انه لما نزلت قال ابو بكر رضي الله عنه فمن ينجو مع هذا يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اما تحزن او تمرض اما يصيبك البلاء قال بلى يا رسول الله قال هو ذلك ولا يجد له من دون الله اى مجاوزًا لموالاة الله ونصرته وليًا يواليه ولا نصيرًا ينصره في دفع العذاب عنه ومن يعمل من الصالحات اي بعضها وشيئًا منها فان كل احد لا يتمكن من كلها وليس مكلفًا بها من ذكر او انثى في موضع الحال من المستكن في يعمل ومن للبيان او من الصالحات ومن للابتداء اى كائنة من ذكر الخ وهو مؤمن حال شرط اقتران العمل بها في استدعاء الثواب المذكور تنبيهًا على انه لا اعتداد به دونه فاولئك اشارة الى من بعنوان اتصافه بالايمان والعمل الصالح والجمع باعتبار معناها كما ان الافراد فيما سبق باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد لما مر غير مرة من الاشعار بعلو رتبة المشار اليه وبعد منزلته في الشرف يدخلون الجنة وقرئ يدخلون مبنيًا للمفعول من الادخال ولا يظلمون نقيرًا اي لا ينقصون شيئًا حقيرًا من ثواب اعمالهم فان النقير علم في القلة والحقارة واذا لم ينقص ثواب المطيع فلان لا يزاد عقاب العاصي اولى واحرى كيف لا والمجازي ارحم الراحمين وهو السر في الاقتصار على ذكره عقيب الثواب ومن احسن دينًا ممن اسلم وجهه لله اى اخلص نفسه له تعالى لا يعرف لها ربًا سواه وقيل بذل وجهه له في السجود وقيل اخلص عمله له عز وجل وقيل فوض امره اليه تعالى وهذا انكار واستبعاد لان يكون

احد احسن دينا ممن فعل ذلك او مساو له وان لم يكن سبك التركيب متعرضا
لانكار المساواة ونفيها يرشدك اليه العرف المطرد والاستعمال الفاشي فانه اذا
قيل من اكرم من فلان او لا افضل من فلان فالمراد به حتما انه اكرم من كل كريم وافضل
من كل فاضل وعليه مساق قوله تعالى ومن اظلم ممن افترى ونظائره ودينا على
التمييز من احسن منقول من المبتدا والتقدير ومن دينه احسن من دين من اسلم الخ
فالتفضيل في الحقيقة بين الدينين لا بين صاحبيهما ففيه تنبيه على ان ذلك اقصى ما
ينتهي اليه القوة البشرية وهو محسن اي آت بالحسنات تارك للسيئات او آت بالاعمال
الصالحات على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها الذاتي وقد فسره
صلى الله عليه وسلم بقوله ان تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك والجملة حال من
فاعل اسلم واتبع ملة ابراهيم الموافقة لدين الاسلام المتفق على صحتها وقبولها حنيفا
مائلا عن الاديان الزائغة وهو حال من فاعل اتبع او من ابراهيم واتخذ الله ابراهيم خليلا
اي اصطفاه وخصه بكرامات تشبه كرامة الخليل عند خليله واظهاره عم في موضع الاضمار
لتفخيم شانه عم والتنصيص على انه الممدوح وتاكيد استقلال الجملة الاعتراضية
والخلة من الخلال فانه ود تخلل النفس وخالطها وقيل من الخلل فان كل واحد من الخليلين
يسد خلل الآخر او من الخل وهو الطريق في الرمل فانهما يتوافقان في الطريقة او من الخلة
بمعنى الخصلة فانهما يتوافقان في الخصال وفائدة الاعتراض جمة من جملتها الترغيب في
اتباع ملته عليه السلام فان من بلغ من الزلفى عند الله عز وجل مبلغا مصححا لتسميته
خليلا حقيق بان يكون اتباع طريقته اهم ما يمتد اليه اعناق الهمم واشرف ما يرمق
نحوه احداق الامم قيل انه عم بعث الى خليل له بمصر في ازمة اصابت الناس يمتار منه
فقال خليله لو كان ابراهيم يطلب الميرة لنفسه لفعلت ولكنه يريدها للاضياف وقد
اصابنا ما اصاب الناس من الشدة فرجع غلمانه عم فاجتازوا ببطحاء لينة فملؤوا منها
الغرائر حياء من الناس وجاؤوا بها الى منزل ابراهيم عم والقوها فيه وتفرقوا وجاء احد
فاخبر ابراهيم بالقصة فاغتم لذلك غما شديدا لا سيما لاجتماع الناس ببابه رجاء
الطعام فغلبته عيناه وعمدت سارة الى الغرائر فاذا فيها اجود ما يكون من الحوارى
واختبزت وفي رواية فاطعمت الناس فاستنبه ابراهيم فاشتم رائحة الخبز فقال من
اين لكم فقالت سارة من خليلك المصري فقال بل من عند خليلي الله عز وجل فسماه الله
تعالى خليلا ولله ما في السموات وما في الارض مبتدأ سيق لتقرير وجوب طاعته
تعالى على اهل السموات والارض ببيان ان جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى خلقا
وملكا لا يخرج من ملكوته شيء منها فيجازي كلا بموجب اعماله خيرا وشرا وقيل
لبيان ان اتخاذه عز وجل لابراهيم خليلا ليس لاحتياجه سبحانه وتعالى الى ذلك في
شان من شؤونه كما هو دأب الآدميين فان مدار خلتهم افتقار بعضهم الى بعض
في مصالحهم بل لمجرد تكرمته وتشريفه جميعا يختار منهما ما يشاء لمن يشاء وقوله
تعالى وكان الله بكل شيء محيطا تذييل مقرر لمضمون ما قبله على الوجوه المذكورة فان
احاطته تعالى علما وقدرة بجميع الاشياء التي من جملتها ما فيهما من المكلفين و
اعمالهم مما يقرر ذلك اكمل تقرير ويستفتونك في النساء اي في حقهن على الاطلاق
كما ينبئ عنه الاحكام الآتية لا في حق ميراثهن خاصة فانه صلعم قد سئل عن امور كثيرة
مما يتعلق بهن فما بين حكمه فيما سلف احيل بيانه على ما ورد في ذلك من الكتاب و
ما لم يبين حكمه بعد بين ههنا وذلك قوله تعالى قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى
عليكم في الكتاب باسناد الافتاء الذي هو تبيين المبهم وتوضيح المشكل اليه تعالى
والى ما تلي من الكتاب فيما سبق باعتبارين على طريقة قولك اغناني زيد وعطاؤه
يعطف ما على المبتدا او ضميره في الخبر لمكان الفصل بالمفعول والجار والمجرور وايثار
صيغة المضارع للايذان باستمرار التلاوة ودوامها وفي الكتاب اما متعلق بيتلى او بمحذوف
وقع حالا من المستكن فيه اي يتلى كائنا فيه ويجوز ان يكون ما يتلى عليكم مبتدأ وفي الكتاب خبره

علان

على ان المراد به اللوح المحفوظ والجملة معترضة مسوقة لبيان عظم شان المتلو عليهم وان
العدل في الحقوق المبينة فيه من عظائم الامور التي يجب مراعاتها والمحافظة عليها
فما يتلى حينئذ متناول لما تلي وما سيتلى ويجوز ان يكون مجرورا على القسم المنبئ عن
تعظيم المقسم به وتفخيمه كانه قيل قل الله يفتيكم فيهن واقسم بما يتلى عليكم
في الكتاب فالمراد بقوله تعالى يفتيكم بيانه السابق واللاحق ولا مساغ لعطفه على
المجرور في فيهن لاختلاله لفظا ومعنى وقوله تعالى في يتامى النساء على الوجه الاول
وهو الاظهر متعلق بيتلى اي ما يتلى عليكم في شانهن وعلى الاخيرين بدل من فيهن وهذه
الاضافة بمعنى من لانها اضافة الشيء الى جنسه وقرئ ييامى على قلب همزة ايامى
ياء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن اي ما فرض لهن من الميراث وغيره وترغبون ان
عطف على الصلة عطف جملة مثبتة على جملة منفية وقيل حال من فاعل تؤتونهن بتقدير
وانتم ترغبون ولا ريب في انه لا يظهر لتقييد عدم الايتاء بذلك فائدة الا اذا اريد
بما كتب لهن صداقهن ان تنكحوهن اي في ان تنكحوهن لكن لا لاجل التمتع بهن بل لا
لاكل مالهن او في تنكحوهن بغير اكمال الصداق وذلك ما روي عن عايشة رضها انها اليتيمة
تكون في حجر وليها ويرغب في مالها وجمالها ويريد ان ينكحها بادنى من سنة نسائها
فنهوا ان ينكحوهن الا ان يقسطوا لهن في اكمال الصداق او عن تنكحوهن وذلك ما روي
عنها رضها انها اليتيمة يرغب وليها عن نكاحها ولا ينكحها فيعضلها طمعا في ميراثها وفي
رواية عنها هو الرجل يكون عنده يتيمة هو وليها ووارثها وشريكها في المال حتى في العذق
فيرغب ان ينكحها ويكره ان يزوجها رجلا فيشركه في ماله بما شركته فيعضلها فالمراد
بما كتب لهن على الوجه الاول والآخر ميراثهن وبما يتلى في حقهن قوله تعالى وآتوا اليتامى
اموالهم وقوله تعالى ولا تاكلوها ونحوها من النصوص الدالة على عدم التعرض لاموالهم
وعلى الوجه الثاني صداقهن وبما يتلى فيهن قوله تعالى وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى
الآية والمستضعفين من الولدان عطف على يتامى النساء وما يتلى في حقهم
قوله تعالى يوصيكم الله الخ وقد كانوا في الجاهلية لا يورثونهم كما لا يورثون الرجال
القوام بالامور روي ان عيينة بن حصين الفزاري جاء الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال اخبرنا انك تعطي الابنة النصف والاخت النصف وانا كنا نورث من
يشهد القتال ويحوز الغنيمة فقال عليه السلام كذلك امرت وان تقوموا لليتامى
بالقسط بالجر عطف على ما قبله وما يتلى في حقهم قوله تعالى ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب
ولا تاكلوا اموالهم الى اموالكم ونحو ذلك مما لا يكاد يحصى هذا على تقدير كونه بدلا
من فيهن فالوجه نصبه عطفا على موضع فيهن اي يفتيكم ان تقوموا ويجوز نصبه
باضمار فعل اي ويامركم وهو خطاب للولاة او للاوصياء وتفعلوا اي في حقوق
المذكورين من خير حسبما امرتم به وما تفعلوا من خير على الاطلاق فيندرج فيه ما
يتعلق بهم اندراجا اوليا فان الله كان به عليما فيجازيكم بحسبه وان امرأة خافت
شروع في بيان ما لم يبين فيما سلف من الاحكام اي ان توقعت امرأة من بعلها نشوزا
اي تجافيا عنها وترفعا عن صحبتها كراهة لها ومنعا لحقوقها او اعراضا بان يقل
محادثتها ومؤانستها لما يقتضي ذلك من الدواعي والاسباب فلا جناح عليهما
حينئذ ان يصلحا بينهما صلحا اي في ان يصلحا بينهما بان تحط له المهر او بعضه
او القسم كما فعلت سودة بنت زمعة حين كرهت ان يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فوهبت
يومها لعايشة او بان تهب له شيئا تستميله وقرئ يصالحا من يتصالحا ويصلحا من يصطلحا
ويصالحا من المفاعلة وصلحا اما منصوب بالفعل المذكور على كل تقدير على انه مصدر منه
بحذف الزوائد وقد يعبر عنه باسم المصدر كانه قيل اصلاحا وتصالحا واصطلاحا
حسبما قرئ الفعل ويفعل مترتب على المذكور اي فيصلح حالهما صلحا وبينهما ظرف للفعل
او حال من صلحا والتعرض لنفي الجناح عنهما مع انه ليس من جانبها الاخذ الذي هو
المظنة للجناح لبيان ان هذا الصلح ليس من قبيل الرشوة المحرمة للمعطي والآخذ والصلح

والصلح خير اي من الفرقة او من سوء العشرة او من الخصومة فاللام للعهد وخير من الخيور
للجنس والجملة اعتراض مقرر لما قبله وكذا قوله تعالى واحضرت الانفس الشح اي جعلت
حاضرة له مطبوعة عليه لا تنفك عنه ابدا فلا المرأة تسمح بحقوقها من الرجل ولا الرجل
يجود بحسن المعاشرة مع دمامتها فان فيه تحقيقا للصلح وتقريرا له بحث كل منهما
عليه لكن لا بالنظر الى حال نفسه فان ذلك يستدعي التمادي في المماسكة والشقاق بل
بالنظر الى حال صاحبه فان شح نفس الرجل وعدم ميلها عن حالتها الجبلية بغير استمالة
مما يحمل المرأة على بذل بعض حقوقها اليه لاستمالته وكذا شح نفسها بحقوقها مما
يحمل الرجل على ان يقتنع من قبلها بشيء يسير ولا يكلفها بذل الكثير فيتحقق بذلك الصلح
وان تحسنوا في العشرة وتتقوا النشوز والاعراض وان تعاضدت الاسباب الداعية
اليهما وتصبروا على ذلك مراعاة لحقوق الصحبة ولم تضطروهن الى بذل شيء من حقوقهن
فان الله كان بما تعملون من الاحسان والتقوى او بما تعملون جميعا فيدخل فيه ذلك دخولا
اوليا خبيرا فيجازيكم ويثيبكم على ذلك البتة لاستحالة ان يضيع اجر المحسنين وفي
خطاب الازواج بطريق الالتفات والتعبير عن رعاية حقوقهن بالاحسان ولفظ التقوى
المنبئ عن كون النشوز والاعراض مما يتوقى منه وترتيب الوعد الكريم عليه من لطف الاستمالة
والترغيب في حسن المعاملة ما لا يخفى روي انها نزلت في عمرة بنت محمد بن مسلمة و
زوجها سعيد بن الربيع تزوجها وهي شابة فلما علاها الكبر تزوج شابة واثرها عليها
وجفاها فاتت رسول الله صلعم وشكت اليه ذلك وقيل نزلت في ابي السنابل كانت له
امرأة قد كبرت وله منها اولاد فاراد ان يطلقها ويتزوج غيرها فقالت لا تطلقني ودعني
على اولادي فاقسم لي من كل شهرين ان شئت وان شئت فلا تقسم لي فقال ان كان يصلح ذلك
فهو احب الي فاتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فنزلت ولن تستطيعوا ان
تعدلوا بين النساء اي محال ان تقدروا على ان تعدلوا بينهن بحيث لا يقع ميل ما الى جانب
احداهن في شأن من الشؤون البتة وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين
نسائه فيعدل ثم يقول اللهم هذا قسمي فيما املك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا املك
وفي رواية وانت اعلم بما لا املك يعني فرط محبته لعائشة رضيها ولو حرصتم اي
على اقامة العدل وبالغتم في ذلك فلا تميلوا كل الميل اي فلا تجوروا على المرغوب عنها
كل الجور واعدلوا ما استطعتم فان عجزكم عن حقيقة العدل انما يصحح عدم تكليفكم
بها لا بما دونها من المراتب الداخلة تحت استطاعتكم فتذروها اي التي ملتم عنها
كالمعلقة التي ليست ذات بعل ولا مطلقة وقرئ كالمسجونة وفي الحديث من كانت له
امرأتان يميل مع احداهما جاء يوم القيامة واحد شقيه مائل وان تصلحوا ما كنتم
تفسدون من امورهن وتتقوا الميل فيما يستقبل فان الله كان غفورا يغفر لكم من الميل
رحيما يتفضل عليكم برحمته وان يتفرقا وقرئ يتفارقا اي وان يفارق كل واحد منهما
صاحبه بان لم يتفق بينهما وفاق بوجه ما من الصلح وغيره يغن الله كلا منهما اي يجعله
مستغنيا عن الاخر ويكفه مهماته من سعته من غناه وقدرته وفيه زجر لهما عن المفارقة
رغما لصاحبه وكان الله واسعا حكيما مقتدرا متقنا في افعاله واحكامه وقوله تعالى
ولله ما في السموات وما في الارض اي من الموجودات كائنا ما كان من الخلائق وارزاقهم
وغير ذلك جملة مستأنفة منبهة على كمال سعته وعظم قدرته ولقد وصينا الذين
اوتوا الكتاب من قبلكم اي امرناهم في كتابهم وهم اليهود والنصارى ومن
قبلهم من الامم واللام في الكتاب للجنس ومن متعلقة بوصينا او باوتوا واياكم
عطف على الموصول ان اتقوا الله اي وصيناكم كلا منكم ومنهم بان اتقوا الله على
ان ان مصدرية حذف عنها الجار ويجوز ان تكون مفسرة لان التوصية في معنى القول
وقوله تعالى وان تكفروا فان لله ما في السموات وما في الارض من تتمة القول المحكي اي
ولقد قلنا لهم ولكم اتقوا الله وان تكفروا الى اخر الاية وعلى تقدير كون ان مصدرية مبنى
الكلام ارادة القول اي امرناهم واياكم بالتقوى وقلنا لهم ولكم ان تكفروا الاية وقيل

هي جملة مستأنفة خوطب بها هذه الامة وايا ما كان فالمرتب على كفرهم لبيان مضمون قوله تعالى
فان لله الاية بل هو الامر بعلمه كانه قيل وان تكفروا فاعلموا ان لله ما في السموات وما
وما في الارض من الخلائق قاطبة مفتقرون اليه في الوجود وسائر النعم المتفرعة عليه
لا يستغنون عن فيضه طرفة عين فحقه ان يطاع ولا يعصى ويتقى عما به يرجى ثوابه
وقرر ذلك بقوله وكان الله غنيا اي عن الخلق وعبادتهم حميدا محمودا في ذاته
حمدوه او لم يحمدوه فلا يتضرر بكفرهم ومعاصيهم كما لا ينتفع بشكرهم وتقواهم
وانما وصاهم بالتقوى لرحمته لا لحاجته ولله ما في السموات وما في الارض كلام
مبتدأ مسوق للمخاطبين توطئة لما بعده من الشرطية غير داخل تحت المحكي اي له
سبحانه وتعالى ما فيهما من الخلائق خلقا وملكا يتصرف فيهم كيف ما يشاء ايجادا
واعداما واحياء واماتة وكفى بالله وكيلا في تدبير امور الكل وكل الامور فلابد
من ان يتوكل عليه لا على احد سواه ان يشأ يذهبكم ايها الناس اي يفنكم و
يستأصلكم بالمرة ويأت باخرين اي ويوجد دفعة مكانكم قوما اخرين من البشر
او خلقا اخرين مكان الانس ومفعول المشية محذوف لكونه مضمون الجزاء اي ان يشأ
افناءكم وايجاد اخرين يذهبكم الخ يعني ان بقاءكم على ما انتم عليه من العصيان انما هو لكمال
غناه عن طاعتكم ولعدم تعلق مشيئته المبنية على الحكم البالغة بافنائكم لا لعجزه سبحانه
وتعالى عن ذلك علوا كبيرا وكان الله على ذلك اي افنائكم بالمرة وايجاد اخرين دفعة
مكانكم قديرا بليغ القدرة وفيه لا سيما في توسيط الخطاب بين الجزاء وما عطف عليه من
تشديد التهديد ما لا يخفى وقيل هو خطاب لمن عادى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب
اي ان يشأ يمتكم ويأت باناس اخرين يوالونه فمعناه معنى قوله تعالى وان تتولوا يستبدل
قوما غيركم ثم لا يكونوا امثالكم ويروى انها لما نزلت ضرب رسول الله صلى الله عليه
وسلم بيده على ظهر سلمان وقال انهم قوم هذا يريد ابناء فارس من كان يريد ثواب
الدنيا كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة فعند الله ثواب الدنيا والاخرة اي فعنده تعالى
ثوابهما له ان اراده فما له يطلب اخسهما فليطلبهما كمن يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة
وفي الاخرة حسنة او ليطلب اشرفهما فان من جاهد خالصا لوجه الله لم تخطئه الغنيمة وله
في الاخرة ما هي في جنبه كلا شيء او فعند الله ثواب الدارين فيعطي كلا ما يريده كقوله
من كان يريد حرث الاخرة نزد له في حرثه الاية وكان الله سميعا بصيرا عالما بجميع
المسموعات والمبصرات فيندرج فيها ما صدر عنهم من الاقوال والاعمال المتعلقة بمراداتهم
اندراجا اوليا يا ايها الذين امنوا كونوا قوامين بالقسط مبالغين في العدل
واقامة القسط في جميع الامور مجتهدين في ذلك حق الاجتهاد شهداء بالحق تقيمون
شهاداتكم لوجه الله تعالى وهو خبر ثان وقيل حال ولو على انفسكم اي ولو كانت الشهادة
على انفسكم بان تقروا عليها على ان الشهادة عبارة عن الاخبار بحق الغير سواء كان ذلك
عليه او على ثالث او بان تكون الشهادة مستتبعة لضرر ينالكم من جهة المشهود عليه
او الوالدين والاقربين اي ولو كانت على والديكم واقاربكم ان يكن اي المشهود عليه
غنيا يبتغى في العادة رضاه ويتقى سخطه او فقيرا يترحم عليه غالبا وقرئ ان يكن غني
او فقير على ان كان تامة وجواب الشرط محذوف لدلالة قوله تعالى فالله اولى بهما
عليه فلا تمتنعوا عنها طلبا لرضى الغني او ترحما على الفقير فان الله تعالى اولى بجنسي الغني والفقير
المدلول عليهما بما ذكر ولولا ان الشهادة عليهما مصلحة لهما لما شرعها وقرئ اولى بهم
فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا اي مخافة ان تعدلوا عن الحق فان اتباع الهوى من مظان الجور
الذي حقه ان يخاف ويحذر وقيل كراهة ان تعدلوا بين الناس او ارادة ان تعدلوا عن الحق وان
تلووا اي السنتكم عن شهادة الحق او حكومة العدل بان تأتوا بها لا على وجهها وقرئ وان
تلوا من الولاية والتصدي اي وان وليتم اقامة الشهادة او تعرضوا اي عن اقامتها رأسا
فان الله كان بما تعملون من لي الالسنة والاعراض بالكلية او من جميع الاعمال التي من جملتها ما
ذكر خبيرا فيجازيكم لا محالة على ذلك فهو على القراءة المشهورة وعيد محض وعلى القراءة الاخيرة

متضمن للوعد يا أيها الذين آمنوا خطاب لكافة المسلمين فمعنى قوله تعالى آمنوا بالله
ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل اثبتوا على الإيمان
بذلك وداوموا عليه او ازدادوا فيه طمأنينة ويقينا وآمنوا بما ذكر مفصلا بناء على ان
ايمان بعضهم اجمالي والمراد بالكتاب الثاني الجنس المنتظم لجميع الكتب السماوية لقوله تعالى
وكتبه وبالإيمان به الإيمان بان كل كتاب من تلك الكتب منزل منه تعالى على رسوله معين
لارشاد امته الى ما شرع لهم من الدين بالاوامر والنواهي لكن على ان مدار الايمان
بكل واحد من تلك الكتب خصوصية ذلك الكتاب ولا على ان احكام تلك الكتب وشرائعها
باقية بالكلية ولا على ان الباقي منها معتبر بالاضافة اليها بل على ان الإيمان بالكل مندرج
تحت الايمان بالكتاب المنزل على رسوله وان احكام كل منها كانت حقة ثابتة الى ورود
ما نسخها وان ما لم ينسخ منها الى الآن من الشرائع والاحكام ثابتة من حيث انها من
احكام هذا الكتاب الجليل المصون عن النسخ والتبديل كما مر في تفسير خاتمة سورة
البقرة وقرئ نزل وانزل على البناء للمفعول وقيل هو خطاب لمؤمني اهل الكتاب لما ان
عبد الله بن سلام وابن اخته سلاما وابن اخيه سلمة واسدا واسيدا ابن كعب وثعلبة
بن قيس ويامين ابن يامين اتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا يا رسول الله انا
نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل فقال
صلى الله عليه وسلم آمنوا بالله ورسوله محمد وبكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله فقالوا
لا نفعل فنزلت فآمنوا كلهم فامرهم بالايمان بالكتاب المتناول للتوراة مع انهم مؤمنون
بها من قبل ليس لكون المراد بالايمان بما عداها كانه قيل آمنوا بالكل ولا تخصوا بالبعض
بل لان المأمور به انما هو الايمان بها في ضمن الايمان بالقرآن على الوجه الذي اشير اليه
آنفا لا ايمانهم السابق ولان فيها حملا لهم على التسوية بينها وبين سائر الكتب
في التصديق لاشتراك الكل فيما يوجبه وهو نزوله من عند الله تعالى وقيل خطاب لاهل
الكتابين فالمعنى آمنوا بالكل لا ببعض دون بعض وامر كل طائفة بالايمان بكتابه
في ضمن الامر بالايمان بجنس الكتاب لما ذكر وقيل هو للمنافقين فالمعنى آمنوا بقلوبكم
لا بألسنتكم فقط ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر اي
بشيء من ذلك فقد ضل ضلالا بعيدا عن القصد بحيث لا يكاد يعود الى طريقه وزيادة
الملائكة واليوم الآخر في جانب الكفر لما ان بالكفر باحدهما لا يتحقق الايمان اصلا وجمع
الكتب والرسل لما ان الكفر بكتاب او برسول كفر بالكل وتقديم الرسول فيما سبق لذكر
الكتاب بعنوان كونه منزلا عليه وتقديم الملائكة والكتب على الرسل لانهم وسائط بين الله
عز وجل وبين الرسل في انزال الكتب ان الذين آمنوا قال قتادة هم اليهود آمنوا بموسى
ثم كفروا بعبادتهم العجل ثم آمنوا عند عوده اليهم ثم كفروا بعيسى والانجيل ثم ازدادوا
كفرا بكفرهم بمحمد عليه السلام وقيل هم قوم تكرر منهم الارتداد واصروا على الكفر وازدادوا
تماديا في الغي لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا لما انه يستبعد منهم ان
يتوبوا عن الكفر ويثبتوا على الايمان فان قلوبهم قد ضربت بالكفر وتمرنت على الردة وكان
الايمان عندهم اهون شيء وادونه لا انهم لو اخلصوا الايمان لم يقبل منهم ولم يغفر
لهم وخبر كان محذوف اي مريدا ليغفر لهم وقوله عز وجل بشر المنافقين بان لهم
عذابا اليما يدل على ان المراد بالمذكورين الذين آمنوا في الظاهر نفاقا وكفروا في السر
مرة بعد اخرى ثم ازدادوا كفرا ونفاقا ووضع بشر موضع انذر تهكما بهم الذين
يتخذون الكافرين اولياء في محل النصب او الرفع على الذم بمعنى اريد بهم الذين
او هم الذين وقيل نصب على انه صفة للمنافقين وقوله تعالى من دون المؤمنين
حال من فاعل يتخذون اي يتخذون الكفرة انصارا متجاوزين ولاية المؤمنين وكانوا
يوالونهم ويقول بعضهم لبعض لا يتم امر محمد صلى الله عليه وسلم فتولوا اليهود أيبتغون
عندهم العزة انكار لرأيهم وابطال له وبيان لخيبة رجائهم وقطع لاطماعهم
الفارغة والجملة معترضة مقررة لما قبلها اي ايطلبون بموالاة الكفرة العزة والغلبة قال

الواحدي

الواحدي اصل العزة الشدة ومنه قيل للارض الشديدة الصلبة عزاز وقوله تعالى
فان العزة لله جميعا تعليل لما يفيده الاستفهام الانكاري من بطلان رأيهم وخيبة
رجائهم فان انحصار جميع افراد العزة في جنابه عز وعلا بحيث لا ينالها الا اولياؤه
الذين كتب لهم العزة والغلبة وقال تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين يقتضي بطلان
التعزز بغيره سبحانه واستحالة الانتفاع به وقيل هو جواب شرط محذوف كانه قيل
ان يبتغوا عندهم عزة فان العزة لله وجميعا حال من المستكن في قوله تعالى لله لاعتماده على
المبتدأ وقد نزل عليكم خطاب للمنافقين بطريق الالتفات مفيد لتشديد التوبيخ
الذي يستدعيه تعداد جناياتهم ونهاية استعصائهم عليه سبحانه ببيان انهم فعلوا من
موالاة الكفرة مع تحقق ما يمنعهم عن ذلك وهو ورود النهي الصريح عن مجالستهم المستلزم
للنهي عن موالاتهم على ابلغ وجه وآكده اثر بيان انتفاء ما يدعوهم اليه بالجملة المعترضة
كانه قيل تتخذونهم اولياء والحال انه تعالى قد نزل عليكم قبل هذا بمكة في الكتاب اي القرآن
الكريم ان اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا
في حديث غيره وذلك قوله تعالى واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم الآية
وهذا يقتضي الانزجار عن مجالستهم في تلك الحالة القبيحة فكيف بموالاتهم والاعتزاز
بهم وان هي المخففة من ان وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوف والجملة الشرطية
خبرها وقوله تعالى يكفر بها حال من آيات الله وقوله تعالى ويستهزأ بها عطف عليه داخل في
حكم الحالية واضافة الآيات الى الاسم الجليل لتشريفها وابانة خطرها وتهويل امر
الكفر بها اي نزل عليكم في الكتاب انه اذا سمعتم آيات الله تعالى مكفورا بها ومستهزأ
بها الخ وفيه دلالة على ان المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم وان خوطب به خاصة
منزل على الامة وان مدار الاعراض عنهم هو العلم بخوضهم في الآيات ولذلك عبر
عن ذلك تارة بالرؤية واخرى بالسماع وان المراد بالاعراض اظهار المخالفة بالقيام عن
مجالستهم لا الاعراض بالقلب او بالوجه فقط والضمير في معهم للكفرة المدلول عليهم بقوله
تعالى يكفر بها ويستهزأ بها انكم اذا مثلهم جملة مستأنفة سيقت لتعليل النهي غير
داخلة تحت التنزيل واذا ملغاة عن العمل لوقوعها بين المبتدأ والخبر اي لا تقعدوا معهم
في ذلك الوقت انكم ان فعلتموه كنتم مثلهم في الكفر واستتباع العذاب وافراد المثل
لانه كالمصدر او للاستغناء بالاضافة الى الجمع وقرئ شاذا مثلهم بالفتح لاضافته
الى غير متمكن كما في قوله تعالى مثل ما انكم تنطقون وقيل هو منصوب على الظرفية اي في
مثل حالهم وقوله تعالى ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا تعليل لكونهم
مثلهم في الكفر ببيان ما يستلزمه من شركتهم لهم في العذاب والمراد بالمنافقين اما المخاطبون
وقد وضع موضع ضميرهم المظهر تسجيلا بنفاقهم وتعليلا للحكم بمأخذ الاشتقاق واما
الجنس وهم داخلون تحته دخولا اوليا وتقديمهم على الكافرين لتشديد الوعيد
على المخاطبين ونصب جميعا مثل ما قبله الذين يتربصون بكم تلوين للخطاب وتوجيه
له الى المؤمنين بتعديد بعض آخر من جنايات المنافقين وقبائحهم وهو اما بدل من
الذين يتخذون او صفة للمنافقين فقط اذ هم المتربصون دون الكافرين او مرفوع
او منصوب على الذم اي ينتظرون امركم وما يحدث لكم من ظفر او اخفاق والفاء
في قوله تعالى فان كان لكم فتح من الله لترتيب مضمونه على ما قبلها فان حكاية
تربصهم مستتبعة لحكاية ما يقع بعد ذلك كما ان نفس التربص يستدعي شيئا ينتظر المتربص
وقوعه قالوا اي لكم الم نكن معكم اي مظاهرين لكم فاسهموا لنا في الغنيمة وان
كان للكافرين نصيب من الحرب فانها سجال قالوا اي للكفرة الم نستحوذ عليكم اي الم
نغلبكم ونتمكن من قتلكم واسركم فابقينا عليكم ونمنعكم من المؤمنين بان ثبطناهم
عنكم وخيلنا لهم ما ضعفت به قلوبهم ومرضوا في قتالكم وتوانينا في مظاهرتهم والا
لكنتم نهبة للنوائب فهاتوا نصيبا لنا مما اصبتم وتسمية ظفر المسلمين فتحا وما
للكافرين نصيبا لتعظيم شأن المسلمين وتخسيس حظ الكافرين وقرئ ونمنعكم باضمار ان

فالله يحكم بينكم يوم القيمة حكما يليق بشأن كل منكم من الثواب والعقاب واما في
الدنيا فقد اجري على تفوه بكلمة الاسلام حكمه ولم يضع السيف على من تكلم بها نفاقا
ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا حينئذ كما قد يجعل ذلك في الدنيا
بطريق الابتلاء والاستدراج او في الدنيا على ان المراد بالسبيل الحجة ان المنافقين
يخادعون الله وهو خادعهم كلام مبتدأ سيق لبيان طرف آخر من قبائح اعمالهم
اي يفعلون ما يفعل المخادع من اظهار الايمان وابطال نقيضه والله فاعل بهم ما يفعل
الغالب في الخداع حيث تركهم في الدنيا معصومي الدماء والاموال واعد لهم في الآخرة
الدرك الاسفل من النار وقد مر التحقيق في صدر سورة البقرة وقيل يعطون على الصراط
نورا كما يعطى المؤمنون فيمضون بنورهم ثم يطفأ نورهم ويبقى نور المؤمنين
فينادون انظرونا نقتبس من نوركم واذا قاموا الى الصلوة قاموا كسالى
متثاقلين كالمكره على الفعل وقرئ بفتح الكاف وهما جمعا كسلان يراؤن الناس ليحسبوهم
مؤمنين والمراءاة مفاعلة بمعنى التفعيل كنعم وناعم او للمقابلة فان المرائي يري غيره
عمله وهو يريه استحسانه والجملة اما استئناف مبني على سؤال نشأ من
الكلام كانه قيل فماذا يريدون بقيامهم اليها كسالى فقيل يراؤن الخ او حال من ضمير
قاموا ولا يذكرون الله الا قليلا عطف على يراؤن اي لا يذكرونه سبحانه الا ذكرا
قليلا وهو ذكرهم باللسان فانه بالاضافة الى الذكر بالقلب قليل او الا زمانا قليلا
او لا يصلون الا قليلا لانهم لا يصلون الا بمرأى من الناس وذلك قليل وقيل لا يذكرونه
تعالى في الصلوة الا قليلا عند التكبير والتسليم مذبذبين بين ذلك حال من
فاعل يراؤن او منصوب على الذم وذلك اشارة الى الايمان والكفر المدلول عليهما بمعونة
المقام اي مرددين بينهما متحيرين قد ذبذبهم الشيطان وحقيقة المذبذب ما
يذب ويدفع عن كلا الجانبين مرة بعد اخرى وقرئ بكسر الذال اي مذبذبين قلوبهم
او دينهم او رأيهم او هو بمعنى متذبذبين كما جاء صلصل بمعنى تصلصل وفي مصحف
ابن مسعود رضه متذبذبين وقرئ مدبدبين بالدال غير المعجمة وكان المعنى اخذ بهم
تارة في دبة اي طريقة واخرى في اخرى لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء اي لا منسوبين
الى المؤمنين ولا منسوبين الى الكافرين او لا صائرين الى الاولين ولا الى الآخرين فمحله
النصب على انه حال من ضمير مذبذبين او على انه بدل منه او بيان وتفسير له ومن يضلل
الله لعدم استعداده للهداية والتوفيق فلن تجد له سبيلا موصلا الى الحق
والصواب فضلا عن ان تهديه اليه والخطاب لكل من يصلح له كائنا ما كان يا ايها الذين
آمنوا لا تتخذوا الكافرين اولياء من دون المؤمنين نهوا عن موالاة الكفرة صريحا
وان كان في بيان حال المنافقين مزجرة عن ذلك مبالغة في الزجر والتحذير اتريدون
ان تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا اي اتريدون بذلك ان تجعلوا لله عليكم
حجة بينة على انكم منافقون فان موالاتهم اوضح ادلة النفاق او سلطانا يسلط
عليكم عقابه وتوجيه الانكار الى الارادة دون متعلقها بان يقال اتجعلون الخ للمبالغة
في انكاره وتهويل امره ببيان انه مما لا يصدر عن العاقل ارادته فضلا عن صدوره
نفسه كما في قوله عز وجل ام تريدون ان تسألوا رسولكم الخ ان المنافقين في الدرك
الاسفل من النار وهو الطبقة التي في قعر جهنم وانما كان كذلك لانهم اخبث الكفرة
حيث ضموا الى الكفر الاستهزاء بالاسلام واهله وخداعهم واما قوله عليه السلام
ثلث من كن فيه فهو منافق وان صام وصلى وزعم انه مسلم من اذا حدث كذب و
اذا وعد اخلف واذا ائتمن خان ونحوه فمن باب التشديد والتغليظ مبالغة في الزجر
وتسمية طبقاتها السبع دركات لكونها متداركة متتابعة بعضها تحت بعض
وقرئ بفتح الراء وهو لغة كالسطر والسطر ويعضده ان جمعه ادراك ولن
تجد لهم نصيرا يخلصهم منه والخطاب كما سبق الا الذين تابوا اي عن
النفاق وهو استثناء من المنافقين بل من ضميرهم في الخبر واصلحوا ما افسدوا

من احوالهم

من احوالهم في حال النفاق واعتصموا بالله اي وثقوا به وتمسكوا بدينه واخلصوا
دينهم لله اي جعلوه خالصا لله لا يبتغون بطاعتهم الا وجهه فاولئك اشارة
الى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للايذان
ببعد المنزلة وعلو الطبقة مع المؤمنين اي المؤمنين المعهودين الذين لم يصدر
عنهم نفاق اصلا منذ آمنوا والا فهم ايضا مؤمنون اي معهم في الدرجات العالية من
الجنة وقد بين ذلك بقوله تعالى وسوف يؤت الله المؤمنين اجرا عظيما لا يقادر
قدره فيساهمونهم فيه ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم استئناف
مسوق لبيان ان مدار تعذيبهم وجودا وعدما انما هو كفرهم لا شيء آخر فيكون مقررا
لما قبله من اثابتهم عند توبتهم وما استفهامية مفيدة للنفي على ابلغ وجه
واكده اي اي شيء يفعل الله سبحانه بعذابكم أيتشفى به من الغيظ ام يدرك به الثار
ام يستجلب به نفعا او يستدفع به ضررا كما هو شأن الملوك وهو الغني المتعالي
عن امثال ذلك وانما هو امر يقتضيه كفركم فاذا زال ذلك بالايمان والشكر انتفى التعذيب
لا محالة وتقديم الشكر على الايمان لما انه طريق موصل اليه فان الناظر يدرك اولا
ما عليه من النعم الانفسية والآفاقية فيشكر شكرا مبهما ثم يترقى الى معرفة المنعم
فيؤمن به وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه وكان الله شاكرا الشكر
من الله سبحانه هو الرضا باليسير من طاعة عباده واضعاف الثواب بمقابلته عليما
مبالغا في العلم بجميع المعلومات التي من جملتها شكركم وايمانكم فيستحيل ان لا يوفيكم
اجوركم لا يحب الله الجهر بالسوء من القول عدم محبته تعالى لشيء كناية عن سخطه
والباء متعلقة بالجهر ومن بمحذوف وقع حالا من السوء اي لا يحب الله تعالى ان يجهر
احد بالسوء كائنا من القول الا من ظلم اي جهر من ظلم بان يدعو على ظالمه او
يتظلم منه ويذكره بما فيه من السوء فان ذلك غير مسخوط عنده سبحانه وقيل هو
ان يبدأ بالشتيمة فيرد على الشاتم ولمن انتصر بعد ظلمه الآية وقيل ضاف رجل
قوما فلم يطعموه فاشتكاهم فعوتب على الشكاية فنزلت وقرئ من ظلم على البناء للفاعل
فالاستثناء منقطع اي ولكن الظالم يرتكب ما لا يحبه الله تعالى فيجهر بالسوء و
كان الله سميعا لجميع المسموعات فيندرج فيها كلام المظلوم والظالم عليما
بجميع المعلومات التي من جملتها حال المظلوم والظالم فالجملة تذييل مقرر لما
يفيده الاستثناء ان تبدوا خيرا اي خير كان من الاقوال والافعال او تخفوه او
تعفوا عن سوء مع ما سوغ لكم من مؤاخذة المسيء والتنصيص عليه مع اندراجه
في ابداء الخير واخفائه لما انه الحقيق بالبيان وانما ذكر ابداء الخير واخفاؤه بطريق
التسبيب له كما ينبئ عنه قوله عز وجل فان الله كان عفوا قديرا فان ايراده
في معرض جواب الشرط يدل على ان العمدة هو العفو مع القدرة اي كان مبالغا في العفو
مع كمال قدرته على المؤاخذة وقال الحسن يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام
فعليكم ان تقتدوا بسنة الله تعالى وقال الكلبي هو اقدر على عفو ذنوبكم على عفو ذنوب
من ظلمكم وقيل عفوا عمن عفا قديرا على ايصال الثواب اليه ان الذين يكفرون بالله ورسله
اي يؤدي اليه مذهبهم ويقتضيه رأيهم لا انهم يصرحون بذلك كما ينبئ عنه قوله
تعالى ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله اي بان يؤمنوا به تعالى ويكفروا بهم لكن
لا بان يصرحوا بالايمان به وبالكفر بهم قاطبة بل بطريق الالتزام كما يحكيه قوله
تعالى ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض اي نؤمن ببعض الانبياء ونكفر
ببعضهم كما قالت اليهود نؤمن بموسى والتورية ونكفر بما وراء ذلك وما
ذلك الا كفر بالله تعالى ورسله وتفريق بين الله تعالى ورسله في الايمان لانه تعالى
قد امرهم بالايمان بجميع الانبياء وما من نبي من الانبياء الا وقد اخبر قومه بحقية
دين نبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم اجمعين فمن كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل
وبالله تعالى ايضا من حيث لا يحتسب ويريدون بقولهم ذلك ان يتخذوا بين ذلك

اي بين الايمان سبيلا يسلكونه مع انه لا واسطة بينهما قطعا اذ الحق لا يختلف
وماذا بعد الحق الا الضلال اولئك الموصوفون بالعقاب القبيحة هم الكافرون
الكاملون في الكفر لا عبرة بما يدعونه ويسمونه ايمانا اصلا حقا مصدر مؤكد لمضمون
الجملة اي حق ذلك اي كونهم كاملين في الكفر حقا او صفة لمصدر الكافرين اي هم
الذين كفروا كفرا حقا اي ثابتا يقينا لا ريب فيه واعتدنا للكافرين اي لهم وانما
وضع المظهر مكان المضمر ذما لهم وتذكيرا لوصفهم او لجميع الكافرين وهم داخلون
في زمرتهم دخولا اوليا عذابا مهينا سيذوقونه عند حلوله والذين آمنوا
بالله ورسله على الوجه الذي بين في تفسير قوله تعالى يا ايها الذين آمنوا آمنوا
بالله ورسوله الآية ولم يفرقوا بين احد منهم بان يؤمنوا ببعضهم ويكفروا
بآخرين كما فعله الكفرة ودخول بين على احد قد مر تحقيقه في سورة البقرة
بما لا مزيد عليه اولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة سوف
يؤتيهم اجورهم الموعودة لهم وتصديره بسوف لتأكيد الوعد والدلالة على
انه كائن لا محالة وان تراخى وقرئ نؤتيهم بنون العظمة وكان الله غفورا
لما فرط منهم رحيما مبالغا في الرحمة عليهم بتضعيف حسناتهم يسألك
اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا من السماء نزلت في احبار اليهود حين قالوا
لرسول صلى الله عليه وسلم ان كنت نبيا فأتنا بكتاب من السماء جملة كما اتى به موسى
عليه السلام وقيل كتابا محررا بخط سماوي على اللوح كما نزلت التورية او كتابا نعاينه
حين ينزل او كتابا الينا باعياننا بانك رسول الله وما كان مقصدهم بهذه العظيمة
الا التحكم والتعنت قال الحسن لو سألوه لكي يتبينوا الحق لاعطاهم وفيما آتاهم كفاية
فقد سألوا موسى اكبر من ذلك جواب شرط مقدر اي ان استكبرت ما
سألوه منك فقد سألوا موسى شيئا اكبر منه وقيل تعليل للجواب اي فلا تبال بسؤالهم
فقد سألوا موسى اكبر منه وهذه المسألة وان صدرت عن اسلافهم لكنهم لما كانوا
مقتدين بهم في كل ما يأتون وما يذرون اسندت اليهم والمعنى ان لهم في ذلك
عرقا راسخا وان ما اقترحوا عليك ليس اول جهالاتهم فقالوا ارنا الله جهرة اي ارناه
نره جهرة اي عيانا او مجاهرين معاينين له والفاء تفسيرية فاخذتهم الصاعقة
اي النار التي جاءت من السماء فاهلكتهم وقرئ الصعقة بظلمهم اي بسبب
ظلمهم وهو تعنتهم وسؤالهم لما يستحيل في تلك الحال التي كانوا عليها وذلك
لا يقتضي امتناع الرؤية مطلقا ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات
اي المعجزات التي اظهرها لفرعون من العصا واليد البيضاء وفلق البحر وغيرها لا
التورية لانها لم تنزل عليهم بعد فعفونا عن ذلك ولم نستأصلهم وكانوا
احقاء به قيل هذا استدعاء لهم الى التوبة كأنه قيل ان اولئك الذين اجرموا تابوا
فعفونا عنهم فتوبوا انتم ايضا حتى نعفو عنكم وآتينا موسى سلطانا مبينا
سلطانا ظاهرا عليهم حيث امرهم بان يقتلوا انفسهم توبة عن معصيتهم ور
فعنا فوقهم الطور بميثاقهم اي بسبب ميثاقهم ليعطوه على ما روي انهم
امتنعوا عن قبول شريعة التورية فرفع الله تعالى عليهم الطور فقبلوها او ليخافوا
فلا ينقضوه على ما روي انهم هموا بنقضه فرفع الله تعالى عليهم الجبل فخافوا واقلعوا
عن النقض وهو الانسب بما سيأتي من قوله عز وجل واخذنا منهم ميثاقا غليظا
وقلنا لهم على لسان موسى عليه السلام والطور مظل عليهم ادخلوا الباب
قال قتادة كنا نحدث انه باب من ابواب بيت المقدس وقيل هو اريحا وقيل هو
اسم قرية وقيل باب القبة التي كانوا يصلون اليها فانهم لم يدخلوا بيت المقدس
في حيوة موسى عليه السلام سجدا اي متطامنين خاضعين وقلنا لهم لا تعدوا
اي لا تظلموا باصطياد الحيتان في السبت وقرئ لا تعتدوا ولا تعدّوا بفتح العين
وتشديد الدال على ان اصله تعتدوا فادغمت التاء في الدال لتقاربهما في المخرج بعد نقل

حركتها الى العين واخذنا منهم على الامتثال بما كلفوه ميثاقا غليظا مؤكدا
هو العهد الذي اخذه الله عليهم في التورية قيل انهم اعطوا الميثاق على انهم
ان هموا بالرجوع عن الدين فالله تعالى يعذبهم باي انواع العذاب اراد فبما نقضهم
ميثاقهم ما مزيدة للتاكيد او نكرة تامة ونقضهم بدل منها والباء متعلقة
بفعل محذوف اي فبسبب نقضهم ميثاقهم ذلك فعلنا بهم ما فعلنا من اللعن والمسخ
وغيرهما من العقوبات النازلة عليهم او على اعقابهم روي انهم اعتدوا في السبت
في عهد داود عليه السلام فلعنوا ومسخوا قردة وقيل متعلقة بحرمنا على ان قوله تعالى
فبظلم بدل من قوله تعالى فبما وما عطف عليه فيكون التحريم معللا بالكل ولا يخفى
ان قولهم انا قتلنا المسيح وقولهم على مريم البهتان متأخر عن التحريم ولا
مساغ لتعلقها بما دل عليه قوله تعالى بل طبع الله عليها بكفرهم لانه رد لقولهم
قلوبنا غلف فيكون من صلة قوله تعالى وقولهم المعطوف على المجرور فلا يعمل
في جاره وكفرهم بآيات الله اي بالقرآن او بما في كتابهم وقتلهم الانبياء بغير حق
كزكريا ويحيى عليهما السلام وقولهم قلوبنا غلف جمع اغلف اي هي مغشاة
باغشية جبلية لا يكاد يصل اليها ما جاء به محمد عليه السلام او هي تخفيف غلف جمع
غلاف اي هي اوعية للعلوم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره قاله ابن عباس
رضي الله عنهما وعطاء وقال الكلبي يعنون ان قلوبنا بحيث لا يصل اليها حديث الا وعته
ولو كان في حديثك خير لوعته ايضا بل طبع الله عليها بكفرهم كلام معترض
بين المعطوفين جيء به على وجه الاستطراد مسارعة الى رد زعمهم الفاسد
اي ليس كفرهم وعدم وصول الحق الى قلوبهم لكونها غلفا بحسب الجبلة بل الامر
بالعكس حيث ختم الله عليها بسبب كفرهم او ليست قلوبهم كما زعموا بل هي مطبوع عليها بسبب
كفرهم فلا يؤمنون الا قليلا منهم كعبد الله بن سلام واضرابه او الا ايمانا
قليلا لا يعبأ به وبكفرهم اي بعيسى عليه السلام وهو عطف على قولهم
واعادة الجار لطول ما بينهما بالاستطراد وقد جوز عطفه على بكفرهم فيكونان
هو وما عطف عليه من اسباب الطبع وقيل هذا المجموع معطوف على مجموع
ما قبله وتكرير ذكر الكفر للايذان بتكرر كفرهم حيث كفروا بموسى ثم بعيسى ثم
بمحمد عليهم السلام وقولهم على مريم بهتانا عظيما لا يقادر قدره
حيث نسبوها الى ما هي عنه بألف منزل وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن
مريم رسول الله نظم قولهم هذا في سلك سائر جناياتهم التي نعيت عليهم
ليس لمجرد كونه كذبا بل لتضمنه لابتهاجهم بقتل النبي والاستهزاء به فان وصفهم
له عليه السلام بعنوان الرسالة انما هو بطريق التهكم به كما في قوله تعالى يا ايها
الذي نزل عليه الذكر الآية ولنيابة عن ذكرهم له عليه السلام بالوجه القبيح على
ما قيل من ان ذلك وضع للذكر الجميل من جهته تعالى مكان ذكرهم القبيح وقيل
هو نعت له عليه السلام من جهته تعالى مدحا له عليه السلام ورفعا لمحله و
اظهارا لغاية جراءتهم في تصديهم لقتله ونهاية وقاحتهم في افتخارهم بذلك
وما قتلوه وما صلبوه حال او اعتراض ولكن شبه لهم روي ان رهطا
من اليهود سبوه عليه السلام وامه فدعا عليهم فمسخهم الله تعالى قردة وخنازير
فاجتمعت اليهود على قتله فاخبره الله تعالى بانه يرفعه الى السماء فقال لاصحابه ايكم
يرضى بان يلقى عليه شبهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة فقال رجل منهم انا فالقى الله سبحانه
وتعالى شبهه عليه فقتل وصلب وقيل كان رجل ينافق عيسى صلى الله عليه وسلم فلما ارادوا
قتله قال انا ادلكم عليه فدخل بيت عيسى عليه الصلوة والسلام فرفع عليه السلام والقى الله
تعالى عليه شبهه فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون انه عيسى عليه السلام وقيل
ان طيطانوس اليهودي دخل بيتا كان هو فيه فلم يجده والقى الله تعالى عليه شبهه فلما
خرج ظن انه عيسى فاخذ وقتل وامثال هذه الخوارق لا تستبعد في عصر النبوة وقيل

ان اليهود لما هموا بقتله عليه السلام فرفعه الله تعالى الى السماء خاف رؤساء اليهود
من وقوع الفتنة بين عوامهم فاخذوا انسانا فقتلوه وصلبوه ولبسوا على الناس
واظهروا لهم انه هو المسيح وما كانوا يعرفونه الا بالاسم لعدم مخالطته عليه السلام
لهم الا قليلا وشبه مسند الى الجار والمجرور كانه قيل ولكن وقع لهم التشبيه
بين عيسى والمقتول في الامر على قول من قال لم يقتل احد ولكن ارجف بقتله فشاع
بين الناس والى الضمير المقتول لدلالة انا قتلنا على ان ثمة مقتولا وان الذين اختلفوا
فيه اى في شان عيسى عليه السلام فانه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس
فقال بعض اليهود كان كاذبا فقتلناه حقا وتردد آخرون فقال بعضهم ان كان هذا
عيسى فاين صاحبنا وقال بعضهم الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا وقال من
سمع منه ان الله يرفع الى السماء، وقال قوم صلب الناسوت وصعد اللاهوت
لفي شك منه لفي تردد والشك كما يطلق على ما لم يترجح احد طرفيه يطلق على
مطلق التردد وعلى ما يقابل العلم ولذلك اكد بقوله تعالى ما لهم به من علم الا اتباع
الظن استثناء منقطع اي لكنهم يتبعون الظن ويجوز ان يفسر الشك بالجهل والعلم
بالاعتقاد الذي تسكن اليه النفس جزما كان او غيره فالاستثناء حينئذ متصل وما
قتلوه يقينا اى قتلا يقينا كما زعموا بقولهم انا قتلنا المسيح وقيل معناه ما علموه
يقينا كما في قول من قال كذاك تخبر عنها العالمات بها وقد قتلت بعلمي ذلكم يقينا من
قولهم قتلت الشيء علما ونحرته اذا تبالغ علمك فيه وفيه تهكم بهم لاشعاره بعلمهم
في الجملة وقد نفي ذلك عنهم بالكلية بل رفعه الله اليه رد وانكار لقتله واثبات
لرفعه وكان الله عزيزا لا يغالب فيما يريده حكيما في جميع افعاله فيدخل فيها تدبيراته
تعالى في امر عيسى عليه السلام دخولا اوليا وان من اهل الكتاب اى من اليهود
والنصارى وقوله تعالى الا ليؤمنن به قبل موته جملة قسمية وقعت صفة لموصوف
محذوف اليه يرجع الضمير الثاني والاول لعيسى عليه السلام اي وما من اهل الكتاب
احد الا ليؤمنن بعيسى ع م قبل ان تزهق روحه بانه عبد الله ورسوله ولا ينفعه
حين ايمان لانقطاع وقت التكليف ويعضده انه قرئ ليؤمنن به قبل موتهم
بضم النون لما ان احدا في معنى الجمع وعن ابن عباس رضي الله عنه انه فسره كذلك فقال له
عكرمة فان اتاه رجل فضرب عنقه قال لا تخرج نفسه حتى يحرك بها شفتيه قال فان خر
من فوق بيت او احترق او اكله سبع قال يتكلم بها في الهواء ولا تخرج روحه حتى
يؤمن به وعن شهر بن حوشب قال لي الحجاج آية ما قرأتها الا تخالج في نفسي شيء منها يعني هذه
الآية وقال اني اوتى بالاسير من اليهود والنصارى فاضرب عنقه فلا اسمع منه ذلك
فقلت ان اليهودي اذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه وقالوا يا عدو الله اتاك
عيسى نبيا فكذبت به فيقول آمنت انه عبد نبي وتقول للنصراني اتاك عيسى نبيا فزعمت
انه الله او ابن الله فيؤمن انه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه ايمانه قال وكان متكئا
فاستوى جالسا فنظر الي وقال ممن قلت حدثني محمد بن علي بن الحنفية فاخذ ينكت
الارض بقضيبه ثم قال لقد اخذتها من عين صافية والاخبار بحالهم هذه وعيد لهم
وتحريض على المسارعة الى الايمان به قبل ان يضطروا اليه مع انتفاء جدواه وقيل كلا
الضميرين لعيسى والمعنى وما من اهل الكتاب الموجودين عند نزول عيسى ع م احد
الا ليؤمنن به قبل موته روي انه ع م ينزل من السماء في آخر الزمان
فلا يبقى احد من اهل الكتاب الا يؤمن به حتى تكون الملة واحدة وهي ملة
الاسلام ويهلك الله تعالى في زمانه الدجال وتقع الامنة حتى ترتع الاسود مع الابل
والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان مع الحيات ويلبث في الارض
اربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه وقيل الضمير الاول يرجع
الى الله تعالى وقيل الى محمد صلى الله عليه وسلم ويوم القيمة يكون اى عيسى
عليه السلام عليهم اى على اهل الكتاب شهيدا فيشهد على اليهود

يرتع

بالتكذيب

بالتكذيب وعلى النصارى بانهم دعوه ابن الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا فبظلم من
الذين هادوا لعل ذكرهم بهذا العنوان للايذان بكمال عظم ظلمهم بتذكير وقوعه
بعد ما هادوا اى تابوا من عبادة العجل مثل تلك التوبة الهائلة المشروطة ببخع
النفوس اثر بيان عظمه في حد ذاته بالتنوين التفخيمي اى بسبب ظلم عظيم خارج
عن حدود الاشباه والاشكال صادر عنهم حرمنا عليهم طيبات احلت
لهم ولمن قبلهم لا لشيء غيره كما زعموا فانهم كانوا كلما ارتكبوا معصية من المعاصي
التي اقترفوها يحرم عليهم نوع من الطيبات التي كانت محللة لهم ولمن تقدمهم
من اسلافهم عقوبة لهم وكانوا مع ذلك يفترون على الله سبحانه وتعالى
ويقولون لسنا باول من حرمت عليه وانما كانت محرمة على نوح وابراهيم ومن بعدهما
حتى انتهى الامر الينا فكذبهم الله تعالى في مواقع كثيرة وبكتهم بقوله تعالى كل الطعام
كان حلا لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التورية قل
فاتوا بالتورية فاتلوها ان كنتم صادقين اى في ادعائكم انه تحريم قديم روي انه
عليه السلام لما كلفهم اخراج التوراة لم يجترئ احد على اخراجها لما ان كون التحريم
بظلمهم كان مسطورا فيها فبهتوا وانقلبوا صاغرين وبصدهم عن سبيل الله
اي ناسا كثيرا او صدا كثيرا واخذهم الربوا وقد نهوا عنه فان الربوا كان
محرما عليهم كما هو محرم علينا وفيه دليل على ان النهي يدل على حرمة المنهي عنه
واكلهم اموال الناس بالباطل بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة واعتدنا للكافرين
منهم اي للمصرين على الكفر لا لمن تاب وآمن من بينهم عذابا اليما سيذوقونه
في الآخرة كما ذاقوا في الدنيا عقوبة التحريم لكن الراسخون في العلم منهم استدراك
من قوله واعتدنا الخ وبيان لكون بعضهم على خلاف حالهم عاجلا وآجلا اى لكن
الثابتون في العلم منهم المتقنون المستبصرون فيه غير التابعين للظن كاولئك الجهلة والمراد
به عبد الله بن سلام واصحابه والمؤمنون اى منهم وصفوا بالايمان بعد ما وصفوا
بما يوجبه من الرسوخ في العلم بطريق العطف المنبئ على المغايرة بين المعطوفين
تنزيلا للاختلاف العنواني منزلة الاختلاف الذاتي وقوله تعالى يؤمنون بما انزل اليك
وما انزل من قبلك حال من المؤمنين مبينة لكيفية ايمانهم وقيل اعتراض مؤكد لما
قبله وقوله عز وجل والمقيمين الصلوة قيل نصب باضمار فعل تقديره واعني المقيمين
الصلوة على ان الجملة معترضة بين المبتدا والخبر وقيل هو عطف على ما انزل اليك على ان
المراد بهم الانبياء اى المؤمنون بالكتب والانبياء او الملائكة قال مكي اي ويؤمنون بالملائكة
الذين صفتهم اقامة الصلوة لقوله يسبحون الليل والنهار لا يفترون وقيل عطف
على الكاف في اولئك اي يؤمنون بما انزل اليك والى المقيمين الصلوة وهم الانبياء
وقيل على الضمير المجرور في منهم اي لكن الراسخون في العلم منهم ومن المقيمين الصلوة
وقرئ بالرفع على انه معطوف على المؤمنون بناء على ما مر من تنزيل التغاير العنواني
منزلة التغاير الذاتي وكذا الحال فيما سيأتي من المعطوفين فان قوله تعالى والمؤتون
الزكوة عطف على المؤمنون مع اتحاد الكل ذاتا وكذا الكلام في قوله تعالى والمؤمنون
بالله واليوم الآخر فان المراد بالكل مؤمنوا اهل الكتاب وقد وصفوا اولا
بكونهم راسخين في علم الكتاب ايذانا بان ذلك موجب للايمان حتما وان من عداهم
انما بقوا مصرين على الكفر لعدم رسوخهم فيه ثم بكونهم مؤمنين بجميع الكتب المنزلة على
الانبياء عليهم السلام ثم بكونهم عاملين بما فيها من الشرائع والاحكام واكتفى من
بينها بذكر اقامة الصلوة وايتاء الزكوة المستتبعين لسائر العبادات البدنية والمالية
ثم بكونهم مؤمنين بالمبدأ والمعاد تحقيقا لحيازتهم الايمان بقطريه واحاطتهم به
من طرفيه وتعريضا بان من عداهم من اهل الكتاب ليسوا بمؤمنين بواحد منهما
حقيقة فانهم بقولهم عزير ابن الله مشركون بالله سبحانه وبقولهم لن تمسنا النار
الا اياما معدودة كافرون باليوم الآخر وقوله تعالى اولئك اشارة اليهم باعتبار

اتصافهم بما عُدّد من الصفات الجميلة وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم
وبُعد منزلتهم في الفضل وهو مبتداء وقوله تعالى سنؤتيهم اجرا عظيما خبره
والجملة خبر للمبتداء الذي هو الراسخون وما عطف عليه والسين لتاكيد الوعد
وتنكير الاجر للتفخيم وهذا انسب بتجاوب طرفي الاستدراك حيث اوعد الاولون
بالعذاب الاليم ووعد الآخرون بالاجر العظيم كانه قيل اثر قوله تعالى واعتدنا للكافرين
منهم عذابا اليما لكن المؤمنون منهم سنؤتيهم اجرا عظيما واما ما جنح اليه الجمهور
من جعل قوله تعالى يؤمنون بما انزل اليك الخ خبر المبتداء ففي كمال السداد خلا انه
غير متعرض لتقابل الطرفين وقرئ سيؤتيهم بالياء مراعاة لظاهر قوله تعالى والمؤ منون
بالله انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده جواب لاهل
الكتاب عن سؤالهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ينزل عليهم كتابا من السماء
واحتجاج عليهم بانه ليس بدعا من الرسل وانما شانه في حقيقة الارسال
واصل الوحي كشأن سائر مشاهير الانبياء عليهم السلام الذين لا ريب لاحد في نبوتهم
والكاف في محل النصب على انه نعت لمصدر محذوف اي ايحاء مثل ايحائنا الى نوح
او على انه حال من ذلك المصدر المقدر معرفا كما هو رأي سيبويه اي اوحينا الايحاء
حال كونه مشبها بايحائنا الخ ومن بعده متعلق باوحينا وانما بدئ بذكر نوح لانه
ابو البشر واول نبي شرع الله تعالى على لسانه الشرائع والاحكام واول نبي عذبت
امته لردهم دعوته وقد اهلك الله بدعائه اهل الارض واوحينا الى ابراهيم
عطف على اوحينا الى نوح داخل معه في حكم التشبيه اي وكما اوحينا الى ابراهيم
واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وهم اولاد يعقوب عليهم السلام
وعيسى وايوب ويونس وهرون وسليمان خصوا بالذكر مع ظهور انتظامهم في
سلك النبيين تشريفا لهم واظهارا لفضلهم كما في قوله تعالى من كان عدوا لله
وملائكته وجبريل وميكال وتصريحا بما ينتمي اليه اليهود من الانبياء وتكرير الفعل
لمزيد تقرير الايحاء والتنبيه على انهم طائفة خاصة مستقلة بنوع مخصوص من الوحي
وآتينا داود زبورا قال القرطبي كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم من
الاحكام وانما هي حكم ومواعظ والتحميد والثناء على الله عز وجل وقرئ بضم الزاي
وهو جمع زبر بمعنى مزبور والجملة عطف على اوحينا داخل في حكمه لان ايتاء الزبور
من باب الايحاء اي وكما آتينا داود زبورا وايثاره على واوحينا الى داود لتحقيق
المماثلة في خاص هو ايتاء الكتاب بعد تحقيقها في مطلق الايحاء ثم اشير الى
تحقيقها في امر لازم لهما لزوما كليا وهو الارسال فان قوله تعالى ورسلا
نصب بمضمر يدل عليه اوحينا معطوف عليه داخل معه في حكم التشبيه كما
قبله اي وكما ارسلنا رسلا لا بما يفسره قوله تعالى قد قصصناهم عليك اي
وقصصنا رسلا كما قالوا وفرعوا عليه ان قوله تعالى قد قصصناهم على الوجه الاول
منصوب على انه صفة لرسلا وعلى الوجه الثاني لا محل له من الاعراب فانه مما لا
سبيل اليه كما ستقف عليه وقرئ برفع رسل وقوله تعالى من قبل متعلق بقصصنا
اي قصصنا من قبل هذه السورة او اليوم ورسلا لم نقصصهم عليك عطف
على رسلا منصوب بناصبه وقيل كلاهما منصوب بنزع الخافض والتقدير كما اوحينا
الى نوح والى رسل الخ والحق ان يكون انتصابهما بارسلنا فان فيه تحقيقا للمماثلة
بين شأنه صلى الله عليه وسلم وبين شؤون من يعترفون بنبوته من الانبياء عليهم
السلام في مطلق الايحاء ثم في ايتاء الكتاب ثم في الارسال فان قوله تعالى انا اوحينا
اليك منتظم لمعنى آتيناك وارسلناك حتما كانه قيل انا اوحينا اليك ايحاء مثل
ما اوحينا الى نوح ومثل ما اوحينا الى ابراهيم ومن بعده وآتيناك الفرقان ايتاء
مثل ما آتينا داود زبورا وارسلناك ارسالا مثل ما ارسلنا رسلا قد قصصناهم
عليك من قبل ورسلا آخرين لم نقصصهم عليك من غير تفاوت بينك وبينهم في

حقيقة

حقيقة الايحاء واصل الارسال فما للكفرة يسألونك شيئا لم يعطه احد من هؤلاء
الرسل عليهم السلام ومن ههنا اتضح ان رسلا لا يمكن نصبه بقصصنا فان
ناصبه يجب ان يكون معطوفا على اوحينا داخلا معه في حكم التشبيه الذي عليه
يدور فلك الاحتجاج على الكفرة ولا ريب في ان قصصنا لا تعلق له بشيء من الايحاء
والايتاء حتى يمكن اعتباره في ضمن قوله تعالى انا اوحينا اليك ثم يعتبر بينه وبين
المذكور مماثلة مصححة للتشبيه على ان تقديره في رسلا الاول يقتضي تقديره
في الثاني وذلك على اشتراك استحالة واظهر بطلانا وكلم الله موسى برفع الجلالة
ونصب موسى وقرئ على القلب وقوله تعالى تكليما مصدر مؤكد رافع لاحتمال المجاز
قال الفراء العرب تسمي ما وصل الى الانسان كلاما باي طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر
فاذا اكد به لم يكن الا حقيقة الكلام والجملة اما معطوفة على قوله تعالى انا اوحينا اليك
عطف القصة على القصة لا على آتينا وما عطف عليه واما حال بتقدير قد كما ينبئ عنه
تغيير الاسلوب والمعنى ان التكليم بغير واسطة منتهى مراتب الوحي خص به موسى
من بينهم فلم يكن ذلك قادحا في نبوة سائر الانبياء فكيف يتوهم كون
نزول التورية عليه السلام جملة قادحا في صحة نبوة من انزل عليه الكتاب
مفصلا مع ظهور ان نزولها كذلك لحكم مقتضية لذلك من جملتها ان بني
اسرائيل كانوا في العناد وشدة الشكيمة بحيث لو لم يكن نزولها كذلك لما آمنوا
بها ومع ذلك ما آمنوا بها الا بعد اللتيا والتي وقد فضل الله تعالى نبينا محمدا
عليه الصلوة والسلام بان اعطاه مثل ما اعطى كل واحد منهم صلى الله
عليه وسلم تسليما كثيرا رسلا مبشرين ومنذرين نصب على المدح او
باضمار ارسلنا او على الحال بان يكون رسلا موطئا لما بعده او على البدلية
من رسلا الاول اي مبشرين لاهل الطاعة بالجنة ومنذرين للعصاة بالنار
لئلا يكون للناس على الله حجة اي معذرة يعتذرون بها قائلين لولا ارسلت الينا
رسولا فيبين لنا شرائعك ويعلمنا ما لم نكن نعلم من احكامك لقصور القوة
البشرية عن ادراك جزئيات المصالح وعجز اكثر الناس عن ادراك كلياتها
كما في قوله عز وجل ولو انا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا ارسلت
الينا رسولا فنتبع آياتك الآية وانما سميت حجة مع استحالة ان يكون
لاحد عليه سبحانه حجة في فعل من افعاله بل له ان يفعل ما يشاء للتنبيه
على ان المعذرة في القبول عنده تعالى بمقتضى كرمه ورحمته لعباده بمنزلة
الحجة القاطعة التي لا مرد لها ولذلك قال وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا قال
النبي صلى الله عليه وسلم ما احد اغير من الله عز وجل لذلك حرم الفواحش
ما ظهر منها وما بطن وما احد احب اليه المدح من الله تعالى لذلك مدح نفسه
وما احد احب اليه العذر من الله تعالى لذلك ارسل الرسل وانزل الكتب فاللام
متعلقة بارسلنا وقيل بقوله تعالى مبشرين ومنذرين وحجة اسم كان وللناس
خبرها وعلى الله متعلق بمحذوف وقع حالا من حجة اي كائنة على الله او هو
الخبر ولا يجوز التعلق بحجة لان معمول المصدر لا يتقدم عليه وقوله تعالى بعد
الرسل اي بعد ارسالهم وتبليغ الشرائع الى الامم على السنتهم متعلق
بحجة او بمحذوف وقع صفة لها لان الظرف يوصف بها الاحداث كما يخبر
بها عنها نحو القتال يوم الجمعة وكان الله عزيزا لا يغالب في امر من اموره
ومن قضيته الامتناع عن الاجابة الى مسألة المتعنتين حكيما في جميع افعاله
التي من جملتها ارسال الرسل وانزال الكتب فان تعدد الرسل والكتب و
اختلافها في كيفية النزول وتغايرها في بعض الشرائع والاحكام انما هو
لتفاوت طبقات الامم في الاحوال التي عليها يدور فلك التكليف فكما انه
سبحانه وتعالى برأهم عن اعتداد شتى واطوار متباينة حسبما تقتضيه الحكمة

التكوينية كذلك تعبّدهم بما يليق بشأنهم ويقتضيه احوالهم المتخالفة في
استعداداتهم المتغايرة من الشرائع والاحكام حسبما يستدعيه الحكمة التشريعية
وراعى في ارسال الرسل وانزال الكتب وغير ذلك من الامور المتعلقة
بمعاشهم ومعادهم ما فيه مصلحتهم فسؤال تنزيل الكتاب جملة اقتراح فاسد
اذ حينئذ يتعاظم التكاليف فيثقل على المكلف قبولها والخروج عن عهدتها
امّا التنزيل المنجّم الواقع حسب الامور الداعية اليه فهو ايسر قبولا واسهل
امتثالا لكنّ الله يشهد بتخفيف النون ورفع الجلالة وقرئ بتشديد النون
ونصب الجلالة وهو استدراك عمّا يفهم ممّا قبله كانّه لما تعنّتوا عليه بما
سبق من السؤال واحتجّ عليهم بقوله تعالى انّا اوحينا اليك كما اوحينا الى قيل
انهم لا يشهدون بذلك لكنّ الله يشهد بما انزل اليك على البناء للفاعل
وقرئ على بناء المفعول والباء صلة للشهادة اي يشهد بحقية ما انزل اليك
قالوا ما نشهد لك بهذا فنزل لكن الله يشهد انزله بعلمه اي ملتبسا بعلمه
الخاص الذي لا يعلمه غيره وهو تأليفه على نمط بديع يعجز عنه كل بليغ او بعلمه بحال
من انزله عليه واستعداده لاقتباس الانوار القدسية او بعلمه الذي يحتاج
اليه الناس في معاشهم ومعادهم فالجار والمجرور على الاولين حال من الفاعل
وعلى الثالث من المفعول والجملة في موقع التفسير لما قبلها وقرئ نزّله و
قوله تعالى والملائكة يشهدون اي بذلك مبتدأ وخبر والجملة عطف على
ما قبلها وقيل حال من مفعول انزله اي انزله والملائكة يشهدون بصدقه
وحقيته وكفى بالله شهيدا على صحة نبوتك حيث نصب لها معجزات باهرة
وحججا ظاهرة مغنية على الاستشهاد بغيرها ان الذين كفروا اي بما
انزله الله تعالى وشهد به او بكل ما يجب الايمان به وهو داخل فيه دخولا اوليا
والمراد بهم اليهود حيث كفروا به وصدّوا عن سبيل الله وهو دين الاسلام
من اراد سلوكه بقولهم ما نعرف صفة محمد في كتابنا وقرئ صُدّوا مبنيا
للمفعول قد ضلّوا بما فعلوا من الكفر والصدّ عن طريق الحق ضلالا بعيدا
لانهم جمعوا بين الضلال والاضلال ولان المضل يكون اعرق في الضلال وابعد
من الاقلاع منه انّ الذين كفروا اي بما ذكرنا آنفا وظلموا اي محمدا صلعم
بانكار نبوته وكتمان نعوته الجليلة ووضع غيرها مكانها او الناس بصدّهم
عمّا فيه صلاحهم في المعاش والمعاد لم يكن الله ليغفر لهم استحالة تعلق
المغفرة بالكافر ولا ليهديهم طريقا الا طريق جهنم لعدم استعدادهم
للهداية الى الحق والاعمال الصالحة التي هي طريق الجنة والمراد بالهداية المفهومة
من الاستثناء بطريق الاشارة خلقه تعالى لاعمالهم السيئة المؤدية بهم الى
جهنم عند صرف قدرتهم واختيارهم الى اكتسابها او سوقهم اليها يوم
القيمة بواسطة الملائكة والطريق على عمومه والاستثناء متصل وقيل خاص
بطريق الحق والاستثناء منقطع خالدين فيها حال مقدرة من الضمير المنصوب
والعامل فيها ما دل عليه الاستثناء دلالة واضحة كانه قيل يدخلهم جهنم
خالدين فيها الخ وقوله ابدا نصب على الظرفية رافع لاحتمال حمل الخلود على
المكث الطويل وكان ذلك اي جعلهم خالدين في جهنم على الله يسيرا
لاستحالة ان يتعذر عليه شيء من ارادته تعالى يا ايها الناس بعدما حكى
رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلّلات اليهود بالاباطيل واقتراحهم الباطل
تعنتا ورد عليهم ذلك بتحقيق نبوته عليه السلام وتقرير رسالته ببيان
انّ شأنه عليه السلام في امر الوحي والارسال كشؤون من يعترفون بنبوته
من مشاهير الانبياء عليهم السلام واكد ذلك بشهادته سبحانه وشهادة
الملائكة امر المكلفين كافة على طريق تلوين الخطاب بالايمان بذلك امرا مشفوعا

بالوعد

بالوعد بالاجابة والوعيد على الرد تنبيها على انّ الحجة قد لزمت ولم يبق بعد ذلك
لاحد عذر في عدم القبول وقوله عز وجل قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم
تكرير للشهادة وتقرير لحقية المشهود به وتمهيد لما يعقبه من الامر
بالايمان وايراده صلى الله عليه وسلم بعنوان الرسالة لتأكيد وجوب طاعته
والمراد بالحق القرآن الكريم والباء متعلقة بجاءكم فهي للتعدية او بمحذوف
وقع حالا من الرسول اي ملتبسا بالحق ومن ايضا متعلقة امّا بالفعل وامّا
بمحذوف هو حال من الحق اي جاءكم به من عنده تعالى او جاءكم بالحق كائنا
من عنده تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين
للايذان بانّ ذلك لتربيتهم وتبليغهم الى كمالهم اللائق بهم ترغيبا لهم في
الامتثال بما بعده من الامر والفاء في قوله تعالى فآمنوا للدلالة على ايجاب ما قبلها
لما بعدها اي فآمنوا به وبما جاءكم من الحق وقوله تعالى خيرا لكم منصوب على
انه مفعول لفعل واجب الاضمار كما هو رأي الخليل وسيبويه اي اقصدوا او
ائتوا امرا خيرا لكم ممّا انتم فيه من الكفر او على انه نعت لمصدر محذوف كما هو
رأي الفراء اي آمنوا ايمانا خيرا لكم او على انه خبر كان المضمرة الواقعة جوابا للامر
لا جزاء للشرط الصناعي وهو رأي الكسائي وابي عبيدة اي يكن الايمان خيرا لكم
وان تكفروا اي ان تصرّوا وتستمرّوا على الكفر به فانّ لله ما في السموات والار
من الموجودات سواء كانت داخلة في حقيقتهما وبذلك يعلم حال انفسهما على ابلغ
وجه واكده او خارجة عنهما مستقرة فيهما من العقلاء وغيرهم فيدخل في
جملتهم المخاطبون دخولا اوليا اي كلها لله عز وجل خلقا وملكا وتصرفا لا يخرج
من ملكوته وقهره شيء منها فمن هذا شأنه فهو قادر على تعذيبكم بكفركم لا محالة
او فمن كان كذلك فله عبيد يعبدونه وينقادون لامره وكان الله عليما مبالغا
في العلم فهو عالم باحوال الكل فيدخل في ذلك علمه تعالى بكفرهم دخولا اوليا يا
اهل الكتاب تجريد للخطاب وتخصيص له بالنصارى زجرا لهم عمّا هم عليه من
الكفر والضلال لا تغلوا في دينكم بالافراط في رفع شأن عيسى عليه السلام
وادعاء الهيته وامّا غلو اليهود في حط رتبته عليه السلام ورميهم بانه
ولد لغير رشدة فقد نعى عليهم ذلك فيما سبق ولا تقولوا على الله الا الحق اي لا
تصفوه بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد
بل نزهوه عن جميع ذلك انما المسيح قد مرّ تفسيره في سورة آل عمران وقرئ بكسر
الميم وتشديد السين كالسكيت على صيغة المبالغة وهو مبتدأ وقوله تعالى عيسى
بدل او عطف بيان له وقوله تعالى ابن مريم صفة له مفيدة لبطلان ما وصفوه
عليه السلام به من بنوته تعالى وقوله تعالى رسول الله خبر للمبتدأ والجملة
مستأنفة مسوقة لتعليل النهي عن القول الباطل المستلزم للامر بضده اعني
الحق اي انه مقصور على رتبة الرسالة لا يتخطاها وكلمته عطف على رسول
الله اي مكوّن بكلمته وامره الذي هو كن من غير واسطة اب ولا نطفة القاها الى
مريم اي اوصلها اليها وحصّلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام وقيل
اعلمها اياها واخبرها بطريق البشارة وذلك قوله تعالى انّ الله يبشرك بكلمة منه
اسمه المسيح عيسى ابن مريم وقيل الجملة حال من ضميره عليه السلام المستكن
فيما دل عليه وكلمته من معنى المشتق الذي هو العامل فيها وقد مقدرة معها و
روح منه قيل هو الذي نفخ جبرائيل عليه السلام في درع مريم فحملت
باذن الله تعالى سمي النفخ روحا لانه ريح تخرج من الروح ومن لابتداء الغاية مجازا
لا تبعيضية كما زعمت النصارى يحكى انّ طبيبا حاذقا نصرانيا للرشيد ناظر علي
بن الحسين الواقدي المروزي ذات يوم فقال له انّ في كتابكم ما يدل على
انّ عيسى عليه السلام جزء منه تعالى وتلا هذه الآية فقرأ الواقدي وسخّر لكم

ما في السموات وما في الارض جميعاً منه فقال اذن يلزم ان يكون جميع تلك الاشياء جزءاً منه سبحانه وتعالى علواً كبيراً فانقطع النصراني فاسلم وفرح الرشيد فرحاً شديداً ووصل الواقدي بصلة فاخرة وهي متعلقة بمحذوف وقع صفة لروح اي كائنة من جهته تعالى جعلت منه تعالى وان كانت بنفخ جبريل عليه السلام لكون النفخ بامره سبحانه وقيل سمي روحاً لاحيائه الاموات وقيل لاحيائه القلوب كما سمي بها القران لذلك في قوله تعالى وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا وقيل اريد به الروح الوحي الذي اوحي الى مريم بالبشارة وقيل جرت العادة بانهم اذا ارادوا وصف شيء بغاية الطهارة والنظافة قالوا انه روح فلما كان عيسى عليه السلام متكوناً من النفخ لا من النطفة وصف بالروح وتقديم كونه عليه السلام رسول الله تعالى في الذكر مع تأخره عن كونه كلمته تعالى وروحاً منه في الوجود لتحقيق الحق من اول الامر بما هو نص فيه غير محتمل للتاويل وتعيين مآل ما يحتمله وسد باب التاويل الزائغ فامنوا بالله وخصوه بالالوهية ورسله اجمعين وصفوهم بالرسالة ولا تخرجوا بعضهم عن سلكهم بوصفه بالالوهية ولا تقولوا ثلثة اي الالهة ثلثة الله والمسيح ومريم كما ينبئ عنه قوله تعالى أانت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله او الله ثلثة ان صح انهم يقولون الله جوهر واحد ثلثة اقانيم اقنوم الاب واقنوم الابن واقنوم روح القدس وانهم يريدون بالاول الذات وقيل الوجود وبالثاني العلم وبالثالث الحيوة انتهوا اي عن التثليث خيراً لكم قد مر وجوه انتصابه انما الله اله واحد اي بالذات منزه عن التعدد بوجه من الوجوه فالله مبتدأ واله خبره وواحد نعت اي منفرد في الهيته سبحانه ان يكون له ولد اي اسبحه تسبيحاً من ان يكون له ولد او سبحوه تسبيحاً من ذلك فانه انما يتصور فيمن يماثله شيء ويتطرق اليه فناء والله سبحانه منزه عن امثاله وقرئ ان تكون اي سبحانه ما يكون له ولد وقوله تعالى له ما في السموات وما في الارض جملة مستانفة لتعليل التنزيه وتقريره اي له ما فيهما من الموجودات خلقاً وملكاً وتصرفاً لا يخرج من ملكوته شيء من الاشياء التي من جملتها عيسى عليه الصلوة والسلام فكيف يتوهم كونه ولداً له تعالى وكفى بالله وكيلاً اليه يكل كل الخلق امورهم وهو غني عن العالمين فانى يتصور في حقه اتخاذ الولد الذي هو شان العجزة المحتاجين في تدبير امورهم الى من يخلفهم ويقوم مقامهم لن يستنكف المسيح استئناف مقرر لما سبق من التنزيه والاستنكاف الانفة والترفع من نكفت الدمع اذا نحيته عن وجهك بالاصبع اي لن يانف ويترفع ان يكون عبداً لله اي عن ان يكون عبداً له تعالى مستمراً على عبادته وطاعته حسبما هو وظيفة العبودية كيف وان ذلك اقصى مراتب الشرف والاقتصار على ذكر عدم استنكافه عليه السلام عنه مع ان شانه عليه السلام المباهاة به كما يدل عليه احواله ويفصح عنه اقواله اولا يرى ان اول مقالة قالها للناس قوله اني عبد الله اتاني الكتاب وجعلني نبياً لوقوعه في موقع الجواب عما قاله الكفرة روي ان وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم تعيب صاحبنا قال ومن صاحبكم قالوا عيسى قال واي شيء اقول قالوا تقول انه عبد الله قال انه ليس بعار ان يكون عبد الله قالوا بلى فنزلت وهو السر في جعل المستنكف عنه كونه عليه السلام عبداً له دون ان يقال عن عبادة الله ونحو ذلك مع افادة فائدة جليلة هي كمال نزاهته عليه السلام عن الاستنكاف بالكلية فان كونه عبداً له تعالى حالة مستمرة مستتبعة لدوام العبادة قطعاً فعدم الاستنكاف عنه مستلزم

لعدم

لعدم الاستنكاف عن عبادته تعالى كما اشير اليه بخلاف عبادته تعالى فانها حالة متجددة غير مستلزمة للدوام يكفي في اتصاف موصوفها بها تحققها مرة فعدم الاستنكاف عنها لا يستلزم عدم الاستنكاف عن دوامها ولا الملئكة المقربون عطف على المسيح اي لا يستنكف الملائكة المقربون ان يكونوا عبيداً لله وقيل ان اريد بالملئكة كل واحد منهم لم يحتج الى التقدير واحتج بالاية من زعم فضل الملائكة على الانبياء عليهم الصلوة والسلام وقال مساقه لرد النصارى في رفع المسيح عن مقام العبودية وذلك يقتضي ان يكون المعطوف اعلى درجة من المعطوف عليه حتى يكون عدم استنكافهم مستلزماً لعدم استنكافه عليهم السلام واجيب بان مناط كفر النصارى ورفعهم له عليه السلام عن رتبة العبودية لما كان اختصاصه عليه السلام وامتيازه عن سائر افراد البشر بالولادة من غير اب وبالعلم بالمغيبات وبالرفع الى السماء عطف على عدم استنكافه عن عبوديته تعالى عدم استنكاف من هو اعلى درجة منه فيما ذكر فان الملائكة مخلوقون من غير اب ولا ام وعالمون بما لا يعلمه البشر من المغيبات ومقارهم السموات العلى ولا نزاع لاحد في علو درجتهم من هذه الحيثية وانما النزاع في علوها من حيث كثرة الثواب على الطاعات وبان الاية ليست للرد على النصارى فقط على عبدة الملائكة ايضاً فلا اتجاه لما قالوا حينئذ وان سلم اختصاصها بالرد على النصارى فلعله اريد بالعطف المبالغة باعتبار التكثير والتفضيل الا باعتبار التكبير والتفضيل كما في قولك اصبح الامير لا يخالفه رئيس ولا مرؤس ولئن سلم ارادة التفضيل فغاية الامر الدلالة على افضلية المقربين منهم وهم الكروبيون الذين حول العرش او من هو اعلى منهم رتبة من الملائكة عليهم السلام على المسيح من الانبياء عليهم السلام وليس يلزم من ذلك فضل احد الجنسين على الاخر مطلقاً وهل التشاجر الا فيه ومن يستنكف عن عبادته اي عن طاعته فيشمل جميع الكفرة لعدم طاعتهم له تعالى وانما جعل المستنكف عنه ههنا عبادته تعالى لا ما سبق لتعليق الوعيد بوصف ظاهر الثبوت للكفرة فان عدم طاعتهم له تعالى مما لا سبيل لهم الى انكاره اصلاً فهم به ان قيل لم عبر عن عدم طاعتهم له تعالى بالاستنكاف عنها مع ان ذلك منهم كان بطريق انكار الامر من جهته تعالى لا بطريق الاستنكاف قلنا لانهم كانوا يستنكفون عن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل هو الا استنكاف عن طاعة الله عز وجل اذ لا امر له عليه الصلوة والسلام سوى امره عز وجل من يطع الرسول فقد اطاع الله ويستكبر الاستكبار الانفة عما لا ينبغي ان يؤنف عنه واصله طلب الكبر لنفسه بغير استحقاق له بمعنى طلب تحصيله مع اعتقاد عدم حصوله فيه بل بمعنى عد نفسه كبيراً واعتقاده كذلك وانما عبر عنه بما يدل على الطلب للايذان بان ما له محض الطلب بدون حصول المطلوب وقد عبر عن مثل ذلك بنفس الطلب في قوله تعالى يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً فانهم ما كانوا يطلبون ثبوت العوج لسبيل الله تعالى مع اعتقادهم لاستقامتها بل كانوا يعدونها ويعتقدونها معوجة ويحكمون بذلك ولكن عبر عن ذلك بالطلب لما ذكر من الاشعار بان ليس هناك شيء سوى الطلب والاستكبار دون الاستنكاف المنبئ عن توهم لحوق العار والنقص من المستنكف عنه فسيحشرهم اليه جميعاً اي المستنكفين ومقابليهم المدلول عليهم بذكر عدم استنكاف المسيح والملائكة عليهم السلام وقد ترك ذكر احد الفريقين في المفصل تعويلاً على انباء التفصيل عنه وثقة بظهور اقتضاء حشر احدهما لحشر الاخر ضرورة عموم الحشر للخلائق كافة كما ترك ذكر احد الفريقين في التفصيل عند قوله تعالى فاما الذين امنوا بالله الاية مع عموم الخطاب لهما اعتماداً على ظهور اقتضاء اثابة احدهما لعقاب الاخر

فذرة شمول الجزاء وقيل الضمير للمستنكفين وهناك مقدر معطوف
عليه والتقدير فسيحشرهم وغيرهم وقيل المعنى فيحشرهم اليه
يوم يحشر العباد لمجازاتهم وفيه ان الانسب بالتفصيل الآتي اعتبار
حشر الكل في الاجمال على نهج واحد وقرئ فيحشرهم بكسر الشين وهي
لغة وقرئ فنحشرهم بنون العظمة بطريق الالتفات فاما الذين
آمنوا وعملوا الصالحات بيان لحال الفريق المطوي ذكره في الاجمال
قدم على بيان حال ما يقابله ابانة لفضله ومسارعة الى بيان كون
حشره ايضا معتبرا في الاجمال وايراده بعنوان الايمان والعمل الصالح لا
بوصف عدم الاستنكاف المناسب لما قبله وما بعده للتنبيه على انه
المستتبع لما يعقبه من الثمرات فيوفيهم اجورهم من غير ان ينقص منها
شيئا ما اصلا ويزيدهم من فضله بتضعيفها اضعافا مضاعفة
وباعطاء ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واما
الذين استنكفوا اي من عبادته عز وجل واستكبروا فيعذبهم بسبب
استنكافهم واستكبارهم عذابا اليما لا يحيط به الوصف ولا
يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ينصرهم من بأسه
تعالى وينجيهم من عذابه يا ايها الناس تلوين للخطاب وتوجيه
الى كافة المكلفين اثر بيان بطلان ما عليه الكفرة من فنون الكفر والضلال و
الزامهم بالبراهين القاطعة التي تخر لها صم الجبال وازالة شبههم الواهية
بالبينات الواضحة وتنبيه لهم على ان الحجة قد تمت فلم يبق بعد
ذلك علة لمتعلل ولا عذر لمعتذر قد جاءكم اي وصل اليكم و
تقرر في قلوبكم بحيث لا سبيل لكم الى الانكار برهان البرهان
ما يبرهن به على المطلوب والمراد به القرآن الدال على صحة نبوة النبي
صلى الله عليه وسلم المثبت لما فيه من الاحكام التي من جملتها ما اشير
اليه مما في الآيات الكريمة من حقية الحق وبطلان الباطل وروي
عن ابن عباس رضي الله عنهما انه النبي صلى الله عليه وسلم عبر عنه
به لما معه من المعجزات التي تشهد بصدقه وقيل هي المعجزات
التي اظهرها وقيل هو دين الحق الذي اتى به وقوله تعالى من ربكم
اما متعلق بجاءكم او بمحذوف وقع صفة مشرفة
لبرهان مؤكدة لما افاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة
الاضافية اي كائن منه تعالى على ان من لابتداء الغاية مجازا وقد جوز
على الثاني كونها تبعيضية بحذف المضاف اي كائن من براهين ربكم
والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لاظهار اللطف
بهم وللايذان بان مجيئه لهم لتربيتهم وتكميلهم وانزلنا اليكم
نورا مبينا اريد به ايضا القرآن الكريم عبر عنه تارة بالبرهان
لما اشير اليه آنفا واخرى بالنور النير بنفسه المنور لغيره ايذانا بانه بين
بنفسه مستغن في ثبوت حقيته وكونه من عند الله عز وجل باعجازه
غير محتاج الى غيره مبين لغيره من الامور المذكورة واشعارا بهدايته
للخلق واخراجهم من ظلمات الكفر الى نور الايمان وقد سلك مسلك
العطف المبني على تغاير الطرفين تنزيلا للمغايرة العنوانية منزلة
المغايرة الذاتية وعبر عن ملابسته للمخاطبين تارة بالمجيء المسند اليه
المنبئ عن كمال قوته في البرهانية كأنه يجيء بنفسه فيثبت احكامه من
غير ان يجيء به احد ويجيء على شبه الكفرة بالابطال واخرى بالانزال الموقع عليه
الملائم لحيثية كونه نورا توفيقا للعبارة باعتبار كل واحد من عنوانيه حظه اللائق

به والاسناد

به واسناد انزاله اليه تعالى بطريق الالتفات لكمال تشريفه هذا على تقدير كون البرهان
عبارة عن القرآن العظيم واما على تقدير كونه عبارة عن الرسول صلى الله عليه وسلم
وعن المعجزات الظاهرة على يديه او عن الدين الحق فالامر هين وقوله تعالى
اليكم متعلق بانزلنا فان انزاله بالذات وان كان الى النبي صلى الله عليه وسلم
لكنه منزل اليهم ايضا بواسطته عليه السلام وانما عبر عن حاله بالواسطة دون
حاله بالذات كما في قوله تعالى انا انزلنا اليك الكتاب لتحكم بين الناس ونظائره
لاظهار كمال اللطف بهم والتصريح بوصوله اليهم مبالغة في الاعذار وتقديمه
على المفعول الصريح مع ان حقه التأخر عنه لما مر غير مرة من الاهتمام
بما قدم والتشويق الى ما اخر وللمحافظة على فواصل الآي الكريمة
فاما الذين آمنوا بالله حسبما يوجبه البرهان الذي آتاهم واعتصموا
به اي عصموا به انفسهم مما يرديها من زيغ الشيطان وغيره فسيدخلهم في
رحمة منه وفضل قال ابن عباس رضي الله عنهما هي الجنة وما
يتفضل عليهم مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر
وعبر عن افاضة الفضل بالادخال على طريقة قوله وعلفتها تبنا وماء
باردا وتنوين رحمة وفضل تفخيمي ومنه متعلق بمحذوف وقع صفة مشرفة
لرحمة ويهديهم اليه اي الى الله عز وجل وقيل الى الموعود وقيل
الى عبادته صراطا مستقيما هو الاسلام والطاعة في الدنيا وطريق
الجنة في الآخرة وتقديم ذكر الوعد بادخال الجنة على الوعد بالهداية اليها على
خلاف الترتيب في الوجود بين الموعودين للمسارعة الى التبشير بما هو المقصد
الاصلي قيل انتصاب صراطا على انه مفعول لفعل محذوف ينبئ عنه يهديهم
اي يعرفهم صراطا مستقيما يستفتونك اي في الكلالة استغني عن ذكره
بوروده في قوله تعالى قل الله يفتيكم في الكلالة وقد مر تفسيرها في
مطلع السورة الكريمة والمستفتي جابر بن عبد الله رضي الله عنه يروى انه اتى رسول
الله صلى الله عليه وسلم في طريق مكة عام حجة الوداع فقال ان لي اختا فكم
آخذ من ميراثها ان ماتت وقيل كان مريضا فعاده رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال اني كلالة فكيف اصنع في مالي وروي عنه رضي الله عنه انه قال دعاني
رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا مريض لا اعقل فتوضأ وصب من
وضوئه علي فعقلت فقلت يا رسول الله لمن الميراث وانما يرثني كلالة
فنزلت وقوله تعالى ان امرؤ هلك استئناف مبين للفتيا وارتفاع امرؤ
بفعل يفسره المذكور وقوله تعالى ليس له ولد صفة له وقيل او
حال من الضمير في هلك ورد بانه مفسر للمحذوف غير مقصودة في الكلام
اي هلك امرؤ غير ذي ولد ذكرا كان او انثى واقتصر على ذكر عدم الولد
مع ان عدم الوالد ايضا معتبر في الكلالة ثقة بظهوره ودلالة تفصيل الورثة
عليه وقوله تعالى وله اخت عطف على قوله تعالى ليس له ولد او حال والمراد
بالاخت من ليست فان فرضها السدس وقد مر بيانه في صدر السورة
الكريمة فلها نصف ما ترك اي بالفرض والباقي للعصبة او لها بالرد ان
لم يكن له عصبة وهو اي المرء المفروض يرثها اي اخته المفروضة
ان فرض هلاكها مع بقائه ان لم يكن لها ولد ذكرا كان او انثى فالمراد
بارثه لها احراز جميع مالها اذ هو المشروط بانتفاء الولد بالكلية لا
ارثه لها في الجملة فانه يتحقق مع وجود بنتها وليس في الآية ما يدل على
سقوط الاخوة بغير الولد ولا على عدم سقوطهم وانما دلت على سقوطهم
مع الاب السنة الشريفة فان كانتا اثنتين عطف على الشرطية الاولى اي
اثنتين فصاعدا فلهما الثلثان مما ترك الضمير لمن يرث بالاخوة

والتأنيث والتثنية باعتبار المعنى قيل وفائدة الاخبار عنها باثنتين مع
دلالة الف التثنية على الاثنينية التنبيه على ان المعتبر في اختلاف الحكم
هو العدد دون الصغر والكبر وغيرهما وان كانوا اى من يرث بطريق الاخوة
اخوة اى مختلطة رجالا ونساء بدل من اخوة والاصل وان كانوا
اخوة واخوات فغلب المذكر على المؤنث فللذكر اى فللذكر منهم مثل حظ
الانثيين يقتسمون التركة على طريقة التعصيب وهذا آخر ما نزل من كتاب الله تعالى
في الاحكام روي ان الصديق رضي الله عنه قال في خطبته ان الآية التي
ختم بها السورة في الاخوة والاخوات لابوين والاب والآية التي انزلها
الله تعالى في سورة النساء في الولد والوالد وثانيها في الزوج والزوجة
والاخوة من الام والآية التي ختم بها سورة الانفال انزلها في اولي
الارحام يبين الله لكم اى حكم الكلالة واحكامه وشرايعه التي من
جملتها حكمها ان تضلوا اى كراهة ان تضلوا في ذلك وهذا رأي
البصريين صرح به المبرد وذهب الكسائي والفراء وغيرهما من الكوفيين
الى تقدير اللام ولا في طرفي ان اى لئلا تضلوا وقال الزجاج هو مثل قوله
تعالى ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا اي لئلا تزولا وقال
ابو عبيد رويت الكسائي حديث ابن عمر رضي الله وهو لا يدعون احدكم
على ولده ان يوافق من الله اجابة اى لئلا يوافق فاستحسنه وليس ما ذكر
من الآية والحديث نصا فيما ذهب اليه الكسائي واضرابه فان التقدير فيهما
عند البصريين كراهة ان تزولا وكراهة ان يوافق الخ وقيل ليس هناك
حذف ولا تقدير وانما هو مفعول يبين اى يبين لكم ضلالكم الذى هو
من شأنكم اذا خليتم وطباعكم لتحترزوا عنه وتتحروا خلافه وانت خبير
بان ذلك انما يليق بما اذا كان بيانه تعالى على طريقة تعيين مواقع الخطاء و
الضلال من غير تصريح بما هو الحق والصواب وليس كذلك والله بكل
شئ من الاشياء التي من جملتها احوالكم المتعلقة بمحياكم ومماتكم عليم
مبالغ في العلم فيبين لكم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم من قرأ سورة النساء فكأنه تصدق على كل مؤمن ومؤمنة
ورث ميراثا واعطي من الاجر كمن اشترى محررا وبرئ من الشرك و
كان في مشية الله تعالى من الذين يتجاوز عنهم والله اعلم بالصواب

سورة المائدة وهي مائة وثلث وعشرون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود الوفاء القيام بموجب العقد وكذا الايفاء والعقد
هو العهد الموثق المشبه بعقد الحبل ونحوه والمراد بالعقود ما يعم جميع ما الزمه الله تعالى
عباده وعقده عليهم من التكاليف والاحكام الدينية وما يعقدونه فيما بينهم
من عقود الامانات والمعاملات ونحوهما مما يجب الوفاء به او يحسن دينا بان يحمل الامر
على معنى يعم الوجوب والندب امر بذلك اولا على وجه الاجمال ثم شرع في تفصيل
الاحكام التي امر بالايفاء بها وبدئ بما يتعلق بضرورات معايشهم فقيل احلت لكم
بهيمة الانعام البهيمة كل ذات اربع واضافتها الى الانعام للبيان كثوب الخز
وافرادها لارادة الجنس اى احل لكم اكل البهيمة من الانعام وهي الازواج الثمانية
المعدودة في سورة الانعام فالحق بها الظباء وبقر الوحش ونحوهما وقيل هي المرادة
بالبهيمة ههنا لتقدم بيان حل الانعام والاضافة لما بينهما من المشابهة والمماثلة في
الاجترار وعدم الانياب وفائدتها الاشعار بعلة الحكم المشتركة بين المتضايفين كأنه
قيل احلت لكم البهيمة المشبهة بالانعام التي بين احلالها فيما سبق المماثلة لها في
مناط الحكم وتقديم الجار والمجرور على القائم مقام الفاعل لما مر مرارا من اظهار
العناية بالمقدم لما فيه من تعجيل المسرة والتشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم
اذا اخر تبقى النفس مترقبة الى وروده فيتمكن عندها فضل تمكن الا ما يتلى عليكم
استثناء من بهيمة الانعام الا ما يحرم ما يتلى عليكم من قوله تعالى حرمت عليكم الميتة ونحو
او الا ما يتلى عليكم آية تحريمه غير محلي الصيد اي الاصطياد في البر او اكل صيده وهو
نصب على الحالية من ضمير لكم ومعنى عدم احلالهم له تقرير حرمته عملا واعتقادا وهو
شايع في الكتاب والسنة قوله تعالى وانتم حرم اى محرمون حال من الضمير في محلي
وفائدة تقييد احلال بهيمة الانعام بما ذكر من عدم احلال الصيد حال الاحرام
على تقدير كون المراد بها الظباء ونظايرها ظاهرة كما ان احلالها غير مطلق كأنه قيل احل لكم
الصيد حال كونكم ممتنعين عنه عند احرامكم واما على تقدير الاول ففايدته اتمام
النعمة واظهار الامتنان باحلالها بتذكير احتياجهم اليه فان حرمة الصيد في حالة
الاحرام من مظان حاجتهم الى احلال غيره حينئذ كأنه قيل احلت لكم الانعام مطلقا
حال كونكم ممتنعين عن تحصيل ما يغنيكم عنها في بعض الاوقات محتاجين الى احلالها
وفي اسناد عدم الاحلال اليهم بالمعنى المذكور مع حصول المراد بان يقال غير محل لكم
او محرما عليكم الصيد حال احرامكم مزيد تربية الامتثال وتعزيز للحاجة ببيان علته القريبة
فان تحريم الصيد عليهم انما يوجب حاجتهم الى احلال ما يغنيهم عنه باعتبار تحريمهم
له عملا واعتقادا مع ما في ذلك من وصفهم بما هو اللائق بهم ان الله يحكم ما يريد
من الاحكام حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة فيندرج فيها ما ذكر من
التحليل والتحريم دخولا اوليا ومعنى الايفاء بهما الجريان على موجبهما عقدا وعملا والاجتناب
عن تحليل المحرمات وتحريم بعض المحللات كالبحيرة ونظايرها التي سيأتي بيانها
يا ايها الذين آمنوا لا تحلوا شعاير الله لما بين حرمة احلال الاحرام الذي هو من شعاير
الحج عقب ذلك ببيان حرمة احلال ساير الشعاير واضافتها الى الله عز وجل لتشريفها
وتهويل الخطب في احلالها وهي جمع شعيرة وهي اسم لما اشعر اي جعل شعارا وعلما
للنسك من مواقف الحج ومرامي الجمار والمطاف والمسعى والافعال التي هي علامات الحاج
يعرف بها من الاحرام والطواف والسعي والحلق والنحر واحلالها ان يتهاون بحرمتها ويحال
بينها وبين المتنسكين بها ويحدث في اشهر الحج ما يصد به الناس عن الحج وقيل المراد
بها دين الله لقوله تعالى ومن يعظم شعاير الله اي دينه والاول انسب بالمقام ولا الشهر
الحرام اى لا تحلوه بالقتال فيه وقيل بالنسئ وقيل حرمات الله وقيل فرايضه التي حدها
لعباده واحلالها الاخلال بها والاول هو الاولى بحال المؤمنين والمراد به شهر الحج وقيل
الاشهر الاربعة الحرم والافراد لارادة الجنس ولا الهدي بان يتعرض له بالغصب او بالمنع

من بلوغ محله وهو ما اهدي الى الكعبة من ابل او بقر او شاة جمع هدية كجدي وجدية ولا القلايد هي جمع قلادة وهي ما يقلد الهدي من نعل او لحا شجر ليعلم به انه هدي فلا يتعرض له والمراد النهي عن التعرض لذوات القلايد من الهدي وهي البدن وعطفها على الهدي مع دخولها فيه لمزية التوصية بها لمزيتها على ما عداها كما عطف جبرئيل وميكائيل على الملائكة عليهم السلام كانه قيل والقلايد منه خصوصا او النهي عن التعرض لنفس القلايد مبالغة في النهي عن التعرض لاصحابها على معنى لا تحلوا قلايدها فضلا عن ان تحلوها كما نهي عن ابداء الزينة بقوله تعالى ولا يبدين زينتهن مبالغة في النهي عن ابداء مواقعها ولا آمين البيت الحرام اي لا تحلوا قوما قاصدين زيارته بان تصدوهم عن ذلك باي وجه كان وقيل هناك مضاف محذوف اي قتال قوم او اذى قوم آمين الخ وقرئ ولا آمي البيت الحرام بالاضافة وقوله تعالى يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا حال من المستكن في آمين لا صفة له لان المختار ان اسم الفاعل اذا وصف بطل عمله اي قاصدين زيارته حال كونهم طالبين ان يثيبهم الله تعالى ويرضى عنهم وتنكير فضلا ورضوانا للتفخيم ومن ربهم متعلق بنفس الفعل او بمحذوف وقع صفة لفضلا مغنية عن وصف ما عطف عليه بها اي فضلا كائنا من ربهم ورضوانا كذلك والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم لتشريفهم والاشعار بحصول مبتغاهم وقرئ تبتغون على الخطاب فالجملة حينئذ حال من ضمير المخاطبين في لا تحلوا على ان المراد بيان منافاة حالهم هذه للمنهي عنه لا تقييد النهي بها واضافة الرب الى ضمير الآمين للايماء الى اقتصار التشريف عليهم وحرمان المخاطبين عنه وعن نيل المبتغى وفي ذلك من تعليل النهي وتاكيده والمبالغة في استنكار المنهي عنه ما لا يخفى ومن ههنا قيل ان المراد بالآمين هم المسلمون خاصة وبه تمسك من ذهب الى ان الآية محكمة وقد روي ان النبي عليه السلام قال سورة المائدة من آخر القرآن نزولا فاحلوا حلالها وحرموا حرامها وقال الحسن ليس فيها منسوخ وعن ابي ميسرة فيها ثماني عشرة فريضة وليس فيها منسوخ وقيل هم المشركون خاصة لانهم المحتاجون الى نهي المؤمنين عن احلالهم دون المؤمنين على ان حرمة احلالهم تثبت بطريق دلالة النص ويؤيده ان الآية نزلت في الحطم بن ضبيعة البكري وقد كان الى المدينة فخلف خيله خارجها فدخل على النبي صلى الله عليه وسلم وحده وقال ان يأتي باصحابه فيسلموا ثم خرج من عنده عليه السلام فمر بسرح المدينة فاستاقه فلما كان في العام القابل خرج من اليمامة حاجا في حجاج بكر بن وائل ومعه تجارة عظيمة وقد قلدوا الهدي فسأل المسلمون النبي عليه السلام ان يخلي بينهم وبينه فأبى النبي عليه السلام فانزل الله عز وجل يا ايها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله الآية وفسر ابتغاء الفضل بطلب الرزق بالتجارة وابتغاء الرضوان بانهم كانوا يزعمون انهم على سداد من دينهم وان الحج يقربهم الى الله تعالى فوصفهم الله تعالى بظنهم وذلك ظن الفاسد وان كان بمعزل من استتباع رضوانه تعالى لكن لا بعد في كونه مدارا لحصول بعض مقاصدهم الدنيوية وخلاصهم عن المكاره العاجلة لا سيما في ضمن مراعاة حقوق الله تعالى تعظيم شعائره وقال قتادة هو ان يصلح معايشهم في الدنيا ولا يعجل لهم العقوبة فيها وقيل هم المسلمون والمشركون لما روي عن ابن عباس رضه ان المسلمين والمشركين كانوا يحجون جميعا فنهى الله المسلمين ان يمنعوا احدا عن حج البيت بقوله تعالى لا تحلوا الآية ثم نزل بعد ذلك انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام وقوله تعالى ما كان للمشركين ان يعمروا مساجد الله وقال مجاهد والشعبي لا تحلوا نسخ بقوله تعالى اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ولا ريب في تناول الآمين للمشركين قطعا اما استقلالا واما اشتراكا لما سيأتي من قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم الخ فيتعين النسخ كلا وبعضا ولا بد في الوجه الاخير من تفسير الفضل والرضوان بما يناسب الفريقين فقيل ابتغاء الفضل اي الرزق للمؤمنين والمشركين عامة وابتغاء الرضوان للمؤمنين خاصة ويجوز ان يكون الفضل على اطلاقه شاملا للفضل الاخروي ايضا

ويختص

ويختص ابتغاؤه بالمؤمنين واذا حللتم فاصطادوا تصريح بما اشير اليه بقوله تعالى وانتم حرم من انتهاء حرمة الصيد بانتفاء موجبها والامر للاباحة بعد الحظر كانه قيل واذا حللتم فلا جناح عليكم في الاصطياد وقرئ احللتم وهو لغة في حل وقرئ بكسر الفاء حركة همزة الوصل عليها وهو ضعيف جدا ولا يجرمنكم نهي عن احلال قوم من الآمين خصوا به مع اندراجهم في النهي عن احلال الكل كافة لاستقلالهم بامور ربما يتوهم كونها مصححة لاحلالهم داعية اليه وجرم جار مجرى كسب في المعنى وفي التعدي الى مفعول واحد والى اثنين يقال جرم ذنبا نحو كسبه وجرمته ذنبا نحو كسبته اياه خلا ان جرم يستعمل غالبا في كسب ما لا خير فيه وهو السبب في ايثاره ههنا على الثاني وقد ينقل الاول من كل منهما بالهمزة الى معنى الثاني فيقال اجرمته ذنبا واكسبته اياه وعليه قراءة من قرأ يجرمنكم بضم الياء شنآن قوم بفتح النون وقرئ بسكونها وكلاهما مصدر اضيف الى مفعوله لا الى فاعله كما قيل وهو شدة البغض وغاية المقت ان صدوكم متعلق بالشنآن باضمار لام العلة لان صدوكم عام الحديبية عن المسجد الحرام عن زيارته والطواف به للعمرة وهذه آية بينة في عموم آمين للمشركين قطعا وقرئ ان صدوكم على انه شرط معترض اغنى عن جوابه لا يجرمنكم قد ابرز الصد المحقق فيما سبق في معرض المفروض للتوبيخ والتنبيه على ان حقه ان لا يكون وقوعه الا على سبيل الفرض والتقدير ان تعتدوا اي عليهم وانما حذف تعويلا على ظهوره وايماء الى ان المقصد الاصلي من النهي منع صدور الاعتداء عن المخاطبين محافظة على تعظيم الشعائر لا منع وقوعه على القوم مراعاة لجانبهم وهو ثاني مفعولي يجرمنكم اي لا يكسبنكم شدة بغضكم لهم لصدهم اياكم عن المسجد الحرام اعتداءكم عليهم وانتقامكم منهم للتشفي وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للشنآن عن كسب الاعتداء للمخاطبين لكنه في الحقيقة نهي لهم عن الاعتداء على ابلغ وجه وآكده فان النهي عن اسباب الشيء ومباديه المؤدية اليه نهي عنه بالطريق البرهاني وابطال للسببية وقد يتوجه النهي الى المسبب ويراد النهي عن السبب كما في قوله لا ارينك ههنا يريد به نهي مخاطبه عن الحضور لديه ولعل تأخير هذا النهي عن قوله تعالى واذا حللتم فاصطادوا مع ظهور تعلقه بما قبله للايذان بان حرمة الاعتداء لا تنتهي بالخروج عن الاحرام كانتهاء حرمة الاصطياد به بل هي باقية ما لم تنقطع علاقتهم عن الشعائر بالكلية وبذلك يعلم بقاء حرمة التعرض لسائر الآمين بالطريق الاولى وتعاونوا على البر والتقوى لما كان الاعتداء غالبا بطريق التظاهر والتعاون امروا اثر ما نهوا عنه بان يتعاونوا على كل ما هو من باب البر والتقوى ومتابعة الامر ومجانبة الهوى فدخل فيه ما نحن بصدده من التعاون على العفو والاغضاء عما وقع منهم دخولا اوليا ثم نهوا عن التعاون في كل موطن من مقولة الظلم والمعاصي بقوله تعالى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان فاندرج فيه النهي عن التعاون على الاعتداء والانتقام بالطريق البرهاني واصل لا تعاونوا لا تتعاونوا فحذف منه احدى التائين تخفيفا وانما اخر النهي عن الامر مع تقدم التخلية على التحلية مسارعة الى ايجاب ما هو مقصود بالذات فان المقصود من ايجاب ترك التعاون على الاثم والعدوان انما هو تحصيل التعاون على البر والتقوى ثم امروا بقوله تعالى واتقوا الله بالاتقاء في جميع الامور التي من جملتها مخالفة ما ذكر من الاوامر والنواهي فثبت وجوب الاتقاء فيها بالطريق البرهاني ثم علل ذلك بقوله تعالى ان الله شديد العقاب اي لمن لا يتقيه فيعاقبكم لا محالة ان لم تتقوه واظهار الاسم الجليل لما مر مرارا من ادخال الروعة وتربية المهابة وتقوية استقلال الجملة حرمت عليكم الميتة شروع في بيان المحرمات التي اشير اليها بقوله تعالى الا ما يتلى عليكم والميتة ما فارقه الروح من غير ذبح والدم اي المسفوح منه لقوله تعالى او دما مسفوحا وكان اهل الجاهلية يصبونه في الامعاء ويشوونه ويقولون لم يحرم من فزد له اي فصد له ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به

اي رفع الصوت لغير الله عند ذبحه كقولهم باسم اللات والعزى والمنخنقة اي التي ماتت
بالخنق والموقوذة اي التي قتلت بالضرب بالخشب ونحوه من وقذته اذا ضربته والمتردية
اي التي تردت من علو او في بئر فماتت والنطيحة اي التي نطحتها اخرى فماتت بالنطح
والتاء للنقل وقرئ والمنطوحة وما اكل السبع اي ما اكل منه السبع فمات وقرئ بسكون
الباء وقرئ واكيل السبع وفيه دليل على ان جوارح الصيد اذا اكلت مما صادته لم يحل
الا ما ذكيتم الا ما ادركتم ذكوته وفيه بقية حيوة يضطرب اضطراب المذبوح
وقيل الاستثناء مخصوص بما اكل السبع والذكوة في الشرع بقطع الحلقوم والمرئ بمحدد
وما ذبح على النصب قيل هو مفرد وقيل هو جمع نصاب وقرئ بسكون الصاد واياما
ماكان فهو واحد الانصاب وهي احجار كانت منصوبة حول البيت يذبحون عليها
ويعدون ذلك قربة وقيل هي الاصنام وان تستقسموا بالازلام جمع زلم وهو
القدح اي وحرم عليكم الاستقسام بالاقداح وذلك انهم اذا قصدوا فعلا ضربوا
ثلثة اقداح مكتوب على احدها امرني ربي وعلى الثاني نهاني ربي وعلى الثالث غفل
فان خرج الامر مضوا على ذلك وان خرج الناهي اجتنبوا عنه وان خرج الغفل اجالوها
مرة اخرى فمعنى الاستقسام طلب معرفة ما قسم لهم بالازلام وقيل هو استقسام
الجزور بالاقداح على الانصاب المعهودة ذلكم اشارة الى الاستقسام بالازلام ومعنى البعد
فيه للاشارة الى بعد منزلته في الشر فسق تمرد وخروج عن الحد ودخول في علم الغيب
وضلال باعتقاد انه طريق اليه وافتراء على الله سبحانه ان كان هو المراد بقولهم ربي
وشرك وجهالة ان كان هو الصنم وقيل ذلكم اشارة الى تناول المحرمات المعدودة
لان معنى تحريمها تحريم تناولها اليوم اللام للعهد والمراد به الزمان الحاضر وما يتصل
به من الازمنة الماضية والآتية وقيل يوم نزولها وقد نزلت بعد عصر يوم الجمعة
عرفة حجة الوداع والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على العضباء فكادت
عضد الناقة تندق لثقلها فبركت واياما كانت فهو منصوب على انه ظرف لقوله تعالى
يئس الذين كفروا من دينكم اي من ابطاله ورجوعكم عنه بتحليل هذه الخبائث
او غيرها او من ان يغلبوكم عليه لما شاهدوا من ان الله عز وجل وفى بوعده حيث اظهره
على الدين كله وهو الانسب بقوله تعالى فلا تخشوهم اي ان يظهروا عليكم واخشون
اي واخلصوا الى الخشية اليوم اكملت لكم دينكم بالنصر والاظهار على الاديان كلها
او بالتنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على اصول الشرائع وقوانين الاجتهاد
وتقديم الجار والمجرور للايذان من اول الامر بان الاكمال لمنفعتهم ومصلحتهم كما في
قوله تعالى الم نشرح لك صدرك وعليكم في قوله تعالى واتممت عليكم نعمتي متعلق
باتممت لا بنعمتي لان المصدر لا يتقدم عليه معموله وتقديمه على المفعول الصريح كما
مر مرارا اي اتممتها بفتح مكة ودخولها امنين ظاهرين وهدم منار الجاهلية
ومناسكها والنهي عن حج المشرك وطواف العريان او باكمال الدين والشرايع او بالهداية والتوفيق
قيل معنى اتممت عليكم نعمتي انجزت لكم وعدي بقولي ولاتم نعمتي عليكم ورضيت
لكم الاسلام دينا اي اخترته لكم من بين الاديان وهو الدين عند الله لا غير عن
عمر بن الخطاب رضه ان رجلا من اليهود قال له يا امير المؤمنين اية في كتابكم تقرؤنها
لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا قال اي اية قال اليوم اكملت لكم
دينكم واتممت عليكم نعمتي الاية قال عمر رضه قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي انزلت
على النبي عم وهو قائم بعرفة يوم الجمعة اشار رضه الى ان ذلك اليوم عيد لنا
وروي انه لما نزلت هذه الاية بكى عمر رضه فقال له النبي عم ما يبكيك يا عمر
فقال ابكاني انا كنا في زيادة من ديننا فاذا كمل فانه لا يكمل شيء الا نقص فقال عليه السلام
صدقت فكانت هذه الاية نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم فما لبث بعده الا احدا
وثمانين يوما فمن اضطر متصل بذكر المحرمات وما بينهما اعتراض بما يوجب
ان يجتنب عنه وهو ان تناولها فسوق وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة

والاسلام

والاسلام المرضي اي فمن اضطر الى تناول شيء من هذه المحرمات في مخمصة اي مجاعة
يخاف معها الموت او مباديه غير متجانف لاثم غير مائل ومنحرف اليه بان ياكلها
تلذذا او مجاوزا حد الرخصة او تنزها من مضطر اخر كقوله تعالى غير باغ ولا عاد
فان الله غفور رحيم لا يؤاخذه بذلك يسئلونك ماذا احل لهم شروع في
تفصيل المحللات التي ذكر بعضها على وجه الاجمال اثر بيان المحرمات كانهم سئلوا عنها
عند بيان اضدادها ولتضمن السؤال معنى القول اوقع على الجملة فماذا مبتدأ واحل
لهم خبره وضمير الغيبة لما ان يسئلون بلفظ الغيبة فانه كما يعتبر حال المحكي عنه فيقال
اقسم زيد لافعلن يعتبر حال الحاكي فيقال اقسم زيد ليفعلن والمسؤل ما احل لهم من المطاعم
قل احل لكم الطيبات اي ما لم يستخبثه الطباع السليمة ولم تنفر عنه كما في قوله تعالى
يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث وما علمتم من الجوارح عطف على الطيبات
بتقدير المضاف على ان ما موصولة والعائد محذوف اي وصيد ما علمتموه او مبتدا
على ان ما شرطية والجواب فكلوا وقد جوز كونها مبتدا على تقدير كونها موصولة
ايضا والخبر كلوا وانما دخلته الفاء تشبيها للموصول باسم الشرط ومن الجوارح حال
من الموصول او ضميره المحذوف والجوارح الكواسب من سباع البهائم والطير وقيل
سميت بها لانها تجرح الصيد غالبا مكلبين اي معلمين لها الصيد والمكلب مؤدب
الجوارح ومضريها بالصيد مشتق من الكلب لان التاديب كثيرا ما يصح فيه او لان
كل سبع يسمى كلبا لقوله عليه السلام في حق عتيبة بن ابي لهب حين اراد سفر
الشام فغاظه النبي صلى الله عليه وسلم اللهم سلط عليه كلبا من كلابك فاكله
الاسد وانتصابه على الحالية من فاعل علمتم وفائدتها المبالغة في التعليم لما ان اسم
المكلب لا يقع الا على النحرير في علمه وقرئ مكلبين بالتخفيف والمعنى واحد تعلمونهن
حال من ثانيه منه او حال من ضمير مكلبين او استيناف مما علمكم الله من الحيل وطرق
التعليم والتاديب كان العلم به الهام من الله تعالى او مكتسب بالعقل الذي هو منحة منه
او مما عرفكم ان تعلموه من اتباع الصيد بارسال صاحبه وانزجاره بزجره وانصرافه
بدعائه وامساك الصيد عليه وعدم اكله منه فكلوا مما امسكن عليكم قد مر فيما سبق
ان هذه الجملة على تقدير كون ما شرطية جواب الشرط وعلى تقدير كونها موصولة مرفوعة
على الابتداء خبر لها واما على تقدير كونها عطفا على الطيبات فهي جملة متفرعة على بيان
حل صيد الجوارح المعلمة مبنية للمضاف المقدر الذي هو المعطوف وبه يتعلق الاحلال
حقيقة ومشيرة الى نتيجة التعليم واثره داخلة تحت الامر فانها فيها كما في قوله
امرتك الخير فافعل ما امرت به ومن تبعيضية لما ان البعض مما لا يتعلق به الاكل كالجلود
والعظام والريش وغير ذلك وما موصولة او موصوفة حذف عائدها وعلى متعلق
بامسكن اي فكلوا بعض ما امسكنه عليكم وهو الذي لم ياكلن منه واما ما اكلن منه فهو
مما امسكنه على انفسهن لقوله عليه السلام لعدي بن حاتم وان اكل منه فلا تأكل انما
امسك على نفسه واليه ذهب اكثر الفقهاء وقال بعضهم لا يشترط عدم الاكل في سباع
الطير لما ان تاديبها الى هذه الدرجة متعذر وقال آخرون لا يشترط ذلك مطلقا وقد
روي عن سلمان وسعد بن ابي وقاص وابي هريرة رضي الله عنهم انه اذا اكل السبع
اي الكلب ثلثه وبقي ثلثه وقد ذكرت اسم الله عليه فكل واذكروا اسم الله عليه
الضمير لما في علمتم اي سموا عليه عند ارساله او لما امسكن اي سموا عليه اذا
ادركتم ذكوته واتقوا الله في شان محرماته ان الله سريع الحساب اي سريع
اتيان حسابه او سريع تمامه اذا شرع فيه يتم في اقرب ما يكون من الزمان والمعنى على
التقديرين انه يؤاخذكم سريعا في كل ما جل ودق واظهار الاسم الجليل في موقع الاضمار
لتربية المهابة وتعليل الحكم اليوم احل لكم الطيبات قيل المراد بالايام الثلاثة وقت
واحد وانما كرر للتاكيد ولاختلاف الاحداث الواقعة فيه حسن تكريره والمراد
بالطيبات ما مر وطعام الذين اوتوا الكتاب اي اليهود والنصارى واستثنى علي رضه

نصارى بني تغلب وقال ليسوا على النصرانية ولم يأخذوا منها الا شرب الخمر وبه اخذ الشافعي
رحمه الله والمراد بطعامهم ما يتناول ذبائحهم وغيرها حل لكم اى حلال وعن
ابن عباس رضي الله عنه انه سئل عن ذبائح نصارى العرب فقال لا بأس به وهو قول عامة التابعين
وبه اخذ ابو حنيفة رحمه الله واصحابه وحكم الصابئين حكم اهل الكتاب عنده وقال
صاحباه هما صنفان صنف يقرؤن الزبور ويعبدون الملائكة وصنف لا يقرؤن كتابا
ويعبدون النجوم فهؤلاء ليسوا من اهل الكتاب واما المجوس فقد سن بهم سنة اهل الكتاب
في اخذ الجزية منهم دون اكل ذبائحهم ونكاح نسائهم لقوله صلى الله عليه وسلم
سنوا بهم سنة اهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم وطعامكم
حل لهم فلا عليكم ان تطعموهم وتبيعوه منهم ولو حرم عليهم لم يجز ذلك
والمحصنات من المؤمنات رفع على انه مبتدأ حذف خبره لدلالة ما تقدم عليه
اى حل لكم ايضا والمراد بهن الحرائر والعفائف وتخصيصهن بالذكر البعث على
ما هو الاولى لا لنفي ما عداهن فان نكاح الاماء المسلمات صحيح بالاتفاق وكذا
نكاح غير العفائف منهن واما الاماء الكتابيات فهن كالمسلمات عند ابي حنيفة رحمه الله
خلافا للشافعي رحمه الله والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم اي هن ايضا
حل لكم وان كن حربيات وقال ابن عباس لا تحل الحربيات اذا آتيتموهن اجورهن
اى مهورهن وتقييد الحل بايتائها لتأكيد وجوبها والحث على الاولى وقيل المراد بايتائها
التزامها واذا ظرفية عاملها حل المحذوف وقيل شرطية جوابها اى اذا آتيتموهن
حللن لكم محصنين حال من فاعل آتيتموهن اى حال كونكم اعفاء بالنكاح وكذا قوله تعالى
غير مسافحين وقيل هو حال من ضمير محصنين وقيل صفة لمحصنين اى غير مجاهدين
بالزنا ولا متخذي اخدان اى ولا مسترين به والخدن الصديق يقع على الذكر والانثى
وهو اما مجرور عطفا على مسافحين وزيدت لا لتأكيد النفي المستفاد من غير او منصوب
عطفا على غير مسافحين باعتبار اوجه الثلاثة ومن يكفر بالايمان اى من ينكر شرائع
الاسلام التي من جملتها ما بين ههنا من الاحكام المتعلقة بالحل والحرمة ويمتنع عن
قبولها فقد حبط عمله الصالح الذي عمله قبل ذلك وهو في الآخرة من الخاسرين
هو مبتدأ ومن الخاسرين خبره وفي متعلقة بما تعلق به الخبر من الكون المطلق وقيل
بمحذوف دل عليه المذكور اى خاسر في الآخرة وقيل بالخاسرين على ان الالف واللام
للتعريف لا موصولة لان ما بعدها لا يعمل فيما قبلها وقيل يغتفر في الظرف ما لا يغتفر
في غيره كما في قوله ربيته حتى اذا تمعددا كان جزاي بالعصا ان اجلدا يا ايها الذين
آمنوا شروع في بيان الشرائع المتعلقة بدينهم بعد بيان ما يتعلق بدنياهم اذا قمتم الى الصلاة
اى اردتم القيام اليها كما في قوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله عبر عن ارادة الفعل
بالفعل عنها مجازا للايجاز والتنبيه على ان من اراد الصلاة حقه ان يبادر اليها
بحيث لا ينفك عن ارادتها او اذا قصدتم اطلاقا لاسم واحد لاذ مبهما على لازمها
الآخر والظاهر الآية الكريمة يوجب الوضوء على كل قائم اليها وان لم يكن محدثا لما ان
الامر للوجوب قطعا والاجماع على خلافه وقد روي ان النبي صلعم صلى الصلوات
الخمس يوم الفتح بوضوء واحد فقال عمر رضي الله عنه صنعت شيئا لم تكن تصنعه فقال
عليه السلام عمدا فعلته يا عمر يعني بيانا للجواز وحمل الامر بالنسبة الى غير المحدث
على الندب مما لا مساغ له فالوجه ان الخطاب خاص بالمحدثين بقرينة دلالة الحال
واشتراط الحدث في التيمم الذي هو بدله وما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم و
الخلفاء من انهم كانوا يتوضؤن لكل صلاة فلا دلالة فيه على انهم كانوا يفعلونه بطريق
الوجوب اصلا كيف وما روي عنه صلى الله عليه وسلم من قوله من توضأ على طهر كتب الله
له عشر حسنات صريح في ان ذلك كان منهم بطريق الندب وما قيل كان ذلك اول
الامر ثم نسخ يرده قوله عليه السلام المائدة من آخر القرآن نزولا فاحلوا حلالها وحرموا
حرامها فاغسلوا وجوهكم اى امروا عليها الماء ولا حاجة الى الدلك خلافا لمالك وايديكم الى المرافق

الصلاة

الجمهور

الجمهور على دخول المرفقين في المغسول ولذلك قيل الى بمعنى مع كما في قوله تعالى ويزدكم قوة
الى قوتكم وقيل هي انما تفيد الغاية مطلقا واما دخولها في الحكم او خروجها منه فلا
دلالة لها عليه وانما هو امر يدور على الدليل الخارجي كما في حفظت القرآن من اوله الى
آخره وقوله تعالى فنظرة الى ميسرة فان الدخول في الاول والخروج في الثاني متفق بناء على
تحقق الدليل وحيث لم يتحقق ذلك في الآية وكانت الايدي متناولة للمرافق حكم بدخولها
فيها احتياطا وقيل الى من حيث افادتها للغاية تقتضي خروجها لكن لما لم يتميز الغاية ههنا
عن ذي الغاية وجب ادخالها احتياطا وامسحوا برؤسكم الباء مزيدة وقيل للتبعيض فانه
الفارق بين قولك مسحت المنديل ومسحت بالمنديل وتحقيقه انها تدل على تضمين الفعل
معنى الالصاق فكانه قيل فالصقوا المسح برؤسكم وذلك لا يقتضي الاستيعاب كما يقتضيه
ما لو قيل وامسحوا رؤسكم فانه كقوله تعالى فاغسلوا وجوهكم واختلف العلماء في
القدر الواجب فاوجب الشافعي رحمه الله اقل ما يطلق عليه الاسم ما يطلق عليه الاسم
اخذا باليقين وابو حنيفة رحمه الله ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث مسح على ناصيته و
قدرها بربع الرأس ومالك مسح الكل اخذا بالاحتياط وارجلكم الى الكعبين بالنصب
عطفا على وجوهكم ويؤيده السنة الشائعة وعمل الصحابة وقول اكثر الائمة والتحديد
اذ المسح لم يعهد محدودا وقرئ بالجر على الجوار ونظيره في القرآن كثير كقوله تعالى عذاب
يوم اليم ونظائره وللنحاة في ذلك باب مفرد وفائدته التنبيه على انه ينبغي ان يقصد
في صب الماء عليها وغسلها غسلا قريبا من المسح وفي الفصل بينه وبين اخواته ايماء
الى افضلية الترتيب وقرئ بالرفع اي وارجلكم مغسولة وان كنتم جنبا فاطهروا
اي فاغتسلوا وقرئ فاطهروا اى فاطهروا ابدانكم وفي تعليق الامر بالطهارة الكبرى
بالحدث الاكبر اشارة الى اشتراط الامر بالطهارة الصغرى بالحدث الاصغر وان كنتم
مرضى مرضا يخاف به الهلاك او ازدياده باستعمال الماء او على سفر اي مستقرين
عليه او جاء احد منكم من الغائط او لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا
صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وايديكم منه من لابتداء الغاية وقيل للتبعيض
ومتعلقة بامسحوا وقرئ فامتوا صعيدا وقد مر تفسير الآية الكريمة مستوفى في سورة
النساء فليراجع اليه التكرير ولعل التكرير ليتصل الكلام في انواع الطهارة ما يريد الله
اي ما يريد الامر بالطهارة للصلاة او بالامر بالتيمم ليجعل عليكم من حرج من ضيق
في الامتثال به ولكن يريد بل ما يريد بذلك ليطهركم اي لينظفكم او ليطهركم
عن الذنوب فان الوضوء مكفر لها وليطهركم بالتراب اذا اعوزكم التطهر بالماء فمفعول
يريد في الموضعين محذوف واللام للعلة وقيل مزيدة والمعنى ما يريد الله ان يجعل
عليكم من حرج في باب الطهارة حتى لا يرخص لكم في التيمم ولكن يريد ان يطهركم
بالتراب اذا اعوزكم التطهر بالماء وليتم بشرعه ما هو مطهرة لابدانكم ومكفرة
لذنوبكم نعمته عليكم في الدين او ليتم برخصته انعامه عليكم بعزائمه لعلكم
تشكرون نعمته ومن لطائف الآية الكريمة انها مشتملة على سبعة امور كلها
مثنى طهارتان اصل وبدل والاصل اثنان مستوعب وغير المستوعب باعتبار
الفعل غسل ومسح وباعتبار المحل محدود وغير محدود وان آلتهما مائع وجامد
وموجبهما حدث اصغر واكبر وان المبيح للعدول الى البدل مرض او سفر
وان الموعود عليهما تطهير الذنوب واتمام النعمة واذكروا نعمة الله عليكم
بالاسلام لتذكركم المنعم وترغبكم في شكره وميثاقه الذي واثقكم به
اى عهده المؤكد الذي اخذه عليكم وقوله تعالى اذ قلتم سمعنا واطعنا ظرف
لواثقكم به او المحذوف وقع حالا من الضمير المجرور في به او من ميثاقه اي كائنا
وقت قولكم سمعنا واطعنا وفائدة التقييد به تأكيد وجوب مراعاته بتذكير قبولهم
والتزامهم بالمحافظة عليه وهو الميثاق الذي اخذه على المسلمين حين تابعهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في حال العسر واليسر والمنشط

يقتضيه

هي صح

والمكروه وقيل هو الميثاق الواقع ليلة العقبة وفي بيعة الرضوان واضافته اليه تعالى مع
صدوره صلى الله عليه وسلم لكون المرجع اليه تعالى كما نطق به قوله تعالى ان الذين يبايعونك
انما يبايعون الله وقال مجاهد هو الميثاق الذي اخذه الله تعالى على عباده حين اخرجهم
من صلب آدم عليه السلام واتقوا الله اي في نسيان نعمته ونقض ميثاقه او في كل ما
تأتون وما تذرون فيدخل فيه ما ذكر دخولا اوليا ان الله عليم بذات الصدور
اي مخفياتها الملابسة لها ملابسة تامة مصححة لاطلاق الصاحب عليها فيجازيكم
عليها فما ظنكم بجليات الاعمال والجملة اعتراض وتعليل للامر بالاتقاء واظهار الاسم
الجليل في موقع الاضمار لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة يا ايها
الذين امنوا شروع في بيان الشرائع المتعلقة بما يجري بينهم وبين غيرهم اثر بيان ما
يتعلق بانفسهم كونوا قوامين لله مقيمين لاوامره ممتثلين بها معظمين بها
مراعين لحقوقها شهداء بالقسط اي بالعدل ولا يجرمنكم اي لا يحملنكم شنآن
قوم اي شدة بغضكم لهم على ان تعدلوا فلا تشهدوا في حقوقهم بالعدل
او فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل كمثلة وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد
تشفيا وغير ذلك اعدلوا هو اي العدل اقرب للتقوى الذي امرتم به صرح لهم
بالامر بالعدل وبين انه بمكان من التقوى بعدما نهاهم عن الجور وبين انه مقتضى
الهوى واذا كان وجوب العدل في حق الكفار بهذه المثابة فما ظنك بوجوبه في حق
المسلمين واتقوا الله امر بالتقوى اثر ما بين ان العدل اقرب له اعتناء بشأنه
وتنبيها على انه ملاك الامر ان الله خبير بما تعملون من الاعمال فيجازيكم بذلك
وتكرير هذا الحكم اما لاختلاف السبب كما قيل ان الاول نزل في المشركين وهذا في اليهود
او لمزيد الاهتمام بالعدل والمبالغة في اطفاء نائرة الغيظ والجملة تعليل لما قبلها واظهار
الجلالة لما مر مرات وحيث كان مضمونها منبئا عن الوعد والوعيد عقب بالوعد لمن
يحافظ على طاعته تعالى وبالوعيد لمن يخل بها فقيل وعد الله الذين امنوا وعملوا
الصالحات التي من جملتها العدل والتقوى لهم مغفرة واجر عظيم حذف ثاني مفعولي
وعد استغناء عنه بهذه الجملة فانه استئناف مبين له وقيل الجملة في موضع المفعول
فان الوعد ضرب من القول فكانه قيل وعدهم هذا القول والذين كفروا وكذبوا
باياتنا التي من جملتها ما تليت من النصوص الناطقة بالامر بالعدل والتقوى
اولئك الموصوفون بما ذكر من الكفر وتكذيب الآيات اصحاب الجحيم ملابسوها
ملابسة مؤبدة من السنة السنية القرآنية شفع الوعد بالوعيد والجمع بين
الترغيب والترهيب ايفاء لحق الدعوة بالتبشير والانذار يا ايها الذين امنوا اذكروا
نعمة الله عليكم تذكير لنعمة الانجاء من الشر اثر تذكير نعمة ايصال الخير الذي هو
نعمة الاسلام وما يتبعها من الميثاق وعليكم متعلق بنعمة الله او بمحذوف وقع
حالا منها وقوله تعالى اذ هم قوم على الاول ظرف لنفس النعمة وعلى الثاني
لما تعلق به عليكم ولا سبيل الى كونه ظرفا لاذكروا لتنافي زمانيهما اي اذكروا
انعامه تعالى عليكم واذكروا نعمته كائنة عليكم في وقت همهم ان يبسطوا اليكم ايديهم
اي بان يبطشوا بكم بالقتل والاهلاك يقال بسط اليه يده اذا بطش به وبسط
اليه لسانه اذا شتمه وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح للمسارعة الى بيان
رجوع ضرر البسط او غائلته اليهم حملا لهم من اول الامر على الاعتداد بنعمة دفعه
كما ان تقديم لكم في قوله عز وجل هو الذي خلق لكم ما في الارض للمبادرة الى بيان
كون المخلوق من منافعهم تعجيلا للمسرة فكف ايديهم عنكم عطف على هم
وهو النعمة التي اريد تذكيرها وذكر الهم للايذان بوقوعها عند مزيد الحاجة اليها
والفاء للتعقيب المفيد لتمام النعمة وكمالها واظهار ايديهم في موضع الاضمار
لزيادة التقرير اي منع ايديهم ان تمد اليكم عقيب همهم بذلك لا انه كفها عنكم بعد ما
مدوها اليكم وفيه من الدلالة على كمال النعمة من حيث انها لم تكن مشوبة بضرر الخوف

والانزعاج

والانزعاج الذي قلما يعرى عنه الكف بعد المد ما لا يخفى مكانه وذلك ما روي ان المشركين
رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه بعسفان في غزوة ذي انمار وهي غزوة
ذات الرقاع وهي السابعة من مغازيه عليه السلام قاموا الى الظهر معا فلما صلوا ندم
المشركون الا كانوا قد اكبوا عليهم فقالوا ان لهم بعدها صلاة هي احب اليهم من آبائهم
وابنائهم يعنون صلاة العصر وهموا ان يوقعوا بهم اذا قاموا اليها فرد الله تعالى كيدهم
بان انزل صلاة الخوف وقيل هو ما روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اتى بني قريظة
ومعه الشيخان وعلي رضي الله تعالى عنهم يستقرضهم لدية مسلمين قتلهما عمرو بن
امية الضمري خطأ يحسبهما مشركين فقالوا نعم يا ابا القاسم اجلس حتى نطعمك ونعطيك
ما سألت فاجلسوه في صفة وهموا بالفتك به وعمد عمرو بن جحاش الى رحى عظيمة
يطرحها عليه فامسك الله تعالى يديه ونزل جبريل فاخبره فخرج عليهما السلام وقيل ما روي
انه صلى الله عليه وسلم نزل منزلا وتفرق اصحابه في العضاه يستظلون بها فعلق رسول
الله صلى الله عليه وسلم سيفه بشجرة فجاء اعرابي فاخذه وسله من يمنعك مني
فقال عليه السلام الله تعالى فاسقطه جبريل من يده فاخذه الرسول صلى الله عليه وسلم
فقال من يمنعك مني فقال لا احد اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله واتقوا الله
عطف على اذكروا اي اتقوا في رعاية حقوق نعمته ولا تخلوا بشكرها او في كل ما تأتون
وما تذرون فيدخل فيه ما ذكر دخولا اوليا وعلى الله اي عليه تعالى خاصة دون
غيره استقلالا او اشتراكا فليتوكل المؤمنون فانه يكفيهم في ايصال كل خير ودفع
كل شر والجملة تذييل مقرر لما قبله وايثار صيغة امر الغائب واسنادها الى المؤمنين
لايجاب التوكل على المخاطبين بالطريق البرهاني وللايذان بان ما وصفوا به عند الخطاب
من وصف الايمان داع الى ما امروا به من التوكل والتقوى وازع عن الاخلال بهما
واظهار الاسم الجليل في موقع الاضمار لتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة التذييلية
ولقد اخذ الله ميثاق بني اسرائيل كلام مستأنف مشتمل على ذكر بعض ما صدر
عن بني اسرائيل من الخيانة ونقض الميثاق وما ادى اليه ذلك من التبعات مسوق
لتقرير المؤمنين على ذكر نعمة الله تعالى ومراعاة حق الميثاق الذي واثقهم وتحذيرهم
من نقضه ولتقرير ما ذكر من الهم بالبطش وتحقيقه على تقدير كون ذلك من بني
قريظة حسبما مر من الرواية ببيان ان الغدر والخيانة عادة لهم قديمة توارثوها
من اسلافهم واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتفخيم الميثاق وتهويل
الخطب في نقضه مع ما فيه من رعاية حق الاستئناف المستدعي للانقطاع عما قبله
والالتفات في قوله عز وجل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا للجري على سنن الكبرياء
او لان البعث كان بواسطة موسى عليه السلام كما سيأتي وتقديم الجار والمجرور على المفعول
الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر والنقيب فعيل بمعنى
فاعل مشتق من النقب وهو التفتيش ومنه قوله تعالى فنقبوا في البلاد سمي بذلك لتفتيشه
عن احوال القوم واسرارهم قال الزجاج واصله من النقب وهو الثقب الواسع روي ان بني
اسرائيل لما استقروا بمصر بعد فرعون امرهم الله عز وجل بالمسير الى اريحا ارض الشام وكان
يسكنها الجبابرة الكنعانيون وقال لهم اني كتبتها لكم دارا وقرارا فاخرجوا اليها و
جاهدوا من فيها واني ناصركم وامر موسى عليه السلام ان يأخذ من كل سبط نقيبا امينا
يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما امروا به توثقة عليهم فاختار النقباء واخذ الميثاق
على بني اسرائيل وتكفل لهم النقباء وسار بهم فلما دنى من ارض كنعان بعث النقباء يتجسسون
فرأوا اجراما عظيمة وقوة وشوكة فهابوا فرجعوا وحدثوا قومهم بما رأوا وقد نهاهم
موسى عليه السلام عن ذلك فنكثوا الميثاق الا كالب نقيب سبط يهودا ويوشع بن
نون نقيب سبط افرايم بن يوسف الصديق عليه السلام قيل لما توجه النقباء الى
ارضهم للتجسس لقيهم عوج بن عنق وكان طوله ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثين
ذراعا وقد عاش ثلاثة آلاف سنة وكان رأسه حزمة حطب فاخذهم وجعلهم

على

في الحزمة وانطلق بهم الى امرأته وقال انظري الى هؤلاء الذين يزعمون انهم يريدون قتالنا
فطرحهم بين يديها وقال الا اطحنهم برجلي فقالت لا بل خل عنهم حتى يخبروا قومهم
بما رأوا ففعل فجعلوا يتعرفون احوالهم وكان لا يحمل عنقود عنبهم الا خمسة رجال
او اربعة فلما خرج النقباء قال بعضهم لبعض ان اخبرتم بني اسرائيل بخبر القوم ارتدوا
عن نبي الله ولكن اكتموه الا عن موسى وهارون عليهما السلام فيكونان هما يريان
رأيهما فاخذ بعضهم على بعض الميثاق ثم انصرفوا الى موسى عليه السلام وكان
معه حبة من عنبهم وفر رجل فنكثوا عهدهم منهم ينهى سبطه عن قتالهم
ويخبرهم بما رأى الا كالبا ويوشع وكان معسكر موسى فرسخا في فرسخ فجاء
عوج حتى نظر اليهم ثم رجع الى الجبل فقور منه صخرة عظيمة على قدر العسكر ثم حملها
على رأسها ليطبقها عليهم فبعث الله تعالى الهدهد فقور من الصخرة وسطها المحاذي
لرأسه فانثقبت فوقعت في عنق عوج وطوقته فصرعته واقبل موسى عليه السلام و
طوله عشرة اذرع وكذا طول العصا فترامى في السماء عشرة اذرع فما اصاب العصا الا
كعبه وهو مصروع فقتله قالوا فاقبلت جماعة ومعهم الخناجر حتى جزوا رأسه
وقال الله اي لبني اسرائيل فقط اذ هم المحتاجون الى ما ذكر من الترغيب والترهيب
كما ينبئ عنه الالتفات مع ما فيه من تربية المهابة وتأكيد ما يتضمنه الكلام من
الوعد اني معكم اي بالعلم والقدرة والنصرة لا بالنصرة فقط فان تنبيههم على علمه
تعالى بكل ما يأتون وما يذرون وعلى كونهم تحت قدرته وملكوته مما يحملهم
على الجد في الامتثال بما امروا به والانتهاء عما نهوا عنه كانه قيل اني معكم اسمع
كلامكم وارى اعمالكم واعلم ضمائركم فاجازيكم بذلك هذا وقد قيل المراد بالميثاق
هو الميثاق بالايمان والتوحيد وبالنقباء ملوك بني اسرائيل الذين ينقضون احوالهم ويلون
امورهم بالامر والنهي واقامة العدل وهو الانسب بقوله تعالى لئن اقمتم الصلوة
وآتيتم الزكوة وآمنتم برسلي اي بجميعهم واللام موطئة للقسم المحذوف وتأخير
الايمان عن اقامة الصلوة وايتاء الزكوة مع كونهما من الفروع المترتبة عليه لما انهم
كانوا معترفين بوجوبهما مع ارتكابهم لتكذيب بعض الرسل عليهم السلام ولمراعاة
المقارنة بينه وبين قوله تعالى وعزرتموهم اي نصرتموهم وقويتموهم واصله
الذب وقيل التعظيم والتوقير والثناء بخير وقرئ وعزرتموهم بالتخفيف واقرضتم
الله بالانفاق في سبيل الخير او بالتصدق بالصدقات المندوبة وقوله تعالى قرضا
حسنا اما مصدر مؤكد وارد على غير صيغة المصدر كما في قوله تعالى فتقبلها ربها
بقبول حسن وانبتها نباتا حسنا او مفعول ثان لاقرضتم على انه اسم للمال المقرض
فقوله تعالى لاكفرن عنكم سيئاتكم جواب للقسم المدلول عليه باللام ساد مسد
جواب الشرط ولادخلنكم جنات تجري من تحتها الانهار عطف على ما قبلها
داخل معه في حكم الجواب متأخر عنه في الحصول ايضا ضرورة تقدم التخلية على
التحلية فمن كفر اي برسلي او بشيء مما عد في حيز الشرط والفاء لترتيب بيان حكم
من كفر على بيان حكم من آمن تقوية للترغيب والترهيب بعد ذلك الشرط المؤكد
المعلق به الوعد العظيم الموجب للايمان قطعا منكم متعلق بمضمر وقع حالا من فاعل
كفر ولعل تغيير السبك حيث لم يقل وان كفرتم عطفا على الشرطية السابقة لاخراج
كفر الكل عن حيز الاحتمال واسقاط من كفر عن رتبة الخطاب وليس المراد احداث بعد
الايمان بل ما يعم الاستمرار عليه ايضا كانه قيل فمن اتصف بالكفر بعد ذلك خلا انه
قصد بايراد ما يدل على الحدوث بيان ترقيهم في مراتب الكفر فان الاتصاف بشيء بعد ورود
ما يوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث
فقد ضل سواء السبيل اي وسط الطريق الواضح ضلالا بينا واخطأه خطأ فاحشا لا عذر
معه اصلا بخلاف من كفر قبل ذلك اذ ربما يمكن ان يكون له شبهة ويتوهم له معذرة
فبما نقضهم ميثاقهم الباء سببية وما مزيدة لتوكيد الكلام وتمكينه في النفس اي

بسبب

بسبب نقضهم ميثاقهم المؤكد لا بشيء آخر استقلالا او انضماما لعناهم طردناهم
وابعدناهم من رحمتنا او مسخناهم قردة وخنازير او اذللناهم بضرب الجزية عليهم
وتخصيص البيان بما ذكر مع ان حقه ان يبين بعد بيان تحقق نفس اللعن والنقض بان
يقال مثلا فنقضوا ميثاقهم فلعناهم ضرورة تقدم هيئة الشيء البسيطة على هيئته
المركبة للايذان بان تحققهما امر جلي غني عن البيان وانما المحتاج الى ذلك ما بينهما
من السببية والمسببية وجعلنا قلوبهم قاسية بحيث لا تتأثر عن الآيات والنذر
وقيل املينا لهم ولم نعاجلهم بالعقوبة حتى قست او خذلناهم ومنعناهم
الالطاف حتى صارت كذلك وقرئ قسية وهي اما مبالغة قاسية واما بمعنى
ردية من قولهم درهم قسي اي ردي اذا كان مغشوشا له يبس وخشونة وقرئ
بكسر القاف اتباعا لها بالسين يحرفون الكلم عن مواضعه استئناف لبيان مرتبة قساوة
قلوبهم فانها لا مرتبة اعظم مما يصحح الاجتراء على تغيير كلام الله عز وجل والافتراء
عليه وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وقيل حال من مفعول لعناهم
ونسوا حظا اي تركوا نصيبا وافرا مما ذكروا به من التوراة او من اتباع محمد
عليه السلام وقيل حرفوا التوراة وزلت اشياء منها عن حفظهم وعن ابن مسعود
رضي الله عنه قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية وتلا هذه الآية ولا تزال تطلع على خائنة
منهم اي خيانة على انها مصدر كلاغية وكاذبة او فعلة خائنة اي ذات خيانة
او طائفة خائنة او شخص خائن على ان التاء للمبالغة او نفس خائنة ومنهم متعلق
بمحذوف وقع صفة لها ان من على الوجهين الاولين ابتدائية اي على خيانة
او على فعلة خائنة كائنة منهم صادرة عنهم وعلى الوجوه الباقية تبعيضية و
المعنى ان الغدر والخيانة عادة مستمرة لهم ولاسلافهم بحيث لا يكادون
يتركونها او يكتمونها فلا تزال ترى ذلك منهم الا قليلا منهم استثناء من الضمير
المجرور في منهم على الوجوه كلها وقيل من خائنة على الوجوه الثلاثة الاخيرة والمراد
بهم الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام واضرابه وقيل من خائنة على الوجه
الثاني فالمراد بالقليل الفعل القليل ومن ابتدائية كما مر اي الا فعلا قليلا كائنا منهم
فاعف عنهم واصفح ان تابوا وآمنوا او عاهدوا والتزموا الجزية وقيل مطلق
نسخ بآية السيف ان الله يحب المحسنين تعليل للامر وحث على الامتثال به
وتنبيه على ان العفو على الاطلاق من باب الاحسان ومن الذين قالوا انا نصارى
اخذنا ميثاقهم بيان لقبائح النصارى وجناياتهم اثر بيان قبائح اليهود و
جناياتهم ومن متعلقة باخذنا والتقدير واخذنا من الذين قالوا انا نصارى
ميثاقهم وتقديم الجار والمجرور للاهتمام به ولان ذكر حال احدى الطائفتين مما
يوقع في ذهن السامع ان حال الاخرى ماذا فكانه قيل ومن الطائفة الاخرى ايضا اخذنا
ميثاقهم وقيل هي متعلقة بمحذوف وقع خبرا لمبتدأ محذوف قامت صفته او صلته
مقامه اي ومنهم قوم اخذنا ميثاقهم او من اخذنا ميثاقهم وضمير ميثاقهم
راجع الى الموصوف المقدر واما في الوجه الاول فراجع الى الموصول وقيل راجع الى
بني اسرائيل اي اخذنا من هؤلاء ميثاق اولئك اي مثل ميثاقهم من الايمان بالله
والرسل وبما يتفرع على ذلك من افعال الخير وانما نسب تسميتهم نصارى الى
انفسهم دون ان يقال ومن النصارى ايذانا بانهم في قولهم نحن انصار الله بمعزل
من الصدق وانما هو تقول محض منهم وليسوا من نصرة الله تعالى في شيء واظهارا
لكمال سوء صنيعهم ببيان التناقض بين اقوالهم وافعالهم فان ادعاءهم لنصرته
تعالى يستدعي ثباتهم على طاعته تعالى ومراعاة ميثاقه فنسوا عقيب اخذ الميثاق من غير تلعثم
اي تركوا حظا وافرا مما ذكروا به في تضاعيف الميثاق من الايمان بالله تعالى وغير ذلك
حسبما مر آنفا وقيل هو ما كتب عليهم في الانجيل من ان يؤمنوا بمحمد عليه السلام فتركوه
ونبذوه وراء ظهورهم واتبعوا اهواءهم واختلفوا وتفرقوا نسطورية ويعقوبية

وملكانية انصار للشيطان فاغرينا اى الزمنا والصقنا من غرى بالشئ اذا لزمه
ولصق واغراه غيره ومنه الغراء وقوله تعالى بينهم اما ظرف لاغرينا او متعلق
بمحذوف وقع حالا من مفعوله اى اغرينا العداوة والبغضاء كائنة بينهم ولا سبيل
الى جعله ظرفا لهما لان المصدر لا يعمل فيما قبله وقوله تعالى الى يوم القيامة اما غاية
للاغراء او للعداوة والبغضاء اى يتعادون ويتباغضون الى يوم القيمة حسبما
يقتضيه اهواؤهم المختلفة وآراؤهم الزائغة المؤدية الى التفرق الثلاث فضمير
بينهم لهم خاصة وقيل لهم ولليهود اى اغرينا العداوة والبغضاء بين اليهود
والنصارى وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون وعيد شديد بالجزاء والعذاب
كقول الرجل لمن يتوعده ساخبرك بما فعلت اى يجازيهم بما عملوا على الاستمرار
من نقض الميثاق ونسيان الحظ الوافر مما ذكروا به وسوف لتأكيد الوعيد والالتفات
الى ذكر الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال الروعة لتشديد الوعيد و
التعبير عن العمل بالصنع للايذان برسوخهم فى ذلك وعن المجازاة بالتنبيه للتنبيه
على انهم لا يعلمون حقيقة ما يعملونه من الاعمال السيئة واستتباعها للعذاب فيكون
ترتيب العذاب عليها فى افادة العلم بحقيقة حالها بمنزلة الاخبار بها يا اهل الكتاب
التفات الى خطاب الفريقين على ان الكتاب جنس شامل للتوراة والانجيل اثر بيان
احوالهما من الخيانة وغيرها من فنون القبائح ودعوة لهم الى الايمان برسول الله
صلعم والقرآن وايرادهم بعنوان اهلية الكتاب لانطواء الكلام المصدر به على
ما يتعلق بالكتاب وللمبالغة فى التشنيع فان اهلية الكتاب من موجبات مراعاته
والعمل بمقتضاه وبيان ما فيه من الاحكام وقد فعلوا من الكتم والتحريف ما
فعلوا وهم يعلمون قد جاءكم رسولنا الاضافة للتشريف والايذان بوجوب
اتباعه وقوله تعالى يبين لكم حال من رسولنا وايثار الجملة الفعلية على غيرها للدلالة
على تجدد البيان اى قد جاءكم رسولنا حال كونه مبينا لكم على التدريج حسبما يقتضيه
المصلحة كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب اى التوراة والانجيل كبعثة محمد
صلى الله عليه وسلم وآية الرجم فى التوراة وبشارة عيسى باحمد عليهما السلام
فى الانجيل وتأخير كثيرا من الجار والمجرور لما مر مرارا من اظهار العناية بالمقدم
لما فيه من تعجيل المسرة والتشويق الى المؤخر لما ان ما حقه التقديم اذا اخر لاسيما عند الاشعار
بكونه من منافع المخاطب تبقى النفس مترقبة الى وروده فيتمكن عندها اذا ورد
فضل تمكن ولان فى المؤخر ضرب تفصيل ربما يخل تقديمه بتجاوب اطراف النظم الكريم
فان ما مما متعلق بمحذوف وقع صفة لكثيرا وما موصولة اسمية وما بعدها
صلتها والعائد اليها محذوف ومن الكتاب متعلق بمحذوف هو حال من العائد المحذوف
والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرارهم على الكتم والاخفاء اى
يبين لكم كثيرا من الذى تخفونه على الاستمرار حال كونه من الكتاب الذى انتم
اهله والمتمسكون به ويعفوا عن كثير اى ولا يظهر كثيرا مما تخفونه اذا لم تدع
اليه داعية دينية صيانة لكم عن زيادة الافتضاح كما يفصح عنه التعبير عن عدم
الاظهار بالعفو وفيه حث لهم على عدم الاخفاء ترغيبا وترهيبا والجملة معطوفة
على الجملة الحالية داخلة فى حكمها وقيل يعفو عن كثير منكم ولا يؤاخذه وقوله تعالى
قد جاءكم من الله نور جملة مستأنفة مسوقة لبيان ان فائدة مجئ الرسول
ليست منحصرة فيما ذكر من بيان ما كانوا يخفونه بل له منافع لا تحصى ومن الله
تعالى متعلق بجاء ومن لابتداء الغاية مجازا او بمحذوف وقع حالا من نور
واياما كان فهو تصريح بما يشعر به اضافة الرسول من مجيئه من جنابه عز و
جل وتقديم الجار والمجرور على الفاعل للمسارعة الى بيان كون المجئ من جهته العالية
والتشويق الى الجائى ولان فيه نوع طول يخل تقديمه بتجاوب اطراف النظم الكريم كما فى قوله
تعالى وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين وتنوين نور للتفخيم والمراد

به وبقوله

به وبقوله تعالى وكتاب مبين القرآن لما فيه من كشف ظلمات الشرك والشك و
ابانة ما خفى على الناس من الحق او الاعجاز البين والعطف لتنزيل المغايرة بالعنوان منزلة
المغايرة بالذات وقيل المراد بالاول هو الرسول عليه السلام وبالثانى القرآن يهدى به الله
توحيد الضمير المجرور لاتحاد المرجع بالذات او لكونهما فى حكم الواحد او اريد يهدى
بما ذكر وتقديم الجار والمجرور للاهتمام واظهار الجلالة لاظهار كمال الاعتناء بامر
الهداية ومحل الجملة الرفع على انها صفة لكتاب او النصب على الحالية منه لتخصصه
بالصفة من اتبع رضوانه اى رضاه بالايمان ومن موصولة او موصوفة
سبل السلام اى طرق السلامة من العذاب والنجاة من العقاب او سبيل الله تعالى
وهو شريعته التى شرعها للناس قيل هو مفعول ثان ليهدى والحق ان انتصابه بنزع
الخافض على طريقة قوله تعالى واختار موسى قومه وانما يتعدى الى الثانى بالى او باللام كما فى
قوله تعالى ان هذا القرآن يهدى للتى هى اقوم ويخرجهم الضمير لمن والجمع باعتبار المعنى كما
ان الافراد فى اتبع باعتبار اللفظ من الظلمات اى ظلمات فنون الكفر والضلال الى
النور الايمان باذنه بتيسيره او بارادته ويهديهم الى صراط مستقيم هو اقرب
الى الله تعالى ومؤدية اليه لا محالة وهذه الهداية عين الهداية الى سبل السلام وانما عطفت
عليها تنزيلا للتغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى كما فى قوله تعالى فلما جاء امرنا نجينا
شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ لقد كفر الذين قالوا ان الله
هو المسيح بن مريم اى لا غير كما يقال الكرم هو التقوى وهم اليعقوبية القائلون بانه تعالى
قد يحل فى بدن انسان معين او فى روحه وقيل لم يصرح به احد منهم لكن حيث اعتقدوا
اتصافه بصفات الله تعالى الخاصة وقد اعترفوا بان الله تعالى موجود فلزمهم القول
بانه المسيح لا غير وقيل لما زعموا ان فيه لاهوتا وقالوا لا اله الا واحد لزمهم ان يكون
هو المسيح فنسب اليهم لازم قولهم توضيحا لجهلهم وتفضيحا لمعتقدهم قل اى
تبكيتا لهم واظهارا لبطلان قولهم الفاسد والفاء مالهم الجحد الوفاء فى قوله تعالى فمن
يملك من الله شيئا فصيحة ومن استفهامية للانكار والتوبيخ والملك الضبط والحفظ
التام عن حزم ومن متعلقة به على حذف المضاف اى ان كان الامر كما يزعمون فمن
يمنع من قدرته تعالى وارادته شيئا وحقيقته فمن يستطيع ان يمسك شيئا منهما
ان اراد ان يهلك المسيح بن مريم وامه ومن فى الارض جميعا ومن حق من يكون
الها ان لا يتعلق به ولا بشئ من شؤونه بل بشئ من الموجودات قدرة غيره بوجه من
الوجوه فضلا ان يعجز عن دفع شئ منها عند تعلقها بهلاكه فلما كان عجزه بينا لا ريب
فيه ظهر كونه بمعزل مما تقولوا فى حقه والمراد بالاهلاك الاماتة والاعدام مطلقا
لا بطريق السخط والغضب واظهار المسيح على الوجه الذى نسبوا اليه الالوهية فى مقام
الاضمار لزيادة التقرير والتنصيص على انه من تلك الحيثية بعينها داخل تحت قهره
وملكوته تعالى ونفى المالكية المذكورة بالاستفهام الانكارى عن كل احد مع تحقق
الالزام والتبكيت بنفيها عن المسيح فقط بان يقال فهل يملك شيئا من الله ان اراد
الخ لتحقيق الحق بنفى الالوهية عن كل ما عداه سبحانه واثبات المطلوب فى ضمنه بالطريق
البرهانى فان انتفاء المالكية المستلزم لاستحالة الالوهية متى ظهر بالنسبة
الى الكل ظهر بالنسبة الى المسيح على ابلغ وجه واكده فيظهر استحالة الوهيته قطعا و
تعميم ارادة الاهلاك للكل مع حصول ما ذكر من التحقيق بقصرها عليه بان يقال فمن
يملك من الله شيئا ان اراد ان يهلك المسيح لتهويل الخطب واظهار كمال العجز ببيان ان الكل
تحت قهره تعالى وملكوته لا يقدر احد على دفع ما اريد به فضلا عن دفع ما اريد بغيره
وللايذان بان المسيح اسوة لسائر المخلوقات فى كونه عرضة للهلاك كما انه اسوة
لها فيما ذكر من العجز وعدم استحقاق الالوهية وتخصيص امه بالذكر مع اندراجها
فى ضمن من فى الارض لزيادة تأكيد عجز المسيح ولعل نظمها فى سلك من فرض ارادة
اهلاكهم مع تحقق هلاكها قبل ذلك لتأكيد التبكيت وزيادة تقرير مضمون الكلام

بجعل حالها انموذجا لحال البقية من فرض اهلاكه كانه قيل فمن يملك من الله شيئا ان
اراد ان يهلك المسيح بن مريم وامه ومن في الارض وقد اهلك امه فهل مانعه احد فكذا
حال من عداهما من الموجودين وقوله تعالى ولله ملك السموات والارض وما بينهما
اي ما بين قطري العالم الجسماني لا بين وجه الارض ومقعر فلك القمر فقط فيتناول
ما في السموات من الملائكة وما في اعماق الارض والبحار من المخلوقات تنصيص
على كون الكل تحت قهره تعالى وملكوته اثر الاشارة الى كون البعض اي من في الارض
كذلك اي له تعالى وحده ملك جميع الموجودات والتصرف المطلق فيها ايجادا واعداما
واحياء واماتة لا لاحد سواه استقلالا ولا اشتراكا فهو تحقيق لاختصاص الالوهية
به تعالى اثر بيان انتفائها عن كل ما سواه وقوله تعالى يخلق ما يشاء جملة مستأنفة
مسوقة لبيان بعض احكام الملك والالوهية على وجه يزيح ما اعتراهم من الشبهة
في امر المسيح لولادته من غير اب وخلق الطير واحياء الموتى وابراء الاكمه والابرص
اي يخلق ما يشاء من انواع الخلق والايجاد على ان ما نكرة موصوفة محلها النصب
على المصدرية لا على المفعولية كانه قيل يخلق اي خلق يشاؤه فتارة يخلق من غير
اصل كخلق السموات والارض واخرى من اصل كخلق ما بينهما فينشئ من اصل ليس
من جنسه كخلق آدم وكثير من الحيوانات ومن اصل يجانسه اما من ذكر وحده
كخلق حوا او انثى وحدها كخلق عيسى عليه السلام او منهما كخلق ساير الناس
ويخلق بلا توسط شيء من المخلوقات كخلق عامة المخلوقات وقد يخلق بتوسط
مخلوق آخر كخلق الطير على يد عيسى عم معجزة له واحياء الموتى وابراء الاكمه
والابرص وغير ذلك فيجب ان ينسب كله اليه تعالى لا الى من اجرى ذلك على يده
والله على كل شيء قدير اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله واظهار الاسم الجليل
للتعليل وتقوية استقلال الجملة وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله
واحباؤه حكاية لما صدر عن الفريقين من الدعوى الباطلة وبيان لبطلانها
الباطلة بعد ذكر ما صدر عن احدهما وبيان بطلانه اي قالت اليهود نحن اشياع
ابنه عزير وقالت النصارى نحن اشياع ابنه المسيح كما قيل لاشياع ابي خبيب وهو
عبد الله بن الزبير الخبيبيون وكما يقول اقارب الملوك عند المفاخرة نحن الملوك
وقال ابن عباس رضه ان النبي صلى الله عليه وسلم دعى جماعة من اليهود الى دين
الاسلام وخوفهم بعقاب الله تعالى فقالوا كيف تخوفنا به ونحن ابناء الله واحباؤه
وقيل ان النصارى يتلون في الانجيل ان المسيح قال لهم اني ذاهب الى ابي وابيكم وقيل
ارادوا ان الله تعالى كالاب لنا في الحنو والعطف ونحن كالابناء له في القرب والمنزلة
وبالجملة انهم كانوا يدعون ان لهم فضلا ومزية عند الله تعالى على ساير الخلق فرد
عليهم ذلك وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم قل اي الزاما لهم وتبكيتا فلم
يعذبكم بذنوبكم اي ان صح ما زعمتم فلاي شيء يعذبكم في الدنيا بالقتل والاسر
والمسخ وقد اعترفتم بانه تعالى سيعذبكم في الآخرة بالنار اياما بعدد ايام عبادتكم
العجل ولو كان الامر كما زعمتم لما صدر عنكم ما صدر ولما وقع
عليكم ما وقع وقوله تعالى بل انتم بشر عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام اي لستم كذلك
بل انتم بشر ممن خلق اي من جنس من خلقه الله تعالى من غير مزية لكم عليهم يغفر
لمن يشاء ان يغفر له من اولئك المخلوقين وهم الذين آمنوا بالله تعالى وبرسله ويعذب
من يشاء ان يعذبه منهم وهم الذين كفروا بالله وبرسله مثلكم ولله ملك السموات
والارض وما بينهما من الموجودات لا ينتمي اليه سبحانه شيء منها الا بالمملوكية والعبودية
والمقهورية تحت ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء ايجادا واعداما احياء واماتة
واثابة وتعذيبا فاني لهم ادعاء ما زعموا واليه المصير في الآخرة خاصة لا الى
غيره استقلالا واشتراكا فيجازي كلا من المحسن والمسيء بما يستدعيه علمه من غير
صارف يثنيه ولا عاطف يلويه يا اهل الكتاب تكرير للخطاب بطريق الالتفات

ولطف في الدعوة قد جاءكم رسولنا يبين لكم حال من رسولنا وايثار على مبينا لما
مر فيما سبق اي يبين لكم الشرايع والاحكام الدينية المقرونة بالوعد والوعيد ومن جملتها
ما بين في الآيات السابقة من بطلان اقاويلكم الشنيعة وما سيأتي من اخبار الامم
السالفة وانما حذف تعويلا على ظهور ان مجيء الرسل انما هو لبيانها او يفعل لكم البيان
ويبذله في كل ما تحتاجون فيه الى البيان من امور الدين واما تقدير مثل ما سبق
في قوله تعالى كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب كما قيل فمع كونه تكريرا من غير فائدة
يرده قوله عز وجل على فترة من الرسل فان فتور الارسال وانقطاع الوحي انما
يحوج الى بيان الشرايع والاحكام لا الى بيان ما كتموه وعلى فترة متعلق بجاءكم على الظرفية
كما في قوله تعالى واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان اي جاءكم حين فتور من
الارسال وانقطاع من الوحي ومزيد احتياج الى بيان الشرايع والاحكام الدينية
او بمحذوف وقع حالا من ضمير يبين او من ضمير لكم ما ذكر حال كونه على فترة من الرسل
او حال كونكم عليها اخر ما كنتم احوج اليه ومن الرسل متعلق بمحذوف وقع
صفة لفترة اي كائنة من الرسل مبتدئة من جهتهم وقوله تعالى ان تقولوا
تعليل لمجيء الرسول بالبيان على حذف المضاف اي كراهة ان تقولوا معتذرين
عن تفريطكم في مراعاة احكام الدين ما جاءنا من بشير ولا نذير وقد انطمست
آثار الشرايع السابقة وانقطعت اخبارها وزيادة من في الفاعل للمبالغة في نفي
المجيء وتنكير بشير ونذير للتقليل وهذا كما ترى يقتضي بان المقدر او المنوي فيما
سبق هو الشرايع والاحكام لا كيف ما كانت بل مسموعة بما ذكر من الوعد والوعيد
وقوله تعالى فقد جاءكم بشير ونذير متعلق بمحذوف ينبئ عنه الفاء الفصيحة
ويبين انه معلل به وتنوين بشير ونذير للتفخيم لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم
بشير اي بشير ونذير اي نذير والله على كل شيء قدير فيقدر على الارسال تترى كما فعله
بين موسى وعيسى عليهما السلام حيث كان بينهما الف وسبعمائة سنة والف نبي
وعلى الارسال بعد الفترة كما فعله بين عيسى ومحمد عليهما السلام والصلوة حيث
كان بينهما ستمائة سنة او خمسمائة وتسع وستون سنة او خمسمائة وست و
اربعون سنة واربعة انبياء على ما روي الكلبي ثلاثة من بني اسرائيل وواحد من العرب
خالد بن سنان العبسي وقيل لم يكن بعد عيسى الى رسول الله عليهما السلام وهو الانسب
بما نحن فيه فترة من التفخيم اللائق بمقام الامتنان عليهم بان الرسول قد بعث اليهم
عند كمال حاجتهم اليه بسبب مضي دهر طويل من انقطاع الوحي ليهتدوا اليه و
يعدوه اعظم من الله تعالى وفتح باب الى الرحمة وتلزمهم الحجة فلا يعتلوا غدا بانه
لم يرسل اليهم من ينبههم عن غفلتهم واذ قال موسى لقومه جملة مستأنفة مسوقة
لبيان ما فعلت بنو اسرائيل بعد اخذ الميثاق منهم وتفصيل كيفية نقضهم له و
تعلقه بما قبله من حيث ان ما ذكر فيه من الامور التي وصف النبي عم بتبيانها
ومن حيث اشتماله على انتفاء فترة الرسل فيما بينهم واذ نصب على انه مفعول لفعل
مقدر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن اهل
الكتاب ليعدد عليهم ما صدر عن بعضهم من الجنايات اي واذكر لهم وقت
قول موسى لقومه ناصحا لهم ومستميلا لهم باضافتهم اليه يا قوم اذكروا نعمة
الله عليكم وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع انها
المقصودة بالذات للمبالغة في ايجاب ذكرها لما ان ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر
ما وقع فيه بالطريق البرهاني ولان الوقت مشتمل على ما وقع فيه تفصيلا فاذا
استحضر كان ما وقع فيه حاضرا بتفاصيله كانه مشاهد عيانا وعليكم متعلق بنفس
النعمة اذا جعلت مصدرا وبمحذوف وقع حالا منها اذا جعلت اسما اي اذكروا انعامه
عليكم واذكروا نعمته كائنة عليكم وكذا اذ في قوله تعالى اذ جعل فيكم انبياء اي
اذكروا انعامه تعالى عليكم في وقت جعله او اذكروا نعمته تعالى كائنة عليكم في وقت

جعله فيما بينكم من اقربائكم انبياء ذوي عدد كثير واولي شان خطير حيث لم يبعث
من امة من الامم من بني اسرائيل من الانبياء وجعلكم ملوكا عطف على جعل
فيكم داخل في حكمه اي جعل فيكم او منكم ملوكا كثيرة فانه قد تكاثر فيهم الملوك تكاثر
الانبياء وانما حذف الظرف تعويلا على ظهور الامر وجعل الكل في مقام الامتنان
عليهم ملوكا لما ان اقارب الملوك يقولون عند المفاخرة نحن الملوك وانما لم يسلك
ذلك المسلك فيما قبله لما ان منصب النبوة من عظم الخطر وعزة المطلب وصعوبة
المنال ليس بحيث يليق ان ينسب اليه ولو مجازا من ليس ممن اصطفاه الله له وقيل
كانوا مملوكين في ايدي القبط فانقذهم الله تعالى فسمى انقاذهم ملكا وقيل الملك
من له مسكن واسع فيه ماء جار وقيل من له بيت وخدم وقيل من له مال لا يحتاج
معه الى تكلف الاعمال وتحمل المشاق وآتاكم ما لم يؤت احدا من العالمين
من فلق البحر واغراق العدو وتظليل الغمام وانزال المن والسلوى وغير ذلك مما
آتاهم الله تعالى من الامور العظام والمراد بالعالمين الامم الخالية الى زمانهم
وقيل عالمي زمانهم يا قوم ادخلوا الارض المقدسة كرر النداء بالاضافة
التشريفية اهتماما بشان الامر ومبالغة في حثهم على الامتثال به والارض هي ارض
بيت المقدس سميت بذلك لانها كانت قرار الانبياء ومسكن المؤمنين وقيل هي الطور
وما حوله وقيل دمشق وفلسطين وبعض الاردن وقيل هي الشام التي كتب الله لكم
اي كتب في اللوح انها تكون مسكنا لكم ان آمنتم واطعتم لقوله تعالى بعد ما عصوا
فانها محرمة عليهم وقوله تعالى ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين
فان ترتيب الخيبة والخسران على الارتداد يدل على اشتراط الكتب بالمجاهدة المترتبة
على الايمان والطاعة قطعا اي لا ترجعوا مدبرين خوفا من الجبابرة فالجار والمجرور
متعلق بمحذوف هو حال من فاعل ترتدوا ويجوز ان يتعلق بنفس الفعل قيل لما سمعوا
احوالهم من النقباء بكوا وقالوا يا ليتنا متنا بمصر تعالوا نجعل لنا راسا ينصرف بنا الى
مصر او لا ترتدوا من دينكم بالعصيان وعدم الوثوق بالله تعالى وقوله فتنقلبوا اما
مجزوم عطفا على ترتدوا او منصوب على جواب النهي والخسران خسران الدين والدنيا
لا سيما دخول ما كتب لهم قالوا استئناف مبني على سؤال نشا من سياق الكلام
كانه قيل فما قالوا مقابلة لامره عليه السلام ونصحه فقيل قالوا غير ممتثلين
بذلك ان فيها قوما جبارين متغلبين لا يتأتى منازعتهم ولا يتسنى مناصبتهم
والجبار العاتي الذي يجبر الناس ويقسرهم كائنا من كان على ما يريده كائنا ما كان
فعال من جبره على الامر اي اجبره عليه وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها من غير
صنع من قبلنا فانه لا طاقة لنا باخراجهم منها فان يخرجوا منها بسبب من
الاسباب التي لا تعلق لنا بها فانا داخلون حينئذ اتوا بهذه الشرطية مع كون
مضمونها مفهوما مما سبق من توقيت عدم الدخول بخروجهم منها تصريحا
بالمقصود وتنصيصا على ان امتناعهم من دخولها ليس الا لمكانهم فيها واتوا
في الجزاء بالجملة الاسمية المصدرة بحرف التحقيق دلالة على تقرر الدخول وثباته عند
تحقق الشرط لا محالة واظهارا لكمال الرغبة فيه وفي الامتثال بالامر قال رجلان
استئناف كما سبق كانه قيل هل اتفقوا على ذلك او خالفهم البعض فقيل قال رجلان
من الذين يخافون اي يخافون الله تعالى دون العدو ويتقونه في مخالفة امره ونهيه
وبه قرأ ابن مسعود رضه وفيه تعريض بان ما عداهما لا يخافونه تعالى بل يخافون العدو
وقيل من الذين يخافون العدو اي منهم في النسب لا في الخوف وهما يوشع بن نون
وكالب بن يوقنا من النقباء وقيل هما رجلان من الجبابرة اسلما وصارا الى موسى عم
فالواو حينئذ لبني اسرائيل والموصول عبارة عن الجبابرة واليهم يعود العائد المحذوف
اي من الذين يخافهم بنو اسرائيل ويعضده قراءة من قرأ يخافون على صيغة المبني
للمفعول اي المخوفين وعلى الاول يكون هذا من الاخافة اي من الذين يخوفون من الله تعالى بالتذكير

او يخوفهم

او يخوفهم الوعيد انعم الله عليهما اي بالتثبيت وربط الجاش والوقوف على شؤونه
تعالى او الثقة بوعده او بالايمان وهو صفة ثانية لرجلان او اعتراض وقيل حال من
الضمير في يخافون او من رجلان لتخصصه بالصفة اي قالا مخاطبين لهم ومشجعين
ادخلوا عليهم الباب اي باب بلدهم وتقديم الجار والمجرور عليه للاهتمام به لان
المقصود انما هو دخول الباب وهم في بلدهم اي باغتوهم وضاغطوهم في المضيق
وامنعوهم من البروز الى الصحراء لئلا يجدوا للحرب مجالا فاذا دخلتموه اي باب بلدهم
وهم فيه فانكم غالبون من غير حاجة الى القتال فانا قد رأيناهم وشاهدناهم
ان قلوبهم ضعيفة وان كانت اجسادهم عظيمة فلا تخشوهم واهجموا عليهم في
المضايق فانهم لا يقدرون فيها على الكر والفر وقيل انما حكما بالغلبة لما علماها من
جهة موسى عم ومن قوله تعالى كتب الله لكم او لما علما من سنته تعالى في نصرة رسله
وما عهدا من صنعه تعالى لموسى عم من قهر اعدائه والاول انسب بتعليق الغلبة
بالدخول وعلى الله تعالى خاصة فتوكلوا بعد ترتيب الاسباب ولا تعتمدوا عليها
فانها بمعزل من التأثير وانما التأثير من عند الله العزيز القدير ان كنتم مؤمنين اي مؤمنين
به تعالى مصدقين لوعده فان ذلك مما يوجب التوكل عليه حتما قالوا استئناف كما
سبق اي قالوا غير مبالين بهما وبمقالتهما مخاطبين لموسى عم اظهارا لاصرارهم
على القول الاول وتصريحا بمخالفتهم له عليه السلام يا موسى انا لن
ندخلها اي ارض الجبابرة فضلا من دخول بابهم وهم في بلدهم ابدا
اي دهرا طويلا ما داموا فيها اي في ارضهم وهو بدل من ابدا بدل البعض
او عطف بيان فاذهب الفاء فصيحة اي فاذا كان الامر كذلك فاذهب انت وربك
فقاتلا اي فقاتلاهم انما قالوا ذلك استهانة واستهزاء به سبحانه وبرسوله
وعدم مبالاة بهما وقصدوا ذهابهما حقيقة كما ينبئ عنه غاية جهلهم
وقسوة قلوبهم وقيل ارادوا ارادتهما وقصدهما كما تقول كلمته فذهب يجيبني كانهم
قالوا فاريدا قتالهم واقصداهم وقيل التقدير فاذهب انت وربك يعينك
ولا يساعده قوله تعالى فقاتلا ولم يذكروا هارون ولا الرجلين كانهم لم يجزموا بذهابهم
او لم يعبؤوا بقتالهم وقوله تعالى انا هاهنا قاعدون يؤيد الوجه الاول ارادوا
بذلك عدم التقدم لا عدم التأخر قال عليه السلام لما رأى منهم ما رأى من
العناد على طريقة البث والحزن والشكوى الى الله تعالى مع رقة القلب التي بمثلها
تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة رب اني لا املك الا نفسي واخي عطف على نفسي
وقيل على الضمير في اني على معنى لا املك الا نفسي وان اخي لا يملك الا نفسه
وقيل على الضمير في لا املك للفصل فافرق بيننا يريد نفسه واخاه والفاء لترتيب
الفرق او الدعاء به على ما قبله وبين القوم الفاسقين الخارجين عن طاعتك المصرين
على عصيانك بان تحكم لنا بما نستحقه وعليهم بما يستحقونه وقيل بالتبعيد بيننا
وبينهم وتخليصنا من صحبتهم قال فانها اي الارض المقدسة والفاء لترتيب ما بعدها
على ما قبلها من الدعاء محرمة عليهم تحريم منع لا تحريم تعبد لا يدخلونها ولا
يملكونها لان كتابتها لهم كانت مشروطة بالايمان والجهاد وحيث نكصوا على ادبارهم
حرموا ذلك وانقلبوا خاسرين وقوله تعالى اربعين سنة ان جعل ظرفا لمحرمة يكون
التحريم موقتا لا مؤبدا فلا يكون مخالفا لظاهر قوله تعالى كتب الله لكم فالمراد بتحريمها
عليهم انه لا يدخلها احد منهم في هذه المدة لكن لا بمعنى كلهم يدخلونها بعدها بل بعضهم
ممن بقي حسبما روي ان موسى عم سار بمن بقي من بني اسرائيل الى اريحا وكان يوشع بن
نون على مقدمته ففتحها واقام بها ما شاء الله تعالى ثم قبض عليه السلام وقيل
لم يدخلها احد ممن قال لن ندخلها ابدا وانما دخلها مع موسى عم النواشئ من ذرياتهم
فالموقت بالاربعين في الحقيقة تحريمها على ذرياتهم وانما جعل تحريمها عليهم لما
بينهما من العلاقة التامة المتاخمة للاتحاد وقوله تعالى يتيهون في الارض اي

يتحيرون

في البرية استيناف لبيان كيفية حرمانهم او حال من ضمير عليهم و قيل الظرف متعلق بيتيهون
فيكون التيه موقتا والتحريم مطلقا قيل كانوا ستمائة الف مقاتل وكان طول البرية
تسعين فرسخا وقد تاهوا في ستة فراسخ او تسعة فراسخ في ثلاثين فرسخا و قيل في
في ستة فراسخ او تسعة في اثني عشر فرسخا روي انهم كانوا كل يوم يسيرون جادين حتى
اذا امسوا اذا هم بحيث ارتحلوا وكان الغمام يظلهم من حر الشمس ويطلع بالليل عمود
من نور يضيئ لهم و ينزل عليهم المن و السلوى و لا يطول شعورهم واذا ولد لهم
مولود كان عليه ثوب كالظفر يطول بطوله وهذه الانعامات عليهم مع انهم معاقبون
لما ان عقابهم كان بطريق العرك والتاديب قيل كان موسى وهرون معهم ولكن كان
ذلك لهما روحا وسلامة كالنار لابراهيم وملئكة العذاب عليهم السلام وروي
ان هرون مات في التيه ومات موسى بعده فيه بسنة و دخل يوشع اريحا بعد موته
بثلاثة اشهر ولا يساعده ظاهر النظم الكريم فانه تعالى بعد ما قبل دعوته على بني
اسرائيل وعذبهم بالتيه بعيد ان يجيء بعض المدعو عليهم او ذراريهم ويفقده وفاتهما
في محل العقوبة ظاهرا وان كان ذلك لهما منزل روح وراحة و قد قيل
انهما لم يكونا في التيه وهو الانسب بتفسير الفرق بالمباعدة و من قال بانهما
كانا معهم فيه فقد فسر الفرق بما ذكر من الحكم بما يستحقه كل فريق فلا تأس فلا
تحزن على القوم الفاسقين روي انه عليه السلام ندم على دعائه عليهم فقيل
لا تندم ولا تحزن عليهم فانهم احقاء بذلك لفسقهم واتل عليهم عطف
على مقدر تعلق به قوله تعالى واذ قال موسى الخ وتعلقه به من حيث انه تمهيد لما
سيأتي من جنايات بني اسرائيل بعد ما كتب وجاءتهم الرسل بما جاءت به من البينات
نبا ابني آدم هما قابيل وهابيل ونقل عن الحسن والضحاك انهما رجلان من اسرائيل
بقرينة آخر القصة وليس كذلك اوحى الله عز وجل الى آدم ان تزوج كلا منهما توامة
الآخر وكانت توامة قابيل اجمل واسمها اقليما فحسد عليها اخاه وسخط وزعم
ان ذلك ليس من عند الله تعالى بل من جهة آدم عليه السلام فقال لهما آدم قربا قربانا
فمن ايكما قبل تزوجها فقبلاه ونزلت نار على قربان هابيل فاكلته ولم تتعرض لقربان
قابيل فازداد قابيل حسدا وسخطا وفعل ما فعل بالحق متعلق بمحذوف وقع
صفة لمصدر محذوف اي تلاوة ملتبسة بالحق والصحة او حالا من فاعل اتل
او من مفعوله اي ملتبسا انت او نباهما بالحق والصدق حسبما تقرر في كتب الاولين
اذ قربا قربانا منصوب بالنبأ ظرف له اي اتل قصتهما ونباهما في ذلك الوقت
وقيل بدل منه على حذف المضاف اي اتل عليهم نباهما نبأ ذلك الوقت ورد عليه
بان اذ لا يضاف اليها غير الزمان كوقتئذ وحينئذ والقربان اسم لما يتقرب به الى
الله عز وجل من نسكه او صدقة كالحلوان اسم لما يحلى اي يعطى وتوحيده لما انه
في الاصل مصدر وقيل تقديره اذ قرب كل منهما قربانا فتقبل من احدهما هو
هابيل قيل كان هو صاحب ضرع وقرب جملا سمينا فنزلت نار فاكلته ولم يتقبل
من الآخر هو قابيل قيل كان هو صاحب زرع وقرب اردا ما عنده من القمح
فلم تتعرض له النار اصلا قال استيناف مبني على سؤال نشأ من سوق الكلام
كانه قيل فماذا قال من لم يتقبل قربانه فقيل قال لاخيه لمضاعفة سخطه وحسده
بما ظهر من فضله عليه عند الله عز وجل لاقتلنك اي والله لاقتلنك بالنون
المشددة وقرئ بالمخففة قال استيناف كما قبله اي قال الذي تقبل قربانه لما
راى ان حسده لقبول قربانه وعدم قبول قربان نفسه انما يتقبل الله اي القربان
من المتقين لا من غيرهم وانما تقبل قرباني ورد قربانك لما فينا من التقوى وعدمه
اي انما اتيت من قبل نفسك لا من قبلي فلم تقتلني خلا انه لم يصرح بذلك بل سلك
مسلك التعريض حذرا من تهييج غضبه وحملا له على التقوى والاقلاع عن نواه و
لذلك اسند الفعل الى الاسم الجليل لتربية المهابة ثم صرح بتقواه على وجه يستدعي

سكونا

سكون غيظه لو كان له عقل وازع حيث قال بطريق التوكيد لئن بسطت الي يدك لتقتلني
ما انا بباسط يدي اليك لاقتلك حيث صدر الشرطية باللام الموطئة للقسم و
قدم الجار والمجرور على المفعول الصريح ايذانا من اول الامر برجوع ضرر البسط وغائلته
اليه ولم يجعل جواب القسم الساد مسد جواب الشرط جملة فعلية موافقة لما في
الشرط بل اسمية مصدرة بما الحجازية المفيدة لتاكيد النفي بما في خبرها من الباء للمبالغة
في اظهار براءته عن بسط اليد ببيان استمراره على نفي البسط كما في قوله تعالى وما
هم بمؤمنين وقوله وما هم بخارجين منها فان الجملة الاسمية الايجابية كما تدل
بمعونة المقام على دوام الثبوت كذلك السلبية تدل بمعونته على دوام الانتفاء لا على
انتفاء الدوام وذلك باعتبار الدوام والاستمرار بعد اعتبار النفي لا قبله حتى يرد النفي
على المقيد بالدوام فيرفع قيده اي والله لئن باشرت قتلي حسبما اوعدتني به وتحقق
ذلك منك ما انا بفاعل مثله لك في وقت من الاوقات ثم علل ذلك بقوله اني اخاف الله
رب العالمين وفيه من ارشاد قابيل الى خشية الله تعالى على ابلغ وجه واكده ما
لا يخفى كانه قال اني اخافه تعالى ان بسطت اليك لاقتلك ان يعاقبني وان كان ذلك
مني لدفع عداوتك عني فما ظنك بحالك وانت البادئ العادي وفي وصفه تعالى
بربوبيته العالمين تاكيد للخوف قيل كان هابيل اقوى منه ولكن تحرج عن قتله
واستسلم خوفا من الله تعالى لان القتل للدفع لم يكن مباحا حينئذ وقيل تحريا
لما هو الافضل حسبما قال صلى الله عليه وسلم كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل
ويأباه التعليل بخوفه تعالى الا ان يدعى ان ترك الاولى عنده بمنزلة المعصية في استتباع
الغائلة مبالغة في التنزه وقوله تعالى اني اريد ان تبوء باثمي واثمك تعليل آخر لامتناعه
عن المعارضة على انه غرض متاخر عنه كما ان الاول باعث متقدم عليه وانما لم يعطف عليه تنبيها
على كفاية كل منهما في العلية والمعنى اني اريد باستسلامي لك وامتناعي عن التعرض لك ان
ترجع باثمي اي بمثل اثمي لو بسطت يدي اليك وباثمك ببسط يدك الي كما في قوله صلعم المستبان
ما قالا فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم اي على البادئ عين اثم سبه ومثل اثم صاحبه بحكم كونه
سببا له وقيل معنى باثمي اثم قتلي ومعنى باثمك اثمك الذي لاجله لم يتقبل قربانك
وكلاهما نصب على الحالية اي ترجع ملتبسا بالاثمين حاملا لهما ولعل مراده بالذات
هو عدم ملابسته للاثم لا ملابسة اخيه له وقيل المراد بالاثم عقوبته ولا ريب
في جواز ارادة العقوبة العاصي ممن علم انه لا يرعوي عن المعصية اصلا ويأباه
قوله عز وجل فتكون من اصحاب النار فان كونه منهم انما يترتب على رجوعه
بالاثمين لا على ابتلائه بعقوبتهما وحمل العقوبة على نوع آخر يترتب عليها العقوبة
النارية يرده قوله تعالى وذلك جزاء الظالمين فانه صريح في ان كونه من اصحاب
النار تمام العقوبة وكمالها والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها ولقد سلك في صرفه
عما نواه من الشر كل مسلك من العظة والتذكير بالترغيب تارة والترهيب اخرى فما
اورثه ذلك الا الاصرار على الغي والانهماك في الفساد فطوعت له نفسه قتل اخيه
اي وسعته وسهلته من طاع له المرتع اذا اتسع وترتيب التطويع على ما حكى من
مقالات هابيل مع تحققه قبلها ايضا كما يفصح عنه قوله لاقتلنك لما ان بقاء الفعل
بعد تقرر ما يزيلها من الدواعي القوية وان كان استمرارا عليه بحسب الظاهر لكنه في الحقيقة
امر حادث وصنع جديد كما في قولك وعظته فلم يتعظ ولان هذه المرتبة من التطويع لم
تكن حاصلة قبل ذلك بناء على تردده في قدرته على القتل لما انه كان اقوى منه وانما
حصلت بعد وقوفه على استسلام هابيل وعدم معارضته له والتصريح باخوته لكمال تقبيح
ما سولته نفسه وقرئ فطاوعت على انه فاعل بمعنى فعل او على ان قتل اخيه كان دعا
نفسه الى الاقدام عليه فطاوعته ولم يمتنع وله لزيادة الربط كقولك حفظت لزيد
ماله فقتله قيل لم يدر قابيل كيف يقتل هابيل فتمثل ابليس واخذ طايرا ووضع راسه على
حجر ثم شدخها بحجر آخر فتعلم منه فرضخ راس هابيل بين حجرين وهو مستسلم لا يستعصي

عليه وقيل اغتاله وهو نائم وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة واختلف في موضع قتله
فقيل عند عقبة حراء وقيل بالبصرة في موضع المسجد الاعظم وقيل في جبل ثور ولما
قتله تركه بالعراء لا يدري ما يصنع به فخاف عليه السباع فحمله في جراب على ظهره اربعين
يوما وقيل سنة اروح وعكفت عليه الطيور والسباع تنتظر متى يرمي به فتاكله فاصبح
من الخاسرين دينا ودنيا فبعث الله غرابا يبحث في الارض ليريه كيف يواري
سوءة اخيه روي انه تعالى بعث غرابين فاقتتلا فقتل احدهما الاخر فحفر له بمنقاره
ورجليه حفرة فالقاه فيها والمستكن في يريه لله تعالى او للغراب واللام على الاول متعلقة
ببعث حتما وعلى الثاني بيبحث ويجوز تعلقها ببعث ايضا وكيف حال من ضمير يواري و
الجملة ثاني مفعولي يري والمراد بسوءة اخيه جسده الميت قال استئناف مبني على
سؤال نشأ من سوق الكلام كانه قيل فماذا قال عند مشاهدة حال الغراب فقيل
قال يا ويلتا هي كلمة جزع وتحسر والالف بدل من ياء المتكلم والمعنى يا ويلتي احضري
فهذا اوانك والويل والويلة الهلكة اعجزت ان اكون اي عن اكون مثل هذا
الغراب فاواري سوءة اخي تعجب من عدم اهتدائه الى ما اهتدى اليه الغراب وقوله
تعالى فاواري بالنصب عطف على اكون وقرئ بالرفع اي فانا اواري فاصبح من
النادمين اي على قتله لما كابد فيه من التحير في امره وحمله على رقبته مدة طويلة
وروي انه لما قتله اسود جسده وكان ابيض فسأله آدم عن اخيه فقال ما كنت
عليه وكيلا قال بل قتلته ولذلك اسود جسدك ومكث آدم بعده مائة سنة لا
يضحك وقيل لما قتل قابيل هابيل هرب الى عدن من ارض اليمن فاتاه ابليس فقال
انما اكلت النار قربان هابيل لانه كان يخدمها ويعبدها فان عبدتها ايضا حصل مقصودك
فبنى بيت نار فعبدها وهو اول من عبد النار من اجل ذلك شروع فيما هو المقصود
بتلاوة النبأ من بيان بعض آخر من جنايات بني اسرائيل ومعاصيهم وذلك اشارة
الى عظم شان القتل وافراط قبحه المفهوم مما ذكر في تضاعيف القصة من
استعظام هابيل له وكمال اجتنابه عن مباشرته وان كان ذلك بطريق الدفع عن
نفسه واستسلامه لان يقتل خوفا من عقابه وبيان استتباعه لتحمل القاتل لاثم
المقتول ومن كون قابيل مباشرته من جملة الخاسرين دينهم ودنياهم ومن
ندامته على فعله مع ما فيه من العتو وشدة الشكيمة وقساوة القلب والاجل في الاصل
مصدر اجل شرا اذا جناه واستعمل في تعليل الجنايات كما في قولهم من جراك فعلته
اي من اجرته وجنيته ثم اتسع فيه واستعمل في كل تعليل وقرئ من اجل بكسر
الهمزة وهي لغة فيه وقرئ من اجل بحذف الهمزة والقاء فتحها على النون ومن لابتداء
الغاية متعلقة بقوله تعالى كتبنا على بني اسرائيل وتقديمها عليه للقصر اي من ذلك ابتداء
الكتب ومنه نشأ لا من شيء آخر اي قضينا عليهم وبينا انه من قتل نفسا واحدة
من النفوس بغير نفس اي بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص او فساد في الارض
اي فساد يوجب اهدار دمها وهو عطف على ما اضيف اليه غير على معنى نفي كلا
الامرين معا كما في قولك من صلى بغير وضوء او تيمم بطلت صلاته لا نفي احدهما
كما في قولك من صلى بغير وضوء وثوب بطلت صلاته ومدار الاستعمالين اعتبار وروده
النفي على ما يستفاد من كلمة او من الترديد بين الامرين المنبئ عن التخيير والاباحة
واعتبار العكس ومناط الاعتبارين اختلاف حال ما اضيف اليه غير من الامرين
بحسب اشتراط نقيض الحكم بتحقق احدهما واشتراطه بتحققهما معا ففي الاول يرد
النفي على الترديد الواقع بين الامرين قبل وروده فيفيد نفيهما معا وفي الثاني
يرد الترديد على النفي فيفيد نفي احدهما حتما اذ ليس قبل ورود النفي ترديد حتى يتصور عكسه
وتوضيحه ان كل حكم شرط بتحقق احد شيئين مثلا فنقيضه مشروط بانتفائهما معا و
كل حكم شرط بتحققهما معا فنقيضه مشروط بانتفاء احدهما ضرورة ان نقيض كل شيء
مشروط بنقيض شرطه ولا ريب في ان نقيض الايجاب الجزئي كما في الحكم الاول هو

السلب الكلي ونقيض الايجاب الكلي كما في الحكم الثاني هو رفعه المستلزم للسلب الجزئي
فثبت نقيض اشتراط الاول بانتفائهما معا واشتراط نقيض الثاني بانتفاء احدهما
ولما كان الحكم في قولك من صلى بوضوء وتيمم صحت صلاته مشروطا بتحقق احدهما
مبهما كان نقيضه في قولك من صلى بغير وضوء او تيمم بطلت صلاته مشروطا بنقيض
الشرط المذكور البتة وهو انتفاؤهما معا فتعين ورود النفي المستفاد من غير على الترديد
الواقع بين الوضوء والتيمم بكلمة او فلما نفي تحققهما معا ضرورة عموم النفي الوارد على المبهم
وعلى هذا يدور ربما قالوا انه اذا قيل جالس العلماء او الزهاد ثم ادخل عليه لا الناهية
امتنع فعل الجميع نحو ولا تطع منهم آثما او كفورا اذ المعنى لا تفعل احدهما فايهما فعله
فهو احدهما واما قولك من صلى بوضوء وثوب صحت صلاته فحيث كان الحكم فيه
مشروطا بتحقق كلا الامرين كان نقيضه في قولك من صلى بغير وضوء او ثوب بطلت
صلاته مشروطا بنقيض الشرط المذكور وهو انتفاء احدهما فتعين ورود الترديد
على النفي فافاد نفي احدهما ولا يخفى ان اباحة القتل مشروطة باحد ما ذكر من القتل
والفساد ومن ضرورته اشتراط حرمته بانتفائهما معا فتعين ورود النفي على الترديد
لا محالة كانه قيل من قتل نفسا بغير احدهما فكانما قتل الناس جميعا فمن قال
في تفسيره او بغير فساد فقد ابعد عن توفية النظم الكريم حقه وما في كانما كافة
مهيئة لوقوع الفعل بعدها وجميعا حال من الناس او تاكيد ومناط التشبيه اشتراك
الفعلين في هتك حرمة الدماء والاستعصاء على الله تعالى وتجسير الناس على القتل وفي استتباع
القود واستجلاب غضب الله تعالى وعذابه العظيم ومن احياها اي تسبب لبقاء
نفس واحدة موصوفة بعدم ما ذكر من القتل والفساد في الارض اما بنهي قاتلها
او استنقاذها من سائر اسباب الهلكة بوجه من الوجوه فكانما احيا الناس جميعا
ووجه التشبيه ظاهر والمقصود تهويل امر القتل وتفخيم شان الاحياء بتصوير كل منهما
بصورة لائقة به في ايجاب الرهبة والرغبة ولذلك صدر النظم الكريم بضمير الشان المنبئ
عن كمال شهرته ونباهته وتبادره الى الاذهان عند ذكر الضمير الموجب لزيادة تقرير ما بعده
في الذهن فان الضمير لا يفهم منه من اول الامر الا شان مبهم له خطر فيبقى
الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده فضل تمكن كانه قيل ان الشان
الخطير هذا ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات جملة مستقلة غير معطوفة
على كتبنا اكدت بالتوكيد القسمي وحرف التحقيق لكمال العناية بتحقيق مضمونها
وانما لم يقل ولقد ارسلنا اليهم رسلنا الخ للتصريح بوصول الرسالة اليهم فانه ادل
على تناهيهم في العتو والمكابرة اي وبالله لقد جاءتهم رسلنا حسبما ارسلناهم
بالآيات الواضحة الناطقة بتقرير ما كتبنا عليهم تاكيدا لوجوب مراعاته وتاييدا
لتحتم المحافظة عليه ثم ان كثيرا منهم بعد ذلك اي بعد ما ذكر من الكتب و
تاكيد الامر بارسال الرسل تترى وتجديد العهد مرة بعد اخرى ووضع اسم الاشارة
موضع الضمير للايذان بكمال تميزه وانتظامه بسبب ذلك في سلك الامور المشاهدة
وما فيه من معنى البعد للايماء الى علو درجته وبعد منزلته في عظم الشان وثم
للتراخي في الرتبة والاستبعاد في الارض متعلق بقوله تعالى لمسرفون وكذا الظرف
المتقدم ولا يقدح فيه توسط اللام بينه وبينهما لانها لام الابتداء وحقها الدخول
على المبتدا وانما دخولها على الخبر لمكان ان فهي في حيزها الاصلي حكما والاسراف
في كل امر التباعد عن حد الاعتدال مع عدم مبالاة به اي مسرفون في القتل غير مبالين
به ولما كان اسرافهم في امر القتل مستلزما لتفريطهم في شان الاحياء وجودا و
ذكرا وكان هو اقبح الامرين وافظعهما اكتفى بذكره في مقام التشنيع انما جزاء الذين
يحاربون الله ورسوله كلام مستانف سيق لبيان حكم نوع من انواع القتل
وما يتعلق به من الفساد باخذ المال ونظائره وتعيين موجبه العاجل والآجل
اثر بيان عظم شان القتل بغير حق وادرج فيه بيان ما اشير اليه اجمالا من الفساد المبيح

للقتل وقيل اي يحاربون رسوله وذكر الله تعالى للتمهيد والتنبيه على رفعة محله عنده
عز وجل ومحاربة اهل شريعته وسالكي طريقته من المسلمين محاربة له عليه السلام
فيعم الحكم من يحاربهم ولو بعد اعصار بطريق العبارة دون الدلالة والقياس
لان ورود النص ليس بطريق خطاب المشافهة حتى يختص حكمه بالمكلفين عند
النزول فيحتاج في تعميمه لغيرهم الى دليل اخر وقيل جعل محاربة المسلمين محاربة لله تعالى
ورسوله تعظيما لهم والمعنى يحاربون اولياءهما واصل الحرب السلب والمراد ههنا
قطع الطريق وقيل المكابرة بطريق اللصوصية وان كانت في مصر ويسعون في الارض
عطف على يحاربون والجار متعلق به وقوله تعالى فسادا اما مصدر وقع موقع الحال
لانه في معنى يفسدون على انه مصدر من افسد بحذف الزوائد او اسم مصدر قيل
نزلت الآية في قوم هلال بن عويمر الاسلمي وكان وادع رسول الله صلى الله عليه
وسلم على ان لا يعينه ولا يعين عليه ومن اتاه من المسلمين فهو آمن لا يهاج و
من مر بهلال الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو امن لا يهاج فمر قوم من بني كنانة
يريدون الاسلام بناس من قوم هلال ولم يكن هلال يومئذ شاهدا عليهم
فقطعوا عليهم فقطعوا عليهم وقتلوهم واخذوا اموالهم وقيل نزلت في
العرنيين وقصتهم مشهورة وقيل في قوم من اهل الكتاب بينهم وبين رسول الله
صلى الله عليه وسلم عهد فنقضوا العهد وقطعوا السبيل وافسدوا في الارض
ولما كانت المحاربة والفساد على مراتب متفاوتة ووجوه شتى من القتل
بدون اخذ المال ومن القتل مع اخذه واخذه بدون قتل ومن الاخافة
بدون قتل واخذ شرعت لكل مرتبة من تلك المراتب عقوبة معينة بطريق
التوزيع فقيل ان يقتلوا اي حدا من غير صلب ان افردوا القتل ولو عفى الاولياء
لا يلتفت الى ذلك لانه حق الشرع ولا فرق بين ان يكون القتل بآلة جارحة او لا
او يصلبوا اي مع القتل ان جمعوا بين القتل والاخذ بان يصلبوا احياء وتبعج بطونهم
برمح الى ان يموتوا وفي ظاهر الرواية ان الامام مخير ان شاء اكتفى بذلك وان شاء
قطع ايديهم وارجلهم من خلاف وقتلهم وصلبهم وصيغة التفعيل في الفعلين
للتكثير وقرئ بالتخفيف فيهما او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف اي
ايديهم اليمنى وارجلهم اليسرى ان اقتصروا على اخذ المال من مسلم او ذمي و
كان في المقدار بحيث لو قسم عليهم اصاب كلا منهم عشرة دراهم او ما يساويها
قيمة اما قطع ايديهم فلاخذ المال واما قطع ارجلهم فلاخافة الطريق بتفويت امنه
او ينفوا من الارض ان لم يفعلوا غير الاخافة والسعي للفساد والمراد بالنفي عندنا هو
الحبس فانه نفي عن وجه الارض بدفع شرهم عن اهلها ويعزرون ايضا لمباشرتهم
منكر الاخافة وازالة الامن وعند الشافعي رحمه الله النفي من بلد الى بلد لا يزال يطلب
وهو هارب فزعا وقيل هو النفي عن بلده فقط وكانوا ينفونهم الى دهلك وهو
بلد في اقصى تهامة وناصع وهو بلد من بلاد الحبشة ذلك اي ما فصل
من الاحكام والاجزية وقيل هو مبتدأ وقوله تعالى لهم خزي جملة من خبر مقدم
على المبتدأ وقوله تعالى في الدنيا متعلق بمحذوف وقع صفة لخزي او متعلق بخزي
على الظرفية والجملة في محل الرفع على انها خبر لذلك وقيل خزي خبر لذلك ولهم متعلق
بمحذوف وقع حالا من خزي لانه في الاصل صفة له فلما قدم انتصب حالا وفي الدنيا
اما صفة لخزي او متعلق به على ما مر والخزي الذل والفضيحة ولهم في الآخرة
غير هذا عذاب عظيم لا يقادر قدره لغاية عظم جناياتهم فقوله تعالى لهم خبر
وعذاب مبتدأ مؤخر وفي الآخرة متعلق بمحذوف وقع حالا من عذاب
لانه في الاصل صفة له فلما قدم انتصب حالا اي كائنا في الآخرة الا
الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم استثناء مخصوص
بما هو من حقوق الله عز وجل كما ينبئ عنه قوله

من فاعل يسعون اي مفسدين او مفعول له اي للفساد او مصدر مؤكد ليسعون ع

تعالى فاعلموا ان الله غفور رحيم اما ما هو من حقوق الاولياء من القصاص ونحوه
فاليهم ذلك ان شاؤوا عفوا وان احبوا استوفوا وانما يسقط بالتوبة وجوب استيفائه
لا جوازه وعن علي رضي الله عنه ان الحارث بن بدر جاءه تائبا بعدما كان يقطع الطريق فقبل توبته ودرأ
عنه العقوبة يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله لما ذكر عظم شان القتل والفساد وبين حكمهما
واشير في تضاعيف ذلك الى مغفرته تعالى لمن تاب من جنايته امر المؤمنين بان يتقوه تعالى في كل ما يأتون
وما يذرون بترك ما يجب اتقاؤه من المعاصي التي من جملتها ما ذكر من القتل والفساد وبفعل الطاعات
التي من زمرتها السعي في احياء النفوس ورفع الفساد والمسارعة الى التوبة و
الاستغفار وابتغوا اي اطلبوا لانفسكم اليه اي الى ثوابه والزلفى منه الوسيلة
هي فعيلة بمعنى ما يتوسل به ويتقرب الى الله عز وجل من فعل الطاعات وترك المعاصي
من وسل الى كذا اي تقرب اليه بشيء واليه متعلق بها قدم عليها للاهتمام به وليست
بمصدر حتى لا يعمل فيما قبلها ولعل المراد بها الاتقاء المأمور به فانه ملاك الامر كله
كما اشير اليه وذريعة لنيل كل خير ومنجاة من كل ضير فالجملة حينئذ جارية مما قبلها
مجرى البيان والتأكيد او مطلق الوسيلة وهو داخل فيها دخولا اوليا وقيل الجملة
الاولى امر بترك المعاصي والثانية امر بفعل الطاعات وحيث كان في كل من ترك المعاصي
المشتهاة للنفس وفعل الطاعات المكروهة كلفة ومشقة عقب الامر بهما بقوله
تعالى وجاهدوا في سبيله بمحاربة اعدائه البارزة والكامنة لعلكم تفلحون
بنيل مرضاته والفوز بكراماته ان الذين كفروا كلام مبتدأ مسوق لتاكيد وجوب
الامتثال بالاوامر السابقة وترغيب المؤمنين في المسارعة الى تحصيل الوسيلة اليه
عز وجل قبل انقضاء اوانه ببيان استحالة توسل الكفار يوم القيامة باقوى الوسائل
الى النجاة من العذاب فضلا عن نيل الثواب لو ان لهم اي لكل واحد منهم كما في
قوله تعالى ولو ان لكل نفس ظلمت الآية لا لجميعهم اذ ليس في ذلك هذه المرتبة من
تهويل الامر وتفظيع الحال ما في الارض اي من اصناف اموالها وذخائرها
وسائر منافعها قاطبة وهو اسم ان ولهم خبرها ومحلها الرفع بالاخلاف فعلا انه عند
البعض رفع على الابتداء لا حاجة فيه الى الخبر لاشتمال صلتها على المسند والمسند اليه
وقد اختصت من بين سائر ما يؤول بالاسم بالوقوع بعد لو وقيل الخبر محذوف ثم
يقدر مقدما اي لو ثابت كون ما في الارض لهم وقيل يقدر مؤخرا اي لو كون ما في
الارض لهم ثابت وعند المبرد والزجاج والكوفيين رفع على الفاعلية والفعل مقدر
بعد لو اي لو ثبت ان لهم ما في الارض وقوله تعالى جميعا توكيد للموصول
او حال منه ومثله بالنصب عطف عليه وقوله تعالى معه ظرف وقع حالا من المعطوف
والضمير راجع الى الموصول وفائدته التصريح بفرض كينونتهما لهم بطريق المعية لا بطريق
التعاقب تحقيقا لكمال فظاعة الامر مع ما فيه من نوع اشعار بكونهما شيئا واحدا و
تمهيد لافراد الضمير الراجع اليهما واللام في قوله تعالى ليفتدوا به متعلقة بما تعلق به
خبر ان اعني الاستقرار المقدر في لهم وبالخبر المقدر عند من يرى تقدير الخبر مقدما او
مؤخرا وبالفعل المقدر بعد لو على راي المبرد ومن نحا نحوه ولا ريب في ان مدار الافتداء
بما ذكر هو كونه لهم لا ثبوت كونه لهم وان كان مستلزما له والباء في به متعلقة
بالافتداء والضمير راجع الى الموصول ومثله معا وتوحيده اما لما اشير اليه واما لاجرائه
مجرى اسم الاشارة كانه قيل بذلك كما في قوله كأنه في الجلد توليع البهق اي كان
ذلك وقيل هو راجع الى الموصول والعائد الى المعطوف اعني مثله محذوف كما حذف
الخبر من قيار في قوله فاني وقيار بها لغريب اي وقيار ايضا غريب وقد جوز ان يكون
نصب مثله على انه مفعول معه ناصبه الفعل المقدر بعد لو تفريعا على مذهب المبرد ومن
راى رايه وانت خبير بانه يقتضي ان يكون الرافع للفاعل غير الناصب للمفعول معه
لان المعنى على اعتبار المعية بين ما في الارض ومثله في الكينونة لهم لا في ثبوت تلك الكينونة
وتحققها ولا مساغ لجعل ناصبه الاستقرار المقدم في لهم لما ان سيبويه قد نص على

ان لما اسم الاشارة وحرف الجر المتضمن للاستقرار لايعملان فى المفعول معه وان قوله
هذا لك ابك قبيح وان جوزه بعض النحاة فى الظرف وحرف الجر وقوله تعالى من عذاب
يوم القيمة متعلق بالافتداء ايضا اى لو ان ما فى الارض ومثله ثابت لهم ليجعلوه
فدية لانفسهم من العذاب الواقع يومئذ ما تقبل منهم ذلك وهو جواب لو
وترتيبه على كون ذلك لهم لاجل افتدائهم به من غير ذكر الافتداء بان يقال وافتدوا به
مع ان الرد والقبول انما يترتب عليه لا على مباديه للايذان بانه امر محقق الوقوع
غنى عن الذكر وانما المحتاج الى الفرض هو ثبوتهم على ما ذكر وللمبالغة فى تحقق الرد
وتخييل انه وقع قبل الافتداء على منهاج ما فى قوله تعالى انا اتيك به قبل ان يرتد
اليك طرفك فلما راه مستقرا عنده حيث لم يقل فاتى به فراه فلما الخ وما فى قوله تعالى
وقالت اخرج عليهن فلما راينه اكبرنه من غير ذكر خروجه عليهن وروى لهن
له والجملة الامتناعية تحاليها خبر ان الذين كفروا والمراد تمثيل لزوم العذاب لهم
واستحالة نجاتهم منه بوجه من الوجوه المحققة والمفروضة وعن النبى صلعم
يقال للكافر ارايت لو كان لك ملاء الارض ذهبا اكنت تفتدى به فيقول
نعم فيقال له قد سئلت ايسر من ذلك وهو كلمة الشهادة وقوله تعالى ولهم
عذاب اليم تصريح بالمشار اليه بعدم قبول فديتهم لزيادة تقريره وبيان هو
له وشدته قيل محله النصب على الحالية وقيل الرفع عطفا على خبر ان وقيل عطف
على ان الذين فلا محل له كالمعطوف عليه يريدون ان يخرجوا من النار استئناف
مسوق لبيان حالهم فى اثناء مكابرة العذاب مبنى على سؤال نشاء مما قبله
كانه قيل فكيف يكون حالهم او ماذا يصنعون فقيل يريدون الخ وقد بين فى تضاعيفه
ان عذابهم عذاب النار قيل انهم يقصدون ذلك ويطلبون المخرج فيلفحهم
لهب النار ويرفعهم الى فوق فهنالك يريدون الخروج ولات حين مناص وقيل
يكادون يخرجون منها لقوة النار وزيادة رفعها اياهم وقيل يتمنونه ويريدونه
بقلوبهم وقوله عز وجل وما هم بخارجين منها اما حال من فاعل يريدون او
اعتراض واياما كان فايثار الجملة الاسمية على الفعلية مصدرة بما الحجازية الدالة
بما فى خبرها من الباء على تاكيد النفى لبيان كمال سوء حالهم باستمرار عدم خروجهم
منها فان الجملة الاسمية الايجابية كما تفيد بمعونة المقام دوام الثبوت تفيد
التلبية ايضا بمعونته دوام النفى لا نفى الدوام كما مر فى قوله تعالى ما انا بباسط الخ
وقرئ ان يخرجوا على بناء المفعول من الاخراج ولهم عذاب مقيم تصريح بالمشار اليه انفا
من عدم تناهى مدته بعد بيان شدته والسارق والسارقة شروع فى بيان
حكم السرقة الصغرى بعد بيان احكام الكبرى وقد عرفت اقتضاء الحال لايراد ما توسط
بينهما من المقال ولما كانت السرقة معهودة من النساء كالرجال صرح بالسارقة
ايضا مع ان المعهود فى الكتاب والسنة ادراج النساء فى الاحكام الواردة فى شان
الرجال بطريق الدلالة لمزيد الاعتناء بالبيان والمبالغة فى الزجر وهو مبتدأ خبره عند
سيبويه محذوف تقديره وفيما يتلى عليكم او وفيما فرض عليكم السارق والسارقة
اى حكمهما وعند المبرد قوله تعالى فاقطعوا ايديهما والفاء لتضمن المبتدأ معنى
الشرط اذ المعنى الذى سرق والتى سرقت وقرئ بالنصب وفضلها سيبويه على
قراءة الرفع لان الانشاء لا يقع خبرا الا باضمار او تاويل والسرقة اخذ مال الغير
خفية وانما توجب القطع اذا كان الاخذ من حرز والماخوذ يساوى عشرة دراهم
فما فوقها مع شروط فصلت فى موقعها والمراد بايديهما ايمانهما كما يفصح عنه قراءة
ابن مسعود رضه والسارقون والسارقات فاقطعوا ايمانهم ولذلك ساغ
وضع الجمع موضع المثنى كما فى قوله تعالى فقد صغت قلوبكما اكتفاء بتثنية المضاف اليه
واليد اسم لتمام الجارحة ولذلك ذهب الخوارج الى ان المقطع هو المنكب والجمهور على انه
الرسغ لانه عليه السلام اتى بسارق فامر بقطع يمينه منه جزاء نصب على انه مفعول له

اى فاقطعوا للجزاء او مصدر مؤكد لفعله الذى يدل عليه فاقطعوا اى فجازوهما جزاء
وقوله تعالى بما كسبا على الاول متعلق بجزاء وعلى الثانى باقطعوا وما مصدرية اى
بسبب كسبهما او موصولة اى بسبب ما كسباه من السرقة التى تباشر بالايدى وقوله
تعالى نكالا مفعول له ايضا على البدلية من جزاء لتهما من نوع واحد وقيل القطع المعلل
بالجزاء والقطع المعلل معلل بالنكال وقيل هو منصوب بجزاء على طريقة الاحوال المتداخلة
فانه فعلة للجزاء والجزاء علة للقطع كما اذا قلت ضربته تاديبا له احسانا اليه فان الضرب
معلل بالتاديب والتاديب معلل بالاحسان وقد اجازوا فى قوله عز وجل ان يكفروا بما
انزل الله بغيا ان ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ان يكون بغيا مفعولا له
ناصبه ان يكفروا ثم قالوا ان قوله تعالى ان ينزل الله مفعول له ناصبه بغيا على ان
التنزيل علة للبغى علة للكفر وقوله تعالى من الله متعلق بمحذوف وقع صفة لنكالا
اى نكالا كائنا منه تعالى والله عزيز غالب على امره ممضيه كيف يشاء من غير ند
ينازعه ولا ضد يمانعه حكيم فى شرائعه لا يحكم الا بما يقتضيه الحكمة والمصلحة
ولذلك شرع هذه الشرائع المنطوية على فنون الحكم والمصالح فمن تاب من السراق
الى الله تعالى من بعد ظلمه الذى هو سرقته والتصريح به مع ان التوبة لا تتصور
قبله لبيان عظم نعمته تعالى بتذكير عظم جنايته واصلح اى امره بالتقصى عن تبعات
ما باشره والعزم على ترك المعاودة اليها فان الله يتوب عليه اى يقبل توبته فلا
يعذبه فى الاخرة واما القطع فلا يسقطه التوبة عند ان لان فيه حق المسروق منه
وتسقطه عند الشافعى رحمه الله فى احد قوليه ان الله غفور رحيم مبالغ فى المغفرة
والرحمة ولذلك يقبل توبته وهو تعليل لما قبله واظهار الاسم الجليل للاشعار بعلة
الحكم وتاييد استقلال الجملة وكذا فى قوله عز وجل الم تعلم ان الله له ملك السموات
والارض فان عنوان الالوهية مدار احكام ملكوتهما والجار والمجرور خبر مقدم وملك
السموات والارض مبتدا والجملة خبر لان وهى بما فى حيزها ساد مسد مفعولى تعلم
عند الجمهور وما فيه من تكرير الاسناد لتقوية الحكم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم
بطريق التلوين وقيل لكل احد صالح للخطاب والاستفهام الانكارى لتقرير العلم والمراد
به الاستشهاد بذلك على قدرته تعالى على ما سياتى من التعذيب والمغفرة على ابلغ وجه
واتمه اى الم تعلم ان الله له السلطان القاهر والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة
التامة على التصرف الكلى فيهما وفيما فيهما ايجادا واعداما واحياء واماتة الى غير ذلك حسبما
يقتضيه مشيئته يعذب من يشاء ان يعذبه ويغفر لمن يشاء ان يغفر له من غير
ند يساهمه ولا ضد يزاحمه وتقديم التعذيب على المغفرة المراعاة ما سبيلهما من الترتيب
والجملة اما تقرير لكون ملكوت السموات والارض له سبحانه او خبر اخر لان والله على كل
شئ قدير فيقدر على ما ذكر من التعذيب والمغفرة والاظهار فى موقع الاضمار لما مر
مرارا والجملة تذييل مقرر لما قبلها يا ايها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر
خوطب صلى الله عليه وسلم بعنوان الرسالة للتشريف والاشعار بما يوجب عدم
الحزن والمسارعة فى الشئ الوقوع فيه بسرعة ورغبة وايثار كلمة فى على كلمة الى
الواقعة فى قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة الخ للايماء الى انهم مستقرون
فى الكفر لا يبرحونه وانما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه واحكامه الى بعض
آخر منها كاظهار موالاة المشركين وابراز آثار الكيد للاسلام ونحو ذلك كما فى قوله
تعالى اولئك يسارعون فى الخيرات فانهم مستمرون على الخير يسارعون فى انواعه وافراده
والتعبير عنهم بالموصول للاشارة بما فى حيز صلته الى مدار الحزن وهذا وان كان
بحسب الظاهر نهيا للكفرة عن ان يحزنوه بمسارعتهم فى الكفر لكنه فى الحقيقة نهى له عليه السلام
عن التاثر من ذلك والمبالاة به على ابلغ وجه واكده فان النهى عن اسباب الشئ ومباديه
المؤدية اليه نهى عنه بالطريق البرهانى وقلع له من اصله وقد يوجه النهى الى المسبب
ويراد به النهى عن السبب كما فى قوله لا ارينك ههنا يريد نهى مخاطبه عن الحضور

بين يديه وقرئ لا يحزنك من احزنه منقولا من حزن بكسر الزاء وقرئ يسرعون يقال اسرع
فيه الشيب اى وقع منه فيه سريعا اى لا تحزن ولا تبال بتهافتهم في الكفر بسرعة وقوله
تعالى من الذين قالوا آمنا بافواههم بيان للمسارعين في الكفر وقيل متعلق بمحذوف
وقع حالا من فاعل يسارعون وقيل من الموصول اى كائنين من الذين الخ والباء متعلقة
بقالوا لا بآمنا وقوله تعالى ولم تؤمن قلوبهم جملة حالية من ضمير قالوا وقيل عطف
على قالوا وقوله تعالى ومن الذين هادوا عطف على من الذين قالوا الخ وبه يتم
بيان المسارعين في الكفر بتقسيمهم الى قسمين المنافقين واليهود فقوله تعالى
سماعون للكذب خبر لمبتدأ محذوف راجع الى الفريقين او الى المسارعين واما رجوعه
الى الذين هادوا فمخل بعموم الوعيد الآتي ومباديه للكل كما ستقف عليه وكذا
جعل قوله ومن الذين الخ خبرا على ان قوله سماعون صفة لمبتدأ محذوف اي ومنهم قوم
سماعون الخ لادائه الى اختصاص ما عد من القبائح وما يترتب عليها من الغوائل الدنيوية
والاخروية بهم فالوجه ما ذكر اولا اى هم سماعون واللام اما لتقوية العمل
واما لتضمين السماع معنى القبول واما لام كي والمفعول محذوف والمعنى هم
مبالغون في سماع الكذب او في قبول ما يفتريه احبارهم من الكذب على الله سبحانه
وتحريف كتابه او سماعون اخباركم واحاديثكم ليكذبوا عليكم بان يمسخوها
بالزيادة والنقص والتبديل والتغيير او اخبار الناس واقاويلهم الدائرة فيما بينهم
ليكذبوا فيها بان يرجفوا بقتل المؤمنين وانكسار سراياهم ونحو ذلك مما فيه ضرر
بهم وايا ما كان فالجملة مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهي فان كونهم سماعين
للكذب على الوجوه المذكورة وابتناء امورهم على ما لا اصل له من الاباطيل والاراجيف
مما يقتضيه عدم المبالاة بهم وترك الاعتداد بما يأتون وما يذرون للقطع بظهور بطلان
اكاذيبهم واختلال ما بنوا عليها من الافاعيل الفاسدة المؤدية الى الخزي والعذاب
كما سيأتي وقرئ سماعين للكذب بالنصب على الذم وقوله تعالى سماعون لقوم آخرين
خبر ثان للمبتدأ المقدر للاول ومبين لما هو المراد بالكذب على الوجهين الاولين
واللام مثل ما في سمع الله لمن حمده في الرجوع الى معنى من اى قبل منه حمده والمعنى
مبالغون في قبول كلام آخرين واما كونها لام التعليل بمعنى سماعون منه عليه السلام
لاجل قوم آخرين وجهوهم عيونا ليبلغوهم ما سمعوا منه عليه السلام او
كونها متعلقة بالكذب على ان سماعون الثاني مكرر للتأكيد بمعنى سماعون ليكذبوا
لقوم آخرين فلا يكاد يساعده النظم الكريم اصلا وقوله تعالى لم يأتوك صفة اخرى
لقوم اى لم يحضروا مجلسك وتجافوا عنك تكبرا او افراطا في البغضاء قيل هم يهود
خيبر والسماعون بنو قريظة وقوله تعالى يحرفون الكلم من بعد مواضعه صفة اخرى
لقوم وصفوا لا بمغايرتهم للسماعين تنبيها على استقلالهم واصالتهم في الرأي و
التدبير ثم بعدم حضورهم مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم ايذانا بكمال طغيانهم
في الضلال ثم باستمرارهم على التحريف بيانا لافراطهم في العتو والمكابرة والاجتراء
على الافتراء على الله عز وجل وتعيينا للكذب الذي سمعه السماعون اي يميلونه و
يزيلونه عن مواضعه بعد ان وضعه الله تعالى فيها اما لفظا باهماله او تغيير وضعه
واما معنى بحمله على غير المراد واجرائه في غير مورده وقيل الجملة مستأنفة لا محل
لها من الاعراب ناعية عليهم شنائعهم وقيل خبر مبتدأ محذوف راجع الى القوم
وقوله تعالى يقولون كالجملة السابقة في الوجوه المذكورة ويجوز ان يكون حالا من
ضمير يحرفون واما تجويز كونها صفة لسماعون او حالا من الضمير فيه فمما لا سبيل
اليه اصلا كيف لا وان مقول القول ناطق بان قائله ممن لا يحضر مجلس رسول
الله صلى الله عليه وسلم والمخاطب به ممن يحضره فكيف يمكن ان يقوله السماعون
المترددون اليه عليه السلام لمن لا يحوم حوله قطعا وادعاء قول السماعين
لاعقابهم المخاطبين للمسلمين تعسف ظاهر مخل بجزالة النظم الكريم والحق الذى

لا محيد

لا محيد عنه ان المحرفين والقائلين هم القوم الآخرون اى يقولون لاتباعهم السماعين
لهم عند القائهم اليهم اقاويلهم الباطلة مشيرين الى كلامهم الباطل ان اوتيتم
من جهة الرسول عليه السلام هذا المحرف فخذوه واعملوا بموجبه فانه الحق وان
لم تؤتوه بل اوتيتم غيره فاحذروا اى فاحذروا قبوله واياكم واياه وفي ترتيب
الامر بالحذر على مجرد عدم ايتاء المحرف من المبالغة في التحذير ما لا يخفى روي ان
شريفا من خيبر زنى بشريفة وهما محصنان وحدهما الرجم في التوراة فكرهوا رجمهما
لشرفهما فبعثوا رهطا منهم الى بني قريظة ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
ذلك وقالوا ان امركم بالجلد والتحميم فاقبلوا وان امركم بالرجم فلا فارسلوا
الزانيين معهم فامرهم بالرجم فابوا ان يأخذوا به فقال جبريل اجعل بينك وبينهم
ابن صوريا ووصفه له فقال عليه السلام هل تعرفون شابا ابيض اعور يسكن فدك
يقال له ابن صوريا قالوا نعم وهو اعلم يهودي على وجه الارض بما انزل الله على
موسى بن عمران في التوراة قال فارسلوا اليه ففعلوا فاتاهم فقال له النبي صلى الله
عليه وسلم انت ابن صوريا قال نعم قال عليه السلام وانت اعلم اليهود قال كذلك يزعمون
قال لهم اترضون به حكما قالوا نعم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم انشدك
الله الذي لا اله الا هو الذي فلق البحر وانجاكم واغرق آل فرعون وظلل عليكم الغمام
وانزل عليكم المن والسلوى ورفع فوقكم الطور وانزل عليكم التوراة فيها حلاله
وحرامه هل تجدون في كتابكم الرجم على من احصن قال نعم والذي ذكرتني به لولا
خشيت ان يحرقني التوراة ان كذبت او غيرت ما اعترفت لك ولكن كيف هي في كتابك
يا محمد قال عليه السلام اذا شهد اربعة رهط عدول انه ادخل فيها كما يدخل الميل
في المكحلة وجب عليه الرجم قال ابن صوريا والذي انزل التوراة على موسى هكذا انزل الله
انزل الله في التوراة على موسى فوثب عليه سفلة اليهود فقال خفت ان كذبته ان
ينزل علينا العذاب ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اشياء كان يعرفها
من اعلامه فقال اشهد ان لا اله الا الله وانك رسول الله النبي الامي العربي
الذي بشر به المرسلون وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزانيين فرجما عند
باب المسجد ومن يرد الله فتنته اى ضلالته او فضيحته كائنا من كان فيندرج
فيه المذكورون اندراجا اوليا وعدم التصريح بكونهم كذلك للاشعار بكمال ظهوره
والاستغناء عن ذكره فلن تملك له من الله شيئا في دفعها
والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ومبينة لعدم انفكاكهم عن القبائح المذكورة
ابدا اولئك اشارة الى المذكورين من المنافقين واليهود وما في اسم الاشارة
من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم في الفساد وهو مبتدأ خبره قوله تعالى الذين
لم يرد الله ان يطهر قلوبهم اى من رجس الكفر وخبث الضلالة لانهماكهم فيهما
واصرارهم عليهما واعراضهم عن صرف اختيارهم الى تحصيل الهداية بالكلية
كما ينبئ عنه بالمسارعة في الكفر اولا وشرح فنون ضلالاتهم آخرا والجملة
استئناف مبين لكون ارادته تعالى لفتنتهم منوطة بسوء اختيارهم وقبح صنيعهم
الموجب لها لا واقعة منه تعالى ابتداء لهم في الدنيا خزي اما المنافقون فخزيهم
فضيحتهم وهتك سترهم بظهور نفاقهم فيما بين المسلمين واما خزي اليهود
فالذل والجزية والافتضاح بظهور كذبهم في كتمان نص التوراة وتنكير
خزي للتفخيم وهو مبتدأ ولهم خبره وفي الدنيا متعلق بما تعلق به الخبر من
الاستقرار وكذا الحال في قوله تعالى ولهم في الآخرة اى مع الخزي الدنيوي عذاب
عظيم هو الخلود في النار وضمير لهم في الجملتين للمنافقين واليهود جميعا لا لليهود
خاصة كما قيل وتكرير لهم مع اتحاد المرجع لزيادة التقرير والتأكيد والجملتان
استئناف مبني على سؤال نشأ من تفصيل احوالهم وافعالهم الموجبة للعقاب
كأنه قيل فما لهم من العقوبة فقيل لهم في الدنيا الآية سماعون للكذب خبر آخر

للمبتداء المقدر كررت تاكيدا لما قبله وتمهيدا لما بعده من قوله تعالى اكالون للسحت
وهو ايضا خبر آخر للمقدر وارد على طريقة الذم او بناء على ان المراد بالكذب ما يفعله الرّا
عند الاكالين والسحت بضم السين وسكون الحاء في الاصل كل ما لا يحل كسبه و
قيل هو الحرام مطلقا من سحته اذا استاصله سمي به لانه مسحوق البركة والمراد
به ههنا اما الرشا التي كان ياخذها المحرفون على تحريفهم وساير احكامهم
الزايفة وهو المشهور او ما كان ياخذه فقراؤهم من اغنيائهم من المال ليقيموا
على اليهودية كما قيل واما مطلق الحرام المنتظم لما ذكر انتظاما اوليا وقرئ للسحت
بضم السين والحاء وبفتحهما وبفتح السين وسكون الحاء وبكسر السين وسكون الحاء و
عن النبي صلى الله عليه وسلم كل لحم انبته السحت فالنار اولى به فان جاؤك
لما بين تفاصيل امورهم الواهية واحوالهم المختلفة الموجبة لعدم المبالاة بهم
وبافاعيلهم حسبما امر به عليه السلام خوطب عليه السلام ببعض ما يبتني عليه
من الاحكام بطريق التفريع والفاء فصيحة اي واذا كان حالهم كما شرح فان جاؤك
متحاكمين اليك فيما شجر بينهم من الخصومات فاحكم بينهم او اعرض عنهم غير
مبال بهم ولا خايف من جهتهم اصلا وهذا كما ترى تخيير له صلى الله عليه وسلم
بين الامرين فقيل هو في امر خاص هو ما ذكر من زنا المحصن وقيل في قتيل قتل من
اليهود في بني قريظة والنضير فتحاكموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
بنو قريظة اخواننا بنو النضير ابونا واحد وديننا واحد ونبينا واحد واذا قتلوا منا قتيلا لم
يرضوا بالقود واعطونا سبعين وسقا من تمر واذا قتلنا منهم قتلوا القاتل واخذوا
منا المضعف مائة واربعين وسقا من تمر وان كان القتيل امراة قتلوا بها الرجل منا
وبالرجل منهم الرجلين منا وبالعبد منهم الحر منا فاقض بيننا فجعل عليه السلام
الدية سواء وقيل هو عام في جميع الحكومات ثم اختلفوا فمن قايل انه ثابت وهو
المروي عن عطاء والنخعي والشعبي وقتادة وابي بكر الاصم وابي مسلم وقايل
انه منسوخ وهو قول ابن عباس رضي والحسن ومجاهد وعكرمة قال ابن عباس لم ينسخ
من المائدة الا آيتان قوله تعالى لا تحلوا شعاير الله نسخها قوله تعالى اقتلوا المشركين وقوله
تعالى فان جاؤك فاحكم بينهم او اعرض عنهم نسخها قوله وان احكم بينهم بما انزل الله
وعليه مشايخنا وان تعرض عنهم بيان لحال الامرين اثر تخييره عليه السلام
بينهما وتقديم حال الاعراض للمسارعة الى بيان انه لا ضرر فيه حيث كان مظنة الضرر
لما انهم كانوا لا يتحاكمون اليه عليه السلام الا لطلب الايسر والاهون عليهم فاذا
اعرض عنهم وابى الحكومة بينهم شق ذلك عليهم فتشتد عداوتهم ومضارتهم
له عليه السلام فامنه الله عز وجل بقوله فلن يضروك شيئا من الضرر فان
الله عاصمك من الناس وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط بالعدل الذي امرت
به كما حكمت بالرجم ان الله يحب المقسطين ومن ضرورته ان يحفظهم
عن كل مكروه ومحذور وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله
تعجيب من احكامهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه والحال ان الحكم منصوص عليه
في كتابهم الذي يدعون الايمان به وتنبيه على انهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة
الحق واقامة الشرع وانما طلبوا به ما هو اهون عليهم وان لم يكن ذلك حكم الله
على زعمهم فقوله تعالى وعندهم التوراة حال من فاعل يحكمونك وقوله فيها حكم
الله حال من التوراة ان جعلت مرتفعة بالظرف وان جعلت مبتدا فهو حال من
ضميرها المستكن في الخبر وقيل استيناف مسوق لبيان ان عندهم ما يغنيهم
عن التحكيم وتانيثها لكونها نظيرة المؤنث في كلامهم كموماة ودوداة ثم
يتولون عطف على يحكمونك داخل في حكم التعجيب وثم للتراخي في الرتبة وقوله تعالى
من بعد ذلك اي من بعد ما حكموك تصريح بما علم قطعا لتاكيد الاستبعاد والتعجيب
اي ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم من بعد ما رضوا بحكمك وقوله تعالى وما اولئك

بالمؤمنين تذييل مقرر لفحوى ما قبله ووضع اسم الاشارة موضع ضميرهم للقصد
الى احضارهم في الذهن بما وصفوا به من القبايح ايماء الى علة الحكم والى انهم قد
تميزوا بذلك عن غيرهم اكمل تميز حتى انتظموا في سلك الامور المشاهدة وما فيه
من معنى البعد للايذان ببعد درجتهم في العتو والمكابرة اي وما اولئك الموصوفون
بما ذكر بالمؤمنين اي بكتابهم لاعراضهم عنه اولا وعن حكمك الموافق له ثانيا
او بها وقيل وما اولئك بالكاملين في الايمان تهكما بهم انا انزلنا التوراة
كلام مستانف سيق لبيان علو شان التوراة ووجوب مراعاة احكامها وانها لم تزل
مرعية فيما بين الانبياء ومن يقتدي بهم كابرا عن كابر مقبولة لكل احد من الحكام
والمتحاكمين محفوظة عن المخالفة والتبديل تحقيقا لما وصف به المحرفون من عدم ايمانهم
بها وتقريرا لكفرهم وظلمهم وقوله تعالى فيها هدى ونور حال من التوراة فان ما فيها
من الشرايع والاحكام من حيث ارشادها للناس الى الحق الذي لا محيد عنه ومن
حيث اظهارها وكشفها ما استبهم من الاحكام وما يتعلق بها من الامور المستورة
بظلمات الجهل نور وقوله تعالى يحكم بها النبيون اي انبياء بني اسرايل وقيل موسى
ومن بعده من الانبياء جملة مستانفة مبينة لرفعة رتبتها وسمو طبقتها وقد
جوز كونه حالا من التوراة فيكون حالا مقدرة اي يحكمون باحكامها ويحملون الناس
عليها وبه تمسك من ذهب الى ان شريعة من قبلنا شريعة لنا ما لم تنسخ وتقديم الجار
والمجرور على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بشان المقدم والتشويق الى المؤخر ولان
في المؤخر وما يتعلق به نوع طول ربما يخل تقديمه بتجاوب النظم الكريم وقوله تعالى
الذين اسلموا صفة اجريت على النبيين على سبيل المدح دون التخصيص والتوضيح
لكن لا للقصد الى مدحهم بذلك حقيقة فان النبوة اعظم من الاسلام قطعا فيكون
وصفهم به بعد وصفهم بها تنزلا من الاعلى الى الادنى بل لتنويه شان الصفة
فان ابراز وصف في معرض مدح العظماء مبني عن عظم قدر الوصف لا محالة كما في
وصف الانبياء بالصلاح ووصف الملائكة بالايمان عليهم السلام ولذلك قيل
اوصاف الاشراف اشراف الاوصاف وفيه رفع لشان المسلمين وتعريض باليهود
بانهم بمعزل من الاسلام والاقتداء بدين الانبياء عليهم السلام لا سيما مع ملاحظة
ما وصفوا به في قوله تعالى للذين هادوا وهو متعلق بيحكم اي يحكمون فيما بينهم
واللام اما لبيان اختصاص الحكم بهم اعم من ان يكون لهم او عليهم كانه قيل لاجل
الذين هادوا واما للايذان بنفعه للمحكوم عليه ايضا باسقاط السعة عنه واما
للاشعار بكمال رضاهم به وانقيادهم له كانه امر نافع لكلا الفريقين ففيه
تعريض بالمحرفين وقيل التقدير للذين هادوا وعليهم فحذف ما حذف
لدلالة ما ذكر عليه وقيل هو متعلق بانزلنا وقيل بهدى ونور وفيه فصل بين
المصدر ومعموله وقيل متعلق بمحذوف وقع صفة لهما اي هدى ونور كاينان
للذين هادوا والربانيون والاحبار اي الزهاد والعلماء من ولد ها
رون الذين التزموا طريقة النبيين وجانبوا دين اليهود وعن ابن عباس رضي
الربانيون الذين يسوسون الناس بالعلم ويربونهم بصغاره قبل كباره والاحبار
هم الفقهاء واحده حبر بالفتح والكسر والثاني افصح وهو رأي الفراء ماخوذ
من التحبير والتحسين فانهم يحبرون العلم ويزينونه ويبينونه وهو عطف على
النبيون اي هم ايضا يحكمون باحكامها وتوسيط المحكوم لهم بين المعطوفين
للايذان بان الاصل في الحكم بها وحمل الناس على ما فيها هم النبيون وانما
الربانيون والاحبار خلفاء ونواب لهم في ذلك كما ينبئ عنه قوله تعالى بما استحفظوا
اي بالذي استحفظوه من جهة النبيين وهو التوراة حيث سألوهم ان يحفظوها
من التغيير والتبديل على الاطلاق ولا ريب في ان ذلك منهم عليهم السلام
استخلاف لهم في اجراء احكامها من غير اخلال بشيء منها وفي ابهامها اولا ثم

بيانها بقوله تعالى من كتاب الله من تفخيمها واجلالها ذاتا وصفة وتأكيد ايجاب
حفظها والعمل بما فيها ما لا يخفى وايرادها بعنوان الكتاب للايماء الى ايجاب حفظها عن التغيير
من جهة الكتابة والباء الداخلة على الموصول متعلقة بيحكم لكن لا على انها صلة له كالتي
في قوله تعالى يحكم بها ليلزم تعلق حرفي جر متحدي المعنى بفعل واحد بل على انها سببية اي ويحكم
الربانيون والاحبار ايضا بسبب ما حفظوه من كتاب الله تعالى حسبما وصاهم به انبياؤهم
وسألوهم ان يحفظوه وليس المراد بسببيته لحكمهم ذلك سببيته من حيث الذات بل
من حيث كونه محفوظا فان تعليق حكمهم بالموصول مشعر بسببية الحفظ المترتب لا
محالة على ان ما في حيز الصلة من الاستحفاظ له وقيل الباء صلة لفعل مقدر معطوف
على قوله تعالى يحكم بها النبيون عطف جملة على جملة اي ويحكم الربانيون والاحبار بحكم
كتاب الله تعالى الذي سألهم انبياؤهم ان يحفظوه من التغيير وكانوا عليه شهداء
اي رقباء يحمونه من ان يحوم حوله التغيير والتبديل بوجه من الوجوه فتغيير الاسلوب
لما ذكر من المزايا وقيل بما استحفظوا بدل من قوله تعالى بها العامل وهو بعيد وكذا تجويز
كون الضمير في استحفظوا للانبياء والربانيين والاحبار جميعا على ان الاستحفاظ
من جناب الله عز وجل اي كلفهم الله تعالى ان يحفظوه ويكونوا عليه شهداء وقوله تعالى
وتقدس فلا تخشوا الناس خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات
واما حكام المسلمين فتبعا ولهم النهي بطريق الدلالة دون العبارة والفاء لترتيب النهي
على ما فصل من حال التوراة وكونها معتنى بشأنها فيما بين الانبياء ومن يقتدي بهم من
الربانيين والاحبار المتقدمين عملا وحفظا فان ذلك مما يوجب الاجتناب عن الاخلال
بوظائف مراعاتها والمحافظة عليها باي وجه كان فضلا عن التحريف والتغيير ولما كان
مدار اجترائهم على ذلك خشية ذي سلطان او رغبة في الحظوظ الدنيوية نهوا عن كل منهما
صريحا اي اذا كان شأنها كما ذكر فلا تخشوا الناس كائنا من كان واقتدوا في مراعاة احكامها
وحفظها بمن قبلكم من الانبياء واشياعهم واخشون في الاخلال بمراعاة
حقوقها فكيف بالتعرض لها بسوء ولا تشتروا باياتي الاشتراء استبدال السلعة
بالثمن اي اخذها بدلا منه لا بذل الثمن لتحصيلها كما قيل ثم استعير لاخذ الشيء بدلا
مما كان له عينا كان او معنى اخذا منوطا بالرغبة فيما اخذ والاعراض عما اعطى
ونبذ كما فصل في تفسير قوله تعالى اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فالمعنى لا
تستبدلوا باياتي التي فيها بان تخرجوها منها او تتركوا العمل بها وتأخذوا لانفسكم
بدلا منها ثمنا قليلا من الرشوة والجاه وسائر الحظوظ الدنيوية فانها وان جلت قليلة
مسترذلة في نفسها لا سيما بالنسبة الى ما فات عنهم بترك العمل بها وانما عبر عن
المشتري الذي هو العمدة في عقود المعاوضة والمقصد الاصلي بالثمن الذي شأنه ان يكون وسيلة
لتحصيله وابرزت الآيات التي حقها ان يتنافس فيها المتنافسون في معرض الآلات والوسائط
حيث قرنت بالباء التي تصحب الوسائل ايذانا بمبالغتهم في التعكيس بان جعلوا المقصد
الاعلى والاقصى وسيلة والوسيلة ادنى مقصدا ومن لم يحكم بما انزل الله كائنا
من كان دون المخاطبين خاصة فانهم مندرجون فيه اندراجا اوليا اي من لم يحكم
بذلك مستهينا به منكرا له كما يقتضيه ما فعلوه من تحريف آيات الله تعالى اقتضاء بينا
فاولئك اشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما ان الافراد فيما سبق باعتبار لفظها
هم الكافرون لاستهانتهم به وهم اما ضمير الفصل او مبتدأ وما بعده
خبره والجملة خبر لاولئك وقد مر تفصيله في مطلع سورة البقرة والجملة تذييل مقرر
لمضمون ما قبلها ابلغ تقرير وتحذير عن الاخلال به اشد تحذير حيث علق فيه الحكم
بالكفر بمجرد ترك الحكم بما انزل الله فكيف وقد انضم اليه الحكم بخلافه لا سيما مع
مباشرة ما نهوا عنه من تحريفه ووضع غيره موضعه وادعاء انه من عند الله ليشتروا
به ثمنا قليلا وكتبنا عطف على انزلنا التوراة عليهم اي على الذين هادوا وقرئ
وانزل الله على بني اسرائيل فيها اي في التوراة ان النفس بالنفس اي تقاد بها

اذا قتلتها بغير حق والعين تفقأ بالعين اذا فقئت بغير حق والانف يجدع بالانف المقطوع
بغير حق والاذن تصلم بالاذن المقطوعة ظلما والسن تقلع بالسن المقلوعة بغير حق
والجروح قصاص اي ذات قصاص اذا كانت بحيث تعرف المساواة وعن ابن عباس
انهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة فنزلت وقرئ وان الجروح قصاص وقرئ والعين
الى آخره بالرفع عطف على محل ان النفس لان المعنى كتبنا عليهم النفس بالنفس اما لاجراء
كتبنا مجرى قلنا واما لان معنى الجملة التي هي قولك النفس بالنفس مما يقع عليه الكتب كما
يقع عليه القراءة تقول كتبت الحمد لله وقرأت سورة انزلناها فمن تصدق اي من
المستحقين به اي بالقصاص اي فمن عفا عنه والتعبير عنه بالتصدق للمبالغة في
الترغيب فيه فهو اي التصدق كفارة له اي للمتصدق يكفر الله تعالى بها ذنوبه وقيل
للجاني اذا تجاوز عنه صاحب الحق سقط عنه ما لزمه وقرئ فهو كفارته له اي
فالمتصدق كفارته التي يستحقها بالتصدق له لا ينقص منها شيء وهو تعظيم لما فعل
كقوله تعالى فاجره على الله ومن لم يحكم كائنا من كان فيتناول من لا يرى قتل الرجل بالمرأة
من اليهود تناولا بينا بما انزل الله من الاحكام والشرائع كائنا ما كان فيدخل فيها
الاحكام المحكية دخولا اوليا فاولئك هم الظالمون المبالغون في الظلم المتعدون
لحدوده تعالى الواضعون للشيء في غير موضعه والجملة تذييل مقرر لايجاب العمل بالاحكام المذكورة
وقفينا على آثارهم شروع في بيان احكام الانجيل اثر بيان احكام التوراة وهو
عطف على انزلنا التوراة اي آثار النبيين المذكورين يقال قفيته بفلان اذا اتبعته اياه
فحذف المفعول لدلالة الجار والمجرور عليه اي قفيناهم بعيسى ابن مريم اي
ارسلناه عقيبهم مصدقا لما بين يديه من التوراة حال من عيسى عليه السلام وآتيناه
الانجيل عطف على قفينا وقرئ بفتح الهمزة فيه هدى ونور كما في التوراة
وهو في محل النصب على انه حال من الانجيل اي كائنا فيه ذلك كأنه قيل مشتملا على
هدى ونور للتفخيم ويندرج في ذلك شواهد نبوته صلى الله عليه وسلم ومصدقا
لما بين يديه من التوراة عطف عليه داخل في حكم الحالية وتكرير ما بين يديه من
من التوراة لزيادة التقرير وهدى وموعظة للمتقين عطف على مصدقا
منتظم معه في سلك الحالية جعل كله هدى بعد ما جعل مشتملا عليه حيث قيل فيه
هدى وتخصيص كونه هدى وموعظة بالمتقين لانهم المهتدون بهداه و
المنتفعون بجدواه وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه امر مبتدأ لهم بان
يحكموا ويعملوا بما فيه من الامور التي من جملتها دلائل رسالته صلى الله عليه وسلم
وشواهد نبوته وما قررته الشريعة الشريفة من احكامه واما احكامه المنسوخة
فليس الحكم بها حكما بما انزل الله فيه بل هو ابطال وتعطيل له اذ هو شاهد بنسخها
وانتهاء وقت العمل بها لان شهادته بصحة ما ينسخها من الشريعة شهادة بنسخها
وبان احكامه ما قررته تلك الشريعة التي تشهد بصحتها كما سيأتي من قوله تعالى
يا اهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وقيل هو حكاية للامر
الوارد عليهم بتقدير فعل معطوف على آتيناه اي وقلنا ليحكم اهل الانجيل الخ وقرئ
وان ليحكم على ان ان موصولة بالامر كما في قولك امرته بان قم كأنه قيل وآتيناه الانجيل
وامرنا بان يحكم اهل الانجيل الخ وقرئ على صيغة المضارع ولام التعليل على انها
متعلقة بمقدر كأنه قيل وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه آتيناه اياه وقد عطف
على هدى وموعظة على انهما مفعول لهما كأنه قيل وللهدى والموعظة آتيناه وللحكم
بما انزل الله فيه ومن لم يحكم بما انزل الله منكرا له مستهينا به فاولئك هم
الفاسقون المتمردون الخارجون عن الايمان والجملة تذييل مقرر لمضمون الجملة السابقة
ومؤكد لوجوب الامتثال بالامر وفيه دلالة على ان الانجيل مشتمل على الاحكام وان
عيسى عليه السلام كان مستقلا بالشرع مأمورا بالعمل بما فيه من الاحكام قلت او كثرت
لا بما في التوراة خاصة وحمله على معنى وليحكم بما انزل الله فيه من ايجاب العمل باحكام التوراة

حلاف الظ وانزلنا اليك الكتاب اى الفرد الكامل الحقيق بان يسمى كتابا على الاطلاق
لحيازته جميع الاوصاف الكمالية لجنس الكتاب السماوى وتفوقه على بقية افراده وهو
القران الكريم فاللام للعهد والجملة عطف على انزلنا وما عطف عليه وقوله تعالى بالحق
متعلق بمحذوف وقع حالا مؤكدة من الكتاب اى متلبسا بالحق والصدق وقيل من فاعل
انزلنا وقيل من الكاف فى اليك وقوله تعالى مصدقا لما بين يديه حال من الكتاب
اى حال كونه مصدقا لما تقدمه اما من حيث انه نازل حسبما نعت فيه او من حيث انه
موافق له فى القصص والمواعيد والدعوة الى الحق والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى
والفواحش واما ما يتراءى من مخالفته له فى بعض جزئيات الاحكام المتغيرة بسبب
تغير الاعصار فليست بمخالفة فى الحقيقة بل هى موافقة لها من حيث ان كلا من تلك
الاحكام حق بالاضافة الى عصره متضمن للحكمة التى يدور عليها امر الشريعة وليس
فى المتقدم دلالة على ابدية احكامه المنسوخة حتى تخالفه الناسخ المتاخر وانما يدل
على مشروعيتها مطلقا من غير تعرض لبقائها وزوالها بالقول وهو ناطق بزوالها لما ان
النطق بصحة ما ينسخها نطق بنسخها وزوالها وقوله تعالى من الكتاب بيان لما واللام
للجنس اذ المراد هو الكتاب السماوى وهو بهذا العنوان جنس برأسه وان كان فى نفسه
نوعا مخصوصا من مدلول لفظ الكتاب وعلى هذا قالوا اللام للعهد الا ان ذلك
لا ينتهى الى خصوصية الفردية بل الى خصوصية النوعية التى هى اخص من مطلق الكتاب
وهو ظاهر ومن الكتاب السماوى ايضا حيث خص بما عدى القران ومهيمنا عليه
اى رقيبا على ساير الكتب المحفوظة عن التغيير لانه يشهد لها بالصحة والثبات و
يقرر اصول شرايعها وما يتابد من فروعها ويعين احكامها المنسوخة ببيان
انتهاء مشروعيتها المستفادة من تلك الكتب وانقضاء وقت العمل بها ولا ريب
فى ان تمييز احكامها الباقية على المشروعية ابدا عما انتهى وقت مشروعيته وخرج عنها
من احكام كونه مهيمنا عليها وقرئ ومهيمنا عليه على صيغة المفعول اى هو من عليه
وحفظ من التغيير والتبديل كقوله عز وجل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه
والحافظ اما من جهته تعالى كما فى قوله انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون او الحفاظ
فى الاعصار والامصار والفاء فى قوله فاحكم بينهم لترتيب ما بعدها
على ما قبلها فان كون القران العظيم حقا مصدقا لما قبله من الكتب المنزلة على الامم
مهيمنا عليه من موجبات الحكم المامور به اى اذا كان شان القران كما ذكر فاحكم بين
اهل الكتابين عند تحاكمهم اليك بما انزل الله اى بما انزله اليك فانه مشتمل على
جميع الاحكام الشرعية الباقية فى الكتب الالهية وتقديم بينهم للاعتناء ببيان تعميم
الحكم لهم ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على علية ما فى حيز الصلة للحكم
والالتفات باظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والاشعار بعلة الحكم ولا تتبع
اهواءهم الزائغة عما جاءك من الحق الذى لا محيد عنه وعن متعلقة
بلا تتبع على تضمين معنى العدول ونحوه كانه قيل لا تعدل عما جاءك من الحق متبعا
اهواءهم وقيل بمحذوف وقع حالا من فاعله اى لا تتبع اهواءهم عادلا عما
جاءك وفيه ان ما وقع حالا لا بد ان يكون فعلا عاما وضع الموصول موضع ضمير
الموصول الاول للايماء بما فى حيز الصلة من مجى الحق اى ما يوجب كمال الاجتناب
عن اتباع الهوى وقوله تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا كلام مستانف
جئ به لحمل اهل الكتابين من معاصريه عليه السلام على الانقياد لحكمه عليه السلام
بما انزل اليه من القران الكريم ببيان انه هو الذى كلفوا العمل به دون غيره من الكتابين
وانما الذين كلفوا العمل بهما من مضى قبل نسخهما من الامم السالفة والخطاب بطريق
التلوين والالتفات للناس كافة لكن لا للموجودين خاصة بل للماضين ايضا بطريق
التغليب واللام متعلقة بجعلنا المتعدى لواحد وهو اخبار بجعل ماض لا انشاء
ولتقديمها عليه للتخصيص ومنكم متعلق بمحذوف وقع صفة لما عوض عنه تنوين كل

ولا ضير

ولا ضير فى توسط جعلنا بين الصفة والموصوف كما فى قوله تعالى اغير الله اتخذ وليا فاطر
السموات الخ والمعنى لكل امة كائنة منكم ايها الامم الباقية والخالية جعلنا اى عينا
ووضعنا شرعة ومنهاجا خاصين بتلك الامة لا يكاد امة تتخطى شرعها التى عينت
لها فالامة التى كانت من مبعث موسى الى مبعث عيسى عليهما السلام شرعتهم التوراة
والتى كانت من مبعث عيسى الى مبعث النبى عليهما السلام شرعتهم الانجيل واما انتم
ايها الموجودون فشرعتكم الفرقان ليس الا فآمنوا به واعملوا بما فيه والشرعة والشريعة
هى الطريقة الى الماء شبه بها الدين لكونه سبيلا موصلا الى ما هو سبب للحيوة الابدية
كما ان الماء سبب للحيوة الفانية والمنهاج الطريق الواضح فى الدين من نهج الامر
اذا وضح وقرئ شرعة بفتح الشين قيل فيه دليل على انا غير متعبدين بشرايع من قبلنا
والتحقيق انا متعبدون باحكامها الباقية من حيث انها احكام شرعتنا لا من حيث انها
شرعة للاولين ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة متفقة على دين واحد
فى جميع الاعصار من غير اختلاف بينكم وبين من قبلكم من الامم فى شئ من الاحكام الدينية
ولا نسخ ولا تحويل ومفعول المشية محذوف تعويلا على دلالة الجزاء عليه اى ولو شاء الله
ان يجعلكم امة واحدة لجعلكم الخ وقيل المعنى لو شاء الله اجتماعكم على الاسلام لاجبركم
عليه ولكن ليبلوكم متعلق بمحذوف يستدعيه النظام اى ولكن لم يشأ ذلك اى
لم يجعلكم امة واحدة بل شاء ما عليه السنة الالهية الجارية فيما بين الامم
ليعاملكم معاملة من يبتليكم فيما آتاكم من الشرايع المختلفة المناسبة لاعصارها
وقرونها هل تعملون بها مذعنين لها معتقدين ان اختلافها بمقتضى المشية الالهية
المبنية على اساس الحكم البالغة والمصالح النافعة لكم فى معاشكم ومعادكم او
تزيغون عن الحق وتتبعون الهوى وتستبدلون المضرة بالجدوى وتشترون الضلالة
بالهدى وبهذا اتضح ان مدار عدم المشية المذكورة ليس مجرد الابتلاء بل العمدة
فى ذلك ما اشير اليه من انطواء الاختلاف على ما فيه مصلحتهم معاشا ومعادا
كما ينبئ عنه قوله عز وعلا فاستبقوا الخيرات اى اذا كان الامر كما ذكر فسارعوا الى
ما هو خير لكم فى الدارين من العقائد الحقة والاعمال الصالحة المندرجة فى القران
الكريم وابتدروها انتهازا للفرصة واحرازا لسابقة الفضل والتقدم ففيه من تاكيد الترغيب
فى الاذعان للحق وتشديد التحذير عن الزيغ ما لا يخفى وقوله تعالى الى الله مرجعكم
استيناف مسوق مساق التعليل لاستباق الخيرات بما فيه من الوعد والوعيد وقوله تعالى
جميعا حال من ضمير الخطاب والعامل فيه اما المصدر المنحل الى حرف مصدرى وفعل مبنى
للفاعل او مبنى للمفعول واما الاستقرار المقدر فى الجار فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون
اى فيفعل بكم من الجزاء الفاصل بين المحق والمبطل ما لا يبقى لكم معه شائبة شك
فيما كنتم تختلفون اى فيه فى الدنيا وانما عبر عن ذلك بما ذكر لوقوعه موقع ازالة
الاختلاف التى هى وظيفة الاخبار وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع
اهواءهم عطف على الكتاب اى انزلنا عليك الكتاب والحكم بما فيه والتعرض لعنوان
انزاله تعالى اياه لتاكيد وجوب الامتثال بالامر او على الحق اى انزلناه بالحق وبان احكم
ويجوز ان يكون جملة بتقدير وامرنا ان احكم وحكاية انزال الامر بهذا الحكم
بعد ما مر من الامر الصريح بذلك تاكيد له وتمهيد لما يعقبه من قوله تعالى
واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك اى يصرفوك عن
بعضه ولو كان اقل قليل بتصوير الباطل بصورة الحق واظهار الاسم الجليل لتاكيد الامر
بتهويل الخطب وان بصلته بدل اشتمال من ضميرهم اى احذر فتنتهم او مفعول
له اى احذرهم مخافة ان يفتنوك واعادة ما انزل الله لتاكيد التحذير بتهويل
الخطب روى ان احبار اليهود قالوا اذهبوا بنا الى محمد فلعلنا نفتنه عن دينه
فذهبوا اليه صلى الله عليه وسلم فقالوا يا ابا القاسم قد عرفت انا احبار اليهود
وانا ان اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم وان بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم اليك

فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم
فنزلت فان تولوا اي اعرضوا عن الحكم بما انزل الله تعالى وارادوا غيره فاعلم انما يريد
الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم اي بذنب توليهم عن حكم الله عز وجل وانما
عبر عنه بذلك ايذانا بان لهم ذنوبا كثيرة هذا مع كمال عظمه واحد من جملتها وفي
هذا الابهام تعظيم للتولي كما في قول لبيد او يرتبط بعض النفوس حمامها يريد به
نفسه اي نفسا كبيرة ونفسا اي نفس وان كثيرا من الناس لفاسقون اي متمردون
في الكفر مصرون عليه خارجون من الحدود المعهودة وهو اعتراض تذييلي مقرر
لمضمون ما قبله افحكم الجاهلية يبغون انكار وتعجيب من حالهم وتوبيخ
لهم والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام اي ايتولون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية
وتقديم المفعول للتخصيص المفيد لتاكيد الانكار والتعجيب لان التولي عن حكمه صلى الله
عليه وسلم وطلب حكم آخر منكر عجيب وطلب حكم الجاهلية اقبح واعجب والمراد بالجاهلية
اما الملة الجاهلية التي هي متابعة الهوى الموجبة للميل والمداهنة في الاحكام فيكون
تعييرا لليهود بانهم مع كونهم اهل كتاب وعلم يبغون حكم الجاهلية التي هي هوى
وجهل لا يصدر عن كتاب ولا يرجع الى وحي واما اهل الجاهلية وحكمهم ما كانوا عليه
من التفاضل فيما بين القتلى حيث روي ان بني النضير لما تحاكموا الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم في خصومة قتل وقعت بينهم وبين بني قريظة طلبوا اليه عليه السلام
ان يحكم بينهم بما كان عليه اهل الجاهلية من التفاضل فقال عليه السلام القتلى
بواء فقال بنو النضير نحن لا نرضى بذلك فنزلت وقرئ برفع الحكم على انه مبتدأ ويبغون
خبره والراجع محذوف وحذفه في قوله تعالى اهذا الذي بعث الله رسولا وقد استضعف
ذلك في غير الشعر وقرئ بتاء الخطاب اما بالالتفات لتشديد التوبيخ واما بتقدير القول
اي قل لهم افحكم الخ وقرئ بفتح الحاء والكاف اي فحكما كحكام الجاهلية يبغون ومن
احسن من الله حكما انكار لان يكون احد حكمه احسن من حكمه تعالى او مساو له وان
كان ظاهر السبك غير متعرض لنفي المساواة وانكارها وقد مر تفصيله في تفسير قوله تعالى
ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله لقوم يوقنون اي عندهم واللام
كما في هيت لك اي هذا الاستفهام لهم فانهم الذين يتدبرون الامور بانظارهم
فيعلمون يقينا ان حكم الله عز وجل احسن الاحكام واعدلها يا ايها الذين آمنوا
خطاب يعم حكمه كافة المؤمنين من المخلصين وغيرهم وان كان سبب وروده بعضا
منهم كما سياتي ووصفهم بعنوان الايمان لحملهم من اول الامر على الانزجار
عما نهوا عنه بقوله عز وجل لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء فان تذكير
اتصافهم بضد صفات الفريقين من اقوى الزواجر عن موالاتهما لا يتخذ احد منكم احدا
منهم وليا بمعنى لا تصافوهم ولا تعاشروهم مصافاة الاحباب ومعاشرتهم
لا بمعنى لا تجعلوهم اولياء لكم حقيقة فانه امر ممتنع في نفسه لا يتعلق به النهي
بعضهم اولياء بعض اي بعض كل فريق من ذينك الفريقين اولياء بعض آخر من
ذلك الفريق لا من الفريق الآخر وانما اوثر الاجمال في البيان تعويلا على ظهور المراد لوضوح
انتفاء الموالاة بين فريقي اليهود والنصارى راسا والجملة مستانفة مسوقة لتعليل
النهي وتاكيد ايجاب الاجتناب عن المنهي عنه اي بعضهم اولياء بعض متفقون على كلمة
واحدة في كل ما ياتون وما يذرون ومن ضرورته اجماع الكل على مضادتكم و
مضادتكم بحيث يسومونكم السوء ويبغونكم الغوائل فكيف يتصور بينكم وبينهم
موالاة وقوله تعالى ومن يتولهم منكم فانه منهم حكم مستنتج منه فان اختصاص
الموالاة فيما بينهم مستدع لكون من يتولاهم منهم ضرورة ان الاتحاد في الدين الذي
يدور عليه امر الموالاة حيث لم يكن بكونهم ممن يتولاهم من المؤمنين تعين ان يكون
ذلك بكون من يتولاهم منهم وفيه زجر شديد للمؤمنين عن اظهار صورة الموالاة
لهم وان لم تكن موالاة في الحقيقة وقوله تعالى ان الله لا يهدي القوم الظالمين تعليل

تكون

لكون من يتولاهم منهم اي لا يهديهم الى الايمان بل يخليهم وشانهم فيقعون في الكفر
والضلالة وانما وضع المظهر موضع ضميرهم تنبيها على ان توليهم ظلم لما انه تعريض لا
نفسهم للعذاب الخالد ووضع للشيء في غير موضعه وقوله تعالى فترى الذين في قلوبهم
مرض بيان لكيفية توليهم واشعار بسببه وبما يؤول اليه امرهم والفاء للايذان
بترتبه على عدم الهداية والخطاب اما للرسول صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين
واما لكل احد ممن له اهلية له وفيه مزيد تشنيع للتشنيع اي لا يهديهم بل يذرهم
وشانهم فترى الخ وانما وضع موضع الضمير الموصول ليشار بما في حيز صلته الى ان
ما ارتكبوه من التولي بسبب ما في قلوبهم من مرض النفاق ورخاوة العقد في الدين
وقوله تعالى يسارعون فيهم حال من الموصول والرؤية بصرية وقيل مفعول ثان
والرؤية قلبية والاول هو الانسب بظهور نفاقهم اي تراهم مسارعين في
موالاتهم وانما قيل فيهم مبالغة في بيان رغبتهم فيها وتهالكهم عليها
وايثار كلمة في على كلمة الى للدلالة على انهم مستقرون في الموالاة وانما مسارعتهم
من بعض مراتبها الى بعض آخر منها كما في قوله تعالى اولئك يسارعون في الخيرات لا انهم
خارجون عنها متوجهون اليها كما في قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة
وقرئ فيرى بياء الغيبة على ان الضمير لله سبحانه وقيل لمن يصح منه الرؤية وقيل
الفاعل هو الموصول والمفعول هو الجملة على حذف ان المصدرية والرؤية قلبية
اي ويرى القوم الذين في قلوبهم مرض ان يسارعوا فيهم فلما حذفت ان انقلب الفعل
مرفوعا كما في قول من قال الا ايهذا الزاجري احضر الوغى والمراد بهم عبد الله بن
ابي واضرابه الذين كانوا يسارعون في موادة اليهود ونصارى نجران وكانوا
يعتذرون الى المؤمنين بانهم لا يامنون ان تصيبهم صروف الزمان وذلك قوله تعالى
يقولون نخشى ان تصيبنا دائرة وهو حال من ضمير يسارعون والدائرة من
الصفات الغالبة التي لا يذكر معها موصوفها اي يدور علينا دائرة من دوائر
الدهر ودولة من دوله بان ينقلب الامر وتكون الدولة للكفار وقيل نخشى
ان يصيبنا مكروه من مكاره الدهر كالجدب والقحط فلا يعطونا الميرة والقرض
روي ان عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان لي
موالي من اليهود كثير عددهم واني ابرأ الى الله ورسوله من ولايتهم واوالي الله
ورسوله فقال عبد الله بن ابي اني رجل اخاف الدوائر لا ابرأ من ولاية موالي و
هم يهود بني قينقاع ولعله يظهر للمؤمنين انه يريد بالدوائر المعنى الاخير ويضمر في
نفسه المعنى الاول وقوله عز وجل فعسى الله ان ياتي بالفتح رد من جهة الله تعالى
لعللهم الباطلة وقطع لاطماعهم الفارغة وتبشير للمؤمنين بالظفر فان عسى
منه سبحانه وعد محتوم لما ان الكريم اذا اطمع اطعم لا محالة فما ظنك باكرم الاكرمين
وان ياتي في محل النصب على انه خبر عسى وهو راي الاخفش او على انه مفعول به و
هو راي سيبويه لئلا يلزم الاخبار عن الجثة بالحدث في قولك عسى زيد ان يقوم و
المراد بالفتح فتح مكة قاله الكلبي والسدي وقال الضحاك فتح قرى اليهود من خيبر و
فدك وقال قتادة ومقاتل هو القضاء الفصل بنصره عليه السلام على من خالفه و
اعزاز الدين او امر من عنده بقطع شافة اليهود من القتل والاجلاء فيصبحوا اي
اولئك المنافقون المتعللون بما ذكر وهو عطف على ياتي داخل معه في حيز خبر عسى
وان لم يكن فيه ضمير الى اسمها فان فاء السببية مغنية عن ذلك فانها تجعل الجملتين
كجملة واحدة على ما اسروا في انفسهم نادمين وهو ما كانوا يكتمونه في انفسهم
من الكفر والشك في امره صلى الله عليه وسلم وتعليق الندامة به لا بما كانوا يظهرونه
من موالاة الكفرة لما انه الذي كان يحملهم على الموالاة ويغريهم عليها فدل ذلك
على ندامتهم عليها باصلها وسببها ويقول الذين آمنوا كلام مبتدأ مسوق
لبيان كمال سوء حال الطائفة المذكورة وقرئ بغير واو على انه جواب سؤال نشأ مما سبق

كانه قيل فماذا يقول المؤمنون حينئذ وقرئ ويقول بالنصب عطفا على يصبحوا وقيل على
يأتي باعتبار المعنى كانه قيل فعسى ان يأتي الله بالفتح عطفا ويقول الذين امنوا والاول اوجه
لان هذا القول انما يصدر عن المؤمنين عند ظهور ندامة المنافقين لا عند اتيان الفتح
فقط والمعنى ويقول الذين امنوا مخاطبين لليهود مشيرين الى المنافقين الذين كانوا
يوالونهم ويرجون دولتهم ويظهرون لهم غاية المحبة وعدم المفارقة عنهم
في السراء والضراء عند مشاهدتهم لخيبة رجائهم وانعكاس تقديرهم بوقوع
ضد ما كانوا يترقبونه ويتعللون به تعجيبا للمخاطبين من حالهم وتعريضا بهم
اهؤلاء الذين اقسموا بالله جهد ايمانهم انهم لمعكم اي بالنصرة والمعونة
كما قالوا فيما حكي عنهم وان قوتلتم لننصرنكم فاسم الاشارة مبتدأ وما بعده خبره والمعنى
انكار ما فعلوه واستبعاده وتخطئتهم في ذلك او يقول بعض المؤمنين لبعض مشيرين
الى المنافقين ايضا اهؤلاء الذين اقسموا للكفرة انهم لمعكم فالخطاب في معكم لليهود
على التقديرين الا انه على الاول من جهة المؤمنين وعلى الثاني من جهة المقسمين
وهذه الجملة لا محل لها من الاعراب لانها تفسير وحكاية لمعنى اقسموا لكن بالفاظهم
والا لقيل انا لمعكم وجهد الايمان اغلظها وهو في الاصل مصدر ونصبه على الحال على تقدير
واقسموا بالله يجهدون جهد ايمانهم فحذف الفعل واقيم المصدر مقامه ولا يبالي
بتعريفه لفظا لانه مؤول بنكرة اي مجتهدين في ايمانهم او على المصدر اي اقسموا اقسام
اجتهاد في اليمين وقوله تعالى حبطت اعمالهم فاصبحوا خاسرين اما جملة مستأنفة مسوقة
من جهته تعالى لبيان مآل ما صنعوه من ادعاء الولاية والاقسام على المعية في المنشط
والمكره اثر الاشارة الى بطلانه بالاستفهام الانكاري واما خبر ثان للمبتدأ عند
من يجوز كونه جملة كما في قوله تعالى فاذا هي حية تسعى او هو الخبر والموصول مع ما في
حيز صلته صفة لاسم الاشارة فالاستفهام حينئذ للتقرير وفيه معنى التعجب كانه
قيل ما احبط اعمالهم فما اخسرهم والمعنى بطلت اعمالهم التي عملوها في شأن
موالاتكم وسعوا في ذلك سعيا بليغا حيث لم يكن لكم دولة فينتفعوا بما صنعوا
من المساعي وتحملوا من مكابدة المشاق وفيه من الاستهزاء بالمنافقين والتقريع
للمخاطبين ما لا يخفى وقيل قاله بعض المؤمنين مخاطبا لبعض تعجبا من سوء حال المنافقين
واغتباطا بما من الله تعالى به عليهم من التوفيق للاخلاص اهؤلاء الذين اقسموا لكم باغلاظ
الايمان انهم اولياؤكم ومعاضدوكم على الكفار بطلت اعمالهم التي كانوا يتكلفونها
في رأي اعين الناس وانت خبير بان ذلك الكلام من المؤمنين انما يليق بما لو اظهر
المنافقون حينئذ خلاف ما كانوا يدعونه ويقسمون عليه من ولاية المؤمنين و
معاضدتهم على الكفار فظهر كذبهم وافتضحوا بذلك على رؤوس الاشهاد وبطلت اعمالهم التي
كانوا يتكلفونها في رأي اعين المؤمنين ولا ريب في انهم حينئذ اشد ادعاء واكثر
اقساما منهم قبل ذلك فضلا عن ان يظهروا ما يخالف ذلك وانما الذي يظهر منهم
الندامة على ما صنعوا وليس ذلك علامة ظاهرة الدلالة على كفرهم وكذبهم في
ادعائهم فانهم يدعون ان ليست ندامتهم الا على ما اظهروه من موالاة الكفرة خشية اصابة
الدائرة يا ايها الذين امنوا من يرتد منكم عن دينه وقرئ يرتدد بالفك على لغة
الحجاز والادغام لغة تميم لما نهى فيما سلف عن موالاة اليهود والنصارى وبين
ان موالاتهم مستدعية للارتداد عن الدين وفصل مصير من يواليهم من المنافقين شرع
في بيان حال المرتدين على الاطلاق وهذا من الكائنات التي اخبر عنها القرآن قبل وقوعها
روي انه ارتد عن الاسلام احدى عشرة فرقة ثلاث في عهد رسول الله صلى الله عليه
وسلم بنو مدلج ورئيسهم ذو الحمار وهو الاسود العنسي كان كاهنا تنبأ باليمن
واستولى على بلاده فاخرج منها عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب صلى الله عليه
وسلم الى معاذ بن جبل والى سادات اليمن فاهلكه الله تعالى على يدي فيروز الديلمي
بيته فقتله واخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ليلة قتل فسر به المسلمون

وقبض

فقبض عليه السلام من الغد واتى خبره في شهر ربيع الاول وبنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب
تنبأ وكتب الى رسول الله عليه من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله اما بعد فان الارض
نصفها لي ونصفها لك فاجاب صلى الله عليه وسلم من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب
اما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين فحاربه ابو بكر
رضي الله عنه بجنود المسلمين وقتل على يدي وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه وكان يقول قتلت في جاهليتي
خير الناس وفي اسلامي شر الناس وبنو اسد قوم طليحة بن خويلد تنبأ فبعث
ابو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد فانهزم بعد القتال الى الشام فاسلم وحسن اسلامه
وسبع في عهد ابي بكر رضي الله عنه فزارة قوم عيينة بن حصن وغطفان قوم
قرة بن سلمة القشيري وبنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل وبنو يربوع وقوم مالك
بن نويرة وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة التي زوجت نفسها من مسيلمة
الكذاب وفيها يقول ابو العلاء المعري في كتاب استغفر واستغفري امت سجاح ووالاها
مسيلمة كذابة في بني الدنيا وكذاب وكندة قوم الاشعث بن قيس وبنو بكر بن وائل بالبحرين
قوم الحطم بن زيد وكفى الله تعالى امرهم على يدي ابي بكر وفرقة واحدة في عهد عمر رضي الله عنه
غسان قوم جبلة بن الايهم نصرته اللطمة وسيرته الى بلاد الروم وقصته مشهورة
وقوله عز وجل فسوف يأتي الله جواب الشرط والعائد الى اسم الشرط محذوف
اي فسوف يأتي الله مكانهم بعد اهلاكهم بقوم يحبهم اي يريد بهم خير الدنيا والاخرة
ومحل الجملة الجر على انها صفة لقوم وكذا قوله تعالى ويحبونه اي يريدون طاعته
ويتحرزون معاصيه معطوف عليها داخل في حكمها قيل هم اهل اليمن لما روي ان
النبي صلى الله عليه وسلم اشار الى ابي موسى الاشعري وقال قوم هذا وقيل هم الانصار
وقيل هم الفرس لما روي انه عليه السلام سئل عنهم فضرب بيده الكريمة على عاتق
سلمان وقال هذا وذووه ثم قال لو كان الايمان معلقا بالثريا لناله رجال من ابناء
فارس وقيل هم الفان من النخع وخمسة آلاف من كندة وثلاثة آلاف من افناء الناس
جاهدوا يوم القادسية اذلة على المؤمنين جمع ذليل لا ذلول فان جمعه ذلل
اي ارقاء رحماء متذللين ومتواضعين لهم واستعماله بعلى اما لتضمين معنى العطف
والحنو وللتنبيه على انهم مع علو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون
لهم اجنحتهم او لرعاية المقابلة بينه وبين ما في قوله تعالى اعزة على الكافرين
اي اشداء متغلبين عليهم من عزه اذا غلبه كما في قوله عز وعلا اشداء على الكفار
رحماء بينهم وهما صفتان اخريان لقوم ترك بينهما العاطف للدلالة على استقلالهم
بالاتصاف بكل منهما وفيه دليل على صحة تأخير الصفة الصريحة عن غير الصريحة من
الجملة والظرف كما في قوله تعالى وهذا كتاب انزلناه مبارك وقوله تعالى ما يأتيهم
من ذكر من الرحمن محدث وما ذهب اليه من لا يجوزه من ان قوله تعالى يحبهم
ويحبونه كلام معترض وان مبارك خبر بعد خبر او خبر لمبتدأ محذوف وان من ربهم
من الرحمن حالان مقدمتان من ضمير محدث تكلف لا يخفى وقرئ اذلة اعزة
بالنصب على الحالية من قوم لتخصصه بالصفة يجاهدون في سبيل الله صفة اخرى
لقوم مترتبة على ما قبلها مبينة مع ما بعدها لكيفية عزتهم او حال من الضمير
في اعزة ولا يخافون لومة لائم عطف على يجاهدون بمعنى انهم جامعون
بين المجاهدة في سبيل الله وبين التصلب في الدين وفيه تعريض بالمنافقين فانهم
اذا خرجوا في جيش المسلمين خافوا اولياءهم اليهود ولا يكادون يعملون شيئا يلحقهم
فيه لوم من جهتهم وقيل هو حال من فاعل يجاهدون بمعنى انهم يجاهدون
وحالهم خلاف حال المنافقين واعترض عليه بانهم نصوا على ان المضارع المنفي
بلا او ما كالمثبت في عدم جواز مباشرة واو الحال له واللومة المرة من اللوم وفي
فيها وفي تنكير لائم مبالغة لا تخفى ذلك اشارة الى ما تقدم من الاوصاف
الجليلة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها في الفضل فضل الله

اي لطفه واحسانه لا لانهم مستقلون في الاتصاف بها يؤتيه من يشاء ايتاءه اياه
ويوفقه لكسبه وتحصيله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة والله واسع كثير الفواضل
والالطاف عليم مبالغ في العلم بجميع الاشياء التي من جملتها من هو اهل للفضل
والتوفيق والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله واظهار الاسم الجليل للاشعار
بالعلية وتاكيد استقلال الجملة الاعتراضية انما وليكم الله ورسوله والذين امنوا
لما نهاهم الله عز وجل عن موالاة الكفرة وعلله بان بعضهم اولياء بعض لا يتصور
ولايتهم للمؤمنين وبين ان من يتولاهم يكون من جملتهم بين ههنا من هو وليهم
بطريق قصر الولاية عليه كانه قيل لا تتخذوهم اولياء لان بعضهم اولياء بعض و
ليسوا باوليائكم انما اولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون فاختصوهم بالموالاة ولا
تتخطوهم الى الغير وانما افرد الولي مع تعدده للايذان بان الولاية اصالة لله تعالى وولايته عم
وكذا ولاية المؤمنين بطريق التبعية لولايته عز وجل الذين يقيمون الصلوة ويؤتون
الزكوة صفة للذين امنوا لجريانه مجرى الاسم او بدل منه او نصب على المدح او رفع
عليه وهم راكعون حال من فاعل الفعلين اي يعملون ما ذكر من اقامة الصلوة وايتاء
الزكوة وهم خاشعون ومتواضعون لله تعالى وقيل هو حال مخصوصة بايتاء الزكوة
والركوع ركوع الصلاة والمراد بيان كمال رغبتهم في الاحسان ومسارعتهم اليه
وروي انها نزلت في علي رضه حين ساله سائل وهو راكع فطرح اليه خاتمه كانه
كان مرجا في خنصره غير محتاج في اخراجه الى كثير عمل يؤدي الى فساد الصلوة ولفظ الجمع
حينئذ لترغيب الناس في مثل فعله رضي الله عنه وفيه دلالة على ان صدقة التطوع تسمى زكوة
ومن يتول الله ورسوله والذين امنوا اوثر الاظهار على ان يقال ومن يتولهم
رعاية لما مر من نكتة بيان اصالته تعالى في الولاية كما ينبئ عنه قوله تعالى فان حزب
الله هم الغالبون حيث اضيف الحزب اليه تعالى خاصة وهو ايضا من باب وضع الظاهر
موضع الضمير العائد الى من اي فانهم الغالبون لكنهم جعلوا حزب الله تعالى تعظيما لهم
واثباتا لغلبتهم بالطريق البرهاني كانه قيل ومن يتول هؤلاء فانهم حزب الله و
حزب الله هم الغالبون يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا
ولعبا روي ان رفاعة بن زيد وسويد بن الحارث اظهرا الاسلام ثم نافقا وكان
رجال من المؤمنين يوادونهما فنهوا عن موالاتهما ورتب النهي على وصف يعمهما و
غيرهما تعميما للحكم وتنبيها على العلة وايذانا بان هذا شانه جدير بالمعاداة فكيف
بالموالاة من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم بيان للمستهزئين والتعرض لعنوان ايتاء
الكتاب لبيان كمال شناعتهم وغاية ضلالتهم لما ان ايتاء الكتاب وازع لهم عن الاستهزاء
بالدين المؤسس على الكتاب المصدق لكتابهم والكفار اي المشركين خصوا به لتضاعف
كفرهم وهو عطف على الموصول الاول وفيه اشعار بانهم ليسوا بمستهزئين كما ينبئ عنه
تخصيص الخطاب باهل الكتاب في قوله تعالى يا اهل الكتاب هل تنقمون منا الاية وقرئ
بالجر عطفا على الموصول الاخير ويعضده قراءة ابي ومن الكفار وقراءة عبد الله ومن الذين
اشركوا فهم ايضا من جملة المستهزئين اولياء وجانبوهم كل المجانبة واتقوا الله
في ذلك بترك موالاتهم او بترك المناهي على الاطلاق فيدخل فيه ترك موالاتهم دخولا
اوليا ان كنتم مؤمنين اي حقا فان قضية الايمان توجب الاتقاء لا محالة واذا ناديتم
الى الصلاة اتخذوها اي الصلاة او المناداة وفيه دلالة على شرعية الاذان هزوا
ولعبا بيان لاستهزائهم بحكم خاص من احكام الدين بعد بيان استهزائهم بالدين على
الاطلاق اظهارا لكمال شقاوتهم روي ان نصرانيا بالمدينة كان اذا سمع المؤذن
يقول اشهد ان محمدا رسول الله يقول احرق الله الكاذب فدخل خادمه ذات ليلة بنار
واهله نيام فتطايرت منها شرارة في البيت فاحرقته واهله جميعا ذلك اي الاستهزاء المذكور
بانهم بسبب انهم قوم لا يعقلون فان السفه يؤدي الى الجهل بمحاسن الحق والهزء
به ولو كان لهم عقل في الجملة لما اجترؤا على تلك العظيمة قل امر رسول الله صلى الله عليه وسلم

بطريق تلوين الخطاب بعد نهي المؤمنين عن تولي المستهزئين بان يخاطبهم ويبين ان الدين
منزه عما يصحح صدور ما صدر عنهم من الاستهزاء ويظهر لهم سبب ما ارتكبوه ويلقمهم
الحجر اي قل لاولئك الفجرة يا اهل الكتاب وصفوا باهلية الكتاب تمهيدا لما سياتي من
تبكيتهم والزامهم بكفرهم بكتابهم هل تنقمون منا من نقم منه كذا اذا عابه وانكره وكرهه
ينقمه من حد ضرب وقرئ بفتح القاف من حد علم وهي ايضا لغة اي ما تعيبون وما تنكرون
منا الا ان امنا بالله وما انزل الينا من القران المجيد وما انزل من قبل اي من قبل
انزاله من التوراة والانجيل المنزلين عليكم وسائر الكتب الالهية وان اكثركم فاسقون
اي متمردون خارجون عن الايمان بما ذكر فان الكفر بالقران مستلزم للكفر بما يصدقه لا
محالة وهو عطف على ان امنا على انه مفعول له لتنقمون والمفعول الذي هو الدين محذوف
ثقة بدلالة ما قبله وما بعده عليه دلالة واضحة فان اتخاذ الدين هزوا ولعبا عين
نقمه وانكاره والايمان بما فصل عين الدين الذي نقموه خلا انه ابرز في معرض علة
نقمهم له تسجيلا عليهم بكمال المكابرة والتعكيس حيث جعلوه موجبا للنقمة في نفسه
موجبا لقبوله وارتضائه فالاستثناء من اعم العلل اي ما تنقمون منا دينا لعلة من العلل
الا لان امنا بالله وما انزل الينا وما انزل من قبل من كتبكم ولان اكثركم متمردون غير مؤمنين
بواحد مما ذكر حتى لو كنتم مؤمنين بكتابكم الناطق بصحة كتابنا لآمنتم به واسناد الفسق
الى اكثرهم لانهم الحاملون لاعقابهم على التمرد والعناد وقيل عطف عليه على انه مفعول لتنقمون
لكن لا على ان المستثنى مجموع المعطوفين بل هو ما يلزمهما من المخالفة كانه قيل ما تنقمون
منا الا مخالفتكم حيث دخلنا الايمان وانتم خارجون عنه وقيل على حذف المضاف اي
واعتقاد ان اكثركم فاسقون وقيل عطف على ما اي ما تنقمون منا الا الايمان بالله وما انزل
الينا وبانكم فاسقون وقيل عطف على علة محذوفة اي لقلة انصافكم ولان اكثركم
فاسقون وقيل الواو بمعنى مع اي ما تنقمون منا الا الايمان مع ان اكثركم الخ وقيل هو منصوب
بفعل مقدر دل عليه المذكور اي ولا تنقمون ان اكثركم فاسقون وقيل هو مرفوع على
الابتداء والخبر محذوف اي وفسقكم معلوم او ثابت والجملة حالية او معترضة وقرئ
بان المكسورة والجملة مستانفة مبينة لكون اكثرهم فاسقين متمردين قل هل
انبئكم بشر من ذلك لما امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزامهم وتبكيتهم ببيان
ان مدار نقمهم للدين انما هو اشتماله على ما يوجب ارتضاءه ايضا وكفرهم بما هو مسلم
لهم امر عليه السلام عقيبه بان يبكتهم ببيان ان الحقيق بالنقم والعيب حقيقة
ما هم عليه من الدين المحرف وينعى عليهم في ضمن البيان جناياتهم وما حاق بهم من
تبعاتها وعقوباتها على منهاج التعريض لئلا يحملهم التصريح بذلك على ركوب متن المكابرة والعناد
ويخاطبهم قبل البيان بما ينبئ عن عظم شان المبين ويستدعي اقبالهم على تلقيه من الجملة
الاستفهامية المشوقة الى المخبر به والتنبئة المشعرة بكونه امرا خطيرا لما ان النبأ هو الخبر
الذي له شان وخطر وحيث كان مناط النقم شرية المنقوم حقيقة او اعتقادا وكان
مجرد النقم غير مفيد لشريته البتة قيل بشر من ذلك ولم يقل بانقم من ذلك تحقيقا لشرية
ما سيذكر وزيادة تقريرها وقيل انما قيل ذلك لوقوعه في عبارة المخاطبين حيث اتى نفر من
اليهود فسالوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دينه فقال اؤمن بالله وما انزل الينا
الى قوله ونحن له مسلمون فحين سمعوا ذكر عيسى عم قالوا لا نعلم شرا من دينكم وانما
اعتبر الشرية بالنسبة الى الدين وهو منزه عن شائبة الشرية بالكلية مجاراة معهم على
زعمهم الباطل المنعقد على كمال شريته ليثبت ان دينهم شر من كل شر اي هل اخبركم بما هو
شر في الحقيقة مما تعتقدونه شرا وان كان في نفسه خيرا محضا مثوبة عند الله اي
جزاء ثابتا في حكمه وقرئ مثوبة وهي لغة فيها كمسورة ومسورة وهي مختصة بالخير كما ان العقوبة
مختصة بالشر وانما وضعت ههنا موضعها على طريقة قوله تحية بينهم ضرب وجيع ونصبها على
التمييز من بشر وقوله عز وجل من لعنه الله وغضب عليه خبر لمبتدا محذوف
بتقدير مضاف قبله مناسبا لما اشير اليه بكلمة ذلك اي دين من لعنه الخ او بتقدير مضاف

قبلها مناسب لمن اي شر من اهل ذلك والجملة على التقديرين استيناف
وقع جوابا عن سؤال نشاء من الجملة الاستفهامية اما على حالها وهو الظاهر المناسب لسياق
النظم الكريم واما باعتبار التقدير فيها فكانه قيل ما الذي هو شر من ذلك فقيل هو دين
من لعنه الله الخ ومآل السؤال من ذي الذي هو شر من اهل ذلك فقيل هو من لعنه الله ووضع الاسم
الجليل موضع الضمير لتربية المهابة وادخال الروعة وتهويل امر اللعن وما تبعه والموصول
عبارة عن المخاطبين حيث ابعدهم الله تعالى من رحمته وسخط عليهم بكفرهم وانهماكهم في المعاصي
بعد وضوح الآيات وسنوح البينات وجعل منهم القردة والخنازير اى مسخ بعضهم
قردة وهم اصحاب السبت وبعضهم خنازير وهم كفار مائدة عيسى عم وقيل كلا
المسخين في اصحاب السبت شبانهم قردة وشيوخهم خنازير وجمع الضمير الراجع الى
الموصول في منهم باعتبار معناه كما ان افراد الضميرين الاولين باعتبار لفظه وايثار
وضعه موضع ضمير الخطاب المناسب لانبئكم للقصد الى اثبات الشرية وما عدد في حيز
صلته من الامور الهائلة الموجبة لها على الطريقة البرهانية مع ما فيه من الاحتراز
عن تهييج لجاجهم وعبد الطاغوت عطف على صلة من وافراد الضمير لما مر وكذا عبد الطاغوت
على قراءة البناء للمفعول ورفع الطاغوت وكذا عبُد الطاغوت بمعنى صار معبودا
فالراجع الى الموصول محذوف على القراءتين اى عبد فيهم وتقديم اوصافهم
المذكورة بصدد اثبات شرية دينهم على وصفهم هذا مع ان الاصل المستتبع لها
في الوجود وان دلالته على شريته بالذات لان عبادة الطاغوت عين دينهم البين البطلان
ودلالتها عليها بطريق الاستدلال بشرية الآثار على شرية ما يوجبها من الاعتقاد والعمل
اما للقصد الى تبكيتهم من اول الامر بوصفهم بما لا سبيل لهم الى الجحود لا بشريته
وفظاعته ولا باتصافهم به واما للايذان باستقلال كل من المقدم والمؤخر
بالدلالة على ما ذكر من الشرية ولو روعي ترتيب الوجود وقيل من عبد الطاغوت ولعنه
الله وغضب عليه الخ

لو

لربما يوهم ان علة الشرية هو المجموع وقد قرئ عابد الطاغوت وكذا عبد الطاغوت بالاضافة
على انه نعت كفطن ويقظ وكذا عبد الطاغوت وكذا عبَد الطاغوت بالاضافة على انه
جمع عابد كخدم او على ان اصله عبدة حذفت تاؤه للاضافة بالنصب في الكل عطفا على القردة
والخنازير وقرئ عبد الطاغوت بالجر عطفا على من بناء على انه مجرور بتقدير المضاف وقد
قيل ان من مجرور على انه بدل من بشر على احد الوجهين المذكورين في تقدير المضاف وانت
خبير بان ذلك مع اقتضائه اخلاء النظم الكريم عن المزايا المذكورة بالمرة مما لا
سبيل اليه قطعا ضرورة ان المقصود الاصلي ليس مضمون الجملة الاستفهامية بل هي
كما مر مقدمة سيقت امام المقصود لهز المخاطبين وتوجيه اذهانهم نحو تلقي ما
يلقى اليهم عقيبها بجملة خبرية موافقة في الكيفية للسؤال الناشئ منها وهو المقصود
افادته وعليه يدور فلك الالزام والتبكيت حسبما شرح فاذا جعل الموصول بما في حيز
صلته من تتمة الجملة الاستفهامية فاين الذي يلقى اليهم عقيبها جوابا عما نشأ منها
من السؤال ليحصل به الالزام والتبكيت واما الجملة الآتية فبمعزل من صلاحية الجواب
كيف لا ولا بد من موافقته في الكيفية للسؤال الناشئ من الجملة الاستفهامية وقد
عرفت ان السؤال الناشئ منها يستدعي وقوع الشر من تتمة المخبر عنه لا خبرا كما في الجملة
المذكورة ويستوضح ذلك مزيد ايضاح باذن الله تعالى والمراد بالطاغوت العجل وقيل
هو الكهنة وكل من اطيع في معصية الله عز وجل فيعم الحكم دين النصارى ايضا ويتضح
وجه تاخير ذكر عبادته عن العقوبات المذكورة اذ لو قدمت عليها لتوهم اشتراك الفريقين
في تلك العقوبات ولما كان مآل ما ذكر بصدد التبكيت انما هو شر مما نقموه دينهم او ان من هو
شر من اجل ما نقموه انفسهم بحسب ما قدر من المضافين وكانت الشرية على كلا الوجهين
من تتمة الموضوع غير مقصودة الاثبات لدينهم ولا لانفسهم عقب ذلك باثباتها لهم على
وجه يشعر بعلية ما ذكر من القبائح لثبوتها لهم بجملة مستأنفة مسوقة من جهته سبحانه
شهادة عليهم بكمال الشرارة والضلال او داخلة تحت الامر تاكيدا للالزام وتشديدا للتبكيت
فقيل اولئك شر مكانا فاسم الاشارة عبارة عمن ذكرت صفاتهم الخبيثة وما فيه من
معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم في الشرارة اي اولئك الموصوفون بتلك القبائح والفضائح
شر مكانا جعل مكانهم شرا ليكون ابلغ في الدلالة على شرارتهم وقيل شر مكانا اي منصرفا
واضل عن سواء السبيل عطف على شر مقرر له اي اكثر ضلالا عن الطريق المستقيم وفيه
دلالة على كون دينهم شرا محضا بعيدا عن الحق لان ما يسلكونه من الطريق دينهم فاذا
كانوا اضل كان دينهم ضلالا مبينا لا غاية وراءه وصيغة التفضيل في الموضعين للزيادة
مطلقا لا بالاضافة الى من يشاركهم في اصل الشرارة والضلال واذا جاؤكم قالوا آمنا نزلت في
ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم يظهرون له الايمان نفاقا
فالخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والجمع للتعظيم او له مع من عنده من المسلمين
اي اذا جاؤكم اظهروا الاسلام وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به اي يخرجون

من عندك ملتبسين بالكفر كما دخلوا لم يؤثر فيهم ما سمعوا منك والجملتان حالان من فاعل قالوا
وبالكفر وبه حالان من فاعل دخلوا وخرجوا وقد وان دخلت لتقريب الماضي من الحال ليصح
ان يقع حالا افادت ايضا بما فيها من معنى التوقع ان امارات النفاق كانت لائحة وكان
الرسول صلى الله عليه وسلم يظنه ويتوقع ان يظهره الله تعالى ولذلك قيل والله اعلم بما كانوا
يكتمون اي من الكفر وفيه وعيد شديد لهم وترى خطاب لرسول الله صلى الله عليه
وسلم او لكل احد ممن يصلح للخطاب والرؤية بصرية كثيرا منهم من اليهود و
المنافقين وقوله تعالى يسارعون في الاثم حال من كثيرا وقيل مفعول ثان والرؤية
قلبية والاول انسب بحالهم وظهور نفاقهم والمسارعة المبادرة والمباشرة للشيء
بسرعة وايثار كلمة في على كلمة الى الواقعة في قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة الخ لما ذكر في قوله
تعالى وترى كثيرا الذين في قلوبهم مرض منهم يسارعون فيهم والمراد بالاثم الكذب
على الاطلاق وقيل الحرام وقيل كلمة الشرك وقولهم عزير ابن الله وقيل هو ما يختص
بهم من الآثام والعدوان اي الظلم المتعدي الى الغير او مجاوزة الحد في المعاصي و
اكلهم السحت اي الحرام خصه بالذكر مع اندراجه في الاثم للمبالغة في التقبيح
لبئس ما كانوا يعملون اي لبئس شيئا كانوا يعملونه والجمع بين صيغتي الماضي
والمستقبل للدلالة على الاستمرار لولا ينهاهم الربانيون والاحبار قال الحسن
الربانيون علماء الانجيل والاحبار علماء التوراة وقيل كلهم في اليهود وهو تحضيض
للذين تعدى بهم اقتداؤهم ويعلمون قباحة ما هم فيه وسوء مغبته على اسافلهم
عن ذلك مع توبيخ لهم على تركه عن قولهم الاثم واكلهم السحت مع علمهم
بقبحهما ومشاهدتهم لمباشرتهم لهما لبئس ما كانوا يصنعون وهذا ابلغ
مما قيل في حق عامتهم لما ان العمل لا يبلغ درجة الصنع ما لم يتدرب فيه صاحبه
ولم يحصل فيه مهارة تامة ولذلك ذم به خواصهم ولان ترك الحسنة اقبح من
مواقعة المعصية لان النفس تلتذ بها وتميل اليها ولا كذلك ترك الانكار عليها فكان
جديرا بابلغ ذم وفيه مما ينعى على العلماء توانيهم في النهي عن المنكر ما لا يخفى وعن
ابن عباس رضي الله عنه انها اشد آية في القرآن وعن الضحاك ما في القرآن اخوف آية عندي
منها وقالت اليهود قال ابن عباس وعكرمة والضحاك ان الله تعالى كان قد بسط على
اليهود حتى كانوا من اكثر الناس مالا واخصبهم ناحية فلما عصوا الله سبحانه بان كذبوا
برسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبوه وكف عنهم ما بسط عليهم فعند ذلك قال
فنحاص بن عازوراء يد الله مغلولة وحيث لم ينكر عليه الآخرون ورضوا به نسبت
تلك العظيمة الى الكل كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم وارادوا بذلك
لعنهم الله انه سبحانه ممسك يقتر بالرزق فان كلا من غل اليد وبسطها مجاز عن محض
البخل والجود من غير قصد في ذلك الى اثبات يد وغل وبسط الا يرى انهم يستعملونه حيث
لا يتصور فيه ذلك كما في قوله جاد الحمى بسط اليدين بوابل شكرت نداه تلاعه ووهاده
ولقد سلك لبيد هذا المسلك السديد حيث قال وغداة ريح قد شهدت وقرة اذ اصبحت
بيد الشمال زمامها فانه انما اراد بذلك اثبات القدرة التامة للشمال على التصرف في القرة
كيف تشاء على طريقة المجاز من غير ان يخطر بباله ان يثبت لها يدا ولا للقرة زماما واصله
كناية فيمن يجوز عليه ارادة المعنى الحقيقي كما مر في قوله تعالى ولا ينظر اليهم يوم القيمة
في سورة آل عمران وقيل ارادوا ما حكى عنهم بقوله تعالى لقد سمع الله قول الذين قالوا
ان الله فقير ونحن اغنياء غلت ايديهم دعاء عليهم بالبخل المذموم والمسكنة او
بالفقر والنكد او بغل الايدي حقيقة بان يكونوا اسارى مغلولين في الدنيا ويسحبوا الى النار
باغلالها في الآخرة فيكون المطابقة حينئذ من حيث اللفظ وملاحظة المعنى الاصلي كما سبق
سب الله دابره ولعنوا عطف على الدعاء الاول اي ابعدوا من رحمة الله تعالى بما قالوا اي
بسبب ما قالوا من الكلمة الشنعاء وقيل كلاهما خبر بل يداه مبسوطتان عطف على
مقدر يقتضيه المقام اي كلا ليس كذلك بل هو في غاية ما يكون من الجود واليه اشير

بتثنية اليد فان اقصى ما ينتهي اليه همم الاسخياء ان يعطوا ما يعطونه بكلتا يديهم
وقيل التثنية للتنبيه على منحه تعالى لنعمتي الدنيا والآخرة وقيل على اعطائه اكراما وعلى اعطائه
استدراجا ينفق كيف يشاء جملة مستانفة واردة لتاكيد كمال جوده وللتنبيه على سر
ما ابتلوا به من الضيق الذي اتخذوه من غاية جهلهم وضلالهم ذريعة الى الاجتراء
على تلك الكلمة العظيمة والمعنى ان ذلك ليس لقصور في فيضه بل لان انفاقه تابع لمشيئته
المبنية على الحكم التي عليها يدور امر المعاش والمعاد وقد اقتضت الحكمة بسبب ما فيهم
من شؤم المعاصي ان يضيق عليهم كما يشير اليه ما سياتي من قوله تعالى عز وعلا ولو انهم
اقاموا التوراة والانجيل الآية وكيف ظرف ليشاء والجملة في محل النصب على الحالية من
ضمير ينفق اي ينفق كائنا على اي حال يشاء اي كائنا على مشيئته اي مريدا وترك ذكر ما
ينفقه لقصد التعميم وليزيدن كثيرا منهم وهم علماؤهم ورؤساؤهم ما انزل
اليك من القرآن المشتمل على هذه الآيات وتقديم المفعول للاعتناء به وتخصيص
الكثير منهم بهذا الحكم لما ان بعضهم ليس كذلك من ربك متعلق بانزل كما ان اليك
كذلك وتاخيره عنه مع ان حق المبتدا ان يتقدم على المنتهى لاقتضاء المقام الاهتمام
ببيان المنتهى لان مدار الزيادة هو النزول اليه عليه السلام كما في قوله تعالى وانزل اليكم من السماء
ماء والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عم لتشريفه عليه السلام
طغيانا وكفرا مفعول ثان للزيادة اي ليزيدنهم طغيانا على طغيانهم وكفرا على
كفرهم القديمين اما من حيث الشدة والغلو واما من حيث الكم والكثرة اذ كلما نزلت
آية كفروا بها فيزداد طغيانهم وكفرهم بحسب المقدار كما ان الطعام الصالح للاصحاء
يزيد المرضى مرضا والقينا بينهم اي بين اليهود فان بعضهم جبرية وبعضهم قدرية
وبعضهم مرجئة وبعضهم مشبهة العداوة والبغضاء فلا تكاد تتوافق قلوبهم ولا
تتطابق اقوالهم والجملة مبتداة مسوقة لازاحة ما عسى يتوهم من ذكر طغيانهم
وكفرهم من الاجتماع على امر يؤدي الى الاضرار بالمسلمين قيل العداوة اخص من البغضاء
لان كل عدو مبغض بلا عكس كلي الى يوم القيمة متعلق بالقينا وقيل بالبغضاء كلما
اوقدوا نارا للحرب اطفاها الله تصريح بما اشير اليه من عدم وصول غائلة ما هم
فيه الى المسلمين اي كلما ارادوا محاربة الرسول صلى الله عليه وسلم ورتبوا مباديها وركبوا
في ذلك متن كل صعب ذلول ردهم الله تعالى وقهرهم او كلما ارادوا حرب احد غلبوا فانهم لما
خالفوا حكم التوراة سلط الله تعالى عليهم بخت نصر ثم افسدوا فسلط عليهم فطرس
الرومي ثم افسدوا فسلط عليهم المجوس ثم افسدوا فسلط عليهم المسلمين وللحرب اما
صلة لاوقدوا او متعلق بمحذوف وقع صفة لنارا اي كائنة للحرب ويسعون في الارض
فسادا اي يجتهدون في الكيد للاسلام واهله واثارة الشر والفتنة فيما بينهم
مما يغاير ما عبر عنه بايقاد نار الحرب وفسادا اما مفعول له او في موقع المصدر اي
يسعون للفساد او يسعون سعي فساد والله لا يحب المفسدين ولذلك اطفا نائرة
افسادهم واللام اما للجنس وهم داخلون فيه دخولا اوليا واما للعهد ووضع المظهر مقام
المضمر للتعليل وبيان كونهم راسخين في الافساد ولو ان اهل الكتاب اي اليهود
والنصارى على ان المراد بالكتاب الجنس المنتظم للتوراة والانجيل وانما ذكروا بذلك العنوان
تاكيدا للتشنيع فان اهلية الكتاب توجب ايمانهم واقامتهم له لا محالة فكفرهم به
وعدم اقامتهم له وهم اهله اقبح من كل قبيح واشنع من كل شنيع ومفعول قوله تعالى
امنوا محذوف ثقة بظهوره مما سبق من قوله تعالى هل تنقمون منا الا ان امنا
بالله وما انزل الينا وما انزل من قبل وان اكثركم فاسقون وما لحق من قوله تعالى
ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل الخ اي لو انهم مع ما صدر عنهم من فنون
الجنايات قولا وفعلا امنوا بما نعى عليهم الايمان به فيندرج فيه ايمانهم برسول الله
صلى الله عليه وسلم واما ارادة ايمانهم به عليه السلام خاصة فيأباها المقام لان ما ذكر
فيما سبق وما لحق من كفرهم به عليه السلام انما ذكر مستتبعا لكفرهم بكتابهم ايضا قصدا

الى الالزام والتبكيت ببيان ان الكفر به عليه السلام مستلزم للكفر بكتابهم محمل الايمان ههنا
على الايمان به عليه السلام خاصة تحاشيا عن تجاوب اطراف النظم الكريم ﴿واتقوا﴾ ما عددنا
من معاصيهم التي من جملتها مخالفة كتابهم ﴿لكفرنا عنهم سيئاتهم﴾ التي اقترفوها
وان كانت في غاية العظم ونهاية الكثرة ولم نؤاخذهم بها ﴿ولادخلناهم﴾ مع ذلك
﴿جنات النعيم﴾ وتكرير اللام لتأكيد الوعد وفيه تنبيه على كمال عظم ذنوبهم وكثرة
معاصيهم وان الاسلام يجب ما قبله من السيئات وان جلت وجاوزت كل حد معهود
﴿ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل﴾ بمراعاة ما فيهما من الاحكام التي من جملتها شواهد
نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ومبشرات بعثته فان اقامتها انما يكون بذلك لا بمراعاة
جميع ما فيهما من الاحكام لانتساخ بعضها بنزول القرآن فليست مراعاة الكل من اقامتهما
في شيء ﴿وما انزل اليهم من ربهم﴾ من القرآن المجيد المصدق لكتبهم وايراده بهذا
العنوان للايذان بوجوب اقامته عليهم لنزوله اليهم وللتصريح ببطلان ما
كانوا يدعونه من عدم نزوله الى بني اسرائيل وتقديم اليهم لما مر من قبل وفي اضافة
الرب الى ضميرهم مزيد لطف بهم في الدعوة الى الاقامة وقيل المراد بما انزل اليهم
كتب انبياء بني اسرائيل مثل كتاب شعيا وكتاب حبقوق وكتاب دانيال فانها مملوءة
بالبشارة بمبعثه صلى الله عليه وسلم ﴿لاكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم﴾ اي لوسع
عليهم ارزاقهم بان يفيض عليهم بركات السماء والارض وبان يكثر ثمرات الاشجار
وغلال الزروع او بان يرزقهم الجنان البالغة الثمار فيجتنوا ما تهدل منها من
رؤوس الاشجار ويلتقطوا ما تساقط منها على الارض وقيل المراد المبالغة في شرح
السعة والخصب لا تعيين الجهتين كانه قيل لاكلوا من كل جهة ومفعول اكلوا محذوف
لقصد التعميم او للقصد الى نفس الفعل كما في قوله فلان يعطي ويمنع ومن في الموضعين
لابتداء الغاية وفي هاتين الشرطيتين من حثهم على ما ذكر من الايمان والتقوى والاقامة
بالوعد بنيل سعادة الدارين وزجرهم عن الاخلال به ببيان افضائه الى الحرمان
عنهما وتنبيههم على ان ما اصابهم من الضنك والضيق انما هو من شؤم جناياتهم
لا لقصور في فيض الفياض ما لا يخفى ﴿منهم امة مقتصدة﴾ جملة مستأنفة مبنية
على سؤال نشأ من مضمون الجملتين المصدرتين بحرف الامتناع الدالتين على انتفاء
الايمان والاتقاء واقامة الكتب المنزلة من اهل الكتاب كانه قيل هل كلهم كذلك
مصرون على عدم الايمان الخ فقيل منهم امة مقتصدة اما على ان منهم مبتدأ باعتبار
مضمونه اي بعضهم امة واما بتقدير الموصوف اي بعض كائن منهم كما مر في قوله
تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله الآية اي طائفة معتدلة وهم المؤمنون كعبد الله
بن سلام واضرابه وثمانية واربعون من النصارى وقيل طائفة حالهم امم في
عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وكثير منهم﴾ مبتدأ لتخصصه بالصفة خبره
﴿ساء ما يعملون﴾ اي مقول في حقهم هذا القول اي بئسما يعملون وفيه معنى التعجب
اي ما اسوأ عملهم من العناد والمكابرة وتحريف الحق والاعراض عنه والافراط في العداوة
وهم الاجلاف المتعصبون ككعب بن الاشرف واشباهه والروم ﴿يا ايها الرسول﴾ نودي
عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة تشريفا له وايذانا بانها من موجبات الاتيان
بما امر به من تبليغ ما اوحي اليه ﴿بلغ ما انزل اليك﴾ اي جميع ما انزل اليك من الاحكام
وما يتعلق بها كائنا ما كان وفي قوله تعالى ﴿من ربك﴾ اي مالك امورك ومبلغك الى كمالك اللائق
بك عدة ضمنية بحفظه عليه السلام وكلاءته اي بلغه غير مراقب في ذلك احدا و
لا خائف ان ينالك مكروه ابدا ﴿وان لم تفعل﴾ اي ما امرت به من تبليغ الجميع بالمعنى
المذكور كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿فما بلغت رسالته﴾ فان ما لا يتعلق به الاحكام اصلا
من الاسرار الخفية ليست مما يقصد تبليغه الى الناس اي فما بلغت شيئا من رسالته و
انسلخت مما شرفت به من عنوان الرسالة بالمرة لما ان بعضها ليس اولى بالاداء من
بعض فاذا لم تؤد بعضها فكانك اغفلت اداءها جميعا كما ان من لم يؤمن ببعضها كان كمن

لم يؤمن

لم يؤمن بكلها لادلاء كل منها بما يدليه غيرها وكونها لذلك في حكم شيء واحد ولا ريب
في ان الواحد لا يكون مبلغا مؤمنا غير مبلغ مؤمنا به غير مؤمن به لان كتمان بعضها اضاعة
لما ادي منها كترك بعض اركان الصلاة فان غرض الدعوة ينتقض بذلك وقيل فكانك
ما بلغت شيئا منها كقوله تعالى فكانما قتل الناس جميعا من حيث ان كتمان البعض والكل سواء
في الشناعة واستجلاب العقاب وقرئ فما بلغت رسالاته وعن ابن عباس ان كتمت اية لم تبلغ
رسالاتي وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثني الله برسالاته فضقت بها ذرعا
فاوحى الله تعالى الي ان لم تبلغ رسالاتي عذبتك وضمن لي العصمة فقويت وذلك قوله تعالى
﴿والله يعصمك من الناس﴾ فانه كما ترى عدة كريمة بعصمته من لحوق ضررهم بروحه
العزيز باعثة له عليه السلام على الجد في تحقيق ما امر به من التبليغ غير مكترث بعداوتهم
وكيدهم وعن انس رضي الله عنه انه عليه السلام كان يحرس حتى نزلت فاخرج راسه من قبة
آدم فقال انصرفوا يا ايها الناس فقد عصمني الله من الناس وقوله تعالى ﴿ان الله لا يهدي
القوم الكافرين﴾ تعليل لعصمته تعالى له عليه السلام اي لا يمكنهم مما يريدون بك من
الاضرار وايراد الآية الكريمة في تضاعيف الآيات الواردة في حق اهل الكتاب لما ان
الكل قوارع يسوء الكفار سماعها ويشق على الرسول صلى الله عليه وسلم مشافهتهم
بها وخصوصا ما يتلوها من النص الناعي عليهم كمال ضلالهم ولذلك اعيد الامر فقيل
﴿قل يا اهل الكتاب﴾ مخاطبا للفريقين ﴿لستم على شيء﴾ اي دين يعتد به ويليق بان يسمى
شيئا لظهور بطلانه ووضوح فساده وفي هذا التعبير من التحقير والتصغير ما لا غاية
وراءه ﴿حتى تقيموا التوراة والانجيل﴾ اي تراعوهما وتحافظوا على ما فيهما من الامور
التي من جملتها دلائل رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وشواهد نبوته فان اقامتهما
انما يكون بذلك واما مراعاة احكامهما المنسوخة فليست من اقامتهما في شيء بل هي
تعطيل لهما ورد لشهادتهما لانهما شاهدان بنسخها وانتهاء وقت العمل بها لان شهادتهما
بصحة ما ينسخها شهادة بنسخها وخروجها عن كونها من احكامهما وان احكامهما
ما قرره النبي الذي بشرتهما ببعثته وذكر في تضاعيفهما نعوته فاذن اقامتهما بيان
شواهد النبوة والعمل بما قررته الشريعة من الاحكام كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿وما انزل
اليكم من ربكم﴾ اي القرآن المجيد بالايمان به فان اقامة الجميع لا تتأتى بغير ذلك و
تقديم اقامة الكتابين على اقامته مع انها المقصودة بالذات لرعاية حق الشهادة
واستنزالهم عن رتبة الشقاق وايراده بعنوان الانزال اليهم لما مر من التصريح بانهم
مأمورون باقامته والايمان به لا كما يزعمون من اختصاصه بالعرب وفي اضافة الرب
الى ضميرهم ما اشير اليه من اللطف في الدعوة وقيل المراد بما انزل اليهم كتب انبياء بني
اسرائيل كما مر وقيل الكتب الالهية فانها باسرها آمرة بالايمان لمن صدقته المعجزة
ناطقة بوجوب الطاعة له روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ان جماعة من اليهود قالوا لرسول الله
صلى الله عليه وسلم الست تقر ان التوراة حق من عند الله تعالى فقال عليه السلام بلى فقالوا فانا مؤمنون
بها ولا نؤمن بغيرها فنزلت وقوله تعالى ﴿وليزيدن كثيرا منهم ما انزل اليك من ربك
طغيانا وكفرا﴾ جملة مستأنفة مبينة لشدة شكيمتهم وغلوهم في المكابرة و
العناد وعدم افادة التبليغ نفعا وتصديرها بالقسم لتأكيد مضمونها وتحقيق مدلوله
والمراد بالكثير المذكور علماؤهم ورؤساؤهم ونسبة الانزال الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم مع نسبته فيما مر اليهم للايذان بانسلاخهم عن تلك النسبة ﴿فلا تأس على القوم
الكافرين﴾ اي لا تتأسف ولا تحزن لافراطهم في الطغيان والكفر بما تبلغه اليهم فان
غائلته آئلة اليهم وتبعته حائقة بهم لا تتخطاهم وفي المؤمنين مندوحة لك عنهم
ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالرسوخ في الكفر ﴿ان الذين آمنوا﴾ كلام
مستأنف مسوق للترغيب من عدا المذكورين في الايمان والعمل الصالح اي الذين آمنوا
بالسنتهم فقط وهم المنافقون وقيل اعم من ان يواطئها قلوبهم ﴿والذين هادوا﴾
اي دخلوا في اليهودية ﴿والصابئون والنصارى﴾ جمع نصران وخبره تفصيله في سورة

البقرة وقوله والصابئون رفع على الابتداء وخبره محذوف والنية به التاخير عما في حيز
ان والتقدير ان الذين امنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كيت وكيت والصابئون
كذلك كقوله فاني وقيار بها لغريب وقوله والا فاعلموا انا وانتم بغاة ما بقينا
في شقاق خلا انه وسط بين اسم ان وخبرها دلالة على ان الصابئين مع ظهور ضلالهم
وزيغهم عن الاديان كلها حيث قبلت توبتهم ان صح منهم الايمان والعمل الصالح فغيرهم
اولى بذلك وقيل الجملة الاتية خبر للمبتدأ المذكور وخبر ان مقدر كما في قوله نحن
بما عندنا وانت بما عندك راض والراي مختلف وقيل والنصارى مرفوع على الابتداء
كقوله تعالى والصابئون عطف عليه وهو مع خبره عطف على الجملة المصدرة بان ولا
مساغ لعطفه وحده على محل ان واسمها لاشتراطه ذلك بالفراغ عن الخبر والا لارتفع الخبر
بان والابتداء معا واعتذر عنه بان ذلك اذا كان المذكور خبرهما واما اذا كان خبر المعطوف
محذوفا فلا محذور فيه وقيل على الضمير في هادوا والعدم التاكيد والفصل ولاستلزامه كون
الصابئين هودا وقرئ والصابيون بياء صريحة بتخفيف الهمزة وقرئ والصابون
وهو من صبا يصبو لانهم صبوا الى اتباع الهوى والشهوات في دينهم وقرئ والصابئين
وقرئ يا ايها الذين امنوا والذين هادوا والصابئون وقوله تعالى من امن بالله واليوم
الاخر وعمل صالحا اما في محل الرفع على انه مبتدأ خبره فلا خوف عليهم ولا هم
يحزنون والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط وجمع الضماير الاخيرة باعتبار معنى الموصول
كما ان افراد ما في صلته باعتبار لفظه والجملة خبر ان والعايد الى اسمها محذوف
اي من امن منهم واما في محل النصب على انه بدل من اسم ان وما عطف عليه والخبر
قوله تعالى فلا خوف والفاء كما في قوله عز وعلا ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم
يتوبوا فلهم عذاب جهنم الاية فالمعنى على تقدير كون المراد بالذين امنوا المنافقين
وهو الاظهر من احدث من هذه الطوايف ايمانا خالصا بالمبدأ والمعاد على الوجه اللايق
لا كما يزعمه اهل الكتاب فان ذلك بمعزل من ان يكون ايمانا بهما وعمل عملا صالحا حسبما
يقتضيه الايمان بهما فلا خوف عليهم حين يخاف الكفار العقاب ولا هم يحزنون حين
يحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء
دوامهما كما يوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعا لما مر مرارا ان النفي وان
دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام واما على تقدير كون
المراد بالذين امنوا مطلق المتدينين بدين الاسلام المخلصين منهم والمنافقين
فالمراد بمن امن من اتصف منهم بالايمان الخالص بالمبدأ والمعاد على الاطلاق سواء كان
ذلك بطريق الثبات والدوام عليه كما هو شان المخلصين او بطريق احداثه وانشائه
كما هو حال من عداهم من المنافقين وساير الطوايف وفايدة التعميم للمخلصين المبالغة في
ترغيب الباقين في الايمان ببيان ان تاخرهم في الاتصاف به غير مخل بكونهم اسوة لاولئك الاقدمين
الاعلام واما ما قيل المعنى من كان منهم في دينه قبل ان ينسخ مصدقا بقلبه بالمبدأ
والمعاد عاملا بمقتضى شرعه فمما لا سبيل اليه اصلا كما مر تفصيله في سورة البقرة لقد اخذنا
ميثاق بني اسرائيل كلام مبتدأ مسوق لبيان بعض اخر من جناياتهم المنادية باستبعاد
الايمان منهم اي وبالله لقد اخذنا ميثاقهم بالتوحيد وساير الشرايع والاحكام المكتوبة
عليهم في التوراة وارسلنا اليهم رسلا ذوي عدد كثير واولي شان خطير ليقرروهم
على مراعاة حقوق الميثاق ويطلعوهم على ما ياتون وما يذرون في دينهم ويتعهدوهم
بالعظة والتذكير وقوله تعالى كلما جاءهم رسول بما لا تهوى انفسهم جملة شرطية
مستانفة وقعت جوابا عن سؤال نشا من الاخبار باخذ الميثاق وارسال الرسل وجواب
الشرط محذوف كانه قيل فماذا فعلوا بالرسل فقيل كلما جاءهم رسول من اولئك الرسل بما لا تحبه
انفسهم المنهمكة في الغي والفساد من الاحكام الحقة والشرايع عصوه وعادوه وقوله تعالى
فريقا كذبوا وفريقا يقتلون جواب مستانف عن استفسار كيفية ما اظهروه من اثار
المخالفة المفهومة من الشرطية على طريقة الاجمال كانه قيل كيف فعلوا بهم فقيل فريقا منهم

كذبوهم

كذبوهم من غير ان يتعرضوا لهم بشيء اخر من المضار وفريقا اخر منهم لم يكتفوا بتكذيبهم
بل قتلوهم ايضا وانما اوثر عليه صيغة المضارع على حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها
الهايلة للتعجيب منها وللتنبيه على ان ذلك ديدنهم المستمر وللمحافظة على رؤس
الاي الكريمة فريقا في الموضعين للاهتمام به وتشويق السامع الى ما فعلوا به لا للقصر
هذا واما جعل الشرطية صفة لرسلا كما ذهب اليه الجمهور فلا يساعده المقام اصلا
ضرورة ان الجملة الخبرية اذا جعلت صفة او صلة ينسلخ ما فيها من الحكم ويجعل عنوانا
للموصوف وتتمة له في اثبات امر اخر له ولذلك يجب ان يكون الوصف معلوم الانتساب
الى الموصوف عند السامع قبل جعله وصفا ومن هاهنا قالوا ان الصفات قبل العلم بها
اخبار والاخبار بعد العلم بها صفات ولا ريب في ان ما سيق له النظم انما هو بيان انهم
جعلوا كل من جاءهم من رسل الله تعالى عرضة للقتل او التكذيب حسبما يفيده جعلها
استينافا على ابلغ وجه واكده لا بيان انه تعالى ارسل اليهم رسلا موصوفين
بكون كل منهم كذلك كما هو مقتضى جعلها صفة وحسبوا ان لا تكون فتنة اي
حسب بنو اسرائيل ان لا يصيبهم من الله تعالى بما اتوا من الدواهي الدهياء والخطة
الشنعاء بلاء وعذاب وقرئ لا تكون بالرفع على ان ان هي المخففة من ان واسمها
ضمير الشان المحذوف واصله انه لا تكون فتنة وتعليق فعل الحسبان بها وهي للتحقيق
لتنزيله منزلة العلم لكمال قوته وان بما في حيزها سادة مسد مفعوليه فعموا عطف على
حسبوا والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها اي امنوا باس الله تعالى فتمادوا
في فنون الغي والفساد وعموا عن الدين بعد ما هداهم الرسل الى معالمه الظاهرة وبينوا
لهم مناهجه الواضحة وصموا عن استماع الحق الذي القوه عليهم ولذلك فعلوا
بهم ما فعلوا وهذا اشارة الى المرة الاولى من مرتي افساد بني اسرائيل حين خالفوا
احكام التوراة وركبوا المحارم وقتلوا شعيا وقيل حبسوا ارميا عليهما السلام لا الى عبادتهم
العجل كما قيل فانها وان كانت معصية عظيمة ناشية عن كمال العمى والصمم لكنها في عصر
موسى عليه السلام ولا تعلق لها بما حكي عنهم مما فعلوا بالرسل الذين جاؤهم بعده
عليه السلام باعصار ثم تاب الله عليهم حين تابوا ورجعوا عما كانوا عليه من
الفساد بعد ما كانوا ببابل دهرا طويلا تحت قهر بخت نصر اسارى في غاية الذل والمهانة
فوجه الله عز وجل ملكا عظيما من ملوك فارس الى بيت المقدس ليعمره ونجى بقايا بني
اسرائيل من اسر بخت نصر بعد مهلكه وردهم الى وطنهم وتراجع من تفرق منهم في الاكناف
فعمروه ثلاثين سنة فكثروا وكانوا كاحسن ما كانوا عليه وقيل لما ورث بهمن ابن
اسفنديار الملك من جده كستاسف القى الله عز وجل في قلبه شفقة عليهم فردهم الى
الشام وملك عليهم دانيال فاستولوا على من كان فيها من اتباع بخت نصر فقامت فيهم
الانبياء فرجعوا الى احسن ما كانوا عليه من الحال وذلك قوله تعالى ثم رددنا لكم الكرة
عليهم واما ما قيل ان المراد بتوبتهم توبتهم عن عبادة العجل فقد عرفت ان ذلك لا تعلق له بالمقام
ولم يسند التوبة اليهم كساير احوالهم من الحسبان والعمى والصمم تجافيا عن التصريح
بنسبة الخير اليهم وانما اشير اليها في ضمن بيان توبة الله تعالى عليهم تمهيدا لبيان نقضهم اياها
بقوله تعالى ثم عموا وصموا وهو اشارة الى المرة الاخرة من مرتي افسادهم وهي
اجتراؤهم على قتل زكريا ويحيى وقصدهم قتل عيسى عليهم السلام لا الى طلبهم الرؤية
كما قيل لما عرفت سره فان فنون الجنايات الصادرة عنهم لا يكاد تتناهى خلا ان انحصار
ما حكي عنهم هاهنا في المرتين وترتبه على حكاية ما فعلوا بالرسل عليهم السلام يقضي
بان المراد ما ذكرناه والله عنده علم الكتاب وقرئ عموا وصموا بالضم على تقدير عماهم الله
وصمهم اي رماهم وضربهم بالعمى والصمم كما يقال نزكته اذا ضربته بالنيزك وركبته
اذا ضربته بركبتك وقوله تعالى كثير منهم بدل من الضمير في الفعلين وقيل هو خبر
مبتدأ محذوف اي اولئك كثير منهم والله بصير بما يعملون اي بما عملوا وصيغة
المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا لصورتها الفظيعة ورعاية للفواصل والجملة

ثم بين اشير به الى بطلان حسبانهم المذكور و وقوع العذاب من حيث لم يحتسبوا اشارة
اجمالية اكتفى بها تعويلا على ما فصل نوع تفصيل فى سورة بنى اسرائيل والمعنى حسبوا ان
لا يصيبهم عذاب ففعلوا ما فعلوا من الجنايات العظيمة المستوجبة لاشد العقوبات
والله بصير بتفاصيلها فكيف لا يؤاخذهم بها ومن اين لهم ذلك الحسبان الباطل ولقد
وقع ذلك فى المرة الاولى حيث سلط الله تعالى عليهم بخت نصر عامل لهراسب على
بابل وقيل جالوت الجزري وقيل سنجاريبا من اهل نينوى والاول هو الاظهر فاستولى
على بيت المقدس فقتل من اهله اربعين الفا ممن يقرأ التوراة وذهب بالبقية الى
ارضه فبقوا هناك على اقصى ما يكون من الذل والنكد الى ان احدثوا توبة صحيحة
فردهم الله عز وجل الى ما حكى عنهم من حسن الحال ثم عادوا الى المرة الاخرة من
الافساد فبعث الله تعالى عليهم الفرس فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه
خودرود وقيل حردوس ففعل بهم ما فعل قيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم
فوجد فيه دما يغلي فسألهم فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال ما صدقوني فقتل
عليه الوفا منهم ثم قال ان لم تصدقوني ما تركت منكم احدا فقالوا انه دم يحيى عليه
السلام فقال بمثل هذا ينتقم الله تعالى منكم ثم قال يا يحيى قد علم ربي وربك ما اصاب
قومك من اجلك فاهدأ باذن الله تعالى قبل ان لا ابقي احدا منهم فهدأ لقد كفر الذين
قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم شروع فى تفصيل قبائح النصارى وابطال اقوالهم
الفاسدة بعد تفصيل قبائح اليهود وهؤلاء هم الذين قالوا ان مريم ولدت الها قيل
هم الملكانية والمار يعقوبية منهم وقيل هم اليعقوبية خاصة قالوا ومعنى هذا ان الله
تعالى حل فى ذات عيسى واتحد بذاته تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وقال المسيح حال من
فاعل قالوا بتقدير قد مفيدة لمزيد تقبيح حالهم ببيان تكذيبهم للمسيح وعدم انزجارهم
عما اصروا عليه بما اوعدهم به اى قالوا ذلك وقد قال المسيح مخاطبا لهم يا بنى اسرائيل
اعبدوا الله ربى وربكم فانى عبد مربوب مثلكم فاعبدوا خالقي وخالقكم انه
اى الشان من يشرك بالله اى شيئا فى عبادته او فيما يختص به من صفات الالوهية
فقد حرم الله عليه الجنة فلن يدخلها ابدا كما لا يصل المحرم عليه المحرم فانها دار
الموحدين واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتهويل الامر وتربية المهابة ومأواه النار
فانها هى المعدة للمشركين وهذا بيان لابتلائهم العقاب اثر بيان حرمانهم الثواب وما
للظالمين من انصار اى ما لهم من احد ينصرهم بانقاذهم من النار اما بطريق المغالبة
او بطريق الشفاعة والجمع لمراعاة المقابلة بالظالمين واللام اما للعهد والجمع باعتبار
معنى من كما ان الافراد فى الضماير الثلاثة باعتبار لفظها واما للجنس وهم داخلون فيه
دخولا اوليا ووضعه على الاول موضع الضمير للتسجيل عليهم بانهم ظلموا بالاشراك
وعدلوا عن طريق الحق والجملة تذييل مقرر لما قبله وهو اما من تمام كلام عيسى عم واما
وارد من جهته تعالى تاكيدا لمقالته عم وتقريرا لمضمونها وقد قيل انه من كلامه عز و
جل على معنى انهم ظلموا وعدلوا عن سبيل الحق فيما تقولوا على عيسى عم فلذلك لم
يساعدهم عليه ولم ينصر قولهم ورده وانكره وان كانوا معظمين له بذلك ورافعين
من مقداره او من قول عيسى عم على معنى لا ينصركم احد فيما تقولون ولا يساعدكم عليه
لاستحالته وبعده عن المعقول وانت خبير بان التعبير عما حكى عنه عليه السلام من مقابلته
لقولهم الباطل بصريح الرد والانكار والوعيد بحرمان الجنة ودخول النار بمجرد عدم مساعدته
على ذلك ونفى نصرته له مع خلوه عن الفائدة تصوير للقوى بصورة الضعيف وتهوين
للخطب فى مقام تهويله بل بما يوهم ذلك بحسب الظاهر ما لا يليق بشانه عم من توهم
المساعدة والنصرة لا سيما مع ملاحظة قوله وان كانوا معظمين له الخ الا ان يحمل الكلام على
على التهكم بهم وكذا الحال على تقدير كونه من تمام كلامه عم فان زجره اياهم عن قولهم
الفاسد بما ذكر من عدم الناصر والمساعد بعد زجره اياهم بما مر من الرد الاكيد والوعيد
الشديد بمعزل من الافادة والتاثير ولا سبيل ههنا الى الاعتذار بالتهكم لقد كفر الذين

قالوا ان الله ثالث ثلاثة شروع فى بيان كفر طائفة اخرى منهم ومعنى قولهم ثالث ثلاثة
ورابع اربعة ونحو ذلك احد هذه الاعداد مطلقا لا الثالث والرابع خاصة ولذلك منع
الجمهور ان تنصب ما بعده بان يقال ثالث ثلاثة ورابع اربعة وانما ينصبه اذا كان ما بعده
دونه بمرتبة كما فى قولك عاشر تسعة وتاسع ثمانية قيل انهم يقولون ان الالهية
مشتركة من الله سبحانه وتعالى وعيسى ومريم وكل واحد من هؤلاء اله ويؤكده قوله تعالى للمسيح
أانت قلت للناس اتخذونى وامى الهين من دون الله تعالى فقوله تعالى ثالث ثلاثة
اى احد ثلاثة آلهة وهو المتبادر من ظاهر قوله تعالى وما من اله الا اله واحد
والحال انه ليس فى الوجود ذات واجب مستحق للعبادة من حيث انه مبدأ جميع الموجودات
الا اله موصوف بالوحدانية متعال عن قبول الشركة ومن مزيدة للاستغراق وقيل انهم
يقولون الله جوهر واحد ثلاثة اقانيم اقنوم الاب واقنوم الابن واقنوم روح القدس
وانهم يريدون بالاول الذات وقيل الوجود وبالثانى العلم وبالثالث الحياة فمعنى
قوله تعالى وما من اله الا اله واحد الا اله واحد بالذات منزه عن شائبة التعدد بوجه
من الوجوه وان لم ينتهوا عما يقولون من الكفر الشنيع ولم يوحدوا وقوله تعالى
ليمسن الذين كفروا جواب قسم محذوف ساد مسد جواب الشرط اى وبالله ان لم ينتهوا
ليمسنهم وانما وضع موضع ضميرهم الموصول لتكرير الشهادة عليهم بالكفر فمن فى قوله
تعالى منهم بيانية او ليمسن الذين بقوا منهم على ما كانوا عليه من الكفر فمن تبعيضية
وانما جيء بالفعل المنبئ عن الحدوث تنبيها على ان الاستمرار عليه بعد ورود ما ينعى عليه
بالقلع من النص عيسى عليه السلام وغيره كفر جديد وغلو زائد على ما كانوا عليه
من اصل الكفر عذاب اليم اى نوع شديد الالم من العذاب وهمزة الاستفهام
فى قوله تعالى افلا يتوبون الى الله ويستغفرونه لانكار الواقع واستبعاده لا لانكار
الوقوع وفيه تعجيب من اصرارهم والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى الا
ينتهون عن تلك العقائد الزائغة والاقاويل الباطلة فلا يتوبون الى الله الحق ويستغفرونه
بالتوحيد والتنزيه عما نسبوه اليه من الاتحاد والحلول فمدار الانكار والتعجيب عدم
الانتهاء وعدم التوبة معا او ايسمعون هذه الشهادات المكررة والتشديدات المقررة
فلا يتوبون عقيب ذلك فمدارهما عدم التوبة عقيب تحقق ما يوجبها من سماع تلك
القوارع الهائلة وقوله عز وجل والله غفور رحيم جملة حالية من فاعل يستغفرونه
مؤكدة للانكار والتعجيب من اصرارهم على الكفر وعدم مسارعتهم الى الاستغفار
اى والحال انه تعالى مبالغ فى المغفرة فيغفر لهم عند استغفارهم ويمنحهم من فضله
ما المسيح ابن مريم الا رسول استئناف مسوق لتحقيق الحق الذى لا محيد عنه وبيان
حقيقة حاله عليه السلام وحال امه بالاشارة اولا الى اشرف ما لهما من نعوت الكمال
التى بها صارا من زمرة اكمل افراد الجنس واخرا الى الوصف المشترك بينهما وبين جميع افراد
البشر بل افراد الحيوان استنزالا لهم بطريق التدريج عن رتبة الاصرار على ما تقولوا عليهما
وارشادا لهم الى التوبة والاستغفار اى هو مقصور على الرسالة لا يكاد يتخطاها
وقوله تعالى قد خلت من قبله الرسل صفة لرسول منبئة عن اتصافه بما ينافى
الالوهية فان خلو الرسل السالفة عليهم السلام منذر بخلوه المقتضى لاستحالة
الوهيته اى ما هو الا رسول كالرسل الخالية من قبله خصه الله تعالى ببعض من الآيات
كما خص كلا منهم ببعض آخر منها فان احيى الموتى على يده فقد احيى العصا فى يد موسى
وجعلت حية تسعى وهو اعجب منه وان خلق من غير اب فقد خلق آدم من غير اب ولا
ام وهو اغرب منه وكل ذلك من جنابه عز وجل وانما موسى وعيسى مظاهر لشؤونه
وافعاله وامه صديقة اى وما امه ايضا الا كسائر النساء اللاتى يلازمن الصدق
او التصديق ويبالغن فى الاتصاف به فما رتبتهما الا رتبة بشرين احدهما نبى والآخر
صحابى فمن اين لكم ان تصفوهما بما لا يوصف به سائر الانبياء وخواصهم كانا يأكلان الطعام
استئناف مبين لما اشير اليه من كونهما كسائر افراد البشر فى الاحتياج الى ما يحتاج اليه

كل فرد من افراده بل من افراد الحيوان وقوله عز وجل انظر كيف نبين لهم الايات تعجيب من
حال الذين يدعون لهما الربوبية ولا يرعوون عن ذلك بعد ما بين لهم حقيقة حالهما
بيانا لا يحوم حوله شائبة ريب وكيف معمول لنبين والجملة في حيز النصب معلقة
لانظر اي انظر كيف نبين لهم الايات الباهرة المنادية ببطلان ما تقولوا عليهما نداء يكاد
يسمعه صم الجبال ثم انظر انى يؤفكون اي كيف يصرفون عن استماعها والتأمل
فيها والكلام فيه كما فيما قبله وتكرير الامر بالنظر للمبالغة في التعجيب وثم لاظهار ما
بين العجبين من التفاوت اي ان بياننا للايات امر بديع في بابه بالغ لاقاصي الغايات
القاصية من التحقيق والايضاح واعراضهم عنها مع انتفاء ما يصححه بالمرة وتعاضد
ما يوجب قبولها اعجب وابدع قل امر له صلى الله عليه وسلم بالزامهم وتبكيتهم
اثر تعجيبه من احوالهم اتعبدون من دون الله اي متجاوزين اياه وتقديمه على قوله تعالى
ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى
المؤخر والموصول عبارة عن عيسى عليه السلام وايثاره على كلمة من لتحقيق ما هو المراد
من كونه بمعزل من الالوهية رأسا ببيان انتظامه عليه السلام في سلك الاشياء التي لا
قدرة لها على شيء اصلا اي هو عليه السلام وان كان يملك ذلك بتمليكه تعالى اياه لكنه
لا يملكه من ذاته ولا يملك مثل ما يضر به الله تعالى من البلايا والمصائب وما ينفع
به من الصحة وتقديم الضر على النفع لان التحرز عنه اهم من تحري النفع ولان ادنى
درجات التأثير دفع الشر ثم جلب الخير وقوله تعالى والله هو السميع العليم حال من فاعل
اتعبدون مؤكد للانكار والتوبيخ ومقرر للالزام والتبكيت والرابط هو الواو اي اتشركون
بالله تعالى ما لا يقدر على شيء من ضركم ونفعكم والحال ان الله تعالى هو المختص بالاحاطة التا
مة بجميع المسموعات والمعلومات التي من جملتها ما انتم عليه من الاقوال الباطلة
والعقائد الزائغة والاعمال السيئة وبالقدرة الباهرة على جميع المقدورات التي من جملتها
مضاركم ومنافعكم في الدنيا والآخرة قل يا اهل الكتاب تلوين للخطاب وتوجيه له الى
فريقي اهل الكتاب على لسان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ابطال مسلك كل منهما للمبالغة في
زجرهم عما سلكوه من المسلك الباطل وارشادهم الى الامر المبين لا تغلوا في دينكم
اي لا تتجاوزوا الحد وهو نهي للنصارى عن رفع عيسى عن رتبة الرسالة الى ما تقولوا في
حقه من العظيمة ولليهود عن وضعهم له عليه السلام عن رتبته العلية الى ما
تقولوا عليه من الكلمة الشنعاء وقيل هو خاص بالنصارى كما في سورة النساء فذكرهم
بعنوان اهلية الكتاب لتذكير ان الانجيل ايضا ينهاهم عن الغلو وقوله تعالى غير الحق نصب على انه نعت
لمصدر محذوف اي لا تغلوا في دينكم غلوا غير الحق اي غلوا باطلا او حال من ضمير الفاعل اي لا تغلوا
مجاوزين الحق او من دينكم اي لا تغلوا في دينكم حال كونه باطلا وقيل نصب على الاستثناء
المتصل وقيل على المنقطع ولا تتبعوا اهواء قوم قد ضلوا من قبل هم اسلافهم وائمتهم
الذين قد ضلوا من الفريقين او من النصارى على القولين قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم
في شريعتهم واضلوا كثيرا اي قوما كثيرا ممن شايعهم في الزيغ والضلال او اضلالا كثيرا
والمفعول محذوف وضلوا عند بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وتوضيح محجة الحق وتبيين
مناهج الاسلام عن سواء السبيل حين كذبوه وحسدوه وبغوا عليه وقيل الاول اشارة
الى ضلالهم عن مقتضى العقل والثاني الى ضلالهم عما جاء به الشرع لعن الذين كفروا اي
لعنهم الله عز وجل وبناء الفعل للمفعول للجري على سنن الكبرياء من بني اسرائيل متعلق
بمحذوف وقع حالا من الموصول او من فاعل كفروا وقوله تعالى على لسان داود وعيسى بن مريم
متعلق بلعن اي لعنهم الله تعالى في الزبور والانجيل على لسانهما وقيل ان اهل ايلة لما اعتدوا
في السبت دعا عليهم داود عليه السلام وقال اللهم العنهم واجعلهم اية فمسخهم
الله تعالى قردة واصحاب المائدة لما كفروا قال عيسى عليه السلام اللهم عذب من كفر بعد
ما اكل من المائدة عذابا لم تعذب به احدا من العالمين والعنهم كما لعنت اصحاب السبت فاصبحوا
خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل ما فيهم امرأة ولا صبي ذلك اشارة الى اللعن المذكور

وايثاره

وايثاره على الضمير للتنبيه على كمال ظهوره وامتيازه عن نظائره وانتظامه بسببه في سلك الامور
المشاهدة وما فيه من معنى البعد للايذان بكمال فظاعته وبعد درجته في الشناعة والهول
وهو مبتدأ خبره قوله تعالى بما عصوا وكانوا يعتدون والجملة مستأنفة واقعة موقع
الجواب عما نشأ من الكلام كأنه قيل بأي سبب وقع ذلك فقيل ذلك اللعن الهائل الفظيع
بسبب عصيانهم واعتدائهم المستمر كما يفيده الجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل وينبئ عنه
قوله تعالى كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه فانه استئناف مفيد لاستمرار عدم
التناهي عن المنكر ولا يمكن استمراره الا باستمرار تعاطي المنكرات وليس المراد بالتناهي ان ينهى كل
واحد منهم الآخر عما يفعله من المنكر كما هو المعنى المشهور لصيغة التفاعل بل مجرد صدور
النهي عن اشخاص متعددة من غير اعتبار ان يكون كل واحد منهم ناهيا ومنهيا معا كما في
تراءوا الهلال وقيل التناهي بمعنى الانتهاء عن الامر وانتهى عنه اذا امتنع منه وتركه
فالجملة حينئذ مفسرة لما قبلها من المعصية والاعتداء ومفيدة لاستمرارهما صريحا وعلى الاول
مفيدة لاستمرار انتفاء النهي عن المنكر بان لا يوجد فيما بينهم من يتولاه في وقت من
الاوقات ومن ضرورته استمرار فعل المنكر حسبما سبق وعلى كل تقدير فما يفيده تنكير
المنكر من الوحدة نوعية لا شخصية فلا يقدح وصفه بالفعل الماضي في تعلق النهي به فان
متعلق الفعل انما هو فرد من افراده ما يتعلق به النهي او الانتهاء من مطلق المنكر باعتبار تحققه
في ضمن اي فرد كان من افراده على ان اللائح المضي المعتبر في الصفة انما هو بالنسبة الى زمان النزول
لا الى زمان النهي حتى يلزم كون النهي بعد الفعل فلا حاجة الى تقدير المعاودة او المثل وجعل الفعل
عبارة عن الارادة على ان المعاودة كالنهي لا تتعلق بالمنكر المفعول فلا بد من المصير الى احد
ما ذكر من الوجهين او الى تقدير المثل او الى جعل الفعل عبارة عن ارادته وفي كل ذلك تعسف
لا يخفى لبئس ما كانوا يفعلون تقبيح لسوء اعمالهم وتعجيب منه بالتوكيد القسمي كيف
لا وقد اداهم الى ما شرح من اللعن الكبير وليس في تسببه بذلك دلالة على خروج كفرهم
عن السببية مع الاشارة الى سببيته له فيما سبق من قوله تعالى لعن الذين كفروا فان اجراء الحكم
على الموصول مشعر بعلية ما في حيز الصلة له لما ان ما ذكر في حيز السببية مشتمل على كفرهم
ايضا ترى كثيرا منهم اي من اهل الكتاب ككعب بن الاشرف واضرابه حين خرجوا
الى مشركي مكة ليتفقوا على محاربة النبي صلى الله عليه وسلم والرؤية بصرية وقوله
تعالى يتولون الذين كفروا حال من كثيرا لكونه موصوفا اي يوالون المشركين بغضا
لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وقيل من منافقي اهل الكتاب يتولون اليهود
وهو قول ابن عباس ومجاهد والحسن وقيل يوالون المشركين ويصافونهم لبئس ما
قدمت لهم انفسهم لبئس شيئا قدموا ليردوا عليه يوم القيامة ان سخط الله عليهم
هو المخصوص بالذم على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه تنبيها على كمال
التعلق والارتباط بينهما كأنهما شيء واحد ومبالغة في الذم اي موجب سخطه تعالى ومحله
الرفع على الابتداء والجملة قبله خبره والرابط عند من يشترطه هو العموم ولا حاجة اليه لان الجملة
عين المبتدأ او على انه خبر لمبتدأ محذوف ينبئ عنه الجملة المتقدمة كأنه قيل ما هو او
اي شيء هو فقيل هو ان سخط الله عليهم وقيل المخصوص بالذم محذوف وما اسم تام
معرفة في محل الرفع بالفاعلية لفعل الذم وقدمت لهم انفسهم جملة في محل الرفع على
انها صفة للمخصوص بالذم قائم مقامه والتقدير لبئس الشيء شيء قدمته لهم انفسهم فقوله
تعالى ان سخط الله عليهم بدل من شيء المحذوف وهذا مذهب سيبويه وفي
العذاب اي عذاب جهنم هم خالدون ابد الابدين ولو كانوا اي الذين يتولون المشركين
من اهل الكتاب يؤمنون بالله والنبي اي نبيهم وما انزل اليه من الكتاب او لو كان
المنافقون يؤمنون بالله ونبينا ايمانا صحيحا ما اتخذوهم اي المشركين او اليهود اولياء
فان الايمان بما ذكر وازع عن توليهم قطعا ولكن كثيرا منهم فاسقون خارجون عن الدين
والايمان بالله ونبيهم وكتابهم او متمردون في النفاق مفرطون فيه لتجدن اشد الناس عداوة
للذين امنوا اليهود والذين اشركوا جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها من قبائح

اليهود وعن اتفهم في الكفر وسائر احوالهم الشنيعة التي من جملتها موالاتهم للمشركين اكدت
بالتوكيد القسمي اعتناء ببيان تحقق مضمونها والخطاب اما لرسول الله صلى الله عليه وسلم
او لكل احد صالح له ايذانا بان حالهم مما لا يخفى على احد من الناس والوجدان متعد الى
اثنين احدهما اشد الناس والثاني اليهود وما عطف عليه وقيل بالعكس لانهما في الاصل
مبتدا وخبر فمصب الفائدة هو الخبر لا المبتدا ولا ضير في التقديم والتاخير اذا دل على الترتيب
دليل وههنا دليل واضح عليه وهو ان المقصود بيانا كون الطائفتين اشد الناس عداوة للمؤمنين
لا كون اشدهم عداوة لهم الطائفتين المذكورتين وانت خبير بانه بمعزل من الدلالة
على ذلك كيف لا والافادة في الصورة الثانية اتم واكمل مع خلوها عن تعسف التقديم والتاخير
اذ المعنى انك ان قصدت ان تعرف من اشد الناس عداوة للمؤمنين وتتبعت احوال الطوايف
طرا واحطت بما لديهم خبرا وبالغت في تعرف احوالهم الظاهرة والباطنة وسعيت في
في تطلب ما عندهم من الامور البارزة والكامنة لتجدن الاشد تينك الطائفتين لا غير
فتامل واللام الداخلة على الموصول متعلقة بعداوة مقوية لعملها ولا يضر كونها مؤنثة
بالتاء لانها مبنية عليها كما في قوله ورهبة عقابك وقيل متعلقة بمحذوف وهو
صفة لعداوة اي كائنة للذين امنوا وصفهم الله تعالى بذلك لشدة شكيمتهم وتضاعف
كفرهم وانهماكهم في اتباع الهوى وقربهم الى التقليد وبعدهم عن التحقيق وتمرنهم
على التمرد والاستعصاء على الانبياء والاجتراء على تكذيبهم ومناصبتهم وفي تقديم
اليهود على المشركين بعد لزمهما في قرن واحد اشعار بتقدمهم عليهم في العداوة كما ان
في تقديمهم عليهم في قوله تعالى ولتجدنهم احرص الناس على حيوة ومن الذين اشركوا
ايذانا بتقدمهم عليهم في الحرص ولتجدن اقربهم مودة للذين امنوا اعيد الموصول مع صلته
رقما روما لزيادة التوضيح والبيان الذين قالوا انا نصارى عبر عنهم بذلك للاشعار بقرب
مودتهم حيث يدعون انهم انصار الله واوداء اهل الحق وان لم يظهروا اعتقاد حقية
الاسلام وعلى هذه النكتة مبنى الوجه الثاني في تفسير قوله تعالى ومن الذين قالوا انا نصارى
اخذنا ميثاقهم والكلام في مفعولي لتجدن وتعلق اللام كالذي سبق والعدول عن جعل
ما فيه التفاوت بين الفريقين شيئا واحدا قد تفاوتا فيه بالشدة والضعف او بالقرب والبعد
بان يقال اخرا ولتجدن اضعفهم عداوة الخ او بان يقال ولتجدن ابعد الناس مودة الخ
للايذان بكمال التباين ما بين الفريقين من التفاوت وتبيانا احدهما في اقصى مراتب احد النقيضين
والاخر في اقرب مراتب النقيض الاخر ذلك اي كونهم اقرب مودة للمؤمنين بان منهم اي
بسبب ان منهم قسيسين وهم علماء النصارى وعبادهم ورؤساؤهم والقسيس
صيغة مبالغة من تقسس الشيء اذا تتبعه وطلبه بالليل سموا به لمبالغتهم في تتبع العلم
قال الراغب القس بفتح القاف تتبع الشيء ومنه سمي عالم النصارى قسيسا لتتبعه
العلم وقيل قص الاثر وقسه بمعنى وقيل انه اعجمي وقال قطرب القس والقسيس العالم
بلغة الروم وقيل ضيعت النصارى الانجيل وما فيه وبقي منهم رجل يقال له قسيسا
لم يبدل دينه فمن راعى هديه ودينه قيل له قسيسا ورهبانا هو جمع راهب كراكب
وركبان وفارس وفرسان وقيل انه يطلق على الواحد وعلى الجمع وانشد فيه قول من
قال لو عاينت رهبان دير في قلل لاقبل الرهبان يعدو ونزل والترهب التعبد في الصوامع
معه قال الراغب الرهبانية الغلو في تحمل التعبد من فرط الخوف والتنكير لافادة
الكثرة ولا بد من اعتبارها في القسيسين ايضا اذ هي التي تدل على مودة جنس النصارى
للمؤمنين فان اتصاف افراد كثيرة من الجنس بخصلة مظنة لاتصاف الجنس بها والا فمن
اليهود ايضا قوم مهتدون الا يرى الى عبد الله بن سلام واضرابه قال تعالى من اهل
الكتاب امة قائمة يتلون ايات الله اناء الليل وهم يسجدون الخ لكنهم لما لم يكونوا في الكثرة
كالذين من النصارى لم يتعد حكمهم الى جنس اليهود وانهم لا يستكبرون عطف على
ان منهم اي وبانهم لا يستكبرون عن قبول الحق اذا فهموه او يتواضعون ولا يتكبرون
كاليهود وهذه الخصلة شاملة لجميع افراد الجنس فسببيتها لاقربيتهم مودة للمؤمنين واضحة

وفيه

وفيه دليل على ان التواضع والاقبال على العلم والعمل والاعراض عن الشهوات محمود وان كان ذلك
من كافر واذا سمعوا ما انزل الى الرسول عطف على لا يستكبرون اي ذلك بانهم يعني
بسبب انهم لا يستكبرون وان اعينهم تفيض من الدمع عند سماع القران وهو بيان لرقة
قلوبهم وشدة خشيتهم ومسارعتهم الى قبول الحق وعدم ابائهم اياه ترى اعينهم
تفيض من الدمع اي تمتلئ بالدمع فاستعير له الفيض الذي هو الانصباب عن امتلاء
مبالغة او جعلت اعينهم من فرط البكاء كانها تفيض بانفسها مما عرفوا من الحق من
الاولى لابتداء الغاية والثانية لتبيين الموصول اي ابتداء الفيض ونشاؤه من معرفة
الحق وحصل من اجله وبسببه ويحتمل ان يكون الثانية تبعيضية لان ما عرفوه بعض
الحق وحيث ابكاهم ذلك فما ظنك بهم لو عرفوه كله وقروا القران واحاطوا بالسنة وقرئ
ترى اعينهم على صيغة المبني للمفعول يقولون استيناف مبني على سؤال نشاء من حكاية
حالهم عند سماع القران كانه قيل ماذا يقولون فقيل يقولون ربنا امنا بهذا او بمن
انزل هذا عليه او بهما وقيل حال من الضمير في عرفوا او من الضمير المجرور في اعينهم لما ان المضاف
جزؤه كما في قوله تعالى ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا فاكتبنا مع الشاهدين اي
الذين شهدوا بانه حق او بنبوته او مع امته الذين هم شهداء على الامم يوم القيمة وانما
قالوا ذلك لانهم وجدوا ذكرهم في الانجيل كذلك وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا
من الحق كلام مستانف قالوه تحقيقا لايمانهم وتقريرا له بانكار سبب انتفائه ونفيه
بالكلية على ان قوله لا نؤمن حال من الضمير في لنا والعامل ما فيه من الاستقرار اي اي
شيء حصل لنا غير مؤمنين على توجيه الانكار والنفي الى السبب والمسبب جميعا كما في قوله
تعالى وما لي لا اعبد الذي فطرني ونظايره لا الى السبب فقط مع تحقق المسبب كما في قوله تعالى
فما لهم لا يؤمنون وامثاله فان همزة الاستفهام كما يكون تارة لانكار الواقع كما في اتضرب
اباك واخرى لانكار الوقوع كما في اضرب ابي كذلك ما الاستفهامية قد يكون لانكار سبب
الواقع ونفيه فقط كما في الاية الثانية وقوله تعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا فيكون مضمون
الجملة الحالية محققا فان كلا من عدم الايمان وعدم الرجاء امر محقق وقد يكون لنفي سببه
وقد تكون لانكار سبب الوقوع ونفيه فيسري الى المسبب ايضا كما في الاية الاولى فيكون
مضمون الجملة الحالية مفروضا قطعا فان عدم العبادة امر مفروض حتما وقوله تعالى ونطمع
ان يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين حال اخرى من الضمير المذكور بتقدير مبتدا والعامل
فيها هو العامل في الاولى مقيدا بها اي اي شيء حصل لنا غير مؤمنين ونحن نطمع في
صحبة الصالحين او من الضمير في لا نؤمن على معنى انهم انكروا على انفسهم عدم ايمانهم
مع انهم يطمعون في صحبة المؤمنين وقيل معطوف على نؤمن على معنى وما لنا نجمع بين
ترك الايمان وبين الطمع المذكور فاثابهم الله بما قالوا اي عن اعتقاد من قولك
هذا قول فلان اي معتقده وقرئ فاتاهم الله جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها
وذلك جزاء المحسنين اي الذين احسنوا النظر والعمل او الذين اعتادوا الاحسان في
الامور والايات الاربع روي انها نزلت في النجاشي واصحابه بعث اليه رسول الله صلعم
بكتابه فقراه ثم دعا جعفر بن ابي طالب والمهاجرين معه واحضر القسيسين
والرهبان فامر جعفرا ان يقرا عليهم القران فقرا سورة مريم فبكوا وامنوا بالقران و
قيل نزلت في ثلاثين وسبعين رجلا من قومه وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقرا عليهم سورة مريم فبكوا وامنوا والذين كفروا وكذبوا باياتنا اولئك اصحاب
الجحيم عطف التكذيب بايات الله تعالى على الكفر مع انه ضرب منه لما ان القصد الى
بيان حال المكذبين وذكرهم بمقابلة المصدقين بها جمعا بين الترهيب والترغيب
يا ايها الذين امنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم اي ما طاب ولذ منه كانه لما
تضمن ما سلف من مدح النصارى على ترغيب المؤمنين في كسر النفس ورفض الشهوات عقب
ذلك بالنهي عن الافراط في الباب اي لا تمنعوها انفسكم كمنع التحريم او لا تقولوا حرمناها
على انفسنا مبالغة منكم في العزم على تركها تزهدا منكم وتقشفا وروي ان رسول الله صلى الله

عليه وسلم وصف القيمة لاصحابه يوما فبالغ وابلغ الكلام في الانذار فرقوا واجتمعوا في
بيت عثمان بن مظعون واتفقوا على ان لا يزالوا صائمين قائمين وان لا يناموا على الفرش
ولا ياكلوا اللحم والودك ولا يقربوا النساء والطيب ويرفضوا الدنيا ويلبسوا المسوح
ويسيحوا في الارض ويجبوا مذاكيرهم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم
اني لم اؤمر بذلك ان لانفسكم عليكم حقا فصوموا وافطروا وقوموا وناموا فاني اقوم
وانام واصوم وافطر واكل اللحم والدسم واتي النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني
فنزلت ولا تعتدوا اي ولا تتعدوا حدود ما احل لكم الى ما حرم عليكم او ولا تسرفوا
في تناول الطيبات او جعل تحريم الطيبات اعتداء وظلما فنهى عن مطلق الاعتداء لي
ليدخل تحته النهي عن تحريمها دخولا اوليا لوروده عقيبها واريد ولا تعتدوا بذلك
ان الله لا يحب المعتدين تعليل لما قبله وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا اي ما احل
لكم وطاب مما رزقكم الله فحلالا مفعول كلوا ومما رزقكم اما حال منه تقدمت عليه
لكونه نكرة او متعلق بكلوا ومن ابتدائية او هو المفعول وحلالا حال من الموصول
او من عائده المحذوف او صفة لمصدر محذوف اي اكلا حلالا وعلى الوجوه كلها لو لم
يقع الرزق على الحرام لم يكن لذكر الحلال فائدة زائدة واتقوا الله الذي انتم به مؤمنون
تاكيد للوصية بما امر به تعالى يوجب المبالغة في التقوى والانتهاء عما نهى عنه لا يؤاخذكم
الله باللغو في ايمانكم اللغو في اليمين الساقط الذي لا يتعلق به حكم وهو عندنا ان
يحلف على شيء يظن انه كذلك وليس كما يظن وهو قول مجاهد قيل كانوا حلفوا على تحريم
الطيبات على ظن انه قربة فلما نزل النهي قالوا فكيف بايماننا فنزلت وعند الشافعي رحمه الله
ما يبدو من المرء من غير قصد كقوله لا والله وبلى والله وهو قول عائشة رضي الله عنها
وفي ايمانكم صلة يؤاخذكم او اللغو لانه مصدر او حال منه ولكن يؤاخذكم بما عقدتم
الايمان اي بتعقيدكم الايمان وتوثيقها بالقصد والنية والمعنى ولكن يؤاخذكم
بما عقدتم اذا حنثتم او بنكث ما عقدتم فحذف للعلم به وقرئ بالتخفيف وقرئ عاقدتم
بمعنى عقدتم فكفارته اي فكفارة نكثه وهي الفعلة التي من شانها ان تكفر الخطيئة وتسترها
واستدل بظاهره على جواز التكفير قبل الحنث وعندنا لا يجوز ذلك لقوله عم من حلف على يمين
وراى غيرها خيرا فليات الذي هو خير ثم ليكفر عن يمينه اطعام عشرة مساكين
من اوسط ما تطعمون اهليكم اي من اقصده في النوع او المقدار وهو نصف صاع
من بر لكل مسكين ومحله النصب لانه صفة مفعول محذوف تقديره ان تطعموا عشرة
مساكين طعاما كائنا من اوسط ما تطعمون او الرفع على انه بدل من اطعام واهلون
جمع اهل كارضون جمع ارض وقرئ اهاليكم بسكون الياء على لغة من يسكنها في الحالات
الثلاث كالالف وهو ايضا جمع اهل كالاراضي جمع ارض والليالي في جمع ليل وقيل جمع اهلاة اي
او كسوتهم عطف على اطعام او على محل من اوسط على تقدير كونه بدلا من اطعام وهو
ثوب يغطي العورة وقيل ثوب جامع قميص ورداء وازار وقرئ بضم الكاف وهي لغة كقدوة
في قدوة واسوة في اسوة وقرئ او كاسوتهم على ان الكاف في محل الرفع تقديره
او طعامهم كاسوتهم بمعنى او كمثل ما تطعمون اهليكم اسرافا وتقتيرا تواسون بينهم
ان لم تطعموهم الاوسط او تحرير رقبة اي واعتاق انسان كيف ما كان وشرط الشافعي
رحمه الله فيه الايمان قياسا على كفارة القتل ومعنى او ايجاب احدى الخصال مطلقا
وخيار التعيين للمكلف فمن لم يجد اي شيئا من الامور المذكورة فصيام اي فكفارته
صيام ثلاثة ايام والتتابع شرط عندنا لقراءة ثلاثة ايام متتابعات والشافعي
رحمه الله لا يرى الشواذ ذلك اي الذي ذكر كفارة ايمانكم اذا حلفتم اي وحنثتم
واحفظوا ايمانكم بان تضنوا بها ولا تبذلوها كما يشعر به قوله تعالى اذا حلفتم وقيل بان
تبروا فيها ما استطعتم ولم يفت بها خير او بان تكفروها اذا حنثتم وقيل احفظوها كيف
حلفتم بها ولا تنسوها تهاونا بها كذلك اشارة الى مصدر الفعل الاتي لا الى تبيين آخر
مفهوم مما سبق والكاف مقحمة لتاكيد ما افاده اسم الاشارة من الفخامة ومحله

في الاصل النصب على انه نعت لمصدر محذوف واصل التقدير يبين الله تبيينا كائنا مثل ذلك
فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة فصار نفس المصدر لا نعتا له
وقد مر تفصيله في قوله تعالى وكذلك جعلناكم امة وسطا اي مثل ذلك البيان البديع يبين
الله لكم اياته اعلام شريعته واحكامه لا بيانا ادنى منه وتقديم لكم على المفعول لما
مر مرارا لعلكم تشكرون نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج يا ايها الذين امنوا
انما الخمر والميسر والانصاب اي الاصنام المنصوبة للعبادة والازلام سلف تفسيرها
في اوائل السورة الكريمة رجس قذر تعاف عنه العقول وافراده لانه خبر للخمر وخبر
المعطوفات محذوف ثقة بالمذكور او المضاف محذوف اي شان الخمر والميسر الخ من عمل
الشيطان في محل الرفع على انه صفة رجس اي كائن من عمله لانه مسبب من تسويله وتزيينه
فاجتنبوه اي الرجس او ما ذكر لعلكم تفلحون اي راجين فلاحكم وقيل لكي تفلحوا بالاجتناب
عنه وقد مر تحقيقه في تفسير قوله تعالى لعلكم تتقون ولقد اكد تحريم الخمر والميسر
في هذه الاية الكريمة بفنون التاكيد حيث صدرت الجملة بانما وقرنا بالاصنام والازلام
وسميا رجسا من عمل الشيطان تنبيها على ان تعاطيهما شر بحت وامر بالاجتناب عن عينهما
وجعل ذلك سببا يرجى منه الفلاح فيكون ارتكابهما خيبة ومحقة ثم قرر ذلك ببيان
ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقيل انما يريد الشيطان ان
يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر وهو اشارة الى مفاسدهما الدنيوية و
يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة اشارة الى مفاسدهما الدينية وتخصيصهما باعادة
الذكر وشرح ما فيهما من الوبال للتنبيه على ان المقصود بيان حالهما وذكر الاصنام والازلام
للدلالة على انهما مثلهما في الحرمة والشرارة لقوله عليه السلام شارب الخمر كعابد الوثن وتخصيص
الصلاة بالافراد مع دخولها في الذكر للتعظيم والاشعار بان الصاد عنها كالصاد عن الايمان لما انها
عماده ثم اعيد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتبا على ما تقدم من اصناف الصوارف
فقيل فهل انتم منتهون ايذانا بان الامر في الزجر والتحذير وكشف ما فيهما من
المفاسد والشرور قد بلغ الغاية وان الاعذار قد انقطعت بالكلية واطيعوا الله
واطيعوا الرسول عطف على اجتنبوه اي اطيعوهما في جميع ما امرا به ونهيا عنه
واحذروا اي مخالفتهما في ذلك فيدخل فيه مخالفة امرهما ونهيهما في الخمر والميسر دخولا اوليا
فان توليتم اي اعرضتم عن الامتثال بما امرتم به من الاجتناب عن الخمر والميسر وعن
طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم والاحتراز عن مخالفتهما فاعلموا
انما على رسولنا البلاغ المبين وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه وخرج عن عهدة الرسالة
اي خروج وقامت عليكم الحجة وانتهت الاعذار وانقطعت العلل وما بقي بعد ذلك الا
العقاب وفيه من عظم التهديد وشدة الوعيد ما لا يخفى واما ما قيل من ان المعنى
فاعلموا انكم لم تضروا بتوليكم الرسول لانه ما كلف الا البلاغ المبين بالايات وقد فعل
وانما ضررتم انفسكم حين اعرضتم عما كلفتموه فلا يساعده المقام اذ لا يتوهم منهم ادعاء
انهم بتوليهم يضرونه صلى الله عليه وسلم حتى يرد عليهم بانهم لا يضرونه وانما يضرون
انفسهم ليس على الذين امنوا وعملوا الصالحات جناح اي اثم وحرج فيما طعموا
اي تناولوا اكلا او شربا فان استعماله في الشرب ايضا مستفيض منه قوله تعالى ومن لم يطعمه
فانه مني قيل لما انزل الله تعالى تحريم الخمر بعد غزوة الاحزاب قال رجال من اصحاب النبي صلى الله
عليه وسلم اصيب فلان يوم بدر وفلان يوم احد وهم يشربونها ونحن نشهد
انهم في الجنة وفي رواية اخرى لما نزل تحريم الخمر والميسر قالت الصحابة رضي الله عنهم يا
رسول الله فكيف باخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر وياكلون مال الميسر وفي رواية
اخرى قال ابو بكر رضي الله عنه يا رسول الله كيف باخواننا الذين ماتوا وقد شربوا الخمر و
فعلوا القمار فنزلت وليست كلمة ما في طعموا عبارة عن المباحات خاصة والا لزم تقييدها
باتقاء ما عداها من المحرمات لقوله تعالى اذا ما اتقوا واللازم منتف بالضرورة
بل هي على عمومها موصولة كانت او موصوفة وانما تخصصت بذلك القيد الطارئ

عليها والمعنى ليس جناح لهم فيما تناولوه من المأكول والمشروب كائنا ما كان اذا اتقوا ان يكون
في ذلك شيء من المحرمات والا لم يكن نفي الجناح في كل ما طعموه بل في بعضه ولا محذور فيه
اذ اللازم منه تقييد اباحة الكل بان لا يكون فيه محرم لا تقييد اباحة بعضه بانتفاء بعض
آخر منه كما هو اللازم من الاول وآمنوا وعملوا الصالحات اي واستمروا على الايمان
والاعمال الصالحة وقوله تعالى ثم اتقوا عطف على اتقوا داخل معه في حيز الشرط اي اتقوا ما
حرم عليهم بعد ذلك مع كونه مباحا فيما سبق وآمنوا اي بتحريمه وتقديم الاتقاء عليه
اما للاعتناء به او لانه الذي يدل على التحريم الحادث الذي هو المؤمن به او واستمروا على الايمان
ثم اتقوا اي ما حرم عليهم بعد ذلك مما كان مباحا من قبل على ان المشروط بالاتقاء
في كل مرة اباحة كل ما طعموه في ذلك الوقت لا اباحة كل ما طعموه قبله لانتساخ اباحة بعضه
حينئذ واحسنوا اي عملوا الاعمال الحسنة الجميلة المنتظمة لجميع ما ذكر من الاعمال القلبية
والقالبية وليس تخصيص هذه المرات بالذكر لتخصيص الحكم بها بل لبيان التعدد والتكرر
بالغا ما بلغ والمعنى انهم اذا اتقوا المحرمات واستمروا على ما هم عليه من الايمان والاعمال
الصالحة وكانوا في طاعة الله ومراعاة اوامره ونواهيه بحيث كلما حرم عليهم شيء من
المباحات اتقوه ثم وثم فلا جناح عليهم فيما طعموه في كل مرة من المطاعم والمشارب
اذ ليس فيها شيء محرم عند طعمه وانت خبير بان ما عدا اتقاء المحرمات من الصفات
الجميلة المذكورة لا دخل لها في انتفاء الجناح وانما ذكرت في حيز اذا شهادة باتصاف
الذين سئل عن حالهم بها ومدحا لهم بذلك وحمدا لاحوالهم وقد اشير الى ذلك حيث
جعلت تلك الصفات تبعا للاتقاء في كل مرة تمييزا بينها وبين ما له دخل في الحكم فان مساق
النظم الكريم بطريق العبارة وان كان لبيان حال المتصفين بما ذكر من النعوت فيما سيأتي
بقضية كلمة اذا لكنه قد اخرج مخرج الجواب عن حال الماضين لاثبات الحكم في حقهم في
ضمن التشريع الكلي على الوجه البرهاني بطريق دلالة النص بناء على كمال اشتهارهم
بالاتصاف بها فكانه قيل ليس عليهم جناح فيما طعموه اذ كانوا في طاعته تعالى مع ما
لهم من الصفات الحميدة بحيث كلما امروا بشيء تلقوه بالامتثال وانما كانوا يتعاطون
الخمر والميسر في حياتهم لعدم تحريمهما اذ ذاك ولو حرما في عصرهم لاتقوهما بالمرة
هذا وقد قيل التكرير باعتبار الاوقات الثلاثة او باعتبار الحالات الثلاث استعمال
الانسان التقوى بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس وبينه وبين الله عز وجل ولذلك
جيء بالاحسان في الكرة الثالثة بدل الايمان اشارة الى ما قاله صلى الله عليه وسلم في تفسيره او
باعتبار المراتب الثلاث المبدأ والوسط والمنتهى او باعتبار ما يتقى فانه ينبغي ان يترك
المحرمات توقيا من العقاب والشبهات توقيا من الوقوع في الحرام وبعض المباحات حفظا
للنفس عن الخسة وتهذيبا لها عن دنس الطبيعة وقيل التكرير لمجرد التأكيد كما في قوله
تعالى كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ونظائره وقيل المراد بالاول اتقاء
الكفر وبالثاني اتقاء الكبائر وبالثالث اتقاء الصغائر ولا ريب في انه لا تعلق لهذه
الاعتبارات بالمقام فاحسن التأمل والله يحب المحسنين تذييل مقرر لمضمون
ما قبله ابلغ تقرير يا ايها الذين آمنوا ليبلونكم الله جواب قسم محذوف اي والله
ليعاملنكم معاملة من يختبركم ليتعرف احوالكم بشيء من الصيد اي من صيد
البر مأكولا او غير مأكول ما عدا المستثنيات من الفواسق فاللام للعهد نزلت عام
الحديبية ابتلاهم الله تعالى بالصيد وهم محرمون كانت الوحوش تغشاهم في رحالهم
بحيث كانوا متمكنين من صيدها اخذا بايديهم وطعنا برماحهم وذلك قوله تعالى تناله
ايديكم ورماحكم فهموا باخذها فنزلت وروي انه عن لهم حمار وحش فحمل
عليه ابو اليسر بن عمرو فطعنه برمحه وقتله فقيل له قتلته وانت محرم فاتى رسول
الله صلى الله عليه وسلم وسأله عن ذلك فانزل الله تعالى الآية فالتأكيد القسمي في
ليبلونكم انما هو لتحقيق ان ما وقع من عدم توحش الصيد عنهم ليس الا لابتلائهم
لا لتحقيق وقوع المبتلى به كما لو كان النزول قبل الابتلاء وتنكير شيء للتحقير المؤذن بان ذلك

ليس

ليس من الفتن الهائلة التي تزل فيها اقدام الراسخين كالابتلاء بقتل الانفس واتلاف الاموال
وانما هو من قبيل ما ابتلي به اهل ايلة من صيد البحر وفائدته التنبيه على ان من لم يتثبت
في مثل هذا كيف يتثبت عند شدائد المحن فمن في قوله تعالى من الصيد بيانية قطعا اي بشيء
حقير هو الصيد وجعلها تبعيضية يقتضي اعتبار قلته وحقارته بالنسبة الى كل الصيد لا بالنسبة
الى عظائم البلايا فيعرى الكلام عن التنبيه المذكور ليعلم الله من يخافه بالغيب اي ليتميز
الخائف من عقابه الاخروي وهو غائب مترقب لقوة ايمانه فلا يتعرض للصيد ممن لا يخافه
كذلك لضعف ايمانه فيقدم عليه وانما عبر عن ذلك بعلم الله تعالى اللازم له ايذانا بمدار
الجزاء ثوابا وعقابا فانه ادخل في حملهم على الخوف وقيل المعنى ليتعلق علمه تعالى بمن يخافه
بالفعل فان علمه تعالى بانه سيخافه وان كان متعلقا به قبل خوفه لكن تعلقه بانه خائف بالفعل
وهو الذي يدور عليه امر الجزاء انما يكون عند تحقق الخوف بالفعل وقيل هناك مضاف
محذوف والتقدير ليعلم اولياء الله وقرئ ليعلم من الاعلام على حذف المفعول الاول
اي ليعلم الله عباده الخ والعلم على القراءتين متعد الى واحد واظهار الاسم الجليل في موقع
الاضمار لتربية المهابة وادخال الروعة فمن اعتدى بعد ذلك اي بعد بيان ان ما
وقع ابتلاء من جهته تعالى لما ذكر من الحكمة لا بعد تحريمه او النهي عنه كما قاله بعضهم
اذ النهي والتحريم ليس امرا حادثا يترتب عليه الشرطية بالفاء ولا بعد الابتلاء كما اختاره الآخرون
لان نفس الابتلاء لا يصلح مدارا لتشديد العذاب بل ربما يتوهم كونه عذرا مسوغا لتخفيفه
وانما الموجب للتشديد بيان كونه ابتلاء لان الاعتداء بعد ذلك مكابرة صريحة وعدم
مبالاة بتدبير الله تعالى وخروج عن طاعته وانخلاع عن خوفه وخشيته بالكلية اي فمن
تعرض للصيد بعد ما بينا ان ما وقع من كثرة الصيد وعدم توحشه منهم ابتلاء مؤد
الى تمييز المطيع من العاصي فله عذاب اليم لما ذكر من انه مكابرة محضة ولان من لا يملك زمام
نفسه ولا يراعي حكم الله تعالى في امثال هذه البلايا الهينة لا يكاد يراعيه في عظائم المداحض
والمراد بالعذاب الاليم عذاب الدارين قال ابن عباس رضي يوسع ظهره وبطنه جلدا و
ينزع ثيابه يا ايها الذين آمنوا شروع في بيان ما يتدارك به الاعتداء من الاحكام اثر بيان
ما يلحقه من العذاب والتصريح بالنهي في قوله تعالى لا تقتلوا الصيد وانتم حرم مع كونه
معلوما لا سيما من قوله تعالى غير محلي الصيد وانتم حرم لتأكيد الحرمة وترتيب ما يعقبه
عليه واللام في الصيد للعهد حسبما سلف وحرم جمع حرام وهو المحرم وان كان في الحل و
حكمه من في الحرم وان كان حلالا كردح جمع رداح والجملة حال من فاعل لا تقتلوا وانتم
محرمون ومن قتله اي الصيد المعهود وذكر القتل في الموضعين دون الذبح للايذان
بكونه في حكم الميتة منكم متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل قتله اي كائنا منكم
متعمدا حال منه ايضا اي ذاكرا لاحرامه عالما بحرمة قتل ما يقتله والتقييد بالتعمد مع ان
محظورات الاحرام يستوي فيها العمد والخطأ لما ان الآية نزلت في المتعمد كما مر من قصة
ابي اليسر ولان الاصل فعل المتعمد والخطأ لاحق به للتغليظ وعن الزهري نزل الكتاب بالعمد و
وردت السنة بالخطأ وعن سعيد بن جبير لا ارى في الخطأ شيئا اخذا باشتراط التعمد في الآية
وهو قول داود وعن مجاهد والحسن ان المراد بالتعمد هو تعمد القتل مع نسيان الاحرام
اذا ما قتله عمدا وهو ذاكر لاحرامه فلا حكم عليه وامره الى الله عز وجل لانه اعظم من ان
يكون له كفارة فجزاء مثل ما قتل برفعهما اي فعليه جزاء مماثل لما قتله وقرئ برفع الاول
ونصب الثاني على اعمال المصدر وقرئ بجر الثاني على اضافته الى مفعوله وقرئ فجزاؤه مثل
ما قتل على الابتداء والخبرية وقرئ بنصبهما على فليجز جزاء او فعليه ان يجزي جزاء مثل ما قتله
والمراد به عند ابي حنيفة وابي يوسف رحمهما الله المثل باعتبار القيمة يقوم الصيد حيث
صيد او في اقرب الاماكن اليه فان بلغت قيمته قيمة هدي يخير الجاني بين ان يشتري بها ما قيمته
قيمة الصيد فيهدي به الى الحرم وبين ان يشتري بها طعاما فيعطي كل مسكين نصف صاع
من بر او صاعا من غيره وبين ان يصوم عن طعام كل مسكين يوما فان فضل ما لا يبلغ
طعام مسكين تصدق به او صام عنه يوما كاملا اذ لم يعهد في الشرع صوم ما دونه

فيكون قوله تعالى من النعم بيانًا للهدي المشتري بالقيمة على احد وجوه التخيير فان من فعل
ذلك يصدق عليه انه جزي بمثل ما قتل من النعم وعند مالك والشافعي ومن برايهما
هو المثل باعتبار الخلقة والهيئة لان الله تعالى اوجب مثل المقتول مقيدًا بالنعم فمن اعتبر
المثل بالقيمة فقد خالف النص وعن الصحابة رضي الله عنهم انهم اوجبوا في النعامة
بدنة وفي الظبي شاة وفي حمار الوحش بقرة وفي الارنب عناقا وعن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال الضبع صيد وفيه شاة اذا قتله المحرم ولنا ان النص اوجب المثل والمثل
المطلق في الكتاب والسنة واجماع الامة والمعقول يراد به اما المثل صورة ومعنى واما
المثل معنى واما المثل صورة بلا معنى فلا اعتبار له في الشرع اصلًا واذ لم يكن ارادة
الاول اجماعًا تعينت ارادة الثاني لكونه معهودًا في الشرع كما في حقوق العباد الا ترى
ان المماثلة بين افراد نوع واحد مع كونها في غاية القوة والظهور لم يعتبرها الشرع
ولم يجعل الحيوان عند الاتلاف مضمونًا بفرد اخر من نوعه مماثل له في عامة الاوصاف
بل مضمونًا بقيمته مع ان المنصوص عليه في امثاله انما هو المثل قال تعالى فاعتدوا عليه
بمثل ما اعتدى عليكم فحيث لم يعتبر تلك المماثلة القوية مع تيسر معرفتها وسهولة
مراعاتها فلان لا يعتبر ما بين نوع مختلفة من المماثلة الضعيفة الخفية مع صعوبة
ماخذها وتعسر المحافظة عليها اولى واحرى ولان القيمة قد اريدت فيما لا نظير له اجماعًا
فلم يبق غيره مرادًا اذ لا عموم للمشترك في مواقع الاثبات والمراد بالمروي ايجاب النظير
باعتبار القيمة لا باعتبار العين ثم الموجب الاصلي للجناية والجزاء المماثل للمقتول انما هو
قيمته لكن لا باعتبار ان يعمد الجاني اليها فيصرفها الى المصارف ابتداء بل باعتبار ان يجعلها
معيارًا فيقدر بها احدى الخصال الثلاث فيقيمها مقامها فقوله تعالى مثل ما قتل وصف
لازم للجزاء غير مفارق عنه بحال واما قوله تعالى من النعم فوصف له معتبر في ثاني
الحال بناء على وصفه الاول الذي هو المعيار له ولما بعده من الطعام والصيام فحقهما
ان يعطفا على الوصف المفارق لا على الوصف اللازم فضلا عن العطف على الموصوف كما سياتي
باذن الله تعالى ومما يرشدك الى ان المراد بالمثل هو القيمة قوله عز وجل يحكم به
اي بمثل ما قتل ذوا عدل منكم اي حكمان عادلان من المسلمين لكن لا لان التقويم هو الذي
يحتاج الى النظر والاجتهاد من العدول دون الاشياء المشاهدة التي يستوي في معرفتها
كل احد من الناس فان ذلك ناشئ من الغفلة عما ارادوا به المماثلة بل لان ما جعلوه مدار
المماثلة بين الصيد والنعم من ضرب مشاكلة ومضاهاة في بعض الاوصاف والهيئات
مع تحقق التباين بينهما في بقية الاحوال مما لا يهتدي اليه من اساطين ائمة الاجتهاد
وصناديد اهل الهداية والارشاد الا المؤيدون بالقوة القدسية الا ترى ان الامام
الشافعي رحمه الله اوجب في قتل الحمامة شاة بناء على ما اثبت بينهما من المماثلة من حيث ان
كلا منهما تعب وتهدر مع ان النسبة بينهما من سائر الحيثيات كما بين الضب والنون فكيف
يفوض معرفة امثال هذه الدقائق العويصة الى راي عدلين من احاد الناس على ان الحكم
بهذا المعنى انما يتعلق بالانواع لا بالاشخاص فبعدما عين بمقابلة كل نوع من انواع الصيد
نوع من انواع النعم يتم الحكم ولا يبقى عند وقوع خصوصيات الحوادث حاجة
الى الحكم اصلا وقرئ يحكم به ذو عدل على ارادة جنس العادل دون الوحدة وقيل على
ارادة الامام والجملة صفة لجزاء او حال منه لتخصصه بالصفة وقوله تعالى هديًا حال
مقدرة من الضمير في به او من جزاء لما ذكر من تخصصه بالصفة او بدل من مثل فيمن نصبه
او من محله فيمن جره او نصب على المصدر اي يهديه هديًا والجملة صفة اخرى لجزاء
بالغ الكعبة صفة لهديًا لان الاضافة غير حقيقية او كفارة عطف على محل من النعم
على انه خبر مبتدا محذوف والجملة صفة ثانية لجزاء كما اشير اليه وقوله تعالى طعام مساكين
عطف بيان لكفارة عند من لا يخصصه بالمعارف او بدل منه او خبر مبتدا محذوف اي
هي طعام مساكين وقوله تعالى او عدل ذلك صيامًا عطف على طعام الخ كانه قيل
فعليه جزاء مماثل للمقتول من النعم او طعام مساكين او صيام ايام بعددهم فحينئذ

يكون المماثلة وصفًا لازمًا للجزاء يقدر به الهدي والطعام والصيام اما الاولان فبلا واسطة
واما الثالث فبواسطة الثاني فيختار الجاني كلا منهما بدلًا من الاخر هذا وقد قيل ان
قوله تعالى او كفارة عطف على جزاء فلا يبقى حينئذ في النظم الكريم ما يقدر به الطعام
والصيام والالتجاء الى القياس على الهدي تعسف لا يخفى هذا على قراءة جزاء بالرفع وعلى سائر
القراءات فقوله تعالى او كفارة خبر مبتدا محذوف والجملة معطوفة على جملة هو من النعم
وقرئ او كفارة طعام مساكين بالاضافة لتبيين نوع الكفارة وقرئ طعام مسكين على ان
التبيين يحصل بالواحد الدال على جنس وقرئ او عدل بكسر العين والفرق بينهما ان عدل
الشيء ما عادله من غير جنسه كالصوم والاطعام وعدله ما عدل به في المقدار كان المفتوح
تسمية بالمصدر والمكسور بمعنى المفعول وذلك اشارة الى الطعام وصيامًا تمييز للعدل
والخيار في ذلك للجاني عند ابي حنيفة وابي يوسف وللحكمين عند محمد رحمهم الله تعالى
ليذوق وبال امره متعلق بالاستقرار في الجار والمجرور اي فعليه جزاء ليذوق الخ
وقيل بفعل يدل عليه الكلام كانه قيل شرع ذلك عليه ليذوق وبال امره اي سوء عاقبة
هتكه لحرمة الاحرام والوبال في الاصل المكروه والضرر الذي ينال في العاقبة من عمل سوء
لثقله ومنه قوله تعالى فاخذناه اخذًا وبيلًا ومنه الطعام الوبيل وهو الذي لا يستمرؤه
المعدة عفا الله عما سلف من قتل الصيد محرمًا قبل ان يسألوا رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقيل عما سلف منه في الجاهلية لانهم كانوا متعبدين بشرائع من قبلهم وكان
الصيد فيها محرمًا ومن عاد الى قتل الصيد بعد النهي عنه وهو محرم فينتقم الله
منه خبر مبتدا محذوف تقديره فهو ينتقم الله منه ولذلك دخلت الفاء كقوله تعالى فمن
يؤمن بربه فلا يخاف بخسًا ولا رهقًا اي فذلك لا يخاف الخ وقوله تعالى ومن كفر فامتعه
اي فانا امتعه والمراد بالانتقام التعذيب في الاخرة واما الكفارة فعن عطاء وابراهيم
وسعيد بن جبير والحسن انها واجبة على العائد وعن ابن عباس وشريح انه لا كفارة عليه
تعلقا بالظاهر والله عزيز غالب لا يغالب ذو انتقام شديد فينتقم ممن اصر
على المعصية والاعتداء احل لكم الخطاب للمحرمين صيد البحر اي ما يصاد في المياه
كلها بحرًا كان او نهرًا او غديرًا وهو ما لا يعيش الا في الماء ماكولًا او غير ماكول
وطعامه اي وما يطعم من صيده وهو تخصيص بعد تعميم والمعنى احل لكم التعرض
لجميع ما يصاد في المياه والانتفاع به واكل ما يؤكل منه وهو السمك عندنا وعند ابن ابي
ليلى جميع ما يصاد فيه على ان تفسير الاية عنده احل لكم صيد حيوان البحر وان تطعموه
وقرئ وطعمه وقيل صيد البحر ما صيد فيه وطعامه ما قذفه ونضب عنه متاعا
لكم نصب على انه مفعول له مختص بالطعام كما ان نافلة في قوله تعالى ووهبنا له اسحق
ويعقوب نافلة حال مختصة بيعقوب عليه السلام اي احل لكم طعامه تمتيعًا
للمقيمين منكم ياكلونه طريًا وللسيارة منكم يتزودونه قديدًا وقيل نصب على
انه مصدر مؤكد لفعل مقدر اي متعكم به متاعًا وقيل مؤكد لمعنى احل لكم فانه
في قوة متعكم به تمتيعًا كقوله تعالى كتاب الله عليكم وحرم عليكم صيد البر وقرئ
على بناء الفعل للفاعل ونصب صيد البر وهو ما يفرخ فيه وان كان يعيش في الماء في بعض
الاوقات كطير الماء ما دمتم حرمًا اي محرمين وقرئ بكسر الدال من دام يدام
وظاهره يوجب حرمة ما صاده الحلال على المحرم وان لم يكن له مدخل فيه وهو قول
عمر وابن عباس رضي الله عنهم وعن ابي هريرة وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير
انه يحل له اكل ما صاده الحلال وان صاده لاجله اذا لم يشر اليه ولم يدل عليه وكذا
ما ذبحه قبل احرامه وهو مذهب ابي حنيفة لان الخطاب للمحرمين فكانه قيل وحرم عليكم
ما صدتم في البر فيخرج منه مصيد غيرهم وعند مالك والشافعي واحمد لا يباح ما
صيد له واتقوا الله فيما نهاكم عنه او في جميع المعاصي التي من جملتها ذلك الذي
اليه تحشرون لا الى غيره حتى يتوهم الخلاص من اخذه تعالى بالالتجاء اليه جعل الله
الكعبة قال مجاهد سميت كعبة لكونها مكعبة مربعة وقيل لانفرادها من البناء

وقيل لارتفاعها من الارض ونتوّها وقوله تعالى البيت الحرام عطف على بنا على جهة المدح
دون التوضيح كما يجيء الصفة كذلك وقيل مفعول ثان لجعل وقوله تعالى قياما للناس
نصب على الحال وبرده عطف ما بعده على المفعول الاول كما يجيء بل هنا هو المفعول الثاني
وقيل الجعل بمعنى الانشاء والخلق وهو حال كما مرّ ومعنى كونه قياما لهم انه مدار لقيام
امر دينهم ودنياهم اذ هو سبب لانتعاشهم في امور معاشهم ومعادهم يلوذ به
الخائف ويامن فيه الضعيف ويربح فيه التجارة ويتوجه اليه الحجاج والعمار وقرئ قيما
على انه مصدر على وزن شبع اعلّ عينه بما اعلّ في فعله والشهر الحرام اي الذي يؤدي
فيه الحج وهو ذو الحجة وقيل جنس الشهر الحرام وهو وما بعده عطف على الكعبة فالمفعول
الثاني محذوف ثقة بما مرّ اي وجعل الشهر الحرام والهدي والقلائد ايضا قياما لهم
والمراد بالقلائد ذوات القلائد وهي البدن خصت بالذكر لان الثواب فيها اكثر وبهاء
الحج بها اظهر ذلك اشارة الى الجعل المذكور خاصة او مع ما ذكر من الامر بحفظ حرمة الاحرام
وغيره ومحله النصب بفعل مقدر يدل عليه السياق وهو العامل في اللام بعده اي شرع ذلك
لتعلموا ان الله يعلم ما في السموات وما في الارض فان تشريع هذه الشرائع المستتبعة
لدفع المضار الدينية والدنيوية قبل وقوعها وجلب المنافع الاولوية من اوضح
الدلائل على حكمة الشارع وعدم خروج شيء من علمه المحيط وقوله تعالى وان الله بكل
شيء عليم تعميم اثر تخصيص للتاكيد ويجوز ان يراد بما في السموات والارض الاعيان
الموجودة فيهما وبكل شيء الامور المتعلقة بتلك الموجودات من العوارض والاحوال
التي هي من قبيل المعاني اعلموا ان الله شديد العقاب وعيد لمن انتهك
محارمه او اصرّ على ذلك وقوله تعالى وان الله غفور رحيم وعد لمن حافظ
على مراعاة حرماته تعالى او اقلع عن الانهماك بعد تعاطيه ووجه تقديم الوعيد
ظاهر ما على الرسول الا البلاغ تشديد في ايجاب القيام بما امر به اي الرسول
قد اتى بما وجب عليه من التبليغ بما لا مزيد عليه وقامت عليكم الحجة ولزمتكم الطاعة
فلا عذر لكم من بعد في التفريط والله يعلم ما تبدون وما تكتمون فيؤاخذكم
بذلك نقيرا وقطميرا قل لا يستوي الخبيث والطيب حكم عام في نفي المساواة عنده
تعالى بين الردي من الاشخاص والاعمال والاموال وبين جيدها قصد به الترغيب في جيد
كل منها والتحذير عن رديها وان كان سبب النزول شريح بن ضبيعة البكري الذي مرّت
قصته في تفسير قوله تعالى يا ايها الذين امنوا لا تحلوا شعائر الله وقيل نزلت في رجل
سال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الخمر كانت تجارتي واني اعتقدت من بيعها
مالا فهل ينفعني من ذلك المال ان عملت فيه بطاعة الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم
ان انفقته في حج او جهاد او صدقة لم يعدل جناح بعوضة ان الله لا يقبل الا الطيب
وقال عطاء والحسن الخبيث والطيب الحرام والحلال وتقديم الخبيث في الذكر للاشعار من
اول الامر بان القصور الذي ينبئ عنه عدم الاستواء فيه لا في مقابله فان
مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانا وان جاز اعتباره
بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب قصور القاصر كما في
قوله تعالى هل يستوي الاعمى والبصير الى غير ذلك واما قوله تعالى هل يستوي الذين
يعلمون والذين لا يعلمون فلعل تقديم الفاضل فيه لما ان صلته ملكته لانصلة المفضول
ولو اعجبك كثرة الخبيث اي وان سرك كثرته والخطاب لكل واحد من الذين امر النبي
صلى الله عليه وسلم بخطابهم والواو لعطف الشرطية على مثلها المقدر وقيل للحال وقد
مرّ اي لو لم تعجبك كثرة الخبيث ولو اعجبتك وكلتاهما في موضع الحال من فاعل لا يستوي اي
لا يستويان كائنين على كل حال مفروض كما في قولك احسن الى فلان وان اساء اليك اي احسن اليه
ان لم يسئ اليك وان اساء اليك اي كائنا على كل حال مفروض وقد حذفت الاولى حذفا مطردا
لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة فان الشيء اذا تحقق مع المعارض فلان يتحقق بدونه
اولى وعلى هذا السر يدور ما في لو وان الوصليتين من المبالغة والتاكيد وجواب لو محذوف

في الجلبس لدلالة ما قبلها عليه وسياتي تمام تحقيقه في مواقع عديدة باذن الله عز وجل فاتقوا
الله يا اولي الالباب اي في تحري الخبيث وان كثر واثروا عليه الطيب وان قل فان مدار
الاعتبار هو الجودة والرداءة لا الكثرة والقلة فالمحمود قليل خير من المذموم الكثير كلما
كثر الخبيث كان اخبث لعلكم تفلحون راجين ان تنالوا الفلاح يا ايها الذين امنوا
لا تسالوا عن اشياء هو اسم جمع على راي الخليل وسيبويه وجمهور البصريين كطرفاء
وقصباء اصله شيئاء بهمزتين بينهما الف فقلبت الكلمة بتقديم لامها على فائها فصار وزنها لفعاء
ومنعت الصرف لالف التانيث الممدودة وقيل هو جمع شيء على انه مخفف من شيّء كهين
من هيّن والاصل اشياء كاهوناء بزنة افعلاء فاجتمعت همزتان لام الكلمة والتي للتانيث
اذ الالف كالهمزة فخففت الكلمة بان قلبت الهمزة الاولى ياء لانكسار ما قبلها فصارت
اشيياء فاجتمعت ياءان اولاهما عين الكلمة فحذفت تخفيفا فصارت اشياء وزنها افلاء
ومنعت الصرف لالف التانيث وقيل انما حذفت من اشيياء الياء المنقلبة من الهمزة
التي هي لام الكلمة وفتحت الياء المكسورة لتسلم الف الجمع فوزنها افعاء وقوله تعالى ان تبد لكم
تسؤكم صفة لاشياء داعية الى الانتهاء عن السؤال عنها وحيث كانت المساءة في هذه الشرطية
معلقة بابدائها لا بالسؤال عنها عقبت بشرطية اخرى ناطقة باستلزام السؤال عنها لابدائها
الموجب للمحذور قطعا فقيل وان تسالوا عنها حين ينزل القران تبد لكم اي تلك الاشياء الموجبة
للمساءة بالوحي كما ينبئ عنه تقييد السؤال بحين التنزيل والمراد بها ما يشق عليهم ويغمهم
من التكاليف الصعبة التي لا يطيقون بها والاسرار الخفية التي يفتضحون بظهورها
ونحو ذلك مما لا خير فيه فكما ان السؤال عن الامور الواقعة مستتبع لابدائها كذلك
السؤال عن تلك التكاليف المستتبع لايجابها عليهم بطريق التشديد لاساءتهم الادب
واجترائهم على المسئلة والمراجعة وتجاوزهم عما يليق بشانهم من الاستسلام
لامر الله عز وجل من غير بحث فيه ولا تعرض لكيفيته وكميته اي لا تكثروا مسالة رسول الله
صلعم عما لا يعنيكم من نحو تكاليف شاقة عليكم ان افتاكم بها وكلفكم اياها حسبما اوحي اليه
لم تطيقوا بها ونحو بعض امور مستورة تكرهون بروزها وذلك مثل ما روي عن علي
كرم الله وجهه انه قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله واثنى عليه ثم قال
ان الله تعالى كتب عليكم الحج فقام رجل من بني اسد يقال له عكاشة بن محصن وقيل هو سراقة بن
مالك فقال افي كل عام يا رسول الله فاعرض عنه حتى عاد مسئلته ثلاث مرات فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم ويحك وما يؤمنك ان اقول نعم والله لو قلت نعم لوجبت ولو
وجبت ما استطعتم ولو تركتم لكفرتم فاتركوني ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم
بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم فاذا امرتكم بامر فخذوا منه ما استطعتم
واذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ومثل ما روي عن انس وابي هريرة رضي الله عنهما انه
سال الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اشياء حتى احفوه في المسئلة فقام
عليه السلام مغضبا خطيبا فحمد الله واثنى عليه وقال سلوني فوالله لا تسالوني عن شيء
مادمت في مقامي هذا الا بينته لكم فاشفق اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ان يكون بين يدي امر
قد حضر قال انس فجعلت التفت يمينا وشمالا فلا اجد رجلا الا وهو لاف راسه في
ثوبه يبكي فقام رجل من قريش من بني سهم يقال له عبد الله بن حذافة وكان اذا لاحى الرجال يدعى الى
غير ابيه وقال يا نبي الله من ابي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابوك حذافة بن قيس الزهري وقام اخر فقال اين ابي
قال عليه السلام في النار ثم قام عمر رضي الله عنه فقال رضينا بالله تعالى ربا وبالاسلام
دينا وبمحمد رسولا ونبيا نعوذ بالله من الفتن انا حديثو عهد بجاهلية وشرك فاعف
عنا يا رسول الله فسكن غضبه صلى الله عليه وسلم عفا الله عنها استيناف مسوق
لبيان ان نهيهم عنها لم يكن لمجرد صيانتهم عن المساءة بل لانها في نفسها معصية
مستتبعة للمؤاخذة وقد عفا عنها وفيه من حثهم على الجد في الانتهاء عنها ما لا يخفى
وضمير عنها للمسئلة المدلول عليها بلا تسالوا اي عفا الله عن مسائلكم السالفة حيث لم
يفرض عليكم الحج في كل عام جزاء بمسئلتكم وتجاوز عن عقوبتكم

الاخروية بسائر مسائلكم فلا تعودوا الى مثلها واما جعلها صفة اخرى لاشياء على ان الضمير
لها بمعنى لا تسألوا عن اشياء عفى الله عنها ولم يكلفكم اياها فمما لا سبيل اليه اصلا لاقتضائه
ان يكون الحج قد فرض اولا في كل عام ثم نسخ بطريق العفو وان يكون ذلك معلوما للمخاطبين
ضرورة ان حق الوصف ان يكون معلوم الثبوت للموصوف عند المخاطب قبل جعله وصفا له
وكلاهما ضروري الانتفاء قطعا على انه يستدعي اختصاص النهي بمسألة الحج ونحوها مما
سلم وقوعها مع ان النظم الكريم صريح في انه مسوق للنهي عن السؤال عن الاشياء التي
يسوؤهم ابداؤها سواء كانت من قبيل الاحكام والتكاليف الموجبة لمساءتهم بانشائها
وايجابها بسبب السؤال عقوبة وتشديدا كمسألة الحج لولا عفوه تعالى عنها او من قبيل
الامور الواقعة قبل السؤال الموجبة للمساءة بالاخبار بها كمسألة من قال اين ابي ان قلت
تلك الاشياء غير موجبة للمساءة البتة بل هي محتملة لايجاب المسرة ايضا لان ايجابها للاولى
ان كان من حيث وجودها فهي من حيث عدمها موجبة للاخرى قطعا وليست احدى الحيثيتين
محققة عند السائل وانما غرضه من السؤال ظهورها كيف كانت بل ظهورها بحيثية ايجابها
للمسرة فلم عبر عنها بحيثية ايجابها للمساءة قلت لتحقيق النهي عنه كما ستعرفه مع ما
فيه من تأكيد النهي وتشديده لان تلك الحيثية هي الموجبة للانتهاء والانزجار لا حيثية
ايجابها للمسرة ولا حيثية ترددها بين الايجابين ان قيل الشرطية الثانية ناطقة بان
السؤال عن تلك الاشياء الموجبة للمساءة مستلزم لابدائها البتة كما مر فلم تخلف
الابداء عن السؤال في مسألة الحج حيث لم يفرض في كل عام قلنا لوقوع السؤال قبل ورود النهي
وما ذكر في الشرطية انما هو السؤال الواقع بعد وروده اذ هو الموجب للتغليظ والتشديد
ولا تخلف فيه ان قيل ما ذكرته انما يتمشى فيما اذا كان السؤال عن الامور المترددة
بين الوقوع وعدمه كما ذكر من التكاليف الشاقة واما اذا كان عن الامور الواقعة قبله
فلا يكاد يتسنى لان ما يتعلق به الابداء هو الذي وقع في نفس الامر ولا مرد له سواء كان
السؤال قبل النهي او بعده وقد يكون الواقع ما يوجب المسرة كما في مسألة عبد الله
بن حذافة فيكون هو الذي يتعلق به الابداء لا غير فيتعين التخلف حتما قلنا لا احتمال
للتخلف فضلا عن التعين فان المنهي عنه في الحقيقة انما هو السؤال عن الاشياء الموجبة
للمساءة الواقعة في نفس الامر قبل السؤال كسؤال من قال اين ابي لا عما يعمها وغيرها
مما ليس بواقع لكنه محتمل للوقوع عند المكلفين حتى يلزم التخلف في صورة عدم الوقوع
وجملة الكلام ان مدلول النظم الكريم بطريق العبارة انما هو النهي عن السؤال عن الاشياء
التي يوجب ابداؤها المساءة البتة اما بان تكون تلك الاشياء بعرضية الوقوع فتبدى
عند السؤال بطريق الانشاء عقوبة وتشديدا كما في صورة كونها من قبيل التكاليف
الشاقة واما بان تكون واقعة في نفس الامر قبل السؤال فتبدى عنده بطريق
الاخبار بها فالتخلف ممتنع في الصورتين معا ومنشأ توهمه عدم الفرق بين المنهي
عنه وبين غيره بناء على عدم امتياز ما هو موجود او بعرضية الوجود من تلك الاشياء
في نفس الامر وما ليس كذلك عند المكلفين وملاحظتهم للكل باحتمال الوجود والعدم
وفائدة هذا الابهام الانتهاء عن السؤال عن تلك الاشياء على الاطلاق حذارا ابداء
المكروه والله غفور حليم اعتراض تذييلي مقرر لعفوه تعالى اي مبالغ في مغفرة
الذنوب والاغضاء عن المعاصي ولذلك عفا عنكم ولم يؤاخذكم بعقوبة ما فرط منكم
قد سألها قوم اي سألوا هذه المسألة لكن لا عينها بل مثلها في كونها محظورة
ومستتبعة للوبال وعدم التصريح بالمثل للمبالغة في التحذير من قبلكم متعلق بسألها
ثم اصبحوا بها اي بسببها او بمرجوعها كافرين فان بني اسرائيل كانوا يستفتون انبياءهم
في اشياء فاذا امروا بها تركوها فهلكوا ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا
وصيلة ولا حام رد وابطال لما ابتدعه اهل الجاهلية حيث كانوا اذا نتجت الناقة
خمسة ابطن اخرها ذكر بحروا اذنها اي شقوها وحرموا ركوبها ودرها ولا تطرد
عن ماء ولا مرعى وكان يقول الرجل اذا قدمت من سفري او برئت من مرضي فناقتي سائبة

وجعلها

وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها وقيل كان الرجل اذا اعتق عبدا قال هو سائبة فلا
عقل بينهما ولا ميراث واذا ولدت الشاة انثى فهي لهم وان ولدت ذكرا فهو لآلهتهم
وان ولدت ذكرا وانثى قالوا وصلت اخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم واذا نتجت من
صلب الفحل عشرة ابطن قالوا قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى
ومعنى ما جعل ما شرع وما وضع ولذلك عدي الى مفعول واحد هو بحيرة وما عطف
عليها ومن مزيدة لتأكيد النفي فان الجعل التكويني كما يجيء تارة متعديا الى مفعولين و
اخرى الى واحد كذلك الجعل التشريعي يجيء مرة متعديا الى مفعولين كما في قوله تعالى جعل الله
الكعبة البيت الحرام قياما للناس واخرى الى واحد كما في الآية الكريمة ولكن الذين كفروا
يفترون على الله الكذب حيث يفعلون ما يفعلون ويقولون الله امرنا بهذا وامامهم
عمرو بن لحي فانه اول من فعل هذه الافاعيل الباطلة هذا شأن رؤسائهم وكبارهم واكثرهم
وهم اراذلهم الذين يتبعونهم من معاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يشهد
به سياق النظم الكريم لا يعقلون انه افتراء باطل حتى يخالفوهم ويهتدوا الى الحق
بانفسهم فيبقون في اسر التقليد وهذا بيان لقصور عقولهم وعجزهم عن الاهتداء
بانفسهم وقوله عز وجل واذا قيل لهم اي للذين عبر عنهم باكثرهم على سبيل
الهداية والارشاد تعالوا الى ما انزل الله من الكتاب المبين للحلال والحرام و
الى الرسول الذي انزل هو عليه لتقفوا على حقيقة الحال وتميزوا الحلال والحرام قالوا
حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا بيان لعنادهم واستعصائهم على الهادي الى الحق
وانقيادهم للداعي الى الضلال اولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون
قيل الواو للحال دخلت عليها الهمزة للانكار والتعجيب اي احسبهم ذلك ولو كان
آباؤهم جهلة ضالين وقيل للعطف على شرطية اخرى مقدرة قبلها وهو الاظهر و
التقدير احسبهم ذلك او يقولون هذا القول لو لم يكن آباؤهم لا يعلمون شيئا
من الدين ولا يهتدون للصواب ولو كانوا لا يعلمون الخ وكلتاهما في موقع الحال اي
احسبهم ما وجدوا عليه آباءهم كائنين على كل حال مفروض وقد حذفت الاولى في الباب
حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة كيف لا وان الشيء اذا تحقق عند المانع فلان
يتحقق عند عدمه اولى كما في قولك احسن الى فلان وان اساء اليك اي احسن اليه لو لم يسئ
اليك وان اساء اي احسن اليه كائنا على كل حال مفروض وقد حذفت الاولى لدلالة الثانية
عليها دلالة ظاهرة اذ الاحسان حيث امر به عند المانع فلان يؤمر به عند عدمه اولى
وعلى هذا السر يدور ما في ان ولو الوصليتين من المبالغة والتأكيد وجواب لو محذوف
لدلالة ما سبق عليه اي لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون حسبهم ذلك او
يقولون ذلك وما في لو من معنى الامتناع والاستبعاد انما هو بالنظر الى زعمهم لا الى
نفس الامر وفائدته المبالغة في الانكار والتعجيب ببيان ان ما قالوا موجب للانكار و
التعجيب اذا كان كون آبائهم جهلة ضالين في حيز الاحتمال البعيد فكيف اذا كان
واقعا لا ريب فيه وقيل مآل الوجهين واحد لان الجملة المقدرة حال فكذا ما عطف عليها
وانت خبير بان الحال على الوجه الاخير مجموع الجملتين لا الاخيرة فقط وان الواو للعطف
لا للحال وقد مر التحقيق في قوله تعالى اولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون
فتدبر يا ايها الذين آمنوا عليكم انفسكم اي الزموا انفسكم واصلاحها وقرئ
بالرفع على الابتداء اي واجبة عليكم انفسكم وقوله عز وجل لا يضركم من ضل
اذا اهتديتم اما مجزوم على انه جواب للامر او نهي مؤكد له وانما ضمت الراء اتباعا لضمة
الضاد المنقولة اليها من الراء المدغمة اذ الاصل لا يضرركم ويؤيده لا يضركم بكسر الضاد وضمها من ضاره يضيره و
يضوره واما مرفوع على انه كلام مستأنف في موقع التعليل لما قبله ويعضده قراءة من قرأ
لا يضيركم اي لا يضركم ضلال من ضل اذا كنتم مهتدين ولا يتوهمن ان فيه رخصة
في ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مع استطاعتهما كيف لا ومن جملة الاهتداء ان ينكر
على المنكر حسبما تفي به الطاقة قال صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فاستطاع ان

امرٌ صح

يغيره فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وقد روي ان الصديق رضي
قال يوما على المنبر يا ايها الناس انكم تقرؤن هذه الآية وتضعونها غير موضعها ولا
تدرون ما هي واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الناس اذا رأوا منكرا
فلم يغيروا عمهم الله بعقاب فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ولا تغتروا بقول
الله عز وجل يا ايها الذين الخ فيقول احدكم علي نفسي والله لتأمرن بالمعروف وتنهون
عن المنكر او ليستعملن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ثم ليدعون خياركم فلا
يستجاب لهم وعنه صلى الله عليه وسلم ما من قوم عمل فيهم منكر وسن فيهم قبيح فلم
يغيروه ولم ينكروه الا وحق على الله تعالى ان يعمهم بالعقوبة جميعا ثم لا يستجاب لهم والآية
نزلت لما كانت المؤمنون يتحسرون على الكفرة وكانوا يتمنون ايمانهم وهم من الضلال
بحيث لا يكادون يرعوون عنه بالامر والنهي وقيل كان الرجل اذا اسلم لاموه وقالوا
له سفهت اباك وضللتهم اي نسبتهم الى السفاهة والضلال فنزلت تسلية له بان ضلال
آبائه لا يضره ولا يشينه الى الله لا الى احد سواه مرجعكم رجوعكم يوم القيامة
جميعا بحيث لا يتخلف عنه احد من المهتدين وغيرهم فينبئكم بما كنتم
تعملون في الدنيا من اعمال الهداية والضلال فهو وعد ووعيد للفريقين وتنبيه على ان
احدا لا يؤاخذ بعمل غيره يا ايها الذين آمنوا استئناف مسوق لبيان الاحكام المتعلقة
بامور دنياهم اثر بيان الاحوال بامور دينهم وتصديره بحرف النداء لتنبيه لاظهار
كمال العناية بمضمونها وقوله عز وجل شهادة بينكم بالرفع والاضافة الى الظرف
توسعا اما باعتبار جريانها بينهم او باعتبار تعلقها بما يجري بينهم من الخصومات
مبتدأ وقوله تعالى اذا حضر احدكم الموت اي شارفه وظهرت علائمه ظرف لها
وتقديم المفعول لافادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت وروده عليها فانه ادخل
في تهويل امر الموت وقوله تعالى حين الوصية بدل منه لا ظرف للموت ولا لحضوره
كما قيل فان في الابدال تنبيها على ان الوصية من المهمات المقررة التي لا ينبغي ان يتهاون
بها المسلم ويذهل عنها وقوله تعالى اثنان خبر للمبتدأ بتقدير المضاف اي شهادة بينكم
حينئذ شهادة اثنين او فاعل لشهادة بينكم على ان خبرها محذوف اي فيما انزل عليكم
ان يشهد بينكم اثنان وقرئ شهادة بالرفع والتنوين والاعراب كما سبق وقرئ شهادة
بالنصب والتنوين على ان عاملها مضمر هو العامل في اثنان ايضا اي ليقم شهادة بينكم
اثنان ذوا عدل منكم اي من اقاربكم لانهم اعلم باحوال الميت وانصح له واقرب الى
تحري ما هو اصلح له وقيل من المسلمين وهما صفتان لاثنان او آخران عطف على اثنان
تابع له فيما ذكر من الخبرية والفاعلية اي او شهادة آخرين او ان يشهد بينكم آخران
وقوله تعالى من غيركم صفة لآخران اي كائنان من غيركم اي من الاجانب وقيل من اهل الذمة
وقد كان ذلك في بدء الاسلام لعزة وجود المسلمين لا سيما في السفر ثم نسخ وعن مكحول
انه نسخها قوله تعالى واشهدوا ذوي عدل منكم ان انتم مرفوع بمضمر يفسره ما بعده تقديره
ان ضربتم فلما حذف الفعل انفصل الضمير وهذا رأي جمهور البصريين وذهب الاخفش
والكوفيون الى انه مبتدأ بناء على جواز وقوع المبتدأ بعد الشرطية كجواز وقوعه
بعد اذا فقوله تعالى ضربتم في الارض اي سافرتم فيها لا محل له من الاعراب عند الاولين
لكونه مفسرا او مرفوع على الخبرية عند الباقين وقوله تعالى فاصابتكم مصيبة الموت عطف
على الشرط وجوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه اي ان سافرتم فقاربكم الاجل حينئذ وما
معكم من الاقارب او من اهل الاسلام من يتولى امر الشهادة كما هو الغالب المعتاد في الاسفار
فليشهد آخران فاستشهدوا آخرين او فالشاهدان آخران كذا قيل والانسب
ان يقدر عين ما سبق اي فآخران على معنى شهادة بينكم شهادة آخرين اي فان
يشهد آخران على الوجوه المذكورة ثمة وقوله تعالى تحبسونهما استئناف وقع
جوابا عما نشأ من اشتراط العدالة كانه قيل فكيف نصنع ان ارتبنا بالشاهدين فقيل
تحبسونهما اي تقفونهما وتصبرونهما للتحليف من بعد الصلاة وقيل هو صفة

لآخران

لآخران والشرط بجوابه المحذوف اعتراض فائدته الدلالة على ان اللائق اشهاد الاقارب
او اهل الاسلام واما اشهاد الآخرين فعند الضرورة الملجئة اليه وانت خبير بانه يقتضي
اختصاص الحبس بالآخرين مع شموله للاولين ايضا قطعا على ان اعتبار اتصافهما بما ذكر
يأباه مقام الامر باشهادهما اذ مآله فآخران شأنهما الحبس والتحليف وان امكن اتمام
التقريب باعتبار قيد الارتياب بهما كما يفيده الاعتراض الآتي والمراد بالصلاة صلاة
العصر وعدم تعيينها لتعينها عندهم بالتحليف بعدها لانه وقت اجتماع الناس وتصادم
ملائكة الليل وملائكة النهار ولان جميع اهل الاديان يعظمونه ويجتنبون فيه الحلف
الكاذب وقد روي ان النبي صلى الله عليه وسلم وقت اذ حلف من حلف كما سيأتي
وقيل بعد اي صلاة كانت لانها داعية الى النطق بالصدق وناهية عن الكذب والزور
ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فيقسمان بالله عطف على تحبسونهما وقوله تعالى
ان ارتبتم شرطية محذوفة الجواب لما سبق من الحبس والاقسام عليه سيقت من
جهته تعالى معترضة بين القسم وجوابه للتنبيه على ان اختصاص الحبس والتحليف
بحال الارتياب اي ان ارتاب بهما الوارث منكم بخيانة واخذ شيء من التركة فاحبسوهما
وحلفوهما بالله وقوله عز وجل لا نشتري به ثمنا جواب للقسم وليس هذا من قبيل ما
اجتمع فيه قسم وشرط فاكتفي بذكر جواب سابقهما عن جواب الآخر كما هو الواقع غالبا فان ذلك
انما يكون عند سد جواب السابق مسد جواب اللاحق لاتحاد مضمونهما كما في قولك والله ان
اتيتني لاكرمتك فلا ريب في استحالة ذلك ههنا لان القسم وجوابه كلاهما وقد عرفت
ان الشرط من جهته عز وجل والاشتراء هو استبدال السلعة بالثمن اي اخذها بدلا
منه لا بذل له لتحصيلها كما قيل وان كان مستلزما له فان المعتبر في عقد الشراء ومفهومه
الجلب دون السلب المعتبر في عقد البيع ثم استعير لاخذ شيء بازالة ما عنده عينا كان
او معنى على وجه الرغبة في المأخوذ والاعراض عن الزائل كما هو المعتبر في المستعار
منه حسبما مر تفصيله في تفسير قوله تعالى اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى
والضمير في به لله والمعنى لا نأخذ لانفسنا بدلا من الله اي من حرمته عرضا في الدنيا
بان نهتكها ونزيلها بالحلف الكاذب اي لا نحلف بالله كاذبين لاجل المال وقيل الضمير
للقسم فلا بد من تقدير مضاف البتة اي لا نستبدل بصحة القسم بالله اي لا نأخذ
بدلا منها عرضا من الدنيا بان نزيل عنه وصف الصدق ونصفه بالكذب اي لا نحلف
كاذبين كما ذكروا فلا سداد للمعنى سواء اريد به القسم الصادق او الكاذب اما ان
اريد به الكاذب فلانه يفوت حينئذ ما هو المعتبر في الاستعارة من كون الزائل شيئا
مرغوبا فيه عند الحالف كحرمة اسم الله تعالى ووصف الصحة والصدق في القسم
ولا ريب في ان القسم الكاذب ليس كذلك واما ان اريد به الصادق فلانه وان
امكن ان يتوسل باستعماله الى عرض الدنيا كالقسم الكاذب لكن لا محذور فيه وانما
التوسل اليه بترك استعماله فلا امكان له ههنا حتى يصح التبرؤ منه وانما يتوسل
اليه باستعمال الكاذب وليس استعماله من لوازم ترك استعمال الصادق ضرورة جواز
تركهما معا حتى يتصور جعل ما اخذ باستعماله مأخوذا بترك استعمال الصادق كما
في صورة تقدير المضاف فان ازالة وصف الصدق عن القسم مع بقاء الموصوف
مستلزمة لثبوت وصف الكذب له البتة فتأمل وقوله تعالى ولو كان اي المقسم له المدلول
عليه بفحوى الكلام ذا قربى اي قريبا منا تأكيد لتبرئهم من الحلف كاذبا ومبالغة
في التنزه عنه كأنهما قالا لا نأخذ لانفسنا بدلا من حرمة اسمه تعالى مالا ولو انضم
اليه رعاية جانب الاقرباء فكيف اذا لم يكن كذلك وصيانة انفسهما وان كانت اهم من
رعاية الاقرباء لكنها ليست ضميمة للمال راجعة اليه وجواب لو محذوف ثقة بدلالة
ما سبق عليه اي لا نشتري به ثمنا والجملة معطوفة على اخرى مثلها كما فصل في تفسير قوله
تعالى ولو اعجبك الخ وقوله عز وجل ولا نكتم شهادة الله اي الشهادة التي امرنا الله تعالى باقامتها
معطوف على لا نشتري به داخل معه في حكم القسم وعن الشعبي انه وقف على شهادة ثم

ابتداء الله بالمد على حذف حرف القسم تعويض حرف الاستفهام منه وبغير مد كقولهم الله لافعلن انا اذا لمن الآثمين اى ان كتمناها وقرئ لملاثمين بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وادخال النون فيها فان عثر اى اطلع بعد التحليف على انهما استحقا اثما حسبما اعترفا به بقولهما انا اذا لمن الآثمين اى فعلا ما يوجب اثما من تحريف وكتم بان ظهر بايديهما شيء من التركة وادعيا استحقاقهما له بوجه من الوجوه كما وقع في سبب النزول حسبما سيأتي فآخران اى رجلان آخران وهو مبتدأ خبره يقومان مقامهما ولا محذور في الفصل بالخبر بين المبتدأ وبين وصفه الذي هو الجار والمجرور بعده اي يقومان مقام اللذين عثر على خيانتهما وليس المراد بمقامهما مقام اداء الشهادة التي تولياها ولم يؤدياها كما هي بل هو مقام الحبس والتحليف على الوجه المذكور لاظهار الحق وابراز كذبهما فيما ادعيا من استحقاقهما لما في ايديهما من الذين استحق على البناء للفاعل قراءة علي بن عباس وابي رضي الله عنهم اى من اهل الميت الذين استحق عليهم الاوليان من بينهم اى الاقربان الى الميت الوارثان له الاحقان بالشهادة اى باليمين كما ستعرفه ومفعول استحق محذوف اى استحقا عليهم ان يجردوهما للقيام بها لانها حقهما ويظهروا بهما كذب الكاذبين وهما في الحقيقة الآخران القائمان مقام الاولين على وضع المظهر مقام المضمر وقرئ على البناء للمفعول وهو الاظهر اى من الذين استحق عليهم الاثم اى جني عليهم وهم اهل الميت وعشيرته فالاوليان مرفوع على انه خبر محذوف كانه قيل ومن هما فقيل الاوليان او هو بدل من الضمير في يقومان او من آخران وقد جوز ارتفاعه باستحق على حذف المضاف اى استحق عليهم انتداب الاوليين منهم للشهادة وقرئ الاولين على انه صفة للذين الخ مجرور او منصوب على المدح ومعنى الاولية التقدم على الاجانب في الشهادة لكونهم احق بها وقرئ الاولين على التثنية وانتصابه على المدح وقرئ الاولان فيقسمان بالله عطف على يقومان لشهادتنا المراد بالشهادة اليمين كما في قوله تعالى فشهادة احدهم اربع شهادات بالله اى ليميننا على انهما كاذبان فيما ادعيا من الاستحقاق مع كونها حقة صادقة في نفسها احق بالقبول من شهادتهما اي من يمينهما مع كونها كاذبة في نفسها لما انه قد صح للناس استحقاقهما للاثم ويميننا منزهة عن الريب والريبة وصيغة التفضيل مع انه لا حقية في يمينهما راسا انما هي لامكان قبولها في الجملة باعتبار احتمال صدقهما في ادعاء تملكهما لما ظهر في ايديهما وما اعتدينا عطف على جواب القسم اي ما تجاوزنا فيها الحق او ما اعتدينا عليهما بابطال حقهما انا اذا لمن الظالمين استئناف مقرر لما قبله اى انا ان اعتدينا في يميننا لمن الظالمين انفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعذابه بسبب هتك حرمة اسم الله تعالى او لمن الواضعين الحق في غير موضعه ومعنى النظم الكريم ان المحتضر ينبغي ان يشهد على وصيته عدلين من ذوي نسبه او دينه فان لم يجدهما بان كان في سفر فآخرين من غيرهم ثم ان وقع ارتياب بهما اقسما على انهما ما كتما من الشهادة ولا من التركة شيئا بالتغليظ في الوقت فان اطلع بعد ذلك على كذبهما بان ظهر بايديهما شيء من التركة وادعيا تملكه من جهة الميت حلف الورثة وعمل بايمانهم ولعل تخصيص الاثنين لخصوص الواقعة فانه روي ان تميم بن اوس الداري وعدي بن زيد خرجا الى الشام للتجارة وكانا حينئذ نصرانيين ومعهما بديل بن ابي مريم مولى عمرو بن العاص وكان مسلما مهاجرا فلما قدما الشام مرض بديل فكتب كتابا فيه جميع ما معه وطرحه في متاعه ولم يخبرهما بذلك واوصى اليهما بان يدفعا متاعه الى اهله ومات ففتشاه فوجدا فيه اناء من فضة وزنه ثلاثمائة مثقال منقوشا بالذهب فغيباه ودفعا المتاع الى اهله فاصابوا فيه الكتاب فطلبوا منهما الاناء فقالا ما ندري انما اوصى الينا بشيء وامرنا ان ندفعه اليكم ففعلنا وما لنا بالاناء من علم فرفعوهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل يا ايها الذين آمنوا الآية فاستحلفهما بعد صلاة العصر عند المنبر بالله الذي لا اله الا هو انهما لم يختانا شيئا مما دفع ولا كتما فحلفا على ذلك فخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيلهما

نفران

نفران الاناء وجد بمكة فقال من بيده اشتريته من تميم وعدي وقيل لما طالت المدة اظهروه فبلغ ذلك بني سهم فطلبوه منهما فقالا كنا اشتريناه من بديل فقالوا الم نقل لكما هل باع صاحبنا من متاعه شيئا فقلتما لا قالا ما كان لنا بينة فكرهنا ان نقر به فرفعوهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل قوله عز وعلا فان عثر الآية فقام عمرو بن العاص والمطلب بن ابي وداعة السهميان فحلفا بالله بعد العصر انهما كذبا وخانا فدفع الاناء اليهما وفي رواية الى اولياء الميت واعلم انهما ان كانا وارثين لبديل فلا نسخ الا في وصف اليمين فان الوارث لا يحلف على البتات والا فهو منسوخ ذلك كلام مستأنف سيق لبيان ما ذكر مستتبع للمنافع وارد على مقتضى الحكمة والمصلحة اى الحكم الذي تقدم تفصيله ادنى ان يأتوا بالشهادة على وجهها اى اقرب ان يؤدي الشهود الشهادة على وجهها الذي تحملوها عليه من غير تحريف ولا خيانة خوفا من العذاب الاخروي وهذه كما ترى حكمة شرعية التحليف بالتغليظ المذكور وقوله تعالى او يخافون ان ترد ايمان بعد ايمانهم بيان لحكمة شرعية رد اليمين على الورثة معطوف على مقدر ينبئ عنه المقام كانه قيل ذلك ادنى ان يأتوا بالشهادة على وجهها ويخافوا عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة او يخافوا الافتضاح على رؤوس الاشهاد بابطال ايمانهم والعمل بايمان الورثة فينزجروا عن الخيانة المؤدية اليه فاي الخوفين وقع حصل المقصد الذي هو الاتيان بالشهادة على وجهها وقيل هو عطف على يأتوا على معنى ان ذلك اقرب الى ان يأتوا بالشهادة على وجهها او الى ان يخافوا الافتضاح برد اليمين على الورثة فلا يحلفوا على موجب شهادتهم ان لم يأتوا بها على وجهها فيظهر كذبهم بنكولهم واما ما قيل من ان المعنى ان ذلك اقرب الى احد الامرين اللذين ايهما وقع كان فيه الصلاح اداء الشهادة على الصدق والامتناع عن ادائها على الكذب فيأباه المقام اذ لا تعلق له بالحادثة اصلا ضرورة ان الشاهد مضطر فيها الى الجواب فالامتناع عن الشهادة الكاذبة مستلزم للاتيان بالصادقة قطعا فليس هناك امران ايهما وقع كان فيه الصلاح حتى يتوسط بينهما كلمة او وانما يتاتى ذلك في شهود يتهموا بخيانة على ان اضافة الامتناع عن الشهادة الكاذبة الى خوف رد اليمين على الورثة ونسبة الاتيان بالصادقة الى غيره مع ان ما يقتضي احدهما يقتضي الآخر لا محالة تحكم بحت فتأمل واتقوا الله في مخالفة احكامه التي من جملتها هذا الحكم واسمعوا ما تؤمرون به كائنا ما كان سمع طاعة وقبول والله لا يهدي القوم الفاسقين الخارجين عن الطاعة اي فان لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم فاسقين والله لا يهدي القوم الفاسقين اى الى طريق الجنة او الى ما فيه نفعهم يوم يجمع الله الرسل نصب على انه بدل اشتمال من مفعول اتقوا لما بينهما من الملابسة فان مدار البدلية ليس ملابسة الظرفية والمظروفية ونحوها فقط هو تعلق ما مصحح لانتقال الذهن من المبدل منه الى البدل بوجه اجمالي كما فيما نحن فيه فان كونه تعالى خالق الاشياء كافة مالك يوم الدين خاصة كاف في الباب مع ان الامر بتقوى الله تعالى يتبادر منه الى الذهن ان المتقى اى شأن من شؤونه واي فعل من افعاله وقيل هناك مضاف محذوف به يتحقق الاشتمال اى اتقوا عقاب الله حينئذ يجوز انتصابه منه بطريق الظرفية وقيل منصوب بمضمر معطوف على اتقوا وما عطف عليه اى واحذروا او اذكروا يوم الخ فان تذكير اليوم الهائل مما يضطرهم الى تقوى الله عز وعلا وتلقي امره بسمع الاجابة والطاعة وقيل هو ظرف لقوله تعالى لا يهدي اي لا يهديهم يومئذ الى طريق الجنة كما يهدي اليه المؤمنين وقيل منصوب بقوله تعالى واسمعوا بحذف مضاف اى اسمعوا خبر ذلك وقيل منصوب بفعل مؤخر قد حذف للدلالة على ضيق العبارة عن شرحه وبيانه لكمال فظاعة ما يقع فيه من الطامة التامة كانه قيل يوم يجمع الله الرسل فيقول الخ يكون من الاحوال والاهوال ما لا يفي ببيانه نطاق المقال واظهار الاسم الجليل في موقع الاضمار لتربية المهابة وتشديد التهويل وتخصيص الرسل بالذكر ليس لاختصاص الجمع بهم دون الامم كيف لا وذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وقد قال الله تعالى يوم ندعوا

كالاناس باسامهم بل لابانة شرفهم واصالتهم والايذان بعدم الحاجة الى التصريح بجمع
غيرهم بناء على ظهور كونهم اتباعا لهم ولاظهار سقوط منزلتهم وعدم لياقتهم
بالانتظام في سلك جميع الرسل كيف لا وهم عليهم السلام يجمعون على وجه الاجلال
واولئك يسحبون على وجوههم بالاغلال فيقول لهم مشيرا الى خروجهم عن عهدة
الرسالة كما ينبغي حسبما يعرب عنه تخصيص السؤال بجواب الامم اعرابا واضحا ولا الصق
الخطاب بان يقال هل بلغتم رسالاتي وماذا في قوله تعالى عز وجل ماذا اجبتم عبارة
عن مصدر الفعل فهو نصب على المصدرية اى اى اجابة اجبتم من جهة اممكم
اجابة قبول واجابة رد وقيل عبارة عن الجواب فهو في محل النصب بعد حذف الجار
عنه اى باى جواب اجبتم وعلى التقديرين ففي توجيه السؤال عما صدر عنهم في
شهود الى الرسل عليهم السلام كسؤال الموؤدة بحضر من الوائد والعدول عن اسناد
الجواب اليهم بان يقال ماذا اجابوا من الابناء عن كمال تحقير شانهم وشدة الغيظ
والسخط عليهم ما لا يخفى قالوا استيناف مبني على سؤال نشأ من سوق الكلام كانه
قيل فماذا يقول الرسل عليهم السلام هنالك فقيل يقولون لا علم لنا وصيغة الماضي
للدلالة على التقرر والتحقق كما في قوله تعالى ونادى اصحاب الجنة ونادى اصحاب الاعراف
ونظايرهما وانما يقولون ذلك تفويضا للامر الى علمه تعالى واحاطته بما اعتراهم من
جهتهم من مقاساة الاهوال ومعاناة الهموم والاوجال وعرضا لعجزهم عن بيانه
لكثرته وفظاعته انك انت علام الغيوب تعليل لذلك اى فتعلم ما اجابوا واظهروا
لنا وما لم نعلمه مما اضمروه في قلوبهم وفيه اظهار للشكاة ورد للامر الى علمه تعالى بما لقوا
من قبلهم من الخطوب وكابدوا من الكروب والتجاء الى ربهم في الانتقام منهم وقيل
المعنى لا علم لنا بما احدثوا بعدنا وانما الحكم للخاتمة ورد ذلك بانهم يعرفونهم بسيماهم
فكيف يخفى عليهم امرهم وانت خبير بان مرادهم حينئذ ان بعضهم كانوا في زمانهم
على الحق ثم صاروا الكفرة وعن ابن عباس ومجاهد والسدي انهم يفزعون من اول الامر
يذهلون عن الجواب ثم يجيبون بعدما ثابت اليهم عقولهم بالشهادة على اممهم ولا يلائمه
التعليل المذكور وقيل المراد به المبالغة في تحقيق فضيحتهم وقرئ علام الغيوب
بالنصب على النداء او الاختصاص بالمدح على ان الكلام قد تم عند قوله انت اى انك انت
المنعوت بنعوت كمالك المعروف بذلك اذ قال الله يا عيسى ابن مريم شروع في بيان
ما جرى بينه تعالى وبين واحد من الرسل المجموعين من المفاوضة على التفصيل اثر بيان
ما جرى بينه تعالى وبين الكل على الاجمال ليكون ذلك كالانموذج لتفاصيل احوال الباقين وتخصيص
شان عيسى عليه السلام بالبيان تفصيلا من بين شؤون ساير الرسل عليهم السلام
مع دلالتهما على كمال هول ذلك اليوم ونهاية سوء حال المكذبين بالرسل لما ان شانه
عم متعلق بكلا الفريقين من اهل الكتاب الذين نعيت عليهم في السورة الكريمة جناياتهم
فتفصيله اعظم عليهم واجلب لحسرتهم وندامتهم وافت في اعضادهم وادخل
في صرفهم عن غيهم وعنادهم واذ بدل من يوم يجمع الله الخ وصيغة الماضي لما
ذكر من الدلالة على تحقق الوقوع واظهار الاسم الجليل في مقام الاضمار لما مر من
المبالغة في التهويل وكلمة على في قوله تعالى اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك متعلق
بنفس النعمة ان جعلت مصدرا اى اذكر انعامي عليكما او بمحذوف هو حال منها ان جعلت
اسما اى اذكر نعمتي كائنة عليكما وليس المراد بامره عليه السلام يومئذ بذكر النعم المنتظمة
في سلك التعديد تكليفه عليه السلام شكرها والقيام بمواجبها ولات حين تكليف
مع خروجه عليه السلام عن عهدة الشكر في اوانه اى خروج بل اظهار امره عليه السلام
بتعداد تلك النعم حسبما بينه الله سبحانه اعتدادا بها وتلذذا بذكرها على رؤوس الاشهاد
ليكون حكاية ذلك على ما بينه النظم الكريم توبيخا ومزجرة للكفرة المختلفين في
شانه عليه السلام افراطا وتفريطا وابطالا لقولهما جميعا اذ ايدتك ظرف لنعمتي
اى اذكر انعامي عليكما وقت تاييدي لك او حال منها اى اذكرها كائنة وقت تاييدي لك وقرئ

ايدتك

آيدتك والمعنى واحد اى قويتك بروح القدس بجبريل عليه السلام لتثبيت الحجة
او بالكلام الذي يحيى به الدين واضافته الى القدس لانه سبب الطهر عن اوضار الآثام او يحيى
به الموتى او النفوس حيوة ابدية وقيل الارواح مختلفة بالحقايق فمنها طاهرة نورانية
ومنها خبيثة ظلمانية ومنها مشرقة ومنها كدرة ومنها حرة ومنها نذلة وكان
روحه عليه السلام طاهرة مشرقة نورانية علوية وايا ما كان فهو نعمة عليها تكلم
الناس في المهد وكهلا استيناف مبين لتاييده عم او حال من الكاف وذكر تكليمه
عليه السلام في حال الكهولة لبيان ان كلامه عليه السلام في تينك الحالتين كان على نسق
واحد بديع صادرا عن كمال العقل مقارنا لرزانة الرأي والتدبير وبه استدل على انه
عليه السلام سينزل من السماء لما انه رفع قبل التكهل قال ابن عباس ارسله تعالى وهو ابن
ثلاثين سنة ومكث في رسالته ثلاثين شهرا ثم رفعه الله تعالى اليه واذ علمتك الكتاب عطف على
قوله تعالى اذ ايدتك منصوب بما نصبه اى اذكر نعمتي عليكما وقت تعليمي لك الكتاب والحكمة
اى جنسهما والتورية والانجيل خصا بالذكر مما تناوله الكتاب والحكمة اظهارا لشرفهما
وقيل الكتاب الخط والحكمة الكلام المحكم الصواب واذ تخلق من الطين كهيئة الطير
اى تصور منه هيئة مماثلة لهيئة الطير باذني بتسهيلي وتيسيري لا على ان يكون
الخلق صادرا عنه عليه السلام حقيقة بل على ان يظهر ذلك على يده عليه السلام عند مباشرة
الاسباب مع كون الخلق حقيقة لله تعالى كما ينبئ عنه قوله تعالى فتنفخ فيها اى في الهيئة
المصورة فتكون اى تلك الهيئة طيرا باذني فان اذنه تعالى لو لم يكن عبارة عن
تكوينه تعالى للطير بل عن محض تيسيره مع صدور الفعل حقيقة عما اسند اليه لكان هذا
تكونا من جهة الهيئة وتكرير قوله باذني في الطير مع كونه شيئا واحدا للتنبيه على ان
كلا من التصوير والنفخ امر معظم بديع لا يتسنى ولا يترتب عليه شيء الا باذنه تعالى
وتبرئ الاكمه والابرص باذني عطف على تخلق واذ تخرج الموتى باذني
عطف على اذ تخلق اعيد فيه اذ لكون اخراج الموتى من قبورهم لا سيما بعد ما صاروا
رميما معجزة باهرة ونعمة جليلة حقيقة بتذكير وقيل اخرج سام بن نوح
ورجلين وامراة وجارية وتكرير قوله باذني في المواضع الاربعة للاعتناء بتحقيق
الحق ببيان ان تلك الخوارق ليست من قبل عيسى بل من جهته سبحانه قد اظهرها على
يده معجزة له ونعمة خصها به واما ذكر في سورة آل عمران مرتين لما ان ذلك موضع
الاخبار وهذا موضع تعداد النعم واذ كففت بني اسرائيل عنك عطف على اذ تخرج
اى منعت اليهود الذين ارادوا بك السوء عن التعرض لك اذ جئتهم بالبينات اى
بالمعجزات الواضحة مما ذكر وما لم يذكر كالاخبار بما ياكلون وما يدخرون في بيوتهم
ونحو ذلك وهو ظرف لكففت لكن لا باعتبار المجيء لها فقط بل باعتبار ما يعقبه من قوله
تعالى فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين فان قولهم ذلك مما يدل
على انهم قصدوا اغتياله عليه السلام المحوج الى الكف اى كففتهم عنك حين قالوا
ذلك عند مجيئك اياهم بالبينات وانما وضع موضع ضميرهم الموصول لذمهم بما في
حيز الصلة وكلمة من بيانية وهذا اشارة الى ما جاء به والتذكير لان اشارتهم الى
ما راوه من نفس المسمى من حيث هو سحر لا او من حيث هو سحر لا من حيث هو مسمى بالبينات
وقرئ ان هذا الا ساحر مبين فهذا حينئذ اشارة الى عيسى عم واذ اوحيت
الى الحواريين عطف على ما قبله من اخواته الواقعة ظروفا للنعمة التي امر بذكرها
وهي ان كانت في الحقيقة عين ما يفيده الجمل التي اضيف لها تلك الظروف من التاييد
بروح القدس وتعليم الكتاب والحكمة وساير الخوارق المعدودة لكنها لمغايرتها
لها بعنوان منبئ عن غاية الاحسان امر بذكرها من تلك الحيثية وجعلت عاملة في
تلك الظروف لكفاية المغايرة الاعتبارية في تحقق ما اعتبر في مدلول كلمة اذ من
تعدد النسبة فانه ظرف موضوع لزمان نسبتين ماضيتين واقعتين فيه احداهما
معلومة الوقوع فيه للمخاطب دون الاخرى فيراد افادة وقوعها ايضا له فيضاف

الى الجملة المفيدة للنسبة الاولى ويجعل ظرفا معمولا للنسبة الثانية ثم قد تكون المغايرة بين
النسبتين بالذات كما فى قولك اذكر احسانى اليك اذ احسنت الى تريد تنبيه المخاطب على
وقوع احسانك اليه وقت وقوع احسانه اليك وهما نسبتان متغايرتان بالذات وقد
تكون بالاعتبار كما فى قولك اذكر احسانى اليك اذ منعتك من المعصية تريد تنبيهه على كون
منعه منها احسانا اليه لا على احسان آخر واقع حينئذ ومن هذا القبيل عامة ما وقع فى التنزيل
من قوله تعالى يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء وجعلكم ملوكا الاية وقوله تعالى
يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم ان يبسطوا اليكم ايديهم فكف ايديهم عنكم الى
غير ذلك من النظاير ومعنى ايحايه تعالى اليهم امره تعالى اياهم فى الانجيل على لسانه عليه السلام
وقيل الهامه تعالى اياهم كما فى قوله واوحينا الى ام موسى وان فى قوله تعالى ان آمنوا بى وبرسولى
مفسرة لما فى الايحاء من معنى القول وقيل مصدرية وايراده عليه السلام بعنوان الرسالة
للتنبيه على كيفية الايمان عليه السلام كانه قيل آمنوا بوحدانيتى فى الالوهية والربوبية و
برسالة رسولى ولا تزيلوه عن حيزه حطا ولا رفعا وقوله تعالى قالوا آمنا استيناف مبنى على سؤال
نشاء من سوق الكلام كانه قيل فماذا قالوا حين اوحى اليهم ذلك فقيل قالوا آمنا اى
بما ذكر من وحدانيته تعالى وبرسالة رسوله كما يؤذن به قولهم واشهد باننا مسلمون
اى مخلصون فى ايماننا من اسلم وجهه لله وهذا القول منهم بمقتضى وحيه تعالى وامره
لهم بذلك نعمة جليلة كساير النعم الفايضة عليه عليه السلام وكذلك نعمة على والدته
ايضا روى انه عليه السلام لما علم انه سيؤمر بذكر هاتيك النعم العظام جعل يلبس الشعر
وياكل الشجر ولا يدخر شيئا لغد يقول لكل يوم رزقه لم يكن له بيت فيخرب ولا ولد فيموت
اينما امسى بات اذ قال الحواريون كلام مستانف مسوق لبيان بعض ما جرى بينه عليه
السلام وبين قومه منقطع عما قبله كما ينبئ عنه الاظهار فى موقع الاضمار واذ منصوب
بمضمر خوطب به النبى عليه السلام بطريق تلوين الخطاب لكن لا لان الخطاب السابق لعيسى عليه السلام
فانه ليس بخطاب وانما هو حكاية خطاب بل لان الخطاب لمن خوطب بقوله تعالى واتقوا الله
الاية فتامل كانه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم عقيب حكاية ما صدر عن الحواريين من
المقالة المعدودة من نعم الله تعالى الفايضة على عيسى عليه السلام اذكر للناس وقت قولهم
الخ وقيل هو ظرف لقالوا اريد به التنبيه على ان ادعاءهم الايمان والاخلاص لم يكن عن تحقيق
وايقان ولا يساعده النظم الكريم يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة
من السماء اختلف فى انهم هل كانوا مؤمنين او لا فقيل كانوا كافرين شاكين فى قدرة الله
على ما ذكروا وفى صدق عيسى عليه السلام كاذبين فى دعوى الايمان والاخلاص وقيل
كانوا مؤمنين وسؤالهم للاطمينان والتثبت لا لازاحة الشك وهل يستطيع سؤال عن الفعل
دون القدرة عليه تعبيرا عنه بلازمه وقيل الاستطاعة على ما يقتضيه الحكمة والارادة
لا على ما يقتضيه القدرة وقيل المعنى هل يطيع ربك بمعنى هل يجيبك واستطاع بمعنى اطاع
كاستجاب بمعنى اجاب وقرئ هل تستطيع ربك اى سؤال ربك والمعنى هل تسأله ذلك
من غير صارف يصرفك عنه وهى قراءة على وعايشة وابن عباس ومعاذ رضى الله عنهم
وسعيد بن جبير فى آخرين والمائدة الخوان الذى عليه الطعام من ماده اذا اعطاه
ورفده كانها تميد من تقدم اليه ونظيره قولهم شجرة مطعمة وقال ابو عبيد هى
فاعلة بمعنى مفعولة كعيشة راضية قال استيناف مبنى على سؤال ناشئ مما قبله
كافة قيل فماذا قال لهم عيسى عليه السلام حين قالوا ذلك فقيل قال اتقوا الله
اى من امثال هذا السؤال ان كنتم مؤمنين اى بكمال قدرته تعالى وبصحة نبوتى او ان
صدقتم فى ادعاء الايمان والاسلام فان ذلك مما يوجب التقوى والاجتناب
عن امثال هذه الاقتراحات وقيل امرهم بالتقوى ليصير ذلك ذريعة لحصول المسؤل
كقوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب وقوله تعالى يا ايها
الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة قالوا استيناف كما سبق نريد ان
نأكل منها تمهيد عذر لما دعاهم الى السؤال اى لسنا نريد بالسؤال ازاحة شبهتنا فى قدرته سبحانه

على تنزيلها

على تنزيلها او فى صحة نبوتك حتى يقدح ذلك فى الايمان والتقوى بل نريد ان نأكل منها اى
اكل تبرك وقيل اكل حاجة وتمتع وتطمئن قلوبنا بكمال قدرته وان كنا مؤمنين به
به من قبل فان انضمام علم المشاهدة الى العلم الاستدلالى مما يوجب ازديادا
الطمانينة وقوة اليقين ونعلم اى علما يقينا لا يحوم حوله شايبة شبهة اصلا وقرئ
ليعلم على البناء للمفعول ان قد صدقتنا ان هى المخففة من ان وضمير الشان محذوف
اى ونعلم انه قد صدقتنا فى دعوى النبوة وان الله يجيب دعوتنا وان كنا عالمين بذلك
من قبل ونكون عليها من الشاهدين نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بنى
اسرايل ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمانينة ويقينا ويؤمن بسببها كفارهم
او من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر وعليها متعلق بالشاهدين ان جعل
اللام للتعريف وبيان لما يشهدون عليه ان جعلت موصولة كانه قيل على اى شئ
يشهدون فقيل عليها فان ما يتعلق بالصلة لا يتقدم على الموصول او هو حال من
اسم كان او هو متعلق بمحذوف يفسره من الشاهدين قال عيسى ابن مريم لما راى
عليه السلام ان لهم غرضا صحيحا فى ذلك وانهم لا يقلعون عنه ازمع على الدعاء بها
واستنزالها واراد ان يلزمهم الحجة بكمالها روى انه عليه السلام اغتسل ولبس
المسح وصلى ركعتين فطاطا راسه وغض بصره ثم قال اللهم ربنا ناداه سبحانه
وتعالى مرتين مرة بوصف الالوهية الجامعة لجميع الكمالات ومرة بوصف الربوبية
المنبئة عن التربية اظهارا لغاية التضرع ومبالغة فى الاستدعاء انزل علينا تقديم
الظرف على قوله تعالى مائدة لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر وقوله
تعالى من السماء متعلق بانزل او بمحذوف هو صفة لمائدة اى كاينة من السماء نازلة منها
وقوله تعالى تكون لنا عيدا فى محل النصب على انه صفة لمائدة واسم تكون ضمير المائدة
وخبرها اما عيدا ولنا حال منه او من ضمير يكون عند من يجوز اعمالها فى الحال واما
لنا وعيدا حال من الضمير فى لنا لانه وقع خبرا فيحمل ضميرا او من ضمير تكون عند من
يرى ذلك اى يكون يوم نزولها عيدا نعظمه وانما اسند ذلك الى المائدة لان شرف اليوم
مستعار من شرفها وقيل العيد السرور العايد ولذلك سمى يوم العيد عيدا وقرئ تكن
بالجزم على جواب الامر كما فى قوله تعالى فهب لى من لدنك وليا يرثنى خلا ان قراءة الجزم
هناك متواترة وههنا من الشواذ لاولنا وآخرنا بدل من لنا باعادة العامل اى عيدا
لمتقدمينا ومتاخرينا روى انها نزلت يوم الاحد ولذلك اتخذه النصارى عيدا
وقيل للرؤساء منا والاتباع وقيل ياكل منها اولنا وآخرنا وقرئ لاولانا واخرانا
بمعنى الامة والطايفة وآية عطف على عيدا منك متعلق بمحذوف هو صفة
لآية اى كاينة منك دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتى وارزقنا اى المائدة او
والشكر عليها وانت خير الرازقين تذييل جار مجرى التعليل اى خير من يرزق
لانه خالق الارزاق ومعطيها بلا عوض وفى اقباله عليه السلام على الدعاء بتكرير النداء
المنبئ عن كمال الضراعة والابتهال وزيادته ما لم يخطر ببال السايلين من الامور الداعية
الى الاجابة والقبول دلالة واضحة على انهم كانوا مؤمنين وان سؤالهم كان لتحصيل
الطمانينة كما فى قول ابراهيم رب ارنى كيف تحيى الموتى والا لما قبل اعتذارهم بما
ذكروه ولما اضاف اليه من عنده ما يؤكده ويقربه الى القبول قال الله استيناف كما سلف
انى منزلها عليكم ورود الاجابة منه تعالى بصيغة التفعيل المنبئة عن التكثير
مع كون الدعاء عليه السلام بصيغة الافعال لاظهار كمال اللطف والاحسان كما فى قوله
تعالى قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب الخ بعد قوله تعالى لئن انجانا من هذه الخ مع ما فيه
من مراعاة ما وقع فى عبارة السايلين وفى تصدير الجملة بكلمة التحقيق وجعل خبرها
اسما تحقيق للوعد وايذان بانه عز وجل منجزه لا محالة من غير صارف يثنيه
ولا مانع يلويه واشعار بالاستمرار اى انى منزل المائدة عليكم قراءة كثيرة وقرئ
بالتخفيف وقيل الانزال والتنزيل بمعنى واحد فمن يكفر بعد اى بعد تنزيلها منكم

متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يكفر فانى اعذبه بسبب كفره بعد معاينة هذه الآية الباهرة عذابا اسم مصدر بمعنى التعذيب وقيل مصدر بحذف الزوائد وانتصابه على المصدرية بالتقديرين المذكورين وجوز ان يكون مفعولا به على الاتساع لا اعذبه فى محل النصب على انه صفة لعذابا والضمير له اى اعذب به تعذيبا لا اعذب مثل ذلك التعذيب احدا من العالمين اى من عالمى زمانهم او من العالمين جميعا قيل لما سمعوا هذا الوعيد الشديد خافوا ان يكفر بعضهم فاستعفوا وقالوا لا نريدها فلم ينزل قال مجاهد والحسن والذى عليه جماهير الامة ومشاهير الائمة انها قد نزلت روى انه عليه السلام لما دعا بما دعا واجيب بما اجيب اذا بسفرة حمراء نزلت بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون اليها حتى سقطت بين ايديهم فبكى عيسى عليه السلام وقال اللهم اجعلنى من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة للعالمين ولا تجعلها مثلة وعقوبة ثم قام وتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل وقال بسم الله خير الرازقين فاذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل دسما وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من الوان البقول ما خلا الكراث واذا خمسة ارغفة على واحد منها زيتون وعلى الثانى عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون رأس الحواريين يا روح الله امن طعام الدنيا ام من طعام الآخرة قال ليس منهما ولكنه شئ اخترعه الله تعالى بالقدرة العالية كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله فقالوا يا روح الله لو اريتنا من هذه الآية آية اخرى فقال يا سمكة احيى باذن الله تعالى فاضطربت ثم قال لها عودى كما كنت فعادت مشوية ثم طارت المائدة ثم عصوا فمسخوا قردة وخنازير وقيل كانت تأتيهم اربعين يوما غبا يجتمع عليه الفقراء والاغنياء والصغار والكبار يأكلون حتى اذا فاء الفئ طارت وهم ينظرون فى ظلها ولم يأكل منها فقير الا غنى مدة عمره ولا مريض الا برئ ولم يمرض ابدا ثم اوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام ان اجعل مائدتى فى الفقراء والمرضى دون الاغنياء والاصحاء فاضطرب الناس لذلك فمسخ منهم من مسخ فاصبحوا خنازير يسعون فى الطرقات والكناسات ويأكلون العذرة فى الحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعوا الى عيسى عليه السلام وبكوا على الممسوخين فلما ابصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به عليه السلام وجعل يدعوهم باسمائهم واحدا بعد واحد فيبكون ويشيرون برؤسهم ولا يقدرون على الكلام فعاشوا ثلاثة ايام ثم هلكوا وروى عن ابن عباس ان عيسى عليه السلام قال لهم صوموا ثلاثين يوما ثم سلوا الله ما شئتم يعطكم فصاموا فلما فرغوا قالوا انا لو عملنا لاحد فقضينا عمله لاطعمنا وسألوا الله تعالى المائدة فاقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة ارغفة وسبعة احوات حتى وضعوها بين ايديهم فاكل منها آخر الناس كما اكل اولهم قال كعب نزلت منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والارض عليها كل الطعام الا اللحم وقال قتادة كان ثمر عليها من ثمار الجنة وقال عطية العوفى نزلت من السماء سمكة فيها طعم كل شئ وقال الكلبى ومقاتل نزلت سمكة وخمسة ارغفة فاكلوا ما شاء الله والناس الف ونيف فلما رجعوا الى قراهم ونشروا الحديث ضحك منهم من لم يشهد وقالوا ويحكم انما سحر اعينكم فمن اراد الله به الخير ثبته على بصيرة ومن اراد فتنته رجع الى كفره فمسخوا خنازير فمكثوا بذلك ثلاثة ايام ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا وكذلك كل ممسوخ واذ قال الله يا عيسى ابن مريم معطوف على اذ قال الحواريون منصوب بما نصبه من المضمر المخاطب به النبى صلى الله عليه وسلم او بمضمر مستقل معطوف على ذلك اى اذكر للناس وقت قول الله عز وجل له عليه السلام فى الآخرة توبيخا للكفرة وتبكيتا لهم باقراره عليه السلام على رؤس الاشهاد بالعبودية وامره لهم بعبادته عز وجل وصيغة الماضى لما مر من الدلالة على التحقق والوقوع انت قلت للناس اتخذونى وامى الهين الاتخاذ اما متعد الى مفعولين فالهين ثانيهما

واما الى واحد فهو حال من المفعول وليس مدار اصل الكلام ان القول متيقن والاستفهام لتعيين القائل كما هو المتبادر من ايلاء الهمزة المبتدأ على الاستعمال الفاشى وعليه قوله تعالى أانت فعلت هذا بآلهتنا ونظائره بل على ان المتيقن هو الاتخاذ والاستفهام لتعيين انه بامره عليه السلام ام من تلقاء انفسهم كما فى قوله أانتم اضللتم عبادى هؤلاء ام هم ضلوا السبيل وقوله تعالى من دون الله متعلق بالاتخاذ ومحله النصب على انه حال من فاعله اى متجاوزين الله او بمحذوف هو صفة لالهين اى كائنين من دونه تعالى وايا ما كان فالمراد اتخاذهما بطريق اشراكهما به سبحانه كما فى قوله تعالى ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا وقوله عز وجل ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله الى قوله سبحانه وتعالى عما يشركون اذ به يتأتى التوبيخ ويتسنى التقريع والتبكيت ومن توهم ان ذلك بطريق الاستقلال ثم اعتذر عنه بان النصارى يعتقدون ان المعجزات التى ظهرت على يدى عيسى ومريم لم يخلقها الله تعالى بل هما خلقاها فصح انهم اتخذوهما فى حق بعض الاشياء الهين مستقلين ولم يتخذوه تعالى الها فى حق ذلك البعض فقد ابعد عن الحق بمراحل واما من توهم فقال ان عبادته تعالى مع عبادة غيره كلا عبادة فمن عبده تعالى مع عبادتهما كانه عبدهما ولم يعبده تعالى فقد غفل عما يجديه واشتغل بما لا يعنيه كدأب من قبله فان توبيخهم انما يحصل بما يعتقدونه ويعترفون به صريحا لا بما يلزمه بضرب من التأويل واظهار الاسم الجليل لكونه فى حيز القول المسند الى عيسى عليه السلام قال استئناف مبنى على سؤال ينشأ من صدر الكلام كانه قيل فماذا يقول عيسى عليه السلام حينئذ فقيل يقول وايثار صيغة الماضى لما مر مرارا سبحانك سبحان علم للتسبيح وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه وفيه من المبالغة فى التنزيه من حيث الاشتقاق من السبح الذى هو الذهاب والابعاد فى الارض ومن جهة النقل الى صيغة التفعيل ومن جهة العدول من المصدر الى الاسم الموضوع له خاصة المشير الى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة اقامته مقام المصدر مع الفعل ما لا يخفى اى انزهك تنزيها لائقا بك من ان اقول ذلك او من ان يقال فى حقك ذلك واما تقدير من ان يكون لك شريك فى الالوهية فلا يساعده سياق النظم الكريم وسياقه وقوله تعالى ما يكون لى ان اقول ما ليس لى بحق استئناف مقرر للتنزيه ومبين للمنزه منه وما عبارة عن القول المذكور اى ما يستقيم وما ينبغى لى ان اقول قولا لا يحق لى ان اقوله وايثار ليس على الفعل المنفى لظهور دلالته على استمرار انتفاء الحقيقة وافادة التأكيد بما فى حيزه من الباء فان اسمه ضمير العائد الى ما وخبره بحق والجار والمجرور فيما بينهما للتبيين كما فى سقيا لك ونحوه قوله تعالى ان كنت قلته فقد علمته استئناف مقرر لعدم صدور القول المذكور عنه عليه السلام بالطريق البرهانى فان صدوره عنه مستلزم لعلمه تعالى به قطعا فحيث انتفى علمه تعالى به انتفى صدوره عنه حتما ضرورة ان عدم اللازم مستلزم لعدم الملزوم تعلم ما فى نفسى استئناف جار مجرى التعليل لما قبله كانه قيل لانك تعلم ما اخفيته فكيف بما اعلنته وقوله تعالى ولا اعلم ما فى نفسك بيان للواقع واظهار لقصوره اى ولا اعلم ما تخفيه من معلوماتك وقوله تعالى فى نفسك للمشاكلة وقيل المراد بالنفس هو الذات ونسبة المعلومات اليها لما انها مرجع الصفات التى من جملتها العلم المتعلق بها فلم يكن كنسبتها الى الحقيقة وقوله تعالى انك انت علام الغيوب تعليل لمضمون الجملتين منطوقا ومفهوما وقوله عز وجل ما قلت لهم الا ما امرتنى به استئناف مسوق لبيان ما صدر عنه قد ادرج فيه عدم صدور القول المذكور عنه على ابلغ وجه واكده حيث حكم بانتفاء صدور جميع الاقوال المغايرة للمأمور به فدخل فيه انتفاء صدور القول المذكور دخولا اوليا اى ما امرتهم الا بما امرتنى به وانما قيل ما قلت لهم نزولا على قضية حسن الادب ومراعاة لما ورد فى الاستفهام وقوله تعالى ان اعبدوا الله ربى وربكم تفسير للمأمور به وقيل عطف بيان للضمير

في به وقيل بدل منه وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل منه مطلقا ليلزم بقاء الموصول بلا عائد وقيل خبر مضمر او مفعوله مثل هو او اعني وكنت عليهم شهيدا رقيبا اراعي اموالهم واحملهم على العمل بموجب امرك وامنعهم من المخالفة او مشاهدا لاحوالهم من كفر وايمان مادمت فيهم ما مصدرية ظرفية تقدر بمصدر مضاف اليه زمان ودمت صلتها اى كنت شهيدا عليهم مدة دوامي فيما بينهم فلما توفيتني بالرفع الى السماء كما في قوله تعالى اني متوفيك ورافعك الي فان التوفي اخذ الشيء وافيا والموت نوع منه قال تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها كنت انت الرقيب عليهم لا غيرك فانت ضمير الفصل او تاكيد وقرئ الرقيب بالرفع على انه خبر انت والجملة خبر لكان وعليهم متعلق به اى انت كنت الحافظ لاعمالهم والمراقب فمنعت من اردت عصمته من المخالفة بالاشارة الى الدلايل والتنبيه اليها بارسال الرسول وانزال الايات وخذلت من خذلت من الضالين فقالوا ما قالوا وانت على كل شيء شهيد اعتراض تذييلي مقرر لما قبله وفيه ايذان بانه تعالى كان هو الشهيد على الكل حين كونه عليه السلام فيما بينهم وعلى متعلقة بشهيد والتقديم لمراعاة الفاصلة ان تعذبهم فانهم عبادك وقد استحقوا ذلك حيث عبدوا غيرك وان تغفر لهم فانك انت العزيز اى القوي القادر على جميع المقدورات ومن جملتها الثواب والعقاب الحكيم الذي لا يريد ولا يفعل الا ما فيه حكمة ومصلحة فان المغفرة مستحسنة لكل مجرم فان عذبت فعدل وان غفرت ففضل وعدم غفران المشرك انما هو بمقتضى الوعيد فلا امتناع فيه لذاته ليمنع الترديد وقيل الترديد بالنسبة الى فرقتين والمعنى ان تعذبهم اى من كفر منهم وان تغفر لهم اى من آمن منهم قال الله كلام مستانف ختم به حكاية ما حكى مما يقع يوم يجمع الرسل عليهم السلام واشير الى نتيجته وماله اى يقول الله تعالى يومئذ عقيب جواب عيسى عليه السلام مشيرا الى صدقه في ضمن بيان حال الصادقين الذين هو في زمرتهم وصيغة الماضي لما مر في نظايره مرارا وقوله تعالى هذا اشارة الى ذلك اليوم وهو مبتدا خبره ما بعده اى هذا اليوم الذي حكى بعض ما يقع فيه اجمالا وبعضه تفصيلا يوم ينفع الصادقين قيل بالرفع والاضافة والمراد بالصادقين كما ينبئ عنه الاسم المستمرون في الدارين في الامور الدينية التي معظمها التوحيد الذي نحن بصدده والشرايع والاحكام المتعلقة به من الرسل الناطقين بالحق والصدق الداعين الى ذلك وبه يحصل الشهادة بصدق عيسى عليه السلام ومن الامم المصدقين لهم المقتدين بهم عقدا وعملا وبه يتحقق المقصود بالحكاية من ترغيب السامعين في الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم لا كل من صدق في اى شيء كان ضرورة ان الجاني المعترف في الدنيا بجنايته لا ينفعه يومئذ اعترافه وصدقه صدقهم اى صدقهم فيما ذكر من امور الدين في الدنيا اذ هو المستتبع للنفع يومئذ واعتبار استمراره في الدارين مع انه لا حاجة اليه كما عرفت ولا دخل له في استتباع النفع والجزاء مما لا وجه له وهذه القراة هي التي اطبق عليها الجمهور وهو الاليق بسياق النظم الكريم وسياقه وقرئ يوم بالنصب اما على انه ظرف لقال فهذا حينئذ اشارة الى قوله تعالى انت قلت الى واما على انه خبر لهذا فهو حينئذ اشارة الى جواب عيسى عليه السلام اى هذا الجواب منه عليه السلام واقع يوم ينفع الى او الى السؤال والجواب معا وقيل هو خبر ولكنه بني على الفتح وليس بصحيح عند البصريين لانه مضاف الى متمكن وقرئ يوم بالرفع والتنوين كقوله واتقوا يوما لا تجزى الاية لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ابدا استيناف مسوق لبيان النفع المذكور كانه قيل ما لهم من النفع فقيل لهم نعيم دايم وثواب خالد وقوله تعالى رضي الله عنهم استيناف آخر لبيان انه عز وجل افاض عليهم غير ما ذكر من الجنات ما لا قدر لها عنده وهو رضوانه الذي لا غاية وراءه كما ينبئ عنه قوله تعالى ورضوا عنه اذ لا شيء اعز منه حتى يمتد اليه اعناق الهمم ذلك اشارة الى نيل رضوانه تعالى وقيل الى نيل الكل الفوز العظيم لما ان عظم شان الفوز تابع لعظم

شان المطلوب الذي تعلق به الفوز وقد عرفت ان لا مطلب وراء ذلك اصلا وقوله تعالى لله ملك السموات والارض وما فيهن تحقيق للحق وتنبيه على كذب النصارى وفساد ما زعموا في حق المسيح وامه اى له تعالى خاصة ملك السموات والارض وما فيهما من العقلاء وغيرهم يتصرف فيها كيف يشاء ايجادا واعداما واحياء واماتة وامرا ونهيا من غير ان يكون لشيء من الاشياء مدخل في ذلك وفي ايثار ما على من المختصة بالعقلاء على تقدير تناولها للكل مراعاة للاصل واشارة الى تساوي الفريقين في استحالة الربوبية حسب تساويهما في تحقق المربوبية وعلى تقدير اختصاصها بغير العقلاء تنبيه على كمال قصورهم عن رتبة الالوهية واهانة بهم بتغليب غيرهم عليهم وهو على كل شيء من الاشياء قدير مبالغ في القدرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرا من سورة المائدة اعطي من الاجر عشر حسنات ومحي عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودي ونصراني يتنفس في الدنيا سورة الانعام نزلت جملة واحدة يشيعها سبعون الف ملك الى مكة الا ست ايات وما قدروا الله الى وهي مائة وسبع وستون اية في الحرمي وست في الشامي والبصري وخمس في الكوفي الحمد لله تعليق الحمد المعرف بلام الحقيقة اولا باسم الذات الذي عليه يدور كافة ما يوجبه من صفات الكمال واليه يؤول جميع نعوت الجلال والجمال للايذان بانه عز وجل هو المستحق له بذاته لما مر من اقتضاء اختصاص الحقيقة به سبحانه لاقتصار جميع افرادها عليه بالطريق البرهاني ووصفه تعالى ثانيا بما ينبئ عن تفصيل بعض موجباته المنتظمة في سلك الاجمال من عظايم الاثار وجلايل الافعال من قوله عز وجل الذي خلق السموات والارض للتنبيه على استحقاقه تعالى واستقلاله به باعتبار افعاله العظام والائه الجسام ايضا وتخصيص خلقهما بالذكر لاشتمالهما على جملة الاثار العلوية والسفلية وعامة الالاء الجلية والخفية التي اجلها نعمة الوجود الكافية في ايجاب حمده تعالى على كل موجود فكيف بما يتفرع عليها من فنون النعم الانفسية والافاقية المنوطة بها مصالح العباد في المعاش والمعاد اى انشاهما على ما هما عليه من النمط الفايق والطراز الرائق منطويتين من البدايع واصناف الروايع على ما يتحير فيه العقول والافكار من تعاجيب العبر والاثار تبصرة وذكرى لاولى الابصار وجمع السموات لظهور تعدد طبقاتها واختلاف اثارها وحركاتها وتقديمها لشرفها وعلو مكانها وتقدمها وجودا على الارض كما هي وجعل الظلمات والنور عطف على خلق مترتب عليه لكون جعلهما مسوقا بخلق منشاهما ومحلهما داخل معه في حكم الاشعار بعلة الحمد فكما ان خلق السموات والارض وما فيهما لكونه اثرا عظيما ونعمة جليلة موجب لاختصاص الحمد بخالقهما جل وعلا كذلك جعل الظلمات والنور لكونه امرا خطيرا ونعمة عظيمة مقتض لاختصاصه بجاعلهما والجعل هو الانشاء والابداع كالخلق خلا ان ذلك مختص بالانشاء التكويني وفيه معنى التقدير والتسوية وهذا عام له كما في الاية الكريمة وللتشريعي ايضا كما في قوله تعالى ما جعل الله من بحيرة الاية وايا ما كان ففيه انباء عن ملابسة مفعوله بشيء آخر بان يكون فيه اوله او منه او نحو ذلك ملابسة مصححة لان يتوسط بينهما شيء من الظروف لغوا كان او مستقرا لكن لا على ان يكون عمدة في الكلام بل قيدا فيه كما في قوله عز وعلا وجعل بينهما برزخا وقوله تعالى وجعل فيها رواسي وقوله تعالى واجعل لنا من لدنك وليا الى الاية فان كل واحد من هذه الظروف اما متعلق بنفس جعل او بمحذوف وقع حالا من مفعوله تقدمت عليه لكونه نكرة وايا ما كان فهو قيد في الكلام حتى اذا اقتضى الحال وقوعه عمدة فيه يكون الجعل متعديا الى اثنين هو ثانيهما كما في قوله تعالى يجعلون اصابعهم في اذانهم وربما يشتبه الامر فيظن انه عمدة فيه وهو في الحقيقة قيد باحد الوجهين كما سلف في قوله تعالى اني جاعل في الارض خليفة حيث ان الظرف مفعول ثان لجاعل وقد اشير هناك الى ان الذي يقتضيه الذوق السليم ويقتضيه جزالة النظم الكريم انه متعلق بجاعل او بمحذوف وقع حالا من المفعول وان

المفعول الثاني هو خليفة والاول محذوف على مامرّ تفصيله وجمع الظلمات
لظهور كثرة اسبابها ومحالّها عند الناس ومشاهدتهم لها على التفصيل وتقديمها
على النور لتقدّم الاعدام على الملكات مع ما فيه من رعاية حسن المقابلة بين القرينتين
وقوله تعالى ثم الذين كفروا بربهم يعدلون معطوف على الجملة السابقة الناطقة
بما مرّ من موجبات اختصاصه تعالى بالحمد المستدعي لاقتصار العبادة كما حقق
في تفسير الفاتحة الكريمة مسوق لانكار ما عليه الكفرة واستبعاده من مخالفتهم
لمضمونها واجترائهم على ما يقضي ببطلانه بديهة العقول والمعنى انه تعالى مختص
باستحقاق الحمد والعبادة باعتبار ذاته وباعتبار ما فصّل من شؤونه العظيمة
الخاصّة به الموجبة لقصر الحمد والعبادة عليه ثم هؤلاء الكفرة لا يعملون بموجبه و
يعدلون به سبحانه اى يسوّون به غيره في العبادة التي هي اقصى غايات الشكر الذي رأسه الحمد
مع كون كلّ ما سواه مخلوقا له غير متصف بشئ من مبادي الحمد وكلمة ثم لاستبعاد الشرك بعد وضوح
ما ذكر من الآيات التكوينية القاضية ببطلانه لا لبيان بيانه بالآيات التنزيلية
والموصول عبارة عن طائفة الكفّار جار مجرى الاسم لهم من غير ان يجعل كفرهم بما
يجب ان يؤمن به كلا او بعضا عنوانا للموضوع فان ذلك مخلّ باستبعاد ما اسند اليهم
من الاشراك والباء متعلق بيعدلون ووضع الربّ موضع ضميره تعالى لزيادة التشنيع
والتقبيح والتقديم لمزيد الاهتمام والمسارعة الى تحقيق مدار الانكار والاستبعاد
والمحافظة على الفواصل وترك المفعول لظهوره او لتوجيه الانكار الى نفس الفعل بتنزيله
منزلة اللازم ايذانا بانه المدار في الاستبعاد والاستنكار لا خصوصية المفعول
هذا هو الحقيق بجزالة التنزيل والخليق بفخامة شأنه الجليل واما جعل الباء صلة
لكفروا على ان يعدلون من العدول والمعنى ان الله تعالى حقيق بالحمد على ما خلقه نعمة
على العباد ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته فيرده ان كفرهم به تعالى لا سيما
باعتبار ربوبيته تعالى لهم اشدّ شناعة واعظم جناية من عدولهم عن حمده عزّ و
جلّ لتحققه مع اغفاله ايضا فجعل اهون الشرّين عمدة في الكلام مقصودا افادته واخراج
اعظمهما مخرج القيد المفروغ عنه مما لا عهد له في الكلام السديد فكيف بالنظم
التنزيلي هذا وقد قيل انه معطوف على خلق السموات والمعنى انه خلق ما خلق مما
لا يقدر عليه احد سواه ثم هم يعدلون به سبحانه ما لا يقدر على شئ منه لكن لا
على قصد انه صلة مستقلة ليكون بمنزلة ان يقال الحمد لله الذي عدلوا به بل على انه
داخل تحت الصلة بحيث يكون الكل صلة واحدة كانه قيل الحمد لله الذي كان منه
تلك النعم العظام ثم من الكفرة الكفر وانت خبير بان ما ينتظم في سلك الصلة
المنبئة عن موجبات حمده عزّ وجلّ حقه ان يكون له دخل في ذلك الانباء ولو
في الجملة ولا ريب في ان كفرهم بمعزل منه وادّعاء ان له دخلا فيه لدلالته على كمال
الجود كانه قيل الحمد لله الذي انعم بمثل هذه النعم العظام على من لا يحمده تعسف لا يساعده
النظام وتعكيس يأباه المقام كيف لا ومساق النظم الكريم كما يفصح عنه الآيات
الآتية تشنيع الكفرة وتوبيخهم ببيان غاية اسائتهم مع نهاية احسانه تعالى
اليهم لا ببيان نهاية احسانه تعالى اليهم مع غاية اسائتهم في حقه تعالى كما يقتضيه
الادّعاء المذكور وبهذا اتضح انه لا سبيل الى جعل المعطوف من روادف المعطوف
عليه لما ان حق الصلة ان تكون غير مقصودة الافادة فما ظنك بما هو من روادفها
وقد عرفت ان المعطوف هو الذي سيق له الكلام فتامّل وكن على الحق المبين هو
الذي خلقكم من طين ثم استيناف مسوق لبيان بطلان كفرهم بالبعث مع مشاهدتهم
لما يوجب الايمان به اثر بيان بطلان اشراكهم به تعالى مع معاينتهم لموجبات توحيده
وتخصيص خلقهم بالذكر من بين سائر دلائل صحة البعث مع ان ما ذكر من خلق
السموات والارض من اوضحها كما ورد في قوله تعالى او ليس الذي خلق السموات
والارض بقادر على ان يخلق مثلهم لما ان محل النزاع بعثهم فدلالة بدء خلقهم

على ذلك

على ذلك اظهر وهم بشؤون انفسهم اعرف والتعامي عن الحجة النيرة اقبح والالتفات لمزيد
التشنيع والتوبيخ اى ابتدأ خلقكم منه فانه المادة الاولى للكل لما انه منشأ آدم الذي هو اصل
البشر وانما نسب هذا الخلق الى المخاطبين لا الى آدم عليه السلام وهو المخلوق منه بان يقال هو الذي
خلق اباكم الخ مع كفاية علمهم بخلقه عليه السلام منه في ايجاب الايمان بالبعث وبطلان
الامتراء لتوضيح منهاج القياس وللمبالغة في ازاحة الاشتباه والالتباس مع ما فيه
من تحقيق الحق والتنبيه على حكمة خفية هي ان كلّ فرد من افراد البشر له حظ من انشائه
عليه السلام منه حيث لم يكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه بل كانت انموذجا
منطويا على فطرة سائر آحاد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان
خلقه عم من الطين خلقا للكل احد من فروعه منه ولما كان خلقه عليه السلام على
هذا النمط الساري الى جميع افراد ذريته ابدع من ان يكون ذلك مقصورا على نفسه
كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور اليه وادل على عظم قدرة الخلاق العليم وكمال
علمه وحكمته وكان ابتداء حال المخاطبين اولى ان يكون معيارا لانتهائها فعل ما فعل
ولله درّ شأن التنزيل وعلى هذا سرّ مدار قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم الخ وقوله
تعالى وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا كما سيأتي وقيل المعنى خلق اباكم منه على حذف المضاف
وقيل معنى خلقهم منه خلقهم من النطفة الحاصلة من الاغذية المتكونة من الارض
واياما كان ففيه من وضوح الدلالة على كمال قدرته تعالى على البعث ما لا يخفى فان من
قدر على احياء ما لم يشم رائحة الحيوة قط كان على احياء ما قارنها مدة اظهر قدرة ثم
قضى اى كتب لموت كلّ واحد منكم اجلا خاصا به اى حدا معيّنا من الزمان يفنى عند
حلوله لا محالة وكلمة ثم للايذان بتفاوت ما بين خلقهم وبين تقدير آجالهم حسبما
يقتضيه الحكم البالغة واجل مسمّى اى حدّ معيّن لبعثكم جميعا وهو مبتدأ لتخصصه بالصفة
كما في قوله تعالى ولعبد مؤمن ولوقوعه في موقع التفصيل كما في قول من قال اذا ما
بكى من خلفها انصرفت له بشق وشق عندنا لم يحول وتنوينه لتفخيم شأنه وتهويل امره
ولذلك اوثر تقديمه على الخبر الذي هو عنده مع ان الشائع المستفيض هو التأخير
كما في قولك عندي كلام حق ولي كتاب نفيس كانه قيل واي اجل مسمّى ثبت معيّن في علمه لا يتغير
ولا يقف على وقت حلوله احد لا مجملا ولا مفصلا واما اجل الموت فمعلوم اجمالا وتقريبا بناء
على ظهور اماراته او على ما هو المعتاد في اعمار الانسان وتسميته اجلا انما هي باعتبار كونه
غاية لمدة لبثهم في القبور لا باعتبار كونه مبدأ لمدة القيمة كما ان مدار التسمية في الاجل
الاول هو كونه آخر مدة الحيوة لا كونه اول مدة الممات لان الاجل في اللغة عبارة عن آخر
المدة لا عن اولها وقيل الاجل الاول ما بين الخلق والموت والثاني ما بين الموت والبعث
من البرزخ فان الاجل كما يطلق على كلها وهو الاوفق لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ان
الله تعالى قضى لكل احد اجلين اجلا من مولده الى موته واجلا من موته الى مبعثه فان
كان برا تقيا وصولا للرحم زيد له من اجل البعث في اجل العمر وان كان فاجرا قاطعا
نقص من اجل العمر وزيد في اجل البعث وذلك قوله تعالى وما يعمر من معمر ولا ينقص
من عمره الا في كتاب فمعنى عدم تغير الاجل حينئذ عدم تغيّر آخره والاول هو الاشهر
الاليق بتفخيم الاجل الثاني المنوط باختصاصه بعلمه تعالى والانسب بتهويله المبني على
مقارنته للطامة الكبرى فان كون بعضه معلوما للخلق ومضيه من غير ان يقع فيه
شئ من الدواهي كما يستلزمه الحمل على المعنى الثاني مخل بذلك قطعا ومعنى زيادة الاجل
ونقصه فيما روي تأخير الاجل الاول وتقديمه ثم انتم تمترون استبعاد واستنكار
لامترائهم في البعث بعد معاينتهم لما ذكر من الحجج الباهرة الدالة عليه اى تمترون
في وقوعه وتحققه في نفسه مع مشاهدتكم في انفسكم من الشواهد ما
يقطع مادة الامتراء بالكلية فان من قدر على افاضة الحيوة وما يتفرع عليها من
العلم والقدرة وسائر الكمالات البشرية على مادة غير مستعدة لشئ منها اصلا كان
اوضح اقتدارا على افاضتها على مادة قد استعدت لها وقارنتها مدة ومن ههنا

على آخر المدة يطلق ح

الاجل صح

تبين ان ما قيل من ان الاول هو النوم والثاني هو الموت او ان الاجل اجل الماضين
والثاني اجل الباقين او ان الاول مقدار ما مضى من عمر كل احد والثاني مقدار ما بقي
منه مما لا وجه له اصلا لما رايت من ان مساق النظم الكريم استبعاد امترائهم في
البعث الذي عبر عن وقته بالاجل المسمى فحيث اريد به احد ما ذكر من الامور الثلاثة
ففي اي شيء يمترون ووصفهم بالامتراء الذي هو الشك وتوجيه الاستبعاد اليه
مع انهم جازمون بانتفاء البعث مصرون على انكاره كما ينبئ عنه قولهم ائذا متنا وكنا
ترابا وعظاما ائنا لمبعوثون ونظائره للدلالة على ان جزمهم المذكور في اقصى مراتب
الاستبعاد والاستنكار وقوله تعالى وهو الله جملة من مبتدأ وخبر معطوفة على ما قبلها
مسوقة لبيان شمول احكام الهيته تعالى لجميع المخلوقات واحاطة علمه بتفاصيل احوال
العباد واعمالهم المؤدية الى الجزاء اثر الاشارة الى تحقق المعاد في تضاعيف بيان
كيفية خلقهم وتقدير اجالهم وقوله تعالى في السموات وفي الارض متعلق بالمعنى
الوصفي الذي ينبئ عنه الاسم الجليل اما باعتبار اصل اشتقاقه وكونه علما للمعبود
بالحق كانه قيل وهو المعبود فيهما واما باعتبار انه اسم اشتهر بما اشتهر به الذات من صفات
الكمال فلوحظ معه منها ما يقتضيه المقام من المالكية والتصرف الكامل حسبما
يقتضيه المشيئة المبنية على الحكم البالغة فعلق به الظرف من تلك الحيثية فصار
كانه قيل وهو المالك او المتصرف المدبر فيهما كما في قوله تعالى وهو الذي في السماء
اله وفي الارض اله وليس المراد بما ذكر من الاعتبارين ان الاسم الجليل يحمل على معناه
اللغوي او على معنى المالك او المتصرف او نحو ذلك بل مجرد ملاحظة احد المعاني المذكورة
في ضمنه كما لوحظ مع اسم الاسد في قوله اسد علي الخ ما اشتهر به من وصف الجراءة التي
اشتهر بها مسماه فجرى مجرى جريء علي وبهذا تبين ان ما قيل بصدد التصوير والتفسير
اي هو المعروف بذلك في السموات وفي الارض او هو المعروف المشتهر بالصفات
الكمالية او هو المعروف بالالهية فيهما او نحو ذلك بمعزل من التحقيق فان المعتبر مع
الاسم هو نفس الوصف الذي اشتهر به اذ هو الذي يقتضيه المقام حسبما بين انفا
لا اشتهاره به الا يرى ان كلمة علي في المثال المذكور لا يمكن تعليقها باشتهار الاسم
بالجراءة قطعا وقيل هو متعلق بما يفيده التركيب الحصري من التوحد والتفرد كانه
قيل وهو المتوحد بالالهية فيهما وقيل بما تقرر عند الكل من اطلاق هذا الاسم عليه
خاصة كانه قيل وهو الذي يقال له الله فيهما لا يشرك به شيء في هذا الاسم على الوجه
الذي سبق من اعتبار معنى التوحد او القول في محوى الكلام بطريق الاستتباع لا على
حمل الاسم الجليل على معنى المتوحد بالالهية او على تقدير القول وقد جوز ان يكون
الظرف خبرا ثانيا على ان كونه سبحانه فيهما عبارة عن كونه تعالى مبالغا في العلم بما فيهما
بناء على تنزيل علمه المقدس من حصول الصور والاشباح لكونه حضوريا منزلة كونه
تعالى فيهما وتصويره به على طريقة التمثيل المبني على تشبيه حالة علمه تعالى بما فيهما بحالة
كونه تعالى فيهما فان العالم اذا كان في مكان كان عالما به وبما فيه على وجه لا يخفى عليه
منه شيء فعلى هذا يكون قوله عز وجل يعلم سركم وجهركم اي ما اسررتموه وما جهرتم
به من الاقوال او ما اسررتموه وما اعلنتموه كائنا ما كان من الاقوال والاعمال بيانا
وتقريرا لمضمونه وتحقيقا للمعنى المراد منه وتعليق علمه عز وجل بما ذكر خاصة مع شموله
لجميع ما فيهما حسبما يفيده الجملة السابقة لانسياق النظم الكريم الى بيان حال المخاطبين
وكذا على الوجه الثاني فان ملاحظة الاسم الجليل من حيث المالكية الكلية والتصرف الكامل
الجاري على النمط المذكور مستتبعة لملاحظة علمه المحيط حتما فتكون هذا بيانا وتقريرا
له بلا ريب واما على الاوجه الثلاثة الباقية فلا سبيل الى كونه بيانا لكن لا لما قيل من انه
لا دلالة لاستواء السر والجهر في علمه تعالى على ما اعتبر فيها من المعبودية والاختصاص
بهذا الاسم اذ ربما يعتقد ويختص به من ليس له كمال العلم فانه باطل قطعا اذ المراد بما ذكر هو
المعبودية بالحق والاختصاص بالاسم الجليل ولا ريب في انهما مما لا يتصور فيمن ليس له كمال العلم

بديهة بل لان ما ذكر من العلم غير معتبر في مدلول شيء من المعبودية بالحق والاختصاص
بالاسم حتى يكون هذا بيانا له وبهذا تبين انه ليس بيانا على الوجه الثالث ايضا لما ان
التوحد بالالهية لا يعتبر في مفهوم العلم الكامل ليكون هذا بيانا له بل هو معتبر فيما
صدق عليه المتوحد وذلك غير كاف في البيانية وقيل هو خبر بعد خبر عند من يجوز
كون الخبر الثاني جملة كما في قوله تعالى فاذا هي حية تسعى وقيل هو الخبر والاسم الجليل بدل من هو
وبه يتعلق الظرف المتقدم ويكفي في ذلك كون المعلوم فيهما كما في قولك رميت الصيد في الحرم
اذا كان فيه وانت خارجه ولعل جعل سرهم وجهرهم فيهما لتوسيع الدائرة وتصوير انه
انه لا يعزب عن علمه شيء منهما في اي مكان كان لا لانهما قد يكونان في السموات ايضا وتعميم
الخطاب لاهلها تعسف لا يخفى ويعلم ما تكسبون اي ما تفعلونه لجلب نفع او دفع ضرر
من الاعمال المكتسبة بالقلوب او بالجوارح سرا وعلانية وتخصيصها بالذكر مع اندراجها
فيما سبق على التفسير الثاني للسر والجهر لاظهار كمال الاعتناء بها لانها التي تتعلق بها
الجزاء او هو السر في اعادة يعلم وما تاتيهم من اية من ايات ربهم كلام مستأنف
وارد لبيان كفرهم بايات الله واعراضهم عنها بالكلية بعد ما بين في الاية الاولى
اشراكهم بالله سبحانه واعراضهم عن بعض ايات التوحيد وفي الاية الثانية امتراءهم
في البعث واعراضهم عن بعض اياته والالتفات للاشعار بان ذكر قبائحهم قد اقتضى
ان يضرب عنهم الخطاب صفحا وتعدد جناياتهم لغيرهم ذما لهم وتقبيحا لحالهم
فما نافية وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية او للدلالة على الاستمرار التجددي
ومن الاولى مزيدة للاستغراق والثانية تبعيضية واقعة مع مجرورها صفة لاية واضافة
الايات الى اسم الرب المضاف الى ضميرهم لتفخيم شانها المستتبع لتهويل ما اجترؤا
عليه في حقها والمراد بها اما الايات التنزيلية فاتيانها نزولها والمعنى ما ينزل
اليهم اية من الايات القرانية التي من جملتها هاتيك الايات الناطقة بما فصل من بدائع
صنع الله عز وجل المنبئة عن جريان احكام الوهيته على كافة الكائنات واحاطة
علمه بجميع احوال الخلق واعمالهم الموجبة للاقبال عليها والايمان بها الا كانوا عنها
معرضين اي على وجه التكذيب والاستهزاء كما ستقف عليه واما الايات التكوينية
الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات فاتيانها ظهورها لهم والمعنى ما يظهر
لهم اية من الايات التكوينية التي من جملتها ما ذكر من جلائل شؤونه تعالى الشاهدة
بوحدانيته الا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدي الى الايمان بمكونها
وايثاره على ان يقال الا اعرضوا عنها كما وقع مثله في قوله تعالى وان يروا اية يعرضوا و
يقولوا سحر مستمر للدلالة على استمرارهم على الاعراض حسب استمرار اتيان الايات وعن
متعلقة بمعرضين قدمت عليه مراعاة للفواصل والجملة في محل النصب على انها حال من
المفعول الثاني او من فاعله المتخصص بالوصف لاشتمالها على ضمير كل منهما واياما كان
ففيها دلالة بينة على كمال مسارعتهم الى الاعراض وايقاعهم له في ان الاتيان كما يفصح
عنه كلمة لما في قوله عز وجل فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فان الحق عبارة عن القران
الذي اعرضوا عنه حين اعرضوا عن كل اية منه عبر عنه بذلك ابانة لكمال قبح ما
فعلوا به فان تكذيب الحق مما لا يتصور صدوره عن احد والفاء لترتيب ما بعدها
على ما قبلها لكن لا على انه شيء مغاير له في الحقيقة واقع عقيبه وحاصل بسببه بل على
ان الاول هو عين الثاني حقيقة وانما الترتيب بحسب التغاير الاعتباري ولتحقيق ذلك
المعنى كما في قوله تعالى فقد جاؤا ظلما وزورا بعد قوله تعالى وقال الذين كفروا ان هذا
الا افك افتراه واعانه عليه قوم اخرون فان ما جاؤه اي فعلوه من الظلم والزور
عين قولهم المحكي لكنه لما كان مغايرا له مفهوما واشنع منه حالا رتب عليه بالفاء ترتيب
اللازم على الملزوم تهويلا لامره كذلك مفهوم التكذيب بالحق حيث كان اشنع من مفهوم
الاعراض المذكور اخرج مخرج اللازم البين البطلان فرتب عليه بالفاء اظهارا لغاية بطلانه
ثم قيد ذلك بكونه بلا تامل تاكيدا لشناعته وتمهيدا لبيان ان ما كذبوا به اثر ذي اثير له عواقب

جليلة ستبدو لهم البتة والمعنى انهم حيث اعرضوا عن تلك الآيات عند اتيانها فقد كذبوا
بما لا يمكن تكذيبه اصلا من غير ان يتدبروا في حاله ومآله ويقفوا على ما في تضاعيفه من
الشواهد الموجبة لتصديقه كقوله تعالى بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله
كما ينبئ عنه قوله تعالى فسوف يأتيهم انباء ما كانوا به يستهزءون فان ما عبارة عن
الحق المذكور عبر عنه بذلك تهويلا لامره بابهامه وتعليلا للحكم بما في حيز الصلة
فانباؤه عبارة عما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة التي نطقت بها آيات الوعيد وفي
لفظ الانباء ايذان بغاية العظم لان النبأ لا يطلق الا على خبر عظيم الوقع وحملها على
العقوبات الآجلة او على ظهور الاسلام وعلو كلمته يأباه الآيات الآتية وسوف لتأكيد
مضمون الجملة وتقريره اي سيأتيهم البتة وان تأخر مصداق انباء الشيء الذي كانوا
يكذبون به قبل من غير ان يتدبروا في عواقبه وانما قيل يستهزءون ايذانا بان تكذيبهم كان
مقرونا بالاستهزاء كما اشير اليه هذا ان يراد بالآيات الآيات القرآنية وهو الاظهر واما
ان اريد بها الآيات التكوينية فالفاء داخلة على علة جواب شرط محذوف والاعراض
على حقيقته كانه قيل ان كانوا معرضين عن تلك الآيات فلا تعجب فقد فعلوا بما هو اعظم
منها ما هو اعظم من الاعراض حيث كذبوا بالحق الذي هو اعظم الآيات ولا مساغ لحمل الآيات
في هذا الوجه على كلها اصلا واما ما قيل من ان المعنى انهم لما كانوا معرضين عن الآيات
كلها كذبوا بالقرآن فمما ينبغي تنزيه التنزيل عن امثاله الم يروا كم اهلكنا من قبلهم من
قرن استئناف مسوق لتعيين ما هو المراد بالانباء التي سبق بها الوعيد وتقرير اتيانها
بطريق الاستشهاد وهمزة الانكار لتقرير الرؤية وهي عرفانية مستدعية لمفعول
واحد وكم استفهامية كانت او خبرية معلقة لها عن العمل مفيدة للتكثير سادة مع ما في
حيزها مسد مفعولها منصوبة باهلكنا على المفعولية على انها عبارة عن الاشخاص ومن
قرن مميز لها على انه عبارة عن اهل عصر من الاعصار سموا بذلك لاقترانهم برهة من
الدهر كما في قوله صلى الله عليه وسلم خير القرون قرني ثم الذين يلونهم الحديث
وقيل هو عبارة عن مدة من الزمان والمضاف محذوف اي من اهل قرن واما
انتصابها على المصدرية او على الظرفية او على انها عبارة عن المصدر او عن الزمان
فتعسف ظاهر ومن الاولى ابتدائية متعلقة باهلكنا اي الم يعرفوا معاينة الآثار و
سماع الاخبار كم امة اهلكنا من قبل اهل مكة اي من قبل خلقهم او من قبل
زمانهم على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه كعاد وثمود واضرابهم وقوله
تعالى مكناهم في الارض استئناف لبيان كيفية الاهلاك وتفصيل مباديه مبني على
سؤال نشأ من صدر الكلام كانه قيل كيف كان ذلك فقيل مكناهم الى آخره وقيل
هو صفة لقرن لما ان النكرة مفتقرة الى مخصص فاذا وليها ما يصلح مخصصا لها تعين
وصفيته لها وانت خبير بان التنوين التفخيمي مغن له عن استدعاء الصفة على ان ذلك
مع اقتضائه ان يكون مضمونه ومضمون ما عطف عليه من الجمل الاربع امرا معروفا
غير مقصود بسياق النظم مؤد الى اختلال النظم الكريم كيف لا والمعنى حينئذ الم يروا
كم اهلكنا من قبلهم من قرن موصوفين بكذا وكذا وباهلاكنا اياهم بذنوبهم
وانه بين الفساد وتمكين الشيء في الارض جعله قارا فيها ولما لزمه جعلها مقرا له ورد
الاستعمال بكل منهما فقيل تارة مكنه في الارض ومنه قوله تعالى ولقد مكناهم فيما
ان مكناكم فيه واخرى مكن له في الارض ومنه قوله تعالى انا مكنا له في الارض حتى
اجري كل منهما مجرى الآخر ومنه قوله تعالى ما لم نمكن لكم بعد قوله تعالى مكناهم
في الارض كانه قيل في الاول مكنا لهم وفي الثاني ما لم نمكنكم وما نكرة موصوفة
بما بعدها من الجملة المنفية والعائد محذوف محلها النصب على المصدرية اي مكناهم
تمكينا لم نمكنه لكم والالتفات لما في مواجهتهم بضعف الحال من مزيد بيان لشأن
الفريقين ولدفع الاشتباه من اول الامر عن مرجعي الضميرين وارسلنا السماء اي
المطر او السحاب او المظلة لانها مبدأ المطر عليهم متعلق بارسلنا مدرارا اي

مغزارا حال من السماء وجعلنا الانهار اي صيرناها فقوله تعالى تجري من تحتهم مفعول
ثان لجعلنا او انشأناها فهو حال من مفعوله ومن تحتهم متعلق بتجري وفيه من الدلالة
على كونها مسخرة لهم مستمرة على الجريان على الوجه المذكور ما ليس في ان يقال واجرينا الانهار
من تحتهم وليس المراد بتعداد هاتيك النعم العظام الفائضة عليهم بعد ذكر تمكينهم بيان
عظم جناياتهم في كفرانها واستحقاقهم بذلك لاعظم العقوبات بل بيان حيازتهم
لجميع اسباب نيل المآرب ومبادي الامن والنجاة من المكاره والمعاطب وعدم اغناء ذلك
عنهم شيئا والمعنى اعطيناهم من البسطة في الاجسام والامتداد في الاعمار والسعة
من الاموال والاستظهار باسباب الدنيا في استجلاب المنافع واستدفاع المضار
ما لم نعط اهل مكة ففعلوا ما فعلوا فاهلكناهم بذنوبهم اي اهلكنا كل قرن
من تلك القرون بسبب ما يخصهم من الذنوب فما اغنى عنهم تلك العدد والاسباب
فسيحل بهؤلاء مثل ما حل بهم من العذاب وهذا كما ترى آخر ما به الاستشهاد والاعتبار
واما قوله سبحانه وانشأنا من بعدهم اي احدثنا من بعد اهلاك كل قرن قرنا
آخرين بدلا من الهالكين فلبيان كمال قدرته تعالى وسعة سلطانه وان ما ذكر من اهلاك
الامم الكثيرة لم ينقص من ملكه شيئا بل كلما اهلك امة انشأ بدلها اخرى ولو نزلنا
عليك جملة مستأنفة سيقت بطريق تلوين الخطاب لبيان شدة شكيمتهم في المكابرة
وما يتفرع عليها من الاقاويل الباطلة اثر بيان اعراضهم عن آيات الله تعالى وتكذيبهم
بالحق واستحقاقهم بذلك لنزول العذاب ونسبة التنزيل ههنا اليه عليه السلام
مع نسبة اتيان الآيات ومجيء الحق فيما سبق اليهم للاشعار بقدحهم في نبوته عليه السلام
في ضمن قدحهم فيما انزل عليه صريحا وقال الكلبي ومقاتل نزلت في النضر بن الحارث و
عبد الله بن ابي امية ونوفل بن خويلد حيث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم
لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه اربعة من الملائكة يشهدون انه
من عند الله تعالى وانك رسوله كتابا ان جعل اسما كالامام فقوله تعالى في قرطاس
متعلق بمحذوف وقع صفة له اي كتابا كائنا في صحيفة وان جعل مصدرا بمعنى المكتوب
فهو متعلق بنفسه فلمسوه اي الكتاب وقيل القرطاس وقوله تعالى بايديهم مع
ظهور ان اللمس لا يكون عادة الا بالايدي لزيادة التعيين ودفع احتمال التجوز الواقع
في قوله تعالى وانا لمسنا السماء اي تفحصنا اي فمسوه بايديهم بعد ما رأوه باعينهم
بحيث لم يبق لهم في شأنه اشتباه ولم يقدروا على الاعتذار بتسكير الابصار لقال الذين
كفروا اي لقالوا وانما وضع الموصول موضع الضمير للتنصيص على اتصافهم بما في حيز
الصلة من الكفر الذي لا يخفى حسن موقعه باعتبار مفهومه اللغوي ايضا ان
هذا اي ما هذا مشيرين الى ذلك الكتاب الا سحر مبين اي بين كونه سحرا تعنتا و
عنادا للحق بعد ظهوره كما هو دأب المفحم المحجوج وديدن المكابر اللجوج وقالوا لولا
انزل عليه ملك شروع في قدحهم في نبوته عليه السلام صريحا بعد ما اشير الى قدحهم
فيها ضمنا وقيل هو معطوف على جواب لو وليس بذاك الى ان تلك المقالة الشنعاء
ليست مما يقدر صدوره عنهم على تقدير تنزيل الكتاب المذكور بل هي من اباطيلهم
المحققة وخرافاتهم الملفقة التي يتعللون بها كلما ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم
العلل اي هلا انزل عليه عليه السلام ملك بحيث نراه ويكلمنا انه نبي حسبما نقل
عنهم فيما روي عن الكلبي ومقاتل ونظيره قولهم لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا
ولما كان مدار هذا الاقتراح على شيئين انزال الملك كما هو وجعله معه نذيرا
اجيب عنه بان ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الوجود اصلا لاشتماله على امرين
متباينين لا يجتمعان في الوجود لما ان انزال الملك على صورته يقتضي انتفاء جعله نذيرا وجعله نذيرا
يستدعي عدم انزاله على صورته لا محالة وقد اشير الى الاول بقوله تعالى ولو انزلنا
ملكا لقضي الامر اي لو انزلنا ملكا على هيئته حسبما اقترحوه والحال انه من هول المنظر بحيث
لا تطيق بمشاهدته قوى الآحاد البشرية الا يرى ان الانبياء صلوات الله عليهم اجمعين

كان يشاهدون الملائكة ويفاوضونهم على الصور البشرية كضيف ابراهيم ولوط وخصم
داود عليهم السلام وغير ذلك وحيث كان شأنهم كذلك وهم مؤيدون بالقوى
القدسية فما ظنك بمن عداهم من العوام فلو شاهدوه كذلك لقضى امر هلاكهم
بالكلية واستحال جعله نذيرا وهو مع كونه خلاف مطلوبهم مستلزم لاخلاء العالم
عما عليه يدور نظام الدنيا والآخرة من ارسال الرسل وتأسيس الشرائع وقد قال سبحانه
وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وفيه ايذان بانهم في ذلك الاقتراح كالباحث عن حتفه
بظلفه وان عدم الاجابة اليه للابقاء عليهم وبناء الفعل في الجواب للفاعل الذي هو نون
العظمة مع كونه في السؤال مبنيا للمفعول لتهويل الامر وتربية المهابة وبناء الثاني
للمفعول للجري على سنن الكبرياء وكلمة ثم في قوله تعالى ثم لا ينظرون اي لا يمهلون بعد
نزوله طرفة عين فضلا عن ان ينذروا به كما هو المقصود بالانزال للتنبيه على تفاوت
ما بين قضاء الامر وعدم الانظار فان مفاجاة العذاب اشد من نفس العذاب واشق
وقيل في سبب اهلاكهم انهم اذا عاينوا الملك قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم
في صورته وهي آية لا شيء ابين منها ثم لم يؤمنوا لم يكن بد من اهلاكهم وقيل انهم اذا
راوه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف فيجب اهلاكهم والى الثاني بقوله تعالى
ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا على ان الضمير الاول للنذير المفهوم من فحوى الكلام
بمعونة المقام وانما لم يجعل للملك المذكور قبله بان يعكس ترتيب المفعولين ويقال
ولو جعلناه نذيرا لجعلناه رجلا لتحقيق ان مناط ابراز الجعل الاول في معرض الفرض
والتقدير ومدار استلزامه للثاني انما هو ملكية النذير لا نذيرية الملك وذلك لان
الجعل حقه ان يكون مفعوله الاول مبتدأ والثاني خبرا لكونه بمعنى التصيير المنقول
من صار الداخل على المبتدأ والخبر ولا ريب في ان مصب الفائدة ومدار اللزوم
بين طرفي الشرطية محمول المقدم لا موضوعه فحيث كانت امتناعية اريد بها بيان
انتفاء الجعل الاول لاستلزامه المحذور الذي هو الجعل الثاني وجب ان يجعل مدار الاستلزام
في الاول مفعولا ثانيا لا محالة ولذلك جعل مقابله في الجعل الثاني كذلك ابانة لكمال
التنافي بينهما الموجب لانتفاء الملزوم والضمير الثاني للملك لا لما رجع اليه الاول
والمعنى لو جعلنا النذير الذي اقترحوه ملكا لمثلنا ذلك الملك رجلا لما مر من عدم
استطاعة الآحاد لمعاينة الملك على هيكله وفي ايثار رجلا على بشرا ايذان بان الجعل
بطريق التمثيل لا بطريق قلب الحقيقة وتعيين لما يقع به التمثيل وقوله تعالى وللبسنا
عليهم عطف على جواب لو مبني على الجواب الاول وقرئ بحذف لام الجواب اكتفاء بها
في المعطوف عليه يقال لبست الامر على القوم البسه اذا شبهته وجعلته مشكلا عليهم
واصله الستر بالثوب وقرئ الفعلان بالتشديد للمبالغة ولخلطنا عليهم بتمثيله
رجلا ما يلبسون على انفسهم حينئذ بان يقولوا له انما انت بشر ولست بملك ولو استدل
على ملكيته بالقرآن المعجز الناطق بها او بمعجزات اخر غير ملجئة الى التصديق لكذبوه كما
كذبوا النبي صلعم ولو اظهر لهم صورته الاصلية لزم الامر الاول والتعبير عن تمثيله تعالى
رجلا باللبس اما لكونه في صورة اللبس او لكونه سببا للبسهم او لوقوعه في صحبته
بطريق المشاكلة وفيه تاكيد لاستحالة جعل النذير ملكا كانه قيل لو فعلناه لفعلنا ما لا يليق بشأننا
من لبس الامر عليهم وقد جوز ان يكون المعنى وللبسنا عليهم حينئذ مثل ما يلبسون
على انفسهم الساعة في كفرهم بآيات الله البينة ولقد استهزئ برسل من قبلك
تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يلقاه من قومه وفي تصدير الجملة بلام القسم
وحرف التحقيق من الاعتناء بها ما لا يخفى وتنوين رسل للتفخيم والتكثير ومن ابتدائية متعلق
بمحذوف وقع صفة لرسل اي وبالله لقد استهزئ برسل اولي شأن خطير وذوي عدد
كثير كائنين من زمان قبل زمانك على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه فحاق
عقيبه اي احاط او نزل او حل او نحو ذلك فان معناه يدور على الشمول واللزوم
ولا يكاد يستعمل الا في الشر والحيق ما يشتمل على الانسان من مكروه فعله وقوله تعالى بالذين

سخروا

سخروا منهم اي استهزءوا بهم من اولئك الرسل عليهم السلام متعلق بحاق وتقديمه
على فاعله الذي هو قوله تعالى ما كانوا به يستهزءون للمسارعة الى بيان لحوق الشر
بهم وما اما موصولة مفيدة للتهويل اي فاحاط بهم الذي كانوا يستهزءون به حيث اهلكوا
لاجله واما مصدرية اي فنزل بهم وبال استهزائهم وتقديم الجار والمجرور على
الفعل لرعاية الفواصل قل سيروا في الارض بعد بيان ما فعلت الامم الخالية وما فعل
بهم خوطب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بانذار قومه وتذكيرهم باحوالهم الفظيعة
تحذيرا لهم عما هم عليه وتكملة للتسلية بما في ضمنه من العدة اللطيفة بانه
سيحيق بهم مثل ما حاق باضرابهم الاولين وقد انجز ذلك يوم بدر اي انجاز اي
سيروا في الارض لتعرف احوال اولئك الامم ثم انظروا اي تفكروا كيف كان
عاقبة المكذبين وكلمة ثم اما لان النظر في آثار الهالكين لا يتسنى الا بعد انتهاء السير
الى اماكنهم واما للابانة لما بينهما من التفاوت في مراتب الوجوب وهو الاظهر فان وجوب
السير ليس الا لكونه وسيلة الى النظر كما يفصح عنه العطف بالفاء في قوله عز وجل
فانظروا الآية وان الامر الاول لاباحة السير للتجارة ونحوها والثاني لايجاب النظر
في آثارهم وثم لتباعد ما بين الواجب والمباح فلا يناسب المقام وكيف معلقة لفعل
النظر ومحل الجملة النصب بنزع الخافض اي تفكروا في انهم كيف اهلكوا بعذاب الاستئصال
والعاقبة مصدر كالعافية ونظائرها وهي منتهى الامر ومآله ووضع المكذبين موضع
المستهزئين لتحقيق ان مدار اصابة ما اصابهم هو التكذيب لينزجر السامعون عنه لا عن الاستهزاء
فقط مع بقاء التكذيب بحاله بناء على توهم انه المدار في ذلك قل لهم بطريق الالزام
والتبكيت لمن ما في السموات والارض من العقلاء وغيرهم اي لمن الكائنات جميعا خلقا
وملكا وتصرفا وقوله تعالى قل لله تقرير لهم وتنبيه على انه المتعين للجواب بالاتفاق
بحيث لا يتأتى لاحد ان يجيب بغيره كما نطق به قوله عز وجل ولئن سألتهم من خلق
السموات والارض ليقولن الله وقوله تعالى كتب على نفسه الرحمة جملة مستقلة داخلة
تحت الامر ناطقة بشمول رحمته الواسعة لجميع الخلق شمول ملكه وقدرته للكل
مسوقة لبيان انه تعالى رؤوف بعباده لا يعجل عليهم العقوبة ويقبل منهم التوبة والانابة
وان ما سبق ذكره وما لحق من احكام الغضب ليس من مقتضيات ذاته تعالى بل من جهة
الخلق كيف لا ومن رحمته ان خلقهم على الفطرة السليمة وهداهم الى معرفته وتوحيده
بنصب الآيات الانفسية والآفاقية وارسال الرسل وانزال الكتب المشحونة بالدعوة
الى موجبات رضوانه والتحذير من مقتضيات سخطه وقد بدلوا فطرة الله تبديلا
واعرضوا عن الآيات بالمرة وكذبوا بالكتب واستهزءوا بالرسل وما ظلمهم الله ف
لكن كانوا هم الظالمين ولولا شمول رحمته لسلك هؤلاء ايضا مسلك الغابرين ومعنى
كتب الرحمة على نفسه انه تعالى قضاها واوجبها بطريق التفضل والاحسان على ذاته
المقدسة بالذات لا بتوسط شيء اصلا وقيل هو ما روي عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال لما قضى الله تعالى الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش ان
رحمتي سبقت غضبي وعنه في رواية انه عليه السلام قال لما قضى الله تعالى الخلق كتب كتابا
فهو عنده فوق العرش ان رحمتي غلبت غضبي وعن عمر رضي الله عنه انه قال لكعب ما اول شيء ابتداه الله تعالى
من خلقه فقال كعب كتب الله كتابا لم يكتبه بقلم ولا مداد كتابته الزبرجد واللؤلؤ والياقوت
اني انا الله لا اله الا انا سبقت رحمتي غضبي ومعنى سبق الرحمة وغلبتها انها اقدم
تعلقا بالخلق واكثر وصولا اليهم مع انها من مقتضيات الذات المفيضة للخير
وفي التعبير عن الذات بالنفس حجة على من ادعى ان لفظ النفس لا يطلق على الله تعالى وان
اريد به الذات الا مشاكلة لما ترى من انتفاء المشاكلة ههنا بنوعيها وقوله تعالى ليجمعنكم
الى يوم القيمة جواب قسم محذوف والجملة استئناف مسوق للوعيد على اشراكهم واغفالهم
النظر اي والله ليجمعنكم في القبور مبعوثين او محشورين الى يوم القيمة فيجازيكم على
شرككم وسائر معاصيكم وان امهلكم بموجب رحمته ولم يعاجلكم بالعقوبة الدنيوية وقيل

للتهويل

الي يعني اللام اي ليجمعنكم ليوم القيمة كقوله تعالى انك جامع الناس ليوم لاريب فيه وقيل بمعنى في اي ليجمعنكم في يوم القيمة لاريب فيه اى فى اليوم او فى الجمع وقوله تعالى الذين خسروا انفسهم اى بتضييع راس مالهم وهو الفطرة الاصلية والعقل السليم و الاستعداد القريب الحاصل من مشاهدة الرسول صلى الله عليه وسلم واستماع الوحى وغير ذلك من آثار الرحمة فى موضع النصب والرفع على الذم اى اعنى الذين الخ او هم الذين الخ او هو مبتداء والخبر قوله تعالى فهم لايؤمنون والفاء لتضمن المبتداء معنى الشرط والاشعار بان عدم ايمانهم بسبب خسرانهم فان ابطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك فى التقليد واغفال النظر ادى بهم الى الاصرار على الكفر والامتناع من الايمان والجملة تذييل مسوق من جهته تعالى لتقبيح حالهم غير داخل تحت الامر وله اى لله عز وجل خاصة ما سكن فى الليل والنهار نزل الملوانا منزلة المكان فعبر عن نسبة الاشياء الزمانية اليهما بالسكنى فيهما وتعديته بكلمة فى كما فى قوله تعالى وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا انفسهم او السكون مقابل الحركة والمراد ما سكن فيهما وتحرك فاكتفى باحد الضدين عن الآخر وهو السميع المبالغ فى سماع كل مسموع العليم المبالغ فى العلم بكل معلوم فلا يخفى عليه شئ من الاقوال والافعال قل لهم بعد ما بكتهم بما سيق عن الخطاب اغير الله اتخذ وليا اى معبودا بطريق الاستقلال والاشتراك سلطت الهمزة على المفعول الاول لا على الفعل ايذانا بان المنكر هو اتخاذ غير الله وليا لا اتخاذ الولى مطلقا كما فى قوله تعالى اغير الله ابغى ربا وقوله افغير الله تامرونى اعبد الخ فاطر السموات والارض اى مبدعهما بالجر صفة للجلالة مؤكدة للانكار لانه بمعنى الماضى ولذلك قرئ فطر ولا يضر الفصل بينهما بالجملة لانها ليست باجنبية اذ هى عاملة فى عامل الموصوف او بدل فان الفصل بينه وبين المبدل منه اسهل لان البدل على نية تكرير العامل وقرئ بالرفع والنصب على المدح وعن ابن عباس رضى الله عنه ما عرفت معنى الفاطر حتى اختصم الى اعرابيان فى بئر فقال احدهما انا فطرتها اى ابتدأتها وهو يطعم ولا يطعم اى يرزق الخلق ولا يرزق وتخصيص الطعام بالذكر لشدة الحاجة اليه او لانه معظم ما يصل الى المرزوق من الرزق ومحل الجملة النصب على الحالية فان مضمونها مقرر لوجوب اتخاذه سبحانه وتعالى وقرئ ولا يطعم بفتح الياء وبعكس القراءة الاولى ايضا على ان الضمير لغير الله والمعنى استراك عمن هو فاطر السموات والارض ما هو نازل عن رتبة الحيوانية وببنائهما للفاعل على ان الثانى بمعنى يستطعم او على معنى انه يطعم تارة ولا يطعم اخرى كقوله تعالى يقبض ويبسط قل بعد بيان ان اتخاذ غيره تعالى وليا مما يقضى ببطلانه بديهة العقول انى امرت من جنابه عز وجل ان اكون اول من اسلم وجهه لله مخلصا له لان النبى امام امته فى الاسلام كقوله تعالى وبذلك امرت وانا اول المسلمين وقوله تعالى سبحانك تبت اليك وانا اول المؤمنين ولا تكونن اى وقيل لى لا تكونن من المشركين اى فى امر من امور الدين ومعناه امرت بالاسلام ونهيت عن الشرك وقد جوز عطفه على الامر قل انى اخاف ان عصيت ربى اى بمخالفة امره ونهيه اى عصيان كان فيدخل فيه ما ذكر دخولا اوليا وفيه بيان لكمال اجتنابه عليه السلام من المعاصى على الاطلاق وقوله تعالى عذاب يوم عظيم اى عذاب يوم القيمة مفعول اخاف والشرطية معترضة بينهما والجواب محذوف لدلالة ما قبله عليه وفيه قطع لاطماعهم الفارغة وتعريض بانهم عصاة مستوجبون العذاب العظيم من يصرف عنه على البناء للمفعول اى العذاب وقرئ على البناء للفاعل والضمير لله سبحانه وقد قرئ بالاظهار والمفعول محذوف وقوله تعالى يومئذ ظرف للصرف اى فى ذلك اليوم العظيم وقد جوز ان يكون هو المفعول على قراءة البناء للفاعل بحذف المضاف اى عذاب يومئذ فقد رحمه اى نجاه وانعم عليه وقيل فقد ادخله الجنة كما فى قوله تعالى فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز والجملة مستانفة مؤكدة لتهويل العذاب وصرفه عنه رحمة وهو عبارة عن غير العاصى

وذلك اشارة الى الصرف والرحمة لانهما مؤولة بان مع الفعل وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجته وبعد مكانه من الفضل وهو مبتدا خبره قوله تعالى الفوز المبين اى الظاهر كونه فوزا وهو الظفر بالبغية والالف واللام لقصره على ذلك وان يمسسك الله بضر اى ببلية كمرض وفقر ونحو ذلك فلا كاشف له اى فلا قادر على كشفه عنك الا هو وحده وان يمسسك بخير من صحة ونعمة ونحو ذلك فهو على كل شئ قدير ومن جملته ذلك فيقدر عليه فيمسك به ويحفظه عليك من غير ان يقدر على دفعه او رفعه احد كقوله تعالى فلا راد لفضله وحمله على تاكيد الجوابين يأباه الفاء تذكرة روي عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال اهدى للنبى صلى الله عليه وسلم بغلة اهداها له كسرى فركبها بحبل من شعر ثم اردفنى خلفه ثم سار بى مليا ثم التفت الى فقال يا غلام فقلت لبيك يا رسول الله فقال احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده امامك تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة واذا سالت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله فقد مضى القلم بما هو كائن فلو جهد الخلائق ان ينفعوك بما لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ولو جهدوا ان يضروك بما لم يكتب الله عليك ما قدروا عليه فان استطعت ان تعمل بالصبر مع اليقين فافعل فان لم تستطع فاصبر فان فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا واعلم ان النصر مع الصبر وان مع الكرب فرجا وان مع العسر يسرا وهو القاهر فوق عباده تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقدرة وهو الحكيم فى كل ما يفعله ويأمره الخبير باحوال عباده وخفايا امورهم واللام فى المواضع الثلاثة للقصر قل اى شئ اكبر شهادة روي ان قريشا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد لقد سالنا عنك اليهود والنصارى فزعموا ان ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فارنا من يشهد لك انك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت فاى مبتدا واكبر خبره وشهادة نصب على التمييز وقوله تعالى قل الله امر له صلى الله عليه وسلم بان يتولى الجواب بنفسه اما للايذان بتعينه وعدم قدرتهم على ان يجيبوا بغيره او لانهم ربما يتلعثمون فيه لا لترددهم فى انه اكبر من كل شئ بل فى كونه شهيدا فى هذا الشان وقوله تعالى شهيد خبر مبتداء محذوف اى هو شهيد بينى وبينكم ويجوز ان يكون الله شهيد بينى وبينكم هو الجواب لانه اذا كان هو الشهيد بينه وبينهم كان اكبر شئ شهادة شهيدا له وفى تكرير البين لتحقيق المقابلة واوحى الى اى من جهته تعالى هذا القرآن الشاهد بصحة رسالتى لانذركم به بما فيه من الوعيد والاقتصار على ذكر الانذار لما ان الكلام مع الكفرة ومن بلغ عطف على ضمير المخاطبين اى لانذركم به يا اهل مكة وساير من بلغه من الاسود والاحمر او من الثقلين او لانذركم به ايها الموجودون ومن سيوجد الى يوم القيمة وهو دليل على ان احكام القرآن تعم الموجودين يوم نزوله ومن سيوجد بعد الى يوم القيامة خلا ان ذلك بطريق العبارة فى الكل عند الحنابلة وبالاجماع عندنا فى غير الموجودين وفى غير المكلفين يومئذ كما مر فى اول سورة النساء ائنكم لتشهدون ان مع الله آلهة اخرى تقرير لهم مع انكار واستبعاد قل لا اشهد بذلك وان شهدتم به فانه باطل صرف قل تكرير للامر للتاكيد انما هو اله واحد اى بل انما اشهد انه تعالى لا اله الا هو واننى برئ مما تشركون من الاصنام او من اشراككم الذين آتيناهم الكتاب جواب عما سبق من قولهم لقد سالنا عنك اليهود والنصارى اخر عن تعيين الشهيد مسارعة الى الزامهم بالجواب عن تحكمهم بقولهم فارنا من يشهد لك الخ والمراد بالموصول اليهود والنصارى وبالكتاب الجنس المنتظم للتوراة والانجيل وايرادهم بعنوان ايتاء الكتاب للايذان بمدار ما اسند اليهم بقوله تعالى يعرفونه اى يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة الكتابين بحليته ونعوته المذكورة فيهما كما يعرفون ابناءهم بحلاهم بحيث لا يشكون فى ذلك اصلا روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة قال عمر رضى الله عنه لعبد الله بن سلام انزل الله تعالى على نبيه هذه الاية وكيف هذه المعرفة فقال يا عمر لقد عرفته فيكم حين رايته كما اعرف ابنى ولانا اشد معرفة بمحمد منى بابنى لانى

لا ادري ما صنع النساء واشهد انه حق من الله تعالى الذين خسروا انفسهم من اهل
الكتابين والمشركين بان ضيعوا فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها واعرضوا عن البينات الموجبة
للايمان بالكلية فهم لا يؤمنون لما انهم مطبوع على قلوبهم ومحل الموصول الرفع على
الابتداء وخبره الجملة المصدرة بالفاء لشبه الموصول بالشرط وقيل على انه خبر مبتدأ محذوف
اي هم الذين خسروا الخ وقيل على انه نعت للموصول الاول وقيل النصب على الذم فقوله
تعالى فهم لا يؤمنون على الوجوه الاخيرة عطف على جملة الذين آتيناهم الكتاب
الخ ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا بوصفهم النبي الموعود في الكتابين بخلاف
اوصافه عليه السلام فانه افتراء على الله سبحانه وبقولهم الملائكة بنات الله
وقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله ونحو ذلك وهو انكار واستبعاد لان يكون احد اظلم
ممن فعل ذلك او مساويا له وان كان سبك التركيب غير متعرض لانكار المساواة ونفيها
يشهد به العرف الفاشي والاستعمال المطرد فانه اذا قيل من اكرم من فلان او لا افضل
من فلان فالمراد به حتما انه اكرم من كل كريم وافضل من كل فاضل الا يرى الى قوله عز وجل
لا جرم انهم في الاخرة هم الاخسرون بعد قوله تعالى ومن اظلم ممن افترى الخ والسر في
ذلك ان النسبة بين الشيئين انما تتصور غالبا لا سيما في باب المغالبة بالتفاوت
زيادة ونقصانا فاذا لم يكن احدهما ازيد يتحقق النقص لا محالة او كذب بآياته
كان كذبوا بالقرآن الذي من جملته الآية الناطقة بانهم يعرفونه عليه السلام كما يعرفون ابناءهم
وبالمعجزات وسموها سحرا وحرفوا التوراة وغيروا نعوته عليه السلام فان ذلك تكذيب بآياته
تعالى وكلمة او للايذان بان كلا من الافتراء والتكذيب وحده بالغ غاية الافراط في الظلم
فكيف وهم قد جمعوا بينهما فاثبتوا ما نفاه الله تعالى ونفوا ما اثبته قاتلهم الله انى
يؤفكون انه الضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره
وفائدة تصدير الجملة به الايذان بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره في الذهن
فان الضمير لا يفهم منه من اول الامر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن
عند وروده له فضل تمكن فكانه قيل ان الشأن الخطير هذا وهو لا يفلح الظالمون اي لا ينجون
من مكروه ولا يفوزون بمطلوب واذا كان حال الظالمين هذا فما ظنك بمن في الغاية
القاصية من الظلم ويوم نحشرهم جميعا منصوب على الظرفية بمضمر مؤخر
قد حذف ايذانا بضيق العبارة عن شرحه وبيانه وايماء الى عدم استطاعة السامعين
لسماعه لكمال فظاعة ما يقع فيه من الطامة والداهية التامة كانه قيل ويوم
نحشرهم جميعا ثم نقول لهم ما نقول كان من الاحوال والاهوال ما لا يحيط به دائرة
المقال وتقدير صيغة الماضي للدلالة على التحقق وحسن موقع عطف قوله تعالى ثم لم تكن
الخ عليه وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم اي واذكر لهم للتخويف والتحذير يوم
نحشرهم الخ وقيل وليتقوا او ليحذروا يوم نحشر الخ والضمير للكل وجميعا حال
منه وقرئ يحشرهم جميعا ثم يقول بالياء فيهما للذين اشركوا اي نقول لهم خاصة
للتوبيخ والتقريع على رؤوس الاشهاد اين شركاؤكم اي آلهتكم التي جعلتموها
شركاء لله سبحانه واضافتها اليهم لما ان شركتها ليست الا تسميتهم وتقولهم
الكاذب كما ينبئ عنه قوله تعالى الذين كنتم تزعمون اي تزعمونها شركاء فحذف
المفعولان معا وهذا السؤال المنبئ عن غيبة الشركاء مع عموم الحشر لها لقوله تعالى احشروا
الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله وغير ذلك من النصوص انما
يقع بعد ما جرى بينها وبينهم من التبرؤ من الجانبين وتقطع ما بينهم من الاسباب
والعلائق حسبما يحكيه قوله تعالى فزيلنا بينهم الخ ونحو ذلك من الآيات الكريمة اما
بعدم حضورها حينئذ في الحقيقة بابعادها من ذلك الموقف واما بتنزيل عدم حضورها
بعنوان الشركة والشفاعة منزلة عدم حضورها في الحقيقة اذ ليس السؤال عنها
من حيث ذواتها بل انما هو من حيث انها شركاء كما يعرب عنه الوصف بالموصول ولا ريب في ان
عدم الوصف يوجب عدم الموصوف من حيث هو موصوف فهي من حيث هي شركاء غائبة لا

محالة وان كانت حاضرة من حيث ذواتها اصناما كانت او غيرها واما ما يقال من انه يحال بينها
وبينهم في وقت التوبيخ ليفقدوهم في الساعة التي علقوا بها الرجاء فيها فيروا مكان
خزيهم وحسرتهم فربما يشعر بعدم شعورهم بحقيقة الحال وعدم انقطاع حبال رجائهم
عنها بعد وقد عرفت انهم شاهدوها قبل ذلك وانصرمت عروة اطماعهم
عنها بالكلية على انها معلومة لهم من حين الموت والابتلاء بالعذاب في البرزخ وانما
الذي يحصل يوم الحشر الانكشاف الجلي واليقين القوي المترتب على المحاضرة والمحاورة
ثم لم تكن فتنتهم بتانيث الفعل ورفع فتنتهم على انه اسم له والخبر الا ان قالوا
وقرئ بنصب فتنتهم على انها الخبر والاسم الا ان قالوا والتانيث للخبر كما في قولهم
من كانت امك وقرئ بالتذكير مع رفع الفتنة ونصبها ورفعها انسب بحسب المعنى
والجملة عطف على ما قدر عاملا في يوم نحشرهم كما اشير اليه فيما سلف والاستثناء مفرغ
من اعم الاشياء وفتنتهم اما كفرهم مرادا به عاقبته اي لم يكن عاقبة كفرهم الذي
لزموه مدة اعمارهم وافتخروا به شيئا من الاشياء الا جحوده والتبرؤ عنه بان يقولوا
والله ربنا ما كنا مشركين واما جوابهم عبر عنه بالفتنة لانه كذب ووصفه تعالى
بربوبيته لهم للمبالغة في التبرؤ من الاشراك وقرئ ربنا على النداء فهو لاظهار الضراعة
والاجتهاد في استدعاء قبول المعذرة وانما يقولون ذلك مع علمهم بانه بمعزل من
النفع راسا من فرط الحيرة والدهش وحمله على معنى ما كنا مشركين عند انفسنا وما
علمنا في الدنيا انا على خطأ معتقدنا مما لا ينبغي ان يتوهم اصلا فانه مما يوهم ان
لهم عذرا اما وان لهم قدرة على الاعتذار في الجملة وذلك مخل بكمال هول اليوم قطعا
على انه قد قضى ببطلانه قوله تعالى انظر كيف كذبوا على انفسهم فانه تعجيب من كذبهم
الصريح بانكار صدور الاشراك عنهم في الدنيا اي انظر كيف كذبوا على انفسهم في قولهم
ذلك فانه عجيب في الغاية واما حمله على كذبهم في الدنيا فمخل بحسب تنزيه ساحة التنزيل
عنه وكذا قوله تعالى وضل عنهم ما كانوا يفترون عطف على كذبوا داخل معه في
حكم التعجيب وما مصدرية او موصولة قد حذف عائدها والمعنى انظر كيف كذبوا باليمين
الفاجرة المغلظة على انفسهم بانكار صدور ما صدر عنهم فكيف ضل عنهم اي زال و
ذهب افتراؤهم او ما كانوا يفترونه من الاشراك حتى نفوا صدوره عنهم بالكلية
وتبرؤوا عنه بالمرة وقيل ما عبارة عن الشركاء وايقاع الافتراء عليها مع انه في الحقيقة
واقع على احوالها من الالهية والشركة والشفاعة ونحوها للمبالغة في امرها كانها
نفس المفترى وقيل الجملة كلام مستأنف غير داخل في حيز التعجيب ومنهم من
يستمع اليك كلام مبتدأ مسوق لحكاية ما صدر في الدنيا عن بعض المشركين من احكام
الكفر اثر بيان ما سيصدر عنهم يوم الحشر تقريرا لما قبله وتحقيقا لمضمونه والضمير
للذين اشركوا ومحل الظرف الرفع على انه مبتدأ باعتبار مضمونه او بتقدير
الموصوف كما في قوله تعالى ومنا دون ذلك اي وجمع منا الخ ومن موصولة او موصوفة
محلها الرفع على الخبرية والمعنى وبعضهم او وبعض منهم الذي يستمع اليك او فريق
يستمع اليك على ان مناط الافادة اتصافهم بما في حيز الصلة او الصفة لا كونهم
ذوات اولئك المذكورين وقد مر في تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول الخ روي انه
اجتمع ابو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وابو جهل واضرابهم يستمعون تلاوة
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا للنضر وكان صاحب اخبار يا ابا قتيلة ما يقول
محمد والذي جعلها بيته ما ادري ما يقول الا انه يحرك لسانه ويقول اساطير
الاولين مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية فقال ابو سفيان اني لاراه حقا فقال
ابو جهل كلا فنزلت وجعلنا على قلوبهم اكنة من الجعل بمعنى الانشاء وعلى متعلقة
به وضمير قلوبهم راجع الى من وجمعيته بالنظر الى معناها كما ان افراد ضمير يستمع بالنظر
الى لفظها وقد روعي جانب المعنى في قوله تعالى ومنهم من يستمعون اليك الآية والاكنة
جمع كنان وهو ما يستر به الشيء وتنوينها للتفخيم والجملة اما مستأنفة للاخبار بما تضمنته من الحكم

أو حال من فاعل يستمع باضمار قد عند من يقدرها قبل الماضي الواقع حالاً أي يستمعون
إليك وقد ألقينا على قلوبهم أغطية كثيرة لا يقادر قدرها خارجة مما يتعارفه
الناس أن يفقهوه أي كراهة أن يفقهوا ما يستمعونه من القرآن المدلول عليه
بذكر الاستماع ويجوز أن يكون مفعولاً لما ينبئ عنه الكلام أي منعناهم أن يفقهوه
وفي آذانهم وقراً صمماً وثقلاً مانعاً من سماعه والكلام فيه كما في قوله تعالى
على قلوبهم أكنة وهذا تمثيل معرب عن كمال جهلهم بشؤون النبي صلى الله عليه وسلم
وفرط نبو قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومج أسماعهم له وقد مر تحقيقه في أوائل
سورة البقرة وقيل هو حكاية لما قالوا وقلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر
الآية وأنت خبير بأن مرادهم بذلك الإخبار بما اعتقدوه في حق القرآن والنبي صلعم
جهلاً وكفراً من اتصافهما بأوصاف مانعة من التصديق والإيمان ككون القرآن
سحراً وشعراً وأساطير الأولين وقس عليه ما تخيلوه في حق النبي صلى الله عليه وسلم
لا الإخبار بأن هناك أمراً وراء ذلك قد حال بينهم وبين إدراكه حائل من قبلهم
حتى يمكن حمل النظم الكريم على ذلك وإن يروا كل آية من الآيات القرآنية أي يشاهدوها
بسماعها لا يؤمنوا بها على عموم النفي لا على نفي العموم أي كفروا بكل واحدة منها لعدم
اجتلائهم إياها كما هي لما مر من حالهم حتى إذا جاؤك يجادلونك هي حتى التي
تقع بعدها الجمل والجملة هي قوله تعالى إذا جاؤك يقول الذين كفروا وما بينهما حال
فاعل جاؤا وإنما وضع الموصول موضع الضمير ذماً لهم بما في حيز الصلة وإشعاراً
بعلة الحكم أي بلغوا من التكذيب والمكابرة إلى أنهم إذا جاؤك مجادلين لك لا
يكتفون بمجرد عدم الإيمان بما سمعوا من الآيات الكريمة بل يقولون إن هذا أي ما
هذا إلا أساطير الأولين فإن جعل أحسن الحديث وأصدقه الذي لا يأتيه الباطل من
بين يديه ولا من خلفه من قبيل الأباطيل والخرافات رتبة من الكفر لا غاية وراءها ويجوز أن
يكون حتى جارة وإذا ظرفية بمعنى وقت مجيئهم ويجادلونك حال كما سبق وقوله تعالى يقول
الذين كفروا إلخ تفسير للمجادلة والأساطير جمع أسطورة أو إسطارة أو جمع أسطار وهو جمع
سطر بالتحريك وأصل الكل السطر بمعنى الخط وهم ينهون عنه الضمير المرفوع للمذكورين
والمجرور للقرآن أي لا يقتنعون بما ذكر من تكذيبه وعده من قبيل الأساطير بل ينهون الناس
عن استماعه لئلا يقفوا على حقيته فيؤمنوا به وينأون عنه أي يتباعدون عنه بأنفسهم إظهاراً
لغاية نفورهم عنه وتأكيداً لنهيهم عنه فإن اجتناب الناهي عن المنهي عنه من متممات
النهي ولعل ذلك هو السر في تأخير النأي عن النهي وقيل الضمير المجرور للنبي عم وقيل المرفوع لأبي
طالب ولعل جمعيته باعتبار استتباعه لأتباعه فإنه كان ينهى قريشاً عن التعرض لرسول الله
صلعم وينأى عنه فلا يؤمن به روي أنه اجتمعوا إليه وأرادوا برسول الله صلعم سوءاً فقال
والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا. فاصدع بأمرك ما عليك
غضاضة. وابشر بذاك وقر منه عيونا. ودعوتني وزعمت أنك ناصح. ولقد صدقت
وكنت ثمة أمينا. وعرضت دينا لا محالة أنه. من خير أديان البرية دينا. لولا الملامة
أو حذاري سبة. لوجدتني سمحاً بذاك مبينا. فنزلت وإن يهلكون أي ما يهلكون بما
فعلوا من النهي والنأي إلا أنفسهم بتعريضها لأشد العذاب وأفظعه عاجلاً وآجلاً
وهو عذاب الضلال والإضلال وقوله تعالى وما يشعرون حال من ضمير يهلكون أي يقصرون
الإهلاك على أنفسهم والحال أنهم ما يشعرون أي لا بإهلاكهم أنفسهم ولا باقتصار ذلك
عليها من غير أن يضروا بذلك شيئاً من القرآن والرسول عليه السلام والمؤمنين وإنما عبر
عنه بالإهلاك مع أن المنفي عن غيرهم مطلق الضرر إذ غاية ما يؤدي إليه ما فعلوا من القدح
في القرآن الكريم المبالغة في تشييد أحكامه وظهور أمر الدين للإيذان بأن ما يحيق بهم هو الهلاك
لا الضرر المطلق على أن مقصدهم لم يكن مطلق المضارة فيما ذكر بل كانوا يبغون الغوائل
لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ويجوز أن يكون الإهلاك معتبراً بالنسبة إلى الذين
يضلونهم بالنهي فقصره على أنفسهم حينئذ مع شموله للفريقين مبني على تنزيل عذاب الضلال

عند

عند عذاب الإضلال منزلة العدم ولو ترى إذ وقفوا على النار شروع في حكاية ما سيصدر
عنهم يوم القيمة من القول المناقض لما صدر عنهم في الدنيا من القبائح المحكية مع كونه
كاذباً في نفسه والخطاب إما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد من أهل المشاهدة
والعيان قصداً إلى بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الشناعة والفظاعة إلى حيث لا يختص
استغرابها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة الأمور البديعة بل كل من يتأتى منه الرؤية
يتعجب من هولها وفظاعتها وجواب لو محذوف ثقة بظهوره وإيذاناً بقصور
العبارة عن تفصيله وكذا مفعول ترى لدلالة ما في حيز الظرف عليه أي لو تراهم حين يوقفون
على النار حتى يعاينوها لرأيت ما لا يساعده التعبير وصيغة الماضي للدلالة على التحقق أو
حين يطلعون عليها اطلاعاً هي تحتهم أو حين يدخلونها فيعرفون مقدار عذابها من قولهم
وقفته على كذا إذا فهمته وعرفته وقرئ وقفوا على البناء للفاعل من وقف عليه وقوفاً فقالوا يا ليتنا
نرد إلى الدنيا تمنياً للرجوع والخلاص وهيهات ولات حين مناص ولا نكذب بآيات ربنا
أي بآياته الناطقة بأحوال النار وأهوالها الآمرة باتقائها إذ هي التي تخطر حينئذ ببالهم
ويتحسرون على ما فرطوا في حقها أو بجميع آياته المنتظمة لتلك الآيات انتظاماً
أولياً ونكون من المؤمنين بها العاملين بمقتضاها حتى لا نرى هذا الموقف الهائل أو يكون
من فريق المؤمنين الناجين من العذاب الفائزين بحسن المآب ونصب الفعلين على جواب
التمني بإضمار أن بعد الواو وإجرائها مجرى الفاء ويؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه
وابن إسحق فلا نكذب والمعنى إن رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين وقيل ينسبك من أن
المصدرية ومن الفعل بعدها مصدر ويقدر قبله مصدر متوهم فيعطف هذا عليه
كأنه قيل ليت لنا رداً وانتفاء تكذيب وكوناً من المؤمنين وقرئ برفعهما على أنه كلام
مستأنف كقوله دعني ولا أعود أي وأنا لا أعود تركتني أو لم تتركني أو عطف على نرد أو حال
من ضميره فيكون داخلاً في حكم التمني كالوجه الأخير للنصب وتعلق التكذيب الآتي بما تضمنه
من العدة بالإيمان وعدم التكذيب كمن قال ليتني رزقت مالاً فأكافيك على صنيعك وبه
متمن في معنى الواعد فلو رزق مالاً ولم يكافئ صاحبه يكون مكذباً لا محالة وقرئ برفع
الأول ونصب الثاني وقد مر وجههما بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل إضراب
عما ينبئ عنه التمني من الوعد بتصديق الآيات والإيمان بها أي ليس ذلك عن عزيمة
صادقة ناشئة عن رغبة في الإيمان وشوق إلى تحصيله والاتصاف به لأنه ظهر لهم في
موقفهم ذلك ما كانوا يخفونه في الدنيا من الداهية الدهياء وظنوا أنهم مواقعوها
فلخوفها وهول مطلعها قالوا ما قالوا والمراد بها النار التي وقفوا عليها إذ هي التي سيق
الكلام لتهويل أمرها والتعجيب من فظاعة حال الموقوفين عليها وبإخفائها تكذيبهم
بها فإن التكذيب بالشيء كفر به وإخفاء له لا محالة وإيثاره على صريح التكذيب الوارد
في قوله عز وجل هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون وقوله تعالى هذه النار التي كنتم بها تكذبون
مع كونه أنسب بما قبله من قولهم ولا نكذب بآيات ربنا لمراعاة ما في مقابلته من البدو
هذا هو الذي يستدعيه جزالة النظم الكريم وأما ما قيل من أن المراد بما يخفون
كفرهم ومعاصيهم أو قبائحهم وفضائحهم التي كانوا يكتمونها من الناس فيظهر في صحفهم وبشهادة
جوارحهم عليهم أو شركهم الذي يجحدون به في بعض مواقف القيمة بقولهم والله
ربنا ما كنا مشركين ثم يظهر بما ذكر من شهادة الجوارح عليهم أو ما أخفاه رؤساء
الكفرة عن أتباعهم من أمر البعث والنشور أو ما كتمه علماء أهل الكتابين من صحة نبوة
النبي صلى الله عليه وسلم ونعوته الشريفة عن عوامهم على أن الضمير المجرور للعوام
والمرفوع للخواص أو كفرهم الذي أخفوه من المؤمنين والضمير المجرور للمؤمنين والمرفوع
للمنافقين فبعد الإغضاء عما في كل منها من الاعتساف والاختلال لا سبيل إلى شيء من ذلك
أصلاً لما عرفت من أن سوق النظم الشريف لتهويل أمر النار وتفظيع حال أهلها وقد
ذكر وقوفهم عليها وأشير إلى أنه اعتراهم عند ذلك من الخوف والخشية والحيرة
والدهشة ما لا يحيط به الوصف ورتب عليه تمنيهم المذكور بالفاء القاضية بسببية

ماقبلها لما بعدها باسقاط النار بعد ذلك من تلك السببية وهي في نفسها ادهى الدواهي
وازجر الزواجر واسنادها الى شيء من الامور المذكورة التي دونها في الهول والزجر مع
عدم جريان ذكرها ثمة امر يجب تنزيه ساحة التنزيل عن امثاله واما ما قيل من
ان المراد جزاء بما كانوا يخفون من قبل دخول البيت من ظهورها وابوابها مفتوحة
فتأمل ولو ردوا اي من موقفهم ذلك الى الدنيا حسبما تمنوه وغاب عنهم ما
شاهدوه من الاهوال لعادوا لما نهوا عنه من فنون القبائح التي من جملتها التكذيب
المذكور ونسوا ما عاينوه بالكلية لاقتصار انظارهم على الشاهد دون الغائب و
انهم لكاذبون اي لقوم ديدنهم الكذب في كل ما يأتون وما يذرون وقالوا عطف على
عادوا وداخل في حيز الجواب وتوسيط قوله تعالى وانهم لكاذبون بينهما لانه اعتراض مسوق
لتقرير ما افادته الشرطية من كذبهم المخصوص ولو أخر لاوهم ان المراد تكذيبهم في
انكارهم البعث والمعنى لو ردوا الى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وقالوا ان هي اي ما الحيوة
الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين بعد ما فارقنا هذه الحيوة كأن لم يروا ما رأوا
من الاحوال التي اولها البعث والنشور ولو ترى اذ وقفوا على ربهم الكلام فيه كالذي
مر في نظيره خلا ان الوقوف ههنا مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال كما يوقف العبد
الجاني بين يدي سيده للعقاب وقيل عرفوا ربهم حق التعريف وقيل وقفوا على جزاء ربهم
وقوله تعالى قال استيناف مبني على سؤال نشأ من الكلام السابق كأنه قيل فماذا قال
لهم ربهم اذ ذاك فقيل قال اليس هذا مشيرا الى ما شاهدوه من البعث وما يتبعه
من الامور العظام بالحق تعييرا لهم على تكذيبهم لذلك وقولهم عند سماع
ما يتعلق به ما هو بحق وما هو الا باطل قالوا استيناف كما سبق بلى وربنا اكدوا
اعترافهم باليمين اظهارا لكمال يقينهم بحقيته وايذانا بصدور ذلك عنهم بالرغبة
والنشاط طمعا في نفعه قال استيناف كما مر فذوقوا العذاب الذي عاينتموه والفاء
لترتيب التعذيب على اعترافهم بحقية ما كفروا به في الدنيا لكن لا على ان مدار التعذيب
هو اعترافهم بذلك بل هو كفرهم السابق بما اعترفوا بحقيته الآن كما نطق به قوله عز
وجل بما كنتم تكفرون اي بسبب كفركم في الدنيا بذلك او بكل ما يجب الايمان به فيدخل
كفرهم به دخولا اوليا ولعل هذا التوبيخ والتقريع انما يقع بعد ما وقفوا على النار
فقالوا ما قالوا اذ الظاهر انه لا يبقى بعد هذا الامر الا العذاب قد خسر الذين كذبوا
بلقاء الله هم الذين حكيت احوالهم لكن وضع الموصول موضع الضمير للايذان بسبب
خسرانهم بما في حيز الصلة من التكذيب بلقائه تعالى بقيام الساعة وما يترتب عليه
من البعث واحكامه المتفرعة عليه واستمرارهم على ذلك فان كلمة حتى في قوله
تعالى حتى اذا جاءتهم الساعة غاية لتكذيبهم لا لخسرانهم فانه ابدي لا حد له
بغتة البغت والبغتة مفاجأة الشيء بسرعة من غير شعور به يقال بغته بغتا
وبغتة اي فجأة وانتصابها اما على انها مصدر واقع موقع الحال من فاعل جاءتهم اي
مباغتة او من مفعوله اي مبغوتين واما على انه مصدر مؤكد على غير الصدر فان
جاءتهم في معنى بغتتهم كقولهم اتيته ركضا او مصدر مؤكد لفعل محذوف وقع
حالا من فاعل جاءتهم الساعة تبغتهم بغتة قالوا جواب اذا يا حسرتنا تعالي
فهذا اوانك والحسرة شدة الندم وهذا التحسر وان كان يعتريهم عند الموت لكن
لما كان ذلك من مبادي الساعة سمي باسمها ولذلك قال صلى الله عليه وسلم
من مات فقد قامت قيامته او جعل مجيء الساعة بعد الموت كالواقع بعد فترة لسرعته
على ما فرطنا فيها اي على تفريطنا في شأن الساعة وتقصيرنا في مراعاة حقها والاستعداد
لها بالايمان بها واكتساب الاعمال الصالحة كما في قوله تعالى على ما فرطت في جنب الله
وقيل الضمير للحيوة الدنيا وان لم يجر لها ذكر لكونها معلومة والتفريط التقصير في الشيء
مع القدرة على فعله وقيل هو التضييع وقيل الفرط السبق ومنه الفارط اي السابق
ومعنى فرط خلاه السبق لغيره فالتضعيف فيه للسلب كما في جلدت البعير وقوله تعالى وهم

يحملون

يحملون اوزارهم على ظهورهم حال من فاعل قالوا وفائدته الايذان بان عذابهم ليس
مقصورا على ما ذكر من الحسرة على ما فات وزال بل يقاسون مع ذلك تحمل الاوزار
الثقال والايماء الى ان تلك الحسرة من الشدة بحيث لا تزول ولا تنسى بما يكابدونه من
فنون العقوبات والسر في ذلك ان العذاب الروحاني اشد من الجسماني نعوذ برحمة الله
عز وجل منهما والوزر في الاصل الحمل الثقيل سمي به الاثم والذنب لغاية ثقله على صاحبه
وذكر الظهور كذكر الايدي في قوله تعالى فبما كسبت ايديكم فان المعتاد حمل الاثقال على
الظهور كما ان المألوف هو الكسب بالايدي والمعنى انهم يتحسرون على ما لم يعملوا من
الحسنات والحال انهم يحملون اوزار ما عملوا من السيئات الا ساء ما يزرون
تذييل مقرر لما قبله وتكملة له اي بئس شيئا يزرونه وزرهم وما الحيوة الدنيا الا لعب
ولهو لما حقق فيما سبق ان وراء الحيوة الدنيا حياة اخرى يلقون فيها من الخطوب ما
يلقون بين بعده حال تينك الحيوتين في انفسهما واللعب عمل يشغل النفس ويفترها عما
تنتفع به واللهو صرفها عن الجد الى الهزل والمعنى اما على حذف المضاف او على جعل
الحيوة الدنيا نفس اللعب واللهو مبالغة كما في قول الخنساء فانما هي اقبال وادبار اي
وما اعمال الدنيا اي الاعمال المتعلقة بها من حيث هي هي او وما هي من حيث انها محل لكسب
تلك الاعمال الا لعب يشغل الناس ويلهيهم بما فيه من منفعة سريعة الزوال ولذة
وشيكة الاضمحلال عما يعقبهم منفعة جليلة باقية ولذة حقيقية غير متناهية من
الايمان والعمل الصالح وللدار الآخرة التي هي محل الحيوة الاخرى خير للذين يتقون الكفر
والمعاصي لان منافعها خالصة عن المضار ولذاتها غير منغصة بالآلام مستمرة على الدوام
افلا تعقلون ذلك حتى تتقوا ما انتم عليه من الكفر والعصيان والفاء للعطف على مقدر
اي اتغفلون فلا تعقلون او الا تتفكرون فلا تعقلون وقرئ يعقلون على الغيبة قد نعلم
انه ليحزنك الذي يقولون استيناف مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن الحزن الذي يعتريه مما حكي من الكفرة من الاصرار على التكذيب والمبالغة فيه ببيان
انه عليه السلام بمكانة من الله عز وجل وان ما يقولون في حقه فهو راجع اليه تعالى
في الحقيقة وانه ينتقم منهم لا محالة اشد انتقام وكلمة قد لتأكيد العلم بما ذكر المفيد لتأكيد
الوعيد كما في قوله تعالى قد يعلم ما انتم عليه وقوله تعالى قد يعلم الله المعوقين ونحوهما
باخراجها الى معنى التكثير حسبما يخرج اليه ربما في مثل قوله وان تمس مهجور الفناء فربما
اقام به بعد الوفود وفود جريا على سنن العرب عند قصد الافراط في التكثير تقول لبعض
قواد العساكر كم عندك من الفرسان فيقول رب فارس عندي وعنده مقانب
جمة يريد بذلك التمادي في تكثير فرسانه ولكنه يريد اظهار براءته عن التزيد وابرازه
ممن يقلل كثير ما عنده فضلا عن تكثير القليل وعليه قوله عز وجل ربما يود الذين كفروا
لو كانوا مسلمين وهذه طريقة انما تسلك عند كون الامر من الوضوح بحيث لا يحوم
حوله شائبة ريب حقيقة كما في الآيات الكريمة المذكورة او ادعاء كما في البيت وقوله
قد اترك القرن مصفرا انامله وقوله ولكنه قد يهلك المال نائله والمراد بكثرة علمه
تعالى كثرة تعلقه وهو متعد الى اثنين وما بعده ساد مسدهما واسم ان ضمير الشأن وخبرها
الجملة المفسرة له والموصول فاعل يحزنك وعائده محذوف اي الذي يقولونه وهو ما
حكي عنهم من قولهم ان هذا الا اساطير الاولين ونحو ذلك وقرئ ليحزنك من احزن
المنقول من حزن اللازم وقوله تعالى فانهم لا يكذبونك تعليل لما يشعر به الكلام
السابق من النهي عن الاعتداد بما قالوا لكن بطريق التشاغل عنه وعدم المبالاة و
الاقبال التام على ما هو اهم منه من استعظام جحودهم بآيات الله عز وجل كما قيل
فانه مع كونه بمعزل من التسلية بالكلية مما يوهم كون حزنه صلى الله عليه وسلم لخاصة
نفسه بل بطريق التسلي بما يفيده من بلوغه عليه السلام في جلالة القدر ورفعة المحل
والزلفى من الله عز وجل الى حيث لا غاية وراءه حيث لم يقتصر على جعل تكذيبه عليه السلام تكذيبا
لآياته سبحانه على طريقة قوله تعالى من يطع الرسول فقد اطاع الله بل نفى تكذيبهم عنه عليه السلام و

واثبت لاياته تعالى على طريقة قوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ايذانا بكمال القرب واضمحلال شؤنه عليه السلام في شان الله عز وجل نعم فيه استعظام لجنايتهم مبنى عن عظم عتوهم كانه قيل لا تعتد به وكله الى الله تعالى فانهم في تكذيبهم ذلك لا يكذبونك في الحقيقة ولكن الظالمين بايات الله يجحدون اي ولكنهم بايات الله تعالى يكذبون فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالرسوخ في الظلم الذي جحودهم هذا فن من فنونه والالتفات الى الاسم الجليل لتربية المهابة واستعظام ما اقدموا عليه من جحود اياته تعالى وايراد الجحود في مورد التكذيب للايذان بان اياته تعالى من الوضوح بحيث يشاهد صدقها كل احد وان من ينكرها بطريق الجحود الذي هو عبارة عن الانكار مع العلم بخلافه كما في قوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم وهو المعنى المعني بقول من قال انه نفي ما في القلب ثباته او اثبات ما في القلب نفيه والباء متعلقة بيجحدون يقال جحده حقه وبحقه اذا انكره وهو يعلمه وقيل هي لتضمين الجحود معنى التكذيب واياما كان فتقديم الجار والمجرور للقصر وقيل المعنى فانهم لا يكذبونك بقلوبهم ولكنهم يجحدون بالسنتهم ويعضده ما روي من ان الاخنس بن شريق قال لابي جهل يا ابا الحكم اخبرني عن محمد اصادق هو ام كاذب فانه ليس عندنا احد غيرنا فقال له والله ان محمدا لصادق وما كذب قط ولكن اذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش فنزلت وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسمى الامين فعرفوا انه لا يكذب في شيء ولكنهم كانوا يجحدون وقيل فانهم لا يكذبونك لانك عندهم الصادق الموسوم بالصدق ولكنهم يجحدون بايات الله كما يروى ان ابا جهل كان يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما نكذبك وانك عندنا الصادق ولكنا نكذب ما جئتنا به فنزلت وكان صدق المخبر عند الخبيث بمطابقة خبره لاعتقاده والاول هو الذي يستدعيه الجزالة التنزيلية وقرئ لا يكذبونك من الاكذاب فقيل كلاهما بمعنى واحد ككثر واكثر وانزل ونزل وهو الاظهر وقيل معنى اكذبه وجده كاذبا ونقل عن الكسائي ان العرب يقول كذبت الرجل اي نسبت الكذب اليه واكذبته اي نسبت الكذب الى ما جاء به لا اليه وقوله تعالى ولقد كذبت رسل من قبلك افتنان في تسليته عليه السلام فان عموم البلية ربما يهون امرها بعض تهوين وارشاد له عليه السلام الى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام في الصبر على ما اصابهم من اممهم من فنون الاذية وعدة ضمنية له عليه السلام بمثل ما منحوه من النصر وتصدير الكلام بالقسم لتاكيد التسلية وتنوين رسل للتفخيم والتكثير ومن اما متعلقة بكذبت او بمحذوف وقع صفة لرسل اي وبالله لقد كذبت من قبل تكذيبك رسل اولو شان خطير وذوو عدد كثير او كذبت رسل كانوا من زمان قبل زمانك فصبروا على ما كذبوا ما مصدرية وقوله تعالى واوذوا عطف على كذبوا داخل في حكمه فانسبك منهما مصدران من المبني للمفعول اي فصبروا على تكذيبهم وايذائهم فتاس بهم واصطبر على ما نالك من قومك والمراد بايذائهم اما عين تكذيبهم واما ما يقارنه من فنون الايذاء لم يصرح به ثقة باستلزام التكذيب اياه غالبا واياما كان ففيه تاكيد للتسلية وقيل عطف على صبروا وقيل على كذبت وقيل هو استئناف وقوله تعالى حتى اتاهم نصرنا غاية للصبر وفيه ايذان بان نصره تعالى اياهم امر مقرر لا مرد له وان متوجه اليهم لا بد من اتيانه البتة والالتفات الى نون العظمة لابراز الاعتناء بشان النصر وقوله تعالى ولا مبدل لكلمات الله اعتراض مقرر لما قبله من اتيان نصره تعالى اياهم والمراد بكلماته تعالى ما ينبئ عنه قوله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون وقوله تعالى كتب الله لاغلبن انا ورسلي من المواعيد السابقة للرسل عليهم السلام الدالة على نصرة رسول الله ايضا لا نفس الايات المذكورة ونظائرها فان الاخبار بعدم تبدلها انما يفيد عدم تبدل المواعيد الواردة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة دون المواعيد السابقة للرسل عليهم السلام ويجوز

ان يراد بكلماته تعالى جميع كلماته التي من جملتها تلك المواعيد الكريمة ويدخل فيها المواعيد الواردة في حقه عليه السلام دخولا اوليا والالتفات الى الاسم الجليل للاشعار بعلة الحكم فان الالوهية من موجبات ان لا يغالبه احد في فعل من الافعال ولا يقع منه تعالى خلف في قول من الاقوال وقوله تعالى ولقد جاءك من نبأ المرسلين جملة قسمية جيء بها لتحقيق ما منحوا من النصر وتاكيد ما في ضمنه من الوعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لتقرير جميع ما ذكر من تكذيب الامم وما ترتب عليه من الامور والجار والمجرور في محل الرفع على انه فاعل اما باعتبار مضمونه اي بعض نبأ المرسلين او بتقدير الموصوف اي بعض من نبأ المرسلين كما مر في تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله الاية واياما كان فالمراد بنبئهم عليهم السلام على الاول نصره تعالى اياهم بعد اللتيا والتي وعلى الثاني جميع ما جرى بينهم عليهم السلام وبين اممهم على ما ينبئ عنه قوله تعالى ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء الاية وقيل في محل النصب على الحالية من المستكن في جاء العائد الى ما يفهم من الجملة السابقة اي ولقد جاءك هذا الخبر كائنا من نبأ المرسلين وان كان كبر عليك اعراضهم كلام مستانف مسوق لتاكيد ايجاب الصبر المستفاد من التسلية ببيان انه امر لا محيد عنه اصلا اي ان كان عظم عليك وشق اعراضهم عن الايمان بما جئت به من القرآن الكريم حسبما يفصح عنه ما حكي عنهم من تسميتهم له اساطير الاولين وتنائيهم عنه ونهيهم الناس عنه وقيل ان الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في محضر من قريش فقالوا يا محمد ائتنا باية من عند الله كما كانت الانبياء تفعل وانا نصدقك فابى الله ان ياتيهم باية مما اقترحوا فاعرضوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك عليه لما انه عليه السلام كان شديد الحرص على ايمان قومه فكان اذا سالوه آية يود ان ينزلها الله تعالى طمعا في ايمانهم فنزلت فقوله تعالى اعراضهم مرتفع بكبر وتقديم الجار والمجرور عليه لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر والجملة في محل النصب على انها خبر لكان مفسرة لاسمها الذي هو ضمير الشان ولا حاجة الى تقدير قد وقيل اسم كان اعراضهم وكبر جملة فعلية في محل النصب على انها خبر لها مقدم على اسمها لانه فعل رافع لضمير مستتر كما هو المشهور وعلى التقديرين فقوله عز وجل فان استطعت الخ شرطية اخرى محذوفة الجواب وقعت جوابا للشرط الاول والمعنى ان اشق عليك اعراضهم عن الايمان بما جئت به من البينات وعدم عدهم لها من قبيل الايات واحببت ان تجيبهم الى ما سالوه اقتراحا فان استطعت ان تبتغي نفقا اي سربا ومنفذا في الارض تنفذ فيه الى جوفها او سلما اي مصعدا في السماء تعرج به فيها فتاتيهم منهما باية مما اقترحوه فافعل وقد جوز ان يكون ابتغاؤهما نفس الاتيان باية فالفاء في فتاتيهم حينئذ تفسيرية وتنوين آية للتفخيم اي فان استطعت ان تبتغيهما فتجعل ذلك اية لهم فافعل والظرفان متعلقان بمحذوفين هما نعتان لنفقا وسلما والاول لمجرد التاكيد اذ النفق لا يكون الا في الارض او بتبتغي وقد جوز تعلقهما بمحذوف وقع حالا من فاعل تبتغي اي ان تبتغي نفقا كائنا انت في الارض او سلما كائنا في السماء وفيه من الدلالة على تبالغ حرصه عليه السلام على اسلام قومه وترامية الى حيث لو قدر على ان ياتي باية من تحت الارض او من فوق السماء لفعل رجاء لايمانهم ما لا يخفى وايثار الابتغاء على الاتخاذ ونحوه للايذان بان ما ذكر من النفق والسلم مما لا يستطاع ابتغاؤه فكيف باتخاذه ولو شاء الله لجمعهم على الهدى اي لو شاء الله تعالى ان يجمعهم على ما انتم عليه من الهدى لفعله بان يوفقهم للايمان فيؤمنوا معكم ولكن لم يشأ لعدم صرف اختيارهم الى جانب الهدى مع تمكنهم التام منه ومشاهدتهم للايات الداعية اليه لا انه تعالى لم يوفقهم له مع توجههم الى تحصيله وقيل ولو شاء الله لجمعهم عليه بان ياتيهم باية ملجئة اليه ولكن لم يفعله لخروجه عن الحكمة وقوله تعالى فلا تكونن من الجاهلين نهي لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان عليه

من الحرص الشديد على اسلامهم والميل الى اتيان ما يقترحونه من الآيات طمعاً في ايمانهم مرتب على بيان عدم تعلق مشيئته تعالى بهدايتهم والمعنى انه تعالى لم يشأ هدايتهم وايمانهم باحد الوجهين فلا تكونن بالحرص الشديد على اسلامهم او الميل الى نزول مقترحاتهم من الجاهلين بدقائق شؤونه تعالى التي من جملتها ما ذكر من عدم تعلق مشيئته تعالى بايمانهم اما اختياراً فلعدم توجههم اليه واما اضطراراً فلخروجه عن الحكمة التشريعية المؤسسة على الاختيار ويجوز ان يراد بالجاهلين على الوجه الثاني المقترحون ويراد بالنهي منعه صلى الله عليه وسلم من المساعدة على اقتراحهم وايرادهم بعنوان الجهل دون الكفر ونحوه لتحقيق مناط النهي الذي هو الوصف الجامع منه عليه السلام وبينهم انما يستجيب الذين يسمعون تقرير لما مر من ان على قلوبهم اكنة مانعة من الفقه وفي آذانهم وقراً حاجزاً من السماع وتحقيق لكونهم بذلك من قبيل الموتى لا يتصور منهم الايمان البتة والاستجابة الاجابة المقارنة للقبول اي انما يقبل دعوتك الى الايمان الذين يسمعون ما يلقى اليهم سماع فهم وتدبر دون الموتى الذين هؤلاء منهم كقوله تعالى انك لا تسمع الموتى وقوله تعالى والموتى يبعثهم الله تمثيل لاختصاصه تعالى بالقدرة على توفيقهم للايمان باختصاصه تعالى بالقدرة على بعث الموتى من القبور وقيل بيان لاستمرارهم على الكفر وعدم اقلاعهم عنه اصلا على ان الموتى مستعار للكفرة بناء على تشبيه جهلهم بموتهم اي وهؤلاء الكفرة يبعثهم الله تعالى من قبورهم ثم اليه يرجعون للجزاء فحينئذ يستجيبون واما قبل ذلك فلا سبيل اليه وقرئ يرجعون على البناء للفاعل من رجع رجوعاً والمشهور اوفق بالمقام لانبائه عن كون مرجعهم اليه تعالى بطريق الاضطرار وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه حكاية لبعض آخر من اباطيلهم بعد حكاية ما قالوا في حق القرآن الكريم وبيان ما يتعلق به والقائلون رؤساء قريش وقيل الحارث بن عامر بن نوفل واصحابه ولقد بلغت بهم الضلالة والطغيان الى حيث لم يقنعوا بما شاهدوا من البينات التي تخر لها صم الجبال حتى اجترؤوا على ادعاء انها ليست من قبيل الآيات وانما هي ما اقترحوه من الخوارق الملجئة او المعقبة للعذاب كما قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء الآية والتنزيل بمعنى الانزال كما ينبئ عنه القراءة بالتخفيف فيما سيأتي وما يفيده التعرض لعنوان ربوبيته تعالى له عليه السلام من الاشعار بالعلية انما هو بطريق التعريض بالتهكم من جهتهم واطلاق الآية في قوله تعالى قل ان الله قادر على ان ينزل آية مع ان المراد بها ما هو من الخوارق المذكورة لا آية من الآيات لفساد المعنى مجاراة معهم على زعمهم ويجوز ان يراد بها آية موجبة لهلاكهم كانزال ملائكة العذاب ونحوه على ان تنوينها للتفخيم والتهويل كما ان اظهار الاسم الجليل لتربية المهابة مع ما فيه من الاشعار بعلة القدرة الباهرة والاقتصار في الجواب على بيان قدرته تعالى على تنزيلها مع انها ليست في حيز الانكار للايذان بان عدم تنزيله تعالى اياها مع قدرته عليه لحكمة بالغة يجب معرفتها وهم عنها غافلون كما ينبئ عنه الاستدراك بقوله تعالى ولكن اكثرهم لا يعلمون اي ليسوا من اهل العلم على ان المفعول مطروح بالكلية او لا يعلمون شيئاً على انه محذوف مدلول عليه بقرينة المقام والمعنى انه تعالى قادر على ان ينزل آية من ذلك او آية واي آية ولكن اكثرهم لا يعلمون فلا يدرون ان عدم تنزيلها مع ظهور قدرته عليه لما ان في تنزيلها قلعاً للاساس التكليف المبني على قاعدة الاختيار او استيصالا لهم بالكلية فيقترحونها جهلاً ويتخذون عدم تنزيلها ذريعة الى التكذيب وتخصيص عدم العلم باكثرهم لما ان بعضهم واقفون على حقيقة الحال وانما يفعلون ما يفعلون مكابرة وعناداً وقوله تعالى وما من دابة في الارض الخ كلام مستأنف مسوق لبيان كمال قدرته عز وجل وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على انه تعالى قادر على تنزيل الآية وانما لا ينزلها محافظة على الحكم البالغة وزيادة من لتأكيد الاستغراق وفي متعلقة بمحذوف هو وصف لدابة مفيد لزيادة التعميم كانه قيل وما فرد من افراد الدواب

لبستقر في قطر من اقطار الارض وكذا زيادة الوصف في قوله تعالى ولا طائر يطير بجناحيه مع ما فيه من زيادة التقرير اي ولا طائر من الطيور يطير في ناحية من نواحي الجو بجناحيه كما هو المشاهد المعتاد وقرئ ولا طائر بالرفع عطفاً على محل الجار والمجرور كانه قيل وما دابة ولا طائر الا امم اي طوائف متخالفة والجمع باعتبار المعنى كانه قيل وما من دواب ولا طير الا امم امثالكم اي كل امة منها مثلكم في ان احوالها محفوظة وامورها مقننة ومصالحها مرعية جارية على سنن السداد منتظمة في سلك التقديرات الالهية والتدبيرات الربانية ما فرطنا في الكتاب من شيء يقال فرط الشيء اي ضيعه وتركه ولا يفارقه ويقال فرط في الشيء اي اهمل ما ينبغي ان يكون فيه واغفله فقوله تعالى في الكتاب اي القرآن على الاول ظرف لغو وقوله تعالى من شيء مفعول لفرطنا ومن مزيدة للاستغراق اي ما تركنا في القرآن شيئاً من الاشياء المهمة التي من جملتها بيان انه تعالى مراع لمصالح جميع مخلوقاته على ما ينبغي وعلى الثاني مفعول للفعل ومن شيء في موضع المصدر اي ما جعلنا الكتاب مفرطاً فيه شيئاً من التفريط بل ذكرنا فيه كل ما لا بد من ذكره واياً ما كان فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها وقيل الكتاب اللوح فالمراد بالاعتراض الاشارة الى ان احوال الامم مستقصاة في اللوح غير مقصورة على هذا القدر المجمل وقرئ فرطنا بالتخفيف قوله تعالى ثم الى ربهم يحشرون بيان لاحوال الامم المذكورة في الآخرة بعد بيان احوالها في الدنيا وايراد ضميرها على صيغة جمع العقلاء لاجرائها مجراهم والتعبير عنها بالامم اي الى مالك امورهم يحشرون يوم القيامة كما يحشر الكل لا الى غيره فيجازيهم فينصف بعضهم من بعض حتى يبلغ من عدله ان يأخذ للجماء من القرناء وقيل حشرها موتها ويأباه مقام تهويل الخطب وتفظيع الحال وقوله تعالى والذين كذبوا بآياتنا متعلق بقوله تعالى ما فرطنا في الكتاب من شيء والموصول عبارة عن المعهودين في قوله تعالى ومنهم من يستمع اليك الآيات ومحله الرفع على الابتداء خبره ما بعده اي اوردنا في القرآن جميع الامور المهمة وازحنا به العلل والاعذار والذين كذبوا بآياتنا التي هي منه صم لا يسمعونها سمع تدبر وفهم فلذلك يسمونها اساطير الاولين ولا يعدونها من الآيات ويقترحون غيرها وبكم لا يقدرون على ان ينطقوا بالحق ولذلك لا يستجيبون دعوتك بها وقوله تعالى في الظلمات اي في ظلمات الكفر او ظلمات الجهل والعناد والتقليد اما خبر ثان للمبتدأ على انه عبارة عن العمى كما في قوله تعالى صم بكم عمي واما متعلق بمحذوف وقع حالاً من المستكن في الخبر كانه قيل ضالون كائنين في الظلمات او صفة لبكم اي بكم كائنون في الظلمات والمراد به بيان كمال عراقتهم في الجهل وسوء الحال فان الاصم الابكم اذا كان بصيراً ربما يفهم شيئاً باشارة غيره وان لم يفهمه بعبارته وكذا يشعر غيره بما في ضميره بالاشارة وان كان معزولاً من العبارة واما اذا كان مع ذلك اعمى او كان في الظلمات فينسد عليه باب الفهم والتفهيم بالكلية وقوله تعالى من يشأ الله يضلله تحقيق للحق وتقرير لما سبق من حالهم ببيان انهم من اهل الطبع لا يتأتى منهم الايمان اصلا فمن مبتدأ خبره ما بعده ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة من وقوعها شرطاً وكون مفعولها مضمون الجزاء وانتفاء الغرابة في تعلقها به اي من يشأ الله اضلاله اي ان يخلق فيه الضلال يضلله اي يخلقه فيه لكن لا ابتداء بطريق الجبر من غير ان يكون له دخل ما في ذلك بل عند صرف اختياره الى كسبه وتحصيله وقس عليه قوله تعالى ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم لا يضل من ذهب اليه ولا يزل من ثبت قدمه عليه قل أرأيتكم امر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بان يبكتهم ويلقمهم الحجر بما لا سبيل لهم الى النكير والكاف حرف جيء به لتأكيد الخطاب لا محل له من الاعراب ومبنى التركيب وان كان على الاستخبار عن الرؤية قلبية كانت او بصرية لكن المراد به الاستخبار عن متعلقها اي اخبروني ان اتاكم عذاب الله حسبما اتى الامم السالفة من انواع العذاب الدنيوي او اتتكم الساعة التي لا محيص

عنها البتة أغير الله تدعون هذا مناط الاستخبار ومحط التبكيت وقوله تعالى إن كنتم صادقين متعلق بأرأيتكم مؤكد للتبكيت كاشف عن كذبهم وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أي إن كنتم صادقين في أن أصنامكم آلهة كما أنها دعواكم المعروفة أو إن كنتم قوما صادقين فأخبروني أغير الله تدعون إن أتاكم عذاب الله فإن صدقهم بأي معنى كان من موجبات إخبارهم بدعائهم غيره سبحانه وأما جعل الجواب ما يدل عليه قوله تعالى أغير الله تدعون أعني فادعوه على أن الضمير لغير الله فمخل بجزالة النظم الكريم كيف لا والمطلوب منهم إنما هو الإخبار بدعائهم غيره تعالى عند إتيان ما يأتي لا نفس دعائهم إياه وقوله تعالى بل إياه تدعون عطف على جملة منفية ينبئ عنها الجملة التي تعلق بها الاستخبار إنباء جليا كأنه قيل لا غيره تعالى تدعون بل إياه تدعون وقوله تعالى فيكشف ما تدعون إليه أي إلى كشفه عطف على تدعون أي فيكشف إثر دعائكم وقوله تعالى إن شاء أي إن شاء كشفه لبيان أن قبول دعائهم غير مطرد بل هو تابع لمشيئته المبنية على حكم خفية قد استأثر الله تعالى بعلمها فقد يقبله كما في بعض دعواتهم المتعلقة بكشف العذاب الدنيوي وقد لا يقبله كما في بعض آخر منها وفي جميع ما يتعلق بكشف العذاب الأخروي الذي من جملته الساعة وقوله تعالى وتنسون ما تشركون أي تتركون ما تشركونه به تعالى من الأصنام تركا كليا عطف على تدعون أيضا وتوسيط الكشف بينهما مع تقارنهما وتأخر الكشف عنهما لإظهار كمال العناية بشأن الكشف والإيذان بترتبه على الدعاء خاصة وقوله تعالى ولقد أرسلنا كلام مستأنف مسوق لبيان أن منهم من لا يدعو الله تعالى عند إتيان العذاب أيضا لتماديهم في الغي والضلال لا يتأثرون بالزواجر التكوينية كما لا يتأثرون بالزواجر التنزيلية وتصديره بالجملة القسمية لإظهار مزيد الاهتمام بمضمونه ومفعول أرسلنا محذوف لما أن مقتضى المقام بيان حال المرسل إليهم لا حال المرسلين أي وبالله لقد أرسلنا رسلا إلى أمم كثيرة من قبلك أي كائنة من زمان قبل زمانك فأخذناهم أي فكذبوا رسلهم فأخذناهم بالبأساء أي بالشدة والفقر والضراء أي الضر والآفات وهما صيغتا تأنيث لا مذكر لهما لعلهم يتضرعون أي لكي يدعوا الله تعالى في كشفها بالتضرع والتذلل ويتوبوا إليه من كفرهم ومعاصيهم فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا أي فلم يتضرعوا حينئذ مع تحقق ما يستدعيه ولكن قست قلوبهم استدراك عما قبله أي فلم يتضرعوا إليه تعالى برقة القلب والخضوع مع تحقق ما يدعوهم إليه ولكن ظهر منهم نقيضه حيث قست قلوبهم أي استمرت على ما هي عليه من القساوة أو ازدادت قساوة كقولك لم يكرمني إذ جئته ولكن أهانني وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون من الكفر والمعاصي فلم يخطروا ببالهم أن ما اعتراهم من البأساء والضراء ما اعتراهم إلا لأجله وقيل الاستدراك لبيان أنه لم يكن لهم في ترك التضرع عذر سوى قسوة قلوبهم والإعجاب بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم وقوله تعالى فلما نسوا ما ذكروا به عطف على مقدر ينساق إليه النظم الكريم أي فانهمكوا فيه ونسوا ما ذكروا به من البأساء والضراء فلما نسوه فتحنا عليهم أبواب كل شيء من فنون النعماء على منهاج الاستدراج لما روي أنه عليه السلام قال مكر بالقوم ورب الكعبة وقرئ فتحنا بالتشديد للتكثير وفي ترتيب الفتح على النسيان المذكور إشعار بأن التذكير في الجملة غير خال عن النفع وحتى في قوله تعالى حتى إذا فرحوا بما أوتوا هي التي يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية كما في قوله تعالى حتى إذا جاء أمرنا الآية ونظائره وهي مع ذلك غاية لقوله تعالى فتحنا أو لما يدل هو عليه كأنه قيل ففعلوا ما فعلوا حتى إذا اطمأنوا بما أتيح لهم وبطروا وأشروا أخذناهم بغتة أي نزل بهم عذابنا فجاءة ليكون أشد عليهم وقعا وأفظع هولا فإذا هم مبلسون متحسرون غاية الحسرة آيسون من كل خير واجمون وفي الجملة الاسمية دلالة على استقرارهم على تلك الحالة الفظيعة فقطع دابر القوم الذين ظلموا أي آخرهم بحيث لم يبق منهم أحد من دبره دبرا ودبورا أي تبعه و

ووضع

وضع الظاهر موضع الضمير للإشعار بعلة الحكم فإن هلاكهم بسبب ظلمهم الذي هو وضع الكفر موضع الشكر وإقامة المعاصي مقام الطاعات والحمد لله رب العالمين على ما جرى عليهم من النكال فإن إهلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الخبيثة نعمة جليلة مستجلبة للحمد لا سيما مع ما فيه من إعلاء كلمة الحق التي نطقت بها رسلهم عليهم السلام قل أرأيتم أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتكرير التبكيت عليهم وتثنية الإلزام بعد تكملة الإلزام الأول ببيان أنه أمر مستمر لم يزل جاريا في الأمم وهذا أيضا استخبار عن متعلق الرؤية وإن كان بحسب الظاهر استخبارا عن نفس الرؤية إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم بأن أصمكم وأعماكم بالكلية وختم على قلوبكم بأن غطى عليها بما لا يبقى لكم معه عقل وفهم أصلا وتصيرون مجانين ويجوز أن يكون الختم عطفا تفسيريا للأخذ المذكور فإن السمع والبصر طريقان للقلب منهما يرد ما يرد من المدركات فأخذهما سد لبابه بالكلية وهو السر في تقديم أخذهما على ختمها وأما تقديم السمع على الإبصار فلأنه مورد الآيات القرآنية وإفراده لما أن أصله مصدر وقوله تعالى من إله مبتدأ وخبر ومن استفهامية وقوله تعالى غير الله صفة للخبر وقوله تعالى يأتيكم به أي بذلك على أن الضمير مستعار لاسم الإشارة أو بما أخذ وختم عليه صفة أخرى له والجملة متعلق الرؤية ومناط الاستخبار أي أخبروني إن سلب الله مشاعركم من إله غيره تعالى يأتيكم بها وقوله تعالى انظر كيف نصرف الآيات تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة أي انظر كيف نكررها ونقررها مصروفة من أسلوب إلى أسلوب تارة بترتيب المقدمات العقلية وتارة بطريق الترغيب والترهيب وتارة بالتنبيه والتذكير ثم هم يصدفون عطف على نصرف داخل في حكمه وهو العمدة في التعجيب وثم لاستبعاد صدوفهم أي إعراضهم عن تلك الآيات بعد تصريفها على هذا النمط البديع الموجب للإقبال عليها قل أرأيتكم تبكيت آخر لهم بإلجائهم إلى الاعتراف باختصاص العذاب بهم إن أتاكم عذاب الله أي عذابه العاجل الخاص بكم كما أتى من قبلكم من الأمم بغتة أي فجاءة من غير أن يظهر منه مخايل الإتيان وحيث تضمن هذا معنى الخفية قوبل بقوله تعالى أو جهرة أي بعد ظهور أماراته وعلاماته وقيل ليلا أو نهارا كما في قوله تعالى بياتا أو نهارا لما أن الغالب فيما أتى ليلا البغتة وفيما أتى نهارا الجهرة وقرئ بغتة وجهرة وهما في موضع المصدر أي إتيان بغتة أو إتيان جهرة وتقديم البغتة لكونها أهول وأفظع وقوله تعالى هل يهلك متعلق الاستخبار والاستفهام للتقرير أي قل لهم تقريرا لهم باختصاص الهلاك بهم أخبروني إن أتاكم عذابه تعالى حسبما تستحقونه هل يهلك بذلك العذاب إلا أنتم أي هل يهلك غيركم ممن لا يستحقه وإنما وضع موضعه إلا القوم الظالمون تسجيلا عليهم بالظلم وإيذانا بأن مناط إهلاكهم ظلمهم الذي هو وضعهم الكفر موضع الإيمان وقيل المراد بالظالمين الجنس وهم داخلون في الحكم دخولا أوليا قال الزجاج هل يهلك إلا أنتم ومن أشبهكم ويأباه تخصيص الإتيان بهم وقيل الاستفهام بمعنى النفي فمتعلق الاستخبار حينئذ محذوف كأنه قيل أخبروني إن أتاكم عذابه تعالى بغتة أو جهرة ماذا يكون الحال ثم قيل بيانا لذلك ما يهلك إلا القوم الظالمون أي ما يهلك بذلك العذاب الخاص بكم إلا أنتم فمن قيد الهلاك بهلاك التعذيب والسخط لتحقيق الحصر بإخراج غير الظالمين لما أنه ليس بطريق التعذيب والسخط بل بطريق الإثابة ورفع الدرجة فقد اعتمد ما يجد به اشتغالا بما لا يعنيه داخلة بجزالة النظم الكريم وقرئ هل يهلك من الثلاثي وما نرسل المرسلين كلام مستأنف مسوق لبيان وظائف منصب الرسالة على الإطلاق وتحقيق ما في عهدة الرسل عليهم السلام وإظهار أن ما يقترحه الكفرة عليه عليه السلام ليس مما يتعلق بالرسالة أصلا وصيغة المضارع لبيان أن ذلك أمر مستمر جرت عليه العادة الإلهية وقوله تعالى إلا مبشرين ومنذرين حالان مقدرتان

من المرسلين اى ما نرسلهم الا مقدرين تبشيرهم وانذارهم ففيهما معنى العلة الغائية قطعا
اي ليبشروا قومهم بالثواب على الطاعة وينذروهم بالعقاب على المعصية اي ليخبروهم
بالخبر السار والخبر الضار دينيا كان او دنيويا من غير ان يكون لهم دخل ما فى وقوع
المخبر به اصلا وعليه يدور القصر والالزم ان لا يكون بيان الشرايع والاحكام من وظايف
الرسالة والفاء فى قوله تعالى فمن امن واصلح لترتيب ما بعدها على ما
قبلها ومن موصولة والفاء فى قوله تعالى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون لشبه
الموصول بالشرط اى لا خوف عليهم من العذاب الذي انذروه دنيويا كان او اخرويا
ولا هم يحزنون بفوات ما بشروا به من الثواب العاجل والاجل وتقديم نفى الخوف
على نفى الحزن لمراعاة حق المقام وجمع ضماير الثلاثة الراجعة الى من باعتبار معناها
كما ان افراد الضميرين السابقين باعتبار لفظها اى لا يعتريهم ما يوجب ذلك لا انه
يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون والمراد بيان انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما
كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا فان لما تقرر فى موضعه من ان النفى وان دخل
على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام الا يرى ان الجملة الاسمية
تدل بمعونة المقام على استمرار الثبوت فاذا دخل عليها حرف النفى دلت على استمرار الانتفاء
لا على انتفاء الاستمرار كذلك المضارع الخالى عن حرف النفى يفيد استمرار الثبوت فاذا دخل
عليه حرف النفى يفيد استمرار الانتفاء لا انتفاء الاستمرار ولا بعد فى ذلك فان قولك ما زيد
ضربت مفيد لاختصاص النفى لا لنفى الاختصاص كما بين فى محله وقوله عز وجل
والذين كذبوا عطف على من امن داخل فى حكمه وقوله تعالى باياتنا اشارة الى ان ما
ينطق به الرسل عليهم السلام عند التبشير والانذار ويبلغونه الى الامم ايات الله تعالى
وان من امن به فقد امن باياته تعالى ومن كذب به فقد كذب بها وفيه من الترغيب
فى الايمان به والتحذير عن تكذيبه ما لا يخفى والمعنى ما نرسل المرسلين الا ليخبروا اممهم
من جهتنا بما سيقع منا من الامور السارة والضارة لا ليوقعوها استقلالا من
تلقاء انفسهم او استدعاء من قبلنا حتى يقترحوا عليهم ما يقترحون فاذا كان
الامر كذلك فمن امن بما اخبروا به من قبلنا تبشيرا او انذارا فى ضمن اياتنا واصلح
ما يجب اصلاحه من اعماله او ادخل فى الصلاح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون
والذين كذبوا باياتنا التى بلغوها عند التبشير والانذار يمسهم العذاب اي العذاب
الذي انذروه عاجلا او اجلا او حقيقة العذاب وجنسه المنتظر له انتظاما اوليا
بما كانوا يفسقون اى بسبب فسقهم المستمر الذي هو الاصرار على الخروج عن
التصديق والطاعة قل لا اقول لكم عندي خزاين الله استيناف مبنى على ما
اسس من السنة الالهية فى شان ارسال الرسل وانزال الكتب مسوق لاظهار
تبريه عليه السلام عما يدور عليه مقترحاتهم اى قل للكفرة الذين يقترحون
عليك تارة تنزيل الايات واخرى غير ذلك لا ادعى ان خزاين مقدوراته
تعالى مفوضة الى اتصرف فيها كيف ما اشاء استقلالا او استدعاء حتى اقترحوا
على تنزيل الايات او انزال العذاب او قلب الجبال ذهبا او غير ذلك مما لا يليق بشانى
وجعل هذا تبرا عن دعوى الالهية مما لا وجه له قطعا وقوله تعالى ولا اعلم
الغيب عطف على محل عندى خزاين الله اى ولا ادعى ايضا انى اعلم الغيب من افعاله
تعالى حتى تسالونى عن وقت الساعة او وقت نزول العذاب او نحوهما ولا اقول
لكم انى ملك حتى تكلفونى من الافاعيل الخارقة للعادات ما لا يطيق
به البشر من الرقى فى السماء ونحوه او تعدوا عدم اتصافى بصفاتهم قادحا فى امري
كما ينبئ عنه قولهم مال هذا الرسول ياكل الطعام ويمشى فى الاسواق والمعنى
انى لا ادعى شيئا من هذه الاشياء الثلاثة حتى تقترحوا على ما هو من اثارها و
احكامها وتجعلوا عدم اجابتى الى ذلك دليلا على عدم صحة ما ادعيه من الرسالة
التى لا تعلق لها بشئ مما ذكر قطعا بل انما هي عبارة عن تلقى الوحى من جهة الله عز

وجل

وجل والعمل بمقتضاه فحسب حسبما ينبئ عنه قوله تعالى ان اتبع الا ما يوحى الى لا على معنى
تخصيص اتباعه عليه السلام بما يوحى اليه دون غيره بتوجيه القصر الى المفعول بالقياس
الى مفعول آخر كما هو الاستعمال الشايع الوارد على توجيه القصر الى ما يتعلق بالفعل
باعتبار النفى فى الاصل والاثبات فى القيد بل على معنى تخصيص حاله عليه السلام باتباع
ما يوحى اليه بتوجيه القصر الى نفس الفعل بالقياس الى ما يغايره من الافعال لكن لا
باعتبار النفى والاثبات معا فى خصوصيته فان ذلك غير ممكن قطعا بل باعتبار النفى
فيما يتضمنه من مطلق الفعل والاثبات فيما يقارنه من المعنى المخصوص فان كل فعل من
الافعال الخاصة كنصر مثلا ينحل عند التحقيق الى معنى مطلق هو مدلول لفظ الفعل والى معنى
خاص يقومه فان معناه فعل النصر يرشدك الى ذلك قولهم معنى فلان يعطى ويمنع
يفعل الاعطاء والمنع فمورد القصر فى الحقيقة ما يتعلق بالفعل بتوجيه النفى الى الاصل
والاثبات الى القيد كانه قيل ما افعل الا اتباع ما يوحى الى من غير ان يكون لى مدخل ما فى
الوحي او فى الموحى بطريق الاستدعاء او بوجه آخر من الوجوه اصلا قل هل يستوى الاعمى
والبصير مثل للضال والمهتدي على الاطلاق والاستفهام انكارى والمراد
انكار استواء من لا يعلم ما ذكر من الحقايق ومن يعلمها وفيه من الاشعار بكمال
ظهورها من ومن التنفير عن الضلال والترغيب فى الاهتداء ما لا يخفى وتكرير الامر
لتثنية التبكيت وتاكيد الالزام وقوله تعالى افلا تتفكرون تقريع وتوبيخ داخل تحت الامر
والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى الا تسمعون هذا الكلام الحق فلا تتفكرون
فيه او اتسمعونه فلا تتفكرون فيه فمناط التوبيخ فى الاول عدم الامرين معا وفى
الثانى عدم التفكر مع تحقق ما يوجبه وانذر به الذين يخافون ان يحشروا
الى ربهم بعد ما حكى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان من الكفرة قوما لا يتعظون
بتصريف الآيات الباهرة ولا يتاثرون بمشاهدة المعجزات القاهرة قد ابغت
مشاهرهم بالكلية والتحقوا بالاموات وقرر ذلك بان كرر عليهم من فنون
التبكيت والالزام ما يلقمهم الحجر القام فابوا الا الاباء والنكير وما نجع فيهم
عظة ولا تذكير وما افادهم الانذار الا الاصرار على الانكار امر صلى الله عليه
وسلم بتوجيه الانذار الى من يتوقع منهم التاثر فى الجملة وهم المجوزون
منهم للحشر على الوجه الآتى سواء كانوا جازمين باصله كاهل الكتاب وبعض
المشركين المعترفين بالبعث المترددين فى شفاعة ابائهم الانبياء كالاولين او فى
شفاعة الاصنام كالآخرين او مترددين فيهما معا كبعض الكفرة الذين يعلم من
حالهم انهم اذا سمعوا بحديث البعث يخافون ان يكون حقا واما المنكرون للحشر
راسا والقايلون به القاطعون بشفاعة ابائهم او لشفاعة الاصنام فهم خارجون
ممن امر بانذارهم وقد قيل هم المفرطون فى الاعمال من المؤمنين ولا يساعده
سياق النظم الكريم ولا سياقه بل فيه ما يقضى باستحالة صحته كما ستقف عليه
والضمير المجرور لما يوحى او لما دل هو عليه من القران والمفعول الثانى للانذار اما
العذاب الاخروي المدلول عليه بما فى حيز الصلة واما مطلق العذاب الذي ورد به
الوعيد والتعرض لعنوان الربوبية المنبية عن المالكية المطلقة والتصرف الكلى لتربية
المهابة وتحقيق المخافة وقوله تعالى ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع فى حيز
النصب على الحالية من ضمير يحشروا ومن متعلقة بمحذوف وقع حالا من اسم ليس لانه
فى الاصل صفة له فلما قدم عليه انتصب حالا اى ان الحال الاولى لاخراج الحشر الذي لم يقيد
بها عن خير الخوف هو الحشر على تلك الحالة لا للحشر كيف ما كان ضرورة ان المعترفين به
الجازمين بنصرة غيره تعالى بمنزلة المنكرين له فى عدم الخوف الذي عليه يدور امر الانذار
واما الحال الثانية فليست لاخراج الولى الذي لم يتقيد بها من حيز الانتفاء لفساد المعنى
لاستلزامه ثبوت ولاية تعالى لهم كما فى قوله تعالى وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير
بل لتحقيق مدار خوفهم وهو فقد ان ما علقوا به رجاهم وذلك انما هو ولاية

غيره سبحانه وتعالى كما في قوله تعالى ومن لم يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض وليس له من
دونه اولياء والمعنى انذر به الذين يخافون ان يحشروا غير منصورين من جهة
انصارهم على زعمهم وعن هذا اتضح ان لا سبيل الى كون المراد بالخائفين المفرطين
من المؤمنين اذ ليس لهم ولي سواه تعالى ليخافوا الحشر بدون نصرته وانما الذي
يخافونه الحشر بدون نصرته عز وجل وقوله تعالى لعلهم يتقون تعليل للامر
اي انذرهم لكي يتقوا الكفر والمعاصي او حال من ضمير الامر اي انذرهم راجيا
تقواهم او من الموصول اي انذرهم حال كونهم راجين منهم التقوى ولا تطرد الذين
يدعون ربهم بالغداة والعشي لما امر عليه السلام بانذار المذكورين لينتظموا
في سلك المتقين نهي عليه السلام عن كون ذلك بحيث يؤدي الى طردهم روي ان رؤسا
من المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو طردت هؤلاء الاعبد وارواح
جبابهم يعنون فقراء المسلمين كعمار وصهيب وخباب وسلمان واضرابهم جلسنا
اليك وحادثنا فقال عليه السلام ما انا بطارد المؤمنين فقالوا فاقمهم عنا اذا
جئنا فاذا قمنا فاقعدهم معك ان شئت قال عليه السلام نعم طمعا في ايمانهم وروي
ان عمر رضي الله عنه قال له عليه السلام لو فعلت حتى ننظر الى ما يصيرون وقيل ان عتبة
بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدي والحارث بن نوفل وقرظة بن عبد
وعمرو بن نوفل واشراف بني عبد مناف من اهل الكفر اتوا ابا طالب فقالوا يا ابا طالب لو
ان ابن اخيك محمدا يطرد موالينا وحلفاءنا فهم عبيدنا وعتقاؤنا كان اعظم في
صدورنا وادنى لاتباعنا اياه فاتى ابو طالب الى النبي صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذي
كلموه فقال عمر رضي الله عنه فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون والى ما يصيرون
وقال سلمان وخباب فينا نزلت هذه الآية جاء الاقرع بن حابس التميمي وعيينة بن
حصن الفزاري وعباس بن مرداس وذووهم من المؤلفة قلوبهم فوجدوا النبي
صلى الله عليه وسلم جالسا مع ناس من ضعفاء المؤمنين فلما راوهم حوله عليه السلام
حقروهم فاتوه عليه السلام فقالوا يا رسول الله لو جلست في صدر المسجد ونفيت
عنا هؤلاء وارواح جبابهم فجالسناك وحادثناك واخذنا عنك فقال عليه السلام
ما انا بطارد المؤمنين قالوا فانا نحب ان تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا
فان وفود العرب تاتيك فنستحيي ان ترانا مع هؤلاء الاعبد فاذا نحن جئناك فاقمهم
عنا فاذا نحن فرغنا فاقعد معهم ان شئت قال عليه السلام نعم قالوا فاكتب لنا
كتابا فاتى بالصحيفة وبعلي رضي الله عنه ليكتب ونحن قعود في ناحية فنزل جبريل
عليه السلام بالآية فرمى عليه السلام بالصحيفة ودعانا فاتيناه وجلسنا عنده وكنا
ندنو منه حتى تمس ركبتنا ركبته وكان يقوم عنا اذا اراد القيام فنزلت واصبر
نفسك مع الذين يدعون ربهم فترك القيام عنا الى ان نقوم عنه وقال الحمد لله الذي
لم يمتني حتى امرني ان اصبر نفسي مع قوم من امتي معكم المحيا والممات والمراد بذكر
الوقتين الدوام وقيل صلوة الفجر والعصر وقرئ بالغدوة وقوله تعالى يريدون
وجهه حال من ضمير يدعون اي يدعونه تعالى مخلصين له فيه وتقييده به لتاكيد
عليته للنهي فان الاخلاص من اقوى موجبات الاكرام المضاد للطرد وقوله تعالى
ما عليك من حسابهم من شيء اعتراض وسط بين النهي وجوابه تقريرا له ودفعا
لما عسى يتوهم كونه مسوغا لطردهم من اقاويل الطاعنين في دينهم كدأب قوم
نوح حيث قالوا ما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادي الراي اي ما عليك شيء
ما من حساب ايمانهم واعمالهم الباطنة حتى تتصدى له وتبني على ذلك ما تراه من
الاحكام وانما وظيفتك حسبما هو شان منصب النبوة اعتبار ظواهر الاعمال واجراء
الاحكام على موجبها واما بواطن الامور فحسابها على العليم بذات الصدور كقوله
تعالى ان حسابهم الا على ربي وذكر قوله تعالى وما من حسابك عليهم من شيء مع
ان الجواب قد تم بما قبله للمبالغة في انتفاء كون حسابهم عليه عليه السلام بنظمه في سلك

ما لا شبهة فيه اصلا وهو انتفاء كون حسابه عليه السلام عليهم على طريقة قوله تعالى
لا يستاخرون ساعة ولا يستقدمون واما ما قيل من ان لتنزيل الجملتين منزلة جملة واحدة
لتادية معنى واحد على نهج قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر اخرى فغير حقيق بجلالة شان
التنزيل وتقديم عليك في الجملة الاولى للقصد الى ايراد النفي على اختصاص حسابهم
به عليه السلام اذ هو الداعي الى تصديه عليه السلام لحسابهم وقيل الضمير للمشركين
والمعنى انك لا تؤاخذ بحسابهم حتى يهمك ايمانهم ويدعوك الحرص عليه الى ان تطرد
المؤمنين وقوله تعالى فتطردهم جواب النفي وقوله تعالى فتكون من الظالمين جواب
النهي وقد جوز عطفه على فتطردهم على طريقة التسبيب وليس بذاك وكذلك فتنا
بعضهم ببعض استيناف مبين لما نشا عنه ما سبق من النهي وذلك اشارة الى
مصدر ما بعده من الفعل الذي هو عبارة عن تقديمه تعالى لفقراء المؤمنين في امر الدين
بتوفيقهم للايمان مع ما هم عليه في امر الدنيا كمال سوء الحال وما فيه من معنى البعد
للايذان بعلو درجته المشار اليه وبعد منزلته في الكمال والكاف مقحمة لتاكيد ما افاده
اسم الاشارة من الفخامة ومحلها في الاصل النصب على انه نعت لمصدر مؤكد محذوف
والتقدير فتنا بعضهم ببعض فتونا كائنا مثل ذلك الفتون ثم قدم على الفعل لافادة
القصر المفيد لعدم القصور فقط واعتبرت الكاف مقحمة فصار نفس المصدر المؤكد
لا نعتا له والمعنى ذلك الفتون الكامل البديع فتنا اي ابتلينا بعض الناس ببعضهم لا
فتونا غيره حيث قدمنا الآخرين في امر الدين على الاولين المتقدمين عليهم في امر
الدنيا تقدما كليا واللام في قوله تعالى ليقولوا للعاقبة اي ليقول البعض الاولون
مشيرين الى الآخرين محقرين لهم نظرا الى ما بينهما من التفاوت الفاحش الدنيوي
وتعاميا عما هو مناط التفضيل حقيقة اهؤلاء من الله عليهم من بيننا بان
وفقهم لاصابة الحق ولما يسعدهم عنده تعالى من دوننا ونحن المقدمون والرؤساء وهم
العبيد والفقراء وغرضهم بذلك انكار وقوع المن راسا على طريقة قولهم لو كان خيرا
ما سبقونا اليه لا تحقير الممنون عليهم مع الاعتراف بوقوعه بطريق الاعتراض عليه
تعالى وقوله تعالى اليس الله باعلم بالشاكرين رد لقولهم ذلك وابطال له واشارة
الى ان مدار استحقاق الانعام معرفة شان النعمة والاعتراف بحق المنعم والاستفهام
لتقرير علمه البالغ بذلك اي اليس الله باعلم بالشاكرين لنعمه حتى تستبعدوا انعامه
عليهم وفيه من الاشارة الى ان اولئك الضعفاء عارفون نعمة الله تعالى في تنزيل
القرآن والتوفيق للايمان شاكرون له تعالى على ذلك مع التعريض بان القائلين بمعزل
من ذلك كله ما لا يخفى واذا جاءك الذين يؤمنون هم الذين نهي عن طردهم
وصفوا بالايمان بآيات الله عز وجل كما وصفوا بالمداومة على عبادته تعالى
بالاخلاص تنبيها على احرازهم لفضيلتي العلم والعمل وتاخير هذا الوصف مع
تقدمه على الوصف الاول لما ان مدار الوعد بالرحمة والمغفرة هو الايمان كما ان
مناط النهي عن الطرد فيما سبق هو المداومة على العبادة وقوله تعالى فقل سلام عليكم
امر بتبشيرهم بالسلامة عن كل مكروه بعد انذار مقابليهم وقيل بتبليغ سلامه تعالى
اليهم وقيل بان يبداهم بالسلام وقوله تعالى كتب ربكم على نفسه الرحمة اي
قضاها واوجبها على ذاته المقدسة بطريق التفضل والاحسان بالذات لا بتوسط
شيء ما اصلا تبشير لهم بسعة رحمته ونيل المطالب اثر تبشيرهم بالسلامة عن المكاره
وقبوله التوبة منهم وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم اظهار
اللطف بهم والاشعار بعلة الحكم وقيل ان قوما جاؤوا الى النبي صلى الله عليه وسلم
فقالوا انا اصبنا ذنوبا عظاما فلم يرد عليهم شيئا فانصرفوا فنزلت وقوله تعالى انه
من عمل منكم سوءا بدل من الرحمة وقرئ بكسرانه على انه تفسير للرحمة بطريق
الاستيناف وقوله تعالى بجهالة حال من فاعل عمل اي عمله وهو جاهل بحقيقة
ما يتبعه من المضار والتقييد بذلك للايذان بان المؤمن لا يباشر ما يعلم انه يؤدي

الى الضرر او عمله ملتبسا بجهالة ثم تاب من بعده اى من بعد عمله او من بعد سفهه
واصلح اى ما افسده تداركا وعزما على ان لا يعود اليه ابدا فانه غفور رحيم
اى فامره انه غفور رحيم او فله انه غفور رحيم وقرئ فانه بالكسر على انه استيناف
وقع فى صدر الجملة الواقعة خبرا لمن على انها موصولة او جوابا لها على انها شرطية و
كذلك نفصل الآيات قدر انفا ما فيه من الكلام اى هذا التفصيل البديع تفصل
الآيات فى صفة اهل الطاعة واهل الاجرام المصرين منهم والاوابين ولتستبين
سبيل المجرمين بتانيث الفعل بناء على تانيث الفاعل وقرئ بالتذكير بناء على تذكيره
فان السبيل مما يذكر ويؤنث وهو عطف على علة محذوفة للفعل المذكور لم يقصد
تعليله بها بعينها وانما قصد الاشعار بان له فوائد جمة من جملتها ما ذكر او علة لفعل
مقدر وهو عبارة عن المذكور فيكون مستانفا اى ولتستبين سبيلهم نفعل ما
نفعل من التفصيل وقرئ بنصب السبيل على ان الفعل متعد وتاؤه للخطاب اى
ولتستوضح انت يا محمد سبيل المجرمين فتعاملهم بما يليق بهم قل انى نهيت امر صلعم
بالرجوع الى مخاطبة المصرين على الشرك اثر ما امر بمعاملة من عداهم من اهل
الانذار والتبشير بما يليق بحالهم اى قل لهم قطعا لاطماعهم الفارغة عن ركونه
عليه السلام اليهم وبيانا لكون ما هم عليه من الدين هوى محضا وضلالا بحتا
انى صرفت وزجرت بما نصب لى من الادلة وانزل من الآيات فى امر التوحيد ان
اعبد الذين تدعون اى عن عبادة ما تعبدونه من دون الله كائنا ما كان
قل كرر الامر مع قرب العهد اعتناء بشان المامور به او ايذانا باختلاف المقولين
من حيث ان الاول حكاية لما من جهته تعالى من النهى والثانى حكاية لما من جهته عليه
السلام من الانتهاء عما ذكر من عبادة ما يعبدونه وانما قيل لا اتبع اهواءكم
استجهالا لهم وتنصيصا على انهم فيما هم فيه تابعون لاهواء باطلة وليسوا على
شئ مما ينطلق عليه الدين اصلا واشعارا بما يوجب النهى والانتهاء وقوله تعالى
قد ضللت اذا استيناف مؤكد لانتهائه عما نهى عنه مقرر لكونهم فى غاية
الضلال والغواية اى ان اتبعت اهواءكم فقد ضللت وقوله تعالى وما انا من المهتدين
عطف على ما قبله والعدول الى الجملة الاسمية للدلالة على الدوام والاستمرار اى
دوام النفى واستمراره لا نفى الدوام والاستمرار كما مر مرارا اى ما انا فى شئ من الهدى
حتى اكون فى عدادكم وقوله تعالى قل انى على بينة تحقيق للحق الذى عليه
رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان لاتباعه اياه اثر ابطال الباطل الذى عليه
الكفرة وبيان عدم اتباعه له والبينة الحجة الواضحة التى تفصل بين الحق والباطل
والمراد بها القرآن والوحى وقيل هى الحجج العقلية او ما يعمها ولا يساعده المقام و
التنوين للتفخيم وقوله تعالى من ربى متعلق بمحذوف هو صفة لبينة مؤكدة
لما افاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية وفى التعرض لعنوان
الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من التشريف ورفع المنزلة ما
لا يخفى وقوله تعالى وكذبتم به اما جملة مستانفة او حالية بتقدير قد او
بدونه جئ به لاستقباح مضمونها واستبعاد وقوعه مع تحقق ما يقتضى عدمه
من غاية وضوح البينة والضمير المجرور للبينة والتذكير باعتبار المعنى المراد والمعنى
انى على بينة عظيمة كائنة من ربى وكذبتم بها وبما فيها من الاخبار التى من
جملتها الوعيد بمجئ العذاب وقوله تعالى ما عندى ما تستعجلون به استيناف
مبين لخطائهم فى شان ما جعلوه منشا لتكذيبهم بها وهو عدم مجئ ما
وعد فيها من العذاب الذى كانوا يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد ان
كنتم صادقين بطريق الاستهزاء او بطريق الالزام على زعمهم اى ليس ما تستعجلونه
من العذاب الموعود فى القرآن وتجعلون تاخره ذريعة الى تكذيبه فى حكمى وقدرتى
حتى اجئ به واظهر لكم صدقه او ليس امره بمفوض الى ان الحكم اى ما الحكم

فى ذلك

فى ذلك تعجيلا وتاخيرا او ما الحكم فى جميع الاشياء فيدخل فيه ما ذكر دخولا اوليا
الا لله وحده من غير ان يكون لغيره دخل ما فيه بوجه من الوجوه يقص الحق اى يتبعه
بيان لشؤونه تعالى فى الحكم المعهود او فى جميع احكامه المنتظمة له انتظاما اوليا اى لا يحكم
الا بما هو حق فيثبت حقية التاخير وقرئ يقضى فانتصاب الحق يومئذ على المصدرية
اى يقضى القضاء الحق او على المفعولية اى يصنع الحق ويدبره من قولهم قضى الدرع
اذا صنعها واصل القضاء الفصل بتمام الامر واصل الحكم المنع فكانه يمنع الباطل عن
معارضة الحق او الخصم عن التعدى على صاحبه وهو خير الفاصلين اعتراض
تذييلى مقرر لمضمون ما قبله مشير الى ان قص الحق ههنا بطريق خاص هو
الفصل بين الحق والباطل هذا هو الذى يستدعيه جزالة التنزيل وقد قيل ان المعنى انى من
معرفة ربى وانه لا معبود سواه على حجة واضحة وشاهد صدق وكذبتم به انتم
حيث اشركتم به تعالى غيره وانت خبير بان مساق النظم الكريم فيما سبق وما لحق على
وصفهم بتكذيب آيات الله تعالى بسبب عدم مجئ العذاب الموعود فيها فتكذيبهم به
سبحانه فى امر التوحيد مما لا تعلق له بالمقام اصلا قل لو ان عندى اى فى قدرتى
ومكنتى ما تستعجلون به من العذاب الذى ورد به الوعيد بان يكون امره مفوضا الى
من جهته تعالى لقضى الامر بينى وبينكم اى بان ينزل ذلك عليكم اثر استعجالكم
بقولكم متى هذا الوعد ونظائره فى بناء الفعل للمفعول من الايذان بتعين الفاعل الذى
هو الله سبحانه وتهويل الامر ومراعاة حسن الادب ما لا يخفى فما قيل فى تفسيره لاهلكتكم
عاجلا غضبا لربى ولتخلصت منكم سريعا بمعزل من توفية المقام حقه وقوله تعالى
والله اعلم بالظالمين اعتراض مقرر لما افاده الجملة الامتناعية من انتفاء امر كون
العذاب مفوضا اليه عليه السلام المستتبع لانتفاء قضاء الامر وتعليل له والمعنى والله
اعلم بحال الظالمين وبانهم مستحقون للامهال بطريق الاستدراج لتشديد العذاب
ولذلكم لم يفوض الامر الى فلم يقض الامر بتعجيل العذاب والله اعلم وعنده مفاتح
الغيب بيان لاختصاص المقدورات الغيبية به تعالى من حيث العلم اثر بيان اختصاص
كلها به تعالى من حيث القدرة والمفاتح اما جمع مفتح بفتح الميم وهو المخزن وهو مستعار لمكان
الغيب كانها مخازن خزنت فيها الامور الغيبية تغلق عليها وتفتح واما جمع مفتح بكسرها
وهو المفتاح ويؤيده قراءة من قرأ مفاتيح الغيب فهو مستعار لما يتوصل به الى تلك الامور
بناء على الاستعارة الاولى اى عنده تعالى خاصة خزائن غيوبه او ما يتوصل به اليها
وقوله عز وجل لا يعلمها الا هو تاكيد لمضمون ما قبله وايذان بان المراد هو الاختصاص
من حيث العلم لا من حيث القدرة والمعنى ان ما تستعجلونه من العذاب ليس مقدورا
حتى الزمكم بتعجيله ولا معلوما لدى لاخبركم بوقت نزوله بل هو مما يختص به تعالى
قدرة وعلما فينزله حسبما يقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح وقوله تعالى
ويعلم ما فى البر والبحر بيان لتعلق علمه تعالى بالمشاهدات اثر بيان تعلقه
بالمغيبات تكملة له وتنبيها على ان الكل بالنسبة الى علمه المحيط سواء فى الجلاء اى يعلم
ما فيهما من الموجودات مفصلة على اختلاف اجناسها وانواعها وتكثر افرادها
وقوله تعالى وما تسقط من ورقة الا يعلمها بيان لتعلقه باحوالها المتغيرة بعد بيان
تعلقه بذواتها فان تخصيص حال السقوط بالذكر ليس الا بطريق الاكتفاء بذكرها عن
ذكر حال سائر الاحوال كما ان ذكر حال الورقة وما عطف عليها خاصة دون احوال
سائر ما فيهما من فنون الموجودات الفائتة للحصر باعتبار انها انموذج لاحوال
سائرها وقوله تعالى ولا حبة عطف على ورقة وقوله تعالى فى ظلمات الارض متعلق
بمحذوف هو صفة لحبة مفيدة لكمال نفوذ علمه تعالى اى ولا حبة كائنة فى بطون
الارض الا يعلمها وكذا قوله تعالى ولا رطب ولا يابس معطوفان عليها داخلان
فى حكمها وقوله تعالى الا فى كتاب مبين بدل من الاستثناء الاول بدل الكل على
ان الكتاب المبين عبارة عن علمه تعالى او بدل الاشتمال على انه عبارة عن اللوح المحفوظ

وقرئ الاخيران بالرفع عطفا على محل ورقة وقيل رفعهما بالابتداء والخبر الا في كتاب مبين
وهو الانسب بالمقام لشمول الرطب واليابس حينئذ لما ليس من شانه السقوط وقد نقل
قراءة الرفع في ولا حبة ايضا وهو الذي يتوفاكم بالليل اي ينيمكم فيه على استعارة
التوفي من الاماتة للانامة والنوم من المشاركة في زوال الاحساس والتمييز
واصله قبض الشيء بتمامه ويعلم ما جرحتم بالنهار اي ما كسبتم فيه والمراد بالليل
والنهار الجنس المتحقق في كل فرد من افرادهما اذ بالتوفي والبعث الموجودين فيهما يتحقق
قضاء الاجل المسمى المترتب عليهما لا في بعضهما والمراد بعلمه تعالى ذلك علمه قبل الجرح كما
يلوح به تقديم ذكره على البعث اي يعلم ما تجرحون بالنهار وصيغة الماضي للدلالة على
التحقق وتخصيص التوفي بالليل والجرح بالنهار مع تحقق كل منهما فيما خص بالآخر
على سنن العادة ثم يبعثكم فيه اي يوقظكم في النهار عطف على يتوفاكم وتوسيط
قوله تعالى ويعلم الخ بينهما لبيان ما في بعثهم من عظيم الاحسان اليهم بالتنبيه على ان
ما يكتسبونه من السيئات مع كونها موجبة لابقائهم على التوفي بل لاهلاكهم
بالمرة يفيض عليهم كما ينبئ عنه كلمة التراخي كانه قيل هو الذي يتوفاكم في جنس
الليالي ثم يبعثكم في جنس النهر مع علمه بما ستجرحون فيها ليقضى اجل مسمى معين
لكل فرد فرد بحيث لا يكاد يتخطى احد ما عين له طرفة عين ثم اليه مرجعكم اي رجوعكم
بالموت لا الى غيره اصلا ثم ينبئكم بما كنتم تعملون بالمجازاة باعمالكم التي كنتم تعملونها
في تلك الليالي والايام وقيل الخطاب مخصوص بالكفرة والمعنى انكم ملقون كالجيف
بالليل كاسبون للآثام بالنهار وانه تعالى مطلع على اعمالكم يبعثكم من القبور في شان
ما قطعتم به اعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار ليقضى الاجل الذي سماه
وضربه لبعث الموتى وجزائهم على اعمالهم وفيه ما لا يخفى من التكلف والاختلال
لافضائه الى كون البعث معللا بقضاء الاجل المضروب له وهو القاهر فوق عباده
اي هو المتصرف في امورهم لا غيره يفعل بهم ما يشاء ايجادا واعداما واحياء واماتة
وتعذيبا واثابة الى غير ذلك ويرسل عليكم خاصة ايها المكلفون حفظة
من الملائكة وهم الكرام الكاتبون وعليكم متعلق بيرسل لما فيه من معنى الاستيلاء
وتقديمه على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر و
قيل متعلق بمحذوف هو حال من حفظة اذ لو تأخر لكان صفة اي كائنين عليكم
وقيل متعلق بحفظة والمحفوظ محذوف وعلى كل حال اي يرسل عليكم ملائكة يحفظون
اعمالكم كائنا ما كان وفي ذلك حكمة جليلة ونعمة جميلة لما ان المكلف اذا علم ان اعماله
تحفظ عليه وتعرض على رؤس الاشهاد كان ذلك ازجر له عن تعاطي المعاصي والقبائح وان
العبد اذا وثق بلطف سيده واعتمد على عفوه وستره لم يحتشم احتشامه من خدمه
الواقفين على احواله وحتى في قوله تعالى حتى اذا جاء احدكم الموت هي التي يبتدأ بها الكلام
وهي مع ذلك تجعل ما بعدها من الجملة الشرطية غاية لما قبلها كانه قيل ويرسل عليكم
حفظة يحفظون اعمالكم مدة حياتكم حتى اذا انتهت مدة احدكم كائنا من كان
وجاءه اسباب الموت ومباديه توفته رسلنا الآخرون المفوض اليهم ذلك وهم ملك
الموت واعوانه وانتهى هناك حفظ الحفظة وقرئ توفاه ماضيا او مضارعا بطرح
احدى التائين وهم اي الرسل لا يفرطون اي بالتواني والتأخير وقرئ مخففا من
الافراط اي لا يجاوزون ما حد لهم بزيادة او نقصان والجملة حال من رسلنا و
قيل مستأنفة سيقت لبيان اعتنائهم بما امروا به وقوله تعالى ثم ردوا عطف
على توفته والضمير للكل المدلول عليه باحدكم وهو السر في مجيئه بطريق الالتفات تغليبا
والافراد اولا والجمع آخرا لوقوع التوفي على الانفراد والرد على الاجتماع اي ثم ردوا بعد
البعث بالحشر الى الله اي الى حكمه وجزائه في موقف الحساب مولاهم اي مالكهم
الذي يلي امورهم على الاطلاق لا ناصرهم كما في قوله تعالى وان الكافرين لا مولى لهم
الحق الذي لا يقضي الا بالعدل وقرئ بالنصب على المدح الا له الحكم يومئذ صورة

ومعنى

ومعنى لا لاحد غيره بوجه من الوجوه وهو اسرع الحاسبين يحاسب جميع الخلائق
في اسرع زمان واقصره ولا يشغله حساب عن حساب ولا شان عن شان وفي الحديث
انه تعالى يحاسب الكل في مقدار حلب شاة قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر
اي قل تقريرا لهم بانحطاط شركائهم عن رتبة الالهية من ينجيكم من شدائدهما
الهائلة التي تبطل الحواس وتدهش العقول ولذلك استعير لها الظلمات المبطلة
لحاسة البصر يقال لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب او من الخسف في البر
والغرق في البحر وقرئ ينجيكم من الانجاء والمعنى واحد وقوله تعالى تدعونه نصب
على الحالية من مفعول ينجيكم والضمير لمن اي من ينجيكم منها حال كونكم داعين له
او من فاعله اي من ينجيكم منها حال كونه مدعوا من جهتكم وقوله تعالى تضرعا وخفية
اما حال من فاعل تدعون او مصدر مؤكد له اي تدعونه متضرعين جهارا ومسرين
او تدعونه دعاء اعلان واخفاء وقرئ خفية بكسر الخاء وقوله تعالى لئن انجيتنا حال
من الفاعل ايضا على تقدير القول اي قائلين لئن انجيتنا من هذه الشدة والورطة
التي عبر عنها بالظلمات لنكونن من الشاكرين اي الراسخين في الشكر المداومين
عليه لاجل هذه النعمة او جميع النعماء التي من جملتها هذه وقرئ لئن انجانا مراعاة
لقوله تعالى تدعونه قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب امر عليه السلام بتقرير الجواب
مع كونه من وظائفهم للايذان بانه متعين عندهم ولبناء قوله تعالى ثم انتم تشركون
عليه اي الله تعالى وحده ينجيكم مما تدعونه الى كشفه من الشدائد المذكورة و
غيرها من الغموم والكرب ثم انتم بعد ما تشاهدون هذه النعم الجليلة تشركون
بعبادته تعالى غيره وقرئ ينجيكم بالتخفيف وقوله تعالى قل هو القادر على ان يبعث
عليكم عذابا استئناف مسوق لبيان انه تعالى هو القادر على القائهم في المهالك اثر بيان
انه هو المنجي لهم منها وفيه وعيد ضمني بالعذاب لاشراكهم المذكور على طريقة قوله
عز وجل افامنتم ان يخسف بكم جانب البر الى قوله ام امنتم ان يعيدكم فيه تارة
اخرى الآية وعليكم متعلق بيبعث وتقديمه على مفعوله الصريح للاعتناء به والمسارعة
الى بيان كون المبعوث مما يضرهم ولتهويل امر المؤخر وقوله تعالى من فوقكم متعلق
به ايضا او بمحذوف وقع صفة لعذابا اي عذابا كائنا من جهة الفوق كما فعل بمن
فعل من قوم لوط واصحاب الفيل وامثالهم او من تحت ارجلكم اي من جهة
السفل كما فعل بفرعون وقارون وقيل من فوقكم اكابركم ورؤسائكم ومن تحت
ارجلكم سفلتكم وعبيدكم وكلمة او لمنع الخلو دون الجمع فلا منع لما كان من الجهتين
معا كما فعل بقوم نوح او يلبسكم شيعا اي يخلطكم فرقا متحزبين على اهواء شتى
كل فرقة مشايعة لامام فينشب بينكم القتال فتختلطوا في الملاحم كقول الحماسي
وكتيبة لبستها بكتيبة حتى اذا التبست نفضت لها يدي ويذيق بعضكم
بأس بعض عطف على يبعث وقرئ بنون العظمة على طريق الالتفات لتهويل الامر
والمبالغة في التحذير والبعض الاول الكفار والآخر المؤمنون ففيه وعد ووعيد عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال عند قوله تعالى عذابا من فوقكم اعوذ بوجهك
وقوله تعالى او من تحت ارجلكم اعوذ بوجهك وعند قوله تعالى او يلبسكم شيعا ويذيق
بعضكم بأس بعض هذا اهون او هذا ايسر وعنه عليه السلام انه قال سألت ربي ان
لا يبعث على امتي عذابا من فوقهم ومن تحت ارجلهم فاعطاني ذلك وسألته ان لا
يجعل بأسهم بينهم فمنعني ذلك انظر كيف نصرف الآيات من حال الى حال لعلهم
يفقهون كي يفقهوا ويقفوا على جلية الامر فيرجعوا عما هم عليه من المكابرة والعناد
وكذب به اي بالعذاب الموعود او القرآن المجيد الناطق بمجيئه قومك اي
المعاندون منهم ولعل ايرادهم بهذا العنوان للايذان بكمال سوء حالهم فان تكذيبهم
بذلك مع كونهم من قومه مما يقضي بغاية عتوهم ومكابرتهم وتقديم
الجار والمجرور على الفاعل لما مر مرارا من اظهار الاهتمام بالمقدم والتشويق

الى المؤخر وقوله تعالى وهو الحق حال من الضمير المجرور اى كذبوا به والحال انه الحق لا
محالة او انه الكتاب الصادق فى كل ما نطق به وقيل هو استيناف وايا ما كان
ففيه دلالة على عظم جناياتهم ونهاية قبحها قل لهم متنبها على ما يؤول اليه امرهم
وعلى انك قد اديت ما عليك من وظايف الرسالة لست عليكم بوكيل بحفيظ و
كل الى امركم لامنعكم من التكذيب واجبركم على التصديق انما انا منذر وقد خرجت عن
العهدة حيث اخبرتكم بما سترونه لكل نبأ به من الانباء التى من جملتها
عذابكم او لكل خبر من الاخبار التى من جملتها خبر مجيئه مستقر اى وقت استقرار
ووقوع البتة او وقت استقرار بوقوع مدلوله وسوف تعلمون اى حال نبئكم
فى الدنيا او فى الاخرة او فيهما معا وسوف للتاكيد كما فى قوله تعالى ولتعلمن نبأه
بعد حين واذا رايت الذين يخوضون فى اياتنا اى بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن
فيها كما هو داب قريش ودينهم فاعرض عنهم بترك مجالستهم والقيام عنهم
وقوله تعالى حتى يخوضوا فى حديث غيره غاية للاعراض اى استمر على الاعراض الى
ان يخوضوا فى حديث غير اياتنا والتذكير باعتبار كونها حديثا فان وصف الحديث
بمغايرتها مشير الى اعتبارها بعنوان الحديثية وقيل باعتبار كونها قرانا واما
ينسينك الشيطان بان يشغلك فتنسى النهى فتجالسهم ابتداء او بقاء وقرئ
ينسينك من التنسية فلا تقعد بعد الذكرى اى بعد تذكر النهى مع القوم
الظالمين اى معهم فوضع المظهر موضع المضمر نعيا عليهم انهم بذلك الخوض ظالمون
واضعون للتكذيب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم راسخون فى ذلك
وما على الذين يتقون روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ان المسلمين حين نهوا
عن مجالستهم عند خوضهم فى الايات قالوا لئن كنا نقوم كلما استهزؤا بالقران
لم نستطع ان نجلس فى المسجد الحرام ونطوف بالبيت فنزلت اى ما على الذين يتقون
قبايح اعمال الخائضين واحوالهم من حسابهم اى مما يحاسبون عليه من
الجرائر من شيء اى شيء ما على انه فى محل الرفع على انه مبتدا وما تميمية او اسم لها و
هي حجازية ومن مزيدة للاستغراق ومن حسابهم حال منه وعلى الذين يتقون فى محل الرفع على
انه خبر للمبتدا او لما الحجازية على راى من لا يجيز اعمالها فى الخبر المقدم مطلقا او فى محل
النصب على راي من يجوز اعمالها فى الخبر المقدم عند كونه ظرفا او حرف جر ولكن
ذكرى استدراك من النفى السابق اى ولكن عليهم ان يذكروهم ويمنعوهم عما
هم عليه من القبايح بما امكن من العظة والتذكير ويظهروا لهم الكراهة ومحل
النكير ومحل ذكرى اما النصب على انه مصدر مؤكد للفعل المحذوف اي عليهم ان
يذكروهم تذكيرا والرفع على انه مبتدا محذوف الخبر اي ولكن عليهم ذكرى لعلهم
يتقون اي يجتنبون الخوض وكراهة لمساءتهم وقد جوز كون الضمير للموصول اى
يذكرونهم رجاء ان يثبتوا على تقواهم او يزدادوها وذر الذين اتخذوا دينهم الذي
كلفوه وامروا باقامة مواجبه لعبا ولهوا حيث سخروا به واستهزؤا او بنوا
امر دينهم على ما لا يكاد يتعاطاه العاقل بطريق الجد وانما يصدر عنه لو صدر بطريق
اللعب اللهو كعبادة الاصنام وتحريم البحاير والسوايب ونحو ذلك والمعنى اعرض
عنهم ولا تبال بافعالهم واقوالهم وقيل هو تهديد لهم كقوله تعالى ذرهم ياكلوا
ويتمتعوا الاية وغرتهم الحيوة الدنيا واطمانوا بها حتى زعموا ان لا حيوة
بعدها ابدا وذكر به اى بالقران من يصلح للتذكير ان تبسل نفس بما كسبت
اى لئلا تبسل كقوله تعالى ان تضلوا الاية او مخافة ان تبسل او كراهة ان تبسل نفوس
كثيرة كما فى قوله تعالى علمت نفس ما احضرت وترتهن بسوء عملها واصل الابسال
والبسل المنع ومنه اسد باسل لان فريسته لا تفلت منه او لانه ممتنع والباسل الشجاع لامتناعه
من قرنه وهذا بسل عليك اى حرام ممنوع وقد جوز ان يكون الضمير المجرور فى به راجعا
الى الابسال مع عدم جريان ذكره كما فى ضمير الشان ويكون الجملة بدلا منه مفسرا له فالابهام

اولا والتفسير ثانيا مع التفخيم وزيادة التقرير كما فى قوله على جودة لضن بالماء حاتم
بجر حاتم على انه بدل من ضمير جودة فالمعنى وذكر بارتهان النفوس وحبسها بما كسبت
وقوله تعالى ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع استيناف مسوق للاخبار بذلك
وقيل فى محل النصب على انه حال من ضمير كسبت وقيل فى محل الرفع على انه وصف
النفس والاظهر انه حال من نفس فانه فى قوة نفس كافرة او نفوس كثيرة كما فى قوله تعالى
علمت نفس ما احضرت ومن دون الله متعلق بمحذوف هو حال من ولى كما بين فى
تفسير قوله تعالى وانذر به الاية وقيل هو خبر لليس فيكون لها حينئذ متعلقا بمحذوف
على البيان وان تعدل اى ان تفد تلك النفس كل عدل اى كل فداء على انه مصدر
مؤكد لا يؤخذ منها على اسناد الفعل الى الجار والمجرور لا الى ضمير العدل كما
فى قوله تعالى ولا يؤخذ منها عدل فانه المفدى لا المصدر كما نحن فيه اولئك اشارة
الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد
درجتهم فى سوء الحال ومحله الرفع على الابتداء والخبر قوله تعالى الذين ابسلوا بما كسبوا
والجملة مستانفة سيقت اثر تحذيرهم من الابسال المذكور لبيانا انهم المبتلون بذلك اى
اولئك المتخذون دينهم لعبا ولهوا المغترون بالحيوة الدنيا الذين اسلموا الى ما كسبوا من القبايح
وقوله تعالى لهم شراب من حميم استيناف اخر مبين لكيفية الابسال المذكور وعاقبته مبنى على
سؤال نشاء من الكلام كانه قيل ماذا لهم حين ابسلوا بما كسبوا فقيل لهم شراب من ماء مغلى
يتجرجر فى بطونهم ويتقطع به امعاؤهم وعذاب اليم بنار تشتعل بابدانهم بما كانوا
يكفرون اى بسبب كفرهم المستمر فى الدنيا وقد جوز ان يكون لهم شراب الخ حالا من ضمير ابسلوا
وترتيب ما ذكر من العذابين على كفرهم مع انهم معذبون بسائر معاصيهم ايضا حسبما
ينطق به قوله تعالى بما كسبوا لانه العمدة فى ايجاب العذاب والاهم فى باب التحذير او اريد
بكفرهم ما هو اعم منه ومن مستتبعاته من المعاصى والسيئات هذا وقد جوز ان
يكون اولئك اشارة الى النفوس المدلول عليها بنفس ومحله الرفع بالابتداء والموصول
الثانى صفة او بدل منه ولهم شراب الخ خبره والجملة مسوقة لبيانا تبعة الابسال
قل اندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا قيل نزلت فى ابى بكر رضى الله عنه
حين دعاه ابنه عبد الرحمن الى عبادة الاصنام وتوجيه الامر الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم حينئذ للايذان بما بينهما من الاتصال والاتحاد تنويها لشان الصديق
رضى الله عنه اى انعبد متجاوزين عبادة الله الجامع لجميع صفات الالوهية التى من
جملتها القدرة على النفع والضر ما لا يقدر على نفعنا اذا عبدناه ولا على ضرنا اذا تركناه
وادنى مراتب المعبودية القدرة على ذلك وقوله تعالى ونرد على اعقابنا عطف على
ندعوا داخل فى حكم الانكار والنفى اى ونرد الى الشرك والتعبير عنه بالرد على الاعقاب
لزيادة تقبيحه بتصويره بصورة ما هو علم فى القبح مع ما فيه من الاشارة الى كون
الشرك حالة قد تركت ونبذت وراء الظهر وايثار نرد على نرتد لتوجيه الانكار
الى الارتداد برد الغير تصريحا بمخالفة المضلين وقطعا لاطماعهم الفارغة و
ايذانا بان الارتداد من غير راد ليس فى حيز الاحتمال ليحتاج الى نفيه وانكاره وقوله
تعالى بعد اذ هدانا الله اى الى الاسلام وانقذنا من الشرك متعلق بنرد مسوق لتاكيد
النكير لا لتحقيق معنى الرد وتصويره فقط والا لكفى ان يقال بعد اذ اهتدينا كانه قيل
ونرد الى الشرك باضلال المضل بعد اذ هدانا الله الذي لا هادي سواه وقوله تعالى كالذي
استهوته الشياطين فى محل النصب على انه حال من مرفوع نرد اى نرد على اعقابنا
مشبهين بالذي استهوته مردة الجن واستغوته الى المهامه والمهالك او على انه
نعت لمصدر محذوف اى نرد ردا مثل رد الذي استهوته الخ والاستهواء استفعال
من هوى فى الارض اذا ذهب فيها كانها طلبت هويه وحرصت عليه وقرئ استهواه
بالف ممالة وقوله تعالى فى الارض اما متعلق باستهوته او بمحذوف هو حال من
مفعوله اى كائنا فى الارض وكذا قوله تعالى حيران حال منه على انها بدل من الاولى

اوحال ثانية عند من يجيزها او من الذي او من المستكن في الظرف اى تائها ضالا عن
الجادة لايدري ما يصنع وقوله تعالى له اصحاب جملة في محل النصب على انها صفة لحيران
او حال من الضمير فيه او مستانفة سيقت لبيان حاله وقوله تعالى يدعونه الى الهدى
صفة لاصحاب اى لذلك المستوي رفقة يهدونه الى الطريق المستقيم سمّيه له بالمصدر
مبالغة كانه نفس الهدى ائتنا على ارادة القول على انه بدل من يدعونه او حال من
فاعله يقولون ائتنا وفيه اشارة الى انهم مهتدون ثابتون على الطريق المستقيم
وان من يدعونه ممن يعرف الطريق المستقيم يدعى الى اتيانه وانما يدعى لسمعت الداع
ومورد النعيق فقط قل ان هدى الله الذى هدانا اليه وهو الاسلام هو الهدى
وحده وما عداه ضلال محض وغيّ بحت كقوله تعالى فما ذا بعد الحق الا الضلال ونحو تكرير
الامر للاعتناء بشان المامور به ولان ما سبق للزجر عن الشرك وهذا حث على الاسلام وهو
توطية لما بعده فان اختصاص الهدى بهداه تعالى مما يوجب الامتثال بالاوامر الواردة
بعده وامرنا عطف على ان هدى الله هو الهدى داخل تحت القول واللام في
لنسلم لرب العالمين لتعليل الامر المحكي وتعيين ما اريد به من الاوامر الثلاثة كما
في قوله تعالى قل لعبادى الذين امنوا يقيموا الصلوة وينفقوا الاية كانه قيل امرنا
وقيل لنا اسلموا لاجل ان نسلم وقيل هي بمعنى الباء اى امرنا بان نسلم وقيل زائدة
اى امرنا ان نسلم على حذف الباء وقوله تعالى وان اقيموا الصلوة واتقوه اى
الله تعالى في مخالفة امره عطف على ان نسلم على الوجوه الثلاثة على ان المصدرية
اذا وصلت بالامر يجرّد هو عن معنى الامر نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضي في
الاستقبال فالمعنى على الاول امرنا اى قيل لنا اسلموا واقيموا الصلاة واتقوا الله لاجل ان
نسلم ونقيم الصلاة ونتقيه تعالى وعلى الاخيرين امرنا بان نسلم ونقيم الصلاة ونتقيه
تعالى والتعرض لوصف ربوبيته تعالى للعالمين لتعليل الامر وتاكيد وجوب الامتثال به كما
ان قوله تعالى وهو الذي اليه تحشرون جملة مستانفة موجبة للامتثال بما امر به
من الامور الثلاثة وهو الذي خلق السموات والارض اريد بخلقهما خلق ما
فيهما ايضا وعدم التصريح بذلك لظهور اشتمالهما على جميع العلويات والسفليات
وقوله تعالى بالحق متعلق بمحذوف هو حال من فاعل خلق او من مفعوله او صفة لمصدره
المؤكد له اى خلقا بالحق او ملتبسا بالحق او خلقا ملتبسا به وقوله تعالى ويوم يقول
كن فيكون قوله الحق استيناف لبيان ان خلقه تعالى لما ذكر من السموات والارض ليس
مما يتوقف على مادة او مدة بل يتم بمحض الامر التكويني من غير توقف على شيء آخر اصلا
وان ذلك الامر المتعلق بكل فرد فرد من افراد المخلوقات في حين معين من افراد الاحيان
حق في نفسه متضمن للحكمة ويوم ظرف لمضمون جملة قوله الحق والواو بحسب المعنى داخل
عليها وتقديمه عليها للاعتناء به من حيث انه مدار الحقية وترك ذكر المقول له
للثقة بغاية ظهوره والمراد بالقول كلمة كن تحقيقا او تمثيلا كما هو المشهور فالمعنى
وامره المتعلق بكل شيء يريد خلقه من الاشياء في حين تعلقه به لا قبله ولا
بعده من افراد الاحيان الحق اى المشهود بالحقية المعروف بها هذا وقد قيل قوله
مبتدأ والحق صفته ويوم يقول خبره مقدما عليه كقولك يوم الجمعة القتال وانتصابه
بمعنى الاستقرار وحاصل المعنى قوله الحق كائن حين يقول لشيء من الاشياء كن فيكون ذلك
الشيء وقيل يوم منصوب بالعطف على السموات او على الضمير في واتقوه او بمحذوف
دل عليه بالحق وقوله الحق مبتدأ او خبر او فاعل يكون على معنى حين يقول لقوله الحق اى
لقضائه الحق كن فيكون والمراد حين يكون الاشياء ويحدثها او حين يقوم القيامة
فيكون التكوين حشر الاجساد واحياءها فتامل حق التامل وله الملك يوم ينفخ في الصور
تقييد اختصاص الملك به تعالى بذلك اليوم مع عموم الاختصاص لجميع الاوقات لغاية ظهور
ذلك بانقطاع العلائق المجازية الكائنة في الدنيا المصححة للمالكية المجازية في الجملة
كقوله تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار عالم الغيب والشهادة اى هو عالم

وهو الحكيم

وهو الحكيم في كل ما يفعله الخبير بجميع الامور الجلية والخفية واذ قال ابراهيم
منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم معطوف على قل اندعوا
لا على اقيموا كما قيل لفساد المعنى اى واذكر لهم بعد ما انكرت عليهم عبادة ما لا يقدر
على نفع وضر وحققت ان الهدى هو هدى الله تعالى وما يتبعه من شؤونه تعالى وقت قول
ابراهيم الذي يدعون انهم على ملته محتجا لابيه آزر على عبادة الاصنام فان
ذلك مما يبكتهم وينادي بفساد طريقتهم وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت دون ما
وقع فيه من الحوادث مع انها المقصودة لما مر مرارا في ايجاب ذكرها وآزر بزنة
آدم او عابر او عاذر وفالغ وكذلك تارح ذكره محمد بن اسحق والضحاك والكلبي وكان
من قرية من سواد الكوفة ومنع صرفه للعجمة والعلمية وقيل اسمه بالسريانية
تارح وآزر لقبه المشهور وقيل اسم صنم لقب هو به للزومه عبادته فهو عطف
بيان لابيه او بدل منه وقال الضحاك معناه الشيخ الهرم وقال الزجاج المخطئ وقال
الفراء وسليمان التيمي المعوج فهو نعت له كما اذا جعل مشتقا من الازر او الوزر واريد به
عابد آزر على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وقيل آزر على النداء وهو
دليل العلمية اذ لا يحذف حرف النداء الا من الاعلام اتتخذ متعديا الى مفعولين
هما اصناما آلهة اى اتجعلها لنفسك آلهة على توجيه الانكار الى اتخاذ الجنس
من غير اعتبار الجمعية وانما ايراد صيغة الجمع باعتبار الوقوع وقرئ أأزر بفتح الهمزة
وكسرها بعد همزة الاستفهام وزاي ساكنة وراء منونة مفتوحة وهو اسم صنم
ومعناه اتعبد آزرا ثم قيل تتخذ اصناما آلهة تثبيتا لذلك وتقريرا وهو داخل تحت
الانكار لكونه بيانا له وقيل الازر القوة والمعنى الاجل القوة والمظاهرة تتخذ
اصناما آلهة انكارا لتعززه بها على طريقة قوله تعالى ايبتغون عندهم العزة اني اراك
وقومك الذين يتبعونك في عبادتها في ضلال عن الحق مبين اى بين كونه
ضلالا لا اشتباه فيه اصلا والرؤية اما علمية فالظرف مفعول لها الثاني واما
بصرية فهو حال من المفعول والجملة تعليل للانكار والتوبيخ وكذلك نري ابراهيم هذه
الاراءة من الرؤية البصرية المستعارة للمعرفة ونظر البصيرة اى عرفناه وبصرناه
وصيغة الاستقبال حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها وذلك اشارة الى
مصدر نري لا الى اراءة اخرى مفهومة من قوله اني اراك وما فيه من معنى البعد
للايذان بعلو درجة المشار اليه وبعد منزلته في الفضل وكمال تميزه بذلك وانتظامه
بسببه في سلك الامور المشاهدة والكاف لتاكيد ما افاده اسم الاشارة من الفخامة
ومحلها في الاصل النصب على انه نعت لمصدر محذوف واصل التقدير نري ابراهيم
اراءة كائنة مثل تلك الاراءة فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة
للنكتة المذكورة فصار المشار اليه نفس المصدر المؤكد لا نعتا له اى ذلك التبصير
البديع نبصره عليه السلام ملكوت السموات والارض اى ربوبيته تعالى ومالكيته
لهما وسلطانه القاهر عليهما وكونهما بما فيهما مربوبا ومملوكا له تعالى لا تبصيرا آخر
ادنى منه والملكوت مصدر على زنة المبالغة كالرهبوت والجبروت ومعناه الملك
العظيم والسلطان القاهر ثم هل هو مختص بملك الله عز سلطانه اولا فقد قيل وقيل
والاول هو الاظهر وبه قال الراغب وقيل ملكوتهما عجايبهما وبدايعهما روي انه
كشف له عليه السلام عن السموات والارض حتى العرش واسفل الارضين وقيل
آياتهما وقيل ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم وملكوت الارض الجبال و
الاشجار والبحار وهذه الاقوال لا تقتضي ان تكون الاراءة بصرية اذ ليس المراد
باراءة ما ذكر من الامور الحسية مجرد تمكينه عليه السلام من ابصارها ومشاهدتها
في انفسها بل اطلاعه عليه السلام على حقايقها وتعريفها من حيث دلالتها على شؤونه
عز وجل ولا ريب في ان ذلك ليس مما يدرك حسا كما ينبئ عنه اسم الاشارة
المفصح عن كون المشار اليه امرا بديعا فان الاراءة البصرية المعتادة بمعزل من تلك

المثابة وقرئ ترى بالتاء واسناد الفعل الى الملكوت اى تبصره عليه السلام دلايل الربوبية
واللام فى قوله تعالى وليكون من الموقنين متعلقة بمحذوف موخر والجملة اعتراض
مقرر لما قبلها اى وليكون من زمرة الراسخين فى الايقان البالغين درجة عين اليقين من
معرفة الله تعالى فعلنا ما فعلنا من التبصير البديع المذكور لا لامر آخر فان الوصول
الى تلك الغاية القاصية كما مترتب على ذلك التبصير لا عينه وليس القصر لبيان انحصار
فائدته فى ذلك كيف لا وارشاد الخلق والزام المشركين كما سياتى من فوائده بلا
مرية بل لبيان انه الاصل الاصيل والباقى من مستتبعاته وقيل هى متعلقة بالفعل
السابق والجملة معطوفة على علة اخرى محذوفة ينسحب عليها الكلام اى ليستدل
بها وليكون الخ فينبغى ان يراد بملكوتها بدايعهما واياتهما لان الاستدلال من غايات
اراءتها لا من غايات اراءة نفس الربوبية وقوله تعالى فلما جن عليه الليل على الاول
وهو الحق المبين عطف على قال ابراهيم داخل تحت ما امر بذكره بالامر بذكر وقته
وما بينهما اعتراض مقرر لما سبق وما لحق فان تعريفه عليه السلام ربوبيته و
مالكيته للسموات والارض وما فيهما وكون الكل مقهورا تحت ملكوته مفتقرا اليه فى
الوجود وساير ما يترتب عليه من الكمالات وكونه من الراسخين فى معرفة شؤنه
تعالى الواصلين الى ذروة عين اليقين مما يقتضى بان يحكم عليه السلام باستحالة
الهية ما سواه سبحانه من الاصنام والكواكب وعلى الثانى هو تفصيل لما ذكر من اراءة
ملكوت السموات والارض وبيان لكيفية استدلاله عليه السلام ووصوله الى رتبة
الايقان ومعنى جن عليه الليل ستره بظلامه وقوله تعالى راى كوكبا جواب لما فان
رؤيته انما يتحقق بزوال نور الشمس عن الحس وهذا صريح فى انه لم يكن فى ابتداء الطلوع
بل كان غيبته عن الحس بطريق الاضمحلال بنور الشمس والتحقيق انه كان قريبا من الغروب
كما ستعرفه قيل كان ذلك الكواكب هو الزهرة وقيل هو المشترى وقوله تعالى قال هذا
ربى استيناف مبنى على سؤال نشاء من الشرطية السابقة المتفرعة على بيان اراءته عليه السلام
ملكوت السموات والارض فان ذلك مما يحمل السامع على استكشاف ما ظهر منه عليه السلام
من اثار تلك الاراءة واحكامها كانه قيل فماذا صنع عليه السلام حين راى الكوكب فقيل
قال على سبيل الوضع والفرض هذا ربى مجاراة مع ابيه وقومه الذين كانوا يعبدون
الاصنام والكواكب فان المستدل على فساد قول يحكيه على راى خصمه ثم يكر عليه
بالابطال ولعل سلوك هذه الطريقة فى بيان استحالة ربوبية الكوكب دون بيان استحالة
الهية الاصنام لما ان هذا اخفى بطلانا واستحالة من الاول فلو صدع بالحق من اول
الامر كما فعله فى حق عبادة الاصنام لتمادوا فى المكابرة والعناد ولجوا فى طغيانهم
يعمهون وقيل عليه السلام على وجه النظر والاستدلال وكان ذلك فى زمان مراهقته
واول اوان بلوغه وهو مبنى على تفسير الملكوت باياتهما وعطفه على قوله تعالى
ليكون ما ذكر من العلة المقدرة وجعل قوله تعالى فلما جن الخ تفصيلا لما ذكر من
الاراءة وبيانا لكيفية الاستدلال وانت خبير بان كل ذلك مما يجل جناب الله النظم الجليل
وجلالة منصب الخليل عليه السلام فلما افل اى غرب قال لا احب الافلين اى
الارباب المنتقلين من مكان الى مكان المتغيرين من حال الى حال المتحجبين بالاستار فانهم بمعزل
من استحقاق الربوبية قطعا فلما راى القمر بازغا اى مبتدئا فى الطلوع اثر غروب
الكوكب قال هذا ربى على الاسلوب السابق فلما افل كما افل النجم قال لئن لم يهدنى
ربى الى جنابه الذى هو الحق الذى لا محيد عنه لاكونن من القوم الضالين فان
شيئا مما رايته لا يليق بالربوبية وهذا مبالغة منه عليه السلام فى اظهار النصفة
ولعله عليه السلام كان اذ ذاك فى موضع كان فى جانبه الغربى جبل شامخ يستتر به
الكوكب والقمر وقت الظهر من النهار او بعده بقليل وكان الكوكب قريبا وافقه الشرقى
مكشوف اولا والا فطلوع بعد افول الكوكب ثم افوله قبل طلوع الشمس كما ينبئ عنه قوله تعالى
فلما راى الشمس بازغة اى مبتداه فى الطلوع مما لا يكاد يتصور قال اى على النهج

السابق هذا ربى وانما لم يؤنث لما ان المشار اليه والمحكوم عليه بالربوبية هو الجرم
المشاهد من حيث هو لا من حيث هو مسمى باسم من الاسامى فضلا عن حيثية تسميته
بالشمس او لتذكير الخبر وصيانة الرب عن وصمة التانيث وقوله تعالى هذا اكبر تاكيد
لما رامه عليه السلام من اظهار النصفة مع اشارة خفية الى فساده من جهة اخرى
ببيان ان الاكبر احق بالربوبية من الاصغر فلما افلت هى ايضا كما افل الكواكب القمر
قال مخاطبا للكل صادعا بالحق بين اظهرهم يا قوم انى برئ مما تشركون اى من الذين
تشركونه من الاجرام المحدثة المتغيرة من حال الى اخرى المسخرة لمحدثها او من
اشراككم وترتيب هذا الحكم ونظيره على الافول دون البزوغ والظهور من ضرورة
سوق الاحتجاج على هذا المساق الحكيم فان كلا منهما وان كان نفسه انتقالا منافيا
لاستحقاق معرضة للربوبية قطعا لكن لما كان الاول حالة موجبة لظهور الاثار
والاحكام ملايمة لتوهم الاستحقاق فى الجملة رتب عليها الحكم الاول على الطريقة
المذكورة وحيث كان الثانى مقتضية لانطماس الاثار وبطلان الاحكام المنافية
للاستحقاق المذكور منافاة بينة يكاد يعترف بها كل مكابر عنيد رتب عليها ما رتب
ثم لما تبرأ عليه السلام منهم توجه الى مبدع هذه المصنوعات ومنشئها فقال انى وجهت
وجهى للذى فطر السموات التى هذه الاجرام التى تعبدونها من اجزائها والارض التى تغيب
هى فيها حنيفا اى مايلا عن الاديان الباطلة والعقايد الزايغة وما انا من المشركين
فى شئ من الافعال والاقوال وحاجه قومه اى شرعوا فى مغالبته فى امر التوحيد
قال استيناف وقع جوابا عن سؤال نشاء من حكاية محاجتهم كانه قيل فماذا قال لهم
حين حاجوه فقيل منكرا لما اجترؤا عليه من محاجته عليه السلام مع قصورهم عن
تلك الرتبة وعزة المطلب وقوة الخصم اتحاجونى فى الله ادغام نون الجمع فى نون
الوقاية وقرئ بحذف الاولى وقوله تعالى وقد هدان حال من ضمير المتكلم مؤكدة
للانكار فان كونه عليه السلام مهديا من جهة الله عز وجل ومؤيدا من عنده بما
يوجب استحالة محاجته اى اتجادلوننى فى شانه تعالى ووحدانيته والحال انه تعالى
هدانى الى الحق بعد ما سلكت طريقتكم بالفرض والتقدير وتبين بطلانها تبينا تاما كما
شاهدتموه وقوله تعالى ولا اخاف ما تشركون به جواب عما خوفوه عليه السلام فى اثناء
المحاجة من اصابة مكروه من جهة اصنامهم كما قال لهود عليه السلام قومه ان نقول الا
اعتراك بعض الهتنا بسوء ولعلهم فعلوا ذلك حين فعل عليه السلام بالهتهم
ما فعل وما موصولة اسمية حذف عايدها وقوله تعالى الا ان يشاء ربى شيئا استثناء
مفرغ من اعم الاوقات اى لا اخاف ما تشركونه به سبحانه من معبوداتكم فى وقت
من الاوقات الا وقت مشيئته تعالى شيئا من اصابة مكروه بى من جهتها وذلك انما
هو من جهته تعالى من غير دخل لالهتكم فيه اصلا وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة
الى ضميره عليه السلام اظهار منه لانقياده لحكمه سبحانه وتعالى واستسلام لامره و
اعتراف بكونه تحت ملكوته وربوبيته تعالى وقوله تعالى وسع ربى كل شئ علما كانه
تعليل للاستثناء اى احاط بكل شئ علما فلا يبعد ان يكون فى علمه تعالى ان يحيق بى مكروه
من قبلها بسبب من الاسباب وفى الاظهار فى موضع الاضمار تاكيد للمعنى المذكور و
استلذاذ بذكره تعالى افلا تتذكرون اى اتعرضون عن التامل فى ان الهتكم جمادات
غير قادرة على شئ ما من نفع ولا ضر فلا تتذكرون انها غير قادرة على اضرارى وفى ايراد
التذكر دون التفكر ونظايره اشارة الى ان امر اصنامهم مركوز فى العقول لا يتوقف
الا على التذكر وقوله تعالى وكيف اخاف ما اشركتم استيناف مسوق لنفى الخوف عنه
عليه السلام بحسب زعم الكفرة بالطريق الالزامى كما سياتى بعد نفيه عنه بحسب الواقع
ونفس الامر والاستفهام لانكار الوقوع ونفيه بالكلية كما فى قوله تعالى كيف تكفرون
بالله الخ وفى توجيه الانكار الى كيفية الخوف من المبالغة ما ليس فى توجيهه الى نفسه
بان يقال ااخاف لما ان كل موجود يجب ان يكون وجوده على حال من الاحوال وكيفية من

الكيفيات قطعا فاذا انتفى جميع احواله وكيفياته فقد انتفى وجوده من جميع الجهات بالطريق
البرهانى وقوله عز وجل ولا تخافون انكم اشركتم بالله حال من ضمير اخاف بتقدير
مبتداء والواو كافية فى الربط من غير حاجة الى الضمير العايد الى ذى الحال وهو مقرر لانكار
الخوف ونفيه عليه السلام ومفيد لاعترافهم بذلك فانهم حيث لم يخافوا فى محل
الخوف فلان يخاف عليه السلام فى محل الامن اولى واحرى اى وكيف اخاف انا ما ليس
فى حيز الخوف اصلا وانتم لا تخافون غايلة ما هو اعظم المخوفات واهولها وهو
اشراككم بالله الذي ليس كمثله شئ فى الارض ولا فى السماء ما هو من جملة مخلوقاته وانما
عبر عنه بقوله تعالى ما لم ينزل به اي باشراكه عليكم سلطانا على طريقة التهكم مع
الايذان بان الامور الدينية لا يعول فيها الا على الحجة المنزلة من عند الله تعالى وفى تعليق
الخوف الثانى باشراكهم من المبالغة ومراعاة حسن الادب ما لا يخفى هذا واما ما قيل
من ان قوله تعالى ولا تخافون الخ معطوف على اخاف داخل معه فى حكم الانكار والتعجب
فمما لا سبيل اليه اصلا لافضائه الى فساد المعنى قطعا كيف لا وقد عرفت ان الانكار
بمعنى النفى بالكلية فيؤل المعنى الى نفى الخوف منه عليه السلام ونفى نفيه عنهم وانه
بين الفساد وحمل الانكار فى الاول على معنى نفى الوقوع وفى الثانى على استبعاد الواقع
مما لا مساغ له على ان قوله تعالى فاي الفريقين احق بالامن ناطق ببطلانه حتما فانه
كلام مرتب على انكار خوفه عليه السلام فى محل الامن مع تحقق عدم خوفهم فى محل الخوف
مسوق لالجائهم الى الاعتراف باستحقاقه عليه السلام لما هو فيه من الامن عليه وبعدم
استحقاقهم لما هم عليه وانما جئ بصيغة التفضيل المشعرة باستحقاقهم له فى الجملة
لاستنزالهم عن رتبة المكابرة والاعتساف بسوق الكلام على سنن الانصاف والمراد
بالفريقين الفريق الامن فى محل الامن والفريق الامن فى محل الخوف فايثار ما عليه النظم
الكريم على ان يقال فاينا احق بالامن انا ام انتم لتاكيد الالجاء الى الجواب الحق بالتنبيه على علة
الحكم والتفادى عن التصريح بتخطيتهم لا لمجرد الاحتراز عن تزكية النفس ان كنتم
تعلمون المفعول اما محذوف تعويلا على ظهوره بمعونة المقام اى ان كنتم تعلمون
من احق بذلك او قصدا الى التعميم اى ان كنتم تعلمون شيئا واما متروك بالمرة اي
ان كنتم من اولى العلم وجواب الشرط محذوف اى فاخبرونى الذين امنوا استيناف
من جهته تعالى مبين للجواب الحق الذي لا محيد عنه اي الفريق الذين امنوا ولم يلبسوا
ايمانهم ذلك اى لم يخلطوه بظلم اى بشرك كما يفعله الفريق المشركون حيث يزعمون
انهم يؤمنون بالله عز وجل وان عبادتهم للاصنام من تتمات ايمانهم واحكامه
لكونها لاجل التقريب والشفاعة كما قالوا انما نعبدهم ليقربونا الى الله زلفى وهذا
معنى الخلط اولئك اشارة الى الموصول من حيث اتصافه بما فى حيز الصلة وفى الاشارة
اليه بعد وصفه بما ذكر ايذان بانهم تميزوا بذلك عن غيرهم وانتظموا فى سلك الامور
المشاهدة وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الشرف
وهو مبتدا ثان وقوله تعالى لهم الامن جملة من خبر مقدم ومبتداء مؤخر وقعت
خبرا لاولئك وهو مع خبره خبر للمبتداء الاول الذي هو الموصول ويجوز ان يكون اولئك
بدلا من الموصول او عطف بيان له ولهم خبرا للموصول والامن فاعلا للظرف لاعتماده على
المبتداء ويجوز ان يكون لهم خبرا مقدما والامن مبتداء والجملة خبر للموصول ويجوز
ان يكون اولئك مبتداء ثانيا ولهم خبره والامن فاعلا له والجملة خبر للموصول اي اولئك
الموصوفون بما ذكر من الايمان الخالص عن شوب الشرك لهم الامن فقط وهم مهتدون
الى الحق ومن عداهم فى ضلال مبين روي انه لما نزلت الآية شق ذلك على الصحابة رضوان الله
عليهم اجمعين وقالوا اينا لم يظلم نفسه فقال صلى الله عليه وسلم ليس ما تظنون انما هو
ما قال لقمان لابنه يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم وليس الايمان به ان يصدق
بوجود الصانع الحكيم ويخلط بهذا التصديق الاشراك به وليس من قضية الخلط بقاء
الاصل بعد الخلط حقيقة وقيل المراد بالظلم المعصية التي تفسق صاحبها والظاهر

هو الاول لوروده مورد الجواب عن حال الفريقين وتلك اشارة الى ما احتج به ابراهيم
عليه السلام من قوله تعالى فلما جن وقيل من قوله اتحاجوني الى قوله تعالى مهتدون
وما فى اسم الاشارة من معنى البعد لتفخيم شان المشار اليه والاشعار بعلو طبقته وسمو
منزلته فى الفضل وهو مبتداء وقوله تعالى حجتنا خبره وفى اضافتها الى نون العظمة
من التفخيم ما لا يخفى وقوله تعالى اتيناها ابراهيم اى ارشدناه اليها او علمناه اياه
فى محل النصب على انه حال من حجتنا والعامل فيها معنى الاشارة كما فى قوله تعالى فتلك
بيوتهم خاوية بما ظلموا او فى محل الرفع على انه خبر ثان او هو الخبر وحجتنا بدل او
بيان للمبتداء وابراهيم مفعول اول لاتينا قدم عليه الثاني لكونه ضميرا وقوله تعالى على
قومه متعلق بحجتنا ان جعل خبرا لتلك او بمحذوف ان جعل بدلا اى آتينا ابراهيم حجة
على قومه وقيل بقوله اتينا نرفع بنون العظمة وقرئ بالياء على طريقة الالتفات
وكذا الفعل الآتي درجات اى رتبا عظيمة عالية من العلم والحكمة وانتصابها
على المصدرية او الظرفية او على نزع الخافض اى الى درجات او على التمييز وقوله تعالى
من نشاء وتاخيره على الوجوه الثلاثة الاخيرة لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق
الى المؤخر ومفعول المشيئة محذوف اى من نشاء رفعه حسبما يقتضيه الحكمة و
يستدعيه المصلحة وايثار صيغة الاستقبال للدلالة على ان ذلك سنة مستمرة جارية
فيما بين المصطفين الاخيار غير مختصة بابراهيم عليه السلام وقرئ بالاضافة الى
من والجملة مستانفة مقررة لما قبلها لا محل لها من الاعراب وقيل هي فى محل النصب على
انها حال من فاعل اتينا اى حال كوننا رافعين الخ ان ربك حكيم فى كل ما فعل من
رفع وخفض عليم بحال من يرفعه واستعداده له على مراتب متفاوتة والجملة
تعليل لما قبلها وفى وضع الرب مضافا الى ضميره عليه السلام موضع نون العظمة بطريق
الالتفات فى تضاعيف بيان احوال ابراهيم عليه السلام اظهار لمزيد لطف وعناية
به صلى الله عليه وسلم ووهبنا له اسحق ويعقوب عطف على قوله تعالى وتلك
حجتنا الخ فان عطف كل من الجملة الفعلية والاسمية على الاخرى مما لا نزاع فى جوازه ولا
مساغ لعطفه على اتيناها لان له محلا من الاعراب نصبا ورفعا حسبما بين من قبل
فلو عطف هذا عليه لكان فى حكمه من الحالية والخبرية المستدعيتين للرابط ولا
سبيل اليه ههنا كلا مفعول لما بعده وتقديمه عليه للقصر لا بالنسبة الى غيرهما
مطلقا بل بالنسبة الى احدهما اى كل واحد منهما هدينا لا احدهما دون الآخر
وترك ذكر المهدي اليه لظهور انه الذي اوتي ابراهيم وانهما مقتديان به ونوحا
منصوب بمضمر يفسره هدينا من قبل اي من قبل ابراهيم عد هداه نعمة على ابراهيم
عليهما السلام لان شرف الوالد سار الى الولد ومن ذريته الضمير لابراهيم لان مساق
النظم الكريم لبيان شؤنه العظيمة من ايتاء الحجة ورفع الدرجات وهبة الاولاد
الانبياء وابقاء هذه الكرامة فى نسله الى يوم القيمة كل ذلك لالزام من ينتمي الى ملته من
المشركين واليهود وقيل لنوح لانه اقرب ولان يونس ولوطا ليسا من ذرية ابراهيم عليهم السلام
فلو كان الضمير له لاختص البيان بالمعدودين فى هذه الآية والتي بعدها واما المذكورون فى الآية
الثالثة فعطف على نوح وروي عن ابن عباس رضي الله عنه ان هؤلاء الانبياء لهم مضافون الى
ذرية ابراهيم وان كان منهم من لم يلحقه بولاد من قبل ام ولا اب لان لوطا ابن اخي
ابراهيم والعرب تجعل العم ابا كما اخبر الله تعالى عن ابناء يعقوب انهم قالوا نعبد الهك واله
آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق مع ان اسمعيل عم يعقوب داود وسليمان منصوبان بمضمر
مفهوم بما سبق وكذا ما عطف عليهما وبه يتعلق من ذريته وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام
بشانه مع ما فى المفاعيل من نوع طول ربما يخل تاخيره بتجاوب اطراف النظم الكريم اي وهدينا
من ذريته داود وسليمان وايوب هو ابن اموص من اسباط عيص بن اسحق ويوسف
وموسى وهرون او بمحذوف وقع حالا من المذكورين اى وهدينا هؤلاء حال كونهم من
ذريته وكذلك اشارة الى ما يفهم من النظم الكريم من جزاء ابراهيم عليه السلام

ومحل الكاف النصب على انه نعت لمصدر محذوف واصل التقدير نجزي المحسنين جزاء مثل
ذلك الجزاء والتقديم للقصر وقد مر تحقيقه مرارا والمراد بالمحسنين الجنس ومماثلة
جزائهم لجزائه عليه السلام مطلق المشابهة في مقابلة الاحسان بالاحسان والمكافاة بين
الاعمال والاجزية من غير تخصيص لا المماثلة من كل وجه ضرورة ان الجزاء بكثرة الاولاد
الانبياء مما اختص به ابراهيم عليه السلام والاقرب ان لام المحسنين للعهد وذلك
اشارة الى مصدر الفعل الذي بعده وهو عبارة عما اوتي المذكورون من فنون الكرامات وما
فيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقته والكاف لتاكيد ما افاده اسم الاشارة من الفخامة
ومحلها في الاصل النصب على انه نعت لمصدر محذوف واصل التقدير ونجزي المحسنين
المذكورين جزاء كائنا مثل ذلك الجزاء فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف
مقحمة للنكتة المذكورة فصار المشار اليه نفس المصدر المؤكد لا نعتا له اي وذلك الجزاء
البديع نجزي المحسنين المذكورين لا جزاء آخر ادنى منه والاظهار في موضع الاضمار
للثناء عليهم بالاحسان الذي هو عبارة عن الاتيان بالاعمال الحسنة على الوجه اللائق
الذي هو حسنها الوصفي المقارن لحسنها الذاتي وقد فسره صلى الله عليه وسلم بقوله
ان تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك والجملة اعتراض مقرر لما قبلها وزكريا
هو ابن اذن ويحيى ابنه وعيسى هو ابن مريم وفيه دليل بين على ان الذرية تتناول
اولاد البنات والياس قيل هو ادريس جد نوح فيكون البيان مخصوصا بمن في الآية الاولى
وقيل هو اسباط هارون اخي موسى عليهما السلام كل اي كل واحد من اولئك المذكورين من
الصالحين اي من الكاملين في الصلاح الذي هو عبارة عن الاتيان بما ينبغي والتحرز
عما لا ينبغي والجملة اعتراض جيء به للثناء عليهم بالصلاح واسمعيل واليسع هو
ابن اخطوب بن العجوز وقرئ والليسع وهو على القرائتين علم اعجمي ادخل عليه
اللام ولا اشتقاق له ويقال انه يوشع بن نون وقيل انه منقول من مضارع وسع
واللام كما في يزيد في قول من قال رايت الوليد بن اليزيد مباركا شديدا باعباء الخلافة
كاهله ويونس هو ابن متى ولوطا هو ابن هاران بن اخي ابراهيم عليهم السلام وكلا
اي وكل واحد من اولئك المذكورين فضلنا بالنبوة لا بعضهم دون بعض على
العالمين على عالمي عصرهم والجملة اعتراض كاختها وقوله تعالى ومن آبائهم وذرياتهم
واخوانهم اما متعلق بما تعلق به من ذريته ومن ابتدائية والمفعول محذوف
اي وهدينا هم من آبائهم وذرياتهم واخوانهم جماعات كثيرة واما معطوف على
كلا ومن تبعيضية اي وفضلنا بعض آبائهم الخ واجتبيناهم عطف على فضلنا اي
اصطفيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم تكرير للتاكيد وتمهيد لبيان ما هدوا اليه
ذلك اشارة الى ما يفهم من النظم الكريم من مصادر الافعال المذكورة وقيل الى ما
دانوا به وما في ذلك من معنى البعد لما مر مرارا هدى الله الاضافة للتشريف يهدي
به من يشاء من عباده وهم المستعدون للهداية والارشاد وفيه اشارة
الى انه تعالى متفضل بالهداية ولو اشركوا اي هؤلاء المذكورون لحبط عنهم
مع فضلهم وعلو طبقاتهم ما كانوا يعملون من الاعمال المرضية الصالحة فكيف
بمن عداهم وهم هم واعمالهم اعمالهم اولئك اشارة الى المذكورين من الانبياء
الثمانية عشر والمعطوفين عليهم عليهم السلام باعتبار اتصافهم بما ذكر من الهداية
وغيرها من النعوت الجليلة الثابتة لهم وما فيه من معنى البعد لما مر غير مرة من
الايذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل والشرف وهو مبتدا خبره قوله
تعالى الذين آتيناهم الكتاب اي جنس الكتاب المتحقق في ضمن اي فرد كان من افراد
الكتب السماوية والمراد بايتائه التفهيم التام بما فيه من الحقائق والتمكين من الاحاطة
بالجلائل والدقائق اعم من ان يكون ذلك بالانزال ابتداء او بالايراث بقاء فان المذكورين
لم ينزل على كل واحد منهم كتاب معين والحكم اي الحكمة او فصل الامر على ما
يقتضيه الحق والصواب والنبوة اي الرسالة فان يكفر بها اي بهذه الثلاثة او

بالنبوة الجامعة للباقين هؤلاء اي كفار قريش فانهم بكفرهم برسول الله صلى الله عليه
وسلم وما انزل اليه من القرآن كافرون بما يصدقه جميعا وتقديم الجار والمجرور على
على الفاعل لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر فقد وكلنا بها اي
امرنا بمراعاتها ووفقنا للايمان بها والقيام بحقوقها قوما ليسوا بها بكافرين في
وقت من الاوقات بل مستمرون على الايمان بها فان الجملة الاسمية الايجابية كما تفيد
دوام الثبوت كذلك السلبية تفيد دوام النفي بمعونة المقام لا نفي الدوام كما حقق
في مقامه قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد هم الانصار واهل المدينة وقيل اصحاب النبي صلعم
وقيل كل مؤمن من بني آدم وقيل الفرس فان كلا من هؤلاء الطوائف موفقون للايمان
بالانبياء وبالكتب المنزلة اليهم عاملون بما فيها من اصول الشرائع وفروعها الباقية
في شريعتنا وبه يتحقق الخروج من عهدة التوكيل والتكليف دون المنسوخة منها فانها
بانتساخها خارجة عن كونها من احكامها وقد مر تحقيقه في تفسير سورة المائدة
وقيل هم الانبياء المذكورون فالمراد بالتوكيل الامر بما هو اعم من اجراء احكامها
كما هو شانهم في حق كتابهم ومن اعتقاد حقيتها كما هو شانهم في حق سائر الكتب
التي من جملتها القرآن الكريم وقيل هم الملائكة فالتوكيل هو الامر بانزالها وحفظها
واعتقاد حقيتها واياما كان فتنكير قوما للتفخيم والباء الاولى صلة لكافرين قدمت
عليها محافظة على الفواصل والثانية لتاكيد النفي واما تقديم صلة وكلنا على مفعوله
الصريح فلما ذكر آنفا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر ولان فيه نوع طول ربما
يؤدي تقديمه الى الاخلال بتجاوب النظم الكريم او الى الفصل بين الصفة والموصوف
وجواب الشرط محذوف يدل عليه المذكور اي فان يكفر بها هؤلاء فلا اعتداد به اصلا
فقد وفقنا للايمان به قوما فخاما ليسوا بكافرين بها قطعا بل مستمرون على الايمان
بها والعمل بما فيها ففي ايمانهم بها مندوحة عن ايمان هؤلاء عن هذا تبين ان الوجه
ان يكون المراد بالقوم احدى الطوائف المذكورة اذ بايمانهم بالقرآن والعمل باحكامه
يتحقق الغنية عن ايمان الكفرة به والعمل باحكامه واما الانبياء والملائكة عليهم السلام
فايمانهم به ليس من قبيل ايمان آحاد الامة كما اشير اليه اولئك اشارة الى الانبياء
المذكورين وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبتهم وهو مبتدا خبره قوله تعالى
الذين هدى الله اي الى الحق والنهج المستقيم والالتفات الى الاسم الجليل للاشعار بعلة
الهداية فبهداهم اقتده اي فاختص هداهم بالاقتداء ولا تقتد بغيرهم والمراد
بهداهم طريقتهم في الايمان بالله تعالى وتوحيده واصول دينه دون الشرائع القابلة
للنسخ فانها بعد النسخ لا تبقى هدى والهاء في اقتده للوقف حقها ان تسقط في الدرج
واستحسن اثباتها فيه ايضا اجراء له مجرى الوقف والاقتداء بالامام وقرئ باشباعها
على انها كناية المصدر قل لا اسئلكم عليه اي على القرآن او على التبليغ فان مساق
الكلام يدل عليهما وان لم يجر ذكرهما اجرا من جهتكم كما لم يسئله من قبلي من الانبياء
عليهم السلام وهذا من جملة ما امر عليه السلام بالاقتداء بهم فيه ان هو اي ما القرآن
الا ذكرى للعالمين اي عظة وتذكير لهم كافة من جهته سبحانه فلا يختص بقوم
دون آخرين وما قدروا الله لما بين شان القرآن العظيم وانه نعمة جليلة منه تعالى
كافة الامم حسبما ينطق به قوله تعالى وما ارسلناك الا رحمة للعالمين عقب ذلك ببيان
غمطهم اياهم وكفرهم بها على الوجه سرى ذلك الى الكفر بجميع الكتب الالهية واصل
القدر السبر والحزر يقال قدر الشيء يقدره بالضم قدرا اذا سبره وحزره ليعرف مقداره
ثم استعمل في معرفة الشيء في مقداره واحواله واوصافه وقوله تعالى حق قدره
نصب على المصدرية وهو في الاصل لمصدر اي قدره الحق فلما اضيف موصوفه انتصب
على ما كان ينتصب عليه موصوفه اي ما عرفوه تعالى حق معرفته في اللطف بعباده
والرحمة عليهم ولم يراعوا حقوقه تعالى في ذكر بل اخلوا بها اخلالا اذ قالوا منكرين
لبعثة الرسل وانزال الكتب كافرين بنعمته الجليلة فيهما ما انزل الله على بشر من شيء فنفي

معرفتهم لقدره سبحانه كناية من حطّهم لقدره الجليل ووصفهم له تعالى بنقيض نعته الجميل كما ان نفي المحبة في مثل ان الله لا يحب الكافرين كناية عن البغض والسخط والا فنفي معرفة قدره تعالى يتحقق مع عدم التعرض لحطه بل مع السعي في تحصيل المعرفة كما في قول من يناجي مستقصرا لمعرفته وعبادته سبحانك ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك اي وما عرفوه حق معرفته في السخط على الكفار وشدة بطشه تعالى بهم حسبما نطق به القرآن حين اجترءوا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء فالنفي بمعناه الحقيقي والقائل هم اليهود وقد قالوه مبالغة في انكار انزال القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فالزموا ما لا سبيل لهم الى انكاره اصلا حيث قيل قل من انزل الكتاب الذي جاء به موسى اي قل لهم ذلك على طريقة التبكيت والقام الحجر روي ان ملك بن الصيف من احبار اليهود ورؤسائهم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم انشدك الله الذي انزل التورية على موسى هل تجد فيها ان الله يبغض الحبر السمين فانت الحبر السمين قد سمنت من مالك الذي يطعمك اليهود فضحك القوم فغضب ثم التفت الى عمر رضه فقال ما انزل الله على بشر من شيء فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الاشرف وقيل هم المشركون والزامهم انزال التوراة لما انه كان عندهم من المشاهير الذائعة ولذلك كانوا يقولون لو انا انزل علينا الكتاب لكنا اهدى منهم ووصف الكتاب بالموصول اليهم لزيادة التقرير وتشديد التبكيت وكذا تقييده بقوله تعالى نورا وهدى فان كونه بينا بنفسه ومبينا لغيره مما يؤكد الالزام اي تأكيد وانتصابهما على الحالية من الكتاب والعامل انزل او من الضمير في به والعامل جاء به وللام في قوله تعالى للناس اما متعلق بهدى او بمحذوف هو صفة له اي هدى كائنا للناس وليس المراد بهذا مجرد الزامهم الاعتراف بانزال التوراة فقط بل بانزال القرآن ايضا فان الاعتراف بانزالها مستلزم للاعتراف بانزاله قطعا لما فيها من الشواهد الناطقة به وقد نعى عليهم ما فعلوا بها من التحريف والتغيير حيث قيل تجعلونه قراطيس اي تضعونه في قراطيس مقطعة وورقات مفرقة بحذف الجار بناء على تشبيه القراطيس بالظرف المبهم او تجعلونه نفس القراطيس المقطعة وفيه زيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم كانهم اخرجوه من جنس الكتاب ونزلوه منزلة القراطيس الخالية عن الكتابة والجملة حال كما سبق وقوله تعالى تبدونها صفة لقراطيس وقوله تعالى وتخفون كثيرا معطوف عليه والعائد الى الموصوف محذوف اي كثيرا منها وقيل كلام مبتدأ لا محل له من الاعراب والمراد بالكثير نعوت النبي صلعم وساير ما كتموه من احكام التوراة وقرئ الافعال الثلاثة بالياء حملا على قالوا وما قدروا الله وقوله تعالى وعلمتم ما لم تعلموا انتم ولا آباؤكم قيل هو حال من فاعل تجعلونه باضمار قد او بدونه على اختلاف الرأيين قلت فينبغي ان يجعل ما عبارة عما اخذوه من الكتاب من العلوم والشرايع ليكون التقييد بالحال مفيدا لتأكيد التوبيخ وتشديد التشنيع فان ما فعلوه بالكتاب من التفريق والتقطيع لما ذكر من الابداء والاخفاء شناعة عظيمة في نفسها ومع ملاحظة كونه مأخذ العلوم ومعارفهم اشنع واعظم لا عما تلقوه من جهة النبي صلى الله عليه وسلم زيادة على ما في التوراة وبيانا لما التبس عليهم وعلى آبائهم من مشكلاتها حسبما ينطق به قوله تعالى ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل اكثر الذين هم فيه مختلفون كما قالوا لان تلقيهم لذلك من القرآن الكريم ليس مما يزجرهم عما صنعوا بالتوراة اما ما ورد فيه زيادة على ما فيها فلانه لا تعلق له بها نفيا ولا اثباتا واما ما ورد بطريق البيان فلان مدار ما فعلوا بها من التبديل والتحريف ليس ما وقع فيها من التباس الامر واشتباه الحال حتى يقلعوا عن ذلك بايضاحه وبيانه فيكون الجملة حينئذ خالية عن تأكيد التوبيخ فلا تستحق ان تقع موقع الحال بل الوجه حينئذ ان يكون استئنافا مقررا لما قبلها من مجيء الكتاب بطريق التكملة والاستطراد والتمهيد لما يعقبه من مجيء القرآن ولا سبيل الى

جعل ما عبارة

جعل ما عبارة عما كتموه من احكام التوراة كما يفصح عنه قوله تعالى قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب فان ظهوره وان كان مزجرة لهم عن الكتم مخافة الافتضاح ومصححا لوقوع الجملة في موقع الحال لكن ذلك مما يعلمه الكاتمون حتما هذا وقد قيل الخطاب لمن آمن من قريش كما في قوله تعالى لتنذر قوما ما انذر آباؤهم وقوله تعالى قل الله امر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بان يجيب عنهم اشعارا بتعين الجواب بحيث لا محيد عنه وايذانا بانهم الجموا ولم يقدروا على التكلم اصلا ثم ذرهم في خوضهم في باطلهم الذي يخوضون فيه فلا عليك بعد التبليغ والقام الحجر يلعبون حال من الضمير الاول والظرف صلة للفعل المقدم او المؤخر او متعلق بمحذوف هو حال من مفعول الاول او من فاعل الثاني او من الضمير الثاني لانه فاعل في الحقيقة والظرف متصل بالاول وهذا كتاب انزلناه تحقيق لنزول القرآن الكريم بعد تقرير انزال ما بشر به من التوراة وتكذيب لهم في كلمتهم الشنعاء اثر تكذيب مبارك اي كثير الفوائد وجم المنافع مصدق الذي بين يديه من التوراة لنزوله حسبما وصف فيها والكتب التي قبلها فانه مصدق للكل في اثبات التوحيد والامر به ونفي الشرك والنهي عنه وفي ساير اصول الشرايع التي لا تنسخ ولتنذر ام القرى عطف على ما دل عليه مبارك اي للبركات ولانذار اهل مكة وانما ذكرت باسمها المنبئ عن كونها اعظم القرى شانا وقبلة لاهلها قاطبة ايذانا بان انذار اهلها اصل مستتبع لانذار اهل الارض كافة وقرئ لينذر بالياء على ان الضمير للكتاب ومن حولها من اهل المدر والوبر في المشارق والمغارب والذين يؤمنون بالآخرة وبما فيها من افانين العذاب يؤمنون به اي بالكتاب لانهم يخافون العاقبة ولا يزال الخوف يحملهم على النظر والتأمل حتى يؤمنوا به وهم على صلوتهم يحافظون تخصيص محافظتهم على الصلاة بالذكر من بين ساير العبادات التي لا بد للمؤمنين من ادائها للايذان بانافتها من بين ساير الطاعات وكونها اشرف العبادات بعد الايمان ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا فزعم انه بعثه نبيا كمسيلمة الكذاب والاسود العنسي او اختلق عليه احكاما من الحل والحرمة كعمرو بن لحي ومتابعيه اي هو اظلم من كل ظالم وان كان سبك التركيب على نفي الاظلم منه من غير تعرض لنفي المساوي وانكاره فان الاستعمال الفاشي في قولك من افضل من زيد ولا اكرم منه على انه افضل من كل فاضل واكرم من كل كريم وقد مر تمام الكلام فيه او قال اوحي الي من جهته تعالى ولم يوح اليه اي والحال انه لم يوح اليه شيء اصلا كعبد الله بن سعيد بن ابي سرح كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين فلما بلغ ثم انشأناه خلقا آخر قال عبد الله تبارك الله احسن الخالقين تعجبا من تفصيل خلق الانسان ثم قال عليه السلام اكتبها كذلك فشك عبد الله وقال لئن كان محمد صادقا فقد اوحي الي كما اوحي اليه ولئن كان كاذبا فقد قلت كما قال ومن قال سانزل مثل ما انزل الله كالذين قالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا ولو ترى اذ الظالمون حذف مفعول ترى لدلالة الظرف عليه اي ولو ترى الظالمين اذ هم في غمرات الموت اي شدايده من غمره اذا غشيه والملائكة باسطوا ايديهم بقبض ارواحهم كالمتقاضي الملظ الملح يبسط يده الى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة من غير امهال وتنفيس او باسطوها بالعذاب قائلين اخرجوا انفسكم اي اخرجوا ارواحكم الينا من اجسادكم او خلصوا انفسكم من العذاب اليوم اي وقت الاماتة الممتد بعد الى ما لا نهاية له تجزون عذاب الهون اي العذاب المتضمن لشدة واهانة فاضافته الى الهون وهو الهوان لعراقته فيه بما كنتم تقولون على الله غير الحق كاتخاذ الولد ونسبة الشريك اليه وادعاء النبوة والوحي كاذبا وكنتم عن آياته تستكبرون فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون بها ولقد جئتمونا للحساب فرادى منفردين عن الاموال والاولاد وغير ذلك مما آثرتموه من الدنيا او عن الاعوان والاصنام التي كنتم تزعمون انها شفعاؤكم وهو جمع فرد والالف للتأنيث ككسالى وقرئ فرادا كرخال وفراد كثلاث وفردى كسكرى كما

خلقناكم اول مرة بدل من فرادى اى على الهيئة التى ولدتم عليها فى الانفراد او حال
ثانية عند من يجوز تعددها او حال من الضمير فى فرادى اى مشبهين ابتداء خلقكم
عراة حفاة غرلا بهما او صفة مصدر جئتمونا اى مجيئا كخلقنا لكم اول مرة وتركتم
ما خولناكم تفضلناه عليكم فى الدنيا فشغلتم به عن الآخرة وراء ظهوركم ما
قدمتم منه شيئا ولم تحملوا نقيرا وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم
فيكم شركاء اى شركاء الله تعالى فى الربوبية واستحقاق العبادة لقد تقطع بينكم
اى وقع التقطع بينكم كما يقال جمع بين الشيئين اى اوقع الجمع بينهما وقرئ بينكم
بالرفع على اسناد الفعل الى الظرف كما يقال قوتل امامكم وخلفكم او على ان البين اسم
للفصل والوصل اى تقطع وصلكم وقرئ ما بينكم وضل عنكم اى ضاع او غاب ما كنتم
تزعمون انها شفعاؤكم وان لا بعث ولا جزاء ان الله فالق الحب والنوى شروع
فى تقرير بعض افاعيله تعالى الدالة على كمال علمه وقدرته ولطف صنعه وحكمته اثر تقرير
ادلة التوحيد والفلق الشق بابانة اى شاق الحب بالنبات والنوى بالشجر وقيل المراد
به الشق الذى فى الحبوب والنوى اى خالقهما كذلك كما فى قولك ضيق فم الركية ووسع
اسفلها وقيل الفلق بمعنى الخلق قال الواحدى ذهبوا بفالق مذهب فاطر يخرج
الحى من الميت اى يخرج ما ينمو من الحيوان والنبات مما لا ينمو من النطفة والحب
والجملة مستأنفة مبينة لما قبلها وقيل خبر ثان لان وقوله ومخرج الميت كالنطفة والحب
من الحى كالحيوان والنبات عطف على فالق الحب لا على يخرج على الوجه الاول لان اخراج
الميت من الحى ليس من قبيل فلق الحب والنوى ذلكم القادر العظيم الشان هو الله
المستحق للعبادة وحده فانى تؤفكون فكيف تصرفون عن عبادته الى غيره ولا سبيل
اليه اصلا فالق الاصباح خبر آخر لان او المبتدأ المحذوف والاصباح مصدر سمى
به الصبح وقرئ بفتح الهمزة على انه جمع صبح اى فالق عمود الفجر عن بياض النهار واسفاره
وفالق ظلمة الاصباح وهى الغلس الذى يلى الصبح وقرئ فالق بالنصب على المدح وجعل
الليل سكنا يسكن اليه التعب بالنهار لاستراحته فيه من سكن اليه اذا اطمأن
اليه استئناسا به او يسكن فيه الخلق من قوله تعالى لتسكنوا فيه وقرئ جاعل الليل
فانتصاب سكنا بفعل دل عليه جاعل وقيل بنفسه على ان المراد به الجعل المستمر فى الازمنة
المتجدد حسب تجددها لا الجعل الماضى فقط وقيل اسم الفاعل من الفعل المتعدى الى اثنين
يعمل فى الثانى وان كان بمعنى الماضى لانه لما اضيف الى الاول تعين نصبه للثانى لتعذر
الاضافة بعد ذلك والشمس والقمر معطوفان على الليل على القراءة الاخيرة قيل هما
معطوفان على محله والاحسن نصبهما حينئذ بفعل مقدر وقد قرئا بالجر وبالرفع ايضا
على الابتداء والخبر محذوف اى مجعولان حسبانا اى على ادوار مختلفة يحسب
بها الاوقات التى نيط بها العبادات والمعاملات او محسوبان بحسبان والحسبان بالضم
مصدر حسب كما ان الحسبان بالكسر مصدر حسب ذلك اشارة الى جعلهما كذلك وما
فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبة المشار اليه وبعد منزلته اى ذلك التسيير
البديع تقدير العزيز الغالب القاهر الذى لا يستعصى عليه شئ من الاشياء التى من
جملتها تسييرها على الوجه المخصوص العليم بجميع المعلومات التى من جملتها ما فى
ذلك التسيير من المنافع والمصالح المتعلقة بمعاش الخلق ومعادهم وهو الذى
جعل لكم النجوم شروع فى بيان نعمته تعالى فى الكواكب اثر بيان نعمته تعالى فى النيرين
والجعل المتعدى الى واحد واللام متعلقة به وتأخير المفعول الصريح عن الجار والمجرور
لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر اى انشأها وابدعها لاجلكم
فقوله تعالى لتهتدوا بها بدل من المجرور باعادة العامل بدل اشتمال كما فى قوله تعالى
لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا والتقدير جعل لكم النجوم لاهتدائكم لكن لا على
ان غاية خلقها اهتداؤهم فقط بل على طريقة افراد بعض منافعها وغاياتها بالذكر
حسبما يقتضيه المقام وقد جوز ان يكون مفعولا ثانيا للجعل وهو بمعنى التصيير

اى جعلها كائنة لاهتدائكم فى اسفاركم عند دخولكم المفاوز او البحار كما ينبئ عنه قوله
تعالى فى ظلمات البر والبحر اى فى ظلمات الليل فى البر والبحر واضافتها اليهما للملابسة
فان الحاجة الى الاهتداء بها انما يتحقق عند ذلك او فى مشتبهات الطرق عبر عنها
بالظلمات على طريقة الاستعارة قد فصلنا الآيات اى بينا الآيات المتلوة المذكورة لنعمه
التى هذه النعم من جملتها او الآيات التكوينية الدالة على شؤونه تعالى مفصلة لقوم يعلمون
اى معانى الآيات المذكورة ويعملون بموجبها او يتفكرون فى الآيات التكوينية فيعلمون
حقيقة الحال وتخصيص التفصيل بهم مع عمومه للكل لانهم المنتفعون به وهو
الذى انشأكم من نفس واحدة تذكير لنعمة اخرى من نعمه تعالى الدالة على عظيم قدرته
ولطيف صنعه وحكمته اى انشأكم مع كثرتكم من نفس آدم عليه السلام فمستقر ومستودع
اى فلكم استقرار فى الاصلاب او فوق الارض واستيداع فى الارحام او تحت الارض او
موضع استقرار واستيداع فيما ذكر والتعبير عن كونهم فى الاصلاب او فوق الارض
بالاستقرار لانهما مقرهم الطبيعى كما ان التعبير عن كونهم فى الارحام او تحت الارض
بالاستيداع لما ان كلا منهما ليس بمقرهم الطبيعى وقد حمل الاستيداع على كونهم فى الاصلاب
وليس بواضح وقرئ مستقر بكسر القاف اى فمنكم مستقر ومنكم مستودع فان الاستقرار
منا بخلاف الاستيداع قد فصلنا الآيات المبينة لتفاصيل خلق البشر من هذه الآية
ونظائرها لقوم يفقهون غوامض الدقائق باستعمال الفطنة وتدقيق النظر
فان لطائف صنع الله عز وجل فى اطوار تخليق بنى آدم مما يحار فى فهمه الالباب
وهو السر فى ايثار يفقهون على يعلمون كما ورد فى شأن النجوم وهو الذى انزل من
السماء ماء تذكير لنعمة اخرى من نعمه تعالى منبئة عن كمال قدرته تعالى وسعة رحمته
اى انزل من السحاب او من سمت السماء ماء خاصا هو المطر وتقديم الجار والمجرور
على المفعول الصريح لما مر مرارا فاخرجنا به التفت الى التكلم اظهارا لكمال العناية بشأن
ما انزل الماء لاجله اى فاخرجنا بعظمتنا بذلك الماء مع وحدته نبات كل شئ من
الاشياء التى من شأنها النمو من اصناف النجم والشجر وانواعهما المختلفة فى الكم
والكيف والخواص والآثار اختلافا متفاوتا فى مراتب الزيادة والنقصان حسبما يفصح
عنه قوله تعالى يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل وقوله تعالى فاخرجنا
منه خضرا شروع فى تفصيل ما اجمل من الاخراج وقد بدئ بتفصيل حال النجم اى
فاخرجنا من النبات الذى لا ساق له شيئا غضا اخضر يقال شئ اخضر وخضر كاعور وعور
واكثر ما يستعمل الخضر فيما يكون خضرته خلقية وهو ما تشعب من اصل
النبات الخارج من الحبة وقوله تعالى نخرج منه صفة لخضرا وصيغة المضارع
لاستحضار الصورة لما فيها من الغرابة اى نخرج من ذلك الخضر حبا متراكبا هو
السنبل المنتظم للحبوب المتراكبة بعضها فوق بعض على هيئة مخصوصة وقرئ
يخرج منه حب متراكب وقوله تعالى ومن النخل شروع فى تفصيل حال الشجر اثر
بيان حال النجم فقوله تعالى من النخل خبر مقدم وقوله تعالى من طلعها بدل منه
باعادة العامل كما فى قوله تعالى لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو
الله الخ والطلع شئ يخرج من النخل كأنه نعلان مطبقتان والحمل بينهما منضود وقوله
تعالى قنوان مبتدأ اى وحاصلة من طلع النخل قنوان ويجوز ان يكون الخبر محذوفا
لدلالة اخرجنا عليه اى ومخرجة من طلع النخل قنوان ومن قرأ يخرج منه حب متراكب
كان قنوان عنده معطوفا على حب وقيل المعنى واخرجنا من النخل نخلا من طلعها قنوان
او ومن النخل شئ من طلعها قنوان وهى جمع قنو وهو عنقود النخلة كصنو وصنوان
وقرئ بضم القاف كذئب وذؤبان وبفتحها ايضا على انه اسم جمع لان فعلان ليس من
ابنية الجمع دانية سهلة المجتنى قريبة من القاطف فانها وان كانت صغيرة ينالها
القاعد بانى بالثمر لا تنتظر الطول او ملتفة متقاربة والاقتصار على ذكرها لدلالتها
على مقابلها كقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر ولزيادة النعمة فيها وجنات من اعناب عطف

على نبات كل شئ اى واخرجنا به جنات كاينة من اعناب وقرئ جنات بالرفع على الابتداء اى
ولكم او ثمة جنات وقد جوز عطفه على قنوان كانه قيل حاصله او مخرجه من
النخل قنوان وجنات من نبات اعناب ولعل زيادة الجنات ههنا من غير اكتفاء بذكر
اسم الجنس كما فى تقدم وما تاخر لما ان الانتفاع بهذا الجنس لا يتاتى غالبا الا عند
اجتماع طايفة من افراده والزيتون والرمان منصوبان على الاختصاص لعزة
هذين الصنفين عندهم او على العطف على نبات وقوله تعالى مشتبها وغير متشابه
حال من الزيتون اكتفى به عن حال ما عطف عليه كما يكتفى بخبر المعطوف عليه عن خبر
المعطوف فى نحو قوله تعالى والله ورسوله احق ان يرضوه وتقديره والزيتون مشتبها وغير
متشابه والرمان كذلك وقد جوز ان يكون حالا من الرمان لقربه ويكون المحذوف
حال الاول والمعنى بعضه متشابها وبعضه غير متشابه فى الهيئة والمقدار واللون والطعم
وغير ذلك من الاوصاف الدالة على كمال قدرة صانعها وحكمة منشئها ومبدعها
انظروا الى ثمره اذا اثمر اى انظروا اليه نظر اعتبار واستبصار اذا اخرج ثمره
كيف يخرجه ضئيلا لا يكاد ينتفع به وقرئ الى ثمره وينعه اى والى حال نضجه كيف
يصير الى كماله اللايق به ويكون شيئا جامعا لمنافع جمة والينع فى الاصل مصدر ينعت
الثمرة اذا ادركت وقيل جمع يانع كتاجر وتجر وقرئ بالضم وهى لغة فيه وقرئ يانعه
ان فى ذلكم اشارة الى ما امر بالنظر اليه وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان
بعلو رتبة المشار اليه وبعد منزلته لايات لقوم يؤمنون اى لايات عظيمة او كثيرة
دالة على وجود القادر الحكيم ووحدته فان حدوث هاتيك الاجناس المختلفة والانواع
المتشعبة من اصل واحد وانتقالها من حال الى حال على نمط بديع تحار فى فهمه الالباب لا
يكاد يكون الا باحداث صانع يعلم تفصيلها ويرجح ما يقتضيه حكمته من الوجوه الممكنة
على غيره ولا يعوقه عن ذلك ضد يناويه او ند يقاربه ولذلك عقب بتوبيخ من اشرك به
والرد عليه حيث قيل وجعلوا لله شركاء اى جعلوا فى اعتقادهم لله الذى شانه ما
فصل فى تضاعيف هذه الايات الجليلة شركاء الجن اى الملايكة حيث عبدوهم و
قالوا الملايكة بنات الله وسموا جنا لاجتنانهم تحقيرا لشانهم بالنسبة الى مقام
الالوهية او الشياطين حيث اطاعوهم الله تعالى او عبدوا الاوثان بتسويلهم و
تحريضهم او قالوا الله خالق الخير وكل نافع والشيطان خالق الشر وكل ضار كما هو راى
الثنوية ومفعولا جعلوا قوله تعالى شركاء الجن فقدم ثانيهما على الاول لاستعظام ان يتخذ
لله سبحانه شريك ما كاينا ما كان ولله متعلق بشركاء قدم عليه للنكتة المذكورة
وقيل هما لله شركاء والجن بدل من شركاء مفسر له نص عليه الفراء وابو اسحق او
منصوب بمضمر وقع جوابا عن سؤال مقدر نشاء من قوله تعالى وجعلوا لله شركاء فكانه
قيل من جعلوه شركاء لله تعالى فقيل الجن اى جعلوا الجن ويؤيده قراءة ابى حيوة ويزيد
بن قطيب الجن بالرفع على تقدير هم الجن فى جواب من قال من الذى جعلوه شركاء
لله تعالى وقد قرئ بالجر على ان الاضافة للتبيين وخلقهم حال من فاعل جعلوا
بتقدير قد او بدونه على اختلاف الرايين مؤكدة لما فى جعلهم ذلك من كمال القباحة
والبطلان باعتبار علمهم بمضمونها اى وقد علموا انه تعالى خالقهم خاصة وقيل
الضمير للشركاء اى والحال انه تعالى خلق الجن فكيف يجعلون مخلوقه شريكا له تعالى
وقرئ خلقهم عطفا على الجن او ما يخلقونه من الاصنام او على شركاء اى وجعلوا له
اختلاقهم الافك حيث نسبوه اليه تعالى وخرقوا له اى افتعلوا وافتروا له يقال
خلق الافك واختلقه وخرقه واخترقه بمعنى وقرئ خرقوا بالتشديد للتكثير وقرئ
وحرفوا له اى زوروا بنين وبنات فقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح
ابن الله وقالت طايفة من العرب الملايكة بنات الله بغير علم اى بحقيقة ما قالوه
من خطاء او صواب بل رميا بقول عن عمى وجهالة من غير فكر وروية او بغير علم
بمرتبة ما قالوه وانه من الشناعة والبطلان بحيث لا يقادر قدره والباء متعلقة بمحذوف

هو حال من فاعل خرقوا او نعت لمصدر مؤكد اى خرقوا ملتبسين بغير علم او خرقا كاينا
بغير علم سبحانه استيناف مسوق لتنزيهه عز وجل عما نسبوه اليه وسبحان
علم للتسبيح الذى هو التبعيد عن السوء اعتقادا او قولا اى اعتقاد البعد عنه والحكم
به من سبح فى الارض والماء اذا ابعد فيهما وامعن ومنه فرس سبوح اى واسع الجرى
وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه اى اسبح سبحانه اى انزهه عما لا يليق به عقدا
وعملا تنزيها خاصا به حقيقا بشانه وفيه مبالغة من جهة الاشتقاق من السبح
ومن جهة النقل الى التفعيل ومن جهة العدول عن المصدر الدال على الجنس الى الاسم الموضوع
له خاصة لا سيما العلم المشير الى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة اقامته مقام المصدر
مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران لانه سمع له فعل من الثلاثى كما ذكر فى القاموس اريد
به التنزه التام والتباعد الكلى ففيه مبالغة من حيث اسناد التنزه الى ذاته المقدسة
اى تنزه بذاته تنزها وهو الانسب بقوله سبحانه وتعالى فانه معطوف على الفعل المضمر
لا محالة وليما فى السبحان والتعالى من معنى التباعد عما يصفون اى متباعدا
عما يصفونه من ان له شريكا وولدا بديع السموات والارض اى مبدعهما ومخترعهما
بلا مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه فان البديع كما يطلق على المبتدع يطلق على المبدع
نص عليه ايمة اللغة كالصريح بمعنى المصرح وقد جاء بدعه كمنعه بمعنى انشاه كابتدعه
على ما ذكر فى القاموس وغيره ونظيره السميع بمعنى المسمع فى قوله امن ريحانة الداعى السميع
وقيل هو من اضافة الصفة المشبهة الى الفاعل للتخفيف بعد نصبه تشبيها لها باسم
الفاعل كما هو المشهور اى بديع سمواته وارضه من بدع اذا كان على نمط عجيب وشكل فايق
وحسن رايق او الى الظرف كما فى قولهم ثبت الغدر بمعنى انه عديم النظير فيهما والاول هو الوجه
والمعنى انه تعالى مبدع لقطرى العالم العلوى والسفلى بلا مادة فاعل على الاطلاق منزه عن
الانفعال بالمدة والوالد عنصر الولد منفعل بانتقال مادته عنه فكيف يمكن ان يكون له ولد
وقرئ بديع بالنصب على المدح وبالجر على انه بدل من الاسم الجليل او من الضمير المجرور فى
سبحانه على راى من يجيزه وارتفاعه على القراءة المشهورة على انه خبر مبتدا محذوف او
فاعل تعالى واظهاره فى موقع الاضمار لتعليل الحكم وتوسيط الظرف بينه وبين الفعل
للاهتمام ببيانه او مبتدا خبره قوله تعالى انى يكون له ولد وهو على الاولين جملة
مستقلة مسوقة كما قبلها لبيان استحالة ما نسبوه اليه تعالى وتقرير تنزهه وقوله تعالى ولم
تكن له صاحبة حال مؤكدة للاستحالة المذكورة فان انتفاء ان يكون له تعالى صاحبة مستلزم
لانتفاء ان يكون له ولد ضرورة استحالة وجود الولد بلا والدة وان امكن وجوده بلا
والد وانتفاء الاول مما لا ريب فيه لاحد فمن ضرورته انتفاء الثانى اى من اين او كيف
يكون له ولد كما زعموا والحال انه ليس له على زعمهم ايضا صاحبة يكون الولد منها وقرئ
لم يكن بتذكير الفعل للفصل او لان الاسم ضميره تعالى والخبر هو الظرف وصاحبة مرتفع
به على الفاعلية لاعتماده على المبتدا او الظرف خبر مقدم وصاحبة مبتدا مؤخر والجملة
خبر للكون وعلى هذه الوجه يجوز ان يكون الاسم ضمير الشان لصلاحية الجملة حينئذ
لان تكون مفسرة لضمير الشان لا على الوجه الاول لما بين فى موضعه ان الضمير الشان لا يفسر
الا بجملة صريحة وقوله تعالى وخلق كل شئ اما جملة مستانفة اخرى سيقت لتحقيق ما
ذكر من الاستحالة او حال اخرى مقررة لها اى انى يكون له ولد والحال انه خلق كل شئ انتظمه
التكوين والايجاد من الموجودات التى من جملتها ما سموه ولدا له تعالى فكيف يتصور ان
يكون المخلوق ولدا لخالقه وهو بكل شئ من شانه ان يعلم كاينا ما كان مخلوقا او
غير مخلوق كما ينبئ عنه ترك الاضمار الى الاظهار عليم مبالغ فى العلم ازلا وابدا
حسبما يعرب عنه العدول الى الجملة الاسمية فلا يخفى عليه خافية مما كان وما سيكون
من الذوات والصفات والاحوال التى من جملتها ما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز من
المحالات التى ما زعموه فرد من افرادها والجملة استيناف مقرر لمضمون ما قبلها
من الدلايل القاطعة ببطلان مقالتهم الشنعاء التى اجترؤا عليها بغير علم ذلكم اشارة الى

بما ذكر من جلائل النعوت وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو شان المشار اليه وبعد منزلته
فى العظمة والخطاب للمشركين المعهودين بطريق الالتفات وهو مبتدا وقوله تعالى
الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء اخبار اربعة مترادفة اى ذلك الموصوف
بتلك الصفات العظيمة هو الله المستحق للعبادة خاصة مالك امركم لا شريك له اصلا
خالق كل شىء مما كان ومما سيكون فلا تكرار اذ المعتبر فى عنوان الموضوع انما هو
خالقيته لما كان فقط كما ينبئ عنه صيغة الماضى وقيل الخبر هو الاول والباقى ابدال وقيل الاسم
الجليل بدل من المبتدا والبواقى اخبار وقيل يقدر لكل من الاخبار الثلاثة مبتدا وقيل
يجعل الكل بمنزلة اسم واحد وقوله تعالى فاعبدوه حكم مترتب على مضمون الجملة فان من
جمع هذه الصفات كان هو المستحق للعبادة خاصة وقوله تعالى وهو على كل شىء وكيل
عطف على الجملة المتقدمة اى هو مع ما فصل من الصفات الجليلة متولى امور جميع
مخلوقاته التى انتم من جملتها فكلوا اموركم اليه وتوسلوا بعبادته الى نجاح مآربكم
الدنيوية والاخروية لا تدركه الابصار البصر حاسة النظر وقد تطلق على العين
من حيث انها محلها وادراك الشىء عبارة عن الوصول اليه والاحاطة به اى لا تصل اليه الابصار
ولا تحيط به كما قال سعيد بن المسيب وقال عطاء كلت الابصار المخلوقين عن الاحاطة فلا
متمسك فيه لمنكرى الرؤية على الاطلاق وقد روى عن ابن عباس ومقاتل رضى لا تدركه
الابصار فى الدنيا وهو يرى فى الاخرة وهو يدرك الابصار اى يحيط بها علمه
اذ لا يخفى عليه خافية وهو اللطيف الخبير فيدرك ما لا تدركه الابصار فيجوز ان
يكون تعليلا للحكمين السابقين على طريقة اللف اى لا يدركه الابصار لانه اللطيف
وهو يدرك الابصار لانه الخبير فيكون اللطيف مستعارا من مقابل الكثيف لما
لا يدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها وقوله تعالى قد جاءكم بصائر من ربكم استيناف
وارد على لسان النبى صلى الله عليه وسلم والبصائر جمع بصيرة وهو النور الذى به
يستبصر النفس كما ان البصر نور به تبصر العين والمراد بها الايات الواردة ههنا او جميع
الايات المنتظمة لها انتظاما اوليا ومن لابتداء الغاية مجازا سواء تعلقت
بجاء او بمحذوف هو صفة لبصائر والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير
المخاطبين لاظهار كمال اللطف بهم اى قد جاءكم من جهة مالككم ومبلغكم الى كمالكم اللائق
من الوحى الناطق بالحق والصواب ما هو كالبصائر للقلوب او قد جاءكم بصائر كائنة
من ربكم فمن ابصر اى الحق بتلك البصائر وآمن به فلنفسه اى فلنفسه ابصر
او فابصاره لنفسه لان نفعه مخصوص بها ومن عمى اى ومن لم يبصر الحق بعد
ما ظهر له بتلك البصائر ظهورا بينا وضل عنه وانما عبر عنه بالعمى تقبيحا له وتنفيرا عنه
فعليها اى فعليها عمى او فعماه عليها او وبال عماه وما انا عليكم بحفيظ وانما
انا منذر والله هو الذى يحفظ اعمالكم ويجازيكم عليها وكذلك نصرف الايات
اى مثل ذلك التصريف البديع نصرف الايات الدالة على المعانى الرائقة الكاشفة
عن الحقائق الفائقة لا تصريفا ادنى منه وقوله تعالى وليقولوا درست علة لفعل
قد حذف تعويلا على دلالة السياق عليه اى وليقولوا درست نفعل ما نفعل من التصريف
المذكور واللام للعاقبة والواو اعتراضية وقيل هى عاطفة على علة محذوفة واللام
متعلقة بنصرف اى مثل ذلك التصريف نصرف الايات لنلزمهم الحجة وليقولوا الخ وقيل اللام
لام الامر وتنصره القراءة بسكون اللام كانه قيل نصرف الايات وليقولوا هم ما يقولون
فانه لا احتفال بهم ولا اعتداد بقولهم وهذا امر معناه الوعيد والتهديد وعدم
الاكتراث بقولهم ورد عليه بان ما بعده يأباه ومعنى درست قرات وتعلمت وقرئ
دارست اى دارست العلماء ودرست اى قدمت هذه الايات وعفت كما قالوا اساطير
الاولين ودرست بضم الراء مبالغة فى درست اى اشتد دروسها ودرست على البناء للمفعول
بمعنى قرئت او عفيت ودارست وفسروها بدارست اليهود محمدا صلى الله عليه وسلم وجاز
الاضمار لاشتهارهم بالدراسة وقد جوز اسناد الفعل الى الايات وهو فى الحقيقة

لاهلها

لاهلها اى دارس اهل الايات وحملتها محمدا صلى الله عليه وسلم وهم اهل الكتاب و
درس اى درس محمد ودرسات على هى دارسات اى قديمات او ذات درس كعيشة راضية
وقوله تعالى ولنبينه عطف على ليقولوا واللام على الاصل لان التبيين غاية التصريف
والضمير للايات باعتبار المعنى او للقران وان لم يذكر او للمصدر اى ولنفعل التبيين واللام
فى قوله تعالى لقوم يعلمون متعلقة بالتبيين وتخصيصه بهم لما انهم المنتفعون
به قال ابن عباس رضى هم اولياؤه الذين هداهم الى سبيل الرشاد ووصفهم
بالعلم للايذان بغاية جهل الاولين وخلوهم عن العلم بالمرة اتبع ما اوحى اليك من
ربك لما حكى عن المشركين قدحهم فى تصريف الايات عقب ذلك بامره عليه السلام
بالثبات على ما هو عليه وبعدم الاعتداد بهم وباباطيلهم اى دم على ما انت عليه من
اتباع ما اوحى اليك من الشرائع والاحكام التى عمدتها التوحيد وفى التعرض لعنوان الربوبية
مع الاضافة الى ضميره ع من اظهار اللطف به ما لا يخفى وقوله تعالى لا اله الا هو اعتراض
بين الامرين المتعاطفين مؤكد لايجاب اتباع الوحى لا سيما فى امر التوحيد وقد جوز ان
يكون حالا من ربك اى منفردا فى الالوهية واعرض عن المشركين لا تحتفل بهم و
باقاويلهم الباطلة التى من جملتها ما حكى عنهم آنفا ومن جعله منسوخا باية
السيف حمل الاعراض على ما يعم الكف عنهم ولو شاء الله اى عدم اشراكهم حسبما
هو القاعدة المستمرة فى حذف مفعول المشية من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون
الجزاء ما اشركوا وهذا دليل على انه تعالى لا يريد ايمان الكافر لكن لا بمعنى انه تعالى يمنعه عنه
مع توجهه اليه بل بمعنى انه تعالى لا يريده منه لعدم صرف اختياره الجزئى نحو الايمان
واصراره على الكفر والجملة اعتراض مؤكد للاعراض وكذا قوله تعالى وما جعلناك عليهم
حفيظا اى رقيبا مهيمنا من قبلنا تحفظ عليهم اعمالهم وكذا قوله تعالى وما انت
عليهم بوكيل من جهتهم تقوم بامورهم وتدبر مصالحهم وعليهم فى الموضعين متعلق
بما بعده قدم عليه للاهتمام به او لرعاية الفواصل ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله
اى لا تشتموهم من حيث عبادتهم لالهتهم كأن تقولوا تبا لكم ولما تعبدونه مثلا
فيسبوا الله عدوا تجاوزا عن الحق الى الباطل بان يقولوا لكم مثل قولكم لهم بغير علم
اى بجهالة بالله تعالى وبما يجب ان يذكر به وقرئ عدوا يقال عدى يعدو عدوا و
عدوا وعداء وعدوانا روى انهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند
نزول قوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم لتنتهين عن سب آلهتنا
او لنهجون الهك وقيل كان المسلمون يسبون آلهتهم فنهوا عن ذلك لئلا يستتبع سبه
سبحانه وتعالى وفيه ان الطاعة اذا ادت الى معصية راجحة وجب تركها فان ما
يؤدى الى الشر شر اى مثل ذلك التزيين القوى زينا لكل امة عملهم من الخير والشر
باحداث ما يمكنهم منه ويحملهم عليه توفيقا او تخذيلا ويجوز ان يراد بكل امة امم
الكفرة اذ الكلام فيهم وبعملهم شرهم وفسادهم والمشبه به تزيين سب الله تعالى لهم ثم
الى ربهم مالك امرهم مرجعهم اى رجوعهم بالبعث بعد الموت فينبئهم من غير تأخير
بما كانوا يعملون فى الدنيا على الاستمرار من السيئات المزينة لهم وهو وعيد بالجزاء و
العذاب كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت وفيه نكتة سرية مبنية على حكمة
ابية وهى ان كل ما يظهر فى هذه النشاة من الاعيان والاعراض فانما يظهر بصورة مستعارة
مخالفة لصورته الحقيقية التى بها يظهر فى النشاة الاخرة فان المعاصى سموم قاتلة
قد برزت فى الدنيا بصورة تستحسنها نفوس العصاة كما نطقت به هذه الاية الكريمة
وكذا الطاعات فانها مع كونها احسن الاحاسن قد ظهرت عندهم بصور مكروهة
ولذلك قال عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات فاعمال الكفرة
قد برزت لهم فى هذه النشاة بصورة مزينة تستحسنها الغواة ويستحبها الطغاة
وستظهر فى النشاة الاخرة بصورتها الحقيقية المنكرة الهائلة فعند ذلك يعرفون
ان اعمالهم ماذا فعبر عن اظهارها بصورها الحقيقية بالاخبار بها لما ان كلا منهما سبب

للعلم بحقيقتها كما هي فليتدبر وقوله تعالى واقسموا بالله روي ان قريشا اقترحوا بعض
آيات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فان فعلت بعض ما تقولون اتصدقونني فقالوا نعم
واقسموا لئن فعلته لنؤمنن جميعا فسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ينزلها طمعا
في ايمانهم فهم عليه السلام بالدعاء فنزلت وقوله تعالى جهد ايمانهم مصدر في موضع
الحال اي اقسموا به تعالى جاهدين في ايمانهم لئن جاءتهم آية من مقترحاتهم او
من جنس الآيات وهو الانسب بحالهم في المكابرة والعناد وترامي امرهم في العتو و
الفساد حيث كانوا لا يعدون ما يشاهدونه من المعجزات القاهرة من جنس الآيات
ليؤمنن بها وما كان مرمى غرضهم في ذلك الا التحكم على رسول الله صلى الله عليه وسلم
في طلب المعجزة وعدم الاعتداد بما شاهدوا منه من البينات الحقيقية بان تقطع بها
الارض وتسير بها الجبال قل انما الآيات اي كلها فيدخل فيها ما اقترحوه دخولا اوليا
عند الله اي امرها في حكمه وقضائه خاصة يتصرف فيها حسب مشيئته المبنية على
الحكم البالغة لا يتعلق بها ولا بشأن من شؤونها قدرة احد ولا مشيئته لا استقلالا ولا
اشتراكا بوجه من الوجوه حتى يمكنني ان اتصدى لاستنزالها بالاستدعاء وهذا كما ترى
سد لباب الاقتراح على ابلغ وجه واحسنه ببيان علو شأن الآيات وصعوبة منالها
وتعاليها من ان تكون عرضة للسؤال والاقتراح واما ما قيل من ان المعنى انما الآيات عند الله
تعالى لا عندي فكيف اجيبكم اليها او آتيكم بها وهو القادر عليها لا انا حتى آتيكم بها
فلا مناسبة له بالمقام كيف وليس مقترحهم مجيئها بغير قدرة الله تعالى وارادته حتى يجاب
بذلك وقوله تعالى وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون كلام مستأنف غير داخل تحت
الامر مسوق من جهته تعالى لبيان الحكمة الداعية الى ما اشعر به الجواب السابق من عدم
مجيء الآيات خوطب به المسلمون اما خاصة بطريق التلوين لما كانوا راغبين في نزولها
طمعا في اسلامهم واما معه عليه السلام بطريق التعميم لما روي عنه عليه السلام من
الهم بالدعاء وقد بين فيه ان ايمانهم فاجرة وانهم ممن لا يدخل تحت الوجود وان
اجيب الى ما سألوه وما استفهامية انكارية لكن لا على ان مرجع الانكار هو وقوع
المشعر به بل هو نفس الاشعار مع تحقق المشعر به في نفسه اي واي شيء يعلمكم ان الآية التي
يقترحونها اذا جاءت لا يؤمنون بل يبقون على ما كانوا عليه من الكفر والعناد اي لا تعلمون ذلك
فتتمنون مجيئها طمعا في ايمانهم فكانه بسط عذر من جهة المسلمين في تمنيهم نزول
الآيات وقيل لا مزيدة فيتوجه الانكار الى الاشعار والمشعر به جميعا اي اي شيء يعلمكم ايمانهم
عند مجيء الآيات حتى تمنوا مجيئها طمعا في ايمانهم فيكون تخطئة لرأي المسلمين و
قيل ان بمعنى لعل يقال ادخل السوق انك تشتري اللحم وعنك وعلك ولعلك كلها بمعنى
ويؤيده انه قرئ لعلها اذا جاءت لا يؤمنون على ان الكلام قد تم قبله والمفعول الثاني
ليشعركم محذوف كما في قوله تعالى وما يدريك لعله يزكى والجملة استئناف لتعليل الانكار
وتقريره اي اي شيء يعلمكم حالهم وما سيكون عند مجيء الآيات لعلها اذا جاءت لا يؤمنون
فما لكم تتمنون مجيئها فان تمنيه انما يليق بما اذا كان ايمانهم بها محقق الوجود عند
مجيئها لا مرجو العدم وقرئ انها بالكسرة على انها استئناف حسبما سبق مع زيادة
تحقيق لعدم ايمانهم وقرئ لا تؤمنون بالفوقانية فالخطاب في وما يشعركم للمشركين
وقرئ وما يشعرهم انها اذا جاءتهم لا يؤمنون فمرجع الانكار اقدام المشركين على الاقسام
المذكور مع جهلهم بحال قلوبهم عند مجيء الآيات وبكونها حينئذ كما هي الآن ونقلب افئدتهم
وابصارهم عطف على لا يؤمنون داخل في حكم ما يشعركم مقيد بما قيد به اي و
ما يشعركم انا نقلب افئدتهم عن ادراك الحق فلا يفقهونه وابصارهم عن اجتلائه
فلا يبصرونه لكن لا مع توجهها اليه واستعدادها لقبوله لكمال نبوها عنه واعراضها
بالكلية ولذلك اخر ذكره عن ذكر عدم ايمانهم اشعارا باصالتهم في الكفر وحسما
لتوهم ان عدم ايمانهم ناشئ من تقليبه تعالى مشاعرهم بطريق الاجبار كما لم يؤمنوا
اي بما جاء من الآيات اول مرة اي عند ورود الآيات السابقة والكاف في محل

النصب

النصب على انه نعت لمصدر محذوف منصوب بلا يؤمنون وما مصدرية اي لا يؤمنون
بل يكفرون كفرا كائنا ككفرهم اول مرة وتوسيط تقليب الافئدة والابصار بينهما لانه من
مهمات عدم ايمانهم ونذرهم عطف على لا يؤمنون داخل في حكم الاستفهام
الانكاري مقيد بما قيد به مبين لما هو المراد بتقليب الافئدة والابصار ومعرب عن حقيقته
بانه ليس على ظاهره بان يقلب الله سبحانه مشاعرهم عن الحق مع توجهها اليه واستعدادهم
له بطريق الاجبار بل بان يخليهم وشانهم بعد ما علم فساد استعدادهم وفرط نفورهم
عن الحق وعدم تأثير اللطف فيهم اصلا ويطبع على قلوبهم حسبما يقتضيه استعدادهم
كما اشرنا اليه وقوله تعالى في طغيانهم متعلق بنذرهم وقوله تعالى يعمهون حال
من الضمير المنصوب في نذرهم اي ندعهم في طغيانهم متحيرين لا نهديهم هداية
المؤمنين او مفعول ثان لنذرهم اي نصيرهم عامهين وقرئ يقلب ويذر بالياء على
اسنادهما الى ضمير الجلالة وقرئ تقلب بالتاء والبناء للمفعول على اسناده الى افئدتهم
ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة تصريح بما اشعر به قوله عز وجل وما يشعركم انها اذا
جاءت لا يؤمنون من الحكمة الداعية الى ترك الاجابة الى ما اقترحوه من الآيات اثر بيان
انها في حكمه تعالى وقضائه المبني على الحكم البالغة لا مدخل لاحد في امرها بوجه من الوجوه
وبيان لكذبهم في ايمانهم الفاجرة على ابلغ وجه وآكده اي ولو اننا لم نقتصر على ايتاء
ما اقترحوه ههنا من آية واحدة من الآيات بل نزلنا اليهم الملائكة كما سألوه بقولهم
لولا انزل علينا الملائكة وقولهم لوما تأتينا بالملائكة وكلمهم الموتى وشهدوا بـ
حقية الايمان بعد ان احييناهم حسبما اقترحوه بقولهم فأتوا بآبائنا وحشرنا اي
جمعنا عليهم كل شيء قبلا بضمتين وقرئ بسكون الباء اي كفلاء بصحة الامر وصدق
النبي صلعم على انه جمع قبيل بمعنى الكفيل كرغيف ورغف وقضيب وقضب وهو الانسب بقوله
تعالى او تأتي بالله والملائكة قبيلا اي لو لم نقتصر على ما اقترحوه بل زدنا على ذلك بان
احضرنا لديهم كل شيء يتأتى منه الكفالة والشهادة بما ذكر لا فرادى بل بطريق المعية او
جماعات على انه جمع قبيل وهو جمع قبيلة وهو الاوفق لعموم كل شيء وشموله للانواع والاصناف
اي حشرنا كل شيء نوعا نوعا وصنفا صنفا وفوجا فوجا وانتصابه على الحالية وجمعيته
باعتبار الكل المجموعي اللازم للكل الافرادي او مقابلة وعيانا على انه مصدر كقبلا
وقد قرئ كذلك وانتصابه على الوجهين على انه مصدر في موقع الحال وقد نقل عن المبرد
وجماعة من اهل اللغة ان الاخير بمعنى الجهة كما في قولك لي قبل فلان حق وان انتصابه
على الظرفية ما كانوا ليؤمنوا اي ما صح ولا استقام لهم الايمان لتماديهم في العصيان
وغلوهم في التمرد والطغيان واما سبق القضاء عليهم بالكفر فمن الاحكام المترتبة
على ذلك حسبما ينبئ عنه قوله تعالى عز وجل ونذرهم في طغيانهم يعمهون وقوله تعالى الا
ان يشاء الله استثناء مفرغ من اعم الاحوال والالتفات الى الاسم الجليل لتربية المهابة
وادخال الروعة اي ما كانوا ليؤمنوا بعد اجتماع ما ذكر من الامور الموجبة للايمان في
حال من الاحوال الداعية اليه المتممة لموجباته المذكورة الا في حال مشيئته تعالى لايمانهم
او من اعم العلل اي ما كانوا ليؤمنوا لعلة من العلل المعدودة وغيرها الا لمشيئته تعالى له
واياما كان فليس المراد بالاستثناء بيان ان ايمانهم على خطر الوقوع بناء على كون مشيئته
تعالى ايضا كذلك بل بيان استحالة وقوعه بناء على استحالة وقوعها كانه قيل ما كانوا
ليؤمنوا الا ان يشاء الله وهيهات ذلك وحالهم حالهم بدليل ما سبق من قوله
تعالى ونقلب افئدتهم الآية كيف وقوله عز وجل ولكن اكثرهم يجهلون استدراك
من مضمون الشرطية بعد ورود الاستثناء لا قبله ولا ريب في ان الذي يجهلونه
سواء اريد بهم المسلمون وهو الظاهر او المقسمون ليس عدم ايمانهم بلا مشيئة الله
تعالى كما هو اللازم من حمل النظم الكريم على المعنى الاول فانه ليس مما يعتقده الاولون ولا مما
يدعيه الآخرون بل انما هو عدم ايمانهم لعدم مشيئته ايمانهم ومرجعه الى جهلهم بعدم
مشيئته اياه فالمعنى ان حالهم كما شرح ولكن اكثر المسلمين يجهلون عدم ايمانهم عند مجيء الآيات

لجهلهم عدم مشيئته تعالى لايمانهم فيتمنون مجيئها طمعاً فيما لا يكون فالجملة مقررة لمضمون
قوله تعالى وما يشعركم الخ على القراءة المشهورة او ولكن اكثر المشركين يجهلون عدم ايمانهم
عند مجيء الآيات لجهلهم عدم مشيئته تعالى لايمانهم حينئذ فيقسمون بالله جهد ايمانهم
على ما لا يكاد يكون فالجملة على القراءة السابقة بيان مبدأ منشأ خطاء المقسمين ومناط
اقسامهم وتقريره له على قراءة لا تؤمنون بالتاء الفوقانية وكذا على قراءة وما يشعرهم انها
اذا جاءتهم لا يؤمنون وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً كلام مبتدأ مسوق
لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يشاهده من عداوة قريش له عليه
السلام وما بنوا عليها مما لا خير فيه من الاقاويل والافاعيل ببيان ان ذلك ليس
مختصاً بك بل هو امر ابتلي به كل من سبقك من الانبياء عليهم السلام ومحل الكاف النصب
على انه نعت لمصدر مؤكد لما بعده وذلك اشارة الى ما يفهم مما قبله اي جعلنا لكل
نبي عدواً جعلا كما جعلنا لك عدوا والتقديم على الفعل المذكور للقصد المفيد للمبالغة
اي مثل ذلك الجعل الذي جعلناه في حقك حيث جعلنا لك عدواً يضادونك ولا يؤمنون
ويبغونك الغوائل ويدبرون في ابطال امرك مكايد جعلنا لكل نبي تقدمك عدواً فعلوا
بهم ما فعل بك اعداؤك لا جعلا انقص منه وفيه دليل على ان عداوة الكفرة للانبياء
عليهم السلام بخلقه تعالى للابتلاء شياطين الانس والجن اي مردة الفريقين
على ان الاضافة بمعنى من البيانية وقيل هي اضافة الصفة الى الموصوف والاصل
الانس والجن الشياطين وقيل هي بمعنى اللام اي الشياطين للانس والتي للجن وهو
بدل من عدواً والجعل متعد الى واحد او الى اثنين وهو اول مفعوليه قدم عليه الثاني
مسارعة الى بيان العداوة واللام على التقديرين متعلقة بالجعل او بمحذوف هو
حال من عدواً وقوله تعالى يوحي بعضهم الى بعض كلام مستأنف مسوق لبيان
احكام عداوتهم وتحقيق وجه الشبه بين المشبه والمشبه به او حال من الشياطين
او نعت لعدواً وجمع الضمير باعتبار المعنى فانه عبارة عن الاعداء كما في قوله اذا انا
لم انفع صديقي بوده فان عدوي لم يضرهم بغضي والوحي عبارة عن الايماء
والقول السري اي يلقي ويوسوس شياطين الجن الى شياطين الانس او بعض كل من
الفريقين الى بعض آخر زخرف القول اي المموه منه المزين ظاهره الباطل باطنه
من زخرفه اذا زينه غروراً مفعول له ليوحي اي ليغروهم او مصدر في موضع الحال
اي غارين او مصدر مؤكد لفعل مقدر هو حال من فاعل يوحي اي يغرون غروراً ولو
شاء ربك رجوع الى بيان الشؤون الجارية بينه عليه السلام وبين قومه
المفهومة من حكاية ما جرى بين الانبياء عليهم السلام وبين اممهم كما ينبئ عنه
الالتفات والتعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام المعربة عن
كمال اللطف في التسلية اي ولو شاء ربك عدم الامور المذكورة لا ايمانهم كما قيل فان
القاعدة المستمرة ان مفعول المشيئة انما يحذف عند وقوعها شرطا وكون مفعولها
مضمون الجزاء وهو قوله تعالى ما فعلوه اي ما فعلوا ما ذكر من عداوتك وايحاء بعضهم
الى بعض مزخرفات الاقاويل الباطلة المتعلقة بامرك خاصة لا بابطال امور
الانبياء عليهم السلام ايضاً كما قيل فان قوله تعالى فذرهم وما يفترون صريح
في ان المراد بهم الكفرة المعاصرون له صلى الله عليه وسلم اي اذا كان ما فعلوه من احكام
عداوتك من فنون المفاسد بمشيئته تعالى فاتركهم وافتراءهم او وما يفترونه من انواع
المكايد فان لهم في ذلك عقوبات شديدة ولك عواقب حميدة لابتناء مشيئته تعالى على الحكم البالغة
البتة ولتصغى اليه اي الى زخرف القول وهو على الوجه الاول علة اخرى للايحاء معطوف
على غروراً وما بينهما اعتراض وانما لم ينصب لفقد شرطه اذ الغرور فعل الموحي
وصغو الافئدة فعل الموحى اليه اي يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول ليغروهم به و
لتميل اليه افئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة انما خص بالذكر عدم ايمانهم بالآخرة
دون ما عداها من الامور التي يجب الايمان بها وهم بها كافرون اشعاراً بما هو المدار

في صغو

في صغو افئدتهم الى ما يلقى اليهم فان لذات الآخرة محفوفة في هذه النشاة بالمكاره والاهواء
مزينة بالشهوات فالذين لا يؤمنون بها وباحوال ما فيها لا يدرون ان وراء تلك المكاره
لذات ودون هذه الشهوات الاماء وانما ينظرون الى ما بدا لهم في الدنيا بادي الراي
فهم مضطرون الى حب الشهوات التي من جملتها مزخرفات الاقاويل ومموهات
الاباطيل واما المؤمنون بها فحيث كانوا واقفين على حقيقة الحال ناظرين الى عواقب
الامور لم يتصور منهم الميل الى تلك المزخرفات لعلمهم ببطلانها ووخامة
عاقبتها واما على الوجهين الاخيرين فهو علة لفعل محذوف يدل عليه المقام اي
وليكون ذلك جعلنا ما جعلنا والمعتزلة جعلوا اللام لام العاقبة او لام القسم
او لام الامر وضعفه في غاية الظهور وليرضوه لانفسهم بعد ما مالت اليه
افئدتهم وليقترفوا اي يكتسبوا بموجب ارتضائهم له ما هم مقترفون
له من القبائح التي لا يليق ذكرها افغير الله ابتغي حكماً كلام مستأنف
وارد على ارادة القول والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه الكلام اي
قل لهم اأميل الى زخارف الشياطين فابتغي حكماً غير الله يحكم بيننا ويفصل المحق منا
من المبطل وقيل ان مشركي قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اجعل بيننا
وبينك حكماً من احبار اليهود او من اساقفة النصارى ليخبرنا عنك بما في كتابهم من
امرك فنزلت واسناد الابتغاء المنكر الى نفسه عليه السلام لا الى المشركين كما في قوله تعالى
افغير دين الله يبغون مع انهم الباغون لاظهار كمال النصفة او لمراعاة قولهم اجعل
بيننا وبينك حكماً وغير اما مفعول ابتغي وحكماً حال منه واما بالعكس وايا ما كان
فتقديمه على الفعل الذي هو المعطوف بالفاء حقيقة كما اشير اليه للايذان بان مدار
الانكار هو ابتغاء غيره تعالى حكماً لا مطلق الابتغاء وقيل حكماً تمييز لما في غير من الابهام
كقولهم ان لنا غيرها ابلا قالوا الحكم ابلغ من الحكم وادل على الرسوخ لما انه لا يطلق
الا على العادل وعلى من تكرر منه الحكم بخلاف الحاكم وقوله تعالى وهو الذي انزل اليكم
الكتاب جملة حالية مؤكدة لانكار ابتغاء غيره تعالى حكماً ونسبة الانزال اليهم
خاصة مع ان مقتضى المقام اظهار تساوي نسبته الى المتحاكمين لاستمالتهم
نحو المنزل واستنزالهم الى قبول حكمه بايهام قوة نسبته اليهم اي اغيره تعالى ابتغي
حكماً والحال انه هو الذي انزل اليكم وانتم امة امية لا تدرون ما تأتون وما
تذرون القرآن الناطق بالحق والصواب الحقيق بان يخص به اسم الكتاب مفصلا
اي مبينا فيه الحق والباطل والحلال والحرام وغير ذلك من الاحكام بحيث لم يبق في امر
الدين شيء من التخليط والابهام فاي حاجة بعد ذلك الى الحكم وهذا كما ترى صريح في
ان القرآن الكريم كاف في امر الدين مغن عن غيره ببيانه وتفصيله واما ان يكون للاعجاز
دخل في ذلك كما قيل فلا وقوله تعالى والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من
ربك بالحق كلام مستأنف غير داخل تحت القول المقدر مسوق من جهته سبحانه
لتحقيق حقية الكتاب الذي نيط به الحكمية وتقرير كونه منزلاً من عنده عز وجل
ببيان ان الذين وثقوا بهم ورضوا بحكميتهم حسبما نقل آنفا من علماء اليهود
والنصارى عالمون بحقيته ونزوله من عنده تعالى وفي التعبير عن التوراة والانجيل
باسم الكتاب ايماء الى ما بينهما وبين القرآن من المجانسة المقتضية للاشتراك في الحقية
والنزول من عنده تعالى مع ما فيه من الايجاز وايراد الطائفتين بعنوان ايتاء الكتاب
للايذان بانهم علموه من جهة كتابهم حيث وجدوه حسبما نعت فيه وعاينوه موافقا
له في الاصول وما لا يختلف من الفروع ومخبرا عن امور لا طريق الى معرفتها سوى الوحي
والمراد بالموصول اما علماء الفريقين وهو الظاهر فالايتاء هو التفهيم بالفعل واما الكل
وهم داخلون فيه دخولا اوليا فهو اعم مما ذكر ومن التفهيم بالقوة ولا ريب
في ان الكل متمكنون من ذلك وقيل المراد مؤمنوا اهل الكتاب وقرئ منزل من الانزال
والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام لتشريفه عليه السلام والباء

والباء في قوله تعالى بالحق متعلق بمحذوف وقع حالاً من الضمير المستكن في منزل اي ملتبساً
بالحق فلا تكونن من الممترين اي في انهم يعلمون ذلك لما لا تشاهد منهم آثار العلم
واحكام المعرفة فالفاء لترتيب النهي على الاخبار بعلم اهل الكتاب بشأن القرآن او
في انه منزل من ربك بالحق فيكون من باب التهييج والالهاب كقوله تعالى ولا تكونن
من المشركين وقيل الخطاب في الحقيقة للامة وان كان له عليه السلام وصورة
وقيل الخطاب لكل احد على معنى ان الادلة قد تعاضدت وتظاهرت فلا ينبغي
لاحد ان يمتري فيه والفاء على هذه الوجوه لترتيب النهي على نفس علمهم بحال
القرآن وتمت كلمة ربك شروع في بيان كمال الكتاب المذكور من حيث ذاته اثر
بيان كماله من حيث اضافته اليه تعالى بكونه منزلاً منه بالحق وتحقيق ذلك بعلم
اهل الكتاب به وانما عبر عنه بالكلمة لانها الاصل في الاتصاف بالصدق والعدل وبها
يظهر الآثار من الحكم وقرئ كلمات ربك صدقاً وعدلاً مصدران نصباً على الحال وقيل
على التمييز وقيل على العلة وقوله تعالى لا مبدل لكلماته اما استئناف مبين لفضلها
على غيرها اثر بيان فضلها في نفسها واما حال اخرى من فاعل تمت على ان الظاهر
مغن عن الضمير الرابط والمعنى انها بلغت الغاية القاصية القصوى صدقاً في الاخبار
والمواعيد وعدلاً في الاقضية والاحكام لا احد يبدل شيئاً من ذلك بما هو
اصدق واعدل ولا بما هو مثله فكيف يتصور ابتغاء حكم غيره تعالى وهو السميع
لكل ما يتعلق به السمع العليم بكل ما يمكن ان يعلم فيدخل في ذلك اقوال المتحاكمين
واحوالهم الظاهرة والباطنة دخولاً اولياً هذا وقد قيل المعنى لا احد يقدر على
ان يحرفها كما فعل بالتوراة فيكون ضمناً لها من الله عز وجل بالحفظ كقوله تعالى انا نحن
نزلنا الذكر وانا له لحافظون او لا نبي ولا كتاب بعدها ينسخها وان تطع اكثر من
في الارض لما تحقق اختصاصه تعالى بالحكمية لاستقلاله بما يوجبها من انزال الكتاب
الكامل الفاصل بين الحق والباطل وتمام صدق كلامه وكمال عدالة احكامه وامتناع
وجود من يبدل شيئاً منهما واستبداده تعالى بالاحاطة التامة بجميع المسموعات
والمعلومات عقب ذلك ببيان ان الكفرة متصفون بنقائض تلك الكمالات من
النقائص التي هي الضلال والاضلال واتباع الظنون الفاسدة الناشئة من الجهل
والكذب على الله سبحانه ابانة لكمال مباينة حالهم لما يرومونه وتحذيراً عن
الركون اليهم والعمل بآرائهم والمراد بمن في الارض الناس وباكثرهم الكفار وقيل
اهل مكة والارض ارضها اي تطعهم بان جعلت منهم حكماً يضلوك عن سبيل
الله عن الطريق الموصل اليه او عن الشريعة التي شرعها لعباده ان يتبعون الا
الظن وهو ظنهم ان آباءهم كانوا على الحق فهم على آثارهم يهتدون او جهالاتهم
وآراؤهم الباطلة على ان المراد بالظن ما يقابل العلم والجملة استئناف مبني
على سؤال نشأ من الشرطية كانه قيل كيف يضلون فقيل لا يتبعون في امور دينهم الا الظن
وان الظن لا يغني من الحق شيئاً فيضلون ضلالاً مبيناً ولا ريب في ان الضال
المتصدي للارشاد انما يرشد غيره الى مسلك نفسه فهم ضالون مضلون
وقوله تعالى وان هم الا يخرصون عطف على ما قبله داخل في حكمه اي يكذبون
على الله سبحانه فيما ينسبون اليه تعالى كاتخاذ الولد وجعل عبادة الاوثان ذريعة
اليه تعالى وتحليل الميتة وتحريم البحائر ونظائرها او يقدرون انهم على شيء
وأنى لهم ذلك ودونه مناط العيوق وحقيقته ما يقال عن ظن وتخمين ان
ربك هو اعلم من يضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين تقرير لمضمون
الشرطية وما بعدها وتاكيد لما يفيده من التحذير اي هو اعلم بالفريقين فاحذر
ان تكون من الاولين ومن موصولة او موصوفة في محل النصب لا بنفس اعلم
وان افعل التفضيل لا ينصب الظاهر في مثل هذه الصور بل بفعل دل هو عليه او استفهامية
مرفوعة بالابتداء والخبر يضل والجملة معلق عنها الفعل المقدر وقرئ يضل

بضم الياء

بضم الياء على ان من فاعل ليضل مفعوله محذوف ومحلها النصب بما ذكر من الفعل
المقدر اي هو اعلم يعلم من يضل الناس فيكون تاكيداً للتحذير عن طاعة الكفرة
واما ان الفاعل هو الله تعالى ومن منصوب بما ذكر اي يعلم من يضله او مجرورة باضافة
اعلم اليها اي اعلم المضلين من قوله تعالى من يضلل الله او من قولك اضللته اذا وجدته
ضالاً فلا يساعده السياق والسباق والتفضيل في العلم بكثرته واحاطته بالوجوه
التي يمكن تعلق العلم بها ولزومه وكونه بالذات لا بالغير فكلوا مما ذكر اسم الله
عليه امر مرتب على النهي عن اتباع المضلين من جملة اضلالهم تحريم الحلال
وتحليل الحرام وذلك انهم كانوا يقولون للمسلمين انكم تعبدون الله فما
قتله الله احق ان تاكلوه مما قتلتم انتم فقيل للمسلمين كلوا مما ذكر اسمه تعالى
خاصة على ذبحه لا مما ذكر عليه اسم غيره فقط او مع اسمه تعالى او مات حتف
انفه ان كنتم بآياته التي من جملتها الآيات الواردة في هذا الشأن مؤمنين فان
الايمان بها يقتضي استباحة ما احله الله والاجتناب عما حرمه وجواب الشرط محذوف
لدلالة ما قبله عليه وما لكم الا تاكلوا مما ذكر اسم الله عليه انكار لان يكون لهم
شيء يدعوهم الى الاجتناب عن اكل ما ذكر عليه اسم الله تعالى من البحائر والسوائب
ونحوها وقوله تعالى وقد فصل لكم الخ جملة حالية مؤكدة للانكار كما في قوله تعالى
وما لنا الا نقاتل في سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا اي واي سبب
حاصل لكم في ان لا تاكلوا مما ذكر اسم الله او واي غرض يحملكم على ان لا تاكلوا و
يمنعكم من اكله والحال انه قد فصل لكم ما حرم عليكم بقوله تعالى قل لا اجد فيما
اوحي الي محرماً الخ فبقي ما عدا ذلك على الحل لا بقوله تعالى حرمت عليكم الميتة الخ لانها
مدنية واما التاخر في التلاوة فلا يوجب التاخر في النزول وقرئ الفعلان على
البناء للمفعول وقرئ الاول على البناء للفاعل والثاني للمفعول الا ما اضطررتم
اليه مما حرم فانه ايضاً حلال حينئذ وان كثيراً اي من الكفار ليضلون
الناس بتحريم الحلال وتحريم الحرام كعمرو بن لحي واضرابه وقرئ يضلون باهوائهم الزائغة
وشهواتهم الباطلة بغير علم مقتبس من الشريعة الشريفة مستند الى الوحي ان
ربك هو اعلم بالمعتدين المتجاوزين لحدود الحق الى الباطل والحلال الى الحرام وذروا
ظاهر الاثم وباطنه اي ما يعلن من الذنوب وما يستر او ما يعمل منها بالجوارح وما
بالقلب وقيل الزنا في الحوانيت واتخاذ الاخدان ان الذين يكسبون الاثم اي يكتسبونه
من الظاهر والباطن سيجزون بما كانوا يقترفون كائناً ما كان فلا بد من اجتنابهما
والجملة تعليل للامر ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ظاهر في تحريم متروك
التسمية عمداً كان او نسياناً واليه ذهب داود وعن احمد بن حنبل مثله وقال مالك
والشافعي بخلافه لقوله عليه السلام ذبيحة المسلم حلال وان لم يذكر اسم الله عليه
وفرق ابو حنيفة بين العمد والنسيان واوله بالميتة او بما ذكر عليه اسم غيره تعالى لقوله
وانه لفسق فان الفسق ما اهل به لغير الله والضمير لما ويجوز ان يكون للاكل المدلول
عليه بلا تاكلوا والجملة مستانفة وقيل حالية وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم
المراد بالشياطين ابليس وجنوده فايحاؤهم وسوستهم الى المشركين وقيل مردة المجوس
فايحاؤهم الى اوليائهم ما انهوا الى قريش بالكتاب ان محمداً واصحابه يزعمون انهم
يتبعون امر الله ثم يزعمون ان ما يقتلونه حلال وما يقتله الله حرام ليجادلوكم
اي بالوساوس الشيطانية او بما نقل من اباطيل المجوس وهو يؤيد التاويل بالميتة
وان اطعتموهم في استحلال الحرام وساعدتموهم على اباطيلهم انكم
لمشركون ضرورة ان من ترك طاعة الله الى طاعة غيره واتبعه في دينه فقد اشرك به
تعالى بل آثره عليه سبحانه او من كان ميتاً وقرئ ميتاً على الاصل فاحييناه تمثيل
مسوق لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين اثر تحذيرهم عنها بالاشارة الى انهم
مستضيئون بانوار الوحي الالهي والمشركين خابطون في ظلمات الكفر والطغيان فكيف

يَعْقل اطاعتهم لهم والهمزة للانكار والنفي والواو لعطف الجملة الاسمية على مثلها الذي يدل عليه اي انتم مثلهم ومن كان ميتاً فاعطيناه الحيوة وما يتبعها من القوى المدركة والمحركة وجعلنا له مع ذلك من الخارج نوراً عظيماً يمشي به اي بسببه والجملة استيناف مبني على سؤال نشأ من الكلام كانه قيل فماذا يصنع بذلك النور فقيل يمشي به في الناس اى فيما بينهم آمناً من جهتهم او صفة له كمن مثله اى صفته العجيبة وهو مبتدأ وقوله تعالى في الظلمات خبره على ان المراد بهما اللفظ لا المعنى كما في قولك زيد صفته اسم وهذه الجملة صلة لمن وهي مجرورة بالكاف وهي مع مجرورها خبر لمن الاولى وقوله تعالى ليس بخارج منها حال من المستكن في الظرف وقيل من الموصول اى غير خارج منها بحال وهذا كما ترى مثل اريد به من بقي في الضلالة بحيث لا يفارقها اصلاً كما ان الاول مثل اريد به من خلقه الله تعالى على فطرة الاسلام وهداه بالآيات البينة الى طريق الحق يسلكه كيف يشاء لكن على ان يدل كل واحد من هذه المعاني بما يليق به من الالفاظ الواردة في المثلين بواسطة تشبيه بما يناسبه من معانيها فان الفاظ المثل باقية في معانيها الاصلية بل على انه قد انتزعت من الامور المتعددة المعتبرة في كل واحد من جانبي الممثلين هيئة على حدة ومن الامور المتعددة المذكورة في كل واحد من جانبي المثلين هيئة على حدة فشبهت بهما الاوليان ونزلتا منزلتيهما فيهما ما يدل على الاخريين بضرب من التجوز وقد اشير في تفسير قوله تعالى ختم الله على قلوبهم الآية الى ان التمثيل قسم برأسه لا سبيل الى جعله من باب الاستعارة حقيقة وان الاستعارة التمثيلية من عبارات المتأخرين نعم قد يجري ذلك على سنن الاستعارة بان لا يذكر المشبه كهذين التمثيلين ونظائرهما وقد يجري على منهاج التشبيه كما في قوله وما الناس الا كالديار واهلها بها يوم حلوها وغدواً بلاقع كذلك اى مثل ذلك التزيين البليغ زين اي من جهته الله عز وجل بطريق الخلق عند اهل السنة او من جهة الشياطين بطريق الزخرفة والتسويل للكافرين التابعين للوساوس الشيطانية الآخذين بالزخرفات التي يوحونها اليهم ما كانوا يعملون ما استمروا على عمله من الكفر والمعاصي التي من جملتها ما حكي عنهم من القبائح فانها لو لم تكن مزينة لهم لما أصروا عليها ولما جادلوا بها الحق وقيل الآية نزلت في حمزة رضي الله عنه وأبي جهل وقيل في عمر او عمار رضي الله عنهما وابي جهل وكذلك قيل معناه كما جعلنا في مكة اكابر مجرميها ليمكروا فيها جعلنا في كل قرية من سائر القرى اكابر مجرميها ليمكروا فيها ومفعولا جعلنا اكابر مجرميها على تقديم المفعول الثاني والظرف لغو او هما الظرف واكابر على ان مجرميها بدل او مضاف اليه فان افعل التفضيل اذا اضيف جاز الافراد والمطابقة ولذلك قرئ اكبر مجرميها وقيل اكابر مجرميها مفعوله الاول والثاني ليمكروا فيها ولا يخفى ان اي معنى يراد من هذه المعاني لا بد ان يكون مشهور التحقق عند الناس معهوداً فيما بينهم حتى يصلح ان يصرف الاشارة عن سباق النظم الكريم وتوجه اليه ويجعل مقياساً لنظائره باخراجه مخرج المصدر التشبيهي وظاهر ان ليس الامر كذلك ولا سبيل الى توجيهها الى ما يفهم من قوله تعالى كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون وان كان المراد بهم اكابر مكة لان مآل المعنى حينئذ بعد اللتيا والتي كما جعلنا اعمال اهل مكة مزينة لهم جعلنا في كل قرية اكابر مجرميها فالحق ان الاقرب ان ذلك اشارة الى الكفرة المعهودين باعتبار اتصافهم بصفاتهم والافراد بتأويل الفريق او المذكور ومحل الكاف النصب على انه المفعول الثاني لجعلنا قدم عليه لافادة التخصيص كما في قوله تعالى كذلك كنتم من قبل الآية والاول اكابر مجرميها والظرف لغو اي ومثل اولئك الكفرة الذين هم صناديد مكة ومجرموها جعلنا في كل قرية اكابر المجرمين اى جعلناهم متصفين بصفات المذكورين مزيناً لهم اعمالهم مصرين على الباطل مجادلين به الحق ليمكروا فيها اى ليفعلوا المكر فيها هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى وما يمكرون الا بانفسهم

اعتراض

اعتراض على سبيل الوعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والوعيد للكفرة اي وما يحيق غائلة مكرهم الا بهم وما يشعرون حال من ضمير يمكرون مع اعتبار ورود الاستثناء على النفي اي انما يمكرون بانفسهم والحال انهم ما يشعرون بذلك اصلا بل يزعمون انهم يمكرون بغيرهم وقوله تعالى واذا جاءتهم آية رجوع الى بيان حال مجرمي اهل مكة بعد ما بين بطريق التسلية ان حال غيرهم ايضا كذلك ان عاقبة مكر الكل ما ذكرنا فان العظيمة المنقولة انما صدرت عنهم لا عن سائر المجرمين اي اذا جاءتهم آية بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما اوتي رسل الله قال ابن عباس حتى يوحى الينا ويأتينا جبريل فيخبرنا ان محمدا صادق كما قالوا او تأتي بالله والملائكة قبيلا وعن الحسن البصري مثله وهذا كما ترى صريح في ان ما علق بايتاء ما اوتي الرسل عليهم السلام هو ايمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما انزل اليه ايمانا حقيقيا كما هو المتبادر منه عند الاطلاق خلا انه يستدعي ان يحمل ما اوتي رسل الله على مطلق الوحي ومخاطبة جبريل عليه السلام في الجملة وان يصرف الرسالة في قوله تعالى الله اعلم حيث يجعل رسالته عن ظاهرها ويحمل على رسالة جبريل عليه السلام بالوجه المذكور ويراد بجعلها تبليغها الى المرسل اليه لا وضعها في موضعها الذي هو الرسول لتأتي كونه جوابا عن اقتراحهم ورداً له بان يكون معنى الاقتراح لن نؤمن بكون تلك الآية نازلة من عند الله تعالى الى الرسول حتى يأتينا جبريل بالذات عيانا كما يأتي الرسل فيخبرنا بذلك ومعنى الرد الله اعلم من يليق بارسال جبريل عليه السلام اليه لامر من الامور ايذانا بانهم بمعزل من استحقاق ذلك التشريف وفيه من التمحل ما لا يخفى وقال مقاتل نزلت في ابي جهل حين قال زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى اذا صرنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يوحى اليه والله لا نرضى به ولا نتبعه ابدا حتى يأتينا وحي كما يأتيه وقال الضحاك سأل كل واحد من القوم ان يخص بالرسالة والوحي كما اخبر الله تعالى عنهم في قوله بل يريد كل امرئ منهم ان يؤتى صحفا منشرة ولا يخفى ان كل واحد من هذين القولين وان كان مناسبا للرد المذكور لكنه يقتضي ان يراد بالايمان المعلق بايتاء ما اوتي الرسل مجرد تصديقهم برسالته صلى الله عليه وسلم في الجملة من غير شمول لكافة الناس وان يكون كلمة حتى في قول اللعين حتى يأتينا وحي كما يأتيه الى غاية لعدم الرضى لا لعدم الاتباع فانه مقرر على تقديري اتيان الوحي وعدمه فالمعنى لن نؤمن برسالته اصلا حتى نؤتى نحن من الوحي والنبوة مثل ما اوتي رسل الله او ايتاء مثل ايتاء رسل الله واما ما قيل من ان الوليد بن المغيرة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت النبوة حقا لكنت اولى بها منك لاني اكبر منك سنا واكثر منك مالا وولدا فنزلت فلا تعلق له بكلام هم المردود الا ان يراد بالايمان المعلق بما ذكر مجرد الايمان بكون الآية النازلة وحيا صادقا لا الايمان بكونها نازلة اليه عليه السلام فيكون المعنى واذا جاءتهم آية نازلة الى الرسول قالوا لن نؤمن بنزولها من عند الله حتى يكون نزولها الينا لا اليه لانا نحن المستحقون دونه فان ملخص المعنى قوله لو كانت النبوة حقا الخ لو كان ما تدعيه من النبوة حقا لكنت انا النبي لا انت واذ لم يكن الامر كذلك فليست بحق وماله تعليق الايمان بحقيته النبوة بكون نفسه نبيا ومثل ما اوتي نصب على انه نعت لمصدر محذوف وما مصدرية اى نؤتاها ايتاء مثل ايتاء رسل الله واضافة الايتاء اليهم لانهم منكرون لايتائه عليه السلام وحيث نصب على المفعولية توسعا لا بنفس اعلم لما عرفت انه لا يعمل في الظاهر بل بفعل دل هو عليه اي هو اعلم يعلم الموضع الذي يضعها فيه والمعنى ان منصب الرسالة ليس مما ينال بكثرة المال والولد وتعاضد الاسباب والعدد وانما ينال بفضائل نفسانية يخصها الله تعالى من يشاء من خلص عباده وقرئ رسالته سيصيب الذين اجرموا استيناف آخر ناع عليهم ما سيلقونه من فنون الشر بعد ما نعى عليهم

ملخص

حرمانهم مما املوه والسين للتأكيد ووضع الموصول موضع الضمير للاشعار بان اصابة
مايصيبهم لاجرامهم المستتبع لجميع الشرور والقبائح اى تصيبهم البتة مكان
ما تمنوه وعلقوا به اطماعهم الفارغة من عزة النبوة وشرف الرسالة صغار
اى ذلة وحقارة بعد كبرهم عند الله يوم القيامة وقيل من عند الله وعذاب شديد
فى الاخرة او فى الدنيا بما كانوا يمكرون اى بسبب مكرهم المستمر او بمقابلته و
حيث كان هذا من معظم مواد اجرامهم صرح بسببيته فمن يرد الله ان يهديه
اى يعرفه طريق الحق ويوفقه للايمان يشرح صدره للاسلام فيتسع وينفسح
وهو كناية عن جعل النفس قابلة للحق مهيئة لحلوله فيها مصفاة عما يمنعه و
ينافيه واليه اشار صلى الله عليه وسلم حين سئل فقال نور يقذفه الله فى قلب
المؤمن فينشرح له وينفسح فقالوا هل لذلك من امارة يعرف بها فقال نعم الانابة الى
دار الخلود والاعراض عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله ومن يرد ان يضله
اى يخلق فيه الضلال لصرف اختياره اليه يجعل صدره ضيقا حرجا بحيث ينبو عن
قبول الحق فلا يكاد يدخله الايمان وقرئ ضيقا بالتخفيف وحرجا بكسر الراء اى شديد الضيق
والاول مصدر وصف به مبالغة كانما يصعد ما هذه مهيئة لدخول كان
على الجمل الفعلية فى السماء شبه للمبالغة فى ضيق صدره بمن يزاول ما لا يكاد
يقدر فان صعود السماء مثل فيما خارج عن دائرة الاستطاعة وفيه تنبيه على ان الايمان
يمتنع الصعود وقيل معناه كانما يتصاعد الى السماء نبوا عن الحق وتباعدا فى الهرب
منه واصل يصعد وقد قرئ به وقرئ يصاعد واصله يتصاعد كذلك اى مثل
ذلك الجعل الذى هو جعل الصدر حرجا على الوجه المذكور يجعل الله الرجس
اى العذاب الخذلان قال مجاهد الرجس ما لا خير فيه وقال الزجاج الرجس اللعنة
فى الدنيا والعذاب فى الاخرة على الذين لا يؤمنون اى عليهم ووضع الموصول
موضع المضمر للاشعار بان جعله تعالى معلل بما فى حيز الصلة من كمال نبوهم
عن الايمان واصرارهم على الكفر وهذا اى البيان الذى جاء به القرآن او الاسلام او ما
سبق من التوفيق والخذلان صراط ربك اى طريقه الذى ارتضاه او عادته و
طريقته التى اقتضتها حكمته وفى التعرض لعنوان الربوبية ايذان بان تقويم ذلك
الصراط للتربية وافاضة الكمال مستقيما لا عوج فيه او عادلا مطردا وهو حال
مؤكدة كقوله تعالى وهو الحق مصدقا والعامل فيها معنى الاشارة قد فصلنا الآيات
بيناها مفصلة لقوم يذكرون يتذكرون ما فى تضاعيفها فيعلمون ان كل ما يحدث
من الحوادث خيرا كان او شرا فانما يحدث بقضاء الله تعالى وخلقه وانه تعالى عالم باحوال
العباد حكيم عادل فيما يفعل بهم وتخصيص القوم المذكورين بالذكر لانهم المنتفعون
بتفصيل الآيات لهم دار السلام اى للمتذكرين دار السلامة من كل المكاره وهى
الجنة عند ربهم اى فى ضمانه او ذخيرة لهم عنده لا يعلم كنهها غيره تعالى
وهو وليهم اى مولاهم وناصرهم بما كانوا يعملون بسبب اعمالهم الصالحة او
متوليهم بجزائها يتولى ايصاله اليهم ويوم يحشرهم جميعا منصوب بمضمر اما على المفعولية
او الظرفية وقرئ بنون العظمة على الالتفات لتهويل الامر والضمير المنصوب لمن يحشر
من الثقلين اى واذكر يوم يحشر الثقلين قائلا يا معشر الجن او ويوم يحشرهم يقول
يا معشر الجن او ويوم يحشرهم ويقول يا معشر الجن يكون من الاحوال والاهوال
ما لا يساعده الوصف لفظاعته والمعشر الجماعة والمراد بمعشر الجن الشياطين قد
استكثرتم من الانس اى من اغوائهم واضلالهم ومنهم من جعلتموهم اتباعكم
فحشروا معكم كقولهم استكثر الامير من الجنود وهذا بطريق التوبيخ والتقريع
وقال اولياؤهم اى الذين اطاعوهم ومن فى قوله تعالى من الانس اما لبيان
الجنس اى اولياؤهم الذين هم من الانس ومتعلقة بمحذوف هو حال من اوليائهم
اى كائنين من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض اى انتفع الانس بالجن بان دلوهم

على الشهوات

على الشهوات وما يتوصل به اليها وقيل بان القوا اليهم من الاراجيف والسحر والكهانة
والجن بالانس بان اطاعوهم وحصلوا مرادهم بقبول ما القوا اليهم وقيل استمتاع
الانس بهم انهم كانوا يعوذون بهم فى المفاوز والمخاوف واستمتاعهم بالانس
اعترافهم بانهم قادرون على اجارتهم وبلغنا اجلنا الذى اجلت لنا وهو يوم
القيامة قالوه اعترافا بما فعلوا من طاعة الشياطين واتباع الهوى وتكذيب البعث
واظهارا للندامة عليها وتحسرا على حالهم واستسلاما لربهم ولعل الاقتصار
على حكاية كلام الضالين للايذان بان المضلين قد الجموا بالمرة فلم يقدروا على التكلم
اصلا قال استيناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية كلامهم كانه قيل فماذا قال
الله تعالى حينئذ فقيل قال النار مثواكم اى منزلكم او ذات ثوائكم كما ان دار السلام
مثوى المؤمنين خالدين فيها حال والعامل مثواكم ان جعل مصدرا او معنى الاضافة
ان جعل مكانا الا ما شاء الله قال ابن عباس استثنى الله تعالى قوما قد سبق فى علمه
انهم يسلمون ويصدقون النبى صلى الله عليه وسلم وهذا مبنى على ان الاستثناء ليس
من المحكى وما بمعنى من وقيل المعنى الا الاوقات التى ينقلون فيها من النار الى الزمهرير
فقد روى انهم يدخلون واديا فيه من الزمهرير ما يميز بعض اوصالهم من بعض
فيتعاوون ويطلبون الرد الى الجحيم وقيل يفتح لهم وهم فى النار باب الى الجنة
فيسرعون نحوه حتى اذا صاروا اليه سد عليهم الباب وعلى التقديرين
فى الاستثناء تهكم بهم وقيل الا ما شاء الله قبل الدخول كانه قيل النار مثواكم
ابدا الا ما امهلكم ولا يخفى بعده ان ربك حكيم فى افاعيله عليم باحوال
الثقلين واعمالهم وبما يليق بها من الجزاء وكذلك اى مثل ما سبق من تمكين الجن
من اغواء الانس واضلالهم نولى بعض الظالمين من الانس بعضا اخر منهم
اى نجعلهم بحيث يتولونهم بالاغواء والاضلال او نجعل بعضهم قرناء البعض فى العذاب
كما كانوا كذلك فى الدنيا عند اقتراف ما يؤدى اليه من القبائح بما كانوا يكسبون
بسبب ما كانوا مستمرين على كسبه من الكفر والمعاصى يا معشر الجن والانس
شروع فى حكاية ما سيكون من توبيخ المعشرين وتقريعهم بتفريطهم فيما يتعلق
بخاصة انفسهم اثر حكاية توبيخ معشر الجن باغواء الانس واضلالهم وبيان مآل
امرهم الم يأتكم اى فى الدنيا رسل اى من عند الله عز وجل لكن لا على ان يأتى
كل رسول واحدة من الامم بل على ان يأتى كل امة رسول خاص بها اى الم يأت كل
فريق منكم رسول معين وقوله تعالى منكم متعلق بمحذوف وقع صفة لرسل اى
كائنة من جملتكم لكن لا على انهم من جنس الفريقين معا بل من الانس خاصة وانما
جعلوا منهما اما لتأكيد وجوب اتباعهم والايذان بتقاربهما ذاتا واتحادهما تكليفا
وخطابا كانهما جنس واحد ولذلك يمكن احدهما من اضلال الاخر واما لان المراد
بالرسل ما يعم رسل الرسل وقد ثبت ان الجن قد استمعوا القرآن وانذروا به قومهم
حيث نطق به قوله تعالى واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن الى قوله ولوا
الى قومهم منذرين وقوله تعالى يقصون عليكم آياتى صفة اخرى لرسل محققة
لما هو المراد من ارسال الرسل من التبليغ والانذار وقد حصل ذلك بالنسبة الى الثقلين
وينذرونكم بما فى تضاعيفها من القوارع لقاء يومكم هذا يوم الحشر الذى
قد عاينوا فيه ما اعد لهم من افانين العقوبات الهائلة قالوا استيناف مبنى لنشأ
من الكلام السابق كانه قيل فماذا قالوا عند ذلك التوبيخ الشديد فقيل قالوا شهدنا
على انفسنا اى باتيان الرسل وانذارهم وبمقابلتهم اياهم بالكفر والتكذيب
وباستحقاقهم بسبب ذلك للعذاب المخلد حسبما فصل فى حكاية جوابهم عن سؤال
خزنة النار حيث قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ ان انتم
الا فى ضلال كبير وقد اجمل ههنا فى الحكاية كما اجمل فى حكاية جوابهم حيث قالوا
بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين وقوله تعالى وغرتهم الحيوة الدنيا

بدل بعضهم

مع ماعطف عليه اعتراض لبيان ما اداهم فى الدنيا الى ارتكابهم للقبائح التى ارتكبوها والجأهم فى الاخرة الى الاعتراف بالكفر واستيجاب العذاب وذم لهم بذلك اى واغتروا فى الدنيا بالحياة الدنية واللذات الخسيسة الفانية واعرضوا عن النعيم المقيم الذى بشرت به الرسل واجترؤا على ارتكاب ما يجرهم الى العذاب المؤبد الذى انذروهم اياه وشهدوا فى الآخرة على انفسهم انهم كانوا فى الدنيا كافرين اى بالآيات والنذر التى اتى بها الرسل على التفصيل المذكور آنفا واضطروا الى الاستسلام لاشد العذاب كما ينبئ عنه ما حكى عنهم بقوله تعالى وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا فى اصحاب السعير وفيه من تحسير وتحذير السامعين عن مثل صنيعهم ما لا مزيد عليه ذلك اشارة الى ما ذكر من شهادتهم على انفسهم بالكفر واستيجاب العذاب والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين وهو مبتداء خبره قوله تعالى ان لم يكن ربك مهلك القرى بحذف اللام على ان ان المصدرية او المخففة من ان وضمير الشان الذى هو اسمها محذوف وقوله تعالى بظلم متعلق اما بمهلك اى بسبب ظلم او بمحذوف وقع حالا من القرى اى ملتبسة بظلم فان ملابسة اهلها للظلم ملابسة للقرية له بواسطتهم واما كونه حالا من ربك او من ضميره فى مهلك كما قيل فيأباه ان غفلة اهلها ماخوذة فى معنى الظلم وحقيقته لا محالة فلا يحسن تقييده بقوله تعالى واهلها غافلون والمعنى ذلك ثابت لانتفاء كون ربك او لان الشان لم يكن ربك مهلك القرى بسبب اى ظلم فعلوه من افراد الظلم قبل ان ينهوا عنه وينبهوا على بطلانه برسول وكتاب وان قضى به بديهة العقل وينذروا عاقبة جنايا تهم اى لولا انتفاء كونه تعالى معذبا لهم قبل ارسال الرسل وانزال الكتب لما امكن التوبيخ بما ذكر ولما شهدوا على انفسهم بالكفر واستيجاب العذاب ولاعتذروا بعدم اتيان الرسل كما فى قوله تعالى ولو انا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع اياتك من قبل ان نذل ونخزى وانما علل ما ذكر بانتفاء التعذيب الدنيوى الذى هو اهلاك القرى قبل الانذار مع ان التقريب فى تعليله بانتفاء مطلق التعذيب من غير بعث الرسل انتم على ما نطق به قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا لبيان كمال نزاهته سبحانه وتعالى عن كلا التعذيبين الدنيوى والاخروى معا من غير انذار على ابلغ وجه واكده حيث اقتصر على نفى التعذيب الدنيوى عنه تعالى ليثبت نفى التعذيب الاخروى عنه تعالى على الوجه البرهانى بطريق الاولوية فانه تعالى حيث لم يعذبهم بعذاب يسير منقطع بدون انذار فلان لا يعذبهم بعذاب شديد مخلد اولى واجلى ولو علل بما ذكر من نفى التعذيب لانصرف بحسب المقام الى ما فيه الكلام من نفى التعذيب الاخروى ونفى التعذيب الدنيوى غير متعرض له لا صريحا ولا دلالة ضرورة ان نفى الاعلى لا يدل على نفى الادنى ولان ترتيب التعذيب الدنيوى على الانذار عند عدم تأثر المنذرين منه معلوم مشاهد عند السامعين فيستدلون بذلك على ان التعذيب الاخروى ايضا كذلك فينزجرون عن الاخلال بمواجب الانذار اشد انزجار هذا هو الذى يستدعيه جزالة النظم الكريم واما جعل ذلك اشارة الى ارسال الرسل عليهم السلام وانذارهم وخبر المبتداء محذوف كما اطبق عليه الجمهور فبمعزل من مقتضى والله سبحانه اعلم ولكل اى من المكلفين من الثقلين درجات متفاوتة وطبقات متباينة مما عملوا من اعمالهم صالحة كانت او سيئة فان اعمالهم درجات فى انفسها او من جزاء اعمالهم فان كل جزاء مرتبة معينة لهم او من اجل اعمالهم وما ربك بغافل عما يعملون فيخفى عليه عمل من اعمالهم او قدر ما يستحقون بها من ثواب او عقاب وقرئ بالتاء تغليبا للخطاب على الغيبة وربك الغنى مبتدا وخبر اى هو المعروف بالغنى عن كل ما سواه كائنا من كان وما كان فيدخل فيه غناه عن العباد وعن عبادتهم وفى التعرض لوصف الربوبية فى الموضعين لا سيما فى الثانى لكونه موقع الاضمار مع الاضافة الى ضميره صلى الله عليه وسلم من اظهار اللطف به عليه

السلام وتنزيه ساحته عن توهم شمول الوعيد الآتى لها ايضا ما لا يخفى وقوله تعالى ذو الرحمة خبر آخر او هو الخبر والغنى صفة اى يترحم عليهم بالتكليف تكميلا لهم ويمهلهم على المعاصى وفيه تنبيه على ان ما سلف ذكره من الارسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد وتمهيد لقوله تعالى ان يشأ يذهبكم اى ما به حاجة اليكم ان يشأ يذهبكم ايها العصاة وفى تلوين الخطاب من تشديد الوعيد ما لا يخفى ويستخلف من بعدكم اى من بعد اذهابكم ما يشاء من الخلق وايثار ما على من لاظهار كمال الكبرياء واسقاطهم عن رتبة العقلاء كما انشأكم من ذرية قوم آخرين اى من نسل قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم اهل سفينة نوح عليه السلام لكنه ابقاكم ترحما عليكم وما فى كما مصدرية ومحل الكاف النصب على انه مصدر تشبيهى على غير الصدر فان يستخلف فى معنى ينشئ كانه قيل وينشئ انشاء كانشائكم الخ او نعت لمصدر الفعل المذكور اى يستخلف استخلافا كائنا كانشائكم الخ والشرطية استيناف مقرر لمضمون ما قبلها من الغنى والرحمة ان ما توعدون اى الذى توعدونه من البعث وما يتفرع عليه من الامور الهائلة وصيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار التجددى لآت لواقع لا محالة كقوله تعالى انما توعدون لواقع وايثاره على بيانا لكمال سرعته وقوعه بتصويره بصورة طالب حثيث لا يفوته هارب حسبما يعرب عنه قوله تعالى وما انتم بمعجزين اى بفائتين ذلك وان ركبتم فى الهرب متن كل صعب وذلول كما ان ايثار صيغة الفاعل على المستقبل للايذان بكمال قرب الاتيان والمراد بيان دوام انتفاء الاعجاز لا بيان انتفاء دوام الاعجاز فان الجملة الاسمية كما تدل على دوام الثبوت تدل بمعونة المقام اذا دخل عليها حرف النفى على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام كما حقق فى موضعه قل يا قوم اعملوا على مكانتكم اثر ما بين لهم حالهم ومآلهم بطريق الخطاب امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين بان يواجههم بتشديد التهديد وتكرير الوعيد ويظهر لهم ما هو عليه من غاية التصلب فى الدين ونهاية الوثوق بامره وعدم المبالاة بهم اى اعملوا على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مكن مكانة اذا تمكن ابلغ التمكن او على جهتكم وحالتكم التى انتم عليها من قولهم مكان ومكانة كمقام ومقامة وقرئ مكاناتكم والمعنى اثبتوا على كفركم ومعاداتكم انى عامل ما امرت به من الثبات على الاسلام والاستمرار على الاعمال الصالحة والمصابرة وايراد التهديد بصيغة الامر مبالغة فى الوعيد كان المهدد يريد تعذيبه مجمعا عليه فيحمله بالامر على ما يؤدى اليه وتسجيل بان المهدد لا يتأتى منه الا الشر كالذى امر به بحيث لا يجد الى التفصى عنه سبيلا فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار سوف لتأكيد مضمون الجملة والعلم عرفانى ومن استفهامية معلقة لفعل العلم محلها الرفع على الابتداء وتكون باسمها وخبرها خبر لها وهى مع خبرها فى محل نصب لسدها مسد مفعول تعلمون اى فسوف تعلمون اينا تكون لنا عاقبة الحسنى التى خلق الله تعالى هذه الدار لها واما موصولة فمحلها النصب على انها مفعول لتعلمون اى فسوف تعلمون الذى له عاقبة الدار وفيه مع الانذار انصاف فى المقال وتنبيه على كمال وثوق المنذر بامره وقرئ بالياء لان التانيث العاقبة غير حقيقى انه اى ان الشان لا يفلح الظالمون وضع الظلم موضع الكفر ايذانا بان امتناع الفلاح يترتب على اى فرد كان من افراد الظلم فما ظنك بالكفر الذى هو اعظم افراده وجعلوا شروع فى تقبيح احوالهم الفظيعة بحكاية اقوالهم وافعالهم الشنيعة وهم مشركوا العرب كانوا يعينون اشياء من حرث ونتاج لله تعالى واشياء منهما لآلهتهم فاذا رأوا ما جعلوه لله تعالى زاكيا ناميا يزيد فى نفسه خيرا رجعوا فجعلوه لآلهتهم واذا زكى ما جعلوه لآلهتهم تركوه متعللين بان الله تعالى غنى وما ذلك الا لحب آلهتهم فى ايثارهم لها والجعل اما متعد الى واحد فالجاران فى قوله تعالى لله مما ذرأ متعلقان

ومن قوله تعالى من الحرث والانعام بيان لما فيه تنبيه على فرط جهالتهم حيث اشركوا
الخالق فى خلقه جمادا لا يقدر على شيء ثم رجحوه عليه بان جعلوا الزكى له اى عينوا لله
تعالى مما خلقه من الحرث والانعام نصيبا يصرفونه الى الضعفا والمساكين وتاخيره من
المجرورين لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر واما الى المفعولين اولهما
مما ذرا على ان من تبعيضية اى جعلوا بعض ما خلقه نصيبا وما قيل من ان الاول نصيبا
والثانى لله لا يساعده سداد المعنى وحكاية جعلهم له تعالى نصيبا يدل على انهم جعلوا
لشركائهم ايضا نصيبا ولم يذكر اكتفاء بقوله تعالى فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا
وقرئ بضم الزاء وهو لغة فيه وانما قيد به الاول للتنبيه على انه فى الحقيقة ليس بجعل الله
تعالى غير مستتبع لشيء من الثواب كالتطوعات التى يبتغى بها وجه الله تعالى لا لما قيل من انه للتنبيه
على ان ذلك مما اخترعوه لم يامرهم الله تعالى به فان ذلك مستفاد من الجعل ولذلك لم
يقيد به الثانى ويجوز ان يكون ذلك تمهيدا لما بعده على معنى ان قولهم هذا لله مجرد
زعم منهم لا يعملون بمقتضاه الذى هو اختصاصه به تعالى فقوله تعالى فما كان لشركائهم
فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم بيان وتفصيل له اى فما عينوه
لشركائهم لا يصرف الى الوجوه التى يصرف اليها ما عينوه لله تعالى من قرى الضيفان
والتصدق على المساكين وما عينوه لله تعالى اذا وجدوه زاكيا يصرف الى الوجوه التى
يصرف اليها ما عينوه لآلهتهم من انفاق عليها بذبح نسائك عندها والاجراء على سدنتها
ونحو ذلك ساء ما يحكمون فيما فعلوا من ايثار آلهتهم على الله تعالى و
عملهم بما لم يشرع لهم وما بمعنى الذى والتقدير ساء الذى يحكمون حكمهم
مبتداء وما قبله الخبر وحذف لدلالة يحكمون عليه وكذلك ومثل ذلك التزيين و
هو تزيين الشرك فى قسمة القربان بين الله تعالى وبين آلهتهم او ومثل ذلك التزيين البليغ
المعهود من الشياطين زين لكثير من المشركين قتل اولادهم بوادهم ونحرهم لآلهتهم
كان الرجل يحلف فى الجاهلية لئن ولد له كذا غلاما لينحرن احدهم كما حلف عبد
المطلب وهو مشهور شركاؤهم اى اولياؤهم من الجن او من السدنة وهو فاعل
زين اخر عن الظرف والمفعول لما مر غير مرة وقرئ على البناء للمفعول الذى هو القتل
ونصب الاولاد وجر الشركاء باضافة القتل اليه مفصولا بينهما بمفعوله ورفع قتل
وجر اولادهم ورفع شركاؤهم باضمار فعل دل عليه زين كانه لما قيل زين لهم قيل
من زينه فقيل زينه شركاؤهم ليردوهم اى يهلكوهم بالاغواء وليلبسوا عليهم
دينهم وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين اسمعيل عم او ما وجب عليهم ان يتدينوا
به واللام للتعليل ان كان التزيين من الشياطين وللعاقبة ان كان من السدنة
ولو شاء الله اى عدم فعلهم ذلك ما فعلوه اى ما فعل المشركون ما زين لهم من
القتل والشركاء التزيين او الارداء واللبس او الفريقان جميع ذلك على اجراء الضمير
مجرى اسم الاشارة فذرهم وما يفترون الفاء فصيحة اى اذا كان ما فعلوه
بمشيئة الله تعالى فدعهم وافتراءهم او وما يفترونه من الافك فان فيما شاء الله تعالى
حكما بالغة انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب اليم وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى
وقالوا حكاية لنوع آخر من انواع كفرهم هذه اشارة الى ما جعلوه لآلهتهم والتانيث
للخبر انعام وحرث حجر اى حرام فعل بمعنى مفعول كالذبح يستوى فيه الواحد
والكثير والذكر والانثى لان اصله المصدر ولذلك وقع صفة لانعام وحرث وقرئ
حجر بالضم وبضمتين وحرج اى ضيق واصله حرج وقيل هو مقلوب من حجر لا يطعمها
الا من نشاء يعنون خدم الاوثان من الرجال دون النساء والجملة صفة اخرى
لانعام وحرث بزعمهم متعلق بمحذوف هو حال من فاعل قالوا اى قالوه ملتبسين
بزعمهم الباطل من غير حجة وانعام خبر مبتدا محذوف والجملة معطوفة على قوله
تعالى هذه انعام الخ اى قالوا مشيرين الى طائفة اخرى من انعامهم وهذه انعام حرمت
ظهورها يعنون بها البحاير والسوايب والحوامى وانعام اى وهذه انعام كما مر

وقوله

وقوله تعالى لا يذكرون اسم الله صفة لانعام لكنه غير واقع فى كلامهم المحكى كنظائره
بل مسوق من جهته تعالى تعيينا للموصوف له من غيره كما فى قوله تعالى وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى
بن مريم رسول الله على احد التفاسير كانه قيل وانعام ذبحت على الاصنام فانها التى
لا يذكر عليها اسم الله وانما يذكر عليها اسم الاصنام وقيل لا يحجون عليها فان الحج لا
يعرى عن ذكر الله تعالى وقال مجاهد كانت لهم طائفة من انعامهم لا يذكرون
اسم الله عليها ولا فى شيء من شانها لا ان ركبوا وان حلبوا ولان نتجوا ولا ان باعوا
ولا ان حملوا افتراء عليه نصب على المصدر اما على ان قالوا تقول على الله تعالى
واما على تقدير عامل من لفظه اى افتروا افتراء والجار متعلق بقالوا او بافتروا
المقدر او بمحذوف هو صفة له لا بافتراء لان المصدر المؤكد لا يعمل او على الحال من فاعل
قالوا اى مفترين او على العلة اى للافتراء فالجار متعلق به سيجزيهم بما كانوا يفترون
اى بسببه او بدله وفى ابهام الجزاء من التهويل ما لا يخفى وقالوا حكاية لفن آخر
من فنون كفرهم ما فى بطون هذه الانعام يعنون به اجنة البحاير والسوايب
خالصة لذكورنا حلال لهم خاصة والتاء للنقل الى الاسمية او للمبالغة او لان
الخالصة مصدر كالعاقبة وقع موقع الخالص مبالغة او بحذف المضاف اى ذو خالصة
او للتانيث بناء على ان ما عبارة عن الاجنة والتذكير فى قوله تعالى ومحرم على ازواجنا
اى جنس ازواجنا وهن الاناث باعتبار اللفظ وفيه كما ترى حمل للنظم الكريم على
خلاف المعهود الذى هو الحمل على اللفظ اولا وعلى المعنى ثانيا كما فى قوله تعالى
ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم الخ ونظايره واما العكس فقد قالوا
انه لا نظير له فى القرآن وهذا الحكم منهم ان ولد ذلك حيا وهو الظاهر المعتاد
وان يكن ميتة اى ان ولدت ميتة فهم اى الذكور والاناث فيه اى فيما
فى بطون الانعام وقيل المراد بالميتة ما يعم الذكور والاناث فغلب الاول على الثانى
شركاء ياكلون منه جميعا وقرئ خالصة بالنصب على انه مصدر مؤكد والخبر
لذكورنا او حال من الضمير الذى فى الظرف لا من الذى فى ذكورنا ولا من الذكور لانه
لا يتقدم على العامل المعنوى ولا على صاحبه المجرور وقرئ خالصة بالرفع والاضافة
الى الضمير على انه بدل من ما او مبتداء ثان سيجزيهم وصفهم اى جزاء وصفهم
الكذب على الله تعالى فى امر التحليل والتحريم من قوله تعالى وتصف السنتهم الكذب انه
حكيم عليم تعليل للوعد بالجزاء فان الحكيم العليم بما صدر عنهم لا يكاد يترك
جزاءهم الذى هو من مقتضيات الحكمة قد خسر الذين قتلوا اولادهم جواب قسم
محذوف وقرئ بالتشديد وهم ربيعة ومضر وامثالهم من العرب الذين كانوا
يئدون بناتهم مخافة السبى والفقر اى خسروا دينهم ودنياهم سفها بغير
علم متعلق بقتلوا على انه علة له اى لخفة عقلهم وجهلهم بان الله هو الرازق
لهم ولاولادهم او نصب على الحال ويؤيده انه قرئ سفهاء او مصدر وحرموا
ما رزقهم الله من البحاير والسوايب ونحوها افتراء على الله نصب على احد
الوجوه المذكورة واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لاظهار كمال عتوهم
وطغيانهم قد ضلوا عن الطريق المستقيم وما كانوا مهتدين اليه وان
هدوا بفنون الهدايات او وما كانوا مهتدين من الاصل لسوء سيرتهم فالجملة
حينئذ اعتراض وعلى الاول عطف على ضلوا وهو الذى انشا جنات معروشات
تمهيد لما سياتى من تفصيل احوال الانعام اى هو الذى انشاهن من غير شركة
لاحد فى ذلك بوجه من الوجوه والمعروشات من الكروم المرفوعات على ما يحملها
وغير معروشات وهى الملقيات على وجه الارض وقيل المعروشات ما غرسه
الناس وعرشوه وغير المعروشات ما نبت فى البوادى والجبال والنخل والزرع
عطف على جنات اى انشاها مختلفا اكله وقرئ اكله بسكون الكاف اى ثمره الذى
يؤكل فى الهيئة والكيفية والضمير اما للنخل والزرع داخل فى حكمه او للزرع والباقى

مقيس عليه او للجميع على تقدير اكل ذلك او كل واحد منها ومختلفا حال مقدرة اذ ليس
كذلك وقت الانشاء والزيتون والرمان اى انشاهما وقوله تعالى متشابها
وغير متشابه نصب على الحالية اى يتشابه بعض افرادهما فى اللون والهيئة او الطعم
ولا يتشابه بعضها كلوا من ثمره اى من ثمر كل واحد من ذلك اذا اثمر وان لم
يدرك ولم يينع بعد وقيل فائدته رخصة المالك فى الاكل منه قبل اداء حق الله تعالى
وآتوا حقه يوم حصاده اريد به ما كان يتصدق به يوم الحصاد بطريق
الوجوب من غير تعيين المقدار لا الزكاة المقدرة فانها فرضت بالمدينة والسورة
مكية وقيل الزكوة والاية مدنية والامر بايتائها يوم الحصاد ليهتم به حينئذ
حتى لا يؤخر عن وقت الاداء وليعلم ان الوجوب بالادراك لا بالتصفية وقرئ يوم
حصاده بكسر الحاء وهو لغة فيه ولا تسرفوا اى فى التصدق كما روى عن
ثابت بن قيس انه صرم خمسمائة نخلة ففرق ثمرها كلها ولم يدخل منه شيئا الى
منزله كقوله تعالى ولا تبسطها كل البسط الآية انه لا يحب المسرفين اى لا يرتضى
اسرافهم ومن الانعام حمولة وفرشا شروع فى تفصيل حال الانعام وابطال
ما تقولوا على الله تعالى فى شأنها بالتحريم والتحليل وهو عطف على مفعول انشاء
ومن متعلقة به اى وانشأ من الانعام ما يحمل عليه الاثقال وما يفرش للذبح
او ما يفرش المصنوع من شعره وصوفه ووبره وقيل الكبار الصالحة للحمل والصغار
الدانية من الارض كانها فرش مفروش عليها كلوا مما رزقكم الله ما عبارة عما
ذكر من الحمولة والفرش ومن تبعيضية اى كلوا ما رزقكم الله تعالى اى حلاله وفيه
تصريح بان انشاءها لاجلهم ومصلحتهم ولا تتبعوا فى امر التحليل والتحريم
بتقليد اسلافكم المجازفين فى ذلك من تلقاء انفسهم المفترين على الله سبحانه
خطوات الشيطان فان ذلك منهم باغواء الشيطان واستتباعه اياهم انه لكم
عدو مبين ظاهر العداوة ثمانية ازواج الزوج ما معه آخر من جنسه يزاوجه
ويحصل منهما النسل والمراد بها الانواع الاربعة وايرادها بهذا العنوان وهذا
العدد تمهيد لما سيق له الكلام من الانكار المتعلق بتحريم كل واحد من الذكر والانثى
وما فى بطنها وهو بدل من حمولة وفرشا منصوب بما نصبهما وجعله مفعولا
لكلوا على ان قوله تعالى ولا تتبعوا الاية معترض بينهما او حالا من ما بمعنى مختلفة
او متعددة يأباه جزالة النظم الكريم لظهور انه مسوق لتوضيح حال الانعام بتفصيلها
اولا الى حمولة وفرش ثم تفصيلهما الى ثمانية ازواج حاصلة من تفصيل الاول الى الابل
والبقر وتفصيل الثانى الى الضان والمعز ثم تفصيل كل من الاصناف الاربعة الى الذكر
والانثى كل ذلك لتحرير المواد التى تقولوا فيها عليه سبحانه وتعالى بالتحليل والتحريم
ثم تبكيتهم باظهار كذبهم وافترائهم فى كل مادة مادة من تلك المواد بتوجيه
الانكار اليها مفصلة واثنين فى قوله تعالى من الضان اثنين بدل من ثمانية ازواج
منصوب بناصبه وهو العامل فى من اى انشأ من الضان زوجين الكبش والنعجة
وقرئ اثنان على الابتداء والضان اسم جنس كالابل وجمعه ضئين كامير وجميع
ضائن كتاجر وتجر وقرئ بفتح الهمزة ومن المعز اثنين عطف على مثله شريك له
فى حكمه اى وانشأ من المعز زوجين التيس والعنز وقرئ بفتح العين وهو جمع
ماعز كصاحب وصحب وحارس وحرس وقرئ ومن المعزى وهذه الازواج الاربعة تفصيل
للفرش ولعل تقديمها فى التفصيل مع تأخر اصلها فى الاجمال لكون هذين النوعين
عرضة للاكل الذى هو معظم ما يتعلق به الحل والحرمة وهو السر فى الاقتصار على
الامر به فى قوله تعالى كلوا مما رزقكم الله من غير تعرض للانتفاع بالحمل والركوب
وغير ذلك مما حرموه فى السائبة واخواتها قل تلوين للخطاب وتوجيه له الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم اثر تفصيل انواع الانعام التى انشأها اى قل تبكيتا
لهم واظهارا لانقطاعهم عن الجواب آلذكرين من ذينك النوعين وهما الكبش

والتيس

والتيس حرم اى الله عز وجل كما تزعمون انه هو المحرم ام الانثيين وهما النعجة والعنز
ونصب الذكرين والانثيين بحرم وهو مؤخر عنهما بحسب المعنى وان توسط بينهما صورة
وكذا قوله تعالى اما اشتملت عليه ارحام الانثيين ام ما حملت اناث النوعين حرم
ذكرا كان او انثى وقوله تعالى نبئونى بعلم الخ تكرير للالزام وتثنية للتبكيت و
الافحام اى اخبرونى بامر معلوم من جهة الله تعالى من الكتاب والاخبار الانبياء
يدل على ان الله تعالى حرم شيئا مما ذكر او نبئونى تنبئة ملتبسة بعلم صادرة عنه ان
كنتم صادقين اى فى دعوى التحريم عليه سبحانه وقوله تعالى ومن الابل اثنين
عطف على قوله تعالى من الضان اثنين اى وانشأ من الابل اثنين هما الجمل والناقة
ومن البقر اثنين ذكرا وانثى قل لهم افحاما لهم فى امر هذين النوعين ايضا
آلذكرين منهما حرم ام الانثيين اما اشتملت عليه ارحام الانثيين من ذينك النوعين
والمعنى انكار ان الله سبحانه حرم عليهم شيئا من الانواع الاربعة واظهار كذبهم
فى ذلك وتفصيل ما ذكر من الذكور والاناث وما فى بطونها للمبالغة فى الرد عليهم
بايراد الانكار على كل مادة من مواد افترائهم فانهم كانوا يحرمون ذكور الانعام
تارة واناثها تارة واولادها كيف ما كانت تارة اخرى مسندين ذلك كله الى الله
سبحانه وانما عقب تفصيل كل واحد من نوعى الصغار ونوعى الكبار بما ذكر من الامر
بالاستفهام والانكار مع حصول التبكيت بايراد الامر عقيب تفصيل الانواع الاربعة
بان يقال قل الذكور حرم ام الاناث اما اشتملت عليه ارحام الاناث لما فى التثنية
والتكرير فى التبكيت والالزام وقوله تعالى ام كنتم شهداء تكرير للافحام
كقوله تعالى نبئونى بعلم وام منقطعة ومعنى الهمزة الانكار والتوبيخ ومعنى بل الاضراب
عن التوبيخ بما ذكر الى التوبيخ بوجه آخر اى بل اكنتم حاضرين مشاهدين اذ وصاكم
الله بهذا اى حين وصاكم بهذا التحريم اذ انتم لا تؤمنون بنبى فلا طريق لكم حسبما
يعوق اليه مذهبكم الى معرفة امثال ذلك الا المشاهدة والسماع وفيه من تركيك
عقولهم والتهكم بهم ما لا يخفى فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا فنسب
اليه تحريم ما لم يحرم والمراد كبراؤهم المقررون لذلك او عمرو بن لحى بن قمعة
وهو المؤسس لهذا الشر او الكل لاشتراكهم فى الافتراء عليه سبحانه وتعالى اى فاى
فريق اظلم من فريق افتروا الخ ولا يقدح فى اظلمية الكل كون بعضهم مخترعين له
وبعضهم مقتدين بهم والفاء لترتيب ما بعدها على ما سبق من تبكيتهم واظهار
كذبهم وافترائهم اى هو اظلم من كل ظالم وان كان المنفى صريحا الاظلمية
دون المساواة كما مر غير مرة ليضل الناس متعلق بالافتراء بغير علم متعلق
بمحذوف وقع حالا من فاعل افترى اى افترى عليه تعالى جاهلا بصدور التحريم
عنه تعالى وانما وصفوا بعدم العلم بذلك مع انهم عالمون بعدم صدوره عنه تعالى
ايذانا بخروجهم فى الظلم عن الحدود والنهايات فان من افترى عليه تعالى بغير علم
بصدوره عنه تعالى مع احتمال الصدور عنه اذا كان اظلم من كل ظالم فما ظنك
بمن افترى عليه تعالى وهو يعلم انه لم يصدر عنه ويجوز ان يكون حالا من
فاعل يضل اى ملتبسا بغير علم بما يؤدى بهم اليه ان الله لا يهدى القوم
الظالمين كائنا من كان الى ما فيه صلاح حالهم عاجلا او آجلا واذا كان هذا
المتصفين بالظلم فى الجملة فما ظنك بمن هو فى اقصى غاياته قل امر لرسول الله
صلى الله عليه وسلم بعد الزام المشركين وتبكيتهم وبيان ان ما يتقولونه
فى امر التحريم افتراء بحت لا اصل له قطعا بان يبين لهم ما حرم عليهم وفى
قوله تعالى لا اجد فيما اوحى الى محرما ايذان بان مناط الحل والحرمة هو الوحى و
انه عليه السلام قد تتبع جميع ما اوحى اليه وتفحص عن المحرمات ولم يجد غير ما فصل
وفيه مبالغة فى بيان انحصارها فى ذلك ومحرما صفة لمحذوف اى لا اجد ثمة
تصفحت ما اوحى الى طعاما محرما من المطاعم التى حرموها على طاعم اى طاعم

لاته من ذكرا وانثى ردا على قولهم محرم على ازواجنا وقوله تعالى يطعمه لزيادة التقرير
الا ان يكون اى ذلك الطعام ميتة وقرى تكون بالتاء لتانيث الخبر وقرئ ميتة
بالرفع على ان كان تامة وقوله تعالى اودما مسفوحا حينئذ عطف على ان مع ما فى حيزه
اى الا وجود ميتة او دما مسفوحا اى مصبوبا كالدماء التى فى العروق كالطحال
والكبد اولحم خنزير فانه اى الخنزير رجس اى لحمه قذر لتعوده اكل النجاسة
او خبيث او فسقا عطف على لحم خنزير وما بينهما اعتراض مقرر لحرمته اهل
لغير الله به صفة له موضحة اى ذبح على اسم الاصنام وانما سمى ذلك فسقا لتوغله
فى الفسق ويجوز ان يكون فسقا مفعولا له لاهل وهو عطف على ان يكون والمستكن
راجع الى ما رجع اليه المستكن فى يكون فمن اضطر اى اصابه الضرورة الداعية
الى اكل الميتة بوجه من الوجوه المضطرة غير باغ فى ذلك على مضطر آخر مثله ولا
عاد قدر الضرورة فان ربك غفور رحيم مبالغ فى المغفرة والرحمة لايؤاخذه بذلك
وليس التقييد بالحال الاولى لبيان انه لو لم يوجد القيد لتحققت الحرمة المبحوث عنها بل
للتحذير من حرام آخر هو اخذه حق مضطر آخر فان من اخذ لحم الميتة من يد مضطر
آخر فاكله فان حرمته ليست باعتبار كونه لحم الميتة بل باعتبار كونه حقا للمضطر الآخر واما
الحال الثانية فلتحقيق زوال الحرمة المبحوث عنها قطعا فان التجاوز عن القدر الذى
يسد به الرمق حرام من حيث انه لحم الميتة وفى التعرض لوصفى المغفرة والرحمة ايذان
بان المعصية باقية لكنه تعالى يغفرله ويرحمه والاية محكمة لانها تدل على انه لم
يجد فيما اوحى اليه الى تلك الغاية غيره ولا ينافيه ورود التحريم بعد ذلك فى شئ آخر
فلا يصح الاستدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد ولا على حل الاشياء التى هى
غيرها الا مع الاستصحاب وعلى الذين هادوا خاصة لا على من عداهم من
الاولين والآخرين حرمنا كل ذى ظفر اى كل ماله اصبع من الابل والسباع و
الطيور وقيل كل ذى مخلب وحافر وسمى الحافر ظفرا مجازا والمسبب عن الظلم هو تعميم
التحريم حيث كان بعض ذوات الظفر حلالا لهم فلما ظلموا عم التحريم كلها وهذا
تحقيق لما سلف من حصر المحرمات فيما فصل بابطال ما يخالفه من مزعومات اليهود
وتكذيبهم فى ذلك فانهم كانوا يقولون لسنا اول من حرمت عليه وانما كانت محرمة
على نوح وابراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الامر الينا ومن البقر والغنم حرمنا
عليهم شحومهما لا لحومهما فانها باقية على الحل والشحوم الثروب وشحوم الكلى
والاضافة لزيادة الربط الا ما حملت ظهورهما استثناء من الشحوم مخرج
لما علق من الشحم بظهورهما عن حكم التحريم او الحوايا عطف على ظهورهما
اى ما حملته الحوايا وهى جمع حاوية او حاوياء كقاصعاء وقواصع او حوية كسفينة
وسفائن او ما اختلط بعظم عطف على ما حملت وهو شحم الالية واختلاطه
بالعظم اتصاله بعجب الذنب وقيل هو كل شحم متصل بالعظم من الاضلاع وغيرها
ذلك اشارة الى الجزاء والتحريم فهو على الاول نصب على انه مصدر مؤكد لما بعده وعلى
الثانى على انه مفعول ثان له اى ذلك التحريم جزيناهم ببغيهم بسبب ظلمهم
وهو قتلهم الانبياء بغير حق واكلهم الربوا وقد نهوا عنه واكلهم اموال الناس
بالباطل كقوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم وكانوا
كلما اتوا بمعصية عوقبوا بتحريم شئ مما احل لهم وهم ينكرون ذلك ويدعون انها
لم تزل محرمة على الامم فرد ذلك عليهم واكد بقوله تعالى وانا لصادقون اى
فى جميع اخبارنا التى من جملتها هذا الخبر ولقد القمهم الحجر قوله تعالى كل الطعام
كان حلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة قل فاتوا
بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين روى انه عليه السلام لما قال لهم ذلك بهتوا
ولم يجسروا ان يخرجوا التوراة كيف وقد بين فيها جميع ما يحذرونه اوضح بيان
فان كذبوك قيل الضمير لليهود لانهم اقرب ذكرا وذكر المشركين بعد ذلك بعنوان

الاشراك

الاشراك وقيل للمشركين فالمعنى على الاول ان كذبتك اليهود فى الحكم المذكور واصروا على
ما كانوا عليه من ادعاء قدم التحريم فقل لهم ربكم ذو رحمة واسعة لايؤاخذكم
بكل ما تاتونه من المعاصى ويمهلكم على بعضها ولا يرد بأسه بالكلية عن القوم
المجرمين فلا تنكروا ما وقع منه تعالى من تحريم بعض الطيبات عليكم عقوبة وتشديدا
وعلى الثانى فان كذبك المشركون فيما فصل من احكام التحليل والتحريم فقل لهم ربكم
ذو رحمة واسعة لايعاجلكم بالعقوبة على تكذيبكم فلا تغتروا بذلك فانه امهال لا
اهمال وقيل ذو رحمة للمطيعين وذو بأس شديد على المجرمين فاقيم مقامه قوله تعالى
ولا يرد بأسه الخ لتضمنه التنبيه على انزال البأس عليهم مع الدلالة على انه
لاحق بهم التنبيه من غير صارف يصرفه عنهم اصلا سيقول الذين اشركوا
حكاية لفن آخر من كفرهم واخبار قبل وقوعه ثم وقوعه حسبما اخبر به كما
يحكيه قوله تعالى عند وقوعه وقال الذين اشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ
صريح فى انه من عند الله تعالى لو شاء الله ما اشركنا اى لو شاء خلاف ذلك مشيئة
ارتضاء لما فعلنا الاشراك نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ ارادوا به ان ما فعلوه
حق مرضى عند الله تعالى لا الاعتذار من ارتكاب هذه القبائح بارادة الله تعالى اياها منهم
حتى تنتهض ذمتهم به دليلا للمعتزلة الا يرى الى قوله تعالى كذلك كذب الذين
من قبلهم اى مثل ما كذبك هؤلاء فى انه تعالى منع من الشرك ولم يحرم ما حرموه
كذب متقدموهم الرسل فانه صريح فيما قلنا وعطف اباؤنا على الضمير للفصل بلا
حتى ذاقوا بأسنا الذى انزلنا عليهم بتكذيبهم قل هل عندكم من علم من امر
معلوم يصح الاحتجاج به على ما زعمتم فتخرجوه لنا اى فتظهروه لنا ان تتبعون
الا الظن اى ما تتبعون فى ذلك الا الظن الباطل الذى لا يغنى من الحق شيئا وان انتم
الا تخرصون تكذبون على الله عز وجل وليس فيه دلالة على المنع من اتباع الظن
على الاطلاق بل فيما يعارضه قطعى قل فلله الحجة البالغة الفاء جواب شرط محذوف
اى واذ قد ظهر ان لا حجة لكم فلله الحجة البالغة اى البينة الواضحة التى بلغت
غاية المتانة والثبات او بلغ بها صاحبها صحة دعواه والمراد بها الكتاب والرسول
والبيان وهى من الحج بمعنى القصد كانها تقصد اثبات الحكم وتطلبه فلو شاء
هدايتكم جميعا لهداكم اجمعين بالتوفيق لها والحمل عليها ولكن لم يشأ هداية الكل
بل هداية البعض الصارفين هممهم الى سلوك طريق الحق وضلال الآخرين صرفوا اختيا رهم
الى خلاف ذلك من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم قل هلم شهداءكم اى احضروهم
وهو اسم فعل لا ينصرف على لغة اهل الحجاز وفعل يؤنث ويجمع على لغة بنى تميم على
راى الجمهور وقد خالفهم البعض فى فعليته وليس بشئ واصله عند البصريين ها لم
من لم اذا قصد حذفت الالف لتقدير السكون فى اللام فانه الاصل وعند الكوفيين
هل ام فحذفت الهمزة بالقاء حركتها على اللام وهو بعيد لان هل لا تدخل الامر ويكون
متعديا كما فى الآية ولازما كما فى قوله تعالى هلم الينا الذين يشهدون ان الله
حرم هذا وهم قدوتهم الذين ينصرون قولهم وانما امروا باستحضارهم
ليلزمهم الحجة ويظهر بانقطاعهم ضلالتهم وانه لا متمسك لهم كمن يقلدهم
ولذلك قيد الشهداء بالاضافة ووصفوا بما يدل على انهم شهداء معروفون بالشهادة
لهم وبنصرة مذهبهم فان شهدوا بعد ما حضروا بان الله حرم هذا فلا تشهد
معهم اى فلا تصدقهم فانه كذب بحت وافتراء صرف وبين لهم فساده
فان تسليمه منهم موافقة لهم فى الشهادة الباطلة ولا تتبع اهواء الذين كذبوا
باياتنا من وضع المظهر مقام المضمر للدلالة على ان من كذب بآيات الله وعدل به
غيره فهو متبع للهوى لا غير وان من اتبع الحجة لا يكون الا مصدقا بها والذين
لا يؤمنون بالآخرة كعبدة الاوثان عطف على الموصول الاول بطريق عطف الصفة
على الصفة مع اتحاد الموصوف كما فى قوله الى الملك القرم وابن الهمام وليث

الكتاب فى المزدحم فان من يكذب باياته تعالى لا يؤمن بالاخرة وبالعكس وهم بربهم
يعدلون اى يجعلون له عديلا عطف على لا يؤمنون والمعنى لا تتبع اهوآء الذين
يجمعون بين تكذيب ايات الله وبين الكفر بالاخرة وبين الاشراك به سبحانه لكن لا على
ان يكون مدار النهى الجمع المذكور بل على ان اولئك جامعون بها متصفون بكلها
قل تعالوا لما ظهر بطلان ما ادعوا من ان اشراكهم واشراك ابائهم وتحريم ما
حرموه بامر الله تعالى ومشيئته بظهور عجزهم عن اخراج شئ يتمسك به فى ذلك واحضار
شهداء يشهدون بما ادعوا فى امر التحريم بعد ما كلفوه مرة بعد اخرى عجزا بينا
امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بان يبين لهم من المحرمات ما يقتضى الحال بيانه
على الاسلوب الحكيم ايذانا بان حقهم الاجتناب عن هذه المحرمات واما الاطعمة
المحرمة فقد بينت بقوله تعالى قل لا اجد الاية وتعال امر من التعالى والاصل فيه ان
يقوله من فى مكان عال لمن هو فى اسفل منه ثم اتسع فيه بالتعميم كما ان الغنيمة
فى الاصل اصابة الغنم من العدو ثم استعملت فى اصابة كل ما يصاب منهم اتساعا
ثم فى الفوز بكل مطلب من غير مشقة اتل جواب الامر وقوله تعالى ما حرم ربكم
منصوب به على ان ما موصولة والعايد محذوف اى اقرأ الذى حرمه ربكم اى الايات
المشتملة عليه او مصدرية اى الايات المشتملة على تحريمه او بحرم على انها استفهامية
والجملة مفعول لاتل لان التلاوة من باب القول كانه قيل اقل اى شئ حرم ربكم وعليكم
متعلق بحرم على كل حال وقيل باتل والاول انسب بمقام الاعتناء بايجاب الانتهاء
عن المحرمات المذكورة وهو السر فى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم
فان تذكير كونه تعالى ربا لهم ومالكا لامرهم على الاطلاق من اقوى الدواعى الى انتهائهم
عما نهاهم عنه اشد انتهاء وان فى قوله تعالى ان لا تشركوا به مفسرة لفعل التلاوة
المعلق بما حرم ولا ناهية كما ينبئ عنه عطف ما بعده من الاوامر والنواهى عليه
وليس من ضرورة كون المعطوف عليه تفسيرا لتلاوة المحرمات بحسب معطوفه
كون المعطوفات ايضا كذلك حتى يمتنع انتظام الاوامر فى سلك العطف عليه
بل يكفى فى ذلك كونها تفسيرا لها اى لتلاوة المحرمات باعتبار لوازمها التى هى النواهى
المتعلقة باضداد ما تعلقت هى فان الامر بالشئ مستلزم للنهى عن ضده بل هو عينه عند
البعض كان الاوامر ذكرت وقصد لوازمها فان عطف على النواهى الواقعة بعد ان
المفسرة لتلاوة المحرمات مع القطع بان المامور به لا يكون محرما دليل واضح على ان التحريم
راجع الى الاضداد على الوجه المذكور فكانه قيل اتل ما حرم ربكم ان لا تشركوا ولا تسيئوا
الى الوالدين خلا انه قد اخرج مخرج الامر بالاحسان اليهما بين النهيين المكتنفين له للمبالغة
فى ايجاب مراعاة حقوقهما فان مجرد ترك الاساءة اليهما غير كاف فى قضاء حقوقهما
ولذلك عقب به النهى عن الاشراك الذى هو اعظم المحرمات واكبر الكباير ههنا وفى
ساير المواقع وقيل ان ناصبة ومحلها النصب بعليكم على انه للاغراء وقيل النصب
على البدلية من ما حرم وقيل من عايدها المحذوف على ان لا زايدة وقيل الجر
بتقدير اللام وقيل الرفع بتقدير المتلو ان لا تشركوا والمحرم ان تشركوا بزيادة
لا وقيل وقيل والذى عليه التعويل هو الاول لامور من جملتها ان فى اخراج المفسر على
صورة النهى مبالغة فى بيان التحريم وقوله تعالى شيئا نصب على المصدرية او المفعولية
اى لا تشركوا به شيئا من الاشراك او شيئا من الاشياء وبالوالدين اى واحسنوا بهما
احسانا وقد مر تحقيقه ولا تقتلوا اولادكم تكليف متعلق بحقوق الاولاد
عقب به التكليف المتعلق بحقوق الوالدين اى لا تقتلوهم بالواد من املاق اى
من اجل فقر كما فى قوله تعالى خشية املاق وقيل هذا فى الفقر الناجز وذا فى المتوقع
وقوله تعالى نحن نرزقكم واياهم استيناف مسوق لتعليل النهى وابطال سببيته
ما اتخذوه سببا لمباشرة المنهى عنه وضمان منه تعالى لارزاقهم اى نحن نرزق الفريقين
لا انتم فلا تخافوا الفقر بناء على عجزكم عن تحصيل الرزق وقوله تعالى ولا تقربوا الفواحش

كقوله تعالى ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة الاية الا انه جئ ههنا بصيغة الجمع قصدا الى
النهى عن انواعها ولذلك ابدل عنها قوله تعالى ما ظهر منها وما بطن اى ما يفعل
منها علانية فى الحوانيت كما هو داب ارازلهم وما يفعل سرا باتخاذ الاخدان كما هو
عادة اشرافهم وتعليق النهى بقربانها اما للمبالغة فى الزجر عنها لقوة الدواعى اليها
واما لان قربانها داع الى مباشرتها وتوسيط النهى عنها بين النهى عن قتل الاولاد
والنهى عن القتل مطلقا كما وقع فى سورة بنى اسرائيل باعتبار انها مع كونها
فى نفسها جناية عظيمة فى حكم قتل الاولاد فان اولاد الزنا فى حكم الاموات وقد قال
عليه السلام فى حق العزل ذاك واد خفى ومن ههنا تبين ان حمل الفواحش على الكبائر
مطلقا وتفسير ما ظهر منها وما بطن بما فسر به ظاهر الاثم وباطنه فيما سلف من قبيل
الفصل بين الشجر ولحايه ولا تقتلوا النفس التى حرم الله اى حرم قتلها بان عصمها
بالاسلام او بالعهد فيخرج منها الحربى وقوله تعالى الا بالحق استثناء مفرغ من اعم
الاحوال اى لا تقتلوها فى حال من الاحوال الا حال ملابستكم بالحق الذى هو امر الشرع
بقتلها وذلك بالكفر بعد الايمان والزنا بعد الاحصان وقتل النفس المعصومة او من
اعم الاسباب اى لا تقتلوها بسبب من الاسباب الا بسبب الحق وهو ما ذكر او من اعم
المصادر اى لا تقتلوها قتلا ما الا قتلا كاينا بالحق وهو الحق باحد الامور المذكورة
ذلكم اشارة الى ما ذكر من التكاليف الخمسة وما فى ذلك من معنى البعد للايذان بعلو
طبقاتها من بين التكاليف الشرعية وهو مبتدا وقوله تعالى وصاكم به اى امركم به
ربكم امرا موكدا خبره والجملة استيناف جئ به تجديدا للعهد وتاكيدا لايجاب المحافظة
على ما كلفوه ولما كانت الامور المنهى عنها مما يقضى بديهة العقول بقبحها فصلت
الاية الكريمة بقوله تعالى لعلكم تعقلون اى تستعملون عقولكم التى تعقل نفوسكم
وتحبسها عن مباشرة القبايح المذكورة ولا تقربوا مال اليتيم توجيه النهى الى
قربانه لما مر من المبالغة فى النهى عن اكله ولاخراج القربان النافع عن حكم النهى بطريق
الاستثناء اى لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه الا بالتى هى احسن اى الا بالخصلة
التى هى احسن ما يكون من الحفظ والتثمير ونحو ذلك والخطاب للاولياء والاوصياء
لقوله تعالى حتى يبلغ اشده فانه غاية لما يفهم من الاستثناء لا للنهى كانه قيل
احفظوه حتى يصير بالغا رشيدا فحينئذ سلموه اليه كما فى قوله تعالى فان انستم منهم
رشدا فادفعوا اليهم اموالهم والاشد جمع شدة كنعمة وانعم او شد ككلب واكلب او شد
كصر واصر وقيل هو مفرد كانك واوفوا الكيل والميزان بالقسط اى بالعدل
والسوية لا نكلف نفسا الا وسعها الا ما يسعها ولا يعسر عليها وهو
اعتراض جئ به عقيب الامر بالعدل للايذان بان مراعاة العدل كما هو عسير كانه
قيل عليكم بما فى وسعكم وما وراءه معفو عنكم واذا قلتم قولا فى حكومة
او شهادة او نحوهما فاعدلوا فيه ولو كان اى المقول له او عليه ذا قربى
اى ذا قرابة منكم ولا تميلوا نحوهم اصلا وقد مر تحقيق معنى لو فى مثل هذا
الموضع مرارا وبعهد الله اوفوا اى ما عاهدكم من الامور المعدودة او
اى عهد كان فيدخل فيه ما ذكر دخولا اوليا او ما عاهد تم الله عليه من الايمان و
النذر وتقديمه للاعتناء بشانه ذلكم اشارة الى ما فصل من التكاليف ومعنى البعد لما
ذكر فيما قبل وصاكم به امركم به امرا موكدا لعلكم تذكرون تتذكرون ما فى
تضاعيفه وتعملون بمقتضاه وقرئ بالتشديد الذال وهذه احكام عشرة لا تختلف باختلاف
الامم والاعصار عن ابن عباس رضى الله عنهما هذه ايات محكمات لم ينسخهن شئ من
جميع الكتب وهى محرمات على بنى آدم كلهم وهن ام الكتاب من عمل بهن دخل الجنة
ومن تركهن دخل النار وعن كعب الاحبار رضيه والذى نفس كعب بيده ان هذه الايات
لاول شئ فى التوراة بسم الله الرحمن الرحيم قل تعالوا الايات وان هذا
صراطى اشارة الى ما ذكر فى الايتين من الامر والنهى قاله مقاتل وقيل الى ما ذكر فى السورة

فانها اساسها في اثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة وقرئ صراطي بفتح الياء ومعنى
اضافته الى ضميره عليه السلام انتسابه اليه عليه السلام من حيث السلوك لا من حيث
الوضع كما في صراط الله والمراد بيان ان ما فصل من الاوامر والنواهي غير مختصة
بالمتلو عليهم بل متعلقة به عليه السلام ايضا وانه عليه السلام مستمر على العمل بها
ومراعاتها وقوله تعالى مستقيما حال مؤكدة ومحل ان مع ما في حيزها الجر بحذف لام
العلة اي ولان هذا صراطي اي مسلكي مستقيما فاتبعوه كقوله تعالى وان المساجد لله
فلا تدعوا مع الله احدا وتعليل اتباعه بكونه صراطه عم لا بكونه صراط الله تعالى مع انه
في نفسه كذلك من حيث ان سلوكه عليه السلام فيه داع للمخلوق الى الاتباع اذ بذلك
يتضح عندهم كونه صراط الله عز وجل وقرئ بكسر الهمزة على الاستيناف وقرئ ان هذا مخففة
من ان على ان اسمها الذي هو ضمير الشان محذوف وقرئ سراطي وقرئ هذا صراطي وقرئ هذا
صراط ربكم وهذا صراط ربك ولا تتبعوا السبل الاديان المختلفة او طرق البدع والضلالات
فتفرق بكم بحذف احد التائين والباء للتعدية اي فتفرقكم حسب تفرقها ايادي
سبا فهو كما ترى ابلغ من تفرقكم كما قيل من ان ذهب به لما فيه من الدلالة على الاستصحاب
ابلغ من اذهبه عن سبيله اي سبيل الله الذي لا عوج فيه ولا حرج وهو دين الاسلام
الذي ذكر بعض احكامه وقيل هو اتباع الوحي واقتفاء البرهان وفيه تنبيه
على ان صراطه عليه السلام عين سبيل الله تعالى ذلكم اشارة الى ما مر من اتباع سبيله
تعالى وترك اتباع سائر السبل وصاكم به لعلكم تتقون اتباع سبل الكفر و
الضلالة ثم اتينا موسى الكتاب كلام مسوق من جهته تعالى تقريرا للوصية وتحقيقا
لها وتمهيدا لما يعقبه من ذكر انزال القران المجيد كما ينبئ عنه تغيير الاسلوب بالالتفات
الى التكلم معطوف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كانه قيل بعد
قوله تعالى ذلكم وصاكم به بطريق الاستيناف تصديقا له وتقريرا لمضمونه فعلنا ذلكم
ثم اتينا الخ كما ان قوله تعالى ونطبع على قلوبهم معطوف على ما يدل عليه معنى او لم
يهد الخ كانه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع الخ واما عطفه على ذلكم وصاكم به ونظمه
معه في سلك الكلام الملقن كما اجمع عليه الجمهور فمما يجل عنه النظم الكريم فتدبر وثم للتراخي
في الاخبار كما في قولك بلغني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت امس اعجب او للتفاوت في الرتبة
كانه قيل ذلكم وصاكم به قديما وحديثا ثم اعظم من ذلك انا اتينا موسى التوراة فان
ايتاءها مشتملة على الوصية المذكورة وغيرها اعظم من التوصية بها فقط تماما للكرامة
والنعمة اي اتماما لهما على انه مصدر من اتم بحذف الزوائد على الذي احسن اي على من
احسن القيام به كائنا من كان ويؤيده انه قرئ على الذين احسنوا وتماما على المحسنين او على
الذي احسن تبليغه وهو موسى عم او تماما على ما احسنه موسى عم اي اجاده من العلوم والشرائع
اي زيادة على علمه على وجه التتميم وقرئ بالرفع على انه خبر مبتدا محذوف اي على الذي هو
احسن دينه وارضاه او اتيناه موسى الكتاب تماما اي تاما كاملا على احسن ما يكون
عليه الكتب وتفصيلا لكل شيء وبيانا مفصلا لكل ما يحتاج اليه في الدين وهو عطف
على تماما ونصبهما اما على العلية او المصدرية كما اشير اليه او على الحالية وكذا قوله تعالى
هدى ورحمة وضمير لعلهم لبني اسرائيل المدلول عليهم بذكر موسى وايتاء الكتاب والباء
في قوله تعالى بلقاء ربهم متعلقة بقوله تعالى يؤمنون قدمت عليه محافظة على
الفواصل قال ابن عباس رضه كي يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعقاب وهذا
الذي تليت عليكم اوامره ونواهيه اي القران كتاب عظيم الشان لا يقادر قدره
وقوله تعالى انزلناه مبارك اي كثير المنافع دينا ودنيا صفتان لكتاب وتقديم
وصف الانزال مع كونه غير صريح لان الكلام مع منكريه او خبران اخران لاسم الاشارة اي
انزلناه مشتملا على فنون الفوائد الدينية والدنيوية التي فصلت عليكم طائفة
منها والفاء في قوله تعالى فاتبعوه لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان عظم شان الكتاب
في نفسه وكونه منزلا من جنابه عز وجل مستتبعا للمنافع الدينية والدنيوية موجب

لاتباعه

لاتباعه اي ايجاب واتقوا مخالفته لعلكم ترحمون بواسطة اتباعه والعمل بموجبه
ان تقولوا علة انزلناه المدلول عليه بالمذكور لا لنفسه للزوم الفصل حينئذ بين العامل
والمعمول باجنبي هو مبارك وصفا كان او خبرا اي انزلناه كذلك كراهة ان تقولوا يوم
القيامة لو لم تنزل انما انزل الكتاب الناطق بتلك الاحكام العامة لكل الامم
على طائفتين كائنتين من قبلنا وهما اليهود والنصارى وتخصيص الانزال بكتابيهما
لانهما الذي اشتهر حينئذ فيما بين الكتب السماوية بالاشتمال على الاحكام لاشتمال الاحكام
المذكورة وان كنا ان هي المخففة من ان واللام فارقة بينها وبين النافية وضمير الشان
محذوف ومرادهم بذلك دفع ما يرد عليهم من ان نزوله عليهما لا ينافي عموم احكامه
ولم لم تعملوا باحكامها العامة اي وانه كنا عن دراستهم لغافلين لا ندري ما في كتابهم
اذ لم يكن على لغتنا حتى نتلقى منه تلك الاحكام العامة ونحافظ عليها وان لم يكن منزلا
علينا بهذا تبين ان معذرتهم هذه مع انهم غير مأمورين بما في الكتابين لاشتمالهما
على الاحكام المذكورة المتناولة لكافة الامم كما ان قطع تلك المعذرة بانزال القران لاشتماله
ايضا عليها فقط لا على الشرائع والاحكام او تقولوا عطف على تقولوا وقرئ كلاهما بالياء
على الالتفات من خطاب فاتبعوه لو انا انزل علينا الكتاب كما انزل عليهم لكنا
اهدى منهم الى الحق الذي هو المقصد الاقصى او الى ما في تضاعيفه من جلائل الاحكام
والشرائع ودقائقها لحدة اذهاننا وثقابة افهامنا ولذلك تلقفنا من فنون العلم كالقصص
والاخبار والخطب والاشعار ونحو ذلك طرفا صالحا ونحن اميون وقوله تعالى فقد جاءكم
متعلق بمحذوف ينبئ عنه الفاء الفصيحة اما معلل به اي لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم
الخ واما شرط له اي ان صدقتم فيما كنتم تعدون من انفسكم من كونكم اهدى
من الطائفتين على تقدير نزول الكتاب عليكم مفصلا فقد حصل ما فرضتم وجاءكم
بينة واي بينة اي حجة واضحة لا يكتنه كنهها وقوله تعالى من ربكم متعلق بجاءكم
او بمحذوف هو صفة لبينة اي بينة كائنة منه تعالى واياما كان ففيه دلالة على فضلها
الاضافي كما ان في تنوينها التفخيمي دلالة على فضلها الذاتي وفي التعرض لوصف
الربوبية الى ضميرهم مزيد تاكيد لايجاب الاتباع وهدى ورحمة عطف على بينة و
تنوينهما ايضا تفخيمي عبر عن القران بالبينة ايذانا بكمال تمكنهم من دراسته ثم بالهدى
والرحمة تنبيها على انه مشتمل على ما اشتمل عليه التوراة من هداية الناس ورحمتهم
بل هو عين الهداية والرحمة موجب لغاية اظلمية من يكذبه اي واذا كان الامر
كذلك فمن اظلم ممن كذب بايات الله وضع الموصول موضع ضميرهم بطريق الالتفات
تنصيصا على اتصافهم بما في حيز الصلة واشعارا بعلة الحكم واسقاطا لهم عن
رتبة الخطاب وعبر عما جاءهم بايات الله تهويلا للامر وتنبيها على ان تكذيب اي اية
كانت من اياته تعالى كان في الاظلمية فما ظنك بتكذيب القران المنطوي على الكل
والمعنى انكار ان يكون احد اظلم ممن فعل ذلك او مساويا له وان لم يكن سبك
التركيب متعرضا لانكار المساواة ونفيها فاذا قيل من اكرم من فلان او لا افضل منه فالمراد
به حتما بحكم العرف الفاشي والاستعمال المطرد انه اكرم من كل كريم وافضل من كل فاضل
وقد مر مرارا وصدف عنها اي صرف الناس عنها فجمع بين الضلال والاضلال
سنجزي الذين يصدفون الناس عن اياتنا وعيد لهم ببيان جزاء اضلالهم بحيث
يفهم منه جزاء ضلالهم ايضا ووضع الموصول موضع الضمير لتحقيق مناط الجزاء
سوء العذاب اي العذاب السيء الشديد النكاية بما كانوا يصدفون اي بسبب ما كانوا
يفعلون الصدف والصرف على التجدد والاستمرار وهذا تصريح بما اشعر به اجراء الحكم
على الموصول من علية ما في حيز الصلة له هل ينظرون استيناف مسوق لبيان
انه لا يتأتى منهم الايمان بانزال ما ذكر من البينات والهدى وانهم لا يرعوون
عن التمادي في المكابرة واقتراح ما ينافي الحكمة التشريعية من الايات الملجئة وان
الايمان عند اتيانها مما لا فائدة له اصلا مبالغة في التبليغ والانذار وازاحة العلل والاعذار

اي ما ينتظرون الآن تأتيهم الملائكة او يأتي ربك حسبما اقترحوا بقولهم لولا
انزل علينا الملائكة او نرى ربنا وبقولهم او يأتي بالله والملائكة قبيلا وبقولهم لولا
انزل عليه ملك ونحو ذلك او الآن تأتيهم ملائكة العذاب او يأتي امر ربك بالعذاب
والانتظار محمول على التمثيل كما سيجيء وقرئ يأتيهم بالياء لان تأنيث الملائكة غير
حقيقي او يأتي بعض آيات ربك اي غير ما ذكر كما اقترحوا بقولهم او تسقط السماء كما زعمت
علينا كسفا ونحو ذلك من عظائم الآيات التي علقوا بها ايمانهم والتعبير عنها
بالبعض للتهويل والتفخيم كما ان اضافة الآيات في الموضعين الى اسم الرب المنبئ عن
المالكية الكلية لذلك واضافته الى ضميره صلى الله عليه وسلم للتشريف وقيل بالملائكة
ملائكة الموت وباتيانه سبحانه وتعالى اتيان كل آياته بمعنى آياته العظيمة والهلاك
الكلي بقرينة ما بعده من اتيان بعض آياته تعالى على ان المراد به اشراط الساعة التي
هي الدخان ودابة الارض وخسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب و
الدجال وطلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى عم ونار تخرج
من عدن كما نطق به الحديث الشريف المشهور وحيث لم يكن اتيان هذه الامور مما
ينتظرونه كاتيان ما اقترحوه من الآيات فان تعليق ايمانهم باتيانها انتظار منهم له
ظاهرا حمل الانتظار على التمثيل المبني على تشبيه حالهم في الاصرار على الكفر والتمادي في العناد
الى ان تأتيهم تلك الامور الهائلة التي لا بد لهم من الايمان عند مشاهدتها البتة بحال
المنتظرين لها وانت خبير بان النظم الكريم بسياقه المنبئ عن تماديهم في تكذيب آيات الله
تعالى وعدم الاعتداد بها وسياقه الناطق بعدم نفع الايمان عند اتيان ما ينتظرونه
يستدعي ان يحمل ذلك على امور هائلة مخصوصة بهم اما بان تكون عبارة عما اقترحوه
او عن عقوبات مترتبة على جناياتهم كاتيان ملائكة العذاب واتيان امره تعالى بالعذاب
وهو الانسب لما سيأتي من قوله تعالى قل انتظروا انا منتظرون واما حمله على ما ذكر
من اتيان ملائكة الموت واتيان كل آيات القيمة وظهور اشراط الساعة مع شمول
اتيانها لكل بر وفاجر واشتمال غائلتها على كل مؤمن وكافر فمما لا يساعده المقام
على ان بعض اشراط الساعة ليس مما ينسد به باب الايمان والطاعة نعم يجوز حمل بعض
الآيات في قوله تعالى يوم يأتي بعض آيات ربك على ما يعم مقترحاتهم وغيرها
من الدواهي العظام السالبة للاختيار الذي عليه يدور فلك التكليف فانه بمنزلة
الكبرى من الشكل الاول فيتم التقريب بدخول ما ينتظرونه في ذلك دخولا اوليا ويوم
منصوب بقوله تعالى لا ينفع فان امتناع عمل ما بعد لا فيما قبلها عند وقوعها جواب
القسم وقرئ يوم بالرفع على الابتداء والخبر هو الجملة والعائد محذوف اي لا ينفع
فيه نفسا من النفوس ايمانها حينئذ لانكشاف الحال وكون الامر عيانا ومدار
قبول الايمان ان يكون بالغيب كقوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا وقرئ
لا تنفع بالتاء الفوقانية لاكتساب الايمان من الملابسة المضاف اليه تأنيثا وقوله تعالى
لم تكن آمنت من قبل اي من قبل اتيان بعض الآيات صفة لنفسا فصل بينهما بالفاعل
لاشتمالها على ضمير الموصوف ولا ضير فيه غير اجنبي منه لاشتراكهما في العامل وقوله تعالى
او كسبت في ايمانها خيرا عطف على آمنت بايراد الترديد على النفي المفيد لكفاية
احد النفيين في عدم النفع والمعنى انه لا ينفع الايمان حينئذ نفسا لم تقدم ايمانها
او قدمته ولم تكسب فيه خيرا ومن ضرورته اشتراط النفع بتحقق الامرين اي
الايمان المقدم والخير المكسوب فيه معا يعني ان النافع هو تحققهما والايمان المؤخر
لغو وتحصيل للحاصل لانه هو النافع وتحققهما شرط في نفعه كما لو كان المقدم غير
المؤخر بالذات فان قولك لا ينفع الصوم والصدقة من لم يؤمن قبلهما معناه انهما
ينفعانه عند وقوعهما بعد الايمان وقد استدل به اهل الاعتزال على عدم اعتبار الايمان
المجرد عن الاعمال وليس بناهض ضرورة صحة حمله على نفي الترديد المستلزم لعمومه
المفيد بمنطوقه لاشتراط عدم النفع بعدم الامرين معا وبمفهومه لاشتراط النفع

بتحقق

بتحقق احدهما بطريق منع الخلو دون الانفصال الحقيقي فالمعنى انه لا ينفع الايمان حينئذ نفسا
لم يصدر عنها من قبل احد الامرين اما الايمان المجرد او الخير المكسوب فيه فيتحقق النفع
بايهما كان حسبما ينطق به النصوص الكريمة من الآيات والاحاديث وما قيل من ان عدم
الايمان السابق مستلزم لعدم كسب الخير فيه بالضرورة فيكون ذكره تكرارا بلا فائدة
على ان الموجب للخلود في النار هو العدم الاول من غير ان يكون للثاني دخل ما في ذلك
قطعا فيكون ذكره بصدد بيان ما يوجب الخلود لغوا من الكلام لغو من الكلام مبني على
توهم ان المقصود بوصف النفس بالعدمين المذكورين مجرد بيان انها اهل للخلود
فيها وعدم نفع الايمان الحادث في انجائها عنه وليس كذلك والا لكفى في البيان ان يقال لا ينفع
نفسا ايمانها الحادث بل المقصود الاصلي من وصفها بذينك العدمين في اثناء بيان عدم
نفع الايمان الحادث تحقيق ان موجب النفع احدى ملكيتهما اعني الايمان السابق والخير
المكسوب فيه بما ذكر من الطريقة والترغيب في تحصيلهما في ضمن التحذير من تركهما ولا
سبيل الى ان يقال كما ان الاول مستقل في ايجاب الخلود في النار فيلغو ذكر عدم الثاني
كذلك وجوده مستقل في ايجاب الخلاص عنها فيكون ذكر الثاني لغوا لما انه قياس مع
الفارق كيف لا والخلود فيها امر لا يتصور فيه تعدد العلل واما الخلاص عنها مع دخول
الجنة فله مراتب بعضها مترتب على نفس الايمان وبعضها على فروعه المتفاوتة كما وكيفا
وانما لم يقتصر على بيان ما يوجب اصل النفع وهو الايمان السابق مع انه هو المقابل لما
لا يوجبه اصلا اعني الايمان الحادث بل قرن به ما يوجب النفع الزائد ايضا ارشادا الى
تحري الاعلى وتنبيها على كفاية الادنى واقناطا للكفرة عما علقوا به اطماعهم الفارغة
من اعمال البر التي عملوها في الكفر من صلة الارحام واعتاق الرقاب وفك العناة و
اعانة الملهوفين وقرى الاضياف وغير ذلك مما هو من باب المكارم ببيان ان كل
ذلك لغو بحت لابتنائه على غير اساس حسبما نطق به قوله تعالى والذين كفروا اعمالهم
كرماد اشتدت به الريح الآية ونحو ذلك من النصوص الكريمة وان الايمان الحادث كما
لا ينفعهم وحده لا ينفعهم بانضمام اعمالهم السابقة واللاحقة ولك ان تقول
المقصود بوصف النفس بما ذكر من العدمين التعريض بحال الكفرة في تمردهم و
تفريطهم في كل واحد من الامرين الواجبين عليهم وان كان وجوب احدهما منوطا
بالآخر كما في قوله تعالى عز وجل فلا صدق ولا صلى تسجيلا بكمال طغيانهم وايذانا
بتضاعف عقابهم لما تقرر من ان الكفار مخاطبون بفروع الشرائع في حق المؤاخذة كما
ينبئ عنه قوله تعالى وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة اذا تحققت هذا وقفت
على ان الآية الكريمة احرى بان تكون حجة على المعتزلة من ان تكون حجة لهم هذا وقد
قيل انها من باب اللف التقديري اي لا ينفع نفسا ايمانها ولا كسبها في الايمان لم تكن
آمنت من قبل او كسبت فيه وليس بواضح فان مبنى اللف التقديري ان يكون المقدر
من متممات الكلام ومقتضيات المقام وقد ترك ذكره تعويلا على دلالة الملفوظ عليه
واقتضائه اياه كما مر في تفسير قوله تعالى ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم
اليه جميعا فانه قد طوى في المفصل ذكر حشر المؤمنين ثقة بانباء التفصيل عنه اعني
قوله تعالى فاما الذين آمنوا الآية ولا ريب في ان ما قدر هاهنا ليس مما يستدعيه
قوله تعالى او كسبت في ايمانها خيرا ولا هو من مقتضيات المقام لانه ليس مما وعدوه
وعلقوا باتيان ما ذكر من الآيات كالايمان حتى يرد عليهم ببيان عدم نفعه اذ ذاك
على ان ذلك مشعر بان لهم بعد ما اصابهم من الدواهي ما اصابهم بقاء على السلامة
وزمانا يتأتى منهم الكسب العملي فيه وفيه من الاخلال بمقام تهويل الخطب وتفظيع
الحال ما لا يخفى وقد اجيب عن الاستدلال بوجوه اخر قصارى امرها اسقاط الآية
الكريمة عن رتبة المعارضة للنصوص القطعية المتون القوية الدلالة على ما ذكر
من كفاية الايمان المجرد عن العمل في الانجاء من العذاب الخالد ولو بعد اللتيا والتي لما
تقرر من ان الظني بمعزل من معارضة القطعي قل لهم بعد بيان حقيقة الحال

على وجه التهديد انتظروا ما تنتظرونه من اتيان احد الامور الثلاثة لتروا اي شيء تنتظرون
انا منتظرون لذلك لنشاهد ما يحل بكم من سوء العاقبة وفيه تاييد لكون المراد بما ينتظرونه
اتيان ملئكة العذاب او اتيان امره تعالى بالعذاب كما اشير اليه وعدة ضمنية لرسول الله
صلى الله عليه والمؤمنين لمعاينتهم لما يحيق بالكفرة من العقاب ولعل ذلك هو الذي
شاهدوه يوم بدر والله سبحانه اعلم ان الذين فرقوا دينهم استيناف لبيان احوال
الكتابيين اثر بيان احوال المشركين اي بددوه وبعضوه فتمسك بكل بعض منه فرقة
منهم وقرئ فارقوا اي باينوا فان ترك بعضه وان كان بأخذ بعض آخر ترك للكل ومفارقة
له وكانوا شيعا اي فرقا تشيع كل فرقة اماما لها قال عليه السلام افترقت اليهود
على احدى وسبعين فرقة كلهم في الهاوية الا واحدة وافترقت النصارى اثنتين
وسبعين فرقة كلهم في الهاوية الا واحدة وستفترق امتي على ثلاث وسبعين
كلهم في الهاوية الا واحدة واستثناء الواحدة من فرق كل من اهل الكتابين انما هو
بالنظر الى العصر الماضي قبل النسخ واما بعده فالكل في الهاوية وان اختلفت اسباب
دخولهم فمعنى قوله تعالى لست منهم في شيء لست من البحث عن تفرقهم و
التعرض لما يعاصرك منهم بالمناقشة والمؤاخذة وقيل من قتالهم في شيء سوى
تبليغ الرسالة واظهار شعائر الدين الحق الذي امرت بالدعوة اليه فيكون منسوخا
باية السيف وقوله تعالى انما امرهم الى الله تعليل للنفي المذكور اي هو يتولى وحده
امر اولهم واخراهم ويدبره كيف يشاء حسبما تقتضيه الحكمة يؤاخذهم في
الدنيا متى شاء ويأمر بقتالهم اذا اراد وقيل المفرقون اهل البدع والاهواء
الزايغة من هذه الامة ويرده انه عليه السلام مأمور بمؤاخذتهم والاعتذار
بان معنى لست منهم في شيء حينئذ انت بريء منهم ومن مذهبهم وهم براء
منك يأباه التعليل المذكور ثم ينبئهم اي يوم القيمة بما كانوا يفعلون عبر
عن اظهاره بالتنبئة لما بينهما من الملابسة في انهما سببا للعلم تنبيها على انهم
كانوا جاهلين بحال ما ارتكبوه غافلين عن سوء عاقبته اي يظهر لهم على رؤس
الاشهاد ويعلمهم اي شيء شنيع كانوا يفعلونه في الدنيا على الاستمرار ويرتب عليه
ما يليق به من الجزاء وقوله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر امثالها استيناف مبين
لمقادير اجزية العاملين وقد صدر ببيان اجزية المحسنين المدلول عليهم بذكر اضدادهم
قال عطاء عن ابن عباس يريد من عمل من المصدقين حسنة كتبت له عشر حسنات اي من جاء يوم
القيمة بالاعمال الحسنة من المؤمنين اذ لا حسنة بغير ايمان فله عشر حسنات امثالها فضلا
من الله عز وجل وقرئ عشر بالتنوين امثالها بالرفع على الوصف وهذا اقل ما وعد من
الاضعاف وقد جاء الوعد بسبعين وبسبعمائة وبغير حساب ولذلك قيل المراد بذكر العشر
بيان الكثرة لا الحصر في العدد الخاص ومن جاء بالسيئة اي بالاعمال السيئة كائنا من كان
من العاملين فلا يجزى الا مثلها بحكم الوعد واحدة بواحدة وهم لا يظلمون بنقص
الثواب وزيادة العقاب قل انني هداني ربي امر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بان يبين
لهم ما هو عليه من الدين الحق الذي يدعون انهم عليه وقد فارقوه بالكلية وتصدير
الجملة بحرف التحقيق لاظهار كمال الاعتناء بمضمونها والتعرض لعنوان الربوبية مع
الاضافة الى ضميره عليه السلام لمزيد تشريفه اي قل لاولئك المفرقين ارشدني ربي بالوحي
في الآفاق والانفس من الآيات التكوينية الى صراط مستقيم موصل الى الحق وقوله تعالى
دينا بدل من الى صراط فان محله النصب كما في قوله تعالى ويهديكم صراطا مستقيما او مفعول
لفعل مضمر يدل عليه المذكور قيما مصدر نعت به مبالغة والقياس قوما كعوض
فاعل لاعلال فعله كالقيام وقرئ قيما وهو فيعل من قام كسيد من ساد وهو ابلغ من
المستقيم باعتبار الزنة وان كان المستقيم ابلغ منه باعتبار الصيغة ملة ابراهيم عطف بيان
لدينا حنيفا حال من ابراهيم اي مائلا عن الاديان الباطلة وما كان من المشركين
اعتراض مقرر لنزاهته عما عليه المفرقون لدينهم من عقد وعمل اي ما كان منهم في امر

الاضعاف

من امور

من امور دينهم اصلا وفرعا صرح بذلك ردا على الذين يدعون انهم على ملته عليه السلام
من اهل مكة واليهود المشركين بقولهم عزير ابن الله والنصارى المشركين بقولهم
المسيح ابن الله قل ان صلاتي ونسكي اعيد الامر لما ان المامور به متعلق بفروع الشرائع
وما سبق باصولها اي عبادتي كلها وقيل وذبحي جمع بينه وبين الصلاة كما في
قوله تعالى فصل لربك وانحر وقيل صلاتي وحجي ومحياي ومماتي اي وما انا عليه في
حياتي اكون عليه عند موتي من الايمان والطاعة او طاعات الحيوة والخيرات المضافة
الى الممات كالوصية والتدبير وقيل محياي بسكون الياء اجراء للوصل مجرى الوقف
لله رب العالمين لا شريك له خالصة له لا اشرك فيها غيره وبذلك اشارة الى الاخلاص وما
فيه من معنى البعد للاشعار بعلو رتبته وبعد منزلته في الفضل اي بذلك الاخلاص
امرت لا بشيء غيره وقوله تعالى وانا اول المسلمين لبيان مسارعته عليه السلام الى الامتثال
بما امر به وان ما امر به ليس من خصائصه عليه السلام بل من اسلم منهم قل اغير الله
ابغي ربا آخر فاشركه في العبادة وهو رب كل شيء جملة حالية مؤكدة للانكار اي
والحال ان كل ما سواه مربوب له مثلي فكيف يتصور ان يكون شريكا له في المعبودية ولا
تكسب كل نفس الا عليها كانوا يقولون للمسلمين اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم اما بمعنى
ليكتب علينا ما عملتم من الخطايا لا عليكم واما بمعنى لنحمل يوم القيمة ما كتب عليكم من
الخطايا فهذا رد له بالمعنى الاول اي لا تكون جناية نفس من النفوس الا عليها ومحال
ان يكون صدورها عن شخص وقرارها على شخص آخر حتى يتأتى ما ذكرتم وقوله تعالى
ولا تزر وازرة وزر اخرى رد له بالمعنى الثاني اي لا تحمل يومئذ نفس حاملة حمل
نفس اخرى حتى يصح قولكم ثم الى ربكم مرجعكم تلوين للخطاب وتوجيه له
الى الكل لتاكيد الوعد وتشديد الوعيد اي الى مالك امركم رجوعكم يوم القيمة
فينبئكم يومئذ بما كنتم فيه تختلفون ببيان الرشد من الغي وتمييز الحق من الباطل
وهو الذي جعلكم خلائف الارض حيث خلفتم الامم السالفة او يخلف بعضكم
بعضا او جعلكم خلفاء الله تعالى في ارضه متصرفون فيها على ان الخطاب عام ورفع بعضكم
في الشرف والغنى فوق بعض درجات كثيرة متفاوتة ليبلوكم فيما آتاكم من المال
والجاه اي ليعاملكم معاملة من يبتليكم لينظر ماذا تعملون من الشكر وضده ان ربك
تجريد الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع اضافة اسم الرب الى ضميره عليه السلام
لابراز مزيد اللطف به عليه السلام سريع العقاب اي عقابه سريع الاتيان
لمن لم يراع حقوق ما آتاه الله تعالى ولم يشكره لان كل آت قريب او سريع التمام
عند ارادته لتعاليه عن استعمال المبادي والآلات وانه لغفور رحيم لمن
راعاها كما ينبغي وفي جعل خبر هذه الجملة من الصفات الذاتية الواردة على بناء المبالغة
مؤكدا باللام مع جعل خبر الاولى صفة جارية على غير من هي له من التنبيه على انه تعالى غفور
رحيم بالذات مبالغ فيهما فاعل للعقوبة بالعرض مسامح فيها ما لا يخفى والله تعالى
اعلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انزلت علي سورة الانعام جملة واحدة يشيعها
سبعون الف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد فمن قرأ الانعام صلى عليه واستغفر له
اولئك السبعون الف ملك بعدد كل آية من سورة الانعام يوما وليلة والله الموفق

سورة الاعراف مكية وهي مائتان وست آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

المص اما مسرود على نمط التعديد باحد الوجهين المذكورين في فاتحة سورة البقرة
فلا محل له من الاعراب واما اسم للسورة فمحله الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف والتقدير
هذا المص اي مسمى به وتذكير اسم الاشارة مع تانيث المسمى لما ان الاشارة اليه من
حيث انه مسمى بالاسم المذكور لا من حيث انه مسمى بالسورة وانما صحت الاشارة اليه مع
عدم سبق ذكره لما انه باعتبار كونه بصدد الذكر صار في حكم الحاضر المشاهد وقوله تعالى

سورة الاعراف

كتاب على الوجه الاول خبر مبتدأ محذوف هو ما ينبئ عنه تعديد الحروف كانه قيل المؤلف من جنس هذه الحروف مرادا به السورة كتاب الخ واسم اشارة اشير به اليه تنزيلا لحضور المؤلف منه منزلة حضور نفس المؤلف اى هذا كتاب الخ وعلى الوجه الثانى خبر جئ به اثر بيان كونه مترجما باسم بديع منبئ عن غرابته فى نفسه ابانة لجلالة محله ببيان كونه فردا من افراد الكتب الالهية حايزا للكمالات المختصة بها وقد جوز كونه خبرا والمص مبتدا اى المسمى بالمص كتاب وقد عرفت ما فيه من ان ما يجعل عنوانا للموضوع حقه ان يكون قبل ذلك معلوم الانتساب اليه عند المخاطب واذ لا عهد بالتسمية قبل تحققها الاخبار بها انزل اليك اى من جهته تعالى بنى الفعل للمفعول جريا على سنن الكبرياء وايذانا بالاستغناء عن التصريح بالفاعل لغاية ظهور تعينه وهو السر فى ترك ذكره سبداء الانزال كما فى قوله جل ذكره بلغ ما انزل اليك من ربك ونظايره والجملة صفة لكتاب مشرفة له ولمن انزل اليه وجعله خبرا له على معنى كتاب عظيم الشان انزل اليك خلاف الاصل فلا يكن فى صدرك حرج اى شك كما فى قوله تعالى فان كنت فى شك مما انزلنا اليك خلا انه عبر عنه بما يلازمه من الحرج فان الشاك يعتريه ضيق الصدر كما ان المتيقن يعتريه انشراحه وانفساحه مبالغة فى تنزيه ساحته عليه السلام عن نسبة الشك اليه ولو فى ضمن النهى فانه من احوال القلبية التى يستحيل اعتراؤه اياه عم وما قد يقع من نسبته اليه فى ضمن النهى فعلى طريقة التهييج والالهاب والمبالغة فى التنفير والتحذير بايهام ان ذلك من القبح والشرية بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه اصلا فكيف بمن يمكن ذلك منه والتنوين للتحقير والجار فى قوله تعالى منه متعلق بحرج يقال حرج منه اى ضاق به صدره او بمحذوف وقع صفة له اى حرج كاين منه اى لا يكن فيك شك ما فى حقيقته او فى كونه كتابا منزلا اليك من عنده تعالى فالفاء على الاول لترتيب النهى والانتهاء على مضمون الجملة فانه مما يوجب انتفاء الشك فيما ذكر بالكلية وحصول اليقين به قطعا واما على الثانى فهو لترتيب ما ذكر على الاخبار بذلك لا على نفسه فتدبر وتوجيه النهى الى الحرج مع ان المراد نفيه عم عنه اما لما مر من المبالغة فى تنزيه ساحته عم عن الشك مما يوهم امكان صدور المنهى عنه عن المنهى واما للمبالغة فى النهى فان وقوع الشك فى صدوره عليه السلام سبب لاتصافه عليه السلام به والنهى عن السبب نهى عن المسبب بالطريق البرهانى ونفى له عن اصله بالمرة كما فى قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم الآية وليس هذا من قبيل لا اريك ههنا فان النهى هناك وارد على المسبب مرادا به النهى عن السبب فيكون المآل نفيه عليه السلام عن تعاطى ما يورث الحرج فتامل وقيل الحرج على حقيقته اى لا يكن فيك ضيق صدر من تبليغه مخافة ان يكذبوك وان تقصر فى القيام بحقه فانه عليه السلام كان يخاف تكذيب قومه له واعراضهم عنه فكان يضيق صدره من الاداء ولا ينبسط له فامنه الله عز وجل ونهاه عن المبالاة بهم فالفاء حينئذ للترتيب على مضمون الجملة او على الاخبار به فان كلا منهما موجب للاقدام على التبليغ وزوال الخوف قطعا وان كان ايجاب الثانى بواسطة الاول وقوله تعالى لتنذر به اى بالكتاب المنزل متعلق بانزل وما بينهما اعتراض توسط بينهما تقريرا لما قبله وتمهيدا لما بعده وحسما لتوهم ان مورد الشك هو الانزال للانذار وقيل متعلق بالنهى فان انتفاء الشك فى كونه منزلا من عنده موجب للانذار به قطعا وكذا انتفاء الخوف منهم او العلم بانه موفق للقيام بحقه للتجاسر على ذلك وانت خبير بانه لا يتاتى على التفسير الاول لان تعليل النهى عن الشك بما ذكر من الانذار والتذكير مع ابهام لامكان صدوره عنه عليه السلام مشعر بان المنهى عنه ليس محذورا لذاته بل لافضائه الى فوات الانذار والتذكير لا اقل من الايذان بان ذلك معظم غائلته ولا ريب فى فساده واما على التفسير الثانى فانما يتاتى التعليل بالانذار لا بتذكير المؤمنين اذ ليس فيه شائبة خوف حتى يجعل غاية لانتفائه وقوله تعالى وذكرى للمؤمنين فى حيز النصب باضمار فعله

معطوفا على تنذر وتذكر المؤمنين تذكيرا او الجر عطفا على محل ان تنذر للانذار والتذكير وقيل مرفوع عطفا على كتاب او خبر لمبتدا محذوف وتخصيص التذكير بالمؤمنين للايذان باختصاص الانذار بالكفرة اى لتنذر به المشركين وتذكر المؤمنين وتقديم الانذار لانه اهم بحسب المقام اتبعوا ما انزل اليكم كلام مستانف خوطب به كافة المكلفين بطريق التلوين وامروا باتباع ما امر النبى صلى الله عليه وسلم قبله بتبليغه بطريق الانذار والتذكير وجعله منزلا اليهم بواسطة انزاله اليه عليه السلام اثر ذكر ما يصححه من الانذار والتذكير لتاكيد وجوب اتباعه وقوله تعالى من ربكم متعلق بانزل على ان من لابتداء الغاية مجازا او بمحذوف وقع حالا من الموصول او من ضميره فى الصلة وفى التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين مزيد لطف بهم وترغيب لهم فى الامتثال بما امروا به وتاكيد لوجوبه وجعل ما انزل ههنا عاما للسنة القولية والفعلية بعيد نعم يعمهما حكمه بطريق الدلالة لا بطريق العبارة ولما كان اتباع ما انزله الله تعالى اتباعا له تعالى عقب الامر بذلك النهى عن اتباع غيره تعالى فقيل ولا تتبعوا من دونه اى من دون ربكم الذى انزل اليكم ما يهديكم الى الحق ومحله النصب على انه حال من فاعل فعل النهى اى لا تتبعوا متجاوزين الله تعالى اولياء من الجن والانس بان تقبلوا منهم ما يلقونه اليكم بطريق الوسوسة والاغواء من الاباطيل ليضلوكم عن الحق ويحملوكم على البدع والاهواء الزائغة او من اولياء قدم عليه لكونه نكرة اذ لو اخر منه لكان صفة اى اولياء كاينة غيره تعالى وقيل الضمير للموصول على حذف المضاف فى اولياء اى ولا تتبعوا من دون ما انزل اباطيل اولياء كانه قيل ولا تتبعوا من دون دين ربكم دين اولياء وقرئ ولا تبتغوا كما فى قوله تعالى ومن يبتغ غير الاسلام دينا وقوله تعالى قليلا ما تذكرون بحذف احدى التائين وتخفيف الذال وقرئ بتشديدها على ادغام التاء المهموسة فى الذال المجهورة وقرئ يتذكرون على صيغة الغيبة وقليلا نصب بما بعده على انه نعت لمصدر محذوف مقدم للقصر او زمان كذلك محذوف وما مزيدة لتاكيد القلة اى تذكرا قليلا او زمانا قليلا تذكرون لا كثيرا حيث لا تتاثرون بذلك ولا تعملون بموجبه وتتركون دين الله تعالى وتتبعون غيره ويجوز ان يراد بالقلة العدم كما قيل فى قوله تعالى فقليلا ما يؤمنون والجملة اعتراض تذييلى مسوق لتقبيح حال المخاطبين والالتفات على القراءة الاخيرة للايذان باقتضاء سوء حالهم فى عدم الامتثال بالامر والنهى صرف الخطاب عنهم وحكاية جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة واما نصب على انه حال من فاعل لا تتبعوا وما مصدرية مرتفعة به اى لا تتبعوا من دونه اولياء قليلا تذكركم لكن لا على توجيه النهى الى المقيد فقط كما فى قوله تعالى لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى بل الى المقيد والقيد جميعا وتخصيصه بالذكر لمزيد تقبيح حالهم بجمعهم بين المنكرين وكم من قرية اهلكناها شروع فى انذارهم بما جرى على الامم الماضية بسبب اعراضهم عن اتباع دين الله تعالى واصرارهم على اتباع دين اوليائهم وكم خبرية للتكثير فى موضع رفع على الابتداء كما فى قولك زيد ضربته والخبر هو الجملة بعدها ومن قرية تمييز والضمير فى اهلكنا راجع الى معنى كم اى كثير من القرى اهلكناها او فى موضع نصب باهلكناها كما فى قوله تعالى انا كل شئ خلقناه بقدر والمراد باهلاكها ارادة اهلاكها كما فى قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة اى اردنا اهلاكها فجاءها اى فجاء اهلها باسنا اى عذابنا بياتا مصدر بمعنى الفاعل واقع موقع الحال اى بائتين كقوم لوط او هم قائلون عطف عليه اى او قائلين من القيلولة نصف النهار كقوم شعيب وانما حذفت الواو من الحال المعطوفة على اختها استثقالا لاجتماع العاطفين فان واو الحال حرف عطف قد استعيرت للوصل لا اكتفاء بالضمير كما فى جاءنى زيد هو فارس فانه غير فصيح وتخصيص الحالتين بالعذاب لما ان نزول المكروه عند الغفلة والدعة افظع وحكايته للسامعين ازجر وادرع عن الاغترار باسباب الامن والراحة ووصف الكل بوصفى البيات والقيلولة مع ان بعض المهلكين

بعز د منهما لاسيما القبلولة للانسان بكمال غفلتهم وامنهم فما كان دعواهم اي دعاؤهم واستغاثتهم ربهم او ما كانوا يدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم اذ جاءهم باسنا عذابنا وعاينوا اماراته الا ان قالوا جميعا انا كنا ظالمين اي الا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وشهادتهم ببطلانه تحسرا عليه وندامة وطمعا في الخلاص وهيهات ولات حين نجاة فلنسألن الذين ارسل اليهم بيان لعذابهم الاخروي اثر بيان عذابهم الدنيوي خلا انه قد تعرض لبيان مبادي احوال المكلفين جميعا لكونه ادخل في التهويل والفاء لترتيب الاحوال الاخروية على الدنيوية ذكرا حسب ترتبها عليها وجودا اي لنسألن الامم القاطبة قائلين ماذا اجبتم المرسلين ولنسألن المرسلين عما اجيبوا قال تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا اجبتم و المراد بالسؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم والذي نفي بقوله تعالى ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون سؤال الاستعلام او الاول في موقف الحساب والثاني في موقف العقاب فلنقصن عليهم اي على الرسل حين يقولون لا علم لنا انك انت علام الغيوب او عليهم وعلى المرسل اليهم جميعا ما كانوا عليه بعلم اي عالمين بظواهرهم وبواطنهم او بمعلومنا منهم وما كنا غائبين عنهم في حال من الاحوال فيخفى علينا شيء من اعمالهم واحوالهم والجملة تذييل مقرر لما قبلها والوزن اي وزن الاعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها وجيدها ورديها ورفعه على الابتداء وقوله تعالى يومئذ خبره وقوله تعالى الحق صفته اي والوزن الحق ثابت يوم اذ يكون السؤال والقص وقيل خبر مبتدأ محذوف كانه قيل ما ذلك الوزن فقيل الحق اي العدل السوي وقرئ القسط واختلف في كيفية الوزن والجمهور على ان صحايف الاعمال هي التي توزن بميزان له لسان وكفتان ينظر اليه الخلائق اظهارا للمعدلة وقطعا للمعذرة كما يسألهم عن اعمالهم فيعترفون بها السنتهم وجوارحهم وتشهد عليهم الانبياء والملائكة والاشهاد وكما يثبت في صحايفهم فيقرؤنها في موقف الحساب ويؤيده ما روي ان الرجل يؤتى به الى الميزان فينشر له تسعة و تسعون سجلا مد البصر فيخرج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فتطيش السجلات وتثقل البطاقة وقيل يوزن الاشخاص لما روي عنه عليه السلام انه ليأتي العظيم السمين يوم القيمة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقيل الوزن عبارة عن القضاء السوي والحكم العادل وبه قال مجاهد والاعمش والضحاك واختاره كثير من المتاخرين بناء على ان استعمال لفظ الوزن في هذا المعنى شايع في اللغة والعرف بطريق الكناية قالوا ان الميزان يراد به التوصل الى معرفة مقادير اعمال العباد ولا يمكن اظهارها بذلك لانه اعراض قد فنيت وعلى تقدير بقائها لا يقبل الوزن وقيل ان الاعمال الظاهرة في هذه النشأة بصور عرضية تبرز في النشأة الاخرة بصور جوهرية مناسبة لها في الحسن والقبح حتى ان الذنوب والمعاصي تتجسم هناك وتتصور بصورة النار وعلى ذلك حمل قوله تعالى وان جهنم لمحيطة بالكافرين و قوله تعالى الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وكذا قوله عم في حق من يشرب من اناء الذهب والفضة انما يجرجر في بطنه نار جهنم ولا بعد في ذلك الا يرى ان العلم يظهر في عالم المثال على صورة اللبن كما لا يخفى على من له خبرة باحوال الحضرات الخمس وقد روي عن ابن عباس انه يؤتى بالاعمال الصالحة على صورة حسنة وبالاعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان ان قيل ان المكلف يوم القيمة اما مؤمن بانه تعالى حكيم منزه عن الجور فيكفيه حكمه تعالى بكيفيات الاعمال وكمياتها واما منكر له فلا يسلم حينئذ ان رجحان بعض الاعمال على بعض لخصوصيات راجعة الى ذوات تلك الاعمال بل يسنده الى اظهار الله اياه على ذلك الوجه فما الفائدة في الوزن اجيب بانه ينكشف الحال يومئذ ويظهر جميع الاشياء بحقايقها على ما هي عليه وباوصافها واحوالها في انفسها من الحسن والقبح وغير ذلك وتنخلع عن الصور المستعارة التي بها ظهرت في الدنيا ولا يبقى لاحد ممن يشاهدها شبهة في انها هي التي كانت في الدنيا بعينها وان كل واحد

بدل الاشخاص

منها

منها قد ظهر في هذه النشأة بصورته الحقيقية المستتبعة لصفاته ولا يخطر بباله خلاف ذلك والله تعالى اعلم فمن ثقلت موازينه تفصيل للاحكام المترتبة على الوزن والموازين اما جمع ميزان او جمع موزون على ان المراد به ما له وزن وقدر وهو الحسنات فان رجحان احدها مستلزم لرجحان الاخرى فمن رجحت موازينه التي توزن بها حسناته او اعماله التي لها قدر ووزن وعن الحسن البصري وحق لميزان توضع فيه الحسنات ان يثقل وحق لميزان توضع فيه السيئات ان يخف فاولئك اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بثقل الميزان والجمعية باعتبار معناه كما ان جمع الموازين لذلك واما ضمير موازينه فراجع اليه باعتبار لفظه وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل والشرف هم المفلحون الفائزون بالنجاة والثواب وهم اما ضمير فصل يفصل بين الخبر والصفة ويؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسند بالمسند اليه او مبتدأ خبره المفلحون والجملة خبر لاولئك وتعريف المفلحون للدلالة على انهم الناس الذين بلغك انهم مفلحون في الاخرة او اشارة الى ما يعرفه كل احد من حقيقة المفلحين وخصايصهم ومن خفت موازينه اي موازين اعماله او اعماله التي لا وزن لها ولا اعتداد بها وهي اعماله السيئة فاولئك اشارة اليهم باعتبار اتصافهم بتلك الصفة القبيحة والجمعية ومعنى البعد لما مر انفا في نظيره و هو مبتدأ خبره الذين خسروا انفسهم اي ضيعوا الفطرة السليمة التي فطروا عليها وقد ايدت بالايات البينة وقوله تعالى بما كانوا باياتنا يظلمون متعلق بخسروا و ما مصدرية وباياتنا متعلق بيظلمون على تضمين معنى التكذيب وتقديمه عليه لمراعاة الفواصل والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار الظلم في الدنيا اي فاولئك الموصوفون بخفة الموازين الذين خسروا انفسهم بسبب تكذيبهم المستمر باياتنا ظالمين ولقد مكناكم في الارض لما امر الله سبحانه اهل مكة باتباع ما اليهم ونهاهم عن اتباع غيره وبين لهم وخامة عاقبته بالاهلاك في الدنيا والعذاب المخلد في الاخرة ذكرهم ما افاض عليهم من فنون النعم الموجبة للشكر ترغيبا في الامتثال بالامر والنهي اثر ترهيب اي جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا او ملكناكم فيها واقدرناكم على التصرف فيها وجعلنا لكم فيها معايش المعايش جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها او ما يتوصل به الى ذلك والوجه في قراءته اخلاص الياء وعن ابن عامر انه همزه تشبيها له بصحايف ومداين والجعل بمعنى الانشاء والابداع اي انشانا وابدعنا لمصالحكم ومنافعكم فيها اسبابا يعيشون بها وكل واحد من الظرفين متعلق به او بمحذوف وقع حالا من مفعوله المنكر اذ لو تاخر لكان صفة له وتقديمهما على المفعول مع ان حقهما التاخر عنه لما مر غير مرة من الاعتناء بشان المقدم والتشويق الى المؤخر فان النفس عند تاخير ما حقه التقديم لا سيما عند كون المقدم منبئا عن منفعة للسامع تبقى مترقبة لوروده المؤخر فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن واما تقديم اللام على في فلما انه المنبئ عما ذكر من المنفعة فالاعتناء بشانه اتم والمسارعة الى ذكره اهم هذا وقد قيل ان الجعل متعد الى مفعولين ثانيهما احد الظرفين على انه مستقر قدم على الاول والظرف الاخر اما لغو متعلق بالجعل او بالمحذوف الواقع حالا من المفعول الاول كما مر وانت خبير بانه لا افادة يعتد بها في الاخبار بجعل المعايش حاصلة لهم او حاصلة في الارض وقوله تعالى قليلا ما تشكرون اي تلك النعمة تذييل مسوق لبيان سوء حال المخاطبين وتحذيرهم وبقية الكلام فيه عين ما مر في تفسير قوله تعالى قليلا ما تذكرون ولقد خلقناكم ثم صورناكم تذكير لنعمة عظيمة فائضة على ادم عليه السلام سارية الى ذريته موجبة لشكرهم كافة وتاخيره عن تذكير ما وقع بعده من نعمة التمكين في الارض اما لانها فائضة على المخاطبين بالذات وهذه بالواسطة واما للايذان بان كلا منهما نعمة مستقلة مستوجبة للشكر على حيالها فان رعاية الترتيب الوقوعي ربما يؤدي الى توهم عد

الكلام واحدة كما ذكر في قصة البقرة وتصدير الجملتين بالقسم وحرف التحقيق لإظهار
كمال العناية بمضمونها وإنما نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين مع أن المراد بهما خلق
آدم عليه السلام وتصويره حتماً توفية لمقام الامتنان حقه وتأكيداً لوجوب الشكر
عليهم بالرمز إلى أن لهم حظاً من خلقه عليه السلام وتصويره لما أنهما ليسا من
الخصائص المقصورة عليه عليه السلام كسجود الملائكة له عليه السلام بل من الأمور
السارية إلى ذريته جميعاً إذ الكل مخلوق في ضمن خلقه على نمطه ومصنوع على شاكلته
فكأنهم الذي تعلق به خلقه وتصويره أي خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور ثم
صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم سارٍ إليكم جميعاً ثم قلنا للملائكة اسجدوا
لآدم صريح في أنه ورد بعد خلقه عليه السلام وتسويته ونفخ الروح فيه أمر
منجز غير الأمر المعلق الوارد قبل ذلك بقوله تعالى فإذا سويته ونفخت فيه من روحي
فقعوا له ساجدين وهو المراد بما حكي بقوله تعالى وإذ قلنا للملائكة فاسجدوا
لآدم الآية في سورة البقرة وسورة بني إسرائيل وسورة الكهف وسورة طه من غير
تعرض لوقته وكلمة ثم ههنا يقتضي تراخيه عن التصوير من غير تعرض لبيان ما
جرى بينهما من الأمور وقد بينا في سورة البقرة أن ذلك ظهور فضل آدم عم
بعد المحاورة المسبوقة بالإخبار باستخلافه عليه السلام حسبما نطق به قوله
عز وجل وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة إلى قوله وما كنتم تكتمون
فإن ذلك أيضاً من جملة ما نيط به الأمر المعلق من التسوية ونفخ الروح وعدم
ذكره عند الحكاية لا يقتضي عدم ذكره عند وقوع المحكي كما أن عدم ذكر الأمر
المعلق عند حكاية الأمر المنجز لا يستلزم عدم مسبوقيته به فإن حكاية كلام واحد
على أساليب مختلفة يقتضيها المقام ليست بعزيزة في الكلام العزيز فلعله ألقي إلى الملائكة عليهم
السلام أولاً جميع ما يتوقف عليه الأمر المنجز إجمالاً بأن قيل مثلاً إني خالق بشراً من كذا
وكذا وجاعل إياه خليفة في الأرض فإذا سويته ونفخت فيه من روحي وتبين لكم فضله فقعوا
له ساجدين فخلقه فسواه ونفخ فيه من روحه فقالوا عند ذلك ما قالوا أو ألقي إليهم
خبر الخلافة بعد تحقق الشرائط المذكورة بأن قيل إثر نفخ الروح إني جاعل هذا خليفة في
الأرض فهنالك ذكروا في حقه عليه السلام ما ذكروا فأيده الله تعالى بتعليم الأسماء
فشاهدوا منه عليه السلام ما شاهدوا فعند ذلك ورد الأمر المنجز اعتناء بشأن
المأمور به وإيذاناً بوقته وقد حكى بعض الأمور المذكورة في بعض المواطن وبعضها
في بعضها اكتفاء بما ذكر في كل موطن عما ترك في موطن آخر والذي يرفع غشاوة الاشتباه
عن بصائر السليمة أن ما في سورة ص من قوله تعالى إذ قال للملائكة الآيات بدل من
قوله إذ يختصمون فيما قبله من قوله ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون
أي بكلامهم عند اختصامهم ولا ريب في أن المراد بالملأ الأعلى الملائكة وآدم عليهم
السلام وإبليس حسبما أطبق عليه جمهور المفسرين وباختصامهم ما جرى بينهم في
شأن الخلافة من التقاول والذي من جملته ما صدر عنه عليه السلام من الإنباء
بالأسماء ومن قضية البدلية وقوع الاختصام المذكور في تضاعيف ما شرح فيه
مفصلاً من الأمر المعلق وما علق به من الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه وما ترتب
عليه من سجود الملائكة وعناد إبليس ولعنه وإخراجه من بين الملائكة وما جرى بعده من
الأفعال والأقوال وإذ ليس تمام الاختصام بعد سجود الملائكة ومكابرة إبليس وطرده
من البين لما عرفت من أنه أحد المختصمين كما أنه ليس قبل الخلق ضرورة فإذن هو بعد
نفخ الروح وقبل السجود بأحد الطريقين المذكورين والله تعالى أعلم فسجدوا
أي الملائكة عليهم السلام بعد الأمر من غير تلعثم إلا إبليس استثناء متصل لما أنه
كان جنياً مفرداً مغموراً بألوف من الملائكة متصفاً بصفاتهم فغلبوا عليه في
فسجدوا ثم استثني استثناء واحد منهم أو لأن من الملائكة جنساً يتوالدون يقال
لهم الجن كما مر في سورة البقرة فقوله تعالى لم يكن من الساجدين أي ممن سجد

لآدم

لآدم كلام مستأنف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء فإن عدم السجود
قد يكون للتأمل ثم يقع السجود وبه علم أنه لم يقع قط وقيل منقطع فحينئذ
يكون متصلاً بما بعده أي لكن إبليس لم يكن من الساجدين قال استئناف مسوق
للجواب عن سؤال نشأ من حكاية عدم سجوده كأنه قيل فماذا قال الله تعالى حينئذ
وبه يظهر وجه الالتفات إلى الغيبة إذ لا وجه لتقدير السؤال على وجه المخاطبة وفيه
فائدة أخرى هي الإشعار بعدم تعلق المحكي بالمخاطبين كما في حكاية الخلق والتصوير
ما منعك أن لا تسجد أي أن تسجد كما وقع في سورة ص ولا مزيدة مؤكدة لمعنى
الفعل الذي دخلت عليه كما في قوله تعالى لئلا يعلم أهل الكتاب منبهة على أن الموبخ عليه
ترك السجود وقيل الممنوع عن الشيء مصروف إلى خلافه فالمعنى ما صرفك إلى أن لا
تسجد إذ أمرتك قيل فيه دلالة على أن مطلق الأمر للوجوب والفور وفي سورة
الحجر يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين وفي سورة ص ما منعك أن تسجد
لما خلقت بيدي واختلاف العبارة عند الحكاية يدل على أن اللعين قد أدمج في
معصية واحدة ثلاث معاص مخالفة الأمر ومفارقة الجماعة والإباء عن الانتظام في سلك
أولئك المقربين والاستكبار مع تحقير آدم عليه السلام وقد وبخ حينئذ على كل واحدة
منها لكن اقتصر عند الحكاية في كل موطن على ما ذكر فيه اكتفاء بما ذكر في موطن آخر
وإشعاراً بأن كل واحدة منها كافية في التوبيخ وإظهار بطلان ما ارتكبه وقد تركت
حكاية التوبيخ رأساً في سورة البقرة وسورة بني إسرائيل وسورة الكهف وسورة
طه قال استئناف كما سبق مبني على سؤال نشأ من حكاية التوبيخ كأنه قيل فماذا
قال اللعين عند ذلك فقيل قال أنا خير منه متجانفاً عن تطبيق جوابه على السؤال
بأن يقول منعني كذا مدعياً لنفسه بطريق الاستئناف شيئاً بين الاستلزام لمنعه من
السجود على زعمه مشعراً بأن من شأنه هذا لا يحسن أن يسجد لمن دونه فكيف
يحسن أن يؤمر به كما ينبئ عنه ما في سورة الحجر من قوله لم أكن لأسجد لبشر خلقته
من صلصال من حمإ مسنون فهو أول من أسس بنيان التكبر واخترع القول بالحسن
والقبح العقليين وقوله تعالى خلقتني من نار وخلقته من طين تعليل لما ادعاه من
فضله عليه ولقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر وزل
عنه ما من جهة الفاعل كما أنبأ عنه قوله تعالى ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي
أي بغير واسطة على وجه الاعتناء به وما من جهة الصورة كما نبه عليه بقوله
تعالى ونفخت فيه من روحي وما من جهة الغاية وهو ملاك الأمر ولذلك أمر الملائكة
بسجوده عليهم السلام حين ظهر لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة
في الأرض وأن له خواص ليست لغيره وفي الآية دليل على الكون والفساد وأن
الشياطين أجسام كائنة ولعل إضافة خلق البشر إلى الطين والشياطين إلى النار
باعتبار الجزء الغالب قال استئناف كما سلف والفاء في قوله تعالى فاهبط منها
لترتيب الأمر على ما ظهر من اللعين من مخالفة الأمر وتعليله بالأباطيل وإصراره
على ذلك أي فاهبط من الجنة والإضمار قبل ذكرها لشهرة كونه من سكانها قال
ابن عباس رضي الله عنهما كانوا في عدن لا في جنة الخلد وقيل من زمرة الملائكة
المعززين فإن الخروج من زمرتهم هبوط وأي هبوط وفي سورة الحجر فاخرج منها
وأما ما قيل من أن المراد الهبوط من السماء فيرده أن وسوسته لآدم عليه السلام
وكانت بعد هذا الطرد فلا بد أن يحمل على أحد الوجهين قطعاً ويكون وسوسته على
الوجه الأول بطريق النداء من باب الجنة كما روي عن الحسن البصري وقوله تعالى
فما يكون لك أي فما يصح ولا يستقيم لك ولا يليق بشأنك أن تتكبر فيها أي في
الجنة أو في زمرة الملائكة تعليل للأمر بالهبوط فإن عدم صحة أن يتكبر فيها علة للأمر
المذكور فإنها مكان المطيعين الخاشعين ولا دلالة فيه على جواز التكبر في غيرها
وفيه تنبيه على أن التكبر لا يليق بأهل الجنة وأنه تعالى إنما طرده لتكبره لا لمجرد عصيانه

وقوله تعالى فاخرج تأكيد للامر بالهبوط متفرع على علته وقوله تعالى انك من الصاغرين
تعليل بالامر بالخروج مشعر بانه لتكبره اى من الاذلاء واهل الهوان على الله تعالى وعلى
اوليائه لتكبرك وعن عمر رضي الله عنه من تواضع لله رفع الله حكمته وقال انتعش نعشك الله
ومن تكبر وعدا طوره وهصه الله الى الارض قال استئناف كما مر مبنى على سؤال نشأ
مما قبله كانه قيل فماذا قال اللعين بعد ما سمع هذا الطرد المؤكد فقيل قال انظرني اى
امهلنى ولا تمتنى الى يوم يبعثون اى ادم وذريته للجزاء بعد فنائهم وهو وقت
النفخة الثانية واراد اللعين بذلك ان يجد فسحة من اغوائهم ويأخذ منهم ثاره
وينجو من الموت لاستحالته بعد البعث قال استئناف كما سلف انك من المنظرين
ورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ما سأله لآخرين على وجه يشعر بان السائل
تبع لهم في ذلك صريح في انه اخبار بالانظار المقدر لهم ازلا لا انشاء لانظار خاص به اجابة
لدعائه وان استنظاره كان طلبا لتأخير الموت اذ به يتحقق كونه من جملتهم لا لتأخير
العقوبة كما قيل اى انك من جملة الذين اخرت آجالهم ازلا حسبما يقتضيه الحكمة التكوينية
الى وقت فناء غير ما استثناه الله تعالى من الخلائق وهو النفخة الاولى لا الى وقت البعث
الذي هو المسؤل وقد ترك التوقيت للايجاز ثقة بما وقع في سورة الحجر وسورة ص
كما ترك ذكر النداء والفاء في الاستنظار والانظار تعويلا على ما ذكر فيهما بقوله عز
وجل رب فانظرني الى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم
وفي انظاره ابتلاء للعباد وتعريض للثواب ان قلت لا ريب في ان الكلام المحكى له
عند صدوره عن المتكلم حالة مخصوصة يقتضي وروده على وجه خاص من وجوه
النظم بحيث اخل بشيء من ذلك سقط الكلام عن رتبة البلاغة البتة فالكلام الواحد
المحكى على وجوه شتى ان اقتضى الحال وروده على وجه معين من تلك الوجوه الواردة
عند الحكاية فذلك الوجه هو المطابق لمقتضى الحال والبالغ الى رتبة البلاغة دون
ما عداه من الوجوه اذا تمهد هذا فنقول لا يخفى ان استنظار اللعين انما صدر عنه
مرة واحدة لا غير ومقامه ان اقتضى اظهار الضراعة وترتيب الانظار على ما حاق به من اللعن
والطرد على نهج استدعاء الجبر في مقابلة الكسر كما هو المتبادر من قوله رب فانظرني فحسبما
حكي عنه في السورتين فما حكي ههنا يكون بمعزل من المطابقة لمقتضى الحال فضلا عن
العروج الى معارج الاعجاز قلنا مقام استنظاره مقتض لما ذكر من اظهار الضراعة
وترتيب الانتظار على الحرمان المدلول عليه بالطرد والرجم وكذا مقام الانظار مقتض لترتيب
الاخبار بالانظار على الاستنظار وقد طبق الكلام عليه في تينك السورتين ووفي كل واحد
من مقامي الحكاية والمحكى جميعا حظه واما ههنا فحيث اقتضى مقام الحكاية مجرد الاخبار
بالاستنظار والانظار سيقت الحكاية على نهج الايجاز والاختصار من غير تعرض
لبيان كيفية كل منهما عند المخاطبة والحوار قلت فاذن لا يكون ذلك نقلا للكلام
على ما هو عليه ولا مطابقا لمقتضى المقام قلنا الذي يجب اعتباره في نقل الكلام
انما هو اصل معناه ونفس مدلوله الذي يفيده واما كيفية افادته له فليس مما يجب
مراعاته عند النقل البتة بل قد تراعى حسب اقتضاء المقام ولا يقدح في اصل الكلام تجريده
عنها بل قد يراعى عند نقله كيفيات وخصوصيات لم يراعها المتكلم اصلا ولا يخل ذلك بكون
المنقول اصل المعنى الا ترى ان جميع المقالات المنقولة في القرآن الكريم انما يحكى بكيفيات و
اعتبارات لا يكاد يقدر على مراعاتها من تكلم بها حتما والا لامكن صدور الكلام المعجز عن
البشر فيما اذا كان المحكى كلاما واما عدم مطابقته لمقتضى الحال فمنشاه الغفلة
عما يجب توفير مقتضاه من الاحوال فان ملاك الامر هو مقام الحكاية واما مقام
وقوع المحكى فان كان مقتضاه موافقا لمقتضى مقام الحكاية يوفى كل واحد من
المقامين حقه كما في سورة الحجر وسورة ص فان مقام الحكاية فيهما لما كان مقتضيا لبسط
الكلام وتفصيله على الكيفيات التي وقع عليها روعي حق المقامين معا واما في هذه السورة الكريمة
فحيث اقتضى مقام الحكاية الايجاز روعي جانبه الا ترى ان المخاطب المنكر اذا كان ممن

لا يفهم

لا يفهم الا اصل المعنى وجب على المتكلم ان يجرد كلامه عن التأكيد وسائر الخواص والمزايا
التي تقتضيها المقام ويخاطبه بما يناسبه من الوجوه لكنه مع ذلك يجب ان يقصد معنى
زائدا يفهمه مع آخر بليغ هو تجريده عن الخواص رعاية حال المخاطب في الفهم وبذلك
يرتقي كلامه عن رتبة اصوات الحيوانات كما حقق في مقامه فاذا وجب مراعاة مقام
الحكاية مع افضائها الى تجريد الكلام عن الخواص والمزايا بالمرة فما ظنك بوجوب
مراعاته مع تحلية الكلام بمزايا اخر يرتقي بها الى رتبة الاعجاز لا سيما اذا وفي حق
مقام وقوع المحكى في السورتين الكريمتين وكان هذا الايجاز مبنيا عليه وثقة به
قال استئناف كما مر فبما اغويتني الباء للقسم كما في قوله تعالى فبعزتك
لاغوينهم فان اغواءه تعالى اياه اثر من آثار قدرته وعزته وحكم من احكام
سلطانه تعالى فمآل الاقسام بهما واحد فلعل اللعين اقسم بهما جميعا فحكى تارة
قسمه باحدهما واخرى بالآخر والفاء لترتيب مضمون الجملة على الانظار وما مصدرية
اى فاقسم باغوائك اياى لاقعدن لهم او للسببية على ان الباء متعلقة بفعل
القسم المحذوف لا بقوله لاقعدن لهم كما في الوجه الاول فان اللام تصد عن
ذلك اى فبسبب اغوائك اياى لاجلهم اقسم بعزتك لاقعدن لآدم وذريته ترصدا بهم
كما يقعد القطاع للقطع على السابلة صراطك المستقيم الموصل الى الجنة وهو دين
الاسلام فالقعود مجاز متفرع على الكناية وانتصابه على الظرفية كما في قوله كما
عسل الطريق الثعلب وقيل على نزع الجار تقديره على صراطك كقولهم ضرب زيد الظهر والبطن
ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم اى من الجهات
الاربع التي يعتاد هجوم العدو منها مثل قصده اياهم للتسويل والاضلال من اى وجه
يتيسر باتيان العدو من الجهات الاربع ولذلك لم يذكر الفوق والتحت وعن ابن عباس من بين
ايديهم من قبل الآخرة ومن خلفهم من جهة الدنيا وعن ايمانهم وعن شمائلهم
من جهة حسناتهم وسيئاتهم وقيل من بين ايديهم من حيث يعلمون ويقدرون على
التحرز عنه ومن خلفهم من حيث لا يعلمون ولا يقدرون وعن ايمانهم وعن
شمائلهم من حيث يتيسر لهم ان يعلموا ويتحرزوا ولكن لم يفعلوا لعدم تيقظهم
واحتيارهم ومن حيث لا يتيسر لهم ذلك وانما عدى الفعل الى الاولين بحرف
الابتداء لانه منهما متوجه اليهم والى الآخرين بحرف المجاوزة فان الآتي منهما كالمنحرف
المتجافي عنهم المار على عرضهم ونظيره جلست عن يمينه ولا تجد اكثرهم شاكرين
اى مطيعين وانما قاله ظنا لقوله تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه لما رأى منهم
مبدأ الشر متعددا ومبدأ الخير واحدا وقيل سمعه من الملائكة عليهم السلام
قال استئناف كما سلف مرارا اخرج منها اى من الجنة او من السماء او من بين
الملائكة عليهم السلام مذؤما اى مذموما من ذامه اذا ذمه وقرئ مذوما
كمسول في مسؤل او كمكول في مكيل من ذامه يذيمه ذيما مدحورا مطرودا لمن
تبعك منهم اللام موطئة للقسم وجوابه لاملأن جهنم منكم اجمعين وهو
ساد مسد الشرط وقرئ لمن تبعك بكسر اللام على انه خبر لاملأن على معنى لمن تبعك
هذا الوعيد او علة لاخرج ولاملأن جواب قسم محذوف ومعنى منكم منك ومنهم
على تغليب المخاطب ويا آدم اى وقلنا كما وقع في سورة البقرة وتصدير الكلام بالنداء
للتنبيه على الاهتمام بتلقي المأمور به وتخصيص الخطاب به عليه السلام للايذان باصالته
في تلقي الوحي وتعاطي المأمور به اسكن انت وزوجك الجنة هو من السكنى الذي
هو عبارة عن اللبث والاستقرار والاقامة لا من السكون الذي هو ضد الحركة وانت
ضمير اكد به المستكن في اسكن ليصح العطف عليه والفاء في قوله تعالى فكلا من حيث شئتما
لبيان المراد مما في سورة البقرة من قوله تعالى وكلا منها رغدا حيث شئتما من ان ذلك كان جمعا مع
الترتيب وقوله تعالى من حيث شئتما في معنى منها حيث شئتما ولم يذكر ههنا رغدا ثقة بما ذكر هناك
وتوجيه الخطاب اليهما لتعميم التشريف والايذان بتساويهما في مباشرة المأمور به فان

حوا اسوة له عليه السلام فى حق الاكل بخلاف السكنى فانها تابعة له فيه ولتعليق النهى بهما
صريحًا فى قوله تعالى ولاتقربا هذه الشجرة وقرئ هذى وهو الاصل لتصغيره على ذياد و الهاء
بدل من اليآء فتكونا من الظالمين اما جزم على العطف او نصب على الجواب فوسوس
لهما الشيطان اى فعل الوسوسة لاجلهما او تكلم لهما كلامًا خفيًا متداركًا متكررًا
وهى فى الاصل الصوت الخفى كالهينمة والخشخشة ومنه وسوس الحلى وقد سبق
بيان كيفية وسوسته فى سورة البقرة ليبدى لهما اى ليظهر لهما واللام للعاقبة
او للغرض على انه اراد بوسوسته ان يسوءهما بانكشاف عورتيهما ولذلك عبّر عنهما بالسوءة
وفيه دليل على ان كشف العورة فى الخلوة وعند الزوج من غير حاجة قبيح مستهجن
فى الطباع ما ورى عنهما من سوآتهما ما غطى وستر عنهما من عوراتهما وكانا
لا يريانها من انفسهما ولا احدهما من الاخر وانما لم يقلب الواو المضمومة همزة فى المشهورة
كما قلبت فى اويصل تصغير واصل لان الثانية مدة وقرئ سوّتهما بحذف الهمزة والقاء
حركتها على الواو وبقلبها واوًا وادغام الواو الساكنة فيها وقال عطف على وسوس
بطريق البيان ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة اى عن اكلها الا ان تكونا ملكين
اى الا كراهة ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين الذين لا يموتون او يخلدون
فى الجنة وليس فيه دلالة على افضلية الملئكة لما ان المعلومات الحقائق لا ينقلب وانما
كانت رغبتهما فى ان يحصل لهما اوصاف الملئكة من الكمالات الفطرية والاستغناء عن
الاطعمة والاشربة وذلك بمعزل من الدلالة على الافضلية بالمعنى المتنازع فيه و
قاسمهما انى لكما لمن الناصحين اى اقسم لهما وصيغة المبالغة للمبالغة وقيل
اقسما له بالقبول وقيل قالا له اتقسم بالله انك لمن الناصحين واقسم لهما فجعل ذلك
مقاسمة فدلاهما فنزلهما على الاكل من الشجرة وفيه تنبيه على انه اهبطهما بذلك
من درجة عالية فان التدلية والادلاء ارسال الشئ من الاعلى الى الاسفل بغرور
بما غرهما به من القسم فانهما ظنا ان احدًا لا يقسم بالله كاذبًا او ملتبسين بغرور
فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما اى فلما وجدا طعمها آخذين فى الاكل منها اخذتهما
العقوبة وشوم المعصية فتهافت عنهما لباسهما وظهرت لهما عوراتهما و
اختلف فى ان الشجرة كانت السنبلة او الكرم او غيرهما وان اللباس كان نورًا او
ظفرًا وطفقا يخصفان طفق من افعال الشروع والتلبس كاخذ وجعل وانشأ وعلق
وهب وانبرى اى اخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة عليهما من ورق الجنة
قيل كان ذلك ورق التين وقرئ يخصفان من اخصف اى يخصفان انفسهما ويخصّفان
من التخصيف ويخصّفان اصله يختصفان وناداهما ربهما مالكًا امرهما
بطريق العتاب والتوبيخ الم انهكما وهو تفسير للنداء فلا محل له من الاعراب
او معمول لقول محذوف اى وقال او قائلًا الم انهكما عن تلكما الشجرة ما فى
اسم الاشارة من معنى البعد لما انه اشارة الى الشجرة التى نهى عن قربانها واقل لكما عطف
على انهكما اى الم اقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين وهذا عتاب وتوبيخ على الاغترار
بقول العدو كما ان الاول عتاب على مخالفة النهى قيل فيه دليل على ان مطلق النهى للتحريم
ولكما متعلق بعدو لما فيه من معنى الفعل او بمحذوف هو حال من عدو ولم يحك
هذا القول ههنا وقد حكى فى سورة طه بقوله تعالى ان هذا عدو لك ولزوجك الاية
روى انه تعالى قال لادم الم تكن فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة قال
بلى وعزتك ولكن ما ظننت ان احدًا من خلقك يحلف بك كاذبًا قال فبعزتى لاهبطنك
الى الارض ثم لا تنال العيش الا كدًا فاهبط وعلم صنعة الحديد وامر بالحرث فحرث وسقى
وحصد وداس وذرى وعجن وخبز قالا ربنا ظلمنا انفسنا اى ضررناها بالمعصية
والتعرض للاخراج من الجنة وان لم تغفر لنا ذلك وترحمنا لنكونن من الخاسرين
وهو دليل على ان الصغاير معاقب عليها ان لم تغفر وقالت المعتزلة لا يجوز المعاقبة
عليها مع اجتناب الكباير ولذلك حملوا قولهما ذلك على عادات المقربين فى استعظام

الصغير من السيئات واستصغار العظيم من الحسنات قال استيناف كما مر مرارًا اهبطوا
خطاب لآدم وحوا وذريتهما او لهما ولابليس كرر الامر لهما تبعًا له ليعلم انهما قرناء ابدًا
او اخبر عما قال لهم مفرقًا كما فى قوله تعالى يا ايها الرسل كلوا من الطيبات ولم يذكر ههنا
قبول فى توبتهما ثقة بما ذكر فى ساير المواضع بعضكم لبعض عدو جملة حالية من فاعل
اهبطوا اى متعادين ولكم فى الارض مستقر اى استقرار او موضع استقرار ومتاع
اى تمتع وانتفاع الى حين هو حين انقضاء آجالكم قال اعيد الاستيناف اما
للايذان ببعد ما بينهما كما فى قوله تعالى قال فما خطبكم ايها المرسلون
اثر قوله تعالى قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون وقوله تعالى قال ارايتك هذا الذى
كرمت على بعد قوله تعالى قال ااسجد لمن خلقت طينًا واما لاظهار الاعتناء
بمضمون ما بعده من قوله تعالى فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون اى للجزاء
كقوله تعالى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى يا بنى آدم
خطاب للناس كافة وايرادهم بهذا العنوان مما لا يخفى سره قد انزلنا عليكم لباسًا
اى خلقناه لكم بتدبيرات سماوية واسباب نازلة منها ونظيره وانزل لكم
من الانعام الخ وقوله تعالى وانزلنا الحديد يوارى سوآتكم التى قصد ابليس ابداءها
من ابويكم حتى اضطرا الى خصف الاوراق وانتم مستغنون عن ذلك وروى
ان العرب كانوا يطوفون بالبيت عريانًا ويقولون لا نطوف بثياب عصينا الله فيها
فنزلت ولعل ذكر قصة آدم حينئذ للايذان بان انكشاف العورة اول سوء اصاب
الانسان من قبل الشيطان وانه اغواهم فى ذلك كما اغوى ابويهم وريشًا ولباسًا
تتجملون به والريش الجمال وقيل مالا ومنه تريش الرجل اى تمول وقرئ رياشًا وهو
جمع ريش كشعب وشعاب ولباس التقوى اى خشية الله تعالى وقيل الايمان وقيل
السمت الحسن وقيل لباس الحرب ورفعه بالابتداء خبره جملة ذلك خير او خبر وذلك صفة
كانه قيل ولباس التقوى المشار اليه خير وقرئ ولباس التقوى بالنصب عطفًا على لباسًا
ذلك اى انزال اللباس من آيات الله الدالة على عظيم فضله وعميم رحمته لعلهم
يذكرون فيعرفون نعمته او يتعظون فيتورعون عن القبايح يا بنى آدم تكرير النداء للايذان
بكمال الاعتناء بمضمون ما صدر به وايرادهم بهذا العنوان مما لا يخفى سببه لا
يفتننكم الشيطان اى لا يوقعنكم فى الفتنة والمحنة بان يمنعكم من دخول الجنة
كما اخرج ابويكم من الجنة نعت لمصدر محذوف اى لا يفتننكم فتنة مثل اخراج ابويكم
وقد جوز ان يكون التقدير لا يخرجنكم بفتنته اخراجًا مثل اخراجه لابويكم والنهى
وان كان متوجهًا الى الشيطان لكنه فى الحقيقة متوجه الى المخاطبين كما فى قولك لا ارينك
ههنا وقد مر تحقيقه مرارًا ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما حال من ابويكم
او من فاعل اخرج واسناد النزع اليه للتسبب وصيغة المضارع لاستحضار الصورة و
قوله تعالى انه يراكم هو وقبيله اى جنوده وذريته استيناف لتعليل النهى و
تاكيد التحذير منه من حيث لا ترونهم من الابتداء غاية الرؤية وحيث ظرف
لمكان انتفاء الرؤية ولا ترونهم فى محل الجر باضافة الظرف اليه ورؤيتهم لنا من
حيث لا نراهم لا يقتضى امتناع رؤيتنا لهم مطلقًا واستحالة تمثلهم لنا انا جعلنا
الشياطين جعل قبيله من جملته بجمع اولياء للذين لا يؤمنون اى جعلناهم
بما اوجدنا بينهم من المناسبة او بارسالهم عليهم وتمكينهم من اغوائهم وحملهم
على ما سولوا لهم اولياء اى قرناء مسلطين عليهم والجملة تعليل آخر للنهى وتاكيد للتحذير
اثر تحذير واذا فعلوا فاحشة جملة مبتدأة لا محل لها من الاعراب وقد جوز عطفها
على الصلة والفاحشة الفعلة المتناهية فى القبح والتاء لانها مجراة على الموصوف المؤنث
او للنقل من الوصفية الى الاسمية والمراد بها عبادة الاصنام وكشف العورة فى الطواف
ونحوهما قالوا جوابًا للناهين عنها وجدنا عليها آباءنا والله امرنا بها محتجين
بامرين تقليد الاباء والافتراء على الله سبحانه ولعل تقديم المقدم للايذان منهم

بان اباءهم انما كانوا يفعلونها بامر الله تعالى بها على ان ضمير امرنا لهم ولابائهم تحينئذ
يظهر وجه الاعراض عن الاول في رد مقالتهم بقوله تعالى قل ان الله لا يامر بالفحشاء
فان عادته تعالى جارية على الامر بمحاسن الاعمال والحث على مراضي الخصال ولا
دلالة فيه على ان قبح بمعنى ترتب الذم عليه عاجلا والعقاب اجلا عقلي فان المراد
بالفاحشة ما ينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم وقيل هما جوابا
سؤالين مترتبين كانه قيل لما فعلوها لم فعلتم فقالوا وجدنا عليها اباءنا فقيل لم
فعلها اباؤكم فقالوا الله امرنا بها وعلى الوجهين يمنع التقليد اذا قام الدليل بخلافه لا
مطلقا اتقولون على الله ما لا تعلمون من تمام القول المامور به والهمزة لانكار
الواقع واستقباحه وتوجيه الانكار والتوبيخ الى قولهم عليه تعالى ما لا تعلمون
صدوره عنه تعالى مع ان بعضهم يعلمون عدم صدوره عنه تعالى مبالغة في انكار تلك
الصورة فان اسناد ما لم يعلم صدوره عنه اليه تعالى اذا كان منكرا فاسناد ما علم عدم
صدوره عنه اليه عز وجل اشد قبحا واحق بالانكار قل امر ربي بالقسط بيان للمامور
به اثر نفي ما اسند امره اليه تعالى من الامور المنهي عنها والقسط العدل وهو الوسط
من كل شيء المتجافي عن طرفي الافراط والتفريط واقيموا وجوهكم وتوجهوا الى
الى عبادته مستقيمين غير عادلين الى غيرها او اقيموا وجوهكم عند كل مسجد في كل
وقت سجود او مكان سجود وهو الصلاة او في اي مسجد حضرتكم الصلاة عنده
ولا تؤخروها حتى تعودوا الى مساجدكم وادعوه واعبدوه مخلصين له الدين
اي الطاعة فان مصيركم اليه بالآخرة كما بدأكم اي انشأكم ابتداء تعودون اليه
باعادته فيجازيكم على اعمالكم وانما شبه الاعادة بالابداء تقريرا لامكانها والقدرة عليها
وقيل كما بدأكم من التراب تعودون اليه وقيل كما بدأكم حفاة عراة غرلا تعودون اليه وقيل
كما بدأكم مؤمنا وكافرا يعيدكم فريقا هدى بان وفقهم للايمان وفريقا حق عليهم
الضلالة بمقتضى القضاء السابق التابع للمشيئة المبنية على الحكم البالغة وانتصابه بفعل
مضمر يفسره ما بعده اي خذل فريقا انهم اتخذوا الشياطين اولياء من دون الله تعليل
لخذلانه او تحقيق لضلالتهم ويحسبون انهم مهتدون فيه دلالة على ان
الكافر المخطئ والمعاند سواء في استحقاق الذم وللفارق ان يحمله على المقصر في النظر
يا بني ادم خذوا زينتكم اي ثيابكم لمواراة عورتكم عند كل مسجد اي طواف
او صلوة ومن السنة ان ياخذ الرجل احسن هيئة للصلوة وفيه دليل على وجوب
ستر العورة في الصلاة وكلوا واشربوا مما طاب لكم روي ان بني عامر كانوا في ايام
حجهم لا ياكلون الطعام الا قوتا ولا ياكلون دسما يعظمون بذلك حجتهم فهم المسلمون
بمثله فنزلت ولا تسرفوا بتحريم الحلال او بالتعدي الى الحرام او بالافراط في الطعام والشره
عليه وعن ابن عباس كل ما شئت والبس ما شئت ما اخطاتك خصلتان سرف ومخيلة وقال
علي بن الحسين بن واقد جمع الله الطب في نصف الآية فقال كلوا واشربوا ولا تسرفوا
انه لا يحب المسرفين اي لا يرتضي فعلهم قل من حرم زينة الله من الثياب وما يتجمل
به التي اخرج لعباده من النبات كالقطن والكتان والحيوان كالحرير والصوف والمعادن
كالدروع والطيبات من الرزق اي المستلذات من الماكل والمشارب وفيه دليل
على ان الاصل في المطاعم والملابس وانواع التجملات الاباحة لان الاستفهام في من
انكاري قل هي للذين امنوا في الحيوة الدنيا بالاصالة والكفرة وان شاركوهم فيها
فبالتبع خالصة يوم القيمة لا يشاركهم فيها غيرهم وانتصابها على الحالية
وقرئ بالرفع على انه خبر بعد خبر كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون اي مثل
هذا التفصيل نفصل سائر الاحكام لقوم يعلمون ما في تضاعيفها من المعاني الرائقة قل
انما حرم ربي الفواحش اي ما تفاحش قبحه من الذنوب وقيل ما يتعلق منها بالفروج
ما ظهر منها وما بطن بدل من الفواحش اي جهرها وسرها والاثم اي ما يوجب
الاثم وهو تعميم بعد تخصيص وقيل شرب الخمر والبغي اي الظلم او الكبر افرد بالذكر

للمبالغه

للمبالغة في الزجر عنه بغير الحق متعلق بالبغي مؤكد له معنى وان تشركوا بالله ما لم
ينزل به سلطانا تهكم بالمشركين وتنبيه على تحريم اتباع ما لا يدل عليه برهان
وان تقولوا على الله ما لا تعلمون بالالحاد في صفاته والافتراء عليه كقولهم والله امرنا
بها وتوجيه التحريم الى قولهم عليه تعالى ما لا يعلمون وقوعه لا ما يعلمون عدم وقوعه
وقد مر سره ولكل امة من الامم المهلكة اجل حد معين من الزمان مضروب
لمهلكهم فاذا جاء اجلهم ان جعل الضمير للامم المدلول عليها بكل امة فاظهار
الاجل مضاف اليه لافادة المعنى المقصود الذي هو بلوغ كل امة اجلها الخاص
بها ومجيئه اياها بواسطة اكتساب الاجل بالاضافة عموما يفيد معنى الجمعية كانه
قيل اذا جاءهم آجالهم بان يجيء كل واحدة من تلك الامم اجلها الخاص بها وان جعل
لكل امة خاصة كما هو الظاهر فالاظهار في موضع الاضمار لزيادة التقرير والاضافة
الى الضمير لافادة اكمل التمييز اذا جاءها اجلها الخاص بها لا يستاخرون عن ذلك
الاجل ساعة اي شيئا قليلا من الزمان فانها مثل في غاية القلة منه اي لا يتاخرون
اصلا وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم وحرمانهم عن ذلك مع طلبهم له
ولا يستقدمون اي ولا يتقدمون عليه وهو عطف على يستاخرون لكن لا لبيان
انتفاء التقدم مع امكانه في نفسه كالتاخر بل للمبالغة في انتفاء التاخر بنظمه في سلك
المستحيل عقلا كما في قوله سبحانه وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر
احدهم الموت قال اني تبت الان ولا الذين يموتون وهم كفار فان من مات كافرا
مع ظهور ان لا توبة له راسا قد نظم في عدم القبول في سلك من سوفها الى
حضور الموت ايذانا بتساوي وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرة وقيل المراد
بالمجيء الدنو بحيث يمكن التقدم في الجملة كمجيء اليوم الذي ضرب لهلاكهم ساعة فيه
وليس بذاك وتقديم بيان انتفاء الاستيخار لما ان المقصود بالذات بيان عدم خلاصهم
من العذاب واما ما في قوله تعالى من تسبق من امة اجلها وما يستاخرون من سبق
السبق في الذكر فلما ان المراد هناك بيان سر تاخير اهلاكهم مع استحقاقهم له
حسبما ينبئ عنه قوله تعالى ذرهم ياكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون فالاهم
هناك بيان انتفاء السبق يا بني ادم تلوين للخطاب وتوجيه له الى كافة الناس
اهتماما بشان ما في حيزه اما ياتينكم هي ان الشرطية ضمت اليها ما لتاكيد معنى
الشرط ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة او الخفيفة وفيه تنبيه على ان ارسال الرسل
امر جائز لا واجب عقلا رسل منكم الجار متعلق بمحذوف هو صفة لرسل اي كائنون
من جنسكم وقوله تعالى يقصون عليكم اياتي صفة اخرى لرسل اي يبينون لكم احكامي
وشرائعي وقوله تعالى فمن اتقى واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون جملة شرطية
وقعت جوابا للشرط اي فمن اتقى منكم التكذيب واصلح عمله فلا خوف الخ وكذا قوله تعالى
والذين كذبوا باياتنا واستكبروا عنها اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون
اي والذين كذبوا منكم وايراد الاتقاء في الاول للايذان بان مدار الفلاح ليس
مجرد عدم التكذيب بل هو الاتقاء والاجتناب عنه وادخال الفاء في الجزاء الاول دون
الثاني للمبالغة في الوعد والمسامحة في الوعيد فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا
او كذب باياته اي تقول عليه تعالى ما لم يقله او كذب ما قاله اي هو اظلم من كل ظالم
وقد مر تحقيقه مرارا اولئك اشارة الى الموصول والجمع باعتبار معناه كما ان
افراد الفعلين باعتبار لفظه وما فيه من معنى البعد للايذان بتماديهم في سوء
الحال اي اولئك الموصوفون بما ذكر من الافتراء والتكذيب ينالهم نصيبهم من الكتاب
اي مما كتب لهم من الارزاق والاعمار وقيل الكتاب اللوح اي ما اثبت لهم فيه
واياما كان فمن لابتداء الغاية متعلق بمحذوف وقع حالا من نصيبهم اي ينالهم نصيبهم
كائنا من الكتاب وقيل نصيبهم العذاب وسواد الوجه وزرقة العيون وعن ابن عباس
كتب لمن يفتري على الله سواد الوجه قال تعالى ويوم القيمة ترى الذين كذبوا على الله

وجوههم مسودة وقوله تعالى حتى اذا جاءتهم رسلنا اى ملك الموت واعوانه
يتوفونهم اى حال كونهم متوفين لارواحهم بوين الاول فان حتى وان كانت هى
التى تبتدأ بها الكلام لكنها غاية لما قبلها فلابد ان يكون نصيبهم مما يتمتعون بها الى حين
وفاتهم اى ينالهم نصيبهم من الكتاب الى ان تاتيهم ملئكة الموت فاذا جاءتهم
قالوا لهم اينما كنتم تدعون من دون الله اى اين الآلهة التى كنتم تعبدونها
فى الدنيا وما وقعت موصولة باين فى خط المصحف وحقها الفصل لانها موصولة
قالوا استيناف وقع جوابا عن نشاء من حكاية سؤال الرسل كانه قيل فماذا قالوا
عند ذلك فقيل قالوا ضلوا عنا اى غابوا عنا اى لاندرى مكانهم وشهدوا على
انفسهم عطف على قالوا اى اعترفوا على انفسهم انهم كانوا اى فى الدنيا كافرين
عابدين لما لا يستحق العبادة اصلا حيث شاهدوا حاله وضلاله ولعله اريد بوقت
مجئ الرسل وحال التوفى فى الزمان الممتد من ابتداء المجئ والتوفى الى انتهائه يوم
الجزاء بناء على تحقق المجئ والتوفى فى كل ذلك الزمان بقاء وان كان حدوثهما فى اوله فقط وقصد
بيان غاية سرعة وقوع البعث والجزاء كانهما حاصلان عند ابتداء التوفى كما ينبئ عنه قوله عم
من مات فقد قامت قيامته والا فهذا السؤال والجواب وما يترتب عليهما من الامر
بدخول النار وما جرى بين اهلها من التلاعن والتقاول انما يكون بعد البعث لا محالة قال
اى الله عز وجل يوم القيمة بالذات او بواسطة الملك ادخلوا فى امم قد خلت من قبلكم اى
كائنين من جملة امم مصاحبين لهم من الجن والانس يعنى كفار الامم الماضية من النوعين
فى النار متعلق بقوله ادخلوا كلما دخلت امة من الامم السالفة واللاحقة فيها
لعنت اختها التى ضلت بالاقتداء بها حتى اذا اداركوا فيها جميعا اى تداركوا وتلاحقوا
فى النار قالت اخراهم دخولا او منزلة وهم الاتباع لاولاهم اى لاجلهم
او الخطاب مع الله تعالى لا معهم ربنا هؤلاء اضلونا سنوا لنا الضلال فاتهم
فآتهم عذابا ضعفا اى مضاعفا من النار لانهم ضلوا واضلوا قال لكل ضعف
اما القادة فلما ذكر من الضلال والاضلال واما الاتباع فلكفرهم وتقليدهم ولكن
لا تعلمون اى ما لكم وما لكل فريق من العذاب وقرئ بالياء وقالت اولاهم اى
مخاطبين لاخراهم حين سمعوا جواب الله تعالى لهم فما كان لكم علينا من فضل
اى فقد ثبت ان لا فضل لكم علينا وانا واياكم متساوون فى الضلال واستحقاق
العذاب فذوقوا العذاب اى العذاب المعهود المضاعف بما كنتم تكسبون من
قول القادة ان الذين كذبوا باياتنا مع وضوحها واستكبروا عنها اى عن الايمان
بها والعمل بمقتضاها لا تفتح لهم ابواب السماء اى لا يقبل ادعيتهم ولا اعمالهم
او لا تعرج اليها ارواحهم كما هو شان ادعية المؤمنين واعمالهم وارواحهم والتاء فى
تفتح لتانيث الابواب والتشديد لكثرتها وقرئ بالتخفيف وبالتخفيف والياء وقرئ
على البناء للفاعل ونصب الابواب على ان الفعل للايات وبالياء على انه لله تعالى ولا
يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط اى يدخل ما هو مثل فى عظم الجرم
فيما هو علم فى ضيق المسلك وهو ثقبة الابرة وفى كون الجمل مما ليس من شانه الولوج
فى سم الابرة مبالغة فى الاستبعاد وقرئ الجمل كالقمل والجمل كالنغر والجمل كالقفل
والجمل كالنصب والجمل كالحبل وهو الحبل الغليظ من القنب وقيل حبل السفينة
وسم بالضم والكسر وقرئ فى سم المخيط وهو الخياط اى ما يخاط به كالحزام والمحزم
وكذلك اى ومثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى المجرمين اى جنس المجرمين وهم
داخلون فى زمرتهم دخولا اوليا لهم من جهنم مهاد اى فراش من تحتهم
والتنوين للتفخيم ومن تجريدية ومن فوقهم غواش اى اغطية والتنوين بدل
من الاعلال عند سيبويه وللتصرف عند غيره وقرئ غواش على الغاء المحذوف كما
فى قوله تعالى وله الجوار المنشآت وكذلك ومثل ذلك الجزاء الشديد نجزى الظالمين
عبر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين اخرى اشعارا بانهم بتكذيبهم الايات اتصفوا

بكل واحد من ذينك الوصفين القبيحين وذكر المجرم مع الحرمان عن دخول الجنة والظلم
مع التعذيب بالنار للتنبيه على انه اعظم الجرايم والجرائر والذين امنوا اى باياتنا
او بكل ما يجب ان يؤمن فيدخل فيه الآيات دخولا اوليا وقوله تعالى وعملوا الصالحات
اى الاعمال الصالحة التى شرعت بالآيات وهذا بمقابلة الاستكبار عنها لا نكلف نفسا
الا وسعها اعتراض وسط بين المبتداء الذى هو الموصول والخبر الذى هو جملة
اولئك اصحاب الجنة للترغيب فى اكتساب ما يؤدى الى النعيم المقيم ببيان سهولة
مناله وتيسر تحصيله وقرئ لا يكلف نفس واسم الاشارة مبتداء واصحاب الجنة خبره
والجملة خبر للمبتداء الاول او اسم الاشارة بدل من المبتداء الاول الذى هو الموصوف
والخبر اصحاب الجنة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الفضل والشرف
هم فيها خالدون حال من اصحاب الجنة وقد جوز كونه حالا من الجنة لاشتماله
على ضميرها والعامل معنى الاضافة او اللام المقدرة او خبر لاولئك على راى من
جوزه وفيها متعلق بخالدون ونزعنا ما فى صدورهم من غل اى نخرج من
قلوبهم اسباب الغل او نطهرها منه حتى لا يكون بينهم الا التواد وصيغة الماضى
للايذان بتحققه وتقرره وعن على رضه لارجو ان اكون انا وعثمان وطلحة والزبير
منهم تجرى من تحتهم الانهار زيادة فى لذتهم وسرورهم والجملة حال
من الضمير فى صدورهم والعامل اما معنى الاضافة واما العامل فى المضاف او حال
من فاعل نزعنا والعامل نزعنا وقيل هى مستانفة للاخبار عن صفة احوالهم وقالوا
الحمد لله الذى هدانا لهذا اى لما جزاؤه هذا وما كنا لنهتدى اى لهذا المطلب
الاعلى والمطلب من المطالب التى هذا من جملتها لولا ان هدانا الله واو وفقنا
له واللام لتاكيد النفى وجواب لولا محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه ومفعول
نهتدى وهدانا الثانى محذوف لظهور المقصود والمراد او لارادة التعميم كما
اشير اليه والجملة مستانفة او حالية وقرئ ما كنا لنهتدى الخ بغير واو على انها مبينة
ومفسرة للاولى لقد جاءت رسل ربنا جواب قسم مقدر قالوه تبجحا واغتباطا
بما نالوه وابتهاجا بانهم بما جاءتهم الرسل عليهم السلام والباء فى قوله تعالى
اما للتعدية فهى متعلقة بجاءت او للملابسة فهى متعلقة بمقدر وقع حالا من
الرسل اى والله لقد جاؤا بالحق او لقد جاؤا ملتبسين بالحق ونودوا اى نادتهم
الملائكة عليهم السلام ان تلكم الجنة ان مفسرة لما فى النداء من معنى القول
او مخففة من ان او ضمير الشان محذوف ومعنى البعد فى اسم الاشارة اما لانهم
نودوا عند رؤيتهم اياها من مكان بعيد واما لرفع منزلتها وبعد مرتبتها واما
للاشعار بانها تلك الجنة التى وعدوها فى الدنيا اورثتموها بما كنتم تعملون فى الدنيا
من الاعمال الصالحة اى اعطيتموها بسبب اعمالكم او بمقابلة اعمالكم والجملة حال من الجنة
والعامل معنى الاشارة على ان تلكم الجنة مبتداء وخبر والجنة صفة والخبر اورثتموها
ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار تبجحا بحالهم وشماتة باصحاب النار وتحسيرا
لهم لا لمجرد الاخبار بحالهم والاستخبار عن حال مخاطبيهم ان قد وجدنا
ما وعدنا ربنا حقا حيث نلنا هذا المنال الجليل فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا
حذف المفعول من الفعل الثانى اسقاطا لهم عن رتبة التشريف بالخطاب عند
الوعد وقيل لان ما ساءهم من الموعود لم يكن باسره مخصوصا بهم وعدا كالبعث
والحساب ونعيم اهل الجنة فانهم قد وجدوا جميع ذلك حقا وان لم يكن مخصوصا
لهم قالوا نعم اى وجدناه حقا وقرئ بكسر العين وهى لغة فيه فاذن مؤذن
قيل هو صاحب الصور بينهم اى بين الفريقين ان لعنة الله على الظالمين
بان المخففة او المفسرة وقرئ بان المشددة ونصب لعنة وقرئ ان بكسر الهمزة على ارادة
القول او اجراء اذن مجرى قال الذين يصدون عن سبيل الله صفة مقررة للظالمين
او رفع على الذم او نصب عليها ويبغونها عوجا اى يبغون لها عوجا بان يصفوها

بالزيغ والميل عن الحق وهو ابعد شئ منهما والعوج بالكسر في المعاني والاعيان ما لم يكن
منتصبا وبالفتح ما كان في المنتصب كالرمح والحايط وهم بالاخرة كافرون غير معترفين
وبينهما حجاب اى بين الفريقين كقوله تعالى فضرب بينهم بسور او بين الجنة والنار يمنع
وصول اثر احداهما الى الاخرى وعلى الاعراف اى على اعراف الحجاب واعاليه وهو
السور المضروب بينهما جمع عرف مستعار من عرف الفرس وقيل العرف ما ارتفع من
الشئ فانه بظهوره اعرف من غيره رجال طائفة من الموحدين قصروا في العمل فيحبسون
بين الجنة والنار حتى يقضى الله تعالى فيهم ما يشاء وقيل قوم علت درجاتهم كالانبياء
والشهداء والاخيار والعلماء من المؤمنين او ملئكة يرون في صور الرجال يعرفون
كلا من اهل الجنة واهل النار بسيماهم بعلامتهم التى اعلمهم الله تعالى بها
كبياض الوجه وسواده فعلا من سام ابله اذا ارسلها في المرعى معلمة او من وسم
بالقلب كالجاه من الوجه وانما يعرفون ذلك بالالهام او بتعليم الملائكة ونادوا
اى رجال الاعراف اصحاب الجنة حين راوهم ان سلام عليكم بطريق الدعاء
والتحية او بطريق الاخبار بنجاتهم من المكاره لم يدخلوها حال من فاعل نادوا
او من مفعوله وقوله تعالى وهم يطمعون حال من فاعل يدخلوها اى نادوهم وهم
لم يدخلوها حال كونهم طامعين في دخولها مترقبين له اى لم يدخلوها
وهم في وقت عدم الدخول طامعون واذا صرفت ابصارهم تلقاء اصحاب
النار اى الى جهتهم وفي عدم التعرض لتعلق انظارهم باصحاب الجنة والتعبير
عن تعلق ابصارهم باصحاب النار بالصرف اشعار بان التعلق الاول بطريق الرغبة
والميل والثاني بخلافه قالوا متعوذين بالله تعالى من سوء حالهم ربنا لا تجعلنا
مع القوم الظالمين اى في النار وفي وصفهم بالظلم دون ما هم عليه حينئذ من
العذاب وسوء الحال الذي هو الموجب للدعاء اشعار بان المحذور عندهم ليس
نفس العذاب فقط بل مع ما يوجبه ويؤدي اليه من الظلم ونادى اصحاب
الاعراف كرر ذكرهم مع كفاية الاضمار لزيادة التقرير رجالا من رؤساء الكفار
حين راوهم فيما بين اصحاب النار يعرفونهم بسيماهم الدالة على سوء حالهم
يومئذ وعلى رياستهم في الدنيا قالوا بدل من نادى ما اغنى عنكم اما استفهامية
للتوبيخ والتقريع او نافية جمعكم اى اتباعكم واشياعكم او جمعكم للمال وما كنتم
تستكبرون ما مصدرية اى ما اغنى عنكم جمعكم واستكباركم المستمر عن قبول الحق او على الخلق
وهو الانسب بما بعده وقرئ تستكثرون من الكثرة اى من الاموال والجنود اهؤلاء الذين
اقسمتم لا ينالهم الله برحمة من تتمة قولهم للرجال والاشارة الى ضعفاء المؤمنين
الذين كانت الكفرة يحتقرونهم في الدنيا ويحلفون صريحا انهم لا يدخلون الجنة او يفعلون
ما ينبئ عن ذلك كما في قوله تعالى اولم تكونوا اقسمتم من قبل ما لكم من زوال ادخلوا الجنة
تلوين للخطاب وتوجيه له الى اولئك المذكورين اى ادخلوا الجنة على رغم انوفهم
لا خوف عليكم بعد هذا ولا انتم تحزنون او قيل لاصحاب الاعراف ادخلوا الجنة بفضل الله
تعالى بعد ان حبسوا وشاهدوا احوال الفريقين وعرفوهم وقالوا لهم ما قالوا والاظهر
ان لا يكون المراد باصحاب الاعراف المقصرين في العمل لان هذه المقالات وما تتفرع هي عليه
من المعرفة لا يليق بمن لا يعرف حاله بعد وقيل لما عيروا اصحاب النار اقسموا ان اصحاب
الاعراف لا يدخلون الجنة فقال الله تعالى او الملائكة ردا عليهم اهؤلاء الخ وقرئ ادخلوا و
دخلوا على الاستيناف وتقديره دخلوا الجنة مقولا في حقهم لا خوف عليكم ونادى اصحاب
النار اصحاب الجنة بعد ان استقر بكل من الفريقين القرار واطمانت به الدار ان
افيضوا علينا من الماء اى صبوه وفيه دلالة على ان الجنة فوق النار او مما رزقكم الله
من ساير الاشربة ليلايم الافاضة او من الاطعمة على ان الافاضة عبارة عن الاعطاء
بكثرة قالوا استيناف مبنى على السؤال كانه قيل فماذا قالوا فقيل قالوا ان الله حرمهما
على الكافرين اى منعهما منهم منعا كليا فلا سبيل الى ذلك قطعا الذين اتخذوا دينهم

لهوا

لهوا ولعبا كتحريم البحيرة والسايبة ونحوهما والتصدية حول البيت واللهو صرف الهم
الى ما لا يحسن ان يصرف اليه واللعب طلب الفرح بما لا يحسن ان يطلب وغرتهم الحيوة الدنيا
بزخارفها العاجلة فاليوم ننساهم نفعل بهم ما يفعل الناسي بالمنسي من عدم الاعتداد
بهم وتركهم في النار تركا كليا والفاء في فاليوم فصيحة وقوله تعالى كما نسوا لقاء
يومهم هذا في محل النصب على انه نعت لمصدر محذوف اى ننساهم نسيانا مثل
نسيانهم لقاء يومهم هذا حيث لم يخطروه ببالهم ولم يستعدوا له وقوله تعالى
وما كانوا بآياتنا يجحدون عطف على ما نسوا اى وكما كانوا منكرين بانها من عند الله
تعالى انكارا مستمرا ولقد جئناهم بكتاب فصلناه اى بينا معانيه من العقايد
والاحكام والمواعظ والضمير للكفرة قاطبة والمراد بالكتاب الجنس او للمعاصرين
منهم والكتاب هو القران على علم حال من فاعل فصلناه اى عالمين بوجه تفصيله
حتى جاء حكيما او من مفعوله اى مشتملا على علم كثير وقرئ فضلناه اى على
ساير الكتب عالمين بفضله هدى ورحمة حال من المفعول لقوم يؤمنون لانهم
المغتنمون باثاره المقتبسون من انواره هل ينظرون الا تاويله اى ما ينتظرون هؤلاء
الكفرة بعد ما لم يؤمنوا به الا ما يؤول اليه امره من تبين صدقه بظهور ما اخبر به
من الوعد والوعيد يوم ياتي تاويله وهو يوم القيمة يقول الذين نسوه من قبل
اى تركوه ترك المنسي من قبل اتيان تاويله قد جاءت رسل ربنا بالحق اى قد تبين
انهم قد جاؤا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا اليوم ويدفعوا عنا العذاب
او نرد اى هل نرد الى الدنيا وقرئ بالنصب عطفا على فيشفعوا او لان او بمعنى الى
ان فعلى الاول المسؤل احد الامرين اما الشفاعة لدفع العذاب او الرد الى الدنيا
وعلى الثاني ان يكون لهم شفعاء اما لاحد الامرين او لامر واحد هو الرد فنعمل
بالنصب على انه جواب الاستفهام الثاني وقرئ بالرفع اى فنحن نعمل غير الذي كنا
نعمل اى في الدنيا قد خسروا انفسهم بصرف اعمارهم التي هي راس مالهم الى الكفر
والمعاصي وضل عنهم ما كانوا يفترون اى ظهر بطلان ما كانوا يفترونه
من ان الاصنام شركاء لله تعالى وشفعاؤهم يوم القيمة ان ربكم الله الذي خلق
السموات والارض في ستة ايام شروع في بيان مبدأ الفطرة اثر بيان معاد
الكفرة اى ان خالقكم ومالككم الذي خلق الاجرام العلوية والسفلية في ستة اوقات
كقوله تعالى ومن يولهم يومئذ دبره او في مقدار ستة ايام فان المتعارف ان اليوم
زمان طلوع الشمس الى غروبها ولم يكن هي حينئذ وفي خلق الاشياء مدرجا مع
القدرة على ابداعها دفعة دليل على الاختيار واعتبار للنظار وحث على التاني في الامور
ثم استوى على العرش اى استوى امره واستولى وعن اصحابنا ان الاستواء على
العرش صفة لله تعالى بلا كيف والمعنى انه تعالى استوى على العرش على الوجه الذي عناه
منزها عن الاستقرار والتمكن والعرش الجسم المحيط بساير الاجسام سمي به لارتفاعه
او للتشبيه بسرير الملك فان الامور والتدابير تنزل منه وقيل الملك يغشي الليل النهار
اى يغطيه به ولم يذكر العكس للعلم به او لان اللفظ يحتملهما ولذلك قرئ بنصب الليل
ورفع النهار وقد قرئ بالتشديد للدلالة على التكرار يطلبه حثيثا اى يعقبه سريعا
كالطالب له لا يفصل بينهما شئ والحثيث فعيل من الحث وهو صفة مصدر محذوف
او حال من الفاعل بمعنى حاثا او محثوثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره اى
خلقهن حال كونهن مسخرات بقضائه وتصريفه وقرئ كلها بالرفع على الابتداء والخبر
الا له الخلق والامر فانه الموجد للكل والمتصرف فيه على الاطلاق تبارك الله رب
العالمين اى تعالى بالوحدانية في الوهيته وتعظم بالتفرد في الربوبية وتحقيق الاية الكريمة
والله اعلم ان الكفرة كانوا متخذين اربابا فبين لهم ان المستحق للربوبية واحد هو الله
لانه الذي له الخلق والامر فانه تعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم فابدع
الافلاك ثم زينها بالشمس والقمر والنجوم كما اشار اليه بقوله تعالى فقضاهن سبع سموات

فى يومين وعمد الى الاجرام السّفليّة فخلق جسما قابلا للصّور المتبدّلة والهيئات المختلفة
ثم قسمها بصور نوعيّة متباينة الآثار والافعال واشار بقوله تعالى وخلق الارض فى يومين
اى ما فى جهة السّفل فى يومين ثم انشاء انواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها اولا
وتصويرها ثانيا كما قال بعد قوله تعالى خلق الارض فى يومين وجعل فيها رواسي من فوقها
وبارك فيها وقدّر فيها اقواتها فى اربعة ايام اى مع اليومين الاولين لما فصّل فى
سورة السّجدة ثم لما تمّ له عالم الملك عمد الى تدبيره كالملك الجالس على سريره فدبّر
الامر من السّماء الى الارض بتحريك الافلاك وتسيير الكواكب وتكرير الليالى والايّام ثمّ
صرّح بما هو فذلكة التقرير ونتيجته فقال تعالى الا له الخلق والامر تبارك الله ربّ العالمين
ثم امر بان يدعوه مخلصين متذللين فقال ادعوا ربّكم الذى قد عرفتم
شونه الجليلة تضرّعا وخفية اى ذوي تضرّع وخفية فانّ الاخفاء دليل الاخلاص
انه لا يحبّ المعتدين اى لا يحبّ دعاء المجاوزين لما امروا به فى كلّ شئ فيدخل فيه
الاعتداء فى الدّعاء دخولا اوليّا وقد نبّه به على انّ الدّاعي يجب ان لا يطلب ما لا يليق
به كرتبة الانبياء والصّعود الى السّماء وقيل هو الصياح فى الدعاء والاسهاب فيه وعن
النبى صلّى الله عليه وسلّم سيكون قوم يعتدون فى الدّعاء وحسب المرء ان يقول
اللّهمّ انّى اسألك الجنّة وما قرّب اليها من قول وعمل واعوذ بك من النار وما قرّب
اليها من قول وعمل ثم قرأ انّ الله لا يحبّ المعتدين ولا تفسدوا فى الارض بالكفر
والمعاصى بعد اصلاحها ببعث الانبياء وشرع الاحكام وادعوه خوفا و
طمعا اى ذوى خوف نظرا الى قصور اعمالكم وعدم استحقاقكم وطمع نظرا الى
سعة رحمته ووفور فضله واحسانه انّ رحمة الله قريب من المحسنين فى كلّ شئ
ومن الاحسان فى الدّعاء ان يكون مقرونا بالخوف والطمع تذكير قريب لانّ الرحمة بمعنى
الرحم او لانه صفة لمحذوف اى امر قريب او على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول والذى
هو مصدر كالنقيض والصّهيل وللفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره او لاكتسابه
التذكير من المضاف اليه كما انّ المضاف يكتسى التانيث من المضاف اليه وهو الذي يرسل
الرّياح عطف على الجملة السابقة وقرئ الرّيح بشرا تخفيف بشر جمع بشيرا اى مبشّرات
وقرئ بفتح الباء على انه مصدر بشره بمعنى باشرات او للبشارة وقرئ نشرا بالنون
المضموم جمع نشور اى ناشرات ونشرا على انه مصدر فى موقع الحال بمعنى ناشرات
او مفعول مطلق فانّ الارسال والنشر متقاربان بين يدى رحمته قدام رحمته
التى هى المطر فان الصبا تثير السّحاب والشمال تجمعه والجنوب تدرّه والدبور
تفرقه حتى اذا اقلّت اى حملت واشتقاقه من القلّة فانّ المقل للشئ يستقلّه
سحابا ثقالا بالماء جمعه لانه بمعنى السّحايب سقناه اى السحاب وافراد الضمير
لافراد اللفظ لبلد ميّت اى لاجله ولمنفعته ولاحيائه او لسقيه وقرئ ميت
فانزلنا به الماء اى بالبلد او بالسحاب او بالسّوق او بالرّيح والتذكير بتاويل المذكور
وكذلك قوله تعالى فاخرجنا به ويحتمل ان يعود الضمير الى الماء وهو الظاهر واذا
كان للبلد فالباء للالصاق فى الاوّل والظرفيّة فى الثانى واذا كان لغيره فهى للسببيّة
من كلّ الثمرات اى من كلّ انواعها كذلك نخرج الموتى الاشارة الى اخراج الثمرات
او الى احياء البلد الميّت اى كما نحييه باحداث القوى النامية فيها وتطريتها بانواع
النبات والثمرات نخرج الموتى من الاجداث ونحييها بردّ النفوس الى موادّ ابدانها
بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس لعلّكم تذكّرون بطرح احدى التائين
اى تتذكرون فتعلمون ان من قدر على ذلك قدر على هذا من غير شبهة والبلد الطيّب
اى الارض الكريمة التربة يخرج نباته باذن ربّه بمشيّته وتيسيره عبّر به عن كثرة
النبات وحسنه وغزارة نفعه لانه واقعة فى مقابلة قوله تعالى والذي خبث من
البلاد كالسّبخة والحرّة لا يخرج الا نكدا قليلا عديم النفع ونصبه على الحال و
التقدير والبلد الذي خبث لا يخرج نباته الا نكدا اى لا يخرج البلد الا نكدا وقرئ نكدا

على المصدر اي ذا نكد ونكدا بالاسكان للتخفيف كذلك اى مثل ذلك التصريف البديع
نصرّف الآيات اى نردّدها ونكرّرها لقوم يشكرون نعمة الله فيتفكّرون فيها
ويعتبرون بها وهكذا هذا كما ترى مثل لارسال الرّسل عليهم السّلام بالشرايع التى
هى ماء حياة القلوب الى المكلّفين المنقسمين الى المقتبسين من انوارها والمحرومين
من مغانم آثارها وقد عقّب ذلك بما يحقّقه ويقرّره من قصص الامم الخالية بطريق
الاستيناف فقيل لقد ارسلنا نوحا الى قومه وهو جواب قسم محذوف اى
والله لقد ارسلنا الخ واطّراد استعمال هذه اللّام مع قد لكون مدخولها مظنّة
للتوقّع الذى هو معنى قد فانّ الجملة القسميّة انّما تساق لتاكيد الجملة المقسم
عليها ونوح وهو لمك بن متوشلخ ابن اخنوخ وهو ادريس النبى عليهما السلام قال
ابن عبّاس بعث عليه السّلام على رأس اربعين سنة من عمره ولبث يدعو قومه تسعماية
وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره الفا ومائتين
واربعين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن ماية سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة
وقيل وهو ابن مائتين وخمسين ومكث يدعو قومه تسعماية وخمسين سنة وعاش
بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره الفا واربعماية وخمسين سنة
فقال يا قوم اعبدوا الله اى اعبدوه وحده وترك التقييد به للايذان بانها العبادة
حقيقة واما العبادة بالاشراك فليس من العبادة فى شئ وقوله تعالى ما لكم
من اله غيره اى من مستحقّ للعبادة استيناف مسوق لتعليل العبادة المذكورة
او الامر بها وغيره بالرّفع صفة لاله باعتبار محلّه الذي هو الرّفع على الابتداء
او الفاعليّة وقرئ بالجرّ باعتبار لفظه وقرئ بالنّصب على الاستثناء وحكم
غير حكم الاسم الواقع بعد الا اى ما لكم من اله الا اياه كقولك ما فى الدّار من
احد الا زيدا او غير زيد فمن اله ان جعل مبتدأ فلكم خبره او خبره محذوف
ولكم للتخصيص والتبيين اى ما لكم فى الوجود او فى العالم اله غير الله انّى
اخاف عليكم اى ان لم تعبدوه حسبما امرت به عذاب يوم عظيم هو يوم القيمة او
الطوفان والجملة تعليل للعبادة ببيان الصارف عن تركها اثر تعليلها ببيان
الدّاعى اليها ووصف اليوم بالعظم لبيان عظم ما يقع فيه وتكميل الانذار قال الملاء
من قومه استيناف مبنى على سؤال نشا من حكاية قوله عليه السّلام كانه قيل
فماذا قالوا له عليه السّلام فى مقابلة نصحه فقيل قال الرؤسا من قومه والاشراف
الذين يملؤن صدور المحافل باجرامهم والقلوب بجلالهم وهيبتهم والابصار
بجمالهم وابهتهم انا لنراك فى ضلال اى ذهاب عن طريق الحقّ والصّواب
والرّؤية قلبيّة ومفعولاها الضمير والظرف مبين بيّن كونه ضلالا قال
استيناف كما سبق يا قوم ناداهم باضافتهم اليه استمالة لقلوبهم نحو الحقّ
ليس بى ضلالة اى شئ ما من الضلالة قصد عليه السّلام تحقيق الحقّ فى نفى الضلال
عن نفسه ردّا على الكفرة حيث بالغوا فى اثباته له عليه السّلام حيث جعلوه مستقرّا فى
الضلال الواضح كونه ضلالا وقوله تعالى ولكنّى رسول من ربّ العالمين استدراك
ممّا قبله باعتبار ما يستلزمه من كونه فى اقصى مراتب الهداية فانّ رسالة ربّ
العالمين مستلزمة له لا محالة كانه قيل ليس بى شئ من الضلالة ولكنّى فى الغاية القاصية
من الهداية ومن لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف هو صفة لرسول مؤكّدة
لما يفيده التنوين من الفخامة الذاتيّة بالفخامة الاضافية اى رسول واىّ رسول
كاين من ربّ العالمين ابلّغكم رسالات ربّى استيناف مسوق لتقرير رسالته
وتفصيل احكامها واحوالها وقيل صفة اخرى لرسول على طريقة انا الذي سمّتنى امّى
حيدره وقرئ ابلغكم من الابلاغ وجمع الرسالات لاختلاف اوقاتها او لتنوّع
معانيها او لانّ المراد بها ما اوحى اليه والى النبيين من قبله عليهم السّلام وتخصيص
ربوبيّته تعالى به عليه السّلام بعد بيان عمومها للعالمين للاشعار بعلّة الحكم

الذي هو تبليغ الرسالة تعالى اليهم فان ربوبيته تعالى عليه السلام من موجبات
امتثاله بامره تعالى بتبليغ رسالته وانصح لكم عطف على ابلغكم مبين لكيفيته
اداء الرسالة وزيادة اللام مع تعدي النصح بنفسه للدلالة على امحاض النصيحة
لمنفعتهم ومصلحتهم خاصة وصيغة المضارع
للدلالة على تجدد نصيحته لهم كما يعرب عنه قوله تعالى
رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا وقوله تعالى واعلم من الله ما لا تعلمون
عطف على ما قبله وتقرير لرسالته عليه السلام اى اعلم من جهة الله تعالى
بالوحي تعالى ما لا تعلمونه من الامور الآتية او اعلم من شؤونه عز وجل وقدرته القاهرة
وبطشه الشديد على اعدائه وان بأسه لا يرد عن القوم المجرمين ما لا تعلمونه قيل
كانوا لم يسمعوا بقوم حل بهم العذاب قبلهم فكانوا غافلين آمنين لا يعلمون
ما علمه نوح عليه السلام بالوحي اوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم جواب
ورد لما اكتفى عن ذكره بقولهم انا لنراك فى ضلال مبين من حق لهم ما نراك الا بشرا
مثلنا وقولهم لو شاء الله لانزل ملائكة والهمزة للانكار والواو للعطف على
مقدر ينسحب عليه الكلام كان قيل استبعدتم وعجبتم من ان جاءكم ذكر اى
وحي او موعظة من مالك اموركم ومربيكم على رجل منكم اى على لسان
رجل من جنسكم كقوله تعالى ما وعدتنا على رسلك وقلتم لاجل ذلك ما قلتم من
الله تعالى لو شاء لانزل ملائكة لينذركم علة للمجيء اى ليحذركم عاقبة الكفر
والمعاصي ولتتقوا على العلة الاولى مترتبة عليها ولعلكم ترحمون
عطف على العلة الثانية مترتبة عليها اى وليتعلق بكم الرحمة بسبب تقواكم
وفائدة حرف الترجي التنبيه على عزة المطلب وان التقوى غير موجب للرحمة بل هي
منوطة بفضل الله تعالى وان المتقي ينبغي ان لا يعتمد على تقواه ولا يأمن من عذاب الله عز
وجل فكذبوه فتموا على تكذيبه فى دعوى النبوة وما نزل عليه من الوحي الذي
بلغه اليهم وانذرهم بما فى تضاعيفه واستمروا على ذلك هذه المدة المتطاولة
بعد ما كرر عليه السلام عليهم الدعوة مرارا فلم يزدهم دعاؤه الا فرارا
حسبما نطق به قوله تعالى رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا الآيات اذ هو الذى
يعقبه الانجاء والاغراق ولا مجرد التكذيب فانجيناه والذين معه من المؤمنين
قيل كانوا اربعين رجلا واربعين امرأة وقيل تسعة ابناؤه الثلاثة وستة ممن
آمن به وقوله تعالى فى الفلك متعلق بالاستقرار فى الظرف اى استقروا معه فى الفلك
او صحبوه فيه او بفعل الانجاء اى انجيناهم فى السفينة ويجوز ان يتعلق بمضمر
وقع حالا من الموصول او من ضميره فى الظرف واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا
اى استمروا على تكذيبها وليس المراد بهم الملأ المتصدين للجواب فقط بل كل من
اصر على التكذيب منهم ومن اعقابهم وتقديم ذكر الانجاء على الاغراق للمسارعة
الى الاخبار به والايذان بسبق الرحمة التى هي مقتضى الذات وتقدمها على الغضب
الذي يظهر اثره بمقتضى جرائمهم انهم كانوا قوما عمين عمى القلوب غير
مستبصرين قال ابن عباس رضي الله عنهما عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة
والمعاد وقرئ عامين والاول ادل على الثبات والقرار والى عاد متعلق بمضمر
معطوف على قوله ارسلنا فى قصة نوح عليه السلام وهو الناصب لقوله تعالى اخاهم
اى وارسلنا الى عاد اخاهم اى واحدا منهم فى النسب لا فى الدين كقولهم يا اخا
العرب وقيل العامل فيهما الفعل المذكور فيما سبق واخاهم معطوف على نوحا والاول
هو الاولى وايا ما كان فلعل تقديم المجرور ههنا على المفعول الصريح للحذار عن
الاضمار قبل الذكر سنذكر الى ذلك ما سيأتي من قوله تعالى ولوطا الخ فان قومه لما لم
يعهدوا باسم معروف يقتضي الحال ذكره عليه السلام مضافا اليهم كما فى قصة
عاد وثمود ومدين خولف فى النظم الكريم بين قصته عليه السلام وبين القصص الثلاث

وقوله تعالى هودا عطف بيان لاخاهم وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن
العاد عوص بن ارم بن سام بن نوح وقيل هود بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح
ابن عم ابي عاد وانما جعل منهم لانهم افهم لكلامه واعرف بحاله فى صدقه وامانته واقرب
الى اتباعه قال استيناف مبني على سؤال نشأ من حكاية ارساله عليه السلام اليهم
كأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال يا قوم اعبدوا الله اى وحده كما يعرب عنه قوله
ما لكم من اله غيره فانه استيناف جار مجرى البيان للعبادة المأمور بها والتعليل
لها او للامر بها كأنه قيل خصوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئا اذ ليس لكم اله سواه
وغيره بالرفع صفة لاله باعتبار محله وقرئ بالجر حملا له على لفظه افلا تتقون
انكار واستبعاد لعدم اتقائهم عذاب الله تعالى بعد ما علموا ما حل بقوم نوح والفاء
للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى لا تتفكرون او تغفلون فلا تتقون فالتوبيخ على
المعطوفين معا او اتعلمون ذلك فلا تتقون فالتوبيخ على المعطوف فقط وفي سورة
هود افلا تعقلون ولعله عليه السلام خاطبهم بكل منهما وقد اكتفى بحكاية كل
منهما فى موطن عن حكايته فى موطن آخر كما لم يذكر ههنا ما ذكر هناك من قوله تعالى
ان انتم الا مفترون وقس على ذلك حال بقية ما ذكر وما لم يذكر من اواخر القصة
بل نظائره فى سائر القصص لا سيما فى المحاورات الجارية فى الاوقات المتعددة
والله اعلم قال الملأ الذين كفروا من قومه استيناف كما مر وانما وصف الملأ
بالكفر اذ لم يكن كلهم على الكفر كملأ قوم نوح بل كان منهم من آمن له عليه السلام
ولكن كان يكتم ايمانه كمرثد بن سعد وقيل وصفوا به لمجرد الذم انا لنراك فى
سفاهة اى متمكنا فى خفة عقل راسخا فيها حيث فارقت دين آبائك الا انهم هم
السفهاء ولكن لا يعلمون وانا لنظنك من الكاذبين اى فيما ادعيت من الرسالة
قالوه لغاية توغلهم فى التقليد وحرمانهم من النظر الصحيح قال مستعطفا لهم ومستميلا
لقلوبهم مع ما سمع منهم من الكلمة الشنعاء الموجبة لتغليظ القول
والمشافهة بالسوء يا قوم ليس بى سفاهة اى شيء منها ولا شائبة من شوائبها
ولكني رسول من رب العالمين استدراك مما قبله باعتبار ما يستلزمه ويقتضيه
من كونه فى الغاية القصوى من الرشد والاناءة والصدق والامانة فان الرسالة
من جهة رب العالمين موجبة لذلك حتما كانه قيل ليس بى شيء مما نسبتموني اليه
ولكني فى غاية ما يكون من الرشد والصدق ولم يصرح بنفي الكذب واكتفاء بما فى حيز
الاستدراك ومن لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لرسول مؤكدة لما
افاده التنوين من الفخامة الاضافية وقوله تعالى ابلغكم رسالات ربي استيناف
مسوق لتقرير رسالته وتفصيل احوالها او قيل صفة اخرى لرسول والكلام فى اضافة
الرب الى نفسه عليه السلام بعد اضافته الى العالمين وكذا فى جميع الرسالات كالذي
مر فى قصة نوح عليه السلام وقرئ ابلغكم من الابلاغ وانا لكم ناصح امين
معروف بالنصح والامانة مشهور بين الناس بذلك وانما جيء بالجملة الاسمية دلالة
على الثبات والاستمرار وايذانا بان من هذا حاله لا يحوم حوله شائبة السفاهة
او الكذب اوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم الكلام فيه كالذي مر فى قصة
نوح عليه السلام على رجل منكم اى من جنسكم لينذركم ويحذركم
بما فيه ما انتم عليه من الكفر والمعاصي حتى نسبتموني الى السفاهة والكذب وفى
اجابة الانبياء صلوات عليهم وسلامه من يشافههم بما لا خير فيه من امثال تلك
الاباطيل بما حكي عنهم من المقالات الحقة المعربة عن نهاية الحلم والرزانة وكمال
الشفقة والرأفة من الدلالة على حيازتهم القدح المعلى من مكارم الاخلاق ما
لا يخفى مكانه واذكروا اذ جعلكم خلفاء شروع فى ترتيب احكام النصح والامانة
والانذار وتفصيلها واذ منصوب باذكروا على المفعولية دون الظرفية وتوجيه
الامر بالذكر الى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع انها المقصودة بالذات

للمبالغة في ايجاب ذكرها لما ان ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر ما فيه بالطريق البرهاني ولان الوقت
مشتمل عليها فاذا استحضر كانت هي حاضرة بتفاصيلها كانها مشاهدة عيانا ولعله
معطوف على مقدر كانه قيل لا تعجبوا من ذلك او تدبروا في امركم واذكروا وقت
جعله تعالى اياكم خلفاء من بعد قوم نوح اى في مساكنهم او في الارض بان جعلكم
ملوكا فان شداد بن عاد ممن ملك معمورة الارض من رمل عالج الى شحر عمان و
زادكم في الخلق اى في الابداع والتصوير او في الناس بسطة قامة وقوة فانه لم يكن
في زمانهم مثلهم في عظم الاجرام قال الكلبي والسدي كانت قامة الطويل منهم
مائة ذراع وقامة القصير ستين ذراعا فاذكروا آلاء الله التي انعم بها عليكم
من فنون النعماء التي هذه من جملتها وهذا تكرير للتذكير لزيادة التقرير وتعميم اثر
تخصيص لعلكم تفلحون كي يؤديكم ذلك الى الشكر المؤدي الى النجاة من الكروب
والفوز بالمطلوب. قالوا مجيبين عن تلك النصائح العظيمة اجئتنا لنعبد الله
وحده اى لنخصه بالعبادة ونذر ما كان يعبد اباؤنا انكروا عليه عليه السلام
مجيئه لتخصيصه تعالى بالعبادة والاعراض عن عبادة الاوثان انهماكا في التقليد وحبا
لما الفوه والفوا اسلافهم عليه ومعنى المجئ اما مجيئه عليه السلام من متعبده
ومنزله واما من السماء على التهكم واما القصد والتصدي مجازا كما يقال في مقابلة
ذهب يشتمني من غير ارادة معنى الذهاب فأتنا بما تعدنا من العذاب المدلول
عليه بقوله تعالى افلا تتقون ان كنت من الصادقين اى في الاخبار بنزول العذاب وجواب
ان محذوف لدلالة المذكور عليه اى فأت بها قال قد وقع عليكم اى وجب وحق او نزل
باضراركم هذا بناء على تنزيل المتوقع منزلة الواقع كما في قوله تعالى اتى امر الله من ربكم اي
من جهته تعالى وتقديم الظرف الاول على الثاني مع ان مبدأ الشئ متقدم على منتهاه
للمسارعة الى بيان اصابة المكروه بهم وكذا تقديمهما على الفاعل الذي هو قوله تعالى رجس
مع ما فيه من التشويق الى المؤخر ولان فيه نوع طول بما عطف من قوله تعالى وغضب
فربما يخل تقديمهما بتجاوب النظم الكريم والرجس العذاب من الارتجاس الذي
هو الاضطراب والغضب ارادة الانتقام وتنوينهما للتفخيم والتهويل اتجادلونني
في اسماء عارية عن المسمى سميتموها اى سميتم بها انتم واباؤكم انكار
واستقباح لانكارهم مجيئه عليه السلام داعيا لهم الى عبادة الله تعالى وحده
وترك عبادة الاصنام اى اتجادلونني في اشياء سميتموها الهة ليست فيها الا محض
الاسماء من غير ان يكون فيها من مصداق الالهية شئ ما لان المستحق للمعبودية بالذات
ليس الا من اوجد الكل وانها لو استحقت لكان ذلك بجعله تعالى اما بانزال آية او
نصب حجة وكلاهما مستحيل وذلك قوله تعالى ما نزل الله بها من سلطان واذ ليس
ذلك في حيز الامكان تحقق بطلان ما هم عليه فانتظروا مترتب على قوله تعالى قد وقع
عليكم اى فانتظروا ما تطلبونه بقولكم فأتنا بما تعدنا اني معكم من المنتظرين
لما يحل بكم والفاء في قوله تعالى فانجيناه فصيحة كما في قوله فانفجرت اى فوقع ما وقع
فانجينا والذين معه اى في الدين برحمة اى عظيمة لا يقادر قدرها وقوله
تعالى منا اى من جهتنا متعلق بمحذوف هو نعت لرحمة مؤكد لفخامتها الذاتية
المتفهمة من تنكيرها بالفخامة الاضافية وقطعنا دابر الذين كذبوا باياتنا اى
استأصلناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم وما كانوا مؤمنين عطف على كذبوا داخل
معه في حكم الصلة اى اصروا على الكفر والتكذيب ولم يرعووا عن ذلك ابدا وتقديم
حكاية الانجاء على حكاية الاهلاك قد مر سره وفيه تنبيه على ان مناط النجاة هو الايمان
بالله تعالى وتصديق اياته كما ان مدار البوار هو الكفر والتكذيب وقصتهم ان عادا
قوم كانوا باليمن بالاحقاف وكانوا قد تبسطوا في البلاد ما بين عمان الى حضرموت و
كانت لهم اصنام يعبدونها صداء وصمود والهباء فبعث الله تعالى اليهم هودا نبيا و
كان من اوسطهم وافضلهم حسبا فكذبوه وازدادوا عتوا وتجبرا فامسك الله عنهم القطر

ثلاث

ثلاث سنين حتى جهدوا وكان الناس اذا نزل بهم بلاء طلبوا الى الله الفرج منه عند بيته
الحرام مسلمهم ومشركهم واهل مكة اذ ذاك العماليق اولاد عمليق بن لاوذ
بن سام بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر فجهزت عاد الى مكة من اماثلهم
سبعين رجلا منهم قيل بن عنز ومرثد بن سعد الذي كان يكتم اسلامه فلما قدموا
نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجا من الحرم فانزلهم واكرمهم فكانوا
اخواله واصهاره فاقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم قينتا معاوية فلما
راى طول مقامهم وذهولهم عما قدموا له اهمه ذلك وقال قد هلك اخوالي
واصهاري وهؤلاء على ما هم عليه وكان يستحيي ان يكلمهم خشية ان يظنوا
به ثقل مقامهم عليه فذكر ذلك للقينتين فقالتا قل شعرا نغنيهم به لا يدرون من
قاله فقال معاوية الا يا قيل ويحك قم فهينم لعل الله يسقينا غماما فيسقي
ارض عاد ان عادا قد امسوا ما يبينون الكلاما فلما غنتا به قالوا ان قومكم يتغوثون
من البلاء الذي نزل بهم وقد ابطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم
فقال لهم مرثد بن سعد والله لا تسقون بدعائكم ولكن ان اطعتم نبيكم وتبتم
الى الله تعالى سقيتم واظهر اسلامه فقالوا لمعاوية احبس عنا مرثدا بن سعد لا يقدمن
معنا فانه قد اتبع دين هود وترك ديننا ثم دخلوا مكة فقال قيل اللهم اسق عادا
ما كنت تسقيهم فانشأ الله تعالى سحابا ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه
مناد من السماء يا قيل اختر لنفسك ولقومك فقال اخترت السوداء فانها اكثرهن ماء
فخرجت على عاد من واد يقال له المغيث فاستبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا
فجاءتهم منها ريح عقيم فاهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه فاتوا مكة فعبدوا
الله فيها الى ان ماتوا والى ثمود اخاهم صالحا عطف على ما سبق من قوله تعالى
والى عاد اخاهم هودا موافق له في تقديم المجرور على المنصوب وثمود قبيلة من العرب
سموا باسم ابيهم الاكبر ثمود بن عاد بن ارم بن سام وانما سموا بذلك لقلة مائهم
من الثمد وهو الماء القليل وقرئ بالصرف بتأويل الحي وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز
والشام الى وادي القرى واخوة صالح عليه السلام لهم من حيث النسب كهود
عليه السلام فانه صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حادر بن ثمود ولما
كان الاخبار بارساله عليه السلام اليهم مظنة لان يسال ويقال فماذا قال لهم
قيل جوابا عنه بطريق الاستئناف قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره
وقد مر الكلام في نظائره قد جاءتكم بينة اى آية ومعجزة ظاهرة شاهدة بنبوتي
وهي من الالفاظ الجارية مجرى الابطح والابرق في الاستغناء عن ذكر موصوفاتها
حالة الافراد والجمع كالصالحة افرادا وجمعا وكذلك الحسنة والسيئة سواء كانتا
صفتين من الاعمال او المثوبة او الحالة من الرخاء والشدة ولذلك اوليت العوامل
وقوله تعالى من ربكم متعلق بجاءتكم او بمحذوف هو صفة لبينة كما مر مرارا
والمراد بها الناقة وليس هذا الكلام منه عليه السلام اول ما خاطبهم اثر دعوتهم
الى التوحيد بل انما قاله بعد ما نصحهم وذكرهم بنعم الله تعالى فلم يقبلوا كلامه
وكذبوه الا يرى الى ما في سورة هود من قوله تعالى هو انشأكم من الارض و
استعمركم فيها الى آخر الايات روي انه لما اهلكت عاد عمرت ثمود بلادها وخلفوهم
في الارض وكثروا وعمروا اعمارا طوالا حتى ان الرجل كان يبني المسكن المحكم فينهدم
في حياته فنحتوا البيوت من الجبال وكانوا في سعة ورخاء من العيش فعتوا على
الله تعالى وافسدوا في الارض وعبدوا الاوثان فبعث الله اليهم صالحا وكانوا عربا
وصالح من اوسطهم نسبا فدعاهم الى الله عز وجل فلم يتبعه الا قليل منهم
مستضعفون فحذرهم وانذرهم فسالوه آية فقال اية آية تريدون قالوا تخرج
معنا الى عيدنا في يوم معلوم لهم من السنة فتدعو الهك وندعو الهتنا فان استجيب
لك اتبعناك وان استجيب لنا اتبعتنا فقال صالح نعم فخرج معهم ودعوا اوثانهم و

سألوا الاستجابة فلم يجبهم ثم قال سيدهم جندع بن عمرو واشار الى صخرة منفردة
فى ناحية الجبل يقال لها الكاثبة اخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء
والمخترجة التى شاكلت البخت فان فعلت صدقناك فاخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق
لئن فعلت ذلك لتؤمنن ولتصدقن قالوا نعم فصلى ودعى ربه فتمخضت الصخرة
تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين
جنبيها الا الله تعالى عظماء وهم ينظرون ثم نتجت ولدا مثلها فى العظم فامن به
جندع ورهط من قومه ومنع اعقابهم ناس من رؤسهم ان يؤمنوا فمكثت الناقة مع ولدها
ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد غبا فاذا كان يومها وضعت راسها فى البئر فما
ترفعها حتى تشرب كل ما فيها ثم تتفحج فيحتلبون ما شاؤا حتى تمتلى اوانيهم فيشربون
ويدخرون وكانت اذا وقعت الحر تصيفت بظهر الوادى فيهرب منها انعامهم
فتهبط الى بطنه واذا وقع البرد تشتت ببطن الوادى فتهرب مواشيهم الى
ظهره فشق ذلك عليهم وزينت عقرها لهم امرأتان عنيزة ام غنم وصدقة بنت
المختار لما اضرت به من مواشيها وكانتا كثيرتى المواشى فعقروها واقتسموا لحمها
وطبخوه فانطلق سقبها حتى رقا جبلا اسمه قارة فرغى ثلاثا وكان صالح قال لهم
ادركوا الفصيل عسى ان يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه فانفجرت الصخرة بعد
رغائه فدخلها فقال لهم صالح تصبحون غدا ووجوهكم مصفرة وبعد غد ووجوهكم
محمرة واليوم الثالث ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب فلما رأوا العلامات
طلبوا ان يقتلوه فانجاه الله تعالى الى ارض فلسطين ولما كان اليوم الرابع وارتفع
الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالانطاع فاتتهم صيحة من السماء ورجفة من الارض
فتقطعت قلوبهم فهلكوا وقوله تعالى هذه ناقة الله لكم استيناف مسوق
لبيان البينة واضافة الناقة الى الاسم الجليل لتعظيمها ولمجيئها من جهته تعالى
بلا اسباب معهودة ووسايط معتادة ولذلك كانت اية واى آية ولكم بيان لمن هى اية
له وانتصاب آية على الحالية والعامل فيها معنى الاشارة ويجوز ان يكون ناقة الله
بدلا من هذه او عطف بيان له او مبتداء ثانيا ولكم خبرا عاملا فى آية فذروها
تفريع على كونها آية من آيات الله فان ذلك مما يجب عدم التعرض لها تأكل فى
ارض الله جواب للامر اى الناقة ناقة الله والارض ارض الله تعالى فاتركوها تاكل ما تاكل فى
ارض ربها فليس لكم ان تحولوا بينها وبينها وقرئ تاكل بالرفع على انه فى موضع الحال
اى اكله وعدم التعرض للشرب اما للاكتفاء عنه بذكر الاكل او لتعميمه له ايضا كما فى
قوله علفتها تبنا وماء باردا وقد ذكر ذلك فى قوله تعالى لها شرب ولكم شرب يوم معلوم
ولا تمسوها بسوء نهى عن المس الذى هو مقدمة الاصابة بالشر الشامل لانواع
الاذية ونكر السوء مبالغة فى النهى اى لا تتعرضوا لها بشئ مما يسوءها اصلا ولا
تطردوها ولا تريبوها اكراما لآية الله تعالى فيأخذكم عذاب اليم جواب للنهى
ويروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بالحجر فى غزوة تبوك قال لاصحابه
لا يدخلن احد منكم القرية ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين
الا ان تكونوا باكين ان يصيبكم مثل الذى اصابهم وقال عليه السلام لعلى رضى
يا على اتدرى من اشقى الاولين قال الله ورسوله اعلم قال عاقر ناقة صالح اتدرى
من اشقى الآخرين قال الله ورسوله اعلم قال قاتلك واذكروا اذ جعلكم خلفاء
من بعد عاد اى خلفاء فى الارض او خلفاء لهم كما مر وبوأكم فى الارض اى جعل
لكم مباءة ومنزلا فى ارض الحجر بين الحجاز والشام تتخذون من سهولها قصورا
استيناف مبين لكيفية التبوئة اى تبنون فى سهولها قصورا رفيعة او تبنون
من سهولة الارض بما تعملون منها من الرهص واللبن والاجر وتنحتون الجبال اى
الصخور وقرئ تنحتون بفتح الحاء وتنحاتون باشباع الفتحة كما فى قوله ينباع من
ذفرى اسيل حرة والنحت نجر الشئ الصلب فانتصاب قوله تعالى بيوتا على انها حال مقدرة

بدل قار

منها

منها كما تقول خط هذا الثوب قميصا وقيل انتصاب الجبال على اسقاط الجار اى من الجبال
وانتصاب بيوتا على المفعولية وقد جوز ان يضمن النحت معنى الاتخاذ فانتصابهما على
المفعولية قيل كانوا يسكنون السهول فى الصيف والجبال فى الشتا فاذكروا آلاء
الله التى انعم بها عليكم مما ذكر او جميع آلائه التى هذه من جملتها ولا تعثوا
فى الارض مفسدين فان حق آلائه تعالى ان تشكروا ولا تهملوا ولا يغفل عنها فكيف
بالكفر والعثى فى الارض بالافساد قال الملاء الذين استكبروا من قومه اى عتوا
وتكبروا استيناف كما سلف وقرئ بالواو عطفا على ما قبله من قوله تعالى قال يا قوم
الخ واللام فى قوله تعالى للذين استضعفوا للتبليغ وقوله تعالى لمن امن منهم بدل
من الموصول باعادة العامل بدل الكل ان كان ضمير منهم لقومه وبدل البعض
ان كان للذين استضعفوا على ان من المستضعفين من لم يؤمن والاول هو
الوجه اذ لا داعى الى توجيه الخطاب الى جميع المستضعفين مع ان المجاوبة
مع المؤمنين منهم على ان الاستضعاف مختص بالمؤمنين اى قالوا للمؤمنين
الذين استضعفوهم واسترذلوهم اتعلمون ان صالحا مرسل من ربه
وانما قالوه بطريق الاستهزاء بهم قالوا انا بما ارسل به مؤمنون عدلوا عن
الجواب الموافق لسؤالهم بان يقولوا نعم او نعلم انه مرسل منه تعالى مسارعة
الى تحقيق الحق واظهار ما لهم من الايمان الثابت المستمر الذى ينبئ عنه الجملة
الاسمية وتنبيها على ان امر رسالته من الظهور بحيث لا ينبغى ان يسأل عنه
وانما الحقيق بالسؤال عنه هو الايمان به قال الذين استكبروا اعيد الموصول
مع صلته مع كفاية الضمير ايذانا بانهم قد قالوا ما قالوه بطريق العتو والاستكبار
انا بالذى امنتم به كافرون وانما لم يقولوا انا بما ارسل به كافرون
اظهارا لمخالفتهم اياهم وردا لمقالتهم فعقروا الناقة اى نحروها
اسند العقر الى الكل مع ان المباشر بعضهم للملابسة او لان ذلك لما كان
برضاهم فكانه فعله كلهم وفيه من تهويل الامر وتفظيعه بحيث اصابت غائلته
الكل ما لا يخفى وعتوا عن امر ربهم اى استكبروا عن امتثاله وهو ما بلغهم
صالح عليه السلام من الامر والنهى وقالوا مخاطبين له عليه السلام بطريق
التعجيز والالزام على زعمهم يا صالح ائتنا بما تعدنا اى من العذاب والاطلاق
للعلم به قطعا ان كنت من المرسلين فان كونك من جملتهم يستدعى صدق
ما تقول من الوعد والوعيد فاخذتهم الرجفة اى الزلزلة لكن لا اثر ما قالوا
بل بعد ما جرى عليهم ما جرى من مبادى العذاب فى الايام الثلاثة حسبما
مر تفصيله فاصبحوا فى دارهم اى صاروا فى ارضهم وبلدهم او فى
مساكنهم جاثمين هامدين موتى لا حراك بهم واصل الجثوم البروك يقال
الناس جثوم اى قعود لا حراك بهم ولا ينبسون نبسة قال ابو عبيدة الجثوم للناس
والطير والبروك للابل والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم من
غير اضطراب وحركة كما يكون عند الموت المعتاد ولا يخفى ما فيه من شدة الاخذ
وسرعة البطش اللهم انا بك نعوذ من نزول سخطك وحلول غضبك جاثمين
خبر لاصبحوا والظرف متعلق به ولا مساغ لكونه خبرا وجاثمين حالا لافضائه
الى كون الاخبار بكونهم فى دارهم مقصودا بالذات وكونهم جاثمين قيدا تابعا
له غير مقصود بالذات قيل حيث ذكرت الرجفة وحدت الدار وحيث ذكرت الصيحة
جمعت لان الصيحة كانت من السماء فبلوغها اكثر وابلغ من الزلزلة فقرن
كل منهما بما هو اليق به فتولى عنهم اثر ما شاهد ما جرى عليهم تولى مغتم متحسر
على ما فاتهم من الايمان متحزنا عليهم وقال يا قوم لقد ابلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم
بالترغيب والترهيب وبذلت فيكم وسعى ولكن لم تقبلوا منى ذلك وصيغة المضارع
فى قوله تعالى ولكن لا تحبون الناصحين حكاية حال ماضية اى شأنكم الاستمرار

على بعض الناصحين وعداوتهم خاطبهم عليه السلام بذلك خطاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم اهل قليب بدر حيث قال انا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم
ما وعد ربكم حقا انما تولى عنهم قبل نزول العذاب بهم عند مشاهدته عليه
السلام لعلاماته تولى ذاهب عنهم منكر لاصرارهم على ما هم عليه وروي
ان عقرهم الناقة كان يوم الاربعا ونزل بهم العذاب يوم السبت وروي انه
خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي فالتفت فرأى الدخان ساطعا فعلم
انهم قد هلكوا وكانوا الفا وخمسماية دار وروي انه رجع بمن معه فسكنوا
ديارهم ولوطا منصوب بفعل مضمر معطوف على سبق وعدم التعرض للمرسل اليهم
مقدما على المنصوب حسبما وقع فيما سبق وما لحق قد مر بيانه في قصة هود عليه
السلام وهو لوط بن هاران بن تارخ بن اخي ابراهيم عليهما السلام كان
من ارض بابل من العراق مع عمه ابراهيم فهاجر الى الشام فنزل فلسطين و
انزل لوط الاردن وهي كورة بالشام فارسله الله تعالى الى اهل سدوم وهي بلد بحمص
وقوله تعالى اذ قال لقومه ظرف للمضمر المذكور اي ارسلنا لوطا الى قومه
وقت قوله لهم الخ ولعل تقييد ارساله عليه السلام بذلك لما ان ارساله اليهم
لم يكن في اول وصوله اليهم وقيل هو بدل من لوطا بدل الاشتمال على ان انتصابه
باذكر اي اذكر وقت قوله عليه السلام لقومه اتاتون الفاحشة بطريق الانكار
التوبيخي التقريعي اي اتفعلون تلك الفعلة المتناهية في القبح المتمادية في الشر والسوء
ما سبقكم بها ما عملها قبلكم على ان الباء للتعدية كما في قوله عليه السلام سبقك بها
عكاشة من قولك سبقته بالكرة اي ضربتها قبله ومن في قوله تعالى من احد مزيدة لتاكيد
النفي وافادة معنى الاستغراق وفي قوله تعالى من العالمين للتبعيض والجملة مستانفة
مسوقة لتاكيد النكير وتشديد التوبيخ والتقريع فان مباشرة القبيح قبيح واختراعه
اقبح ولقد انكر الله تعالى عليهم اولا اتيان الفاحشة ثم وبخهم بانهم اول من عملها
فان الشك النظم الكريم وان كان على نفي كونهم مسبوقين من غير تعرض لكونهم
سابقين لكن المراد انهم سابقون لكل من عداهم من العالمين كما مر تحقيقه مرارا
في نحو قوله تعالى ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا ومسوقة جوابا عن سؤال
مقدر كانه قيل من جهتهم لم لا ناتيها فقيل للعلة واظهارا للزاجر ما سبقكم بها احد
لغاية قبحها وسوء سبيلها فكيف تفعلونها قال عمرو بن دينار ما نزا ذكر على ذكر
حتى كان قوم لوط قال محمد بن اسحاق كانت لهم ثمار وقرى لم يكن في الدنيا مثله
فقصدهم الناس فآذوهم فعرض لهم ابليس في صورة شيخ ان فعلتم بهم كذا وكذا
نجوتم منهم فابوا فلما الح الناس عليهم قصدوهم فاصابوا غلمانا صباحا فاخبثوا فاستحكم
فيهم ذلك قال الحسن كانوا لا يفعلون ذلك الا بالغرباء وقال الكلبي اول من فعل به ذلك
الفعل ابليس الخبيث حيث تمثل لهم في صورة شاب جميل فدعاهم الى نفسه ثم عبثوا
بذلك العمل انكم لتاتون الرجال خبر مستانف لبيان تلك الفاحشة وقرئ بهمزتين
صريحتين وبتليين الثانية بغير مد وبمد ايضا على انه تاكيد للانكار السابق وتشديد
للتوبيخ وفي زيادة ان واللام مزيد تقبيح وتقريع كان ذلك امر محقق صدوره
عن احد فيؤكد تاكيدا قويا وفي ايراد لفظ الرجال دون الغلمان والمراد ونحوهما
مبالغة في التوبيخ وقوله تعالى شهوة مفعول له او مصدر في موقع الحال وفي التقييد
بها وصفهم بالبهيمية الصرفة وتنبيه على ان العاقل ينبغي له ان يكون الداعي له
الى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع لا قضاء الشهوة ويجوز ان يكون المراد الانكار عليهم
وتقريعهم على اشتهائهم تلك الفعلة الخبيثة المكروهة كما ينبئ عنه قوله تعالى
من دون النساء اي متجاوزين النساء اللاتي هن محال الاشتهاء كما ينبئ عنه
قوله تعالى هن اطهر لكم بل انتم قوم مسرفون اضراب عن الانكار المذكور
الى الاخبار بحالهم التي افضت بهم الى ارتكاب امثالها وهي اعتبار الاسراف في كل شيء او عن

الانكار

الانكار عليها الى الذم على جميع معايبهم او عن محذوف اي لا عذر لكم فيه بل انتم قوم
عادتكم الاسراف وما كان جواب قومه اي المستكبرين منهم المتولين للامر والنهي
المتصدين للعقد والحل وقوله تعالى الا ان قالوا استثناء مفرغ من اعم الاشياء
اي ما كان جوابا من جهة قومه شيء من الاشياء الا قولهم اي لبعضهم الآخرين
المباشرين الامور معرضين عن مخاطبته عليه السلام اخرجوهم اي لوطا ومن معه
من اهله المؤمنين من قريتكم اي الا هذا القول الذي يستحيل ان يكون جوابا
لكلام لوط عليه السلام وقرئ برفع جواب على انه اسم كان والا ان قالوا الخ خبر
ما هو اظهر وان كان الاول اقوى في الصناعة لان الاعرف احق بالاسمية واياما كان
فليس المراد انه لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن مقالات لوط عليه السلام و
مواعظه الا هذه المقالة الباطلة كما هو المتسارع الى الافهام بل انه لم يصدر
عنهم في المرة الاخيرة من مرات المحاورات الجارية بينهم وبينه عليه السلام الا هذه
الكلمة الشنيعة والا فقد صدر عنهم قبل ذلك كثير من الترهات حسبما حكي منهم
في سائر السور الكريمة وهذا هو الوجه في نظايره الواردة بطريق القصر وقوله
تعالى انهم اناس يتطهرون تعليل للامر بالاخراج ووصفهم بالتطهر للاستهزاء
والسخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش والخبائث والافتخار بما هم فيه من
القذارة كما هو ديدن الشطار والدعار فانجيناه واهله اي المؤمنين بهم
الا امراته استثناء من اهله فانها كانت تسر بالكفر كانت من الغابرين اي الباقين
في ديارهم الهالكين فيها والتذكير للتغليب ولبيان استحقاقها لما يستحقه المباشرون
للفاحشة والجملة استيناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن استثنائها من حكم الانجاء
كانه قيل فماذا كان حالها فقيل كانت من الغابرين وامطرنا عليهم مطرا مطر في الرحمة
وامطر في العذاب وقال الراغب اي نوعا من المطر عجيبا وقد بينه قوله تعالى
وامطرنا عليهم حجارة من سجيل قال ابو عبيدة مطر في الخير وامطر في العذاب والصحيح
ان امطرنا بمعنى ارسلنا عليهم ارسال المطر قيل كانت المؤتفكة خمس مداين وقيل
كانوا اربعة الاف بين الشام والمدينة فامطر الله عليهم الكبريت والنار وقيل
خسف بالمقيمين منهم وامطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم وقيل امطر
عليهم ثم خسف بهم وروي ان تاجرا منهم كان في الحرم فوقف له الحجر اربعين يوما
حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه وروي ان امراته التفتت نحو ديارها فاصابها
حجر فماتت فانظر كيف كان عاقبة المجرمين خطاب لكل من يتاتى منه التامل والنظر
تعجيبا من حالهم وتحذيرا من اعمالهم والى مدين اخاهم شعيبا عطف على
قوله والى عاد اخاهم هودا وما عطف عليه وقد روعي ههنا ما في المعطوف
عليه من تقديم المجرور على المنصوب اي وارسلنا اليهم وهم اولاد مدين بن ابراهيم
عليه السلام شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين وقيل شعيب بن ثويب بن مدين
وقيل شعيب بن يثرون بن مدين وكان يقال له خطيب الانبيا عليهم السلام لحسن
مراجعته قومه وكانوا اهل بخس للمكاييل والموازين مع كفرهم قال استيناف مبني على
سؤال نشأ عن حكاية ارساله اليهم كانه قيل فماذا قال لهم فقيل قال يا قوم
اعبدوا الله ما لكم من اله غيره مر تفسيره مرارا قد جاءتكم بينة اي معجزة
وقوله تعالى من ربكم متعلق بجاءتكم او بمحذوف هو صفة لها علة مؤكدة لفخامتها
الذاتية المستفادة من تنكيرها بفخامته الاضافية اي بينة عظيمة ظاهرة كائنة من
ربكم ومالك اموركم ولم يذكر معجزته عليه السلام في القرآن العظيم كما لم يذكر اكثر
معجزات النبي صلى الله عليه وسلم فمنها ما روي من محاربة عصا موسى ع م التنين حين
دفع اليه غنمه ومنها ولادة الغنم الدرع خاصة حين وعد ان يكون له الدرع من اولادها
ومنها وقوع عصا آدم على يده في المرات السبع لان كل ذلك قبل ان يستنبأ موسى عليهما
السلام وقيل البينة مجيئه عليه السلام كما في قوله تعالى يا قوم ارايتم ان كنت على بينة

من ربي اى حجة واضحة وبرهان نير عبر بهما عما آتاه الله من النبوة والحكمة فاوفوا
الكيل اى المكيال كما وقع فى سورة هود ويؤيده قوله تعالى والميزان فان المتبادر
منه الآلة وان جاز كونه مصدرا كالميعاد وقيل آلة الكيل والوزن على الاضمار
والفاء لترتيب الامر على مجئ البينة ويجوز ان يكون عاطفة على اعبدوا فان
عبادة الله تعالى موجبة للاجتناب عن المناهي التي معظمها بعد الكفر البخس الذي
كانوا يباشرونه ولا تبخسوا الناس اشياءهم التي تشترونها بها معتمدين على
تمامها اى شئ كان واى مقدار كان فانهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل و
الكثير وقيل كانوا مكاسين لا يدعون شيئا الا مكسوه قال زهير افى كل اسواق
العراق اتاوة وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم ولا تفسدوا فى الارض اى بالكفر
والحيف بعد اصلاحها بعد ما اصلح امرها واهلها الانبياء واتباعهم باجراء الشرائع او
اصلحوا فيها واضافته اليها كاضافة مكر الليل والنهار ذلكم خير لكم اشارة الى العمل
بما امرهم به ونهاهم عنه ومعنى الخيرية اما الزيادة مطلقا او فى الانسانية
وحسن الاحدوثة وما يطلبونه من التكسب والربح لان الناس اذا عرفوهم بالامانة
رغبوا فى معاملتهم ومتاجرتهم ان كنتم مؤمنين اى مصدقين بى فى قولى هذا
ولا تقعدوا بكل صراط توعدون اى بكل طريق من طرق الدين كالشيطان وصراط
الحق وان كان واحدا لكنه يتشعب الى معارف وحدود واحكام اذا راوا احدا
يشرع فى شئ منها منعوه وقيل كانوا يجلسون على المراصد فيقولون لمن يريد شعيبا انه
كذاب لا يفتننك عن دينك ويتوعدون لمن آمن به وقيل يقطعون الطريق وتصدون
عن سبيل الله اى السبيل الذي قعدوا عليه فوضع المظهر موضع المضمر بيانا
لكل صراط ودلالة على عظم ما يصدون عنه وتقبيحا لما كانوا عليه او الايمان بالله
اذ بكل صراط على انه عبارة عن طريق الدين وقوله تعالى من آمن به مفعول
تصدون على اعمال الاقرب ولو كانوا مفعول توعدون لقيل وتصدونهم و
توعدون حال من الضمير فى تقعدوا وتبغونها عوجا اى وتطلبون لسبيل
الله عوجا بالقاء الشبه او بوصفها للناس بانها معوجة وهى ابعد شئ من شائبة
الاعوجاج واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم بالبركة فى النسل والمال وانظروا
كيف كان عاقبة المفسدين من الامم الماضية كقوم نوح ومن بعدهم
من عاد وثمود واضرابهم واعتبروا بهم وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى
ارسلت به من الشرائع والاحكام وطائفة لم يؤمنوا اى به او لم يفعلوا
الايمان فاصبروا حتى يحكم الله بيننا اى بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين
فهو وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين وهو خير الحاكمين اذ لا معقب لحكمه
ولا حيف فيه قال الملأ الذين استكبروا من قومه استئناف مبنى على سؤال
ينساق اليه المقال كانه قيل فماذا قالوا بعد ما سمعوا هذه المواعظ من شعيب عليه السلام
فقيل قال الاشراف من قومه المستكبرون متطاولين عليه عليه السلام غير مكتفين بمجرد
الاستعصاء عليه والامتناع من الطاعة له بالغين من العتو والاستكبار الى ان قصدوا
استتباعه عليه السلام فيما هم فيه واتباعه المؤمنين واجترؤا على اكراههم عليه بوعيد
النفى وخاطبوه عليه السلام بذلك على طريقة التوكيد القسمى لنخرجنك يا شعيب
والذين آمنوا بنسبة الاخراج اليه عليه السلام اولا والى المؤمنين ثانيا بعطفهم عليه
تنبيها على اصالته عليه السلام فى الاخراج وتبعيتهم له فيه كما ينبئ عنه قوله تعالى معك
فانه متعلق بالاخراج لا بالايمان وتوسيط النداء باسمه العلم بين المعطوفين لزيادة
التقرير والتهديد الناشئة عن غاية الوقاحة والطغيان اى والله لنخرجنك واتباعك
من قريتنا بغضا لكم ودفعا لفتنتكم المترتبة على المساكنة والجوار وقوله تعالى
او لتعودن فى ملتنا عطف على جواب القسم اى والله ليكونن احد الامرين
البتة على ان المقصد الاصلى هو العود وانما ذكر النفى والاجلاء لمحض القسر والالجاء كما

يفصح عنه

يفصح عنه عدم تعرضه عليه السلام لجواب الاخراج كانهم قالوا لا نقركم فيما بيننا حتى
تدخلوا فى ملتنا وادخالهم له عليه السلام فى خطاب العود مع استحالة كونه عليه السلام
فى ملتهم قبل ذلك انما هو بطريق تغليب الجماعة على الواحد وانما لم يقولوا او لنعيدنكم
على طريقة ما قبله لما ان مرادهم ان يعودوا اليها بصورة الطواعية حذارا لاخراج
باختيار اهون الشرين لا اعادتهم بسائر وجوه الاكراه والتعذيب قال استئناف كما
سبق اى قال عليه السلام ردا لمقالتهم الباطلة وتكذيبا لهم فى ايمانهم الفاجرة
اولو كنا كارهين على ان الهمزة لانكار الوقوع ونفيه لا لانكار الواقع واستقباحه كالتى
فى قوله تعالى اولو جئتك بشئ مبين ويجوز ان يكون الاستفهام فيه باقيا على حاله
وقد مر مرارا ان كلمة لو فى مثل هذا المقام ليست لبيان انتفاء الشئ فى الزمن الماضى
لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما قبلها عليه ملاحظة
قصدية الا عند القصد الى بيان الاعراب على القواعد الصناعية بل هى لبيان تحقق ما
يفيده الكلام السابق بالذات او بالواسطة من الحكم الموجب او المنفى على كل حال مفروض
من الاحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على ابعدها منه واشدها منافاة له ليظهر
بثبوته او انتفائه معه ثبوته او انتفاؤه مع ما عداه من الاحوال بطريق الاولوية لما
ان الشئ متى تحقق مع المنافى القوى فلان يتحقق مع غيره اولى ولذلك لا يذكر معه
شئ من سائر الاحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها
الشاملة لجميع الاحوال المغايرة لها عند تعددها وهذا معنى قولهم انها للاستقصاء
الاحوال على سبيل الاجمال وهذا المعنى ظاهر فى الخبر الموجب والمنفى والامر والنهى كما فى
قولك فلان جواد يعطى ولو كان فقيرا وبخيل لا يعطى ولو كان غنيا وقولك احسن اليه
ولو اساء اليك ولا تهنه ولو اهانك لبقائه على حاله سالما عما يغيره واما فيما نحن فيه
ففيه نوع خفاء لتغيره بورود الانكار عليه لكن الاصل فى الكل واحد لان كلمة لو فى
الصورة المذكورة متعلقة بنفس الفعل المذكور قبلها وان ما يقصد بيان تحققه
على كل حال هو نفس مدلوله وان الجملة حال من ضميره او مما يتعلق به وان ما فى
حيز لو مقرر على ما هو عليه من الاستبعاد بخلاف ما نحن فيه لما ان كلمة لو متعلقة فيه
بفعل مقدر يقتضيه المذكور وان ما يقصد بيان تحققه على كل حال هو مدلوله لا مدلول
المذكور وان الجملة حال من ضميره لا من ضمير المذكور كما سيأتى وان المقصود الاصلى
انكار مدلوله من حيث مقارنته للحالة المذكورة واما تقدير مقارنته لغيرها فلتوسيع
الدائرة وان ما فى حيز لو لا يقصد استبعاده فى نفسه بل يقصد الاشعار بانه امر مقرر
الا انه اخرج مخرج الاستبعاد مبالغة فى الانكار من جهة ان العود مما ينكر عند
كون الكراهة امرا مستبعدا فكيف به عند كونها امرا محققا ومعاملة مع المخاطبين
على معتقدهم لا ستنزالهم من رتبة العناد وليس المراد بالكراهة مجرد كراهة المؤمنين
للعود فى ملة الكفرة ابتداء حتى يقال انها معلومة لهم فكيف تكون مستبعدة عندهم بل انما
هى كراهتهم له بعد وعيد الاخراج الذي جعل قرينا للقتل فى قوله تعالى ولو انا كتبنا الاية
فانهم كانوا يستبعدونها ويطمعون فى انهم حينئذ يختارون العود خشية الاخراج
اذ رب مكروه يختار عند حلول ما هو اشد منه وافظع والتقدير انعود فيها ولو لم
نكن كارهين ولو كنا كارهين غير مبالين بالاكراه فالجملة فى محل النصب على الحالية
من ضمير الفعل المقدر حسبما اشير اليه اذ مآله انعود فيها حال عدم الكراهة وحال
الكراهة انكارا لما يفيده كلمتهم الشنيعة باطلاقها من العود على اى حالة كانت
غير انه اكتفى بذكر الحالة الثانية التى هى اشد الاحوال منافاة للعود واكثرها بعدا منه
تنبيها على انها هى الواقعة فى نفس الامر وثقة باغنائها عن ذكر الاولى اغناء واضحا لان
العود الذي تعلق به الانكار حين تحقق مع الكراهة على ما يوجبه كلامهم فلان يتحقق
مع عدمها اولى ان قلت النفى المستفاد من الاستفهام الانكارى فيما نحن فيه بمنزلة صريح
النفى ولا ريب فى ان الاولوية هناك معتبرة بالنسبة الى النفى الا يرى ان الاولى بالتحقق فيما ذكر

من مثال النفي عند الحالة المسكوت عنها اعني عدم الغنا هو عدم الاعطا لا لنفسه فكان
ينبغي ان يكون الاولى بالتحقق فيما نحن فيه عند عدم الكراهة عدم العود لا نفسه اذ
هو الذي يدل عليه قولنا انعود لانه في معنى لا نعود فلم اختلف الحال بينهما قلت لما ان
مناط الاولوية هو الحكم الذي اريد بيان تحققه على كل حال وذلك في مثال النفي عدم
الاعطاء المستفاد من الفعل المنفي المذكور واما فيما نحن فيه فهو نفس العود المستفاد
من الفعل المقدر اوهو الذي يقتضيه الكلام السابق اعني قولهم لتعودن واما
الاستفهام فخارج عنه وارد عليه لابطال ما يفيده ونفي ما يقتضيه لا انه من تمامه
كما في صورة النفي وتوضيحه ان بين النفيين فرقا معنويا يختلف به احكامها التي من
جملتها ما ذكر من اعتبار الاولوية في احدهما بالنسبة الى نفسه وفي الاخر بالنسبة
الى متعلقه ولذلك لا نستقيم اقامة احدهما مقام الاخر على وجه الكلية الا ترى
انك لو قلت مكان انعود فيها الخ لا نعود فيها ولو كنا كارهين لاختل المعنى اختلالا فاحشا
لان مدلول الاول نفي العود المقيد بحال الكراهة ومدلول الثاني تقييد العود المنفي
بها وذلك لان حرف النفي يباشر نفس الفعل وينفيه وما يذكر بعده يرجع اليه من
حيث هو منفي واما همزة الاستفهام فانما تباشر الفعل بعد تقييده بما بعده لما ان دلالتها
على الانكار والنفي ليست بدلالة وضعية كدلالة حرف النفي حتى يتعلق معناها بنفس الفعل الذي
يليها ويكون ما بعده راجعا اليه من حيث هو منفي بل هي دلالة عقلية مستفادة من سياق
الكلام فلا بد ان يكون ما يذكر بعد الفعل من موانعه ودواعي انكاره ونفيه حتما
ليكون قرينة صارفة للهمزة عن حقيقتها الى الانكار والنفي ثم لما كان المقصود نفي
الحكم على كل حال مع الاقتصار على ذكر بعض منها مغن عن ذكر ما عداها لاستلزام
تحققه معه تحققه مع غيره بطريق الاولوية وكانت حال الكراهة عند كونها
قيد النفس العود كذلك اي مغنيا عن ذكر ساير الاحوال ضرورة ان تحقق
العود في حال الكراهة مستلزم لتحققه في حال عدمها البتة وعند كونها
قيد النفيه بخلاف ذلك اي غير مغن عن ذكر غيرها ضرورة ان النفي العود في حال الكراهة
لا يستلزم نفيه في غيرها بل الامر بالعكس فان نفيه في حال الارادة مستلزم لنفيه
في حال الكراهة قطعا استقام الافادة نفي العود في الحالتين مع الاقتصار وعلى
ذكر ما هو مغن عن ذكر الاخرى ولم يستقم الثاني لعدم افادته اياه على
الوجه المذكور ان قيل فما وجه استقامتهما جميعا عند ذكر المعطوفين معا
حيث يصح ان يقال لا نعود فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين كما يصح ان
يقال انعود فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين مع ان المقدر في حكم الملفوظ
قلنا وجهها ان كلا منهما يفيد معنى صحيحا في نفسه لان معنى احدهما عين معنى
الاخر او متلازمان متفقان في جميع الاحكام كيف لا ومدلول الاول ان
العود منتف في الحالتين ومدلول الثاني ان العود في الحالتين منتف وكلا المعنيين
صحيح في نفسه مصحح لنفي العود في الحالتين مع الاقتصار على ذكر حالة الكراهة على
عكس المعنى الاول فانه مصحح لنفيه فيهما مع الاقتصار على ذكر حالة الارادة
قد افترينا على الله كذبا اي كذبا عظيما لا يقادر قدره ان عدنا في ملتكم
التي هي الشرك وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه اي ان عدنا في ملتكم
بعد اذ نجانا الله منها فقد افترينا على الله كذبا عظيما حيث نزعم حينئذ ان لله
تعالى ندا وليس كمثله شيء وانه قد تبين لنا ان ما كنا عليه من الاسلام باطل وان
ما كنتم عليه من الكفر حق واي افتراء اعظم من ذلك وقيل انه جواب قسم محذوف
حذف عنه اللام تقديره والله لقد افترينا الخ وما يكون لنا اي وما يصح وما
يستقيم لنا ان نعود فيها في حال من الاحوال او في وقت من الاوقات الا ان
يشاء الله اي الا حال مشية الله تعالى او وقت مشيته تعالى لعودنا فيها وذلك
مما لا يكاد يكون كما ينبئ عنه قوله تعالى ربنا فان التعرض لعنوان ربوبيته تعالى

عكس

لهم

لهم مما ينبئ عن استحالة مشيته تعالى لارتدادهم قطعا وكذا قوله تعالى بعد اذ نجانا الله
منها فان تنجيته تعالى لهم من دلايل عدم مشيته لعودهم فيها وقيل معناه الا ان
يشاء الله خذلاننا وقيل فيه دليل على ان الكفر بمشيته تعالى واياما كان فليس المراد
بذلك بيان ان العود فيها في حيز الامكان وخطر الوقوع بناء على كون مشيته تعالى كذلك
بل بيان استحالة وقوعها كانه قيل وما كان لنا ان نعود فيها الا ان يشاء الله ربنا
وهيهات ذلك بدليل ما ذكر من موجبات عدم مشيته تعالى وسع ربنا كل شيء
علما فهو محيط بكل ما كان وما سيكون من الاشياء التي من جملتها احوال عباده و
عزايمهم ونياتهم وما هو اللايق بكل واحد منهم فمحال من لطفه ان يشاء عودنا
فيها بعد ما نجانا منها مع اعتصامنا به خاصة حسبما ينطق به قوله تعالى على الله
توكلنا اي في ان يثبتنا على ما نحن عليه من الايمان ويتم علينا نعمته بانجائنا
من الاشرار بالكلية واظهار الاسم الجليل في موقع الاضمار للمبالغة في التضرع والجؤار
وقوله تعالى ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق اعراض عن مفاوضتهم اثر ما ظهر له
عليه السلام انهم من العتو والعناد بحيث لا يتصور منهم الايمان اصلا واقبال
على الله تعالى بالدعاء لفصل ما بينه وبينهم بما يليق بحال كل من الفريقين اي احكم بيننا
بالحق والفتاحة الحكومة او اظهر امرنا حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ويتميز المحق
من المبطل من فتح المشكل اذا بينه وانت خير الفاتحين تذييل مقرر لمضمون ما قبله على
المعنيين وقال الملأ الذين كفروا من قومه عطف على قال الملأ الذين الخ ولعل
هؤلاء غير اولئك المستكبرين ودونهم في الرتبة شانهم الوساطة بينهم وبين
العامة والقيام بامورهم حسبما يراه المستكبرون ويجوز ان يكونوا عين الاولين
وتغيير الصلة لما ان مدار قولهم هذا هو الكفر كما ان مناط قولهم السابق هو
الاستكبار اي قال اشرافهم الذين اصروا على الكفر لاعقابهم بعد ما شاهدوا
صلابة شعيب عليه السلام ومن معه من المؤمنين في الايمان وخافوا ان يستفزوا
قومهم تثبيطا لهم عن الايمان به وتنفيرا لهم عنه عن طريقة التوكيد القسمي والله
لئن اتبعتم شعيبا ودخلتم في دينه وتركتم دين ابائكم انكم اذا لخاسرون
اي في الدين لاشترائكم الضلالة بهداكم او في الدنيا لفوات ما يحصل لكم بالبخس
والتطفيف واذن حرف جواب وجزاء معترض بين اسم ان وخبرها والجملة سادة
مسد جوابي الشرط والقسم الذي وطاته اللام فاخذتهم الرجفة اي الزلزلة
وهكذا في سورة العنكبوت وفي سورة هود واخذت الذين ظلموا الصيحة اي
صيحة جبرئيل عليه السلام ولعلها من مبادي الرجفة فاسند هلاكهم الى السبب
القريب تارة والى البعيد اخرى في دارهم اي في مدينتهم وفي سورة هود
في ديارهم جاثمين اي ميتين لازمين لاماكنهم لا براح لهم
منها الذين كذبوا شعيبا استيناف لبيان ابتلائهم بشوم قولهم فيما سبق
لنخرجنك يا شعيب والذين امنوا معك من قريتنا وعقوبتهم بمقابلته
والموصول مبتدا خبره قوله تعالى كان لم يغنوا فيها اي استؤصلوا بالمرة وصاروا
كانهم لم يقيموا بقريتهم اصلا اي عوقبوا بقولهم ذلك وصاروا هم المخرجين
من القرية اخراجا لا دخول بعده ابدا وقوله تعالى الذين كذبوا شعيبا كانوا
هم الخاسرين استيناف اخر لبيان ابتلائهم بعقوبة قولهم الاخير واعادة
الموصول والصلة كما هي لزيادة التقرير والايذان بان ما ذكر في حيز الصلة هو
الذي استوجب العقوبتين اي الذين كذبوه عليه السلام عوقبوا بمقالتهم الاخيرة
فصاروا هم الخاسرين للدنيا والدين لا المتبعون له عليه السلام وبهذا القصر
اكتفى عن التصريح بانجائه عليه السلام كما وقع في سورة هود من قوله تعالى فلما
جاء امرنا نجينا هودا والذين امنوا معه الخ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد
ابلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم قاله عليه السلام بعد ما هلكوا تاسفا بهم

فاصبحوا في

لشدة حزنه عليهم ثم انكر على نفسه ذلك فقال فكيف آسى اى احزن حزنا شديدا
على قوم كافرين مصرين على الكفر ليسوا اهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم
بكفرهم او قاله اعتذارا عن عدم شدة حزنه عليهم والمعنى لقد بالغت في الابلاغ
والانذار وبذلت وسعي في النصح والاشفاق فلم تصدقوا قولي فكيف آسى عليكم
وقرئ ايسى بامالتين وما ارسلنا في قرية من نبي اشارة اجمالية الى بيان احوال
سائر الامم اثر بيان احوال الامم المذكورة تفصيلا ومن مزيدة لتاكيد النفي والصفة
محذوفة اى من نبي كذب او كذبه اهلها الا اخذنا اهلها استثناء مفرغ
من اعم الاحوال واخذنا في محل النصب من فاعل ارسلنا والفعل الماضي لا يقع
بعد الا باحد شرطين اما تقدير قد كما في هذه الآية او مقارنة قد كما في قولك ما
زيد الا قد قام والتقدير وما ارسلنا في قرية من القرى المهلكة نبيا من الانبياء
في حال من الاحوال الا حال كوننا آخذين اهلها بالباساء بالبؤس والفقر والضراء
بالضر والمرض لكن لا على معنى ان ابتداء الارسال مقارن للاخذ المذكور بل على انه مستتبع
له غير منفك عنه بالآخرة لاستكبارهم عن اتباع نبيهم وتعززهم عليه حسبما
فعلت الامم المذكورة لعلهم يضرعون كي يتضرعوا ويتذللوا ويحطوا اردية
الكبر والعزة عن اكتافهم لقوله تعالى ولقد ارسلنا الى امم من قبلك فاخذناهم بالباساء
والضراء لعلهم يتضرعون ثم بدلنا عطف على اخذنا داخل في حكمه مكان السيئة
التي اصابتهم للغاية المذكورة الحسنة اى اعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء
والمحنة الرخاء والسعة كقوله تعالى وبلوناهم بالحسنات والسيئات حتى عفوا
اى كثروا عددا وعددا من عفى النبات اذا كثر وتكاثف وابطرتهم النعمة وقالوا
غير واقفين على ان ما اصابهم من الامرين ابتلاء من الله سبحانه قد مس آباءنا
الضراء والسراء كما مسنا ذلك وما هو الا من عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء
والسراء من غير ان يكون هناك داعية تؤدي اليهما او تبعة تترتب عليهما ولعل
تاخير السراء للاشعار بانها تعقب الضراء فلا ضير فيها فاخذناهم اثر ذلك
بغتة فجاءة اشد الاخذ وافظعه وهم لا يشعرون بذلك ولا يخطرون ببالهم
شيئا من المكاره كقوله تعالى حتى اذا فرحوا بما اوتوا الآية وليس المراد بالاخذ بغتة
اهلاكهم طرفة عين كاهلاك عاد وقوم لوط بل ما يعمه وما يمضي بين الاخذ و
اتمام الاهلاك ايام كدأب ثمود ولو ان اهل القرى اى القرى المهلكة المدلول
عليها بقوله تعالى في قرية وقيل هي مكة وما حولها من القرى وقيل جنس القرى المنتظمة لما
ذكر ههنا انتظاما اوليا آمنوا بما اوحى الى انبيائهم معتبرين بما جرى عليهم من
الابتلاء بالضراء والسراء واتقوا اى الكفر والمعاصي او اتقوا ما انذروا به
على السنة الانبياء ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح ولم يحملوا ابتلاء الله تعالى
على عادات الدهر وقال ابن عباس رضي الله عنهما وحدوا الله واتقوا الشرك لفتحنا عليهم
بركات من السماء والارض لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب مكان
ما اصابهم من فنون العقوبات التي بعضها من السماء وبعضها من الارض و
قيل المراد المطر والنبات وقرئ لفتحنا بالتشديد للتكثير ولكن كذبوا اى ولكن
لم يؤمنوا ولم يتقوا وقد اكتفى بذكر الاول لاستلزامه للثاني فاخذناهم
بما كانوا يكسبون من انواع الكفر والمعاصي التي من جملتها قولهم قد مس آباءنا الخ وهذا
الاخذ عبارة عما في قوله تعالى فاخذناهم بغتة لا عن الجدب والقحط كما قيل فانهما
قد زالا بتبديل الحسنة مكان السيئة افامن اهل القرى اى اهل القرى المذكورة
على وضع المظهر موضع المضمر للايذان بان مدار التوبيخ امن كل طائفة ما اتاهم
من الباس لا امن مجموع الامم فان كل طائفة منهم اصابهم باس خاص بهم لا يتعداهم
الى غيرهم كما سياتي والهمزة لانكار الواقع واستقباحه لا لانكار الوقوع ونفيه كما قاله
ابو شامة وغيره لقوله تعالى فلا يامن مكر الله الا القوم الخاسرون والفاء للعطف على

اخذناهم

اخذناهم وما بينهما اعتراض توسط بينهما للمسارعة الى بيان ان الاخذ المذكور
مما كسبته ايديهم والمعنى ابعد ذلك الاخذ امن اهل القرى ان ياتيهم باسنا بياتا
اى تبييتا او وقت بيات او مبيتا او مبيتين وهو في الاصل مصدر بمعنى البيتوتة و
يجيء بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم وهم نائمون حال من ضميرهم البارز
او المستتر في بياتا او امن اهل القرى انكار بعد انكار للمبالغة في التوبيخ والتشديد
ولذلك لم يقل افامن اهل القرى ان ياتيهم باسنا وهم نائمون او ضحى وهم يلعبون
وقرئ او بسكون الواو على الترديد ان ياتيهم باسنا ضحى اى ضحوة النهار
وهو في الاصل ضوء الشمس اذا ارتفعت وهم يلعبون اى يلهون من فرط
الغفلة ويشتغلون بما لا ينفعهم كانهم يلعبون افامنوا مكر الله تكرير للنكير
لزيادة التقرير ومكر الله تعالى استعارة لاستدراجه العبد واخذه من حيث لا
يحتسب والمراد به اتيان باسه تعالى في الوقتين المذكورين ولذلك عطف الاول والثالث بالفاء
فان الانكار فيهما متوجه الى ترتب الامن على الاخذ المذكور واما الثاني فمن تتمة الاول
فلا يامن مكر الله الا القوم الخاسرون اى الذين خسروا انفسهم واضاعوا فطرة
الله التي فطر الناس عليها والاستعداد القريب المستفاد من النظر في الآيات اولم
يهد للذين يرثون الارض من بعد اهلها اى يخلفون من خلا قبلهم من
الامم المهلكة ويرثون ديارهم والمراد بهم اهل مكة ومن حولها وتعديته
فعل الهداية باللام اما لتنزيلها منزلة اللازم كانه قيل اغفلوا ولم يفعل الهداية لهم
الخ واما لانها بمعنى التبيين والمفعول محذوف والفاعل على التقديرين هو الجملة
الشرطية اى اولم يبين لهم مآل امرهم ان لو نشاء اصبناهم بذنوبهم اى ان
الشان لو نشاء اصبناهم بجزاء ذنوبهم او بسبب ذنوبهم كما اصبنا من قبلهم
وقرئ نهد بنون العظمة فالجملة مفعوله ونطبع على قلوبهم عطف على ما يفهم من
قوله تعالى اولم يهد كانه قيل لا يهتدون او يغفلون عن الهداية او عن التفكر والتامل
او منقطع عنه بمعنى ونحن نطبع ولا يجوز عطفه على اصبناهم على انه بمعنى طبعنا لافضائه
الى نفي الطبع عنهم لانه في سياق جواب لو فهم لا يسمعون اى اخبار الامم المهلكة
فضلا عن التدبر والنظر فيها والاغتنام بما في تضاعيفها من الهدايات تلك
القرى جملة مستانفة جارية مجرى الفذلكة فيها بعد ما اتتهم الرسل بالمعجزات
الباهرة وتلك اشارة الى قرى الامم المحكية على ان اللام للعهد وهو مبتدأ وقوله تعالى
نقص عليك من انبائها خبره وصيغة المضارع للايذان بعدم انقضاء القصة بعد و
من للتبعيض اى بعض اخبارها التي فيها عظة وتذكير وقيل تلك مبتدأ والقرى خبره
وما بعده حال او خبر بعد خبر عند من يجوز كون الخبر الثاني جملة كما في قوله تعالى فاذا هي
حية تسعى وتصدير الكلام بذكر القرى واضافة الانباء اليها مع ان المقصوص انباء
اهلها والمقصود بيان احوالهم حسبما يعرب عنه قوله ولقد جاءتهم رسلهم
بالبينات لما ان حكاية هلاكهم بالمرة على الوجه الاستئصال بحيث يشمل اماكنهم ايضا
بالخسف بها والرجفة وبقائها خاوية معطلة اهول وافظع والباء في قوله تعالى بالبينات
متعلقة اما بالفعل المذكور على انها للتعدية واما بمحذوف وقع حالا من فاعله اى
ملتبسين بالبينات لكن لا بان ياتي كل رسول ببينة واحدة بل ببينات كثيرة خاصة به
معينة له حسب اقتضاء الحكمة فان مراعاة انقسام الآحاد انما هي فيما بين الرسل وضمير
الامم والجملة مستانفة مبينة لكمال عتوهم وعنادهم اى وبالله لقد جاء كل امة من
تلك الامم المهلكة رسولهم الخاص بهم بالمعجزات البينة المتكثرة المتواردة عليهم
الواضحة الدلالة على صحة رسالته الموجبة للايمان حتما وقوله تعالى فما كانوا ليؤمنوا
بيان لاستمرار عدم ايمانهم في الزمان الماضي لا لعدم استمرار ايمانهم وترتيب حالهم
هذه على مجيء الرسل بالبينات بالفاء لما ان الاستمرار على فعل من الافعال بعد ورود ما
يوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه في الحقيقة لكنه بحسب العنوان فعل جديد

وضع حادث نحو وعظته فلم ينزجر ودعوته فلم يجب واللام لتأكيد النفي اي فما صح وما استقام لقوم من اولئك الاقوام في وقت من الاوقات ان يؤمنوا بل كان ذلك ممتنعا منهم لحالهم لغلوها في الغاية عتوهم وشدة شكيمتهم في الكفر والطغيان ثم ان كان المحكي عنهم آخر حال قوم منهم فالمراد بعدم ايمانهم المذكور ههنا اصرارهم على ذلك بعد اللتيا والتي وبما اشير اليه بقوله تعالى بما كذبوا من قبل تكذيبهم من لدن مجيء الرسل الى وقت الاصرار والعناد وانما لم يجعل ذلك مقصودا بالذات كالاول بل جعل صلة للموصول ايذانا بانه بين بنفسه وانما المحتاج الى البيان عدم ايمانهم بعد تواتر البينات الظاهرة وتظاهر المعجزات الباهرة التي كانت تضطرهم الى القبول لو كانوا من اصحاب العقول والموصول الذي تعلق به الايمان والتكذيب سلبا وايجابا عبارة عن جميع الشرايع التي جاء بها كل رسول اصولها وفروعها وان كان المحكي جميع احوال كل قوم منهم فالمراد بما ذكر اولا كفرهم المستمر من حين مجيء الرسل الى آخره وبما اشير اليه آخرا تكذيبهم قبل مجيئهم فلا بد من جعل الموصول المذكور عبارة عن اصول الشرايع التي اجتمعت عليه الرسل قاطبة ودعوا اممهم اليها اثر ذي اثير لاستحالة تبدلها وتغيرها مثل ملة التوحيد ولوازمها ومعنى تكذيبهم بها قبل مجيء رسلهم انهم ما كانوا في زمن الجاهلية بحيث لم يسمعوا كلمة التوحيد قط بل كانت كل امة من اولئك الامم يتسامعون بها من بقايا من قبلهم فيكذبونها ثم كانت حالتهم بعد مجيء رسلهم كحالتهم قبل ذلك كان لم يبعث اليهم احد وتخصيص التكذيب وعدم الايمان بما ذكر من الاصول لظهور حال الباقي بدلالة النص فانهم حين لم يؤمنوا بما اجمعت عليه كافة الرسل فلان لا يؤمنوا بما تفرد به بعضهم اولى وجعل عدم هذا التكذيب مقصودا بالذات لما انه ما عليه يدور فلك العذاب والعقاب هو التكذيب الواقع بعد الدعوة حسبما يعرب عنه قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وانما ذكر ما وقع قبلها بيانا لعراقتهم في الكفر والتكذيب وعلى كلا التقديرين فالضماير الثلاثة متوافقة في المرجع وقيل ضمير كذبوا راجع الى اسلافهم والمعنى فما كان الابناء ليؤمنوا بما كذب به الاباء ولا يخفى ما فيه من التعسف وقيل المراد ما كانوا ليؤمنوا لو احييناهم ورددناهم الى دار التكليف بما كذبوا من قبل كقوله تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وقيل الباء السببية وما مصدرية اي بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل ولا يرد عليه ههنا ما ورد في سورة يونس من مخالفة الجمهور بجعل ما المصدرية من قبيل الاسماء كما هو راي الاخفش وابن السراج ليرجع اليه الضمير في به كذلك اي مثل ذلك الطبع الشديد المحكم يطبع الله على قلوب الكافرين اي من المذكورين وغيرهم فلا يكاد يؤثر فيها الايات والنذر وفيه تحذير للسامعين واظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة وادخال الروعة وما وجدنا لاكثرهم اي اكثر الامم المذكورين واللام متعلقة بالوجدان كما في قولك ما وجدت له مالا اي ما صادفت له مالا ولا لقيته او بمحذوف وقع حالا من قوله تعالى من عهد لانه في الاصل صفة للنكرة فلما قدمت عليها انتصبت حالا والاصل وما وجدنا عهدا كائنا لاكثرهم ومن مزيدة للاستغراق اي وما وجدنا لاكثرهم من وفاء عهد فانهم نقضوا ما عاهدوا الله عليه عند مساس الباساء والضراء قائلين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فتخصيص هذا الشان باكثرهم ليس لان بعضهم كانوا يفون بعهودهم بل لان بعضهم كانوا لا يعهدون ولا يفون وقيل المراد بالعهد ما عهد الله تعالى اليهم من الايمان والتقوى بنصب الايات وانزال الحجج وقيل ما عاهدوا عند خطاب الست بربكم فالمراد باكثرهم كلهم وقيل الضمير للناس والجملة اعتراض فان اكثرهم لا يفون بالعهود باي معنى كان وان وجدنا اكثرهم اي اكثر الامم اي علمناهم كما في قولك وجدت زيدا ذا حفاظ وقيل للاول ايضا كذلك وان مخففة من ان وضمير الشان محذوف

اي ان

اي ان الشان وجدناهم لفاسقين خارجين عن الطاعة ناقضين للعهود وعند الكوفيين ان نافية واللام بمعنى الا اي وجدناهم الا فاسقين ثم بعثنا من بعدهم موسى اي ارسلناه من بعد انقضاء وقايع الرسل المذكورين عليهم السلام او من بعد هلاك الامم المحكية والتصريح بذلك مع دلالة ثم على التراخي للايذان بان بعثه عليه السلام جرى على سنن السنة الالهية من ارسال الرسل تترى وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر باياتنا متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعول بعثنا او صفة لمصدر اي بعثناه عليه السلام ملتبسا باياتنا او بعثناه بعثا ملتبسا بها وهي الايات التسع المفصلات التي هي العصا واليد البيضاء والسنون ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم حسبما سياتي على التفصيل الى فرعون هو لقب لكل من ملك مصر من العمالقة كما ان كسرى لقب لكل من ملك فارس وقيصر لكل من ملك الروم واسمه قابوس وقيل الوليد بن مصعب بن الريان وملايه اي اشراف قومه وتخصيصهم بالذكر مع عموم رسالته عليه السلام لقومه كافة حيث كانوا جميعا مامورين بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة الشنعاء التي كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية لاصالتهم في تدبير الامور واتباع غيرهم لهم في الورود والصدور فظلموا بها اي كفروا بها اجرى الظلم مجرى الكفر لكونهما من واد واحد او ضمن معنى الكفر او التكذيب اي ظلموا كافرين بها او مكذبين بها او كفروا بها مكان الايمان الذي هو من حقها لوضوحها ولهذا المعنى وضع ظلموا موضع كفروا وقيل ظلموا انفسهم بسببها بان عرضوها للعذاب الخالد او ظلموا الناس بصدهم عن الايمان بها والمراد به الاستمرار على الكفر بها الى ان لقوا من العذاب ما لقوا الا يرى الى قوله تعالى فانظر كيف كان عاقبة المفسدين فكما ان ظلمهم بها مستتبع لتلك العاقبة الهائلة كذلك حكاية ظلمهم بها مستتبع للامر بالنظر اليها وكيف خبر كان قدم على اسمها لاقتضائه الصدارة والجملة في حيز النصب باسقاط الخافض اي فانظر بعين عقلك الى كيفية ما فعلنا بهم ووضع المفسدين موضع ضميرهم للايذان بان الظلم مستلزم للافساد وقال موسى كلام مبتدا مسوق لتفصيل ما اجمل فيما قبله من كيفية اظهار الايات وكيفية عاقبة المفسدين يا فرعون اني رسول اليك من رب العالمين على الوجه الذي مر بيانه حقيق على ان لا اقول على الله الا الحق جواب عما ينساق اليه الذهن من حكاية ظلمهم بالايات من تكذيبه اياه عليه السلام في الرسالة وكان اصله حقيق على ان لا اقول الخ كما قراءة نافع فقلب للامن من الالباس كما في قول من قال وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر او لان ما لزمك فقد لزمته او للاغراق في الوصف بالصدق والمعنى واجب على القول الحق ان اكون انا قائله لا يرضى الا بمثلي ناطقا به او ضمن حقيق معنى حريص او وضع على موضع الباء لافادة التمكن كقولهم رميت على القوس وجئت على حال حسنة ويؤيده قراءة ابي بالباء وقرئ حقيق ان لا اقول وقوله تعالى قد جئتكم ببينة من ربكم استيناف مقرر لما قبله من كونه رسولا من رب العالمين وكونه حقيقا بقول الحق ولم يكن هذا القول منه عليه السلام وما بعده من جواب فرعون اثر ما ذكر ههنا بل بعد ما جرى بينهما من المحاورة المحكية بقوله تعالى قال فمن ربكما الايات وقوله تعالى وما رب العالمين الايات وقد طوى ههنا ذكره للايجاز ومن متعلقة اما بجئتكم على انها لابتداء الغاية مجازا واما بمحذوف وقع صفة لبينة مفيدة لفخامتها الاضافية المؤكدة لفخامتها الذاتية المستفادة من التنكير التفخيمي واضافة اسم الرب الى المخاطبين بعد اضافته فيما قبله الى العالمين لتاكيد وجوب الايمان بها فارسل معي بني اسرائيل اي فخلهم حتى يذهبوا معي الى الارض المقدسة التي هي وطن ابائهم وكان قد استعبدهم بعد انقراض الاسباط يستعملهم ويكلفهم الافاعيل الشاقة فانقذهم الله تعالى بموسى وكان بين اليوم الذي دخل يوسف مصر واليوم الذي دخله موسى عليهما السلام اربعمائة عام والفاء لترتيب الارسال او الامر به على ما قبله من رسالته ومجيئه بالبينة قال استيناف

وقع جوابا عن سؤال ينساق اليه الكلام كانه قيل فماذا قال فرعون له عليه السلام حتى قال
ما قال فقيل قال ان كنت جئت باية اى من عند من ارسلك كما تدعيه فات بها اي
فاحضرها حتى يثبت بها رسالتك ان كنت من الصادقين في دعواك فان كونك من جملة
المعروفين بالصدق يقتضى اظهار الاية فالقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين اى ظاهر
امره لا شك في كونه ثعبانا وهو الحية العظيمة وايثار الجملة الاسمية للدلالة على كمال
سرعة الانقلاب وثبات وصف الثعبانية فيها كانها في الاصل كذلك روى انه لما القاها
صارت ثعبانا اشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الاسفل على الارض
والاعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون فهرب منه واحدث وانهزم الناس
مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون الفا فصاح فرعون يا موسى انشدك بالذى
ارسلك خذه وانا اؤمن وارسل معك بنى اسرائيل فاخذه فعاد عصا ونزع يده
اى من جيبه او من تحت ابطه فاذا هي بيضاء للناظرين اى بيضا بياضا نورانيا
خارجا عن العادة يجتمع عليه النظارة تعجبا من امرها وذلك ما يروى انه ارى فرعون
يده وقال ما هذه فقال يدك ثم ادخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها فاذا هي
بيضا بياضا نورانيا غلب شعاعها شعاع الشمس وكان عليه السلام ادم شديد الادمة
وقيل بيضاء للناظرين لانها كانت بيضاء في جبلتها قال الملأ من قوم فرعون اي
الاشراف وهم اصحاب مشورته ان هذا لساحر عليم اى مبالغ في علم السحر ماهر
فيه قالوه تصديقا لفرعون وتقريرا لكلامه فان هذا القول بعينه معزى في سورة الشعراء
اليه يريد ان يخرجكم من ارضكم اى من ارض مصر فماذا تامرون بفتح النون
وما في ماذا في محل النصب على انه مفعول ثان لتامرون بحذف الجار والاول محذوف
والتقدير باى شئ تامرون وهذا من كلام فرعون كما في قوله تعالى ذلك ليعلم انى لم اخنه
بالغيب اى فاذا كان كذلك فماذا تشيرون علي في امره وقيل قاله الملأ عن قبله بطريق
التبليغ الى العامة فقوله تعالى قالوا ارجه واخاه على الاول وهو الاظهر حكاية
لكلام الملأ الذين شاورهم فرعون وعلى الثاني لكلام العامة الذين خاطبهم
الملأ ويأباه ان الخطاب لفرعون وان المشاورة ليست من وظايفهم اى اخره واخاه
وعدم التعرض لظهور كونه معه حسبما ينادي به الايات الاخر والمعنى اخر امرهما
واصدرهما عنك حتى ترى رايك فيهما وتدبر شانهما وقرى ارجئه وارجه من ارجاه
وارسل في المدائن حاشرين قيل هي مدائن صعيد مصر وكان رؤساء السحرة في
مهرتهم باقصى مدائن الصعيد وعن ابن عباس رضي الله عنه انهم كانوا سبعين ساحرا
قد اخذوا السحر من رجلين مجوسيين من اهل نينوى مدينة يونس عليه السلام
بالموصل ورد ذلك بان المجوسية ظهرت بزرادشت وهو انما جاء بعد موسى عليه
السلام يأتوك بكل ساحر عليم اى ماهر في السحر وقرئ بكل سحار عليم
والجملة جواب الامر وجاء السحرة فرعون بعد ما ارسل اليهم الحاشرين وانما لم
يصرح به حسبما في قوله تعالى فارسل فرعون في المدائن حاشرين للايذان بمسارعة
فرعون الى الارسال ومبادرة الحاشرين والسحرة الى الامتثال قالوا استيناف منوط
سؤال نشاء من حكاية مجئ السحرة كانه قيل فماذا قالوا له عند مجيئهم اياه فقيل
قالوا مدلين بما عندهم واثقين بغلبتهم ان لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين بطريق
الاخبار بثبوت الاجر وايجابه كانهم قالوا لا بد لنا من اجر عظيم حينئذ او بطريق
الاستفهام التقريري بحذف الهمزة وقرى باثباتها وفي لهم ان كنا لمجرد تعيين
مناط ثبوت الاجر لا لتردده في الغلبة وتوسيط الضمير وتحليه الخبر باللام للقصر
اى ان كنا نحن الغالبين لا موسى قال نعم وقوله تعالى وانكم لمن المقربين عطف
على محذوف سد مسده حرف الايجاب كانه قال ان لكم لاجرا وانكم مع ذلك لمن المقربين
للمبالغة في الترغيب وروي انه قال لهم تكونون اول من يدخل مجلسي واخر من يخرج
عنه قالوا استيناف كما مر كانه قيل فماذا فعلوا بعد ذلك فقيل قالوا متصدين لشانهم

مخاطبين لموسى عليه السلام يا موسى اما ان تلقى ما تلقى اولا واما ان نكون نحن
الملقين اى لما نلقي اولا والفاعلين للالقاء خيروه عليه السلام بالبدء بالالقاء مراعاة
للادب واظهارا للجلادة وانه لا يختلف حالهم بالتقديم والتاخير ولكن كانت رغبتهم
في التقديم كما ينبئ عنه تغييرهم للنظم بتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل وتاكيد الضمير
المتصل قال القوا غير مبال بامرهم اى القوا ما تلقون فلما القوا ما القوا سحروا
اعين الناس بان خيلوا اليهم ما لا حقيقة له واسترهبوهم اي بالغوا في ارهابهم
وجاؤا بسحر عظيم في بابه روي انهم القوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا كانها حيات
ملات الوادى وركب بعضها بعضا واوحينا الى موسى ان الق عصاك فاذا
هي تلقف ما يافكون الفاء فصيحة اى فالقاها فصارت حية فاذا هي الاية و
انما حذف للاشعار بمسارعة موسى عليه السلام الى الالقاء بغاية سرعة الانقلاب
كان لقفها لما يافكون قد حصل متصلا بالامر بالالقاء وصيغة المضارع
لاستحضار صورة اللقف الهائلة والافك الصرف والقلب عن الوجه المعتاد وما موصولة
او موصوفة والعائد محذوف اى ما يافكونه ويزورونه او مصدرية وهي مع
الفعل بمعنى المفعول روي انه لما تلقفت ملا الوادى من الخشب والحبال ورفعها
موسى فرجعت عصا كانت واعدم الله تعالى بقدرته الباهرة تلك الاجرام العظام او
فرقها اجزاء لطيفة قالت السحرة لو كان هذا سحرا لبقيت حبالنا وعصينا فوقع الحق
اى فثبت لظهور امره وبطل ما كانوا يعملون اى ظهر بطلان ما كانوا مستمرين
على عمله فغلبوا اى فرعون وقومه هنالك اى في مجلسهم وانقلبوا صاغرين
اى صاروا اذلاء مبهوتين او رجعوا الى المدينة اذلاء مقهورين والاول هو الظاهر
لقوله تعالى والقى السحرة ساجدين فان ذلك كان بمحضر من فرعون قطعا اى خروا
سجدا كانما القاهم ملق لشدة خرورهم كيف لا وقد بهرهم الحق واضطرهم
الى ذلك قالوا امنا برب العالمين رب موسى وهرون ابدلوا الثاني من الاول
لئلا يتوهم ان مرادهم فرعون عن ابن عباس انه قال لما امنت السحرة اتبع موسى
من بني اسرائيل ستمائة الف قال فرعون منكرا على السحرة موبخا لهم على ما فعلوا
امنتم به بهمزة واحدة اما على الاخبار المحض المتضمن للتوبيخ او على الاستفهام
التوبيخي بحذف الهمزة كما مر في ان لنا لاجرا وقد قرئ بتحقيق الهمزتين معا
وبتحقيق الاولى وتسهيل الثانية بين بين اى امنتم بالله تعالى قبل ان اذن لكم
بغير ان اذن لكم كما في قوله تعالى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي لا ان الاذن
منه ممكن في ذلك ان هذا لمكر مكرتموه يعني ان ما صنعتموه ليس مما اقتضى
الحال صدوره عنكم لقوة الدليل وظهور المعجزة بل هو حيلة احتلتموها مع
مواطاة موسى في المدينة يعني مصر قبل ان تخرجوا الى الميعاد روي ان موسى عم و
امير السحرة التقيا فقال له موسى عليه السلام ارايتك ان غلبتك اتؤمن بي وتشهد
ان ما جئت به الحق فقال الساحر والله لئن غلبتني لاومنن بك وفرعون يسمعهما
وهو الذي نشاء عنه هذا القول لتخرجوا منها اهلها اى القبط وتخلص هي
لكم ولبني اسرائيل وهاتان شبهتان القاهما الى اسماع عوام القبط عند معاينتهم
لارتفاع اعلام المعجزة ومشاهدتهم لخضوع اعناق السحرة لها وعدم تمالكهم
من ان يؤمنوا بها لمنعهم بهما عن الايمان بنبوة عم بارائة ان ايمان السحرة مبنى
على المواضعة بينهم وبين موسى وان غرضهم بذلك اخراج القوم من المدينة
وابطال ملكهم ومعلوم ان مفارقة الاوطان المالوفة والنعمة المعروفة مما
لا يطاق به فجمع اللعين بين الشبهتين تثبيتا للقبط على ما هم عليه وتهييجا لعداوتهم
له عليه السلام ثم عقبهما بالوعيد ليريهم ان له قوة وقدرة على المدافعة فقال
فسوف تعلمون اى عاقبة ما فعلتم وهذا وعيد ساقه بطريق الاجمال للتهويل
ثم عقبه بالتفصيل فقال لاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف اى من كل شق

طرفًا ثم لاصلبنكم اجمعين تفضيحًا لكم وتنكيلًا لامثالكم قيل هو اول من بين ذلك
فشرعه الله تعالى لقطاع الطريق تعظيمًا لجرمهم ولذلك سماه تعالى محاربة لله ورسوله قالوا
استيناف مسوق للجواب عن سؤال ينساق اليه الذهن كانه قيل فماذا قالت السحرة عند
ما سمعوا وعيد فرعون هل تأثروا به او تصلبوا فيما هم فيه من الدين فقيل قالوا
ثابتين على ما احدثوا من الايمان انا الى ربنا منقلبون اى بالموت لا محالة فسواء كان
ذلك من قبلك اولا فلا نبالي بوعيدك او انا الى رحمة ربنا وثوابه منقلبون ان فعلت
بنا ذلك كانهم استطابوه شغفا على لقاء الله تعالى او انا جميعا الى ربنا منقلبون فيحكم
بيننا وبينك وما تنقم منا اى وما تنكر وتعيب منا الا ان امنا بايات ربنا لما
جاءتنا وهو خير الاعمال واصل المفاخر ليس مما يتأتى لنا العدول عنه طلبا لمرضاتك ثم
اعرضوا عن مخاطبته اظهارًا لما في قلوبهم من العزيمة على ما قالوا وتقريرًا له ففزعوا الى الله
عز وجل وقالوا ربنا افرغ علينا صبرا اى افض علينا من الصبر ما يغمرنا كما
يغمر الماء او صب علينا ما يطهرنا من اوضار الاوزار وادناس الاثام وهو الصبر على
وعيد فرعون وتوفنا مسلمين ثابتين على ما رزقتنا من الاسلام غير مفتونين من
الوعيد قيل فعل بهم ما اوعدهم به وقيل لم يقدر عليه لقوله تعالى انتما ومن
اتبعكما الغالبون وقال الملأ من قوم فرعون مخاطبين له بعد ما شاهدوا من امر
موسى عليه السلام اتذر موسى وقومه ليفسدوا في الارض اى في ارض مصر
بتغيير الناس عليك وصرفهم عن متابعتك ويذرك عطف على يفسدوا او جواب
الاستفهام بالواو كما في قول الحطيئة الم اك جاركم ويكون بيني وبينكم المودة
والاخاء اى ايكون منك ترك موسى ويكون تركه اياك وقرئ بالرفع عطفا على تذر
او استينافًا او حالًا وقرئ بالسكون كانه قيل يفسدوا ويذرك كقوله تعالى فاصدق
واكن والهتك ومعبوداتك قيل انه كان يعبد الكواكب وقيل صنع لقومه اصناما
وامرهم بان يعبدوها تقربا اليه ولذلك قال انا ربكم الاعلى وقرئ والهتك اى عبادتك
قال مجيبا لهم سنقتل ابناءهم ونستحيي نساءهم كما كنا نفعل بهم ذلك من
قبل ليعلم انا على ما كنا عليه من القهر والغلبة ولا يتوهم انه المولود الذي
حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يديه وقرئ سنقتل بالتخفيف وانا فوقهم
قاهرون كما كنا لم يتغير حالنا اصلا وهم مقهورون تحت ايدينا كذلك قال
موسى لقومه تسلية لهم وعدة بحسن العاقبة حين سمعوا قول فرعون وتضجروا منه استعينوا بالله واصبروا على ما سمعتم من اقاويله الباطلة
ان الارض لله اى ارض مصر او جنس الارض وهي داخلة فيها دخولا اوليًا
يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين الذين انتم منهم وفيه ايذان
بان الاستعانة بالله تعالى والصبر من باب التقوى وقرئ والعاقبة بالنصب عطفا على
اسم ان قالوا اى بنو اسرائيل اوذينا اى من جهة فرعون من قبل ان تأتينا
اى بالرسالة يعنون بذلك قتل ابنائهم قبل مولد موسى عليه السلام وبعده [illegible]
ومن بعد ما جئتنا اى رسولا يعنون به ما توعدهم به من اعادة قتل الابناء وساير
ما كان يفعل بهم لعداوة موسى عليه السلام من فنون الجور والظلم والعذاب
واما ما كانوا يستعبدون به ويمتهنون فيه من انواع الخدم والمهن كما قيل فليس
مما يلحقهم بواسطته عليه السلام فليس لذكره كثير ملابسة بالمقام قال
اى موسى عليه السلام لما راى شدة جزعهم مما شاهدوه مسليا لهم بالتصريح
بما لوح به في قوله ان الارض لله الخ عسى ربكم ان يهلك عدوكم الذي فعل
بكم ما فعل وتوعدكم باعادته ويستخلفكم في الارض اى يجعلكم خلفاء
في ارض مصر فينظر كيف تعملون احسنا ام قبيحا فيجازيكم حسبما يظهر منكم
من الاعمال وفيه تأكيد للتسلية وتحقيق للامر قيل الاتيان بفعل الطمع لعدم الجزم
منه عليه السلام بانهم هم المستخلفون باعيانهم او اولادهم فقد روي ان مصر

انما فتح في زمن داود عليه السلام ولا يساعده قوله تعالى واورثنا القوم الذين
كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها فان المتبادر استخلاف انفس المستضعفين
لا استخلاف اولادهم وانما مجيء فعل الطمع للجري على سنن الكرماء ولقد اخذنا آل
فرعون بالسنين شروع في تفصيل مبادي الهلاك الموعود وايذان بانه تعالى لم
يمهلهم بعد ذلك ولم يكونوا في خفض ودعة بل رتبت اسباب هلاكهم فتحولوا
من حال الى حال الى ان حل بهم عذاب الاستيصال وتصدير الجملة بالقسم لاظهار
الاعتناء بمضمونها والسنون جمع سنة والمراد بها عام القحط وفيها لغتان
اشهرهما اجراؤها مجرى المذكر السالم فيرفع بالواو وينصب ويجر بالياء ويحذف
نونه بالاضافة واللغة الثانية اجراء الاعراب على النون ولكن مع الياء خاصة اما
باثبات تنوينها او بحذفه قال الفراء هي هذه اللغة مصروفة عند بني عامر وغير مصروفة
عند بني تميم ووجه حذف التنوين التخفيف وحينئذ لا يحذف النون للاضافة
وعلى ذلك جاء قول الشاعر دعاني من نجد فان سنينه لعبن بنا شيبا وشيبننا
مردا وجاء الحديث اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف وسنينا كسنين
يوسف باللغتين ونقص من الثمرات باصابة العاهات عن كعب يأتي على الناس
زمان لا تحمل النخلة الا ثمرة قال ابن عباس اما السنون فكانت لباديتهم واهل
مواشيهم واما نقص الثمرات فكان في امصارهم لعلهم يذكرون يتذكروا ويتعظوا
بذلك ويقفوا على ان ذلك لاجل معاصيهم وينزجروا عما هم عليه من العتو و
الفساد قال الزجاج ان احوال الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله عز وجل
في الرجوع اليه تعالى الا يرى قوله تعالى واذا مسه الشر فذو دعاء عريض وقد مر تحقيق القول
في لعل وفي محلها في تفسير قوله تعالى لعلكم تتقون في اوائل سورة البقرة وقوله تعالى
فاذا جاءتهم الحسنة الخ بيان لعدم تذكرهم وتماديهم في الغي اى فاذا جاءتهم السعة
والخصب وغيرهما من الخيرات قالوا لنا هذه اى لاجلنا واستحقاقنا لها وان تصبهم
سيئة اى جدب وبلاء يطيروا بموسى ومن معه اى يتشاءموا بهم ويقولوا ما
اصابتنا الا بشؤمهم وهذا كما ترى شاهد بكمال قساوة قلوبهم ونهاية جهلهم وغباوتهم
فان الشدائد ترقق القلوب وتلين العرايك لا سيما بعد مشاهدة الايات وقد كانوا بحيث لم
يؤثر فيهم شيء منها بل ازدادوا عتوا وعنادا وتعريف الحسنة وذكرها باداة التحقيق
للايذان بكثرة وقوعها وتعلق الارادة بها بالذات كما ان تنكير السيئة وايرادها بحرف
الشك للاشعار بندرة وقوعها وعدم تعلق الارادة بها الا بالعرض قوله تعالى الا انما طائرهم
عند الله استيناف مسوق من قبله تعالى لرد مقالتهم الباطلة وتحقيق الحق في
ذلك وتصديره بكلمة التنبيه لابراز كمال العناية بمضمونه اى ليس سبب خيرهم
الا عنده تعالى وهو حكمه ومشيئته المتضمنة للحكم والمصالح او ليس سبب شؤمهم
وهو اعمالهم السيئة الا عنده تعالى اى مكتوبة لديه فانها التي ساقت اليهم ما يسوؤهم
لا ما عداها وقرئ انما طيرهم وهو اسم جمع طائر وقيل جمع له ولكن اكثرهم
لا يعلمون ذلك فيقولون ما يقولون مما حكي عنهم واسناد عدم العلم الى اكثرهم
للاشعار بان بعضهم يعلمون ان ما اصابهم من الخير والشر من جهة الله تعالى او يعلمون
ان ما اصابهم من المصائب والبلايا ليس الا بما كسبت ايديهم ولكن لا يعملون
بمقتضاه عنادا واستكبارا وقالوا شروع في بيان بعض آخر مما اخذ به آل
فرعون من فنون العذاب التي هي في انفسها ايات بينات وعدم ارعوائهم
مع ذلك عما كانوا عليه من الكفر والعناد اى قالوا بعد ما راوا من شأن العصا
والسنين ونقص الثمرات مهما تأتنا به كلمة مهما تستعمل للشرط والجزاء واصلها ما
الجزائية ضمت اليها ما المزيدة للتأكيد كما ضمت الى اين وان في اينما تكونوا واما تذهبن بك
خلا ان الف الاولى قلبت هاء حذرا من تكرير المتجانسين هذا هو راي السديد وقيل
مه كلمة تصوت بها الناهي ضمت اليها ما الشرطية ومحلها الرفع بالابتداء والنصب

بفعل يفسره ما بعدها اى اى شئ تظهره لدينا وقوله تعالى من اية بيان لمهما وتسميتهم
اياها اية لمجاراتهم على زاي موسى عليه السلام واستهزائهم بها وللاشعار بان
عنوان كونها آية لايؤثر فيهم وقوله تعالى لتسحرنا بها اظهار لكمال الطغيان والغلو
فيه وتسمية للارشاد الى الحق بالسحر وتسكير الابصار والضميران المجروران راجعان
الى مهما وتذكير الاول لمراعاة جانب اللفظ لابهامه وتانيث الثانى للمحافظة على
جانب المعنى لتبيينه باية كما فى قوله تعالى ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما
يمسك فلا مرسل له ۝ فما نحن لك بمؤمنين ۝ بمصدقين لك ومؤمنين لنبوتك فارسلنا
عليهم عقوبة لجرائمهم لاسيما لقولهم هذا الطوفان ۝ اى الماء الذى طاف بهم
وغشى اماكنهم وحروثهم من مطر او سيل وقيل هو الجدرى وقيل الموتان
وقيل الطاعون ۝ والجراد والقمل ۝ قيل هو كبار القردان وقيل اولاد الجراد قبل نبات
اجنحتها ۝ والضفادع والدم ۝ روى انهم مطروا ثمانية ايام فى ظلمة شديدة
لا يستطيع ان يخرج احد من بيته ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه الى تراقيهم
ولم يدخل بيوت بنى اسرائيل منه قطرة وهى فى خلال بيوتهم وفاض الماء على ارضهم
وركد فمنعهم من الحرث والتصرف ودام ذلك سبعة ايام فقالوا له عليه السلام
ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك فدعى فكشف عنهم فنبت من العشب والكلاء
ما لم يعهد قبله فلم يؤمنوا فبعث الله عليهم الجراد فاكل زروعهم وثمارهم
وابوابهم وسقوفهم وثيابهم ففزعوا اليه عليه السلام كما ذكر فخرج الى الصحراء واشار
بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت الى النواحى التى جاءت منها فلم يؤمنوا فسلط الله
عليهم القمل فاكل ما ابقته الجراد وكان يقع فى اطعمتهم ويدخل بين ثيابهم وجلودهم
فيمصها ففزعوا اليه ثالثا فرفع عنهم فقالوا قد تحققنا الآن انك ساحر ثم ارسل الله
عليهم الضفادع بحيث لا يكشف ثوب ولا طعام الا وجدت فيه وكانت تمتلى منها
مضاجعهم وتثبت الى قدورهم وهى تغلى والى افواههم عند التكلم ففزعوا اليه
رابعا وتضرعوا فاخذ عليهم العهود فدعى فكشف الله عنهم فنقضوا العهد فارسل
الله عليهم الدم فصارت مياههم دما حتى كان يجتمع القبطى والاسرائيلى على اناء
فيكون ما عليه دما وما يلى الاسرائيلى ما على حاله ويمص من فم الاسرائيلى فيصير
دما فى فيه وقيل سلط الله عليهم الرعاف ۝ ايات ۝ حال من المنصوبات المذكورة
مفصلات ۝ مبينات لا يشكل على عاقل انها ايات الله تعالى ونقمته وقيل مفرقات بعضها من
بعض لامتحان احوالهم وكان بين كل اثنتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة منها
اسبوعا وقيل انه عليه السلام لبث فيهم بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم
هذه الآيات على مهل ۝ فاستكبروا ۝ اى عن الايمان بها ۝ وكانوا قوما مجرمين ۝ جملة
معترضة مقررة لمضمون ما قبلها ۝ ولما وقع عليهم الرجز ۝ اى العذاب المذكور على
التفصيل فاللام للجنس المنتظم لكل واحدة من الآيات المفصلة اى كلما وقع عليهم
عقوبة من تلك العقوبات ۝ قالوا ۝ فى كل مرة ۝ يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ۝
اى بعهده عندك وهو النبوة او بالذى عهد اليك ان تدعوه فيجيبك كما اجابك فى
اياتك وهى صلة او حال من الضمير فيه بمعنى ادع الله متوسلا اليه بما عهد عندك او متعلق
بمحذوف دل عليه التماسهم مثل اسعفنا الى ما نطلب بحق ما عندك او قسم اجيب بقوله
تعالى ۝ لئن كشفت عنا الرجز ۝ الذى وقع علينا ۝ لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل ۝
اى اقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت الخ ۝ فلما كشفنا عنهم الرجز الى اجل هم بالغوه ۝
الى حد من الزمان هم بالغوه فمعذبون بعده او مهلكون ۝ اذا هم ينكثون ۝ جواب لما
اى فلما كشفنا عنهم فاجئوا النكث من غير تامل وتوقف ۝ فانتقمنا منهم ۝ اى فاردنا
ان ننتقم منهم لما اسلفوا من المعاصى والجرائم فان قوله تعالى فاغرقناهم عين الانتقام
منهم فلا يصح دخول الفاء بينهما ويجوز ان يكون المراد مطلق الانتقام والفاء تفسيرية
كما فى قوله تعالى ونادى نوح ربه فقال رب الخ ۝ فى اليم ۝ فى البحر الذى لا يدرك قعره وقيل

فى لجته ۝ بانهم كذبوا باياتنا وكانوا عنها غافلين ۝ تعليل للاغراق اى كان اغراقهم بسبب
تكذيبهم بايات الله تعالى واعراضهم عنها وعدم تفكرهم فيها بحيث صاروا كالغافلين عنها
بالكلية والفاء وان دلت على ترتب الاغراق على ما قبله من النكث لكنه بالتعليل ايذانا
بان مدار جميع ذلك تكذيب ايات الله تعالى والاعراض عنها ليكون ذلك مزجرة للسامعين
عن تكذيب الايات الظاهرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم والاعراض عنها
واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون ۝ اى بالاستعباد وذبح الابناء والجمع بين
صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار الاستضعاف وتجدده وهم بنوا اسرائيل ذكروا
بهذا العنوان اظهارا لكمال لطفه تعالى لهم وعظيم احسانه اليهم فى رفعهم من حضيض
المذلة الى اوج العزة ۝ مشارق الارض ومغاربها ۝ اى جانبيها الشرقى والغربى حيث
ملكها بنوا اسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتصرفوا فى اكنافها الشرقية والغربية كيف
شاؤا وقوله تعالى ۝ التى باركنا فيها ۝ اى بالخصب وسعة الارزاق صفة للمشارق و
المغارب وقيل للارض وفيه ضعف للفصل بين الصفة والموصوف بالمعطوف كما فى
قولك قام ام هند وابوها العاقلة ۝ وتمت كلمة ربك الحسنى ۝ وهى وعده تعالى اياهم
بالنصر والتمكين كما ينبئ عنه قوله تعالى ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم
ائمة ونجعلهم الوارثين وقرئ كلمات لتعدد المواعيد ومعنى تمت مضت واستمرت
على بنى اسرائيل بما صبروا ۝ اى بسبب صبرهم على الشدائد التى كابدوها من جهة
فرعون وقومه ۝ ودمرنا ۝ اى خربنا واهلكنا ۝ ما كان يصنع فرعون وقومه ۝
من العمارات والقصور اى ودمرنا الذى كان فرعون يصنعه على ان فرعون اسم كان
ويصنع خبر مقدم والجملة الكونية صلة والعائد محذوف وقيل اسم كان ضمير عائد
الى ما الموصول ويصنع مسند الى فرعون والجملة خبر كان والعائد محذوف ايضا و
التقدير ودمرنا الذى كان هو يصنعه فرعون الى آخره وقيل كان زائدة وما
مصدرية والتقدير ما يصنع فرعون الخ وقيل كان زائدة كما ذكر وما موصولة
اسمية والعائد محذوف تقديره ودمرنا الذى يصنعه فرعون الى آخره اى صنعه
والعدول الى صيغة المضارع على هذين القولين لاستحضار الصورة ۝ وما كانوا
يعرشون ۝ من الجنات او ما كانوا يرفعونه من البنيان كصرح هامان وقرئ يعرشون
بضم الراء والكسر افصح وهذا آخر قصة فرعون وقومه وقوله عز وجل ۝ وجاوزنا
ببنى اسرائيل البحر ۝ شروع فى قصة بنى اسرائيل وشرح ما احدثوه من الامور الشنيعة
بعد ان انقذهم الله عز وجل من ملكة فرعون ومن عليهم من النعم العظام الموجبة
للشكر واراهم من الآيات الكبار ما تخر له صم الجبال تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم
وايقاظا للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة انفسهم ومراقبة احوالهم وجاوز بمعنى
جاز وقرئ جوزنا للتشديد وهو ايضا بمعنى جاز فعلى فعدى بالباء اى قطعنا بهم
البحر روى انه عبر بهم موسى يوم عاشوراء بعد ما اهلك الله تعالى فرعون فصاموا
شكرا لله عز وجل ۝ فاتوا ۝ اى مروا ۝ على قوم ۝ قيل كانوا من لخم وقيل من العمالقة الكنعانيين
الذين امر موسى عليه السلام بقتالهم ۝ يعكفون على اصنام لهم ۝ اى يواظبون
على عبادتها ويلازمونها وقرئ بكسر الكاف قال ابن جريج كانت اصنامهم تماثيل بقر
وهو اول شان العجل ۝ قالوا ۝ عند ما شاهدوا احوالهم ۝ يا موسى اجعل لنا الها ۝
مثالا نعبده ۝ كما لهم آلهة ۝ الكاف متعلقة بمحذوف وقع صفة لالها وما
موصولة ولهم صلتها وآلهة بدل من ما والتقدير اجعل لنا الها كائنا كالذى استقر
هو لهم ۝ قال انكم قوم تجهلون ۝ تعجب عليه السلام من قولهم هذا اثر ما شاهدوا
من الآية الكبرى والمعجزة العظمى فوصفهم بالجهل المطلق اذ لا جهل اعظم مما ظهر منهم
واكده وقوله ۝ ان هؤلاء ۝ يعنى القوم الذين يعبدون تلك التماثيل ۝ متبر ۝ اى مدمر
مكسر ۝ ما هم فيه ۝ اى من الدين الباطل اى يتبر الله تعالى ويهدم دينهم الذى هم
عليه عن قريب ويحطم اصنامهم ويتركها رضاضا وانما جئ بالجملة الاسمية للدلالة على

على التحقيق وباطل اى مضمحل بالكلية ما كانوا يعملون من عبادتها وان كان قصدهم
بذلك التقرب الى الله تعالى فانه كفر محض وليس هذا كما فى قوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا
من عمل فجعلناه هباء منثورا كما توهم فان المراد به اعمال البر التى عملوها فى الجاهلية
فانها فى انفسها حسنات لو قارنت الايمان لاستتبعت اجورها وانما بطلت لمقارنتها
الكفر وفى ايقاع هؤلاء اسما لان وتقديم الخبر من الجملة الواقعة خبرا لها وسم لعبدة
الاصنام بانهم هم المعرضون للتبار وانه لا يعدوهم البتة وانه لهم ضربة
لازب ليحذرهم عاقبة ما طلبوا ويبغض اليهم ما احبوا قال اغير الله ابغيكم
الها شروع فى بيان شؤون الله تعالى الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى بعد بيان ان
ما طلبوا عبادته مما لا يمكن طلبه اصلا لكونه هالكا باطلا ولذلك وسط بينهما
قال مع كون كل منهما كلام موسى عليه السلام والاستفهام للانكار والتعجب والتوبيخ
وادخال الهمزة على غير للايذان بان المنكر هو كون المبغى غيره تعالى لا انه لاختصاص الانكار
بغيره تعالى وانتصاب غير على انه مفعول ابغى بحذف اللام اى ابغى لكم اى اطلب لكم
غير الله تعالى والها اما تمييز او حال او على الحالية من الها وهو المفعول لابغى على
ان الاصل ابغى لكم الها غير الله فغير الله صفة لالها فلما قدمت صفة النكرة انتصب
حالا وهو فضلكم على العالمين اى والحال انه تعالى خصكم بنعم لم يعطها غيركم
وفيه تنبيه على ما صنعوا من سوء المعاملة حيث قابلوا تخصيص الله تعالى اياهم
من بين امثالهم بما لم يستحقوه تفضلا بان عمدوا الى اخس شئ من مخلوقاته تعالى
فجعلوه شريكا له تعالى تبا لهم ولما يعبدون واذ انجيناكم تذكير لهم من جهته
سبحانه بنعمة الانجاء من ملكة فرعون وقرئ نجيناكم من التنجية وقرئ انجاكم
فيكون مسوقا من جهته موسى اى واذكروا وقت انجائنا اياكم من آل فرعون من
ملكتهم لا بمجرد تخليصكم من ايديهم وهم على حالهم فى المكنة والقدرة بل
بالكلية وقوله تعالى يسومونكم سوء العذاب من سامه خسفا اى اولاه اياه
او كلفه اياه وهو اما استئناف لبيان ما انجاهم منه او حال من المخاطبين او من
آل فرعون او منهما معا لاشتماله على ضميريهما وقوله تعالى يقتلون ابناءكم ويستحيون
نساءكم بدل من يسومونكم مبين او مفسر له وفى ذلكم الانجاء او سوء العذاب
بلاء اى نعمة او محنة من ربكم من مالك امركم فان النعمة والنقمة كلتيهما
منه سبحانه وتعالى عظيم لا يقادر قدره وواعدنا موسى ثلاثين ليلة روى ان
موسى عليه السلام وعد بنى اسرائيل وهم بمصر ان اهلك الله عدوهم اتاهم بكتاب
فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فامره بصوم
ثلاثين وهو شهر ذى القعدة فلما اتم الثلاثين انكر خلوف فيه فتسوك فقالت
الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فافسدته بالسواك وقيل اوحى الله تعالى اليه اما
علمت ان ريح فم الصائم اطيب عندى من ريح المسك فامره الله تعالى بان يزيد عليها
عشرة ايام من ذى الحجة لذلك وذلك قوله تعالى واتممناها بعشر والتعبير عنها بالليالى
لانها غرر الشهور وقيل امره الله تعالى بان يصوم ثلاثين يوما وان يعمل فيها بما يقربه
من الله تعالى ثم انزلت عليه التوراة فى العشر وكلم فيها وقد اجمل ذكر الاربعين
فى سورة البقرة وفصل ههنا وواعدنا بمعنى وعدنا وقد قرئ كذلك وقيل الصيغة
على بابها على تنزيل قبول موسى عليه السلام منزلة الوعد وثلاثين مفعول ثان
لواعدنا بحذف المضاف اى اتمام ثلاثين ليلة فتم ميقات ربه اربعين ليلة
اى بالغا اربعين ليلة وقال موسى لاخيه هرون حين توجه الى المناجاة حسبما
امر به اخلفنى اى كن خليفتى فى قومى وراقبهم فيما يأتون وما يذرون
واصلح ما يحتاج الى الاصلاح من امورهم او كن مصلحا ولا تتبع سبيل المفسدين
اى لا تتبع من سلك الافساد ولا تطع من دعاك اليه ولما جاء موسى لميقاتنا لوقتنا
الذى وقتناه واللام للاختصاص اى اختص مجيئه بميقاتنا وكلمه ربه من غير

واسطة

واسطة كما يكلم الملائكة عليهم السلام وفيما روى انه عليه السلام كان يسمع ذلك من كل جهة
تنبيه على ان سماع كلامه عز وجل ليس من جنس سماع كلام المحدثين قال رب ارنى انظر
اليك اى ارنى ذاتك بان تمكننى من رؤيتك او تتجلى لى فانظر اليك واراك وهو
دليل على ان رؤيته تعالى جائزة فى الجملة لما ان طلب المستحيل مستحيل من الانبياء لاسيما
ما يقتضى الجهل بشؤون الله تعالى ولذلك رد بقوله لن ترانى دون لن ارى ولن اريك ولن
تنظر الى تنبيها على انه قاصر عن رؤيته لتوقفها على معد فى الرائى ولم يوجد فيه ذلك
بعد وجعل السؤال لتبكيت قومه الذين قالوا ارنا الله جهرة خطأ اذ لو كانت الرؤية
ممتنعة لوجب ان يجهلهم ويزيح شبهتهم كما فعل ذلك حين قالوا اجعل لنا الها وان
لا يتبع سبيلهم كما قال لاخيه ولا تتبع سبيل المفسدين والاستدلال بالجواب على
استحالتها اشد خطأ اذ لا يدل الاخبار بعدم رؤيته اياه على انه ابدا وان لا يراه غيره
اصلا فضلا عن ان يدل على استحالتها ودعوى الضرورة مكابرة او جهل بحقيقة
الرؤية قال استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كانه قيل فماذا قال رب العزة
حين قال موسى عليه السلام ما قال فقيل قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر
مكانه فسوف ترانى استدراك لبيان انه لا يطيق بها وفى تعليقها باستقرار الجبل
ايضا دليل على الجواز ضرورة ان المعلق بالممكن ممكن والجبل قيل هو جبل اردن فلما
تجلى ربه للجبل اى ظهرت له عظمته وتصدى له اقتداره وامره وقيل اعطى الجبل
حياة ورؤية حتى رآه جعله دكا مدكوكا مفتتا والدك والدق اخوان كالشك
والشق وقرئ دكاء اى ارضا مستوية ومنه ناقة دكاء للتى لا سنام لها وقرئ دكا جمع
دكاء اى قطعا وخر موسى صعقا مغشيا عليه من هول ما رآه فلما افاق الافاقة
رجوع العقل والفهم الى الانسان بعد ذهابهما بسبب من الاسباب قال تعظيما لما
شاهده سبحانك اى تنزيها لك من ان اسألك شيئا بغير اذن منك تبت اليك
اى من الجراءة والاقدام على السؤال بغير اذن وانا اول المؤمنين اى بعظمتك و
جلالك وقيل اول من آمن بانك لا ترى فى الدنيا وقيل بانه لا يجوز السؤال بغير اذن
منك قال يا موسى استئناف مسوق لتسليته عليه السلام من عدم الاجابة الى سؤال
الرؤية كانه قيل ان منعتك الرؤية فقد اعطيتك من النعم العظام ما لم اعط احدا
فى العالمين فاغتنمها وثابر على شكرها انى اصطفيتك اى اخترتك واتخذتك
صفوة واثرتك على الناس اى المعاصرين لك وهارون وان كان نبيا كان مأمورا
باتباعه وما كان كليما ولا صاحب شرع برسالاتى اى باسفار التوراة برسالاتى
وبكلامى وبتكليمى اياك بغير واسطة فخذ ما آتيتك اى ما اعطيتك من شرف النبوة
وكن من الشاكرين على ما اعطيت من جلائل النعم قيل كان سؤال الرؤية يوم
عرفة واعطاء التوراة يوم النحر وكتبنا له فى الالواح من كل شئ اى مما يحتاجون
اليه من امور دينهم موعظة وتفصيلا لكل شئ بدل من الجار والمجرور
اى كتبنا له كل شئ من المواعظ وتفصيل الاحكام واختلف فى عدة الالواح وفى جوهرها
ومقدارها فقيل انها كانت عشرة الواح وقيل سبعة وقيل لوحين وانها كانت من زمردة
جاء بها جبريل عليه السلام وقيل من زبرجدة خضراء وياقوتة حمراء وقيل امر الله تعالى موسى
بقطعها صما لينها له فقطعها بيده وشققها باصابعه وعن الحسن كانت من خشب نزلت
من السماء فيها التوراة وان طولها كان عشرة اذرع وقيل انزلت التوراة وهى سبعون
وقر بعير يقرأ الجزء منه فى سنة لم يقرأها الا اربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى
عليهم السلام وعن مقاتل كتب فى الالواح انى انا الله الرحمن الرحيم لا تشركوا بى شيئا
ولا تقطعوا السبيل ولا تزنوا ولا تعقوا الوالدين فخذها على اضمار قول معطوف
على كتبنا اى فقلنا خذها بقوة بجد وعزيمة وقيل هو بدل من قوله تعالى فخذ ما
آتيتك والضمير للالواح او لكل شئ لانه بمعنى الاشياء او للرسالات او للتوراة وامر
قومك يأخذوا باحسنها اى باحسن ما فيها كالعفو والصبر بالاضافة الى الاقتصاص

والانتصار على طريقة الندب والحث على اختيار الافضل كما فى قوله تعالى واتبعوا احسن ما انزل
اليكم من ربكم او بواجباتها فانها احسن من المباح وقيل المعنى باخذوا بها واحسن صلة
قال قطرب اى بحسنها وكلها حسن كقوله تعالى ولذكر الله اكبر وقيل هو ان تحمل الكلمة
المحتملة لمعنيين او لمعان على اشبه محتملاتها بالحق واقربها الى الصواب ساريكم
دار الفاسقين تلوين للخطاب وتوجيه له الى قومه عليه السلام بطريق الالتفات
حملا لهم على الجد فى الامتثال بما امروا به اما على نهج الوعيد والترهيب على ان المراد
بدار الفاسقين ارض مصر وديار عاد وثمود واضرابهم فان رؤيتها وهى خالية
عن اهلها خاوية على عروشها موجبة للاعتبار والانزجار عن مثل اعمال اهلها
كيلا يحل بهم ما حل باولئك واما على نهج الوعد والترغيب على ان المراد بدار الفاسقين
اما ارض مصر خاصة او مع ارض الجبابرة والعمالقة بالشام فانها ايضا مما اتيح
لبنى اسرائيل وكتب لهم حسبما ينطق به قوله عز وجل يا قوم ادخلوا الارض المقدسة
التى كتب الله لكم ومعنى الاراءة الادخال بطريق الايراث ويؤيده قراءة من قرأ
ساورثكم بالثاء المثلثة كما فى قوله تعالى واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق
الارض ومغاربها وقرئ ساوريكم ولعله من اوريت الزند اى سابينها لكم وقوله
تعالى ساصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض استئناف مسوق لتحذيرهم
عن التكبر الموجب لعدم التفكر فى الآيات التى هى ما كتب فى الواح التوراة من المواعظ
والاحكام او ما يعمها وغيرها من الآيات التكوينية التى من جملتها ما وعد اراءته
من دار الفاسقين ومعنى صرفهم عنها الطبع على قلوبهم بحيث لا يكادون يتفكرون
فيها ولا يعتبرون بها لاصرارهم على ما هم عليه من التكبر والتجبر كقوله تعالى
فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء
بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع ان فى المؤخر نوع طول يخل تقديمه بتجاوب
اطراف النظم الجليل اى ساطبع على قلوب الذين يعدون انفسهم كبراء ويرون
لهم على الخلق مزية وفضلا فلا ينتفعون بآياتى التنزيلية والتكوينية ولا يغتنمون
مغانم آثارها فلا تسلكوا مسلكهم لتكونوا امثالهم وقيل المعنى ساصرفهم
عن ابطالها وان اجتهدوا كما اجتهد فرعون فى ابطال ما رآه من الآيات فابى الله الا احقاق
الحق وازهاق الباطل وعلى هذا فالانسب ان يراد بدار الفاسقين ارض الجبابرة والعمالقة المشهورين
بالفسوق والتكبر فى الارض وباراءتها للمخاطبين ادخالهم الشام واسكانهم فى مساكنهم
ومنازلهم حسبما نطق به قوله تعالى يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم
ويكون قوله تعالى ساصرف عن آياتى الخ جوابا عن سؤال مقدر ناشئ من الوعد بادخال الشام
على ان المراد بالآيات ما تلى آنفا ونظائره وبصرفهم عنها ازالتهم عن مقام معارضتها
وممانعتها لوقوع اخبارها وظهور احكامها وآثارها باهلاكهم على يد موسى عم
حين سار بعد التيه بمن بقى من بنى اسرائيل او بذراريهم على اختلاف الروايتين
الى اريحا ويوشع بن نون فى مقدمته ففتحها واستقر بنو اسرائيل بالشام وملكوا
مشارقها ومغاربها كانه قيل كيف يرون دارهم وهم فيها فقيل ساهلكهم
وانما عدل الى الصرف ليزدادوا ثقة بالآيات واطمئنانا بها وقوله تعالى بغير الحق اما
صلة للتكبر اى يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل وظلمهم المفرط او متعلق
بمحذوف هو حال من فاعله اى يتكبرون ملتبسين بغير الحق وقوله تعالى وان يروا كل آية
لا يؤمنوا بها عطف على يتكبرون داخل معه فى حكم الصلة والمراد بالآية اما المنزلة
فالمراد برؤيتها مشاهدتها بسماعها او ما يعمها وغيرها من المعجزات فالمراد برؤيتها
مطلق المشاهدة المنتظمة للسماع والابصار اى وان شاهدوا كل آية من الآيات
لا يؤمنوا بها على عموم النفى اى كفروا بكل واحدة منها لعدم اجتلائهم اياها كما هى
وهذا كما ترى يؤيد كون الصرف بمعنى الطبع وقوله تعالى وان يروا سبيل الرشد
لا يتخذوه سبيلا عطف على ما قبله داخل فى حكمه اى لا يتوجهون الى الحق و

لا يسلكون

لا يسلكون سبيله اصلا لاستيلاء الشيطنة عليهم ومطبوعيتهم على الانحراف و
الزيغ وقرئ بفتحتين وقرئ الرشاد وثلاثتها لغات كالسقم والسقم والسقام
وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا اى يختاروه لانفسهم مسلكا مستمرا لا يكادون
يعدلون عنه لموافقته لاهوائهم الباطلة وافضائه بهم الى شهواتهم ذلك
اشارة الى ما ذكر من تكبرهم وعدم ايمانهم بشئ من الآيات واعراضهم عن
سبيل الرشد واقبالهم التام الى سبيل الغى وهو مبتدأ خبره قوله تعالى بانهم
اى حاصل بسبب انهم كذبوا بآياتنا الدالة على بطلان ما اتصفوا به من القبائح وعلى
حقيقة اضدادها وكانوا عنها غافلين لا يتفكرون فيها والا لما فعلوا ما فعلوا من الاباطيل
ويجوز ان يكون اشارة الى ما ذكر من الصرف ولا يمنعه الاشعار بعلية ما فى حيز
الصلة كيف لا وقد مر ان ذلك فى قوله تعالى ذلك بما عصوا الآية يجوز ان يكون اشارة
الى ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم مع كون ذلك معللا بالكفر بآيات الله
صريحا وقيل محل اسم الاشارة النصب على المصدر اى ساصرفهم ذلك الصرف بسبب
تكذيبهم بآياتنا وغفلتهم عنها والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة اى و
بلقائهم الدار الآخرة او لقائهم ما وعده الله تعالى فى الآخرة من الجزاء ومحل الموصول
الرفع على الابتداء وقوله تعالى حبطت اعمالهم خبره اى ظهر بطلان اعمالهم التى كانوا
عملوها من صلة الارحام واغاثة الملهوفين ونحو ذلك او حبطت بعد ما كانت مرجوة
النفع على تقدير ايمانهم بها هل يجزون اى لا يجزون الا ما كانوا يعملون اى الا
جزاء ما كانوا يعملون من الكفر والمعاصى واتخذ قوم موسى من بعده اى من بعد ذهابه
الى الطور من حليهم متعلق باتخذ كالجار الاول لاختلاف معنييهما فان الاول
للابتداء والثانى للتبعيض او للبيان او الثانى متعلق بمحذوف وقع حالا مما بعده
اذ لو تأخر لكان صفة له واضافة الحلى اليهم مع انها كانت للقبط لادنى الملابسة
حيث كانوا استعاروها من اربابها قبيل الغرق فبقيت فى ايديهم واما انهم ملكوها
بعد الغرق بتملك بنى اسرائيل غنائم القبط وهم مستامنون فيما بينهم فلا
يساعده قولهم حملنا اوزارا من زينة القوم والحلى بضم الحاء وكسر اللام جمع حلى
كثدى وثدى وقرئ بكسر الحاء بالاتباع كدلى وقرئ حليهم على الافراد وقوله تعالى
عجلا مفعول اتخذ اخر عن المجرور لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى
المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بتجاوب اطراف النظم الكريم وقيل
هو متعد الى اثنين بمعنى التصيير والمفعول الثانى محذوف اى الها وقوله تعالى جسدا
بدل من عجلا اى جثة ذا دم ولحم او جسدا من ذهب لا روح معه وقوله تعالى
له خوار اى صوت بقر وقرئ بالجيم والهمزة وهو الصياح نعت لعجلا روى
ان السامرى لما صاغ العجل القى فى فمه ترابا من اثر فرس جبريل عليه السلام وقد
كان اخذه عند فلق البحر او عند توجهه الى الطور فصار حيا وقيل صاغه بنوع من
الحيل فيدخل الريح فى جوفه فيصوت والانسب بما فى سورة طه هو الاول وانما
نسب اتخاذه اليهم وهو فعله اما لانه واحد منهم واما لانهم رضوا به فكانهم
فعلوه واما لان المراد بالاتخاذ اتخاذهم اياه الها لا صنعه واحداثه الم يروا انه
لا يكلمهم استئناف مسوق لتقريعهم وتشنيعهم وتركيك عقولهم وتسفيههم
فيما اقدموا عليه من المنكر الذى هو اتخاذه الها اى الم يروا انه ليس فيه شئ من
احكام الالوهية حيث لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا بوجه من الوجوه فكيف
اتخذوه الها وقوله تعالى اتخذوه اى فعلوا ذلك وكانوا ظالمين اى واضعين
للاشياء فى غير موضعها فلم يكن هذا اول منكر فعلوه والجملة اعتراض تذييلى و
تكريرا اتخذوه لتثنية التشنيع وترتيب الاعتراض عليه ولما سقط فى ايديهم
اى ندموا على ما فعلوا غاية الندم فان ذلك كناية عنه لان النادم المتحسر يعض يديه
غما فتصير يده مسقوطا فيها وقرئ سقط على البناء للفاعل بمعنى وقع العض فيها فاليد حقيقة وقال الزجاج

معناه سقط الندم في انفسهم اما بطريق الاستعارة بالكناية او بطريق التمثيل وراوا
انهم قد ضلوا باتخاذ العجل اي تبينوا بحيث تيقنوا بذلك حتى كانهم راوه باعينهم وتقديم
ذكر ندمهم على هذه الرؤية مع كونه متاخرا عنها للمسارعة الى بيانه والاشعار
بغاية سرعته كانه سابق على الرؤية قالوا والله لئن لم يرحمنا ربنا بانزال المكفرة
ويغفر لنا ذنوبنا بالتجاوز عن خطيئتنا وتقديم الرحمة على المغفرة مع ان التخلية
حقها ان يتقدم على التحلية اما للمسارعة الى ما هو المقصود الاصلي واما لان المراد
بالرحمة مطلق ارادة الخير بهم وهو مبداء الانزال التوبة المكفرة لذنوبهم واللام في لئن موطئة
للقسم كما اشير اليه وقوله تعالى لنكونن من الخاسرين جواب القسم وما حكي عنهم من الندامة
والرؤية والقول وان كان بعد ما رجع موسى عم اليهم كما ينطق به الايات الواردة في
سورة طه لكن اريد بتقديمه عليه حكاية ما صدر عنهم من القول والفعل في موضع
واحد ولما رجع موسى الى قومه شروع في بيان ما جرى من موسى عليه السلام بعد رجوعه
من الميقات اثر بيان ما وقع من قومه بعده وقوله تعالى غضبان اسفا حالان
من موسى عليه السلام او الثاني من المستكن في غضبان والاسف الشديد الغضب
وقيل الحزين قال بئسما خلفتموني من بعدي اي بئسما فعلتم من بعد غيبتي
حيث عبدتم العجل بعد ما رايتم فعلي من توحيد الله تعالى ونفي الشركاء عنه واخلاص
العبادة لله او من حملكم على ذلك وكفكم عما طمحت نحوه ابصاركم حيث قلتم اجعل لنا
الها كما لهم الهة ومن حق الخلفاء ان يسيروا بسيرة المستخلف فالخطاب للعبدة من
السامري واشياعه او بئسما قمتم مقامي ولم تراعوا عهدي حيث لم تكفوا العبدة
عما فعلوا فالخطاب لهرون ومن معه من المؤمنين كما ينبئ عنه قوله تعالى قال يا هارون
ما منعك اذ رايتهم ضلوا الا تتبعني افعصيت امري ويجوز ان يكون الخطاب للكل على
ان المراد بالخليفة ما يعم الامرين المذكورين وما نكرة موصوفة مفسرة لفاعل
بئس المستكن فيه والمخصوص بالذم محذوف فتقديره بئس خلافة خلفتمونيها
من بعدي خلافتكم اعجلتم امر ربكم اي تركتموه غير تام على تضمين عجل معنى
سبق يقال عجل عن الامر اذا تركه غير تام او اعجلتم وعد ربكم الذي وعدنيه
من الاربعين وقدرتم موتي وغيرتم بعدي كما غيرت الامم بعد انبيائهم والقى
الالواح طرحها من شدة الغضب وفرط الضجر حمية للدين روي ان التوراة كانت
سبعة اسباع في سبعة الواح فلما القاها انكسرت فرفعت ستة اسباعها التي كان
فيها تفصيل كل شيء وبقي سبع كان فيه المواعظ والاحكام واخذ براس اخيه بشعر
راسه عليهما السلام يجره اليه حال من ضمير اخذ فعله عليه السلام توهما انه
قصر في كفهم وهرون كان اكبر منه عليهما السلام بثلاث سنين وكان حمولا ولذلك
كان احب الى بني اسرائيل قال اي هرون مخاطبا لموسى عليهما السلام ابن ام
بحذف حرف النداء وتخصيص الام بالذكر مع كونهما شقيقين لما ان حق الام اعظم واحق
بالمراعاة مع انها كانت مؤمنة وقد قاست فيه المخاوف والشدائد وقرئ بكسر الميم
باسقاط الياء تخفيفا كالمنادى المضاف الى الياء وقراءة الفتح لزيادة التخفيف والتشبيه
بخمسة عشر ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ازاحة لتوهم التقصير
في حقه والمعنى بذلت جهدي في كفهم حتى قهروني واستضعفوني وقاربوا قتلي
فلا تشمت بي الاعداء اي فلا تفعل بي ما يكون سببا لشماتتهم بي ولا تجعلني مع
القوم الظالمين اي معدودا في عدادهم بالمؤاخذة او النسبة الى التقصير وهذا
يؤيد كون الخطاب للكل او لا تعتقد اني واحد من الظالمين مع براءتي منهم ومن
ظلمهم قال استئناف مبني على سؤال نشاء من حكاية اعتذار هرون عليه
السلام كانه قيل فماذا قال موسى عند ذلك فقيل قال رب اغفر لي اي ما فعلت
باخي من غير ذنب مقرر من قبله ولاخي ان فرط منه تقصير ما في كفهم عما فعلوه
من العظيمة استغفر عليه السلام لنفسه ليرضي اخاه ويظهر للشامتين رضاه لئلا تتم

شماتتهم

شماتتهم به ولاخيه للايذان بانه محتاج الى الاستغفار حيث كان يجب عليه ان
يقاتلهم وادخلنا في رحمتك بمزيد الانعام بعد غفران ما سلف منا وانت ارحم الراحمين
فلا غرو في انتظامنا في سلك رحمتك الواسعة في الدنيا والاخرة والجملة اعتراض
تذييلي مقرر لما قبله ان الذين اتخذوا العجل اي استمروا على اتخاذه واستمروا
على عبادته كالسامري واشياعه من الذين اشربوه في قلوبهم كما يفصح عنه كون
الموصول الثاني عبارة عن التائبين فان ذكرهم صريح في ان الموصول الاول عبارة
عن المصرين سينالهم اي في الاخرة غضب اي عظيم لا يقادر قدره مستتبع
لفنون العقوبات لما ان جريمتهم اعظم الجرائم وافتح الجرائر وقوله تعالى من ربهم
اي مالكهم متعلق بينالهم او بمحذوف هو نعت لغضب مؤكد لما افاده التنوين من
الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية اي كائن من ربهم وذلة في الحيوة
الدنيا هي ذلة الاغتراب التي يضرب بها الامثال والمسكنة المنتظمة
لهم ولاولادهم جميعا والذلة هي اختص بها السامري من الانفراد عن الناس
والابتلاء بلا مساس يروى ان بقاياهم اليوم يقولون ذلك واذا مس احدهم
احد غيرهم حما جميعا في الوقت وايراد ما نالهم في حيز السين مع مضيه بطريق
تغليب حال الاخلاف على حال الاسلاف وقيل المراد بهم التائبون وبالغضب
ما امروا به من قتل انفسهم واعتذر عن السين بان ذلك حكاية عما اخبر الله تعالى
به موسى عليه السلام حين اخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل بانه سينالهم
غضب من ربهم وذلة فيكون سابقا على الغضب وانت خبير بان سباق النظم
الكريم وسياقه نائيان عن ذلك نبوا ظاهرا كيف لا وقوله تعالى وكذلك نجزي
المفترين ينادي على خلافه فانهم شهداء تائبون فكيف يمكن وصفهم بعد
ذلك بالافتراء وايضا ليس يجزي الله تعالى كل المصرين بهذا الجزاء الذي ظاهره
قهر وباطنه لطف ورحمة وقيل المراد بهم ابناؤهم وهم المعاصرون لرسول الله
صلى الله عليه وسلم فان تعيير الابناء بافاعيل الاباء مشهور معروف منه قوله تعالى
واذ قتلتم نفسا الاية وقوله تعالى واذ قلتم يا موسى الاية والمراد بالغضب الغضب الاخروي
وبالذلة ما اصابهم من القتل والاجلاء وضرب الجزية عليهم وقيل المراد بالموصول
المتخذون حقيقة وبالضمير في ينالهم اخلافهم ولا ريب في ان توسيط حال هؤلاء
في تضاعيف بيان حال المتخذين من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه والذين عملوا
السيئات اي سيئة كانت ثم تابوا عن تلك السيئات من بعدها اي من بعد عملها
وامنوا ايمانا صحيحا خالصا واشتغلوا باقامة ما هو من مقتضياته من الاعمال
الصالحة ولم يصروا على ما فعلوا كالطائفة الاولى ان ربك من بعدها اي من بعد
تلك التوبة المقرونة بالايمان لغفور للذنوب وان عظمت وكثرت رحيم
مبالغ في افاضة فنون الرحمة الدنيوية والاخروية والتعرض لعنوان الربوبية
مع الاضافة الى ضميره عليه السلام للتشريف ولما سكت عن موسى الغضب شروع
في بيان بقية الحكاية اثر ما بين تحزب القوم الى مصر وتائب والاشارة الى مال
كل منهما اجمالا اي لما سكن عنه الغضب باعتذار اخيه وتوبة القوم وهذا صريح في ان
ما حكي عنهم من الندم وما يتفرع عليه كان بعد مجيء موسى عليه السلام وفي هذا
النظم الكريم من البلاغة والمبالغة بتنزيل الغضب الحامل له على ما صدر عنه من الفعل
والقول منزلة الامر بذلك المغري عليه بالتحكم والتشديد والتعبير عن سكونه بالسكوت
ما لا يخفى وقرئ سكن وسكت واسكت على ان الفاعل هو الله او اخوه او التائبون
اخذ الالواح التي القاها وفي نسختها اي فيما نسخ فيها وكتب فعلة
بمعنى مفعول كالخطبة وقيل فيما نسخ منها اي من الالواح المنكسرة هدى
اي بيان للحق ورحمة للخلق بارشادهم الى ما فيه الخير والصلاح للذين هم
لربهم يرهبون اللام الاولى متعلقة بمحذوف هو صفة لرحمة اي كائنة

اي كائنة لهم او هي لام الجر اي الاجل اي هدى ورحمة لاجلهم والثانية لتقوية عمل الفعل
المؤخر كما في قوله تعالى ان كنتم للرؤيا تعبرون او هي ايضا لام العلة والمفعول محذوف
اي يرهبون المعاصي لاجل ربهم لا للرياء والسمعة واختار موسى قومه شروع
في بيان كيفية استدعاء التوبة وكيفية وقوعها واختار يتعدى الى اثنين ثانيهما
مجرور بمن اي اختار من قومه بحذف الجار وايصال الفعل الى المجرور كما في قوله اخترتك
الناس اذ رذلت خلائقهم واعتل من كان يرجى عند السؤال اي اخترتك من الناس
سبعين رجلا مفعول لاختار اخر عن الثاني لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق
الى المؤخر لميقاتنا الذي وقتناه بعدما وقع من قومه ما وقع لا لميقات الكلام
الذي ذكر قبل ذلك كما قيل قال السدي امر الله تعالى بان يأتيه في ناس من بني اسرائيل
يعتذرون اليه تعالى من عبادة العجل ووعدهم موعدا فاختار من قومه سبعين رجلا
وقال محمد بن اسحق اختارهم ليتوبوا اليه تعالى مما صنعوا ويسألوه التوبة عمن تركوهم
وراءهم من قومهم قالوا اختار عليه السلام من كل سبط ستة فزاد اثنان فقال ليتخلف
منكم رجلان فتشاحوا فقال عليه السلام ان لمن قعد مثل اجر من خرج فقعد كالب ويوشع
وذهب مع الباقين وامرهم ان يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم فخرج بهم الى
طور سيناء فلما دنوا من الجبل غشيه غمام فدخل موسى بهم الغمام وخروا سجدا
فسمعوه تعالى يكلم موسى يأمره وينهاه حسبما يشاء وهو الامر بقتل انفسهم توبة
فلما اخذتهم الرجفة مما اجترؤا عليه من طلب الرؤية فانه يروى انه لما
انكشف الغمام اقبلوا الى موسى عليه السلام وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فاخذتهم
الرجفة اي الصاعقة او رجفة الجبل فصعقوا منها اي ماتوا ولعلهم ارادوا
بقولهم لن نؤمن لك لن نصدقك من ان الامر بما سمعنا من الامر بقتل انفسهم
هو الله تعالى حتى نراه حيث قاسوا رؤيته تعالى على سماع كلامه قياسا فاسدا فحين
شاهد موسى تلك الحالة الهائلة قال رب لو شئت اهلكتهم من قبل اي
حين فرطوا في النهي عن عبادة العجل وما فارقوا عبدته حين شاهدوا اصرارهم
عليها واياي ايضا حين طلبت منك الرؤية اي لو شئت اهلاكنا بذنوبنا لاهلكتنا
حينئذ اراد به عليه السلام تذكير العفو السابق لاستجلاب العفو اللاحق فان
الاعتراف بالذنب والشكر على النعمة مما يربط العتيد ويستجلب المزيد يعني انا
كنا مستحقين للاهلاك ولم يكن من موانعه الا عدم مشيئتك اياه فحيث لطفت
بنا وعفوت عنا تلك الجرائم فلا عجب في ان تعفو عن هذه الجريمة ايضا وحمل الكلام
على التمني يأباه قوله تعالى اتهلكنا بما فعل السفهاء منا اي الذين لا يعلمون
تفاصيل شؤنك ولا يثبتون في المداحض والهمزة اما للانكار ووقوع الاهلاك ثقة بلطف
الله عز وجل كما قاله ابن الانباري او للاستعطاف كما قاله المبرد اي لا تهلكنا
ان هي الا فتنتك استيناف مقرر لما قبله واعتذار عما صنعوا ببيان منشأ غلطهم
اي ما الفتنة التي وقع فيها السفهاء وقالوا بسببها ما قالوا من العظيمة الا فتنتك اي محنتك وابتلاؤك
حيث اسمعتهم كلامك فافتتنوا بذلك ولم يتثبتوا فطمعوا فيما فوق ذلك تابعين للقياس
الفاسد وقوله تعالى تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء اما استيناف مبين
لحكم الفتنة او حال من فتنتك اي حال كونها مضلا بها الى آخره ان تضل بسببها
من تشاء اضلاله فلا يهتدي الى التثبت وتهدي من تشاء هدايته الى الحق
فلا يتزلزل امثالها فيقوى بها ايمانه انت ولينا اي القائم بامورنا الدنيوية
والاخروية وناصرنا وحافظنا لا غير فاغفر لنا ما قارفناه من المعاصي والفاء
لترتيب الدعاء على ما قبله من الولاية كانه قيل فمن شأن الولي المغفرة والرحمة وقيل ان
اقدامه عليه السلام على ان يقول ان هي الا فتنتك الى آخره جراءة عظيمة فطلب من الله تعالى غفرانها
والتجاوز عنها وارحمنا بافاضة آثار الرحمة الدنيوية والاخروية علينا وانت خير
الغافرين اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من الدعاء وتخصيص المغفرة بالذكر لانها الاهم بحسب المقام و

اكتب لنا

اكتب لنا اي عين لنا وقيل اوجب وحقق واثبت في هذه الدنيا حسنة اي نعمة وعافية
او خصلة حسنة قال ابن عباس اقبل وفادتنا وردنا بالمغفرة والرحمة وفي الآخرة اي
واكتب لنا فيها ايضا حسنة وهي المثوبة الحسنى والجنة انا هدنا اليك اي تبنا
وانبنا اليك من هاد يهود اذا رجع وقرئ بكسر الهاء من هاد يهيد اذا حركه وامال
اي يحتمل ان يكون مبنيا للفاعل وللمفعول بمعنى املنا انفسنا او املنا اليك ويجوز ان
تكون القراءة المشهورة على بناء المفعول على لغة من يقول عود المريض مع كونها لغة ضعيفة
ما لا يشان التنزيل الجليل والجملة استيناف مسوق لتعليل الدعاء فان التوبة
مما توجب قبوله بموجب الوعد المحتوم وتصديرها بحرف التحقيق لاظهار كمال
النشاط والرغبة في التوبة والمعنى انا تبنا ورجعنا عما صنعنا من المعصية العظيمة
التي جئناك للاعتذار عنها وعما وقع ههنا من طلب الرؤية فبعيد من لطفك وفضلك
ان لا يقبل توبة التائبين قيل لما اخذتهم الرجفة ماتوا جميعا فاخذ موسى عليه السلام يتضرع
الى الله تعالى حتى احياهم وقيل رجفوا وكادت تبين مفاصلهم واشرفوا على الهلاك
فخاف موسى عليه السلام فبكى فكشفها الله تعالى عنهم قال استيناف وقع جوابا
عن سؤال ينساق اليه الكلام كانه قيل فماذا قال الله تعالى عند دعاء موسى فقيل قال
عذابي اصيب به من اشاء لعله عز وجل حين جعل توبة عبدة العجل بقتلهم
انفسهم ضمن موسى عليه السلام دعاءه التخفيف والتيسير حيث قال واكتب لنا في هذه الدنيا
حسنة اي خصلة حسنة عارية عن المشقة والشدة فان في قتل انفسهم من
العذاب والتشديد ما لا يخفى فاجاب تعالى بان عذابي شأنه ان اصيب من اشاء
تعذيبه من غير دخل لغيري فيه وهم ممن تناولته مشيئتي ولذلك جعلت توبتهم
مشوبة بالعذاب الدنيوي ورحمتي وسعت كل شيء اي شأنها ان تسع في الدنيا
المؤمن والكافر بل كل ما يدخل تحت الشيئية من المكلفين وغيرهم وقد نال قومك
نصيب منها في ضمن العذاب الدنيوي وفي نسبة الاصابة الى العذاب بصيغة المضارع
ونسبة السعة الى الرحمة بصيغة الماضي ايذان بان الرحمة مقتضى الذات واما
العذاب فبمقتضى معاصي العباد والمشيئة معتبرة في جانب الرحمة ايضا وعدم
التصريح بها للاشعار بغاية الظهور الا ترى الى قوله فسأكتبها اي اثبتها
واعينها فانه متفرع على اعتبار المشيئة كانه قيل فاذا كان الامر كذلك اي كما ذكر
من اصابة عذابي وسعة رحمتي لكل من اشاء فسأكتبها كتبة خاصة كائنة كما دعوت بقولك
واكتب لنا في هذه الخ اي سأكتبها خالصة غير مشوبة بالعذاب الدنيوي للذين
يتقون اي الكفر والمعاصي اما ابتداء او بعد ملابستها وفيه تعريض بقومه كانه
قيل لا لقومك لانهم غير متقين فيكفيهم ما قدر لهم من الرحمة وان كانت مقارنة
للعذاب الدنيوي ويؤتون الزكوة وفيه ايضا تعريض بهم حيث كانت الزكوة
شاقة عليهم ولعل الصلوة انما لم تذكر مع انافتها على سائر العبادات اكتفاء عنها
بالاتقاء الذي هو عبارة عن فعل الواجبات باسرها وترك المنكرات عن آخرها وايراد
ايتاء الزكوة لما مر من التعريض والذين هم باياتنا جميعا يؤمنون ايمانا مستمرا
من غير اخلال بشيء منها وفيه تعريض بهم وبكفرهم بالآيات العظام التي جاء
بها موسى عليه السلام وبما سيجيء بعد ذلك من الآيات البينات كتظليل الغمام
وانزال المن والسلوى وغير ذلك وتكرير الموصول مع ان المراد به عين ما اريد
بالموصول الاول دون ان يقال ويؤمنون باياتنا عطف على يؤتون الزكوة كما
عطف هو على يتقون لما اشير اليه من القصر بتقديم الجار والمجرور اي هم بجميع
اياتنا يؤمنون لا ببعضها دون بعض الذين يتبعون الرسول الذي نوحي
اليه كتابا مختصا به النبي اي صاحب المعجزة وقيل عنوان الرسالة بالنسبة اليه
تعالى وعنوان النبوة بالنسبة الى الامة الامي بضم الهمزة نسبة الى الام
كانه باق على حالته التي ولد عليها من امه او الى امة العرب كما قال عليه السلام انا امة

لا تحسب ولا تكتب او الى ام القرى وقرئ بفتح الهمزة اى الذى لم يمارس القراءة والكتابة
وقد جمع مع ذلك علوم الاولين والآخرين والموصول بدل من الموصول الاول بدل الكل
او منصوب على المدح او مرفوع عليه اى اعنى الذين او هم الذين واما جعله مبتدأ على ان
خبره يأمرون او اولئك هم المفلحون فغير سديد الذين يجدونه مكتوبا باسمه ونعوته
بحيث لا يشكون انه هو ولذلك عدل عن ان يقال يجدون اسمه او وصفه مكتوبا
عندهم لزيادة التقرير ان شانه عليه السلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم اصلا
فى التوراة والانجيل اللذين تعبد بهما بنو اسرائيل سابقا ولاحقا والظرفان متعلقان
بيجدونه او بمكتوبا وذكر الانجيل قبل نزوله من قبيل ما نحن فيه من ذكر النبى عليه السلام
والقرآن الكريم قبل مجيئهما يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر كلام مستأنف
لا محل له من الاعراب قاله الزجاج متضمن لتفصيل بعض احكام الرحمة التى وعد فيما
سبق بكتبها اجمالا فان ما بين فيه من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر واحلال الطيبات
وتحريم الخبائث واسقاط التكاليف الشاقة كلها من آثار الرحمة الواسعة وقيل
فى محل النصب على انه حال مقدرة من مفعول يجدونه او من النبى او من المستكن
فى مكتوبا او مفسر لمكتوبا اى لما كتب ويحل لهم الطيبات التى حرمت عليهم بشؤم
ظلمهم ويحرم عليهم الخبائث كالدم ولحم الخنزير والربا والرشوة ويضع عنهم
اصرهم والاغلال التى كانت عليهم اى يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف
الشاقة التى هى من قبيل ما كتب عليهم حينئذ من كون التوبة بقتل النفس كتعيين القصاص
فى العمد والخطأ من غير شرع الدية وقطع الاعضاء الخاطئة وقرض موضع النجاسة من
الجلد والثوب واحراق الغنائم وتحريم السبت وعن عطاء انه كان بنو اسرائيل اذا قاموا
يصلون لبسوا المسوح وغلوا ايديهم الى اعناقهم وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها
طرف السلسلة واوثقها الى السارية يحبس نفسه على العبادة وقرئ آصارهم اصل
الاصر الثقل الذى يأصر صاحبه من الحراك فالذين آمنوا به تعليم بكيفية اتباعه عليه السلام
وبيان العلو رتبة متبعيه واغتنامهم بمغانم الرحمة الواسعة فى الدارين اثر بيان نعوته
الجليلة والاشارة الى ارشاده عليه السلام اياهم بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر
واحلال الطيبات وتحريم الخبائث اى فالذين آمنوا بنبوته واطاعوه فى اوامره
ونواهيه وعزروه اى عظموه ووقروه واعانوه بمنع اعدائه وقرئ بالتخفيف
واصله المنع ومنه التعزير ونصروه على اعدائه فى الدارين واتبعوا النور الذى
انزل معه اى مع نبوته وهو القرآن عبر عنه بالنور المنبئ عن كونه ظاهرا بنفسه
ومظهرا لغيره او مظهرا للحقائق كاشفا عنها لمناسبة الاتباع ويجوز ان يكون
معه متعلقا باتبعوا القرآن المنزل مع اتباعه عليه السلام بالعمل بسنته وبما
امر به ونهى عنه واتبعوا القرآن مصاحبين له فى اتباعه اولئك اشارة الى المذكورين
من حيث اتصافهم بما فصل من الصفات الفاضلة للاشعار بعليتها للحكم وما فيه
من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم فى الفضل والشرف اى اولئك
المنعوتون بتلك النعوت الجليلة هم المفلحون اى هم الفائزون بالمطلوب الناجون عن
المكروب لا غيرهم من الامم فيدخل فيهم قوم موسى عليه السلام دخولا اوليا
حيث لم ينجوا عما فى توبتهم من المشقة الهائلة وبه يتحقق التحقيق ويتأتى التوفيق
والتطبيق بين دعائه عليه السلام وبين الجواب لا بمجرد ما قيل من انه لما دعا لنفسه
ولبنى اسرائيل اجيب بما هو منطو على توبيخ بنى اسرائيل على استجازتهم الرؤية
على الله عز وجل على كفرهم بآياته العظام التى اجراها على يد موسى عليه السلام
وعرض بذلك فى قوله تعالى والذين هم بآياتنا يؤمنون واريد ان يكون استماع اوصاف
اعقابهم الذين آمنوا برسول الله صلعم وبما جاء به كعبد الله بن سلام وغيره من
اهل الكتابين لطفا لهم وترغيبا فى اخلاص الايمان والعمل الصالح قل يا ايها الناس
انى رسول الله اليكم لما حكى ما فى الكتابين من نعوت رسول الله صلى الله عليه وسلم

وشرف

وشرف من يتبعه من اهلها ونيلهم لسعادة الدارين امر عليه السلام ببيان ان تلك السعادة
غير مختصة بهم بل شاملة لكل من يتبعه كائنا من كان ببيان عموم رسالته للثقلين مع
اختصاص رسالة سائر الرسل باقوامهم وارسال موسى الى فرعون وملائه بالآيات التسع انما
كان لامرهم بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة التى كان يدعيها
الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية وبارسال بنى اسرائيل جميعا حال من الضمير فى اليكم
الذى له ملك السموات والارض منصوب او مرفوع على المدح او مجرور على انه صفة
للجلالة وان حيل بينهما بما هو متعلق بما اضيف اليه فانه فى حكم المتقدم عليه وقوله تعالى
لا اله الا هو بيان لما قبله فان من ملك العالم كان هو الاله لا غيره وقوله تعالى
يحيى ويميت لزيادة تقرير الالوهية والفاء فى قوله تعالى فآمنوا بالله ورسوله
لتفريع الامر على ما مهد وتقرر من رسالته عليه السلام وايراد نفسه عليه السلام بعنوان
الرسالة على طريقة الالتفات الى الغيبة للمبالغة فى ايجاب الامتثال بامره ووصف
الرسول بقوله النبى الامى لمدحه عليه السلام بهما ولزيادة تقرير امره وتحقيق
انه المكتوب فى الكتابين ووصفه بقوله تعالى الذى يؤمن بالله وكلماته اى ما انزل
اليه والى سائر الرسل عليهم السلام من كتبه ووحيه لحمل اهل الكتابين على الامتثال
بما امروا به والتصريح بايمانه بالله تعالى للتنبيه على ان الايمان به تعالى لا ينفك عن الايمان
بكلماته ولا يتحقق الا به وقرئ وكلمته على ارادة الجنس والقرآن تنبيها على ان المأمور
هو الايمان به عليه السلام من حيث انزل عليه القرآن لا من حيثية اخرى او على ان
المراد بها عيسى عليه السلام تعريضا باليهود وتنبيها على ان من لم يؤمن به لم يعتد
بايمانه واتبعوه اى فى كل ما يأتى وما يذر من امور الدين لعلكم تهتدون علة
للفعلين او حال من فاعليهما اى رجاء لاهتدائكم الى المطلوب او راجين له وفى
تعليقه بهما ايذان بان من صدقه ولم يتبعه بالتزام احكام شريعته فهو بمعزل من
الاهتداء مستمر على الغى والضلالة ومن قوم موسى كلام مبتدأ مسوق لدفع ما عسى
يوهمه تخصيص كتبه الرحمة والتقوى والايمان بالآيات بمتبعى رسول الله صلى الله عليه
عليه وسلم من حرمان اسلاف قوم موسى عليه السلام من كل خير وبيان ان كلهم ليسوا
كما حكيت احوالهم بل منهم امة يهدون اى الناس بالحق اى ملتبسين به او
يهدونهم بكلمة الحق وبه اى بالحق يعدلون اى فى الاحكام الجارية فيما بينهم
وصيغة المضارع فى الفعلين لحكاية الحال الماضية وقيل هم الذين آمنوا بالنبى صلى الله
عليه وسلم ويأباه انه قد مر ذكرهم فيما سلف وقيل ان بنى اسرائيل لما بالغوا
فى العتو والطغيان حتى اجترؤا على قتل الانبياء عليهم السلام تبرأ سبط منهم مما
صنعوا واعتذروا وسألوا الله ان يفرق بينهم وبين اولئك الطاغين ففتح الله
لهم نفقا فى الارض فساروا فيه سنة ونصفا حتى خرجوا من وراء الصين وهم اليوم
هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا وقد ذكر عن النبى صلعم ان جبريل عليه
السلام ذهب به ليلة الاسراء فكلمهم فقال جبريل هل تعرفون من يكلمكم قالوا لا
قال هذا محمد النبى الامى فآمنوا به وقالوا يا رسول الله ان موسى اوصانا من ادرك
منكم احمد فليقرأ منى عليه السلام فرد محمد على موسى عليهما السلام ثم اقرأهم
عشر سور من القرآن نزلت بمكة ولم يكن نزلت يومئذ فريضة غير الصلاة والزكاة
وامرهم ان يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فامرهم ان يجمعوا ويتركوا السبت
هذا وانت خبير بان تخصيصهم بالهداية من بين قومه عليه السلام مع ان منهم
من آمن بجميع الشرائع لا يخلو عن بعد وقطعناهم اى قوم موسى لا الامة المذكورة
منهم وقرئ بالتخفيف وقوله تعالى اثنتى عشرة ثانى مفعولى قطع لتضمنه معنى
التصيير والتأنيث للحمل على الامة او القطعة اى صيرناهم اثنتى عشرة امة او قطعة متميزا
بعضها من بعض او حال من مفعوله اى فرقناهم معدودين هذا العدد وقوله تعالى
اسباطا بدل منه ولذلك جمع او مميز له على ان كل واحدة من اثنتى عشرة قطعة اسباط

لاسبط وقرئ عشرة بكسر الشين وقوله تعالى امما على الاول بدل او نعت لاسباطا وعلى
الثانى بدل من اسباطا واوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه حين استولى عليهم
العطش فى التيه الذى وقعوا فيه بسوء صنيعهم لا لمجرد استسقائهم اياه عليه السلام
بل باستسقائه لهم لقوله تعالى واذ استسقى موسى لقومه وقوله تعالى ان اضرب
بعصاك الحجر مفسر لفعل الايحاء وقد مر بيان شان الحجر فى تفسير سورة البقرة فانبجست
عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام قد حذف للايذان بغاية مسارعته الى الامتثال كما للظهور وايذانا
بغاية مسارعته الى الامتثال واشعارا بعدم تاثير الضرب حقيقة وتنبيها على
كمال سرعة الانبجاس وهو الانفجار كانه حصل اثر الامر قبل تحقق الضرب كما فى قوله
تعالى اضرب بعصاك البحر فانفلق اى فضرب فانبجست منه اثنتا عشرة عينا
بعدد الاسباط واما ما قيل من ان التقدير فان ضربت فقد انبجست فغير حقيق
بجزالة النظم التنزيلى وقرئ عشرة بكسر الشين وفتحها قد علم كل اناس كل سبط
عبر عنهم بذلك ايذانا بكثرة كل واحد من الاسباط مشربهم اى عينهم الخاصة بهم
وظللنا عليهم الغمام اى جعلناها بحيث تلقى عليهم ظلها تسير فى التيه بسيرهم
وتسكن باقامتهم وكان ينزل بالليل عمود من نار يسيرون بضوئه وانزلنا عليهم
المن والسلوى اى الترنجبين والسمانى قيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر
الى الطلوع لكل انسان صاع وتبعث الجنوب عليهم السمانى فيذبح الرجل منه ما يكفيه
كلوا اى وقلنا لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم اى مستلذاته وما موصولة
كانت او موصوفة عبارة عن المن والسلوى وما ظلمونا رجوع الى سنن الكلام الاول
بعد حكاية خطابهم وهو معطوف على جملة محذوفة للايجاز والاشعار بانه امر محقق
غنى عن التصريح به اى ظلموا بان كفروا بتلك النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك ولكن كانوا
انفسهم يظلمون اذ لا يتخطاهم ضرره وتقديم المفعول لافادة القصر الذى
يقتضيه النفى السابق وفيه ضرب من التهكم بهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل
للدلالة على تماديهم فيما هم فيه من الظلم والكفر واذ قيل لهم منصوب بمضمر
خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم وايراد الفعل على البناء للمفعول مع استناده اليه
تعالى كما يفصح عنه ما وقع فى سورة البقرة من قوله تعالى واذ قلنا للجرى على سنن الكبرياء
والايذان بالغنى عن التصريح به لتعين الفاعل وتغيير النظم بالذكر للتشديد فى التوبيخ
اى اذكر لهم وقت قوله تعالى لاسلافهم اسكنوا هذه القرية منصوب على
المفعولية سكنت الدار وقيل على الظرفية اتساعا وهى بيت المقدس وقيل اريحا
وهى قرية الجبارين وكان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة راسهم عوج
بن عنق وفى قوله تعالى اسكنوا ايذان بان المامور به فى سورة البقرة هو الدخول
على وجه السكنى والاقامة ولذلك اكتفى به عن ذكر رغدا فى قوله تعالى وكلوا منها
اى من مطاعمها وثمارها على ان من تبعيضية او منها على انها ابتدائية حيث
شئتم اى من نواحيها من غير ان يزاحمكم احد فيها فان الاكل المستمر على هذا الوجه
لا يكون الا رغدا واسعا وعطف كلوا على اسكنوا بالواو لمقارنتهما زمانا بخلاف
الدخول فانه مقدم على الاكل ولذلك قيل هناك فكلوا وقولوا حطة اى مسئلتنا
او امرك حطة لذنوبنا وهى فعلة من الحط كالجلسة وادخلوا الباب اى باب
القرية سجدا اى متطامنين مخبتين او ساجدين شكرا على اخراجهم من التيه و
تقديم الامر بالدخول على الامر بالقول المذكور فى سورة البقرة غير مخل بهذا
الترتيب لان المامور به هو الجمع بين الفعلين من غير اعتبار الترتيب بينهما ثم
ان كان المراد بالقرية اريحا فقد روى انهم دخلوها حيث سار اليها موسى عم بمن
بقى من بنى اسرائيل او بذراريهم على اختلاف الروايتين ففتحها كما مر فى سورة المائدة
واما ان كان بيت المقدس فقد روى انهم لم يدخلوه فى حيوة موسى عليه السلام
فقيل المراد بالباب باب القبة التى كانوا يصلون اليها نغفر لكم خطيئاتكم وقرئ

خطاياكم كما فى سورة البقرة وتغفر لكم خطيئاتكم وخطاياكم وخطيتكم على البناء
للمفعول سنزيد المحسنين عدة بشيئين بالمغفرة وبالزيادة وطرح الواو ههنا
لا يخل بذلك لانه استيناف مرتب على تقدير سؤال نشاء من الاخبار بالغفران
كانه قيل فماذا لهم بعد الغفران فقيل سنزيد وكذلك زيادة منهم زيادة
بيان فبدل الذين ظلموا منهم بما امروا به من التوبة والاستغفار حيث
اعرضوا عنه ووضعوا موضعه قولا آخر مما لا خير فيه روى انهم دخلوه زاحفين
على استاههم وقالوا مكان حطة حنطة وقيل قالوا بالنبطية حطا سمقاثا
يعنون حنطة حمراء استخفافا بامر الله عز وجل واستهزاء بموسى عليه السلام و
قوله تعالى غير الذى قيل لهم نعت لقولا صرح بالمغايرة مع دلالة التبديل عليها قطعا
تحقيقا للمخالفة وتنصيصا على المغايرة من كل وجه فارسلنا عليهم اثر ما فعلوا
ما فعلوا من غير تاخير وفى سورة البقرة على الذين ظلموا والمعنى واحد والارسال
من فوق فيكون كالانزال رجزا من السماء عذابا كائنا منها والمراد الطاعون
روى انه مات منهم فى ساعة واحدة اربعة وعشرون الفا بما كانوا يظلمون
بسبب ظلمهم المستمر السابق واللاحق حسبما يفيده الجمع بين الماضى والمستقبل
لا بسبب التبديل فقط كما يشعر به ترتيب الارسال عليه بالفاء والتصريح بهذا التعليل
لما ان الحكم ههنا مرتب على المضمر دون الموصول بالظلم كما فى سورة البقرة واما التعليل
بالفسق بعد الاشعار بعلية الظلم فقد مر وجهه هناك والله تعالى اعلم واسئلهم
عطف على المقدر فى اذ قيل اى واسأل اليهود المعاصرين لك سؤال تقريع وتقرير بقديم
كفرهم وتجاوزهم لحدود الله تعالى واعلاما لهم بان ذلك مع كونه من علومهم
الخفية التى لا يقف عليها الا من مارس كتبهم قد احاط به النبى صلى الله عليه وسلم
خبرا واذ ليس ذلك بالتلقى من كتبهم لانه عليه السلام بمعزل من ذلك تعين انه
من جهة الوحى الصريح عن القرية اى حالها وخبرها وما جرى على اهلها
من الداهية الدهياء وهى ايلة قرية بين مدين والطور وقيل هى مدين وقيل طبرية
والعرب تسمى المدينة قرية التى كانت حاضرة البحر اى قريبة منه مشرفة على
شاطئه اذ يعدون فى السبت اى يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت
واذ ظرف للمضاف المحذوف او بدل منه وقيل ظرف لكانت او حاضرة وليس بذاك
اذ لا فائدة فى تقييد الكون او الحضور بوقت العدوان وقرئ يعدون واصله يعتدون
ويعدون من الاعداد حيث كانوا يعدون آلات الصيد يوم السبت وهم منهيون
عن الاشتغال فيه بغير العبادة اذ تاتيهم حيتانهم ظرف ليعدون او بدل بعد
بدل والاول هو الاولى لان السؤال عن عدوانهم ادخل فى التقريع والحيتان جمع
حوت قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها كنون ونينان لفظا ومعنى واضافتها اليهم
للاشعار باختصاصها بهم لاستقلالها بما لا يكاد يوجد فى سائر افراد الجنس من
الخواص الخارقة للعادة ولان المراد بها الحيتان الكائنة فى تلك الناحية وان ما
ذكر من الاتيان وعدمه لاعتيادها احوالهم فى عدم التعرض يوم السبت
يوم سبتهم ظرف لتاتيهم اى تاتيهم يوم تعظيمهم لامر السبت وهو
مصدر سبتت اليهود اذا عظمت السبت بالتجرد للعبادة وقيل اسم لليوم و
الاضافة لاختصاصهم باحكام فيه ويؤيد الاول قراءة من قرأ يوم اسباتهم
وقوله تعالى شرعا جمع شارع من شرع عليه اذا دنى واشرف وهو حال من حيتانهم
اى تاتيهم يوم سبتهم ظاهرة على وجه الماء قريبة من الساحل ويوم لا يسبتون
اى لا يراعون امر السبت لكن لا بمجرد عدم المراعاة مع تحقق يوم السبت كما هو
المتبادر بل مع انتفائهما معا اى لا سبت ولا مراعاة كما فى قوله ولا ترى الضب
بها ينجحر وقرئ لا يسبتون من اسبت ولا يسبتون على البناء للمفعول بمعنى لا يدخلون
فى السبت ولا يدار عليهم حكم السبت ولا يؤمرون فيه بما امروا به يوم السبت لا تاتيهم

كما كانت تاتيهم يوم السبت حذارا من صيدهم وتغيير السبك حيث لم يقل ولا تاتيهم يوم
لا يسبتون لما ان الاخبار باتيانها يوم سبتهم مظنة ان يقال فما ذا حالها يوم لا يسبتون
فقيل يوم لا يسبتون لا تاتيهم كذلك نبلوهم اى مثل ذلك البلاء العجيب الفظيع
نعاملهم معاملة من نختبرهم ليظهر عداوتهم ونؤاخذهم به وصيغة المضارع
لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها والتعجيب منها بما كانوا يفسقون اى بسبب
فسقهم المستمر المدلول عليه بالجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل لكن فى تلك المادة فان
فسقهم فيها لا يكون سببا للابتلاء بل بسبب فسقهم المستمر فى كل ما ياتون وما
يذرون وقيل كذلك متصل بما قبله اى لا تاتيهم مثل ما تاتيهم يوم سبتهم فالجملة بعده
حينئذ استئناف مبني على السؤال عن حكمة اختلاف حال الحيتان بالاتيان تارة وعدمه
اخرى واذ قالت عطف على اذ يعدون مسوق لتماديهم فى العدوان وعدم انزجارهم
عنه بعد العظات والانذارات امة منهم اى جماعة من صلحائهم الذين ركبوا فى عظتهم
متن كل صعب وذلول حتى يئسوا من احتمال القبول لآخرين لا يقلعون عن التذكير
رجاء للنفع والتاثير مبالغة فى الاعذار وطمعا فى فائدة الانذار لم تعظون قوما
الله مهلكهم اى مخترمهم بالكلية ومطهر الارض منهم او معذبهم
عذابا شديدا دون الاستئصال بالمرة وقيل مهلكهم مخزيهم فى الدنيا او معذبهم
فى الآخرة لعدم اقلاعهم عما كانوا عليه من الفسوق والطغيان والترديد لمنع الخلو
دون منع الجمع فانهم مهلكون فى الدنيا ومعذبون فى الآخرة وايثار صيغة اسم
الفاعل مع ان كلا من الاهلاك والتعذيب مترقب للدلالة على تحققهما وتقررهما
البتة كانهما واقعتان وانما قالوه مبالغة فى ان الوعظ لا ينجع فيهم او ترهيبا للقوم
او سؤالا عن حكمة الوعظ ونفعه ولعلهم انما قالوه بمحضر من القوم حثا لهم على الاتعاظ
فان بت القول بهلاكهم وعذابهم مما يلقي فى قلوبهم الخوف والخشية وقيل المراد
طائفة من الفرقة الهالكة اجابوا به وعاظهم ردا عليهم وتهكما بهم وليس
بذاك كما ستقف عليه قالوا اى الوعاظ معذرة الى ربكم اى نعظهم معذرة
اليه تعالى على انه مفعول له وهو الانسب بظاهر قولهم لم تعظون او نعتذر معذرة على
انه مصدر لفعل محذوف وقرئ بالرفع على انه خبر مبتدا محذوف اى موعظتنا
معذرة اليه تعالى لا ننسب الى نوع تفريط فى النهي عن المنكر وفى اضافة الرب الى ضمير المخاطبين
نوع تعريض بالسائلين ولعلهم يتقون عطف على معذرة اى ورجاء لان يتقوا
بعض الاتقاء وهذا صريح فى ان القائلين لم تعظون الخ ليسوا من الفرقة الهالكة
والا لوجب الخطاب فلما نسوا ما ذكروا به اى تركوا ما ذكرهم به صلحاؤهم ترك
الناسي للشيء واعرضوا عنه اعراضا كليا بحيث لم يخطر ببالهم شيء من تلك المواعظ
اصلا انجينا الذين ينهون عن السوء وهم الفريقان المذكوران واخراج
انجائهم مخرج الجواب الذي حقه الترتب على الشرط وهو نسيان المعتدين المستتبع لاهلاكهم
لما ان فى حيز الشرط شيئان النسيان والتذكير كانه قيل فلما ذكر المذكرون ولم يتذكر
المعتدون انجينا الاولين واخذنا الآخرين واما تصدير الجواب بانجائهم فلما مر
من المسارعة الى بيان نجاتهم من اول الامر مع ما فى المؤخر من نوع طول واخذنا
الذين ظلموا بالاعتداء ومخالفة الامر بعذاب بئيس اى شديد وزنا ومعنى من بؤس
يبؤس باسا اذا اشتد وقرئ بئس على وزن فعل بفتح العين وكسرها وبئس كحذر
وبئس على تخفيف العين ونقل حركتها الى الفاء ككبد فى كبد وبيس بقلب الهمزة ياء كذيب
فى ذئب وبيّس كريّس بقلب همزة بيئس ياء وادغام الياء فيها وبيس على تخفيف بيّس
كهين فى هيّن وتنكير العذاب للتفخيم والتهويل بما كانوا يفسقون متعلق باخذنا
كالباء الاولى ولا ضير فيه لاختلافهما معنى اى اخذناهم بما ذكر من العذاب بسبب تماديهم
فى الفسق الذي هو الخروج عن الطاعة وهو الظلم والعدوان ايضا واجراء الحكم
على الموصول وان اشعر بعلية ما فى حيز الصلة له ولكنه صرح بالتعليل المذكور ايذانا بان العلة

هو الاستمرار

هو الاستمرار على الظلم والعدوان مع اعتبار كون ذلك خروجا عن طاعة الله عز وجل
لا نفس الظلم والعدوان والا لما اخرجا عن ابتداء المباشرة ساعة ولعله تعالى قد عذبهم
بعذاب شديد دون الاستئصال فلم يقلعوا عما كانوا عليه بل ازدادوا فى الغي فمسخهم
بعد ذلك لقوله تعالى فلما عتوا عما نهوا عنه اى تمردوا وتكبروا وابوا ان يتركوا
ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين صاغرين اذلاء بعداء عن الناس والمراد
بالامر هو الامر التكويني لا القولي وترتيب المسخ على العتو عن الانتهاء عما نهوا
عنه للايذان بانه ليس لخصوصية الحوت بل العمدة فى ذلك هو مخالفة الامر والاستعصاء
عليه تعالى وقيل المراد بالعذاب البئيس هو المسخ والجملة الثانية تقرير للاولى روي
ان اليهود امروا باليوم الذي امرنا به وهو يوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت
وهو المعنى بقوله تعالى انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه فابتلوا به وحرم عليهم
الصيد وامروا بتعظيمه فكانت الحيتان تاتيهم يوم السبت كانها المخاض لا يرى وجه
الماء لكثرتها ولا تاتيهم فى سائر الايام فكانوا على ذلك برهة من الدهر ثم
جاءهم ابليس فقال لهم انما نهيتم عن اخذها يوم السبت فاتخذوا حياضا سهلة
الورود صعبة الصدور ففعلوا فجعلوا يسوقون الحيتان اليها يوم السبت فلا تقدر
على الخروج منها وياخذونها يوم الاحد واخذ رجل منهم حوتا وربط فى ذنبه
خيطا الى خشبة فى الساحل ثم شواه يوم الاحد فوجد جاره ريح السمك فتطلع فى
تنوره فقال له انى ارى الله سيعذبك فلما لم يره عذب اخذ فى السبت القابل حوتين
فلما راوا ان العذاب لا يعاجلهم استمروا على ذلك فصادوا واكلوا وملحوا وباعوا
وكانوا نحوا من سبعين الفا فصار اهل القرية اثلاثا ثلث استمروا على النهي ثلث ملوا
التذكير وسئموه وقالوا للواعظين لم تعظون الى آخره وثلث باشروا الخطيئة فلما لم ينتهوا
قال المسلمون نحن لا نساكنكم فقسموا القرية بجدار للمسلمين باب وللمعتدين باب
ولعنهم داود عليه السلام فاصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من
المعتدين احد فقالوا ان لهم لشانا فعلوا الجدار فنظروا فاذا هم قردة ففتحوا الباب
ودخلوا عليهم فعرفت القردة انسباءهم من الانس وهم لا يعرفونها فجعل القرد ياتي
نسيبه فيشم ثيابه فيبكي فيقول له نسيبه الم ننهكم فيقول القرد براسه بلى ثم ماتوا
عن ثلاث وقيل صار الشباب قردة والشيوخ خنازير وعن مجاهد مسخت قلوبهم
وقال الحسن اكلوا والله اوخم اكلة اكلها اهلها اثقلها خزيا فى الدنيا واطولها عذابا فى الآخرة
وايم الله ما حوت اخذوه فاكلوه اعظم عند الله من قتل رجل مسلم ولكن الله تعالى جعل
موعدا والساعة ادهى وامر واذ تاذن ربك منصوب على المفعولية بمضمر معطوف
على قوله تعالى واسالهم وتاذن بمعنى كما ان توعد بمعنى اوعد او بمعنى عزم فان العازم
على الامر يحدث به نفسه واجرى مجرى فعل القسم كعلم الله وشهد الله فلذلك اجيب
بجوابه حيث قيل ليبعثن عليهم الى يوم القيمة اى واذكر لهم وقت ايجابه تعالى
على نفسه ان يسلط اليهود البتة من يسومهم سوء العذاب كالاذلال وضرب الجزية
وغير ذلك من فنون العذاب وقد بعث الله تعالى عليهم بعد سليمان عليه السلام بخت
نصر فخرب ديارهم وقتل مقاتلتهم وسبى نساءهم وذراريهم وضرب الجزية على
من بقي منهم وكانوا يؤدونها الى المجوس حتى بعث النبي صلى الله عليه وسلم ففعل
ما فعل ثم ضرب الجزية عليهم فلا تزال مضروبة الى آخر الدهر ان ربك لسريع العقاب
يعاقبهم فى الدنيا وانه لغفور رحيم لمن تاب وآمن منهم وقطعناهم اى فرقنا
بني اسرائيل فى الارض وجعلنا كل فرقة منهم فى قطر من اقطارها بحيث لا تخلو
ناحية منها منهم تكملة لادبارهم حتى لا يكون لهم شوكة وقوله تعالى امما اما مفعول
ثان لقطعنا او حال من مفعوله منهم الصالحون صفة لامما او بدل منه وهم
الذين آمنوا بالمدينة ومن يسير بسيرتهم ومنهم دون ذلك اى ناس دون ذلك
الوصف اى منحطون عن الصلاح وهم كفرتهم وفسقتهم وبلوناهم بالحسنات

والسيئات بالنعم والنقم لعلهم يرجعون عما كانوا فيه من الكفر والمعاصي فخلف من
بعدهم اى من بعد المذكورين خلف اى بدل سوء مصدر نعت به ولذلك يقع
على الواحد والجمع وقيل جمع وهو شايع في الشر والخلف بفتح اللام في الخير والمراد به الذين
كانوا في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثوا الكتاب اى التوراة من اسلافهم
يقرؤنها ويقفون على ما فيها يأخذون عرض هذا الادنى استيناف مسوق لبيان
ما يصنعون بالكتاب بعد وراثتهم اياه اى يأخذون حطام هذا الشيء الادنى اى الدنيا
وهو من الدنو او الدناءة والمراد به ما كانوا يأخذونه من الرشا في الحكومات وعلى
تحريف الكلام وقيل حال من واو ورثوا ويقولون سيغفر لنا اى ولا يؤاخذنا
بذلك ويتجاوز عنه والجملة تحتمل العطف والحالية والفعل مسند الى الجار والمجرور
او مصدر يأخذون وان يأتهم عرض مثله يأخذوه حال من الضمير
في لنا اى يرجون المغفرة والحال انهم مصرون على الذنب عائدون الى مثله غير تائبين
عنه الم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب اى الميثاق الوارد في الكتاب ان لا يقولوا
على الله الا الحق عطف بيان للميثاق او متعلق به اى بان لا يقولوا الخ والمراد به
الرد عليهم والتوبيخ على بتهم القول بالمغفرة بلا توبة والدلالة على انها افتراء على الله
وخروج عن ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه عطف على الم يؤخذ من حيث المعنى
فانه تقرير او على ورثوا وهو اعتراض والدار الاخرة خير للذين يتقون ما فعل هؤلاء
افلا تعقلون فيعلموا ذلك فلا يستبدلوا الادنى المؤدي الى العقاب بالنعيم المخلد
وقرئ بالياء وفي الالتفات تشديد للتوبيخ والذين يمسكون بالكتاب اى يتمسكون
به في امور دينهم يقال مسك بالشيء وتمسك به قال مجاهد هم الذين امنوا من اهل
الكتاب كعبد الله بن سلام واصحابه تمسكوا بالكتاب الذي جاء به موسى عليه السلام
فلم يحرفوه ولم يكتموه ولم يتخذوه مأكلة وقال عطاء هم امة محمد صلى الله عليه وسلم
وقرئ من الامساك وقرئ تمسكوا واستمسكوا موافقا لقوله تعالى واقاموا الصلاة ولعل
التغيير في المشهورة للدلالة على ان التمسك بالكتاب امر مستمر في جميع الازمنة بخلاف
اقامة الصلاة فانها مختصة باوقاتها وتخصيصها بالذكر من بين ساير العبادات
لانافتها عليها ومحل الموصول اما الجر نسقا على الذين يتقون وقوله افلا تعقلون
اعتراض مقرر لما قبله واما الرفع على الابتداء والخبر وقوله تعالى انا لا نضيع اجر المصلحين
والرابط اما الضمير المحذوف كما هو رأي جمهور البصريين والتقدير اجر المصلحين
منهم واما الالف واللام كما هو رأي الكوفيين فانه في حكم مصلحيهم كما في قوله
تعالى فان الجنة هي المأوى اى مأواهم وقوله تعالى مفتحة لهم الابواب اى ابوابها
واما العموم في مصلحين فانه من الروابط ومنه نعم الرجل زيد على احد الوجوه وقيل
الخبر محذوف والتقدير والذين يمسكون بالكتاب مأجورون او مثابون وقوله تعالى
انا لا نضيع اجر المصلحين اعتراض مقرر لما قبله واذ نتقنا الجبل فوقهم اى قلعناه
من مكانه ورفعناه عليهم كانه ظلة اى سقيفة وهي كل ما اظلك وظنوا
اى تيقنوا انه واقع بهم ساقط عليهم لان الجبل في الجو ولانهم كانوا
يوعدون به واطلاق الظن في الحكاية لعدم وقوع متعلقه وذلك انهم ابوا ان
يقبلوا احكام التوراة لثقلها فرفع الله تعالى عليهم الطور وقيل لهم ان قبلتم
ما فيها والا ليقعن عليكم خذوا ما اتيناكم اى وقلنا او قائلين خذوا ما
اتيناكم من الكتاب بقوة بجد وعزيمة على تحمل مشاقه وهو حال من الواو واذكروا
ما فيه بالعمل ولا تتركوه كالمنسي لعلكم تتقون بذلك قبائح الاعمال ورذائل الاخلاق
او راجين ان تنتظموا في سلك المتقين واذ اخذ ربك منصوب بمضمر معطوف على
ما انتصب به اذ نتقنا مسوق للاحتجاج على اليهود بتذكير الميثاق العام المنتظم
للناس قاطبة وتوبيخهم بنقضه اثر الاحتجاج عليهم بتذكير ميثاق الطور
وتعليق الذكر بالوقت مع ان المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيانه مرارا

اى واذكر

اى واذكر لهم اخذ ربك من بني آدم المراد بهم الذين ولدهم كائنا من كان نسلا
بعد نسل سوى من لم يولد له بسبب من الاسباب كالعقم وعدم التزوج والموت صغيرا
وايثار الاخذ على الاخراج للايذان بالاعتناء بشأن المأخوذ لما فيه من الانباء عن الاجتباء
والاصطفاء وهو السبب في اسناده الى اسم الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من
التمهيد للاستفهام الآتي واضافته الى ضميره عليه السلام للتشريف وقوله تعالى من ظهورهم
بدل من بني آدم بدل البعض بتكرير الجار كما في قوله تعالى للذين استضعفوا لمن آمن
ومن في الموضعين ابتدائية وفيه مزيد تقرير لابتنائه على البيان بعد الابهام و
التفصيل غب الاجمال وتنبيه على ان الميثاق قد اخذ منهم وهم في اصلاب الآباء
ولم يستودعوا في ارحام الامهات وقوله تعالى ذريتهم مفعول اخذ اخر عن
المفعول بواسطة الجار لاشتماله على ضمير راجع اليه ولمراعاة اصالته ومنشائيته
ولما مر مرارا من التشويق الى المؤخر وقرئ ذرياتهم والمراد بهما اولادهم على
العموم فيندرج فيهم اليهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم اندراجا
اوليا كما اندرج اسلافهم في بني آدم كذلك وتخصيصهما باليهود سلفا وخلفا
مع ان ما اريد بيانه من بديع صنع الله عز وجل شامل للكل كافة مخل بفخامة التنزيل
وجزالة التمثيل واشهدهم على انفسهم اى اشهد كل واحدة من اولئك الذريات
المأخوذ من ظهور ابائهم على نفسها لا على غيرها تقريرا لهم بربوبيته التامة
وما تستتبعه من المعبودية على الاختصاص وغير ذلك من احكامها وقوله تعالى
الست بربكم على ارادة القول اى قائلا الست بربكم ومالك امركم ومربيكم على الاطلاق
من غير ان يكون لاحد مدخل في شان من شؤنكم فينتظم استحقاق المعبودية و
ويستلزم اختصاصه به تعالى قالوا استيناف مبني على سؤال نشأ من الكلام كانه قيل فماذا قالوا
حينئذ فقيل قالوا بلى شهدنا اى على انفسنا بانك ربنا والهنا لا رب لنا غيرك
كما ورد في الحديث الشريف وهذا تمثيل لخلقه تعالى اياهم جميعا في مبدأ الفطرة مستعدين
للاستدلال بالدلائل المنصوبة في الآفاق والانفس المؤدية الى التوحيد والاسلام كما ينطق
به قوله صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة الحديث مبني على تشبيه الهيئة
المنتزعة من تعريضه تعالى اياهم لمعرفة ربوبيته بعد تمكينهم منها بما ركز فيهم من العقول
والبصائر ونصب لهم في الآفاق والانفس من الدلائل تمكينا تاما ومن تمكنهم منها
تمكنا كاملا وتعرضهم لها تعرضا قويا بهيئة منتزعة من حمله اياهم على الاعتراف بها
بطريق الامر ومن مسارعتهم الى ذلك من غير تلعثم اصلا من غير ان يكون هناك اخذ
واشهاد وسؤال وجواب كما في قوله تعالى فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين
وقوله تعالى ان تقولوا بالتاء على تلوين الخطاب وصرفه من رسول الله صلى الله عليه وسلم
الى معاصريه من اليهود تشديدا في الالزام او اليهم والى متقدميهم بطريق
التغليب لكن لا من حيث انهم مخاطبون بقوله تعالى الست بربكم فانه ليس من
الكلام المحكي وقرئ بالياء على ان الضمير للذرية وايا ما كان فهو مفعول له لما قبله
من الاخذ والاشهاد اى فعلنا ما فعلنا كراهة ان تقولوا او لئلا تقولوا ايها الكفرة اى
يقولوا هم يوم القيامة عند ظهور الامر انا كنا عن هذا عن وحدانية الربوبية
واحكامها غافلين لم ننبه عليه فانهم حيث جبلوا على ما ذكر من التهيؤ التام
لتحقيق الحق والقوة القريبة من الفعل صاروا محجوجين عاجزين عن الاعتذار بذلك
اذ لا سبيل لاحد الى انكار ما ذكر من خلقهم على الفطرة السليمة وقوله تعالى او تقولوا
انما اشرك اباؤنا عطف على تقولوا او لمنع الخلو دون الجمع اى هم اخترعوا الاشراك
وهم سنوه من قبل من قبل زماننا وكنا نحن ذرية من بعدهم لا نهتدي
الى السبيل ولا نقدر على الاستدلال بالدليل افتهلكنا بما فعل المبطلون من ابائنا
المضلين بعد ظهور انهم المجرمون ونحن عاجزون عن التدبير والاستبداد بالرأي اي
اتؤاخذنا فتهلكنا الخ فان ما ذكر من استعدادهم الكامل يسد عليهم باب الاعتذار بهذا ايضا

فان التقليد عند قيام الدلايل والقدرة على الاستدلال بها مما لا مساغ له اصلا هذا وقد حملت
هذه المقاولة على الحقيقة كما روي عن ابن عباس رضه انه لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام
مسح ظهره فاخرج منه كل نسمة هو خالقها الى يوم القيمة فقال الست بربكم قالوا
بلى فنودي يومئذ جف القلم بما هو كائن الى يوم القيمة وقد روي عن عمر رضه
انه سئل عن الآية الكريمة فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال
ان الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة
وبعمل اهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال هؤلاء للنار وبعمل اهل
النار يعملون وليس المعنى انه تعالى اخرج الكل من ظهره عليه السلام بالذات بل اخرج من
ظهره ابناءه الصلبية ومن ظهورهم ابناءهم الصلبية وهكذا الى آخر السلسلة لكن لما كان
المظهر الاصلي ظهره عم وكان مساق الحديثين الشريفين بيان حال الفريقين اجمالا من
غير ان يتعلق بذكر الوسايط غرض علق نسب اخراج الكل اليه واما الآية الكريمة فحيث
كانت مسوقة للاحتجاج على الكفرة المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان عدم افادة
الاعتذار باسناد الاشراك الى ابائهم اقتضى الحال نسبة اخراج كل واحد منهم
ظهر ابيهم من غير تعرض لاخراج الابناء الصلبية لآدم عم من ظهره قطعا وعدم
بيان الميثاق في حديث عمر رضه ليس بيانا لعدمه ولا مستلزما له واما ما قالوا من ان
اخذ الميثاق لاسقاط عذر الغفلة حسبما ينطق به قوله تعالى ان تقولوا يوم القيمة انا
كنا عن هذا غافلين ومعلوم انه غير دافع لغفلتهم في دار التكليف اذ لا فرد من افراد البشر
يذكر ذلك فمردود لكن لا بما قيل من ان الله عز وجل قد اوضح الدلايل على وحدانيته وصدق
رسله فيما اخبروا به فمن انكره كان معاندا ناقضا للعهد وكزمته الحجة ونسيانهم وعدم
حفظهم لا يسقط الاحتجاج بعد اخبار المخبر الصادق بل بان قوله تعالى بان تقولوا الى آخره
ليس مفعولا له لقوله تعالى واشهدهم وما يتفرع عليه من قولهم بلى شهدنا حتى
يجب كون ذلك الاشهاد والشهادة محفوظا لهم في الزامهم بل لفعل مضمر ينسحب
عليه الكلام والمعنى فعلنا ما فعلنا من الامر بذكر الميثاق وبيانه كراهة ان تقولوا
او لئلا تقولوا ايها الكفرة يوم القيمة انا كنا غافلين عن ذلك الميثاق لم ننبه عليه في دار
التكليف والا لعملنا بموجبه هذا على قراءة الجمهور واما على القراءة بالياء فهو مفعول له
لنفس الامر المضمر العامل في اذ اخذ والمعنى اذكر لهم الميثاق المأخوذ منهم فيما مضى لئلا
يعتذروا يوم القيمة بالغفلة عنه او بتقليد الاباء هذا على تقدير كون قوله تعالى شهدنا
من كلام الذرية وهو الظاهر فاما على تقدير كونه من كلامه تعالى فهو العامل في ان
تقولوا ولا محذور اصلا اذ المعنى شهدنا قولكم هذا لئلا تقولوا يوم القيمة الخ انا نردكم
ونكذبكم حينئذ وكذلك اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده وما فيه من معنى البعد
للايذان بعلو شان المشار اليه وبعد منزلته والكاف مقحمة مؤكدة لما افاده اسم الاشارة
من الفخامة والتقديم على الفعل لافادة القصر ومحله النصب على المصدرية اي ذلك
التفصيل البليغ المستتبع للمنافع الجليلة نفصل الآيات المذكورة لا غير ذلك ولعلهم
يرجعون ولكي يرجعوا عما هم عليه من الاصرار على الباطل وتقليد الاباء نفعل
التفصيل المذكور فالواو ان ابتدائية ويجوز ان يكون الثانية عاطفة على مقدر
مترتب على التفصيل اي وكذلك نفصل الآيات ليقفوا على ما فيها من المرغبات والزواجر
وليرجعوا الخ واتل عليهم عطف على المضمر العامل في اذ اخذ وارد على نمطه في
الانباء عن الحور بعد الكور والضلالة بعد الهدى اي واتل على اليهود نبأ الذي
آتيناه آياتنا اي خبره الذي له شأن وخطر وهو احد علماء بني اسرائيل وقيل بلعم
بن باعورا او بلعام بن باعر من الكنعانيين اوتي علم بعض كتب الله تعالى وقيل هو
امية بن ابي الصلت وكان قد قرأ الكتب وعلم ان الله تعالى مرسل في ذلك الزمان رسولا
ورجا ان يكون هو الرسول فلما بعث الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم حسده وكفر به
والاول هو الانسب بمقام توبيخ اليهود بهناتهم فانسلخ منها اي من تلك الآيات انسلاخ

الجلد من الشاة ولم يخطرها بباله اصلا او خرج منها بالكلية بان كفر بها ونبذها وراء
ظهره واياما كان فالتعبير عنه بالانسلاخ المنبي عن اتصال المحيط بالمحاط خلقة وعن
عدم الملاقاة بينهما ابدا للايذان بكمال مباينته للآيات بعد ان كان بينهما كمال الاتصال
فاتبعه الشيطان اي تبعه حتى لحقه وادركه وصار قرينا له وهو المعنى على قراءة
فاتّبعه من الافتعال وفيه تلويح بانه اشد من الشيطان غواية او اتبعه خطواته
فكان من الغاوين فصار من زمرة الضالين الراسخين في الغواية بعد ان كان من المهتدين
وروي ان قومه طلبوا اليه ان يدعو على موسى عليه السلام فقال كيف ادعو على من
معه الملائكة فلم يزالوا به حتى فعل فبقوا في التيه ويرد ان التيه كان لموسى عم روحا
وريحانة وانما عذب به بنو اسرائيل وقد كان ذلك بدعائه عليه السلام عليهم كما
مر في سورة المائدة ولو شئنا كلام مستأنف لبيان مناط ما ذكر من انسلاخه
من الآيات ووقوعه في مهاوي الغواية ومفعول المشية محذوف لوقوعها شرطا
وكون مفعولها مضمون الجزاء على القاعدة المستمرة اي ولو شئنا رفعه لرفعناه اي
الى المنازل العالية للابرار العاملين بتلك الآيات العاملين بموجبها لكن لا بمحض
مشيتنا من غير ان يكون له دخل في ذلك اصلا فانه مناف للحكمة التشريعية المؤسسة
على تعليق الاجزية بالافعال الاختيارية للعباد بل مع مباشرته للعمل المؤدي الى الرفع
بصرف اختياره الى تحصيله كما ينبئ عنه قوله تعالى بها اي بسبب تلك
الآيات بان عمل بموجبها فان اختياره وان لم يكن مؤثرا في حصوله ولا في
ترتب الرفع عليه بل كلاهما بخلق الله تعالى لكن خلقه تعالى منوط بذلك البتة حسب
جريان العادة الالهية وقد اشير الى ذلك في الاستدراك بان اسند ما يؤدي الى
نقيض التالي اليه حيث قيل ولكنه اخلد الى الارض مع ان الاخلاد اليها ايضا مما لا
يتحقق عند صرف اختياره اليه الا بخلقه تعالى كانه قيل ولو شئنا رفعه بمباشرته لسببه
لرفعناه بسبب تلك الآيات التي هي اقوى اسباب الرفع ولكن لم نشأ لمباشرته لسبب
نقيضه فترك في كل من المقامين ما ذكر في الآخر تعويلا على اشعار المذكور بالمطوي كما في قوله تعالى وان
يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله وتخصيص كل من
المذكورين بمقامه للايذان بان الرفع مراد له تعالى بالذات وتفضل محض عليه لا دخل فيه لفعله
حقيقة كيف لا وجميع افعاله ومباديها من نعمه تعالى وتفضلاته وان نقيضه انما اصابه
بسوء اختياره على موجب الوعيد لا بالارادة الذاتية له سبحانه كما قيل في وجه ذكر الارادة
مع الخير والمس مع الضر في الآية المذكورة وهو السر في جريان السنة القرآنية على
اسناد الخير اليه تعالى واضافة الشر الى الغير كما في قوله تعالى واذا مرضت فهو يشفين ونظايره
والاخلاد الى الشيء الميل اليه مع الاطمئنان به والمراد بالارض الدنيا وقيل السفالة
والمعنى ولكنه اثر الدنيا الدنية على المنازل السنية او الضعة والسفالة على الرفعة
والجلالة واتبع هواه معرضا عن تلك الآيات الجليلة فانحط ابلغ انحطاط وارتد
اسفل سافلين والى ذلك يقوله تعالى فمثله كمثل الكلب لما انه اخس الحيوانات و
اسفلها وقد مثل حاله باخس احواله واذلها حيث قيل ان تحمل عليه يلهث او تتركه
يلهث اي فحاله التي هي مثل في السوء كصفته في ارذل احواله وهي حالة دوام اللهث به في حالتي
التعب والراحة فكانه قيل فتردى الى ما لا غاية وراءه في الخسة والدناءة وايثار الجملة الاسمية
على الفعلية بان يقال فصار مثله كمثل الكلب للايذان بدوام اتصافه بتلك الحالة الخسيسة
وكمال استقراره واستمراره عليها والخطاب في فعلي الشرط لكل احد ممن له حظ من الخطاب
فانه ادخل في اشاعة فظاعة حاله واللهث ادلاع اللسان بالتنفس الشديد اي هو
ضيق الحال مكروب دائم اللهث سواء هيجته وازعجته بالطرد العنيف او تركته
على حاله فانه في الكلاب طبع لا تقدر على نفض الهواء المسخن وجلب الهواء البارد بسهولة
لضعف قلبها وانقطاع فؤادها بخلاف ساير الحيوانات فانها لا تحتاج الى التنفس
الشديد ولا يلحقها الكرب والمضايقة الا عند التعب والاعياء والشرطية مع اختها تفسير

لما انبهم فى المثل وتفصيل لما اجمل فيه وتوضيح للتمثيل بيانا وجه الشبه لا محل له من
الاعراب على منهاج قوله تعالى خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون اثر قوله تعالى ان مثل عيسى
عند الله كمثل ادم وقيل هى فى محل النصب على الحالية من الكلب بناء على خروجها من
حقيقة الشرط وتحولهما الى معنى التسوية حسب تحول الاستفهام من المتناقضين
اليه فى مثل قوله تعالى انذرتهم ام لم تنذرهم كانه قيل لاهثا فى الحالتين واياما كان
فالاظهر انه تشبيه للهيئة المنتزعة مما اعتراه بعد الانسلاخ من سوء الحال واضطرام
القلب ودوام القلق والاضطراب وعدم الاستراحة بحال من الاحوال بالهيئة المنتزعة
مما ذكر من حال الكلب وقيل لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فتدلى
على صدره وجعل يلهث كالكلب الى ان هلك ذلك اشارة ما ذكر من الحالة الخسيسة
منسوبة الى الكلب او الى المنسلخ وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها فى
الخسة والدناءة اى ذلك المثل السيء مثل القوم الذين كذبوا باياتنا وهم اليهود حيث اوتوا
فى التوراة ما اوتوا من نعت النبى صلى الله عليه وسلم وذكر القران المعجز وما فيه
فصدقوه وبشروا الناس باقتراب مبعثه وكانوا يستفتحون فلما جاءهم ما عرفوا كفروا
به وانسلخوا من حكم التوراة فاقصص القصص القصص مصدر سمى به المفعول
كالسلب واللام للعهد والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها اى اذا تحقق ان المثل المذكور
مثل هؤلاء المكذبين فاقصصه عليهم حسبما اوحى اليك لعلهم يتفكرون
فيقفون على جلية الحال وينزجرون عما هم عليه من الكفر والضلال ويعلمون انك
قد علمته من جهة الوحى فيزدادون ايقانا بك والجملة فى محل النصب على انها حال
من ضمير المخاطب او على انها مفعول له اى فاقصص القصص راجيا لتفكرهم او رجا
لتفكرهم ساء مثلا استئناف مسوق لبيان كمال قبح المكذبين بعد بيان كونه
كحال الكلب والمنسلخ وساء بمعنى بئس وفاعلها مضمر فيها ومثلا تمييز مفسر له و
المخصوص بالذم قوله تعالى القوم الذين كذبوا باياتنا وحيث وجب التصادق
بينه وبين الفاعل والتمييز وجب المصير الى تقدير المضاف اما اليه وهو الظاهر اى ساء
مثلا مثل القوم الخ او الى التمييز اى ساء اصحاب مثل القوم الخ وقرئ ساء مثل القوم
واعادة القوم موصوفا بالموصول مع كفاية الضمير بان يقال ساء مثلا مثلهم للايذان
بان مدار السوء ما فى حيز الصلة ولربط قوله تعالى وانفسهم كانوا يظلمون به فانه اما
معطوف على كذبوا داخل معه فى حكم الصلة بمعنى جمعوا بين تكذيب ايات الله تعالى
بعد قيام الحجة عليها وعلمهم بها وبين ظلمهم لانفسهم خاصة او منقطع عنه بمعنى
وما ظلموا بالتكذيب الا انفسهم فان وباله لا يتخطاها واياما كان ففى يظلمون لهم
الى ان تكذيبهم بالايات متضمن للظلم بها وان ذلك ايضا معتبر فى القصر المستفاد من
تقديم المفعول من يهد الله فهو المهتدى لما امر النبى صلى الله عليه وسلم بان يقص قصص
المنسلخ على هؤلاء الضالين الذين مثلهم كمثله ليتفكروا فيه ويتركوا ما هم عليه من
الاخلاد الى الضلالة ويهتدوا الى الحق عقب ذلك بتحقيق ان الضلالة من جهة
الله عز وجل وانما العظة والتذكير من قبيل الوسايط العادية فى حصول الاهتداء
من غير تاثير لها فيه سوى كونها دواعى الى صرف العبد اختياره نحو تحصيله حسبما
نيط به خلق الله تعالى اياه كساير افعال العباد فالمراد بهذه الهداية ما يوجب الاهتداء
قطعا لكن لا لان حقيقتها الدلالة الموصولة الى البغية البتة بل لانها الفرد الكامل من
حقيقة الهداية التى هى الدلالة الى ما يوصل الى البغية اى ما من شانه الايصال اليها كما
سبق تحقيقه فى تفسير قوله تعالى هدى للمتقين وليس المراد مجرد الاخبار باهتداء
من هداه الله تعالى حتى يتوهم عدم الافادة بحسب الظاهر لظهور استلزام
هدايته تعالى للاهتداء بل محط النظم الكريم على تعظيم شان الاهتداء والتنبيه
على انه فى نفسه كمال جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه بل هو حصر الاهتداء
على من هداه الله تعالى حسبما يقضيه تعريف الخبر فالمعنى من يهده الله الى ما فيه

الاهتداء

الاهتداء على الوجه المذكور فهو المهتدى لا غير كائنا من كان ومن يضلل بان لم
يخلق فيه الاهتداء بل خلق فيه الضلال لصرف اختياره نحوها فاولئك الموصوفون
بالضلالة على الوجه المذكور هم الخاسرون اى الكاملون فى الخسران لا غير وافراد المهتدى
نظرا الى لفظ من وجمع الخاسرين نظرا الى معناها للايذان باتحاد منهاج الهدى وتفرق
طرق الضلال ولقد ذرانا كلام مستانف مقرر لمضمون ما قبله بطريق التذييل
اى خلقنا لجهنم اى دخولها والتعذيب بها وتقديمه على قوله تعالى كثيرا اى خلقا
كثيرا مع كونه مفعولا به لما فى توابعه من نوع طول يؤدى توسيطه بينهما وتاخيره
عنها الى الاخلال بجزالة النظم الكريم وقوله تعالى من الجن والانس متعلق بمحذوف
هو صفة لكثيرا اى كائنا منهما وتقديم الجن لانهم اعرف من الانس فى الاتصاف
بما نحن فيه من الصفات واكثر عددا واقدم خلقا والمراد بهم الذين حقت عليهم
الكلمة الازلية بالشقاوة لكن لا بطريق الجبر من غير ان يكون من قبلهم ما يؤدى
الى ذلك بل لعلمه تعالى بانهم لا يصرفون اختيارهم نحو الحق ابدا بل يصرون على الباطل
من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم من الايات والنذر فبهذا الاعتبار جعل
خلقهم مغيا بها كما ان جميع الفريقين باعتبار استعدادهم الكامل الفطرى للعبادة
وتمكنهم التام منها جعل خلقهم مغيا بها كما نطق به قوله تعالى وما خلقت الجن و
الانس الا ليعبدون وقوله تعالى لهم قلوب فى محل النصب على انه صفة اخرى لكثيرا
او قوله تعالى لا يفقهون فى محل الرفع على انه صفة لقلوب مؤكدة لما يفيده تنكيرها
وابهامها من كونها غير معهودة مخالفة لساير افراد الجنس فاقدة لكمالها بالكلية لكن
لا بحسب الفطرة حقيقة بل بسبب امتناعهم عن صرفها الى تحصيله وهذا وصف لها
بكمال الاغراق فى القساوة فانها حيث لم يتات منها الفقه بحال فكانها خلقت غير
قابلة له رأسا وكذا الحال فى اعينهم واذانهم وحذف المفعول للتعميم اى لهم قلوب
ليس من شانها ان يفقهوا بها شيئا من شانه ان يفقه فيدخل فيه ما يليق بالمقام
من الحق ودلايله دخولا اوليا وتخصيصه بذلك مخل بالافصاح عن كنه حالهم ولهم
اعين لا يبصرون بها الكلام فيه كما فيما عطف هو عليه والمراد بالابصار
والسمع المنفيين ما يختص بالعقلاء من الادراك على ما هو وظيفة الثقلين لا ما يتناول
مجرد الاحساس بالشبح والصوت كما هو وظيفة الانعام اى لا يبصرون بها شيئا من المبصرات
فيندرج فيه الشواهد التكوينية الدالة على الحق اندراجا اوليا ولهم اذان
لا يسمعون بها اى شيئا من المسموعات فيتناول الايات التنزيلية تناولا اوليا
واعادة الخبر فى الجملتين المعطوفتين مع انتظام الكلام بان يقال واعين لا يبصرون
بها واذان لا يسمعون بها لتقرير سوء حالهم وفى اثبات المشاعر الثلاثة لهم
ثم وصفها بعدم الشعور دون سلبها عنهم ابتداء بان يقال ليس لهم قلوب يفقهون
بها ولا اعين يبصرون بها ولا اذان يسمعون بها من الشهادة بكمال رسوخهم
فى الجهل والغواية ما لا يخفى اولئك اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم
بما ذكر من الصفات وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الضلال
اى اولئك الموصوفون بالاوصاف المذكورة كالانعام اى فى انتفاء الشعور
على الوجه المذكور او فى مشاعرهم متوجهة الى اسباب التعيش مقصورة عليها
بل هم اضل فانها تدرك ما من شانها ان تدركه من المنافع والمضار فتجتهد
فى جلبها وسلبها غاية جهدها مع كونها بمعزل من الخلود وهم ليسوا
كذلك حيث لا يميزون بين المنافع والمضار بل يعكسون الامر فيتركون النعيم
المقيم ويقدمون على العذاب الخالد وقيل لانها تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه
وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولا يطيعونه وفى الخبر كل شئ اطوع لله
من ابن ادم اولئك المنعوتون بما مر من مثلية الانعام والشرية منها هم
الغافلون الكاملون فى الغفلة المستحقون لان يخص بهم الاسم ولا يطلق على

غيرهم كيف لا وانهم لا يعرفون من شؤن الله عز وجل ولا من شؤن ما سواه شيئا فيشركون
به سبحانه وليس كمثله شيء وهو السميع العليم اصنامهم التي هي من اخس مخلوقاته
تعالى ولله الاسماء الحسنى تنبيه للمؤمنين على كيفية ذكره تعالى وكيفية المعاملة مع
المخلين بذلك الغافلين عنه سبحانه وعما يليق به من الامور وما لا يليق به اثر بيان
غفلتهم التامة وضلالتهم الطامة والحسنى تانيث الاحسن اي الاسماء التي هي
احسن الاسماء واجلها لانبائها عن احسن المعاني واشرفها فادعوه بها اي
فسموه بتلك الاسماء وذروا الذين يلحدون في اسمائه الالحاد واللحد الميل
والانحراف يقال لحد والحد اذا مال عن القصد وقرئ يلحدون من الثلاثي
اي يميلون في شانها عن الحق الى الباطل اما بان يسموه تعالى بما لا توقيف فيه او بما يوهم
معنى فاسدا كما في قول اهل البدو يا ابا المكارم يا ابيض الوجه يا سخي ونحو ذلك فالمراد
بالترك المامور به الاجتناب عن ذلك وباسمائه ما اطلقوه عليه تعالى وسموه به على زعمهم
لا اسماؤه تعالى حقيقة وعلى ذلك يحمل ترك الاضمار بان يقال يلحدون فيها واما بان يعدلوا
عن تسميته تعالى ببعض اسمائه الكريمة كما قالوا وما الرحمن ما نعرف سوى رحمان اليمامة
فالمراد بالترك الاجتناب ايضا وبالاسماء اسماؤه تعالى حقيقة فالمعنى سموه تعالى بجميع
اسمائه الحسنى واجتنبوا اخراج بعضها من البين واما بان يطلقوها على غيره تعالى كما
سموا اصنامهم آلهة واما بان يشتقوا من بعضها اسماء اصنامهم كما اشتقوا اللات
من الله تعالى والعزى من العزيز والمراد بالاسماء اسماؤه تعالى حقيقة كما في الوجه
الثاني والاظهار في موقع الاضمار مع التجريد عن الوصف في الكل للايذان بان
الحادهم في نفس الاسماء من غير اعتبار الوصف وليس المراد بالترك حينئذ الاجتناب
اذ لا يتوهم صدور مثل هذا الالحاد عن المؤمنين ليؤمروا بتركه بل هو الاعراض
عنهم وعدم المبالاة بما فعلوا ترقبا لنزول العقوبة بهم عن قريب كما هو المتبادر
من قوله تعالى سيجزون ما كانوا يعملون فانه استئناف وقع جوابا عن سؤال نشا
من الامر بعدم المبالاة والاعراض عن المجازاة كانه قيل لم لا يبالى بالحادهم ولا
تتصدى لمجازاتهم فقيل لانه سينزل بهم عقوبته وتشتفون بذلك عن قريب
واما على الوجهين الاولين فالمعنى اجتنبوا الحادهم كيلا يصيبكم ما اصابهم
فانه سينزل بهم عقوبة الحادهم وممن خلقنا امة يهدون بالحق وبه يعدلون
بيان اجمالي لحال من عدا المذكورين من الثقلين الموصوفين بما ذكر من الضلال
والالحاد عن الحق ومحل الظرف الرفع على انه مبتدا اما باعتبار مضمونه او بتقدير
الموصوف وما بعده خبره كما مر في تفسير قوله تعالى ومن الناس الخ اي وبعض من خلقنا
او وبعض ممن خلقنا امة اي طائفة كثيرة يهدون الناس ملتبسين بالحق او يهدونهم
بكلمة الحق ويدلونهم على الاستقامة وبالحق يحكمون في الحكومات الجارية فيما
بينهم ولا يجورون فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يقول اذا قراها
هذه لكم وقد اعطي القوم بين ايديكم مثلها ومن قوم موسى امة الاية وعنه عليه السلام
ان من امتي قوما على الحق حتى ينزل عيسى وروي لا تزال من امتي طائفة على الحق
الى ان ياتي امر الله وروي لا تزال من امتي امة قائمة بامر الله لا يضرهم من خذلهم
ولا من خالفهم حتى ياتي امر الله وهم ظاهرون وفيه من الدلالة على صحة الاجماع ما
لا يخفى والاقتصار على نعتهم بهداية الناس للايذان بان اهتداءهم في انفسهم امر
محقق غني عن التصريح به والذين كذبوا باياتنا شروع في تحقيق الحق الذي به
يهدي الهادون وبه يعدل العادلون وحمل الناس على الاهتداء به على وجه الترهيب
ومحل الموصول الرفع على انه مبتدا خبره ما بعده من الجملة الاستقبالية واضافة
الايات الى نون العظمة لتشريفها واستعظام الاقدام على تكذيبها اي والذين
كذبوا باياتنا التي هي معيار الحق ومصداق الصدق والعدل سنستدرجهم
سنستدنيهم البتة الى الهلاك شيئا فشيئا والاستدراج استفعال من درج اما بمعنى صعد

ثم اتسع فيه فاستعمل في كل نقل تدريجي سواء كان بطريق الصعود او الهبوط او الاستقامة
واما بمعنى مشى مشيا ضعيفا واما بمعنى طوى والاول هو الانسب بالمعنى المراد الذي هو
النقل الى اعلى درجات المهالك ليبلغ اقصى مراتب العقوبة والعذاب ثم استعير لطلب
كل نقل تدريجي من حال الى حال من الاحوال الملائمة للمنتقل الموافقة لهواه بحيث
يزعم ان ذلك ترق في مراقي منافعه مع انه في الحقيقة تردٍّ في مهاوي مصارعه فاستدراجه
اياهم ان يواتر عليهم النعم مع انهماكهم في الغي فيحسبوا انها لطف لهم منه تعالى
فيزدادوا بطرا وطغيانا لكن لا على ان المطلوب تدرجهم في مراتب النعم بل هو تدرجهم
في مدارج المعاصي الى ان يحق عليهم كلمة العذاب على افظع حال واشنعها والاول وسيلة
اليه وقوله تعالى من حيث لا يعلمون متعلق بمضمر وقع صفة لمصدر الفعل المذكور
اي سنستدرجهم استدراجا كائنا من حيث لا يعلمون انه كذلك بل يحسبون انه اثرة
من الله عز وجل وتقريب منه وقيل لا يعلمون ما يراد بهم واملي لهم عطف على
سنستدرجهم غير داخل في حكم السين لما ان الاملاء الذي هو عبارة عن الامهال
والاطالة ليس من الامور التدريجية كالاستدراج الحاصل في نفسه شيئا
فشيئا بل هو فعل يحصل دفعة وانما الحاصل بطريق التدريج آثاره واحكامه لا نفسه
كما يلوح اليه تغيير التعبير بتوحيد الضمير مع ما فيه من الافتنان المنبئ عن مزيد الاعتناء
بمضمون الكلام لابتنائه على تجديد القصد والعزيمة واما ان ذلك للاشعار بانه
بمحض التقدير الالهي والاستدراج بتوسط المدبرات فمبناه دلالة نون العظمة على
الشركة واني ذلك والا لاحترز عن ايرادها في قوله تعالى ولا يحسبن الذين كفروا انما نملي
لهم خير لانفسهم انما نملي لهم الاية بل انما ايرادها في امثال هذه الموارد بطريق الجريان
على سنن الكبرياء ان كيدي متين تقرير للوعيد وتاكيد له اي قوي لا يدفع
بقوة ولا بحيلة والمراد به اما الاستدراج والاملاء مع نتيجتهما التي هي الاخذ الشديد
على غرة فتسميته كيدا لما ان ظاهره لطف وباطنه قهر واما نفس ذلك الاخذ فقط
فالتسمية لكون مقدماته كذلك واما ان حقيقة الكيد هو الاخذ على خفاء من غير
ان يعتبر فيه اظهار خلاف ما ابطنه فمما لا تعويل عليه مع عدم مناسبته للمقام
ضرورة استدعائه لاعتبار القيد المذكور حتما اولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة
كلام مبتدا مسوق لانكار عدم تفكرهم في شانه عليه السلام وجهلهم بحقيقة
حاله الموجبة للايمان به وبما انزل عليه من الايات التي كذبوا بها والهمزة للانكار
والتعجيب والتوبيخ والواو للعطف على مقدر يستدعيه سباق النظم الكريم
وسياقه وما اما استفهامية انكارية في محل الرفع بالابتداء والخبر بصاحبهم
واما نافية اسمها جنة وخبرها بصاحبهم والجنة من المصادر التي يراد بها
الهيئة كالركبة والجلسة وتنكيرها للتقليل والتحقير والجملة معلقة لفعل التفكر
لكونه من افعال القلوب ومحلها على الوجهين النصب على نزع الجار اي اكذبوا بها
ولم يتفكروا في اي شيء من جنون ما كائن بصاحبهم الذي هو اعظم الامة الهادي
بالحق وعليه انزلت تلك الايات او في انه ليس بصاحبهم شيء من الجنة حتى
يؤديهم التفكر في ذلك الى الوقوف على صدقه وصحة نبوته فيؤمنوا به وبما
انزل عليه من الايات وقيل قد تم الكلام عند قوله تعالى اولم يتفكروا اي اكذبوا بها
ولم يفعلوا التفكر ثم ابتدئ فقيل اي شيء بصاحبهم من جنة على طريقة
الانكار والتعجيب والتبكيت او وقيل ليس بصاحبهم شيء منها والتعبير عنه صلى الله عليه
وسلم بصاحبهم للايذان بان طول مصاحبتهم له عليه السلام مما يطلعهم على
نزاهته عليه السلام عن شائبة ما ذكر ففيه تاكيد للنكير وتشديد له والتعرض
لنفي الجنون عنه عليه الصلاة والسلام مع وضوح استحالة ثبوته له عليه السلام
لما ان التكلم بما هو خارق لقضية العقول والعادات لا يصدر الا عمن به مس من
الجنون كيفما اتفق من غير ان يكون له اصل ومعنى او عمن له تاييد الهي يخبر به عن

الامور الغيبية واذ ليس به عليه السلام شائبة الاول تعين انه عليه السلام مؤيد من عند
الله عز وجل وقيل انه عليه السلام علا الصفا ليلاً فجعل يدعو قريشاً فخذاً فخذاً يحذرهم
بأس الله تعالى فقال قائلهم ان صاحبكم هذا المجنون بات يهوت الى الصباح فنزلت
فالتصريح بنفي الجنون حينئذ للرد على عظيمتهم الشنعا والتعبير عنه عليه السلام بصاحبهم
وارد على شاكلة كلامهم مع ما فيه من النكتة المذكورة وقوله تعالى ان هو الا نذير
مبين جملة مقررة لمضمون ما قبلها ومبينة لحقيقة حاله صلى الله عليه وسلم على
منهاج قوله ان هذا الا ملك كريم بعد قوله تعالى ما هذا بشراً اي ما هو عليه السلام الا
مبالغ في الانذار مظهر له غاية الاظهار ابرازاً لكمال الرأفة ومبالغة في الاعذار وقوله تعالى
او لم ينظروا في ملكوت السموات والارض استيناف آخر مسوق للانكار والتوبيخ
باخلالهم بالتأمل في الآيات التكوينية المنصوبة في الآفاق والانفس الشاهدة
بصحة مضمون الآيات المنزلة اثر ما نعي عليهم اخلالهم بالتفكر في شأنه عليه السلام
والهمزة لما ذكر من الانكار والتعجيب والتوبيخ والواو للعطف على المقدر المذكور
او على الجملة المنفية بلم والملكوت الملك العظيم اي اكذبوا بها او لم يتفكروا فيما ذكر ولم
ينظروا نظر تأمل فيما يدل عليه السموات والارض من عظم الملك وكمال القدرة وما
خلق الله اي وفيما خلق فيهما على انه عطف على ملكوت وتخصيصه بهما لكمال ظهور
عظم الملك فيهما او وفي ملكوت ما خلق على انه عطف على السموات والارض والتعميم لاشتراك
الكل في الدلالة على عظم الملك في الحقيقة وعليه قوله تعالى فسبحان الذي بيده ملكوت
كل شيء الخ وقوله تعالى من شيء بيان لما خلق مفيد لعدم اختصاص الدلالة المذكورة
بجلائل المصنوعات دون دقائقها والمعنى او لم ينظروا في ملكوت السموات والارض
وما خلق فيهما من جليل ودقيق مما ينطلق عليه اسم الشيء ليدلهم ذلك على العلم
بوحدانيته تعالى وبسائر شؤونه التي ينطق بها تلك الآيات فيؤمنوا بها لاتحادهما
في المدلول فان كل فرد من افراد الاكوان مما عز وهان دليل لائح على الصانع المجيد
وسبيل واضح الى عالم التوحيد وقوله تعالى وان عسى ان يكون قد اقترب اجلهم عطف
على ملكوت وان مخففة من ان واسمها ضمير الشان وخبرها عسى مع فاعلها الذي هو ان
يكون واسم يكون ايضاً ضمير الشان والخبر قد اقترب اجلهم والمعنى او لم ينظروا في ان الشان
عسى ان يكون الشان قد اقترب اجلهم وقد جوز ان يكون اسم يكون اجلهم وخبرها
قد اقترب على انها جملة من فعل وفاعل هو الضمير اجلهم لتقدمه حكماً واياً ما كان
فمناط الانكار والتوبيخ للنظر والتأمل اي لعلهم يموتون عما قريب فما لهم لا يسارعون
الى التدبر في الآيات التكوينية الشاهدة بما كذبوه من الآيات القرآنية وقد جوز ان يكون
الاجل عبارة عن الساعة والاضافة الى ضميرهم لملابستهم لها من جهة انكارهم لها
وبحثهم عنها وقوله عز وجل فبأي حديث بعده يؤمنون قطع للاحتمال ايمانهم
رأساً ونفي له بالكلية مترتب على ما ذكر من تكذيبهم بالآيات واخلالهم بالتفكر والنظر
والباء متعلقة بيؤمنون وضمير بعده للآيات على حذف المضاف المفهوم من كذبوا والتذكير
باعتبار كونها قرآناً او بتأويلها بالمذكور واجراء الضمير مجرى اسم الاشارة والمعنى اكذبوا
بها ولم يتفكروا فيما يوجب تصديقها من احواله عليه السلام واحوال المصنوعات
فبأي حديث يؤمنون بعد تكذيبه ومعه مثل هذه الشواهد القوية كلا وهيهات وقيل
الضمير للقرآن والمعنى فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون به وهو النهاية في البيان وقيل هو
انكار وتبكيت لهم مترتب على اخلالهم بالمسارعة الى التأمل فيما ذكر كأنه قيل لعل اجلهم
قد اقترب فما لهم لا يبادرون الايمان بالقرآن قبل الفوت وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق
وبأي حديث احق منه يريدون ان يؤمنوا وقيل الضمير لاجلهم والمعنى فبأي حديث بعد
انقضاء اجلهم يؤمنون وقيل للرسول صلى الله عليه وسلم على حذف مضاف اي
فبأي حديث بعد حديثه يؤمنون وهو اصدق الناس وقوله تعالى من يضلل الله فلا
هادي له استيناف مقرر لما قبله منبئ عن الطبع على قلوبهم وقوله تعالى ويذرهم في طغيانهم

بالياء

بالياء والرفع على الاستيناف اي وهو يذرهم وقرئ بنون العظمة على طريقة الالتفات اي
ونحن نذرهم وقرئ بالياء والجزم عطفاً على محل فلا هادي له كأنه قيل من يضلل الله لا يهده
احد ويذرهم وقد روي الجزم بالنون عن نافع وابي عمرو في الشواذ وقوله تعالى
يعمهون اي يترددون ويتحيرون حال من مفعول يذرهم وتوحيد الضمير في حيز
النفي نظراً الى لفظ من وجمعه في حيز الاثبات نظراً الى معناها للتنصيص على شمول النفي و
الاثبات للكل يسألونك عن الساعة استيناف مسوق لبيان بعض احكام ضلالهم
وطغيانهم اي عن القيامة وهي من الاسماء الغالبة واطلاقها عليها اما لوقوعها
بغتة او لسرعة ما فيها من الحساب او لانها ساعة عند الله تعالى مع طولها في نفسها
قيل ان قوماً من اليهود قالوا يا محمد اخبرنا متى الساعة ان كنت نبياً فانا نعلم متى هي
وكان ذلك امتحاناً منهم مع علمهم انه تعالى قد استأثر بعلمها وقيل السائلون قريش
وقوله تعالى ايان مرساها بفتح الهمزة وقد قرئ بكسرها وهو ظرف زمان متضمن لمعنى
الاستفهام ويليه المبتدأ او الفعل المضارع دون الماضي بخلاف متى حيث يليها كلاهما
قيل اشتقاقه من اي فعلان منه لان معناها اي وقت وهو من اويت الى الشيء لان البعض
آوٍ الى الكل مستند اليه ومحله الرفع على انه خبر مقدم ومرساها مبتدأ مؤخر اي متى
ارساؤها اي اثباتها وتقريرها فانه مصدر ميمي من ارساه اذا اثبته واقره ولا يكاد يستعمل
الا في الشيء الثقيل كما في قوله تعالى والجبال ارساها ومنها مرساة السفن ومحل الجملة قيل
الجر على البدلية من الساعة والتحقيق ان محلها النصب بنزع الخافض لانها بدل من الجار
والمجرور لا من المجرور فقط كأنه قيل يسألونك عن الساعة عن ايان مرساها وفي تعليق
السؤال بنفس الساعة اولاً وبوقت وقوعها ثانياً تنبيه على ان المقصد الاصلي من السؤال
نفسها باعتبار حلولها في وقتها المعين لا وقتها باعتبار كونه محلاً لها وقد سلك هذا
المسلك في الجواب الملقن ايضاً حيث اضيف العلم المطلوب بالسؤال الى ضميرها فاخبر باختصاصه
به عز وجل حيث قيل قل انما علمها اي علمها بالاعتبار المذكور عند ربي ولم يقل انما علم
وقت ارسائها ومن لم يتنبه لهذه النكتة حمل النظم الكريم على حذف المضاف والتعرض
لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام للايذان بان توقيفه عليه السلام
للجواب على الوجه المذكور من باب التربية والارشاد ومعنى كونه عنده تعالى خاصة انه
تعالى قد استأثر به بحيث لم يخبر به احداً من ملك مقرب او نبي مرسل وقوله تعالى
لا يجليها لوقتها الا هو بيان لاستمرار تلك الحالة الى حين قيامها واقناط كلي عن اظهار
امرها بطريق الاخبار من جهته تعالى او من جهة غيره لاقتضاء الحكمة التشريعية اياه فانه ادعى
الى الطاعة وازجر عن المعصية كما ان اخفاء الاجل الخاص للانسان كذلك والمعنى لا يكشف
عنها ولا يظهر للناس امرها الذي يسألونك عنه الا هو بالذات من غير ان يشعر به احد
من المخلوقين فيتوسط في اظهاره لهم لكن لا بان يخبرهم بوقتها قبل مجيئه كما هو
المسؤل بل بان يقيمها فيشاهدوها عياناً كما يفصح عنه التجلية المنبئة عن الكشف التام
المزيل للابهام بالكلية وقوله تعالى لوقتها اي في وقتها قيد للتجلية بعد ورود الاستثناء
عليها لا قبله كأنه قيل لا يجليها الا هو في وقتها الا انه قدم على الاستثناء للتنبيه
من اول الامر على ان تجليتها ليست بطريق الاخبار بوقتها بل باظهار عينها في وقتها
الذي يسألون عنه وقوله تعالى ثقلت في السموات والارض استيناف كما قبله مقرر
لمضمون ما قبله اي كبرت وشقت على اهلها من الملائكة والثقلين كل منهم اهمه خفاؤها
وخروجها عن دائرة العقول وقيل عظمت عليهم حيث يشفقون منها ويخافون شدائدها
واهوالها وقيل ثقلت فيهما اذ لا يطيقها منهما ومما فيهما شيء اصلاً والاول هو الانسب
بما قبله وبما بعده من قوله تعالى لا تأتيكم الا بغتة فانه ايضاً استيناف مقرر لمضمون
ما قبله فلا بد من اعتبار الثقل من حيث الخفاء اي لا تأتيكم الا فجأة على غفلة كما
قال صلى الله عليه وسلم ان الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقي
ماشيته والرجل يقوم سلعته في سوقه والرجل يخفض ميزانه ويرفعه يسألونك

كأنك حفي استيناف مسوق لبيان خطائهم في توجيه السؤال الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم بناء على زعمهم انه عليه السلام عالم بالمسؤل عنه او ان العلم بذلك من
الرسالة اثر بيان خطائهم في اصل السؤال باعلام شان المسؤل عنه والجملة التشبيهية في
محل النصب على انها حال من الكاف جئ بها بيانا لما يدعوهم الى السؤال على زعمهم واشعارا
بخطائهم في ذلك اي يسألونك مشبها حالك عندهم بحال من هو حفي عنها اي مبالغ
في العلم بها فعيل من حفي وحقيقته كأنك مبالغ في السؤال عنها فان ذلك في حكم
المبالغة في العلم بها لما ان من بالغ في السؤال عن الشئ والبحث عنه استحكم علمه به ومبنى
التركيب على المبالغة والاستقصاء ومنه احفاء الشارب واحتفاء البقل اي استيصاله والاحفاء
في المسئلة اي الالحاف فيها وقيل عن متعلقة بيسألونك وقوله تعالى كأنك حفي معترض
وصلة حفي محذوفة اي حفي بها وقد قرئ كذلك وقيل هو من الحفاوة بمعنى البر والشفقة
فان قريشا قالوا له عليه السلام ان بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة والمعنى
يسألونك كأنك حفي تتحفى بهم فتخصهم بتعليم وقتها لاجل القرابة وتزوي امرها عن
غيرهم ففيه تخطئة لهم من جهتين وقيل هو من حفي بالشئ بمعنى فرح به والمعنى كأنك
فرح بالسؤال عنها تحبه مع انك كاره له لما انه تعرض لحرم الغيب الذي استأثر الله عز
وجل بعلمه قل انما علمها عند الله امر عليه السلام باعادة الجواب الاول تأكيدا للحكم
وتقريرا واشعارا بعلته على الطريقة البرهانية بايراد اسم الذات المنبئ عن استتباعها
لصفات الكمال من جملتها العلم وتمهيدا للتعريض بجهلهم بقوله تعالى ولكن
اكثر الناس لا يعلمون اي لا يعلمون ما ذكر من اختصاص علمها به تعالى فبعضهم ينكرونها
راسا فلا يعلمون شيئا مما ذكر قطعا وبعضهم يعلمون انها واقعة البتة ويزعمون انك
واقف على وقت وقوعها فيسألونك عنه جهلا وبعضهم يزعمون ان العلم بذلك من
مواجب الرسالة فيتخذون السؤال عنه ذريعة الى القدح في رسالتك والمستثنى
من هؤلاء هم الواقفون على جلية الحال من المؤمنين واما السائلون عنها من اليهود
بطريق الامتحان فهم منتظمون في سلك الجاهلين حيث لم يعملوا بعلمهم وقوله تعالى قل لا املك لنفسي
نفعا ولا ضرا شروع في الجواب عن السؤال ببيان عجزه عن علمها اثر بيان عجز الكل عنه
وابطال زعمهم الذي بنوا عليه سؤالهم من كونه عليه السلام ممن يعلمها واعادة الامر
لاظهار كمال العناية بشان الجواب والتنبيه على استقلاله ومغايرته للاول والتعرض
لبيان عجزه عما ذكر من النفع والضر لاثبات عجزه عن علمها بالطريق البرهاني واللام اما متعلق
باملك او بمحذوف وقع حالا من نفعا اي لا اقدر لاجل نفسي على جلب نفع ما ولا على دفع
ضر ما الا ما شاء الله ان املكه من ذلك بان يلهمنيه فيمكنني منه ويقدرني عليه او
لكن ما شاء الله من ذلك كائنا فالاستثناء منقطع وهذا ابلغ في اظهار العجز ولو
كنت اعلم الغيب اي جنس الغيب الذي من جملته ما بين الاشياء من المناسبات المصححة عادة
للسببية والمسببية للممانعة والمدافعة لاستكثرت من الخير اي لحصلت كثيرا من
الخير الذي نيط تحصيله بالافعال الاختيارية للبشر بترتيب اسبابه ودفع موانعه
وما مسني السوء اي السوء الذي يمكن التفصي عنه بالتوقي عن موجباته والمدافعة
بموانعه لا سوء ما فانه مما لا مدفع منه ان انا الا نذير وبشير اي ما انا الا عبد
مرسل للانذار والبشارة شاني حيازة ما يتعلق بهما من العلوم الدينية والدنيوية
لا الوقوف على الغيوب التي لا علاقة بينها وبين الاحكام والشرائع وقد كشفت من امر
الساعة ما يتعلق به الانذار من مجيئها لا محالة واقترابها واما تعيين وقتها فليس
مما يستدعيه الانذار بل هو مما يقدح فيه لما مر من ان ابهامه ادعى الى الانزجار عن
المعاصي وتقديم النذير على البشير لما ان المقام مقام الانذار وقوله تعالى لقوم يؤمنون
اما متعلق بهما جميعا لانهم ينتفعون بالانذار كما ينتفعون بالبشارة واما بالبشير فقط وما يتعلق بالنذير
محذوف اي نذير للكافرين اي الباقين على الكفر وبشير لقوم يؤمنون اي في اي وقت
كان ففيه ترغيب للكفرة في احداث الايمان وتحذير عن الاصرار على الكفر والطغيان هو

الذي

الذي خلقكم استيناف سيق لبيان كمال عظم جناية الكفرة في جرأتهم على الاشراك
بتذكير مبادي احوالهم المنافية له وايقاع الموصول خبرا لتفخيم شان المبتدا اي هو ذلك
العظيم الشان الذي خلقكم جميعا وحده من غير ان يكون لغيره مدخل في ذلك بوجه من
الوجوه من نفس واحدة هو آدم عليه السلام وهذا نوع تفصيل لما اشير اليه في مطلع
السورة الكريمة اشارة اجمالية من خلقهم وتصويرهم في ضمن خلق آدم وتصويره وبيان
لكيفيته وجعل عطف على خلقكم داخل في حكم الصلة ولا ضير في تقدمه عليه وجودا
لما ان الواو لا تستدعي الترتيب في الوجود منها اي من جنسها كما في قوله تعالى
وجعل لكم من انفسكم ازواجا او من جسدها لما يروى انه تعالى خلق حواء من ضلع من
اضلاع آدم عليه السلام والاول هو الانسب اذ الجنسية هي المؤدية الى الغاية الآتية لا الجزئية
والجعل اما بمعنى التصيير فقوله تعالى زوجها مفعوله الاول والثاني هو الظرف المقدم
واما بمعنى الانشاء والظرف متعلق بجعل قدم على المفعول الصريح لما مر مرارا من
الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر او بمحذوف هو حال من المفعول والاول هو الاولى
وقوله تعالى ليسكن اليها علة غائية للجعل باعتبار تعلقه بمفعوله الثاني اي
ليستانس بها ويطمئن اليها اطمئنانا مصححا للازدواج كما يلوح به تذكير الضمير وتفصح
عنه قوله تعالى فلما تغشاها اي جامعها حملت حملا خفيفا في مبادي الامر فانه
عند كونه نطفة او علقة او مضغة اخف عليها بالنسبة الى ما بعد ذلك من المراتب والتعرض
لذكر خفته للاشارة الى نعمته تعالى عليهم في انشائه تعالى اياهم متدرجين في اطوار
الخلق من العدم الى الوجود ومن الضعف الى القوة فمرت به اي فاستمرت به كما كانت
قبل حيث قامت وقعدت واخذت وتركت وعليه قراءة ابن عباس وقرئ فمرت بالتخفيف
وفمارت من المور وهو المجئ والذهاب او من المرية اي فظنت الحمل وارتابت به واما ما
قيل من ان المعنى حملت حملا خف عليها ولم تلق منه ما تلقى بعض الحبالى من حملهن
من الكرب والاذية ولم تستثقله كما يستثقلنه فمرت به اي مضت به الى ميلاده من غير
اخداج ولا ازلاق فيرده قوله تعالى فلما اثقلت اذ معناه فلما صارت ذات ثقل لكبر
الولد في بطنها ولا ريب في ان الثقل بهذا المعنى ليس مقابلا للخفة بالمعنى المذكور
انما مقابلتها الكرب العظيم الذي يعتري بعضهن من اول الحمل الى آخره دون بعض اصلا
وقرئ اثقلت على البناء للمفعول اي اثقلها حملها دعوا الله اي آدم وحواء عليهما السلام
لما دهمهما امر لم يعهداه ولم يعرفا ماله فاهتما به وتضرعا اليه عز وجل وقوله تعالى
ربهما اي مالك امرهما الحقيق بان يخص به الدعاء اشارة الى انهما قد صدرا به دعاءهما
كما في قولهما ربنا ظلمنا انفسنا الآية ومتعلق الدعاء محذوف تعويلا على شهادة
الجملة القسمية به اي دعواه تعالى ان يؤتيهما صالحا ووعدا بمقابلته الشكر على سبيل التوكيد
القسمي وقالا او قائلين لئن آتيتنا صالحا اي ولدا من جنسنا سويا لنكونن نحن ومن
يتناسل من ذريتنا من الشاكرين الراسخين في الشكر على نعمائك التي من جملتها هذه
النعمة وترتيب هذا الجواب على الشرط المذكور لما انهما قد علما ان ما علقا به دعاءهما انموذج
لسائر افراد الجنس ومعيار لها ذاتا وصفة وجوده مستتبع لوجودها وصلاحه
مستلزم لصلاحها فالدعاء في حقه متضمن للدعاء في حق الكل مستتبع له كأنهما قالا
لئن آتيتنا وذريتنا اولادا صالحة وقيل ان ضمير آتيتنا ايضا لهما ولكل من يتناسل
من ذريتهما وانت خبير بان نظم الكل في سلك الدعاء اصالة يأباه مقام المبالغة في الاعتناء
بشان ما هما بصدده واما جعل ضمير لنكونن للكل فلا محذور فيه لان توسيع دائرة
الشكر غير مخل بالاعتناء المذكور بل مؤكد له واياما كان فمعنى قوله تعالى فلما آتاهما صالحا
لما آتاهما ما طلباه اصالة واستتباعا من الولد وولد الولد ما تناسلوا فقوله تعالى
جعلا اي جعل اولادهما له تعالى شركاء على حذف المضاف واقامة المضاف اليه
مقامه ثقة بوضوح الامر وتعويلا على ما يعقبه من البيان وكذا الحال في قوله تعالى فيما آتاهما
اي فيما آتى اولادهما من الاولاد حيث سموهم بعبد مناف وعبد العزى ونحو ذلك و

تخصيص اشراكهم هذا بالذكر في مقام التوبيخ مع ان اشراكهم بالعبادة اغلظ منه جناية
واقدم وقوعا لما ان مساق النظم الكريم لبيان اخلالهم بالشكر في مقابلة نعمة الولد
الصالح واول كفرهم في حقه انما هو تسميتهم اياه بما ذكر وقرئ شركاء اي شركة
او ذوي شركة اي شركاء ان قيل ما ذكر من حذف المضاف اليه مقامه انما يصار اليه
فيما يكون للفعل ملابسة ما بالمضاف اليه ايضا بسرايته حقيقة او حكما ويتضمن
بنسبته اليه صورة مزية يقتضيها المقام كما في مثل قوله تعالى واذ انجيناكم من آل
فرعون الاية فان الانجاء منهم مع ان تعلقه حقيقة ليس الا باسلاف اليهود قد
نسب الى اخلافهم بحكم سرايته اليهم توفية لمقام الامتنان حقه وكذا في قوله تعالى
قل فلم تقتلون انبياء الله الاية فان القتل حقيقة مع كونه من جناية آبائهم قد
اسند اليهم بحكم رضاهم به اداء لحق مقام التوبيخ والتبكيت ولا ريب في انهما عليهما
السلام بريئان من سراية الجعل المذكور اليهما بوجه من الوجوه فما وجه اسناده
اليهما صورة قلنا وجهه الايذان بتركهما الاولى حيث اقدما على نظم اولادهما في
سلك انفسهما والتزما شكرهم في ضمن شكرهما واقسما على ذلك قبل تعرف احوالهم ببيان
اخلالهم بالشكر الذي وعداه وعدا موكدا باليمين بمنزلة اخلالهما بالذات باستيجاب
الحنث والخلف مع ما فيه من الاشعار بتضاعف جنايتهم ببيان انهم بجعلهم المذكور
اوقعوهما في ورطة الحنث والخلف وجعلوهما كانهما باشراه بالذات فجمعوا بين الجنايات
على الله تعالى والجناية عليهما السلام فتعالى الله عما يشركون تنزيه فيه معنى
التعجب والفاء لترتيبه على ما فصل من احكام قدرته تعالى وآثار نعمته الزاجرة
عن الشرك الداعية الى التوحيد وصيغة الجمع لما اشير اليه من تعيين الفاعل وتنزيه
آدم وحوى عليهما السلام عن ذلك وما في عما اما مصدرية اي عن اشراكهم او
موصولة او موصوفة اي ما يشركونه به سبحانه وتعالى والمراد باشراكهم اما
تسميتهم المذكورة او مطلق اشراكهم المنتظم لها انتظاما اوليا وقرئ
تشركون بتاء الخطاب بطريق الالتفات وقيل الخطاب لآل قصي من قريش والمراد
بالنفس الواحدة نفس قصي فانهم خلقوا منه وكان له زوج من جنسه عربية قرشية
وطلبا من الله ولدا صالحا فاعطاهما اربعة بنين فسمياهم عبد مناف وعبد شمس
وعبد قصي وعبد الدار وضمير يشركون لهما ولاعقابهما واما ما قيل من انه لما حملت
حوا اتاها ابليس في صورة رجل فقال لها ما يدريك ما في بطنك لعله بهيمة او كلب او
خنزير وما يدريك من اين يخرج فخافت من ذلك فذكرته لآدم فاهمهما ذلك ثم
عاد اليهما وقال اني من الله تعالى بمنزلة فان دعوته ان يجعله خلقا مثلك ويسهل
عليك خروجه تسميته عبد الحارث وكان اسمه حارثا في الملئكة فقبلت فلما ولدت
سمته عبد الحارث فمما لا تعويل عليه كيف لا وانه عليه السلام كان علما في
علم الاسماء والمسميات فعدم علمه بابليس واسمه واتباعه اياه في مثل هذا الشان
الخطير امر قريب من المحال والله بحقيقة الحال ايشركون استيناف مسوق لتوبيخ
كافة المشركين واستقباح اشراكهم على الاطلاق وابطاله بالكلية ببيان شان ما اشركوه به
سبحانه وتفصيل احواله القاضية ببطلان ما اعتقدوه في حقه اي ايشركون به تعالى ما لا
يخلق شيئا اي لا يقدر على ان يخلق شيئا من الاشياء اصلا ومن حق المعبود ان يكون
خالقا لعابده لا محالة وقوله تعالى وهم يخلقون عطف على لا يخلق وايراد الضميرين
بجمع العقلاء مع رجوعهما الى ما المعبر بها عن الاصنام انما هو بحسب اعتقادهم
فيها واجرائهم لها مجرى العقلاء وتسميتهم لها آلهة وكذا حال ساير الضماير
الاتية ووصفها بالمخلوقية بعد وصفها بنفي الخالقية لابانة كمال منافاة حالها لما
اعتقدوه في حقها واظهار غاية جهلهم فان اشراك ما لا يقدر على خلق شيء ما
بخالقه وخالق جميع الاشياء مما لا يمكن ان يسوغه من له عقل في الجملة وعدم التعرض
لخالقها للايذان بتعينه والاستغناء عن ذكره ولا يستطيعون لهم اي لعبدتهم اذا حزبهم امر

مهم وخطب

مهم وخطب ملم نصرا اي نصرا ما بجلب منفعة او دفع مضرة ولا انفسهم ينصرون
اذا اعتراهم حادثة من الحوادث اي لا يدفعونها عن انفسهم وايراد النصر للمشاكلة
وهذا بيان لعجزهم عن ايصال منفعة ما من المنافع الوجودية والعدمية الى
عبدتهم وانفسهم بعد بيان عجزهم عن ايصال منفعة الوجود اليهم والى انفسهم
خلا انهم وصفوا هناك بالمخلوقية لكونهم اهلا لها وههنا لم يوصفوا بالمنصورية
لانهم ليسوا اهلا لها وقوله تعالى وان تدعوهم الى الهدى بيان لعجزهم عما هو ادنى
من النصر المنفي عنهم وايسر وهو مجرد الدلالة على المطلوب والارشاد الى طريق
حصوله من غير ان يحصله للطالب والخطاب للمشركين بطريق الالتفات المنبئ عن مزيد
الاعتناء بامر التوبيخ والتبكيت اي ان تدعوهم ايها المشركون الى ان يهدوكم الى ما تحصلون
به المطالب او تنجون به عن المكاره لا يتبعوكم الى مرادكم وطلبتكم وقرئ بالتخفيف
وقوله تعالى سواء عليكم ادعوتموهم ام انتم صامتون استيناف مقرر لمضمون ما
قبله ومبين لكيفية عدم الاتباع اي مستو عليكم في عدم الافادة دعاؤكم لهم
وسكوتكم البحت فانه لا يتغير حالكم في الحالين كما لا يتغير حالهم بحكم الجمادية وقوله
تعالى ام انتم صامتون جملة اسمية في معنى الفعلية معطوفة على الفعلية لانها في قوة ام صمتم
عدل عنها للمبالغة في عدم افادة الدعاء ببيان مساواته للسكوت الدائم المستمر وما قيل
من ان الخطاب للمسلمين والمعنى وان تدعوا المشركين الى الهدى اي الاسلام لا يتبعوكم الى
آخره مما لا يساعده سباق النظم الكريم وسياقه اصلا على انه لو كان كذلك لقيل عليهم
مكان عليكم كما في قوله تعالى سواء عليهم انذرتهم ام لم تنذرهم فان استواء الدعاء
وعدمه انما هو بالنسبة الى المشركين لا بالنسبة الى الداعين فانهم فائزون بفضل
الدعوة ان الذين تدعون من دون الله تقرير لما قبله من عدم اتباعهم لهم
اي ان الذين تعبدونهم من دونه تعالى من الاصنام وتسمونهم آلهة عباد امثالكم
اي مماثلة لكم لكن لا من كل وجه بل من حيث انها مملوكة لله عز وجل مسخرة لامره
عاجزة عن النفع والضرر وتشبيهها بهم في ذلك مع كون عجزها عنهما اظهر واقوى من
عجزهم انما هو لاعترافهم بعجز انفسهم وادعائهم لقدرتها عليهما اذ هو الذي يدعوهم
الى عبادتها والاستعانة بها وقوله تعالى فادعوهم فليستجيبوا لكم تحقيق لمضمون
ما قبله بتعجيزهم وتبكيتهم اي فادعوهم في جلب نفع او كشف ضر ان كنتم صادقين
في زعمكم انهم قادرون على ما انتم عاجزون عنه وقوله تعالى الهم ارجل يمشون
بها الى آخره تبكيت اثر تبكيت موكد لما يفيده الامر التعجيزي من عدم الاستجابة ببيان
فقدان الاتها بالكلية فان الاستجابة من الهياكل الجسمانية انما تتصور اذا كان لها
حيوة وقوى محركة ومدركة وما ليس له شيء من ذلك فهو بمعزل عن الافاعيل بالمرة
كانه قيل الهم هذه الالات التي بها تتحقق الاستجابة حتى يمكن استجابتهم لكم وقد
وجه الانكار الى كل واحدة من هذه الالات الاربع على حدة تكريرا للتبكيت وتثنية
للتقريع واشعارا بان انتفاء كل واحدة منها بحيالها كاف في الدلالة على استحالة
الاستجابة ووصف الارجل بالمشي بها للايذان بان مدار الانكار هو الوصف وانما وجه
الانكار الى الارجل لا الى الوصف بان يقال ايمشون بارجلهم لتحقيق انها حيث لم يظهر منها ما يظهر
من ساير الارجل فهي ليست بارجل في الحقيقة وكذا الكلام فيما بعده من الجوارح الثلاث
الباقية وكلمة ام في قوله تعالى ام لهم ايد يبطشون بها منقطعة وما فيها من
الهمزة لما مر من التبكيت والالزام وبل للاضراب المفيد للانتقال من فن من التبكيت
بعد تمامه الى فن آخر منه لما ذكر من المزايا والبطش الاخذ بقوة وقرئ يبطشون بضم الطاء
وهي لغة فيه والمعنى بل الهم ايد يأخذون بها ما يريدون اخذه وتاخيره هذا عما قبله
لما ان المشي حالهم في انفسهم والبطش حالهم بالنسبة الى الغير واما تقديمه على قوله تعالى
ام لهم اعين يبصرون بها ام لهم آذان يسمعون بها مع ان الكل سواء في انها من
احوالهم بالنسبة الى الغير فلمراعاة المقابلة بين الايدي والارجل ولان انتفاء المشي والبطش

اظهر والتبكيت بذلك اقوى واما تقديم الاعين فلما انها اشهر من الاذان واظهر عينا واثرا هنا
وقد قرئ ان الذين تدعون من دون الله عبادا امثالكم على اعمال ان النافية عمل ما الحجازية
اى ما الذين تدعون من دونه تعالى عبادا امثالكم بل ادنى منكم فيكون قوله تعالى الهم الى آخره
تقريرا لنفي المماثلة باثبات القصور والنقصان قل ادعوا شركاءكم بعد ما بين ان شركاءهم
واستعينوا بهم علي ثم كيدون جميعا انتم وشركاؤكم وبالغوا في ترتيب ما
تقدرون عليه من مبادي الكيد والمكر فلا تنظرون اى فلا تمهلون ساعة بعد ترتيب
مقدمات الكيد فاني لا ابالي بكم اصلا ان وليي الله الذي نزل الكتاب تعليل لعدم
المبالاة المنفهم من السوق انفهاما جليا ووصفه تعالى بتنزيل الكتاب للاشعار بدليل الولاية
والاشارة الى علة اخرى لعدم المبالاة كانه قيل لا ابالي بكم وبشركائكم لان وليي هو الله
الذي نزل الكتاب الناطق بانه وليي وناصري وبان شركاءكم لا يستطيعون نصر انفسهم
فضلا عن نصركم وقوله تعالى وهو يتولى الصالحين تذييل مقرر لمضمون ما قبله اى
ومن عادته ان يتولى الصالحين من عباده وينصرهم ولا يخذلهم والذين تدعون
اى تعبدونهم من دونه تعالى او تدعونهم للاستعانة بهم على حسبما امرتكم
به لا يستطيعون نصركم اى في امر من الامور او في خصوص الامر المذكور ولا انفسهم
ينصرون اذا نابتهم نائبة وان تدعوهم الى الهدى الى ان يهدوكم الى ما تحصلون
به مقاصدكم على الاطلاق او في خصوص الكيد المعهود لا يسمعوا اى دعاءكم فضلا
عن المساعدة والامداد وهذا ابلغ من نفي الاتباع وقوله تعالى وتراهم ينظرون
اليك وهم لا يبصرون بيان لعجزهم عن الابصار بعد بيان عجزهم عن السمع وبه
يتم التعليل فلا تكرار اصلا والرؤية بصرية وقوله تعالى ينظرون اليك حال من المفعول
والجملة الاسمية حال من فاعل ينظرون اى وترى الاصنام رأي العين يشبهون الناظرين
اليك ويخيل اليك انهم يبصرونك لما انهم صنعوا لها اعينا مركبة بالجواهر المضيئة
المتلالئة وصوروها بصورة من قلب حدقته الى الشيء ينظر اليه والحال انهم غير
قادرين على الابصار وتوحيد الضمير في تراهم مع رجوعه الى المشركين لتوجيه الخطاب
الى كل واحد منهم لا الى الكل من حيث هو كل كالخطابات السابقة تنبيها على ان رؤية الاصنام
على الهيئة المذكورة لا يتسنى للكل معا بل لكل من يواجهها وقيل ضمير الفاعل في تراهم
لرسول الله صلى الله عليه وسلم وضمير المفعول على حاله وقيل للمشركين على ان التعليل
قد تم عند قوله تعالى لا يسمعوا اى وترى المشركين ينظرون اليك والحال انهم لا يبصرونك
كما انت عليه وعن الحسن ان الخطاب في قوله تعالى وان تدعوا للمؤمنين على ان التعليل
قد تم عند قوله تعالى ينصرون اى وان تدعوا ايها المؤمنون المشركين الى الاسلام لا يلتفتوا
اليكم ثم خوطب عليه السلام بطريق التجريد بانك تراهم ينظرون اليك والحال انهم لا يبصرونك
حق الابصار تنبيها على ان ما فيه عليه السلام من شواهد النبوة ودلائل الرسالة
من الجلاء بحيث لا يكاد يخفى على الناظرين خذ العفو بعد ما عد من اباطيل المشركين
وقبائحهم ما لا يطاق تحمله امر صلى الله عليه وسلم بجامع مكارم الاخلاق التي من جملتها
الاغضاء عنهم اى خذ ما عفى لك من افعال الناس وتسهل ولا تكلفهم ما يشق عليهم
من العفو الذي هو ضد الجهد او خذ العفو من المذنبين او الفضل من صدقاتهم
وذلك قبل وجوب الزكاة وامر بالعرف بالجميل المستحسن من الافعال فانها قريبة
من قبول الناس من غير نكير واعرض عن الجاهلين من غير مماراة ولا مكافاة قيل لما
نزلت سأل رسول الله جبريل عليهما السلام فقال لا ادري حتى اسأل ثم رجع فقال
يا محمد ان ربك امرك ان تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وعن جعفر
الصادق امر الله تعالى نبيه بمكارم الاخلاق وروي انه لما نزلت الآية الكريمة قال صلى الله
عليه وسلم يا رب والغضب فنزل قوله تعالى واما ينزغنك من الشيطان نزغ النزغ
والنسغ والنخس الغرز شبهت وسوسة للناس واغراؤه لهم على المعاصي بغرز السائق
لما يسوقه واسناده الى النزغ من قبيل جد جده اى واما يحملنك من جهة وسوسة

ما على خلاف ما امرت به من اعتراء غضب او نحوه فاستعذ بالله فالتجئ الى الله تعالى من
شره انه سميع يسمع استعاذتك به قولا عليم يعلم تضرعك اليه قلبا في ضمن القول
او بدونه فيعصمك من شره وقد جوز ان يراد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب على نهج
الاستعارة كما في قول الصديق رضي الله عنه ان لي شيطانا يعتريني ففيه زيادة تنفير
عنه وفرط تحذير عن العمل بموجبه وفي الامر بالاستعاذة بالله تعالى تهويل لامره و
تنبيه على انه من الغوائل الصعبة التي لا يتخلص من مضرتها الا بالالتجاء الى حرم
عصمته عز وجل وقيل يعلم ما فيه صلاح امرك فيحملك عليه او سميع باقوال من آذاك عليم
بافعاله فيجازيه عليها ان الذين اتقوا استئناف مقرر لما قبله ببيان ان ما امر به عليه السلام
من الاستعاذة بالله عز وجل سنة مسلوكة للمتقين والاخلال به ديدن الغاوين اى
ان الذين اتصفوا بوقاية انفسهم عما يضرها اذا مسهم طائف من الشيطان
ادنى لمة منه على ان تنوينه للتحقير وهو اسم فاعل من طاف يطوف كانها تطوف بهم
وتدور حولهم لتوقع بهم او من طاف به الخيال يطيف طيفا اى الم وقرئ طيف على انه
مصدر او تخفيف من طيف من الواوي واليائي كهين ولين والمراد بالشيطان الجنس ولذلك
جمع ضميره فيما سيأتي تذكروا اى الاستعاذة به تعالى والتوكل عليه فاذا هم بسبب ذلك
التذكر مبصرون مواقع الخطا ومكايد الشيطان فيحترزون عنها ولا يتبعونه في
واخوانهم اى اخوان الشياطين وهم المنهمكون في الغي المعرضون عن وقاية انفسهم
عن المضار يمدونهم في الغي اى يكون الشياطين مددا لهم فيه ويعضدونهم
بالتزيين والحمل عليه وقرئ يمدونهم من الامداد كانهم يعينونهم بالتسهيل والاغراء
وهؤلاء بالاتباع والامتثال ثم لا يقصرون اى لا يمسكون عن الاغواء حتى
يردوهم بالكلية ويجوز ان يكون الضمير للاخوان اى لا يرعوون عن الغي ولا يقصرون
كالمتقين ويجوز ان يراد بالاخوان الشياطين ويرجع الضمير الى الجاهلين فيكون الخبر جاريا
على ما هو له واذا لم تأتهم باية من القرآن عند تراخي الوحي او باية مما اقترحوه
قالوا لولا اجتبيتها اجتبى الشيء بمعنى جباه لنفسه اى هلا جمعتها من تلقاء نفسك
تقولا يريدون بذلك ان سائر الآيات ايضا كذلك او هلا تلقيتها من ربك استدعاء
قل ردا عليهم انما اتبع ما يوحى الي من ربي من غير ان يكون لي دخل ما في ذلك اصلا
على معنى تخصيص حاله عليه الصلاة والسلام باتباع ما يوحى اليه بتوجيه القصر
المستفاد من كلمة انما الى نفس الفعل بالنسبة الى مقابله الذي كلفوه اياه عليه السلام لا على
معنى تخصيص اتباعه عليه السلام بما يوحى اليه بتوجيه القصر الى المفعول بالقياس الى مفعول
آخر كما هو الشائع في موارد الاستعمال وقد مر تحقيقه في قوله تعالى ان اتبع الا ما يوحى
الي كانه قيل ما افعل الا اتباع ما يوحى الي منه تعالى وفي التعرض لوصف الربوبية المنبئة
عن المالكية والتبليغ الى الكمال اللائق مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من تشريفه عليه السلام
والتنبيه على تأييده ما لا يخفى هذا اشارة الى القرآن الكريم المدلول عليه بما يوحى الي
بصائر من ربكم بمنزلة البصائر للقلوب بها تبصر الحق وتدرك الصواب وقيل
حجج بينة وبراهين نيرة ومن متعلقة بمحذوف هو صفة لبصائر مفيدة لفخامتها
اى بصائر كائنة منه تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم لتاكيد وجوب
الايمان بها وقوله تعالى وهدى ورحمة عطف على بصائر وتقديم الظرف عليهما
وتعقيبهما بقوله تعالى لقوم يؤمنون للايذان بان كون القرآن بمنزلة البصائر
للقلوب بالنسبة الى الكل وبه تقوم الحجة على الجميع واما كونه هدى ورحمة
فمختص بالمؤمنين به اذ هم المقتبسون من انواره والمغتنمون باثاره والجملة من
تمام القول المامور به واذا قرئ القرآن فاستمعوا له ارشاد الى طريق الفوز بما اشير
اليه من المنافع الجليلة التي ينطوي عليها القرآن اى واذا قرئ القرآن ذكرت شؤونه العظيمة
فاستمعوا له استماع تحقيق وقبول وانصتوا اى واسكتوا في خلال القراءة وراعوها
الى انقضائها تعظيما له وتكميلا للاستماع لعلكم ترحمون اى تفوزون بالرحمة التي هي

اقصى بقراءته وظاهر النظم الكريم يقتضي وجوب الاستماع والانصات عند قراءة القران
في الصلاة وغيرها وقيل معناه اذا تلا عليكم الرسول القران عند نزوله فاستمعوا له و
جمهور الصحابة رضي الله تعالى عنهم على انه في استماع المؤتم وقد روي انهم كانوا يتكلمون
في الصلوة فامروا باستماع قراءة الامام والانصات له وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان
النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في المكتوبة وقرأ اصحابه رضي الله تعالى عنهم خلفه فنزلت
واما خارج الصلوة فعامة العلماء على استحبابهما والاية اما من تمام القول المأمور
به او استئناف من جهته تعالى فقوله تعالى واذكر ربك في نفسك على الاول عطف على قل
وعلى الثاني فيه تجريد للخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عام في الاذكار
كافة فان الاخفاء ادخل في الاخلاص واقرب من الاجابة تضرعا وخيفة اي
متضرعا وخائفا ودون الجهر من القول اي ومتكلما كلاما دون الجهر فانه اقرب الى حسن
التفكر بالغدو والاصال متعلق باذكر اي اذكره في وقت الغدوات والعشيات وقرئ
والايصال وهو مصدر آصل اي دخل في الاصيل موافق للغدو ولا تكن من الغافلين
عن ذكر الله تعالى ان الذين عند ربك وهم الملئكة عليهم السلام ومعنى كونهم
عنده سبحانه وتعالى قربهم من رحمته وفضله لتوفرهم على طاعته تعالى لا يستكبرون
عن عبادته بل يؤدونها حسبما امروا به ويسبحونه اي ينزهونه عن كل ما لا يليق
بجناب كبريائه وله يسجدون اي يخصونه بغاية العبودية والتذلل لا يشركون
به شيئا وهو تعريض بسائر المكلفين ولذلك شرع السجود عند قراءته عن النبي صلى الله
عليه وسلم اذا قرأ ابن آدم اية السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي فيقول يا ويله
امر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وامرت بالسجود فعصيت فلي النار وعنه عليه الصلوة
والسلام من قرأ سورة الاعراف جعل الله تعالى يوم القيمة بينه وبين ابليس سترا وكان آدم شفيعا له يوم القيمة

سورة الانفال مدنية وهي ست وسبعون اية

بسم الله الرحمن الرحيم

يسألونك عن الانفال النفل الغنيمة سميت به لانها عطية من الله تعالى زائدة على ما هو اصل
الاجر في الجهاد من الثواب الاخروي ويطلق على ما يعطى بطريق التنفيل زيادة على السهم
من المغنم وقرئ علنفال بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وادغام النون عن في
اللام روي ان المسلمين اختلفوا في غنائم بدر وفي قسمتها فسألوا رسول الله صلى الله
عليه وسلم كيف تقسم ولمن الحكم فيها للمهاجرين ام للانصار ام لهم جميعا وقيل ان
الشبان قد ابلوا يومئذ بلاء حسنا فقتلوا سبعين واسروا سبعين فقالوا نحن المقاتلون
ولنا الغنائم وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات كنا ردءا لكم وفئة
تنحازون اليها حتى قال سعد بن معاذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما منعنا
ان نطلب ما طلب هؤلاء زهادة في الاجر ولا جبن من العدو ولكن كرهنا ان نعري مصافك
فيعطف عليك خيل من المشركين فنزلت وقيل كان النبي صلى الله عليه وسلم قد
شرط لمن كان له بلاء ان ينفله ولذلك فعل الشبان ما فعلوا من القتل والاسر فسألوه
ما شرط لهم فقال الشيوخ المغنم قليل والناس كثير وان تعط هؤلاء ما شرطت لهم
حرمت اصحابك فنزلت والاول هو الظاهر لما ان السؤال استعلام لحكم الانفال
بقضيته عن الاستعطاء لنفسها كما نطق به الوجه الاخير وادعاء زيادة عن تعسف
ظاهر والاستدلال عليه بقراءة ابن مسعود وسعد بن ابي وقاص وعلي بن الحسين وزيد
ومحمد الباقر وجعفر الصادق وعكرمة وعطاء يسألونك الانفال غير متنهض فان
مبناها كما قالوا على الحذف والايصال كما يعرب عنه الجواب بقوله عز وجل قل الانفال
لله والرسول اي حكمها مختص به تعالى يقسمها الرسول عليه السلام كيفما امر
به من غير ان يدخل فيه رأي احد ولو كان السؤال استعطاء لما كان هذا جوابا له فان

اختصاص حكم ما شرط لهم من الانفال بالله والرسول لا ينافي اعطاءها اياهم بل يحققه
لانهم انما يسألونها بموجب شرط الرسول عليه السلام الصادر عنه باذن الله تعالى لا
بحكم سبق ايديهم اليها ونحو ذلك مما يخل بالاختصاص المذكور وحمل الجواب
على معنى ان الانفال بالمعنى المذكور مختصة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا حق فيها
للمنفل كائنا من كان مما لا سبيل اليه قطعا ضرورة ثبوت الاستحقاق بالتنفيل وادعاء
ان ثبوته بدليل متأخر التزام لتكرر النسخ من غير علم بالناسخ الاخير ولا مساغ
للمصير الى ما ذهب اليه مجاهد وعكرمه والسدي من ان الانفال كانت لرسول
الله صلى الله عليه وسلم خاصة ليس لاحد فيها شيء بهذه الاية فنسخت بقوله تعالى
فان لله خمسه وللرسول لما ان المراد بالانفال فيما قالوا هو المعنى الاول حتما كما نطق
به قوله تعالى واعلموا انما غنمتم من شيء على ان الحق انه لا نسخ حينئذ ايضا حسبما قاله
عبد الرحمن بن زيد بن اسلم بل بين اولا في صدر السورة الكريمة اجمالا ان امرها مفوض
الى الله سبحانه ورسوله ثم بين مصارفها وكيفية قسمتها على التفصيل وادعاء اقتصار
هذا الحكم اعني الاختصاص برسول الله صلى الله عليه وسلم على الانفال المشروطة يوم
بدر بجعل اللام للعهد مع بقاء استحقاق المنفل في سائر الانفال المشروطة يأباه بيان
مقام الاحكام كما ينبئ عنه اظهار الانفال في موقع الاضمار على ان الجواب عن سؤال
الموعود ببيان كونه له عليه السلام خاصة مما لا يليق بشأنه الكريم اصلا وقد روي
عن سعد بن ابي وقاص انه قال قتل اخي عمير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص
فاخذت سيفه فجئت به فاعجبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت ان الله تعالى
قد شفى صدري من المشركين فهب لي هذا السيف فقال عليه السلام ليس هذا لي ولا لك اطرحه
في القبض فطرحته وبي ما لا يعلمه الا الله من قتل اخي واخذ سلبي فما جاوزت الا
قليلا حتى نزلت سورة الانفال فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا سعد انك
سألتني السيف وليس لي وقد صار لي فاذهب فخذه وهذا كما ترى يقتضي عدم
وقوع التنفيل يومئذ والا لكان سؤال السيف من سعد بموجب شرطه عليه السلام
ووعده لا بطريق الهبة المبتداة وحمل ذلك من سعد على مراعاة الادب مع كون سؤاله
بموجب الشرط يرده رده عليه السلام قبل النزول وتعليله بقوله ليس هذا لي لاستحالة
ان يعد عليه السلام بما لا يقدر على انجازه واعطاؤه عليه السلام بعد النزول
وترتيبه على قوله وقد صار لي ضرورة ان مناط صيرورته له عليه السلام قوله
تعالى الانفال لله والرسول والغرض انه المانع من اعطاء المسؤول ومما هو نص في الباب
قوله عز وجل فاتقوا الله اي اذا كان امر الغنائم لله تعالى ورسوله فاتقوه
تعالى واجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة فيها والاختلاف الموجب لسخطه تعالى
او فاتقوه في كل ما تأتون وما تذرون فيدخل فيه ما هم فيه دخولا اوليا ولو كان
السؤال طلبا للمشروط لما كان فيه محذور يجب اتقاؤه واظهار الاسم الجليل لتربية
المهابة وتعليل الحكم واصلحوا ذات بينكم جعل ما بينهم من الحال لملابستها
التامة لبينهم صاحبة له كما جعلت الامور المضمرة في الصدور ذات الصدور
اي اصلحوا ما بينكم من الاحوال بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله تعالى و
تفضل به عليكم وعن عبادة بن الصامت نزلت فينا معشر اصحاب بدر حين في
النفل وساءت فيه اخلاقنا فنزعه الله تعالى من ايدينا فجعله لرسول الله فقسمه بين
المسلمين على السواء وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله واصلاح ذات البين وعن عطاء كان
الاصلاح بينهم ان دعاهم وقال اقسموا غنائمكم بالعدل فقالوا قد اكلنا وانفقنا
فقال ليرد بعضكم عن بعض واطيعوا الله ورسوله بتسليم امره ونهيه وتوسيط
الامر باصلاح ذات البين بين الامر بالتقوى والامر بالطاعة لاظهار كمال العناية
بالاصلاح بحسب المقام وليندرج الامر به بعينه تحت الامر بالطاعة ان
كنتم مؤمنين متعلق بالاوامر الثلاثة والجواب محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه او

هو الجواب على الخلاف المشهور وايّا ما كان فالمقصود تحقيق المعلق بناء على تحقق المعلق به وفيه تنشيط للمخاطبين وحث لهم على المسارعة الى الامتثال والمراد بالايمان كماله اي ان كنتم كاملي الايمان ثيد ور على هذه الخصال الثلاث طاعة الاوامر واتقاء المعاصي واصلاح ذات البين بالعدل والاحسان انما المؤمنون جملة مستانفة مسوقة لبيان من اريد بالمؤمنين بذكر اوصافهم الجليلة المستتبعة لما ذكر من الخصال الثلث وفيه مزيد ترغيب لهم فى الامتثال بالاوامر المذكورة اى انما الكاملون فى الايمان المخلصون فيه الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم اى فزعت لمجرد ذكره من غير ان يذكر هناك ما يوجب الفزع من صفاته وافعاله استعظاما لشانه الجليل وتهيبا منه وقيل هو الرجل يهم بمعصية فيقال له اتق الله فينزع عنها خوفا من عقابه وقرئ وجلت بفتح الجيم وهى لغة وقرئ فرقت اى خافت واذا تليت عليهم اياته اى اية كانت زادتهم ايمانا اى يقينا وطمانينة نفس فان تظاهر الادلة وتعاضد الحجج والبراهين موجب لزيادة الاطمئنان وقوة اليقين وقيل ان نفس الايمان لا يقبل الزيادة والنقصان وانما زيادته باعتبار زيادة المؤمن به فانه كلما نزلت آية صدق بها المؤمن فزاد ايمانه عددا واما نفس الايمان فهو بحاله وقيل باعتبار ان الاعمال تجعل من الايمان فيزيد بزيادتها والاصوب ان نفس التصديق يقبل القوة وهى التى عبر عنها بالزيادة للفرق النير بين يقين الانبياء وارباب المكاشفات ويقين آحاد الامة وعليه مبنى ما قال علي رضي لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا بين ما قام عليه دليل واحد وما قامت عليه ادلة كثيرة وعلى ربهم مالكهم ومدبر امورهم خاصة يتوكلون يفوضون امورهم لا الى احد سواه والجملة معطوفة على الصلة وقوله تعالى الذين يقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون مرفوع على انه نعت للموصول الاول او بدل منه او بيان له او منصوب على القطع المبنى عن المدح ذكرا ولا من اعمالهم الحسنة اعمال القلوب من الخشية والاخلاص والتوكل ثم عقب باعمال الجوارح من الصلاة والصدقة اولئك اشارة الى من ذكرت صفاتهم الحميدة من حيث انهم متصفون بها وفى ذلك دلالة على انهم متميزون بذلك عمن عداهم اكمل تميز منتظمون بسببه فى سلك الامور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الشرف هم المؤمنون حقا لانهم حققوا ايمانهم بان ضموا اليه ما فصل من افاضل الاعمال القلبية والقالبية وحقا صفة لمصدر محذوف اى اولئك هم المؤمنون ايمانا حقا او مصدر مؤكد للجملة اى حق ذلك حقا كقولك هو عبد الله حقا لهم درجات من الكرامة والزلفى وقيل درجات عالية فى الجنة وهو اما جملة مبتدأة مبنية على سؤال نشأ من تعداد مناقبهم كانه قيل ما لهم بمقابلة هذه الخصال فقيل لهم كيت وكيت او خبر ثان لاولئك وقوله تعالى عند ربهم اما متعلق بمحذوف وقع صفة لدرجات مؤكدة لما افادها التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية اى كائنة عنده تعالى او بما تعلق به الخبر اعنى لهم من الاستقرار وفى اضافة الظرف الى الرب المضاف الى ضميرهم مزيد تشريف ولطف لهم وايذان بان ما وعد لهم متيقن الثبوت والحصول مامون الفوات ومغفرة لما فرط منهم ورزق كريم لا ينقضي امده ولا ينتهي عدده وهو ما اعد لهم من نعيم الجنة كما اخرجك ربك من بيتك بالحق الكاف فى محل الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذه الحال كحال اخراجك يعنى ان حالهم فى كراهتهم لما رايت مع كونه حقا كحالهم فى كراهتهم لخروجك للحرب وهو حق او فى محل النصب على انه صفة لمصدر مقدر فى قوله تعالى الانفال لله اى الانفال ثبت لله والرسول مع كراهتهم ثباتا مثل ثبات اخراج ربك اياك من بيتك فى المدينة او من المدينة اخراجا ملتبسا بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون اى والحال ان فريقا منهم كارهون للخروج اما لنفرة الطبع عن القتال او لعدم الاستعداد وذلك ان عير قريش اقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة ومعها اربعون راكبا منهم ابو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام فاخبر جبريل رسول

اسمه صلى الله

الله صلى الله عليه وسلم فاخبر المسلمين فاعجبهم تلقي العير لكثرة الخير وقلة القوم فلما خرجوا بلغ اهل مكة خبر خروجهم فنادى ابو جهل فوق الكعبة يا اهل مكة النجا النجا على كل صعب وذلول عيركم اموالكم ان اصابها محمد لم تفلحوا بعدها ابدا وقد رات اخت العباس بن عبد المطلب رؤيا فقالت لاخيها انى رايت عجبا رايت كان ملكا نزل من السماء فاخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكة الا اصابه حجر من تلك الصخرة فحدثت بها العباس فقال ابو جهل ما يرضى رجالهم ان يتنبأوا حتى تتنبأ نساؤهم فخرج ابو جهل بجميع اهل مكة وهم النفير فقيل له ان العير اخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس الى مكة فقال لا والله لا يكون ذلك ابدا حتى ننحر الجزور ونشرب الخمور ونقيم القينات والمعازف ببدر فيتسامع جميع العرب بمخرجنا وان محمدا لم يصب العير وانا قد اعضضناه فمضى بهم الى بدر وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما فى السنة فنزل جبريل فقال يا محمد ان الله وعدكم احدى الطائفتين اما العير واما قريشا فاستشار النبى صلعم اصحابه فقال ما تقولون ان القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول فالعير احب اليكم ام النفير فقالوا بل العير احب الينا من لقاء العدو فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رد عليهم فقال ان العير قد مضت على ساحل البحر وهذا ابو جهل قد اقبل فقالوا يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو فقام عند غضب النبى صلى الله عليه وسلم ابو بكر وعمر رضى الله عنهما فاحسنا ثم قام سعد بن عبادة فقال انظر امرك فامض فوالله لو سرت الى عدن ابين ما تخلف عنك رجل من الانصار ثم قال المقداد بن عمرو يا رسول الله امض لما امرك الله تعالى فانا معك حيثما احببت لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى عليه السلام اذهب انت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون ولكن اذهب انت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ما دامت عين منا تطرف فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال اشيروا علي ايها الناس وهو يريد الانصار لانهم قالوا حين بايعوه على العقبة انا برآء من ذمامك حتى تصل الى ديارنا فاذا وصلت الينا فانت فى ذمامنا نمنعك مما نمنع منه ابناءنا ونساءنا فكان النبى صلعم يتخوف ان لا يكون الانصار ترى عليهم نصرته الا على عدو دهمه بالمدينة فقام سعد بن معاذ فقال لكانك تريدنا يا رسول الله قال اجل قال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا ان ما جئت به هو الحق واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما اردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره ان تلقى بنا عدونا انا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشطه قول سعد ثم قال سيروا على بركة الله وابشروا فان الله تعالى وعدني احدى الطائفتين والله لكاني الآن انظر الى مصارع القوم وروي انه قال لرسول الله صلعم حين فرغ من بدر عليك بالعير ليس دونها شيء فناداه العباس وهو فى وثاقه لا يصلح فقال له النبى صلى الله عليه وسلم لم قال لان الله وعدك احدى الطائفتين وقد اعطاك ما وعدك يجادلونك فى الحق الذى هو تلقي النفير لايثارهم عليه تلقي العير والجملة استئناف او حال ثانية اى اخرجك فى حال مجادلتهم اياك ويجوز ان يكون حالا من الضمير فى لكارهون وقوله تعالى بعد ما تبين منصوب بيجادلونك وما مصدرية اى بعد تبين الحق لهم باعلامك انهم ينصرون اينما توجهوا ويقولون ما كان خروجنا الا للعير وهلا قلت لنا لنستعد ونتاهب وكان ذلك لكراهتهم القتال كانما يساقون الى الموت الكاف فى محل النصب على الحالية من الضمير فى لكارهون اى مشبهين بالذين يساقون بالعنف والصغار الى القتل وهم ينظرون حال من ضمير يساقون اى والحال انهم ينظرون الى اسباب الموت ويشاهدونها عيانا وما كانت هذه المرتبة من الخوف والجزع الا لقلة عددهم وعدم تاهبهم وكونهم رجالة روي انه لم يكن فيهم الا فارسان واذ يعدكم الله احدى الطائفتين

كلام مستأنف مسوق لبيان جميل صنع الله عز وجل بالمؤمنين مع ما بهم من قلة
الحزم ودناءة الهمة وقصور الرأي والخوف والجزع واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب
به المؤمنون بطريق التلوين والالتفات واحدى الطائفتين مفعول ثان ليعدكم اي
اذكروا وقت وعد الله اياكم احدى الطائفتين وتذكير الوقت مع ان المقصود تذكير
ما فيه من الحوادث لما مر مرارا من المبالغة في ايجاب ذكرها لما ان ايجاب ذكر الوقت
لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني ولان الوقت مشتمل على ما وقع فيه من الحوادث بتفاصيلها فاذا
استحضر كان ما وقع فيه حاضرا مفصلا كأنه مشاهد عيانا وقرئ يعدكم بسكون الدال تخفيفا
وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها وقوله تعالى انها لكم بدل
اشتمال من احدى الطائفتين مبين لكيفية الوعد اي يعدكم ان احدى الطائفتين كائنة
لكم مختصة بكم مسخرة لكم تتسلطون عليها تسلط الملاك وتتصرفون فيهم كيف شئتم
وتودون عطف على يعدكم داخل تحت الامر بالذكر اي تحبون ان غير ذات الشوكة
تكون لكم من الطائفتين لا ذات الشوكة وهي النفير رئيسهم ابو جهل وهم الف مقاتل و
غير ذات الشوكة هي العير اذ لم يكن فيها الا اربعون فارسا ورأسهم ابو سفيان والتعبير
عنهم بهذا العنوان للتنبيه على سبب ودادهم لملاقاتهم وموجب كراهتهم ونفرتهم
عن موافاة النفير والشوكة الحدة مستعارة من واحدة الشوك وشوك القنا شباها
ويريد الله عطف على تودون منتظم معه في سلك التذكير ليظهر لهم عظيم لطف الله
بهم مع دناءة هممهم وقصور آرائهم اي اذكروا وقت وعده تعالى اياكم احدى الطائفتين
ووددتكم لادناهما وارادته تعالى لاعلاهما وذلك قوله تعالى ان يحق الحق اي
يثبته ويعليه بكلماته اي باياته المنزلة في هذا الشأن او باوامره للملائكة بالامداد
وبما قضى من اسرهم وقتلهم وطرحهم في قليب بدر وقرئ بكلمته ويقطع دابر
الكافرين اي آخرهم ويستأصلهم بالمرة والمعنى انتم تريدون سفساف الامور
والله عز وعلا يريد معاليها وما يرجع الى علو كلمة الحق وسمو رتبة الدين وشتان
بين المرادين وقوله تعالى ليحق الحق ويبطل الباطل جملة مستأنفة سيقت لبيان
الحكمة الداعية الى اختيار ذات الشوكة ونصرهم عليها مع ارادتهم لغيرها واللام متعلقة
بفعل مقدر مؤخر عنها اي لهذه الغاية الجليلة فعل ما فعل لا لشيء آخر وليس فيه تكرار
اذ الاول لبيان تفاوت ما بين الارادتين وهذا لبيان الحكمة الداعية الى ما ذكر ومعنى احقاق
الحق اظهار حقيته لا جعله حقا بعد ان لم يكن كذلك وكذا حال ابطال الباطل ولو كره المجرمون
اي المشركون ذلك اي احقاق الحق وابطال الباطل اذ تستغيثون ربكم بدل من اذ يعدكم
معمول لعامله فالمراد تذكير استمدادهم منه سبحانه والتجائهم اليه تعالى حين ضاقت
عليهم الحيل وعيت بهم العلل وامداده تعالى حينئذ وقيل متعلق بقوله تعالى ليحق الحق
على الظرفية وما قيل من ان قوله تعالى ليحق مستقبل لانه منصوب بان فلا يمكن عمله
في اذ لانه ظرف لما مضى ليس بشيء لان كونه مستقبلا انما هو بالنسبة الى زمان ما هو
غاية له من الفعل المقدر لا بالنسبة الى زمان الاستغاثة حتى لا يعمل فيه بل هما في
وقت واحد وانما عبر عن زمانها باذ نظرا الى زمان النزول وصيغة الاستقبال في
تستغيثون لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة وقيل متعلق بمضمر مستأنف
اي اذكروا وقت استغاثتكم وذلك انهم لما علموا انه لا بد من القتال جعلوا يدعون الله
تعالى قائلين اي رب انصرنا على عدوك يا غياث المستغيثين اغثنا وعن عمر رضه ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم نظر الى المشركين وهم الف والى اصحابه وهم ثلثمائة وبضعة
عشر فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو اللهم انجز لي ما وعدتني اللهم ان تهلك
هذه العصابة لا تعبد في الارض فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فاخذه ابو بكر
فالقاه على منكبه والتزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز
لك ما وعدك فاستجاب لكم عطف على تستغيثون داخل معه في حكم التذكير لما عرفت
انه ماض وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة اني ممدكم اي باني ممدكم فحذف الجار

وسلط

وسلط عليه الفعل فنصب محله وقرئ بكسر الهمزة على ارادة القول او على اجراء استجاب مجرى
قال لان الاستجابة من مقولة القول بالف من الملائكة مردفين اي جاعلين غيرهم
من الملائكة رديفا لانفسهم فالمراد بهم رؤساؤهم المستتبعون لغيرهم وقد اكتفى
ههنا بهذا البيان الاجمالي وبين في سورة آل عمران مقدار عددهم وقيل معناه متبعين
انفسهم ملائكة آخرين او متبعين المؤمنين او بعضهم بعضا من اردفته
اذا جئت بعده او متبعين بعضهم بعض المؤمنين او انفسهم المؤمنين
المؤمنين من اردفته اياه فردفه وقرئ مردفين بفتح الدال اي متبعين او متبعين
بمعنى انهم كانوا مقدمة الجيش او ساقتهم وقرئ مردفين بكسر الراء وضمها وتشديد
الدال واصلهما مرتدفين فادغمت التاء في الدال فالتقى الساكنان فحركت الراء بالكسر على
الاصل او بالضم على الاتباع وقرئ بآلاف ليوافق في سورة آل عمران ووجه التوفيق
بينه وبين المشهور ان المراد بالالف الذين كانوا على المقدمة او الساقة او وجوههم
واعيانهم او من قاتل منهم واختلف في مقاتلتهم وقد رويت اخبار تدل على
وقوعها وما جعله الله كلام مستأنف سيق لبيان ان الاسباب الظاهرة بمعزل
من التأثير وانما التأثير مختص به عز وجل ليثق به المؤمنون ولا يقنطوا من النصر
عند فقدان اسبابه والجعل متعد الى مفعول واحد هو الضمير العائد الى مصدر
فعل مقدر يقتضيه المقام اقتضاء ظاهرا مغنيا عن التصريح به كأنه قيل فامدكم
بهم وما جعل امدادكم بهم الا بشرى لكم وهو استثناء مفرغ من اعم العلل اي
وما جعل امدادكم بانزال الملائكة عيانا لشيء من الاشياء الا للبشرى لكم بانكم تنصرون
ولتطمئن به اي بالامداد قلوبكم وتسكن اليه نفوسكم كما كانت السكينة لبني
اسرائيل كذلك فكلاهما مفعول له للجعل وقد نصب الاول لاجتماع شرائطه وبقي
الثاني على حاله لفقدانها وقيل للاشارة الى اصالته في العلية واهميته في نفسه كما
قيل في قوله تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة وفي قصر الامداد عليهما
اشعار بعدم مباشرة الملائكة للقتال وانما كان امدادهم بتقوية قلوب المباشرين
وتكثير سوادهم ونحوه كما هو رأي بعض السلف وقيل الجعل متعد الى اثنين ثانيهما
الا بشرى على انه استثناء من اعم المفاعيل اي وما جعله الله شيئا من الاشياء الا بشارة
لكم فاللام في ولتطمئن متعلق بمحذوف مؤخر تقديره ولتطمئن به قلوبكم فعل
ذلك لا لشيء آخر وما النصر اي حقيقة النصر على الاطلاق الا من عند الله
اي الا كائن من عنده عز وجل من غير ان يكون فيه شركة من جهة الاسباب والعدد
وانما هي مظاهر له بطريق جريان السنة الالهية ان الله عزيز لا يغالب في حكمه
ولا ينازع في قضيته حكيم يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة
والجملة تعليل لما قبلها متضمن للاشعار بان النصر الواقع على الوجه المذكور من
مقتضيات الحكم البالغة اذ يغشيكم النعاس اي يجعله غاشيا لكم ومحيطا
بكم وهو بدل ثان من اذ يعدكم لاظهار نعمة اخرى وصيغة الاستقبال فيه وفيما
عطف عليه لحكاية الحال الماضية كما في تستغيثون او منصوب باضمار اذكروا و
قيل هو متعلق بالنصر او بما في من عند الله من معنى الفعل او بالجعل وليس بواضح
وقرئ يغشيكم من الاغشاء بمعنى التغشية والفاعل في الوجهين هو الباري تعالى
وقرئ يغشاكم على اسناد الفعل الى النعاس وقوله تعالى امنة منه على القراءتين
الاوليين منصوب على العلية بفعل مترتب على الفعل المذكور اي يغشيكم النعاس
فتنعسون امنا كائنا من الله تعالى لا كلالا واعياء او على انه مصدر لفعل آخر كذلك اي
فتأمنون امنا كما في قوله تعالى وانبتها نباتا حسنا على احد الوجهين وقيل منصوب
بنفس الفعل المذكور والامنة بمعنى الايمان وعلى القراءة الاخيرة منصوب على العلية
بيغشاكم باعتبار المعنى فانه في حكم تنعسون او على انه مصدر لفعل مترتب عليه
كما مر وقرئ امنة كرحمة وينزل عليكم من السماء ماء تقديم الجار والمجرور

على المفعول به لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم
اذا اخر يبقى النفس مترقبة له فعند وروده يتمكن عندها فضل تمكن وتقديم عليكم لما
ان بيان كون التنزيل عليهم اهم من بيان كونه من السماء وقرئ بالتخفيف من الانزال
ليطهركم به اى من الحدث الاصغر والاكبر ويذهب عنكم رجز الشيطان الكلام
فى تقديم الجار والمجرور كما مر آنفا والمراد برجز الشيطان وسوسته وتخويفه
اياهم من العطش روى انهم نزلوا فى كثيب اعفر تسوخ فيه الاقدام على غير ماء وناموا
فاحتلم اكثرهم وقد غلب المشركون على الماء فتمثل لهم الشيطان فوسوس اليهم
وقال انتم يا اصحاب محمد تزعمون انكم على الحق وانكم تصلون على غير وضوء وعلى
الجنابة وقد عطشتم ولو كنتم على الحق ما غلبكم هؤلاء على الماء وما ينتظرون الا ان
يجهدكم فاذا قطع اعناقكم مشوا اليكم فقتلوا من احبوا وساقوا بقيتكم الى مكة
فحزنوا حزنا شديدا واشفقوا فانزل الله عز وجل المطر فمطروا ليلا حتى جرى الوادي
فاغتسلوا وتوضؤوا وسقوا الركاب وتلبد الرمل الذي كان بينهم وبين العدو حتى
ثبتت عليه الاقدام وزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس وقويت القلوب
وذلك قوله تعالى وليربط على قلوبكم اى يقويها بالثقة بلطف الله تعالى فيما بعد
بمشاهدة طلايعه ويثبت به الاقدام ولا تسوخ فى الرمل فالضمير للماء كالاول و
يجوز ان يكون للربط فان القلب اذا قوى وتمكن فيه الصبر والجراءة لا تكاد تزل القدم فى معارك
الحروب وقوله تعالى اذ يوحى ربك الى الملائكة منصوب بمضمر مستانف خوطب به
النبى صلى الله عليه وسلم بطريق التجريد حسبما ينطق به الكاف لما ان المامور به مما
لا يستطيعه غيره عليه السلام فان الوحى المذكور قبل ظهوره بالوحى المتلو على لسانه عليه السلام
ليس من النعم التى يقف عليها عامة الامة كساير النعم السابقة التى امروا بذكر
وقتها بطريق الشكر وقيل منصوب بقوله تعالى ويثبت به الاقدام فلا بد حينئذ من
من عود الضمير المجرور فى به الى الربط على القلوب ليكون المعنى ويثبت اقدامكم بتقوية
قلوبكم وقت ايحائه الى الملائكة وامره بتثبيتهم اياكم وهو وقت القتال ولا يخفى ان
تقييد التثبيت المذكور بوقت مبهم عندهم ليس فيه مزيد فايدة واما انتصابه على
انه بدل ثالث من اذ يعدكم كما قيل فيأباه تخصيص الخطاب به عليه السلام مع ما
عرفت من ان المامور به ليس من الوظايف العامة للكل كساير اخواته وفى التعرض
لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من التنويه والتشريف ما لا يخفى
والمعنى اذكر وقت ايحائه تعالى الى الملائكة انى معكم اى بالامداد والتوفيق فى امر
التثبيت فهو مفعول يوحى وقرئ بالكسر على ارادة القول او اجراء الوحى مجراه وما يشعر
به دخول كلمة مع من متبوعية الملائكة انما هى من حيث انهم المباشرون للتثبيت صورة
فهم الاصالة من تلك الحيثية كما فى امثال قوله تعالى ان الله مع الصابرين والفاء فى
قوله تعالى فثبتوا الذين امنوا لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان امداده تعالى اياهم
من اقوى موجبات التثبيت واختلفوا فى كيفية التثبيت فقالت جماعة انما امروا
بتثبيتهم بالبشارة وتكثير السواد ونحوهما مما تقوى به قلوبهم وتصح عزايمهم ونياتهم
ويتاكد جدهم فى القتال وهو الانسب بمعنى التثبيت وحقيقته التى هى عبارة عن الحمل
على الثبات فى مواطن الحراب والجد فى مقاساة شدايد القتال وقد روى انه كان الملك
يتشبه بالرجل الذى يعرفونه بوجهه فيأتى ويقول انى سمعت المشركين يقولون
والله لئن حملوا علينا لننكشفن ويمشى بين الصفين فيقول ابشروا فان الله ناصركم
وقال آخرون امروا بمحاربة اعدائهم وجعلوا قوله تعالى سالقى فى قلوب الذين
كفروا الرعب تفسيرا لقوله تعالى انى معكم وقوله تعالى فاضربوا الى آخره تفسيرا لقوله
تعالى فثبتوا مبينا لكيفية التثبيت وقد روى عن ابى داود المازنى رضى الله عنه
وكان ممن شهد بدرا انه قال اتبعت رجلا من المشركين يوم بدر لاضربه فوقعت
راسه بين يدى قبل ان يصل اليه سيفى وعن سهل بن حنيف رضى الله عنه انه قال لقد

رأيتنا يوم بدر وان احدنا يشير بسيفه الى المشرك فيقع راسه عن جسده قبل ان يصل اليه
السيف وانت خبير بان قتلهم للكفرة مع عدم ملايمته بمعنى تثبيت المؤمنين مما لا يتوقف
على الامداد بالقاء الرعب فلا يتجه ترتيب الامر به عليه بالفاء وقد اعتذر الاولون بان
قوله تعالى سالقى الى آخره ليس بنص فيما ذكر بل يجوز ان يكون اثر قوله تعالى فثبتوا الذين امنوا
تلقينا للملائكة ما يثبتونهم به كانه قيل قولوا لهم قولى سالقى فى قلوب الذين كفروا
الرعب فاضربوا الى آخره فالضاربون هم المؤمنون واما ما قيل من ان ذلك خطاب
منه تعالى للمؤمنين بالذات على طريق التلوين فمبناه توهم وروده قبل القتال وانى
ذلك والسورة الكريمة انما نزلت بعد تمام الوقعة وقوله تعالى فوق الاعناق
اى اعاليها هى المذابح او الهامات واضربوا منهم كل بنان قيل البنان اطراف الاصابع
من اليدين والرجلين وقيل هى الاصابع من اليدين والرجلين وقال ابو الهيثم البنان
المفاصل وكل مفصل بنانة قال ابن عباس رضى الله عنهما وابن جريج والضحاك يعنى
الاطراف اى اضربوهم فى جميع الاعضاء من اعاليها الى اسافلها وقيل المراد بالبنان الاداني
وبفوق الاعناق الاعالى والمعنى فاضربوا الصناديد والسفلة وتكرير الامر بالضرب لمزيد
التشديد والاعتناء بامره ومنهم متعلق به او بمحذوف وقع حالا مما بعده ذلك
اشارة الى ما اصابهم من العقاب وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجته
فى الشدة والفظاعة والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل احد ممن
يليق بالخطاب ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى بانهم شاقوا الله ورسوله
اى ذلك العقاب الفظيع واقع عليهم بسبب مشاقتهم ومغالبتهم من لا سبيل الى
مغالبته اصلا واشتقاقه من الشق لما ان كلا من المشاقين فى شق خلاف شق
الآخر كما ان اشتقاق المعاداة والمخاصمة من العدوة والخصم اى الجانب لان كلا من المتعاديين
والمتخاصمين فى عدوة وخصم غير عدوة الآخر وخصمه ومن يشاقق الله ورسوله
الاظهار فى موقع الاضمار لتربية المهابة واظهار كمال شناعة ما اجترؤا عليه والا
شعار بعلة الحكم وقوله تعالى فان الله شديد العقاب اما نفس الجزاء قد حذف
منه العايد الى من عند من يلتزمه اى شديد العقاب له او تعليل للجزاء المحذوف
اى يعاقبه الله تعالى فان الله شديد العقاب واياما كان فالشرطية تكملة لما قبلها وتقرير
لمضمونه وتحقيق للسببية بالطريق البرهانى كانه قيل ذلك العقاب الشديد بسبب
مشاقتهم لله تعالى ورسوله وكل من يشاقق الله ورسوله كائنا من كان فله بسبب ذلك
عقاب شديد فاذن لهم بسبب مشاقتهم لهما عقاب شديد واما انه وعيد لهم
بما اعد لهم فى الآخرة بعد ما حاق بهم فى الدنيا كما قيل فيرده ما بعده من قوله تعالى
ذلكم فذوقوه وان للكافرين عذاب النار فانه مع كونه هو المسوق للوعيد
بما ذكر ناطق بكون المراد بالعقاب المذكور ما اصابهم عاجلا سواء جعل ذلكم اشارة
الى نفس العقاب او الى ما يفيده الشرطية من ثبوت العقاب لهم اما على الاول فلان الاظهر
ان محله النصب بمضمر يستدعيه قوله تعالى فذوقوه والواو فى قوله تعالى وان للكافرين
الى آخره بمعنى مع فالمعنى باشروا ذلكم العقاب الذى اصابكم فذوقوه عاجلا مع ان
لكم عذاب النار آجلا فوضع الظاهر موضع الضمير لتوبيخهم بالكفر وتعليل الحكم به
واما على الثانى فلان الاقرب ان محله الرفع على انه خبر مبتدا محذوف وقوله تعالى
وان للكافرين الى آخره معطوف عليه والمعنى حكم الله ذلكم اى ثبوت هذا العقاب
لكم عاجلا وثبوت عذاب النار آجلا وقوله تعالى فذوقوه اعتراض وسط بين المعطوفين
للتهديد والضمير على الاول لنفس المشار اليه وعلى الثانى لما فى ضمنه وقد ذكر فى
اعراب الآية الكريمة وجوه اخر مدار الكل على ان المراد بالعقاب ما اصابهم عاجلا
والله تعالى اعلم وقرئ بكسر ان على الاستيناف يا ايها الذين امنوا خطاب للمؤمنين
بحكم كلى جار فيما سيقع من الوقايع والحروب جئ به فى تضاعيف القصة اظهارا للاعتناء
بشانه ومبالغة فى حثهم على المحافظة عليه اذا لقيتم الذين

كفروا زحفا الزحف الدبيب يقال زحف الصبي زحفا اذا دب على استه قليلا قليلا
سمي به الجيش الدهم المتوجه الى العدو لانه لكثرته وتكاثفه يرى كانه يزحف وذلك
لان الكل يرى كجسم واحد متصل فيحس حركته بالقياس اليه في غاية البطء وان كانت
في نفس الامر على غاية السرعة قال قائلهم وارعن مثل الطود تحسب انهم وقوف
لحاج والركاب تهملج ونصبه اما على انه حال من مفعول لقيتم اى زاحفين نحوكم واما
على انه مصدر موكد لفعل مضمر هو الحال منه اى يزحفون زحفا واما كونه حالا من
فاعله او منه ومن مفعوله معا كما قيل فيأباه قوله تعالى فلا تولوهم الادبار اذ لا
معنى لتقييد النهي عن الادبار بتوجههم السابق الى العدو او بكثرتهم بل توجه العدو
اليهم وكثرتهم هو الداعي الى الادبار عادة والمحوج الى النهي عنه وحمله على الاشعار
بما سيكون منهم يوم حنين حيث تولوا مدبرين وهم زحف من الزحوف اثنا عشر
الفا بعيد والمعنى اذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وانتم قليل فلا تولوهم ادباركم فضلا
عن الفرار بل قاتلوهم وقاتلوهم مع قلتكم فضلا عن ان تدانوهم في العدد او تساووهم
ومن يولهم يومئذ اى يوم اللقاء دبره فضلا عن الفرار وقرئ بسكون الباء
الا متحرفا لقتال اما بالتوجه الى قتال طائفة اخرى اهم من هؤلاء واما بالفر للكر بان
يخيل عدوه انه منهزم ليغره ويخرجه من بين اعوانه ثم يعطف وحده او مع من في
الكمين من اصحابه وهو باب من خدع الحرب ومكائدها او متحيزا الى فئة اى منحازا
الى جماعة اخرى من المؤمنين لينضم اليهم ثم يقاتل معهم العدو عن ابن عمر رضي الله عنهما
ان سرية فروا وانا معهم فلما رجعوا الى المدينة استحيوا ودخلوا البيوت فقلت يا رسول
الله نحن الفرارون فقال صلى الله عليه وسلم بل انتم العكارون وانا فئتكم وانهزم رجل
من القادسية فاتى المدينة الى عمر رضي الله عنه فقال يا امير المؤمنين هلكت فررت من
الزحف فقال رضي الله عنه انا فئتك ووزن متحيز متفيعل لا متفعل والا لكان متحوزا لانه
من حاز يحوز وانتصابهما اما على الحالية والا لغو لا عمل لها واما على الاستثناء من المولين
اى ومن يولهم دبره الا رجلا منهم متحرفا او متحيزا فقد باء اى رجع بغضب عظيم
لا يقادر قدره ومن في قوله تعالى من الله متعلقة بمحذوف هو صفة لغضب موكدة
لما افاده التنوين من الفخامة الاضافية اى بغضب كائن منه تعالى ومأواه جهنم
اى بدل ما اراد بفراره ان يأوي اليه من يأوي ينجيه من القتل وبئس المصير
في ايقاع البوء في موقع جواب الشرط الذي هو التولية مقرونا بذكر المأوى والمصير
من الجزالة ما لا مزيد عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما ان الفرار من الزحف من
اكبر الكبائر وهذا اذا لم يكن العدو اكثر من الضعف لقوله تعالى الآن خفف الله عنكم
الآية وقيل الآية مخصوصة باهل بيته والحاضرين في الحرب فلم تقتلوهم
رجوع الى بيان سبب بقية احكام الوقعة واحوالها وتقرير ما سبق منها والفاء
جواب الشرط مقدر يستدعيه ما مر من ذكر امداده تعالى وامره بالتثبيت وغير ذلك
كانه قيل اذا كان الامر كذلك فلم تقتلوهم انتم بقوتكم وقدرتكم ولكن الله
قتلهم بنصركم وتسليطكم عليهم والقاء الرعب في قلوبهم ويجوز ان يكون التقدير
اذا علمتم ذلك فلم تقتلوهم اى فاعلموا او فاخبركم انكم لم تقتلوهم وقيل
التقدير ان افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم على احد التأويلين لما روي انهم لما انصرفوا
من المعركة غالبين غانمين اقبلوا يتفاخرون يقولون قتلت واسرت وفعلت وتركت
فنزلت وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين طلعت قريش من العقنقل
قال هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك اللهم اني اسالك ما وعدتني فاتاه
جبريل عليهما السلام فقال خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان قال
لعلي رضي الله عنه اعطني قبضة من حصباء الوادي فرمى بها في وجوههم وقال شاهت
الوجوه فلم يبق مشرك الا شغل بعينيه فانهزموا وذلك قوله عز وجل بطريق تلوين الخطاب
وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى تحقيقا لكون الرمي الظاهر على يده عليه السلام

فارمهم

حينئذ

حينئذ من افعاله عز وجل وتجريد الفعل عن المفعول به لما ان المقصود به الاصلي بيان
حال الرمي نفيا واثباتا اذ هو الذي ظهر منه ما ظهر والمنشأ لتغير المرمي به في نفسه
وتكثره الى حيث اصاب عيني كل واحد من اولئك الامة الجمة شيء من ذلك اى وما
فعلت انت يا محمد تلك الرمية المستتبعة لهذه الآثار العظيمة حقيقة حين فعلتها
صورة والا لكان اثرها من جنس آثار الافاعيل البشرية ولكن الله فعلها اى خلقها حين باشرتها
لكن لا على نهج عادته تعالى في خلق افعال العباد بل على وجه غير معتاد ولذلك اثرت هذا
التأثير الخارج عن طوق البشر ودائرة القوى والقدر فمدار اثباتها لله تعالى ونفيها
عنه عليه السلام كون اثرها من افعاله سبحانه لا من افعاله عليه السلام وقرئ ولكن
لكن الله بالتخفيف والرفع في المحلين واللام في قوله تعالى وليبلي المؤمنين منه اى
ليعطيهم من عنده تعالى بلاء حسنا اى عطاء جميلا غير مشوب بمقاساة الشدائد
والمكاره اما متعلقة بمحذوف متأخر فالواو اعتراضية اى وللاحسان اليهم بالنصر
والغنيمة فعل ما فعل لا لشيء غير ذلك مما لا يجديهم نفعا واما برمى فالواو للعطف
على علة محذوفة اى ولكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلي الخ وقوله تعالى ان الله
سميع اى لدعائهم واستغاثتهم عليم اى بنياتهم واحوالهم الداعية الى الاجابة
تعليل للحكم ذلكم اشارة الى البلاء الحسن ومحله الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف
وقوله تعالى وان الله موهن كيد الكافرين بالاضافة معطوف عليه اى المقصد ابلاء
المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وابطال حيلهم وقيل المشار اليه القتل والرمي والمبتدأ
الامر اى الامر ذلكم اى القتل فيكون قوله تعالى وان الله الخ من قبيل عطف البيان وقرئ
موهن بالتنوين مخففا ومشددا ونصب كيد الكافرين ان تستفتحوا خطاب لاهل
مكة على سبيل التهكم بهم وذلك انهم حين ارادوا الخروج تعلقوا باستار الكعبة
وقالوا اللهم انصر على الجندين واهدى الفئتين واكرم الحزبين اى ان تستنصروا لاعلى
الجندين فقد جاءكم الفتح حيث نصر اعلاهما وقد زعمتم انكم الاعلى فالتهكم
في المجيء او فقد جاءكم الهزيمة والقهر فالتهكم في نفس الفتح حيث وضع موضع ما
يقابله وان تنتهوا عما كنتم عليه من الحراب ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم
فهو اى الانتهاء خير لكم اى من الحراب الذي ذقتم غائلته لما فيه من السلامة
من القتل والاسر ومبنى اعتبار اصل الخيرية في المفضل عليه هو التهكم وان تعودوا
اى الى حرابه عليه السلام نعد لما شاهدتموه من الفتح ولن تغني بالتاء الفوقانية
وقرئ بالياء التحتانية لان تأنيث الفئة غير حقيقي وللفصل اى لن تدفع ابدا
عنكم فئتكم جماعتكم التي تجمعونهم وتستعينون بهم شيئا اى من الاغناء او من
المضار وقوله تعالى ولو كثرت جملة حالية وقد مر التحقيق وان الله مع المؤمنين
اى ولان الله معين المؤمنين كان ذلك او والامر ان الله مع المؤمنين ويقرب منه
بحسب المعنى قراءة الكسر على الاستئناف وقيل الخطاب للمؤمنين والمعنى ان تستنصروا فقد
جاءكم النصر وان تنتهوا عن التكاسل والرغبة عما يرغب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم
فهو خير لكم من كل شيء لما انه مناط لنيل سعادة الدارين وان تعودوا اليه نعد
عليكم بالانكار وتهييج العدو ولن تغني حينئذ كثرتكم اذا لم يكن الله معكم بالنصر والامر
ان الله مع الكاملين في الايمان يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله ورسوله ولا تولوا
بطرح احدى التاءين وقرئ بادغامها عنه اى لا تتولوا عن الرسول فان المراد هو
الامر بطاعته والنهي عن الاعراض عنه وذكر طاعته تعالى للتمهيد والتنبيه على ان طاعته
تعالى في طاعة رسوله عليه السلام من يطع الرسول فقد اطاع الله وقيل الضمير للجهاد
وقيل للامر الذي دل عليه الطاعة وقوله تعالى وانتم تسمعون جملة حالية واردة لتاكيد
وجوب الانتهاء عن التولي مطلقا كما في قوله تعالى فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون
لا لتقييد النهي عنه بحال السماع كما في قوله تعالى لا تقربوا الصلوة وانتم سكارى اى لا تتولوا عنه
والحال انكم تسمعون القرآن الناطق بوجوب طاعته والمواعظ الزاجرة عن مخالفته سماع فهم

واذعان ولاتكونوا تقرير للنهي السابق وتحذير عن مخالفته بالتنبيه على انها مودية الى
انتظامهم في سلك الكفرة بكون سماعهم كلاسماع اى لاتكونوا بمخالفة الامر والنهى
كالذين قالوا سمعنا بمجرد الادعاء من عرفتهم واذعان كالكفرة والمنافقين الذين
يدعون السماع وهم لايسمعون حال من ضمير قالوا ذلك والحال انهم لا يسمعون
حيث لايصدقون ما سمعوه ولا يفهمونه حتى فهمه فكانهم لايسمعونه راسًا
ان شر الدواب استيناف مسوق لبيان كمال سوء حال المشبه بهم مبالغة في التحذير
وتقرير للنهي اثر تقرير اى ان شر من يدب على الارض او شر البهايم عند الله اى
في حكمه وقضائه الصم الذين لايسمعون الحق البكم الذين لاينطقون به وصفوا
بالصم والبكم لان ما خلق له الاذن واللسان سماع الحق والنطق به حيث لم يوجد
فيهم شيء من ذلك صاروا كانهم فاقدون للجارحتين راسًا وتقديم الصم على البكم
لما ان صممهم متقدم على بكمهم فان السكوت عن النطق بالحق من فروع عدم
سماعهم كما ان النطق به من فروع سماعه ثم وصفوا بعدم التعقل فقيل الذين لايعقلون
تحقيقًا لكمال سوء حالهم فان الاصم الابكم اذا كان له عقل ربما يفهم بعض الامور ويفهمه
غيره بالاشارة ويهتدي بذلك الى بعض مطالبه واما اذا كان فاقد العقل ايضا فهو الغاية
في الشرية وسوء الحال وبذلك يظهر كونهم شرًا من البهايم حيث ابطلوا ما به يمتازون
عنها وبه يفضلون على كثير من خلق الله عز وجل فصاروا اخس من كل خسيس ولو علم
الله فيهم خيرًا شيئًا من جنس الخير الذي من جملته صرف قواهم الى تحري الحق واتباع
الهدى لاسمعهم سماع تفهم وتدبر ولو قفوا على حقية الرسول عليه السلام و
اطاعوه وامنوا به و لكن لم يعلمه فيهم شيئًا من ذلك لخلوهم عنه بالمرة فلم يسمعهم
كذلك لخلوه عن الفايدة وخروجه عن الحكمة واليه اشير بقوله تعالى ولو اسمعهم لتولوا
اى لو اسمعهم سماع تفهم وهم على هذه الحالة العارية عن الخير بالكلية لتولوا عما
سمعوه من الحق ولم ينتفعوا به قط وارتدوا بعد ما صدقوه وصاروا كان لم يسمعوه
اصلا وقوله تعالى وهم معرضون اما حال من ضمير تولوا اى لتولوا على ادبارهم والحال
انهم معرضون عما سمعوه بقلوبهم واما اعتراض تذييلي اى وهم قوم عادتهم
الاعراض وقيل كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم احي قصيًا فانه كان شيخًا
مباركًا حتى يشهد لك ونؤمن بك فالمعنى ولو اسمعهم كلام قصي الى آخره وقيل هم بنو
عبد الدار بن قصي لم يسلم منهم الا مصعب بن عمير وسويد بن حرملة كانوا يقولون
نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد لا نسمعه ولا نجيبه فقاتلهم الله تعالى فقتلوا جميعًا
باحد وكانوا اصحاب اللواء وعن ابن جريج انهم المنافقون وعن الحسن رحمه الله انهم
اهل الكتاب يا ايها الذين امنوا تكرير للنداء مع وصفهم بنعت الايمان لتنشيطهم
الى الاقبال على الامتثال بما يرد بعده من الاوامر وتنبيههم على ان فيهم ما يوجب
ذلك استجيبوا لله وللرسول بحسن الطاعة اذا دعاكم اى الرسول اذ هو
المباشر لدعوة الله تعالى لما يحييكم من العلوم الدينية التي هي مناط الحيوة الابدية
كما ان الجهل مدار الموت الحقيقي او هي ماء حيوة القلب كما ان الجهل موجب موته وقيل
بالمجاهدة الكفار لانهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم كما في قوله تعالى ولكم في القصاص
حيوة روي انه عم مر على ابي بن كعب وهو يصلي فدعاه فعجل في صلاته ثم جاء
فقال عليه السلام ما منعك من اجابتي قال كنت في الصلوة قال الم تخبر فيما اوحي الي
استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم الى آخره واختلف فيه فقيل هذا من خصايص دعائه
عليه السلام وقيل لان اجابته عليه السلام لاتقطع الصلوة وقيل كان ذلك الدعاء لامر هم
لايحتمل التاخير وللمصلي ان يقطع الصلوة لمثله واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه
تمثيل لغاية قربه تعالى من العبد كقوله تعالى ونحن اقرب اليه من حبل الوريد وتنبيه
على انه تعالى مطلع من مكنونات القلوب على ما عسى يغفل عنه صاحبها او حث على المبادرة
الى اخلاص القلوب وتصفيتها قبل ادراك المنية فانها حايلة بين المرء وقلبه او تصوير وتخييل

تمكله على العبد قلبه بحيث يفسخ عزايمه ويغير نياته ومقاصده ويحول بينه وبين الكوان
اراد سعادته ويبدله بالامن خوفًا وبالذكر نسيانًا وما اشبه ذلك من الامور المعترضة
المفوتة للفرصة وقرئ بين المر بتشديد الراء على حذف الهمزة والقاء حركتها على الراء
واجراء الوصل مجرى الوقف وانه اى الله عز وجل والشان اليه تحشرون لا الى غيره
فيجازيكم بحسب مراتب اعمالكم فسارعوا الى طاعة الله تعالى وطاعة رسوله وبالغوا في الاستجابة
لهما واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة اى لاتختص اصابتها بمن يباشر
الظلم منكم بل يعمه وغيره كاقرار المنكرين اظهرهم والمداهنة في الامر بالمعروف والنهى
عن المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل في الجهاد على ان قوله لاتصيبن الى
آخره اما جواب الامر على معنى ان اصابتكم لاتصيبن الى آخره وفيه ان جواب الشرط متردد
فلا يليق به النون المؤكدة لكنه لما يضمن معنى النهى ساغ فيه كقوله تعالى ادخلوا مساكنكم
لايحطمنكم واما صفة لفتنة ولا للنفي وفيه شذوذ لان النون لاتدخل المنفي في غير
القسم او للنهي على ارادة القول كقول من قال جاؤا بمذق هل
رايت الذئب قط واما جواب قسم محذوف كقراءة من قرا لتصيبن وان اختلف المعنى
فيهما وقد جوز ان يكون نهيًا عن التعرض للظلم بعد الامر باتقاء الذنب فان وباله
يصيب الظالم خاصة ويعود عليه ومن في منكم على الوجوه الاول للتبعيض وعلى الاخيرين للتبيين وفايدته التنبيه على ان الظلم منكم اقبح منه من غيركم واعلموا ان الله شديد العقاب
ولذلك يصيب بالعذاب من لم يباشر سببه واذكروا اذ انتم قليل اى وقت كونكم قليلا
في العدد وايثار الجملة الاسمية للايذان باستمرار ما كانوا فيه من القلة وما يتبعها من الضعف
والخوف وقوله تعالى مستضعفون خبر ثان او صفة لقليل وقوله تعالى في الارض اى في ارض مكة
تحت ايدي قريش والخطاب للمهاجرين او تحت ايدي فارس والروم والخطاب للعرب كافة
فانهم كانوا اذلاء تحت ايدي الطايفتين وقوله تعالى تخافون ان يتخطفكم الناس خبر ثالث
وصفة ثانية لقليل ووصف بالجملة بعد ما وصف بالمفرد او حال من المستكن في مستضعفون
والمراد بالناس على الاول وهو الاظهر اما كفار قريش او كفار العرب لقربهم منهم وشدة
عداوتهم لهم وعلى الثاني فارس والروم اى واذكروا وقت قلتكم وذلتكم وهوانكم على
الناس وخوفكم من اختطافهم فاواكم الى المدينة او جعل لكم ماوى تتحصنون به
من اعدائكم وايدكم بنصره على الكفار او بمظاهرة الانصار او بامداد الملايكة ورزقكم
من الطيبات من الغنايم لعلكم تشكرون هذه النعم الجليلة يا ايها الذين امنوا
لاتخونوا الله والرسول اصل الخون النقص كما ان اصل الوفاء التمام واستعماله في ضد
الامانة لتضمنه اياه اى لاتخونوهما بتعطيل الفرايض والسنن او بان تضمروا خلاف
ما تظهرون او بالغلول في الغنايم روى انه عليه السلام حاصر بني قريظة احدى وعشرين
ليلة فسالوا الصلح كما صالح بني النضير على ان يسيروا الى اخوانهم باذرعات واريحا
من الشام فابى الا ان ينزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه فابوا وقالوا ارسل
الينا ابا لبابة وكان مناصحًا لهم لما ان ماله وعياله كان في ايديهم فبعثه اليهم
فقالوا ما ترى هل ننزل على حكم سعد فاشار الى حلقه انه الذبح قال ابو لبابة فما
زالت قدماى حتى علمت انى خنت الله ورسوله فنزلت فشد نفسه على سارية من
سواري المسجد فقال والله لا اذوق طعامًا ولا شرابًا حتى اموت او يتوب الله علي فمكث
سبعة ايام حتى خر مغشيًا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له قد تيب عليك فحل نفسك قال
لا والله لا احلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني فجاءه عليه السلام
فحله فقال ان من تمام توبتي ان اهجر دار قومي التي اصبت فيها الذنب وان انخلع من مالي
فقال عليه السلام يجزيك الثلث ان تتصدق به وتخونوا اماناتكم فيما بينكم وهو
مجزوم معطوف على الاول او منصوب على الجواب بالواو وانتم تعلمون انكم تخونون
او انتم علماء تميزون الحسن من القبيح واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة
لانها سبب الوقوع في الاثم والعقاب او محنة من الله عز وجل ليبلوكم في ذلك فلا

يحملنكم حبهما على الخيانة كابي لبابة وان الله عنده اجر عظيم لمن آثر رضاه تعالى عليهما
وراعى حدوده فيهما فنيطوا هممكم بما يؤديكم اليه يا ايها الذين امنوا تكرير الخطاب
والوصف بالايمان لاظهار كمال العناية بما بعده والايذان بانه مما يقتضى الايمان مراعاته
والمحافظة عليه كما فى الخطابين السابقين ان تتقوا الله اى فى كل ما تاتون وما تذرون
يجعل لكم بسبب ذلك فرقانا هداية فى قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل او
نصرا يفرق بين المحق والمبطل باعزاز المؤمنين واذلال الكافرين او مخرجا من الشبهات
او نجاة عما تحذرون فى الدارين او ظهورا يشهر امركم وينشر صيتكم من فرقت
بين افعل كذا اى سطع الفرقان اى الصبح ويكفر عنكم سيئاتكم اى يسترها ويغفر لكم
ذنوبكم بالعفو والتجاوز عنها وقيل السيئات الصغائر والذنوب الكبائر وقيل
المراد ما تقدم وما تاخر لانها فى اهل بدر وقد غفرهما الله تعالى لهم وقوله تعالى
والله ذو الفضل العظيم تعليل لما قبله وتنبيه على ان ما وعده الله تعالى لهم على
التقوى تفضل منه واحسان لا انه مما يوجبه التقوى كما اذا وعد السيد عبده
انعاما على عمل واذ يمكر بك الذين كفروا منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى
صلى الله عليه وسلم معطوف على قوله تعالى واذكروا اذ انتم الخ مسوق لتذكير
النعمة الخاصة به عليه السلام بعد تذكير النعمة العامة للكل اى واذكر وقت مكرهم
بك ليثبتوك بالوثاق ويعضده قراءة من قرا ليقيدوك او الاثخان بالجرح من
قولهم ضربه حتى اثبته لا حراك به ولا براح وقرئ ليثبتوك بالتشديد وليبيتوك من
البيات او يقتلوك اى بسيوفهم او يخرجوك اى من مكة وذلك انهم لما
سمعوا باسلام الانصار ومبايعتهم له عليه السلام فرقوا واجتمعوا فى دار الندوة
يتشاورون فى امره عليه السلام فدخل عليهم ابليس فى صورة شيخ وقال انا من
نجد سمعت اجتماعكم فاردت ان احضركم ولن تعدموا منى رايا ونصحا فقال ابو
البخترى رايى ان تحبسوه فى بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون اليه طعامه وشرابه
منها حتى يموت فقال الشيخ بئس الراى ياتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من ايديكم
فقال هشام بن عمرو رايى ان تحملوه على جمل وتخرجوه من ارضكم فلا يضركم ما
صنع فقال بئس الراى يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم فقال ابو جهل انا ارى ان
تاخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه سيفا فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه فى القبائل
فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فاذا طلبوا العقل عقلناه فقال صدق هذا الفتى
فتفرقوا على رايه فاتى جبريل عليه السلام النبى صلى الله عليه وسلم واخبره بالخبر وامره
بالهجرة فبيت عليا رضى الله عنه على مضجعه وخرج هو مع ابى بكر الى الغار ويمكرون و
يمكر الله اى يرد مكرهم عليهم او يجازيهم عليه او يعاملهم معاملة الماكرين
وذلك بان اخرجهم الى بدر وقلل المسلمين فى اعينهم حتى حملوا عليهم فلقوا منهم
ما لقوا والله خير الماكرين لا يعبا بمكرهم عند مكره واسناد امثال هذا اليه
سبحانه مما يحسن للمشاكلة ولا يساغ له ابتداء لما فيه من ايهام ما لا يليق به سبحانه
واذا تتلى عليهم اياتنا التى حقها ان تخر لها صم الجبال قالوا قد سمعنا لو نشاء
لقلنا مثل هذا قاله اللعين النضر بن الحارث واسناده الى الكل لما انه كان رئيسهم وقاضيهم
الذى يقولون بقوله وياخذون برايه وقيل قاله الذين ائتمروا فى امره عليه السلام
فى دار الندوة وهذا كما ترى غاية المكابرة ونهاية العناد كيف لا ولو استطاعوا شيئا
من ذلك فما الذى كان يمنعهم من المشيئة وقد تحداهم عشر سنين وقرعوا على العجز و
ذاقوا من ذلك الامرين ثم قورعوا بالسيف فلم يعارضوا بما سواه مع انفتهم و
فرط استنكافهم ان يغلبوا لا سيما فى باب البيان ان هذا الا اساطير الاولين اى ما
يسطرونه من القصص واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر
علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم هذا ايضا من اباطيل ذلك اللعين
روى انه لما قال ان هذا الا اساطير الاولين قال له النبى صلى الله عليه وسلم ويلك

انه كلام

انه كلام الله تعالى فقال ذلك والمعنى ان القران ان كان حقا منزلا من عندك فامطر علينا
الحجارة عقوبة على انكارنا او ائتنا بعذاب اليم سواه والمراد منه التهكم واظهار
اليقين والجزم التام على انه ليس كذلك وحاشاه وقرئ الحق بالرفع على ان هو مبتدا
لا فصل وفائدة التعريف فيه الدلالة على ان المعلق به كونه حقا على الوجه الذى يدعيه
عليه السلام وهو تنزيله لا الحق مطلقا لتجويزهم ان يكون مطابقا للواقع غير منزل
كالاساطير وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للموجب
لامهالهم والتوقف فى اجابة دعائهم واللام لتاكيد النفى والدلالة على ان
تعذيبهم عذاب استئصال والنبى صلى الله عليه وسلم بين اظهرهم خارج عن
عادته تعالى غير مستقيم فى حكمه وقضائه والمراد باستغفارهم فى قوله تعالى وما
كان الله معذبهم وهم يستغفرون اما استغفار من بقى فيهم من المؤمنين
او قولهم اللهم غفرانك او فرضه على معنى لو استغفروا لم يعذبوا كقوله تعالى وما كان
ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون وما لهم الا يعذبهم الله بيان
لاستحقاقهم العذاب بعد بيان ان المانع ليس من قبلهم اى وما لهم مما يمنع تعذيبهم
متى زال ذلك وكيف لا يعذبون وهم يصدون عن المسجد الحرام اى وحالهم
ذلك ومن صدهم عنه الجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الهجرة واحصارهم
عام الحديبية وما كانوا اولياءه حال من ضمير يصدون مفيدة لكمال قبح ما صنعوا من
الصد فان مباشرتهم للصد عنه مع عدم استحقاقهم لولايته امر فى غاية القبح و
هو رد لما كانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء
ان اولياؤه الا المتقون من الشرك الذين لا يعبدون فيه غيره تعالى ولكن اكثرهم
لا يعلمون انه لا ولاية لهم عليه وفيه اشعار بان منهم من يعلم ذلك ولكنه يعاند
وقيل اريد باكثرهم كلهم كما يراد بالقلة العدم وما كان صلاتهم عند البيت
اى دعاؤهم او ما يسمونه صلاة او ما يضعون موضعها الا مكاء اى صفيرا
فعال من مكا يمكو اذا صفر وقرئ بالقصر كالبكى وتصدية اى تصفيقا تفعلة من
الصد او من الصدد على ابدال احد حرفى التضعيف بالياء وقرئ صلاتهم بالنصب
على انه الخبر لكان ومساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب او عدم ولايتهم
للمسجد فانها لا تليق بمن هذه صلاته روى انهم كانوا يطوفون عراة الرجال والنساء
مشبكين بين اصابعهم يصفرون فيها ويصفقون وقيل كانوا يفعلون ذلك اذا اراد
النبى صلى الله عليه وسلم ان يصلى يخلطون عليه ويرون انهم يصلون ايضا فذوقوا
العذاب اى القتل والاسر يوم بدر وقيل عذاب الاخرة واللام يحتمل ان يكون للعهد والمعهود
ائتنا بعذاب اليم بما كنتم تكفرون اعتقادا وعملا ان الذين كفروا ينفقون
اموالهم ليصدوا عن سبيل الله نزلت فى المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلا
من قريش يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر او فى ابى سفيان استاجر ليوم احد الفين سوى
من استجاش من العرب وانفق فيهم اربعين اوقية او فى اصحاب العير فانه لما اصيب قريش يوم بدر
قيل لهم اعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك ثارنا منه ففعلوا والمراد بسبيل الله دينه
واتباع رسوله فسينفقونها بتمامها ولعل الاول اخبار عن انفاقهم فى تلك الحال وهو
انفاق يوم بدر والثانى اخبار عن انفاقهم فيما يستقبل وهو انفاق يوم احد ويحتمل
ان يراد بهما واحد على ان مساق الاول لبيان الغرض من الانفاق ومساق الثانى
لبيان عاقبته وانه لم يقع بعد ثم تكون عليهم حسرة ندما وغما لفواتها من غير
حصول المقصود جعل ذاتها حسرة وهى عاقبة انفاقها مبالغة ثم يغلبون آخر الامر
وان كان الحرب بينهم سجالا قبل ذلك والذين كفروا اى ثبتوا على الكفر واصروا عليه
الى جهنم يحشرون اى يساقون لا الى غيرها ليميز الله الخبيث من الطيب
اى الكافر من المؤمن او الفساد من الصلاح واللام متعلقة بيحشرون او بيغلبون
او ما انفقه المشركون فى عداوته عم مما انفقه المسلمون فى نصرته واللام متعلقة

بقوله ثم يكون عليهم حسرة وقرئ ليميّز بالتشديد للمبالغة ويجعل الخبيث بعضه على بعض
فيركمه جميعًا اي يضم بعضه على بعض حتى تتراكبوا لفرط ازدحامهم فيجمعه او يضم الى
الكافر ما انفقه ليزيد به كمال الكافرين فيجعله في جهنم كلا اولئك اشارة
الى الخبيث اذ هو عبارة عن الفريق او الى المنفقين وما فيه من معنى البعد للايذان
ببعد درجتهم في الخبث هم الخاسرون الكاملون في الخسران لانهم خسروا انفسهم
واموالهم قل للذين كفروا هم ابو سفيان واصحابه اي قل لاجلهم ان ينتهوا
عما هم فيه من معاداة النبي صلى الله عليه وسلم بالدخول في الاسلام يغفر لهم
ما قد سلف من الذنوب وقرئ ان تنتهوا يغفر لكم ويغفر لكم على البناء للفاعل
وهو الله تعالى وان يعودوا الى قتاله فقد مضت سنة الاولين الذين
تحزبوا على الانبياء عليهم السلام بالتدمير كما جرى على اهل بدر فليتوقعوا مثل
ذلك وقاتلوهم عطف على قل وقد عمم الخطاب لزيادة ترغيب المؤمنين في القتال
لتحقيق ما يتضمنه قوله تعالى فقد مضت سنة الاولين من الوعيد حتى لا تكون فتنة اي
لا يوجد منهم شرك ويكون الدين كله لله ويضمحل الاديان الباطلة اما باهلاك اهلها
جميعًا او برجوعهم عنها خشية القتل فان انتهوا عن الكفر بقتالكم فان الله
بما يعملون بصير فيجازيهم على انتهائهم عنه واسلامهم وقرئ بتاء الخطاب بما
تعملون من الجهاد المخرج لهم الى الاسلام وتعليقه بانتهائهم للدلالة على انهم
يثابون في السببية كما يثاب المباشرون بالمباشرة فاعلموا ان الله مولاكم
ناصركم فثقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم نعم المولى لا يضيع من تولاه ونعم النصير
لا يغلب من نصره واعلموا انما غنمتم عن الكلبي انها نزلت ببدر وقال الواقدي
كان الخمس في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة ايام للنصف من شوال
على راس عشرين شهرًا من الهجرة وما موصولة وعايدها محذوف اي الذي اصبتموه
من الكفار عنوة واصل الغنيمة اصابة الغنم من العدو ثم اتسع واطلق على كل ما
اصيب منهم كائنًا ما كان وقوله تعالى من شيء بيان للموصول محله النصب على انه حال
من عايد الموصول قصد به الاعتناء بشان الغنيمة وان لا يشذ عنها شيء ما غنمتموه
كائنًا ما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط والمخيط خلا ان سلب المقتول للقاتل اذا نفله
الامام والاسارى يخير فيها الامام وكذا الاراضي المغنومة وقوله تعالى فان لله
خمسه مبتدا خبره محذوف اي فحق او واجب ان لله تعالى خمسه وهذه الجملة خبر لان
ما الخ وقرئ بالكسر والاول آكد واقوى في الايجاب لما فيه من تكرير الاسناد كانه قيل
فلا بد من ثبات الخمس ولا سبيل الى الاخلال به وقرئ فلله خمسه بسكون الميم والجمهور
على ان ذكر الله تعالى للتعظيم كما في قوله تعالى والله ورسوله احق ان يرضوه وان المراد
قسمة الخمس على المعطوفين بقوله تعالى وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين
وابن السبيل واعادة اللام في ذوي القربى دون غيرهم من الاصناف الثلثة لدفع
توهم اشتراكهم في سهم النبي صلى الله عليه وسلم لمزيد اتصالهم به عليه السلام
وهم بنو هاشم وبنو المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل لما روي عن عثمان
وجبير بن مطعم رضي الله عنهما انهما قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم هؤلاء
اخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله منهم ارأيت اخواننا
بني المطلب اعطيتهم وحرمتنا وانما نحن وهم بمنزلة واحدة فقال عليه السلام انهم
لم يفارقونا في جاهلية ولا اسلام وانما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد وشبك
بين اصابعه وكيفية قسمتها عندنا انها كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم
على خمسة اسهم سهم له عليه السلام وسهم للمذكورين من ذوي قرباه وثلثة اسهم
للاصناف الثلثة الباقية واما بعده عليه السلام فسهمه ساقط وكذا سهم ذوي
القربى وانما يعطون لفقرهم فهم اسوة لساير الفقراء ولا يعطى اغنياؤهم فيقسم
على الاصناف الثلثة ويؤيده ما روي عن ابي بكر رضي الله عنه انه منع بني هاشم الخمس

وقال

وقال انما لكم ان يعطى فقيركم وتزوج ايمكم ويخدم من لا خادم له منكم ومن عداهم
فهو بمنزلة ابن السبيل الغني لا يعطى من الصدقة شيئًا وعن زيد على مثله قال ليس لنا
ان نبني منه قصورًا ولا نركب منه البراذين وقيل سهم الرسول الله صلعم لولي الامر
بعده واما عند الشافعي رحمه الله فيقسم على خمسة اسهم لرسول الله صلى الله
عليه وسلم يصرف الى ما كان يصرف عليه السلام من مصالح المسلمين كعدة الغزاة
من الكراع والسلاح ونحو ذلك وسهم لذوي القربى من اغنيائهم وفقرائهم
يقسم بينهم للذكر مثل حظ الانثيين والباقي للفرق الثلث وعند مالك رحمه الله الامر
فيه مفوض الى اجتهاد الامام ان راى قسمة بين هؤلاء وان راى اعطاه بعضًا
منهم دون بعض وان راى غيرهم اولى واهم فغيرهم وتعلق ابو العالية بظاهر
الآية الكريمة فقال يقسم ستة اسهم ويصرف سهم الله تعالى الى رتاج الكعبة لما
روي انه عليه السلام كان ياخذ قبضة فيجعلها لمصالح الكعبة ثم يقسم ما بقي على
خمسة اسهم وقيل سهم الله لبيت المال وقيل هو مضموم الى سهم الرسول عليه السلام
هذا شان الخمس واما الاخماس الاربعة فيقسم بين الغانمين للراجل سهم وللفارس
سهمان عند ابي حنيفة رضي الله عنه وثلثة اسهم عندهما قال القرطبي لا ما
لما بين الله حكم الخمس وسكت عن الباقي دل ذلك على دلالة انه ملك الغانمين وقوله تعالى
ان كنتم امنتم بالله متعلق بمحذوف ينبئ عنه المذكور اي ان كنتم امنتم به تعالى
فاعلموا ان الخمس من الغنيمة يجب التقرب به الى الله تعالى فاقطعوا اطماعكم منه
واقتنعوا بالاخماس الاربعة وليس المراد به مجرد العلم بذلك بل العلم
المشفوع بالعمل والطاعة لامره تعالى وما انزلنا عطف على الاسم الجليل اي ان كنتم
آمنتم بالله وبما انزلناه على عبدنا وقرئ عبدنا وهو اسم جمع اريد به الرسول
صلى الله عليه وسلم والمؤمنون فان بعض ما نزل نازل عليهم بالذات كما ستعرفه
يوم الفرقان يوم بدر سمي به لفرقه بين الحق والباطل وهو منصوب بانزلنا او
بآمنتم يوم التقى الجمعان اي الفريقان من المؤمنين والكافرين وهو بدل من يوم
الفرقان او منصوب بالفرقان والمراد ما نزل عليه عليه السلام يومئذ من الوحي
والملائكة والفتح على ان المراد بالانزال مجرد الايصال والتيسير فينتظم الكل انتظامًا
حقيقيًا وجعل الايمان بانزال هذه الاشياء من موجبات العلم بكون الخمس لله تعالى على الوجه
المذكور من حيث ان الوحي ناطق بذلك وان الملائكة والفتح لما كان من جهته تعالى وجب
ان يكون ما حصل بسببهما من الغنيمة مصروفة الى الجهات التي عينها الله تعالى
والله على كل شيء قدير يقدر على نصر القليل على الكثير والذليل على العزيز كما فعل
بكم ذلك اليوم اذ انتم بالعدوة الدنيا بدل ثان من يوم الفرقان والعدوة بالضم
شط الوادي وكذا بالفتح والكسر وقد قرئ بهما ايضًا وهم بالعدوة القصوى
اي البعدى من المدينة وهي تانيث الاقصى وكان القياس قلب الواو ياء
كالدنيا والعليا مع كونهما من بنات الواو لكنها جاءت على الاصل كالقود واستحوذ
وهو اكثر استعمالا من القصيا والركب اي العير وقوادها اسفل منكم اي في مكان
اسفل من مكانكم يعني الساحل وهو نصب على الظرفية واقع موقع الخبر والجملة حال
من الظرف قبلها وفايدتها الدلالة على قوة العدو واستظهارهم بالركب وحرصهم
على المقاتلة عنها وتوطين نفوسهم على ان لا يخلوا مراكزهم ويبذلوا منتهى جهدهم
وضعف شان المسلمين والتياس امرهم واستبعاد غلبتهم عادة وكذا ذكر مراكز
الفريقين فان العدوة الدنيا كانت رخوة تسوخ فيها الارجل ولا يمشى فيها الا بتعب
ولم يكن فيها ماء بخلاف العدوة القصوى وكذا قوله تعالى ولو تواعدتم لاختلفتم
في الميعاد اي لو تواعدتم انتم وهم القتال ثم علمتم حالكم وحالهم لاختلفتم
انتم في الميعاد هيبة منهم وياسًا من الظفر عليهم ليتحققوا ان ما اتفق لهم من الفتح
ليس الا صنعًا من الله عز وعلا خارقًا للعادات فيزدادوا ايمانًا وشكرًا وتطمئن نفوسهم

بزض الخمس ولكن جمع بينكم على هذه الحال من غير ميعاد ليقضي الله امرا كان مفعولا حقيقا بان يفعل من نصر اوليائه وقهر اعدائه او مقدرا في الازل وقوله تعالى ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة بدل منه او متعلق بمفعولا اي ليموت من يموت عن بينة عاينها ويعيش من يعيش عن بينة شاهدها لئلا يكون له حجة ومعذرة فان وقعة بدر من الايات الواضحة او ليصدر كفر من كفر وايمان من امن عن وضوح بينة على استعارة الهلاك والحيوة للكفر والايمان والمراد بمن هلك ومن حي المشارف للهلاك والحيوة او من حاله في علم الله تعالى الهلاك والحيوة وقرئ ليهلك بالفتح وحيي بفك الادغام حملا على المستقبل وان الله لسميع عليم اي بكفر من كفر وعقابه وايمان من آمن وثوابه ولعل الجمع بين الوصفين لاشتمال الامرين على القول والاعتقاد اذ يريكهم الله في منامك قليلا منصوب باذكر او بدل آخر من يوم الفرقان او متعلق بعليم اي يعلم المصالح اذ يقللهم في عينك في رؤياك وهو ان تخبر به اصحابك فيكون تثبيتا لهم وتشجيعا على عدوهم ولو اراكهم كثيرا لفشلتم اي لجبنتم وهبتم الاقدام ولتنازعتم في الامر اي امر القتال وتفرقت اراؤكم في الثبات والفرار ولكن الله سلم اي انعم بالسلامة من الفشل والتنازع انه عليم بذات الصدور يعلم ما سيكون فيها من الجراة والجبن والصبر والجزع ولذلك دبر ما دبر واذ يريكموهم اذ التقيتم في اعينكم قليلا منصوب بمضمر خوطب به الكل بطريق التلوين والتعميم معطوف على المضمر السابق والضميران مفعولا يرى وقليلا حال من الثاني وانما قللهم في اعين الناس حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه لمن الى جنبه اتراهم سبعين فقال اراهم مائة تثبيتا لهم وتصديقا لرؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم ويقللكم في اعينهم حتى قال ابو جهل انما اصحاب محمد اكلة جزور قللهم في اعينهم قبل التحام القتال ليجترؤا عليهم ولا يستعدوا لهم ثم كثرهم حتى راوهم مثليهم ليفاجئهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا وهذه من عظائم ايات تلك الوقعة فان البصر قد يرى الكثير قليلا والقليل كثيرا لكن لا على هذا الوجه ولا الى هذا الحد وانما ذلك بصد الله تعالى الابصار عن ابصار بعض دون بعض مع التساوي في الشرائط ليقضي الله امرا كان مفعولا كرر لاختلاف الفعل المعلل به او لان المراد بالامر ثمة الالتقاء على الوجه المذكور وههنا اعزاز الاسلام واهله واذلال الكفر وحزبه والى الله ترجع الامور كلها يصرفها كيفما يريد لا راد لامره ولا معقب لحكمه وهو الحكيم المجيد يا ايها الذين امنوا صدر الخطاب بحرف النداء والتنبيه اظهارا لكمال الاعتناء بمضمون ما بعده اذا لقيتم فئة اي حاربتم جماعة من الكفرة وانما لم يوصفوا بالكفر لظهور ان المؤمنين لا يحاربون الا الكفرة واللقاء مما غلب في القتال فاثبتوا اي للقائهم في مواطن الحرب واذكروا الله كثيرا اي في تضاعيف القتال مستمدين منه مستعينين به مستظهرين بذكره مترقبين لنصره لعلكم تفلحون اي تفوزون بمرامكم وتظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة وفيه تنبيه على ان العبد ينبغي ان لا يشغله شيء عن ذكر الله تعالى وان يلتجئ اليه عند الشدائد ويقبل اليه بكليته فارغ البال واثقا بان لطفه لا ينفك عنه في حال من الاحوال واطيعوا الله ورسوله في كل ما تاتون وما تذرون فيندرج فيه ما امروا به ههنا اندراجا اوليا ولا تنازعوا باختلاف الاراء كما فعلتم ببدر واحد فتفشلوا جواب للنهي وقيل عطف عليه وتذهب ريحكم بالنصب عطف على جواب النهي وقرئ بالجزم على تقدير عطف فتفشلوا على النهي اي تذهب دولتكم وشوكتكم فانها مستعارة للدولة من حيث انها في تمشي امرها ونفاذه مشبهة بها في هبوبها وجريانها وقيل المراد بها الحقيقة فان النصرة لا تكون الا بريح يبعثها الله تعالى وفي الحديث نصرت بالصبا واهلكت عاد بالدبور واصبروا على شدائد الحرب ان الله مع الصابرين بالنصرة والكلاءة وما يفهم من كلمة مع من

اصالتهم

اصالتهم انما هي من حيث انهم المباشرون للصبر فهم متبوعون من تلك الحيثية ومعيته تعالى انما هي من حيث الامداد والاعانة ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بعد ما امروا به من محاسن الاعمال نهوا عما يقابلها من قبائحها والمراد بهم اهل مكة حين خرجوا لحماية العير بطرا اي فخرا واشرا ورئاء الناس ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة وذلك انهم لما بلغوا جحفة اتاهم رسول ابي سفيان وقال ارجعوا فقد سلمت عيركم فابوا الا اظهار اثار الجلادة فلقوا ما لقوا حسبما ذكر في اوائل السورة الكريمة فنهي المؤمنون ان يكونوا امثالهم مرائين بطرين وامروا بالتقوى والاخلاص من حيث ان النهي عن الشيء مستلزم للامر بضده ويصدون عن سبيل الله عطف على بطرا ان جعل مصدرا في موضع الحال وكذا ان جعل مفعولا له على تاويل المصدر والله بما يعملون محيط فيجازيهم عليه واذ زين لهم الشيطان اعمالهم منصوب بمضمر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين اي واذكر وقت تزيين الشيطان اعمالهم في معاداة المؤمنين وغيرها بان وسوس اليهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم اي القى في روعهم وخيل اليهم انهم لا يغلبون ولا يطاقون لكثرة عددهم وعددهم واوهمهم ان اتباعهم اياه فيما يظنون انها قربات مجير لهم حتى قالوا اللهم انصر اهدى الفئتين وافضل الدينين ولكم خبر لا غالب او صفته وليس صلته والا لانتصب كقولك لا ضاربا زيدا عندنا فلما تراءت الفئتان اي تلاقى الفريقان نكص على عقبيه رجع القهقرى اي بطل كيده وعاد ما خيل اليهم انه مجيرهم سببا لهلاكهم وقال اني بريء منكم اني ارى ما لا ترون اني اخاف الله اي تبرا منهم وخاف عليهم ويئس من حالهم لما راى امداد الله تعالى للمسلمين بالملائكة وقيل لما اجتمعت قريش على المسير ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الاحنة فكاد ذلك يثنيهم فتمثل لهم ابليس في صورة سراقة بن مالك الكناني وقال لا غالب لكم اليوم من الناس واني مجير لكم من كنانة فلما راى الملائكة تنزل نكص وكان يده في يد الحارث بن هشام فقال له الى اين اتخذلنا في هذه الحالة فقال اني ارى ما لا ترون ودفع في صدر الحارث فانطلق فانهزموا فلما بلغوا مكة قالوا هزم الناس سراقة فبلغه ذلك فقال والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم فلما اسلموا علموا انه الشيطان وعلى هذا يحتمل ان يكون معنى قوله اني اخاف الله اخافه ان يصيبني بمكروه من الملائكة او يهلكني ويكون الوقت الموعود اذ راى فيه ما لم ير قبله والاول ما قاله الحسن رضي الله عنه واختاره ابن بحر والله شديد العقاب يجوز ان يكون من كلامه او مستانفا من جهة الله عز وجل اذ يقول المنافقون منصوب بزين او بنكص او بشديد العقاب والذين في قلوبهم مرض اي الذين لم تطمئن قلوبهم بالايمان بعد وبقي فيها نوع شبهة وقيل هم المشركون وقيل هم المنافقون والعطف لتغاير الوصفين كما في قوله يا لهف زيابة للحارث الصابح فالغانم فالآيب غر هؤلاء يعنون المؤمنين دينهم حتى تعرضوا لما لا طاقة لهم به فخرجوا وهم ثلثمائة وبضعة عشر الى زهاء الالف ومن يتوكل على الله جواب لهم من جهته تعالى ورد لمقالتهم فان الله عزيز غالب لا يذل من توكل عليه واستجار به وان قل حكيم يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقول ويحار في فهمه الباب الفحول وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه ولو ترى اي ولو رايت فان لو الامتناعية ترد المضارع ماضيا كما ان ترد الماضي مضارعا والخطاب اما للرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل احد ممن له حظ من الخطاب وقد مر تحقيقه في قوله تعالى ولو ترى اذ وقفوا على النار وكلمة اذ في قوله تعالى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ظرف لترى والمفعول محذوف اي ولو ترى الكفرة او حال الكفرة حين يتوفاهم الملائكة ببدر وتقديم المفعول للاهتمام به وقيل الفاعل ضمير عائد الى الله عز وجل والملائكة مبتدا وقوله تعالى يضربون وجوههم خبره والجملة حال من الموصول قد استغني فيها بالضمير عن الواو وهو على الاول حال منه او من الملائكة او منهما لاشتماله على ضميرهما وادبارهم واستاههم او ما اقبل منهم وما ادبر

من العذاب وذوقوا عذاب الحريق على إرادة القول معطوف على يضربون أو حالاً
من فاعله أي ويقولون أو قائلين ذوقوا بشارة بعذاب الآخرة وقيل كانت معهم
مقامع من حديد كلما ضربوا التهبت النار منها وجواب لو محذوف للإيذان بخروجه
عن حد البيان أي لرأيت أمراً فظيعاً لا يكاد يوصف ذلك إشارة إلى ما ذكر من الضرب
والعذاب وما فيه من معنى البعد للإشعار بكونهما في الغاية القاصية من الهول والفظاعة
وهو مبتدأ خبره بما قدمت أيديكم أي ذلك الضرب والعذاب واقع بسبب ما كسبتم
من الكفر والمعاصي ومحل أن في قوله تعالى وأن الله ليس بظلام للعبيد الرفع على أنه
خبر مبتدأ محذوف أي والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعبير
عن ذلك بنفي الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعاً على ما تقرر من قاعدة
أهل السنة فضلاً عن كونه ظلماً بالغاً قد مر تحقيقه في سورة آل عمران والجملة اعتراض
تذييلي مقرر لمضمون ما قبلها وأما ما قيل من أنها معطوفة على ما للدلالة على أن
سببيته مقيدة بانضمامه إليه إذ لولاه لأمكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم فليس بسديد
لما أن إمكان تعذيبه تعالى لعبيده بغير ذنب بل وقوعه لا ينافي كون تعذيب هؤلاء الكفرة
المعينة بسبب ذنوبهم حتى يحتاج إلى اعتبار عدمه معه نعم لو كان المدعى كون جميع
تعذيباته تعالى بسبب ذنوب المعذبين لاحتيج إلى ذلك كدأب آل فرعون في محل الرفع
على أنه خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف مسوق لبيان ما حل بهم من العذاب بسبب
كفرهم لا بشيء آخر من جهة غيرهم بتشبيه حالهم بحال المعروفين بالإهلاك بسبب
جرائمهم لزيادة تقبيح حالهم وللتنبيه على أن ذلك سنة مطردة فيما بين الأمم
المهلكة أي شأنهم الذي استمروا عليه مما فعلوا وفعل بهم من الأخذ كدأب آل
فرعون المشهورين بقباحة الأعمال وفظاعة العذاب والنكال والذين من قبلهم
أي من قبل آل فرعون من الأمم التي فعلوا من المعاصي ما فعلوا ولقوا من العقاب
ما لقوا كقوم نوح وعاد وأضرابهم من أهل الكفر والعناد وقوله تعالى كفروا بآيات الله
تفسير لدأبهم الذي فعلوه لا لدأب آل فرعون ونحوهم كما قيل فإن ذلك معلوم منه
بقضية التشبيه وقوله تعالى فأخذهم الله تفسير لدأبهم الذي فعل بهم والفاء
لبيان كونه من لوازم جناياتهم وتبعاتها المتفرعة عليها وقوله تعالى بذنوبهم
لتأكيد ما أفاده الفاء من السببية مع الإشارة إلى أنهم مع كفرهم ذوو ذنوب أخر لها دخل في
استتباع العقاب ويجوز أن يكون المراد بذنوبهم معاصيهم المتفرعة على كفرهم فيكون
الباء للملابسة أي فأخذهم ملتبسين بذنوبهم غير تائبين عنها فدأبهم مجموع
ما فعلوا وفعل بهم لا ما فعلوه فقط كما قيل قال ابن عباس رضي الله عنهما إن آل فرعون أيقنوا
أن موسى نبي الله فكذبوه كذلك هؤلاء جاءهم محمد عم بالصدق فكذبوه فأنزل الله
تعالى بهم عقوبته كما أنزل بآل فرعون وجعل العذاب من جملة دأبهم مع أنه ليس
مما يتصور مداومتهم عليه واعتيادهم إياه كما هو المعتبر في مدلول الدأب إما
لتغليب ما فعلوه على ما فعل بهم أو لتنزيل مداومتهم على ما يوجبه من الكفر والمعاصي
منزلة مداومتهم عليه لما بينهما من الملابسة التامة وقوله تعالى إن الله قوي شديد
العقاب اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من الأخذ وقوله تعالى ذلك إلخ استئناف
مسوق لتعليل ما يفيده النظم الكريم من كون ما حل بهم من العذاب منوطاً بأعمالهم
السيئة غير واقع بلا سابقة ما يقتضيه وهو المشار إليه لا لنفس ما حل بهم من العذاب
أو الانتقام كما قيل فإنه مع كونه معللاً بما ذكر من كفرهم وذنوبهم لا يتصور
تعليله بجريان عادته تعالى على عدم تغيير نعمته على قوم قبل تغييرهم لحالهم وتوهم
أن السبب ليس ما ذكر كما هو منطوق النظم الكريم بل ما يستفاد من مفهوم
الغاية من جريان عادته تعالى على تغيير نعمتهم عند تغيير حالهم بناء على تخيل أن المعلل
ترتب عقابهم على كفرهم من غير تخلف عنه ركوب شطط هائل وابتعاد عن الحق بمراحل
وتهوين الأمر الكفر بآيات الله تعالى وإسقاط له عن رتبة إيجاب العقاب في مقام تهويله

والتحذير منه فالمعنى ذلك أي ترتب العقاب على أعمالهم السيئة دون أن يقع ابتداء مع قدرته
تعالى على ذلك بأن الله أي بسبب أنه تعالى لم يك في حد ذاته مغيراً نعمة أنعمها أي
لم ينبغ له سبحانه ولم يصح في حكمته بحيث تغير نعمة أنعم بها على قوم من الأقوام
أي نعمة كانت جلت أو هانت حتى يغيروا ما بأنفسهم من الأعمال والأحوال التي كانوا
عليها وقت ملابستهم بالنعمة ويتصفوا بما ينافيها سواء كانت أحوالهم السابقة
مرضية صالحة أو قريبة من الصلاح بالنسبة إلى الحادثة كدأب هؤلاء الكفرة حيث كانوا
قبل البعثة كفرة عبدة أصنام مستمرين على حالة مصححة لإفاضة نعمة الإمهال و
سائر النعم الدنيوية عليهم فلما بعث إليهم النبي صلى الله عليه وسلم بالبينات غيروها
إلى أسوأ منها وأسخط حيث كذبوه عليه السلام وعادوه ومن تبعه من المؤمنين
وتحزبوا عليهم يبغونهم الغوائل فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من نعمة الإمهال و
عاجلهم بالعذاب والنكال وأصل يك يكون حذفت النون تخفيفاً لشبهها بالحروف اللينة
وأن الله سميع عليم عطف على أن الله إلى آخره في حيز التعليل أي وبسبب أنه تعالى
سميع عليم يسمع ويعلم جميع ما يأتون وما يذرون من الأقوال والأفعال السابقة
واللاحقة فيرتب على كل منها ما يليق بها من إبقاء النعمة وتغييرها وقرئ وإن الله بكسر
الهمزة فالجملة حينئذ استئناف مقرر لمضمون ما قبلها وقوله تعالى كدأب آل فرعون والذين
من قبلهم في محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي حتى يغيروا ما بأنفسهم
تغييراً كائناً كدأب آل فرعون أي كتغييرهم على أن دأبهم عبارة عما فعلوه فقط كما هو الأنسب
بمفهوم الدأب وقوله تعالى كذبوا بآيات ربهم تفسير له بتمامه وقوله تعالى فأهلكناهم
إخبار بترتب العقوبة عليه لا أنه من تمام تفسيره ولا ضير في توسط قوله تعالى وأن
الله سميع عليم بينهما كما في نظيره في سورة آل عمران حيث جوزوا انتصاب محل الكاف
بلن تغني مع ما بينهما من قوله تعالى وأولئك هم وقود النار وهذا على تقدير عطف
الجملة على ما قبلها وأما على تقدير كونها اعتراضاً فلا غبار في توسطها قطعاً وقيل
في محل الرفع على أنه خبر محذوف كما قبله فالجملة حينئذ استئناف آخر مسوق
لتقرير ما سيق له الاستئناف الأول بتشبيه دأبهم بدأب المذكورين لكن بطريق
التكرير المحض بل بتغيير العنوان وجعل الدأب في الجانبين عبارة عما يلازم معناه
الأول من تغيير الحال وتغيير النعمة أخذاً مما نطق به قوله تعالى ذلك بأن الله لم يك
مغيراً نعمة الآية أي دأب هؤلاء وشأنهم الذي هو عبارة عن التغييرين المذكورين كدأب
أولئك حيث غيروا حالهم فغير الله تعالى نعمته عليهم فقوله تعالى كذبوا بآيات ربهم
تفسير لدأبهم الذي فعلوه من تغييرهم لحالهم وقوله تعالى فأهلكناهم تفسير لدأبهم
الذي فعل بهم من تغييره تعالى ما بهم من نعمته وأما دأب قريش فمستفاد منه
بحكم التشبيه فلله در شأن التنزيل حيث اكتفى في كل من التشبيهين بتفسير أحد الطرفين
وإضافة الآيات إلى الرب المضاف إلى ضميرهم لزيادة تقبيح ما فعلوا بها من التكذيب و
الالتفات إلى نون العظمة في أهلكنا جرياً على سنن الكبرياء لتهويل الخطب والكلام في الفاء
في قوله تعالى بذنوبهم كالذي مر وعطف قوله تعالى وأغرقنا آل فرعون على أهلكنا
مع اندراجه تحته للإيذان بكمال هول الإغراق وفظاعته كعطف جبريل على الملائكة
عليهم السلام وكل أي كل من الفرق المذكورين أو كل من هؤلاء وأولئك أو كل
من غرقى القبط وقتلى قريش كانوا ظالمين أي أنفسهم بالكفر والمعاصي حيث عرضوها
للهلاك أو واضعين للكفر والتكذيب مكان الإيمان والتصديق ولذلك أصابهم
ما أصابهم إن شر الدواب بعد ما شرح أحوال المهلكين من شرار الكفرة شرع في
أحوال الباقين منهم وتفصيل أحكامهم وقوله تعالى عند الله أي في حكمه وقضائه
الذين كفروا أي أصروا على الكفر ولجوا فيه جعلوا شر الدواب لا شر الناس إيماء إلى أنهم
بمعزل من مجانستهم وإنما هم من جنس الدواب ومع ذلك شر من جميع أفرادها حسبما
نطق به قوله عز وجل إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل وقوله تعالى فهم لا يؤمنون حكم مترتب

على تماديهم في الكفر ورسوخهم فيه وتسجيل عليهم بكونهم من اهل الطبع لا يلويهم
صارف ولا يثنيهم عاطف اصلا جيء به على وجه الاعتراض لا انه عطف على الكفر واذا
خل معه في حيز الصلة التي لا حكم فيها بالفعل وقوله تعالى الذين عاهدت منهم بدل
من الموصول الاول او عطف بيان له او نصب على الذم اي عاهدتهم ومن للايذان بان المعاهدة
التي هي عبارة عن اعطاء العهد واخذه من الجانبين معتبرة ههنا من حيث اخذه صلعم
عهدهم اذ هو المناط لقباحة ما نعى عليهم من النقض لا اعطاؤه صلعم اياهم عهده كانه
قيل الذين اخذت منهم عهدهم وقيل هي للتبعيض لان المباشر بالذات للعهد
بعضهم لا كلهم ثم ينقضون عهدهم عطف على عاهدت داخل معه في حكم
الصلة وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد النقض وتعدده وكونهم على نيته
في كل حال اي ينقضون عهدهم الذي اخذته منهم في كل مرة اي من مرات المعاهدة
اذ هي التي يتوقع فيها عدم النقض ويستقبح وجوده لا من مرات المحاربة كما قيل
اذ لا يتوقع فيها عدم النقض بل لا يتصور اصلا حتى يستقبح فيها وجوده لكونها مظنة لعدمه
فلا فائدة في تقييد النقض بالوقوع في كل مرة من مراتها بل لا صحة له قطعا لان النقض
لا يتحقق الا في المرة الواردة على المعاهدة لا في المرات الواقعة بعدها بلا معاهدة ولئن
سلم ان المرات الواقعة اثر المعاهدة يبقى النقض الواقع بلا محاربة كبيع السلاح و
نحوه خارجا من البين ولئن عد ذلك من المحاربة فلا محيص من لزوم خلو الكلام
عن الفائدة بالمرة لان المحاربة بهذا المعنى عين النقض فيؤول الامر الى ان يقال ينقضون عهدهم
في كل مرة من مرات النقض وحمل المحاربة على محاربة غيرهم ليكون المعنى ينقضون
عهدهم في كل مرة من مرات محاربة الاعداء مع كونه في غاية البعد والركاكة يستلزم
خروج بدئهم بالنقض من البين وهم لا يتقون حال من فاعل ينقضون اي يستمرون
على النقض والحال انهم لا يتقون سبة الغدر ولا يبالون بما فيه من العار والنار وقوله
تعالى واما تثقفنهم شروع في بيان احكامهم بعد تفصيل احوالهم والفاء لترتيب ما بعدها
على ما قبلها اي فاذا كان حالهم كما ذكر فاما تصادفنهم وتظفرن بهم في الحرب
اي في تضاعيفها فشرد بهم اي ففرق عن مناصبتك تفريقا عنيفا موجبا للاضطرار
والاضطراب ونكل عنها بان تفعل بهم من النكاية والتعذيب ما يوجب ان ينكل من
خلفهم اي من وراءهم من الكفرة وفيه ايماء الى انهم بصدد الحرب قريب من هؤلاء وقرئ
شرذ بالذال المعجمة ولعله مقلوب شذر بمعنى فرق وقرئ من خلفهم اي افعل التشريد
من ورائهم والمعنى واحد لان ايقاع التشريد في الوراء لا يتحقق الا بتشريد من وراءهم
لعلهم يذكرون يتعظون بما شاهدوا مما نزل بالناقضين فيرتدعون عن النقض
او عن الكفر وقوله تعالى واما تخافن من قوم خيانة بيان لاحكام المشرفين الى نقض
العهد اثر بيان احكام الناقضين له بالفعل والخوف مستعار للعلم اي واما تعلمن من
قوم من المعاهدين نقض عهد فيما سيأتي بما لاح لك منهم من دلائل الغدر ومخايل
الشر فانبذ اليهم اي فاطرح اليهم عهدهم على سواء على طريق مستو وقصد بان
تظهر لهم النقض وتخبرهم اخبارا مكشوفا بانك قد قطعت ما بينك وبينهم من
الوصلة ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد كيلا يكون من قبلك شائبة جنانة
اصلا فالجار متعلق بمحذوف هو حال من النابذ اي فانبذ اليهم ثابتا على سواء وقيل
على استواء في العلم بنقض العهد بحيث يستوي فيه اقصاهم وادناهم او تستوي
فيه انت وهم فهو على الاول حال من المنبوذ اليهم وعلى الثاني من الجانبين ان الله
لا يحب الخائنين تعليل للامر بالنبذ اما باعتبار استلزامه للنهي عن المناجزة التي
هي خيانة فيكون تحذيرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم منها واما باعتبار استتباعه
للقتال بالاخرة فيكون حثا له عليه السلام على النبذ اولا وعلى قتالهم ثانيا كانه قيل
واما تعلمن من قوم خيانة فانبذ اليهم ثم قاتلهم ان الله لا يحب الخائنين وهم من
جملتهم لما علمت حالهم ولا تحسبن الذين كفروا اي انفسهم فحذف للتكرار وقوله تعالى سبقوا

فاتوا

وفيه نظر

فاتوا وافلتوا من ان يظفر بهم مفعول ثان لتحسبن والمراد اقناطهم من الخلاص
وقطع اطماعهم الفارغة من الانتفاع بالنبذ والاقتصار على دفع هذا التوهم مع
ان مقاومة المؤمنين بل الغلبة عليهم ايضا مما يتعلق به امانيهم الباطلة للتنبيه على
ذلك مما لا يحوم حوله وهمهم وحسبانهم وانما الذي يمكن ان يدور في خلدهم حسبان
المناص فقط وقيل الفعل مسند الى احد او الى من خلفهم والمفعول الاول الموصول والثاني
لهم ايضا وقيل هو الفاعل وان محذوفة من سبقوا وهي مع ما في حيزها سادة
مسد المفعولين والتقدير ولا تحسبن الذين كفروا ان سبقوا ويعضده قراءة من قرأ انهم
سبقوا ونظيره في الحذف قوله تعالى ومن آياته يريكم البرق خوفا وقوله تعالى افغير الله
تامروني اعبد الآية قال الزجاج وقرئ بالتاء على خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهي قراءة واضحة وقرئ ولا يحسبن الذين بكسر الباء وبفتحها على حذف النون الخفيفة
وقوله تعالى انهم لا يعجزون اي لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزا عن ادراكهم
تعليل للنهي على طريقة الاستيناف وقرئ بفتح الهمزة على حذف لام التعليل وقيل الفعل
واقع عليه ولا زائدة وسبقوا حال بمعنى سابقين اي مفلتين هاربين وهذا على قراءة
الخطاب لازاحة ما عسى يحذر من عاقبة النبذ لما انه ايقاظ للعدو وتمكين لهم من الهرب
والخلاص من ايدي المؤمنين وفيه نفي لقدرتهم على المقاومة والمقابلة على ابلغ وجه
واكده كما اشير اليه وقيل نزلت فيمن افلت من فل المشركين وقرئ لا يعجزون بكسر النون
ولا يعجزون بالتشديد واعدوا لهم توجيه الخطاب الى كافة المؤمنين لما ان المامور
به من وظائف الكل كما ان توجيهه فيما سبق وما لحق الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم لكون ما في حيزه من وظائفه عليه السلام اي اعدوا لقتال الذين نبذ اليهم
العهد وهيئوا لحرابهم او لقتال الكفار على الاطلاق وهو الانسب بسياق النظم
الكريم ما استطعتم من قوة من كل ما يتقوى به في الحرب كائنا ما كان وعن
عقبة بن عامر سمعته عليه السلام يقول على المنبر الا ان القوة الرمي قالها ثلاثا
ولعل تخصيصه عليه السلام اياه بالذكر لانافته على نظائره من القوى ومن رباط
الخيل الرباط اسم للخيل التي تربط في سبيل الله تعالى فعال بمعنى مفعول او مصدر
سميت هي به يقال ربط ربطا ورباطا ورابط مرابطة ورباطا او جمع ربيط كفصيل
وفصال او جمع ربط ككعب وكعاب وكلب وكلاب وقرئ ربط الخيل بضم الباء وسكونها
جمع رباط وعطفها على القوة مع كونها من جملتها للايذان بفضلها على بقية افرادها
كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة عليهم السلام ترهبون به اي تخوفون
وقرئ ترهبون بالتشديد وقرئ تخزون به والضمير لما استطعتم او للاعداد وهو
الانسب ومحل الجملة النصب على الحالية من فاعل اعدوا اي اعدوا مرهبين به او من
الموصول او من عائده المحذوف اي اعدوا ما استطعتموه مرهبا به عدو الله وعدوكم
وهم كفار مكة خصوا بذلك من بين الكفار مع كون الكل كذلك لغاية عتوهم
ومجاوزتهم الحد في العداوة وآخرين من دونهم من غيرهم من الكفرة وقيل هم
اليهود وقيل المنافقون وقيل الفرس لا تعلمونهم اي لا تعرفونهم باعيانهم او لا
تعلمونهم بما هم عليه من العداوة وهو الانسب بقوله تعالى الله يعلمهم لا غير فان اعيانهم
معلومة لغيره تعالى ايضا وما تنفقوا من شيء لاعداد العتاد قل او جل في سبيل الله
الذي اوضحه الجهاد يوف اليكم اي جزاؤه كاملا وانتم لا تظلمون بترك
الاثابة او بنقص الثواب والتعبير عن تركها بالظلم مع ان الاعمال غير موجبة للثواب
حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلما لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة
ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وابراز الاثابة في معرض الامور الواجبة عليه
تعالى كما مر في تفسير قوله تعالى فاستجاب لهم ربهم اني لا اضيع عمل عامل منكم
وان جنحوا الجنوح الميل ومنه الجناح ويعدى باللام وبالى اي ان مالوا للسلم اي
للصلح بوقوع الرهبة في قلوبهم بمشاهدة ما بكم من الاستعداد واعتاد العتاد فاجنح

لها اى للسلم والتانيث لحمله على نقيضه قال السلم تاخذ منها ما رضيت به والحرب يكفيك
من انفاسها جرع وقرئ فاجنح بضم النون وتوكل على الله ولا تخف ان يظهروا لك
السلم وجوانحهم مطوية على المكر والكيد انه تعالى هو السميع فيسمع ما يقولون فى
اخلواتهم من مقالات الخداع العليم فيعلم نياتهم فيؤاخذهم بما يستحقونه و
يرد كيدهم فى نحرهم والآية خاصة باليهود وقيل عامة نسختها آية السيف وان
يريدوا ان يخدعوك باظهار السلم وابطان الحراب فان حسبك الله اى فاعلم بان
محسبك الله من شرورهم وناصرك عليهم هو الذى ايدك بنصره تعليل لكفايته تعالى
اياه عليه السلام بطريق الاستيناف فان تاييده تعالى اياه عليه السلام فيما سلف على
ما ذكر من الوجه البعيد من الوقوع من دلائل تاييده تعالى فيما سياتى اى هو الذى
ايدك بامداده تعالى من عنده بلا واسطة كقوله تعالى وما النصر الا من عند الله او بالملائكة
للعادة وبالمؤمنين من المهاجرين والانصار والف بين قلوبهم مع ما كان بينهم
قبل ذلك من العصبية والضغينة والتهالك على الانتقام بحيث لا يكاد ياتلف فيهم
قلبان حتى صاروا بتوفيقه تعالى كنفس واحد وهذا من ابهر معجزاته عليه السلام لو
انفقت ما فى الارض جميعا اى لتاليف ما بينهم ما الفت بين قلوبهم استيناف
مقرر لما قبله ومبين لعزة المطلب وصعوبة المأخذ اى تناهى التعادى فيما بينهم
حد الى انفق منفق فى اصلاح ذات البين جميع ما فى الارض من الاموال والذخائر لم يقدر
على التاليف والاصلاح وذكر القلوب للاشعار بان التاليف بينها لا يتسنى وان امكن
التاليف ظاهرا ولكن الله الف بينهم قلبا وقالبا بقدرته الباهرة انه عزيز
كامل القدرة الغلبة لا يستعصى عليه شئ مما يريده حكيم يعلم كيفية تسخير ما يريده
وقيل الآية فى الاوس والخزرج كان بينهم احن لا امد لها ووقائع افنت ساداتهم
واعاظمهم ودقت اعناقهم وجماجمهم فانسى الله عز وجل جميع ذلك والف بينهم
بالاسلام حتى تصافوا واصبحوا يرمون عن قوس واحدة وصاروا انصارا يا ايها
النبى شروع فى بيان كفايته تعالى اياه عليه السلام فى جميع اموره وامور المؤمنين
او فى الامور الواقعة بينهم وبين الكفرة كافة اثر بيان كفايته اياه عم فى مادة خاصة
وتصدير الجملة بحرفى النداء والتنبيه للتنبيه على مزيد الاعتناء بمضمونها وايراده عم
بعنوان النبوة للاشعار بعليتها للحكم حسبك الله اى كافيك فى جميع امورك
او فيما بينك وبين الكفرة من الحرب ومن اتبعك من المؤمنين فى محل النصب
على انه مفعول معه اى كفاك وكفى اتباعك الله ناصرا كما فى قول من قال فحسبك
والضحاك غضب مهند وقيل فى موضع الجر عطفا على الضمير كما راى الكوفيين اى كافيك
وكافيهم او فى محل الرفع عطفا على اسم الله اى كفاك الله والمؤمنون والآية
فى البيداء فى غزوة بدر قبل القتال وقيل اسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ثلثة
وثلثون رجلا وست نسوة ثم اسلم عمر رضى الله عنه فنزلت ولذلك قال ابن عباس
رضه نزلت فى اسلام عمر رضى الله عنه يا ايها النبى بعد ما بين كفايته اياهم بالنصر
والامداد امر عليه السلام بترتيب مبادى نصره وامداده وتكرير الخطاب على الوجه
المذكور لاظهار كمال الاعتناء بشان المأمور به حرض المؤمنين على القتال اى بالغ
فى حثهم عليه وترغيبهم فيه بكل ما امكن من الامور المرغبة التى اعظمها تذكير
وعده تعالى بالنصر وحكمه بكفايته تعالى او بكفايتهم واصل التحريض الحرض وهو ان ينهكه
المرض حتى يشفى على الموت وقال الراغب كانه فى الاصل ازالة الحرض وهو ما لا خير
فيه ولا يعتد به قلت فالاوجه حينئذ ان يجعل الحرض عبارة عن ضعف القلب الذى
هو من باب نهك المرض وقيل معنى تحريضهم تسميتهم حرضا بان يقال انى اراك فى
هذا الامر حرضا اى ممرضا فيه لتهييجه الى الاقدام وقرئ حرص بالصاد المهملة وهو
واضح ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وعد كريم منه تعالى بتغليب كل
جماعة من المؤمنين على عشرة امثالهم بطريق الاستيناف بعد الامر بتحريضهم وقوله تعالى وان

يكن منكم مائة يغلبوا الفا مع انفهام مضمونه مما قبله لكون كل منهما عدة بتاييد الواحد
على العشرة لزيادة التقرير المفيدة لزيادة الاطمئنان على انه قد يجرى بين الجمعين القليلين
ما لا يجرى بين الجمعين الكثيرين مع ان التفاوت فيما بين كل من الجمعين القليلين و
الكثيرين على نسبة واحدة فبين ان ذلك لا يتفاوت فى الصورتين وقوله تعالى
من الذين كفروا بيان للالف وهذا القيد معتبر فى المائتين وقد ترك ذكره تعويلا
على ذكره ههنا كما ترك قيد الصبر ههنا مع كونه معتبرا حتما ثقة بذكره بانهم قوم
لا يفقهون متعلق بيغلبوا اى بسبب انهم قوم جهلة بالله تعالى وباليوم الآخر
لا يقاتلون احتسابا وامتثالا بامره تعالى واعلاء لكلمته وابتغاء لرضوانه كما هو المؤمنون
وانما يقاتلون للحمية الجاهلية واتباع خطوات الشيطان واثارة نائرة البغى والعدوان فلا
يستحقون الا القهر والخذلان واما ما قيل من ان من لا يؤمن بالله واليوم الآخر لا يؤمن بالمعاد
فالسعادة عنده ليست الا هذه الحيوة الدنيا وبه فيشح بها ولا يعرضها للزوال بمزاولة
الحروب واقتحام موارد الخطوب فيميل الى ما فيه السلامة فيفر فيغلب واما من اعتقد
ان لا سعادة فى هذه الحياة الفانية وانما السعادة هى الباقية فلا يبالى بهذه الحيوة الدنيا
ولا يقيم لها وزنا فيقدم على الجهاد بقلب قوى وعزم صحيح فيقوم الواحد من مثله مقام الكثير فكلام
حق لكنه لا يلائم المقام الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا لما كان الوعد
السابق متضمنا لايجاب مقاومة الواحد للعشرة وثباته لهم كما نقل عن ابن جريج
انه كان عليهم ان لا يفروا ويثبت الواحد للعشرة وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة
فى ثلثين راكبا فلقى ابا جهل فى ثلثمائة راكب فهزمهم ثقل عليهم ذلك وضجوا منه
بعد مدة فنسخ وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين وقيل كان فيهم قلة فى الابتداء
ثم كثروا فانزل التخفيف والمراد بالضعف ضعف البدن وقيل ضعف البصيرة وكانوا
متفاوتين فى الاهتداء الى القتال لا الضعف فى الدين كما قيل وقرئ ضعفا بضم
الضاد وهى لغة فيه كالفقر والفقر والمكث والمكث وقيل الضعف بالفتح ما فى الرأى
والعقل وبالضم ما فى البدن وقرئ ضعفاء جمع ضعيف والمراد بعلمه تعالى بضعفهم
علمه تعالى به من حيث هو متحقق بالفعل لا علمه تعالى به مطلقا كيف لا وهو ثابت فى
الازل وقوله تعالى فان يكن منكم مائة يغلبوا مائتين تفسير للتخفيف وبيان لكيفيته وقرئ
تكن ههنا وفيما سبق بالتاء الفوقانية وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله
اى بتيسيره وتسهيله وهذا القيد معتبر فيما سبق من غلبة المائة المائتين والالف
وغلبة العشرين المائتين كما ان قيد الصبر معتبر ههنا وانما ترك ذكره ثقة بما مر
وبقوله تعالى والله مع الصابرين فانه اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله والمراد
بالمعية معية نصره وتاييده ولم يتعرض ههنا لحال الكفرة من الخذلان كما لم يتعرض
هناك لحال المؤمنين مع ان مدار الغلبة فى الصورتين مجموع الامرين اعنى نصر
المؤمنين وخذلان الكفرة اكتفاء بما ذكر فى كل مقام عما ترك فى المقام الآخر وما
يشعر به كلمة مع من متبوعية مدخولها لاصالتهم من حيث انهم المباشرون للصبر
كما مر مرارا ما كان لنبى وقرئ للنبى على العهد والاول ابلغ لما فيه من بيان ان ما يذكر
سنة مطردة فيما بين الانبياء عليهم السلام اى ما صح وما استقام لنبى من
الانبياء عليهم السلام ان تكون له اسرى وقرئ بتانيث الفعل واسارى ايضا حتى يثخن
فى الارض اى يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعز الاسلام و
يستولى اهله من اثخنه المرض والجرح اذا اثقله وجعله بحيث لا حراك به ولا براح
اصله الثخانة التى هى الغلظ والكثافة وقرئ يثخن بالتشديد للمبالغة تريدون عرض الدنيا
استيناف مسوق للعتاب اى تريدون حطامها باخذكم الفداء وقرئ يريدون بالياء
والله يريد الآخرة اى يريد لكم ثواب الآخرة الذى لا مقدار عنده للدنيا وما فيها
او يريد سبب نيل الآخرة من اعزاز دينه وقمع اعدائه وقرئ بجر الآخرة على اضمار
المضاف كما فى قوله اكل امرئ تحسبين امرأ ونار توقد بالليل نارا والله

عزيز يغلب أولياؤه على أعدائه حكيم يعلم ما يليق بكل حال ويخصه بها كما أمر بالإثخان
ونهى عن أخذ الفداء حين كانت الشوكة للمشركين وخير بينه وبين المن بقوله تعالى
فإما منا بعد وإما فداء لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين روي أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أتي بسبعين أسيرا فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب فاستشار
فيهم فقال أبو بكر قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوي
بها أصحابك وقال عمر رضي الله عنه اضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر وإن الله أغناك
عن الفداء مكن عليا من عقيل وحمزة من العباس ومكني من فلان لنسيب له فلنضرب
أعناقهم فقال عليه السلام إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن
وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر مثل
إبراهيم قال فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ومثلك يا عمر مثل نوح
قال رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا فخير أصحابه فأخذوا الفداء فنزلت
فدخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال يا رسول
الله أخبرني فإن وجدت بكاء بكيت وإلا تباكيت فقال أبكي على أصحابك في أخذهم
الفداء ولقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه وروي أنه
عليه السلام قال لو نزل عذاب من السماء لما نجا غير عمر وسعد بن معاذ وكان هو أيضا
ممن أشار بالإثخان لولا كتاب من الله سبق أي لولا حكم منه تعالى سبق إثباته
في اللوح المحفوظ وهو أن لا يعاقب المخطئ في اجتهاده وأن لا يعذب أهل بدر أو قوما
لم يصرح لهم بالنهي وأما أن الفدية التي أخذوها ستحل لهم فلا يصلح أن يعد من
موانع مساس العذاب فإن الحل اللاحق لا يرفع حكم الحرمة السابقة كما أن الحرمة
اللاحقة كما في الخمر مثلا لا يرفع حكم الإباحة السابقة على أنه قادح في تهويل ما نعي
عليهم من أخذ الفداء لمسكم أي لأصابكم فيما أخذتم أي لأجل ما أخذتم من الفداء
عذاب عظيم لا يقادر قدره فكلوا مما غنمتم روي أنهم أمسكوا عن الغنائم
فنزلت قالوا الفاء لترتيب ما بعدها على سبب محذوف أي قد أبحت لكم الغنائم
فكلوا مما غنمتم والأظهر أنها للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي دعوه فكلوا مما غنمتم
وقيل ما عبارة عن الفدية فإنها من جملة الغنائم ويأباه سياق النظم الكريم وسباقه
حلالا حال من المغنوم أو صفة للمصدر أي أكلا حلالا وفائدته الترغيب في أكلها
وقوله تعالى طيبا صفة لحلالا مفيدة لتأكيد الترغيب واتقوا الله أي في مخالفة أمره
ونهيه إن الله غفور رحيم فيغفر لكم ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل ورود
الإذن فيه ويرحمكم ويتوب عليكم إذا اتقيتموه يا أيها النبي قل لمن في أيديكم أي
في ملكتكم كأن أيديكم قابضة عليهم من الأسرى وقرئ من الأسارى إن يعلم الله
في قلوبكم خيرا خلوص إيمان وصحة نية يؤتكم خيرا مما أخذ منكم من الفداء وقرئ
أخذ على البناء للفاعل روي أنها نزلت في العباس كلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم
أن يفدي ابني أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث فقال يا محمد تركتني أتكفف
قريشا ما بقيت فقال له عليه السلام فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت
خروجك من مكة وقلت لها ما أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث فهو لك
ولعبد الله وعبيد الله والفضل فقال العباس ما يدريك فقال أخبرني به ربي قال
العباس فأنا أشهد أنك صادق وأن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله والله لم يطلع
عليه أحد إلا الله ولقد دفعته إليها في سواد الليل ولقد كنت مرتابا في أمرك فأما
إذ أخبرتني بذلك فلا ريب قال العباس فأبدلني الله خيرا من ذلك لي الآن
عشرون عبدا وإن أدناهم ليضرب في عشرين ألفا وأعطاني زمزم ما أحب أن لي
بها جميع أموال مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربي يتأول به ما في قوله تعالى ويغفر لكم
والله غفور رحيم فإنه وعد بالمغفرة مؤكد بما بعده من الاعتراض التذييلي وإن
يريدوا خيانتك أي نكث ما بايعوك عليه من الإسلام وهذا كلام مسوق من جهته

تعالى

في حديث صحيح

تعالى لتسليته عليه السلام بطريق الوعد له والوعيد لهم فقد خانوا الله من قبل بكفرهم
ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه فأمكن منهم أي أقدرك عليهم حسبما
رأيت يوم بدر فإن أعادوا الخيانة فاعلم أنه سيمكنك منهم أيضا وقيل المراد بالخيانة
منع ما ضمنوا من الفداء وهو بعيد والله عليم فيعلم ما في نياتهم وما يستحقونه
من العذاب حكيم يفعل كل ما يفعله حسبما يقتضيه حكمته البالغة إن الذين آمنوا
وهاجروا هم المهاجرون هاجروا أوطانهم حبا لله تعالى ورسوله وجاهدوا
بأموالهم بأن صرفوها إلى الكراع والسلاح وأنفقوها على المحاويج وأنفسهم
بمباشرة القتال واقتحام المعارك والخوض في المهالك في سبيل الله متعلق بجاهدوا
قيد لنوعي الجهاد ولعل تقديم الأموال على الأنفس لما أن المجاهدة بالأموال أكثر وقوعا
وأتم دفعا للحاجة حيث لا يتصور المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالمال والذين
آووا ونصروا هم الأنصار آووا المهاجرين وأنزلوهم منازلهم وبذلوا إليهم
أموالهم وآثروهم على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة ونصروهم على أعدائهم
أولئك إشارة إلى الموصوفين بما ذكر من النعوت الفاضلة وما فيه من معنى
البعد للإيذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل وهو مبتدأ وقوله
تعالى بعضهم إما بدل منه وقوله تعالى أولياء بعض خبره وإما مبتدأ ثان
وأولياء بعض خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول أي بعضهم أولياء بعض في الميراث
وقد كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب حتى نسخ بقوله
تعالى وأولوا الأرحام الآية وقيل في النصرة والمظاهرة ويرده قوله تعالى فعليكم
النصر بعد نفي موالاتهم والذين آمنوا ولم يهاجروا كسائر المؤمنين ما لكم
من ولايتهم من شيء أي من توليهم في الميراث وإن كانوا من أقرب أقاربكم
حتى يهاجروا وقرئ بكسر الواو تشبيها بالعمل والصناعة كالكتابة والإمارة وإن
استنصروكم في الدين فعليكم النصر فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين
إلا على قوم منهم بينكم وبينهم ميثاق معاهدة فإنه لا يجوز نقض عهدهم
بنصرهم عليهم والله بما تعملون بصير فلا تخالفوا أمره كيلا يحل بكم عقابه
والذين كفروا بعضهم أولياء بعض آخر منهم أي في الميراث أو في الموازرة و
هذا بمفهومه مفيد لنفي الموارثة والموازرة بينهم وبين المسلمين وإيجاب
المباعدة والمصارمة وإن كانوا أقارب إلا تفعلوه أي ما أمرتم به من التواصل
بينكم وتولي بعضكم بعضا حتى التوارث ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار
تكن فتنة في الأرض أي تحصل فتنة عظيمة فيها وهي ضعف الإيمان وظهور الكفر
وفساد كبير في الدارين وقرئ كثير والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا
في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا كلام مسوق
للثناء عليهم والشهادة لهم بفوزهم بالقدح المعلى من الإيمان مع الموعد
الكريم بقوله تعالى لهم مغفرة ورزق كريم لا تبعة له ولا منة فيه فلا تكرار لما
أن مساق الأول لإيجاب التواصل بينهم والذين آمنوا من بعد وهاجروا بعد
هجرتكم وجاهدوا معكم في بعض مغازيكم فأولئك منكم أي من جملتكم
أيها المهاجرون والأنصار وهم الذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا
ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ألحقهم الله تعالى بالسابقين وجعلهم منهم
تفضلا منه وترغيبا في الإيمان والهجرة وفي توجيه الخطاب إليهم بطريق الالتفات
من تشريفهم ورفع محلهم ما لا يخفى وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض
آخر منهم في التوريث من الأجانب في كتاب الله أي في حكمه أو في اللوح أو في القرآن
واستدل به على توريث ذوي الأرحام إن الله بكل شيء عليم ومن جملته
ما في تعليق التوارث بالقرابة الدينية أولا وبالقرابة النسبية آخرا من الحكم البالغة
عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة و

شاهد انه برئ من النفاق واعطى عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة وكان العرش وحملته يستغفرون له ايام حياته والله تعالى واحكم

سورة التوبة مدنية وهي مائة وثلاثون او تسع وعشرون آية

ولها اسماء أخر سورة التوبة والمقشقشة والبحوث والمنقرة والمبعثرة والمثيرة والحافرة والمخزية والفاضحة والمنكلة والمشردة والمدمدمة وسورة العذاب لما فيها من ذكر التوبة ومن التبرئة من النفاق والبحث والتنقير عن حال المنافقين واثارتها والحفر عنها وما يخزيهم ويفضحهم وينكلهم ويشردهم ويدمدم عليهم واشتهارها بهذه الاسماء يقتضى بانها سورة مستقلة وليست بعضها من سورة الانفال وادعاء اختصاص الاشتهار بالقائلين باستقلالها خلاف الظاهر فيكون حكمة ترك التسمية عند النزول نزولها فى رفع الامان الذى يأبى مقامه التصدير بما يشعر بقائه من ذكر اسمه تعالى مشفوعا بوصف الرحمة كما روى عن ابن عيينة رحمه الله لا الاشتباه فى استقلالها وعدمه كما يحكى عن ابن عباس رضى الله عنهما ولا رعاية ما وقع بين الصحابة رضوان الله تعالى عليهم اجمعين من الاختلاف فى ذلك على ان ذلك ينزع الى القول بان التسمية ليست من القرآن وانما كتبت للفصل بين السور كما نقل عن قدماء الحنفية وان مناط اثباتها فى المصاحف وتركها انما هو رأى من تصدى لجمع القرآن دون التوقيف ولا ريب فى ان الصحيح من المذهب انها آية فذة من القرآن انزلت للفصل والتبرك بها وان لا مدخل لرأى احد فى الاثبات والترك وانما المتبع فى ذلك هو الوحى والتوقيف ولا مرية فى عدم نزولها ههنا والا امتنع ان يقع فى الاستقلال اشتباه او اختلاف فهو اما لاتحاد السورتين او لما ذكرنا لا سبيل الى الاول والا لبينه صلى الله عليه وسلم لتحقق مزيد الحاجة الى البيان لتعاضد ادلة الاستقلال من كثرة الآيات وطول المدة فيما بين نزولهما فحيث لم يبينه تعين الثانى لان عدم البيان من الشارع فى موضع البيان بيان للعدم ﴿براءة﴾ خبر مبتدأ محذوف وتنوينه للتفخيم وقرئ بالنصب اى اسمعوا براءة و﴿من﴾ فى قوله عز وجل ﴿من الله ورسوله﴾ ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لها لتفيدها زيادة تفخيم وتهويل اى هذه براءة من جهة الله ورسوله واصلة ﴿الى الذين عاهدتم من المشركين﴾ وانما لم يذكر ما تعلق به البراءة حسبما ذكر فى قوله تعالى ﴿ان الله برئ من المشركين﴾ اكتفاء بما فى حيز الصلة فانه منبئ عنه انباء ظاهرا واحترازا عن تكرير لفظة من وقيل هى مبتدأ لتخصصها بالصفة وخبره الى الذين الخ والذى يقتضيه جزالة النظم هو الاول لان هذه البراءة امر حادث لم يعهد عند المخاطبين ذاتها ولا عنوان ابتدائها من الله ورسوله حتى يخرج ذلك العنوان مخرج الصفة لها ويجعل المقصود بالذات والعمدة فى الاخبار شيئا آخر وهو وصولها الى المعاهدين وانما الحقيق بان يعتنى بافادته حدوث تلك البراءة من جهته تعالى ووصولها اليهم فان حق الصفات قبل علم المخاطب بثبوتها للموصوف ان تكون اخبارا وحق الاخبار بعد العلم بثبوتها لما هى له ان تكون صفات كما حقق فى موضعه وقرئ من الله بكسر النون على ان الاصل فى تحريك الساكن الكسر ولكن الوجه هو الفتح فى لام التعريف خاصة لكثرة الوقوع والعهد العقد الموثق باليمين والخطاب فى عاهدتم للمسلمين وقد كانوا عاهدوا مشركى العرب من اهل مكة وغيرهم باذن الله تعالى واتفاق الرسول صلى الله عليه وسلم فنكثوا الا بنى ضمرة وبنى كنانة فامر المسلمون بنبذ العهد الى الناكثين وامهلوا اربعة اشهر ليسيروا اين شاؤا وانما نسبت البراءة الى الله تعالى ورسوله مع شمولها للمسلمين واشتراكهم فى حكمها ووجوب العمل بموجبها وعلقت المعاهدة بالمسلمين خاصة مع كونها باذن الله تعالى واتفاق الرسول صلى الله عليه وسلم للانباء عن تنجزها وتحتمها من غير توقف على رأى المخاطبين لانها عبارة عن انهاء حكم الامان ورفع الخطر المترتب على العهد السابق عن التعرض للكفرة وذلك منوط بجناب الله تعالى لانه امر كساير الاوامر الجارية على حسب حكمة تقتضيها وداعية تستدعيها تترتب على آثارها من غير توقف على شئ

اصلا واشتراك المسلمين فى حكمها ووجوب العمل بموجبها انما هى على طريقة الامتثال بالامر لا على ان يكون لهم مدخل فى اتمامها وترتب احكامها عليها واما المعاهدة فحيث كانت عقدا كساير العقود الشرعية لا تتحصل فى نفسها ولا تترتب عليها احكامها الا بمباشرة المتعاقدين على وجوه مخصوصة اعتبرها الشرع لم يتصور صدورها عنه سبحانه وانما الصادر عنه فى شأنها هو الاذن فيها وانما الذى يباشرها ويتولى امرها المسلمون ولا يخفى ان البراءة انما تتعلق بالعهد لا بالاذن فيه فنسبت كل واحدة منهما الى من هو اصل فيها على ان فى ذلك تفخيما لشأن البراءة وتهويلا لامرها وتسجيلا على الكفرة بغاية الذل والهوان ونهاية الخزى والخذلان وتنزيها لساحة السبحان والكبرياء عما يوهم شائبة النقص والبداء تعالى عن ذلك علوا كبيرا وادراجه عليه السلام فى النسبة الاولى واخراجه عن الثانية لتنويه شأنه الرفيع واجلال قدره المنيع فى كلا المقامين صلى الله عليه وسلم وايثار الجملة الاسمية على الفعلية بان يقال قد برئ الله ورسوله من الذين او نحو ذلك للدلالة على دوامها واستمرارها وللتوسل الى تهويلها بالتنوين التفخيمى كما اشير اليه ﴿فسيحوا﴾ السياحة والسيح الذهاب فى الارض والسير فيها بسهولة على مقتضى المشيئة كسيح الماء على موجب الطبيعة ففيه من الدلالة على كمال التوسعة والترفيه ما ليس فى سيروا ونظائره وزيادة قوله عز وجل ﴿فى الارض﴾ لقصد التعميم لاقطارها من دار الاسلام وغيرها والمراد اباحة ذلك لهم وتخليتهم وشأنهم من الاستعداد للحرب او تحصين الاهل والمال او تحصيل المهرب او غير ذلك لا تكليفهم بالسياحة فيها وتلوين الخطاب بصرفه عن المسلمين وتوجيهه اليهم مع حصول المقصود بصيغة امر الغائب ايضا للمبالغة فى الاعلام بالامهال حسما لمادة تعللهم بالغفلة وقطعا لشأفة اعتذارهم بعدم الاستعداد وايثار صيغة الامر مع تسنى افادة ذلك المعنى بطريق الاخبار ايضا كان يقال مثلا فلكم ان تسيحوا ونحو ذلك لاظهار كمال القوة والغلبة وعدم الاكتراث لهم ولاستعدادهم فكان ذلك امر مطلوب منهم والفاء لترتيب الامر بالسياحة وما يعقبه على ما يؤذن به البراءة المذكورة من الحراب على ان الاول مترتب على نفسه والثانى على متعلقه على عنوان كونه من الله العزيز لا لترتيب الاول عليه والثانى على الاول كما فى قوله تعالى ﴿قل سيروا فى الارض فانظروا﴾ الخ كانه قيل هذه براءة موجبة لقتالكم فاسعوا فى تحصيل العدد والاسباب وبالغوا فى اعتداد العتاد من كل باب ﴿اربعة اشهر واعلموا انكم﴾ بسياحتكم فى اقطار الارض فى العرض والطول وان ركبتم متن كل صعب وذلول ﴿غير معجزى الله﴾ اى لا تفوتونه بالهرب والتحصن ﴿وان الله﴾ وضع الاسم الجليل موضع المضمر لتربية المهابة وتهويل امر الاخزاء وهو الاذلال بما فيه فضيحة وعار ﴿مخزى الكافرين﴾ اى مخزيهم ومذلهم فى الدنيا بالقتل والاسر وفى الآخرة بالعذاب وايثار الاظهار لذمهم بالكفر بعد وصفهم بالاشراك وللاشعار بان علة الاخزاء هى كفرهم ويجوز ان يكون المراد جنس الكافرين فيدخل فيه المخاطبون دخولا اوليا والمراد بالاشهر الاربعة هى الاشهر الحرم التى علق القتال بانسلاخها فقيل هى شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم وقيل هى عشرون من ذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الاول وعشر من شهر ربيع الآخر وجعلت حرما لحرمة قتالهم فيها او لتغليب ذى الحجة والمحرم على البقية وقيل من عشر ذى القعدة الى عشر من شهر ربيع الاول لان الحج فى تلك السنة كان فى ذلك الوقت للنسئ الذى كان فيهم ثم صار فى العام القابل فى ذى الحجة وذلك قوله عليه السلام ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض روى انه صلى الله عليه وسلم امر ابا بكر رضى الله عنه على موسم سنة تسع ثم اتبعه عليا رضى الله عنه على العضباء ليقرأها على اهل الموسم فقيل له عليه السلام لو بعثت بها الى ابى بكر فقال عليه السلام لا يؤدى عنى الا رجل منى وذلك لان عادة العرب ان لا يتولى امر العهد والنقض على القبيلة الا رجل منها فلما دنى على سمع ابو بكر رضى الله عنهما الرغاء فوقف فقال هذا رغاء

الاعتداد الاحضار

العتاد كسحاب العدة قاموس

سورة التوبة

ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما لحقه قال امير او مامور قال مامور فمضيا
فلما كان قبل يوم التروية خطب ابو بكر رضي الله عنه وحدثهم عن مناسكهم وقام
علي يوم النحر عند جمرة العقبة فقال يا ايها الناس اني رسول رسول الله صلى الله عليه و
سلم اليكم فقالوا بماذا فقرا عليهم ثلثين او اربعين اية ثم قال امرت باربع ان
لا يقرب البيت بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة الا كل نفس مؤمنة
وان يتم الى كل ذي عهد عهده واذان من الله ورسوله اى اعلام منهما فعال
بمعنى الافعال كالعطاء بمعنى الاعطاء ورفعه كرفع براءة والجملة معطوفة على مثلها وانما قيل
الى الناس اى كافة لان الاذان غير مختص بقوم دون اخرين كالبراءة الخاصة بالناكثين
بل هو شامل لعامة الكفرة وللمؤمنين ايضا يوم الحج الاكبر هو يوم العيد لان فيه تمام
الحج ومعظم افعاله ولان الاعلام كان فيه ولما روي انه وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة
الوداع فقال هذا يوم الحج الاكبر وقيل يوم عرفة لقوله عليه السلام الحج عرفة ووصف
الحج بالاكبر لان العمرة تسمى الحج الاصغر او لان ذلك الحج اجتمع فيه المسلمون والمشركون
او لانه ظهر فيه عزة المسلمين وذل المشركين ان الله اى بان الله وقرئ بالكسر لما
ان الاذان فيه معنى القول بريء من المشركين اى المعاهدين الناكثين ورسوله
عطف على المستكن في بريء او على محل ان واسمها على قراءة الكسر وقرئ بالنصب عطفا
على اسم ان او لان الواو بمعنى مع اى بريء معه منهم وبالجر على الجوار وقيل على القسم
فان تبتم من الشرك والغدر التفات من الغيبة الى الخطاب لزيادة تهديد وتشديد
والفاء لترتيب مقدم الشرطية على الاذان بالبراءة المؤذنة بالوعيد الشديد المؤذن
بلين عريكتهم وانكسار شدة شكيمتهم فهو اى فالتوب خير لكم في الدارين
فان توليتم عن التوبة او ثبتم على التولي من الاسلام والوفاء فاعلموا انكم
غير معجزي الله غير سابقين ولا فائتين وبشر الذين كفروا تلوين للخطاب وصرف
له عنهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لان البشارة بعذاب اليم وان
كانت بطريق التهكم انما تليق بمن يقف على الاسرار الالهية الا الذين عاهدتم
من المشركين استدراك من النبذ السابق الذي اخر فيه القتال اربعة اشهر كانه
قيل لا تمهلوا الناكثين فوق اربعة اشهر لكن الذين عاهدتموهم ثم لم ينكثوا
عهدهم فلا تجروهم مجرى الناكثين في المسارعة الى قتالهم بل اتموا اليهم عهدهم
ولا يضر في ذلك تخلل الفاصل بقوله تعالى واذان من الله ورسوله الخ لانه ليس باجنبي بالكلية
بل هو امر باعلام تلك البراءة كانه قيل واعلموها وقيل هو استثناء متصل من المشركين
الاول ويرده بقاء الثاني على العموم مع كونهما عبارة عن فريق واحد وجعله استثناء
من الثاني يأباه بقاء الاول كذلك وقيل استدراك من المقدر في فسيحوا اى فقولوا
لهم سيحوا اربعة اشهر لكن الذين عاهدتم منهم ثم لم ينقصوكم شيئا من
شروط الميثاق ولم يقتلوا منكم احدا ولم يضروكم قط وقرئ بالمعجمة اى لم ينقضوا
عهدكم شيئا من النقض وكلمة ثم للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادي
المدة ولم يظاهروا اى لم يعاونوا عليكم احدا من اعدائكم كما عدت بنو بكر
على خزاعة في غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فظاهرتهم قريش بالسلاح
فاتموا اليهم عهدهم اى ادوه اليهم كملا الى مدتهم ولا تفاجئوهم
بالقتال عند مضي الاجل المضروب للناكثين ولا تعاملوهم معاملتهم قال ابن
عباس رضه بقي لحي من كنانة من عهدهم تسعة اشهر فاتم اليهم عهدهم ان الله
يحب المتقين تعليل لوجوب الامتثال وتنبيه على ان مراعاة حقوق العهد من باب
التقوى وان التسوية بين الوفي والغادر منافية لذلك وان كان المعاهد مشركا
فاذا انسلخ اى انقضى استعير له من الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده والاغلب
اسناده الى الجلد والمعنى اذا انقضى الاشهر الحرم وانفصلت عما كانت مشتملة عليه
ساترة له انفصال الجلد عن الشاة وانكشفت عنه انكشاف الحجاب عما وراءه كما ذكره

ابو الهيثم

ابو الهيثم من انه يقال اهللنا شهر كذا اى دخلنا فيه ولبسناه فنحن نزداد كل ليلة
لباسا منه اى مضى نصفه ثم نسلخه من انفسنا جزءا فجزءا حتى نسلخه عن انفسنا كله
فينسلخ وانشد اذا ما سلخت الشهر اهللت مثله كفى قاتلا سلخي الشهور واهلالي
وتحقيقه ان الزمان محيط بما فيه من الزمانيات مشتمل عليه اشتمال الجلد للحيوان
وكذا كل جزء من اجزائه الممتدة من الايام والشهور والسنين فاذا مضى فكانه انسلخ
عما فيه وفيه مزيد لطف لما فيه من التلويح بان تلك الاشهر كانت حرزا لاولئك المعاهدين
عن غوائل ايدي المسلمين فنيط قتالهم بزوالها والمراد بها اما ما مر من الاشهر الاربعة
فقط ووضع المظهر موضع الضمير ليكون ذريعة الى وصفها بالحرمة تاكيدا لما ينبئ
عنه اباحة السياحة من حرمة التعرض لهم مع ما فيه من مزيد الاعتناء بشانها
او هي ما فهم من قوله تعالى فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم من تتمة مدة بقيت
لغير الناكثين فعلى الاول يكون المراد بالمشركين في قوله تعالى فاقتلوا المشركين الناكثين
خاصة فلا يكون قتال الباقين مفهوما عن عبارة النص بل من دلالته وعلى الثاني
مفهوما من العبارة الا انه يكون الانسلاخ وما نيط به من القتال حينئذ شيئا فشيئا
لا دفعة واحدة كانه قيل فاذا تم ميقات كل طائفة فاقتلوهم وحملها على الاشهر
المعهودة الدائرة في كل سنة لا يساعده النظم الكريم واما انه يستدعي بقاء
حرمة القتال فيها اذ ليس فيما نزل بعد ما ينسخها فلا اعتداد به لانها نسخت بقوله تعالى
وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة كما توهم فانه رجم بالغيب لانه ان اريد به ما في سورة
الانفال فانه نزل عقيب غزوة بدر وقد صح ان المراد بالذين كفروا في قوله تعالى قل
للذين كفروا الخ ابو سفيان واصحابه وقد اسلم في اواسط رمضان عام الفتح سنة
ثمان وسورة التوبة انما نزلت في شوال سنة تسع وان اريد ما في سورة البقرة فانه
ايضا نزل قبل الفتح كما يعرب عنه ما قبله من قوله واخرجوهم من حيث اخرجوكم اى
من مكة وقد فعل ذلك يوم الفتح فكيف ينسخ به ما نزل بعده بل لان انعقاد الاجماع
على انتساخها كاف في الباب من غير حاجة الى كون سنده منقولا الينا وقد صح ان
النبي صلعم حاصر الطائف لعشر بقين من المحرم حيث وجدتموهم من حل وحرم
وخذوهم اى اسروهم والاخيذ الاسير واحصروهم اى قيدوهم
وامنعوهم من التقلب في البلاد قال ابن عباس رضه حيلوا بينهم وبين المسجد
الحرام واقعدوا لهم كل مرصد اى كل ممر ومجتاز يجتازون منه في اسفارهم
وانتصابه على الظرفية اى ارصدوهم وارتقبوهم حتى لا تمروا به وفائدته
على التفسير الثاني دفع احتمال ان يراد بالحصر المحاصرة المعهودة فان تابوا عن
الشرك بالايمان عنهما اضطروا بما ذكر من القتل والاسر والحصر واقاموا الصلوة و
اتوا الزكاة تصديقا لتوبتهم وايمانهم واكتفى بذكرهما عن ذكر بقية العبادات
لكونهما رأسي العبادات البدنية فخلوا سبيلهم فدعوهم وشانهم
ولا تتعرضوا لهم بشيء مما ذكر ان الله غفور رحيم يغفر لهم ما سلف
من الكفر والغدر ويثيبهم بايمانهم وطاعاتهم وهو تعليل للامر بتخلية السبيل
وان احد شروع في بيان حكم المتصدين لمبادي التوبة من سماع كلام الله
تعالى والوقوف على شعائر الدين اثر بيان حكم التائبين عن الكفر والمصرين عليه
هو مرتفع بشرط مضمر يفسره الظاهر لا بالابتداء لان ان لا تدخل الا الفعل من
المشركين استجارك بعد انقضاء الاجل المضروب اى سألك ان تؤمنه وتكون
له جارا فاجره اى امنه حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطلع على حقيقة ما تدعو اليه
والاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة الى شيء آخر في الفهم لكونهم من اهل اللسن
والفصاحة وحتى سواء كانت للغاية او للتعليل متعلقة بما عندها لا بقوله تعالى استجارك
لانه يؤدي الى اعمال حتى في المضمر لكنه مما لا يكاد يرتكب في غير ضرورة الشعر كما في قوله
فلا والله لا يلقى اناس فتى حتاك يا ابن ابي يزيد كذا قيل الاظهر ان تعلق الاجارة بسماع كلام الله تعالى بما هو

الوجهين يستلزم تعلق الاستجارة ايضا بذلك او بما في معناه من امور الدين وما
روي عن علي رضه انه اتاه رجل من المشركين فقال ان اراد الرجل منا ان يأتي محمدا بعد
انقضاء هذا الاجل لسماع كلام الله تعالى او لحاجة قتل قال لا لان الله تعالى يقول وان احد
من المشركين استجارك فاجره الى اخره فالمراد بما فيه من الحاجة هي الحاجة المتعلقة بالدين
لاما يعمها وغيرها من الحاجات الدنيوية كما ينبئ عنه قوله ان يأتي محمدا فان من يأتيه
عليه السلام انما يأتيه للامور المتعلقة بالدين ثم ابلغه بعد استماعه له ان لم
يؤمن مأمنه اي مسكنه الذي يأمن فيه وهو دار قومه ذلك يعني الامر بالاجارة
وابلاغ المأمن بانهم بسبب انهم قوم لا يعلمون ما الاسلام وما حقيقته او
قوم جهلة فلا بد من اعطاء الامان حتى يفهموا الحق ولا يبقى لهم معذرة اصلا كيف
يكون للمشركين عهد شروع في تحقيق حقية ما سبق من البراءة واحكامها المتفرعة
عليها وتبيين الحكمة الداعية الى ذلك والمراد بالمشركين الناكثون لان البراءة انما هي في
في شأنهم والاستفهام انكاري لا بمعنى انكار الواقع كما في قوله تعالى كيف تكفرون الخ بل
بمعنى انكار الوقوع ويكون من الكون التام وكيف في محل النصب على التشبيه بالحال
او الظرف وقيل من الكون الناقص وكون خبر يكون قدم على اسمه وهو عهد لاقتضائه
الصدارة وللمشركين متعلق بمحذوف وقع حالا من عهد ولو كان مؤخرا لكان صفة
له او بيكون عند من يجوز عمل الافعال الناقصة في الظروف وعند متعلق بمحذوف
وقع صفة لعهد او بنفسه لانه مصدر او بيكون كما مر ويجوز ان يكون الخبر للمشركين
وعند كما ذكر او متعلق بالاستقرار الذي تعلق به للمشركين ويجوز ان يكون الخبر عند الله
وللمشركين اما تبيين واما حال من عهد واما متعلق بيكون او بالاستقرار الذي
تعلق به الخبر ولا يبالى بتقديم معمول الخبر على الاسم لكونه حرف جر وكيف على الوجهين
الاخيرين نصب على التشبيه بالظرف او الحال كما في صورة الكون التام وهي الاولى لان
في انكار ثبوت العهد في نفسه من المبالغة ما ليس في انكار ثبوته للمشركين لان ثبوته
الرابطي فرع ثبوته العيني فانتفاء العهد رأسا وفي توجيه الانكار الى كيفية ثبوت العهد
من المبالغة ما ليس في توجيهه الى ثبوته لان كل موجود يجب ان يكون وجوده على حال
من الاحوال قطعا فاذا انتفى جميع احوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهاني
اي على اي حال وفي اي حال يوجد لهم عهد معتد به عند الله وعند رسوله يستحق ان
يراعى حقوقه ويحافظ عليه الى تمام المدة ولا يتعرض لهم بحسبه قتلا واخذا واما ان
يؤمنوا به من عذاب الاخرة كما قيل فلا سبيل الى اعتباره اصلا اذ لا دخل لعهدهم
في ذلك الامن قطعا وان كان مرعيا عند الله تعالى وعند رسوله كعهد غير الناكثين وتكرير
كلمة عند للايذان بعدم الاعتداد به عند كل منهما على حدة الا الذين استدراك من النفي
المفهوم من الاستفهام المتبادر شموله لجميع المعاهدين اي لكن الذين عاهدتم
عند المسجد الحرام وهم المستثنون فيما سلف والتعرض لكون المعاهدة عند المسجد الحرام
لزيادة بيان اصحابها والاشعار بسبب وكادتها ومحله الرفع على الابتداء خبره
قوله عز وجل فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم والفاء لتضمنه معنى الشرط وما
اما مصدرية منصوبة المحل على الظرفية بتقدير المضاف اي فاستقيموا لهم مدة
استقامتهم لكم واما شرطية منصوبة المحل على الظرفية الزمانية اي اي زمان استقاموا
لكم فاستقيموا لهم او مرفوعة على الابتداء والعائد محذوف اي اي زمان استقاموا
لكم فيه فاستقيموا لهم فيه وقيل الاستثناء متصل محله النصب على الاصل
او الجر على البدل من المشركين والمراد بهم الجنس لا المعهود وايا ما كان فحكم الامر
بالاستقامة ينتهي بانتهاء مدة العهد لان استقامتهم التي وقت بوقتها الاستقامة
المأمور بها عبارة عن مراعاة حقوق العهد وبعد انقضاء مدته لا عهد ولا استقامة
فصار عين الامر الوارد فيما سلف حيث قيل فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم خلا انه قد
صرح ههنا بما لم يصرح به هناك مع كونه معتبرا قطعا وهو تقييد الاتمام المأمور به ببقائهم

على ما كانوا عليه من الوفاء ان الله يحب المتقين تعليل للامر بالاستقامة واشعار
بان القيام بموجب العهد من احكام التقوى كما مر كيف تكرير لاستنكار ما مر من
ان يكون للمشركين عهد حقيق بالمراعاة عند الله سبحانه وعند رسوله صلى الله عليه
وسلم واما ما قيل من انه لاستبعاد ثباتهم على العهد فكما ترى لان ما يذكر
بصدد التعليل للاستبعاد عين عدم ثباتهم على العهد لا انه شيء يستدعيه وانما
اعيد الاستنكار والاستبعاد تأكيدا لهما وتمهيدا لتعداد العلل الموجبة لهما لاخلال تخلل
ما في البين بالارتباط والتقريب وحذف الفعل المستنكر للايذان بان النفس مستحضرة له
مترقبة لورود ما يوجب استنكاره لا لمجرد كونه معلوما كما في قوله وخبرتماني انما
الموت بالقرى فكيف وهاتا هضبة وقليب فانه علة مصححة لا مرجحة اي كيف يكون
لهم عهد معتد به عند الله تعالى وعند رسوله وان يظهروا عليكم اي وحالهم انهم
ان يظهروا عليكم اي يظفروا بكم لا يرقبوا فيكم اي لم يراعوا في شأنكم واصل
الرقوب النظر بطريق الحفظ والرعاية ومنه الرقيب ثم استعمل في مطلق الرعاية
والمراقبة ابلغ منه كالمراعاة وفي نفي الرقوب من المبالغة ما ليس في نفيهما الا ولا ذمة
اي حلفا وقيل قرابة ولا عهدا او حقا يعاب على اغفاله مع سبق لهم من تأكيد
الايمان والمواثيق يعني ان وجوب مراعاة حقوق العهد على كل من المتعاهدين مشروط
بمراعاة الاخر فاذا لم يراعها المشركون فكيف تراعونها على منوال قول من قال علام
نقبل منهم فدية وهم لا فضة قتلوا منا ولا ذهبا وقيل الال من اسماء الله تعالى
لا يرعوا حق الله تعالى وقيل الجوار ومآله الحلف لانهم اذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به
اصواتهم لشهرة ولما كان تعليق عدم رعاية العهد بالظفر يوهم ان الرعاية عند عدمه
كشف عن حقيقة شؤنهم الجلية والخفية بطريق الاستئناف وبين انهم في حالة العجز
ايضا ليسوا من الوفاء في شيء وانما يظهرونه مداهنة لا مهادنة فقيل يرضونكم
بافواههم حيث يظهرون الوفاء والمصافاة ويعدونكم بالايمان والطاعة ويؤكدون
ذلك بالايمان الفاجرة ويتعللون عند ظهور خلافه بالمعاذير الكاذبة ونسبة
الارضاء الى الافواه للايذان بان كلامهم مجرد الفاظ يتفوهون بها من غير ان يكون
لها مصداق في قلوبهم وتأبى قلوبهم ما يفيده كلامهم واكثرهم فاسقون
خارجون عن الطاعة فان مراعاة حقوق العهد من باب الطاعة متمردون ليست
لهم مروءة رادعة ولا عقيدة وازعة لا يتشبثون كما يتعاطاه بعضهم ممن يتفادى
عن الغدر ويتعفف عما يجر احدوثة السوء اشتروا بآيات الله اي بالامر بالايفاء
بالعهود والاستقامة في كل امر او بجميع آياته فيدخل فيها ما ذكر دخولا اوليا
اي تركوها واخذوا بدلها ثمنا قليلا اي شيئا حقيرا من حطام الدنيا وهو
اهواؤهم وشهواتهم التي اتبعوها وما انفقه ابو سفيان من الطعام وصرفه الى
الاعراب فصدوا اي عدلوا ونكبوا من صد صدودا او صرفوا غيرهم من صد صدا
والفاء للدلالة على سببية الاشتراء لذلك عن سبيله اي الدين الحق الذي لا محيد
عنه والاضافة للتشريف او سبيل بيته الحرام حيث كانوا يصدون الحجاج والعمار
عنه انهم ساء ما كانوا يعملون اي بئس ما كانوا يعملونه او عملهم المستمر والمخصوص
بالذم محذوف وقد جوز ان يكون كلمة ساء على اصلها من التصرف لازما
بمعنى قبح او متعديا به والمفعول محذوف اي ساءهم الذي يعملونه او عملهم وقوله
عز وعلا لا يرقبون في مؤمن الا ولا ذمة نعى عليهم عدم مراعاة حقوق
عهد المؤمنين على الاطلاق فلا تكرار وقيل هذا في اليهود او في الاعراب المذكورين
ومن يحذو حذوهم واما ما قيل من انه تفسير لقوله تعالى يعملون او دليل على ما هو مخصوص
بالذم فيشعر باختصاص الذم والسوء بعملهم هذا دون غيره واولئك الموصوفون
بما عدد من الصفات السيئة هم المعتدون المجاوزون الغاية القصوى من الظلم
والشرارة فان تابوا اي عما هم عليه من الكفر وسائر العظائم والفاء للايذان بان تقريعهم

بما نعى عليهم من مساوي اعمالهم مزجرة عنها و مظنة للتوبة وأقاموا الصلوة وآتوا الزكاة
اى التزموهما وعزموا على اقامتهما فاخوانكم اى فهم اخوانكم وقوله تعالى في الدين
متعلق باخوانكم لما فيه من معنى الفعل اى لهم ما لكم وعليهم ما عليكم فعاملوهم
معاملة الاخوان وفيه من استمالتهم واستجلاب قلوبهم ما لا مزيد عليه
والاختلاف بين جواب هذه الشرطية وجواب التي مرت من قبل مع اتحاد الشرط
فيهما لما ان الاولى سيقت اثر الامر بالقتل ونظايره فوجب ان يكون جوابها امرا
بخلاف ذلك وهذه سيقت بعد الحكم عليهم بالاعتداء واشباهه فلا بد من كون
جوابها حكما بخلافه البتة ونفصل الآيات اى نبينها والمراد بها اما ما مر من الآيات
المتعلقة باحوال المشركين من الناكثين وغيرهم واحكامهم حالتي الكفر والايمان واما
جميع الايات فيندرج فيها تلك الآيات اندراجا اوليا لقوم يعلمون اى ما فيها
من الاحكام او لقوم عالمين وهو اعتراض للحث على التأمل في الاحكام المندرجة في
تضاعيفها والمحافظة عليها وان نكثوا عطف على قوله تعالى فان تابوا اى وان لم يفعلوا
ذلك بل نقضوا ايمانهم من بعد عهدهم الموثق بها واظهروا ما في ضمائرهم
من الشر واخرجوه من القوة الى الفعل حسبما ينبئ عنه قوله تعالى وان يظهروا عليكم
لا يرقبوا الآية او ثبتوا على ما هم عليه من النكث لا انهم ارتدوا بعد الايمان كما قيل
وطعنوا في دينكم قدحوا فيه بصريح التكذيب وتقبيح الاحكام فقاتلوا ائمة الكفر اى
فقاتلوهم وانما اوثر عليه النظم الكريم للايذان بانهم صاروا بذلك ذوي رياسة وتقدم
في الكفر احقاء بالقتل والقتال وقيل المراد بائمتهم رؤساؤهم وصناديدهم وتخصيصهم
بالذكر اما لاهمية قتلهم او للمنع من مراقبتهم لكونهم مظنة لها او للدلالة على استيصالهم
فان قتلهم غالبا يكون بعد قتل من دونهم وقرئ ائمة بتحقيق الهمزتين على الاصل
والافصح اخراج الثانية بين بين واما التصريح بالياء فلحن ظاهر عند القراء انهم لا ايمان
لهم اى على الحقيقة حيث لا يراعونها ولا يعدون نقضها محذورا وان اجروها
على السنتهم وانما علق النفي بها كالنكث فيما سلف لا بالعهد المؤكد بها لانها العمدة
في المواثيق وجعل الجملة تعليلا للامر بالقتال لا يساعده تعليقه بالنكث والطعن لان
حالهم في ان لا ايمان لهم حقيقة بعد النكث والطعن كحالهم قبل ذلك وحمله على معنى
عدم بقاء ايمانهم بعد النكث والطعن مع انه لا حاجة الى بيانه خلاف الظاهر ولعل
الاولى جعلها تعليلا لمضمون الشرط كانه قيل وان نكثوا وطعنوا كما هو المتوقع منهم
اذ لا ايمان لهم حقيقة حتى لا ينكثوها او لاستمرار القتال المأمور به المستفاد من
سياق الكلام كانه قيل فقاتلوهم الى ان يؤمنوا انهم لا ايمان لهم حتى يعقد معهم
عهد آخر وقرئ بكسر الهمزة على انه مصدر بمعنى اعطاء الامان اى لا سبيل الى ان
تعطوهم امانا بعد ذلك ابدا واما العكس كما قيل فلا وجه له لاشعاره بان معاهدتهم
معنا على طريقة ان يكون اعطاء الامان من قبلهم وذلك بين البطلان او بمعنى الاسلام
ففي كونه تعليلا للامر بالقتال اشكال بل استحالة لانه ان حمل على انتفاء الاسلام مطلقا
فهو بمعزل عن العلية للقتال وللامر به كما قبل النكث والطعن وان حمل على انتفائه
فيما سيأتي فلا يلائم جعل الانتهاء غاية للقتال فيما سيجيء فالوجه ان يجعل تعليلا
لما ذكر من مضمون الشرط كانه قيل ان نكثوا وطعنوا وهو الظاهر من حالهم لانه لا اسلام
لهم حتى يرتدعوا عن نقض جنس ايمانهم وعن الطعن في دينكم لعلهم ينتهون
متعلق بقوله تعالى فقاتلوا اى قاتلوهم ارادة ان ينتهوا اى ليكن غرضكم من
القتال انتهاؤهم عما هم عليه من الكفر وسائر العظائم التي يرتكبونها لا ايصال
الاذية بهم كما هو ديدن المؤذين الا تقاتلون الهمزة الداخلة على انتفاء مقاتلتهم
للانكار والتوبيخ تدل على تحضيضهم على المقاتلة بطريق حملهم على الاقرار بانتفائها كانه
كانه امر لا يمكن ان يعترف به طائعا لكمال شناعته فيلجأون الى ذلك ولا يقدرون
على الاقرار به فيختارون المقاتلة قوما نكثوا ايمانهم التي حلفوها عند المعاهدة

على

على ان لا يعاونوا عليهم فعاونوا بني بكر على خزاعة وهموا باخراج الرسول من مكة حين
تشاوروا بدار الندوة حسبما ذكر في قوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا فيكون نعيا عليهم
جناياتهم القديمة وقيل هم اليهود نكثوا عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وهموا باخراجه
من المدينة وهم بدؤكم بالمعاداة والمقاتلة اول مرة لان رسول الله صلى الله
عليه وسلم جاءهم اولا بالكتاب المبين وتحداهم به فعدلوا عن المحاجة لعجزهم
عنها الى المقاتلة او بدؤا بقتال خزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم لان اعانة بني
بكر عليهم قتال معهم اتخشونهم اى اتخشون ان ينالكم منهم مكروه حتى تتركوا
قتالهم وبخهم اولا بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الرغبة
فيها وتحقق ان من كان على تلك الصفات السيئة حقيق بان لا تترك مصادمته ويوبخ
من فرط فيها فالله احق ان تخشوه بمخالفة امره وترك قتال اعدائه ان كنتم
مؤمنين فان قضية الايمان تخصيص الخشية به تعالى وعدم المبالاة بمن سواه وفيه
من التشديد ما لا يخفى قاتلوهم تجريد للامر بالقتال بعد التوبيخ على تركه
ووعد بنصرهم وبتعذيب اعدائهم واخزائهم وتشجيع لهم يعذبهم الله
بايديكم ويخزهم قتلا واسرا وينصركم عليهم اى يجعلكم جميعا غالبين
عليهم اجمعين ولذلك اخر عن التعذيب والاخزاء ويشف صدور قوم مؤمنين
ممن لم يشهد القتال وهم خزاعة قال ابن عباس رضي الله عنهما هم بطون من اليمن وسبأ
قدموا مكة فاسلموا فلقوا من اهلها اذى كثيرا فبعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
يشكون اليه فقال عليه السلام ابشروا فان الفرج قريب ويذهب غيظ قلوبهم بما كابدوا
من المكاره والمكايد ولقد انجز الله سبحانه جميع ما وعدهم به على اجمل ما يكون فكان
اخباره صلى الله عليه وسلم بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة ويتوب الله على من يشاء
كلام مستأنف ينبئ عما سيكون من بعض اهل مكة من التوبة المقبولة بحسب مشيئته تعالى
المبنية على الحكم البالغة فكان كذلك حيث اسلم ناس منهم وحسن اسلامهم وقرئ
بالنصب باضمار ان ودخول التوبة في جملة ما اجيب به الامر بحسب المعنى فان القتال كما
هو سبب لغل شوكتهم واهانة شكيمتهم فهو سبب للتدبر في امرهم وتوبتهم من
الكفر والمعاصي وللاختلاف في وجه السببية غير الشك والله تعالى اعلم والله ايثار
اظهار الجلالة على الاضمار لتربية المهابة وادخال الروعة عليم لا يخفى عليه خافية
حكيم لا يفعل ولا يأمر الا ما فيه حكمة ومصلحة ام حسبتم ام منقطعة جيء بها
للدلالة على الانتقال عن التوبيخ السابق الى آخر وما فيها من همزة الاستفهام الانكاري
توبيخ لهم على الحسبان المذكور اي بل احسبتم ان تتركوا على ما انتم عليه ولا تؤمروا
بالجهاد ولا تبتلوا بما يمحصكم والخطاب اما لمن شق عليهم القتال من المؤمنين او
للمنافقين ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم الواو حالية ولما للنفي مع التوقع
والمراد من نفي العلم نفي المعلوم بالطريق البرهاني اذ لو شم رائحة الوجود لعلم قطعا
فلما لم يعلم لزم عدمه قطعا اى ام حسبتم ان تتركوا والحال انه لم يتبين الخلص من
المجاهدين منكم من غيرهم وما في لما من التوقع منبه على ان ذلك سيكون وفائدة التعبير
عما ذكر من عدم التبين بعدم علم الله تعالى ان المقصود هو التبيين من حيث كونه متعلقا
للعلم ومدارا للثواب وعدم التعرض لحال المقصرين لما ان ذلك بمعزل من الاندراج
تحت ارادة اكرم الاكرمين ولم يتخذوا عطف على جاهدوا داخل في حيز
الصلة او حال من فاعله اى جاهدوا حال كونهم غير متخذين من دون الله ولا
رسوله ولا المؤمنين وليجة اى بطانة وصاحب سر وهو الذي تطلعه على ما في
ضميرك من الاسرار الخفية من الولوج وهو الدخول ومن دون الله متعلق بالاتخاذ
ان ابقي على حاله او مفعول ثان له ان جعل بمعنى التصيير والله خبير بما تعملون
اى بجميع اعمالكم وقرئ على الغيبة وهو تذييل يزيح ما يتوهم من ظاهر قوله تعالى
ولما يعلم الله الخ او حال من فاعله او من مفعوله والمعنى ولما يعلم الله الذين جاهدوا

منكم والحال انه يعلم جميع اعمالكم لا يخفى عليه شيء منها ما كان للمشركين اي ما صح وما استقام لهم على معنى نفي الوجود والتحقق لا نفي الجواز كما في قوله تعالى اولئك ما كان لهم ان يدخلوها الا خائفين اي ما وقع وما تحقق لهم ان يعمروا عمارة معتدا بها مساجد الله اي المسجد الحرام وانما جمع لانه قبلة المساجد وامامها فعامره كعامرها او لان كل ناحية من نواحيه المختلفة الجهات مسجد على حياله بخلاف سائر المساجد اذ ليس في نواحيها اختلاف الجهة ويؤيده القراءة بالتوحيد وقيل ما كان لهم ان يعمروا شيئا من المساجد فضلا عن المسجد الحرام الذي هو صدر الجنس ويأباه انه لا يتصدون لتعمير سائر المساجد ولا يفتخرون بذلك على انه مبني على كون النفي بمعنى نفي الجواز واللياقة دون نفي الوجود شاهدين على انفسهم بالكفر اي باظهار آثار الشرك من نصب الاوثان حول البيت والعبادة لها فان ذلك شهادة صريحة على انفسهم بالكفر وان ابوا ان يقولوا نحن كفار كما نقل عن الحسن رحمه الله وهو حال من الضمير في يعمروا اي محال ان يكون ما سموه عمارة بيت الله مع ملابستهم لما ينافيها و يحبطها من عبادة غيره تعالى فانها ليست من العمارة في شيء واما ما قيل من ان المعنى ما استقام لهم ان يجمعوا بين امرين متنافيين عمارة بيت الله تعالى وعبادة غيره تعالى فليس بمعرب عن كنه المرام فان عدم استقامة الجمع بين المتنافيين انما يستدعي انتفاء احدهما لا بعينه لا انتفاء العمارة الذي هو المقصود روي ان المهاجرين والانصار اقبلوا على اسارى بدر يعيرونهم بالشرك وطفق علي رضي الله عنه يوبخ العباس بقتال النبي صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم واغلظ له في القول فقال العباس تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا فقالوا او لكم محاسن قالوا نعم انا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحجيج ونفك العاني فنزلت اولئك الذين يدعون عمارة المسجد وما يضاهيها من اعمال البر مع ما بهم من الكفر حبطت اعمالهم التي يفتخرون بها بما قارنها من الكفر فصارت هباء منثورا وفي النار هم خالدون لكفرهم ومعاصيهم وايراد الجملة الاسمية للمبالغة في الدلالة على الخلود والظرف متعلق بالخبر قدم عليه للاهتمام به ومراعاة الفاصلة وكلتا الجملتين مستانفة لتقرير النفي السابق الاولى من جهة نفي استتباع الثواب والثانية من جهة نفي استدفاع العذاب انما يعمر مساجد الله الكلام في ايراد الصيغة الجمع كما مر فيما مر خلا ان ارادة جميع المساجد وادراج المسجد الحرام في ذلك غير مخالفة لمقتضى الحال فانه الايجاب ليس كالسلب وقرئ بالافراد ايضا والمراد ههنا ايضا قصر تحقق العمارة ووجودها على المؤمنين لا قصر جوازها و لياقتها لانها يصح و يستقيم ان يعمرها عمارة يعتد بها من آمن بالله وحده واليوم الآخر بما فيه من البعث والحساب والجزاء حسبما نطق به الوحي واقام الصلاة وآتى الزكاة على ما علم من الدين فيندرج فيه الايمان بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم حتما وقيل هو مندرج تحت الايمان بالله خاصة فان احد جزئي كلمة الشهادة علم للكل اي انما يعمرها من جمع هذه الكمالات العلمية والعملية والمراد بالعمارة ما يعم مرمة ما استرم منها وقمها وتنظيفها وتزيينها بالفرش وتنويرها بالسرج وادامة العبادة والذكر ودراسة العلوم فيها ونحو ذلك وصيانتها مما لم تبن له كحديث الدنيا وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث في المسجد ياكل الحسنات كما تاكل البهيمة الحشيش وقال عم قال الله تعالى ان بيوتي في ارضي المساجد وان زواري فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي فحق على المزور ان يكرم زائره وعنه عليه السلام من الف المسجد الفه الله وقال عليه السلام اذا رايتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان وعن انس رضي الله عنه من اسرج في مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام في ذلك المسجد ضوؤه ولم يخش في امور الدين الا الله فعمل بموجب امره ونهيه غير آخذه في الله لومة لائم ولا خشية ظالم فيندرج فيه عدم الخشية عند القتال ونحو ذلك واما الخوف الجبلي من الامور المخوفة فليس

من هذا الباب ولا مما يدخل تحت التكليف والخطاب وقيل كانوا يخشون الاصنام ويرجونها فاريد نفي تلك الخشية عنهم فعسى اولئك المنعوتون بتلك النعوت الجميلة ان يكونوا من المهتدين الى مباغيهم من الجنة وما فيها من فنون المطالب العلية وابراز اهتدائهم مع ما بهم من الصفات السنية في معرض التوقع لقطع اطماع الكفرة عن الوصول الى مواقف الاهتداء او الانتفاع باعمالهم التي يحسبون انهم في ذلك محسنون ولتوبيخهم بقطعهم بانهم مهتدون فان المؤمنين مع ما بهم من هذه الكمالات اذا كان امرهم دائرا بين لعل وعسى فما بال الكفرة وهم هم واعمالهم اعمالهم وفيه لطف للمؤمنين وترغيب لهم في ترجيح جانب الخوف على جانب الرجاء ورفض الاغترار بالله تعالى اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام اي في الفضيلة وعلو الدرجة كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله السقاية والعمارة مصدران لا يتصور تشبيههما بالاعيان فلا بد من تقدير مضاف في احد الجانبين اي اجعلتم اهلهما كمن آمن بالله الى آخره ويؤيده قراءة من قرأ سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام او اجعلتموهما كايمان من آمن الخ وعلى التقديرين فالخطاب اما للمشركين على طريقة الالتفات وهو المتبادر من تخصيص ذكر الايمان بجانب المشبه به واما لبعض المؤمنين المؤثرين للسقاية والعمارة ونحوهما على الهجرة والجهاد ونظائرهما وهو المناسب للاكتفاء في الرد عليهم ببيان عدم مساواتهم عند الله للفريق الثاني وبيان اعظمية درجتهم عند الله تعالى على وجه يشعر بعدم حرمان الاولين بالكلية وجعل معنى التفضيل بالنسبة الى زعم الكفرة لا يجدي كثير نفع لانه ان لم يشعر بعدم الحرمان فليس يشعر بالحرمان ايضا اما على الاول فهو توبيخ للمشركين ومدار انكار تشبيه انفسهم من حيث اتصافهم بالسقاية والعمارة بالمؤمنين من حيث اتصافهم بالايمان والجهاد او على انكار تشبيه وصفيهم المذكورين في حد ذاتهما مع الاغماض عن مقارنتهما للشرك بالايمان والجهاد واما اعتبار مقارنتهما له كما قيل فيأباه المقام كيف لا وقد بين انفا حبوط اعمالهم بذلك الاعتبار بالمرة وكونها بمنزلة العدم فتوبيخهم بعد ذلك على تشبيههما بالايمان والجهاد ثم رده بذلك بما يشعر بعدم حرمانهم عن اصل الفضيلة بالكلية كما اشير اليه مما لا يساعده النظم التنزيلي ولو اعتبر ذلك لما احتيج الى تقرير انكار التشبيه وتاكيده بشيء آخر اذ لا شيء اظهر بطلانا من تشبيه المعدوم بالموجود فالمعنى اجعلتم اهل السقاية والعمارة في الفضيلة كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيله او اجعلتموهما في ذلك كالايمان والجهاد وشتان بينهما فان السقاية والعمارة وان كانت في انفسهما من اعمال البر والخير لكنهما وان خلتا عن القوادح بمعزل عن صلاحية ان يشبه اهلهما باهل الايمان والجهاد وذلك قوله عز وجل لا يستوون عند الله اي لا يساوي الفريق الاول الثاني من حيث اتصاف كل منهما بوصفيهما ومن ضرورته عدم التساوي بين الوصفين الاولين وبين الآخرين لانه المدار في التفاوت بين الموصوفين واسناد عدم الاستواء الى الموصوفين لان الاهم بيان تفاوتهم وتوجيه النفي ههنا والانكار فيما سلف الى الاستواء والتشبيه مع ان دعوى المفتخرين بالسقاية والعمارة من المشركين والمؤمنين انما هي الافضلية دون التساوي والتشابه للمبالغة في الرد عليهم فان نفي التساوي والتشابه نفي الافضلية بالطريق الاولى والجملة استئناف لتقرير الانكار المذكور وتاكيده او حال من مفعولي الجعل والرابط هو الضمير كانه قيل سويتم بينهم حال كونهم متفاوتين عنده تعالى وقوله تعالى والله لا يهدي القوم الظالمين حكم عليهم بانهم مع ظلمهم بالاشراك ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم ضالون في هذا الجعل غير مهتدين الى طريق معرفة الحق وتمييز الراجح من المرجوح وظالمون بوضع كل منهما موضع الآخر وفيه زيادة تقرير لعدم التساوي بينهم وقوله تعالى الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وانفسهم استئناف لبيان مراتب فضلهم اثر بيان عدم الاستواء وضلال

فهم

صوفين

المشركين وظلمهم وزيادة الهجرة وتفصيل نوعي الجهاد للايذان بان ذلك من لوازم
الجهاد لانه اعتبر بطريق التدارك امر لم يعتبر فيما سلف اى هم باعتبار اتصافهم بهذه
الاوصاف الجميلة اعظم درجة عند الله اى اعلى رتبة واكثر كرامة ممن لم يتصف
بها كائنا من كان وان حاز جميع ما عداها من الكمالات التى من جملتها السقاية والعمارة
واولئك اى المنعوتون بتلك النعوت الفاضلة وما فى اسم الاشارة من البعد للدلالة
على بعد منزلتهم فى الرفعة هم الفائزون المختصون بالفوز العظيم او بالفوز
المطلق كان فوز من عداهم ليس بفوز بالنسبة الى فوزهم واما على الثانى فهو توبيخ
لمن يؤثر السقاية والعمارة من المؤمنين على الهجرة والجهاد روى ان عليا رضى الله عنه
قال للعباس رضه بعد اسلامه ياعم الا تهاجرون الا تلحقون برسول الله صلى الله
عليه وسلم قال الست فى افضل من الهجرة اسقى حاج بيت الله واعمر المسجد الحرام فلما
نزلت قال ما ارانى الا تارك سقايتنا فقال عليه السلام اقيموا على سقايتكم فان
لكم فيها خيرا وروى النعمان بن بشير قال كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال رجل ما ابالى ان لا اعمل عملا بعد ان اسقى الحاج وقال آخر ما ابالى ان لا اعمل عملا
بعد ان اعمر المسجد الحرام وقال الآخر الجهاد فى سبيل الله افضل مما قلتم فزجرهم عمر
رضى عنه وقال لا ترفعوا اصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوم
الجمعة ولكن اذا صليتم استفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفتم
فيه فدخل فانزل الله عز وجل هذه الآية والمعنى اجعلتم اهل السقاية والعمارة
من المؤمنين فى الفضيلة والرفعة كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله
او اجعلتموهما كالايمان والجهاد وانما لم يذكر الايمان فى جانب المشبه مع كونه معتبرا فيه قطعا
تعويلا على ظهور الامر واشعارا بان مدار انكار التشبيه هو السقاية والعمارة دون
الايمان وانما لم يترك ذكره فى جانب المشبه به ايضا تقوية للانكار وتذكيرا لاسباب
الرجحان ومبادى الافضلية وايذانا بكمال التلازم بين الايمان وما تلاه ومعنى
عدم الاستواء عند الله تعالى على هذا التقدير ظاهر وكذا اعظمية درجة الفريق الثانى
واما قوله تعالى والله لا يهدى القوم الظالمين فالمراد به عدم هدايته تعالى اياهم الى
معرفة الراجح من المرجوح وظلمهم بوضع كل منهما موضع الآخر لا عدم الهداية
مطلقا ولا الظلم عموما والقصر فى قوله تعالى واولئك هم الفائزون بالنسبة الى درجة
الفريق الثانى او الى الفوز المطلق ادعاء كما مر والله اعلم يبشرهم وقرئ بالتخفيف
ربهم برحمة عظيمة منه ورضوان كبير وجنات عالية لهم فيها فى تلك الجنات نعيم
مقيم نعم لا نفاد لها وفى التعرض لعنوان الربوبية تاكيد للمبشر به وتربية له خالدين
فيها اى فى الجنات ابدا تاكيدا للخلود لزيادة توضيح المراد به اذ قد يراد به المكث الطويل
ان الله عنده اجر عظيم لا قدر عنده لاجور الدنيا او للاعمال التى فى مقابلته والجملة
استئناف وقع تعليلا لما سبق يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم
اولياء فهى لكل فرد من افراد المخاطبين عن موالاة فرد من المشركين بقضية مقابلة
الجمع بالجمع الموجبة لانقسام الآحاد كما فى قوله عز وجل وما للظالمين من انصار لا عن
موالاة طائفة منهم فان ذلك مفهوم من النظم دلالة لا عبارة والآية نزلت فى المهاجرين
فانهم لما امروا بالهجرة قالوا ان هاجرنا قطعنا آباءنا وابناءنا وعشيرتنا وذهبت
تجارتنا وهلكت اموالنا وخربت ديارنا وبقينا ضائعين فنزلت فهاجروا فجعل الرجل
ياتيه ابنه او ابوه او اخوه او بعض اقاربه فلا يلتفت اليه ولا ينزله ولا ينفق عليه ثم رخص
لهم فى ذلك وقيل نزلت فى التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة نهيا عن موالاتهم وعن
النبى عم لا يطعم احدكم طعم الايمان حتى يحب فى الله ويبغض فى الله حتى يحب فى الله ابعد الناس
ويبغض فى الله اقرب الناس اليه ان استحبوا الكفر اى اختاروه على الايمان واصروا
عليه اصرارا لا يرجى معه الاقلاع عنه اصلا وتعليق النهى عن الموالاة بذلك لما انها
قبل ذلك ربما تؤدى بهم الى الاسلام بسبب شعورهم بمحاسن الدين ومن يتولهم اى واحدا منهم

حرب

كما اشير اليه

كما اشير اليه وافراد الضمير فى الفعل مراعاة لفظ الموصول والايذان باستقلال كل واحد منهم
فى الاتصاف بالظلم لان المراد تولى فرد واحد وكلمة من فى قوله تعالى منكم للجنس
لا للتبعيض فاولئك اى اولئك المتولون هم الظالمون بوضعهم الموالاة فى
غير موضعها كان ظلم غيرهم كلا ظلم عند ظلمهم قل تلوين للخطاب وامر له صلى الله عليه
وسلم بان يثبت المؤمنين ويقوى عزائمهم على الانتهاء عما نهوا عنه من موالاة الآباء
والاخوان ويزهدهم فيهم وفيمن يجرى مجراهم من الابناء والازواج ويقطع
علائقهم عن زخارف الدنيا وزينتها على وجه التوبيخ والترهيب ان كان آباؤكم
وابناؤكم واخوانكم وازواجكم لم يذكر الابناء والازواج فيما سلف لان موالاة
الابناء والازواج غير معتادة بخلاف المحبة وعشيرتكم اى اقرباؤكم مأخوذ من
العشرة اى الصحبة وقيل من العشرة فانهم جماعة ترجع الى عقد كعقد العشرة و
قرئ عشيراتكم وعشائركم واموال اقترفتموها اى اكتسبتموها وانما وصفت
بذلك ايماء الى عزتها عندكم لحصولها بكد اليمين وتجارة اى امتعة اشتريتموها للتجارة
والربح تخشون كسادها بفوات وقت رواجها بغيبتكم عن مكة المعظمة فى ايام
الموسم ومساكن ترضونها اى منازل تعجبكم الاقامة فيها من الدور والبساتين
والتعرض للصفات المذكورة للايذان بان اللوم على محبة ما ذكر من زينة الحياة
الدنيا ليس لتناسى ما فيها من مبادى المحبة وموجبات الرغبة فيها وانها مع
ما لها من فنون المحاسن بمعزل عن ان يؤثر حبها على حبه تعالى وحب رسوله صلى الله عليه
وسلم كما فى قوله عز وجل ما غرك بربك الكريم احب اليكم من الله ورسوله بالحب
الاختيارى المستتبع لاثره الذى هو الملازمة وعدم المفارقة لا الحب الجبلى الذى لا يخلو
عنه البشر فانه غير داخل تحت التكليف الدائر على الطاقة وجهاد فى سبيله نظم
حبه فى سلك حب الله عز وجل وحب رسوله تنويها لشانه وتنبيها على انه مما
يجب ان يحب فضلا عن ان يكره وايذانا بان محبته راجعة الى محبتهما فان الجهاد عبارة
عن قتال اعدائهما لاجل عداوتهم فمن يحبهما يجب ان يحب قتال من لا يحبهما فتربصوا
اى انتظروا حتى ياتى الله بامره عن ابن عباس رضه انه فتح مكة وقيل هى عقوبة
عاجلة او آجلة والله لا يهدى القوم الفاسقين الخارجين عن الطاعة فى موالاة
المشركين او القوم الفاسقين كافة فيدخل فى زمرتهم هؤلاء دخولا اوليا اى
لا يرشدهم الى ما هو خير لهم وفى الآية الكريمة من الوعيد ما لا يكاد يتخلص
منه الا من تداركه لطف من ربه والله المستعان لقد نصركم الله الخطاب للمؤمنين
خاصة فى مواطن كثيرة من الحروب وهى مواقعها ومقاماتها والمراد بها وقعات
بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة ويوم حنين عطف على محل
مواطن بحذف المضاف فى احدهما اى وموطن يوم حنين او فى ايام مواطن كثيرة ويوم
حنين ولعل التغيير للايماء الى ما وقع فيه من قلة الثبات من اول الامر وقيل المراد
بالمواطن الوقت كمقتل الحسين رضه وقيل يوم حنين منصوب بمضمر معطوف على نصركم
اى ونصركم يوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم بدل من يوم حنين ولا منع فيه من عطفه
على محل الظرف بناء على انه لم يكن فى المعطوف عليه كثرة ولا اعجاب اذ ليس من قضية
العطف المشاركة المعطوفين فيما اضيف اليه المعطوف او منصوب باضمار اذكر وحنين
واد بين مكة والطائف كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر الفا عشرة آلاف
منهم من شهد فتح مكة من المهاجرين والانصار والفان من الطلقاء وبين هوازن
وثقيف وكانوا اربعة آلاف فيمن ضامهم من امداد ساير العرب وكانوا الجم الغفير
فلما التقوا قال رجل من المسلمين اسمه سلامة بن سلامة الانصارى لن نغلب اليوم من قلة
فساءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المشركون وخلوا الذرارى
الزرارى فاكب المسلمون على الغنائم فتنادى المشركون يا حماة السوء اذكروا الفضائح فتراجعوا
فادركت المسلمين كلمة الاعجاب فانكشفوا وذلك قوله عز وعلا فلم تغن عنكم شيئا

الاغناء اعطاء ما يدفع به الحاجة اى لم تعطكم تلك الكثرة ما تدفعون به حاجتكم شيئا
من الاغناء وضاقت عليكم الارض بما رحبت اى برحبها وسعتها على ان ما مصدرية
والباء بمعنى مع اى لا تجدون فيها مفرا تطمئن اليه نفوسكم من شدة الرعب ولا
تثبتون فيها كمن لا يسعه مكانه ثم وليتم مدبرين روى انه بلغ فلهم مكة وبقي
رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده ليس معه الا عمه العباس آخذا بلجام بغلته و
ابن عمه ابى سفيان بن الحرث آخذا بركابه وهو يركض البغلة نحو المشركين وهو يقول
انا النبي لا كذب انا ابن عبد المطلب روي انه عليه الصلوة والسلام كان يحمل
على الكفار فيفرون ثم يحملون عليه فيقف لهم فعل ذلك بضع عشرة مرة قال العباس
كنت اكف البغلة لئلا تسرع به نحو المشركين وناهيك بهذه الواحدة شهادة صدق
على انه صلى الله عليه وسلم كان في الشجاعة ورباطة الجاش سباقا للغايات القاصية
وما كان ذلك الا لكونه مؤيدا من عند الله العزيز الحكيم فعند ذلك قال يا رب ائتني
بما وعدتني وقال للعباس وكان صيتا صح بالناس فنادى الانصار فخذا فخذا ثم نادى
يا اصحاب الشجرة يا اصحاب سورة البقرة فكروا عنقا واحدا وهم يقولون لبيك
لبيك وذلك قوله تعالى ثم انزل الله سكينته على رسوله اى رحمته التي تسكن بها
القلوب وتطمئن اليها اطمئنانا كليا مستتبعا للنصر القريب واما مطلق السكينة فقد
كانت حاصلة له عليه السلام قبل ذلك ايضا وعلى المؤمنين عطف على رسوله وتوسيط
الجار بينهما للدلالة على ما بينهما من التفاوت اى المؤمنين الذين انهزموا وقيل على الذين
ثبتوا مع النبي عليه السلام او على الكل وهو الانسب ولا ضير في تحقق اصل السكينة
في الثابتين من قبل والتعرض لوصف الايمان للاشعار بعليته للانزال وانزل جنودا
لم تروها اى بابصاركم كما يرى بعضكم بعضا وهم الملائكة عليهم السلام
عليهم البياض على خيول بلق فنظر النبي عليه السلام الى قتال المسلمين فقال هذا حين
حمي الوطيس فاخذ كفا من التراب فرمى به نحو المشركين وقال شاهت الوجوه
فلم يبق منهم احد الا امتلأت عيناه ثم قال عليه السلام انهزموا ورب الكعبة
واختلفوا في عدد الملائكة يومئذ فقيل خمسة الاف وقيل ثمانية الاف وقيل ستة
عشر الفا وفي قتالهم ايضا فقيل قاتلوا وقيل انما قاتلوا يوم بدر وانما كان نزولهم
لتقوية قلوب المؤمنين بالقاء الخواطر الحسنة وتاييدهم بذلك والقاء الرعب
في قلوب المشركين قال سعيد بن المسيب حدثني رجل كان في المشركين يوم حنين قال
لما كشفنا المسلمين جعلنا نسوقهم فلما انتهينا الى صاحب البغلة تلقانا رجال بيض
الوجوه فقالوا شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا وركبوا اكتافنا وعذب الذين
كفروا بالقتل والاسر والسبي وذلك اى ما فعل بهم مما ذكر جزاء الكافرين لكفرهم
في الدنيا ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ان يتوب عليهم منهم
لحكمة تقتضيه اي يوفقه للاسلام والله غفور يتجاوز عما سلف منهم من
الكفر والمعاصي رحيم يتفضل عليهم ويثيبهم روي ان ناسا منهم جاؤا رسول
الله صلى الله عليه وسلم وبايعوه على الاسلام وقالوا يا رسول الله انت خير
الناس وابر الناس وقد سبي اهلونا واولادنا واخذت اموالنا قيل سبي يومئذ
ستة الاف نفس واخذ من الابل والغنم ما لا يحصى فقال عليه السلام ان عندي ما
ترون ان خير القول اصدقه اختاروا اما ذراريكم ونساءكم واما اموالكم قالوا
ما كنا نعدل بالاحساب شيئا فقام النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان هؤلاء جاؤنا مسلمين
وانا خيرناهم بين الذراري والاموال فلم يعدلوا بالاحساب شيئا فمن كان بيده سبي
وطابت نفسه ان يرده فشانه ومن لا فليعطنا وليكن قرضا علينا حتى نصيب شيئا
فنعطيه مكانه قالوا قد رضينا وسلمنا فقال عليه السلام انا لا ادري لعل فيكم من
لا يرضى فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك الينا فرفعت اليه العرفاء انهم قد رضوا يا ايها
الذين آمنوا انما المشركون نجس وصفوا بالمصدر مبالغة كانهم عين النجاسة

اوهم ذوو نجس لخبث باطنهم او لان معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس ولانهم
لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهي ملابسة لهم عن ابن عباس رضه
ان اعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير وعن الحسن من صافح مشركا توضأ و
اهل المذاهب على خلاف هذين القولين وقرئ نجس بكسر النون وسكون الجيم وهو
تخفيف نجس ككبد في كبد كانه قيل انما المشركون جنس نجس او ضرب نجس واكثر
ما جاء تابعا لرجس فلا يقربوا المسجد الحرام تفريع على نجاستهم وانما نهى عن
القرب للمبالغة او للمنع عن دخول الحرم وهو مذهب عطاء وقيل المراد به النهي عن
الدخول مطلقا وقيل المراد المنع عن الحج والعمرة وهو مذهب ابي حنيفة رحمه ويؤيده
قوله عز وجل بعد عامهم هذا فان تقييد النهي بذلك يدل على اختصاص المنهي
عنه بوقت من اوقات العام اى لا يحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا وهو
عام تسعة من الهجرة حين امر ابو بكر رضي الله عنه على الموسم ويدل عليه قول علي
رضي الله عنه حين نادى ببراءة الا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك ولا يمنعون من دخول
الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عنده وعند الشافعي يمنعون من المسجد الحرام
خاصة وعند مالك يمنعون من جميع المساجد ونهي المشركين ان يقربوه راجع الى نهي
المسلمين عن تمكينهم من ذلك وقيل المراد ان يمنعوا من تولي المسجد الحرام والقيام
بمصالحه ويعزلوا عن ذلك وان خفتم عيلة اى فقرا بسبب منعهم من الحج وانقطاع
ما كانوا يجلبونه اليكم من الارفاق والمكاسب وقرئ عائلة على انها مصدر كالعافية
او حال عائلة فسوف يغنيكم الله من فضله من عطائه او من تفضله بوجه آخر
فارسل الله تعالى السماء عليهم مدرارا اغزر بها خيرهم واكثر ميرهم واسلم اهل
تبالة وجرش فحملوا الى مكة الطعام وما يعاش به فكان ذلك اعود عليهم مما خافوا
العيلة لفواته ثم فتح عليهم البلاد والغنائم وتوجه اليهم الناس من اقطار
الارض ان شاء ان يغنيكم مشيئة تابعة للحكمة الداعية اليها وانما قيد ذلك بها
لينقطع الآمال الى الله تعالى ولان الاغناء ليس مطردا بحسب الافراد والاحوال والاوقات
ان الله عليم بمصالحكم حكيم فيما يعطي ويمنع قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله
امرهم بقتال اهل الكتابين اثر امرهم بقتال المشركين وبمنعهم من ان يحوموا
حول ما كانوا يفعلونه من الحج والعمرة غير خائفين من الفاقة المتوهمة من انقطاعهم
ونبههم في تضاعيف ذلك على بعض طرق الاغناء الموعود على الوجه الكلي وارشدهم
الى سلوكه ابتغاء لفضله واستنجازا لوعده والتعبير عنهم بالموصول للايذان بعلية
ما في حيز الصلة للامر بالقتال وبانتظامهم بسبب ذلك في سلك المشركين فان
اليهود مثنية والنصارى مثلثة فهم بمعزل من ان يؤمنوا بالله سبحانه ولا باليوم
الآخر فان علمهم باحوال الآخرة كلا علم فايمانهم المبني عليه ليس بايمان به
ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله اى ما ثبت تحريمه بالوحي متلوا او غير متلو
وقيل المراد برسوله الرسول الذي يزعمون اتباعه اى يخالفون اصل دينهم
المنسوخ اعتقادا وعملا ولا يدينون دين الحق الثابت الذي هو ناسخ لسائر
الاديان وهو دين الاسلام وقيل دين الله من الذين اوتوا الكتاب من التوراة
والانجيل فمن بيانية لا تبعيضية حتى يكون بعضهم على خلاف ما نعت حتى يعطوا
اى يقبلوا ان يعطوا الجزية اى ما تقرر عليهم ان يعطوه مشتق من جزى دينه
اى قضاه او لانهم يجزون بها من من عليهم بالاعفاء عن القتل عن يد حال من
الضمير في يعطوا اى عن يد مواتية مطيعة بمعنى منقادين او من يدهم بمعنى مسلمين
بايديهم غير باعثين بايدي غيرهم ولذلك منع من التوكيل فيها او عن غنى ولذلك لم
يجب الجزية على الفقير العاجز او عن يد قاهرة عليهم اى بسبب يد بمعنى عاجزين اذلاء او عن
انعام عليهم فان ابقاء مهجتهم بما بذلوا من الجزية نعمة عظيمة عليهم او من الجزية اى
نقدا مسلمة عن يد الى يد وغاية القتال ليست نفس هذا الاعطاء بل قبوله كما اشير اليه

وهم صاغرون اى اذلاء وذلك بان يأتى بها بنفسه ماشيا غير راكب ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس ويؤخذ بتلبيبه ويقال له اد الجزية وان كان يؤدى بها وهى تؤخذ عند ابى حنيفة رحمه الله من اهل الكتاب مطلقا ومن مشركى العجم لا من مشركى العرب وعند ابى يوسف رحمه الله لا تؤخذ من العربى كتابيا كان او مشركا وتؤخذ من العجمى كتابيا كان او مشركا وعند الشافعى رحمه الله تؤخذ من اهل الكتاب عربيا كان او عجميا ولا تؤخذ من اهل الاوثان مطلقا وذهب مالك والاوزاعى الى انها تؤخذ من اهل الكفار واما المجوس فقد اتفقت الصحابة على اخذ الجزية منهم لقوله عليه السلام سنوا بهم سنة اهل الكتاب وروى عن على رضى الله عنه انه كان لهم كتاب يدرسونه فاصبحوا وقد اسرى على كتابهم فرفع من بين اظهرهم واتفقوا على تحريم ذبيحتهم ومناكحتهم لقوله عم فى آخر ما نقل من الحديث غير ناكحى نسائهم واكلى ذبيحتهم ووقت الاخذ عند ابى حنيفة اول السنة وتسقط بالموت والاسلام ومقدارها على الفقير المعتمل اثنا عشر درهما وعلى المتوسط الحال اربعة وعشرون درهما وعلى الغنى ثمانية واربعون درهما ولا جزية على فقير عاجز عن الكسب ولا على شيخ فان او زمن او صبى او امراة وعند الشافعى تؤخذ فى آخر السنة من كل واحد دينار غنيا كان او فقيرا كان له كسب او لم يكن وقالت اليهود جملة مستأنفة سيقت لتقرير ما مر من عدم ايمان اهل الكتابين بالله سبحانه وانتظامهم بذلك فى سلك المشركين عزير ابن الله مبتدأ وخبر وقرئ بغير تنوين على انه اسم اعجمى كعازر وعيزار غير منصرف للعجمة والتعريف واما تعليله بالتقاء الساكنين او بجعل الابن وصفا على ان الخبر محذوف فتعسف مستغنى عنه قيل هو قول قدمائهم ثم انقطع فحكى الله تعالى عنهم ذلك ولا عبرة بانكار اليهود وقيل قول بعض ممن كان بالمدينة عن ابن عباس رضى الله عنه انه جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ناس منهم وهم سلام بن مشكم ونعمن بن اوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا ذلك وقيل قاله فنحاص بن عازورا وهو الذى قال ان الله فقير ونحن اغنياء وسبب هذا القول ان اليهود قتلوا الانبياء بعد موسى عليه السلام فرفع الله تعالى عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم فخرج عزير وهو غلام يسيح فى الارض فاتاه جبريل عم فقال له اين تذهب قال اطلب العلم فحفظه التوراة فاملاها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفا فقالوا ما جمع الله التوراة فى صدره وهو غلام الا انه ابنه قال الامام الكلبى لما قتل بخت نصر علماءهم جميعا وكان عزير اذ ذاك صغيرا فاستصغره ولم يقتله فلما رجع بنوا اسرائيل الى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله تعالى عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون آية بعد ما اماته مائة عام يقال انه اتاه ملك باناء فيه ماء فسقاه فمثلت فى صدره فلما اتاهم فقال لهم انى عزير كذبوه فقالوا ان كنت كما تزعم فامل علينا التوراة ففعل فقالوا ان الله تعالى لم يقذف التوراة فى قلب رجل الا لانه ابنه تعالى عن ذلك علوا كبيرا وعن ابن عباس رضى الله عنه اليهود اضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فانساهم الله تعالى التوراة ونسخها من صدورهم ورفع التابوت فتضرع عزير الى الله تعالى وابتهل اليه تعالى فعاد حفظ التوراة الى قلبه فانذر قومه به ثم ان التابوت نزل فعرضوا ما تلاه عزير على ما فيه فوجدوه مثله فقالوا ما قالوا وقالت النصارى المسيح ابن الله هو ايضا قول بعضهم وانما قالوه استحالة لان يكون ولد بغير اب او لان يفعل ما فعله من ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى من لم يكن الها ذلك اشارة الى ما صدر عنهم من العظيمتين وما فيه من معنى البعد للدلالة على بعد درجة المشار اليه فى الشناعة والفظاعة قولهم بافواههم اما تأكيد لنسبة القول المذكور اليهم ونفى للتجوز عنها او اشعار بانه قول مجرد عن برهان وتحقيق مماثل للمهمل الموجود فى الافواه من غير ان يكون له مصداق فى الخارج يضاهون اى فى الكفر والشناعة وقرئ بغير همزة قول الذين كفروا اى يشابه قولهم على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه عند انقلابه مرفوعا قول الذين كفروا من قبل اى من قبلهم وهم المشركون الذين يقولون الملائكة بنات الله او اللات والعزى بنات الله لا قدمائهم

كما قيل

كما قيل اذ لا تعدد فى القول حتى يتأتى التشبيه وجعله بين قولى الفريقين مع اتحاد المقول ليس فيه مزيد مزية وقيل الضمير للنصارى اى يضاهى قولهم المسيح ابن الله قول اليهود عزير ابن الله لانهم اقدم منهم وهو ايضا كما ترى فانه يستدعى اختصاص الرد والابطال بقوله تعالى ذلك قولهم بافواههم بقول النصارى قاتلهم الله دعاء عليهم جميعا بالاهلاك فان من قاتله الله هلك او تعجب من شناعة قولهم انى يؤفكون كيف يصرفون من الحق الى الباطل والحال انه لا سبيل اليه اصلا اتخذوا زيادة تقرير لما سلف من كفرهم بالله تعالى احبارهم وهم علماء اليهود واختلف فى واحده قال الاصمعى لا ادرى اهو حبر ام حبر وقال ابو الهيثم بالفتح لا غير وكان الليث وابن السكيت يقولان حبر وحبر للعالم ذميا كان او مسلما بعد ان كان من اهل الكتاب ورهبانهم وهم علماء النصارى من اصحاب الصوامع اى اتخذ كل واحد من الفريقين علماءهم لا الكل الكل اربابا من دون الله بان اطاعوهم فى تحريم ما احله الله تعالى وتحليل ما حرمه او بالسجود لهم ونحوه تسمية اتباع الشيطان عبادة له فى قوله تعالى يا ابت لا تعبد الشيطان وقوله تعالى بل كانوا يعبدون الجن قال عدى بن حاتم اتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب من ذهب وكان اذ ذاك على دين يسمى الركوسية فرقة من النصارى وهو يقرأ سورة براءة فقال يا عدى اطرح هذا الوثن فطرحته فلما انتهى الى قوله تعالى اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله قلت يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم فقال عليه السلام اليس يحرمون ما احل الله فيحرمونه ويحلون ما حرم الله فيستحلونه فقلت بلى قال ذلك عبادتهم قال الربيع قلت لابى العالية كيف كانت تلك الربوبية فى بنى اسرائيل قال انهم ربما وجدوا فى كتاب الله تعالى ما يخالف اقوال الاحبار فكانوا يأخذون باقوالهم ويتركون حكم كتاب الله والمسيح ابن مريم عطف على رهبانهم اى اتخذه النصارى ربا معبودا بعد ما قالوا انه ابنه تعالى عن ذلك علوا كبيرا وتخصيص الاتخاذ به يشير الى ان اليهود ما فعلوا ذلك بعزير وتأخيره فى الذكر مع ان اتخاذهم له عليه السلام ربا معبودا اقوى من مجرد الاطاعة فى امر التحليل والتحريم كما هو المراد باتخاذهم الاحبار والرهبان اربابا لانه مختص بالنصارى ونسبته عليه السلام الى امه من حيث دلالتها على مربوبيته المنافية للربوبية للايذان بكمال ركاكة رأيهم والقضاء عليهم بنهاية الجهل والحماقة وما امروا اى والحال انهم او لئك الكفرة ما امروا فى كتابيهم الا ليعبدوا الها واحدا عظيم الشان هو الله سبحانه وتعالى ويطيعوا امره ولا يطيعوا امر غيره بخلافه فان ذلك مخل بعبادته تعالى فان جميع الكتب السماوية متفقة على ذلك قاطبة وقد قال المسيح عم انه من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة واما اطاعة الرسول عم وسائر من امر الله تعالى بطاعته فهى فى الحقيقة اطاعة لله عز وجل او وما امر الذين اتخذهم الكفرة اربابا من المسيح والاحبار والرهبان الا ليوحدوا الله تعالى فكيف يصح ان يكونوا اربابا وهم مأمورون مستعبدون مثلهم ولا يقدح فى ذلك كون ربوبية الاحبار والرهبان بطريق الاطاعة فان تخصيص العبادة به تعالى لا يتحقق الا بتخصيص الطاعة ايضا به تعالى وحيث لم يخصوها به لم يخصوا العبادة به سبحانه لا اله الا هو صفة ثانية لالها او استئناف مقرر للتوحيد سبحانه عما يشركون عن الاشراك به فى العبادة والطاعة يريدون ان يطفئوا نور الله اطفاء النار عبارة عن ازالة لهبها الموجب لزوال نورها عن ازالة نورها كما قيل لكن لما كان الغرض من اطفاء نار لا يراد بها الا النور كالمصباح ازالة نورها جعل اطفاؤها عبارة عنها ثم شاع ذلك حتى كان عبارة عن مطلق ازالة النور وان كان لغير النار والسر فى ذلك انحصار امكان الازالة فى نورها والمراد بنور الله سبحانه وتعالى اما حجته النيرة الدالة على وحدانيته وتنزهه عن الشركاء والاولاد او القرآن العظيم الناطق بذلك اى يريد اهل الكتابين ان يردوا القرآن ويكذبوه فيما نطق به من التوحيد والتنزه عن الشركاء والاولاد والشرائع التى من جملتها ما خالفوه من امر الحل والحرمة بافواههم بأقاويلهم الباطلة الخارجة عنها من غير ان يكون لها مصداق تنطبق عليه او اصل يستند اليه حسبما

ويلهم

حكى عنهم وقيل المراد به نبوة النبي صلى الله عليه وسلم هذا وقد قيل مثلت حالهم فيما ذكر بحال
من يريد طمس نور عظيم منبث في الآفاق بنفخة ويابى الله اى لا يريد الا ان يتم نوره
باعلاء كلمة التوحيد واعزاز دين الاسلام وانما صح الاستثناء المفرغ من الموجب لكونه
بمعنى النفى كما اشير اليه لوقوعه فى مقابلة قوله تعالى يريدون وفيه من المبالغة والدلالة على
الامتناع ما ليس فى نفى الارادة اى لا يريد شيئا من الاشياء الا اتمام نوره فيندرج فى
المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه فضلا عن الاطفاء وفى اظهار النور فى مقام الاضمار مضافا
الى ضميره عز وجل زيادة اعتناء بشانه وتشريف له على تشريف واشعار بعلة الحكم ولو
كره الكافرون جواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على جملة قبلها
مقدرة وكلتاهما فى موقع الحال اى لا يريد الله الا اتمام نوره لو لم يكره الكافرون
ولو كرهوه اى على كل حال مفروض وقد حذفت الاولى فى الباب حذفا مطردا لدلالة
الثانية عليها دلالة واضحة لان الشىء اذا تحقق عند المانع فلان يتحقق عند عدمه
اولى وعلى هذا السر يدور ما فى ان ولو الوصليتين من التاكيد وقد مر زيادة تحقيق
لهذا مرارا هو الذى ارسل رسوله ملتبسا بالهدى اى القرآن الذى هو هدى
للمتقين ودين الحق الثابت وهو دين الاسلام ليظهره اى رسوله على الدين
كله اى على اهل الاديان كلهم او ليظهر الدين الحق على سائر الاديان بنسخه اياها
حسبما تقتضيه الحكمة والجملة بيان وتقرير لمضمون الجملة السابقة والكلام فى قوله
عز وعلا ولو كره المشركون كما فى سبق خلا ان وصفهم بالشرك بعد وصفهم بالكفر
للدلالة على انهم ضموا الكفر بالرسول الى الكفر بالله يا ايها الذين امنوا شروع فى
بيان حال الاحبار والرهبان فى اغوائهم لاراذلهم اثر بيان سوء حال الاتباع فى
اتخاذهم لهم اربابا يطيعونهم فى الاوامر والنواهى واتباعهم لهم فيما
ياتون وما يذرون ان كثيرا من الاحبار والرهبان لياكلون اموال الناس بالباطل
ياخذونها بطريق الرشوة لتغيير الاحكام والشرائع والتخفيف والمسامحة فيها
وانما عبر عن ذلك بالاكل بناء على انه معظم الغرض منه وتقبيحا لحالهم وتنفيرا
للسامعين عنهم ويصدون الناس عن سبيل الله عن دين الاسلام او عن المسلك
المقرر فى التوراة والانجيل الى ما افتروه وحرفوه باخذ الرشى او يصدون عنه بانفسهم
باكلهم الاموال بالباطل والذين يكنزون الذهب والفضة اى يجمعونهما و
يحفظونهما سواء كان ذلك بالدفن او بوجه آخر والموصول عبارة اما عن الكثير من الاحبار
والرهبان فيكون مبالغة فى الوصف بالحرص والضن بهما بعد وصفهم بما سبق من اخذ الرشى
والبراطيل فى الاباطيل واما عن المسلمين الكانزين غير المنفقين وهو الانسب بقوله تعالى
ولا ينفقونها فى سبيل الله فيكون نظمهم فى قرن المرتشين من اهل الكتاب
تغليظا ودلالة على كونهم اسوة لهم فى استحقاق البشارة بالعذاب الاليم فالمراد
بالانفاق فى سبيل الله الزكوة لما روى انه لما نزل كبر ذلك على المسلمين فذكر عمر
لرسول الله صلعم فقال ان الله تعالى لم يفرض الزكوة الا ليطيب بها ما بقى من
اموالكم ولقوله عليه السلام ما ادى زكوته فليس بكنز اى بكنز اوعد عليه فان
الوعيد عليه مع عدم الانفاق فيما امر الله بالانفاق فيه واما قوله عم من ترك
صفراء او بيضاء كوى بها فالمراد بها ما لم يؤد حقها لقوله عم ما من صاحب ذهب
ولا فضة لا يؤدى منها حقها الا اذا كان يوم القيمة صفحت له صفائح من نار
فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره فبشرهم بعذاب اليم خبر للموصول والفاء
لتضمنه معنى الشرط ويجوز ان يكون الموصول منصوبا بفعل يفسره فبشرهم يوم
منصوب بعذاب اليم وبمضمر يدل عليه ذلك اى يعذبون او باذكر يحمى عليها فى نار جهنم
اى يوم توقد ذات حمى شديد عليها واصله تحمى بالنار فجعل الاحماء للنار مبالغة ثم حذفت
النار واسند الفعل الى الجار والمجرور تنبيها على المقصود فانتقل من صيغة التانيث الى
التذكير كما تقول رفعت القصة الى الامير فان طرحت القصة قلت رفع الى الامير وانما قيل عليها

كوى

والمذكور

والمذكور شيئان لان المراد بهما دنانير ودراهم كثيرة كما قال على رضه اربعة الآف وما
دونها نفقة وما فوقها كنز وكذا الكلام فى قوله تعالى ولا ينفقونها وقيل الضمير للاموال
والكنوز فان الحكم عام وتخصيصهما بالذكر لانهما قانون التمول او للفضة وتخصيصها
لقربها ودلالة حكمها على ان الذهب كذلك بل اولى فتكوى بها جباههم وجنوبهم
وظهورهم لان جمعهم لها وامساكهم كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعم
بالمطاعم الشهية والملابس البهية او لانهم ازوروا عن السائل واعرضوا عنه وولوه
ظهورهم او لانها اشرف الاعضاء الظاهرة فانها المشتملة على الاعضاء الرئيسة التى هى
الدماغ والقلب والكبد او لانها اصول الجهات الاربعة التى هى مقاديم البدن ومآخره
وجنباه هذا ما كنزتم على ارادة القول لانفسكم لمنفعتها فكان عين مضرتها
وسبب تعذيبها فذوقوا ما كنتم تكنزون اى وبال كنزكم او ما تكنزونه
وقرئ بضم النون ان عدة الشهور اى عددها عند الله اى فى حكمه وهو
معمول لها لانها مصدر اثنا عشر خبر لان شهرا تمييز مؤكد كما فى قولك عندى
من الدنانير عشرون دينارا والمراد الشهور القمرية اذ عليها يدور فلك الاحكام
الشرعية فى كتاب الله فى اللوح المحفوظ او فيما اثبته واوجبه وهو صفة اثنا عشر
اى اثنى عشر شهرا مثبتا فى كتاب الله وقوله عز وعلا يوم خلق السموات والارض
متعلق بما فى الجار والمجرور من معنى الاستقرار او بالكتاب على انه مصدر والمعنى
ان هذا امر ثابت فى نفس الامر منذ خلق الله تعالى الاجرام والحركات والازمنة
منها اى من تلك الشهور الاثنى عشر اربعة حرم هى ذو القعدة وذو الحجة و
المحرم ورجب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى خطبته فى حجة الوداع الا ان
الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السموات والارض السنة اثنا عشر شهرا منها اربعة
حرم ثلث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب المضر الذى بين جمادى
وشعبان والمعنى رجعت الاشهر الى ما كانت عليه من الحل والحرمة وعاد الحج
الى ذى الحجة بعد ما كانوا ازالوه من محله بالنسئ الذى احدثوه فى الجاهلية وقد
وافقت حجة الوداع ذا الحجة وكانت حجة ابى بكر رضه قبلها فى ذى القعدة ذلك
اى تحريم الاشهر الاربعة المعينة المعدودة وما فى ذلك من معنى البعد لتفخيم
المشار اليه هو الدين القيم المستقيم دين ابراهيم عليه السلام واسمعيل عم
وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منهما وكانوا يعظمون الاشهر الحرم ويكرهون القتال
فيها حتى انه لو لقى رجل قاتل ابيه او اخيه لم يهجه وسموا رجبا الاصم ومنصل الاسنة
حتى احدثوا النسئ فغيروا فلا تظلموا فيهن انفسكم بهتك حرمتهن وارتكاب ما حرم
فيهن والجمهور على ان حرمة القتال فيهن منسوخة وان الظلم ارتكاب المعاصى فيهن
فانه اعظم وزرا كارتكابها فى الحرم وعن عطاء انه لا يحل للناس ان يغزوا فى الحرم
ولا فى الاشهر الحرم الا ان يقاتلوا وما نسخت ويؤيد الاول انه عليه السلام حاصر الطائف
وغزا هوازن بحنين فى شوال وذى القعدة وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة
اى جميعا وهو مصدر كف عن الشىء فان الجميع مكفوف عن الزيادة وقع موقع الحال
واعلموا ان الله مع المتقين اى معكم بالنصر والامداد فيما تباشرونه من القتال وانما
وضع المظهر موضع المضمر مدحا لهم بالتقوى وحثا للقاصرين عليه وايذانا بانه المدار فى النصر
وقيل هى بشارة وضمان لهم بالنصرة بسبب تقواهم انما النسئ هو مصدر نسأه اذا اخره
نسأ ونساء ونسيئا نحو مسه مسا ومساسا ومسيسا وقرئ بهن جميعا وقرئ
بقلب الهمزة ياء وتشديد الياء الاولى فيها كانوا اذا جاء شهر حرام وهم محاربون احلوه
وحرموا مكانه شهرا آخر حتى رفضوا خصوص الاشهر واعتبروا مجرد العدد وربما زادوا فى عدد
الشهور بان يجعلوها ثلثة عشر او اربعة عشر ليتسع لهم الوقت ويجعلوا اربعة
اشهر من السنة حراما ولذلك نص على العدد المعين فى الكتاب والسنة اى انما تاخير حرمة شهر
الى شهر آخر زيادة فى الكفر لانه تحليل ما حرم الله وتحريم ما حلله فهو كفر آخر مضموم

حرمة

الحكم هم يضل به الذين كفروا ضلالا على ضلالهم القديم وقرئ على البناء للفاعل
من الافعال على ان الفعل لله سبحانه اى يخلق فيهم الضلال عند مباشرتهم لمباديه
واسبابه وهو المعنى على القراءة الاولى ايضا وقيل المضلون حينئذ رؤساهم والموصول
عبارة عن اتباعهم وقرئ يضل بفتح الياء والضاد من ضلل يضلل ونضل بنون العظمة
يحلونه اى النسئ المؤخر عاما من الاعوام ويحرمونه مكانه شهرا آخر مما
ليس بحرام ويحرمونه اى يحافظون على حرمته كما كانت والتعبير عن ذلك بالتحريم
باعتبار احلالهم له فى العام الماضى او لاسنادهم له الى الهتهم كما سيجئ عاما آخر
اذا لم يتعلق بتغييره غرض من اغراضهم قال الكلبى اول من فعل ذلك رجل من كنانة
يقال له نعيم بن ثعلبة وكان اذا هم الناس بالصدور من الموسم يقوم فيخطب ويقول
لا مرد لما قضيت وانا الذي لا اعاب ولا اجاب فيقول له المشركون لبيك ثم يسألونه
ان ينسئهم شهرا يغيرون فيه فيقول ان صفر العام حرام فاذا قال ذلك حلوا الاوتار
ونزعوا الاسنة والازجة وان قال حلال عقدوا الاوتار وشدوا الازجة واغاروا
وقيل هو جنادة بن عوف الكنانى وكان مطاعا فى الجاهلية كان يقوم على جمل فى الموسم
فينادى باعلى صوته ان الهتكم قد احلت لكم المحرم فاحلوه ثم يقوم فى العام القابل ان
الهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه وقيل هو رجل من كنانة يقال له القلمس قال
قائلهم ومنا ناسئ الشهر القلمس وعن ابن عباس رضه اول من سن النسئ عمرو بن
لحى بن قمعة بن خندف والجملتان تفسير للضلال او حال من الموصول والعامل عامله
ليواطئوا اى ليوافقوا عدة ما حرم الله من الاشهر الاربعة واللام متعلقة بالفعل
الثانى او بما دل عليه مجموع الفعلين فيحلوا ما حرم الله بخصوصه من الاشهر
المعينة زين لهم سوء اعمالهم وقرئ على البناء للفاعل وهو الله سبحانه والمعنى
جعل اعمالهم مشتهاة للطبع محبوبة للنفس وقيل خذلهم حتى حسبوا قبيح اعمالهم
حسنا فاستمروا على ذلك والله لا يهدي القوم الكافرين هداية موصلة الى المطلوب
البتة وانما يهديهم الى ما يوصل اليه عند سلوكه وهم قد صدوا عنه بسوء اختيارهم
فتاهوا فى تيه الضلال يا ايها الذين امنوا رجوع الى حث المؤمنين وتحريض
عزائمهم على قتال الكفرة اثر بيان طرف من قبايحهم الموجبة لذلك ما لكم استفهام
معنى الانكار والتوبيخ اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم اى تباطأتم
وتقاعستم اصله تثاقلتم وقد قرئ كذلك اى اى شئ حصل او حاصل لكم ما تصنعون
حين قال لكم النبى صلى الله عليه وسلم انفروا اى اخرجوا الى الغزو فى سبيل الله متثاقلين
على ان الفعل ماض لفظا مضارع معنى كانه قيل تتثاقلون فالعامل فى الظرف الاستقرار
المقدر فى لكم او معنى الفعل المدلول عليه بذلك ويجوز ان يعمل فيه الحال اى ما لكم
متثاقلين حين قيل لكم انفروا وقرئ اثاقلتم على الاستفهام الانكارى التوبيخى
فالعامل فى الظرف حينئذ انما هو الاول الى الارض متعلق باثاقلتم على تضمنه
معنى الميل والاخلاد اى اثاقلتم مائلين الى الدنيا وشهواتها الفانية عما قليل وكرهتم
مشاق الغزو ومتاعبه المستتبعة للراحة الخالدة كقوله تعالى اخلد الى الارض واتبع
هواه او الى الاقامة بارضكم ودياركم وكان ذلك فى غزوة تبوك فى سنة عشر بعد
رجوعهم من الطائف استنفروا فى وقت عسرة وقحط وقيظ وقد ادركت ثمار المدينة
وطابت ظلالها مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم ذلك وقيل ما خرج رسول
الله صلعم فى غزوة غزاها الا ورى بغيرها الا فى غزوة تبوك فانه عليه السلام
بين لهم المقصد فيها ليستعدوا لها ارضيتم بالحيوة الدنيا وغرورها من الاخرة
اى بدل الاخرة ونعيمها الدائم فما متاع الحيوة الدنيا اظهر فى مقام الاضمار لزيادة
التقرير اى فما التمتع بها وبلذايذها فى الاخرة اى فى جنب الاخرة الا قليل اى مستحقر
لا يؤبه له وفى ترشيح الحيوة الدنيا بما يؤذن بنفاستها ويستدعى الرغبة فيها وتجريد
الاخرة عن مثل ذلك مبالغة فى بيان حقارة الدنيا ودناءتها وعظم شأن الاخرة وعلوها الا

تنفروا

تنفروا اى ان لا تنفروا الى ما استنفرتم اليه يعذبكم اى الله عز وجل عذابا اليما اى
يهلككم بسبب فظيع هائل كقحط ونحوه ويستبدل بكم بعد اهلاككم قوما غيركم
وصفهم بالمغايرة لهم لتاكيد الوعيد والتشديد فى التهديد بالدلالة على المغايرة
الوصفية والذاتية المستلزمة للاستيصال اى قوما مطيعين مؤثرين للاخرة على الدنيا
ليسوا من اولادكم ولا ارحامكم كاهل اليمن وابناء فارس وفيه من الدلالة على
شدة السخط ما لا يخفى ولا تضروه شيئا اى لا يقدح تثاقلكم فى نصرة دينه اصلا
فانه الغنى عن كل شئ فى كل شئ وقيل الضمير للرسول صلى الله عليه وسلم فان الله عز وجل وعده
بالعصمة والنصرة وكان وعده مفعولا لا محالة والله على كل شئ قدير فيقدر على اهلاككم والاتيان
بقوم آخرين الا تنصروه فقد نصره الله اى ان لم تنصروه فسينصره الله الذي قد
نصره فى مثل ذلك الوقت فلن يخذله فى غيره اذ اخرجه الذين كفروا اى تسببوا لخروجه
حيث اذن له عليه السلام فى ذلك حين هموا باخراجه ثانى اثنين حال من ضميره
عليه السلام وقرئ بسكون الياء على لغة من يجرى الناقص مجرى المقصور فى الاعراب
اى احد اثنين من غير اعتبار كونه عم ثانيا فان معنى قولهم ثالث ثلثة ورابع
اربعة ونحو ذلك احد هذه الاعداد مطلقا لا الثالث والرابع خاصة ولذلك منع الجمهور
ان ينصب ما بعده بان يقال ثالث ثلثة ورابع اربعة وقد مر فى قوله تعالى لقد كفر الذين قالوا
ان الله ثالث ثلثة من سورة المائدة وجعله عم ثانيهما لمثنى الصديق اماما
ودخوله فى الغار اولا لكنسه وتسويته البساط كما ذكر فى الاخبار محل يستغنى عنه
اذ هما فى الغار بدل من اذ اخرجه بدل البعض اذ المراد به زمان متسع والغار
نقب فى اعلى ثور وهو جبل فى يمنى مكة على مسيرة ساعة مكثا فيه ثلثا اذ يقول
بدل ثان او ظرف لثانى لصاحبه اى الصديق لا تحزن ان الله معنا بالعون
والعصمة والمراد بالمعية الولاية الدائمة التى لا تحوم حول صاحبها شائبة وما هو
المشهور من اختصاص مع بالمتبوع فالمراد بما فيه من المتبوعية هو المتبوعية فى الامر
المباشر روي ان المشركين طلعوا فوق الغار فاشفق ابو بكر رضه على رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال ان تصب اليوم ذهب دين الله فقال عليه السلام ما ظنك باثنين الله
ثالثهما وقيل لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين فباضتا فى اسفله والعنكبوت فنسجت
عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اعم ابصارهم فجعلوا يترددون
حول الغار ولا يفطنون قد اخذ الله تعالى بابصارهم عنه وفيه من الدلالة على علو
طبقة الصديق رضى الله عنه وسابقة صحبته ما لا يخفى ومن ذلك قالوا من انكر
صحبة ابى بكر رضى الله عنه فقد كفر لانكاره كلام الله سبحانه وتعالى فانزل الله سكينته
امنته التى تسكن عندها القلوب عليه على النبى صلى الله عليه وسلم فالمراد بها
ما لا يحوم حوله شائبة الخوف اصلا او على صاحبه اذ هو المنزعج واما النبى عم
فكان على طمانينة من امره وايده بجنود لم تروها عطف على نصره الله والجنود
هم الملائكة النازلون يوم بدر والاحزاب وحنين وقيل هم الملائكة انزلهم ليحرسوه
فى الغار ويأباه وصفهم بعدم رؤية المخاطبين لهم وقوله عز وعلا وجعل كلمة
الذين كفروا السفلى يعنى الشرك او دعوة الكفرة فان ذلك الجعل لا يتحقق بمجرد
الاخذ بل بالقتل والاسر ونحو ذلك وكلمة الله اى التوحيد او دعوة الاسلام
هى العليا لا يدانيها شئ وتغيير الاسلوب للدلالة على انها فى نفسها كذلك لا يتبدل
شانها ولا يتغير حالها دون غيرها من الكلم ولذلك وسط ضمير الفصل وقرئ بالنصب
عطفا على كلمة الذين والله عزيز لا يغالب حكيم فى حكمه وتدبيره انفروا تجريد
للامر بعد التوبيخ على تركه والانكار على المساهلة فيه وقوله تعالى خفافا
وثقالا حالان من ضمير المخاطبين اى على اى حال كان من يسر او عسر حاصلين باى سبب
كان من الصحة والمرض او الغنى والفقر وقلة العيال وكثرتهم او غير ذلك مما ينتظم
مساعدة الاسباب وعدمها بعد الامكان والقدرة فى الجملة وما ذكر فى تفسيرهما

من فوق لهم خفافا ثقالا لقلة عيالكم وثقالا لكثرتها او خفافا من السلاح وثقالا منه او ركبانا
ومشاة او شبانا وشيوخا او مهازيل وسمانا او صحاحا ومراضا ليس لتخصيص
الامرين المتقابلين بالارادة من غير مقارنة للباقي وعن ابن ام مكتوم انه قال لرسول
الله صلى الله عليه وسلم اعلي ان انفر قال عليه السلام نعم حتى نزل ليس على الاعمى
حرج وعن ابن عباس رضه نسخت بقوله عز وجل ليس على الضعفاء ولا على المرضى
الاية وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله ايجاب للجهاد بهما ان امكن
وباحدهما عند امكانه واعواز الاخر حتى ان من ساعده النفس والمال يجاهد
ومن ساعده المال دون النفس يغزي مكانه من حاله على عكس حاله الى هذا ذهب كثير
من العلماء وقيل هو ايجاب للقسم الاول فقط ذلكم اى ما ذكر من النفير و
الجهاد وما في اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلته في الشرف خير لكم
اى خير عظيم في نفسه او خير مما يبتغى بتركه من الراحة وسعة العيش والتمتع
بالاموال والاولاد ان كنتم تعلمون اى تعلمون الخير علمتم انه خير او ان كنتم تعلمون
انه خير اذ لا احتمال لغير الصدق في اخبار الله تعالى فبادروا اليه لو كان صرف للخطاب
عنهم وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعديد لما صدر عنهم من الهنات
فعلا وقولا على طريق المباثة وبيانا لدناءة هممهم وسائر رذائلهم اى لو كان ما دعوا
اليه عرضا قريبا العرض ما عرض لك من منافع الدنيا اى لو كان ذلك غنما سهل المأخذ
قريب المنال وسفرا قاصدا ذا قصد بين القريب والبعيد لاتبعوك في النفير طمعا في الفوز
بالغنيمة وتعليق الاتباع بكلا الامرين يدل على عدم تحققه عند توسط السفر فقط
ولكن بعدت عليهم الشقة اى المسافة الشاطة الشاقة التي تقطع بمشقة وقرئ
بكسر العين والشين وسيحلفون اى المتخلفون عن الغزو وقوله تعالى بالله اما متعلق بسيحلفون
او هو من جملة كلامهم والقول مراد على الوجهين اى سيحلفون بالله اعتذارا عند
قفولك قائلين لو استطعنا او سيحلفون قائلين بالله لو استطعنا الخ اى لو
كان لنا استطاعة من جهة العدة او من جهة الصحة او من جهتهما جميعا حسبما
عن لهم من الكذب والتعلل وعلى التقديرين فقوله تعالى لخرجنا معكم ساد مسد
جوابي القسم والشرط جميعا اما على الثاني فظاهر واما على الاول فلان قولهم لو استطعنا
في قوة بالله لو استطعنا لانه بيان لقوله تعالى سيحلفون بالله وتصديق له والاخبار
بما سيكون منهم بعد القفول وقد وقع حسبما اخبر به من جملة المعجزات الباهرة
وقرئ لو استطعنا بضم الواو تشبيها لها بواو الجمع كما في قوله عز وجل فتمنوا
الموت يهلكون انفسهم بدل من سيحلفون لان الحلف الكاذب اهلاك للنفس
ولذلك قال عليه الصلوة والسلام اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع او حال من
فاعله اى مهلكين انفسهم او من فاعل لخرجنا جيء به على طريقة الاخبار عنهم كانه
قيل نهلك انفسنا اى لخرجنا معكم مهلكين انفسنا كما في قولك حلف ليفعلن مكان
لافعلن والله يعلم انهم لكاذبون اى في مضمون الشرطية وفيما ادعوا ضمنا
من انتفاء تحقق المقدم حيث كانوا مستطيعين للخروج ولم يخرجوا عفا الله عنك
صريح في انه سبحانه وتعالى قد عفى عنه صلعم ما وقع منه عند استيذان المتخلفين
في التخلف معتذرين بعد الاستطاعة واذنه اعتمادا على ايمانهم ومواثيقهم
لخلوها عن المزاحم من ترك الاولى والافضل الذي هو التأني والتوقف الى
انجلاء الامر وانكشاف الحال قوله عز وجل لم اذنت لهم اى لاى سبب اذنت
لهم في التخلف حين اعتلوا بعللهم بيان لما اشير اليه بالعفو من ترك الاولى واشارة
الى انه ينبغي ان يكون امره عليه السلام منوطة باسباب قوية موجبة لها او مصححة
وان ما ابرزوه في معرض التعلل والاعتذار مشفوعا بالايمان كان بمعزل من كونه
سببا للاذن قبل ظهور صدقه وكلتا اللامين متعلقة بالاذن لاختلافهما في المعنى
فان الاولى للتعليل والثانية للتبليغ والضمير المجرور لجميع المستاذنين وتوجيه الانكار

الى الاذن

الى الاذن باعتبار شموله للكل باعتبار تعلقه بكل فرد فرد لتحقق عدم استطاعة بعضهم
كما ينبئ عنه قوله سبحانه حتى يتبين لك الذين صدقوا اى فيما اخبروا به عند
الاعتذار من عدم الاستطاعة من جهة المال او من جهة البدن او من جهتهما
معا حسبما عن لهم هناك وتعلم الكاذبين في ذلك فتعامل كلا من الفريقين
بما يستحقه وهو بيان لذلك الاولى الافضل وتخصيص عليه السلام فان كلمة حتى
سواء كانت بمعنى اللام او بمعنى الى لا يمكن تعلقها بقوله تعالى لم اذنت لاستلزامه ان
يكون اذنه عليه السلام لهم معللا او مغيا بالتبين والعلم ويكون توجه الاستفهام
اليه من تلك الحيثية وذلك بين الفساد بل بما يدل عليه ذلك كانه قيل لم سارعت الى الاذن
لهم وهلا تأنيت حتى ينجلي الامر كما هو قضية الحزم قال قتادة وعمرو بن ميمون اثنان
فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر فيهما بشيء اذنه للمنافقين واخذه الفداء
من الاسارى فعاتبه الله تعالى كما تسمعون وتغيير الاسلوب بان عبر عن الفريق الاول بالموصول
الذي صلته فعل دال على الحدوث وعن الفريق الثاني باسم الفاعل المفيد للدوام للايذان
بان ما ظهر من الاولين صدق حادث في امر خاص غير مصحح لنظمهم في سلك الصادقين
وان ما صدر عن الاخرين وان كان كذبا حادثا متعلقا بامر خاص لكنه امر جار على عادتهم
المستمرة ناشئ عن رسوخهم في الكذب والتعبير عن ظهور الصدق بالتبين وعما يتعلق
بالكذب بالعلم لما هو المشهور من ان مدلول الخبر هو الصدق والكذب احتمال عقلي
فظهور صدقه انما هو تبين ذلك المدلول وانقطاع احتمال نقيضه بعد ما كان محتملا
له احتمالا عقليا واما كذبه فامر حادث لا دلالة للخبر عليه في الجملة حتى يكون ظهوره
تبينا بل هو نقيض لمدلوله فما يتعلق به يكون علما مستأنفا واسناده الى ضميره عم
لا الى المعلومين ببناء الفعل للمفعول مع اسناد التبين الى الاولين لما ان
المقصود ههنا علمه عليه السلام بهم ومؤاخذتهم بموجبه بخلاف الاولين
حيث لا مؤاخذة عليهم ومن لم يتنبه لهذا قال حتى يتبين لك من صدق في عذره
ممن كذب فيه واسناد التبين الى الاولين وتعليق العلم بالاخرين مع ان مدار
الاسناد والتعلق اولا وبالذات هو وصف الصدق والكذب كما اشير اليه لما ان المقصد
هو العلم بكلا الفريقين باعتبار اتصافهما بوصفيهما المذكورين ومعاملتهما بحسب
استحقاقهما لا العلم بوصفيهما بذاتيهما او باعتبار قيامهما بموصوفيهما هذا وفي
تصدير فاتحة الخطاب ببشارة العفو دون ما يوهم العتاب من مراعاة جانبه عم
وتعهده بحسن المفاوضة ولطف المراجعة ما لا يخفى على اولي الالباب قال سفيان
بن عيينة انظروا الى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل ذكر المعفو ولقد اخطأ واساء الادب
وبئسما فعل فيما قال وكتب من زعم ان الكلام كناية عن الجناية وان معناه اخطأت
وبئسما فعلت هب انه كناية اليس ايثارها عن التصريح بالجناية للتلطيف في الخطاب
والتخفيف في العتاب وهب ان العفو مستلزم للخطأ فهل هو مستلزم لكونه من
القبح واستتباع اللائمة بحيث يصحح هذه المرتبة من المشافهة بالسوء او يسوغ
انشاء الاستقباح بكلمة بئسما المنبئة عن بلوغ القبح الى رتبة يتعجب منها ولا يخفى
انه لم يكن في خروجهم مصلحة للدين او منفعة للمسلمين بل كان فيه فساد وخبال
حسبما نطق به قوله تعالى الخ وقد كرهه سبحانه كما يفصح عنه قوله تعالى ولكن كره الله
انبعاثهم الاية نعم كان الاولى تأخير الاذن حتى يظهر كذبهم اثر ذي اثير ويفتضحوا
على رؤس الاشهاد ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الامن والدعة ولا يتسنى لهم
الابتهاج فيما بينهم بانهم غروه عليه السلام وارضوه بالاكاذيب على انه لم يهنأ لهم
عيش ولا قرت لهم عين اذ لم يكونوا على امن واطمينان بل كانوا على خوف من ظهور
امرهم وقد كان لا يستاذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الاخر تنبيه على انه كان
ينبغي ان يستدل باستيذانهم على حالهم ولا يؤذن لهم اى ليس من عادة المؤمنين
ان يستاذنوك في ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم وان الخلص منهم يبادرون اليه

من غير توقف على الاذن عن ان يستاذنوك فى التخلف وحيث اسناد ذنك هؤلاء فى التخلف
كان ذلك مظنة التأنى فى امرهم بل دليلاً على نفاقهم وقيل المستاذن فيه محذوف و
معنى قوله تعالى ان يجاهدوا كراهة ان يجاهدوا ثم قيل المحذوف هو التخلف والمعنى
لايستاذنك المؤمنون فى التخلف كراهة الجهاد متوجه النفى الى القيد وبه يمتاز المؤمن
من المنافق وهو وان كان فى نفسه امراً خفياً لا يوقف عليه بادى الامر لكن عامة
احوالهم لما كانت منبئة عن ذلك جعل امراً ظاهراً مقرراً وقيل هو الجهاد اى لايستاذنك
المؤمنون فى الجهاد كراهة ان يجاهدوا بناء على ان الاستيذان فى الجهاد ربما يكون
لكراهته ولا يخفى ان الاستيذان فى الشئ لكراهته مما لا يقع بل لا يعقل ولو
سلم وقوعه فالاستيذان لعلة الكراهة مما لا يمتاز بحسب الظاهر من الاستيذان
لعلة الرغبة ولو سلم فالذى نفى من المؤمنين يجب ان يثبت للمنافقين وظاهر انهم
لم يستاذنوا فى الجهاد لكراهتهم له بل انما يستاذنوا فى التخلف والله عليم
بالمتقين شهادة لهم بالانتظام فى زمرة المتقين وعدة لهم باجزال الثواب وتقرير
لمضمون ماسبق كانه قيل والله عليم بانهم كذلك واشعار بان ما صدر عنهم معلل
بالتقوى انما يستاذنك اى فى التخلف مطلقاً على الاول او لكراهة الجهاد على الثانى
الذين لايؤمنون بالله واليوم الاخر تخصيص الايمان بهما فى الموضعين للايذان
بان الباعث على الجهاد ببذل النفس والمال انما هو الايمان بهما اذ به يتسنى
للمؤمنين استبدال الحيوة الابدية والنعيم المقيم الخالد بالحيوة الفانية والمتاع
الكاسد وارتابت قلوبهم عطف على الصلة وايثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق
الريب وتقرره فهم حال كونهم فى ريبهم وشكهم المستقر فى قلوبهم يترددون
اى يتحيرون فان التردد ديدن المتحير كما ان الثبات ديدن المستبصر والتعبير عنه
به مما لا يخفى حسن موقعه ولو ارادوا الخروج يدل على ان بعضهم قالوا عند
الاعتذار كنا نريد الخروج لكن لم نتهيأ له وقد قرب الرحيل بحيث لايمكننا الا
ستعداد فقيل تكذيباً لهم لو ارادوه لاعدوا له اى للخروج فى وقته عدة اى
اهبة من الزاد والراحلة والسلاح وغير ذلك مما لابد منه للسفر وقرئ عدة
بحذف التاء والاضافة الى ضمير الخروج كما فعل بالعدة من قال واخلفوك عد الامر
الذى وعدوا اى عدته وقرئ عده بكسر العين وعدة بالاضافة ولكن كره الله
انبعاثهم اى نهوضهم للخروج قيل هو استدراك عما يفهم من مقدم الشرطية
فان انتفاء ارادتهم للخروج يستلزم انتفاء خروجهم وكراهة الله انبعاثهم
يستلزم تثبطهم عن الخروج فكانه قيل ما خرجوا ولكن تثبطوا والاتفاق فى المعنى لايمنع
الوقوع بين طرفى لكن بعد تحقق الاختلاف نفياً واثباتاً فى اللفظ كقولك ما احسن الى زيد
ولكن اساء والاظهر ان يكون استدراكاً من نفس المقدم على نهج ما فى الاقيسة الاستثنائية
والمعنى لو ارادوا الخروج لاعدوا له عدة ولكن ما ارادوه لما انه تعالى كره انبعاثهم
لما فيه من المفاسد التى ستبين فثبطهم اى حبسهم بالجبن والكسل فتثبطوا عنه
ولم يستعدوا له وقيل اقعدوا مع القاعدين تمثيل لالقاء الله تعالى كراهة الخروج
فى قلوبهم او لوسوسة الشيطان بالامر بالقعود او هو حكاية قول بعضهم لبعض
او هو اذن الرسول عليه السلام لهم فى القعود والمراد بالقاعدين اما المعذورون
او غيرهم واياً ما كان فغير خال عن الذم لو خرجوا فيكم بيان لسر كراهته تعالى
لانبعاثهم اى لو خرجوا مخالطين لكم ما زادوكم اى ما اورثوكم شيئاً من
الاشياء الا خبالاً اى فساداً او شراً فالاستثناء مفرغ متصل وقيل منقطع
وليس بذاك ولاوضعوا خلالكم اى ولسعوا فيما بينكم بالنمايم والتضريب
وافساد ذات البين من وضع البعير وضعاً اذا اسرع واوضعته انا اى حملته على
الاسراع والمعنى لاوضعوا ركائبهم بينكم والمراد به المبالغة فى الاسراع بالنمايم
لان الراكب اسرع من الماشى وقرئ ولاوفضوا من رفضت الناقة اسرعت

وارقصتها انا وقرئ ولارقصوا اى اسرعوا يبغونكم يجادلون ان يفتنوكم
بايقاع الخلاف فيما بينكم والقاء الرعب فى قلوبكم وافساد نياتكم والجملة
حال من ضمير اوضعوا او استيناف وفيكم سماعون لهم اى نمامون يسمعون
حديثكم لاجل نقله اليهم او فيكم قوم ضعفة يسمعون للمنافقين اى يطيعونهم
والجملة حال من فاعل يبغونكم او من فاعله لاشتمالها على ضميرهما او مستانفة ولعلهم
لم يكونوا فى كمية العدد وكيفية الفساد بحيث يخل مكانهم فيما بين المؤمنين
بامر الجهاد اخلالاً عظيماً اذ لم يكن فساد خروجهم معادلاً لمنفعته ولذلك لم يقتض
الحكمة عدم خروجهم فخرجوا مع المؤمنين ولكن حيث كان انضمام المنافقين القاعدين
اليهم مستتبعاً لخلل كلى كره الله انبعاثهم فلم يتسن اجتماعهم فاندفع فسادهم
ووجه العتاب على الاذن فى قعودهم مع تقرره لا محالة وتضمن خروجهم لهذه
المفاسد انهم لو قعدوا بغير اذن منه عليه السلام لظهر نفاقهم فيما بين
المسلمين من اول الامر ولم يقدروا على مخالطتهم والسعى فيما بينهم بالاراجيف
ولم يتسن لهم التمتع بالعيش الى ان يظهر حالهم بقوارع الايات النازلة والله
عليم بالظالمين علماً محيطاً بضمايرهم وظواهرهم وما فعلوا فيما مضى وما
يتاتى منهم فيما سيأتى ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والتشديد
فى الوعيد والاشعار بترتبه على الظلم ولعله شامل للفريقين السماعين والقاعدين
لقد ابتغوا الفتنة تشتيت شملك وتفريق اصحابك عنك من قبل اى يوم احد
حين انصرف عبد الله بن ابى بن سلول المنافق بمن معه وقد تخلف بمن معه عن
تبوك ايضاً بعد ما خرج مع النبى صلى الله عليه وسلم الى ذى جدة اسفل من ثنية
الوداع وعن ابن جريج وقفوا لرسول الله صلعم على الثنية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلاً
من المنافقين ليفتكوا به عليه السلام فردهم الله تعالى خاسئين وقلبوا لك الامور
تقليب الامر تصريفه من وجه الى وجه وترديده لاجل التدبير والاجتهاد فى المكر
والحيلة يقال للرجل المتصرف فى وجوه الحيل حول قلب اى اجتهدوا ودبروا لك الحيل
والمكايد ودوروا الآراء فى ابطال امرك وقرئ بالتخفيف حتى جاء الحق اى
النصر والتأييد الالهى وظهر امر الله غلب دينه وعلا شرعه وهم كارهون
والحال انهم كارهون لذلك اى على زعم منهم والايتان لتسلية الرسول صلى الله
عليه وسلم والمؤمنين عن تخلف المتخلفين وبيان ما ثبطهم الله تعالى لاجله وهتك
استارهم وكشف اسرارهم وازاحة اعذارهم تداركاً لما عسى يفوت
بالمبادرة الى الاذن وايذاناً بان ما فات بها ليس مما لا يمكن تلافيه تهويناً للخطب
ومنهم من يقول ائذن لى فى القعود ولا تفتنى اى لا توقعنى فى الفتنة و
هى العصيان والاثم يريد انى متخلف لا محالة اذنت او لم تاذن فاذن لى حتى لا
اقع فى المعصية بالمخالفة او لا تلقنى فى الهلكة فانى ان خرجت معك هلك مالى
وعيالى لعدم من يقوم بمصالحهم وقيل قال الجد بن قيس قد علمت الانصار
انى مستهتر بالنساء فلا تفتنى ببنات الاصفر يعنى نساء الروم ولكن اعينك
بمالى فاتركنى وقرئ ولا تفتنى من افتنه بمعنى فتنه الا فى الفتنة اى فى عينها
ونفسها واكمل افرادها الغنى عن الوصف بالكمال الحقيق باختصاص اسم الجنس به
سقطوا لا فى شئ مغاير لها فضلاً عن ان يكون مهرباً ومخلصاً عنها وذلك بما
فعلوا من العزيمة على التخلف والجرأة على الاستيذان بهذه الطريقة الشنيعة ومن
القعود بالاذن المبنى عليه وعلى الاعتذارات الكاذبة وقرئ بافراد الفعل محافظة
على لفظ من وفى تصدير الجملة بحرف التنبيه مع تقديم الظرف ايذان بانهم وقعوا
فيها وهم يحسبون انها منجى من الفتنة زعماً منهم ان الفتنة انما هى التخلف بغير
اذن وفى التعبير عن الافتتان بالسقوط فى الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة
المفصحة عن ترديهم فى دركات الردى اسفل سافلين وقوله عز وجل وان جهنم

لمحيطة بالكافرين وعيد لهم على ما فعلوا معطوف على الجملة السابقة داخل تحت
التنبيه اى جامعة لهم يوم القيمة من كل جانب وايثار الجملة الاسمية للدلالة على
الثبات والاستمرار او محيطة بهم الآن تنزيلا لشئ سيقع عن قريب منزلة
الواقع او وضعا لاسباب الشئ موضعه فان مبادى احاطة النار بهم من
الكفر والمعاصى محيطة بهم الآن من جميع الجوانب ومن جملتها ما فرقوا منه وما
سقطوا فيه من الفتنة وقيل تلك المبادى المتشكلة بصور الاعمال والاخلاق هى
النار بعينها ولكن لا يظهر ذلك فى هذه النشاة وانما يظهر عند تشكلها بصورها
الحقيقية فى النشاة الآخرة والمراد بالكافرين اما المنافقون وايثار وضع المظهر
موضع المضمر للتسجيل عليهم بالكفر والاشعار بانه معظم اسباب الاحاطة المذكورة
واما جميع الكافرين الشاملين للمنافقين شمولا اوليا ان تصبك فى بعض
مغازيك حسنة تسؤهم من الظفر والغنيمة وان تصبك فى بعضها مصيبة
من شدة يقولوا متبجحين بما صنعوا حامدين لآرائهم قد اخذنا امرنا اى
تلافينا ما يهمنا من الامر يعنون به الاعتزال عن المسلمين والقعود عن الحرب والمداراة
مع الكفرة وغير ذلك من امور الكفر والنفاق قولا وفعلا من قبل اى من قبل اصابة
المصيبة فى وقت تداركه يشيرون بذلك الى ان المعاملة المذكورة انما تروج عند الكفرة
بوقوعها حال قوة الاسلام لا بعد اصابة المصيبة ويتولوا عن مجلس الاجتماع و
التحدث الى اهاليهم او يعرضوا عن النبى صلى الله عليه وسلم وهم فرحون
بما صنعوا من اخذ الامر وبما اصابه عليه الصلوة والسلام والجملة حال من الضمير
فى يقولوا ويتولوا لا فى الاخير فقط لمقارنة الفرح لهما معا وايثار الجملة الاسمية
للدلالة على دوام السرور واسناد المساءة الى الحسنة والمسرة الى انفسهم دون
المصيبة بان يقال وان تصبك مصيبة يسروا للايذان باختلاف حاليهم حالتى عروض
المساءة والمسرة بانهم فى الاولى مضطرون وفى الثانية مختارون قل بيانا لبطلان
ما بنوا عليه مسرتهم من الاعتقاد لن يصيبنا ابدا وقرئ هل يصيبنا وهل يصيبنا
من فيعل لا من فعل لانه واوى يقال صاب السهم يصوب واشتقاقه من الصواب
الا ما كتب الله لنا اى اثبته لمصلحتنا الدنيوية او الاخروية من النصرة عليكم
او الشهادة المؤدية الى النعيم الدائم هو مولانا ناصرنا ومتولى امورنا وعلى الله
وحده فليتوكل المؤمنون التوكل تفويض الامر الى الله والرضى بما فعله وان كان ذلك
بعد ترتيب المبادى العادية والفاء للدلالة على السببية والاصل ليتوكل المؤمنون على الله
قدم الظرف على الفعل لافادة القصر ثم ادخل الفاء للدلالة على استيجابه تعالى التوكل عليه
كما فى قوله تعالى واياى فارهبون والجملة ان كانت من تمام الكلام المأمور به فاظهار
الاسم الجليل فى مقام الاضمار لاظهار التبرك والتلذذ به وان كانت مسوقة من قبله تعالى
امرا للمؤمنين بالتوكل اثر امره صلى الله عليه وسلم بما ذكر فالامر ظاهر وكذا اعادة
الامر فى قوله عز وجل قل هل تربصون بنا لانقطاع حكم الامر الاول بالثانى و
ان كان امر الغائب واما على الوجه فهى لابراز كمال العناية بشأن المأمور به والاشعار
بما بينه وبين ما امر به اولا من الفرق فى السياق والتربص التمكث مع انتظار مجئ
شئ خيرا كان او شرا والباء للتعدية واحدى التاءين محذوفة اى ما تنتظرون الا احدى
الحسنيين اى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هى حسنى العواقب وهما النصر والشهادة
وهذا نوع بيان لما ابهم فى الجواب الاول وكشف لحقيقة الحال باعلام ان ما
يزعمونه مضرة للمسلمين من الشهادة انفع مما يعدونه منفعة من النصر
والغنيمة ونحن نتربص بكم احدى السوءيين من العواقب اما ان يصيبكم
الله بعذاب من عنده كما اصاب من قبلكم من الامم المهلكة والظرف صفة عذاب
ولذلك حذف عامله وجوبا او بعذاب بايدينا وهو القتل على الكفر فتربصوا
الفاء فصيحة اى اذا كان الامر كذلك فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا انا معكم متربصون

ما هو عاقبتكم فاذا لقى كل منا ومنكم ما يتربصه لا تشاهدون الا ما يسرنا ولا
نشاهد الا ما يسوءكم قل انفقوا اموالكم فى سبيل الله طوعا او كرها مصدران
وقعا موقع الفاعل اى طائعين او كارهين وهو امر فى معنى الخبر كقوله تعالى استغفر
لهم او لا تستغفر لهم والمعنى انفقتم طوعا او كرها لن يتقبل منكم
ونظم الكلام فى سلك الامر للمبالغة فى بيان تساوى الامرين فى عدم القبول كانهم
امروا بان يمتحنوا الحال فينفقوا على الحالين فينظروا هل يتقبل منهم فشاهدوا
عدم القبول وهو جواب قول جد بن قيس ولكن اعينك بمالى ونفى التقبل يحتمل ان
يكون بمعنى عدم الاخذ منهم وان يكون بمعنى عدم الاثابة عليه وقوله تعالى انكم
كنتم قوما فاسقين اى عاتين متمردين تعليل لرد انفاقهم وما منعهم ان
تقبل منهم وقرئ بالتحتانية نفقاتهم الا انهم كفروا بالله وبرسوله
استثناء من اعم الاشياء اى ما منعهم قبول نفقاتهم منهم شئ من
الاشياء الا كفرهم وقرئ نقبل على البناء للفاعل وهو الله تعالى ولا يأتون الصلوة الا
وهم كسالى اى لا يأتونها فى حال من الاحوال الا حال كونهم متثاقلين ولا
ينفقون الا وهم كارهون لانهم لا يرجون بهما ثوابا ولا يخافون على تركهما
عقابا فقوله تعالى طوعا اى من غير الزام من جهته عليه السلام لا رغبة او هو
فرض لتوسيع الدائرة فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم فان ذلك استدراج
لهم ووبال عليهم حسبما ينبئ عنه قوله عز وجل انما يريد الله ليعذبهم بها فى
الحيوة الدنيا بما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب وما يقاسون فيها من
الشدائد والمصائب وتزهق انفسهم وهم كافرون فيموتوا كافرين مشتغلين
بالتمتع عن النظر فى العاقبة فيكون ذلك لهم نقمة لا نعمة واصل الزهوق الخروج
بصعوبة ويحلفون بالله انهم لمنكم فى الدين والاسلام وما هم منكم فى ذلك
ولكنهم قوم يفرقون يخافون ان يفعل بهم ما يفعل بالمشركين فيتظاهرون بالاسلام
تقية ويؤيدونه بالايمان الفاجرة لو يجدون ملجأ استئناف مقرر لمضمون ما
سبق من انهم ليسوا من المسلمين وان التجاءهم الى الانتماء اليهم انما هو للتقية
اضطرارا حتى انهم لو وجدوا غير ذلك ملجأ اى مكانا حصينا يلجأون اليه من
راس جبل او قلعة او جزيرة وايثار صيغة الاستقبال فى الشرط وان كان المعنى على المضى
لافادة استمرار عدم الوجدان فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى
افادة انتفاء استمرار الفعل كما هو الظاهر بل قد يفيد استمرار انتفائه ايضا حسبما
يقتضيه المقام فان معنى لو تحسن الى لشكرتك يتوقف على وجود الاحسان لا على
استمراره كما حقق فى موضعه او مغارات اى غيرانا وكهوفا يخفون فيها
انفسهم وقرئ بضم الميم من اغار الرجل اذا دخل الغور وقيل هو متعد من
غار اذا دخل الغور اى امكنة يغيرون فيها اشخاصهم واهليهم ويجوز
ان يكون من اغار الثعلب اذا اسرع بمعنى مهارب ومغار او مدخلا اى نفقا يندسون
فيه وينجحرون وهو مفتعل من الدخول وقرئ مدخلا من دخل ومدخلا من
الادخال اى مكانا يدخلون فيه انفسهم وقرئ متدخلا ومندخلا من التدخل
والاندخال لولوا اى لصرفوا وجوههم واقبلوا وقرئ لوالوا اى لالتجأوا
اليه اى الى احد ما ذكر وهم يجمحون اى يسرعون بحيث لا يردهم شئ من
الفرس الجموح وهو الذى لا يثنيه اللجام وفيه اشعار بكمال عتوهم وطغيانهم
وقرئ يجمزون بمعنى يجمحون ويشتدون ومنه الجمازة ومنهم من يلمزك بكسر
الميم وقرئ بضمها اى يعيبك سرا وقرئ يلمزك ويلامزك مبالغة فى الصدقات
اى فى شأنها وقسمتها فان اعطوا منها بيان لفساد لمزهم وانه لا منشأ
له سوى حرصهم على حطام الدنيا اى ان اعطوا منها قدر ما يريدون رضوا
بما وقع من القسمة واستحسنوها وان لم يعطوا منها ذلك المقدار اذا هم يسخطون

اى يفاجئون السخط واذا نائب مناب فاء الجزاء وقيل نزلت الآية فى ابى الجواظ المنافق حيث
قال الا ترون الى صاحبكم يقسم صدقاتكم فى رعاة الغنم ويزعم انه يعدل
وقيل فى ابن ذى الخويصرة واسمه حرقوص بن زهير التميمى رأس الخوارج كان رسول الله صلعم
يقسم غنائم حنين فاستعطف قلوب اهل مكة بتوفير الغنائم عليهم فقال اعدل يا رسول الله
فقال عليه الصلوة والسلام ويلك ان لم اعدل فمن يعدل وقيل هم المؤلفة قلوبهم
والاول هو الاظهر ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله اى ما اعطاهم الرسول عليه السلام
من الصدقات طيبى النفوس به وان قل وذكر الله تعالى للتعظيم والتنبيه على ان ما فعله
الرسول صلعم كان بامره سبحانه وقالوا حسبنا الله اى كفانا فضله وصنعه بنا وما قسم
لنا سيؤتينا الله من فضله ورسوله بعد هذا حسبما نرجوا ونؤمل انا الى الله راغبون
فى ان يخولنا فضله والآية باسرها فى حيز الشرط والجواب محذوف بناء على ظهوره اى لكان خيرا
لهم انما الصدقات شروع فى تحقيق حقية ما صنعه الرسول صلعم من القسمة ببيان المصارف
ورد لمقالة القالة فى ذلك وحسم لاطماعهم الفارغة المبنية على زعمهم الفاسد ببيان
انهم بمعزل من الاستحقاق اى جنس الصدقات المشتملة على الانواع المختلفة للفقراء
والمساكين اى مخصوصة بهؤلاء الاصناف الثمانية الآتية لا يتجاوزهم الى غيرهم
كانه قيل انما هى لهم لا لغيرهم فما للذين لا علاقة بينها وبينهم يقولون فيها ما يقولون
وما سوغ لهم ان يتكلموا فيها وفى قاسمها والفقير من له ادنى شئ والمسكين من لا شئ
له هو المروى عن ابى حنيفة رحمه الله وقد قيل على العكس ولكل منها وجه يدل عليه و
العاملين عليها الساعين فى جمعها وتحصيلها والمؤلفة قلوبهم هم اصناف فمنهم
اشراف من العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألفهم ليسلموا فيرضخ لهم
ومنهم قوم اسلموا ونياتهم ضعيفة فيؤلف قلوبهم باجزال العطاء كعيينة بن حصن
والاقرع بن حابس والعباس بن مرداس ومنهم من يترقب باعطائهم اسلام
نظرائهم ولعل الصنف الاول كان يعطيهم الرسول صلى الله عليه وسلم من خمس
الخمس الذى هو خالص ماله وقد عد منهم من يؤلف قلبه بشئ منها على قتال الكفار
ومانعى الزكوة وقد سقط سهم هؤلاء بالاجماع لما ان ذلك كان لتكثير سواد الاسلام
فلما اعزه الله عز وعلا واعلى كلمته استغنى عن ذلك وفى الرقاب اى وللصرف
فى فك الرقاب بان يعان المكاتبون بشئ منها على اداء نجومهم وقيل بان يفدى
الاسارى وقيل بان يبتاع منها الرقاب فتعتق واياما كان فالعدول عن اللام لعدم ذكرهم
بعنوان مصحح للمالكية والاختصاص كالذين من قبلهم او للايذان بعدم قرار ملكهم
فيما اعطوا كما فى الوجهين الاولين او بعدم ثبوته رأسا كما فى الوجه الاخير او للاشعار
برسوخهم فى استحقاق الصدقة لما ان فى للظرفية المنبئة عن احاطتهم بها وكونهم
محلها ومركزها والغارمين اى الذين تدينوا لانفسهم فى غير معصية اذا لم يكن
لهم نصاب فاضل عن ديونهم وكذلك عند الشافعى رحمه الله من غرم لاصلاح ذات
البين واطفاء النائرة بين القبيلتين وان كانوا اغنياء وفى سبيل الله اى فقراء الغزاة
والحجيج المنقطع بهم وابن السبيل اى المسافر المنقطع عن ماله وتكرير الظرف
فى الاخيرين للايذان بزيادة فضلهما فى الاستحقاق ولما ذكر من ايرادهما بعنوان
غير مصحح للمالكية والاختصاص فهذه مصارف الصدقات فللمتصدق ان يدفع صدقته الى كل
واحد منهم وان يقتصر على صنف منهم لان اللام لبيان انهم مصارف لا يخرج عنهم
لا لاثبات الاستحقاق وقد روى ذلك عن عمر وابن عباس وحذيفة رضى الله عنهم و
وعند الشافعى رحمه الله لا يجوز الا ان يصرف الى ثلثة من تلك الاصناف فريضة من الله
مصدر مؤكد لما دل عليه صدر الآية اى فرض لهم الصدقات فريضة ونقل عن
سيبويه انه منصوب بفعله مقدرا اى فرض الله ذلك فريضة او حال من الضمير
المستكن فى قوله للفقراء اى انما الصدقات كائنة لهم حال كونها فريضة اى مفروضة
والله عليم باحوال الناس ومراتب استحقاقهم حكيم لا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة من الامور

الحسنة

الحسنة التى من جملتها سوق الحقوق الى مستحقها ومنهم الذين يؤذون النبى نزلت
فى فرقة من المنافقين قالوا فى حقه عليه السلام ما لا ينبغى فقال بعضهم لا تفعلوا فانا
نخاف ان يبلغه ذلك فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد نقول ما شئنا ثم نأتيه فننكر ما
قلنا ونحلف فيصدقنا انما محمد اذن سامعة وذلك قوله عز وجل ويقولون
هو اذن اى يسمع كل ما قيل من غير ان يتدبر فيه ويميز بين ما يليق بالقبول لمساعدة امارات
الصدق له وبين ما لا يليق به وانما قالوه لان النبى صلى الله عليه وسلم كان لا يواجههم
بسوء ما صنعوا ويصفح عنهم حلما وكرما فحملوه على سلامة القلب قالوا ما قالوا قل
اذن خير لكم من قبيل رجل صدق فى الدلالة على المبالغة فى الجودة والصلاح كانه
قيل نعم هو اذن ولكن نعم الاذن ويجوز ان يكون المراد اذن فى الخير والحق وفيما
ينبغى سماعه وقبوله لا فى غير ذلك كما يدل عليه قراءة رحمة بالجر عطفا عليه اى هو اذن
خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله وقرئ اذن بسكون الذال فيهما وقرئ اذن خير على
انه صفة او خبر ثان وقوله عز وجل يؤمن بالله تفسير لكونه اذن خير لهم اى يصدق
بالله تعالى لما قام عنده من الادلة الموجبة له وكون ذلك خير المخاطبين كما انه خير للعالمين
مما لا يخفى ويؤمن للمؤمنين اى يصدقهم لما علم فيهم من الخلوص واللام
مزيدة للتفرقة بين الايمان المشهور وبين الايمان بمعنى التسليم والتصديق كما فى قوله
تعالى انؤمن لك الخ وقوله تعالى فما آمن لموسى الخ ورحمة عطف على اذن خير اى
وهو رحمة بطريق اطلاق المصدر على الفاعل للمبالغة للذين آمنوا منكم
اى للذين اظهروا الايمان منكم حيث يقبله منهم لكن لا تصديقا لهم فى ذلك بل رفقا
بهم وترحما عليهم ولا يكشف اسرارهم ولا يهتك استارهم واسناد الايمان اليهم
بصيغة الفعل بعد نسبته الى المؤمنين بصيغة الفاعل المنبئة عن الرسوخ والاستمرار
للايذان بان ايمانهم امر حادث ماله من قرار وقرئ بالنصب على انها علة لفعل
دل عليه اذن خير اى يأذن لكم رحمة والذين يؤذون رسول الله بما نقل عنهم
من قولهم هو اذن ونحوه وفى صيغة الاستقبال المشعرة بترتب الوعيد على الاستمرار
على ما هم عليه اشعار بقبول توبتهم كما افصح عنه قوله تعالى فيما سيأتى فان يتوبوا
يك خيرا لهم بما يجترون عليه من اذيته عليه السلام كما ينبئ عنه بناء الحكم على
الموصول عذاب اليم وهذا اعتراض مسوق من قبله عز وجل على نهج الوعيد غير
داخل تحت الخطاب وفى تكرير الاسناد باثبات العذاب الاليم لهم ثم جعل الجملة خبرا
للموصول ما لا يخفى من المبالغة وايراده عليه السلام بعنوان الرسالة مضافا الى الاسم
الجليل لغاية التعظيم والتنبيه على ان اذيته راجعة الى جنابه عز وجل موجبة لكمال السخط
والغضب يحلفون بالله لكم الخطاب للمؤمنين خاصة وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن
ثم يأتونهم فيعتذرون اليهم ويؤكدون معاذيرهم بالايمان ليعذروهم ويرضوا عنهم
اى يحلفون لكم انهم ما قالوا ما نقل اليهم مما يورث اذاة النبى صلى الله عليه وسلم
واما التخلف عن الجهاد فليس بداخل فى هذا الاعتذار ليرضوكم بذلك وافراد
ارضائهم بالتعليل مع ان عمدة اغراضهم ارضاء الرسول عليه السلام وقد
قيل عليه السلام ذلك منهم ولم يكذبهم للايذان بان ذلك بمعزل من ان يكون
وسيلة الى ارضائه عليه السلام وانه عليه السلام انما لم يكذبهم رفقا بهم و
سترا لعيوبهم لا عن رضى بما فعلوا كما اشير اليه والله ورسوله احق ان يرضوه
اى احق بالارضاء ولا يتسنى ذلك الا بالطاعة والمتابعة وايفاء حقوقه عليه السلام
فى باب الاجلال والاعظام مشهدا ومغيبا واما ما اتوا به من الايمان الفاجرة فانما يرضى
بها من انحصر طريق علمه فى الاخبار الى ان يجئ الحق ويزهق الباطل والجملة نصب على الحالية
من ضمير يحلفون اى يحلفون لكم لارضائكم والحال انه تعالى ورسوله احق بالارضاء
منكم اى يعرضون عما يهمهم ويجديهم ويشتغلون بما لا يعنيهم وافراد الضمير
فى يرضوه اما للايذان بان رضاه عليه السلام مندرج تحت رضاه سبحانه وارضاه

عليه السلام ارضاله لقوله تعالى من يطع الرسول فقد اطاع الله واما لانه مستعار لاسم
الاشارة الذي يشار به الى الواحد والمتعدد بتاويل المذكور كما فى قول رؤبه فيها
خطوط من سواد وبلق كانه فى الجلد توليع البهق اى كان ذلك لا يقال اى حاجة
الى الاستعارة بعد التاويل المذكور لانا نقول لولا الاستعارة لم يستحسن التاويل لما
ان الضمير لا يتعرض الا للذات ما يرجع اليه من غير تعرض لوصف من اوصافه التى من
جملتها المذكورية وانما المتعرض لها اسم الاشارة واما لانه عايد الى رسوله والكلام
جملتان حذف خبر الاولى لدلالة خبر الثانية عليه كما ذهب اليه سيبويه ومنه قول من
قال نحن بما عندنا وانت بما عندك راض والراى مختلف او الى الله على ان المذكور
خبر الجملة الاولى وخبر الثانية محذوف كما راى المبرد ان كانوا مؤمنين جوابه
محذوف بقوله الا على دلالة ما سبق عليه اى ان كانوا مؤمنين فليرضوا الله ورسوله
بما ذكر فانهما احق بالارضا الم يعلموا اى اولئك المنافقون والاستفهام للتوبيخ
على ما اقدموا عليه من العظيمة مع علمهم بسوء عاقبتها وقرئ بالتاء على الالتفات
لزيادة التقريع والتوبيخ اى الم يعلموا بما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم
من فنون القوارع والانذارات انه اى الشأن من يحادد الله ورسوله المحادة
من الحد كالمشاقة من الشق والمعادات من العدوة بمعنى الجانب فان كل واحد من
مباشري كل من الافعال المذكورة فى محل غير محل صاحبه ومن شرطية جوابها قوله
تعالى فان له نار جهنم على ان خبره محذوف اى فحق ان له نار جهنم وقرئ بكسر الهمزة
والجملة الشرطية فى محل الرفع على انها خبر لان وهى مع خبرها سادة مسد مفعولي يعلموا
وقيل المعنى فله وان تكرير للاولى تاكيدا لطول العهد لا من باب التاكيد اللفظى
المانع للاولى من العمل لدخول الفاء كما فى قول من قال لقد علم الحي اليمانون انني
اذا قلت اما بعد انى خطيبها وقد جوز ان يكون فان له معطوفا على انه وجواب الشرط
محذوف تقديره الم يعلموا انه من يحادد الله ورسوله يهلك فان له الاخرة ورد بان ذلك انما يجوز
عند كون فعل الشرط ماضيا او مضارعا مجزوما بلم خالدا فيها حال مقدرة من الضمير المجرور
ان اعتبر فى الظرف ابتداء الاستقرار وحدوثه وان اعتبر مطلق الاستقرار فالامر ظاهر
ذلك اشير الى ما ذكر من العذاب الخالد بن اليك ايذانا ببعد درجته فى الهول والفظاعة
الخزي العظيم الخزي الذل والهوان المقارن للفضيحة والندامة وهى ثمرات نفاقهم
حيث يفتضحون على رؤس الاشهاد بظهوره ولحوق العذاب الخاص بهم والجملة تذييل لما سبق
يحذر المنافقون ان تنزل عليهم فى شأنهم فان ما نزل فى حقهم نازل عليهم سورة تنبئهم
بما فى قلوبهم من الاسرار الخفية فضلا عما كانوا يظهرون فيما بينهم من اقاويل الكفر والنفاق
ومعنى تنبئتها اياهم بما فى قلوبهم مع انه معلوم لهم وان المحذور عندهم اطلاع المؤمنين
على اسرارهم لا اطلاع انفسهم عليها انها تذيع ما كانوا يخفونه من اسرارهم فتنتشر فيما بين
الناس فيسمعونها من افواه الرجال مذاعة فكانهم تخبرهم بها والمراد بالتنبئة المبالغة فى
كون السورة مشتملة على اسرارهم كانها تعلم من احوالهم الباطنة ما لا يعلمونه فتنبؤهم بها وف
تنعى عليهم قبايحهم وقيل معنى يحذر ليحذر وقيل الضمائر الاولان للمؤمنين والثالث للمنافقين
ولا يبالي بالتفكك عند ظهور الامر بعود المعنى اليه اى يحذر المنافقون ان تنزل على المؤمنين
سورة تخبرهم بما فى قلوب المؤمنين ويهتك عليهم استارهم قال ابو مسلم كان
كان اظهار الحذر منهم بطريق الاستهزاء فانهم كانوا اذا سمعوا رسول الله صلعم
يذكر كل شئ ويقول انه بطريق الوحي يكذبونه ويستهزءون به ولذلك قيل قل استهزءوا
اى افعلوا الاستهزاء وهو امر تهديد ان الله مخرج اى من القوة الى الفعل او من الكمون
الى البروز ما تحذرون اى ما تحذرونه من انزال السورة ومن مخازيكم ومثالبكم
المستكنة فى قلوبكم الفاضحة لكم على ملأ الناس والتاكيد لرد انكارهم بذلك لا لدفع ترددهم
فى وقوع المحذور اذ ليس حذرهم بطريق الحقيقة ولئن سألتهم عما قالوا ليقولن انما كنا
نخوض ونلعب روى انه عليه السلام كان يسير فى غزوة تبوك وبين يديه ركب من

فتنتشر صح

المنافقين يستهزءون بالقران وبالرسول عليه السلام ويقولون انظروا الى هذا الرجل يريد
ان يفتح حصون الشام وقصوره هيهات هيهات فاطلع الله نبيه على ذلك فقال احبسوا على
الركب فاتاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبي الله لا والله ما كنا فى شئ من امرك ولا من امر
اصحابك ولكن كنا فى شئ مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر قل غير ملتفت
الى اعتذارهم باغيا عليهم جنايتهم منزلا لهم منزلة المعترف بوقوع الاستهزاء
موبخا لهم على اخطائهم موقع الاستهزاء ابالله واياته ورسوله كنتم تستهزءون
حيث عقب حرف التقرير بالمستهزأ به ولا يستقيم ذلك الا بعد تحقق الاستهزاء و
ثبوته لا تعتذروا لا تشتغلوا بالاعتذار وهو عبارة عن محو اثر الذنب فانه معلوم
الكذب بين البطلان قد كفرتم اظهرتم الكفر بايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم والطعن
فيه بعد ايمانكم بعد اظهاركم له ان نعف عن طائفة منكم لتوبتهم واخلاصهم
او تجنبهم عن الايذاء والاستهزاء وقرئ يعف على اسناد الفعل الى الله سبحانه وقرئ
على البناء للمفعول مسندا الى الظرف بتذكير الفعل وبتانيثه ايضا ذهابا الى المعنى كانه
قيل ان ترحم طائفة نعذب بنون العظمة وقرئ بالياء على البناء للفاعل وبالتاء على البناء
للمفعول مسندا الى ما بعده طائفة بانهم كانوا مجرمين مصرين على الاجرام وهم
غير التائبين او مباشرين له وهم غير المجتنبين قال محمد بن اسحق الذي عفى عنه رجل
واحد هو يحيى بن حمير الاشجعي لما نزلت هذه الاية تاب عن نفاقه وقال اللهم انى
لا ازال اسمع اية تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم اجعل وفاتي قتلا
فى سبيلك لا يقول احد انا غسلت انا كفنت انا دفنت فاصيب يوم اليمامة فما احد
من المسلمين الا عرف مصرعه غيره المنافقون والمنافقات التعرض لاحوال
للايذان بكمال عراقتهم فى الكفر والنفاق بعضهم من بعض اى متشابهون فى
النفاق والبعد عن الايمان كابعاض الشئ الواحد بالشخص وقيل اريد به نفي ان يكونوا
من المؤمنين وتكذيبهم فى حلفهم بالله انهم لمنكم وتقرير لقوله تعالى وما هم
منكم وقوله تعالى يأمرون بالمنكر اى بالكفر والمعاصى وينهون عن المعروف
اى عن الايمان والطاعة استئناف مقرر لمضمون ما سبق ومفصح عن مضادة
حالهم لحال المؤمنين او خبر ثان ويقبضون ايديهم اى عن المبرات والانفاق
فى سبيل الله فان قبض اليد كناية عن الشح نسوا الله اغفلوا ذكره فنسيهم فتركهم
من رحمته وفضله وخذلهم والتعبير عنه بالنسيان للمشاكلة ان المنافقين هم
الفاسقون الكاملون فى التمرد والفسوق الذي هو الخروج عن الطاعة والانسلاخ
عن كل خير والاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير كما فى قوله تعالى وعد الله
المنافقين والمنافقات والكفار اى المجاهرين نار جهنم خالدين فيها
مقدرين الخلود فيها هى حسبهم عذابا وجزاء وفيه دليل على عظم عقابها وعذابها
ولعنهم الله اى ابعدهم من رحمته واهانهم وفى اظهار الاسم الجليل من الايذان
بشدة السخط ما لا يخفى ولهم عذاب مقيم اى نوع من العذاب غير عذاب
النار دائم لا ينقطع ابدا ولهم عذاب مقيم معهم فى الدنيا لا ينفك عنهم وهو
ما يقاسونه من تعب النفاق الذي هم منه فى بلية دائمة لا يأمنون ساعة من
خوف الفضيحة ونزول العذاب ان اطلع على اسرارهم كالذين من قبلكم التفات
من الغيبة الى الخطاب للتشديد والكاف فى محل الرفع على الخبرية اى انتم مثل الذين
من قبلكم من الامم المهلكة او فى حيز النصب بفعل مقدر اى فعلتم مثل
فعل الذين من قبلكم كانوا اشد منكم قوة واكثر اموالا واولادا تفسير وبيان
لتشبههم بهم وتمثيل لحالهم بحالهم فاستمتعوا وتمتعوا وفى صيغة الاستفعال
ما ليس فى التفعل من الاستزادة والاستدامة فى التمتع بخلاقهم بنصيبهم
من ملاذ الدنيا واشتقاقه من الخلق بمعنى التقدير وهو ما قدر لصاحبه فاستمتعتم
بخلاقكم كما استمتع الكاف فى محل النصب على انه نعت لمصدر محذوف اى استمتاعا

وهم صح

كاستمتاع الذين من قبلكم بخلاقهم ذم الاولين باستمتاعهم بحظوظهم الخسيسة
من الشهوات الفانية والتهائهم بها عن النظر في العواقب الحقة واللذائذ الحقيقية
تمهيد لذم المخاطبين بمشابهتهم اياهم واقتفائهم اثرهم وخضتم اي دخلتم
في الباطل كالذي خاضوا اي كالذين باسقاط النون او كالفوج الذي او كالخوض
الذي خاضوه اولئك اشارة الى المتصفين بالاوصاف المعدودة من المشبهين و
المشبه بهم لا الى الفريق الاخير فقط فان ذلك يقتضي حبوط اعمال المشبهين وخسرانهم
مفهومين ضمنا لا صريحا ويؤدي الى خلو تلوين الخطاب عن الفائدة اذ الظاهر حينئذ
اولئكم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل من يصلح للخطاب اي اولئك الموصوفون
بما ذكر من الافعال الذميمة حبطت اعمالهم ليس المراد بها اعمالهم المعدودة كما
يشعر به التعبير عنهم باسم الاشارة فان غايتها عنه عن البيان بل اعمالهم
التي كانوا يستحقون بها اجورا حسنة لو قارنت الايمان اي ضاعت وبطلت بالكلية و
لم يترتب عليها اثر في الدنيا والآخرة بطريق المثوبة والكرامة اما في الآخرة فظاهر
واما في الدنيا فلان ما يترتب على اعمالهم فيها من الصحة والسعة وغير ذلك
حسبما ينبئ عنه قوله عز وجل من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم
فيها وهم فيها لا يبخسون ليس ترتبه عليها على طريقة المثوبة والكرامة بل بطريق
الاستدراج واولئك اي الموصوفون بحبوط الاعمال في الدارين هم الخاسرون الكاملون في
الخسران في الدارين الجامعون لمباديه واسبابه طرا فانه قد ذهبت رؤوس اموالهم التي
هي اعمالهم فيما ضرهم ولم ينفعهم قط ولو انها ذهبت فيما لا يضرهم ولا ينفعهم لكفى به
خسرانا وايراد اسم الاشارة في الموضعين للاشعار بعلية الاوصاف المشار اليها
بالحبوط والخسران الم ياتهم اي المنافقين نبأ الذين من قبلهم اي خبرهم
الذي له شأن وهو ما فعلوا وما فعل بهم والاستفهام للتقرير والتحذير قوم نوح وعاد
وثمود وقوم ابراهيم واصحاب مدين وهم قوم شعيب والمؤتفكات قريات
قوم لوط ائتفكت بهم اي انقلبت بهم فصار عاليها سافلها وامطروا حجارة من سجيل
وقيل قريات المكذبين وائتفاكهن انقلاب احوالهن من الخير الى الشر اتتهم رسلهم
بالبينات استئناف لبيان نبأهم فما كان الله ليظلمهم الفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه
الكلام ويستدعيه النظام اي فكذبوهم فاهلكهم الله فما ظلمهم بذلك وايثار ما عليه
النظم الكريم للمبالغة في تنزيه ساحة السبحان عن الظلم اي ما صح وما استقام له ان
يظلمهم ولكنهم ظلموا انفسهم والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل في قوله عز وجل
ولكن كانوا انفسهم يظلمون للدلالة على استمرار ظلمهم حيث لم يزالوا يعرضونها
للعقاب بالكفر والتكذيب وتقديم المفعول لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير
قصد الى قصر المظلومية عليهم على رأي من لا يرى التقديم موجبا للقصر فيكون كما في قوله
تعالى وما ظلمناهم ولكن ظلموا انفسهم من غير قصر للظلم على الفاعل والمفعول وسيجيء
لهذا مزيد بيان في قوله سبحانه ان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون
والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض بيان لحسن حال المؤمنين والمؤمنات
حالا ومآلا اثر بيان قبح حال اضدادهم عاجلا وآجلا والتعبير عن نسبة هؤلاء بعضهم
الى بعض بالولاية وعن نسبة اولئك بمن الاتصالية للايذان بان نسبة هؤلاء بطريق
القرابة الدينية المبنية على المعاقدة المستتبعة للآثار من المعونة والنصرة وغير ذلك
ونسبة اولئك بمقتضى الطبيعة والعادة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
اي عن جنس المعروف والمنكر المنتظمين لكل خير وشر ويقيمون الصلوة فلا يزالون
يذكرون الله سبحانه فهو في مقابلة ما سبق من قوله تعالى نسوا الله ويؤتون الزكوة
بمقابلة قوله تعالى ويقبضون ايديهم ويطيعون الله ورسوله اي في كل امر ونهي وهو
بمقابلة وصف المنافقين بكمال الفسق والخروج عن الطاعة اولئك اشارة الى المؤمنين والمؤمنات
باعتبار اتصافهم بما سلف من الصفات الفاضلة وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد درجتهم

في الفضل

في الفضل اي اولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة سيرحمهم الله اي يفيض
عليهم آثار رحمته من التأييد والنصرة البتة فان السين مؤكدة للوقوع كما في قولك
سأنتقم منك ان الله عزيز تعليل للوعد اي قوي قادر على اعزاز اوليائه وقهر
اعدائه حكيم يبني احكامه على اساس الحكمة الداعية الى ايصال الحقوق من النعمة
والنقمة الى مستحقيها من اهل الطاعة واهل المعصية وهذا وعد للمؤمنين متضمن
لوعيد المنافقين كما ان ما سبق في شأن المنافقين من قوله تعالى فنسيهم وعيد لهم
متضمن لوعد المؤمنين فان منع لطفه تعالى عنهم لطف في حق المؤمنين وعد الله المؤمنين
والمؤمنات تفصيل لآثار رحمته الاخروية اثر ذكر رحمته الدنيوية والاظهار في موقع
الاضمار لزيادة التقرير والاشعار بعلية وصف الايمان لحصول ما تعلق به الوعد
وعدم التعرض لذكر ما مر من الامر بالمعروف وغيره للايذان بانه من لوازمه ومستتبعاته
اي وعدهم وعدا شاملا لكل احد منهم على اختلاف طبقاتهم في مراتب الفضل كيفا وكما
جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها فان كل احد منهم فائز بها لا محالة و
مساكن طيبة اي وعد بعض الخواص من الكمل منهم منازل تستطيبها النفوس او
يطيب فيها العيش في الخبر انها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الاحمر في جنات
عدن هي ابهى اماكن الجنات واسناها عن النبي صلى الله عليه وسلم عدن دار الله لم ترها
عين ولم يخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلثة النبيون والصديقون والشهداء
يقول الله تعالى طوبى لمن دخلك وعن ابن عمر رضه ان في الجنة قصرا يقال له عدن حوله
البروج والمروج وله خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حبرة لا يدخله الا نبي
او صديق او شهيد وعن ابن مسعود رضه هي بطنان الجنة وسرتها فعدن
على هذا علم وقيل هو بمعناه اللغوي اعني الاقامة والخلود فمرجع العطف الى
اختلاف الوصف وتغايره فكانه وصفه اولا بانه من جنس ما هو ابهى الاماكن
المعروفة عندهم من الجنات ذات الانهار الجارية ليميل اليه طباعهم اول ما يقرع
اسماعهم ثم وصفه بانه محفوف بطيب العيش معرى عن شوائب الكدورات التي لا يكاد
يخلو عنها اماكن الدنيا وفيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين ثم وصفه بانه دار
اقامة وثبات في جوار العليين لا يعتريهم فيها فناء ولا تغير ثم وعدهم بما هو اعلى
من ذلك كله فقال ورضوان من الله اي وشيء يسير من رضوانه تعالى اكبر اذ عليه
يدور فوز كل خير وسعادة وبها يناط نيل كل شرف وسيادة ولعل عدم نظمه
في سلك الوعد مع عزته في نفسه لانه متحقق في ضمن كل موعود ولانه مستمر في
الدارين روي انه تعالى يقول لاهل الجنة هل رضيتم فيقولون ما لنا لا نرضى وقد اعطيتنا
ما لم تعط احدا من خلقك فيقول انا اعطيكم افضل من ذلك قالوا واي شيء افضل من
ذلك قال احل عليكم رضواني فلا اسخط عليكم ابدا ذلك اشارة الى ما سبق ذكره
وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجته في العظم والفخامة هو الفوز العظيم
دون ما يعده الناس فوزا من حظوظ الدنيا فانها مع قطع النظر عن فنائها وتغيرها
وتنغصها وتكدرها ليست بالنسبة الى ادنى شيء من نعيم الآخرة بمثابة جناح البعوض قال
رسول الله صلعم لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة
ماء ونعم ما قال من قال تالله لو كانت الدنيا باجمعها تبقى علينا ويأتي رزقها رغدا
ما كان من حق حر ان يذل لها فكيف وهي متاع يضمحل غدا يا ايها النبي جاهد
الكفار اي المجاهرين منهم بالسيف والمنافقين بالحجة واقامة الحدود واغلظ
عليهم في ذلك ولا تأخذك بهم رأفة قال عطا نسخت هذه الآية كل شيء من العفو
والصفح ومأواهم جهنم جملة مستأنفة لبيان آجل امرهم اثر بيان عاجله
وقيل حالية وبئس المصير تذييل لما قبله والمخصوص بالذم محذوف يحلفون
بالله ما قالوا استئناف لبيان ما صدر عنهم من الجرائم الموجبة لما مر من الامر بالجهاد
والغلظة عليهم ودخولهم جهنم روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اقام في غزوة

تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمعه من كان منهم معه ثم
فقال الجلاس بن سويد منهم لئن كان ما يقول محمد حقا لاخواننا الذين خلفناهم وهم
ساداتنا واشرافنا فنحن شر من الحمر فقال عامر بن قيس الانصاري اجل والله ان محمدا
لصادق وانت شر من الحمار وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضر فحلف
بالله ما قال فرفع عامر يده فقال اللهم انزل على عبدك ونبيك تصديق الكاذب وتكذيب
الصادق فنزل وايثار صيغة الاستقبال في يحلفون لاستحضار الصورة او للدلالة على
تكرر الحلف وصيغة الجمع في قالوا مع ان القائل هو الجلاس للايذان بان بقيتهم برضاهم
بقوله صاروا بمنزلة القائل ولقد قالوا كلمة الكفر هي ما حكي آنفا والجملة مع ما عطف
عليها اعتراض وكفروا بعد اسلامهم اي واظهروا ما في قلوبهم من الكفر بعد
اظهارهم الاسلام وهموا بما لم ينالوا هو الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم
وذلك انه توافق خمسة عشر منهم على ان يدفعوه عليه السلام عن راحلته اذا تسنم
العقبة بالليل وكان عمار بن ياسر آخذا بخطام راحلته يقودها وحذيفة اليمان خلفها
يسوقها فبيناهما كذلك اذ سمع حذيفة بوقع اخفاف الابل وبقعقعة السلاح فالتفت
فاذا قوم متلثمون فقال اليكم اليكم يا اعداء الله فهربوا وقيل هم المنافقون بقتل
عامر لرده على الجلاس وقيل ارادوا ان يتوجوا عبد الله بن ابي بن سلول وان لم يرض
به رسول الله صلى الله عليه وسلم وما نقموا اي ما انكروا وما عابوا او وما وجدوا
ما يورث نقمتهم الا ان اغناهم الله ورسوله من فضله سبحانه وتعالى وذلك
انهم كانوا حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في غاية ما يكون
من ضنك العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فاثروا بالغنائم وقتل للجلاس
مولى فامر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثني عشر الف درهم فاستغنى
والاستثناء مفرغ من اعم المفاعيل او من اعم العلل اي وما انكروا شيئا من الاشياء الا

> واما انكروا صح

اغناء الله تعالى اياهم او ما انكروا لعلة من العلل الا لاغناء الله اياهم فان يتوبوا
عما هم عليه من الكفر والنفاق يك خيرا لهم في الدارين قيل لما تلاها رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال الجلاس يا رسول الله لقد عرض الله علي التوبة والله
لقد قلته وصدق عامر فتاب الجلاس وحسنت توبته وان يتولوا اي استمروا على
ما كانوا عليه من التولي والاعراض عن الدين او اعرضوا عن التوبة بعد هذا العرض
يعذبهم الله عذابا اليما في الدنيا بالقتل والاسر والنهب وغير ذلك من فنون
العقوبات والآخرة بالنار وغيرها من افانين العقاب وما لهم في الارض
مع سعتها وتباعد اقطارها وكثرة اهلها المصححة لوجدان ما نفي بقوله عز وجل
من ولي ولا نصير ينقذهم من العذاب والشفاعة او المدافعة ومنهم بيان
لقبائح بعض آخر منهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن لنؤتين
الزكاة وغيرها من الصدقات ولنكونن من الصالحين قال ابن عباس رضي الله عنهما
يريد الحج وقرئ بالنون الخفيفة فيهما قيل نزلت في ثعلبة بن حاطب اتى النبي
صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ادع الله ان يرزقني مالا فقال عليه السلام
يا ثعلبة قليل تؤدي حقه خير من كثير لا تطيقه فراجعه وقال والذي بعثك بالحق لئن
رزقني مالا لاعطين كل ذي حق حقه فدعا له فاتخذ غنما فنمت كما ينمي الدود حتى
ضاقت بها المدينة فنزل واديا وانقطع من الجماعة والجمعة فسأل عنه رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقيل كثر ماله حتى لا يسعه واد فقال يا ويح ثعلبة فبعث مصدقين
لاخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة
واقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي فيه الفرائض فقال ما هذه
الا جزية ما هذه الا اخت الجزية وقال ارجعا حتى ارى رأيي وذلك قوله عز وجل
فلما آتاهم من فضله بخلوا به اي منعوا حق الله منه وتولوا اي اعرضوا عن طاعة الله
سبحانه فلما رجعا قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ان يكلماه يا ويح ثعلبة

مرتين فنزلت فجاء ثعلبة بالصدقة فقال عليه السلام ان الله منعني ان اقبل منك فجعل
التراب على رأسه فقال عليه السلام هذا عملك قد امرتك فلم تطعني فقبض عليه الصلاة
والسلام فجاء بها الى ابي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها وجاء بها الى عمر رضي الله عنه فلم يقبلها وهلك
في خلافة عثمان رضي الله عنه وقيل نزلت فيه وفي سهل بن الحرث وجد بن القيس ومعتب
بن قشير والاول هو الاشهر وهم معرضون جملة معترضة اي وهم قوم
عادتهم الاعراض او حالية اي تولوا باجرامهم وهم معرضون بقلوبهم فاعقبهم
اي جعل الله عاقبة فعلهم ذلك نفاقا راسخا في قلوبهم الى يوم يلقونه
الى يوم موتهم الذي يلقون الله تعالى عنده او يلقون فيه جزاء عملهم وهو يوم القيامة
فقيل واورثهم البخل نفاقا متمكنا في قلوبهم ولا يلائمه قوله عز وجل بما اخلفوا الله
ما وعدوه اي بسبب اخلافهم ما وعدوه تعالى من التصدق والصلاح وبما كانوا
يكذبون اي بكونهم مستمرين على الكذب في جميع المقالات التي من جملتها وعدهم
المذكور وتخصيص الكذب به يؤدي الى تخلية الجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل
عن المزية فان تسبيب الاعقاب المذكور بالاخلاف والكذب يقضي باسناده الى الله
عز وجل اذ لا معنى لكونهما سببين لاعقاب البخل النفاق والتحقيق انه لما كانت
الفاء الدالة على الترتيب والتفريع منبئة عن ترتب اعقاب النفاق المخلد على افعالهم
المحكية عنهم من المعاهدة بالتصدق والصلاح والبخل والتولي والاعراض وفيها
ما لا دخل له في الترتيب المذكور كالمعاهدة ازيح ما في ذلك من الابهام بتعيين ما هو
المدار في ذلك والله تعالى اعلم وقرئ بتشديد الذال الم يعلموا اي المنافقون او من
عاهد الله تعالى وقرئ بالتاء الفوقانية خطابا للمؤمنين فالهمزة على الاول للانكار والتوبيخ والتهديد
اي الم يعلموا ان الله يعلم سرهم ونجواهم اي ما اسروا به في انفسهم وما تناجوا
به فيما بينهم من المطاعن وتسمية الصدقة جزية وغير ذلك مما لا خير فيه وسر
تقديم السر على النجوى سيظهر في قوله سبحانه وستردون الى عالم الغيب والشهادة
وان الله علام الغيوب فلا يخفى عليه شيء من الاشياء حتى اجترؤا عليه من العظائم

> عله ام في اعقاب النفاق المخلد لان مدار حصول النفاق وبقائه خلف الوعد حصوصا في الوعد مع الله والمداومة على الكذب كما في حديث ابو هريرة رضي الله عنه عنه صلعم آية المنافق ثلث اذا حدث كذب واذا وعد خلف واذا ائتمن خان والخيانة راجع الى الخلف او الى الكذب او اليهما جميعا فلا حاجة الى التخصيص كما هو المشهور محرره

واظهار اسم الجلالة في الموقعين لالقاء الروعة وتربية المهابة وفي ايراد العلم
المتعلق بسرهم ونجواهم بصيغة الفعل الدال على الحدوث والتجدد والعلم المتعلق
بالغيوب الكثيرة الدائمة بصيغة الاسم الدال على الدوام والمبالغة من الفخامة والجزالة
ما لا يخفى وعلى الثاني لتقرير علم المؤمنين بذلك وتنبيههم على انه تعالى مؤاخذهم ومجازيهم
بما علم من اعمالهم الذين يلمزون نصب او رفع على الذم ويجوز جره على البدلية
من الضمير في سرهم ونجواهم وقرئ بضم الميم وهي لغة اي يعيبون المطوعين
اي المتطوعين المتبرعين من المؤمنين حال من المطوعين وقوله تعالى في
الصدقات متعلق بيلمزون روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حث الناس على الصدقة
فاتى عبد الرحمن بن عوف باربعين اوقية من ذهب وقيل باربعة الآف درهم وقال
كان لي ثمانية الآف فاقرضت ربي اربعة وامسكت لعيالي اربعة فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما اعطيت وفيما امسكت فبارك له حتى صولحت
تماضر رابعة نسائه عن ربع الثمن على ثمانين الفا وتصدق عاصم بن عدي بمائة وسق
من تمر وجاء ابو عقيل الانصاري بصاع من تمر فقال بت ليلي اجر بالجرير على صاعين
فتركت صاعا لعيالي وجئت بصاع فامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ينثره على الصدقات
فلمزهم المنافقون وقالوا ما اعطى عبد الرحمن وعاصم الا رياء وان كان الله
ورسوله لغنيين عن صاع ابي عقيل ولكنه احب ان يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات
فنزلت والذين لا يجدون الا جهدهم عطف على المطوعين اي ويلمزون الذين
لا يجدون الا طاقتهم وقرئ بفتح الجيم وهو مصدر جهد في الامر اذا بالغ فيه و
قيل هو بالضم الطاقة وبالفتح المشقة فيسخرون منهم عطف على يلمزون اي يهزؤن بهم
والمراد بهم الفريق الاخير سخر الله منهم اخبار بمجازاته تعالى اياهم على ما فعلوا

من التجزية والتعبير عنها بذلك للمشاكلة ولهم اي ثابت لهم عذاب اليم التنوين للتهويل والتفخيم وايراد الجملة اسمية للدلالة على الاستمرار استغفر لهم او لا تستغفر لهم اخبار باستواء الامرين الاستغفار لهم وتركه في استحالة المغفرة وتصويره بصورة الامر للمبالغة في بيان استوائهما كانه عليه الصلوة والسلام امر بامتحان الحال بان يستغفر تارة ويتركه اخرى ليظهر له جلية الامر كما مر في قوله عز وجل قل انفقوا طوعا او كرها لن يتقبل الله منكم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم بيان لاستحالة المغفرة بعد المبالغة في الاستغفار اثر بيان الاستواء بينه وبين عدمه روي ان عبد الله بن عبد الله بن ابي وكان من المخلصين سال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض ابيه ان يستغفر له ففعل عليه السلام فنزلت فقال عليه السلام محافظة على ما هو الاصل من ان مراتب الاعداد حدود معينة يخالف حكم كل منها حكم ما فوقها ان الله قد رخص لي فسازيد على السبعين فنزلت سواء عليهم استغفرت لهم ام لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة في مطلق التكثير لاشتمال السبعة على جملة اقسام العدد فكانها العدد باسره وقيل هي اكمل الاعداد لجمعها معانيها ولان الستة اول عدد تام لتعادل اجزائها الصحيحة اذ نصفها ثلثة وثلثها اثنان وسدسها واحد وجملتها ستة وهي مع الواحد سبعة فكانت كاملة اذ لا مرتبة بعد التمام الا الكمال ثم السبعون غاية الكمال اذ الاحاد غايتها العشرات والسبعماية غاية الغايات ذلك اشارة الى امتناع المغفرة لهم ولو بعد المبالغة في الاستغفار اي ذلك الامتناع ليس لعدم الاعتداد باستغفارك بل بانهم اي بسبب انهم كفروا بالله ورسوله كفرا متجاوزا عن الحد كما يلوح به وصفهم بالفسق في قوله عز وجل والله لا يهدي القوم الفاسقين فان الفسق في كل شيء عبارة عن التمرد والتجاوز عن حدوده اي لا يهديهم هداية موصلة الى المقصد البتة لمخالفة ذلك للحكمة التي يدور عليها فلك التكوين والتشريع واما الهداية بمعنى الدلالة على ما يوصل اليه فهي متحققة لا محالة ولكنهم بسوء اختيارهم لم يقبلوها فوقعوا فيما وقعوا وهو تذييل مؤكد لما قبله من الحكم فان مغفرة الكافر انما هي بالاقلاع عن الكفر والاقبال الى الحق والمنهمك فيه المطبوع عليه بمعزل من ذلك وفيه تنبيه على عذر النبي صلعم في استغفاره لهم وهو عدم يأسه عن ايمانهم حيث لم يعلم انهم مطبوعون على الغي والضلال اذ الممنوع هو الاستغفار لهم بعد تبين حالهم كما سيتلى من قوله عز وجل ما كان للنبي الاية فرح المخلفون اي الذين خلفهم النبي صلعم بالاذن لهم في القعود عند استيذانهم او خلفهم الله بتثبيطه اياهم لما علم في ذلك من الحكمة الخفية او خلفهم كسلهم او نفاقهم بمقعدهم متعلق بفرح اي بقعودهم وتخلفهم عن الغزو خلاف رسول الله اي خلفه وبعد خروجه حيث خرج ولم يخرجوا يقال اقام خلاف الحي اي بعدهم ظعنوا ولم يظعن ويؤيده قراءة من قرأ خلف رسول الله فانتصابه على انه ظرف لمقعدهم اذ لا فائدة في تقييده فرحهم بذلك وقيل هو بمعنى المخالفة ويعضده قراءة من قرأ خلف رسول الله بضم الخاء فانتصابه على انه مفعول له بالقعود واما مقعدهم اي فرحوا بقعودهم لاجل مخالفته عليه السلام والعامل اما فرح اي فرحوا لاجل مخالفته عليه الصلوة والسلام او على انه حال والعامل احد المذكورين اي فرحوا مخالفين له عليه السلام بالقعود او فرحوا بالقعود مخالفين له عليه السلام وكرهوا ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله لا ايثارا للدعة والخفض على طاعة الله فقط بل مع ما في قلوبهم من الكفر والنفاق فان ايثار احد الامرين قد يتحقق بادنى رجحان منه من غير ان يبلغ الاخر مرتبة الكراهية واما اوثر ما عليه النظم الكريم على ان يقال وكرهوا ان يخرجوا الى الغزو ايذانا بان الجهاد في سبيل الله مع كونه من اجل الرغائب واشرف المطالب التي يجب ان يتنافس فيها المتنافسون قد كرهوه كما فرحوا باقبح القبائح الذي هو القعود خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا اي لاخوانهم تثبيطا

لهم

لهم على التخلف والقعود وتواصيا فيما بينهم بالشر والفساد او للمؤمنين تثبيطا لهم عن الجهاد ونهيا لهم عن المعروف واظهارا لبعض العلل الداعية لهم الى ما فرحوا به من القعود فقد جمعوا ثلث خلال من خصال الكفر والضلال الفرح بالقعود وكراهية الجهاد ونهي الغير عن ذلك لا تنفروا في الحر فانه لا يستطاع شدته قل ردا عليهم وتجهيلا لهم نار جهنم التي ستدخلونها بما فعلتم اشد حرا مما تحذرون من الحر المعهود وتحذرون الناس منه فما لكم لا تحذرونها وتعرضون انفسكم لها بايثار القعود على النفير لو كانوا يفقهون اعتراض تذييلي من جهته سبحانه وتعالى غير داخل تحت القول المامور به مؤكد لمضمونه وجواب لو اما مقدر اي لو كانوا يفقهون انها كذلك او كيف هي او ان مآلهم اليها لما فعلوا ما فعلوا او لما تاثروا بهذا الالزام واما غير منوي على ان لو لمجرد التمني المبني عن امتناع تحقق مدخولها اي لو كانوا من اهل الفطانة والفقه كما في قوله عز وجل قل انظروا ماذا في السموات والارض وما تغني الايات والنذر عن قوم لا يؤمنون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا اخبار عن عاجل امرهم وآجله من الضحك القليل والبكاء الطويل المؤدي اليه اعمالهم السيئة التي من جملتها ما ذكر من الفرح والفاء لسببية ما سبق للاخبار بما ذكر من الضحك والبكاء لا لنفيهم اذ لا يتصور السببية في الاول اصلا وقليلا وكثيرا منصوبان على المصدرية او الظرفية اي ضحكا قليلا وبكاء كثيرا او زمانا قليلا وزمانا كثيرا واخراجه في صورة الامر للدلالة على تحتم وقوع المخبر به فان امر الامر المطاع مما لا يكاد يتخلف عنه المامور به خلا ان المنفرد افادته في الاول هو وصف القلة فقط وفي الثاني وصف الكثرة مع الموصوف يروى ان اهل النفاق يبكون في النار عمر الدنيا لا يرقا لهم دمع ولا يكتحلون بنوم ويجوز ان يكون الضحك كناية عن الفرح والبكاء عن الغم وان يكون القلة عبارة عن العدم والكثرة عن الدوام جزاء بما كانوا يكسبون من فنون المعاصي والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار التجددي ما داموا في الدنيا وجزاء مفعول له للفعل الثاني اي ليبكوا جزاء او مصدر حذف ناصبه اي يجزون بما ذكر من البكاء الكثير جزاء بما كسبوا من المعاصي المذكورة فان رجعك الله الفاء لتفريع الامر الاتي على ما بين من امرهم والفعل من الرجع المتعدي دون الرجوع اللازم اي فان ردك الله تعالى الى طائفة منهم اي الى المنافقين من المتخلفين في المدينة فان تخلف بعضهم انما كان لعذر عائق مع الاسلام اي الى من بقي من المنافقين المتخلفين بان ذهب بعضهم بالموت او بالغيبة عن البلد او بان لم يستاذن البعض عن قتادة انهم كانوا اثني عشر رجلا قيل فيهم ما قيل فاستاذنوك للخروج معك الى غزوة اخرى بعد غزوتك هذه فقل اخراجا لهم عن ديوان الغزاة وابعادا لمحلهم عن محفل صحبتك لن تخرجوا معي ابدا ولن تقاتلوا معي عدوا من الاعداء وهو اخبار في معنى النهي للمبالغة وقد وقع كذلك انكم تعليل لما سلف اي لانكم رضيتم بالقعود اي عن الغزو وفرحتم بذلك اول مرة هي غزوة تبوك فاقعدوا الفاء لتفريع الامر بالقعود بطريق العقوبة على ما صدر عنهم من الرضى بالقعود اي اذا رضيتم بالقعود اول مرة فاقعدوا من بعد مع الخالفين اي المتخلفين الذين ديدنهم القعود والتخلف دائما وقرئ الخلفين على القصر فكان محو اساميهم عن دفتر المجاهدين ولزهم في قرن الخالفين عقوبة لهم اي عقوبة وتذكير اسم التفضيل المضاف الى المؤنث هو الاكثر الدائر على الالسنة فانك لا تكاد تسمع قائلا يقول هي كبرى امرأة او اولى مرة ولا تصل على احد منهم مات صفة لاحد وانما جيء بصيغة الماضي تنبيها على تحقق الوقوع لا محالة ابدا متعلق بالنهي اي لا تدع ولا تستغفر لهم ابدا ولا تقم على قبره اي لا تقف عليه للدفن او للزيارة والدعاء روي انه صلى الله عليه وسلم كان يقوم على قبور المنافقين

ويدعو لهم فلما مرض راس النفاق عبد الله بن ابى بن سلول بعث الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم لياتيه فلما دخل عليه قال عليه السلام اهلكك حب اليهود فقال يا رسول الله
بعثت اليك لتستغفر لى لا لتؤنبني وسأله ان يكفنه فى شعاره الذى يلى جلده ويصلى عليه
فلما مات دعاه ابنه وكان مؤمنا صالحا فاجابه عليه السلام تسلية له ومراعاة لجانبه
وارسل اليه قميصه فكفن فيه فلما هم بالصلوة او صلى نزلت وعن عمر رضه انه قال
لما هلك عبد الله بن ابى ووضعنا لنصلى عليه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقلت اتصلى على عدو الله القائل يوم كذا كذا وكذا والقائل يوم كذا كذا وكذا وعددت
ايامه الخبيثة فتبسم عليه السلام وصلى عليه ثم مشى معه وقام على حفرته حتى
دفن فوالله ما لبث الا يسيرا حتى نزلت ولا تصل الى فما صلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم بعد ذلك على منافق ولا قام على قبره وانما لم ينه عن التكفين بقميصه
عليه السلام لان الضنة بالقميص كانت مظنة الاخلال بالكرم على انه كان مكافاة
لقميصه الذى كان البسه العباس رضه حين اسر ببدر والخبر مشهور انهم
كفروا بالله ورسوله تعليل للنهى على معنى ان الاستغفار للميت والوقوف على قبره
انما يكون لاستصلاحه وذلك مستحيل فى حقهم لانهم استمروا على الكفر بالله ورسوله
مدة حياتهم وماتوا وهم فاسقون اى متمردون فى الكفر خارجون عن
حدوده كما بين من معنى الفسوق ولا تعجبك اموالهم واولادهم تكرير
لما سبق وتقرير لمضمونه بالاخبار بوقوعه ويجوز ان يكون هذا فى حق فريق
غير الفريق الاول وتقديم الاموال فى امثال هذه المواقع على الاولاد مع كونهم اعز
منها اما لعموم مساس الحاجة اليها بحسب الذات وبحسب الافراد والاوقات فانها
مما لا بد منه لكل احد من الاباء والامهات والاولاد فى كل وقت وحين حتى ان
من له اولاد ولا مال له فهو واولاده فى ضيق ونكال واما الاولاد فانما يرغب فيهم
من بلغ مبلغ الابوة واما لان المال مناط لبقاء النفس والاولاد لبقاء النوع واما
لانها اقدم فى الوجود من الاولاد لان الاجزاء المنوية انما تحصل من الاغذية كما
سياتى فى سورة الكهف انما يريد الله بما متعهم به من الاموال والاولاد ان يعذبهم
بها فى الدنيا بسبب معاناتهم المشاق ومكابدتهم الشدائد فى شأنها وتزهق
انفسهم وهم كافرون اى فيموتوا كافرين باشتغالهم بالتمتع بها والالتهاء عن النظر
والتدبر فى العواقب واذا انزلت سورة من القران ويجوز ان يراد بها بعضها ان
امنوا بالله ان مفسرة لما فى الانزال من معنى القول والوحى او مصدرية حذف عنها
الجار اى بان امنوا وجاهدوا مع رسوله لاعزاز دينه واعلاء كلمته استاذنك
اولوا الطول منهم اى ذوو الفضل والسعة والقدرة على الجهاد بدنا ومالا وقالوا
عطف تفسيرى لاستاذنك مغن عن ذكر ما استاذنوا فيه يعنى القعود ذرنا
نكن مع القاعدين اى الذين قعدوا عن الغزو لما بهم من عذر رضوا استيناف
لبيان سوء صنيعهم وعدم امتثالهم لكلا الامرين وان لم يودوا الاول صريحا
بان يكونوا مع الخوالف مع النساء اللاتى شانهن القعود ولزوم البيوت جمع
خالفة وقيل الخالفة من لا خير فيه وطبع على قلوبهم فهم بسبب ذلك لا يفقهون
ما فى الايمان بالله وطاعته فى اوامره ونواهيه واتباع رسوله عم والجهاد
من السعادة وما فى اضداد ذلك من الشقاوة لكن الرسول والذين امنوا معه
بالله وبما جاء من عنده كلها وفيه ايذان بانهم ليسوا من الايمان بالله فى شئ وان
لم يعرضوا عنه صريحا اعراضهم عن الجهاد باستيذانهم فى القعود جاهدوا
باموالهم وانفسهم اى لان تخلف هؤلاء عن الغزو فقد نهض اليه ونهض
له من هو خير منهم واخلص نية ومعتقدا واقاموا امر الجهاد بكلا نوعيه كقوله
تعالى فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين واولئك المنعوتون
بالنعوت الجليلة لهم بواسطة نعوتهم المذكورة الخيرات اى منافع الدارين

النصر والغنيمة فى الدنيا والجنة والكرامة فى العقبى وقيل الحور لقوله عز وجل فيهن
خيرات حسان وهو جمع خيرة تخفيف خيرة واولئك هم المفلحون اى الفائزون
بالمطلوب لا من حاز بعضا من الحظوظ الفانية عما قليل وتكرير اسم الاشارة تنويه
لشانهم وربأ لمكانهم اعد الله لهم استيناف لبيان كونهم مفلحين
اى هيا لهم فى الاخرة جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها حال مقدرة
من الضمير المجرور والعامل اعد ذلك اشارة الى ما فهم من اعداد الله سبحانه
لهم الجنات المذكورة من نيل الكرامة العظمى الفوز العظيم الذى لا فوز وراءه
وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم شروع فى بيان احوال منافقى الاعراب
اثر بيان منافقى اهل المدينة والمعذرون من عذر فى الامر اذا قصر فيه وتوانى
ولم يجد وحقيقته ان يوهم ان له عذرا فيما يفعل ولا عذر له او المعتذرون
بادغام التاء فى الذال ونقل حركتها الى العين وهم المعتذرون بالباطل وقرئ
المعذرون من الاعذار وهو الاجتهاد فى العذر والاحتشاد وفيه قيل هم
اسد وغطفان قالوا ان لنا عيالا وان بنا لجهدا فاذن لنا فى التخلف وقيل هم
رهط عامر بن الطفيل قالوا ان غزونا معك اغارت اعراب طى على اهالينا و
مواشينا فقال عليه السلام سيغنينى الله عنكم وعن مجاهد نفر من غفار اعتذروا فلم
يعذرهم الله تعالى وعن قتادة اعتذروا بالكذب وقرئ المعذّرون بتشديد العين والذال
من تعذر بمعنى اعتذر وهو لحن اذ التاء لا تدغم فى العين وادغامها فى الطاء والزاء
والصاد فى المطوعين وازكى واصدق وقيل اريد بهم المعتذرون بالصحة وبه
فسر المعذرون والمعذرون اى الذين لم يفرطوا فى العذر وقعد الذين
كذبوا الله ورسوله وهم منافقوا الاعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا
فظهر انهم كذبوا الله ورسوله فى ادعاء الايمان والطاعة سيصيب الذين كفروا
منهم اى من الاعراب او من المعتذرين فان منهم من اعتذر لكسله لا لكفره عذاب
اليم بالقتل والاسر فى الدنيا والنار فى الاخرة ليس على الضعفاء ولا على المرضى
كالهرمى والزمنى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون لفقرهم كمزينة وجهينة
وبنى عذرة حرج اثم فى التخلف اذا نصحوا لله ورسوله وهو عبارة عن الايمان
بهما والطاعة لهما فى السر والعلن وتوليهما فى السراء والضراء والحب فيهما
والبغض فيهما كما يفعل الموالى الناصح بصاحبه ما على المحسنين من سبيل
استيناف مقرر لمضمون ما سبق اى ليس عليهم جناح ولا الى معاتبتهم
سبيل ومن مزيدة للتاكيد ووضع المحسنين موضع الضمير للدلالة على
انتظامهم بنصحهم لله ورسوله فى سلك المحسنين او تعليل لنفى الحرج عنهم
اى ما على جنس المحسنين من سبيل وهم من جملتهم والله غفور
رحيم تذييل مؤيد لمضمون ما ذكر مشيرا الى ان بهم حاجة الى المغفرة وان
كان تخلفهم بعذر ولا على الذين اذا ما اتوك لتحملهم عطف على المحسنين
كما يؤذن به قوله عز وجل فيما سياتى انما السبيل الاية وقيل عطف على
الضعفاء وهم البكاؤن سبعة من الانصار معقل بن يسار وصخر بن خنسا
وعبد الله بن كعب وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن معقل بن علية
بن زيد اتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا انذرنا الخروج على الخفاف
المرقوعة والنعال المخصوفة نغز معك فقال عليه السلام لا اجد فتولوا وهم
يبكون وقيل هم بنو مقرن معقل وسويد ونعمان وقيل ابو موسى الاشعرى و
اصحابه قلت لا اجد ما احملكم عليه حال من الكاف فى اتوك باضمار قد وما
عامة لما سالوه وغيره مما يحمل عليه عادة وفى ايثار لا اجد على ليس عندى
من تلطيف الكلام وتطييب قلوب السائلين ما لا يخفى كانه عليه السلام يطلب
ما يسالونه على الاستمرار فلا يجده تولوا جواب اذا واعينهم تفيض اى تسيل

بشدة من الدمع اى دمعاً فان من البيانية مع مجرورها في حيز النصب على التمييز
وهو ابلغ من يفيض دمعها لافادته ان العين بعينها صارت دمعاً فياضاً والجملة
حالية وقوله عز وجل حزناً نصب على العلية او الحالية او المصدرية لفعل
دل عليه ما قبله اى يفيض للحزن فان الحزن يسند الى العين مجازاً كالفيض او تحزن له
او حزنين او يحزنون حزناً فيكون هذه الجملة حالاً من الضمير في تفيض الا يجدوا على حذف
لام متعلقة بحزناً او تفيض اى لئلا يجدوا ما ينفقون في شراء ما يحتاجون اليه اذ لم
يجدوه لديك انما السبيل بالمعاتبة على الذين يستأذنونك في التخلف وهم
اغنياء واجدون لاهبة الغزو مع سلامتهم رضوا استئناف تعليلي لما سبق كانه
قيل ما بالهم استأذنوا وهم اغنياء فقيل رضوا بان يكونوا مع الخوالف الذين
شانهم الضعة والدناءة وطبع الله على قلوبهم اى خذلهم فغفلوا عن وخامة
العاقبة فهم بسبب ذلك لا يعلمون ابداً غائلة ما رضوا به وما يستتبعه آجلاً
كما لم يعلموا بخساسة شانه عاجلاً يعتذرون اليكم استئناف لبيان ما يتصدون
له عند القفول اليهم روي انهم كانوا بضعة وثمانين رجلاً فلما رجع عليه السلام
جاؤا يعتذرون اليه بالباطل والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه فانهم
كانوا يعتذرون اليهم ايضاً لا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط اى يعتذرون
اليكم في التخلف اذا رجعتم من الغزو منتهين اليهم وانما لم يقل الى المدينة
ايذاناً بان مدار الاعتذار هو الرجوع اليهم لا الرجوع الى المدينة فلعل منهم من
بادر الى الاعتذار قبل الرجوع اليها قل تخصيص هذا الخطاب برسول الله صلى الله عليه وسلم
بعد تعميمه فيما سبق لاصحابه ايضاً لما ان الجواب وظيفته عليه السلام واما
اعتذارهم فكان شاملاً للمسلمين شمول الرجوع لهم لا تعتذروا اى لا تفعلوا
الاعتذار كقوله تعالى اخسؤا فيها ولا تكلمون او لا تعتذروا بما عندكم من المعاذير
واما التعرض لعنوان كذبها فلا يساعده قوله تعالى لن نؤمن لكم اى لن نصدقكم
في ذلك ابداً فانه استئناف تعليلي للنهي مبني على سؤال من قبلهم متفرع على ادعاء
الصدق في الاعتذار كانهم قالوا لم لا نعتذر فقيل لا نصدقكم ابداً فيكون
عبثاً اذ لا يترتب عليه غرض المعتذر وقوله عز وجل قد نبأنا الله من اخباركم
تعليل لانتفاء التصديق اى اعلمنا بالوحي بعض اخباركم المنافية للتصديق مما
باشرتموه من الشر والفساد واضمرتموه في ضمائركم وهياتموه للابراز في معرض الاعتذار
من الاكاذيب وجمع ضمير المتكلم في الموضعين للمبالغة في حسم اطماعهم من التصديق رأساً ببيان عدم
رواج اعتذارهم عند احد من المؤمنين اصلاً فان تصديق لهم ربما يطمعهم في تصديق
الرسول ايضاً صلى الله عليه وسلم بواسطة المصدقين وللايذان بافتضاحهم بين
المؤمنين كافة وسيرى الله عملكم فيما سيأتي اتتوبون اليه تعالى مما انتم عليه من
النفاق ام تثبتون وكانه استتابة وامهال للتوبة وتقديم مفعول الرؤية على ما عطف
على فاعله من قوله تعالى ورسوله للايذان باختلاف حال الرؤيتين وتفاوتهما وللاشعار
بان مدار الوعيد هو علمه عز وجل باعمالهم ثم تردون يوم القيمة الى عالم الغيب
والشهادة للجزاء بما ظهر منكم من الاعمال ووضع المظهر موضع المضمر لتشديد
الوعيد فان علمه سبحانه وتعالى بجميع اعمالهم الظاهرة والباطنة واحاطته باحوالهم
البارزة والكامنة مما يوجب الزجر العظيم فينبئكم عند ردكم اليه ووقوفكم بين
يديه بما كنتم تعملون اى بما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار من الاعمال السيئة
السابقة واللاحقة على ان ما موصولة والعائد اليها محذوف او بعملكم المستمر
على انها مصدرية والمراد بالتنبئة بذلك المجازاة به وايثارها عليها لمراعاة ما سبق من
قوله تعالى قد نبأنا الله الخ فان المنبأ به الاخبار المتعلقة باعمالهم وللايذان بانهم ما كانوا
عالمين في الدنيا بحقيقة اعمالهم وانما يعلمونها يومئذ سيحلفون بالله لكم تأكيداً
لمعاذيرهم الكاذبة وتقريراً لها والسين للتاكيد والمحلوف عليه محذوف يدل عليه الكلام

وهو ما

وهو ما اعتذروا به من الاكاذيب والجملة بدل من يعتذرون او بيان له اذا انقلبتم
اى انصرفتم من الغزو اليهم ومعنى الانقلاب هو الرجوع والانصراف مع زيادة
معنى الوصول والاستيلاء وفائدة تقييد حلفهم به الايذان بانه ليس لدفع ما
خاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم به من قوله تعالى لا تعتذروا الى آخره بل هو امر
مبتدأ لتعرضوا عنهم صفح رضا فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم كما يفصح عنه قوله
تعالى لترضوا عنهم فاعرضوا عنهم لكن لا اعراض رضا كما هو طلبتهم بل اعراض
اجتناب ومقت كما يعرب عنه قوله عز وجل انهم رجس فانه صريح في ان المراد
بالاعراض عنهم اما الاجتناب عنهم لما فيهم من الرجس الروحاني واما ترك
استصلاحهم بترك المعاتبة لان المقصود بها التطهير بالحمل على الانابة وهؤلاء
ارجاس لا تقبل التطهير ولا يتعرض لهم بها وقوله عز وجل ومأواهم جهنم
اما من تمام التعليل فان كونهم من اهل النار من دواعي الاجتناب عنهم و
موجبات ترك استصلاحهم باللوم والعتاب واما تعليل مستقل اى وكفتهم
النار عتاباً وتوبيخاً فلا تتكلفوا انتم في ذلك جزاء نصب على انه مصدر لفعل
مقدر من لفظه وقع حالاً اي يجزون جزاء او لمضمون الجملة السابقة فانها مفيدة
لمعنى المجازاة قطعاً كانه قيل يجزون جزاء بما كانوا يكسبون في الدنيا من فنون السيئات
او على انه مفعول له يحلفون لكم بدل مما سبق وعدم ذكر المحلوف به لظهوره
اى يحلفون به تعالى لترضوا عنهم بحلفهم وتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون
بهم فان ترضوا عنهم حسبما راموا وساعدتموهم في ذلك فان الله لا يرضى
عن القوم الفاسقين اى فان رضاكم عنهم لا يجديهم نفعاً لان الله ساخط
عليهم ولا اثر لرضاكم عند سخطه سبحانه ووضع الفاسقين موضع
ضميرهم للتسجيل عليهم بالخروج عن الطاعة المستوجب لما حل بهم من السخط
وللايذان بشمول الحكم لمن شاركهم في ذلك والمراد به نهي المخاطبين عن الرضى
عنهم والاغترار بمعاذيرهم الكاذبة على ابلغ وجه وآكده فان الرضى عمن
لا يرضى عنه الله تعالى مما لا يكاد يصدر عن المؤمن وقيل انما قيل ذلك لئلا يتوهم
متوهم ان رضى المؤمنين من دواعي رضى الله تعالى عنه قيل هم جد بن قيس ومعتب
بن قشير واصحابهما وكانوا ثمانين منافقاً فقال النبي صلى الله عليه وسلم
للمؤمنين حين قدم المدينة لا تجالسوهم ولا تكلموهم وقيل جاء عبد الله
بن ابي وحلف ان لا يتخلف عنه ابداً الاعراب هي صيغة جمع وليست بجمع للعرب
قاله سيبويه لئلا يلزم كون الجمع اخص من الواحد فان العرب هو هذا الجيل الخاص
سواء سكن البوادي ام القرى واما الاعراب فلا يطلق الا على من يسكن البوادي ولهذا
نسب الى الاعراب على لفظه فقيل اعرابي قال اهل اللغة رجل عربي وجمعه العرب كما يقال
مجوسي ويهودي ثم يحذف ياء النسب في الجمع فيقال المجوس واليهود ورجل اعرابي
ويجمع على الاعراب والاعاريب اى اصحاب البدو اشد كفراً ونفاقاً من اهل الحضر
لجفائهم وقسوة قلوبهم وتوحشهم ونشأتهم في معزل من مشاهدة العلماء و
مفاوضتهم وهذا من باب وصف الجنس بوصف بعض افراده كما في قوله تعالى وكان الانسان
كفوراً اذ ليس كلهم كما ذكر على ما ستحيط به خبراً واجدر ان لا يعلموا اى احق
واخلق بان لا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله لبعدهم عن مجلسه صلى
الله عليه وسلم وحرمانهم من مشاهدة معجزاته ومعاينة ما ينزل عليه من الشرائع
في تضاعيف الكتاب والسنة والله عليم باحوال كل من اهل الوبر والمدر حكيم
فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم من العقاب والثواب ومن الاعراب شروع في بيان
تشعب جنس الاعراب الى الفريقين وعدم انحصارهم في الفريق المذكور كما يتراءى
من ظاهر النظم الكريم وشرح لبعض هؤلاء المتفرعة على الكفر والنفاق بعد بيان
تماديهم فيهما وحمل الاعراب على الفريق المذكور خاصة وان ساعده كون من يحكي حاله

بعضًا منهم وهم الذين بصدد الانفاق من اهل النفاق دون فقرائهم او اعراب اسد
وغطفان وتميم كما قيل لكن لا يساعده ما سيأتي من قوله تعالى ومن الاعراب من
يؤمن الى آخره فان اولئك ليسوا من هؤلاء قطعًا وانما هم من الجنس اى ومن جنس
الاعراب الذي نعت بنعت بعض افراده من يتخذ ما ينفق من المال اى يعد ما
يصرفه فى سبيل الله ويتصدق به صورة مغرمًا اى غرامة وخسرانًا لازمًا اذ
لا ينفقه احتسابًا ورجاء لثواب الله تعالى ليكون له مغنمًا وانما ينفقه رياء وتقية فهي
غرامة محضة وما فى صيغة الاتخاذ من معنى الاختيار والانتفاع بما يتخذ انما هو
باعتبار غرض المنفق من الرياء والتقية لا باعتبار ذات النفقة اعنى كونها غرامة
ويتربص بكم الدوائر اصل الدائرة ما يحيط بالشئ والمراد بها ما لا محيص عنه من
مصايب الدهر اى ينتظر بكم دوائر الدهر ونوبه ودوله ليذهب غلبتكم عليه
فيتخلص مما ابتلي به عليهم دائرة السوء دعاء عليهم بنحو ما ارادوا بالمؤمنين
على نهج الاعتراض كقوله سبحانه غلت ايديهم بعد قول اليهود ما قالوا والسوء مصدر
ثم اطلق على كل ضرر وشر واضيفت اليه الدائرة ذمًا كما يقال رجل سوء لان من
دارت عليه يذمها وهي من باب الموصوف الى صفته فوصفت فى الاصل بالمصدر مبالغة
ثم اضيفت الى صفتها كقوله عز وجل ما كان ابوك امرأ سوء وقيل معنى الدائرة
يقتضي معنى السوء فانما هي اضافة بيان وتاكيد كما قالوا شمس النهار ولحيا راسه
وقرئ بالضم وهو العذاب كما قيل سيئة والله سميع بما يقولونه عند الانفاق مما
لا خير فيه عليم بما يضمرونه من الامور الفاسدة التي من جملتها ان يتربصوا بكم
الدوائر وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى ومن الاعراب اى من جنسهم على
الاطلاق من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ اى يأخذ لنفسه على وجه
الاصطفاء والادخار ما ينفق اى ينفقه فى سبيل الله تعالى قربات اى ذرايع
اليها والايذان بما بينهما من كمال الاختصاص جعل كانه نفس القربات والجمع باعتبار
انواع القربات او افرادها وهي ثاني مفعولي يتخذ وقوله عز وجل عند الله
صفتها او ظرف ليتخذ وصلوات الرسول اى وسايل اليها فانه عم كان يدعو
للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ولذلك سن للمصدق ان يدعو للمتصدق
عند اخذ صدقته لكن ليس له ان يصلي عليه كما فعله صلى الله عليه وسلم حين قال
اللهم صل على آل ابي اوفى فان ذلك منصبه فله ان يتفضل به على من يشاء
والتعرض لوصف الايمان بالله واليوم الآخر فى الفريق الاخير مع ان مساق الكلام
لبيان الفرق بين الفريقين فى شأن اتخاذ ما ينفقانه حالا ومآلا وان ذكر اتخاذه ذريعة
الى القربات والصلوات مغن عن التصريح بذلك لكمال العناية بايمانهم وبيان اتصافهم
به وزيادة الاعتناء بتحقيق الفرق بين الفريقين من اول الامر واما الفريق الاول
فاتصافهم بالكفر والنفاق معلوم من سياق النظم الكريم صريحًا الا انها
قربة لهم شهادة لهم من جناب الله تعالى بصحة ما اعتقدوه وتصديق لرجائهم
والضمير لما ينفق والتأنيث باعتبار الخبر مع ما مر من تعدده باحد الوجهين والتنكير
للتفخيم المغني عن الجمع اى قربة عظيمة لا يكتنه كنهها وفي ايراد الجملة اسمية و
تصديرها بحرفي التنبيه والتحقيق من الجزالة ما لا يخفى والاقتصار على بيان كونها
قربة لهم لانها الغاية القصوى وصلوات الرسول من ذرايعها وقوله تعالى
سيدخلهم الله فى رحمته وعد لهم باحاطة رحمته الواسعة بهم وتفسير للقربة كما
ان قوله عز وجل والله سميع عليم وعيد للاولين عقيب الدعاء عليهم والسين
للدلالة على تحقق ذلك وتقرره البتة وقوله تعالى ان الله غفور رحيم تعليل
لتحقق الوعد على نهج الاستئناف التحقيقي قيل هذا فى عبد الله ذي البجادين وقومه
وقيل فى بني مقرن من مزينة وقيل فى اسلم وغفار وجهينة وروى ابو
هريرة انه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اسلم وغفار وشئ من جهينة

ومزينه

ومزينه خير عند الله يوم القيمة من تميم واسد بن خزيمة وهوازن وغطفان والسابقون
الاولون من المهاجرين بيان لفضايل اشراف المسلمين اثر بيان فضيلة طايفة منهم والمراد
بهم الذين صلوا الى القبلتين او الذين شهدوا بدرًا او الذين اسلموا قبل الهجرة
والانصار اهل بيعة العقبة الاولى وكانوا سبعة نفر واهل بيعة العقبة الثانية و
كانوا سبعين رجلا والذين امنوا حين قدم عليهم ابو زرارة مصعب بن عمير وقرئ
بالرفع عطفا على والسابقون والذين اتبعوهم باحسان اى ملتبسين به والمراد
به كل خصلة حسنة وهم اللاحقون بالسابقين من الفريقين على ان من تبعيضية
او الذين اتبعوهم بالايمان والطاعة الى يوم القيمة فالمراد بالسابقين جميع المهاجرين
والانصار ومن بيانية رضي الله عنهم خبر للمبتدأ اى رضي عنهم بقبول طاعتهم
وارتضاء اعمالهم ورضوا عنه بما نالوه من رضاه المستتبع لجميع المطالب
طرًا واعد لهم فى الآخرة جنات تجري من تحتها الانهار وقرئ من تحتها
كما فى ساير المواقع خالدين فيها ابدا من غير انتهاء ذلك الفوز العظيم الذي
لا فوز وراءه وما فى اسم الاشارة من معنى البعد لبيان بعد منزلتهم فى مراتب
الفضل وعظم الدرجة من مؤمني الاعراب وممن حولكم من الاعراب شروع فى
بيان احوال منافقي اهل المدينة ومن حولها من الاعراب بعد بيان حال اهل البادية
منهم اى ممن حول بلدتكم منافقون وهم جهينة ومزينة واسلم واشجع وغفار
وكانوا نازلين حولها ومن اهل المدينة عطف على ممن حولكم عطف مفرد
على مفرد مردوا على النفاق اما جملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب مسوقة لبيان
غلوهم فى النفاق اثر بيان اتصافهم به واما صفة للمبتدأ المذكور فصل بينها وبينه
بما عطف على خبره واما صفة لمحذوف اقيمت هي مقامه وهو مبتدأ خبره من اهل المدينة
كما فى قوله انا ابن جلا وطلاع الثنايا والجملة عطف على الجملة السابقة اى ومن اهل
المدينة قوم مردوا على النفاق اى تمهروا فيه من مرن فلان على عمله ومرد عليه
اذا درب به وضرى حتى لان عليه ومهر فيه غير ان مرد لا يكاد يستعمل الا فى الشر فالتمرد
على الوجهين الاولين شامل للفريقين حسب شمول النفاق وعلى الوجه الاخير خاص
بمنافقي اهل المدينة وهو الاظهر والانسب بذكر منافقي اهل البادية اولا ثم ذكر منافقي
الاعراب المجاورين للمدينة ثم ذكر منافقي اهلها والله تعالى اعلم وقوله عز شانه لا
تعلمهم بيان لتمردهم اى لا تعرفهم انت لكن باعيانهم واسمائهم وانسابهم
بل لعنوان نفاقهم يعني انهم بلغوا من المهارة فى النفاق والتنوق فى مراعاة التقية
والتحامي عن مواقع التهم الى مبلغ يخفى عليك حالهم مع ما انت عليه من علو الكعب
وسمو الطبقة فى كمال الفطنة وصدق الفراسة وفي تعليق نفي العلم بهم مع انه
متعلق بحالهم مبالغة فى ذلك وايماء الى ان ما هم فيه من صفة النفاق لعراقتهم
ورسوخهم فيها صارت بمنزلة ذاتياتهم او مشخصاتهم بحيث لا يعد من لا يعرفهم
بتلك الصفة عالمًا بهم وحمل عدم علمه عم باعيانهم على عدم علمه عليه السلام
بعد مجئ هذا البيان على انه عليه السلام يعلم ان فيهم منافقين لكن لا يعلمهم
باعيانهم مع كونه خلاف الظاهر عار عما ذكر من المبالغة وقوله عز وجل نحن
نعلمهم تقرير لما سبق من مهارتهم فى فن النفاق اى لا يقف على سرايرهم
المركوزة فى ضمايرهم الا من لا تخفى عليه خافية لما هم عليه من شدة الاهتمام بابطان
الكفر واظهار الاخلاص وفي تعليق العلم بهم مع ان المقصود بيان تعلقه
بحالهم ما مر فى تعليق نفيه لهم وقوله عز شانه سنعذبهم وعيد لهم
وتحقيق لعذابهم حسبما علم الله فيهم من موجباته والسين للتاكيد مرتين
عن ابن عباس رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قام خطيبًا يوم
الجمعة فقال اخرج يا فلان فانك منافق اخرج يا فلان فانك منافق فاخرج ناسًا
وفضحهم فهذا هو العذاب الاول والثاني اما القتل واما عذاب القبر او الاول هو

القتل والثانى عذاب القبر والاول اخذ الزكوة لما انهم يعدونها مغرما بحتا والثانى نهك
الابدان وايقابها بالطاعات الفارغة عن الثواب ولعل تكرير عذابهم لما فيهم من
الكفر المشفوع بالنفاق والنفاق المؤكد بالتمرد فيه ويجوز ان يراد بالمرتين مجرد
التكثير كما فى قوله تعالى فارجع البصر كرتين اى كرة بعد اخرى ثم يردون الى عذاب عظيم هو العذاب النار وفى تغيير السبك باسناد عذابهم السابق
الى نون العظمة حسب اسناد ما قبله من العلم واسناد ردهم الى العذاب اللاحق
الى انفسهم ايذان باختلافهما حالا فان الاول خاص بهم وقوعا وزمانا يتولاه
سبحانه وتعالى والثانى شامل لعامة الكفرة وقوعا وزمانا وان اختلفت طبقات
عذابهم واخرون بيان لحال طائفة من المسلمين ضعيفة الهمم فى امور الدين
وهو عطف على منافقون اى وممنهم يعنى وممن حولكم ومن اهل المدينة قوم
اخرون اعترفوا بذنوبهم التى هى تخلفهم عن الغزو وايثار الدعة عليه والرضى
بسوء جوار المنافقين وندموا على ذلك ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة ولم
يخفوا ما صدر عنهم من الاعمال السيئة كما فعله من اعتاد اخفاء ما فيه وابراز
ما ينافيه من المنافقين الذين اعتذروا بالاخيرفيه من المعاذير المؤكدة بالايمان الفاجرة حسب
ديدنهم المالوف وهم رهط من المتخلفين اوثقوا انفسهم على سوارى المسجد عند
ما بلغهم ما نزل فى المتخلفين فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد
فصلى ركعتين حسب عادته الكريمة وراهم كذلك فسال عن شانهم فقيل انهم
اقسموا ان لا يحلوا انفسهم حتى تحلهم فقال عليه السلام وانا اقسم ان لا
احلهم حتى اومر فيهم فنزلت خلطوا عملا صالحا هو ما سبق منهم من
الاعمال الصالحة والخروج الى المغازى السابقة وغيرها وما لحق من الاعتراف بذنوبهم
فى التخلف عن هذه المرة وتذممهم وندامتهم على ذلك وتخصيصه بالاعتراف
لا يناسب الخلط لاسيما على وجه يؤذن بتوارد المختلطين وكون كل منهما مخلوطا
ومخلوطا به كما يؤذن به تبدل الواو بالباء فى قوله تعالى واخر سيئا فان قولك
خلطت الماء باللبن يقتضى ايراد الماء على اللبن دون العكس وقولك خلطت الماء واللبن
معناه ايقاع الخلط من غير دلالة على اختصاص احدهما بكونه مخلوطا والاخر بكونه
مخلوطا به على جعل كل منهما متصفا بالوصفين جميعا وذلك فيما نحن فيه بورود
كل من العملين على الاخر مرة بعد اخرى والمراد بالعمل السئ ما صدر عنهم من الاعمال
السيئة اولا واخرا وعن الكلبى التوبة والاثم وقيل الواو بمعنى الباء كما فى
قولهم بعت الشاة شاة ودرهما بمعنى شاة بدرهم عسى الله ان يتوب عليهم
ان يقبل توبتهم المفهومة من اعترافهم بذنوبهم ان الله غفور رحيم
يتجاوز عن سيئات التائب ويتفضل عليه وهو تعليل لما يفيده كلمة عسى من
وجوب القبول فانها للاطماع الذى هو من اكرم الاكرمين ايجاب واى ايجاب خذ من
اموالهم صدقة روى انهم لما اطلقوا قالوا يا رسول الله هذه اموالنا التى خلفتنا
عنك فتصدق بها وطهرنا فقال عليه السلام ما امرت ان اخذ اموالكم شيئا فنزلت
فليست هى الصدقة المفروضة لكونها مامورا بها ولما روى انه عليه السلام اخذ
منهم الثلث وترك لهم الثلثين فوقع ذلك بيانا لما فى صدقة من الاجمال وانما هى
كفارة لذنوبهم حسبما ينبئ عنه قوله عز وجل تطهرهم اى تطهرهم به من اوضار
التخلف والتاء للخطاب والفعل مجزوم على انه جواب للامر وقرئ بالرفع على انه حال
من ضمير المخاطب فى خذ او صفة لصدقة والتاء للخطاب او للصدقة والعائد على
الاول محذوف ثقة بما بعده وقرئ تطهرهم من اطهر بمعنى طهر وتزكيهم بها
باثبات الياء وهو خبر لمبتدأ محذوف والجملة حال من الضمير فى الامر او فى جوابه
اى وانت تزكيهم بها اى تنمى بتلك الصدقة حسناتهم الى مراتب المخلصين
او اموالهم او تبالغ فى تطهيرهم هذا على قراءة فى تطهرهم واما على قراءة الرفع فسواء

جعلت

جعلت التاء للخطاب او للصدقة وكذا جعلت الجملة الاولى حالا من ضمير المخاطب او
صفة للصدقة على الوجهين فالثانية عطف على الاولى حالا وصفة من غير حاجة
الى تقدير المبتدأ التوجيه دخول الواو فى الجملة الحالية وصل عليهم واعطف
عليهم بالدعاء والاستغفار ان صلوتك وقرئ صلواتك مراعاة لتعدد المدعو
لهم سكن لهم تسكن نفوسهم اليها وتطمئن قلوبهم بها ويثقون بانه سبحانه
قبل توبتهم والجملة تعليل للامر بالصلوة عليهم والله سميع يسمع ما صدر
عنهم من الاعتراف بالذنب والتوبة والدعاء عليم بما فى ضمائرهم من الندم
والغم لما فرط منهم ومن الاخلاص فى التوبة والدعاء او سميع يجيب دعاءك
لهم عليهم بما يقتضيه الحكمة والجملة حينئذ تذييل للتعليل مقرر لمضمونه
وعلى الاول تذييل لما سبق من الامرين محقق لما فيهما الم يعلموا وقرئ بالتاء
والضمير للتائبين فهو تحقيق لما سبق من قبول توبتهم وتطهير الصدقة و
تزكيتها لهم وتقرير لذلك وتوطين لقلوبهم ببيان ان المتولى لقبول توبتهم
واخذ صدقاتهم هو الله سبحانه وان اسند الاخذ والتطهير والتزكية اليه
عليه السلام اى الم يعلموا اولئك التائبون ان الله هو يقبل التوبة الصحيحة
الخالصة عن عباده المخلصين فيها ويتجاوز عن سيئاتهم كما يفصح عنه كلمة
عن والمراد بهم اما اولئك التائبون ووضع المظهر فى موضع المضمر للاشعار بعلية
العبادة لقبولها واما كافة العباد وهم داخلون فى ذلك دخولا اوليا ويأخذ
الصدقات اى يقبل صدقاتهم على ان اللام عوض عن المضاف اليه او جنس
الصدقات المندرج تحته صدقاتهم اندراجا اوليا اى هو الذى يتولى قبول التوبة
واخذ الصدقات وما يتعلق بها من التطهير والتزكية وان كنت انت المباشر لها ظاهرا
وفيه من تقرير ما ذكر ورفع من شان النبى صلى الله عليه وسلم على نهج قوله تعالى
ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ما لا يخفى وان الله هو التواب الرحيم
تاكيد لما عطف عليه وزيادة تقرير لما يقرره مع زيادة معنى ليس فيه اى الم يعلموا انه
المختص المستاثر ببلوغ الغاية القصوى من قبول التوبة والرحمة وان ذلك سنة له
مستمرة له شان دائم والجملتان فى حيز النصب بيعلموا يسد كل واحدة مسد مفعوليه
واما لغير التائبين من المؤمنين فقد روى انهم قالوا لما تيب على الاولين هؤلاء الذين
تابوا كانوا بالامس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم فنزلت اى الم يعلموا ما
للتائبين من الخصال الداعية الى التكرمة والتقريب والانتظام فى سلك المؤمنين
والتلقى بحسن القبول والمجالسة فهو ترغيب لهم فى التوبة والصدقة وقوله تعالى
وقل اعملوا زيادة ترغيب لهم فى العمل الصالح الذى من جملته التوبة وللاولين
فى الثبات على ما هم عليه اى قل لهم بعد ما بان لهم شان التوبة اعملوا ما تشاؤن
من الاعمال فظاهره ترخيص وتخيير وباطنه ترغيب وترهيب وقوله عز وعلا فسيرى
الله عملكم اى خيرا كان او شرا تعليله لما قبله وتاكيد للترغيب والترهيب والسين
للتاكيد ورسوله عطف على الاسم الجليل وتاخيره عن المفعول للاشعار بما بين الرؤيتين
من التفاوت والمؤمنون فى الخبر لو ان رجلا عمل فى صخرة لا باب لها ولا كوة لخرج عمله
الى الناس كائنا ما كان والمعنى ان اعمالكم غير خافية عليهم كما رأيتم وتبين لكم ثم
ان كان المراد بالرؤية معناها الحقيقى فالامر ظاهر وان اريد به ما لها من الجزاء خيرا او
شرا فهو خاص بالدنيوى من اظهار المدح والثناء والذكر الجميل والاعزاز ونحو ذلك
الاجرية واضدادها وستردون اى بعد الموت الى عالم الغيب والشهادة فى
وضع الظاهر موضع المضمر من تهويل الامر وتربية المهابة ما لا يخفى ووجه تقديم
الغيب فى الذكر لسعة عالمه وزيادة خطره على الشهادة غنى عن البيان وقيل ان الموجودات
الغائبة عن الحواس عللا او كالعلل للموجودات المحسوسة والعلم بالعلل علة للعلم بالمعلومات
فوجب سبق العلم بالغيب على العلم بالشهادة وعن ابن عباس رضى الله عنهما الغيب ما يسرونه

من الاعمال والشهادة ما يظهرونه كقوله تعالى يعلم ما يسرون وما يعلنون فالتقديم
حينئذ لتحقيق ان نسبة علمه المحيط بالسر والعلن واحد على ابلغ وجه واكده بايهام
ان علمه تعالى بما يسرونه اقدم منه بما يعلنونه كيف لا وعلمه سبحانه بمعلوماته منزه
عن ان يكون بطريق حصول الصورة بل وجود كل شئ وتحققه فى نفسه علم بالنسبة
اليه تعالى وفى هذا المعنى لا يختلف الحال بين الامور البارزة والكامنة واما للايذان بان
مرتبة السر متقدمة على رتبة العلن اذ ما من شئ يعلن الا هو او مباديه القريبة
او البعيدة مضمر قبل ذلك فى القلب فتعلق علمه تعالى فى حالته الاولى متقدم على
تعلقه به فى حالته الثانية فينبئكم عقيب الرد الذى هو عبارة عن الامر الممتد الى
يوم القيمة بما كنتم تعملون قبل ذلك فى الدنيا والمراد بالتنبئة بذلك الجزاء بحسبه ان
خيرا فخير وان شرا فشر فهو وعد ووعيد وآخرون عطف على آخرون قبله اى ومن
المتخلفين من اهل المدينة ومن حولها من الاعراب قوم آخرون غير المعترفين
المذكورين مرجون وقرئ مرجئون من ارجيته وارجأته اى اخرته ومنه المرجئة
الذين لا يقطعون بقبول التوبة لامر الله فى شانهم قال ابن عباس رضى الله عنهم هم كعب
بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن امية لم يسارعوا الى التوبة والاعتذار كما فعل ابو
لبابة واصحابه من شد انفسهم على السوارى واظهار الغم والجزع والندم على ما
فعلوا فوقفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى اصحابه عن ان يسلموا عليهم ويكلموهم
وكانوا من اصحاب بدر فهجروهم والناس فى شانهم على اختلاف فمن قائل هلكوا وقائل
عسى الله ان يغفر لهم فصاروا عندهم مرجئين لامره تعالى اما يعذبهم ان بقوا
على ما هم عليه من الحال وقيل ان اصروا على النفاق وليس بذلك فان المذكورين
ليسوا من المنافقين واما يتوب عليهم ان خلصت نيتهم وصحت توبتهم والجملة
فى محل النصب على الحالية اى منهم هؤلاء اما معذبين واما متوبا عليهم وقيل
آخرون مبتدأ ومرجون صفته وهذه الجملة خبره والله عليم باحوالهم حكيم
فيما فعل بهم من الارجاء وما بعده وقرئ والله غفور رحيم والذين اتخذوا
مسجدا عطف على ما سبق اى ومنهم الذين او نصب على الذم وقرئ بغير واو لانها قصة
على حيالها ضرارا اى مضارة للمؤمنين وانتصابه على انه مفعول له او مفعول
ثان لاتخذوا او على انه مصدر مؤكد لفعل مقدر منصوب على الحالية اى يضارون
بذلك ضرارا او على انه مصدر بمعنى الفعل وقع حالا من ضمير اتخذوا اى مضارين
للمؤمنين روى ان بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قبا بعثوا الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم ان ياتيهم فيصلى بهم فى مسجدهم فلما فعله عليه الصلوة
والسلام حسدتهم اخوتهم بنو غنم بن عوف وقالوا نبنى مسجدا ونرسل
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فيه ويصلى فيه ابو عامر الراهب ايضا
اذا قدم من الشام وهو الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق وقد
كان قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم احد لا اجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك
معهم فلم يزل يفعل ذلك الى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يومئذ ولى هاربا
الى الشام وارسل الى المنافقين ان استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فانى
ذاهب الى قيصر وآت بجنود ومخرج محمدا واصحابه من المدينة فبنوا مسجدا الى جنب
مسجد قبا وقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة
المطيرة والشاتية ونحن نحب ان تصلى لنا فيه وتدعو لنا بالبركة فقال عليه انى على
جناح سفر وحال شغل واذا قدمنا ان شاء الله تعالى صلينا فيه فلما قفل من
غزوة تبوك سالوه عم اتيان المسجد فنزلت عليه فدعا مالك بن الدخشم ومعن
بن عدى وعامر بن السكن ووحشيا فقال لهم انطلقوا الى هذا المسجد الظالم
اهله فاهدموه واحرقوه ففعل وامر ان يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة
وهلك ابو عامر الفاسق بالشام بقنسرين وكفرا تقوية للذى يضمرونه وتفريقا

بجنود

بين المؤمنين الذين كانوا يصلون فى مسجد قبا مجتمعين فيغتص بهم فارادوا ان يتفرقوا
وتختلف كلمتهم وارصادا اعدادا وانتظارا وترقبا لمن حارب الله ورسوله
وهو الراهب الفاسق اى لاجله حتى يجئ فيصلى فيه ويظهر على رسول الله صلى الله عليه
وسلم من قبل متعلق باتخذوا اى اتخذوه من قبل ان ينافقوا بالتخلف حيث
كانوا بنوه قبل غزوة تبوك او بحارب اى حاربهما قبل اتخاذ هذا المسجد و
ليحلفن ان اردنا اى ما اردنا ببناء هذا المسجد الا الحسنى الا الخصلة الحسنة
وهى الصلوة وذكر الله والتوسعة على المصلين او الارادة الحسنى والله يشهد انهم
لكاذبون فى حلفهم ذلك لا تقم للصلوة فيه فى ذلك المسجد حسبما دعوك
اليه ابدا لمسجد اسس اى بنى اصله على التقوى يعنى مسجد قبا اسسه
رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه ايام مقامه بقبا وهى يوم الاثنين والثلثا
والاربعا والخميس وخرج يوم الجمعة وقيل هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم
بالمدينة المنورة وعن ابى سعيد رضى الله عنه سالت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد
الذى اسس على التقوى فاخذ حصبا فضرب بها الارض وقال هو مسجدكم هذا
مسجد المدينة المنورة واللام اما للابتداء او للقسم المحذوف اى والله لمسجد وعلى
التقديرين فمسجد مبتدأ وما بعده صفته وقوله تعالى من اول يوم اى من ايام
تاسيسه متعلق باسس وقوله تعالى احق ان تقوم فيه اى للصلوة وذكر الله تعالى
خبره وقوله تعالى فيه رجال جملة مستانفة مبينة لاحقيته لقيامه عليه السلام فيه من
جهة الحال بعد بيان احقيته له من حيث المحل وصفة اخرى للمبتدأ او حال من الضمير فى فيه
وعلى كل حال ففيه تقرير وتحقيق لاستحقاق القيام فيه والمراد بكونه احق نفس
كونه حقيقا به اذ لا استحقاق فى مسجد الضرار راسا وانما عبر عنه بصيغة التفضيل
لفضله وكماله فى نفسه او الافضلية فى الاستحقاق المبنا ولما يكون باعتبار
زعم البانى وبنايه فى الاعتقاد وهو الانسب بما سيانى يحبون ان يتطهروا من
المعاصى والخصال المذمومة طلبا لمرضاة الله سبحانه وقيل من الجنابة فلا ينامون عليها
والله يحب المطهرين اى يرضى عنهم ويدنيهم من جنابه ادناء المحب حبيبه
قيل لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف
على باب مسجد قبا فاذا الانصار جلوس فقال امؤمنون انتم فسكت القوم ثم اعادها
فقال عمر رضى الله عنه يا رسول الله انهم لمؤمنون وانا معهم فقال عليه السلام اترضون
بالقضاء قالوا نعم قال عليه السلام اتصبرون على البلاء قالوا نعم قال اتشكرون
فى الرخاء قالوا نعم قال عليه السلام مؤمنون ورب الكعبة فجلس ثم قال يا معشر
الانصار ان الله عز وجل قد اثنى عليكم فما الذى تصنعون عند الوضوء وعند الغائط
فقالوا نتبع الغائط الاحجار الثلاثة ثم نتبع الاحجار الماء فتلا النبى صلى الله عليه وسلم
فيه رجال يحبون ان يتطهروا وقرئ ان يطهروا بالادغام وقيل هو عام فى التطهر
عن النجاسة كلها وكانوا يتبعون الماء اثر البول وعن الحسن رضى الله عنه هو التطهر
عن الذنوب وقيل يحبون ان يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم فحموا عن آخرهم افمن
اسس بنيانه على بناء الفعل للفاعل والنصب وقرئ على البناء للمفعول والرفع
وقرئ اسس بنيانه على الاضافة جمع اساس بالفتح والكسر جمع اس ايضا
واس بنيانه وهى جملة مستانفة مبينة لخيرية الرجال المذكورين من اهل مسجد
الضرار والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر اى ابعد ما علم حالهم من
اسس بنيان دينه على التقوى من الله ورضوان اى على قاعدة محكمة هى التقوى
من الله وابتغاء مرضاته بالطاعة والمراد بالتقوى درجتها الثانية التى هى التوقى
عن كل ما يؤثم من فعل او ترك وقرئ تقوى بالتنوين على ان الالف للالحاق دون
التانيث خير ام من اسس بنيانه ترك الاضمار للايذان باختلاف البنيانين ذاتا
اختلافهما وصفا واضافة على شفا جرف هار الشفا الحرف والشفير والجرف ما جرفه

السيل اى استاصله واحتفر ما تحته فبقى واهيا يريد الانهدام والهار الهائر المتصدع
المشرف الى السقوط من هار يهور ويهار او هار يهير فذمت لامه على عينه فصار
كغاز ورام وقيل حذفت عينه اعتباطا اى بغير موجب فجرى وجوه الاعراب على لامه
فانهار به فى نار جهنم مثل ما بنوا عليه امر دينهم فى البطلان وسرعة الانطماس
بما ذكر ثم رشح بانهاره فى النار ووضع بمقابلة الرضوان تنبيها على ان تاسيس
ذلك على امر يحفظه من النار ويوصله الى الرضوان مقتضياته التى ادناها الجنة و
تاسيس هذا على ما بصدد الوقوع فى النار ساعة فساعة ثم مصيرهم اليها
لا محالة وقرئ جرف بسكون الراء والله لا يهدى القوم الظالمين اى لانفسهم
او الواضعين للاشياء فى غير مواضعها اى لا يرشدهم الى ما فيه نجاتهم وصلاحهم
ارشادا موجبا لهم لا محالة واما الدلالة على ما يرشدهم اليه ان استرشدوا به
فهو متحقق بلا اشتباه لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة البنيان مصدر اريد به المفعول
ووصفه بالموصول الذى صلته فعله للايذان بكيفية بنائهم له وتاسيسه على اوهن
قاعدة واوهى اساس وللاشعار بالحكم اى لا يزال مسجدهم ذلك مبنيا ومهدوما
ريبة فى قلوبهم اى سبب ريبة وشك فى الدين كانه نفس الريبة اما حال بنائه
فظاهر لما ان اعتزالهم من المؤمنين واجتماعهم فى مجمع على حياله يظهرون فيه
ما فى قلوبهم من آثار الكفر والنفاق ويدبرون فيه امورهم ويتشاورون فى ذلك و
يلقى بعضهم الى بعض ما سمعوا من اسرار المؤمنين مما يزيدهم ريبة وشكا فى الدين
واما حال هدمه فلما انه رسخ به ما كان فى قلوبهم من الشر وتضاعفت آثاره واحكامه
او سبب ريبة فى امرهم حيث ضعفت قلوبهم ووهى اعتقادهم بخفاء امرهم على المؤمنين
لانهم اظهروا من امرهم بعد البناء اكثر مما كانوا يظهرونه قبل ذلك ووقت اختلاطهم
بالمؤمنين وساءت ظنونهم بانفسهم فلما هدم بنيانهم تضاعف ذلك الضعف
ونقوى وصاروا مرتابين فى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم هل يتركهم على ما
كانوا عليه من قبل او يأمر بقتلهم ونهب اموالهم وقال الكلبى معنى ريبة حسرة وندامة
وقال السدى وحبيب والمبرد لا يزال هدم بنيانهم حرارة وغيظا فى قلوبهم الا ان تقطع
من التقطع بحذف احدى التائين الا ان تتقطع قلوبهم قطعا وتتفرق اجزاء بحيث لا يبقى
لها قابلية ادراك واضمار قطعا وهو استثناء من اعم الاوقات او اعم
الاحوال ومحله النصب على الظرفية اى لا يزال بنيانهم ريبة فى كل الاوقات او كل
الاحوال الا وقت تقطع قلوبهم او حال تقطع قلوبهم فحينئذ يسلون عنها واما ما دامت
سالمة فالريبة باقية فيها فهو تصوير لامتناع زوال الريبة عن قلوبهم ويجوز ان
يكون المراد حقيقة تقطعها عند قتلهم او فى القبور او فى النار وقرئ تقطع على بناء
المجهول من التفعيل وعلى البناء للفاعل منه على خطاب النبى صلى الله عليه وسلم اى
الا ان تقطع انت قلوبهم بالقتل وقرئ على البناء للمجهول من الثلاثى مؤنثا وقرئ
الى ان تقطع قلوبهم والى ان تقطع قلوبهم على الخطاب وقرئ لو قطعت قلوبهم على
اسناد الفعل مجهولا الى قلوبهم ولو قطعت قلوبهم على الخطاب للرسول صلى الله عليه
وسلم او لكل احد ممن يصلح للخطاب وقيل الا ان يتوبوا توبة ينقطع بها
قلوبهم ندما واسفا على تفريطهم والله عليم بجميع الاشياء التى من جملتها ما
ذكر من احوالهم حكيم فى جميع افعاله التى من زمرتها امره الوارد فى حقهم ان الله
اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم ترغيب للمؤمنين فى الجهاد ببيان فضيلته
اثر بيان حال المتخلفين عنه ولقد بولغ فى ذلك على وجه لا مزيد عليه حيث
عبر عن قبول الله تعالى من المؤمنين انفسهم واموالهم التى بذلوها فى سبيله تعالى
واثابته اياهم بمقابلتها الجنة بالشرى على طريقة الاستعارة التبعية ثم جعل المبيع
الذى هو العمدة والمقصد فى العقد انفس المؤمنين واموالهم والثمن الذى هو الوسيلة
فى الصفقة الجنة ولم يجعل الامر على العكس بان يقال ان الله تعالى باع الجنة من المؤمنين

بانفسهم

بانفسهم واموالهم ليدل على ان المقصد فى العقد هو الجنة وما بذله المؤمنون فى
مقابلتها من الانفس والاموال وسيلة اليها ايذانا بتعلق كمال العناية بهم وباموالهم
ثم انه لم يقل بالجنة بل قيل بان لهم الجنة مبالغة فى تقرر وصول الثمن اليهم
واختصاصه بهم كانه قيل بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم واما ما يقال من ان
ذلك لمدح المؤمنين بانهم بذلوا انفسهم واموالهم بمجرد الوعد لكمال ثقتهم بوعده
تعالى وان من تمام الاستعارة موقوف على ذلك اذ لو قيل بالجنة لاحتمل كون الشرى
حقيقة لانها صالحة للعوضية بخلاف الوعد فليس بشئ لان مناط دلالة ما عليه النظم
الكريم على الوعد ليس كونه جملة ظرفية مصدرة بان فى ذلك بمعزل من الدلالة على الاستقبال
بل هو الجنة التى يستحيل وجودها فى الدنيا ولو سلم ذلك يكون العوض الجنة الموعود
بها لا الوعد بها يقاتلون فى سبيل الله استئناف لكن لا لبيان ما لاجله الشرى ولا
لبيان نفس الاشتراء لان قتالهم فى سبيل الله تعالى ليس باشتراء الله تعالى منهم انفسهم
واموالهم بل هو بذل لهما فى ذلك بل لبيان البيع الذى يستدعيه الاشتراء المذكور
كانه قيل كيف يبيعون انفسهم واموالهم بالجنة فقيل يقاتلون فى سبيل الله وهو
بذل منهم لانفسهم واموالهم الى جهة الله سبحانه وتعريض لهما للهلاك وقوله تعالى
فيقتلون ويقتلون بيان لكون القتال فى سبيل الله بذلا للنفس وان المقاتل فى سبيله
باذل لها وان كانت سالمة غانمة فان الاسناد فى الفعلين ليس بطريق اشتراط الجمع بينهما
ولا اشتراط الاتصاف باحدهما البتة بل بطريق وصف الكل بحال البعض فانه يتحقق القتال
من الكل سواء وجد الفعلان او احدهما منهم او من بعضهم بل يتحقق ذلك وان لم
يصدر منهم احدهما ايضا كما اذا وجد المضاربة ولم يوجد القتل من احد الجانبين
او لم يوجد المضاربة ايضا فانه يتحقق الجهاد بمجرد العزيمة والنفير وتكثير السواد و
تقديم حالة القاتلية على حالة المقتولية للايذان بعدم الفرق بينهما فى كونهما مصداقا
لكون القتال بذلا للنفس وقرئ بتقديم المبنى للمفعول رعاية لكون الشهادة عريقة
فى الباب وايذانا بعدم مبالاتهم بالموت فى سبيل الله تعالى بل بكونه احب اليهم من
السلامة كما قيل فى حقهم لا يفرحون اذا نالت رماحهم قوما وليسوا مجازيعا
اذا نيلوا لا يقطع الطعن الا فى نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل وقيل فى
يقاتلون الى آخره معنى الامر كما فى قوله تعالى تجاهدون فى سبيل الله باموالكم و
انفسكم وعدا عليه مصدر مؤكد لما يدل عليه كون الثمن مؤجلا حقا نعت لوعدا والظرف
حال منه لانه لو تاخر لكان صفة له تعالى فى التوراة والانجيل والقرآن متعلق بمحذوف
وقع صفة لوعدا اى وعدا مثبتا فى التوراة والانجيل كما هو مثبت فى القرآن ومن اوفى
بعهده من الله اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من حقية الوعد على نهج المبالغة
فى كونه سبحانه اوفى بالعهد من كل واف فان اخلاف الميعاد مما لا يكاد يصدر
عن كرام الخلق مع امكان صدوره عنهم فكيف بجناب الخلاق الغنى عن العالمين جل
جلاله وسبك التركيب وان كان على انكار ان يكون احد اوفى بالعهد منه سبحانه من غير
تعرض لانكار المساواة ونفيها لكن المقصود به قصدا مطردا انكار المساواة ونفيها
قطعا فاذا قيل من اكرم من فلان او لا احد افضل منه فالمراد به حتما انه اكرم من كل كريم
وافضل من كل فاضل فاستبشروا التفات الى الخطاب تشريفا لهم على تشريف وزيادة
لسرورهم على سرور والاستبشار اظهار السرور والسين فيه ليس للطلب كاستوقد واو
قد والفاء لترتيب الاستبشار او الامر على ما قبله اى فاذا كان كذلك فسروا نهاية السرور
وافرحوا غاية الفرح بما فزتم به من الجنة وانما قيل ببيعكم مع ان الابتهاج به باعتبار
ادائه الى الجنة لان المراد ترغيبهم فى الجهاد الذى عبر عنه بالبيع وانما لم يذكر العقد
بعنوان الشرى لان ذلك من قبل الله سبحانه لا من قبلهم والترغيب انما يكون فيما يتم
من قبلهم وقوله تعالى الذى بايعتم به لزيادة تقرير بيعهم وللاشعار بكونه
مغايرا لسائر البياعات فانه بيع للفانى بالباقى ولان كلا البدلين له سبحانه وتعالى عن

الحسن رضي الله انفسنا هو خلقها واموالا هو رزقها روي ان الانصار لما بايعوه قال
عليه السلام اشترط لربي ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا واشترط لنفسي ان تمنعوني مما
تمنعون منه انفسكم قال فاذا فعلنا فما لنا قال لكم الجنة قالوا ربح البيع لا نقيل ولا
نستقيل ومر برسول الله صلى الله عليه وسلم اعرابي وهو يقرؤها فقال كلام من
قال كلام الله عز وجل قال بيع والله مربح لا نقيله ولا نستقيله فخرج الى الغزو
واستشهد وذلك اي الجنة التي جعلت ثمنا بمقابلة ما بذلوا من انفسهم واموالهم
هو الفوز العظيم الذي لا فوز اعظم منه وما في ذلك من معنى البعد اشارة الى بعد
المشار اليه وسمو رتبته في الكمال ويجوز ان يكون ذلك اشارة الى البيع الذي امروا
بالاستبشار به ويجعل ذلك كانه نفس الفوز العظيم او يجعل فوزا في نفسه فالجملة
على الاول تذييل للاية الكريمة وعلى الثاني لقوله تعالى فاستبشروا مقرر لمضمونه التائبون
رفع على المدح اي هم التائبون يعني المؤمنين المذكورين كما يدل عليه القراءة بالياء
نصبا على المدح ويجوز ان يكون مجرورا على انه صفة للمؤمنين وقد جوز الرفع على
الابتداء والخبر محذوف اي التائبون من اهل الجنة ايضا وان لم يجاهدوا لقوله تعالى
وكلا وعد الله الحسنى ويجوز ان يكون خبره قوله تعالى العابدون وما بعده خبر بعد خبر
اي التائبون من الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه النعوت الفاضلة اي المخلصون
في عبادة الله تعالى الحامدون لنعمائه او لما نابهم من السراء والضراء السائحون
الصائمون لقوله عليه السلام سياحة امتي الصوم شبه بها لانه عائق عن الشهوات
او لانه رياضة نفسانية يتوسل بها الى العثور على خفايا الملك والملكوت وقيل هم
السائحون في الجهاد وطلب العلم الراكعون الساجدون في الصلوة الامرون بالمعروف
بالايمان والطاعة والناهون عن المنكر عن الشرك والمعاصي والعطف فيه للدلالة
على ان المتعاطفين بمنزلة خصلة واحدة واما قوله تعالى والحافظون لحدود الله
اي فيما بينه وعينه من الحقائق والشرايع عملا وحملا للناس عليه فلعله لا يتوهم
اختصاصه باحد الوجهين وبشر المؤمنين اي الموصوفين بالنعوت المذكورة
ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على ان ملاك الامر هو الايمان وان المؤمن الكامل
من كان كذلك وحذف المبشر به للايذان بخروجه عن حد البيان وفي تخصيص الخطاب بالاولين
اظهار زيادة اعتناء بامرهم من الترغيب والتسلية ما كان للنبي والذين امنوا
بالله وحده اي ما صح لهم في حكم الله عز وجل وحكمته وما استقام ان يستغفروا
للمشركين به سبحانه ولو كانوا اي المشركون اولي قربى اي ذوي قرابة لهم
وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على جملة اخرى قبلها محذوفة
حذفا مطردا كما في قوله تعالى ولو كره الكافرون ونظايره روي انه عليه السلام
قال لعمه ابي طالب لما حضرته الوفاة يا عم قل كلمة احاج لك بها عند الله فابى فقال عم
لا ازال استغفر لك ما لم انه عنه فنزلت وقيل لما افتتح مكة خرج الى الابواء فزار قبر امه
ثم قام مستعبرا فقال اني استاذنت ربي في زيارة قبر امي فاذن لي واستاذنته في
الاستغفار فلم ياذن لي وانزل علي الايتين من بعد ما تبين لهم اي للنبي ع م
والمؤمنين انهم اي المشركون اصحاب الجحيم بان ماتوا على الكفر او نزل
الوحي بانهم يموتون على ذلك وما كان استغفار ابراهيم لابيه بقوله واغفر
لابي اي بان توفقه للايمان وتهديه اليه كما يلوح به تعليله بقوله انه كان من
الضالين والجملة استيناف مسوق لتقرير ما سبق ودفع ما يتراءى بحسب الظاهر
من المخالفة وقرئ وما استغفر ابراهيم لابيه وقرئ وما يستغفر ابراهيم على حكاية
الحال الماضية وقوله تعالى الا عن موعدة استثناء مفرغ من اعم العلل اي لم يكن
استغفاره ع م لابيه آزر ناشئا عن شيء من الاشياء الا عن موعدة وعدها ابراهيم
اياه اي اباه وقد قرئ كذلك بقوله لاستغفرن لك وقوله ساستغفر لك ربي بناء
على رجاء ايمانه لعدم تبين حقيقة امره والا لما وعدها اياه كانه قيل وما كان استغفار

ابراهيم

ابراهيم لابيه الا عن موعدة مبنية على عدم تبين امره كما ينبئ عنه قوله تعالى فلما تبين له
اي لابراهيم بان اوحى اليه انه مصر على الكفر غير مؤمن ابدا وقيل بان مات على الكفر
والاول هو الانسب بقوله تعالى انه عدو لله فان وصفه بالعداوة مما يأباه حالة
الموت تبرأ منه اي تنزه عن الاستغفار له وتجانب كل التجانب وفيه من المبالغة
ما ليس في تركه ونظايره ان ابراهيم لاواه لكثير التاوه وهو كناية عن كمال
الرافة ورقة القلب حليم صبور على الاذية والمحنة وهو استيناف لبيان ما كان
يدعوه عليه السلام الى ما صدر عنه من الاستغفار وفيه ايذان بان ابراهيم
عليه السلام كان اواها حليما فلذلك صدر عنه ما صدر من الاستغفار قبل التبيين فليس
لغيره ان ياتسي به في ذلك وتاكيد لوجوب الاجتناب عنه بعد التبيين بانه عليه
السلام تبرأ منه بعد التبيين وهو في كمال رقة القلب والحلم فلا بد ان يكون غيره اكثر
منه اجتنابا وتبرا واما ان الاستغفار لو كان قبل التبيين لو كان غير محظور لما استثني
عن الايتساء به في قوله تعالى الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك فقد حقق في سورة
مريم باذن الله تعالى وما كان الله ليضل قوما اي ليس من عادته ان يصفهم بالضلال
عن طريق الحق ويجري عليه احكامه بعد اذ هداهم للاسلام حتى يتبين لهم
بالوحي صريحا ودلالة ما يتقون اي ما يجب اتقاؤه من محظورات الدين فلا
ينزجروا عما نهوا عنه واما قبل ذلك فلا يسمى ما صدر عنهم ضلالا ولا يؤاخذون به
فكانه تسلية للذين استغفروا للمشركين قبل ذلك وفيه دليل على ان الغافل غير مكلف
بما لا يستبد بمعرفته العقل ان الله بكل شيء عليم تعليل لما سبق اي انه تعالى عليم بجميع
الاشياء التي من جملتها حاجتهم الى بيان قبح ما لا يستقل العقل في معرفته فبين لهم
ذلك كما فعل ههنا ان الله له ملك السموات والارض من غير شريك له فيه يحيي و
يميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير لما منعهم من الاستغفار للمشركين
وان كانوا اولي قربى وضمن ذلك التبرء منهم راسا بين لهم ان الله مالك كل موجود
ومتولي اموره والغالب عليه ولا يتاتى لهم نصر ولا ولاية الا منه تعالى ليتوجهوا اليه
بشراشرهم متبرئين عما سواه غير قاصدين الا اياه لقد تاب الله على النبي قال ابن عباس
رضه هو العفو عن اذنه للمنافقين في التخلف عنه والمهاجرين والانصار قيل
هو في حق زلات سبقت منهم يوم احد ويوم حنين وقيل المراد بيان فضل التوبة
وانه ما من مؤمن الا وهو محتاج اليها حتى النبي صلى الله عليه وسلم لما صدر عنه في
بعض الاحوال من ترك الاولى الذين اتبعوه ولم يتخلفوا عنه ولم يخلوا بامره من
اوامره في ساعة العسرة اي في وقتها والتعبير عنه بالساعة لزيادة تعيينه وهي
حالهم في غزوة تبوك كانوا في عسرة من الظهر يعتقب عشرة على بعير واحد ومن الزاد
تزودوا التمر المدود والشعير المسوس والاهالة الزنخة وبلغت بهم الشدة
الى ان اقتسم التمرة اثنان وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء المتغير وفي عسرة
من الماء حتى نحروا الابل واعتصروا فروثها وفي شدة زمان من حمارة القيظ ومن
الجدب والقحط والضيقة الشديدة ووصف المهاجرين والانصار بما ذكر من اتباعهم
له صلى الله عليه وسلم في مثل هاتيك المراتب من الشدة للمبالغة في بيان الحاجة الى
التوبة فان ذلك حيث لم يغنهم عنها فلأن لا يستغني عنها غيرهم اولى واحرى
من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم بيان لتناهي الشدة وبلوغها الى ما لا غاية وراءها
وهو اشراف بعضهم على ان يميلوا الى التخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي كاد ضمير
الشان او ضمير القوم الراجع اليه الضمير في منهم وقرئ بتانيث الفعل وقرئ من
بعد ما زاغت قلوب فريق منهم يعني المتخلفين من المؤمنين كابي لبابة واضرابه
ثم تاب عليهم تكرير للتاكيد وتنبيه على انه يتاب عليهم من اجل ما كابدوا من
العسرة والمراد انه تاب عليهم لكيدودتهم انه بهم رءوف رحيم استيناف
تعليلي فان صفة الرافة والرحمة من دواعي التوبة والعفو ويجوز كون الاول عبارة

عن ازالة الضرر والثاني عن ايصال المنفعه وان يكون احدهما للمساوي والاخر للواحق
وعلى الثلاثة الذين خلفوا اى وتاب الله على الثلاثة الذين آخر امرهم عن امر ابى
لبابه واصحابه حيث لم يقبل معذرتهم مثل اولئك ولا ردت ولم يقطع في شانهم
شيء الى ان نزل فيهم الوحى وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن اميه
وقرئ خلفوا اى خلفوا الغازين بالمدينة اوفسدوا من الخالفة وخلوف الفم و
قرئ خالفوا وقرئ على المخلفين والاول هو الانسب لان قوله تعالى حتى اذا ضاقت عليهم
الارض غاية للتخليف ولايناسبه الا المعنى الاول اى خلفوا وآخر امرهم الى ان
ضاقت عليهم الارض بما رحبت اى برحبها وسعتها لاعراض الناس عنهم و
وانقطاعهم عن مفاوضتهم وهو مثل لشدة الحيرة كانه لايستقر به قرار ولا
تطمئن له دار وضاقت عليهم انفسهم اى اذا رجعوا الى انفسهم لايطمئنون
بشيء لعدم الانس والسرور واستيلاء الوحشة والحيرة وظنوا ان لا ملجاء
من الله الا اليه اى علموا ان لا ملجاء من سخطه تعالى الا الى استغفاره ثم تاب
عليهم وفقهم للتوبة ليتوبوا او انزل قبول توبتهم ليصيروا من جملة التوابين
اورجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد اخرى ليستقيموا على توبتهم ان الله
هو التواب المبالغ في قبول التوبة كما وكيفا وان كثرت الجنايات وعظمت الرحيم
المتفضل عليهم بفنون الالاء مع استحقاقهم لافانين العقاب روى ان ناسا من المؤمنين
تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم من بدا له وكره مكانه فلحق به وم
عن الحسن انه قال بلغنى انه كان لاحدهم حايط كان خيرا من مائة الف درهم
فقال يا حايطاه ما خلفنى الا ظلك وانتظار ثمارك اذهب فانت في سبيل الله ولم
يكن لآخر الا اهله فقال يا اهلاه ما بطانى ولا خلفنى الا الضن بك فلا جرم والله انى لاكابدن
المفاوز حتى الحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فركب ولحق ولم يكن الا نفسه لا اهل ولا
مال فقال يا نفسى ما خلفنى الا حب الحيوة والله لاكابدن الشدايد حتى الحق برسول الله
صلى الله عليه وسلم فتابط زاده ولحق به وم قال الحسن رضه كذلك والله المؤمن يتوب
من ذنوبه ولا يصر عليها وعن ابى ذر الغفارى ان بعيره ابطاء به فحمل متاعه على
ظهره واتبع اثر رسول الله صلى الله عليه وسلم لما راى سواده كن ابا ذر فقال الناس
هو ذاك فقال عليه السلام رحم الله ابا ذر يمشى وحده ويموت وحده ويبعث
وحده وعن ابى خيثمه انه بلغ بستانه وكانت له امراة حسناء فرشت له في الظل و
بسطت له الحصير وقربت اليه الرطب والماء البارد فنظر فقال ظل ظليل ورطب يانع
وماء بارد وامراة حسناء ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الضح والريح ما هذا بخير فقام
ورحل ناقته واخذ سيفه ورمحه ومر كالريح فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه الى
الى الطريق فاذا براكب يزهاه السراب فقال كن ابا خيثمه فكانه ففرح به رسول الله
صلى الله عليه وسلم واستغفر له ومنهم من بقى لم يلحق به عليه السلام منهم
الثلثه قال كعب لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه فرد على كالمغضب
بعد ما ذكرنى وقال يا ليت شعرى ما خلف كعبا فقيل ما خلفه الا حسن برديه والنظر
في عطفيه فقال عليه السلام ما اعلم الا فضلا واسلاما ونهى عن كلامنا ايها الثلاثة
فتنكر لنا الناس ولم يكلمنا احد من قريب ولا بعيد فلما مضت اربعون ليلة امرنا
ان نعتزل نساءنا ولا نقربهن فلما تمت خمسون ليلة اذا انا بنداء من ذروة سلع ابشر يا كعب
ابن مالك فخررت لله ساجدا وكنت كما وصفنى ربى وضاقت عليهم الارض بما رحبت
وضاقت عليهم انفسهم وتتابعت البشارة فلبست ثوبى وانطلقت الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فاذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون فقام الى طلحة بن عبيد الله
يهرول الى حتى صافحنى وقال لتهنك توبة الله عليك فلن انساها الطلحة رضه وقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم وهو يستنير استنارة القمر ابشر يا كعب بخير يوم مر عليك منذ
لدتك امك ثم تلا علينا الآية وعن ابى بكر الوراق انه سئل عن التوبة النصوح فقال ان يضيق

على التايب

على التايب الارض بما رحبت ويضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه يا ايها الذين
آمنوا خطاب عام يندرج فيه التايبون اندراجا اوليا وقيل لمن تخلف من الطلقاء عن
غزوة تبوك خاصة اتقوا الله في كل ما تاتون وما تذرون فيدخل فيه المعاملة مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم في امر المغازى دخولا اوليا وكونوا مع الصادقين
في ايمانهم وعهودهم او في دين الله نية وقولا وعملا وفي كل شان من الشئون
فيدخل فيه ما ذكر في توبتهم وانابتهم فيكون المراد بهم حينئذ هؤلاء الثلثة واضرابهم
وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه خطاب لمن امن من اهل الكتاب اى كونوا مع
المهاجرين والانصار وانتظموا في سلكهم في الصدق وساير المحاسن وقرئ من
الصادقين ما كان لاهل المدينة ماصح وما استقام لهم ومن حولهم من
الاعراب كمزينه وجهينه وغفار واضرابهم ان يتخلفوا عن رسول الله عند
توجهه صلى الله عليه وسلم الى الغزو ولا يرغبوا نصب وقد جوز الجزم بانفسهم
عن نفسه اى لايصرفوها عن نفسه الكريمة ولا يصونوها عما لم يصن عنه نفسه
بل يكابدوا معه ما يكابده من الاهوال والخطوب والكلام في معنى النهى وان كان
على صورة الخبر ذلك اشارة الى ما دل عليه الكلام من وجوب الشايعة بانهم
بسبب انهم لايصيبهم ظماء اى عطش يسير ولا نصب ولا تعب ما ولا
مخمصة اى مجاعة ما لا يستاج عنه والمحرمات من مراتبها فان الظماء والنصب
اليسيرين حين لم يخلوا من الثواب فلان لا يخلوا ذلك عنه او فلا حاجة الى
تاكيد النفى بتكرير كلمة ويجوز ان يراد بها تلك المرتبة ويكون الترتيب بناء على
كثرة الوقوع وقلته فان الظماء اكثر وقوعا من النصب الذى هو اكثر وقوعا من
المخمصة بالمعنى المذكور فتوسيط كلمة لا حينئذ ليس لتاكيد النفى بل للدلالة على استقلال كل واحد
منها بالفضيلة والاعتداد به في سبيل الله واعلاء كلمته ولا يطئون موطئا يغيظ
الكفار اى لايدوسون بارجلهم وحوافر خيولهم واخفاف رواحلهم دوسا
او مكانا تداس ولا ينالون من عدو نيلا مصدر كالقتل والاسر والنهب
او مفعول اى شيئا ينالونه من قبلهم الا كتب لهم اى بكل واحد من الامور المعدودة
عمل صالح وحسنة مقبولة مستوجبة بحكم الوعد الكريم الثواب الجميل ونيل الزلفى
والتنوين للتفخيم وكون المكتوب عين ما فعلوه من الامور لايمنع دخول الباء فان اختلاف
العنوان كاف في ذلك ان الله لا يضيع اجر المحسنين على احسانهم تعليل لما سلف من الكتب
والمراد بالمحسنين اما المبحوث عنهم ووضع المظهر مقام المضمر لمدحهم والشهادة عليهم
بالانتظام في سلك المحسنين وان اعمالهم من قبيل الاحسان والاشعار بعلية الماخذ
للحكم واما جنس المحسنين وهم داخلون فيه دخولا اوليا ولا ينفقون نفقة
صغيرة ولو تمرة او علاقة سوط ولا كبيرة كما انفق عثمان رضه والترتيب باعتبار
ما ذكر من كثرة الوقوع وقلته وتوسيط لا للتنصيص على استبداد كل منهما والجزاء
لا لتاكيد النفى كما في قوله عز وجل ولا يقطعون اى لايجتازون في مسيرهم
واديا وهو في الاصل كل منعرج من الجبال والاكام يكون منفذا للسيل اسم فاعل من
ودى اذا سال ثم شاع في الارض على الاطلاق الا كتب لهم اى اثبت لهم ذلك الذى
فعلوه من الانفاق والقطع ليجزيهم الله بذلك احسن ما كانوا يعملون احسن جزاء
اعمالهم او جزاء احسن اعمالهم وما كان المؤمنون لينفروا كافة اى ماصح وما
استقام لهم ان ينفروا جميعا لنحو غزو او طلب علم كما لا يستقيم لهم ان يثبطوا جميعا
فان ذلك مخل بامر المعاش فلولا نفر فهلا نفر من كل فرقة اى طايفة كثيرة منهم
كاهل بلدة او قبيلة عظيمة طايفة اى جماعة قليلة ليتفقهوا في الدين اى يتكلفوا
الفقاهة فيه ويتجشموا مشاق تحصيلها ولينذروا قومهم اى وليجعلوا
غاية سعيهم ومرمى غرضهم من ذلك ارشاد القوم وانذارهم اذا رجعوا
اليهم وتخصيصه بالذكر لانه اهم وفيه دليل على ان التفقة في الدين من فروض

الكفاية وان يكون غرض المتعلم الاستقامة والاقامة لا الترفع على العباد والتبسط في البلاد كما هو ديدن ابناء الزمان والله المستعان لعلهم يحذرون ارادة ان يحذروا عما ينذرونه واستدل به على اخبار الاحاد حجة لان عموم كل فرقة يقتضي ان ينفر من كل ثلثة تفردوا بقرية طائفة الى التفقه لينذر فرقتها كي يتذكروا ويحذروا فلو لم يعتبر الاخبار ما لم يتواتر لم يفد ذلك وقد قيل للاية وجه اخر هو ان المؤمنين لما سمعوا ما نزل في المتخلفين سارعوا الى النفير رغبة ورهبة وانقطعوا عن التفقه فامروا ان ينفروا من كل فرقة طائفة الى الجهاد ويبقى اعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطع الفقه الذي هو الجهاد الاكبر لان الجدال بالحجة هو الاصل والمقصود من البعثة فالضمير في ليتفقهوا ولينذروا للبواقي من الفرق بعد الطوايف النافرة للغزو وفي رجعوا للطوايف اي ولينذروا البواقي قومهم النافرين اذا رجعوا اليهم ما حصلوا في ايام غيبتهم من العلوم يا ايها الذين امنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار امروا بقتال الاقرب منهم فالاقرب كما امر عليه السلام اولا بانذار عشيرته فان الاقرب احق بالشفقة والاستصلاح قيل هم اليهود حوالي المدينة كبني قريظة والنضير وخيبر وقيل الروم فانهم كانوا يسكنون الشام وهو قريب من المدينة بالنسبة الى العراق وغيره وليجدوا فيكم غلظة اي شدة وصبرا على القتال وقرئ بفتح الغين كسخطة وبضمها وهما لغتان فيها واعلموا ان الله مع المتقين بالعصمة والنصرة والمراد بهم اما المخاطبون فوضع الظاهر موضع الضمير للتنصيص على ان الايمان والقتال على الوجه المذكور من باب التقوى والشهادة بكونهم من زمرة المتقين واما الجنس وهم داخلون فيه دخولا اوليا والمراد بالمعية الولاية الدائمة وقد ذكر وجه دخول مع المتبوع في قوله تعالى ان الله معنا واذا ما انزلت سورة من سور القران فمنهم اي من المنافقين من يقول لاخوانه ليثبتهم على النفاق او لعوام المؤمنين وضعفتهم ليصدهم عن الايمان ايكم زادته هذه السورة ايمانا وقرئ بالنصب ايكم على تقدير فعل يفسره المذكور اي ايكم زادت زادته هذه الخ وايراد الزيادة مع انه لا ايمان فيهم اصلا باعتبار اعتقاد المؤمنين حسبما نطق به قوله تعالى انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم اياته زادتهم ايمانا فاما الذين امنوا جواب من جهته سبحانه وتعالى وتحقيق للحق وتعيين لحالهم عاجلا وآجلا اي فاما الذين امنوا بالله تعالى وبما جاء من عنده فزادتهم ايمانا بزيادة العلم اليقيني الحاصل من التدبر فيها والوقوف على ما فيها من الحقايق وانضمام ايمانهم بما فيها بايمانهم السابق وهم يستبشرون بنزولها وبما فيه من المنافع الدينية والدنيوية واما الذين في قلوبهم مرض اي كفر وسوء عقيدة فزادتهم رجسا الى رجسهم اي كفرا بها مضموما الى الكفر بغيرها وعقايد باطلة واخلاقا ذميمة كذلك وماتوا وهم كافرون واستحكم ذلك الى ان يموتوا عليه اولا يرون الهمزة للانكار والتوبيخ والواو للعطف على مقدر اي لا ينظرون ولا يرون انهم اي المنافقين يفتنون في كل عام من الاعوام مرة او مرتين والمراد مجرد التكثير لا بيان الوقوع حسب العدد المزبور اي يبتلون بافانين البليات من المرض والشدة وغير ذلك مما يذكر الذنوب والوقوف بين يدي رب العزة فيؤدي الى الايمان به تعالى او بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعاينون ما ينزل عليه من الايات لا سيما القوارع الزائدة للايمان الناعية عليهم بما فيهم من القبايح المخزية لهم ثم لا يتوبون عطف على لا يرون داخل تحت الانكار والتوبيخ وكذا قوله تعالى ولا هم يذكرون والمعنى اولا يرون افتتانهم الموجب لايمانهم ثم لا يتوبون عما هم عليه من النفاق ولا هم يتذكرون بتلك الفتن الموجبة للتذكر والتوبة وقرئ بالتاء والخطاب للمؤمنين والهمزة للتعجيب اي الا تنظرون ولا ترون احوالهم العجيبة التي هي افتتانهم على وجه التتابع وعدم التنبه لذلك فقوله تعالى ثم لا يتوبون وما عطف عليه معطوف على يفتنون واذا ما انزلت سورة

بيان

بيان لاحوالهم عند نزولها وهم في محفل تبليغ الوحي كما ان الاول بيان لمقالاتهم وهم غائبون عنه نظر بعضهم الى بعض تغامزوا بالعيون انكارا لها وسخرية بها او غيظا لما فيها من مخازيهم هل يراكم من احد اي قائلين هل يراكم احد من المسلمين لتنصرفوا مظهرين انهم لا يصطبرون على استماعها ويغلب عليهم الضحك فيفتضحون او ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال لواذا يقولون هل يراكم من احد ان قمتم من المجلس وايراد ضمير الخطاب لبعث المخاطبين على الجد في انتهاز الفرصة فان المرء بشانه اكثر اهتماما منه بشان اصحابه كما في قوله تعالى وليتلطف ولا يشعرن بكم احدا وقيل المعنى واذا ما انزلت سورة في عيوب المنافقين ثم انصرفوا عطف على نظر بعضهم والتراخي باعتبار وجدان الفرصة والوقوف على عدم رؤية احد من المؤمنين اي انصرفوا جميعا من محفل الوحي خوفا من الافتضاح او غير ذلك صرف الله قلوبهم اي عن الايمان حسب انصرافهم عن المجلس والجملة اخبارية او دعائية بانهم اي بسبب انهم قوم لا يفقهون لسوء الفهم او لعدم التدبر لقد جاءكم الخطاب للعرب رسول اي رسول رسول عظيم الشان من انفسكم من جنسكم عربي قرشي مثلكم وقرئ بفتح الفاء اي اشرفكم وافضلكم عزيز عليه ما عنتم اي شاق شديد عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب وهذا من نتايج ما سلف من المجانسة حريص عليكم في ايمانكم وصلاح حالكم بالمؤمنين منكم ومن غيركم رؤف رحيم قدم الابلغ منهما وهي الرافة التي هي عبارة عن شدة الرحمة محافظة على الفواصل فان تولوا تلوين للخطاب وتوجيه له الى النبي صلى الله عليه وسلم تسلية له اي ان اعرضوا عن الايمان بك فقل حسبي الله فانه يكفيك ويعينك عليهم لا اله الا هو استيناف مقرر لمضمون ما قبله عليه توكلت فلا ارجوا ولا اخاف الا منه وهو رب العرش العظيم اي الملك العظيم او الجسم الاعظم المحيط الذي ينزل منه الاحكام والمقادير وقرئ العظيم بالرفع وعن ابي ان آخر ما نزل هاتان الايتان وعن النبي صلى الله عليه وسلم ما نزل القران علي الا اية وحرفا حرفا ما خلا سورة براءة وسورة قل هو الله احد فانهما انزلتا علي ومعهما سبعون الف صف من الملائكة عليهم السلام

سورة يونس عليه الصلوة والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الر بتفخيم الراء المفتوحة وقرئ بالامالة اجراء على الاصلية مجرى المنقلبة من الياء وقرئ بين بين وهو اما مسرود على نمط التعديد بطريق التحدي على احد الوجهين المذكورين في فاتحة سورة البقرة فلا محل له من الاعراب واما اسم للسورة كما عليه اطباق الاكثر فمحله الرفع على انه خبر لمبتدا محذوف اي هذه السورة مسماة بالر وهو اظهر من الرفع على الابتداء لعدم سبق العلم بالتسمية بعد فحقها الاخبار بها لا جعلها عنوان الموضوع لتوقفه على علم المخاطب بالانتساب كما مر والاشارة اليها قبل جريان ذكرها لما انها باعتبار كونها على جناح الذكر وبصدده صارت في حكم الحاضر كما يقال هذا ما اشترى فلان او النصب بتقدير فعل لائق بالمقام نحو اذكر او اقرا وكلمة تلك اشارة اليها اما على تقدير كون الر مسرودا على نمط التعديد فقد نزل حضور مادتها التي هي الحروف المذكورة منزلة ذكرها فاشير اليها كانه قيل هذه الكلمات المؤلفة من جنس هذه الحروف المبسوطة الخ واما على تقدير كونه اسما للسورة فقد نوهت بالاشارة اليها بعد تنويهها بتعيين اسمها او الامر بذكرها او بقراءتها [illegible] اسم الاشارة من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتها في الفخامة ومحله الرفع [illegible] الابتداء خبره قوله تعالى ايات الكتاب وعلى تقدير كون الر مبتدا فهو مبتدا ثان او [illegible] من الاول والمعنى هي ايات مخصوصة منه مترجمة باسم مستقل والمقصود

بيّنا بعضيتها منه وصفها بما اشتهر اتصافه به من النعوت الفاضلة والصفات الكاملة فالمراد بالكتاب اما جميع القرآن العظيم وان لم ينزل الكل حينئذ اما باعتبار تعينه وتحققه في علم الله عز وجل او في اللوح او باعتبار انه انزل جملة الى السماء الدنيا كما هو المشهور فان فاتحة الكتاب كانت مسماة بهذا الاسم وبام القرآن في عهد النبوة ولما يحصل المجموع الشخصي اذ ذاك فلا بد من ملاحظة كل من الكتاب والقرآن باحد الاعتبارات المذكورة واما جميع القرآن النازل وقتئذ المتفاهم بين الناس اذ ذاك فانه كما يطلق على المجموع الشخصي يطلق على مجموع ما نزل في كل عصر الا ترى الى ما روي عن جابر رضي الله عنه انه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى احد في ثوب واحد ثم يقول ايهم اكثر اخذا للقرآن فاذا اشير له الى احدهما قدمه في اللحد فان ما يفهمه الناس من القرآن في ذلك الوقت ويحافظون على التفاوت في اخذه انما هو المجموع النازل حينئذ من غير ملاحظة لتحقق المجموع الشخصي في علم الله سبحانه او في اللوح ولا لنزوله جملة الى السماء الدنيا الحكيم ذي الحكمة وصف به لاشتماله على فنون الحكم الباهرة ونطقه بها او هو من باب وصف الكلام بصفة صاحبه او من باب الاستعارة المكنية المبنية على تشبيه الكتاب بالحكيم الناطق بالحكمة هذا وقد جعل الكتاب عبارة عن نفس السورة وكلمة تلك اشارة الى ما في ضمنها من الآي فانها في حكم الحاضر لا سيما بعد ذكرها بتضمنها من السورة عند بيان اسمها والامر بذكرها وبقراءتها وينبغي ان يكون المشار اليه كل واحدة منها لا جميعها من حيث هو جميع لانه عين السورة فلا يكون للاضافة وجه ولا لتخصيص الوصف بالمضاف اليه حكمة فلا يتأتى بما قصد من مدح المضاف بما للمضاف اليه من صفات الكمال لان في بيان اتصاف كل منها بالكمال من المبالغة ما ليس في بيان اتصاف الكل بذلك والمتبادر من الكتاب عند الاطلاق وان كان كله باحد الوجهين المذكورين لكن صحة اطلاقه على بعضه ايضا مما لا ريب فيها والمعهود المشهور وان كان اتصاف الكل باحد الاعتبارين بما ذكر من نعوت الكمال الا ان شهرة اتصاف كل سورة فيه بما اتصف به الكل مما لا ينكر عليه يدور تحقق مدح السورة بكونها بعضا من القرآن الكريم اذ لولا ان بعضه منعوت بنعت كله داخل تحت حكمه لما تسنى ذلك وفيه ما لا يخفى من التكلف والتعسف أكان للناس عجبا الهمزة لانكار تعجبهم ولتعجيب السامعين منه لكونه في غير محله والمراد بالناس كفار مكة وانما عبر عنهم باسم الجنس من غير تعرض لكفرهم مع انه المدار لتعجبهم كما تعرض له في قوله عز وجل قال الكافرون الخ لتحقيق ما فيه الشركة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعيين مدار التعجب في زعمهم ثم تبيين خطابهم واظهار بطلان زعمهم بايراد الانكار والتعجيب واللام متعلقة بمحذوف وقع حالا من عجبا وقيل بعجبا على التوسع المشهور في الظروف وقيل المصدر اذا كان بمعنى اسم الفاعل او اسم المفعول جاز تقديم معموله عليه وقيل متعلقة بكان وهو مبني على دلالة كان الناقصة على الحدث ان اوحينا اسم كان قدم عليه خبرها اهتماما بشأنه لكونه مدارا للانكار والتعجيب وتشويقا الى المؤخر ولان في الاسم ضرب تفصيل ففي مراعاة الاصل نوع اخلال بتجاوب اطراف الكلام وقرئ برفع عجب على انه الاسم وهو نكرة والخبر ان اوحينا وهو معرفة لان ان مع الفعل في تأويل المصدر المضاف الى المعرفة البتة والمختار ان يجعل كان تامة وان اوحينا متعلقا بعجب على حذف حرف التعليل اي احدث للناس عجب لان اوحينا او من اوحينا او بدلا من عجب لكن لا على توجيه الانكار والتعجيب الى حدوثه بل الى كونه عجبا فان كون الابدال في حكم تنحية المبدل منه ليس معناه اهداره بالمرة وانما قيل للناس لا عند الناس للدلالة على انهم اتخذوه اعجوبة لهم وفيه من زيادة تقبيح حالهم ما لا يخفى الى رجل منهم اي الى بشر من جنسهم كقولهم ابعث الله بشرا رسولا

او من افنائهم من حيث المال لا من عظمائهم كقولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وكلا الوجهين من ظهور البطلان بحيث لا مزيد عليه اما الاول فلان بعث الملك انما يكون عند كون المبعوث اليهم ملائكة كما قال سبحانه قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا واما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية كيف لا وهي منوطة بالتناسب والتجانس فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة التي يدور عليها فلك التكوين والتشريع وانما الذي تقتضيه الحكمة ان يبعث الملك من بينهم الى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحاني والجسماني ليتلقوا من جانب ويلقوا الى جانب واما الثاني فلان مناط الاصطفاء للنبوة والرسالة هو التقدم في الاتصاف بما ذكر من النعوت الجليلة والصفات الجليلة والسبق في احراز الفضائل العلية وحيازة الملكات السنية جبلة واكتسابا ولا ريب لاحد منهم في انه صلى الله عليه وسلم في ذلك الشأن في غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية واما التقدم في الرياسة الدنيوية والسبق في نيل الحظوظ الدنيئة فلا دخل له في ذلك قطعا بل له اخلال به غالبا قال عليه السلام لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء ان انذر الناس ان مصدرية لجواز كون صلتها امرا كما في قوله تعالى وان اقم وجهك وذلك لان الخبر والانشاء في الدلالة على المصدر سيان فساغ وقوع الامر والنهي صلة حسب وقوع الفعل فيجرد عند ذلك عن معنى الامر والنهي نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضي والاستقبال ووجوب كون الصلة في الموصول الاسمي خبرية انما هو للتوصل بها الى وصف المعارف بالجمل لا لقصور في دلالة الانشاء على المصدر او مفسرة اذ الايحاء فيه معنى القول وقد جوز كونها مخففة من المثقلة على حذف ضمير الشأن والقول من الخبر والمعنى ان الشأن قولنا انذر الناس والمراد به جميع الناس كافة لا ما اريد بالاول وهو النكتة في ايثار الاظهار على الاضمار وكون الثاني عين الاول عند اعادة المعرفة ليس على الاطلاق وبشر الذين آمنوا بما اوحيناه وصدقوه ان لهم اي بان لهم قدم صدق اي سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم وانما عبر عنها بها اذ بها يحصل السبق والوصول الى المنازل الرفيعة كما يعبر عن النعمة باليد لانها تعطى بها وقيل مقام صدق والوجه ان الوصول الى المقام انما يحصل بالقدم واضافتها الى الصدق للدلالة على تحققها وثباتها وللتنبيه على ان مدار نيل ما نالوه من المراتب العلية هو صدقهم فان التصديق لا ينفك عن الصدق قال الكافرون هم المتعجبون وايرادهم ههنا بعنوان الكفر مما لا حاجة الى ذكر سببه وترك العاطفة لجريانه مجرى البيان للجملة التي دخل عليها همزة الانكار او لكونه استئنافا مبنيا على السؤال كانه قيل ماذا صنعوا بعد التعجب هل بقوا على التردد والاستبعاد او قطعوا فيه بشيء فقيل قال الكافرون على طريقة التوكيد ان هذا يعنون به ما اوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن الحكيم المنطوي على الانذار والتبشير لسحر مبين اي ظاهر وقرئ لساحر على ان الاشارة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرئ ما هذا الا سحر مبين وهذا اعتراف من حيث لا يشعرون بان ما عاينوه خارج عن طوق البشر نازل من جناب خلاق القوى والقدر ولكنهم يسمونه بما قالوا تماديا في العناد كما هو ديدن المكابر اللجوج ودأب المفحم المحجوج ان ربكم كلام مستأنف سيق لاظهار بطلان تعجبهم المذكور وما بنوا عليه من المقالة الباطلة غب الاشارة اليه بالانكار والتعجيب وحقق فيه حقية ما تعجبوا منه وصحة ما انكروه بالتنبيه الاجمالي على بعض ما بني عليها من شؤون الخلق والتقدير واحوال التكوين والتدبير ويرشدهم الى معرفتها بادنى تذكير لاعترافهم به من غير نكير لقوله تعالى قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله قل فانى تؤفكون وقوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض الى قوله تعالى ومن يدبر الامر فسيقولون الله اي ان ربكم ومالك امركم الذي تتعجبون من ان يرسل اليكم رجلا منكم

بالانذار والتبشير وتعدّون مما اوحى اليه من الكتاب الحكيم سحرا هو الله الذى خلق
السموات والارض وما فيها من اصول الكائنات فى ستة ايام اى فى ستة
اوقات او فى مقدار ستة ايام معهودة فان نفس اليوم الذى هو عبارة عن زمان
كون كرة الشمس فوق الارض مما لا يتصور تحققه حين لا ارض ولا سماء وفى خلقها
مدرجا مع القدرة التامة على ابداعها دفعة دليل على الاختيار واعتبار للنظار
وحث لهم على التأنى فى الاحوال والاطوار واما تخصيص ذلك بالعدد المعين فامر
قد استأثر بعلمه ما يستدعيه علام الغيوب جلت قدرته ودقت حكمته وايثار صيغة
الجمع للسموات لما هو المشهور من الايذان بانها اجرام مختلفة الطباع متباينة الآثار
والاحكام ثم استوى على العرش العرش هو الجسم المحيط بسائر الاجسام سمى
به لارتفاعه على او للتشبيه بسرير الملك فان الاوامر والتدابير منه تنزل هو الملك
ومعنى استوائه سبحانه استيلاؤه عليه او استواء امره وعن اصحابنا ان الاستواء على
العرش صفة له سبحانه بلا كيف والمعنى انه سبحانه استوى على العرش على الوجه الذى
عناه منزها عن التمكن والاستقرار وهذا بيان لجلالة ملكه وسلطانه بعد بيان عظمة
شانه وسعة قدرته بما مر من خلق هاتيك الاجرام العظام يدبر الامر التدبير
النظر فى ادبار الامور وعواقبها لتقع على الوجه المحمود والمراد ههنا التقدير على الوجه
الاتم الاكمل والمراد بالامر امر ملكوت السموات والارض والعرش وغير ذلك من الجزئيات
الحادثة شيئا فشيئا على اطوار شتى وانحاء لا تكاد تحصى من المناسبات والمباينات فى
الذوات والصفات والازمنة والاوقات اى يقدر ما ذكر من امر الكائنات الذى ما
تعجبوا منه من امر البعث والوحى فرد من جملته وشعبة من دوحته ويهيئ اسباب كل
منها حدوثا وبقاء فى اوقاتها المعينة ويرتب مصالحها على الوجه الفائق والنمط اللائق
حسبما يقتضيه الحكمة ويستدعيه المصلحة والجملة فى محل النصب على انها حال من ضمير
استوى وقد جوز كونه خبرا ثانيا لان او مستأنفة لا محل لها من الاعراب مبنية على
سؤال نشأ من ذكر الاستواء على العرش المنبئ عن اجراء احكام الملك وعلى كل حال فايثار صيغة
المضارع للدلالة على تجدد التدبير واستمراره وقوله عز وجل ما من شفيع بيان
لاستبداده سبحانه فى التقدير والتدبير ونفى للشفاعة على ابلغ الوجوه فان نفى جميع افراد
الشفيع بمن الاستغراقية يستلزم نفى الشفاعة على اتم الوجوه كما فى قوله تعالى لا عاصم
اليوم من امر الله وهذا بعد قوله تعالى يدبر الامر جار مجرى قوله تعالى وهو يجير
ولا يجار عليه عقيب قوله تعالى قل من بيده ملكوت كل شئ وقوله تعالى الا من بعد اذنه
استثناء مفرغ من اعم الاوقات اى ما من شفيع يشفع لاحد فى وقت من الاوقات
الا بعد اذنه المبنى على الحكمة الباهرة وذلك عند كون الشفيع من المصطفين الاخيار
والمشفوع له ممن يليق بالشفاعة كقوله تعالى يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا
يتكلمون الا من اذن له الرحمن وقال صوابا وفيه من الدلالة على عظمة جلاله سبحانه
ما لا يخفى ذلكم اشارة الى المعلوم بتلك العظمة اى ذلك العظيم الشان المنعوت بما
ذكر من نعوت الكمال الذى هو مناط استحقاق الالوهية الله وقوله تعالى ربكم بيان
له او بدل منه او خبر ثان لاسم الاشارة وهذا بعد بيان ان ربهم الذى خلق
خلق السموات والارض الخ لزيادة التقرير والمبالغة فى التذكير ولتفريع الامر بالعبادة
عليه بقوله تعالى فاعبدوه اى وحده من غير ان تشركوا به شيئا من ملك او نبى
فضلا عن جماد لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وآمنوا بما انزله اليكم افلا تذكرون
اى اتعلمون ان الامر كما فصل فلا تتذكرون ذلك حتى تقفوا على فساد ما انتم
عليه فترتدعوا عنه اليه لا الى احد سواه استقلالا او اشتراكا مرجعكم اى
بالبعث كما ينبئ عنه قوله تعالى جميعا فانه حال من الضمير المجرور لكونه فاعلا فى المعنى
اى اليه رجوعكم مجتمعين والجملة كالتعليل لوجوب العبادة وعد الله مصدر مؤكد
لنفسه لان قوله عز وجل اليه مرجعكم وعد منه سبحانه بالبعث او لفعل مقدر اى

اى وعد الله وعدا ماكان فهو دليل على ان المراد بالمرجع هو الرجوع بالبعث لان ما بالموت
بمعزل من الوعد كما انه بمعزل من الاجتماع وقرئ بصيغة الفعل حقا مصدر آخر
مؤكد لما دل عليه الاول انه يبدؤ الخلق وقرئ يبدئ ثم يعيده وهو استئناف
علل به وجوب المرجع اليه سبحانه وتعالى فان غاية البدء والاعادة هو جزاء
المكلفين باعمالهم حسنة او سيئة وقرئ بالفتح اى لانه ويجوز كونه منصوبا بما نصب وعد الله
اى وعد الله وعدا بدء الخلق ثم اعادته ومرفوعا بما نصب حقا اى حق حقا بدء الخلق
الخ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط اى بالعدل وهو حال من فاعل
يجزي اى ملتبسا بالعدل او متعلق بيجزى اى ليجزيهم بقسطه ويوفيهم اجورهم
وانما اجمل ذلك ايذانا بانه لا يفى به الحصر او بقسطهم وعدلهم عند ايمانهم و
ومباشرتهم للاعمال الصالحة وهو الانسب بقوله عز وجل والذين كفروا لهم شراب
من حميم وعذاب اليم بما كانوا يكفرون فان معناه ويجزي الذين كفروا بسبب كفرهم
وتكرير الاسناد بجعل الجملة الظرفية خبرا للموصول لتقوية الحكم والجمع بين صيغتى
الماضى والمستقبل للدلالة على مواظبتهم على الكفر وتغيير النظم الكريم للايذان بكمال
استحقاقهم للعقاب وان التعذيب بمعزل عن الانتظام فى سلك العلة الغائية للخلق
بدأ واعادة وانما يحيق ذلك بالكفرة على موجب سوء اختيارهم واما المقصود
الاصلى من ذلك فهو الاثابة هو الذى جعل الشمس ضياء تنبيه على الاستدلال
على وجوده تعالى ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته باثار صنعه فى النيرين
بعد التنبيه على الاستدلال بما مر من ابداع السموات والارض والاستواء على العرش
وغير ذلك وبيان لبعض افراد التدبير الذى اشير اليه اشارة اجمالية وارشاد الى انه
حين دبر امورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع فلأن يدبر مصالحهم
المتعلقة بالمعاد بارسال الرسول وانزال الكتب وتبيين طرائق الهدى وتعيين مهاوى
الردى اولى واحرى والجعل ان جعل بمعنى الانشاء والابداع فضياء حال من مفعوله
اى خلقها حال كونها ذات ضياء على حذف المضاف او ضياء محضا للمبالغة وان
جعل بمعنى التصيير فهو مفعوله الثانى اى جعلها ضياء على احد الوجهين المذكورين
لكن لا بعد ان كانت خالية عن تلك الحالة بل ابدعها كذلك كقولهم ضيق فم الركية
ووسع اسفلها والضياء مصدر كقيام او جمع ضوء كسياط وسوط وياؤه منقلبة
من الواو لانكسار ما قبلها وقرئ ضئاء بهمزتين بينهما الف بتقديم اللام على العين
والقمر نورا الكلام فيه كالكلام فى الشمس والضياء اقوى من النور وقيل ما
بالذات ضوء وما بالعرض نور ففيه اشعار بان نوره مستفاد من الشمس وقدره
اى قدر له وهيأ منازل او قدر مسيره فى منازل او قدره ذا منازل على تضمين
التقدير معنى التصيير وتخصيص القمر بهذا التقدير لسرعة سيره ومعاينة منازله
وتعلق احكام الشريعة به وكونه عمدة فى تواريخ العرب وقد جعل الضمير لكل منهما وهى
ثمانية وعشرون منزلا ينزل القمر كل ليلة فى واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه
على تقدير مستو لا يتفاوت يسير منها من ليلة المستهل الى الثمانية والعشرين فاذا
كان فى آخر منازله دق واستقوس ثم يستتر ليلتين او ليلة اذا نقص الشهر
ويكون مقام الشمس فى كل منزلة ثلاثة عشر يوما وهذه المنازل هى مواقع النجوم
التى نسبت اليها العرب الانواء المستمطرة وهى الشرطان والبطين والثريا والدبران
الهقعة الهنعة الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العواء السماك
الغفر الزبانى الاكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود
سعد الاخبية فرع الدلو المقدم فرع الدلو المؤخر الرشاء وهو بطن الحوت
لتعلموا اما بتعاقب الليل والنهار المنوطين بطلوع الشمس وغروبها او باعتبار نزول
كل منهما فى تلك المنازل عدد السنين التى يتعلق بها غرض علمى لاقامة مصالحكم
الدينية والدنيوية والحساب اى حساب الاوقات من الاشهر والايام والليالى

وغير ذلك مما نيط به شيء من المصالح وتخصيص العدد بالسنين والحساب بالاوقات
لما انه تعالى لم يعتبر في السنين المعدودة معنى مغاير لمراتب الاعداد كما اعتبر في الاوقات
المحسوبة وتحقيقه ان الحساب احصاء ماله كمية انفصالية بتكرير امثاله من حيث
يتحصل بطائفة معينة منها حد معين له اسم خاص وحكم مستقل كالسنة المتحصلة
من اثنى عشر شهرا قد تحصل كل من ذلك من ثلثين يوما قد تحصل كل من ذلك من اربع
وعشرين ساعة مثلا والعد مجرد احصائه بتكرير امثاله من غير اعتبار ان يتحصل
بذلك شيء كذلك ولما لم يعتبر في السنين المعدودة تحصل حد معين له اسم خاص
غير اسامي مراتب الاعداد وحكم مستقل اضيف اليها العدد وتحصل مراتب الاعداد
من العشرات والمات والالوف اعتباري لا يجدي في تحصل المعدود نفعا وحيث
اعتبر في الاوقات المحسوبة تحصل ما ذكر من المراتب التي لها اسام خاصة واحكام مستقلة
علق بها الحساب المبني على ذلك والسنة من حيث تحققها في نفسها مما يتعلق به الحساب
وانما الذي يتعلق به العد طائفة منها وتعلقه في ضمن ذلك بكل واحد من تلك
الطائفة من الحيثية المذكورة اعني حيثية تحصلها من عدة اشهر قد تحصل كل واحد
منها من عدة ايام قد حصل كل منها بطائفة من الساعات فان ذلك وظيفة الحساب
بل من حيث انها فرد من تلك الطائفة المعدودة من غير ان يعتبر معها شيء غير ذلك
وتقديم العدد على الحساب مع ان الترتيب من متعلقيهما وجودا وعلما على العكس
لان العلم المتعلق بعدد السنين علم اجمالي بما تعلق به الحساب تفصيلا وان لم
يتحد الجهة او لان العدد من حيث انه لم يعتبر فيه تحصل امر آخر حسبما حقق آنفا
نازل من الحساب الذي اعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من المركب ما خلق الله ذلك
اي ما ذكر من الشمس والقمر على ما حكي من الاحوال وفيه ايذان بان معنى جعلهما على تلك
الاحوال والهيئات ليس الا خلقهما كذلك كما اشير اليه ولا يقدح في ذلك ان استفادة القمر
النور من الشمس امر حادث فان المراد بجعله نورا انما هو جعله بحيث يتصف بالنور
عند وجود شرائطه لا اتصافه بالفعل الا بالحق استثناء مفرغ من اعم احوال
الفاعل والمفعول اي ما خلق ذلك ملتبسا بشيء من الاشياء الا ملتبسا بالحق مراعيا
بمقتضى الحكمة البالغة او مراعى فيه ذلك وهو ما اشير اليه اجمالا من العلم باحوال السنين
والاوقات المنوطة امور معاملاتهم وعباداتهم نفصل الآيات اي الآيات التكوينية
المذكورة وجميع الآيات فيدخل فيها الآيات المذكورة دخولا اوليا او نفصل الآيات
التنزيلية المنبهة على ذلك وقرئ بنون العظمة لقوم يعلمون الحكمة في ابداع
الكائنات فيستدلون بذلك على شؤون مبدعها جل وعلا او يعلمون ما في تضاعيف
الآيات المنزلة فيؤمنون بها وتخصيص التفصيل بهم لانهم المنتفعون به ان
في اختلاف الليل والنهار تنبيه آخر اجمالي على ما ذكر اي في تعاقبهما وكون
كل منهما خلفة للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها التابعين لحركات السموات
وسكون الارض او في تفاوتهما في انفسهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر وانتقاصه
بازدياده باختلاف حال الشمس بالنسبة الينا قربا وبعدا بحسب الازمنة او في اختلافهما
وتفاوتهما بحسب الامكنة اما في الطول والقصر فان البلاد القريبة من القطب الشمالي
ايامها الصيفية اطول ولياليها الصيفية اقصر من ايام البلاد البعيدة منه ولياليها
واما في انفسهما فان كرية الارض يقتضي ان يكون بعض الاوقات في بعض الاماكن
ليلا وفي مقابلة نهارا وما خلق الله في السموات والارض من اصناف المصنوعات
لآيات عظيمة او كثيرة دالة على وجود الصانع تعالى ووحدته وكمال علمه وقدرته
وبالغ حكمته التي من جملة مقتضياتها ما انكروه من ارسال الرسول وانزال الكتب
والبعث والجزاء لقوم يتقون خصهم بذلك لان الداعي الى النظر والتدبر انما هو
تقوى الله تعالى والحذر من العاقبة فهم الواقفون على ان جميع المخلوقات آيات دون
غيرهم وكاين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون ان الذين

لا يرجون

لا يرجون لقاءنا بيان لمآل امر من كفر بالبعث واعرض عن البينات الدالة عليه بعد تحقيق
ان مرجع الكل اليه تعالى وانه يعيدهم بعد بدئهم للجزاء ثوابا وعقابا وتفصيل بعض
الآيات الشاهدة بذلك والمراد بلقائه تعالى اما الرجوع اليه تعالى بالبعث او لقاء
الحساب كما في قوله عز وعلا اني ظننت اني ملاق حسابيه وايا ما كان ففيه مع الالتفات
الى ضمير الجلالة من تهويل الامر ما لا يخفى والمراد بعدم الرجاء عدم التوقع مطلقا المنتظم
لعدم الامل وعدم الخوف فان عدمهما لا يستدعي عدم اعتقاد وقوع المأمول
والمخوف اي لا يتوقعون الرجوع الينا او لقاء حسابنا المؤدي الى حسن الثواب او الى
سوء العذاب فلا يأملون الاول واليه اشير بقوله عز وجل ورضوا بالحيوة الدنيا
فانه مبني على ايثار الادنى الخسيس على الاعلى النفيس كقوله تعالى ارضيتم بالحيوة الدنيا
من الآخرة ولا يخافون الثاني واليه اشير بقوله تعالى واطمأنوا بها اي سكنوا
فيها سكون من لا براح له منها آمنين من اعتراء المزعجات غير مخطرين ببالهم
ما يسوؤهم من عذابنا وقيل المراد بالرجاء معناه الحقيقي وباللقاء حسن اللقاء اي لا يأملون
حسن لقائنا بالبعث والاحياء بالحيوة الابدية ورضوا بدلا منها وبما فيها من فنون
الكرامات السنية بالحيوة الدنيا الدنية الفانية واطمأنوا بها اي سكنوا اليها مكبين عليها
قاصرين مجامع هممهم على لذائذها وزخارفها من غير صارف يلويهم ولا عاطف
يثنيهم وايثار الباء على كلمة المنبئة عن مجرد الاصول والانتهاء للايذان بتمام الملابسة ودوام
المصاحبة والمواسنة وحمل الرجاء على الخوف فقط يأباه كلمة الرضا بالحيوة الدنيا فانها
منبئة عما ذكر من ترك الاعلى واخذ الادنى واختيار صيغة الماضي في الفعلين الاخيرين
للدلالة على التحقق والتقرر كما ان اختيار صيغة المستقبل في الاول للايذان باستمرار عدم
الرجاء والذين هم عن آياتنا المفصلة في صحائف الاكوان حسبما اشير الى بعضها وآياتنا
المنزلة المنبهة على الاستشهاد بها المتفقة معها في الدلالة على حقية ما لا يرجونه
من اللقاء المترتب على البعث وعلى بطلان ما رضوا به واطمأنوا اليه من الحيوة الدنيا غافلون لا
يتفكرون فيها اصلا وان نبهوا على ذلك وذكر بانواع القوارع لانهماكهم فيما يصدهم
عنها من الاحوال المعدودة وتكرير الموصول للتوسل به الى جعل صلته جملة اسمية
منبئة عن ما هم عليه من استمرار الغفلة ودوامها وتنزيل التغاير الوصفي منزلة
التغاير الذاتي ايذانا بمغايرة الوصف الاخير للاوصاف الاول واستقلاله باستتباع
العذاب هذا واما ما قيل من ان العطف اما لتغاير الوصفين والتنبيه على ان الوعيد
على الجمع بين الذهول عن الآيات راسا والانهماك في الشهوات بحيث لا يخطر ببالهم
الآخرة اصلا واما لتغاير الفريقين والمراد بالاولين من انكر البعث ولم ير الا الحيوة
الدنيا وبالآخرين من الهاه حب العاجل عن التأمل في الآجل فكلام ناء عن السداد تأمل اولئك
الموصوفون بما ذكر من صفات السوء مأواهم اي مسكنهم ومقرهم الذي لا براح
لهم منه النار لا ما اطمأنوا بها من الحيوة الدنيا ونعيمها بما كانوا يكسبون من الاعمال
القلبية المعدودة وما تستتبعه من اصناف المعاصي والسيئات او بكسبهم اياها والجمع
بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجددي والباء متعلقة بمضمون
الجملة الاخيرة الواقعة خبرا عن اسم الاشارة وهو مع خبره خبر لان في قوله تعالى
ان الذين لا يرجون لقاءنا الخ ان الذين آمنوا اي فعلوا الايمان او آمنوا بما يشهد به
الآيات التي غفل عنها الغافلون او بكل ما يجب ان يؤمن به فيندرج فيه ذلك اندراجا
اوليا وعملوا الصالحات اي الاعمال الصالحة في انفسها اللائقة بالايمان وانما
ترك ذكر الموصوف لجريانها مجرى الاسماء يهديهم ربهم اوثر الالتفات تشريفا
لهم باضافة الرب اليهم واشعارا بعلة الهداية بايمانهم اي يهديهم بسبب
ايمانهم الى مأواهم ومقصدهم وهي الجنة وانما لم يذكر تعويلا على ظهوره
وانسياق النفس اليها لا سيما بملاحظة ما سبق من بيان مأوى الكفرة وما اداهم اليه
من اعمالهم السيئة مشاهدة ما لحق من التلويح والتصريح وفي النظم الكريم اشعار بان

مجرد الايمان والعمل الصالح لا يكفي في الوصول الى الجنة بل لابد بعد ذلك من الهداية الربانية
وان الكفر والمعاصي كافية في دخول النار ثم انه لا نزاع في ان المراد بالايمان الذي
جعل سببا لتلك الهداية هو ايمانهم الخاص المشفوع بالاعمال الصالحة لا الايمان المجرد
عنها ولا ما هو اعم منهما الا ان ذلك بمعزل عن الدلالة على خلاف ما عليه اهل السنة
والجماعة من ان الايمان الخالي عن العمل الصالح يفضي الى الجنة في الجملة ولا يخلد صاحبه في
النار فان منطوق الآية الكريمة ان الايمان المقرون بالعمل الصالح سبب للهداية
الى الجنة واما ان كل ما هو سبب لها يجب ان يكون كذلك فلا دلالة ولا لغيرها عليه
قطعا كيف لا وقوله عز وجل الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الا
من وهم مهتدون مناد بخلافه فان المراد بالظلم هو الشرك كما اطبق عليه المفسرون
والمعنى لم يخلطوا ايمانهم بشرك ولئن حمل على ظاهره ايضا يدخل في الاهتدا
من آمن ولم يعمل صالحا ثم مات قبل ان يظلم بفعل حرام او بترك واجب تجري من
تحتهم الانهار اى بين ايديهم كقوله سبحانه وهذه الانهار تجري من تحتي او تجري
وهم على سرر مرفوعة والارائك مصفوفة والجملة مستانفة او خبر ثان لان او
حال من مفعول يهديهم على تقدير كون المهدي اليه ما يريدونه في الجنة كما قيل
وقيل يهديهم ويسددهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدي الى الثواب الجنة
وقوله تجري من تحتهم الانهار جار مجرى التفسير والبيان فان التمسك بحبل السعادة
في حكم الوصول اليها وقيل يهديهم الى ادراك الحقائق البديعة بحسب القوة العملية
كما قال عليه السلام من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم في جنات النعيم
خبر آخر او حال اخرى منه او من الانهار او متعلق بتجري او بيهدي فالمراد بالمهدي
اليه اما منازلهم في الجنة او ما يريدونه فيها دعواهم وهو مبتدأ وقوله
عز وجل فيها متعلق به وقوله تعالى سبحانك اللهم خبره اى دعاؤهم هذا الكلام
وهو معمول لمقدر لا يجوز اظهاره والمعنى اللهم انا نسبحك تسبيحا ولعلهم يقولونه
عند ما عاينوا فيها من تعاجيب آثار قدرته تعالى ونتائج رحمته ورافته ما لا عين
رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر تقديسا لمقامه تعالى عن شوائب العجز
والنقصان وتنزيها لوعده الكريم عن سمات الخلف وتحيتهم فيها التحية التكرمة
بالحالة الجليلة اصلها احياك الله حيوة طيبة اى ما يحيي به بعضهم بعضا او تحية
الملئكة اياهم كما في قوله يدخلون عليهم من كل باب او تحية الله عز وجل لهم
كما في قوله تعالى سلام قولا من رب رحيم سلام اى سلامة عن كل مكروه
وآخر دعويهم اى خاتمة دعائهم ان الحمد لله رب العالمين اى ان
يقولوا ذلك نعتا له عز وجل بصفات الاكرام اثر نعته بصفات الجلال اى دعاؤهم
منحصر فيما ذكر اذ ليس لهم مطلب مترقب حتى ينظموه في سلك الدعاء وان هي المخففة
من ان المثقلة اصله انه الحمد لله بحذف ضمير الشان كما في قوله ان هالك كل من يحفى وينعل
وقرئ ان الحمد لله بالتشديد ونصب الحمد ولعل توسيط ذكر تحيتهم عند الحكاية بين دعائهم
وخاتمته للتوسل الى ختم الحكاية بالتحميد تبركا مع ان التحية ليست باجنبية على الاطلاق
ودعوى كون ترتيب الوقوع ايضا كذلك بان كانوا حين دخلوا الجنة وعاينوا عظمة
الله تعالى وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ثم حياهم الملئكة بالسلامة
عن الآفات والفوز باصناف الكرامات او حياهم بذلك رب العزة فحمدوه تعالى واثنوا
عليه باباهم اضافة الاخر الى دعواهم وتد جوز ان يكون المراد بالدعاء العبادة كما في
قوله تعالى واعتزلكم وما تدعون الخ ايذانا بان لا تكليف في الجنة اى ما عبادتهم الا
ان يسبحوه ويحمدوه وليس ذلك بعبادة انما يلهمونه فينطقون به تلذذا ولا يساعده
تعيين الخاتمة ولو يعجل الله للناس هم الذين لا يرجون لقاء الله تعالى لانكارهم
البعث وما يترتب عليه من الحساب والجزاء اشير الى بعض من عظائم معاصيهم
المتفرعة على ذلك وهو استعجالهم بما وعدوا به من العذاب تكذيبا واستهزاء وايرادهم

باسم الجنس لما ان تعجيل الخير لهم ليس دائرا على وصفهم المذكور اذ ليس كل ذلك بطريق
الاستدراج اى لو يعجل الله لهم الشر الذى كانوا يستعجلون به فانهم كانوا يقولون
اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا
بعذاب اليم ونحو ذلك وقوله تعالى استعجالهم بالخير نصب على انه مصدر تشبيهي
وضع موضع مصدر ناصبه دلالة على اعتبار الاستعجال في جانب المشبه كاعتبار
التعجيل في جانب المشبه به واشعارا بسرعة اجابته تعالى لهم حتى كان استعجالهم
بالخير نفس تعجيله لهم والتقدير ولو يعجل الله لهم الشر استعجالهم به تعجيلا
مثل تعجيله لهم الخير عند استعجالهم به فحذف ما حذف تعويلا على دلالة الباقي عليه
لقضي اليهم اجلهم لادي اليهم الاجل الذي عين لعذابهم واميتوا واهلكوا
بالمرة وما امهلوا طرفة عين وفي ايثار صيغة المبني للمفعول جري على سنن الكبرياء
مع الايذان بتعين الفاعل وقرئ على البناء للفاعل كما قرئ لقضينا واختيار صيغة
الاستقبال في الشرط وان كان المعنى على المضي لافادة ان عدم قضاء الاجل
لاستمرار عدم التعجيل فان المضارع المنفي الواقع موقع الماضي ليس بنص في افادة
انتفاء استمرار الفعل بل قد يفيد استمرار انتفائه بحسب المقام كما حقق في موضعه
واعلم ان مدار الافادة في الشرطية ان يكون التالي امرا مغايرا للمقدم في نفسه
مترتبا عليه في الوجود كما في قوله عز وجل لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم فان
العنت اى الوقوع في المشقة والهلاك امر مغاير لطاعته عليه السلام لهم مترتب
عليها في الوجود او يكون فردا كاملا لا مع افراده ممتازا من البقية بامر خاصة كما في
الاجوبة المحذوفة في مثل قوله تعالى ولو ترى اذ وقفوا على ربهم وقوله تعالى ولو
ترى اذ وقفوا على النار وقوله تعالى ولو ترى اذ المجرمون ونظائرها اى لرايت امرا
هائلا فظيعا او نحو ذلك وكما في قوله تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على
ظهرها من دابة اذا فسر الجواب بالاستيصال فانه فرد كامل من افراد مطلق المؤاخذة
قد عبر عنه بما لا مزيد عليه في الدلالة على الشدة والفظاعة فحسن موقعه في معرض التالي
للمؤاخذة المطلقة واما ما نحن فيه من القضاء فليس بامر مغاير لتعجيل الشر في نفسه
وهو ظاهر بل هو اما نفسه او جزئي منه كسائر جزئياته من غير مزية له على البقية
اذ لم يعتبر في مفهومه ما ليس في مفهوم تعجيل الشر من الشدة والهول فلا يكون
في ترتيبه عليه وجودا او عدما مزيد فائدة مصححة لجعله تاليا له فالحق ان المقدم
ليس بنفس تعجيل المذكور بل هو ارادته المستتبعة للقضاء المذكور وجودا او عدما
كما في قوله تعالى لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب اى لو يريد مؤاخذتهم
فان تعجيل العذاب لهم نفس المؤاخذة او جزئي من جزئياتها غير ممتاز عن
البقية فليس في بيان ترتبه عليها وجودا او عدما مزيد فائدة وانما الفائدة
في بيان ترتبه على ارادتها حسبما ذكروا ايضا في ترتيب التالي على ارادة المتقدم
ما ليس في ترتيبه على نفسه من الدلالة على المبالغة وتهويل الامر والدلالة على
ان الامور منوطة بارادته تعالى المبنية على الحكم البالغة فنذر الذين لا
يرجون لقاءنا بنون العظمة الدالة على التشديد في الوعيد وهو عطف على
مقدر تنبئ عنه الشرطية كانه قيل لكن لا نفعل ذلك لما يقتضيه الحكمة فنتركهم
امهالا واستدراجا في طغيانهم الذى هو عدم رجاء اللقاء وانكار البعث
والجزاء وما يتفرع على ذلك من اعمالهم السيئة ومقالاتهم الشنيعة يعمهون
اى يترددون ويتحيرون وفي وضع الموصول موضع الضمير نوع بيان
للطغيان بما في حيز الصلة واشعار بعليته للترك والاستدراج واذا
مس الانسان الضر اى اصابه جنس الضر من مرض او فقر وغيرهما من الشدائد
اصابة يسيرة دعانا لكشفه وازالته لجنبه حال من فاعل دعا بشهادة ما عطف
عليه من الحالين واللام بمعنى على كما في قوله تعالى يخرون للاذقان اى دعانا كائنا على جنبه

اى مضطجعا او قاعدا او قائما اى فى جميع الاحوال مما ذكر ومالم يذكر وتخصيص
المعدودات بالذكر لعدم خلو الانسان عنها عادة او دعانا فى جميع احوال مرضه على
انه المراد بالضر خاصة مضطجعا عاجزا عن القعود قاعدا غير قادر على النهوض وقائما
لا يستطيع الحراك فلما كشفنا عنه ضره الذى مسه عقيب دعائه حسبما يبتغى عنه القاء مر
اى مضى واستمر على طريقته التى كان ينتحيها قبل مساس الضر ونسى حالة الجهد و
البلاء او مر عن موقف الضراعة والابتهال ونأى بجانبه كأن لم يدعنا اى كأنه
لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشأن كما فى قوله كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا والجملة
التشبيهية فى محل النصب على الحالية من فاعل مر اى مر مشبها بمن لم يدعنا الى ضر
اى الى كشف ضر مسه وهذا وصف للجنس باعتبار حال بعض افراده ممن هو
متصف بهذه الصفات كذلك نصب على المصدرية وذلك اشارة الى مصدر
الفعل الآتى وما فيه من معنى البعد للتفخيم والكاف مقحمة للدلالة على زيادة فخامة
المشار اليه اقحاما لا يكاد يترك فى لغة العرب ولا فى غيرها ومن ذلك قولهم
مثلك لا يبخل مكان انت لا تبخل اى مثل ذلك التزيين العجيب زين للمسرفين اى
للموصوفين بما ذكر من الصفات الذميمة واسرافهم لما ان الله تعالى انما اعطاهم القوى
والمشاعر ليصرفوها الى مصارفها ويستعملوها فيما خلقت له من العلوم والاعمال
الصالحة فلما صرفوها الى ما لا ينبغى وهو رأس مالهم فقد اتلفوها واسرفوا اسرافا
ظاهرا والتزيين اما من جهة الله سبحانه على طريقة التخلية والخذلان او من
الشيطان بالوسوسة والتسويل ما كانوا يعملون من الاعراض عن الذكر
والدعاء والانهماك فى الشهوات وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث ان فى كل
منهما املاء للكفرة على طريقة الاستدراج بعد الانقاذ من شر المقدر فى الاولى
ومن الضر المقرر فى الاخرى ولقد اهلكنا القرون اى القرون الخالية مثل
قوم نوح وعاد واضرابهم ومن فى قوله تعالى من قبلكم متعلق باهلكنا
اى اهلكناهم من قبل زمانكم والخطاب لاهل مكة على طريقة الالتفات للمبالغة
فى تشديد التهديد بعد تأييده بالتوكيد القسمى لما ظلموا ظرف للاهلاك
اى اهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب والتمادى فى الغى والضلال من غير
تأخير وجاءتهم رسلهم الواو للحال من ضمير ظلموا وقوله تعالى بالبينات
متعلق بجاءتهم على ان الباء للتعدية او بمحذوف وقع حالا من رسلهم دالة
على افراطهم فى الظلم وتناهيهم فى المكابرة اى ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم
رسلهم بالآيات البينة الدالة على صدقهم او ملتبسين بها حين لا مجال للتكذيب
وقد جوز ان يكون للعطف على ظلموا فلا محل للجملة عند سيبويه وعند غيره محلها
الجر لانها معطوفة على ما هو مجرور باضافة الظرف اليه وليس الظلم منحصرا
فى التكذيب حتى يحتاج الى الاعتذار بان الترتيب الذكرى لا يجب كونه على وفق
الترتيب الوقوعى كما فى قوله تعالى ورفع ابويه على العرش وخروا له الخ بل هو محمول على
سائر انواع الظلم والتكذيب مستفاد من قوله تعالى وما كانوا ليؤمنوا على ابلغ
وجه وآكده فان اللام لتأكيد النفى اى وما صح وما استقام لهم ان يؤمنوا لفساد
استعدادهم وخذلان الله تعالى اياهم لعلمه بان الالطاف لا تنجع فيهم والجملة
على الاول عطف على ظلموا لانه اخبار باحداث التكذيب وهذا بالاصرار عليه
وعلى الثانى عطف على ما عطف عليه وقيل اعتراض بين الفعل وما يجرى مجرى
مصدره التشبيهى اعنى قوله تعالى كذلك فان الجزاء المشار اليه عبارة عن
مصدره اى مثل ذلك الجزاء الفظيع اى الاهلاك الشديد الذى هو الاستئصال
بالمرة نجزى القوم المجرمين اى كل طائفة مجرمة وفيه وعيد شديد وتهديد اكيد
لاهل مكة لاشتراكهم لاولئك المهلكين فى الجرائم والجرائر التى هى التكذيب للرسول
والاصرار عليه وتقرير لمضمون ما سبق من قوله تعالى ولو يعجل الله للناس الشر الخ وقرئ

بالياء

بالياء على الالتفات الى الغيبة وقد جوز ان يكون المراد بالقوم المجرمين اهل مكة على
طريقة وضع الظاهر موضع ضمير الخطاب ايذانا بانهم اعلام فى الاجرام وياباه كل
الاباء قوله عز وجل ثم جعلناكم خلائف فى الارض من بعدهم فانه صريح
فى انه ابتداء تعرض لامورهم وان ما بين فيه انما هو مبادى احوالهم لاختبار
كيفيات اعمالهم على شرع باستمالتهم نحو الايمان والطاعة فمحال ان يكون ذلك
اثر بيان منتهى امرهم وخطابهم ببت القول باهلاكهم لكمال اجرامهم والمعنى
ثم استخلفناكم فى الارض بعد اهلاك اولئك القرون التى تسمعون اخبارها و
تشاهدون آثارها استخلاف من يختبر لننظر اى لنعامل معاملة من ينظر
كيف تعملون فهى استعارة تمثيلية وكيف منصوب على المصدرية بتعملون لا بننظر
فان ما فيه من معنى الاستفهام مانع من تقدم عامله عليه اى اى عمل او على الحالية
اى على اى حال تعملون الاعمال اللائقة بالاستخلاف من اوصاف الحسن كقوله عز وعلا
ليبلوكم ايكم احسن عملا ففيه اشعار بان المراد بالذات والمقصود الاصلى
من الاستخلاف انما هو ظهور الكيفيات الحسنة للاعمال الصالحة واما الاعمال السيئة
فبمعزل من ان تصدر عنهم لا سيما بعد ما سمعوا اخبار القرون المهلكة وشاهدوا
آثار بعضها فضلا عن ان ينتظم ظهورها فى سلك العلة الغائية للاستخلاف وقيل
منصوب على انه مفعول به اى اى عمل تعملون اخيرا ام شرا فنعاملكم بحسبه فلا يكون
فى كلمة كيف حينئذ دلالة على ان المعتبر فى الجزاء جهات الاعمال وكيفياتها لا ذواتها
كما هو رأى القائل بل يكون حينئذ مستعارة لمعنى اى شئ واذا تتلى عليهم التفات
من خطابهم الى الغيبة اعراضا عنهم وتوجيها للخطاب الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم بتعديد جناياتهم المضادة لما اريد منهم بالاستخلاف من تكذيب الرسول
والكفر بالآيات البينات وغير ذلك كدأب من قبلهم من القرون المهلكة وصيغة المضارع
للدلالة على تجدد جوابهم اللاتى حسب تجدد التلاوة آياتنا الدالة على حقية
التوحيد وبطلان الشرك والاضافة لتشريف المضاف والترغيب فى الايمان به والترهيب
عن تكذيبه بينات حال كونها واضحات الدلالة على ذلك وايراد فعل التلاوة مبنيا
للمفعول مسندا الى الآيات دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ببنائه للفاعل للاشعار
بعدم الحاجة لتعيين التالى وللايذان بان كلامهم فى نفس المتلو دون التالى
قال الذين لا يرجون لقاءنا وضع الموصول موضع الضمير اشعارا بعلية ما فى حيز
الصلة للعظيمة المحكية عنهم وانهم انما اجترؤا عليها لعدم خوفهم من عقابه
تعالى يوم اللقاء لانكارهم له ولما هو من مباديه من البعث وذما لهم بذلك
اى قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما لم يذكر ايذانا
بتعينه ائت بقرآن غير هذا اشاروا بهذا الى القرآن المشتمل على تلك الآيات
لا الى نفسها فقط قصدا الى اخراج الكل من البين اى ائت بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه
ما نستبعده من البعث والحساب والجزاء او ما نكرهه من ذم آلهتنا ومعايبها والوعيد
على عبادتها او بدله بتغيير ترتيبه بان تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية خالية عنها
وانما قالوه كيدا او طمعا فى المساعدة ليتوسلوا به الى الالزام والاستهزاء به قل لهم ما يكون
لى اى ما يصح وما يستقيم لى ولا يمكننى اصلا ان ابدله من تلقاء نفسى اى من قبل نفسى
وهو مصدر استعمل ظرفا وقرئ بفتح التاء وقصر الجواب ببيان امتناع ما اقترحوه
على اقتراحهم الثانى للايذان بان استحالة ما اقترحوه اولا من الظهور بحيث لا حاجة
الى بيانها وان التصدى لذلك مع كونه ضائعا بما يعد من قبيل المجاراة مع السفهاء
اذ لا يصدر مثل ذلك الاقتراح عن العقلاء ولان ما يدل على استحالة الثانى يدل على
استحالة الاول بالطريق الاولى ان اتبع اى ما اتبع فى شئ مما آتى واذر الا ما يوحى
الى لا قصر اتباعه على ما يوحى اليه من غير تغيير له فى شئ اصلا على معنى قصر حاله عليه
السلام على اتباع ما يوحى اليه كما هو المتبادر من ظاهر العبارة كانه قيل ما افعل الا اتباع

مايوحى الى وقد مر تحقيق المقام في سورة الانعام وهو تعليل لصدر الكلام فان من شانه اتباع
الوحى على ما هو عليه لا يستبد بشيء دونه قطعا وفيه جواب للنقض بنسخ بعض الايات
ورد لما عرضوا به عليه السلام بهذا السؤال من ان القران كلامه عليه السلام ولذلك
قيد التبديل في الجواب بقوله من تلقاء نفسي وسماه عصيانا عظيما مستتبعا لعذاب عظيم
بقوله تعالى اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم فانه تعليل لمضمون ما قبله
من امتناع التبديل واقتصار امره عليه السلام على اتباع الوحى اى اخاف ان عصيته تعالى
بتعاطى ما ليس لى من التبديل من تلقاء نفسي والاعراض عن اتباع الوحى عذاب يوم عظيم
هو يوم القيمة ويوم اللقاء الذي لا يرجونه وفيه اشعار بانهم استوجبوا بهذا الاقتراح
والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام لتهويل امر العصيان واظهار
كمال نزاهته عليه السلام عنه وايراده عنه اليوم بالتنوين التفخيمي ووصفه بالعظم
لتهويل ما فيه من العذاب وتفظيعه ولا مساغ لحمل مقترحهم على التبديل والاتيان
بقرآن آخر من جهة الوحى بتفسير قوله ما يكون لى ان ابدله من تلقاء نفسي بانه لا يستقل لى
ان ابدله بالاستدعاء من جهة الوحى ما اتبع الا ما يوحى الى من غير صنع ما من الاستدعاء
وغيره من قبلى لانه يرده التعليل المذكور لكن لا لان المقترح حينئذ ليس فيه معصية
اصلا كما توهم فان استدعاء تبديل الايات النازلة حسبما يقتضيه الحكمة التشريعية
بعضها ببعض لاسيما بموجب اقتراح الكفرة مما لا ريب في كونه معصية بل لانه ليس في
معصية الافتراء مع انها المقصود بما ذكر في التعليل الاترى الى ما بعده من الايتين
الكريمتين فانه صريح في ان مقترحهم الاتيان بغير القران وتبديله بطريق الافتراء وان
زعمهم في الاصل ايضا كذلك وقوله عز وجل قل لو شاء الله ما تلوته عليكم تحقيق
لحقية القران وكونه من عند الله تعالى اثر بيان بطلان ما اقترحوا الاتيان به واستحالته
عبارة ودلالة وانما صدر بالامر المستقل مع كونه داخلا تحت الامر السابق اظهارا
لكمال الاعتناء بشانه وايذانا باستقلاله مفهوما واسلوبا فانه برهان دال على كونه
امر الله تعالى ومشيئته كما سياتى وما سبق مجرد اخبار باستحالة ما اقترحوه ومفعول
شاء محذوف ينبئ عنه الجزاء لا غيره ذلك كما قيل فان مفعول المشية انما يحذف اذا وقعت
شرطا وكان مفعولها مضمون الجزاء ولم يكن في تعلقها به غرابة كما في قوله لو شئت
ان ابكى دما لبكيته حيث لم يحذف لفقدان الشرط الاخير ولان المستلزم للجزاء
اعنى عدم تلاوته عليه السلام للقران عليهم انما هو مشيته تعالى له لا مشيته لغيره
القران والمعنى ان الامر كله منوط بمشيئته تعالى وليس لى منه شيء قط ولو شاء عدم
تلاوتى له عليكم لا بان شاء عدم تلاوتى له من تلقاء نفسي بل بان لم ينزله على ولم
يامرنى بتلاوته كما ينبئ عنه ايثار التلاوة على القراءة ما تلوته عليكم ولا ادراكم به
اى ولا اعلمكم به بواسطتى والتالى وهو عدم التلاوة والادراء منتف فينتفى
المقدم اعنى مشية عدم التلاوة ولا يخفى انها مستلزمة لعدم مشية التلاوة قطعا
فانتفاؤها مستلزم لانتفائه حتما لانتفاء عدم مشية التلاوة وانما يكون بتحقق
مشية التلاوة فثبت ان تلاوته عليه السلام للقران بمشيئته تعالى وامره وانما قيدنا
الادراء بكونه بواسطته عليه السلام لان عدم الاعلام مطلقا ليس من لوازم الشرط
الذي هو مشيته عدم تلاوته عليه السلام فلا يجوز نظمه في سلك الجزاء وفي
اسناد عدم الادراء اليه تعالى المنبئ عن اسناد الادراء اليه تعالى ايذان بان لا دخل له عليه السلام
في ذلك حسبما يقتضيه المقام وقرئ ولا ادرأتكم ولا ادرأكم بالهمزة فيهما على لغة
من يقول اعطأت وارضأت في اعطيت وارضيت او على انه من الدرء بمعنى الدفع
اى ولا جعلتكم بتلاوته عليكم خصماء تدرؤننى بالجدال وقرئ ولا انذرتكم
به وقرئ لادراكم بلام الجواب اى لو شاء الله ما تلوته عليكم انا ولاعلمكم به
على لسان غيرى على معنى انه الحق الذي لا محيص عنه لو لم ارسل به انا لارسل به غيرى
البتة وعلى معنى انه تعالى يمن على من يشاء فخصنى بهذه الكرامة فقد لبثت فيكم عمرا تعليل

لملازمه المستلزمة لكون تلاوته بمشيئة الله تعالى وامره حسبما بين آنفا لكن بطريق الاستدلال
عليه بعدم تلاوته عليه السلام فيما سبق بسبب مشيئته تعالى اياه بل بطريق الاستشهاد
عليها بما شاهدوا منه عليه السلام في تلك المدة الطويلة من الامور الدالة على
استحالة كون التلاوة من جهته عليه السلام بلا وحى وعمرا نصب على التشبيه بظرف
الزمان والمعنى قد اقمت فيما بينكم دهرا مديدا مقدار اربعين سنة تحفظون تفاصيل
احوالى طرا وتحيطون بما لدى خبرا من قبله اى من قبل نزول القران لا اتعاطى شيئا
مما يتعلق به لا من حيث نظمه المعجز ولا من حيث معناه الكاشف عن اسرار
الحقائق واحكام الشرائع افلا تعقلون اى الا تلاحظون ذلك فلا تعقلون
امتناع صدوره عن مثلى ووجوب كونه منزلا من عند الله العزيز الحكيم فانه
غير خاف على من له عقل سليم والحق الذي لا محيد عنه ان من له ادنى مسكة من
العقل اذا تامل في امره صلى الله عليه وسلم وانه نشأ فيما بينهم هذا الدهر الطويل
غير مصاحبة العلماء في شان من الشؤن ولا مراجعة اليهم في فن من الفنون ولا مخالطة
البلغاء في المفاوضة والحوار ولا خوض معهم في انشاء الخطب والاشعار ثم اتى
بكتاب بهرت فصاحته كل فصيح فائق وبذت بلاغته كل بليغ رائق وعلا نظمه في كل
منثور ومنظوم وحوى فحواه بدائع اصناف العلوم كاشف عن اسرار الغيب من
وراء استار الكمون ناطق باخبار ما قد كان وما سيكون مصدق لما بين يديه
من الكتب المنزلة مهيمن عليها في احكامها المجملة والمفصلة فلا يبقى عنده شائبة
اشتباه في انه وحى منزل من عند الله تعالى هذا هو الذي اتفقت عليه كلمة الجمهور
ولكن الانسب ببناء الجواب فيما سلف على مجرد امتناع صدور التغيير والتبديل عنه
عليه السلام لكونه معصية موجبة للعذاب الاليم واقتضاء حاله عليه السلام على
اتباع الوحى وامتناع الاستبداد بالراى من غير تعرض هناك ولا ههنا لكون القرآن
في نفسه امرا خارجا عن طوق البشر ولا لكونه عليه السلام عاجزا عن الاتيان
بمثله ان يستشهد ههنا على المطلب بما يلايم ذلك من احواله المستمرة في تلك المدة
المتطاولة من كمال نزاهته عليه السلام عما يوهم شائبة صدور الكذب والافتراء
عنه في حق احد كائنا من كان كما ينبئ عنه تعقيبه بتظليم المفترى على الله تعالى والمعنى
قد لبثت فيما بين ظهرانيكم قبل الوحى لا اتعرض لاحد قط بتحكم ولا جدال ولا احوم
حول مقال فيه شائبة شبهة فضلا عما فيه كذب او افتراء الا تلاحظونه فلا
تعقلون ان من هذا شانه المطرد في هذا العهد البعيد مستحيل ان يفترى على الله
عز وجل ويتحكم على كافة الخلق بالاوامر والنواهى الموجبة لسلب الاموال وسفك
الدماء ونحو ذلك وان ما اتى به وحى مبين تنزيل من رب العالمين وقوله عز وجل فمن
اظلم ممن افترى على الله كذبا استفهام انكاري ومعناه الجحد اى لا احد اظلم
منه على معنى انه اظلم من كل ظالم وان كان سبك التركيب مفيدا لانكار ان يكون
احد اظلم منه من غير تعرض لانكار المساواة ونفيها فانه فاذا قيل من افضل من فلان
او لا اعلم منه يفهم منه حتما انه افضل من كل فاضل واعلم من كل عالم وزيادة
قوله تعالى كذبا مع ان الافتراء لا يكون الا كذلك للايذان بان ما اضافوه اليه ضمنا
وحملوه عليه السلام صريحا مع كونه افتراء على الله تعالى كذب في نفسه فرب افتراء
يكون كذبه في الاسناد فقط كما اذا اسند ذنب زيد الى عمرو وهذا للمبالغة منه عليه السلام
في التفادى مما ذكر من الافتراء على الله سبحانه او كذب باياته فكفر بها وهذا
تظليم للمشركين بتكذيبهم للقران وحملهم على انه من جهته عليه السلام والفاء
لترتيب الكلام على ما سبق من بيان كون القرآن بمشيئته تعالى وامره فلا مجال لحمل الافتراء
على الافتراء باتخاذ الولد والشريك اى واذا كان الامر كذلك فمن افترى عليه تعالى
بان يختلق كلاما فيقول هذا من عند الله او يبدل بعض اياته تعالى ببعض كما تجوزون
ذلك في شانى وكذلك من كذب باياته تعالى كما تفعلونه اظلم من كل ظالم انه الضمير

للشان وقع اسماً لان والخبر ما يعقبه من الجملة ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية
عن ذكره وفائدة تصديرها به الايذان بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقرير
فى الذهن فان الضمير لا يفهم منه من اول الامر الشان مبهم له خطر فيبقى الذهن
مترقباً لما يعقبه فيتمكن عند وروده عليه فضل تمكن فكانه قيل ان الشان هذا اى
لا يفلح المجرمون اى لا ينجون من محذور ولا يظفرون بمطلوب والمراد جنس المجرمين
فيندرج فيه المفتري والمكذب اندراجاً اولياً ويعبدون من دون الله حكاية لجناية
اخرى لهم نشأ عنها جنايتهم الاولى معطوفة على قوله تعالى واذا تتلى عليهم الآية
عطف قصة على قصة ومن دون متعلق بيعبدون ومحله النصب على الحالية من فاعله اى متجاوزين
الله سبحانه لا بمعنى ترك عبادته بالكلية بل بمعنى عدم الاكتفاء بها وجعلها قريناً لعبادة
الاصنام كما يفصح عنه سياق النظم الكريم ما لا يضرهم ولا ينفعهم اى ما ليس من
شانه الضرر والنفع من الاصنام التى هى جمادات وما موصولة او موصوفة وفى
تقديم نفى الضرر لان ادنى احكام العبادة دفع الضرر الذى هو اول المنافع والعبادة امر
حادث مسبوق بالعدم الذى هو مظنة الضرر فحيث لم يقدر الاصنام على
الضرر لم يوجد لاحداث العبادة سبب وقيل لا يضرهم ان تركوا عبادتها ولا
ينفعهم ان عبدوها كان اهل الطائف يعبدون اللات واهل مكة عزى ومناة
وهبل واسافاً ونايلة ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله عن النضر بن الحرث
اذا كان يوم القيمة يشفع لى اللات قيل انهم كانوا يعتقدون ان المتولى لكل اقليم
روح معين من ارواح الافلاك فعينوا لذلك الروح صنماً معيناً من الاصنام واشتغلوا
بعبادته ومقصودهم ذلك الروح ثم اعتقدوا ان ذلك الروح يكون عند الاله الاعظم
مشتغلاً بعبوديته وقيل انهم كانوا يعبدون الكواكب فوضعوا لها اصناماً معينة
واشتغلوا بعبادتها قصداً الى عبادة الكواكب وقيل انهم وضعوا طلسمات معينة على
تلك الاصنام ثم تقربوا اليها وقيل انهم وضعوا هذه الاصنام على صور انبيائهم
واكابرهم وزعموا انهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فان اولئك الاكابر
يشفعون لهم عند الله تعالى قل تبكيتاً لهم اتنبئون الله بما لا يعلم اى اتخبرونه
بما لا وجود له اصلاً وهو كون الاصنام شفعاءهم عند الله تعالى اذ لولاه لعلمه علام
الغيوب وفيه تقريع لهم وتهكم بهم وبما يدعونه من المحال الذى لا يكاد يدخل
تحت الصحة والامكان وقرئ اتنبئونه بالتخفيف وقوله تعالى فى السموات ولا فى الارض
حال من العايد المحذوف فى يعلم موكدة للنفى لما لا يوجد فيهما فهو منتف
عادة سبحانه وتعالى عما يشركون عن اشراكهم المستلزم لتلك المقالة
الباطلة او عن شركائهم الذين يعتقدونهم شفعاءهم عند الله تعالى وقرئ تشركون
بتاء الخطاب على انه من جملة القول المامور به وعلى الاول هو اعتراض تذييلى من
جهته سبحانه وتعالى وما كان الناس الا امة واحدة بيان لان التوحيد والاسلام
ملة قديمة اجتمعت عليه الامم قاطبة فطرة وتشريعاً وان الشرك وفروعه جهالات
ابتدعها الغواة خلافاً للجمهور وشقاً لعصا الجماعة واما حمل اتحادهم على الاتفاق
على الضلال عند الفطرة واختلافهم على ما كان منهم من الاتباع والاصرار فمما لا
احتمال له اى وما كان الناس كافة من اول الامر الا متفقين على الحق والتوحيد من
غير اختلاف وذلك من عهد آدم عليه السلام الى ان قتل قابيل هابيل وقيل الى زمن ادريس
وقيل الى زمن نوح عليهما السلام وقيل من حين الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين
دياراً الى ان ظهر فيما بينهم الكفر وقيل من لدن ابراهيم عليه السلام الى ان ظهر عمرو
لحى عبادة الاصنام فالمراد بالناس العرب خاصة وهو الانسب بايراد الآية الكريمة
اثر حكاية ما حكى عنهم من الهنات وتنزيه ساحة الكبرياء عن ذلك فاختلفوا بان
كفر بعضهم وثبت آخرون على ما هم عليه فخالف كل من الفريقين الآخر لا ان كلا منهما
احدث ملة على حدة من ملل الكفر مخالفة لملة الآخر فان الكلام ليس فى ذلك الاختلاف

او كل منهما مبطل حينئذ فلا يتصور ان يقضى بينهما بابقاء المحق واهلاك المبطل والفاء
التعقيبية لا تنافى امتداد زمان الاتفاق اذ المراد بيان وقوع الاختلاف عقيب انصرام
مدة الاتفاق لا عقيب حدوث الاتفاق ولولا كلمة سبقت من ربك بتاخير القضاء
بينهم او بتاخير العذاب الفاصل بينهم الى يوم القيمة فانه يوم الفصل لقضى بينهم
عاجلاً فيما فيه يختلفون بتمييز المحق عن المبطل بابقاء المحق واهلاك المبطل وصيغة
الاستقبال لحكاية الحال الماضية والدلالة على الاستمرار ويقولون حكاية لجناية
اخرى لهم معطوفة على قوله تعالى ويعبدون وصيغة المضارع لاستحضار صورة
مقالتهم الشنعاء والدلالة على الاستمرار والقائلون اهل مكة لولا انزل عليه آية
من ربه ارادوا آية من الآيات التى اقترحوها كانهم لفرط العتو والفساد وتناهيهم
التمادى فى المكابرة والعناد لم يعدوا البينات النازلة عليه عليه السلام من
جنس الآيات واقترحوا غيرها مع انه قد انزل عليه من الآيات الباهرة
والمعجزات المتكاثرة ما يضطرهم الى الانقياد والقبول لو كانوا من ارباب العقول فقل
لهم فى الجواب انما الغيب لله اللام للاختصاص العلمى دون التكوينى فان الغيب
والشهادة فى ذلك الاختصاص سيان والمعنى ان ما اقترحتموه وزعمتم انه من لوازم
النبوة وعلقتم ايمانكم بنزوله من الغيوب المختصة بالله سبحانه لا وقوف لى عليه
فانتظروا نزوله انى معكم من المنتظرين اى لما يفعل الله بكم لاجترائكم على مثل
هذه العظيمة من جحود الآيات واقتراح غيرها وجعل الغيب عبارة عن الصارف
عن انزال الآيات المقترحة يأباه ترتيب الامر بالانتظار بالانتظار على اختصاص الغيب
به تعالى واذا اذقنا الناس رحمة صحة وسعة من بعد ضراء مستهم اى خالطتهم
حتى احسوا بسوء اثرها فيهم واسناد المساس الى الضراء بعد اسناد الاذاقة الى ضمير
الجلالة من الآداب القرآنية كما فى قوله تعالى واذا مرضت فهو يشفين ونظائره قيل سلط الله
تعالى على اهل مكة القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم بالحيا فطفقوا يطعنون
فى آياته تعالى ويعادون رسوله صلى الله عليه وسلم ويكيدونه وذلك قوله تعالى اذا لهم
مكر فى آياتنا اى بالطعن فيها وعدم الاعتداد بها والاحتيال فى دفعها واذا
الاولى شرطية والثانية جوابها كانه قيل فاجؤا وقوع المكر منهم وتنكير مكر للتفخيم
وفى متعلقة بالاستقرار الذى يتعلق به اللام قل الله اسرع مكراً اى اعجل عقوبة
اى عذابه اسرع وصولاً اليكم مما يأتى منكم فى دفع الحق وتسمية العقوبة
بالمكر لوقوعها فى مقابلة مكرهم وجوداً او ذكراً ان رسلنا الذين يحفظون اعمالكم
والاضافة للتشريف يكتبون ما تمكرون اى مكركم او ما يمكرونه وهو تحقيق
للانتقام منهم وتنبيه على ان ما دبروا فى اخفائه غير خاف على الحفظة فضلاً عن
العليم الخبير وصيغة الاستقبال فى الفعلين للدلالة على الاستمرار التجددى وفى
الجملة تعليل من جهته تعالى لاسرعية مكره سبحانه غير داخل فى الكلام الملقن كقوله
تعالى ولو جئنا بمثله مدداً فان كتابة الرسل لما يمكرون من مبادى بطلان مكرهم وفى
تخلف اثره عنه بالكلية وفيه من المبالغة ما لا يوصف وتلوين بصرفه عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم اليهم للتشديد فى التوبيخ وقرئ على لفظ الغيبة فيكون تعليلاً
لما ذكر او للامر هو الذى يسيركم كلام مستأنف مسوق لبيان جناية اخرى لهم
مبنية على ما مر آنفاً من اختلاف حالهم حسب اختلاف ما يعتريهم من السراء والضراء
اى يمكنكم من السير تمكيناً مستمراً عند الملابسة به وقبلها فى البر مشاة وركباناً
وقرئ ينشركم من النشر ومنه قوله عز وعلا ابشر تنتشرون والبحر حتى اذا كنتم فى
الفلك اى السفن فانه جمع فلك على زنة اسد جمع اسد لا على وزن قفل وغاية
التسيير ليست ابتداء ركوبهم فيها بل مضمون الشرطية بتمامه كما ينبئ عنه ايثار الكون
المؤذن بالدوام على الركوب المشعر بالحدوث وجرين اى السفن بهم
بالتزين فيها والالتفات الى الغيبة للايذان بما لهم من سوء الحال الموجب للاعراض عنهم

كانه يذكر لغيرهم مساوى احوالهم ليعجّبهم منها ويستدعى منه الانكار والتقبيح وقيل ليس فيه الالتفات بل معنى قوله تعالى حتى اذا كنتم فى الفلك اذا كان بعضكم فيها اذ الخطاب للكل ومنهم المسيّرون فى البرّ فالضمير الغايب عايد الى ذلك المضاف المقدّر كما فى قوله تعالى او كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج اى او كذى ظلمات الخ بريح طيبة لينة الهبوب موافقة لمقصدهم وفرحوا بها بتلك الريح لطيبها وموافقتها جاءتها جواب اذا والضمير المنصوب للريح الطيبة اى تلقتها واستولت عليها من طرف مخالف لها فان الهبوب على وفقها لا يسمّى مجيئا للريح اذ هى عادة بل هو اشتداد للريح الاولى وقيل للفلك والاولى اظهر لاستلزامه للثانى من غير عكس لان الهبوب على طريقة الريح اللينة بعد مجيئا بالنسبة الى الفلك دون الريح اللينة مع انه لا يستتبع تلاطم الامواج الموجب لمجيئها من كل مكان ولان التهويل فى بيان استيلائهما على ما فرحوا به وعلّقوا حال رجائهم اكثر ريح عاصف اى ذات عصف وقيل العصوف مختص بالريح فلا حاجة الى الفارق وقيل الريح قد يذكر وجاءهم الموج فى الفلك من كل مكان اى من امكنة مجئ الموج عادة ولا يبعد فى مجيئه من جميع الجوانب ايضا اذ لا يجب ان يكون مجيئه من جهة هبوب الريح فقط بل قد يكون من غيرها بحسب اسباب تتفق له وظنوا انهم احيط بهم اى هلكوا فان ذلك مثل فى الهلاك واصله احاطة العدوّ بالحىّ او سدّت عليهم مسالك الخلاص دعوا الله بدل من ظنوا بدل من اشتمال لما بينهما من الملابسة والتلازم او استيناف مبنى على سؤال ينساق اليه الاذهان كانه قيل فماذا صنعوا فقيل دعوا الله مخلصين له الدين من غير ان يشركوا به شيئا من آلهتهم للدعاء به تعالى فقط بل للعبادة ايضا فانهم بمجرد تخصيص الدعاء به تعالى لا يكونون مخلصين له الدين لئن انجيتنا اللام موطئة للقسم على ارادة القول اى قائلين والله لئن انجيتنا من هذه الورطة لنكونن البتة بعد ذلك ابدا من الشاكرين لنعمك التى من جملتها هذه النعمة المسؤولة وقيل الجملة مفعول دعوا لان الدعاء من قبيل القول والاول هو الاولى لاستدعاء الثانى لاقتصار دعائهم على ذلك فقط وفى قوله لنكونن من الشاكرين من المبالغة فى الدلالة على كونهم ثابتين فى الشكر مثابرين عليه منتظمين فى سلك المعروفين بالشكر الراسخين فيه ما ليس فى ان يقال لنشكرن فلما انجاهم مما غشيهم من الكربة والفاء للدلالة على سرعة الاجابة اذا هم يبغون فى الارض اى فاجؤا الفساد فيها وسارعوا اليه مترافين فى ذلك متجاوزين عما كانوا عليه من حدود البعث من قولهم بغى الجرح اذا ترامى فى الفساد وزيادة فى الارض للدلالة على شمول بغيهم لاقطارها وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وقوله تعالى بغير الحق تاكيد لما يفيده البغى ومعناه انه بغير الحق عندهم ايضا بان يكون ذلك ظلما ظاهرا لا يخفى قبحه على احد كما فى قوله تعالى ويقتلون النبيين بغير الحق واما ما قيل من انه للاحتراز عن البغى بحق كتخريب الغزاة ديار الكفرة وقطع اشجارهم واحراق زروعهم فلا يساعده النظم الكريم لابتنائه على كون البغى بمعنى افساد صورة الشئ وابطال منفعته دون ما ذكر من المعنى اللايق بحال المفسدين يا ايها الناس توجيه للخطاب الى اولئك الباغين للتشديد فى التهديد والمبالغة فى الوعيد انما بغيكم الذى تتعاطونه وهو مبتدأ وقوله تعالى على انفسكم خبره اى عليكم فى الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم وان ظن كذلك وقوله تعالى متاع الحيوة الدنيا بيان لكون ما فيه من المنفعة العاجلة شيئا غير معتد به سريع الزوال دائم الوبال وهو نصب على انه مصدر مؤكد لفعل مقدر بطريق الاستيناف اى تتمتعون متاع الحيوة الدنيا وقيل على انه مصدر وقع موقع الحال اى متمتعين بالحيوة الدنيا والعامل هو الاستقرار الذى فى الخبر لا نفس البغى لانه يؤدى الى الفصل بين المصدر ومعموله بالخبر ولا يخبر عن الموصول الا بعد تمام صلته وانت خبير بانه ليس فى تقييد كون بغيهم على انفسهم بحال تمتعهم بالحيوة الدنيا معنى يعتد به وقيل على انه ظرف زمان نحو مقدم الحاج اى

زمن متاع الحيوة الدنيا وفيه ما مرّ بعينه وقيل على انه مفعول لفعل دل عليه المصدر اى تبغون متاع الحيوة الدنيا ولا يخفى انه لا يدل على البغى بمعنى الطلب وجعل المصدر ايضا بمعناه مما يخل بجزالة النظم الكريم لان الاستيناف لبيان سوء عاقبة ما حكى عنهم من البغى المفسّر بالافساد المفرط اللايق بحالهم فاى مناسبة بينه وبين البغى بمعنى الطلب وجعل الاول ايضا بمعناه مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عنه وقيل على انه مفعول له اى لاجل متاع الحيوة الدنيا والعامل ما ذكر من الاستقرار وفيه ان المعلل بما ذكر نفس البغى لا كونه على انفسهم وقيل العامل فيه فعل مدلول عليه بالمصدر اى تبغون لاجل متاع الحيوة الدنيا على ان الجملة مستأنفة وقيل على انه مفعول صريح للمصدر وعلى انفسكم ظرف لغو متعلق به والمراد بالانفس الجنس والخبر محذوف لطول الكلام والتقدير انما بغيكم على ابناء جنسكم متاع الحيوة الدنيا محذور او ظاهر الفساد او نحو ذلك وفيه ما مرّ من ابتنائه على ما لا يليق بالمقام من كون البغى بمعنى الطلب نعم لو جعل نصبه على العلة اى انما بغيكم على ابناء جنسكم لاجل متاع الحيوة الدنيا محذور كما اختاره بعضهم لكان له وجه فى الجملة لكن الحق الذى يقتضيه جزالة التنزيل انما هو الاول وقرئ متاع بالرفع على انه الخبر والظرف صلة للمصدر او خبر ثان لمبتدأ محذوف اى هو متاع الخ كما فى قوله عزّ وجلّ الا ساعة من نهار بلاغ اى هذا بلاغ فالمراد بانفسهم على الوجه الاول ابناء جنسهم وانما عبر عنهم بذلك هزا لشفقتهم عليهم وحثا لهم على ترك ايثار التمتع المذكور على حقوقهم ولا مجال للحمل على الحقيقة لان كون بغيهم وبالا عليهم ليس بثابت عندهم حسبما يقتضيه ما حكى عنهم ولم يخبر به بعد حتى يجعل من تتمة الكلام ويجعل كونه متاعا مقصودا لافادة على ان عنوان كونه وبالا عليهم قادح فى كونه متاعا فضلا عن كونه من مبادى ثبوته للمبتدأ كما هو المتبادر من السوق واما كون البغى على ابناء الجنس فمعلوم الثبوت عندهم ومتضمن لمبادى التمتع من اخذ المال والاستيلاء على الناس وغير ذلك واما على الوجهين الاخيرين فلا موجب للعدول عن الحقيقة فان المبتدأ اما نفس البغى والضمير العايد اليه من حيث كونه وبالا عليهم كما فى صورة كون الظرف صلة للمصدر فتدبر وقرئ متاع الحيوة الدنيا اما نصب متاعا فعلى ما مرّ واما نصب فعلى انه بدل من متاعا بدل اشتمال وقيل على انه مفعول به لمتاعا اذ لم يكن انتصابه على المصدرية لان المصدر المؤكد لا يعمل عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا تمكر ولا تعن ماكرا ولا تبغ ولا تعن باغيا ولا تنكث ولا تعن ناكثا وكان يتلوها وقال محمد بن كعب ثلث من كن فيه كن عليه البغى والنكث والمكر قال تعالى انما بغيكم على انفسكم وما يمكرون الا بانفسهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه وعنه صلى الله عليه وسلم اسرع الخير ثوابا صلة الرحم واعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة وروى ثنتان يعجلهما الله تعالى فى الدنيا البغى وعقوق الوالدين وعن ابن عباس رضى الله عنهما لو بغى جبل على جبل لدك الباغى ثم الينا مرجعكم عطف على ما مرّ من الجملة المستأنفة المقدرة كانه قيل تتمتعون متاع الحيوة الدنيا ثم ترجعون الينا وانما غير السبك الى الجملة الاسمية مع تقديم الجار والمجرور للدلالة على الثبات والقصر فننبئكم بما كنتم تعملون فى الدنيا على الاستمرار من البغى وهو وعيد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت وفيه نكتة خفية مبنية على حكمة ابية وهى ان كل ما يظهر فى هذه النشأة من الاعيان والاعراض فانما يظهر بصورة مغايرة لصورته الحقيقية التى بها يظهر فى النشأة الآخرة فان المعاصى مثلا سموم قاتلة قد برزت فى الدنيا يستحسنها نفوس العصاة وكذا الطاعات مع كونها احسن الاحاسن قد ظهرت عندهم بصور مكروهة ولذلك قال عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات فالبغى فى هذه النشأة وان برز بصورة تشتهيها البغاة ويستحسنها الغواة لتمتعهم به من حيث اخذ المال والتشفى من

الاعداء ونحو ذلك لكن ذلك ليس بتمتع في الحقيقة بل هو تضرر من حيث لا يحتسبون وانما
يظهر لهم ذلك عند ابراز ما كانوا يعملون من البغي بصورة الحقيقية المضادة لما كانوا
يشاهدونه على ذلك من الصورة وهو المراد بالتنبئة المذكورة والله سبحانه اعلم
انما مثل الحيوة الدنيا كلام مستانف مسوق لبيان شان الحيوة الدنيا وقصر مدة التمتع
بها وقرب زمان الرجوع الموعود وقد شبه حالها العجيبة الشان البديعة المثال
المنتظمة لغرابتها في سلك الامثال في سرعة تقضيها وانصرام نعيمها غب اقبالها واغترار
الناس بها بحال ما على الارض من انواع النبات في زوال رونقها ونضارتها فجاءة وذهابها
حطاما لم يبق لها اثر اصلا بعد ما كانت غضة طرية قد التف بعضها ببعض وزينت الارض
بالوانها وتقوت بعد ضعفها بحيث طمع الناس وظنوا انها سلمت من الجوائح وليس
المشبه به ما دخله الكاف في قوله عز وجل كماء انزلنا من السماء فاختلط به نبات الارض
بل ما يفهم من الكلام فانه من التشبيه المركب مما ياكل الناس والانعام من البقول
والزروع والحشيش حتى اذا اخذت الارض زخرفها جعلت الارض في تزينها بما عليها
من اصناف النباتات واشكالها والوانها المختلفة المونقة آخذة زخرفها على طريقة
التمثيل بالعروس التي قد اخذت من الوان الثياب والزين فتزينت بها وازينت
اصله تزينت فادغم وقرئ على الاصل وقرئ وازينت كاغيلت من غير اعلال والمعنى
صارت ذات زينة وازيانت كابياضت وظن اهلها انهم قادرون عليها متمكنون
من حصدها ورفع غلتها اتاها امرنا جواب اذا اي ضرب زرعها ما يجتاحه
من الآفات والعاهات ليلا او نهارا فجعلناها اي زرعها وساير ما عليها حصيدا
اي شبيها بما حصد من اصله كان لم تغن كانه لم يغن زرعها والمضاف محذوف
للمبالغة وقرئ بتذكير الفعل بالامس اي فيما قبل بزمان قريب فان الامس
مثل في ذلك كانه قيل لم تغن انفا كذلك اي مثل ذلك التفصيل البديع نفصل الآيات
اي الآيات القرآنية التي من جملتها هذه الآيات المنبهة على احوال الحيوة الدنيا اي
نوضحها ونبينها لقوم يتفكرون في تضاعيفها ويقفون على معانيها و
تخصيص تفصيلها بهم لانهم المنتفعون بها ويجوز ان يراد بالآيات ما ذكر
في اثناء التمثيل من الكاينات والفاسدات وبتفصيلها تصريفها على
الترتيب المحكي ايجادا واعداما فانها آيات علامات يستدل بها من يتفكر فيها على
احوال الحيوة الدنيا حالا وما لا والله يدعو الى دار السلام ترغيب للناس في الحيوة
الاخروية الباقية اثر ترغيبهم عن الحيوة الدنيوية الفانية اي يدعو الناس جميعا
الى دار السلامة عن كل مكروه وآفة وهي الجنة وانما ذكرت بهذا الاسم لذكر الدنيا
بما يقابله من كونها معرضا للآفات او الى دار الله تعالى وتخصيص الاضافة التشريفية
بهذا الاسم الكريم للتنبيه على ذلك او الى دار يسلم الله تعالى او الملائكة فيها على من
يدخلها او يسلم بعضهم على بعض ويهدي من يشاء هدايته منهم
الى صراط مستقيم موصل اليها وهو الاسلام والتزود بالتقوى وفي تعميم الدعوة
وتخصيص الهداية بالمشية دليل على ان الامر غير الارادة وان من اصر على
الضلالة لم يرد الله رشده للذين احسنوا اي اعمالهم اي عملوها على الوجه
اللايق وهو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها الذاتي وقد فسره رسول الله صلى الله
وسلم بقوله ان تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك الحسنى اي
المثوبة الحسنى وزيادة اي وما يزيد على تلك المثوبة تفضلا لقوله عز اسمه
ويزيدهم من فضله وقيل الحسنى مثل حسناتهم والزيادة عشر امثالها الى
سبعماية ضعف واكثر وقيل الزيادة مغفرة من الله ورضوان وقيل الحسنى الجنة
والزيادة اللقاء ولا يرهق وجوههم اي لا يغشاها قتر غبرة فيها
سواد ولا ذلة اي اثر هوان وكسوف بال والمعنى لا ترهقهم ما يرهق اهل النار
او لا يرهقهم ما يوجب ذلك من الحزن وسوء الحال والتنكير للتحقير اي شيء منها والجملة مستانفة

لبيان انهم

لبيان انهم من المكاره اثر بيان فوزهم بالمطالب وان اقتضى الاول الا انه ذكر
اذكارا بما ينقذهم الله تعالى منه برحمته وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام ببيان ان
المصون من الرهوق اشرف اعضائهم وللتشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا
اخر تبقى النفس مترقبة لوروده فعند وروده عليها يتمكن عندها فضل تمكن ولان في
الفاعل ضرب تفصيل كما في قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وقوله عز وجل وجاءك
في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين اولئك اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم
بالصفات المذكورة وما في اسم الاشارة من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وسمو
طبقتهم اي اولئك الموصوفون بما ذكر من النعوت الجميلة الفائزون بالمثوبات الناجون
عن المكاره اصحاب الجنة هم فيها خالدون بلا زوال دائمون بلا انتقال والذين كسبوا
السيئات اي الشرك والمعاصي وهو مبتدا بتقدير المضاف خبره قوله تعالى جزاء سيئة
بمثلها اي جزاء الذين كسبوا السيئات ان يجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزاد
عليها كما يزاد في الحسنة وتغيير السبك لمراعاة ما بين الفريقين من كمال التنافي والتباين
وايراد الكسب للايذان بان ذلك انما هو لسوء صنيعهم وبسبب جناياتهم على انفسهم
او الموصول معطوف على الموصول الاول كانه قيل وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها
كقولك في الدار زيد والحجرة عمرو وفيه دلالة على ان المراد بالزيادة الفضل وترهقهم
ذلة واي ذلة كما ينبئ عنه التنوين التفخيمي وفي اسناد الرهوق الى انفسهم دون
وجوههم ايذان بانها محيطة بهم غاشية لهم جميعا وقرئ يرهقهم بالياء التحتانية
ما لهم من الله من عاصم اي لا يعصمهم احد من سخطه تعالى وعذابه او ما لهم
من عنده تعالى من يعصمهم كما يكون للمؤمنين وفي نفي العاصم من المبالغة في نفي
العصمة ما لا يخفى والجملة مستانفة او حال من ضمير ترهقهم كانما اغشيت وجوههم قطعا
من الليل لفرط سوادها وظلمتها مظلما حال من الليل والعامل فيها اغشيت لانه العامل
في قطعا وهو موصوف بالجار والمجرور والعامل في الموصوف عامل في الصفة او معنى
الفعل في من الليل وقرئ قطعا بسكون الطاء وهو طائفة من الليل قال افتحي الباب
وانظري في النجوم كم علينا من قطع ليل بهيم فيجوز كون مظلما صفة له او حالا
منه وقرئ كانما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم والجملة كما قبلها مستانفة او
حال من ضمير ترهقهم اولئك اي الموصوفون بما ذكر من الصفات الذميمة اصحاب
النار هم فيها خالدون وحيث كانت الآية الكريمة في حق الكفار بشهادة السياق
والسباق لم يكن فيها تمسك للوعيدية ويوم نحشرهم كلام مستانف مسوق لبيان بعض
آخر من احوالهم الفظيعة وتاخيره في الذكر مع تقدمه في الوجود على بعض احوالهم
المحكية سابقا للايذان باستقلال كل من السابق واللاحق بالاعتبار ولو روعي الترتيب
الخارجي لعد الكل شيئا واحدا كما مر في قصة البقرة ولذلك فصل عما قبله ويوم منصوب
على المفعولية بمضمر اي انذرهم او ذكرهم وضمير نحشرهم لكلا الفريقين الذين احسنوا
والذين كسبوا السيئات لانه المتبادر من قوله تعالى جميعا ومن افراد الفريق الثاني
بالذكر في قوله تعالى ثم نقول للذين اشركوا اي نقول للمشركين من بينهم ولان
توبيخهم وتهديدهم على رؤس الاشهاد افظع والاخبار بحشر الكل في تهويل
اليوم ادخل وتخصيص وصف اشراكهم بالذكر في حيز الصلة من بين ساير
ما اكتسبوا من السيئات لابتناء التوبيخ والتقريع عليه مع ما فيه من الايذان بكونه
معظم جناياتهم وعمدة سيئاتهم وقيل للفريق الثاني خاصة فيكون وضع الموصول
موضع الضمير لما ذكر آنفا مكانكم نصب على انه في الاصل ظرف لفعل اقيم مقامه
لا انه اسم فعل وحركته بناء كما هو راي الفارسي اي الزموه حتى تنظروا ما يفعل بكم انتم
تاكيد للضمير المنتقل اليه من عامله لسده مسده وشركاؤكم عطف عليه وقرئ
بالنصب على ان الواو بمعنى مع فزيلنا من زلت الشيء عن مكانه ازيله اي ازلته والتضعيف
للتكثير لا التعدية وقرئ فزايلنا بمعناه ككلمته وكالمته وهو معطوف على نقول

ايثار صيغة الماضي للدلالة على التحقق المورث لزيادة التوبيخ والتحسير والفاء للدلالة على وقوع التنزيل او مبادية عقيب الخطاب من غير مهلة ايذانا بكمال رخاوة ما بين الفريقين من العلاقة والوصلة اى ففرقنا بينهم وقطعنا اقرانهم والوصل التى كانت بينهم فى الدنيا لكن لا من الجانبين بل من جانب العبدة فقط لعدم احتمال شمول الشركا للشياطين كما سيجئ فخابت امالهم وانصرمت عرى اطماعهم وحصل لهم اليأس الكلي من حصول ما كانوا يرجونه من جهتهم والحال وان كانت معلومة لهم من حين الموت والابتلاء بالعذاب لكن هذه المرتبة من اليقين انما حصلت عند المشاهدة والمشافهة وقيل المراد بالتزييل التفريق الحسي اى فباعدنا بينهم بعد الجمع فى الموقف وتبرء شركائهم منهم ومن عبادتهم كما فى قوله تعالى انما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا فالواو حينئذ فى قوله تعالى وقال شركاؤهم حالية بتقدير كلمة قد عند من يشترطها وبدونه عند غيره لا عاطفة كما فى التفسير الاول لاستدعاء المحاورة المحاضرة الفائتة بالمباعدة وليس فى ترتيب التزييل بهذا المعنى على الامر بلزوم المكان ما فى ترتيبه عليه بالمعنى الاول من النكتة المذكورة ليصار لاجل رعايتها الى تغيير الترتيب الخارجي فان المباعدة بعد المحاورة حتما واما قطع الاقران والعلائق فليس كذلك بل ابتداؤه حاصل من حين الحشر مرتبه حاصل قبله ايضا وانما الحاصل عند المحاورة اقصاها كما اشير اليه فلا عندا دبما فى تقديمه من التغيير لاسيما مع رعاية ما ذكر من النكتة ولم يستم تاخر جميع مراتبه من المحاورة فراعاة تلك لنكته كافية فى استدعاء تقديمه عليها ويجوز ان تكون حالية على هذا التقدير ايضا والمراد بالشركاء قيل وعزير والمسيح وغيرهم ممن عبدوه من اولى العلم ففيه تاييد لرجوع الضمير الى الكل وقولهم ما كنتم ايانا تعبدون عبارة عن تبريهم من عبادتهم وانهم انما عبدوا فى الحقيقة اهواءهم وشياطينهم الذين اغووهم لانها الآمرة لهم بالاشراك دونهم كقوله سبحانك انت ولينا من دونهم الاية وقيل الاصنام ينطقها الله الذى انطق كل شئ فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التى كانوا يتوقعونها فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم فانه العليم الخبير ان كنا عن عبادتكم لغافلين اى عن عبادتكم لنا وتركه للظهور وللايذان بكمال الغفلة عنها والغفلة عبارة عن عدم الارتضاء والا فعدم شعور الملئكة بعبادتهم لهم غير ظاهر وهذا يقطع احتمال كون المراد بالشركاء الشياطين كما قيل فان ارتضاءهم باشراكهم مما لا ريب فيه وان لم يكونوا مجبرين لهم على ذلك وان مخففة من ان واللام فارقة هنالك اى فى ذلك المقام الدهش او فى ذلك الوقت على استعارة ظرف المكان للزمان تبلو اى تختبر وتذوق كل نفس مؤمنة كانت او كافرة سعيدة او شقية ما اسلفت من العمل وتعاينه بكنهه مستتبعا لاثاره من نفع او ضر وخير او شر واما ما عملت من حالها من حين الموت والابتلاء بالعذاب فى البرزخ فامر مجمل وقرئ نبلو بنون العظمة ونصب كل وابدال ما منه اى نعاملها معاملة من يبلوها ويتعرف احوالها من السعادة والشقاوة باختبار ما اسلفت من العمل ويجوز ان يراد نصيب بالبلاء اى العذاب كل نفس عاصية بسببه ما اسلفت من الشر فيكون ما منصوبة بنزع الخافض وقرئ تتلو اى تتبع لان عملها هو الذى يهديها الى طريق الجنة او الى طريق النار او تقرأ فى صحيفة اعمالها ما قدمت من خير او شر وردوا الضمير للذين اشركوا على انه معطوف على زيلنا وما عطف عليه وقوله عز وجل هنالك تبلوا الخ اعتراض فى اثناء الحكاية مقرر لمضمونها الى الله اى الى جزائه وعقابه مولاهم ربهم الحق اى المتحقق الصادق ربوبيته لا ما اتخذوه ربا باطلا وقرئ الحق بالنصب على المدح كقولهم الحمد لله اهل الحمد او على المصدر المؤكد وضل عنهم وضاع اى ظهر ضياعه وضلاله لا انه كان قبل ذلك غير ضال وضل فى اعتقادهم ايضا ما كانوا يفترون

من ان آلهتهم تشفع لهم او ما كانوا يدعون انها آلهة هذا وجعل الضمير فى ردوا للنفوس المدلول عليها بكل نفس على انه معطوف على تبلو وان العدول الى الماضى للدلالة على التحقيق والتقرير وان ايثار صيغة الجمع للايذان بان ردهم الى الله تعالى يكون على طريقة الاجتماع لا يلايمه التعرض لوصف الحقية فى قوله تعالى مولاهم الحق فانه للتعريض بالمردودين حسبما اشير اليه ولئن اكتفى فيه بالتعريض ببعضهم او حمل الحق على معنى العدل فى الثواب والعقاب فقوله عز وجل وضل عنهم ما كانوا يفترون مما لا مجال فيه للتدارك قطعا فان ما فيه من الضماير الثلثة للمشركين فيلزم التفكيك حتما وتخصيص كل نفس بالنفوس المشركة مع عموم البلوى للكل يأباه مقام تهويل المقام والله تعالى اعلم قل اى لاولئك المشركين الذين حكيت احوالهم وبين ما يؤدى اعمالهم احتجاجا على حقية التوحيد وبطلان ما هم عليه من الاشراك من يرزقكم من السماء والارض اى منهما جميعا فان الارزاق تحصل باسباب سماوية ومواد ارضية او من كل واحدة منهما توسعة عليكم وقيل من لبيان كلمة من على حذف المضاف اى من اهل السماء والارض امن يملك السمع والابصار ام منقطعة وما فيها من كلمة بل للاضراب عن الاستفهام الاول لكن لا على طريقة الابطال بل على وجه الانتقال وصرف الكلام عنه الى استفهام آخر تنبيها على كفايته فيما هو المقصود اى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على هذه الفطرة العجيبة او من يحفظهما من الافات مع كثرتها وسرعة انفعالهما من ادنى شئ يصيبهما ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى اى ومن يحيى ويميت او من ينشئ الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ومن يدبر الامر اى ومن يلى تدبير امر العالم جميعا وهو تعميم بعد تخصيص بعض ما اندرج تحته من الامور الظاهرة بالذكر فسيقولون بلا تلعثم ولا تأخير الله اذ لا مجال للمكابرة لغاية وضوحه والخبر محذوف اى الله يفعل ما ذكر من الافاعيل لا غيره فقل عند ذلك تبكيتا لهم افلا تتقون الهمزة لانكار عدم الاتقاء بمعنى انكار الواقع كما فى اتضرب اباك لا بمعنى انكار الوقوع كما فى اضرب ابى والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم اى اتعلمون ذلك فلا تتقون انفسكم عذابه الذى ذكركم بما تتعاطونه من اشراككم به ما لا يشاركه فى شئ مما ذكر من خواص الالهية فذلكم فذلكم لما تقدم اى ذلكم الذى اعترفتم باتصافه بالنعوت المذكورة وهو مبتدأ وقوله تعالى الله خبره وقوله تعالى ربكم اى مالككم ومتولى اموركم على الاطلاق بدل منه او بيان له وقوله تعالى الحق صفة له اى ربكم الثابت ربوبيته والمتحقق الوهيته تحققا لا ريب فيه فماذا يجوز ان يكون الكل اسما واحدا قد غلب فيه الاستفهام على اسم الاشارة وان يكون ذا موصولا بمعنى الذى اى ما الذى بعد الحق اى غيره بطريق الاستعارة واظهار الحق اما لان المراد به غير الاول واما لزيادة التقرير ومراعاة كمال المقابلة بينه وبين الضلال والاستفهام انكارى بمعنى انكار الوقوع ونفيه اى ليس غير الحق الا الضلال الذى لا يختاره احد فحيث ثبت ان عبادة من هو متعوت بما ذكر من النعوت الجليلة حق ظهر ان ما عداها من عبادة الاصنام ضلال محض اذ لا واسطة بينهما وانما سميت ضلالا مع كونها من اعمال الجوارح باعتبار ابتنائها على ما هو ضلال من الاعتقاد والرأى هذا على تقدير كون الحق عبارة عن التوحيد واما على تقدير كونه عبارة عن الاول فالمراد بالضلال هو الاصنام لا عبادتها والمعنى فماذا بعد الرب الحق الثابت ربوبيته الا الضلال اى الباطل الضائع المضمحل وانما سمى بالمصدر مبالغة كانه نفس الضلال والضياع وهذا انسب بقوله تعالى وضل عنهم ما كانوا يفترون على التفسير الثانى فانى تصرفون استفهام انكارى بمعنى انكار الواقع واستبعاد والتعجيب منه وفيه من المبالغة ما ليس فى توجيه الانكارى الى نفس الفعل لان كل موجود لا بد من ان يكون وجوده على حال من الاحوال قطعا فاذا انتفى جميع احوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانى كما مر مرارا والفاء لترتيب الانكار على ما قبله اى كيف

تصرفون من الحق الذي لا محيد عنه وهو التوحيد الى الضلال عن السبيل المستبين وهو الاشراك وعبادة الاصنام او من عبادة ربكم الحق الثابت ربوبيته الى عبادة الباطل الذي سمعتم ضلاله وضياعه في الآخرة وفي ايثار صيغة المبني للمفعول ايذان بان الانصراف من الحق الى الضلال مما لا يصدر عن العاقل بارادته وانما يقع عند وقوعه بالقسر من جهة صارف خارجي كذلك اي كما حقت الربوبية لله تعالى او كما انه ليس بعد الحق الا الضلال او انهم مصروفون عن الحق حقت كلمة ربك وحكمه وقضاؤه على الذين فسقوا اي تمردوا في الكفر وخرجوا من اقصى حدوده انهم لا يؤمنون بدل من الكلمة او تعليل لحقيتها والمراد بها العدة بالعذاب قل هل من شركائكم احتجاج آخر على حقية التوحيد وبطلان الاشراك باظهار كون شركائهم بمعزل من استحقاق الالهية ببيان اختصاص خواصها من بدء الخلق واعادته به سبحانه وتعالى وانما لم يعطف على ما قبله ايذانا باستقلاله في اثبات المطلوب والسؤال للتبكيت والالزام وقد جعلت هلية الاعادة وتحققها لوضوح مكانها وسنوح برهانها بمنزلة بدء الخلق فنظمت في سلكه حيث قيل من يبدأ الخلق ثم يعيده ايذانا بتلازمهما وجودا وعلما يستلزم الاعتراف بها وان صدهم عن ذلك ما بهم من المكابرة والعناد ثم امر صلى الله عليه وسلم بان يبين لهم من يفعل ذلك فقيل له قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده اي هو يفعلهما لا غير كائنا من كان لا بان ينوب عليه السلام عنهم في ذلك كما قيل لان المقول المأمور به غير ما اريد منهم من الجواب وان كان مستلزما له اذ ليس المسؤول عنه من يبدأ الخلق ثم يعيده كما في قوله تعالى قل من رب السموات والارض قل الله حتى يكون القول المأمور به عين الجواب الذي اريد منهم ويكون عليه السلام نائبا عنهم في ذلك بل انما هو وجود من يفعل البدء والاعادة من شركائهم فالجواب المطلوب منهم لا لا غير نعم امر صلى الله عليه وسلم بان يضمنه مقالته ايذانا بتعينه وتحتمه واشعارا بانهم لا يجترون على التصريح به مخافة التبكيت والقام الحجر لا مكابرة ولجاجا فتدبر واعادة الجملة في الجواب بتمامها غير محذوفة الخبر كما في الجواب السابق لمزيد التاكيد والتحقيق فانى تؤفكون الافك الصرف والقلب عن الشيء وقد يخص بالقلب عن الرأي وهو الانسب بالمقام اي كيف تقلبون من الحق الى الباطل والكلام فيه كما ذكر في تصرفون قل هل من شركائكم احتجاج آخر على ما ذكر الزاما لهم غب الزام وافحاما اثر افحام وفصله عما قبله لما ذكر من الدلالة على استقلاله من يهدي الى الحق اي بوجه من الوجوه فان ادنى مراتب المعبودية هداية المعبود لعبدته الى ما فيه صلاح امرهم واما تعيين طريق الهداية وتخصيصه بنصب الحجج وارسال الرسل والتوفيق للنظر والتدبر كما قيل فمخل بما يقتضيه المقام من كمال التبكيت والالزام فان العجز عن الهداية على وجه خاص لا يستلزم العجز عن مطلق الهداية ويهدي كما يستعمل بكلمة الى لتضمنه معنى الانتهاء يستعمل باللام للدلالة على ان المنتهى غاية للهداية وانها لم يتوجه نحوه على سبيل الاتفاق ولذلك استعمل بها ما اسند الى الله تعالى حيث قيل قل الله يهدي للحق اي هو يهدي له دون غيره وذلك بما ذكر من نصب الادلة والحجج وارسال الرسل وانزال الكتب والتوفيق للنظر والتدبر وغير ذلك من فنون الهدايات في الكلام في الامر بالسؤال والجواب كما مر فيما مر افمن يهدي الى الحق وهو الله عز وجل احق ان يتبع امن لا يهدي بكسر الهاء اصله يهتدي فادغم وكسرت الهاء لالتقاء الساكنين وقرئ بكسر الياء اتباعا لها لحركة الهاء وقرئ بفتح الهاء نقلا لحركة التاء اليها اي لا يهتدي بنفسه فضلا عن هداية غيره وفيه من المبالغة ما لا يخفى وانما نفي عنه الاهتداء مع ان المفهوم مما سبق نفي الهداية لما ان نفيها مستتبع لنفيه غالبا فان من اهتدى الى الحق لا يخلو عن هداية غيره في الجملة وادناها كونه قدوة بان يراه فيسلك مسلكه من حيث لا يدري والفاء لترتيب الاستفهام على ما سبق من تحقق هدايته تعالى صريحا وعدم

هداية شركائهم المفهوم من القصر ومن عدم الجواب المنبئ عن الجواب بالعدم فان مما يضطرهم الى الجواب الحق لا التوجيه الاستفهام الى الترتيب كما يقع في بعض المواقع فان ذلك مختص بالانكار كما في قوله تعالى افمن اتبع رضوان الله الخ ونحوه والهمزة متأخرة في الاعتبار وانما تقديمها في الذكر لاظهار عراقتها في اقتضاء الصدارة كما هو رأي الجمهور حتى كان السؤال بكلمة اي لا حرف حتما لا يرى الى قوله تعالى فاي الفريقين احق بالامن اثر تقدير ما يلجئ المشركين الى الجواب من حالهم وحال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرئ لا يهدي بمعنى لا يهتدي لمجيئه لازما او لا يهدي غيره وصيغة التفضيل اما على حقيقتها والمفضل عليه محذوف كما اختاره مكي والتقدير افمن يهدي الى الحق احق ان يتبع ممن لا يهدي ام من لا يهدي احق الخ واما بمعنى حقيق كما اختاره ابو حيان واياما كان فالاستفهام للالزام وان يتبع في حيز النصب او الجر بعد حذف الجار على الخلاف المعروف اي بان يتبع الا ان يهدى استثناء مفرغ من اعم الاحوال اي لا يهتدي او لا يهدي غيره في حال من الاحوال الا حال هدايته تعالى له الى الاهتداء او الى هداية الغير وهذا حال اشراف شركائكم من الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام وقيل المعنى ام من لا يهتدي من الاوثان الى مكان فينتقل اليه الا ان ينقل اليه والا ان ينقله الله تعالى من حاله الى ان يجعله حيوانا مكلفا فيهديه وقرئ الا ان يهدى من التفعيل للمبالغة فما لكم اي اي شيء لكم في اتخاذكم هؤلاء شركاء لله سبحانه وتعالى والاستفهام للانكار التوبيخي وفيه تعجب من حالهم وقوله تعالى كيف تحكمون اي بما يقتضي صريح العقل بطلانه انكار لحكمهم الباطل وتعجب منه وتشنيع لهم بذلك والفاء لترتيب كلا الانكارين على ما ظهر من وجوب اتباع الهادي الى الحق ان قلت التبكيت بالاستفهام السابق انما يظهر في حق من يعكس جوابه الصحيح فيحكم باحقية من لا يهدي بالاتباع دون من يهدي وهم ليسوا حاكمين باحقية شركائهم لذلك دون الله سبحانه وتعالى بل باستحقاقهما جميعا مع رجحان جانبه تعالى حيث يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قلت حكمهم باستحقاقه تعالى للاتباع بطريق الاشتراك حكم منهم بعدم استحقاقه تعالى لذلك بطريق الاستقلال فصاروا حاكمين باستحقاق شركائهم له دون الله تعالى من حيث لا يحتسبون وما يتبع اكثرهم كلام مبتدأ غير داخل في حيز الامر مسوق من قبله تعالى بيانا لعدم فهمهم لمضمون ما افحمهم والقمهم الحجر من البرهان النير الموجب لاتباع الهادي الى الحق الناعي عليهم بطلان حكمهم وعدم تأثرهم من ذلك لعدم اهتدائهم الى طريق العلم اصلا اي ما يتبع اكثرهم في معتقداتهم ومحاوراتهم الا ظنا واهيا من غير التفات الى فرد من افراد العلم فضلا عن ان يسلكوا مسالك الادلة الصحيحة الهادية الى الحق المبنية على المقدمات اليقينية الحقة فيفهموا مضمونها ويقفوا على صحتها وبطلان ما يخالفها من احكامهم الباطلة فيحصل التبكيت والالزام فالمراد بالاتباع مطلق الاعتقاد الشامل لما يقارن القبول والانقياد وما لا يقارنه وبالقصر ما اشير اليه من ان لا يكون لهم في اثنائه اتباع لفرد من افراد العلم والتفات اليه ووجه تخصيص هذا الاتباع باكثرهم الاشعار بان بعضهم قد يتبعون العلم فيقفون على حقية التوحيد وبطلان الشرك لكن لا يقبلونه مكابرة وعنادا فيحصل بالنسبة اليهم التأثر من البرهان المزبور وان لم يظهروه وكونهم اشد كفرا واكثر عذابا من الفريق الاول لا يقدح فيما يفهم من فحوى الكلام عرفا من كون اولئك اسوأ حالا من غيرهم اذ المعتبر سوء الحال من حيث الفهم والادراك لا من حيث الكفر والعذاب او ما يتبع اكثرهم مدة عمرهم الا ظنا ولا يتركونه ابدا فان حرف النفي الداخل على المضارع يفيد استمرار النفي بحسب المقام فالمراد بالاتباع هو الاذعان والانقياد والقصر باعتبار الزمان ووجه تخصيص هذا الاتباع باكثرهم مع مشاركة المعاندين لهم في ذلك التلويح بما سيكون من بعضهم من اتباع الحق والتوبة كما سيأتي هذا وقد قيل المعنى وما يتبع اكثرهم في اقرارهم بالله تعالى الا ظنا غير مستند الى برهان عندهم

وقيل وما يتبع اكثرهم في قولهم للاصنام انها الهة الا ظنا والمراد بالاكثر الجميع فتامل
وقيل الضمير في اكثرهم للناس فلا حاجة الى التكلف ان الظن لا يغني من الحق من العلم
اليقيني والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع شيئا من الاغناء ويجوز ان يكون مفعولا به
ومن الحق حالا منه والجملة استيناف لبيان شان الظن وبطلانه وفيه دلالة على وجوب
العلم في الاصول وعدم جواز الاكتفاء بالتقليد ان الله عليم بما يفعلون وعيد
لهم على افعالهم القبيحة فيندرج تحتها ما حكي عنهم من الاعراض عن البراهين
القاطعة والاتباع للظنون الفاسدة اندراجا اوليا وقرئ تفعلون بالالتفات الخطا
لتشديد الوعيد وما كان هذا القران شروع في بيان ردهم للقران الكريم اثر بيان
ردهم الادلة العقلية المندرجة في تضاعيفه اي وما صح وما استقام ان يكون
هذا القران المشحون بفنون الهدايات المستوجبة للاتباع التي من جملتها هاتيك الحجج
الناطقة بحقية التوحيد وبطلان الشرك ان يفترى من دون الله اي افتراء من
الخلق اي مفترى منهم سمي بالمصدر مبالغة ولكن تصديق الذي بين يديه
من الكتب الالهية المشهود على صدقها اي مصدقا لها كيف وهو لكونه معجزا
دونها عيار عليها شاهد بصحتها ونصبه بانه خبر كان مقدرا وقد جوز كونه علة
لفعل محذوف تقديره لكن انزله الله تصديق الخ وقرئ بالرفع على تقدير المبتدا اي
ولكن هو تصديق الخ وتفصيل الكتاب عطف عليه نصبا ورفعا اي وتفصيل ما كتب واثبت
من الحقائق والشرايع لا ريب فيه خبر ثالث داخل في حكم الاستدراك اي منتفيا عنه
الريب او حال من الكتاب وان كان مضافا اليه فانه مفعول في المعنى او استيناف
لا محل له من الاعراب من رب العالمين خبر اخر اي كائنا من رب العالمين او متعلق
بتصديق او بتفصيل او بالفعل المعلل بهما ولا ريب فيه اعتراض كما في قولك زيد لا شك
فيه كريم او حال من الكتاب او من الضمير في فيه ومساق الاية الكريمة بعد المنع عن اتباع
الظن لبيان ما يجب اتباعه ام يقولون افتراه اي بل ايقولون افتراه محمد عم والهمزة لانكار
الواقع واستبعاده قل تبكيتا لهم واظهارا لبطلان مقالتهم الفاسدة ان كان
الامر كما تقولون فاتوا بسورة مثله اي في البلاغة وحسن الصياغة وقوة
المعنى على وجه الافتراء فانكم مثلي في العربية والفصاحة واشد تمرنا مني في النظم
والعبارة وقرئ بسورة مثله على الاضافة اي بسورة كتاب مثله وادعوا للمظاهرة
والمعاونة من استطعتم دعاءه والاستعانة به من الهتكم التي تزعمون انها
ممدة لكم في المهمات والملمات ومدارهكم الذين تلجؤن الى ارائهم في كل ما تاتون
وما تذرون من دون الله متعلق بادعوا ودون جار مجرى اداة الاستثناء
وقد مر تفصيله في قوله تعالى وادعوا شهداءكم من دون الله اي ادعوا سواه تعالى من
استطعتم من خلقه فانه لا يقدر عليه احد واخراجه سبحانه من حكم الدعاء للتنصيص
على برائتهم منه تعالى وكونهم في عدوة المضادة والمشاقة لالبتة استبداده تعالى بالقدرة على ما
كلفوه فان ذلك مما يوهم انهم لو دعوه تعالى لاجابهم اليه ان كنتم صادقين اي في اني
افتريته فان ذلك مستلزم لامكان الاتيان بمثله وهو ايضا مستلزم لقدرتكم
عليه فالجواب محذوف لدلالة المذكور عليه بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه اضراب
وانتقال عن اظهار بطلان ما قالوا في حق القران العظيم بالتحدي الى اظهاره ببيان انه
كلام ناشئ عن جهلهم بشانه الجليل فما عبارة عن كله لا عما فيه من ذكر البعث والجزاء
وما يخالف دينهم كما قيل فانه مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن مثله اي سارعوا
الى تكذيبه اثر ذي اثير من غير ان يتدبروا فيه ويقفوا على ما في تضاعيفه من الشواهد
الدالة على كونه كما وصف انفا ويعلموا انه ليس مما يمكن ان يكون له نظير يقدر عليه المخلوق
والتعبير عنه بما لم يحيطوا بعلمه دون ان يقال بل كذبوا به من غير ان يحيطوا بعلمه او نحو
ذلك للايذان بكمال جهلهم به وانه لم يعلموه الا بعنوان عدم العلم به وبان تكذيبهم
به انما هو بسبب عدم علمهم به لان ادارة الحكم على الموصول مشعرة بعلية ما في حيز الصلة له

ولما ياتهم تاويله عطف على الصلة او حال من الموصول اي ولم يقفوا بعد على تاويله
ولما يبلغ اذهانهم معانيه الرائقة المنبئة عن علو شانه والتعبير عن ذلك باتيان التاويل
للاشعار بان تاويله متوجه الى الاذهان منساق اليها بنفسه او لم ياتهم بعد تاويل
ما فيه من الاخبار بالغيوب حتى يتبين انه صدق ام كذب والمعنى ان القران معجز من جهة
النظم والمعنى ومن جهة الاخبار بالغيب وهم قد فاجؤا تكذيبه قبل ان يتدبروا
نظمه ويتفكروا في معناه او ينتظروا وقوع ما اخبر به من الامور المستقبلة ونفي اتيان
التاويل بكلمة لما الدالة على التوقع بعد نفي الاحاطة بكلمة لم لتاكيد الذم وتشديد
التشنيع فان الشناعة في تكذيب الشيء قبل علمه المتوقع اتيانه افحش منها في تكذيبه
قبل علمه مطلقا والمعنى انه كان يجب عليهم ان يتوقفوا الى زمان وقوع المتوقع فلم يفعلوا
واما ان المتوقع قد وقع بعد وانهم استمروا عند ذلك ايضا على ما هم عليه اولا
فلا تعرض له ههنا والاستشهاد عليه بعدم انقطاع الذم وادعاء ان قولهم
افتراه تكذيب بعد التدبر ناشئ من عدم التدبر فتدبر كيف لا وهم لم يقولوه بعد التحدي
بل قبله وادعاء كونه مسبوقا بالتحدي الوارد في سورة البقرة يرده انه مدنية وهذه
مكية واما الذي يدل عليه ما سيتلى عليك من قوله تعالى ومنهم من يؤمن به ومنهم
الخ وقوله تعالى كذلك الخ وصف لحالهم المحكي وبيان لما يؤدي اليه من العقوبة اي
مثل ذلك التكذيب المبني على بادي الراي والمجازفة من غير تدبر وتامل كذب
الذين من قبلهم اي فعلوا التكذيب او كذبوا ما كذبوا من المعجزات التي ظهرت على ايدي انبيائهم
انبيائهم او كذبوا انبياءهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وهم الذين من قبلهم من المكذبين
وانما وضع المظهر موضع المضمر للايذان بكون التكذيب ظلما وبعليته لاصابة ما اصابهم
من سوء العاقبة ويدخل في ذلك هؤلاء الظالمين في زمرتهم جرما ووعيدا دخولا اوليا
وقوله عز وجل ومنهم الى اخره وصف لحالهم بعد اتيان التاويل المتوقع او حينئذ يمكن تنويعهم
الى المؤمن به وغير المؤمن من ضرورة امتناع الايمان بشيء من غير علم به واشتراك الكل في التكذيب والكفر
به قبل ذلك حسبما افاده قوله تعالى بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه اي ومن هؤلاء المكذبين من
يؤمن به عند الاحاطة بعلمه واتيان تاويله وظهور حقيته بعد ما سعوا في المعارضة
ورازوا قواهم فيها فتضاءلت دونها وبعد ما شاهدوا وقوع ما اخبر به مرارا ومعنى
الايمان به اما الاعتقاد بحقيته فقط اي يصدق به في نفسه ويعلم انه حق ولكنه
يعاند ويكابر وهؤلاء هم الذين اشير بقصر اتباع الظن على اكثرهم الى انهم يعلمون
الحق على التفسير الاول كما اشير اليه فيما سلف واما الايمان الحقيقي اي سيؤمن به ويتوب
عن الكفر وهم الذين اشير بالقصر المذكور على التفسير الثاني الى انهم سيتبعون الحق
كما مر ومنهم من لا يؤمن به اي لا يصدق به في نفسه كما لا يصدق به ظاهرا
لفرط غباوته المانعة عن الاحاطة بعلمه كما ينبغي وان كان فوق مرتبة عدم الاحاطة
به اصلا ولسخافة عقله واختلال تمييزه وعجزه عن تخليص علومه عن معارضة
الظنون والاوهام التي الفها فيبقى على ما كان عليه من الشك وهذا القدر من
الاحاطة واتيان التاويل كان في مقابلة ما سبق من عدم الاحاطة بالمرة وهؤلاء
هم الذين اريدوا فيما سلف بقوله عز وجل وما يتبع اكثرهم الا ظنا على التفسير الاول
او لا يؤمن به فيما سياتي بل يموت على كفره معاندا كان او شاكا وهم المصرون على اتباع
الظن على التفسير الثاني من غير اذعان للحق وانقياد له وربك اعلم بالمفسدين
اي بكلا الفريقين على الوجه الاول بالمعاندين فقط كما قيل لاشتراكهما في اصل الفساد
المستدعي لاشتراكهما في الوعيد بالمصرين الباقين على الكفر على الوجه الثاني من المعاندين
والشاكين وان كذبوك اي ان اتموا على تكذيبك واصروا عليه حسبما اخبر عنهم بعد
الزام الحجة بالتحدي فقل لي عملي ولكم عملكم اي تبرأ منهم فقد اعذرت
كقوله تعالى فان عصوك فقل اني بريء والمعنى لي جزاء عملكم حقا كان او باطلا
وتوحيد العمل المضاف اليهم باعتبار الاتحاد النوعي ولمراعاة كمال المقابلة انتم

بريئون مما اعمل وانا برئ مما تعملون تاكيد لما افادة لام الاختصاص من عدم تعدي جزاء
العمل الى غير عامله لا تؤاخذون بعملي ولا اؤاخذ بعملكم من ايهام المتاركة وعدم
التعرض لهم قيل انه منسوخ باية السيف ومنهم من يستمعون اليك بيان لكونهم
مطبوعا على قلوبهم بحيث لا سبيل الى ايمانهم وانما جمع الضمير الراجع الى كلمة من رعاية
لجانب المعنى كما افرد فيما سياتي محافظة على ظاهر اللفظ ولعل ذلك للايماء الى كثرة المستمعين
بناء على عدم توقف الاستماع على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحجاب والظلمة اى
ومنهم ناس يستمعون اليك عند قراءتك القران وتعليمك للشرايع افانت تسمع الصم
همزة الاستفهام انكارية والفاء عاطفة وليس الجمع بينهما لترتيب انكار الاسماع كما
هو راى سيبويه والجمهور على ان يجعل تقديم الهمزة على الفاء لاقتضائها الصدارة
كما تقرر في موضعه بل لانكار ترتبه عليه حسبما هو المعتاد لكن لا بطريق العطف على الفعل
المذكور لادائه الى اختلال المعنى لانه اما صلة او صفة واياما كان فالعطف عليه يستدعي
دخول المعطوف في حيزه وتوجه الانكار اليه من تلك الحيثية ولا ريب في فساده بل بطريق العطف
على مقدر مفهوم من فحوى النظم كانه قيل ايستمعون اليك فانت تسمعهم لا انكار الا
استماعهم فانه امر محقق بل انكار لوقوع الاسماع عقيب ذلك وترتبه عليه حسب العادة الجلية
بل نفيا لامكانه ايضا كما ينبئ عنه وضع الصم موضع ضميرهم بعدم العقل بقوله عز وجل ولو كانوا لا يعقلون
اى ولو انضم الى صممهم عدم عقولهم لان الاصم العاقل ربما تفرس اذا وصل الى صماخه صوت واما
اذا اجتمع فقدان السمع والعقل جميعا فقد تم الامر ومنهم من ينظر اليك ويعاين
دلايل نبوتك الواضحة افانت اى اعقيب ذلك انت تهديهم وانما قيل تهدي العمي
تربية لانكار هدايتهم وابرازا للوقوعها في معرض الاستحالة وقد اكد ذلك حيث قيل
ولو كانوا لا يبصرون اى ولو انضم الى عدم البصر عدم البصيرة فان المقصود
من الابصار الاعتبار والاستبصار والعمدة في ذلك هي البصيرة ولذلك يحدس
الاعمى المستبصر ويتفطن لما لا يدركه البصير الاحمق فحيث اجتمع فيهم الحمق والعمى
فقد انسد عليهم باب الهدى وجواب لو في الجملتين محذوف لدلالة قوله تعالى
تسمع الصم تهدي العمي عليه وكل منهما معطوفة على جملة مقدرة مقابلة لها في المعنى
كلتاهما في موضع الحال من مفعول الفعل السابق اى فانت تسمع الصم لو كانوا لا
يعقلون ولو كانوا يعقلون افانت تهدي العمي لو كانوا يبصرون ولو كانوا لا يبصرون اى على
حال مفروض وقد حذفت الاولى في الباب حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها
دلالة واضحة فان الشئ اذا تحقق مع المانع او المانع القوي فلان يتحقق عند عدمه
او عند تحقق المانع الضعيف اولى على هذه النكتة يدور ما في لو وان الوصليتين
من التاكيد وقد مر الكلام في قوله تعالى ولو كره الكافرون ونظايره مرارا ان الله
لا يظلم الناس اشارة الى ان ما حكى عنهم من عدم اهتدائهم الى طريق الحق و
تعطل مشاعرهم من الادراك ليس لامر مستند الى الله عز وجل من خلقهم مؤفي المشاعر
ونحو ذلك بل انما هو من قبلهم اى لا ينقصهم شيئا مما نيط به مصالحهم الدينية
والدنيوية وكمالاتهم الاولوية والاخروية من مبادي ادراكاتهم واسباب
علومهم من المشاعر الظاهرة والباطنة والارشاد الى الحق بارسال الرسل وانزال الكتب
بل يوفيهم ذلك من غير اخلال بشئ اصلا ولكن الناس وقرئ بالتخفيف ورفع الناس
وضع الظاهر موضع الضمير لزيادة تعيين وتقرير اى لكنهم بعدم استعمال مشاعرهم
فيما خلقت له واعراضهم عن قبول دعوة الحق وتكذيبهم للرسل والكتب انفسهم
يظلمون اى ينقصون ما ينقصون مما يحتاجون به من مبادي كمالهم وذرايع
اهتدائهم وانما لم يذكر لما ان مرمى الغرض انما هو قصر الظلم على انفسهم لا بيان
ما يتعلق به الظلم والتعبير عن فعلهم بالنقص مع كونه تفويتا بالكلية وابطالا
بالمرة لمراعاة جانب قرينته وقوله عز وجل انفسهم اما تاكيد للناس فيكون بمنزلة ضمير
الفصل في قوله تعالى وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين في قصر الظالمية عليهم

واما مفعول ليظلمون حسبما وقع في ساير المواقع وتقديمه عليه لمجرد الاهتمام به مع
مراعاة الفاصلة من غير قصد الى قصر المظلومية عليهم على راى من لا يرى التقديم موجبا
للقصر فيكون كما في قوله سبحانه وتعالى وما ظلمناهم ولكن ظلموا انفسهم من غير قصر
للظلم لا على الفاعل ولا على المفعول واما على راى من يراه موجبا له فلعل ايثار قصرها
دون قصر الظالمية عليهم للمبالغة في بيان بطلان افعالهم وسخافة عقولهم لما ان
اقبح الامرين عند اتحاد الفاعل والمفعول واشدهما انكارا عند العقل ونفرة لدى
الطبع واوجبهما حذرا منه عند كل احد هو المظلومية لا الظالمية على ان قصر الاولى
عليهم مستلزم لما يقتضيه ظاهر الحال من قصر الثانية عليهم ضرورة انه اذا لم
يظلم احد من الناس الا نفسه يلزم ان لا يظلمه الا نفسه اذ لو ظلمه غيره يلزم كون
ذلك الغير ظالما لغير نفسه والمفروض ان لا يظلم احد الا نفسه فاكتفى بالقصر الاول
عن الثاني مع رعاية ما ذكر من الفائدة وصيغة المضارع للاستمرار نفيا واثباتا
فان حرف النفي اذا دخل على المضارع يفيد بحسب المقام استمرار النفي لا نفي الاستمرار
الا يرى ان قولك ما زيدا ضربت يدل على اختصاص النفي لا على نفي الاختصاص وسياق
الاية الكريمة لالزام الحجة ويجوز ان يكون للوعيد فالمضارع المنفي للاستقبال و
المثبت للاستمرار والمعنى ان الله لا يظلمهم بتعذيبهم يوم القيمة شيئا من الظلم
ولكنهم انفسهم يظلمون ظلما مستمرا فان مباشرتهم المستمرة للسيات الموجبة للتعذيب
عين ظلمهم لانفسهم وعلى الوجهين فالاية الكريمة تذييل لما سبق ويوم يحشرهم
منصوب بمضمر وقرئ بالنون على الالتفات اى اذكر لهم او انذرهم يوم يحشرهم
كان لم يلبثوا اى كانهم لم يلبثوا الا ساعة من نهار اى شيئا قليلا منه فانها
مثل في غاية القلة وتخصيصها بالنهار لان ساعاته اعرف حالا من ساعات الليل والجملة
في موقع الحال من ضمير المفعول اى يحشرهم مشبهين في احوالهم الظاهرة للناس بمن
لم يلبث في الدنيا ولم يتقلب في نعيمها الا ذلك القدر اليسير فان من اقام بها دهرا
وتمتع بمتاعها لا يخلوا عن بعض اثار نعمة واحكام بهجة منافية لما بهم من رثاثة
الهيئة وسوء الحال او بمن لم يلبث في البرزخ الا ذلك المقدار ففائدة التقييد بيان
كمال يسر الحشر بالنسبة الى قدرته تعالى ولو بعد دهر طويل واظهار بطلان استبعادهم
وانكارهم بقولهم ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما لمبعوثون ونحو ذلك او بيان تمام الموافقة
بين النشاتين في الاشكال والصور فان قلة اللبث في البرزخ من موجبات عدم
التبدل والتغير فيكون قوله تعالى يتعارفون بينهم بيانا وتقريرا له لان التعارف
مع طول العهد ينقلب تناكرا وعلى الاول يكون استينافا اى يعرف بعضهم
بعضا كانهم لم يتفارقوا الا قليلا وذلك اول ما خرجوا من القبور اذ هم
حينئذ على ما كانوا عليه من الهيئة المتعارفة فيما بينهم ثم ينقطع التعارف لشدة
الاهوال المذهلة واعتراء الاحوال المعضلة المغيرة للصور والاشكال المبدلة لها من حال
الى حال قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله تعالى شهادة من الله سبحانه وتعالى
على خسرانهم وتعجب منه وقيل حال من ضمير يتعارفون على ارادة القول والتعبير عنهم
بالموصول مع كون المقام مقام اضمار لذمهم بما في حيز الصلة والاشعار بعليته
لما اصابهم والمراد بلقاء الله تعالى ان كان مطلق الحساب والجزاء او حسن اللقا
فالمراد بالخسران الوضيعة والمعنى وضعوا في تجاراتهم ومعاملاتهم واشترائهم
الكفر بالايمان والضلالة بالهدى ومعنى قوله تعالى وما كانوا مهتدين ما كانوا
عارفين باحوال التجارة مهتدين لطرقها وان كان سوء اللقا فالخسران الهلاك والضلالة
اى قد ضلوا وهلكوا بتكذيبهم وما كانوا مهتدين الى طريق النجاة واما نرينك اصله
ان نرك وما مزيدة لتاكيد معنى الشرط ومن ثمة اكد الفعل بالنون اى نبصرنك بان
نظهر لك بعض الذي نعدهم اى وعدناهم من العذاب ونعجله لك في حياتك
فتراه والعدول الى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة وللدلالة على التجدد

ذا الاستمرار اى نعدهم وعدا متجددا حسبما يقتضيه الحكمة من انذار عقيب انذار وفى تخصيص
البعض بالذكر رمز الى العدة باراءة بعض الموعود وقد اراه يوم بدر او نتوفينك
قبل ذلك فالينا مرجعهم اى كيفما دارت الحال اريناك بعض ما وعدناهم اولا فالينا
مرجعهم في الدنيا والاخرة فننجز ما وعدناهم البتة وقيل المذكور جواب للشرط
الثانى كانه قيل فالينا مرجعهم فنريكه فى الاخرة وجواب الاول محذوف لظهوره اى
فذاك ثم الله شهيد على ما يفعلون من الافعال السيئة التى حكيت عنهم والمراد بالشهادة
اما مقتضاها ونتيجتها وهى معاقبته تعالى اياهم واما اقامتها واداؤها بانطاق
الجوارح واظهار اسم الجلالة لادخال الروعة وتربية المهابة وتاكيد التهديد و
قرئ ثمة اى هناك ولكل امة من الامم الخالية رسول يبعث اليهم بشريعة خاصة
مناسبة لاحوالهم ليدعوهم الى الحق فاذا جاء رسولهم فبلغهم ما ارسل به فكذبوه
وخالفوه قضى بينهم اى بين كل امة ورسولها بالقسط بالعدل وحكم بنجاة
الرسول والمؤمنين به وهلاك المكذبين كقوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وهم
لا يظلمون فى ذلك القضاء المستوجب لتعذيبهم لانه من نتائج اعمالهم او ولكل
من الامم يوم القيمة رسول تنسب اليه وتدعى به فاذا جاء رسولهم الموقف ليشهد
عليهم بالكفر والايمان كقوله عز وجل وجئ بالنبيين والشهداء وقضى بينهم ويقولون
متى هذا الوعد استعجالا لما وعدوا من العذاب بطريق الاستهزاء به والانكار
حسبما يرشد اليه الجواب لا طلبا لتعيين وقت مجيئه على وجه الالزام كما فى سورة الملك
ان كنتم صادقين اى فى انه ياتينا والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين
الذين يتلون عليهم الايات المتضمنة للوعد المذكور وجواب الشرط محذوف
اعتمادا على ما تقدم حسبما حذف فى مثل قوله تعالى فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين
فان الاستعجال فى قوة الامر بالاتيان عجلة كانه قيل فليأتنا بعجلة ان كنتم صادقين
ولما فيه من الاشعار بكون اتيانه بواسطة النبى صلى الله عليه وسلم قل لا املك
لنفسى ضرا ولا نفعا اى لا اقدر على شئ منهما بوجه من الوجوه وتقديم الضر
لما ان مساق النظم لاظهار العجز عنه واما ذكر النفع فلتعميم الدائرة تكملة للعجز
وما وقع فى سورة الاعراف من تقديم النفع للاشعار باهميته والمقام مقامه
والمعنى انى لا املك شيئا من شؤنى ردا وايرادا مع ان ذلك اقرب حصولا فكيف املك
شؤنكم حتى اتسبب فى اتيان عذابكم الموعود الا ما شاء الله استثناء منقطع
اى ولكن ما شاء الله كائن وحمله على الاتصال على معنى الا ما شاء الله ان املكه يأباه
مقام التبرى ومن ان يكون له عليه السلام دخل فى اتيان الوعد فان ذلك يستدعى بيان
المتنازع فيه مما لا يشاء الله ان يملكه عليه السلام وجعلها عبارة عن بعض الاحوال
المعهودة المنوطة بالافعال الاختيارية المفوضة الى العباد على ان يكون المعنى لا املك
لنفسى شيئا من الضر والنفع الا ما شاء الله ان املكه منهما من الضر والنفع المترتبين
على افعالى الاختيارية كالضر والنفع المترتبين على الاكل والشرب عدما ووجودا
تعسف ظاهر وقوله تعالى لكل امة اجل بيان لما ابهم فى الاستثناء وتقييد لما فى القضاء
السابق من الاطلاق المشعر بكون المقضى به امرا منجزا غير متوقف على شئ غير مجئ الرسول
وتكذيب الامة اى لكل امة امة ممن قضى بينهم وبين رسولهم اجل معين خاص
بهم لا يتعدى الى امة اخرى مضروب لعذابهم يحل بهم عند حلوله اذا جاء اجلهم
ان جعل الاجل عبارة عن حد معين من الزمان فمعنى مجيئه ظاهر وان اريد به ما
امتد اليه من الزمان فمجيئه عبارة عن انقضائه اذ هناك يتحقق مجيئه بتمامه
والضمير ان جعل للامم المدلول عليها بكل امة فاظهار الاجل مضافا اليه لافادة المعنى
المقصود الذى هو بلوغ كل امة اجلها الخاص بها ومجيئه اياها بعينها من بين
الامم بواسطة اكتساب الاجل بالاضافة عموما يفيد معنى الجمعية كانه قيل اذا
جاء اجالهم بان يجئ كل واحدة من تلك الامم اجلها الخاص بها وان جعل لكل

امة خاصة كما هو الظاهر فالاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والاضافة والضمير
لافادة كمال التعيين اى اذا جاء اجلها الخاص بها فلا يستاخرون عن ذلك الاجل
ساعة اى شيئا قليلا من الزمان فانها مثل فى غاية القلة منه اى لا يتأخرون عنه اصلا
وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له ولا يستقدمون
اى لا يتقدمون عليه وهو عطف على يستاخرون لكن لا لبيان انتفاء التقدم مع امكانه
فى نفسه كالتأخر بل للمبالغة فى انتفاء التأخر بنظمه فى سلك المستحيل عقلا كما
فى قوله سبحانه وتعالى وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم
الموت قال انى تبت الان ولا الذين يموتون وهم كفار فان من مات كافرا مع ظهور
ان لا توبة له راسا قد نظم فى عدم قبول التوبة فى سلك من سوفها الى حضور الموت
ايذانا بتساوى وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرة كما مر فى سورة الاعراف وقد
جوز ان يراد بمجئ الاجل دنوه بحيث يمكن التقدم فى الجملة كمجئ اليوم الذى ضرب
لهلاكهم ساعة معينة منه لكن ليس فى تقييد عدم الاستيخار بدنوه مزيد
فائدة وتقديم بيان انتفاء الاستيخار على بيان انتفاء الاستقدام لان المقصود
الاهم بيان عدم خلاصهم من العذاب ولو ساعة وذلك بالتأخر واما ما
فى قوله تعالى ما تسبق من امة اجلها وما يستاخرون من سبق السبق فى الذكر فلما
ان المراد هناك بيان سر تاخير عذابهم مع استحقاقهم له حسبما ينبئ عنه قوله عز
وجل ذرهم ياكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون فالاهم اذ ذاك
انتفاء السبق كما ذكر هناك قل لهم غب ما بينت كيفية جريان سنة الله عز وجل
فيما بين الامم على الاطلاق ونبهتهم على ان عذابهم امر مقرر محتوم لا
يتوقف الا على مجئ اجله المعلوم ايذانا بكمال دنوه وتنزيلا منزلة اتيانه حقيقة
ارايتم اى اخبرونى ان اتاكم عذابه الذى تستعجلون به بياتا اى وقت بيات
واشتغال بالنوم او نهارا اى عند اشتغالكم بمشاغلكم حسبما عين لكم من الاجل
بمقتضى المشيئة التابعة للحكمة كما عين لسائر الامم المهلكة وقوله عز وجل ماذا
يستعجل منه المجرمون جواب للشرط بحذف الفاء كما فى قولك ان اتيتك ماذا تطعمنى
والمجرمون موضوع موضع المضمر لتاكيد الانكار ببيان مباينة حالهم للاستعجال
فان حق المجرم ان يهلك فزعا من اتيان العذاب فضلا عن استعجاله والجملة الشرطية
متعلقة بارايتم والمعنى اخبرونى ان اتاكم عذابه تعالى اى شئ تستعجلون منه سبحانه
والشئ لا يمكن استعجاله بعد اتيانه والمراد به المبالغة فى انكار استعجاله باخراجه عن
حيز الامكان وتنزيله فى الاستحالة منزلة استعجاله بعد اتيانه بناء على تنزيل تقرر
اتيانه ودنوه منزلة اتيانه حقيقة كما اشير اليه وهذا الانكار بمنزلة النهى فى قوله تعالى
اتى امر الله فلا تستعجلوه خلا ان التنزيل هناك صريح وهنا ضمنى كما فى قول من قال لغريمه
الذى تقاضاه حقه ارايت ان اعطيتك حقك فماذا تطلب منى يريد المبالغة فى
انكار التقاضى بنظمه فى سلك التقاضى بعد الاعطاء بناء على تنزيل تقرره منزلة
نفسه وقوله عز وجل اثم اذا ما وقع امنتم به انكار لايمانهم بنزول العذاب
بعد وقوعه حقيقة داخل مع ما قبله من انكار استعجالهم به بعد اتيانه حكما تحت
القول المامور به اى ابعد ما نزل العذاب وحل بكم حقيقة امنتم به حين لا ينفعكم
الايمان انكارا لتاخيره الى هذا الحد وايذانا باستتباعه للندم والحسرة ليقلعوا عما هم
عليه من العناد ويتوجهوا نحو التدارك قبل فوت الوقت فتقديم الظرف للقصر
وقيل ماذا يستعجل منه متعلق بارايتم وجواب الشرط محذوف اى تندموا على الاستعجال
او تعرفوا خطأه والشرطية اعتراض مقرر لمضمون الاستخبار وقيل الجواب قوله تعالى
اثم اذا ما وقع الى اخره والاستفهامية الاولى اعتراض والمعنى اخبرونى ان اتاكم عذابه
امنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الايمان ثم جئ بكلمة التراخى دلالة على الاستبعاد
ثم زيد اداة الشرط دلالة على استقلاله بالاستبعاد وعلى ان الاول كالتمهيد له وجئ

باذا مؤكدا بما تربخا لمعنى الوقوع وزيادة للتجهيل وانهم لم يؤمنوا الا بعد ان لم ينفعهم
الايمان البتة وقوله تعالى الآن استيناف من جهته تعالى غير داخل تحت القول الملقن
مسوق لتقرير مضمون ما سبق على ارادة القول اى قيل لهم عند ايمانهم بعد وقوع العذاب
الآن آمنتم به انكارا للتاخير وتوبيخا عليه ببيان انه لم يكن ذلك لعدم سبق الانذار به ولا
للتامل والتدبر فى شانه ولا لشئ آخر مما عسى يعد عذرا فى التاخير بل كان ذلك على طريق
التكذيب والاستعجال به على وجه الاستهزاء وقرئ الآن بحذف الهمزة والقاء حركتها
على اللام وقوله تعالى وقد كنتم به تستعجلون اى تكذيبا واستهزاء جملة وقعت حالا
من فاعل آمنتم المقدر لتشديد التوبيخ والتقريع وزيادة التنديم والتحسير وتقديم الجار
والمجرور على الفعل لمراعاة الفواصل دون القصر وقوله تعالى ثم قيل الخ تاكيد التوبيخ
والعتاب بوعيد العذاب والعقاب وهو عطف على ما قدر قبل الآن للذين ظلموا اى
وضعوا الكفر والتكذيب موضع الايمان والتصديق او ظلموا انفسهم بتعريضها للعذاب
والهلاك ووضع الموصول موضع الضمير لذمهم بما فى حيز الصلة والاشعار بعليته
لاصابة ما اصابهم ذوقوا عذاب الخلد المولم على الدوام هل تجزون اليوم الا بما
كنتم تكسبون فى الدنيا من اصناف الكفر والمعاصى التى من جملتها ما مر من الاستعجال
ويستنبئونك اى يستخبرونك فيقولون على طريقة الاستهزاء والانكار احق هو احق
خبر قدم على المبتدا الذى هو الضمير للاهتمام به ويؤيده قوله تعالى انه لحق او مبتدا
والضمير مرتفع به ساد مسد الخبر والجملة فى موقع النصب بيستنبئونك وقرئ الحق هو تعريضا
بانه باطل كانه قيل اهو الحق لا الباطل او اهو الذى سميتموه الحق قل لهم غير ملتفت الى استهزائهم
مغضبا اى معرضا عما قصدوا وبانيا للامر على اساس الحكمة اى وربى اى من حروف
الايجاب بمعنى نعم فى القسم خاصة كما ان هل بمعنى قد فى الاستفهام خاصة ولذلك
يوصل بواوه انه العذاب الموعود لحق لثابت البتة اكد الجواب باتم وجوه التاكيد
حسب شدة انكارهم وقوته وقد زيد تقريرا وتحقيقا بقوله عز اسمه وما انتم بمعجزين
اى بفائتين العذاب بالهرب وهو لاحق بكم لا محالة وهو اما معطوف على
جواب القسم او مستانف سيق لبيان عجزهم عن الخلاص مع ما فيه من التقرير المذكور
ولو ان لكل نفس ظلمت بالشرك او التعدى على الغير او غير ذلك من اصناف الظلم ولو
مرة حسبما يفيده كون الصفة فعلا ما فى الارض اى فى الدنيا من خزائنها واموالها
ومنافعها قاطبة بما كثرت لافتدت به اى لجعلته فدية لها من العذاب من افتداه بمعنى
فداه واسروا اى النفوس المدلول عليها بكل نفس والعدول الى صيغة الجمع مع تحقق
العموم فى صورة الافراد ايضا لافادة تهويل الخطب بكون الاسرار بطريق المعية والاجتماع
وانما لم يراع ذلك فيما سبق لتحقيق ما يتوخى من فرض كون جميع ما فى الارض لكل واحدة من
النفوس وايثار صيغة جمع المذكر لحمل لفظ النفس على الشخص او لتغليب ذكور مدلوله
على اناثه الندامة على ما فعلوا من الظلم اى اخفوها ولم يظهروها لكن لا
للاصطبار والتجلد هيهات ولات حين اصطبار بل لانهم بهتوا لما راوا العذاب
اى عند معاينتهم من فظاعة الحال وشدة الاهوال ما لم يكونوا يحتسبون فلم يقدروا
على ان ينطقوا بشئ فلما بمعنى حين منصوب باسروا او حرف شرط حذف جوابه لدلالة
ما تقدم عليه وقيل اسروها اسرارها ممن اضلوهم حياء منهم وخوفا من توبيخهم
ولكن الامر اشد من ان يعتريهم هناك شئ غير خوف العذاب وقيل اسروا الندامة
اخلصوها لان اسرارها اخلاصها او لان سر الشئ خالصه حيث تخفى وتضن به ففيه تهكم
بهم وقيل اظهروا الندامة من قولهم اسر الشئ واشره اذا اظهره حين عيل صبرهم وفنى تجلدهم
وقضى بينهم اى اوقع القضاء بين الظالمين من المشركين وغيرهم من اصناف اهل الظلم
بانه اظهر الحق سواء كان من حقوق الله سبحانه او من حقوق العباد وعومل اهل كل منهما
بما يليق به بالقسط بالعدل وتخصيص الظلم بالتعدى وحمل القضاء على مجرد الحكومة
بين الظالمين والمظلومين من غير ان يتعرض لحال المشركين وهم اظلم الظالمين لا يساعده المقام

فان

فان مقتضاه اما كون الظلم عبارة عن الشرك او عما يدخل فيه دخولا اوليا و
هم اى الظالمون لا يظلمون فيما فعل بهم من العذاب بل هو من مقتضيات ظلمهم و
لوازمه الضرورية الا ان لله ما فى السموات والارض اى ما وجد فيهما داخلا فى
حقيقتهما او خارجا عنها متمكنا فيهما وكلمة ما لتغليب غير العقلاء على العقلاء فهو
تقرير لكمال قدرته سبحانه على جميع الاشياء وبيان لاندراج الكل تحت ملكوته يتصرف فيه كيفما
يشاء ايجادا او اعداما واثابة وعقابا الا ان وعد الله اظهار الاسم الجليل لشان
الوعد والاشعار بعلة الحكم وهو اما بمعنى الموعود اى جميع ما وعد به كائنا ما
كان فيندرج فيه العذاب الذى استعجلوه وما ذكر فى اثناء بيان حاله اندراجا اوليا او بمعناه
المصدرى اى وعده بجميع ما ذكر فمعنى قوله تعالى حق على الاول ثابت واقع لا محالة وعلى
الثانى مطابق وتصدير الجملتين بحرفى التنبيه والتحقيق للتسجيل على تحقق مضمونهما المقرر
لمضمون ما سلف من الآيات الكريمة والتنبيه على وجوب استحضاره والمحافظة عليه
ولكن اكثرهم لقصور عقولهم واستيلاء الغفلة عليهم والفهم بالاحوال المحسوسة
المعتادة لا يعلمون ذلك فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون هو يحيى و
يميت فى الدنيا من غير دخل لاحد فى ذلك واليه ترجعون فى الآخرة بالبعث والحشر
يا ايها الناس التفات ورجوع الى استمالتهم نحو الحق واستنزالهم الى قبوله و
اتباعه عقب تحذيرهم من غوائل الضلال بما تلى عليهم من القوارع الناعية
عليهم سوء عاقبتهم وايذان بان جميع ذلك مسوق لمصالحهم ومنافعهم قد
جاءتكم موعظة هى والوعظ والعظة التذكير بالعواقب سواء كان بالزجر
والترهيب او بالاستمالة والترغيب وكلمة من فى قوله تعالى من ربكم ابتدائية متعلقة
بجاءتكم او تبعيضية متعلقة بمحذوف وقع صفة لموعظة اى موعظة كائنة من
مواعظ ربكم وفى التعرض لعنوان الربوبية من حسن الموقع ما لا يخفى وشفاء لما فى
الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين اى كتاب جامع لهذه الفوائد والمنافع فانه
كاشف عن احوال الاعمال حسناتها وسيئاتها مرغب فى الاولى ورادع عن الاخرى و
مبين للمعارف الحقة التى هى شفاء لما فى الصدور من الادواء القلبية كالجهل والشك
والشرك والنفاق وغيرها من العقائد الزائغة وهاد الى طريق الحق واليقين بالارشاد
الى الاستدلال بالدلائل المنصوبة فى الآفاق والانفس وفى مجيئه رحمة للمؤمنين
حيث نجوا به من ظلمات الكفر والضلال الى نور الايمان وتخلصوا من دركات النيران وارتقوا
الى درجات الجنان والتنكير فى الكل للتفخيم قل تلوين للخطاب وتوجيه له و الرحمة
بفضل الله وبرحمته المراد بهما اما ما فى مجئ القرآن من الفضل والرحمة واما
الجنس وهما داخلان فيه دخولا اوليا والباء متعلقة بمحذوف واصل الكلام
ليفرحوا بفضل الله وبرحمته وتكرير الباء فى رحمته للايذان باستقلالها فى استجلاب
الفرح ثم قدم الجار والمجرور على الفعل لافادة القصر ثم ادخل عليه الفاء لافادة
معنى السببية فصار بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ثم قيل فبذلك فليفرحوا للتاكيد
والتقرير ثم حذف الفعل الاول لدلالة الثانى عليه والفاء الاولى جزائية والثانية
للدلالة على السببية والاصل ان فرحوا بشئ فبذلك ليفرحوا لا بشئ آخر ثم ادخل الفاء
للدلالة على السببية ثم حذف الشرط ومعنى البعد فى اسم الاشارة للدلالة على
بعد درجة فضل الله تعالى ورحمته ويجوز ان يراد بفضل وبرحمته فليعتنوا بذلك
فليفرحوا ويجوز ان يتعلق الباء بجاءتكم اى جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته
فبذلك اى فبمجيئها فليفرحوا وقرئ فلتفرحوا وقرأ ابى فافرحوا وعن ابى بن كعب ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قل بفضل الله وبرحمته فقال بكتاب الله والاسلام
وقيل فضله الاسلام ورحمته ما وعد عليه هو اى ما ذكر من فضل الله ورحمته
خير مما يجمعون من حطام الدنيا وقرئ تجمعون اى فبذلك فليفرح المؤمنون
هو خير مما تجمعون ايها المخاطبون قل ارايتم اى اخبرونى ما انزل الله لكم من

رزق ما منصوبة المحل بما بعدها او بما قبلها واللام للدلالة على ان المراد بالرزق ما
حل لهم وجعله منزلا لانه مقدر فى السماء محصل هو او ما يتوقف عليه وجوده او
بقاءه باسباب سماوية من المطر والكواكب فى الانضاج والتلوين فجعلتم منه اى جعلتم
بعضه حراما اى حكمتم بانه حرام وحلالا اى وجعلتم بعضه حلالا اى حكمتم
بحله مع كون كله حلالا وذلك قولهم هذه انعام وحرث حجر الآية وقولهم ما فى بطون
هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا ونحو ذلك وتقديم الحرام لظهور اثر
الجعل فيه ودوران التوبيخ عليه قل تكرير لتاكيد الامر بالاستخبار اى اخبرونى
الله اذن لكم فى ذلك الجعل فانتم فيه ممتثلون بامره تعالى ام على الله تفترون
ام متصلة والاستفهام للتقرير والتبكيت لتحقق العلم بالشق الاخير قطعا كانه
قيل ام لم ياذن لكم بل تفترون عليه سبحانه فاظهر الاسم الجليل وقدم على الفعل
دلالة على كمال قبح افترائهم وتاكيد للتبكيت اثر تاكيد مع مراعاة الفواصل ويجوز
ان يكون الاستفهام للانكار وام منقطعة ومعنى بل فيها الاضراب والانتقال من التوبيخ
والزجر بانكار الاذن الى ما يفيده همزتها من التوبيخ على الافتراء عليه سبحانه وتقريره
وتقديم الجار والمجرور على هذا يجوز ان يكون للقصر كانه قيل بل اعلى الله تعالى خاصة تفترون
وما ظن الذين يفترون على الله الكذب كلام مسوق من قبله تعالى لبيان هول ما
سيلقونه غير داخل تحت القول المامور به والتعبير عنهم بالموصول فى موقع
الاضمار لقطع احوال الشق الاول من الترديد والتسجيل عليهم بالافتراء وزيادة
الكذب مع ان الافتراء لا يكون الا كذبا لاظهار كمال قبح ما افتعلوا وكونه كذبا فى
اعتقادهم ايضا وكلمة ما استفهامية وقعت مبتدأ وظن خبرها ومفعولاه محذوفان
وقوله عز وجل يوم القيمة ظرف لنفس الظن اى اى شئ ظنهم فى ذلك اليوم يوم
عرض الافعال والاقوال والمجازاة عليها مثقالا بمثقال والمراد تهويله وتفظيعه
بهول ما يتعلق به مما يصنع بهم يومئذ وقيل هو ظرف لما يتعلق به ظنهم
اليوم من الامور التى ستقع يوم القيمة تنزيلا له ولما فيه من الاحوال لكمال وضوح
امره فى التقرر والتحقق منزلة المسلم عندهم اى اى شئ ظنهم لما سيقع يوم القيمة ايحسبون
انهم لا يسألون عن افترائهم او لا يجازون عليه او يجازون جزاء يسيرا ولاجل ذلك
يفعلون ما يفعلون كلا انهم لفى اشد العذاب لان معصيتهم اشد المعاصى ومن اظلم ممن
افترى على الله كذبا وقرئ على لفظ الماضى اى اى ظن ظنوا يوم القيمة وايراد صيغة
الماضى لانه كائن فكانه قد كان ان الله لذو فضل اى عظيم لا يكتنه كنهه على
الناس اى جميعا حيث انعم عليهم بالعقل المميز بين الحق والباطل والحسن والقبيح و
رحمهم بانزال الكتب وارسال الرسل وبين لهم الاسرار التى لا تستقل العقول فى
ادراكها وارشدهم الى ما يهمهم من امر المعاش والمعاد ولكن اكثرهم لا يشكرون
تلك النعمة الجليلة فلا يصرفون قواهم ومشاعرهم الى ما خلقت له ولا يتبعون دليل
العقل فيما يستبد به ولا دليل الشرع فيما لا يدركه الا به وقد تفضل عليهم ببيان
ما سيلقونه يوم القيمة فلا يلتفتون اليه فيقعون فيما يقعون فهو تذييل لما سبق
مقرر لمضمونه وما تكون فى شان اى فى امر من شانت شانه اى قصدت قصده
مصدر بمعنى المفعول وما تتلوا منه الضمير للشان والظرف صفة لمصدر محذوف اى تلاوة
كائنة من الشان اذ هى معظم شؤونه ع م او للتنزيل والاضمار قبل الذكر لتفخيم
شانه وابتدائية او تبعيضية او لله عز وجل ومن ابتدائية والتى فى قوله تعالى من
قرآن مزيدة لتاكيد النفى او ابتدائية على الوجه الاول وبيانية او تبعيضية على الثانى
والثالث ولا تعملون من عمل تعميم للخطاب اثر تخصيصه بمقتدى الكل وقد روعى فى كل
من المقامين ما يليق به حيث ذكر اولا من الاعمال فخامة وجلالة وثانيا ما يتناول الجليل
والحقير الا كنا عليكم شهودا استثناء مفرغ من اعم احوال المخاطبين بالافعال
الثلثة اي ما تلابسون بشئ منها فى حال من الاحوال الا حال كوننا رقباء مطلعين

عليه

عليه حافظين له اذ تفيضون فيه اى تخوضون وتندفعون فيه واصل الافاضة الاندفاع
بكثرة او بقوة وحيث اريد بالافعال السابقة الحالة المستمرة الدائمة المقارنة للزمان الماضى
ايضا اوثر فى الاستثناء صيغة الماضى وفى الظرف كلمة اذ التى تقيد المضارع معنى
الماضى وما يعزب عن ربك اى لا يبعد ولا يغيب عن علمه الشامل وفى التعرض لعنوان
الربوبية من الاشعار باللطف ما لا يخفى وقرئ بكسر الزاء من مثقال ذرة كلمة من
مزيدة لتاكيد النفى اى ما يعزب عنه ما يساوى فى الثقل نملة صغيرة او هباء فى الارض
ولا فى السماء اى فى دائرة الوجود والامكان فان العامة لا تعرف سواهما ممكنا ليس
فى احدهما او متعلقا بهما وتقديم الارض لان الكلام فى حال اهلها والمقصود اقامة البرهان
على احاطة علمه تعالى بتفاصيلها وقوله تعالى ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا فى كتاب مبين كلام
برأسه مقرر لما قبله ولا نافية للجنس واصغر اسمها وفى كتاب خبرها وقرئ بالرفع
على الابتداء والخبر ومن عطف على مثقال ذرة وجعل الفتح بدل الكسر لامتناع الصرف
او على محله مع الجار جعل الاستثناء منقطعا كانه قيل لا يعزب شئ ما لكن جميع الاشياء
فى كتاب مبين فكيف يعزب عنه شئ منها وقيل يجوز ان يكون الاستثناء متصلا ويعزب
بمعنى يبين ويصدر والمعنى لا يصدر عنه تعالى شئ الا وهو فى كتاب مبين والمراد بالكتاب
المبين اللوح المحفوظ الا ان اولياء الله بيان على وجه التبشير والوعد لما هو نتيجة الاعمال
المؤمنين وغاية لما ذكر قبله من كونه تعالى مهيمنا على نبيه عليه السلام وامته فى كل
ما ياتون وما يذرون واحاطة علمه سبحانه بجميع ما فى السماء والارض وكون الكل
مثبتا فى الكتاب المبين ما اشير الى فظاعة حال المفترين على الله تعالى يوم القيمة وما سيعتريهم
من الهول اشارة اجمالية على طريق التهديد والوعيد وصدرت الجملة بحرف التنبيه
والتحقيق لزيادة تقرير مضمونها والولى لغة القريب والمراد باولياء الله تعالى خلص
المؤمنين لقربهم الروحانى منه سبحانه وتعالى كما سيفصح عنه تفسيرهم لا خوف عليهم
فى الدارين من لحوق مكروه ولا هم يحزنون من فوات مطلوب اى لا يعتريهم ما
يوجب ذلك لا انه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ولا انه لا يعتريهم خوف
وحزن اصلا بل يستمرون على النشاط والسرور كيف لا واستشعار الخوف والخشية
استعظاما لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارا للجد والسعى فى اقامة حقوق
العبودية من خصائص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان
انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما مر مرارا من ان النفى
وان دخل على نفس المضارع يفيد الاستمرار والدوام بحسب المقام وانما لا يعتريهم
ذلك لان مقصدهم ليس الا طاعة الله تعالى ونيل رضوانه المستتبع للكرامة والزلفى و
ذلك مما لا ريب فى حصوله ولا احتمال لفواته بموجب الوعد بالنسبة اليه تعالى واما ما عداه
ذلك من الامور الدنيوية المترددة بين الحصول والفوات فهى بمعزل من الانتظام فى
سلك مقصدهم وجودا وعدما حتى يخافوا من حصول ضارها او يحزنوا بفوات
نافعها وقوله عز وجل الذين امنوا اى بكل ما جاء من عند الله تعالى وكانوا
يتقون اى يقون انفسهم عما يحق وقايتها عنه من الافعال والتروك وقاية
دائمة حسبما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل بيان وتفسير لهم واشارة الى
ما به نالوا ما نالوا على طريقة الاستيناف المبنى على السؤال ومحل الموصول الرفع على
انه خبر لمبتدأ محذوف كانه قيل من اولئك وما سبب فوزهم بتلك الكرامة فقيل
هم الذين جمعوا بين الايمان والتقوى المفضيين الى كل خير المنجيين عن كل شر وقيل
محله النصب او الرفع على المدح او على انه وصف مادح للاولياء ولا يقدح
فى ذلك توسط الخبر والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منها الجامعة لما تحتها من
مرتبة التوقى عن الشرك التى يفيدها الايمان ايضا ومرتبة التجنب عن كل ما يؤثم من فعل
وترك اعنى تنزه الانسان عن كل ما يشغل سره عن الحق والتبتل اليه بالكلية وهى التقوى
الحقيقى المامور به قوله تعالى يا ايها الذين امنوا اتقوا الله حق تقاته وبه يحصل

الشهود والحضور والقرب الذى عليه يدور اطلاق الاسم عليهم وهكذا كان حال كلّ من
دخل معه عليه الصلوة والسلام تحت الخطاب بقوله عزّ وعلا ولا تعملون من عمل خلا انّ لهم
فى شأن التبتّل والتنزّه درجات متفاوتة حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفائضة
عليهم بموجب المشيّة المبنيّة على الحكم الابية اقصاها ما انتهى اليه همم الانبياء عليهم
السلام حتى جمعوا بذلك بين رياستى النبوّة والولاية ولم يعقهم التعلّق بعالم
الاشباح عن الاستغراق فى عالم الارواح ولم يصدّهم الملابسة بمصالح الخلق عن التبتّل
الى جناب الحق لكمال استعداد نفوسهم المؤيّدة بالقوّة القدسيّة فملاك امر الولاية
هو التقوى المذكور فاولياء الله تعالى هم المؤمنون المتقون ويقرب منه ما قيل من
انهم الذين تولّى الله هدايتهم بالبرهان وتولّوا القيام بحق عبوديّة الله تعالى والدعوة
اليه ولا يخالفه ما قيل من انهم الذين يذكر الله برؤيتهم لما روي عن سعيد بن
جبير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من اولياء الله فقال هم الذين يذكر الله
برؤيتهم اى بسمتهم واخباتهم وسكينتهم ولا ما قيل من انّهم المتحابّون فى الله لما
روي عن عمر رضى الله عنه انه قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول انّ من عباد الله
عبادا ليسوا بانبياء ولا شهداء يغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيمة لمكانهم من الله
قالوا يا رسول الله خبّرنا من هم وما اعمالهم فلعلّنا نحبّهم قال هم قوم تحابّوا فى الله
على غير ارحام منهم ولا اموال يتعاطونها فوالله انّ وجوههم لنور وانهم لعلى
منابر من نور لا يخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس فان ما ذكر من
حسن السمة والسكينة المذكرة لله تعالى والتحابّ فى الله سبحانه من الاحكام الدينيّة
اللازمة للايمان والتقوى والآثار الخاصّة بهما الحقيقة بالتخصيص بالذكر لظهورها
وقربها من افهام الناس قد اورد رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا من ذلك حسبما
يقتضيه مقام الارشاد والتذكير ترغيبا للسائلين وغيرهم من الحاضرين فيما خصّه
بالذكر هناك من احكامهما فلعلّ الحاضرين اولاكانوا محتاجين الى اصلاح الحال من جهة الاقوال
والافعال والملابس ونحو ذلك والحاضرين ثانيا مفتقرين الى تأليف قلوبهم وعطفها
نحو المؤمنين الذين لا علاقة بينهم وبينهم من جهة النسب والقرابة وتاكيد ما بينهم
من الاخوّة الدينيّة ببيان عظم شأنها ورفعة مكانها وحسن عاقبتها ليراعوا حقوقها
ويهجروا من لا يوافقهم فى الدين من ارحامهم واما ما ذكر من انه يغبطهم الانبياء
فتصوير لحسن حالهم على طريقة التمثيل قال الكواشى وهذا مبالغة والمعنى لو فرض قوم
بهذه الصفة لكانوا هؤلاء وقيل اولياء الله الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم
بالكرامة وجعل قوله عزّ وجلّ الذين امنوا وكانوا يتقون تفسيرا لتوليهم اياه تعالى وقوله
عزّ وجلّ لهم البشرى فى الحيوة الدنيا وفى الاخرة تفسيرا لتوليه تعالى اياهم ولا ريب
فى انّ اعتبار القيد الاخير فى مفهوم الولاية غير مناسب لمقام ترغيب المؤمنين
فى تحصيلها والثبات عليها وبشارتهم باثارها ونتايجها بل مخلّ بذلك اذ التحصيل
انما يتعلق بالمقدور والاستبشار لا يحصل بما علم وجود سببه والقيد المذكور ليس
بمقدور لهم حتى يحصّلوا الولاية بتحصيله ولا بمعلوم لهم عند حصوله حتى يعرفوا
حصول الولاية لهم ويستبشروا بمحاسن آثارها بل التولى بالكرامة عين نتيجة الولاية
فاعتباره فى عنوان الموضوع ثم الاخبار بعدم الخوف والحزن مما لا يليق بشأن
التنزيل الجليل فالذى يقتضيه نظمه الكريم انّ الاوّل تفسير للاولياء حسبما شرح والثانى بيان
لما لهم من خيرات الدارين بعد بيان انجائهم من شرورهما ومكارههما والجملة مستأنفة
كما سبق كانه قيل هل لهم وراء ذلك من نعمة وكرامة فقيل لهم ما يسرّهم فى الدارين وتقديم
الاوّل لما انّ التخلية سابقة على التحلية مع ما فيه من مراعاة حق المقابلة بين حسن حال
المؤمنين وسوء حال المفترين وتعجيل ادخال المسرّة بتبشير الخلاص عن الاهوال وتوسيط
البيان السابق بين بشارة الخلاص عن المحذور وبشارة الفوز بالمطلوب لاظهار كمال
العناية بتفسير الاولياء مع الايذان بان انتفاء الخوف والحزن لاتقائهم عما يؤدى

اليهما من الاسباب والبشرى مصدر اريد به المبشر به من الخيرات العاجلة كالنصر والفتح
والغنيمة وغير ذلك والآجلة الغنية عن البيان وايثار الابهام والاجمال للايذان بكونه وراء
البيان والتفصيل والظرفان فى محل النصب على الحال منه والعامل ما فى الخبر من معنى الاستقرار اى
لهم البشرى حال كونها فى الحيوة الدنيا وحال كونها فى الاخرة اى عاجلة وآجلة او من الضمير
المجرور اى حال كونهم فى الحيوة الخ ومن البشرى العاجلة الثناء الحسن والذكر الجميل
فى محبة الناس عن ابى ذر رضى الله عنه قلت يا رسول الله الرجل يعمل العمل لله ويحبّه
الناس فقال عليه السلام تلك عاجل بشرى المؤمن هذا وقيل البشرى مصدر والظرفان
متعلقان به اما البشرى فى الدنيا وهى البشارات الواقعة للمؤمنين المتقين فى غير
موضع من الكتاب المبين وعن النبى صلى الله عليه وسلم هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن
او ترى له وعنه عليه الصلوة والسلام ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وعن عطاء
لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة قال الله تعالى تتنزل عليهم الملائكة الا
تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة واما البشرى فى الاخرة فتلقى الملائكة اياهم مسلّمين
مبشّرين بالفوز والكرامة وما يرون من بياض وجوههم واعطاء الصحايف
بايمانهم وما يقرؤن منها وغير ذلك من البشارات فيكون هذه بشارة بما سيقع من البشارات
العاجلة والآجلة المطلوبة لغاياتها لا لذواتها ولا يخفى انّ صرف البشارة الناجزة عن
المقاصد بالذات الى وسائلها مما لا يساعده جلالة شأن التنزيل الكريم لا تبديل
لكلمات الله لا تغيير لاقواله التى من جملتها مواعيده الواردة بشارة للمؤمنين المتقين فيدخل
فيها البشارات الواردة ههنا دخولا اوليا ويثبت امتناع الاخلاف فيها ثبوتا قطعيا
وعلى تقدير كون المراد بالبشرى الرؤيا الصالحة فالمراد بعدم تبديل كلماته تعالى ليس عدم
الخلف بينها وبين نتايجها الدنيويّة والاخرويّة بل عدم الخلف بينها وبين ما دلّ
على ثبوتها ووقوعها فيما سيأتى بطريق الوعد من قوله تعالى لهم البشرى فتدبر ذلك
اشارة الى ما ذكر من انّ لهم البشرى فى الدارين هو الفوز العظيم الذى لا فوز وراءه
فيه تفسير لما ابهم فيما سبق وهاتيك الجملة والتى قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم
شأنه وليس من شرطه ان يكون بعده كلام متصل بما قبله وهذه تذييل والسابقة اعتراض
ولا يحزنك قولهم تسلية لرسول صلى الله عليه وسلم عما كان يلقاه من جهتهم من
الاذية الناشية من مقالاتهم الموحشة وتبشير له عليه السلام بانه عزّ وجلّ
ينصره ويعزّه عليهم اثر بيان ان له ولاتباعه امنا من كل محذور وفوزا بكل مطلوب وقرئ
ولا يحزنك من احزن وهو فى الحقيقة نهى له عليه السلام عن الحزن كانه قيل لا تحزن
بقولهم ولا تبال بتكذيبهم وتشاورهم فى تدبير هلاكك وابطال امرك وساير ما
يتفوهون به فى شأنك مما لا خير فيه وانما وجّه النهى الى قولهم للمبالغة فى نهيه عم
عن الحزن لما انّ النهى عن التأثير نهى عن التأثر باصله ونفى له بالمرّة وقد توجّه النهى
الى اللازم والمراد هو النهى عن الملزوم كما فى قولك لا ارينك ههنا وتخصيص النهى عن
عن الحزن بالايراد مع شمول النفى السابق للخوف ايضا لما انه لم يكن فيه عم شائبة خوف
حتى ينهى عنه وربما كان يعتريه عليه السلام فى بعض الاوقات نوع حزن فسلّى
عن ذلك وقوله تعالى انّ العزّة تعليل للنهى على طريقة الاستيناف اى الغلبة
والقهر لله جميعا اى فى ملكه وسلطانه لا يملك احد شيئا منها اصلا لا هم ولا
غيرهم فهو يقهرهم ويعصمك منهم وينصرك عليهم وقد كان كذلك فهى من جملة البشريات
العاجلة وقرئ بفتح انّ على صريح التعليل اى لان العزّة لله هو السميع العليم يسمع
ما يقولون فى حقك ويعلم ما يعزمون عليه وهو مكافيهم بذلك الا انّ الله
من فى السموات ومن فى الارض اى العقلاء من الملائكة والثقلين وتخصيصهم
بالذكر للايذان بعدم الحاجة الى التصريح بغيرهم فانهم مع شرفهم وعلوّ طبقاتهم
اذا كانوا عبيدا له سبحانه مقهورين تحت قدرته وملكته فما عداهم من الموجودات
اولى بذلك وهو مع ما فيه من التاكيد لما سبق من اختصاص العزّة بالله تعالى الموجب لسلوته

عليه السلام وعدم مبالاته بالمشركين وبمقالاتهم تمهيدا لما لحق من قوله تعالى وما يتبع الذين
يدعون من دون الله شركاء وبرهان على بطلان ظنونهم واعمالهم المبنية عليها
وما اما نافية وشركاء مفعول يدعون ومفعول يتبع محذوف لظهوره اى ما يتبع الذين يدعون
من دون الله شركاء شركاء فى الحقيقة وان سموها شركاء فاقتصر على احدهما
لظهور دلالته على الآخر ويجوز ان يكون المذكور مفعول يدعون ويكون مفعول
يتبع محذوفا لانفهامه من قوله تعالى ان يتبعون الا الظن اى ما يتبعون يقينا
انما يتبعون ظنهم الباطل واما موصولة معطوفة على من كانه قيل ولله ما يتبعه الذين
يدعون من دون الله شركاء اى وله شركاؤهم وتخصيصهم بالذكر مع دخولهم
فيما سبق عبارة او دلالة للمبالغة فى بيان بطلان اتباعهم وفساد ما بنوا عليه من ظنهم
شركائهم معبودين مع كونهم عبيدا له سبحانه واما استفهامية اى واى شئ يتبعون
اى لا يتبعون شيئا ما يتبعون الا الظن والخيال الباطل كقوله تعالى ما تعبدون الا اسماء سميتموها
الخ وقرئ تدعون بالتاء فالاستفهام للتبكيت والتوبيخ كانه قيل واى شئ يتبع الذين
تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين تقريرا لكونهم متبعين لله تعالى مطيعين له و
توبيخا لهم على عدم اقتدائهم بهم فى ذلك كقوله تعالى اولئك الذين يدعون يبتغون
الى ربهم الوسيلة ثم صرف الكلام عن الخطاب الى الغيبة فقيل ان يتبع هؤلاء المشركون
الا الظن ولا يتبعون ما يتبعه الملائكة والنبيون من الحق وان هم الا يخرصون يكذبون
فيما ينسبونه اليه ويحزرون ويقدرون انهم شركاء تقديرا باطلا هو الذى جعل
لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا تنبيه على تفرده تعالى بالقدرة الكاملة والنعمة
الشاملة ليدلهم على توحده سبحانه باستحقاق العبادة وتقرير لما سلف من كون
جميع الموجودات الممكنة تحت قدرته وملكته المفصح عن اختصاص العزة به سبحانه
والجعل ان كان بمعنى الابداع والخلق فمبصرا حال والافلكم مفعوله الثانى او هو حال
كما فى الوجه الاول والمفعول الثانى لتسكنوا فيه او هو محذوف يدل عليه المفعول
الثانى من الجملة الثانية كما ان العلة الغائية منها محذوفة اعتمادا على ما فى الاولى
والتقدير هو الذى جعل لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه والنهار مبصرا لتتحركوا فيه
لمصالحكم كما سيجئ نظيره فى قوله تعالى وان يمسسك بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير
فلا راد لفضله الاية فحذف فى كل واحد من الجانبين ما ذكر فى الآخر اكتفاء بالمذكور عن
المتروك واسناد الابصار الى النهار مجازى كالذى فى نهاره صائم ان فى ذلك
اى فى جعل كل منهما كما وصفا او فيهما وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان
ببعد منزلة المشار اليه وعلو رتبته لآيات اى عجيبة كثيرة وآيات آخر غير ما ذكر
لقوم يسمعون اى هذه الآيات المتلوة ونظائرها المنبهة على تلك الآيات التكوينية
الآمرة بالتامل فيها سماع تدبر واعتبار فيعملون بمقتضاها وتخصيص الآيات بهم
مع انها منصوبة لمصلحة الكل لما انهم المنتفعون بها قالوا شروع فى ذكر ضرب آخر
من اباطيلهم وبيان بطلانه اتخذ الله ولدا اى تبناه سبحانه تنزيه وتقديس
له عما نسبوا اليه وتعجيب من كلمتهم الحمقاء هو الغنى على الاطلاق عن كل شئ فى كل
شئ وهو علة لتنزهه سبحانه وايذان بان اتخاذ الولد من احكام الحاجة وقوله عز
وجل له ما فى السموات وما فى الارض اى من العقلاء وغيرهم تقرير لغناه وتحقيق
لمالكيته تعالى لكل ما سواه وقوله تعالى ان عندكم من سلطان اى حجة بهذا اى بما ذكر
من قولهم الباطل توضيح لبطلانه بتحقيق سلامة ما اقيم من البرهان الساطع عن
المعارض فمن فى من سلطان زائدة لتاكيد النفى وهو مبتدا والظرف المقدم خبره او
مرتفع على انه فاعل الظرف لاعتماده على النفى وبهذا متعلق اما بسلطان لانه بمعنى الحجة و
البرهان واما بمحذوف وقع صفة له واما بما فى عندكم من معنى الاستقرار كانه قيل
ان عندكم فى هذا القول من سلطان والالتفات الى الخطاب لمزيد المبالغة فى الالزام و
الافحام وتاكيد ما فى قوله تعالى اتقولون على الله ما لا تعلمون من التوبيخ والتقريع على جهلهم

واختلافهم

واختلافهم وفيه تنبيه على ان كل مقالة لا دليل عليها فهى جهالة وان العقائد لا بد لها من
برهان قطعى وان التقليد بمعزل من الاعتداد به قل تلوين للخطاب وتوجيه له الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبين لهم سوء مغبتهم وخاتمة عاقبتهم ان الذين
يفترون على الله الكذب اى فى كل امر فيدخل ما نحن بصدده من الافتراء
بنسبة الولد والشريك اليه سبحانه دخولا اوليا لا يفلحون اى لا ينجون من مكروه
ولا يفوزون بمطلوب اصلا وتخصيص عدم النجاة والفوز بما يندرج فى ذلك
من عدم النجاة من النار وعدم الفوز بالجنة لا يناسبه مقام المبالغة فى الزجر عن
الافتراء عليه سبحانه متاع فى الدنيا كلام مستانف سيق لبيان ان ما يتراءى فيهم
بحسب الظاهر من نيل المطالب والفوز بالحظوظ الدنيوية على الاطلاق او فى ضمن
افترائهم بمعزل من ان يكون من جنس الفلاح كانه قيل كيف لا يفلحون وهم فى
غبطة ونعيم فقيل هو متاع يسير فى الدنيا وليس بفوز فى المطلوب ثم اشير
الى انتفاء النجاة عن المكروه بقوله عز وعلا ثم الينا مرجعهم اى بالموت ثم
نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون فيبقون فى الشقاء المؤبد بسبب كفرهم المستمر
او بكفرهم فى الدنيا فاين هم من الفلاح وقيل المبتدا المحذوف حياتهم او تقلبهم و
قد قيل انه افتراؤهم ولا يخفى ان المتاع انما يطلق على ما يكون مطبوعا عند النفس
مرغوبا فيه فى نفسه يتمتع وينتفع به وانما عدم الاعتداد به لسرعة زواله ونفس
الافتراء عليه سبحانه اقبح القبائح عند النفس فضلا عن ان يكون مطبوعا عندها
وعده كذلك باعتبار اجراء حكم ما يؤدى اليه من رياستهم عليه مما لا وجه له
فالوجه ما ذكر اولا وليس ببعيد ما قيل ان المحذوف هو الخبر اى لهم متاع والاية اما
مسوقة من جهة الله سبحانه لتحقيق عدم افلاحهم غير داخلة فى الكلام المامور
به كما يقتضيه ظاهر قوله تعالى ثم الينا وقوله تعالى ثم نذيقهم واما داخلة فيه على ان النبى
صلى الله عليه وسلم مامور بنقله وحكايته عنه عز وجل واتل عليهم اى على المشركين من
من اهل مكة وغيرهم لتحقيق ما سبق من انهم لا يفلحون وان ما يتمتعون به على جناح
الفوات وانهم مشرفون على العذاب الخالد نبا نوح اى خبره الذى له شان وخطر
مع قومه الذين هم اضراب قومك فى الكفر والعناد وليتدبروا ما فيه من زوال
ما تمتعوا به من النعيم وحلول عذاب الغرق الموصول بالعذاب المقيم لينزجروا بذلك
عما هم عليه من الكفر او تنكسر شدة شكيمتهم او يعترف بعضهم بصحة نبوتك
بان عرفوا ان ما تتلوه موافق لما ثبت عندهم من غير مخالفة بينهما اصلا مع علمهم
بانك لم تسمع ذلك من احد ليس الا بطريق الوحى وفيه من تقرير ما سبق من كون
الكل لله سبحانه واختصاص العزة به تعالى وانتفاء الخوف والحزن من اوليائه عز وعلا
قاطبة وتشجيع النبى صلى الله عليه وسلم وحمله على عدم المبالاة بهم وباقوالهم
وافعالهم ما لا يخفى اذ قال معمول لنبا او بدل منه بدل اشتمال واياما كان فالمراد
بعض نبائه عليه السلام لا كل ما جرى بينه وبين قومه واللام فى قوله تعالى لقومه
للتبليغ يا قوم ان كان كبر اى عظم وشق عليكم مقامى اى نفسى كما يقال فعلته
لمكان فلان اى لفلان ومنه قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه اى خاف ربه او قيامى
ومكثى بين ظهرانيكم مدة طويلة او قيامى وتذكيرى بايات الله فانهم كانوا اذا
وعظوا الجماعة يقومون على ارجلهم والجماعة قعود ليظهر حالهم ويسمع مقالهم فعلى
الله توكلت جواب للشرط اى دمت على تخصيص التوكل به تعالى ويجوز ان يراد به
احداث مرتبة مخصوصة من مراتب التوكل فاجمعوا امركم عطف على الجواب والفاء
لترتيب الامر بالاجماع على التوكل لترتيب نفس الاجماع عليه او هو الجواب وما سبق
جملة اعتراضية والاجماع العزم قيل هو متعد بنفسه وقيل فيه حذف وايصال قال
السدوسى اجمعت الامر افصح من اجمعت عليه وقال ابو الهيثم اجمع امره جعله
مجموعا بعد ما كان متفرقا وتفرقه انه يقول مرة افعل كذا واخرى افعل كذا واذا عزم على امر

واحد فقد جمعه اى جعله جميعا وشركاءكم بالنصب على ان الواو بمعنى مع كما يدل عليه
القراءة بالرفع عطفا على الضمير المتصل تنزيلا للفصل منزلة التاكيد واسناد الاجماع الى الشركاء
على طريقة التهكم وقيل انه عطف على امركم بحذف المضاف اى امر شركائكم وقيل
منصوب بفعل محذوف اى وادعوا شركاءكم وقد قرئ كذلك وقرئ فاجمعوا من
الجمع اى فاعزموا على امركم الذي تريدون بي من السعي في اهلاكي واحتشدوا
فيه على اى وجه يمكنكم ثم لا يكن امركم ذلك عليكم غمة اى مستورا من غمه
اذا ستره بل مكشوفا مشهورا تجاهرونني به فان الستر انما يصار اليه لسد باب
تدارك الخلاص بالهرب او نحوه فحيث استحال ذلك في حقي لم يكن للستر وجه وانما خاطبهم
عليه السلام بذلك اظهارا لعدم المبالاة بهم وانهم لن يجدوا اليه سبيلا وثقة
بالله سبحانه وبما وعده من عصمته وكلائته فكلمة ثم للتراخي في الرتبة واظهار الامر
في موقع الاضمار لزيادة تقرير يقتضيها مقام الامر اظهار الذي يستلزمه النهي عن الستر
والاسرار وقيل المراد بامرهم ما يعتريهم من جهته عليه السلام من الحال الشديدة عليهم
المكروهة لديهم والغمة الغم كالكربة والكرب وثم للتراخي الزماني والمعنى لا يكن حالكم
عليكم غمة وتخلصوا باهلاكي من ثقل مقامي وتذكيري ولا يخفى انه لا يساعده قوله
عز وجل ثم اقضوا الي ولا تنظرون اى ادوا الي اى احكموا ذلك الامر الذي تريدون
بي ولا تمهلوني كقوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر او ادوا الي ما هو حق عليكم عندكم
من اهلاكي كما يقضي الرجل غريمه فان توسيط ما يحصل بعد الاهلاك بين الامر بالعزم على
مباديه وبين الامر بقضائه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه وقرئ افضوا بالفاء اى
انتهوا الي بشركم او ابرزوا الي من افضى اذا خرج الى الفضاء فان توليتم الفاء
لترتيب التولي على ما سبق فالمراد به اما الاستمرار عليه واما احداث التولي المخصوص
اى ان اعرضتم عن نصيحتي وتذكيري اثر ما شاهدتم مني مخايل صحة ما اقول في
دلائلها التي من جملتها دعوتي اياكم جميعا الى تحقيق ما تريدون بي من السوء غير
مبال بكم وبما ياتي منكم واحجامكم من الاجابة علما منكم باني على الحق المبين
مؤيد من عند الله العزيز فما سالتكم بمقابلة وعظي وتذكيري من اجر تؤدونه الي
حتى يؤدي ذلك الى توليكم اما لاتهامكم اياي بالطمع والسؤال واما لثقل دفع المسؤول
عليكم او حتى يضر لي توليكم المؤدي الى الحرمان فالاول لاظهار بطلان التولي ببيان
عدم ما يصححه والثاني لاظهار عدم مبالاته عليه السلام بوجوده وعدمه وعلى
التقديرين فالفاء الجزائية لسببية الشرط لاعلام مضمون الجزاء لا لنفسه والمعنى ان توليتم
فاعلموا ان ليس في مصحح له ولا تاثر منه وقوله عز وجل ان اجري الا على الله
ينتظم المعنيين جميعا الا انه على الاول تاكيد وعلى الثاني تعليل
لاستغنائه عليه السلام عنهم اى ما ثوابي على العظة والتذكير الا عليه تعالى
يثيبني به آمنتم او توليتم وامرت ان اكون من المسلمين المنقادين لحكمه
لا اخالف امره ولا ارجو غيره والمستسلمين لكل ما يصيب من البلاء في طاعة الله
تعالى فكذبوه فاصروا على ما هم عليه من التكذيب بعد ما الزمهم الحجة وبين لهم
المحجة وحقق ان توليهم ليس له سبب غير التمرد والعناد فلا جرم حقت عليهم كلمة
العذاب فنجيناه ومن معه في الفلك من المسلمين وكانوا ثمانين وجعلناهم
خلائف من الهالكين به واغرقنا الذين كذبوا باياتنا اى بالطوفان وتاخير
ذكره عن ذكر الانجاء والاستخلاف حسبما وقع في قوله عز وعلا ولما جاء امرنا نجينا
شعيبا والذين معه برحمة منا واخذت الذين ظلموا الصيحة وغير ذلك من الايات
الكريمة لاظهار كمال العناية بشان المقدم ولتعجيل المسرة للسامعين وللايذان بسبق
الرحمة التي هي من مقتضيات الربوبية على الغضب الذي هو من مستتبعات جرائم المجرمين
فانظر كيف كان عاقبة المنذرين تهويل لما جرى عليهم وتحذير لمن كذب بالرسول
صلى الله عليه وسلم وتسلية له عليه السلام ثم بعثنا اى ارسلنا من بعده اى

من بعد

من بعد نوح عليه السلام رسلا التنكير للتفخيم ذاتا ووصفا اى رسلا كراما ماذوي
عدد كثير الى قومهم اى الى اقوامهم لكن لا بان ارسلنا كل رسول منهم الى اقوام الكل
او الى قوم ما اى قوم كان بل كل رسول الى قومه خاصة مثل هود الى عاد وصالح الى
ثمود وغير ذلك ممن قص منهم ومن لم يقص فجاؤوهم اى جاء كل رسول قومه
المخصوصين به بالبينات اى المعجزات الواضحة الدالة على صدق ما قالوا والباء
اما متعلقة بالفعل المذكور على انها للتعدية او بمحذوف وقع حالا من ضمير جاؤوا
اى ملتبسين بالبينات لكن لا بان ياتي كل رسول ببينة واحدة بل ببينات كثيرة خاصة به
معينة له حسب اقتضاء الحكمة فان مراعاة انقسام الاحاد الى الاحاد انما هي فيما بين
ضميري جاؤوهم كما اشير اليه فما كانوا ليؤمنوا بيان لاستمرار عدم ايمانهم
كما مر مثله في هذه السورة الكريمة غير مرة اى فما صح وما استقام لقوم من اولئك
الاقوام في وقت من الاوقات ان يؤمنوا بل كان ذلك ممتنعا منهم لشدة شكيمتهم
في الكفر والعناد ثم ان كان المحكي آخر حال كل قوم حسب ما يدل عليه حكاية قوم نوح
فالمراد بعدم ايمانهم المذكور ههنا اصرارهم على ذلك بعد اللتيا والتي وبما
اشير اليه في قوله عز وجل بما كذبوا به من قبل تكذيبهم من حين مجيء الرسل
الى زمان الاصرار والعناد وانما لم يجعل ذلك مقصودا بالذات كالاول حيث جعل
صلة للموصول وايذانا بانه بين بنفسه غني عن البيان وانما المحتاج الى ذكر عدم ايمانهم
بعد تواتر البينات الظاهرة وتظاهر المعجزات الباهرة التي كانت تضطرهم الى القبول لو
كانوا من اصحاب العقول والموصول الذي تعلق به الايمان والتكذيب سلبا وايجابا
عبارة عن جميع الشرائع التي جاء بها كل رسول اصولها وفروعها وان كان المحكي
جميع احوال كل قوم منهم فالمراد بما ذكر اولا كفرهم المستمر من حين مجيء الرسل الى آخره
وبما اشير اليه آخرا تكذيبهم قبل مجيئهم فلا بد من كون الموصول المذكور عبارة عن
اصول الشرائع التي اجمعت عليها الرسل قاطبة ودعوا اممهم اليها اثر ذي اثير لاستحالة
تبدلها وتغيرها مثل ملة التوحيد ولوازمها ومعنى تكذيبهم بها قبل مجيء رسلهم
انهم ما كانوا في زمن الجاهلية بحيث لم يسمعوا بكلمة التوحيد قط بل كان كل قوم من
اولئك الاقوام يتسامعون بها من بقايا من قبلهم كثمود من بقايا عاد وعاد من بقايا قوم
نوح فيكذبونها ثم كانت حالتهم بعد مجيء الرسل كحالتهم قبل ذلك كان لم يبعث
اليهم احد وتخصيص التكذيب وعدم الايمان بما ذكر من الاصول لظهور حال الباقي
بدلالة النص فانهم حين لم يؤمنوا بما اجمعت عليه كافة الرسل فلان لا يؤمنوا
بما تفرد به بعضهم اولى وعدم جعل هذا التكذيب مقصودا بالذات لما ان ما عليه
يدور امر العذاب والعقاب عند اجتماع التكذيبين هو التكذيب الواقع بعد الدعوة
حسبما يعرب عنه قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وانما ذكر ما وقع قبلها
بيانا لعراقتهم في الكفر والتكذيب وعلى التقديرين فالضمائر الثلاثة متوافقة في
المرجع وقيل ضمير كذبوا راجع الى قوم نوح عليه السلام والمعنى فما كان قوم الرسل
ليؤمنوا بما كذب بمثله قوم نوح ولا يخفى ما فيه من التعسف وقيل الباء للسببية
اى بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل ولا يخفى ان ذلك تؤدي الى مخالفة
الجمهور من جعل ما المصدرية من قبيل الاسماء كما هو رأي الاخفش وابن السراج
ليرجع اليها الضمير وفي ارجاعه الى الحق بادعاء كونه مركوزا في الاذهان ما لا يخفى
من التعسف كذلك اى مثل ذلك الطبع المحكم نطبع بنون العظمة وقرئ بالياء
على ان الضمير لله سبحانه على قلوب المعتدين المتجاوزين عن الحدود المعهودة
في الكفر والعناد المتجافين عن قبول الحق وسلوك طريق الارشاد وذلك بخذلانهم
وتخليتهم وشانهم لانهماكهم في الغي والضلال وفي امثال هذا دلالة على
ان الافعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد ثم بعثنا عطف على قوله تعالى ثم بعثنا
من بعده رسلا الى قومهم عطف قصة على قصة من بعدهم اى من بعد اولئك

الرسل عليهم السلام موسى وهرون خصت بعثتهما عليهما السلام بالذكر ولم يكتف
باندراج خبرهما فيما أشير إليه إشارة إجمالية من أخبار الرسل عليهم السلام مع أقوامهم
وأوثر في ذلك ضرب تفصيل إيذانا بخطر شأن القصة وعظم وقعها كما في نبأ نوح
عليه السلام إلى فرعون وملائه أي أشراف قومه وتخصيصهم بالذكر لأصالتهم
في إقامة المصالح والمهمات ومراجعة الكل إليهم في النوازل والملمات بآياتنا أي
ملتبسين بها وهي الآيات المفصلات في الأعراف فاستكبروا الاستكبار ادعاء
الكبر من غير استحقاق والفاء فصيحة أي فأتياهم فبلغاهم الرسالة فاستكبروا
عن اتباعها وذلك قول اللعين لموسى عليه السلام ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من
عمرك سنين الخ وكانوا قوما مجرمين اعتراض لمضمون ما قبله أي كانوا معتادين لارتكاب
الذنوب العظام فإن الإجرام مؤذن بعظم الذنب ومنه الجرم أي الجثة فلذلك
اجترؤا عليه من الاستهانة برسالة الله عز وجل وحمل الاستكبار على الامتناع عن
قبول الآيات لا يساعده قوله عز وعلا فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا
لسحر مبين فإنه صريح في أن المراد باستكبارهم ما وقع منهم قبل مجيء الحق الذي
سموه سحرا أعني العصا واليد البيضاء كما ينبئ عنه سياق النظم الكريم وذلك أول
ما أظهره عليه السلام من الآيات العظام والفاء فيه أيضا فصيحة معربة عما صرح به
في مواضع أخر كأنه قيل قال موسى قد جئتكم ببينة من ربكم إلى قوله تعالى فألقى
موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين فلما جاءهم الحق
من عندنا وعرفوه قالوا من فرط عتوهم وعنادهم إن هذا لسحر مبين أي ظاهر
كونه سحرا أو فائق في بابه واضح فيما بين أضرابه وقرئ لساحر قال موسى استئناف
مبني على السؤال ينساق إليه الأذهان كأنه قيل فماذا قال لهم موسى حينئذ فقيل قال
على طريقة الاستفهام الإنكاري التوبيخي أتقولون للحق الذي هو أبعد شيء من السحر
الذي هو الباطل البحت لما جاءكم أي حين مجيئه إياكم ووقوفكم عليه أو من أول
الأمر من غير تأمل وتدبر وكلا الحالين مما ينافي القول المذكور والقول محذوف
ثقة بدلالة ما قبله وما بعده عليه وإيذانا بأنه مما لا ينبغي أن يتفوه به ولو على نهج الحكاية
أي أتقولون له ما تقولون من أنه سحر يعني به أنه مما لا يمكن أن يقوله قائل ويتكلم
به متكلم أو القول بمعنى العيب والطعن من قولهم فلان يخاف القالة وبين الناس
تقاول إذا قال بعضهم لبعض ما يسوءه ونظيره الذكر في قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم
الخ فيستغنى عن المفعول أي أتعيبونه وتطعنون فيه وعلى الوجهين فقوله عز وجل
أسحر هذا إنكار مستأنف من جهته عليه السلام لكونه سحرا وتكذيب لقولهم وتوبيخ
لهم على ذلك إثر توبيخ وتجهيل بعد تجهيل أما على الأول فظاهر وأما على
الثاني فوجه إيثار إنكار كونه سحرا على إنكار كونه معيبا بأن يقال مثلا أفيه عيب
حسبما يقتضيه ظاهر الإنكار السابق التصريح بالرد عليهم في خصوصية ما عابوه
به بعد التنبيه بالإنكار السابق على أن ليس فيه شائبة عيب ما وما في هذا من معنى
القرب لزيادة تعيين المشار إليه واستحضار ما فيه من الصفات الدالة على كونه
باهرة من آيات الله المنادية على امتناع كونه سحرا أي أسحر هذا الذي أمره واضح
مكشوف وشأنه مشاهد معروف بحيث لا يرتاب فيه أحد ممن له عين مبصرة
وتقديم الخبر للإيذان بأنه مصب الإنكار ولما استلزم كونه سحرا كون من أتى به ساحرا
أكد الإنكار السابق وما فيه من التوبيخ والتجهيل بقوله تعالى ولا يفلح الساحرون
وهو جملة حالية من ضمير المخاطبين والرابط هو الواو بلا ضمير كما في قول من قال جاء
الشتاء ولست أملك عدة وقولك جاء زيد ولم تطلع الشمس أي أتقولون للحق
إنه سحر والحال أنه لا يفلح فاعله أي لا يظفر بمطلوب ولا ينجو من مكروه فكيف يمكن
صدوره من مثلي من المؤيدين من عند الله العزيز الحكيم الفائزين بكل مطلب الناجين
عن كل محذور وقوله تعالى أسحر هذا جملة معترضة بين الحال وصاحبها أكد بها الإنكار

السابق ببيان استحالة كونه سحرا بالنظر إلى ذاته قبل بيان استحالته بالنظر إلى صدوره عنه
عليه السلام هذا وأما تجويز أن يكون الكل مقول القول على أن المعنى أجئتما بالسحر
تطلبان به الفلاح ولا يفلح الساحرون فمما لا يساعده النظم الكريم أصلا أما أولا
فلأن ما قالوا هو الحكم بأنه سحر من غير أن يكون فيه دلالة على ما تعسف فيه من
المعنى بوجه من الوجوه فصرف جوابه عليه السلام عن صريح ما خاطبوه به إلى ما
لا يفهم منه أصلا مما يجب تنزيه النظم التنزيلي عن الحمل على أمثاله وأما ثانيا فلأن
التعرض لعدم إفلاح السحرة على الإطلاق من وظائف من يتمسك بالحق المبين دون
الكفرة المتشبثين بأذيال بعض منهم في معارضته عليه السلام ولو كان ذلك من كلامهم لناسب
تخصيص عدم الإفلاح بمن زعموه ساحرا بناء على غلبة من يأتون به من السحرة
وأما ثالثا فلأن قوله عز وجل قالوا أجئتنا الخ مسوق لبيان أنه عليه السلام ألقمهم
الحجر فانقطعوا عن الإتيان بكلام له تعلق بكلامه عليه السلام فضلا عن الجواب الصحيح
واضطروا إلى التشبث بذيل التقليد الذي هو دأب كل عاجز محجوج وديدن كل معاند
لجوج على أنه استئناف وقع جوابا عما قبله من كلامه عليه السلام على طريقة قوله تعالى
قال موسى الخ حسبما أشير إليه كأنه قيل فماذا قالوا لموسى عليه السلام عندما قال لهم
ما قال فقيل قالوا عاجزين عن المحاجة أجئتنا لتلفتنا أي لتصرفنا فإن الفتل واللفت
أخوان عما وجدنا عليه آباءنا أي من عبادة الأصنام ولا ريب في أن ذلك إنما
يتسنى بكون ما ذكر من تتمة كلامه عليه السلام على الوجه الذي شرح إذ على تقدير كونه
محكيا من قبلهم يكون جوابه عليه السلام خاليا عن التبكيت الملجئ لهم إلى العدول عن
سنن المحاجة ولا ريب في أنه لا علاقة بين قولهم أجئتنا الخ وبين إنكاره عليه السلام لما حكي
عنهم مصححة لكونه جوابا عنه وتكون لكما الكبرياء أي الملك والتكبر على الناس
باستتباعهم وقرئ ويكون بالياء التحتانية وكلمة في في قوله تعالى في الأرض أي أرض
مصر متعلقة بتكون أو بالكبرياء أو بالاستقرار في لكما لوقوعه خبرا أو بمحذوف وقع
حالا من الكبرياء أو من الضمير في لكما لتحمله إياه وما نحن لكما بمؤمنين أي بمصدقين
فيما جئتما به وتثنية الضمير في هذين الموضعين بعد إفراده فيما تقدم من المقامين باعتبار
شمول الكبرياء لهما عليهما السلام واستلزام التصديق لأحدهما التصديق للآخر
وأما اللفت والمجيء له فحيث كانا من خصائص صاحب الشريعة أسند إلى موسى عليه السلام
خاصة وقال فرعون توحيد الفعل لأن الأمر من وظائف فرعون أي قال لملائه
يأمرهم بترتيب مبادي إلزامهما عليهما السلام بالفعل بعد اليأس عن إلزامهما بالقول
ائتوني بكل ساحر عليم بفنون السحر حاذق ماهر فيه وقرئ سحار فلما جاء السحرة
عطف على مقدر يستدعيه المقام قد حذف إيذانا بسرعة امتثالهم بأمر فرعون
كما هو شأن الفاء الفصيحة في كل مقام أي فأتوا به فلما جاؤا قال لهم موسى لكن لا
في ابتداء مجيئهم بل بعد ما قالوا له عليه السلام ما حكي عنهم في السور الأخر من
قولهم إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين ألقوا ما أنتم ملقون أي ملقون له كائنا
ما كان من أصناف السحر فلما ألقوا ما ألقوا من العصي والحبال واسترهبوا الناس
وجاؤا بسحر عظيم قال لهم موسى ما جئتم به السحر ما موصولة وقعت مبتدأ والسحر
خبره أي الذي جئتم به هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه من آيات الله سبحانه أو هو من جنس السحر
يؤيده أن حاله بين لا يعبأ به كأنه قال ما جئتم به مما لا ينبغي أن يجاب وقرئ آلسحر
على الاستفهام فما استفهامية أي أي شيء جئتم به أهو السحر الذي يعرف حاله
كل أحد ولا يتصدى له عاقل وقرئ ما جئتم به سحر وقرئ ما أتيتم به سحر ودلالتهما
على المعنى الثاني في القراءة المشهورة أظهر إن الله سيبطله أي سيمحقه بالكلية بما
يظهره على يدي من المعجزة فلا يبقى له أثر أصلا أو سيظهر بطلانه للناس والسين
للتأكيد إن الله لا يصلح عمل المفسدين أي عمل جنس المفسدين على الإطلاق فيدخل
فيه السحر دخولا أوليا أو عملكم فيكون من باب وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم

بالافساد والاشعار بعلة الحكم وليس المراد بعدم اصلاح عملهم عدم جعل فسادهم
صلاحا بل عدم اثباته واتمامه اى لا يثبته ولا يكمله ولا يديمه بل يمحقه ويهلكه ويسلط
عليه الدمار والجملة تعليل لما سبق من قوله تعالى ان الله سيبطله والكل اعتراض تذييلي
فيه دليل على ان السحر افساد وتمويه لا حقيقة له ويحق الله الحق عطف على قوله تعالى
سيبطله اى يثبته ويقويه واظهار الاسم الجليل في المقامين الاخيرين لالقاء الروعة
وتربية المهابة بكلماته بأوامره وقضاياه وقرئ بكلمته ولو كره المجرمون
ذلك والمراد بهم كل من اتصف بالاجرام من السحرة وغيرهم فما آمن لموسى
معطوف على مقدر قد فصل في مواقع أخر اى فالقى عصاه فاذا هى تلقف ما
يأفكون وانما لم يذكر تعويلا على ذلك وايثارا للايجاز وايذانا بان قوله تعالى ان الله
سيبطله مما لا يحتمل الخلف اصلا وعطفه على ذلك بالفاء مع كونه عدما مستمرا
من قبيل ما في قوله عز وجل فاتبعوا امر فرعون وما في قولك وعظته فلم يتعظ وصحت
به فلم ينزجر والسر في ذلك ان الاتيان بالشىء بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وان كان
استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث اى فما آمن له عليه
السلام بمشاهدة تلك الآيات الباهرة الا ذرية من قومه اى الا اولاد من اولاد
قومه بنى اسرائيل حيث دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون واجابته طائفة من
شبانهم وقيل الضمير لفرعون والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به عليه السلام او مؤمن
آل فرعون وامرأته آسية وخازنه وامرأته وماشطته وهو بعيد على خوف اى
كائنين على خوف عظيم من فرعون وملائهم الضمير لفرعون والجمع لما هو المعتاد
فى ضمائر العظماء ولا يأباه مقام بيان علوه فى الفساد وغلوه فى الشر والتسلط على
العباد او لان المراد به آله كما يقال ربيعة ومضر او للذرية او للقوم اى على خوف من
فرعون ومن اشراف بنى اسرائيل حيث كانوا يمنعون اعقابهم خوفا من فرعون عليهم
وعلى انفسهم ان يفتنهم اى يعذبهم وهو بدل اشتمال او مفعول لخوف فان
اعمال المصدر المنكر كثير كما فى قوله عز وجل او طعام فى يوم ذى مسغبة يتيما او
مفعول له بعد حذف اللام واسناد الفعل الى فرعون خاصة لانه الآمر بالتعذيب
وان فرعون لعال فى الارض لغالب فى ارض مصر وانه لمن المسرفين فى الظلم والفساد
بالقتل وسفك الدماء او فى الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية واسترق اسباط الانبياء
والجملتان اعتراض تذييلي مؤكد لمضمون ما سبق وقال موسى لما رأى تخوف
المؤمنين منه يا قوم ان كنتم آمنتم بالله اى صدقتم به وبآياته فعليه
توكلوا وبه ثقوا ولا تخافوا احدا غيره فانه كافيكم كل شر وضر ان كنتم مسلمين
مستسلمين لقضاء الله مخلصين وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين فان المعلق
بالايمان وجوب التوكل عليه تعالى فانه المقتضى له والمشروط بالاسلام وجوده فانه
لا يتحقق مع التخليط ونظيره ان احسن اليك زيد فاحسن اليه ان قدرت عليه
فقالوا مجيبين له عليه السلام من غير تلعثم فى ذلك على الله توكلنا لانهم
كانوا مؤمنين مخلصين ثم دعوا ربهم قائلين ربنا لا تجعلنا فتنة اى موضع
فتنة للقوم الظالمين اى لا تسلطهم علينا حتى يعذبونا ويفتنونا عن ديننا او
يفتتنوا بنا ويقولوا لو كان هؤلاء على الحق لما اصيبوا وقوله تعالى ونجنا برحمتك
من القوم الكافرين دعاء منهم بالانجاء من سوء جوارهم وشؤم مصاحبتهم
بعد الانجاء من ظلمهم ولذلك عبر عنهم بالكفر بعد ما وصفوا بالظلم وفى ترتيب
الدعاء على التوكل تلويح بان الداعى حقه دعاه على التوكل على الله تعالى واوحينا
الى موسى واخيه ان تبوآ ان مفسرة لان فى الوحى معنى القول اى اتخذا مباءة
لقومكما بمصر بيوتا تسكنون فيها وترجعون اليها للعبادة واجعلوا انتما
وقومكما بيوتكم تلك قبلة مصلى وقيل مساجد متوجهة نحو القبلة يعنى الكعبة فان
موسى عليه السلام كان يصلى اليها واقيموا الصلوة اى فيها امروا بذلك فى اول امرهم

لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم وبشر المؤمنين بالنصر
فى الدنيا اجابة لدعوتهم والجنة فى العقبى وانما ثنى الضمير اولا لان التبوء للقوم
واتخاذ المعابد مما يتولاه رؤساء القوم بتشاور ثم جمع لان جعل البيوت مساجد
والصلاة فيها مما يفعله كل احد ثم وحد لان بشارة الامة وظيفة صاحب الشريعة
ووضع المؤمنين موضع ضمير القوم لمدحهم بالايمان وللاشعار بانه المدار فى
التبشير وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة اى ما يتزين به من
اللباس والمراكب ونحوها واموالا وانواعا كثيرة من المال فى الحيوة الدنيا ربنا
ليضلوا عن سبيلك دعاء عليهم بلفظ الامر بما علم بممارسته احوالهم انه لا يكون
غيره كقولك لعن الله ابليس وقيل اللام للعاقبة وهى متعلقة بآتيت او للعلة لان ايتاء النعم
على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال ولانهم لما جعلوها ذريعة الى الضلال فكانهم
اوتوها ليضلوا فيكون ربنا تكريرا للاول تأكيدا او تنبيها على ان المقصود عرض
ضلالهم وكفرانهم تقدمة لقوله تعالى ربنا اطمس على اموالهم الطمس المحو وقرئ بضم
الميم اى اهلكها واشدد على قلوبهم اى اجعلها قاسية واطبع عليها حتى لا تنشرح
للايمان كما هو قضية شأنهم فلا يؤمنوا جواب للدعاء او دعاء بلفظ النهى او عطف
على ليضلوا وما بينهما دعاء معترض حتى يروا العذاب الاليم اى يعاينوه ويوقنوا
به بحيث لا ينفعهم ذلك اذ ذاك قال قد اجيبت دعوتكما يعنى موسى وهرون
عليهما السلام لانه كان يؤمن كما يشعر به اضافة الرب الى ضمير المتكلم مع الغير فى
المواقع الثلثة فاستقيما فاثبتا على ما انتما عليه من الدعوة والزام الحجة ولا تستعجلا
فان ما طلبتماه كائن فى وقته لا محالة روى انه مكث فيهم بعد الدعاء اربعين سنة
ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون اى بعادات الله سبحانه فى تعليق الامور
بالحكم والمصالح او سبيل الجهلة فى الاستعجال او عدم الوثوق بوعد الله تعالى وقرئ
بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين ولا تتبعان من تبع ولا تتبعان ايضا وجاوزنا
ببنى اسرائيل البحر هو من جاوز المكان اذا تخطاه وخلفه والباء للتعدية
اى جعلناهم مجاوزين البحر بان جعلناه يبسا وحفظناهم حتى بلغوا الشط وقرئ
جوزنا وهو من التجويز المرادف للمجاوزة لا مما هو بمعنى التنفيذ نحو ما وقع
فى قول الاعشى كما جوز السكى فى الباب فيتق والا لقيل وجوزنا بنى اسرائيل فى البحر
وتخلل النظم الكريم عن الايذان بانفصالهم عن البحر بمقارنة العناية الالهية
لهم عند الجواز كما هو المشهور فى الفرق بين اذهبه وذهب به فاتبعهم يقال
تبعته حتى اتبعته اذا كان سبقك فلحقته اى ادركهم ولحقهم فرعون وجنوده
حتى تراءت الفئتان وكاد يجتمع الجمعان بغيا وعدوا ظلما واعتداء اى باغين وعادين
او للبغى والعدوان وقرئ وعدوا وذلك ان موسى عليه السلام خرج ببنى اسرائيل على
حين غفلة من فرعون فلما سمع به تبعهم حتى لحقهم ووصل الى الساحل وهم
قد خرجوا من البحر ومسلكهم باق على حاله يبسا فسلكه بجنوده اجمعين فلما دخل
آخرهم وهم اولهم بالخروج غشيهم من اليم ما غشيهم حتى اذا ادركه الغرق
اى لحقه والجمه قال آمنت انه اى بانه والضمير للشأن وقرئ انه على الاستيناف بدلا
من آمنت وتفسيرا له لا اله الا الذى آمنت به بنوا اسرائيل لم يقل كما قال السحرة
آمنا برب العالمين رب موسى وهرون بل عبر عنه تعالى بالموصول وجعل صلته ايمان بنى
اسرائيل به تعالى للاشعار برجوعه عن الاستعصاء وباتباعه لمن كان يستتبعهم طمعا
فى القبول والانتظام معهم فى سلك النجاة وانا من المسلمين اى الذين اسلموا نفوسهم لله اى جعلوها
سالمة خالصة له تعالى واراد بهم اما بنى اسرائيل خاصة واما الجنس وهم داخلون فيه دخولا اوليا والجملة على
الاول عطف على آمنت وايثار الاسمية لادعاء الدوام والاستمرار وعلى الثانى يحتمل الحالية ايضا
من ضمير المتكلم اى آمنت مخلصا لله منتظما فى سلك الراسخين فيه ولقد كرر المعنى الواحد

ثلاث عبارات حرصًا على القبول المفضي الى النجاة وهيهات هيهات بعد ما فات ما فات
والى ماهو آت وقوله عز وجل آلآن مقول لقول مقدر معطوف على قال اي
فقيل الآن وهو الى قوله تعالى آية حكاية لما جرى منه سبحانه من الغضب على المخذول
ومقابلة ما اظهره على وجه الانكار التوبيخي على تأخيره وتقريعه بالعصيان والافساد
وغير ذلك وفي حذف الفعل المذكور وابراز الخبر المحكي في صورة الانشاء من الدلالة
على عظم التسخط وشدة الغضب ما لا يخفى كما يفصح عنه ما روي من ان جبريل عم
دس فاه عند ذلك بحال البحر وسده به فانه تأكيد للرد القولي بالرد الفعلي ولا
ينافيه تعليله بمخافة ادراك الرحمة فيما نقل انه قال للنبي عليهما السلام فلو رأيتني
يا محمد وانا آخذ من حال البحر فادسه في فيه مخافة ان تدركه الرحمة اذ المراد بها
الرحمة الدنيوية اي النجاة التي هي طلبة المخذول وليس من ضرورة ادراكها صحة الايمان
كما في ايمان قوم يونس عليه السلام حتى يلزم من كراهته ما لا يتصور في شان جبريل
عم من الرضا بالكفر اذ لا استحالة في ترتب هذه الرحمة على مجرد التفوه بكلمة الايمان وان
كان ذلك في حالة البأس واليأس فيحمل دسه عليه السلام على سد باب الاحتمال البعيد
لكمال الغيظ وشدة الحرد فتدبروا لله الموفق وحق العامل في الظرف ان يقدر مؤخرًا
ليتوجه الانكار والتوبيخ الى تأخير الايمان الى حد يمتنع قبوله فيه اي الآن تؤمن حين
يئست من الحيوة وايقنت بالممات وقوله عز وجل وقد عصيت قبل حال من فاعل الفعل
المقدر جيء به لتشديد التوبيخ والتقريع على تأخير الايمان الى هذا الآن ببيان انه لم يكن تأخيره
لعدم بلوغ الدعوة اليه ولا للتأمل والتدبر في الآيات وآياته ولا لشيء آخر مما عسى
يعد عذرًا في التأخير بل كان ذلك على طريق الرد والاستعصاء والافساد فان قوله
تعالى وكنت من المفسدين عطف على عصيت داخل في حيز الحال اي وكنت من الغالين
في الضلال والاضلال عن الايمان كقوله تعالى ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله
زدناهم عذابًا فوق العذاب بما كانوا يفسدون فهذا عبارة عن فساده الراجع
الى نفسه والسارى الى غيره من الظلم والتعدي وصد بني اسرائيل عن الايمان والاول
عصيانه الخاص به فاليوم ننجيك اي نخرجك مما وقع فيه قومك من قعر
البحر ونجعلك طافيًا وفي التعبير عنه بالتنجية تلويح بان مراده بالايمان هو النجاة
كما مر وتهكم به او نلقيك على نجوة من الارض ليراك بنو اسرائيل وقرئ ننجيك
من الانجاء وننحيك من التنحية اي نلقيك بناحية الساحل ببدنك في موضع
الحال من ضمير المخاطب اي ننجيك ملابسًا ببدنك فقط لا مع روحك كما هو مطلوبك
فهو تخييب له وحسم لاطماعه بالمرة وعاريًا عن اللباس او كاملًا سويًا او بدرعك
وكانت له درع من الذهب يعرف بها وقرئ بابدانك اي باجزاء بدنك كلها كقولهم
هوى باجرامه او بدروعك كانه كان مظاهرًا بينها لتكون لمن خلفك آية لمن
وراءك علامة وهم بنو اسرائيل اذ كان في نفوسهم من عظمته ما خيل اليهم
انه لا يهلك حتى روي انهم لم يصدقوا موسى عم حين اخبرهم بغرقه الى
ان عاينوه مطرحًا على ممرهم من الساحل او تكون لمن يأتي بعدك من الامم اذا
سمعوا ما امرك ممن شاهدك عبرة ونكالًا من الطغيان او حجة تدلهم على ان
الانسان وان بلغ الغاية القصوى من عظم الشان وعلو الكبرياء وقوة السلطان فهو مملوك
مقهور بعيد عن مظان الربوبية وقرئ لمن خلفك فعلًا ماضيًا اي لمن خلفك من
الجبابرة وقرئ لمن خلقك بالقاف اي لتكون لخالقك آية كسائر الآيات فان افراده
سبحانه اياك بالالقاء الى الساحل دليل على انه قصد منه لكشف تزويرك واماطة
الشبهة في امرك وبرهان نير على كمال علمه وقدرته وحكمته وارادته وهذا
الوجه محتمل على القراءة المشهورة ايضًا وفي تعليل تنجيته بما ذكر ايذان بانها ليست
لاعزازه او لفائدة اخرى عائدة اليه بل لكمال الاستهانة به وتفضيحه على رؤس
الاشهاد وزيادة تفظيع حاله كمن يقتل ثم يجر جسده في الاسواق او يدار

برأسه في البلاد واللام الاولى متعلقة بننجيك والثانية بمحذوف وقع حالًا من آية
اي كائنة لمن خلفك وان كثيرًا من الناس عن آياتنا لغافلون لا يتفكرون فيها ولا
يعتبرون بها وهو اعتراض تذييلي جيء به عند الحكاية تقريرًا لمضمون الكلام المحكي
ولقد بوأنا بني اسرائيل كلام مستأنف سيق لبيان النعم الفائضة عليهم اثر
نعمة الانجاء على وجه الاجمال واخلالهم بشكرها واداء حقوقها اي اسكناهم وانزلناهم
بعد ما انجيناهم واهلكنا اعداءهم مبوأ صدق اي منزلًا صالحًا مرضيًا
وهو الشام ومصر ملكوها بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا في نواحيها حسبما نطق به
قوله تعالى واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها
التي باركنا فيها ورزقناهم من الطيبات اي اللذائذ فما اختلفوا في امور
دينهم حتى جاءهم العلم اي الا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة وعلمهم
باحكامها او في امر محمد عليه السلام الا من بعد ما علموا صدق نبوته
وتظاهر معجزاته فالمراد بالمختلفين اعقابهم الذين كانوا في عصر النبي صلى الله
عليه وسلم ان ربك يقضي بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون فيميز
بين المحق والمبطل بالاثابة والتعذيب فان كنت في شك اي في شك ما يسير
على الفرض والتقدير فان مضمون الشرطية انما هو تعليق شيء بشيء من غير تعرض
لامكان شيء منهما كيف لا وقد يكون كلاهما ممتنعًا كقوله عز وجل قل ان كان
للرحمن ولد فانا اول العابدين وقوله تعالى لئن اشركت ليحبطن عملك ونظائرهما
مما انزلنا اليك من القصص التي من جملتها قصة فرعون وقومه واخبار بني
اسرائيل فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك فان ذلك محقق عندهم
ثابت في كتبهم حسبما القيناه اليك والمراد اظهار نبوته عليه السلام لشهادة الاحبار
حسبما هو المسطور في كتبهم وان لم يكن اليه حاجة اصلًا او وصف اهل الكتاب
بالرسوخ في العلم بصحة نبوته عليه السلام او تهييجه عم وزيادة تثبيته على
ما هو عليه من اليقين لا تجويز صدور الشك منه عليه السلام ولذلك قال عليه السلام
لا اشك ولا اسأل وقيل المراد بالموصول مؤمنو اهل الكتاب كعبد الله بن سلام
وتميم الداري وكعب واضرابهم وقيل الخطاب للنبي عليه السلام والمراد امته او
لكل من يسمع اي ان كنت ايها السامع في شك مما انزلنا اليك على لسان نبينا وفيه
تنبيه على ان من خالجته شبهة في الدين ينبغي ان يسارع الى حلها بالرجوع
الى اهل العلم وقرئ فاسأل الذين يقرؤن الكتب لقد جاءك الحق الذي لا محيد عنه
ولا ريب في حقيته من ربك وظهر ذلك بالآيات القاطعة التي لا يحوم حولها
شائبة الارتياب وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عم من
التشريف ما لا يخفى فلا تكونن من الممترين بالتزلزل عما انت عليه من الجزم
واليقين ودم على ذلك كما كنت من قبل ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله
من باب التهييج والالهاب والمراد به اعلام ان التكذيب من القبح والمحذورية
بحيث ينبغي ان ينهى عنه من لا يتصور امكان صدوره عنه فكيف بمن يمكن اتصافه
به وفيه قطع لاطماع الكفرة فتكون بذلك من الخاسرين انفسًا واعمالًا ان
الذين حقت عليهم شروع في بيان سر اصرار الكفرة على ما هم عليه من الكفر والضلال اي ثبتت
ووجبت بمقتضى المشية المبنية على الحكمة البالغة كلمة ربك حكمه وقضاؤه بانهم
يموتون على الكفر ويخلدون في النار كقوله تعالى ولكن حق القول مني لاملأن جهنم الى
لا يؤمنون ابدًا اذ لا كذب لكلامه ولا انتقاض لقضائه اي لا يؤمنون ايمانًا نافعًا واقعًا
في اوانه فيندرج فيهم المؤمنون عند معاينة العذاب مثل فرعون باقيًا عند الموت
فيدخل فيهم المرتدون ولو جاءتهم كل آية واضحة المدلول مقبولة
لدى العقول لان سبب ايمانهم وهو تعلق ارادته تعالى به مفقود لكن فقدانه
ليس بمنع منه سبحانه مع استحقاقهم له بل لسوء اختيارهم المتفرع على عدم استعدادهم

لذلك حتى يروا العذاب الاليم كدأب ال فرعون واضرابهم فلولا كانت كلام مستانف لتقرير ما سبق من استحالة ايمان من حقت عليهم كلمته تعالى لسوء اختيارهم مع تمكنهم من التدارك فيكون الاستثناء الاتى بيانا لكون قوم يونس عليه السلام ممن لم يحق عليه الكلمة لاهتدائهم الى التدارك في وقته ولولا بمعنى هلا وقرئ كذلك اى فهلا كانت قرية من القرى المهلكة آمنت قبل معاينة العذاب ولم يؤخر ايمانها الى حين معاينته كما فعل فرعون وقومه فنفعها ايمانها بان يقبله الله تعالى منها ويكشف بسببه العذاب عنها الا قوم يونس استثناء منقطع اى لكن قوم يونس لما آمنوا اول ما رأوا امارة العذاب ولم يؤخروا الى حلوله كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحيوة الدنيا بعد ما اظلهم وكاد يحل بهم ويجوز ان تكون الجملة في معنى النفي كما يفصح عنه حرف التحضيض فتكون الاستثناء متصلا اذ المراد بالقرى اهاليها كانه قيل ما آمنت طائفة من الامم العاصية فنفعهم ايمانهم الا قوم يونس عليه السلام فيكون قوله تعالى لما آمنوا استئنافا لبيان نفع ايمانهم ويؤيده قراءة الرفع على البدلية ومتعناهم بمتاع الدنيا بعد كشف العذاب عنهم الى حين مقدر لهم في علم الله سبحانه روى ان يونس عليه السلام بعث الى نينوى من ارض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبا فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح وعجوا اربعين ليلة وقيل قال لهم يونس عليه السلام اجلكم اربعون ليلة فقالوا ان رأينا اسباب الهلاك آمنا بك فلما مضت خمس وثلثون اغامت السماء غيما اسود هائلا يدخن دخانا شديدا ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسود سطوحهم فلبسوا المسوح وبرزوا الى الصعيد بانفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب واولادها فحن بعضها الى بعض وعلت الاصوات والعجيج واظهروا الايمان والتوبة وتضرعوا الى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم وكان ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود رضه بلغ من توبتهم ان ترادوا المظالم حتى ان الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه اساس بنائه فيرده الى صاحبه وقيل خرجوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى قال لهم قولوا يا حي حين لا حي ويا حي محيي الموتى يا حي لا اله الا انت فقالوها فكشف عنهم وعن الفضيل بن عياض قالوا ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وانت اعظم منها واجل افعل بنا ما انت اهله ولا تفعل بنا ما نحن اهله ولو شاء ربك لآمن من في الارض تحقيق لدوران ايمان كافة المكلفين وجودا وعدما على قطب مشيته تعالى مطلقا اثر بيان تبعية كفر الكفرة لكلمته ومفعول المشية محذوف لوجود ما يقتضيه من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وان لا يكون في تعلقها به غرابة كما هو المشهور اى لو شاء سبحانه ايمان من في الارض من الثقلين لآمن كلهم بحيث لا يشذ عنهم احد جميعا مجتمعين على الايمان لا يختلفون فيه لكنه لا يشاؤه لكونه مخالفا للحكمة التي عليها بنى اساس التكوين والتشريع وفيه دلالة دلالة على ان من يشاء الله تعالى ايمانه يؤمن لا محالة افانت تكره الناس على من لم يشاء الله منهم حسبما ينبئ عنه حرف الامتناع في الشرطية والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كانه قيل أربك لا يشاء ذلك فانت تكرههم حتى يكونوا مؤمنين فيكون الانكار متوجها الى ترتيب الاكراه المذكور على عدم مشيته تعالى ويجوز ان يكون الفاء لترتيب الانكار على عدم مشيته تعالى بناء على ان الهمزة متأخرة في الاعتبار وانما قدمت لاقتضائها الصدارة هو رأي الجمهور واياما كان فالمشية على اطلاقها اذ لا فائدة بل لا وجه لاعتبار عدم مشية الالجاء خاصة في انكار الترتيب عليه او ترتيب الانكار عليه وفي ايلاء الاسم حرف الاستفهام ايذان بان الاكراه امر ممكن لكن الشان في المكره من هو وما هو الا هو وحده لا يشارك فيه لانه القادر على ان يفعل في قلوبهم ما يضطرهم الى الايمان وذلك غير مستطاع للبشر وفيه ايذان باعتبار

الجاء في المشية كما اشير اليه وما كان لنفس بيان لتبعية ايمان النفوس المؤمنة لمشيته تعالى وجودا بعد بيان الدوران الكلي عليها وجودا وعدما اى ما صح وما استقام لنفس من النفوس التي علم الله تعالى انها تؤمن ان تؤمن الا باذن الله اى بتسهيله ومنحه للالطاف وانما خصت النفس عن ذكر ولم يجعل من قبيل قوله تعالى وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله لان الاستثناء مفرغ من اعم الاحوال اى ما كان لنفس ان تؤمن في حال من احوالها الا حال كونها ملابسة باذنه تعالى فلا بد من كون الايمان مما يؤول اليه حالها كما ان الموت حال لكل نفس بحيث لا محيص لها عنه فلا بد من تخصيص النفس عن ذكر فان النفوس التي علم الله انها لا تؤمن ليس لها حال تؤمن فيها حتى يستثنى تلك الحال عن غيرها ويجعل الرجس اى الكفر بقرينة ما قبله عبر عنه بالرجس الذي هو عبارة عن القبيح المستقذر المستكره لكونه علما في القبح والاستكراه وقيل هو العذاب او الخذلان المؤدي اليه وقرئ بنون العظمة وقرئ بالزاء اى يجعل الكفر ويبقيه على الذين لا يعقلون لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والآيات او لا يعقلون دلائله واحكامه لما على قلوبهم من الطبع فلا يحصل لهم الهداية التي عبر عنها بالاذن فيبقون مغمورين بقبائح الكفر والضلال ومقهورين بالعذاب والنكال والجملة معطوفة على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم كانه قيل فيأذن لهم بمنح الالطاف ويجعل الرجس الخ تل محاط الاعراكة بعثا لهم على التدبر في ملكوت السموات والارض وما فيهما من تعاجيب الآيات الانفسية والآفاقية ليتضح لكل انهم من الذين لا يعقلون وحقت عليهم الكلمة انظروا اى تفكروا وقرئ بنقل حركة الهمزة الى اللام قل ماذا في السموات والارض اى اي شيء بديع فيهما من عجائب صنعه الدالة على وحدته وكمال قدرته على ان ماذا جعل بالتركيب اسما واحدا مغلبا فيه الاستفهام على اسم الاشارة فهو مبتداء خبره الظرف ويجوز ان يكون ما مبتدأ وذا بمعنى الذي والظرف صلته والجملة خبر للمبتدأ وعلى التقديرين فالمبتدأ والخبر في محل النصب باسقاط الخافض وفعل النظر معلق بالاستفهام وما يغنى اى ما تنفع وقرئ بالتذكير الآيات وهي التي عبر عنها بقوله تعالى ماذا في السموات والارض والنذر جمع نذير على انه فاعل بمعنى منذر او على انه مصدر اى لا تنفع الآيات والرسل المنذرون او الانذارات عن قوم لا يؤمنون في علم الله سبحانه وحكمه فما نافية والجملة اما حالية او اعتراضية ويجوز كون ما استفهامية انكارية في موضع النصب على المصدرية اى اي اغناء تغنى الخ فالجملة ح اعتراضية فهل ينتظرون اى مشركوا مكة واضرابهم الا مثل ايام الذين خلوا اى الا ايام مثل ايام الذين خلوا من قبلهم من مشركي الامم الماضية اى مثل وقائعهم ونزول باس الله بهم اذ لا يستحقون غيره من قولهم ايام العرب لوقائعها قل تهديدا لهم فانتظروا ما هو عاقبتكم اني معكم من المنتظرين لذلك ثم ننجي رسلنا بالتشديد وقرئ بالتخفيف وهو عطف على مقدر يدل عليه قوله مثل ايام الذين خلوا وما بينهما اعتراض جيء به مسارعة الى التهديد ومبالغة في تشديد الوعيد كانه قيل اهلكنا الامم ثم نجينا رسلنا المرسلة اليهم والذين آمنوا وصيغة الاستقبال لحكاية الاحوال الماضية لتهويل الامر باستحضار صورها وتأخير حكاية التنجية عن حكاية الاهلاك على عكس ما في قوله تعالى فنجيناه ومن معه في الفلك الخ ونظائره الواردة في مواقع عديدة ليتصل به قوله عز وعلا كذلك اى مثل ذلك الانجاء حقا علينا اعتراض بين العامل والمعمول اى حق ذلك حقا وقيل بدل من المحذوف الذي ناب عنه كذلك اى انجاء مثل ذلك حقا والكاف متعلقة بقوله تعالى ننجي المؤمنين اى من كل شدة وعذاب والجملة تذييل لما قبلها مقرر لمضمونه والمراد بالمؤمنين اما الجنس المتناول للرسل عليهم السلام والاتباع واما الاتباع فقط وانما لم يذكر انجاء الرسل ايذانا بعدم الحاجة اليه واياما كان ففيه تنبيه على ان مدار النجاة هو الايمان قل لجمهور المشركين يا ايها الناس او ثر الخطاب باسم الجنس مصدرا

بحرف التنبيه تعميمًا للتبليغ واظهارًا لكمال العناية بشأن ما بلغ اليهم ان كنتم فى شك
من دينى الذى اتعبد الله عزّ وجلّ به وادعوكم اليه ولم تعلموا ما هو وما صفته
فلا اعبد الذين تعبدون من دون الله فى وقت من الاوقات ولكن اعبد الله الذى
يتوفاكم ثم يفعل بكم ما يفعل من فنون العذاب فاعلموا انه تخصيص العبادة به تعالى
ورفض عبادة ما سواه من الاصنام وغيرها مما تعبدونه جهلًا وتقديم ترك عبادة
الغير على عبادته تعالى لتقدّم التخلية كما فى كلمة التوحيد وللايذان بالمخالفة من اول
الامر وان كنتم فى شك من صحة دينى وسداده فاعلموا ان خلاصته اخلاص العبادة
لمن بيده الايجاد والاعدام دون ما هو بمعزل منهما من الاصنام فاعرضوها على
عقولكم واجيلوا فيها افكاركم وانظروا فيها بعين الانصاف لتعلموا انه حق لا ريب
فيه وفى تخصيص التوفى بالذكر متعلقا بهم ما لا يخفى من التهديد والتعبير عما هم
فيه بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة للايذان بان اقصى ما يمكن عروضه للعاقل
وهذا الباب هو الشك فى صحته واما القطع بعدمها فمما لا سبيل اليه او ان كنتم فى شك
من ثباتى على الدين فاعلموا انى لا اتركه ابدا وامرت ان اكون من المؤمنين بما دلّ
عليه العقل ونطق به الوحى وهو تصريح بان ما عليه من دين التوحيد ليس بطريق العقل
الصرف بل بالامداد السماوى والتوفيق الالهى وحذف حرف الجر من ان يجوز ان يكون
من باب الحذف المطرد مع انّ وان وان يكون خاصًا بفعل الامر كما فى قوله امرتك الخير فافعل
ما امرت به وان اقم وجهك للدين عطف على ان اكون خلا ان صلته ان محكية بصيغة
الامر ولا ضير فى ذلك لان مناط جواز وصلها بصيغ الافعال دلالتها على المصدر وذلك
لا يختلف بالخبرية والطلبية ووجوب كون الصلة خبرية فى الموصول الاسمى انما
هو للتوصل الى وصف المعارف بالجمل وهى لا توصف الا بالجمل الخبرية وليس الامر كذلك
فى الموصول الحرفى كذلك اى وامرت بالاستقامة فى الدين والاستبداد فيه باداء المأمور
به والانتهاء عن المنهى عنه او باستقبال القبلة فى الصلاة وعدم الالتفات الى اليمين
والشمال حنيفًا حال من الدين او الوجه اى مائلا عن الاديان الباطلة ولا تكونن
من المشركين عطف على اقم داخل تحت الامر اى لا تكونن منهم اعتقادًا ولا عملا
وقوله عز وعلا ولا تدع عطف على قوله تعالى قل يا ايها الناس غير داخل تحت الامر وقيل
على ما قبله من النهى والوجه هو الاول لان ما بعده من الجمل الى آخر الآيتين متسعة
لا يمكن فصل بعضها عن بعض كما ترى ولا وجه لادراج الكل تحت الامر وهو تاكيد للنهى
المذكور وتفصيل لما اجمل فيه اظهارًا لكمال العناية بالامر وكشفا عن وجه بطلان ما عليه
المشركون اى لا تدع من دون الله استقلالا ولا اشتراكا ما لا ينفعك اذا دعوته
بدفع مكروه او جلب محبوب ولا يضرك اذا تركته بسلب المحبوب دفعًا او رفعًا
او بايقاع المكروه وتقديم النفع على الضر غنى عن بيان السبب فان فعلت اى ما نهيت
عنه من دعاء ما لا ينفع ولا يضر كنى به عنه تنويهًا لشأنه عليه السلام وتنبيهًا على
رفعة مكانه من ان ينسب اليه عبادة غير الله سبحانه ولو فى ضمن الجملة الشرطية فانك
اذا من الظالمين جزاء للشرط وجواب لسؤال من يسأل عن تبعة ما نهى عنه وان
يمسسك الله بضر تقرير لما ورد فى حيز الصلة من سلب النفع من الاصنام وتصوير
لاختصاصه به سبحانه فلا كاشف له عنك كائنا من كان وما كان الا هو وحده
فيثبت عدم كشف الاصنام بالطريق البرهانى وهو بيان لعدم النفع برفع المكروه
المستلزم لعدم النفع بجلب المحبوب استلزاما ظاهرًا فان رفع المكروه ادنى مراتب
النفع فاذا انتفى انتفى النفع بالكلية وان يردك بخير تحقيق لسلب الضر الوارد فى حيز
الصلة اى ان يرد ان يصيبك بخير فلا راد لفضله الذى من جملته ما اراد بك من الخير
فهو دليل على جواب الشرط لا نفس الجواب وفيه ايذان بان فيضان الخير منه تعالى بطريق
التفضل من غير استحقاق عليه سبحانه اى لا احد يقدر على ردّه كائنا ما كان فيدخل
فيه الاصنام دخولا اوليًا وهو بيان لعدم ضرها برفع المحبوب قبل وقوعه المستلزم

لعدم ضرها برفعه او بايقاع المكروه استلزامًا جليًا ولعل ذكر الارادة مع الخير والمس مع الضر
مع تلازم الامرين للايذان بان الخير مراد بالذات وان الضر انما يمس من يمسه لما يوجبه
من الدواعى الخارجية لا بالقصد الاولى او اريد معنى الفعلين فى كل من الضر والخير وانه
لا راد لما يريد منهما ولا مزيل لما يصيب به منهما فاوجز الكلام بان ذكر فى احدهما المس
وفى الآخر الارادة ليدل بما ذكر فى كل جانب على ما ترك فى الجانب الآخر على انه قد صرح
بالاصابة حيث قيل يصيب به اظهارًا لكمال العناية بجانب الخير كما ينبئ عنه ترك الاستثناء
فيه اى يصيب بفضله الواسع المنتظم لما اراد به من الخير وجعل الفضل عبارة عن
ذلك الخير بعينه على ان يكون من باب وضع المظهر فى موضع المضمر لما ذكر من الفائدة ويأباه
قوله عز وجل من يشاء من عباده فان ذلك ينادى بعموم الفضل وقوله عز قائلا
وهو الغفور الرحيم تذييل لقوله تعالى يصيب به الخ مقرر لمضمونه والكل تذييل
للشرطية الاخيرة محقق لمضمونها قل مخاطبًا اولئك الكفرة بعد ما بلغتهم ما اوحى
اليك يا ايها الناس قد جاءكم الحق من ربكم وهو القرآن العظيم المشتمل على محاسن
الاحكام التى من جملتها ما مر آنفا من اصول الدين واطلعتم على ما فى تضاعيفه من
البينات والهدى ولم يبق لكم عذر فمن اهتدى بالايمان به والعمل بما فى مطاويه
فانما يهتدى لنفسه اى منفعة اهتدائه لها خاصة ومن ضل بالكفر به والاعراض
عنه فانما يضل عليها اى فوبال الضلال مقصور عليها والمراد تنزيه ساحة الرسالة
عن شائبة غرض عائد اليه السلام من جلب نفع او دفع ضر كما يلوح به اسناد المجئ
الى الحق من غير اشعار بكون ذلك بواسطته وما انا عليكم بوكيل بحفيظ موكول
الى امركم وانما انا بشير ونذير واتبع اعتقادًا وعملًا وتبليغًا ما يوحى اليك على
نهج التجدد والاستمرار من الحق المذكور المتأكد يومًا فيومًا وفى التعبير عن بلوغه
اليهم بالمجئ واليه عليه السلام بالوحى تنبيه على ما بين المرتبتين من التنائى واصبر
على ما يعتريك من مشاق التبليغ حتى يحكم الله بالنصرة عليهم او بالامر بالقتال
وهو خير الحاكمين اذ لا يمكن الخطاء فى حكمه لاطلاعه على السرائر اطلاعه على
الظواهر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة يونس اعطى له من
الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به وبعدد من غرق بفرعون
الحمد لله سبحانه على التمام والصلوة والسلام على سيدنا محمد وآله اجمعين

سورة هود مكية وهى مائة وعشرون آية بسم الله الرحمن الرحيم

الر محله الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف وقيل على انه مبتدأ والاول هو الاظهر
كما اشير اليه فى سورة يونس عليه السلام او النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اذكر او اقرأ
على تقدير كونه اسمًا للسورة على ما عليه اطباق الاكثر او لا محل له من الاعراب مسرود
على نمط التعديد حسبما فصل فى اخواته وقوله تعالى كتاب خبر له على الوجه الثانى و
لمبتدأ محذوف على الوجوه الباقية احكمت آياته نظمت نظما متينا لا يعتريه خلل
بوجه من الوجوه او جعلت حكيمة لانطوائها على جلائل الحكم البالغة ودقائقها
او منعت من النسخ بمعنى التغيير مطلقا او ايدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند الله
عز وجل او على ثبوت مدلولاتها فالمراد بالآيات جميعها او على حقية ما يشتمل عليه
من الاحكام الشرعية فالمراد بها بعضها المشتمل عليها كما اذا فسر الاحكام بالمنع من
النسخ بمعنى تبديل الحكم الشرعى خاصة واما تفسيره بالمنع من الفساد اخذا من قولهم
احكمت الدابة اذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح ففيه ايهام ما لا يكاد
يليق بشأن الآيات الكريمة من التداعى الى الفساد لولا المانع وفى اسناد الاحكام على
الوجوه المذكورة الى آيات الكتاب دون نفسه لا سيما على الوجوه الشاملة لكل آية آية
منه من حسن الموقع والدلالة على كونه فى اقصى غاية منه ما لا يخفى ثم فصلت اى

جعلت فصولا من الاحكام والدلايل والمواعظ والقصص او فصل فيها مهمات العباد في
المعاش والمعاد على الاسناد المجازي والتفسير بجعلها آية آية لايساعده المقام لان ذلك
من الاوصاف الاولية لها فلا يناسب عطفه على احكامها بكلمة التراخي واما المعنيان
الاولان فهما وان كانا مع الاحكام زمانا حيث لم ينزل الايات محكمة مفصلة لا انها
احكمت وفصلت بعد ان لم تكن كذلك اذ الفعلان من قبيل قولهم سبحان من صغر
البعوض وكبر الفيل الا انهما حيث كانا من صفات الايات باعتبار نسبة بعضها الى بعض
على وجه يستتبع احكاما مخصوصة وآثارا معتدا بها او بملاحظة مصالح العباد ناسب ان
يشار الى تراخي رتبتهما عن رتبة الاحكام وان حمل جعلها آية آية على معنى تفريق
بعضها على بعض يكون من هذا القبيل الا انه ليس في مثابته في استتباع ما يستتبعه
من الاحكام والآثار او فرقت في التنزيل منجمة بحسب المصالح فان اريد تنزيلها المنجم
بالفعل فالتراخي زماني وان اريد جعلها في نفسها بحيث يكون نزولها منجما حسبما تقتضيه
الحكمة والمصلحة فهو رتبي لان ذلك وصف لها لازم حقيق بان تترتب على وصف احكامها
وقرئ احكمت آياته ثم فصلت على صيغة التكلم وعن عكرمة والضحاك ثم فصلت اي
فرقت بين الحق والباطل من لدن حكيم خبير صفة للكتاب وصف باحكام آياته و
تفصيلها الدالين على علو رتبته من حيث الذات ابانة لجلالة شانه من حيث الاضافة او
خبر بعد خبر للمبتدا المذكور او المحذوف او صفة للفعلين وفي بنائهما للمفعول ثم
ايراد الفاعل بعنوان الحكمة البالغة والاحاطة بجلايلها ودقايقها منكرا بالتنكير التفخيمي
وربطهما به لا على النهج المعهود واسناد الافاعيل الى فواعيلها مع رعاية حسن الطباق
من الجزالة والدلالة على فخامتهما وكونهما على اكمل ما يكون ما لا يكتنه كنهه ان لا
تعبدوا الا الله مفعول له حذف عنه اللام مع فقدان الشرط اعني كونه فعلا لفاعل
الفعل المعلل جريا على سنن القياس المطرد في حذف حرف الجر مع ان المصدرية كانه قيل كتاب
احكمت اياته ثم فصلت لئلا تعبدوا الا الله اي لتتركوا عبادة غير الله عز وجل وتمحضوا
في عبادته فان الاحكام والتفصيل على ما فصل من المعاني مما يدعوهم الى الايمان والتوحيد
وما يتفرع عليه من الطاعات قاطبة وقيل ان مفسرة لما في التفصيل من معنى القول
اي قيل لا تعبدوا الا الله انني لكم منه من جهته تعالى نذير انذركم عذابه ان
لم تتركوا ما انتم عليه من الكفر وعبادة غير الله تعالى وبشير ابشركم بثوابه ان آمنتم
به وتمحضتم في عبادته ولما ذكر شؤون الكتاب من احكام آياته وتفصيلها وكون ذلك
من قبل الله تعالى ورد معظم ما نظم في سلك الغاية او الامر من التوحيد وترك الاشراك
وسط بينه وبين قرينه اعني الاستغفار والتوبة ذكر ان من نزل عليه ذلك الكتاب
مرسل من عند الله تعالى لاحكامه وترشيحها بالموعدات من الوعد والوعيد للايذان بان
التوحيد في اقصى مراتب الاهمية حتى افرد بالذكر وايد ايجابه بالخطاب عقب الكتاب مع تلويح
بانه كما لا يتحقق في نفسه الا مقارنا للحكم برسالته صلى الله عليه وسلم كذلك في الذكر
لا ينفك احدهما عن الآخر وقد روعي في سوق الخطاب بتقديم الانذار على التبشير ما روعي
في الكتاب من تقديم النفي على الاثبات والتخلية على التحلية ليتجاوب اطراف الكلام
ويجوز ان يكون قوله تعالى ان لا تعبدوا الا الله كلاما منقطعا عما قبله واردا على لسانه
عليه السلام اغراء لهم على اختصاصه تعالى بالعبادة كانه صلى الله عليه وسلم قال
ترك عبادة غير الله اي الزموه على معنى اتركوا عبادة غير الله تركا مستمرا انني لكم
من جهة الله نذير وبشير او نذيرا انذركم من عقابه على تقدير استمراركم على الكفر
وبشيرا ابشركم بثوابه على تقدير تركهم له وتوحيدكم ولما سبق اليهم حديث
التوحيد واكد ذلك بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه الانذار والتبشير شرع
في ذكر ما هو من تتماته على وجه يتضمن تفصيل ما اجمل في وصف البشير والنذير فقيل
وان استغفروا ربكم وهو معطوف على ان لا تعبدوا على ما ذكر من الوجهين فعلى
الاول ان مصدرية لجواز كون صلتها امرا او نهيا كما في قوله تعالى وان اقم

وجهك

وجهك للدين حنيفا الا ان مدار جواز كونها فعلا انما هو دلالته على المصدر وهي موجودة
فيهما ووجوب كونها خبرية في صلة الموصول الاسمي انما هو للتوصل الى وصف المعارف
بالجمل وهي لا توصف بها الا اذا كانت خبرية واما الموصول الحرفي فليس كذلك ولما كان
الخبر والانشاء في الدلالة على المصدر سواء ساغ وقوع الامر والنهي صلة حسب مساغ
وقوع الفعل متجردا عند ذلك عن معنى الامر والنهي نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى
المضي والاستقبال ثم توبوا اليه عطف على استغفروا والكلام فيه كالكلام فيه والمعنى
فعل ما فعل من الاحكام والتفصيل لتخصوا الله بالعبادة وتطلبوا منه ستر ما فرط منكم
من الشرك ثم ترجعوا اليه بالطاعة او تستمروا على ما انتم عليه من التوحيد والاستغفار
او يستغفروا من الشرك وتتوبوا من المعاصي وعلى الثاني ان مفسرة اي قيل في اثناء
تفصيل الآيات لا تعبدوا الا الله واستغفروه ثم توبوا اليه والتعرض لوصف الربوبية
تلقين للمخاطبين وارشاد لهم الى طريق الابتهال في السؤال وترشيح لما يعقبه من التمتيع
وايثار الفضل بقوله يمتعكم متاعا حسنا اي تمتيعا وانتصابه على انه مصدر حذف
عنه الزوائد كقوله تعالى انبتكم من الارض نباتا او على انه مفعول به وهو اسم لما يتمتع
به من منافع الدنيا من الاموال والبنين وغير ذلك والمعنى يعيشكم عيشا مرضيا لا
يفوتكم فيه شيء مما تشتهون ولا ينغصه شيء من المكدرات الى اجل مسمى مقدر
عند الله عز وجل وهو آخر اعماركم ولما كان ذلك غاية لا يطمح وراءها طامح جرى التمتيع
اليها مجرى التابيد عادة او لا يهلككم بهلاك الاستيصال ويؤت كل ذي فضل في
الطاعة والعمل فضله جزاء فضله اما في الدنيا او في الآخرة وهذه تكملة لما اجمل من
التمتيع الى اجل مسمى وتبيين لما عسى يعسر فهم حكمته من بعض ما يتفق في الدنيا من التفاوت
الى العاملين فرب انسان له فضل طاعة وعمل لا يمتع في الدنيا اكثر مما يمتع آخر دونه
في الفضل وربما يكون المفضول اكثر تمتيعا فقيل ويعط كل فاضل جزاء فضله اما في الدنيا
كما يتفق في بعض المواد واما في الآخرة وذلك مما لا مرد له وهذا ضرب تفصيل لما اجمل
فيما سبق من البشارة ثم شرع في الانذار فقيل وان تولوا اي تتولوا عما القي اليكم من
التوحيد والاستغفار والتوبة وانما اخر عن البشارة جريا على سنن تقدم الرحمة على
الغضب او لان العذاب قد علق بالتولي عما ذكر من التوحيد والاستغفار والتوبة وذلك
يستدعي سابقة ذكره وقرئ تولوا من ولي فاني اخاف عليكم بموجب الشفقة والرافة
او اتوقع عذاب يوم كبير هو يوم القيمة وصف بالكبر كما وصف بالعظم في قوله تعالى الا يظن
اولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم اما لكونه كذلك في نفسه او وصف بوصف ما يكون
فيه كما وصف بالثقل في قوله تعالى ثقلت في السموات والارض وقيل يوم الشدايد وقد
ابتلوا بقحط اكلوا فيه الجيف واياما كان ففي اضافة العذاب اليه تهويل وتفظيع له الى الله
مرجعكم رجوعكم بالموت ثم البعث للجزاء في مثل ذلك اليوم لا الى غيره جميعا لا يتخلف
منكم احد وهو على كل شيء قدير فيندرج في تلك الكلية قدرته على اماتتكم
ثم بعثكم وجزائكم فيعذبكم بافانين العذاب وهو تقرير لما سلف من كبر اليوم
وتعليل للخوف ولما القي اليهم فحوى الكتاب على لسان النبي صلى الله عليه وسلم
وسيق اليهم ما ينبغي ان يساق من الترغيب والترهيب وقع في ذهن السامع
انهم بعد ما سمعوا مثل هذا المقال الذي تخر له صم الجبال هل قابلوه بالاقبال ام تمادوا
فيما كانوا عليه من الاعراض والضلال فقيل مصدرا بكلمة التنبيه اشعارا بان ما
يعقبها من هنات امر يجب ان يفهم ويتعجب منه الا انهم يثنون صدورهم
يزورون عن الحق وينحرفون عنه اي يستمرون على ما كانوا عليه من التولي والاعراض
لان من اعرض عن شيء ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه وهذا معنى جزل مناسب
لما سبق وقد نحا نحوه العلامة الزمخشري ولكن حيث لم يصلح التولي سببا للاستخفاء
في قوله عز وجل ليستخفوا منه التجأ الى اضمار الارادة حيث قال ويريدون ليستخفوا
من الله تعالى فلا يطلع رسوله والمؤمنين على اعراضهم وجعله في قوة المحكي اليه من قبيل الاضمار

في قوله تعالى اضرب بعصاك البحر فانفلق اى فضرب فانفلق ولا يخفى ان انسياق الذهن الى
توسيط الارادة بين ثني الصدور وبين الاستخفاء ليس كانسياقه الى توسيط الضرب بين الامر به
وبين الانفلاق ولعل الاظهر ان معناه يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والاعراض
عن الحق وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يكون ذلك مخفيا مستورا فيها كما يعطف
الثياب على ما فيها من الاشياء المستورة وانما لم يذكر ذلك استهجانا بذكره وايماء الى ان
ظهوره مغن عن ذكره او ليذهب ذهن السامع الى كل ما لا خير فيه من الامور المذكورة
فيدخل فيه ما ذكر من توليهم عن الحق الذي القي اليهم دخولا اوليا فحينئذ يظهر وجه
كون ذلك سببا للاستخفاء ويؤيده ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما انها نزلت
في الاخنس ابن شريق وكان رجلا حلو المنطق حسن السياق للحديث يظهر لرسول الله
صلعم المحبة ويضمر في قلبه ما يضادها وقال ابن شداد انها نزلت في بعض المنافقين كان
اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثني صدره وظهره وطأطأ راسه وغطى وجهه
كيلا يراه النبي صلى الله عليه وسلم فكانه انما كان يصنع ما يصنع لانه لو رآه النبي صلى الله عليه
وسلم لم يمكنه التخلف عن حضور مجلسه والمصاحبة معه وربما يؤدي ذلك الى
ظهور ما في قلبه من الكفر والنفاق وقرئ يثنوني صدورهم بالياء والتاء من اثنوني
افعوعل من الثني كاحلولى من الحلاوة وهو بناء مبالغة وعن ابن عباس رضي الله عنهما
لتثنوني وقرئ تثنون واصله تثنونن تفعوعل من الثن وهو ما هش من الكلاء وضعف
يريد مطاوعة صدورهم للثني كما يثني الهش من النبات او اراد ضعف ايمانهم و
رخاوة قلوبهم وقرئ تثنئن من اثنان افعال منه ثم همز كما قيل ابيأضت وادهامت
وقرئ تثنوي بوزن ترعوي الا حين يستغشون ثيابهم اى يتغطون بها للاستخفاء
على ما نقل عن ابن شداد وحين يأوون الى فراشهم ويتدثرون بثيابهم فان ما يقع
حينئذ حديث النفس عادة وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخي ستره ويحني
ظهره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله ما في قلبي يعلم ما يسرون اى يضمرون في
في قلوبهم وما يعلنون اى يستوي بالنسبة الى علمه المحيط سرهم وعلنهم فكيف
يخفى عليه ما عسى يظهرونه وانما قدم السر على العلن نعيا عليهم من اول الامر ما صنعوا
وايذانا باقتضاحهم ووقوع ما يحذرونه وتحقيقا للمساواة بين العلمين على ابلغ
وجه فكان علمه بما يسرونه اقدم منه بما يعلنونه ونظيره قوله تعالى قل ان تخفوا
ما في صدوركم او تبدوه يعلمه الله حيث قدم فيه الاخفاء على الابداء على عكس ما وقع
في قوله تعالى وان تبدوا ما في انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله اذ لم يتعلق باشعارات
المحاسبة بما يخفونه اولى منهما بما يبدونه غرض بل الامر بالعكس واما ههنا فقد تعلق باشعار
كون تعلق علمه تعالى بما يسرونه اولى منه بما يعلنونه غرض مهم مع كونهما على السوية كيف لا وعلمه
تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول الصورة ووجود كل شيء في نفسه علم بالنسبة اليه تعالى وفي هذا
المعنى لا يختلف الحال بين الاشياء البارزة والكامنة واما قوله تعالى واعلم ما تبدون وما كنتم
تكتمون فحيث كان واردا بصدد الخطاب مع الملئكة عليهم السلام المنزه مقامهم
عن اقتضاء التاكيد والمبالغة في الاخبار باحاطة علمه تعالى بالظاهر والباطن لم يسلك
فيه ذلك المسلك مع انه وقع الغنية عنه بما قبله من قوله عز وجل اني اعلم غيب السموات
والارض ويجوز ان يكون ذلك باعتبار ان مرتبة السر مقدمة على مرتبة العلن اذ
ما من شيء يعلن الا وهو مباديه قبل ذلك مضمر في القلب فتعلق علمه سبحانه بحالته
الاولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية انه عليم بذات الصدور تعليل لما سبق
تقريره واقع موقع الكبرى من القياس وفي صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق
والتعبير عن الضمائر بعنوان صاحبيتها من البراعة ما لا يصفه الواصفون كانه قيل انه مبالغ
في الاحاطة بمضمرات جميع الناس واسرارهم الخفية المستكنة في صدورهم بحيث لا
تفارقها اصلا فكيف يخفى عليه ما يسرون وما يعلنون ويجوز ان يراد بذات الصدور
القلوب من قوله تعالى ولكن تعمى القلوب التي في الصدور والمعنى انه عليم بالقلوب

واحوالها

واحوالها فلا يخفى عليه سر من اسرارها وما من دابة في الارض الا على الله رزقها
غذاؤها اللائق من حيث الخلق ومن حيث الايصال اليها بطريق طبيعي او ارادي لتكفله
اياه تفضلا ورحمة وانما جيء به على طريق الوجوب اعتبارا لسبق الوعد وتحقيقا لوصوله
اليها البتة وحملا للمكلفين على الثقة به تعالى والاعراض عن اتعاب النفس في طلبه ويعلم
مستقرها محل قرارها في الاصلاب ومستودعها موضعها في الارحام وما يجري
مجراها من البيض ونحوها وانما خص كل من الاسمين بما خص به من المحلين لان النطفة
بالنسبة الى الاصلاب في حيزها الطبيعي ومنشاها الخلقي واما بالنسبة الى الارحام وما يجري
مجراها فهي مودعة فيها الى وقت معين او مسكنها من الارض حين وجدت بالفعل ومودعها
من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة ولعل تقديم محلها باعتبار حالتها الاخيرة لرعاية
المناسبة بينها وبين عنوان كونها دابة في الارض والمعنى ما من دابة في الارض الا يرزقها
الله تعالى حيث كانت من اماكنها يسوقه اليها ويعلم موادها المتخالفة المندرجة في
مراتب الاستعدادات المتفاوتة المنطورة في الاطوار المتباينة ومقارها المتنوعة ويفيض
عليها في كل مرتبة ما يليق بها من مبادي وجودها وكمالاتها المتفرعة عليه وقد فسر
المستودع باماكنها في الممات ولا يلائمه مقام التكفل بارزاقها كل من الدواب ورزقها
ومستقرها ومستودعها في كتاب مبين اى مثبت في اللوح المحفوظ البين لمن ينظر
فيه من الملئكة عليهم السلام او المظهر لما اثبت فيه للناظرين ولما انتهى الامر الى انه
سبحانه محيط بجميع احوال ما في الارض من المخلوقات التي لا يكاد تحصى من مبدا فطرتها الى
منتهاها اقتضى الحال التعرض لمبدا خلق السموات والارض والحكمة الداعية الى ذلك
فقيل وهو الذي خلق السموات والارض في ستة ايام السموات في يومين والارض
في يومين وما عليها من انواع الحيوانات والنباتات وغير ذلك في يومين حسبما فصل
في سورة حم السجدة ولم يذكر خلق ما في الارض لكونه من تتمات خلقها وهو السر
في جعل زمان خلقه تتمة لزمان خلقها في قوله تعالى في اربعة ايام اى في تتمة اربعة
ايام والمراد بالايام الاوقات كما في قوله تعالى ومن يولهم يومئذ دبره اى في ستة
ايام فان اليوم في المتعارف زمان كون الشمس فوق الارض ولا يتصور ذلك حين
لا ارض ولا سماء وفي خلقهما مدرجا مع القدرة التامة على خلقهما دفعة دليل
على انه قادر مختار واعتبار للنظار وحث للتاني في الامور واما تخصيص ذلك
بالعدد المعين فامر استاثر بعلم ما يقتضيه علام الغيوب جلت حكمته وايثار صيغة
الجمع في السموات لما هو المشهور من الاشارة الى كونها اجراما مختلفة الطباع ومتفاوتة
الاثار والاحكام وكان عرشه قبل خلقهما على الماء ليس تحته شيء غيره سواء كان
بينهما فرجة او كان موضوعا على متنه كما ورد في الاثر فلا دلالة فيه على
امكان الخلاء كيف لا ولو دل لدل على وجوده لا على امكانه فقط ولا على كون الماء
اول ما حدث في العالم بعد العرش وانما يدل على خلقهما اقدم من خلق السموات
والارض من غير تعرض للنسبة بينهما ليبلوكم متعلق بخلق اى خلق السموات
والارض وما فيهما من المخلوقات التي من جملتها انتم ورتب فيهما جميع ما تحتاجون
اليه من مبادي وجودكم واسباب معايشكم واودع في تضاعيفهما من تعاجيب
الصنايع والعبر ما تستدلون به على مطالبكم الدينية ليعاملكم معاملة من يبتليكم
ايكم احسن عملا فيجازيكم بالثواب والعقاب غب ما تبين المحسن من المسيء
وامتازت درجات افراد كل من الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقادهم
المترتبة على انظارهم فيما نصب من الحجج والدلايل والامارات والمخايل ومراتب اعمالهم
المتفرعة على ذلك فان العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره صلى الله عليه وسلم
بقوله ايكم احسن عقلا واورع عن محارم الله واسرع في طاعة الله فان لكل من
القلب والقالب عملا مخصوصا به فكما ان الاول اشرف من الثاني فكذا الحال في عمله كيف
لا ولا عمل بدون معرفة الله عز وجل الواجبة على العباد اثر ذي اثيره وانما طريقها النظر التفكر

انه تعالى قال يا عبادي كلكم جايع الا من
اطعمته وذلك لان الناس كلهم عبيد
الملك لهم في الحقيقة وخزاين الارزاق
بيده تعالى فمن لا يطعمه بفضله بقي
جايعا بعدله اذ ليس عليه اطعام
احد فقوله تعالى وما من دابة الى
آخره التزام منه تفضلا الا انه عليه
واجبا عليه بالاصالة فهو نظير
انما التوبة على الله الآية اى
قبولها منه تفضلا التزاما عليه
لزوما ولا يمنع نسبة الاطعام اليه تعالى
وما شاهد من ترتب الرزق على
اسبابها الظاهرة كالحرف و
الصنايع وانواع الاكتساب لانه
تعالى المقدر لتلك الاسباب الظاهرة
بقدرته وحكمته الباطنة فالجاهل
محجوب بالظاهر عن الباطن والعارف
الكامل لا يحجبه ظاهر عن باطن
ولا باطن عن ظاهر بل يعطي كل مقام حقه
ابن حجر

فى بدايع صنايع الملك الخلاق والتدبر فى اياته البينات المنصوبة فى الانفس والافاق والطاعة بدون فهم ما فى مطاوى الكتاب الحكيم من الاوامر والنواهى وغير ذلك مما له مدخل فى الباب وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا تفضلونى على يونس ابن متى فانه كان يرفع له كل يوم مثل عمل اهل الارض قالوا وانما كان ذلك التفكر فى امر الله عز وجل الذى هو عمل القلب لان احدا لا يقدر على ان يعمل فى اليوم بجوارحه مثل عمل اهل الارض وتعليق فعل البلوى اى تعقيبه بحرف الاستفهام لا التعليق المشهور الذى يقتضى عدم ايراد المفعول اصلا مع اختصاصه بافعال القلوب لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالنظر ونظايره ولذلك اجرى مجراه بطريق التمثيل او الاستعارة التبعية وايراد صيغة التفضيل مع ان الابتلاء شامل للفريقين باعتبار اعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح ايضا لا الى الحسن والاحسن فقط للايذان بان المراد بالذات والمقصود الاصلى مما ذكر من ابداع تلك البدايع على ذلك النمط الرايع انما هو ظهور كمال احسان المحسنين وان ذلك لكونه على اتم الوجوه اللايقة واكمل الاساليب الرايقة فوجب العمل بموجبه بحيث لا يحيد احد عن سننه المستبين بل يهتدى كل فرد الى ما يرشد اليه من مطلق الايمان والطاعة وانما التفاوت بينهم فى مراتبهما بحسب القوة والضعف والكثرة والقلة واما الاعراض عن ذلك والوقوع فى مهاوى الضلال فبمعزل من الاندراج تحت الوقوع فضلا عن ان ينظم ظهوره فى سلك العلة الغائية لذلك الصنع البديع وانما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له ولا تقريب ولا يخفى ما فيه من الترغيب فى الترقى الى معارج العلوم ومدارج الطاعات والزجر عن مباشرة نقايضها والله تعالى اعلم ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت على ما يوجبه قضية الابتلاء ليترتب عليه الجزاء المتفرع على ظهور مراتب الاعمال ليقولن الذين كفروا ان وجه الخطاب فى قوله تعالى انكم الى جميع المكلفين فالموصول مع صلته للتخصيص اى ليقولن الكافرون منهم وان وجه الى الكافرين منهم فهو وارد على طريقة الذم ان هذا الا سحر مبين اى مثله فى الخديعة او البطلان وهذا اشارة الى القول المذكور او الى القرآن فان الاخبار عن كونهم مبعوثين وان لم يجب كونه بطريق الوحى المتلو الا انهم عند سماعهم ذلك تخلصوا الى القرآن لابتنائه عنده فى كل موضع وكونه علما عندهم فعمدوا الى تكذيبه وتسميته سحرا تماديا منهم فى العناد وتفاديا عن سنن الرشاد وقيل هو اشارة الى نفس البعث ولا يلايمه التسمية بالسحر فانه انما يطلق على شئ موجود ظاهر الا اصل له فى الحقيقة ونفس البعث عندهم معدوم بحت وتعلق الآية الكريمة بما قبلها اما من حيث ان البعث كما اشير اليه من تتمات الابتلاء المذكور فكانه قيل الامر كما ذكر ومع ذلك ان اخبرتهم بمقدمة فذة من مقدماته وقضية فردة من تتماته لا يتلعثمون فى الرد ويعدون ذلك من قبيل ما لا صحة له اصلا فضلا عن تصديق ما هذه من تتماته واما من حيث ان البعث خلق جديد فكانه قيل هو الذى خلق جميع المخلوقات ابتداء لهذه الحكمة البالغة ومع ذلك ان اخبرتهم بانه يعيدهم تارة اخرى وهو اهون عليه يقولون ما يقولون فسبحان الله عما يصفون وقرأ حمزة والكسائى الا ساحر على ان الاشارة الى القائل او الى القرآن على اسلوب شعر شاعر وقرئ بالفتح على تضمين قلت معنى ذكرت او على انك بمعنى عنك فى علك اى ولئن قلت لعلكم مبعوثون على ان الرجاء والتوقع باعتبار حال المخاطبين اى توقعوا ذلك ولا تبتوا القول بانكاره او على انه مجاراة معهم فى الكلام على نهج المساعدة لئلا يسارعوا الى اللجاج والعناد ربما فرع اسماعهم بت القول بخلاف ما الفوا والفوا عليه آباءهم من انكار البعث ويكون ذلك ادعى لهم الى التأمل والتدبر وما فعلوه قاتلهم الله انى يؤفكون ولئن اخرنا عنهم العذاب المترتب على بعثهم او العذاب الموعود فى قوله تعالى فان تولوا فانى اخاف عليكم عذاب يوم كبير وقيل عذاب يوم بدر وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه قتل جبريل عليه السلام للمستهزئين والظاهر ان المراد به العذاب الشامل للكفرة دون ما يختص

ببعض

ببعض منهم على انه لم يكن موعودا يستعجل منه المجرمون الى امة معدودة الى طائفة من الايام قليلة لان ما يحصره العد قليل ليقولن ما يحبسه اى اى شئ يمنعه من المجئ فكانه يريد فيمنعه مانع وانما كانوا يقولونه بطريق الاستعجال استهزاء لقوله تعالى ما كانوا به يستهزؤن ومرادهم انكار المجئ والحبس رأسا لا الاعتراف به والاستفسار عن حابسه الا يوم يأتيهم ذلك ليس مصروفا محبوسا عنهم على معنى انه لا يرفعه رافع ابدا ان اريد به عذاب الآخرة او لا يدفعه دافع عنكم بل هو واقع بكم ان اريد به عذاب الدنيا ويوم منصوب بخبر ليس مقدما عليه واستدل به البصريون على جواز تقديمه على ليس اذ المعمول تابع للعامل فلا يقع الا حيث يقع متبوعه ورد بان الظرف يجوز فيه ما لا يجوز فى غيره توسعا وبانه يقدم المعمول حيث لا مجال لتقدم العامل كما فى قوله تعالى فاما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر فان اليتيم والسائل مع كونهما منصوبين بالفعلين المجزومين قد تقدما على لا الناهية مع امتناع تقدم الفعلين عليها قال ابو حيان وقد تتبعت جملة من دواوين العرب فلم اظفر بتقدم خبر ليس عليها ولا بتقديم معموله الا ما دل عليه ظاهر هذه الآية الكريمة وقول الشاعر فيأبى فما يزداد الا لجاجة وكنت ابيا فى الخنا لست اقدم وحاق بهم اى احاط بهم ما كانوا به يستهزؤن اى العذاب الذى كانوا يستعجلون به استهزاء وفى التعبير عنه بالموصول تهويل لمكانه واشعار بعلية ما ورد فى حيز الصلة من استهزائهم به لنزوله واحاطته والتعبير عنه بالماضى قد جرى على عادة الله تعالى فى اخباره لانها فى تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة وفى ذلك من الفخامة والدلالة على علو شان المخبر وتقرير وقوع المخبر به ما لا يخفى ولئن اذقنا الانسان منا رحمة اى اعطيناه نعمة من صحة وامن وجدة وغيرها واوصلناها اليه بحيث يجد لذتها ثم نزعناها منه اى سلبناه اياه وايراد النزع للاشعار بشدة تعلقه بها وحرصه عليها انه ليؤس شديد القنوط من روح الله قطوع رجاءه من عود امثالها عاجلا او آجلا بفضل الله تعالى لقلة صبره وعدم ثقته عليه وثقته به كفور عظيم الكفران لما سلف من التنعم وفيه اشارة الى ان النزع انما كان بسبب كفرانهم بما كانوا يتقلبون فيه من نعم الله عز وجل وتأخيره عن وصف يأسهم مع تقدمه عليها لرعاية الفواصل على ان اليأس من فضل الله سبحانه وقطع الرجاء عن افاضة امثاله فى العاجل وايصال اجره فى الآجل من باب الكفران للنعمة السالفة ايضا ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته كصحة بعد سقم ووجد بعد عدم وفرج بعد شدة وفى التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن بلذتها وكونهما مما يرغب فيه وعن ملابسة الضراء بالمس المشعر بكونها فى ادنى ما ينطلق عليه اسم الملاقاة من مراتبها واسناد الاول الى الله عز وجل دون الثانى ما لا يخفى من الجزالة والدلالة على ان مراده تعالى انما هو ايصال الخير المرغوب فيه على احسن ما يكون وانه انما يريد بعباده اليسر دون العسر وانما ينالهم ذلك بسوء اختيارهم نيل الاسير الا انما يلاحق البشرة من غير تأثير واما نزع الرحمة فباعتبار لحوق النزع بها ليقولن ذهب السيئات عنى اى المصائب التى سوءتنى ولن يعتريني بعد امثالها كما هو شان اولئك الاشرار فان الترقب لورود امثالها مما يكدر السرور وينغص العيش انه لفرح بطر واشر بالنعم مغتر بها فخور على الناس بما اوتى من النعم مشغول بذلك عن القيام بحقها واللام فى لئن فى الآيات الاربع موطئة للقسم وجوابه ساد مسد جواب الشرط الا الذين صبروا على ما اصابهم من الضراء سابقا ولاحقا ايمانا بالله واستسلاما لقضائه وعملوا الصالحات شكرا على الائه السالفة والآنفة واللام فى الانسان اما للاستغراق او الجنس فالاستثناء متصل او للعهد فمنقطع اولئك اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم

فانما صدر عنه بمقتضية الحكمة الداعية الى ذلك وهى كفرانهم بها كما سبق وتبين الحجة

في الفضل اى اولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة لهم مغفرة عظيمة لذنوبهم وان جمّت
واجر ثواب لاعمالهم الحسنة كبير و وجه تعلق الآيات الثلث بما قبلهن من حيث
ان اذاقة النعماء ومساس الضراء فصل من باب الابتلاء واقع موقع التفصيل من الاجمال الواقع
في قوله تعالى ليبلوكم ايكم احسن عملا والمعنى ان كلا من اذاقة النعماء ونزعها مع كونه ابتلاء
للانسان ايشكر ام يكفر لا يهتدى الى سنن الصواب بل يحيد في كلتا الحالتين عنه الى مهاوي
الضلال فلا يظهر منه حسن عمل الا من الصابرين الصالحين او من حيث ان انكارهم
بالبعث واستهزاءهم بالعذاب بسبب بطرهم وفخرهم كانه قيل انما فعلوا ما فعلوا لان طبيعة
الانسان مجبولة على ذلك فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك من البينات الدالة على حقية
نبوتك المنادية بكونها من عند الله عز وجل لمن له اذن واعية وضائق به صدرك
اى عارض لك ضيق صدر بتلاوته عليهم وتبليغه اليهم في اثناء الدعوة والمحاجة
ان يقولوا لان يقولوا تعاميا عن تلك البراهين التي لا يكاد يخفى صحتها على احد ممن
له ادنى بصيرة وتماديا في العناد على وجه الاقتراح لولا انزل عليه كنز مال خطير
مخزون يدل على صدقه او جاء معه ملك يصدقه قيل قاله عبد الله بن امية
المخزومي وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما ان رؤساء مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال
جبال مكة ذهبا ان كنت رسولا وقال آخرون ائتنا بالملائكة يشهدوا بنبوتك فقال
لا اقدر على ذلك فنزلت فكانه صلى الله عليه وسلم لما راى اجتراءهم على اقتراح مثل هذه
العظايم غير قانعين بالبينات الباهرة التي كانت تضطرهم الى القبول لو كانوا من ارباب
العقول وشاهد ركوبهم من المكابرة متن كل صعب وذلول مسارعين الى المقابلة في
الاستهزاء وتسميتها سحرا مثّل حاله عليه السلام بحال من يتوقع منه ان يضيق صدره بتلاوة
تلك الآيات الساطعة عليهم وتبليغها اليهم فحمل على الحذر منه بما فعل في لعل من الاشفاق فقيل
انما انت نذير ليس عليك الا الانذار بما اوحي اليك غير مبال بما صدر عنهم من الرد و
والقبول والله على كل شيء وكيل يحفظ احوالك واحوالهم فتوكل عليه في جميع امورك
فانه يفعل بهم ما يليق بحالهم والاقتصار على النذير في اقصى غاية من اصابة المحز
ام يقولون افتراه ام منقطعة عن ذكر ترك اعتدادهم بما يوحى وتهاونهم
به وعدم اقتناعهم بما فيه من المعجزات الظاهرة الدالة على كونه من عند الله عز و
جل وعلى حقية نبوته صلى الله عليه وسلم وشرع في ذكر ارتكابهم لما هو اشد منه واعظم
وما فيها من معنى الهمزة للتوبيخ والانكار والتعجب والضمير المستكن في افتراه للنبي صلى الله
عليه وسلم والبارز لما يوحى اى بل يقولون افتراه وليس من عند الله قل ان كان الامر
كما تقولون فاتوا انتم ايضا بعشر سور مثله في البلاغة وحسن النظم وهو نعت
لسور اى امثاله وتوحيده اما باعتبار مماثلة كل واحدة منها او لان المطابقة
ليست بشرط حتى يوصف المثنى بالمفرد كما في قوله تعالى انؤمن لبشرين مثلنا او للايماء الى ان
وجه الشبه ومدار المماثلة في الجميع شيء واحد هو البلاغة المؤدية الى مرتبة الاعجاز فكان الجميع
واحد مفتريات صفة اخرى لسور اخرت عن وصفها بالمماثلة لما يوحى لانها الصفة المقصودة
بالتكليف اذ بها يظهر عجزهم وقعودهم عن المعارضة واما وصف الافتراء فلا يتعلق به
غرض يدور عليه شيء في مقام التحدي وانما ذكر على نهج المساهلة وارخاء العنان ولانه لو
عكس الترتيب لربما توهم ان المراد هو المماثلة في الافتراء والمعنى فاتوا بعشر سور مماثلة
له في البلاغة مختلقات من عند انفسكم ان صح اني اختلقته من عندي فانكم اقدر على
ذلك مني لانكم عرب فصحاء بلغاء قد مارستم مبادي ذلك من الخطب والاشعار وحفظتم
الوقايع والايام وزاولتم اساليب النظم والنثر وادعوا للاستظهار في المعارضة
من استطعتم دعاءه والاستعانة به من آلهتكم التي تزعمون انها ممدة لكم في كل ما
تأتون وتذرون والكهنة ومداركم التي تلجأون الى آرائهم في الملمات ليسعدوكم
فيها من دون الله متعلق بادعوا اى متجاوزين الله تعالى ان كنتم صادقين
في اني افتريته فان ذلك يستلزم امكان الاتيان بمثله وهو ايضا يستلزم قدرتكم عليه والجواب

محذوف

محذوف يدل عليه المذكور فان لم يستجيبوا لكم فان لم يفعلوا ما كلفوه من الاتيان بمثله
كقوله تعالى فان لم تفعلوا وانما عبر عنه بالاستجابة ايماء بانه صلى الله عليه وسلم على كمال
امن من امره كان امره لهم بالاتيان بمثله دعاء لهم الى امر يريد وقوعه والضمير في لكم للرسول
عليه السلام والجمع للتعظيم كما في قول من وان شئت حرمت النساء سواكم وان شئت
لم اطعم نقاخا ولا بردا او له وللمؤمنين لانهم اتباع له عليه السلام في الامر بالتحدي
وفيه تنبيه لطيف على ان حقهم ان لا ينفكوا عنه عليه السلام ويناصبوا معه لمعارضة
المعاندين كما كانوا يفعلونه في الجهاد وارشاد الى ان ذلك مما يفيد الرسوخ في الايمان
والطمانينة في الايقان ولذلك رتب عليه قوله تعالى فاعلموا اى اعلموا حين ظهر
لكم عجزهم عن المعارضة مع تهالكهم عليها علما يقينيا متاخما لعين اليقين بحيث لا
مجال معه لشائبة ريب بوجه من الوجوه كان ما عداه من مراتب العلم ليس بعلم لكن
لا للاشعار بتخالط تلك المراتب بل بارتفاع هذه الرتبة وبه يتضح سر ايراد كلمة الشك
مع القطع بعدم الاستجابة منزلة الشك فيه او اثبتوا واستمروا على ما كنتم عليه من العلم
انما انزل ملتبسا بعلم الله المخصوص به بحيث لا يحوم حوله العقول والا فهما مستبدا
بخصايص الاعجاز من جهتي النظم الرايق والاخبار بالغيب وان لا اله الا هو اى
واعلموا ايضا ان لا شريك له في الالوهية واحكامها ولا يقدر على ما يقدر عليه احد
فهل انتم مسلمون اى مخلصون في الاسلام او ثابتون عليه وهذا من باب التثبيت والترقية
الى معارج اليقين ويجوز ان يراد الخطاب في الكل للمشركين من جهة الرسول صلى الله
عليه وسلم داخلا تحت الامر بالتحدي والضمير في لم يستجيبوا لمن استطعتم اى فان
لم يستجيب لكم آلهتكم وساير من اليهم تجارون في مهماتكم وملماتكم الى المعاونة
والمظاهرة فاعلموا ان ذلك خارج عن دائرة قدرة البشر وانه منزل من خالق القوى و
القدر فايراد كلمة الشك حينئذ مع الجزم بعدم الاستجابة من جهة آلهتهم تهكم بهم و
تسجيل عليهم بكمال سخافة العقل وترتيب الامر بالعلم على مجرد عدم الاستجابة من حيث
انه مسبوق بالدعاء المسبوق بعجزهم واضطرارهم فكانه قيل فان لم يستجيبوا لكم
عند التجائكم اليهم بعد ما اضطررتم الى ذلك وضاقت عليهم الحيل وعيت بكم العلل
او من حيث ان من يستمدون بهم اقوى منهم في اعتقادهم فاذا ظهر عجزهم بعدم
استجابتهم وان كان ذلك قبل ظهور عجز انفسهم يكون عجزهم اظهر واوضح واعلموا
ايضا ان آلهتكم بمعزل عن رتبة الشركة في الالوهية واحكامها فهل انتم داخلون في
الاسلام اذ لم يبق بعد شائبة شبهة في حقيته وفي بطلان ما كنتم فيه من الشرك
فيدخل فيه الاذعان لكون القرآن من عند الله تعالى دخولا اوليا او منقادون للحق
الذي هو كون القرآن من عند الله تعالى وتاركون لما كنتم فيه من المكابرة والعناد وفي
هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال
العذر واقناط من ان يجيرهم آلهتهم من باس الله عز سلطانه هذا والاول انسب لما
سلف من قوله تعالى وضائق به صدرك ولما سيأتي من قوله تعالى فلا تك في مرية
منه واشد ارتباطا بما يعقبه كما سيحيط به خبرا من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها
اى بزينتها وبحسنها من الصحة والامن والسعة في الرزق وكثرة الاولاد والرياسة
وغير ذلك والمراد بالارادة ما يحصل عند مباشرة الاعمال لا مجرد الارادة القلبية
لقوله تعالى نوف اليهم اعمالهم فيها وادخال كان عليها للدلالة
على استمرارها منهم بحيث لا يكادون يريدون الآخرة اصلا وليس المراد باعمالهم
اعمالهم كلهم فانه لا يجد كل متمن ما يتمناه ولا كل احد ينال كل ما يهواه فان ذلك
منوط بالمشيئة الجارية على قضية الحكمة كما نطق به قوله تعالى من كان يريد العاجلة
عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ولا كل اعمالهم بل بعضها الذي يترتب عليه الامور
المذكورة بطريق الاجر والجزاء من اعمال البر وقد اطلقت واريد بها ثمراتها فالمعنى
نوصل اليهم ثمرات اعمالهم في الحيوة الدنيا كاملة وقرئ توف على الاسناد الى الله

عزّ وجلّ ونوقّ بالفوقانية على البناء للمفعول ورفع اعمالهم وقرئ بالتخفيف نوفى والرفع
لكون الشرط ماضيا كقوله وان اتاه خليل يوم مسغبة يقول لاغايب مالى ولا حرم
وهم فيها اى فى الحيوة الدّنيا لا يبخسون اى لا ينقصون وانما عبّر عن ذلك بالبخس
الذى هو نقص الحقّ مع انه ليس شائبة حقّ فيما اؤتوه كما عبّر عن اعطائه بالتوفية الّتى
هى اعطاء الحقوق مع انّ اعمالهم بمعزل من كونها مستوجبة لذلك بناءً للامر على ظاهر
الحال ومحافظة على صور الاعمال ومبالغة فى نفى النقص كان ذلك نقص لحقوقهم
فلا يدخل تحت الوقوع والصّدور عن الكريم اصلا والمعنى انهم فيها خاصّة لا ينقصون ثمرات
اعمالهم واجورها نقصا كلّيا مطردا ولا يحرمونها حرمانا كلّيا واما فى الاخرة فلهم الحرمان
المطلق واليأس المحقق كما ينطق به قوله تعالى اولئك الخ فانه اشارة الى المذكورين باعتبار
ارادتهم الحيوة الدّنيا او باعتبار توفيتهم اجورهم من غير بخس او باعتبارهما
معا وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى سوء الحال اى اولئك المريدون للحيوة
الدّنيا وزينتها الموفون فيها ثمرات اعمالهم من غير بخس الذين ليس لهم فى الاخرة
الا النّار لانّ هممهم كانت مصروفة الى الدّنيا واعمالهم مقصورة على تحصيلها
وقد اجتنوا ثمرتها ولم يكونوا يريدون شيئا آخر فلاجرم لم يكن لهم فى الاخرة الا النّار
وعذابها المخلّد وحبط ما صنعوا فيها اى ظهر فى الآخرة حبوط ما صنعوا من الاعمال
التى كانت تؤدّى الى الثواب لو كانت معمولة للآخرة او حبط ما صنعوا فى الدنيا من
اعمال البرّ اذ شرط الاعتداد بها الاخلاص وباطل اى فى نفسه ما كانوا يعملون فى اثناء
تحصيل المطالب الدنيوية ولاجل انّ الاوّل من شانه استتباع الثواب والاجر وانّ عدمه
لعدم مقارنته للايمان والنيّة الصّحيحة وانّ الثانى ليس له جهة صالحة قط علّق بالاوّل
الحبوط المؤذن بسقوط اجره بصيغة الفعل المنبئ عن الحدوث وبالثانى البطلان المفصح
عن كونه بحيث لا طائل تحته اصلا بالاسمية الدّالة على كون ذلك وصفا لازما له ثابتا فيه
وفى زيادة كان فى الثانى دون الاوّل ايماءً الى ان صدور اعمال البرّ منهم وان كان
لغرض فاسد ليس فى الاستمرار والدّوام كصدور الاعمال الّتى هى من مقدّمات مطالبهم
الدنيّة وقرئ وبطل على الفعل اى ظهر بطلانه حيث علم هناك انّ ذلك وما يستتبعه
من الحظوظ الدنيويّة ممّا لا طائل تحته او انقطع اثره الدنيوى فبطل مطلقا وقرئ وباطلا
ما كانوا يعملون على انّ ما ابهامية او فى معنى المصدر كقوله ولا خارجا من فىّ زور كلام
وعن انس رضى الله عنه انّ المراد بقوله تعالى من كان يريد الخ اليهود والنصارى ان اعطوا
سائلا او وصلوا رحما عجّل لهم جزاء ذلك بتوسعة فى الرزق وصحّة فى البدن وقيل
هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسهم لهم فى
الغنائم وانت خبير بانّ ذلك انما كان بعد الهجرة والسّورة مكيّة وقيل هم اهل الرّيا يقال للقرّاء
منهم اردت ان يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك وهكذا لغيرهم ممّن يعمل اعمال البرّ لا لوجه الله تعالى
فعلى هذا لابدّ من تقييد قوله تعالى ليس لهم الّا النّار بان ليس لهم بسبب اعمالهم الرّيائية
الّا ذلك والذى يقتضيه جزالة النظم الكريم انّ المراد به مطلق الكفرة بحيث يندرج فيهم
القادحون فى القرآن العظيم اندراجا اوّليا فانه عزّ وعلا لما امر نبيّه صلى الله عليه وسلم
والمؤمنين بان يزدادوا علما ويقينا بانّ القرآن منزل بعلم الله وبان لا قدرة لغيره على
شئ اصلا وهيّجهم على الثبات على الاسلام والرسوخ فيه عند ظهور عجز الكفرة وما
يدعون من دون الله عن المعارضة وتبيّن انهم ليسوا على شئ اصلا اقتضى الحال
ان يتعرّض لبعض شؤنهم الموهمة لكونهم على شئ فى الجملة من نيلهم الحظوظ
العاجلة واستيلائهم على المطالب الدنيويّة وبيان انّ ذلك بمعزل عن الدّلالة عليه ولقد
بيّن ذلك اىّ بيان ثم اعيد الترغيب فيما ذكر من الايمان بالقرآن والتوحيد والاسلام فقيل
افمن كان على بيّنة من ربّه اى برهان نيّر عظيم الشان يدلّ على حقية ما رغب
فى الثبات عليه من الاسلام وهو القرآن وباعتباره او بتاويل البرهان ذكر الضمير الراجع
اليها فى قوله تعالى ويتلوه اى يتبعه شاهد يشهد بكونه من عند الله تعالى وهو

الاعجاز فى نظمه المطرد فى كلّ مقدار سورة منه او ما وقع فى بعض اياته من الاخبار بالغيب
كلاهما وصف تابع له شاهد بكونه من عند الله عزّ وجلّ غير انه على التقدير الاوّل يكون فى الكلام
اشارة الى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى تمسّكهم بالقران عند تبيّن كونه
منزلا بعلم الله بشهادة الاعجاز منه اى من القران غير خارج عنه او من جهة الله تعالى
فانّ كلّا منهما وارد من جهته تعالى للشهادة ويجوز على هذا التقدير ان يراد بالشاهد المعجزات
الظاهرة على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانّ ذلك ايضا من الشواهد التابعة للقران
الواردة من جهته تعالى فالمراد بمن فى قوله افمن كلّ من اتصف بهذه الصّفة الحميدة فيدخل
فيه المخاطبون بقوله فاعلموا فهل انتم دخولا اوليّا وقيل هو النبى صلى الله عليه وسلم
وقيل مؤمنوا اهل الكتاب كعبد الله بن سلام واضرابه وقيل المراد بالبيّنة دليل العقل
وبالشاهد القران فالضمير فى منه لله عزّ وجلّ او البيّنة القران ويتلوه من التلاوة والشاهد
جبريل او لسان النبىّ صلى الله عليه وسلم على انّ الضمير له او من التلوّ والشاهد ملك يحفظه
والاولى هو الاوّل ولما كان المراد بتلوّ الشاهد للبرهان اقامة الشهادة بصحته وكونه من
عند الله تابعا له بحيث لا يفارقه فى مشهد من المشاهد فانّ القران بيّنة باقية على وجه
الدّهر مع شاهدها الذى يشهد بامرها الى يوم القيمة عند كلّ مؤمن وجاحد عطف
كتاب موسى فى قوله عزّ قائلا ومن قبله كتاب موسى على فاعله مع كونه مقدما
عليه فى النزول فكانه قيل افمن كان على بيّنة من ربّه ويشهد به شاهد منه وشاهد
آخر من قبله هو كتاب موسى وانما قدّم فى الذكر المؤخّر فى النزول لكونه وصفا لازما له
غير مفارق عنه ولعراقته فى وصف التلوّ والتنكير فى بيّنة وشاهد للتفخيم اماما اى
مؤتمّا به فى الدّين ومقتدى وفى التعرّض لهذا الوصف بصدد بيان تلوّ الكتاب ما لا
يخفى من تفخيم شان المتلوّ ورحمة اى نعمة عظيمة على من انزل اليهم ومن بعدهم الى يوم
القيامة باعتبار احكامه الباقية المؤيّدة بالقران العظيم وهما حالان من الكتاب اولئك
الموصوفون بتلك الصّفة الحميدة وهى الكون على بيّنة من الله ولما انّ ذلك عبارة عن
مطلق التمسّك بها وقد يكون ذلك بطريق التقليد لمن سلف من عظماء الدّين من غير
عثور على دقائق الحقائق وصفهم بانهم يؤمنون به اى يصدّقونه حق التصديق حسبما
يشهد به الشواهد الحقّة المعربة عن حقيّته ومن يكفر به اى بالقران ولم يصدّق
بتلك الشواهد الحقّة من الاحزاب من اهل مكة ومن تحزّب معهم على رسول الله
صلى الله عليه وسلم فالنّار موعده يردها لا محالة حسبما نطق به قوله عزّ وعلا
ليس لهم فى الاخرة الا النّار وفى جعلها موعدا اشعار بانّ له فيها ما لا يوصف من افانين
العذاب فلا تك فى مرية منه اى فى شك من امر القران وكونه من عند الله عزّ وجلّ غبّما
شهدت به الشواهد المذكورة وظهر فضل من تمسّك به انه الحقّ من ربّك الذى
يربّيك فى دينك ودنياك ولكنّ اكثر النّاس لا يؤمنون بذلك اما لقصور انظارهم
واختلال افكارهم واما لعنادهم واستكبارهم فمن فى قوله تعالى افمن كان على
بيّنة من ربّه مبتدأ حذف خبره لاغناء الحال عن ذكره وتقديره افمن كان على بيّنة من
ربّه كاولئك الذين ذكرت اعمالهم وبيّن مصيرهم ومآلهم يعنى انّ بينهما تفاوتا عظيما
بحيث لا يكاد يتراءى ناراهما وايراد الفاء بعد الهمزة لانكار ترتّب توهم المماثلة على
ما ذكر من صفاتهم وعدّ من هنا تهم كانه قيل ابعد ظهور حالهم فى الدنيا والاخرة
كما وصف يتوهّم المماثلة بينهم وبين من كان على احسن ما يكون فى العاجل والآجل
كما فى قوله تعالى افاتخذتم من دون الله اولياء اى ابعد ان علمتموه ربّ السّموات والارض
اتخذتم من دونه اولياء وقوله تعالى افمن يعلم انما انزل اليك من ربّك الحقّ كمن هو
اعمى ومن اظلم ممّن افترى على الله كذبا بان نسب اليه ما لا يليق به كقولهم
للملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا وقولهم لآلهتهم هؤلاء شفعاؤنا
عند الله يعنى انهم مع كفرهم بآيات الله تعالى مفترون عليه كذبا وهو التركيب وان
كان سبكه على انكار ان يكون احد اظلم منهم من غير تعرّض لانكار المساواة ونفيها

ولكن المقصود به قصداً معرداً انكار المساواة ونفيها وافادة انهم اظلم من كل ظالم كما ينبئ
عنه ما سيتلى من قوله عز وجل لا جرم انهم في الآخرة هم الاخسرون فاذا قيل من اكرم
من فلان او لا افضل منه فالمراد منه حتماً انه اكرم من كل كريم وافضل من كل فاضل
اولئك الموصوفون بالظلم البالغ الذي هو الافتراء على الله تعالى وبهذه الاشارة حصلت
الغنية عن اسناد العرض الى اعمالهم واكتفى باسناده اليهم حيث قيل يعرضون لان
عرضهم من تلك الحيثية وبذلك العنوان عرض لاعمالهم على وجه ابلغ فان عرض العامل
بعمله اقطع من عرض عمله مع غيبته على ربهم الحق وفيه ايماء الى بطلان رأيهم في
اتخاذهم اربابا من دون الله عز وجل ويقول الاشهاد عند العرض من الملائكة والنبيين
او من جوارحهم وهو جمع شاهد او شهيد كاصحاب واشراف هؤلاء الذين كذبوا
على ربهم بالافتراء عليه كان ذلك امراً واضحاً غنياً عن الشهادة بوقوعه وانما المحتاج
الى الشهادة تعيين من صدر عنه ذلك فلذلك لا يقولون هؤلاء كذبوا على ربهم ويجوز
ان يكون المراد بالاشهاد الحضار وهم جميع اهل الموقف على ما قاله قتاده ومقاتل و
يكون قولهم هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ذماً لهم بذلك لا شهادة عليهم كما يشعر به
قوله ويقول دون ويشهد الخ وتوطئة لما يعقبه من قوله الا لعنة الله على الظالمين
بالافتراء المذكور ويجوز ان يكون هذا على الوجه الاول من كلام الله عز وجل وفيه تهويل
عظيم لما يحيق بهم من عاقبة ظلمهم اللهم انا نعوذ بك من الخزي على رؤس الاشهاد
الذين يصدون اي كل من يقدرون على صده او يفعلون الصد عن سبيل الله عن دينه
القديم ويبغونها عوجاً انحرافاً اي يصفونها بذلك وهو ابعد شيء منه او يبغون
اهلها ان ينحرفوا عنها يقال بغيتك خيراً او شراً اي طلبت لك وهذا شامل لتكذيبهم
بالقرآن وقولهم انه ليس من عند الله وهم بالآخرة هم كافرون اي يصفونها
بالعوج والحال انهم كافرون بها لا انهم يؤمنون بها ويزعمون ان لها سبيلاً سوياً
يهدون الناس اليه وتكرير الضمير لتاكيد كفرهم واختصاصهم به كان كفر غيرهم
ليس بشيء عند كفرهم اولئك مع ما وصف من احوالهم الموجبة للتدمير لم يكونوا
معجزين الله تعالى منفلتين بانفسهم من اخذه لو اراد ذلك في الارض مع سعتها
وان هربوا منها كل مهرب وما كان لهم من دون الله من اولياء ينصرونهم من
بأسه ولكن اخر ذلك لحكمه يقتضيه والجمع اما باعتبار افراد الكفرة كانه قيل وما
كان لاحد منهم من ولي او باعتبار تعدد ما كانوا يدعون من دون الله تعالى فتكون
ذلك بياناً لحال آلهتهم من سقوطها عن رتبة الولاية يضاعف لهم العذاب استئناف
يتضمن حكمة تأخير المؤاخذة وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالتشديد ما كانوا
يستطيعون السمع لفرط تصامهم عن الحق وبغضهم له كانهم لا يقدرون على
السمع ولما كان قبح حالهم في عدم اذعانهم للقرآن الذي طريق تلقيه السمع اشد
منه في عدم قبولهم لسائر الآيات المنوطة بالابصار بالغ في نفي الاول عنهم حيث نفى
عنهم الاستطاعة واكتفى في الثاني بنفي الابصار فقال وما كانوا يبصرون لتعاميهم
عن آيات الله المبسوطة في الانفس والآفاق وهو استئناف وقع تعليلاً لمضاعفة
العذاب وقيل هو بيان لما نفي من ولاية الآلهة فان ما لا يسمع ولا يبصر بمعزل من الولاية و
قوله تعالى يضاعف لهم العذاب اعتراض وسط بينهما نعياً عليهم من اول الامر سوء
العاقبة اولئك المنعوتون بما ذكر من القبائح الذين خسروا انفسهم باشتراء عبادة
الآلهة بعبادة الله عز سلطانه وضل عنهم ما كانوا يفترون من الآلهة وشفاعتها
او خسروا ما بذلوا وضاع عنهم ما حصلوا فلم يبق معهم سوى الحسرة و
الندامة لا جرم فيه ثلاثة اوجه الاول ان لا نافية لما سبق وجرم فعل بمعنى حق وان
مع ما في حيزه فاعله والمعنى لا ينفعهم ذلك الفعل حق انهم في الآخرة هم الاخسرون
وهذا مذهب سيبويه والثاني جرم بمعنى كسب وما بعده مفعوله وفاعله ما دل عليه الكلام
اي كسب ذلك خسرانهم فالمعنى ما حصل من ذلك الا ظهور خسرانهم والثالث ان لا جرم

يعني لا بد اي لا بد انهم في الآخرة هم الاخسرون واياً ما كان فمعناه انهم اخسر من كل
خاسر فتبين انهم اظلم من كل ظالم وهذه الآيات الكريمة كما ترى مقررة لما سبق من
انكار المماثلة بين من كان على بينة من ربه وبين من كان يريد الحيوة الدنيا ابلغ تقرير
فانهم حيث كانوا اظلم من كل ظالم واخسر من كل خاسر لم يتصور مماثلة بينهم وبين احد
من الظلمة الاخسرين فما ظنك بالمماثلة بينهم وبين من هو في اعلى مدارج الكمال ولما
ذكر فريق الكفار واعمالهم وبين مصيرهم ومآلهم شرع في بيان حال اضدادهم اعني
فريق المؤمنين وما يؤل اليه امرهم من العواقب الحميدة تكملة لما سلف من محاسنهم
المذكور في قوله تعالى افمن كان على بينة من ربه الآية ليتبين ما بينهما من التباين البين
حالاً ومآلاً فقيل ان الذين آمنوا اي بكل ما يجب ان يؤمن به فيندرج تحته ما
نحن بصدده من الايمان بالقرآن الذي عبر عنه بالكون على بينة من الله وانما يحصل ذلك
باستماع الوحي والتدبر فيه ومشاهدة ما يؤدي اليه ذلك في الانفس والآفاق
او فعلوا الايمان كما في يعطي ويمنع وعملوا الصالحات واخبتوا الى ربهم
اي اطمأنوا اليه وانقطعوا الى عبادته بالخضوع من الخبت وهي الارض المطمئنة
ومعنى اخبت دخل في الخبت كانهم واتهم دخل في تهامة ونجد اولئك المنعوتون
بتلك النعوت الجميلة اصحاب الجنة هم فيها خالدون دائمون وبعد بيان
تباين حاليهما عقلاً واريد بيان تباينهما حساً فقيل مثل الفريقين المذكورين
اي حالهما العجيب لان المثل لا يطلق الا على ما فيه غرابة من الاحوال والصفات
كالاعمى والاصم والبصير والسميع اي كحال هؤلاء فيكون ذوا تهم كذواتهم
والكلام وان امكن ان يحمل على تشبيه الفريق الاول بالاعمى وبالاصم وتشبيه
الفريق الثاني بالبصير والسميع لكن الادخل في المبالغة والاقرب الى ما يشير اليه
لفظ المثل والانسب بما سبق من وصف الكفرة بعدم استطاعة السمع وبعدم الابصار
ان يحمل على التشبيه الفريق الاول بمن جمع بين العمى والصمم وتشبيه الفريق الثاني بمن
جمع بين البصر والسمع على ان يكون الواو في قوله تعالى والاصم وفي قوله تعالى
والسميع لعطف الصفة على الصفة كما في قول من قال الى الملك القرم وابن الهمام
وليث الكتيبة في المزدحم واياً ما كان فالظاهر ان المراد بالحال المدلول عليها بلفظ
المثل هي التي يدور عليها امر التشبيه ما يلائم الاحوال المذكورة المعتبرة في جانب
المشبه به من تعامي الفريق الاول عن مشاهدة آيات الله المنصوبة في العالم
والنظر اليها بعين الاعتبار وتصامهم عن استماع آيات القرآن الكريم وتلقيها بالقبول
حسبما ذكر في قوله تعالى لا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون وانما لم يراع هذا الترتيب
ههنا لكون الاعمى اظهر واشهر في سوء الحال من الاصم ومن استعمال الفريق الثاني
لكل من ابصارهم واسماعهم فيما ذكر كما ينبغي المدلول عليه بما سبق من الايمان
والعمل الصالح والاخبات حسبما فسر به فيما مر فلا يكون التشبيه تمثيلياً الا بجميع الاحوال
المعدودة لكل من الفريقين مما ذكر وما يؤدي اليه من العذاب المضاعف و
الخسران البالغ في احدهما ومن النعيم المقيم في الآخر فان اعتبار ذلك يخرج
الكون التشبيه تمثيلياً بان ينتزع من حال الفريق الاول في تصامهم وتعاميهم
المذكورين ووقوعهم بسبب ذلك في العذاب المضاعف والخسران الذي لا خسران
فوقه هيئة فتشبه بهيئة منتزعة ممن فقد مشعري البصر والسمع فتخبط في مسلكه
فوقع في مهاوي الردى ولم يجد الى مقصده سبيلاً وينتزع من حال الفريق الثاني
في استعمال مشاعرهم في آيات الله حسبما ينبغي وفوزهم بدار الخلود هيئة
فتشبه بهيئة منتزعة ممن له بصر وسمع ويستعملها في مهماته فيهتدي الى سبيله
وينال مرامه هل يستويان يعني الفريقين المذكورين والاستفهام انكاري مقرر لما سبق
من انكار المماثلة في قوله عز وجل افمن كان على بينة الآية مثلاً اي حالاً وصفة وهو
تمييز من فاعل يستويان افلا تذكرون اي اتشكون في عدم الاستواء وما بينهما من

التباين او اتغفلون عنه فلا تتذكرونه بالتأمل فيما ضرب لكم من المثل فيكون الانكار
واردا على المعطوفين معا او اتسمعون هذا فلا تتذكرون فيكون راجعا الى عدم التذكر بعد
تحقق ما يوجب وجوده وهو المثل المضروب كما في قوله تعالى افان مات او قتل انقلبتم
على اعقابكم فان الفاء هناك لانكار الانقلاب بعد تحقق ما يوجب عدمه من علمهم
بخلو الرسل قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم او افلا تعقلون التذكر او افلا تعقلون
ومعنى الهمزة انكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين وانه ليس مما يصح
ان يقع لا من قبيل الانكار في قوله تعالى افمن كان على بينة من ربه وقوله تعالى هل يستويان
فان ذلك لنفي المماثلة ونفي الاستواء ولما بين من فاتحة السورة الكريمة الى هذا المقام
انها كتاب محكم الآيات مفصلها نازل في شأن التوحيد وترك عبادة غير الله سبحانه
وان الذي انزل عليه نذير وبشير من جهته تعالى وقرر في تضاعيف ما له مدخل
في تحقيق هذا المرام من الترغيب والترهيب والزام المعاندين بما يقارنه من الشواهد
الحقة الدالة على كونه من عند الله تعالى وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم مما عراه
من ضيق الصدر العارض له من افتراءاتهم الشنيعة وتكذيبهم له وتسميتهم للقرآن
تارة سحرا واخرى مفترى وتثبيته عليه السلام والمؤمنين على التمسك به والعمل بموجبه
على ابلغ وجه وابدع اسلوب شرع في تحقيق ما ذكر وتقريره بذكر قصص الانبياء
صلوات الله عليهم اجمعين المشتملة على ما اشتمل عليه فاتحة السورة الكريمة ليتأكد
ذلك بطريقين احدهما ان ما امر به من التوحيد وفروعه مما اطبق عليه الانبياء قاطبة
والثاني ان ذلك انما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الوحي فلا يبقى في حقيته
كلام اصلا وليتسلى بما شاهده من معاناة الرسل قبله من اممهم ومقاساتهم الشدائد
من جهتهم فقيل ولقد ارسلنا نوحا الى قومه الواو ابتدائية واللام جواب قسم
محذوف وحرفه الباء لا الواو كما في سورة الاعراف لئلا يجتمع واوان ولا يكاد يطلق
هذه اللام الا مع قد لانها مظنة التوقع وان المخاطب اذا سمعها توقع وقوع ما
صدر بها ونوح هو ابن مالك بن متوشلخ بن ادريس عليهما السلام وهو اول نبي بعث بعده
قال ابن عباس رضي الله عنهما بعث عليه السلام على رأس اربعين من عمره ولبث يدعو
قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة وكان عمره الفا و
خمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل
وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش
بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره الفا واربعمائة وخمسين سنة اني لكم
نذير بالكسر على ارادة القول اي فقال او قائلا وقرأ ابن كثير وابو عمرو والكسائي بالفتح
على اضمار حرف الجر اي ارسلناه ملتبسا بذلك الكلام وهو اني لكم نذير بالكسر فلما
اتصل به الجار فتح كما فتح في كأن والمعنى على الكسر وهو قولك ان زيدا كالاسد واقتصر
على ذكر كونه عليه السلام نذيرا لا لان دعوته عليه السلام كانت بطريق الانذار
فقط الا يرى الى قوله عليه السلام فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم
مدرارا الخ بل لانهم لم يغتنموا مغانم ابشاره عليه السلام مبين ابين لكم موجبات
العذاب ووجه الخلاص عنه لان الانذار اعلام المحذور لا لمجرد التخويف والازعاج
بل للحذر منه فيتعلق صفته بكلا وصفيه ان لا تعبدوا الا الله اي بان لا تعبدوا
على ان ان مصدرية والباء متعلقة بارسلنا ولا ناهية اي ارسلناه ملتبسا بنهيهم
عن الشرك الا انه وسط بينهما بيان بعض اوصافه واحواله عليه السلام وهو كونه
نذيرا مبينا ليكون ادخل في القبول ولم يفعل ذلك في صدر السورة لئلا يفرق بين
الكتاب ومضمونه بما ليس من اوصافه واحواله او مفسرة متعلقة به او بنذيرا او مفعول
لمبين وعلى قراءة الفتح بدل من اني لكم نذير مبين وتعيين لما يوجب وقوع المحذور وتبيين
لوجه الخلاص وهو عبادة الله تعالى وقوله اني اخاف عليكم عذاب يوم اليم تعليل
لموجب النهي وتصريح بالمحذور وتحقيق للانذار والمراد به يوم القيمة او يوم الطوفان

ووصفه

ووصف بالاليم على الاسناد المجازي للمبالغة كما في نحو نهاره صائم وهذه المقالة وما
في معناها مما قاله عليه السلام في اثناء الدعوة على ما عزي اليه في سائر السور لما لم
تصدر عنه عليه السلام مرة واحدة بل كان يكررها عليهم في تلك المدة المتطاولة على ما
نطق به قوله تعالى رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا الآيات عطف على فعل الارسال المقارن
لها او القول المقدر بعده جوابهم المتعرض لاحوال المؤمنين الذين اتبعوه عليه السلام
بعد اللتيا والتي بالفاء التعقيبية فقيل فقال الملأ الذين كفروا من قومه اي
الاشراف منهم من قولهم فلان ملئ بكذا اي مطيق له لانهم ملؤا بكفايات الامور
او لانهم ملؤ القلوب هيبة والمجالس ابهة او لانهم ملاء بالاحلام والآراء الصائبة
ووصفهم بالكفر لذمهم والتسجيل عليهم بذلك من اول الامر لا لان بعض اشرافهم
ليسوا بكفرة ما نراك الا بشرا مثلنا مرادهم ما انت الا بشر مثلنا ليس فيك
مزية تخصك من دوننا بما تدعيه من النبوة ولو كان كذلك لرأيناه لا لان ذلك محقق
ولكن لا نراه وكذا الحال في قولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادي الرأي
فالفعلان من رؤية العين وقوله تعالى الا بشرا مثلنا حال من المفعول وكذا قوله اتبعك
في موضع الحال منه اما على الوجه حاله او بتقدير قد عند من يشترط ذلك ويجوز ان يكون
من رؤية القلب وهو الظاهر فهما المفعول الثاني وتعلق الرأي بالاول بالمثلية لا بالبشرية
فقط وانما لم يبنوا القول بذلك مع جزمهم به واصرارهم عليه اراءة بان ذلك لم
يصدر عنهم جزافا بعد التأمل في الامر والتدبر فيه ولذلك اقتصروا على ذكر الظن فيما سيأتي
وتعريضا من اول الامر برأي المتبعين فكان قولهم وما نراك جوابا عما يرد عليهم
من انه عليه السلام ليس مثلهم حيث عاين دلائل نبوته واغتنم اتباعه من له عين
تبصر وقلب يدرك فزعموا ان هؤلاء اراذلنا اي اخساؤنا وادانينا جمع ارذل فانه
صار بالغلبة جاريا مجرى الاسم كالاكبر والاكابر او جمع ارذل جمع رذل كالاكالب
الكلب وكلب يعنون انه لا عبرة باتباعهم لك اذ ليس لهم رزانة عقل ولا اصالة رأي
وقد كان ذلك منهم في بادي الرأي اي ظاهره من غير تعمق من البدو او في اوله من
البدء والياء مبدلة من الهمزة لانكسار ما قبلها وقد قرأه ابو عمرو بها وانتصابه على الظرفية
على حذف المضاف اي وقت حدوث بادي الرأي والعامل فيه اتبعك وانما استرذلوهم
مع كونهم اولي الالباب الراجحة لفقرهم فانهم لما لم يعلموا الا ظاهر الحيوة الدنيا
كان الاشرف عندهم الاكثر منها حظا والارذل من حرمها ولم يفقهوا ان ذلك لا يزن
عند الله جناح بعوضة وان التنعيم انما هو نعيم الآخرة والاشرف من فاز به والارذل
من حرمه نعوذ بالله تعالى من ذلك وما نرى لكم اي لك ولمتبعيك فغلب المخاطب
على الغائبين علينا من فضل يعنون ان اتباعهم لك لا يدل على نبوتك ولا يجديكم
فضيلة تستتبع اتباعنا لكم واقتصارهم هاهنا على ذكر عدم رؤية الفضل بعد تصريحهم
برذالتهم فيما سبق باعتبار حالهم السابق واللاحق ومرادهم انهم كانوا اراذل
قبل اتباعهم لك ولا نرى فيهم وفيك بعد الاتباع فضيلة علينا بل نظنكم
كاذبين جميعا لكون كلامكم واحدا ودعواكم واحدة او اياك في دعوى النبوة و
اياهم في تصديقك واقتصارهم على الظن احترازا منهم عن نسبتهم الى المجازفة ومجاراة
معه عليه السلام بطريق الاراءة على نهج الانصاف قال يا قوم ارأيتم اي اخبروني
وفيه ايماء الى ركاكة رأيهم المذكور ان كنت على بينة برهان ظاهر من ربي
وشاهد يشهد بصحة دعواي وآتاني رحمة من عنده هي النبوة ويجوز ان تكون
هي البينة نفسها جيء بها ايذانا بانها مع كونها بينة من الله تعالى رحمة ونعمة
عظيمة من عنده فوجه افراد الضمير في قوله فعميت عليكم ظاهر وان اريد بها
النبوة وبالبينة البرهان الدال على صحتها فالافراد لارادة كل واحدة منهما او لكون الضمير
للبينة والاكتفاء بذلك لاستلزام خفائها خفاء النبوة او لتقدير فعل آخر بعد البينة و
معنى عميت اخفيت وقرئ عميت ومعناه خفيت وحقيقته ان الحجة كما تجعل مبصرة وتبصرة

بجعل عمياء لان الاعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره وفي قراءة ابي فعماها عليكم على الاسناد
الى الله عز وجل انلزمكموها اى انكرهكم على الاهتداء بها وهو جواب ارايتم و
ساد مسد جواب الشرط وقرا ابو عمرو باخفاء حركة الميم وحيث اجتمع ضميران منصوبان
وقد قدم اعرفهما جاز في الثاني الوصل والفصل فوصل كما في قوله تعالى فسيكفيكهم الله
وانتم لها كارهون لا تختارونها ولا تتاملون فيها ومحصول الجواب اخبروني
ان كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة دعواي الا انها خافية عليكم غير مسلمة عندكم
ايمكننا ان نكرهكم على قبولها وانتم معرضون عنها غير متدبرين فيها اى لا يكون ذلك وظاهره
مشعر بصدوره عنه عليه السلام بطريق الياس عن الزامهم والقعود عن محاجتهم
كقوله ولا ينفعكم نصحي الخ لكنه محمول على ان مراده عليه السلام ردهم عن الاعراض
عنها وحثهم على التدبر فيها بصرف الانكار الى الالزام حال كراهتهم لها لا الى الالزام
مطلقا هذا ويجوز ان يكون المراد بالبينة دليل العقل الذي هو ملاك الفضل وبحسبه
يمتاز افراد البشر بعضها عن بعض وبه يناط الكرامة عند الله عز وجل والاجتباء
للرسالة وبالكون عليها التمسك به والثبات عليه وبخفائها على الكفرة على ان
يكون الضمير للبينة عدم ادراكهم لكونه عليه السلام عليها وبالرحمة النبوة التي
انكروا اختصاصه عليه السلام بها اظهرا بينهم والمعنى انكم زعمتم ان عهد النبوة لا ينال
الا من له فضيلة على سائر الناس مستتبعة لاختصاصه به دونهم اخبروني اني اقرب
عنكم بزيادة مزية وحيازة فضيلة من ربي وآتاني بحسبها نبوة من عنده فخفيت
عليكم تلك البينة ولم تصيبوها ولم تنالوها ولم تعلموا حيازتي لها وكوني عليها
الى الآن حتى زعمتم اني مثلكم وهي متحققة في نفسها انلزمكم قبول نبوتي التابعة
لها والحال انكم كارهون لذلك فيكون الاستفهام للحمل على الاقرار وهو الانسب
بمقام المحاجة وحينئذ يكون كلامه عليه السلام جوابا عن شبههم التي ادرجوها
في خلال مقالهم من كونه عليه السلام بشرا قصارى امره ان يكون مثلهم من غير فضل
له عليهم وقطعا لتسافه آرائهم الركيكة ويا قوم لا اسئلكم عليه اى على ما قلته
في اثناء دعوتكم مالا تؤدونه الى بعد ايمانكم واتباعكم لي فيكون ذلك اجرا
لي في مقابلة اهتدائكم ان اجري الا على الله الذي يثيبني في الآخرة وفي التعبير
عنه حين نسب اليهم بالمال ما لا يخفى من المزية وما انا بطارد الذين آمنوا
جواب عما لوحوا به بقولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا من انه لو اتبعه
الاشراف لوافقوهم وان اتباع الفقراء مانع لهم عن ذلك كما صرحوا به في قولهم انؤمن
لك واتبعك الارذلون فكان ذلك التماسا منهم لطردهم وتعليقا لايمانهم به عليه
السلام بذلك انفة من الانتظام معهم في سلك واحد انهم ملاقوا ربهم
تعليل لامتناعه عنه عن طردهم اى انهم فائزون في الآخرة بلقاء الله تعالى
كانه قيل لا اطردهم ولا ابعدهم عن مجلسي لانهم مقربون في حضرة القدس والتعرض
لوصف الربوبية لتربية وجوب رعايتهم وتحتم الامتناع عن طردهم او
مصدقون في الدنيا بلقاء ربهم موقنون به عالمون انهم ملاقوه لا محالة فكيف اطردهم
وحمله على معنى انهم يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من ايمان صحيح ثابت كما
ظهر لي او على خلاف ذلك مما تعرفونهم به من بناء ايمانهم على بادي الراي من غير
نظر وتفكر وما علي ان اشق عن قلوبهم واتعرف سر ذلك منهم حتى اطردهم ان كان
الامر كما تزعمون يأباه الجزم بترتب غضب الله تعالى على طردهم كما سيأتي وايضا فهم
انما قالوا ان اتباعهم لك انما هو بحسب بادي الراي بلا تامل وتفكر وهذا لا يكاد يصلح
مدارا للطرد في الدنيا ولا للمؤاخذة في الآخرة غايته ان لا يكونوا في مرتبة الموقنين و
ادعاء ان بناء الاتباع على ظاهر الراي يؤدي الى الرجوع عنه عند التامل فكانهم قالوا
انهم اتبعوك بلا تامل فلا يثبتون على دينك بل يرتدون عنه تعسف لا يخفى ولكني
اراكم قوما تجهلون بكل ما ينبغي ان يعلم ويدخل فيه جهلهم بلقاء الله عز وعلا

ويعزلتهم

ويعزلتهم عنده وباستيجاب طردهم لغضب الله كما سيأتي وبركاكة رايهم في التماس ذلك
وتوقيف ايمانهم عليه انفة عن الانتظام معهم في سلك واحد وزعما منهم ان الرذالة
بالفقر والشرف بالغنى وايثار صيغة الفعل للدلالة على التجدد والاستمرار اى تسافهون
على المؤمنين بنسبتهم الى الخساسة ويا قوم من ينصرني من الله بدفع حلول سخطه
عني ان طردتهم فان ذلك امر لا مرد له لكون الطرد ظلما موجبا لحلول السخط قطعا
وانما لم يصرح به اشعارا بانه غني عن البيان لا سيما غب ما قدم ما يلوح به من احوالهم
فكانه قيل من يدفع عني غضب الله تعالى ان طردتهم وهم بتلك المثابة من الكرامة
والزلفى كما ينبئ عنه قوله تعالى افلا تذكرون اى اتستمرون على ما انتم عليه من الجهل
المذكور فلا تتذكرون ما ذكر من حالهم حتى تعرفوا ان ما تأتونه بمعزل عن الصواب
ولكون هذه العلة مستقلة بتوجه مخصوص ظاهر الدلالة على وجوب الامتناع عن
الطرد افردت عن التعليل السابق وصدرت بيا قوم ولا اقول لكم حين ادعي
النبوة عندي خزائن الله اى ارزاقه وامواله حتى تستدلوا بعدمها على كذبي بقولكم
وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين فان النبوة اعز من ان ينال باسباب دنيوية
ودعواها بمعزل عن ادعاء المال والجاه ولا اعلم الغيب اى لا ادعي في قولي اني لكم نذير
مبين اني اخاف عليكم عذاب يوم اليم علم الغيب حتى تسارعوا الى الانكار والاستبعاد
ولا اقول لكم اني ملك حتى تقولوا ما نراك الا بشرا مثلنا فان البشرية ليست من
موانع النبوة بل من مباديها يعني انكم اتخذتم فقدان هذه الامور الثلثة ذريعة
الى تكذيبي والحال اني لا ادعي شيئا من ذلك ولا الذي ادعيه يتعلق بشيء منها
وانما يتعلق بالفضائل النفسانية التي تتفاوت مقادير البشر ولا اقول
مساعدة لكم كما تقولون للذين تزدري اعينكم اى تستحقرهم وتحتقرهم من
زرى اذا عابه واسناد الازدراء الى اعينهم بالنظر الى قولهم ما نراك اتبعك
الا الذين هم اراذلنا وانما للاشعار بان ذلك لقصور نظرهم ولو تدبروا في شانهم
ما فعلوا ذلك اى لا اقول في شان الذين استرذلتموهم لفقرهم من المؤمنين
لن يؤتيهم الله خيرا في الدنيا او في الآخرة فعسى الله ان يؤتيهم خيري الدارين
ان قلت هذا القول ليس مما يستنكره الكفرة ولا مما يتوهمون صدوره عنه عليه
السلام اصالة واستتباعا كادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن مما
نفاه عليه السلام عن نفسه بطريق التبرؤ والتنزه عنه فمن اى وجه عطف نفيه
على نفيها قلت من جهة ان كلا النفيين رد لقياسهم الباطل الذي تمسكوا به فيما
سلف فانهم زعموا ان النبوة تستتبع الامور المذكورة وانها لا تنبغي ممن ليس على
تلك الصفات وان الفقور على مكانها واغتنام مغانمها ليس من داب الاراذل فاجاب
عليه السلام بنفي ذلك جميعا فكانه قال لا اقول وجود تلك الاشياء من مواجب النبوة
ولا عدم المال والجاه من موانع الخير الله اعلم بما في انفسهم من الايمان وانما
اقتصر على نفي القول المذكور مع انه عليه السلام جازم بان الله سبحانه سيؤتيهم خيرا
عظيما في الدارين وانهم على يقين راسخ في الايمان جريا على سنن الانصاف مع القوم
واكتفاء بمخالفة كلامهم وارشادا لهم الى مسلك الهداية بان اللائق لكل احد
ان لا يبت القول الا فيما يعلمه يقينا ويبني اموره على الشواهد الظاهرة ولا يجازف
فيما ليس فيه على بينة ظاهرة اني اذا اى اذا قلت ذلك لمن الظالمين لهم بحط
رتبتهم ونقص حقوقهم او من الظالمين لانفسهم بذلك فان وباله راجع
الى انفسهم وفيه تعريض بانهم ظالمون في ازدرائهم واسترذالهم وقيل اذا
قلت شيئا مما ذكر من ادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن وهو بعيد لان تبعة
تلك الاقوال مغنية عن التعليل بلزوم الانتظام في زمرة الظالمين قالوا يا نوح
قد جادلتنا خاصمتنا فاكثرت جدالنا اى اطلته او اتيته بانواعه فان اكثار
الجدال يتحقق بعد وقوع اصله فلذلك عطف عليه بالفاء او اردت ذلك فاكثرته كما في قوله تعالى

فاذا قرأت القران فاستعذ بالله ولما حجّهم عليه السلام وابرز لهم بينات واضحة المدلول وحججاً تتلقاها العقول بالقبول والقمهم الحجر بردّ شبههم الباطلة ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وقالوا فأتنا بما تعدنا من العذاب المعجّل او العذاب الذي اشير اليه في قوله اني اخاف عليكم عذاب يوم اليم على تقدير ان تكون المراد باليوم يوم القيمة ان كنت من الصادقين فيما تقول قال انما يأتيكم به الله ان شاء يعني ان ذلك ليس موكولاً اليّ ولا هو مما يدخل تحت قدرتي وانما يتولاه الله الذي كفرتم به وعصيتموه يأتيكم به عاجلاً او آجلاً ان تعلق به مشيئته التابعة للحكمة وفيه ما لا يخفى من تهويل الموعود فكأنه قيل الاتيان به امر خارج عن دائرة القوى البشرية وانما يفعله الله عز وجل وما انتم بمعجزين بالهرب او بالمدافعة كما تدافعون نيّ في الكلام ولا ينفعكم نصحي النصح كلمة جامعة لكل ما يدور عليه الخير من فعل او قول وحقيقته امحاض ارادة الخير والدلالة عليه ونقيضه الغش وقيل هو اعلام موقع الغي ليتقى وموضع الرشد ليقتفى ان اردت ان انصح لكم شرط جوابه حذف لدلالة ما سبق عليه والتقدير ان اردت ان انصح لكم لا ينفعكم نصحي وهذه الجملة دليل على ما حذف من جواب قوله تعالى ان كان الله يريد ان يغويكم والتقدير ان كان الله يريد ان يغويكم فان اردت ان انصح لكم لا ينفعكم نصحي هذا على ما ذهب اليه البصريون من عدم تقدم الجزاء على الشرط واما على ما ذهب اليه الكوفيون من جوازه فقوله عز وعلا لا ينفعكم نصحي جزاء للشرط الاول والجملة جزاء للشرط الثاني وعلى التقديرين فالجزاء متعلق بالشرط الاول وتعلقه به معلق بالشرط الثاني وهذا الكلام متعلق بقولهم قد جادلتنا فاكثرت جدالنا صدر عنه عليه السلام اظهاراً للعجز عن الزامهم بالحجج والبينات لتماديهم في العناد وايذاناً بان ما سبق منه ليس بطريق الجدال والخصام بل بطريق النصيحة لهم والشفقة عليهم وبانه لم يأل جهداً في ارشادهم الى الحق وهدايتهم الى سبيله المستبين وامحاض النصح لهم ولكن لا ينفعهم ذلك عند ارادة الله تعالى لاغوائهم وتقييد عدم نفع النصح بارادته مع انه محقق لا محالة للايذان بان ذلك النصح منه مقارن للارادة والاهتمام به ولتحقيق المقابلة بين ذلك وبين ما وقع بازائه من ارادته تعالى لاغوائهم وانما اقتصر في ذكر عدم مجرد الاعواد دون نفسه حيث لم يقل ان كان الله يغويكم مبالغة في بيان غلبة جنابه عز وجل حيث دل ذلك على ان نصحه المقارن للاهتمام به لا يجديهم عند مجرد ارادة الله سبحانه لاغوائهم فكيف عند تحقيق ذلك وخلقه فيهم وزيادة كان للاشعار بتقدم ارادة الله تعالى زماناً كتقدمه رتبة وللدلالة على تجددها واستمرارها وانما قدم على هذا الكلام ما يتعلق بقولهم فأتنا بما تعدنا من قوله تعالى انما يأتيكم به الله ان شاء رداً عليهم من اول الامر وتسجيلاً عليهم بحلول العذاب مع ما فيه من اتصال الجواب بالسؤال وفيه دليل على ان ارادته تعالى يصح تعلقها بالاغواء وان خلاف مراده غير واقع وقيل معناه ان يغويكم ان يهلككم من غوى الفصيل يغوي اذا بشم وهلك هو ربكم خالقكم ومالك امركم واليه ترجعون فيجازيكم على اعمالكم لا محالة ام يقولون افتراه قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني نوحاً عليه السلام ومعناه بل ايقول قوم نوح ان نوحاً افترى ما جاء به مسنداً الى الله عز وجل قل يا نوح ان افتريته بالفرض البحت فعليّ اجرامي اي وبال اجرامي وهو كسب الذنب وقرئ بلفظ الجمع وينصره ان فسره الاولون باثامي وانا بريء مما تجرمون من اجرامكم في اسناد الافتراء الي فلا وجه لاعراضكم عني ومعاداتكم لي وقال مقاتل يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ومعناه بل ايقول مشركوا مكة افترى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر نوح فكأنه انما جيء به في تضاعيف القصة عند سوق طرف منها تحقيقاً لحقيتها وتأكيداً لوقوعها وتشويقاً للسامعين الى استماعها لا سيما وقد قص منها طائفة متعلقة بما جرى بينه عليه السلام

وبين قومه من المحاجة وبقيت طائفة مستقلة متعلقة بعذابهم واوحي الى نوح انه لن يؤمن من قومك اي المصرين على الكفر وهو اقناط له من ايمانهم واعلام لكونه كالمحال الذي لا يصح توقعه الا من قد آمن الا من وجد منه ما كان يتوقع من ايمانه وهذا الاستثناء على طريقة قوله الا ما قد سلف فلا تبتئس بما كانوا يفعلون اي لا تحزن حزن بائس مسكين ولا تغتم بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء والايذاء في هذه المدة الطويلة فقد انتهى افعالهم وحان وقت الانتقام منهم واصنع الفلك ملتبساً باعيننا اي بحفظنا وكلائتنا كأن معه من الله عز وجل حفاظاً وحراساً يكلؤنه باعينهم من التعدي من الكفرة ومن الزيغ في الصنعة ووحينا اليك كيف تصنعها وتعليمنا والهامنا عن ابن عباس رضي الله عنهما لم يعلم كيف صنعة الفلك فاوحى الله تعالى اليه ان يصنعها مثل جؤجؤ الطائر والامر للوجوب اذ لا سبيل الى صيانة الروح من الغرق الا به فيجب كوجوبها واللام اما للعهد بان يحمل على ان هذا مسبوق بوحي الله تعالى اليه عليه السلام انه سيهلكهم بالغرق وينجيه ومن معه بشيء سيصنعه بامره تعالى ووحيه من شأنه كيت وكيت واسمه كذا واما للجنس قيل صنعها عليه السلام في سنتين وقيل في اربعمائة سنة وكانت من خشب الساج وجعلها ثلثة بطون حمل في البطن الاول الوحوش والسباع والهوام وفي البطن الاوسط الدواب والانعام وفي البطن الاعلى جنس البشر هو ومن معه مع ما يحتاجون اليه من الزاد وحمل معه جسد آدم عليه السلام وقيل جعل في الاول الدواب والوحوش وفي الثاني الانس وفي الاعلى الطير قيل كان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعاً وسمكها ثلثين ذراعاً وقال الحسن كان طولها الفاً ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وقيل ان الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى الى كثيب من تراب فاخذ كفاً من ذلك التراب فقال اتدرون من هذا قالوا الله ورسوله اعلم قال هذا كعب ابن حام قال فضرب بعصاه فقال قم باذن الله فاذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال عيسى عليه السلام اهكذا هلكت قال لا مت وانا شاب ولكني ظننت انها الساعة فمن ثمة شبت فقال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها الفاً ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلث طبقات طبقة للدواب والوحش وطبقة للانس وطبقة للطير قال عد باذن الله تعالى كما كنت فعاد تراباً ولا تخاطبني في الذين ظلموا اي لا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل ولا تدعني فيهم وحيث كان فيه ما يلوح بما يستتبعه اكد التعليل فقيل انهم مغرقون اي محكوم عليهم بالاغراق قد مضى به القضاء وجف القلم فلا سبيل الى كفه ولزمتهم الحجة فلم يبق الا ان يجعلوا عبرة للمعتبرين ومثلاً للآخرين ويصنع الفلك حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة تقديره واخذ يصنع الفلك او اقبل يصنعها فاقتصر على ما يصنع واياً ما كان ففيه ملائمة للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة حالاً من ضميره اعني قوله تعالى وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه استهزؤا به لعمله السفينة اما لانهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها والانتفاع بها فتعجبوا من ذلك وسخروا منه واما لانه كان يصنعها في برية بهماء في ابعد موضع من الماء وفي وقت عزته عزة شديدة وكانوا يتضاحكون ويقولون يا نوح صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً وقيل لانه عليه السلام كان ينذرهم الغرق فلما طال مكثه فيهم ولم يشاهدوا منه عيناً ولا اثراً عدوه من باب المحال ثم لما رأوا اشتغاله باسباب الخلاص من ذلك فعلوا ما فعلوا ومدار الجميع انكار ان يكون لعمله عليه السلام عاقبة حميدة مع ما فيه من تحمل المشاق العظيمة التي لا يكاد تطاق واستجهاله عليه السلام في ذلك قال ان تسخروا منا مستجهلين لنا فيما نحن فيه فانا نسخر منكم اي نستجهلكم فيما انتم عليه واطلاق السخرية عليه للمشاكلة وجمع الضمير في منا اما لان سخريتهم منه عليه السلام سخرية

من المؤمنين ايضاً ولانهم كانوا يسخرون منهم ايضاً الا انه اكتفى بذكر سخريتهم منه عليه السلام
ولذلك تعرّض الجميع للمجازاة في قوله تعالى فانا نسخر منكم الخ فتكافأ الكلام من الجانبين و
تعليق استجهاله عليه السلام اياهم بما فعلوا من السخرية باعتبار اظهاره ومشافهته
عليه السلام اياهم بذلك والا فعدّه عليه السلام اياهم جاهلين فيما يأتون ويذرون
امر مطّرد لا تعلّق له بسخريتهم منهم لكنه عليه السلام لم يكن يتصدّى للاظهار جرياً
على نهج الاخلاق الحميدة وانما اظهره جزاءً بما صنعوا بعد اللتيا والتي فان سخريتهم كانت
مستمرة ومتجددة حسب تجدد مرورهم فيه ولم يكن يجيبهم في كل مرة والا لقيل
ويقول ان تسخروا منا الخ بل انما اجابهم بعد بلوغ اذاهم الغاية كما يؤذن به الاستئناف
فكان سائلاً سأل فقال فما صنع نوح عند بلوغهم منه هذا المبلغ فقيل قال ان تسخروا منا
اي تنسبونا فيما نحن بصدده من التأهب والمباشرة لاسباب الخلاص من العذاب الى
الجهل وتسخروا منا لاجله فانا ننسبكم اليه فيما انتم فيه من الاعراض عن استدفاعه بالايمان
والطاعة ومن الاستمرار على الكفر والمعاصي والتعرض لاسباب حلول سخط الله تعالى
التي من جملتها استجهالكم ايانا وسخريتكم منا والتشبيه في قوله عز وجل كما تسخرون
اما في مجرد التحقق والوقوع او في التجدد والتكرار حسبما صدر عن ملاءٍ غب ملاءٍ لا
في الكيفيات والاحوال التي لا تليق بشأن النبي عليه السلام فكلا الامرين واقع في الحال
وقيل نسخر منكم في المستقبل سخرية مثل سخريتكم اذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق
في الآخرة ولعل مراده نعاملكم معاملة من يفعل ذلك لان نفس السخرية مما لا يكاد
يليق بمنصب النبوة ومع ذلك لا سداد له لان حالهم اذ ذاك ليس مما يلائمه السخرية
او ما يجري مجراها فتأمل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه وهو عذاب الغرق
ويحل عليه حلول الدين المؤجل عذاب مقيم هو عذاب النار الدائم وهو تهديد
بليغ ومن عبارة عنهم فهي اما استفهامية في حيّز الرفع او موصولة في محل
النصب بتعلمون وما في حيزها ساد مسد مفعولين او مفعول واحد ان جعل العلم
بمعنى المعرفة ولما كان سخريتهم استجهالهم اياه عليه السلام في مكابدة المشاق
الفادحة لدفع ما لا يكاد يدخل تحت الصحة على زعمهم من الطوفان ومقاسات
الشدائد في بناء السفينة وكانوا يعدّونه عذاباً قيل بعد استجهالهم فسوف تعلمون
من يأتيه العذاب يعني ان ما اباشره ليس فيه عذاب لاحق بي فسوف تعلمون من المعذب
ولقد اصاب العلم بعد استجهالهم محزه ووصف العذاب بالاخزاء في الاستهزاء والسخرية
من لحوق الخزي والعار عادة والتعرض لحلول العذاب المقيم للمبالغة في التهديد و
تخصيصه بالمؤجل وايراد الاول بالاتيان في غاية الجزالة حتى اذا جاء امرنا حتى هي
التي يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية وهي مع ذلك غاية لقوله ويصنع وما
بينهما حال من الضمير فيه وسخروا منه جواب لكلما وقال استئناف على تقدير سؤال سائل
كما ذكرناه وقيل هو الجواب وسخروا منه بدل من مر او صفة الملأ وقد عرفت ان
الحق هو الاول لان المقصود بيان تناهيهم في ايذائه عليه السلام وتحمّله لاذيتهم
لا مسارعته عليه السلام الى جوابهم كلما وقع منهم ما يؤذيه من الكلام وفار التنور
نبع منه الماء وارتفع بشدة كما يفور القدر بغليانها والتنور تنور الخبز وهو قول الجمهور
روي انه قيل لنوح عليه السلام اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب ومن معك
في السفينة فلما نبع الماء اخبرته امرأته فركب وقيل كان تنور آدم عم وكان
من حجارة فصار الى نوح وانما نبع منه وهو ابعد شيء من الماء على خرق العادة وكان
في الكوفة في موضع مسجدها عن يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان عمل السفينة
في ذلك الموضع او في الهند او في موضع بالشام يقال له عين وردة وعن ابن عباس
رضي الله عنهما وعكرمة والزهري ان التنور وجه الارض وعن قتادة اشرف
موضع في الارض اي اعلاه وعن علي رضي الله عنه فار التنور طلع الفجر قلنا
احمل فيها اي في السفينة وهو جواب اذا من كل اي من كل نوع لا بد منه في الارض

زوجين الزوج ما له مشاكل من نوعه فالذكر زوج للانثى كما هي زوج له وقد يطلق
على مجموعهما فيقابل الفرد ولازالة ذلك الاحتمال قيل اثنين كل منهما زوج للآخر و
قرئ على الاضافة وانما قدّم ذلك على اهله وسائر المؤمنين لكونه عريقاً فيما امر به
من الحمل لانه يحتاج الى مزاولة الاعمال منه عليه السلام في تمييز بعضه من بعض وتعيين
الازواج فانه روي انه عليه السلام قال يا رب كيف احمل من كل زوجين اثنين
فحشر الله تعالى اليه السباع والطير وغيرها فجعل يضرب بيديه في كل جنس فيقع الذكر
في يده اليمنى والانثى في اليسرى فيجعلها في السفينة واما البشر فانما يدخل الفلك باختياره
فيخف فيه معنى الحمل او لانه انما يحمل بمباشرة البشر وهم انما يدخلونها بعد حملهم
اياها واهلك عطف على زوجين او على اثنين والمراد امرأته وبنوه ونساؤهم
الا من سبق عليه القول بانه من المغرقين بسبب ظلمهم في قوله تعالى ولا تخاطبني
في الذين ظلموا الآية والمراد به ابنه كنعان وامه واعلة فانهما كانا كافرين والاستثناء
منقطع ان اريد بالاهل الاهل ايماناً وهو الظاهر كما ستعرفه او متصل ان اريد به الاهل
قرابة ويكفي في صحة الاستثناء المعلومية عند المراجعة الى احوالهم والتفحص عن
اعمالهم وجيء بعلى لكون السابق ضاراً لهم كما جيء باللام فيما هو نافع لهم في قوله
تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين وقوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى
ومن آمن من غيرهم وافراد الاهل منهم للاستثناء المذكور وايثار صيغة الافراد
في آمن محافظة على لفظ من للايذان بقلتهم كما اعرب عنه قوله عز قائلاً وما
آمن معه الا قليل قيل كانوا ثمانية نوح عليه السلام واهله وبنوه الثلاثة و
نساؤهم وعن ابن اسحاق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة وعنه ايضاً انهم كانوا
عشرة سوى نسائهم وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأة واولاد نوح سام وحام و
يافث ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء واعتبار المعية
في ايمانهم للايماء الى المعية في مقر الامان والنجاة وقال اي نوح عليه السلام
لمن معه من المؤمنين كما ينبئ عنه قوله تعالى ان ربي لغفور رحيم ولو رجع الضمير الى الله
تعالى لناسب ان يقال ان ربكم ولعل ذلك بعد ادخال ما امر بحمله في الفلك من الازواج
كانه قيل فحمل الازواج او ادخلها في الفلك وقال للمؤمنين اركبوا فيها كما سيأتي
مثله في قوله تعالى وهي تجري بهم والركوب العلو على شيء متحرك ويتعدى بنفسه و
استعماله ههنا بكلمة في ليس لان المأمور به كونهم في جوفها لا فوقها كما ظن فان
اظهر الروايات انه عليه السلام جعل الوحوش ونظائرها في البطن الاسفل والانعام
في الاوسط وركب هو ومن معه في الاعلى بل لرعاية جانب المحلية والمكانية في الفلك
والسر فيه ان معنى الركوب العلو على شيء له حركة اما ارادية كالحيوان او قسرية كالسفينة
والعجلة ونحوهما فاذا استعمل في الاول يوفر له حظ الاصل فيقال ركبت الفرس وعليه
قوله عز من قائل والخيل والبغال والحمير لتركبوها وان استعمل في الثاني يلوح بمحلية
المفعول بكلمة في فيقال ركبت في السفينة وعليه الآية الكريمة وقوله عز قائلاً
فاذا ركبوا في الفلك وقوله تعالى فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة خرقها بسم الله
متعلق باركبوا حال من فاعله اي اركبوا مسمين الله تعالى او قائلين بسم الله مجريها
ومرسيها نصب على الظرفية اي وقت اجرائها وارسائها على انهما اسما زمان او
مصدران كالاجراء والارساء بحذف الوقت كقولك آتيك خفوق النجم او اسما مكان
انتصابهما بما في بسم الله من معنى الفعل وارادة القول ويجوز ان يكون بسم الله مجراها و
مرساها جملة مستقلة من مبتدأ وخبر في موضع الحال من ضمير الفلك اي اركبوا فيها مجراها ومرساها
باسم الله تعالى بمعنى التقدير كقوله تعالى ادخلوها خالدين او جملة مقتضبة على ان نوحاً عم
امرهم بالركوب فيها ثم اخبرهم بان اجراها وارساها باسم الله فيكونان كلامين له عليه السلام
قيل كان عليه السلام اذا اراد ان يجريها يقول بسم الله واذا اراد ان يرسيها يقول
بسم الله فترسو ويجوز ان يكون الاسم مقحماً كما في قوله الى الحول ثم اسم السلام عليكما

ويراد بالله اجراؤها وارساؤها اى بقدرته وامره وقرئ مجريها ومرسيها على صيغة
الفاعل مجرورين صفتين لله عز اسمه ومجراها ومرساها بفتح الميم مصدرين او زمانين
او مكانين من جرى ورسا ان ربى لغفور للذنوب والخطايا رحيم لعباده ولذلك
نجاكم من هذه الطامة والداهية التامة ولولا ذلك لما فعله وفيه دلالة على ان
نجاتهم ليست بسبب استحقاقهم لها بل بمحض فضل الله سبحانه وغفرانه ورحمته على
ما عليه رأى اهل السنة وهى تجرى بهم متعلق بمحذوف دل عليه الامر بالركوب اى
فركبوا فيها مسمين وهى تجرى ملتبسة بهم فى موج كالجبال وهو ما ارتفع من الماء
عند اضطرابه كل موجة من ذلك كجبل فى ارتفاعها وتراكمها وما قيل من ان الماء
طبق ما بين السماء والارض وكانت السفينة تجرى فى جوفه كالحوت فغير ثابت والمشهور
انه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعا واربعين ذراعا ولئن صح ذلك فهذا الجريان
انما هو قبل ان يتفاقم الخطب كما يدل عليه قوله تعالى ونادى نوح ابنه فان ذلك
انما يتصور قبل ان ينقطع العلاقة بين السفينة والبر اذ حينئذ يمكن جريان ما جرى
بين نوح عم وبين ابنه من المفاوضة بالاستدعاء الى السفينة والجواب بالاعتصام
بالجبل وقرئ ابنها وابنه بحذف الالف على ان الضمير لامرأته وكان ربيبه وما يقال من
انه كان لغير رشدة لقوله تعالى فخانتاهما فارتكاب عظيمة لا يقادر قدرها فان جناب
الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم ارفع من ان يشار اليه باصبع الطعن وانما المراد
بالخيانة الخيانة فى الدين وقرئ ابناه على الندبة ولكونها حكاية حذف حرفها وانت
خبير بانه لا يلايمه الاستدعاء الى السفينة فانه صريح فى انه لم ييأس من حيوته بأس
بعد وكان فى معزل اى فى مكان عزل فيه نفسه عن ابيه واخوته وقومه بحيث
لم يتناوله الخطاب باركبوا واحتاج الى النداء المذكور وقيل هو فى معزل من الكفار قد
انفرد عنهم وظن نوح انه يريد مفارقتهم ولذلك دعاه الى السفينة وقيل كان ينافق
اباه فظن انه مؤمن وقيل كان يعلم انه كافر الى ذلك الوقت لكنه عليه السلام ظن
انه عند مشاهدة تلك الاهوال ينزجر عما كان عليه ويقبل الايمان وقيل لم يكن
الذى تقدم من قوله تعالى الا من سبق عليه القول نصا فى كونه ابنه داخلا تحته
بل كان كالمجمل فحملته شفقة الابوة على ذلك يا بنى قرئ بالفتح اقتصارا عليه من الالف
المبدلة من ياء الاضافة فى قولك يا بنيا وقرئ بكسر الياء اقتصارا عليه من ياء الاضافة
او سقط الياء والالف لالتقاء الساكنين لان الراء بعدهما ساكنة اركب معنا
قرأ ابو عمرو والكسائى وحفص بادغام الباء فى الميم لتقاربهما فى المخرج وانما اطلق
الركوب عن ذكر الفلك لتعينها وللايذان بضيق المقام حيث حال الجريض دون القريض
مع استغناء المعية عن ذكر ولا تكن مع الكافرين اى فى المكان وهو وجه الارض خارج
الفلك لا فى الدين وان كان ذلك مما يوجبه كما يوجب ركوبه معه عليه السلام كونه
معه فى الايمان لانه عليه السلام بصدد التحذير عن المهلكة فلا يلائمه النهى عن الكفر
قال ساوى الى جبل من الجبال يعصمنى بارتفاعه من الماء زعما منه ان ذلك
كساير المياه فى ازمنة السيول المعتادة التى ربما يتقى منها بالصعود الى الربى وانى
له ذلك وقد بلغ السيل الزبى وجهلا بان ذلك انما كان لاهلاك الكفرة وان لا محيص
من ذلك سوى الالتجاء الى ملجأ المؤمنين فلذلك اراد عليه السلام ان يبين له حقيقة
الحال ويصرفه عن ذلك الفكر المحال وكان مقتضى الظاهر ان يجيب بما ينطبق على كلامه
ويتعرض لنفى ما اثبته للجبل من كونه عاصما له من الماء بان يقول لا يعصمك
منه مفيدا لنفى وصف العصمة عنه فقط من غير تعرض لنفيه عن غيره ولا لنفى
الموصوف اصلا لكنه عليه السلام حيث قال لا عاصم اليوم من امر الله سلك
طريقة نفى الجنس المنتظم لنفى جميع افراد العاصم ذاتا وصفة كما فى قولهم ليس
فيه داع ولا مجيب اى احد من الناس للمبالغة فى نفى كون الجبل عاصما بالوجهين
المذكورين وزاد اليوم للتنبيه على انه ليس كساير الايام التى تقع فيها الوقائع وتلم

فيها

فيها الملمات المعتادة التى ربما يتخلص من ذلك بالالتجاء الى بعض الاسباب العادية وعبر
عن الماء فى محل اضماره بامر الله اى عذابه الذى اشير اليه حيث قيل حتى اذا جاء امرنا تفخيما
لشانه وتهويلا لامره وتنبيها لابنه على خطائه فى تسميته ماء وتوهمه انه كساير المياه
التى يتفصى منها بالهرب الى بعض المهارب المعهودة وتعليلا للنفى المذكور فان امر الله
لا يغالب وعذابه لا يرد وتمهيدا لحصر العصمة فى جناب الله عز جاره بالاستثناء كانه
قيل لا عاصم من امر الله الا هو وانما قيل الا من رحم تفخيما لشانه الجليل بالابهام
ثم التفسير وبالاجمال ثم التفصيل واشعارا بعلية رحمته فى ذلك بموجب سبقتها
على غضبه وكل ذلك لكمال عنايته عليه السلام بتحقيق ما يتوخاه من نجاة ابنه ببيان شان
الداهية وقطع اطماعه الفارغة وصرفه عن التعلل بما لا يغنى عنه شيئا وارشاده
الى العياذ بالمعاذ الحق عز حماه وقيل لا مكان يعصم من امر الله الا مكان من رحمه الله
وهو الفلك وقيل معنى لا عاصم لا ذا عصمة الا من رحمه الله تعالى وحال بينهما الموج
اى بين نوح وبين ابنه فانقطع ما بينهما من المجاوبة لا بين ابنه وبين الجبل لقوله تعالى
فكان من المغرقين اذ هو انما يتفرع على حيلولة الموج بينه عليه السلام وبين ابنه لا
بينه وبين الجبل لانه بمعزل من كونه عاصما وان لم يحل بينه وبين الملتجئ اليه موج
وفيه دلالة على هلاك ساير الكفرة على ابلغ وجه فكان ذلك امرا مقرر الوقوع غير مفتقر الى
البيان وفى ايراد كان دون صار مبالغة فى كونه منهم وقيل يا ارض ابلعى اى انشفى
استعير له من ازدراد الحيوان ما يأكله للدلالة على ان ذلك ليس كالنشف المعتاد التدريجى
ماءك اى على ما على وجهك من ماء الطوفان دون المياه المعهودة فيها من العيون
والانهار وعبر عنه بالماء بعد ما عبر عنه فيما سلف بامر الله تعالى لان المقام مقام
النقص والتقليل لا مقام التفخيم والتهويل ويا سماء اقلعى اى امسكى عن ارسال المطر
يقال اقلعت السماء اذا انقطع مطرها واقلعت الحمى اى كفت وغيض الماء اى نقص
ما بين السماء والارض من الماء وقضى الامر اى انجز ما وعد الله تعالى نوحا من اهلاك
قومه وانجائه باهله اى اتم الامر واستوت اى استقرت الفلك على الجودى هو
جبل بالموصل او بالشام او بآمل روى انه عليه السلام ركب فى الفلك فى عاشر رجب
ونزل عنها فى عاشر المحرم فصار ذلك اليوم شكرا فصار سنة وقيل بعدا للقوم الظالمين
اى هلاكا لهم والتعرض لوصف الظلم للاشعار بعليته للهلاك ولتذكير ما سبق
من قوله ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون وقد بلغت الاية الكريمة من
مراتب الاعجاز قاصيتها وملكت من غرر المزايا ناصيتها وقد تصدى لتفصيلها المهرة
المتقنون ولعمرى ان ذلك فوق ما يصفه الواصفون فحرى بنا ان نوجز الكلام فى
هذا الباب ونفوض الامر الى تأمل اولى الالباب والله عنده علم الكتاب ونادى
نوح ربه اى اراد ذلك بدليل الفاء فى قوله تعالى فقال رب ان ابنى من اهلى
وقد وعدتنى انجاءهم فى ضمن الامر بحملهم فى الفلك او النداء على الحقيقة والفاء
لتفصيل ما فيه من الاجمال وان وعدك الحق اى وعدك ذلك او ان كل وعد
تعده حق لا يتطرق اليه خلف فيدخل فيه الوعد المعهود دخولا اوليا وانت احكم
الحاكمين لانك اعلمهم واعدلهم او انت اكثر حكمة ممن ذوى الحكم على ان الحاكم
من الحكمة كالدارع من الدرع وهذا الدعاء منه عليه السلام على طريقة دعاء ايوب
عليه السلام اذ نادى ربه انى مسنى الضر وانت ارحم الراحمين قال يا نوح لما كان
دعاؤه عليه السلام بتذكير وعده جل ذكره مبنيا على كون كنعان من اهله نفى اولا كونه
منه بقوله تعالى انه ليس من اهلك اى ليس منهم اصلا لان مدار الاهلية هو القرابة
الدينية ولا علاقة بين المؤمن والكافر او ليس من اهلك الذين امرتك بحملهم على
فى الفلك لخروجه عنهم بالاستثناء وعلى التقديرين ليس هو من الذين وعد بانجائهم
ثم علل عدم كونه منهم على طريقة الاستيناف التحقيقى بقوله انه عمل غير صالح
اصله انه ذو عمل غير صالح فجعل نفس العمل مبالغة كما فى قول الخنساء فانما هى اقبال

وادبار وايثار عمل غير صالح على فاسد اما لان الفاسد ربما يطلق على ما فسد ومن شانه الصلاح
فلا يكون نصا فيما هو من قبيل الفاسد المحض كالقتل والمظالم واما للتلويح بان
نجاة من نجا انما هي لصلاحه وقرا الكسائي ويعقوب انه عمل غير صالح اى عمل عملا
غير صالح ولما كان دعاؤه عليه السلام مبنيا على ما ذكر من اعتقاد كون كنعان من
اهله وقد نفى ذلك وحقق ببيان علته فرع على ذلك النهي عن سؤال انجائه الا انه
جيء بالنهي على وجه عام يندرج فيه ذلك اندراجا اوليا فقيل فلا تسئلني اى
اذا وقفت على جلية الحال فلا تطلب مني ماليس لك به علم اى مطلبا لا تعلم
يقينا ان حصوله صواب وموافق للحكمة على تقدير كون ما عبارة عن المسؤل
الذي هو مفعول للسؤال او طلبا لا تعلم انه صواب على تقدير كونه عبارة عن المصدر
الذي هو مفعول مطلق فيكون النهي واردا بصريحه في كل من معلوم الفساد
ومشتبه الحال ويجوز ان يكون المعنى ماليس لك علم بانه صواب او غير صواب فيكون
النهي واردا في مشتبه الحال ويفهم منه حال معلوم الفساد بالطريق الاولى وعلى
التقديرين فهو عام يندرج تحته ما نحن فيه كما ذكرناه وهذا كما ترى صريح في
ان نداءه عليه السلام ربه عز وعلا ليس استفسارا عن سبب انجاء ابنه مع سبق
وعد بانجاء اهله وهو منهم كما قيل فان النهي عن استفسار ما لم يعلم غير موافق
للحكمة اذ عدم العلم بالشيء داع الى الاستفسار عنه لا الى تركه بل هو دعاء منه لانجاء
ابنه حين حال الموج بينهما ولم يعلم بهلاكه بعد اما بتقريبه الى الفلك بتلاطم الامواج
او بتقريبها اليه وقيل او بانجائه في قلة الجبل وياباه تذكير الوعد في الدعاء فانه
مخصوص بالانجاء في الفلك وقوله لا عاصم اليوم من امر الله الا من رحم ومجرد حيلولة
الموج بينهما لا يستوجب هلاكه فضلا عن العلم به لظهور امكان عصمة الله اياه
برحمته وقد وعد بانجاء اهله ولم يكن ابنه مجاهرا بالكفر كما ذكرناه حتى لا يجوز عليه
عليه السلام ان يدعوه الى الفلك او يدعو ربه لانجائه واعتزاله عنه عليه السلام
وقصده الالتجاء الى الجبل ليس بنص في الاصرار على الكفر لظهور جواز ان يكون ذلك لجهله
باختصار النجاة في الفلك وزعمه ان الجبل ايضا يجري مجراه او لكراهة الاحتباس
في الفلك بل قوله ساوي الى جبل يعصمني من الماء بعدما قال نوح عليه السلام
ولا تكن مع الكافرين ربما يطمعه عليه السلام في ايمانه حيث لم يقل اكون معهم
او ساوي او يعصمنا فان افراد نفسه بنسبة الفعلين المذكورين ربما يشعر بانفراده
من الكافرين واعتزاله عنهم وامتثاله ببعض ما امر به نوح عليه السلام الا انه عليه السلام
لو تامل في شانه حق التامل وتفحص عن احواله في كل ما ياتي ويذر لما اشتبه عليه
انه ليس بمؤمن وانه المستثنى من اهله ولذلك قيل اني اعظك ان تكون من
الجاهلين فعبر عن ترك الاولى بذلك وقرئ فلا تسئلن بغير ياء الاضافة و
بالنون الثقيلة بياء وبغير ياء قال رب اني اعوذ بك ان اسئلك اى اطلب منك
من بعد ماليس لي به علم اى مطلوبا لا اعلم ان حصوله مقتضى الحكمة او
طلبا لا اعلم انه صواب سواء كان معلوم الفساد او مشتبه الحال او لا اعلم انه
صواب او غير صواب على ما مر وهذه توبة منه عليه السلام مما وقع منه وانما لم يقل
اعوذ بك منه او من ذلك مبالغة في التوبة واظهارا للرغبة والنشاط فيها
وتبركا بذكر ما لقنه الله تعالى وهو ابلغ من ان يقول اتوب اليك ان اسئلك لما فيه من
الدلالة على كون ذلك امرا هائلا محذورا لا محيص منه الا بالعوذ بالله تعالى وان
قدرته قاصرة عن النجاة من المكاره الا بذلك والا تغفر لي ما صدر عني من
السؤال المذكور وترحمني بقبول توبتي اكن من الخاسرين اعمالا بسبب ذلك
فان الذهول عن شكر الله تعالى لا سيما عند وصول هذه النعمة الجليلة التي هي النجاة
وهلاك الاعداء والاشتغال بما لا يعني خصوصا بمبادي خلاص من قيل في شانه
انه عمل غير صالح والتضرع الى الله تعالى في امره معاملة غير رابحة وخسران مبين وتاخير

ذكر هذا النداء عن حكاية الامر الوارد على الارض والسماء وما يتلوه من زوال الطوفان وقضاء
الامر واستواء الفلك على الجودي والدعاء بالهلاك على الظالمين مع ان حقه ان يذكر
عقيب قوله تعالى فكان من المغرقين حسبما وقع في الخارج اذ حينئذ يتصور الدعاء بالانجاء
لا بعد العلم بالهلاك ليس لما قيل من استقلاله بغرض مهم هو جعل قرابة الدين غامرة
لقرابة النسب وان لا يقدم في الامور الدينية الاصولية الا بعد اليقين قياسا على
ما وقع في قصة البقرة من تقديم ذكر الامر بذبحها على ذكر القتيل الذي هو اول القصة
وكان حقها ان يقال واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها
كما قرر في موضعه فان تغيير الترتيب هناك للدلالة على كمال سوء حال اليهود بتعديد جناياتهم
المتفرعة وتثنية التقريع عليهم بكل نوع نوع على حدة فقوله تعالى واذ قال موسى لقومه
ان الله يامركم ان تذبحوا بقرة الخ لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة الى
الامتثال وما يتبع ذلك وقوله تعالى واذ قتلتم نفسا الخ للتقريع على قتل النفس المحرمة
وما تبعه من الامور العظيمة ولو قصت القصة على ترتيبها لفات الغرض الذي هو تثنية
التقريع ولظن ان المجموع تقريع واحد واما ما نحن فيه فليس مما يمكن ان يراعى
فيه مثل تلك النكتة اصلا وما ذكر من جعل القرابة الدينية غامرة للقرابة النسبية
الخ لا يفوت على تقدير سوق الكلام على ترتيب الوقوع ايضا لان ذكر هذا النداء كما ترى مستدع
لذكر ما مر من الجواب المستدعي لذكر ما مر من توبته عليه السلام المؤدي لذكرها
الى ذكر قبولها في ضمن الامر الوارد بنزوله عليه السلام من الفلك بالسلام والبركات
الفائضة عليه وعلى المؤمنين حسبما سيجيء مفصلا ولا ريب في ان هذه المعاني
اخذ بعضها بحجزة بعض بحيث لا يكاد يفرق الايات الكريمة المنطوية عليها بعضها
من بعض وان ذلك انما يتم بتمام القصة ولا ريب ان ذلك انما يكون بتمام الطوفان
فلا جرم اقتضى الحال ذكر تمامها قبل هذا النداء وذلك انما يكون عند ذكر كون كنعان
من المغرقين ولهذه النكتة ازداد حسن موقع الايجاز البليغ وفيه فائدة اخرى
هي التصريح بهلاكه من اول الامر ولو ذكر النداء الثاني عقيب قوله فكان من المغرقين
لربما توهم من اول الامر الى ان يرد قوله تعالى انه ليس من اهلك الخ انه ينجو بدعائه
عليه السلام بنص على هلاكه من اول الامر ثم ذكر الامر الوارد على الارض والسماء الذي
هو عبارة عن تعلق الارادة الربانية الازلية بما ذكر من الغيض والاقلاع وبين بلوغ
امر الله محله وجريان قضائه ونفوذ حكمه عليهم بهلاك من هلك ونجاة من نجا
بتمام الطوفان واستواء الفلك على الجودي فقص القصة الى هذه المرتبة وبين ذكر
الى بيان ثم تعرض لما وقع في تضاعيف ذلك مما جرى بين نوح وبين رب العزة
جلت حكمته فذكر بعد توبته عليه السلام قبولها بقوله قيل يا نوح اهبط اى انزل
من الفلك وقرئ بضم الباء بسلام ملتبسا بسلامة من المكاره كائنة منا او بسلام
وتحية منا عليك كما قال سلام على نوح في العالمين وبركات عليك اى خيرات نامية
في نسلك وما يقوم به معاشك ومعاشهم من انواع الارزاق وقرئ بركة وهذا
اعلام وبشارة من الله تعالى بقبول توبته وخلاصه من الخسران بفيضان انواع
الخيرات عليه في كل ما ياتي وما يذر وعلى امم ناشئة ممن معك متشعبة
منهم فمن ابتدائية والمراد الامم المؤمنة المتناسلة ممن معه الى يوم القيمة
وامم سنمتعهم اى ومنهم على انه خبر حذف لدلالة ما سبق عليه فان ايراد
الامم المبارك عليهم المتشعبة منهم نكرة يدل على ان بعض من يتشعب منهم
ليسوا على صفتهم يعني ليس جميع من تشعب منهم مسلما ومباركا عليه بل منهم
امم ممتعون في الدنيا معذبون في الاخرة وعلى هذا لا يكون الكائنون مع نوح عليه
السلام مسلما عليهم ومباركا صريحا وانما يفهم ذلك من كونهم مع نوح
عليه السلام ومن كون ذرياتهم كذلك بدلالة النص ويجوز ان يكون من بيانية
اى وعلى امم هم الذين معك وانما سموا امما لانهم امم متحزبة وجماعات متفرقة ولان

جميع الامم انما تشعبت منهم فحينئذ يكون المراد بالامم المشار اليهم في قوله تعالى
وامم سنمتعهم بعض الامم المتشعبة منهم وهي الامم الكافرة المتناسلة منهم الى
يوم القيمة ويبقى امر الامم المؤمنة الناشئة منهم منهما غير متعرض له ولا مدلول عليه
ومع ذلك ففي دلالة المذكور على خبره المحذوف خفاء لان من المذكور بيانية
والمحذوف تبعيضية او ابتدائية فتأمل ثم يمسهم اما في الآخرة او في الدنيا
ايضا منا عذاب اليم عن محمد بن كعب القرظي دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة
الى يوم القيمة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر وعن ابن زيد هبطوا والله عنهم
راض ثم اخرج منهم نسلا منهم من رحم ومنهم من عذب وقيل المراد بالامم الممتعة
قوم هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام وبالعذاب ما نزل بهم تلك اشارة
الى ما قص من قصة نوح عليه السلام اما لكونها بتقضيها في حكم البعيد او لدلالة
على بعد منزلتها وهي مبتدأ خبره من انباء الغيب اي من جنسها اي ليست من
قبيل سائر الانباء بل هي نسيج وحدها متفردة عما عداها او بعضها نوحيها اليك
خبر ثان والضمير لها اي موحاة اليك او هو الخبر ومن انباء متعلق به فالتعبير بصيغة
المضارع لاستحضار الصورة او حال من انباء الغيب اي موحاة اليك ما كنت تعلمها
انت ولا قومك خبر آخر اي مجهولة عندك وعند قومك من قبل هذا اي من
قبل ايحائنا اليك واخبارك بها او من قبل هذا العلم الذي كسبته بالوحي او من
قبل هذا الوقت او حال من الهاء في نوحيها او الكاف في اليك اي جاهلا انت وقومك
بها وفي ذكر جهلهم تنبيه على انه عليه السلام لم يتعلم اذ لم يخالط غيرهم و
انهم مع كثرتهم لما لم يعلموها فكيف يؤخذ منهم فاصبر متفرع على الايحاء او العلم المستفاد
منه المدلول عليه بقوله ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا اي واذ اوحيناها اليك
او علمتها بذلك فاصبر على مشاق تبليغ الرسالة واذية قومك كما صبر نوح على ما سمعته
من انواع البلايا في هذه المدة المتطاولة وهذا ناظر الى ما سبق من قوله تعالى فلعلك
تارك بعض ما يوحى اليك الخ ان العاقبة بالظفر في الدنيا وبالفوز في الآخرة للمتقين
كما شاهدته في نوح عليه السلام وقومه ولك فيه اسوة حسنة وهي تسلية لرسول الله
صلى الله عليه وسلم وتعليل للامر بالصبر فان كون العاقبة الحميدة للمتقين وهو
في اقصى درجات التقوى والمؤمنون كلهم متقون مما يسليه عليه ويهون عليه
الخطوب ويذهب عنه ما عسى يعتريه من ضيق صدر وهذا على تقدير ان يراد بالتقوى
الدرجة الاولى منه اعني التوقي من العذاب المخلد بالتبري عن الشرك وعليه قوله تعالى
والزمهم كلمة التقوى ويجوز ان يراد الدرجة الثالثة منه وهي ان يتنزه عما يشغل
سره عن الحق ويتبتل اليه بشراشره وهو التقوى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى اتقوا الله
حق تقاته فان التقوى بهذا المعنى منطو على الصبر المذكور فكانه قيل فاصبر فان العاقبة
للصابرين والى عاد متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى ارسلنا في قصة نوح وهو الناصب
لقوله تعالى اخاهم اي وارسلنا الى عاد اخاهم اي واحدا منهم في النسب كقولهم
يا اخا العرب وتقديم المجرور على المنصوب ههنا للحذار عن الاضمار قبل الذكر و
قيل متعلق بالفعل المذكور فيما سبق واخاهم معطوف على نوحا وقد مر في سورة
الاعراف وقوله تعالى هودا عطف بيان لاخاهم وكان عليه السلام من جملتهم
فانه هود بن عبد الله بن رياح ابن الخلود بن عوص بن ارم بن سام بن نوح وقيل
هود بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح ابن عم ابي عاد وانما جعل منهم لانهم
افهم لكلامه واعرف بحاله وارغب في اقتفائه قال لما كان ذكر رسالته عم اليهم
مظنة للسؤال عما قال لهم ودعاهم اليه اجيب عنه بطريق الاستئناف فقيل قال
يا قوم اعبدوا الله اي وحده كما ينبئ عنه قوله تعالى ما لكم من اله غيره فانه
استئناف يجري مجرى البيان للعبادة المأمور بها والتعليل للامر بها كانه قيل خصوه
بالعبادة ولا تشركوا به شيئا اذ ليس لكم من اله سواه وغيره بالرفع صفة لاله باعتبار محله وقرئ

بالجر حملا على لفظه ان انتم ما انتم باتخاذكم الاصنام شركاء له او بقولكم ان الله
امرنا بعبادتها الا مفترون عليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا يا قوم لا اسألكم عليه
اجرا ان اجري الا على الذي فطرني خاطب به كل نبي قومه ازاحة لما عسى يتوهمونه
وامحاضا للنصيحة فانها ما دامت مشوبة بالمطامع بمعزل عن التأثير وايراد الموصول
للتفخيم وجعل الصلة فعل الفطرة لكونه اقدم النعم الفائضة من جناب الله تعالى
المستوجبة للشكر الذي لا يتأتى الا بالجريان على موجب امره الغالب معرضا عن المطالب
الدنيوية التي من جملتها الاجر افلا تعقلون اي اتغفلون عن هذه القضية او لا
تتفكرون فيها فلا تعقلونها او تجهلون كل شيء فلا تعقلون شيئا اصلا فان هذا
مما لا ينبغي ان يخفى على احد من العقلاء ويا قوم استغفروا ربكم اي اطلبوا مغفرته
لما سلف منكم من الذنوب بالايمان والطاعة ثم توبوا اليه اي توسلوا اليه
بالتوبة وايضا التبري عن الغير انما يكون بعد الايمان بالله تعالى والرغبة فيما عنده
يرسل السماء اي المطر عليكم مدرارا اي كثير الدرور ويزدكم قوة مضافة
ومضمومة الى قوتكم اي يضاعفها لكم وانما رغبهم بكثرة المطر لانهم كانوا
اصحاب زروع وعمارات وقيل حبس الله تعالى عنهم القطر واعقم ارحام نسائهم
ثلث سنين فوعدهم عليه السلام كثرة الامطار وتضاعف القوة بالتناسل
على الايمان والتوبة ولا تتولوا اي لا تعرضوا عما ادعوكم اليه مجرمين مصرين
على ما كنتم عليه من الاجرام قالوا يا هود ما جئتنا ببينة اي بحجة تدل على صحة
دعواك وانما قالوه لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من البينات الفائتة للحصر
وما نحن بتاركي آلهتنا اي بتاركي عبادتها عن قولك اي صادرين عنه اي
صادرا تركنا عن ذلك باسناد حال الوصف الى الموصوف ومعناه التعليل
على ابلغ وجه لدلالته على كونه علة فاعلية ولا يفيده الباء واللام وهذا كقولهم
المنقول في سورة الاعراف اجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا
وما نحن لك بمؤمنين اي بمصدقين في شيء مما تأتي وتذر فيندرج تحته
ما دعاهم اليه من التوحيد وترك عبادة الآلهة وفيه من الدلالة على شدة
الشكيمة وتجاوز الحد في العتو ما لا يخفى ان نقول الا اعتراك اي ما نقول الا
قولنا اعتراك اي اصابك بعض آلهتنا بسوء بجنون لسبك اياها وصدك عن
عبادتها وحطك لها عن رتبة الالوهية والمعبودية بما مر من قولك ما لكم من اله
غيره ان انتم الا مفترون والتنكير في سوء للتقليل كانهم لم يبالغوا في العتو كما
ينبئ عنه نسبة ذلك الى بعض آلهتهم دون كلها والجملة مقول القول والا لغو
لان الاستثناء مفرغ وهذا الكلام مقرر لما مر من قولهم وما نحن بتاركي آلهتنا
عن قولك وما نحن لك بمؤمنين فان اعتقادهم بكونه عليه السلام كما قالوا
وحاشاه عن ذلك يوجب عدم الاعتداد بقوله وعده من قبيل الخرافات فضلا عن التصديق
والعمل بمقتضاه يعنون انا لا نعتقد كلامك الا من قبيل ما لا يحتمل الصدق والكذب من الهذيانات
الصادرة عن المجانين فكيف نصدقه ونؤمن به ونعمل بموجبه ولقد سلكوا في طريق المخالفة
والعناد الى سبيل الترقي من الادنى الى الاعلى حيث اخبروا اولا عن عدم مجيئه بالبينة
مع احتمال كون ما جاء به عليه السلام حجة في نفسه وان لم يكن واضحة الدلالة على
المراد وثانيا عن ترك الامتثال بقوله عليه السلام بقولهم وما نحن بتاركي آلهتنا
عن قولك مع امكان تحقق ذلك بتصديقهم له عليه السلام في كلامه ثم نفوا
تصديقهم له عليه السلام بقولهم وما نحن لك بمؤمنين مع كون كلامه عليه
السلام مما يقبل التصديق ثم نفوا عنه تلك المرتبة ايضا حيث قالوا ما قالوا فالهم
الله فانى يؤفكون قال اني اشهد الله واشهدوا اني بريء مما تشركون من
دونه اي من اشراككم من دون الله اي من غير ان ينزل به سلطانا كما قال
في سورة الاعراف اتجادلونني في اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما نزل الله بها

من سلطان او ممّا نشركونه من آلهة غير الله اجاب به عن مقالتهم الحمقاء المبنيّة على اعتقاد
كون آلهتهم ممّا يضرّ او ينفع وانها تعتري من ذلك و لما كان ما وقع او لا منه عليه السلام
في حق آلهتهم من كونها بمعزل عن الالوهيّة انما وقع في ضمن الامر بعبادة الله تعالى
اختصاصه بها وقد شقّ عليهم ذلك وعدّوه ممّا يورث شيئًا حتى زعموا انها تصيبه
عليه السلام بسوء مجازاة الصّنيعة معها صرّح عليه السلام بالحقّ وصدع به حيث
اخبر ببراءته القديمة عنها بالجملة الاسميّة المصدّرة بانّ واشهد الله تعالى على ذلك وامرهم
بان يسمعوا ذلك ويشهدوا به استهانة بهم ثمّ امرهم بالاجتماع والاحتشاد
مع آلهتهم جميعًا دون بعض منها حسبما يشعر به قولهم بعض آلهتنا والتعاون
في ايصال الكيد اليه عليه السلام ونهاهم عن الانظار والامهال في ذلك فقال
فكيدوني جميعًا ثمّ لا تنظرون اى ان صحّ ما لوّحتم به من كون آلهتكم ممّا يقدر
على اضرار من ينال منها ويصدّ عن عبادتها ولو بطريق ضمنيّ فانّي بريء منها فكونوا
انتم معها جميعًا وباشروا كيدي ثمّ لا تمهلوني ولا تسامحوني في ذلك فالفاء لتفريع
الامر على زعمهم في قدرة آلهتهم على ما قالوا وعلى البراءة كليهما وهذا من اعظم المعجزات
فانه عليه السلام كان رجلًا مفردًا بين الجمّ الغفير والجمع الكثير من عتاة عاد الغلاظ
الشداد وقد خاطبهم بما خاطبهم وحقّرهم وآلهتهم وهيّجهم على مباشرة
مبادي المضادّة والمضارّة وحثّهم على التصدّي لاسباب المعاداة والمعارّة فلم يقدروا
على مباشرة شيء ممّا كلّفوه وظهر عجزهم عن ذلك ظهورًا بيّنًا كيف لا وقد التجا الى ركن
منيع رفيع واعتصم بحبل متين حيث قال انّي توكّلت على الله ربّي وربّكم
يعني انّكم وان بذلتم في مضارّي مجهودكم لا تقدرون على شيء ممّا تريدون
بي فانّي متوكّل على الله تعالى وانّما جيء بلفظ الماضي لكونه ادلّ على الانشاء المناسب للمقام وواثق
بكلائي وحفظي عن غوائلكم وهو مالكي ومالككم لا يصدر عنكم شيء ولا يصيبني امر الّا
بارادته ومشيّته ثمّ برهن عليه بقوله ما من دابّة الّا هو آخذ بناصيتها اى الّا هو مالك
لها قادر عليها يصرّفها كيف يشاء غير مستعصية عليه فانّ الاخذ بالناصية تمثيل لذلك
انّ ربّي على صراط مستقيم تعليل لما يدلّ عليه التوكّل من عدم قدرتهم على اضراره
اى هو على الحقّ والعدل فلا يكاد يسلّطكم عليّ اذ لا يضيع عنده معتصم ولا يفات
عليه ظالم والاقتصار على اضافة الربّ الى نفسه امّا بطريق الاكتفاء لظهور المراد وامّا لانّ فائدة كونه
تعالى على الحقّ والعدل راجعة اليه عليه السلام فان تولّوا اى تتولّوا بحذف احدى التائين اى ان تستمرّوا على
ما كنتم عليه من التولّي والاعراض فقد ابلغتكم ما ارسلت به اليكم اى لم اعاتب على تفريط
في الابلاغ وكنتم محجوجين فابيتم الّا التكذيب والجحود ويستخلف ربّي قومًا غيركم
استيناف بالوعيد لهم بانّ الله تعالى يهلكهم ويستخلف في ديارهم واموالهم قومًا آخرين
او عطف على الجواب بالفاء ويؤيّده قراءة ابن مسعود رضي الله عنهما بالجزم عطفًا على
الموضع كانه قيل فان تولّوا يعذرني ويهلككم ويستخلف مكانكم آخرين وفي اقتصار
اضافة الربّ عليه عليه السلام رمز الى اللطف به والتدمير للمخاطبين ولا تضرّونه
بتولّيكم شيئًا من الضرر لاستحالة ذلك عليه ومن جزم ويستخلف اسقط منه النون
انّ ربّي على كلّ شيء حفيظ اى رقيب مهيمن فلا يخفى عليه اعمالكم فيجازيكم بحسبها
او حافظ مستولٍ على كلّ شيء فكيف يضرّه شيء وهو الحافظ للكلّ ولمّا جاء امرنا اى
نزول عذابنا وفي التعبير عنه بالامر مضافًا الى ضميره جلّ جلاله وعن نزوله بالمجيء ما لا
يخفى من التفخيم والتهويل او ورد امرنا بالعذاب نجّينا هودًا والذين آمنوا معه وكانوا
اربعة آلاف برحمة عظيمة كائنة منّا وهي الايمان الذي انعمنا به عليهم بالتوفيق له والهداية
اليه ونجّيناهم من عذاب غليظ اى كانت تلك التنجية تنجية من عذاب غليظ وهي
السموم التي كانت تدخل انوف الكفرة وتخرج من ادبارهم فتقطعهم اربًا اربًا وقيل اريد بالثانية
التنجية من عذاب الآخرة ولا عذاب اغلظ منه واشدّ وهذه التنجية وان لم تكن
مقيّدة بمجيء الامر لكن جيء بها تكملة للنعمة عليهم وتعريضًا بان المهلكين كما عذّبوا في

والمضادة

في الدنيا بالسموم فهم معذّبون في الآخرة بالعذاب الغليظ وتلك عاد انّث اسم الاشارة
باعتبار القبيلة او لانّ الاشارة الى قبورهم وآثارهم جحدوا بآيات ربّهم كفروا بها
بعد ما استيقنوها وعصوا رسله جمع الرسل مع انه لم يرسل اليهم غير هود عليه
السلام تفظيعًا لحالهم واظهارًا لكمال كفرهم وعنادهم ببيان انّ عصيانهم له عصيان
لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد لا نفرّق بين احد من
رسله فيجوز ان يراد بالآيات ما اتى به هود وغيره من الانبياء عليهم السلام وفيه زيادة
ملاءمة لما تقدّم من جميع الآيات وما تأخّر من قوله واتّبعوا امر كلّ جبّار عنيد من
كبرائهم ورؤسائهم الدعاة الى الضلال والى تكذيب الرسل فكانه قيل عصوا كلّ رسول
واتّبعوا امر كلّ جبّار وهذا الوصف ليس كما سبق من جحود الآيات وعصيان الرسل في الشمول
لكلّ فرد فرد منهم فانّ الاتباع للامر من اوصاف الاسافل دون الرؤساء والعنيد فعيل
من عند عندًا او عنودًا اذا طغى والمعنى عصوا من دعاهم الى الهدى واطاعوا من
دعاهم الى الردى واتّبعوا في هذه الدنيا لعنة ابعادًا عن الرحمة وعن كلّ خير
اى جعلت اللعنة لازمة لهم وعبّر عن ذلك بالتبعيّة للمبالغة فكانها لا تفارقهم وان ذهبوا
كلّ مذهب بل تدور معهم حيثما داروا ولوقوعه في صحبة اتباعهم رؤساءهم يعني انهم
لما اتّبعوا ذلك جزاء لصنيعهم جزاءً وفاقًا ويوم القيمة اى اتّبعوا يوم القيمة ايضًا لعنة و
هي عذاب النار المخلّد حذفت لدلالة الاولى عليها وللايذان بكون كلّ من اللعنتين نوعًا
برأسه لم يجتمعا بقرن واحد بان يقال واتّبعوا في هذه الدنيا ويوم القيمة لعنة كما في قوله تعالى
واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ايذانًا باختلاف نوعي الحسنتين فانّ المراد
بالحسنة الدنيويّة نحو الصحّة والكفاف والتوفيق للخير وبالحسنة الاخرويّة الثواب والرحمة
الا انّ عادًا كفروا ربّهم اى بربّهم او نعمة ربّهم حملًا له على نقيضه الذي هو الشكر او جحدوه الا بعدًا لعاد
دعاء عليهم بالهلاك مع كونهم هالكين اى هلاكًا تسجيلًا عليهم باستحقاق الهلاك واستجاب
الدمار وتكرير حرف التنبيه واعادة عاد للمبالغة في تفظيع حالهم والحثّ على الاعتبار
بقصّتهم قوم هود عطف بيان لعاد فائدته التمييز عن عاد الثانية عاد ارم والايماء
الى انّ استحقاقهم للبعد بسبب ما جرى بينهم وبين هود عليه السلام وهم قومه
والى ثمود اخاهم صالحًا عطف على ما سبق من قوله تعالى والى عاد اخاهم هودًا وثمود
قبيلة من العرب سمّوا باسم ابيهم الاكبر ثمود بن عابر بن ارم بن سام وقيل انما سمّوا
بذلك لقلّة مائهم من الثمد وهو الماء القليل وصالح عليه السلام هو ابن عبيد ابن آسف
بن ماشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ولمّا كان الاخبار بارساله اليهم مظنّة لان يسأل
ويقال ماذا قال لهم قيل جوابًا عنه بطريق الاستيناف قال يا قوم اعبدوا الله اى
وحده وعلّل ذلك بقوله ما لكم من اله غيره ثمّ زيد فيما يبعثهم على الايمان والتوحيد
ويحثّهم على زيادة الاخلاص فيه بقوله هو انشأكم من الارض اى هو كوّنكم
وخلقكم منها لا غيره فانّ خلق آدم عليه السلام منها خلق
لجميع افراد البشر منها لما مرّ مرارًا من خلقته عليه السلام لم تكن مقصورة على نفسه
بل كانت انموذجًا منطويًا على خلق جميع ذرّياته التي ستوجد الى يوم القيمة انطواءً اجماليًا
وقيل انّ خلق آدم عليه السلام وانشاء موادّ النطف التي منها خلق نسله من التراب
انشاء لجميع الخلق من الارض فتدبّر واستعمركم من العمرى اى عمّركم واستبقاكم فيها
او من العمارة اى اقدركم على عمارتها وامركم بها وقيل هو من العمرى بمعنى اعمركم فيها
دياركم ويرثها منكم بعد انصرام اعماركم او جعلكم معمّرين دياركم تسكنون بها مدّة
عمركم ثمّ تتركونها لمن خلفكم فاستغفروه ثمّ توبوا اليه فانّ ما فصّل من فنون الاحسان
داع الى الاستغفار عمّا وقع منهم من التفريط والتوبة عمّا كانوا يباشرونه من القبائح
وقد زيد في بيان ما يوجب ذلك فقيل انّ ربّي قريب اى قريب الرحمة كقوله
تعالى انّ رحمة الله قريب من المحسنين مجيب لمن دعاه وسأله وقد روعي في النظم
الكريم نكتة حيث قدّم ذكر العلّة الباعثة المقدّمة على الامر بالاستغفار والتوبة

واخر عنه ذكر الغاية المتأخرة عنهما في الوجود اعني الاجابة قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا
اى كنا نرجوا منك لما كنا نرى منك من دلايل السداد ومخايل الرشاد ان يكون لنا سيدا
ومستشارا في الامور وعن ابن عباس رضي الله عنهما فاضلا خيرا نقدمك على جميعنا
وقيل كنا نرجوا ان تدخل في ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه قبل هذا الذى باشرته
من الدعوة الى التوحيد وترك عبادة الآلهة او قبل هذا الوقت فكانهم لم يكونوا الى
الآن على يأس من ذلك ولو بعد الدعوة الى الحق فالآن قد انصرم عنك رجاونا وقرأ
طلحة مرجوا بالمد والهمزة اتنهينا ان نعبد ما يعبد آباؤنا اى عبدوه والعدول
الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية واننا لفي شك مما تدعونا اليه من التوحيد
وترك عبادة الاصنام وغير ذلك من الاستغفار والتوبة مريب اى موقع في الريبة
من ارابه اى اوقعه في الريبة اى قلق النفس وانتفاء الطمانينة او من اراب اذا كان
ذا ريبة وايهما كان فالاسناد مجازي والتنوين فيه وفي شك للتفخيم قال يا قوم
ارايتم اى اخبروني ان كنت في الحقيقة على بينة اى حجة ظاهرة وبرهان
وبصيرة من ربي مالكي ومتولي امرى واتاني منه من جهته رحمة نبوة
وهذه الامور وان كانت محققة الوقوع لكنها صدرت بكلمة الشك اعتبارا لحال المخاطبين
ورعاية لحسن الادب والمحاورة لاستنزالهم من المكابرة فمن ينصرني من الله اى
منجيا من عذابه والعدول الى الاظهار لزيادة التهويل والفاء لترتيب انكار النصرة
على ما سبق من ايتاء النبوة وكونه على بينة من ربه على تقدير العصيان حسبما يعرب عنه قوله
تعا ان عصيته اى بالمساهلة في تبليغ الرسالة والمجاراة معكم فيما تأتون وتذرون
فان العصيان ممن ذلك شانه ابعد والمواخذة عليه الزم وانكار نصرته ادخل فما
تزيدونني اذن باستتباعكم اياى كما ينبئ عنه قولهم قد كنت فينا مرجوا قبل هذا اى
لا تفيدونني اذ لم يكن فيه اصل الخسران حتى يزيدوه غير تخسير اى غير ان تجعلوني خاسرا
بابطال اعمالي وتعريضي لسخط الله تعا او فما تزيدونني بما تقولون غير ان انسبكم الى
الخسران واقول لكم انكم لخاسرون فالزيادة على معناه والفاء لترتيب عدم الزيادة على انتفاء
الناصر المفهوم من انكاره على تقدير العصيان مع تحقق ما ينفيه من كونه عليه السلام
على بينة من ربه وايتائه النبوة ويا قوم هذه ناقة الله الاضافة للتشريف والتنبيه
على انها مفارقة لساير ما يجانسها من حيث الخلقة ومن حيث الخلق لكم آية معجزة دالة
على صدق نبوتي وهي حال من ناقة الله والعامل ما في هذه من معنى الفعل ولكم حال من آية
متقدمة عليها لكونها نكرة ولو تاخرت لكانت صفة لها ويجوز ان يكون ناقة الله
بدلا من هذه او عطف بيان ولكم خبرا وعاملا في آية فذروها خلقها وشانها تأكل في
ارض الله ترع نباتها وتشرب ماءها واضافة الارض الى الله عز وجل لتربية استحقاقها
لذلك وتعليل الامر بتركها وشانها ولا تمسوها بسوء بولغ في النهي عن التعرض لها
بما يضرها حيث نهى عن المس الذي هو من مبادى الاصابة ونكر السوء اى لا تضربوها
ولا تطردوها ولا تقربوها بشيء من السوء فضلا عن عقرها وقتلها فياخذكم عذاب
قريب اي قريب النزول روى انهم طلبوا منه ان يخرج من صخرة تسمى الكاتبة ناقة
عشراء مخترجة جوفاء وبراء فقالوا ان فعلت ذلك صدقناك فاخذ صالح عليهم مواثيقهم
لئن فعلت ذلك لتؤمنن فقالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج
بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء كما وصفوا وهم ينظرون ثم انتجت ولدا مثلها
في العظم فآمن به جندع بن عمرو في جماعة ومنع الباقين من الايمان دواب ابن عمرو
والحباب صاحب اوثانهم ورباب كاهنهم فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد
الماء غبا فما ترفع راسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها ثم تتفحج فيحلبون ما شاؤا
حتى يمتلئ اوانيهم فيشربون ويدخرون وكانت تصيف بظهر الوادي فتهرب منها
انعامهم الى بطنه وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم الى ظهره فشق عليهم ذلك فعقروها
قيل زينت عقرها لهم عنيزة ام غنم وصدقة بنت المختار فعقروها واقتسموا لحمها فرقى

سبقها جبلا اسمه قارة فرغا ثلثا فقال لهم ادركوا الفصيل عسى ان يرفع عنكم العذاب فلم
يقدروا عليه فانفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها فقال لهم صالح تمتعوا اى عيشوا
في داركم اى في منازلكم او في الدنيا ثلثة ايام قيل قال لهم تصبح وجوهكم
غدا مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب ذلك
اشارة الى ما يدل عليه الامر بالتمتع ثلثة ايام من نزول العذاب عقيبها والمراد بما فيه
من معنى البعد تفخيمه وعد غير مكذوب اي غير مكذوب فيه فحذف الجار لاتساع
المشهور كقوله ويوم شهدناه سليما وعامرا او غير مكذوب كان الواعد قال له اني بك فان
وفي به صدق والا كذب او وعد غير كذب على انه مصدر كالمجلود والمعقول فلما جاء امرنا
اى عذابنا او امرنا بنزوله وفيه ما لا يخفى من التهويل نجينا صالحا والذين آمنوا
معه متعلق بنجينا او بآمنوا برحمة بسبب رحمة عظيمة منا وهي بالنسبة الى
صالح النبوة والى المؤمنين الايمان كما مر او ملتبسين برحمة ورافة منا ومن خزي
يومئذ اى ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة كقوله تعا ونجيناهم
من عذاب غليظ على معنى انه وكانت تلك التنجية تنجية من خزي يومئذ اى من ذلة
ومهانته او ذلهم وفضيحتهم يوم القيمة كما فسر به العذاب الغليظ فيما سبق
فيكون المعنى ونجيناهم من عذاب يوم القيمة بعد تنجيتنا اياهم من عذاب الدنيا
وعن نافع بالفتح على اكتساب المضاف البناء من المضاف اليه ههنا وفي المعارج في
قوله من عذاب يومئذ وقرئ بالتنوين ونصب يومئذ ان ربك الخطاب لرسول الله
صلى الله عليه وسلم هو القوي العزيز القادر على كل شيء والغالب عليه لا غيره
ولكون الاخبار بتنجية الاولياء لاسيما عند الانباء بحلول العذاب اهم ذكرها اولا
ثم اخبر بهلاك الاعداء فقال واخذ الذين ظلموا عدل عن المضمر الى المظهر
تسجيلا عليهم بالظلم واشعارا بعليته لنزول العذاب بهم الصيحة اى صيحة
جبريل عليه السلام وقيل اتتهم من السماء صيحة فيها صوت كل صاعقة و
صوت كل شيء في الارض فتقطعت قلوبهم في صدورهم وفي سورة الاعراف
فاخذتهم الرجفة ولعلها وقعت عقيب الصيحة المستتبعة لتموج الهواء فاصبحوا
اى صاروا في ديارهم اى بلادهم او مساكنهم جاثمين هامدين موتى
لا يتحركون والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم من غير اضطراب
وحركة كما يكون ذلك عند الموت المعتاد ولا يخفى ما فيه من الدلالة على شدة الاخذ
والاخذ وسرعته اللهم انا نعوذ بك من حلول غضبك قيل لما رأوا العلامات التي
بينها صالح من اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمدوا الى قتله عليه السلام
فنجاه الله تعا الى ارض فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع وهو يوم السبت تحنطوا
وتكفنوا بالانطاع فاتتهم الصيحة فتقطعت قلوبهم فهلكوا كان لم يغنوا اى
كانهم لم يقيموا فيها في بلادهم او في مساكنهم وهو في موقع الحال اى اصبحوا جاثمين
مماثلين لمن لم يوجد ولم يقم في مقام قط الا ان ثمودا وضع موضع المضمر
لزيادة البيان ونونه ابو بكر ههنا وفي النجم وقرا حفص ههنا وفي الفرقان والعنكبوت
بغير تنوين كفروا ربهم صرح بكفرهم مع كونه معلوما مما سبق من احوالهم
تقبيحا لحالهم وتعليلا لاستحقاقهم بالدعاء عليهم بالبعد والهلاك في قوله تعا الا بعدا
لثمود وقرأ الكسائي بالتنوين ولقد جاءت رسلنا ابراهيم وهم الملائكة عن
ابن عباس رضي الله عنهما انهم جبريل عليه السلام وملكان وقيل هم جبريل وميكائيل
واسرافيل عليهم السلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن محمد بن كعب جبريل ومعه
سبعة وعن السدي احد عشر على صور الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل كانوا اثنى
عشر ملكا عليهم السلام وانما اسند اليهم مطلق المجيء بالبشرى دون الارسال لانهم
لم يكونوا مرسلين اليه عليه السلام بل الى قوم لوط لقوله تعا انا ارسلنا الى قوم لوط
وانما جاؤه لداعية البشرى ولما كان المقصود في السورة الكريمة ذكر سوء صنيع الامم السالفة

مع الرسل المرسلة اليهم ولحوق العذاب بهم بسبب ذلك ولم يكن جميع قوم ابراهيم عليه
السلام ممن يلحق العذاب بل انما لحق بقوم لوط منهم خاصة على الاسلوب المطرد
فيما سبق من قوله تعالى والى عاد اخاهم هودا والى ثمود اخاهم صالحا ثم رجع
اليه حيث قيل والى مدين اخاهم شعيبا بالبشرى اى ملتبسين بها قيل هى مطلق
البشرى المنتظمة للبشارة بالولد من سارة لقوله تعالى فبشرناها باسحاق الاية وقوله
وبشرناه بغلام حليم وقوله وبشروه بغلام عليم والبشارة بعدم لحوق الضرر
به لقوله تعالى فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى لظهور تفرع المجادلة
على مجيئها كما سيأتى وقيل هى البشارة بهلاك قوم لوط ويأباه مجادلته عليه
السلام فى شانهم والاظهر انها البشارة بالولد وسيعرف سر تفرع المجادلة على
ذلك ولما كان الاخبار بمجيئهم بالبشرى مظنة لسؤال السامع بانهم ما قالوا اجيب
بانهم قالوا سلاما اى سلمنا او سلم عليك سلاما ويجوز ان يكون نصبه بقالوا
اى قالوا قولا ذا سلام او ذكروا سلاما قال سلام اى عليكم سلام او وسلام عليكم
حياهم باحسن من تحيتهم وقرئ سلم كحرم فى حرام وقرأ ابن ابى عبلة قال
سلاما وعنه انه قرأ بالرفع فيهما فما لبث اى ابراهيم ان جاء بعجل اى فى المجئ
به او ما لبث مجيئه بعجل حنيذ اى مشوى بالرضف فى الاخدود وقيل سمين
يقطر ودكه كقوله بعجل سمين من حنذت الفرس اذا عرقته بالجلال فلما راى
ايديهم لا تصل اليه لا يمدون اليه ايديهم للاكل نكرهم اى انكرهم يقال انكره ونكره
واستنكره بمعنى وانما انكرهم لانهم كانوا اذا نزل بهم ضيف ولم يأكل من طعامهم
ظنوا انه لم يجئ بخير وقد روى انهم كانوا ينكتون بقداح كانت فى ايديهم فى اللحم
ولا تصل اليه ايديهم وهذا الانكار منه عليه السلام راجع الى فعلهم المذكور واما
انكاره المتعلق بانفسهم فلا تعلق له برؤية عدم اكلهم وانما وقع ذلك عند رؤيته
لهم لعدم كونهم من جنس ما كان يعهده من الناس الا يرى الى قوله تعالى فى سورة
الذاريات سلام قوم منكرون واوجس منهم اى احس واضمر من جهتهم
خيفة لما ظن ان نزولهم لامر انكره الله تعالى عليه او لتعذيب قومه وانما اخر المفعول
الصريح عن الظرف لان المراد الاخبار بانه عليه السلام اوجس من جهتهم شيئا هو
الخيفة لا انه اوجس الخيفة من جهتهم لا من جهة غيرهم وتحقيقه ان تأخير ما حقه
التقديم يوجب ترقب النفس اليه فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن قالوا لا تخف ما قالوه
بمجرد ما راوا منه مخايل الخوف ازالة له منه بل بعد اظهاره عليه السلام قال تعالى فى سورة
الحجر قال انا منكم وجلون ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بذلك انا ارسلنا ظاهره انه
استئناف فى معنى التعليل للنهى المذكور كما ان قوله تعالى انا نبشرك تعليل لذلك فان ارسالهم
الى قوم اخرين يوجب امنهم من الخوف اى ارسلنا بالعذاب الى قوم لوط الا انه
ليس كذلك فان قوله تعالى قال فما خطبكم ايها المرسلون قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين
صريح فى انهم قالوه جوابا عن سؤاله عليهم السلام وقد اوجز الكلام اكتفاء بذلك
وامرأته قائمة وراء الستر بحيث تسمع محاورتهم او على رؤسهم للخدمة
حسبما هو المعتاد والجملة حال من ضمير قالوا اى قالوه وهى قائمة تسمع
مقالتهم فضحكت سرورا بزوال الخوف او بهلاك اهل الفساد او بهما جميعا
وقيل بوقوع الامر حسبما كانت فيما سلف فانها كانت تقول لابراهيم اضمم اليك
لوطا فانى ارى ان العذاب نازل بهؤلاء القوم وقيل ضحكت حاضت ومنه ضحكت
الشجرة اذا سال صمغها وهو بعيد وقرئ بفتح الحاء فبشرناها باسحق اى عقبنا
سرورها بسرور اتم منه على السنة رسلنا ومن وراء اسحق يعقوب بالنصب
على انه مفعول لما دل عليه قوله فبشرناها اى ووهبنا لها من وراء اسحق يعقوب
وقرئ بالرفع على الابتداء خبره الظرف اى من بعد اسحق يعقوب مولود او
موجود او كلا الاسمين داخل فى البشارة كيحيى او واقع فى الحكاية بعد ان ولدا فسميا

بذلك وتوجيه البشارة هنا اليها مع ان الاصل فى ذلك ابراهيم عليه السلام وقد وجهت
اليه حيث قيل وبشرناه بغلام عليم للايذان بان ما بشر به يكون منهما ولكونها عقيمة
حريصة على الولد قالت استئناف ورد جوابا عن سؤال من سأل وقال فما فعلت
اذ بشرت بذلك فقيل قالت يا ويلتا اصل الويل الخزى ثم شاع فى كل امر فظيع والالف
مبدلة من ياء الاضافة كما فى يا لهفا ويا عجبا وقرأ الحسن على الاصل وامالها ابو عمرو
وعاصم فى رواية ومعناه يا ويلتى احضرى فهذا اوان حضورك وقيل هى الف الندبة
ويوقف عليها بهاء السكت أالد وانا عجوز بنت تسعين او تسع وتسعين سنة
وهذا الذى تشاهدونه بعلى اى زوجى واصل البعل القائم بالامر شيخا وكان
ابن مائة وعشرين سنة ونصبه على الحال والعامل معنى الاشارة وقرئ بالرفع على انه
خبر مبتدأ محذوف اى هو شيخ او خبر بعد خبر او هو الخبر وبعلى بدل من اسم الاشارة
او بيان له وكلتا الجملتين وقعت حالا من الضمير فى أالد لتقرير ما فيه من الاستبعاد
وتعليله اى أالد وكل منا على حالة منافية لذلك وانما قدمت بيان حالها على بيان حاله عليه السلام
لان مباينة حالها لما ذكر من الولادة اكثر اذ ربما يولد للشيوخ من الشواب اما العجائز
داؤهن عقام ولان البشارة متوجهة اليها صريحا ولان العكس فى البيان ربما يوهم
من اول الامر نسبة المانع عن الولادة الى جانب ابراهيم عليه السلام وفيه ما لا يخفى من
المحذور واقتصارها على الاستبعاد على ولادتها من غير تعرض لحال النافلة لانها المستبعد
واما ولادة ولدها فلا يتعلق بها استبعاد ان هذا اى ما ذكر من حصول الولد
من هرمين مثلنا لشئ عجيب بالنسبة الى سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده
وهذه الجملة لتعليل الاستبعاد بطريق الاستئناف التحقيقى ومقصدها استعظام
نعمة الله عز وجل عليها فى ضمن الاستعجاب العادى لا استبعاد ذلك بالنسبة
الى قدرته سبحانه وتعالى قالوا اتعجبين من امر الله اى قدرته وحكمته
او تكوينه او شأنه انكروا عليها تعجبها من ذلك لانها كانت ناشئة فى بيت النبوة
ومهبط الوحى والايات ومظهر المعجزات والامور الخارقة للعادات فكان حقها
ان تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهى سائر النساء من امثال هذه الخوارق من الطاف الله
تعالى الخفية ولطائف صنعه الفائضة على كل احد ممن يتعلق بذلك مشيئته الازلية
لا سيما على اهل بيت النبوة التى ليست مرتبتهم عند الله سبحانه كمراتب سائر الناس
وان تسبح الله تعالى وتحمده وتمجده والى ذلك اشاروا بقوله تعالى رحمة الله التى
وسعت كل شئ واستتبعت كل خير وانما وضع المظهر موضع المضمر لزيادة تشريفها
وبركاته اى خيراته النامية المتكاثرة فى كل باب التى من جملتها هبة الاولاد
وقيل الرحمة النبوة والبركات الاسباط من بنى اسرائيل لان الانبياء منهم وكلهم
من ولد ابراهيم عليه السلام عليكم اهل البيت نصب على المدح او الاختصاص
لانهم اهل بيت خليل الرحمن وصرف الخطاب من صيغة الواحدة الى جميع المذكر
لتعميم حكمه لابراهيم عليه السلام ايضا ليكون جوابهم جوابا له ايضا ان خطر
بباله والجملة كلام مستأنف علل به انكار تعجبها كانه قيل ليس المقام مقام التعجب
فان الله تعالى على كل شئ قدير ولستم يا اهل بيت النبوة والكرامة كسائر الطوائف
بل رحمته المستتبعة لكل خير الواسعة لكل شئ وبركاته اى خيراته النامية الفائضة
منه بواسطة تلك الرحمة الواسعة لازمة لكم لا يفارقكم انه حميد فاعل ما
يستوجب الحمد مجيد كثير الخير والاحسان الى عباده والجملة لتعليل ما سبق من
قوله رحمة الله وبركاته عليكم فلما ذهب عن ابراهيم الروع اى ما اوجس
منهم من الخيفة واطمأن قلبه بعرفانهم وعرفان سبب مجيئهم والفاء لربط بعض
احوال ابراهيم عليه السلام ببعض غب انفصالها بما ليس باجنبى من كل وجه
بل له مدخل تام فى السباق والسياق وتأخير الفاعل عن الظرف لانه مصب الفائدة
فان بتأخير ما حقه التقديم تبقى النفس منتظرة الى وروده فيتمكن فيها عند وروده اليها

فضل تمكن وجاءته البشرى ان فسرت البشرى بقولهم لا تخف فسببية ذهاب الخوف
ومجيء السرور للمجادلة المدلول عليها بقوله تعالى يجادلنا فى قوم لوط اى جادل
رسلنا فى شانهم وعدل الى صيغة الاستقبال لاستحضار صورتها او طفق
يجادلنا ظاهرة واما ان فسرت ببشارة الولد او بما يعمها فلعل سببيتها لها من حيث
انها تفيد زيادة اطمئنان قلب بسلامته وسلامة اهله كافة ومجادلته اياهم انه قال
لهم حين قالوا له انا مهلكوا اهل هذه القرية ارايتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين
اتهلكونها قالوا لا قال فاربعون قالوا لا قال فثلثون قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا
ارايتم ان كان فيها رجل مسلم اتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا قالوا
نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله ان قيل المتبادر من هذا الكلام ان يكون ابراهيم
عليه السلام قد علم انهم مرسلون لاهلاك قوم لوط قبل ذهاب الروع عن نفسه
ولكن لم يقدر على مجادلتهم فى شانهم لاشتغاله بشان نفسه فلما ذهب عنه الروع
فرغ لها مع ان ذهاب الروع انما هو قبل العلم بذلك لقوله تعالى قالوا لا تخف انا ارسلنا الى
قوم لوط قلنا كان لوط عليه السلام على شريعة ابراهيم عليه السلام وقومه مكلفين
بها فلما راى من الملائكة ما راى خاف على نفسه وعلى كافة امته التى من جملتهم
قوم لوط ولا ريب فى تقدم هذا الخوف على قولهم لا تخف واما الذى علمه عليه
السلام بعد النهى عن الخوف فهو اختصاص قوم لوط بالهلاك لا دخولهم
تحت العموم فتامل والله الموفق ان ابراهيم لحليم غير عجول على الانتقام
ممن اساء اليه اواه كثير التاوه على الذنوب والتاسف على الناس منيب راجع
الى الله تعالى والمقصود بتعداد صفاته الجميلة المذكورة بيان ما حمله عليه السلام
على ما صدر عنه من المجادلة يا ابراهيم اى قالت الملئكة يا ابراهيم اعرض
عن هذا الجدال انه اى الشان قد جاء امر ربك اى قدره الجارى على وفق
قضائه الازلى الذى هو عبارة عن الارادة الازلية والعناية الالهية
المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص حسب تعلقها بالاشياء فى اوقاتها
وهو المعبر عنه بالقدر وانهم اتيهم عذاب غير مردود لا بجدال ولا بدعاء
ولا بغيرهما ولما جاءت رسلنا لوطا قال ابن عباس رضى الله عنهما انطلقوا
من عند ابراهيم عليه السلام الى لوط عليه السلام وبين القريتين اربعة فراسخ
ودخلوا عليه فى صورة غلمان مرد حسان الوجوه فلذلك سيئ بهم اى ساءه
مجيئهم لظنه انهم اناس فخاف ان يقصدهم قومه ويعجز عن مدافعتهم وقرا
نافع وابن عامر والكسائى وابو عمرو سيئ وسيئت باشمام السين الضم روى
ان الله تعالى قال للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد لوط اربع شهادات فلما مشى معهم
منطلقا بهم الى منزله قال لهم اما بلغكم امر هذه القرية قالوا وما امرها قال
اشهد بالله انها لشر قرية فى الارض عملا يقول ذلك اربع مرات فدخلوا معه منزله
ولم يعلم بذلك احد فخرجت امراته فاخبرت به قومها وقالت ان فى بيت لوط رجالا
ما رايت مثل وجوههم قط وضاق بهم ذرعا اى ضاق بمكانهم صدره او قلبه او وسعه
وطاقته وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه وقيل
ضاقت نفسه عن هذا الحادث وذكر الذرع مثل وهو المساحة وكانه قدر البدن
مجازا اى ان بدنه ضاق قدره من احتمال ما وقع وقيل الذراع اسم للجارحة
من المرفق الى الانامل والذرع قدرها ومعنى ضيق الذرع فى قوله تعالى ضاق بهم
ذرعا قصرها كما ان معنى سعتها وبسطتها طولها ووجه التمثيل بذلك ان القصير
الذرع اذا مدها ليتناول ما يتناوله الطويل الذرع تقاصر عنه وعجز عن تناوله
فضرب مثلا للذى قصرت طاقته دون بلوغ الامر وقال هذا يوم عصيب شديد من
عصبه اذا شده وجاءه اى لوطا وهو فى بيته مع اضيافه قومه يهرعون
اليه اى يسرعون كانما يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من اضيافه والجملة حال من قومه

وكذا قوله ومن قبل اى من قبل هذا الوقت كانوا يعملون السيئات اى جاؤا مسرعين
والحال انهم كانوا منهمكين فى عمل السيئات فضروا بها وتمرنوا فيها حتى لم يبق عندهم
قباحتها ولذلك لم يستحيوا مما فعلوا من مجيئهم مهرعين مجاهرين قال يا قوم
هؤلاء بناتى هن اطهر لكم فتزوجوهن وكانوا يطلبونهن من قبل ولا يجيبهم لخبثهم
وعدم كفائتهم لا لعدم مشروعيته فان تزويج المسلمات من الكفار كان جائزا وقد
زوج النبى صلى الله عليه وسلم ابنتيه من عتبة بن ابى لهب وابى العاص بن الربيع قبل
الوحى وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فاراد ان يزوجهما ابنتيه واياما
كان فقد اراد به وقاية ضيفه وذلك غاية الكرم وقيل ما كان ذلك القول منه
مجرى على الحقيقة من ارادة النكاح بل كان ذلك مبالغة فى التواضع لهم واظهارا
لشدة امتعاضه مما اوردوا عليه طمعا فى ان يستحيوا منه ويرقوا له اذا سمعوا ذلك
فينزجروا عما اقدموا عليه مع ظهور الامر واستقرار العلم عنده وعندهم جميعا بان لا
مناكحة بينهم وهو الانسب بقولهم لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق كما سنقف عليه
فاتقوا الله بترك الفواحش او بايثارهن عليهم ولا تخزون فى ضيفى اى لا تفضحونى
فى شانهم فان اخزاء ضيف الرجل وجاره اخزاء له او لا تخجلونى من الخزاية وهى الحياء
اليس منكم رجل رشيد يهتدى الى الحق الصريح ويرعوى عن الباطل القبيح قالوا
معرضين عما نصحهم به من الامر بتقوى الله تعالى والنهى عن اخزائه مجيبين عن اول كلامه
لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق مستشهدين بعلمه بذلك يعنون انك قد علمت
ان لا سبيل الى المناكحة بيننا وبينك وما عرضك الا عرض سابرى ولا مطمع
لنا فى ذلك وانك لتعلم ما نريد من اتيان الذكران ولما يئس عليه السلام من
ارعوائهم عما هم عليه من الغى قال لو ان لى بكم قوة اى لفعلت بكم ما فعلت
وصنعت ما صنعت كقوله تعالى ولو ان قرانا سيرت به الجبال او كلم به الموتى او آوى
الى ركن شديد عطف على ان لى بكم قوة لما فيه من معنى الفعل اى لو قويت على دفعكم او
اويت الى ناصر عزيز قوى امتنع به عنكم شبهه بركن الجبل فى الشدة والمنعة وروى
عن النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله اخى لوطا كان ياوى الى ركن شديد روى انه
عليه السلام اغلق بابه دون اضيافه واخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا
الجدار فلما رات الملائكة ما على لوط من الكرب قالوا اى الرسل لما شاهدوا عجزه
عن مدافعة قومه يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك بضرر ولا مكروه فافتح الباب
ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستاذن جبريل عليه السلام ربه رب
العزة جل جلاله فى عقوبتهم فاذن له فقام فى الصورة التى يكون فيها فنشر
جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا فضرب
بجناحه وجوههم فطمس اعينهم واعماهم كما قال عز وعلا فطمسنا اعينهم
فصاروا لا يعرفون فخرجوا وهم يقولون النجا النجا فان فى بيت لوط قوما سحرة
فاسر باهلك بالقطع من الاسراء وقرا ابن كثير ونافع بالوصل حيث جاء فى القران
من السرى والفاء لترتيب الامر بالاسراء على الاخبار برسالتهم المؤذنة بورود
الامر والنهى من جنابه عز وجل اليه عليه السلام بقطع من الليل بطائفة منه
ولا يلتفت منكم اى لا يتخلف او لا ينظر الى ورائه احد منك ومن اهلك وانما
نهوا عن ذلك ليجدوا فى السير من يلتفت الى ورائه لا يخلو عن ادنى وقفة او لئلا
يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم الا امراتك استثناء من قوله تعالى
فاسر باهلك ويؤيده انه قرئ فاسر باهلك بقطع الخ وقرئ بالرفع على البدل من احد
فالالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر الى الخلف كيلا يلزم التناقض بين القرائتين
المتواترتين فان النصب يقتضى كونه عليه السلام غير مامور بالاسراء بها والرفع
كونه مامورا بذلك والاعتذار بان مقتضى الرفع انما هو مجرد كونها معهم وذلك
لا يستدعى الامر بالاسراء حتى يلزم المناقضة لجواز ان سرى هى بنفسها كما يروى انه عليه السلام

لما اسرى باهله تبعتهم فلما سمعت هذه العذاب التفتت وقالت يا قوماه فادركها حجر فقتلها
وان يسرى بها عليه السلام من امر غير ذلك اذ موجب النصب انما هو عدم الامر بالاسراء بها
لا النهى عن الاسراء بها حتى يكون ذلك بالاسراء بها مخالفا للنهى لا يجدى نفعا لان انصراف الاستثناء
الى الالتفات يستدعى بقاء الاهل على العموم فيكون الاسراء بها مأمورا به قطعا وفى حمل الاهلية فى احدى
القراءتين على الاهلية الدينية وفى الاخرى على النسبية مع ان فيه ما لا يخفى من التحكم والاعتساف كر على
ما فر منه من المناقضة فالاولى حينئذ جعل الاستثناء على القراءتين من قوله ولا يلتفت مثل الذى
فى قوله تعالى ما فعلوه الا قليل منهم فان ابن عامر قرأه بالنصب وان كان الافصح الرفع على البدل
ولا بعد فى كون اكثر القراء على غير الافصح ولا يلزم من ذلك امرها بالالتفات بل عدم نهيها
عنه بطريق الاستصلاح ولذلك علله على طريقة الاستئناف بقوله انه مصيبها
ما اصابهم من العذاب وهو امطار الحجر وان لم يصبها الخسف والضمير فى انه للشأن او قوله
تعالى مصيبها خبر وقوله ما اصابهم مبتدأ والجملة خبر لان الذى اسمه ضمير الشأن
وفيه ما لا يخفى من تفخيم شأن ما اصابهم ولا يحسن جعل الاستثناء منقطعا على قراءة الرفع
ان موعدهم الصبح اى موعد عذابهم وهلاكهم تعليل للامر بالاسراء والنهى عن
الالتفات المشعر بالحث على الاسراع اليس الصبح بقريب تأكيد للتعليل فان قرب الصبح
داع الى الاسراع فى الاسراء للتباعد عن مواقع العذاب وروى انه قال للملائكة عليهم السلام
متى موعد هلاكهم قالوا الصبح قال اريد اسرع من ذلك فقالوا ذلك وانما جعل ميقات
هلاكهم الصبح لانه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ افظع ولانه
انسب بكون ذلك عبرة للناظرين فلما جاء امرنا اى وقت عذابنا وموعده وهو الصبح
جعلنا عاليها اى عالى قرى قوم لوط وهى التى عبر عنها بالمؤتفكات وهى خمس
مداين فيها اربعمائة الف الف سافلها اى قلبناها على تلك الهيئات وجعل عاليها
مفعولا اول للجعل وسافلها مفعولا ثانيا له وان تحقق القلب بالعكس ايضا
لتهويل الامر وتفظيع الخطب لان جعل عاليها الذى هو مقارهم ومساكنهم سافلها
اشد عليهم من جعل سافلها عاليها وان كان مستلزما له روى انه جعل جبريل
عليه السلام جناحه فى اسفلها ثم رفعها الى السماء حتى سمع اهل السماء نباح الكلاب
وصياح الديكة ثم قلبها عليهم واسناد الجعل والامطار الى ضميره سبحانه باعتبار
انه المسبب لتفخيم الامر وتهويل الخطب وامطرنا عليها على اهل المداين او شذاذهم
حجارة من سجيل من طين متحجر كقوله حجارة من طين واصله سنك كل فعرب وقيل
هو من اسجله اذا ارسله او ادر عطيته والمعنى من مثل الشىء المرسل او مثل العطية
فى الادرار او من السجل اى مما كتب الله تعالى ان يعذبهم به وقيل اصله من سجين
اى من جهنم فابدلت لامه نونا منضود نضد فى السماء نضدا معدا للعذاب
وقيل يرسل بعضه اثر بعض كقطار الامطار مسومة معلمة للعذاب وقيل
معلمة ببياض وحمرة او بسيما تتميز به عن حجارة الارض او باسم من ترمى به
عند ربك فى خزاينه التى لا يتصرف فيها غيره عز وجل وما هى اى الحجارة الموصوفة
من الظالمين من كل ظالم ببعيد فانهم بسبب ظلمهم مستحقون لها وملابسون
بها وفيه وعيد شديد لاهل الظلم كافة وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم
انه سأل جبريل عليه السلام يعنى ظالمى امتك ما من ظالم منهم الا وهو يعرض
حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل الضمير للقرى اى هى قريبة من ظالمى مكة
يمرون بها فى مسايرهم واسفارهم الى الشام وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر
او اجرائه على موصوف مذكر اى بشىء بعيد او بمكان بعيد فانها وان كانت فى السماء
وهى فى غاية البعد من الارض الا انها حين هوت منها فهى اسرع شىء لحوقا بهم
فكأنها بمكان قريب منهم او لانه على زنة المصدر كالزفير والصهيل
والمصادر يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث والى مدين اى اولاد مدين
بن ابراهيم عليه السلام او جعل اسما للقبيلة بالغلبة او اهل مدين وهو بلد بناه

فسمى باسمه اخاهم اى نسيبهم شعيبا وهو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين وكان
يقال له خطيب الانبياء مراجعته قومه والجملة معطوفة على قوله تعالى والى ثمود
اخاهم صالحا اى وارسلنا الى مدين شعيبا قال استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن
صدر الكلام فكأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال كما قال من قبله من الرسل عليهم السلام
يا قوم اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ما لكم من اله غيره تحقيق للتوحيد
وتعليل للامر به وبعد ما امرهم بما هو ملاك امر الدين واول ما يجب على المكلفين
نهاهم عن ترتيب مبادى ما اعتادوه من البخس والتطفيف عادة مستمرة فقال ولا
تنقصوا المكيال والميزان كى تتوسلوا بذلك الى بخس حقوق الناس انى اريكم بخير
اى ملتبسين بثروة وسعة تغنيكم عن ذلك او بنعمة من الله تعالى حقها ان تقابل
بغير ما تأتونه من المسامحة والتفضل على الناس شكرا عليها وارائكم بخير فلا تزيلوه
بما انتم عليه من الشر وهو على كل حال علة للنهى عقبت بعلة اخرى اعنى قوله عز
وجل وانى اخاف عليكم ان لم تنتهوا عن ذلك عذاب يوم محيط لا يشذ منه
شاذ منكم وقيل عذاب يوم مهلك من قوله تعالى واحيط بثمره واصله من احاطة
العدو والمراد عذاب يوم القيمة او عذاب الاستئصال ووصف اليوم بالاحاطة
هى حال العذاب على الاسناد المجازى وفيه من المبالغة ما لا يخفى فان اليوم زمان
يشتمل على ما وقع فيه من الحوادث فاذا احاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل
عليه منه كما اذا احاط بنعيمه ويجوز ان يكون هذا تعليلا للامر والنهى جميعا ويا
قوم اوفوا المكيال والميزان بالقسط اى بالعدل من غير زيادة ولا نقصان فان
الزيادة فى الكيل والوزن وان كانت تفضلا مندوبا اليه لكنها فى الآلة محظورة كالنقص
فلعل الزايد للاستعمال عند الاكتيال والناقص للاستعمال وقت الكيل وانما امر بتسويتهما
وتعديلهما صريحا بعد النهى عن نقصهما مبالغة فى الحمل على الايفاء والمنع من البخس
وتنبيها على انه لا يكفيهم مجرد الكف عن النقص والبخس بل يجب عليهم اصلاح
ما افسدوه وجعلوه معيارا لظلمهم وقانونا لعدوانهم ولا تبخسوا الناس
بسبب نقصهما وعدم اعتدالهما اشياءهم التى يشترونها بهما وقد صرح
بالنهى عن البخس بعد ما علم ذلك فى ضمن النهى عن نقص المعيار والامر بايفائه اهتماما
بشأنه وترغيبا فى ايفاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها ويجوز ان يكون
المراد بالامر بايفاء المكيال والميزان الامر بايفاء المكيلات والموزونات ويكون النهى
عن البخس عاما للنقص فى المقدار وغيره تعميما بعد التخصيص كما فى قوله تعالى ولا
تعثوا فى الارض مفسدين فان العثى يعم نقص الحقوق وغيره من انواع الفساد
وقيل البخس المكث كاخذ العشور فى المعاملات قال زهير بن سلمى افى كل
اسواق العراق اتاوة وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم والعثى فى الارض السرقة
وقطع الطريق والغارة وفائدة الحال اخراج ما يقصد به الاصلاح كما فعله الخضر عليه
السلام من خرق السفينة وقتل الغلام وقيل معناه ولا تعثوا فى الارض مفسدين
امر آخرتكم ومصالح دينكم بقية الله اى ما ابقاه لكم من الحلال بعد التنزه عن
تعاطى المحرمات خير لكم مما تجمعون بالبخس والتطفيف فان ذلك هباء منثورا
بل شر محض وان زعمتم ان فيه خيرا كقوله تعالى يمحق الله الربوا ويربى الصدقات
ان كنتم مؤمنين بشرط ان تؤمنوا فان خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة
وذلك مشروط بالايمان لا محالة او ان كنتم مصدقين لى فى مقالتى لكم وقيل البقية
الطاعة كقوله عز وعلا والباقيات الصالحات خير عند ربك وقرئ بقية الله بالفوقانية
وهى تقواه عن المعاصى وما انا عليكم بحفيظ احفظكم من القبايح او احفظ
عليكم اعمالكم فاجازيكم وانما انا ناصح مبلغ وقد اعذرت ولم آل فى ذلك جهدا
او انا بحافظ ومبقى عليكم نعم الله تعالى ان لم تتركوا ما انتم عليه من سوء الصنيع
قالوا يا شعيب اصلواتك تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا من الاوثان اجابوا بذلك امره

امره عليه السلام اياهم بعبادة الله تعالى وحده المتضمن لنهيهم عن عبادة الاصنام ولقد
بالغوا في ذلك وبلغوا اقصى مراتب الخلاعة والمجون والضلال حيث لم يكتفوا بانكار
الوحي الآمر بذلك حتى ادعوا ان لا امر به من العقل واللب اصلاً وانه من احكام الوسوسة
والجنون وعلى ذلك بنوا استفهامهم وقالوا بطريق الاستهزاء اصلوتك التي هي من
نتائج الوسوسة وافاعيل المجانين تامرك بان نترك عبادة الاصنام التي توارثناها
ابا عن جد وانما جعلوه عليه السلام مأموراً مع ان الصادر عنه انما هو الامر بعبادة
الله تعالى وغير ذلك من الشرائع لانه عليه السلام لم يكن يأمرهم بذلك من تلقاء نفسه
بل من جهة الوحي وانه كان يعلمهم بانه مأمور بتبليغه اليهم وتخصيصهم باسناد
الامر الى الصلاة من بين سائر احكام النبوة لانه عليه السلام كان كثير الصلاة معروفاً بذلك
وكانوا اذا راوه يصلي يتغامزون ويتضاحكون فكانت هي من بين سائر شعائر الدين
ضحكة لهم وقرئ اصلاتك او ان نفعل في اموالنا ما نشاء جواب عن امره عليه السلام
بايفاء الحقوق ونهيه عن البخس والنقص معطوف على ما اي او ان نترك ان نفعل في
اموالنا ما نشاء من الاخذ والاعطاء والزيادة والنقص وقرئ بالتاء في الفعلين عطفاً
على مفعول تامرك اي اصلوتك تامرك ان تفعل انت في اموالنا ما تشاء وتجويز العطف
على ما قيل يستدعي بالترك معنيين متخالفين والمراد بفعله عليه السلام ايجاب الايفاء
والعدل في معاملاتهم لا نفس الايفاء فان ذلك ليس من افعاله عليه السلام بل من
افعالهم وانما لم نقل عطفاً على ان نترك لان الترك ليس مأموراً به على الحقيقة بل المأمور
به تكليفه عليه السلام اياهم وامره بذلك والمعنى اصلوتك تامرك ان تكلفنا ان نترك
ما يعبد اباؤنا وحمله على معنى اصلوتك تامرك بما ليس في وسعك وعهدتك من افاعيل
غيرك ليكون ذلك تعريضاً منهم بركاكة رأيه عليه السلام واستهزاءً به من تلك الجهة
يأباه دخول الهمزة على الصلوة دون الامر ويستدعي ان يصدر عنه عليه السلام
في اثناء الدعوة ما يدل على ذلك او يوهمه وانى ذلك فتأمل وقرئ بالنون في الاول
والتاء في الثاني عطفاً على ان نترك اي او ان نفعل نحن في اموالنا عند المعاملة
ما تشاء انت من التسوية والايفاء انك لانت الحليم الرشيد وصفوه عليه السلام
بالوصفين على طريقة التهكم وانما ارادوا بذلك وصفه بضديهما كقول الخزنة
ذق انك انت العزيز الكريم ويجوز ان يكون تعليلاً لما سبق من استبعاد ما ذكر
على معنى انك لانت الحليم الرشيد على زعمك واما وصفه بهما على الحقيقة فيأباه مقام
الاستهزاء اللهم الا ان يراد بالصلاة الدين كما قيل قال يا قوم ارأيتم ان كنت على
بينة اي حجة واضحة وبرهان نيّر عبّر بهما عما آتاه الله تعالى من النبوة والحكمة رد
اهل مقالتهم الشنعاء في جعلهم امره ونهيه غير مستند الى سند من ربي ومالك اموري
وايراد حرف الشرط مع جزمه عليه السلام بكونه على ما عليه من البينة والحجة لاعتبار
حال المخاطبين ومراعاة حسن المحاورة معهم كما ذكرناه في نظائره ورزقني منه
اي من لدنه رزقاً حسناً هو النبوة والحكمة ايضاً عبّر عنهما بذلك تنبيهاً على
انهما مع كونهما بينة رزق حسن كيف لا وذلك مناط الحيوة الابدية له ولامته وجواب
الشرط محذوف يدل عليه فحوى الكلام اي اتقولون في شاني ما تقولون والمعنى انكم
تظلمونني في سلكي السفهاء الغواة وعدكم ما صدر عني من الاوامر والنواهي من
قبيل ما لا يصح ان ينفوه به عاقل وجعلكموه من احكام الوسوسة والجنون واستهزائكم
بي وبافعالي حتى قلتم ان ما امرتكم به من التوحيد وترك عبادة الاصنام والاجتناب
عن البخس والتطفيف ليس مما يأمر به امر العقل ويقضي قاضي الفطنة وانما يأمركم به
صلوتك التي هي من احكام الوسوسة والجنون فاخبروني ان كنت من جهة ربي ومالك
اموري ثابتاً على النبوة والحكمة التي ليس وراءها غاية للكمال ولا مطمح لطامح و
رزقني بذلك رزقاً حسناً اتقولون في شاني وشان افعالي ما تقولون مما لا خير
فيه ولا شر وراءه هذا هو الجواب الذي يستدعيه السباق ويساعده النظم الكريم

واما ما قيل من ان المحذوف ايصح لي ان لا امركم بترك عبادة الاوثان والكف عن المعاصي
او هل يسع لي مع هذا الانعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية ان اخون في
وحيه واخالفه في امره ونهيه فبمعزل من ذلك انما يناسب تقديره ان حمل كلامهم على
الحقيقة واريد بالصلاة الدين على معنى ادينك يأمرك ان يكلفنا بترك عبادة آلهتنا
القديمة وترك التصرف المطلق في اموالنا وتخالفنا في ذلك وتشق عصانا وهذا مما
لا ينبغي ان يصدر عنك فانك انت المشهور بالحلم الفاضل والرشد الكامل فيما بيننا
لما كان قول قوم صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا مسوقاً على ذلك النمط فاجيبوا بما
اجيبوا به وعلى هذا الوجه يكون المراد بالرزق الحسن الحلال الذي اتاه الله تعالى والمعنى
حينئذ اخبروني ان كنت نبياً من عند الله ورزقني مالاً حلالاً استغني به عن العالمين
ايصح ان اخالف امره واوافقكم فيما تأتون وما تذرون وما اريد بنهيي اياكم عما
انهاكم عنه من البخس والتطفيف ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه اي اقصده بعدما
وليتم عنه واستبد به دونكم يقال خالفت زيداً الى كذا اذا قصدته وهو مول عنه و
خالفته عن كذا اذا كان الامر على العكس ان اريد اي ما اريد بما اباشره من الامر والنهي
الا الاصلاح الا ان اصلحكم بالنصيحة والموعظة ما استطعت اي مقدار ما استطعته
من الاصلاح والتقييد به للاحتراز عن الاكتفاء بالاصلاح في الجملة لا عن ارادة ما
ليس في وسعه منه وما توفيقي اي كوني موفقاً لتحقيق ما انحوه من اصلاحكم
الا بالله اي بتأييده ومعونته بل الاصلاح من حيث الخلق مستند اليه سبحانه
وانما انا من مباديه الظاهرة قال عليه السلام تحقيقاً للحق وازاحة لما عسى يوهمه اسناد
الاستطاعة اليه بارادته من استبداده بذلك عليه توكلت في ذلك معرضاً عما عداه
فان القادر على كل مقدور وما عداه عاجز محض في حد ذاته بل معدوم ساقط
عن درجة الاعتبار بمعزل من رتبة الاستمداد به والاستظهار واليه انيب اي ارجع
فيما انا بصدده ويجوز ان يكون المراد وما كوني موفقاً لاصابة الحق والصواب في كل
ما آتي واذر الا بهدايته ومعونته عليه توكلت وهو اشارة الى محض التوحيد الذاتي
والفعلي واليه انيب اي عليه اقبل بشراشر نفسي في مجامع اموري وايثار صيغة
الاستقبال على الماضي الانسب للتقرر والتحقق كما في التوكل لاستحضار الصورة والدلالة
على الاستمرار ولا يخفى ما في جوابه عليه السلام من مراعاة لطف المراجعة ورفق الاستنزال
والمحافظة على قواعد حسن المجاراة والمحاورة وتمهيد معاقد الحق بطلب التوفيق من
جناب الله عز وجل والاستعانة به في اموره وحسم اطماع الكفار واظهار الفراغ عنهم
وعدم المبالاة بمعاداتهم واما تهديدهم بالرجوع الى الله تعالى للجزاء كما قيل فلا لان
الانابة انما هي الرجوع الاختياري بالفعل الى الله تعالى لا الرجوع الاضطراري للجزاء او
ما يعمه ويا قوم لا يجرمنكم اي لا يكسبنكم من جرمته ذنباً مثل كسبته مالاً شقاقي
معاداتي واصلها ان احد المتعاديين يكون في عدوة وشق والآخر في آخر ان يصيبكم
مفعول ثان ليجرمنكم اي يكسبنكم معاداتكم لي ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح
من الغرق او قوم هود من الريح او قوم صالح من الصيحة والرجفة وقرأ ابن كثير
بضم الياء من اجرمته ذنباً اذا جعلته جارماً له اي كاسباً وهو منقول من جرم المتعدي
الى مفعول واحد كما نقل اكسبه المال من كسب المال فكما لا فرق بين كسبته مالاً
واكسبته اياه لا فرق بين جرمته ذنباً واجرمته اياه في المعنى الا ان الاول اصح وادور
على السنة الفصحاء وقرأ ابو حيوة مثل ما اصاب بالفتح لاضافته الى غير متمكن كقوله لم يمنع
الشرب منها غير ان نطقت حمامة في غصون ذات اوقال وهذا وان كان بحسب الظاهر نهياً
للشقاق عن كسب اصابة العذاب لكنه في الحقيقة نهي للكفرة عن مشاقته عليه السلام
على الطف اسلوب وابدعه كما مر في سورة المائدة عند قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم
الآية وما قوم لوط منكم ببعيد زماناً او مكاناً فان لم تعتبروا بمن قبلهم من الامم المعدودة
فاعتبروا بهم فكانه انما غير اسلوب التحذير بهم ولم يصرح بما اصابهم بل اكتفى بذكر قربهم

ايذانا بان ذلك معنى عن ذكره لشهرة كونه منظوما فى سمط ما ذكر من دواهى الامم المرقومة
او ليسوا ببعيد منكم فى الكفر والمعاصى فلا يبعد ان يصيبكم مثل ما اصابهم وافراد البعيد
مع تذكيره لان المراد وما اهلاكهم على نية المضاف او وما هم بشئ بعيد لان المقصود
افادة عدم بعدهم على الاطلاق لا من حيث خصوصية كونهم قوما او وما هم فى زمان
بعيد او مكان بعيد ولا يبعد ان يكون ذلك لكونه على زنة المصادر كالنهيق والشهيق
ولما انذرهم عليه السلام بسوء عاقبة صنيعهم عقبه طمعا فى ارعوائهم عما كانوا فيه
يعمهون من طغيانهم بالحمل على الاستغفار والتوبة فقال واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه
مر تفسير مثله فى اول السورة ان ربى رحيم عظيم الرحمة للتائبين ودود مبالغ فى
فعل ما يفعل البليغ المودة بمن يوده من اللطف والاحسان وهذا تعليل للامر بالاستغفار
والتوبة وحث عليهما قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول الفقه معرفة غرض المتكلم
من كلامه اى ما نفهم مرادك وانما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائل الحق المبين على احسن وجه
وابلغه وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل فلم يجدوا الى محاورته سبيلا سوى الصدود
عن منهاج العقل والسلوك الى سبيل الشقاء كما هو ديدن المفحم المحجوج يقابل البينات بالسب والابراق
والارعاد فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وانواع العلوم والمعارف
من قبيل ما لا يفهم معناه ولا يدرك فحواه وادمجوا فى ضمن ذلك ان فى تضاعيفه
ما يستوجب ادنى ما يكون من المؤاخذة والعقاب ولعل ذلك ما فيه من التحذير من عواقب
الامم السالفة ولذلك قالوا وانا لنراك فينا ضعيفا لا قوة لك ولا قدرة
على شئ من الضر والنفع والايقاع والدفع ولولا رهطك لولا مراعاة جانبهم لا لولا
هم يمانعونا ويدافعونا لرجمناك فان ممانعة الرهط وهو اسم للثلاثة الى
السبعة او الى العشرة لهم وهم الوف مؤلفة مما لا يكاد يتوهم وقد ايد ذلك بقوله
عز وجل وما انت علينا بعزيز مكرم محترم حتى يمنع من رجمك وانما نكف عنه للمحافظة
على حرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا وايلاء
الضمير حرف النفى وان لم يكن الخبر فعليا غير خال عن الدلالة على رجوع النفى الى الفاعل دون
الفعل لا سيما مع قرينة قوله ولولا رهطك كانه قيل وما انت علينا بعزيز بل رهطك
هم الاعزة علينا وحيث كان غرضهم من عظيمتهم هذه عائدا الى نفى ما فيه عليه السلام
من القوة والعزة الربانيتين حسبما يوجبه كونه على بينة من ربه مؤيدا من عنده
يقتضيه قضية طلب التوفيق منه والتوكل عليه والانابة اليه والى اسقاط ذلك كله عن
درجة الاعتداد به والاعتبار قال عليه السلام فى جوابهم يا قوم ارهطى اعز عليكم من الله
فان الاستهانة بمن لا يتعزز الا به عز وجل استهانة بجنابه العزيز وانما انكر عليهم
اعزية رهطه منه تعالى مع ان ما اثبتوه انما هو مطلق عزة رهطه لا اعزيتهم منه عز
وجل مع الاشتراك فى اصل العزة لتثنية التقريع والتكرير التوبيخ حيث انكر عليهم اولا ترجيح
جنبة الرهط على جنبة الله تعالى وثانيا بنفى العزة بالمرة والمعنى ارهطى اعز عليكم من الله تعالى
فانه مما لا يكاد يصح والحال انكم لم تجعلوا له تعالى محافظة من العزة اصلا واتخذتموه بسبب
عدم اعتدادكم بمن لا يرد ولا يصدر الا بامره وراءكم ظهريا شيئا منبوذا وراء
الظهر منسيا لا يبالى به منسوب الى الظهر والكسر لتغيير النسب كالامسى فى النسبة
الى الامس ان ربى بما تعملون من الاعمال السيئة التى من جملتها عدم مراعاتكم لجانبه
محيط لا يخفى عليه منها خافية وان جعلتموه منسيا فيجازيكم عليها ويحتمل ان يكون
الانكار للرد والتكذيب فانهم لما ادعوا انهم لا يكفون عن رجمه عليه السلام لقوته وعزته
بل لمراعاة جانب رهطه رد عليهم ذلك بانكم ما قدرتم الله حق قدره العزيز ولم
تراعوا جنابه القوى فكيف تراعون جانب رهطى الاذلة ويا قوم اعملوا لما رأى
عليه السلام اصرارهم على الكفر وانهم لا يرعوون عما هم عليه من المعاصى حتى
اجترؤا على العظيمة التى هى الاستهانة به والعزيمة على رجمه لولا حرمة رهط قال لهم
على طريقة التهديد اعملوا على مكانتكم اى على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مكن

مكانة اذا تمكن ابلغ التمكن وانما قاله عليه السلام ردا لما ادعوا انهم اقوياء قادرون على
رجمه وانه ضعيف فيما بينهم لا عزة له او على ناحيتكم وجهتكم التى انتم عليها من
قولهم مكان ومكانة كمقام ومقامة والمعنى اثبتوا على ما انتم عليه من الكفر والمشاقة
لى وسائر ما انتم عليه مما لا خير فيه وابذلوا جهدكم فى مضارتى وايقاع ما فى نيتكم
واخراج ما فى امنيتكم من القوة الى الفعل انى عامل على مكانتى حسبما يؤيدنى الله
ويوفقنى بانواع التاييد والتوفيق سوف تعلمون لما هددهم عليه السلام بقوله
اعملوا على مكانتكم انى عامل كان مظنة ان يسأل منهم سائل فيقول فماذا يكون بعد ذلك
فقيل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه وصف العذاب بالاخزاء تعريضا بما اوعدوه
عليه السلام به من الرجم فانه مع كونه عذابا فيه خزى ظاهر حيث لا يكون الا لجناية
عظيمة توجبه ومن هو كاذب عطف على من يأتيه لا على انه قسيم له حيث اوعدوه
بالرجم وكذبوه قيل سوف تعلمون من المعذب والكاذب وفيه تعريض بكذبهم فى ادعائهم
القوة والقدرة على رجمه عليه السلام وفى نسبته الى الضعف والهوان وفى ادعائهم الا
بقاء عليه لرعاية جانب الرهط والاختلاف بين المعطوفين بالفعلية والاسمية لان كذب
الكاذب ليس بمترقب كاتيان العذاب بل انما المترقب ظهور الكذب السابق المستمر ومن اما استفهامية
معلقة للعلم عن العمل كانه قيل سوف تعلمون اينا يأتيه عذاب يخزيه واينا كاذب واما
موصولة اى سوف تعرفون الذى يأتيه عذاب والذى هو كاذب وارتقبوا وانتظروا
مآل ما اقول انى معكم رقيب منتظر فعيل بمعنى الراقب كالصريم او المراقب كالعشير
او المرتقب كالرفيع وفى زيادة معكم اظهار منه عليه السلام لكمال الوثوق بامره ولما جاء
امرنا اى عذابنا كما ينبئ عنه قوله تعالى سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه او وقته
فان الارتقاب مؤذن بذلك نجينا شعيبا والذين آمنوا برحمة منا وهى الايمان
الذى وفقناهم له او برحمة كائنة منا لهم وانما ذكر بالواو كما فى قصة عاد لما انه لم يسبقه
فيها ذكر وعد يجرى مجرى السبب المقتضى لدخول الفاء فى معلومه كما فى قصتى صالح ولوط
فانه قد سبق هنالك سابقة الوعد بقوله ذلك وعد غير مكذوب وقوله ان موعدهم الصبح
واخذت الذين ظلموا عدل اليه عن الضمير تسجيلا عليهم بالظلم واشعارا بان ما اخذهم
انما اخذهم بسبب ظلمهم الذى فصل فيما سبق فنونه الصيحة قيل صاح بهم جبريل
عليه السلام فهلكوا وفى سورة الاعراف فاخذتهم الرجفة وفى سورة العنكبوت
فاخذتهم الرجفة اى الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء
المفضى اليها كما مر فيما قبل فاصبحوا فى ديارهم جاثمين ميتين لازمين لاماكنهم
لا براح لهم منها ولما لم يجعل متعلق العلم فى قوله تعالى سوف تعلمون من يأتيه عذاب
الخ نفس مجئ العذاب بل من يجيئه بعد ذلك امرا مسلم الوقوع غنيا عن الاخبار به حيث
جعل شرطا وجعل تنجية شعيب عليه السلام واهلاك الكفرة جوابا له ومقصودا بالافادة
وانما قدم تنجيته اهتماما بشانها وايذانا بسبق الرحمة التى هى مقتضى الربوبية على
الغضب الذى يظهر اثره بموجب جرائرهم وجرائمهم كان لم يغنوا فيها اى لم يقيموا فيها
متصرفين فى اطرافها متقلبين فى اكنافها الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود العدول
عن الاضمار الى الاظهار ليكون ادل على طغيانهم الذى اداهم الى هذه المرتبة وليكون
انسب بمن شبه هلاكهم اعنى ثمود وانما شبه هلاكهم بهلاكهم لانهما اهلكتا بنوع
من العذاب وهو الصيحة غير ان هؤلاء صيح بهم من فوقهم واولئك من تحتهم
وقرئ بعدت بالضم على الاصل فان الكسر تغيير لتخصيص معنى البعد بما يكون سبب الهلاك
والبعد مصدر لهما والبعد مصدر للمكسور ولقد ارسلنا موسى بآياتنا وهى
الآيات التسع المفصلات التى هى العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع
والدم ونقص الثمرات والانفس ومنهم من جعلهما آية واحدة وعد منها اظلال
الجبل وليس كذلك فانه لقبول احكام التوراة حين اباه بنو اسرائيل والباء متعلقة بمحذوف
وقع حالا من مفعول ارسلنا او نعتا لمصدره المؤكد اى ارسلناه حال كونه ملتبسا

بآياتنا او ارسلناه ارسالاً ملتبساً بها وسلطان مبين هو المعجزات الباهرة منها اى هو العصا والافراد بالذكر لاظهار شرفها لكونها ابهرها والمراد بالآيات ما عداها او هما عبارتان عن شئ واحد اى ارسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وبين كونه سلطاناً له على نبوته واضحاً فى نفسه او موضحاً اياها من ابان لازماً ومتعدياً او هو الغلبة و الاستيلاء كقوله تعالى ونجعل لكما سلطاناً ويجوز ان يكون المراد ما بينه عليه السلام فى تضاعيف دعوته حين له فرعون من ربكما فما بال القرون الاولى من الحقائق الرائقة والدقائق اللائقة وجعله عبارة عن التورية او ادراجها فى جملة الآيات يرده قوله عز وجل الى فرعون و ملائه فان نزولها انما كان بعد مهلك فرعون وقومه قاطبة ليعمل بها بنو اسرائيل فيما يأتون وما يذرون واما فرعون وقومه فانما كانوا مامورين بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة الشنعاء التى كان يدعيها الطاغية و يقبلها منه فئته الباغية و بارسال بنى اسرائيل من الاسر والقسر وتخصيص ملائه بالذكر مع عموم رسالته عم لقومه كافة لاصالتهم فى الرأى وتدبير الامور واتباع غيرهم لهم فى الورود والصدور وانما لم يصرح بكفر فرعون بآيات الله تعالى وانهماكه فيما كان عليه من الضلال والاضلال بل اقتصر على ذكر شان ملائه فقيل فاتبعوا امر فرعون اى امره بالكفر بما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين للايذان بوضوح حاله فكان كفره وامر ملائه بذلك امر محقق الوجود غير محتاج الى الذكر صريحاً وانما المحتاج الى ذلك شان ملائه المترددين من هاد الى الحق وداع الى الضلال فنعى عليهم سوء اختيارهم وايراد الفاء فى اتباعهم المترتب على امر فرعون المبنى على كفره المسبوق بتبليغ الرسالة للاشعار بمفاجأتهم فى الاتباع ومسارعتهم الى الكفر وامرهم به فكان ذلك كله لم يتراخ عن الارسال والتبليغ بل وقع جميع ذلك فى وقت واحد فوقع اثر ذلك اتباعهم ويجوز ان يراد بامر فرعون شانه المشهور وطريقته الزائغة فيكون معنى فاتبعوا فاستمروا على الاتباع والفاء مثلها فى قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر فان الاتيان بالشئ بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وان كان استمراراً عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث فتأمل وترك الاضمار لدفع توهم الرجوع الى موسى عليه السلام من اول الامر ولزيادة تقبيح حال المتبعين فان فرعون علم فى الفساد والافساد والضلال والاضلال فاتباعه لفرط الجهالة وعدم الاستبصار وكذا الحال فى قوله تعالى وما امر فرعون برشيد الرشد ضد الغى وقد يراد به محمودية العاقبة فهو على الاول بمعنى المرشد وذى الرشد حقيقة لغوية والاسناد مجازى وعلى الثانى مجاز والاسناد حقيقى يقدم قومه جميعاً من الاشراف وغيرهم يوم القيمة اى يتقدمهم من قدمه بمعنى تقدمه وهو استئناف لبيان حاله فى الآخرة اى كما كان قدوة لهم فى الضلال كذلك يتقدمهم الى النار وهم يتبعونه او لتوضيح عدم صلاح مآل امره وسوء عاقبته فاوردهم النار اى يوردهم وايثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع لا محالة شبه فرعون بالفارط الذى يتقدم الواردة الى الماء واتباعه بالواردة والنار بالماء الذى يردونه ثم قيل وبئس الورد المورود اى بئس الورد الذى يردونه النار لان الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد الاكباد والنار على ضد ذلك واتبعوا اى الملأ الذين اتبعوا امر فرعون فى هذه اى فى الدنيا لعنة عظيمة حيث يلعنهم من بعدهم من الامم ويوم القيمة ايضاً حيث يلعنهم اهل الموقف قاطبة فهى تابعة لهم حيثما ساروا دائرة معهم اينما داروا فى الموقف فكما اتبعوا فرعون اتبعتهم اللعنة فى الدارين جزاءً وفاقاً واكتفى ببيان حالهم الفظيع وشانهم الشنيع عن بيان حال فرعون اذ حين كان حالهم هكذا فما ظنك بحال من اغواهم والقاهم فى هذا الضلال البعيد وحيث كان شان الاتباع ان يكونوا اعواناً للمتبوع جعلت اللعنة رفداً لهم على طريقة التهكم فقيل بئس الرفد المرفود اى بئس العون المعان وقد فسر الرفد بالعطاء ولا يلائمه المقام واصله ما يضاف الى غيره ليعمده والمخصوص بالذم محذوف

اى رفدهم وهى اللعنة فى الدارين وكونه مرفوعاً من حيث ان كل لعنة منها معينة وممدة لصاحبها ومؤيدة لها ذلك اشارة الى ما قص من انباء الامم وبعده باعتبار تقضيه فالذكر والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره من انباء القرى المهلكة بما جنته ايدى اهلها نقصه عليك خبر بعد اى ذلك النبأ بعض انباء القرى مقصوص عليك منها اى من تلك القرى قائم وحصيد اى ومنها حصيد حذف لدلالة الاول شبه ما بقى منها بالزرع القائم على ساقه وما عفا وبطل بالحصيد والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب وما ظلمناهم باناهلكناهم ولكن ظلموا انفسهم بان جعلوها عرضة للهلاك باقتراف ما يوجبه فما اغنت عنهم فما نفعتهم ولا دفعت بأس الله تعالى عنهم آلهتهم التى يدعون اى يعبدونها من دون الله اوثر صيغة المضارع حكاية للحال الماضية او دلالة على استمرار عبادتهم لها من شئ فى موضع المصدر اى شيئاً من الاغناء لما جاء امر ربك اى حين مجئ عذابه وهو منصوب باغنت وقرئ آلهتهم اللاتى ويدعون على البناء للمجهول وما زادوهم غير تتبيب اى اهلاك وتخسير فانهم انما هلكوا وخسروا بسبب عبادتهم لها وكذلك اى ومثل ذلك الاخذ الذى مر بيانه وهو رفع على الابتداء وخبره قوله اخذ ربك وقرئ اخذ ربك فمحل الكاف النصب على انه مصدر مؤكد اذا اخذ القرى اى اهلها وانما اسند اليها للاشعار بسريان اثره اليها حسبما ذكره وقرئ اذ اخذ وهى ظالمة حال من القرى وهى فى الحقيقة لاهلها لكنها لما اقيمت مقامهم فى الاخذ اجريت الحال عليها وفائدتها الاشعار بانهم انما اخذوا بظلمهم ليكون ذلك عبرة لكل ظالم ان اخذه اليم شديد وجيع صعب على المأخوذ لا يرجى منه الخلاص وفيه ما لا يخفى من التهديد والتحذير ان فى ذلك اى فى اخذه تعالى للامم المهلكة او فى قصصهم لآية لعبرة لمن خاف عذاب الآخرة فانه المعتبر به حيث يستدل بما حاق بهم من العذاب الشديد بسبب ما عملوا من السيئات على احوال عذاب الآخرة واما من انكر الآخرة واحال فناء العالم وزعم ان ليس هو ولا شئ من احواله مستنداً الى الفاعل المختار وان ما يقع فيه من الحوادث فانما يقع لاسباب تقتضيه من اوضاع فلكية تتفق فى بعض الاوقات لا لما ذكر من المعاصى التى يقترفها الامم الهالكة فهو بمعزل من الاعتبار بتا لهم ولما لهم من الافكار ذلك اشارة الى يوم القيمة المدلول عليه بذكر الآخرة يوم مجموع له الناس اى يجمع له الناس للمحاسبة و الجزاء والتغيير للدلالة على ثبات معنى الجمع وتحقق وقوعه لا محالة وعدم انفكاك الناس عنه فهو ابلغ من قوله تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع وذلك اى يوم القيمة مع ملاحظة عنوان جمع الناس له يوم مشهود اى مشهود فيه حيث يشهد فيه اهل السموات والارضين فاتسع فيه باجراء الظرف مجرى المفعول به كما فى قوله فى محفل من نواصى الناس مشهود اى كثير شاهدوه ولو جعل نفس اليوم مشهوداً لفات ما هو الغرض من تعظيم اليوم وتهويله وتمييزه عن غيره فان سائر الايام ايضاً كذلك وما نؤخره اى ذلك اليوم الملحوظ بعنوانى الجمع والشهود الا لاجل معدود الا لانقضاء مدة قليلة مضروبة حسبما تقتضيه الحكمة يوم يأت اى حين يأتى ذلك اليوم المؤخر بانقضاء اجله كقوله تعالى ان تأتيهم الساعة وقيل يوم يأتى الجزاء الواقع فيه وقيل اى الله عز وجل فان المقام مقام تفخيم شان اليوم وقرئ باثبات الياء على الاصل لا تكلم نفس اى لا تتكلم بما ينفع وينجى من جواب او شفاعة وهو العامل فى الظرف والانتهاء المحذوف فى قوله تعالى الا لاجل معدود اى ينتهى الاجل يوم يأتى او المضمر المعهود اعنى اذكر الا باذنه عز سلطانه فى التكلم كقوله تعالى لا يتكلمون الا من اذن له الرحمن وهذا فى موطن من مواطن ذلك اليوم وقوله عز وجل هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون فى موقف آخر من مواقفه كما ان قوله سبحانه يوم يأتى كل نفس تجادل عن نفسها فى آخر منها والمأذون فيه الجوابات الحقة والممنوع عنه الاعذار الباطلة نعم قد يؤذن فيها ايضاً لاظهار بطلانها

كما فى قول الكفرة والله ربنا ما كنا مشركين ونظايره فمنهم شقى وجبت له النار بموجب
الوعيد وسعيد اى ومنهم سعيد حذف الخبر لدلالة الاول عليه وهو من وجبت له
الجنة بمقتضى الوعد والضمير لاهل الموقف المدلول عليهم بقوله لا تكلم نفس او للناس
وتقديم الشقى على السعيد لان المقام مقام التحذير والانذار فاما الذين شقوا اى
سبقت لهم الشقاوة ففى النار اى مستقرون فيها لهم فيها زفير وشهيق الزفير
اخراج النفس والشهيق رده واستعمالهما فى اول النهيق وآخره قال الشماخ يصف
حمار الوحش بعيد مدى التطريب اول صوته زفير ويتلوه شهيق محشرج والمراد بهما
وصف شدة كربهم وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة وانحصر فيه روحه
او تشبيه صراخهم باصوات الحمير وقرئ شقوا بالضم والجملة مستأنفة كان سائلا قال
ما شانهم فيها فقيل لهم فيها كذا وكذا او منصوبة المحل على الحالية من النار او من الضمير فى الجار والمجرور
كقوله عز اسمه خالدين فيها خلا انه ان اريد حدوث كونهم فى النار فالحال مقدرة
ما دامت السموات والارض اى مدة دوامهما وهذا التوقيت عبارة عن التابيد
وما اختلف الليل والنهار وما طما البحر وغير ذلك من كلمات التابيد لا لتعليق قرارهم
فيها بدوام هذه السموات والارض فان النصوص القاطعة دالة على تابيد قرارهم فيها
وانقطاع دوامهما وان اريد التعليق فالمراد سموات الاخرة وارضها كما يدل على
ذلك النصوص كقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وقوله تعالى واورثنا الارض
نتبوأ من الجنة حيث نشاء وجزم كل احد بان اهل الاخرة لا بد لهم من مظلة
ومقلة دائمتين يكفى فى تعليق دوام قرارهم فيها بدوامهما ولا حاجة الى الوقوف على
تفاصيل احوالهما وكيفيتهما الا ما شاء ربك استثناء من الخلود على طريقة قوله
تعالى لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى وقوله ولا تنكحوا ما نكح اباؤكم من
النساء الا ما قد سلف وقوله حتى يلج الجمل فى سم الخياط غير ان استحالة الامور المذكورة
معلومة بحكم العقل واستحالة تعلق المشيئة بعدم الخلود معلومة بحكم النقل
يعنى انهم مستقرون فى النار فى جميع الازمنة الا فى زمان مشيئة الله تعالى لعدم قرارهم
فيها واذ لا امكان لتلك المشيئة ولا لزمانها بحكم النصوص القاطعة الموجبة
للخلود فلا امكان لانتهاء مدة قرارهم فيها ولدفع ما عسى يتوهم من كون
استحالة تعلق مشيئة الله تعالى بعدم الخلود بطريق الوجوب على الله تعالى ان ربك
فعال لما يريد يعنى انه فى تخليد الاشقياء فى النار بحيث يستحيل وقوع خلافه فعال
بموجب ارادته قاض بمقتضى مشيئته الجارية على سنن حكمته الداعية الى ترتيب الاجزية
على افعال العباد والعدول من الاضمار الى الاظهار لتربية المهابة وزيادة التقرير وقيل هو
استثناء من الخلود فى عذاب النار فانهم لا يخلدون فيه بل يعذبون بالزمهرير و
بانواع اخر من العذاب وبما هو اغلظ منها كلها وهو سخط الله تعالى عليهم وخسؤه
لهم واهانته اياهم وانت تدرى انا وان سلمنا ان المراد بالنار ليس مطلق دار
العذاب المشتملة على انواع العذاب بل نفس النار فما خلا عذاب الزمهرير من تلك الانواع
مقارن لعذاب النار فلا مصداق فى ذلك الاستثناء ولك ان تقول انهم ليسوا مخلدين
فى العذاب الجسمانى الذى هو عذاب النار بل لهم من افانين العذاب ما لا يعلمه الا الله
سبحانه وهى العقوبات والآلام الروحانية التى لا يقف عليها فى هذه الحيوة الدنيا
المنغمسون فى احكام الطبيعة المقصور ادراكهم على ما الفوا من الاحوال الجسمانية
وليس لهم استعداد لتلقى ما وراء ذلك من الاحوال الروحانية اذا القى اليهم ولذلك
لم يتعرض لبيانه واكتفى بهذه المرتبة الاجمالية المنبئة عن التهويل وهذه العقوبات
وان كانت تعتريهم وهم فى النار لكنهم ينسون بها عذاب النار ولا يحسون بها
وهذه المرتبة كافية فى تحقيق معنى الاستثناء هذا وقد قيل الا بمعنى سوى وهو
اوفق بما ذكر وقيل ما بمعنى من على ارادة معنى الوصفية فالمعنى ان الذين شقوا
فى النار مقدرين الخلود فيها الا الذين شاء الله عدم خلودهم فيها وهم عصاة المؤمنين

واما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض الكلام فيه كالكلام
فيما سبق خلا انه لم يذكر ههنا ان لهم فيها بهجة وسرورا كما ذكر فى اهل النار من انه
لهم فيها زفير وشهيق لان المقام مقام التحذير والانذار الا ما شاء ربك ان
حمل على طريقة التعليق بالمحال فقوله سبحانه عطاء غير مجذوذ نصب على المصدرية
من معنى الجملة لان قوله ففى الجنة خالدين فيها يقتضى اعطاء وانعاما فكانه قيل يعطيهم
عطاء وهو اما اسم مصدر هو الاعطاء او مصدر بحذف الزوائد كقوله تعالى انبتكم
من الارض نباتا وان حمل ما عند الله تعالى لعباده الصالحين من النعيم الروحانى الذى
عبر عنه بما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فهو نصب على الحالية من
المفعول المقدر للمشيئة او تمييز فان نسبة مشيئة الخروج الى الله تعالى قال ابن زيد اخبرنا
الله تعالى بالذى يشاء لاهل الجنة فقال عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذى يشاء لاهل
النار ويجوز ان يتعلق بكلا النعيمين او بالاول فقط لما يتوهم من ظاهر الاستثناء من
انقطاعه فلا تك فى مرية اى فى شك والفاء لترتيب النهى على ما قص من القصص
وبين فى تضاعيفها من العواقب الدنيوية والاخروية مما يعبد هؤلاء اى من
جهة عبادة هؤلاء المشركين وسوء عاقبتها او من حال ما يعبدونه من الاوثان
فى عدم نفعه لهم ولما كان مساق النظم الكريم قبيل الشروع فى القصص لبيان سوء
حال الكفرة وكمال حسن حال المؤمنين وقد ضرب لهم مثل فقيل مثل الفريقين كالاعمى والاصم
والبصير والسميع هل يستويان مثلا افلا تذكرون وقد قص عقيب ذلك من انباء الامم
السالفة مع رسلهم المبعوثة اليهم ما يتذكر به المتذكر نهى رسول الله صلى الله عليه
وسلم عن كونه فى شك من مصير امر هؤلاء المشركين فى العاجل والآجل ثم علل ذلك
بطريق الاستيناف فقيل ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم الذين قصت عليك قصصهم
من قبل اى هم وآباؤهم سواء فى الشرك ما يعبدون عبادة الا كعبادتهم او ما
يعبدون شيئا الا مثل ما عبدوه من الاوثان والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية
لاستحضار صورتها او مثل ما كانوا يعبدونه فحذف كان لدلالة قوله من قبل عليه
ولقد بلغك ما لحق بآبائهم فسيلحقهم مثل ذلك فان تماثل الاسباب يقتضى تماثل
المسببات وانا لموفوهم اى هؤلاء الكفرة نصيبهم اى حظهم المعين لهم حسب جرائمهم
وجرايرهم من العذاب عاجلا وآجلا كما وفينا آباءهم انصباءهم المقدرة لهم
او من الرزق المقسوم لهم فيكون بيانا لوجه تأخر العذاب عنهم مع تحقق ما
يوجبه غير منقوص حال مؤكدة من النصيب كقوله تعالى ثم وليتم مدبرين وفائدته
دفع توهم التجوز وجعلها مقيدة له لدفع احتمال كونه منقوصا فى حد نفسه مبنى
على الذهول عن كون العامل هو التوفية فتأمل ولقد آتينا موسى الكتاب اى التوراة
فاختلف فيه اى فى شانه وكونه من عند الله تعالى فآمن به قوم وكفر به آخرون
فلا تبال باختلاف قومك فيما آتيناك من القرآن وقولهم لولا انزل عليه كنز او جاء
معه ملك وزعمهم انك افتريته ولولا كلمة سبقت من ربك وهى كلمة القضاء بانظارهم
الى يوم القيمة على حسب الحكمة الداعية الى ذلك لقضى بينهم اى لاوقع القضاء بين المختلفين
من قومك بانزال العذاب الذى يستحقه المبطلون ليتميزوا به عن المحقين وقيل بين قوم
موسى وليس بذاك وانهم اى وان كفار قومك اريد به بعض من رجع اليهم ضمير
بينهم للامن من الالباس لفى شك عظيم منه اى من القرآن وان لم يجر له ذكر فان
ذكر ايتاء كتاب موسى ووقوع الاختلاف فيه لا سيما بصدد التسلية ينادى به
نداء غير خفى مريب موقع فى الريبة وان كلا التنوين عوض من المضاف اليه اى
وان كل المختلفين فيه المؤمنين منهم والكافرين وقرأ ابن كثير ونافع وابو بكر بالتخفيف
مع الاعمال اعتبارا للاصل لما ليوفينهم ربك اعمالهم اى اجزية اعمالهم واللام
الاولى موطئة للقسم المحذوف ولما ركبه من من الجارة وما الموصولة او الموصوفة
واصلها لمن ما فقلبت النون ميما للادغام فاجتمع ثلاث ميمات فحذفت اولاهن والمعنى

لمن الذين او لمن خلق او لمن فريق والله ليوفينّهم ربك وقرئ لما بالتخفيف على ان ما مزيدة للفصل بين اللامين والمعنى وان جميعهم والله ليوفينّهم الاية وقرئ لمّا بالتنوين اي جميعا كقوله سبحانه اكلا لمّا وقرئ انّ وانّ كلّ لما ليوفينّهم على ان ان نافية ولمّا بمعنى الا وقد قرئ به انه بما يعملون اى بما يعمله كلّ فرد من المختلفين من الخير والشر خبير بحيث لا يخفى عليه شئ من جلايله ودقايقه وهو تعليل لما سبق من توفية اجزية اعمالهم فانّ الاحاطة بتفاصيل اعمال الفريقين وما يستوجبه كلّ عمل بمقتضى الحكمة من الجزاء المخصوص يوجب توفيه كلّ ذى حق حقه ان خيرا فخير وان شرا فشر فاستقم كما امرت لما بيّن فى تضاعيف القصص المحكيّة عن الامم الماضيه سوء عاقبة الكفر وعصيان الرسل واشير ان حال هؤلاء الكفرة فى الكفر والضلال واستحقاق العذاب مثل اوليك المعذبين وان نصيبهم من العذاب واصل اليهم من غير نقص وان تكذيبهم للقران مثل تكذيب قوم موسى عليه السلام للتوراة وانه لولم تسبق كلمة القضاء بتاخير عقوبتهم العامة ومؤاخذتهم التامّة الى يوم القيمة لفعل بهم ما فعل باباءهم من قبل وانهم يوفون نصيبهم غير منقوص وان كلّ واحد من المومنين والكافرين يوفى جزاء عمله امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستقامة كما امر به فى العقايد والاعمال المشتركة بينه وبين ساير المؤمنين ولاسيّما الاعمال الخاصّة به من تبليغ الاحكام الشرعيّة والقيام بوظايف النبوة وتحمل اعباء الرسالة بحيث يدخل تحته ما امر به فيما سبق من قوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضايق به صدرك الاية وبالجملة فهذا الامر منتظم لجميع محاسن الاحكام الاصليّة والفرعيّة والكمالات النظريّة والعمليّة والخروج عن عهدته فى غاية ما يكون من الصعوبة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شيبتنى سورة هود ومن تاب معك اى تاب من الشرك والكفر وشاركك فى الايمان وهو المعنى بالمعيّة وهو معطوف على المستكن فى قوله فاستقم وحسن من غير تاكيد لمكان الفاصل القايم مقامه وفى الحقيقة هو من عطف الجملة على الجملة اذ المعنى وليستقم من تاب معك وقيل هو منصوب على انه مفعول معه كما قاله ابو البقاء والمعنى استقم مصاحبا لمن تاب معك ولا تطغوا ولا تنحرفوا عمّا حدّ لكم بافراط او تفريط فان كلا طرفى قصد الامور ذميم وانما سمّى ذلك طغيانا وهو تجاوز الحدّ تغليظا او تغليبا لحال ساير المؤمنين على حاله عليه السلام انه بما تعملون بصير فيجازيكم على ذلك وهو تعليل للامر والنهى وفى الاية دلالة على وجوب اتباع المنصوص عليه من غير انحراف بمجرد الراى فانه طغيان وضلال واما العمل بمقتضى الاجتهاد التابع لعلل النصوص فذلك من باب الاستقامة كما امر على موجب النصوص الامرة بالاجتهاد ولا تركنوا اى لا تميلوا ادنى ميل الى الذين ظلموا اى الى الذين وجد منهم الظلم فى الجملة ومدار النهى هو الظلم والجمع باعتبار جمعيّة المخاطبين وما قيل من ان ذلك للمبالغة فى النهى من حيث ان كونهم جماعة مظنة الرخصة فى مداهنتهم انما يتم ان لو كان المراد النهى عن الركون اليهم من حيث انهم جماعة وليس كذلك فتمسكم بسبب ذلك النار واذا كان حال الميل فى الجملة الى من وجد منه ظلم ما فى الافضاء الى مساس النار هكذا فما ظنك عن يميل الى الراسخين فى الظلم والعدوان ميلا عظيما ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتهم ويلقى شراشره على مؤانستهم ومعاشرتهم ويبتهج بالتزيى بزيّهم ويمدّ عينيه الى زهرتهم الفانية ويغبطهم بما اوتوا من القطوف الدانية وهو فى الحقيقة من الحبّة طفيف ومن جناح البعوض خفيف بمعزل من ان يميل اليه القلوب ضعف الطالب والمطلوب والاية ابلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم والتهديد عليه وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين للتثبيت على الاستقامة التى هى العدل فان الميل الى احد طرفى الافراط والتفريط ظلم على نفسه او على غيره وقرئ تركنوا على لغة تميم وتركنوا على صيغة البناء للمفعول من اركنه وما لكم من دون الله من اولياء اى من انصار ينقذونكم من النار والجملة نصب على الحالية من قوله فتمسكم النار ونفى الاولياء ليس بطريق نفى ان يكون لكلّ واحد منهم

اولياء حتى

اولياء حتى يصدق مع ان يكون له ولىّ بل لمكان لكم بطريق انقسام الاحاد على الاحاد لكن لا على معنى نفى استقلال كلّ منهم بنصير بل على معنى نفى ان يكون لواحد منهم بقرينة المقام ثم لا تنصرون من جهة الله سبحانه اذ قد سبق فى حكمه ان يعذبكم بركونكم اليهم ولا يبقى عليكم وثم لتراخى رتبة كونهم غير منصورين من جهته تعالى بعد ما اوعدهم بالعذاب واوجبه عليهم ويجوز ان يكون منزلا منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد فانه لما بيّن ان الله تعالى معذبهم وان غيرهم لا ينقذهم انتج انهم لا ينصرون اصلا واقم الصلوة طرفى النهار اى غدوة وعشيّة وانتصابه على الظرفيّة لكونه مضافا الى الوقت وزلفا من الليل اى ساعات منه قريبة من النهار فانه من ازلفه اذا قربه جمع زلفة عطف على طرفى النهار والمراد بصلاتهما صلوة الغداة والعصر وقيل الظهر موضع العصر لان ما بعد الزوال عشى وبصلاة الزلف المغرب والعشاء وقرئ زلفا بضمتين وضمة وسكون كيسر ويسر وزلفى بمعنى زلفة وقربة ان الحسنات التى من جملتها بل عمدتها ما امرت به من الصلوات يذهبن السيئات التى قلما يخلو منها البشر اى يكفرنها وفى الحديث ان الصلاة الى الصلوة كفارة لما بينهما ما اجتنب الكباير وقيل نزلت فى ابى اليسر الانصارى اذ قبّل امراة ثم ندم فاتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبره بما فعل فقال صلى الله عليه وسلم انتظر امر ربى فلما صلى صلاة العصر قال عليه السلام نعم اذهب فانها كفارة لما عملت او يمنعن من اقترافها كقوله تعالى ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ذلك اشارة الى قوله تعالى فاستقم فما بعده وقيل الى القران ذكرى للذاكرين اى عظة للمتعظين واصبر على مشاق ما امرت به فى تضاعيف الاوامر السابقة واما ما نهى عنه من الطغيان والركون الى الذين ظلموا فليس فى الانتهاء عنه مشقة فلا وجه لتعميم الصبر له اللهم الا ان يراد به ما لا يمكن عادة خلو البشر عنه من ادنى ميل بحكم الطبيعة من الاستقامة المامور بها ومن يسير ميل بحكم البشرية الى من وجد منه ظلم ما فان فى الاحتراز عن امثاله من المشقة ما لا يخفى فان الله لا يضيع اجر المحسنين اى يوفيهم اجور اعمالهم من غير بخس اصلا وانما عبر عن ذلك بنفى الاضاعة مع ان عدم اعطاء الاجر ليس باضاعة حقيقة كيف لا والاعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه من القبايح وابراز الاثابة فى معرض الامور الواجبة عليه وانما عدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع افادة فايدة عامة لكلّ من يتصف به وهو تعليل للامر بالصبر وفيه ايماء الى ان الصبر على ما ذكر من باب الاحسان فلولا كان فهلا كان من القرون الكاينة من قبلكم على راى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته او كاينة من قبلكم اولو بقيّة من الراى والعقل او اولو فضل وخير وسمّيا بها لان الرجل انما يستبقى بما يخرجه عادة اجوده وافضله فصار مثلا فى الجودة والفضل ويقال فلان من بقيّة القوم اى من اخيارهم ومنه ما قيل فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا ويجوز ان يكون البقيّة بمعنى البقوى كالتقيّة من التقوى اى فهلا كان منهم ذوو ابقاء على انفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وعقابه ويؤيده انه قرئ اولو بقيّة وهى المرة من مصدر بقاه يبقيه اذا راقبه وانتظره اى اولو مراقبة وخشية من عذاب الله كانهم ينتظرون نزوله لاشفاقهم ينهون عن الفساد فى الارض الواقع منهم حسبما حكى عنهم الا قليلا ممن انجينا منهم استثناء منقطع اى لكن قليلا منهم انجيناهم لكونهم على تلك الصفة على ان من للبيان لا للتبعيض لان جميع الناجين ناهون ولا صحة للاتصال على ظاهر الكلام لانه يكون تحضيضا لاولى البقية على النهى المذكور الا للقليل من الناجين منهم كما اذا قلت هلا قراء القران قومك الا الصلحاء منهم مريدا الاستثناء الصلحاء من المحضضين على القراءة نعم يصح ذلك

ان جعل استثناء من النفي اللازم للتحضيض فكانه قيل ماكان من القرون اولو بقية الا قليلا منهم لكن الرفع هو الافصح حينئذ على البدلية ﴿واتبع الذين ظلموا﴾ بمباشرة الفساد وترك النهي عنه ﴿ما اترفوا فيه﴾ اى انعموا من الشهوات واهتموا بتحصيلها اما المباشرون فظاهر واما المساهلون فلما لهم في ذلك من نيل حظوظهم الفاسدة وقيل المراد بهم تاركوا النهي وانت خبير بانه يلزم منه عدم دخول مباشري الفساد في الظلم والاجرام عبارة ﴿وكانوا مجرمين﴾ اى كافرين فهو بيان للسبب استيصال الامم المهلكة وهو فشو الظلم واتباع الهوى فيهم وشيوع ترك النهي عن المنكرات مع الكفر وقوله واتبع عطف على مضمر دل عليه الكلام اى لم ينهوا واتبع الخ فيكون العدول الى المظهر لادراج المباشرين معهم في الحكم والتسجيل عليهم بالظلم والاشعار بعلية ذلك لما حاق بهم من العذاب او على استيناف يترتب على قوله الا قليلا اى الا قليلا ممن انجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا من مباشري الفساد وتاركي النهي عنه فيكون الاظهار مقتضى الظاهر وقوله وكانوا مجرمين عطف على اترفوا اى اتبعوا الاتراف وكونهم مجرمين فان تابع الشهوات مغمور بالاثام او اريد بالاجرام اغفالهم للشكر او على اتبع اى اتبعوا شهواتهم وكانوا بذلك الاتباع مجرمين ويجوز ان يكون اعتراضا وتسجيلا عليهم بانهم قوم مجرمون وقرئ واتبع اى اتبعوا جزاء ما اترفوا فيكون الواو للحال ويجوز ان يفسر به المشهورة ويعضده تقدم الانجاء ﴿وما كان ربك ليهلك القرى﴾ اى ما صح وما استقام بل استحال في الحكمة ان يهلك القرى التي اهلكها حسبما بلغك انباؤها ويعلم من ذلك حال ما فيها من القرى الظالمة واللام لتاكيد النفي وقوله ﴿بظلم﴾ اى ملتبسا به قيل هو حال من الفاعل اى ظالما لها والتنكير للتفخيم والايذان بان اهلاك المصلحين ظلم عظيم والمراد تنزيه تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى والا فلا ظلم فيما فعله الله تعالى بعباده كائنا ما كان لما تقرر من قاعدة اهل السنة وقد مر تفصيله في سورة آل عمران عند قوله تعالى وان الله ليس بظلام للعبيد وقوله تعالى ﴿واهلها مصلحون﴾ حال من المفعول والعامل عامله ولكن لا باعتبار تقيده بما وقع حالا من فاعله اعني بظلم لدلالته على تقييد نفي الاهلاك ظلما بحال كون اهلها مصلحين ولا ريب في فساده بل مطلقا عن ذلك وقيل المراد بالظلم الشرك والباء للسببية اى لا يهلك القرى بسبب اشراك اهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون الى شركهم فسادا آخر وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه تعالى ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم حقوق العباد الفقراء على حقوق الله الغني الحميد وقيل الملك يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم وانت تدري ان مقام النهي عن المنكرات التي اقبحها الاشراك بالله لا يلايمه فان الشرك داخل في الفساد في الارض دخولا اوليا ولذلك كان ينهى كل من الرسل الذين قصت انباؤهم امته اولا عن الاشراك ثم عن ساير المعاصي التي كانوا يتعاطونها فالوجه حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل للشرك وغيره من اصناف المعاصي وحمل الاصلاح على اصلاحه والاقلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهي عنه وبعضهم متوجهين الى الاتعاظ غير مصرين على ما هم عليه من الشرك وغيره من انواع الفساد ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة﴾ مجتمعة على الحق ودين الاسلام بحيث لا يكاد يختلف فيه احد ولكن لم يشاء ذلك فلم يكونوا متفقة على الحق ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ في الحق اى مخالفين كقوله تعالى وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ﴿الا من رحم ربك﴾ الا قوما قد هداهم الله تعالى بفضله الى الحق فاتفقوا عليه ولم يختلفوا فيه اى لم يخالفوه وحمله على مطلق الاختلاف الشامل لما يصدر من المحق والمبطل يأباه الاستثناء المذكور ﴿ولذلك﴾ اى لما ذكر من الاختلاف ﴿خلقهم﴾ اى الذين بقوا بعد الثنيا وهم المختلفون فاللام للعاقبة او للرحم فالضمير لمن واللام في معناها او لهما معا فالضمير للناس كافة واللام بمعنى مجازي عام لكلا المعنيين ﴿وتمت كلمة ربك﴾ اى وعيده وقيل او قوله

للملائكة

للملائكة ﴿لاملان جهنم من الجنة والناس اجمعين﴾ اى من عصاتهما اجمعين او منهما اجمعين لا من احدهما ﴿وكلا﴾ اى وكل نبأ فالتنوين عوض من المضاف اليه ﴿نقص عليك﴾ نخبرك به وقوله تعالى ﴿من انباء الرسل﴾ بيان لكل وقوله تعالى ﴿ما نثبت به فؤادك﴾ بدل منه والاظهر ان يكون المضاف اليه المحذوف في كلا المفعول المطلق لنقص اى كل اقتصاص اى كل اسلوب من اساليبه نقص عليك من انباء الرسل وقوله سبحانه ما نثبت به فؤادك مفعول نقص وفائدته التنبيه على ان المقصود بالاقتصاص زيادة يقينه عليه السلام وطمانينة قلبه وثبات نفسه على اداء الرسالة واحتمال اذية الكفار بالوقوف على تفاصيل احوال الامم السالفة في تماديهم في الضلال وما لقي الرسل من جهتهم من مكابدة المشاق ﴿وجاءك في هذه﴾ السورة او الانباء المقصوصة عليك ﴿الحق﴾ الذي لا محيد عنه ﴿وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ اى الجامع بين كونه حقا في نفسه وكونه موعظة وذكرى للمؤمنين ولكون الوصف الاول حالا له في نفسه حلي باللام دون ما هو وصف له بالقياس الى غيره وتقديم الظرف اعني في هذه على الفاعل لان المقصود بيان منافع السورة او الانباء المقصوصة فيها واشتمالها على ما ذكر من المنافع المفصلة لا بيان كون ذلك فيها لا في غيرها ولان عند تاخير ما حقه التقديم تبقى النفس مترقبة اليه فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن ولان في المؤخر نوع طول يخل تقديمه بتجاوب اطراف النظم الكريم ﴿وقل للذين لا يؤمنون﴾ بهذا الحق ولا يتعظون به ولا يتذكرون ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ على حالكم وجهتكم التي هي عدم الايمان ﴿انا عاملون﴾ على حالنا وهو الايمان به والاتعاظ والتذكر به ﴿وانتظروا﴾ بنا الدوائر ﴿انا منتظرون﴾ ان ينزل بكم نحو ما نزل بامثالكم من الكفرة ﴿ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله﴾ فيرجع لا محالة امرك وامرهم اليه وقرئ على البناء للفاعل من رجع رجوعا ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ فانه كافيك والفاء لترتيب الامر بالعبادة والتوكل على كون مرجع الامور كلها الى الله عز وجل وفي تاخير الامر بالتوكل عن الامر بالعبادة اشعار بانه لا ينفع دونها ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ فيجازيهم بموجبه وقرئ تعملون على تغليب المخاطب اى انت وهم فيجازي كلا منك ومنهم بموجب الاستحقاق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرا سورة هود اعطي عشر حسنات بعدد من صدق كل واحد من الانبياء المعدودين فيها عليهم السلام وبعدد من كذبهم وكان يوم القيمة من السعداء بفضل الله سبحانه وتعالى

سورة يوسف عليه السلام مكية وهي مائة واحد عشر آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر﴾ الكلام فيه وفي محله وفيما اريد بالاشارة والايات والكتاب في قوله تعالى ﴿تلك ايات الكتاب﴾ عين ما سلف في مطلع سورة يونس ﴿المبين﴾ من ابان بمعنى بان اي الظاهر امره في كونه من عند الله تعالى وفي اعجازه بنوعيه لا سيما الاخبار عن الغيب او الواضح معانيه للعرب بحيث لا يشتبه عليهم حقايقه ولا يلتبس لديهم دقايقه لنزوله على لغتهم او بمعنى بين اى المبين لما فيه من الاحكام والشرايع وخفايا الملك والملكوت واسرار النشاتين في الدارين وغير ذلك من الحكم والمعارف والقصص وعلى تقدير كون الكتاب عبارة عن السورة فابانته ابناؤه عن قصة يوسف فانه قد روى ان احبار اليهود قالوا لرؤساء المشركين سلوا محمدا صلى الله عليه وسلم لما ذا انتقل آل يعقوب عليه السلام من الشام الى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام ففعلوا ذلك فيكون وصف الكتاب بالابانة من قبيل براعة الاستهلال لما سياتي ولما وصف الكتاب بما يدل على الشرف الذاتي عقب ذلك بما يدل على الشرف الاضافي فقيل ﴿انا انزلناه﴾ اى الكتاب المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة فان كان عبارة عن الكل وهو الاظهر الانسب بقوله تعالى ﴿قرانا عربيا﴾ اذ هو المشهور بهذا الاسم المعروف بهذا النعت المتسارع الى الفهم عند

سورة يوسف عليه السلام

اطلاقهما فالامر ظاهر وان جعل عبارة عن السورة فتسميتها قرآنا لما عرفته فيما سلف
والسر في ذلك انه اسم جنس في الاصل يقع على الكل والبعض كالكتاب او لانه مصدر بمعنى
المفعول اي انزلناه حال كونه معروا بلغتكم لعلكم تعقلون اي لكي تفهموا معانيه
طرا وتحيطوا بما فيه من البدايع خبرا وتطلعوا على انه خارج عن طوق البشر منزل من
عند خلاق القوى والقدر نحن نقص عليك اي نخبرك ونحدثك واشتقاقه
من قص اثره اذا اتبعه لان من يقص الحديث يتبع ما حفظه منه شيئا فشيئا كما يقال
تلا القرآن لانه يتبع ما حفظه منه آية بعد آية احسن القصص اي احسن الاقتصاص
فنصبه على المصدرية وفيه مع بيان الواقع ايهام لما في اقتصاص اهل الكتاب من القبح
والخلل وترك المفعول اما للاعتماد على انفهامه من قوله عز وجل بما اوحينا اي بايحائنا
اليك هذا القرآن اي هذه السورة فان كونها موحاة مبنئ عن كون ما في ضمنها مقصوصا
والتعرض لعنوان قرآنيتها لتحقيق ان الاقتصاص ليس بطريق الالهام او الوحي غير المتلو
واما لظهوره من سؤال المشركين بتلقين علماء اليهود واحسنيته لانه قد اقتص على
ابدع الطرايق الرائقة واعجب الاساليب الفايقة اللائقة كما لا يكاد يخفى على من طالع
القصة من كتب الاولين والآخرين وان كان لا يميز الغث من السمين ولا يفرق بين الشمال
واليمين وفي كلمة هذا ايماء الى مغايرة هذا القرآن لما في قوله تعالى قرآنا عربيا بان يكون المراد
بذلك المجموع فتامل او نقص عليك احسن ما يقص من الانباء وهو قصة آل يعقوب ع م
على ان القصص فعل بمعنى المفعول كالنبا والخبر او مصدر سمي به المفعول كالخلق والصيد
ونصب احسن على المفعولية واحسنيتها لتضمنها من الحكم والعبر ما لا يخفى كمال حسنه
وان كنت ان مخففة من الثقيلة وضمير الشان الواقع اسما لها محذوف واللام فارقة
والجملة خبر والمعنى وان الشان كنت من قبله من قبل ايحائنا اليك هذه السورة لمن الغافلين
عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قط وهو تعليل لكونه موحى والتعبير
عن عدم العلم بالغفلة لاجلال شان النبي صلى الله عليه وسلم وان غفل عنه بعض
الغافلين اذ قال يوسف نصب باضمار اذكر وشروع في القصة انجازا للوعد باحسن
الاقتصاص او بدل من احسن القصص على تقدير كونه مفعولا بدل الاشتمال فان
اقتصاص الوقت المشتمل على المقصوص من حيث اشتماله عليه اقتصاص للمقصوص ويوسف
اسم عبري لا عربي لخلوه عن سبب آخر غير التعريف وفتح السين وكسرها على بعض القراءات
بناء على التلقب به لا على انه مضارع بني للمفعول او الفاعل من اسف لشهادة المشهور
بعجمته لابيه يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام وقد روي عنه عليه السلام
انا الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن اسحق بن ابراهيم يا ابت اصله
يا ابي فعوض عن الياء تاء التانيث لتناسبهما في الزيادة فلذلك قلبت هاء في الوقف
على قراءة ابن كثير وابي عمرو ويعقوب وكسرها لانها عوض حرف يناسبها وفتحها ابن
عامر في كل القرآن لانها حركة اصلها او لان الاصل يا ابتا فحذفت الالف وبقي الفتحة
وانما لم يجز يا ابتي لانه جمع بين العوض والمعوض وقرئ بالضم اجراء لها مجرى الالفاظ
المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التعويض وعدم تسكينها كاصلها لانها حرف صحيح
منزلة منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب اني رايت من الرؤيا لا من
الرؤية لقوله لا تقصص رؤياك هذا تاويل رؤياي ولان الظاهر ان وقوع مثل
هذه الامور البديعة في عالم الشهادة لا تختص برؤية راء دون راء فيكون طامة
كبرى لا يخفى على احد من الناس احد عشر كوكبا والشمس والقمر روي عن جابر
رضي الله عنه ان يهوديا جاء الى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال اخبرني يا محمد
عن النجوم التي رآهن يوسف عليه السلام فسكت النبي صلى الله عليه وسلم
فنزل جبريل عليه السلام فاخبره بذلك فقال عليه السلام اذا اخبرتك بذلك هل
تسلم قال نعم قال عليه الصلوة والسلام جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان
والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف

والشمس والقمر

والشمس والقمر نزلت من السماء وسجدن له فقال اليهودي اي والله انها لاسماؤها وقيل
الشمس والقمر ابواه وقيل ابوه وخالته والكواكب اخوته وانما اخر الشمس والقمر عن الكواكب
لاظهار مزيتهما وشرفهما على سائر الطوالع بعطفهما عليها كما في عطف جبريل وميكائيل على
الملئكة عليهم السلام وقد جوز ان يكون الواو بمعنى مع اي رايت الكواكب مع الشمس
والقمر ولا يبعد ان يكون ذلك اشارة الى تاخر ملاقاته عليه السلام لهما عن ملاقاته لاخوته
وعن وهب ان يوسف عليه السلام راى وهو ابن سبع سنين ان احدى عشرة عصا
طوالا كانت مركوزة في الارض كهيئة الدائرة واذا عصا صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها
وغلبتها فوصف ذلك لابيه فقال اياك ان تذكر هذا لاخوتك ثم راى وهو ابن
ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على ابيه فقال لا تقصها عليهم
فيبغوا لك الغوائل وقيل كان بين رؤيا يوسف ومصير اخوته اليه اربعون سنة
وقيل ثمانون رايتهم لي ساجدين استيناف لبيان حالهم التي راهم عليها كانه
سائل سال فقال كيف رايتهم فاجاب بذلك وانما اجريت مجرى العقلاء في الضمير
لوصفها بوصف العقلاء اعني السجود وتقديم الجار والمجرور لاظهار العناية والاهتمام
بما هو الاهم مع ما في ضمنه من رعاية الفاصلة قال يا بني صغره للشفقة او لهاق
لصغر السن وهو ايضا استيناف مبني على سؤال من قال فماذا قال يعقوب بعد سماع هذه
الرؤيا العجيبة وكما عرف يعقوب عليه السلام من هذه الرؤيا ان يوسف يبلغه الله تعالى
مبلغا جليلا من الحكمة ويصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه
الكرام خاف عليه حسد الاخوة وبغيهم فقال صيانة لهم من ذلك وله من معاناة
المشاق ومقاساة الاحزان وان كان واثقا بان الله تعالى سيحقق ذلك لا محالة وطمعا
في حصوله بلا مشقة لا تقصص رؤياك هي ما في المنام كما ان الرؤية ما في اليقظة
فرق بينهما بحرفي التانيث كما في القربى والقربة وحقيقتها ارتسام الصورة المنحدرة
من افق المتخيلة الى الحس المشترك والصادقة منها انما تكون باتصال النفس بالملكوت
لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن ادنى فراغ فتتصور بما فيها مما يليق
من المعاني الحاصلة هناك ثم ان المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها الى الحس
المشترك فتصير مشاهدة ثم اذا كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون
التفاوت الا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير والا احتاجت اليه على
اخوتك فيكيدوا لك كيدا منصوب باضمار ان اي فيفعلوا لك اي لاجلك ولاهلاكك كيدا متينا راسخا
لا يقدر على التفصي عنه او خفيا عن فهمك لا يتصدى لمدافعته وهذا اوفق بمقام
التحذير وان كان يعقوب عليه السلام يعلم انهم ليسوا بقادرين على تحويل ما دلت
الرؤيا على وقوعه وهذا الاسلوب آكد من ان يقال فيكيدوك كيدا اذ ليس فيه
دلالة على كون نفس الفعل مقصود الايقاع وقد قيل انما جيء باللام لتضمينه معنى
الاحتيال المتعدي باللام ليفيد معنى المضمن والمضمن فيه للتاكيد اي فيحتالوا لك
ولاهلاكك حيلة وكيدا والمراد باخوته ههنا الذين يخشى غوائلهم ومكايدهم
من بني علاته الاحد عشر وهم يهوذا وروبيل وشمعون ولاوي وربالون
ويشجر ودينه بنو يعقوب من ليا بنت خالته ودان ونفتالي وجاد واشر بنوه من
سريتين زلفة وبلهة وهؤلاء هم المشار اليهم بالكواكب الاحد عشر واما
بنيامين الذي هو شقيق يوسف عليه السلام وامهما راحيل التي تزوجها يعقوب
عليه السلام بعد وفاة اختها ليا او في حياتها اذ لم يكن جمع الاختين اذ ذاك
محرما فليس بداخل تحت هذا النهي اذ لا يتوهم مضرته ولا يخشى معرته ولم يكن
معدودا معهم في الرؤيا اذ لم يكن معهم في السجود ليوسف والمراد نهيه عن اقتصاص
الرؤيا عليهم كلا او بعضا ان الشيطان للانسان عدو مبين ظاهر العداوة فلا
يالو جهدا في اغواء اخوتك واضلالهم وحملهم على ما لا خير فيه وهو استيناف
كان يوسف عليه السلام قال كيف يصدر ذلك من اخوتي الناشئين في بيت النبوة فقيل

ان الشيطان يحملهم على ذلك فلما نبهه عليهما السلام على ان لرؤياه شانا عظيما يستتبع
منافع حذره اشاعتها المودية الى ان يحول اخوته بينها وبين ظهور اثارها وحصولها
او يبو عروا ووضعوا لها سبيلا شرع فى تعبيرها وتاويلها على وجه اجمالى فقال وكذلك اى
ومثل ذلك الاجتباء البديع الذي شاهدت اثاره فى عالم المثال من سجود تلك الاجرام
العلوية النيرة لك وبحسبه وعلى وفقه يجتبيك ربك يختارك لجناب كبريائه
ويستنبئك افتعال من جباه اذا جمعه ويصطفيك على اشراف الخلائق وسادة الناس
قاطبة ويبرز مصداق تلك الرؤيا فى عالم الشهادة حسبما عاينته من غير قصور
والمراد بالتشبيه بيان المضاهاة المتحققة بين الصور المرئية فى عالم المثال وبين
ما وقعت هى صورا واشباحا من الكائنات الظاهرة بحسبها فى عالم الشهادة اى
اى كما سخرت لك تلك الاجرام العظام يسخر لك وجوه الناس ونواصيهم من عنين
لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة ومراده بيان اطاعة ابويه واخوته
له لكنه انما لم يصرح به حذرا من اذاعته ويعلمك كلام مبتدأ غير داخل تحت التشبيه
اراد به عليه السلام تاكيد مقالته وتحقيقها وتوطين نفس يوسف عليه السلام
بما اخبر به على طريقة التعبير والتاويل كانه قال وهو يعلمك من تاويل الاحاديث
اى ذلك الجنس من العلوم او طرفا صالحا منه فتطلع على حقيقة ما اقول ولا
يخفى ما فيه من تاكيد ما سبق والبعث على تلقى ما سيأتى بالقبول والمراد بتاويل
الاحاديث تعبير الرؤيا اذ هى احاديث الملك ان كانت صادقة واحاديث النفس
او الشيطان ان لم يكن كذلك والاحاديث اسم جمع للحديث كاباطيل اسم جمع للباطل
لا جمع احدوثة وقيل كانهم جمعوا حديثا على احدثة ثم جمعوا الجمع على احاديث كقطيع
واقطعة واقاطيع وقيل هو تاويل غوامض كتاب الله تعالى وسنن الانبياء عليهم السلام
والاول هو الاظهر وتسمية التعبير تاويلا لانه جعل المرئى ايلا الى ما يذكره المعبر
بصدد التعبير ورجعه اليه فكانه عليه السلام اشار بذلك الى ما سيقع من
يوسف عليه السلام من تعبيره لرؤيا صاحبى السجن ورؤيا الملك وكون ذلك
ذريعة الى ما يبلغه الله تعالى اليه من الرياسة العظمى التى عبر عنها باتمام النعمة
وانما عرف يعقوب ذلك منه عليهما السلام من جهة الوحى او اراد كون هذه الخصلة
سببا لظهور امره عليه السلام على الاطلاق فيجوز حينئذ ان يكون معرفته
عليه السلام بذلك بطريق الفراسة والاستدلال من الشواهد والدلائل والامارات
والمخايل بان من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا لابد من توفيقه لتعبيرها وتاويل
امثالها وتمييز ما هو افاقى منها مما هو انفسى كيف لا وهى تدل على كمال تمكن نفسه
عليه السلام فى عالم المثال وقوة تصرفاتها فيه فيكون اقبل لفيضان المعارف
المتعلقة بذلك العالم وبما يحاكيه من الامور الواقعة بحسبها فى عالم الشهادة واقوى
وقوفا على النسب الواقعة بين الصور المعاينة فى احد ذينك العالمين وبين الكائنات
الظاهرة على وفقها فى العالم الآخر وان هذا الشان البديع لابد ان يكون انموذجا
لظهور من اتصف به ومدارا لجريان احكامه فان لكل نبى من الانبياء عليهم
الصلوة والسلام معجزة بها يظهر اثاره ويجرى احكامه ويتم نعمته عليك
بان يضم الى النبوة المستفادة من اجتباء الملك ويجعله تتمة لها وتوسيط ذكر
التعليم المذكور بينهما لكونه من لوازم النبوة والاجتباء ولرعاية ترتيب الوجود
الخارجى ولما اشرنا اليه من كونه اثره ووسيلة الى تمام النعمة ويجوز ان يعد نفس
الرؤيا من نعم الله تعالى عليه فيكون جميع النعم الواصلة اليه بحسبها مصداقا لها
تماما لتلك النعمة وعلى آل يعقوب وهم اهله من بنيه وغيرهم فرؤيه
يوسف عليه السلام اخوته كواكب يهتدى بانوارها من نعم الله تعالى عليهم
لدلالتها على مصير امرهم الى النبوة فيقع كل ما يخرج من القوة الى الفعل من كمالاتهم
بحسب ذلك تماما لتلك النعمة لا محالة واما اذا اريد بتمام النعمة الملك فكونه كذلك

بالنسبة اليهم باعتبار انهم يغتنمون آثاره من العز والجاه والمال كما اتمها على ابويك
نصب على المصدرية اى ويتم نعمته عليك اتماما كائنا كاتمام نعمته على ابويك
وهى نعمة الرسالة والنبوة واتمامها على ابراهيم عليه السلام باتخاذه خليلا وانجائه
من النار ومن ذبح الولد وعلى اسحق بانجائه من الذبح وفدائه بذبح عظيم وباخراج
يعقوب والاسباط من صلبه وكل ذلك نعمة جليلة وقعت تتمة لنعمة النبوة ولا يجب
فى تحقيق التشبيه كون ذلك فى جانب المشبه به مثل ما وقع فى جانب المشبه من كل
وجه من قبل اى من قبل هذا الوقت او من قبلك ابراهيم واسحق عطف بيان لابويك
والتعبير عنهما بالاب مع كونهما ابا جده وابا ابيه للاشعار بكمال ارتباطه بالانبياء
الكرام عليهم السلام وتذكير معنى الولد سر ابيه ليطمئن قلبه بما اخبر به فى ضمن
التعبير الاجمالى لرؤياه والاقتصار فى المشبه به على ذكر تمام النعمة من غير تعرض
للاجتباء من باب الاكتفاء فان اتمام النعمة يقتضى سابقة النعمة المستدعية للاجتباء
لا محالة ان ربك استيناف لتحقيق مضمون الجملة المذكورة اى يفعل ما ذكر لانه
عليم بكل شئ فيعلم من يستحق الاجتباء وما يتفرع عليه من التعليم المذكور واتمام
النعمة العامة على الوجه المذكور حكيم فاعل لكل شئ حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة
فيفعل ما يفعل كما يفعل جريا على سنن علمه وحكمته والتعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين
لتربية تحقق وقوع ما ذكر من الافاعيل هذا وقد قيل فى تفسير الآية الكريمة اى وكما
اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس يجتبيك ربك للنبوة والملك
او لامور عظام ويتم نعمته عليك بالنبوة او بان يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة حيث
جعلهم فى الدنيا انبياء وملوكا ونقلهم عنها الى الدرجات العلى فى الجنة كما اتمها على ابويك
بالرسالة فتامل والله الهادى لقد كان فى يوسف واخوته اى فى قصتهم والمراد بهم
ههنا اما جميعهم فان لبنيامين ايضا حصة من القصة او بنو علاته ؍؍؍
المعدودون فيما سلف اذ عليهم يدور رحاها آيات علامات عظيمة الشان دالة
على قدرة الله تعالى القاهرة وحكمته الباهرة للسائلين لكل سائل عن قصتهم
وعرفها او الطالبين للآيات المعتبرين بها فانهم الواقفون عليها والمنتفعون
بها دون من عداهم ممن اندرج تحت قوله تعالى وكاين من آية فى السموات و
الارض يمرون عليها وهم عنها معرضون فالمراد بالقصة نفس المقصوص او على نبوته
صلى الله عليه وسلم لمن سأله من المشركين او اليهود عن قصتهم فاخبرهم
بذلك على ما هى عليه من غير سماع من احد ولا ممارسة شئ من الكتب فالمراد بها
اقتصاصها وجمع الآيات حينئذ للاشعار بان اقتصاص كل طائفة من القصة آية بينة كافية
فى الدلالة على نبوته صلى الله عليه وسلم على نحو ما ذكر فى قوله تعالى مقام ابراهيم على تقدير
كونه عطف بيان لقوله تعالى آيات بينات لا لما قيل من انه لتعدد جهة الاعجاز لفظا
ومعنى وقرأ ابن كثير آية وفى بعض المصاحف عبرة وقيل انما قص الله تعالى على النبى صلى الله
عليه وسلم خبر يوسف وبغى اخوته عليه لما رأى من بغى قومه عليه ليتسلى به
اذ قالوا ليوسف واخوه اى شقيقه بنيامين وانما لم يذكر باسمه تلويحا بان
مدار المحبة اخوته ليوسف من الطرفين الا يرى انهم كيف اكتفوا باخراج يوسف
من غير تعرض له حيث قالوا اقتلوا يوسف احب الى ابينا منا وحد الخبر مع تعدد
المبتدأ لان افعل من كذا لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه ولا بين المذكر والمؤنث
نعم اذا عرف وجب الفرق واذا اضيف جاز الامران وفائدة لام الابتداء فى يوسف
تحقيق مضمون الجملة وتاكيده ونحن عصبة اى والحال انا جماعة قادرون
على الحل والعقد احقاء بالمحبة والعصبة والعصابة العشرة من الرجال فصاعدا
سموا بذلك لان الامور تعصب بهم ان ابانا لفى ترجيحهما علينا فى المحبة
مع فضلنا عليهما وكونهما بمعزل من كفاية الامور بالصغر والقلة لفى ضلال
مبين اى ذهاب عن طريق التعديل اللائق وتنزيل كل منا منزلته مبين ظاهر الحال

روي انه كان احب اليه لما يرى فيه من مخايل الخير وكانت اخوته يحسدونه فلما رأى
الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه فتضاعف حسدهم حتى حملهم على مباشرة
ما حكي عنهم اقتلوا يوسف او اطرحوه ارضا من جملة ما حكي بعد قوله اذ قالوا
وقد قاله بعض منهم مخاطبا للباقين بقضية الصنيعة فكانهم رضوا بذلك كما يروى
ان القائل شمعون او داره والباقون كانوا راضين الا من قال لا تقتلوا الخ فجعلوا
كانهم القائلون وادرجوا تحت القول المسند الى الجميع او قاله كل واحد منهم
مخاطبا للبقية وهو ادل على مسارعتهم الى ذلك القول وتنكير ارضا واخلاؤها
من الوصف للابهام اي ارضا منكورة مجهولة بعيدة من العمران ولذلك نصبت
نصب الظروف المبهمة يخل بالجزم جواب للامر اي يخلص لكم وجه ابيكم فيقبل
عليكم بكليته ولا يلتفت عنكم الى غيركم ولا ينازعكم في محبته احد فذكر الوجه لتصوير
معنى اقباله عليهم وتكونوا بالجزم عطفا على يخل او بالنصب على اضمار ان او الواو
بمعنى مع مثل قوله وتكتموا الحق وايثار الخطاب في لكم وما بعده للمبالغة في حملهم
على القبول فان اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه اتم واكمل من بعده
من بعد يوسف اي من بعد الفراغ من امره او قتله او طرحه قوما صالحين تائبين
الى الله تعالى عما جنيتم او صالحين مع ابيكم باصلاح ما بينكم وبينه بعذر تمهدونه
او صالحين في امور دنياكم بانتظامها بعده بخلو وجه ابيكم قال قائل منهم هو
يهوذا وكان احسنهم فيه رأيا وهو الذي قال فلن ابرح الارض الخ وقيل روبيل وهو
استيناف مبني على سؤال من سأل وقال اتفقوا على ما عرض عليهم من خصلتي الضيع
ام خالفهم في ذلك احد فقيل قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف اظهره في مقام الاضمار
استجلابا لشفقتهم عليه او استعظاما لقتله وهو هو فانه يروى انه قال لهم القتل
عظيم ولم يصرح بنهيهم عن الخصلة الاخرى واما حاله على اولوية ما عرضه عليهم بقوله
والقوه في غيابة الجب اي في قعره وغوره سمي بها لغيبته عن عين الناظر والجب البئر التي
لم تطو بعد لانها ارض جبت جبا من غير ان يزاد على ذلك شيء وقرئ نافع في غيابات
الجب في الموضعين كان لتلك الجب غيابات او اراد بالجب الحبس اي في بعض
غيابات الجب وقرئ غيابات وغيبة يلتقطه يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع
والتلف فان الالتقاط اخذ شيء مشرف على الضياع بعض السيارة اي بعض طائفة
تسير في الارض واللام في السيارة كما في الجب وما فيها وفي البعض من الابهام لتحقيق
ما يتوخاه من ترويج كلامه بموافقته لغرضهم الذي هو تنائي يوسف عنهم بحيث لا يدرى
اثره ولا يروى خبره وقرئ تلتقطه على التأنيث لان بعض السيارة سيارة كقوله كما شرقت
صدر القناة من الدم ومنه ومنه قطعت بعض اصابعه ان كنتم فاعلين بمشورتي
لم يبت القول عليهم بل انما عرض عليهم ذلك تأليفا لقلبهم وتوجيها لهم الى رأيه و
حذرا من نسبتهم له الى التحكم والافتيات وان كنتم فاعلين ما ازمعتم عليه من
ازالته من عند ابيه لا محالة ولما كان هذا مظنة لسؤال سائل يقول فما فعلوا بعد
ذلك منه اولا فاجيب بطريق الاستيناف على وجه ادرج في تضاعيفه قبولهم
له بما سيجيء من قوله واجمعوا ان يجعلوه في غيابة الجب فقيل قالوا يا ابانا خاطبوه
بذلك تحريكا لسلسلة النسب بينه وبينهم وتذكيرا للرابطة الاخوة بينهم وبين
يوسف ليتسببوا بذلك الى استنزاله عليه السلام عن رأيه في حفظه منهم لما احس
منهم بامارات الحسد والبغي فكانهم قالوا ما لك اي اي شيء لك لا تأمنا اي لا
تجعلنا امناء على يوسف مع انك ابونا ونحن بنوك وهو اخونا وانا له لناصحون
مريدون له الخير ومشفقون عليه ليس فينا ما يخل بالنصيحة والمعية وطء القراءة المشهورة
بالادغام والاشمام وعن نافع ترك الاشمام ومن الشواذ ترك الادغام ارسله
معنا غدا الى الصحراء يرتع اي يتسع في اكل الفواكه ونحوها فان الرتع هو الاتساع
في الملاذ ويلعب بالاستباق والتناضل ونظائرهما مما يعد من باب التأهب للغزو وانما

عبروا عن ذلك باللعب لكونه على هيئة تخيلا لما راموه من استصحاب يوسف عليه السلام
بتصويرهم له بصورة ما لا يلائمه حاله عليه السلام وقرئ نرتع ونلعب بالنون وقرأ ابن كثير
نرتع من ارتعى ونافع بالكسر والياء فيه وفي يلعب وقرئ يرتع من ارتع ماشيته ويرتع
بكسر العين ويلعب بالرفع على الابتداء وانا له لحافظون من ان يناله مكروه اكدوا
مقالتهم باصناف التأكيد من ايراد الجملة اسمية وتحليتها بان واللام واسناد الحفظ
الى كلهم وتقديم له على الخبر احتيالا في تحصيل مقصدهم قال استيناف مبني على سؤال
من يقول فماذا قال يعقوب عليه السلام فقيل قال اني ليحزنني اللام للابتداء كما في قوله
عز وجل ان ربك ليحكم بينهم ان تذهبوا به لشدة مفارقته علي وقلة صبري
عنه ومع ذلك اخاف ان يأكله الذئب لان الارض كانت مذأبة والحزن الم
القلب بفوت المحبوب والخوف انزعاج النفس لنزول المكروه ولذلك اسند الاول الى
الذهاب به المفوت لاستمرار مصاحبته ومواصلته ليوسف والثاني الى ما يتوقع
نزوله من اكل الذئب وقيل رأى في المنام انه قد شد عليه عليه السلام ذئب وكان
يحذره فقال ذلك وقد لقنهم العلة ان البلاء موكل بالمنطق وقرأ ابن كثير ونافع في
رواية اليزيدي بالهمزة على الاصل وابو عمرو وقفا وعاصم وابن عامر وحمزة درجا وقيل
اشتقاقه من تذائبت الريح اذا هاجت من كل جانب وقال الاصمعي الامر بالعكس
وهو اظهر لفظا ومعنى وانتم عنه غافلون لاشتغالكم بالرتع واللعب ولقلة اهتمامكم
بحفظه قالوا لئن اكله الذئب ونحن عصبة اي والحال انا جماعة كثيرة جديرة
بان يعصب بنا الامور العظام وتكفى الخطوب بآرائنا وتدبيراتنا واللام الداخلة
على الشرط موطئة للقسم وقوله انا اذا لخاسرون جواب مجزي عن الجزاء اي
لهالكون ضعفا وخورا وعجزا ومستحقون للهلاك لا غناء عندنا ولا جدوى
في حياتنا او مستحقون لان يدعى علينا بالخسار والدمار ويقال اخسرهم الله و
دمرهم حيث اكل الذئب بعضهم وهم حضور وقيل ان لم نقدر على حفظه وهو
اعز شيء عندنا فقد هلكت مواشينا اذن وخسرناها وانما اقتصروا على جواب خوف
يعقوب عليه السلام من اكل الذئب لانه السبب القوي في المنع دون الحزن لقصر
مدته بناء على انهم يأتون به عن قريب فلما ذهبوا به واجمعوا اي ازمعوا
ان يجعلوه مفعول لاجمعوا يقال اجمع الامر ومنه فاجمعوا امركم ولا يستعمل
ذلك الا في الافعال التي قويت الدواعي الى فعلها في غيابة الجب قيل هي بئر
بارض الاردن وقيل بين مصر ومدين وقيل على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب
عليه السلام بكنعان التي هي من نواحي الاردن كما ان مدين كذلك واما ما يقال
من انها بئر بيت المقدس فيرده التعليل بالتقاط السيارة ومجيئهم اباهم
عشاء ذلك اليوم فان بين منزل يعقوب عليه السلام وبين بيت المقدس مراحل
وجواب لما محذوف ايذانا بظهوره واشعارا بان تفصيله مما لا يحويه فلك
العبارة ومحله فعلوا به من الاذية ما فعلوا يروى انهم لما برزوا الى الصحراء
اخذوا يؤذونه ويضربونه حتى كادوا يقتلونه فجعل يصيح ويستغيث فقال يهوذا
اما عاهدتموني ان لا تقتلوه فاتوا به الى البئر فدلوه فيها فتعلق بشفيرها فنزعوها من يديه
فدلوه فيها فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه لما عرفوا عليه من تلطيخه
بالدم احتيالا للابيه فقال يا اخوتاه ردوا علي قميصي اتوارى به فقالوا
ادع الشمس والقمر والاحد عشر كوكبا تؤنسك فدلوه فيها فلما بلغ نصفها القوه
ليموت وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم آوى الى صخرة فقام عليها وهو يبكي فنادوه
وظن انها رحمة ادركتهم فاجابهم فارادوا ان يرضخوه فمنعهم يهوذا وكان
يأتيه كل يوم ويروى ان ابراهيم عليه السلام حين القي في النار وجرد عن ثيابه
اتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فالبسه اياه فدفعه ابراهيم الى اسحق
واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب في تميمة وعلقها في عنق يوسف فجاءه جبريل

فاخرجه من التميمة فالبسه اياه واوحينا اليه عند ذلك تبشيرا له بما يؤل اليه امره
وازالة لوحشته وايناسا له قيل كان ذلك قبل ادراكه كما اوحي الى يحيى وعيسى وقيل كان
اذ ذاك مدركا قال الحسن كان له سبع عشرة سنة لتنبئنهم بامرهم هذا اى
لتتخلصن مما انت فيه من سوء الحال وضيق المجال ولتحدثن اخوتك بما فعلوا بك
وهم لا يشعرون بانك يوسف لتباين حاليك حالك هذا وحالك يومئذ لعلو
شانك وكبرياء سلطانك وبعد حالك عن اوهامهم وقيل لبعد العهد المبدل
للهيئات المغير للاشكال والاول ادخل في التسلية روي انهم حين دخلوا عليه
ممتارين فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن
فقال انه ليخبرني هذا الجام انه كان لكم اخ من ابيكم يقال له يوسف وكان يدنيه دونكم
وانكم انطلقتم به والقيتموه في غيابة الجب وقلتم لابيكم اكله الذئب وبعتموه
بثمن بخس ويجوز ان يتعلق وهم لا يشعرون بالايحاء على معنى انا آنسناه بالوحي
بالوحي وازلنا عن قلبه الوحشة التي اورثوه وهم لا يشعرون بذلك ويحسبون
انه مرهق مستوحش لا انيس له وقرئ لننبئنهم بالنون على انه وعيد لهم فقوله
تعالى وهم لا يشعرون متعلق باوحينا لا غير وجاءوا اباهم عشاء آخر النهار
وقرئ عشيا وهو تصغير عشي وعشى بالضم والقصر جمع اعشى اى عشوا من البكاء
يبكون متباكين روي انه لما سمع يعقوب عليه السلام بكاءهم فزع و
قال ما لكم يا بني واين يوسف قالوا يا ابانا انا ذهبنا نستبق اى متسابقين
في العدو او الرمي وقد يشترك الافتعال والتفاعل كالانتضال والتناضل ونظائرهما
وتركنا يوسف عند متاعنا اى ما نتمتع به من الثياب والازواد وغيرهما فاكله
الذئب عقيب ذلك من غير مضي زمان يعتاد فيه التفقد والتعهد وحيث لا يكاد يطرح
المتاع عادة الا في مقام يؤمن فيه الغوائل لم يعد تركه عليه السلام عنده من باب
الغفلة وترك الحفظ الملتزم لاسيما اذا لم يبرحوه ولم يغيبوا عنه فكانهم قالوا انا
لم نقصر في محافظته ولم نغفل عن مراقبته بل تركناه في مامننا ومجمعنا عن راى منا
لان ميدان السباق لا يكون عادة الا بحيث يتراءى غايتاه وما فارقناه الا ساعة يسيرة
بيننا وبينه مسافة قصيرة فكان ما كان وما انت بمؤمن لنا بمصدق لنا في هذه المقالة
الدالة على عدم تقصيرنا في امره ولو كنا عندك وفي اعتقادك صادقين موصوفين
بالصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف وانت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا
وكلمة لو في امثال هذه المواقع ليست لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم الموجب والمنفي
على كل حال مفروض من الاحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على ابعدها منه واشدها
منافاة له ليظهر بثبوته او انتفائه معه ثبوته او انتفائه معها وانتفاؤه مع غيره
من الاحوال بطريق الاولوية لما ان الشيء مع تحقق مع المنافي القوي فلان يتحقق
مع غيره اولى ولذلك لا يذكر معه شيء من سائر الاحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة
للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الاحوال المغايرة لها عند تعددها وقد مر
تفصيله في سورة البقرة عند قوله ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون وفي سورة
الاعراف عند قوله تعالى او لو كنا كارهين وجاءوا على قميصه محله النصب على الظرفية
من قوله بدم اى جاءوا فوق قميصه بدم كما تقول جاء على جماله باحمال
او على الحالية منه والخلاف في تقدم الحال على المجرور فيما اذا لم يكن الحال ظرفا كذب مصدر
وصف به الدم مبالغة او مصدر بمعنى المفعول اى مكذوب فيه او بمعنى ذي كذب
اى ملابس للكذب وقرئ كذبا على انه حال من الضمير اى جاءوا كاذبين او مفعول له وقرأت
عائشة رضي الله عنها بغير المعجمة اى كدر وقيل طري قال ابن جني اصله من الكدب وهو
الفوف البياض الذي يخرج على اظفار الاحداث كانه دم قد اثر في قميصه روي انهم
ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها وزل عنهم ان يمزقوه فلما سمع يعقوب بخبر يوسف
عليهما السلام صاح باعلى صوته وقال اين القميص فاخذه والقاه على وجهه وبكى

حتى

حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله ما رايت كاليوم ذئبا احلم من هذا اكل ابني
ولم يمزق عليه قميصه وقيل كان في قميص يوسف عليه السلام ثلاث آيات كان دليلا
ليعقوب على كذبهم والقاه على وجهه فارتد بصيرا ودليلا على براءة يوسف حين قد
من دبر قال استئناف مبني على سؤال فكانه قيل ما قال يعقوب هل صدقهم فيما قالوا
ام لا فقيل قال لم يكن ذلك بل سولت لكم انفسكم اى سهلت وزينت قال ابن
عباس رضي الله عنهما والتسويل تقدير شيء في النفس مع الطمع في اتمامه قال الازهري
كان التسويل تفعيل من سول الانسان وهو امنيته التي يطلبها فتزين لطالبها الباطل
وغيره واصله مهموز وقيل من السول وهو الاسترخاء امرا من الامور منكرا لا يوصف
ولا يعرف فصبر جميل اى فامري صبر جميل او فصبر جميل اجمل وامثل وفي الحديث الصبر
الجميل الذي لا شكوى فيه اى الى الخلق والا فقد قال يعقوب عليه السلام انما
اشكو بثي وحزني الى الله وقيل سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعهما بعصابة فقيل
له ما هذا قال طول الزمان وكثرة الاحزان فاوحى الله عز وجل يا يعقوب اتشكوني قال يا
رب خطيئة فاغفرها لي وقرا ابي فصبرا جميلا والله المستعان اى المطلوب منه العون
وهو انشاء منه عليه السلام للاستعانة المستمرة على ما تصفون على اظهار حال ما
تصفون وبيان كونه كذبا واظهار سلامته فانه علم في الكذب قال سبحانه سبحان ربك
رب العزة عما يصفون وهو الاليق بما سيجيء من قوله تعالى فصبر جميل عسى الله ان ياتيني
بهم جميعا وتفسير المستعان عليه باحتمال ما يصفون من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه
يأباه تكذيبه عليه السلام لهم في ذلك ولا يساعده الصيغة فانها قد غلبت في وصف
الشيء بما ليس فيه كما اشير اليه وجاءت سيارة شروع في بيان ما جرى على يوسف في الجب بعد الفراغ عن
ذكر ما وقع بين اخوته وبين ابيه والتعبير بالمجيء ليس بالنسبة الى مكانهم فان كنعان
ليس بالجانب المصري من مدين بل الى مكان يوسف وفي ايثاره على المرور والاتيان ونحوهما
ايماء الى كونه عليه السلام في الكرامة والزلفى عند مليك مقتدر والظاهر ان الجب
كان في الامم المبنية فان المتبادر من اسناد المجيء الى السيارة مطلقا في قوله عز وجل
وجاءت سيارة اى رفقة تسير من جهة مدين الى مصر وقوعه باعتبار سيرهم المعتاد وهو الذي
يقتضيه قوله تعالى فيما سلف يلتقطه بعض السيارة وقد قيل انه كان في قفرة بعيدة من العمران لم
يكن الا للرعاة فاخطؤوا الطريق فنزلوا قريبا منه وقيل كان ماؤه ملحا فعذب حين
القي فيه عليه السلام فارسلوا واردهم الذي يرد الماء ويستقي لهم وكان ذلك مالك بن
ذعر الخزاعي وانما لم يذكر منتهى الارسال كما لم يذكر منتهى المجيء اعني الجب للايذان
بان ذلك معهود لا يعزب عنه الذكر صفحا فادلى دلوه اى ارسلها الى الجب والحذف
لما عرفته فتدلى بها يوسف فخرج قال استئناف مبني على سؤال يقتضيه الحال يا
بشراى هذا غلام كانه نادى البشرى وقال تعالي فهذا اوانك حيث فاز بنعمة باردة
واي نعمة مكان يوجد مباحا من الماء وقيل هو اسم صاحب له ناداه ليعينه على اخراجه
وقرا غير الكوفيين يا بشراي وامال فتحة الراء حمزة والكسائي وقرا ورش بين اللفظين
وقرئ يا بشري بالادغام وهي لغة وبشراي على قصد الوقف واسروه اى اخفاه
الوارد واصحابه عن بقية الرفقة وقيل اخفوا امره ووجدانهم له في الجب
قالوا لهم دفعه الينا اهل الماء لنبيعه لهم بمصر وقيل الضمير لاخوة يوسف وذلك ان
يهوذا كان ياتيه كل يوم بطعام فاتاه يومئذ فلم يجده فيها فاخبر اخوته فاتوا
الرفقة وقالوا هذا غلامنا ابق منا فاشتروه منهم وسكت يوسف مخافة ان يقتلوه ولا يخفى
ما فيه من البعد بضاعة نصب على الحالية اى اخفوه حال كونه بضاعة اى متاعا للتجارة
فانها قطعة من المال بضعت عنه اى قطعت للتجارة والله عليم بما يعملون وعيد
لهم على ما صنعوا من جعلهم مثل يوسف وهو هو عرضة للابتذال بالبيع والشرى وما
دبروا في ذلك من الحيل وشروه اى باعوه والضمير للوارد واصحابه بثمن بخس
زيف ناقص العيار دراهم بدل من الثمن اى لا دنانير معدودة اي غير موزونة

فهو بيان لقلته ونقصانه مقدارا بعد بيان نقصانه فى نفسه اذا المعتاد فيما لا يبلغ اربعين
العد دون الوزن فعن ابن عباس رضى الله عنهما انها كانت عشرين درهما وعن السدى
انها كانت اثنين وعشرين درهما وكانوا اى البايعون فيه فى يوسف من الزاهدين
من الذين لا يرغبون فيما بايديهم فلذلك باعوه بما ذكر من الثمن البخس وسبب
ذلك انهم التقطوه والملتقط للشئ متهاون به او غير واثق بامره يخاف ان
يظهر له مستحق فينتزعه منه فيبيعه من اول مساوم باوكس ثمن ويجوز ان يكون
معنى شروه اشتروه من اخوته على ما حكى وهم غير راغبين فى شراه خشية ذهاب
مالهم لما ظن فى اذ يهم من الاباق والعدول عن صيغة الافتعال المنبئة عن الاتخاذ
لما من ان اخذهم انما كان بطريق البضاعة دون الاجتباء والاقتناء وفيه متعلق
بالزاهدين ان جعل اللام للتعريف وبيان لما زهدوا فيه ان جعلت موصولة كانه قيل فى
اى شئ زهدوا فقيل زهدوا فيه لان ما يتعلق بالصلة لا يتقدم على الموصول وقال
الذي اشتراه من مصر وهو العزيز الذي كان على خزائنه واسمه قطفير او اطفير و
بيان كونه من مصر لترتيبة ما يتفرع عليه من الامور مع الاشعار بكونه غير من اشتراه
من الملتقطين بما ذكر من الثمن البخس وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد العملقى
ومات فى حياة يوسف عليه السلام بعد ان امن به فملك بعده قابوس بن معصب
فدعاه الى الاسلام فابى وقيل كان الملك فى ايامه فرعون موسى عليه السلام
عاش اربعمائة سنة لقوله عز وجل ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون
موسى من اولاد فرعون يوسف عليه السلام والاية من قبيل خطاب الاولاد باحوال الاباء
واختلف فى مقدار ما اشتراه به العزيز فقيل بعشرين دينارا وزوجى نعل وثوبين ابيضين
وقيل ادخلوه فى السوق يعرضونه فترافعوا فى ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكا وزنه
ورقا ووزنه حريرا فاشتراه قطفير بذلك المبلغ وكان سنه اذ ذاك سبع عشرة سنة
واقام فى منزله مع ما مر عليه من مدة لبثه فى السجن ثلث عشرة سنة واستوزره الريان
وهو ابن ثلثين سنة واتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلث وثلثين سنة وتوفى وهو
ابن مائة وعشرين سنة لامراته راعيل او زليخا وقيل اسمها هو الاول والثانى لقبها
واللام متعلقة بقال لا باشتراه اكرمى مثواه اجعلى محل اقامته كريما مرضيا والمعنى
احسنى تعهده عسى ان ينفعنا فى ضياعنا واموالنا ونستظهر به فى مصالحنا او
نتخذه ولدا اى نتبناه وكان ذلك لما تفرس فيه من مخايل الرشد والنجابة ولذلك
قيل افرس الناس ثلثة عزيز مصر وابنة شعيب التى قالت يا ابت استاجره وابو بكر
حين استخلف عمر رضى الله عنهما وكذلك نصب على المصدرية وذلك اشارة الى ما
يفهم من كلام العزيز وما فيه من معنى البعد لتفخيمه اى مثل ذلك التمكين البديع مكنا
ليوسف فى الارض اى جعلنا له فيها مكانا يقال مكنه فيه اى اثبته فيه ومكن له فيه اى
جعل له فيه مكانا ولتقاربهما وتلازمهما يستعمل كل منهما فى محل الاخر قال عز وجل
وكم اهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الارض ما لم نمكن لكم اى ما لم نمكنكم فيها اى
مكنا لهم فى الارض الخ والمعنى كما جعلنا له مثوى كريما فى منزل العزيز او مكانا عليا فى
قلبه حتى امر امراته دون سائر جواريه باكرام مثواه جعلنا له مكانة رفيعة فى ارض
مصر ولعله عبارة عن جعله وجيها فيما بين اهلها ومحببا فى قلوبهم كافة كما فى قلب العزيز
لان الذى يؤدى الى الغاية المذكورة فى قوله تعالى ولنعلمه من تاويل الاحاديث اى
يوفقه لتعبير بعض المنامات التى عمدتها رؤيا الملك وصاحبى السجن لقوله تعالى ذلكما مما
علمنى ربى سوى جعلناه معطوفا على غاية مقدرة ينساق اليه الكلام ويستدعيها
النظام كانه قيل ومثل ذلك التمكين مكنا ليوسف فى الارض وجعلنا قلوب اهلها كافة محال
محبته ليترتب عليها ما ترتب مما جرى بينه وبين امراة العزيز ولنعلمه بعض تاويل الاحاديث
وهو تاويل الرؤيا المذكورة فيؤدى ذلك الى الرياسة العظمى ولعل ترك المعطوف
عليه للاشعار بعدم كونه مرادا بالذات او جعلناه علة لمعلل محذوف كانه قيل ولهذه

الحكمة البالغة فعلنا ذلك التمكين دون غيرها مما ليس له عاقبة حميدة هذا ولا يخفى عليك
ان الذي عليه يدور هذه الامور انما هو التمكين فى جانب العزيز واما التمكين فى جانب
الناس كافة فتادية الى ذلك انما هى باعتبار اشتماله على ذلك التمكين فاذن الحق ان يكون
ذلك اشارة الى مصدر قوله تعالى مكنا ليوسف على ان يكون هو عبارة عن التمكين فى قلب
العزيز او فى منزله وكون ذلك تمكينا فى الارض بملابسة انه عزيز فيها لا عن تمكين
آخر يشبه به كما مر فى قوله تعالى وكذلك جعلناكم امة وسطا من ان ذلك اشارة
الى مصدر الفعل المذكور بعده لا الى جعل آخر يقصد تشبيه هذا الجعل به فالكاف
مقحم للدلالة على فخامة شان المشار اليه اقحاما لا يكاد يترك فى لغة العرب ولا فى
غيرها ومن ذلك قولهم مثلك لا يبخل وهكذا ينبغى ان يحقق المقام واما التمكين
بمعنى جعله ملكا يتصرف فى ارض مصر بالامر والنهى فهى من آثار ذلك التعليم و
نتائجه المتفرعة عليه كما عرفته لا من مباديه المؤدية اليه فلا سبيل الى جعله غاية
له ولم يعهد منه عليه السلام فى تضاعيف قضاياه العمل بموجب المنامات المنبهة
على الحوادث قبل وقوعها عهدا مصححا لجعله غاية لولايته وما وقع من التدارك
فى امر السنين فانما هو عمل بموجب الرؤيا السابقة المعهودة اللهم الا ان
يراد بتعليم تاويل الاحاديث ما سبق من تفهيم غوامض اسرار الكتب الالهية و
دقائق سنن الانبياء عليهم السلام فيكون المعنى حينئذ مكنا له فى ارض مصر
ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه معانى كتب الله تعالى واحكامها ودقائق سنن الانبياء
فيقضى بها فيما بين اهلها والتعليم الاجمالى لتلك المعانى والاحكام وان كان
غير متاخر عن تمكينه بذلك المعنى الا ان تعليم كل شئ معين شخصى يتفق فى ضمن
الحوادث والارشاد الى الحق فى كل نازلة من النوازل متاخر عن ذلك صالح لان
يكون غاية له والله غالب على امره لا يستعصى عليه امر ولا يمانعه شئ بل انما
امره لشئ اذا اراد ان يقول له كن فيكون وقد دخل فى ذلك شؤنه المتعلقة بيوسف
دخولا اوليا او متولى على امر يوسف لا يكله الى غيره وقد اريد به من الفتنة ما
اريد مرة غب مرة فلم يكن الا ما اراد الله له من العاقبة الحميدة ولكن اكثر
الناس لا يعلمون ان الامر كذلك فيأتون ويذرون زعما منهم ان لهم من
الامر شيئا وانى لهم ذلك وان الامر كله لله عز وجل ولا يعلمون لطائف صنعه
وخفايا فضله ولما بلغ اشده اى منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو سن
الوقوف ما بين الثلثين الى الاربعين وقيل سن الشباب ومبدؤه بلوغ الحلم والاول
هو الاظهر لقوله اتيناه حكما حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل او حكما بين
الناس وفقها او نبوة وعلما اى تفقها فى الدين وتنكيرهما للتفخيم
اى حكما وعلما لا يكتنه كنههما ولا يقادر قدرهما فهما ما اتاه الله تعالى عند تكامل
قواه سواء كانا عبارة عن النبوة والحكم بين الناس او غيرهما كيف لا وقد جعل
ايتاؤهما جزاء لعمله عليه السلام حيث قيل وكذلك اى مثل ذلك الجزاء العجيب
نجزى المحسنين اى كل من يحسن فى عمله فيجب ان يكون ذلك بعد انقضاء اعماله
الحسنة التى من جملتها معاناة الاحزان والشدائد وقد فسر العلم بعلم تاويل
الاحاديث ولا صحة له الا ان يخص بعلم تاويل رؤيا الملك فان ذلك حيث
كان عند تناهى ايام البلاء صح ان يعد ايتاؤه من جملة الجزاء واما رؤيا
صاحبى السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرها فى السجن بضع سنين وفى تعليق
الجزاء المذكور بالمحسنين اشعار بعلية الاحسان له وتنبيه على انه سبحانه
انما اتاه ما اتاه لكونه محسنا فى اعماله متقنا فى عنفوان امره هل جزاء الاحسان الا
الاحسان وراودته التى هو فى بيتها رجوع الى شرح ما جرى عليه فى منزل
العزيز بعد ما امر امراته باكرام مثواه وقوله تعالى وكذلك مكنا ليوسف الى هنا
اعتراض جئ به انموذجا للقصة ليعلم السامع من اول الامر ان ما لقيه عليه السلام

من الفتن التي ستحكى بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة وانه عليه السلام محسن
في جميع اعماله لم يصدر عنه في حالتي السراء والضراء ما يخل بنزاهته ولا يخفى ان
مدار حسن التخلص الى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة انما هو التمكين البالغ
المفهوم من كلام العزيز فادراج الانجاء السابق تحت الاشارة بذلك في قوله تعالى
وكذلك مكنا كما فعله الجمهور ناء من التقريب فتأمل والمراودة المطالبة من راد
يرود اذا جاء وذهب لطلب شيء ومنه الرائد لطالب الماء والكلأ وهي مفاعلة
من واحد نحو مطالبة الدائن ومماطلة المديون ومداواة الطبيب ونظائرها
مما يكون من احد الجانبين الفعل ومن الآخر سببه فان هذه الافعال وان كانت
صادرة عن احد الجانبين لكن لما كانت اسبابها صادرة عن الجانب الآخر جعلت
كأنها صادرة عنهما وهذا باب لطيف المسلك مبني على اعتبار دقيق تحقيقه ان
سبب الشيء يقام مقامه ويطلق عليه اسمه كما في قولهم كما تدين تدان اي كما
تجزي تجزى فان فعل البادئ وان لم يكن جزاء لكنه لكونه سببا للجزاء اطلق عليه
اسمه وكذلك ارادة القيام الى الصلاة وارادة قراءة القرآن حيث كانتا سببا للقيام و
القراءة عبر عنهما بهما فقيل اذا قمتم الى الصلاة فاذا قرأت القرآن وهذه قاعدة مطردة
مستمرة ولما كانت اسباب الافعال المذكورة فيما نحن فيه صادرة عن الجانب المقابل
لجانب فاعلها فان مطالبة الدائن للمماطلة التي هي من جانب الغريم وهي منه للمطالبة التي
هي من جانب الدائن وكذا مداواة الطبيب للمرض الذي هو من جانب المريض وكذلك
مراودتها فيما نحن فيه لجمال يوسف ع م نزل صدورها عن محالها بمنزلة
صدور مسبباتها التي هي تلك الافعال فبني الصيغة على ذلك وروعي جانب
الحقيقة بان اسند الفعل الى الفاعل واوقع على صاحب السبب فتأمل ويجوز ان يراد
بصيغة المبالغة مجرد المبالغة وقيل الصيغة على بابها بمعنى انها طلبت منه الفعل وهو
منها الترك ويجوز ان يكون من الرويد وهو الرفق والتمحل وتعديتها بعن لتضمينها
معنى المخادعة فالمعنى خادعته عن نفسه اي فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن
شيء لا يريد اخراجه عن يده وهو يحتال ان يأخذه منه وهي عبارة عن التمحل في
مواقعته اياها والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على الستر او للاستهجان
بذكره وايراد الموصول لتقرير المراودة فان كونه في بيتها مما يدعو الى ذلك قيل
لواحدة ما حملك على ما انت عليه مما لا خير فيه قالت قرب الوساد وطول السواد
ولاظهار كمال نزاهته عليه السلام فان عدم ميله اليها مع دوام مشاهدته
لمحاسنها واستعصاءه عليها مع كونه في ملكتها ينادي بكونه عليه السلام في اعلى
معارج العفة والنزاهة وغلقت الابواب قيل كانت سبعة ولذلك جاء الفعل بصيغة
التفعيل دون الافعال وقيل للمبالغة في الايثاق والاحكام وقالت هيت لك
قرئ بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبنائه كبناء اين وعيط وهيت كجير وهيت
كحيث اسم فعل معناه اقبل وبادر واللام للبيان اي لك اقول هذا كما في هلم
لك وقرئ هئت على صيغة الفعل بمعنى تهيأت يقال هاء يهيء كجاء يجيء اذا تهيأ و
وتهيئت لك واللام صلة للفعل قال معاذ الله اي اعوذ بالله معاذا مما تدعونني
اليه وهذا اجتناب منه على اتم الوجوه واشارة الى التعليل بانه منكر هائل يجب ان
يعاذ بالله تعالى للخلاص منه وما ذاك الا لانه عليه السلام قد شاهده بما اراه الله
تعالى من البرهان النير على ما هو عليه في حد ذاته من غاية القبح ونهاية السوء
وقوله عز وجل انه ربي احسن مثواي تعليل للامتناع ببعض الاسباب
الخارجية مما عسى يكون مؤثرا عندها وداعيا لها الى اعتباره بعد التنبيه على
سببه الذاتي الذي لا يكاد يقبله لما سولته لها نفسها والضمير للشان ومدار وضعه
موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدته تصدير الجملة به الايذان
بفخامة مضمونها مع ما فيها من زيادة تقرير في الذهن فان الضمير لا يفهم منه

من اول الامر الا شان مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له
فضل تمكن فكأنه قيل ان الشان الخطير هذا وهو ربي اي سيدي العزيز احسن مثواي اي
احسن تعهدي حيث امرك باكرامي فكيف يمكن ان اسيء اليه بالخيانة في حرمه وفيه ارشاد
لها الى رعاية حق العزيز بالطف وجه وقيل الضمير لله عز وجل وربي خبران واحسن
مثواي خبر ثان او هو الخبر والاول بدل من الضمير والمعنى ان الحال هذا فكيف اعصيه
بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة وفيه تحذير لها عن عقاب الله عز وجل
وعلى التقديرين ففي الاقتصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض لاقتضائها الامتناع
عما دعته اليه ايذان بان هذه المرتبة من البيان كافية في الدلالة على استحالته
وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع اصلا وقوله تعالى انه لا يفلح الظالمون تعليل
للامتناع المذكور غب تعليل والفلاح الظفر وقيل البقاء في الخير ومعنى افلح دخل
فيه كاصبح واخواته والمراد بالظالمين كل من ظلم كائنا من كان فيدخل في ذلك
المجازون للاحسان بالاساءة والعصاة لامر الله تعالى دخولا اوليا وقيل الزناة لانهم
ظالمون لانفسهم وللمزني باهله ولقد همت به بمخالطته اذ الهم لا يتعلق
بالاعيان اي قصدتها وعزمت عليها عزما جازما لا يلويها عنه صارف بعد
ما باشرت مباديها وفعلت ما فعلت من المراودة وتغليق الابواب ودعوته الى
نفسها بقولها هيت لك ولعلها تصدت هنالك لافعال اخر من بسط يدها اليه وقصد
المعانقة وغير ذلك مما يضطره عليه السلام من الزواجر وهم بها بمخالطتها
اي مال اليها بمقتضى الطبيعة البشرية وشهوة الشباب وقرنه ميلا جبليا لا يكاد
يدخل تحت التكليف لا انه قصدها قصدا اختياريا الا يرى الى ما سبق من استعصامه
المنبئ عن كمال كراهته له ونفرته عنه وحكمه بعدم افلاح الظالمين وهل هو الا
تسجيل باستحالة صدور الهم منه عليه السلام تسجيلا محكما وانما عبر عنه
بالهم لمجرد وقوعه في صحبة همها في الذكر بطريق المشاكلة لا لشبهه به كما قيل
ولقد اشير الى تباينهما حيث لم يلزا في قرن واحد من التعبير بان قيل ولقد هما بالمخالطة
وهم كل منهما بالآخر وصدر الاول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمي
وعقب الثاني بما يعفو اثره من قوله عز وجل لولا ان رأى برهان ربه اي حجته
الباهرة الدالة على قبح الزنا وسوء سبيله والمراد برؤيته لها كمال ايقانه بها و
مشاهدته لها مشاهدة واصلة الى مرتبة عين اليقين الذي تتجلى هناك
حقائق الاشياء بصورها الحقيقية وتتخلع عن صورها المستعارة التي تظهر في هذه
النشأة على ما نطق به قوله عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات
وكان عليه السلام قد شاهد الزنا بموجب ذلك البرهان النير على ما هو عليه
في حد ذاته اقبح ما يكون واوجب ما يجب ان يحذر منه ولذلك فعل ما فعل
من الاستعصام والحكم بعدم افلاح من يرتكبه وجواب لولا محذوف
يدل عليه الكلام اي لولا مشاهدته برهان ربه في شأن الزنا لجرى على موجب
ميله الجبلي ولكنه حيث كان مشاهدا له من قبل استمر على ما هو عليه من قضية
البرهان وفائدة هذه الشرطية بيان ان امتناعه عليه السلام لم يكن لعدم مساعدة
من جهة الطبيعة بل لمحض العفة والنزاهة مع وفور الدواعي الداخلية و
ترتب المقدمات الخارجية الموجبة لظهور الاحكام الطبيعية هذا وقد نص
ائمة الصناعة على ان لولا في امثال هذه المواقع جار من حيث المعنى لا من حيث
الصيغة مجرى التقييد للحكم المطلق كما في مثل قوله تعالى ان كاد ليضلنا عن آلهتنا
لولا ان صبرنا عليها فلا يتحقق هناك هم اصلا وقد جوز ان يكون وهم بها
جواب لولا جاريا على قاعدة الكوفيين في جواز التقديم فالهم حينئذ على معناه الحقيقي
فالمعنى لولا انه قد شاهد برهان ربه لهم بها كما همت به ولكن حيث انتفى عدم
المشاهدة بدليل استعصامه وما يتفرع عليه انتفى الهم راسا هذا وقد فسر همه عليه السلام

ايقانه

بانه عليه السلام حل الهميان وجلس مجلس الختان وبانه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها
ورؤيته للبرهان بانه سمع صوتاً اياك واياها فلم يكترث ثم وثم الى ان تمثل له يعقوب
عليه السلام عاضاً على انامله وقيل ضرب على صدره فخرجت شهوته من انامله وقيل بدت
كف فيما بينهما ليس فيها عضد ولا معصم مكتوب فيها وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين
فلم ينصرف ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلاً فلم ينته ثم
رأى فيها واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله فلم ينجع فقال الله عز وجل لجبريل عليه السلام
ادرك عبدي قبل ان يصيب الخطيئة فانحط جبريل وهو يقول يا يوسف اتعمل عمل
السفهاء وانت مكتوب في ديوان الانبياء وقيل رأى تمثال العزيز وقيل وان كل ذلك
الا خرافات واباطيل تمجها الآذان وتردها العقول والاذهان ويل لمن لاكها ولفقها
او سمعها وصدقها كذلك الكاف منصوب المحل وذلك اشارة الى الاراءة المدلول
عليها بقوله تعالى لولا ان رأى برهان ربه اي مثل ذلك التبصير والتعريف عرفناه
برهاننا فيما قبل او الى التثبيت اللازم له اي مثل ذلك التثبيت ثبتناه لنصرف عنه السوء على
الاطلاق فيدخل فيه خيانة السيد دخولاً اولياً والفحشاء والزنى لانه مفرط القبح
وفيه آية بينة وحجة قاطعة على انه عليه السلام لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجه
اليها قط والا لقيل لنصرفه عن السوء والفحشاء وانما توجه اليه ذلك من خارج
فصرفه تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة فتأمل وقرئ ليصرف على اسناد الصرف
الى ضمير الرب انه من عبادنا المخلصين تعليل لما سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق
والمخلصون هم الذين اخلصهم الله تعالى لطاعته بان عصمهم عما هو قادح فيها وقرئ على
صيغة الفاعل وهم الذين اخلصوا دينهم لله سبحانه وعلى كلا المعنيين فهو منتظم
في سلكهم داخل في زمرتهم من اول امره بقضية الجملة الاسمية لا ان ذلك حدث له
بعد ان لم يكن كذلك فانحسم مادة احتمال صدور الهم بالسوء منه عليه السلام بالكلية
واستبقا الباب متصل بقوله ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه وقوله
كذلك الخ اعتراض جيء به بين المعطوفين تقريراً لنزاهته عليه السلام كقوله تعالى وكذلك
نري ابراهيم ملكوت السموات والارض والمعنى لقد همت به وابى هو واستبقا
اي تسابقا الى الباب البراني الذي هو المخلص ولذلك وحد بعد الجمع فيما سلف و
حذف حرف الجر واوصل الفعل الى المجرور نحو واذا كالوهم او ضمن الاستباق معنى الابتدار
واسناد السبق في ضمن الاستباق ايهام ان مرادها مجرد منع يوسف وذا لا يوجب
الانتهاء الى الباب لانها لما رأته يسرع الى الباب ليتخلص منها اسرعت هي ايضاً لتسبقه
اليه وتمنعه عن الفتح والخروج او عبر عن اسراعها اثره بذلك مبالغة وقدت قميصه
من دبر اجتذبته من ورائه فانشق طولاً وهو القد كما ان الشق عرضاً هو القط وقد
قيل في وصف علي كرم الله وجهه انه كان اذا اعتلى قد واذا اعترض قط واسناد القد اليها
خاصة مع ان لقوة يوسف ايضاً دخلاً فيه اما لانها الجزء الاخير للعلة التامة واما للايذان
بمبالغتها في منعه عن الخروج وبذل مجهودها في ذلك لفوت المحبوب او لخوف الافتضاح
والفيا سيدها اي صادفا زوجها واذ لم يكن ملكه ليوسف عليه السلام صحيحاً لم يقل
سيدهما قيل الفياه مقبلاً وقيل كان جالساً مع ابن عم للمرأة لدى الباب اي البراني
كما مر روي كعب انه لما هرب يوسف جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الابواب
قالت استئناف مبني على سؤال سائل يقول فماذا كان حين الفيا العزيز عند الباب فقيل
قالت ما جزاء من اراد باهلك سوءاً من الزنا ونحوه الا ان يسجن او عذاب اليم
ما نافية اي ليس جزاؤه الا السجن او العذاب الاليم قيل المراد به الضرب بالسياط او
استفهامية اي اي شيء جزاؤه غير ذلك او ذلك ولقد اتت في تلك الحالة التي يدهش فيها الفطن حيث
شاهدها العزيز على تلك الهيئة المريبة بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما تبرئة ساحتها مما
يلوح من ظاهر الحال واستنزال يوسف عن رأيه في استعصائه عليها وعدم مواتاته على
مرادها بالقاء الرعب في قلبه من مكرها طمعاً في مواقعته لها كرهاً عند يأسها عن ذلك اختياراً

كما قالت

كما قالت ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين ثم انها جعلت صدور الارادة
المذكور عن يوسف عليه السلام امراً محققاً مفروغاً عنه غنياً عن الاخبار بوقوعه وان
ما هي عليه من الافاعيل لاجل تحقيق جزائها فهي تريد ايقاعه حسبما يقتضيه قانون الايالة
وفي ابهام المريد تهويل لشأن الجزاء المذكور بكونه قانوناً مطرداً في حق كل احد كائناً
من كان وفي ذكر نفسها بعنوان اهلية العزيز اعظام للخطب واغراء له على تحقيق
ما يتوخاه بحكم الغضب والحمية قال استئناف وجواب عما يقال فماذا قال يوسف
عليه السلام فقيل قال هي راودتني عن نفسي اي طالبتني للمواتاة لا اني اردت
بها سوءاً كما قالت وانما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عما اسند اليه من الخيانة وعدم
معرفة حق السيد ودفع ما عرضته له من الامرين وفي التعبير عنها بضمير الغيبة دون
الخطاب او اسم الاشارة مراعاة لحسن الادب مع الايماء الى الاعراض عنها وشهد
شاهد من اهلها قيل هو ابن عمها وقيل هو الذي كان جالساً مع زوجها لدى
الباب وقيل كان حكيماً يرجع اليه الملك ويستشيره وقد جوز ان يكون بعض اهلها
قد بصر بها من حيث لا تشعر فاغضبه الله تعالى ليوسف عليه السلام بالشهادة له والقيام
بالحق وانما القى الله سبحانه الشهادة الى من هو من اهلها ليكون ادل على نزاهته عم
وانفى للتهمة وقيل كان الشاهد ابن خال لها صبياً في المهد انطقه الله تعالى ببراءته وهو
الاظهر فانه روي ان النبي عليه السلام قال تكلم اربعة وهم صغار ابن ماشطة
بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى عليه السلام رواه الحاكم عن ابي هريرة
وقال صحيح على شرط الشيخين وذكر كونه من اهلها لبيان الواقع اذ لا يختلف الحال في
هذه الصورة بين كون الشاهد من اهلها او من غيرهم ان كان قميصه قد من
قبل اي ان علم انه قد من قبل ونظيره ان احسنت الي فقد احسنت اليك فيما قبل
فان معناه ان تعتد باحسانك الي فاعتد باحساني السابق اليك فصدقت بتقدير
قد لانها تقرب الماضي الى الحال اي فقد صدقت وكذا الحال في قوله فكذبت وهي وان لم
تصرح بانه عليه السلام اراد بها سوءاً الا ان كلامها حيث كان واضح الدلالة عليه
اسند اليها الصدق والكذب بذلك الاعتبار فانهما كما يعرضان للكلام باعتبار
منطوقه يعرضان له باعتبار ما يستلزمه وبذلك الاعتبار يعتريان للانشاءات
وهو من الكاذبين وهذه الشرطية حيث لا ملازمة عقلية ولا عادية بين مقدمها
وتاليها ليست من الشهادة في شيء وانما ذكرت توسيعاً للدائرة وارخاء للعنان
الى جانب المرأة باجراء ما عسى يحتمله الحال في الجملة بان يقع القد من قبل بدافعتها
له عليه السلام عن نفسها عند ارادته المخالطة والتكشف مجرى الظاهر الغالب
الوقوع تقريباً لما هو المقصود باقامة الشهادة اعني مضمون الشرطية الثانية التي
هي قوله عز وجل وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين
اي التسليم والقبول عند السامع لكونه اقرب الى الوقوع وادل على المطلوب
وان لم يكن بين طرفيها ايضاً ملازمة وحكاية الشرطية بعد فعل الشهادة لكونها
من قبيل الاقوال او بتقدير القول اي شهد قائلاً الخ وتسميتها شهادة مع انه
لا حكم فيها بالفعل بالصدق والكذب لتأديتها مؤداها بل لانها شهادة
على الحقيقة وحكم بصدقه وكذبها اما على تقدير كون الشاهد هو الصبي
فظاهر اذ هو اخبار بهما من قبل علام الغيوب والتصوير بصورة الشرطية للايذان
بان ذلك ظاهر من العلامات ايضاً واما على تقدير كونه غيره فلان الظاهر ان صورة
الحال معلومة له على ما هي عليه اما مشاهدة او اخباراً فهو متيقن بعدم مقدم
الشرطية الاولى ولوجود مقدم الشرطية الثانية ومن ضرورته الجزم بانتفاء تالي الاولى
وبوقوع تالي الثانية فاذن هو اخبار بكذبها وصدقه عليه السلام لكنه ساق
شهادته مساقاً مأموناً من الجرح والطعن حيث صورها بصورة الشرطية المترددة
ظاهراً بين نفعها ونفعه واما حقيقة فلا تردد فيها قطعاً لان الشرطية

الاولى تعليق لصدقها بما يستحيل وجوده من قد القميص من قبل فيكون محالا لا محالة في من ضرورته تقرير كذبها والثانية تعليق لصدقه عليه السلام بامر محقق الوجود وهو القد من دبر فيكون محققا البتة وهذا كما قيل فيمن قال لامرأة زوجيني نفسك فقالت لي زوج فكذبها في ذلك فقالت ان لم يكن لي زوج فقد زوجتك نفسي فقبل الرجل فاذا لا زوج لها فهو نكاح اذ تعليق الشئ بامر مقرر تنجيز له وقرئ من قبل ومن دبر بالضم لانهما قطعا عن الاضافة كقبل وبعد وبالفتح كانهما جعلا علمين فمنعا الصرف للتانيث والعلمية وقرئ بسكون العين فلما رأى قميصه قد من دبر كانه لم يكن رأى ذلك بعد او لم يتدبره فلما تبينه له وعلم حقيقة الحال قال انه اي الامر الذي وقع فيه التشاجر وهو عبارة عن ارادة السوء التي اسندت الى يوسف وتدبير عقوبته بقولها ما جزاء من اراد باهلك سوءا الخ لكن لا من حيث صدور تلك الارادة والاسناد عنها بل مع قطع النظر عن ذلك لئلا يخلو قوله لها من كيدكن اي من جنس حيلتكن ومكركن ايتها النساء لا من غيركن عن الافادة وتدبير العقوبة وان لم يكن بحريا عن الاضافة اليها الا انها لما صورته بصورة الحق افاد الحكم بكونه من كيدهن افادة ظاهرة فتامل وتعميم الخطاب للتنبيه على ان ذلك خلق لهن عريق ولا تحسبا هندا لها الغدر وحدها سجية نفس كل غانية هند ورجوع الضمير الى قولها ما جزاء من اراد باهلك سوءا فقط عدول عن البحث عن اصل ما وقع فيه النزاع من ارادة السوء ممن هي الى البحث عن شعبة من شعبه وجعله للسوء او للامر المعبر به عن طمعها في يوسف عليه السلام ويأباه الجزم فان الكيد يستدعي ان يعتبر مع ذلك هنات اخر من قبلها كما اشرنا اليه ان كيدكن عظيم فانه الطف واعلق بالقلب واشد تاثيرا في النفس وعن بعض العلماء انا اخاف من النساء ما لا اخاف من الشيطان فانه تعالى يقول ان كيد الشيطان كان ضعيفا وقال للنساء ان كيدكن عظيم ولان الشيطان يوسوس مسارقة وهن تواجهن به الرجال يوسف حذف عنه حرف النداء لقربه وكمال تفطنه للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله اعرض عن هذا اي عن هذا الامر وعن التحديث به واكتمه فقد ظهر صدقك ونزاهتك واستغفري انت يا هذه لذنبك الذي صدر عنك وثبت عليك انك كنت بسبب ذلك من الخاطئين من جملة القوم المتعمدين للذنب او من جنسهم يقال خطئ اذا اذنب عمدا وهو تعليل للامر بالاستغفار والتذكير لتغليب الذكور على الاناث وكان العزيز رجلا حليما فاكتفى بهذا القدر من مؤاخذتها وقيل كان قليل الغيرة وقال نسوة اي جماعة من النساء وكن خمسا امرأة الساقي وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتانيثه غير حقيقي كتانيث اللمة وهو اسم لجماعة النساء والفتية وهي اسم لجماعة الرجال ولذلك لم يلحق فعله تاء التانيث في المدينة ظرف لقال اي اشاعوا الامر في مصر او صفة لنسوة امرأة العزيز اي الملك يريدن قطفير واضافتهن لها اليه بذلك العنوان دون ان يصرحن باسمها او اسمه ليست لقصد المبالغة في اشاعة الخبر بحكم ان النفوس الى سماع ذوي الاخطار اميل كما قيل اذ ليس مرادهن تفضيح العزيز بل هي لقصد الاشباع في لومها بقولهن تراود فتاها اي تطالبه بمواقعته لها وتتمحل في ذلك وتخادعه عن نفسه وقيل تطلب منه الفاحشة وايثارهن لصيغة المضارع للدلالة على دوام المراودة والفتى من الناس الشاب واصله فتي لقولهم فتيان والفتوة شاذة وجمعه فتية وفتيان ويستعار للمملوك وهو المراد ههنا وفي الحديث لا يقل احدكم عبدي وامتي وليقل فتاي وفتاتي وتعبيرهن عن يوسف عليه السلام بذلك مضافا اليها لا الى العزيز الذي لا يستلزم الاضافة اليه الهوان بل ربما يشعر بنوع عزة الابانة ما بينهما من التباين البين الناشئ عن المالكية والمملوكية وكل ذلك لتربية ما مر من المبالغة والاشباع في اللوم فان من

لازوج

لازوج لها من النساء او لها زوج دني قد تعذر في مراودة الاخدان لاسيما اذا كان فيهم علو الجناب واما التي لها زوج واي زوج عزيز مصر فمراودتها لغيره لاسيما لعبدها الذي لا كفاءة بينها وبينه اصلا وتماديها في ذلك الغي ونهاية الضلال قد شغفها حبا اي شق حبه شغاف قلبها وهو حجابه او جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب حتى وصل الى فؤادها وقرئ شعفها بالعين من شعف البعير اذا هناه فاحرقه بالقطران وعن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما الشغف الحب القاتل والشعف حب دون ذلك وكان الشعبي يقول الشغف حب والشعف جنون والجملة خبر ثان او حال من فاعل تراود او من مفعوله واياما كان فهو تكرير للوم وتاكيد للعذل ببيان اختلال القلبية كاحوالها القالبية وجعلها تعليلا لدوام المراودة من حيث الانية مصير الى الاستدلال على الاجلى بالاخفى ومن حيث اللمية ميل الى تمهيد العذر من قبلها وليس بذلك وانتصاب حبا على التمييز لنقله من الفاعلية اذ الاصل قد شغفها حبه كما اشير اليه انا لنراها اي نعلمها علما متاخما للمشاهدة والعيان فيما صنعت من المراودة والمحبة المفرطة مستقرة في ضلال عن طريق الرشد والصواب او سنن العقل مبين واضح لا يخفى كونه ضلالا على احد او مظهر لامرها بين الناس فالجملة مقررة لمضمون الجملتين السابقتين المسوقتين للوم والتشنيع وتسجيل عليها بانها في امرها على خطاء عظيم وانما لم تقلن انها لفي ضلال مبين اشعارا بان ذلك الحكم غير صادر عنهن مجازفة بل عن علم ورأي مع التلويح بانهن متنزهات عن امثال ما هي عليه فلما سمعت بمكرهن باغتيابهن وسوء قالتهن وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني وهو مقتها وتسميته مكرا لكونه خفية منها كمكر الماكر وان كان ظاهرا لغيرها وقيل استكتمتهن سرها فافشينه عليها وقيل انما قلن ذلك لتريهن يوسف عليه السلام ارسلت اليهن تدعوهن قيل دعت اربعين امرأة منهن الخمس المذكورات واعتدت اي احضرت وهيأت لهن متكأ اي ما يتكئن عليه من النمارق والوسائد او رتبت لهن مجلس طعام وشراب لانهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ولذلك نهى الرجل ان ياكل متكئا وقيل متكأ طعاما من قولهم اتكأنا عند فلان اي طعمنا قال جميل فظللنا بنعمة واتكأنا وشربنا الحلال من قلله وعن مجاهد متكأ طعاما يحز حزا كان المعنى يعتمد بالسكين عند القطع لان القاطع على المقطوع بالسكين وقرئ بغير همز وقرئ بالمد باشباع حركة الكاف كمنتزاح وينباع في ينبع وقرئ متكا وهو الاترج وانشد واهدت متكة لبني ابيها تخب بها العثمثمة الوقاح او ما يقطع من متك الشئ اذا بتكه ومتكا من تكي اذا اتكى واتت كل واحدة منهن سكينا لتستعمله في قطع ما يعهد قطعه مما قدم بين ايديهن وقرب اليهن من اللحوم والفواكه ونحوها وهن متكئات وغرضها من ذلك ما سيقع من تقطيع ايديهن وقالت ليوسف وهن مشغولات بمعالجة السكاكين واعمالها فيما بايديهن من الفواكه واضرابها والعطف بالواو ربما يشير الى ان قولها اخرج عليهن اي ابرز لهن لم يكن عقيب ترتيب امورهن ليتم غرضها من استغفالهن فلما رأينه عطف على مقدر يستدعيه الامر بالخروج وينسحب عليه الكلام اي فخرج عليهن فرأينه وانما حذف تحقيقا لمفاجاة رؤيتهن كانها تفوت عند ذكر خروجه عليهن كما حذف لتحقيق السرعة في قوله عز وجل فلما رآه مستقرا عنده بعد قوله انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك وفيه ايذان بسرعة امتثاله عليه السلام بامرها فيما لا يشاهد مضرته من الافاعيل اكبرنه عظمنه وهبن حسنه الفائق وجماله الرائق فان فضل جماله على جمال كل جميل كان كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر وقيل كان يرى تلالؤ وجهه على الجدر كما يرى نور الشمس على الماء وقيل معنى اكبرن حضن والهاء للسكت او ضمير

راجع الى يوسف عليه السلام على حذف اللام اى حصن له من شائبة السوء كما قال المتنبي
خف الله واستر ذا الجمال ببرقع فان لحت حاضت فى الخدور العواتق و قطعن
ايديهن اى جرحنها بما فى ايديهن من السكاكين لفرط دهشتهن وخروج حركات
جوارحهن عن منهاج الاختيار والاعتبار حتى لم يعلمن ما فعلن وفى التعبير عن
الجرح بالقطع ما لا يخفى من الدلالة على كثرة جرحهن ومع ذلك لم يبالين بذلك
ولم يشعرن به وقلن حاش لله تنزيها له سبحانه عن صفات النقص والعجز وتعجبا من
قدرته على مثل ذاك الصنع البديع واصله حاشا كما قرأه ابو عمرو فى الدرج فحذفت
الفه الاخيرة تخفيفا وهو حرف جر يفيد معنى التنزيه فى باب الاستثناء فلا يستثنى به
الا ما يكون موجبا للتنزيه فوضع موضعه فمعنى حاشا لله تنزيه الله وبراءة الله
وهى قراءة ابن مسعود واللام لبيان المنزه والمبرا كما فى سقيا لك والدليل على وضعه
موضع المصدر قراءة ابى السمال حاشا بالتنوين وقراءة ابى عمرو بحذف الالف الاخيرة
وقراءة الاعمش بحذف الاولى فان التصرف من خصائص الاسم فيدل على
تنزيله منزلته وعدم التنوين لمراعاة اصله كما فى قولك جلست عن يمينه وقوله
عدت من عليه منقلب الالف الى الياء مع الضمير وقرئ حاش لله بسكون الشين
اتباعا للفتحة الالف فى الاسقاط وحاش الاله وقيل حاشا فاعل من الحشا الذى
هو الناحية وفاعله ضمير يوسف اى صار فى ناحية من ان تقارف ما رمته به
لله اى لطاعته او لمكانه او جانب المعصية لاجل الله ما هذا بشرا على اعمال
ما بمعنى ليس وهى لغة اهل الحجاز لمشاركتها فى نفى الحال وقرئ بشر على لغة تميم
وبشرى اى بعبد مشترى لئيم نفين عنه البشرية لما شاهدن فيه من الجمال العبقرى
الذى لم يعهد مثاله فى البشر وقصرنه على الملكية بقولهن ان هذا الا ملك كريم
بناء على ما ركز فى العقول من ان لا حى احسن من الملك كما ركب فيها ان لا اقبح
من الشيطان ولذلك لا يزال يشبه بهما كل متناه فى الحسن والقبح وغرضهن
وصفه باقصى مراتب الحسن والجمال قالت فذلكن الفاء فصيحة والخطاب
للنسوة والاشارة الى يوسف بالعنوان الذى وصفته به الآن من الخروج فى الحسن
والجمال عن المراتب البشرية والاقتصار على الملكية فاسم الاشارة مبتدأ والموصول
خبره والمعنى ان كان الامر كما قلتن فذلكن الملك الكريم النائى عن المراتب البشرية
هو الذى لمتننى فيه اى عيرتننى فى الافتتان به حيث دابن بحلى بنسبتى
الى العزيز ووضعتن قدره من المماليك او بالعنوان الذى وصفته به فيما سبق بقولهن
امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانى فهو خبر لمبتدأ محذوف اى فهو ذلك العبد الكنعانى
الذى صورتن فى انفسكن وقلتن فيه وفى ما قلتن فالآن قد علمتن من هو وما
قولكن فينا واما ما يقال يعنى انكن لم تتصورنه بحق صورته ولو صورتنه بما
عاينتن لعذرتننى فى الافتتان به فلا يلايم المقام فان مرادها تقريعهن و
تمهيد ما مهدته لهن بتبكيتهن وتنديمهن قبل ظهور معذرته وقد قيل فى تعليل
الملكية ان الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملكية
وهو ايضا لا يلايم قولها فذلكن الذى لمتننى فيه فان عنوان العصمة مما ينافى تمشية
مرامها ثم بعد ما اقامت عليهن الحجة واوضحت لديهن عذرها وقد اصابهن من
قبله عليه السلام ما اصابها باحت لهن ببقية سرها فقالت ولقد راودته
عن نفسه حسبما قلتن وسمعتن فاستعصم امتنع طالبا للعصمة وهو
بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كانه فى عصمة وهو يجتهد
فى الاستزادة منها كما فى استمسك واستجمع الرأى وفيه برهان نير على انه لم
يصدر عنه عليه السلام شئ مخل باستعصامه بقوله معاذ الله من الهم و
غيره اعترفت لهن اولا بما كن يسمعنه من مراودتها له واكدته اظهارا و
بذلك ثم زادت على ذلك انه اعرض عنها على ابلغ ما يكون ولم يمل اليها قط ثم زادت

علمه

عليه ايضا انها مستمرة على ما كانت عليه غير مرعوية عنه لا بلوم العواذل ولا باعراض الحبيب
فقالت ولئن لم يفعل ما آمره اى ما آمر به فيما سيأتى كما لم يفعل فيما مضى فحذف الجار
واوصل الفعل الى الضمير كما فى امرتك الخير فالضمير للموصول وامرى اياه اى موجب امرى
ومقتضاه فما مصدرية والضمير ليوسف وعبرت عن مراودتها بالامر اظهارا لجريان
حكومتها عليه واقتضاء للامتثال بامرها ليسجنن بالنون المثقلة آثرت بناء الفعل
للمفعول جريا على رسم الملوك وايهاما لسرعة ترتب ذلك على عدم امتثاله
لامرها كانه لا يد فى بينهما فعل فاعل وليكونن بالمخففة من الصاغرين
اى الاذلاء فى السجن وقد قرئ الفعلان بالتثقيل وهى المشهورة اولى لان النون كتبت
فى المصحف الفا على حكم الوقف واللام الداخلة على حرف الشرط موطئة للقسم وجوابه ساد
مسد الجوابين ولهذا اتت بهذا الوعيد المنطوى على فنون التأكيد بمحضر منهن لتعلم
يوسف انها ليست فى امرها على خفية ولا خيفة من احد فتضيق عليه الحيل ويعيى به
العلل وينصحن له ويرشدنه الى موافقتها ولما كان هذا الابراق والارعاد منها مظنة
لسؤال سائل يقول فما صنع يوسف حينئذ قيل قال مناجيا لربه عز سلطانه رب
السجن الذى وعدتنى بالالقاء فيه وقرأ يعقوب بالفتح على المصدر احب الى اى
آثر عندى لانه مشقة قليلة نافدة اثرها راحات جليلة ابدية مما يدعوننى
اليه من مواتاتها التى تؤدى الى الشقاء والعذاب الاليم وهذا الكلام منه عليه
السلام مبنى على ما مر من انكشاف الحقائق لديه وبروز كل منها بصورتها اللائقة
بها فصيغة التفضيل ليست على بابها اذ ليست له شائبة محبة لما دعته اليه وانما هو
والسجن شران اهونهما واقربهما الى الايثار السجن والتعبير عن الايثار بالمحبة لحسم
مادة طمعها عن المساعدة خوفا من الحبس والاقتصار على ذكر السجن من حيث ان
الصغار من فروعه ومستتبعاته واسناد الدعوة اليهن جميعا لان النسوة
رغبنه فى مطاوعتها وخوفنه من مخالفتها وقيل دعونه الى انفسهن وقيل انما ابتلى
عليه السلام بالسجن لقوله هذا وكان الاولى به ان يسأل الله تعالى العافية ولذلك رد
رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الصبر والا تصرف اى ان لم تصرف عنى
كيدهن فى تحبيب ذلك الى وتحسينه لدى بان تثبتنى على ما انا عليه من العصمة و
العفة اصب اليهن اى امل الى اجابتهن او الى انفسهن على قضية الطبيعة وحكم القوة الشهوية
وهذا فزع منه عليه السلام الى الطاف الله تعالى جريا على سنن الانبياء والصالحين فى قصر نيل الخيرات والنجاة
عن الشرور على جناب الله عز وجل وسلب القوى والقدر عن انفسهم ومبالغة فى استدعاء لطفه
فى صرف كيدهن باظهار ان لا طاقة له بالمدافعة كقول المستغيث ادركنى والا هلكت لا انه
يطلب الاجبار والالجاء الى العصمة والعفة وفى نفسه داعية تدعوه الى هواهن والصبوة الميل
الى الهوى ومنه الصبا لان النفوس تصبو اليها لطيب نسيمها وروحها وقرئ اصب
اليهن من الصبابة وهى رقة الشوق واكن من الجاهلين اى الذين لا يعملون
بما يعلمون لان من لا جدوى لعلمه فهو والجاهل سواء ومن لا يعلم سواء او من
السفهاء بارتكاب ما يدعوننى اليه من القبائح لان الحكيم لا يفعل القبيح فاستجاب
له ربه دعاءه الذى تضمنه قوله والا تصرف عنى كيدهن الخ فان فيه استدعاء
لصرف كيدهن على ابلغ وجه والطفه كما مر وفى اسناد الاستجابة الى الرب مضافا اليه
عليه السلام ما لا يخفى من اظهار اللطف فصرف عنه كيدهن حسب دعائه وثبته
على العصمة والعفة انه هو السميع لدعاء المتضرعين اليه العليم باحوالهم
وما يصلحهم ثم بدا لهم اى ظهر للعزيز واصحابه المتصدين للحل والعقد ريثما
اكتفوا بامر يوسف بالكتمان والاعراض عن ذلك من بعد ما رأوا الآيات الصارفة لهم
عن ذلك البدا وهى الشواهد الدالة على براءته عليه السلام وفاعل بدا اما مصدره
او الرأى المفهوم من السياق والمصدر المدلول عليه بقوله ليسجننه والمعنى بدا لهم بداء اى
رأى او سجنه المحتوم قائلين والله ليسجننه فالقسم المحذوف وجوابه معمول للقول

المقدر حالا من ضميرهم وما كان ذلك البدا الا باستنزال المرأة لزوجها وفتلها منه في الذروة
والغارب وكان مطواعة لها تقوده حيث شاءت قال السدي انها قالت للعزيز ان هذا
العبد العبراني قد فضحني في الناس يخبرهم باني راودته عن نفسه فاما ان تأذن لي
فاخرج فاعتذر الى الناس واما ان تحبسه فحبسه ولقد ارادت بذلك تحقيق
وعيدها لتلين به عريكته وتنقاد لها قرونته لما انصرمت حبال رجائها عن استتباعها
بعرض الجمال والترغيب بنفسها وباعوانها وقرئ لتسجننه على صيغة الخطاب بان خاطب
بعضهم العزيز ومن يليه او العزيز وحده على وجه التعظيم او خاطب به العزيز ومن عنده
من اصحاب الرأي المباشرين للسجن حتى حين الى حين انقطاع قالة الناس وهذا بادي
الرأي عند العزيز وذويه واما عندها فحتى يذلله السجن ويسخره لها ويحسب
الناس انه المجرم وقرئ عتى حين بلغة هذيل ودخل معه اي في صحبته السجن فتيان
من فتيان الملك ومماليكه احدهما شرابيه والاخر خبازه روي ان جماعة من اهل
مصر ضمنوا لهما مالا ليسما الملك في طعامه وشرابه فاجاباهم الى ذلك ثم ان
الساقي نكل عن ذلك ومضى عليه الخباز فسم الخبز فلما حضر الطعام قال الساقي لا تاكل
ايها الملك فان الخبز مسموم وقال الخباز لا تشرب ايها الملك فان الشراب مسموم فقال الملك
للساقي اشربه فشربه فلم يضره وقال للخباز كله فابى فجرب بدابة فهلكت فامر بحبسهما
فاتفق ان ادخلاه معه وتأخير الفاعل من المفعول لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم
والتشويق الى المؤخر ليتمكن عند النفس حين وروده عليها فضل تمكن ونظيره تقديم
الظرف على المفعول الصريح في قوله تعالى فاوجس في نفسه خيفة وتأخير السجن عن
الظرف لايهام العكس ان يكون الظرف خبرا مقدما على مبتدأ ويكون الجملة حالا من
فاعل دخل فتأمل قال احدهما استئناف مبني على سؤال من يقول ما صنعا بعد
ما دخلا معه السجن فاجيب بانه قال احدهما وهو الشرابي اني اراني اي رأيتني والتعبير
بالمضارع لاستحضار الصورة الماضية اعصر خمرا اي عنبا سماه بما يؤول اليه لكونه
المقصود من العصر وقيل الخمر بلغة عمان اسم للعنب وفي قراءة ابن مسعود اعصر عنبا
وقال الاخر وهو الخباز اني اراني احمل فوق رأسي خبزا تأخير للمفعول عن الظرف لما
آنفا وقوله تأكل الطير منه اي تنهس منه صفة للخبز او استئناف مبني على السؤال نبئنا
بتأويله بتأويل ما ذكر من الرؤيين او ما رؤي باجراء الضمير مجرى ذلك بطريق الاستعارة
فان اسم الاشارة يشار به الى متعدد كما في قوله فيها خطوط من سواد وبلق كأنه في الجلد
توليع البهق اي كان ذلك والسر في المصير الى اجراء الضمير مجرى اسم الاشارة مع انه لا حاجة
اليه بعد تأويل المرجع بما ذكر او بما رؤي ان الضمير انما يتعرض لنفس المرجع من حيث هو من غير
تعرض لحال من احواله فلا يتسنى تأويله باحد الاعتبارين الا باجرائه مجرى الاشارة الذي
جرى عليه في الكلام فتأمل هذا اذا قالاه معا او قاله احدهما من جهتهما معا واما اذا قاله
كل منهما اثر ما قص ما رآه فالخطاب المذكور ليس عبارتهما ولا عبارة احدهما من جهتهما
ليتعدد المرجع بل عبارة كل منهما نبئني بتأويله مستقلا لما رآه وصيغة المتكلم مع الغير واقعة
في الحكاية دون المحكي على طريقة قوله عز وجل يا ايها الرسل كلوا من الطيبات فانهم لم
يخاطبوا بذلك دفعة بل خوطب كل منهم في زمانه بصيغة مفردة خاصة به انا نراك
تعليل لعرض رؤياهما عليه واستفسارهما منه عليه السلام من المحسنين من الذين
يجيدون عبارة الرؤيا لما رأياه يقص عليه بعض اهل السجن رؤياه فيؤولها له
تأويلا حسنا او من العلماء لما سمعاه يذكر للناس ما يدل على علمه وفضله او من المحسنين
الى اهل السجن اي فاحسن الينا بكشف غمتنا ان كنت قادرا على ذلك روي انه عليه السلام كان
اذا مرض منهم رجل قام عليه واذا ضاق مكانه اوسع له واذا احتاج جمع له وعن قتادة
كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول ابشروا واصبروا
تؤجروا فقال بارك الله عليك ما احسن وجهك وما احسن خلقك لقد بورك لنا
في جوارك فمن انت يا فتى قال انا يوسف بن صفي الله يعقوب بن ذبيح الله اسحق بن خليل الله ابن ابراهيم

فقال

فقال له عامل السجن لو استطعت خليت سبيلك ولكني احسن جوارك فكن في اي بيوت السجن
شئت وعن الشعبي انهما تحالما له ليمتحناه فقال الشرابي اراني في بستان فاذا باصل
حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطعتها وعصرتها في كأس الملك وسقيته وقال الخباز
اني اراني وفوق رأسي ثلاث سلال فيها انواع الاطعمة واذا سباع الطير تنهس منها
قال لا يأتيكما طعام ترزقانه في منامكما هذا حسب عادتكما المطردة الا نبأتكما
بتأويله استثناء مفرغ من اعم الاحوال اي لا يأتيكما طعام في حال من الاحوال الا
حال ما نبأتكما به بان بينت لكما ماهيته وكيفيته وسائر احواله قبل ان يأتيكما واطلاق
التأويل عليه اما بطريق الاستعارة فان ذلك بالنسبة الى مطلق الطعام المبهم بمنزلة
التأويل بالنظر الى ما رؤي في المنام وشبيه له واما بطريق المشاكلة حسبما وقع في
عبارتهما من قولهما نبئنا بتأويله ولا يبعد ان يراد بالتأويل الشيء الآيل لا المآل فانه في الاصل
جعل شيء آيلا الى شيء آخر فكما يجوز ان يراد به الثاني يجوز ان يراد به الاول فالمعنى
الا نبأتكما بما يؤول اليه من الكلام والخبر المطابق للواقع وكان عليه السلام يقول لهما
اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيجدانه كذلك ومراده عليه بذلك بيان
كل ما يهمهما من الامور المترقبة قبل وقوعهما وانما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقا
في ذلك بحسب الحال مع ما فيه من مراعاة حسن التخلص اليه مما استعبراه من الرؤيين
المتعلقتين بالشراب والطعام وقد جعل الضمير من الرؤيين على معنى لا يأتيكما طعام ترزقانه
حسب عادتكما الا اخبرتكما بتأويل ما قصصتما علي قبل ان يأتيكما ذلك الطعام الموقت
مرادا به الاخبار بالاستعجال في التنبيه وانت خبير بان النظم الكريم ظاهر في تعدد اتيان
الطعام والاخبار بالتأويل وتجددهما وان المقام مقام اظهار فضله في فنون
العلوم بحيث يدخل في ذلك تأويل رؤياهما دخولا اوليا وانما لم يكتف عليه السلام
بمجرد تأويل رؤياهما مع ان فيه دلالة على فضله لانهما لما نعتاه عليه السلام بالانتظام
في سمط المحسنين وانهما قد علما ذلك حيث قالا انا نراك من المحسنين وتوسم
فيهما خيرا وتوجها الى قبول الحق فاراد ان يخرج اثر ذي اثير عما في عهدته من
دعوة الخلق الى الحق فمهد قبل الخوض في ذلك مقدمة تزيدهما علما بعظم شأنه وثقة
بامره ووثوقا على علو طبقته في بدائع العلوم توسلا بذلك الى تحقيق ما يتوخاه وقد
تخلص اليها من كلامهما فكأنه قال تأويل ما قصصتماه علي في طرف الثمام حيث رأيتما
مثاله في المنام واني ابين لكما كل جليل ودقيق من الامور المستقبلة وان لم يكن هناك
مقدمة المنام حتى ان الطعام الموظف الذي يأتيكما كل يوم ابينه لكما قبل اتيانه
ثم اخبرهما بان علمه ذلك ليس من قبيل علوم الكهنة والعرافين بل هو فضل الهي يؤتيه
من يشاء ممن يصطفيه للنبوة فقال ذلكما اي ذلك التأويل والاخبار بالمغيبات
ومعنى البعد في ذلك للاشارة الى علو درجته وبعد منزلته مما علمني ربي
بالوحي والالهام اي بعض منه او من ذلك الجنس الذي لا يحوم حول ادراكه العقول
ولقد دلهما بذلك على ان له علوما جمة ما سمعاه قطعة من جملتها وشعبة من
دوحتها ثم بين ان نيل تلك الكرامة بسبب اتباعه ملة آبائه الانبياء العظام و
امتناعه عن الشرك فقال اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهو استئناف
وقع جوابا عن سؤال نشأ من قوله ذلكما مما علمني ربي وتعليلا له للتعليم الواقع
صلة للموصول لتأديته الى معنى انه مما علمني ربي لهذا السبب دون غيره ولا
لمضمون الجملة الخبرية لان ما ذكر بصدد التعليل ليس بعلة لكون التأويل المذكور
بعضا مما علمه ربه او لكونه من جنسه بل لنفس تعليم ما علمه فكأنه قيل لماذا
علمك ربك تلك العلوم البديعة فقيل لاني تركت ملة الكفرة اي دينهم الذي اجتمعوا
عليه من الشرك وعبادة الاوثان والمراد بتركها الامتناع عنها رأسا كما يفصح عنه قوله
ما كان لنا ان نشرك بالله من شيء لا تركها بعد ملابستها وانما عبر عنه بذلك لكونه
ادخل بحسب الظاهر في اقتدائهما به عليه السلام والتعبير عن كفرهم بالله تعالى

سلب الايمان به للتنصيص على ان عبادتهم له تعالى مع عبادة الاوثان ليس بايمان به
تعالى كما هو زعمهم الباطل على ما مرّ فى قوله تعالى انه عمل غير صالح وهم بالآخرة وما فيها
من الجزاء هم كافرون على الخصوص دون غيرهم لافراطهم فى الكفر واتبعت ملة
آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب يعنى انه انما حاز هذه الكمالات وفاز بتلك
الكرامات بسبب انه اتبع ملة آبائه الكرام ولم يتبع ملة قوم كفروا بالمبدأ والمعاد
وانما قال عليه السلام ترغيبًا لصاحبيه فى الايمان والتوحيد وتنفيرًا لهما عمّا كانا
عليه من الشرك والضلال وقدّم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه لان التخلية
متقدمة على التحلية ما كان اى ما صحّ وما استقام فضلًا عن الوقوع لنا معاشر
الانبياء لقوة نفوسنا ووفور علومنا ان نشرك بالله من شىء اى شىء كان من ملك
او جنى او انسى فضلًا عن الجماد البحت ذلك اى التوحيد المدلول عليه بقوله
ما كان لنا ان نشرك بالله من شىء من فضل الله علينا اى ناشئ من تأييده لنا
بالنبوة وترشيحه ايانا لقيادة الامة وهدايتهم الى الحق وذلك مع كونه من موجبات
التوحيد ودواعيه نعمة جليلة وفضل عظيم علينا بالذات وعلى الناس كافة بواسطتنا وحيث
عبّر عن ذلك بذلك العنوان عبّر عن التوحيد بما يوجبه بالشكر فقيل ولكن اكثر الناس لا يشكرون
اى لا يوحدون فان التوحيد مع كونه من آثار ما ذكره من التأييد شكر لله تعالى على تلك
النعمة وانما وضع الظاهر موضع الضمير الراجع الى الناس لزيادة توضيح وبيان ولقطع توهم
رجوعه الى المجموع الموهم لعدم اختصاص غير الشاكر بالناس وقيل ذلك التوحيد من
فضل الله علينا حيث نصب لنا ادلة ننظر فيها ونستدل بها على الحق وقد نصب مثل
تلك الادلة لسائر الناس ايضًا ولكن اكثرهم لا ينظرون ولا يستدلون بها اتباعًا
لاهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين ولك ان تقول ذلك التوحيد من فضل الله
علينا حيث اعطانا عقولًا ومشاعر نستعملها فى دلائل التوحيد التى مهّدها فى الانفس
والآفاق وقد اعطى سائر الناس ايضًا مثلها ولكن اكثرهم لا يشكرون اى لا يصرفون
تلك القوى والمشاعر الى ما خلقت هى له ولا يستعملونها فيما ذكر من ادلة التوحيد
الآفاقية والانفسية والعقلية والنقلية يا صاحبى السجن اى يا صاحبىّ فى السجن كما
تقول يا سارق الليلة ناداهما بعنوان الصحبة فى مدار الاشجان ودار الاحزان التى
تصفو فيها المودة وتخلص النصيحة ليقبلا عليه ويقبلا مقالته وقد ضرب لهما مثلًا يتضح
به الحق عندهما حق الاتضاح فقال ءارباب متفرقون لا ارتباط بينهم ولا اتفاق
يستعبد كل منهم حسبما اراد غيره مرابًا للآخرين مع عدم استقلاله خير لكما ام الله المعبود بالحق
الواحد المتفرد بالالوهية القهار الغالب الذى لا يغالبه احد وبعد ما نبههما على فساد تعدد
الارباب بيّن لهما سقوط آلهتهما عن درجة الاعتبار رأسًا فضلًا عن الالوهية فقال
معممًا للخطاب لهما ولمن على دينهما ما تعبدون من دونه اى من دون الله شيئًا الا
اسماء فارغة لا مطابق لها فى الخارج لان ما ليس فيه مصداق اطلاق الاسم عليه لا
وجود له اصلًا فكانت عبادتهم لتلك الاسماء فقط سميتموها جعلتموها اسماء
وانما لم يذكر المسميات تربية لما يقتضيه المقام من اسقاطها عن رتبة الوجود وايذانًا بان تسميتهم
فى البطلان حيث كانت بلا مسمّى كعبادتهم حيث كانت بلا معبود انتم وآباؤكم بمحض
جهلكم وضلالتكم ما انزل الله بها اى بتلك التسمية المستتبعة للعبادة من سلطان
من حجة تدل على صحتها ان الحكم فى امر العبادة المتفرعة على تلك التسمية الا لله عز
سلطانه لانه المستحق لها بالذات اذ هو الواجب بالذات الموجد للكل والمالك لامره امر استئناف
مبنى على سؤال ناشئ من قوله ان الحكم الا لله فكانه قيل فماذا حكم الله تعالى فى هذا الشان
فقيل امر على السنة الانبياء عليهم السلام ان لا تعبدوا اى بان لا تعبدوا الا اياه
حسبما يقضى به قضية العقل ايضًا ذلك اى تخصيصه تعالى بالعبادة الدين القيم الثابت
المستقيم الذى تعاضدت عليه البراهين عقلًا ونقلًا ولكن اكثر الناس لا يعلمون
ان ذلك هو الدين القيم لجهلهم بتلك البراهين او لا يعلمون شيئًا اصلًا فيعبدون اسماء

سمّوها من تلقاء انفسهم معرضين عن البرهان العقلى والسلطان النقلى وبعد تحقيق الحق
ودعوتهما اليه وبيانه لهما مقدار الرفيع ومرتبة علمه الواسع شرع فى تفسير ما استفسراه
ولكونه بحثًا مغايرًا لما سبق فصله عنه بتكرير الخطاب فقال يا صاحبى السجن اما احدكما
وهو الشرابى وانما لم يعيّنه ثقة بدلالة التعبير وتوصّلًا بذلك الى ابهام امر
صاحبه حذار مشافهته بما يسوءه فيسقى ربه اى سيده خمرًا روى انه عليه السلام
قال له ما رأيت من الكرمة وحسنها الملك وحسن حالك عنده واما القضبان الثلاثة
فثلاثة ايام تمضى فى السجن ثم تخرج وتعود الى ما كنت عليه وقرأ عكرمة فيسقى ربه على
البناء للمفعول اى يسقى ما يروى به واما الآخر وهو الخباز فيصلب فتأكل الطير من رأسه
روى انه عليه السلام قال له ما رأيت من السلال الثلاث ثلاثة ايام تمرّ ثم تخرج
فتقتل قضى اى اتم واحكم الامر الذى فيه تستفتيان وهو ما رآه من
الرؤييين قطعًا لا مآله الذى هو عبارة عن نجاة احدهما وهلاك الآخر كما يوهمه
اسناد القضاء اليه اذ الاستفتاء انما يكون فى الحادثة لا فى حكمها يقال استفتى الفقيه
فى الحادثة اى طلب منه بيان حكمها ولا يقال استفتاه فى حكمها وكذا الافتاء فانه يقال
افتى فلان فى الواقعة الفلانية بكذا ولا يقال افتى فى حكمها او جوابها بكذا ومما هو
علم فى ذلك قوله تعالى يا ايها الملأ افتونى فى رؤياى ومعنى استفتائهما فيه طلبهما
لتأويله بقولهما نبئنا بتأويله وانما عبّر عن ذلك الامر وعن طلب تأويله بالاستفتاء
تهويلًا لامره وتفخيمًا لشانه اذ الاستفتاء انما يكون فى النوازل المشكلة الحكم المبهمة
الجواب وايثار صيغة الاستقبال مع سبق استفتائهما فى ذلك لما انهما بصدده الى ان
يقضى وطرهما من الجواب واسناد القضاء اليه مع انه من احوال مآله لانه فى الحقيقة
عين ذلك المآل وقد ظهر فى عالم المثال بتلك الصورة واما توحيده مع تعدد رؤياهما
فوارد على حسب ما وحّداه فى قولهما نبئنا بتأويله لا لان الامر ما اتهما به وسيجنا لاجله
من سمّ الملك فانهما لم يستفتيا فيه ولا فيما هو صورته بل فيما هو صورة لمآله وعاقبته
فتأمل وانما اخبرهما عليه السلام بذلك تحقيقًا للتعبير وتأكيدًا له وقيل لما عبّر
رؤياهما جحدا وقالا ما رأينا شيئًا فاخبرهما ان ذلك كائن صدقتما او كذبتما ولعل
الجحود من الخباز اذ لا داعى الى جحود الشرابى الا ان يكون ذلك لمراعاة جانبه وقال اى
يوسف عليه السلام للذى ظن انه ناج اوثر على صيغة المضارع مبالغة فى الدلالة على
تحقق النجاة حسبما يفيده قوله تعالى قضى الامر الذى فيه تستفتيان وهو السرّ فى ايثار
ما عليه النظم الكريم على ان يقال للذى ظنه ناجيًا منهما من صاحبيه ولما ذكر بوصف
النجاة تمهيدًا لمناط التوصية بالذكر عند الملك وعنوان التقرب المفهوم من التعبير
المذكور وان كان ادخل فى ذلك وادعى الى تحقيق ما وصّاه به لكنه ليس بوصف فارق يدور
عليه الامتياز بينه وبين صاحبه المذكور بوصف الهلاك والظان هو يوسف
عليه السلام لا صاحبه لان التوصية المذكورة لا تدور على ظن الناجى بل على ظن يوسف
وهو بمعنى اليقين كما فى قوله تعالى انى ظننت انى ملاق حسابيه فالتعبير بالوحى كما ينبئ
عنه قوله تعالى قضى الامر الخ وقيل هو بمعناه والتعبير بالاجتهاد والحكم بقضاء الامر ايضًا
اجتهادى اذكرنى بما انا عليه من الحال والصفة عند ربك سيدك وصفنى
له بصفتى التى شاهدتها فانساه الشيطان اى انسى الشرابى بوسوسته والقائه
فى قلبه اشغالًا تعوقه عن الذكر والا فالانساء فى الحقيقة لله عز وجل والفاء
للسببية فان توصيته عليه السلام المتضمنة للاستعانة بغيره سبحانه كانت باعثة
لما ذكر من الانساء ذكر ربه اى ذكر الشرابى له عند الملك والاضافة لادنى
ملابسة او ذكر اخبار ربه فلبث اى يوسف بسبب ذلك الانساء او القول فى
السجن بضع سنين البضع ما بين الثلث الى التسع من البضع وهو القطع واكثر الاقاويل
انه لبث فيه سبع سنين وروى عن النبى عليه السلام رحم الله اخى يوسف لو لم يقل
اذكرنى عند ربك لما لبث فى السجن سبعًا بعد الخمس والاستعانة بالعباد وان كانت

مرخصة لكن اللائق بمناصب الانبياء عليهم السلام الاخذ بالعزائم «وقال الملك» اى الريان
«انى ارى» اى رايت وايثار صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية «سبع بقرات سمان»
جمع سمين وسمينة ككرام فى جمع كريم وكريمة يقال رجال كرام ونسوة كرام «ياكلهن»
اى اكلهن والعدول الى المضارع لاستحضار الصورة تعجيبا والجملة حال من البقرات
او صفة لها «سبع عجاف» اى سبع بقرات عجاف وهى جمع عجفاء والقياس عجف لان فعلاء
وافعل لا يجمع على فعال ولكن عدل به عن القياس حملا لاحد النقيضين على الآخر وانما لم
يقل سبع عجاف بالاضافة لان التمييز موضوع لبيان الجنس والصفة ليست بصالحة
لذلك فلا يقال ثلاثة ضخام واربعة غلاظ واما قولك ثلاثة فرسان وخمسة ركبان فلجريان الفارس
والراكب مجرى الاسماء روى انه رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وخرج عقيبهن
سبع بقرات عجاف فى غاية الهزال فابتلعت العجاف السمان «وسبع سنبلات خضر» قد انعقد
حبها «واخر يابسات» اى وسبعا اخر يابسات قد ادركت والتوت على الخضر حتى
غلبها على ما روى ولعل عدم التعرض لذكره للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات «يا ايها
الملأ» خطاب للاشراف من العلماء والحكماء «افتونى فى رؤياى» هذه اى عبروها و
بينوا حكمها وما تؤول اليه من العاقبة والتعبير بالافتاء لتشريفهم وتفخيم امر رؤياه
«ان كنتم للرؤيا تعبرون» اى تعلمون عبارة جنس الرؤيا علما مستمرا وهى الانتقال من الصورة
الخيالية المشاهدة فى المنام الى ما هى صور وامثلة لها من الامور الآفاقية والانفسية
الواقعة فى الخارج من العبور وهو المجاوزة تقول عبرت النهر اذا قطعته وجاوزته
ونحوه اولتها اى ذكرت مآلها وعبرت الرؤيا عبارة اثبت من عبرتها تعبيرا والجمع
بين الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار كما اشير اليه واللام للبيان او لتقوية العامل
المؤخر لرعاية الفواصل او لتضمين تعبرون معنى فعل متعد باللام كانه قيل ان كنتم
تنتدبون لعبارتها ويجوز ان يكون للرؤيا خبر كان كما يقال فلان لهذا الامر اذا كان
مستقلا به متمكنا منه وتعبرون خبر آخر «قالوا» استئناف مبنى على السؤال كانه قيل
فماذا قال الملأ للملك فقيل قالوا هى «اضغاث احلام» اى تخاليطها جمع ضغث
وهو فى الاصل ما جمع من اخلاط النبات وحزم ثم استعير لما تجمعه القوة المتخيلة
من احاديث النفس ووساوس الشيطان وتريها فى المنام والاحلام جمع حلم
وهى الرؤيا الكاذبة التى لا حقيقة لها والاضافة بمعنى من اى هى اضغاث من احلام
اخرجوها من جنس الرؤيا التى لها عاقبة تؤول اليها ويعتنى بامرها وجمعوها
وهى رؤيا واحدة مبالغة فى وصفها بالبطلان كما فى قولهم فلان يركب الخيل و
يلبس العمائم لمن لا يملك الا فرسا واحدا وعمامة او لتضمنها اشياء مختلفة من
البقرات السبع السمان والسبع العجاف والسنابل السبع الخضر والاخر اليابسات فتأمل
حسن موقع الاضغاث مع السنابل فلله در شأن التنزيل «وما نحن بتأويل الاحلام»
اى المنامات الباطلة التى لا اصل لها «بعالمين» لا لان لها تأويلا ولكن لا نعلمه بل
لانه لا تأويل لها وانما التأويل للمنامات الصادقة ويجوز ان يكون ذلك اعترافا
منهم بقصور علمهم وانهم ليسوا بنحارير فى تأويل الاحلام مع ان لها تأويلا كما
يشعر به عدولهم عما وقع فى كلام الملك من العبارة المعربة عن مجرد الانتقال من الدال
الى المدلول حيث لم يقولوا بتعبير الاحلام او عبارتها الى التأويل المنبئ عن التصرف
والتكلف فى ذلك لما بين الآيل والمآل من البعد ويؤيده قوله عز وجل انا انبئكم
بتأويله «وقال الذى نجا منهما» اى من صاحبى يوسف وهو الشرابى «وادكر» بغير المعجمة وهو الفصيح
وعن الحسن بالمعجمة اى تذكر يوسف عم وشؤونه التى شاهدها ووصيته بتقريب امره الى
الملك اشكال تأويلها عن الملأ «بعد امة» اى مدة طويلة وقرئ امة بالكسر وهى
النعمة اى بعد ما انعم عليه بالنجاة وامه اى نسيان والجملة حال من الموصول او من
ضميره فى الصلة وقيل معطوفة على نجا وليس بذاك لان حق كل من الصفة والصلة ان
يكون معلومة الانتساب الى الموصوف والموصول عند المخاطب كما عند المتكلم ولذلك قيل ان الصفات

قبل

قبل العلم بها اخبار والاخبار بعد العلم بها صفات وانت تدرى ان تذكره بعد امة
انما علم بهذه الجملة فلا مجال لنظمه مع نجاته المعلومة قبل فى سلك الصلة «انا
انبئكم بتأويله» اى اخبركم به بالتلقى عمن عنده علمه لا من تلقاء نفسى ولذلك لم يقل
انا افتيكم فيها وعقبه بقوله «فارسلون» اى الى يوسف وانما لم يذكره ثقة بما سبق
من التذكر وما لحق من قوله «يوسف ايها الصديق» اى ارسل اليه فاتاه فقال
يا يوسف ووصفه بالمبالغة فى الصدق حسبما شاهده وذاق احواله وجربها
لكونه بصدد اغتنام آثاره واقتباس انواره فهو من باب براعة الاستهلال «افتنا
فى سبع بقرات سمان ياكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات»
اى فى رؤيا ذلك وانما لم يصرح به لوضوح مرامه بقرينة ما سبق من معاملتهما
ولدلالة مضمون الحادثة عليه حيث لا امكان لوقوعه فى عالم الشهادة اى بين لنا
مآلها وحكمها وحيث عاين علو رتبته عليه السلام فى الفضل عبر عن ذلك بالافتاء
ولم يقل كما قال هو وصاحبه اولا نبئنا بتأويله وفى قوله افتنا مع انه المستفتى وحده
اشعار بان الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بامور العامة وانه فى ذلك معبر
وسفير كما اذن بذلك حيث قال «لعلى ارجع الى الناس» اى الى الملك ومن عنده او الى
اهل البلد ان كان السجن فى الخارج كما قيل فانبئهم بذلك «لعلهم يعلمون» ذلك و
يعملون بمقتضاه او يعلمون فضلك ومكانك مع ما انت فيه من الحال فتتخلص منه و
انما لم يبت القول فى ذلك مجاراة معه على نهج الادب واحترازا عن المجازفة اذ لم
يكن على يقين من الرجوع فربما اخترم دونه لعل المنادون مانعا نى ولا من
علمهم بذلك فربما لم يعلموا «قال» استئناف مبنى على السؤال كانه قيل فماذا قال
يوسف عليه السلام فى التأويل فقيل قال «تزرعون سبع سنين دأبا» قرئ بفتح الهمزة
وسكونها وكلاهما مصدر دأب فى العمل اذا جد فيه وتعب وانتصابه على الحالية
من فاعل تزرعون اى دائبين او تدأبون دأبا على انه مصدر مؤكد لفعل هو الحال
اول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر سنين مخاصيب والعجاف واليابسات
بسنين مجدبة فاخبرهم بانهم يواظبون سبع سنين على الزراعة ويبالغون فيها اذ بذلك
يتحقق الخصب الذى هو مصداق البقرات السمان وتأويلها ودلهم فى تضاعيف ذلك
على امر نافع لهم فقال «فما حصدتم فذروه فى سنبله» ولا
تذروه كيلا يأكله السوس كما هو شأن غلال مصر ونواحيها ولعله عم استدل على ذلك
بالسنبلات الخضر وانما امرهم بذلك اذ لم يكن معتادا فيما بينهم وحيث كانوا معتادين
للزراعة لم يأمرهم بها وجعلها امرا محقق الوقوع وتأويلا للرؤيا مصداقا لما فيها من
البقرات السمان «الا قليلا مما تأكلون» فى تلك السنين وفيه ارشاد منه عليه السلام
لهم الى التقليل فى الاكل والاقتصار على استثناء المأكول والبذر لكون ذلك معلوما من
قوله تزرعون سبع سنين وبعد اتمام ما امرهم به شرع فى بيان بقية التأويل التى
يظهر منها حكمة الامر المذكور فقال «ثم يأتى» وهو عطف على تزرعون فلا وجه لجعله
بمعنى الامر حثا لهم على الجد والمبالغة فى الزراعة على انه يحصل بالاخبار بذلك ايضا «من
بعد ذلك» اى من بعد السنين السبع المذكورات وانما لم يقل من بعدهن قصدا الى الاشارة
الى وصفهن فان الضمير ساكت عن اوصاف المرجع بالكلية «سبع شداد» اى سبع سنين
صعاب على الناس «يأكلن ما قدمتم لهن» من الحبوب المتروكة فى سنابلها وفيه
تنبيه على ان امره عم بذلك كان لوقت الضرورة واسناد الاكل اليهن مع انه
حال الناس فيهن مجازى كما فى نهاره صائم وفيه تلويح بانه تأويل لاكل العجاف السمان
واللام فى لهن ترشيح لذلك فكان ما ادخر فى السنابل من الحبوب شئ قد هيئ وقدم
لهن كالذى تقدم للنازل الا فهو فى الحقيقة مقدم للناس فيهن «الا قليلا مما
تحصنون» تحرزون لبذور الزراعة «ثم يأتى من بعد ذلك» اى من بعد السنين
الموصوفة بما ذكر من الشدة واكل الغلال المدخرة «عام» لم يعبر عنه بالسنة تحاشيا عن

المد لولا التأويل لها من عام القحط و تنبيهًا من اول الامر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق
فيه يغاث الناس من الغيث اى يمطرون يقال غيثت البلاد اذا مطرت فى وقت الحاجة
او من الغوث يقال اغاثنا الله اى امدنا برفع المكاره حين اظلتنا و فيه يعصرون
اي ما من شانه ان يعصر من العنب والقصب والزيتون والسمسم ونحوها من الفواكه
لكثرتها والتعرض لذكر العصر مع جواز الاكتفاء عنه بذكر الغيث المستلزم له عادة كما اكتفى به
عن ذكر تصرفهم فى الحبوب اما لان استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب اذ المذكورات
يتوقف صلاحها على مباد اخرى غير المطر واما لمراعاة جانب المستفتى باعتبار حالته
الخاصة به بشارة له وهي التي يدور عليها حسن موقع تغليبه على الناس فى القراءة بالفوقانية
وقيل معنى يعصرون يحلبون الضروع وتكرير فيه اما للاشعار باختلاف اوقات ما
يقع فيه من الغيث والعصر زمانا وهو ظاهر وعنوانا فان الغيث والغوث من فضل الله
تعالى والعصر من فعل الناس واما لان المقام مقام تعداد منافع ذلك العام ولاجله قدم
فى الموضعين على الفعلين فان المقصود الاصلي بيان انه يقع فى ذلك العام هذا النفع
وذلك النفع لا بيان انهما يقعان فى ذلك العام كما يفيده التاخير ويجوز ان يكون التقديم
للقصر على معنى انه غيثهم وعصرهم فى ساير السنين بمنزلة العدم بالنسبة الى عامهم
ذلك وان يكون فى الاخير لمراعاة الفواصل وفى الاول لرعاية حاله وقرئ يعصرون على البناء
للمفعول من عصره اذا انجاه وهو المناسب للاغاثة ويجوز ان يكون المبنى للفاعل
ايضا منه كانه قيل فيه يغاث الناس وفيه يغيثون اى يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضا
وقيل معنى يعصرون يمطرون من اعصرت السحابة اما بتضمين اعصرت معنى مطرت
وتعديته تعديته واما بحذف الجار وايصال الفعل على ان الاصل اعصرت عليهم واحكام
هذا العام المبارك ليست مستنبطة من رؤيا الملك وانما تلقاها عليه السلام من جهة
الوحي فبشرهم بها بعد ما اول الرؤيا بما اول وامرهم بالتدبير اللائق فى شانه ابانة
لعلو كعبه ورسوخ قدمه فى الفضل وانه محيط بما لم يخطر ببال احد فضلا عما يرى
صورته فى المنام على نحو قوله لصاحبيه عند استفتائهما فى منامهما لا ياتيكما طعام
ترزقانه الا نبأتكما بتاويله واتماما للنعمة عليهم حيث لم يشاركه عم فى العلم بوقوعها
احد ولو برؤية ما يدل عليها فى المنام وقال الملك بعد ما جاءه السفير بالتعبير و
سمع ما سمع من نقيره وقطميره ايتونى به لما علم من علمه وفضله فلما جاءه اى يوسف
الرسول واستدعاه الى الملك قال ارجع الى ربك اى سيدك فاسأله ما بال النسوة
اللاتى قطعن ايديهن اى ففتشه عن شانهن وانما لم يقل فاسأله ان يفتش عن ذلك
حثا للملك على الجد فى التفتيش لتتبين براءته ويتضح نزاهته اذ السؤال مما يهيج الانسان
على الاهتمام فى البحث للتفصي عما توجه اليه واما الطلب فمما قد يتسامح ويتساهل
فيه ولا يبالى به وانما لم يتعرض لامرأة العزيز مع ما لقى منها ما لقى من مقاساة الاحزان
ومعاناة الاشجان محافظة على مواجب الحقوق واحترازا عن مكرها حيث اعتقدها
مقيمة فى عدوة العداوة واما النسوة فقد كان يطمع فى صدعهن بالحق بشهادتهن
باقرارها بانها راودته عن نفسه فاستعصم ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع
الايدى ولم يصرح بمراودتهن له وقولهن اطع مولاتك واكتفى بالايماء الى ذلك بقوله
ان ربي بكيدهن عليم مجاملة معهن واحترازا عن سوء قالتهن عند الملك وانتصابهن
للخصومة مدافعة عن انفسهن متى سمعنا بنسبته لهن الى الفساد قال استيناف مبنى
على السؤال كانه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال الملك اثر ما بلغه الرسول الخبر واحضرهن
ما خطبكن اى شانكن وهو الامر الذى يحق لعظمه ان يخاطب المرء فيه صاحبه
اذ راودتن يوسف وخادعتنه عن نفسه ورغبتنه فى اطاعة مولاته هل
وجدتن فيه شيئا من سوء وريبة قلن حاش لله تنزيها له وتعجبا من نزاهته
وعفته ما علمنا عليه من سوء بالغن فى نفى جنس السوء عنه بالتنكير وزيادة من
قالت امرأة العزيز وكانت حاضرة فى المجلس وقيل اقبلت النساء عليها تقررها

وقيل

وقيل خافت ان يشهدن عليها بما قالت لهن ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن
لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين فاقرت قائلة الآن حصحص الحق
ثبت واستقر او تبين وظهر بعد خفاء قاله الخليل وقيل هو ماخوذ من الحصة وهي القطعة
من الجملة اي تبينت حصة الحق من حصة الباطل كما تتبين حصص الاراضى وغيرها
وقيل بان ظهر من حص شعره اذا استاصله بحيث ظهرت بشرة راسه وقرئ على البناء
للمفعول من حصحص البعير مباركه اى القاها فى الارض للاناخة قال فحصحص فى
صم الصفا ثفناته وناء بسلمى نواة ثم صمما والمعنى اقر الحق فى مقره ووضع
موضعه ولم ترد بذلك مجرد ظهور ما ظهر بشهادتهن من مطلق نزاهته عم
فيما احاط به علمهن من غير تعرض لنزاهته فى ساير المواطن خصوصا فيما وقع فيه
التشاجر بمحضر العزيز ولا بحث عن حال نفسها وما صنعت فى ذلك بل ارادت ظهور
ما هو متحقق فى نفس الامر وثبوته من نزاهته عليه السلام فى محل النزاع وخيانتها
فقالت انا راودته عن نفسه لا انه راودنى عن نفسى وانه لمن الصادقين
اى فى قوله حين افترت عليه هى راودتنى عن نفسى واردت بالآن زمان تكلمها
بهذا الكلام لا زمان شهادتهن فتأمل ايها المنصف هل ترى فوق هذه المرتبة
نزاهة حيث لم تتمالك الخصماء من الشهادة بها والفضل ما شهدت به الخصماء وانما تصدى
عليه السلام لتمهيد هذه المقدمة قبل الخروج ليظهر براءة ساحته عما قرف به لا سيما
عند العزيز قبل ان يحل ما عقده كما يعرب عنه قوله عليه السلام لما رجع اليه
الرسول واخبره بكلامهن ذلك اى ذلك التثبت المؤدي الى ظهور حقيقة الحال
ليعلم اى العزيز انى لم اخنه فى حرمته كما زعمه لا علما مطلقا فان ذلك لا
يستدعى تقديم التفتيش على الخروج من السجن بل قبل ما ذكر من نقض ما ابرمه ولعله
لمراعاة حقوق السيادة لان المباشرة للخروج من حبسه قبل ظهور بطلان ما جعله
سببا له وان كان ذلك بامر الملك مما يوهم الافتيات على رايه وانما ان يكون ذلك
لئلا يتمكن من تقبيح امره عند الملك تمحلا لامضاء ما امضاه فلا يليق بشانه عم فى الوثوق
بامره والتوكل على ربه جل جلاله بالغيب اى بظهر الغيب وهو حال من الفاعل
او المفعول اى لم اخنه وانا غايب عنه او هو غايب عنى او ظرف اى بمكان الغيب
وراء الاستار والابواب المغلقة واياما كان فالمقصود بيان كمال نزاهته عن الخيانة
وغاية اجتنابه عنها عند تعاضد اسبابها وان الله اى وليعلم انه تعالى لا يهدي
كيد الخائنين اى لا ينفذه ولا يسدده بل يبطله ويزهقه او لا يهديهم فى كيدهم
ايقاعا للفعل على الكيد مبالغة كما فى قوله تعالى يضاهئون قول الذين كفروا اى يضاهئونهم
فى قولهم وفيه تعريض بامرأته فى خيانتها امانته وبه فى خيانته امانة الله تعالى
حين ساعدها على حبسه بعد ما رأوا آيات نزاهته عليه السلام ويجوز ان يكون
ذلك لتاكيد امانته وانه لو كان خائنا لما هدى الله عز وجل امره واحسن عاقبته
وما ابرئ نفسي اى لا انزهها عن السوء قاله عليه السلام هضما لنفسه الكريمة
البريئة عن كل سوء وربا بمكانها عن التزكية والاعجاب بحالها عند ظهور كمال
نزاهتها على اسلوب قوله صلى الله عليه وسلم انا سيد ولد آدم ولا فخر وتحديثا
بنعمة الله عز وجل عليه وابرازا لسره المكنون فى شان افعال العباد اى لا انزهها عن
عن السوء من حيث هى ولا اسند هذه الفضيلة اليها بمقتضى طبعها من غير توفيق
من الله عز وجل ان النفس البشرية التى من جملتها نفسى فى حد ذاتها لامارة
بالسوء مائلة الى الشهوات مستعملة للقوى والآلات فى تحصيلها بل انما ذلك بتوفيق
الله تعالى وعصمته ورحمته كما يفيده قوله الا ما رحم ربي من النفوس التى يعصمها
من الوقوع فى المهالك ومن جملتها نفسى او هى امارة بالسوء فى كل وقت الا وقت رحمة
ربي وعصمته لها وقيل الاستثناء منقطع اى لكن رحمة ربي هى التى تصرف عنها السوء
كما فى قوله تعالى ولا هم ينقذون الا رحمة ان ربي غفور رحيم عظيم المغفرة لما يعترى

النفوس بموجب طباعها ومبالغ في الرحمة لها بعصمتها من الجريان بمقتضى ذلك وايثار
الاظهار في مقام الاضمار مع التعرض لعنوان الربوبية لتربية مبادي المغفرة والرحمة
وقيل الى هنا من كلام امراة العزيز والمعنى ذلك الذي قلت ليعلم يوسف عليه السلام
اني لم اخنه ولم اكذب عليه في حال الغيبة وجئت بما هو الحق الواقع وما ابرئ نفسي
مع ذلك من الخيانة حيث قلت في حقه ما قلت وفعلت به ما فعلت ان كل نفس لامارة
بالسوء الا ما رحم ربي اي الا نفسا رحمها الله تعالى بالعصمة كنفس يوسف ان ربي
غفور لمن استغفر لذنبه واعترف به رحيم له فعلى هذا يكون تأنيه عليه السلام في
الخروج عن السجن لعدم رضاه عليه السلام بملاقاة الملك وامره بين بين ففعل ما فعل
حتى يتبين نزاهته وانه انما سجن لظلم عظيم مع ما له من الفضل ونباهة الشان ليتلقاه
الملك بما يليق به من الاعظام والاجلال وقد وقع وقال الملك ائتوني به استخلصه
اجعله خالصا لنفسي وخاصا بي فلما كلمه اي فاتوا به فحذف للايذان بسرعة الاتيان
به فكانه لم يكن بين الامر باحضاره والخطاب معه زمان اصلا والضمير المستكن في كلمه
ليوسف والبارز للملك اي فلما كلمه يوسف اثر ما اتاه فاستنطقه وشاهد منه ما شاهد
قال انك اليوم لدينا مكين ذو مكانة ومنزلة رفيعة امين مؤتمن على كل شيء واليوم
ليس بمعيار لمدة المكانة والامانة بل هو ان التكلم والمراد تحديد مبدئهما احترازا عن
احتمال كونهما بعد حين روي انه عليه السلام لما جاءه الرسول خرج من السجن ودعا
لاهله واغتسل ولبس ثيابا جددا فلما دخل على الملك قال اللهم اني اسألك بخيرك من
خيره واعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال ما هذا
اللسان فقال لسان ابائي وكان الملك يعرف سبعين لسانا فكلمه بها فاجابه بجميعها فتعجب منه
فقال احب ان اسمع منك رؤياي فحكاها ونعت له البقرات والسنابل واماكنها على ما رآها
فاجلسه على السرير وفوض اليه امره وقيل توفي قطفير في تلك الليالي فنصبه منصبه و
زوجه راعيل فوجدها عذراء وولدت له افرايم وميشا ولعل ذلك انما كان بعد
تعيينه عليه السلام لما عين له من امر الخزائن كما يعرب عنه قوله عز وجل قال اجعلني
على خزائن الارض اي ارض مصر اي ولني امرها من الايراد والصرف اني حفيظ
لها مما لا يستحقها عليم بوجوه التصرف فيها وفيه دليل على جواز طلب الولاية اذا كان
الطالب ممن يقدر على اقامة العدل واجراء احكام الشريعة وان كان من يد الجائر
او الكافر وعن مجاهد انه اسلم الكافر على يده ع م ولعل ايثاره عليه السلام لتلك
الولاية خاصة انما كان للقيام بما هو اهم امور السلطنة اذ ذاك من تدبير امر السنين
حسبما فصل في التاويل لكونه من فروع تلك الولاية لا لمجرد عموم الفائدة وجموم العائدة
كما قيل وانما لم يذكر اجابة الملك الى ما سأله عليه السلام من جعله على خزائن الارض ايذانا
بان ذلك امر لا مرد له غني عن التصريح به لا سيما بعد تقديم ما يندرج تحته احكام
السلطنة بحذافيرها من قوله انك اليوم لدينا مكين امين وللتنبيه على ان كل ذلك
من الله عز وجل وانما الملك آلة في ذلك قيل وكذلك اي مثل ذلك التمكين البديع
مكنا ليوسف اي جعلنا له مكانا في الارض اي ارض مصر روي انها كانت اربعين فرسخا
في اربعين وفي التعبير عن الجعل المذكور بالتمكين في الارض مسندا الى ضميره عز سلطانه
من تشريفه عليه السلام والمبالغة في كماله ولايته والاشارة الى حصول ذلك من
اول الامر لا انه حصل بعد السؤال ما لا يخفى يتبوأ منها ينزل من بلادها حيث يشاء
ويتخذه مباءة وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرف فيها ودخولها تحت ملكته
وسلطانه فكانها منزله يتصرف فيها كما يتصرف الرجل في منزله وقرأ ابن كثير
بالنون روي ان الملك توجه وختمه بخاتمه وردّاه بسيفه ووضع له سريرا من ذهب
مكللا بالدر والياقوت فقال عليه السلام اما السرير فاشد به ملكك واما الخاتم
فادبر به امرك واما التاج فليس من لباسي ولا لباس ابائي فقال قد وضعته اجلالا لك
واقرارا بفضلك فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض اليه الملك امره واقام العدل واحبته

الرجال

الرجال والنساء وباع من اهل مصر في سني القحط الطعام في السنة الاولى بالدنانير
والدراهم وفي الثانية بالحلي والجواهر وفي الثالثة بالدواب ثم بالضياع والعقار
ثم برقابهم حتى استرقهم جميعا فقالوا ما راينا كاليوم ملكا اجل واعظم منه
ثم اعتقهم ورد اليهم املاكهم وكان لا يبيع من احد من الممتارين اكثر من حمل
بعير تقسيطا بين الناس نصيب برحمتنا بعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما
من النعم من نشاء بمقتضى الحكمة الداعية الى المشيئة ولا نضيع اجر المحسنين
بل نوفيه بكماله وفيه اشعار بان مدار المشيئة المذكورة احسان من نصيبه الرحمة
المرقومة وانها اجر له ولدفع توهم انحصار ثمرات الاحسان فيما ذكر من الاجر
العاجل قيل على سبيل التوكيد ولاجر الآخرة اي اجرهم في الآخرة فالاضافة
للملابسة وهو النعيم المقيم الذي لا نفاد له خير لهم اي المحسنين المذكورين
وانما وضع موضعه الموصول فقيل للذين آمنوا وكانوا يتقون تنبيها على ان المراد
بالاحسان انما هو الايمان والثبات على التقوى المستفاد من جميع صيغتي الماضي و
المستقبل وجاء اخوة يوسف ممتارين لما اصاب ارض كنعان وبلاد الشام
ما اصاب مصر وقد كان ارسلهم يعقوب عليه السلام جميعا غير بنيامين فدخلوا
عليه اي على يوسف وهو في مجلس ولايته فعرفهم لقوة فهمه وعدم مباينة
احوالهم السابقة لحالهم يومئذ لمفارقته اياهم وهم رجال وتشابه هيئاتهم
وزيهم في الحالين ولكون همته معقودة بهم وبمعرفة احوالهم لا سيما في زمن
القحط وعن الحسن ما عرفهم حتى تعرفوا له وهم له منكرون اي والحال انهم
منكرون له لطول العهد وتباين ما بين حاليه عليه السلام في نفسه ومنزلته وزيه
ولاعتقادهم انه هلك وحيث كان انكارهم له امرا مستمرا في حالتي المحضر
والمغيب اخبر عنه بالجملة الاسمية بخلاف عرفانه عليه السلام اياهم ولما جهزهم
بجهازهم اي اصلحهم بعدتهم من الزاد وما يحتاج اليه المسافر واوقر
ركائبهم بما جاؤا له من الميرة وقرئ بكسر الجيم قال ائتوني باخ لكم من
ابيكم لم يقل باخيكم مبالغة في اظهار عدم معرفته لهم ولعله عليه السلام
انما قاله لما قيل من انهم سألوه عليه السلام حملا زائدا على المعتاد لبنيامين
فاعطاهم ذلك وشرطهم ان يأتوا به لا لما قيل من انه لما رأوه وكلموه بالعبرانية قال
لهم من انتم فاني انكركم فقالوا نحن قوم من اهل الشام رعاة اصابنا الجهد فجئنا
نمتار فقال لهم لعلكم جئتم عيونا فقالوا معاذ الله نحن اخوة بنو اب واحد وهو
شيخ كبير صديق نبي من الانبياء اسمه يعقوب قال كم انتم قالوا كنا اثني عشر
فهلك منا واحد فقال كم انتم ههنا قالوا عشرة قال فاين الحادي عشر قالوا هو
عند ابيه يتسلى به عن الهالك قال فمن يشهد لكم انكم لستم عيونا وان ما تقولونه
حق قالوا نحن ببلاد لا يعرفنا فيها احد فيشهد لنا قال فدعوا بعضكم عندي رهينة
وائتوني باخيكم من ابيكم وهو يحمل رسالة من ابيكم حتى اصدقكم فاقترعوا
فاصابت القرعة شمعون فخلفوه عنده اذ لا يساعده ورود الامر بالاتيان به عند
التجهيز ولا الحث عليه بايفاء الكيل ولا الاحسان في الانزال ولا الاقتصار على
منع الكيل على تقدير عدم الاتيان به ولا جعل بضاعتهم في رحالهم لاجل
رجوعهم ولا عدتهم بالاتيان به بطريق المراودة ولا تعليلهم عند ابيهم
ارسال اخيهم بمنع الكيل من غير ذكر ارتهانه على ان استبقاء شمعون لو وقع لكان
ذلك طامة ينسى عندها كل قيل وقال الا ترون اني اوفي الكيل اتمه لكم وايثار
صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز للدلالة على ان ذلك عادة له
مستمرة وانا خير المنزلين جملة حالية الا ترون اني اوفي الكيل لكم ايفاء مستمرا
والحال اني في غاية الاحسان في انزالكم وضيافتكم وقد كان الامر كذلك وفي
تخصيص الرؤية بالايفاء لوقوع الخطاب في اثنائه واما الاحسان في الانزال فقد

كان مستمراً فيما سبق ولحق ولذلك أخبر عنه بالجملة الاسمية ولم يقل عليه السلام بطريق
الامتنان بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به والاقتصار في الكيل على ذكر الإيفاء لأن
معاملته عليه السلام معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم في مراعاة مواجب العدل
وأما الضيافة فليس للناس فيها حق فخصهم في ذلك بما شاء فإن لم تأتوني به فلا
كيل لكم عندي من بعد فضلاً عن إيفائه ولا تقربون بدخول بلادي فضلاً
عن الإحسان في الإنزال والضيافة وهو إما نهي أو نفي معطوف على محل الجزاء
وفيه دليل على أنهم كانوا على نية الامتيار مرة بعد أخرى وأن ذلك كان معلوماً
له عليه السلام قالوا سنراود عنه أباه أي سنخادعه عنه ونحتال في انتزاعه
من يده ونجتهد في ذلك وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله وإنا لفاعلون
ذلك غير مفرطين فيه ولا متوانين أو لقادرون عليه لا نتعانى به وقال يوسف
لفتيانه غلمانه الكيالين جمع فتى وقرئ لفتيته وهو جمع قلة له اجعلوا بضاعتهم
في رحالهم فإنه وكل بكل رحل رجلاً يعبئ فيه بضاعتهم التي شروا بها الطعام
وكانت نعالاً وأدماً وإنما فعله عليه السلام تفضلاً عليهم وخوفاً من أن لا يكون
عند أبيه ما يرجعون به مرة أخرى وكل ذلك لتحقيق ما يتوخاه من رجوعهم
بأخيه كما يؤذن به قوله لعلهم يعرفونها أي يعرفون حق ردها والتكرم في ذلك
أو لكي يعرفوها وهو ظاهر التعلق بقوله إذا انقلبوا إلى أهلهم فإن معرفتهم
لها مقيدة بالرجوع وتفريغ الأوعية قطعاً وأما معرفة حق التكرم في ردها فهي و
إن كانت في ذاتها غير مقيدة بذلك لكن لما كان ابتداؤها حينئذ قيدت به لعلهم
يرجعون حسبما أمرتهم فإن التفضل عليهم بإعطاء البدلين ولا سيما عند إعواز
البضاعة من أقوى الدواعي إلى الرجوع من حيث إن ديانتهم تحملهم على
رد البضاعة لأنهم لا يستحلون إمساكها فيرد حسبانهم أنها بقيت في رحالهم
نسياناً وظاهر أن ذلك مما لا يخطر ببال أحد أصلاً فإن هيئة التعبئة تنادي
بأن ذلك بطريق التفضل ألا يرى أنهم كيف جزموا بذلك حين رأوها وجعلوا
ذلك دليلاً على التفضلات السابقة كما ستحيط به خبراً فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا قبل
أن يشتغلوا بفتح المتاع يا أبانا منع منا الكيل أي فيما بعد وفيه ما لا يخفى من الدلالة على كون
الامتيار مرة بعد مرة معهوداً فيما بينهم وبينه عليه السلام فأرسل معنا أخانا
بنيامين إلى مصر وفيه إيذان بأن مدار المنع عدم كونه معهم نكتل بسببه من
الطعام ما نشاء وقرأ حمزة والكسائي بالياء على إسناده إلى الأخ لكونه سبباً للاكتيال
أو يكتل لنفسه مع اكتيالنا وإنا له لحافظون من أن يصيبه مكروه قال هل آمنكم
عليه إلا كما أمنتكم على أخيه يوسف من قبل وقد قلتم في حقه أيضاً ما قلتم ثم
فعلتم به ما فعلتم فلا أثق بكم ولا بحفظكم وإنما أفوض الأمر إلى الله فالله خير
حافظاً وقرئ حفظاً وانتصابهما على التمييز والحالية على القراءة الأولى توهم
تقيد الخيرية بتلك الحالة وهو أرحم الراحمين فأرجو أن يرحمني بحفظه ولا
يجمع علي مصيبتين وهذا كما ترى ميل منه عليه السلام إلى الإذن والإرسال لما رأى
فيه من المصلحة ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم
أي تفضلاً وقد علموا ذلك بما مر من دلالة الحال وقرئ بنقل حركة الدال المدغمة
إلى الراء كما قيل قيل وكيل قالوا استئناف مبني على السؤال كأنه قيل ماذا قالوا حينئذ
فقيل قالوا لأبيهم ولعله كان حاضراً عند الفتح يا أبانا ما نبغي إذا فسر البغي
بالطلب فما إما استفهامية منصوبة به فالمعنى ماذا نبتغي وراء ما وصفنا
لك من إحسان الملك إلينا وكرمه الداعي إلى امتثال الأمر والمراجعة إليه في الحوائج وقد
كانوا أخبروه بذلك وقالوا له إنا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً
من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته وقوله تعالى هذه بضاعتنا ردت إلينا جملة مستأنفة
موضحة لما دل عليه الإنكار من بلوغ اللطف غايته كأنهم قالوا كيف لا وهذه بضاعتنا

ردها

ردها تفضلاً من حيث لا ندري بعد ما من علينا من المنن العظام هل من
مزيد على هذا فنطلبه ولم يريدوا به الاكتفاء بذلك مطلقاً والتقاعد عن طلب
نظائره بل أرادوا الاكتفاء في استيجاب الامتثال لأمره والالتجاء إليه في استجلاب
المزيد كما أشرنا إليه وقوله تعالى ردت إلينا حال من بضاعتنا والعامل معنى الإشارة
وإيثار صيغة البناء للمفعول للإيذان بكمال الإحسان الناشئ عن كمال الإخفاء المفهوم من
كمال غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله وقوله عز وجل ونمير أهلنا أي
نجلب إليهم الطعام من عند الملك معطوف على مقدر ينسحب عليه رد البضاعة
أي فنستظهر بها ونحفظ أخانا من المكاره حسبما وعدنا فما يصيبه من مكروه
ونزداد أي بواسطته ولذلك وسط الإخبار بحفظه بين الأصل والمزيد
كيل بعير أي وسق بعير زائداً على أوساق أباعرنا على قضية التقسيط ذلك أي ما
يحمله أباعرنا كيل يسير أي مكيل قليل لا يقوم بأودنا فهو استئناف وقع تعليلاً
لما سبق كأنه قيل أي حاجة إلى الازدياد فقيل ما قيل أو ذلك الكيل الزائد شيء قليل
لا يضايقنا فيه الملك أو سهل عليه لا يتعاظمه أو أي مطلب نطلب من مهماتنا
والجمل الواقعة بعده توضيح وبيان لما يشعر به الإنكار من كونهم فائزين ببعض المطالب
أو متمكنين من تحصيله فكأنهم قالوا بضاعتنا حاضرة فنستظهر بها ونمير أهلنا
ونحفظ أخانا فما يصيبه شيء من المكاره ونزداد بسببه غير ما نكتاله لأنفسنا كيل بعير
فأي شيء نبتغي وراء هذه المباغي وقرئ ما تبغي على خطاب يعقوب عليه السلام أي أي
شيء تبغي وراء هذه المباغي المشتملة على سلامة أخينا وسعة ذات أيدينا أو
وراء ما فعل بنا الملك من الإحسان داعياً إلى التوجه والجملة الاستئنافية موضحة
لذلك أو أي شيء تبغي شاهداً على صدقنا فيما وصفنا لك من إحسانه والجملة المذكورة
عبارة عن الشاهد المدلول عليه بفحوى الإنكار وأما نافية فالمعنى ما نبغي شيئاً غير ما
رأينا من إحسان الملك في وجوب المراجعة إليه أو ما نبغي غير هذه المباغي وقيل ما نطلب منك بضاعة
أخرى والجملة المستأنفة تعليل له وأما إذا فسر البغي بمجاوزة الحد فما نافية فقط
والمعنى ما نبغي في القول وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا وكرمه
الموجب لما ذكر والجملة المستأنفة لبيان ما ادعوا من عدم البغي وقوله ونمير أهلنا عطف
على ما نبغي فيما ذكرنا من إحسانه ونحصل أمثاله من ميرة أهلنا ونحفظ أخانا فإن ذلك
أهون شيء بواسطة إحسانه وقد جوز أن يكون كلاماً مبتدأ أي جملة اعتراضية
تذييلية على معنى وينبغي أن نمير أهلنا ونشبه ذلك بقولك سعيت في حاجة فلان
ويجب أن أسعى وأنت خبير بأن شأن الجمل التذييلية أن تكون مؤكدة لمضمون الصدر
ومقررة له كما في المثال المذكور وقولك فلان ينطق بالحق والحق أبلج وقوله
ونمير أهلنا وإن ساعدنا في حمله على معنى ينبغي أن نمير أهلنا بمعزل من ذلك وما نبغي في الرأي
وما نعدل عن الصواب فيما نشير به عليك من إرسال أخينا معنا فالجمل إلى آخرها
تفصيل وبيان لعدم بغيهم وإصابة رأيهم أي بضاعتنا حاضرة نستظهر بها ونمير أهلنا
ونصنع كيت وذيت فتأمل قال لن أرسله معكم بعد ما عاينت منكم ما عاينت حتى
تؤتون موثقاً من الله أي ما أتوثق به من جهة الله عز وعلا وإنما جعله موثقاً منه
تعالى لأن توكيد العهود به مأذون منه من جهته تعالى فهو إذن منه عز وعلا لتأتنني
به جواب القسم إذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتنني إلا أن يحاط بكم أي إلا أن تغلبوا
فلا تطيقوا به أو إلا أن تهلكوا وأصله من إحاطة العدو فإن من أحاط به العدو
فقد هلك غالباً وهو استثناء من أعم الأحوال أو أعم العلل على تأويل الكلام بالنفي
الذي ينساق إليه أي لتأتنني به ولا تمتنعن منه في حال من الأحوال أو لعلة من العلل إلا حال الإحاطة
بكم أو لعلة الإحاطة بكم ونظيره قولهم أقسمت عليك لما فعلت وإلا فعلت أي ما أريد
منك إلا فعلك وقد جوز الأول بلا تأويل أيضاً أي لتأتنني به على كل حال إلا حال الإحاطة
بكم وأنت تدري أنه حيث لم يكن الإتيان به من الأفعال الممتدة الشاملة للأحوال على

سبيل المعية كما فى قولك لا الزمنك الا ان تعطينى حقى ولم يكن مراده عدم مقارنته
على سبيل البدل لما عدا الحال المستثناة كما اذا قلت صل الا ان يكون محدثا بل مجرد تحققه
ووقوعه من غير اخلال به كما فى قولك لا تحج العام الا ان احصر فان مرادك انما هو
الاخبار بعدم منع ما سوى حالة الاحصار عن الحج لا الاخبار بمقارنته لتلك الاحوال
على سبيل البدل كما هو مرادك فى مثال الصلاة كانه كان اعتبار الاحوال معه من حيث
عدم منعها منه فال المعنى الى التاويل المذكور فلما آتوه موثقهم عهدهم من الله حسبما
اراد يعقوب عليه السلام قال الله على ما نقول اى على ما قلنا فى اثناء طلب الموثق
وايتائه من الجانبين وايثار صيغة الاستقبال لاستحضار صورته المؤدية الى تثبتهم
على تذكره ومراقبته وكيل مطلع رقيب يريد به عرض ثقته بالله تعالى وحثهم على
مراعاة ميثاقهم وقال ناصحا لهم لما ازمع على ارسالهم جميعا يا بنى لا تدخلوا
مصر من باب واحد نهاهم عن ذلك حذارا من اصابة العين فانهم كانوا
ذوى جمال وشارة حسنة وقد كانوا تجملوا فى هذه الكرة اكثر مما فى المرة الاولى
وقد اشتهروا فى مصر بالكرامة والزلفى لدى الملك بخلاف النوبة الاولى فكانوا مئنة
لطموح كل ناظر وطموح كل طامح واصابة العين بتقدير العزيز الحكيم ليست مما ينكر وقد ورد
عنه عليه السلام ان العين حق وعنه عليه السلام ان العين لتدخل الرجل القبر والجمل
القدر وقد كان صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسنين رضى الله عنهما بقوله اعوذ
بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة وكان يقول كان ابى
كما يعوذ بها اسمعيل واسحق عليهم السلام رواه البخارى فى صحيحه وقد شهدت
بذلك التجارب ولما لم يكن عدم الدخول من باب واحد مستلزما من ابواب متفرقة
وكان فى دخولهم من بابين او ثلثة بعض ما فى الدخول من باب واحد من نوع اجتماع
مصحح لوقوع المحذور قال وادخلوا من ابواب متفرقة بيانا لما هو المراد بالنهى وانما لم
يكتف بهذا الامر مع كونه مستلزما له اظهارا لكمال العناية به وايذانا بانه المراد بالامر
المذكور لا تحقيق شئ آخر وما اغنى عنكم اى لا انفعكم ولا ادفع عنكم بتدبيرى
من الله من شئ اى شيئا مما قضى عليكم فان الحذر لا يمنع القدر ولم يرد به عدم
الغاء الحذر بالمرة كيف لا وقد عز وجل قائلا ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة وقال خذوا حذركم
بل اراد بيان ان ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة بل هو تدبير فى الجملة
وانما التاثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير وان ذلك ليس بمدافعة للقدر بل هو
استعانة بالله تعالى وهرب منه اليه ان الحكم مطلقا الا لله لا يشاركه احد ولا
يمانعه شئ عليه لا على احد سواه توكلت فى كل ما آتى واذر وفيه دلالة على ان ترتيب
الاسباب غير مخل بالتوكل وعليه دون غيره فليتوكل المتوكلون جمع بين الحرفين فى
عطف الجملة على الجملة مع تقديم الصلة للاختصاص مفيدا بالواو عطف فعل غيره من تخصيص التوكل
بالله عز وجل على فعل نفسه وبالفاء سببية فعله لكونه نبيا لفعل غيره من المقتدين به
فيدخل فيهم بنوه دخولا اوليا وفيه ما لا يخفى من حسن هدايتهم وارشادهم الى التوكل
فيما هم بصدده على الله عز وجل غير مغترين بما وصاهم به من التدبير ولما دخلوا
من حيث امرهم ابوهم من الابواب المتفرقة من البلد قيل كانت له اربعة ابواب فدخلوا
منها وانما اكتفى بذكره لاستلزامه الانتهاء عما نهوا عنه ما كان ذلك الدخول يغنى
فيما سياتى ووقوع ما وقع عنهم عن الداخلين لان المقصود به استدفاع الضرر عنهم
والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل لتحقيق المقارنة الواجبة بين جواب لما ومدخله
فان عدم الاغناء بالفعل انما يتحقق عند نزول المحذور لا وقت الدخول وانما المتحقق
حينئذ ما افاده الجمع المذكور من عدم كون الدخول المذكور مغنيا فيما سياتى فتامل
من الله من جهته من شئ اى شيئا مما قضاه عليهم مع كونه مظنة لذلك فى بادى الراى
حيث وصاهم به يعقوب عليه السلام وعملوا بموجبه واثقين بجدواه من فضل الله تعالى
فليس المراد بيان سببيته الدخول المذكور لعدم الاغناء كما فى قوله تعالى فلما جاءهم نذير ما زادهم

الانفورا فان مجئ النذير هناك سبب لزيادة نفورهم بل بيان عدم سببيته للاغناء مع كونها
متوقعة فى بادى الراى كما فى قولك حلف ان يعطينى حقى عند حلول الاجل فلما حل
لم يعطنى شيئا فان المراد بيان عدم سببيته حلول الاجل للاعطاء مع كونها مرجوة بموجب
الحلف لا بيان لعدم الاعطاء فالمال بيان عدم ترتب الغرض المقصود على التدبير المعهود
مع كونه مرجو الوجود لا بيان ترتب عدمه عليه ويجوز ان يراد ذلك ايضا بناء على ما
عليه السلام فى تضاعيف وصيته من انه لا يغنى عنهم من الله شيئا فكانه قيل ولما فعلوا
ما وصاهم به لم يفد ذلك شيئا ووقع الامر حسبما قال عليه السلام فلقوا ما لقوا
فيكون من باب وقوع المتوقع فتامل الا حاجة استثناء منقطع اى ولكن حاجة
وحرارة كائنة فى نفس يعقوب قضاها اى اظهرها ووصاهم بها دفعا للخاطرة
غير معتقدان للتدبير تاثيرا فى تغيير التقدير وقد جعل ضمير الفاعل فى قضاها للدخول
على معنى ان ذلك الدخول قضى حاجة فى نفس يعقوب وهى ارادته ان يكون
دخولهم من ابواب متفرقة فالمعنى ما كان ذلك الدخول يغنى عنهم من جهة الله
شيئا لكن قضى حاجة حاصلة فى نفس يعقوب بوقوعه حسب ارادته فالاستثناء
منقطع ايضا وعلى التقديرين لم يكن للتدبير فائدة سوى دفع الخاطرة واما اصابة
العين فانها لم تقع لكونها غير مقدرة عليهم الا انها اندفعت بذلك مع كونها مقضية
عليهم وانه لذو علم جليل لما علمناه لتعليمنا اياه بالوحى ونصب الادلة حيث
لم يعتقد ان الحذر يدفع القدر وان التدبير له حظ من التاثير حيث يتبين الخلل فى
رايه عند تخلف الاثر او حيث بت القول بانه لا يغنى عنهم من الله شيئا فكان
الحال كما قال وفى تاكيد الجملة بان واللام وتنكير العلم وتعليله بالتعليم المسند الى ذاته
سبحانه من الدلالة على جلالة شان يعقوب عليه السلام وعلو مرتبة علمه
وفخامته ما لا يخفى ولكن اكثر الناس لا يعلمون اسرار القدر ويزعمون انه يغنى عنه
الحذر واما ما يقال من ان المعنى لا يعلمون ايجاب الحذر مع انه لا يغنى شيئا من
القدر فيأباه مقام بيان تخلف المطلوب عن المبادى ولما دخلوا على يوسف آوى اليه
اخاه بنيامين اى ضمه اليه فى الطعام او فى المنزل او فيهما روى انهم لما دخلوا
عليه قالوا له هذا اخونا قد جئناك به فقال لهم احسنتم وستجدون ذلك عندى
فاكرمهم ثم اضافهم واجلسهم مثنى مثنى فبقى بنيامين وحيدا فبكى وقال لو
كان اخى يوسف حيا لاجلسنى معه فقال يوسف بقى اخوكم فريدا واجلسه معه
على مائدته وجعل يواكله ثم انزل كل اثنين منهم بيتا فقال هذا لا ثانى له فيكون
معى فبات يوسف يضمه اليه ويشم رائحته حتى اصبح وساله عن ولده فقال لى عشرة
بنين اشتققت اسماءهم من اسم اخ لى هلك فقال له اتحب ان اكون اخاك بدل
اخيك الهالك قال من يجد اخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف
وقام اليه وعانقه وتعرف اليه وعند ذلك قال انى انا اخوك يوسف فلا
تبتئس اى فلا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى فان الله قد احسن الينا
وجمعنا بخير ولا تعلمهم بما اعلمتك قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وعن وهب
انه لم يتعرف اليه بل قال له انا اخوك بدل اخيك المفقود ومعنى فلا تبتئس لا تحزن
بما كنت تلقاه من الحسد والاذى فقد امنتهم وروى انه قال له فانا لا افارقك قال
قد علمت باغتمام والدى فاذا حبستك يزداد غمه ولا سبيل الى ذلك الا ان انسبك الى
ما لا يجمل قال لا ابالى فافعل ما بدا لك قال ادس صاعى فى رحلك ثم انادى عليك بانك
سرقته ليتهيا لى ردك بعد تسريحك معهم قال افعل فلما جهزهم بجهازهم جعل
السقاية اى المشربة قيل كانت مشربة جعلت صاعا يكال به وقيل كانت يسقى
بها الدواب ويكال بها الحبوب وكانت من فضة وقيل من ذهب وقيل من فضة
مموهة بالذهب وقيل كانت اناء مستطيلة تشبه المكوك الفارسى الذى يلتقى طرفاه
يستعمله الاعاجم وقيل كانت مرصعة بالجواهر فى رحل اخيه بنيامين وقرئ

دجعل على حذف جواب لما تقديره امهلهم حتى انطلقوا ﴿ثم اذن مؤذن﴾ نادى مناد ﴿ايتها العير﴾ وهى الابل التى عليها الاحمال لانها تعير اى تذهب وتجئ وقيل هى قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير كانها جمع عير واصلها فعل مثل سقف وسقف فعل به ما فعل ببيض وعيد والمراد اصحابها كما فى قوله صلى الله عليه وسلم يا خيل الله اركبى روى انهم ارتحلوا وامهلهم يوسف حتى انطلقوا منزلا وقيل خرجوا من العمارة ثم امر بهم فادركوا ونودوا ﴿انكم لسارقون﴾ هذا الخطاب ان كان بامر يوسف فلعله اريد بالسرقة اخذهم له من ابيه ودخول بنيامين فيه بطريق التغليب والا فهو من قبيل المؤذن بناء على زعمه والاول هو الاظهر الاوفق للسباق وقرئ اليمانى سارقون بلا لام ﴿قالوا﴾ اى الاخوة ﴿واقبلوا عليهم﴾ جملة حالية من ضمير قالوا جئ بها للدلالة على انزعاجهم مما سمعوه لمباينته لحالهم ﴿ماذا تفقدون﴾ اى تعدمون تقول فقدت الشئ اذا عدمته بان ضل عنك لا بفعلك والمآل ما ذا ضاع عنكم وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة وقرئ تفقدون من افقدته اذا وجدته فقيدا وعلى التقديرين فالعدول عما يقتضيه الظاهر من قولهم ماذا سرق منكم لبيان كمال نزاهتهم باظهار انه لم يسرق منهم شئ فضلا ان يكون هم السارقين له وانما الممكن ان يضيع منهم شئ فيسألونهم انه ماذا وفيه ارشاد لهم الى مراعاة حسن الادب والاحتراز عن المجازفة ونسبة البرآء الى ما لا خير فيه لا سيما بطريق التوكيد فلذلك غيروا كلامهم حيث ﴿قالوا﴾ فى جوابهم ﴿نفقد صواع الملك﴾ ولم يقولوا سرقتموه او سرق وقرئ صاع وصوع بفتح الصاد وضمها وباهمال العين واعجامها من الصياغة ثم قالوا تربية لما تلقوه من قبلهم وازاحة الاعتقاد انه انما بقى فى رحلهم اتفاقا ﴿ولمن جاء به﴾ من عند نفسه مظهرا له قبل التفتيش ﴿حمل بعير﴾ من الطعام جعلا له على نية تحقيق الوعد لجزمهم بامتناع وجود الشرط فى عزمهم على ما لا يخفى من اخذ من وجد فى رحله ﴿وانا به زعيم﴾ كفيل اؤديه اليه وهو قول المؤذن ﴿قالوا تالله﴾ الجمهور على ان التاء بدل من الواو ولذلك لا تدخل الا على الجلالة المعظمة او الرب المضاف الى الكعبة او الرحمن فى قول ضعيف ولو قلت تالرحيم لم يجز وقيل من الباء وقيل اصل بنفسها واياما كان ففيه تعجب ﴿لقد علمتم﴾ علما جازما مطابقا للواقع ﴿ما جئنا لنفسد فى الارض﴾ اى لنسرق فانه من اعظم انواع الافساد او لنفسد فيها اى افساد كان فضلا عما نسبتمونا اليه من السرقة ونفى المجئ للافساد وان لم يكن مستلزما لما هو مقتضى المقام من نفى الافساد مطلقا لكنهم جعلوا المجئ الذى يترتب عليه ذلك ولو بطريق الاتفاق مجيئا لغرض الافساد مفعولا لاجله ادعاء اظهارا لكمال قبحه عندهم وتربية لاستحالة صدوره عنهم كما قيل فى قوله تعالى ما يبدل القول لدى وما انا بظلام للعبيد الدال بظاهره على نفى المبالغة فى الظلم دون نفى الظلم فى الجملة الذى هو مقتضى المقام من ان المعنى اذا عذبت من لا يستحق التعذيب كنت ظلاما مفرطا فى الظلم فكانهم قالوا ان صدر عنا افساد كان مجيئنا لذلك مريدين به تقبيح حاله واظهار كمال نزاهتهم فيه يعنون انه قد شاع بينكم فى كرتى مجيئنا ما نحن عليه وقد كانوا على غاية ما يكون من الديانة والصيانة فيما يأتون ويذرون حتى روى عنهم دخلوا مصر وافواه رواحلهم معكومة لئلا تتناول زرعا او طعاما لاحد وكانوا مثابرين على فنون الطاعات وعلمتم بذلك انه لا يصدر عنا افساد ﴿وما كنا سارقين﴾ اى ما كنا نوصف بالسرقة وانما حكموا بعلمهم ذلك لان العلم باحوالهم الشاهدة يستلزم العلم باحوالهم الغائبة وانما لم يكتفوا بذلك الزاما للحجة عليهم وتحقيقا للتعجب المفهوم من تاء القسم ﴿قالوا﴾ اى اصحاب يوسف عليه السلام ﴿فما جزاؤه﴾ الضمير للصواع على حذف المضاف اى فما جزاء سرقته عندكم وفى شريعتكم ﴿ان كنتم كاذبين﴾ لا فى دعوى البرآءة عن السرقة فانهم صادقون فيها بل فيما يستلزمه ذلك من نفى كون الصواع فيهم كما

يؤذن به قوله عز وجل ﴿قالوا جزاؤه من وجد﴾ اى اخذ من وجد الصواع ﴿فى رحله﴾ حيث ذكر بعنوان الوجدان فى الرحل دون السرقة وان كان ذلك مستلزما لها فى اعتقادهم المبنى على قواعد العادة ولذلك اجابوا بما اجابوا فان الاخذ والاسترقاق سنة انما هو جزاء السارق دون من وجد فى يده مال غيره كيف ما كان فتأمل واحمل كلام كل فريق على ما لا يزاحم رائه فانه اقرب الى معنى الكيد وابعد من الافتراء وقوله ﴿فهو جزاؤه﴾ تقرير لذلك الحكم اى فاخذه جزاؤه كقولك حق الضيف ان تكرم فهو حقه ويجوز ان يكون جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية كما هى خبره على اقامة الظاهر مقام المضمر والاصل جزاؤه من وجد فى رحله فهو هو على ان الاول لمن والثانى للظاهر الذى وضع موضعه ﴿كذلك﴾ اى مثل ذلك الجزاء الاوفى ﴿نجزى الظالمين﴾ بالسرقة تاكيد للحكم المذكور غب تاكيد وبيان لقبح السرقة ولقد فعلوا ذلك ثقة بكمال برآءتهم عنها وهم عما فعل بهم غافلون ﴿فبدأ﴾ يوسف بعد ما رجعوا اليه للتفتيش ﴿باوعيتهم﴾ باوعية الاخوة العشرة بتفتيشها ﴿قبل﴾ تفتيش ﴿وعاء اخيه﴾ بنيامين لنفى التهمة روى انه لما بلغت النوبة الى وعائه قال ما اظن هذا اخذ شيئا فقالوا والله لا نتركه حتى تنظر فى رحله فانه اطيب لنفسك وانفسنا ﴿ثم استخرجها﴾ اى السقاية او الصواع فانه يذكر ويؤنث ﴿من وعاء اخيه﴾ لم يقل منه على رجع الضمير الى الوعاء او من وعائه على رجعه الى اخيه قصدا الى زيادة كشف وبيان وقرئ بضم الواو وبقلبها همزة كما فى اشاح فى وشاح ﴿كذلك﴾ نصب على المصدرية والكاف مقحمة للدلالة على فخامة المشار اليه وكذا ما فى ذلك من معنى البعد اى مثل ذلك الكيد العجيب وهو عبارة عن ارشاد الاخوة الى الافتاء المذكور باجرائه على السنتهم وحملهم عليه بواسطة المستفتين من حيث لم يحتسبوا فمعنى قوله تعالى عز وجل ﴿كدنا ليوسف﴾ صنعنا له ودبرنا لاجل تحصيل غرضه من المقدمات التى رتبها من دس الصواع وما يتلوه فاللام ليست كما فى قوله فيكيدوا لك كيدا فانها داخلة على المتضرر على ما هو الاستعمال الشائع وقوله تعالى ﴿ما كان ليأخذ اخاه فى دين الملك﴾ استئناف وتعليل لذلك الكيد وصنعه لا تفسير وبيان له كانه قيل لماذا فعلوا ذلك فقيل لانه لم يكن ليأخذ اخاه بما فعله فى دين الملك فى امر السارق اى فى سلطانه قاله ابن عباس او فى حكمه وقضائه قاله قتادة الا به لان جزاء السارق فى دينه اذا كان ضربه وتغريمه ضعف ما اخذ دون الاسترقاق والاستعباد كما هو شريعة يعقوب عليه السلام فلم يكن يتمكن بما صنعه من اخذ اخيه بالسرقة التى نسبها اليه فى حال من الاحوال ﴿الا ان يشاء الله﴾ اى الا حال مشيئته التى هى عبارة عن ارادته لذلك الكيد او الا حال مشيئته للاخذ بذلك الوجه ويجوز ان يكون الكيد عبارة عنه وعن مباديه المؤدية اليه جميعا من ارشاد يوسف وقومه الى ما صدر عنهم من الافعال والاقوال حسبما شرح مرتبا لكن لا على ان يكون القصر المستفاد من تقديم المجرور ماخوذا بالنسبة الى غيره مطلقا على معنى مثل ذلك الكيد كدنا لا كيدا آخر اذ لا معنى لتعليله بعجز يوسف عليه السلام عن اخذ اخيه فى دين الملك فى شان السارق قطعا اذ لا علاقة بين مطلق الكيد ودين الملك فى امر السارق اصلا بل بالنسبة الى بعضه على معنى مثل ذلك الكيد البالغ الى هذا الحد كدنا له ولم نكتف ببعض من ذلك لانه لم يكن ليأخذ اخاه فى دين الملك به الا حال مشيئتنا له بايجاد ما يجرى مجرى الجزء الصورى من العلة التامة وهو ارشاد اخوته الى الافتاء المذكور وعلى هذا ينبغى ان يحمل القصر فى تفسير من فسر قوله تعالى كدنا ليوسف بقوله علمناه اياه واوحينا به اليه اى مثل ذلك التعليم المستتبع لما شرح مرتبا علمناه دون بعض من ذلك فقط الى على كل حال فالاستثناء من اعم الاحوال كما اشير اليه ويجوز ان يكون من اعم العلل والاسباب اى لم يكن ليأخذه لعلة من العلل او بسبب من الاسباب الا لعلة مشيئته تعالى او الا بسبب مشيئته تعالى واياما كان فهو متصل لان

اخذ السارق اذا كان ممن يرى ذلك ويعتقده دينا لاسيما عند رضاه وافتائه ليس مخالفا لدين الملك وقد قيل معنى الاستثناء الا ان يشاء الله ان يجعل ذلك الحكم حكم الملك وانت تدرى ان المراد بدينه ما عليه حينئذ فتغييره مخل بالاتصال وارادة مطلق ما يتدين به اعم منه ومما يحدث تفضى الى كون الاستثناء من قبيل التعليق بالمحال اذ المقصود بيان عجز يوسف عليه السلام عن اخذ اخيه حينئذ ولم يتعلق المشية بالجعل المذكور اذ ذاك وارادة عجزه مطلقا تؤدى الى خلاف المراد فان استثناء حال المشية المذكورة من احوال عجزه عليه السلام مما يشعر بعدم الحاجة الى الكيد المذكور فتدبر وقد جوز الانقطاع اى لكن اخذه بمشية الله تعالى واذنه فى دين غير دين الملك نرفع درجات اى رتبا كثيرة عالية من العلم وانتصابها على المصدرية او الظرفية او على نزع الخافض اى الى درجات والمفعول قوله تعالى من نشاء اى نشاء رفعه حسبما يقتضيه الحكمة ويستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسف وايثار صيغة الاستقبال للاشعار بان ذلك سنة مستمرة غير مختصة بهذه المادة والجملة مستانفة لا محل لها من الاعراب وفوق كل ذى علم من اولئك المرفوعين عليم لا ينالون شاوه واعلم انه ان جعل الكيد عبارة عن المعنيين الاولين فالمراد برفع يوسف عليه السلام ما اعتبر فيه بالشرطية او الشرطية من ارشاده عليه السلام الى ذلك الصتوع فى رحل اخيه وما يتفرع عليه من المقدمات المترتبة لاستبقاء اخيه مما يتم من قبله والمعنى ارشدنا اخوته الى الافتاء المذكور لانه لم يكن متمكنا من اخذ اخيه بدونه اى ارشدنا كلا منهم ومن يوسف واصحابه الى ما صدر عنهم ولم نكتف بما تم من قبل يوسف فقط لانه لم يكن متمكنا من اخذ اخيه بذلك فقوله نرفع درجات الى قوله تعالى عليم توضيح لذلك على معنى ان الرفع المذكور لا يوجب تمام امر مرامه اذ ليس ذلك بحيث لا يعزب عن علمه شئ بل انما نرفع كل من يرفع حسب استعداده وفوق كل واحد منهم عليهم لا يقادر قدر علمه ولا يكتنه كنهه نرفع كلا منهم الى ما يليق به من معارج العلم ومدارجه وقد رفع يوسف الى ما يليق به من الدرجات العالية وعلم ان ما حواه دايرة علمه لا يفى بمرامه فارشد اخوته الى الافتاء المذكور فكان ما كان وكانه عليه السلام لم على يقين من صدور الافتاء المذكور عن اخوته وان كان على طمع منه فان ذلك الى الله عز وجل وجودا وعلما والتعرض لوصف العلم لتعيين جهة الفوقية وفى صيغة المبالغة مع التنكير والالتفات الى الغيبة من الدلالة على فخامة شانه عز وعلا وجلالة مقدار علمه المحيط ما لا يخفى واما ان جعل عبارة عن التعليم المستتبع للافتاء المذكور فالرفع عبارة عن ذلك التعليم والافتاء وان لم يكن داخلا تحت قدرته ثم لكنه كان داخلا تحت علمه بواسطة التعليم والوحى والمعنى مثل ذلك التعليم البالغ الى هذا الحد علمناه ولم نقتصر على تعليم ما عدا الافتاء الذى سيصدر عن اخوته اذ لم يكن متمكنا من اخذ اخيه الا بذلك فقوله نرفع درجات من نشاء توضيح لقوله كدنا وبيان لان ذلك من باب الرفع الى الدرجات العالية من العلم ومدح ليوسف برفعه اليها وقوله وفوق كل ذى علم عليم تذييل له اى نرفع درجات عالية من العلم من نشاء رفعه وفوق كل منهم عليم هو اعلى درجة قال ابن عباس رضى الله عنهما فوق كل عالم عالم الى ان ينتهى العلم الى الله تعالى والمعنى ان اخوة يوسف كانوا علماء الا ان يوسف افضل منهم وقرى درجات من نشاء بالاضافة والاول انسب بالتذييل حيث نسب فيه الرفع الى من نسب اليه الفوقية لا الى درجته ويجوز كون العليم فى هذا التفسير ايضا عبارة عن الله تعالى اى وفوق كل من اولئك المرفوعين عليم برفع كلا منهم الى درجته اللايقة والله تعالى اعلم قالوا ان يسرق يعنون بنيامين فقد سرق اخ له من قبل يريدون به يوسف عليه السلام وما جرى عليه من جهة عمته على ما قيل من انها كانت تحضنه فلما شب اراد يعقوب ثم انتزاعه منها وكانت لا تصبر عنه ساعة وكانت لها منطقة ورثتها من ابيها اسحق

عليه السلام فاحتالت لاستبقاء يوسف عليه السلام فعمدت الى المنطقة فحزمتها عليه من تحت ثيابه ثم قالت فقدت منطقة اسحق فانظروا من اخذها فوجدوها محزومة على يوسف فقالت انه لى سلم افعل به ما اشاء فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت وقيل كان اخذ فى صباه صنما لابى امه فكسره والقاه فى الجيف وقيل دخل كنيسة فاخذ تمثالا صغيرا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه فاسرها يوسف اى اكن الحزازة الحاصلة مما قالوا فى نفسه لانه اسرها لبعض اصحابه كما فى قوله تعالى واسررت لهم اسرارا ولم يبدها لهم لا قولا ولا فعلا صفحا عنهم وحلما وهو تاكيد لما سبق قال اى فى نفسه وهو استيناف مبنى على سؤال نشاء من الاخبار بالاسرار المذكور كانه قيل فماذا قال فى نفسه فى تضاعيف ذلك الاسرار فقيل قال انتم شر مكانا اى منزلة حيث سرقتم اخاكم من ابيكم ثم طفقتم تفترون على البرئ وقيل بدل من اسرها والضمير للمقالة المفسرة بقوله انتم شر مكانا والله اعلم بما تصفون اى عالم علما بالغا الى اقصى المراتب بان الامر ليس كما تصفون من صدور السرقة منا بل انما هو افتراء علينا فالصيغة لمجرد المبالغة لا لتفضيل علمه عز وجل على علمهم كيف لا وليس لهم بذلك من علم قالوا عندما شاهدوا مخايل اخذ بنيامين مستعطفين يا ايها العزيز ان له ابا لم يريدوا بذلك الاخبار بان له ابا فان ذلك معلوم مما سبق وانما ارادوا الاخبار بان له ابا شيخا كبيرا فى السن لا يكاد يستطيع فراقه وهو علالة به يتعلل عن شقيقه الهالك فخذ احدنا مكانه فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة انا نراك من المحسنين الينا فاتمم احسانك بهذه التتمة اى المتعودين بالاحسان فلا تغير عادتك قال معاذ الله اى نعوذ بالله معاذا من ان نأخذ فحذف الفعل واقيم مقامه المصدر مضافا الى المفعول به بعد حذف الجار الا من وجدنا متاعنا عنده لان اخذنا له انما هو بقضية فتواكم فليس لنا الاخلال بموجبها وايثار صيغة التكلم مع الغير مع كون الخطاب من جانب اخوته على التوحيد من باب السلوك الى سنن الملوك وللاشعار بان الاخذ والاعطاء ليس مما يستبد به بل هو منوط باراء اولى الحل والعقد وايثار من وجدنا متاعنا عنده دون من سرق متاعنا لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب فى الكلام مع تمام المرام فانهم لا يحملون وجدان الصواع فى الرحل على محمل غير السرقة انا اذا اى اذا اخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده ولو برضاه لظالمون فى مذهبكم وما لنا ذلك وهذا المعنى هو الذى اريد بالكلام فى اثناء الجوار وله معنى هو ان الله عز وجل انما امرنى بالوحى ان اخذ بنيامين لمصالح علمها الله فى ذلك فلو اخذت غيره كنت ظالما او عاملا بخلاف الوحى فلما استيأسوا منه اى يئسوا من يوسف واجابته لهم اشد يأس بدلالة صيغة الاستفعال وانما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس لما شاهدوه من عوذه بالله مما طلبوه الدال على كون ذلك عنده فى اقصى مراتب الكراهة بانه مما يجب ان يحترز عنه ويعاذ منه بالله عز وجل ومن تسميته ظلما بقوله انا اذا لظالمون خلصوا اعتزلوا وانفردوا عن الناس نجيا اى ذوى نجوى على ان يكون بمعنى النجوى والتناجى او فوجا نجيا على ان يكون بمعنى المناجى كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى وقربناه نجيا ويجوز ان يقال هم نجى كما يقال هم صديق لانه بزنة المصادر من الزفير والزئير قال كبيرهم فى السن وهو روبيل او فى العقل وهو يهوذا او رئيسهم وهو شمعون الم تعلموا كانهم اجمعوا عند التناجى على الانقلاب جملة ولم يرض به فقال منكرا عليهم الم تعلموا ان اباكم قد اخذ عليكم موثقا من الله عهدا يوثق به وهو حلفهم بالله تعالى وكونه من الله لاذنه فيه وكون الحلف باسمه الكريم ومن قبل اى من قبل هذا ما فرطتم فى يوسف فقصرتم فى شانه ولم تحفظوا عهد ابيكم وقد قلتم وانا له لناصحون وانا له لحافظون وما مزيدة او مصدرية ومحل المصدر

النصب

عطفا على مفعول تعلموا اى الم تعلموا اخذ ابيكم عليكم موثقا وتفريطكم السابق فى شان
يوسف ولاضير فى الفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف وقد جوز النصب عطفا
على اسم ان والخبر فى يوسف او من قبل على معنى الم تعلموا ان تفريطكم السابق و
قع فى شان يوسف او ان تفريطكم الكاين او كاينا فى شان يوسف وقع من قبل وفيه
ان مقتضى المقام انما هو الاخبار بوقوع ذلك التفريط لا بكون تفريطهم السابق
واقعا فى شان يوسف كما هو مفاد الاول ولا بكون تفريطهم الكاين فى شانه واقعا
من قبل كما هو مفاد الثانى على ان الظرف المقطوع عن الاضافة لايقع خبرا ولا صفة
ولا صلة ولا حالا الا عند البعض كما تقرر فى موضعه وقيل محله الرفع على الابتداء و
الخبر من قبل وفيه ما فيه وقيل ما موصولة او موصوفة ومحلها النصب او الرفع
والحق هو النصب عطفا على مفعول تعلموا اى ما فرطتموه بمعنى قدمتموه فى حقه
من الجناية واما النصب عطفا على اسم ان او الرفع على الابتداء فقد عرفت حاله «فلن
ابرح الارض» متفرع على ما ذكره وذكره اياهم من ميثاق ابيه وقوله لتأتننى
به الا ان يحاط بكم اى فلن افارق ارض مصر جريا على قضية الميثاق «حتى يأذن لى ابى»
فى البراح بالانصراف اليه وكان ايمانهم كانت مقفودة على عدم الرجوع بغير اذن يعقوب
عليه السلام «او يحكم الله لى» بالخروج منها على وجه لا يؤدى الى نقض الميثاق
او بخلاص اخى بسبب من الاسباب روى انهم كلموا العزيز فى اطلاقه فقال روبيل
ايها الملك لتردن الينا اخانا او لاصيحن صيحة لا تبقى بمصر حامل الا القت ولدها
ووقفت كل شعرة فى جسده فخرجت من ثيابه وكان بنو يعقوب اذا غضبوا لا يطاقون
خلا انه اذا مس من غضب واحد منهم سكن غضبه فقال يوسف لابنه قم الى جنبه
فمسه فمسه فقال روبيل من هذا ان فى هذا البلد بذرا من بذر يعقوب «وهو خير
الحاكمين» اذ لا يحكم الا بالحق والعدل «ارجعوا» انتم «الى ابيكم فقولوا يا ابانا
ان ابنك سرق» على ظاهر الحال وقرئ سرق اى نسب الى السرقة «وما شهدنا عليه الا
بما علمنا» وشاهدنا ان الصواع استخرج من وعائه «وما كنا للغيب» اى باطن
الحال «حافظين» فما ندرى ان حقيقة الامر كما شاهدنا ام بخلافه او ما كنا عالمين حين
اعطيناك الموثق انه سيسرق او انا نبتلى هذا الامر وانك تصاب به كما اصبت
بيوسف «واسأل القرية التى كنا فيها» اى مصر او قرية بقربها لحقهم المنادى عندها
اى ارسل الى اهلها واسألهم عن القصة «والعير التى اقبلنا فيها» اى اصحابها فان القصة
معروفة فيما بينهم وكانوا قوما من كنعان من جيران يعقوب وقيل من صنعا
«وانا لصادقون» تأكيد فى محل القسم «قال» اى يعقوب عليه السلام وهو استيناف
مبنى على سؤال نشأ مما سبق فكانه قيل فماذا كان عند قول المتوقف لاخوته
ما قال فقيل قال يعقوب عند ما رجعوا اليه فقالوا له ما قالوا وانما حذف للايذان بان
مسارعتهم الى قبوله ورجوعهم به الى ابيهم امر مسلم غنى عن البيان وانما المحتاج اليه جواب
ابيهم «بل سولت» اى زينت وسهلت وهو اضراب لا عن صريح كلامهم فانهم صادقون
فى ذلك بل عما يتضمنه من ادعاء البراءة عن التسبب فيما نزل به وانه لم يصدر منهم
ما يؤدى الى ذلك من قول او فعل كانه قيل لم يكن الامر كذلك بل زينت «لكم انفسكم امرا»
من الامور فاتيتموه يريد بذلك فتياهم باخذ السارق بسرقته «فصبر جميل» اى فامرى
صبر جميل او فصبر جميل اجمل «عسى الله ان يأتينى بهم جميعا» بيوسف واخيه والمتوقف
بمصر «انه هو العليم» بحالى وحالهم «الحكيم» الذى لم يبتلنى الا لحكمة بالغة
«وتولى» اى اعرض «عنهم» كراهة لما سمع منهم «وقال يا اسفى
على يوسف» الاسف اشد الحزن والحسرة اضافه الى نفسه والالف بدل من الياء فناداه
اى يا اسفى تعالى فهذا اوانك وانما تأسف على يوسف مع ان الحادث مصيبة اخويه
لان رزاه كان قاعدة الارزاء عنده وان تقادم عهده اخذ بمجامع قلبه لا ينساه
ولانه كان واثقا بحياتهما عالما بمكانهما طامعا فى ايابهما واما يوسف فلم يكن فى شانه

مايحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله تعالى وفضله وفى الخبر لم تعط امة من الامم انا لله
وانا اليه راجعون الا امة محمد صلى الله عليه وسلم الا ترى الى يعقوب حين اصابه
ما اصابه لم يسترجع بل قال ما قال والتجانس بين لفظى الاسف ويوسف مما يزيد
النظم الكريم بهجة كما فى قوله عز وجل وهم ينهون عنه وينأون عنه وقوله اثاقلتم
الى الارض ارضيتم وقوله ثم كلى من كل الثمرات وجئتك من سبأ بنبأ يقين فى
نظائرهما «وابيضت عيناه من الحزن» الموجب للبكاء فان العبرة اذا كثرت محقت
سواد العين وقلبته الى بياض كدر قيل قد عمى بصره وقيل كان يدرك ادراكا ضعيفا
روى ما جفت عينا يعقوب من يوم فراق يوسف الى حين لقائه ثمانين عاما وما
على وجه الارض اكرم على الله عز وجل من يعقوب عليه السلام وعن رسول الله
صلى الله عليه وسلم انه سأل جبريل عليه السلام ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف
قال وجد سبعين ثكلى قال فما كان له من الاجر قال اجر مائة شهيد وما ساء ظنه
بالله تعالى ساعة قط وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند النوائب فان الكف
عن ذلك مما لا يدخل تحت التكليف فانه قل من يملك نفسه عند الشدائد ولقد بكى
رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال القلب يحزن والعين تدمع
ولا نقول ما يسخط الرب وانا عليك يا ابراهيم لمحزونون وانما الذى لا يجوز ما
يفعله الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الخدود والصدور وشق الجيوب وتمزيق
وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه فقيل
يا رسول الله تبكى وقد نهيتنا عن البكاء فقال ما نهيتكم عن البكاء وانا نهيتكم عن
صوتين احمقين صوت عند الفرح وصوت عند الترح «فهو كظيم» مملوء من الغيظ
على اولاده ممسك له فى قلبه لا يظهره وقيل بمعنى مفعول بدليل قوله تعالى وهو مكظوم
من كظم السقاء اذا شده على ملئه او بمعنى فاعل كقوله والكاظمين الغيظ من كظم الغيظ
اذا اجترعه واصله كظم البعير جرته اذا ردها فى جوفه «قالوا تالله تفتؤ» اى لا
تفتؤ ولا تزال «تذكر يوسف» تفجعا عليه فحذف حرف النفى كما فى قوله فقلت يمين
الله ابرح قاعدا لعدم الالتباس بالاثبات فان القسم اذا لم يكن معه علامة الاثبات
يكون على النفى البتة «حتى تكون حرضا» مريضا مشفيا على الهلاك وقيل الحرض من اذا
به هم او مرض وهو فى الاصل مصدر ولذلك لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع والنعت منه بالكسر
كدنف وقد قرئ به وبضمتين كجنب وغرب «او تكون من الهالكين» اى الميتين «قال انما اشكو
بثى» البث اصعب الهم الذى لا يصبر عليه صاحبه فيبثه الى الناس اى ينشره فكانهم قالوا
له ما قالوا بطريق التسلية والاشكاء فقال لهم انى لا اشكو ما بى اليكم او الى غيركم
حتى تتصدوا لتسليتى وانما اشكو همى «وحزنى الى الله» تعالى ملتجئا الى جنابه متضرعا لدى
بابه فى دفعه وقرئ بفتحتين وضمتين «واعلم من الله ما لا تعلمون» من لطفه
ورحمته فارجو ان يرحمنى ويلطف بى ولا يخيب رجائى او الهاما من جهة ما لا تعلمون
من حياة يوسف قيل رأى ملك الموت عليه السلام فى المنام فسأل عنه فقال هو حى و
قيل علم من رؤيا يوسف عليه السلام انه سيخر له ابواه واخوته سجدا «يا بنى
اذهبوا فتحسسوا» اى تعرفوا وهو تفعل من الحس وقرئ بالجيم من الجس وهو الطلب
اى تطلبوا «من يوسف واخيه» اى من خبرهما ولم يذكر الثالث لان غيبته اختيارية
لا يعسر ازالتها «ولا تيأسوا من روح الله» اى لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه وقرئ
بضم الراء اى من رحمته التى يحيى بها العباد وهذا ارشاد لهم الى بعض ما ابهم
فى قوله واعلم من الله ما لا تعلمون ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه بقوله
«انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون» لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته
فان العارف لا يقنط فى حال من الاحوال «فلما دخلوا عليه» اى على يوسف بعد ما
رجعوا الى مصر بموجب امر ابيهم وانما لم يذكر ذلك ايذانا بمسارعتهم الى ما امروا به و
اشعارا بان ذلك امر محقق لا يفتقر الى الذكر والبيان «قالوا يا ايها العزيز» اى الملك القادر

الممتنع مسنا واهلنا الضر الهزال من شدة الجوع وجئنا ببضاعة مزجاة مدفوعة
يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا لها من ازجيته اذا دفعته وطردته والريح تزجي
السحاب قيل كانت بضاعتهم من متاع الاعراب صوفا وسمنا وقيل الصنوبر وحبة الخضراء
وقيل سويق المقل والاقط وقيل دراهم زيوفا لا تؤخذ الا بوضيعة وانما قدموا ذلك ليكون
ذريعة الى اسعاف مرامهم ببعث الشفقة وهز العطف والرأفة وتحريك سلسلة الرحمة
ثم قالوا فاوف لنا الكيل اي اتممه لنا وتصدق علينا برد اخينا الينا قاله الضحاك
وابن جريج وهو الانسب بحالهم نظرا الى امر ابيهم او بالايفاء او بالمسامحة وقبول
المزجاة او بالزيادة على ما يساويها تفضلا وانما سموه تصدقا تواضعا او ارادوا التصدق
فوق ما نعطيهم بالثمن بناء على اختصاص حرمة الصدقة بنبينا صلى الله عليه وسلم وانما
لم يبدءوا بما امروا به استجلابا للرأفة والشفقة ليبعثوا بما قدموا من رقة الحال رقة
القلب والحنو على ان ما ساقوه كلام ذو وجهين فان حق لهم وتصدق علينا ان الله
يجزي المتصدقين يحتمل الحمل على المحامل فلعله عليه السلام حمله على المحمل الاول ولذلك
قال مجيبا عما عرضوا به وضمنوه كلامهم من طلب رد اخيهم هل علمتم ما فعلتم
بيوسف واخيه وكان الظاهر ان يتعرض لما فعلوا باخيه فقط وانما تعرض لما فعلوا بيوسف
لاشتراكهما في وقوع الفعل عليهما فان المراد بذلك افرادهم له عن يوسف واذلاله
بذلك حتى كان لا يستطيع ان يكلمهم الا بعجز وذلة اي هل تبتم عن ذلك بعد علمكم
بقبحه فهو سؤال عن الملزوم والمراد لازمه اذ انتم جاهلون بقبحه فلذلك اقدمتم
على ذلك او جاهلون عاقبته وانما قاله نصحا لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم
لما رأى عجزهم وتمسكنهم لا معاتبة ويجوز ان يكون هذا الكلام منه عليه السلام
منقطعا عن كلامهم وتنبيها لهم على ما هو حقهم ووظيفتهم من الاعراض عن جميع
المطالب والتمحض في طلب بنيامين بل يجوز ان يقف عليه السلام بطريق الوحي والالهام
على وصية ابيه وارساله اياهم للتحسس منه ومن اخيه فلما رآهم قد اشتغلوا عن ذلك
قال ما قال وقيل اعطوه كتاب يعقوب عليه السلام وقد كتب فيه كتاب يعقوب
من يعقوب اسرائيل الله بن اسحق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله الى عزيز مصر اما
بعد فانا اهل بيت موكل بنا البلاء اما جدي فشدت يداه ورجلاه ورمي به في النار
فنجاه الله تعالى وجعلت النار له بردا وسلاما واما ابي فوضع السكين على قفاه ليقتل
ففداه الله واما انا فكان لي ابن وكان احب اولادي الي فذهب به اخوته الى البرية
ثم اتوني بقميصه ملطخا بالدم فقالوا قد اكله الذئب فذهبت عيناي من بكائي
عليه ثم كان لي ابن وكان اخاه من امه وكنت اتسلى به ثم رجعوا وقالوا
انه سرق وانك حبسته وانا اهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فان رددته علي والا
دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام فلما قرأه لم يتمالك و
عيل صبره فقال لهم ما قال وقيل لما قرأه بكى وكتب الجواب اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا
قالوا ائنك لانت يوسف استفهام تقرير ولذلك اكد بان واللام قالوه استغرابا
وتعجبا وقرئ انك بالايجاب قيل عرفوه بروائه وشمائله حين كلمهم به وقيل
تبسم فعرفوه بثناياه وقيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء
وكان لسارة ويعقوب مثلها وقرئ ائنك او انت يوسف على معنى ائنك يوسف او
انت يوسف فحذف الاول لدلالة الثاني عليه وفيه زيادة استغراب قال انا يوسف
جوابا عن مسألتهم وقد زاد عليه قوله وهذا اخي اي من ابوي مبالغة في تعريف
نفسه وتفخيما لشأن اخيه وتكملة لما افاده قوله هل علمتم ما فعلتم بيوسف و
اخيه حسبما يفيده قوله قد من الله علينا فكأنه قال هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق
والاذلال فانا يوسف وهذا اخي قد من الله علينا بالخلاص عما ابتلينا به والاجتماع
بعد الفرقة والعزة بعد الذلة والانس بعد الوحشة ولا يبعد ان يكون فيه اشارة
الى الجواب عن طلبهم لرد بنيامين بانه اخي لا اخوكم فلا وجه لطلبكم ثم علل ذلك بطريق

فذهبوا به صح

فذهب بدل

الاستيناف

استيناف التعليلي انه من يتق اي يفعل التقوى في جميع احواله او يق نفسه عما
يوجب سخط الله تعالى وعذابه ويصبر على المحن او على مشقة الطاعات او عن
المعاصي التي تستلذها النفس فان الله لا يضيع اجر المحسنين اي اجرهم وانما وضع
المظهر موضع الضمير تنبيها على ان المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالاحسان
قالوا تالله لقد آثرك الله علينا اختارك وفضلك علينا بما ذكرت من النعوت
الجليلة وان كنا وان الشان كنا لخاطئين المتعمدين للذنب اذ فعلنا بك ما فعلنا
ولذلك اعزك واذلنا وفيه اشعار بالتوبة والاستغفار ولذلك قال لا تثريب
اي لا عتب ولا تأنيب عليكم وهو تفعيل من الثرب وهو الشحم الغاشي للكرش
ومعناه ازالته كما ان التجليد ازالة الجلد والتقريع ازالة القرع لانه اذا ذهب كان
ذلك غاية الهزال فضرب مثلا للتقريع الذي يذهب بماء الوجوه وقوله عز وعلا اليوم
منصوب بالتثريب او بالمقدر خبرا للا اي لا اثربكم ولا تثريب مستقر عليكم اليوم
الذي هو مظنة له فما ظنكم بسائر الايام او بقوله يغفر الله لكم لانه حينئذ
صفح عن جريمتهم وعفا عن جريرتهم بما فعلوا من التوبة وهو ارحم الراحمين
يغفر الصغائر والكبائر ويتفضل على التائب بالقبول فمن كرمه عليه السلام ان
اخوته ارسلوا اليه انك تدعونا الى طعامك بكرة وعشيا ونحن نستحيي منك بما فرط
منا فيك فقال عليه السلام ان اهل مصر وان ملكت فيهم كانوا ينظرون الي بالعين الاولى
ويقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما ما بلغ ولقد شرفت بكم الآن وعظمت
في العيون حيث علم الناس انكم اخوتي واني من حفدة ابراهيم عليه السلام اذهبوا
بقميصي هذا قيل هو الذي كان عليه حينئذ وقيل هو القميص المتوارث الذي كان في
التعويذ امره جبريل عليه السلام بارساله اليه واوحى اليه ان فيه ريح الجنة لا يقع على
مبتلى الا عوفي فالقوه على وجه ابي يأت بصيرا يكن بصيرا او يأت الي بصيرا وينصره قوله
وأتوني باهلكم اجمعين اي بابي وغيره ممن ينتظمه لفظ الاهل جميعا من النساء
والذراري قيل انما حمل القميص يهوذا وقال انا احزنته بحمل القميص ملطخا بالدم اليه
فافرحه كما احزنته وقيل حمله وهو حاف حاسر من مصر الى كنعان وبينهما مسيرة
ثمانين فرسخا ولما فصلت العير خرجت من عريش مصر يقال فصل من البلد فصولا
اذا انفصل منه وجاوز حيطانه وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما انفصل العير قال ابوهم
يعقوب عليه السلام لمن عنده اني لاجد ريح يوسف اوجده الله سبحانه ما عبق
بالقميص من ريح يوسف من ثمانين فرسخا حين اقبل به يهوذا لولا ان تفندون
اي تنسبوني الى الفند وهو الخرف وانكار العقل وفساد الرأي من هرم يقال شيخ مفند
ولا يقال عجوز مفندة اذ لم تكن في شبيبتها ذات رأي فتفند في كبرها وجواب لولا
محذوف اي لصدقتموني قالوا اي الحاضرون عنده تالله انك لفي ضلالك القديم
لفي ذهابك عن الصواب قديما في افراط محبتك ولهجك بذكره ورجائك للقائه
وكان عندهم انه قد مات فلما ان جاء البشير وهو يهوذا القاه اي القى البشير القميص
على وجهه اي وجه يعقوب او القاه يعقوب على وجه نفسه فارتد عاد بصيرا
لما انتعش فيه من القوة قال الم اقل لكم يعني قوله اني لاجد ريح يوسف فالخطاب
لمن كان عنده بكنعان او قوله ولا تيأسوا من روح الله فالخطاب لبنيه وهو الانسب
بقوله اني اعلم من الله ما لا تعلمون فان مدار النهي المذكور انما هو العلم الذي
اوتي يعقوب من جهة الله سبحانه وعلى هذا يجوز ان يكون هذا مفعول القول
الم اقل لكم حين ارسلتكم الى مصر وامرتكم بالتحسس ونهيتكم
عن اليأس من روح الله تعالى اني اعلم من الله ما لا تعلمون من حياة يوسف روي
انه سأل البشير كيف يوسف فقال هو ملك مصر فقال ما اصنع بالملك على اي دين تركته قال
على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة قالوا يا ابانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين
ومن حق من اعترف بذنبه ان يصفح عنه ويستغفر له فكأنهم كانوا ثقة من عفوه

عليه السلام ولذلك اقتصروا على استدعاء الاستغفار وادرجوا ذلك فى الاستغفار
قال سوف استغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم يعفو قيل اخر الاستغفار الى وقت
السحر وقيل الى ليلة الجمعة ليتحرى به وقت الاجابة وقيل اخره الى ان يستحل لهم من
يوسف عليه السلام او يعلم انه قد عفى عنهم فان عفو المظلوم شرط المغفرة ويعضده
انه روى عنه انه استقبل القبلة قائما يدعو وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا خلفهما
اذلة خاشعين عشرين سنة حتى بلغ جهدهم وظنوا انها الهلكة نزل جبريل عليه
السلام فقال ان الله قد اجاب دعوتك فى ولدك وعقد مواثيقهم بعدك على
النبوة فان صح ثبت نبوتهم وان ماصدر عنهم انما صدر قبل الاستنباء وقيل
المراد الاستمرار على الدعاء فقد روى انه كان يستغفر كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين
سنة وقيل قام الى الصلاة فى وقت السحر فلما فرغ رفع يديه فقال اللهم اغفر
لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عنه واغفر لولدى ما اتوا الى اخيهم فاوحى الله اليه
ان الله قد غفر لك ولهم اجمعين فلما دخلوا على يوسف روى انه وجه يوسف
الى ابيه جهازا ومائتى راحلة ليتجهز اليه بمن معه فاستقبله يوسف والملك فى اربعة
الاف من الجند والعظماء واهل مصر باجمعهم فتلقوا يعقوب عليه السلام وهو يمشى
متوكئا على يهوذا فنظر الى الخيل والناس فقال يا يهوذا اهذا فرعون مصر قال لا بل
ولدك فلما لقيه قال السلام عليك يا مذهب الاحزان وقيل قال له يوسف يا ابت بكيت
على حتى ذهب بصرك الم تعلم ان القيامة تجمعنا فقال بلى ولكنى خشيت ان
يسلب دينك فيحال بينى وبينك وقيل ان يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان
وسبعون ما بين رجل وامرأة وكانوا حين خرجوا مع موسى ستمائة الف وخمسمائة
وبضعة وسبعين رجلا سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية الف الف ومائتى
الف آوى اليه ابويه اى اباه وخالته وتنزيلها منزلة الام كتنزيل العم منزلة الاب
فى قوله عز وجل واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق او لان يعقوب عليه السلام
تزوجها بعد امه وقال الحسن وابن اسحق كانت امه فى الحيوة فلا حاجة الى التاويل
ومعنى آوى اليه ضمها اليه واعتنقهما وكانه ضرب فى الملتقى مضربا فنزل فيه فدخلوا
عليه فآواهما اليه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين من الشدائد والمكاره قاطبة
والمشية متعلقة بالدخول على الامن ورفع ابويه عند نزولهم بمصر على العرش
على السرير تكرمة لهما فوق ما فعله لاخوته وخروا له اى ابواه واخوته سجدا
تحية له فانه كان السجود عندهم جاريا مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة
وتقبيل اليد ونحوها من عادات الناس الفاشية فى التعظيم والتوقير وقيل ما كان ذلك
الا انحناء دون تعفير الجباه وياباه الخرور وقيل خروا لاجله سجدا لله شكرا ويرده
قوله تعالى وقال يا ابت هذا تاويل رؤياى التى رايتها وقصصتها عليك
من قبل فى زمن الصبا قد جعلها ربى حقا صدقا واقعا بعينه والاعتذار
بجعل يوسف بمنزلة القبلة وجعل اللام كما فى قوله اول من صلى لقبلتكم تعسف
لا يخفى وتاخيره عن الرفع على العرش ليس بنص فى ذلك لان الترتيب الذكرى لا يجب
كونه على وفق الترتيب الوقوعى فلعل تاخيره عنه ليتصل به ذكر كونه تعبيرا لرؤياه
وما يتصل به من قوله وقد احسن بى المشهور استعمال الاحسان بالى وقد يستعمل
بالباء ايضا كما فى قوله عز اسمه وبالوالدين احسانا وقيل هذا بتضمين لطف وهو الاحسان
الخفى كما يؤذن به قوله تعالى ان ربى لطيف لما يشاء وفيه فائدة لا تخفى اى لطف بى
محسنا الى غير هذا الاحسان اذ اخرجنى من السجن بعد ما ابتليت به ولم يصرح بقصة
الجب حذارا من تثريب اخوته لان الظاهر حضورهم لوقوع الكلام عقيب خرورهم
سجدا واكتفاء بما يتضمنه قوله تعالى وجاء بكم من البدو اى البادية من بعد ان
نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى اى افسد بيننا بالاغواء واصله من
نخس الرائض الدابة وحمله على الجرى يقال نزغه ونسغه اذا نخسه ولقد بالغ

عليه السلام

عليه السلام فى الاحسان حيث اسند ذلك الى الشيطان ان ربى لطيف لما يشاء اى
لطيف التدبير لاجله رفيق حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب ما من صعب الا و
هو بالنسبة الى تدبيره سهل انه هو العليم بوجوه المصالح الحكيم الذى
يفعل كل شئ على قضية الحكمة روى ان يوسف اخذ بيد يعقوب عليهما السلام فطاف
به فى خزائنه فادخله فى خزائن الورق والذهب وخزائن الحلى وخزائن الثياب
وخزائن السلاح وغير ذلك فلما ادخله خزائن القراطيس قال يا بنى ما اعقك عندك
هذه القراطيس وما كتبت الى على ثمانى مراحل قال امرنى جبريل قال وما تسأله قال
انت ابسط اليه منى فسأله قال جبريل الله تعالى امرنى بذلك لقوله لك اخاف ان يأكله الذئب
قال فهلا خفتنى وروى ان يعقوب اقام معه اربعا وعشرين سنة ثم مات واوصى
ان يدفنه بالشام الى جنب ابيه اسحق فمضى بنفسه ودفنه ثم عاد الى مصر و
عاش بعد ابيه ثلثا وعشرين سنة فلما تم امره وعلم انه لا يدوم له تاقت نفسه
الى الملك الدائم الخالد فتمنى الموت فقال رب قد آتيتنى من الملك اى بعضا منه
عظيما وهو ملك مصر وعلمتنى من تاويل الاحاديث اى بعضا من ذلك
كذلك ان اريد بتعليم تاويل الاحاديث تفهيم غوامض اسرار الكتب الالهية ودقائق
سنن الانبياء عليهم السلام فالترتيب ظاهر واما ان اريد به تعليم الرؤيا كما
هو الظاهر فلعل تقديم ايتاء الملك عليه فى الذكر لانه بصدد تعداد النعم الفائضة
عليه من الله سبحانه والملك اعرف فى كونه نعمة من التعليم المذكور وان كان ذلك
ايضا نعمة جليلة فى نفسه ولا يمكن عشية هذا الاعتذار فيما سبق لان التعليم
هنالك وارد على نهج العلة الغائية للتمكين فان حمل على معنى التمليك لزم تاخره
عنه واما الواقع ههنا فمجرد التاخير فى الذكر والعطف بحرف الواو لا يستدعى
ذلك الترتيب فى الوجود فاطر السموات والارض مبدعهما وخالقهما نصب
على انه صفة للمنادى او منادى آخر وصفه تعالى بعد وصفه بالربوبية مبالغة فى
ترتيب مبادى ما يعقبه من قوله انت وليى مالك امورى فى الدنيا والآخرة
او الذى يتولانى بالنعمة فيهما واذ قد اتممت على نعمة الدنيا توفنى اقبضنى
مسلما والحقنى بالصالحين من آبائى او بعامة الصالحين فى الرتبة والكرامة فانما
تتم النعمة بذلك قيل لما دعا توفاه الله عز وجل طيبا طاهرا فتخاصم اهله فى دفنه
وتشاحوا فى ذلك حتى هموا بالقتال فراوا ان يصنعوا له تابوتا من زمرد فجعلوه فيه
ودفنوه فى النيل ليمر عليه ثم يصل الى مصر ليكونوا شرعا واحدا فى التبرك به وولد
له افرائيم وميشا ولافرائيم نون وليون يوشع فتى موسى عليه السلام ولقد
توارثت الفراعنة من العمالقة بعده مصر ولم يزل بنوا اسرائيل تحت ايديهم على بقايا
دين يوسف وآبائه الى ان بعث الله تعالى موسى عليه السلام ذلك اشارة الى ما
سبق من نبأ يوسف وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا من الدلالة على بعد
منزلته او كونه بالانقضاء فى حكم البعيد والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وهو
مبتدأ خبره من انباء الغيب الذى لا يحوم حوله احد وقوله نوحيه اليك
خبر بعد خبر او حال من الضمير فى الخبر ويجوز ان يكون ذلك اسما موصولا ومن انباء الغيب
صلته ويكون الخبر نوحيه اليك وما كنت لديهم يريد اخوة يوسف اذ اجمعوا
امرهم وهو جعلهم اياه فى غيابة الجب وهم يمكرون به ويبغون له
الغوائل حتى تقف على ظواهر اسرارهم وبواطنها وتطلع على سرائرهم طرا و
تحيط بما لديهم خبرا وليس المراد مجرد نفى حضوره عليه السلام فى مشهد
اجماعهم ومكرهم فقط بل فى ساير المشاهد ايضا وانما تخصيصه بالذكر
لكونه مطلع القصة واخفى احوالها كما ينبئ عنه قوله وهم يمكرون والخطاب
وان كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم لكن المراد الزام المكذبين والمعنى ذلك
من انباء الغيب نوحيه اليك اذ لا سبيل الى معرفتك اياه سوى ذلك اذ عدم سماعك

ذلك من الغير وعدم مطالعتك للكتب امر لا يشك فيه المكذبون ايضا ولم تكن بين ظهرانيهم عند وقوع الامر حتى تعرفه كما هو فتبلغه اليهم وفيه تهكم بالكفار فكانهم يشكون فى ذلك فيدفع شكهم وفيه ايضا ايذان بان ما ذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع وما ينقله اهل الكتاب ليس على ما هو عليه يعنى ان مثل هذا التحقيق بلا وحى لا يتصور الا بالحضور والمشاهدة واذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحى ومثله قوله تعالى وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم وقوله وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الامر وما اكثر الناس يريد به العموم او اهل مكة ولو حرصت اى على ايمانهم وبالغت فى اظهار الايات القاطعة الدالة على صدقك بمؤمنين لتصميمهم على الكفر واصرارهم على العناد روى ان اليهود وقريشا لما سألوا عن قصة يوسف وعدوا ان يسلموا فلما اخبرهم بها على موافقة التوراة فلم يسلموا حزن النبى صلى الله عليه وسلم فقيل له ذلك وما تسئلهم عليه اى على الانباء او على القران من اجر من جعل كما يفعل حملة الاخبار ان هو الا ذكر عظة من الله تعالى للعالمين كافة لا ان ذلك مختص بهم وكاين من اية اى كاى عدد شئت من الايات والعلامات الدالة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته وحكمته غير هذه الاية التى جئت بها فى السموات والارض اى كاينة فيهما من الاجرام الفلكية وما فيهما من النجوم وتغير احوالها ومن الجبال والبحار وساير ما فى الارض من العجايب الفايتة للحصر يمرون عليها اى يشاهدونها ولا يعبأون بها وقرئ برفع الارض على الابتداء ويمرون خبره وقرئ بنصبها على معنى ويطؤن الارض يمرون عليها وفى مصحف عبد الله والارض يمشون عليها والمراد ما يرون فيهما من اثار الامم الهالكة وغير ذلك من الايات والعبر وهم عنها معرضون غير ناظرين اليها ولا متفكرين فيها وما يؤمن اكثرهم بالله فى اقرارهم بوجوده وخالقيته الا وهم مشركون بعبادتهم لغيره او باتخاذهم الاحبار والرهبان اربابا او بقولهم باتخاذه تعالى ولدا سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا او بالنور والظلمة وهى جملة حالية اى لا يؤمن اكثرهم الا فى حال شركهم قيل نزلت الاية فى اهل مكة وقيل فى المنافقين وقيل فى اهل الكتاب افامنوا ان تأتيهم غاشية من عذاب الله اى عقوبة تغشاهم وتشملهم او تأتيهم الساعة بغتة فجأة من غير سابقة علامة وهم لا يشعرون باتيانها غير مستعدين لها قل هذه سبيلى وهى الدعوة الى التوحيد والايمان بالاخلاص وفسرها بقوله ادعوا الى الله على بصيرة بيان وحجة واضحة غير عمياء وهى حال من الضمير فى سبيلى والعامل فيها معنى الاشارة انا تاكيد للمستكن فى ادعوا وعلى بصيرة لانه حال منه او مبتدأ خبره على بصيرة ومن اتبعنى عطف عليه وسبحان الله وما انا من المشركين مؤكد لما سبق من الدعوة الى الله وما ارسلنا من قبلك الا رجالا رد لقولهم لو شاء الله لانزل ملئكة نوحى اليهم كما اوحينا اليك وقرئ بالياء من اهل القرى لانهم اعلم واحكم واهل البوادى فيهم الجهل والجفاء والقسوة افلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم من المكذبين بالرسل والايات فيحذروا تكذيبك ولدار الاخرة خير اى الساعة او الحيوة الاخرة خير للذين اتقوا الشرك والمعاصى افلا تعقلون فتستعملوا عقولكم لتعرفوا خيريتها دار الاخرة وقرئ بالياء على انه داخل تحت قل حتى اذا استيأس الرسل غاية لمحذوف دل عليه السياق اى لا يغرنهم تماديهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء فان من قبلهم قد امهلوا حتى ايس الرسل عن النصر عليهم فى الدنيا او من ايمانهم لانهماكهم فى الكفر وتماديهم فى الطغيان من غير وازع وظنوا انهم قد كذبوا اى كذبتهم انفسهم حين حدثتهم بانهم ينصرون عليهم او كذبهم رجاؤهم فانه يوصف بالصدق والكذب والمعنى ان مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله تعالى قد تطاولت

قد كذبوا

وغالت

وتمادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا ان لا نصر لهم فى الدنيا جاءهم نصرنا فجاءة وعن ابن عباس رضى الله عنهما وظنوا انهم قد اخلفوا ما وعدهم الله من النصر فان صح ذلك فلعله اراد بالظن ما يخطر بالبال من شبه الوسوسة وحديث النفس وانما عبر عنه بالظن لتهويل الخطب واما الظن الذى هو ترجيح احد الجانبين على الاخر فلا يتصور ذلك من احاد الامة فما ظنك بالائمة عليهم السلام وهم هم ومنزلتهم فى معرفة شئون الله سبحانه منزلتهم وقيل الضمير ان للمرسل اليهم وقيل الاول لهم والثانى للرسل وقرئ بالتشديد اى ظن الرسل ان القوم كذبوهم فى وعدهم وقرئ بالتخفيف على بناء الفاعل على ان الضميرين للرسل اى ظنوا انهم كذبوا عند قومهم فيما حدثوا به لما تراخى عنهم ولم يروا له اثرا وعلى ان الاول لقولهم فنجى من نشاء هم الرسل والمؤمنون بهم وقرئ فننجى على لفظ المستقبل بالتخفيف والتشديد وفنجا ولا يرد باسنا عن القوم المجرمين اذا نزل بهم وفيه بيان لمن تعلق بهم المشيئة لقد كان فى قصصهم اى قصص الانبياء واممهم وينصره قراءة من قرأ بكسر القاف او قصص يوسف واخوته عبرة لاولى الالباب لذوى العقول المبرأة عن شوايب احكام الحس ما كان اى القران المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة حديثا يفترى ولكن كان تصديق الذى بين يديه من الكتب السماوية وقرئ بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف اى ولكن هو تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ مما يحتاج اليه فى الدين اذ ما من امر دينى الا وهو يستند الى القران بالذات او بوسط وهدى من الضلالة ورحمة ينال بها خير الدارين لقوم يؤمنون اى يصدقونه لانهم المنتفعون به واما من عداهم فلا يهتدون بهداه ولا ينتفعون بجدواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم علموا ارقاءكم سورة يوسف فانه ايما مسلم تلاها وعلمها اهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت واعطاه القوة ان لا يحسد مسلما

سورة الرعد مدنية وقيل مكية الا قوله ويقول الذين كفروا الاية وآيها خمس واربعون اية

بسم الله الرحمن الرحيم المر اسم للسورة ومحله اما الرفع على خبر لمبتداء محذوف اى هذه السورة مسماة بهذا الاسم وهو اظهر من الرفع على الابتداء اذ لم يسبق العلم بالتسمية كما مر مرارا وقوله تعالى تلك على الوجه الاول مبتدأ مستقل وعلى الوجه الثانى مبتدأ ثان او بدل من الاول اشير به اليه ايذانا بفخامته واما النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اقرأ واذكر مبتدأ كما اذا جعل المر مسرودا على نمط التعديد او بمعنى انا الله اعلم وارى على روى عن ابن عباس رضى الله عنهما والخبر على التقادير قوله تعالى ايات الكتاب اى الكتاب العجيب الكامل الغنى عن الوصف به المعروف بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به فهو عبارة عن جميع القران او عن الجميع المنزل حينئذ حسبما مر فى مطلع سورة يونس من انه هو المتبادر عن مطلق الكتاب المستغنى عن النعت وبه يظهر ما اريد من وصف الايات بوصف ما اضيفت اليه من نعوت الكمال بخلاف ما اذا جعل عبارة عن السورة فانها ليست بتلك المثابة من الشهرة فى الاتصاف بذلك المغنية عن التصريح بالوصف على انها عبارة عن جميع اياتها فلا بد من جعل تلك اشارة الى كل واحدة منها وفيه ما لا يخفى من التعسف الذى مر تفصيله فى سورة يونس والذى انزل اليك من ربك اى الكتاب المذكور بكماله لا هذه السورة وحدها الحق الثابت المطابق للواقع فى كل ما نطق به والحقيق بان يخص به الحقية لعراقته فيها وليس فيه ما يدل على ان ما عداه ليس بحق اصلا على ان حقيته مستتبعة لحقية ساير الكتب السماوية لكونه مصدقا لما بين يديه ومهيمنا عليه وفى التعبير عنه بالموصول واسناد الانزال اليه بصيغة المبنى للمفعول

والتعرّض لوصف الربوبية مضافاً الى ضميره عليه السلام من الدلالة على فخامة المنزل التابعة لجلالة
شأن المنزل وتشريف المنزل اليه والايماء الى وجه بناء الخبر ما لا يخفى ولكن اكثر الناس
لا يؤمنون بذلك الحق المبين لاخلالهم بالنظر والتأمل فيه فعدم ايمانهم متعلق
بعنوان حقيقته لانه المرجع للتصديق والتكذيب لا بعنوان كونه منزلا كما قيل ولانه
وارد على طريقة الوصف دون الاخبار الله الذي رفع السموات اى خلقهن
مرتفعات على طريقة قولهم سبحان من كبّر الفيل وصغّر البعوض لا انه رفعها بعد ان
لم تكن كذلك والجملة مبتداء وخبر كقوله تعالى وهو الذي مدّ الارض بغير عمد اى بغير
دعائم جمع عماد كاهاب واهب وهو ما يعمد به ان يسند يقال عمدت الحائط اى
ادعمته وقرئ عُمُد على انه جمع عمود بمعنى عماد كرسل ورسول وايراد صيغة الجمع
لجمع السموات لا لان المنفي عن كل واحدة منها عمد لا عماد ترونها استيناف استشهد
به على ما ذكر من رفع السموات بغير عمد وقيل صفة لعمد جئ بها ايهاماً لان لها عمداً
غير مرئية هي قدرة الله سبحانه ثم استوى اى استولى على العرش بالحفظ والتدبير
او استوى امره وعن اصحابنا ان الاستواء على العرش صفة لله عزّ وجلّ بلا كيف وايّاما
كان فليس المراد به القصد الى ايجاد العرش وخلقه فلا حاجة الى جعل كلمة ثم للتراخي
في الرتبة وسخّر الشمس والقمر ذللهما وجعلهما طائعين لما اريد منهما من الحركات
وغيرها كلٌّ من الشمس والقمر يجري حسبما اريد منهما لاجل مسمّى لمدة معيّنة فيها تتمّ
دورته كالسنة للشمس والشهر للقمر فانّ كلا منهما يجري كل يوم على مدار معيّن من المدارات
اليومية او لمدة ينتهي فيها حركاتهما ويخرج جميع ما اريد منها من القوة الى الفعل او
لغاية يتمّ عندها ذلك والجملة بيان لحكم تسخيرهما يدبّر بما صنع من الرفع والاستواء
والتسخير اى يقضي ويقدّر حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة الامر امر الخلوق كله وامر ملكوته
وربوبيته يفصّل الآيات الدالة على كمال قدرته وبالغ حكمته اى يأتي بها مفصّلة وهي
ما ذكر من الافعال العجيبة وما يتلوها من الاوضاع الفلكية الحادثة شيئاً فشيئاً المستتبعة
للآثار الغريبة في السفليات على موجب التدبير والتقدير فالجملتان اما حالان من
ضمير استوى وقوله وسخّر الشمس والقمر من تتمة الاستواء واما مفسّرتان له والاولى حال
منه والثانية من الضمير فيها او كلاهما من ضماير الافعال المذكورة وقوله كلّ يجري
لاجل مسمّى من تتمة التسخير او خبر انّ من قوله الله خبرا بعد خبر والموصول صفة للمبتداء
جئ به للدلالة على تحقيق الخبر وتعظيم شأنه كما في قول الفرزدق انّ الذي سمك السماء
بنى لنا بيتاً دعائمه اعزّ واطول لعلكم عندما ينتكم لها وعثوركم على تفاصيلها
بلقاء ربكم بملاقاته للجزاء توقنون فانّ من تدبّرها حق التدبّر ايقن ان من
قدر على ابداع هذه الصنايع البديعة على كل شئ قدير وانّ لهذه التدبيرات المتينة
عواقب وغايات لا بدّ من وصولها بيّنت على السنة الانبياء عليهم السلام انّ
ذلك ابتلاء المكلفين ثم جزاؤهم حسب اعمالهم فاذن لا بدّ من الايقان بالجزاء ولما
قرّر الشواهد العلوية اردفها بذكر الدلائل السفلية فقال وهو الذي مدّ الارض اى بسطها
طولا وعرضاً قال الاصم المدّ هو البسط الى ما لا يدرك منتهاه ففيه دلالة على بعد
مداها وسعة اقطارها وجعل فيها رواسي اى جبالا ثوابت في احيازها من
الرسو وهو ثبات الاجسام الثقيلة ولم يذكر الموصوف لاغناء غلبة الوصف بها عن
ذلك واختصار مجئ فواعل جمعاً لفاعل في فوارس وهوالك ونواكس انما هو
في صفات العقلاء واما في غيرهم فلا يراعى ذلك اصلا كما في قوله تعالى اياماً معدودات
وقوله الحج اشهر معلومات الى غير ذلك فلا حاجة الى ان يجعل مفردها صفة لجمع
القلة اعني اجبلا ويعتبر في جمع الكثرة اعني جبالا انتظامها لطائفة من جمع القلة
وتنزيل كلّ منهما منزلة مفردها كما قيل على انه لا مجال لذلك فانّ جمعية كلّ من صيغتي
الجمعين انما هي باعتبار الافراد التي تحتهما لا باعتبار انتظام جمع القلة للافراد
وجمع الكثرة لجموع القلة فكلّ منهما جبل لا انّ جبالا جمع اجبل كما انّ طوائف جمع طائفة

ولا الى

ولا الى ان يلتجاء الى جعل الوصف المذكور بالغلبة في عداد الاسماء التي تجمع على فواعل كما
ظنّ على انه لا وجه له لما انّ الغلبة انما هي في الجمع دون المفرد والتعبير عن الجبال بهذا
العنوان لبيان تفريع قرار الارض على ثباتها وانهاراً مجاري واسعة والمراد ما يجري
فيها من المياه وفي نظمها مع الجبال في معمولية فعل واحد اشارة الى انّ الجبال منشاء
للانهار وبيان لفائدة اخرى للجبال غير كونها حافظة للارض عن الاضطراب المخلّ
بثبات الاقدام وتقلّب الحيوان متفرّعة على تمكّنه وتقلّبه وهي تعيّشه بالماء والكلاء
ومن كلّ الثمرات متعلّق بجعل في قوله تعالى جعل فيها زوجين اثنين اى اثنينية
حقيقية وهما الفردان اللذان كلّ منهما زوج الآخر واكّد به الزوجين لئلا يفهم انّ
المراد بذلك الشفعان اذ يطلق الزوج على المجموع ولكن اثنينية اعتبارية اي
جعل من كلّ نوع من انواع الثمرات الموجودة في الدنيا ضربين وصنفين اما في
اللون كالابيض والاسود او في الطعم كالحلو والحامض او في القدر كالصغير والكبير
او في الكيفية كالحار والبارد وما اشبه ذلك ويجوز ان يتعلّق بجعل الاول ويكون الثاني
استينافاً لبيان كيفية ذلك الجعل يغشي الليل النهار استعارة تبعية تمثيلية مبنية
على تشبيه ازالة نور الحق بالظلمة بتغطية الاشياء الظاهرة بالاغطية اى يستر النهار
بالليل والتركيب وان احتمل العكس ايضاً بالحمل على تقديم المفعول الثاني على الاول
فانّ ضوء النهار ايضاً ساتر لظلمة الليل الا انّ الانسب بالليل ان يكون هو الغاشي
وعدّ هذا في تضاعيف الآيات السفلية وان كان تعلّقه بالآيات العلوية ظاهراً
باعتبار انّ ظهوره في الارض فانّ الليل انما هو ظلّها وفيما فوق موضع ظلّها لا ليل
اصلا ولانّ الليل والنهار لهما تعلّق بالثمرات من حيث العقد والانضاج على انهما ايضاً
زوجان متقابلان مثلهما وقرئ يغشّي من التغشية انّ في ذلك اي فيما ذكر من مدّ
الارض وايتادها بالرواسي واجراء الانهار وخلق الثمرات واغشاء الليل النهار وفي
الاشارة بذلك بتنبيه على عظم شأن المشار اليه في بابه لآيات باهرة وهي آثار تلك
الافاعيل البديعة جلّت حكمة صانعها ففي على معناها فانّ تلك الآثار مستقرّة في تلك
الافاعيل منوطة بها ويجوز ان يشار بذلك الى تلك الآثار المدلول عليها بتلك الافاعيل
ففي تجريدية لقوم يتفكرون فانّ التفكّر فيها يؤدّي الى الحكم بان تكوين كلّ من ذلك
على هذا النمط الرائق والاسلوب اللائق لا بدّ له من مكوّن قادر حكيم يفعل ما يشاء
ويختار ما يريد لا معقّب لحكمه وهو حميد المجيد وفي الارض قطع جملة مستأنفة
مشتملة على طائفة اخرى من الآيات اى بقاع كثيرة مختلفة في الاوصاف فمن طيّبة الى
سبخة وكريمة الى زهيدة وصلبة الى رخوة الى غير ذلك متجاورات اى متلاصقات
وفي بعض المصاحف قطعاً متجاورات اى جعل في الارض قطعاً وجنات من
اعناب اى بساتين كثيرة منها وزرع من كلّ نوع من انواع الحبوب وافراده
لمراعاة اصله ولعلّ تقديم ذكر الجنات عليه مع كونه عمود المعاش لظهور حالها
في اختلافها ومباينتها لسايرها ورسوخ ذلك فيها وتأخير قوله تعالى ونخيل
لئلا يقع بينها وبين صفتها وهي قوله تعالى صنوان وغير صنوان فاصلة فالصنوان
جمع صنو كقنوان وقنو وهي النخلة التي لها رأسان واصلها واحد وقرئ بضمّ الصاد
على لغة بني تميم وقيس وقرئ جنات بالنصب عطفاً على زوجين وبالجرّ على كلّ الثمرات
فلعلّ عدم نظم قوله تعالى وفي الارض قطع متجاورات في هذا السلك مع انّ اختصاص
كلّ من تلك القطع بما لها من الاحوال والصفات بمحض جعل الخالق الحكيم جلّت قدرته
حين مدّ الارض ودحاها للايماء الى كون تلك الاحوال صفات راسخة لتلك القطع
وقرئ وزرع ونخيل بالجرّ عطفاً على اعناب او جنات يسقى اى ما ذكر من القطع
والجنات والزرع والنخيل وقرئ بالتاء مراعاة للفظ الاول اوفق بما مرّ
بيان اتحاد الكلّ في حالة السقي بماء واحد لا اختلاف في طبعه سواء كان السقي
بماء الامطار او بماء الانهار ونفضّل مع تأخذ اسباب التشابه بمحض قدرتنا واختيارنا

بعضها على بعض آخر منها في الاكل فيما يحصل منها من الثمرات والطعم وقرئ بالياء على
بناء الفاعل ردًّا على تدبّر ويفصّل ويغشى وعلى بناء المفعول وفيه ما لا يخفى من الفخامة
والدلالة على انّ عدم احتمال اسناد الفعل الى فاعل آخر مغنٍ عن بناء الفعل على الفاعل
انّ في ذلك الذي فصّل من احوال القطع والجنات لآيات كثيرة عظيمة ظاهرة لقوم
يعقلون يعملون على قضية عقولهم فانّ من عقل هذه الاحوال العجيبة لا يتلعثم
في الجزم بانّ من قدر على ابداع هذه البدايع وخلق تلك الثمار المختلفة في الاشكال
والالوان والطعوم والروايح في تلك القطع المتباينة المتجاورة وجعلها
حدائق ذات بهجة قادر على اعادة ما ابداه بل هي اهون في القياس وهذه الاحوال
وان كانت هي الآيات انفسها لا انها فيها الا انه قد جردت عنها امثالها مبالغة في كونها
آية ففي تجريدية مثلها في قوله تعالى لهم فيها دار الخلد او المشار اليه الاحوال الكلية
والآيات افرادها الحادثة شيئا فشيئا في الازمنة وآحادها الواقعة في الاقطار والامكنة
المشاهدة لاهلها ففي على معناها وحيث كانت دلالة هذه الاحوال على مدلولاتها اظهر
مما سبق علّق كونها آيات بمحض التعقل ولذلك لم يتعرض لغير تفضيل بعضها على بعض
في الاكل الظاهر لكل عاقل مع تحقق ذلك في الخواص والكيفيات مما يتوقف العثور
عليه على نوع تأمل وتفكر كانه لا حاجة في ذلك الى التفكر ايضا وفيه تعريض بان المشركين
عاقلين وان تعجب يا محمد من شئ فعجب لا عجب منه حقيق بان يقصر عليه التعجب
قولهم بعد مشاهدة ما عدّ ذلك من الآيات الشاهدة بانه تعالى على كل شئ قدير
ائذا كنا ترابا على طريقة الاستفهام الانكاري المفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار
وهو في محل الرفع على البدلية من قولهم على انه بمعنى المقول او في محل النصب على
المفعولية منه على انه مصدر فالعجب على الاول كلامهم وعلى الثاني تكلمهم بذلك
والعامل في اذا ما دلّ عليه قوله تعالى ائنا لفي خلق جديد وهو نبعث او نعاد و
تقديم الظرف لتقوية الانكار بالبعث بتوجيهه اليه في حالة منافية له وتكرير الهمزة
في قولهم ائنا لتأكيد الانكار وليس مدار انكارهم كونهم ثابتين في الخلق الجديد
بالفعل عند كونهم بعرضيّة ذلك واستعدادهم له وفيه من الدلالة على عتوّهم
وتماديهم في النكير ما لا يخفى وقيل وان تعجب من قولهم في انكار البعث فعجب قولهم
والمآل وان تعجب فقد تعجبت في موضع التعجب وقيل وان تعجب من انكارهم البعث فعجب
قولهم الدال عليه فتأمل وقد جوّز كون الخطاب لكل من يصلح له اى ان تعجب يا من ينظر
في هذه الآيات من قدرة من هذه افعاله فازدد تعجبا ممن ينكر مع هذه الدلائل
قدرته تعالى على البعث وهو اهون من هذه والانسب بقوله تعالى ويستعجلونك بالسيئة
هو الاول وقوله فعجب خبر قدّم على المبتدأ للقصر والتسجيل من اول الامر بكون قولهم
ذاك امرا عجبا ويجوز ان يكون مبتدأ لكونه موصوفا بالوصف المقدر كما اشير اليه فالمعنى
وان تعجب فالعجب الذى لا عجب وراءه قولهم هذا فاعجب منه وعلى الاول وان تعجب
فقولهم هذا عجب لا عجب فوقه اولئك مبتدأ والموصول خبره اى اولئك المنكرون
لقدرته تعالى على البعث ربما عاينوا ما فصّل من الآيات الباهرة المحلية لهم الى الايمان
به لو كانوا يبصرون الذين كفروا بربهم وتمادوا في ذلك فانّ انكارهم لقدرته
عزّ وجلّ كفر به واىّ كفر واولئك مبتدأ خبره قوله تعالى الاغلال في اعناقهم
اى مقيدون بقيود الضلال لا يرجى خلاصهم او مغلولون يوم القيمة واولئك
الموصوفون بما ذكر من الصفات اصحاب النار هم فيها خالدون لا ينفكون عنها
وتوسيط ضمير الفصل ليس لتخصيص الخلود بمنكري البعث خاصة بل بالجميع المدلول
عليه بقوله تعالى اولئك الذين كفروا بربهم ويستعجلونك بالسيئة بالعقوبة التي
انذرتها وذلك حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يأتيهم بالعذاب استهزاء
منهم بانذاره قبل الحسنة اى العافية والاحسان اليهم بالامهال وقد خلت
من قبلهم المثلات اى عقوبات امثالهم من المكذبين فما لهم لا يعتبرون بها و

لا يحترزون حلول مثلها بهم والجملة حالية لبيان ركاكة رأيهم في الاستعجال بطريق
الاستهزاء اى يستعجلون بها مستهزئين بانذارك منكرين لوقوع ما انذرتهم
اياه والحال انه قد مضت العقوبات النازلة على امثالهم من المكذبين والمثلة بوزن
السمرة العقوبة سميت بها لما بينها وبين المعاقب عليه من المماثلة ومنه المثال للقصاص
وقرئ المثلات بضمتين باتباع الفاء العين والمثلات بفتح الميم وسكون الثاء كما يقال
السمرة والمثلات بضم الميم وسكون الثاء تخفيف المثلات والمثلات جمع مثلة كركبة و
ركبات وانّ ربك لذو مغفرة عظيمة للناس على ظلمهم انفسهم بالذنوب
والمعاصي ومحلها النصب على الحالية اى ظالمين والعامل فيه المغفرة والمعنى انّ
ربك لغفور للناس لا يعجّل لهم العقوبة وان كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها
وانّ ربك لشديد العقاب يعاقب من يشاء منهم حين يشاء فتأخير ما استعجلوه ليس
للاهمال وعنه عليه الصلوة والسلام لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لاحد العيش ولولا
وعيده وعقابه لاتكل كل احد ويقول الذين كفروا وهم المستعجلون ايضا وانما عدل
عن الاضمار الى الموصول ذمّا لهم وتعجيبا عليهم كفرهم بآيات الله تعالى التى تخرّ لها صم
الجبال حيث لم يرفعوا لها رأسا ولم يعدّوها من جنس الآيات وقالوا لولا انزل عليه آية
من ربه مثل آيات موسى وعيسى عليهما السلام عنادا ومكابرة والا ففي ادنى آية
انزلت عليه عليه الصلاة والسلام غنية وعبرة لاولي الالباب انما انت منذر
مرسل للانذار من سوء عاقبة ما يأتون ويذرون كدأب من قبلك من الرسل
وليس عليك الا الاتيان بما يعلم به نبوّتك وقد حصل ذلك بما لا مزيد عليه ولا حاجة
الى الزامهم والقامهم الحجر بالاتيان بما اقترحوا من الآيات ولكل قوم هاد معيّن
لا بالذات بل بعنوان الهداية يعني لكل قوم نبيّ مخصوص له هداية مخصوصة
يقتضي اختصاص كل منهم بما يختص به حكم لا يعلمها الا الله تعالى او لكل قوم هاد عظيم
الشان قادر على ذلك هو الله سبحانه وما عليك الا انذارهم فلا يهمّنك عنادهم
وانكارهم للآيات المنزلة عليك واذ دأبهم بها ثم عقبه بما يدل على كمال علمه و
قدرته وشمول قضائه وقدره المبنيين على الحكم والمصالح تنبيها على انّ تخصيص كل قوم
بنبيّ وكل نبيّ بجنس معيّن من الآيات انما هو للحكم الداعية الى ذلك اظهارا لكمال
قدرته على هدايتهم لكن لا يهدي الا من تعلّق بهدايته مشيته التابعة لحكم استأثر
بعلمها فقال الله يعلم ما تحمل كل انثى اى تحمله فما موصولة اريد بها ما في بطنها
من حين العلوق الى زمن الولادة لا بعد تكامل الخلق فقط والعلم متعدّ الى واحد
او اى شئ تحمل وعلى اىّ حال هو من الاحوال المتواردة عليه طورا فطورا فهي استفهامية
معلّقة للعلم او حملها فهي مصدرية وما تغيض الارحام وما تزداد اى
تنقصه وتزداده في الجثة كالخديج والتامّ وفي المدّة كالمولود في اقلّ مدّة الحمل و
المولود في اكثرها وفيما بينهما قيل انّ الضحاك ولد في سنتين وهرم بن حيان في اربع
ومن ذلك سمّي هرما وفي العدد كالواحد فما فوقه يروى انّ شريكا كان رابع اربعة
او يعلم نقصها وازديادها لما فيها فالفعلان متعدّيان كما في قوله تعالى وغيض الماء
وقوله وازدادوا تسعا وقوله ونزداد كيل بعير او لازمان قد اسند الى الارحام
مجازا وهما لما فيها وكل شئ من الاشياء عنده بمقدار بقدر لا يكاد يجاوزه
عنه كقوله تعالى انا كل شئ خلقناه بقدر فانّ كل حادث من الاعيان والاعراض
له في كل مرتبة من مراتب التكوين ومباديها وقت معيّن وحال مخصوص لا يكاد
يجاوزه والمراد بالعندية الحضور العلمي بل العلم الحضوري فان تحقق الاشياء
في انفسها في اىّ مرتبة كانت من مراتب الوجود والاستعداد لذلك علم له بالنسبة
الى الله عزّ وجلّ عالم الغيب اى الغائب عن الحس والشهادة اى الحاضر له
عبّر عنهما بهما مبالغة وقيل اريد بالغيب المعدوم وبالشهادة الموجود وهو خبر
مبتدأ محذوف او خبر بعد خبر وقرئ بالنصب على المدح وهذا كالدليل على ما قبله من

قوله الله يعلم الى الكبير العظيم الشان الذي كل شيء دونه المتعال المستعلي على كل
شيء بقدرته او المنزه عن نعوت المخلوقات وبعد ما بين سبحانه انه عالم بجميع احوال
الانسان في مراتب فطرته ومحيط بعالمي الغيب والشهادة بين انه تعالى بجميع ما ياتون
وما يذرون من الافعال والاقوال وانه لا فرق بالنسبة اليه بين السر والعلن فقال
سواء منكم من اسر القول في نفسه ومن جهر به اظهره لغيره ومن هو مستخف مبالغ
في الاختفاء كانه مختف بالليل وطالب للزيادة وسارب بارز يراه كل احد بالنهار
من سرب سروبا اي برز وهو عطف على من هو مستخف او على مستخف ومن عبارة
عن الاثنين كما في قوله تعالى فان عاهدتني لا تخونني نكن مثل من يا ذيب يصطحبان كانه
قيل سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار والاستواء وان اسند الى من
اسر ومن جهر والى المستخفي والسارب لكنه في الحقيقة مسند الى ما من اسره وما جهر به
او الى الفاعل من حيث هو فاعل كما في الاخيرين وتقديم الاسرار والاستخفاء لاظهار
كمال علمه تعالى فكانه في التعلق بالخفيات اقدم منه بالظواهر والا فنسبته الى الكل سواء
لما عرفته انفا له اي لكل ممن اسر او جهر والمستخفي والسارب معقبات ملائكة
تعتقب في حفظه جمع معقبة من عقبه مبالغة عقبه اذا جاء على عقبه كان بعضهم
يعقب بعضا او لانهم يعقبون اقواله وافعاله فيكتبونه او اعتقب فادغمت التاء في
القاف والتاء للمبالغة او المراد بالمعقبات الجماعات وقرئ معاقيب جمع معقب او
معقبة على تعويض الياء من احدى القافين من بين يديه ومن خلفه من جميع جوانبه
او من الاعمال ما قدم واخر يحفظونه من امر الله من باسه حين اذنب بالاستمهال
والاستغفار له او يحفظونه من المضار او يراقبون احواله من اجل امر الله تعالى وقد
قرئ به وقيل من بمعنى الباء وقيل من امر الله تعالى صفة ثانية لمعقبات وقيل المعقبات
الحراس والجلاوزة حول السلطان يحفظونه في توهمه من قضاء الله تعالى ان الله
لا يغير ما بقوم من النعمة والعافية حتى يغيروا ما بانفسهم من الاعمال الصالحة او
او ملكاتها التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها الى اضدادها واذا اراد الله بقوم
سوءا لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك فلا مرد له فلا رد له والعامل في اذا
ما دل عليه الجواب وما لهم من دونه من وال يلي امرهم ويدفع عنهم السوء الذي
اراده الله بهم بما قدمت ايديهم من تغيير ما بهم وفيه دلالة على ان تخلف مراده تعالى
محال وايذان بانهم بما باشروه من انكار البعث واستعجال السيئة واقتراح الاية قد غيروا
ما بانفسهم من الفطرة واستحقوا لذلك حلول غضب الله تعالى وعذابه هو الذي
يريكم البرق خوفا من الصاعقة وطمعا في المطر ووجه تقديم الخوف على الطمع
ظاهر لما ان المخوف عليه النفس والرزق العتيد والمطموع فيه الرزق المترقب وقيل
الخوف ايضا من المطر لكن الخائف منه غير الطامع فيه كالخزاف والحراث ويأباه الترتيب
اللهم الا ان يتكلف ما اشير اليه من ان المخوف عتيد والمطموع فيه مترقب وانتصابهما
اما على المصدرية اي فتخافون خوفا فتطمعون طمعا وعلى الحالية من البرق او المخاطبين
باضمار ذوي او بجعل المصدر بمعنى المفعول والفاعل مبالغة او على العلية بتقدير
المضاف اي ارادة خوف وطمع او بتاويل الاخافة والاطماع ليتحد فاعل العلة
والفعل المعلل واما جعل المعلل هي الرؤية التي يتضمنها الاراءة على طريقة قول النابغة
وحلت بيوتي في يفاع ممنع تخال به راعي الحمولة طائرا حذارا على ان لا تنال معادتي
ولا نسوتي حتى يمتن حرائرا اي احللت بيوتي حذارا فلا سبيل اليه لان ما وقع
في معرض العلة الغائية لا سيما الخوف لا يصلح علة لرؤيتهم وينشئ السحاب الغمام
المنسحب في الجو الثقال بالماء وهي جمع ثقيلة وصف بها السحاب لكونها اسم
جنس في معنى الجمع والواحدة سحابة يقال سحابة ثقيلة وسحاب ثقال كما يقال
امراة كريمة ونسوة كرام ويسبح الرعد اي سامعوه من العباد الراجين للمطر
ملتبسين بحمده اي يضجون بسبحان الله والحمد لله واسناده الى الرعد لحمله لهم على ذلك او يسبح الرعد

نفسه

نفسه على ان تسبيحه عبارة عن دلالته على وحدانيته تعالى وفضله المستوجب لحمده و
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يقول سبحان من يسبح الرعد بحمده واذا اشتد
يقول اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك وعن علي كرم
الله تعالى وجهه سبحان من سبحت له وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان اليهود
سالت النبي صلى الله عليه وسلم عن الرعد فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه
مخاريق من نار يسوق بها السحاب وعن الحسن خلق من خلق الله تعالى ليس بملك والملائكة
اي يسبح الملائكة من خيفته من هيبته واجلاله جل جلاله وقيل الضمير
للرعد ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء فيهلكه بذلك وهم اي الكفرة المخاطبون
في قوله تعالى هو الذي يريكم البرق وقد التفت الى الغيبة ايذانا باسقاطهم
عن درجة الخطاب واعراضا عنهم وتعديدا لجناياتهم لدى كل من يستحق الخطاب
كانه قيل هو الذي يفعل امثال هذه الافاعيل العجيبة من اراءة البرق وانشاء
السحاب الثقال وارسال الصواعق الدالة على كمال علمه وقدرته ويعقلها
من يعقلها من المؤمنين والرعد نفسه او الملك الموكل به والملائكة ويعملون بموجب
ذلك من التسبيح والحمد والخوف من هيبته تعالى وهم الكفرة الذين حكيت هناتهم
مع ذلهم وهوانهم وحقارة شانهم يجادلون في الله اي في شانه تعالى
حيث يفعلون ما يفعلون من انكار البعث واستعجال العذاب استهزاء واقتراح الايات
فالواو لعطف الجملة على ما قبلها من قوله تعالى هو الذي يريكم البرق او على قوله
الله يعلم ما تحمل الخ واما العطف على قوله تعالى ويقول الذين كفروا كما قيل فلا مجال
له لان قوله تعالى الله يعلم الخ استئناف لبيان بطلان قولهم ذلك ونظائره من
استعجال العذاب وانكار البعث قاطع لعطف ما بعده على ما قبله وقيل للحال اي
فيصيب به الصواعق من يشاء وهم في الجدال وقد اريد به ما اصاب اربد
بن ربيعة اخا لبيد فانه اقبل مع عامر بن الطفيل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
يبغيانه الغوائل فدخلا المسجد وهو عليه الصلاة والسلام في نفر من الاصحاب رضي الله
عنهم فاستشرفوا لجمال عامر وكان من اجمل الناس وقد كان اوصى الى اربد انه
اذا رايتني اكلم محمدا عليه الصلاة والسلام فدر من خلفه واضربه بالسيف فجعل
يكلمه عليه الصلاة والسلام ودار اربد من خلفه عليه السلام فاخترط من سيفه
شبرا فحبسه الله تعالى فلم يقدر على سله وجعل عامر يومي اليه فراى النبي صلى الله عليه
وسلم الحال فقال اللهم اكفهما بما شئت فارسل الله تعالى على اربد صاعقة في يوم
صحو صائف فاحرقته وولى عامر هاربا فنزل في بيت امراة سلولية فلما اصبح ضم
عليه سلاحه وتغير لونه وركب فرسه فجعل يركض في الصحراء ويقول ابرز يا ملك
الموت ويقول الشعر ويقول واللات لئن اصحر لي محمد وصاحبه يعني ملك
الموت لانفذتهما برمحي فارسل الله تعالى ملكا فلطمه بجناحه فارداه في التراب
فخرجت على ركبتيه في الوقت غدة عظيمة فعاد الى بيت السلولية وهو يقول غدة
كغدة البعير وموت في بيت سلولية ثم دعى بفرسه فركبه فاجراه حتى مات على
ظهره وقيل اريد به ما روي عن الحسن انه كان رجل من طواغيت العرب فبعث
النبي صلى الله عليه وسلم نفرا من اصحابه يدعونه الى الله عز وجل فقال لهم
اخبروني عما تدعونني اليه ما هو ومم هو من ذهب ام من فضة ام من نحاس
ام من حديد ام من در فاستعظموا مقالته فرجعوا الى النبي صلى الله عليه
وسلم فقالوا ما راينا رجلا اكفر قلبا ولا اعتى على الله منه فقال عليه الصلاة
والسلام ارجعوا اليه فرجعوا اليه فما زاد الا مقالته الاولى واخبث فرجعوا
اليه عليه الصلاة والسلام واخبروا بما صنع فقال عليه السلام ارجعوا اليه فرجعوا
اليه فبينما هم عنده ينازعونه اذ ارتفعت سحابة ورعدت وبرقت ورمت
بصاعقة فاحترق الكافر فجاءوا يسعون ليخبروه عليه الصلاة والسلام

بالخبر فاستقبلهم الاصحاب فقالوا احترق صاحبكم قالوا من اين علمتم قالوا اوحى الى النبى
صلعم وهو شديد المحال اى والحال انه شديد المماحلة والمكايدة والمماكرة لاعدائه
من محله اذا كاده وعرضه للهلاك ومنه تمحل اذا تكلف استعمال الحيل وقيل
هو مجاز من المحل بمعنى القوة وقيل محول من الحول او الحيلة اعل على غير قياس
ويعضده انه قرئ بفتح الميم على انه مفعل من حال يحول اذا احتال ويجوز
ان يكون بمعنى الفقار فيكون مثلا فى القوة والقدرة كقولهم فساعد الله اشد وموساه
احد له دعوة الحق اى الدعوة الثابتة الواقعة فى محلها المجابة عند وقوعها
والاضافة للايذان بملابستها للحق واختصاصها به وكونه بمعزل من شائبة البطلان
والضياع والضلال كما يقال كلمة الحق وقيل له دعوة الله سبحانه اى الدعوة اللائقة بحضرته
كما فى قوله عليه الصلوة والسلام فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله
والتعرض لوصف الحقية لتربية معنى الاستجابة والاولى هو الاول لقوله تعالى
وما دعاء الكافرين الا فى ضلال وتعلق الجملتين بما قبلهما من حيث ان هلاك
اربد وعامر محال من الله تعالى واجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما
ان كانت الاية نزلت فى شانهما او من حيث انه وعيد للكفرة على مجادلة رسول الله
صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم وتحذير لهم باجابة دعوته عليهم والذين
يدعون اى الاصنام الذين يدعوهم المشركون فحذف العائد من دونه من
دون الله عز وجل لا يستجيبون لهم بشئ من طلباتهم الا كباسط كفيه
الى الماء اى لا استجابة كائنة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه من بعيد
فالاستجابة مصدر من المبنى للفاعل على ما يقتضيه الفاعل الظاهر اعنى لا يستجيبون
ويجوز ان يكون من المبنى للمفعول ويضاف الى الباسط بناء على استلزام المصدر
من المبنى للفاعل للمصدر من المبنى للمفعول وجودا وعدما فكانه قيل لا يستجيبون
لهم بشئ فلا يستجاب لهم استجابة الا استجابة كائنة كاستجابة من بسط
كفيه الى الماء كما فى قوله وعضة دهر يا ابن مروان لم يدع من المال الا مسحت
او مجلف اى لم يدع فلم يبق الا مسحت او مجلف ليبلغ اى الماء بنفسه من
غير ان يؤخذ بشئ من الاناء ونحوه فاه وما هو اى الماء ببالغه ببالغ فيه
ابدا لكونه جمادا لا يشعر بعطشه ولا ببسط يديه اليه فضلا عن الاستطاعة لما اراده
من البلوغ الى فيه شبه حال المشركين فى عدم حصولهم فى دعاء آلهتهم على شئ
اصلا وركاكته فى ذلك بحال عطشان هائم لا يدرى ما يفعل قد بسط كفيه
من بعيد الى الماء يبغى وصوله الى فيه من غير ملاحظة التشبيه فى جميع مفردات
الاطراف فان الماء فى نفسه شئ نافع بخلاف آلهتهم والمراد نفى الاستجابة
رأسا الا انه قد اخرج الكلام مخرج التهكم بهم فقيل لا يستجيبون لهم شيئا من
الاستجابة الا استجابة كائنة فى هذه الصورة التى ليست فيها شائبة الاستجابة
قطعا فهو فى الحقيقة من باب التعليق بالمحال وقرئ تدعون بالتاء وكباسط بالتنوين
وما دعاء الكافرين الا فى ضلال اى ذهاب وضياع وخسار ولله وحده
يسجد يخضع وينقاد لا لشئ غيره استقلالا ولا اشتراكا فالقصر ينتظم
القلب والافراد من فى السموات والارض من الملائكة والثقلين طوعا
وكرها اى طائعين وكارهين او انقياد طوع وكره فان خضوع الكل لعظمة
الله تعالى وانقياده لاحداث ما اراده فيهم من احكام التكوين والاعدام
شاؤا او ابوا وعدم مداخلة حكم غيره بل غير حكمه تعالى فى تلك الشؤن
مما لا يخفى على احد وظلالهم اى ينقاد له تعالى ظلال من له ظل منهم اعنى
الانس حيث يتصرفون على مشيئته وتتاتى لارادته فى الامتداد والتقلص والفئ
والزوال بالغدو والآصال ظرف للسجود المقدر او حال من الظلال وتخصيص
الوقتين بالذكر مع ان انقيادها متحقق فى جميع الاوقات وجودها لظهور ذلك فيهما

والغدو

والغدو جمع غداة كقنى فى جمع قناة والآصال جمع اصيل وقيل جمع اصل وهو جمع اصيل
وهو ما بين العصر والمغرب وقيل الغدو مصدر ويؤيده انه قرئ والايصال
اى الدخول فى الاصيل هذا وقد قيل ان المراد حقيقة السجود فان الكفرة حال
الاضطرار وهو المعنى بقوله تعالى وكرها يخصون السجود به سبحانه قال تعالى فاذا
ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ولا يبعد ان يخلق الله تعالى فى الظلال
افهاما وعقولا بها تسجد لله سبحانه كما خلقها للجبال حتى اشتغلت بالتسبيح وظهر
فيها آثار التجلى كما قاله ابن الانبارى ويجوز ان يراد بسجودها ما يشاهد فيها
من هيئة السجود تبعا لاصحابها وانت خبير بان اختصاص سجود الكافر حالة
الضرورة والشدة بالله سبحانه لا يجدى فان سجودهم لاصنامهم حالة الرخاء مخل
بالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور فالوجه حمل السجود على الانقياد ولان تحقق
انقياد الكل فى الابداع والاعدام له تعالى ادخل فى التوبيخ على اتخاذ اولياء من دونه
من تحقق سجودهم له تعالى وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم ايضا كذلك
لانهم العمدة وانقيادهم دليل انقياد غيرهم على انه بين ذلك بقوله عز وجل
قل من رب السموات والارض فانه لتحقيق ان خالقهما ومتولى امرهما مع ما فيهما
على الاطلاق هو الله سبحانه وقوله تعالى قل الله امر بالجواب من قبله عليه الصلوة و
السلام اشعارا بانه متعين للجوابية فهو والخصم فى تقريره سواء وامر بحكاية اعترافهم
ايذانا بانه امر لا بد لهم من ذلك كانه قيل احك اعترافهم فبكتهم بما يلزمهم من الحجة
والقمهم الحجر او امر بتلقينهم ذلك ان تلعثموا فى الجواب حذرا من الالزام فانهم
لا يتمالكون اذ ذاك ولا يقدرون على انكاره قل الزاما لهم وتبكيتا افاتخذتم
لانفسكم والهمزة لانكار الواقع كما فى قولك اضربت اباك لا لانكار الوقوع كما فى قوله
اضربت ابى والفاء للعطف على مقدر بعد الهمزة اى اعلمتم ان ربهما هو الله الذى
ينقاد لامره من فيهما كافة فاتخذتم عقيبه من دونه اولياء عاجزين لا يملكون
لانفسهم نفعا يستجلبونه ولا ضرا يدفعونه عن انفسهم فضلا عن القدرة
عن جلب النفع لغيرهم ودفع الضر عنه لا على ان يكون الانكار متوجها الى المعطوفين
معا كما فى قوله تعالى افلا تعقلون اذا قدر المعطوف عليه لا تسمعون بل الى ترتب الثانى
على الاول مع وجوب ان يترتب عليه نقيضه والمعنى بعد ان علمتم ان ربهما هو
الله جل جلاله اتخذتم من دونه اولياء عجزة والحال ان قضية العلم بذلك انما
هو الاقتصار على توليه فعكستم الامر كما فى قوله تعالى من الجن ففسق عن امر
ربه افتتخذونه وذريته اولياء من دونى ووصف الاولياء ههنا بعدم المالكية
للنفع والضر فى ترشيح الانكار وتاكيده كتقييد الاتخاذ هناك بالجملة الحالية اعنى
قوله تعالى وهم لكم عدو فان كلا منهما مما ينفى الاتخاذ المذكور ويؤكد انكاره
قل تصويرا لارائهم الركيكة بصورة المحسوس هل يستوى الاعمى الذى هو
المشرك الجاهل بالعبادة ومستحقها والبصير الذى هو الموحد العالم بذلك
او الاول عبارة عن المعبود الغافل والثانى اشارة الى المعبود العالم بكل شئ ام
هل تستوى الظلمات التى هى عبارة عن الكفر والضلال والنور الذى هو عبارة
عن التوحيد والايمان وقرئ بالياء فلما دل النظم الكريم على ان الكفرة فيما فعلوا من
اتخاذ الاصنام اولياء من دون الله سبحانه فى الضلال المحض والخطاء البحت بحيث
لا يخفى بطلانه على احد وانهم فى ذلك كالاعمى الذى لا يهتدى الى شئ اصلا وليس
لهم فى ذلك شبهة يصلح ان تكون منشأ لغلطهم وخطائهم فضلا عن الحجة
اكد ذلك فقيل ام جعلوا لله اى بل اجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه سبحانه
والهمزة لانكار الوقوع لا لانكار الواقع مع وقوعه وقوله خلقوا كخلقه هو الذى
يتوجه اليه الانكار واما نفس الجعل فهو واقع لا يتعلق به الانكار بهذا المعنى
والمعنى انهم لم يجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم

بسبب ذلك وقالوا هؤلاء خلقوا كخلقه تعالى فاستحقوا بذلك العبادة كما استحقها ليكون
ذلك منشأ لخطابهم بل انما جعلوا له شركاء ماهي بمعزل من ذلك بالمرة وفيه ما لا يخفى
من التعرض بركاكة رائهم والتهكم بهم قل تحقيقا للحق وارشادا لهم اليه
الله خالق كل شيء كافة لا خالق سواه فيشاركه في استحقاق العبادة وهو الواحد
المتوحد بالالوهية المتفرد بالربوبية القهار لكل ما سواه فكيف يتوهم ان يكون له
شريك وبعد ما مثل المشرك والشرك بالاعمى والظلمات والموحد والتوحيد بالبصير و
النور مثل الحق الذي هو القرآن العظيم في فيضانه من جناب القدس على قلوب خالية
عنه متفاوتة الاستعداد وفي جريانه عليها ملاحظة وحفظا وعلى الالسنة مذاكرة
وتلاوة وفي ثباته فيها مع كونه ممدا لحياتها الروحانية وما يتلوها من الملكات
السنية والاعمال المرضية بالماء النازل من السماء السائل في اودية يابسة لم تجر
عادتها بذلك سيلانا مقدرا بمقدار اقتضته الحكمة في احياء الارض وما عليها الباقي
فيها حسبما يدور عليه منافع الناس وفي كونه حلية يتحلى بها النفوس وتصل الى
البهجة الابدية ومتاعا يتمتع به في المعاش والمعاد بالذهب والفضة وسائر
الفلزات التي تتخذ منها انواع الآلات والادوات وتبقى منتفعا بها مدة طويلة
ومثل الباطل الذي ابتلى به الكفرة لقصور نظرهم بما يظهر فيهما من غير مداخلة
له فيهما واخلال بصفائهما من الزبد الرابي فوقهما المضمحل سريعا فقيل انزل
من السماء اي من جهتها ماء اي كثيرا او نوعا منه وهو ماء المطر فسالت بذلك
اودية واقعة في مواقعه لا جميع الاودية اذ الامطار لا تستوعب الاقطار وهو
جمع واد وهو مفرج بين جبال او تلال او آكام على الشذوذ كناد واندية وناج و
انجية قالوا وجهه ان فاعلا يجيء بمعنى فعيل كناصر ونصير وشاهد وشهيد وعالم وعليم
وحيث جمع فعيل على افعلة كجريب واجربة جمع فاعل ايضا على افعلة فان اريد بها
ما يسيل فيها مجازا فاسناد السيلان اليها حقيقي وان اريد معناها الحقيقي فالاسناد
مجازي كما في جرى النهر وايثار التمثيل بها على الانهار المستمرة الجريان لوضوح المماثلة
بين شانها وشان ما مثل بها كما اشير اليه بقدرها اي سالت ملتبسة بمقدارها
الذي عينه الله تعالى واقتضته حكمته في نفع الناس او بمقدارها المتفاوت قلة و
كثرة بحسب تفاوت محالها صغرا وكبرا لا بكونها مالئة لها منطبقة عليها بل بمجرد قلتها
بصغرها المستلزم لقلة موارد الماء وكثرتها بكبرها المستدعي لكثرة الموارد فان
مورد السيل الجاري في الوادي الصغير اقل من موارد السيل الجاري في الوادي الكبير
هذا ان اريد بالاودية ما يسيل فيها اما ان اريد بها معناها الحقيقي فالمعنى سالت
مياهها بقدر تلك الاودية على نحو ما عرفته آنفا او يراد بضميرها مياهها بطريق
الاستخدام ويراد بقدرها ما مر آنفا من المعنيين فاحتمل السيل الجاري في تلك الاودية
اي حمل معه زبدا اي غثاء ورغوة وانما وصف ذلك بقوله تعالى رابيا اي عاليا
منتفخا فوقه بيانا لما اريد بالاحتمال المحتمل لكون الحمل غير طاف كالاشجار الثقيلة
وانما لم يدفع ذلك الاحتمال بان يقال فاحتمل السيل فوقه للايذان بان تلك الفوقية
مقتضى شان الزبد لا من جهة المحتمل تحقيقا للمماثلة بينه وبين ما مثل به من الباطل
الذي شانه الظهور في بادئ الرأي من غير مداخلة في الحق ومما توقدون عليه
في النار اي يفعلون الايقاد عليه كائنا في النار والضمير للناس اضمر مع عدم سبق
الذكر لظهوره وقرئ بالخطاب ابتغاء حلية او متاع اي لطلب اتخاذ حلية
وهي ما يتزين ويتجمل به كالحلي المتخذة من الذهب والفضة او اتخاذ متاع وهو
ما يتمتع به من الاواني والآلات المتخذة من الرصاص والحديد وغير ذلك من
الفلزات زبد حيث مثله مثل ما ذكر من زبد الماء في كونه رابيا فوقه فقوله زبد مبتدا خبره
الظرف المقدم ومن ابتدائية دالة على مجرد كونه مبتدأ وناشئا منه لا تبعيضية معربة
عن كونه بعضا منه كما قيل لاخلال ذلك بالتمثيل وفي التعبير عن ذلك بالموصول والتعرض لما

في حيز

في حيز الصلة من ايقاد النار عليه جري على سنن الكبرياء باظهار التهاون به كما في قوله
تعالى فاوقد لي يا هامان على الطين واشارة الى كيفية حصول الزبد منه بذوبانه
وفي ذيادة في النار اشعار بالمبالغة في الاعمال للاذابة وحصول الزبد كما اشير اليه
وعدم التعرض لاخراجه من الارض لعدم دخل ذلك العنوان في التمثيل كما ان لعنوان
انزال الماء من السماء دخلا فيه حسبما فصل فيما سلف بل له اخلال بذلك كذلك اي
مثل ذلك الضرب البديع المشتمل على نكت رائقة يضرب الله الحق والباطل اي مثل الحق
ومثل الباطل والحذف للانباء عن كمال التماثل بين الممثل والممثل به كان المثل المضروب
عين الحق والباطل وبعد تحقيق التمثيل مع الايماء في تضاعيف ذلك الى وجوه المماثلة على
ابدع وجوه واتقنها حسبما اشير اليه في مواقعها بين عاقبة كل من الممثلين على وجه التمثيل
مع التصريح ببعض ما به المماثلة من الذهاب والبقاء تتمة للغرض من التمثيل من الحث على اتباع
الحق الثابت والردع عن الباطل الزائل فاما الزبد من كل منهما فيذهب جفاء
اي مرميا به وقرئ جفالا والمعنى واحد واما ما ينفع الناس منهما كالماء الصافي
والفلز الخالص فيمكث في الارض اما الماء فيثبت بعضه في منافعه ويسلك بعضه
في عروق الارض الى العيون والقنا والآبار واما الفلز فيصاغ من بعضه انواع الحلي
ويتخذ من بعضه اصناف الآلات والادوات فينتفع بكل من ذلك انواع الانتفاعات
مدة طويلة فالمراد بالمكث في الارض ما هو اعم من المكث في نفسها ومن البقاء
في ايدي المتقلبين فيها وتغيير ترتيب اللف الواقع في الفذلكة الموافق للترتيب الواقع
في التمثيل لمراعاة الملاءمة بين حالتي الذهاب والبقاء وبين ذكرهما فان المعتبر انما هو بقاء
الباقي بعد ذهاب الذاهب لا قبله كذلك يضرب الله اي مثل ذلك الضرب العجيب
يضرب الامثال في كل باب اظهارا لكمال اللطف والعناية في الارشاد والهداية
وفيه تفخيم لشان هذا التمثيل وتاكيد لقوله كذلك يضرب الله الحق والباطل اما باعتبار
ابتناء هذا على التمثيل الاول او بجعل ذلك اشارة اليهما جميعا وبعد ما بين شان
كل من الحق والباطل حالا ومآلا اكمل بيان شرع في بيان حال اهل كل منهما مآلا تكميلا
للدعوة ترغيبا وترهيبا فقيل للذين استجابوا لربهم اذ دعاهم الى الحق بفنون
الدعوة التي من جملتها ضرب الامثال فانه الطف ذريعة الى تفهيم القلوب الغبية
واقوى وسيلة الى تسخير النفوس الابية كيف لا وهو تصوير للمعقول بصورة المحسوس
وابراز لاوابد المعاني في هيئة المانوس فاي دعوة اولى منه بالاستجابة والقبول
الحسنى اي المثوبة الحسنى وهي الجنة والذين لم يستجيبوا له وعاندوا الحق الجلي
لو ان لهم ما في الارض من اصناف الاموال جميعا بحيث لم يشذ منه شاذ
في اقطارها او مجموعا غير متفرق بحسب الازمان ومثله معه لافتدوا به
اي بما في الارض ومثله معه جميعا ليتخلصوا عما بهم وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا
يحيط به البيان فالموصول مبتدا والشرطية كما هي خبره لكن لا على انها وضعت موضع السوءى
فوقعت في مقابلة الحسنى الواقعة في القرينة الاولى لمراعاة حسن المقابلة فصار
كانه قيل وللذين لم يستجيبوا له السوءى كما توهم فان الشرطية وان دلت على كمال
سوء حالهم لكنها بمعزل من القيام مقام لفظ السوءى مصحوبا باللام الداخلة على
الموصول او ضميره وعليه يدور حصول المرام وانما الواقع في تلك المقابلة سوء
الحساب في قوله تعالى اولئك لهم سوء الحساب وحيث كان اسم الاشارة
الواقع مبتداء في هذه الجملة عبارة عن الموصول الواقع مبتداء في الجملة السابقة
كان خبرها اعني الجملة الظرفية خبرا عن الموصول في الحقيقة ومبينا لابهام مضمون
الشرطية الواقعة خبرا عنه اولا ولذلك ترك العطف فصار كانه قيل والذين
لم يستجيبوا له لهم سوء الحساب وذلك في قوة ان يقال وللذين لم يستجيبوا
له سوء الحساب مع زيادة تاكيد فتم المقابلة على ابلغ وجه واكده ثم بين مؤدى
ذلك فقيل وماويهم اي مرجعهم جهنم وفيه نوع تاييد لتفسير

هو خلق له تعالى ضرب الحق والباطل

الحسنى بالجنة وبئس المهاد اى المستقر والمخصوص بالذم محذوف وقيل اللام
في قوله تعالى للذين استجابوا لربهم متعلقة بقوله يضرب الله الامثال اى الامثال الثابتة
وقوله الحسنى صفة للمصدر اى استجابوا الاستجابة الحسنى وقوله والذين لم
يستجيبوا له معطوف على الموصول الاول وقوله لو ان لهم الى كلام مستأنف مسوق
لبيان ما اعد لغير المستجيبين من العذاب والمعنى كذلك يضرب الله الامثال للمؤمنين
المستجيبين والكافرين المعاندين اى مثلا الفريقين وانت خبير بان عنوان الاستجابة
وعدمها لا مناسبة بينه وبين ما يدور عليه امر التمثيل وان الاستعمال المستفيض
دخول اللام على من يقصد تذكيره بالمثل نعم قد يستعمل في هذا المعنى ايضا كما في قوله
سبحانه ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ونظائره على ان بعض الامثال
المضروبة لاسيما المثل الاخير الموصول بالكلام ليس مثل الفريقين بل مثل للحق والباطل
ولا مساغ لجعل الفريقين مضروبا لهم ايضا بان يجعل في حكم ان يقال كذلك يضرب
الله الامثال اذ لا وجه حينئذ لتنويعهم الى المستجيبين وغير المستجيبين فتامل
افمن يعلم انما انزل اليك من ربك من القرآن الذي مثل بالماء المنزل من السماء
والابريز الخالص في المنفعة والجدوى الحق الذى لا حق وراءه والحق الذي اشير
اليه بالامثال المضروبة فيستجيب له كمن هو اعمى عمي القلب لا يشاهده وهو نار
على علم ولا يقدر قدره وهو في اقصى مراتب العلو والعظم فيبقى حائرا في ظلمات
الجهل وغياهب الضلال او لا يتذكر بما ضرب من الامثال اي كمن لا يعلم ذلك الا انه
اريد زيادة تقبيح حاله فعبر عنه بالاعمى وايراد الفاء بعد الهمزة لتوجيه الانكار الى
ترتب توهم المماثلة على ظهور حال كل منهما بما ضرب من الامثال وبين المصير والمآل كانه
قيل ابعد ما بين حال كل من الفريقين ومآلهما يتوهم المماثلة بينهما ثم استؤنف
فقيل انما يتذكر بما ذكر من المذكورات فيقف على ما بينهما من التفاوت والتنائي اولوا
الالباب اى العقول الخالصة المبرأة من مشايعة الالف ومعارضة الوهم الذين
يوفون بعهد الله بما عقدوا على انفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا بلى
او ما عهد الله عليهم في كتبه ولا ينقضون الميثاق ما وثقوه على انفسهم وقبلوه
من الايمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد وهو تعميم بعد
تخصيص وفيه تاكيد للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل والذين يصلون ما امر الله
به ان يوصل من الرحم وموالاة المؤمنين والايمان بجميع الانبياء المجمعين
على الحق من غير تفريق بين احد منهم ويندرج فيه مراعاة جميع حقوق الناس
بل حقوق كل ما يتعلق بهم من الهرة والدجاج ويخشون ربهم خشية جلال وهيبة
ورهبة فلا يعصونه فيما امر به ويخافون سوء الحساب فيحاسبون انفسهم
قبل ان يحاسبوا وفيه دلالة على كمال فظاعته حسبما ذكر فيما قبل والذين صبروا
على كل ما يكرهه النفس من الافعال والتروك ابتغاء وجه ربهم طلبا لرضاه
خاصة من غير ان ينظروا الى جانب الخلق رياء او سمعة ولا الى جانب النفس زينة
وعجبا وحيث كان الصبر على الوجه المذكور ملاك الامر في كل ما ذكر من الصلاة
السابقة واللاحقة اورد على صيغة الماضي اعتناء بشانه ودلالة على وجوب
تحققه فان ذلك مما لابد منه اما في نفس الصلوة كما في ما عدا الاولى والرابعة
والخامسة او في اظهار احكامها كما في الصلات الثلث المذكورات فانها وان
استغنت عن الصبر في انفسها حيث لا مشقة على النفس في الاعتراف بالربوبية
والخشية والخوف لكن اظهار احكامها والجري على موجبها غير خال عن الاحتياج
اليه واقاموا الصلوة المفروضة وانفقوا مما رزقناهم اي بعضه الذي
يجب عليهم انفاقه سرا لمن لا يعرف بالمال اولمن لا يتهم بترك الزكاة او عند
انفاقه واعطائه من يمنعه المروة من اخذه ظاهرا وعلانية لمن لم يكن كما
ذكروا والاول في التطوع والثاني في الفرض ويدرؤن بالحسنة السيئة اي

يجازون

ويجازون الاساءة بالاحسان او يتبعون الحسنة السيئة فتمحوها عن ابن عباس رضي الله عنهما
يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم وعن الحسن اذا حرموا اعطوا
واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا وعن ابن كيسان اذا اذنبوا تابوا وقيل اذا
رأوا منكرا امروا بتغييره وتقديم المجرور على المنصوب لاظهار كمال العناية بالحسنة
اولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة والملكات الجميلة وهو مبتدأ خبره الجملة الظرفية
اعني قوله تعالى لهم عقبى الدار اى عاقبة الدنيا وما ينبغي ان يكون مآل اهلها
وهي الجنة وقيل الجار والمجرور خبر لاولئك وعقبى الدار فاعل الاستقرار واياما
كان فليس فيه قصر حتى يرد ان بعض ما في حيز الصلة ليس من العزائم التي يخل اخلالها
بالوصول الى حسن العاقبة والجملة للموصولات المتعاطفة او استئناف لبيان
ما استوجبوه بتلك الصفات ان جعلت الموصولات المتعاطفة صفات لاولى الالباب
على طريقة المدح من غير ان يقصد ان يكون للصلوة المذكورات مدخل في التذكر جنات
عدن بدل من عقبى الدار او مبتدأ خبره يدخلونها والعدن الاقامة ثم صار
علما للجنة من الجنان اى جنات يقيمون فيها وقيل هو بطنان الجنة ومن صلح من
آبائهم جمع ابوى كل واحد منهم فكانه قيل من ابائهم وامهاتهم و
ازواجهم وذرياتهم وهو عطف على المرفوع في يدخلون وانما ساغ ذلك
للفصل بالضمير الآخر او مفعول معه والمعنى انه يلحق بهم من صلح من اهلهم وان
لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعا لهم تعظيما لشانهم وهو دليل على ان الدرجة تعلو
بالشفاعة وان الموصوف بتلك الصفات يقرن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة
والوصلة في دخول الجنة زيادة في انسهم وفي التقييد بالصلاح قطع للاطماع
الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الانساب والملائكة يدخلون عليهم من كل باب
من ابواب المنازل او من ابواب الفتوح والتحف قائلين سلام عليكم بشارة لهم بدوام
السلامة بما صبرتم متعلق بعليكم او بمحذوف اى هذه الكرامة العظمى بما
صبرتم اى بسبب صبركم او بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه والمعنى لئن
تعبتم في الدنيا لقد استرحتم الساعة وتخصيص الصبر بما ذكر من بين الصلوة
السابقة لما قدمناه من ان له دخلا في كل منها ومزية زائدة من حيث انه ملاك الامر
في كل منها وان شيئا منها لا يعتد به الا بان يكون لابتغاء وجه الرب تعالى وتقدس فنعم
عقبى الدار اى فنعم عقبى الدار الجنة وقرئ بفتح النون والاصل نعم فسكن العين
بنقل حركتها الى النون تارة وبدونه اخرى وعن النبي عليه الصلوة والسلام انه كان
ياتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار
وكذا عن الخلفاء الاربعة رضوان الله تعالى عليهم اجمعين والذين ينقضون عهد
الله اريد بهم من تقابل الاولين وتعاندهم في الاتصاف بنقائض صفاتهم
من بعد ميثاقه من بعد ما اوثقوه به من الاعتراف والقبول ويقطعون ما امر الله
به ان يوصل من الايمان بجميع الانبياء المجمعين على الحق حيث يؤمنون ببعضهم
ويكفرون ببعضهم ومن حقوق الارحام وموالاة المؤمنين وغير ذلك مما لا يراعون
حقوقه من الامور المعدودة فيما سلف وانما لم يتعرض لنفي الخشية والخوف عنهم
صريحا لدلالة النقض والقطع على ذلك واما عدم التعرض لنفي الصبر المذكور فلانه
انما اعتبر تحققه في ضمن الحسنات المعدودة ليقع معتدا بهن فلا وجه لنفيه عمن
بينه وبين الحسنات بعد المشرقين كما لا وجه لنفي الصلوة والزكاة ممن لا يحوم
حول اصل الايمان بالله تعالى فضلا عن فروع الشرايع وان اريد بالانفاق التطوع
فنفيه مندرج تحت قطع ما امر الله تعالى بوصله واما درء السيئة بالحسنة فانتفاؤه
عنهم ظاهر مما سبق ولحوق فان من يجازي احسانه عز وجل بنقض العهد ومخالفة
الامر ويباشر الفساد بدءا حسبما يحكيه قوله عز وجل ويفسدون في الارض اى بالظلم
وتهييج الفتن كيف يتصور منه مجازاة الاساءة بالاحسان على ان ذلك يشعر بان له

دخلا فى الاقتضاء الى العفو به التى ينبئ عنها قوله تعالى اولئك اى الموصوفون بما ذكر من القبايح لهم بسبب ذلك اللعنة اى الابعاد من رحمة الله تعالى ولهم مع ذلك سوء الدار اى سوء عاقبة الدنيا او عذاب جهنم فانها دارهم لان ترتيب الحكم على الموصول مشعر بعلية الصلة له ولا يخفى انه لا دخل له فى ذلك على اكثر التفاسير فان مجازاة السيئة بمثلها ماذون فيها ودفع الكلام السئ بالحسن وكذا الاعطاء عند المنع والعفو عند الظلم والوصل عند القطع ليس مما يورث تركه تبعة واما اعتبار اندراجه تحت الصلة الثانية من الاخلال ببعض الحقوق المندوبة فلا ضير فى ذلك لان اعتباره من حيث انه من مستتبعات الاخلال بالعزايم بالكفر ببعض الانبياء وعقوق الوالدين وترك ساير الحقوق الواجبة وتكرير لهم للتاكيد والايذان باختلافهما واستقلال كل منهما فى الثبوت الله يبسط الرزق اى يوسعه لمن يشاء من عباده ويقدر اى يضيقه على من يشاء حسبما يقتضيه الحكمة من غير ان يكون لاحد مدخل فى ذلك ولا شعور بحكمته فربما يبسط للكافر املاء واستدراجا وربما يضيقه على المؤمن زيادة لاجره فلا يغتر ببسطه الكافر كما لا يقنط بقدره المؤمن وفرحوا اى اهل مكة فرح اشر وبطر سرور بفضل الله تعالى بالحيوة الدنيا وما بسط لهم فيها من نعيمها وما الحيوة الدنيا وما يتبعها من النعيم فى الاخرة فى جنب نعيم الاخرة الا متاع الا شئ نزر يتمتع به كعجالة الراكب وزاد الراعى والمعنى انهم رضوا بحظ الدنيا معرضين عن نعيم الاخرة والحال ان ما اشروا به فى جنب ما اعرضوا عنه شئ قليل النفع سريع النفاد ويقول الذين كفروا اى اهل مكة وايثار هذه الطريقة على الاضمار مع ظهور ارادتهم عقيب ذكر فرحهم بالحياة الدنيا لذمهم والتسجيل عليهم بالكفر فيما حكى عنهم من قولهم لولا انزل عليه اية من ربه فان ذلك فى اقصى مراتب المكابرة والعناد كان ما انزل عليه عليه الصلوة والسلام من الايات العظام الباهرة ليس باية حتى اقترحوا ما لا يقتضيه الحكمة من الايات المحسوسة التى لا يبقى لاحد بعد ذلك طاقة بعدم القبول ولذلك امر فى الجواب بقوله تعالى قل ان الله يضل من يشاء اضلاله مشية تابعة للحكمة الداعية اليها اى تخلق فيه الضلال لصرف اختياره الى تحصيله ويدعه منهمكا فيه لعلمه بانه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الارشاد كمن كان على صفتكم فى المكابرة والعناد وشدة الشكيمة والغلو فى الفساد فلا سبيل له الى الاهتداء ولو جائته كل اية ويهدى اليه اى الى جنابه العلى الكبير هداية موصلة اليه لا دلالة مطلقة على ما يوصل اليه فان ذلك غير مختص بالمهتدين وفيه من تشريفهم ما لا يوصف من اناب اقبل الى الحق وتامل فى تضاعيف ما نزل من دلايله الواضحة وحقيقة الانابة الدخول فى نوبة الخير وايثار ايرادها فى الصلة على ايراد المشية كما فى الصلة الاولى للتنبيه على الداعى الى الهداية بل الى مشيتها والاشعار بما دعى الى المشية الاولى من المكابرة وفيه حث للكفرة على الاقلاع عما هم عليه من العتو والعناد وايثار صيغة الماضى للايماء الى استدعاء الهداية لسابقة الانابة كما ان ايثار صيغة المضارع فى الصلة الاولى للدلالة على استمرار المشية حسب استمرار مكابرتهم الذين امنوا بدل من من اناب فان اريد بالهداية الهداية المستمرة فالامر ظاهر لظهور كون الايمان مؤديا اليها وان اريد احداثها فالمراد بالذين امنوا الذين صار امرهم الى الايمان كما فى قوله تعالى هدى للمتقين اى الصائرين الى التقوى والا فالايمان لا يؤدى الى الهداية نفسها او خبر مبتدا محذوف اى هم الذين امنوا او منصوب على المدح وتطمئن قلوبهم اى تستقر وتسكن بذكر الله بكلامه المعجز الذى لا ريب فيه كقوله وهذا مبارك انزلناه وقوله انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ويعلمون ان لا اية اعظم منه فيقترحوها والعدول الى صيغة المضارع لافادة دوام الاطمئنان وتجدده حسب تجدد الايات وتعددها الا بذكر الله وحده تطمئن القلوب دون غيره من الامور التى تميل اليها النفوس من الدنيويات وهذا ظاهر واما ساير المعجزات فالقصر من حيث انها ليست فى افادة

الطمانينة بالنسبة الى من لم يشاهدها بمثابة القران المجيد فانه معجزة باقية الى يوم القيامة يشاهدها كل احد وتطمئن به القلوب كافة وفيه اشعار بان الكفرة ليست لهم قلوب وافئدتهم هواء حيث لم يطمئنوا بذكر الله تعالى ولم يعدوه اية وهو اظهر الايات وابهرها وقيل تطمئن قلوبهم بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته كقوله تعالى ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله او بذكر دلايله الدالة على وحدانيته او بذكره جل وعلا انسا به وتبتلا اليه فالمراد بالهداية دوامها واستمرارها الذين امنوا وعملوا الصالحات بدل من القلوب على حذف المضاف بدل الكل حسبما رمز اليه اى قلوب الذين امنوا وفيه ايماء الى ان الانسان انما هو القلب او مبتداء خبره الجملة الدعائية على التاويل اعنى قوله تعالى طوبى لهم او خبر مبتداء مضمر او نصب على المدح فطوبى لهم حال عاملها الفعلان وطوبى مصدر من طاب كبشرى وزلفى والواو منقلبة من الياء كموقن وموسر وقرئ مكورة الاعرابى طيبى ليسلم الياء والمعنى اصابوا خيرا ومحلها النصب كسلاما لك او الرفع على الابتداء وان كان نكرة لكونها فى معنى الدعاء كسلام عليك يدل ذلك القراءة فى قوله تعالى وحسن ماب بالرفع والنصب واللام فى لهم للبيان مثلها فى سقيا لك كذلك مثل ذلك الارسال العظيم الشان المصحوب بهذه المعجزة الباهرة ارسلناك فى امة قد خلت اى قد مضت من قبلها امم كثيرة قد ارسل اليهم رسل لتتلو لتقرا عليهم الذى اوحينا اليك من الكتاب العظيم الشان وتهديهم الى الحق رحمة لهم وتقديم المجرور على المنصوب من قبيل الابهام ثم البيان كما فى قوله تعالى ووضعنا عنك وزرك وفيه ما لا يخفى من ترقب النفس الى ما سيرد وحسن قبولها له عند وروده عليها وهم اى والحال انهم يكفرون بالرحمن بالبليغ الرحمة الذى وسعت كل شئ رحمته واحاطت به نعمته فالعدول الى المظهر المتعرض لوصف الرحمة من حيث ان الارسال ناشئ منها كما قال تعالى وما ارسلناك الا رحمة للعالمين فلم يقدروا قدره ولم يشكروا نعمه لا سيما ما انعم به عليهم بارسال مثلك اليهم وانزال القران الذى هو مدار المنافع الدينية والدنيوية عليهم وقيل نزلت فى مشركى مكة حين امروا بالسجود فقالوا وما الرحمن قل هو اى الرحمن الذى كفرتم به وانكرتم معرفته ربى الرب فى الاصل بمعنى التربية وهى تبليغ الشئ الى كماله شيئا فشيئا ثم وصف به مبالغة كالصوم والعدل وقيل هو نعت اى مالكى ومبلغى الى مراتب الكمال وايراده قبل قوله لا اله الا هو اى لا مستحق للعبادة سواه تنبيه على ان استحقاق العبادة منوط بالربوبية وقيل ان ابا جهل سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول يا الله يا رحمن فرجع الى المشركين فقال ان محمدا يدعو الهين فنزلت ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن الاية عليه توكلت فى جميع اموري لا سيما فى النصرة عليكم لا على احد سواه واليه خاصة متاب اى توبتى كقوله تعالى واستغفر لذنبك امر عليه الصلوة والسلام بذلك ابانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى وانها صفة الانبياء وبعثا للكفرة على الرجوع عما هم عليه بابلغ وجه والطفه فانه عليه الصلوة والسلام حيث امر بها وهو منزه عن شائبة اقتراف ما يوجبها من الذنب وان قل فتوبتهم وهم عاكفون على انواع الكفر والمعاصى مما لا بد منه اصلا وقد فسر المتاب بمطلق الرجوع فقيل مرجعى ومرجعكم وزيد فيحكم بينى وبينكم وقد قيل فيثيبنى على مصابرتكم فتامل ولو ان قرانا اى قرانا ما هو اسم ان والخبر قوله تعالى سيرت به الجبال وجواب لو محذوف لانسياق الكلام اليه بحيث يتلقفه السامع من التالى والمقصود اما بيان عظم شان القران العظيم وفساد راى الكفرة حيث لم يقدروا قدره العلى ولم يعدوه من قبيل الايات فاقترحوا غيره مما اوتى موسى وعيسى عليهما السلام واما بيان غلوهم فى المكابرة والعناد وتماديهم فى الضلال والفساد فالمعنى على الاول لو ان قرانا سيرت به الجبال اى بانزاله او بتلاوته عليها وزعزعت عن مقارها كما فعل ذلك بالطور

وبه اشار الى ما فى اقوالهم من القصور وفى التغيير بمرجعى ومرجعكم تعميم المئاب وتنكيره مع انه مبتدا مضاف الى ياء المتكلم وقد صرح بتنزيهن من المفسرين والغاء وايضا ان اناطة الرجوع الى الاخرة بالتوكل غير ملايم لان وقايع الامة لا التوكل فيها واما زيادة فيحكم بينى وبينكم وفيه قصور زايد تفريع الحكم الواقع فى الاخرة الى التوكل والرجوع وما قيل فيثيبنى على مصابرتكم وان كان خالبا عن النعيم ولكن فيه نقصان التفريع فليتدبر لمحرره

لموسى عليه السلام او قطعت به الارض اى شققت وجعلت انهارًا وعيونًا كما فعل بالحجر حين ضربه عليه السلام بعصاه او جعلت قطعًا بعضها متصدعة او كلم به الموتى اى بعد ان احيى بقراءته عليها كما احييت لعيسى عليه السلام لكان ذلك هذا القرآن لكونه الغاية القصوى فى الانطواء على عجايب آثار قدرة الله تعالى وهيبته عز وجل كقوله تعالى لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرايته خاشعًا متصدعًا من خشية الله لا فى الاعجاز اذ لا مدخل فى هذه الآثار ولا فى التذكير والانذار والتخويف لاختصاصها بالعقلاء مع انه لا علاقة له بتكليم الموتى واعتبار فيض العقول اليها مخل بالمبالغة المقصودة وتقديم المجرور فى المواضع الثلاثة على المرفوع لما مر غير مرة من قصد الابهام ثم التفسير لزيادة التقرير لان بتقديم ما حقه التاخير تبقى النفس مستشرفة ومترقبة الى المؤخر انه ماذا فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن وكلمة او فى الموضعين لمنع الخلو لا لمنع الجمع واقتراحهم وان كان متعلقًا بمجرد ظهور مثل هذه الافاعيل العجيبة على يده عليه السلام لا بظهورها بواسطة القرآن لكن ذلك حيث كان مبنيًا على عدم اشتماله فى زعمهم على الخوارق نيط ظهورها مبالغة فى بيان اشتماله عليها وانه حقيق بان يكون مصدرًا لكل خارق وابانة لركاكة رايهم فى شانه الرفيع كانه قيل لو ان ظهور امثال ما اجترحون من مقتضيات الحكمة لكان مظهرها هذا القرآن الذى لم يعد فيه آية وفيه من تفخيم شانه العزيز وصفهم بركاكة العقل ما لا يخفى بل لله الامر جميعًا اى له الامر الذى عليه يدور فلك الاكوان وجودًا وعدمًا يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لما يدعو اليه من الحكم البالغة وهى اضراب عما تضمنته الشرطية من معنى النفى لا بحسب منطوقة بل باعتبار موجبه ومؤداه اى لو ان قرآنًا فعل به ما ذكر لكان ذلك هذا القرآن ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشان الآن لان الامر كله له وحده فالاضراب ليس بمتوجه الى كون الامر لله سبحانه بل الى ما يؤدى اليه ذلك من كون الشاهد ما كان لما يقتضيه الحكمة من بناء التكليف على الاختيار افلم ييأس الذين آمنوا اى افلم يعلموا على لغة هوازن او قوم من النخع او على استعمال اليأس فى معنى العلم لتضمنه له ويؤيده قراءة على وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم اجمعين افلم يتبين بطريق التفسير والفاء للعطف على مقدر اى اغفلوا عن كون الامر جميعًا لله تعالى فلم يعلموا ان لو يشاء الله على حذف ضمير الشان وتخفيف ان لهدى الناس جميعًا باظهار امثال تلك الآثار العظيمة فالانكار متوجه الى المعطوفين جميعًا او أعلموا كون الامر جميعًا لله فلم يعلموا ما يوجبه ذلك العلم مما ذكر فهو متوجه الى ترتب المعطوف على المعطوف عليه اى لا تخلف العلم الثانى عن العلم الاول وعلى التقديرين فالانكار انكار الوقوع كما فى قوله تعالى الم يعدكم ربكم وعدًا حسنًا لا انكار الوقوع اى الواقع كما فى قولك الم تخف الله حتى عصيته ثم ان مناط الانكار ليس عدم علمهم بمضمون الشرطية فقط بل مع عدم علمهم بعدم تحقق مقدمها كانه قيل الم يعلموا ان الله تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم وانه لم يشاها وذلك لانهم كانوا يودون ان يظهر ما اقترحوا من الآيات ليجتمعوا على الايمان وعلى الثانى لو ان قرآنًا فعل به ما فصل من التعاجيب لما آمنوا به كقوله تعالى ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة الآية فى العناد على ما شرح اى فليس لهم ذلك بل لله الامر جميعًا ان شاء اتى بما اقترحوا وان شاء لم يات به حسبما يستدعيه داعية الحكمة من غير ان يكون لاحد عليه تحكم او اقتراح واليأس بمعنى القنوط اى الم يعلم الذين آمنوا حالهم هذه فلم يقنطوا من ايمانهم حتى احبوا ظهور مقترحاتهم فالانكار متوجه الى المعطوفين او اعلموا ذلك فلم يقنطوا من ايمانهم فهو متوجه الى وقوع المعطوف بعد المعطوف عليه اى الى تخلف القنوط عن العلم المذكور والانكار على التقديرين انكار الواقع كما فى قوله تعالى افلا تتقون ونظائره لا انكار الوقوع فان عدم قنوطهم منه مما لا مرد له وقوله تعالى ان لو يشاء الله الخ متعلق بمحذوف اى افلم ييأسوا من ايمانهم علمًا منهم او مما لمبين

وكلمهم الموتى الآية ثم الاضراب حينئذ متوجه الى ما سلف من اقتراحهم مع كفرهم

بانه لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا وانه لم يشاء ذلك او بامنوا اى افلم يقنط الذين آمنوا بان لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا على معنى افلم ييأس من ايمانهم المؤمنون بمضمون الشرطية وبعدم تحقق مقدمها المفهوم من مكابرتهم حسبما يحكيه كلمة لو فالوصف المذكور من دواعى انكار يأسهم وقيل ان اباجهل واضرابه قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت نبيًا سير بقراءتك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا ونتخذ فيها البساتين والقطائع وقد سخرت لداود عليه السلام فليست باهون على الله منه ان كنت نبيًا كما زعمت وسخر لنا به الريح كما سخرت لسليمان عليه السلام لنتجر عليها الى الشام فقد شق علينا قطع الشقة البعيدة او ابعث لنا به رجلين او ثلثة ممن مات من آبائنا فنزلت فمعنى تقطيع الارض حينئذ قطعها بالسير ولا حاجة حينئذ الى الاعتذار فى اسناد الافاعيل المذكورة الى القرآن كما احتيج اليه فى الوجهين الاولين وعن الفراء انه متعلق بما قبله من قوله وهم يكفرون بالرحمن وما بينهما اعتراض وهو بالحقيقة دال على الجواب والتقدير ولو ان قرآنًا سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم به الموتى لكفروا بالرحمن والتذكير فى كلم به الموتى لتغليب المذكر من على غيره ولا يزال الذين كفروا من اهل مكة تصيبهم بما صنعوا اى بسبب ما صنعوه من الكفر والتمادى فيه وعدم بيانه اما للقصد الى تهويله او استهجانه وهو تصريح بما اشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة له مع ما فى صيغة الصنع من الايذان برسوخهم فى ذلك قارعة داهية تقرعهم وتقلقلهم وهو ما كان يصيبهم من انواع البلايا والمصائب من القتل والاسر والنهب والسلب وتقديم المجرور على الفاعل لما مر مرارًا من ارادة التفسير اثر الابهام لزيادة التقرير والاحكام مع ما فيه من بيان ان مدار الاصابة من جهتهم اثر ذى اثير او تحل تلك القارعة قريبًا اى مكانًا قريبًا من دارهم فيفزعون منها ويتطاير اليهم شرارها شبهت القارعة بالعدو المتوجه اليهم فاسند اليها الاصابة تارة والحلول اخرى ففيه استعارة بالكناية وتخييل وترشيح حتى يأتى وعد الله اى موت او قيام القيمة فان كلا منهما وعد محتوم لا مرد له وفيه دلالة على ان ما يصيبهم عند ذلك من العذاب فى غاية الشدة وان ما ذكر سابقًا نفحة يسيرة بالنسبة اليه ثم حقق ذلك بقوله تعالى ان الله لا يخلف الميعاد اى الوعد كالميلاد والميثاق بمعنى الولادة والتوثقة لاستحالة ذلك على الله سبحانه وتعالى وقال ابن عباس رضى الله عنهما اراد بالقارعة السرايا التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها وكانوا بين اغارة واختطاف وتخويف بالهجوم عليهم فى ديارهم فالاصابة والحلول حينئذ من احوالهم ويجوز على هذا ان يكون قوله تعالى او تحل قريبًا من دارهم خطابًا للرسول صلى الله عليه وسلم مرادًا به حلوله الحديبية والمراد بوعد الله ما وعد به من فتح مكة ولقد استهزئ برسل كثيرة خلت من قبلك فامليت للذين كفروا اى تركتهم ملاوة من الزمان فى امن ودعة كما يملى للبهيمة فى المرعى وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما لقى من المشركين من التكذيب والاقتراح على طريقة الاستهزاء به ووعيد لهم والمعنى ان ذلك ليس مختصًا بك بل هو امر مطرد قد فعل ذلك برسل كثيرة كائنة من قبلك فامهلت الذين فعلوه بهم والعدول فى الصلة الى وصف الكفر ليس لان المملى لهم غير المستهزئين بل لارادة الجمع بين الوصفين اى فامليت للذين كفروا مع استهزائهم لا باستهزائهم لا بابسهم فقط ثم اخذتهم فكيف كان عقاب اى عقابى اياهم وفيه من الدلالة على التناهى كيفيته فى الشدة والفظاعة ما لا يخفى افمن هو قائم اى رقيب مهيمن على كل نفس كائنة من كانت بما كسبت من خير او من شر لا يخفى عليه شىء من ذلك بل يجازى كلا بعمله وهو الله سبحانه والخبر محذوف اى كمن ليس كذلك انكارًا لذلك وادخال الفاء لتوجيه الانكار الى توهم المماثلة غب ما علم مما فعل تعالى بالمستهزئين من الاملاء المديد والاخذ الشديد ومن كون الامر كله لله تعالى وكون هداية الناس جميعًا منوطة بمشيئته تعالى ومن تواتر

الموتى

القوارع على الكفرة الى ان يأتي وعد الله كانه قيل الامر كذلك فمن هذا شانه كما ليس في عداد
الاشياء حتى تشركوه به فالانكار متوجه الى ترتب المعطوف اعني توهم المماثلة على المعطوف
عليه المقدر اعني كون الامر كما ذكر كما في قولك اتعلم الحق فلا تعمل به لا الى المعطوفين جميعا
كما اذا قلت الا تعلمه فلا تعمل به وقوله تعالى وجعلوا لله شركاء جملة مستقلة جيء بها للدلالة
على الخبر او حالية اي افمن هذه صفاته كما ليس كذلك وقد جعلوا له لا شريكا واحدا
او معطوفة على الخبر ان قدر ما يصلح لذلك اي افمن هذا شانه لم يوحدوه وجعلوا له
شركاء ووضع المظهر موضع المضمر للتنصيص على وحدانيته ذاتا واسما وللتنبيه على
اختصاصه باستحقاق العبادة مع ما فيه من البيان بعد الابهام بايراده موصولا للدلالة
على التفخيم وقوله تعالى قل سموهم تبكيت لهم اثر تبكيت اي سموهم من هم وماذا
اسماؤهم او صفوهم وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستاهلون الشركة
ام تنبئونه اي بل اتنبئون الله بما لا يعلم في الارض اي بشركاء مستحقين للعبادة
لا يعلمهم الله تعالى ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والارض وقرئ
بالتخفيف ام بظاهر من القول بل اتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير
ان يكون له معنى وحقيقة كتسمية الزنجي كافورا كقوله تعالى ذلك قولهم بافواههم
وهاتيك الاساليب البديعة التي ورد عليها الآية الكريمة منادية على انها خارجة
عن قدرة البشر من كلام خلاق القوى والقدر فتبارك الله رب العالمين بل زين
للذين كفروا وضع الموصول موضع المضمر ذما لهم وتسجيلا عليهم بالكفر
مكرهم تمويههم الاباطيل او كيدهم للاسلام بشركهم وصدوا عن السبيل
اي سبيل الحق من صده صدا وقرئ بكسر الصاد على نقل حركة الدال اليها وقرئ بفتحها
اي صدوا الناس او من صد صدودا ومن يضلل الله اي يخلق فيه الضلال لسوء
اختياره او يخذله فما له من هاد يوفقه للهدى لهم عذاب شاق في الحيوة
الدنيا بالقتل والاسر وساير ما يصيبهم من المصائب فانها انما تصيبهم عقوبة على
كفرهم ولعذاب الآخرة اشق من ذلك بالشدة والمدة وما لهم من الله من
عذابيه المذكورين من واق من حافظ يعصمهم من ذلك فمن الاولى صلة للوقاية
والثانية مزيدة للتاكيد مثل الجنة اي صفتها العجيبة الشان التي في الغرابة كالمثل
التي وعد المتقون عن الكفر والمعاصي وهو مبتدا خبره محذوف عند سيبويه
اي فيما قصصنا عليك مثل الجنة وقوله تعالى تجري من تحتها الانهار تفسير لذلك
المثل على انه حال من الضمير المحذوف من الصلة العائد الى الجنة اي وعدها وهو
الخبر عند غيره كقولك شان زيد ياتيه الناس ويعظمونه او على حذف موصوف
اي مثل الجنة جنة تجري الخ اكلها ثمرها دائم لا ينقطع وظلها اي ايضا كذلك
لا تنسخه الشمس كما تنسخ ظلال الدنيا تلك الجنة المنعوتة بما ذكر عقبى الذين
اتقوا الكفر والمعاصي اي مآلهم ومنتهى امرهم وعقبى الكافرين النار لا غير وفيه ما
لا يخفى من اطماع المتقين واقناط الكافرين والذين آتيناهم الكتاب هم المسلمون
من اهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب واضرابهما ومن آمن من النصارى
وهم ثمانون رجلا اربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة يفرحون
بما انزل اليك اذ هو الكتاب الموعود في التوراة والانجيل ومن الاحزاب
اي من احزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم
بالعداوة نحو كعب بن الاشرف والسيد والعاقب اسقفي نجران واتباعهما من
ينكر بعضه وهو الشرائع الحادثة انشاء او نسخا لا ما يوافق ما حرفوه والا لنعى
عليهم من اول الامر ان مدار ذلك انما هو جنايات ايديهم واما ما يوافق
كتبهم فلم ينكروه وان لم يفرحوا به وقيل يجوز ان يراد بالموصول الاول عامتهم
فانهم ايضا يفرحون به لكونه مصدقا لكتبهم في الجملة فحينئذ يكون قوله تعالى ومن
الاحزاب الخ تتمة بمنزلة ان يقال ومنهم من ينكر بعضه قل الزاما لهم وردا لانكارهم

انما امرت ان اعبد الله ولا اشرك به اي شيئا من الاشياء او لا افعل الاشراك به والمراد
قصر الامر بالعبادة على الله تعالى لا قصر الامر مطلقا على عبادته خاصة اي قل لهم انما امرت فيما
انزل الي بعبادة الله تعالى وتوحيده وظاهر ان لا سبيل لكم الى انكاره لاطباق جميع الانبياء
والكتب على ذلك كقوله تعالى قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا
نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا فما لكم تشركون به عزيرا والمسيح وقرئ ولا اشرك به
بالرفع على الاستيناف اي وانا لا اشرك به اليه الى الله تعالى خاصة على النهج المذكور من
التوحيد او الى ما امرت به من التوحيد ادعو الناس لا الى غيره او لا الى شيء آخر مما لم
يطبق عليه الكتب الالهية والانبياء عليهم السلام فما وجه انكاركم واليه اي
الى الله وحده مآب مرجعي للجزاء وحيث كانت هذه الحجة الباهرة لازمة لهم لا
يحيدون عنها مختصا امر عليه الصلاة والسلام بان يخاطبهم بذلك الزاما و
تبكيتا لهم ثم شرع في رد انكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداء او بدلا من الشرائع
المنسوخة ببيان الحكمة في ذلك فقيل وكذلك انزلناه اي ما انزل اليك وذلك
اشارة الى مصدر انزلناه او انزل اليك ومحله النصب على المصدرية اي مثل
ذلك الانزال البديع المنتظم لاصول مجمع عليها وفروع متشعبة الى موافقة و
مخالفة حسبما يقتضيه قضية الحكمة والمصلحة انزلناه حكما حاكما يحكم في القضايا
والواقعات بالحق او يحكم به كذلك والتعرض لذلك العنوان مع ان بعضه ليس بحكم
لتربية وجوب مراعاته وتحتم المحافظة عليه عربيا مترجما بلسان العرب والتعرض
لذلك للاشارة الى ان ذلك احدى مواد المخالفة للكتب السابقة مع ان ذلك مقتضى الحكمة
اذ بذلك يسهل فهمه وادراك اعجازه والاقتصار على اشتمال الانزال على اصول الديانات
المجمع عليها حسبما يفيده قوله تعالى قل انما امرت ان اعبد الله الخ يأباه التعرض لاتباع اهوائهم
وحديث المحو والاثبات وان لكل اجل كتاب فان المجمع عليه لا يتصور فيه الاستتباع
والاتباع ولئن اتبعت اهواءهم التي يدعونك اليها من تقرير الامور المخالفة
لما انزل اليك من الحق كالصلاة الى بيت المقدس بعد التحويل بعد ما جاءك من العلم
العظيم الشان الفائض من ذلك الحكم العربي او العلم بمضمونه ما لك من الله
من جنابه العزيز والالتفات من التكلم الى الغيبة وايراد اسم الجليل لتربية المهابة
قال الازهري لا يكون الها حتى يكون معبودا وحتى يكون خالقا ورازقا ومدبرا
من ولي يلي امرك وينصرك على من يبغيك الغوائل ولا واق يقيك من مصارع
السوء وحيث لم يستلزم نفي الناصر على العدو نفي الواقي من نكايته ادخل على المعطوف
حرف النفي للتاكيد كقولك ما لي دينار ولا درهم او ما لك من بأس الله من
ناصر وواق لاتباعك اهواءهم وامثال هاتيك القوارع انما هي لقطع اطماع الكفرة
وتهييج المؤمنين على الثبات في الدين الدين واللام في لئن موطئة وما لك ساد
مسد جواب الشرط والقسم ولقد ارسلنا رسلا كثيرة كائنة من قبلك وجعلنا
لهم ازواجا وذرية نساء واولادا كما جعلنا ها لك وهو رد لما كانوا يعيبونه
صلى الله عليه وسلم بالازواج والاولاد كما كانوا يقولون ما لهذا الرسول ياكل الطعام
الخ وما كان لرسول منهم اي ما صح وما استقام ولم يكن في وسعه ان
ياتي باية مما اقترح عليه وحكم مما التمس منه الا باذن الله ومشيته المبنية
على الحكم والمصالح التي عليها يدور امر الكائنات لا سيما مثل هذه الامور العظام
والالتفات لما قدمناه ولتحقيق مضمون الجملة بالايماء الى العلة لكل اجل اي لكل مدة
ووقت من المدد والاوقات كتاب حكم معين يكتب على العباد حسبما يقتضيه الحكمة
فان الشرائع كلها لاصلاح احوالهم في المبدا والمعاد ومن قضية ذلك ان يختلف
حسب اختلاف احوالهم المتغيرة حسب تغير الاوقات كاختلاف العلاج حسب
اختلاف احوال المرضى بحسب الاوقات يمحو الله ما يشاء اي ينسخ ما يشاء نسخه من
الاحكام لما يقتضيه الحكمة بحسب الوقت ويثبت بدل ما فيه المصلحة او يبقيه

على حاله غير منسوخ او يثبت ما يشاء اثباته مطلقاً اعم منها ومن الانشاء ابتداء او يمحو من ديوان الحفظة الذين دينهم كتبة كل قول وعمل ما لا يتعلق به الجزاء ويثبت الباقي او يمحو اسباب التائب ويثبت مكانها الحسنة او يمحو قرناً ويثبت آخرين او يمحو الفاسدات من العالم الجسماني ويثبت الكائنات او يمحو الرزق ويزيد فيه او يمحو الاجل والسعادة والشقاوة وبه قال ابن عمر وابن مسعود رضي الله عنهم والقائلون به يتضرعون الى الله تعالى ان يجعلهم سعداء وهذا رواه جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم و الانسب تعميم كل من المحو والاثبات ليشمل الكل ويدخل في ذلك موادّ الانكار دخولاً اولياً وقرئ بالتشديد وعنده ام الكتاب اي اصله وهو اللوح المحفوظ اذ ما من شيء من الذاهب والثابت الا وهو مكتوب فيه كما هو وإمّا نرينّك اصله ان نرك وما مزيدة لتاكيد معنى الشرط ومن ثمّة الحقت النون بالفعل بعض الذي نعدهم اي وعدناهم من انزال العذاب عليهم والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية او نعدهم وعداً متجدداً حسب ما يقتضيه الحكمة من انذار غبّ انذار وفي ايراد البعض رمز الى ارادة بعض الموعود او نتوفينك قبل ذلك فانما عليك البلاغ اي تبليغ احكام الرسالة بتمامها لا تحقيق مضمون ما بلغته من الوعد الذي هو من جملتها وعلينا لا عليك الحساب محاسبة اعمالهم السيئة والمؤاخذة بها اي كيفما دارت الحال اريناك بعض ما وعدناهم من العذاب الدنيوي او لم نرك فعلينا ذلك وما عليك الا الرسالة فلا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك من الظفر ولا يضجرك تأخره فان ذلك لما نعلم من المصالح الخفية ثم طيّب نفسه عليه الصلوة والسلام بطلوع تباشيره فقال اولم يروا استفهام انكاري والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام اي انكروا نزول ما وعدناهم او اشكّوا او لم ينظروا في ذلك ولم يروا انا نأتي الارض اي ارض الكفر ننقصها من اطرافها بان نفتحها على المسلمين شيئاً فشيئاً ونلحقها بدار الاسلام ونذهب منها اهلها بالقتل والاسر والاجلاء اليس هذا من ذلك ومثله قوله عزّ سلطانه افلا يرون انا نأتي الارض ننقصها من اطرافها افهم الغالبون وقوله ننقصها حال من فاعل نأتي او من مفعوله وقرئ ننقصها بالتشديد وفي لفظ الاتيان المؤذن بالاستواء المحتوم والاستيلاء العظيم من الفخامة ما لا يخفى كما في قوله عزّ وجلّ وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً والله يحكم ما يشاء كما يشاء وقد حكم للاسلام بالعزّة والاقبال وعلى الكفر بالذلة والادبار حسبما يشاهد من المخايل والآثار وفي الالتفات من التكلم الى الغيبة وبناء الحكم على الاسم الجليل من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر والاشارة الى العلة ما لا يخفى وهي جملة اعتراضية جيء بها لتاكيد فحوى ما تقدمها وقوله تعالى لا معقّب لحكمه اعتراض في اعتراض لبيان علو شأن حكمه جل جلاله وقيل نصب على الحالية كانه قيل والله يحكم نافذاً حكمه كما تقول جاء زيد لا عمامة على رأسه اي حاسراً والمعقب من يكرّ على شيء فيطلبه وحقيقته من يعقبه ويقفيه بالرد والابطال ومنه قيل لصاحب الحق معقّب لانه يقفي غريمه بالاقتضاء والطلب وهو سريع الحساب فعمّا قليل يحاسبهم ويجازيهم في الآخرة بأثر ما عذبهم بالقتل والاسر والاجلاء حسبما يرى وقال ابن عباس رضي الله عنهما سريع الانتقام وقد مكر الكفار الذين خلوا من قبلهم من قبل كفار مكة بانبيائهم وبالمؤمنين كما مكر هؤلاء وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بانه لا عبرة بمكرهم ولا تأثير بل لا وجود له في الحقيقة ولم يصرح بذلك اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من تعليله اعني قوله تعالى فلله المكر اي جنس المكر جميعاً لا وجود لمكرهم اصلاً اذ هو عبارة عن ايصال المكروه الى الغير من حيث لا يشعر به وحيث كان جميع ما يأتون وما يذرون بعلم الله تعالى وقدرته

وانما لهم مجرد الكسب من غير فعل ولا تأثير حسبما بينته قوله عزّ وجلّ يعلم ما تكسب كل نفس من خير وشر فيوفيه عصمة او لياءه وعقاب الماكرين بهم توفية لكل نفس جزاء ما تكسبه ظهر ان ليس لمكرهم بالنسبة الى من مكروا بهم عين ولا اثر وان المكر كله لله تعالى حيث يؤاخذهم بما كسبوا من فنون المعاصي التي من جملتها مكرهم من حيث لا يحتسبون او لله المكر الذي باشروه جميعاً لا لهم على معنى ان ذلك ليس مكراً منهم بالانبياء بل هو بعينه مكر من الله تعالى بهم وهم لا يشعرون حيث لا يحيق المكر السيئ الا باهله وسيعلم الكفار حين يقضي بمقتضى علمه فيوفي كل نفس جزاء ما تكسبه لمن عقبى الدار اي العاقبة الحميدة من الفريقين وان جهلوا ذلك يومئذ وقيل السين لتاكيد وقوع ذلك وعلمهم به حينئذ وقرئ سيعلم الكافر على ارادة الجنس وسيعلم الكافرون والكفر اي اهله وسيعلم الذين كفروا وسيُعلم على صيغة المجهول من الاعلام اي سيخبر ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قيل قاله رؤساء اليهود وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاء تعجيباً منها او للدلالة على تجدد ذلك واستمراره منهم قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم فانه قد اظهر على رسالتي من الحجج القاطعة والبينات الساطعة ما فيه مندوحة عن شاهدة شاهد آخر ومن عنده علم الكتاب اي علم القرآن وما عليه من النظم المعجز ومن هو من علماء اهل الكتاب الذين اسلموا لانهم يشهدون بنعته عليه الصلوة والسلام في كتبهم والآية مدنية بالاتفاق او من عنده علم اللوح المحفوظ والله سبحانه اي كفى شاهداً بيننا بالذي يستحق العبادة فانه قد شحن كتابه بالدعوة الى عبادته وايدني بانواع التاييد وبالذي يختص بعلم ما في اللوح من الاشياء الكائنة التي من جملتها رسالتي وقرئ من عنده بالكسر وعلم الكتاب على الاول مرتفع بالظرف المعتمد على الموصول او مبتداء خبره الظرف وهو متعين على الثاني ومن عنده علم الكتاب بالكسر وبناء المفعول ورفع الكتاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الرعد اعطي من الاجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون الى يوم القيمة من الموفين بعهد الله عزّ وجلّ والله اعلم

سورة ابراهيم عليه السلام مكية وهي احدى وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الر مر الكلام فيه وفي محله غير مرة وقوله تعالى كتاب خبر له على تقدير كون الر مبتداء او لمبتدا مضمر على تقدير كونه خبر المبتدا محذوفاً او مسروداً على نمط التعديد ويجوز ان يكون خبراً ثانياً لهذا المبتداء المحذوف وقوله تعالى انزلناه اليك صفة له وقوله تعالى لتخرج الناس متعلق بانزلناه اي لتخرجهم كافة بما في تضاعيفه من البينات الواضحة المفصحة عن كونه من عند الله عزّ وجلّ الكاشفة عن العقائد الحقة وقرئ ليخرج الناس اي ليخرج به الناس من الظلمات من عقائد الكفر والضلال التي كلها ظلم محضة وجهالات صرفة الى النور الى الحق الذي هو نور بحت لكن لا كيف ما كان فانك لا تهدي من احببت بل باذن ربهم اي بتيسيره وتوفيقه وللانباء عن كون ذلك منوطاً باقبالهم الى الحق كما يفصح عنه قوله تعالى ويهدي اليه من اناب استعير له الاذن الذي هو عبارة عن تسهيل الحجاب لمن يقصد الورود واضيف الى ضميرهم اسم الرب المفصح عن التربية التي هي عبارة عن تبليغ الشيء الى كماله المتوجه اليه وشمول الاذن بهذا المعنى للكل واضح وعليه يدور كون الانزال لاخراجهم جميعاً وعدم تحقق الاذن بالفعل في بعضهم لعدم تحقق شرطه المستند الى سوء اختيارهم غير مخل بذلك والباء متعلقة بتخرج او بمضمر وقع حالاً من مفعوله اي ملتبسين باذن ربهم وجعله حالاً من فاعله يأباه اضافة الرب

اي التوجه والاقبال

اليهم لا اليه وحيث كان الحق مع وضوحه في نفسه وايضاحه لغيره موصلا الى الله عز وجل استعير له
النور تارة والصراط اخرى فقيل الصراط العزيز الحميد على وجه الابدال بتكرير العامل كما في قوله تعالى
للذين استضعفوا لمن آمن منهم واخلال البدل او البيان بالاستعارة انما هو في الحقيقة لا في المجاز
كما في قوله تعالى سبحانه حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر وقيل هو استيناف مبني
على سؤال كانه قيل الى اي نور فقيل الى صراط العزيز الحميد واضافة الصراط اليه تعالى لانه مقصده او
المبين له وتخصيص الوصفين بالذكر للترغيب في سلوكه ببيان ما فيه من الامن والعاقبة الحميدة
الله بالجر عطف بيان للعزيز الحميد لجريانه مجرى الاعلام الغالبة بالاختصاص بالمعبود
بالحق كالنجم في الثريا وقرئ بالرفع على هو الله اي العزيز الحميد الذي اضيف اليه
الصراط الله الذي له ملكا وملكا ما في السموات وما في الارض اي ما وجد
فيهما داخلا فيهما او خارجا عنهما متمكنا فيهما كما مر في آية الكرسي ففيه على القراءتين
بيان لكمال فخامة شان الصراط واظهار لتحتم سلوكه على الناس قاطبة وتجويز الرفع
على الابتداء بجعل الموصول خبرا مبناه عن هذه النكتة وقوله عز وجل وويل للكافرين
وعيد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات الى النور بالويل وهو نقيض الوال
وهو النجاة واصله النصب كسائر المصادر ثم رفع رفعها للدلالة على الثبات كسلام
عليك من عذاب شديد متعلق بويل على يولولون ويضجون منه قائلين يا
ويلاه كقوله تعالى دعوا هنالك ثبورا الذين يستحبون الحيوة الدنيا
اي يوثرونها استفعال من المحبة فان المؤثر للشيء على غيره كانه يطلب من نفسه ان
يكون احب اليها وافضل عندها من غيره على الآخرة اي الحيوة الآخرة الابدية
ويصدون الناس عن سبيل الله التي بين شانها والاقتصار على الاضافة الى
الاسم الجليل المنطوي على كل وصف جميل لروم الاختصار وهو من صده
صدا وقرئ يصدون من اصد المنقول من صد صدودا اذا نكب وهو غير فصيح
كاوقف فان في صده ووقفه لمندوحة عن تكلف النقل ويبغونها اي يبغون
لها فحذف الجار واوصل الفعل الى الضمير اي يطلبون لها عوجا اي زيغا و
اعوجاجا وهي ابعد شيء من ذلك اي يقولون لمن يريدون صده واضلاله انها سبيل
ناكبة وزائغة غير مستقيمة ومحل موصول هذه الصلاة الجر على انه بدل من
الكافرين او صفة له فيعتبر كل وصف من اوصافهم بازاء ما يناسبه من المعاني
المعتبرة في الصراط فالكفر المبني عن الستر بازاء كونه نورا واستحباب الحيوة الدنيا
الفانية المفصحة عن وخامة العاقبة بمقابلة كون سلوكه محمود العاقبة والصد
عنه بازاء كونه مامونا وفيه من الدلالة على تماديهم في الغي ما لا يخفى والنصب
على الذم او الرفع على الابتداء والخبر قوله تعالى اولئك في ضلال بعيد وعلى الاول
جملة مستقلة وقعت معللة لما سبق من لحوق الويل بهم تاكيدا لما اشعر به بناء
الحكم على الموصول اي اولئك الموصوفون بالقبائح المذكورة من استحباب الحيوة
الدنيا على الآخرة وصد الناس عن سبيل الله المستقيمة ووصفها بالاعوجاج
وهي منه بنزه في ضلال عن طريق الحق بعيد بالغ في ذلك غاية الغايات القاصية
والبعد وان كان من احوال الضال الا انه قد وصف به وصف مجازا للمبالغة
كجد جده وداهية دهيا ويجوز ان يكون المعنى في ضلال ذي بعد او فيه بعد
فان الضال قد يضل عن الطريق مكانا قريبا وقد يضل بعيدا وفي جعل الضلال
محيطا بهم احاطة الظرف بما فيه ما لا يخفى من المبالغة وما ارسلنا اي
في الامم الخالية من قبلك كما سيذكر اجمالا من رسول الا ملتبسا بلسان
قومه متكلما بلغة من ارسل اليهم من الامم المتفقة على لغة سواء بعث فيهم
او لا وقرئ بلسن وهو لغة فيه كريش ورياش وبلسن بضمتين وضمة
وسكون كعمد وعمد ليبين لهم ما امروا به فيتلقوه منه بيسر وسرعة و
يعملوا بموجبه من غير حاجة الى الترجمة ممن لم يومر به وحيث لم يكن مراعاة هذه

القاعدة في شان سيدنا صلى الله عليه وسلم وعليهم اجمعين لعموم بعثته الثقلين كافة
على اختلاف لغاتهم وكان تعدد نظم الكتاب المنزل اليه حسب تعدد السنة الامم
ادعى الى التنازع واختلاف الكلمة وتطرق ايدي التحريف مع ان استقلال بعض من ذلك
بالاعجاز دون غيره مئنة لقدح القادحين واتفاق الجميع فيه امر قريب من الالجاء
وحصل البيان بالترجمة والتفسير اقتضت الحكمة اتحاد النظم المبني عن العزة وجلالة
الشان المستتبع لفوائد غنية عن البيان على ان الحاجة الى الترجمة تتضاعف عند التعدد
اذ لابد لكل امة من معرفة توافق الكل وتحاذيه حذو القذة بالقذة من غير
مخالفة ولو في خصلة فذة وانما يتم ذلك بمن يترجم عن الكل واحدا او
متعددا وفيه من التعذر ما يتاخم الامتناع ثم لما كان اشرف الاقوام واولاهم
بدعوته عليه السلام قومه الذين بعث فيهم ولغتهم افضل اللغات نزل الكتاب
المبين بلسان عربي مبين وانتشرت احكامه فيما بين الامم اجمعين وقيل الضمير
في قومه لمحمد صلى الله عليه وسلم فانه تعالى انزل الكتب كلها عربية ثم ترجمها
جبريل عليه السلام او كل من نزل عليه من الانبياء عليهم السلام بلغة من نزل
عليهم ويرده قوله تعالى ليبين لهم فانه ضمير القوم وظاهر ان جميع الكتب لم ينزل
لتبيين العرب وفي رجعه الى قوم كل نبي كانه قيل وما ارسلنا من رسول الا بلسان قوم
محمد عليه الصلوة والسلام ليبين الرسول لقومه الذين ارسل اليهم ما لا يخفى من
التكلف فيضل الله من يشاء اضلاله اي يخلق فيه الضلال لمباشرة اسبابه
المؤدية اليه او يخذله ولا يلطف به لما يعلم انه لا ينجع فيه الالطاف ويهدي بالتوفيق
ومنح الالطاف من يشاء هدايته لما فيه من الانابة والاقبال الى الحق والالتفات
باسناد الفعلين الى الاسم الجليل المنطوي على الصفات لتفخيم شانهما وترشيح مناط
كل منهما والفاء فصيحة مثلها في قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق كانه
قيل فبينوه لهم فاضل الله منهم من شاء اضلاله لما لا يليق الا به وهدى
من شاء هدايته لاستحقاقه لها والحذف للايذان بان مسارعة كل رسول الى ما
امر به وجريان كل من اهل الخذلان والهداية على سننه امر محقق غني عن الذكر
والبيان والعدول الى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة او للدلالة على التجدد
والاستمرار حسب تجدد البيان من الرسل المتعاقبة عليهم السلام وتقديم
الاضلال على الهداية اما لانه ابقاء ما كان على ما كان والهداية انشاء ما لم
يكن او للمبالغة في بيان ان لا تاثير للتبيين والتذكير من قبل الرسل وان مدار الامر
انما هو مشيئته تعالى بايهام ان ترتب الضلالة على ذلك اسرع من ترتب الاهتداء
وهذا محقق لما سلف من تقييد الاخراج من الظلمات الى النور باذن الله تعالى
وهو العزيز فلا يغالب في مشيئته الحكيم الذي لا يفعل شيئا من الاضلال
والهداية الا لحكمة بالغة وفيه ان ما فوض الى الرسل انما هو تبليغ الرسالة و
تبيين طريق الحق واما الهداية والارشاد اليه فذلك بيد الله سبحانه يفعل ما
يشاء ويحكم ما يريد ولقد ارسلنا موسى شروع في تفصيل ما اجمل في
قوله عز وجل وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم الآية بآياتنا
اي ملتبسا بها وهي معجزاته التي اظهرها لبني اسرائيل ان اخرج قومك بمعنى اي
اخرج لان الارسال فيه معنى القول او بان اخرج كما في قوله تعالى وان اقم وجهك
فان صيغ الافعال في الدلالة على المصدر سواء وهو المدار في صحة الوصل والمراد
بذلك اخراج بني اسرائيل بعد مهلك فرعون من الظلمات من الكفر والجهالات
التي ادتهم الى ان يقولوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة الى النور الى الايمان
بالله وتوحيده وسائر ما امروا به وذكرهم بايام الله اي بنعمائه وبلائه
كما ينبئ عنه قوله عليه السلام اذكروا نعمة الله عليكم لكن بما جرى عليهم فقط
بل عليهم وعلى من قبلهم من الامم في الايام الخالية حسبما ينبئ عنه قوله تعالى الم

يا تكم نبأ الذين من قبلكم الايات او بايامه المنطوية على ذلك كما يلوح به قوله تعالى اذ انجاكم والالتفات من التكلم الى الغيبة باضافة الايام الى الاسم الجليل للايذان بفخامة شانها والاشعار بعدم اختصاص ما فيها من المعاملة بالمخاطب وقومه كما يوهمه الاضافة الى ضمير المتكلم اى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد وقيل ايام الله وقايعه التى وقعت على الامم قبلهم وايام العرب وقايعها وحروبها وملاحمها اى انذرهم وقايعه التى دهمت الامم الدارجة ويرده ما تصدى له عليه السلام بصدد الامتثال من التذكير بكل من السراء والضراء مما جرى عليهم وعلى غيرهم حسبما يتلى عليك ان فى ذلك اى فى التذكير بها او فى مجموع تلك النعماء والبلاء او فى ايامها لآيات عظيمة او كثيرة دالة على وحدانية الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته فهى على الاول عبارة عن الايام سواء اريد بها انفسها او ما فيها من النعماء والبلاء ومعنى ظرفية التذكير لها كونها مناطا لظهورها وعلى الثالث عن تلك النعماء والبلاء والمعنى الظرفية ظاهر واما على الثانى فعن كل واحدة من تلك النعماء والبلاء والمشار اليه المجموع المشتمل عليها من حيث هو مجموع او كلمة فى تجريدية مثلها فى قوله تعالى لهم فيها دار الخلد لكل صبار على بلائه شكور لنعمائه وقيل لكل مؤمن والتعبير عنهم بذلك للاشعار بان الصبر والشكر عنوان المؤمن اى لكل من يليق بكمال الصبر والشكر والايمان ويصير امره اليها لا لمن اتصف بها بالفعل لانه تعليل للامر بالتذكير المذكور السابق على التذكير المؤدى الى تلك المرتبة فان من تذكر ما فاض او نزل عليه او على من قبله من النعماء والبلاء وتنبه لعاقبة الشكر والصبر والايمان لا يكاد يفارقها وتخصيص الآيات لانهم المنتفعون بها لا لانها خافية عن غيرهم فان التبيين حاصل بالنسبة الى الكل وتقديم الصبار على الشكور لتقدم متعلق الصبر اعنى البلاء على متعلق الشكر اعنى النعماء وكون الشكر عاقبة الصبر واذ قال موسى لقومه شروع فى بيان تصديه عليه السلام لما امر به من التذكير للاخراج المذكور واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم وتعليق الذكر بالوقت مع ان المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر سره غير مرة اى اذكر لهم وقت قوله عليه السلام لقومه اذكروا نعمة الله عليكم بدأ عليه السلام بالترغيب لانه عند النفس اقبل وهى اليه اميل والظرف متعلق بنفس النعمة ان جعلت مصدرا او بمحذوف وقع حالا منها ان جعلت اسما اى اذكروا انعامه عليكم او اذكروا نعمته كائنة عليكم وكذا كلمة اذ فى قوله تعالى اذ انجاكم من آل فرعون اى اذكروا انعامه عليكم وقت انجائه اياكم من آل فرعون او اذكروا نعمة الله مستقرة عليكم وقت انجائه اياكم منهم او بدل اشتمال من نعمة الله مرادا بها الانعام او العطية يسومونكم يبغونكم من سامه خسفا اذا اولاه ظلما واصل السوم الذهاب فى طلب الشئ سوء العذاب السوء مصدر ساء يسوء والمراد به جنس العذاب السيء واستعبادهم واستعمالهم فى الاعمال الشاقة والاستهانة بهم وغير ذلك مما لا يحصر ونصبه على انه مفعول ليسومونكم ويذبحون ابناءكم المولودين وانما عطفه على يسومونكم اخراجا له عن مرتبة العذاب المعتاد وانما فعلوا ذلك لان فرعون رأى فى المنام او قال له الكهنة انه سيولد منهم من يذهب بملكه فاجتهدوا فى ذلك فلم يغن عنهم من قضاء الله شيئا ويستحيون نساءكم اى يبقونهن فى الحيوة مع الذل والصغار ولذلك عد من جملة البلاء والجمل احوال من آل فرعون او من ضمير المخاطبين او منهما جميعا لان فيها ضمير كل منهما وفى ذلكم اى فيما ذكر من افعالهم الفظيعة بلاء من ربكم اى ابتلاء منه لا ان البلاء عين تلك الافعال اللهم الا ان يجعل فى تجريدية فنسبته الى الله تعالى اما من حيث الخلق او الاقدار والتمكين عظيم لا يطاق ويجوز ان يكون المشار اليه الانجاء من ذلك والبلاء الابتلاء بالنعمة وهو الانسب

وهو كون ذلك اشارة الى التذكير

وهو كونه اشارة الى مجموع النعم والبلاء

وهو كون اشارة الى ايامها

كما

كما يلوح به التعرض لوصف الربوبية وعلى الاول يكون ذلك باعتبار المآل الذى هو الانجاء او باعتبار ان بلاء المؤمن تربية له واذ تأذن ربكم من جملة مقال موسى عليه السلام لقومه معطوف على نعمة الله عليكم اى اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم اى آذن ايذانا بليغا لا يبقى معه شائبة شبهة لما فى صيغة التفعل من معنى التكلف المحمول فى حقه سبحانه على غايته التى هى الكمال وقيل معطوف على قوله تعالى اذ انجاكم اى اذكروا نعمته تعالى فى هذين الوقتين فان هذا التأذن ايضا نعمة من الله عليهم ينالون بها خيرى الدنيا والآخرة وفى قراءة ابن مسعود رضه واذ قال ربكم ولقد ذكرهم عليه السلام اولا بنعمائه تعالى عليهم صريحا وضمنه تذكير ما اصابهم قبل ذلك من الضراء ثم امرهم ثانيا بذكر ما جرى من الله سبحانه من الوعد بالزيادة على تقدير الشكر والوعيد بالعذاب على تقدير الكفر والمراد بتذكير الاوقات تذكير ما وقع فيها من الحوادث مفصلة اذ هى محيطة بذلك فاذا ذكرت ذكر ما فيها كانه مشاهد معاين لئن شكرتم يا بنى اسرائيل ما خولتكم من نعمة الانجاء واهلاك العدو وغير ذلك من النعم والآلاء الفائتة للحصر وقابلتموه بالايمان والطاعة لازيدنكم نعمة الى نعمة ولئن كفرتم ذلك وغمطتموه ان عذابى لشديد فعسى يصيبكم منه ما يصيبكم ومن عادة الكرام التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد فما ظنك باكرم الاكرمين ويجوز ان يكون المذكور تعليلا للجواب المحذوف اى لاعذبنكم واللام فى الموضعين موطئة للقسم وكل من الجوابين ساد مسد جوابى الشرط والقسم والجملة اما مفعول لتأذن لانه ضرب من القول او لقول مقدر بعده كانه قيل واذ تأذن ربكم فقال الخ وقال موسى ان تكفروا نعمه تعالى ولم تشكروها انتم يا بنى اسرائيل ومن فى الارض من الخلائق جميعا فان الله لغنى عن شكركم وشكر غيركم حميد مستوجب للحمد بذاته لكثرة ما يوجبه من اياديه وان لم يحمده احد او محمود يحمده الملائكة بل كل ذرة من ذرات العالم الناطقة بحمده والحمد حيث كان بمقابلة النعمة وغيرها من الفضائل كان ادل على كماله سبحانه وهو تعليل لما حذف من جواب ان اى ان تكفروا لم يرجع وباله الا عليكم فان الله تعالى لغنى عن شكر الشاكرين ولعله عليه السلام انما قاله عندما عاين منهم دلائل العناد ومخايل الاصرار على الكفر والفساد وتيقن انه لا ينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب او قاله عقيب تذكيرهم بما ذكر من قول الله عز سلطانه تحقيقا لمضمونه وتحذيرا لهم من الكفران ثم شرع فى الترهيب بتذكير ما جرى على الامم الخالية فقال الم يأتكم نبؤا الذين من قبلكم ليتدبروا ما اصاب كل واحد من حزبى المؤمن والكافر فيقلعوا عما هم عليه من الشر وينيبوا الى الله تعالى وقيل هو ابتداء كلام من الله سبحانه خطابا للكفرة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فيختص تذكير موسى عليه السلام بما اختص ببنى اسرائيل من السراء والضراء والايام بالايام الجارية عليهم فقط وفيه ما لا يخفى من البعد وايضا لا يظهر حينئذ وجه تخصيص تذكير الكفرة الذين فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم بما اصاب اولئك المعدودين مع ان غيرهم اسوة لهم فى الخلق قبل هؤلاء قوم نوح بدل من الموصول او عطف بيان وعاد معطوف على قوم نوح وثمود والذين من بعدهم اى من بعد هؤلاء المذكورين عطف على قوم نوح وما عطف عليه وقوله تعالى لا يعلمهم الا الله اعتراض او الموصول مبتدأ ولا يعلمهم الى آخره خبره والجملة اعتراض والمعنى انهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم الا الله سبحانه وعن ابن عباس رضى الله عنه عدنان واسمعيل ثلثون ابا لا يعرفون وكان ابن مسعود رضى الله عنه اذا قرأ هذه الآية قال كذب النسابون يعنى انهم يدعون علم الانساب وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد جاءتهم رسلهم استيناف لبيان نبائهم بالبينات بالمعجزات الظاهرة والبينات الباهرة فبين كل رسول لامته طريق الحق

دعاهم اليه ليخرجهم من الظلمات الى النور فردّوا ايديهم في افواههم مشيرين بذلك
الى السنتهم وما يصدر عنها من المقالة اعتناء منهم بشانها وتنبيها للرسل على تلقيها
والمحافظة عليها واقناطا لهم عن التصديق والايمان باعلام ان لا جواب لهم سواه
وقالوا انا كفرنا بما ارسلتم به اى على زعمكم وهى البينات التى اظهروها حجة على صحة
رسالاتهم لقوله تعالى ولقد ارسلنا باياتنا ومرادهم بالكفر الكفر بدلالتها على صحة
رسالاتهم او فعضّوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى عضوا عليكم
الانامل من الغيظ او وضعوها عليها تعجبا منه واستهزاء به كمن غلبه الضحك او اسكاتا
للانبياء وامرا لهم باطباق الافواه او ردوها فى افواه الانبياء عليهم السلام يمنعونهم
من التكلم تحقيقا او تمثيلا او جعلوا ايدى الانبياء فى افواههم تعجبا من عتوهم
وعنادهم كما ينبئ عنه تعجبهم بقولهم افى الله شك الخ وقيل الايدى بمعنى الايادي عبر بها
عن مواعظهم ونصايحهم وشرايعهم التى هى مدار النعم الدينية والدنيوية لانهم
لما كذبوها فلم يقبلوها فكانهم ردوها الى حيث جاءت منه وانا لفى شك عظيم
مما تدعوننا اليه من الايمان بالله والتوحيد فلاينافى شكهم فى ذلك كفرهم
القطعى بما ارسل به الرسل من البينات فانهم كفروا بها قطعا حيث لم يعتدوا بها ولم
يجعلوها من جنس المعجزات ولذلك قالوا فاتونا بسلطان مبين وقرئ تدعونا بالادغام
مريب موقع فى الريبة من ارابه او ذى ريبة من اراب الرجل وهى قلق النفس وعدم
اطمينانها بالشئ قالت رسلهم استيناف مبنى على سؤال ينساق اليه المقال كانه
قيل فماذا قالت لهم رسلهم فاجيب بانهم قالوا منكرين عليهم متعجبين من مقالتهم
الحمقاء افى الله شك بادخال الهمزة على الظرف للايذان بان مدار الانكار ليس
نفس الشك بل وقوعه فيما لا يكاد يتوهم فيه الشك اصلا متفادين عن تطبيق الجواب
على كلام الكفرة بان يقولوا انتم فى شك مريب من الله تعالى مبالغة فى تنزيه ساحته
السبحان عن شائبة الشك وتسجيلا عليهم بسخافة العقول اى افى شانه سبحانه
من وجوده ووحدته ووجوب الايمان به وحده شك ما وهو اظهر من كل ظاهر واجلى
من كل جلى حتى تكونوا من قبله فى شك مريب وحيث كان مقصدهم الاقصى الدعوة
الى الايمان والتوحيد وكان اظهار البينات وسيلة الى ذلك لم يتعرضوا للجواب
عن قول الكفرة انا كفرنا بما ارسلتم به واقتصروا على بيان ما هو الغاية القصوى
ثم عقبوا ذلك الانكار بما يوجبه من الشواهد الدالة على انتفاء المنكر فقالوا
فاطر السموات والارض اى مبدعهما وما فيهما من المصنوعات على نظام
انيق شاهد بتحقق ما انتم منه فى شك وهو صفة للاسم الجليل او بدل
منه وشك مرتفع بالظرف لاعتماده على الاستفهام وجعله مبتدأ على ان الظرف خبره
يفضى الى الفصل بين الموصوف والصفة بالاجنبى اعنى المبتدأ والفاعل ليس
باجنبى من رافعه وقد جوّز ذلك ايضا يدعوكم الى الايمان بارساله ايانا
لا انا ندعوكم اليه من تلقاء انفسنا كما يوهمه قولكم مما تدعوننا اليه ليغفر
لكم بسببه او يدعوكم لاجل المغفرة كقولك دعوته لينا كل معى من ذنوبكم
اى بعضها وهو ما عدا المظالم مما بينهم وبينه تعالى فان الاسلام يجبه قيل
هكذا وقع فى جميع القرآن فى وعد الكفرة دون وعد المؤمنين تفرقة بين الوعدين
ولعل ذلك لما ان المغفرة حيث جاءت فى خطاب الكفرة مرتبة على محض الايمان وفى
شان المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنب عن المعاصى ونحو ذلك فيتناول الخروج
عن المظالم وقيل المعنى ليغفر لكم بدلا من ذنوبكم ويؤخركم الى اجل مسمى
الى وقت سماه الله تعالى وجعله منتهى اعماركم على تقدير الايمان قالوا استيناف كما
سبق ان انتم اى ما انتم الا بشر مثلنا من غير فضل يؤهلكم لما تدعونه
من النبوة تريدون صفة ثانية لبشر حملا على المعنى كقوله ابشر يهدوننا او كلام
مستانف اى تريدون بما تتصدون له من الدعوة والارشاد ان تصدونا

بتخصيص

بتخصيص العبادة بالله سبحانه عما كان يعبد اباؤنا اى عن عبادة ما استمر اباؤنا على
عبادته من غير شئ يوجبه والا فاتونا اى ان لم يكن الامر كما قلنا بل كنتم رسلا من
جهة الله تعالى كما تدعونه فاتونا بسلطان مبين يدل على فضلكم واستحقاقكم
لتلك الرتبة او على صحة ما تدعونه من النبوة حتى نترك ما لم نزل نعبده ابا عن جد
ولقد كانوا اتوهم من الايات الظاهرة والبينات الباهرة ما تخر له صم الجبال ولكنهم
انما يقولون ما يقولون من العظائم مكابرة وعنادا وارائة لمن وراءهم ان ذلك
ليس من جنس ما ينطلق عليه السلطان المبين قالت لهم رسلهم مجاراة معهم
فى اول مقالتهم وانما قيل لهم لاختصاص الكلام بهم حيث اريد الزامهم
بخلاف ما سلف من انكار الوقوع الشك فى الله سبحانه فان ذلك عام وان اختص
بهم ما يعقبه ان نحن الا بشر مثلكم كما تقولون ولكن الله يمن بالنبوة على
من يشاء من عباده يعنون ان ذلك عطية من الله تعالى يعطيها من يشاء من عباده
لمحض الفضل والامتنان من غير داعية توجبه قالوه تواضعا وهضما للنفس وما نحن
من الملائكة بل نحن بشر مثلكم فى الصورة او فى الدخول تحت الجنس ولكن الله تعالى
يمن بالفضائل والكمالات والاستعدادات على من يشاء المن بها وما يشاء ذلك الا
لعلمه باستحقاقه لها وتلك الفضائل والكمالات والاستعدادات هى التى يدور عليها
فلك الاصطفاء للنبوة وما كان وما صح وما استقام لنا ان ناتيكم بسلطان
اى بحجة من الحجج فضلا عن السلطان المبين بشئ من الاشياء الا باذن الله فانه
امر يتعلق بمشيئته تعالى ان شاء كان والا فلا وعلى الله وحده دون ما عداه مطلقا
فليتوكل المؤمنون امر منهم للمؤمنين بالتوكل ومقصودهم حمل انفسهم عليه
اثر ذى اثير الا يرى الى قوله عز وجل ومالنا اى اى عذر لنا ان لا نتوكل على الله
اى فى ان نتوكل عليه والاظهار لاظهار النشاط بالتوكل عليه والاستلذاذ بذكر اسمه
تعالى وتعليل التوكل وقد هدانا اى والحال انه قد فعل بنا ما يوجبه ويستدعيه حيث
هدانا سبلنا اى ارشد كلا منا سبيله ومنهاجه الذى شرع له واوجب عليه
سلوكه فى الدين وحيث كانت اذية الكفار مما يوجب سآمة القلوب والاضطراب القادح
فى التوكل قالوا على سبيل التوكيد القسمى مظهرين لكمال العزيمة ولنصبرن على ما آذيتمونا
بالعناد واقتراح الايات وغير ذلك مما لا خير فيه وعلى الله خاصة فليتوكل
المتوكلون اى فليثبت المتوكلون على ما احدثوه من التوكل والمراد هو المراد مما
سبق من ايجاب التوكل على انفسهم والمراد بالمتوكلين المؤمنون والتعبير عنهم
بذلك لسبق ذكر اتصافهم به ويجوز ان يراد وعليه فليتوكل من يتوكل دون غيره
وقال الذين كفروا لعل هؤلاء القائلين بعض المتمردين العاتين الغالين فى الكفر
من اولئك الامم الكافرة التى نقلت مقالاتهم الشنيعة دون جميعهم كقوم شعيب
واضرابهم ولذلك لم يقل وقالوا لرسلهم لنخرجنكم من ارضنا او لتعودن فى
ملتنا لم يقتنعوا بعصيانهم الرسل ومعاندتهم الحق بعد ما رأوا البينات
الفائتة للحصر حتى اجترؤا على مثل هاتيك العظيمة التى لا يكاد يحيط بها دائرة
الامكان فحلفوا على ان يكونوا احد الامرين والعود اما بمعنى مطلق الصيرورة
او باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل وقد مر فى سورة الاعراف وسياتى فى الكهف
فاوحى اليهم اى الى الرسل ربهم مالك امرهم عند تناهى كفر الكفرة وبلوغهم
من العتو الى غاية لا مطمع بعدها فى ايمانهم لنهلكن الظالمين على اضمار
القول او على اجراء الايحاء مجراه لكونه ضربا منه ولنسكننكم الارض اى
ارضهم وديارهم عقوبة لهم بقولهم لنخرجنكم من ارضنا كقوله تعالى
واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها من بعدهم
اى من بعد اهلاكهم وقرئ ليهلكن وليسكننكم بالياء اعتبارا لاوحى
كقولهم حلف زيد ليخرجن غدا ذلك اشارة الى الموحى به وهو اهلاك

الظالمين واسكان المؤمنين ديارهم اى ذلك الامر محقق ثابت لمن خاف مقامى
موقفى وهو الموقف الذى يقف فيه العباد يوم يقوم الناس لرب العالمين او قيامى
عليه وحفظى لاعماله وقيل لفظ المقام مقحم وخاف وعيد وعيدى بالعذاب
او عذابى الموعود للكفار والمعنى ان ذلك حق للمتقين كقوله تعالى والعاقبة للمتقين
واستفتحوا اى استنصروا الله على اعدائهم كقوله تعالى ان تستفتحوا فقد جاءكم
الفتح او استحكموا او سألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهى الحكومة كقوله تعالى
ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق فالضمير للرسل وقيل للكفرة وقيل للفريقين فانهم
سألوا ان ينصر المحق ويهلك المبطل وهو معطوف على اوحى اليهم وقرئ بلفظ الامر
عطفا على لنهلكن الظالمين اى اوحى اليهم ربهم لنهلكن وقال لهم استفتحوا وخاب
اى خسر وهلك كل جبار عنيد متصف بضد ما اتصف به المتقون اى
فنصروا عند استفتاحهم وظفروا بما سألوا وافلحوا وخاب كل جبار عنيد وهم
قومهم المعاندون فالخيبة بمعنى مطلق الحرمان دون الحرمان عن المطلوب او ذلك
باعتبار انهم كانوا يزعمون انهم على الحق او استفتح الكفار على الرسل وخابوا ولم
يفلحوا وانما قيل وخاب كل جبار عنيد ذما لهم وتسجيلا عليهم بالتجبر والعناد
لا ان بعضهم ليسوا كذلك وانه لم يصبهم الخيبة او استفتحوا جميعا فنصر الرسل
وانجز لهم الوعد وخاب كل عات متمرد فالخيبة بمعنى الحرمان عن الطلب وفى اسناد
الخيبة الى كل منهم ما لا يخفى من المبالغة من ورائه جهنم اى بين يديه
فانه مرصد لها واقف على شفيرها فى الدنيا مبعوث اليها فى الآخرة وقيل من
وراء حياته وحقيقته ما توارى عنك ويسقى معطوف على مقدر جوابا عن سؤال
سائل كانه قيل فماذا يكون اذن فقيل يلقى ويسقى من ماء مخصوص لا كالمياه
المعهودة صديد وهو قيح اى دم مختلط بمدة يسيل من الجرح قال مجاهد وغيره
وهو يسيل من اجساد اهل النار وهو عطف بيان لما ابهم اولا ثم بين بالصديد
تهويلا للامر وتخصيصه بالذكر من بين عذابها يدل على انه من اشد انواعه
يتجرعه قيل هو صفة الماء او حال منه والاظهر انه استيناف مبنى على السؤال كانه
قيل فماذا يفعل به فقيل يتجرعه اى يتكلف جرعه مرة بعد اخرى لغلبة العطش واستيلاء الحرارة
عليه ولا يكاد يسيغه اى لا يقارب ان يسيغه فضلا عن الاساغة بل يغص به فيشربه
بعد اللتيا والتى جرعة غب جرعة فيطول عذابه تارة بالحرارة والعطش واخرى
بشربه على تلك الحال فان السوغ انحدار الشراب فى الحلق بسهولة وقبول نفس ونفيه
لا يوجب نفى ما ذكر جميعا وقيل لا يكاد يدخله فى جوفه وعبر عنه بالاساغة لما انها
المعهودة فى الاشربة وهو حال من يتجرعه او من مفعوله او منهما جميعا ويأتيه
الموت اى اسبابه من الشدائد من كل مكان ويحيط به من جميع الجهات او من
كل مكان من جسده حتى من اصول شعره وابهام رجله وما هو بميت اى
والحال انه ليس بميت حقيقة كما هو الظاهر من مجئ اسبابه لا سيما من جميع الجهات
حتى لا يتألم بما غشيه من اصناف الموبقات ومن ورائه من بين يديه عذاب
غليظ يستقبل كل وقت عذابا اشد واشق مما كان قبله ففيه دفع ما يتوهم من
الخفة بحسب الاعتياد كما فى عذاب الدنيا وقيل هو الخلود فى النار وقيل هو حبس
الانفاس وقيل المراد بالاستفتاح والخيبة استسقاء اهل مكة فى سنيهم التى
ارسلها الله تعالى عليهم بدعوته صلى الله عليه وسلم وخيبتهم فى ذلك ووعد لهم
بدل ذلك صديد اهل النار مثل الذين كفروا بربهم اى صفتهم وحالهم
العجيبة الشان التى هى كالمثل فى الغرابة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى اعمالهم
كرماد كقولك صفة زيد عرضه مهتوك وماله منهوب او هو استيناف مبنى على
سؤال من قال ما بال اعمالهم التى عملوها فى وجوه البر من صلة الارحام واعتاق
الرقاب وفداء الاسارى واغاثة الملهوفين وقرى الاضياف وغير ذلك مما هو من

باب

باب المكارم حتى آل امرهم الى هذا المآل فاجيب بان ذلك كرماد اشتدت به الريح
حملته واسرعت الذهاب به فى يوم عاصف العصف اشتداد الريح وصف به زمانها
مبالغة كقولك ليلة ساهرة وانما السكون لريحها شبهت صنايعهم المعدودة لابتنائها
على اساس من معرفة الله تعالى والايمان به والتوجه بها اليه تعالى برماد طيرته الريح
العاصفة او استيناف مسوق لبيان اعمالهم للاصنام او مبتدأ خبره محذوف كما هو
رأى سيبويه اى فيما يتلى عليك مثلهم وقوله اعمالهم جملة مستأنفة مبنية على سؤال
من يقول كيف مثلهم فقيل اعمالهم كيت وكيت سواء اريد بها صنايعهم او اعمالهم
لاصنامهم وقيل اعمالهم بدل من مثل الذين وقوله كرماد خبره لا يقدرون اى يوم
القيمة مما كسبوا من تلك الاعمال على شئ ما اى لا يرون له اثرا من ثواب او تخفيف
عذاب كعذاب الرماد المذكور وهو فذلكة التمثيل والاكتفاء ببيان عدم رؤية الاثر
لاعمالهم للاصنام مع ان لها عقوبات هائلة للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم
انها شفعاء لهم عند الله تعالى وفيه تهكم بهم ذلك اى ما دل عليه التمثيل دلالة
واضحة من ضلالهم مع حسبانهم انهم على شئ هو الضلال البعيد عن طريق
الصواب او عن نيل الثواب ألم تر خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد
به امته وقيل لكل احد من الكفرة لقوله تعالى يذهبكم والرؤية رؤية القلب وقوله
تعالى ان الله خلق السموات والارض ساد مسد مفعوليها اى الم تعلم انه تعالى
خلقهما بالحق ملتبسة بالحكمة والوجه الصحيح الذى يحق ان تخلق عليه وقرئ
خالق السموات والارض ان يشأ يذهبكم يعدمكم بالمرة ويأت بخلق جديد
اى يخلق بدلكم خلقا آخر مستأنفا لا علاقة بينكم وبينهم رتب قدرته تعالى على ذلك
على قدرته تعالى على خلق السموات والارض على هذا النمط البديع ارشادا الى طريق
الاستدلال فان من قدر على خلق مثل هاتيك الاجرام العظيمة كان على تبديل
خلق آخر بهم اقدر ولذلك قال وما ذلك اى ذهابكم والاتيان بخلق جديد
مكانكم على الله بعزيز بمتعذر او متعسر فانه قادر لذاته على جميع الممكنات
لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ومن هذا شأنه حقيق بان يؤمن به و
يرجى ثوابه ويخشى عذابه وبرزوا لله جميعا اى يبرزون يوم القيمة وايثار
صيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوعه كما فى قوله سبحانه ونادى اصحاب الجنة
اصحاب النار ولانه لا مضى ولا استقبال بالنسبة اليه سبحانه والمراد بروزهم
من قبورهم لامر الله تعالى ومحاسبته او لله على ظنهم فانهم كانوا يظنون
عند ارتكابهم الفواحش سرا انها تخفى على الله سبحانه فاذا كان يوم القيمة
انكشفوا لله عند انفسهم فقال الضعفاء الاتباع جمع ضعيف والمراد ضعف
الرأى وانما كتب بالواو على لفظ من يفخم الالف قبل الهمزة للذين استكبروا
لرؤسائهم الذين استتبعوهم واستغووهم انا كنا فى الدنيا لكم تبعا فى تكذيب
الرسل والاعراض عن نصائحهم وهو جمع تابع كغيب فى جمع غائب او مصدر نعت به
به مبالغة او على اضمار اى ذوى تبع فهل انتم مغنون دافعون عنا والفاء
للدلالة على سببية الاتباع للاغناء والمراد التوبيخ والعتاب والتقريع والتبكيت
من عذاب الله من شئ من الاولى للبيان واقعة موقع الحال والثانية للتبعيض
واقعة موقع المفعول اى بعض الشئ الذى هو عذاب الله تعالى ويجوز كونهما
للتبعيض اى بعض شئ هو بعض عذاب الله والاعراب كما سبق ويجوز ان يكون
الاولى مفعولا والثانية مصدرا اى فهل انتم مغنون عنا بعض العذاب بعض
الاغناء ويعضد الاول قوله تعالى فهل انتم مغنون عنا نصيبا من النار قالوا
اى المستكبرون جوابا عن معاتبة الاتباع واعتذارا عما فعلوا بهم لو هدانا
الله اى للايمان ووفقنا له لهديناكم ولكن ضللنا فاضللناكم اى اخترنا لكم
ما اخترناه لانفسنا ولو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم واغنينا عنكم

كما عرضنا لكم له ولكن سدّ دوننا طريق الخلاص ولات حين مناص سواء علينا اجزعنا
مما لقينا ام صبرنا على ذلك اى مستو علينا الجزع والصبر فى عدم الانجاء والهمزة وام
لتاكيد التسوية كما فى قوله تعالى سواء عليهم ءانذرتهم ام لم تنذرهم وانما
اسندوها ونسبوا استواهما الى ضمير المتكلم المنتظم للمخاطبين ايضا مبالغة فى النهي
عن التوبيخ باعلام انهم شركاء لهم فيما ابتلوا به وتسلية لهم ويجوز ان يكون
قوله سواء علينا الخ من كلام الفريقين على منوال قوله تعالى ذلك ليعلم انى لم اخنه و
يؤيده ما روي انهم يقولون تعالوا نجزع فيجزعون خمسماية عام فلا ينفعهم فيقولون
تعالوا نصبر فيصبرون كذلك فلا ينفعهم فعند ذلك يقولون ذلك ولما كان عتاب
الاتباع من باب الجزع ذيلوا جوابهم ببيان لا جدوى فى ذلك فقالوا ما لنا من محيص
من منجى ومهرب من العذاب من حاص الحمار اذا عدل بالفرار وهو اما اسم مكان
كالمبيت والمصيف او مصدر كالمغيب والمشيب وهى جملة معترضة لاجمال ما فيه
الاستواء فلا محل لها من الاعراب او حال موكّدة او بدل منه وقال الشيطان
الذي اضل كلا الفريقين واستتبعهما عند ما عتباه بما قاله الاتباع للمستكبرين لما قضى
الامر اى احكم وفرغ منه وهو الحساب ودخل اهل الجنة الجنة واهل النار
النار خطيبا فى محفل الاشقياء من الثقلين ان الله وعدكم وعد الحق اي
وعدا من حقه ان ينجز فانجزه او وعدا انجزه وهو الوعد بالبعث والجزاء ووعدتكم
اي وعدا باطلا وهو ان لا بعث ولا حساب ولئن كان فالاصنام بشفعائكم ولم
يصرح ببطلانه لما دل عليه قوله فاخلفتكم اى موعدى على حذف المفعول الثاني
اى نقضته جعل خلف وعده كالاخلاف منه كانه كان قادرا على انجازه وانى له
ذلك وما كان لى عليكم من سلطان اى تسلطا وحجة تدل على صدقى الا
ان دعوتكم الا دعائى اياكم اليه وتسويله وهو وان لم يكن من باب السلطان
لكنه ابرزه فى معرضه على طريقة تحية بينهم ضرب وجيع مبالغة فى نفى السلطان عن
نفسه كانه قال انما يكون لى عليكم سلطان اذا كان مجرد الدعاء من بابه ويجوز كون
الاستثناء منقطعا فاستجبتم لى فاسرعتم اجابتى فلا تلوموني بوعدي
اياكم حيث لم يكن ذلك على طريقة القسر والالجاء كما يدل عليه الفاء وقرى بالياء على
وجه الالتفات كما فى قوله تعالى حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم ولوموا انفسكم حيث
استجبتم لي باختياركم حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل بمجرد تزيين وتسويل
ولم تستجيبوا ربكم اذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبينات والحجج وليس مراده التنصل
عن توجه اللائمة اليه بالمرة بل بيان انهم احق بها منه وليس فيه دلالة على استقلال
العبد فى افعاله كما زعمت المعتزلة بل يكفى فى ذلك ان يكون لقدرته الحاسبة التى
عليها يدور فلك التكليف مدخل فيه فان سبحانه حينئذ انما يخلق افعاله حسبما يختاره
وعليه يترتب السعادة والشقاوة وما قيل من انه يستدعى ان يقال فلا تلوموني ولا
انفسكم فان الله قضى عليكم الكفر واجبركم عليه مبنى على عدم الفرق بين مذهب
اهل الحق وبين مسلك الجبرية ما انا بمصرخكم اى بمغيثكم مما انتم فيه من
العذاب وما انتم بمصرخي مما انا فيه بذلك مع انه لم يكن فى حيز الاحتمال مبالغة
فى بيان عدم اصراخه اياهم وايذانا بانه ايضا مبتلى بمثل ما ابتلوا به ومحتاج
الى الاصراخ فكيف من اصراخ الغير ولذلك اثر الجملة الاسمية فكان ما مضى كان
جوابا منه عن توبيخهم وتقريعهم وهذا جواب عن استغاثتهم واستعانتهم
به فى استدفاع ما دهمهم من العذاب وقرى بكسر الياء انى كفرت اليوم بما اشركتمون
من قبل اي باشراككم اياى بمعنى تبرات منه واستنكرته كقوله تعالى ويوم القيمة
يكفرون بشرككم يعنى ان اشراككم لى بالله سبحانه هو الذى يطمعكم فى نصرتى لكم
بان كان لكم على حق حيث جعلتمونى معبودا وكنت اود ذلك وارغب فيه فاليوم
كفرت بذلك ولم احمده ولم اقبله منكم بل تبرات منه ومنكم فلم يبق بينى وبينكم علاقة

او كفرت

او كفرت من قبل حين ابيت السجود لادم بالذي اشركتمونيه وهو الله عز وجل كما فى قوله
سبحان ما سخر لنا فيكون تعليلا لعدم اصراخه فان الكافر بالله سبحانه بمعزل من الاغاثة
والاعانة سواء كان ذلك بالمدافعة او الشفاعة واما جعله تعليلا لعدم اصراخهم
اياه فلا وجه له اذ لا احتمال له حتى يحتاج الى التعليل ولان تعليل عدم اصراخهم بكفره
يوهم انهم بسبيل من ذلك لولا المانع من جهته ان الظالمين لهم عذاب اليم تتمة كلامه
او ابتداء كلام من جهته عز وجل وفى حكاية امثاله لطف للسامعين وايقاظ لهم
حتى يحاسبوا انفسهم ويتدبروا عواقبهم وادخل الذين امنوا وعملوا الصالحات جنات
تجري من تحتها الانهار خالدين فيها باذن ربهم اى بامره وبتوفيقه وهدايته
وفى التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم اظهار مزيد اللطف بهم و
المدخلون هم الملائكة عليهم السلام وقرى على صيغة التكلم فيكون قوله تعالى باذن
ربهم متعلقا بقوله تعالى تحيتهم فيها سلام اى تحيتهم الملائكة بالسلام باذن ربهم
الم تر الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وقد علق بما بعده من قوله تعالى كيف
ضرب الله مثلا اى كيف اعتمده ووضعه فى موضعه اللائق به كلمة طيبة منصوب
بمضمر اي جعل كلمة طيبة هى كلمة التوحيد او كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة و
الاستغفار والتوبة والدعوة كشجرة طيبة اى حكم بانها مثلها لا انه تعالى صيرها مثلها
فى الخارج وهو تفسير لقوله تعالى ضرب الله مثلا كقولك شرف الامير زيدا كساه حلة وحمله
على فرس ويجوز ان يكون كلمة بدلا من مثلا وكشجرة صفتها او خبر مبتدا محذوف
اي هى كشجرة وان يكون اول مفعولى ضرب اجراء له مجرى جعل قدم عن ثانيها اعنى مثلا
لئلا يبعد عن صفته التى هى كشجرة وقد قرئت بالرفع على الابتداء اصلها ثابت اي
ضارب بعروقه فى الارض وقرا انس بن مالك رضى الله عنه كشجرة طيبة ثابت اصلها
وقراءة الجماعة اقوى سبكا وانسب بقرينته اعنى قوله تعالى وفرعها اى اعلاها فى
السماء فى جهة العلو ويجوز ان يراد وفروعها على الاكتفاء بلفظ الجنس عن الجمع
تؤتى اكلها تعطى ثمرها كل حين وقته الله تعالى لاثمارها باذن ربها بارادة
خالقها والمراد بالشجرة المنعوتة اما النخلة كما روي مرفوعا او شجرة فى الجنة
ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون لان فى ضربها زيادة افهام وتذكير
فانه تصوير للمعانى بصور المحسوسات ومثل كلمة خبيثة هى كلمة الكفر والدعاء اليه
او تكذيب الحق او ما يعم الكل او كل كلمة قبيحة كشجرة خبيثة اى كمثل شجرة خبيثة
قيل هى كل شجرة لا يطيب ثمرها كالحنظل والكشوث ونحوهما وتغيير الاسلوب للايذان
بان ذلك غير مقصود الضرب والبيان وانما ذلك امر ظاهر يعرفه كل احد اجتثت
استوصلت واخذت جثته بالكلية من فوق الارض لكون عروقها قريبة منها
ما لها من قرار استقرار عليها يثبت الله الذين امنوا بالقول الثابت الذي ثبت
بالحجة عندهم وتمكن فى قلوبهم وهو الكلمة الطيبة التى ذكرت صفتها العجيبة فى
الحيوة الدنيا فلا يزالون عنه اذا افتتنوا فى دينهم كزكريا ويحيى وجرجيس و
شمسون والذين فتنهم اصحاب الاخدود وفى الاخرة فلا يتلعثمون اذا سئلوا
عن معتقدهم فى الموقف ولا يدهشهم اهوال القيمة او عند سؤال القبر روي انه عليه
الصلوة والسلام ذكر قبض روح المؤمن فقال ثم يعاد روحه فى جسده فياتيه ملكان
فيجلسانه فى قبره فيقولان من ربك وما دينك ومن نبيك فيقول ربي الله ودينى
الاسلام ونبيى محمد صلى الله عليه وسلم فينادي مناد من السماء ان صدق عبدي
فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين امنوا بالقول الثابت وهذا مثال ايتاء الشجرة المذكورة
اكلها كل حين قال الثعلبى فى تفسيره اخبرنى ابو القاسم بن حبيب فى سنة ست و
ثمانين وثلثمائة قال سمعت ابا الطيب محمد بن على الخياط يقول سمعت سهل بن عمار
العتكى يقول رايت يزيد بن هرون فى منامى بعد موته فقلت ما فعل الله بك قال اتانى
فى قبرى ملكان فظان فقالا من ربك وما دينك ومن نبيك فاخذت بلحيتى البيضاء

فقلت لهما المثل يقال هذا وقد علمت الناس جوا بكما ثمانين سنة فذهبا ﴿ويضل الله الظالمين﴾ اي يخلق فيهم الضلال عن الحق الذي ثبت المؤمنين عليه حسبما ارادته واختيارهم والمراد بهم الكفرة بدليل ما يقابله ووصفهم بالظلم اما باعتبار وضعهم الشيء في غير موضعه واما باعتبار ظلمهم لانفسهم حيث بدلوا فطرة الله التي فطر الناس عليها فلم يهتدوا الى القول الثابت او كل من ظلم نفسه بالاقتصار على التقليد والاعراض عن البينات الواضحة فلا يتثبت في مواقف الفتن ولا يهتدي الى الحق فالمراد بالذين امنوا حينئذ المخلصون في الايمان الراسخون في الايقان كما ينبئ عنه التثبيت لكنه يوهم كون كلمة التوحيد اذا كانت لا عن ايقان داخلة تحت ما لا قرار له من الشجرة المضروبة مثلا ﴿ويفعل الله ما يشاء﴾ من تثبيت بعض واضلال اخرين حسبما يوجبه مشيئته التابعة للحكم البالغة المقتضية لذلك وفي اظهار الاسم الجليل في الموضعين من الفخامة وتربية المهابة ما لا يخفى مع ما فيه من الايذان بالتفاوت في مبدأ التثبيت والاضلال فان مبدأ صدور كل منهما عنه سبحانه وتعالى من صفاته العلى غير ما هو مبدأ صدور الاخر ﴿الم تر﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل احد مما صنع الكفرة من الاباطيل التي لا تكاد تصدر عمن له ادنى ادراك اي الم تنظر ﴿الى الذين بدلوا نعمة الله﴾ اي شكر نعمته تعالى بان وضعوا موضعه كفرا عظيما وغمطا لها او بدلوا نفس النعمة كفرا فانهم لما كفروها سلبوها فصاروا مستبدلين بها كفرا كاهل مكة حيث خلقهم الله تعالى واسكنهم حرمة الامن الذي يجبى اليه ثمرات كل شيء وجعلهم قوام بيته وشرفهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فكفروا ذلك فقحطوا سبع سنين وقتلوا واسروا يوم بدر فصاروا او لا مسلوبي النعمة باقين بالكفر بدلها وعن عمر وعلي رضي الله عنهما هم الافجران من قريش بنوا المغيرة وبنوا امية فاما ... فكفيتموهم يوم بدر واما بنوا امية فمتعوا الى حين كانهما يتاق لان ما سيتلى من قوله عز وجل قل تمتعوا الاية ﴿واحلوا﴾ اي انزلوا ﴿قومهم﴾ بارشادهم اياهم الى طريقة الشرك والضلال وعدم التعرض لحلولهم لدلالة الاحلال عليه اذ هو فرع الحلول كقوله تعالى يقدم قومه يوم القيمة فاوردهم النار ﴿دار البوار﴾ دار الهلاك الذي لا هلاك وراءه ﴿جهنم﴾ عطف بيان لها وفي الابهام ثم البيان ما لا يخفى من التهويل ﴿يصلونها﴾ حال منها او من قومهم اي داخلين فيها مقاسين لحرها او استئناف لبيان كيفية الحلول او مفسر لفعل يقدر ناصبا لجهنم فالمراد بالاحلال المذكور حينئذ تعريضهم للهلاك بالقتل والاسر لكن قوله تعالى قل تمتعوا فان مصيركم الى النار انسب بالتفسير الاول ﴿وبئس القرار﴾ على حذف المخصوص بالذم اي بئس المقر جهنم او بئس القرار قرارهم فيها وفيه بيان ان حلولهم وصليهم على وجه الدوام وجعلوا عطف على احلوا وما عطف عليه داخل معهما في حيز الصلة وحكم التعجيب في اعتقادهم وحكمهم ﴿لله﴾ الفرد الصمد الذي ليس كمثله شيء وهو الواحد القهار ﴿اندادا﴾ اشباها في التسمية او في العبادة ﴿ليضلوا﴾ قومهم الذين يشايعونهم حسبما ضلوا ﴿عن سبيله﴾ القويم الذي هو التوحيد ويوقعوهم في ورطة الكفر والضلال ولعل تغيير الترتيب مع ان مقتضى ظاهر النظم ان يذكر كفرانهم نعمة الله تعالى ثم كفرهم بذاته تعالى باتخاذ الانداد ثم اضلالهم لقومهم المؤدي الى احلالهم دار البوار لتثنية التعجيب وتكريره والايذان بان كل واحد من وضع الكفر موضع الشكر واحلال القوم دار البوار واتخاذ الانداد للاضلال امر يقضى منه العجب ولو سيق النظم على نسق الوجود لربما فهم التعجيب من مجموع الهنات الثلاث كما في قصة البقرة وقرئ ليضلوا بالفتح واياما كان فليس ذلك غرضا حقيقيا لهم من اتخاذ الانداد لكن لما كان ذلك نتيجة لهم شبه بالغرض وادخل عليه اللام بطريق الاستعارة التبعية ﴿قل﴾ تهديدا لاولئك الضالين المضلين ونعيا عليهم وايذانا بانهم لشدة ابائهم قبول الحق وفرط انهماكهم في الباطل وعدم ارعوائهم عن ذلك بحال

احقاء

احقاء بان يضرب عنهم صفحا ويعطف عنهم عنان العظة وبخلوا وشأنهم ولا ينهوا عنه بل يؤمروا بمباشرته مبالغة في التخلية والخذلان ومسارعة الى بيان عاقبته الوخيمة ويقال لهم ﴿تمتعوا﴾ بما انتم عليه من الشهوات التي من جملتها كفران النعم العظام واستتباع الناس في عبادة الاصنام ﴿فان مصيركم الى النار﴾ ليس الا فلا بد لكم من تعاطي ما يوجب ذلك ويقتضيه من احوالكم بل هي في الحقيقة صورة لا حقيقة لها له حسبما يلوح به قوله سبحانه واحلوا قومهم دار البوار الخ فهو تعليل للامر المأمور وفيه من التهديد الشديد والوعيد الاكيد ما لا يوصف او قل لهم تصويرا لحالهم وتعبيرا عما يجيئهم الى ذلك تمتعوا ايذانا بانهم لفرط انغماسهم في التمتع بما هم فيه من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم مأمورون بذلك من قبل امر الشهوة مذعنون لحكمه منقادون لامره كذاب مأمور ساع في طاعة امر مطاع فليس قوله تعالى فان مصيركم الى النار حينئذ تعليلا للامر بل هو جواب الشرط ينسحب عليه الكلام كانه قيل هذه حالكم فان دمتم عليه فان مصيركم الى النار وفيه التهديد والوعيد لا في الامر ﴿قل لعبادي الذين امنوا﴾ خصهم بالاضافة اليه تنويها لهم وتنبيها على انهم المقيمون لوظائف العبودية الموفون بحقوقها وترك العطف بين الامرين للايذان بتباين حالهما باعتبار المقول تهديدا وتشريفا والمقول ههنا محذوف دل عليه الجواب اي قل لهم اقيموا وانفقوا ﴿يقيموا الصلوة وينفقوا مما رزقناهم﴾ اي يداوموا على ذلك وفيه ايذان بكمال مطاوعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم وغاية مسارعتهم الى الامتثال باوامره وقد جوز ان يكون المقول يقيموا وينفقوا بحذف لام الامر عنهما وانما حسن ذلك دون الحذف في قوله محمد تفد نفسك كل نفس اذا ما خفت من امر تبالا لدلالة قل عليه وقيل هما جوابا اقيموا وانفقوا قد اقيما مقامهما وليس بذاك ﴿سرا وعلانية﴾ منتصبان على المصدرية من الامر المقدر لا من جواب الامر المذكور اي انفقوا انفاق سر وعلانية والاحب في الانفاق اخفاء المتطوع به واعلان الواجب والمراد حث المؤمنين على الشكر لنعم الله سبحانه بالعبادة البدنية والمالية وترك التمتع بمتاع الدنيا والركون اليها كما هو صنيع الكفرة ﴿من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه﴾ فيبتاع المقصر ما يتلافى به تقصيره او يفتدي به نفسه والمقصود نفي عقد المعاوضة بالمرة وتخصيص البيع بالذكر للايجاز مع المبالغة في نفي العقد اذ انتفاء البيع يستلزم انتفاء الشراء على ابلغ وجه وانتفاؤه ربما يتصور مع تحقق الايجاب من قبل البائع ﴿ولا خلال﴾ ولا مخالة فيشفع له خليل او يسامحه بما يفتدي به نفسه او من قبل ان يأتي يوم لا ثمرة فيه لما لهجوا بتعاطيه من البيع والمخالة ولا انتفاع بذلك وانما الانتفاع والارتفاق فيه بالانفاق لوجه سبحانه والظاهر ان من متعلقة بانفقوا وتذكير اتيان ذلك اليوم لتاكيد مضمونه كما في سورة البقرة من حيث ان كلا من فقدان الشفاعة وما يتدارك به التقصير معاوضة وتبرعا وانقطاع اثار البيع والخلال الواقعين في الدنيا وعدم الانتفاع بهما من اقوى الدواعي الى الاتيان بما يبقى عوائده ويدوم فوائده من الانفاق في سبيل الله عز وجل او من حيث ان ادخار المال وترك انفاقه انما يقع غالبا للتجارات والمهادات فحيث لا يمكن ذلك في الاخرة فلا وجه لادخاره الى وقت الموت وتخصيص التاكيد بذلك لميل الطباع الى المال وكونها مجبولة على حبه والضنة به ولا يبعد ان يكون تاكيدا لمضمون الامر باقامة الصلوة ايضا من حيث ان تركها كثيرا ما يكون بالاشتغال للبياعات والمخالات كما في قوله تعالى واذا راوا تجارة او لهوا انفضوا اليها وقرئ بالفتح فيهما على ارادة النفي العام ودلالة الرفع على ذلك باعتبار خطابي هو وقوعه في جواب هل فيه بيع او خلال ﴿الله﴾ مبتدأ خبره ﴿الذي خلق السموات﴾ وما فيها من الاجرام العلوية ﴿والارض﴾ وما فيها من انواع المخلوقات لما ذكر احوال الكافرين لنعم الله تعالى وامر المؤمنين باقامة مراسم الطاعة شكرا لنعمه شرع في تفصيل ما يستوجب

على كافة الانام المثابرة على الشكر والطاعة من النعم العظام والمنن الجسام حثا للمومنين
عليها وتقريعا للكفرة المخلين بها الواضعين موضعها الكفر والمعاصي وفي جعل المبتدا الاسم
الجليل والخبر الاسم الموصول بتلك الافاعيل العظيمة من خلق هذه الاجرام العظايم وانزال
الامطار واخراج الثمرات وما يتلوها من الآثار العجيبة ما لا يخفى من تربية المهابة
والدلالة على قوة السلطان وانزل من السماء اى السحاب فان كل ما علاك سماء
او من الفلك فان المطر منه يبتدئ الى السحاب ومنه الى الارض على ما دلت عليه ظواهر
النصوص او من اسباب سماوية تثير الاجزاء الرطبة من اعماق الارض الى الجو فينعقد
سحابا ماطرا وايا ما كان فمن ابتدائية ماء اى نوعا منه هو المطر وتقديم المجرور على
المنصوب اما باعتبار كونه مبدأ لنزوله او لتشريفه كما في قولك اعطاه السلطان
من خزانته مالا او لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر فاخرج به بذلك الماء
من الثمرات الفائتة للحصر اما لان صيغ الجموع يتعاور بعضها موضع بعض واما لانه
اريد بمفردها جماعة الثمرة التي في قولك ادركت ثمرة بستان فلان رزقا لكم
تعيشون به وهو بمعنى المرزوق شامل للمطعوم والملبوس مفعول له ومن للتبيين كقولك انفقت
من الدراهم الفا ويجوز ان يكون من الثمرات مفعولا ورزقا حالا منه او مصدرا
من اخرج لانه بمعنى رزق او للتبعيض بدليل قوله تعالى فاخرجنا به ثمرات كانه قيل
انزل من السماء بعض الماء فاخرج به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم اذ لم
ينزل من السماء كل الماء ولا اخرج بالمطر كل الثمار ولا جعل كل الرزق ثمرا وخروج الثمرات
وان كان بمشيته عز وجل وقدرته لكن جرت عادته تعالى بافاضة صورها وكيفياتها
على المواد الممتزجة من الماء والتراب او اودع في الماء قوة فاعلة وفي الارض قوة
قابلة يتولد من اجتماعها انواع الثمار وهو قادر على ايجاد الاشياء بلا اسباب
ومواد كما ابدع نفوس الاسباب كذلك لما ان له تعالى في انشائها مدرجا من طور
الى طور صنائع وحكما يجدد فيها لاولي الابصار عبرا وسكونا الى عظيم قدرته ليس ذلك
في ابداعها دفعة وقوله لكم صفة لقوله تعالى رزقا ان اريد به المرزوق ومفعول
به ان اريد به المصدر كانه قيل رزقا اياكم وسخر لكم الفلك بان اقدركم على صنعتها
واستعمالها والهمكم كيفية ذلك لتجري في البحر جريا تابعا لارادتكم بامره بمشيته
التي بها نيط كل شيء وتخصيصه بالذكر للتنصيص على ان ذلك ليس بمزاولة الاعمال
واستعمال الآلات كما يتراءى من ظاهر الحال وسخر لكم الانهار ان اريد بها المياه
العظيمة الجارية في الانهار العظام كما يومي اليه ذكرها عند البحر فتسخيرها جعلها
معدة لانتفاع الناس حيث يتخذون منها جداول يسقون بها زروعهم وجناتهم وما
اشبه ذلك وان اريد بها نفس الانهار فتسخيرها تيسيرها لهم وسخر لكم الشمس
والقمر دائبين يدأبان في سيرهما وانارتهما اصالة وخلافة واصلاحهما لما نيط بهما
صلاحه من المكونات وسخر لكم الليل والنهار يتعاقبان خلفة لمنامكم ومعاشكم
ولعقد الثمار وانضاجها ذكر سبحانه وتعالى انواع النعم الفائضة عليهم وابرز كل واحدة
منها في جملة مستقلة تنويها لشانها وتنبيها على رفعة مكانها وتنصيصا على كون
كل منها نعمة جليلة مستوجبة للشكر وفي التعبير عن التعريف المتعلق بما ذكر من الفلك
والانهار والشمس والقمر والليل والنهار بالتسخير عن الاشعار بما فيها من صعوبة
الماخذ وعزة المنال والدلالة على عظم السلطان وشدة المحال ما لا يخفى وتاخير تسخير
الشمس والقمر عن تسخير ما تقدمه من الامور المعدودة مع ما بينه وبين خلق السموات
من المناسبات الظاهرة لاستتباع ذكرها لذكر الارض المستدعي لذكر انزال الماء منها
اليها الموجب لذكر اخراج الرزق الذي من جملته ما يحصل بواسطة الفلك والانهار
او للتفادي عن توهم كون الكل اعني خلق السموات والارض وتسخير الشمس والقمر نعمة واحدة
كما مر في قصة البقرة واتاكم من كل ما سألتموه اى اعطاكم بعض جميع ما سألتموه
حسبما يقتضيه مشيته التابعة للحكمة والمصلحة كقوله تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء

لاخرج صح

لمن نريد اى اتاكم من كل ذلك ما احتجتم اليه ونيط به انتظام احوالكم على الوجه المقدر
فكانكم سألتموه او كل ما طلبتموه بلسان الاستعداد او كل ما سألتموه على ان من للبيان
وكلمة كل للتكثير كقولك فلان يعلم كل شيء واتاه كل الناس وعليه قوله عز وجل فتحنا
عليهم ابواب كل شيء وقيل الاصل واتاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه فحذف الثاني لدلالة
ما ابقى على ما القي وقرئ بتنوين كل على ان ما نافية ومحل ما سألتموه النصب على الحالية
اى اتاكم من كل غير سائليه وان تعدوا نعمة الله التي انعم بها عليكم لا تحصوها
لا تطيقوا بحصرها ولو اجمالا فانها غير متناهية واصل الاحصاء ان بلغ عقدا معينا
من عقود الاعداد وضع حصاة ليحفظ بها ففيه ايذان بعدم بلوغ مرتبة معتد بها من
مراتبها فضلا عن بلوغ غايتها كيف لا وما من فرد من افراد الناس وان كان في اقصى
مراتب الفقر والافلاس ممنوا باصناف العنايا مبتلى بانواع الرزايا فهو بحيث لو تاملته
الفيته متقلبا في نعم لا تحد ومنن لا تحصى ولا تعد كانه قد اعطي كل ساعة وان من
النعم ما حواه حيطة الامكان وان كنت في ريب من ذلك فقدر انه مكن ملك اقطار العالم
ودانت له كافة الامم واذعنت لطاعته السراة وخضعت لهيبته رقاب العتاة و
فاز بكل مرام ونال كل منال وحاز جميع ما في الدنيا من اصناف الاموال من غير ان يزاحمه
شريك يساهمه ثم قدر ان جميع ما فيها من حجر ومدر يواقيت غالية ونفايس
درر ثم قدر انه قد وقع من فقد مشروب او مطعوم في حالة بلغت نفسه الحلقوم فهل
يشترى وهو في تلك الحال بجميع ماله من الملك والمال لقمة تنجيه عن رداه او شربة
ترويه من ظماه ام يختار الهلاك فيذهب الاموال والاملاك بغير بدل يبقى عليه ولا
نفع يعود اليه كلا بل يبذل لذلك كل ما تحويه اليدان كائنا ما كان وليس في صفقته شائبة
الخسران فاذن تلك اللقمة او الشربة خير مما في الدنيا بالف رتبة مع انهما في طرف الثمام
ينالهما متى شاء من الليالي والايام او قدر انه قد احتبس عليه النفس فلا دخل منه
ما خرج ولا خرج منه ما ولج والحين قد حان واتاه الموت من كل مكان اما يعطي ذلك
كله بمقابلة نفس واحد بل يعطيه وهو لرايه حامد فاذن هو خير من اموال الدنيا بجملتها
ومطالبها برمتها مع انه قد اتيح له كل آن من آنات الليالي والايام حال اليقظة
والمنام هذا من الظهور والجلاء بحيث لا يكاد يخفى على احد من العقلاء وان رمت
العثور على حقيقة الحق والوقوف على كل ما جل من السر ودق فاعلم ان الانسان بمقتضى
حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتبعه من الكمالات اللائقة والملكات
الرائقة بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الالهية من العلاقة لما استقر له
القرار ولا اطمانت به الدار الا في مطمورة العدم والبوار ومهاوي الهلاك
والدمار لكن يفيض عليه من الجناب الاقدس الله تعالى شانه وتقدس في كل زمان
يمضي وكل آن يمر وينقضي من انواع الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وساير صفاته
الروحانية والنفسانية والجسمانية ما لا يحيط به نطاق التعبير ولا يعلمه الا العليم
الخبير وتوضيحه انه كما لا يستحق الوجود ابتداء لا يستحقه بقاء وانما ذلك من جناب
المبدأ الاول عز وجل فكما لا يتصور وجوده ابتداء ما لم ينسد عليه جميع انحاء عدمه
الاصلي لا يتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققه بعلته ما لم ينسد عليه جميع انحاء
عدمه الطاري لان الاستمرار والدوام من خصايص الوجود الواجبي وانت خبير
بان ما يتوقف عليه وجوده من الامور الوجودية التي هي علله وشرايطه وان وجب
كونها متناهية لوجوب تناهي ما دخل تحت الوجود لكن الامور العدمية التي لها
دخل في وجوده ليست كذلك اذ لا استحالة في ان يكون للشيء واحد موانع غير متناهية
وانما الاستحالة في دخولها تحت الوجود فارتفاع تلك الموانع التي لا تتناهى اعني
بقاءها على العدم مع امكان وجودها في انفسها في كل آن من آنات وجوده نعم غير
متناهية حقيقة لا ادعاء وكذا الحال في وجودات علله وشرايطه القريبة والبعيدة
ابتداء وبقاء وكذا في كمالاته التابعة لوجوده فاتضح انه يفيض عليه كل آن نعم لا تتناهى

من وجوه شتى فسبحانك سبحانك ما اعظم سلطانك لا يلاحظك العيون بانظارها و لا
يطالعك العقول بافكارها شانك لا يضاهى واحسانك لا يتناهى ونحن فى معرفتك
حائرون وفى اقامة مراسم شكرك قاصرون نسألك الهداية الى منهاج معرفتك
والتوفيق لاداء حقوق نعمتك لا نحصى ثناء عليك لا اله الا انت نستغفرك ونتوب
اليك ان الانسان لظلوم يظلم النعمة باغفال شكرها او بوضعه فى غير موضعه او
يظلم نفسه بتعريضها للحرمان كفار شديد الكفران وقيل ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع
كفار فى النعمة يجمع ويمنع واللام فى الانسان للجنس ومصداق الحكم بالظلم والكفران
بعض من وجد فيه من افراده ويدخل فى ذلك الذين بدلوا نعمة الله كفرا دخولا
اوليا واذ قال ابراهيم اى واذكر وقت قوله عليه السلام والمقصود من
تذكيره تذكير ما وقع فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل والمراد به تاكيد
ما سلف من تعجيبه صلى الله عليه وسلم ببيان فن آخر من جناياتهم كفروا بالنعم
الخاصة بهم بعد ما كفروا بالنعم العامة وعصوا اباهم ابراهيم عليه السلام حين
اسكنهم بمكة شرفها الله تعالى لاقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الاصنام والشكر
لنعم الله تعالى وسأله تعالى ان يجعله بلدا آمنا ويرزقهم من الثمرات ويهوي قلوب
الناس اليهم من كل اوب سحيق فاستجاب الله سبحانه دعاءه وجعله حرما آمنا يجبى
اليه ثمرات كل شئ فكفروا بتلك النعم العظام واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار
وجعلوا لله اندادا وفعلوا ما فعلوا رب اجعل هذا البلد يعنى مكة شرفها الله
سبحانه آمنا اى ذا امن او آمنا اهله بحيث لا يخاف فيه على ما مر فى سورة
البقرة والفرق بينه وبين ما فيها من قوله رب اجعل هذا بلدا آمنا ان المسؤل هناك
البلدية والامن معا وههنا الامن فقط حيث جعل هو المفعول الثانى للجعل و
جعل البلد صفة للمفعول الاول فان حمل على تعدد السؤال فلعله عليه السلام سأل
اولا كلا الامرين فاستجيب له فى احدهما وتاخر الآخر الى وقته المقدر لما يقتضيه
من الحكمة الداعية اليه ثم كرر السؤال كما هو المعتاد فى الدعاء والابتهال او
كان المسؤل اولا مجرد الامن المصحح للسكنى كما فى سائر البلاد وقد اجيب اليه و
ثانيا الامن المعهود او كان هو المسؤل فيهما وقد اجيب اليه ايضا لكن السؤال
الثانى للاستدامة والاقتصار على ذلك لانه المقصود الاصلى او لان المعتاد
فى البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الامن وان حمل على وحدة المسؤل وتكرر
الحكاية كما هو المتبادر فالظاهر ان المسؤل كلا الامرين وقد حكى اولا واقتصر
ههنا على حكاية سؤال الامن لا لمجرد ان نعمة الامن ادخل فى استيجاب الشكر
وذكره اى فى سورة البقرة انسب بتقريع الكفرة على اغفاله كما قيل بل لان سؤال البلدية قد
حكى بقوله فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم اذ المسؤل هويها اليهم للمساكنة
معهم لا للحج فقط وهو عين سؤال البلدية قد حكى بعبارة اخرى وكان ذلك
اول ما قدم عليه السلام مكة كما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما
لما اسكن اسمعيل وهاجر هناك وعاد متوجها الى الشام تبعته هاجر وجعلت تقول
الى من تكلنا فى هذا البلقع وهو لا يرد عليها جوابا حتى قالت الله امرك بهذا فقال
نعم قالت اذن لا يضيعنا فرضيت ومضى حتى اذا استوى على ثنية كدا اقبل على الوادى
فقال ربنا انى اسكنت الآية وانما فصل ما بينهما تثنية للامتنان وايذانا
بان كلا منهما نعمة جليلة مستتبعة لشكر كثير واجنبنى وبنى بعدنى واياهم
ان نعبد الاصنام واجعلنا منه فى جانب بعيد اى ثبتنا على ما كنا عليه من
التوحيد وملة الاسلام والبعد عن عبادة الاصنام وقرئ اجنبنى من الافعال
وهما لغة اهل نجد يقولون جنبنى شره واجنبنى شره واما اهل الحجاز فيقولون جنبنى
شره وفى ذلك دليل على ان عصمة الانبياء عليهم السلام بتوفيق الله تعالى والظاهر ان
المراد ببنيه اولاده الصلبية فلا احتجاج به لابن عيينة رضى الله عنه على ان احدا من

اولاد

اولاد اسماعيل عليه السلام لم يعبد الصنم وانما كان لكل قوم حجر ينصبوه وقالوا هو حجر
والبيت الحجر فكانوا يدورون به ويسمونه الدوار فاستحب ان يقال طاف بالبيت و لا
يقال دار بالبيت وليت شعرى كيف ذهب عليه ما فى القرآن العظيم من قوارع تنعى على
قريش عبادة الاصنام على ان فيما ذكره كرا على ما فر منه رب انهن اى الاصنام اضللن
كثيرا من الناس اى تسببن له كقوله تعالى وغرتهم الحيوة الدنيا وهو تعليل لدعائه
وانما صدره بالنداء اظهارا لاعتنائه به ورغبته فى استجابته فمن تبعنى منهم
فيما ادعو اليه من التوحيد وملة الاسلام فانه منى اى بعضى قاله عليه السلام
مبالغة فى بيان اختصاصه به او متصل بى لا ينفك عنى فى امر الدين ومن عصانى
اى لم يتبعنى والتعبير عنه بالعصيان للايذان بانه عليه السلام مصر على الدعوة
وان عدم اتباع من لم يتبعه انما هو لعصيانه لا لانه لم يبلغه الدعوة فانك غفور
رحيم قادر على ان تغفر له وترحمه ابتداء او بعد توبته وفيه ان كل ذنب فلله
تعالى ان يغفره حتى الشرك خلا ان الوعيد قضى بالفرق بينه وبين غيره ربنا اثر عليه
السلام ضمير الجماعة لان الماقبل من تقدم ذكره وذكر بنيه والانعاء فى قوله رب انهن
الى بلا تن الدعاء المصدر به وما اورده بصدد تمهيد مبادى اجابته من قوله انى
اسكنت الآية متعلق بذريته فالتعرض لوصف ربوبيته تعالى لهم ادخل فى القبول
واجابة المسؤل من ذريتى اى بعضهم او ذرية من ذريتى فحذف المفعول وهو
اسمعيل عليه السلام وما سيولد له فان اسكانه حيث كان على وجه الاطمئنان متضمن
لاسكانهم روى ان هاجر ام اسمعيل عليه السلام كانت لسارة فوهبتها من ابراهيم عم
فلما ولدت له اسماعيل عليه السلام غارت عليهما فناشدته ان يخرجهما من عندها
فاخرجها الى ارض مكة فاظهر الله تعالى عين زمزم بواد غير ذى زرع لا يكون فيه
زرع اصلا وهو وادى مكة شرفها الله سبحانه عند بيتك ظرف لاسكنت كقولك
صليت بمكة عند الركن لا انه صفة لواد او بدل منه اذ المقصود اظهار كون ذلك
الاسكان مع فقدان مباديه بالمرة لمحض التقرب الى الله تعالى والالتجاء الى جواره الكريم
كما ينبئ عنه التعرض لعنوان المؤذن بعزة الملتجأ وعصمته عن المكاره فى قوله تعالى
المحرم حيث حرم التعرض له والتهاون به او لم يزل معظما ممنعا يهابه الجبابرة
فى كل عصر او منع منه الطوفان فلم يستول عليه ولذلك سمى عتيقا وتسميته اذ
ذاك بيتا ولم يكن له بناء وانما كان نشزا مثل الرابية تاتيه السيول فتاخذ ذات
اليمين وذات الشمال ليست باعتبار ما سيؤل اليه الامر من بنائه عليه السلام فانه
ينزع الى اعتبار عنوان الحرمة ايضا كذلك بل انما هى باعتبار ما كان من قبل فان تعدد
بناء الكعبة المعظمة مما لا ريب فيه وانما الاختلاف فى كمية عدده وقد ذكرناها فى
سورة البقرة بفضل الله سبحانه ربنا ليقيموا الصلوة متوجهين اليه متبركين
به وهو متعلق باسكنت وتخصيصها بالذكر من بين سائر شعائر الدين لفضلها
وتكرير النداء وتوسيطه لاظهار كمال العناية باقامة الصلوة والاهتمام بعرض
ان الغرض من اسكانهم بذلك الوادى البلقع ذلك المقصد الاقصى والمطلب الاسنى
وكل ذلك لتمهيد مبادى اجابة دعائه واعطاء مسؤله الذى لا يتسنى ذلك المرام
الا به ولذلك ادخل عليه الفاء فقال فاجعل افئدة من الناس اى افئدة من افئدتهم
ومن للتبعيض ولذلك قيل لو قال افئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم واما
ما زيد عليه من قولهم ولحجت اليهود والنصارى فغير مناسب للمقام اذ المسؤل توجيه
القلوب اليهم للمساكنة معهم لا توجيهها الى البيت للحج والا لقيل تهوى اليه فانه عين
الدعاء بالبلدية قد حكى بعبارة اخرى كما مر او لابتداء الغاية كقولك القلب منى
سقيم اى افئدة ناس وقرئ آفدة على القلب كآدر فى ادؤر او على انه اسم
فاعل من افدت الرحلة اى عجلت اى جماعة من الناس وافدة بطرح الهمزة من الافئدة
او على النعت من افد تهوى اليهم تسرع اليهم شوقا ووداد وقرئ على البناء للمفعول

الحرمة

من اهواه غيره وتهوي من باب علم اى تحب وتعديته بالى لتضمنه معنى الشوق والنزوع واول آثر هذه الدعوة ما روى انه مرت رفقة من جرهم تريد الشام فرأوا الطير تحوم على الجبل فقالوا ان هذا الطاير لعايف على الماء فاشرفوا فاذا هم بهاجر فقالوا لها ان شئت كنا معك وانسناك والماء ماؤك فاذنت لهم وكانوا معها الى ان شب اسمعيل عم وماتت هاجر فتزوج اسمعيل منهم كما هو المشهور وارزقهم اى ذريتي الذين اسكنتهم هناك ومع من يحاز اليهم من الناس وانما لم يخص الدعاء بالمؤمنين منهم كما في قوله وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر اكتفاء بذكر اقامة الصلوة من الثمرات من انواعها بان يجعل بقرب منه قرى يحصل فيها ذلك او يجبي اليه من الاقطار الشاسعة وقد حصل كلاهما حتى انه يجتمع فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما ان الطايف كانت من ارض فلسطين فلما دعا ابراهيم عم بهذه الدعوة رفعها الله تعالى ووضعها حيث وضعها رزقا للحرم وعن الزهري انه تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة ابراهيم عليه السلام لعلهم يشكرون تلك النعمة باقامة الصلوة واداء ساير مراسم العبودية وقيل اللام في ليقيموا لام الامر والمراد امرهم باقام الصلوة والدعاء من الله تعالى بتوفيقهم لها ولا يناسبه الفاء في قوله تعالى فاجعل الخ وفي دعائه عليه السلام من مراعاة حسن الادب والمحافظة على قوانين الضراعة وعرض الحاجة واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة ما لا يخفى فانه عليه السلام بذكر كون الوادي غير ذي زرع بين كمال افتقادهم الى المسؤل وبذكر كون اسكانهم عند البيت المحرم اشار الى ان جوار الكريم يستوجب افاضة النعيم وبعرض كون ذلك الاسكان مع كمال اعوازمرافق المعاش لمحض اقامة الصلاة واداء حقوق البيت مهد جميع مبادي اجابة السؤال ولذلك قرنت دعوته عليه السلام بحسن القبول ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن من الحاجات وغيرها والمراد بما نخفي ما يقابل ما نعلن سواء تعلق به الاخفاء اولا اى تعلم ما نظهره وما لا نظهره فان علمه متعلق بما لا يخطر بباله مما فيه من الاحوال الخفية فضلا عن اخفائه وتقديم ما نخفي على ما نعلن لتحقيق المساواة بينهما في تعلق العلم بهما على ابلغ وجه فكان تعلقه تعالى بما نخفي اقدم منه بما نعلن اولان مرتبة الستر والخفاء متقدمة على مرتبة العلن اذ ما من شيء يعلن الا وهو قبل ذلك خفي فتعلق علمه سبحانه بحالته الاولى اقدم من تعلقه بحالته الثانية ومقصده عليه السلام ان اظهار هذه الحاجات وما هو من مباديها وتتماتها ليس لكونها غير معلومة لك بل انما هو لاظهار العبودية والتخشع لعظمتك والتذلل لعزتك وعرض الافتقار الى ما عندك والاستعجال لنيل اياديك وتكرير النداء للمبالغة في الضراعة والابتهال وضمير الجماعة لان المراد ليس مجرد علمه تعالى بسره وعلنه بل بجميع خفايا الملك والملكوت وقد حققه بقوله على وجه الاعتراض وما يخفى على الله من شيء في الارض ولا في السماء لما انه العالم بالذات فما من امر يدخل الوجود كائنا ما كان في زمان من الازمان الا ووجوده في ذاته علم بالنسبة اليه سبحانه وانما قال وما يخفى على الله الخ دون ان يقول ويعلم ما في السموات والارض تحقيقا لما عناه بقوله تعالى تعلم ما نخفي من ان علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة الى علمه تعالى كما يكون ذلك بالنسبة الى علوم المخلوقات وكلمة في متعلقة بمحذوف وقع صفة لشيء اى من شيء كاين فيهما اعم من ان يكون ذلك على وجه الاستقرار فيهما او على جهة الجزئية منهما او يخفى وتقديم الارض على السماء مع توسيط لا بينهما باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة الى علومنا والالتفات من الخطاب الى اسم الذات المستجمعة للصفات لتربية المهابة والاشعار بعلة الحكم على نهج قوله تعالى الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير والايذان بعمومه لانه ليس بشان يختص به او من يتعلق به بل شامل لجميع الاشياء فالمناسب ذكره تعالى بعنوان مصحح لمبدائية الكل وقيل هو من كلام الله عز وجل وارد بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه وكذلك يفعلون ومن للاستغراق على الوجهين الحمد

لله الذي وهب لي على الكبر اى مع كبري ويأسي عن الولد قيد الهبة به استعظاما للنعمة واظهارا لشكرها اسمعيل واسحق روي انه ولد له اسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة او مائة وسبع عشرة سنة ان ربي ومالك امري لسميع الدعاء لمجيبه من قولهم سمع الملك كلامه اذا اعتد به وهي من ابنية المبالغة العاملة عمل الفعل اضيف الى مفعوله او فاعله باسناد السماع الى دعاء الله تعالى مجازا وهو مع كونه من تتمة الحمد والشكر اذ هو وصف له تعالى بان ذلك الجميل سنته المستمرة تعليل على طريقة التذييل للهبة المذكورة وفيه ايذان بتضاعف النعمة فيها حيث وقعت بعد الدعاء بقوله رب هب لي من الصالحين فاقترنت الهبة بقبول الدعوة وتوحيد ضمير المتكلم وان كان عقيب ذكر هبتهما لما ان نعمة الهبة فايضة عليه خاصة وهما من النعم لا من المنعم عليهم رب اجعلني مقيم الصلوة مثابرا عليها معدلا لها وتوحيد ضمير المتكلم مع شمول دعوته لذريته ايضا حيث قال ومن ذريتي اى بعضهم من المذكورين ومن يتشعب منهما من اولادهما للاشعار بانه المقتدي في ذلك وذريته اتباع له وان ذكرهم بطريق الاستطراد لا كما في قوله ربنا انى اسكنت الخ فان اسكانه مع عدم تحققه بلا ملابسة لمن اسكنه انما هو مذكور بطريق التمهيد للدعاء الذي هو مخصوص بذريته وانما خص هذا الدعاء ببعض ذريته لعلمه من جهة الله تعالى ان بعضا منهم لا يكون مقيم الصلوة كقوله تعالى ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك ربنا وتقبل دعاء اى دعائي هذا المتعلق بجعلي وجعل بعض ذريتي مقيمي الصلوة ثابتين على ذلك مجتنبين عن عبادة الاصنام ولذلك جيء بضمير الجماعة ربنا اغفر لي اي ما فرط مني من ترك الاولى في باب الدين وغير ذلك مما لا يسلم منه البشر ولوالدي وقرئ بالتوحيد ولابوي وهذا الاستغفار منه عليه السلام انما كان قبل تبين الامر له عليه السلام وقيل اراد بوالديه آدم وحوا وقيل بشرط الاسلام ويرده قوله تعالى الا قول ابراهيم لابيه الآية وقد مر في سورة التوبة نوع تحقيق للمقام وسيأتي تمامه في سورة مريم بفضل الله عز وجل وللمؤمنين كافة من ذريته وغيرهم للايذان باشتراك الكل في الدعاء بالمغفرة جيء بضمير الجماعة يوم يقوم الحساب اى يثبت ويتحقق محاسبة اعمال المكلفين على وجه العدل استعير له من ثبوت القايم على الرجل بالاستقامة ومنه قامت الحرب على ساق والمراد تقويمه وقيل اسند اليه قيام اهله مجازا او حذف المضاف كما في واسأل القرية واعلم ان ما حكى عنه عليه السلام من الادعية والاذكار وما يتعلق بها ليس بصادر عنه على الترتيب المحكي ولا على وجه المعية بل صدر عنه في ازمنة متفرقة حكي ههنا للدلالة على سوء حال الكفرة بعد ظهور امره في الملة وارشاد الناس اليها والتضرع الى الله تعالى لمصالحهم الدينية والدنيوية ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد تثبيته على ما كان عليه من عدم حسبانه عز وجل كذلك نحو قوله ولا تكونن من المشركين ونظايره مع ما فيه من الايذان بكونه واجب الاحتراز عنه في الغاية حتى نهى عنه من لا يمكن تعاطيه او نهيه عن حسبانه تعالى تاركا لعقابهم على طريقة العفو والتعبير عنه بذلك للمبالغة في النهي والايذان بان ذلك الحسبان بمنزلة حسبانه تعالى غافلا عن اعمالهم اذ العلم بذلك مستوجب لعقابهم لا محالة فتركه لو كان لكان للغفلة عما يوجبه من اعمالهم الخبيثة وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووعد له اكيد ووعيد للكفرة وساير الظالمين شديد او لكل احد ممن يستعجل عذابهم او يتوهم اهمالهم للجهل بصفاته تعالى والاغترار بامهاله وقيل معناه لا تحسبنه تعالى يعاملهم معاملة الغافل عما عملوا بل معاملة من يحافظ على اعمالهم ويجازيهم بذلك نقيرا وقطميرا والمراد بالظالمين اهل مكة ممن عدت مساويهم من تبديل نعمة الله كفرا واحلال قومهم دار البوار واتخاذ الانداد كما يؤذن به التعرض لحكمة التأخير المنبئ عنه قوله تعالى قل تمتعوا

الآية او جنس الظالمين وهم داخلون في الحكم دخولا اوليا انما يؤخرهم يمهلهم
متمتعين بالحظوظ الدنيوية ولا يعجل عقوبتهم حسبما يشاهد وهو استئناف وقع
تعليلا للنهي السابق اي دم على ما كنت عليه من عدم حسبانه تعالى غافلا عن اعمالهم
ولا تحزن بتأخير ما يستوجبه من العذاب الاليم ان تأخيره للتشديد والتغليظ او لا
تحسبنه تعالى تاركا لعقوبتهم بما ترى من تأخيرها انما ذلك لاجل هذا او لا تحسبنه تعالى
يعاملهم معاملة الغافل ولا يؤاخذهم بما عملوا لما ترى من التأخير انما هو لهذه الحكمة
وقرئ بالنون وايقاع التأخير عليهم مع ان المؤخر انما هو عذابهم لتهويل الخطب وتفظيع
الحال ببيان انهم متوجهون الى العذاب مرصدون لامر ما لا انهم باقون باختيارهم وللدلالة
على ان حقهم من العذاب هو الاستئصال بالمرة وان لا يبقى منهم في الوجود عين ولا اثر
وللايذان بان المؤخر ليس من جملة العذاب وعنوانه ولو قيل انما يؤخر عذابهم الخ لما فهم
ذلك ليوم هائل تشخص فيه الابصار ترتفع ابصار اهل الموقف فيدخل في زمرتهم
الكفرة المعهودون دخولا اوليا تبقى مفتوحة لا تتحرك اجفانهم من هول ما يرونه
واعتبار عدم قرارها في اماكنها اما باعتبار الارتفاع الحسي في جرم العين واما بجعل
الصيغة من شخص من بلد الى بلد وسار في ارتفاع مهطعين مسرعين الى الداعي
مقبلين عليه بالخوف والذل والخشوع او مقبلين بابصارهم عليه لا يقلعون عنه ولا
يطرفون هيبة وخوفا وحيث كان ادامة النظر ههنا بالنظر الى الداعي قيل مقنعي رؤسهم
اي رافعيها مع ادامة النظر من غير التفات الى شيء قاله العيني وابن عرفة او ناكسيها
يقال اقنع رأسه اي طأطأها ونكسها فهو من الاضداد وهما حالان مترادفتان على الابصار
من اصحابها او الثاني حال متداخلة من الضمير في الاول واضافته غير حقيقية فلا ينافي
الحالية لا يرتد اليهم طرفهم لا يرجع اليهم تحريك اجفانهم حسبما كان يرجع
اليهم كل لحظة بل تبقى اعينهم مفتوحة لا تطرف او لا ترجع اليهم اجفانهم التي هي
آلة الطرف فيكون اسناد الرجوع الى الطرف مجازيا او هو نفس الجفن قال الفيروز
ابادي الطرف العين لا يجمع لانه مصدر في الاصل او اسم جامع للعين او لا يرجع نظرهم
الى انفسهم فضلا عن ان يرجع الى شيء آخر فيبقون مبهوتين وهو ايضا حال
او بدل من مقنعي الخ او استئناف والمعنى لا يزول ما اعتراهم من شخوص الابصار وتأخيره
عما هو من تتمته من الاهطاع والاقناع مع ما بينه وبين الشخوص المذكور من المناسبة
لتربية هذا المعنى وافئدتهم هواء خالية من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهش
كانها نفس الهواء الخالي عن كل شاغل ومنه قيل للجبان والاحمق قلبه هواء
اي لا قوة ولا رأي فيه واعتبار خلوها عن كل حين لا يناسب المقام وهو اما
حال عاملها لا يرتد مقيدة لكون شخوص ابصارهم وعدم ارتداد طرفهم بلا فهم
ولا اختيار او جملة مستقلة وانذر الناس خطاب لرسول الله صلى الله عليه
وسلم بعد اعلامه ان تأخيرهم لماذا وامر له بانذارهم وتخويفهم منه والمراد
بالناس الكفار المعبر عنهم بالظالمين كما يقتضيه ظاهر اتيان العذاب والعدول اليه
من الاضمار للاشعار بان المراد بالانذار هو الزجر عما هم عليه من الظلم شفقة
عليهم لا التخويف للازعاج والايذاء فالمناسب عدم ذكرهم بعنوان الظلم او
الناس جميعا فان الانذار عام للفريقين كقوله تعالى انما تنذر من اتبع الذكر والاتيان
يعمهما من حيث كونهما في الموقف وان كان لحوقه بالكفار خاصة اي انذرهم
وخوفهم يوم يأتيهم العذاب المعهود وهو اليوم الذي وصف بما يوصف من الاوصاف
الهائلة اعني يوم القيمة وقيل هو يوم موتهم معذبين بالسكرات ولقاء الملائكة
بلا بشرى او يوم هلاكهم بالعذاب العاجل ويأباه القصر السابق فيقول الذين
ظلموا اي فيقولون والعدول عنه الى ما عليه النظم الكريم للتسجيل عليهم
بالظلم وللاشعار بان ما لقوه من الشدة انما هو لظلمهم وايثاره على صيغة الفاعل
حسبما ذكر اولا للايذان بان الظلم في الجملة كاف في الافضاء الى ما ذكر من الاهوال

من غير

من غير حاجة الى الاستمرار عليه كما ينبئ عنه صيغة الفاعل وعلى تقدير كون المراد بالناس
من يعم المسلمين ايضا فالمعنى الذين ظلموا منهم وهم الكفار او يقول كل من ظلم
بالشرك والتكذيب من المنذرين وغيرهم من الامم الخالية فان اتيان العذاب يعمهم
كما يشعر بذلك وعدهم باتباع الرسل ربنا اخرنا ردنا الى الدنيا وامهلنا الى اجل
قريب الى امد وحد من الزمان قريب نجب دعوتك اي الدعوة اليك والى توحيدك
او دعوتك لنا على السنة الرسل ففيه ايماء الى انهم صدقوهم في انهم مرسلون من
عند الله تعالى ونتبع الرسل فيما جاؤا به اي نتدارك ما فرطنا فيه من اجابة الدعوة
واتباع الرسل والجمع اما باعتبار اتفاق الجميع على التوحيد وكون عصيانهم للرسول
عليه الصلوة والسلام عصيانا لهم جميعا عليهم السلام واما باعتبار ان المحكي
كلام ظالمي الامم جميعا والمقصود بيان وعد كل امة باتباع رسولها اولم تكونوا
اقسمتم من قبل على اضمار القول معطوفا على فيقول اي فيقال لهم توبيخا وتبكيتا
الم تؤخروا في الدنيا ولم تكونوا اقسمتم اذ ذاك بالسنتكم بطرا واشرا وجهلا وسفها
ما لكم من زوال مما انتم عليه من التمتع بالحظوظ الدنيوية او بالسنة الحال حيث بنيتم
مشيدا واملتم بعيدا ولم تحدثوا انفسكم بالانتقال منها الى هذه الحالة وفيه اشعار
بامتداد زمان التأخير وبعد مداه او ما لكم من زوال من هذه الدار الى دار اخرى
للجزاء كقوله تعالى واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت وصيغة الخطاب
في جواب القسم لمراعاة حال الخطاب في اقسمتم كما في قوله حلف بالله ليخرجن وهو
ادخل في التوبيخ من ان يقال ما لنا مراعاة لحال المقسم ذكر البيهقي عن محمد بن كعب القرظي
رحمه الله انه قال لاهل النار خمس دعوات يجيبهم الله تعالى في اربع منها فاذا كانت
الخامسة لم يتكلموا بعدها ابدا يقولون ربنا امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين فاعترفنا
بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل فيجيبهم الله تعالى ذلكم بانه اذا دعي الله وحده كفرتم
وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير ثم يقولون ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا
نعمل صالحا انا موقنون فيجيبهم الله تعالى فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا الآية ثم
يقولون ربنا اخرنا الى اجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل فيجيبهم الله تعالى اولم
تكونوا اقسمتم الآية ثم يقولون ربنا اخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل فيجيبهم الله
تعالى اولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير
فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين فيجيبهم الله تعالى اخسؤا فيها
ولا تكلمون فلا يتكلمون بعدها ابدا ان هو الا زفير وشهيق وعند ذلك انقطع رجاؤهم
واقبل بعضهم ينبح على وجه بعض واطبقت عليهم جهنم اللهم انا بك نعوذ وبكنفك نلوذ
عز جارك وجل ثناؤك ولا اله غيرك وسكنتم من السكنى بمعنى التبوء والايطان
وانما استعمل بكلمة في حيث قيل في مساكن الذين ظلموا انفسهم جريا على الاصل لانه
منقول عن مطلق السكون الذي حقه التعدية بها او من السكون واللبث اي قررتم
في مساكنهم مطمئنين سائرين سيرتهم في الظلم بالكفر والمعاصي غير محدثين لانفسكم
بما لقيه الاولون بسبب ما اجترحوا من الموبقات وفي ايقاع الظلم على انفسهم
بعد اطلاقه فيما سلف ايذان بان غائلة الظلم آيلة الى صاحبه والمراد بهم اما جميع من
تقدم من الامم المهلكة على تقدير اختصاص الاستمهال والخطاب السابق بالمنذرين
واما اوائلهم من قوم هود على تقدير عمومهما للكل وهذا الخطاب وما يتلوه
باعتبار حال اواخرهم وتبين لكم بمشاهدة الآثار وتواتر الاخبار كيف فعلنا بهم
من الاهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد وكيف منصوب بما بعده من
الفعل وليس الجملة فاعلا لتبين كما قاله بعض الكوفيين بل فاعله ما دلت هي عليه دلالة
واضحة اي فعلنا العجيب بهم كما مر في قوله تعالى ليسجننه وتبين وضربنا لكم
الامثال اي بينا لكم في القرآن العظيم على تقدير اختصاص الخطاب بالمنذرين او على
السنة الانبياء عليهم السلام على تقدير عمومه لجميع الظالمين صفات ما فعلوا وما فعل بهم

من الامور التي هي في الغرابة كالامثال المضروبة لكل ظالم لتعتبروا بها وتقيسوا اعمالكم
على اعمالهم و مالكم على مآلهم و تنتقلوا من حلول العذاب العاجل الى حلول العذاب الآجل
فترتدعوا عما كنتم فيه من الكفر و المعاصي او بينا لكم انكم مثلهم في الكفر و استحقاق
العذاب والجمل الثلاث في موقع الحال من ضمير اقسمتم اي اقسمتم بالخلود والحال انكم سكنتم
في مساكن المهلكين بظلمهم و تبين لكم فعلنا العجيب بهم و نبهناكم على جلية الحال بضرب
الامثال و قوله عز و جل و قد مكروا مكرهم حال من الضمير الاول في فعلنا بهم او من
الثاني او منهما جميعا وانما قدم عليه قوله تعالى و ضربنا لكم الامثال لشدة ارتباطه بما
قبله اي فعلنا بهم ما فعلنا و الحال انهم قد مكروا في ابطال الحق و تقرير الباطل مكرهم
العظيم الذي استفرغوا في عمله المجهود وجاوزوا فيه كل حد معهود بحيث لا يقدر عليه
غيرهم فالمراد بيان تناهيهم في استحقاق ما فعل بهم او قد مكروا مكرهم المذكور
في ترتيب مبادي البقا ومدافعة اسباب الزوال فالمقصود اظهار عجزهم واضمحلال
قدرتهم وحقارتها عند قدرة الله تعالى وعند الله مكرهم اي جزاء مكرهم الذي فعلوه
على ان المكر مضاف الى فاعله او اخذه تعالى بهم على انه مضاف الى مفعوله وتسميته مكرا
لكونه بمقابلة مكرهم وجودا و ذكرا او لكونه في صورة المكر في الاتيان من حيث لا يشعرون
وعلى التقديرين فالمراد به ما افاده قوله عز و جل كيف فعلنا بهم لا انه وعيد مستانف
والجملة حال من الضمير في مكروا مكرهم وعند الله جزاؤه او ماهو اعظم منه والمقصود
بيان فساد رايهم حيث باشروا فعلا مع تحقق ما يوجب تركه وان كان مكرهم
في العظم والشدة لتزول منه الجبال اي وان كان مكرهم في غاية المتانة و
الشدة وعبر عن ذلك بكونه مسوى ومعدا لازالة الجبال عن مقارها لكونه مثلا
في ذلك فالجملة المصدرة بان الوصلية معطوفة على جملة مقدرة والمعنى وعند الله جزاء
مكرهم والمكر الذي يحيق بهم ان لم يكن مكرهم لتزول منه الجبال وان كان وقد حذف ذلك
حذفا مطردا لدلالة المذكور عليه دلالة واضحة فان الشيء اذا تحقق عند وجود
المانع القوي فلان يتحقق عند عدمه اولى وعلى هذه النكتة يدور ما في ان الوصلية
من التاكيد المعنوي والجواب محذوف دل عليه ماسبق وهو قوله تعالى عند الله مكرهم
وقيل ان نافية و اللام لتاكيدها كما في قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم و ينصره قراة ابن مسعود
رضي الله عنه وما كان مكرهم فالجملة حينئذ حال من الضمير في مكروا لا من قوله تعالى وعند الله مكرهم
اي مكروا مكرهم والحال ان مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال على انها عبارة عن آيات الله
وشرايعه ومعجزاته الظاهرة على ايدي الرسل السالفة عليهم السلام التي هي بمنزلة
الجبال الراسيات في الرسوخ واما كونها عبارة عن امر النبي صلى الله عليه وسلم وامر القران
العظيم كما قيل فلا مجال له اذ الماكرون هم المهلكون لا الساكنون في مساكنهم من المخاطبين
وان خص الخطاب بالمنذرين وقيل هي مخففة من ان والمعنى انه كان مكرهم لتزول
منه ما هو كالجبال في الثبات مما ذكر من الايات والشرايع والمعجزات والجملة كما هي
حال من ضمير مكروا مكرهم المعهود وان الشان كان مكرهم لازالة الايات والشرايع على
معنى انه لم يكن يصح ان يكون منهم مكر كذلك فكان شان الايات والشرايع مانعا
من مباشرة المكر لازالته و قرا الكسائي لتزول بفتح اللام على انها الفارقة والمعنى تعظيم
مكرهم في الجملة حال من قوله تعالى وعند الله مكرهم اي عنده تعالى جزاء مكرهم او المكر بهم
والحال ان مكرهم بحيث تزول منه الجبال اي في غاية الشدة وقرئ بالفتح والنصب على
لغة من يفتح لام كي وقرئ وان كان مكرهم هذا هو الذي يقتضيه النظم الكريم و يساعد
اليه الطبع السليم وقد قيل ان الضمير في مكروا للمنذرين والمراد بمكرهم ما افاده قوله
تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك الاية وغير ذلك من انواع
مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ولعل الوجه حينئذ ان يكون قوله تعالى وقد مكروا الخ
حالا من القول المقدر اي فيقال لهم ما يقال والحال انهم مع ما فعلوا من الاقسام المذكور
مع ما ينافيه من السكون في مساكن المهلكين و تبين احوالهم وضرب الامثال قد مكروا مكرهم

العظيم

العظيم اي لم يكن الصادر عنهم مجرد الاقسام الذي و نحوا به بل اجترؤا على مثل هذه
العظيمة وقوله تعالى وعند الله مكرهم حال من ضمير مكروا حسبما ذكرنا من قبل و قوله تعالى
وان كان مكرهم لتزول منه الجبال مسوق لبيان عدم تفاوت الحال في تحقيق الجزاء بين كون
مكرهم قويا او ضعيفا كما مر هناك وعلى تقدير كون ان نافية فهو حال من ضمير مكروا
والجبال عبارة عن امر النبي صلى الله عليه وسلم اي وقد مكروا والحال ان مكرهم ما كان
لتزول منه هاتيك الشرايع والايات التي هي في القوة كالجبال وعلى تقدير كونها مخففة
من المثقلة واللام مكسورة يكون حالا منه ايضا على معنى ان ذلك المكر العظيم منهم كان
لهذا الغرض على معنى انه لم يكن يصح ان يكون منهم مكر كذلك لما ان شان الشرايع اعظم
من ان يمكر بها ماكر وعلى تقدير فتح اللام فهو حال من قوله تعالى وعند الله مكرهم كما ذكرنا من
قبل فليتامل فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله لم يرد به والله سبحانه اعلم ماوعده
بقوله تعالى انا لننصر رسلنا الاية وقوله تعالى كتب الله لاغلبن انا و رسلي كما قيل فانه لا اختصاص
له بالتعذيب لا سيما الاخروي بل ما سلف آنفا من وعده بتعذيب الظالمين بقوله تعالى انما
يؤخرهم الاية كما يفصح عنه الفاء الداخلة على النهي الذي اريد به تثبيته عليه السلام
على ما كان عليه من الثقة بالله تعالى والتيقن بانجاز وعده المذكور المقرون بالامر
بانذارهم يوم الاتيان بالعذاب المتضمن لذكر تعذيب الامم السالفة بسبب كفرهم
وعصيانهم رسلهم بعد ما وعدهم بذلك كما فصلت قصة كل منهم في القران
العظيم فكانه قيل واذ قد وعدناك بعذاب الظالمين يوم القيمة و اخبرناك بما يلقونه
من الشدايد وبما يسالونه من الرد الى الدنيا و بما اجبناهم به و قرعناهم بعدم تاملهم
في احوال من سبقهم من الامم الذين اهلكناهم بظلمهم بعد ما وعدنا رسلهم
باهلاكهم فدم على ما كنت عليه من اليقين بعدم اخلافنا رسلنا وعدنا ان الله
عزيز غالب لا يماكر و قادر لا يقادر ذو انتقام لاوليائه من اعدائه و الجملة
تعليل للنهي المذكور وتذييل له وحيث كان الوعد عبارة عما ذكرنا من تعذيبهم خاصة
بل لم يذيل بان يقال ان الله لا يخلف الميعاد بل تعرض لوصف العزة والانتقام المشعرين بذلك
والمراد بالانتقام ما اشير اليه قوله تعالى كيف فعلنا بهم بالفعل وعبر عنه بالمكر يوم تبدل الارض
غير الارض ظرف لمضمر مستانف ينسحب على النهي المذكور اي ينجزه يوم الخ او معطوف
عليه نحو وارتقب يوم تبدل الارض غير الارض او لانتقام و هو يوم ياتيهم
العذاب بعينه ولكن له احوال جمة يذكر كل مرة بعنوان مخصوص والتقييد به مع عموم
انتفائه للاوقات كلها للافصاح عما هو المقصود من تعذيب الكفرة المؤخر الى ذلك
اليوم بموجب الحكمة الداعية اليه وقيل بدل من يوم ياتيهم العذاب او نصب باذكر
او باضمار لا يخلف وعده يوم تبدل الخ وفيه ايضا ما في الوجه الثالث من الحاجة
الى الاعتذار ولا يجوز ان ينتصب بقوله مخلف وعده لان ما قبل ان لا يعمل فيما بعده
وقيل هو غير مانع لان قوله تعالى ان الله عزيز ذو انتقام جملة اعتراضية فلا يبالي
بها فاصلا واعلم ان التبديل قد يكون في الذات كما بدلت الدراهم دنانير و عليه
قوله عز وجل بدلناهم جلودا غيرها و قد يكون في الصفات كما في قولك بدلت
الحلقة خاتما اذا غيرت شكلها و منه قوله تعالى يبدل الله سيئاتهم حسنات على بعض
الاقوال والاية الكريمة ليست بنص في احد الوجهين فعن علي كرم الله تعالى وجهه تبدل
الارض ارضا من فضة و سموات من ذهب و عن ابن مسعود رضي الله عنه تبدل الارض بارض
كالفضة بيضاء نقية لم يسفك فيها دم و لم يعمل عليها خطيئة وعن ابن عباس رضي
الله عنهما هي تلك الارض وانما تغير صفاتها وانشد وما الناس بالناس الذين عهدتهم
و ما الدار بالدار التي كنت تعلم و تبدل السموات بانتثار كواكبها وكسوف شمسها و
خسوف قمرها وانشقاقها وكونها ابوابا و يدل عليه ما روى ابو هريرة رضي الله عنه
انه صلى الله عليه و سلم قال تبدل الارض غير الارض فتبسط و تمد مد الاديم العكاظي
لا ترى فيها عوجا ولا امتا والسموات اي وتبدل السموات غير السموات حسبما مر من

التفصيل وتقديم تبديل الارض لقربها منّا ولكون تبديلها اعظم اثرا بالنسبة الينا وبرزوا اى الخلايق او الظالمون المدلول عليهم بمعونة السياق والمراد بروزهم من اجداثهم التى فى بطون الارض وظهورهم التى كانوا يعملونها سرًّا ويزعمون انها لا تظهر او يعملون عمل من يزعم ذلك ولعلّ اسناد البروز اليهم مع انه لاعمالهم للايذان بتشكلهم باشكال تناسبها وهو معطوف على تبدّل والعدول الى صيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوعه او حال من الارض بتقدير قد والرّابط بينها وبين صاحبها الواو لله الواحد القهّار للحساب والجزاء والتعرّض للوصفين لتهويل الخطب وتربية المهابة واظهار بطلان الشرك وتحقيق الانتقام فى ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفا له وتحقيق اتيان العذاب الموعود على تقدير كونه بدلا من يوم يأتيهم العذاب فانّ الامر اذا كان لواحد غلاب لا يغاز وقادر لا يضارّ ولا يعار كان فى غاية ما يكون من الشدّة والصعوبة وترى المجرمين عطف على برزوا والعدول الى صيغة المضارع لاستحضار الصورة او للدلالة على الاستمرار واما البروز فهو دفعىّ لا استمرار فيه وعلى تقدير حالية برزوا فهو معطوف على تبدّل ويجوز عطفه على عامل الظرف المقدّر على تقدير كونه ينجز يومئذ يوم اذ برزوا لله عزّ وجلّ او يوم اذ تبدّل الارض او يوم اذ ينجز وعده مقرّنين قرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم فى الجرايم والجرائر او قرنوا مع الشياطين الذين اغووهم او قرنوا مع ما اقترفوا من العقايد الزايغة والملكات الرّدية والاعمال السيّئة غبّ تصوّر كلّ منها وتشكلها بما يناسبها من الصّور الموحشة والاشكال الهايلة او قرنت ايديهم وارجلهم الى رقابهم وهو حال من المجرمين فى الاصفاد فى القيود والاغلال وهو امّا متعلّق بقوله تعالى مقرّنين او حال من ضميره اى مصفّدين سرابيلهم اى قمصانهم من قطران جملة من مبتدا وخبر محلّها النصب على الحالية من المجرمين او من ضميرهم فى مقرّنين رابطتها الضمير فقط كما فى كلّمته فوه الى فىّ او مستأنفة والقطران ما يتحلّب من الابهل فيطبخ فتهنا به الابل الجربى فيحرق الجرب بما فيه من الحدّة الشديدة وقد تصل حرارته الى الجوف وهو اسود منتن يسرع فيه اشتعال النار يطلى به جلود اهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسراويل ليجتمع عليهم الالوان الاربعة من العذاب لذعه وحرقته واسراع النار فى جلودهم واللون الموحش والنتن على انّ التفاوت بينه وبين ما نشاهده وبين النارين لا يكاد يقادر قدره فكان ما نشاهد منهما اسماء مسمّياتها فى الآخرة فبكرمه العميم نعوذ وبكنفه الواسع نلوذ ويحتمل ان يكون ذلك تمثيلا لما يحيط بجوهر النفس من الملكات الرّدية والهيئات الموحشة فتجلب اليها الآلام والغموم بل وان يكون القطران المذكور عين ما لابسوه فى هذه النشأة وجعلوه شعار الهمّ من العقايد الباطلة والاعمال السيّئة المستجلبة لفنون العذاب قد تجسّدت فى النشأة الآخرة بتلك الصورة المستتبعة لاشتداد العذاب عصمنا الله سبحانه عن ذلك بمنّه ولطفه وقرئ من قطر آن اى نحاس مذاب متناه حرّه وتغشى وجوههم النار اى تعلوها وتحيط بها النار التى تمسّ جسدهم المسربل بالقطران وتخصيص الوجوه بالحكم المذكور مع عمومه لساير اعضائهم لكونها اعزّ الاعضاء الظاهرة واشرفها كقوله تعالى افمن يتّقى بوجهه سوء العذاب الخ ولكونها مجمع المشاعر والحواسّ التى خلقت لادراك الحقّ وقد اعرضوا عنه ولم يستعملوها فى تدبّره كما انّ الفؤاد اشرف الاعضاء الباطنة ومحلّ المعرفة وقد ملؤها بالجهالات ولذلك قيل تطّلع على الافئدة او لخلوّها عن القطران المغنى عن ذكر غشيان النار لها ولعلّ تخليتها عنه ليتعارفوا عند انكشاف اللهب احيانا ويتضاعف عذابهم بالخزى على رؤس الاشهاد وقرئ تغشى اى تتغشّى بحذف احدى التائين والجملة نصب على الحالية لا على انّ الواو حالية لانه مضارع مثبت بل على انها معطوفة على الحال قاله ابو البقا ليجزى الله متعلّق بمضمر اى يفعل بهم ذلك ليجزى كلّ نفس مجرمة ما كسبت من انواع الكفر والمعاصى جزاء موافقا لعملها وفيه ايذان بانّ جزاءهم مناسب لاعمالهم او بقوله برزوا على تقدير كونه معطوفا على تبدّل والضمير

للخلق

للخلق وقوله وترى المجرمين الخ اعتراض بين المتعلّق والمتعلّق به اى برزوا للحساب ليجزى الله كلّ نفس مطيعة او عاصية ما كسبت من خير او شرّ وقد اكتفى بذكر عقاب العصاة تعويلا على شهادة الحال لا سيّما مع ملاحظة سبق الرّحمة الواسعة انّ الله سريع الحساب اذ لا يشغله شان عن شان فيتمّه فى اعجل ما يكون من الزمان فيوفى الجزاء بحسبه او سريع المجىء يأتى عن قريب او سريع الانتقام كما قال ابن عبّاس رضى الله عنهما فى قوله تعالى سريع الحساب هذا اى ما ذكر من قوله سبحانه ولا تحسبنّ غافلا الى قوله سريع الحساب بلاغ كفاية فى العظة والتذكير من غير حاجة الى ما انطوى عليه السورة الكريمة او كلّ القرآن المجيد من فنون العظات والقوارع للناس للكفار خاصّة على تقدير اختصاص الانذار لهم فى قوله تعالى وانذر الناس او لهم وللمؤمنين كافّة على تقدير شموله لهم ايضا وان كان ما شرح مختصّا بالظالمين ولينذروا به عطف على مقدّر واللام متعلّقة بالبلاغ اى كفاية لهم فى ان ينصحوا ولينذروا به او وهذا بلاغ لهم ليفهموا ولينذروا به على انّ البلاغ بمعنى الابلاغ كما فى قوله تعالى ما على الرّسول الا البلاغ او متعلّقة بمحذوف اى ولينذروا به انزل او تلى وقرئ لينذروا به من نذر بالشئ اذا علمه واحذره واستعدّ له وليعلموا بالتأمّل فيما فيه من الدلايل الواضحة التى هى اهلاك الامم واسكان آخرين مساكنهم وغيرهما ممّا سبق ونحوه انّما هو اله واحد لا شريك له وتقديم الانذار لانه الدّاعى الى التأمّل المؤدّى الى ما هو غاية له من العلم المذكور والتذكّر فى قوله تعالى وليذّكّر اولوا الالباب اى ليتذكّروا ما كانوا يعلمونه من قبل من التوحيد وغيره من شؤن الله عزّ وجلّ ومعاملته مع عباده فيرتدعوا عمّا يرديهم من الصفات التى يتّصف بها الكفار ويتدرّعوا بما يحظيهم من العقايد الحقّة والاعمال الصالحة فى تخصيص التذكّر باولى الالباب تلويح باختصاص العلم بالكفار ودلالة على انّ المشار اليه بهذا ما ذكرنا من القوارع المسوقة لشأنهم لا كلّ السورة المشتملة عليها وعلى ما سيق للمؤمنين ايضا فانّ فيه ما يفيدهم فائدة جديدة وحيث كان ما يفيده البلاغ من التوحيد وما يترتّب عليه من الاحكام بالنسبة الى الكفرة امرا حادثا وبالنسبة الى اولى الالباب الثبات على ذلك حسبما اشير اليه عبّر عن الاوّل بالعلم وعن الثانى بالتذكّر وروعى ترتيب الوجود مع ما فيه من الختم بالحسنى والله سبحانه اعلم ختمنا الله بالسعادة والحسنى ورزقنا الفوز بمرضاته فى الاولى والعقبى آمين عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة ابراهيم اعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من عبد الاصنام ومن لم يعبد والحمد لله وحده

سورة الحجر مكية وهى تسع وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الر قد مرّ الكلام فيه وفى محلّه فى مطلع سورة الرّعد واخواتها تلك اشارة اليه اى تلك السورة العظيمة الشان آيات الكتاب الكامل المعهود الغنى عن الوصف به المشهور بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به على الاطلاق اى بعض منه مترجم مستقلّ باسم خاصّ فهو عبارة عن جميع القرآن او عن الجميع المنزل اذ ذاك اذ هو المتسارع الى الفهم حينئذ عند الاطلاق وعليه يترتّب فائدة وصف الآيات بنعت ما اضيفت اليه من نعوت الكمال لا على جعله عبارة عن السورة اذ هى فى الاتصاف بذلك ليست بتلك المرتبة من الشهرة حتى يستغنى عن التصريح بالوصف على انها عبارة عن جميع آياتها فلا بدّ من جعل تلك اشارة الى كلّ واحدة منها وفيه من التكلّف ما لا يخفى كما ذكر فى سورة الرّعد وقرآن اى قرآن عظيم الشان مبين مظهر لما فى تضاعيفه من الحكم والاحكام او لسبيل الرّشد والغىّ او فارق بين الحقّ والباطل والحلال والحرام ولقد فخّم شانه العظيم مع ما جمع فيه من وصفى الكتابية والقرآنية على طريقتين احديهما اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الالهيّة فكانه كلّها والثانية طريقة كونه ممتازا عن غيره نسيج وحده بديعا فى بابه خارجا عن دائرة البيان واخّرت الطريقة الثانية

لما ان الاشارة الى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيره من الكتب
ادخل فى المدح كيلا يتوهم من اول الامر ان امتيازه عن غيره لاستقلاله با وصاف
خاصة به من غير اشتمال على نعوت كمال سائر الكتب الكريمة وهذا الكلام فى فاتحة
سورة النمل حلا انه قدم فيها القرآن على الكتاب لما سنذكرهها ولما بين كون السورة
الكريمة بعضا من الكتاب والقرآن لتوجيه المخاطبين الى حسن تلقيها بما فيها من الاحكام
والقصص والمواعظ شرع فى بيان تتضمنه فقيل ربما بضم الراء وتخفيف الباء المفتوحة
وقرئ بالتشديد وفتح الراء مخففا وبزيادة التاء مشددا و فيه ثمانى لغات فتح الراء
وضمها مشددا او مخففا وبزيادة التاء ايضا مشددا و مخففا ورب حرف جر لا يدخل الا على
الاسم وما كافة مصححة لدخوله على الفعل وحقه الدخول على الماضى ودخوله على قوله
تعالى يود الذين كفروا لما ان المترقب فى اخباره تعالى كالماضى المقطوع فى تحقق الوقوع
فكانه قيل ربما ود الذين كفروا والمراد كفرهم بالكتاب والقرآن وبكونه من عند الله
تعالى لو كانوا مسلمين منقادين لحكمه ومذعنين لامره وفيه ايذان بان كفرهم انما
كان بالجحود بعد ما علموا كونه من عند الله تعالى تلك الودادة يوم القيمة او عند
موتهم او عند معاينة حالهم وحال المسلمين او عند رؤيتهم خروج عصاة المسلمين
من النار روي ابو موسى الاشعرى رضه انه قال النبى صلى الله عليه وسلم اذا
كان يوم القيمة واجتمع اهل النار فى النار ومعهم من شاء الله تعالى من اهل
القبلة قال لهم الكفار الستم مسلمين قالوا بلى قالوا فما اغنى عنكم اسلامكم وقد
صرتم معنا الى النار قالوا كانت لنا ذنوب فاخذنا بها فيغضب الله سبحانه لهم اى لاجلهم
بفضل رحمته فيامر بكل من كان من اهل القبلة فى النار فيخرجون منها فحينئذ يود الذين
كفروا لو كانوا مسلمين وروي مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال لا يزال
الرب يرحم و يشفع اليه حتى يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنة فعند ذلك
يتمنون الاسلام والحق ان ذلك محمول على شدة وداد تهم واما نفس الودادة
فليست بمختصة بوقت دون وقت بل هى مقررة مستمرة فى كل آن يمر عليهم وان
المراد بيان ذلك على ما هو عليه من الكثرة وانما جئ بصيغة التقليل جريا على سنن
العرب فى ما يقصدون به الافراط فيما يعكسون عنه تقول لبعض قواد العساكر كم عندك
من الفرسان فيقول رب فارس عندى او لا تعدم عندى فارسا وعنده مقانب جمة من
الكتائب وقصده فى ذلك التمادى فى تكثير فرسانه ولكنه يريد اظهار براءته من التزيد
وابرازانه ممن يقلل العلو الهمة كثير ما عنده فضلا عن تكثير القليل وهذه طريقة انما
تسلك اذا كان الامر من الوضوح بحيث لا تحوم حوله شائبة ريب فيصار اليه هضما
للحق فدل النظم الكريم على ودادة الكافرين للاسلام فى كل ان من انات اليوم
الاخر وان ذلك من الظهور بحيث لا يشتبه على احد ولو جئ بكلام يدل على ضده
وعلى ان تلك الودادة مع كثرتها فى نفسها مما يستقل بالنسبة الى جناب الكبرياء
وهذا هو الموافق لمقام بيان حقارة شان الكفار وعدم الاعتداد بما هم فيه من
الكفر والتكذيب كما ينطق به قوله تعالى ذرهم ياكلوا الاية او ذهابا الى الاشعار بان
من شان العاقل اذا عن له امر يكون مظنون الحمد او قليلا ما يكون كذلك ان لا يفارقه
ولا يفارق ضده فكيف اذا كان متيقن الحمد كما فى قولهم لعلك ستندم على ما فعلت
وربما ندم الانسان على ما فعل فان المقصود ليس بيان كون الندم مرجو الوجود
بلا تيقن به او قليل الوقوع بل التنبيه على ان العاقل لا يباشر ما يرجى فيه الندم
او يقل وقوعه فيه فكيف بقطعى الوقوع وانه يكفى قليل الندم فى كونه حاجزا عن ذلك
الفعل فكيف كثيره والمقصود من سلوك هذه الطريقة اظهار الترفع والاستغناء عن التصريح
بالغرض بناء على ادعاء ظهوره فالمعنى لو كانوا يودون الاسلام مرة واحدة لوجب عليهم
ان لا يفارقوه فكيف وهم يودونه كل آن وهذا او فق بمقام استنزالهم عما هم عليه
من الكفر وهذان طريقان متمايزان ذاتا ومقاما فمن ظنهما واحدا فقد ناء عن توفيه المقام

حقه

حقه ذرهم دعهم عن النهى عما هم عليه من التذكرة والنصيحة اذ لا سبيل الى
ارعوائهم عن ذلك وبالغ فى تخليتهم وشانهم بل مرهم بتعاطى ما يتعاطونه
ياكلوا ويتمتعوا بدنياهم وفى تقديم الاكل ايذان بان تمتعهم انما هو من قبيل تمتع
البهائم بالماكل والمشارب والمراد دوامهم على ذلك لا احداثه فانهم كانوا كذلك
او تمتعهم بلا استماع ما ينغص عيشهم من القوارع والزواجر فان التمتع على ذلك الوجه
امر حادث يصلح ان يكون مترتبا على تخليتهم وشانهم ويلههم ويشغلهم
عن اتباعك او عن التفكر فيما هم بصيرون اليه او عن الايمان والطاعة فان الاكل
والتمتع يفضيان الى ذلك الامل والتوقع لطول الاعمار وبلوغ الاوطار واستقامة
الاحوال وان لا يلقوا فى العاقبة والمال الا خيرا فالافعال الثلاثة مجزومة على الجوابية
للامر حسبما عرفت من تضمن الامر بالترك للامر بها على طريقة المجاز او على ان يكون المراد
بالافعال المرقومة مباشرتهم لها غافلين عن وخامة عاقبتها غير سامعين لسوء مغبتها
اصلا ولا ريب فى ترتب ذلك على الامر بالترك فان النهى عما هم عليه من ارتكاب
القبائح مما يشوش عليهم تمتعهم وينغص عليهم عيشهم فامر عليه الصلوة والسلام بتركه
ليتمتعوا فيما هم فيه من حظوظهم فيدهمهم ما يدهمهم وهم عنه غافلون
فسوف تعلمون سوء صنيعهم او وخامة عاقبته او حقيقة الحال التى الجاتهم الى التمنى
المذكور حيث لم يعلموا ذلك من جهتك وهو مع كونه وعيدا اى وعيد وتهديدا غب
تهديد تعليل للامر بالترك فان علمهم ذلك علة لترك النهى والنصيحة لهم وفيه الزام
للحجة ومبالغة فى الانذار اذ لا يتحقق الامر بالضد الا بعد تكرر الانذار وتقرر الجحود
والانكار وكذلك ما رتب عليه من الاكل والتمتع والالهاء وما اهلكنا شروع فى بيان
سر تاخير عذابهم الى يوم القيمة وعدم نظمهم فى سلك الامم الدارجة فى تعجيل
العذاب اى ما اهلكنا من قرية من القرى بالخسف بها وباهلها كما فعل ببعضها او
باخلائها عن اهلها عب اهلاكهم كما فعل باخرين الا ولها فى ذلك الشان كتاب اى اجل
مقدر مكتوب فى اللوح واجب المراعاة بحيث لا يمكن تبديله لوقوعه حسب الحكمة
المقتضية له معلوم لا ينسى ولا يغفل عنه حتى يتصور التخلف عنه بالتقدم والتاخر
فكتاب مبتداء خبره الظرف والجملة حال من قرية فانها لعمومها لا سيما بعد تاكدها
بكلمة من فى حكم الموصوفة كما اشير اليه والمعنى ما اهلكنا من قرية من القرى فى حال من الاحوال
الا حال ان يكون لها كتاب اى اجل موقت لمهلكها قد كتبناه لا نهلكها قبل بلوغه معلوم لا
يغفل عنه حتى يمكن مخالفته بالتقدم والتاخر او مرتفع بالظرف والجملة كما هى حال اى ما
اهلكنا قرية من القرى فى حال من الاحوال الا وقد كان لها فى حق هلاكها كتاب اى اجل
مقدر مكتوب فى اللوح لا يغفل عنه او صفة لكن لا للقرية المذكورة بل للمقدرة التى هى بدل
من المذكورة على المختار فيكون بمنزلة كونه صفة للمذكورة اى ما اهلكنا قرية من
القرى الا قرية لها كتاب معلوم كما فى قوله تعالى ليس لهم طعام الا من ضريع لا يسمن
فان قوله تعالى لا يسمن صفة لكن لا للطعام المذكور لانه انما يدل على انحصار طعامهم
الذى لا يسمن فى الضريع وليس المراد ذلك بل للطعام المقدر بعد الا اى ليس لهم طعام
من شئ من الاشياء الا طعام لا يسمن فليس فيه فصل بين الموصوف والصفة بكلمة
الا كما توهم واما توسيط الواو بينهما وان كان القياس عدمه فللايذان بكمال
الالتصاق بينهما من حيث ان الواو شانها الجمع والربط فان ما اخذ فيه من الصفة
اقوى لصوقا بالموصوف منها به فى قوله تعالى وما اهلكنا من قرية الا لها منذرون
فان امتناع انفكاك الاهلاك عن الاجل المقدر عقلى وعن الانذار عادى جرى عليه السنة
الالهية ولما بين ان الامم المهلكة كان لكل منهم وقت معين لهلاكهم وانه هلاكهم
لم يكن الا حسبما كان مكتوبا فى اللوح بين ان كل امة من الامم منهم وغيرهم لها كتاب
لا يمكن التقدم عليه ولا التاخر عنه فقيل ما تسبق من امة من الامم المهلكة وغيرهم
اجلها المكتوب فى كتابها اى لا يجئ هلاكها قبل مجئ كتابها او لا تمضى امة قبل مضى

على تفسير الاجل بآخر المدة من الحياة

اجلها فات السبق اذا كان واقعا على زمانى فمعناه المجاوزة والتخليف فاذا قلنا سبق زيد
عمروا فمعناه انه جازه وخلفه وراءه واذا كان واقعا على زمان كان الامر بالعكس والسر
فى ذلك ان الزمان يعتبر فيه الحركة والتوجه الى المتكلم فما سبقه يتحقق قبل تحققه
واما الزمانى فانما يعتبر فيه الحركة والتوجه الى ما سيأتى من الزمان فالسابق ما تقدم
الى المقصد وايراده بعنوان الاجل باعتبار ما يقتضيه من السبوق كما ان ايراده بعنوان
الكتاب المعلوم باعتبار ما يوجبه من الاهلاك وما يستاخرون اى وما يتاخرون
وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له وايثار صيغة المضارع
فى الفعلين بعد ما ذكر نفى الاهلاك بصيغة الماضى لان المقصود بيان دوامهما
واستمرارهما فيما بين الامم الماضية والباقية واسنادهما الى الامة بعد اسناد
الاهلاك الى القرية لما ان السبق والاستيخار حال الامة دون القرية مع ما فى الامة
من العموم لاهل تلك القرى وغيرهم ممن اخرت عقوباتهم الى الآخرة وتاخير ذكر عدم تاخرهم
عن ذكر عدم سبقهم مع كون المقام مقام المبالغة فى بيان تحقق عذابهم اما باعتبار
تقدم السبق فى الوجود واما باعتبار ان المراد بيان سر تاخير عذابهم مع استحقاقهم
لذلك وايراد الفعل على صيغة جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب ولرعاية الفواصل
ولذلك حذف الجار والمجرور والجملة مبنية لما سبق والمعنى ان تاخير عذابهم الى
القيمة حسبما اشير اليه ببيان ودادتهم للاسلام اذ ذاك وبالامر بتركهم وشانهم
الى ان يعلموا حقيقة الحال انما هو لتاخر اجلهم المقدر لما يقتضيه من الحكم البالغة
ومن جملتها ما علم الله تعالى من ايمان بعض من يخرج منهم الى يوم القيمة وقالوا
شروع فى بيان كفرهم بمن انزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب وما يؤول اليه
حالهم والقائلون مشركوا مكة لغاية تماديهم فى العتو والغى يا ايها الذى نزل عليه
الذكر خاطبوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسليما لذلك واعتقادا له بل استهزاء
عليه الصلوة والسلام واشعارا بعلة حكمهم الباطل فى قولهم انك لمجنون كداب
فرعون اذ قال ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون يعنون يا من يدعى مثل هذا الامر
البديع الخارق للعادات انك بسبب تلك الدعوى او بشهادة ما يعتريك عندما تدعى
انه ينزل عليك لمجنون وتقديم الجار والمجرور على القائم مقام الفاعل لان انكارهم
متوجه الى كون النازل ذكرا من الله تعالى لا الى كون المنزل عليه رسول الله بعد تسليم كون
النازل منه تعالى كما فى قوله تعالى لولا انزل هذا القران على رجل من القريتين عظيم فان
الانكار هناك متوجه الى كون المنزل عليه رسول الله تعالى وايراد الفعل على صيغة
المجهول لايهام ان ذلك ليس بفعل له فاعل او لتوجيه الانكار الى كون التنزيل عليه
لا الى اسناده الى الفاعل لوما تاتينا كلمة لو عند تركبها مع ما تفيد ما تفيده عند
تركبها مع لا من معنى امتناع الشئ لوجود غيره ومعنى التحضيض خلا انه عند ارادته
لا يليها الا فعل ظاهرا او مضمرا وعند ارادة المعنى الاول لا يليها الا اسم ظاهرا او
مقدرا عند البصريين والمراد هنا هو الثانى اى هلا تاتينا بالملائكة يشهدون
بصحة نبوتك ويعضدونك فى الانذار كقوله تعالى لولا انزل عليه ملك فيكون
معه نذيرا او يعاقبوننا على التكذيب كما اتت الامم المكذبة لرسلهم ان كنت من
الصادقين فى دعواك فان قدرته تعالى على ذلك مما لا ريب فيه وكذا احتياجك اليه فى
تمشية امرك فانا لا نصدقك بدون ذلك او ان كنت من جملة تلك الرسل الصادقين
الذين عذبت اممهم المكذبة لهم ما ننزل الملائكة بالنون على بناء الفعل لضمير الجلالة
من التنزيل وقرئ من الانزال وقرئ تنزل مضارعا من التنزيل على صيغة البناء
للمفعول ومن التنزل بحذف احدى التائين وماضيا منه ومن التنزيل ومن الثلاثى
وهو كلام مسوق لبيان الى النبى عليه الصلوة والسلام جوابا لهم عن مقالتهم المحكية وردا
لاقتراحهم الباطل ولشدة استدعاء ذلك للجواب قدم رده على ما هو جواب عن اولها
اعنى قوله تعالى انا نحن نزلنا الذكر الاية كما فعل فى قوله تعالى قال انما ياتيكم به الله فانه مع

كونه جوابا

كونه جوابا عن قولهم فأتنا بما تعدنا قدم على قوله ولا ينفعكم نصحى الاية مع كونه جوابا
عن اول كلامهم الذى هو قولهم يا نوح قد جادلتنا لما ذكر من شدة اقتضائه للجواب
ولئلا يكون احد الجوابين متصلا بالسؤال وفى العكس يلزم انفصال كل من الجوابين عن سؤاله
والعدول الى تطبيقه لظاهر كلامهم بصدد الاقتراح وهو ان يقال ما تاتيهم بهم
للايذان بانهم قد اخطأوا فى التعبير حسبما اخطأوا فى الاقتراح وان الملائكة لعلو رتبتهم
اعلى من ان ينسب اليهم مطلق الاتيان الشامل للانتقال من احد الامكنة المتساوية الى
الآخر منها بل من الاسفل الى الاعلى وان يكون مقصد حركاتهم اولئك الكفرة وان
يدخلوا تحت ملكوت احد من البشر وانما الذى يليق بشانهم النزول من مقامهم العالى
وكون ذلك بطريق التنزيل من جناب الرب الجليل الا بالحق اى ملتبسا بالوجه الذى
يحق ملابسة التنزيل به مما يقتضيه الحكمة ويجرى به السنة الالهية كقوله سبحانه وما
خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق والذى اقترحوه من التنزيل لاجل الشهادة لديهم وهم
هم ومنزلتهم فى الحقارة والهوان منزلتهم مما لا يكاد يدخل تحت الصحة والحكمة
اصلا فان ذلك من باب التنزيل بالوحى الذى لا يكاد يفتح على غير الانبياء الكرام من افراد
كمل المؤمنين فكيف على امثال اولئك الكفرة اللئام وانما الذى يدخل فى حقهم تحت الحكمة
فى الجملة هو التنزيل للتعذيب والاستيصال كما فعل باضرابهم من الامم السالفة ولو
فعل ذلك لاستوصلوا بالمرة وما كانوا اذا منظرين جزاء الشرط مقدر وفيه ايذان
بانتاج مقدماتهم لنقيض مطلوبهم كما فى قوله تعالى واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا قال
صاحب النظم اذن مركبة من اذ وهو اسم بمعنى الحين تقول اتيتك اذ جئتنى اى حين جئتنى
ثم ضمت اليه ان فصار اذ ان ثم استثقلوا الهمزة فحذفوها فمجئ لفظة ان دليل على اضمار
فعل بعدها والتقدير وما كانوا اذ كان ما طلبوه منظرين والمعنى لو نزلناهم ما كانوا
مؤخرين كدأب سائر الامم المكذبة المستهزئة ومع استحقاقهم لذلك قد جرى قلم
القضاء بتاخير عذابهم الى يوم القيمة حسبما اجمل فى قوله تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا
ويلههم الامل وحال حائل الحكمة بينهم وبين استيصالهم لتعلق العلم والارادة بازدياد هم
عذابا وبايمان بعض ذراريهم واما نظم ايمان بعضهم فى سمط الحكمة فيأباه مقام
بيان تماديهم فى الكفر والفساد ولجاجهم فى المكابرة والعناد هذا هو الذى يستدعيه
اعجاز التنزيل الجليل واما ما قيل فى تعليل عدم موافقة التنزيل للحكمة من انهم حينئذ
يكونون مصدقين عن اضطرار او انه لا حكمة فى ان تأتيكم بصور تشاهدونها فانه لا
يزيدكم الا لبسا او ان انزال الملائكة لا يكون الا بالحق وحصول الفائدة بانزالهم وقد علم الله
تعالى من حال هؤلاء الكفار انه لو انزل اليهم الملائكة لبقوا مصرين على كفرهم فيصير انزالهم
عبثا باطلا ولا يكون حقا فمع اخلال كل من ذلك بقطعية الباقى لا يلزم من فرض وقوع
شئ من ذلك تعجيل العذاب الذى يفيده قوله وما كانوا اذا منظرين هذا على تقدير كون
اقتراحهم لاتيان الملائكة لاجل الشهادة اما على تقدير كون ذلك لتعذيبهم فالمعنى
انا ما ننزل الملائكة للتعذيب الا تنزيلا ملتبسا بالحق الذى يقتضيه الحكمة ويستدعيه
المصلحة حتما بحيث لا محيد عنه ولو نزلناهم حسبما اقترحوا ما كان ذلك التنزيل
ملتبسا بمقتضى الحكمة الموجبة لتاخير عذابهم الى يوم القيمة لارتفاعها بل بتشديد
عليهم كما مر من قبل وحيث كان فى نسبة تنزيلهم للتعذيب الى عدم موافقته
الحكمة نوع ايهام لعدم استحقاقهم التعذيب عدل عما يقتضيه الظاهر الى ما عليه
النظم الكريم فكانه قيل لو نزلناهم ما كانوا منظرين وذلك غير موافق للحكمة الموجبة
لتاخير عذابهم لتشديد عقابهم وقيل المراد بالحق الوحى وقيل العذاب فتدبر انا نحن
نزلنا الذكر رد لانكارهم التنزيل واستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وتسلية له
اى نحن بعظم شاننا وعلو جنابنا نزلنا ذلك الذكر الذى انكروه وانكروا نزوله عليك
ونسبوك بذلك الى الجنون وعموا منزله حيث بنوا الفعل للمفعول ايماء الى انه امر لا مصدر
له وفعل لا فاعل له وانا له لحافظون من كل ما لا يليق به فيدخل فيه تكذيبهم له و

استهزؤهم به دخولا اوليا فيكون وعيدا للمستهزئين واما الحفظ من مجرد التحريف
والزيادة والنقص وامثالها فليس يقتضي المقام فالوجه الحمل على الحفظ من جميع ما يقدح
فيه من الطعن فيه والمجادلة في حقيقته ويجوز ان يراد حفظه بالاعجاز دليلا على التنزيل
من عنده تعالى اذ لو كان من عند غير الله لتطرق عليه الزيادة والنقص والاختلاف
وفي سبك الجملتين من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة وعلى فخامة شان التنزيل
ما لا يخفى وفي ايراد الثانية بالجملة الاسمية دلالة على دوام الحفظ والله سبحانه اعلم
وقيل الضمير المجرور للرسول صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى والله يعصمك من الناس
وتاخير هذا الكلام وان كان جوابا عن اول كلامهم الباطل لارتباطه لما ذكر انفا ولارتباطه
بما يعقبه من قوله تعالى ولقد ارسلنا اي رسلا وانا لم يذكر لدلالة ما بعده عليه من
قبلك متعلق بارسلنا او بمحذوف هو نعت للمفعول المحذوف اي رسلا كائنة من
قبلك في شيع الاولين اي فرقهم واحزابهم جمع شيعة وهي الفرقة المتفقة على
طريقة مذهب من شاعه اذا تبعه واضافته الى الاولين من اضافة الموصوف الى
صفته عند الفراء ومن حذف الموصوف عند البصريين اي شيع الامم الاولين ومعنى ارسالهم
فيهم جعل كل منهم رسولا فيما بين طائفة منهم ليتابعوه في كل ما ياتي ويذر من امور
الدين وما ياتيهم من رسول المراد نفي اتيان كل رسول لشيعته الخاصة به لا نفي اتيان
كل رسول لكل واحدة من تلك الشيع جميعا او على سبيل البدل وصيغة الاستقبال
لاستحضار الصورة على طريقة حكاية الحال الماضية فان ما لا تدخل في الاغلب على
مضارع الا وهو في معنى الحال ولا على ماض الا وهو قريب من الحال اي ما اتى شيعة
من تلك الشيع رسول خاص بها الا كانوا به يستهزءون كما يفعله هؤلاء الكفرة والجملة
في محل النصب على انها حال مقدرة من ضمير المفعول في ياتيهم اذا كان المراد بالاتيان
حدوثه او في محل الرفع على انها صفة رسول فان محله الرفع على الفاعلية اي الا
رسول كانوا به يستهزءون واما الجر على انها صفة باعتبار لفظه فيفضي الى زيادة من
الاستغراقية في الاثبات ويجوز ان يكون منصوبا على الوصفية بان يقدر الموصوف
منصوبا على الاستثناء وان كان المختار الرفع على البدلية وهذا كما ترى تسلية لرسول الله
صلى الله عليه وسلم بان هذه عادة الجهال مع الانبياء عليهم الصلوة والسلام و
حيث كان الرسول مصحوبا بكتاب من عند الله تعالى تضمن ذكر استهزائهم بالرسول استهزاءهم
بالكتاب ولذلك قيل كذلك اشارة الى ما دل عليه الكلام السابق من القاء الوحي
مقرونا بالاستهزاء اي مثل ذلك السلك الذي سلكناه في قلوب اولئك المستهزئين
برسلهم وبما جاءوا به من الكتب نسلكه اي الذكر في قلوب المجرمين اي اهل مكة اي
جنس المجرمين فيدخلون فيه دخولا اوليا ومحله النصب على انه نعت لمصدر محذوف
او حال منه اي نسلكه سلكا مثل ذلك السلك او نسلك السلك حال كونه مثله
اي مقرونا بالاستهزاء غير مقبول لما يقتضيه الحكمة فانهم من اهل الخذلان ليس لهم
استحقاق لقبول الحق وصيغة المضارع لكون المشبه به مقدما في الوجود وهو
السلك الواقع في الامم السالفة او للدلالة على استحضار الصورة والسلك ادخال الشيء في
آخر يقال سلكت الخيط في الابرة والرمح في المطعون لا يؤمنون به اي بالذكر حال من
ضمير نسلكه اي غير مؤمن له او بيان للجملة السابقة فلا محل لها وقد جعل الضمير
للاستهزاء فيتعين البيانية الا ان يجعل الضمير المجرور ايضا له على ان الباء للملابسة اي نسلك
الاستهزاء في قلوبهم حال كونهم غير مؤمنين بملابسته والحال اما مقدرة او مقارنة
للايذان بان كفرهم مقارن للالقاء كما في قوله تعالى فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وقد
خلت سنة الاولين اي قد مضت طريقتهم التي سنها الله تعالى في اهلاكهم حين فعلوا
ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء وهو استيناف جيء به تكملة للتسلية وتصريحا
بالوعيد والتهديد ولو فتحنا عليهم اي على هؤلاء المقترحين المعاندين
بابا من السماء اي بابا ما لا بابا من ابوابها المعهودة كما قيل ويسرنا لهم الرقي والصعود

اليه فظلوا فيه في ذلك الباب يعرجون بآلة او بغيرها ويرون ما فيها من العجائب
عيانا كما يفيده الظلول او فظل الملائكة الذين اقترحوا اتيانهم يعرجون في ذلك الباب
وهم يرونه عيانا مستوضحين طول نهارهم لقالوا لفرط عنادهم وعلوهم
في المكابرة وتماديهم في جحود الحق انما سكرت ابصارنا اي سدت من الاحساس
من السكر كما يدل عليه القراءة بالتخفيف او حيرت كما يعضده قراءة من قرا سكرت اي حارت
بل نحن قوم مسحورون قد سحرنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قالوا عند ظهور سائر
الآيات الباهرة وفي كلمتي الحصر والاضراب دلالة على انهم يبتون القول بذلك وانما
يرونه لا حقيقة له وانما هو امر خيل اليهم بالسحر وفي اسمية الجملة الثانية دلالة على
دوام مضمونها وايرادها بعد تسكير الابصار لبيان انكارهم لغير ما يرونه فان عروج
كل منهم الى السماء وان كان مرئيا لغيره فهو معلوم له بطريق الوجدان مع قطع النظر
عن الابصار فهم يدعون ان ذلك نوع آخر من السحر غير تسكير الابصار ولقد
جعلنا في السماء بروجا قصورا ينزلها السيارات وهي البروج الاثنا عشر المشهورة
المختلفة الهيئات والخواص حسبما يدل عليه الرصد والتجربة مع ما اتفق عليه الجمهور
من بساطة السماء والجعل ان جعل بمعنى الخلق والابداع وهو الظاهر فالجار متعلق به وان
جعل بمعنى التصيير فهو مفعول ثان له متعلق بمحذوف اي جعلنا بروجا كائنة في السماء
وزيناها اي السماء بتلك البروج المختلفة الاشكال والكواكب سيارات كانت او
ثوابت للناظرين اليها فمعنى التزيين ظاهر او للمتفكرين المعتبرين المستدلين
بذلك على قدرة مقدرها وحكمة مدبرها فتزيينها ترتيبها على نظام بديع مستتبع
للآثار الحسنة وحفظناها من كل شيطان رجيم مرمي بالنجوم فلا يقدر
ان يصعد اليها ويوسوس في اهلها ويتصرف فيها ويقف على احوالها الا من استرق
السمع محله النصب على الاستثناء المتصل ان فسر الحفظ بمنع الشياطين عن التعرض
لها على الاطلاق والوقوف على ما فيها في الجملة او المنقطع ان فسر ذلك بالمنع عن دخولها
والتصرف فيها عن ابن عباس رضي الله عنهما انهم كانوا لا يحجبون عن السموات
فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلث سموات فلما ولد النبي صلى الله عليه وسلم
منعوا عن السموات كلها واستراق السمع واختلاسه سرا شبه به خطفتهم اليسيرة
من قطان السموات بما بينهم من المناسبة في الجواهر او بالاستدلال من الاوضاع فاتبعه
اي تبعه ولحقه شهاب لهب محرق وهي شعلة نار ساطعة وقد تطلق على الكواكب
والسنان لما فيهما من البريق مبين ظاهر امره للمبصرين قال معمر قلت لابن شهاب
الزهري اكان يرمى بالنجوم في الجاهلية قال نعم وان النجم ينقض ويرمى به
الشيطان فيقتله او يخبله لئلا يعود الى استراق السمع ثم يعود الى مكانه قال افرايت
قوله تعالى انا كنا نقعد منها مقاعد الآية قال غلظت وشدد امرها حين بعث
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن قتيبة ان الرجم كان قبل مبعثه صلى الله
عليه وسلم ولكن لم يكن في شدة الحراسة كما بعد مبعثه عليه السلام قال ابن عباس
رضي الله عنهما ان الشياطين يركب بعضهم بعضا الى السماء الدنيا يسترقون السمع
من الملائكة فيرمون بالكواكب فلا تخطئ ابدا فمنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه
وجنبه ويده حيث يشاء الله تعالى ومنهم من تخبله فيصير غولا فيضل
الناس في البوادي قال القرطبي اختلفوا في ان الشهاب هل يقتل ام لا
قال ابن عباس يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل وقال الحسن وطائفة يقتل قال
والاول اصح والارض مددناها بسطناها وهي بالنصب على الحذف على
شريطة التفسير ولم يقرا بالرفع لرجحان النصب للعطف على الجملة الفعلية اعني قوله
تعالى ولقد جعلنا الخ وليوافق ما بعده اعني قوله تعالى والقينا فيها رواسي اي
جبالا ثوابت وقد مر بيانه في اول الرعد وانبتنا فيها اي في الارض او فيها
وفي رواسيها من كل شيء موزون بميزان الحكمة ذاتا وصفة ومقدارا وقيل

مايوزن من نحو الذهب والفضة وغيرهما او من كل شئ مستحسن مناسب او مايوزن
ويقدر من ابواب النعمة وجعلنا لكم فيها معايش ماتعيشون به من المطاعم
والملابس وغيرهما مما يتعلق به البقا وهى بياء صريحة وقرئ بالهمزة تشبيها له بالشمائل
ومن لستم له برازقين عطف على معايش او على محل لكم كانه قيل جعلنا لكم معايش
وجعلنا لكم من لستم برازقيه من العيال والمماليك والخدم والدواب وما اشبهها
على طريقة التغليب وذكرهم بهذا العنوان لرد حسبانهم انهم يكفون مؤناتهم و
لتحقيق ان الله تعالى هو الذى يرزقهم واياهم او وجعلنا لكم فيها معايش ومن
لستم له برازقين وان من شئ ان للنفى ومن مزيدة للتاكيد وشئ فى محل الرفع
على الابتداء اى ما من شئ من الاشياء الممكنة فيدخل فيها ماذكر دخولا اوليا
الا عندنا خزائنه الظرف خبر للمبتدا وخزائنه مرتفع به على انه فاعله لاعتماده او خبر
له والجملة خبر للمبتداء الاول والخزائن جمع الخزانة وهى ما يحفظ فيه نفايس الاموال لا
غير غلب فى العرف على ما للملوك والسلاطين من خزائن ارزاق الناس شبهت مقدوراته
تعالى الغائبة للحصر المندرجة تحت قدرته الشاملة فى كونها مستورة عن علوم
العالمين ومصونة عن وصول ايديهم مع كمال افتقارهم اليها ورغبتهم فيها
وكونها مهيأة متاتية لايجاده وتكوينه بحيث متى تعلقت الارادة بوجودها
وجدت بلا تاخير بنفايس الاموال المخزونة فى الخزائن السلطانية فذكر الخزائن على
طريقة الاستعارة التخييلية وما ننزله اى ما نوجد وما نكون شيئا من تلك الاشياء
ملتبسا بشئ من الاشياء الا بقدر معلوم اى الا ملتبسا بمقدار معين يقتضيه
الحكمة ويستدعيه المشية التابعة لها لا بما يقتضيه القدرة فان ذلك غير متناه فان
تخصيص كل شئ بصفة معينة وقدر معين ووقت محدود دون ما عدا ذلك مع استواء
الكل فى الامكان واستحقاق تعلق القدرة به لابد له من حكمة يقتضيه اختصاص كل
من ذلك بما اختص به وهذا لبيان سر عدم تكوين الاشياء على وجه الكثرة حسبما
هو فى خزائن القدرة وهو اما عطف على مقدر اى ننزله وما ننزله الخ او حال
مما سبق اى عندنا خزائن كل شئ والحال انا ما ننزله الا بقدر معلوم والاول لبيان
سعة القدرة والثانى لبيان بالغ الحكمة وحيث كان انشاء ذلك بطريق التفضل من
العالم العلوى الى العالم السفلى كما فى قوله تعالى وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج
وكان ذلك بطريق التدريج عبر عنه بالتنزيل وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار
وارسلنا الرياح عطف على جعلنا لكم فيها معايش وما بينهما اعتراض لتحقيق
ماسبق وترشيح مالحق اى ارسلنا الرياح لواقح اى حوامل شبهت الريح التى تجئ
بالخير من انشاء سحاب ماطر بالحامل كما شبه بالعقيم ما لا يكون كذلك او ملقحات
بالشجر والسحاب ونظايره الطوائح بمعنى المطيحات فى قوله ومختبط مما تطيح الطوائح
اى المهلكات وقرئ وارسلنا الريح على ارادة الجنس فانزلنا من السماء بعد
ما انشأنا بتلك الرياح سحابا ماطرا ماء فاسقيناكموه اى جعلناه لكم سقيا
وهو ابلغ من سقيناكموه لما فيه من الدلالة على جعل الماء معدا لهم ينتفعون به متى
شاؤا وما انتم له بخازنين نفى عنهم ما اثبته لجنابه بقوله وان من شئ الا عندنا
خزائنه كانه قيل نحن القادرون على ايجاده وخزنه فى السحاب وانزاله
وما انتم على ذلك بقادرين وقيل ما انتم بخازنين له بعد ما انزلناه فى الغدران
والابار والعيون بل نحن نخزنه فيها لنجعلها سقيا لكم مع ان طبيعة الماء يقتضى
الغور وانا لنحن نحيى بايجاد الحيوة فى بعض الاجسام القابلة لها ونميت
بازالتها عنها وقد يعمم الاحياء والاماتة لما يشمل الحيوان والنبات وتقديم الضمير
للحصر وهو اما تاكيد للاول او مبتدا خبره الفعل والجملة خبر لانا ولا يجوز كونه
ضمير الفصل لا لان اللام مانعة عن ذلك كما قيل فان النحاة جوزوا دخول لام التاكيد
على ضمير الفصل كما فى قوله تعالى ان هذا لهو القصص الحق بل لانه لم يقع بين اسمين ونحن

ظ يقتضى

الوارثون

الوارثون اى الباقون بعد فناء الخلق قاطبة المالكون للملك عند انقضاء زمان الملك
المجازى الحاكمون فى الكل اولا واخرا وليس لهم الا التصرف الصورى والملك المجازى
وفيه تنبيه على ان المتاخر ليس بوارث للمتقدم كما يترائى من ظاهر الحال ولقد علمنا
المستقدمين منكم من تقدم منكم ولادة وموتا ولقد علمنا المستاخرين
من تاخر ولادة وموتا او من خرج من اصلاب الاباء ومن لم يخرج بعد او من
تقدم فى الاسلام والجهاد وسبق الى الطاعة ومن تاخر فى ذلك لا يخفى علينا شئ
من احوالكم وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته فان ما يدل عليها
دليل عليه وفى تكرير قوله تعالى ولقد علمنا ما لا يخفى من الدلالة على كمال التاكيد وقيل
رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصف الاول فازدحموا عليه فنزلت
وقيل ان امرأة حسناء كانت تصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقدم
بعض الناس لئلا يراها وتاخر اخرون ليروها فنزلت والاول هو المناسب لما سبق
وما لحق من قوله تعالى وان ربك هو يحشرهم اى للجزاء وتوسيط ضمير العظمة
للدلالة على انه هو القادر على حشرهم والمتولى له لا غير لانهم كانوا يستبعدون
ذلك ويستنكرونه ويقولون من يحيى العظام وهى رميم اى هو يحشرهم لا غير وفى
الالتفات والتعرض لعنوان الربوبية اشعار بعلة الحكم وفى الاضافة الى ضميره عليه السلام
دلالة على اللطف به عليه السلام انه حكيم بالغ الحكمة متقن فى افعاله فانها
عبارة عن العلم بحقايق الاشياء على ما هى عليه والاتيان بالافعال على ما ينبغى عليم
وسع علمه كل شئ ولعل تقديم صفة الحكمة للايذان باقتضائها للحشر والجزاء ولقد خلقنا
الانسان اى هذا النوع بان خلقنا اصله واول فرد من افراده خلقا جديدا منطويا على
خلق سائر افراده انطواء اجماليا كما مر تحقيقه فى سورة الانعام من صلصال من طين
يابس غير مطبوخ يصلصل اى يصوت عند نقره قيل اذا توهمت فى صوته مدا فهو صليل
وان توهمت فيه ترجيعا فهو صلصلة وقيل هو تضعيف صل اذا انتن من حمإ من
طين تغير واسود بطول مجاورة الماء وصفة لصلصال اى من صلصال كائن من حمإ
مسنون اى مصور من سنة الوجه وهى صورته او مصبوب من صب الماء صبه او مفرغ
على هيئة الانسان كما يفرغ الصور من الجواهر المذابة فى القوالب وقيل منتن فهو صفة لحمإ وعلى
الاولين حقه ان يكون صفة لصلصال وانما اخر عن حمإ تنبيها على ان ابتداء مسنونيته فى
حال كونه حمأ كانه سبحانه افرغ الحمأ فصور من ذلك تمثال انسان
اجوف فيبس حتى اذا نقر صوت ثم غيره الى جوهر اخر فتبارك الله احسن الخالقين
والجان ابا الجن وقيل ابليس ويجوز ان يراد به الجنس كما هو الظاهر من الانسان
لان تشعب الجنس لما كان من فرد واحد مخلوق من مادة واحدة كان الجنس باسره
مخلوقا منها وقرئ بالهمزة وانتصابه بفعل يفسره خلقناه وهو اقوى من الرفع
للعطف على الجملة الفعلية من قبل من قبل خلق الانسان ومن هذا يظهر جواز كون
المستقدمين احد الثقلين والمستاخرين الاخر والخطاب بقوله منكم للكل من نار
السموم من نار الحر الشديد النافذ فى المسام ولا امتناع فى خلق الحياة فى الاجرام
البسيطة كما لا امتناع فى خلقها فى الجواهر المجردة فضلا عن الاجساد المؤلفة التى غالب
اجزائها الجزء النارى فانها اقبل لها من التى غالب اجزائها الجزء الارضى وقوله تعالى
من نار باعتبار الغالب كقوله تعالى خلقكم من تراب ومساق الاية الكريمة كما هو للدلالة
على كمال قدرة الله تعالى وبيان بدء خلق الثقلين فهو للتنبيه على المقدمة الثانية التى
يتوقف عليها امكان الحشر وهو قبول المواد للجمع والاحيا واذ قال ربك
نصب باضمار اذكر وتذكير الوقت لما مر مرارا من انه ادخل فى تذكير ما وقع فيه من
الحوادث وفى التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن تبليغ الشئ الى كماله اللائق به شيئا
فشيئا مع الاضافة الى ضميره عليه السلام اشعار بعلة الحكم وتنويه له صلى الله عليه
وسلم اى اذكر وقت قوله تعالى للملائكة انى خالق فيما سياتى وفيه ما ليس فى صيغة

المضارع من الدلالة على انه تعالى فاعل البتة من غير صارف يثنيه ولا عاطف يلويه بشرا
اى انسانا وقيل ليس هذا عين العبارة الجارية وقت الخطاب بل الظاهر ان يكون قد قيل
لهم انى خالق خلقا من صفته كيت وكيت ولكن اقتصر عند الحكاية على الاسم وقيل
جسما كثيفا يلاقى ويباشر وقيل خلقا بادى البشرة بلا صوف ولا شعر من صلصال
متعلق بخالق او بمحذوف وقع صفة لمفعوله اى بشرا كائنا من صلصال كائن من
حمأ مسنون تقدم تفسيره ولا ينافى هذا ما فى قوله تعالى فى سورة ص من قوله
بشرا من طين فان عدم التعرض عند الحكاية لوصف الطين من التغير والاسوداد
ولما ورد عليه من آثار التكوين هى المسنونية لا يستلزم عدم التعرض لذلك عند
وقوع المحكى غايته انه لم يتعرض هناك اكتفاء بما شرح ههنا فاذا سويته اى
صورته بالصورة الانسانية والخلقة البشرية او سويت اجزاء بدنه بتعديل طبائعه
ونفخت فيه من روحى النفخ اجراء الريح الى تجويف جسم صالح لامساكها والامتلاء
بها وليس ثمة نفخ ولا منفوخ وانما هو تمثيل لافاضة ما به الحيوة بالفعل على المادة
القابلة لها اى فاذا اكملت استعداده وافضت عليه ما يحيى به من الروح التى هى من
امرى فقعوا له امر من وقع يقع وفيه دليل على ان ليس المأمور به مجرد الانحناء كما قيل
اى اسقطوا له ساجدين تحية له وتعظيما او اسجدوا لله تعالى على انه عليه السلام
بمنزلة القبلة حيث ظهر فيه تعاجيب آثار قدرته تعالى وحكمته كقول حسان
رضى الله عنه أليس اول من صلى لقبلتكم واعلم الناس بالقرآن والسنن فسجد
الملائكة اى فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد له الملائكة كلهم بحيث لم يشذ
منهم احد اجمعون بحيث لم يتأخر فى ذلك احد منهم عن احد ولا اختصاص
لافادة هذا المعنى بالحالية بل يفيده التأكيد ايضا فان الاشتقاق الواضح يرشد الى ان
فيه معنى الجمع والمعية بحسب الوضع والاصل فى الخطابيات التنزيل على اكمل احوال الشئ
ولا ريب فى ان السجود معا اكمل اصناف السجود لكن شاع استعماله تأكيدا واقيم مقام
كل فى افادة معنى الاحاطة من غير نظر الى الكمال فاذا فهمت الاحاطة من لفظ آخر لم
يكن بد من مراعاة الاصل صونا للكلام عن الالغاء وقيل اكد بتأكيدين مبالغة فى التعميم هذا
واما ان سجودهم هذا هل ترتب على ما حكى من الامر التعليقى كما يقتضيه هذه الآية
الكريمة والتى فى سورة ص او على الامر التنجيزى كما يستدعيه ما فى غيرهما فقد خرجنا
بفضل الله عز وجل عن عهدة تحقيقه فى تفسير سورة البقرة الا ابليس استثناء متصل
اما لانه كان جنيا مفردا مغمورا بالوف من الملائكة فعد منهم تغليبا واما لان من
الملائكة جنسا يتوالدون وهو منهم قوله تعالى ابى ان يكون مع الساجدين استئناف
مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء فان مطلق عدم السجود قد يكون
مع التردد وبه علم انه مع الاباء والاستكبار او منقطع فيتصل به ما بعده اى لكن
ابليس ابى ان يكون معهم وفيه دلالة على كمال ركاكة رأيه حيث ادمج فى معصية
واحدة ثلاث معاص مخالفة الامر والاستكبار مع تحقير آدم عليه السلام ومفارقة
الجماعة والاباء عن الانتظام فى سلك اولئك المقربين الكرام قال استئناف مبنى
على سؤال من قال فماذا قال تعالى عند ذلك فقيل قال يا ابليس ما لك اى اى سبب لك
اى غرض لك كما قيل لقوله تعالى ما منعك الا تكون فى ان لا تكون مع الساجدين
لآدم مع انهم هم ومنزلتهم فى الشرف منزلتهم وما كان التوبيخ عند وقوعه
لمجرد تخلفه عنهم بل لكل من المعاصى الثلاث المذكورة قال تعالى فى سورة الاعراف
قال ما منعك ان لا تسجد اذ امرتك وفى سورة ص قال يا ابليس ما منعك ان تسجد
لما خلقت بيدى ولكن اقتصر عند الحكاية فى كل موطن على ما ذكر فيه اجتزاء بما ذكر
موطن آخر واشعارا بان كل واحدة من تلك المعاصى الثلاث كافية فى التوبيخ واظهار
بطلان ما ارتكبه وقد تركت حكاية التوبيخ رأسا فى سورة البقرة وسورة بنى اسرائيل
وسورة الكهف وسورة طه قال اى ابليس وهو ايضا استئناف مبنى على السؤال الذى

ينساق اليه الكلام لم اكن لاسجد اللام لتأكيد النفى اى ينافى حالى ولا يستقيم منى لانى
مخلوق من اشرف العناصر واعلاها ان اسجد لبشر اى جسم كثيف خلقته من صلصال
من حمأ مسنون اقتصر ههنا على الاشارة الاجمالية الى ادعاء الخيرية وشرف المادة اكتفاء
بما صرح به حين قال انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ولم يكتف اللعين بمجرد
ذكر كونه عليه السلام من التراب الذى هو اخس العناصر واسفلها بل تعرض لكونه
مخلوقا منه فى اخس احواله من كونه طينا متغيرا وقد اكتفى فى سورة الاعراف وسورة
ص بما حكى عنه ههنا فاقتصر على حكاية تعرضه لخلقه عليه السلام من طين وكذا
فى سورة بنى اسرائيل حيث قيل ءاسجد لمن خلقت طينا وفى جوابه دليل على ان قوله
تعالى ما لك ليس استفسارا عن الغرض بل هو استفسار عن السبب وفى عدوله عن تطبيق
جوابه على السؤال روم للتفصى عن المناقشة وانى له ذلك كأنه قال لم امتنع عن
امتثال الامر ولا عن الانتظام فى سلك الملائكة بل عما لا يليق بشأنى من الخضوع
للمفضول ولقد جرى خذله الله تعالى على سنن قياس عقيم وزل عنه ان ما يدور عليه
فلك الفضل والكمال هو التحلى بالمعارف الربانية والتخلى عن الملكات الردية التى اقبحها
التكبر والاستعصاء على امر رب العالمين جل جلاله قال فاخرج منها اى من زمرة
الملائكة المعززين لا من السماء فان وسوسته لآدم عليه السلام فى الجنة انما كانت بعد
هذا الطرد وقوله تعالى فاهبط منها ليس نصا فى ذلك فان الخروج من بين الملأ الاعلى
هبوط واى هبوط او من الجنة على ان وسوسته كانت بطريق النداء من بابها كما روى
عن الحسن البصرى او بطريق المشافهة بعد ان احتال فى دخولها وتوسل اليه بالحية كما
روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ولا ينافى هذا طرده على رؤس الاشهاد لما يقتضيه
من الحكم البالغة فانك رجيم مطرود من كل خير وكرامة فان من يطرد يرجم بالحجارة
او شيطان يرجم بالشهب وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته فان من عارض النص
بالقياس فهو رجيم ملعون وان عليك اللعنة الابعاد عن الرحمة وحيث كان ذلك
من جهة الله سبحانه وان كان جاريا على السنة العباد وقيل فى سورة ص وان عليك لعنتى
الى يوم الدين الى يوم الجزاء والعقوبة وفيه اشعار بتأخير عقابه وجزائه اليه
وان اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لفعله وانما يتحقق ذلك يومئذ من
التهويل ما لا يوصف وجعل ذلك اقصى امد اللعنة ليس لانها تنقطع هناك بل لانه عند ذلك
يعذب بما ينسى به اللعنة من افانين العذاب فتصير هى كالزائل وقيل انما حد به لانه ابعد
غاية يضربها الناس كقوله تعالى خالدين فيها ما دامت السموات والارض وحيث امكن
كون التأخير العقوبة مع الموت كسائر من اخرت عقوبتهم الى الآخرة من الكفرة
طلب اللعين تأخير موته كما حكى عنه بقوله تعالى قال رب فانظرنى اى امهلنى واخرنى
ولا تمتنى والفاء متعلقة بمحذوف ينسحب عليه الكلام اى اذا جعلتنى رجيما فامهلنى
الى يوم يبعثون اى آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم واراد بذلك ان يجد
فسحة لاغوائهم ويأخذ منهم ثأره وينجو من الموت لاستحالته بعد يوم
البعث قال فانك من المنظرين ورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ما
سأله لآخرين على وجه يؤذن بكون السائل تبعا لهم فى ذلك دليل على انه اخبار
بالانظار المقدر لهم ازلا لا انشاء لانظار خاص به وقع اجابة لدعائه اى انك من
جملة الذين اخرت آجالهم ازلا حسبما يقتضيه الحكمة التكوينية فالفاء ليست لربط نفس
الانظار بالاستنظار بل لربط الاخبار المذكور به كما فى قوله فان ترحم فانت لذاك
اهل فانه لا امكان لجعل الفاء فيه لربط ما فيه تعالى من الاهلية القديمة للرحمة بوقوع الرحمة
الحادثة بل هى لربط الاخبار بتلك الاهلية للرحمة بوقوعها وان استنظاره كان طلبا
لتأخير الموت اذ به يتحقق كونه من جملتهم لا لتأخير العقوبة كما قيل ونظمه فى ذلك
فى سلك من اخرت عقوبتهم الى الآخرة فى علم الله تعالى ممن سبق من الجن ونحوهم
من الثقلين لا يلائم مقام الانظار مع الحيوة ولان ذلك التأخير معلوم من اضافة اليوم

الى الدين مع اضافته فى السؤال الى البعث كما عرفته و فى سورة الاعراف قال انظرنى الى يوم يبعثون
قال انك من المنظرين بترك التوقيت والنداء والفاء فى الاستنظار والانظار تعويلا على ما
ذكر ههنا و فى سورة ص فان ايراد كلام واحد على اساليب متعددة غير عزيز فى الكتاب العزيز
واما ان كل اسلوب من اساليب النظم الكريم لابد ان يكون مقام يقتضيه مقام
مغاير لمقام وان ما حكى من اللعين انما صدر عنه مرة وكذا جوابه لم يقع الا دفعة فمقام
المحاورة ان اقتضى احد الاساليب المذكورة فهو المطابق لمقتضى الحال والبالغ الى طبقة الاعجاز
وما عداه قاصر عن رتبة البلاغة فضلا عن الارتقاء الى معالم الاعجاز فقد مر تحقيقه بتوفيق
الله تعالى فى سورة الاعراف الى يوم الوقت المعلوم وهو وقت النفخة التى علم انه
يصعق عندها من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله تعالى ويجوز ان يكون المراد
بالايام واحدا والاختلاف فى العبارات لاختلاف الاعتبارات فالتعبير بيوم البعث
لان غرض اللعين به يتحقق وبيوم الدين لما ذكر فى الجزاء وبيوم الوقت المعلوم لما ذكر
لاستيثاره تعالى بعلمه فلعل كلا من اهلاك الخلق جميعا وبعثهم وجزائهم فى يوم واحد
يموت اللعين فى اوله ويبعث فى اواسطه ويعاقب فى بقيته يروى ان بين موته وبعثه
اربعين سنة من سنى الدنيا مقدار ما بين النفختين ونقل من الاحنف بن قيس رحمه الله
تعالى انه قال قدمت المدينة اريد امير المؤمنين عمر رضى الله عنه فاذا انا بحلقة عظيمة
وكعب الاحبار فيها يحدث الناس وهو يقول لما حضر آدم عليه السلام الوفاة قال
يا رب سيشمت بى عدوى ابليس اذا رآنى ميتا وهو منظر الى يوم القيمة فاجيب ان يا آدم انك
سترد الى الجنة ويؤخر اللعين الى النظرة ليذوق الم الموت بعدد الاولين والآخرين
ثم قال لملك الموت صف كيف تذيقه الموت فلما وصفه قال يا رب حسبى فضج الناس
وقالوا يا ابا اسحق كيف ذلك فابى فالحوا فقال يقول الله سبحانه لملك الموت عقيب
النفخة الاولى قد جعلت فيك قوة اهل السموات واهل الارضين السبع وانى البستك
اليوم اثواب السخط والغضب كلها فانزل بغضبى وسطوتى على رجيمى ابليس فاذقه
الموت واحمل عليه فيه مرارة الاولين والآخرين من الثقلين اضعافا مضاعفة وليكن
معك من الزبانية سبعون الفا قد امتلأوا غيظا وغضبا وليكن مع كل منهم سلسلة
من سلاسل جهنم وغل من اغلالها وانزع روحه المنتن بسبعين الف كلاب من
كلاليبها وناد مالكا ليفتح ابواب النيران فينزل ملك الموت بصورة لو نظر اليها اهل
السموات والارضين لماتوا بغتة من هولها فينتهى الى ابليس فيقول قف لى يا خبيث
لاذيقنك الموت كم من عمر ادركت وقرون اضللت وهذا هو الوقت المعلوم قال
فيهرب اللعين الى المشرق فاذا هو بملك بين عينيه فيهرب الى المغرب فاذا هو بين عينيه
فيغوص البحار فتنز منه البحار فلا تقبله فلا يزال يهرب فى الارض ولا محيص له
ولا ملاذ ثم يقوم فى وسط الدنيا عند قبر آدم ويتمرغ فى التراب من المشرق الى
المغرب ومن المغرب الى المشرق حتى اذا كان فى الموضع الذى اهبط فيه آدم عليه السلام
وقد نصبت له الزبانية الكلاليب وصارت الارض كالجمرة احتوشته الزبانية وطعنوه
بالكلاليب ويبقى فى النزع والعذاب الى حيث يشاء الله تعالى ويقال لآدم وحواء اطلعا
اليوم الى عدوكما كيف يذوق الموت فيطلعان فينظران الى ما هو فيه من شدة
العذاب فيقولان ربنا اتممت علينا نعمتك قال رب بما اغويتنى الباء للقسم وما
مصدرية والجواب لازينن لهم اى اقسم باغوائك اياى لازينن لهم المعاصى
فى الارض اى فى الدنيا التى هى دار الغرور كقوله تعالى اخلد الى الارض و
اقسامه بعزة الله المفسرة بسلطانه وقهره لا ينافى اقسامه بهذا فانه فرع من فروعها
واثر من آثارها فلعله اقسم بهما جميعا فحكى تارة قسمه بهذا واخرى بذاك او
للسببية وقوله لازينن جواب قسم محذوف والمعنى بسبب تسببك لاغوائى
اقسم لافعلن بهم مثل ما فعلت بى من التسبيب لاغوائهم بتزيين المعاصى و
تسويل الاباطيل والمعتزلة اولوا الاغواء بالنسبة الى الغى او التسبب له بامره اياه بالسجود

لادم عليه السلام واعتذروا عن امهال الله تعالى له وتسليطه له على اغواء بنى آدم بانه تعالى
قد علم منه وممن يتبعه انهم يموتون على الكفر ويصيرون الى النار امهل او لم يمهل وان
فى امهاله تعريضا لمن خالفه لاستحقاق مزيد الثواب ولاغوينهم اجمعين لاحملنهم
على الغواية الا عبادك منهم المخلصين الذين اخلصتهم لطاعتك وطهرتهم
من الشوائب فلا يعمل فيهم كيدى وقرئ بكسر اللام اى الذين اخلصوا نفوسهم لله
عز وجل قال هذا صراط على اى حق على ان اراعيه مستقيم لا عوج فيه والاشارة
الى ما تضمنه الاستثناء وهو تخلص المخلصين من اغوائه او الاخلاص على معنى انه طريق
يؤدى الى الوصول الى من غير اعوجاج وضلال والاظهر ان ذلك لما وقع فى عبارة
ابليس حيث قال لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم
الآية وقرئ على من علو الشرف ان عبادى وهم المشار اليهم بالمخلصين ليس لك
عليهم سلطان تسلط وتصرف بالاغواء الا من اتبعك من الغاوين وفيه مع كونه
تحقيقا لما قاله اللعين تفخيم لشان المخلصين وبيان لمنزلتهم ولانقطاع مخالب الاغواء
عنهم وان اغواءه للغاوين ليس بطريق التسلط بل بطريق اتباعهم له بسوء اختيارهم
وان جهنم لموعدهم اى موعد المتبعين او الغاوين والاول انسب وادخل فى
الزجر عن اتباعه وفيه دلالة على ان جهنم مكان الوعد وان الموعود مما لا يوصف
فى الفظاعة اجمعين تاكيد للضمير او حال والعامل فيها الوعد ان جعل مصدرا على
تقدير المضاف او معنى الاضافة ان جعل اسم مكان لها سبعة ابواب يدخلونها لكثرتهم
او سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى الغواية والمتابعة وهى جهنم ثم لظى
ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية لكل باب منهم من
الاتباع او الغواة جزء مقسوم حزب مقسوم مفرز من غيره حسبما يقتضيه
استعداده فاعلاها للموحدين والثانية لليهود والثالثة للنصارى والرابعة للصابئين
والخامسة للمجوس والسادسة للمشركين والسابعة للمنافقين وعن ابن عباس
رضى الله عنهما لمن ادعى الربوبية ولظى لعبدة النار والحطمة لعبدة الاصنام وسقر
لليهود والسعير للنصارى والجحيم للصابئين والهاوية للموحدين ولعل حصرها فى السبع
لانحصار المهلكات فى المحسوسات بالحواس الخمس ومقتضيات القوة الشهوية والغضبية
وقرئ بضم الزاى وبحذف الهمزة والقاء حركتها الى ما قبلها مع تشديدها فى الوقف و
الوصل ومنهم حال من جزء او من ضميره فى الظرف لا فى مقسوم لان الصفة لا تعمل فيما
تقدم موصوفها ان المتقين من اتباعه فى الكفر والفواحش فان غيرهما مكفر فى
جنات وعيون اى مستقرون فيها خالدين لكل واحد منهم جنة وعين او لكل
منهم عدة منهما لقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقرئ بكسر العين حيث
فى القرآن العظيم ادخلوها على ارادة القول امر من الله تعالى لهم بالدخول وقرئ
ادخلوها امرا منه تعالى للملائكة بادخالهم وقرأ الحسن ادخلوها مبنيا للمفعول على
صيغة الماضى من الادخال بسلام ملتبسين بسلام اى سالمين او مسلما عليكم
آمنين من الآفات والزوال ونزعنا ما فى صدورهم من غل اى حقد كان
فى الدنيا وعن على رضى الله عنه ارجو ان اكون انا وعثمان وطلحة والزبير منهم
رضوان الله تعالى عليهم اجمعين اخوانا حال من الضمير فى قوله تعالى فى جنات
او من فاعل ادخلوها او من الضمير فى آمنين او الضمير المضاف اليه والعامل فيها معنى
الاضافة وكذلك قوله تعالى على سرر متقابلين ويجوز كونهما صفتين لاخوانا
او حالين من ضميره لانه بمعنى متصافين وكون الثانى حالا من المستكن فى
الاول وعن مجاهد تدور بهم الاسرة حيثما داروا فهم متقابلون فى جميع
احوالهم لا يمسهم فيها نصب اى تعب بان لا يكون لهم فيها ما يوجبه من الكد فى
تحصيل ما لا بد لهم منه لحصول كل ما يريدونه من غير مزاولة عمل اصلا او
بان لا يعتريهم ذلك وان باشروا الحركات العنيفة لكمال قوتهم وهو استيناف

او حال بعد حال او حال من الضمير فى متقابلين وما هم منها بمخرجين ابد الآباد
لان تمام النعمة بالخلود نبئ عبادى وهم الذين عبر عنهم بالمتقين انى انا الغفور
الرحيم وان عذابى هو العذاب الاليم فذلكة لما سلف من الوعد والوعيد و
تقرير له وفى ذكر المغفرة اشعار بان ليس المراد بالمتقين من يتقى جميع الذنوب كبيرها
وصغيرها وفى وصف ذاته تعالى بها وبالرحمة على وجه القصر دون التعذيب ايذان
بانهما يقتضيهما الذات وان العذاب انما يتحقق بما يوجبه من خارج ونبئهم عطف
على نبئ عبادى والمقصود اعتبارهم بما جرى على ابراهيم عليه السلام من البشرى
فى تضاعيف الخوف وبما حل بقوم لوط من العذاب ونجاته عليه السلام مع اهله
التابعين له فى ضمن الخوف وتنبيههم لحلول انتقامه تعالى من المجرمين وعلمهم بان
عذاب الله هو العذاب الاليم عن ضيف ابراهيم عن ابن عباس رضى الله عنهما
انهم جبريل عليه السلام وملكان معه وقال محمد بن كعب وسبعة معه عليهم السلام
وقيل جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن
السدى كانوا احد عشر على صورة الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل انهم كانوا
اثنى عشر ملكا وانما لم يتعرض لعنوان رسالتهم لانهم لم يكونوا مرسلين الى ابراهيم
عليه السلام بل الى قوم لوط حسبما يأتى ذكره اذ دخلوا عليه نصب بفعل مضمر
معطوف على نبئ اى واذكر وقت دخولهم عليه او خبر مقدر مضاف الى ضيف اى
خبر ضيف ابراهيم حين دخولهم عليه او بنفس ضيف على انه مصدر فى الاصل
فقالوا عند ذلك سلاما اى نسلم سلاما او سلمنا او سلمت سلاما قال انا
منكم وجلون اى خائفون فان الوجل اضطراب النفس لتوقع مكروه وقال عليه
السلام حين امتنعوا من اكل ما قربه اليهم من العجل الحنيذ لما ان المعتاد عندهم
انه اذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا انه لم يجئ بخير لا عند ابتداء دخولهم
لقوله تعالى فلما رأى ايديهم لا تصل اليه نكرهم واوجس منهم خيفة فلا مجال
لكون خوفه عليه السلام بسبب دخولهم بغير اذن ولا بغير وقت اذ لو كان كذلك
لاجابوا بما اجابوا به ولم يتصد عليه السلام لتقريب الطعام اليهم وانما لم يذكر
ههنا اكتفاء بما بين فى غير هذا الموضع الا يرى انه لم يذكر ههنا رده عليه السلام
لسلامهم قالوا لا توجل لا تخف وقرئ لا تاجل ولا توجل من اوجله اى اخافه
ولا تواجل من واجله بمعنى اوجله انا نبشرك استيناف لتعليل النهى عن الوجل فان
المبشر به لا يكاد يحوم حول ساحته خوف ولا حزن كيف لا وهو بشارة ببقائه
وبقاء اهله فى عافية وسلامة زمانا طويلا بغلام هو اسحق عليه السلام
لقوله تعالى فبشرناها باسحق ولم يتعرض ههنا لبشارة يعقوب عليه السلام اكتفاء
بما ذكر فى سورة هود عليم اذا بلغ وفى موضع بغلام حليم قال ابشرتمونى
بذلك على ان مسنى الكبر واثر فى تعجب عليه السلام من بشارتهم بالولد فى
حالة مباينة للولادة وزاد فى ذلك فقال فبم تبشرون اى باى اعجوبة تبشرونى
او باى شئ تبشرونى فان البشارة بما لا يتصور وقوعه عادة بشارة بغير شئ
او باى طريقة تبشرونى وقرئ بتشديد النون المكسورة على ادغام نون الجمع
فى نون الوقاية قالوا بشرناك بالحق اى بما يكون لا محالة او باليقين الذى لا لبس
فيه او بطريقة هى حق وهو امر الله تعالى وقوله فلا تكن من القانطين من الآيسين
فان الله تعالى قادر على ان يخلق بشرا بغير ابوين فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر
وقرئ من القنطين وكان مقصده عليه السلام استعظام نعمته تعالى عليه فى
ضمن التعجب العادى المبنى على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده لا استبعاد
ذلك بالنسبة الى قدرته سبحانه كما ينبئ عنه قول الملائكة فلا تكن من القانطين
دون ان يقولوا من الممترين او نحوه قال ومن يقنط استفهام انكارى
اى لا يقنط من رحمة ربه الا الضالون المخطئون طريق المعرفة والصواب

فلا يعرفون

فلا يعرفون سعة رحمته وكمال علمه وقدرته كما قال يعقوب عليه السلام لا ييأس من روح
الله الا القوم الكافرون ومراده نفى القنوط عن نفسه على ابلغ وجه اى ليس بى قنوط
من رحمته تعالى وانما الذى اقول لبيان منافاة حالى لفيضان تلك النعمة الجليلة علىّ وفى
التعرض لوصف الربوبية والرحمة ما لا يخفى من الجزالة وقرئ بضم النون وكسرها من
قنط بالفتح ولم يكن هذه المفاوضة من الملائكة مع ابراهيم عليه السلام خاصة بل مع
سارة ايضا حسبما شرح فى سورة هود ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بما ذكر هناك كما انه لم
يذكر هنا ههنا قال اى ابراهيم عليه السلام وتوسيطه بين قوله السابق وبين
قوله فما خطبكم اى امركم وشأنكم الخطير الذى لاجله ارسلتم سوى البشارة
ايها المرسلون صريح فى ان بينهما مقالة مطوية لهم اشير به الى مكانها كما فى قوله تعالى
قال أأسجد لمن خلقت طينا قال أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ الآية فان قوله الاخير ليس
موصولا بقوله الاول بل هو مبنى على قوله تعالى فاخرج منها فانك رجيم فان توسيط
قال بين قوليه للايذان بعدم اتصال الثانى بالاول وعدم ابتنائه عليه بل على غيره ثم
خطابه لهم عليهم السلام بعنوان الرسالة بعد ما كان خطابه السابق مجردا عن ذلك مع
تصديره بالفاء دليل على ان مقالتهم المطوية كانت متضمنة لبيان ان مجيئهم ليس
لمجرد البشارة بل لهم شأن آخر لاجله ارسلوا فكأنه قال عليه السلام ان لم يكن شأنكم
مجرد البشارة فماذا هو فلا حاجة الى الالتجاء الى ان علمه عليه السلام بان كل المقصود
ليس البشارة بسبب انهم كانوا ذوى عدد والبشارة لا تحتاج الى عدد ولذلك
اكتفى بالواحد فى زكريا عليه السلام ومريم ولا الى انهم بشروه فى تضاعيف
الحال لازالة الوجل ولو كانت تمام المقصود لابتدأوا بها فتأمل قالوا انا ارسلنا
الى قوم مجرمين هم قوم لوط لكن وصفوا بالاجرام وجئ بهم بطريق التنكير
ذما لهم واستهانة بهم الا آل لوط استثناء متصل من الضمير فى مجرمين اى الى
قوم اجرموا جميعا الا آل لوط فالقوم والارسال شاملان للمجرمين وغيرهم والمعنى
انا ارسلنا الى قوم اجرموا كلهم الا آل لوط لنهلك الاولين وننجى الآخرين ويدل
عليه قوله تعالى انا لمنجوهم اى لوطا وآله اجمعين اى مما يصيب القوم فانه
استيناف للاخبار بنجاتهم لعدم اجرامهم او لبيان ما فهم من الاستثناء من مطلق
عدم شمول العذاب لهم فان ذلك قد يكون بكون حالهم بين بين او لتعليله فان
من تعلق بهم التنجية بمنجى من شمول العذاب او منقطع من قوم وقوله تعالى انا
لمنجوهم متصل بآل لوط جار مجرى خبر لكن وعلى هذا فقوله تعالى الا امرأته استثناء
من آل لوط او من ضمير هم وعلى الاول من الضمير خاصة لاختلاف الحكمين اللهم
الا ان يجعل انا لمنجوهم اعتراضا وقرئ بالتخفيف قدرنا انها لمن الغابرين الباقين
مع الكفرة لتهلك معهم وقرئ قدرنا بالتخفيف وانما علق فعل التقدير مع اختصاص
ذلك بافعال القلوب لتضمنه معنى العلم ويجوز حمله على معنى قلنا لانه بمعنى القضاء
قول واصله جعل الشئ على مقدار غيره واسنادهم له الى انفسهم وهو فعل الله
سبحانه لما لهم من الزلفى والاختصاص فلما جاء آل لوط المرسلون شروع
فى بيان كيفية اهلاك المجرمين وتنجية آل لوط حسبما اجمل فى الاستثناء ثم فصل
فى التعليل نوع تفصيل ووضع المظهر موضع المضمر للايذان بان مجيئهم لتحقيق ما
ارسلوا به من الاهلاك والتنجية وليس المراد به ابتداء مجيئهم بل مطلق كينونتهم
عند آل لوط فان ما حكى عنه عليه السلام بقوله تعالى قال انكم قوم منكرون
انما قاله بعد اللتيا والتى حين ضاقت عليه الحيل وعيت به العلل لما لم يشاهد من
المرسلين عند مقاساته الشدائد ومعاناته المكايد من قومه الذين يريدون
بهم ما يريدون ما هو المعهود والمعتاد من الاعانة والامداد فيما يأتى ويذر
عند تجشمه فى تخليصهم انكارا لخذلانهم له وترك نصرته فى مثل تلك المضايقة
المعترية له بسببهم حيث لم يكونوا مباشرين معه لاسباب المدافعة والممانعة حتى الجأته

بقوله الا آل لوط

الى ان قال لو ان لى بكم قوة او آوى الى ركن شديد حسبما فصل فى سورة هود لا انه
قاله عند ابتداء ورودهم له حتى فان يطرقوه بشر كما قيل كيف لا وهو يجوابهم المحكى
بقوله قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون اى بالعذاب الذى كنت تتوعدهم به
فيمترون فيه ويكذبونك قد قشروا العصا وبينوا له عليه السلام جلية الامر فانى
يمكن ان يعتريه بعد ذلك المساءة وضيق الذرع فليست كلمة بل اضرابا عن موجب
الخوف المذكور على معنى ما جئناك بما تنكرنا لاجله بل بما يسرك وتقربه عينك بل هى
اضراب عما فهمه عليه السلام من ترك النصرة له والمعنى ما خذلناك وما خلينا بينك
وبينهم بل جئناك بما يدمرهم من العذاب الذى كانوا يكذبونك حين كنت تتوعدهم
به ولعل تقديم هذه المقاولة على ما جرى بينه وبين اهل المدينة من المجادلة للمسارعة
الى ذكر بشارة لوط عليه السلام باهلاك قومه وتنجية آله عقيب ذكر بشارة ابراهيم
عليه السلام بهما وحيث كان ذلك مستدعيا لبيان كيفية النجاة وترتيب مباديها
اشير الى ذلك اجمالا ثم ذكر ما فعل القوم وما فعل بهم ولم يبال بتغيير الترتيب الوقوعى
ثقة بمراعاته فى مواقع اخر ونسبة المجيء بالعذاب اليه عليه السلام مع انه نازل بالقوم
بطريق تفويض امره اليه لا بطريق نزوله عليه كانهم جاؤه به وفوضوا امره اليه
ليرسله عليهم حسبما كان يتوعدهم به واتيناك بالحق اى باليقين الذى لا مجال
فيه للامتراء والشك وهو عذابهم عبر عنه بذلك تنصيصا على نفى الامتراء عنه او
المراد بالحق الاخبار بمجيء العذاب المذكور وقوله تعالى وانا لصادقون تاكيد له اى
اتيناك فيما قلنا بالخبر الحق اى المطابق للواقع وانا لصادقون فى ذلك الخبر او فى كل كلام
فيكون كالدليل على صدقهم فيه وعلى الاول تاكيد اثر تاكيد وقوله تعالى فاسر باهلك
شروع فى ترتيب مبادى النجاة اى اذهب بهم فى الليل وقرئ بالوصل وكلاهما
من السرى وهو السير فى الليل وقرئ فسر من السير بقطع من الليل بطائفة منه
او من اخره قال افتحى الباب وانظرى فى النجوم كم علينا من قطع ليل بهيم وقيل
هو بعد ما مضى منه شيء صالح واتبع ادبارهم وكن على اثرهم تذودهم وتسرع
بهم وتطلع على احوالهم ولعل ايثار الاتباع على السوق مع انه المقصود بالامر
المبالغة فى ذلك اذ السوق ربما يكون بالتقدم على بعض مع التاخر عن بعض ويلزمه
عادة الغفلة عن حال المتاخر والالتفات المنهى عنه بقوله تعالى ولا يلتفت منكم
اى منك ومنهم احد فيرى ما وراءه من الهول فلا يطيقه او يصيبه ما اصابهم
او ولا ينصرف منكم احد ولا يتخلف لغرض فيصيبه العذاب وقيل نهوا عن ذلك
ليوطنوا انفسهم على المهاجرة او هو نهى عن ربط القلب بما خلفوه او هو للاسراع
فى السير فان الملتفت قلما يخلو عن ادنى وقفة وعدم ذكر استثناء المرأة عن الاسراء
او الالتفات لا يستدعى عدم وقوعه فان ذلك كما عرفت مدار الاكتفاء بما ذكر فى
مواضع اخر وامضوا حيث تؤمرون الى حيث امركم الله تعالى بالمضى اليه وهو
الشام او مصر وحذف الصلتين على الاتساع المشهور وايثار المضى الى ما ذكر
على الوصول اليه واللحوق به للايذان باهمية النجاة ولمراعاة المناسبة بينه وبين
ما سلف من الغابرين وقضينا اى اوحينا اليه مقضيا ولذلك عدى بالى
ذلك الامر مبهم يفسره ان دابر هؤلاء مقطوع على انه بدل منه وايثار
اسم الاشارة على الضمير للدلالة على ان اتصافهم بصفاتهم القبيحة التى هى مدار ثبوت
الحكم اى دابر هؤلاء المجرمين وايراد صيغة المفعول بدل صيغة المضارع لكونها
ادخل فى الدلالة على الوقوع وفى لفظ القضاء والتعبير عن العذاب بالامر والاشارة اليه
بذلك وتاخيره على الجار والمجرور وابهامه اولا ثم تفسيره ثانيا من الدلالة على
فخامة الامر وفظاعته ما لا يخفى وقرئ بالكسر على الاستيناف والمعنى انهم يستاصلون
عن آخرهم حتى لا يبقى منهم احد مصبحين داخلين فى الصبح وهو حال من هؤلاء
او من الضمير فى مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فان دابر هؤلاء بمعنى مدبرى هؤلاء وجاء

اهل المدينة شروع فى حكاية ما صدر عن القوم عند وقوفهم على مكان الاضياف
من الفعل والقول وما ترتب عليه بعد ما اشير الى ذلك اجمالا حسبما نبه عليه اى جاء اهل
سذوم منزل لوط عليه السلام يستبشرون اى مستبشرين باضيافه عليه السلام
طمعا فيهم قال ان هؤلاء ضيفى الضيف حيث كان مصدرا فى الاصل اطلق على الواحد
والمتعدد والمذكر والمؤنث واطلاقه على الملائكة بحسب اعتقاده عليه السلام لكونهم
فى زى الضيف والتاكيد ليس لانكارهم بذلك بل لتحقيق اتصالهم به واظهار اعتنائه
بشانهم وتشميره لمراعاة حقوقهم وحمايتهم عن السوء ولذلك قال فلا تفضحون
اى عندهم بان تتعرضوا لهم بسوء فيعلموا انه ليس لى عندكم قدر وحرمة او لا تفضحون
بفضيحة ضيفى فان من اسىء الى ضيفه فقد اسىء اليه يقال فضحه فضحا وفضيحة اذا
اظهر من امره ما يلزمه العار واتقوا الله فى مباشرتكم لما يسوءنى ولا تخزون اى
لا تذلونى ولا تهينونى بالتعرض لمن اجرتهم بمثل تلك الفعلة الخبيثة وحيث كان التعرض
لهم بعد ان نهاهم عليه السلام عن ذلك بقوله فلا تفضحون اكثر تاثيرا فى جانبه
عليه السلام واجلب للعار اليه اذ التعرض للجار قبل شعور المجير بذلك ربما يتسامح فيه
واما بعد الشعور به والمناصبة لحمايته والذب عنه فذلك اعظم العار عبر عليه
السلام عما يعتريه من جهتهم بعد النهى المذكور بسبب لجاجهم ومجاهرتهم
بمخالفته بالخزى وامرهم بتقوى الله فى ذلك وانما لم يصرح بالنهى عن نفس تلك الفاحشة
لانه كان يعرف انه لا يفيدهم ذلك وقيل المراد تقوى الله تعالى فى ركوب الفاحشة ولا
يساعده توسيطه بين النهيين عن امرين متعلقين بنفسه عليه السلام وكذلك
قوله تعالى قالوا اولم ننهك عن العالمين اى عن التعرض لهم بمنعهم عنا وضيافتهم
والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر اى الم نتقدم اليك ولم ننهك عن ذلك
فانهم كانوا يتعرضون لكل احد من الغرباء بالسوء وكان عليه السلام ينهاهم عن
ذلك بقدر وسعه وكانوا قد نهوه عليه السلام عن ان يجير احدا فكانهم قالوا ما
ما ذكرت من الفضيحة والخزى انما جاءك من قبلك لا من قبلنا اذ لولا تعرضك لما تصدى
له لما اعتراك تلك الحالة ولما رآهم لا يقلعون عما هم عليه قال هؤلاء بناتى يعنى
نساء القوم فان نبى كل امة بمنزلة ابيهم او بناته حقيقة اى فتزوجوهن وقد كانوا
من قبل يطلبونهن ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لعدم مشروعية المناكحة
بين المسلمات والكفار وقد فصل ذلك فى سورة هود ان كنتم فاعلين اى قضاء
الوطر او ما اقول لكم لعمرك قسم من الله تعالى بحيوة النبى صلى الله عليه وسلم او
من الملائكة بحيوة لوط عليه السلام والتقدير لعمرك قسمى وهى لغة فى العمر يختص به
القسم ايثارا للخفة لكثرة دورانه على الالسنة انهم لفى سكرتهم غوايتهم
او شدة غلمتهم التى ازالت عقولهم وتمييزهم بين الخطا والصواب يعمهون يتحيرون
ويتمادون فكيف يسمعون النصح وقيل الضمير لقريش والجملة اعتراض فاخذتهم
الصيحة اى الصيحة العظيمة الهائلة وقيل صيحة جبريل عليه السلام مشرقين
داخلين فى وقت شروق الشمس فجعلنا عاليها عالى المدينة او عالى قراهم وهو
المفعول الاول لجعلنا وقوله تعالى سافلها مفعول ثان له وهو ادخل فى الهول و
الفظاعة من العكس كما مر وامطرنا عليهم فى تضاعيف ذلك قبل تمام الانقلاب
حجارة كائنة من سجيل من طين متحجر او طين عليه كتاب وقد فصل ذلك فى سورة
هود ان فى ذلك اى فيما ذكر من القصة لآيات لعلامات يستدل بها على
حقيقة الحق للمتوسمين اى المتفكرين المتفرسين الذين يتثبتون فى نظرهم حتى
يعرفوا حقيقة الشىء بسمته وانها اى المدينة او القرى لبسبيل مقيم اى طريق
ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها ان فى ذلك اى فيما ذكر من المدينة او القرى او
فى كونها بمرأى من الناس يشاهدونها فى ذهابهم وايابهم لآية عظيمة للمؤمنين
بالله ورسوله فانهم الذين يعرفون ان ما حاق بهم من العذاب الذى ترك

ديارهم بلا قع انما خاف بهم لسوء صنيعهم واما غيرهم فيحملون ذلك على الاتفاق او
الاوضاع الفلكية وافراد الاية بعد جمعها فيما سبق لما ان المشاهد ههنا بقية الآثار لا
كل القصة كما فيما سلف ﴿وان كان﴾ ان مخففة من انّ وضمير الشان الذي هو اسمها
محذوف واللام هي الفارقة اي وانّ الشان كان ﴿اصحاب الايكة﴾ وهم قوم شعيب
عليه السلام والايكة والليكة الشجرة الملتفة المتكاثفة وكانت عامة شجرهم المقل وكانوا
يسكنونها فبعثه الله تعالى اليهم ﴿لظالمين﴾ متجاوزين عن الحد ﴿فانتقمنا منهم﴾ بالعذاب
روى ان الله تعالى سلط عليهم الحر سبعة ايام ثم بعث سحابة فالتجأوا اليها يلتمسون
الروح فبعث الله تعالى عليهم منها نارا فاحرقتهم فهو عذاب يوم الظلة ﴿وانهما﴾
يعني سدوم والايكة وقيل الايكة ومدين فانه عليه السلام كان مبعوثا اليهما
فذكر احدهما منبه على الآخر ﴿لبامام مبين﴾ لبطريق واضح والامام اسم ما يؤتم
به سمي به الطريق ومطر البناء واللوح الذي يكتب فيه لانها مما يؤتم به ﴿ولقد كذب
اصحاب الحجر﴾ يعني ثمود ﴿المرسلين﴾ اي صالحا فان من كذب واحدا من الانبياء فقد كذب
الجميع لاتفاقهم على التوحيد والاصول التي لا تختلف باختلاف الامم والاعصار وقيل
المراد صالح ومن معه من المؤمنين كما قيل الخبيبون لخبيب بن عبد الله بن الزبير واصحابه
والحجر واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه ﴿وآتيناهم آياتنا﴾ وهي الآيات
المنزلة على نبيهم او المعجزات من الناقة وسقيها وشربها ودرها او الادلة المنصوبة
لهم ﴿فكانوا عنها معرضين﴾ اعراضا كليا بل كانوا معارضين لها حيث فعلوا بالناقة
ما فعلوا ﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا امنين﴾ من الانهدام ونقب اللصوص
وتخريب الاعداء لوثاقتها او من العذاب لحسبانهم ان ذلك يحميهم منه عن جابر
رضي الله عنه قال مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لا تدخلوا
مساكن الذين ظلموا انفسهم الا ان تكونوا باكين حذرا ان يصيبكم مثل ما اصاب
هؤلاء ثم زجر رسول الله صلى الله عليه راحلته فاسرع حتى خلفها ﴿فاخذتهم الصيحة
مصبحين﴾ وهكذا وقع في سورة هود وقيل صاح بهم جبريل عليه السلام وقيل
اتتهم من السماء صيحة فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الارض فتقطعت قلوبهم
في صدورهم وفي سورة الاعراف فاخذتهم الرجفة اي الزلزلة ولعلها من روادف
الصيحة المستتبعة لتموج الهواء تموجا شديدا يفضي اليها كما مر في سورة هود ﴿فما
اغنى عنهم﴾ ولم يدفع عنهم ما نزل بهم ﴿ما كانوا يكسبون﴾ من بناء البيوت الوثيقة
والاموال الوافرة والعدد المتكاثرة وفيه تهكم بهم والفاء لترتيب عدم الاغناء الخاص
بوقت نزول العذاب حسبما كانوا يرجونه لا عدم الاغناء المطلق فانه امر مستمر
﴿وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق﴾ اي الا خلقا ملتبسا بالحق والحكمة و
المصلحة بحيث لا يلائم استمرار الفساد واستقرار الشرور ولذلك اقتضت الحكمة اهلاك
امثال هؤلاء دفعا لفسادهم وارشادا لمن بقي الى الصلاح والا بسبب العدل والانصاف
يوم الجزاء على الاعمال كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿وان الساعة لآتية﴾ فينتقم الله تعالى
لك فيها ممن كذبك ﴿فاصفح﴾ اي اعرض عنهم ﴿الصفح الجميل﴾ اعراضا جميلا وتحمل
اذيتهم ولا تعجل بالانتقام منهم وعاملهم معاملة الصفوح الحليم وقيل
هي منسوخة باية السيف ﴿ان ربك﴾ الذي يبلغك الى غاية الكمال ﴿هو الخلاق﴾
لك ولهم ولساير الموجودات على الاطلاق ﴿العليم﴾ باحوالك واحوالهم بتفاصيلها
فلا يخفى عليه شيء مما جرى بينك وبينهم فهو حقيق بان تكل جميع الامور اليه ليحكم
بينكم او هو الذي خلقكم وعلم تفصيل احوالكم وقد علم ان الصفح اليوم اصلح الى ان تكون
السيف اصلح فهو تعليل للامر بالصفح على التقديرين وفي مصحف عثمان وابي رضي الله عنهما
هو الخالق وهو صالح للقليل والكثير والخلاق مختص بالكثير ﴿ولقد آتيناك سبعا﴾ سبع
ايات وهي الفاتحة وعليه عمر وعلي وابن مسعود وابو هريرة رضي الله عنهم والحسن
وابو العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة رحمهم الله تعالى وقيل سبع سور

وهي

وهي الطوال التي سابعتها الانفال والتوبة فانهما في حكم سورة واحدة ولذلك لم يفصل
بينهما بالتسمية وقيل يونس او الحواميم السبع وقيل الصحايف السبع وهي الاسباع ﴿من
المثاني﴾ بيان للسبع من التثنية وهي التكرير فان كان المراد الفاتحة وهو الظاهر فتسميتها
مثاني لتكرر قراءتها في الصلاة واما تكرر قراءتها في غير الصلاة كما قيل فليس بحيث يكون
مدارا للتسمية ولانها تثنى بما يقرأ بعدها في الصلاة واما تكرر نزولها فلا يكون وجها
للتسمية لانها كانت مسماة بهذا الاسم قبل نزولها الثاني اذ السورة مكية بالاتفاق
وان كان المراد غيرها من السور فوجه كونها من المثاني ان من ذلك يكرر قراءته
والفاظه او قصصه ومواعظه او من الثناء لاشتمالها على ما هو ثناء على الله تعالى واحدتها
مثناة او مثنية للاية واما الصحايف وهي الاسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص
والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ولما فيها من الثنا على الله تعالى كانها تثني عليه
سبحانه بافعاله وصفاته الحسنى ويجوز ان يراد بالمثاني القرآن لما ذكر او لانه مثنى
عليه بالاعجاز او كتب الله كلها فمن للتبعيض وعلى الاول للبيان ﴿والقرآن العظيم﴾
ان اريد بالسبع الآيات او السور فمن الكل على البعض او العام على الخاص وان
اريد به الاسباع او كل القرآن فهو عطف احد الوصفين على الآخر كما في قوله
الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتائب في المزدحم اي ولقد آتيناك ما يقال
له السبع المثاني والقرآن العظيم ﴿لا تمدن عينيك﴾ لا تطمح ببصرك طموح راغب
ولا تدم نظرك ﴿الى ما متعنا به﴾ من زخارف الدنيا وزينتها ومحاسنها وزهرتها
﴿ازواجا منهم﴾ اصنافا من الكفرة فان ما في الدنيا من اصناف الاموال والذخاير بالنسبة
الى ما اوتيته مستحقر لا يعبأ به اصلا وفي حديث ابي بكر رضه من اوتي القرآن فرأى
ان احدا اوتي افضل مما اوتي فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وروي انه وافت من
بصرى واذرعات سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير فيها البر والطيب والجواهر و
ساير الامتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها وانفقناها في سبيل الله
فقيل لهم قد اعطيتم سبع ايات وهي خير من هذه القوافل السبع ﴿ولا تحزن عليهم﴾ حيث
لم يؤمنوا ولم ينتظموا في سلك اتباعك ليتقوى بهم ضعفاء المسلمين وقيل لانهم
المتمتعون به وياباه كلمة على فان تمتعهم لا يكون مدارا للحزن عليهم ﴿واخفض جناحك
للمؤمنين﴾ اي تواضع لهم وارفق بهم والن جانبك وطب نفسا من ايمان
الاغنياء ﴿وقل اني انا النذير المبين﴾ اي المنذر المظهر لنزول عذاب الله وحلوله
﴿كما انزلنا على المقتسمين﴾ قيل انه متعلق بقوله تعالى ولقد آتيناك الخ اي انزلنا عليك
كما انزلنا على اهل الكتاب ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ اي قسموه الى حق وباطل حيث
قالوا عنادا وعدوانا بعضه حق موافق للتوراة والانجيل وبعضه باطل مخالف
لهما او اقتسموه لانفسهم استهزاء حيث كان يقول بعضهم سورة البقرة لي و
بعضهم سورة آل عمران لي وهكذا او اقتسموا ما قرؤا من كتبهم وحرفوه فاقروا ببعضه
وحمل توسيط قوله تعالى لا تمدن عينيك على امداد ما هو المراد بالكلام من التسلية وعقب
ذلك بانه جل المقام عن التشبيه ولقد اوتي عليه السلام ما لم يؤت احد قبله ولا بعده مثله
وقيل انه متعلق بقوله تعالى وقل اني انا النذير المبين فانه في قوة الامر بالانذار كانه قيل انذر
قريشا مثل ما انزلنا على المقتسمين يعني اليهود وهو ما جرى على بني قريظة والنضير
بان جعل المتوقع كالواقع وقد وقع كذلك وانت خبير بان ما يشبه به العذاب المنذر
لابد ان يكون محقق الوقوع معلوم الحال عند المنذرين اذ به يتحقق فائدة التشبيه
وهي تاكيد للانذار وتشديده وعذاب بني قريظة والنضير مع عدم وقوعه اذ ذاك
لم يسبق به وعد ووعيد فهم منه في غفلة محضة وسكر مترتب وتنزيل المتوقع منزلة
الواقع له موقع جليل من الاعجاز لكن اذا صادف مقاما يقتضيه كما في قوله تعالى انا
فتحنا لك فتحا مبينا ونظايره على ان تخصيص الاقتسام باليهود يجر اختصاص العذاب
المذكور بهم مع شركتهم للنصارى في الاقتسام المتفرع على الموافقة والمخالفة وفي الاقتسام

عطف على قبل
فور ثان لصاحب الكشاف

بمعنى التحريف الشامل للكتابين بل تخصيص العذاب المذكور مع كونه من نتايج الاقسام تخصيص
من غير مخصص وقد جعل الموصول مفعولا اولا لانذر اى انذر المعضين الذين يجزؤن
القران الى سحر وشعر واساطير مثل ما انزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا
مداخل مكة ايام الموسم فقعد كل منهم فى مدخل لينفروا الناس عن الايمان برسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول بعضهم لا تغتروا بالخارج منا فانه ساحر ويقول الآخر
شاعر والآخر كذاب فاهلكهم الله تعالى يوم بدر وقبله بآفات وفيه مع ما فيه من
الاشتراك لما سبق فى عدم كون العذاب الذى شبه به العذاب المنذر واقعا ولا معلوما
للمنذرين ولا متوقع الوقوع انه لا داعى الى تخصيص وصف التعضية بهم واخراج
المقتسمين من بينهم مع كونهم اسوة لهم فى ذلك ووصفهم لرسول الله صلى الله
عليه وسلم بما وصفوا من السحر والشعر والكذب متفرع على وصفهم للقران بذلك
هل هو الا نفس التعضية ولا الى اخراجهم من حكم الانذار على ان ما نزل بهم من
العذاب لم يكن من الشدة بحيث يشبه به عذاب غيرهم ولا مخصوصا بهم بل عاما
لكلا الفريقين وغيرهم مع ان بعض المنذرين كالوليد بن المغيرة والعاص بن وائل و
الاسود بن المطلب قد هلكوا قبل مهلك اكثر المقتسمين يوم بدر ولا الى تقديم المفعول
الثانى على الاول كما ترى وقيل انه وصف لمفعول النذير اقيم مقامه والمقتسمون
هم القاعدون فى مداخل مكة كما مر وفيه مع ما مر ان قوله تعالى كما انزلنا صريح فى
انه من قول الله تعالى لا من قول الرسول عليه الصلوة والسلام والاعتذار بان ذلك
من باب ما يقوله بعض خواص الملك امرنا بكذا وان كان الامر هو الملك حسبما سلف فى قوله تعالى
قدرنا انها لمن الغابرين تعسف لا يخفى وان اعمال الوصف الموصوف مما يجوزه البصريون
فلا بد من الهرب الى مسلك الكوفيين او المصير الى جعله مفعولا غير صريح اى انا النذير المبين
بعذاب مثل عذاب المقتسمين وقيل المراد بالمقتسمين الرهط الذين تقاسموا على ان يبيتوا
صالحا عليه السلام فاهلكهم الله تعالى وانت تدري ان عذابهم حيث كان محققا ومعلوما
للمنذرين حسبما نطق به القران العظيم صالح لان يقع مشبها به للعذاب المنذر لكن
الموصول المذكور عقيبه حيث لم يمكن كونه صفة للمقتسمين حينئذ فسواء جعلناه مفعولا
اول للنذير او لما دل هو عليه من انذر لا يكون للتعرض لانواع التعضية فى حيز الصلة ولا
لعنوان الاقتسام بالمعنى المزبور فى حيز المفعول الثانى فايدة لما ان ذلك انما يكون
للاشعار بعلية الصلة والصفة للحكم الثابت للموصول والموصوف فلا يكون هناك وجه
شبه يدور عليه تشبيه عذابهم بعذابهم خاصة لعدم اشتراكهم فى السبب فان المعضين
بمعزل من التقاسم على التبييت الذى هو السبب لهلاك اولئك كما ان اولئك بمعزل
من التعضية التى هو السبب لهلاك هؤلاء فلا علاقة بين السببين مفهوما ولا
وجودا اتفق وقوع احدهما فى جانب والآخر فى جانب واتفاق الفريقين على مطلق الاتفاق
على الشر المفهوم من الاتفاق على الشر المخصوص الذى هو التبييت المدلول عليه
بالتقاسم غير مفيد اذ لا دلالة لعنوان التعضية على ذلك وانما يدل عليه اقتسام المداخل
وجعل الموصول مبتدأ على ان خبره الجملة القسمية لا يليق بجزالة التنزيل وجلالة شأن
الجليلة اذا عرفت هذا فاعلم ان الاقرب من الاقوال المذكورة انه متعلق بالاول وان
المراد بالمقتسمين اهل الكتابين وان الموصول مع صلته صفة مبينة لكيفية اقتسامهم
ومحل الكاف النصب على المصدرية وحديث جلالة المقام عن التشبيه من لوايح
النظم الجليل والمعنى لقد اتيناك سبعا من المثانى والقران العظيم ايتاء مماثلا لانزال الكتابين
على اهلهما وعدم التعرض لذكر ما انزل عليهم من الكتابين لان الغرض بيان المماثلة بين
الايتائين لا بين متعلقيهما والعدول عن تطبيق ما فى جانب المشبه به على ما فى جانب
المشبه بان يقال كما اتينا المقتسمين حسبما وقع فى قوله تعالى الذين اتيناهم الكتاب الخ
للتنبيه على ما بين الايتائين من التنائى فان الاول على وجه التكرمة والامتنان فشتان
بينه وبين الثانى ولا يقدح ذلك فى وقوعه مشبها به فان ذلك انما هو لمسلميته عندهم

ونقدم

وتقدم وجوده على المشبه زمانا لا المزية تعود الى ذاته كما فى الصلوات الخليلية فان
المشبه فيها ليس كون رحمة الله تعالى الفايضة على ابراهيم عليه السلام واله اتم واكمل مما فاض على
النبى صلى الله عليه وسلم وانما ذلك للتقدم فى الوجود والتنصيص عليه فى القران العظيم
فليس فى التشبيه فيما نحن فيه شايبة اشعار بافضلية المشبه به من المشبه فضلا عن ايهام
افضلية ما تعلق به الاول مما تعلق به الثانى وانما ذكروا بعنوان الاقتسام انكارا لاتصافهم
به مع تحقق ما ينفيه من الانزال المذكور وايذانا بانه كان من حقهم ان يؤمنوا بكله
حسبما ايمانهم بما انزل عليهم بحكم الاشتراك فى العلة والاتحاد فى الحقيقة التى هى
مطلق الوحى وتوسيط قوله تعالى لا تمدن الخ بما هو المقصود من بيان حال ما اوتى
النبى صلى الله عليه وسلم ولقد بين اولا علو شانه ورفعة مكانه بحيث يستوجب
اغتباطه عليه السلام بمكانه واستغناءه به عما سواه ثم نهى عن الالتفات الى زهرة الدنيا
وعبر عن ايتائها لاهلها بالتمتيع المنبئ عن وشك زوالها عنهم ثم عن الحزن بعدم ايمان
المنهمكين فيها وامر بمراعاة المؤمنين والاكتفاء بهم عن غيرهم وباظهار قيامه بمواجب
الرسالة ومراسم النذارة حسبما فصل فى تضاعيف ما اوتى من القران العظيم ثم رجع الى
كيفية ايتائه على وجه اودع فيه ما يزيح شبه المنكرين ويستنزلهم من العناد من
بيان مشاركته لما لا ريب لهم فى كونه وحيا صادقا فتامل والله عنده علم الكتاب
هذا وقد قيل المعنى قل انى انا النذير المبين كما قد انزلنا فى الكتب انك ستاتى بنذير على
ان المقتسمين اهل الكتاب انتهى يريد ان ما فى كما موصولة والمراد بالمشابهة المستفادة
من الكاف الموافقة وهى مع ما فى حيزها فى محل النصب على الحالية من مفعول قل اى
قل هذا القول حال كونه كما انزلنا على اهل الكتابين اى موافقا لذلك فالانسب حينئذ
حمل الاقتسام على التحريف ليكون وصفهم بذلك تعريضا بما فعلوا من تحريفهم وكتمانهم
لنعت النبى صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى عضين جمع عضة وهى الفرقة اصلها
عضوة فعلة من عضى الشاة تعضية اذا جعلها اعضاء وانما جمعت جمع السلامة جبرا للمحذوف
كسنين وعزين والتعبير عن تجزية القران بالتعضية التى هى تفريق الاعضاء من ذى الروح
المستلزم لازالة حيوته وابطال اسمه دون مطلق التجزية والتفريق اللذين يوجدان
فيما لا يضره التبعيض من المثليات للتنصيص على كمال قبح ما فعلوه بالقران العظيم وقيل
هى فعلة من عضهته اذا بهته وعن عكرمة العضة السحر بلسان قريش فنقصانها على
الاول واو وعلى الثانى هاء فوربك لنسئلنهم اجمعين اى لنسالن يوم القيمة
اصناف الكفرة من المقتسمين وغيرهم سؤال توبيخ وتقريع عما كانوا يعملون
فى الدنيا من قول وفعل وترك فيدخل فيه ما ذكر من الاقتسام والتعضية دخولا اوليا
ولنجزينهم بذلك جزاء موفورا وفيه من التشديد وتاكيد الوعيد ما لا يخفى والفاء
لترتيب الوعيد على اعمالهم التى ذكر بعضها وفى التعرض لوصف الربوبية مضافا
اليه عليه السلام اظهار اللطف به عليه السلام فاصدع بما تؤمر فاجهر به من
صدع بالحجة اذا تكلم بها جهارا او افرق بين الحق والباطل واصله الابانة والتمييز
وما مصدرية او موصولة والعائد محذوف اى بما تؤمر به من الشرايع المودعة فى
تضاعيف ما اوتيته من المثانى السبع والقران العظيم واعرض عن المشركين اى لا
تلتفت الى ما يقولون ولا تبال بهم ولا تتصد للانتقام منهم انا كفيناك
المستهزئين بقمعهم وتدميرهم قيل كانوا خمسة من اشراف قريش الوليد بن
المغيرة والعاص بن وائل والحرث بن قيس بن الطلاطلة والاسود بن عبد يغوث
والاسود بن المطلب يبالغون فى ايذاء النبى صلى الله عليه وسلم والاستهزاء به
فنزل جبريل عليه السلام فقال امرت ان اكفيكهم فاومى الى ساق الوليد فمر بنبال
فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظما لاخذه فاصاب عرقا فى عقبه فقطعه فمات
واومى الى اخمص العاص فدخل فيها شوكة فقال لدغت لدغت وانتفخت رجله
حتى صارت كالرحى فمات واشار الى عينى الاسود بن المطلب فعمى والى انف الحرث فامتخط

فيما اتاه فمات والى الاسود ابن عبد يغوث وهو قاعد فى اصل شجرة فجعل ينطح رأسه الشجرة و
يضرب وجهه بالشوك حتى مات الذين يجعلون مع الله الها آخر وصفهم بذلك
تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهوينا للخطب عليه باعلام انهم لم يقتصروا
على الاستهزاء به عليه السلام بل اجترؤا على العظيمة التى هى الاشراك بالله سبحانه فسوف
يعلمون عاقبة ما يأتون ويذرون ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون من
كلمات الشرك والطعن فى القرآن والاستهزاء به وبك وتحلية الجملة بالتاكيد لافادة تحقيق
ما تضمنته من التسلية وصيغة الاستقبال لافادة استمرار العلم حسب استمرار متعلقه
باستمرار ما يوجبه من اقوال الكفرة فسبح بحمد ربك فافزع الى الله تعالى فيما نابك من
ضيق الصدر والحرج بالتسبيح والتقديس ملتبسا بحمده وفى التعرض لعنوان الربوبية مع
الاضافة الى ضميره عم ما لا يخفى من اظهار اللطف به عم والاشعار بعلة الحكم اعنى الامر
بالتسبيح والحمد وكن من الساجدين اى المصلين يكفك ويكشف الغم عنك او فنزهه
عما يقولون ملتبسا بحمده على ان هداك للحق المبين وعنه عليه السلام انه كان اذا
حزبه امر فزع الى الصلوة واعبد ربك دم على ما انت من عبادته تعالى وايثار
الاظهار بالعنوان السالف آنفا لتاكيد ما سبق من اظهار اللطف به عليه السلام
والاشعار بعلة الامر بالعبادة حتى يأتيك اليقين اى الموت فانه متيقن اللحوق بكل حى
مخلوق واسناد الاتيان اليه للايذان بانه متوجه الى الحى طالب للوصول اليه والمعنى
دم على العبادة ما دمت حيا من غير اخلال بها لحظة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
من قرأ سورة الحجر كان له من الاجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والانصار و
المستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا

سورة النحل مكية وهى مائة وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

اتى امر الله اى الساعة او ما يعمها وغيرها من العذاب الموعود للكفرة عبر عن ذلك بامر الله
للتفخيم والتهويل وللايذان بان تحققه فى نفسه واتيانه منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب
واتيانه عبارة عن دنوه واقترابه على طريقة نظم المتوقع فى سلك الواقع او عن اتيان
مباديه القريبة على نهج اسناد حال الاسباب الى المسببات وايا ما كان ففيه تنبيه على كمال قربه
من الوقوع واتصاله به وتكميل لحسن موقع التفريع فى قوله عز وجل فلا تستعجلوه فان النهى
عن استعجال الشئ وان صح تفريعه على قرب وقوعه او على وقوع اسبابه القريبة لكنه ليس بمثابة
تفريعه على وقوعه اذ بالوقوع يستحيل الاستعجال رأسا لا بمجرد قرب وقوعه ووقوع
مباديه والخطاب للكفرة خاصة كما يدل عليه القراءة على صيغة نهى الغائب واستعجالهم وان كان
بطريق الاستهزاء لكنه حمل على الحقيقة ونهوا عنه بضرب من التهكم لا مع المؤمنين سواء
اريد بامر الله ما ذكر او العذاب الموعود للكفرة خاصة اما الاول فلانه لا يتصور من
المؤمنين استعجال الساعة او ما يعمها وغيرها من العذاب حتى يعمهم النهى عنه واما الثانى
فلان استعجالهم له بطريق الحقيقة واستعجال الكفرة بطريق الاستهزاء كما عرفته فلا
ينتظمها صيغة واحدة والالتجاء الى ارادة معنى مجازى يعمها معا من غير ان يكون هناك رعاية
نكتة سرية تعسف لا يليق بشان التنزيل الجليل وما روى من انه لما نزلت اقتربت الساعة
قال الكفار فيما بينهم ان هذا يزعم ان القيمة قد قربت فامسكوا عن بعض ما تعملون
حتى ننظر ما هو كائن فلما تأخرت قالوا ما نرى شيئا فنزلت اقترب للناس حسابهم
فاشفقوا وانتظروا قربها فلما امتدت الايام قالوا يا محمد ما نرى شيئا مما تخوفنا به
فنزلت اتى امر الله فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع الناس رؤسهم فلما
نزل فلا تستعجلوه اطمأنوا فليس فيه دلالة على عموم الخطاب كما قيل لا لما توهم من ان
التصدير بالفاء يأباه فانه بمعزل من ابايه حسبما تحققته بل لان مناط اطمئنانهم انما هو
وقوفهم على ان المراد بالاتيان هو الاتيان الادعائى لا الحقيقى الموجب لاستحالة الاستعجال المستلزمة
لامتناع النهى عنه لما ان النهى عن الشئ يقتضى امكانه فى الجملة ومدار ذلك الوقوف انما هو

النهى

النهى عن الاستعجال المستلزم لامكانه المقتضى لعدم وقوع المستعجل ولا يختلف ذلك
باختلاف المستعجل كائنا من كان بل فيه دلالة واضحة على عدم العموم لان المراد بامر الله
انما هو الساعة وقد عرفت استحالة صدور استعجالها عن المؤمنين نعم يجوز تخصيص
الخطاب بهم على تقدير كون امر الله عبارة عن العذاب الموعود للكفرة خاصة لكن الذى
يقضى به الاعجاز التنزيلى انه خاص بالكفرة كما ستقف عليه ولما كان استعجالهم ذلك من
نتائج اشراكهم المستتبع لنسبة الله عز وجل الى ما لا يليق به من العجز والاحتياج الى
الغير واعتقاد ان احدا يحجزه من انجاز وعده او امضاء وعيده وقد قالوا فى تضاعيفه
ان صح مجئ العذاب فالاصنام تخلصنا عنه بشفاعتها رد ذلك فقيل بطريق الاستئناف
سبحانه وتعالى عما يشركون اى تنزه وتقدس بذاته وجل عن اشراكهم المؤدى
الى صدور امثال هذه الاباطيل عنهم او عن ان يكون له شريك فيدفع ما اراد بهم بوجه
من الوجوه وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد اشراكهم واستمراره والالتفات الى
الغيبة للايذان باقتضاء ذكر قبايحهم للاعراض عنهم وطرحهم عن رتبة الخطاب
وحكاية شنايعهم لغيرهم وعلى تقدير تخصيص الخطاب بالمؤمنين يفوت هذه
النكتة كما يفوت ارتباط المنهى عنه بالمنزه عنه وقرئ على صيغة الخطاب ينزل الملائكة
بيان لتحتم التوحيد حسبما نبه عليه تنبيها اجماليا ليتبين تقدس جناب الكبرياء و
تعاليه عن ان يحوم حوله شائبة ان يشاركه شئ فى شئ وايذان بانه دين اجمع عليه
جمهور الانبياء عليهم السلام وامروا بدعوة الناس اليه مع الاشارة الى سر البعثة و
التشريع وكيفية القاء الوحى والتنبيه على طريق علم الرسول صلى الله عليه وسلم
باتيان ما اوعدهم به وباقترابه ازاحة لاستبعادهم اختصاصه عليه السلام
بذلك واظهارا لبطلان رأيهم فى الاستعجال والتكذيب وايثار صيغة الاستقبال
للاشعار بان ذلك عادة مستمرة له سبحانه والمراد بالملائكة اما جبريل عليه السلام
قال الواحدى تسمى الواحد بالجمع اذا كان رئيسا او هو ومن معه من حفظة الوحى
بامر الله تعالى وقرئ ينزل من الانزال وتنزل بحذف احدى التائين وعلى صيغة
المبنى للمفعول من التنزيل بالروح اى بالوحى الذى من جملته القرآن على نهج الاستعارة
فانه يحيى القلوب الميتة بالجهل او يقوم فى الدين مقام الروح فى الجسد والباء متعلقة
بالفعل او بما هو حال من مفعوله اى ملتبسين بالروح من امره بيان للروح الذى
اريد به الوحى فانه امر بالخير او حال منه اى حال كونه ناشئا ومبتدأ منه او صفة له
على رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته اى بالروح الكائن من امره الناشئ منه
او متعلق بينزل ومن للسببية كالباء مثل ما فى قوله تعالى مما خطيئاتهم اى ينزلهم
بامره على من يشاء من عباده اى ينزلهم به عليهم لاختصاصهم بصفات تؤهلهم
لذلك ان انذروا بدل من الروح اى ينزلهم ملتبسين بان انذروا اى بهذا
القول والمخاطبون به الانبياء الذين نزلت الملائكة عليهم عليهم السلام والآمر
هو الله سبحانه والملائكة نقلة للامر كما يشعر به الباء فى المبدل منه وان اما مخففة
من ان وضمير الشان الذى هو اسمها محذوف اى ينزلهم ملتبسين بان الشان اقول لكم
انذروا او مفسرة على ان تنزيل الملائكة بالوحى فيه معنى القول كانه قيل يقول بواسطة
الملائكة لمن يشاء من عباده انذروا فلا محل لها من الاعراب او مصدرية لجواز
كون صلتها انشائية كما فى قوله تعالى وان اقم وجهك حسبما ذكر فى اوائل سورة هود
فمحلها الجر على البدلية ايضا والانذار الاعلام خلا انه مختص باعلام المحذور من
نذر بالشئ اذا علمه فحذره وانذره بالامر انذارا اى اعلمه وحذره وخوفه فى ابلاغه
كذا فى القاموس اى اعلموا الناس انه لا اله الا انا فالضمير للشان ومدار وضعه
موضعه ادعاء شهرته المغنية عن التصريح به وفائدة تصدير الجملة به الايذان من اول الامر
بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره فى الذهن فان الضمير لا يفهم منه ابتداء الا شان
مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن لديه عند وروده فضل تمكن كانه قيل انذروا ان الشان

الخطير هذا وانما مضمونه عن المحذور ليس لذاته بل من حيث اتصاف المنذرين بما يضاده
من الاشراك وذلك كاف في كون اعلامه انذارا وقوله سبحانه ﴿فاتقون﴾ خطاب
للمستعجلين على طريقة الالتفات والفاء فصيحة اي اذا كان الامر كما ذكر من جريان عادته
تعالى بتنزيل الملئكة على الانبياء عليهم السلام وامرهم بان ينذروا الناس انه لا شريك
له في الالوهية فاتقون في الاخلال بمضمونه ومباشرة ما ينافيه من الاشراك وفروعه
التي من جملتها الاستعجال والاستهزاء وبعد تمهيد الدليل السمعي للتوحيد شرع في تحرير
الادلة العقلية فقيل ﴿خلق السموات والارض بالحق﴾ اي اوجدهما على ما هما عليه من
الوجه اللائق والنمط اللائق تعالى وتقدس بذاته لاسيما بافعاله التي من جملتها ابداع
هذين المخلوقين ﴿عما يشركون﴾ عن اشراكهم المعهود او عن شركة ما يشركون به من
الباطل الذي لا يبدئ ولا يعيد وبعد ما نبه على صنعه الكلي المنطوي على تفاصيل مخلوقاته
شرع في تعداد ما فيه من خلايقه فبدأ بفعله المتعلق بالانفس فقال ﴿خلق الانسان﴾
اي هذا النوع غير الفرد الاول منه ﴿من نطفة﴾ جماد لا حس له ولا حراك سيال لا يحفظ
شكلا ولا وضعا ﴿فاذا هو﴾ بعد الخلق ﴿خصيم﴾ منطيق مجادل عن نفسه مكافح
للخصوم ﴿مبين﴾ لحجته لقن بها وهذا انسب بمقام الامتنان باعطاء القدرة على
الاستدلال بذلك على قدرته تعالى ووحدته او مخاصم لخالقه منكر له قايل من يحيي
العظام وهي رميم وهذا انسب بمقام تعداد هنات الكفرة روي ان ابي ابن خلف
الجمحي اتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال يا محمد اترى الله تعالى يحيي هذا
بعد ما قد رم فنزلت ﴿والانعام﴾ وهي الازواج الثمانية من الابل والبقر والضان
والمعز وانتصابها بمضمر يفسره قوله تعالى ﴿خلقها﴾ او بالعطف على الانسان وما بعده
بيان ما خلق لاجله والذي بعده تفصيل لذلك وقوله ﴿لكم﴾ اما متعلق بخلقها وقوله
﴿فيها﴾ خبر مقدم وقوله ﴿دفء﴾ مبتدأ وهو ما يدفأ به فيقي من البرد والجملة حال
من المفعول او الظرف الاول خبر للمبتدا المذكور وفيها من دفء اذ لو تاخر لكان
صفة ﴿ومنافع﴾ هي درها وركوبها وحملها والحراثة بها وغير ذلك وانما عبر عنها
بها ليتناول الكل مع انه الانسب بمقام الامتنان بالنعم وتقديم الدفء على المنافع لرعاية
اسلوب الترقي الى الاعلى ﴿ومنها تاكلون﴾ اي تاكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم
وغير ذلك وتغيير النظم للايماء الى انها لا تبقى عند الاكل كما في السابق واللاحق فان
الدفء والمنافع والجمال يحصل منها وهي باقية على حالها ولذلك جعلت محالا لها
بخلاف الاكل وتقديم الظرف للايذان بان الاكل منها هو المعتاد المعتمد في المعاش
وان الاكل مما عداها من الدجاج والبط وصيد البر من قبيل التفكه مع ان فيه
مراعاة للفواصل ويحتمل ان يكون معنى الاكل منها اكل ما يحصل بسببها فان الحبوب
والثمار الماكولة تكتسب باكرائها وباثمان نتاجها والبانها وجلودها ﴿ولكم
فيها﴾ مع ما فصل من انواع المنافع الضرورية ﴿جمال﴾ اي زينة في اعين الناس
ووجاهة عندهم ﴿حين تريحون﴾ تردونها من مراعيها الى مراحها بالعشي ﴿وحين
تسرحون﴾ تخرجونها من العذاب من حظايرها الى مسارحها فالمفعول محذوف
من كلا الفعلين لرعاية الفواصل وتعيين الوقتين لان ما يدور عليه امر الجمال من تزيين
الافنية والاكناف بها وبتجاوب ثغائها ورغائها انما هو عند ورودها وصدورها
في ذينك الوقتين واما عند كونها في المراعي فينقطع اضافتها الحسية الى اربابها وعند
كونها في الحظاير لا يراها راء ولا ينظر اليها ناظر وتقديم الاراحة على التسريح لتقدم
الورود على الصدور ولكونها اظهر منه في استتباع ما ذكر من الجمال واتم في
استجلاب الانس والبهجة اذ فيها حضور بعد غيبة واقبال بعد ادبار على احسن
ما يكون ملاى بطون مرتفعة الضلوع حافلة الضروع وقرئ حينا تريحون وحينا
تسرحون على ان كلا الفعلين وصف لحينا بمعنى تريحون فيه وتسرحون فيه ﴿وتحمل
اثقالكم﴾ جمع ثقل وهي متاع المسافر وقيل انفسكم واجرامكم ﴿الى بلد﴾ قال ابن عباس

رضي الله

رضي الله عنهما اريد به اليمن ومصر وشام ولعله نظر الى انها متاجر اهل مكة قال عكرمة
اريد به مكة ولعله نظر الى ان اثقالهم واحمالهم عند القفول من متاجرهم اكثر و
حاجتهم الى الحمولة امس فالنظام انه عام لكل بلد سحيق ﴿لم تكونوا بالغيه﴾ واصلين اليه
انفسكم مجردين عن الاثقال لولا الابل ﴿الا بشق الانفس﴾ فضلا عن استصحابها معكم
وقرئ بفتح الشين وهما لغتان بمعنى الكلفة والمشقة وقيل المفتوح مصدر من شق الامر
عليه شقا وحقيقته راجعة الى الشق الذي هو الصدع والمكسور النصف كانه يذهب
نصف القوة لما يناله من الجهد فالاضافة الى الانفس مجازية او على تقدير مضاف اي
الا بشق قوى الانفس وهو استثناء مفرغ من اعم الاشياء اي لم تكونوا بالغيه بشيء من
الاشياء الا بشق الانفس ولعل تغيير النظم الكريم السابق الدال على كون الانعام مدار النعم
السابقة الى الجملة الفعلية المفيدة لمجرد الحدوث للاشعار بان هذه النعمة ليست في العموم
بحسب المتعلق وفي الشمول للاوقات والاطراد في الاحيان المعهودة بمثابة النعم السالفة
فانها بحسب المنشأ خاصة بالابل وبحسب المتعلق بالضاربين في الارض المتعلقين فيها
للتجارة وغيرها في احايين غير مطردة واما ساير النعم المعدودة فموجودة في جميع اصناف
الانعام وعامة لكافة المخاطبين دايما او في عامة الاوقات ﴿ان ربكم لرؤف رحيم﴾
ولذلك اسبغ عليكم هذه النعم الجليلة ويسر لكم الامور الشاقة ﴿والخيل﴾ هو اسم
جنس للفرس لا واحد له من لفظه كالابل وهو عطف على الانعام اي خلق الخيل ﴿والبغال
والحمير لتركبوها﴾ تعليل بمعظم منافعها والا فالانتفاع بها بالحمل ايضا مما لا ريب في
تحققه ﴿وزينة﴾ عطف على محل لتركبوها وتجريده عن اللام لكونه فعلا لفاعل الفعل
المعلل دون الاول وتاخيره لان الركوب اهم منه او مصدر لفعل محذوف اي وتتزينوا
بها زينة وقرئ بغير واو اي خلقها زينة لتركبوها ويجوز ان يكون مصدرا واقعا موقع
الحال من فاعل تركبوها او مفعول له اي متزينين بها او متزينا بها ﴿ويخلق ما لا
تعلمون﴾ اي يخلق في الدنيا غير ما عدد من اصناف النعم فيكم ولكم ما لا تعلمون كنهه
وكيفية خلقه فالعدول الى صيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار والتجدد او لاستحضار
الصورة او يخلق لكم في الجنة غير ما ذكر من النعم الدنيوية ما لا تعلمون اي ما ليس من
شانكم ان تعلموه وهو ما اشير اليه بقوله عليه الصلوة والسلام حكاية عن الله عز
وجل اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب
بشر ويجوز ان يكون هذا اخبارا بانه سبحانه يخلق من الخلايق ما لا علم لنا به دلالة
على قدرته الباهرة الموجبة للتوحيد كنعمته الباطنة والظاهرة عن ابن عباس رضي الله
عنهما ان عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والارضين السبع والبحار
السبعة يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر فيغتسل فيزداد نورا الى نوره وجمالا الى
جماله وعظما الى عظمه ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا الف
ملك فيدخل منهم كل يوم سبعون الف ملك البيت المعمور وسبعون الف ملك الكعبة
لا يعودون اليه الى يوم القيمة ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ القصد مصدر بمعنى الفاعل
يقال سبيل قصد وقاصد اي مستقيم على طريقة الاستعارة او على نهج اسناد حال
سالكه اليه كانه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه اي حق عليه سبحانه
وتعالى بموجب رحمته ووعده المحتوم بيان طريق المستقيم الموصل لمن يسلكه الى الحق
الذي هو التوحيد بنصب الادلة وارسال الرسل وانزال الكتب لدعوة الناس اليه او مصدر
بمعنى الاقامة والتعديل قاله ابو البقاء اي عليه عز وجل تقويمها وتعديلها اي جعلها بحيث
يصل سالكه الى الحق لكن لا بعد ما كانت في نفسها منحرفة عنه بل ابداعها ابتداء كذلك
على نهج قوله سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل وحقيقته راجعة الى ما ذكر من نصب
الادلة وقد فعل ذلك حيث ابدع هذه البدايع التي كل واحد منها لاحب يهتدي بمناره
وعلم يستضاء بناره وارسل رسلا مبشرين ومنذرين وانزل عليهم كتبا من جملتها
هذا الوحي الناطق بحقيقة الحق الفاحص عن كل ما جل من الاسرار ودق الهادي الى

سبيل الاستدلال بتلك الادلة المفضية الى معالم الهدى المنجية عن فيافي الضلالة ومهاوي
الردي الا يرى كيف بين اولا تنزه جناب الكبرياء وتعاليه بحسب الذات عن ان يحوم
حوله شائبة توهم الاشراك ثم اوضح سر القاء الوحي على الانبياء عليهم السلام وكيفية
امرهم بانذار الناس ودعوتهم الى التوحيد ونهيهم عن الاشراك ثم كر على بيان
تعاليه عن ذلك بحسب الافعال مرشدا الى طريقة الاستدلال فبداء بفعله المتعلق بمحيط
العلم الجسماني ومركزه بقوله تعالى خلق السموات والارض تعالى عما يشركون ثم فصل افعاله
المتعلقة بما بينهما فبداء بفعله المتعلق بالنفس المخاطبين ثم ذكر ما يتعلق بما لا بد لهم
منه في معايشهم ثم بين قدرته على خلق ما لا يحيط به علم البشر بقوله ويخلق ما لا
تعلمون وكذلك كما ترى بيان لسبيل التوحيد عقب بيان وتعديل له اتم تعديل فالمراد
بالسبيل على الاول الجنس بدليل اضافة القصد اليه وقوله تعالى ومنها في محل الرفع على
الابتداء اما باعتبار مضمونه واما بتقدير الموصوف كما في قوله ومنا دون ذلك قد مر
في قوله تعالى قد مر في قوله تعالى ومن الناس من يقول امنا بالله وباليوم الآخر الخ اى بعض
السبيل او بعض من السبيل فانها تؤنث وتذكر جائر اى مائل عن الحق منحرف عنه
لا يوصل سالكه اليه وهو طرق الضلال التى لا يكاد يحصى عددها المندرج كلها
تحت الجائر وعلى الثاني نفس السبيل المستقيم والضمير في منها راجع اليها بتقدير
المضاف اى ومن جنسها لما عرفت من ان تعديل السبيل وتقويمه ابداعه ابتداء على وجه
الاستقامة والعدالة لا تقويمه بعد انحرافه واياما كان فليس في النظم الكريم تغيير
الاسلوب رعاية لامر مطلوب كما قيل فان ذلك انما يكون فيما اقتضى الظاهر سبكا معينا
ولكن يعدل عن ذلك لنكتة اهم منه كما في قوله سبحانه الذي هو يطعمني ويسقين
واذا مرضت فهو يشفين فان مقتضى الظاهر ان يقال والذي يمرضني ويشفين و
لكن غير الى ما عليه النظم الكريم تفاديا عن اسناد ما تكرهه النفس اليه سبحانه وليس
المراد ببيان قصد السبيل مجرد اعلام انه مستقيم حتى يصح اسناد انه جائر اليه
تعالى فيحتاج الى الاعتذار عن عدم ذلك على انه لو اريد ذلك لم يوجد لتغيير الاسلوب
نكتة وقد بين ذلك في مواضع غير معدودة بل المراد ما مر من نصب الادلة
لهداية الناس اليه ولا امكان لاسناد مثله اليه تعالى بالنسبة الى الطريق الجائر بان يقال
وجائرها حتى يصرف ذلك الاسناد منه تعالى الى غيره لنكتة تستدعيه ولا يتوهمه
متوهم حتى يقتضي الحال دفع ذلك بان يقال لا جائرها ثم يغير سبك النظم عن ذلك
لداعية اقوى منه بل الجملة الظرفية اعتراضية جيء بها لبيان الحاجة الى البيان والتعديل
واظهار جلالة قدر النعمة في ذلك والمعنى على الله تعالى بيان الطريق المستقيم
الموصل الى الحق وتعديله بما ذكر من نصب الادلة ليسلكه الناس باختيارهم فيصلوا
الى المقصد وهذا هو الهداية المفسرة بالدلالة على ما يوصل الى المطلوب لا الهداية
المستلزمة للاهتداء البتة فان ذلك مما ليس بحق على الله تعالى لا بحسب ذاته و
لا بحسب رحمته بل هو مخل بحكمته حيث يستدعي تسوية المحسن والمسيء والمطيع
والعاصي بحسب الاستعداد واليه اشير بقوله ولو شاء لهداكم اجمعين اى لو شاء
ان يهديكم الى ما ذكر من التوحيد هداية موصلة اليه البتة مستلزمة لاهتدائكم
اجمعين لفعل ذلك ولكن لم يشاء لان مشيئته تابعة للحكمة الداعية اليها ولا حكمة في
تلك المشيئة لما ان الذي عليه يدور فلك التكليف واليه ينتهي الثواب والعقاب
انما هو الاختيار الجزئي الذي عليه يترتب الاعمال التي بها نيط الجزاء هذا هو الذي
يقتضيه المقام ويستدعيه حسن الانتظام وقد فسر كون قصد السبيل عليه تعالى
بانتهائه اليه على نهج الاستقامة وايثار حرف الاستعلاء على ارادة الانتهاء لتاكيد
الاستقامة على وجه تمثيلي من غير ان يكون هناك استعلاء لشيء عليه سبحانه وتعالى
عنه علوا كبيرا كما في قوله تعالى هذا صراط علي مستقيم فالقصد مصدر بمعنى الفاعل
والمراد بالسبيل الجنس كما مر وقوله تعالى ومنها جائر معطوف على الجملة الاولى والمعنى ان

قصد

وقصد السبيل واصل اليه تعالى بالاستقامة وبعضها منحرف عنه ولو شاء لهداكم جميعا الى
الاول وانت خبير بان هذا حق في نفسه ولكنه بمعزل عن نكتة موجبة لتوسيطه بين
ما سبق من الادلة التوحيد وبين ما لحق ولما بين الطريق السمعي للتوحيد على وجه اجمالي
وفصل بعض ادلته المتعلقة باحوال الحيوانات وعقب ذلك ببيان السر الداعي اليه بعثا للمخاطبين
على التامل فيما سبق وحثا على حسن التلقي لما لحق اتبع ذلك ذكر ما يدل عليه من احوال
النبات فقيل هو الذي انزل بقدرته القاهرة من السماء اى من السحاب او من
جانب السماء ماء اى نوعا منه وهو المطر وتاخيره عن المجرور لما مر مرارا من ان
المقصود هو الاخبار بانه انزل من السماء شيئا هو الماء لا انه انزله من السماء والسر فيه
ما سلف من ان عند تاخير ما حقه التقديم يبقى الذهن مترقبا له مشتاقا اليه فيتمكن
لديه عند وروده فضل تمكن لكم منه شراب اى ما تشربونه وهو اما مرتفع بالظرف
الاول او مبتداء وهو خبره والجملة صفة لماء والظرف الثاني نصب على الحالية من شراب
ومن تبعيضية وليس في تقديمه ايهام حصر المشروب فيه يفتقر الى الاعتذار بانه لا باس
به لان مياه العيون والابار منه لقوله تعالى فسلكه ينابيع في الارض وقوله تعالى فاسكناه
في الارض وقيل الظرف الاول متعلق بانزل والثاني خبر لشراب والجملة صفة لماء
وانت خبير بما فيه من توسيط المنصوب بين المجرورين وتوسيط الثاني منهما بين الماء
وصفته مما لا يليق بجزالة نظم التنزيل الجليل ومنه شجر من ابتدائية اى ومنه يحصل
شجر ترعاه المواشي والمراد به ما ينبت من الارض سواء كان له ساق او لا وتبعيضية مجازا
لانه لما كان سقيه من الماء جعل كانه منه كقوله اسنمة الآبال في ربابة يعني به المطر
الذي ينبت به الكلاء الذي تاكله الابل فتسمن اسنمتها وفي حديث عكرمة لا تاكلوا
ثمن الشجر فانه سحت يعني الكلاء فيه تسيمون ترعون من سامت الماشية واسامها
صاحبها واصلها السومة وهي العلامة لانها تؤثر بالرعي علامات في الارض
ينبت اى الله عز وجل وقرئ بالنون لكم به بما انزل من السماء الزرع والزيتون
والنخيل والاعناب بيان للنعم الفائضة عليهم من الارض بطريق الاستيناف
وايثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار وانها سنته الجارية
على مر الدهور او لاستحضار صورة الانبات وتقديم الظرفين على المفعول
الصريح لما مر انفا ما في تقديم اولهما من الاهتمام به لادخال المسرة ابتداء و
تقديم الزرع على ما عداه لانه اصل الاغذية وعمود المعاش وتقديم الزيتون لما فيه
من الشرف من حيث انه ادام من وجه وفاكهة من وجه وتقديم النخيل على الاعناب
لظهور اصالتها وبقائها وجمع الاعناب للاشارة الى ما فيها من الاشتمال على
الاصناف المختلفة وتخصيص الانواع المعدودة بالذكر مع اندراجها تحت قوله
تعالى ومن كل الثمرات للاشعار بفضلها وتقديم الشجر عليها مع كونه غذاء للانعام
لحصوله بغير صنع من البشر وللارشاد الى مكارم الاخلاق فان مقتضاها ان
يكون اهتمام الانسان بامر ما تحت يده اكمل من اهتمامه بامر نفسه او لان اكثر
المخاطبين من اصحاب المواشي ليس لهم زرع ولا ثمر وقيل المراد تقديم ما يسام لا تقديم
غذائه فانه غذاء الحيواني للانسان وهو اشرف الاغذية وقرئ ينبت من الثلاثي مسندا
الى الزرع وما عطف عليه ان في ذلك اى في انزال الماء وانبات ما فصل لآية
عظيمة دالة على تفرده تعالى بالالوهية لاشتماله على كمال العلم والقدرة والحكمة لقوم يتفكرون
فان من تفكر في ان الحبة والنواة تقع في الارض وتصل اليها نداوة تنفذ فيها فينشق
اسفلها فيخرج منه عروق تنبسط في اعماق الارض وينشق اعلاها وان كانت منتكسة في
الوقوع ويخرج منه ساق ويخرج منه الاوراق والازهار والحبوب والثمار المشتملة على
اجسام مختلفة الاشكال والالوان والخواص والطبايع السفلية والتاثيرات العلوية
بالنسبة الى الكل علم ان من هذه افعاله وآثاره لا يمكن ان يشبهه شيء في شيء من صفات
الكمال فضلا عن ان يشاركه اخس الاشيا في اخص صفاته التي هي الالوهية واستحقاق

ويبو السحاب الابيض م

العبادة تعالى عن ذلك علواً كبيراً وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة الى ترتيب المقدمات الفكرية
قطع الآية الكريمة بالتفكر وسخر لكم الليل والنهار يتعاقبان خلفة لمنامكم ومعاشكم
ولعقد الثمار وانضاجها والشمس والقمر يدأبان في سيرهما وإنارتهما اصالة و
خلافة واصلاحهما لما نيط بهما صلاحه من المكونات التي من جملتها ما فصل واجمل كل
ذلك لمصالحكم ومنافعكم وليس المراد بتسخيرها لهم تمكينهم من تصرفها كيف شاؤا
كما في قوله تعالى سبحان الذي سخر لنا هذا ونظايره بل هو تصريفه تعالى لها حسبما يترتب
عليه منافعهم ومصالحهم كأن ذلك تسخير لهم وتصرف من قبلهم حسب ارادتهم
وفي التعبير عن ذلك التصريف بالتسخير ايماء الى ما في المسخرات من صعوبة المأخذ بالنسبة
الى المخاطبين وايثار صيغة الماضي للدلالة على ان ذلك امر واحد مستمر وان تجددت آثاره
والنجوم مسخرات بامره مبتداء وخبر اى سائر النجوم في حركاتها واوضاعها من
التثليث والتربيع ونحوهما مسخرات لله تعالى او لما خلقن له بارادته ومشيئته
وحيث لم يكن منافع النجوم اليهم في الظهور بمثابة ما قبلها من الملوين والقمرين
لم ينسب تسخيرها اليهم باداة الاختصاص بل ذكر على وجه يفيد كونها تحت ملكوته
تعالى من غير دلالة على شيء آخر ولذلك عدل عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث
الى الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار وقرئ برفع الشمس والقمر ايضا وقرئ بالنصب النجوم على انه
مفعول اول لفعل ينبئ عنه الفعل المذكور ومسخرات مفعول ثان له اى وجعل النجوم مسخرات
بامره او على انه معطوف على المنصوبات المتقدمة ومسخرات حال من الكل والعامل ما في
سخر من معنى نفع اى نفعكم بها حال كونها مسخرات لله الذي خلقها ودبرها كيف شاء
او لما خلقن له بايجاده وتقديره او لحكمه وامره مصدر ميمي جمع لاختلاف الانواع اى
انواعا من التسخير وما قيل من ان فيه ايذانا بالجواب عما عسى يقال ان المؤثر في تكوين النبات
حركات الكواكب واوضاعها بان ذلك ان اسلم فلا ريب في انها ايضا امور ممكنة الذات
والصفات واقعة على بعض الوجوه الممكنة فلا بد لها من موجد مخصص مختار
واجب الوجود دفعا للدور والتسلسل فمبناه حسبان ما ذكر ادلة على وجود الصانع
تعالى وقدرته واختياره وانت تدري ان ليس الامر كذلك فانه ليس مما ينازع فيه
الخصم ولا يتلعثم في قوله قال تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر
الشمس والقمر ليقولن الله فانى يؤفكون وقال ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فاحيى
به الارض بعد موتها ليقولن الله الآية وانما ذلك ادلة التوحيد من حيث ان من
هذا شانه لا يتوهم ان يشاركه شيء في شيء فضلا عن ان يشاركه الجماد في الالوهية ان
في ذلك اى فيما ذكر من التسخير المتعلق بما ذكر مجملا ومفصلا لآيات باهرة متكاثرة
لقوم يعقلون وحيث كانت هذه الآثار العلوية متعددة ودلالة ما فيها من
عظيم القدرة والعلم والحكمة على الوحدانية اظهر جمع الآيات وعلقت بمجرد
العقل من غير حاجة الى التأمل والتفكر ويجوز ان يكون المراد لقوم يعقلون ذلك
فالمشار اليه حينئذ تعاجيب الدقائق المودعة في العلويات المدلول عليها بالتسخير
التي لا يتصدى لمعرفتها الا المهرة من اساطين علماء الحكمة ولا ريب في احتياجها الى
التفكر اكثر وما ذرأ عطف على قوله تعالى والنجوم رفعا ونصبا على انه مفعول لجعل اى
وما خلق لكم في الارض من حيوان ونبات حال كونه مختلفا الوانه اى اصنافه فان اختلافها
غالبا يكون باختلاف اللون مسخر لله تعالى او لما خلق له من الخواص والاحوال والكيفيات او جعل
ذلك مختلف الالوان اى الاصناف لتتمتعوا من ذلك بأي صنف شئتم وقد عطف على ما قبله من
المنصوبات وعقب بان ذكر الخلق لهم مغن عن ذكر التسخير واعتذر بان الاول لا يستلزم
الثاني لزوما عقليا لجواز كون ما خلق لهم عزيز المرام صعب المنال وقيل هو منصوب بفعل مقدر اى
خلق وانبت على ان قوله مختلفا الوانه حال من مفعوله ان في ذلك الذي ذكر من التسخيرات
ونحوها لآية بينة الدلالة على ان من هذا شانه واحد لا ند له ولا ضد لقوم يذكرون
فان ذلك غير محتاج الا الى تذكر ما عسى يغفل عنه من العلوم الضرورية واما ما يقال من ان

من التثليث

اختلافها

اختلافها في الطباع والهيآت والمناظر ليس الا بصنع صانع حكيم فمداره ما لوحنا به من
حسبان ما ذكر دليلا على اثبات الصانع تعالى وقد عرفت حقيقة الحال فان ايراده ما يدل
على اتصافه سبحانه بما ذكر من صفات الكمال ليس بطريق الاستدلال عليه بل من حيث
ان في ذلك من المقدمات المسلمة جيء به للاستدلال به على ما يقتضيه ضرورة من
وحدانيته تعالى واستحالة ان يشاركه شيء في الالوهية وهو الذي سخر البحر شروع في تعداد
النعم المتعلقة بالبحر اثر تفصيل النعم المتعلقة بالبر حيوانا ونباتا اى جعله بحيث تتمكنون
من الانتفاع به بالركوب والغوص والاصطياد لتأكلوا منه لحما طريا هو السمك والتعبير
عنه باللحم مع كونه حيوانا للتلويح بانحصار الانتفاع به في الاكل ووصفه بالطراوة
للاشعار بلطافته والتنبيه على وجوب المسارعة الى اكله كيلا يتسارع اليه الفساد
كما ينبئ عنه جعل البحر مبدأ اكله وللايذان بكمال قدرته تعالى في خلقه عذبا طريا
في ماء زعاق ومن اطلاق اللحم عليه ذهب مالك والثوري الى ان من حلف لا يأكل
اللحم حنث باكله والجواب ان مبنى الايمان العرف ولا ريب في انه لا يفهم من اللحم
عند الاطلاق ولذلك لو امر خادمه بشراء اللحم فجاء بالسمك لم يكن ممتثلا بالامر
الا يرى الى ان الله تعالى سمى الكافر دابة حيث قال ان شر الدواب عند الله الذين كفروا
ولا يحنث بركوبه من حلف لا يركب دابة وتستخرجوا منه حلية كاللؤلؤ و
المرجان تلبسونها عبر في مقام الامتنان عن لبس نسائهم بلبسهم لكونهن منهم او
لكون لبسهن لاجلهم وترى الفلك السفن مواخر فيه جواري فيه مقبلة ومدبرة
ومعترضة بريح واحدة تشقه بحيزومها من المخر وهو شق الماء وقيل هو صوت
جري الفلك ولتبتغوا عطف على تستخرجوا وما عطف هو عليه وما بينهما اعتراض لتمهيد
مبادي الابتغاء ودفع توهم كونه باستخراج الحلية او على علة محذوفة اى لتنتفعوا
بذلك ولتبتغوا ذكره ابن الانباري او متعلقة بفعل محذوف اى وفعل ذلك لتبتغوا من
فضله من سعة رزقه بركوبها للتجارة ولعلكم تشكرون اى تعرفون حقوق
نعمه الجليلة فتقومون باداءها بالطاعة والتوحيد ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب
بالشكر من حيث ان فيها قطعا لمسافة طويلة مع احوال ثقيلة في مدة قليلة من غير
مزاولة اسباب السفر بل من غير حركة اصلا مع انها في تضاعيف المهالك وعدم توسيط الفوز
بالمطلوب بين الابتغاء والشكر للايذان باستغنائه عن التصريح به وبحصولهما معا
والقى في الارض رواسي اى جبالا ثوابت وقد مر تحقيقه في اول سورة الرعد
ان تميد بكم كراهة ان تميل بكم وتضطرب او لئلا تميد بكم فان الارض قبل ان
يخلق فيها الجبال كانت كرة حقيقية بسيطة وكان من حقها ان تتحرك بالاستدارة
كالافلاك او تتحرك بادنى سبب محرك فلما خلقت الجبال تفاوتت جوانبها وتوجهت
الجبال بثقلها نحو المركز فصارت كالاوتاد وقيل لما خلق الله الارض جعلت
تمور فقالت الملائكة ما هي بمقر احد على ظهرها فاصبحت وقد ارسيت بالجبال
وانهارا وجعل فيها انهارا لان في القى معنى الجعل وسبلا لعلكم تهتدون
بها الى مقاصدكم وعلامات معالم يستدل بها السابلة بالنهار من جبل
ومنهل وريح وقد نقل ان جماعة يشمون التراب ويتعرفون به الطرقات وبالنجم
هم يهتدون بالليل في البراري والبحار حيث لا علامة غيره والمراد بالنجم الجنس
وقيل هو الثريا والفرقدان وبنات النعش والجدي وقرئ بضمتين وبضمة و
سكون وهو جمع كرهن ورهن وقيل الاول بطريق حذف الواو من النجوم
للتخفيف ولعل الضمير لقريش فانهم كانوا كثيري التردد للتجارة مشهورين
بالاهتداء بالنجوم في اسفارهم وصرف النظم عن سنن الخطاب وتقديم
النجم واقحام الضمير للتخصيص كانه قيل وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا
يهتدون فالاعتبار بذلك والشكر عليه الزم لهم واوجب عليهم افمن
يخلق هذه المصنوعات العظيمة ويفعل هاتيك الافاعيل البديعة او يخلق كل شيء

كمن لا يخلق شيئاً اصلاً وهو تبكيت للكفرة وابطال لاشراكهم وعبادتهم للاصنام بانكار ما يستلزمه ذلك من المشابهة بينها وبينه سبحانه وتعالى بعد تعداد ما يقتضي ذلك اقتضاء وتعقيب الهمزة بالفاء لتوجيه الانكار الى ترتب توهم المشابهة المذكورة على ما فصّل من الامور العظيمة الظاهرة الاختصاص به تعالى المعلومة كذلك فيما بينهم حسبما يؤذن به ما تلوناه قوله تعالى ولئن سألتهم الآيتين والاقتصار على ذكر الخلق من بينها لكونه اعظمها واظهرها واستتباعه اياها او لكون كل منها خلقاً مخصوصاً اى ابعد ظهور اختصاصه تعالى ببدائية هذه الشؤون الواضحة الدلالة على وحدانيته تعالى وتفرده بالالوهية واستبداده باستحقاق العبادة يتصور المشابهة بينه وبين ما هو بمعزل من ذلك بالمرة كما هو قضية اشراككم ومدارها وان كان على تشبيه غير الخالق بالخالق لكن التشبيه حيث كان نسبة تقوم بالمتشبهين اختير ما عليه النظم الكريم مراعاة لحق سبق الملائكة على العدم وتفادياً عن توسيط عدمها بينها وبين جزئياتها المفصلة قبلها وتنبيهاً على كمال قبح ما فعلوه من حيث ان ذلك ليس مجرد رفع الاصنام عن محلها بل هو حط لمنزلة الربوبية الى مرتبة الجمادات ولا ريب في انه اقبح من الاول والمراد بمن لا يخلق كل ما هذا شأنه كائناً ما كان والتعبير عنه بما يختص بالعقلاء للمشاكلة او العقلاء خاصة ويعرف منه حال غيرهم بدلالة النص فان من يخلق حيث لم يكن كمن لا يخلق وهو من جملة العقلاء فما ظنك بالجماد وايا ما كان فدخول الاصنام في حكم عدم المماثلة والمشابهة اما بطريق الاندراج تحت الموصول العام واما بطريق الانفهام بدلالة النص على الطريقة البرهانية لا بانها هي المرادة بالموصول خاصة ﴿افلا تذكرون﴾ اى الا تلاحظون فلا تتذكرون ذلك فانه لوضوحه بحيث لا يفتقر الى شيء سوى التذكر ﴿وان تعدوا نعمة الله﴾ تذكير اجمالي لنعمه تعالى بعد تعداد طائفة منها وكان الظاهر ايراده عقيبها تكملة لها على طريقة قوله تعالى ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ ولعل فصلها بينهما بقوله تعالى ﴿افمن يخلق كمن لا يخلق﴾ للمبادرة الى الزام الحجة والقام الحجر اثر تفصيل ما فصّل من الافاعيل التي هي ادلة الوحدانية مع ما فيه من سر ستقف عليه ودلالتها عليها وان لم تكن مقصورة على حيثية الخلق ضرورة ظهور دلالتها عليها من حيثية الانعام ايضاً لكنها حيث كانت من مستتبعات الحيثية الاولى استغنى عن التصريح بها ثم بيّن ما لها بطريق الاجمال اى ان تعدوا نعمته الفائضة عليكم مما ذكر وما لم يذكر حسبما يعرب عنه قوله تعالى ﴿هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً﴾ ﴿لا تحصوها﴾ لا تطيقوا بحصرها وضبط عددها ولو اجمالاً فضلاً عن القيام بشكرها وقد خرجنا عن عهدة تحقيقه في سورة ابراهيم بفضل الله سبحانه ﴿ان الله لغفور﴾ حيث يستر ما فرط منكم من كفرانها والاخلال بالقيام بحقوقها ولا يعاجلكم بالعقوبة على ذلك ﴿رحيم﴾ حيث يفيضها عليكم مع استحقاقكم للقطع والحرمان بما تأتون وتذرون من اصناف الكفر التي من جملتها عدم الفرق بين الخالق وغيره وكل من ذلك نعمة واي نعمة فالجملة تعليل للحكم بعدم الاحصاء وتقديم وصف المغفرة على نعت الرحمة لتقدم التخلية على التحلية ﴿والله يعلم ما تسرون﴾ تضمرونه من العقائد والاعمال ﴿وما تعلنون﴾ اى تظهرونه منهما وحذف العائد لمراعاة الفواصل اى يستوي بالنسبة اى علمه المحيط سركم وعلنكم وفيه من الوعيد والدلالة على اختصاصه سبحانه بنعوت الالهية ما لا يخفى وتقديم السر على العلن لما ذكرناه في سورة البقرة وسورة هود من تحقيق المساواة بين علميه المتعلقين بهما على ابلغ وجه كان علمه تعالى بالسر اقدم منه بالعلن او لان كل شيء يعلن فهو قبل ذلك مضمر في القلب فتعلق علمه تعالى بحالته الاولى اقدم من تعلقه بحالته الثانية ﴿والذين يدعون﴾ شروع في تحقيق كون الاصنام بمعزل من استحقاق العبادة وتوضيحه بحيث لا يبقى فيه شائبة ريب بتعديد اوصافها واحوالها المنافية لذلك منافاة ظاهرة وتلك الاحوال وان كانت غنية عن البيان لكنها شرحت للتنبيه على كمال حماقة عبدتها وانهم لا يعرفون ذلك الا بالتصريح اى والآلهة الذين يعبدهم الكفار ﴿من دون الله﴾

سبحانه

سبحانه وقرئ على صيغة المبني للمفعول وعلى الخطاب ﴿لا يخلقون شيئاً﴾ من الاشياء اصلاً اى ليس لهم من شأنهم ذلك ولما لم يكن بين نفي الخالقية وبين المخلوقية تلازم بحسب المفهوم وان تلازما في الصدق اثبت لهم ذلك صريحاً فقيل ﴿وهم يخلقون﴾ اى شأنهم ومقتضى ذاتهم المخلوقية لانها ذوات ممكنة مفتقرة في مهياتها ووجوداتها الى الموجد وبناء الفعل للمفعول لتحقيق التضاد والمقابلة بين ما اثبت لهم وبين ما نفي عنهم من وصفي المخلوقية والخالقية وللايذان بعدم الافتقار الى بيان الفاعل لظهور اختصاص الفعل بفاعله جل جلاله ويجوز ان يجعل الخلق الثاني عبارة عن النحت والتصوير رعاية للمشاكلة بينه وبين الاول ومبالغة في كونهم مصنوعين لعبدتهم واعجز عنهم وايذاناً بكمال ركاكة عقولهم حيث اشركوا بخالقهم مخلوقهم واما جعل الاول ايضاً عبارة عن ذلك كما فعل فلا وجه له اذ القدرة على مثل ذلك الخلق ليست مما يدور عليه استحقاق العبادة اصلاً ولما ان اثبات المخلوقية لهم غير مستدع لنفي الحيوة عنهم لما ان بعض المخلوقين احياء صرح بذلك فقيل ﴿اموات﴾ وهو خبر ثان للموصول لا للضمير كما قيل او خبر مبتدأ محذوف وحيث كان بعض الاموات مما يعتريه الحيوة سابقاً او لاحقاً كاجساد الحيوان والنطف التي ينشئها الله تعالى حيواناً احترز عن ذلك فقيل ﴿غير احياء﴾ اى لا يعتريها الحيوة اصلاً فهي اموات على الاطلاق واما قوله تعالى ﴿وما يشعرون ايان يبعثون﴾ اى ما يشعر اولئك الآلهة ايان يبعث عبدتهم فعلى طريقة التهكم بهم لان شعور الجماد بالامور الظاهرة بديهي الاستحالة عند كل احد فكيف بما لا يعلمه الا العليم الخبير وفيه ايذان بان البعث من لوازم التكليف وان معرفة وقته مما لا بد منه في الالوهية ﴿الهكم اله واحد﴾ لا يشاركه شيء في شيء وهو تصريح بالمدعى وتلخيص للنتيجة غب اقامة الحجة ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ واحوالها التي من جملتها ما ذكر من البعث وما يعقبه من الجزاء المستلزم لعقوبتهم وذلتهم ﴿قلوبهم منكرة﴾ للوحدانية جاحدة لها او للآيات الدالة عليها ﴿وهم مستكبرون﴾ عن الاعتراف بها او عن الآيات الدالة عليها والفاء للايذان بان اصرارهم على الانكار واستمرارهم على الاستكبار وقع موقع النتيجة للدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة والمعنى انه قد ثبت بما قرر من الحجج والبينات اختصاص الالهية به سبحانه فكان من نتيجة ذلك اصرارهم على ما ذكر من الانكار والاستكبار وبناء الحكم المذكور على الموصول للاشعار بكونه معللاً بما في حيز الصلة فان الكفر بالآخرة وبما فيها من البعث والجزاء المتنوع الى الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية يؤدي الى قصر النظر على العاجل والاعراض عن الدلائل السمعية والعقلية الموجب لانكارها وانكار مؤداها والاستكبار عن اتباع الرسول عليه السلام وتصديقه واما الايمان بها وبما فيها فيدعوا لا محالة الى التأمل في الآيات والدلائل رغبة ورهبة فيورث ذلك يقيناً بالوحدانية وخضوعاً لامر الله تعالى ﴿لا جرم﴾ اى حقاً وقد مر تحقيقه في سورة هود ﴿ان الله يعلم ما يسرون﴾ من انكار قلوبهم ﴿وما يعلنون﴾ من استكبارهم وقولهم للقرآن اساطير الاولين وغير ذلك من قبائحهم فيجازيهم بذلك ﴿انه لا يحب المستكبرين﴾ تعليل لما تضمنه الكلام من الوعيد اى لا يحب المستكبرين عن التوحيد او عن الآيات الدالة عليها او لا يحب جنس المستكبرين فكيف بمن استكبر عما ذكر ﴿واذا قيل لهم﴾ اى لاولئك المستكبرين وهو بيان لاضلالهم غب بيان ضلالهم ﴿ماذا انزل ربكم﴾ القائل الوافدون عليهم او المسلمون او بعض منهم على طريق التهكم وماذا منصوب بما بعده او مرفوع اى اي شيء انزل او ما الذي انزله ﴿قالوا اساطير الاولين﴾ اى ما تدعونه نزوله او المنزل بطريق السخرية احاديث الاولين واباطيلهم وليس من الانزال في شيء قيل هو القائلون هم المقتسمون الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سؤال وفود الحاج عما نزل عليه عليه السلام ﴿ليحملوا﴾ متعلق بقالوا اى قالوا ما قالوا ليحملوا ﴿اوزارهم﴾ الخاصة

بهم وهي اوزار ضلالهم كاملة لم يكفر منها شئ بنكبة اصابتهم فى الدنيا كما يكفر بها اوزار
المؤمنين يوم القيمة ظرف ليحملوا ومن اوزار الذين يضلونهم وبعض اوزار
من ضل باضلالهم وهو وزر الاضلال لانهما شريكان هذا يضله وهذا يطاوعه
فيتحاملان الوزن واللام للتعليل فى نفس الامر من غير ان يكون غرضا وصيغة
الاستقبال للدلالة على استمرار الاضلال او باعتبار حال قولهم لا حال الحمل بغير علم
حال من الفاعل اى يضلونهم غير عالمين بان ما يدعون اليه طريق الضلال واما جعله حالا مع
غير عالمين بانهم يحملون يوم القيمة اوزار الضلال والاضلال على ان يكون العامل فى الحال قالوا
وتأييده بما سيأتى من قوله تعالى واتاهم العذاب من حيث لا يشعرون فيرده ان الحمل
المذكور انما هو يوم القيمة والعذاب المذكور انما هو العذاب الدنيوى كما ستقف عليه او
حال من المفعول اى يضلون من لا يعلم انهم ضلال وفائدة التقييد بها الاشعار بان مكرهم
لا يروج عند ذى لب وانما يتبعهم الاغبياء والجهلة والتنبيه على ان جهلهم ذلك لا
يكون عذرا اذ كان يجب عليهم ان يبحثوا ويميزوا بين المحق الحقيق بالاتباع وبين
المبطل الا ساء ما يزرون اى بئس شيئا يزرونه ما ذكر قد مكر الذين من قبلهم
وعيد لهم برجوع غائلة مكرهم الى انفسهم كدأب من قبلهم من الامم الخالية
الذين اصابهم ما اصابهم من العذاب العاجل اى قد سووا منصوبات ليمكروا بها
رسل الله تعالى فاتى الله اى امره وحكمه بنيانهم وقرئ بيتهم وبيوتهم من القواعد من
جهة القواعد وهى الاساطين التى تعمده او اساسه فضعضعت اركانه فخر عليهم السقف
من فوقهم اى سقط عليهم سقف بنيانهم اذ لا يتصور له القيام بعد تهدم
القواعد شبهت حال اولئك الماكرين فى تسويتهم المكائد والمنصوبات التى ارادوا بها
الايقاع برسل الله سبحانه وفى ابطاله تعالى تلك الحيل والمكائد وجعله اياها اسبابا لهلا كهم
بحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فاتى ذلك من قبل اساطينه بان ضعضعت
فسقط عليهم السقف وهلكوا وقرئ فخر عليهم السقف بضمتين واتاهم
العذاب اى الهلاك والدمار من حيث لا يشعرون باتيانه منه بل يتوقعون
اتيان مقابله مما يريدون ويشتهون والمعنى ان هؤلاء الماكرين القائلين للقران
العظيم اساطير الاولين سيأتيهم من العذاب مثل ما اتاهم وهم لا يحتسبون
والمراد به العذاب العاجل لقوله سبحانه ثم يوم القيمة يخزيهم فانه عطف
على مقدر ينسحب عليه الكلام اى هذا الذي فهم من التمثيل من عذاب هؤلاء او ما هو
اعم منه ومما ذكر من عذاب اولئك جزاؤهم فى الدنيا ويوم القيمة يخزيهم
اى يذلهم بعذاب الخزى على رؤس الاشهاد واصل الخزى ذل يستحيى منه وثم
للايماء الى ما بين الجزائين من التفاوت مع ما يدل عليه من التراخى الزمانى وتغيير
السبك بتقديم الظرف ليس لقصر الخزى على يوم القيمة كما هو المتبادر من تقديم
الظرف على الفعل بل لان الاخبار بجزائهم فى الدنيا مؤذن بان لهم جزاء اخرويا
فيبقى النفس مترقبة الى وروده سائلة عنه بانه ماذا مع تيقنها بانه فى الاخرة
فسوق الكلام على وجه يؤذن بان المقصود بالذكر اخرويا وهم لا كونه يوم القيمة
والضمير اما للمفترين فى حق القرآن الكريم او لهم ولمن مثلوا بهم من الماكرين كما
اشير اليه وتخصيصه بهم يأباه السباق والسياق كما ستقف عليه ويقول لهم
توضيحا وتوبيخا فهو الخ بيان للاخر اين شركائى اضافهم اليه سبحانه حكاية لاضافتهم
الكاذبة ففيه توبيخ اثر توبيخ مع استهزائهم الذين كنتم تشاقون فيهم
اى تخاصمون الانبياء والمؤمنين فى شأنهم بانهم شركاء حقا حين بينوا لكم
بطلانها والمراد بالاستفهام استحضارها للشفاعة او المدافعة على طريقة
الاستهزاء والتبكيت فالاستفسار عن مكانهم لا يوجب غيبتهم حقيقة حتى
يعتذر بانه يجوز ان يحال بينهم وبين عبدتهم حينئذ ليتفقدوها فى ساعة
علقوا بها الرجاء فيها او بانهم لما لم ينفعوهم فكانهم غيب بل يكفى فى ذلك عدم

حضورهم

حضورهم بالعنوان الذي كانوا يزعمون انهم متصفون به من عنوان الالهية فليس
هناك شركاء ولا اماكنها على ان قوله ليتفقدوا ليس بسديد فانه قد تبين عندهم
الامر حينئذ فرجعوا عن ذلك الزعم الباطل فكيف يتصور منهم التفقد وقرئ بكسر
النون اى تشاقوننى على ان مشاقة الانبياء والمؤمنين لاسيما فى شأن متعلق به
سبحانه مشاقة له عز وجل قال الذين اوتوا العلم من اهل الموقف وهم الانبياء و
المؤمنون الذين اوتوا علما بدلائل التوحيد وكانوا يدعونهم فى الدنيا الى التوحيد فيجادلو نهم
ويتكبرون عليهم اى يقولون توبيخا لهم واظهارا للشماتة وتقريرا لما كانوا
يعظونهم وتحقيقا لما اوعدوهم به وايثار صيغة الماضى للدلالة على تحققه
وتحتم وقوعه حسبما هو المعتاد فى اخباره سبحانه وتعالى كقوله ونادى اصحاب الجنة
ونادى اصحاب الاعراف ان الخزى الفضيحة والذل والهوان اليوم منصوب
بالخزى على رأى من يرى اعمال المصدر المصدر باللام او بالاستقرار فى الظرف وفيه
فصل بين العامل والمعمول بالمعطوف الا انه مغتفر فى الظروف وايراده للاشعار
بانهم كانوا قبل ذلك فى عزة وشقاق والسوء العذاب على الكافرين بالله تعالى وباياته
ورسله الذين تتوفاهم الملئكة بتأنيث الفعل وقرئ بتذكيره وبادغام التاء فى التاء
والعدول الى صيغة المضارع لاستحضار صورة توفيهم اياهم لما فيها من الهول والموصول
فى محل الجر على انه نعت للكافرين او بدل منه او فى محل النصب والرفع على الذم وفائدته
تخصيص الخزى والسوء بمن استمر كفرهم الى حين الموت دون من آمن منهم ولو فى
آخر عمره اى على الكافرين المستمرين على الكفر الى ان يتوفاهم الملائكة ظالمى انفسهم
اى حال كونهم مستمرين على الكفر فانه ظلم منهم لانفسهم واى ظلم حيث عرضوها
للعذاب المخلد وبدلوا فطرة الله تبديلا فالقوا السلم اى فيلقون والعدول الى
صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع وهو عطف على قوله تعالى فيقول اين شركائى و
ما بينهما جملة اعتراضية جئ بها تحقيقا لما حاق بهم من الخزى على رؤس الاشهاد اى
فيسالمون ويتركون المشاقة وينزلون عما كانوا عليه فى الدنيا من الكبر وشدة الشكيمة
قائلين ما كنا نعمل فى الدنيا من سوء اى من شرك قالوه منكرين لصدوره عنهم كقولهم
والله ربنا ما كنا مشركين وانما عبروا عنه بالسوء اعترافا بكونه سيئا لا انكارا لكونه
كذلك مع الاعتراف بصدوره عنهم ويجوز ان يكون تفسيرا للسلم على ان يكون المراد به الكلام
الدال عليه وعلى التقديرين فهو جواب عن قوله سبحانه اين شركائى كما فى سورة الانعام
لا عن قول اولى العلم ادعاء استحقاقهم لما دهمهم من الخزى والسوء بلى
رد عليهم من قبل اولى العلم واثبات لما نفوه اى بلى كنتم تعملون ما تعملون ان الله
عليم بما كنتم تعملون فهو يجازيكم عليه وهذا اوانه فادخلوا ابواب جهنم
اى كل صنف بابه المعد له وقيل ابوابها اصناف عذابها فالدخول عبارة عن الملابسة
والمقاساة خالدين فيها ان اريد بالدخول حدوثه فالحال مقدرة وان اريد مطلق
الكون فيها فهى مقارنة فلبئس مثوى المتكبرين اى عن التوحيد كما قال تعالى قلوبهم
منكرة وهم مستكبرون وذكرهم بعنوان التكبر للاشعار بعليته لثوائهم فيها والمخصوص
بالذم محذوف اى جهنم وتأويل قولهم ما كنا نعمل من سوء بان ما كنا عاملين ذلك فى
اعتقادنا وما للمحافظة على ان لا كذب ثمة يرده الرد المذكور وما فى سورة الانعام من قوله
تعالى انظر كيف كذبوا على انفسهم وقيل للذين اتقوا اى المؤمنون وصفوا بالتقوى
اشعارا بان ما صدر عنهم من الجواب ناشئ من التقوى ماذا انزل ربكم قالوا
خيرا سلكوا فى الجواب مسلك السؤال من غير تلعثم ولا تغيير فى الصورة والمعنى اى انزل
خيرا فانه جواب مطابق للسؤال سبكا وللواقع فى نفس الامر مضمونا واما الكفرة فانهم
خذلهم الله تعالى كما غيروا الجواب عن نهج الحق الواقع الذى ليس له من دافع غيروا صورته
وعدلوا بها عن سنن السؤال حيث قالوا الاساطير وما لما مر من انكار النزول
روى ان احياء العرب كانوا يبعثون ايام الموسم من يأتيهم بخبر النبى صلى الله عليه وسلم

ادعاءً

فاذا جاء الوافد كفه المقتسمون وامروه بالانصراف وقالوا ان لم تلقه كان خيرا لك فيقول انا شر وافد ان رجعت الى قومي دون ان استطلع امر محمد واراه فيلقى اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم فيخبرونه بحقيقة الحال فهم الذين قالوا خيرا للذين احسنوا اى اعمالهم او فعلوا الاحسان في هذه الدار الدنيا حسنة اى مثوبة حسنة مكافاة فيها ولدار الآخرة اى مثوبتهم فيها خير مما اوتوا في الدنيا من المثوبة او خير على الاطلاق فيجوز اسناد الخيرية الى نفس دار الآخرة ولنعم دار المتقين اي دار الآخرة حذف لدلالة ما سبق عليه وهذا كلام مبتدا مدح الله تعالى به المتقين وعد جوابهم المحكي من جملة احسانهم ووعدهم بذلك ثوابي الدنيا والآخرة فلا محل له من الاعراب او بدل من خيرا وتفسير له اى انزل خيرا هو هذا الكلام الجامع قالوه ترغيبا للسائل جنات عدن خبر مبتداء محذوف اى لهم جنات ويجوز ان يكون هو المخصوص بالمدح يدخلونها صفة لجنات على تقدير تنكير عدن وكذلك تجري من تحتها الانهار او كلاهما حال على تقدير علميته لهم فيها في تلك الجنات ما يشاؤن الظرف الاول خبر لما والثاني حال منه والعامل ما في الاول او متعلق به اى حاصل لهم فيها ما يشاؤن من انواع المشتهيات وتقديمه للاحتراز عن توهم تعلقه بالمشية او لما مر مرارا من ان تاخير ما حقه التقديم يوجب ترقب النفس اليه فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن كذلك مثل ذلك الجزاء الاوفى يجزي الله المتقين اللام للجنس اى كل من يتقي من الشرك والمعاصي ويدخل فيه المتقون المذكورون دخولا اوليا ويكون فيه بعث لغيرهم على التقوى او للعهد فيكون فيه تحسير للكفرة الذين تتوفاهم الملائكة نعت للمتقين وقوله تعالى طيبين اى طاهرين عن دنس الظلم لانفسهم حال من الضمير وفائدته الايذان بان ملاك الامر في التقوى هو الطهارة عما ذكر الى وقت توفيهم ففيه حث للمؤمنين على الاستمرار على ذلك ولغيرهم على تحصيله وقيل فرحين طيبي النفوس ببشارة الملائكة اياهم بالجنة او طيبين بقبض ارواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية الى جناب القدس يقولون حال من الملائكة اى قائلين لهم سلام عليكم قال القرطبي رحمه الله اذا استدعيت نفس المؤمن جاءه ملك الموت عليه السلام فقال السلام عليك يا ولي الله الله تعالى يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة ادخلوا الجنة اللام للعهد اى جنات عدن الخ ولذلك جردت عن النعت والمراد دخولهم لها في وقته فان ذلك بشارة عظيمة وان تراخى المبشر به لا دخول القبر الذي هو روضة من رياضها اذ ليس في البشارة به ما في البشارة بدخول نفس الجنة بما كنتم تعملون بسبب ثباتكم على التقوى والطاعة او بالذي كنتم تعملونه من ذلك وقيل المراد بالتوفي التوفي للحشر لان الامر بالدخول حينئذ يتحقق هل ينظرون اى ما ينتظر كفار مكة المار ذكرهم الا ان تاتيهم الملائكة لقبض ارواحهم بالعذاب جعلوا منتظرين لذلك وشتان بينهم وبين انتظاره لانه يلحقهم البتة لحوق الامر المنتظر بل لمباشرتهم لاسبابه الموجبة له المؤدية اليه فكانهم يقصدون اتيانه ويترصدون لوروده وقرئ بتذكير الفعل او ياتي امر ربك التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عم اشعار بان اتيانه لطف به صلى الله عليه وسلم وان كان عذابا عليهم والمراد بالامر العذاب الدنيوي لا القيمة لكن لا لان انتظارها يجامع انتظار اتيان الملائكة فلا يلائمه العطف باو لانها ليست نصا في العناد اذ يجوز ان يعتبر منع الخلو ويراد بايرادها كفاية كل واحد من الامرين في عذابهم بل لان قوله تعالى فما اصابهم سيئات ما عملوا ولكن كانوا انفسهم يظلمون فاصابهم الآية صريح في ان المراد به ما اصابهم من العذاب الدنيوي كذلك اى مثل فعل هؤلاء من الشرك والظلم والتكذيب والاستهزاء فعل الذين خلوا من قبلهم من الامم وما ظلمهم الله بما سيحل بهم من عذابهم ولكن كانوا بما كانوا مستمرين عليه من القبائح الموجبة لذلك انفسهم يظلمون كان الظاهر ان يقال ولكن كانوا هم الظالمين كما في سورة الزخرف لكنه اوثر ما عليه النظم الكريم لافادة ان غائلة

ظلمهم

ظلمهم آيلة اليهم وعاقبته مقصورة عليهم مع استلزام اقتصار ظلم كل احد على نفسه من حيث الوقوع اقتصاره عليه من حيث الصدور وقد مر تحقيقه في سورة يونس فاصابهم عطف على قوله تعالى فعل الذين من قبلهم وما بينهما اعتراض لبيان ان فعلهم ذلك ظلم انفسهم سيئات ما عملوا اى اجزية اعمالهم السيئة على طريقة تسمية المسبب باسم سببه ايذانا بفظاعته لا على حذف المضاف فانه يوهم ان لهم اعمالا غير سيئاتهم وحاق بهم اى احاط بهم من الحيوة الذى هو احاطة الشر وهو ابلغ من الاصابة واقطع ما كانوا به يستهزؤن من العذاب وقال الذين اشركوا اى اهل مكة وهو بيان لفن آخر من كفرهم والعدول عن الاضمار الى الموصول لتقريعهم بما في حيز الصلة وذمهم بذلك من اول الامر لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء اى لو شاء عدم عبادتنا الشيء غيره كما تقول لما عبدنا ذلك نحن ولا آباؤنا الذين نقتدي بهم في ديننا ولا حرمنا من دونه من شيء من السوائب والبحائر وغيرها وانما قالوا ذلك تكذيبا للرسول عليه السلام وطعنا في الرسالة راسا متمسكين بان ما شاء الله تعالى يجب وما لم يشأ يمتنع فلو انه شاء ان نوحده ولا نشرك به شيئا ولا نحرم مما حرمنا شيئا كما يقوله الرسل وينقلونه من جهة الله عز وجل لكان الامر كما شاء من التوحيد ونفي الاشراك وما يتبعهما وحيث لم يكن كذلك ثبت انه لم يشأ شيئا من ذلك وانما يقوله الرسل من تلقاء انفسهم فاجيب عنه بقوله عز وجل كذلك اى مثل ذلك الفعل الشنيع فعل الذين من قبلهم من الامم اى اشركوا بالله وحرموا من حله وردوا رسله وجادلوهم بالباطل حين نبهوهم على الخطأ وهدوهم الى الحق فهل على الرسل الذين يبلغون رسالات الله وعزائم امره ونهيه الا البلاغ المبين اى ليست وظيفتهم الا تبليغ الرسالة تبليغا واضحا وموضحا وابانة طريق الحق واظهار احكام الوحي التي من جملتها تحتم تعلق مشية الله تعالى باهتداء من صرف قدرته واختياره الى تحصيل الحق لقوله والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا واما الجاؤهم الى ذلك وتنفيذ قوله عليهم شاؤا او ابوا كما هو مقتضى استدلالهم فليس ذلك من وظيفتهم ولا من الحكمة التي عليها يدور امر التكليف في شيء حتى يستدل بعدم ظهور آثاره على عدم حقية الرسل او على عدم تعلق مشيته تعالى بذلك فان ما يترتب عليه الثواب والعقاب من افعال العباد لابد في تعلق مشيته تعالى بوقوعه من مباشرتهم الاختيارية له وصرف اختيارهم الجزئي الى تحصيله والا لكان الثواب والعقاب اضطراريين فالفاء للتعليل كانه قيل كذلك فعل اسلافهم وذلك باطل فان الرسل ليس شانهم الا التبليغ وامر الله تعالى ونواهيه لا تحقيق مضمونها واجراء موجبهما على الناس قسرا والجاء وايراد كلمة على للايذان بانهم في ذلك مأمورون او بان ما يبلغونه حق للناس عليهم ايفاؤه وبهذا ظهر ان حمل قولهم لو شاء الله على الاستهزاء لا يلائم الجواب والله تعالى اعلم بالصواب ولقد بعثنا في كل امة رسولا تحقيق لكيفية تعلق مشيته تعالى بافعال العباد بعد بيان ان الالجاء ليس من وظائف الرسالة ولا من باب المشية المتعلقة بما يدور عليه الثواب والعقاب من الافعال الاختيارية لهم اى بعثنا في كل امة من الامم الخالية رسولا خاصا بهم ان اعبدوا الله يجوز ان تكون ان مفسرة لما في البعث من معنى القول وان تكون مصدرية اى بعثنا بان اعبدوا الله وحده واجتنبوا الطاغوت هو الشيطان وكل ما يدعو الى الضلالة فمنهم اى من تلك الامم والفاء فصيحة اى فبلغوا ما بعثوا به من الامر بعبادة الله وحده واجتناب الطاغوت فتفرقوا فمنهم من هدى الله الى الحق الذى هو عبادته واجتناب الطاغوت بعد صرف قدرتهم واختيارهم الجزئي الى تحصيله ومنهم من حقت عليه الضلالة اى وجبت وثبتت الى حين الموت لعناده واصراره عليها وعدم صرف قدرته الى تحصيل الحق وتغيير الاسلوب للاشعار بان ذلك لسوء اختيارهم كقوله تعالى واذا مرضت فهو يشفين فلم يكن كل من مشيئة الهداية وعدمها الا حسبما حصل منهم من التوجه الى الحق

وعدمه لا بطريق القسر والالجاء حتى يستدل بعدمها على عدم تعلق مشيئته تعالى بعبادتهم
له تعالى وحده «فسيروا» يا معشر قريش «في الارض فانظروا» في اكنافها «كيف كان عاقبة
المكذبين» من عاد وثمود ومن سار سيرهم ممن حقت عليه الضلالة لعلكم تعتبرون
حين تشاهدون في منازلهم وديارهم آثار الهلاك والعذاب والترتيب الامر بالسير
على مجرد الاخبار بثبوت الضلالة عليهم من غير اخبار بحلول العذاب للايذان بانه غني
عن البيان وان ليس الخبر كالعيان وترتيب النظر على السير لما انه بعده وان ملاك الامر في
تلك العاقبة هو التكذيب والتعلل بانه لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء «ان
تحرص» خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرئ بفتح الراء وهي لغية «على هداهم» اي
ان تطلب هدايتهم بجهدك «فان الله لا يهدي من يضل» اي فاعلم انه تعالى لا يخلق
الهداية جبرا وقسرا فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره والمراد به قريش وانما وضع
الموصول موضع الضمير للتنصيص على انهم ممن حقت عليهم الضلالة وللاشعار بعلة
الحكم ويجوز ان يكون المذكور علة للجزاء المحذوف اي ان تحرص على هديهم
فلست بقادر على ذلك لان الله لا يهدي من يضله وهؤلاء من جملتهم وقرئ لا
يهدى على بناء المفعول اي لا يقدر احد على هداية من يضله الله تعالى وقرئ لا يهدي
بفتح الهاء وادغام تاء يهتدي في الدال ويجوز ان يكون يهدي بمعنى يهتدي وقرئ
يضل بفتح الياء وقرئ لا هادي لمن يضل ولمن اضل «وما لهم من ناصرين» ينصرونهم
في الهداية او يدفعون العذاب عنهم وصيغة الجمع في الناصرين باعتبار الجمعية
في الضمير فان مقابلة الجمع بالجمع يقتضي انقسام الآحاد الى الآحاد لا لان المراد نفي
طائفة من الناصرين من كل منهم «واقسموا بالله» شروع في بيان فن آخر من
اباطيلهم وهو انكارهم البعث «جهد ايمانهم» مصدر في موقع الحال اي جاهدين في
ايمانهم «لا يبعث الله من يموت» ولقد رد الله تعالى عليهم ابلغ رد بقوله الحق
«بلى» اي بلى يبعثهم «وعدا» مصدر مؤكد لما دل عليه بلى فان ذلك موعد
من الله سبحانه او الحذف اي وعد بذلك وعدا «عليه» صفة لوعدا اي وعدا ثابتا
عليه انجازه لامتناع الخلف في وعده او لان البعث من مقتضيات الحكمة «حقا» صفة
اخرى او نصب على المصدرية اي حق حقا «ولكن اكثر الناس» لجهلهم بشؤون الله
عز شانه من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال وبما يجوز عليه و
ما لا يجوز وعدم وقوفهم على سر التكوين والغاية القصوى منه وعلى ان البعث
مما يقتضيه الحكمة التي جرت عادته سبحانه بمراعاتها «لا يعلمون» انه يبعثهم فيبتون
القول بعدمه او انه وعد عليه حق فيكذبونه قائلين لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل
ان هذا الا اساطير الاولين «ليبين لهم» غاية لما دل عليه بلى من البعث والضمير
لمن يموت اذ التبيين يعم المؤمنين ايضا فانهم وان كانوا عالمين بذلك لكنه عند معاينة
حقيقة الحال يتضح الامر فيصل علمهم الى مرتبة عين اليقين اي يبعثهم ليبين لهم
بذلك وبما يحصل لهم من مشاهدة الاحوال كما هي ومعاينتها بصورها الحقيقية
الشان «الذي يختلفون فيه» من الحق المنتظم لجميع ما خالفوه مما جاء به الشرع
المبين ويدخل فيه البعث دخولا اوليا «وليعلم الذين كفروا» بالله سبحانه
بالاشراك وانكار البعث وتكذيب وعد الحق «انهم كانوا كاذبين» في كل ما
يقولون لا سيما في قولهم لا يبعث الله من يموت والتعبير عن الحق بالموصول للدلالة
على فخامته وللاشعار بعلية ما ذكر في حيز الصلة للتبيين وما عطف عليه و
جعلهما غاية للبعث المشار اليه باعتبار وروده في معرض الرد على المخالفين وابطال
مقالة المعاندين المستدعي للتعرض لما يردعهم عن المخالفة ويلجئهم الى الاذعان
للحق فان الكفرة اذا علموا ان تحقق البعث انما كان لتبيين انه حق وليعلموا انهم
كاذبون في انكاره كان ذلك ازجر لهم عن انكاره وادعى الى الاعتراف به ضرورة انه
يدل على صدق العزيمة على تحقيقه كما تقول لمن ينكر انك تصلي لاصلين رغما لانفك و

اظهارا لكذبك ولان تكرر الغايات ادل على وقوع الفعل المغيا بها والا فالغاية الاصلية للبعث
باعتبار ذاته انما هو الجزاء الذي هو الغاية القصوى للخلق المغيا بمعرفته عز وجل
وعبادته وانما لم يذكر ذلك لتكرر ذكره في مواضع اخر وشهرته وانما لم يدرج علم
الكفار بكذبهم تحت التبيين بان يقال وان الذين كفروا كانوا كاذبين بل جيء بصيغة
العلم لان ذلك ليس مما تعلق به التبيين الذي هو عبارة عن اظهار ما كان مبهما قبل
ذلك بان يخبر به فيختلف فيه كالبعث الذي نطق به القرآن فاختلف فيه المختلفون
واما كذب الكافرين فليس من هذا القبيل فما يتعلق به علم ضروري حاصل لهم من
قبل انفسهم وقد مر تحقيقه في سورة التوبة عند قوله تعالى حتى يتبين لك الذين
صدقوا وانما خص الاسناد بهم حيث لم يقل وليعلموا ان الكافرين الآية لان علم
المؤمنين بذلك حاصل قبل ذلك ايضا «انما قولنا» استيناف لبيان كيفية التكوين
على الاطلاق ابداء واعادة بعد التنبيه على انية البعث ومنه يظهر كيفيته فما كافة
وقولنا مبتدأ وقوله تعالى «لشيء» اي اي شيء كان مما عز وهان متعلق به على ان
اللام للتبليغ كهي في قولك قلت له قم فقام وجعلها الزجاج سببية اي لاجل شيء
وليس بواضح والتعبير عنه بذلك باعتبار وجوده عند تعلق مشيئته تعالى به لا انه
كان شيئا قبل ذلك «اذا اردناه» ظرف لقولنا اي وقت ارادتنا لوجوده «ان نقول
له كن» خبر للمبتدأ «فيكون» اما عطف على مقدر يفصح عنه الفاء وينسحب عليه
الكلام اي فنقول ذلك فيكون كقوله تعالى اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون واما
جواب لشرط محذوف اي فاذا قلنا ذلك فهو يكون وليس هناك قول ولا مقول
له ولا امر ولا مأمور حتى يقال انه يلزم منه احد المحالين اما خطاب المعدوم
او تحصيل الحاصل او يقال انما يستدعيه انحصار قوله تعالى في قوله تعالى كن
وليس يلزم منه انحصار اسباب التكوين فيه كما يفيده قوله تعالى انما امره اذا اراد
شيئا ان يقول له كن فيكون فان المراد هو الشان الشامل للقول والفعل ومن
ضرورة انحصاره في كلمة كن انحصار اسبابه على الاطلاق فيه بل انما هو تمثيل
لسهولة تأتي المقدورات حسب تعلق مشيئته تعالى بها وتصوير لسرعة حدوثها
بما هو علم في ذلك من طاعة المأمور المطيع لامر الآمر المطاع فالمعنى انما ايجادنا لشيء
عند تعلق مشيئتنا به ان نوجده في اسرع ما يكون ولما عبر عنه بالامر
الذي هو قول مخصوص وجب ان يعبر عن مطلق الايجاد بالقول المطلق فتأمل ففي
الآية الكريمة من الفخامة والجزالة ما يحار فيه العقول والالباب وقرئ بنصب
يكون عطفا على نقول او تشبيها له بجواب الامر «والذين هاجروا في الله» اي في شان
الله تعالى ورضاه وفي حقه ولوجهه «من بعد ما ظلموا» وهم الذين ظلمهم
اهل مكة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واخرجوهم من ديارهم
فهاجروا الى الحبشة ثم بوأهم الله تعالى المدينة حسبما وعد بقوله سبحانه «لنبوئنهم
في الدنيا حسنة» اي مباءة حسنة او تبوئة حسنة كما قال قتادة وهو الانسب
لما هو المشهور من كون السورة غير ثلاث آيات من آخرها مكية واما ما نقل عن
ابن عباس رضي الله عنهما من انها نزلت في صهيب وبلال وعمار وخباب وعابس
وجبير وابي جندل بن سهيل اخذهم المشركون فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن
الاسلام فاما صهيب فقال لهم انا رجل كبير ان كنت معكم لم انفعكم وان كنت عليكم
لم اضركم فافتدى منهم بماله وهاجر فلما رآه ابو بكر رضي الله عنه قال ربح البيع
يا صهيب وقال عمر رضي الله عنه نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه فانما
يناسب ما حكي عن الاصم من كون كل السورة مدنية وما نقل عن قتادة من كون هذه
الآية الى آخر السورة مدنية فيحمل ما نقلنا عنه من نزول الآية في اصحاب الهجرتين
على ان يكون نزولها بالمدينة بين الهجرتين واما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم
من جملتهم فلا يساعده نظم التنزيل ولا شانه الجليل وقرئ لنثوينهم ومعناه

اثواة حسنة او لننزلنهم في الدنيا منزلة حسنة وهي الغلبة على من ظلمهم من اهل مكة
وعلى العرب قاطبة واهل الشرق والغرب ولاجر الآخرة اي اجر اعمالهم المذكورة في
الآخرة اكبر مما يعجل لهم في الدنيا وعن عمر رضي الله عنه انه كان اذا اعطى رجلا
من المهاجرين عطاءه قال له خذ بارك الله تعالى لك فيه هذا ما وعدك الله تعالى في
الدنيا وما ادخر لك في الآخرة افضل لو كانوا يعلمون الضمير للكفار اي لو علموا ان الله
تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم في الدين وقيل للمهاجرين اي لو علموا
ذلك لزادوا في الاجتهاد او لما تألموا لما اصابهم من المهاجرة وشدائدها الذين
صبروا على الشدائد من اذية الكفار ومفارقة الاهل والوطن وغير ذلك ومحله
الرفع او النصب على المدح وعلى ربهم خاصة يتوكلون منقطعين اليه تعالى
معرضين عما سواه مفوضين اليه الامر كله والجملة اما معطوفة على الصلة وتقديم
الجار والمجرور للدلالة على قصر التوكل على الله تعالى وصيغة الاستقبال للدلالة على
دوام التوكل او حال من ضمير صبروا وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم
وقرئ بالياء مبنيا للمفعول فهو رد لقريش حين قالوا الله اجل من ان يكون له رسول
من البشر كما هو مبني قولهم لو شاء الله ما عبدنا الخ اي جرت السنة الالهية
حسبما اقتضته الحكمة بان لا يبعث للدعوة العامة الا بشرا يوحي اليهم بواسطة الملك
اوامره ونواهيه ليبلغوها الناس ولما كان المقصود من الخطاب لرسول الله
صلى الله عليه وسلم تنبيه الكفار على مضمونه صرف الخطاب اليهم فقيل فاسألوا
اهل الذكر اي اهل الكتاب او علماء الاخبار او كل من يذكر بعلم وتحقيق ليعلموكم
ذلك ان كنتم لا تعلمون حذف جوابه لدلالة ما قبله عليه وفيه دلالة على انه
لم يرسل للدعوة العامة ملكا وقوله تعالى جاعل الملائكة رسلا معناه رسلا الى
الملائكة او الى الرسل ولا امرأة ولا صبيا ولا ينافيه نبوة عيسى عليه السلام وهو
في المهد لانها اعم من الرسالة واشارة الى وجوب المراجعة الى العلماء فيما لا يعلم
بالبينات والزبر بالمعجزات والكتب والباء متعلقة بمقدر وقع جوابا عن سؤال
من قال بم ارسلوا فقيل ارسلوا بالبينات والزبر وبما ارسلنا داخلا تحت الاستثناء
مع رجالا عند من يجوزه اي ما ارسلنا الا رجالا بالبينات كقولك ما ضربت الا زيدا
بالسوط او على نية التقديم قبل اداة الاستثناء اي ما ارسلنا من قبلك بالبينات
والزبر الا رجالا عند من يجوز تأخر صلة ما قبل الا الى ما بعدها او بما وقع صفة
للمستثنى اي الا رجالا ملتبسين بالبينات او بنوحي على المفعولية او الحالية من القائم
مقام فاعل يوحى وهو اليهم على ان قوله تعالى فاسألوا اعتراض او بقوله لا تعلمون
على ان الشرط للتبكيت كقول الاجير ان كنت عملت لك فاعطني حقي وانزلنا اليك الذكر
اي القرآن وانما سمي به لانه تذكير وتنبيه للغافلين لتبين للناس كافة ويدخل
فيهم اهل مكة دخولا اوليا ما نزل اليهم في ذلك الذكر من الاحكام والشرائع
وغير ذلك من احوال القرون المهلكة بافانين العذاب حسب اعمالهم الموجبة لذلك
على وجه التفصيل بيانا شافيا كما ينبئ عنه صيغة التفعيل في الفعلين لا سيما بعد
ورود الثاني اولا على صيغة الافعال ولما ان التبيين اعم من التصريح بالمقصود
ومن الارشاد الى ما يدل عليه دخل تحته القياس على الاطلاق سواء كان في
الاحكام الشرعية او غيرها ولعل قوله عز وجل ولعلهم يتفكرون اشارة
الى ذلك اي ارادة ان يتأملوا فيتنبهوا للحقائق وما فيه من العبر ويحترزوا
عما يؤدي الى مثل ما اصاب الاولين من العذاب افأمن الذين مكروا السيئات هم اهل
مكة الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وراموا صد اصحابه عن الايمان عليهم
الرضوان لا الذين احتالوا لهلاك الانبياء كما قيل ولا من يعم الفريقين لما ان المراد
تحذير هؤلاء عن اصابة مثل ما اصاب اولئك من فنون العذاب المعدودة و
السيئات نعت لمصدر محذوف اي مكروا المكرات السيئات التي قصت عنهم او مفعول به

للفعل المذكور على تضمنه معنى العمل اي عملوا السيئات وقوله تعالى ان يخسف الله بهم
الارض مفعول لأمن او السيئات صفة لما هو المفعول اي فأمن الماكرون العقوبات
السيئة وقوله ان يخسف الخ بدل من ذلك على كل حال فالفاء للعطف على مقدر ينسحب
عليه النظم الكريم اي انزلنا اليك الذكر لتبين لهم مضمونه الذي من جملته انباء
الامم المهلكة بفنون العذاب ويتفكروا في ذلك ألم يتفكروا فأمن الذين مكروا السيئات
ان يخسف الله بهم الارض كما فعل بقارون على توجيه الانكار الى المعطوفين معا
او اتفكروا فأمنوا على توجيه الى المعطوف على ان الامن بعد التفكر مما لا يكاد
يفعله احد وقيل هو عطف على مقدر ينبئ عنه الصلة اي امكروا فأمن الذين مكروا الخ
او يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون باتيانه اي في حالة غفلتهم او من مأمنهم
ومن حيث يرجون اتيان ما يشتهون كما حكي فيما سلف مما نزل بالماكرين او يأخذهم
في تقلبهم اي في حالة تقلبهم في مسايرهم ومتاجرهم فما هم بمعجزين بممتنعين
او فائتين بالهرب والفرار على ما يوهمه حال التقلب والسير والفاء اما لتعليل الاخذ
او للترتيب عدم الاعجاز عليه دلالة على شدته وفظاعته حسبما قال صلى الله
عليه وسلم ان الله ليملي للظالم حتى اذا اخذه لم يفلته وايراد الجملة الاسمية للدلالة على
دوام النفي لا لنفي الدوام او يأخذهم على تخوف اي مخافة وحذر عن الهلاك
والعذاب بان يهلك قوما قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم العذاب وهم متخوفون وحيث
كانت حالتا التقلب والتخوف مظنة للهرب عن اصابة العذاب فيهما بالاخذ وعن
اصابته حالة الغفلة المنبئة عن السكون بالاتيان وقيل التخوف التنقص قال قائلهم
تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن اي يأخذهم على ان ينقصهم
شيئا بعد شيء في انفسهم واموالهم حتى يهلكوا والمراد بذكر الاحوال الثلاث بيان
قدرة الله تعالى على اهلاكهم باي وجه كان لا الحصر فيها فان ربكم لرؤوف رحيم
حيث لا يعاجلكم بالعقوبة ويحلم عنكم مع استحقاقكم لها اولم يروا استفهام
انكاري وقرئ على صيغة الخطاب والواو للعطف على مقدر يقتضيه اي ألم
ينظروا ولم يروا متوجهين الى ما خلق الله من شيء اي من كل شيء يتفيأ ظلاله
اي ترجع شيئا فشيئا حسبما يقتضيه ارادة الخالق فان التفيؤ مطاوع الافاءة و
قرئ بتأنيث الفعل عن اليمين والشمائل اي ألم يروا الاشياء التي لها ظلال متفيئة
عن ايمانها وشمائلها اي عن جانبي كل واحد منها استعير لهما ذلك من يمين الانسان
وشماله سجدا لله حال من الظلال كقوله تعالى وظلالهم بالغدو والآصال
والمراد بسجودها تصرفها على مشيئة الله سبحانه وتأتيها لارادته تعالى في الامتداد
والتقلص وغيرهما غير ممتنعة عليه فيما سخرها له وقوله تعالى وهم داخرون
اي صاغرون منقادون حال من الضمير في ظلاله والجمع باعتبار المعنى وايراد الصيغة
الخاصة بالعقلاء لما ان الدخور من خصائصهم والمعنى ترجع الظلال من جانب
الى جانب بارتفاع الشمس وانحدارها او باختلاف مشارقها ومغاربها فانها كل
يوم من ايام السنة تتحرك على مدار معين من المدارات اليومية بتقدير العزيز العليم
منقادة لما قدر لها من التفيؤ او واقعة على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد والحال
ان اصحابها من الاجرام داخرة منقادة لحكمه ووصفها بالدخور مغن عن وصف ظلالها
به او كلاهما حال من الضمير المشار اليه والمعنى ترجع ظلال تلك الاجرام حال كونها منقادة
لله تعالى داخرة فوصفها بهما مغن عن وصف ظلالها بهما ولعل المراد بالموصول
الجمادات من الجبال والاشجار والاحجار التي لا يظهر لظلالها اثر سوى التفيؤ بما ذكر
من ارتفاع الشمس وانحدارها او اختلاف مشارقها ومغاربها واما الحيوان فظله
يتحرك بحركته وقيل المراد باليمين والشمائل يمين الفلك وهو جانبه الشرقي لان الكواكب
منه تظهر آخذة في الارتفاع والسطوع وشماله وهو جانبه الغربي المقابل له فان
الظلال في اول النهار تبتدئ من المشرق واقعة على الربع الغربي من الارض وعند

الزوال تبتدئ من المغرب واقعة على الربع الشرقي منها وبعد ما بين سجود الظلال
واصحابها من الاجرام السفلية الثابتة في اخبارها ودخورها لله سبحانه وتعالى
شرع في بيان سجود المخلوقات المتحركة بالارادة سواء كانت لها ظلال او فقيل
ولله يسجد اي له تعالى وحده يخضع وينقاد لا لشيء غيره استقلالا او اشتراكا
فالقصر ينتظم القلب والافراد لان الانسب بحال المخاطبين قصر الافراد كما يؤذن
به قوله تعالى وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين ما في السموات قاطبة وما في الارض
كائنا ما كان من دابة بيان لما في الارض وتقديمه لقلته ولئلا يقع بين
المبين والمبين فصل والافراد مع ان المراد الجمع لافادة وضوح شمول السجود
لكل فرد من الدواب قال الاخفش هو كقولك ما اتاني من رجل مثله وما اتاني من
الرجال مثله والملئكة عطف على ما في السموات عطف جبريل على الملائكة تعظيما
واجلالا او على ان يراد بما في السموات الخلق الذي يقال له الروح او يراد به ملئكة
السموات وبقوله والملائكة ملائكة الارض من الحفظة وغيرهم وهم اي
الملائكة مع علو شانهم لا يستكبرون عن عبادته عز وجل والسجود له وتقديم
الضمير ليس للقصر والجملة اما حال من فاعل يسجد مسندا الى الملائكة او استئناف
اخبر عنهم بذلك يخافون ربهم اي مالك امرهم وفيه تربية المهابة و
اشعار بعلة الحكم من فوقهم اي يخافونه جل وعلا وهو فوقهم هيبة واجلالا
وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى وهو القاهر فوق عباده او يخافون ان يرسل
عليهم عذابا من فوقهم والجملة حال من الضمير في لا يستكبرون او بيان له وتقرير
لان من يخاف الله سبحانه لا يستكبر عن عبادته ويفعلون ما يؤمرون اي ما
يؤمرون به من الطاعات والتدبيرات وايراد الفعل مبنيا للمفعول جريا على سنن
الجلالة وايذان بعدم الحاجة الى التصريح بالفعل لاستحالة استناده الى غيره سبحانه
وفيه ان الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء وبعد ما بين ان جميع
الموجودات يخصون بالخضوع والانقياد الطبيعي وما يجري مجراه من عبادة
الملائكة حيث لا يتصور منهم عدم الانقياد اصلا لله عز وجل اردف ذلك
بحكاية نهيه سبحانه وتعالى للمكلفين عن الاشراك فقيل وقال الله عطفا على قوله ولله
يسجد واظهار الفاعل وتخصيص لفظة الجلالة بالذكر للايذان بانه متعين الالو هية
وانما المنهي عنه هو الاشراك به لا ان المنهي عنه مطلق اتخاذ الهين بحيث يتحقق
الانتهاء عنه برفض ايهما كان اي قال تعالى لجميع المكلفين لا تتخذوا الهين اثنين
وانما ذكر العدد مع ان صيغة التثنية مغنية عن ذلك دلالة على ان مساق النهي
هي الاثنينية وانها منافية للالوهية كما ان وصف الاله بالوحدة في قوله تعالى
انما هو اله واحد للدلالة على ان المقصود اثبات الوحدانية وانها من لوازم الالهية
واما الالهية فامر مسلم الثبوت له سبحانه واليه اشير حيث اسند اليه القول و
فيه الالتفات من التكلم الى الغيبة على راي من اكتفى في تحقيق الالتفات بكون الاسلوب
الملتفت عنه حق الكلام ولم يشترط سبق الذكر على ذلك الوجه فاياي فارهبون
التفات من الغيبة الى التكلم لتربية المهابة والقاء الرهبة في القلوب ولذكر تقدم
المفعول وكرر الفعل اي ان كنتم راهبين شيئا فاياي ارهبوا فارهبون لا غير
فاني ذلك الواحد الذي يسجد له ما في السموات والارض وله ما في السموات
والارض خلقا وملكا تقرير لعلة انقياد ما فيهما له سبحانه خاصة وتحقيق
لتخصيص الرهبة به تعالى وتقديم الظرف لتقوية ما في اللام من معنى الاختصاص
وكذا في قوله تعالى وله الدين اي الطاعة والانقياد واصبا اي واجبا ثابتا لا
زوال له لما تقرر انه الاله وحده الحقيق بان يرهب وقيل واصبا من الوصب اي
وله الدين ذا كلفة وقيل الدين الجزاء اي وله الجزاء الدائم بحيث لا ينقطع ثوابه لمن
آمن وعقابه لمن كفر افغير الله تتقون الهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر

ينسحب

ينسحب على السياق اي اعقيب تقرر الشؤون المذكورة من تخصيص جميع الموجودات
للسجود به تعالى وكون ذلك كله له ونهيه عن اتخاذ الانداد وكون الدين له واصبا
المستدعي ذلك لتخصيص التقوى به سبحانه غير الله الذي شانه ما ذكر تتقون
فتطيعون وما بكم اي اي شيء يلابسكم ويصاحبكم من نعمة اية نعمة كانت
فمن الله فهي من الله فما شرطية او موصولة متضمنة لمعنى الشرط باعتبار الاخبار
دون الحصول فان ملابسة النعمة بهم سبب للاخبار بانها منه تعالى لا لكونها منه
تعالى ثم اذا مسكم الضر مساسا يسيرا فاليه تجأرون تتضرعون في كشفه
لا الى غيره والجؤار رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة قال الاعشى يراوح من
صلوات المليك طورا سجودا وطورا جؤارا وقرئ تجرون بطرح الهمزة والقاء حركتها
الى ما قبلها وفي ذكر المساس المنبئ عن ادنى اصابة وايراده بالجملة الفعلية
المعربة عن الحدوث مع ثم الدالة على وقوعه بعد برهة من الدهر وتحلية بالجملة
الاسمية الضر بلام الجنس المفيدة لمساس ادنى ما ينطلق عليه اسم الجنس مع ايراد النعمة بالجملة
الاسمية الدالة على الدوام والتعبير عن ملابستها للمخاطبين بالمصاحبة وايراد
المعربة عن العموم ما لا يخفى من الجزالة والفخامة ولعل ايراد اذا دون ان للتوسل
به الى تحقق وقوع الجواب ثم اذا كشف الضر عنكم وقرئ كاشف الضر وكلمة ثم
ليست للدلالة على تمادي زمان مساس الضر ووقوع الكشف بعد برهة مديدة
بل للدلالة على تراخي رتبة ما يترتب عليه من مفاجاة الاشراك المدلول عليها بقوله
سبحانه اذا فريق منكم بربهم يشركون فان ترتبها على ذلك في ابعد غاية
من الضلال ثم ان وجه الخطاب الى الناس جميعا فمن للتبعيض والفريق فريق الكفرة
وان وجه الى الكفرة فمن للبيان كانه قيل اذا فريق كافر وهم انتم ويجوز ان يكون فيهم من
اعتبر واذدجر كقوله تعالى فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد فمن تبعيضية ايضا
والتعرض لوصف الربوبية للايذان بكمال قبح ما ارتكبوه من الاشراك والكفران ليكفروا
بما آتيناهم من نعمة الكشف عنهم كانهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة
وانكار كونها من الله عز وجل فتمتعوا امر تهديد والالتفات الى الخطاب
للايذان بتناهي السخط وقرئ بالياء مبنيا للمفعول عطفا على ليكفروا على ان يكون كفران
النعمة والتمتع غرضا لهم من الاشراك ويجوز ان يكون اللام لام الامر الوارد للتهديد
فسوف تعلمون عاقبة امركم وما ينزل بكم من العذاب وفيه وعيد اكيد منبئ
عن اخذ شديد حيث لم يذكر المفعول اشعارا بانه مما لا يوصف ويجعلون
لعله عطف على ما سبق بحسب المعنى تعدادا لجناياتهم اي يفعلون ما يفعلون من الجؤار الى الله
تعالى عند مساس الضر ومن الاشراك به عند كشفه ويجعلون لما لا يعلمون اي لما
لا يعلمون حقيقته وقدره الخسيس من الجمادات التي يتخذونها شركاء لله سبحانه
جهالة وسفاها ويزعمون انها تنفعهم وتشفع لهم على ان ما موصولة والعائد
اليها محذوف او لما لا علم له اصلا وليس من شانه ذلك فما موصولة ايضا و
العائد اليها ما في الفعل من الضمير المستكن وصيغة جمع العقلاء لكون ما عبارة عن
آلهتهم التي وصفوها بصفات العقلاء او مصدرية واللام للتعليل اي لعدم علمهم
والمجعول له محذوف للعلم بمكانه نصيبا مما رزقناهم من الزرع والانعام
وغيرهما تقربا اليها تالله لتسالن سؤال توبيخ وتقريع عما كنتم تفترون
في الدنيا بانها آلهة حقيقة بان يتقرب اليها وفي تصدير الجملة بالقسم وصرف الكلام
من الغيبة الى الخطاب المنبئ عن كمال الغضب من شدة الوعيد ما لا يخفى ويجعلون
لله البنات هم خزاعة وكنانة الذين يقولون الملائكة بنات الله سبحانه تنزيه
وتقديس له عز وجل عن مضمون قولهم ذلك او تعجب من جراتهم على التفوه بمثل
تلك العظيمة ولهم ما يشتهون من البنين وما مرفوعة المحل على انه مبتدا و
الظرف المقدم خبره والجملة حالية وسبحانه اعتراض في حاق موقعه وجعلها منصوبة

بالعطف على البنات اى يجعلون لانفسهم ما يشتهون من البنين يؤدى الى جعل الجعل بمعنى يعم الزعم
والاختيار واذا بشر احدهم بالانثى اى اخبر بولادتها ظل وجهه اى صار او دام النهار كله
مسودا من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشويش وهو كظيم
ممتلئ حنقا وغيظا يتوارى يستخفى من القوم من سوء ما بشر به من اجل سوء والتعبير عنها
بما لاسقاطها عن درجة العقلاء ايمسكه اى مترددا فى امره محدثا نفسه فى شانه ايمسكه
على هون ذل وقرئ هوان ام يدسه يخفيه فى التراب بالوأد والتذكير باعتبار لفظ ما
وقرئ بالتانيث الا ساء ما يحكمون حيث يجعلون ما هذا شانه عندهم من
الهون والحقارة لله المتعال عن الصاحبة والولد والحال انهم يتحاشون عنه و
يختارون لانفسهم البنين فمدار الخطا جعلهم ذلك لله سبحانه مع ابائهم
اياه لا جعلهم البنين لانفسهم ولا عدم جعلهم له سبحانه ويجوز ان يكون مدار التعكيس
لقوله تعالى تلك اذا قسمة ضيزى للذين لا يؤمنون بالآخرة ممن ذكرت قبائحهم مثل السوء
صفة السوء الذى هو كالمثل فى القبح وهى الحاجة الى الولد ليقوم مقامهم عند موتهم
وايثار الذكور للاستظهار بهم ووأد البنات لدفع العار وخشية الاملاق المنادى
كل ذلك بالعجز والقصور والشح البالغ ووضع الموصول موضع الضمير للاشعار
بان مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة ولله سبحانه وتعالى
المثل الاعلى اى الصفة العجيبة الشان التى هى مثل فى العلو مطلقا وهو الوجوب الذاتى
والغنى المطلق والجود الواسع والنزاهة عن صفات المخلوقين ويدخل فيه علوه تعالى
عما قالوه علوا كبيرا وهو العزيز المنفرد بكمال القدرة لا سيما على مؤاخذتهم
بذنوبهم الحكيم الذى يفعل كل ما يفعل بمقتضى الحكمة البالغة وهذا ايضا من
جملة صفاته العجيبة تعالى ولو يؤاخذ الله الناس الكفار بظلمهم بكفرهم ومعاصيهم
التى من جملتها ما عدد من قبائحهم وهذا التصريح بما افاده قوله تعالى وهو العزيز
الحكيم وايذان بان ما اتوه من القبائح قد تناهى الى امد لا غاية وراءه ما ترك
عليها على الارض المدلول عليها بالناس وبقوله تعالى من دابة اى ما ترك عليها
شيئا من دابة قط بل اهلكها بالمرة بشؤم ظلم الظالمين كقوله تعالى واتقوا فتنة
لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة وعن ابى هريرة رضى الله عنه انه سمع رجلا يقول
ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال بلى والله حتى ان الحبارى لتموت فى وكرها بظلم
الظالم وعن ابن مسعود رضى الله عنه كاد الجعل يهلك فى جحره بذنب ابن آدم او
من دابة ظالمة وقيل لو اهلك الآباء لم يكن الابناء فيلزم ان لا يكون فى الارض
دابة لما انها مخلوقة لمنافع البشر لقوله سبحانه هو الذى خلق لكم ما فى الارض
جميعا ولكن لا يؤاخذهم بذلك بل يؤخرهم الى اجل مسمى لاعمارهم او لعذابهم
كى يتوالدوا او يكثر عذابهم فاذا جاء اجلهم المسمى لا يستأخرون عن ذلك
الاجل اى لا يتأخرون وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عنه مع طلبهم له
ساعة فذة وهى مثل فى قلة المدة ولا يستقدمون اى لا يتقدمون وانما
تعرض لذكره مع انه لا يتصور الاستقدام عند مجىء الاجل مبالغة فى بيان عدم
الاستئخار بنظمه فى سلك ما يمتنع كما فى قوله تعالى وليست التوبة للذين يعملون
السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال انى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار
فان من مات كافرا مع انه لا توبة له راسا قد نظم فى سمط من لم يقبل توبته
للايذان بانهما سيان فى ذلك وقد مر فى تفسير سورة يونس ويجعلون لله اى
يثبتون له سبحانه وينسبون اليه فى زعمهم ما يكرهون لانفسهم مما ذكر
وهو تكرير لما سبق تثنية للتقريع وتوطئة لقوله تعالى وتصف السنتهم الكذب
اى يجعلون له ما يجعلون ومع ذلك تصف السنتهم الكذب وهو ان لهم
الحسنى العاقبة الحسنى عند الله تعالى كقوله ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده
للحسنى وقرئ الكذب وهو جمع كذوب على انه صفة الالسنة لا جرم رد

لكلامهم ذلك واثبات لنقيضه اى حقا ان لهم مكان ما املوا من الحسنى النار التى
ليس وراء عذابها عذاب وهى علم فى السوءى وانهم مفرطون اى مقدمون
اليها من افرطته اى قدمته فى طلب الماء وقيل منسيون من افرطت فلانا خلفى
اذا خلفته ونسيته وقرئ بالتشديد وفتح الراء من فرطته فى طلب الماء وبكسر الراء
المشددة من التفريط فى الطاعات وبكسر المخففة من الافراط فى المعاصى فلا يكونون
حينئذ من احوالهم الاخروية كما عطف عليه تالله لقد ارسلنا الى امم من قبلك
تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يناله من جهالات الكفرة ووعيد لهم على
ذلك اى ارسلنا اليهم رسلا فدعوهم الى الحق فلم يجيبوا الى ذلك فزين لهم الشيطان
اعمالهم القبيحة فعكفوا عليها مصرين فهو وليهم اى قرينهم وبئس القرين
اليوم اى يوم زين لهم الشيطان اعمالهم فيه على طريق حكاية الحال الماضية
او فى الدنيا او يوم القيمة على طريق حكاية الحال الآتية وهى حال كونهم معذبين
فى النار والولى بمعنى الناصر اى فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره مبالغة فى
نفى الناصر عنهم ويجوز ان يكون الضمير عائدا الى مشركى قريش والمعنى زين للامم
السالفة اعمالهم فهو ولى هؤلاء لانهم منهم وان يكون على حذف المضاف
اى ولى امثالهم ولهم فى الآخرة عذاب اليم هو عذاب النار وما انزلنا
عليك الكتاب اى القرآن الا لتبين استثناء مفرغ من اعم العلل اى ما انزلناه
عليك لعلة من العلل الا لتبين لهم اى للناس الذى اختلفوا فيه من التوحيد
والقدر واحكام الافعال واحوال المعاد وهدى ورحمة معطوفان على محل
لتبين اى وللهداية والرحمة لقوم يؤمنون وانما انتصبا لكونهما اثرى
فاعل الفعل المعلل بخلاف التبيين حيث لم ينتصب لفقدان شرطه ولعل تقديمه عليهما
لتقدمه فى الوجود وتخصيص كونهما هدى ورحمة بالمؤمنين لانهم المغتنمون
آثاره والله انزل من السماء من السحاب او من جانب السماء حسبما مر وهذا تكرير
لما سبق تاكيدا لمضمونه وتوطئة لما يعقبه من ادلة التوحيد ماء نوعا خاصا من
الماء هو المطر وتقديم المجرور على المنصوب لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر
فاحيى به الارض بما انبت به فيها من انواع النباتات بعد موتها اى بعد يبسها
وما يفيده الفاء من التعقيب العادى لا ينافيه ما بين المعطوفين من المهلة ان فى
ذلك اى فى انزال الماء من السماء واحياء الارض الميتة به لآية واية آية دالة على
وحدته سبحانه وعلمه وقدرته وحكمته لقوم يسمعون هذا التذكير ونظائره سماع
تفكر وتدبر فكان من ليس كذلك اصم وان لكم فى الانعام لعبرة عظيمة واى عبرة
يحار فى دركها العقول وتهيم فى فهمها الالباب الفحول نسقيكم استئناف لبيان
ما ابهم اولا من العبرة مما فى بطونه اى بطون الانعام والتذكير هنا لمراعاة
جانب اللفظ فانه اسم جمع ولذلك عده سيبويه فى المفردات المبنية على افعال كاكياش
واخلاق كما ان تانيثه فى سورة المؤمنين لرعاية جانب المعنى ومن جعله جمع نعم جعل
الضمير للبعض فان اللبن ليس لجميعها او له على المعنى فان المراد به الجنس وقرئ بفتح النون
ههنا وفى سورة المؤمنين من بين فرث ودم لبنا الفرث فضالة ما يبقى من العلف
فى الكرش المنهضمة بعض الانهضام وكثيف ما يبقى فى المعاء وعن ابن عباس رضى الله
عنهما ان البهيمة اذا اعتلفت وانطبخ العلف فى كرشها كان اسفله فرثا واوسطه لبنا و
اعلاه دما ولعل المراد به ان اوسطه يكون مادة اللبن واعلاه مادة الدم الذى
يغذو البدن لان عدم تكونهما فى الكرش مما لا ريب فيه بل الكبد يجذب صفاوة
الطعام المنهضم فى الكرش ويبقى ثفله وهو الفرث ثم يمسكها ريثما يهضمها فيحدث اخلاطا
اربعة معها مائية فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين
الصفراء والسوداء وتدفعها الى الكلية والمرارة والطحال ثم توزع الباقى على الاعضاء
بحسبها فتجرى على كل حقه على ما يليق به بتقدير العزيز الحكيم ثم ان كان

الحيوان انثى زاد اخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها فيندفع الزائد اولا لاجل الجنين الى الرحم فاذا انفصل انصب ذلك الزائد او بعضه الى الضروع فيبيض لمجاورته لحومها الغددية البيض ويلذ طعمه فيصير لبنا ومن تدبر في بدائع صنع الله تعالى فيما ذكر من الاخلاط والالبان واعداد مقارها ومجاريها والاسباب المولدة لها وتسخير القوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به اضطر الى الاعتراف بكمال علمه وقدرته وحكمته وتناهي رأفته ورحمته فمن الاولى تبعيضية لما ان اللبن بعض ما في بطونه لانه مخلوق من بعض اجزاء الدم المتولد من الاجزاء اللطيفة التي في الفرث حسبما فصل والثانية ابتدائية كقولك سقيت من الحوض لان بين الفرث والدم مبدأ الاسقاء وهي متعلقة بنسقيكم وتقديمه على المفعول لما مر مرارا من ان تقديم ما حقه التاخير يبعث للنفس شوقا الى المؤخر موجبا لفضل تمكنه عند وروده عليها لاسيما اذا كان المقدم متضمنا لوصف مناف لوصف المؤخر كالذي نحن فيه فان بين وصفي المقدم والمؤخر تنافيا وتنائيا بحيث لا يتراءى ناراهما فان ذلك مما يزيد الشوق والاستشراف الى المؤخر كما في قوله تعالى هو الذي اخرج لكم من الشجر الاخضر نارا او حال من لبنا قدم عليه لتنكيره وللتنبيه على انه موضع العبرة خالصا من شائبة ما في الدم والفرث من الاوصاف ببرزخ من القدرة القاهرة الحاجزة عن بغي احدهما مع كونهما مكتنفين له سائغا للشاربين سهل المرور في حلقهم قيل لم يغص احد باللبن وقرئ سيغا بالتشديد وبالتخفيف مثل هين وهين ومن ثمرات النخيل والاعناب متعلق بما يدل عليه اسقاء من مطلق الاطعام المنتظم لاعطاء المطعوم والمشروب فان اللبن مطعوم كما انه مشروب اي ونطعمكم من ثمرات النخيل ومن الاعناب اي من عصيرهما وقوله تعالى تتخذون منه سكرا استئناف لبيان كنه الاطعام وكشفه او بقوله تتخذون منه وتكرير الظرف للتاكيد او خبر لمبتدإ محذوف صفته تتخذون اي ومن ثمرات النخيل والاعناب ثمر تتخذون منه وحذف الموصوف اذا كان في الكلام كلمة من شائع نحو قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم وتذكير الضمير على الوجهين الاولين لانه للمضاف المحذوف اعني العصير او لان المراد هو الجنس والسكر مصدر سمي به الخمر وقيل هو النبيذ وقيل هو الطعم ورزقا حسنا كالتمر والدبس والزبيب والخل والاية ان كانت سابقة النزول على تحريم الخمر فدالة على كراهتها والا فجامعة بين العتاب والمنة ان في ذلك لاية باهرة لقوم يعقلون يستعملون عقولهم في الايات بالنظر والتامل واوحى ربك الى النحل اي الهمها وقذف في قلوبها وعلمها بوجه لا يعلمه الا العليم الخبير وقرئ بفتحتين ان اتخذي اي بان اتخذي على ان ان مصدرية ويجوز ان يكون مفسرة لما في الايحاء من معنى القول وتانيث الضمير مع ان النحل مذكر للحمل على المعنى او لانه جمع نحلة والتانيث لغة اهل الحجاز من الجبال بيوتا اي اوكارا مع ما فيها من الخلايا وقرئ بيوتا بكسر الباء ومن الشجر ومما يعرشون اي يعرشه الناس اي يرفعه من كرم او سقف وقيل المراد به ما يرفعه الناس ويبنونه للنحل والمعنى اتخذي لنفسك بيوتا من الجبال والشجر اذا لم يكن ارباب والا فاتخذي ما يعرشونه لك وايراد حرف التبعيض لما انها لا تبني في كل جبل وكل شجر وكل عرش ولا في كل مكان منها ثم كلي من كل الثمرات من كل ثمرة تشتهيها حلوها ومرها فاسلكي ما اكلت منها سبل ربك اي مسالكه التي يرى فيها بقدرته القاهرة النور المر عسلا من اجوافك او فاسلكي الطرق التي الهمك في عمل العسل او فاسلكي راجعة الى بيوتك سبل ربك لا تتوعر عليك ولا تلتبس ذللا جمع ذلول وهو حال من السبل اي مذللة غير متوعرة ذللها الله سبحانه وسهلها لك او من الضمير في اسلكي اي اسلكي منقادة لما امرت به يخرج من بطونها استئناف عدل به عن خطاب النحل لبيان ما يظهر منها من تعاجيب صنع الله تعالى التي هي في موضع

العبرة بعد ما امرت بما امرت شراب اي عسل لانه مشروب واحتج به وبقوله تعالى كلي من زعم ان النحل تاكل الازهار والاوراق العطرة فتستحيل في بطنها عسلا ثم تقيء ادخارا للشتاء ومن زعم انها تلتقط بافواهها اجزاء قليلة حلوة صغيرة متفرقة على الازهار والاوراق وتضعها في بيوتها فاذا اجتمع فيها شيء كثير يكون عسلا فسر البطون بالافواه مختلف الوانه ابيض واسود واصفر واحمر حسب اختلاف سن النحل او الفصل او الزهر الذي اخذت منه العسل فيه شفاء للناس اما بنفسه كما في الامراض البلغمية او مع غيره كما في سائر الامراض اذ قلما يكون معجون لا يكون فيه عسل مع ان التنكير فيه مشعر بالتبعيض ويجوز كونه للتفخيم وعن قتادة ان رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان اخي يشتكي بطنه فقال عليه السلام اسقه العسل فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فما نفع فقال اذهب فاسقه عسلا فقد صدق الله وكذب بطن اخيك فسقاه فشفاه فبرئ كانما انشط من عقال وقيل الضمير للقرآن او لما بين الله تعالى من احوال النحل وعن ابن مسعود رضي الله عنه العسل شفاء لكل داء والقرآن شفاء لما في الصدور فعليكم بالشفاءين العسل والقرآن ان في ذلك الذي ذكر من اعاجيب آثار قدرة الله تعالى لاية عظيمة لقوم يتفكرون فان من تفكر في اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والافعال العجيبة المشتملة على حسن الصنعة وصحة القسمة التي لا يقدر عليها حذاق المهندسين الا بالات رقيقة وادوات انيقة وانظار دقيقة جزم قطعا بان له خالقا قادرا حكيما يلهمها ذلك ويهديها اليه جل جلاله والله خلقكم لما ذكر سبحانه من عجائب احوال ما ذكر من الماء والنبات والانعام والنحل اشار الى بعض عجائب احوال البشر من اول عمره الى آخره وتطوراته فيما بين ذلك وقد ضبطوا مراتب العمر في اربع الاولى سن النشو والنماء والثانية سن الوقوف وهي سن الشباب والثالثة سن الانحطاط القليل وهي سن الكهولة والرابعة سن الانحطاط الكبير وهي السن الشيخوخة ثم يتوفاكم حسبما يقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة باجال مختلفة اطفالا او شبانا او شيوخا ومنكم من يرد قبل توفيه اي يعاد الى ارذل العمر اي اخسه واحقره وهو خمس وسبعون سنة على ما روي عن علي رضي الله عنه وتسعون سنة على ما نقل عن قتادة وقيل خمس وتسعون وايثار الرد على الوصول والبلوغ ونحوهما للايذان بان بلوغه والوصول اليه رجوع في الحقيقة الى الضعف بعد القوة كقوله تعالى ومن نعمره ننكسه في الخلق ولا عمر اسوأ حالا من عمر الهرم الذي يشبه الطفل في نقصان العقل والقوة لكيلا يعلم بعد علم كثير شيئا من العلم او من المعلومات او لكيلا يعلم شيئا بعد علم بذلك الشيء وقيل لئلا يعقل بعد عقله الاول شيئا ان الله عليم بمقادير اعماركم قدير على كل شيء يميت الشاب النشيط ويبقي الهرم الفاني وفيه تنبيه على ان تفاوت الاجال ليس بتقدير قادر حكيم ركب ابنيتهم وعدل امزجتهم على قدر معلوم ولو كان ذلك مقتضى الطبائع لما بلغ التفاوت هذا المبلغ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق اي جعلكم متفاوتين فيه فاعطاكم منه افضل مما اعطى مماليككم فما الذين فضلوا فيه على غيرهم برادي رزقهم الذي رزقهم اياه على ما ملكت ايمانهم على مماليكهم الذين هم شركاؤهم في المخلوقية والمرزوقية فهم اي الملاك والمماليك فيه اي في الرزق سواء اي لا يردونه عليهم بحيث يساوونهم في التصرف ويشاركونهم في التدبير والفاء للدلالة على ترتب التساوي على الرد اي لا يردونه عليهم ردا مستتبعا للتساوي وانما يردون عليهم منه شيئا يسيرا فحيث لا يرضون بمساواة مماليكهم لانفسهم وهم امثالهم في البشرية والمخلوقية لله عز سلطانه في شيء لا يختص بهم بل يعمهم واياهم من الرزق الذي هم اسوة لهم في استحقاقه فما بالهم يشركون بالله سبحانه وتعالى فيما لا يليق الا به من الالوهية والمعبودية الخاصة بذاته تعالى لذاته بعض مخلوقاته الذي هو بمعزل من درجة الاعتبار وهذا كما ترى مثل

ضرب لكمال قباحة ما فعله المشركون تفريعًا عليهم كقوله هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء
فيما رزقناكم فانتم فيه سواء الآية افبنعمة الله يجحدون حيث يفعلون ما يفعلون
من الاشراك فان ذلك يقتضي ان يضيفوا نعم الله سبحانه الفائضة عليهم الى
شركائهم ويجحدوا كونها من عند الله تعالى او حيث انكروا امثال هذه الحجج البالغة بعد ما
انعم الله بها عليهم والباء لتضمين الجحود معنى الكفر نحو وجحدوا بها والفاء للعطف
على مقدر وهي داخلة في المعنى على الفعل اي ايشركون به فيجحدون نعمته وقرئ
تجحدون على الخطاب او ليس الموالي برادي رزقهم على مماليكهم بل انا الذي ارزقهم
واياهم فلا يحسبوا انهم يعطونهم شيئا وانما هو رزقي اجريه على ايديهم
فهم جميعا في ذلك سواء لا مزية لهم على مماليكهم الا يفهمون ذلك فيجحدون
نعمة الله فهو رد على زعم المفضلين او على فعلهم المؤذن بذلك او ما المفضلون
برادي بعض فضلهم على مماليكهم فيتساووا في ذلك جميعا مع ان التفضيل
ليس الا ليبلوهم ايشكرون ام يكفرون الا يعرفون ذلك فيجحدون نعمة الله
تعالى كانه قيل فلم يردوه عليهم والجملة الاسمية للدلالة على استمرارهم
على عدم الرد يحكى عن ابي ذر رضي الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول انما هم اخوانكم فاكسوهم مما تلبسون واطعموهم مما تطعمون فما
رئي عبده بعد ذلك الا ورداؤه رداؤه وازاره ازاره من غير تفاوت والله
جعل لكم من انفسكم اي من جنسكم ازواجا لتأنسوا بها وتقيموا بذلك
جميع مصالحكم ويكون اولادكم امثالكم وقيل هو خلق حواء من ضلع آدم عم
وجعل لكم من ازواجكم وضع الظاهر موضع المضمر للايذان بان المراد
جعل لكل منكم من زوجه لا من زوج غيره بنين وبان نتيجة الازواج هو
التوالد وحفدة جمع حافد وهو الذي يسرع في الخدمة والطاعة ومنه
قول القانت واليك نسعى ونحفد اي جعل لكم خدما يسرعون في خدمتكم و
طاعتكم فقيل المراد بهم اولاد الاولاد وقيل البنات عبر عنهن بذلك ايذانا بوجه
المنة فانهن يخدمن البيوت اتم خدمة وقيل اولاد المرأة من الزوج الاول
وقيل البنون والعطف لاختلاف الوصفين وقيل الاختان على البنات وتأخير المنصوب
في الموضعين عن المجرور لما مر من التشويق وتقديم المجرور باللام على المجرور
بمن للايذان من اول الامر بعود منفعة الجعل اليهم امدادا للتشويق وتقوية
له اي جعل لمصلحتكم مما يناسبكم ازواجا وجعل لانفسكم لمنفعتكم من جهة
مناسبة لكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات من اللذائذ او من الحلالات ومن
للتبعيض اذ المرزوق في الدنيا انموذج لما في الآخرة افبالباطل يؤمنون وهو ان
الاصنام تنفعهم وان البحائر ونحوها حرام والفاء في المعنى داخلة على الفعل
وهي للعطف على مقدر اي ايكفرون بالله الذي شأنه هذا فيؤمنون بالباطل او
ابعد تحقق ما ذكر من نعم الله تعالى بالباطل يؤمنون دون الله سبحانه وبنعمة الله
تعالى الفائضة عليهم مما ذكر ومما لا يحيط به دائرة البيان هم يكفرون
حيث يضيفونها الى الاصنام وتقديم الصلة على الفعل للاهتمام او لايهام
الاختصاص مبالغة او لرعاية الفواصل والالتفات الى الغيبة للايذان باستيجاب
حالهم للاعراض عنهم وصرف الخطاب الى غيرهم من السامعين تعجيبا لهم مما
فعلوه ويعبدون من دون الله لعله عطف على يكفرون داخل تحت الانكار
التوبيخي اي ايكفرون بنعمة الله ويعبدون من دونه ما لا يملك لهم رزقا من
السموات والارض شيئا ان جعل مصدرا فشيئا نصب على المفعولية منه اي
ما لا يقدر على ان يرزقهم شيئا لا من السموات مطرا ولا من الارض نباتا وان جعل
اسما للمرزوق فنصبه على البدلية منه بمعنى قليلا ومن السموات والارض صفة لرزقا
اي كائنا منهما ويجوز كونه تأكيدا لا يملك اي لا يملك رزقا ما شيئا من الملك ولا

يستطيعون ان يملكوه اذ لا استطاعة رأسا لانها اموات لا حراك بها فالضمير
للآلهة ويجوز ان يكون للكفرة على معنى انهم مع كونهم احياء متصرفين في الامور
لا يستطيعون من ذلك شيئا فكيف بالجماد الذي لا حس به فلا تضربوا لله الامثال
التفات الى الخطاب للايذان بالاهتمام بشأن النهي اي لا تشركوا به شيئا والتعبير عن
ذلك بضرب المثل للقصد الى النهي عن الاشراك به تعالى في الشأن من الشؤون فان ضرب
المثل مبناه تشبيه حالة بحالة وقصة بقصة اي لا تشبهوا بشأنه شأنا من الشؤون
والامثلة كما في قوله تعالى ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وضرب الله مثلا
للذين آمنوا امرأة فرعون لا مثلها واضرب لهم مثلا اصحاب القرية ونظائره
والفاء للدلالة على ترتيب النهي على ما عدد من النعم الفائضة عليهم من جهته
سبحانه وكون ما يشركون به سبحانه بمعزل عن ان يملك لهم من افطار السموات
والارض شيئا من رزق ما فضلا عما فصل من نعمة الخلق والتفضيل في الرزق
ونعمة الازواج والاولاد ان الله يعلم تعليل للنهي المذكور ووعيد على النهي عنه
اي انه تعالى يعلم كنه ما تأتون وما تذرون وانه في غاية العظم والقبح وانتم
لا تعلمون ذلك والا لما فعلتموه او انه تعالى يعلم كنه الاشياء وانتم لا تعلمونه فدعوا رأيكم
وقفوا في مواقف الامتثال بما ورد عليكم من الامر والنهي ويجوز ان يراد فلا تضربوا
لله الامثال ان الله يعلم كيف يضرب الامثال وانتم لا تعلمون ذلك فتقعون فيما تقعون
فيه من مهاوي الردى والضلال ثم علمهم كيفية ضرب الامثال في هذا الباب فقال
ضرب الله مثلا اي ذكر واورد شيئا يستدل به على تباين الحال بين جنابه عز و
جل وبين ما اشركوا به وعلى تباعدهما بحيث ينادي بفساد ما ارتكبوه نداء جليا عبدا
مملوكا لا يقدر على شيء بدل من مثلا وتفسير له والمثل في الحقيقة حالته العارضة
له من المملوكية والعجز التام وبحسبها ضرب نفسه مثلا ووصف العبد بالمملوكية
للتمييز عن الحر لاشتراكهما في كونهما عبدا لله سبحانه وقد ادمج فيه ان الكل عبيد له تعالى
وبعدم القدرة لتمييزه عن المكاتب والمأذون اللذين لهما تصرف في الجملة وفي ابهام المثل
اولا ثم بيانه بما ذكر ما لا يخفى من الفخامة والجزالة ومن رزقناه من موصوفة
معطوفة على عبدا اي رزقناه بطريق الملك والالتفات الى التكلم للاشعار باختلاف
حالي ضرب المثل والرزق منا من جنابنا الكبير المتعال رزقا حسنا حلالا طيبا
او مستحسنا عند الناس مرضيا فهو ينفق منه تفضلا واحسانا والفاء لترتيب
الانفاق على الرزق كانه قيل ومن رزقناه منا رزقا حسنا فانفق وايثار
ما عليه النظم الكريم من الجملة الاسمية الفعلية الخبر للدلالة على ثبات الانفاق و
استمراره التجددي سرا وجهرا اي حال السر والجهر او انفاق سر وانفاق جهر والمراد
بيان عموم انفاقه للاوقات وشمول انعامه لمن يجتنب عن قبوله جهرا والاشارة
الى اصناف نعم الله تعالى الباطنة والظاهرة وتقديم السر على الجهر للايذان بفضله
عليه والعدول عن تطبيق القرينتين بان يقال وحرا مالكا للاموال مع كونه ادل على
تباين الحال بينه وبين قسيمه لتوخي تحقيق الحق بان الاحرار ايضا تحت ربقة عبوديته
سبحانه وتعالى وان مالكيتهم لما يملكونه ليست الا بان يرزقهم الله تعالى اياه من غير
ان يكون لهم مدخل في ذلك مع محافظته على المبالغة في الدلالة على ما قصد بالمثل من
تباين الحال بين الممثلين فان العبد المملوك حيث لم يكن مثل العبد المالك فما ظنك بالجماد
ومالك الملك خلاق العالمين هل يستوون جمع الضمير للايذان بان المراد بما ذكر من
ذكر من اتصف بالاوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين لا فردان معينان منهما
اي هل يستوي العبيد والاحرار الموصوفون بما ذكر من الصفات مع ان الفريقين
سيان في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وان ما ينفقه الاحرار ليس مما لهم دخل في
في ايجاده ولا في تملكه بل هو مما اعطاه الله تعالى اياهم فحيث لم يستو الفريقان فما
ظنكم برب العالمين حيث تشركون به ما لا دليل اذل منه وهو الاصنام الحمد لله

اى كله له لانه من لى جميع النعم لا يستحقه احد غيره وان ظهرت على ايدي بعض الوسايط
فضلا عن استحقاق العبادة وفيه ارشاد الى ما هو الحق من ان ما يظهر على يد من ينفع
فيما ذكر راجع اليه سبحانه كما لوح به قوله تعالى بل اكثرهم لا يعلمون ما ذكر
فيضيفون نعمه تعالى الى غيره ويعبدونه لاجلها ونفى العلم عن اكثرهم للاشعار بان
بعضهم يعلمون ذلك وانما لا يعملون بموجبه عنادا كقوله تعالى يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها
واكثرهم الكافرون وضرب الله مثلا اى مثلا آخر يدل على ما دل عليه المثل
السابق على وجه اوضح واظهر وبعد ما ابهم ذلك لتنتظر النفس الى وروده وتترقبه
حتى يتمكن لديها عند وروده بين فقيل رجلين احدهما ابكم وهو من ولد اخرس
لا يقدر على شيء من الاشياء المتعلقة بنفسه او بغيره بحدس او فراسة لقلة فهمه
وسوء ادراكه وهو كل ثقل وعيال على مولاه على من يعوله ويلي امره وهذا
بيان لعدم قدرته على اقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شيء مطلقا
قوله تعالى اينما يوجهه اى حيث يرسله مولاه فى امر بيانا لعدم قدرته على اقامة مصالح
مولاه ولو كانت مصلحة يسيرة وقرئ على البناء للمفعول وعلى صيغة الماضي من التوجه
لا يأت بخير بنجح وكفاية مهم البتة هل يستوي هو مع ما فيه من الاوصاف
المذكورة ومن يأمر بالعدل اى من هو منطيق فهم ذو رأى وكفاية ورشد
ينفع الناس بحثهم على العدل الجامع لمجامع الفضائل وهو فى نفسه مع ما ذكر
من نفعه العام للخاص والعام على صراط مستقيم ومقابلة الصفات المذكورة
بهذين الوصفين لانهما فى حاق ما يقابلها فان محصل الصفات المذكورة عدم
استحقاق المامورية وملخص هذين استحقاق كمال الامرية المستتبع لحيازة المحاسن
باجمعها وتغيير الاسلوب حيث لم يقل والآخر يامر بالعدل الآية لمراعاة الملائمة بينه وبين
ما هو المقصود من بين القرينتين واعلم ان كلا من الفعلين ليس المراد بهما حكاية
الضرب الماضي بل المراد انشاؤه بما ذكر عقيبه ولا يبعد ان يقال ان الله تعالى ضرب
مثلا بخلق الفريقين على ما هما عليه فكان خلقهما كذلك للاستدلال بعدم تساويهما
على امتناع التساوي بينه سبحانه وبين ما يشركون فيكون كل من الفعلين حكاية
للضرب الماضي ولله تعالى خاصة لا لاحد غيره استقلالا ولا اشتراكا غيب السموات
والارض اى الامور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبة بحيث لا سبيل لهم اليها
لا مشاهدة ولا استدلالا ومعنى الاضافة اليهما التعلق بهما اما باعتبار الوقوع
فيهما حالا او مآلا واما باعتبار الغيبة عن اهلها والمراد بيان الاختصاص به تعالى
من حيث المعلومية حسبما ينبئ عنه عنوان الغيبية لا من حيث المخلوقية والمملوكية
وان كان الامر كذلك فى نفس الامر وفيه اشعار بان علمه سبحانه حضوري فان تحقق
الغيوب فى انفسها علم بالنسبة اليه تعالى ولذلك لم يقل ولله علم غيب السموات والارض
وما امر الساعة التى هى اعظم ما وقع فيه المماراة من الغيوب المتعلقة بهما من حيث
غيبتها عن اهلها او ظهور آثارها فيهما عند وقوعها فان وقت وقوعها بعينه من
الغيوب المختصة به سبحانه وان كانت انيتها من الغيوب التى نصبت عليها الادلة اى ما
شأنها فى سرعة المجيء الا كلمح البصر اى كرجع الطرف من اعلى الحدقة الى اسفلها او
هو اى بل امرها فيما ذكر اقرب من ذلك واسرع زمانا بان يقع فى بعض من زمانه
فان ذلك وان قصر حركة اينية لها هوية اتصالية منطبقة على زمان له هوية كذلك
قابل للانقسام الى ابعاض هى ازمنة ايضا بل فى آن غير منقسم من ذلك الزمان وهو
آن ابتداء تلك الحركة او ما امرها الا كالشيء الذى يستقرب ويقال هو كلمح البصر او هو
اقرب واياما كان فهو تمثيل لسرعة مجيئها حسبما عبر عنها فى فاتحة السورة
الشريفة بالاتيان ان الله على كل شيء قدير ومن جملة الاشياء ان يجيء بها اسرع
ما يكون فهو قادر على ذلك او وما امر اقامة الساعة التى كنهها وكيفيتها من الغيوب
الخاصة به سبحانه وهى اماتة الاحياء واحياء الاموات من الاولين والآخرين و

تبدل

تبديل صور الاكوان اجمعين وقد انكرها المنكرون وجعلوها من قبيل ما لا يدخل تحت
الامكان فى سرعة الوقوع وسهولة التأتي الا كلمح البصر او هو اقرب على ما مر من
الوجهين ان الله على كل شيء قدير فهو قادر على ذلك لا محالة وقيل غيب السموات
والارض عبارة عن يوم القيمة بعينه لما ان علمه بخصوصه غائب عن اهلها فوضع
الساعة موضع الضمير لتقوية مضمون الجملة والله اخرجكم من بطون امهاتكم
عطف على قوله والله جعل لكم من انفسكم ازواجا منتظم معه فى سلك ادلة
التوحيد من قوله تعالى والله انزل من السماء ماء وقوله تعالى والله خلقكم وقوله تعالى
والله فضل بعضكم على بعض والامهات بضم الهمزة وقرئ بكسرها ايضا جمع
الام زيدت الهاء فيه كما زيدت فى اهراق من اراق وشذت زيادتها فى الواحدة قال
امهتي خندف والياس ابي لا تعلمون شيئا فى موضع الحال اى غير عالمين شيئا اصلا
وجعل لكم السمع والابصار والافئدة عطف على اخرجكم وليس فيه دلالة على
تأخر الجعل المذكور من الاخراج لما ان مدلول الواو هو الجمع مطلقا لا الترتيب على ان اثر
ذلك الجعل لا يظهر قبل الاخراج اى جعل لكم هذه الاشياء آلات تحصلون بها العلم
والمعرفة بان تحسوا بمشاعركم جزئيات الاشياء وتدركوها بافئدتكم وتتنبهوا
لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرر الاحساس فيحصل لكم علوم بديهية
تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية والافئدة جمع فؤاد وهو وسط
من القلب كالقلب من الصدر وهو من جموع القلة التى جرت مجرى جموع الكثرة وتقديم
المجرور على المنصوبات لما مر من الايذان من اول الامر بكون المجعول نافعا لهم
وتشويق النفس الى المؤخر ليتمكن عند وروده عليها فضل تمكن لعلكم تشكرون
كى تعرفوا ما انعم به عليكم طورا غب طور فتشكروه وتقديم السمع على البصر لما
انه طريق تلقي الوحي او لان ادراكه اقدم من ادراك البصر وافراده باعتبار كونه
مصدرا فى الاصل الم يروا وقرئ بالتاء الى الطير جمع طائر اى الم ينظروا اليها مسخرات
مذللات للطيران بما خلق لها من الاجنحة والاسباب المساعدة له وفيه مبالغة
من حيث ان معنى التسخير جعل الشيء منقادا لآخر يتصرف فيه كيف يشاء كتسخير البحر
والفلك والدواب للانسان والواقع ههنا تسخير الهواء للطير لتطير فيه كيف تشاء
فكان مقتضى طبيعة الطير السقوط فسخرها الله تعالى للطيران وفيه تنبيه على ان
الطيران ليس بمقتضى طبع الطير بل ذلك بتسخير الله تعالى فى جو السماء اى فى الهواء
المتباعد من الارض والسكاك واللوح ابعد منه واضافته الى السماء لما انه فى جانبها
من الناظر ولاظهار كمال القدرة ما يمسكهن فى الجو حين قبض اجنحتهن وبسطها
ووقوفهن الا الله عز وجل بقدرته الواسعة فان ثقل جسدها ورقة قوام
الهواء يقتضيان سقوطها ولا علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها وهو اما حال
من الضمير المستتر فى مسخرات او من الطير واما مستأنف ان فى ذلك الذى ذكر من
تسخير الطير للطيران بان خلقها خلقة يتمكن بها منه بان جعل لها اجنحة خفيفة واذنابا
كذلك وجعل جسدها من الخفة بحيث اذا بسطت اجنحتها واذنابها لا يطيق ثقلها
يخرق ما تحتها من الهواء الرقيق القوام وخرقها ما بين يديها من الهواء لانها
لا تلاقيه بحجم كبير لآيات ظاهرة لقوم يؤمنون اى من شأنهم ان يؤمنوا
وانما خص ذلك بهم لانهم المنتفعون به والله جعل لكم معطوف على ما مر
وتقديم لكم على ما سيأتي من المجرور والمنصوب لما مر من الايذان من اول الامر
بانه لمصلحتهم ومنفعتهم لتشويق النفس الى ما ورد وقوله تعالى من بيوتكم
اى من بيوتكم المعهودة التى تبنونها من الحجر والمدر تبيين لذلك المجعول المبهم
فى الجملة وتأكيد لما سبق من التشويق سكنا فعل بمعنى مفعول اى موضعا تسكنون فيه
وقت اقامتكم او تسكنون اليه من غير ان تنتقل من مكانه اى جعل بعض بيوتكم بحيث
تسكنون اليه وتطمئنون به وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا اى بيوتا

آخر مغايرة لبيوتكم المعهودة هي الخيام والقباب والاخبية والفساطيط تستخفونها
تجدونها خفيفة سهلة المأخذ يوم ظعنكم وقت ترحالكم في النقض والحمل والنقل
وترى بفتح العين ويوم اقامتكم وقت نزولكم في الضرب والبنا ومن اصوافها
واوبارها واشعارها عطف على قوله تعالى من جلود والضماير للانعام على وجه
التنويع اى جعل لكم من اصواف الضان واوبار الابل واشعار المعز اثاثا
اى متاع البيت واصله الكثرة والاجتماع ومنه شعر اثيث ومتاعا اي شيئا
يتمتع به بفنون التمتع الى حين الى ان تقضوا منه اوطاركم او الى ان يبلى ويفنى
فانه معرض البلى والفنا وقيل الى ان تموتوا والكلام في ترتيب المفاعيل مثل ما مر من قبل
والله جعل لكم مما خلق من غير صنع من قبلكم ظلالا اشياء تستظلون بها من
الحر كالغمام والشجر والجبل وغيرها امتن سبحانه بذلك لما ان تلك البلاد غالبة
الحرارة وجعل لكم من الجبال اكنانا مواضع تسكنون فيها من الكهوف والغيران
والسروب والكلام في الترتيب الواقع بين المفاعيل كالذي مر غير مرة وجعل لكم سرابيل
جمع سربال وهو كل ما يلبس اى جعل لكم ثيابا من القطن والكتان والصوف وغيرها
تقيكم الحر خصه بالذكر اكتفاء بذكر احد الضدين عن ذكر الآخر اولان وقايته
هي الاهم عندهم لما مر آنفا وسرابيل من الدروع والجواشن تقيكم باسكم
اى الباس الذى يصل الى بعضكم من بعض في الحرب من الضرب والطعن ولقد من
سبحانه علينا حيث ذكر جميع نعمه الفائضة على جميع الطوائف فبدا بما يخص المقيمين
حيث قال والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ثم بما يخص المسافرين ممن لهم قدرة على
الخيام وامرابها حيث قال وجعل لكم من جلود الانعام الخ ثم بما يعم من لا يقدر
على ذلك ولا يؤويه الا الظلال حيث قال وجعل لكم مما خلق ظلالا الخ ثم بما لا بد
منه لاحد حيث قال وجعل لكم سرابيل الخ ثم بما لا غنى عنه في الحروب حيث قال و
سرابيل تقيكم باسكم ثم قال كذلك اى مثل ذلك الاتمام البالغ يتم نعمته
عليكم لعلكم تسلمون اى ارادة ان تنظروا فيما اسبغ عليكم من النعم الظاهرة و
الباطنة والانفسية والآفاقية فتعرفوا حق منعمها فتؤمنوا وحده وتذروا
ما كنتم به تشركون وتنقادوا لامره وافراد النعمة اما لان المراد بها المصدر او
لاظهار ان ذلك بالنسبة الى جناب الكبرياء شيء قليل وقرى تسلمون اى تسلمون من
العذاب او من الشرك وقيل من الجراح بلبس الدروع فان تولوا فعل ماض
على طريقة الالتفات وصرف الخطاب عنهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلية
له اي فان اعرضوا عن الاسلام ولم يقبلوا منك ما القى اليهم من البينات والعبر
والعظات فانما عليك البلاغ المبين اى فلا قصور من جهتك لان وظيفتك هي
البلاغ الموضح او الواضح وقد فعلته بما لا مزيد عليه فهو من باب وضع السبب
موضع المسبب يعرفون نعمة الله استيناف لبيان ان توليهم واعراضهم عن الاسلام
ليس لعدم معرفتهم بما عدد من نعم الله تعالى اصلا فانهم يعرفونها ويعترفون
انها من الله تعالى ثم ينكرونها بافعالهم حيث يعبدون غير منعمها او بقولهم انها
بشفاعة الهتنا او بسبب كذا وقيل نعمة الله نبوة محمد صلى الله عليه وسلم عرفوها
بالمعجزات كما يعرفون ابناءهم ثم انكروها عنادا ومعنى ثم استبعاد الانكار بعد
المعرفة لان حق من عرف النعمة الاعتراف بها لا الانكار واسناد المعرفة والانكار
المتفرع عليها الى ضمير المشركين على الاطلاق من باب اسناد حال البعض الى الكل
كقولهم بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم فان بعضهم ليسوا كذلك لقوله
سبحانه واكثرهم الكافرون اى المنكرون بقلوبهم غير المعترفين بما ذكر والحكم
عليهم بمطلق الكفر المؤذن بالكمال من حيث الكمية لا ينافي كمال الفرقة الاولى من حيث
الكيفية هذا وقد قيل ذكر الاكثر اما لان بعضهم لم يعرفوا لنقصان العقل او
التفريط في النظر او لم يقم عليه الحجة لانه لم يبلغ حد التكليف فتدبر ويوم نبعث

من كل

من كل امة شهيدا يشهد لهم بالايمان والطاعة وعليهم بالكفر والعصيان وهو
نبيها ثم لا يؤذن للذين كفروا في الاعتذار اذ لا عذر لهم وثم للدلالة على ان
ابتلاهم بالمنع عن الاعتذار المنبئ عن الاقناط الكلي وهو عند ما يقال لهم اخسؤا
فيها ولا تكلمون اشد من ابتلائهم بشهادة الانبياء عليهم السلام عليهم ولا هم
يستعتبون يسترضون اى لا يقال لهم ارضوا ربكم اذ الآخرة دار الجزاء
لا دار العمل وانتصاب الظرف بمحذوف تقديره اذكر او خوفهم يوم نبعث الخ
او يوم نبعث يحيق بهم ما يحيق مما لا يوصف وكذا في قوله تعالى واذا راى الذين
ظلموا العذاب الذى يستوجبونه بظلمهم وهو عذاب جهنم فلا يخفف عنهم ذلك
ولا هم ينظرون اى يمهلون كقوله تعالى بل تاتيهم بغتة فتبهتهم واذا راى
الذين اشركوا شركاءهم الذين كانوا يدعونهم في الدنيا وهم الاوثان او
الشياطين الذين شاركوهم في الكفر بالحمل عليه وقارنوهم في الغي والضلال قالوا
ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك اى نعبدا او نطيعهم و
لعلهم قالوا ذلك طمعا في توزيع العذاب بينهم كما ينبئ عنه قوله سبحانه فالقوا
اى شركاؤهم اليهم القول انكم لكاذبون فان تكذيبهم اياهم فيما قالوا ليس
الا للمدافعة والتخلص عن غائلة مضمونه وانما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم
ويطيعونهم لان الاوثان ما كانوا راضين بعبادتهم لهم فكان عبادتهم لم تكن
عبادة لهم كما قالت الملئكة عليهم السلام بل كانوا يعبدون الجن يعنون ان الجن
هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لا نحن او كذبوهم في تسميتهم شركاء الهة تنزيها
لله سبحانه من الشريك والشياطين وان كانوا راضين بعبادتهم لهم لكنهم لم يكونوا
حاملين لهم على وجه القسر والالجا كما قال ابليس وما كان لي عليكم من سلطان الا
ان دعوتكم فاستجبتم لي فكانهم قالوا ما عبدتمونا حقيقة بل انما عبدتم اهواءكم
والقوا اى الذين اشركوا الى الله يومئذ السلم الاستسلام والانقياد لحكمه
العزيز الغالب بعد الاستكبار عنه في الدنيا وضل عنهم اى ضاع وبطل ما كانوا يفترون
من ان لله سبحانه شركاء وانهم ينصرونهم ويشفعون لهم وذلك حين كذبوهم
وتبرؤا منهم الذين كفروا في انفسهم وصدوا غيرهم عن سبيل الله بالمنع
عن الاسلام والحمل على الكفر زدناهم عذابا فوق العذاب الذي كانوا يستحقونه
بكفرهم قيل في زيادة عذابهم حيات امثال البخت وعقارب امثال البغال تلسع
احداهن فيجد صاحبها حمتها اربعين خريفا وقيل يخرجون من النار الى الزمهرير
فيبادرون من شدة البرد الى النار بما كانوا يفسدون متعلق بقوله زدناهم
اى زدنا عذابهم بسبب استمرارهم على الافساد وهو الصد المذكور ويوم
نبعث تكرير لما سبق تثنية للتهديد في كل امة شهيدا عليهم اى نبيا من انفسهم
من جنسهم قطعا لمعذرتهم وفي قوله تعالى عليهم اشعار بان شهادة انبيائهم
على الامم تكون بمحضر منهم وجئنا بك ايثار لفظ المجيء على البعث لكمال العناية
بشانه عليه الصلوة والسلام وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع شهيدا
على هؤلاء الامم وشهدائهم كقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك
على هؤلاء شهيدا وقيل على امتك والعامل في الظرف محذوف كما مر والمراد به يوم القيمة
ونزلنا عليك الكتاب الكامل في الكتابية الحقيق بان يخص باسم الجنس وهو اما
استيناف او حال بتقدير قد تبيانا بيانا بليغا لكل شيء يتعلق بامور الدين ومن
جملة ذلك احوال الامم مع انبيائهم فيكون كالدليل على كونه عليه السلام شهيدا
عليهم وكذا من جملته ما اخبر به هذه الآية الكريمة من بعث الشهداء وبعثه عليه
السلام شهيدا عليهم عليهم السلام والتبيان كالتلقاء في كسر اوله وكونه تبيانا
لكل شيء من امور الدين باعتبار انه فيه نصا على بعضها واحالة لبعضها على السنة
حيث امر باتباع النبي صلى الله عليه وسلم وطاعته وقيل فيه وما ينطق عن الهوى وحثا

على الاجماع وقد رضي رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته باتباع اصحابه حيث قال اصحابي
كالنجوم بايهم اقتديتم اهتديتم وقد اجتهدوا وقاسوا ووطئوا طرق الاجتهاد
فكانت السنة والاجماع والقياس مستندة الى تبيان الكتاب ولم يضر ما في البعض
من الخفا في كونه تبيانا فان المبالغة باعتبار الكمية دون الكيفية كما قيل في قوله
تعالى وما انا بظلام للعبيد انه من قولك فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده ومنه قوله
سبحانه وما للظالمين من انصار ۞ وهدى ورحمة ۞ للعالمين فان حرمان الكفرة من
مغانم آثاره من تفريطهم لا من جهة الكتاب ۞ وبشرى للمسلمين ۞ خاصة او يكون كل ذلك
خاصا بهم لانهم المنتفعون بذلك ۞ ان الله يامر ۞ اى فيما نزله تبيانا لكل شيء وهدى وبشرى
وايثار صيغة الاستقبال فيه وفيما بعده لافادة التجدد والاستمرار ۞ بالعدل ۞ بمراعاة
التوسط بين طرفي الافراط والتفريط وهو راس الفضائل كلها يندرج تحته فضيلة
القوة العقلية الملكية من الحكمة المتوسطة بين الجربزة والبلادة وفضيلة القوة الشهوية
البهيمية من العفة المتوسطة بين الخلاعة والجمود وفضيلة القوة الغضبية السبعية
من الشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن فمن الحكم الاعتقادية التوحيد المتوسط
بين التعطيل والتشريك نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما ان العدل هو التوحيد و
القول بالكسب المتوسط بين الجبر والقدر ومن الحكم العملية التعبد باداء الواجبات المتوسط
بين البطالة والترهب ومن الحكم الخلقية الجود المتوسط بين البخل والتبذير ۞ والاحسان ۞ اى
الاتيان بما امر به على الوجه اللائق وهو اما بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل او بحسب
الكيفية كما يشير اليه قوله عليه السلام الاحسان ان تعبد الله كانك تراه فان لم تكن
تراه فانه يراك ۞ وايتاء ذى القربى ۞ اى اعطاء الاقارب ما يحتاجون اليه وهو تخصيص
اثر تعميم اهتماما بشانه ۞ وينهى عن الفحشاء ۞ الافراط في متابعة القوة الشهوية
كالزنا مثلا ۞ والمنكر ۞ ما ينكر شرعا او عقلا من الافراط في اظهار آثار القوة الغضبية
والبغي ۞ الاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم وهو من آثار القوة
الوهمية الشيطانية التي حاصلة من رذيلتي القوتين المذكورتين الشهوية والغضبية
وليس في البشر شر الا وهو مندرج في هذه الاقسام صادر عنه بواسطة هذه القوى
الثلاث ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه هي اجمع آية في القران للخير والشر ولو لم يكن
فيه غير هذه الآية الكريمة لكفت في كونه تبيانا لكل شيء وهدى ۞ يعظكم ۞ بما يامر وينهى
وهو اما استيناف او حال من الضمير في الفعلين ۞ لعلكم تذكرون ۞ طلبا
لان تتعظوا بذلك ۞ واوفوا بعهد الله ۞ هو البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فانها
مبايعة لله سبحانه وتعالى لقوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ۞ اذا عاهدتم ۞
اى حافظوا على حدود ما عاهدتم الله عليه وبايعتم به رسوله عليه السلام
ولا تنقضوا الايمان ۞ التي تحلفون بها عند المعاهدة ۞ بعد توكيدها ۞ حسبما هو المعهود
في اثناء العهود لا ان يكون النهي مقيدا بالتوكيد مختصا به ۞ وقد جعلتم الله عليكم
كفيلا ۞ شاهدا رقيبا فان الكفيل مراع لحال المكفول به محافظ عليه ۞ ان الله يعلم
ما تفعلون ۞ من نقض الايمان والعهود فيجازيكم على ذلك ۞ ولا تكونوا ۞ فيما تصنعون
من النقض ۞ كالتي نقضت غزلها ۞ اى ما غزلته مصدر بمعنى المفعول ۞ من بعد قوة ۞
متعلق بنقضت اي كالمراة التي نقضت غزلها من بعد ابرامه واحكامه ۞ انكاثا ۞
طاقات نكث فتلها جمع نكث وانتصابه على الحالية من غزلها او على انه مفعول ثان
لنقضت فانه بمعنى صيرت والمراد تقبيح حال النقض بتشبيه الناقض بمثل هذه الحمقاء المعتوهة
قيل هي ريطة بنت سعد بن تيم وكانت حمقاء اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل
اصبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة الى الظهر ثم
تامرهن فينقضن ما غزلن ۞ تتخذون ايمانكم دخلا بينكم ۞ حال من الضمير في لا تكونوا
او في الجار والمجرور الواقع موقع الخبر اى مشابهين بامراة شانها هذا حال كونكم
متخذين ايمانكم مفسدة ودخلا بينكم واصل الدخل ما يدخل الشيء ولم يكن منه

ان تكون

ان تكون امة بان تكون جماعة ۞ هي اربى ۞ اى ازيد عددا واوفر مالا ۞ من امة ۞ من جماعة
اخرى اى لا تغدروا بقوم لكثرتكم وقلتهم او لكثرة منابذيهم وقوتهم كقريش
فانهم كانوا اذا راوا شوكة في اعادي حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا
اعداهم ۞ انما يبلوكم الله به ۞ اى بان تكون امة اربى من امة اى يعاملكم بذلك
معاملة من يختبركم لينظر اتتمسكون بحبل الوفا بعهد الله وبيعة رسوله صلى الله
عليه وسلم ام تغترون بكثرة قريش وشوكتهم وقلة المؤمنين وضعفهم بحسب
ظاهر الحال ۞ وليبينن لكم يوم القيمة ما كنتم فيه تختلفون ۞ حين جازاكم باعمالكم
ثوابا وعقابا ۞ ولو شاء الله ۞ مشية قسر والجا ۞ لجعلكم امة واحدة ۞ متفقة على الاسلام
ولكن لا يشاء ذلك لكونه مزاحما لقضية الحكمة ۞ بل يضل من يشاء ۞ اضلاله
اى يخلق فيه الضلال حسبما يصرف اختياره والجزئي اليه ۞ ويهدى من يشاء ۞
هدايته حسبما يصرف اختياره الى تحصيلها ۞ ولتسئلن ۞ جميعا يوم القيمة ۞ عما
كنتم تعملون ۞ في الدنيا وهذا اشارة الى ما لوح به من الكسب الذي عليه يدور
امر الهداية والضلال ۞ ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم ۞ تصريح بالنهي منه
بعد التضمين تاكيدا ومبالغة في بيان قبح المنهي عنه وتمهيدا لقوله سبحانه ۞ فتزل
قدم ۞ عن محجة الحق ۞ بعد ثبوتها ۞ عليها ورسوخها فيها بالايمان وافراد القدم
وتنكيرها للايذان بان زلل قدم واحدة اى قدم كانت عزت او هانت محذور
عظيم فكيف باقدام كثيرة ۞ وتذوقوا السوء ۞ اى العذاب الدنيوي ۞ بما صددتم ۞
بصدودكم او بصدكم غيركم ۞ عن سبيل الله ۞ الذي ينتظم الوفا بالعهود والايمان
فان من نقض البيعة وارتد جعل ذلك سنة لغيره ۞ ولكم ۞ في الاخرة ۞ عذاب عظيم ۞
ولا تشتروا بعهد الله ۞ اى لا تاخذوا بمقابلة عهده وبيعة رسوله صلى الله عليه
وسلم وآياته الناطقة بايجاب المحافظة على العهود والايمان ۞ ثمنا قليلا ۞ اى لا
تستبدلوا بها عرضا يسيرا وهو ما كانت قريش يعدون ضعفة المسلمين ويشرطون
لهم على الارتداد من حطام الدنيا ۞ ان ما عند الله ۞ عز وجل من النصر والتغنيم و
الثواب الاخروي ۞ هو خير لكم ۞ مما يعدونكم ۞ ان كنتم تعلمون ۞ اى ان كنتم من
اهل العلم والتمييز وهو تعليل للنهي على طريقة التحقيق كما ان قوله تعالى ۞ ما عندكم ۞
الخ تعليل للخيرية بطريق الاستيناف اى ما تتمتعون به من نعيم الدنيا وان جل بل الدنيا
وما فيها جميعا ۞ ينفد ۞ وان جم عدده ۞ وينقضي وان طال امده ۞ وما عند الله ۞
من خزاين رحمته الدنيوية والاخروية ۞ باق ۞ لا نفاد له اما الاخروية فظاهر
والدنيوية فحيث كانت موصولة بالاخروية ومستتبعة لها فقد انتظمت في سمط
الباقيات الصالحات وفي ايثار الاسم على صيغة المضارع من الدلالة على الدوام
ما لا يخفى وقوله تعالى ۞ ولنجزين ۞ بنون العظمة على طريقة الالتفات تكرير للوعد المستفاد
من قوله تعالى ان ما عند الله هو خير لكم على نهج التوكيد القسمي مبالغة في الحمل
على الثبات في الدين والالتفات عما يقتضيه ظاهر الحال من ان يقال وليجزينكم اجركم
باحسن ما كنتم تعملون للتوسل الى التعرض لاعمالهم والاشعار بعليتها للجزاء اى وبالله
لنجزين ۞ الذين صبروا ۞ على اذية المشركين ومشاق الاسلام التي من جملتها الوفاء
بالعهود والفقر وقرئ بالياء من غير التفات ۞ اجرهم ۞ مفعول ثان لنجزين اى لنعطينهم
اجرهم الخاص بهم بمقابلة صبرهم على ما منوا به من الامور المذكورة ۞ باحسن ما كانوا
يعملون ۞ اى لنجزينهم بما كانوا يعملون من الصبر المذكور وانما اضيف اليه الاحسن
للاشعار بكمال حسنه كما في قوله سبحانه وحسن ثواب الاخرة لا لافادة قصر الجزاء على
الاحسن منه دون الحسن فان ذلك مما لا يخطر ببال احد لا سيما بعد قوله تعالى
اجرهم او لنجزينهم بحسب احسن افراد اعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد
الادنى من اعمالهم المذكورة ما نعطيه بمقابلة الفرد الاعلى منها من الاجر الجزيل
لا انا نعطي الاجر بحسب افرادها المتفاوتة في مراتب الحسن بان نجزي الحسن منها

وهو انسب بالقسم المقدر
منه

بالاجر الحسن والاحسن بالاحسن وفيه ما لا يخفى من العدة الجميلة باغتفار ما عسى يعتريهم
في تضاعيف الصبر من جزع ونظمه في سلك الصبر الجميل او لنجزينهم بجزاء احسن من
اعمالهم واما التفسير بما ترجح فعله من اعمالهم كالواجبات والمندوبات او بما ترجح
تركه ايضا كالمحرمات والمكروهات دلالة على ان ذلك هو المدار للجزاء دون ما
يستوي فعله وتركه كالمباحات فلا يساعده مقام الحث على الثبات على ما هم عليه
من الاعمال الحسنة المخصوصة والترغيب في تحصيل ثمراتها بل التعرض لاخراج بعض
اعمالهم عن مدار الجزاء من قبيل تحجير الرحمة الواسعة في مقام توسيع حماها
من عمل صالحا اي عملا صالحا اي عمل كان وهذا شروع في تحريض كافة المؤمنين على كل عمل
صالح غب ترغيب طائفة منهم في الثبات على ما هم عليه من عمل صالح مخصوص دفعا لتوهم
اختصاص الاجر الموفور بهم المذكور وقوله تعالى من ذكر او انثى مبالغة في بيان
شموله للكل وهو مؤمن قيد به اذ لا اعتداد باعمال الكفرة في استحقاق
الثواب او تخفيف العذاب كقوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وايثار
ايراده بالجملة الاسمية الحالية على نظمه في سلك الصلة لافادة وجوب دوامه ومقارنته للعمل
الصالح فلنحيينه حيوة طيبة في الدنيا يعيش عيشا طيبا اما ان كان موسرا فظاهر واما ان
ان كان معسرا فيطيب عيشه بالقناعة والرضى بالقسمة وتوقع الاجر العظيم كالصائم
يطيب نهاره بملاحظة نعيم ليله بخلاف الفاجر فانه ان كان معسرا فظاهر وان كان
موسرا فلا يدعه الحرص وخوف الفوات ان يتهنأ بعيشه ولنجزينهم في الآخرة
اجرهم باحسن ما كانوا يعملون حسبما نفعل بالصابرين فليس فيه شائبة تكرار والجمع
في الضمائر العائدة الى الموصول براعاة جانب المعنى كما ان الافراد فيما سلف لرعاية
جانب اللفظ وايثار ذلك على العكس لما ان وقوع الجزاء بطريق الاجتماع المناسب للجمعية
ووقوع ما في حيز الصلة وما يترتب عليه بطريق الافتراق والتعاقب الملائم للافراد واذ
قد انتهى الامر الى ان مدار الجزاء المذكور هو صلاح العمل وحسنه رتب عليه بالفاء
الارشاد الى ما به يحسن العمل الصالح ويخلص عن شوب الفساد فقيل فاذا قرأت
القرآن اي اذا اردت قراءته عبر بها عن ارادتها على طريقة اطلاق اسم المسبب على
السبب ايذانا بان المراد هي الارادة المتصلة بالقراءة فاستعذ بالله فاسأله عز
جاره ان يعيذك من الشيطان الرجيم من وساوسه وخطراته كيلا يوسوسك
عند القراءة فان له همة بذلك قال تعالى وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا
اذا تمنى القى الشيطان في امنيته الآية وتوجيه الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وتخصيص قراءة القرآن من بين الاعمال الصالحة بالاستعاذة عند ارادتها للتنبيه على
انها لغيره عليه السلام وفي سائر الاعمال الصالحة اهم فانه عليه السلام حيث امر بها
عند قراءة القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فما ظنكم بمن
عداه عليه السلام فيما عدا القراءة من الاعمال والامر للندب وهذا مذهب الجمهور وعند
عطاء للوجوب وقد اخذ بظاهر النظم الكريم فاستعاذ عقيب القراءة ابو هريرة رضي الله عنه
ومالك وابن سيرين وداود وحمزة من القراء وعن ابن مسعود رضي الله عنه
قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت اعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم
فقال عليه الصلوة والسلام قل اعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا اقرانيه جبريل
عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ انه الضمير للشان او للشيطان ليس له سلطان
تسلط وولاية على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون اي اليه يفوضون امورهم
وبه يعوذون في كل ما يأتون وما يذرون فان وسوسته لا تؤثر فيهم ودعوته
غير مستجابة عندهم وايثار صيغة الماضي في الصلة الاولى للدلالة على التحقق
كما ان اختيار صيغة الاستقبال في الثانية لافادة الاستمرار التجددي وفي التعرض
لوصف الربوبية عدة كريمة باعاذة المتوكلين والجملة تعليل للامر بالاستعاذة او
لجوابها المنوي اي يعذكم او نحوه انما سلطانه اي تسلطه وولايته بدعوته المستتبعة للاستجابة

لا سلطانه بالقسر والالجاء فانه منتف عن الفريقين لقوله سبحانه حكاية عنه وما كان
لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي وقد افصح عنه قوله تعالى على الذين
يتولونه اي يتخذونه وليا ويستجيبون دعوته ويطيعونه فان المقسور بمعزل
من ذلك والذين هم به سبحانه وتعالى مشركون او بسبب الشيطان مشركون اذ
هو الذي حملهم على الاشراك بالله سبحانه وقصر سلطانه عليهم غب نفيه عن
المؤمنين المتوكلين دليل على ان لا واسطة في الخارج بين التوكل على الله تعالى وبين تولي
الشيطان وان كان بينهما واسطة في المفهوم وان من لم يتوكل عليه تعالى ينتظم في سلك من يتولى
الشيطان من حيث لا يحتسب اذ به يتم التعليل ففيه مبالغة في الحمل على التوكل والتحذير عن
مقابله وايثار الجملة الفعلية الاستقبالية في الصلة الاولى لما مر من افادة الاستمرار التجددي
كما ان اختيار الجملة الاسمية في الثانية للدلالة على الثبات وتكرير الموصول للاحتراز عن
توهم كون الصلة الثانية حالية مفيدة لعدم دخول غير المشركين من اولياء
الشيطان تحت سلطانه وتقديم الاولى على الثانية التي هي بمقابلة الصلة الاولى
فيما سلف لرعاية المقارنة بينها وبين ما يقابلها من التوكل على الله تعالى ولو روعي الترتيب
السابق لانفصل كل من القرينتين عما يقابلها واذا بدلنا آية مكان آية اي اذا
انزلنا آية من القرآن مكان آية منه وجعلناها بدلا منها بان نسخناها بها والله
اعلم بما ينزل اولا وآخرا وبان كلا من ذلك ما نزلت حيثما نزلت الا حسبما يقتضيه
الحكمة والمصلحة فان كل وقت له مقتضى غير مقتضى الآخر فكم من مصلحة في وقت
تنقلب في وقت آخر مفسدة وبالعكس لانقلاب الامور الداعية الى ذلك وما
الشرائع الا مصالح للعباد في المعاش والمعاد تدور حسبما تدور المصالح والجملة اما معترضة لتوبيخ
الكفرة والتنبيه على فساد رأيهم وفي الالتفات الى الغيبة مع اسناد الخبر الى الاسم
الجليل المستجمع للصفات ما لا يخفى من تربية المهابة وتحقيق معنى الاعتراض او حالية
وقرئ بالتخفيف من الانزال قالوا اي الكفرة الجاهلون بحكمة النسخ انما انت مفتر
اي متقول على الله تعالى تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه وحكاية هذا القول عنهم
ههنا للايذان بان ذلك كفرة ناشئة من نزغات الشيطان وانه وليهم بل اكثرهم
لا يعلمون اي لا يعلمون شيئا اصلا او لا يعلمون ان في النسخ حكما بالغة واسناد هذا الحكم
الى الاكثر لما ان منهم من يعلم ذلك وانما ينكره عنادا قل نزله اي القرآن المدلول عليه
بالآية روح القدس يعني جبريل عليه السلام اي الروح المطهر من الادناس البشرية واضافة
الروح الى القدس وهو الطهر كاضافة حاتم الى الجود حيث قيل حاتم الجود للمبالغة
في ذلك الوصف كانه طبع منه وفي صيغة التفعيل في الموضعين اشعار بان التدريج
في الانزال مما يقتضيه الحكم البالغة من ربك في اضافة الرب الى ضميره صلى الله عليه وسلم
من الدلالة على تحقيق افاضة آثار الربوبية عليه عليه السلام ما ليس في اضافته الى ياء
المتكلم المبنية على التلقين المحض بالحق اي ملتبسا بالحق الثابت الموافق للحكمة المقتضية
له بحيث لا يفارقها انشاء ونسخا وفيه دلالة على ان النسخ حق ليثبت الذين آمنوا على
الايمان بانه كلامه تعالى فانهم اذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح
اللائقة بالحال رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم وقرئ ليثبت من الافعال و
هدى وبشرى للمسلمين المنقادين لحكمه تعالى وهما معطوفان على محل ليثبت اي تثبيتا
وهداية وبشارة وفيه تعريض بحصول اضداد الامور المذكورة لمن سواهم من الكفار
ولقد نعلم انهم يقولون غير ما نقل عنهم من المقالة الشنعاء انما يعلمه اي القرآن
بشر على طريق البث مع ظهور انه نزله روح القدس عليه السلام وتحلية الجملة بفنون التأكيد
لتحقيق ما تضمنته من الوعيد وصيغة الاستقبال لافادة استمرار العلم بحسب الاستمرار
التجددي في متعلقه فانهم مستمرون على تفوه تلك العظيمة يعنون بذلك جبرا الرومي غلام
عامر بن الحضرمي وقيل جبرا ويسارا كانا يصنعان السيف بمكة ويقرآن التوراة والانجيل
وكان الرسول صلعم عليهما ويسمع ما يقرآنه وقيل عايشا غلام حويطب بن عبد العزى

قد اسلم وكان صاحب كتب وقيل سلمان الفارسي وانما لم يصرح باسم من زعموا انه يعلمه مع
كونه ادخل في ظهور كذبهم للايذان بان مدار خطابهم ليس نسبته عليه السلام الى
التعلم من شخص معين بل من البشر كاينا من كان مع كونه عليه السلام معدنا لعلوم
الاولين والاخرين لسان الذين يلحدون اليه اعجمي الالحاد الامالة من لحد القبر اذا
امال حفره عن الاستقامة فحفر في شق منه ثم استعير لكل امالة عن الاستقامة فقالوا
لحد فلان في قوله والحد في دينه اي لغة الرجل الذي يميلون اليه القول عن الاستقامة
اعجمية غير بينة وقرئ بفتح الياء والحاء وبتعريف اللسان وهذا القران الكريم لسان عربي
مبين ذو بيان وفصاحة والجملتان مستانفتان لابطال طعنهم وتقريره ان القران معجز
بنظمه كما انه معجز بمعناه فان زعمتم ان بشرا يعلمه معناه فكيف يعلمه هذا النظم الذي
اعجز جميع اهل الدنيا والتشبث في اثناء الطعن باذيال امثال هذه الخرافات الركيكة
دليل على كمال عجزهم ان الذين لا يؤمنون بايات الله اي لا يصدقون انها من عند الله
بل يقولون فيها ما يقولون يسمونها تارة افتراء واخرى اساطير معلمة من البشر لا يهديهم
الله الى الحق او الى سبيل النجاة هداية موصلة الى المطلوب لما علم انهم لا يستحقون
ذلك لسوء حالهم ولهم في الاخرة عذاب اليم وهذا تهديد لهم ووعيد على ما هم
عليه من الكفر بايات الله تعالى ونسبة رسول الله صلى الله عليه الى الافتراء والتعليم
من البشر بعد اماطة شبهتهم ورد طعنهم وقوله تعالى انما يفتري الكذب الذين لا
يؤمنون بايات الله رد لقولهم انما انت مفتر وقلب للامر عليهم ببيان انهم هم المفترون بعد
رده بتحقيق انه منزل من عند الله بواسطة روح القدس وانما وسط بينهما قوله تعالى ولقد
نعلم الاية لما لا يخفى من شدة اتصاله بالرد الاول والمعنى والله تعالى اعلم ان المفتري هو الذي
يكذب بايات الله ويقول انه افتراء ومعلم من البشر اي تكذيبها على الوجه المذكور هو
الافتراء على الحقيقة لان حقيقة الكذب والحكم بان ما هو كلامه تعالى ليس بكلامه تعالى
في كونه كذبا وافتراء كالحكم بان ما ليس بكلامه تعالى كلامه تعالى والتصريح بالكذب للمبالغة
في بيان قبحه وصيغة المضارع لرعاية المطابقة بينه وبين ما هو عبارة عنه اعني
قوله لا يؤمنون وقيل المعنى انما يفتري الكذب ويليق ذلك بمن لا يؤمن بايات الله
لانه لا يترقب عقابا عليه ليرتدع عنه واما من يؤمن بها ويخاف ما نطقت به من
العقاب فلا يمكن ان يصدر عنه افتراء البتة واولئك الموصوفون بما ذكر من عدم
الايمان بايات الله هم الكاذبون على الحقيقة او الكاملون في الكذب اذ لا كذب اعظم
من تكذيب اياته تعالى والطعن فيها بامثال هاتيك الاباطيل والسر في ذلك ان
الكذب الساذج الذي هو عبارة عن الاخبار بعدم وقوع ما هو واقع في نفس الامر
الامر بخلق الله تعالى او بوقوع ما لم يقع كذلك مدافعة له سبحانه في فعله فقط والتكذيب
مدافعة له سبحانه في فعله وقوله المنبئ عنه معا والذين عادتهم الكذب لا يزعهم
عنه وازع من دين او مروءة وقيل الكاذبون في قولهم انما انت مفتر من كفر بالله
اي تلفظ بكلمة الكفر من بعد ايمانه به تعالى وهو ابتداء كلام لبيان حال من كفر بايات
الله بعد ما امن بها بعد بيان حال من لم يؤمن بها راسا ومن موصولة ومحلها الرفع
على الابتداء والخبر محذوف لدلالة الخبر الاتي عليه او هو خبر لهما معا او النصب على الذم
الا من اكره على ذلك بامر يخاف على نفسه او على عضو من اعضائه وهو استثناء متصل
من حكم الغضب والعذاب او الذم لان الكفر لغة يتم بالقول كما اشير اليه وقوله تعالى
وقلبه مطمئن بالايمان حال من المستثنى والعامل هو الكفر الواقع بالاكراه لا نفس الاكراه
لان مقارنة اطمئنان القلب بالايمان للاكراه لا يجدي نفعا وانما المجدي مقارنته
للكفر الواقع اي الا من كفر باكراه والا من اكره فكفر والحال ان قلبه مطمئن بالايمان
لم يتغير عقيدته وانما لم يصرح به ايماء الى انه ليس بكفر حقيقة وفيه دليل على ان الايمان
هو التصديق بالقلب ولكن من لم يكن كذلك شرح بالكفر صدرا اي اعتقده وطاب
به نفسا فعليهم غضب عظيم لا يكتنه كنهه من الله اظهار الاسم الجليل لتربية المهابة و

تقوية تعظيم العذاب ولهم عذاب عظيم اذ لا جرم اعظم من جرمهم والجمع في
الضمير بين المجرورين لمراعاة جانب المعنى كما ان الافراد في المستكن في الصلة لرعاية
جانب اللفظ روي ان قريشا اكرهوا عمارا وابويه ياسرا وسمية على الارتداد
فاباه ابواه فربطوا سمية بين بعيرين ووجئ بحربة في قبلها وقالوا انما اسلمت من
اجل الرجال فقتلوها وقتلوا ياسرا وهما اول قتيلين في الاسلام واما عمار فاعطاهم
بلسانه ما اكرهوا عليه فقيل يا رسول الله ان عمارا كفر فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم كلا ان عمارا ملئ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه
ودمه فاتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله
عليه وسلم يمسح عينيه وقال ما لك ان عادوا لك فعد لهم بما قلت وهو دليل على
جواز التكلم بكلمة الكفر عند الاكراه الملجئ وان كان الافضل ان يتجنب عنه اعزازا للدين
كما فعله ابواه وروي ان مسيلمة الكذاب اخذ رجلين فقال لاحدهما ما تقول في محمد
صلى الله عليه وسلم قال رسول الله قال فما تقول في قال فانت ايضا فخلاه وقال
للاخر ما تقول في محمد عليه السلام قال رسول الله قال فما تقول في قال انا اصم
فاعاد ثلاثا فاعاد جوابه فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اما الاول فقد اخذ
برخصة واما الثاني فقد صدع بالحق ذلك اشارة الى الكفر بعد الايمان او الى
الوعيد المذكور بانهم بسبب انهم استحبوا الحيوة الدنيا اثروها على الاخرة وان
الله لا يهدي الى الايمان والى ما يوجب الثبات عليه هداية قسر والجاء القوم الكافرين
في علمه المحيط فلا يعصمهم عن الزيغ وما يؤدي اليه من الغضب والعذاب العظيم
ولولا احد الامرين اما ايثار الحيوة على الاخرة واما عدم هداية الله سبحانه للكافرين
هداية قسر بان اثروا الاخرة على الدنيا وبان هداهم الله تعالى هداية قسر لما
كان ذلك لكن الثاني مخالف للحكمة والاول مما يدخل تحت الوقوع واليه
اشير بقوله تعالى اولئك اي اولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح الذين طبع الله
على قلوبهم وسمعهم وابصارهم فابت عن ادراك الحق والتامل فيه واولئك
هم الغافلون اي الكاملون في الغفلة اذ لا غفلة اعظم من الغفلة عن تدبر العواقب
لا جرم انهم في الاخرة هم الخاسرون اذ ضيعوا اعمارهم وصرفوها الى ما لا يفضي
الا الى العذاب المخلد ثم ان ربك للذين هاجروا الى دار الاسلام وهم عمار
واصحابه رضي الله عنهم اي لهم بالولاية والنصر لا عليهم كما يوجبه ظاهر اعمالهم
السالفة فالجار والمجرور خبر لان ويجوز ان تكون خبرها محذوفا لدلالة الخبر الاتي
عليه ويجوز ان يكون ذلك خبرا لها ويكون ان الثانية تاكيدا للاولى وثم للدلالة على
تباعد رتبة حالهم هذه عن رتبة حالهم التي يفيدها الاستثناء من مجرد الخروج عن
حكم الغضب والعذاب بطريق الاشارة لا عن رتبة حال الكفرة من بعد ما فتنوا اي
عذبوا على الارتداد وتلفظوا بما يرضيهم مع اطمينان قلوبهم بالايمان وقرئ على بناء
الفاعل اي عذبوا المؤمنين كالحضرمي اكره مولاه جبرا حتى ارتد ثم اسلما وهاجرا ثم
جاهدوا في سبيل الله تعالى وصبروا على مشاق الجهاد ان ربك من بعدها من بعد
المهاجرة والجهاد والصبر فهو تصريح بما اشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة
له او من بعد الفتنة المذكورة فهو لبيان عدم اخلال ذلك بالحكم لغفور لما فعلوا
من قبل رحيم ينعم عليهم مجازاة على ما صنعوا من بعد وفي التعرض لعنوان الربوبية
في الموضعين ايماء الى علة الحكم وفي اضافة الرب الى ضميره صلى الله عليه وسلم مع
ظهور الاثر في الطائفة المذكورة اظهار لكمال اللطف به عليه الصلوة والسلام واشعار
بان افاضة اثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة بواسطته عليه السلام ولكونهم
اتباعا له يوم تاتي كل نفس منصوب برحيم او بما رتب عليه او باذكر وهو يوم القيمة
يوم يقوم الناس لرب العالمين تجادل عن نفسها عن ذاتها تسعى في خلاصها
بالاعتذار لا يهمها شان غيرها فتقول نفسي نفسي اي تعطى وتوفى كل نفس ما عملت

وافيًا كاملًا ما عملت اى جزاء ما عملت بطريق اطلاق اسم السبب على المسبب اشعارًا
بكمال الاتصال بين الاجزية والاعمال وايثار الاظهار على الاضمار لزيادة التقرير وللايذان
باختلاف وقتى المجادلة والتوفية وان كانتا فى يوم واحد وهم لا يظلمون لا ينقصون
اجورهما ولا يعاقبون بغير موجب ولا يزاد فى عقابهم على ذنوبهم وضرب الله مثلًا
قرية قبل ضرب المثل صنعه واعماله وقد مر تحقيقه فى سورة البقرة ولا يتعدى الا الى
مفعول واحد وانما عدى الى الاثنين لتضمنه معنى الجعل وتاخير قرية مع كونها مفعولا
اول لئلا يحول المفعول الثانى بينها وبين صفتها وما يترتب عليها اذ التاخير عن
الكل مخل بتجاذب اطراف النظم وتجاوبها ولان تاخير ما حقه التقديم مما يورث
النفس ترقبا لوروده وشوقا اليه لاسيما اذا كان فى المقدم ما يدعو اليه فان المثل
مما يدعو الى المحافظة عن تفاصيل احوال ما هو مثل فيتمكن المتاخر عند وروده
لديها فضل تمكن والقرية اما محققة فى الغابرين واما مقدرة اى جعلها مثلا لاهل مكة
خاصة او لكل قوم انعم الله تعالى عليهم فابطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا فبدل الله تعالى
بنعمتهم نقمة ودخل فيهم اهل مكة دخولا اوليا كانت امنة ذات امن من كل مخوف
مطمئنة لا يزعج اهلها مزعج ياتيها رزقها اقوات اهلها صفة ثانية لقرية وتغيير
سبكها عن الصفة الاولى لما ان اتيان رزقها متجدد وكونها آمنة مطمئنة ثابت مستمر
رغدًا واسعًا من كل مكان من نواحيها فكفرت اى كفر اهلها بانعم الله اى بنعمه جمع
نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وادرع او جمع نعم كبؤس وابؤس والمراد بها
نعمة الرزق والامن المستمر وايثار جمع القلة للايذان بان كفران نعمة قليلة حيث اوجب
هذا العذاب فما ظنك بكفران نعم كثيرة فاذاقها الله اى اذاق اهلها لباس الجوع
والخوف شبه اثر الجوع والخوف وضررهما المحيط بهم باللباس الغاشى للابس
فاستعير له اسمه واوقع عليه الاذاقة المستعارة لمطلق الايصال المنبئة عن
شدة الاصابة بما فيها من اجتماع ادراكى اللامسة والذائقة على نهج التجريد فانها
لشيوع استعمالها فى ذلك وكثرة جريانها على الالسنة جرت مجرى الحقيقة كقول كثير غمر الرداء اذا تبسم
ضاحكا غلقت لضحكته رقاب المال فان الغمر مع كونه فى الحقيقة من احوال الماء الكثير
لما كان كثير الاستعمال فى المعروف المشبه بالماء الكثير جرى مجرى الحقيقة فصارت اضافته
الى الرداء المستعار للمعروف تجريدا او شبه اثرهما وضررهما من حيث الاحاطة بهم
والكراهية لديهم تارة باللباس الغاشى للابس المناسب للخوف بجامع الاحاطة و
اللزوم تشبيه معقول بمحسوس فاستعير له اسمه استعارة تصريحية واخرى بطعم
المر والبشع الملائم للجوع الناشى من فقد الرزق بجامع الكراهة فاومى اليه بان
اوقع عليه الاذاقة المستعارة للايصال الضار المنبئة عن شدة الاصابة بما فيها
من اجتماع ادراكى اللامسة والذائقة وتقديم الجوع الناشى مما ذكر من فقدان الرزق
على الخوف المترتب على زوال الامن المقدم على اتيان الرزق لكونه انسب بالاذاقة
او لمراعاة المقارنة بينها وبين اتيان الرزق وقد قرئ بتقديم الخوف وبنصبه ايضا
عطفا على المضاف او اقامة له مقام مضاف محذوف واصله ولباس الخوف بما
كانوا يصنعون فيما قبل او على وجه الاستمرار وهو الكفران المذكور اسند ذلك الى
اهل القرية تحقيقا للامر بعد اسناد الكفران اليها وايقاع الاذاقة عليها ارادة للمبالغة
وفى صيغة الصنعة ايذان بان كفران النعمة صار صنعة راسخة لهم وسنة مسلوكة
ولقد جاءهم من تتمة التمثيل جيء بها لبيان ان ما فعلوه من كفران النعم لم يكن مزاحمة منهم
لقضية العقل فقط بل كان ذلك معارضة لحجة الله على الخلق ايضا اى ولقد جاء اهل
تلك القرية رسول منهم اى من جنسهم يعرفونه باصله ونسبه فاخبرهم بوجوب
الشكر على النعمة وانذرهم سوء عاقبة ما ياتون وما يذرون فكذبوه فى رسالته
او فيما اخبرهم به مما ذكر فالفاء فصيحة وعدم ذكره للايذان بمفاجاتهم بالتكذيب
من غير تلعثم فاخذهم العذاب المستاصل لشافتهم غب ما ذاقوا نبذة من ذلك وهم

ظالمون اى حال التباسهم بما هم عليه من الظلم الذى هو كفران نعم الله تعالى وتكذيب
رسوله غير مقلعين عنه بما ذاقوا من مقدماته الزاجرة عنه وفيه دلالة على تماديهم فى
الكفر والعناد وتجاوزهم فى ذلك كل حد معتاد وترتيب العذاب على تكذيب الرسول
جرى على سنة الله تعالى حسبما يرشد اليه قوله سبحانه وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا
وبه يتم التمثيل فان حال اهل مكة سواء ضرب المثل لهم خاصة او لمن سار سيرتهم
كافة مجادية لحال اهل تلك القرية حذو القذة بالقذة من غير تفاوت بينهما ولو
فى حصلة فذة كيف لا وقد كانوا فى حرم آمن ويتخطف الناس من حولهم وما يمر ببالهم
طيف من الخوف وكانت تجبى اليه ثمرات كل شىء ولقد جاءهم رسول منهم واى رسول
يحار فى ادراك سمو رتبته العقول صلى الله عليه وسلم ما اختلف الدبور والقبول فكفروا
بانعم الله وكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم فاذاقهم الله لباس الجوع والخوف حيث
اصابهم بدعائه عليه الصلوة والسلام بقوله اللهم اعنى عليهم بسبع كسبع
يوسف ما اصابهم من جدب شديد وازمة حصت كل شىء حتى اضطرتهم الى
اكل الجيف والكلاب الميتة والعظام المحرقة والعلهز وهو الوبر المعالج بالدم وقد
ضاقت عليهم الارض بما رحبت من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا
يغيرون على مواشيهم وعيرهم وقوافلهم ثم اخذهم يوم بدر ما اخذهم من
العذاب هذا هو الذى يقتضيه المقام ويستدعيه حسن النظام واما ما اجمع عليه
اكثر اهل التفسير من ان الضمير فى قوله تعالى ولقد جاءهم لاهل مكة قد ذكر حالهم صريحا
بعد ما ذكر مثلهم وان المراد بالرسول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالعذاب ما
اصابهم من الجدب ووقعة بدر فبمعزل من التحقيق كيف لا وقوله سبحانه فكلوا مما
رزقكم الله مفرع على نتيجة التمثيل وصد لهم عما يؤدى الى مثل عاقبته والمعنى واذ
قد استبان لكم حال من كفر بانعم الله وكذب رسوله وما حل بهم بسبب ذلك من
اللتيا والتى اولا واخرا فانتهوا عما انتم عليه من كفران النعم وتكذيب الرسول صلى الله عليه
وسلم كيلا يحل بكم مثل ما حل بهم واعرفوا حق نعم الله تعالى واطيعوا رسوله صلى الله عليه
وسلم فى امره ونهيه وكلوا من رزق الله حال كونه حلالا طيبا وذروا ما تفترون
من تحريم البحائر ونحوها واشكروا نعمة الله واعرفوا حقها ولا تقابلوها بالكفران
والفاء فى المعنى داخلة على الامر بالشكر وانما دخلت على الامر بالاكل لكون الاكل
ذريعة الى الشكر فكانه قيل فاشكروا نعمة الله غب اكلها حلالا طيبا وقد ادمج فيه النهى عن زعم الحرمة
ولا ريب فى ان هذا انما يتصور حين كان العذاب المستاصل متوقعا بعد وقد
تمهدت مباديه وبعد ما وقع فمن ذا الذى يحذر ومن ذا الذى يؤمر بالاكل
والشكر وحمل قوله تعالى فاخذهم العذاب وهم ظالمون على الاخبار بذلك قبل الوقوع
ياباه التصدى لاستصلاحهم بالامر والنهى وتوجيه خطاب الامر بالاكل الى المؤمنين
مع ان ما يتلوه من خطاب النهى متوجه الى الكفار كما فعله الواحدى حيث قال فكلوا
انتم يا معشر المؤمنين مما رزقكم الله من الغنائم مما لا يليق بشان التنزيل الجليل
ان كنتم اياه تعبدون اى تطيعون او ان صح زعمكم انكم تقصدون بعبادة
الالهة عبادته تعالى انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل
لغير الله به تعليل لحل ما امرهم باكله مما رزقهم اى انما حرم هذه الاشياء دون ما تزعمون
حرمته من البحائر والسوائب ونحوها فمن اضطر بما اعتراه من الضرورة فتناول شيئا
من ذلك غير باغ اى على مضطر آخر ولا عاد اى متجاوز قدر الضرورة فان الله
غفور رحيم اى لا يؤاخذه بذلك فاقيم سببه مقامه وفى الاضافة الى ضمير دم
دليل وتصدير الجملة بانما لحصر المحرمات فى الاجناس الاربعة الا ما ضم اليه كالسباع
والحمر الاهلية ثم اكد ذلك بالنهى عن التحريم والتحليل باهوائهم فقال ولا تقولوا
لما تصف السنتكم اللام صلة مثلها فى قوله تعالى ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله
اموات اى لا تقولوا فى شان ما تصفه السنتكم من البهائم بالحل والحرمة فى قولكم ما فى

فاشكروا نعمة الله صح

بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا من غير ترتب ذلك الوصف على ملاحظة
وفكر فضلاً عن استناده الى وحى وقياس مبنى عليه الكذب منتصب بلا تقولوا وقوله تعالى
هذا حلال وهذا حرام بدل منه ويجوز ان يتعلق بتصف على ارادة القول اى لا تقولوا لما
تصف السنتكم فتقول هذا حلال وهذا حرام وان يكون القول المقدر حالاً من
السنتهم اى قائلة هذا حلال الخ ويجوز ان ينتصب الكذب بتصف ويتعلق هذا حلال
الخ بلا تقولوا واللام للتعليل وما مصدرية اى لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف
السنتكم الكذب اى لا تحلوا ولا تحرموا لمجرد وصف السنتكم الكذب وتصويرها له
بصورة مستحسنة وتزيينها له فى المسامع كان السنتهم لكونها منشأ الكذب ومنبعاً
للزور شخص عالم بكنهه ومحيط بحقيقته يصفه للناس ويعرفه اوضح وصف وابين
تعريف على طريقة الاستعارة بالكناية كما يقال وجهه يصف الجمال وعينه تصف السحر
وقرئ بالجر صفة لما مع مدخولها كانه قيل لوصفها الكذب بمعنى الكاذب كقوله تعالى بدم
كذب والمراد بالوصف وصفها البهائم بالحل والحرمة وقرئ الكذب جمع كذوب بالرفع صفة للالسنة
وبالنصب على الشتم او بمعنى الكلم الكواذب او هو جمع الكذاب من قولهم كذب كذاباً ذكره ابن جنى لتفتروا
على الله الكذب فان مدار الحل والحرمة ليس الا امر الله تعالى فالحكم بالحل والحرمة اسناد للتحليل
والتحريم الى الله سبحانه من غير ان يكون ذلك منه واللام لام العاقبة ان الذين يفترون
على الله الكذب فى امر من الامور لا يفلحون لا يفوزون بمطالبهم التى ارتكبوا الافتراء
للفوز بها متاع قليل خبر مبتدأ محذوف اى منفعتهم فيما هم عليه من افعال الجاهلية
منفعة قليلة ولهم فى الآخرة عذاب اليم لا يكتنه كنهه وعلى الذين هادوا خاصة
دون غيرهم من الاولين والآخرين حرمنا ما قصصنا عليك اى بقوله تعالى حرمنا كل ذى
ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الآية من قبل متعلق بقصصنا او
بحرمنا وهو تحقيق لما سلف من حصر المحرمات فيما فصل بابطال ما يخالفه من فرية
اليهود وتكذيبهم فى ذلك فانهم كانوا يقولون لسنا اول من حرمت عليه وانما كانت محرمة
على نوح وابراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الامر الينا وما ظلمناهم بذلك التحريم ولكن كانوا
انفسهم يظلمون حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه حسبما نعى عليهم قوله تعالى فبظلم من
الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم الآية ولقد القمهم الحجر قوله تعالى كل
الطعام كان حلاً لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة قل
فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين روى انه عليه الصلوة والسلام لما قال لهم
ذلك بهتوا ولم يجسروا ان يخرجوا التوراة كيف وقد بين فيها ان تحريم ما حرم عليهم
من الطيبات لظلمهم وبغيهم عقوبة وتشديداً اوضح بيان وفيه تنبيه على الفرق
بينهم وبين غيرهم فى التحريم ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة اى بسبب جهالة
او ملتبسين بها ليعم الجهل بالله وبعقابه وعدم التدبر فى العواقب لغلبة الشهوة والسوء
يعم الافتراء على الله تعالى وغيره ثم تابوا من بعد ذلك اى من بعد ما عملوا ما عملوا والتصريح
به مع دلالة ثم عليه للتأكيد والمبالغة واصلحوا اى اصلحوا اعمالهم او دخلوا فى الصلاح
ان ربك من بعدها من بعد التوبة لغفور لذلك السوء رحيم يثيب على طاعته
تركاً وفعلاً وتكرير قوله تعالى ان ربك لتأكيد الوعد واظهار كمال العناية بانجاز
والتعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره مع ظهور الاثر فى التائبين للايماء الى ان
افاضة آثار الربوبية والرحمة عليهم بتوسطه عليه السلام وكونهم من اتباعه كما
اشير اليه فيما مر ان ابراهيم كان امة على حياله لحيازته من الفضائل البشرية ما لا
يكاد يوجد الا متفرقة فى امة جمة حسبما قيل ليس من الله بمستنكر ان يجمع العالم فى واحد
وهو رئيس اهل التوحيد وقدوة اصحاب التحقيق جادل اهل الشرك والقمهم الحجر ببينات
باهرة لا تبقى ولا تذر وابطل مذاهبهم الزائغة بالبراهين القاطعة والحجج الدامغة
او لانه عليه السلام كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار وقيل هى فعلة
بمعنى مفعول كالرحلة والنخبة من امه اذا قصده او اقتدى به فان الناس كانوا يقصدونه

ويقتدون بسيرته كقوله تعالى انى جاعلك للناس اماماً وايراد ذكره عليه السلام عقيب
تزييف مذاهب المشركين من الشرك والطعن فى النبوة وتحريم ما احل الله تعالى للايذان
بان دين الاسلام وبطلان الشرك وفروعه امر ثابت لا ريب فيه قانتاً لله مطيعاً له
قائماً بامره حنيفاً مائلاً عن كل دين باطل الى الدين الحق غير زائل عنه بحال ولم يك من
المشركين فى امر من امور دينهم اصلاً وفرعاً صرح بذلك مع ظهوره لارداً على كفار قريش
فقط فى قولهم نحن على ملة ابينا ابراهيم بل عليهم وعلى اليهود المشركين بقولهم
عزير ابن الله فى افترائهم وادعائهم انه عليه السلام كان على ما هم عليه كقوله
سبحانه ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين
اذ به ينتظم امر ايراد التحريم والسبت سابقاً ولاحقاً شاكراً لانعمه صفة ثالثة لامة
وانما اوثر صيغة جمع القلة للايذان بانه عليه السلام كان لا يخل بشكر النعمة القليلة
فكيف بالكثيرة وللتصريح بكونه عليه السلام على خلاف ما هم عليه من الكفران بانعم
الله تعالى حسبما بين ذلك بضرب المثل اجتباه للنبوة وهداه الى صراط مستقيم موصل
اليه سبحانه وهو ملة الاسلام وليست نتيجة هذه الهداية مجرد اهتدائه عليه السلام
بل مع ارشاد الخلق ايضاً بمعونة قرينة الاجتباء وآتيناه فى الدنيا حسنة حالة حسنة
من الذكر الجميل والثناء فيما بين الناس قاطبة حتى انه ليس من اهل دين الا وهم يتولونه
وقيل هى الخلة والنبوة وقيل قول المصلى منا كما صليت على ابراهيم والالتفات الى التكلم
لاظهار كمال الاعتناء بشأنه وتفخيم مكانه عليه السلام وانه فى الآخرة لمن الصالحين لمن
اصحاب الدرجات العالية فى الجنة حسبما سأله بقوله والحقنى بالصالحين واجعل لى
لسان صدق فى الآخرين واجعلنى من ورثة جنة النعيم ثم اوحينا اليك مع
علو طبقتك وسمو رتبتك ان اتبع ملة ابراهيم الملة اسم لما شرعه الله تعالى لعباده
على لسان الانبياء عليهم السلام من امللت الكتاب اذا امليته وهو الدين بعينه
لكن باعتبار الطاعة له وتحقيقه ان وضع الالهى مهما نسب الى من يؤديه عن الله تعالى
يسمى ملة ومهما نسب الى من يقيمه ويعمل به يسمى ديناً قال الراغب الفرق بينهما ان الملة
لا تضاف الا الى النبى عليه السلام ولا تكاد توجد مضافة الى الله سبحانه ولا الى آحاد الامة
ولا تستعمل الا فى جملة الشرائع دون آحادها والمراد بملته عليه السلام الاسلام الذى
عبر عنه آنفاً بالصراط المستقيم حنيفاً حال من المضاف اليه لما ان المضاف لشدة
اتصاله به عليه السلام جرى منه مجرى البعض فعد ذلك من قبيل رأيت وجه هند
قائمة والمأمور به الاتباع فى الاصول دون الشرائع المتبدلة بتبدل الاعصار وما
فى ثم من التراخى فى الرتبة للايذان بان هذه النعمة اجل النعم الفائضة عليه عليه السلام
وما كان من المشركين تكرير لما سبق لزيادة تأكيد وتقرير لنزاهته عليه السلام عما هم
عليه من عقد وعمل وقوله سبحانه انما جعل السبت اى فرض تعظيمه والتخلى فيه
للعبادة وترك الصيد فيه تحقيق لذلك النفى الكلى وتوضيح له بابطال ما عسى يتوهم
كونه قادحاً فى كليته حسبما سلف فى قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا الخ فان اليهود
كانوا يدعون ان السبت من شعائر الاسلام وان ابراهيم عليه السلام كان محافظاً
عليه اى ليس السبت من شعائر ابراهيم وشعائر ملته التى امرت باتباعها حتى يكون
بينه عليه السلام وبين بعض المشركين علاقة فى الجملة وانما شرع ذلك لبنى اسرائيل
بعد مدة طويلة وايراد الفعل مبنياً للمفعول جرى على سنن الكبرياء وايذان بعدم الحاجة
الى التصريح بالفاعل لاستحالة الاسناد الى الغير وقد قرئ على البناء للفاعل وانما عبر عن ذلك
بالجعل موصولاً بكلمة على وعنهم بالاسم الموصول باختلافهم فقيل انما جعل السبت
على الذين اختلفوا فيه للايذان بتضمنه للتشديد والابتلاء المؤدى الى العذاب وبكونه
معللاً باختلافهم فى شأنه قبل الوقوع ايثاراً له على امر الله تعالى به واختياراً للعكس
لكن لا باعتبار شمول العلية لكل فى الاختلاف وعموم الغائلة للفريقين بل باعتبار حال
منشأ الاختلاف من الطرف المخالف للحق وذلك ان موسى عليه السلام امر اليهود ان

بدل للمفعول

يجعلوا في الاسبوع يوما واحدا للعبادة وان يكون ذلك يوم الجمعة فابوا عليه وقالوا نريد
اليوم الذي فرغ الله تعالى فيه من خلق السموات والارض وهو السبت الا شرذمة منهم قد رضوا
بالجمعة فاذن الله تعالى لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه فاطاع امر الله تعالى
الرضوان بالجمعة فكانوا لا يصيدون واعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله سبحانه
قردة دون اولئك المطيعين وان ربك ليحكم بينهم اى بين الفريقين المختلفين
فيه يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون اى يفصل ما بينهما من الخصومة والاختلاف
فيجازي كل فريق بما يستحقه من الثواب والعقاب وفيه ايماء الى ان ما وقع في الدنيا
من مسخ احد الفريقين وانجاء الآخر بالنسبة الى ما سيقع في الآخرة شيء لا يعتد به هذا
هو الذي يستدعيه الاعجاز التنزيلي وقد قيل المعنى انما جعل وبال السبت وهو المسخ
على الذين اختلفوا فيه اى احلوا الصيد فيه تارة وحرموه اخرى وكان حتما عليهم ان
ان يتفقوا على تحريمه حسبما امر الله سبحانه به وقد فسر الحكم بينهم بالمجازاة باختلاف
افعالهم بالاحلال تارة والتحريم اخرى ووجه ايراده ههنا بانه اريد به انذار المشركين
من سخط الله تعالى على العصاة والمخالفين لاوامره كضرب المثل بالقرية التي كفرت بانعم
الله تعالى ولا ريب في ان كلمة بينهم تحكم بان المراد بالحكم هو فصل ما بين الفريقين من
الاختلاف وان توسيط حديث المسخ للانذار المذكور بين حكاية امر النبي صلى الله عليه وسلم
باتباع ملة ابراهيم عليه السلام وبين امره صلى الله عليه وسلم بالدعوة اليها
من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه فتامل ادع اى من بعثت اليهم من الامة قاطبة
فحذف المفعول للتعميم او افعل الدعوة كما في قولهم يعطي ويمنع اي يفعل الاعطاء والمنع
فحذفه للقصد الى ايجاد نفس الفعل اشعارا بان عموم الدعوة غني عن البيان وانما
المقصود الامر بايجادها على وجه مخصوص الى سبيل ربك الى الاسلام الذى عبر
عنه تارة بالصراط المستقيم واخرى بملة ابراهيم عليه السلام وفي التعرض لعنوان الربوبية
المنبئة عن المالكية وتبليغ الشيء الى كماله اللائق شيئا فشيئا مع اضافة الرب الى ضمير النبي
صلى الله عليه وسلم في مقام الامر بدعوة الامة على الوجه الحكيم وتكميلهم بالشريعة
الشريفة من الدلالة على اظهار اللطف به صلى الله عليه وسلم والايماء الى وجه بناء
الحكم ما لا يخفى بالحكمة اي بالمقالة المحكمة الصحيحة وهو الدليل الموضح للحق المزيح
للشبهة والموعظة الحسنة اى الخطابيات المقنعة والعبر النافعة على وجه لا يخفى
عليهم انك تناصحهم وتقصد ما ينفعهم فالاولى لدعوة خواص الامة الطالبين للحقائق
والثانية لدعوة عوامهم ويجوز ان المراد بهما القرآن المجيد فانه جامع لكلا الوصفين
وجادلهم اى ناظر معاندیهم بالتي هي احسن بالطريقة التي هي احسن طرق المناظرة
والمجادلة من الرفق واللين واختيار الوجه الايسر واستعمال المقدمات المشهورة تسكينا
لشغبهم واطفاء للهبهم كما فعله الخليل عليه السلام ان ربك هو اعلم بمن ضل عن
سبيله الذى امرك بدعوة الخلق اليه واعرض عن قبول الحق بعد ما عاين ما عاين
من الحكم والمواعظ والعبر وهو اعلم بالمهتدين اليه بذلك وهو تعليل لما ذكر من
الامرين والمعنى والله تعالى اعلم اسلك في الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة فانه تعالى هو اعلم
بحال من لا يرعوي عن الضلال بموجب استعداده المكتسب وبحال من يصير امره الى الاهتداء
لما فيه من خير جبلي فما شرعه لك في الدعوة هو الذى يقتضيه الحكمة فانه كاف في هداية
المهتدين وازالة عذر الضالين او وما عليك الا ما ذكر من الدعوة والمجادلة بالاحسن واما
حصول الهداية او الضلال والمجازاة عليهما فالى الله سبحانه اذ هو اعلم بمن يبقى على
الضلال وبمن يهتدى اليه فيجازي كلا منهما بما يستحقه وتقديم الضالين لما ان مساق
الكلام لهم وايراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث لما انه تغيير لفطرة الله التي
فطر الناس عليها واعراض عن الدعوة وذلك امر عارض بخلاف الاهتداء الذي هو
عبارة عن الثبات على الفطرة والجريان على موجب الدعوة ولذلك جيء به على صيغة الاسم
المنبئ عن الثبات وتكرير هو اعلم للتاكيد والاشعار بتباين حال المعلومين وما لهما من

العقاب

العقاب والثواب وبعد ما امره عليه السلام فيما يختص به من شان الدعوة بما امره به
من الوجه اللائق عقبه بخطاب شامل له ولمن شايعه فيما يعم الكل فقال وان عاقبتم اى
ان اردتم المعاقبة على طريقة قول الطبيب للمحتمي ان اكلت فكل قليلا فعاقبوا بمثل ما
عوقبتم به اى بمثل ما فعل بكم وقد عبر عنه بالعقاب على طريقة اطلاق اسم المسبب على
السبب نحو كما تدين تدان او على نهج المشاكلة والمقصود ايجاب مراعاة العدل مع من
يناصبهم من غير تجاوز حين مال الجدال الى القتال وادى النزاع الى المراء فان
الدعوة المامور بها لا تكاد تنفك عن ذلك كيف لا وهي موجبة لصرف الوجوه عن القبل
المعبودة وادخال الاعناق في قلادة غير معهودة قاضية عليهم بفساد ما يأتون
وما يذرون وببطلان دين استمرت عليه اباؤهم الاولون وقد ضاقت عليهم الحيل
وعيت بهم العلل وسدت عليهم طرق المحاجة والمناظرة وارتجت دونهم ابواب
المباحثة والمحاورة وقيل انه صلى الله عليه وسلم لما رأى حمزة رضي الله عنه يوم احد قد
مثل به قال لئن اظفرني الله بهم لامثلن بسبعين مكانك فنزلت فكفر عن يمينه وكف
عما اراده ولا خلاف في تحريم المثلة وقد وردت الاخبار بالنهي عنها حتى بالكلب العقور
وان عاقبتم فعاقبوا اى وان قفيتم فقفوا بالانتصار بمثل ما فعل بكم
غير متجاوزين عنه والامر وان دل على اباحة المماثلة في المثلة من غير تجاوز لكن
في تقييده بقوله وان عاقبتم حثا على العفو تعريضا وقد صرح به على الوجه الآكد فقيل
ولئن صبرتم اى عن المعاقبة بالمثل لهو اى لصبركم ذلك خير لكم من الانتصار بالمعاقبة
وانما قيل للصابرين مدحا لهم وثناء عليهم بالصبر او وصفا لهم بصفة تحصل لهم عند
ترك المعاقبة ويجوز عود الضمير الى مطلق الصبر المدلول عليه بالفعل فيدخل فيه صبرهم
دخولا انفسهم في جنس الصابرين دخولا اوليا ثم امر صلى الله عليه وسلم صريحا
بما ندب اليه غيره تعريضا من الصبر لانه اولى الناس بعزائم الامور لزيادة علمه بشؤنه
سبحانه ووفور وثوقه به فقيل واصبر اى على ما اصابك من جهتهم من فنون
الآلام والاذية وعاينت من اعراضهم عن الحق بالكلية وما صبرك الا بالله
استثناء مفرغ من اعم الاشياء اى وما صبرك ملابسا ومصحوبا بشيء من الاشياء
الا بالله اى بذكره والاستغراق في مراقبة شؤنه والتبتل اليه بمجامع الهمة وفيه من
تسليته عليه السلام وتهوين مشاق الصبر عليه وتشريفه ما لا مزيد عليه او الا بمشيئته
المبنية على حكم بالغة مستتبعة لعواقب حميدة فالتسلية من حيث اشتماله على غايات جملة وقيل
الا بتوفيقه ومعونته فهي من حيث تسهيله وتيسيره فقط ولا تحزن عليهم اى على الكافرين
بوقوع اليأس من ايمانهم بك ومتابعتهم لك نحو فلا تأس على القوم الكافرين وقيل
على المؤمنين وما فعل بهم والاول هو الانسب بجزالة النظم الكريم ولا تك في
ضيق بالفتح وقرئ بالكسر وهما لغتان كالقول والقيل اى لا تكن في ضيق صدر وحرج
ويجوز ان يكون الاول تخفيف ضيق كهين من هين اى في امر ضيق مما يمكرون
اى من مكرهم بك فيما يستقبل فالاول نهي عن التألم بمطلوب من قبلهم فات والثاني
عن التألم بمحذور من جهتهم آت والنهي عنهما مع ان انتفاءهما من لوازم الصبر المامور به
لا سيما على الوجه الاول لزيادة التاكيد واظهار كمال العناية بشان التسلية والا فهل
يخطر ببال من توجه الى الله سبحانه بشراشر نفسه متنزها عن كل ما سواه من الشواغل
شيء من مطلوب فينهى عن الحزن بفواته او محذور فكيف عن الخوف من وقوعه ان الله
مع الذين اتقوا تعليل لما سبق من الامر والنهي والمراد بالمعية الولاية الدائمة التي لا
تحوم حول صاحبها شائبة شيء من الجزع والحزن وضيق الصدر وما يشعر به دخول
كلمة مع من متبوعية المتقين انما هي من حيث انهم المباشرون للتقوى وكذا الحال في قوله سبحانه
ان الله مع الصابرين ونظائرها كافة والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منه الجامعة لما
تحتها من مرتبة التوقي عن الشرك ومرتبة التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك اعني
التنزه عن كل ما يشغل سره عن الحق والتبتل اليه بشراشر نفسه وهو التقوى الحقيقي المورث
لولايته تعالى المقرونة ببشارة قوله سبحانه الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم

يحزنون والمعنى ان الله ولي الذين تبتلوا اليه بالكلية وتنزهوا عن كل ما يشغل سرهم عنه فلم يخطر ببالهم شيء من مطلوب او محذور فضلا عن الحزن بفواته او الخوف من وقوعه وهو المعنى بما به الصبر المأمور به حسبما اشير اليه وبه يحصل التقريب ويتم التعليل كما في قوله تعالى فاصبر ان العاقبة للمتقين على احد التفسيرين كما حقق في مقامه والا فمجرد التقوى عن المعاصي لا يكون مدارا لشيء من العزائم المرخص في تركها فكيف بالصبر المشار اليه ورديفه وانما مدار المعنى المذكور فكانه قيل ان الله مع الذين صبروا وانما اوثر ما عليه النظم الكريم مبالغة في الحث على الصبر بالتنبيه على انه من خصائص اجل النعوت الجليلة ورادفه كما ان قوله تعالى والذين هم محسنون للاشعار بانه من باب الاحسان الذي يتنافس فيه المتنافسون على ما فعل ذلك حيث قيل واصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين وقد نبه على ان كلا من الصبر والتقوى من قبيل الاحسان في قوله تعالى انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين وحقيقة الاحسان الاتيان بالاعمال على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها الذاتي وقد فسره صلى الله عليه وسلم بقوله ان تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وتكرير الموصول للايذان بكفاية كل من الصلتين في ولايته سبحانه من غير ان يكون احداهما تتمة للاخرى وايراد الاولى فعلية للدلالة على الحدوث كما ان ايراد الثانية اسمية لافادة كون مضمونها شيمة راسخة لهم وتقديم التقوى على الاحسان لما ان التخلية متقدمة على التحلية والمراد بالموصولين اما جنس المتقين والمحسنين وهو عليه السلام داخل في زمرتهم دخولا اوليا واما هو عليه السلام ومن شايعه عبر عنهم بذلك مدحا لهم وثناء بالنعتين بجملتين وفيه رمز الى ان صنيعه عم مستتبع لاقتداء الامة به كقول من قال لابن عباس رضي الله عنهما عند التعزية اصبر نكن بك صابرين فانما صبر الرعية عند صبر الراس عن هرم بن حيان انه قيل له حين الاحتضار اوص فقال انما الوصية من المال واوصيكم بخواتيم سورة النحل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى بما انعم عليه في دار الدنيا وان مات في يوم تلاها او ليلة كان له من الاجر كالذي مات واحسن الوصية والحمد لله وحده

سورة الاسراء مكية وهي مائة واحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان الذي اسرى بعبده سبحان علم للتسبيح كعثمان للرجل وحيث كان المسمى معنى لا عينا وجنسا لا شخصا لم تكن اضافته من قبيل ما في زيد المعارك او حاتم طي وانتصابه بفعل متروك الاظهار تقديره اسبح الله سبحان الخ وفيه ما لا يخفى من الدلالة على التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من السبح الذي هو الذهاب والابعاد في الارض ومنه فرس سبوح اي واسع الجري ومن جهة النقل الى التفعيل ومن جهة العدول عن المصدر الى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما وهو علم يشير الى الحقيقة الحاضرة في الذهن ومن جهة قيامه مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران بمعنى التنزه ففيه مبالغة من حيث اضافة التنزه الى ذاته المقدسة مناسبة تامة بين المحذوف وبين ما عطف عليه في قوله تعالى سبحانه وتعالى كانه قيل تنزه بذاته وتعالى والاسراء السير بالليل خاصة كالسرى وقوله تعالى ليلا لافادة قلة زمان الاسراء بما فيه من التنكير الدال على البعضية من حيث الاجزاء دلالته على البعضية من حيث الافراد فان قولك سرت ليلا كما يفيد بعضية زمان سيرك من الليالي يفيد بعضيته من فرد واحد منها بخلاف ما اذا قلت سرت الليل فانه يفيد استيعاب السير له جميعا فيكون معيارا للسير لا ظرفا له ويؤيده قراءة من الليل اي بعضه وايثار لفظ العبد للايذان بتمحضه عليه السلام في عبادته سبحانه وبلوغه في ذلك غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية حسبما يلوح به مبدأ الاسراء ومنتهاه واضافة التنزيه والتنزه الى الموصول المذكور للاشعار بعلية ما في حيز الصلة للمضاف فان ذلك من ادلة كمال قدرته وبالغ حكمته ونهاية تنزهه عن صفات المخلوقين من

من قبيل زيد المعارك بل من باب حاتم طي ط

المسجد

المسجد الحرام اختلف في مبدأ الاسراء فقيل هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر فانه روي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال بينا انا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ اتاني جبريل عليه السلام بالبراق وقيل هو دار ام هاني بنت ابي طالب والمراد بالمسجد الحرام الحرم لاحاطته بالمسجد والتباسه به او لان الحرم كله مسجد فانه روي عن ابن عباس رضي الله عنهما انه عليه الصلوة والسلام كان نائما في بيت ام هاني بعد صلاة العشاء فكان ما كان فقصه عليها فلما قام ليخرج الى المسجد تشبثت به عليه السلام لتمنعه خشية ان يكذبه القوم قال عليه السلام وان كذبوني فلما خرج جلس اليه ابو جهل فاخبره عليه السلام بحديث الاسراء فقال ابو جهل يا معشر كعب بن لؤي بن غالب هلم فحدثهم فمن مصفق وواضع يده على راسه تعجبا وانكارا وارتد ناس ممن كان آمن به وسعى رجال الى ابي بكر رضي الله عنه فقال ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا اتصدقه على ذلك قال اني اصدقه على ابعد من ذلك فسمي الصديق وكان فيهم من يعرف بيت المقدس فاستنعتوه المسجد فجلي له بيت المقدس فطفق ينظر اليه وينعته لهم فقالوا اما النعت فقد اصاب فقالوا اخبرنا عن عيرنا فاخبرهم بعدد جمالها واحوالها وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل اورق فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فقال قائل منهم هذه والله الشمس قد اشرقت فقال آخر هذه والله العير قد اقبلت يقدمها جمل اورق كما قال محمد ثم لم يؤمنوا فقاتلهم الله انى يؤفكون واختلف في وقته ايضا فقيل كان قبل الهجرة بسنة وعن انس والحسن انه كان قبل البعثة واختلف ايضا انه في اليقظة او في المنام فعن الحسن انه كان في المنام واكثر الاقاويل بخلافه والحق انه كان في المنام قبل البعثة وفي اليقظة بعدها واختلف ايضا انه كان جسمانيا او روحانيا فعن عائشة رضي الله عنها انها قالت ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه وعن معوية انه قال انما عرج بروحه والحق انه كان جسمانيا على ما ينبئ عنه التصدير بالتنزيه وما في ضمنه من التعجب فان الروحاني ليس في الاستبعاد والاستنكار وخرق العادة بهذه المثابة ولذلك تعجبت منه قريش واحالوه ولا استحالة فيه فانه قد ثبت في الهندسة ان قطر الشمس ضعف قطر الارض مائة ونيفا وستين مرة ثم ان طرفها الاسفل يصل الى موضع طرفها الاعلى بحركة الفلك الاعظم مع معاوقة حركة فلكها لها في اقل من ثانية وقد تقرر ان الاجسام متساوية في قبول الاعراض التي من جملتها الحركة وان الله سبحانه قادر على كل ما يحيط به حيطة الامكان فيقدر على ان يخلق مثل تلك الحركة بل اسرع منها في جسد النبي صلى الله عليه وسلم او فيما يحمله ولو لم يكن مستبعدا لم يكن معجزة الى المسجد الاقصى اي بيت المقدس سمي به اذ لم يكن حينئذ وراءه مسجد وفي ذكره من تربية معنى التنزيه والتعجب ما لا يخفى الذي باركنا حوله ببركات الدين والدنيا لانه مهبط الوحي ومتعبد الانبياء عليهم السلام لنريه غاية للاسراء من آياتنا العظيمة التي من جملتها ذهابه في برهة من الليل مسيرة شهر ولا يقدح في ذلك كونه قبل الوصول الى المقصد ومشاهدة بيت المقدس وتمثل الانبياء له ووقوفه على مقاماتهم العلية عليهم السلام والالتفات الى التكلم لتعظيم تلك البركات والآيات وقرئ ليريه بالياء انه هو السميع لاقواله عليه السلام بلا اذن البصير بافعاله بلا بصر حسبما يؤذن به القصر فيكرمه ويقربه بحسب ذلك وفيه ايماء الى ان الاسراء المذكور ليس الا لتكرمته عليه السلام ورفع منزلته والا فالاحاطة باقواله وافعاله حاصلة من غير حاجة الى التقريب والالتفات الى الغيبة لتربية المهابة وآتينا موسى الكتاب اي التوراة وفيه ايماء الى دعوته عليه السلام الى الطور وما وقع فيه من المناجاة جمعا بين الامرين المتحدين في المعنى ولم يذكر ههنا العروج بالنبي صلى الله عليه وسلم الى السماء وما كان فيه مما لا يكتنه كنهه حسبما نطقت به سورة النجم تقريبا للاسراء الى قبول السامعين اي آتينا التوراة بعد ما اسرينا به الى الطور

وجعلناه اى ذلك الكتاب هدى لبنى اسرائيل يهتدون بما فى مطاويه ان لا تتخذوا على ان لا تتخذوا نحو كتبت اليه ان افعل كذا وقرئ بالياء على ان ان مصدرية والمعنى آتينا موسى الكتاب لهداية بنى اسرائيل لئلا تتخذوا من دونى وكيلا اى ربا تكلون اليه اموركم والافراد لما ان فعيلا مفرد فى اللفظ جمع فى المعنى ذرية من حملنا مع نوح نصب على الاختصاص او النداء على قراءة النهى والمراد تأكيد الحمل على التوحيد بتذكير انعامه تعالى عليهم فى ضمن انجاء آبائهم من الغرق فى سفينة نوح عليه السلام او على انه احد مفعولى لا تتخذوا على قراءة النفى ومن دونى حال من وكيلا فيكون كقوله تعالى ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا وقرئ بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف او بدل من واو لا تتخذوا وابدال الظاهر من ضمير المخاطب كما هو مذهب بعض البغاددة وقرئ ذرية بكسر الذال انه اى ان نوحا عليه السلام كان عبدا شكورا كثير الشكر فى مجامع حالاته وفيه ايذان بان انجاء من معه كان ببركة شكره عليه السلام وحث للذرية على الاقتداء به وزجر لهم عن الشرك الذى هو اعظم مراتب الكفران وقيل الضمير لموسى عليه السلام وقضينا اى اتممنا واحكمنا منزلين الى بنى اسرائيل او موحين اليهم فى الكتاب اى فى التوراة فان الانزال والوحى الى موسى عليه السلام انزال ووحى اليهم لتفسدن فى الارض جواب قسم محذوف ويجوز اجراء القضاء المحتوم مجرى القسم كانه قيل واقسمنا لتفسدن مرتين مصدر والعامل فيه من غير جنسه اولاهما مخالفة حكم التوراة وقتل شعيا عليه السلام وحبس ارميا حين انذرهم سخط الله تعالى والثانية قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليهم السلام ولتعلن علوا كبيرا لتستكبرن عن طاعة الله سبحانه او لتغلبن الناس بالظلم والعدوان وتفرطن فى ذلك افراطا مجاوزا للحدود فاذا جاء وعد اولاهما اى اولى مرتى الافساد اى حان وقت حلول العقاب الموعود بعثنا عليكم لمؤاخذتكم بجناياتكم عبادا لنا وقرئ عبيدا لنا اولى بأس شديد ذوى قوة وبطش فى الحروب هم سنحاريب من اهل نينوى وجنوده وقيل بخت نصر عامل لهراسب وقيل جالوت فجاسوا اى ترددوا لطلبكم بالفساد وقرئ بالحاء والمعنى واحد وقرئ وجوسوا خلال الديار فى اوساطها للقتل والغارة وقرئ خلل الديار فقتلوا علماءهم وكبارهم واحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين الفا وذلك من قبيل تولية بعض الظالمين بعضا مما جرت به السنة الالهية وكان ذلك وعدا مفعولا لا محالة بحيث لا صارف عنه ولا مبدل ثم رددنا لكم الكرة اى الدولة والغلبة عليهم على الذين فعلوا بكم ما فعلوا بعد مائة سنة حين تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من الافساد والعلو قيل هى قتل بخت نصر واستنقاذ بنى اسرائيل اساراهم واموالهم ورجوع الملك اليهم وذلك انه لما ورث بهمن بن اسفنديار الملك من جده كشتاسف بن لهراسب القى الله تعالى فى قلبه الشفقة عليهم فرد اساراهم الى الشام وملك عليهم دانيال عليه السلام فاستولوا على من كان فيها من اتباع بخت نصر وقيل هى قتل داود عليه السلام لجالوت وامددناكم باموال كثيرة بعد ما نهبت اموالكم وبنين بعد ما سبيت اولادكم وجعلناكم اكثر نفيرا مما كنتم من قبل او من عدوكم والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل جمع نفر وهم المجتمعون للذهاب الى العدو كالعبيد والمعنى ان احسنتم اعمالكم سواء كانت لازمة لانفسكم او متعدية الى الغير اى عملتموها على الوجه اللائق ولا يتصور ذلك الا بعد ان يكون الاعمال حسنة فى انفسها او ان فعلتم الاحسان احسنتم لانفسكم لان ثوابها لها وان اسأتم اعمالكم بان عملتموها لا على الوجه اللائق ويلزمه السوء الذاتى او فعلتم الاساءة فلها اذ عليها وبالها وعن على كرم الله وجهه ما احسنت الى احد ولا اسأت اليه وتلاها فاذا جاء وعد الآخرة حان وقت ما وعد من عقوبة المرة الآخرة ليسوؤا وجوهكم متعلق بفعل حذف لدلالة ما سبق عليه اى

علا
وقد افسدوا الاولى بقتل زكريا فبعث عليهم جالوت وجنوده فقتلوهم وسبوا اولادهم وخربوا بيت المقدس جلالين

بعثناهم

بعثناهم ليسوؤا اى معنى ليسوؤا وجوهكم ليجعلوا آثار المساءة والكآبة بادية فى وجوهكم كقوله تعالى سيئت وجوه الذين كفروا وقرئ ليسوء على ان الضمير لله تعالى او للوعد او للبعث او لنسوء بنون العظمة وفى قراءة على رضى الله عنه لنسوءن على انه جواب اذا وقرئ لنسوءن بالنون الخفيفة وليسوءن واللام فى قوله عز وجل وليدخلوا المسجد عطفا على ليسوؤا متعلق بما تعلق هو به كما دخلوه اول مرة اى فى اول مرة وليتبروا اى يهلكوا ما علوا ما غلبوا واستولوا عليه او مدة علوهم تتبيرا فظيعا لا يوصف بان سلط الله عز سلطانه عليهم الفرس فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه جودرز وقيل جردوس قيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم فوجد فيه دما يغلى فسألهم عنه فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال لم تصدقونى فقتل على ذلك الوفا فلم يهدأ الدم ثم قال ان لم تصدقونى ما تركت منكم احدا فقالوا انه دم يحيى بن زكريا عليهما السلام فقال لمثل هذا ينتقم منكم ربكم ثم قال يا يحيى قد علم ربى وربك ما اصاب قومك من اجلك فاهدأ باذن الله تعالى قبل ان لا ابقى منهم احدا فهدأ عسى ربكم ان يرحمكم بعد المرة الآخرة ان تبتم توبة اخرى وانزجرتم عما كنتم عليه من المعاصى وان عدتم الى ما كنتم فيه من الفساد مرة اخرى عدنا اى عقوبتكم ولقد عادوا فاعاد الله سبحانه عليهم النقمة بان سلط عليهم الاكاسرة ففعلوا بهم ما فعلوا من ضرب الاتاوة ونحو ذلك وعن الحسن عادوا فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون وعن قتادة مثله وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا اى محبسا لا يستطيعون الخروج منه ابد الآبدين وقيل بساطا كما يبسط الحصير وانما عدل عن ان يقال وجعلنا جهنم لكم تسجيلا على كفرهم بالعود وذما لهم بذلك واشعارا بعلة الحكم ان هذا القرآن الذى آتيناكه يهدى اى الناس كافة لا فرقة مخصوصة منهم كالكتاب الذى آتيناه موسى للتى للطريقة التى هى اقوم اى اقوم الطرائق واسدها اعنى ملة الاسلام والتوحيد وترك ذكرها ليس لقصد التعميم لها وللحالة والخصلة ونحوها مما يعبر به عن المقصد المذكور بل للايذان بالغنى عن التصريح بها لغاية ظهورها لا سيما بعد ذكر الهداية التى هى من روادفها والمراد بهدايته لها كونه بحيث يهتدى اليها من يتمسك به لا تحصيل الاهتداء بالفعل فانه مخصوص بالمؤمنين حينئذ ويبشر المؤمنين بما فى تضاعيفه من الاحكام والشرائع وقرئ بالتخفيف الذين يعملون الصالحات التى شرحت فيه ان لهم اى بان لهم بمقابلة تلك الاعمال اجرا كبيرا بحسب الذات وبحسب التضعيف عشر مرات فصاعدا وان الذين لا يؤمنون بالآخرة وباحكامها المشروحة فيه من البعث والحساب والجزاء وتخصيصها بالذكر من بين سائر ما كفروا به لكونها معظم ما امروا بالايمان به ولمراعاة التناسب بين اعمالهم وجزائها الذى انبئ عنه قوله عز وجل اعتدنا لهم عذابا اليما وهو عذاب جهنم اى اعتدنا لهم فيما كفروا به وانكروا وجوده من الآخرة عذابا اليما وهو ابلغ فى الزجر لما ان اتيان العذاب من حيث لا يحتسب افظع وافجع والجملة معطوفة على جملة يبشر باضمار يخبر او على قوله تعالى ان لهم داخلة معه تحت التبشير المراد به مجازا مطلق الاخبار المنتظم للاخبار بالخبر السار وبالنبأ الضار حقيقة فيكون ذلك بيانا لهداية القرآن بالترغيب والترهيب ويجوز كون التبشير بمعناه والمراد تبشير المؤمنين ببشارتين ثوابهم وعقاب اعدائهم وقوله تعالى ويدع الانسان بالشر بيان لحال المهدى اثر بيان حال الهادى واظهار لما بينهما من التباين والمراد بالانسان الجنس اسند اليه حال بعض افراده او حكى عنه حاله فى بعض احيانه فالمعنى على الاول ان القرآن يدعو الانسان الى الخير الذى لا خير فوقه من الاجر الكبير ويحذره من الشر الذى لا شر وراءه من العذاب الاليم وهو اى بعض منه وهو الكافر يدعو لنفسه بما هو الشر من العذاب المذكور اما بلسانه حقيقة كدأب من قال منهم اللهم ان كان هذا هو الحق

جردوس

من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم ومن قال فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين الى غير ذلك مما حكى عنهم واما باعمالهم السيئة المفضية اليه الموجبة له مجازا كما هو ديدن كلهم دعاءه بالخير اى مثل دعائه بالخير المذكور فرضا لا تحقيقا فانه بمعزل من الدعاء به وفيه رمز الى انه اللايق بحاله وكان الانسان اى من اسند اليه الدعاء المذكور من افراده عجولا يسارع الى طلب كل ما يخطر بباله متعاميا عن ضرره او مبالغا فى العجلة يستعجل العذاب وهو آتيه لا محالة ففيه نوع تهكم به وعلى تقدير حمل الدعاء على اعمالهم ويحمل العجولية على اللج والتمادى فى استجلاب العذاب بتلك الاعمال وعلى الثانى ان القرآن يدعو الانسان الى ما هو خير وهو فى بعض احيانه كما عند الغضب يدعو ويدعو الله تعالى لنفسه واهله وماله بما هو شر وكان الانسان بحسب جبلته عجولا لا يتانى الى ان يزول عنه ما يعتريه روى انه عليه السلام دفع الى سودة اسيرا فارخت كتافه رحمة لانينه بالليل من الم القد فهرب فلما اخبرته النبى صلى الله عليه وسلم قال اللهم اقطع يديها فرفعت سودة يديها تتوقع الاجابة فقال عليه السلام انى سألت الله تعالى ان يجعل دعائى على من لا يستحق من اهلى عذابا رحمة او يدعو بما هو شر وهو يحسبه خيرا وكان الانسان عجولا غير متبصر لا يتدبر فى اموره حق التدبر ليتحقق ما هو خير حقيق بالدعاء به وما هو شر جدير بالاستعاذة منه

وجعلنا الليل والنهار آيتين شروع فى بيان بعض وجوه ما ذكر من الهداية بالارشاد الى مسلك الاستدلال بالآيات والدلايل الآفاقية التى كل واحدة منها برهان نير لا ريب فيه ومنهاج بين لا يضل من ينتحيه فان الجعل المذكور وما عطف عليه من محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة وان كانت من الهدايات التكوينية لكن الاخبار بذلك من الهدايات القرآنية المنبهة على تلك الهدايات وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودى اذ منه ينسلخ النهار وفيه تظهر غرر الشهور ولان الليلة اضيفت الى ما قبلها من النهار لكانت من شهر آخر ولترتيب غاية آية النهار عليها بلا واسطة اى جعلناهما بهيئاتهما وتعاقبهما واختلافهما فى الطول والقصر على وتيرة عجيبة يحار فى فهمها العقول آيتين تدلان على ان لهما صانعا حكيما قادرا عليما وتهديان الى ما هدى اليه القرآن الكريم من ملة الاسلام والتوحيد فمحونا آية الليل الاضافة اما بيانية كما فى اضافة العدد اى محونا الآية التى هى الليل وفائدتها تحقيق مضمون الجملة السابقة ومحوها جعلها ممحوة الضوء مطموسة ولكن لا بعد ان لم يكن كذلك بل ابداعها على ذلك كما فى قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل اى انشأهما كذلك فالفاء تفسيرية لان المحو المذكور وما عطف عليه ليسا مما يحصل عقيب جعل الجديدين آيتين بل هما من جملة ذلك الجعل ومتمماته وجعلنا آية النهار اى الآية التى هى النهار على نحو ما مر مبصرة مضيئة يبصر فيها الاشياء وصفا لها بحال اهلها او مبصرة للناس من ابصره فبصره واما حقيقية وآية الليل والنهار نيراهما ونحو القمر اما خلقه مطموس النور فى نفسه فالفاء كما ذكر واما نقص ما استفاده من الشمس شيئا فشيئا الى المحاق على ما هو معنى المحو فالفاء للتعقيب وجعل الشمس مبصرة ابداعها مضيئة بالذات ذات اشعة تظهر بها الاشياء المظلمة لتبتغوا متعلق بقوله تعالى وجعلنا آية النهار كما اشير اليه اى وجعلناها مضيئة لتطلبوا لانفسكم فى بياض النهار فضلا من ربكم اى رزقا اذ لا يتسنى ذلك فى الليل وفى التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء والتعرض لصفة الربوبية المنبئة عن التبليغ شيئا فشيئا دلالة على ان ليس للعبد فى تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب وانما الاعطاء الى الله سبحانه وتعالى لا بطريق الوجوب عليه بل تفضلا بحكم الربوبية ولتعلموا متعلق بكلا الفعلين اعنى محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة لا باحدهما فقط اذ لا يكون ذلك بانفراده مدارا للعلم المذكور اى لتعلموا بتفاوت الجديدين او نيريهما ذاتا من حيث الاظلام والاضاءة مع تعاقبهما او حركاتهما واوضاعهما وسائر احوالهما عدد السنين التى يتعلق بها

غرض

غرض علمى لاقامة مصالحكم الدينية والدنيوية والحساب اى الحساب المتعلق بما فى ضمنها من الاوقات اى الاشهر والليالى والايام وغير ذلك مما نيط به شئ من المصالح المذكورة ونفس السنة من حيث تحققها مما ينتظمه الحساب وانما الذى تعلق به العدد طايفة منها وتعلقه فى ضمن ذلك بكل واحدة منها ليس من الحيثية المذكورة اعنى حيثية تحققها وتحصلها من عدة اشهر قد تحصل كل واحد منها من عدة ايام قد حصل كل منها بطايفة من الساعات مثلا فان ذلك وظيفة الحساب بل من حيث انها فرد من تلك الطايفة المعدودة بعدها اى بفنيها من غير ان يعتبر فى ذلك تحصيل شئ معين وتحقيقه ما مر فى سورة يونس من ان الحساب احصاء ما له كمية منفصلة بتكرير امثاله من حيث يتحصل بطايفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص وحكم مستقل كما اشير اليه آنفا والعد احصاؤه بمجرد تكرير امثاله من غير ان يتحصل منه شئ كذلك ولما ان السنين لم يعتبر فيها حد معين له اسم خاص وحكم مستقل اضيف اليها العدد وعلق الحساب بما عداها مما اعتبر فيه تحصل مراتب معينة لها اسم خاصة واحكام مستقلة وتحصل مراتب الاعداد من العشرات والمآت والالوف اعتبارى لا يجدى فى تحصل المعدودات وتقديم العدد على الحساب مع ان الترتيب بين متعلقيهما وجودا على العكس للتنبيه من اول الامر على ان متعلق الحساب فى تضاعيف السنين من الاوقات ولان العلم المتعلق بعدد السنين علم اجمالى بما تعلق به الحساب تفصيلا من حيث انه لم يعتبر فيه تحصل شئ آخر منه حسبما ذكرنا نازل من الحساب المعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من المركب ولان العلم المتعلق بالاول اقصى المراتب فكان جديرا بالتقديم فى مقام الامتنان والله سبحانه اعلم وكل شئ تفتقرون اليه فى المعاش والمعاد سوى ما ذكر من جعل الليل والنهار آيتين وما يتبعه من المنافع الدينية والدنيوية وهو منصوب بفعل يفسره قوله تعالى فصلناه تفصيلا اى بيناه فى القرآن الكريم بيانا بليغا لا التباس معه كقوله تعالى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ فظهر كونه هاديا للتى هى اقوم ظهورا بينا وكل انسان مكلف الزمناه طائره اى عمله الصادر عنه باختياره حسبما قدر له كانه طار اليه من عش الغيب ووكر القدر او ما وقع له فى القسمة الازلية الواقعة حسب استحقاقه فى العلم الازلى من قولهم طار له سهم كذا فى عنقه تصوير لشدة اللزوم وكمال الارتباط اى الزمناه عمله بحيث لا يفارقه ابدا بل يلزمه لزوم القلادة او الغل للعنق لا ينفك عنه بحال وقرئ بسكون النون ونخرج له بنون العظمة وقد قرئ بالياء مبنيا للفاعل على ان الضمير لله عز وجل وللمفعول والضمير للطائر كما فى قراءة يخرج من الخروج يوم القيمة والبعث والحساب كتابا مسطورا فيه ما ذكر من عمله نقيرا وقطميرا وهو مفعول لنخرج على القراءتين الاوليين او حال من المفعول المحذوف الراجع الى الطائر وعلى الاخيرتين حال من المستتر فى الفعل من ضمير الطائر يلقاه اى يلقى الانسان او يلقاه الانسان منشورا وهما صفتان للكتاب او الاول صفة والثانى حال منها وقرئ يلقاه من لقيته كذا اى يلقى الانسان اياه قال الحسن بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فاما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك واما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك فى قبرك حتى تخرج لك يوم القيمة اقرأ كتابك اى قائلين ذلك عن قتادة يقرأ ذلك اليوم من لم يكن فى الدنيا قاريا وقيل المراد بالكتاب نفسه المنتقشة بآثار اعماله فان كل عمل يصدر من الانسان خيرا او شرا يحدث منه فى جوهر روحه امر مخصوص الا انه يخفى ما دام الروح متعلقا بالبدن مشتغلا بواردات الحواس والقوى فاذا انقطعت علاقته عن البدن قامت قيامته لان النفس كانت ساكنة مستقرة فى الجسد وعند ذلك قامت وتوجهت نحو الصعود الى العالم العلوى فيزول الغطاء وينكشف الاحوال ويظهر على لوح النفس نقش كل شئ

اراد بالطائر حظه من الخير والشر كانه طار اليه من عش الغيب ووكر القدر وخص العنق بالاضافة اليه من بين سائر الاعضاء لان فيه يكون ما يزين من الاعلاق الذى من القلائد والاطواق والزامه لحمل الخير والشر و الاوهاق فاستعير الغيبة كنايا هيكلا مصورا لك يوم يلقاه منشورا الظهور به تخرج له اعماله يلقاه منفصلة لا منطوية تصور راعماله بالفعل كونها فيه بالقوة اقرأ الهيئات فيه بالفعل عند ذلك نقرؤه قاريا كان كما كانت قبل ذلك ارادة الفعل هناك متمثلة كتابك على قارئ لان الاعمال فيها كل احد او غيرها او هيئاتها يعرفها فلا يعجب بصورها سبيل الكتابة بالحروف فهما لا على و هذا وجه مما روى عن قتادة الامى ذلك اليوم من لم يكن فى الدنيا قاريا بقراءة ذلك
ابن كمال

عمله في مدة عمره وهذا معنى الكتابة والقراءة كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا اي كفي
نفسك والباء زائدة واليوم ظرف لكفى وحسيبا تمييز وعلى صلته لانه بمعنى الحاسب
كالصريم بمعنى الصارم من حسب عليه كذا او بمعنى الكافي وضع موضع الشهيد
لانه يكفي المدعي ما اهمه وتذكيره لان ما ذكر من الحساب والكفاية مما يتولاه الرجال
او لانه مبني على تاويل النفس بالشخص على انها عبارة عن نفس المذكر كقول جبلة
بن حريث يا نفس انك باللذات مسرور فاذكر فهل ينفعنك اليوم تذكير من
اهتدى فانما يهتدي لنفسه فذلكة لما تقدم من بيان كون القران هاديا لاقوم
الطرائق ولزوم الاعمال لاصحابها اي من اهتدى بهدايته وعمل بما في تضاعيفه
من الاحكام وانتهى عما نهاه عنه فانما يعود منفعة اهتدائه الى نفسه لا تتخطاه
الى غيره ممن لم يهتد ومن ضل عن الطريقة التي يهديه اليها فانما يضل عليها
اي فانما وبال ضلاله عليها لا على من عداه ممن يباشره حتى يمكن مفارقة العمل صاحبه
ولا تزر وازرة وزر اخرى تاكيد للجملة الثانية اي لا تحمل نفس حاملة للوزر
وزر نفس اخرى حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها ويختل ما بين العامل
وعمله من التلازم بل انما تحمل كل منهما وزرها وهذا تحقيق لمعنى قوله عز وجل وكل
انسان الزمناه طائره في عنقه واما ما يدل عليه قوله تعالى من يشفع شفاعة حسنة
يكن له نصيب ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وقوله تعالى ليحملوا اوزارهم
كاملة يوم القيمة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم من حمل الغير وزر الغير وانتفاعه
بحسنته وتضرره بسيئته فهو في الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه وتضرر بسيئته
فان جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له وانما الذي يصل الى من
يشفع جزاء شفاعته لا جزاء اصل الحسنة والسيئة وكذلك جزاء الضلال مقصور
على الضالين وما يحمله المضلون انما هو جزاء الاضلال لا جزاء الضلال وانما خص التاكيد بالجملة
الثانية قطعا للاطماع الفارغة بحيث كانوا يزعمون انهم ان يكونوا على الحق فالتبعة
على اسلافهم الذين قلدوهم وما كنا معذبين بيانا للعناية الربانية اثر بيان اختصاص آثار
الهداية والضلال باصحابها وعدم حرمان المهتدي من ثمرات هدايته وعدم مؤاخذة
النفس بجناية غيرها اي وما صح وما استقام منا بل استحال في سنتنا المبنية على
الحكم البالغة او ما كان في حكمنا الماضي وقضائنا السابق ان نعذب احدا من اهل الضلال
والاوزار اكتفاء بقضية العقل حتى نبعث اليهم رسولا يهديهم الى الحق ويردعهم
من الضلال ويقيم الحجج ويمهد الشرائع حسبما في تضاعيف الكتاب المنزل عليه والمراد
بالعذاب المنفي اما عذاب الاستيصال كما قاله الشيخ ابو منصور الماتريدي وهو المناسب
لما بعده او الجنس الشامل للدنيوي والاخروي وهو من افراده وايا ما كان فالبعث غاية
لعدم صحة وقوعه في وقته المقدر له لا لعدم وقوعه مطلقا كيف لا والاخروي لا يمكن
وقوعه عقيب البعث والدنيوي ايضا لا يحصل الا بعد تحقق ما يوجبه من الفسوق و
العصيان الابري الى قوم نوح كيف تاخر عنهم ما حل بهم زهاء الف سنة وقوله تعالى
واذا اردنا ان نهلك قرية بيان لكيفيته ووقوع التعذيب بعد البعث التي جعلت غاية
لعدم صحته وليس المراد بالارادة تحققها بالفعل اذ لا يتخلف عنه المراد ولا الارادة
الازلية المتعلقة بوقوع المراد في وقته المقدر له اذ لا يقارنها الجزاء الاتي بل دنو وقتها كما في
قوله تعالى اتى امر الله اي واذا دنا وقت تعلق ارادتنا باهلاك قرية بان نعذب اهلها بما ذكرنا
من عذاب الاستيصال الذي بينا انه لا يصح منا قبل البعثة او بنوع مما ذكرنا شانه
من مطلق العذاب اعني عذاب الاستيصال لما لهم من الظلم والمعاصي دنونا تقتضيه
الحكمة من غير ان يكون له حد معين امرنا بواسطة الرسول المبعوث الى اهلها
مترفيها متنعميها وجباريها وملوكها خصهم بالذكر مع توجه الامر الى الكل
لانهم الاصول في الخطاب والباقي اتباع لهم ولان توجه الامر اليهم اكد وعدم
التعرض للمامور به اما لظهور ان المراد به الحق والخير لان الله لا يامر بالفحشاء لاسيما

بعد ذكر

بعد ذكر هداية القرآن لما يهدي اليه واما لان المراد وحد منا الامر كما يقال فلان يعطي
ويمنع ففسقوا فيها اي خرجوا عن الطاعة وتمردوا فحق عليها القول اي ثبت او
تحقق موجبه بحلول العذاب اثر ما ظهر منهم ما ظهر من الفسوق والطغيان فدمرناها
بتدمير اهلها تدميرا لا يكتنه كنهه ولا يوصف هذا هو المناسب لما سبق وقيل الامر
مجاز من الحمل على الفسوق والتسبب له بان صب عليهم ما ابطرهم وافضى بهم الى الفسوق
وقيل هو بمعنى التكثير يقال امرت الشيء فامر اي كثرته فكثر وفي الحديث خير المال سكة مابورة
ومهرة مامورة اي كثيرة النتاج ويعضده قراءة امرنا وامرنا من الافعال والتفعيل وقد
جعلتا من الامارة اي جعلناهم امراء وكل ذلك لا يساعده مقام الزجر عن الضلال
والحث على الاهتداء فان مؤدى ذلك ان طغيانهم منوط بارادة الله سبحانه وانعامه
عليهم بنعم وافرة ابطرتهم وحملتهم على الفسوق حملا حقيقا بان يعبر عنه بالامر
به وكم اهلكنا اي وكثيرا ما اهلكنا من القرون بيان لكم وتمييز له والقرن مدة من
الزمان يخترم فيها القوم وهي عشرون او ثلاثون او اربعون او ثمانون او مائة
وقد ايد ذلك بانه صلى الله عليه وسلم دعى لرجل فقال عش قرنا فعاش مائة سنة او
مائة وعشرون من بعد نوح من بعد زمنه عليه السلام كعاد وثمود ومن بعدهم
ممن قصت احوالهم في القران العظيم ومن لم تقص وعدم نظم قومه عليه السلام
في تلك القرون المهلكة لظهور امرهم على ان ذكره عليه السلام رمز الى ذكرهم وكفى
بربك اي كفى ربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا يحيط بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها
وتقديم الخبير لتقدم متعلقه من الاعتقادات والنيات التي هي مبادي الاعمال الظاهرة او
لعمومه حيث يتعلق بغير المبصرات ايضا وفيه اشارة الى ان البعث والامر وما يتلوهما
من فسقهم ليس لتحصيل العلم بما صدر عنهم من الذنوب فان ذلك حاصل قبل ذلك
وانما هو لقطع الاعذار والزام الحجة من كل وجه من كان يريد باعماله التي يعملها
سواء كان ترتب المراد عليها بطريق الجزاء كاعمال البر او بطريق ترتب المعلول على
العلل كالاسباب او باعمال الاخرة فالمراد بالمريد على الاول الكفرة واكثر الفسقة وعلى
الثاني اهل الرياء والنفاق والمهاجر للدنيا والمجاهد لمحض الغنيمة العاجلة فقط
من غير ان يريد معها الاخرة كما ينبئ عنه الاستمرار المستفاد من زيادة كان هنا
مع الاقتصار على مطلق الارادة في قسيمه والمراد بالعاجلة الدار الدنيا وبارادتها
ارادة ما فيها من فنون مطالبها كقوله تعالى ومن كان يريد حرث الدنيا ويجوز ان
يراد الحيوة العاجلة كقوله عز وجل من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها لكن الاول
انسب بقوله تعالى عجلنا له فيها اي في تلك العاجلة فان الحيوة واستمرارها من
جملة ما عجل له فالانسب بذلك كلمة من كما في قوله تعالى ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها
ما نشاء اي ما نشاء تعجيله له من نعيمها لا كل ما يريد لمن نريد تعجيل ما نشاء له
وهو بدل من الضمير في قوله باعادة الجار بدل البعض فانه راجع الى الموصول المنبئ
عن الكثرة وقرئ لمن يشاء على ان الضمير لله سبحانه وقيل هو لمن فيكون مخصوصا
بمن اراد به ذلك وهو واحد من الدهماء وتقييد المعجل والمعجل له بما ذكر من المشية
والارادة لما ان الحكمة التي هي يدور فلك التكوين لا يقتضي وصول كل طالب الى مرامه
ولا استيفاء كل واصل لما يطلبه بتمامه واما ما يتراءى من قوله تعالى من كان يريد
الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون من نيل
كل موف لجميع اماله ووصول كل عامل الى نتيجة اعماله فقد اشير الى تحقيق القول
فيه في سورة هود بفضل الله تعالى ثم جعلنا له مكان ما عجلنا له جهنم وما فيها من
اصناف العذاب يصلاها يدخلها وهو حال من الضمير المجرور او من جهنم
او استئناف مذموما مدحورا مطرودا من رحمة الله تعالى وقيل الاية
في المنافقين كانوا يراءون ويغزون معهم ولم يكن غرضهم الا مساهمتهم
في الغنائم ونحوها وياباه ما يقال ان السورة مكية سوى ايات معينة ومن اراد باعماله

السكة الصف من النخل وفعله من ابرة اي مصلحة لانه اذا لقحها فقد اصلحها وروي ان رجلا من المشركين قال لرسول الله صلعم اني ارى امرك هذا حقيرا فقال صلعم انه سيامر اي سيكبر ا

الاخرة الدار الاخرة وما فيها من النعيم المقيم وسعى لها سعيها اى السعى اللائق بها وهو الاتيان بما امروا لا انتهاء عما نهى لا التقرب بما يخترعون بارائهم وفائدة اللام اعتبار النية والاخلاص وهو مؤمن ايمانا صحيحا لا يخالطه شئ قادح فيه وايراد الايمان بالجملة الحالية للدلالة على اشتراط مقارنته لما ذكر فى حيز الصلة فاولئك اشارة الى الموصول بعنوان اتصافه بما فى حيز الصلة وما فى ذلك من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم والجمعية لمراعاة جانب المعنى ايماء الى ان الاثابة المفهومة من الخبر تقع على وجه الاجتماع اى اولئك الجامعون لما مر من الخصال الحميدة اعنى ارادة الاخرة والسعى الجميل لها والايمان كان سعيهم مشكورا مقبولا عند الله تعالى بحسن القبول مثابا عليه وفى تعليق المشكورية بالسعى دون قرينيه اشعار بانه العمدة فيها كلا التنوين عوض عن المضاف اليه اى كل واحد من الفريقين لا الفريق الاخير المريد للخير الحقيقى باسعاف فقط نمد اى نزيد مرة بعد مرة بحيث يكون الآنف مددا للسالف وما به الامداد ما عجل لاحدهما من العطايا العاجلة وما اعد للاخر من العطايا العاجلة المشار اليها بمشكورية السعى وانما لم يصرح به تعويلا على ما سبق تصريحا وتلويحا واتكالا على ما لحق عبارة واشارة كما ستقف عليه وقوله تعالى هؤلاء بدل من كلا وهؤلاء عطف عليه اى نمد هؤلاء المعجل لهم وهؤلاء المشكور سعيهم فان الاشارة متعرضة لذات المشار اليه بماله من العنوان لا للذات فقط كالاضمار ففيه تذكير لما به الامداد وتعيين للمضاف اليه المحذوف دفعا لتوهم كونه افراد الفريق الاخير وتاكيد للقصر المستفاد من تقديم المفعول وقوله تعالى من عطاء ربك اى من معطاه الواسع الذى لا تناهى له متعلق بنمد ومغن عن ذكر ما به الامداد ومنبه على ان الامداد المذكور ليس بطريق الاستيجاب بالسعى والعمل بل بمحض التفضل وما كان عطاء ربك اى دنيويا كان اواخرويا وانما اظهر اظهارا لمزيد الاعتناء بشانه واشعارا بعليته للحكم محظورا ممنوعا ممن يريده بل هو فايض على من قدر له بموجب المشية المبنية على الحكمة وان وجد منه ما يقتضى الحظر كالكافر وهو فى معنى التعليل لشمول الامداد للفريقين والتعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين للاشعار بمبدئيتها لما ذكر من الامداد وعدم الحظر انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض كيف فى محل النصب بفضلنا على الحالية والمراد توضيح ما مر من الامداد وعدم محظورية العطاء بالتنبيه على استحضار مراتب احد العطائين والاستدلال بها على مراتب الاخر اى انظر بنظر الاعتبار كيف فضلنا بعضهم على بعض فيما امددناهم به من العطايا العاجلة فمن وضيع ورفيع وضال وضليع ومالك ومملوك وموسر وصعلوك تعرف بذلك مراتب العطايا الاجلة ودرجات تفاضل اهلها على طريقة الاستشهاد بحال الادنى على حال الاعلى كما افصح عنه قوله تعالى وللاخرة اكبر وهى وما فيها اكبر من الدنيا وقرئ اكثر درجات واكبر تفضيلا لان التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها العالية التى لا يقادر قدرها ولا يكتنه كنهها كيف لا وقد عبر عنه بما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر هذا ويجوز ان يراد بما به الامداد العطايا العاجلة فقط ويحمل القصر المذكور على دفع توهم اختصاصها بالفريق الاول فان تخصيص ارادتهم بها ووصولهم اليها بالذكر من غير تعرض لبيان النسبة بينها وبين الفريق الثانى ارادة ووصولا مما يوهم اختصاصها بالاولين فالمعنى كل واحد من الفريقين نمد بالعطايا العاجلة لا من ذكرنا ارادته لها فقط من الفريق الاول من عطاء ربك الواسع وما كان عطاؤه الدنيوى محظورا من احد ممن يريده وممن يريد غيره انظر كيف فضلنا فى ذلك العطا بعض كل من الفريقين على بعض آخر منهما وللاخرة الاية واعتبار عدم المحظورية بالنسبة الى الفريق الاول تحقيقا لشمول الامداد له كما فعله الجمهور حيث قالوا لا يمنعه من عاص لعصيانه يقتضى كون القصر لدفع توهم اختصاص الامداد الدنيوى بالفريق الثانى مع انه لم يسبق فى الكلام ما يوهم ثبوته له فضلا عن ايهام اختصاصه لا تجعل مع الله

الها

الها آخر الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به امته وهو من باب التهييج والالهاب او لكل احد ممن يصلح للخطاب فتقعد بالنصب جوابا للنهى والقعود بمعنى الصيرورة من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كانها حربة او بمعنى العجز من قعد عنه اى عجز عنه مذموما مخذولا خبران او حالان اى جامعا على نفسك الذم من الملئكة والمؤمنين والخذلان من الله تعالى وفيه اشعار بان الموحد جامع بين المدح والنصرة وقضى ربك اى امر امرا مبرما وقرئ واوصى ربك ووصى ربك ان لا تعبدوا اى بان لا تعبدوا الا اياه على ان ان مصدرية ولا نافية او اى لا تعبدوا وعلى انها مفسرة ولا ناهية لان العبادة غاية التعظيم فلا تحق الا لمن له غاية العظمة ونهاية الانعام وهو كالتفصيل للسعى للاخرة وبالوالدين اى وبان تحسنوا بهما اى واحسنوا بهما احسانا لانهما السبب الظاهر للوجود والتعيش اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما اما مركبة من ان الشرطية وما المزيدة لتاكيدها ولذلك دخل الفعل نون التوكيد ومعنى عندك فى كنفك وكفالتك وتقديمه على المفعول مع ان حقه التاخر عنه للتشويق الى وروده فانه مدار تضاعف الرعاية والاحسان واحدهما فاعل للفعل وتاخيره عن الظرف والمفعول لئلا يطول الكلام به وبما عطف عليه وقرئ يبلغان فاحدهما بدل من ضمير التثنية وكلاهما عطف عليه ولا سبيل الى جعل كلاهما تاكيدا للضمير وتوحيد ضمير الخطاب فى عندك وفيما بعده مع ان ما سبق على الجمع للاحتراز عن التباين المراد فان المقصود نهى كل احد عن تأفيف والديه ونهرهما ولو قوبل الجمع بالجمع او بالتثنية لم يحصل هذا المرام فلا تقل لهما اى لواحد منهما حالتى الانفراد والاجتماع اف وهو صوت ينبئ عن تضجر او اسم فعل هو اتضجر وقرئ بالكسر بلا تنوين وبالفتح والضم منونا وغير منون اى لا تتضجر بما تستقذر منهما وتستثقل من مؤنهما وبهذا النهى يفهم النهى عن ساير ما يؤذيهما بدلالة النص وقد خص بالذكر بعضه اظهارا للاعتناء بشانه فقيل ولا تنهرهما اى لا تزجرهما عما لا يعجبك باغلاظ قيل النهى والنهر والنهم اخوات وقل لهما بدل التأفيف والنهر قولا كريما ذا كرم او هو وصف له بوصف صاحبه اى قولا صادرا عن كرم ولطف وهو القول الجميل الذى يقتضيه حسن الادب ويستدعيه النزول على المروة مثل ان يقول يا ابتاه ويا اماه كدأب ابراهيم عليه السلام اذ قال لابيه يا ابت مع ما به من الكفر ولا يدعوهما باسمائهما فانه من الجفا وسوء الادب ودين الدعاء وسئل عن الفضيل ابن عياض عن بر الوالدين فقال ان لا تقوم الى خدمتهما عن كسل وقيل ان لا ترفع صوتك عليهما ولا تنظر اليهما شزرا ى لا يريا منك مخالفة فى ظاهر ولا باطن وان تترحم عليهما ما عاشا وتدعو لهما اذا ماتا وتقوم بخدمة اوداهما من بعدهما فعن النبى صلى الله عليه وسلم ان من ابر البر ان يصل الرجل اهل ود ابيه واخفض لهما جناح الذل عبارة عن الانة الجانب والتواضع والتذلل لهما فان اعزاز لا يكون الا بذلك فكانه قيل واخفض لهما جناحك الذليل او جعل لذله جناحا كما جعل لبيد فى قوله وغداة ريح قد كشفت وقرة اذ اصبحت بيد الشمال زمامها للقرة زماما وللشمال يدا تشبيها له بطاير يخفض جناحه لافراخه تربية لها وشفقة عليها واما جعل خفض الجناح عبارة عن ترك الطيران كما فعله القفال فلا يناسب المقام من الرحمة من فرط رحمتك وعطفك عليهما ورقتك لهما لافتقارهما اليوم الى من كان افقر خلق الله تعالى اليهما ولا تكتف برحمتك الفانية بل ادع الله تعالى لهما برحمته الواسعة الباقية وقل رب ارحمهما برحمتك الدنيوية والاخروية التى من جملتها الهداية الى الاسلام فلا ينافى ذلك كفرهما كما ربيانى الكاف فى محل النصب على انه نعت لمصدر محذوف اى رحمة مثل تربيتهما لى او مثل رحمتهما لى على ان التربية رحمة ويجوز ان يكون لهما الرحمة والتربية معا وقد ذكر احدهما فى احد الجانبين والاخر فى الاخر كما يلوح به التعرض لعنوان الربوبية فى مطلع الدعا كانه قيل رب ارحمهما وربهما كما رحمانى

وربياني صغيراً ويجوز ان يكون الكاف للتعليل اى لاجل تربيتهما لى كقوله تعالى واذكروه
كما هداكم ولقد بالغ عز وجل فى التوصية بهما حيث افتتحها بان شفع الاحسان اليهما
بتوحيده سبحانه ونظمهما فى سلك القضاء بهما معاً ثم ضيق الامر فى باب مراعاتهما حتى
لم يرخص فى ادنى كلمة تنفلت من المتضجر مع ماله من موجبات الضجر ما لا يكاد يدخل
تحت الحصر وختمها بان جعل رحمته التى وسعت كل شئ مشبهة بتربيتهما وعن النبى صلى الله
عليه وسلم رضى الحق فى رضى الوالدين وسخطه فى سخطهما وروى يفعل البار
ما يشاء ان يفعل فلن يدخل النار ويفعل العاق ما يشاء ان يفعل فلن يدخل الجنة وقال
رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابوى بلغا من الكبر انى الى منهما ما وليا منى
فى الصغر فهل قضيتهما حقهما قال لا فانهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاك
وانت تفعل ذلك وانت تريد موتهما وروى ان شيخاً اتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال
ان ابنى هذا له مال كثير وانه لا ينفق على من ماله فنزل جبريل عليه السلام وقال ان هذا الشيخ
قد انشأ فى ابنه ابياتاً ما قرع سمع بمثلها فاستنشدها فانشدها الشيخ فقال غذوتك
مولوداً ومنتك يافعاً تعل بما اجنى عليك وتنهل اذا ليلة ضافتك بالسقم لم ابت
لسقمك الا باكياً اتململ كأنى انا المطروق دونك بالذى طرقت به دونى وعينى تهمل
فلما بلغت السن والغاية التى اليها مدى ما كنت فيك اؤمل جعلت جزائى غلظة و
فظاظة كأنك انت المنعم المتفضل فليتك اذ لم ترع حق ابوتى فعلت كما الجار
المجاور يفعل فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال انت ومالك لابيك ربكم
اعلم بما فى نفوسكم من البر والعقوق ان تكونوا صالحين قاصدين الصلاح والبر
دون العقوق والفساد فانه تعالى كان للاوابين اى الرجاعين اليه تعالى عما فرط منهم
مما لا يكاد يخلو عنه البشر غفوراً لما وقع منهم من نوع تقصير او اذية فعلية
او قولية وفيه ما لا يخفى من التشديد فى الامر بمراعاة حقوقهما ويجوز ان يكون
عاماً لكل تائب ويندرج فيه الجانى على ابويه دخولاً اولياً وآت ذا القربى اى ذا القرابة
حقه توصية بالاقارب اثر الوصية ببر الوالدين ولعل المراد بهم المحارم وبحقهم
النفقة كما ينبئ عنه قوله تعالى والمسكين وابن السبيل فان المأمور به فى حقهما المواساة المالية
لا محالة اى واتهما حقهما مما كان مفترضاً بمكة بمنزلة الزكوة وكذا النهى عن التبذير وعن
الافراط فى القبض والبسط فان الكل من التصرفات المالية ولا تبذر تبذيراً نهى عن صرف
المال الى من سواهم ممن لا يستحقه فان التبذير تفريق فى غير موضعه مأخوذ من تفريق
حبات والقائها كيفما كان من غير تعهد لمواقعه لا عن كثار فى صرفه اليهم والا لناسبه
الاسراف الذى هو تجاوز الحد فى صرفه وقد نهى عنه قوله تعالى ولا تبسطها وكلاهما
مذموم ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين تعليل للنهى عن التبذير ببيان
انه يجعل صاحبه ملزوزاً فى قرن الشياطين والمراد بالاخوة المماثلة التامة فى كل ما لا
خير فيه من صفات السوء التى من جملتها التبذير اى كانوا بما فعلوا من التبذير امثال
الشياطين او الصداقة والملازمة اى كانوا اصدقاءهم واتباعهم فيما ذكر من
التبذير والصرف فى المعاصى فانهم كانوا ينحرون الابل ويتياسرون عليها ويبذرون
اموالهم فى السمعة وسائر ما لا خير فيه من المناهى والملاهى او المقارنة اى قرناؤهم
فى النار على سبيل الوعيد وكان الشيطان لربه كفوراً من تتمة التعليل اى مبالغاً فى
كفران نعمه تعالى لان شأنه ان يصرف جميع ما اعطاه تعالى من القوى والقدر الى غير ما
خلقت هى له من انواع المعاصى والفساد فى الارض واضلال الناس وحملهم على الكفر
بالله وكفران نعمه الفائضة عليهم وصرفها الى غير ما امر الله تعالى به وتخصيص هذا الوصف
بالذكر من بين سائر اوصافه القبيحة للايذان بان التبذير الذى هو عبارة عن صرف
نعم الله تعالى الى غير مصرفها من باب الكفران المقابل للشكر الذى هو عبارة عن صرفها
الى ما خلقت هى له والتعرض لوصف الربوبية للاشعار بكمال عتوه فان كفران نعمة
الرب مع كون الربوبية من اقوى الدواعى الى شكرها غاية الكفران ونهاية الضلال

والطغيان واما تعرضن عنهم اى ان اعترك امر اضطرك الى ان تعرض عن اولئك
المستحقين ابتغاء رحمة من ربك اى لفقد رزق من ربك اقامة للمسبب مقام السبب
فان الفقد سبب للابتغاء ترجوها من الله تعالى لتعطيهم وكان صلى الله عليه
وسلم اذا سئل شيئاً وليس عنده اعرض عن السائل وسكت حياء فامر بتعهدهم
بالقول الجميل لئلا يعتريهم الوحشة بسكوته عليه السلام فقيل فقل لهم قولاً
ميسوراً سهلاً ليناً وعدهم وعداً جميلاً من يسر الامر نحو سعد او قل لهم رزقنا
الله واياكم من فضله على انه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم ولا تجعل يدك مغلولة
الى عنقك ولا تبسطها كل البسط تمثيلان لمنع الشحيح واسراف المبذر زجراً لهما عنهما
وحملاً على ما بينهما من الاقتصاد كلا طرفى قصد الامور ذميم وحيث كان
قبح الشح مقارناً له معلوماً من اول الامر روعى ذلك فى التصوير باقبح الصور
ولما كان غائلة الاسراف فى آخره بين قبحه فى اثره فقيل فتقعد ملوماً اى فتصير ملوماً
عند الله وعند الناس وعند نفسك اذا احتجت وندمت على ما فعلت محسوراً نادماً
او منقطعاً بك لا شئ عندك من حسره السفر اذا بلغ منه وما قيل انه روى
عن جابر رضى الله عنه انه قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد اذ اتاه صبى
فقال ان امى تستكسيك درعاً فقال صلى الله عليه وسلم من ساعة الى ساعة فعد
الينا فذهب الى امه فقالت له قل ان امى تستكسيك الدرع الذى عليك فدخل عليه
الصلوة والسلام داره ونزع قميصه واعطاه وقعد عرياناً واذن بلال وانتظروا فلم يخرج
للصلاة فنزلت فيأباه ان السورة مكية خلا آيات فى آخرها وكذا ما قيل انه عليه السلام
اعطى الاقرع بن حابس مائة من الابل وكذا عيينة بن حصن الفزارى فجاء عباس
بن مرداس فانشد يقول اتجعل نهبى ونهب العبيد بين عيينة والاقرع وما كان
حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع
اليوم لا يرفع فقال عليه السلام يا ابا بكر اقطع لسانه عنى اعطه مائة من الابل وكانوا
جميعاً من المؤلفة القلوب فنزلت ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر تعليل
لما مر اى يوسعه على بعض ويضيقه على آخرين حسبما يتعلق به مشيته التابعة للحكمة
فليس ما يرهقك من الاضاقة التى تحوجك الى الاعراض عن السائلين او نفاد ما فى
يدك اذا بسطتها كل البسط الا لمصلحتك انه كان بعباده خبيراً بصيراً تعليل لما سبق
اى يعلم سرهم وعلنهم فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ويجوز ان يراد ان
البسط والقبض من امر الله العالم بالسرائر والظواهر الذى بيده خزائن السموات
والارض فاما العباد فعليهم ان يقتصدوا وان يراد انه تعالى يبسط تارة ويقبض
اخرى فاستنوا بسنته فلا تقبضوا كل القبض ولا تبسطوا كل البسط وان يراد انه تعالى
يبسط ويقدر حسب مشيته فلا تبسطوا على من قدر عليه رزقه وان يكون تمهيداً
لقوله تعالى ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق اى مخافة فقر وقرئ بكسر الخاء كانوا
يئدون بناتهم مخافة الفقر فنهوا عن ذلك نحن نرزقهم واياكم لا انتم فلا تخافوا
الفاقة بناء على علمكم بعجزكم عن تحصيل رزقهم وهو ضمان لرزقهم وتعليل
للنهى المذكور بابطال موجبه فى زعمهم وتقديم ضمير الاولاد على المخاطبين على
عكس ما وقع فى سورة الانعام للاشعار باصالتهم فى افاضة الرزق او لان الباعث
على القتل هناك الاملاق الناجز ولذلك قيل من املاق وههنا الاملاق المتوقع
ولذلك قيل خشية املاق فكأنه قيل نرزقهم من غير ان ينتقص من رزقكم شئ
فيعتريكم ما تخشونه واياكم ايضاً الى رزقكم ان قتلهم كان خطأ كبيراً تعليل آخر
ببيان ان المنهى عنه فى نفسه منكر عظيم والخطء الذنب والاثم يقال خطئ خطأ
كاثم اثماً وقرئ بالفتح والسكون وبفتحتين بمعناه كالحذر والحذر وقيل بمعنى
ضد الصواب وبكسر الخاء والمد وبفتحها ممدوداً وبفتحها وحذف الهمزة وبكسرها
كذلك ولا تقربوا الزنى بمباشرة مباديه القريبة او البعيدة فضلاً عن مباشرته وانما نهى عن

قربانه على خلاف ما سبق ولخوه من القتل للمبالغة في النهي عن نفسه ولان قربانه داع الى
مباشرته وتوسط النهي عنه بين النهي عن قتل الاولاد والنهي عن قتل النفس المحرمة
على الاطلاق باعتبار انه قتل للاولاد لما انه تضييع للانساب فان من لم يثبت نسبه ميت
حكما انه كان فاحشة فعلة ظاهرة القبح متجاوزة عن الحد وساء سبيلا اى بئس
طريقا طريقه فانه غصب الابضاع المؤدي الى اختلاط الانساب وهيجان الفتن
كيف لا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اذا زنى العبد خرج منه الايمان فكان على
راسه كالظلة فاذا انقطع رجع اليه وقال عليه الصلوة والسلام لا يزني الزاني
حين يزني وهو مؤمن وعن حذيفة رضه انه قال عليه الصلوة والسلام اياكم والزنى
فان فيه ست خصال ثلاث في الدنيا وثلاث في الاخرة فاما التي في الدنيا فذهاب البهاء
ودوام الفقر وقصر العمر واما التي في الاخرة فسخط الله تعالى وسوء الحساب والخلود في
النار ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها بان عصمها بالاسلام او بالعهد الا بالحق
الا باحدى ثلاث كفر بعد ايمان وزنا بعد احصان وقتل نفس معصومة عمدا
فالاستثناء مفرغ اى لا تقتلوها بسبب من الاسباب الا بسبب الحق او ملتبسين وملتبسة
بشيء من الاشياء الا بالحق ويجوز ان يكون نعتا لمصدر محذوف اى لا تقتلوها قتلا ما الا قتلا
ملتبسا بالحق ومن قتل مظلوما بغير حق يوجب قتله او يبيحه للقاتل حتى انه لا يعتبر
اباحته لغير القاتل فان من عليه القصاص اذا قتله غير من له القصاص يقتص له ولا يفيده
قول الولي انا امرته بذلك ما لم يكن الامر ظاهرا فقد جعلنا لوليه لمن يلي امره من
الوارث او السلطان عند عدم الوارث سلطانا تسلطا واستيلاء على القاتل يؤاخذه
بالقصاص او بالدية حسبما يقتضيه جنايته او حجة غالبة فلا يسرف وقرئ لا تسرف
في القتل اى لا يسرف الولي في امر القتل بان يتجاوز الحد المشروع بان يزيد عليه المثلة
او بان قتل غير القاتل من اقاربه او بان يقتل الاثنين مكان الواحد كما يفعله اهل
الجاهلية او بان يقتل القاتل في مادة الدية وقرئ بصيغة النفي التي في افادة معنى النهي
انه كان منصورا تعليل للنهي والضمير للولي على معنى انه تعالى نصره بان اوجب له القصاص
او الدية وامر الحكام بمعونته في استيفاء حقه فلا يبغ ما وراء حقه ولا يستزد عليه
ولا يخرج من دائرة امر الناصر او للمقتول ظلما على معنى انه تعالى نصره بما ذكر فلا يسرف
وليه في شانه او للذي يقتله الولي ظلما او اسرافا ووجه التعليل ظاهر وعن مجاهد
ان الضمير في لا يسرف للقاتل الاول ويعضده قراءة فلا تسرفوا والضميران في التعليل
عائدان الى الولي او المقتول فالمراد بالاسراف حينئذ اسراف القاتل على نفسه بتعريضها
للهلاك العاجل والآجل لا الاسراف وتجاوز الحد في القتل اى لا يسرف على نفسه في
شان القتل كما في قوله تعالى قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم ولا تقربوا مال اليتيم
نهي عن قربانه لما ذكر من المبالغة في النهي عن التعرض له ومن افضاء ذلك اليه وللتوسل
الى الاستثناء بقوله تعالى الا بالتي هي احسن الا بالخصلة والطريقة التي هي احسن الخصال
والطرائق وهي حفظه واستثماره حتى يبلغ اشده غاية لجواز التصرف على الوجه
الاحسن المدلول عليه بالاستثناء لا للوجه المذكور فقط واوفوا بالعهد سواء
جرى بينكم وبين ربكم او بينكم وبين غيركم من الناس والايفاء بالعهد والوفاء
به هو القيام بمقتضاه والمحافظة عليه ولا يكاد يستعمل الا بالباء فرقا بينه وبين الايفاء
الحسي كايفاء الكيل والوزن ان العهد اظهر في مقام الاضمار اظهارا لكمال العناية
بشانه او لان المراد مطلق العهد المنتظم للعهد المعهود كان مسئولا اى مسئولا عنه
على حذف الجار وجعل الضمير بعد انقلابه مرفوعا مستكنا في اسم المفعول كقوله تعالى
وذلك يوم مشهود اى مشهود فيه ونظيره ما في قوله تعالى تلك آيات الكتاب الحكيم
على ان اصله الحكيم قائله فحذف المضاف اليه وجعل الضمير مستكنا في الحكيم بعد انقلابه
مرفوعا ويجوز ان يكون تخييلا كانه يقال للعهد لم نكثت وهلا وفي بك تبكيتا للناكث
كما يقال للموؤدة باي ذنب قتلت واوفوا الكيل اى اتموه ولا تخسروه اذا كلتم اى وقت

كيلكم للمشترين وتقييد الامر بذلك لما ان التطفيف هناك يكون واما وقت الاكتيال على
الناس فلا حاجة الى الامر بالتعديل قال تعالى اذا اكتالوا على الناس يستوفون الآية وزنوا
بالقسطاس هو القرسطون وقيل كل ميزان صغيرا كان او كبيرا رومي معرب ولا يقدح
ذلك في عربية القرآن لانتظام المعربات في سلك الكلم العربية وقرئ بضم القاف
المستقيم اى العدل السوي ولعل الاكتفاء باستقامته عن الامر بايفاء الوزن لما ان عند
استقامته لا يتصور الجور غالبا بخلاف الكيل فانه كثيرا ما يقع التطفيف مع استقامة الآلة
كما ان الاكتفاء بايفاء الكيل عن الامر بتعديله لما ان ايفاءه لا يتصور بدون تعديل المكيال وقد
امر بتقويمه ايضا في قوله تعالى اوفوا المكيال والميزان بالقسط ذلك اى ايفاء الكيل والوزن
بالميزان السوي خير في الدنيا اذ هو امانة توجب الرغبة في معاملته والذكر الجميل بين
الناس واحسن تأويلا عاقبة تفعيل من آل اذا رجع والمراد ما يؤول اليه ولا تقف
ولا تتبع من قفا اثره اى تبعه وقرئ ولا تقف من قاف اثره اى قفاه ومنه القافة
في جمع القائف ما ليس لك به علم اى لا تكن في اتباع ما لا علم لك به من قول او فعل
كمن يتبع مسلكا لا يدري انه يوصله الى مقصده واحتج به من منع اتباع الظن وجوابه
ان المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند قطعيا كان او ظنيا واستعماله
بهذا المعنى مما لا ينكر شيوعه وقيل انه مخصوص بالعقائد وقيل بالرمي وشهادة
الزور ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام من قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله
تعالى في ردغة الخبال حتى ياتي بالمخرج ومنه قول الكميت ولا ارمي البرئ بغير ذنب
ولا اقفو الحواصن ان رمينا ان السمع والبصر والفؤاد وقرئ بفتح الفاء والواو
المقلوبة من الهمزة عند ضم الفاء كل اولئك اى كل واحد من تلك الاعضاء فاجريت
مجرى العقلاء لما كانت مسؤولة عن احوالها شاهدة على اصحابها هذا وان اولا وان
غلب في العقلاء لكنه من حيث انه اسم جمع لذا الذي يعم القبيلتين جاء لغيرهم ايضا
قال ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد اولئك الايام كان عنه مسؤولا
اى كان كل من تلك الاعضاء مسؤولا عن نفسه على ان اسم كان ضمير يرجع الى كل
وكذا الضمير المجرور وقد جوز ان يكون الاسم ضمير القافي بطريق الالتفات اذ الظاهر
يقال كنت مسؤولا عنه وقيل الجار والمجرور في محل الرفع وقد اسند اليه مسؤولا معللا
بان الجار والمجرور لا يلتبس بالمبتدا وهو السبب في منع تقديم الفاعل وما يقوم مقامه
ولكن النحاس يحكي الاجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل اذا كان جارا
ومجرورا ويجوز ان يكون من باب حذف على شريطة التفسير ويحذف الجار من
المفسر ويعود الضمير مستكنا كما ذكرنا في قوله تعالى يوم مشهود وجوز ان يكون مسؤولا
مسندا الى المصدر المدلول عليه بالفعل وان يكون فاعله المصدر وهو السؤال وعنه في
محل النصب وسأل ابن جني ابا علي عن قولهم فيك يرغب وقال الا يرتفع بما بعده فاين
المرفوع فقال المصدر اى فيك يرغب الرغبة كما في قولهم يعطي ويمنع اى يفعل الاعطاء
والمنع وجوز ان يكون اسم كان او فاعله ضمير كل بحذف المضاف اى كان صاحبه عنه
مسؤولا او مسؤولا صاحبه ولا تمش في الارض التقييد لزيادة التقرير والاشعار بان
المشي عليها مما لا يليق بالمرح مرحا تكبرا وبطرا واختيالا وهو مصدر وقع موقع
الحال اى ذا مرح او تمرح مرحا او لاجل المرح وقرئ بالكسر انك لن تخرق الارض تعليل للنهي
وفيه تهكم بالمختال وايذان بان ذلك مفاخرة مع الارض وتكبر عليها اى لن تخرق الارض
بدوسك وشدة وطاتك وقرئ بضم الراء ولن تبلغ الجبال التي هي بعض اجزاء الارض
طولا حتى يمكن لك ان تتكبر عليها اذ التكبر انما يكون بكثرة القوة وعظم الجثة وكلاهما
مفقود وفيه تعريض بما عليه المختال من رفع راسه ومشيه على صدور قدميه كل ذلك
اشارة الى ما علم في تضاعيف ذكر الاوامر والنواهي من الخصال الخمس والعشرين
كان سيئه الذي نهي عنه وهي اثنتا عشرة خصلة عند ربك مكروها مبغوضا
او غير مراد بالارادة الاولية لا غير مراد مطلقا لقيام الادلة القاطعة

على ان جميع الاشياء واقعة بارادته سبحانه وهو تتمة لتعليل الامور المنهي عنها جميعا
ووصف ذلك بمطلق الكراهة مع ان البعض من الكبائر للايذان بان مجرد الكراهة عنده
تعالى كافية في وجوب الانتهاء عن ذلك وتوجيه الاشارة الى الكل ثم تعيين البعض دون
توجيهها اليه ابتداء لما ان البعض المذكور ليس بمذكور جملة بل على وجه الاختلاط
وفيه اشعار بكون ما عداه مرضيا عنده تعالى وانما لم يصرح بذلك ايذانا بالغنى عنه وقيل
الاضافة بيانية كما في آية الليل وآية النهار وقرئ سيئة على انه خبر كان وذلك اشارة
الى ما نهي عنه من الامور المذكورة ومكروها بدل من سيئة او صفة لها محمولة على المعنى
فانه بمعنى سيئا وقد قرئ به او مجريا على موصوف مذكر اي امرا مكروها او مجرى مجرى
الاسماء زال عنه معنى الوصفية ويجوز كونه حالا من المستكن في كان او في الظرف على
انه صفة سيئة وقرئ سيئاته وقرئ شانه ذلك اي الذي تقدم من التكاليف المفصلة
مما اوحى اليك ربك اي بعض منه او من جنسه من الحكمة التي هي علم الشرائع او
معرفة الحق لذاته والعمل به او من الاحكام المحكمة التي لا يتطرق اليها النسخ والفساد
وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان هذه الآيات الثماني عشرة كانت في الواح موسى عليه
السلام اولها لا تجعل مع الله الها آخر قال تعالى وكتبنا له في الالواح من كل شيء موعظة
وهي عشر آيات في التورية ومن اما متعلقة باوحى على انها تبعيضية او ابتدائية
واما بمحذوف وقع حالا من الموصول او من ضميره المحذوف في الصلة اي كائنا من
الحكمة واما بدل من الموصول باعادة الجار ولا تجعل مع الله الها آخر الخطاب للرسول
صلى الله عليه وسلم والمراد غيره ممن يتصور منه صدور المنهي عنه وقد كرر للتنبيه
على ان التوحيد مبدأ الامر ومنتهاه وانه راس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم
ينفعه علومه وحكمه وان بذ فيها اساطين الحكماء وحك بيافوخه عنان السماء
وقد رتب عليه ما هو عائدة الاشراك اولا حيث قيل فتقعد مذموما مخذولا و
رتب عليه ههنا نتيجته في العقبى فقيل فتلقى في جهنم ملوما من جهة نفسك ومن جهة غيرك
مدحورا مبعدا من رحمة الله تعالى وفي ايراد الالقاء مبنيا للمفعول جري على سنن الكبرياء
وازدراء بالمشرك وجعل له من قبيل خشبة يأخذها آخذ بكفه فيطرحها في التنور
افاصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا خطاب للقائلين بان الملائكة
بنات الله سبحانه والاصفاء بالشيء جعله خالصا والهمزة للانكار والفاء للعطف
على مقدر يفسره المذكور اي افضلكم على جنابه فخصكم بافضل الاولاد على
وجه الخلوص وآثر لذاته اخسها وادناها كما في قوله سبحانه الكم الذكر وله الانثى وقوله
تعالى ام له البنات ولكم البنون وقد قصد ههنا بالتعرض لعنوان الربوبية تشديد
النكير وتاكيده واشير بذكر الملائكة عليهم السلام وايراد الاناث مكان البنات الى
كفرة لهم اخرى وهي وصفهم لهم عليهم السلام بالانوثة التي هي اخس صفات الحيوان
كقوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا انكم لتقولون بمقتضى
مذهبكم الباطل الذي هو اضافة الولد اليه سبحانه قولا عظيما لا يقادر قدره
في استتباع الاثم وخرقه لقضايا العقول بحيث لا يجترئ عليه احد حيث تجعلونه
تعالى من قبيل الاجسام المتجانسة السريعة الزوال وليس كمثله شيء وهو الواحد
القهار الباقي بذاته ثم تضيفون اليه ما تكرهون من اخس الاولاد وتفضلون عليه
انفسكم بالبنين ثم تصفون الملائكة الذين هم من اشرف الخلائق بالانوثة
التي هي اخس اوصاف الحيوان فيا لها من ضلة ما اقبحها وكفرة ما اشنعها وافظعها
ولقد صرفنا هذا المعنى وكررناه في هذا القرآن على وجوه من التصريف في مواضع منه
وانما ترك الضمير تعويلا على الظهور وقرئ بالتخفيف ليذكروا ما فيه ويقفوا على بطلان
ما يقولونه والالتفات الى الغيبة للايذان باقتضاء الحال ان يعرض عنهم ويحكى
للسامعين هناتهم وقرئ بالتخفيف من الذكر بمعنى التذكر ويجوز ان يراد بهذا
القرآن ما نطق ببطلان مقالتهم المذكورة من الآيات الكريمة الواردة على اساليب مختلفة

ومعنى

ومعنى الاضافة التصريف فيه جعله مكانا له اي اوقعنا فيه التصريف كقوله يجرح في عراقيبها
وقد جوز ان يراد به ابطال اضافتهم اليه تعالى البنات وانت تعلم ان ابطالها من آثار
القرآن ونتائجها وما يزيدهم اي والحال انه ما يزيدهم ذلك التصريف البالغ
الا نفورا عن الحق واعراضا عنه فضلا عن التذكر المؤدي الى معرفة بطلان
ما هم عليه من القبائح قل في اظهار بطلان ذلك من جهة اخرى لو كان معه
آلهة كما يقولون اي المشركون قاطبة وقرئ بالتاء خطابا لهم من قبل النبي صلى الله
عليه وسلم والكاف في محل النصب على انها نعت لمصدر محذوف اي كونا مشابها
لما يقولون والمراد بالمشابهة الموافقة والمطابقة اذا لابتغوا اي جواب عن مقالتهم الشنعاء
وجزاء للو اي لطلبوا الى ذي العرش اي الى من له الملك والربوبية على الاطلاق سبيلا
بالمغالبة والممانعة كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض على طريقة قوله تعالى لو كان فيهما
آلهة الا الله لفسدتا وقيل بالتقرب اليه تعالى كقوله تعالى اولئك الذين يدعون
يبتغون الى ربهم الوسيلة والاول هو الاظهر الانسب لقوله سبحانه فانه صريح في
ان المراد بيان انه يلزم مما يقولونه محذور عظيم من حيث لا يحتسبون واما ابتغاء السبيل
اليه تعالى بالتقرب فليس مما يختص بهذا التقدير ولا هو مما يلزمهم من حيث
لا يشعرون بل هو امر يعتقدونه راسا اي تنزه بذاته تنزها حقيقا به وتعالى متباعدا
عما يقولون من العظيمة التي هي ان يكون معه آلهة وان يكون له بنات علوا تعاليا
كقوله تعالى والله انبتكم من الارض نباتا كبيرا لا غاية وراءه كيف لا وانه سبحانه
في اقصى غايات الوجود وهو الوجوب الذاتي وما يقولونه من ان له تعالى شركاء
واولادا في ابعد مراتب العدم اعني الامتناع لا لانه تعالى في اعلى مراتب الوجود وهو
كونه واجب الوجود لذاته واتخاذ الولد من ادنى مراتبه فانه من خواص ما
يمتنع بقاؤه كما قيل فان ما يقولونه ليس مجرد اتخاذ الولد بل اتخاذه تعالى له وان
يكون معه آلهة ولا ريب في ان ذلك ليس بداخل في حد الامكان فضلا عن دخوله
تحت الوجود وكونه من ادنى مراتب الوجود انما هو بالنسبة الى من من شانه ذلك
تسبح بالفوقانية وقرئ بالتحتانية وقرئ تسبح له السموات السبع والارض ومن
فيهن من الملائكة والثقلين على ان المراد بالتسبيح معنى منتظم لما ينطق به لسان
المقال ولسان الحال بطريق عموم المجاز وان من شيء من الاشياء حيوانا كان او نباتا
او جمادا الا يسبح ملتبسا بحمده اي ينزهه تعالى اي ينزهه تعالى بلسان الحال عما
لا يليق بذاته الاقدس من لوازم الامكان ولواحق الحدوث اذ ما من موجود الا وهو
بامكانه وحدوثه يدل دلالة واضحة على ان له صانعا عليما قادرا حكيما واجبا لذاته
قطعا للسلسلة ولكن لا تفقهون تسبيحهم ايها المشركون لاخلالكم بالنظر الصحيح
الذي به يفهم ذلك وقرئ لا يفقهون على صيغة المبني للمفعول من باب التفعيل
انه كان حليما ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة مع ما انتم عليه من موجباتها من
الاعراض عن التدبر في الدلائل الواضحة الدالة على التوحيد والانهماك في الكفر
والاشراك غفورا لمن تاب منكم واذا قرات القرآن الناطق بالتسبيح والتنزيه
ودعوتهم الى العمل بما فيه من التوحيد ورفض الشرك وغير ذلك من الشرائع جعلنا
بقدرتنا ومشيئتنا المبنية على دواعي الحكم الخفية بينك وبين الذين لا
يؤمنون بالآخرة اوثر الموصول على الضمير ذما لهم بما في حيز الصلة وانما خص
بالذكر كفرهم بالآخرة من بين سائر ما كفروا به من التوحيد ونحوه دلالة على ان
انها معظم ما امروا بالايمان به في القرآن وتمهيدا لما سينقل عنهم من انكار البعث
واستعجاله ونحو ذلك حجابا يحجبهم من ان يدركوك على ما انت عليه من النبوة
ويفهموا قدرك الجليل ولذلك اجترءوا على تفوه العظيمة التي هي قولهم ان تتبعون
الا رجلا مسحورا وحمل الحجاب على ما روي عن اسماء بنت ابي بكر رضي الله عنهما
من انه لما نزلت سورة تبت اقبلت العوراء ام جميل امراة ابي لهب وفي يدها فهر والنبي صلى

الله عليه وسلم جالس في المسجد ومعه ابو بكر رضي الله عنه فلما راها قال يا رسول الله
اقبلت هذه وانا اخاف ان تراك قال عليه السلام انها لن تراني وقرا قرآنا فوقفت على ابي
بكر ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يقبله الذوق السليم ولا يساعده النظم
الكريم مستورا ذا ستر كما في قولهم سيل مفعم اي مستورا عن الحس بمعنى غير حسي او
مستورا في نفسه بحجاب آخر مستورا لكونه حجابا حيث لا يدرون انهم لا يدرون
وجعلنا على قلوبهم اكنة اغطية كثيرة جمع كنان ان يفقهوه مفعول لاجله اي كراهة ان
يفقهوه او مفعول لما دل عليه الكلام اي منعناهم ان يفقهوا على كنهه ويعرفوا انه من
عند الله تعالى وفي آذانهم وقرا صمما وثقلا مانعا عن سماعه اللائق به وهذه تمثيلات
معربة عن كمال جهلهم بشؤون النبي صلعم وفرط نبو قلوبهم عن فهم القرآن الكريم
ومج اسماعهم له جيء بها بيانا لعدم فقههم لتسبيح لسان المقال اثر بيان عدم فقههم
لتسبيح لسان الحال وايذانا بان هذا التسبيح من الظهور بحيث لا يتصور عدم فهمه الا
لمانع يعتري المشاعر فيبطلها وتنبيها على ان حالهم هذا اقبح من حالهم السابق
لاحكاية لما قالوا قلوبنا في اكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك
حجاب كيف لا وقصدهم بذلك انما هو الاخبار مما اعتقدوه في حق القرآن والنبي
صلعم جهلا وكفرا من اتصافهما باوصاف مانعة من التصديق والايمان ككون القرآن
سحرا او شعرا واساطير وقس عليه حال النبي صلى الله عليه وسلم لا الاخبار بان هناك
امرا وراء ما ادركوه فقد حال بينهم وبين ادراكه حايل من قبلهم ولا ريب في ان ذلك
المعنى مما لا يكاد يلايم المقام واذا ذكرت ربك في القرآن وحده واحدا غير
مشفوع به آلهتهم وهو مصدر وقع موقع الحال اصله يحد وحده ولوا على ادبارهم
اي هربوا ونفروا نفورا او ولوا نافرين نحن اعلم بما يستمعون به ملتبسين به
من اللغو والاستخفاف والهزء بك وبالقرآن يروى انه كان يقوم عن يمينه عليه السلام
رجلان من عبد الدار وعن يساره رجلان فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالاشعار
اذ يستمعون اليك ظرف لاعلم وفائدته تاكيد الوعيد بالاخبار بانه كما يقع الاستماع
المزبور منهم يتعلق به العلم لان العلم يستفاد هناك من احد وكذا قوله تعالى واذ
هم نجوى لكن لا من حيث تعلقه بما به الاستماع بل بما به التناجي المدلول عليه
بسياق النظم والمعنى نحن اعلم بالذي يستمعونه ملتبسين به مما لا خير فيه من
الامور المذكورة وبالذي يتناجون به فيما بينهم والاول ظرف ليستمعون والثاني ليتناجون
والمعنى نحن اعلم بما به الاستماع وقت استماعهم من غير تاخير وبما به التناجي
وقت تناجيهم ونجوى مرفوع على الخبرية بتقدير المضاف اي ذوو نجوى او هو جمع نجي
كقتلى جمع قتيل اي متناجون اذ يقول الظالمون بدل من اذ هم وفيه دليل على ان ما
يتناجون به غير ما يستمعون به وانما وضع الظالمون موضع المضمر اشعارا بانهم في ذلك
قائلون مجاوزون للحد اي يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم ان تتبعون ما تتبعون
ان وجد منكم الاتباع فرضا او ما تتبعون باللغو والهزء الا رجلا مسحورا اي سحر
فجن او رجلا ذا سحر اي رية يتنفس اي بشرا مثلكم انظر كيف ضربوا لك
الامثال اي مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون فضلوا في جميع ذلك عن منهاج المحاجة
فلا يستطيعون اي طعن لا يمكن ان يقبله احد فيتهافتون ويخبطون ويأتون
بما لا يرتاب في بطلانه احد او الى سبيل الحق والرشاد وفيه من الوعيد وتسلية
الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى وقالوا ائذا كنا عظاما ورفاتا استفهام
انكاري مفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار للبعث بعد ما آل الحال الى هذا المآل لما بين غضاضة
الحي ويبوسة الرميم من التنافي كان استحالة الامر من الظهور بحيث لا يقدر المخاطب
على التكلم به والرفات ما بولغ في دقه وتفتيته وقال الفراء هو التراب وهو قول
مجاهد وقيل هو الحطام واذا متمحضة للظرفية وهو الاظهر والعامل فيها ما دل
عليه قوله تعالى ائنا لمبعوثون لا نفسه لان ما بعد ان والهمزة واللام لا يعمل فيما قبلها

وهو نبعث

وهو نبعث او نعاد وهو المرجع للانكار وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيص انكاره
فانهم منكرون للاحياء بعد الموت وان كان البدن على حاله بل لتقوية الانكار للبعث
بتوجيهه اليه في حالة منافية له وتكرير الهمزة في قولهم ائنا لتاكيد النكير وتحلية
الجملة بان واللام لتاكيد الانكار لا لانكار التاكيد كما عسى يتوهم من ظاهر النظم فان تقديم
الهمزة لاقتضائها الصدارة كما في مثل قوله تعالى افلا تعقلون ونظائره على راي الجمهور
فان المعنى عندهم تعقيب الانكار لا انكار التعقيب كما هو المشهور وليس مدار انكارهم
كونهم ثابتين في المبعوثية بالفعل في حال كونهم عظاما ورفاتا كما يتراءى من ظاهر
الجملة الاسمية بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم له ومرجعه الى انكار البعث
بعد تلك الحالة وفيه من الدلالة على غلوهم في الكفر وتماديهم في الضلال ما لا مزيد
عليه خلقا جديدا نصب على المصدر من غير لفظه او الحالية على ان الخلق بمعنى
المخلوق قل جوابا لهم وتقريبا لما استبعدوه كونوا حجارة او حديدا او خلقا مما يكبر
في صدوركم اي يعظم عندكم من قبول الحياة لكمال المباينة والمنافاة بينها وبينه فانكم
مبعوثون ومعادون لا محالة فسيقولون من يعيدنا مع ما بيننا وبين الاعادة من
هذه المباعدة والمباينة قل لهم تحقيقا للحق وازاحة للاستبعاد وارشادا لهم الى طريقة
الاستدلال الذي اي يعيدكم القادر العظيم الذي فطركم اخترعكم اول
مرة من غير مثال يحتذيه ولا اسلوب ينتحيه وكنتم ترابا ما شم رايحة الحياة اليس
الذي يقدر على بدء ذلك بقادر على ان يعيد العظام البالية الى حالتها المعهودة
بلى انه على كل شيء قدير فسينغضون اليك رؤسهم اي سيحركونها نحوك تعجبا
وانكارا ويقولون استهزاء متى هو اي ما ذكرته من الاعادة قل عسى ان يكون
قريبا نصب على انه خبر يكون او ظرف على ان كان تامة اي ان يقع في
زمان قريب ومحل ان مع ما في حيزها اما نصب على انه خبر لعسى وهي ناقصة واسمها
ضمير عايد الى ما عاد اليه هو اي عسى البعث ان يكون قريبا او عسى البعث يقع في زمان
قريب او رفع على انه فاعل لعسى وهي تامة اي عسى كونه قريبا او وقوعه في زمان
قريب يوم يدعوكم منصوب بفعل مضمر اي اذكروا او على انه بدل من قريبا
على انه ظرف او بيكون تامة بالاتفاق او ناقصة عند من يجوز اعمال الناقصة
في الظروف او بضمير المصدر المستكن في عسى او يكون اعني البعث عند من يجوز
اعمال ضمير المصدر كما في قول زهير وما الحرب الا ما علمتم وذقتم وما هو
عنها بالحديث المرجم فهو ضمير المصدر وقد تعلق به ما بعده من الجار فتستجيبون
اي يوم يبعثكم فتبعثون وقد استعير لهما الدعاء والاجابة ايذانا بكمال
سهولة التاتي وبان المقصود منهما الاحضار للمحاسبة والجزاء بحمده حال من
ضمير تستجيبون اي منقادين له حامدين لما فعل بكم غير مستعصين او حامدين له تعالى على
كمال قدرته عند مشاهدة آثارها ومعاينة احكامها وتظنون عطف على تستجيبون
اي تظنون عند ما ترون من الامور الهايلة ان لبثتم اي ما لبثتم في
القبور الا قليلا كالذي مر على قرية او ما لبثتم في الدنيا وقل لعبادي اي
المؤمنين يقولوا عند محاورتهم مع المشركين التي اي الكلمة التي هي احسن
ولا يخاشنوهم كقوله تعالى ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن ان الشيطان
ينزغ بينهم اي يفسد ويهيج الشر والمراء ويغري بعضهم على بعض ليقع بينهم
المشاقة والمشادة والمعاداة والمضارة فلعل ذلك يؤدي الى تاكد العناد وتمادي
الفساد فهو تعليل للامر السابق وقرئ بكسر الزاي ان الشيطان كان قديما للانسان
عدوا مبينا ظاهر العداوة وهو تعليل لما سبق من ان الشيطان ينزغ بينهم
ربكم اعلم بكم ان يشأ يرحمكم بالتوفيق للايمان او ان يشأ يعذبكم بالاماتة على
وهذا تفسير التي هي احسن وما بينهما اعتراض اي قولوا لهم هذه الكلمة وما يشاكلها
ولا تصرحوا بانهم من اهل النار فانه مما يهيجهم على الشر مع ان العاقبة مما لا يعلمه

الا الله سبحانه بغتى يهديهم الى الايمان فما ارسلناك عليهم وكيلا موكولا اليك
امورهم تقسرهم على الايمان فانما ارسلناك بشيرا ونذيرا فدارهم ومر اصحابك
بالمداراة والاحتمال وترك المحاقة والمشاقة وذلك قبل نزول اية السيف وقيل نزل
في عمر رضي الله عنه شتمه رجل فامر بالعفو وقيل افرط اذية المشركين بالمؤمنين فشكوا
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وقيل الكلمة التي هي احسن ان يقولوا يهديكم
الله يرحمكم الله وربك اعلم بمن في السموات والارض وتفاصيل احوالهم الظاهرة
والكامنة التي بها يستاهلون الاصطفا والاجتبا فيختار منهم لنبوته وولايته من
يشاء ممن يستحقه وهو رد عليهم اذ قالوا ابعيدا ان يكون يتيم ابي طالب نبيا وان يكون
العراة الجوع اصحابه دون ان يكون ذلك من الاكابر والصناديد وذكر من في السموات
لابطال قولهم لولا انزل علينا الملائكة وذكر من في الارض لرد قولهم لولا انزل
هذا القران على رجل من القريتين عظيم ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض بالفضائل
النفسانية والتنزه عن العلائق الجسمانية بكثرة الاموال والاتباع وآتينا داود زبورا
بيان لحيثية تفضيله عليه السلام فان ذلك ايتاء الزبور لا ايتاء الملك والسلطنة
وفيه ايذان بتفضيل النبي صلى الله عليه وسلم فان نعوته الجليلة وكونه خاتم النبيين
مسطورة في الزبور وان المراد بعباد الله الصالحين في قوله تعالى ان الارض يرثها عبادي
الصالحون هو النبي صلى الله عليه وسلم وامته وتعريف الزبور تارة وتنكيره اخرى اما لانه
في الاصل بمعنى المفعول كالحلوب او مصدر بمعناه كالقبول واما لان المراد ايتاء داود
زبورا من الزبر او بعضا من الزبور فيه ذكره صلى الله عليه وسلم وقرئ بضم الزاء
على انه جمع زبر بمعنى مزبور قل ادعوا الذين زعمتم انها آلهة من دونه تعالى من
الملائكة والمسيح وعزير فلا يملكون فلا يستطيعون كشف الضر عنكم بالمرة كالمرض
والفقر والقحط ونحو ذلك ولا تحويلا اي ولا تحويله الى غيركم اولئك الذين
يدعون اي اولئك الالهة الذين يدعوهم المشركون من المذكورين يبتغون
يطلبون لانفسهم الى ربهم ومالك امورهم الوسيلة القربة بالطاعة والعبادة ايهم
اقرب بدل من فاعل يبتغون واي موصولة اي يبتغي من هو اقرب اليه تعالى الوسيلة
فكيف بمن دونه او ضمن الابتغاء معنى الحرص فكانه قيل يحرصون ايهم يكون اقرب
اليه تعالى بالطاعة والعبادة ويرجون رحمته بها ويخافون عذابه بتركها كدأب
سائر العباد فاين هم من كشف الضر فضلا عن الالهية ان عذاب ربك كان
محذورا حقيقا بان يحذره كل احد حتى الملائكة والرسل عليهم السلام وهو
تعليل لقوله تعالى ويخافون عذابه وتخصيصه بالتعليل لما ان المقام مقام التحذير من
العذاب وان بينهم وبين العذاب بونا بعيدا وان من قرية بيان لتحتم حلول
عذابه تعالى بمن لا يحذره اثر بيان انه حقيق بالحذر وان اساطين الخلق من الملائكة
والنبيين عليهم السلام على حذر من ذلك وكلمة ان نافية ومن استغراقية والمراد
بالقرية القرية الكافرة اي ما من قرية من قرى الكفار الا نحن مهلكوها اي مخربوها
البتة بالخسف بها او باهلاك اهلها بالمرة لما ارتكبوا من عظائم الموبقات المستوجبة
لذلك وفي صيغة الفاعل وان كانت بمعنى المستقبل ما ليس فيه من الدلالة على التحقق
والتقرر وانما قيل قبل يوم القيمة لان الاهلاك يومئذ غير مختص بالقرى الكافرة
ولا هو بطريق العقوبة وانما هو لانقضاء عمر الدنيا او معذبوها اي معذبوا
اهلها على الاسناد المجازي عذابا شديدا لا بالقتل والسبي ونحوهما من
البلايا الدنيوية فقط بل بما لا يكتنه كنهه من فنون العقوبات الاخروية ايضا
حسبما يفصح عنه اطلاق التعذيب عما قيد به الاهلاك من قبلية يوم القيمة كيف
لا وكثير من القرى الفانية العاصية قد اخرت عقوبتها الى يوم القيمة كان ذلك
الذي ذكر من الاهلاك والتعذيب في الكتاب اي اللوح المحفوظ مسطورا
مكتوبا لم يغادر منه شيء الا بين فيه بكيفياته واسبابه الموجبة ووقته المضروب

له هذا

له هذا وقد قيل الهلاك للقرى الصالحة والعذاب للطالحة وعن مقاتل وجدت في
كتاب الضحاك بن مزاحم في تفسيرها اما مكة فيخربها الحبشة وتهلك المدينة بالجوع
والبصرة بالغرق والكوفة بالترك والجبال بالصواعق والرواجف واما خراسان
فهلاكها ضروب ثم ذكرها بلدا بلدا وقال الحافظ ابو عمرو الداني في كتاب الفتن
انه روي عن وهب بن منبه ان الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب ارمينية وارمينية
امنة حتى تخرب مصر ومصر امنة حتى تخرب الكوفة ولا تكون الملحمة الكبرى حتى
تخرب الكوفة فاذا كانت الملحمة الكبرى فتحت قسطنطينية على يدي رجل من بني هاشم
وخراب الاندلس من قبل الزنج وخراب افريقية من قبل الاندلس وخراب مصر
من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها وخراب العراق من الجوع وخراب الكوفة
من قبل عدو من ورائهم يحصرهم حتى لا يستطيعون ان يشربوا من الفرات قطرة
من قبل الغرق وخراب ايلة من قبل عدو يحصرهم برا وبحرا وخراب الري من
الديلم وخراب خراسان من قبل التبت وخراب التبت من قبل الصين وخراب
الهند واليمن من قبل الجراد والسلطان وخراب مكة من الحبشة وخراب المدينة
من قبل الجوع وعن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال
اخر قرية من قرى الاسلام خرابا المدينة وقد اخرجه العمري من هذا الوجه وانت
خبير بان تعميم القرية لا يساعده السباق ولا السياق وما منعنا ان نرسل بالايات
اي الايات التي اقترحتها قريش من احياء الموتى وقلب الصفا ذهبا ونحو ذلك
الا ان كذب بها الاولون استثناء مفرغ من اعم الاشياء اي وما منعنا ارسالها
شيء من الاشياء الا تكذيب الاولين بها حين جاءتهم باقتراحهم وعدم ارساله
تعالى بها وان كان بمشيئته المبنية على الحكم البالغة لا لمنع مانع عن ذلك من التكذيب
او غيره لاستحالة العجز عليه تعالى لكن تكذيبهم المذكور بواسطة استتباعه للاستيصال
بحكم السنة الالهية واستلزامه لتكذيب الاخرين بحكم الاشتراك في العتو والعناد
وافضائه الى ان يحل بهم مثل ما حل بهم بحكمة الشركة في الجريرة لما كان منافيا
لارسال ما اقترحوه من الايات لتعين التكذيب المستدعي للاستيصال المخالف لما جرى
به قلم القضاء من تاخير عقوبات هذه الامة الى الاخرة لحكم باهرة من جملتها ما يتوقع
من ايمان بعض اعقابهم عبر عن تلك المنافاة بالمنع على نهج الاستعارة ايذانا بتعاضد
مبادي الارسال لا كما زعموا من عدم ارادته تعالى لتاييده عليه السلام بالمعجزات
وهو السر في ايثار ارسال على الايتاء لما فيه من الاشعار بتداعي الايات الى النزول
لولا ان تمسكها يد التقدير واسناد هذا المنع الى تكذيب الاولين لا الى علمه تعالى بما
سيكون من الاخرين كما في قوله تعالى ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو اسمعهم
لتولوا وهم معرضون لاقامة الحجة عليهم بابراز الانموذج وللايذان بان مدار عدم
الاجابة الى ايتاء مقترحهم ليس الا صنيعهم وآتينا ثمود الناقة عطف على ما يفصح
عنه النظم الكريم كانه قيل وما منعنا ان نرسل بالايات الا ان كذب بها الاولون
حيث آتيناهم ما اقترحوا من الايات الباهرة فكذبوها وآتينا ثمود الناقة
باقتراحهم مبصرة على صيغة الفاعل اي بينة ذات ابصار وبصائر يدركها الناس او اسند
اليها حال من يشاهدها مجازا او جاعلتهم ذوي بصائر من ابصره جعله بصيرا وقرئ
على صيغة المفعول وبفتح الميم والصاد وهي نصب على الحالية وقرئ بالرفع على انها خبر مبتدا
محذوف فظلموا بها فكفروا بها ظالمين اي لم يكتفوا بمجرد الكفر بها بل فعلوا بها ما
فعلوا من العقر او ظلموا انفسهم وعرضوها للهلاك بسبب عقرها ولعل تخصيصها
بالذكر لما ان ثمود عرب مثلهم وان لهم من العلم بحالهم ما لا مزيد عليه حيث
يشاهدون آثار هلاكهم وردا وصدورا او لانها من جهة حيوان اخرج
من الحجر اوضح دليل على تحقق مضمون قوله تعالى قل كونوا حجارة او حديدا وما
نرسل بالايات المقترحة الا تخويفا لمن ارسلت هي عليهم مما يعقبها من العذاب

المبنا صلى كالطليعة له وحيث لم يخافوا ذلك فعل بهم ما فعل فلا محل للجملة حينئذ من الاعراب
ويجوز ان يكون حالا من ضمير ظلموا اي فظلموا بها ولم يخافوا عاقبته والحال انا ما نرسل
بالآيات التي هي من جملتها الا تخويفا من العذاب الذي يعقبها فنزل بهم ما نزل واذ
قلنا لك ان ربك احاط بالناس اي علما كما نقله الامام الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما
فلا يخفى عليه شيء من افعالهم الماضية والمستقبلة من الكفر والتكذيب وقوله تعالى
وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس الى آخر الآية تنبيه على تحققها بالاستدلال
عليها بما صدر عنهم عند مجيء بعض الآيات لاشتراك الكل في كونها امورا خارقة
للعادات منزلة من جناب الله تعالى لتصديق النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج من
من عجائب الارض والسماء حسبما ذكر في فاتحة السورة الكريمة والتعبير عن ذلك
بالرؤيا اما لانه لا فرق بينها وبين الرؤية او لانها وقعت بالليل او لان الكفرة قالوا لعلها
رؤيا اي وما جعلنا الرؤيا التي اريناكها عيانا مع كونها آية عظيمة وآية آية حقيقة بان
لا يتلعثم في تصديقها احد ممن له ادنى بصيرة الا فتنة افتتن بها حتى ارتد بعضهم
والشجرة الملعونة في القرآن عطف على الرؤيا والمراد بلعنها فيها لعن طاعمها على
الاسناد المجازي او ابعادها عن الرحمة فانها تنبت في اصل الجحيم في ابعد مكان
من الرحمة اي وما جعلناها الا فتنة لهم حيث انكروا ذلك وقالوا ان محمدا يزعم
الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر ولقد ضلوا في ذلك ضلالا بعيدا حيث
كابروا قضية عقولهم فانهم يرون النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد المحماة فلا
تضرها ويشاهدون المناديل المتخذة من وبر السمندل تلقى في النار فلا تؤثر فيها ويرون
ان في كل شجر نارا وقرئ بالرفع على حذف الخبر كانه قيل والشجرة الملعونة في القرآن
كذلك ونخوفهم بذلك وبنظائرها من الآيات فان الكل للتخويف وايثار صيغة
الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار فما يزيدهم التخويف الا طغيانا كبيرا
متجاوزا عن الحد فلو انا ارسلنا بما اقترحوه من الآيات لفعلوا بها ما فعلوا بنظائرها
وفعل بهم ما فعل باشياعهم وقد قضينا بتأخير العقوبة العامة لهذه الامة الى الطامة
الكبرى هذا هو الذي يستدعيه النظم الكريم وقد حمل اكثر المفسرين الاحاطة على
الاحاطة بالقدرة تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما عسى يعتريه من عدم الاجابة
الى انزال الآيات التي اقترحوها لان انزالها ليس بمصلحة من نوع حزن من طعن الكفرة
حيث كانوا يقولون لو كنت رسولا حقا لاتيت بهذه المعجزة كما اتى بها موسى
وغيره من الانبياء عليهم الصلوة والسلام فكانه قيل اذكر وقت قولنا لك ان
ربك اللطيف بك قد احاط بالناس فهم في قبضة قدرته لا يقدرون على الخروج من
مشيئته فهو يحفظك منهم فلا تهتم بهم وامض لما امرتك به بتبليغ الرسالة الا ترى
ان الرؤيا التي اريناك من قبل جعلناها فتنة للناس مورثة للشبهة مع انها ما اورثت
ضعفا لامرك وفتورا في حالك وقد فسر الاحاطة باهلاك قريش يوم بدر وانما عبر
عنه بالماضي مع كونه منتظرا حسبما ينبئ عنه قوله تعالى سيهزم الجمع ويولون الدبر
وقوله تعالى قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وغير ذلك جريا على عادته
سبحانه في اخبارنا واول الرؤيا بما عسى رآه عليه السلام في المنام من مصارعهم لما
روي عليه السلام لما ورد ماء بدر قال والله لكاني انظر الى مصارع القوم وهو يومي الى
الارض هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان فتسامعت به قريش فاستسخروا منه وبما
رآه عليه السلام انه سيدخل مكة واخبر به اصحابه فتوجه اليها فصده المشركون
عام الحديبية واعتذر عن كون ما ذكر مدنيا بانه يجوز ان يكون الوحي باهلاكهم وكذا
الرؤيا واقعا بمكة وذكر الرؤيا وتعيين المصارع واقعين بعد الهجرة وانت خبير بانه يلزم منه
ان يكون افتتان الناس بذلك واقعا بعد الهجرة وان يكون ازديادهم طغيانا متوقعا
غير واقع عند نزول الآية وقد قيل الرؤيا ما رآه عليه السلام في وقعة بدر من
مضمون قوله تعالى اذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو اراكهم كثيرا لفشلتم ولا ريب

في ان تلك الرؤيا مع وقوعها في المدينة ما جعلت فتنة للناس واذ قلنا للملائكة تذكير
لما جرى منه تعالى من الامر ومن الملائكة من الامتثال والطاعة من غير تردد وتحقيق
لمضمون ما سبق من قوله تعالى اولئك الذين يبتغون الى ربهم الوسيلة ايهم
اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا فيعلم من حال
الملائكة حال غيرهم من عيسى وعزير عليهما السلام في الطاعة وابتغاء الوسيلة
ورجاء الرحمة ومخافة العذاب ومن حال ابليس حال من يعاند الحق ويخالف
الامر اي واذكر وقت قولنا لهم اسجدوا لآدم تحية وتكريما لما له من الفضائل
المستوجبة لذلك فسجدوا له من غير تلعثم امتثالا بالامر واداء
لحقه عليه السلام الا ابليس وكان داخلا في زمرتهم مندرجا تحت الامر بالسجود
قال اي عند ما وبخ بقوله عز سلطانه يا ابليس ما لك الا تكون مع الساجدين
وقوله ما منعك الا تسجد اذ امرتك وقوله ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي
كما اشير اليه في سورة الحجر ااسجد وانا مخلوق من العنصر العالي لمن خلقت طينا
نصب على نزع الخافض اي من طين او حال من الراجع الى الموصول اي خلقته وهو
طين او من نفس الموصول اي ااسجد له واصله طين والتعبير عنه عليه السلام
بالموصول لتعليل انكاره بما في حيز الصلة قال اي ابليس لكن لا عقيب كلامه
المحكي بل بعد الانظار المترتب على استنظاره المتفرع على الامر بخروجه من بين الملأ
الاعلى باللعن المؤبد وانما لم يصرح بذلك اكتفاء بما ذكر في مواضع اخر فان توسيط
قال بين كلامي اللعين للايذان بعدم اتصال الثاني بالاول وعدم ابتنائه بل
على غيره كما في قوله تعالى قال فما خطبكم بعد قوله تعالى قال ومن يقنط من رحمة
ربه الا الضالون ارايتك هذا الذي كرمت علي الكاف لتاكيد الخطاب لا محل لها
من الاعراب وهذا مفعول اول والموصول صفة والثاني محذوف لدلالة الصلة عليه
اي اخبرني عن هذا الذي كرمته علي بان امرتني بالسجود له لم كرمته علي وقيل هذا
مبتدأ حذف عنه حرف الاستفهام والموصول مع صلته خبره ومقصوده الاستصغار
والاستحقار اي اخبرني اهذا من كرمته علي وقيل معنى ارايتك اتاملت كان
المتكلم ينبه المخاطب على استحضار ما يخاطبه به عقيبه لئن اخرتن الى يوم
القيمة كلام مبتدأ واللام موطئة للقسم وجوابه قوله لاحتنكن ذريته اي
لاستاصلنهم من قولهم احتنك الجراد الارض اذا جرد ما عليها اكلا او لاقودنهم
حيث ما شئت ولاستولين عليهم استيلاء قويا من قولهم حنكت الدابة واحتنكتها
اذا جعلت في حنكها الاسفل حبلا تقودها به وهذا كقوله لازينن لهم في الارض
ولاغوينهم اجمعين وانما علم تأتي ذلك المطلب له تلقيا من جهة الملائكة عليهم
السلام او استنباطا من قولهم اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء
او توسما من خلقه الا قليلا منهم وهم المخلصون الذين عصمهم الله تعالى
قال اذهب اي امض لشانك الذي اخترته وهو طرد له وتخلية بينه وبين
ما سولت له نفسه فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم اي جزاؤك وجزاؤهم
فغلب المخاطب على الغائب رعاية لحق المتبوعية جزاء موفورا اي جزاء مكملا من
قولهم فر لصاحبك عرضه فرة اي وفر وهو نصب على انه مصدر مؤكد لما في قوله فان
جهنم جزاؤكم من معنى تجازون او للفعل المقدر او حال موطئة لقوله موفورا
واستفزز اي استخف من استطعت منهم ان تستفزه بصوتك بدعائك الى الفساد
واجلب عليهم اي صح عليهم من الجلبة وهي الصياح بخيلك ورجلك اي باعوانك
وانصارك من راكب وراجل من اهل العيث والفساد قال ابن عباس رضي الله عنهما و
مجاهد وقتادة ان له خيلا ورجلا من الجن والانس فما كان من راكب يقاتل في معصية الله
تعالى فهو من خيل ابليس وما كان من راجل يقاتل في معصية تعالى فهو من رجل
ابليس والخيل الخيالة ومنه قوله صلى الله عليه وسلم يا خيل الله اركبي والرجل اسم

جمع للراجل كالصحب والركب وقرئ بكسر الجيم وهي قراءة حفص على انه فعل بمعنى فاعل
كتعب وتاعب وبضمه مثل حدث وحدث وندس وندس ونظايرهما اى بجمعك الراجل
ليطابق الخيل وقرئ رجالك ورجالك ويجوز ان يكون استفزازه بصوته واجلابه بخيله
ورجله تمثيلا لتسلطه على من يغويه فكانه مغوار اوقع على قوم فصوت بهم صوتا
يزعجهم من اماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم واجلب عليهم بجنده من خيالة
ورجالة حتى استاصلهم وشاركهم في الاموال بحملهم على كسبها وجمعها
من الحرام والتصرف على ما لا ينبغي والاولاد بالحث على التوصل اليهم بالاسباب المحرمة
والاشراك كتسميتهم عبد العزى والتضليل بالحمل على الاديان الزايغة والحرف الذميمة
والافعال القبيحة وعدهم المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة والاتكال على كرامة
الآباء وتاخير التوبة بتطويل الامل وما يعدهم الشيطان الا غرورا اعتراض لبيان
شان مواعيده والالتفات الى الغيبة لتقوية معنى الاعتراض مع ما فيه من صرف الكلام
عن خطابه وبيان شانه للناس ومن الاشعار بعلية شيطنته للغرور وهو تزيين
الخطا بما يوهم انه صواب ان عبادي الاضافة للتشريف وهم المخلصون وفيه
ان من لم يتبعه ليس منهم وان الاضافة لثبوت الحكم في قوله تعالى ليس لك عليهم سلطان
اى تسلط وقدرة على اغوائهم كقوله تعالى انه ليس له سلطان على الذين امنوا وعلى
ربهم يتوكلون وكفى بربك وكيلا لهم يتوكلون عليه ويستمدون به في الخلاص
عن اغوائك والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن المالكية المطلقة والتصرف الكلي
مع الاضافة الى ضمير ابليس للاشعار بكيفية كفايته تعالى لهم اعني سلب قدرته على
اغوائهم ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر مبتدا وخبر والازجاء السوق حالا
بعد حال اى هو القادر الحكيم الذي يسوق لنفعكم الفلك ويجريها في البحر
لتبتغوا من فضله من رزقه الذي هو فضل من قبله او من الربح الذي هو معطيه
ومن مزيدة او تبعيضية وهذا تذكير لبعض النعم التي هي دلايل التوحيد وتمهيد
لذكر توحيدهم عند مساس الضر تكملة لما مر من قوله تعالى فلا يملكون الآية انه
كان بكم ازلا وابدا رحيما حيث هيا لكم ما تحتاجون اليه وسهل عليكم ما يعسر من
مباديه وهذا تذييل فيه تعليل لما سبق من الازجاء لابتغاء الفضل وصيغة الرحيم
للدلالة على ان المراد بالرحمة الرحمة والنعمة العاجلة المنقسمة الى الجليلة والحقيرة واذا
مسكم الضر في البحر خوف الغرق ضل من تدعون اى ذهب عن خواطركم
ما كنتم تدعون من دون الله من الملائكة او المسيح او غيرهم الا اياه وحده من
غير ان يخطر ببالكم احد منهم وتدعوه لكشفه استقلالا او اشتراكا او ضل كل
من تدعونه عن اغاثتكم وانقاذكم ولم يقدر على ذلك الا الله على الاستثناء
المنقطع فلما نجاكم من الغرق واوصلكم الى البر اعرضتم عن التوحيد او اتسعتم
في كفران النعمة وكان الانسان كفورا تعليل لما سبق من الاعراض افامنتم
الهمزة للانكار والفاء للعطف على محذوف تقديره انجوتم فامنتم ان يخسف
بكم جانب البر الذي هو مامنكم اى يقلبه ملتبسا بكم او بسبب كونكم فيه وفي زيادة الجانب
تنبيه على تساوي الجوانب والجهات بالنسبة الى قدرته سبحانه وقهره وسلطانه
وقرئ بنون العظمة او يرسل عليكم من فوقكم وقرئ بالنون حاصبا ريحا ترمي
بالحصباء ثم لا تجدوا لكم وكيلا يحفظكم من ذلك او يصرفه عنكم فانه لا راد
لامره الغالب ام امنتم ان يعيدكم فيه في البحر اوثرت كلمة في على كلمة الى المنبئة
عن مجرد الانتهاء للدلالة على استقرارهم فيه تارة اخرى اسناد الاعادة
اليه تعالى مع ان العود اليه باختيارهم باعتبار خلق الدواعي الملجئة لهم الى
ذلك وفيه ايماء الى كمال شدة هول ما لاقوه في التارة الاولى بحيث لولا الاعادة لما عادوا
فيرسل عليكم وانتم في البحر وقرئ بالنون قاصفا من الريح وهي التي لا تمر بشيء
الا كسرته وجعلته كالرميم او التي لها قصيف وهو الصوت الشديد كانها تتقصف

اى تتكسر

اى تتكسر فيغرقكم بعد كسر فلككم كما ينبئ عنه عنوان القصف وقرئ بالنون وبالتاء
على الاسناد الى ضمير الريح بما كفرتم بسبب اشراككم او كفرانكم لنعمة الانجاء ثم لا تجدوا
لكم علينا به تبيعا اى ثائرا يطالبنا بما فعلنا انتصارا منا ودركا للثار من جهتنا
كقوله سبحانه ولا يخاف عقباها ولقد كرمنا بني آدم قاطبة تكريما شاملا لبرهم
وفاجرهم اى كرمناهم بالصورة والقامة المعتدلة والتسلط على ما في الارض
والتمتع به والتمكن من الصناعات وغير ذلك مما لا يكاد يحيط به نطاق العبارة
ومن جملته ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما من ان كل حيوان يتناول طعامه
بفيه الا الانسان فانه يرفعه اليه بيده وما قيل من شركة القرد له في ذلك مبني على
عدم الفرق بين اليد والرجل فانه متناول له برجله التي يطا بها القاذورات لا بيده
وحملناهم في البر والبحر على الدواب والسفن من حملته اذا جعلت له ما يركبه وليس
من المخلوقات شيء كذلك وقيل حملناهم فيهما حيث لم يخسف بهم الارض ولم
يغرقهم الماء وانت خبير بان الاول هو الانسب بالتكريم اذ جميع الحيوانات كذلك و
رزقناهم من الطيبات اى فنون النعم وضروب المستلذات مما يحصل بصنعهم وبغير
صنعهم وفضلناهم في العلوم والادراكات بما ركبنا فيهم من القوى المدركة التي بها
يتميز الحق من الباطل والحسن من القبيح على كثير ممن خلقنا وهم من عدا الملائكة
عليهم السلام تفضيلا عظيما فحق عليهم ان يشكروا هذه النعم ولا يكفروها
ويستعملوا قواهم في تحصيل العقايد الحقة ويرفضوا ما هم عليه من الشرك الذي
لا يقبله احد ممن له ادنى تمييز فضلا عمن فضل على من عدا الملا الاعلى الذين هم
هم العقول المحضة وانما استثنى جنس الملائكة من هذا التفضيل لان علومهم
دائمة عارية عن الخطاء والخلل وليس فيه دلالة على افضليتهم بالمعنى المتنازع فيه
فان المراد ههنا بيان التفضيل في امر مشترك بين جميع افراد البشر صالحها وطالحها ولا
يمكن ان يكون ذلك هو الفضل في عظم الدرجة وزيادة القربة عند الله سبحانه ان
اى حاجة الى تعيين ما فيه التفضيل بعد بيان ما هو المراد بالمفضلين فان استثناء الملائكة
عليهم السلام من تفضيل جميع افراد البشر عليهم لا يستلزم استثناءهم من تفضيل بعض
افراده عليهم قلنا لا بد من تعيينه البتة اذ ليس من الافراد الفاجرة للبشر احد يفضل على
احد من المخلوقات فيما هو المتنازع فيه اصلا بل هم ادنى من كل دني حسبما ينبئ قوله
تعالى اولئك كالانعام بل هم اضل سبيلا وقوله تعالى ان شر الدواب عند الله الذين
كفروا يوم ندعو نصب على المفعولية باضمار اذكر او ظرف لما دل عليه قوله تعالى ولا
يظلمون وقرئ بالياء على البناء للفاعل او للمفعول ويدعو بقلب الالف واوا على لغة من
يقول في افعى افعو وقد جوز كون الواو علامة للجمع كما في قوله تعالى واسروا النجوى او
ضميرا وكل بدلا منه والنون محذوفة لقلة المبالاة بها فانها ليست الا علامة الرفع
وقد يكتفى بتقديره كما في يدعى كل اناس من بني آدم الذين فعلنا بهم في الدنيا ما فعلنا
من التكريم والتفضيل وهذا شروع في بيان تفاوت احوالهم في الآخرة بحسب احوالهم
واعمالهم في الدنيا بامامهم اى بمن ائتموا به من نبي او مقدم في الدين او كتاب او
دين وقيل بكتاب اعمالهم التي قدموها فيقال يا اصحاب كتاب الخير يا اصحاب كتاب الشر
او يا اهل دين كذا يا اهل كتاب كذا وقيل الامام جمع ام كخف وخفاف والحكمة في دعوتهم
بامهاتهم اجلال عيسى عليه السلام وتشريف الحسنين رضي الله عنهما والستر على اولاد
الزنا فمن اوتي يومئذ من اولئك المدعوين كتابه صحيفة اعماله بيمينه ابانة لخطر
الكتاب المؤتى وتشريفا لصاحبه وتبشيرا له من اول الامر بما في مطاويه فاولئك
اشارة الى من باعتبار معناه ايذانا بانهم حزب مجتمعون على شان او اشعارا بان
قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد كما في حال الايتاء وما فيه
من الدلالة على البعد للاشعار برفعة درجاتهم اى اولئك المختصون بتلك الكرامة التي
يشعر بها الايتاء المزبور يقرؤون كتابهم الذي اوتوه على الوجه المبين تبجحا بما سطر فيه

من الحسنات المستتبعة لفنون الكرامات ولا يظلمون اى لا ينقصون من اجور اعمالهم
المرتسمة فى كتبهم بل يؤتونها مضاعفة فتيلا اى قدر فتيل وهو القشرة التى فى شق
النواة او ادنى شئ فان الفتيل مثل فى القلة والحقارة ومن كان من المدعوين المذكورين
فى هذه الدنيا التى فعل بهم فيها ما فعل من فنون التكريم والتفضيل اعمى فاقد البصيرة
لا يهتدى الى رشده ولا يعرف ما اوليناه من نعمة التكرمة والتفضيل فضلا عن شكرها
والقيام بحقوقها ولا يستعمل ما اودعنا فيه من العقول والقوى فيما خلقن له من العلوم
والمعارف الحقة فهو فى الآخرة التى عبر عنها بيوم ندعوا اعمى كذلك اى لا يهتدى الى
ما ينجيه ولا يظفر بما يجديه لان العمى الاول موجب للثانى وقد جوز كون الثانى بمعنى
التفضيل على ان عماه فى الآخرة اشد من عماه فى الدنيا ولذلك قرأ ابو عمرو الاول ممالا و
الثانى مفخما واضل سبيلا اى من الاعمى لزوال الاستعداد الممكن وتعطل الآلات بالكلية و
هذا بعينه هو الذى اوتى كتابه بشماله بدلالة حال ما سبق من الفريق المقابل له ولعل العدول
عن ذكره بذلك العنوان مع انه الذى يستدعيه حسن المقابلة حسبما هو الواقع فى سورة
الحاقة وسورة الانشقاق للايذان بالعلة الموجبة كما فى قوله تعالى واما ان كان من المكذبين
الضالين بعد قوله تعالى فاما ان كان من اصحاب اليمين وللرمز الى علة حال الفريق
الاول وقد ذكر فى احد الجانبين المسبب وفى الآخر السبب ودل بالمذكور فى كل منهما
على المتروك فى الآخر تعويلا على شهادة العقل كما فى قوله عز وعلا وان يمسسك
الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله وان كادوا ليفتنونك
نزلت فى ثقيف اذ قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم لا ندخل فى امرك حتى تعطينا خصالا
نفتخر بها على العرب لا نعشر ولا نحشر ولا نجبى فى صلواتنا وكل ربوا لنا فهو لنا وكل
ربوا علينا فهو موضوع عنا وان تمتعنا باللات سنة وان تحرم وادينا كما حرمت
مكة فاذا قالت العرب لم فعلت فقل ان الله امرنى بذلك وقيل فى قريش حين قالوا
اجعل لنا آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة وقالوا لا نمكنك من استلام
الحجر حتى تلم بآلهتنا فان مخففة من المشددة وضمير الشان الذى هو اسمها محذوف
واللام هى الفارقة بينها وبين النافية اى ان الشان قاربوا ان يفتنوك اى يخدعوك
فاتنين عن الذى اوحينا اليك من اوامرنا ونواهينا ووعدنا لتفترى علينا غيره
لتقول علينا غير الذى اوحينا اليك مما اقترحته ثقيف او قريش حسبما نقل واذا لاتخذوك
خليلا اى لو اتبعت اهواءهم لكنت لهم وليا ولخرجت من ولايتى ولولا ان ثبتناك على
ما انت عليه من الحق بعصمتنا لك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا من الركون الذى هو
ادنى ميل اى لولا تثبيتنا لك لقاربت ان تميل اليهم شيئا يسيرا من الميل اليسير لقوة خدعهم
وشدة احتيالهم لكن ادركتك العصمة فمنعتك من ان تقرب من ادنى مراتب الركون اليهم
فضلا عن نفس الركون وهذا صريح فى انه عليه السلام ما هم باجابتهم مع قوة الداعى و
دليل على ان العصمة بتوفيق الله تعالى وعنايته اذا لو قاربت ان تركن اليهم ادنى ركنة
لاذقناك ضعف الحيوة وضعف الممات اى عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ضعف ما نعذب
به فى الدارين بمثل هذا الفعل غيرك لان خطاب الخطير خطير وكان اصل الكلام عذابا
ضعفا فى الحيوة وعذابا ضعفا فى الممات بمعنى مضاعفا ثم حذف الموصوف واقيمت
الصفة مقامه ثم اضيفت اضافة موصوفها وقيل الضعف من اسماء العذاب وقيل
المراد بضعف الحياة عذاب الآخرة وبضعف الممات عذاب القبر ثم لا تجد لك علينا
نصيرا يدفع عنك العذاب وان كادوا الكلام فيه كما فى الاول اى كاد اهل مكة
ليستفزونك اى ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم من الارض اى الارض التى انت
فيها وهى ارض مكة ليخرجوك منها واذا لا يلبثون بالرفع عطفا على خبر كاد وقرئ
لا يلبثوا بالنصب باعمال اذا على ان الجملة معطوفة على جملة وان كادوا ليستفزونك
خلافك اى بعدك قال خلت الديار خلافهم فكانما بسط الشواطب بينهن حصيرا اى
ولو خرجت لا يبقون بعد خروجك وقرئ خلفك الا قليلا الا زمانا قليلا وقد كان كذلك

فانهم

فانهم اهلكوا ببدر بعد هجرته عليه السلام وقيل نزلت الآية فى اليهود حين حسدوا
مقام النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقالوا الشام مقام الانبياء عليهم السلام
فان كنت نبيا فالحق بها حتى نؤمن بك فوقع ذلك فى قلبه عليه السلام فخرج مرحلة فنزلت
فرجع ثم قتل منهم بنو قريظة واجلى بنو النضير بقليل سنة من قد ارسلنا قبلك
من رسلنا نصب على المصدرية اى سن الله تعالى سنة وهى ان يهلك كل امة اخرجت
رسولهم من بين اظهرهم فالسنة لله تعالى واضافتها الى الرسل لانها سنت لاجلهم
على ما ينطق به قوله عز وجل ولا تجد لسنتنا تحويلا اى تغييرا اقم الصلوة لدلوك الشمس
لزوالها كما ينبئ عنه قوله عليه السلام اتانى جبرئيل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت
فصلى بى الظهر واشتقاقه من الدلك لان من نظر اليها حينئذ يدلك عينيه وقيل
لغروبها من دلكت الشمس اى غربت وقيل اصل الدلوك الميل فينتظم كلا المعنيين واللام
للتاقيت مثلها فى قولك لثلاث خلون الى غسق الليل الى اجتماع ظلمته وهو وقت صلاة
العشاء وليس المراد اقامتها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار بل اقامة كل صلاة
فى وقتها الذى عين لها ببيان جبريل عليه السلام ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ والمنتهى
فى اوقات الصلوات من غير فصل بينها لما ان الانسان فيما بين هذه الاوقات على اليقظة
فبعضها متصل ببعض بخلاف اول وقت العشاء والفجر فانه باشتغاله فيما بينهما
بالنوم ينقطع احدهما عن الآخر ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الاوقات وقيل
المراد بالصلاة صلوة المغرب والتحديد المذكور بيان لمبدائه ومنتهاه واستدل به
على امتداد وقته الى غروب الشفق وقوله تعالى وقرآن الفجر اى صلاة الفجر نصب عطفا
على مفعول اقم او على الاغراء قاله الزجاج وانما سميت قرآنا لانه ركنها كما
سمى ركوعا وسجودا واستدل به على الركنية ولكن لا دلالة على ذلك لجواز كون
مدار التجوز كون القراءة مندوبة نعم لو فسر بالقراءة فى صلوة الفجر لدل الامر باقامتها
على الوجوب فيها نصا وفيما عداها دلالة ويجوز ان يكون وقرآن الفجر حثا على تطويل
القراءة فى صلاة الفجر ان قرآن الفجر اظهر فى مقام الاضمار ابانة لمزيد الاهتمام به
كان مشهودا يشهده ملئكة الليل وملئكة النهار او شواهد القدرة من تبدل الضياء
بالظلمة والانتباه بالنوم الذى هو اخو الموت او يشهده كثير من المصلين او من حقه
ان يشهده الجم الغفير فالآية على تفسير الدلوك بالزوال جامعة للصلوات الخمس وعلى
تفسيره بالغروب لما عدا الظهر والعصر ومن الليل قيل هو نصب على الاغراء اى الزم
بعض الليل وقيل لا يكون المغرى به حرفا ولا يجدى نفعا كون معناها التبعيض فان
واو مع ليست اسما بالاجماع وان كانت بمعنى الاسم الصريح بل هو منصوب على الظرفية
بمضمر اى قم بعض الليل فتهجد به اى ازل والق الهجود اى النوم فان صيغة
التفعل تجئ للازالة كالتحرج والتحنث والتاثم ونظائرها والضمير المجرور للقرآن
من حيث هو لا بقيد اضافته الى الفجر او للبعض المفهوم من قوله تعالى من الليل اى تهجد
فى ذلك البعض على ان الباء بمعنى فى وقيل منصوب بتهجد اى تهجد بالقرآن بعض
الليل على طريقة واياى فارهبون نافلة لك فريضة زائدة على الصلوات الخمس
المفروضة خاصة بك دون الامة ولعله هو الوجه فى تاخير ذكرها عن ذكر صلوة
الفجر مع تقدم وقتها عليه او تطوعا لكن لا لكونها زيادة على الفرائض
بل لكونها زيادة له صلى الله عليه وسلم فى الدرجات على ما قال مجاهد والسدى
فانه عليه السلام مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تاخر فيكون تطوعه زيادة
فى درجاته بخلاف من عداه من الامة فان تطوعهم لتكفير ذنوبهم وتدارك الخلل
الواقع فى فرائضهم وانتصابها اما على المصدرية بتقدير تنفل او بجعل تهجد بمعناه
او بجعل نافلة بمعنى تهجدا فان ذلك عبادة زائدة واما على الحالية من الضمير الراجع
الى القرآن اى حال كونها صلوة نافلة واما على المفعولية لتهجد اذا جعل بمعنى صل وجعل
الضمير المجرور للبعض اى فصل فى ذلك البعض نافلة لك عسى ان يبعثك ربك الذى

يبلغك الى كمالك اللايق بك من بعد الموت الاكبر لما ابعثت من النوم الذي هو الموت
الاصغر بالصلوة والعبادة مقاما نصب على الظرفية على اضمار فيقيمك او تضمين البعث
معنى الاقامة اذ لابد من ان يكون العامل في مثل هذا الظرف فعلا فيه معنى
الاستقرار ويجوز ان يكون حالا بتقدير مضاف اى يبعثك ذا مقام محمودا عندك
وعند جميع الناس وفيه تهوين لمشقة قيام الليل وروي ابو هريرة رضي الله عنه
ان النبي صلى الله عليه وسلم قال المقام المحمود هو المقام الذي اشفع فيه لامتي وعن
ابن عباس رضي الله عنهما مقاما يحمدك فيه الاولون والاخرون وتشرف فيه على جميع
الخلائق تسأل فتعطى وتشفع فتشفع ليس احد الا تحت لوائك وعن حذيفة رضه
يجمع الناس في صعيد واحد فلا يتكلم فيه نفس فاول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم
فيقول لبيك وسعديك والشر ليس اليك والمهدي من هديت وعبدك بين يديك
بك واليك لا ملجأ ولا منجى منك الا اليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت وقل
رب ادخلني اى القبر مدخل صدق اى ادخالا مرضيا واخرجني اى منه عند البعث
مخرج صدق اى اخراجا مرضيا ملقى بالكرامة فهو تلقين للدعا بما وعده من البعث المقرون
بالاقامة المعهودة التي لا كرامة فوقها وقيل المراد ادخال المدينة والاخراج من مكة وتغيير ترتيب
الوجود لكون الادخال هو المقصد وقيل ادخاله عليه السلام مكة ظاهرا عليها واخراجه منها
آمنا من المشركين وقيل ادخاله الغار واخراجه منه سالما وقيل ادخاله فيما حمله من اعباء
الرسالة واخراجه منه مؤديا حقه وقيل ادخاله في كل ما يلابسه من مكان او امر واخراجه
منه وقرئ مدخل ومخرج بالفتح على معنى ادخلني فادخل دخولا واخرجني فاخرج خروجا
كمعنى له وعضة دهر يا ابن مروان لم يدع من المال الا مسحت او مجلف اى لم يدع فلم
يبق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا حجة تنصرني على من يخالفني او ملكا
وعزا ناصرا للاسلام مظهرا له على الكفر فاجيبت دعوته عليه بقوله عز وعلا والله
يعصمك من الناس الا ان حزب الله هم الغالبون ليظهره على الدين كله ليستخلفنهم
في الارض وقل جاء الحق اى الاسلام والوحي الثابت الراسخ وزهق الباطل اى ذهب
وهلك الشرك والكفر وتسويلات الشيطان من زهق روحه اذا خرج ان الباطل كان
ماكان زهوقا اى شانه ان يكون مضمحلا غير ثابت وهو عدة كريمة باجابة
الدعاء بالسلطان النصير الذي لقنه عن ابن مسعود رضي الله عنه انه عم دخل مكة يوم
الفتح وحول البيت ثلثمائة وستون صنما فجعل ينكث بمخصرة كانت في يده في عين واحد
واحد فيقول جاء الحق فينكب لوجهه حتى القى جميعها وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة وكان
من صفر فقال يا علي ارم به فصعد فرمى به فكسره وننزل من القران وقرئ ننزل من
الانزال ما هو شفاء لما في الصدور من ادواء الريب واسقام الاوهام ورحمة
للمؤمنين به العاملين بما في تضاعيفه اى ما هو في تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم
كالدواء الشافي للمرضى ومن بيانية قدمت على المبين اعتناء فان كل القران كذلك
وعن النبي صلى الله عليه وسلم من لم يستشف بالقران فلا شفاه الله او تبعيضية
لكن لا بمعنى ان بعضه ليس كذلك بل بمعنى انا ننزل منه في كل نوبة ما يستدعي الحكمة
نزوله حينئذ فيقع ذلك ممن نزل عليهم بسبب موافقته لاحوالهم الداعية الى نزوله موقع
الدواء الشافي الصادف لابانه من المرضى المحتاجين اليه بحسب الحال من غير تقديم ولا
تاخير فكل بعض متصف بالشفا لكن لا في كل حين بل عند تنزيله ويجوز التبعيض باعتبار
الشفا الجسماني كما في الفاتحة وايات الشفا الا يساعده قوله سبحانه ولا يزيد الظالمين
الا خسارا اى لا يزيد القران كله او كل بعض منه الكافرين المكذبين به الواضعين
الاشياء في غير موضعها مع كونه في نفسه شفاء من الاسقام الا خسارا اى هلاكا
بكفرهم وتكذيبهم لا نقصانا كما قيل فان ما بهم من داء الكفر والضلال حقيق بان
يعبر عنه بالهلاك لا بالنقصان المنبي عن حصول بعض مبادي الاسلام فيهم وزيادتهم في مراتب
الهلاك من حيث انهم كلما جددوا الكفر والتكذيب بالايات النازلة تدريجا ازدادوا بذلك هلاكا

وفيه ايماء الى ان ما بالمؤمنين من الشبه والشكوك المعترية لهم في اثناء الاهتداء والاسترشاد
بمنزلة الامراض وما بالكفرة من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك واسناد الزيادة
المذكورة الى القران مع انهم هم المزدادون في ذلك بسوء صنيعهم باعتبار كونه سببا
لذلك وفيه تعجيب من امره حيث يكون مدارا للشفاء والهلاك واذا انعمنا على الانسان بالصحة
والنعمة اعرض عن ذكرنا فضلا عن القيام بمواجب الشكر ونأى تباعد من طاعتنا
بجانبه الناى بالجانب ان يلوى عن الشيء عطفه ويوليه عرض وجهه فهو تاكيد للاعراض
او عبارة عن الاستكبار لانه من ديدن المستكبرين واذا مسه الشر من فقر او مرض
او نازلة من النوازل وفي اسناد المساس الى الشر بعد اسناد الانعام الى ضمير الجلالة
ايذان بان الخير مراد بالذات والشر ليس كذلك كان يؤسا شديد اليأس من روحنا
وهذا وصف للجنس باعتبار بعض افراده ممن هو على هذه الصفة ولا ينافيه قوله تعالى
واذا مسه الشر فذو دعاء عريض ونظائره فان ذلك شان بعض اخرين منهم وقيل
اريد به الوليد بن المغيرة وقرئ ناء اما على القلب كما يقال راء في رأى واما على انه
بمعنى نهض قل كل اى كل احد منكم وممن هو على خلافكم يعمل على شاكلته
طريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة او جوهر روحه واحواله التابعة لمزاج بدنه
فربكم الذي براكم على هذه الطبايع المتخالفة اعلم بمن هو اهدى سبيلا اى اسد طريقا
وابين منهاجا وقد فسرت الشاكلة بالطبيعة والعادة والدين ويسئلونك عن الروح
الظاهر ان السؤال كان عن حقيقة الروح الذي هو مدبر البدن الانساني ومبدأ حياته
روي ان اليهود قالوا لقريش سلوه عن اصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح
فان اجاب عنها جميعا او سكت فليس بنبي وان اجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو
نبي فبين لهم القصتين وابهم امر الروح وهو مبهم في التوراة قل الروح اظهر
في مقام الاضمار اظهارا لكمال الاعتناء بشانه من امر ربي كلمة من بيانية والامر
بمعنى الشان والاضافة للاختصاص العلمي لا الايجادي لاشتراك الكل فيه وفيها من تشريف
المضاف ما لا يخفى كما في الاضافة الثانية من تشريف المضاف اليه اى هو من جنس ما
استأثر الله تعالى بعلمه من الاسرار الخفية التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر وما
اوتيتم من العلم الا قليلا لا يمكن تعلقه بامثال ذلك روي انه صلى الله عليه وسلم
لما قال لهم ذلك قالوا انحن مختصون بهذا الخطاب قال عليه السلام بل نحن وانتم فقالوا
ما اعجب شانك ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا وتارة تقول هذا
فنزلت ولو ان ما في الارض من شجرة اقلام الاية وانما قالوا ذلك لقصور عقولهم فان
الحكمة الانسانية ان يعلم من الخير ما تسعه الطاقة البشرية بل ما ينيط به المعاش والمعاد
وذلك بالاضافة الى ما لا نهاية له من معلوماته سبحانه قليل ينال به خير كثير في نفسه او بالنسبة
الى الانسان او هو من الابداعيات الكائنة بمحض الامر التكويني من غير تحصل من مادة وتولد
من اصل كاعضاء الجسد حتى يمكن تعريفه ببعض مباديه وماله انه من عالم الامر لا من
عالم الخلق وليس هذا من قبيل قوله سبحانه انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون
فان ذلك عبارة عن سرعة التكوين سواء كان الكائن من عالم الامر او من عالم الخلق
وفيه تنبيه على انه مما لا يحيط بكنهه دائرة ادراك البشر وانما الممكن هذا القدر الاجمالي
المندرج تحت ما استثني بقوله تعالى وما اوتيتم من العلم الا قليلا اى الا علما قليلا
تستفيدونه من طرق الحواس فان تعقل المعارف النظرية انما هو من احساس
الجزئيات ولذلك قيل من فقد حسا فقد فقد علما ولعل اكثر الاشياء لا يدركه الحس ولا شيئا من
احواله التي يدور عليها معرفة ذاته واما حمل ما ذكر على السؤال عن قدمه وحدوثه
وجعل الجواب اخبارا بحدوثه اى كاين بتكوينه حادث باحداثه بالامر التكويني فمع عدم
ملايمته لحال السائلين لا يساعده التعرض لبيان قلة علمهم فان ما سألوا عنه مما يفي
به علمهم حينئذ وقد اخبر عنه وقيل المراد بالروح خلق عظيم روحاني اعظم من الملك وقيل جبريل عم
وقيل القران ومعنى من امر ربي من وحيه وكلامه لا من كلام البشر ولئن شئنا لنذهبن

بالذي اوحينا اليك من القران الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين ومنبع للعلوم التي اوتيتها
وثبتناك عليه حين كادوا يفتنونك عنه ولولاه لكدت تركن اليهم شيئا قليلا وانما عبر عنه
بالموصول تفخيما لشانه ووصفا له بما في حيز الصلة ابتداء اعلاما بحاله من اول الامر وبانه
ليس من قبيل كلام المخلوق واللام موطئة للقسم ولنذهبن جوابه النائب مناب جزاء
الشرط ولذلك حسن حذف مفعول المشية والمراد من الذهاب به المحو عن المصاحف
والصدور وهو ابلغ من الاذهاب عن ابن مسعود رضي الله عنه ان اول ما تفقدون من
دينكم الامانة وآخر ما تفقدون الصلوة وليصلين قوم ولا دين لهم وان هذا القرآن
تصبحون يوما وما فيكم منه شيء فقال رجل كيف ذلك وقد اثبتناه في قلوبنا واثبتناه
في مصاحفنا نعلمه ابناءنا ويعلمه ابناؤنا ابناءهم فقال يسرى عليه ليلا فيصبح الناس
منه فقراء ترفع المصاحف وينزع ما في القلوب ثم لا تجد لك به اي بالقران علينا
وكيلا من يتوكل علينا استرداده مسطورا محفوظا الا رحمة من ربك فانها ان
نالتك لعلها تسترده عليك ويجوز ان يكون استثناء منقطعا بمعنى ولكن رحمة من
ربك تركته غير مذهوب به فيكون امتنانا بابقائه بعد المنة بتنزيله وترغيبا في المحافظة
على اداء حقوقه وتحذيرا من ان لا يقدر قدره الجليل ويفرط في القيام بشكره وهو اجل
النعم واعظمها ان فضله كان عليك كبيرا كارسالك وانزال الكتاب عليك وابقائه
في حفظك وغير ذلك قل للذين لا يعرفون جلالة قدر التنزيل ولا يفهمون فخامة
شانه الجليل بل يزعمون انه من كلام البشر لئن اجتمعت الانس والجن اي اتفقوا على ان
يأتوا بمثل هذا القرآن المنعوت بما لا تدركه العقول من النعوت الجليلة في البلاغة وحسن
النظم وكمال المعنى وتخصيص الثقلين بالذكر لان المنكر لكونه من عند الله تعالى منهما لا من
غيرهما لان غيرهما قادر على المعارضة لا يأتون بمثله اوثر الاظهار على ايراد الضمير
الراجع الى المثل المذكور احترازا عن ان يتوهم ان له مثلا معينا وايذانا بان المراد نفي الاتيان
بمثل ما اي لا يأتون بكلام مماثل له فيما ذكر من الصفات البديعة وفيهم العرب العاربة
ارباب البراعة والبيان وهو جواب للقسم الذي ينبئ عنه اللام الموطئة وساد مسد
جزاء الشرط ولولاها لكان جوابا له بغير جزم لكون الشرط ماضيا كما في قول زهير وان اتاه
خليل يوم مسئلة يقول لا غائب مالي ولا حرم وحيث كان المراد بالاجتماع على الاتيان
بمثل القرآن مطلق الاتفاق على ذلك سواء كان التصدي للمعارضة من كل واحد منهم
على الانفراد او من المجموع بان يتالبوا على تلفيق كلام واحد بتلاحق الافكار وتعاضد
الانظار قيل ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا اي في تحقيق ما يتوخونه من الاتيان بمثله
وهو عطف على مقدر اي لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيرا لبعض ولو كان الخ وقد
حذف المعطوف عليه حذفا مطردا لدلالة المعطوف عليه دلالة واضحة فان الاتيان
بمثله حيث انتفى عند التظاهر فلان لا ينتفي عند عدمه اولى وعلى هذه النكتة يدور
ما في ان ولو الوصليتين من التاكيد كما مر غير مرة ومحله النصب على الحالية حسبما عطف عليه
اي لا يأتون بمثله على كل حال مفروض ولو في هذه الحال المنافية لعدم الاتيان فضلا عن
غيرها وفيه حسم لاطماعهم الفارغة في روم تبديل بعض آياته ببعض ولا مساغ لكون الاية
تقريرا لما قبلها من قوله تعالى ثم لا تجد لك به علينا وكيلا كما قيل لكن لا لما قيل
من ان الاتيان بمثله اصعب من استرداد عينه ونفي الشيء انما يقرر نفي ما دونه لا نفي ما فوقه فان
اصعبية الاسترداد بغير امره تعالى من الاتيان بمثله مما لا شبهة فيه بل لان الجملة القسمية
ليست مسوقة الى النبي صلى الله عليه وسلم بل الى المكابرين من قبله عليه السلام ولقد
صرفنا كررنا ورددنا على انحاء مختلفة توجب زيادة تقرير ووكادة رسوخ واطمئنان
للناس في هذا القرآن المنعوت بما ذكر من النعوت الفاضلة من كل مثل من كل معنى
بديع هو في الحسن والغرابة واستجلاب النفس كالمثل ليتلقوه بالقبول فابى اكثر الناس
اوثر الاظهار على الاضمار تاكيدا وتوضيحا الا كفورا اي الا جحودا وانما صح الاستثناء من الموجب
مع انه لا يصح ضربت الا زيدا لانه متأول بالنفي كانه قيل ما قبل اكثرهم الا كفورا وفيه من

المبالغة ما ليس في ابوا الايمان لان فيه دلالة على انهم لم يرضوا بخصلة سوى الكفور من
الايمان والتوقف في الامر ونحو ذلك وانهم بالغوا في عدم الرضى حتى بلغوا مرتبة الاباء وقالوا
عند ظهور عجزهم ووضوح مغلوبيتهم بالاعجاز التنزيلي وغيره من المعجزات الباهرة
معللين بما لا يمكن في العادة وجوده ولا يقتضي الحكمة وقوعه من الامور كما هو ديدن
المبهوت المحجوج لن نؤمن لك حتى تفجر وقرئ بالتشديد لنا من الارض ارض مكة ينبوعا
عينا لا ينضب ماؤها يفعول من نبع الماء كيعبوب من عب الماء اذا زخر او تكون لك
جنة اي بستان يستر اشجاره ما تحتها من العرصة من نخيل وعنب فتفجر الانهار اي
تجريها بقوة خلالها تفجيرا كثيرا والمراد اما اجراء الانهار خلالها عند سقيها او ادامة
اجرائها كما ينبئ عنه الفاء لا ابتداؤه او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا جمع كسفة
كقطعة وقطع لفظا ومعنى وقرئ بالسكون كسدرة وسدر وهي حال من السماء والكاف في
محل النصب على انه صفة مصدر محذوف اي اسقاطا مماثلا لما زعمت يعنون بذلك
قوله تعالى او نسقط عليهم كسفا او تاتي بالله والملائكة قبيلا اي مقابلا كالعشير
والمعاشر او كفيلا يشهد بصحة ما تدعيه وهو حال من الجلالة وحال الملائكة محذوفة
لدلالتها عليها اي والملائكة قبيلا كما حذف الخبر في قوله فاني وقيار بها لغريب او جماعة
فيكون حالا من الملائكة او يكون لك بيت من زخرف من ذهب وقد قرئ به واصله
الزينة او ترقى في السماء اي في معارجها فحذف المضاف يقال رقى في السلم وفي الدرجة
ولن نؤمن لرقيك اي لاجل رقيك فيها وحده او لن نصدق رقيك فيها حتى تنزل
منها علينا كتابا فيه تصديقك نقرؤه نحن من غير ان تلقى من قبلك عن ابن عباس
رضي الله عنهما قال عبد الله بن امية لن نؤمن لك حتى تتخذ الى السماء سلما
ثم ترقى فيه وانا انظر حتى تاتيها وتاتي معك بصك منشور معه اربعة من الملائكة
يشهدون انك كما تقول وما كانوا يقصدون بهاتيك الاقتراحات الباطلة الا العناد
واللجاج ولو انهم اوتوا اضعاف ما اقترحوا من الآيات ما زادهم ذلك الا مكابرة
والا فقد كان يكفيهم بعض ما شاهدوا من المعجزات التي تخر لها صم الجبال قل تعجبا من
شدة شكيمتهم وتنزيها لساحة السبحان عما لا يكاد يليق بها من مثل هذه الاقتراحات
الشنيعة التي تكاد السموات يتفطرن او عن طلبك ذلك وتنبيها على بطلان ما قالوه
سبحان ربي وقرئ قال سبحان ربي هل كنت الا بشرا لا ملكا حتى يتصور مني الرقي
في السماء ونحوه رسولا مامورا من قبل ربي بتبليغ الرسالة من غير ان يكون لي
خيرة في الامر كسائر الرسل وكانوا لا يأتون قومهم الا بما يظهره الله على ايديهم حسبما يلائم
حال قومهم ولم يكن امر الآيات اليهم ولا لهم ان يتحكموا على الله سبحانه بشيء منها وقوله
بشرا خبر كنت ورسولا صفته وما منع الناس اي الذين حكيت اباطيلهم ان يؤمنوا
مفعول ثان لمنع وقوله اذ جاءهم الهدى اي الوحي ظرف لمنع او يؤمنوا اي
وما منعهم وقت مجيء الوحي المقرون بالمعجزات المستدعية للايمان ان يؤمنوا بالقرآن
وبنبوتك او ما منعهم ان يؤمنوا بذلك وقت مجيء ما ذكر الا ان قالوا في محل
الرفع على انه فاعل منع اي الا قولهم ابعث الله بشرا رسولا منكرين ان يكون
رسول الله تعالى من جنس البشر وليس المراد ان هذا القول صدر عن بعضهم فمنع بعضا
آخر منهم بل المانع هو الاعتقاد الشامل للكل المستتبع لهذا القول منهم وانما عبر بالقول
ايذانا بانه مجرد قول يقولونه بافواههم من غير ان يكون مفهوما ومصداق وحصر
المانع من الايمان فيما ذكر مع ان لهم موانع شتى لما انه معظمها او لانه هو المانع
بحسب الحال اعني عند سماع الجواب بقوله تعالى هل كنت الا بشرا رسولا اذ هو الذي
يتشبثون به حينئذ من غير ان يخطر ببالهم شبهة اخرى من شبههم الواهية وفيه
ايذان بكمال عنادهم حيث يشير الى ان الجواب المذكور مع كونه حاسما لمواد شبههم
ملجئا الى الايمان يعكسون الامر ويجعلونه مانعا منه قل لهم اولا من قبلنا تبيينا للحكمة و
تحقيقا للحق المزيح للريب لو كان اي لو وجد واستقر في الارض بدل البشر ملائكة

يمشون مطمئنين قارين فيها من غير ان يعرجوا فى السماء ويعلموا ما يجب ان يعلم لنزلنا
عليهم من السماء ملكا رسولا يهديهم الى الحق ويرشدهم الى الخير لتمكنهم من الاجتماع به
والتلقى منه واما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق مفاوضة الملئكة كيف لا وهى
منوطة بالتناسب والتجانس فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة التى عليها مبنى التكوين والتشريع
وانما يبعث الملك من بينهم الى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية
المتعلقين بكلا العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب ويلقوا الى جانب وقوله
ملكا يحتمل ان يكون حالا من رسولا وان يكون موصوفا به وكذلك بشرا فى قوله تعالى ابعث الله
بشرا رسولا والاول اولى قل لهم ثانيا من جهتك بعد ما قلت من قبلنا ما قلت وبينت
لهم ما يقتضيه الحكمة فى البعثة ولم يرفعوا اليه راسا كفى بالله وحده شهيدا على انى
اديت ما علىّ من مواجب الرسالة اكمل اداء وانكم فعلتم من التكذيب والعناد
وتوجيه الشهادة الى كونه رسولا باظهار المعجزة على وفق دعواه كما اشتهر لا يساعده
قوله تعالى بينى وبينكم وما بعده من التعليل وانما لم يقل بيننا تحقيقا للمفارقة
وابانة للمباينة وشهيدا اما حال او تمييز انه كان بعباده من الرسل والمرسل خبيرا بصيرا محيطا
بظواهر احوالهم وبواطنها فيجازيهم على ذلك وهو تعليل للكفاية وفيه تسلية لرسول الله
صلى الله عليه وسلم وتهديد للكفار ومن يهد الله كلام مبتدا يفصل ما اشار اليه
الكلام السابق من مجازاة العباد اشارة اجمالية اى من يهده الله الى الحق بما جاء من قبله
من الهدى فهو المهتد اليه من الثواب او المهتدى الى كل مطلوب ومن يضلل
اى يخلق فيه الضلال بسوء اختياره كهؤلاء المعاندين فلن تجد لهم اولياء
ضمير الجماعة اعتبارا لمعنى من غبّ ما وحّد فى مقابلة الافراد نظرا الى لفظها تلويحا بوحدة
طريق الحق وقلة سالكيه وتعدد سبل الضلال وكثرة الضلال اولياء من دونه
من دون الله تعالى اى انصارا يهدونهم الى طريق الحق او الى طريق يوصلهم الى مطالبهم
الدنيوية والاخروية او الى طريق النجاة من العذاب الذى يستدعيه ضلالهم
على معنى لن تجد لاحد منهم وليا على ما يقتضيه قضية مقابلة الجمع بالجمع من انقسام الاحاد
الى الاحاد ونحشرهم التفات من الغيبة الى التكلم ايذانا بكمال الاعتناء بامر الحشر
يوم القيمة على وجوههم حال من الضمير المنصوب اى كائنين عليها سحبا كقوله تعالى
يوم يسحبون فى النار على وجوههم او مشيا فقد روى انه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم
كيف يمشون على وجوههم قال ان الذى امشاهم على اقدامهم قادر على ان يمشيهم
على وجوههم عميا حال من الضمير المجرور فى الحال السابقة وبكما وصما لا يبصرون
ما يقر اعينهم ولا ينطقون ما يقبل منهم ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم لما قد كانوا فى الدنيا
لا يستبصرون بالايات والعبر ولا ينطقون بالحق ولا يستمعونه ويجوز ان يحشروا بعد
الحساب من الموقف الى النار مؤفى القوى والحواس وان يحشروا كذلك ثم يعاد اليهم
قواهم وحواسهم فان ادراكاتهم بهذه المشاعر فى بعض المواطن مما لا ريب فيه
مأويهم جهنم اما حال او استيناف وكذا قوله تعالى كلما خبت زدناهم سعيرا اى كلما
سكن لهبها بان اكلت جلودهم ولحومهم ولم يبق فيهم ما يتعلق به النار وتحرقه
زدناهم توقدا بان بدلناهم جلودا غيرها فعادت ملتهبة ومسعرة ولعل ذلك عقوبة
لهم على انكارهم الاعادة بعد الفناء بتكريرها مرة بعد اخرى ليروها عيانا حيث لم
يعلموها برهانا كما يفصح عنه قوله تعالى ذلك العذاب جزاؤهم بانهم اى بسبب انهم
كفروا باياتنا العقلية والنقلية الدالة على صحة الاعادة دلالة واضحة فذلك مبتدا
وجزاؤهم خبره ويجوز ان يكون مبتدا ثانيا وبانهم خبره والجملة خبر لذلك وان يكون
جزاؤهم بدلا من ذلك او بيانا له والخبر هو الظرف وقالوا منكرين اشد الانكار ائذا
كنا عظاما ورفاتا ائنا لمبعوثون خلقا جديدا اما مصدر مؤكد من غير لفظه اى
لمبعوثون بعثا جديدا واما حال اى مخلوقين مستانفين اولم يروا اى الم يتفكروا
ولم يعلموا ان الله الذى خلق السموات والارض من غير مادة مع عظمها قادر

على ان يخلق مثلهم فى الصغر على ان المثل مقحم والمراد بالخلق الاعادة كما عبر عنها
بذلك حيث قيل خلقا جديدا وجعل لهم اجلا لا ريب فيه عطف على اولم يروا فانه فى قوة
قد رأوا والمعنى قد علموا ان من قدر على خلق السموات والارض فهو قادر على خلق
امثالهم من الانس وجعل لهم ولبعثهم اجلا محققا لا ريب فيه هو القيمة فابى الظالمون
وضع موضع المضمر تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد بالمرة الا كفورا اى جحودا
قل لو انتم تملكون خزاين رحمة ربى خزاين رزقه التى افاضها على كافة الموجودات
وانتم مرتفع بفعل يفسره المذكور كقول حاتم لو ذات سوار لطمتنى وفائدة ذلك
المبالغة والدلالة على الاختصاص اذا لامسكتم لبخلتم خشية الانفاق مخافة النفاد بالانفاق
اذ ليس فى الدنيا احد الا وهو يختار النفع لنفسه ولو اثر غيره بشىء فانما يؤثره لعوض
يفوقه فاذن هو بخيل بالاضافة الى جود الله سبحانه وكان الانسان قتورا مبالغا فى
البخل لان مبنى امره على الحاجة والضنة بما يحتاج اليه وملاحظة العوض بما يبذله
ولقد اتينا موسى تسع ايات بينات واضحات الدلالة على نبوته وصحة ما جاء به من عند الله
وهى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والطوفان والسنون ونقص الثمرات
وقيل انفجار الماء من الحجر ونتق الطور على بنى اسرائيل وانفلاق البحر بدل الثلاث الاخيرة
ويأباه ان هذه الثلاث لم تكن منزلة اذ ذاك وان الاولين لا تعلق لهما بفرعون وانما اوتيهما
بنوا اسرائيل وعن صفوان بن عسال ان يهوديا سأل نبيا صلى الله عليه وسلم عنها فقال ان لا تشركوا
به شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ولا تسحروا ولا تأكلوا
الربوا ولا تمشوا ببرىء الى ذى سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة ولا تفروا من الزحف وعليكم
خاصة اليهود ان لا تعدوا فى السبت فقبل اليهودى يده ورجله ولا يساعده ايضا ما ذكر ولعل
جوابه عليه السلام بذلك لما انه المهم للسائل وقبوله لما انه كان فى التورية مسطورا وقد علم انه ما
علمه رسول الله صلعم الا من جهة الوحى فاسئل بنى اسرائيل وقرئ فسل اى فقلنا له سلهم
من فرعون وقل له ارسل معى بنى اسرائيل او سلهم عن ايمانهم او عن حال دينهم او سلهم
ان يعاضدوك ويؤيده قراءة رسول الله صلعم على صيغة الماضى وقيل الخطاب عليه السلام
اى فاسئلهم عن تلك الايات لتزداد يقينا وطمانينة ولتظهر صدقك اذ جاءهم
متعلق بقلنا او بسأل على القراءة المذكورة وباتينا او بمضمر هو خبر وكذا او اذكر على تقدير كون
الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له فرعون الفاء فصيحة اى فاظهر عند فرعون
ما آتيناه من الايات البينات وبلغه ما ارسل به فقال له فرعون انى لاظنك يا موسى مسحورا
سحرت فتخبط عقلك قال لقد علمت ما انزل هؤلاء يعنى الايات التى اظهرها الا رب السموات
والارض خالقهما ومدبرهما والتعرض لربوبيته تعالى لهما للايذان بانه لا يقدر على ايتاء مثل
هاتيك الايات العظام الا خالقهما ومدبرهما بصاير حال من الايات اى بينات
مكشوفات تبصرك صدقى ولكنك تعاند وتكابر نحو وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم
ومن ضرورة ذلك العلم العلم بانه عليه السلام على كمال رصانة العقل فضلا عن توهم
المسحورية وقرئ علمت على صيغة التكلم اى لقد تيقنت ان هذه الايات الباهرة انزلها الله
عز سلطانه فكيف يتوهم ان يحوم حولى سحر وانى لاظنك يا فرعون مثبورا
مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر من قولهم ما ثبرك عن هذا اى ما صرفك او هالكا
ولقد قارع عليه السلام ظنه بظنه وشتان بينهما كيف لا وظن فرعون افك مبين
وظنه عليه السلام يحوم حول اليقين فاراد فرعون ان يستفزهم اى يستخفهم ويزعجهم من
الارض ارض مصر او من الارض مطلقا بالقتل كقوله سنقتل ابناءهم ونستحيى نساءهم
فاغرقناه ومن معه جميعا فعكسنا عليه مكره واستفززناه وقومه بالاغراق وقلنا
من بعده من بعد اغراقهم لبنى اسرائيل اسكنوا الارض التى اراد ان يستفزكم
منها فاذا جاء وعد الاخرة الكرة الاخرة او الحيوة او الساعة او الدار الاخرة اى قيام القيمة
جئنا بكم لفيفا مختلطين اياكم واياهم ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من اشقيائكم
واللفيف الجماعات من قبائل شتى وبالحق انزلناه وبالحق نزل اى وما انزلنا القرآن الا

ملتبسًا بالحق المقتضي لانزاله وما نزل الا ملتبسًا بالحق الذي اشتمل عليه او وما انزلناه من
السماء الا محفوظًا وما نزل على الرسول الا محفوظًا من تخليط الشياطين ولعل المراد
بيان عدم اعتراء البطلان له اولا الامر وآخره وما ارسلناك الا مبشرًا للمطيع بالثواب
ونذيرًا للعاصي من العقاب وهو تحقيق لحقية بعثته عليه السلام اثر تحقيق حقيته
انزال القرآن وقرآنا منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى فرقناه وقرئ بالتشديد لدلالة
على كثرة نجومه لتقرأه على الناس على مكث على مهل وتثبت فانه ايسر للحفظ واعون
على الفهم وقرئ بالفتح لغة فيه ونزلناه تنزيلا حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة و
يقع من الحوادث والواقعات قل للذين كفروا آمنوا به او لا تؤمنوا فان ايمانكم
به لا يزيده كما لا وامتناعكم عنه لا يورثه نقصًا ان الذين اوتوا العلم من قبله اي
العلماء الذين قرؤا الكتب السالفة من قبل تنزيله وعرفوا حقيقة الوحي وامارات النبوة وتمكنوا
من التمييز بين الحق والباطل والمحق والمبطل وراوا فيها نعتك ونعت من انزل اليك اذا
يتلى اي القرآن عليهم يخرون للاذقان اي يسقطون على وجوههم سجدًا تعظيمًا لامر
تعالى او شكرا لانجاز ما وعد به في تلك الكتب من بعثتك وخصص الاذقان بالذكر للدلالة
على كمال التذلل اذ حينئذ يتحقق الخرور عليها وايثار اللام للدلالة على اختصاص الخرور
بها كما في قوله فخر صريعًا لليدين وللفم وهو تعليل لما يفهم من قوله تعالى آمنوا به او لا
تؤمنوا من عدم المبالات بذلك اي ان لم تؤمنوا به فقد آمن به احسن ايمان من هو
خير منكم ويجوز ان يكون تعليلا لقل على سبيل التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانه
قيل تسل بايمان العلماء عن ايمان الجهلة ولا تكترث بايمانهم واعراضهم ويقولون في
سجودهم سبحان ربنا عما يفعل الكفرة من التكذيب او عن خلف وعده ان كان وعد
ربنا لمفعولا ان مخففة من المثقلة واللام فارقة اي ان الشان هذا ويخرون للاذقان
يبكون كرر الخرور للاذقان لاختلاف السبب فان الاول لتعظيم امر الله او الشكر لانجاز الوعد
والثاني لما اثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله ويزيدهم
اي القرآن بسماعهم خشوعًا كما يزيدهم علمًا ويقينًا بالله تعالى قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن
نزل حين سمع المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا الله يا رحمن فقالوا انه
ينهانا عن عبادة الهين وهو يدعو الهًا آخر وقالت اليهود انك لتقل ذكر الرحمن وقد
اكثره الله تعالى في التوراة والمراد على الاول هو التسوية بين اللفظين بانهما عبارتان عن ذات
واحدة وان اختلف الاعتبار والتوحيد انما هو للذات الذي هو المعبود على الثاني
انهما سيان في حسن الاطلاق والافضاء الى المقصود وهو اوفق لقوله تعالى اياما تدعوا فله الاسماء
الحسنى والدعاء بمعنى التسمية وهو يتعدى الى مفعولين حذف اولهما استغناء عنه واو
للتخيير والتنوين في اياما عوض عن المضاف اليه وما مزيدة لتاكيد ما في اي من الابهام و
الضمير في له للمسمى لان التسمية له لا للاسم وكان اصل الكلام اياما تدعوا فهو حسن
فوضع موضعه فله الاسماء الحسنى للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه اذ حسن جميع اسمائه يستدعي
حسن ذينك الاسمين وكونها حسنى لدلالتها على صفات الكمال من الجلال والجمال و
الاكرام ولا تجهر بصلاتك اي بقراءة صلاتك بحيث تسمع المشركين فان ذلك يحملهم
على السب واللغو فيها ولا تخافت بها اي بقراءتها بحيث من خلفك من المؤمنين وابتغ
بين ذلك اي بين الجهر والمخافتة على الوجه المذكور سبيلا امرا وسطًا قصدًا فان
خير الامور اوساطها والتعبير عن ذلك بالسبيل باعتبار انه امر يتوجه اليه المتوجهون
ويؤمه المقتدون ويوصلهم الى المطلوب وروي ان ابا بكر رضه كان يخفت ويقول اناجي
ربي وقد علم حاجتي وعمر رضه كان يجهر بها ويقول اطرد الشيطان واوقظ الوسنان فلما نزلت
امر رسول الله صلعم ابا بكر ان يرفع قليلا وعمر ان يخفض قليلا وقيل المعنى لا تجهر
بصلاتك كلها ولا تخافت بها باسرها وابتغ بين ذلك سبيلا بالمخافتة نهارًا والجهر ليلا وقيل
بصلاتك بدعائك وذهب قوم الى انها منسوخة بقوله تعالى ادعوا ربكم تضرعًا وخفية وقل الحمد لله
الذي لم يتخذ ولدًا كما يزعم اليهود والنصارى وبنو مليح حيث قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله

والملئكة

والملئكة بنات الله تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا ولم يكن له شريك في الملك اي الالوهية كما يقوله
الثنوية القائلون بتعدد الآلهة ولم يكن له ولي من الذل ناصر ومانع منه لاعتزازه به
او لم يوال احدًا من اجل مذلة ليدفعها به وفي التعرض في اثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة
ايذان بان المستحق للحمد من هذه نعوته دون غيره اذ بذلك يتم الكمال والقدرة التامة
على الايجاد عليه من افاضة انواع النعم وما عداه ناقص مملوك نعمة او منعم عليه وكبره
عليه وكبره تكبيرًا وفيه تنبيه على ان العبد وان بالغ في التنزيه والتمجيد
واجتهد في الطاعة والتحميد ينبغي ان يعترف بالقصور في ذلك
روي انه عليه السلام كان اذا افصح الغلام من بني عبد المطلب
علمه هذه الآية وعنه صلى الله عليه وسلم من قرا سورة
بني اسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار
والقنطار الف اوقية ومائتا اوقية والحمد لله سبحانه وتعالى
وكان الفراغ من كتابته على يد ابراهيم بن محمد

٤٨٦

من ودايع الدهر عند احقر الورى
المعترف بتقصيره احمد مصطفى



سورة الكهف مكية وهي مائة واحدى وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم وبه العون

الحمد لله الذي انزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم الكتاب اى الكتاب الكامل الغني عن الوصف بالكمال المعروف بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به وهو عبارة عن جميع القران او عن الجميع المنزل حينئذ كما مر مرارا وفي وصفه تعالى بالموصول اشعار بعلية ما في حيز الصلة لاستحقاق الحمد وايذان بعظم شان التنزيل الجليل كيف لا وعليه يدور فلك سعادة الدارين وفي التعبير عن الرسول صلى الله عليه وسلم بالعبد مضافا الى ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه عليه السلام الى اعلى معارج العبادة وتشريف له اى تشريف واشعار بان شان الرسول ان يكون عبدا للمرسل لا كما زعمت النصارى في حق عيسى عليه السلام وتاخير المفعول الصريح عن الجار والمجرور مع ان حقه التقدم عليه ليتصل به قوله تعالى ولم يجعل له عوجا اى شيئا من العوج بنوع اختلال في النظم وتناف في المعنى او انحراف عن الدعوة الى الحق وهو في المعاني كالعوج في الاعيان واما قوله تعالى لا ترى فيها عوجا ولا امتا مع كون الجبال من الاعيان فللدلالة على انتفاء ما لا يدرك من العوج بحاسة البصر بل انما يوقف عليه بالبصيرة بواسطة استعمال المقاييس الهندسية ولما كان ذلك مما لا يشعر به بالمشاعر الظاهرة عد من قبيل ما في المعاني وقيل الفتح في اعوجاج المنتصب كالعود والحائط والكسر في اعوجاج غيره عينا كان او معنى قيما بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد على ما ينبئ عنه ما بعده من الانذار والتبشير فيكون وصفا له بالتكميل بعد وصفه بالكمال او على ما قبله من الكتب السماوية شاهدا بصحتها ومهيمنا عليها او متناهيا في الاستقامة فيكون تاكيدا لما دل عليه نفي العوج مع افادة كون ذلك من صفاته الذاتية اللازمة له حسبما ينبئ عنه الصيغة لا انه نفي عنه العوج مع كونه من شانه وانتصابه على تقدير كون الجملة المتقدمة معطوفة على الصلة بمضمر ينبئ عنه نفي العوج تقديره جعله قيما واما على تقدير كونها حالية فهو على الحالية من الكتاب اذ لا فصل حينئذ بين ابعاض المعطوف عليه بالمعطوف وقرئ قيما لينذر متعلق بانزل والفاعل ضمير الجلالة كما في الفعلين المعطوفين عليه والاطلاق عن ذكر المفعول الاول للايذان بان ما سيق له الكلام هو المفعول الثاني وان الاول ظاهر لا حاجة الى ذكره اى انزل الكتاب لينذر بما فيه الذين كفروا به باسا اى عذابا شديدا من لدنه اى صادرا من عنده نازلا من قبله بمقابلة كفرهم وتكذيبهم وقرئ من لدنه بسكون الدال مع اشمام الضمة وكسر النون لالتقاء الساكنين وكسر الهاء للاتباع ويبشر بالتشديد وقرئ بالتخفيف المؤمنين اى المصدقين به الذين يعملون الصالحات اى الاعمال الصالحة التي بينت في تضاعيفه وايثار صيغة الاستقبال في الصلة للاشعار بتجدد الاعمال الصالحة واستمرارها واجراء الموصول على موصوفه المذكور لما ان مدار قبول الاعمال هو الايمان ان لهم اى بان لهم بمقابلة ايمانهم واعمالهم المذكورة اجرا حسنا هو الجنة وما فيها من المثوبات الحسنى ماكثين حال من الضمير المجرور في لهم فيه اى في ذلك الاجر ابدا من غير انتهاء اى خالدين فيه وهو نصب على الظرفية لماكثين وتقديم الانذار على التبشير لاظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه مع مراعاة تقديم التخلية على التحلية وتكرير الانذار بقوله تعالى وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا متعلقا بفرقة خاصة ممن عمه الانذار السابق من مستحقي الباس الشديد للايذان بكمال فظاعة حالهم لغاية شناعة كفرهم وضلالهم اى وينذر من بين سائر الكفرة هؤلاء المتفوهين بمثل هاتيك العظيمة خاصة وهم كفار العرب الذين يقولون الملائكة بنات الله تعالى واليهود القائلون عزير ابن الله والنصارى القائلون المسيح ابن الله وترك اجراء الموصول على الموصوف كما فعل في قوله تعالى ويبشر المؤمنين للايذان بكفاية ما في حيز الصلة في الكفر على اقبح الوجوه وايثار صيغة الماضي في الصلة للدلالة على

تحقق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سبق وجعل المفعول المحذوف فيما سلف عبارة عن هذه الطائفة يؤدي الى خروج سائر اصناف الكفرة عن الانذار والوعيد وتعميم الانذار هناك للمؤمنين ايضا بحمله على معنى مجرد الاخبار بالخبر الضار من غير اعتبار حلول المنذر به على المنذر كما في قوله تعالى ان انذر الناس وبشر الذين امنوا يفضي الى خلو النظم الكريم عن الدلالة على حلول الباس الشديد على من عدا هذه الفرقة ويجوز ان يكون الفاعل في الافعال الثلاثة ضمير الكتاب او ضمير الرسول عليه السلام ما لهم به اى باتخاذه سبحانه وتعالى ولدا من علم مرفوع على الابتداء او الفاعلية لاعتماد الظرف ومن مزيدة لتاكيد النفي والجملة حالية او مستانفة لبيان حالهم في مقالهم اى ما لهم بذلك شيء من علم اصلا لا لاخلالهم بطريقه مع تحقق العلم او امكانه بل لاستحالته في نفسه ولا لآبائهم الذين قلدوهم فتاهوا جميعا في تيه الجهالة والضلالة او ما لهم علم بما قالوه اهو صواب ام خطا بل انما قالوه رميا بقول عن عمى وجهالة من غير فكر وروية كما في قوله تعالى وخرقوا له بنين وبنات بغير علم او بحقيقة ما قالوه وبعظم رتبته في الشناعة كما في قوله تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات يتفطرن منه الآيات وهو الانسب بقوله تعالى كبرت كلمة اى عظمت مقالتهم هذه في الكفر والافتراء لما فيها من نسبته سبحانه الى ما لا يكاد يليق بجناب كبريائه والفاعل في كبرت اما ضمير المقالة المدلول عليها بقالوا وكلمة نصب على التمييز او ضمير مبهم مفسر بما بعده من النكرة المنصوبة تمييزا كبئس رجلا والمخصوص بالذم محذوف تقديره كبرت هي كلمة خارجة من افواههم وقرئ كبرت باسكان الباء مع اشمام الضم وقرئ كلمة بالرفع تخرج من افواههم صفة للكلمة مفيدة لاستعظام اجترائهم على التفوه بها واسناد الخروج اليها مع ان الخارج هو الهواء المتكيف بكيفية الصوت لملابسته بها ان يقولون ما يقولون في ذلك الشان الا كذبا الا قولا كذبا لا يكاد يدخل تحت امكان الصدق اصلا والضمائر لهم ولآبائهم نزل حاله عليه السلام في شدة الوجد على اعراض القوم وتوليهم عن الايمان بالقرآن وكمال التحسر عليهم بحال من يتوقع منه اهلاك نفسه اثر فوت ما يحبه عند مفارقة احبته تاسفا على مفارقتهم وتلهفا على مهاجرتهم فقيل على طريقة التمثيل حملا له عليه السلام على الحذر والاشفاق من ذلك فلعلك باخع اى مهلك نفسك على آثارهم غما ووجدا على فراقهم وقرئ بالاضافة ان لم يؤمنوا بهذا الحديث اى القرآن الذي عبر عنه في صدر السورة بالكتاب وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه وقرئ بان المفتوحة اى لان لم يؤمنوا فاعمال باخع بحمله على حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة كما في قوله عز وجل باسط ذراعيه اسفا مفعول له لباخع اى لفرط الحزن والغضب او حال مما فيه من الضمير اى متاسفا عليهم ويجوز حمل النظم الكريم على الاستعارة التبعية بجعل التشبيه بين اجزاء الطرفين لا بين الهيئتين المنتزعتين منهما كما في التمثيل وقد مر تحقيقه في تفسير قوله تعالى ختم الله على قلوبهم انا جعلنا ما على الارض استئناف وتعليل لما في لعل من معنى الاشفاق اى انا جعلنا ما عليها مما عدا من وجه اليه التكليف من الزخارف حيوانا كان او نباتا او معدنا كقوله تعالى هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا زينة مفعول ثان للجعل ان حمل على معنى التصيير او حال ان حمل على معنى الابداع واللام في لها اما متعلقة بزينة او بمحذوف هو صفة لها اى كائنة لها اى يتمتع بها الناظرون من المكلفين وينتفعون بها نظرا واستدلالا فان الحيات والعقارب من حيث تذكيرها لعذاب الآخرة من قبيل المنافع بل كل حادث داخل تحت الزينة من حيث دلالته على وجود الصانع ووحدته فان الازواج والاولاد ايضا من زينة الحيوة الدنيا بل اعظمها فلا يمنع ذلك كونهم من جملة المكلفين فانهم من جهة انتسابهم الى اصحابهم داخلون تحت الزينة ومن جهة كونهم مكلفين داخلون تحت الابتلاء لنبلوهم متعلق بجعلنا اى جعلنا ما جعلنا لنعاملهم معاملة من

يختبرهم ايهم احسن عملاً فنجازيهم بالثواب والعقاب حسبما تبين المحسن من المسيئ وامتازت طبقات افراد كل من الفريقين بحسب امتياز مراتب علومهم المترتبة على انظارهم وتفاوت درجات اعمالهم المتفرعة على ذلك كما قررناه في مطالع سورة هود واي اما استفهامية مرفوعة بالابتداء واحسن خبرها والجملة في محل النصب معلقة لفعل البلوى لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالسؤال والنظر ولذلك اجري مجراه بطريق التمثيل او الاستعارة التبعية واما موصولة بمعنى الذي واحسن خبر مبتدا مضمر والجملة صلة لها وهي في حيز النصب بدلا من مفعول لنبلوهم والتقدير لنبلو الذي هو احسن عملا فحينئذ يحتمل ان يكون الضمير في ايهم للبناء كما في قوله تعالى عز وجل ثم لننزعن من كل شيعة ايهم اشد على الرحمن عتيا على احد الاقوال لتحقق شرط البناء الذي هو الاضافة لفظا وحذف صدر الصلة وان يكون للاعراب لان ما ذكر شرط لجواز البناء لا لوجوبه وحسن العمل الزهد فيها وعدم الاغترار بها والقناعة باليسير منها وصرفها على ما ينبغي والتأمل في شأنها وجعلها ذريعة الى معرفة خالقها والتمتع بها حسبما اذن له الشرع واداء حقوقها والشكر لها لا اتخاذها وسيلة الى الشهوات والاغراض الفاسدة كما يفعله اصحاب الاهواء وايراد صيغة التفضيل مع ان الابتلاء شامل للفريقين باعتبار اعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح ايضا لا الى الحسن والاحسن فقط للاشعار بان الغاية الاصلية للجعل المذكور انما هو ظهور كمال احسان المحسنين على ما حقق في تفسير قوله تعالى ليبلوكم ايكم احسن عملا وانا لجاعلون فيما سيأتي عند تناهي عمر الدنيا ما عليها من المخلوقات قاطبة بافنائها بالكلية وانما اظهر في مقام الاضمار لزيادة التقرير او لادراج المكلفين فيه صعيدا مفعول ثان للجعل والصعيد التراب او وجه الارض قال ابو عبيدة هو المستوي من الارض وقال الزجاج هو الطريق الذي لا نبات فيه جرزا ترابا لا نبات فيه بعد ما كان يتعجب من بهجته النظار وتتشرف بمشاهدته الابصار يقال ارض جرز لا نبات فيها وسنة جرز لا مطر فيها قال الفراء جرزت الارض فهي مجروزة اي ذهب نباتها بقحط او جراد ويقال جرزها الجراد والشاة والابل اذا اكلت ما عليها وهذه الجملة لتكميل ما في السابقة من التعليل والمعنى لا تحزن بما عاينت من القوم من تكذيب ما انزلنا عليك من الكتاب فانا قد جعلنا ما على الارض من فنون الاشياء زينة لها لنختبر اعمالهم فنجازيهم بحسبها وانا لمفنون جميع ذلك عن قريب ومجازون لهم بحسب اعمالهم ام حسبت الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد انكار حسبان امته وام منقطعة مقدرة ببل التي هي للانتقال من حديث الى حديث لا للابطال وبهمزة الاستفهام عند الجمهور وببل وحدها عند غيرهم اي بل احسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا في بقائهم على الحيوة مدة طويلة من الدهر من آياتنا من بين آياتنا التي من جملتها ما ذكرناه من جعل ما على الارض زينة لها للحكمة المشار اليها ثم جعل ذلك كله صعيدا جرزا كأن لم تغن بالامس عجبا اي آية ذات عجب وضعا له موضع المضاف او وصفا لذلك بالمصدر مبالغة وهو خبر كانوا ومن آياتنا حال منه والمعنى ان قصتهم وان كانت خارقة للعادات ليست بعجيبة بالنسبة الى سائر الآيات التي من جملتها ما ذكر من تعاجيب خلق الله تعالى بل هي عندها كالنزر الحقير والكهف الغار الواسع في الجبل والرقيم كلبهم قال امية بن ابي الصلت وليس بها الا الرقيم مجاورا وصيدهم والقوم في الكهف همد وقيل هو لوح رصاصي او حجري رقمت فيه اسماؤهم وجعل على باب الكهف وقيل هو الوادي الذي فيه الكهف فهو من رقمة الوادي اي جانبه وقيل الجبل وقيل قريتهم وقيل مكانهم بين غضبان وايلة دون فلسطين وقيل اصحاب الرقيم آخرون وكانوا ثلاثة انطبق عليهم الغار فنجوا بذكر كل منهم احسن عمله على ما فصل في الصحيحين اذ اوى ظرف لعجبا لا لحسبت او مفعول لاذكر اي حين التجأ الفتية اي اصحاب الكهف واوثر الاظهار على الاضمار لتحقيق ما كانوا عليه في انفسهم من حال الفتوة فانهم كانوا فتية من اشراف الروم ارادهم دقيانوس على الشرك فهربوا منه بدينهم ولان صاحبية الكهف من فروع التجائهم الى الكهف فلا يناسب اعتبارها معهم قبل بيانه الى الكهف يجعلونه مجلسهم واتخذوه مأوى فقالوا

ربنا

ربنا آتنا من لدنك من خزائن رحمتك الخاصة المكنونة عن عيون اهل العادات فمن ابتدائية متعلقة بآتنا او بمحذوف وقع حالا من مفعوله الثاني قدمت عليه لكونه نكرة ولو تأخرت لكانت صفة له اي آتنا من لدنك رحمة خاصة تستوجب المغفرة والرزق والامن من الاعداء وهيئ لنا من امرنا الذي نحن عليه من مهاجرة الكفار والمثابرة على طاعتك واصل التهيئة احداث الشيء اي اصلح ورتب واتمم لنا من امرنا رشدا اصابة للطريق الموصل الى المطلوب واهتداء اليه وكلا الجارين متعلق بهيئ لاختلافهما في المعنى وتقديم المجرورين على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء بهما وابراز الرغبة في المؤخر بتقديم احواله فان تأخير ما حقه التقديم عما هو من احواله المرغبة فيه كما يورث شوق السامع الى وروده ينبئ عن كمال رغبة المتكلم فيه واعتنائه بحصوله لا محالة وكذا الكلام في تقديم قوله تعالى من لدنك على تقدير تعلقه بآتنا وتقديم لنا على من امرنا للايذان من اول الامر بكون المسؤول مرغوبا فيه لديهم او اجعل امرنا رشدا كله على ان من تجريدية مثلها في قولك رأيت منك اسدا فضربنا على آذانهم اي انمناهم على طريقة التمثيل المبني على تشبيه الانامة الثقيلة المانعة عن وصول الاصوات الى الآذان بضرب الحجاب عليها وتخصيص الآذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر لها في الحجب عن الشعور عند النوم لما انها المحتاج الى الحجب عادة اذ هي الطريقة للتيقظ غالبا لا سيما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق وقيل الضرب على الآذان كناية عن الانامة الثقيلة وحمله على تعطيلها كما في قولهم ضرب الامير على يد الرعية اي منعهم من التصرف مع عدم ملاءمته لما سيأتي من البعث لا يدل على النوم مع انه المراد قطعا والفاء في فضربنا كما في قوله عز وجل فاستجبنا بعد قوله تعالى اذ نادى فان الضرب المذكور وما ترتب عليه من التقلب ذات اليمين وذات الشمال والبعث وغير ذلك ايتاء رحمة لدنية خافية عن ابصار المتمسكين بالاسباب العادية استجابة لدعوتهم في الكهف ظرف مكان لضربنا سنين ظرف زمان له باعتبار بقائه لا لابتدائه عددا اي ذوات عدد او تعد عددا على انه مصدر او معدودة على انه بمعنى المفعول ووصف السنين بذلك اما للتكثير وهو الانسب باظهار كمال القدرة او للتقليل وهو الاليق بمقام انكار كون القصة عجبا من بين سائر الآيات العجيبة ومدة لبثهم كبعض يوم عنده عز وجل ثم بعثناهم اي ايقظناهم من تلك النومة الثقيلة الشبيهة بالموت لنعلم بنون العظمة وقرئ بالياء مبنيا للفاعل بطريق الالتفات واياما كان فهو غاية للبعث لكن لا بجعل العلم مجازا من الاظهار والتمييز او بحمله على ما يصح وقوعه غاية للبعث الحادث من العلم الحالي الذي يتعلق به الجزاء كما في قوله تعالى الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وقوله تعالى وليعلم الله الذين امنوا ونظائرهما التي يتحقق فيها العلم بتحقق متعلقه قطعا فان التحويل عن القبلة قد ترتب عليه تحزب الناس الى متبع ومنقلب وكذا مداولة الايام بين الناس ترتب عليه تحزب الثابت على الايمان والمتزلزل فيه وتعلق بكل من الفريقين العلم الحالي والاظهار والتمييز واما البعث على هؤلاء فلم يترتب عليه تفرقهم الى المحصي وغيره حتى يتعلق بهما العلم او الاظهار والتمييز ويستتبع نظم شيء من ذلك في سلك الغاية وانما الذي ترتب عليه تفرقهم الى مقدر تقديرا غير مصيب ومفوض الى العلم الرباني وليس شيء منهما من الاحصاء بل يحمل النظم الكريم على التمثيل المبني على جعل العلم عبارة عن الاختبار مجازا بطريق اطلاق اسم المسبب على السبب وليس من ضرورة الاختبار صدور الفعل المختبر به عن المختبر قطعا بل قد يكون لاظهار عجزه عنه على سنن التكاليف التعجيزية كقوله تعالى فأت بها من المغرب وهو المراد ههنا فالمعنى بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم اي الحزبين اي الفريقين المختلفين في مدة لبثهم بالتقدير والتفويض كما سيأتي احصى اي اضبط لما لبثوا اي للبثهم امدا اي غاية فيظهر لهم عجزهم ويفوضوا ذلك الى العليم الخبير ويتعرفوا حالهم وما صنع الله تعالى بهم من حفظ ابدانهم واديانهم فيزدادوا يقينا بكمال قدرته وعلمه ويستبصروا به امر البعث ويكون ذلك لطفا لمؤمني زمانهم وآية

بينة لكفارهم وقد اقتصر هنا من تلك الغايات الجليلة على ذكر مبديها الصادر عنه عز وجل وفيما سيأتي على ما صدر عنهم من التساؤل المؤدي اليها وهذا اولى من تصوير التمثيل بان يقال بعثناهم بعث من يريد ان يعلم الخ حسبما وقع في تفسير قوله تعالى وليعلم الله الذين امنوا على احد الوجوه حيث حمل على معنى فعلنا ذلك فعل من يريد ان يعلم من الثابت على الايمان من غير الثابت اذ ربما يتوهم منه استلزام الارادة لتحقق المراد فيعود المحذور ويضطر الى جعل ارادة العلم عبارة عن الاختبار فاختبر فاختر هذا وقد قرئ ليعلم مبنيا للمفعول ومبنيا للفاعل من الاعلام على ان المفعول الاول محذوف و الجملة المصدرة باي في موقع المفعول الثاني فقط ان جعل العلم عرفانيا و في موقع المفعولين ان جعل يقينيا اي ليعلم الله الناس اي الحزبين احصى الخ وروي عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ان احد الحزبين الفتية والاخر الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك وقيل كلاهما من غيرهم والاول هو الاظهر فان اللام للعهد ولا عهد لغيرهم والامد بمعنى المدى كالغاية في قولهم ابتداء الغاية وانتهاء الغاية وهو مفعول لاحصى والجار والمجرور حال منه قدمت عليه لكونه نكرة وليس معنى احصاء تلك المدة ضبطها من حيث كميتها المتصلة الذاتية فانه لا يسمى احصاء بل ضبطها من حيث كميتها المنفصلة العارضة لها باعتبار قسمتها الى السنين وبلوغها من تلك الحيثية الى مراتب الاعداد على ما يرشد اليه كون تلك المدة عبارة عما سبق من السنين ويجوز ان يراد بالامد معناه الوضعي بتقدير المضاف اي لزمان لبثهم وبدونه ايضا فان اللبث عبارة عن الكون المستمر المنطبق على الزمان المذكور فباعتبار الامتداد العارض له بسببه يكون له امد لا محالة لكن ليس المراد به ما يقع غاية ومنتهى لذلك الكون المستمر باعتبار كميته المتصلة العارضة له بسبب انطباقه على الزمان الممتد بالذات وهو آن انبعاثهم من نومهم فان معرفته من تلك الحيثية لا تخفى على احد ولا يسمى احصاء كما مر بل باعتبار كميته المنفصلة العارضة له بسبب عروضها للزمان المنطبق هو عليه باعتبار انقسامه الى السنين ووصوله الى مرتبة معينة من مراتب العدد كما حقق في الصورة الاولى والفرق بين الاعتبارين ان ما تعلق به الاحصاء في الصورة السابقة نفس المدة المنقسمة الى السنين فهو مجموع ثلثمائة وتسع سنين وفي الصورة الاخيرة منتهى تلك المدة المنقسمة اليها اعني السنة التاسعة بعد ثلثمائة وتعلق الاحصاء بالامد بالمعنى الاول ظاهر واما تعلقه به بالمعنى الثاني فباعتبار انتظامه لما تحته من مراتب العدد واشتماله عليها هذا على تقدير كون ما في قوله تعالى لما لبثوا مصدرية ويجوز ان يكون موصولة حذف عائدها من الصلة اي للذي لبثوا من الزمان الذي عبر عنه فيما قبل بسنين عددا فالامد بمعناه الوضعي على ما تحققته وقيل اللام مزيدة والموصول مفعول وامدا نصب على التمييز واما ما قيل من ان احصى اسم تفضيل لانه الموافق لما وقع في سائر الايات الكريمة نحو ايهم احسن عملا ايهم اقرب لكم نفعا الى غير ذلك مما لا يحصى ولان كونه فعلا ماضيا يشعر بان غاية البعث هو العلم بالاحصاء المتقدم على البعث بالاحصاء المتاخر عنه وليس كذلك وادعاء ان مجيء افعل التفضيل من المزيد عليه غير قياسي مدفوع بانه عند سيبويه قياسي مطلقا وعند ابن عصفور فيما ليست همزته للنقل ولا ريب في ان ما نحن فيه من ذاك القبيل وامتناع عمله انما هو في غير التمييز من المعمولات واما ان التمييز يجب كونه فاعلا في المعنى فلما يمنعه ان يتحقق ان يقال ايهم احفظ لهذا الشعر زمانا وتقطيعا ويقال ان العامل في امدا فعل محذوف يدل عليه المذكور اي يحصى لما لبثوا امدا كما في قوله واضرب منا بالسيوف القوانسا وحديث الوقوع في المحذور بلا فائدة مدفوع بما اشير اليه من فائدة الموافقة من النظائر فمع ما فيه من الاعتساف والخلل بمعزل من السداد لان مؤداه ان يكون المقصود بالاختبار اظهار افضل الحزبين وتمييزه عن الادنى مع تحقق اصل الاحصاء فيهما و من البين ان لا تحقق له اصلا وان المقصود بالاختبار اظهار عجز الكل عنه رأسا فهو فعل ماض قطعا وتوهم ابدانه بان غاية البعث هو العلم بالاحصاء المتقدم على مردود

النمص [illegible]

بان صيغة

بان صيغة الماضي باعتبار حال الحكاية والله تعالى اعلم نحن نقص عليك شروع في تفصيل ما اجمل فيما سلف من قوله تعالى اذ اوى الفتية الخ اي نحن نخبرك بتفاصيل اخبارهم وقد مر بيان اشتقاقه في مطلع سورة يوسف عليه السلام نبأهم النبأ الذي له شأن وخطر بالحق اما صفة لمصدر محذوف او حال من ضمير نقص اي من نبأهم او صفة على رأي من يرى حذف الموصول مع بعض صلته اي نقص قصصا ملتبسا بالحق او نقصه ملتبسين به او نقص نبأهم ملتبسا به او نبأهم الملتبسين به ونبأهم حسبما ذكره محمد بن اسحق بن يسار انه قد مرج اهل الانجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم فعبدوا الاصنام وذبحوا للطواغيت وكان ممن بالغ في ذلك وعتا عتوا كبيرا دقيانوس فانه غلا فيه غلوا شديدا فجاس خلال الديار والبلاد بالعبث والفساد وقتل من خالفه من المتمسكين بدين المسيح عليه السلام وكان يتتبع الناس فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الاوثان فمن رغب في الحيوة الدنيا الدنية يصنع ما يصنع ومن آثر عليها الحيوة الابدية قتله وقطع آرابه وعلقها في سور المدينة وابوابها فلما رأى الفتية ذلك وكانوا عظماء مدينتهم وقيل كانوا من خواص الملك قاموا فتضرعوا الى الله عز وجل واشتغلوا بالصلوة والدعاء فبينما هم كذلك اذ دخل عليهم اعوان الجبار فاحضروهم بين يديه فقال لهم ما قال وخيرهم بين القتل وبين عبادة الاوثان فقالوا ان لنا الها ملأ السموات والارض عظمته وجبروته لن ندعو من دونه احدا ولن نقر لما تدعونا اليه ابدا فاقض ما انت قاض فامر فنزع ما عليهم من الثياب الفاخرة و اخرجهم من عنده وخرج هو الى مدينة نينوى لبعض شأنه امهلهم الى رجوعه ليتأملوا في امرهم فان تبعوه والا فعل بهم ما فعل بسائر المسلمين فازمعت الفتية على الفرار بالدين والالتجاء الى الكهف الحصين فاخذ كل منهم من بيت ابيه شيئا فتصدقوا ببعضه وتزودوا بالباقي فأووا الى الكهف فجعلوا يصلون فيه آناء الليل واطراف النهار ويبتهلون الى الله تعالى بالانين والجؤار وفوضوا امر نفقتهم الى يمليخا فكان اذا اصبح يضع عنه ثيابه الحسان ويلبس لباس المساكين ويدخل المدينة ويشتري ما يهمهم ويتجسس ما فيها من الاخبار ويعود الى اصحابه فلبثوا على ذلك الى ان قدم الجبار المدينة فطلبهم واحضر آباءهم فاعتذروا بانهم عصوهم ونهبوا اموالهم وبذروها في الاسواق وفروا الى الجبل فلما رأى يمليخا ما رأى من الشر رجع الى اصحابه وهو يبكي ومعه قليل من الزاد فاخبرهم بما شاهده من الهول ففزعوا الى الله عز وجل وخروا له سجدا ثم رفعوا رؤسهم وجلسوا يتحدثون في امرهم فبينما هم كذلك اذ ضرب الله على آذانهم فناموا ونفقتهم عند رؤسهم فخرج دقيانوس في طلبهم بخيله ورجله فوجدهم قد دخلوا الكهف فامر باخراجهم فلم يطق احد ان يدخله فلما ضاق بهم ذرعا قال قائل منهم اليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم قال بلى قال فابن عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعا وعطشا وليكن كهفهم قبرا لهم ففعل ثم كان من شأنهم ما قص الله عز وعلا منهم انهم فتية استيناف تحقيقي مبني على تقدير السؤال من قبل المخاطب والفتية جمع قلة للفتى كالصبية للصبي امنوا بربهم اوثر الالتفات للاشعار بعلية وصف الربوبية لايمانهم ولمراعاة ما صدر عنهم من المقالة حسبما سيحكى عنهم وزدناهم هدى بان ثبتناهم على ما كانوا عليه من الدين واظهرنا لهم مكنونات محاسنه وفيه التفات من الغيبة الى ما عليه سبك النظم سباقا وسياقا من التكلم وربطنا على قلوبهم اي قويناها حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الاهل والاوطان والنعيم والاخوان واجترؤا على الصدع بالحق من غير خوف وحذار والرد على دقيانوس الجبار اذ قاموا منصوب بربطنا والمراد بقيامهم انتصابهم لاظهار شعار الدين قال مجاهد خرجوا من المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد فقال اكبرهم اني لاجد في نفسي شيئا ان ربي رب

السموات والارض فقالوا نحن ايضا كذلك فقاموا جميعا فقالوا ربنا رب السموات والارض
ضمنوا دعواهم ما يحقق فحواها ويقضي بمقتضاها فان ربوبيته عز وجل لهما يقتضي
ربوبيته لما فيهما اي اقتضاء وقيل المراد قيامهم بين يدي الجبار من غير مبالاة به حين عاتبهم
على ترك عبادة الاصنام فحينئذ يكون ما سيأتي من قوله تعالى هؤلاء الخ منقطعا عما قبله
صادرا عنهم بعد خروجهم من عنده لن ندعو لن نعبد ابدا من دونه الها معبودا
آخر لا استقلالا ولا اشتراكا والعدول عن ان يقال ربا للتنصيص على رد المخالفين حيث
كانوا يسمون اصنامهم آلهة وللاشعار بان مدار العبادة وصف الالوهية وللايذان
بان ربوبيته تعالى بطريق الالوهية لا بطريق المالكية المجازية لقد قلنا اذا شططا
اي قولا ذا شطط اي تجاوز عن الحد او قولا هو عين الشطط على انه وصف بالمصدر
مبالغة ثم اقتصر على الوصف مبالغة على مبالغة وحيث كانت العبادة مستلزمة للقول لما انها
لا تعرى عن الاعتراف بالوهية المعبود والتضرع اليه قيل لقد قلنا واذا جواب وجزاء اي
لو دعونا من دونه الها والله لقد قلنا قولا خارجا عن حد العقول مفرطا في الظلم
هؤلاء مبتدأ وفي اسم الاشارة تحقير لهم قومنا عطف بيان له اتخذوا
من دونه آلهة خبر وفيه معنى الانكار لولا يأتون تحضيض فيه معنى الانكار
والتعجيز اي هلا يأتون عليهم على الوهيتهم او على صحة اتخاذهم لها آلهة
بسلطان بين بحجة ظاهرة الدلالة على مدعاهم وهو تبكيت لهم والقام حجر
فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا بنسبة الشريك اليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا والمعنى
انه اظلم من كل ظالم وان كان سبك النظم على انكار الاظلمية من غير تعرض لانكار
المساواة كما مر تحقيقه في سورة هود واذ اعتزلتموهم اي فارقتموهم في الاعتقاد
او اردتم الاعتزال الجسماني وما يعبدون الا الله عطف على الضمير المنصوب وما
موصولة او مصدرية اي واذ اعتزلتموهم ومعبوديهم الا الله او وعبادتهم الا
عبادة الله وعلى التقديرين فالاستثناء متصل على تقدير كونهم مشركين كاهل مكة
ومنقطع على تقدير تمحضهم في عبادة الاوثان ويجوز كونها نافية على انه اخبار
من الله تعالى عن الفتية بالتوحيد معترض بين اذ وجوابه فأووا اي التجئوا الى الكهف
قال الفراء هو جواب اذ كما تقول اذ فعلت فافعل كذا وقيل هو دليل على جوابه اي اذا
اعتزلتموهم اعتزالا اعتقاديا فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا او اذا اردتم اعتزالهم
فافعلوا ذلك بالالتجاء الى الكهف ينشر لكم يبسط لكم ويوسع عليكم ربكم مالك
امركم من رحمته في الدارين ويهيئ لكم يسهل لكم من امركم الذي انتم بصدده
من الفرار بالدين مرفقا ما ترتفقون وتنتفعون به وقرئ بفتح الميم وكسر الفاء مصدر
كالمرجع وتقديم لكم في الموضعين لما مر مرارا من الايذان من اول الامر بكون المؤخر
من منافعهم والتشويق الى وروده وترى الشمس بيان لحالهم بعدما أووا الى
الكهف ولم يصرح به ايذانا بعدم الحاجة اليه لظهور جريانهم على موجب الامر به
لكونه صادرا عن رأي صائب وتعويلا على ما سلف من قوله سبحانه اذ اوى الفتية
الى الكهف وما لحق من اضافة الكهف اليهم وكونهم في فجوة منه والخطاب للرسول
عليه السلام او لكل احد ممن يصلح للخطاب وليس المراد به الاخبار بوقوع الرؤية
تحقيقا بل الانباء بكون الكهف بحيث لو رأيته ترى الشمس اذا طلعت تزاور
اي تتزاور وتتنحى بحذف احدى التاءين وقرئ بادغام التاء في الزاي
وتزور كتحمر وتزوار كتحمار وتزوئر وكلها من الزور وهو الميل عن كهفهم الذي
أووا اليه فالاضافة لادنى ملابسة ذات اليمين اي جهة ذات يمين الكهف عند
توجه الداخل الى قعره اي جانبه الذي يلي المغرب فلا يقع عليهم شعاعها فيؤذيهم
واذا غربت اي تراها عند غروبها تقرضهم اي تقطعهم من القطيعة والصرم ولا
تقربهم ذات الشمال اي جهة ذات شمال الكهف اي جانبه الذي يلي المشرق
وكان ذلك بتصريف الله سبحانه على منهاج خرق العادة كرامة لهم وقوله تعالى وهم

في فجوة

في فجوة منه جملة حالية مبينة لكون ذلك امرا بديعا اي تراها تميل عنهم يمينا وشمالا ولا
تحوم حولهم مع انهم في متسع من الكهف معرض لاصابتها لولا ان كفها عنهم يد
التقدير ذلك اي ما صنع الله بهم من تزاور الشمس وقرضها حالتي الطلوع والغروب
مع كونهم في موقع شعاعها من آيات الله العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته
وحقية التوحيد وكرامة اهله عنده سبحانه وتعالى وهذا قبل ان يسد دقيانوس باب
الكهف وقيل كان باب الكهف شماليا مستقبل بنات النعش واقرب المشارق والمغارب
الى محاذاته مشرق رأس السرطان ومغربه والشمس اذا كان مدارها مداره تطلع مقابلة
عنه لجانبه الايمن وهو الذي يلي المغرب وتغرب محاذية لجانبه الايسر فيقع شعاعها
جنبيه وتحلل عفونته وتعدل هواءه ولا يقع عليهم فيؤذي اجسادهم ويبلي
ثيابهم ولعل ميل الباب الى جانب الغرب كان اكثر ولذلك اوقع التزاور على كهفهم و
القرض على انفسهم فذلك حينئذ اشارة الى ايوائهم الى كهفهم هذا شأنه واما
جعله اشارة الى حفظ الله سبحانه اياهم في ذلك الكهف تلك المدة الطويلة او الى اطلاعه
سبحانه لرسول الله عليه السلام على اخبارهم فلا يساعده ايراده في تضاعيف القصة
من يهد الله الى الحق بالتوفيق له فهو المهتد الذي اصاب الفلاح والمراد اما الثناء
عليهم والشهادة لهم باصابة المطلوب والاخبار بتحقق ما املوه من نشر الرحمة
وتهيئة المرافق او التنبيه على ان امثال هذه الآية كثيرة ولكن المنتفع بها من وفقه تعالى
للاستبصار بها ومن يضلل اي يخلق فيه الضلال لصرف اختياره اليه فلن تجد له
ابدا وان بالغت في التتبع والاستقصاء وليا ناصرا مرشدا يهديه الى ما ذكر من الفلاح
لاستحالة وجوده في نفسه لا انك لا تجده مع وجوده او امكانه وتحسبهم بفتح
السين وقرئ بكسرها ايضا والخطاب فيه كما فيما سبق ايقاظا جمع يقظ بكسر القاف
وفتحها وهو اليقظان ومدار الحسبان انفتاح عيونهم على هيئة الناظر وقيل كثرة
تقلبهم ولا يلائمه قوله تعالى ونقلبهم وهم رقود اي نيام وهو تقرير
لما لم يذكر فيما سلف اعتمادا على ذكره السابق من الضرب على آذانهم ونقلبهم في
رقدتهم ذات اليمين نصب على الظرفية اي جهة تلي ايمانهم وذات الشمال اي
جهة تلي شمائلهم كيلا تأكل الارض ما يليها من ابدانهم قال ابن عباس رضي الله عنهما
لو لم يقلبوا لاكلتهم الارض وقيل لهم تقليبتان في السنة وقيل تقليبة واحدة يوم
عاشوراء وقيل في كل تسع سنين وقرئ يقلبهم على الاسناد الى ضمير الجلالة وتقلبهم
على المصدر منصوبا بمضمر ينبئ عنه وتحسبهم اي وترى تقلبهم وكلبهم
قيل هو كلب مروا به فتبعهم فطردوه مرارا فلم يرجع فانطقه الله تعالى فقال
لا تخشوا جانبي فاني احب احباء الله فناموا حتى احرسكم وقيل هو كلب راع قد
تبعهم على دينهم ويؤيده قراءة كالبهم اذ الظاهر لحوقه بهم وقيل هو كلب صيد
احدهم او زرعه او غنمه واختلف في لونه فقيل كان انمر وقيل اصفر وقيل
اصهب وقيل غير ذلك وقيل كان اسمه قطمير وقيل ريان وقيل تقود وقيل قطمور
وقيل ثور قال خالد بن معدان ليس في الجنة من الدواب الا كلب اصحاب الكهف
وحمار بلعم وقيل لم يكن ذلك من جنس الكلاب بل كان اسدا باسط ذراعيه
حكاية حال ماضية ولذلك اعمل اسم الفاعل عند الكسائي وهشام وابي جعفر
من البصريين يجوز اعماله مطلقا والذراع من المرفق الى رأس الاصبع الوسطى بالوصيد
اي بموضع الباب من الكهف لو اطلعت عليهم اي لو عاينتهم وشاهدتهم
واصل الاطلاع الاشراف على الشيء بالمعاينة والمشاهدة وقرئ بضم الواو لوليت
منهم فرارا هربا مما شاهدت منهم وهو اما نصب على المصدرية من معنى
ما قبله اذ التولية والفرار من واد واحد واما على الحالية بجعل المصدر بمعنى الفاعل اي فارا
او بجعل الفاعل مصدرا مبالغة كما في قولها فانما هي اقبال وادبار واما على انه مفعول له
ولملئت منهم رعبا وقرئ بضم العين اي خوفا يملأ الصدر ويرعبه وهو اما مفعول

ثان او تمييز وذلك لما البسهم الله عز وجل من الهيئة والهيبة كانت اعينهم مفتحة
كالمستيقظ الذى يريد ان يتكلم وقيل لطول اظفارهم وشعورهم ولا يساعده قوله
لبثنا يوما او بعض يوم وقوله ولا يشعرن بكم احدا فان الظاهر من ذلك عدم اختلاف
احوالهم فى انفسهم وقيل لعظم اجرامهم ولعل تأخير هذا من ذكر التولية للايذان باستقلال
كل منهما فى الترتب على الاطلاع اذ لو روعى ترتب الوجود لتبادر الى الفهم ترتب المجموع
من حيث هو هو عليه وللاشعار بعدم زوال الرعب بالفرار كما هو المعتاد وعن معاوية
لما غزا الروم فمر بالكهف فقال لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم فقال له ابن عباس
رضى الله عنهما ليس لك ذلك قد منعه الله من هو خير منك حيث قال لو اطلعت عليهم
الآية فقال معاوية لا انتهى حتى اعلم علمهم فبعث ناسا وقال لهم اذهبوا فانظروا
ففعلوا فلما دخلوا الكهف بعث الله تعالى ريحا فاحرقتهم وقرئ بتشديد اللام
على التكثير وبابدال الهمزة ياء مع التخفيف والتشديد وكذلك بعثناهم اى كما انمناهم
وحفظنا اجسادهم من البلى والتحلل آية دالة على كمال قدرتنا بعثناهم من النوم
ليتساءلوا بينهم اى ليسأل بعضهم بعضا فيترتب عليه ما فصل من الحكم البالغة
وجعله غاية للبعث المعلل فيما سبق بالاختبار من حيث انه من احكامه المترتبة
عليه والاقتصار على ذكره لاستتباعه لسائر آثاره قال استيناف لبيان تساؤلهم قائل
منهم هو رئيسهم واسمه مكسلمينا كم لبثتم فى منامكم لعله قاله لما رأى من مخالفة
حالهم لما هو المعتاد فى الجملة قالوا اى بعضهم لبثنا يوما او بعض يوم قيل انما
قالوه لانهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم آخر النهار فقالوا لبثنا يوما فلما
رأوا ان الشمس لم تغرب بعد قالوا او بعض يوم وكان ذلك بناء على الظن الغالب فلم
يعزوا الى الكذب قالوا اى بعض آخر منهم بما سنح لهم من الادلة او بالهام من
الله سبحانه ربكم اعلم بما لبثتم اى انتم لا تعلمون مدة لبثكم وانما يعلمها الله
سبحانه وهذا رد منهم على الاولين باجمل ما يكون من مراعاة حسن الادب وبه يتحقق
التحزب الى الحزبين المعهودين فيما سبق وقد قيل القائلون جميعهم ولكن فى حالتين
ولا يساعده النظم الكريم فان الاستيناف فى الحكاية والخطاب فى المحكى يقضى بان الكلام
جار على منهاج المحاورة والمجاوبة والا لقيل ثم قالوا ربنا اعلم بما لبثنا فابعثوا
احدكم بورقكم هذه الى المدينة قالوه اعراضا عن التعمق فى البحث واقبالا على ما
يهمهم بحسب الحال كما ينبئ عنه الفاء والورق الفضة مضروبة او غير مضروبة ووصفها
باسم الاشارة يشعر بان القائل ناولها بعض اصحابه ليشترى بها قوت يومهم ذلك
وقرئ بسكون الراء وبادغام القاف فى الكاف وبكسر الواو وسكون الراء مع الادغام
وحملهم لها دليل على ان التزود لا ينافى التوكل على الله تعالى فلينظر ايها اى اهلها
ازكى احل واطيب او اكثر وارخص طعاما فليأتكم برزق منه اى من ذلك الازكى
طعاما وليتلطف اى وليتكلف اللطف فى المعاملة كيلا يغبن او فى الاستخفاء لئلا يعرف
ولا يشعرن بكم احدا من اهل المدينة فانه يستدعى شيوع اخباركم اى لا يفعلن
ما يؤدى الى ذلك فالنهى على الاول تأسيس وعلى الثانى تأكيد للامر بالتلطف انهم
تعليل لما سبق من الامر والنهى اى ليبالغ فى التلطف وعدم الاشعار لانهم ان
يظهروا عليكم اى ان يطلعوا عليكم او يظفروا بكم والضمير للاهل المقدر فى ايها يرجموكم
ان ثبتم على ما انتم عليه او يعيدوكم فى ملتهم اى يصيروكم اليها ويدخلوكم
فيها كرها من العود بمعنى الصيرورة كقوله تعالى او لتعودن فى ملتنا وقيل كانوا اولا
على دينهم وايثار كلمة فى على كلمة الى للدلالة على الاستقرار الذى هو اشد شئ
عندهم كراهة وتقديم احتمال الرجم على احتمال الاعادة لان الظاهر من حالهم
هو الثبات على الدين المؤدى اليه وضمير الخطاب فى المواضع الاربعة للمبالغة فى حمل
المبعوث على الاستخفاء وحث الباقين على الاهتمام بالتوصية فان امحاض النصح
ادخل فى القبول واهتمام الانسان بشأن نفسه اكثر واوفر ولن تفلحوا اذا اى ان دخلتم

فيها

فيها ولو بالكره والالجاء لن تفلحوا بخير ابدا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة وفيه من التشديد
فى التحذير ما لا يخفى وكذلك اى وكما انمناهم وبعثناهم لما مر من ازديادهم فى مراتب
اليقين اعثرنا اى اطلعنا الناس عليهم ليعلموا اى الذين اعثرناهم عليهم بما عاينوا
من احوالهم العجيبة ان وعد الله اى وعده بالبعث او موعده الذى هو البعث
او ان كل وعده اى كل موعوده فيدخل فيه وعده بالبعث والبعث الموعود دخولا
اوليا حق صادق لا خلف فيه او ثابت لا مرد له لان نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم
يبعث وان الساعة اى القيامة التى هى عبارة عن وقت بعث الخلائق جميعا للحساب
والجزاء لا ريب فيها لا شك فى قيامها فان من شاهد انه جل وعلا توفى نفوسهم وامسكها
ثلثمائة سنة واكثر حافظا ابدانها من التحلل والتفتت ثم ارسلها اليها لا يبقى له شائبة
شك فى ان وعده تعالى حق وانه يبعث من فى القبور فيرد اليهم ارواحهم فيحاسبهم
ويجزيهم بحسب اعمالهم اذ يتنازعون ظرف لقوله اعثرنا قدم عليه الغاية اظهارا
لكمال العناية بذكرها لا لقوله ليعلموا كما قيل لدلالته على ان التنازع يحدث بعد الاعثار
وليس كذلك اى اعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم امرهم ليرتفع الخلاف
ويتبين الحق قيل المتنازع فيه امر دينهم حيث كانوا مختلفين فى البعث فمن مقر له و
جاحد به وقائل يقول ببعث الارواح دون الاجساد وآخر يقول ببعثهما معا قيل
كان ملك المدينة حينئذ رجلا صالحا مؤمنا وقد اختلف اهل مملكته فى البعث حينا
فدخل الملك بيته واغلق بابه ولبس مسحا وجلس على رماد وسأل ربه ان يظهر
الحق فالقى الله عز وجل فى نفس رجل من رعاتهم فهدم ما سد به دقيانوس باب الكهف
ليتخذه حظيرة لغنمه فعند ذلك بعثهم الله تعالى فجرى بينهم من التقاول ما جرى روى
ان المبعوث لما دخل المدينة اخرج الدرهم ليشترى به الطعام وكان على ضرب
دقيانوس فاتهموه بانه وجد كنزا فذهبوا به الى الملك فقص عليه القصة فقال بعضهم
ان آباءنا اخبرونا بان فتية فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء فانطلق الملك
واهل المدينة من مسلم وكافر وابصروهم وكلموهم ثم قالت الفتية للملك نستودعك
الله ونعيذك به من شر الانس والجن ثم رجعوا الى مضاجعهم فماتوا فالقى الملك
عليهم ثيابه وجعل لكل منهم تابوتا من ذهب فرآهم فى المنام كارهين
للذهب فجعلها من الساج وبنى على باب الكهف مسجدا وقيل لما انتهوا الى الكهف
قال لهم الفتى مكانكم حتى ادخل اولا لئلا يفزعوا فدخل فعمى عليهم المدخل فبنوا
ثمة مسجدا وقيل المتنازع فيه امر الفتية قبل بعثهم اى اعثرنا عليهم حين يتذاكرون
بينهم امرهم وما جرى بينهم وبين دقيانوس من الاحوال والاهوال ويتلقون
ذلك من الاساطير وافواه الرجال وعلى التقديرين فالفاء فى قوله تعالى فقالوا فصيحة
اى اعثرناهم عليهم فرأوا ما رأوا فماتوا فقالوا اى قال بعضهم ابنوا عليهم
اى على باب كهفهم بنيانا لئلا يتطرق اليهم الناس ضنا بتربتهم ومحافظة عليها
وقوله تعالى ربهم اعلم بهم من كلام المتنازعين كانهم لما رأوا عدم اهتدائهم
الى حقيقة حالهم من حيث النسب ومن حيث العدد ومن حيث اللبث فى الكهف قالوا
ذلك تفويضا للامر الى علام الغيوب او من كلام الله سبحانه رد لقول الخائضين فى
حديثهم من اولئك المتنازعين وقيل هو امرهم وتدبيرهم عند وفاتهم او
شأنهم فى الموت والنوم حيث اختلفوا فى انهم ماتوا او ناموا كما فى اول مرة فاذ حينئذ
متعلق بقوله تعالى قال الذين غلبوا على امرهم وهم الملك والمسلمون لنتخذن عليهم
مسجدا او قوله تعالى فقالوا معطوف على يتنازعون وايثار صيغة الماضى للدلالة على
ان هذا القول ليس مما يستمر ويتجدد كالتنازع وقيل متعلق باذكر مضمرا واما
تعلقه باعثرنا فيأباه ان اعثارهم ليس فى زمان تنازعهم فيما ذكر بل قبله وجعل
وقت التنازع ممتدا يقع فى بعضه الاعثار وفى بعضه التنازع تعسف لا يخفى مع انه
لا مخصص لاضافته الى التنازع وهو مؤخر فى الوقوع سيقولون الضمير فى الافعال

الثلاثة للخائضين في قصتهم في عهد النبي عليه السلام من أهل الكتاب والمسلمين لكن
لا على وجه إسناد كل منها إلى كلهم بل إلى بعضهم ﴿ثلاثة رابعهم كلبهم﴾ أي هم ثلاثة
أشخاص رابعهم أي جاعلهم أربعة بانضمامه إليهم كلبهم قيل قالته اليهود وقيل
قاله السيد من نصارى نجران وكان يعقوبيا وقرئ ثلاث بإدغام الثاء في التاء ﴿و
يقولون خمسة سادسهم كلبهم﴾ قيل قالته النصارى أو العاقب منهم وكان نسطوريا
﴿رجما بالغيب﴾ رميا بالخبر الخفي الذي لا مطلع عليه أو ظنا بالغيب من قولهم رجم بالظن
إذا ظن وانتصابه على الحالية من الضمير في الفعلين جميعا أي راجمين أو على المصدرية
منهما فإن الرجم والقول واحد أو من محذوف مستأنف أو واقع موقع الحال من
ضمير الفعلين معا أي يرجمون رجما وعدم إيراد السين للاكتفاء بعطفه على ما فيه
ذلك ﴿ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾ هو ما يقوله المسلمون بطريق التلقن
من هذا الوحي وما فيه مما يرشدهم إلى ذلك من عدم نظمه في سلك الرجم بالغيب
وتغيير سبكه بزيادة الواو المفيدة لزيادة وكادة النسبة فيما بين طرفيها لا بوحي آخر
كما قيل ﴿قل﴾ تحقيقا للحق وردا على الأولين ﴿ربي أعلم﴾ أي أقوى علما ﴿بعدتهم﴾ بعددهم
﴿ما يعلمهم﴾ أي ما يعلم عدتهم أو ما يعلمهم فضلا عن العلم بعدتهم ﴿إلا قليل﴾ من
الناس قد وفقهم الله تعالى للاستشهاد بتلك الشواهد قال ابن عباس رضي الله
عنهما حين وقعت الواو انقطعت العدة وعليه مدار قوله رضي الله تعالى أنا من ذلك
القليل ولو كان في ذلك وحي آخر لما خفي عليه ولما احتاج إلى الاستشهاد بالواو ولكان
المسلمون أسوة له في العلم بذلك وعن علي كرم الله وجهه أنهم سبعة نفر أسماؤهم يمليخا
ومكشلينيا ومشلينيا هؤلاء أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش
وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره والسابع الراعي الذي وافقهم حين هربوا من ملكهم
دقيانوس واسمه كفيشطيطيوش ﴿فلا تمار﴾ الفاء لتفريع النهي على ما قبله أي إذ قد
عرفت جهل أصحاب القولين الأولين فلا تجادلهم ﴿فيهم﴾ في شأن الفتية ﴿إلا مراء ظاهرا﴾
قدر ما تعرض له الوحي من وصفهم بالرجم بالغيب وعدم العلم على الوجه الإجمالي وتفويض
العلم إلى الله سبحانه من غير تصريح بجهلهم وتفضيح لهم فإنه مما يخل بمكارم الأخلاق
﴿ولا تستفت فيهم﴾ في شأنهم ﴿منهم﴾ من الخائضين ﴿أحدا﴾ فإن فيما قص عليك لمندوحة
عن ذلك مع أنه لا علم لهم بذلك وقال عطاء إلا قليل من أهل الكتاب فالضمائر الثلاثة
في الأفعال الثلاثة لهم وما ذكر من الشواهد لإرشاد المؤمنين إلى صحة القول الثالث
وفيه محيص عما في الأول من التكلف في جعل أحد الأقوال المحكية المنظومة في سمط واحد
ناشئا عن الحكاية مع كون الآخرين بخلافه ووضوح في سبب حذف المفعول في لا تمار
والمعنى حينئذ وإذ قد وقفت على أن كلهم ليسوا على خطأ في ذلك فلا تجادلهم إلا
جدالا ظاهرا ينطق به الوحي المبين من غير تجهيل لجميعهم فإن فيهم مصيبا وإن قل والنهي
عن الاستفتاء لدفع ما عسى يتوهم من احتمال جوازه واحتمال وقوعه بناء على إصابة بعضهم
فالمعنى لا تراجع إليهم في شأن الفتية ولا تصدق القول الثالث من حيث صدوره عنهم
بل من حيث التلقي من الوحي ﴿ولا تقولن لشيء﴾ أي لأجل شيء تعزم عليه ﴿إني فاعل ذلك﴾ الشيء
﴿غدا﴾ أي فيما يستقبل من الزمان مطلقا فيدخل فيه الغد دخولا أوليا فإنه نزل حين قالت
اليهود لقريش سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وذي القرنين فسألوه فقال عليه السلام
ائتوني غدا أخبركم ولم يستثن فأبطأ عليه الوحي حتى شق عليه وكذبته قريش وما قيل
من أن المدلول بالعبارة هو الغد وما بعده ذلك مفهوم بطريق دلالة النص يرده أن
ما بعده ليس بمعناه في مناط النهي فإن سعة المجال دليل القدرة فليتأمل ﴿إلا أن يشاء الله﴾
استثناء مفرغ من النهي أي لا تقولن ذلك في حال من الأحوال إلا حال ملابسته بمشيئته تعالى
على الوجه المعتاد وهو أن يقال إن شاء الله أو في وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء
الله أن تقوله لا مطلقا بل مشيئة إذن فإن النسيان أيضا بمشيئته تعالى ولا مساغ لتعليقه
بفاعل لعدم سداد استثناء اقتران المشيئة بالفعل ومنافاة استثناء اعتراضها النهي وقيل

الاستثناء جار مجرى التأبيد كأنه قيل لا تقولنه أبدا كقوله تعالى ﴿وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن
يشاء الله﴾ ﴿واذكر ربك﴾ بقولك إن شاء الله متدارِكا ﴿إذا نسيت﴾ إذا فرط منك نسيان
ثم ذكرته وعن ابن عباس رضي الله عنهما ولو بعد سنة ما لم يحنث ولذلك جوز تأخير الاستثناء
وعامة الفقهاء على خلافه إذ لو صح ذلك لما تقرر إقرار ولا طلاق ولا عتاق ولم يعلم
صدق ولا كذب قال القرطبي هذا في تدارك التبرك والتخلص عن الإثم وأما الاستثناء
المغير للحكم فلا يكون إلا متصلا ويجوز أن يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار
إذا نسيت الاستثناء مبالغة في الحث عليه أو اذكر ربك وعقابه إذا تركت بعض ما أمرك
به ليبعثك ذلك على التدارك أو اذكره إذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسي
وقد حمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها ﴿وقل عسى أن يهدين ربي﴾ أي يوفقني ﴿لأقرب من
هذا﴾ أي لشيء أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف من الآيات والدلائل الدالة على نبوتي ﴿رشدا﴾
أي إرشادا للناس ودلالة على ذلك وقد فعل عز وعلا ذلك حيث آتاه من البينات ما هو
أعظم من ذلك وأبين كقصص الأنبياء المتباعد أيامهم والحوادث النازلة في الأعصار
المستقبلة إلى قيام الساعة أو لأقرب رشدا وأدنى خيرا من المنسي ﴿ولبثوا في كهفهم﴾
أحياء مضروبا على آذانهم ﴿ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا﴾ وهي جملة مستأنفة مبينة
لما أجمل فيما سلف وأشير إلى عزة مناله وقيل إنه حكاية كلام أهل الكتاب فإنهم اختلفوا
في مدة لبثهم كما اختلفوا في عدتهم فقال بعضهم هكذا وبعضهم ثلاثمائة وروي
عن علي رضي الله عنه أنه قال عند أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية والله تعالى
ذكر السنة القمرية والتفاوت بينهما في كل مائة سنة ثلاث سنين فيكون ثلاثمائة وتسع
سنين وسنين عطف بيان لثلاثمائة وقيل بدل وقرئ على الإضافة وضعا للجمع موضع
المفرد ومما يحسنه ههنا أن علامة الجمع فيه جبر لما حذف في الواحد وأن الأصل في
العدد إضافته إلى الجمع ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ أي بالزمان الذي لبثوا فيه ﴿له غيب السموات
والأرض﴾ أي ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلهما واللام للاختصاص العلمي دون
التكويني فإنه غير مختص بالغيب ﴿أبصر به وأسمع﴾ دل بصيغة التعجب على أن شأن علمه
سبحانه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه إدراك المدركين لا يحجبه شيء ولا
يحول دونه حائل ولا يتفاوت بالنسبة إليه اللطيف والكثيف والصغير والكبير والخفي
والجلي والهاء ضمير الجلالة ومحله الرفع على الفاعلية والباء مزيدة عند سيبويه وكان أصله
أبصر أي صار ذا بصر ثم نقل إلى صيغة الأمر للإنشاء فبرز الضمير لعدم لياقة الصيغة له أو
لزيادة الباء كما في كفى به والنصب على المفعولية عند الأخفش والفاعل ضمير المأمور
وهو كل أحد والباء مزيدة إن كانت الهمزة للتعدية ومعدية إن كانت للصيرورة
ولعل تقديم أمر إبصاره تعالى لما أن الذي نحن بصدده من قبيل المبصرات ﴿ما لهم﴾
لأهل السموات والأرض ﴿من دونه﴾ تعالى ﴿من ولي﴾ يتولى أمورهم وينصرهم استقلالا
﴿ولا يشرك في حكمه﴾ في قضائه أو في علم الغيب ﴿أحدا﴾ منهم ولا يجعل له فيه مدخلا
وهو كما ترى أبلغ في نفي الشريك من أن يقال من ولي ولا شريك وقرئ على صيغة نهي
الحاضر على أن الخطاب لكل أحد ولما دل انتظام القرآن الكريم لقصة أصحاب الكهف
من حيث إنها بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم من المغيبات على أنه وحي معجز أمره
عليه السلام بالمداومة على دراسته فقال ﴿واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك﴾
ولا تسمع لقولهم ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴿لا مبدل لكلماته﴾ لا قادر على تبديله
وتغييره غيره ﴿ولن تجد﴾ أبد الدهر وإن بالغت في الطلب ﴿من دونه ملتحدا﴾ ملجأ
تعدل إليه عند إلمام ملمة ﴿واصبر نفسك﴾ احبسها وثبتها مصاحبة ﴿مع الذين
يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ أي دائبين على الدعاء في جميع الأوقات وقيل
في طرفي النهار وقرئ بالغدوة على أن إدخال اللام عليها وهي علم في الأغلب على
تأويل التنكير والمراد بهم فقراء المؤمنين مثل صهيب وعمار وخباب ونحوهم و
قيل أصحاب الصفة وكانوا نحو سبعمائة رجل قيل إنه قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله

صلى الله عليه وسلم نحّ هؤلاء الموالى الذين كان ريحهم ريح الضأن حتى نجالسك كما قال قوم نوح عليه السلام انؤمن لك واتبعك الارذلون فنزلت والتعبير عنهم بالموصول لتعليل الامر بما في حيز الصلة من الخصلة الداعية الى ادامة الصحبة يريدون وجهه اى ذاته ووجهه حال من المستكن فى يدعون اى مريدين لرضاه تعالى وطاعته . ولا تعد عيناك عنهم اى لا تجاوزهم نظرك الى غيرهم من عداه اى جاوزه واستعماله بعن لتضمينه معنى النبو او لا تصرف عيناك النظر عنهم الى غيرهم من عدوته عن الامر اى صرفته عنه على ان المفعول محذوف لظهوره وقرئ ولا تعد عينيك ولا تعد عينيك من الاعداء والتعدية والمراد نهيه عليه السلام عن الازدراء بهم لرثاثة زيهم طموحا الى زي الاغنياء تريد زينة الحيوة الدنيا اى تطلب مجالسة الاشراف والاغنياء واصحاب الدنيا وهي حال من الكاف على الوجه الاول من القراءة المشهورة ومن الفاعل على الوجه الثانى منها وضمير تريد للعينين واسناد الارادة اليه مجاز وتوحيده للتلازم كما فى قوله لمن زخارفها تزل بها العينان تنهل ومن المستكن فى الفعل على القراءتين الاخيرتين ولا تطع فى تنحية الفقراء عن مجلسك من اغفلنا قلبه اى جعلناه غافلا لبطلان استعداده للذكر بالمرة او وجدناه غافلا كقولك اجبنته وابخلته اذا وجدته كذلك او هو من اغفل ابله اى لم نسمه بالذكر عن ذكرنا كاولئك الذين يدعونك الى طرد الفقراء عن مجلسك فانهم غافلون عن ذكرنا على خلاف ما عليه المؤمنون من الدعاء فى مجامع الاوقات وفيه تنبيه على ان الباعث له الى ذلك الدعاء غفلة قلبه عن جناب الله سبحانه وجهته وانهماكه فى الحسيات حتى خفى عليه ان الشرف بحلية النفس لا بزينة الجسد وقرئ اغفلنا قلبه بفتح اللام اى على اسناد الفعل الى القلب اى حسبنا غافلين عن ذكرنا اياه بالمؤاخذة من اغفلته اذا وجدته غافلا واتبع هواه وكان امره فرطا ضياعا وهلاكا ومتقدما للحق والصواب نابذا له وراء ظهره من قولهم فرس فرط اى متقدم للخيل او هو بمعنى الافراط والتفريط فان الغفلة عن ذكره سبحانه تؤدى الى اتباع الهوى المؤدى الى التجاوز والتباعد عن الحق والصواب والتعبير عنهم بالموصول للايذان بعلية ما فى حيز الصلة للنهى عن الاطاعة وقل لاولئك الغافلين المتبعين هواهم الحق من ربكم اى ما اوحى الى الحق لا غير كائنا من ربكم او الحق المعهود من جهة ربكم لا من جهتى حتى يتصور فيه التبديل او يمكن التردد فى اتباعه وقوله تعالى فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر اما من تمام القول المأمور به والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها بطريق التهديد لا لتفريعه عليه كما فى قوله تعالى هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب وقوله تعالى الحق من ربك فلا تكونن من الممترين اى عقيب تحقق ان ما اوحى الى حق لا ريب فيه وان ذلك الحق من جهة ربكم من شاء ان يؤمن به فليؤمن كسائر المؤمنين ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعلل ومن شاء ان يكفر به فليفعل وفيه من التهديد واظهار الاستغناء عن متابعتهم وعدم المبالاة بهم وبايمانهم وجودا وعدما لا يخفى واما تهديد من جهة الله تعالى والفاء لترتيب ما بعدها من التهديد على الامر على مضمون المأمور به والمعنى قل لهم ذلك وبعد ذلك من شاء ان يؤمن به او ان يصدقك فيه فليؤمن ومن شاء ان يكفر به او ان يكذبك فيه فليفعل فقوله تعالى انا اعتدنا وعيد شديد وتأكيد للتهديد وتعليل لما يفيده من الزجر عن الكفر او لما يفهم من ظاهر التخيير من عدم المبالاة بكفرهم وقلة الاهتمام بزجرهم عنه فان اعداد جزائه من دواعى الاحالة الامهال وعلى الوجه الاول هو تعليل للامر بما ذكر من التخيير التهديدى اى قل لهم ذلك انا اعتدنا للظالمين اى هيأنا للكافرين بالحق بعد ما جاء من الله سبحانه والتعبير عنهم بالظالمين للتنبيه على ان مشية الكفر واختياره تجاوز عن الحد ووضع للشئ فى غير موضعه نارا عظيمة عجيبة احاط بهم اى يحيط بهم وايثار صيغة الماضى للدلالة على التحقق سرادقها اى

فسطاطها شبه به ما يحيط بهم من النار وقيل السرادق الحجرة التى تكون حول الفسطاط وقيل سرادقها دخانها وقيل حائط من نار وان يستغيثوا من العطش يغاثوا بماء كالمهل كالحديد المذاب وقيل كدردي الزيت وهو على طريقة قوله فاعتبوا بالصيلم يشوي الوجوه اذا قدم ليشرب انشوى الوجوه لحرارته عن النبى صلى الله عليه وسلم هو كعكر الزيت فاذا قرب اليه سقطت فروة وجهه بئس الشراب ذلك وساءت النار مرتفقا متكأ واصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد وانى ذلك فى النار وانما هو لمقابلة قوله تعالى حسنت مرتفقا ان الذين امنوا فى محل التعليل للحث على الايمان المنفهم من التخيير كانه قيل وللذين امنوا ولعل تغيير سبكه للايذان بكمال تنافى مآل الفريقين اى ان الذين امنوا بالحق الذى يوحى اليك وعملوا الصالحات حسبما بين فى تضاعيفه انا لا نضيع اجر من احسن عملا خبر ان الاولى هى الثانية مع ما فى حيزها والراجع محذوف اى من احسن منهم عملا او مستغنى عنه كما فى قولك نعم الرجل زيد او واقع موقعه الظاهر فان من احسن عملا فى الحقيقة هو الذى امن وعمل الصالحات اولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة لهم جنات عدن تجرى من تحتها الانهار استئناف لبيان الاجر وهو الخبر وما بينهما اعتراض او هو خبر بعد خبر يحلون فيها من اساور من ذهب من الاولى ابتدائية والثانية بيانية صفة الاساور والتنكير للتفخيم وهو جمع اسورة او اسوار جمع سوار ويلبسون ثيابا خضرا خصت الخضرة بثيابهم لانها احسن الالوان واكثرها طراوة من سندس واستبرق اى مما رق من الديباج وما غلظ جمع بين النوعين للدلالة على ان فيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين متكئين فيها على الارائك على السرر على ما هو شأن المتنعمين نعم الثواب ذلك وحسنت اى الارائك مرتفقا اى متكأ واضرب لهم اى للفريقين الكافر والمؤمن مثلا رجلين مفعولان لاضرب اولهما ثانيهما لانه المحتاج الى التفصيل والبيان اى اضرب للكافرين والمؤمنين لا من حيث احوالهما المستفادة مما ذكر انفا من ان للاولين فى الاخرة كذا وللآخرين كذا بل من حيث عصيان الاولين مع تقلبهم فى نعم الله تعالى وطاعة الآخرين مع مكابدتهم مشاق الفقر مثلا حال رجلين مقدرين او محققين هما اخوان من بنى اسرائيل او شريكان كافر اسمه قطروس ومؤمن اسمه يهوذا اقتسما ثمانية الآف دينار فاشترى الكافر بنصيبه ضياعا وعقارا وصرف المؤمن نصيبه الى وجوه المبار فآل امرهما الى ما حكاه الله تعالى وقيل هما اخوان من بنى مخزوم كافر هو الاسود بن عبد الاشد ومسلم هو ابو سلمة عبد الله بن عبد الاشد زوج ام سلمة رضى الله عنها اولا جعلنا لاحدهما وهو الكافر جنتين بستانين من اعناب من كروم متنوعة والجملة بتمامها بيان للتمثيل او صفة لرجلين وحففناهما بنخل اى جعلنا النخل محيطة بهما مؤزرا بهما كرومهما يقال حفه القوم اذا طافوا به وحففته بهم جعلتهم حافين حوله فيزيده الباء مفعولا اخر كقولك غشيته به وجعلنا بينهما وسطهما زرعا ليكون كل منهما جامعا للاقوات والفواكه متواصل العمارة على الهيئة الرائقة والوضع الانيق كلتا الجنتين آتت اكلها ثمرها وبلغ مبلغا صالحا للاكل وقرئ بسكون الكاف وقرئ كل الجنتين آتى اكله ولم تظلم منه لم تنقص من اكلها شيئا كما يعهد ذلك فى سائر البساتين فان الثمار غالبا تكثر فى عام وتقل فى آخر وكذا بعض الاشجار يأتى بالثمر فى بعض الاعوام دون بعض وفجرنا خلالهما فيما بين كل من الجنتين نهرا على حدة ليدوم شربهما ويزيد بهاؤهما وقرئ بالتخفيف ولعل تأخير ذكر تفجير النهر عن ذكر ايتاء الاكل مع ان الترتيب الخارجى على العكس للايذان باستقلال كل من ايتاء الاكل وتفجير النهر فى تكميل محاسن الجنتين كما فى قصة البقرة ونحوها ولو عكس لانفهم ان المجموع خصلة واحدة بعضها مترتب على بعض فان ايتاء الاكل متفرع على السقى عادة وفيه ايماء الى ان ايتاء الاكل لا يتوقف على السقى كقوله تعالى يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار وكان له لصاحب



الجنتين ثمر انواع من المال غير الجنتين من ثمر ماله اذا كثره قال ابن عباس رضي الله عنهما هو
جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك وقال مجاهد هو الذهب والفضة
خاصة فقال لصاحبه المؤمن وهو اى القائل يحاوره اى صاحبه المؤمن وان
جاز العكس اى يراجعه فى الكلام من حار اذا رجع انا اكثر منك مالا واعز نفرا حشما
واعوانا واولادا ذكورا لانهم الذين ينفرون معه ودخل جنته التى شرحت احوالها
وعددها وصفاتها وهيأتها وتوحيدها اما لعدم تعلق الغرض بتعددها واما لا
تصال احداهما بالاخرى واما لان الدخول يكون فى واحدة فواحدة وهو ظالم لنفسه
ضار لها بعجبه وكفره قال استيناف مبنى على سؤال نشاء من ذكر دخول جنته حال ظلمه
لنفسه كانه قيل فماذا قال اذ ذاك فقيل قال ما اظن ان تبيد هذه الجنة اى تفنى
ابدا لطول امله وتمادى غفلته واغتراره بمهلته ولعله انما قاله بمقابلة موعظة صاحبه
وتذكيره بفناء جنتيه ونهيه عن الاغترار بهما وامره بتحصيل الباقيات الصالحات وما
اظن الساعة قائمة كائنة فيما سياتى ولئن رددت بالبعث عند قيامها كما تقوله
الى ربى لاجدن يومئذ خيرا منها اى من هذه الجنة وقرئ منهما اى من الجنتين
منقلبا مرجعا وعاقبة ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة اعتقاد انه تعالى انما اولاه ما
اولاه فى الدنيا لاستحقاقه الذاتى وكرامته عليه سبحانه ولم يدر ان ذلك استدراج
قال له صاحبه استيناف كما سبق وهو يحاوره جملة حالية كما مر فائدتها التنبيه
من اول الامر على ان ما يتلوه كلام معتنى بشانه مسوق للمحاورة اكفرت حيث قلت ما
اظن الساعة قائمة بالذى خلقك اى فى ضمن خلق اصلك من تراب فان خلق آدم
عليه السلام منه متضمن لخلقه منه لما ان خلق كل فرد من افراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام
اذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه بل كانت انموذجا منطويا على فطرة سائر افراد
الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام من التراب
خلقا للكل منه وقيل خلقك منه لانه اصل مادتك اذ به يحصل الغذاء الذى منه يحصل
النطفة فتدبر ثم من نطفة هى مادتك القريبة فالمخلوق واحد والمبدأ متعدد ثم
سواك رجلا اى عدلك وكملك انسانا ذكرا او صيرك رجلا والتعبير عنه تعالى بالموصول
للاشعار بعلية ما فى حيز الصلة لانكار الكفر والتلويح بدليل البعث الذى نطق به قوله
عز من قائل يا ايها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب الخ لكنا هو الله
ربى اصله لكن انا فقد قرئ كذلك فحذفت الهمزة فتلاقت النونان فكان الادغام وانا
وهو الضمير للشان وهو مبتدأ خبره الله ربى وتلك الجملة خبر انا والعائد منها اليه الضمير
وقرئ باثبات الف انا فى الوصل والوقف جميعا او فى الوقف خاصة وقرئ لكنه بالهاء
ولكن بطرح انا ولكن انا لا اله الا هو ربى ومدار الاستدراك قوله تعالى اكفرت كانه
قال انت كافر لكنى مؤمن موحد ولا اشرك بربى احدا فيه ايذان بان كفره كان بطريق
الاشراك ولولا اذ دخلت جنتك قلت اى هلا قلت عندما دخلتها وتقديم
الظرف على المحضض عليه للايذان بتحتم القول فى آن الدخول من غير ريث لا للقصر ما
شاء الله اى الامر ما شاء الله او ما شاء الله كائن على ان ما موصولة مرفوعة المحل او
اى شئ شاء الله كان على انها شرطية منصوبة والجواب محذوف والمراد تخصيصه
على الاعتراف بانها وما فيها بمشيئة الله تعالى ان شاء ابقاها وان شاء افناها لا قوة الا
بالله اى هلا قلت ذلك اعترافا بعجزك وبان ما تيسر لك من عمارتها وتدبير امرها
انما هو بمعونته تعالى واقداره عن النبى عليه السلام من رأى شيئا فاعجبه فقال ما شاء الله
لا قوة الا بالله لم يضره ان ترن انا اقل منك مالا وولدا انا اما مؤكدة لياء المتكلم
او ضمير فصل بين مفعولى الرؤية ان جعلت علمية واقل ثانيهما وحال ان جعلت بصرية
فيكون انا حينئذ تاكيدا لا غير لان شرط كونه ضمير فصل توسطه بين المبتدأ والخبر او ما
اصله المبتدأ والخبر وقرئ اقل بالرفع خبرا لانا والجملة مفعول ثان للرؤية او حال وفى
قوله تعالى وولدا نصرة لمن فسر النفر بالولد فعسى ربى ان يؤتين خيرا من جنتك هو جواب

الشرط والمعنى ان ترن افقر منك فانا اتوقع من صنع الله سبحانه ان يقلب ما بى وما بك من
الفقر والغنى فيرزقنى لايمانى جنة خيرا من جنتك ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب جنتك
ويرسل عليها حسبانا هو مصدر بمعنى الحساب كالبطلان والغفران اى مقدارا قدره
الله تعالى وحسبه وهو الحكم بتخريبها وقيل عذاب حسبان وهو حساب ما كسبت يداه وقيل
مرامى جمع حسبانة وهى الصواعق ومساعدة النظم الكريم فيما سياتى للاولين
اكثر من السماء فتصبح صعيدا زلقا مصدرا اريد به المفعول مبالغة اى ارضا ملساء
يزلق عليها لاستيصال ما عليها من البناء والشجر والنبات او يصبح عطف على قوله تعالى
فتصبح وعلى الوجه الثالث على يرسل ماؤها غورا اى غائرا فى الارض اطلق عليه
المصدر مبالغة فلن تستطيع له اى للماء الغائر طلبا فضلا عن وجدانه و
رده واحيط بثمره اهلك امواله المعهودة من جنتيه وما فيهما واصله من احاطة
العدو وهو عطف على مقدر كانه قيل فوقع بعض ما توقع من المحذور واهلك
امواله وانما حذف لدلالة السباق والسياق عليه كما فى المعطوف عليه بالفاء الفصيحة
فاصبح يقلب كفيه ظهرا لبطن وهو كناية عن الندم كانه قيل فاصبح يندم على ما انفق
فيها اى فى عمارتها من المال ولعل تخصيص الندم به دون ما هلك الآن من الجنة لما انه
انما يكون على الافعال الاختيارية ولان ما انفق فى عمارتها كان مما يمكن صيانته
عن طوارق الحدثان وقد صرفه الى مصالحها رجاء ان يتمتع بها اكثر مما يتمتع به وكان
يرى انه لا ينالها ايدى الردى ولذلك قال ما اظن ان تبيد هذه ابدا فلما ظهر له انها مما
يعتريها الهلاك ندم على ما صنع بناء على الزعم الفاسد من انفاق ما يمكن ادخاره
فى مثل هذا الشئ السريع الزوال وهى اى الجنة من الاعناب المحفوفة بنخل خاوية
ساقطة على عروشها اى دعائمها المصنوعة للكروم لسقوطها قبل سقوطها وتخصيص
حالها بالذكر دون النخل والزرع اما لانها العمدة وهما من متمماتها واما لان ذكر هلاكها
مغن عن ذكر هلاك الباقى لانها حيث هلكت وهى مسندة بعروشها فهلاك ما عداها
بالطريق الاولى واما لان الانفاق فى عمارتها اكثر وقيل ارسل الله تعالى عليها نارا
فاحرقتها وغار ماؤها ويقول عطف على يقلب او حال من ضميره اى وهو يقول
يا ليتنى لم اشرك بربى احدا كانه تذكر موعظة اخيه وعلم انه انما اتى من قبل شركه
فتمنى لو لم يكن مشركا فلم يصبه ما اصابه قيل ويحتمل ان يكون ذلك توبة من الشرك
وندما على ما فرط منه ولم تكن له وقرئ بالياء التحتانية فئة ينصرونه يقدرون
على نصره بدفع الاهلاك او على رد المهلك والاتيان بمثله وجمع الضمير باعتبار المعنى
كما فى قوله عز وعلا يرونهم مثليهم من دون الله فانه القادر على ذلك
وحده وما كان فى نفسه منتصرا ممتنعا بقوته عن انتقامه سبحانه هنالك
فى ذلك المقام وفى تلك الحال الولاية لله الحق اى النصرة له وحده ولا يقدر عليها
احد فهو تقرير لما قبله او ينصر فيها اولياءه المؤمنين على الكفرة كما نصر بما فعل
بالكافر اخاه المؤمن ويعضده قوله تعالى هو خير ثوابا وخير عقبا اى لاوليائه وقرئ
الولاية بكسر الواو ومعناها الملك والسلطان اى هنالك السلطان له عز وجل لا يغلب
ولا يمتنع منه او لا يعبد غيره كقوله تعالى فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين
له الدين فيكون تنبيها على ان قوله يا ليتنى لم اشرك الخ كان عن اضطرار وجزع
عما دهاه على اسلوب قوله تعالى الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين وقيل
هنالك اشارة الى الآخرة كقوله تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقرئ برفع الحق
على انه صفة للولاية وبنصبه على انه مصدر مؤكد وقرئ برفع الحق على انه صفة
للولاية وبنصبه على انه مصدر مؤكد وقرئ عقبا بضم القاف وعقبى كرجعى
والكل بمعنى العاقبة واضرب لهم مثل الحيوة الدنيا اى واذكر لهم ما يشبهها فى
زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يطمئنوا بها ولا يعكفوا عليها ولا يضربوا
عن الآخرة صفحا بالمرة او بين لهم صفتها العجيبة التى هى فى الغرابة كالمثل

كالماء استيناف لبيان المثل اى هى كماء انزلناه من السماء ويجوز كونه مفعولا ثانيا لاضرب
على انه بمعنى صير فاختلط به اى اشتبك بسببه نبات الارض فالتف وخالط بعضه
بعضا من كثرته وتكاثفه او نجع الماء فى النبات حتى روى ورق فمقتضى الظاهر
حينئذ فاختلط بنبات الارض وايثار ما عليه النظم الكريم عليه للمبالغة فى الكثرة
فان كلا من المختلطين موصوف بصفة صاحبه فاصبح ذلك النبات الملتف اثر بهجتها
ورفيفها هشيما هشوما مكسورا تذروه الرياح تفرقه وقرئ تذريه من اذراه
وتذروه الريح وليس المشبه به نفس الماء بل هو الهيئة المنتزعة من الجملة وهى حال النبات
المنبت بالماء يكون اخضر وارقا ثم هشيما تطيره الرياح كان لم يغن بالامس وكان الله
على كل شئ من الاشياء التى من جملتها الانشاء والافناء مقتدرا قادرا على الكمال
المال والبنون زينة الحيوة الدنيا بيان لشان ما كانوا يفتخرون به من محسنات
الحيوة الدنيا كما قال الاخ الكافر انا اكثر منك مالا واعز نفرا اثر بيان شان
نفسها بما مر من المثل وتقديم المال على البنين مع كونهم اعز منه كما فى الاية المحكية
انفا وقوله تعالى وامددناكم باموال وبنين وغير ذلك من الايات الكريمة لعراقته فيما
نيط به من الزينة والامداد وغير ذلك وعمومه بالنسبة الى الافراد والاوقات فانه
زينة وممد لكل احد من الاباء والبنين فى كل وقت وحين واما البنون فزينتهم
وامدادهم انما يكون بالنسبة الى من يبلغ مبلغ الابوة ولان المال مناط لبقاء النفس
والبنون لبقاء النوع ولان الحاجة اليه امس من الحاجة اليهم ولانه اقدم منهم
فى الوجود ولانه زينة بدونهم من غير عكس فان من له بنون بلا مال فهو فى ضيق
حال ونكال وافراد الزينة مع انها مسندة الى الاثنين لما انها مصدر فى الاصل اطلق
على المفعول مبالغة كانها نفس الزينة والمعنى ان ما يفتخرون به من المال والبنين
شئ يتزين به فى الحيوة الدنيا وقد علم شانها فى سرعة الزوال وقرب الاضمحلال فكيف
بما هو من اوصافها التى شانها ان تزول قبل زوالها والباقيات الصالحات هى اعمال
الخير وقيل هى الصلوات الخمس وقيل سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر
وقيل كل ما اريد به وجه الله تعالى وعلى كل تقدير يدخل فيها اعمال فقراء المؤمنين
الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه دخولا اوليا اما صلاحها
فظاهر واما بقاؤها فبقاء عوائدها عند فناء كل ما تطمح اليه النفس من حظوظ الدنيا
خير اى مما نعت شانه من المال والبنين واخراج بقاء تلك الاعمال وصلاحها مخرج الصفات
المفروغ عنها مع ان حقهما ان يكونا مقصودى الافادة لا سيما فى مقابلة اثبات الفناء
لما يقابلها من المال والبنين على طريقة قوله تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق للايذان
بان بقاءها امر محقق لا حاجة الى بيانه بل لفظ الباقيات اسم لها لا وصف ولذلك
لم يذكر الموصوف وانما الذى يحتاج الى التعرض له خيريتها عند ربك اى فى الاخرة
وهو بيان لما يظهر فيه اثار خيريتها بمنزلة اضافة الزينة الى الحيوة الدنيا لا لافضليتها
فيهما من المال والبنين مع مشاركة الكل فى الاصل اذ لا مشاركة لهما فى الخيرية فى الاخرة
ثوابا عائدة تعود الى صاحبها وخير املا حيث ينال بها صاحبها فى الاخرة كل ما كان
يؤمله فى الدنيا واما ما مر من المال والبنين فليس لصاحبه امل يناله وتكرير خير
للاشعار باختلاف حيثيتى الخيرية والمبالغة فيها ويوم نسير الجبال منصوب بمضمر
اى اذكر حين نقلعها من اماكنها ونسيرها فى الجو على هيئاتها كما ينبئ عنه قوله تعالى
وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب او نسير اجزاءها بعد ان نجعلها
هباء منبثا والمراد بتذكيره تحذير المشركين مما فيه من الدواهى وقيل هو معطوف
على ما قبله من قوله تعالى عند ربك اى الباقيات الصالحات خير عند الله ويوم القيمة
وقرئ تسير على صيغة البناء للمفعول من التفعيل جريا على سنن الكبرياء وايذانا
بالاستغناء عن الاسناد الى الفاعل لتعينه وقرئ تسير وترى الارض اى جميع
جوانبها والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل احد ممن يتاتى منه الرؤية

وقرئ

وقرئ بصيغة البناء للمفعول بارزة اما بروز ما تحت الجبال فظاهر واما ما عداه
فكانت الجبال تحول بينه وبين الناظر قبل ذلك فالآن اضحى قاعا صفصفا لا ترى
فيها عوجا ولا امتا وحشرناهم جمعناهم الى الموقف من كل اوب وايثار
صيغة الماضى بعد نسير وترى للدلالة على تحقق الحشر المتفرع على البعث الذى ينكره
المنكرون وعليه يدور امر الجزاء وكذا الكلام فيما عطف عليه منفيا وموجبا وقيل
هو للدلالة على ان حشرهم قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الاهوال كانه قيل و
حشرناهم قبل ذلك فلم نغادر اى لم نترك منهم احدا يقال غادره واغدره
اذا تركه ومنه الغدر الذى هو ترك الوفاء والغدير الذى هو ما يتركه السيل فى الارض
الغائرة وقرئ بالياء وبالفوقانية على اسناد الفعل الى ضمير الارض كما فى قوله تعالى
والقت ما فيها وتخلت وعرضوا على ربك شبهت حالهم بحال جند عرضوا
على السلطان ليامر فيهم بما يامر وفى الالتفات الى الغيبة وبناء الفعل للمفعول مع
التعرض لعنوان الربوبية والاضافة الى ضميره عليه السلام من تربية المهابة والجرى
على سنن الكبرياء واظهار اللطف به عليه السلام ما لا يخفى صفا اى غير متفرقين
ولا مختلطين فلا تعرض فيه لوحدة الصف وتعدده وقد ورد فى الحديث الصحيح
يجمع الله الاولين والاخرين فى صعيد واحد صفوفا لقد جئتمونا على اضمار
القول على وجه يكون حالا من ضمير عرضوا اى مقولا لهم او وقلنا لهم واما كونه
عاملا فى يوم نسير كما قيل فبعيد من جلالة التنزيل الجليل كيف لا ويلزم منه ان هذا
القول هو المقصود بالاصالة دون سائر القوارع مع انه خاص بالمتعلق بما قبله من
العرض والحشر دون تسيير الجبال وبروز الارض كما خلقناكم نعت لمصدر مقدر
اى مجيئا كائنا كمجيئكم عند خلقنا لكم اول مرة او حال من ضمير جئتمونا اى كائنين
كما خلقناكم اول مرة حفاة عراة غرلا او ما معكم شئ مما تفتخرون به من
الاموال والانصار كقوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة وتركتم
ما خولناكم وراء ظهوركم بل زعمتم ان لن نجعل لكم موعدا اضراب وانتقال
من كلام الى كلام كلاهما للتوبيخ والتقريع اى زعمتم فى الدنيا انه لن نجعل
لكم ابدا وقتا ننجز فيه ما وعدناه من البعث وما يتبعه وان مخففة من الثقيلة
فصل بحرف النفى بينها وبين خبرها لكون خبرها جملة فعلية متصرفة غير دعاء والظرف اما
مفعول ثان للجعل وهو بمعنى التصيير والاول هو موعدا او حال من موعدا وهو بمعنى
الخلق والابداع ووضع الكتاب عطف على عرضوا داخل تحت الامور الهائلة اريد
تذكيرها بتذكير وقتها واورد فيه ما اورد فى امثاله من صيغة الماضى دلالة على التقرر
ايضا اى وضع صحائف الاعمال وايثار الافراد للاكتفاء بالجنس والمراد بوضعها
اما وضعها فى ايدى اصحابها يمينا وشمالا واما فى الميزان فترى المجرمين
قاطبة فيدخل فيهم الكفرة المنكرون للبعث دخولا اوليا مشفقين خائفين مما
فيه من الجرائم والذنوب ويقولون عند وقوفهم على ما فى تضاعيفه نقيرا و
قطميرا يا ويلتنا منادين لهلكتهم التى هلكوها من بين الهلكات مستدعين
لها ليهلكوا ولا يروا هول ما لاقوه اى يا ويلتنا احضرى فهذا اوان حضورك
ما لهذا الكتاب اى اى شئ له وقوله تعالى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها
اى حواها وضبطها جملة حالية محققة لما فى الجملة الاستفهامية من التعجب او
استئنافية مبنية على سؤال نشا من التعجب كانه قيل ما شانه حتى تتعجب منه فقيل
لا يغادر سيئة صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ووجدوا ما عملوا فى الدنيا من السيئات
او جزاء ما عملوا حاضرا مسطورا عتيدا ولا يظلم ربك احدا فيكتب ما لم يعمل
من السيئات او يزيد فى عقابه المستحق فيكون اظهارا لمعدلة القلم الازلى واذ قلنا
للملائكة اى اذكر وقت قولنا لهم اسجدوا لادم سجود تحية وتكريم وقد مر
تفصيله فسجدوا جميعا امتثالا بالامر الا ابليس فانه لم يسجد بل ابى واستكبر وقوله تعالى

كان من الجن كلام مستأنف سيق مساق التعليل لما يفيده استثناء اللعين من الساجدين
كأنه قيل ماله لم يسجد فقيل كان اصله جنيا ففسق عن امر ربه اى خرج عن طاعته
كما ينبئ عنه الفاء او صار فاسقا كافرا بسبب امر الله تعالى اذ لولاه لما ابى والتعرض لوصف
الربوبية النافية للفسق لبيان كمال قبح ما فعله والمراد بتذكير قصته تشديد النكير على المتكبرين
المفتخرين بانسابهم واموالهم المستنكفين عن الانتظام في سلك فقراء المؤمنين
ببيان ان ذلك من صنيع ابليس وانهم في ذلك تابعون لتسويله كما ينبئ عنه قوله تعالى
افتتخذونه الخ فان الهمزة للانكار والتعجب والفاء للتعقيب اى اعقيب علمكم بصدور
تلك القبائح عنه تتخذونه وذريته اى اولاده واتباعه جعلوا ذريته مجازا قال
قتادة يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وقيل يدخل ذنبه في دبره فيبيض فتنفلق
البيضة عن جماعة من الشياطين اولياء من دوني فتستبدلونهم فتطيعونهم بدل
طاعتي وهم اى والحال ان ابليس وذريته لكم عدو اى اعداء كما في قوله تعالى فانهم
عدو لى الا رب العالمين وقوله تعالى هم العدو وانما فعل به ذلك تشبيها له بالمصادر
نحو القبول والولوع وتقييد الاتخاذ بالجملة الحالية لتأكيد الانكار وتشديده فان
مضمونها مانع من وقوع الاتخاذ ومناف له قطعا بئس للظالمين اى الواضعين
للشئ في غير موضعه بدلا من الله سبحانه ابليس وذريته وفي الالتفات الى الغيبة
مع وضع الظالمين موضع الضمير من الايذان بكمال السخط والاشارة الى ان ما فعلوه
ظلم قبيح ما لا يخفى ما اشهدتهم استئناف مسوق لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ
المذكور في انفسهم بعد بيان الصوارف عن ذلك من خباثة المحتد والفسق والعداوة
اى ما احضرت ابليس وذريته خلق السموات والارض حيث خلقتهما قبل خلقهم
ولا خلق انفسهم اى ولا اشهدت بعضهم خلق بعض كقوله تعالى ولا تقتلوا
انفسكم هذا ما اجمع عليه الجمهور حذارا من تفكيك الضميرين ومحافظة على ظاهر
لفظ الانفس و لكن ترجع الضمير الثاني الى الظالمين وتلتزم التفكيك بناء على عود
المعنى اليه فان نفي اشهاد الشياطين خلق الذين يتولونهم هو الذي يدور عليه
انكار اتخاذهم اولياء بناء على ان ادنى ما يصحح التولي حضور الولي خلق المتولي
وحيث لا حضور لا مصحح للتولي قطعا واما نفي اشهاد بعض الشياطين خلق بعض
منهم فليس من مدار الانكار المذكور في شئ على ان اشهاد بعضهم خلق بعض
ان كان مصححا لتولي الشاهد بناء على دلالته على كماله باعتبار ان له مدخلا في خلق
المشهود في الجملة فهو مخل بتولي المشهود بناء على قصوره عمن شهد خلقه فلا
يكون نفي الاشهاد المذكور متمحضا في نفي الكمال المصحح للتولي عن الكل وهو المناط للانكار
المذكور وما كنت متخذ المضلين اى متخذهم وانما وضع موضعه المظهر ذما
لهم وتسجيلا عليهم بالاضلال وتأكيد الما سبق من انكار اتخاذهم اولياء عضدا
اعوانا في شأن الخلق او في شأن من شؤوني حتى يتوهم شركتهم في التولي
بناء على الشركة في بعض احكام الربوبية وفيه تهكم بهم وايذان بكمال ركاكة
عقولهم وسخافة آرائهم حيث لا يفهمون هذا الامر الجلي الذي لا يكاد يشتبه على البله
والصبيان فيحتاجون الى التصريح به وايثار نفي الاشهاد على نفي شهودهم ونفي
اتخاذهم اعوانا على نفي كونهم كذلك للاشعار بانهم مقهورون تحت قدرته
تعالى تابعون لمشيئته وارادته فيهم وانهم بمعزل من استحقاق الشهود والمعونة
من تلقاء انفسهم من غير احضار واتخاذ وانما قصارى ما يتوهم في شأنهم ان
يبلغوا ذلك المبلغ بامر الله عز وجل ولم يكن ذلك يكون وقيل الضمير للمشركين والمعنى
ما اشهدتهم خلق ذلك وما اطلعتهم على اسرار التكوين وما خصصتهم بفضائل
لا يحويها غيرهم حتى يكونوا قدوة للناس فيؤمنوا بايمانهم كما يزعمون فلا
تلتفت الى قولهم طمعا في نصرتهم للدين فانه لا ينبغي لي ان اعتضد بالمضلين
ويعضده القراءة بفتح التاء خطابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى ما صح لك الاعتضاد

بهم ووصفهم بالاضلال لتعليل نفي الاتخاذ وقرئ متخذ المضلين على الاصل وقرئ
عضدا بضم العين وسكون الضاد وبفتح وسكون بالتخفيف وبضمتين بالاتباع و
بفتحتين على انه جمع عاضد كرصد وراصد ويوم يقول اى الله عز وجل للكافرين
توبيخا وتعجيزا وقرئ بنون العظمة نادوا شركائي الذين زعمتم انهم شفعاؤكم
ليشفعوا لكم والمراد بهم كل ما عبد من دونه تعالى وقيل ابليس وذريته
فدعوهم اى نادوهم للاغاثة وفيه بيان لكمال اعتنائهم باغاثتهم على طريقة الشفاعة
اذ معلوم ان لا طريق الى المدافعة فلم يستجيبوا لهم فلم يغيثوهم اذ لا امكان
لذلك وفي ايراده مع ظهوره تهكم بهم وايذان بانهم في الحماقة بحيث لا يفهمونه
الا بالتصريح به وجعلنا بينهم بين الداعين والمدعوين موبقا اسم مكان
او مصدر من وبق وبوقا كوثب وثوبا او وبق وبقا كفرح فرحا اذا هلك اي
مهلكا يشتركون فيه وهو النار او عداوة هي في الشدة نفس الهلاك كقول عمر رضي
الله عنه لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا وقيل البين الوصل اي وجعلنا تواصلهم
في الدنيا هلاكا في الآخرة ويجوز ان يكون المراد بالشركاء الملائكة وعزيرا وعيسى عليهم
السلام ومريم وبالموبق البرزخ البعيد اى جعلنا بينهم امدا بعيدا يهلك فيه
الاشواط لفرط بعده لانهم في قعر جهنم وهم في اعلى الجنان ورأى المجرمون
النار وضع المظهر مقام المضمر تصريحا باجرامهم وذما لهم بذلك فظنوا اى
فايقنوا انهم مواقعوها مخالطوها واقعون فيها او ظنوا اذ رأوها من مكان
بعيد انهم مواقعوها الساعة ولم يجدوا عنها مصرفا انصرافا او معدلا
ينصرفون اليه ولقد صرفنا اى كررنا واوردنا على وجوه كثيرة من النظم في هذا
القرآن للناس لمصلحتهم ومنفعتهم من كل مثل من جملته ما مر من مثل الرجلين ومثل
الحيوة الدنيا اى من كل نوع من انواع المعاني البديعة الداعية الى الايمان التي
هي في الغرابة والحسن واستجلاب النفس كالمثل ليتلقوه بالقبول فلم يفعلوا وكان الانسان
بحسب جبلته اكثر شئ جدلا اى اكثر الاشياء التي يتأتى منه الجدل وهو هنا شدة
الخصومة بالباطل والمماراة من الجدل الذي هو الفتل والمجادلة الملاواة لان كلا من
المجادلين يلتوي على صاحبه وانتصابه على التمييز والمعنى ان جدله اكثر من جدل كل
مجادل وما منع الناس اى اهل مكة الذين حكيت اباطيلهم ان يؤمنوا من ان يؤمنوا
بالله تعالى ويتركوا ما هم فيه من الاشراك اذ جاءهم الهدى اى القرآن العظيم الهادي
الى الايمان بما فيه من فنون المعاني الموجبة له ويستغفروا ربهم عما فرط منهم من
انواع الذنوب التي من جملتها مجادلتهم للحق بالباطل الا ان تأتيهم سنة الاولين
اى الا طلب اتيان سنتهم او الا انتظار اتيانها او الا تقديره فحذف المضاف واقيم
المضاف اليه مقامه وسنتهم الاستئصال او يأتيهم العذاب اى عذاب الآخرة
قبلا اى انواعا جمع قبيل او عيانا كما في قراءة قبلا بكسر القاف وفتح الباء وقرئ
بفتحتين اى مستقبلا يقال لقيته قبلا وقبلا وقبلا وانتصابه على الحالية من الضمير
او العذاب والمعنى ان ما تضمنه القرآن الكريم من الامور المستوجبة للايمان بحيث لو لم
يكن مثل هذه الحكمة القوية لما امتنع الناس من الايمان وان كانوا مجبولين على الجدل
المفرط وما نرسل المرسلين الى الامم ملتبسين بحال من الاحوال الا حال كونهم مبشرين
للمؤمنين بالثواب ومنذرين للكفرة والعصاة بالعقاب ويجادل الذين كفروا بالباطل
باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات والسؤال عن قصة اصحاب الكهف ونحوها
تعنتا ليدحضوا به اى بالجدال الحق اى يزيلوه عن مركزه ويبطلوه من
ادحاض القدم وهو ازلاقها وهو قولهم للرسل عليهم السلام ما انتم الا بشر
مثلنا ولو شاء الله لانزل ملائكة ونحوهما واتخذوا آياتي التي تخر لها صم الجبال
وما انذروا اى انذروه من القوارع الناعية عليهم العقاب والعذاب وانذارهم
هزوا استهزاء وقرئ بسكون الزاي وهو ما يستهزأ به ومن اظلم ممن ذكر بآيات ربه

وهو القرآن العظيم فأعرض عنها ولم يتدبرها ولم يتذكر بها وهذا السبك وإن
كان مدلوله الوضعي نفي الأظلمية من غير تعرض لنفي المساواة في الظلم إلا أن مفهومه
العرفي أنه أظلم من كل ظالم وبناء الأظلمية على ما في حيز الصلة من الإعراض عن القرآن
للإشعار بأن ظلم من يجادل فيه ويتخذه هزوا خارج عن الحد ونسي ما قدمت
يداه أي عمله من الكفر والمعاصي التي من جملتها ما ذكر من المجادلة بالباطل والاستهزاء
بالحق ولم يتفكر في عاقبتها إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أغطية كثيرة جمع كنان وهو
تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم أن يفقهوه مفعول لما دل
عليه الكلام أي منعناهم أن يقفوا على كنهه أو مفعول له أي كراهة أن يفقهوه وفي
آذانهم أي جعلنا فيها وقرا ثقلا يمنعهم عن استماعه وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا
إذا أبدا أي فلن يكون منهم اهتداء البتة مدة التكليف وإذا جزاء للشرط وجواب
عن سؤال النبي عليه السلام المدلول عليه بكمال عنايته بإسلامهم كأنه قال عليه الصلاة
والسلام ما لي لا أدعوهم فقيل إن تدعهم الخ وجمع الضمير الراجع إلى الموصول في هذه
المواضع الخمسة باعتبار معناه كما أن إفراده في المواطن الخمسة المتقدمة باعتبار
لفظه وربك مبتدأ وقوله تعالى الغفور خبره وقوله تعالى ذو الرحمة أي الموصوف بها
خبر بعد خبر وإيراد المغفرة على صيغة المبالغة دون الرحمة للتنبيه على كثرة الذنوب و
لأن المغفرة ترك المضار وهو سبحانه قادر على ترك ما لا يتناهى من العذاب وأما
الرحمة فهي فعل وإيجاد ولا يدخل تحت الوجود إلا ما يتناهى وتقديم الوصف
الأول لأن التخلية قبل التحلية أو لأنه أهم بحسب الحال إذ المقام مقام بيان
تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها كما يعرب عنه قوله عز وجل لو يؤاخذهم
أي لو يريد مؤاخذتهم بما كسبوا من المعاصي التي من جملتها ما حكي عنهم من
مجادلتهم بالباطل وإعراضهم عن آيات ربهم وعدم المبالاة بما اجترحوا من
الموبقات لعجل لهم العذاب لاستيجاب أعمالهم لذلك وإيثار المؤاخذة المنبئة
عن شدة الأخذ بسرعة على التعذيب والعقوبة ونحوهما للإيذان بأن النفي المستفاد
من مقدم الشرطية متعلق بوصف السرعة كما ينبئ عنه تاليها وإيثار صيغة الاستقبال
وإن كان المعنى على المضي لإفادة أن انتفاء تعجيل العذاب لهم بسبب استمرار عدم
إرادة المؤاخذة فإن المضارع الواقع موقع الماضي يفيد استمرار انتفاء الفعل فيما مضى
كما حقق في موضعه بل لهم موعد اسم زمان هو يوم بدر أو يوم القيامة والجملة
معطوفة على مقدر كأنه قيل لكنهم ليسوا مؤاخذين بغتة لن يجدوا البتة من
دونه موئلا منجى أو ملجأ يقال وأل أي نجا ووأل إليه أي لجأ إليه وتلك القرى
أي قرى عاد وثمود وأضرابها وهي مبتدأ على تقدير المضاف أي وأهل تلك القرى
خبره قوله تعالى أهلكناهم أو مفعول مضمر مفسر به لما ظلموا أي وقت ظلمهم كما
فعلت قريش بما حكي عنهم من القبائح وترك المفعول إما لتعميم الظلم أو لتنزيله منزلة اللازم
أي لما فعلوا الظلم ولما إما حرف كما قال ابن عصفور وإما ظرف استعمل للتعليل وليس
المراد به الوقت المعين الذي عملوا فيه الظلم بل زمان ممتد من ابتداء الظلم إلى آخره
وجعلنا لمهلكهم أي لهلاكهم موعدا أي وقتا معينا لا محيد لهم عن
ذلك وهذا استشهاد على ما فعل بقريش من تعيين الموعد ليتنبهوا لذلك ولا يغتروا
بتأخر العذاب وقرئ بفتح الميم وفتح اللام أي إهلاكهم وبفتحهما وإذ قال موسى
نصب بإضمار فعل أي اذكر وقت قوله عليه السلام لفتاه وهو يوشع بن نون
بن أفرائيم بن يوسف عليه السلام سمي فتاه إذ كان يخدمه ويتبعه وقيل كان
يتعلم منه ويسمى التلميذ فتى وإن كان شيخا ولعل المراد بتذكيره عقيب بيان أن لكل
أمة موعدا تذكير ما في القصة من موعد الملاقاة مع ما فيها من سائر المنافع الجليلة
لا أبرح من برح الناقص كزال يزال أي لا أزال أسير فحذف الخبر اعتمادا على قرينة
الحال إذ كان ذلك عند التوجه إلى السفر واتكالا على ما يعقبه من قوله حتى أبلغ فإن ذلك

غاية

غاية تستدعي ذا غاية يؤدي إليها ويجوز أن يكون أصل الكلام لا يبرح مسيري حاصلا
حتى أبلغ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فينقلب الضمير البارز المجرور
المحل مرفوعا مستكنا والفعل من صيغة الغيبة إلى التكلم ويجوز أن يكون من برح
التام كزال يزول أي لا أفارق ما أنا بصدده حتى أبلغ مجمع البحرين هو ملتقى بحري
فارس والروم مما يلي المشرق وقيل طنجة وقيل هما الكر والرس بأرمينية وقيل إفريقية
وقرئ بكسر الميم كمشرق أو أمضي حقبا أسير زمانا طويلا أتيقن معه فوات المطلب
والحقب الدهر أو ثمانون سنة وكان منشأ هذه العزيمة أن موسى عليه السلام لما
ظهر على مصر مع بني إسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط أمره الله عز وجل أن يذكر
قومه النعمة فقام فيهم خطيبا بخطبة بديعة رقت به القلوب وذرفت العيون فقالوا
له من أعلم الناس قال أنا فعتب الله تعالى إذ لم يرد العلم إليه عز وجل فأوحى
إليه بل أعلم منك عبد لي عند مجمع البحرين وهو الخضر عليه السلام وكان في أيام
أفريدون قبل موسى عليه السلام وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر وبقي إلى أيام
موسى وقيل إن موسى عليه السلام سأل ربه أي عبادك أحب إليك قال الذي يذكرني
ولا ينساني قال فأي عبادك أقضى قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى قال فأي عبادك
أعلم قال الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى
فقال إن كان في عبادك من هو أعلم مني فدلني عليه قال أعلم منك الخضر قال أين أطلبه
قال على ساحل البحر عند الصخرة قال يا رب كيف لي به قال تأخذ حوتا في مكتل فحيثما فقدته
فهو هناك فأخذ حوتا فجعله في مكتل فقال لفتاه إذا فقدت الحوت فأخبرني فذهبا
يمشيان فلما بلغا الفاء فصيحة أشير إليه مجمع بينهما أي مجمع البحرين وبينهما
ظرف أضيف إليه اتساعا أو بمعنى الوصل نسيا حوتهما الذي جعل فقدانه أمارة
وجدان المطلوب أي نسيا تفقد أمره وما يكون منه وقيل نسي يوشع أن يقدمه و
موسى عليهما السلام أن يأمر فيه بشيء روي أنهما لما بلغا مجمع البحرين وفيه
الصخرة وعين الحياة التي لا يصيب ماؤها ميتا إلا حيي وضعا رأسيهما على الصخرة
فناما فلما أصاب الحوت برد الماء وروحه عاش وقد كانا أكلا منه وكان ذلك بعد
ما استيقظ يوشع وقيل توضأ من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش
فوقع في الماء فاتخذ سبيله في البحر سربا مسلكا كالسرب وهو النفق قيل أمسك الله
عز وجل جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه معجزة لموسى عليه السلام أو للخضر
عليهما السلام وانتصاب سربا على أنه مفعول ثان لاتخذ وفي البحر حال منه أو من
السبيل ويجوز أن يتعلق باتخذ فلما جاوزا أي مجمع البحرين الذي جعل موعدا للملاقاة
قيل ادلجا وسارا الليلة والغداة إلى الظهر وألقي على موسى عليه السلام الجوع فعند ذلك
قال لفتاه آتنا غداءنا أي ما نتغدى به وهو الحوت كما ينبئ عنه الجواب لقد لقينا
من سفرنا هذا إشارة إلى ما سارا بعد مجاوزة الموعد نصبا تعبا وإعياء قيل
هو لم ينصب ولم يجع قبل ذلك والجملة في محل التعليل للأمر بإيتاء الغداء إما باعتبار
أن النصب إنما يعتري بسبب الضعف الناشئ عن الجوع وإما باعتبار ما في أثناء التغدي
من استراحة ما قال أي فتاه عليهما السلام أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة أي التجأنا إليها
وأقمنا عندها وذكر الإيواء إليها مع أن المذكور فيما سبق من بلوغ مجمع البحرين
لزيادة تعيين محل الحادثة فإن المجمع محل متسع لا يمكن تحقيق المراد المذكور بنسبة
الحادثة إليه ولتمهيد العذر فإن الإيواء إليها والنوم عندها مما يؤدي إلى النسيان
عادة والرؤية مستعارة للمعرفة التامة والمشاهدة الكاملة ومراده بالاستفهام
تعجيب موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان مع كون ما شاهده من العظائم
التي لا تكاد تنسى وقد جعل فقده علامة لوجدان المطلوب وهذا أسلوب معتاد
فيما بين الناس يقول أحدهم لصاحبه إذا نابه خطب أرأيت ما نابني يريد بذلك تهويله
وتعجيب صاحبه منه وأنه مما لا يعهد وقوعه لا استخباره عن ذلك كما قيل والمفعول محذوف

اعتماداً على ما يدل عليه من قوله عز وجل فانى نسيت الحوت وفيه تأكيد للتعجب و
تربية لاستعظام المنسى وايقاع النسيان على اسم الحوت دون ضمير الغداء مع انه المأمور
باتيانه للتنبيه من اول الامر على انه ليس من قبيل نسيان المسافر زاده فى المنزل
وان ما شاهده ليس من قبيل الاحوال المتعلقة بالغداء من حيث هو غذاء وطعام بل من
حيث هو حوت كسائر الحيتان مع زيادة اى نسيت ان اذكر لك امره وما شاهدت
منه من الامور العجيبة وما انسانيه الا الشيطان بوسوسته الشاغلة عن
ذلك وقوله تعالى ان اذكره بدل اشتمال من الضمير اى ما انسانى ان اذكره لك وفى تعليق
الانساء بضمير الحوت اولا وبذكره له ثانيا على طريق الابدال المنبئ عن تنحية المبدل منه اشارة
الى ان متعلق النسيان ايضا ليس نفس الحوت بل ذكر امره وقرئ ان اذكره وايثار ان اذكره
على المصدر للمبالغة فان مدلوله نفس الحدوث عند وقوعه والحال وان كانت غريبة لا يعهد
نسيانها لكنه لما تعود بمشاهدة امثالها عند موسى عليه السلام والفها قل اهتمامه
بالمحافظة عليها واتخذ سبيله فى البحر عجبا بيان لطرف من امر الحوت منبئ عن طرف
آخر منه وما بينهما اعتراض قدم عليه للاعتناء بالاعتذار كانه قيل حى واضطرب ووقع
فى البحر واتخذ سبيله فيه سبيلا عجبا فعجبا ثانى مفعولى اتخذ والظرف حال من اولهما
او ثانيهما او هو المفعول الثانى وعجبا صفة مصدر محذوف اى اتخاذا عجبا وهو
كون مسلكه كالطاق والسرب او مصدر فعل محذوف اى اتعجب منه عجبا وقد قيل
انه من كلام موسى عليه السلام وليس بذاك قال اى موسى عليه السلام ذلك اى
الذى ذكرت من امر الحوت ما كنا نبغ وقرئ باثبات الياء والضمير العائد الى الموصول
محذوف اصله نبغيه اى نطلبه لكونه امارة للفوز بالمرام فارتدا اى رجعا على
آثارهما طريقهما الذى جاءا منه قصصا يقصان قصصا اى يتبعان آثارهما اتباعا او
مقتصين حتى اتيا الصخرة فوجدا عبدا من عبادنا التنكير للتفخيم والاضافة للتشريف
والجمهور على انه الخضر واسمه بليا بن ملكان وقيل اليسع وقيل الياس عليهم السلام آتيناه
رحمة من عندنا هى الوحى والنبوة كما يشعر تنكير الرحمة واختصاصها بجناب الكبرياء
وعلمناه من لدنا علما خاصا لا يكتنه كنهه ولا يقادر قدره وهو علم الغيوب قال له
موسى استيناف مبنى على سؤال نشأ من السياق كانه قيل فماذا جرى بينهما من
الكلام فقيل قال له موسى هل اتبعك على ان تعلمن استيذانا منه فى اتباعه له على وجه
التعلم مما علمت رشدا اى علما ذا رشد ارشد به فى دينى والرشد اصابة الخير
وقرئ بفتحتين وهو مفعول تعلمنى ومفعول علمت محذوف وكلاهما منقول من علم
المتعدى الى مفعول واحد ويجوز كونه علة لاتبعك او مصدرا باضمار فعله ولا ينافى
نبوته وكونه صاحب شريعة ان يتعلم من نبى آخر ما لا تعلق له باحكام شريعته من اسرار
العلوم الخفية ولقد راعى فى سوق الكلام غاية التواضع معه عليهما السلام قال اى الخضر
انك لن تستطيع معى صبرا نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد كانه مما لا يصح
ولا يستقيم وعلله بقوله وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ايذانا بانه يتولى امورا
خفية المدار منكرة الظواهر والرجل الصالح لا سيما صاحب الشريعة لا يتمالك ان يشمئز عند
مشاهدتها وفى صحيح البخارى قال الخضر يا موسى انى على علم من علم الله علمنيه
لا تعلمه وانت على علم من علم الله علمكه الله لا اعلمه وخبرا تمييز اى لم يحط به خبرك
قال موسى عليه السلام ستجدنى ان شاء الله صابرا معك غير معترض عليك وتوسيط
الاستثناء بين مفعولى الوجدان لكمال الاعتناء بالتيمن ولئلا يتوهم تعلقه بالصبر
ولا اعصى لك امرا عطف على صابرا اى ستجدنى صابرا وغير عاص وفى وعد هذا الوجدان
من المبالغة ما ليس فى الوعد بنفس الصبر وترك العصيان او على ستجدنى فلا محل لها من
الاعراب والاول هو الاولى لما عرفته ولظهور تعلقه بالاستثناء حينئذ وفيه دليل
على ان افعال العباد بمشيئته سبحانه قال فان اتبعتنى اذن له فى الاتباع بعد اللتيا والتى
والفاء لتفريع الشرطية على ما مر من التزام موسى عليه السلام للصبر والطاعة فلا تسألنى عن

شئ تشاهده من افعالى اى لا تفاتحنى بالسؤال عن حكمته فضلا عن المناقشة والاعتراض
حتى احدث لك منه ذكرا اى حتى ابتدئ ببيانه وفيه ايذان بان كل ما صدر عنه فله حكمة
وغاية حميدة البتة وهذا من ادب المتعلم مع العالم والتابع مع المتبوع وقرئ فلا تسألنى
بالنون المثقلة فانطلقا اى موسى والخضر عليهما السلام على الساحل يطلبان السفينة واما
يوشع فقد صرفه موسى عليه السلام الى بنى اسرائيل قيل انهما مرا بسفينة فكلموا اهلها فعرفوا
الخضر فحملوها بغير نول حتى اذا ركبا فى السفينة استعمال الركوب فى امثال هذه
المواقع بكلمة فى مع تجريده عنها فى مثل قوله عز وجل لتركبوها وزينة على ما يقتضيه
تعديته بنفسه لما اشرنا اليه فى قوله تعالى وقال اركبوا فيها لا لما قيل من ان فى ركوبها معنى
الدخول خرقها قيل خرقها بعد ما لججوا حيث اخذ فأسا فقلع من الواحها لوحين مما
يلى الماء فعند ذلك قال موسى اخرقتها لتغرق اهلها من الاغراق وقرئ بالتشديد من
التغريق وليغرق اهلها لقد جئت اتيت وفعلت شيئا امرا اى عظيما هائلا من امر الامر
اذا عظم قيل الاصل اامر فخفف قال اى الخضر الم اقل انك لن تستطيع معى صبرا تذكير لما قاله
من قبل وتحقيق لمضمونه متضمن للانكار على عدم الوفاء بوعده قال لا تؤاخذنى بما
نسيت بنسيانى او بالذى نسيته او بشئ نسيته وهو وصيته بان لا يسأله عن حكمة ما صدر
عنه من الافعال الخفية الاسباب قبل بيانه اراد انه نسى وصيته ولا مؤاخذة على
الناسى كما ورد فى صحيح البخارى من ان الاول كان من موسى نسيانا او اخرج الكلام فى
معرض النهى عن المؤاخذة بالنسيان يوهم انه قد نسى ليبسط عذره فى الاظهار وهو من
معاريض الكلام التى يتقى بها الكذب مع التوسل الى الغرض او اراد بالنسيان الترك
اى لا تؤاخذنى بما تركت من وصيتك اول مرة ولا ترهقنى اى لا تغشنى ولا تحملنى من
امرى وهو اتباعه اياه عسرا اى لا تعسر على متابعتك ويسرها على بالاغضاء و
ترك المناقشة وقرئ عسرا بضمتين فانطلقا الفاء فصيحة اى فقبل عذره فخرجا من
السفينة فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله قيل كان الغلام يلعب بالغلمان فقطع عنقه
وقيل ضرب برأسه الحائط وقيل اضجعه فذبحه بالسكين قال اى موسى عليه السلام
اقتلت نفسا زكية طاهرة عن الذنوب وقرئ زاكية بغير نفس اى بغير قتل نفس محرمة
وتخصيص نفى هذا المبيح بالذكر من بين سائر المبيحات من الكفر بعد الايمان والزنا بعد
الاحصان لانه الاقرب الى الوقوع نظرا الى حال الغلام ولعل تغيير النظم الكريم بجعل ما
صدر عن الخضر عليه السلام ههنا من جملة الشرط وابراز ما صدر عن موسى عليه السلام
فى معرض الجزاء المقصود افادته مع ان الحقيق بذلك انما هو ما صدر عن الخضر عليه السلام
من الخوارق البديعة لاستشراف النفس الى ورود خبرها لقلة وقوعها فى نفس الامر
وندرة وصول خبرها الى الاذهان ولذلك روعيت تلك النكتة فى الشرطية الاولى
لما ان صدور الخوارق منه عليه السلام خرج بوقوعه مرة مخرج العادة فانصرفت النفس
عن ترقبه الى ترقب احوال موسى عليه السلام هل يحافظ على مراعاة شرطه بموجب
وعده الاكيد عند مشاهدة خارق آخر او يسارع الى المناقشة كما مر فى المرة الاولى
فكان المقصود افادة ما صدر عنه عليه السلام ففعل ما فعل ولله در شأن التنزيل
واما ما قيل من ان القتل اقبح والاعتراض عليه ادخل فكان جديرا بان يجعل عمدة فى
الكلام فليس من دفع الشبهة فى شئ بل هو مؤيد لها فان كون القتل اقبح من مبادى
قلة صدوره عن المؤمن العاقل وندرة وصول خبره الى الاسماع وذلك مما يستدعى
جعله مقصودا بالذات وكون الاعتراض عليه ادخل من موجبات كثرة صدوره عن كل
عاقل وذلك مما لا يقتضى جعله كذلك لقد جئت شيئا نكرا قيل معناه انكر من الاول
اذ لا يمكن تداركه كما يمكن تدارك الاول بالسد ونحوه وقيل الامر اعظم من النكر
لان قتل نفس واحدة اهون من اغراق اهل السفينة قال الم اقل لك انك لن تستطيع
معى صبرا زيد لك لزيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية وقلة التثبت والصبر
لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار فلم يرعو بالتذكير حتى زاد فى النكير فى المرة الثانية

قال اى موسى عليه السلام ان سألتك عن شئ بعدها اى بعد هذه المرة فلا تصاحبني
وقرئ من الافعال اى لا تجعلني صاحبك قد بلغت من لدنى عذرا اى قد اعذرت و
وجدت من قبلي عذرا حيث خالفتك ثلث مرات عن النبي صلى الله عليه وسلم رحم الله
اخي موسى استحيى فقال ذلك لو لبث مع صاحبه لابصر اعجب الاعاجيب وقرئ لدنى
بتخفيف النون وقرئ بسكون الدال كعضد في عضد فانطلقا حتى اذا اتيا اهل قرية
هي انطاكية وقيل أُبُلَّة وهي ابعد ارض الله من السماء وقيل هي برقه وقيل بلدة باندلس
عن النبي صلى الله عليه وسلم كانوا اهل قرية لئاما وقيل شر القرى التي لا يضاف فيها الضيف
ولا يعرف لابن السبيل حقه وقوله تعالى استطعما اهلها في محل الجر على انه صفة لقرية
ولعل العدول عن استطعاهم على ان يكون صفة للاهل لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم
فان الاباء من الضيافة وهم اهلها قاطنون بها اقبح واشنع روى انهما طافا في القرية
فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم فابوا ان يضيفوهما بالتشديد وقرئ
بالتخفيف من الاضافة اذا كان ضيفا واضافه وضيفه انزله وجعله ضيفا له وحقيقة ضاف
مال اليه من ضاف السهم عن الغرض ونظيره زاره من الازوار فوجدا فيها جدارا يريد ان
ينقض اى يدانى ان يسقط فاستعيرت الارادة للمشارفة للدلالة على المبالغة في ذلك والانقضاض
الاسراع في السقوط وهو انفعال من القض يقال قضضته فانقض ومنه انقضاض الطير
والكواكب لسقوطه بسرعة وقيل هو افعلال من النقض كاحمر من الحمرة وقرئ ان ينقض
من النقض وان ينقاص من انقاضت السن اذا انشقت طولا فاقامه قيل مسحه
بيده فقام وقيل نقضه وبناه وقيل اقامه بعمود عمده به قيل كان سمكه مائة ذراع
قال لو شئت لاتخذت عليه اجرا تحريضا له على اخذ الجعل ليتعشيا به او تعريضا بانه
فضول لما في لو من النفي كانه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك
الصبر والتخذ افتعل من تخذ بمعنى اخذ كاتبع من تبع وليس من الاخذ عند البصريين وقرئ
لتخذت اى لاخذت وقرئ بادغام الذال في التاء قال الخضر عليه السلام هذا فراق بيني
وبينك على اضافة المصدر الى الظرف اتساعا وقد قرئ على الاصل والمشار اليه اما
نفس الفراق كما في هذا اخوك او الوقت الحاضر اى هذا الوقت وقت فراق بيني وبينك
او السؤال الثالث اى هذا سبب ذلك الفراق حسبما هو الموعود سانبئك السين للتاكيد لعدم
تراخي التنبئة بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا التأويل رجع الشئ الى ماله والمراد به
ههنا المآل والعاقبة اذ هو المنبأ به دون التأويل وهو خلاص السفينة من اليد العادية
وخلاص ابوى الغلام من شره مع الفوز بالبدل الاحسن واستخراج اليتيمين للكنز وفي
جعل صلة الموصول عدم استطاعة موسى عليه السلام للصبر دون ان يقال بتأويل ما
فعلت او بتأويل ما رأيت ونحوهما نوع تعريض به عليه السلام وعتاب اما السفينة
التي خرقتها فكانت لمساكين لضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة وقيل كانت لعشرة
اخوة خمسة منهم زمنى وخمسة يعملون في البحر واسناد العمل الى الكل حينئذ انما هو بطريق
التغليب او لان عمل الوكلاء بمنزلة عمل الموكلين فاردت ان اعيبها اى اجعلها ذات
عيب وكان وراءهم ملك اى امامهم وقد قرئ به او خلفهم وكان رجوعهم
عليه لا محالة واسمه جلندى بن كركر وقيل منوله بن جلندى الازدى يأخذ كل
سفينة اى صالحة وقد قرئ كذلك غصبا من اصحابها وانتصابه على انه مصدر
مبين لنوع الاخذ ولعل تفريع ارادة تعييب السفينة على مسكنة اصحابها قبل بيان خوف
الغصب مع ان مدارها كلا الامرين للاعتناء بشأنها اذ هي المحتاجة الى التأويل و
للايذان بان الاقوى في المدارية هو الامر الاول ولذلك لا يبالى بتخليص سفن سائر
الناس مع تحقق خوف الغصب في حقهم ايضا ولان في التأخير فصلا بين السفينة و
ضميرها مع توهم رجوعه الى الاقرب واما الغلام الذي قتلته فكان ابواه مؤمنين
لم يصرح بكفرانه او بكفره اشعارا بعدم الحاجة الى الذكر لظهوره فخشينا ان يرهقهما
فخفنا ان يغشى الوالدين المؤمنين طغيانا عليهما وكفرا لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه و

يلحق بهما شرا وبلاء او يقرن بايمانهما طغيانه وكفره فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ
كافر او يعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه وانما خشي الخضر عليه السلام
منه ذلك لان الله سبحانه اعلمه بحاله واطلعه على سر امره وقرئ فخاف ربك اى كره
سبحانه كراهة من خاف سوء عاقبة الامر فغيره ويجوز ان يكون القراءة المشهورة
على الحكاية بمعنى فكرهنا كقوله لاهب لك فاردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه بان
يرزقهما بدله ولدا خيرا منه وفي التعرض لعنوان الربوبية والاضافة اليهما ما لا
يخفى من الدلالة على ارادة وصول الخير اليهما زكوة طهارة من الذنوب والاخلاق
الرديئة واقرب رحما اى رحمة وعطفا قيل ولدت لهما جارية تزوجها نبي
فولدت نبيا هدى الله تعالى على يديه امة من الامم وقيل ولدت سبعين نبيا و
وقيل ابدلهما ابنا مؤمنا مثلهما وقرئ يبدلهما بالتشديد وقرئ رحما بضم الحاء
ايضا وانتصابه على التمييز مثل زكوة واما الجدار المعهود فكان لغلامين يتيمين
في المدينة هي القرية المذكورة فيما سبق ولعل التعبير عنها بالمدينة لاظهار نوع اعتداد
بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وابيهما الصالح قيل اسماهما اصرم وصريم واسم المقتول
جيسون وكان تحته كنز لهما من فضة وذهب كما روى مرفوعا والذم على كنزهما
في قوله عز وجل والذين يكنزون الذهب والفضة لمن لا يؤدى زكوتهما وسائر
حقوقهما وقيل كان لوحا من ذهب مكتوب فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن
وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت
لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها باهلها كيف يطمئن اليها
لا اله الا الله محمد رسول الله وقيل صحف فيها علم وكان ابوهما صالحا تنبيه
على ان سعيه في ذلك كان لصلاحه قيل كان بينهما وبين الاب الذي حفظا فيه
سبعة آباء فاراد ربك اى مالكك ومدبر امورك ففي اضافة الرب الى ضمير موسى
عليه السلام دون ضميرهما تنبيه له عليه على تحتم كمال الانقياد والاستسلام لارادته
سبحانه ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبها من الامور المذكورة
ان يبلغا اشدهما اى حلمهما وكمال رأيهما ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار ولولا
انى اقمته لانقض وخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع
بالكلية رحمة من ربك مصدر في موقع الحال اى مرحومين منه عز وجل او مفعول
له او مصدر مؤكد لاراد فان ارادة الخير رحمة وقيل متعلق بمضمر اى فعلت ما فعلت
من الامور التي شاهدتها رحمة من ربك ويعضده اضافة الرب الى ضمير المخاطب دون
ضميرهما فيكون قوله عز وعلا وما فعلته عن امرى اى عن رأيي واجتهادي تأكيدا
لذلك ذلك اشارة الى العواقب المنظومة في سلك البيان وما فيه من معنى البعد
للايذان ببعد درجتها في الفخامة ذلك تأويل ما لم تسطع اى لم تستطع فحذف
التاء للتخفيف عليه صبرا من الامور التي رأيته اى مآله وعاقبته فيكون انجازا
للتنبئة الموعودة او الى البيان نفسه فيكون التأويل بمعناه وعلى كل حال فهو فذلكة
لما تقدم وفي جعل الصلة عين ما مر تكرير للنكير وتشديد للعتاب تنبيه اختلفوا في
حيوة الخضر فقيل انه حي وسببه انه كان على مقدمة ذى القرنين فلما دخل الظلمات اصاب
الخضر عين الحيوة فنزل واغتسل منها وشرب من مائها واخطأ ذو القرنين الطريق
فعاد قالوا والياس ايضا في الحيوة يلتقيان كل سنة بالموسم وقيل انه ميت لما روى ان
النبي صلى الله عليه وسلم صلى العشاء ذات ليلة ثم قال ارأيتكم ليلتكم هذه فان رأس
مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الارض احد ولو كان الخضر حينئذ حيا
لما عاش بعد مائة عام روي ان موسى عليه السلام لما اراد ان يفارقه قال له اوصني
قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به ويسألونك عن ذى القرنين هم
اليهود سألوه على وجه الامتحان او سأله قريش بتلقينهم وصيغة الاستقبال للدلالة
على استمرارهم على ذلك الى ورود الجواب وهو ذو القرنين الاكبر واسمه الاسكندر

حسبما وقعت عليه
من الشر

من عدم استطاعة موسى عليه السلام
للصبر

بن فيلقوس اليونانى وقال ابن اسحق اسمه مرزبان بن مرذبه من ولد يافث بن نوح ع م
وكان اسود وقيل اسمه عبد الله بن الضحاك وقيل مصعب بن عبد الله بن قينان بن منصور
بن عبد الله بن الازد بن عون بن زيد بن كهلا بن سبا ابن يعرب بن قحطان وقال السهيلي
قيل ان اسمه مرزبان بن مدركه ذكره ابن هشام وهو اول التبابعة وقيل انه افريدون
بن النعمان الذى قتل الضحاك وذكر ابو الريحان البيرونى فى كتابه المسمى بالاثار الباقية
عن القرون الخالية ان ذا القرنين هو ابو كرب سمى ابن عيرين بن افريقيس الحميرى وان
ملكه بلغ مشارق الارض ومغاربها وهو الذى افتخر به التبع اليمانى حيث قال قد كان
ذو القرنين جدى مسلما ملكا علا فى الارض غير مفند بلغ المشارق والمغارب يبتغى
اسباب امر من حكيم مرشد وجعل هذا القول اقرب لان الاذواء كانوا من اليمن كذى
المنار وذى نواس وذى النون وذى رعين وذى يزن وذى جدن قال الامام الرازى
والاول هو الاظهر لان من بلغ ملكه من السعة والقوة الى الغاية التى نطق بها التنزيل
الجليل انما هو الاسكندر اليونانى كما تشهد به كتب التواريخ يروى انه لما مات ابوه جمع
ملك الروم بعد ان كان طوائف ثم قصد ملوك العرب وقهرهم ثم امعن حتى انتهى الى
البحر الاخضر ثم عاد الى مصر فبنى الاسكندرية وسماها باسمه ثم دخل الشام وقصد
بنى اسرائيل وورد بيت المقدس وذبح فى مذبحه ثم انعطف الى ارمينيه وباب
الابواب ودان له العراقيون والقبط والبربر ثم توجه نحو دارا ابن دارا وهزمه مرارا الى
ان قتله صاحب حرسه واستولى على ممالك الفرس وقصد الهند وفتحه وبنى مدينة سرنديب
وغيرها من المدن العظام ثم قصد الصين وغزى الامم البعيدة ورجع الى خراسان
وبنى بها مداين كثيرة ورجع الى العراق ومرض بشهرزور ومات انتهى كلام الامام وروى
ان اهل النجوم قالوا له انك لا تموت الا على ارض من حديد وتحت سماء من خشب وكان
يدفن كنز كل بلدة فيها ويكتب ذلك بصفته وموضعه فبلغ بابل فرعف وسقط عن دابته
فبسطت له دروع فنام عليها فآذته الشمس فاظلوه بترس فنظر فقال هذه ارض من
حديد وسماء من خشب فايقن بالموت فمات وهو ابن الف وستمائة سنة وقيل ثلاثة
الاف سنة قال ابن كثير وهذا غريب واغرب منه ما قاله ابن عساكر من انه بلغنى انه عاش
ستا وثلثين سنة او ثنتين وثلثين سنة وانه كان بعد داود وسليمان عليهما السلام
فان ذلك لا ينطبق الا على ذى القرنين الثانى كما ستذكره قلت وكذا ما ذكره الامام من قصد بنى اسرائيل
وورود بيت المقدس والذبح فى مذبحه فانه مما لا يكاد يتأتى نسبته الى الاول واختلف فى
نبوته بعد الاتفاق على اسلامه وولايته فقيل كان نبيا لقوله تعالى انا مكنا له فى الارض فظاهره انه
متناول للتمكين فى الدين وكماله بالنبوة ولقوله تعالى وآتيناه من كل شئ سببا ومن جملة الاشياء النبوة
ولقوله تعالى قلنا يا ذا القرنين ونحو ذلك وقيل كان ملكا لما روى ان عمر رض سمع رجلا يقول لآخر
يا ذا القرنين فقال اللهم غفرا اما رضيتم ان تتسموا باسماء الانبياء حتى تسميتم باسماء الملائكة
قال ابن كثير والصحيح انه ما كان نبيا ولا ملكا وانما كان ملكا صالحا عادلا ملك الاقاليم و
قهر اهلها من الملوك وغيرهم ودانت له البلاد وانه كان داعيا الى الله تعالى سائرا فى
الخلق بالمعدلة التامة والسلطان المؤيد المنصور وكان الخضر على مقدمة جيشه
بمنزلة المستشار الذى هو من الملك بمنزلة الوزير وقد ذكر الازرقى وغيره انه اسلم على
يدى ابراهيم الخليل عليه السلام فطاف معه بالكعبة هو واسمعيل وروى انه حج
ماشيا فلما سمع عليه السلام بقدومه تلقاه ودعى له واوصاه بوصايا ويقال
انه اتى بفرس ليركب فقال لا اركب فى بلد فيه الخليل فعند ذلك سخر له السحاب وطوى
له الاسباب وبشره ابراهيم عليه السلام بذلك فكانت السحاب تحمله وعساكره
وجميع آلاتهم اذا ارادوا غزوة قوم وقال ابو الطفيل سئل عنه على كرم الله وجهه
اكان نبيا ام ملكا فقال لم يكن نبيا ولا ملكا لكن كان عبدا احب الله فاحبه
وناصح الله فناصحه سخر له السحاب ومد له الاسباب واختلف فى وجه تسميته
بذى القرنين فقيل لانه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها وقيل لانه ملك الروم و

فارس وقيل الروم والترك وقيل لانه كان فى رأسه او فى تاجه ما يشبه القرنين وقيل لانه
كان له ذوابتان وقيل لانه كانت صفحتا رأسه من النحاس وقيل لانه دعى الناس الى الله
عز وجل فضرب بقرنه الايمن فمات ثم بعثه الله تعالى فضرب بقرنه الايسر فمات ثم
بعثه الله تعالى وقيل لانه رأى فى منامه انه صعد الفلك فاخذ بقرنى الشمس وقيل لانه
انقرض فى عهده قرنان وقيل لانه سخر له النور والظلمة فاذا سرى يهديه النور
من امامه وتحوطه الظلمة من ورائه وقيل لقب به لشجاعته هذا واما ذو القرنين
الثانى فقد قال ابن كثير انه الاسكندر بن فيلبس بن مصريم بن هرمس بن ميطون
بن رومى بن لنطى بن يونان بن يافث ابن يونه بن شرخون بن رومه بن نوفطن
بن نوفيل بن رومى بن الاصفر بن العز بن العيص بن اسحق ابن ابراهيم الخليل عليهما السلام
كذا نسبه ابن عساكر المقدونى اليونانى المصرى بانى الاسكندرية الذى يؤرخ بايامه
الروم وكان متاخرا عن الاول بدهر طويل اكثر من الفى سنة كان هذا قبل المسيح عليه
السلام بنحو من ثلثمائة سنة وكان وزيره ارسطاطاليس الفيلسوف وهو الذى قتل
دارا ابن دارا واذل ملوك الفرس ووطئ ارضهم ثم قال وانما بينا هذا لان
كثيرا من الناس يعتقد انهما واحد وان المذكور فى القرآن العظيم هو هذا المتاخر
فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير كيف لا والاول كان عبدا صالحا مؤمنا وملكا
عادلا وزيره الخضر عليه السلام وقيل انه كان نبيا واما الثانى فقد كان كافرا وزيره
ارسطاطاليس الفيلسوف وقد كان ما بينهما من الزمان اكثر من الفى سنة فاين
هذا من ذاك انتهى قلت المقدونى نسبة الى بلدة من بلاد الروم غربى دار السلطنة
السنية قسطنطينية المحمية لا زالت مشحونة بالشعائر الدينية بينهما من
المسافة مسيرة خمسة عشر يوما او نحو ذلك عند مدينة سيروز اسمها بلغة اليونانيين
مقدونيا كانت سرير ملك هذا الاسكندر وهى اليوم بلقع لا يقيم بها احد ولكن فيها علايم
تحكى كمال عظمها فى عهد عمرانها ونهاية شوكة واليها وسلطانه ولقد مررت
بها عند القفول عن بعض المغازى السلطانية فعاينت فيها من تعاجيب الاثار ما فيه
عبرة لاولى الابصار قل لهم فى الجواب سأتلو عليكم اى سأذكر لكم منه اى من ذى
القرنين ذكرا اى نبأ مذكورا وحيث كان ذلك بطريق الوحى المتلو حكاية عن جهة
الله عز وجل قيل سأتلوا اى ساتلو من جهته تعالى فى شانه ذكرا اى قرآنا والسين
للتاكيد والدلالة على التحقق المناسب لمقام تأييده عليه السلام وتصديقه بانجاز
وعده اى لا اترك التلاوة البتة كما فى قول من قال سأشكر عمرا ان تراخت منيتى ايادى
لم تمنن وان هى جلت لا للدلالة على ان التلاوة ستقع فيما يستقبل كما قيل لان هذه
الآية ما نزلت بانفرادها قبل الوحى بتمام القصة بل موصولة بما بعدها ريثما سألوه عم
عنه وعن الروح وعن اصحاب الكهف فقال لهم عليه السلام ائتونى غدا اخبركم
فابطأ عليه الوحى خمسة عشر يوما او اربعين كما ذكر فيما سلف وقوله عز وجل انا
مكنا له فى الارض شروع فى تلاوة الذكر المعهود حسبما هو الموعود والتمكين ههنا
الاقدار وتمهيد الاسباب يقال مكنه ومكن له ومعنى الاول جعله قادرا وقويا ومعنى
الثانى جعل له قدرة وقوة ولتلازمهما فى الوجود وتقاربهما فى المعنى يستعمل كل منهما
فى محل الآخر كما فى قوله عز وعلا مكناهم فى الارض ما لم نمكن لكم اى جعلناهم قادرين من حيث
القوى والاسباب والآلات على انواع التصرفات فيها ما لم نجعله لكم من القوة والسعة
فى المال والاستظهار بالعدد والاسباب فكانه قيل ما لم نمكنكم فيها اى ما لم نجعلكم
قادرين على ذلك فيها او مكنا لهم فى الارض ما لم نمكن لكم وهكذا اذا كان التمكين
ماخوذا من المكان بناء على توهم ميمه اصلية كما اشير اليه فى سورة يوسف عليه السلام
والمعنى انا جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف فى الارض من حيث التدبير والرأى و
الاسباب حيث سخر له السحاب ومد له فى الاسباب وبسط له النور وكان الليل و
النهار عليه سواء وسهل عليه السير فى الارض وذلل له طرقها وآتيناه من كل شئ

اراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه سببا اى طريقا يوصله اليه وهو كل ما يتوصل به الى المقصود من علم او قدرة او آلة فاتبع بالقطع اى فاراد بلوغ المغرب فاتبع سببا يوصله اليه ولعل قصد بلوغ المغرب ابتداء لمراعاة الحركة الشمسية وقرئ فأتبع من الافعال والفرق ان الاول فيه معنى الادراك والاسراع دون الثانى حتى اذا بلغ مغرب الشمس اى منتهى الارض من جهة المغرب بحيث لا يتمكن احد من مجاوزته ووقف على حافة البحر المحيط الغربى الذى يقال له اوقيانوس الذى فيه الجزائر المسماة بالخالدات التى هى مبدأ الاطوال على احد القولين وجدها اى الشمس تغرب فى عين حمئة اى ذات حمأة وهى الطين الاسود من حمئت البئر اذا كثرت حمأتها وقرئ حامية اى حارة روى ان معاوية رضه قرأ حامية وعنده ابن عباس رضى الله عنهما فقال حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمرو بن العاص كيف تقرأ قال كما يقرأ امير المؤمنين ثم وجه الى كعب الاحبار كيف تجد الشمس تغرب قال فى ماء وطين وروى فى ثأط فوافق قول ابن عباس رضى الله عنهما وليس بينهما منافاة قطعية لجواز كون العين جامعة بين الوصفين وكون الياء فى الثانية منقلبة من الهمزة لانكسار ما قبلها واما رجوع معاوية الى قول ابن عباس رضى الله عنهما بما سمعه من كعب مع ان قراءته ايضا مسموعة قطعا فلكون قراءة ابن عباس قطعية فى مدلولها وقراءته محتملة ولعله لما بلغ ساحل المحيط رآها كذلك اذ ليس فى مطمح بصره غير الماء كما يلوح به قوله تعالى وجدها تغرب ووجد عندها عند تلك العين قوما قيل كان لباسهم جلود الوحوش وطعامهم ما لفظه البحر وكانوا كفارا فخيره الله جل ذكره بين ان يعذبهم بالقتل وان يدعوهم الى الايمان وذلك قوله تعالى قلنا يا ذا القرنين اما ان تعذب بالقتل من اول الامر واما ان تتخذ فيهم حسنا اى امرا ذا حسن على حذف المضاف او على طريقة اطلاق المصدر على موصوفه مبالغة وذلك بالدعوة الى الاسلام والارشاد الى الشرائع ومحل ان مع صلته اما الرفع على الابتداء او الخبرية واما النصب على المفعولية اى اما تعذيبك واقع او اما امرك تعذيبك او اما تفعل تعذيبك وهكذا الحال فى الاتخاذ ومن لم يقل بنبوته قال كان الخطاب بواسطة نبى فى ذلك العصر او كان ذلك الهاما لا وحيا بعد ان كان ذلك التخيير موافقا لشريعة ذلك النبى قال اى ذو القرنين لذلك النبى او لمن عنده من خواصه بعدما تلقى امره بما يختاره اللائق الاخير اما من ظلم اى نفسه ولم يقبل دعوتى واصر على ما كان عليه من الظلم العظيم الذى هو الشرك فسوف نعذبه بالقتل وعن قتادة انه كان يطبخ من كفر فى القدور ومن آمن اعطاه وكساه ثم يرد الى ربه فى الآخرة فيعذبه فيها عذابا نكرا اى منكرا فظيعا وهو عذاب النار وفيه دلالة ظاهرة على ان الخطاب لم يكن بطريق الوحى اليه وان مقاولته كانت مع النبى او مع من عنده من اهل مشورته واما من آمن بموجب دعوتى وعمل عملا صالحا حسبما يقتضيه الايمان فله فى الدارين جزاء الحسنى اى فله المثوبة الحسنى او الفعلة الحسنى او الجنة جزاء على انه مصدر مؤكد لمضمون الجملة قدم على المبتدأ اعتناء به او منصوب بمضمر اى يجزى بها جزاء والجملة حالية او معترضة بين المبتدأ والخبر المتقدم عليه او حال اى مجزيا بها او تمييز وقرئ منصوبا غير منون على انه سقط تنوينه لالتقاء الساكنين ومرفوعا منونا على انه المبتدأ والحسنى بدله والخبر الجار والمجرور وقيل خير بين القتل والاسر والجواب من باب الاسلوب الحكيم لان الظاهر التخيير بينهما وهم كفار فقال اما الكافر فيراعى فى حقه قوة الاسلام واما المؤمن فلا يتعرض له الا بما يجب ويجوز ان يكون اما واما للتوزيع دون التخيير اى ليكن شانك معهم اما التعذيب واما الاحسان فالاول لمن بقى على حاله والثانى لمن تاب وسنقول له من امرنا اى مما نأمر به يسرا اى سهلا متيسرا غير شاق وتقديره ذا يسر واطلق عليه المصدر مبالغة وقرئ بضمتين ثم اتبع سببا اى طريقا راجعا من مغرب الشمس موصلا الى مشرقها حتى اذا بلغ مطلع الشمس يعنى الموضع الذى تطلع عليه الشمس اولا من معمورة الارض وقرئ بفتح اللام على تقدير مضاف اى مكان طلوع الشمس فانه مصدر قيل بلغه فى اثنتى عشرة سنة وقيل فى اقل من ذلك بناء على ما ذكر انه سخر له السحاب وطوى له الاسباب وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا

من اللباس والبناء قيل هم الزنج وعن كعب ان ارضهم لا تمسك الابنية وبها اسراب فاذا طلعت الشمس دخلوا الاسراب او البحر فاذا ارتفع النهار خرجوا الى معايشهم وعن بعضهم خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء فقالوا بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم فاذا احدهم يفرش اذنه ويلبس الاخرى ومعى صاحب يعرف لسانهم فقالوا له جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس قال فبينما نحن كذلك اذ سمعنا كهيئة الصلصلة فغشى على ثم افقت وهم يمسحوننى بالدهن فلما طلعت الشمس على الماء اذا هو فوق الماء كهيئة الزيت فادخلونا سربا لهم فلما ارتفع النهار خرجوا الى البحر يصطادون السمك ويطرحونه فى الشمس فينضج لهم وعن مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس اكثر من جميع اهل الارض كذلك اى امر ذى القرنين كما وصفناه لك فى رفعة المحل وبسطة الملك او امره فيهم كامره فى اهل المغرب من التخيير والاختيار ويجوز ان يكون صفة مصدر محذوف لوجد اى نجعل او صفة قوم اى على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم الشمس فى الكفر والحكم او سترا مثل سترهم من اللباس والاكنان والجبال وغير ذلك وقد احطنا بما لديه من الاسباب والعدد والعدد خبرا يعنى ان ذلك من الكثرة بحيث لا يحيط به الا علم اللطيف الخبير هذا على الوجه الاول واما على الوجوه الباقية فالمراد بما لديه ما يتناول ما جرى عليه وما صدر عنه وما لاقاه فتأمل ثم اتبع سببا اى طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب آخذا من الجنوب الى الشمال حتى اذا بلغ بين السدين بين الجبلين اللذين سد ما بينهما وهو منقطع ارض الترك مما يلى المشرق لا جبلا ارمينية واذربيجان كما توهم وقرئ بالضم قيل ما كان من خلق الله تعالى فهو مضموم وما كان من عمل الخلق فهو مفتوح وانتصاب بين على المفعولية لانه مبلوغ وهو من الظروف التى تستعمل اسماء ايضا كما ارتفع فى قوله تعالى بينكم وانجر فى قوله تعالى فراق بينى وبينك وجد من دونهما اى من ورائهما مجاوزا عنهما قوما اى امة من الناس لا يكادون يفقهون قولا لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم وقرئ من باب الافعال اى لا يفهمون السامع كلامهم واختلفوا فى انهم من اى الاقوام فقال الضحاك هم جيل من الترك وقال السدى الترك سرية من يأجوج ومأجوج خرجت فضرب ذو القرنين السد فبقيت خارجة فجميع الترك منهم وعن قتادة انهم اثنتان وعشرون قبيلة سد ذو القرنين على احدى وعشرين قبيلة منهم وبقيت واحدة فسموا الترك لانهم تركوا خارجين قال اهل التاريخ اولاد نوح عليه السلام ثلثة سام وحام ويافث فسام ابو العرب والعجم والروم وحام ابو الحبشة والزنج والنوبة ويافث ابو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج قالوا اى بواسطة مترجمهم او بالذات على ان يكون فهم ذى القرنين كلامهم وافهامه كلامه اياهم من جملة ما آتاه الله تعالى من الاسباب يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج قد ذكرنا انهما من اولاد يافث بن نوح عم وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل واختلف فى صفاتهم فقيل فى غاية صغر الجثة وقصر القامة لا يزيد قدهم على شبر واحد وقيل فى نهاية عظم الجسم وطول القامة يبلغ قدودهم نحو مائة وعشرين ذراعا وفيهم من عرضه كذلك وقيل لهم مخالب واضراس كالسباع وهما اسمان اعجميان بدليل منع الصرف وقيل عربيان من أج الظليم اذا اسرع واصلهما الهمزة كما قرأ عاصم وقد قرئ بغير همزة ومنع صرفهما للتعريف والتأنيث مفسدون فى الارض اى فى ارضنا بالقتل والتخريب واتلاف الزروع قيل كانوا يخرجون ايام الربيع فلا يتركون اخضر الا اكلوه ولا يابسا الا احتملوه وقيل كانوا يأكلون الناس ايضا فهل نجعل لك خرجا اى جعلا من اموالنا والفاء لتفريع العرض على افسادهم فى الارض وقرئ خراجا وكلاهما واحد كالنول والنوال وقيل الخراج ما على الارض والذمة والخرج المصدر وقيل الخرج ما كان على كل رأس والخراج ما كان على البلد وقيل الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك اداؤه على ان تجعل بيننا وبينهم سدا وقرئ بالضم قال ما مكنى بالادغام وقرئ بالفك اى ما مكننى فيه ربى وجعلنى فيه مكينا قادرا من الملك والمال وسائر

لقد تقطع صح

الاسباب خير اى مما تريدون ان تبذلوه الى من الخرج فلا حاجة بى اليه فاعينونى بقوة بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل وبالآلات لابد منها فى البناء والفاء لتفريع الامر بالاعانة على خيرية ما مكنه الله تعالى فيه من مالهم او على عدم قبول خرجهم اجعل جواب الامر بينكم وبينهم تقديم اضافة الظرف الى ضمير المخاطبين على اضافته الى ضمير يأجوج ومأجوج لاظهار كمال العناية بمصالحهم كما راعوه فى قولهم بيننا وبينهم ردما اى حاجزا حصينا وبرزخا متينا وهو اكبر من السد واوثق يقال ثوب مردم اى فيه رقاع وهذا اسعاف بمرامهم فوق ما يرجونه آتونى زبر الحديد جمع زبرة كغرف فى غرفة وهى القطعة الكبيرة وهذا لا ينافى رد خراجهم لان المأمور به الايتاء بالثمن او المناولة كما ينبئ عنه القراءة بوصل الهمزة اى جيئونى بزبر الحديد على حذف الباء كما فى امرتك الخير ولان ايتاء الآلة من قبيل الاعانة بالقوة دون الخرج على العمل ولعل تخصيص الامر بالايتاء بها دون سائر الآلات من الصخور والحطب ونحوهما لما ان الحاجة اليها امس اذ هى الركن فى السد ووجودها اعز قيل حفر للاساس حتى بلغ الماء وجعل الاساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينهما الحطب والفحم حتى سد ما بين الجبلين الى اعلاهما وكان مائة فرسخ وذلك قوله عز قائلا حتى اذا ساوى بين الصدفين اى آتوه اياها فاخذ يبنى شيئا فشيئا حتى اذا جعل ما بين ناحيتى الجبلين من البنيان مساويا لهما فى السمك على النهج المحكى قيل كان ارتفاعه مائتى ذراع وعرضه خمسين ذراعا وقرئ سوى من التسوية وسووى على البناء للمجهول قال للعملة انفخوا اى بالكيران فى الحديد المبنى ففعلوا حتى اذا جعله اى المنفوخ فيه نارا اى كالنار فى الحرارة والهيئة واسناد الجعل المذكور الى ذى القرنين مع انه فعل الفعلة للتنبيه على انه العمدة فى ذلك وهم بمنزلة الآلة قال للذين يتولون امر النحاس من الاذابة ونحوها آتونى افرغ عليه قطرا اى آتونى قطرا اى نحاسا مذابا افرغ عليه قطرا فحذف الاول لدلالة الثانى عليه وقرئ بالوصل اى جيئونى كانه يستدعيهم للاعانة باليد عند الافراغ واسناد الافراغ الى نفسه للسر الذى وقفت عليه آنفا وكذا الكلام فى قوله تعالى ساوى وقوله تعالى جعل فما اسطاعوا بحذف تاء الافتعال تخفيفا وحذرا عن تلاقى المتقاربين وقرئ بالادغام وفيه جمع بين الساكنين على غير حده وقرئ بقلب السين صادا والفاء فصيحة اى فعلوا ما امروا به من ايتاء القطر والاتيان فافرغه عليه فاختلط والتصق بعضه ببعض فصار جبلا صلدا فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا ان يعلوه وينقبوه فما اسطاعوا ان يظهروه اى يعلوه ويرقوا فيه لارتفاعه وملاسته وما استطاعوا له نقبا لصلابته وثخانته وهذه معجزة عظيمة لان تلك الزبر الكثيرة اذا اثرت فيها حرارة النار لا يقدر الحيوان على ان يحوم حولها فضلا عن النفخ فيها الى ان تكون كالنار عن افراغ القطر عليها فكانه سبحانه وتعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن ابدان اولئك المباشرين للاعمال فكان ما كان والله على كل شئ قدير وقيل بناه من الصخور مرتبطا بعضها ببعض بكلاليب من حديد ونحاس مذاب فى تجاويفها بحيث لم يبق هناك فرجة اصلا قال اى ذو القرنين لمن عنده من اهل تلك الديار وغيرهم هذا اشارة الى السد وقيل الى تمكينه من بنائه والفضل للمتقدم اى هذا الذى ظهر على يدى وحصل بمباشرتى من السد الذى شانه ما ذكر من المتانة وصعوبة المنال رحمة اى اثر رحمة عظيمة عبر عنه بها مبالغة من ربى على كافة العباد ولا سيما على مجاوريه وفيه ايذان بانه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة بل هو احسان الهى محض وان ظهر بمباشرتى والتعرض لوصف الربوبية لتربية معنى الرحمة فاذا جاء وعد ربى مصدر بمعنى المفعول وهو يوم القيمة لا خروج يأجوج ومأجوج كما قيل اذ لا يساعده النظم الكريم والمراد بمجيئه ما ينتظم مجيئه ومجئ مباديه من خروجهم وخروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام ونحو ذلك لا دنو وقوعه فقط كما قيل فان بعض الامور التى ستحكى يقع بعد مجيئه حتما جعله اى السد المشار اليه مع متانته ورصانته وفيه من الجزالة ما ليس فى توجيه الاشارة السابقة الى التمكين المذكور دكا اى ارضا مستوية

وقرئ دكاء اى مدكوكا مستويا بالارض وكل ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندك ومنه الجمل الادك اى المنبسط السنام وهذا الجعل وقت مجئ الوعد بمجئ بعض مباديه وفيه بيان لعظم قدرته عز وجل بعد بيان سعة رحمته وكان وعد ربى اى وعده المعهود او كل ما وعد به فيدخل فيه ذلك دخولا اوليا حقا ثابتا لا محالة واقعا البتة وهذه الجملة تذييل من ذى القرنين لما ذكره من الجملة الشرطية ومقرر مؤكد لمضمونها وهو آخر ما حكى من قصته وقوله عز وجل وتركنا بعضهم كلام مسوق من جنابه تعالى معطوف على قوله تعالى جعله دكا ومحقق لمضمونه اى جعلنا بعض الخلائق يومئذ يوم اذ جاء الوعد بمجئ بعض مباديه يموج فى بعض آخر منهم يضطربون اضطراب امواج البحر ويختلط انسهم وجنهم حيارى من شدة الهول ولعل ذلك قبل النفخة الاولى او تركنا بعض يأجوج ومأجوج يموج فى بعض آخر منهم حين يخرجون من السد مزدحمين فى البلاد روى انهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس ولا يقدرون ان يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ثم يبعث الله عز وجل نغفا فى اقفائهم فيدخل فى آذانهم فيموتون موت نفس واحدة فيرسل الله تعالى عليهم طيرا فتلقيهم فى البحر ثم يرسل مطرا يغسل الارض ويطهرها من نتنهم حتى يتركها كالزلفة ثم يوضع فيها البركة وذلك بعد نزول المسيح عليه السلام وقتل الدجال ونفخ فى الصور هى النفخة الثانية بقضية الفاء فى قوله تعالى فجمعناهم ولعل عدم التعرض لذكر النفخة الاولى لانها داهية عامة ليس فيها حالة مختصة بالكفار ولئلا يقع الفصل بين ما يقع فى النشأة الاولى من الاحوال والاهوال وبين ما يقع منها فى النشأة الآخرة اى جمعنا الخلائق بعد ما تفرقت اوصالهم وتمزقت اجسادهم فى صعيد واحد للحساب والجزاء جمعا اى جمعا عجيبا لا يكتنه كنهه وعرضنا جهنم اى اظهرناها وابرزناها يومئذ اى يوم اذ جمعنا الخلائق كافة للكافرين منهم حيث جعلناها بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظا وزفيرا عرضا اى عرضا فظيعا هائلا لا يقادر قدره وتخصيص العرض بهم مع انها بمرأى من اهل الجمع قاطبة لان ذلك لاجلهم خاصة الذين كانت اعينهم وهم فى الدنيا فى غطاء كثيف وغشاوة غليظة محاطة بذلك من جميع الجوانب عن ذكرى عن الآيات المؤدية لاولى الابصار المتدبرين فيها الى ذكرى بالتوحيد والتمجيد او كانت اعين بصائرهم فى غطاء عن ذكرى على وجه يليق بشانى او عن القرآن الكريم وكانوا مع ذلك لا يستطيعون لفرط تصامّهم عن الحق وكمال عداوتهم للرسول صلى الله عليه وسلم سمعا استماعا لذكرى وكلامى الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهذا تمثيل لاعراضهم عن الادلة السمعية كما ان الاول تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالابصار والموصول نعت للكافرين او بدل منه او بيان جئ به لذمهم بما فى حيز الصلة وللاشعار بعليته لاصابة ما اصابهم من عرض جهنم لهم فان ذلك انما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عرض لهم فى الدنيا من الآيات واعراضهم عنها مع كونها اسبابا منجية عما ابتلوا به فى الآخرة أفحسب الذين كفروا اى كفروا بى كما يعرب عنه قوله تعالى عبادى والحسبان بمعنى الظن وقد قرئ افظن والهمزة للانكار والتوبيخ على معنى انكار الواقع واستقباحه كما فى قولك اضربت اباك لا لانكار الوقوع كما فى قوله اضرب ابى والفاء للعطف على مقدر يفصح عنه الصلة على توجيه الانكار والتوبيخ الى المعطوفين جميعا كما اذا قدر المعطوف عليه فى قوله تعالى افلا تعقلون منفيا اى الا تسمعون فلا تعقلون لا الى المعطوف فقط كما اذا قدر مثبتا اى اتسمعون فلا تعقلون والمعنى اكفروا بى مع جلالة شانى فحسبوا ان يتخذوا عبادى من دونى من الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام وهم تحت سلطانى وملكوتى اولياء معبودين ينصرونهم من بأسى وما قيل انها للعطف على ما قبلها من قوله تعالى كانت اعينهم الخ وكانوا الخ دلالة على ان

الحسبان ناشئ من التعامي والتصام وادخل عليهما همزة الانكار ذما على ذم وقطعا له
عن المعطوف عليهما لفظا لا معنى للايذان بالاستقلال المؤكد للذم يأباه ترك الاضمار
والتعرض لوصف آخر غير التعامي والتصام على انهما اخرجا مخرج الاحوال الجبلية لهم لم
يذكرا من حيث انهما من افعالهم الاختيارية الحادثة بحسبانهم ليحسن تفريعه عليهما
وايضا فانه دين قديم لهم لا يمكن جعله ناشئا عن تصامهم عن كلام الله عز وجل و
تخصيص الانكار بحسبانهم المتأخر عن ذلك تعسف لا يخفى وما في حيز صلة ان ساد مسد
مفعولي حسب كما في قوله تعالى وحسبوا ان لا تكون فتنة اي أفحسبوا انهم يتخذونهم اولياء على معنى
ان ذلك ليس من الاتخاذ في شيء لانه انما يكون من الجانبين وهم عليهم السلام
منزهون عن ولايتهم بالمرة لقولهم سبحانك انت ولينا من دونهم وقيل مفعوله الثاني
محذوف اي أفحسبوا اتخاذهم نافعا لهم والوجه هو الاول لان في هذا تسليما لنفس الاتخاذ
واعتدادا به في الجملة وقرئ أفحسب الذين كفروا اي أفحسبهم وكافيهم ان يتخذوهم اولياء
على الابتداء والخبر او الفعل والفاعل فان النعت اذا اعتمد الهمزة ساوى الفعل في العمل فالهمزة
حينئذ بمعنى انكار الوقوع انا اعتدنا لهم جهنم اي هيأنا للكافرين المعهودين عدل
عن الاضمار ذما لهم واشعارا بان ذلك الاعتداد بسبب كفرهم المتضمن لحسبانهم الباطل
نزلا اي شيئا يتمتعون به عند ورودهم وهو ما يقام للنزيل اي الضيف مما حضر من الطعام
وفيه تخطئة لهم في حسبانهم وتهكم بهم حيث كان اتخاذهم اياهم اولياء من قبيل
اعتداد العتاد واعداد الزاد ليوم المعاد فكانه قيل انا اعتدنا لهم مكان ما اعدوا لانفسهم
من العدة والذخر جهنم عدة وفي ايراد النزل ايماء الى ان لهم وراء جهنم من العذاب
ما هي انموذج له وقيل النزل موضع النزول ولذلك فسره ابن عباس رضي الله عنهما بالمثوى
قل هل ننبئكم الخطاب الثاني للكفرة على وجه التوبيخ والجمع في صيغة المتكلم لتعيينه من
اول الامر وللايذان بمعلومية النبأ للمؤمنين ايضا بالاخسرين اعمالا نصب على التمييز
والجمع للايذان بتنوعها وهذا بيان لحال الكفرة باعتبار ما صدر عنهم من الاعمال الحسنة في
انفسها وفي حسبانهم ايضا حيث كانوا معجبين بها واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة
آثارها غب بيان حالهم باعتبار اعمالهم السيئة في انفسها مع كونها حسنة في حسبانهم
الذين ضل سعيهم في اقامة تلك الاعمال اي ضاع وبطل بالكلية في الحياة الدنيا
متعلق بالسعي لا بالضلال لان بطلان سعيهم غير مختص بالدنيا قيل المراد بهم اهل الكتابين قاله
ابن عباس وسعد بن ابي وقاص ومجاهد ويدخل في الاعمال حينئذ ما عملوه من الاحكام
المنسوخة المتعلقة بالعبادات وقيل الرهابنة الذين يحبسون انفسهم في الصوامع ويحملونها
على الرياضات الشاقة ولعله ما يعمهم وغيرهم من الكفرة ومحل الموصول الرفع على انه خبر
مبتدإ محذوف لانه جواب للسؤال كانه قيل من هم فقيل الذين الخ وجعله مجرورا على انه
نعت للاخسرين او بدل منه او منصوبا على الذم على ان الجواب ما سيأتي من قوله تعالى اولئك
الآية يأباه ان صدره ليس منبئا عن خسران الاعمال وضلال السعي كما يستدعيه مقام
الجواب والتفريع الاول وان دل على حبوطها لكنه ساكت عن انباء ما هو العمدة في تحقيق
معنى الخسران من الوثوق بترتب الربح واعتقاد النفع فيما صنعوا على ان التفريع الثاني مما يقطع
ذلك الاحتمال رأسا اذ لا مجال لادراجه تحت الامر بقضية نون العظمة وهم يحسبون
انهم يحسنون صنعا الاحسان الاتيان بالاعمال على الوجه اللائق وهو حسنها الوصفي
المستلزم لحسنها الذاتي اي يحسبون انهم يعملون ذلك على الوجه اللائق وذلك لاعجابهم
باعمالهم التي سعوا في اقامتها وكابدوا في تحصيلها والجملة حال من فاعل ضل اي بطل سعيهم
المذكور والحال انهم يحسبون انهم محسنون في ذلك وينتفعون بآثاره او من المضاف اليه
لكونه في محل الرفع نحو قوله تعالى اليه مرجعكم جميعا اي بطل سعيهم والحال انهم الخ
والفرق بينهما ان المقارن لحال حسبانهم المذكور في الاول ضلال سعيهم وفي الثاني
نفس سعيهم والاول ادخل في بيان خطئهم اولئك كلام مستأنف من جنابه
تعالى مسوق لتكميل تعريف الاخسرين وتبيين سبب خسرانهم وضلال سعيهم وتعيينهم

بحيث ينطبق على المخاطبين غير داخل تحت الامر اي اولئك المنعوتون بما ذكر من ضلال السعي
مع الحسبان المزبور الذين كفروا بآيات ربهم بدلائله الداعية الى التوحيد عقلا ونقلا والتعرض
لعنوان الربوبية لزيادة تقبيح حالهم في الكفر المذكور ولقائه بالبعث وما يتبعه
من امور الآخرة على ما هي عليه فحبطت لذلك اعمالهم المعهودة حبوطا كليا فلا
نقيم لهم اي لاولئك الموصوفين بما مر من حبوط الاعمال وقرئ بالياء يوم القيمة وزنا
اي فنزدريهم ولا نجعل لهم مقدارا واعتبارا لان مداره الاعمال الصالحة وقد حبطت
بالمرة وحيث كان هذا الازدراء من عواقب حبوط الاعمال عطف عليه بطريق التفريع واما
ما هو من اجزية الكفر فيجيء بعد ذلك او لا نضع لاجل وزن اعمالهم ميزانا لانه انما يوضع
لاهل الحسنات والسيئات من الموحدين ليتميز به مقادير الطاعات والمعاصي ليرتب عليه
التكفير او عدمه لان ذلك في الموحدين بطريق الكمية واما الكفر فاحباطه للحسنات بحسب
الكيفية دون الكمية فلا يوضع لهم الميزان قطعا ذلك بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم
اثر بيان مآل اعمالهم المحبطة بذلك اي الامر ذلك وقوله عز وجل جزاؤهم جهنم جملة
مبينة له او ذلك مبتدأ والجملة خبره والعائد محذوف اي جزاؤهم به او جزاؤهم بدله
وجهنم خبره او جزاؤهم خبره وجهنم عطف بيان للخبر بما كفروا تصريح بان ما ذكر جزاء
لكفرهم المتضمن لسائر القبائح التي انبأ عنها قوله تعالى واتخذوا آياتي ورسلي هزوا اي مهزوا
بهما فانهم لم يقتنعوا بمجرد الكفر بالآيات والرسل بل ارتكبوا مثل تلك العظيمة ايضا ان الذين
آمنوا بيان بطريق الوعد لمآل الذين اتصفوا باضداد ما اتصفت به الكفرة اثر بيان مآلهم
بطريق الوعيد اي آمنوا بآيات ربهم ولقائه وعملوا الصالحات من الاعمال كانت لهم فيما
سبق من حكم الله تعالى ووعده وفيه ايماء الى ان اثر الرحمة يصل اليهم بمقتضى الرأفة الازلية بخلاف
ما مر من جعل جهنم للكافرين نزلا فانه بموجب ما حدث من سوء اختيارهم جنات الفردوس
عن مجاهد ان الفردوس هو البستان بالرومية وقال عكرمة هو الجنة بالحبشية وقال الضحاك
هي الجنة الملتفة الاشجار وقيل هي الجنة التي تنبت ضروبا من النبات وقيل هي الجنة من
الكرم خاصة وقيل ما كان غالبه كرما وقال المبرد هو فيما سمعت من العرب الشجر الملتف
والاغلب عليه ان يكون من العنب وعن كعب انه ليس في الجنان اعلى من جنة الفردوس و
فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة
مائة درجة ما بين كل درجة مسيرة مائة عام والفردوس اعلاها وفيها الانهار الاربعة
فاذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فان فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر انهار الجنة نزلا خبر
كانت والجار والمجرور متعلق بمحذوف على انه حال من نزلا او على انه بيان او حال من جنات
الفردوس والخبر هو الجار والمجرور فان جعل النزل بمعنى ما يهيأ للنازل فالمعنى كانت لهم
ثمار جنات الفردوس نزلا او جعلت نفس الجنات نزلا مبالغة في الاكرام وفيه ايذان
بانها عند ما اعد الله لهم على ما جرى على لسان النبوة من قوله اعددت لعبادي الصالحين
ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بمنزلة النزل بالنسبة الى الضيافة وان
جعل بمعنى المنزل فالمعنى ظاهر خالدين فيها نصب على الحالية لا يبغون عنها حولا مصدر
كالعود والصغر اي لا يطلبون تحولا عنها اذ لا يتصور ان يكون شيء اعز عندهم وارفع
منها حتى تنازعهم اليه انفسهم وتطمح نحوه ابصارهم ويجوز ان يراد نفي التحول وتأكيد
الخلود والجملة حال من صاحب خالدين او من ضميره فيه فيكون حالا متداخلة قل لو كان
البحر اي جنس البحر مدادا وهو ما تمد به الدواة من الحبر لكلمات ربي لتحرير كلمات
علمه وحكمته التي من جملتها ما ذكر من الآيات الداعية الى التوحيد المحذرة من الاشراك
لنفد البحر مع كثرته ولم يبق منه شيء لتناهيه قبل ان تنفد وقرئ بالياء والمعنى من غير ان
تنفد كلمات ربي لعدم تناهيها فلا دلالة للكلام على نفادها بعد نفاد البحر وفي اضافة الكلمات
الى اسم الرب المضاف الى ضميره صلى الله عليه وسلم في الموضعين من تفخيم المضاف وتشريف
المضاف اليه ما لا يخفى واظهار البحر والكلمات في موضع الاضمار لزيادة التقرير ولو جئنا
كلام من جهته تعالى غير داخل في الكلام الملقن جيء به لتحقيق مضمونه وتصديق مدلوله

مع زيادة مبالغة وتأكيد والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها المحذوفة
لدلالة المذكورة عليها دلالة واضحة اى لنفد البحر من غير نفاد كلماته تعالى لو لم نجئ بمثله
مددا ولو جئنا بقدرتنا الباهرة بمثله مددا عونا وزيادة لان مجموع المتناهيين
متناه بل مجموع ما يدخل تحت الوجود من الاجسام لا يكون الا متناهيا لقيام الادلة
القاطعة على تناهى الابعاد وقرئ مددا جمع مدة وهى ما يستمده الكاتب وقرئ مدادا
قل لهم بعد ما بينت لهم شان كلماته تعالى انما انا بشر مثلكم لا ادعى الاحاطة بكلماته التامة
يوحى الى من تلك الكلمات انما الهكم اله واحد لا شريك له فى الخلق ولا فى سائر احكام
احكام الالوهية وانما تميزت عنكم بذلك فمن كان يرجو لقاء ربه الرجاء توقع وصول
الخير فى المستقبل والمراد بلقائه تعالى كرامته وادخال الماضى على المستقبل للدلالة على ان اللائق
بحال المؤمن الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء اى فمن استمر على رجاء
كرامته تعالى فليعمل لتحصيل تلك الطلبة العزيزة عملا صالحا فى نفسه لائقا بذلك
المرجو كما فعله الذين امنوا وعملوا الصالحات ولا يشرك بعبادة ربه احدا اشراكا
جليا كما فعله الذين كفروا بايات ربهم ولقائه ولا اشراكا خفيا كما يفعله اهل الرياء ومن
يطلب منه اجرا وايثار وضع المظهر موضع المضمر فى الموضعين مع التعرض لعنوان الربوبية
لزيادة التقرير وللاشعار بعلية العنوان للامر والنهى ووجوب الامتثال فعلا وتركا
روى ان جندب بن زهير رضى الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى لاعمل
العمل لله تعالى فاذا اطلع عليه سرنى فقال صلى الله عليه وسلم ان الله لا يقبل ما شورك فيه
فنزلت تصديقا له وروى انه عليه السلام قال له لك اجران اجر السر واجر العلانية وذلك
ذلك اذا قصد ان يقتدى به وعنه صلى الله عليه وسلم اتقوا الشرك الاصغر قيل وما
الشرك الاصغر قال الرياء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرا سورة الكهف من آخرها
كانت له نورا من قرنه الى قدمه ومن قراها كلها كانت له نورا من الارض الى السماء
وعنه عليه الصلوة والسلام من قرا عند مضجعه قل انما انا بشر مثلكم الخ كان له
من مضجعه نورا يتلالاء الى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم
وان كان مضجعه بمكة كان له نورا يتلالاء من مضجعه الى البيت المعمور حشو ذلك
النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ الحمد لله سبحانه على نعمه

سورة مريم عليها السلام مكية وهى احدى او ثمان وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم وبه العون

كهيعص بامالة الهاء والياء واظهار الدال وقرئ بفتح الهاء وامالة الياء وبتفخيمهما
وباخفاء النون قبل الصاد لتقاربهما وقد سلف ان ما لا يكون من هذه الفواتح مفردة
ولا موازنة لمفرد فطريق التلفظ بها الحكاية فقط ساكنة الاعجاز على الوقف سواء
جعلت اسما للسورة او مسرودة على نمط التعديد وان لزمها التقاء الساكنين لكونه
مغتفرا فى باب الوقف قطعا فحق هذه الفاتحة الكريمة ان يوقف عليها جريا على الاصل
وقرئ بادغام الدال فيما بعدها لتقاربهما فى المخرج فان جعلت اسما للسورة على ما عليه
اطباق الاكثر فمحله الرفع اما على انه خبر لمبتدا محذوف والتقدير هذا كهيعص اى
مسمى به وانما صحت الاشارة اليه مع عدم جريان ذكره لانه باعتبار كونه على جناح
ذكر صار فى حكم الحاضر المشاهد كما يقال هذا ما اشترى فلان او على انه مبتدا خبره ذكر
رحمة ربك اى المسمى به ذكر رحمة الخ فان ذكرها لما كان مطلع السورة الكريمة ومعظم ما
انطوت هى عليه جعلت كانها نفس ذكرها والاول هو الاولى لان ما يجعل عنوانا للموضوع حقه
ان يكون معلوم الانتساب اليه عند المخاطب واذ لا علم بالتسمية من قبل فحقها
الاخبار بها كما فى الوجه الاول وان جعلت مسرودة على نمط التعديد حسبما جنح اليه
اهل التحقيق فذكر الخ خبر لمبتدا محذوف هو ما ينبئ عنه تعديد الحروف كانه قيل المؤلف
من جنس هذه الحروف المبسوطة مرادا به السورة ذكر رحمة الخ او اسم اشارة اشير
به اليه تنزيلا لحضور المادة منزلة حضور المؤلف منها اى هذا ذكر رحمة الخ وقيل هو مبتدا

قد حذف خبره اى فيما يتلى عليك ذكرها وقرئ ذكر رحمة ربك على صيغة الماضى من التذكير
اى هذا المتلو ذكرها وقرئ ذكر على صيغة الامر والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن
التبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضميره عليه السلام للايذان بان تنزيل السورة عليه عليه السلام
تكميل له عليه وقوله تعالى عبده مفعول لرحمة ربك على انها مفعول لما اضيف
اليها وقيل للذكر على انه مصدر اضيف الى فاعله على الاتساع ومعنى ذكر الرحمة بلوغها
واصابتها كما يقال ذكرنى معروف فلان اى بلغنى وقوله عز وعلا زكريا بدل منه او عطف
بيان له اذ نادى ربه نداء خفيا ظرف لرحمة ربك وقيل لذكر على انه مضاف الى فاعله اتساعا
لا على الوجه الاول لفساد المعنى وقيل هو بدل اشتمال من زكريا كما فى قوله واذكر فى الكتاب
مريم اذ انتبذت ولقد راعى عليه السلام حسن الادب فى اخفاء دعائه فانه مع كونه
بالنسبة اليه عز وجل كالجهر ادخل فى الاخلاص وابعد من الرياء واقرب الى الخلاص عن لائمة
الناس على طلب الولد لتوقفه على مبادئ لا يليق به تعاطيها فى اوان الكبر والشيخوخة
وعن غائلة مواليه الذين كان يخافهم وقيل كان ذلك منه عليه السلام لضعف الهرم
قالوا كان سنه حينئذ ستين وقيل خمسا وستين وقيل سبعين وقيل خمسا وسبعين
وقيل ثمانين وقيل اكثر منها كما مر فى تفسير سورة آل عمران قال جملة مفسرة لنادى لا محل
لها من الاعراب رب انى وهن العظم منى اسناد الوهن الى العظم لما انه عماد البدن
ودعام الجسد فاذا اصابه الضعف والرخاوة اصاب كله او لانه اشد اجزائه صلابة
وقواما واقلها تاثرا من العلل فاذا وهن كان ما وراءه اوهن وافراده للقصد الى
الجنس المنبئ عن شمول الوهن لكل فرد من افراده ومنى متعلق بمحذوف هو حال من العظم
وقرئ وهن بكسر الهاء وبضمها ايضا وتاكيد الجملة لابراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونها
واشتعل الراس شيبا شبه عليه السلام الشيب فى البياض والانارة بشواظ النار وانتشاره
فى الشعر وفشوه فيه واخذه منه كل ماخذ باشتعالها ثم اخرجه مخرج الاستعارة ثم
اسند الاشتعال الى محل الشعر ومنبته واخرج مخرج التمييز واطلق الراس اكتفاء بما قيد به
العظم وفيه من فنون البلاغة وكمال الجزالة ما لا يخفى حيث كان الاصل اشتعل شيب راسى
فاسند الاشتعال الى الراس كما ذكر لافادة شموله لكلها فان وزانه بالنسبة الى الاصل وزان
اشتعل بيته نارا بالنسبة الى اشتعل النار فى بيته ولزيادة تقريره بالاجمال اولا والتفصيل
ثانيا ولمزيد تفخيمه بالتنكير وقرئ بادغام السين فى الشين ولم اكن بدعائك رب شقيا
اى لم اكن بدعائى اياك خائبا فى وقت من اوقات هذا العمر الطويل بل كلما دعوتك استجبت
لى والجملة معطوفة على ما قبلها او حال من ضمير المتكلم اذ المعنى واشتعل راسى شيبا و
هذا توسل منه عليه السلام بما سلف منه من الاستجابة عند كل دعوة اثر تمهيد ما
يستدعى الرحمة ويستجلب الرافة من كبر السن وضعف الحال فانه تعالى بعد ما عود عبده
بالاجابة دهرا طويلا لا يكاد يخيبه ابدا لا سيما عند اضطراره وشدة افتقاره والتعرض فى
الموضعين لوصف الربوبية المنبئة عن افاضة ما فيه صلاح المربوب مع الاضافة الى ضميره ع‍م
لا سيما توسيطه بين كان وخبرها لتحريك سلسلة الاجابة بالمبالغة فى التضرع ولذلك
قيل اذا اراد العبد ان يستجاب له دعاؤه فليدع الله تعالى بما يناسبه من اسمائه وصفاته
وانى خفت الموالى عطف على قوله تعالى انى وهن مترتب مضمونه على مضمونه فان
ضعف القوى وكبر السن من مبادى خوفه عليه السلام من يلى امره بعد موته ومواليه
بنو عمه وكانوا اشرار بنى اسرائيل فخاف ان لا يحسنوا خلافته فى امته ويبدلوا عليهم
دينهم وقوله تعالى من ورائى اى بعد موتى متعلق بمحذوف ينساق اليه الذهن
اى فعل الموالى من بعدى او جور الموالى وقد قرئ كذلك او بما فى الموالى من معنى الولاية
اى خفت الذين يلون الامر من ورائى لا بخفت لفساد المعنى وقرئ وراى بالقصر و
فتح الياء وقرئ خفت الموالى من ورائى اى قلوا وعجزوا عن القيام بامور الدين
بعدى اى خفت الموالى القادرون على اقامة مراسم الملة ومصالح الامة من خف القوم
اى ارتحلوا مسرعين اى درجوا قدامى ولم يبق منهم من به تقوّ واعتضاد فالظرف حينئذ

متعلق بخفت وكانت امرأتي عاقرًا اى لا تلد من حين شبابها فهب لى من لدنك كلا الجارين
متعلق بهب لاختلاف معنيهما فاللام صلة له ومن لابتداء الغاية مجازًا وتقديم
الاول لكون مدلوله اهم عنده ويجوز تعلق الثانى بمحذوف وقع حالًا من المفعول
ولدن فى الاصل ظرف بمعنى اول غاية زمان او مكان او غيرهما من الذوات وقدم
تفصيله فى اوائل سورة آل عمران اعطنى من محض فضلك الواسع وقدرتك الباهرة
بطريق الاختراع لا بواسطة الاسباب العادية ولياً اى ولدًا من صلبى وتاخيره عن
الجارين لاظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع مع ما فيه من
التشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا اخر تبقى النفس مستشرفة له فعند وروده
لها يتمكن عندها فضل تمكن ولان فيه نوع طول بما بعده من الوصف فتأخيرهما عن الكل او
توسيطهما بين الموصوف والصفة مما لا يليق بجزالة النظم الكريم والفاء لترتيب ما
بعدها على ما قبلها فان ما ذكره عليه السلام من كبر السن وضعف القوى وعقر المرأة موجب
لانقطاع رجائه عليه السلام عن حصول الولد بتوسط الاسباب العادية واستيهابه على
الوجه الخارق للعادة ولا يقدح فى ذلك ان يكون هناك داع آخر الى الاقبال على الدعاء المذكور
من مشاهدته عليه السلام للخوارق الظاهرة فى حق مريم كما يعرب عنه قوله تعالى هنالك
دعى زكريا ربه الاية وعدم ذكره ههنا للتعويل على ذكره هناك كما ان عدم ذكر مقدمة
الدعاء هناك للاكتفاء بذكرها ههنا فان الاكتفاء بذكرها هنا فان الاكتفاء بما ذكر فى
موطن عما ترك فى موطن آخر من النكت التنزيلية وقوله تعالى يرثنى صفة لوليا وقرئ
هو وما عطف عليه بالجزم جوابًا للدعاء اى يرثنى من حيث العلم والدين والنبوة
فان الانبياء عليهم السلام لا يورثون المال قال عليه السلام نحن معاشر الانبياء لا نورث
وما تركنا صدقة وقيل يرثنى الحبورة وكان عليه السلام حبرا ويرث من آل يعقوب يقال
ورثه وورث منه لغتان وآل الرجل خاصته الذين يؤل اليه امرهم للقرابة او الصحبة
او الموافقة فى الدين وكانت زوجة زكريا اخت ام مريم اى ويرث منهم الملك قيل هو
يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام وقال الكلبى ومقاتل هو يعقوب بن
ماثان اخو عمران بن ماثان من نسل سليمان عليه السلام وكان آل يعقوب اخوال يحيى
بن زكريا قال الكلبى كان بنو ماثان رؤس بنى اسرائيل وملوكهم وكان زكريا رئيس الاحبار
يومئذ فاراد ان يرثه ولده حبورته ويرث من بنى ماثان ملكهم وقرئ ويرث وارث
آل يعقوب على انه حال من المستكن فى يرث وقرئ ويرث اويعقوب بالتصغير ففيه ايماء
الى وراثته عليه السلام لما يرثه فى حالة صغره وقرئ وارث من آل يعقوب على انه
فاعل يرثنى على طريقة التجريد اى يرثنى به وارث وقيل من للتبعيض اذ لم يكن كل آل يعقوب
عليه السلام انبياء ولا علماء واجعله رب رضيا مرضيا عندك قولا وفعلا وتوسيط
رب بين مفعولى الجعل للمبالغة فى الاعتناء بشان ما يستدعيه يا زكريا على ارادة
القول اى قال تعالى يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لكن لا بان يخاطبه عليه السلام
بذلك بالذات بل بواسطة الملك على ان يحكى له عليه السلام هذه العبارة عنه عز وجل
على نهج قوله تعالى قل يا عبادى الذين اسرفوا الاية وقد مر تحقيقه فى سورة آل عمران
وهذا جواب لندائه عم ووعد باجابة دعائه لكن لا كلا كما هو المتبادر من
قوله تعالى فاستجبنا له ووهبنا له يحيى الخ بل بعضا حسبما يقتضيه المشيئة الالهية المبنية
على الحكم البالغة فان الانبياء عليهم السلام وان كانوا مستجابى الدعوة لكنهم ليسوا
كذلك فى جميع الدعوات الا يرى الى دعوة ابراهيم عليه السلام فى حق ابيه والى دعوة
النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال وسألته ان لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها
وقد كان من قضائه عز وعلا ان يهبه يحيى نبيا مرضيا ولا يرثه فاستجيب دعاؤه
فى الاول دون الثانى حيث قتل قبل موت ابيه عليهما السلام على ما هو المشهور وقيل
بقى بعده برهة فلا اشكال حينئذ وفى تعيين اسمه عليه السلام تاكيد للوعد وتشريف
له عليه السلام وفى تخصيصه به حسبما يعرب عنه قوله تعالى لم نجعل له من قبل سميا اى

شريكا

شريكا له فى الاسم حيث لم يسم احد قبله بيحيى مزيد تشريف وتفخيم له عليه السلام
فان التسمية بالاسامى البديعة الممتازة عن اسماء سائر الناس تنويه بالمسمى لا محالة و
قيل سميا شبيها فى الفضل والكمال كما فى قوله تعالى هل تعلم له سميا فان المتشاركين
فى الوصف بمنزلة المتشاركين فى الاسم قالوا لم يكن له عليه السلام مثل فى انه لم يعص
الله تعالى ولم يهم بمعصية قط وانه ولد من شيخ فان وعجوز عاقر وانه كان حصورا
فيكون هذا اجمالا لما نزل بعده من قوله تعالى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا
ونبيا من الصالحين والاظهر انه اسم اعجمى وان كان عربيا فهو منقول عن الفعل كيعمر
ويعيش قيل سمى به لانه حيى به رحم امه او حيى دين الله تعالى بدعوته قال
استيناف مبنى على السؤال كانه قيل فماذا قال عليه السلام حينئذ فقيل قال رب
ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابه تعالى اليه بتوسط الملك للمبالغة فى التضرع والمناجاة
والجد فى التبتل اليه تعالى والاحتراز عما عسى يوهم خطابه للملك من توهم ان علمه
تعالى بما يصدر عنه متوقف على توسطه كما ان علم البشر بما يصدر عنه سبحانه متوقف
على ذلك فى عامة الاوقات انى يكون لى غلام كلمة انى بمعنى كيف او من اين وكان
اما تامة وانى واللام متعلقتان بها وتقديم الجار على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء
بما قدم والتشويق الى ما اخر اى كيف او من اين يحدث غلام ويجوز ان يتعلق
اللام بمحذوف وقع حالا من غلام اذ لو تاخر لكان صفة له اى انى يحدث كائنا لى
غلام او ناقصة اسمها ظاهر وخبرها اما انى ولى متعلق بمحذوف كما مر او هو الخبر
وانى نصب على الظرفية وقوله تعالى وكانت امرأتى عاقرا حال من ضمير المتكلم بتقدير
قد وكذا قوله تعالى وقد بلغت من الكبر عتيا حال منه مؤكدة للاستبعاد اثر تاكيد
اى كانت امرأتى عاقرا لم تلد فى شبابها وشبابى فكيف وهى الآن عجوز وقد بلغت
انا من اجل كبر السن جساوة وقحولا فى المفاصل والعظام او بلغت من مدارج الكبر
ومراتبه ما يسمى عتيا من عتا يعتو واصله عتو كقعود فاستثقل توالى الضمتين و
الواو فكسرت التاء فانقلبت الاولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ثم قلبت الثانية
ايضا لاجتماع الواو والياء وسبق احدهما بالسكون وكسرت العين اتباعا لما بعدها
وقرئ بضمها ولعل البداية ههنا بذكر حال امرأته على عكس ما فى سورة آل عمران
لما انه قد ذكر حاله فى تضاعيف دعائه وانما المذكور ههنا بلوغه اقصى مراتب الكبر تتمة
لما ذكر قبل واما هنالك فلم يسبق فى الدعاء ذكر حاله فلذلك قدمه على ذكر حال امرأته لما
ان المسارعة الى بيان قصور شانه انسب وانما قاله عليه السلام مع سبق دعائه بذلك وقوة
يقينه بقدرة الله عز وجل لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة فى سورة آل عمران
استعظاما لقدرة الله تعالى وتعجيبا منها واعتدادا بنعمته تعالى عليه فى ذلك انه من محض
لطف الله عز وعلا وفضله مع كونه فى نفسه من الامور المستحيلة عادة لا استبعادا له
وقيل انما قاله ليجاب بما اجيب به فيزداد المؤمنون ايقانا ويرتدع المبطلون وقيل كان ذلك
منه عليه السلام استفهاما عن كيفية حدوثه وقيل بل كان ذلك بطريق الاستبعاد
حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة وكان قد نسى دعاءه وهو بعيد قال استيناف
كما مر مبنى على سؤال نشأ مما سلف والكاف فى قوله تعالى كذلك قال ربك مقحمة كما
فى مثلك لا يبخل محلها اما النصب على انه مصدر تشبيهى لقال الثانى وذلك اشارة الى
مصدره الذى هو عبارة عن الوعد السابق لا الى قول آخر شبه هذا به وقد مر تحقيقه فى تفسير
قوله تعالى وكذلك جعلناكم امة وسطا وقوله تعالى هو على هين جملة مقررة للوعد المذكور
دالة على انجازه داخلة فى حيز قال الاول كانه قيل قال الله تعالى مثل ذلك القول البديع قلت
اى مثل ذلك الوعد الخارق للعادة وعدت هو على خاصة هين وان كان فى العادة مستحيلا
وقرئ وهو على هين فالجملة حينئذ حال من ربك والياء عبارة عن ضميره كما ستعرفه او اعتراض
وعلى كل حال فهى مؤكدة ومقررة لما قبلها ثم اخرج القول الثانى مخرج الالتفات
جريا على سنن الكبرياء لتربية المهابة وادخال الروعة كقول الخلفاء امير المؤمنين يرسم لك

مكان انا او هم ثم اسند الى اسم الرب المضاف الى ضميره عليه السلام تشريفا له واشعارا بعلة الحكم فان تذكير جريان احكام ربوبيته تعالى عليه السلام من ايجاده من العدم وتصريفه فى اطوار الخلق من حال الى حال شيئا فشيئا الى ان يبلغ كماله اللائق به مما يقلع اساس استبعاده عليه السلام لحصول الموعود ويورثه عليه السلام الاطمئنان بانجازه لا محالة ثم التفت من ضمير الغائب العائد الى الرب الى ياء العظمة ايذانا بان مدار كونه هينا عليه سبحانه هو القدرة الذاتية لا ربوبيته تعالى عليه السلام خاصة وتمهيدا لما يعقبه وقيل ذلك اشارة الى مبهم يفسره قوله تعالى هو على هين على طريقة قوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ولا يخرج هذا الوجه على القراءة بالواو لانها لا تدخل بين المفسَّر والمفسِّر واما الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف وذلك اشارة الى ما تقدم من وعده تعالى اى قال عز وعلا الامر كما وعدت وهو واقع لا محالة وقوله تعالى قال ربك الخ استئناف مقرر لمضمونه والجملة المحكية على القراءة الثانية معطوفة على المحكية الاولى او حال من المستكن فى الجار والمجرور واياما كان فتوسيط قال بينهما مشعر بمزيد الاعتناء بكل منهما والكلام فى اسناد القول الى الرب ثم الالتفات الى التكلم كالذى مر آنفا وقيل ذلك اشارة الى ما قاله زكريا عليه السلام اى قال تعالى الامر كما قلت تصديقا له فيما حكاه من الحالة المتباينة للولادة فى نفسه وفى امرأته وقوله تعالى قال ربك الخ استئناف مسوق لازالة استبعاده بعد تقريره اى قال تعالى هو مع بعده فى نفسه على هين والقراءة الثانية ادخل فى افادة هذا المعنى على ان الواو للعطف واما جعلها للحال فمخل بسداد المعنى لان مآله تقرير صعوبته حال سهولته عليه تعالى مع ان المقصود بيان سهولته عليه سبحانه مع صعوبته فى نفسه وقوله تعالى وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا جملة مستأنفة مقررة لما قبلها والمراد به ابتداء خلق البشر اذ هو الواقع اثر العدم المحض لا ما كان بعد ذلك بطريق التوالد المعتاد وانما لم ينسب ذلك الى آدم عليه السلام وهو المخلوق من العدم حقيقة بان يقال وقد خلقت اباك آدم من قبل ولم يك شيئا مع كفايته فى ازالة الاستبعاد بقياس حال ما بشر به على حاله عليه السلام لتأكيد الاحتجاج وتوضيح منهاج القياس حيث نبه على ان كل فرد من افراد البشر له حظ من انشائه عليه السلام من العدم اذ لم يكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه بل كانت انموذجا منطويا على فطرة سائر آحاد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان ابداعه عليه السلام على ذلك الوجه ابداعا لكل احد من فروعه كذلك ولما كان خلقه عليه السلام على هذا النمط السارى الى جميع افراد ذريته ابدع من ان يكون ذلك مقصورا على نفسه كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور اليه وادل على عظم قدرته تعالى وكمال علمه وحكمته وكان عدم زكريا حينئذ اظهر عنده واجلى وكان حاله اولى بان يكون معيارا لحال ما بشر به نسب الخلق المذكور اليه كما نسب الخلق والتصوير الى المخاطبين فى قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم توفية لمقام الامتنان حقه فكأنه قيل وقد خلقتك من قبل فى تضاعيف خلق آدم ولم تك اذ ذاك شيئا اصلا بل عدما بحتا ونفيا صرفا هذا واما حمل الشئ على المعتد به اى ولم تك شيئا معتدا به فيأباه المقام ويرده نظم الكلام وقرئ خلقناك قال رب اجعل لى آية اى علامة تدلنى على تحقق المسؤل ووقوع الحبل ولم يكن هذا السؤال منه عليه السلام لتأكيد البشارة وتحقيقها كما قيل فان ذلك مما لا يليق بمنصب الرسالة وانما كان ذلك لتعريفه وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه وهى امر خفى لا يوقف عليه فاراد ان تطلعه الله تعالى عليه ليتلقى تلك النعمة الجليلة بالشكر من حين حدوثها ولا تؤخره الى ان تظهر ظهورا معتادا وقد مرت الاشارة فى تفسير سورة آل عمران الى ان هذا السؤال ينبغى ان يكون بعد ما مضى بعد البشارة برهة من الزمان لما يروى ان يحيى كان اكبر من عيسى عليهما السلام بستة اشهر او بثلاث سنين ولا ريب فى ان دعاء زكريا عليه السلام كان فى صغر مريم لقوله تعالى هنالك دعا زكريا ربه وهى انما ولدت عيسى عليه السلام

وهي بنت

وهى بنت عشر سنين او بنت ثلاث عشرة سنة والجعل ابداعى واللام متعلقة به وتقديمها على المفعول به لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر او بمحذوف وقع حالا من آية اذ لو تأخر لكان صفة لها وقيل بمعنى التصيير المستدعى لمفعولين اولهما آية وثانيهما الظرف وتقديمه لانه لا مسوغ لكون آية مبتدأ عند انحلال الى مبتدأ وخبر سوى تقديم الظرف فلا يتغير حالهما بعد ورود الناسخ قال آيتك ان لا تكلم الناس اى ان لا تقدر على ان تكلمهم بكلام الناس مع القدرة على الذكر والتسبيح ثلاث ليال مع ايامهن للتصريح بها فى سورة آل عمران سويا حال من فاعل تكلم مفيد لكون انتفاء التكلم بطريق الاضطرار دون الاختيار اى تمنع الكلام فلا تطيق به حال كونك سوى الخلق سليم الجوارح ما بك شائبة بكم ولا خرس فخرج على قومه من المحراب اى من المصلى او من الغرفة وكانوا من وراء المحراب ينتظرونه ان يفتح لهم الباب فيدخلوه ويصلوا اذ خرج عليهم متغيرا لونه فانكروه وقالوا ما لك فاوحى اليهم اى اومى اليهم لقوله تعالى الا رمزا وقيل كتب على الارض وان فى قوله تعالى ان سبحوا اما مفسرة لا وحى او مصدرية والمعنى اى صلوا او بان بكرة وعشيا هما ظرفا زمان للتسبيح عن ابى العالية ان المراد بهما صلوة الفجر وصلوة العصر او نزهوا ربكم طرفى النهار ولعله كان مأمورا بان يسبح شكرا ويأمر قومه بذلك يا يحيى استئناف طوى قبله جمل كثيرة مسارعة الى الانباء بانجاز الوعد الكريم اى قلنا يا يحيى خذ الكتاب اى التوراة بقوة اى بجد واستظهار بالتوفيق وآتيناه الحكم صبيا قال ابن عباس رضى الله عنهما الحكم النبوة استنبأه وهو ابن ثلاث سنين وقيل الحكم الحكمة وفهم التوراة والفقه فى الدين روى انه دعاه الصبيان الى اللعب فقال ما للعب خلقنا وحنانا من لدنا عطف على الحكم وتنوينه للتفخيم وهو التحنن والاشتياق ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما افاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية اى وآتيناه رحمة عظيمة عليه كائنة من جنابنا او رحمة فى قلبه وشفقة على ابويه وغيرهما وزكوة اى طهارة من الذنوب او صدقة تصدق الله بها على ابويه او وفقناه للتصدق على الناس وكان تقيا مطيعا متجنبا عن المعاصى وبرا بوالديه عطف على تقيا اى بارا بهما لطيفا بهما محسنا اليهما ولم يكن جبارا عصيا متكبرا عاقا لهما او عاصيا لربه وسلام عليه من الله عز وجل يوم ولد من ان يناله الشيطان بما ينال به بنى آدم ويوم يموت من عذاب القبر ويوم يبعث حيا من هول القيامة وعذاب النار واذكر فى الكتاب كلام مستأنف خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم وامر بذكر قصة مريم اثر قصة زكريا لما بينهما من كمال الاشتباك والمراد بالكتاب السورة لا القرآن اذ هى التى صدرت بقصة زكريا المستتبعة لذكر قصتها وقصص الانبياء المذكورين فيها اى واذكر للناس مريم اى نبأها فان الذكر لا يتعلق بالاعيان وقوله تعالى اذ انتبذت ظرف لذلك المضاف لكن لا على ان يكون المأمور به ذكرها عند انتباذها فقط بل كل ما عطف عليه وحكى بعده بطريق الاستئناف داخل فى حيز الظرف متمم للنبأ وقيل بدل اشتمال من مريم على ان المراد بها نبأها فان الظرف مشتمل على ما فيها وقيل بدل الكل على ان المراد بالظرف ما وقع فيه وقيل اذ بمعنى ان المصدرية كما فى قولك اكرمتك اذ لم تكرمنى اى لان لم تكرمنى فهو بدل اشتمال لا محالة وقوله تعالى من اهلها متعلق بانتبذت وقوله مكانا شرقيا مفعول له باعتبار ما فى ضمنه من معنى الاتيان المترتب وجودا واعتبارا على اصل معناه العامل فى الجار والمجرور وهو السر فى تأخيره عنه اى اعتزلت وانفردت منهم واتت مكانا شرقيا من بيت المقدس او من دارها لتتخلى هنالك للعبادة وقيل قعدت فى مشرقة لتغتسل من الحيض محتجبة بحائط او شئ يسترها وذلك قوله تعالى فاتخذت من دونهم حجابا وكان موضعها المسجد فاذا حاضت تحولت الى بيت خالتها واذا طهرت عادت الى المسجد فبينما هى فى مغتسلها اتاها الملك عليه السلام فى صورة آدمى شاب امرد وضئ الوجه جعد الشعر وذلك قوله تعالى فارسلنا اليها روحنا اى جبريل عليه السلام عبر عنه بذلك توفية للمقام حقه وقرئ بفتح الراء

لكونه سببا لما فيه روح العباد الذي هو عدة المقربين في قوله فاما ان كان من المقربين فروح وريحان فتمثل لها بشرا سويا سوى الخلق كامل البنية لم يفقد من حسان نعوت الادمية شيئا وقيل تمثل في صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس وذلك لتستأنس بكلامه وتتلقى منه ما يلقى اليها من كلماته تعالى اذ لو بدى لها على الصورة الملكية لنفرت منه ولم تستطع مفاوضته واما ما قيل من ان ذلك لتهييج شهوتها فتنحدر نطفتها الى رحمها فمع مخالفته لمقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة يكذبه قوله تعالى قالت اني اعوذ بالرحمن منك فانه شاهد عدل بانه لم يخطر ببالها شائبة ميل ما اليه فضلا عما ذكر من الحالة المترتبة على اقصى مراتب الميل والشهوة نعم كان تمثله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق لابتلائها وسبر عفتها ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه وذكره تعالى بعنوان الرحمانية للمبالغة في العياذ به تعالى واستجلاب آثار الرحمة الخاصة التي هي العصمة مما دهمتها وقوله تعالى ان كنت تقيا تتقي الله تعالى وتبالي بالاستعاذة به وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السباق عليه اي فاني عائذة به او فتعوذ بتعوذي او فلا تتعرض لي قال انما انا رسول ربك يريد عليه السلام اني لست ممن تتوقع منه ما توهمت من الشر وانما انا رسول ربك الذي استعذت به لاهب لك غلاما اي لاكون سببا في هبته بالنفخ في الدرع ويجوز ان يكون ذلك حكاية لقوله تعالى ويؤيده القراءة بالياء والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرها لتشريفها وتسليتها والاشعار بعلة الحكم فان هبة الغلام لها من احكام تربيتها وفي بعض المصاحف امرني ان اهب لك غلاما زكيا طاهرا من الذنوب او ناميا على الخير اي مترقيا من سن الى سن على الخير والصلاح قالت انى يكون لي غلام كما وصفت ولم يمسسني بشر اي والحال انه لم يباشرني بالنكاح رجل وانما قيل بشر مبالغة في بيان تنزهها من مبادي الولادة ولم اك بغيا عطف على لم يمسسني داخل معه في حكم الحالية مفصح عن كون المساس عبارة عن المباشرة بالنكاح اي ولم اكن فاجرة تبغي الرجال وهي فعول بمعنى الفاعل اصلها بغوي فادغمت الواو بعد قلبها ياء في الياء وكسرت الغين للياء وقيل هي فعيل بمعنى الفاعل ولا فلم يلحق كما يقال فلان نهو عن المنكر وانما لم تلحقه التاء لانها من باب النسب كطالق او بمعنى المفعول اي يبغيها الرجال للفجور بها قال اي الملك تقريرا لمقالته وتحقيقا لها كذلك اي الامر كما قلت لكن قوله تعالى قال ربك الخ استيناف مقرر له اي قال ربك الذي ارسلني اليك هو اي ما ذكرت لك من هبة الغلام من غير ان يمسك بشر اصلا علي خاصة هين وان كان مستحيلا عادة لما اني لا احتاج الى الاسباب والوسائط وقوله تعالى ولنجعله آية للناس اما علة لمعلل محذوف اي ولنجعل وهب الغلام آية لهم وبرهانا يستدلون به على كمال قدرتنا نفعل ذلك ومعطوف على علة اخرى مضمرة اي لنبين به عظم قدرتنا ولنجعله آية الخ والواو على الاول اعتراضية والالتفات الى نون العظمة لاظهار كمال الجلالة ورحمة عظيمة كائنة منا عليهم يهتدون بهدايته ويسترشدون بارشاده وكان ذلك امرا مقضيا محكما قد تعلق به قضاؤنا الازلي او قدر وسطر في اللوح لا بد من جريانه عليك البتة او كان امرا حقيقا بان يقضى ويفعل لتضمنه حكما بالغة فحملته بان نفخ جبريل عليه السلام في درعها فدخلت النفخة في جوفها قيل انه عليه السلام رفع درعها فنفخ في جيبه فحملت وقيل نفخ عن بعد فوصل الريح اليها فحملت في الحال وقيل ان النفخة كانت في فيها وكانت مدة حملها سبعة اشهر وقيل ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية اشهر غيره وقيل تسعة اشهر وقيل ثلاث ساعات وقيل ساعة كما حملت وضعته وسنها حينئذ ثلاث عشرة سنة وقيل عشر سنين وقد حاضت حيضتين فانتبذت به اي فاعتزلت وهو في بطنها كما في قوله تدوس بنا الجماجم والتريبا فالجار والمجرور في حيز النصب على الحالية اي فانتبذت ملتبسة به مكانا قصيا بعيدا من اهلها وراء الجبل وقيل اقصى الدار وهو الانسب بقصر مدة الحمل فاجاءها المخاض اي فالجاها وهو في الاصل منقول من جاء لكنه لم يستعمل في غيره كاتى في اعطى وقرئ المخاض بكسر الميم وكلاهما

مصدر مخضت المراة اذا تحرك الولد في بطنها للخروج الى جذع النخلة لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة وهو ما بين العرق والغصن وكانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا خضرة وكان الوقت شتاء والتعريف اما للجنس او للعهد اذ لم يكن ثمة غيرها وكانت كالمتعالم عند الناس ولعله تعالى الهمها ذلك ليريها من آياتها ما يسكن روعتها ويطعمها الرطب الذي هو خرسة النفساء الموافقة لها قالت يا ليتني مت بكسر الميم من مات يمات كخفت وقرئ بضمها من مات يموت قبل هذا اي هذا الوقت الذي لقيت فيه ما لقيت وانما قالته مع انها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريل عليه السلام من الوعد الكريم استحياء من الناس وخوفا من لائمتهم او حذرا من وقوع الناس في المعصية بما تكلموا فيها او جريا على سنن الصالحين عند اشتداد الامر عليهم كما روي عن عمر رضي الله عنه انه اخذ تبنة من الارض فقال يا ليتني كنت هذه التبنة ولم اكن شيئا وعن بلال انه قال ليت بلالا لم تلده امه وكنت نسيا اي شيئا تافها شانه ان ينسى ولا يعتد به اصلا وقرئ بالكسر قيل هما لغتان في ذلك كالوتر والوتر وقيل هو بالكسر اسم لما ينسى كالنقض اسم لما ينقض وبالفتح مصدر سمي به المفعول مبالغة وقرئ بهما مهموزا من نسأت اللبن اذا صببت عليه الماء فصار مستهلكا فيه وقرئ نسأ كعصا منسيا لا يخطر ببال احد من الناس وهو نعت للمبالغة وقرئ بكسر الميم اتباعا له بالسين فناداها اي جبريل عليه السلام من تحتها قيل انه كان يقبل الولد وقيل من تحتها اي من مكان اسفل منها تحت الاكمة وقيل من تحت النخلة وقيل ناداها عيسى عليه السلام وقرئ فخاطبها من تحتها بفتح الميم ان لا تحزني اي لا تحزني على ان ان مفسرة او بان لا تحزني على انها مصدرية قد حذف عنها الجار قد جعل ربك تحتك اي بمكان اسفل منك وقيل تحت امرك ان امرته بالجري جرى وان امرته بالامساك امسك سريا اي نهرا صغيرا حسبما روي مرفوعا قال ابن عباس رضي الله عنهما ان جبريل عليه السلام ضرب برجله الارض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولا وقيل فعله عيسى عليه السلام وقيل كان هناك نهر يابس اجرى الله عز وجل فيه الماء حينئذ كما فعل مثله بالنخلة فانها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ورق فضلا عن الثمر وكان الوقت شتاء فجعل الله لها اذ ذاك رأسا وخوصا وثمرا وقيل كان هناك ماء جار والاول هو الموافق لمقام بيان ظهور الخوارق والمتبادر من النظم الكريم وقيل سريا اي سيدا نبيلا رفيع الشان جليلا وهو عيسى عليه السلام فالتنوين للتفخيم والجملة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهي عنه والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرها لتشريفها وتاكيد التعليل وتكميل التسلية وهزي هز الشيء تحريكه الى الجهات المتقابلة تحريكا عنيفا متداركا والمراد ههنا ما كان منه بطريق الجذب والدفع لقوله تعالى اليك اي الى جهتك والباء في قوله تعالى بجذع النخلة صلة للتاكيد كما في قوله تعالى ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة الخ قال الفراء تقول العرب هزه وهز به واخذ الخطام واخذ بالخطام او لالصاق الفعل بمدخولها اي افعلي الهز بجذعها او هزي الثمرة بهزه وقيل هي متعلقة بمحذوف وقع حالا من مفعول الهز اي هزي اليك الرطب كائنا بجذعها تساقط اي تسقط النخلة عليك اسقاطا متواترا حسب تواتر الهز وقرئ تسقط ويسقط من الاسقاط بالياء والتاء وتتساقط باظهار التائين وتساقط بطرح الثانية وتساقط بادغامها في السين ويساقط بالياء كذلك وتسقط ويسقط من السقوط على ان التاء في الكل للنخلة والياء للجذع وقوله تعالى رطبا على القراءات الثلاث الاول مفعول وعلى الست البواقي تمييز وقوله تعالى جنيا صفة له وهو ما قطع قبل يبسه فعيل بمعنى مفعول اي رطبا مجنيا اي صالحا للاجتناء وقيل بمعنى فاعل اي طريا طيبا وقد قرئ جنيا بكسر الجيم للاتباع فكلي واشربي اي من ذلك الرطب وماء السري او من الرطب وعصيره وقري عينا وطيبي نفسا وارفضي عنها ما احزنك واهمك فانه تعالى قد نزه ساحتك عما اختلج في صدور المتقيدين بالاحكام العادية بان اظهر لهم من البسائط العنصرية والمركبات النباتية ما يخرق العادات التكوينية ويرشدهم الى الوقوف على سريرة امرك وقرئ وقري بكسر القاف وهي لغة نجد واشتقاقه من القرار فان العين اذا رات ما يسر النفس سكنت اليه من النظر

الى غيره او من القر فان دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة ولذلك يقال قرة العين وسخنة العين للمحبوب والمكروه فاما ترين من البشر احدا اى ادميا كائنا من كان وقرى ترئن على لغة من يقول لبات بالحج لما بين الهمزة والياء من التآخى فقولى له ان استنطقك انى نذرت للرحمن صوما اى صمتا وقد قرئ كذلك او صياما وكان صيامهم بالسكوت فلن اكلم اليوم انسيا اى بعد ان اخبرتكم بنذرى وانما اكلم الملئكة واناجى ربى وقيل امرت بان تخبر بنذرها بالاشارة وهو الاظهر قال الفراء العرب تسمى كلما وصل الى الانسان كلاما باى طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فاذا اكد لم يكن الا حقيقة الكلام وانما امرت بذلك كراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام فانه نص قاطع فى قطع الطعن فاتت به قومها اى جاءتهم مع ولدها راجعة اليهم عند ما طهرت من نفاسها تحمله اى حاملة له قالوا مؤنبة لها يا مريم لقد جئت شيئا فريا اى عظيما بديعا منكرا من فرى الجلد اى قطعه او جئت مجيئا عجيبا عبر عنه بالشئ تحقيقا للاستغراب يا اخت هرون استيناف لتجديد التعيير وتاكيد التوبيخ عنوا به هرون النبى عليه السلام وكانت من اعقاب من كان معه فى طبقة الاخوة وقيل كانت من نسله وكان بينهما الف سنة وقيل هو رجل صالح او طالح كان فى زمانهم شبهوها به اى كنت عندنا مثله فى الصلاح او شتموها به ما كان ابوك امرأ سوء وما كانت امك بغيا تقرير لكون ما جاءت به فريا منكرا او تنبيه على ان ارتكاب الفواحش من اولاد الصالحين افحش فاشارت اليه اى الى عيسى عليه السلام ان كلموه والظاهر انها بينت حينئذ نذرها وانها بمعزل من مجاوبة الانس حسبما امرت ففيه دلالة على ان المامور به بيان نذرها بالاشارة لا بالعبارة والجمع بينهما مما لا عهد به قالوا منكرين لجوابها كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ولم نعهد فيما سلف صبيا يكلمه عاقل وقيل كان لايقاع مضمون الجملة فى زمان ماض مبهم صالح لقريبه وبعيده وهو ههنا لقريبه خاصة بدليل انه مسوق للتعجب وقيل هى زايدة والظرف صلة من وصبيا حال من المستكن فيه او هى تامة او دائمة كما فى قوله تعالى وكان الله عليما حكيما قال استئناف مبنى على سؤال نشأ من سياق النظم الكريم كانه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال عليه السلام انى عبد الله انطقه الله عز وجل بذلك اثر ذى اثير تحقيقا للحق وردا على من يزعم ربوبيته قيل كان المستنطق لعيسى زكريا عليهما السلام وعن السدى لما اشارت اليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا اشد علينا مما فعلت وروى انه عليه السلام كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع واقبل عليهم واتكأ على يساره واشار اليهم بسبابته فقال ما قال وقيل كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان اتانى الكتاب اى الانجيل وجعلنى نبيا وجعلنى مع ذلك مباركا نفاعا معلما للخير والتعبير بلفظ الماضى فى الافعال الثلثة اما باعتبار ما سبق فى القضاء المحتوم او بجعل ما فى شرف الوقوع لا محالة واقعا وقيل اكمله الله عقلا واستنبأه طفلا اينما كنت اى حيثما كنت واوصانى بالصلوة اى امرنى بها امرا مؤكدا والزكوة زكوة المال ان ملكته او بتطهير النفس عن الرذائل ما دمت حيا فى الدنيا وبرا بوالدتى عطف على مباركا اى جعلنى بارا بها وقرئ بالكسر على انه مصدر وصف به مبالغة او منصوب بمضمر دل عليه اوصانى اى وكلفنى برا ويؤيده القراءة بالكسر والجر عطفا على الصلوة والزكوة والتنكير للتفخيم ولم يجعلنى جبارا شقيا عند الله تعالى لفرط تكبره والسلام على يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيا كما هو على يحيى على ان التعريف للعهد والاظهر انه للجنس والتعريض باللعن على اعدائه فان اثبات جنس السلام لنفسه تعريض باثبات ضده لاضداده كما فى قوله تعالى والسلام على من اتبع الهدى فانه تعريض بان العذاب على من كذب وتولى ذلك اشارة الى من فصلت نعوته الجليلة وما فيه من معنى البعد للدلالة على علو رتبته وبعد منزلته وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ونزوله منزلة المشاهد المحسوس عيسى بن مريم

لامايصفه

لا ما يصفه النصارى وهو تكذيب لهم فيما يزعمونه على الوجه الابلغ والمنهاج البرهانى حيث جعله موصوفا باضداد ما يصفونه قول الحق بالنصب على انه مصدر مؤكد لقال انى عبد الله الخ وقوله تعالى ذلك عيسى ابن مريم اعتراض مقرر لمضمون ما قبله وقرئ بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف اى هو قول الحق الذى لا ريب فيه والاضافة للبيان والضمير للكلام السابق او لتمام القصة وقيل صفة عيسى او بدل او خبر ثان ومعناه كلمة الله وقرئ قال الحق وقول الحق فان القول والقول والقال فى معنى واحد الذى فيه يمترون اى يشكون او يتنازعون فيقول اليهود ساحر والنصارى ابن الله سبحانه وقرئ بتاء الخطاب ما كان لله اى ما صح وما استقام له تعالى ان يتخذ من ولد سبحانه تكذيب للنصارى وتنزيه له عما بهتوه وقوله تعالى اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون تبكيت لهم ببيان ان شانه تعالى اذا قضى امرا من الامور ان يعلق به ارادته فيكون حينئذ بلا تأخير فمن هذا شانه كيف يتوهم ان يكون له ولد وقرئ فيكون بالنصب على الجواب وقوله تعالى وان الله ربى وربكم فاعبدوه من تمام كلام عيسى قيل هو عطف على قوله انى عبد الله داخل تحت القول وقد قرئ بغير واو وقرئ بفتح الهمزة على حذف اللام اى ولانه تعالى ربى وربكم فاعبدوه كقوله تعالى وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله احدا وقيل معطوف على الصلوة هذا اى الذى ذكرته من التوحيد صراط مستقيم لا يضل سالكه والفاء فى قوله تعالى فاختلف الاحزاب من بينهم لترتيب ما بعدها على ما قبلها تنبيها على سوء صنيعهم بجعلهم ما يوجب الاتفاق منشأ للاختلاف فان ما حكى من مقامات عيسى عليه السلام مع كونها نصوصا قاطعة فى كونه عبده تعالى ورسوله قد اختلف اليهود والنصارى بالتفريط والافراط او فرق النصارى فقالت النسطورية هو ابن الله وقالت اليعقوبية هو الله هبط الى الارض ثم صعد الى السماء تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وقالت الملكانية هو عبد الله ونبيه فويل للذين كفروا وهم المختلفون عبر عنهم بالموصول ايذانا بكفرهم جميعا واشعارا بعلة الحكم من مشهد يوم عظيم اى من شهود يوم عظيم الهول والحساب والجزاء وهو يوم القيمة او من وقت شهوده او من مكان الشهود فيه او من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو ان يشهد عليهم الملئكة والانبياء عليهم السلام والسنتهم وايديهم وارجلهم وسائر ارابهم بالكفر والفسوق او من وقت الشهادة او من مكانها وقيل هو ما شهدوا به فى حق عيسى وامه اسمع بهم وابصر تعجب من حدة سمعهم وابصارهم يومئذ ومعناه ان اسماعهم وابصارهم يوم ياتوننا للحساب والجزاء اى يوم القيمة جدير بان يتعجب منهما بعد ان كانوا فى الدنيا صما عميا او تهديد بما سيسمعون ويبصرون يومئذ وقيل امر بان يسمعهم ويبصرهم من اعيد ذلك اليوم وما يحيق بهم فيه والجار والمجرور على الاول فى موقع الرفع وعلى الثانى فى حيز النصب لكن الظالمون اليوم اى فى الدنيا فى ضلال مبين لا يدرك غايته حيث اغفلوا الاستماع والنظر بالكلية ووضع الظالمين موضع الضمير للايذان بانهم فى ذلك ظالمون لانفسهم وانذرهم يوم الحسرة اى يوم يتحسر الناس قاطبة اما المسئ فعلى اساءته واما المحسن فعلى قلة احسانه اذ قضى الامر اى فرغ من الحساب وتصادر الفريقان الى الجنة والنار وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال حين يجاء بالموت على صورة كبش املح فيذبح والفريقان ينظرون فينادى المنادى يا اهل الجنة خلود فلا موت ويا اهل النار خلود فلا موت فيزداد اهل الجنة فرحا الى فرح واهل النار غما الى غم واذ بدل من يوم الحسرة او ظرف للحسرة فان المصدر المعرف باللام يعمل فى المفعول الصريح عند بعضهم فكيف بالظرف وهم فى غفلة اى عما يفعل بهم فى الاخرة وهم لا يؤمنون وهما جملتان حاليتان من الضمير المستتر فى قوله تعالى فى ضلال مبين اى مستقرون فى ذلك وهم فى تينك الحالتين وما بينهما اعتراض او من مفعول انذرهم اى انذرهم غافلين غير مؤمنين فيكون حالا متضمنة لمعنى التعليل انا نحن نرث الارض ومن عليها الا يبقى لاحد

صنيعهم نسخه

غيرنا عليها اى عليهم ملك ولا ملك او نتوفى الارض ومن عليها بالافناء والاهلاك توفى
الوارث لارثه والينا يرجعون اى يردون للجزاء لا الى غيرنا استقلالا واذكر عطف
على انذرهم فى الكتاب اى فى السورة او فى القرآن ابراهيم اى اتل على الناس قصته
وبلغها اياهم كقوله تعالى واتل عليهم نبأ ابراهيم فانهم ينتمون اليه عليه السلام فعساهم
باستماع قصته يقلعون عما هم فيه من القبائح انه كان صديقا ملازما للصدق
فى كل ما يأتى ويذر او كثير التصديق لكثرة ما صدق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه
ورسله والجملة استئناف مسوق لتعليل موجب الامر فان وصفه عليه السلام بذلك
من دواعى ذكره نبيا خبر آخر لكان مقيد للاول مخصص له كما ينبئ عنه قوله تعالى من
النبيين والصديقين الآية اى كان جامعا بين الصديقية والنبوة ولعل هذا الترتيب للمبالغة
فى الاحتراز عن توهم تخصيص الصديقية بالنبوة فان كل نبى صديق اذ قال بدل اشتمال
من ابراهيم وما بينهما اعتراض مقرر لما قبله او متعلق بكان او بنبيا وتعليق الذكر بالاوقات
مع ان المقصود تذكير ما وقع فيها من الحوادث قد مر سره مرارا اى كان جامعا بين الاثرتين
حين قال لابيه آزر متلطفا فى الدعوة مستميلا يا ابت اى يا ابى فان التاء عوض من
ياء الاضافة ولذلك لا تجتمعان وقد قيل يا ابتا لكون الالف بدلا من الياء لم تعبد
ما لا يسمع ثناءك عليه عند عبادتك وجؤارك اليه وخضوعك وخشوعك بين يديه
او لا يسمع ولا يبصر شيئا من المسموعات والمبصرات فيدخل فى ذلك ما ذكر دخولا اوليا ولا يغنى
اى لا يقدر على ان يغنى عنك شيئا فى جلب نفع او دفع ضر ولقد سلك عليه السلام فى دعوته احسن
منهاج واقوم سبيل واحتج عليه ابدع احتجاج بحسن ادب وخلق جميل لئلا يركب متن
المكابرة والعناد ولا ينكب بالكلية عن محجة الرشاد حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف
به عقل كل عاقل من عالم وجاهل ويأبى الركون اليه فضلا عن عبادته التى هى الغاية القاصية
من التعظيم مع انها لا تحق الا لمن له الاستغناء التام والانعام العام الخالق الرازق
المحيى المميت المثيب المعاقب ونبه على ان العاقل يجب ان يفعل كل ما يفعل لداعية صحيحة
وغرض صحيح والشئ لو كان حيا مميزا سميعا بصيرا قادرا على النفع والضر مطيقا
بايصال الخير والشر لكن كان ممكنا لاستنكف العقل السليم عن عبادته وان كان اشرف
الخلائق لما يراه مثله فى الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة فما ظنك بجماد مصنوع
من حجر او شجر ليس له من اوصاف الاحياء عين ولا اثر ثم دعاه الى ان يتبعه ليهديه الى
الحق المبين لما انه لم يكن محظوظا من العلم الالهى مستقلا بالنظر السوى مصدرا لدعوته
بما مر من الاستمالة والاستعطاف يا ابت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ولم
يسم اباه بالجهل المفرط وان كان فى اقصاه ولا نفسه بالعلم الفائق وان كان كذلك بل
ابرز نفسه فى صورة رفيق له اعرف باحوال ما سلكاه من الطريق فاستماله برفق حيث
قال فاتبعنى اهدك صراطا سويا اى مستقيما موصلا الى اسنى المطالب منجيا عن الضلال
المؤدى الى مهاوى الردى والمعاطب ثم ثبطه عما كان عليه بتصويره بصورة يستنكرها
كل عاقل ببيان انه مع عرائه عن النفع بالمرة مستجلب لضرر عظيم فانه فى الحقيقة عبادة
الشيطان لما انه الآمر به فقال يا ابت لا تعبد الشيطان فان عبادتك للاصنام عبادة
له اذ هو الذى يسولها لك ويغريك عليها وقوله ان الشيطان كان للرحمن عصيا
تعليل لموجب النهى وتأكيد له ببيان انه مستعص على ربك الذى انعم عليك بفنون النعم
ولا ريب فى ان المطيع للعاصى عاص وكل من هو عاص حقيق بان تسترد منه النعم
وينتقم منه والاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والاقتصار على ذكر عصيانه
من بين سائر جناياته لانه ملاكها او لانه نتيجة معاداته لآدم وذريته فتذكيره
داع لابيه الى الاحتراز عن موالاته وطاعته والتعرض لعنوان الرحمانية لاظهار كمال
شناعة عصيانه وقوله يا ابت انى اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن تحذير
من سوء عاقبة ما كان عليه من عبادة الشيطان وهو ابتلاؤه بما ابتلى به معبوده
من العذاب الفظيع وكلمة من متعلقة بمضمر وقع صفة للعذاب مؤكدة لما افاده التنكير

من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية واظهار الرحمن للاشعار بان وصف الرحمانية
لا يدفع حلول العذاب كما فى قوله عز وجل ما غرك بربك الكريم فتكون للشيطان
وليا اى قرينا له فى اللعن المخلد وذكر الخوف للمجاملة وابراز الاعتناء بامره قال استئناف
مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل فماذا قال ابوه عند ما سمع منه عليه السلام
هذه النصائح الواجبة القبول فقيل قال مصرا على عناده اراغب انت عن آلهتى يا ابراهيم
اى امعرض ومنصرف انت عنها بتوجيه الانكار الى نفس الرغبة مع ضرب من التعجب كأن
الرغبة عنها مما لا يصدر من العاقل فضلا عن ترغيب الغير عنها وقوله تعالى لئن لم
تنته لارجمنك تهديد وتحذير عما كان عليه من العظة والتذكير اى والله لئن لم
تنته عما كنت عليه من النهى عن عبادتها لارجمنك بالحجارة وقيل باللسان واهجرنى اى فاحذرنى واتركنى
مليا اى زمانا طويلا او مليا بالذهاب مطيقا به قال استئناف كما سلف سلام عليك توديع
ومتاركة على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة اى لا اصيبك بمكروه بعد ولا اشافهك
بما يؤذيك ولكن ساستغفر لك ربى اى استدعيه ان يغفر لك بان يوفقك للتوبة
ويهديك الى الايمان كما يلوح به تعليل قوله تعالى واغفر لابى بقوله تعالى انه كان من
الضالين والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تبين انه يموت على الكفر مما لا ريب
فى جوازه وانما المحظور استدعاء المغفرة له مع بقائه على الكفر فانه مما لا مساغ
له عقلا ولا نقلا واما الاستغفار له بعد موته على الكفر فلا يأباه قضية العقل وانما الذى
يمنعه السمع الا يرى الى انه عليه السلام قال لعمه ابى طالب لا ازال استغفر لك ما لم انه
عنه فنزل قوله تعالى ما كان للنبى والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين الآية ولا اشتباه
فى ان هذا الوعد من ابراهيم عليه السلام وكذا قوله لاستغفرن لك وما ترتب عليهما
من قوله تعالى واغفر لابى الآية انما كان قبل انقطاع رجائه عن ايمانه لعدم تبين امره
لقوله تعالى فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه كما مر فى تفسير سورة التوبة واستثناؤه
عما يؤتسى به فى قوله تعالى الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك لا يقدح فى جوازه لكن
لا لان ذلك كان قبل ورود النهى او لموعدة وعدها اياه كما قيل لما ان النهى انما ورد فى
شأن الاستغفار بعد تبين الامر وقد كان استغفاره عليه السلام قبل التبين فلم يتناوله
النهى اصلا وان الوعد بالمحظور لا يرفع حظره بل لان المراد بما يؤتسى به ما يجب الائتساء
به حتما لورود الوعيد على الاعراض عنه بقوله تعالى لقد كان لكم فيهم اسوة حسنة
لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد فاستثناء ما وقع
من ذلك انما يفيد عدم وجوب الاستدعاء الايمان للكافر المرجو ايمانه لا سيما وقد
انقطع ذلك عند ورود الاستثناء وذلك مما لا يتردد فيه احد من العقلاء واما
عدم جوازه قبل تبين الامر فلا دلالة للاستثناء عليه قطعا وتوجيه الاستثناء الى
العدة بالاستغفار لا الى نفس الاستغفار بقوله واغفر لابى الآية لانها كانت هى الحاملة
له عليه السلام عليه وتخصيص تلك العدة بالذكر دون ما وقع ههنا لورودها على
نهج التأكيد القسمى واما جعل الاستغفار دائرا عليها وترتيب التبرؤ على تبين الامر فقد
مر تحقيقه فى تفسير سورة التوبة وقوله تعالى انه كان بى حفيا اى بليغا فى البر
والالطاف تعليل لمضمون ما قبله واعتزلكم اى اتباعد عنكم وعن قومى وما تدعون
من دون الله بالمهاجرة بدينى حيث لم يؤثر فيكم نصائحى وادعو ربى اى اعبده
وحده وقد جوز ان يراد به دعاؤه المذكور فى سورة الشعراء ولا يبعد ان يراد
به استدعاء الولد ايضا بقوله رب هب لى من الصالحين حسبما يساعده السباق
والسياق عسى الا اكون بدعاء ربى شقيا اى خائبا ضائع السعى وفيه تعريض
بشقائهم فى عبادة آلهتهم وفى تصدير الكلام بعسى من اظهار التواضع ومراعاة
حسن الادب والتنبيه على حقيقة الحق من ان الاجابة والاثابة بطريق التفضل منه
عز وجل لا بطريق الوجوب وان العبرة بالخاتمة وذلك من الغيوب المختصة بالعليم
الخبير ما لا يخفى فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله بالمهاجرة الى الشام

يتعلق برب هب لى حكما
والحقنى بالصالحين الآية

ووهبنا له اسحق ويعقوب بدل من فارقهم من اقربائه الكفرة لكن لا عقيب المهاجرة فان المشهور ان الموهوب حينئذ اسمعيل عليه السلام لقوله تعالى فبشرناه بغلام حليم اثر دعائه بقوله رب هب لي من الصالحين ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله ههنا لبيان كمال عظم النعم التي اعطاها الله تعالى اياه بمقابلة من اعتزلهم من الاهل والاقرباء فانهما شجرتا الانبياء لهما اولاد واحفاد اولو شان خطير وذو عدد كثير هذا وقد روي انه عليه السلام لما قصد الشام اتى اولا حران وتزوج بسارة وولدت له اسحق وولد لاسحق يعقوب والاول هو الاظهر وكلا اي كل واحد منهما او منهم وهو مفعول اول لقوله تعالى جعلنا نبيا قدم للتخصيص لكن لا بالنسبة الى من عداهم بل بالنسبة الى بعضهم اي كل واحد منهم جعلنا نبيا لا بعضهم دون بعض ووهبنا لهم من رحمتنا هي النبوة وذكرها بعد ذكر جعلهم نبيا للايذان بانها من باب الرحمة وقيل هي المال والاولاد وما بسط لهم من سعة الرزق وقيل هو الكتاب والاظهر انها عامة لكل خير ديني ودنيوي اوتوه مما لم يؤت احد من العالمين وجعلنا لهم لسان صدق عليا يفتخر بهم الناس ويثنون عليهم استجابة لدعوته بقوله واجعل لي لسان صدق في الآخرين والمراد باللسان ما يوجد به من الكلام ولسان العرب لغتهم واضافته الى الصدق ووصفه بالعلو للدلالة على انهم احقاء بما يثنون عليهم وان محامدهم لا تخفى على تباعد الاعصار وتبدل الدول وتحول الملل والنحل واذكر في الكتاب موسى قدم ذكره على ذكر اسمعيل لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب عليهم السلام انه كان مخلصا موحدا اخلص عبادته عن الشرك والرياء او اسلم وجهه لله تعالى واخلص نفسه عما سواه وقرئ مخلصا على ان الله تعالى اخلصه وكان رسولا نبيا ارسله الله تعالى الى الخلق فانباهم عنه ولذلك قدم رسولا مع كونه اخص واعلى وناديناه من جانب الطور الايمن الطور جبل بين مصر ومدين والايمن صفة للجانب اي ناديناه من ناحيته اليمنى من اليمين وهي التي تلي يمين موسى عليه السلام او من جانبه الميمون من اليمن ومعنى ندائه منه انه تمثل له الكلام من تلك الجهة وقربناه نجيا تقريب تشريف مثل حاله عليه السلام بحال من قربه الملك لمناجاته واصطفاه لمصاحبته ونجيا اي مناجيا حال من احد الضميرين في ناديناه او قربناه وقيل مرتفعا لما روي انه رفع فوق السموات حتى سمع صريف القلم ووهبنا له من رحمتنا اي من اجل رحمتنا ورأفتنا له او بعض رحمتنا اخاه اي معاضدة اخيه وموازرته اجابة لدعوته بقوله واجعل لي وزيرا من اهلي هرون اخي لا نفسه لانه كان اكبر منه عليهما السلام وهو على الاول مفعول لوهبنا وعلى الثاني بدل وقوله تعالى هرون عطف بيان له وقوله تعالى نبيا حال منه واذكر في الكتاب اسمعيل فصل ذكره عن ذكر ابيه واخيه لابراز كمال الاعتناء بامره بايراده مستقلا وقوله تعالى انه كان صادق الوعد تعليل لموجب الامر وايراده عليه السلام بهذا الوصف لكمال شهرته به وناهيك انه وعد الصبر على الذبح بقوله ستجدني ان شاء الله صابرا فوفى وكان رسولا نبيا فيه دلالة على ان الرسول لا يجب ان يكون صاحب شريعة فان اولاد ابراهيم عليهم السلام كانوا على شريعته وكان يأمر اهله بالصلوة والزكوة اشتغالا بالاهم وهو ان يقبل الرجل بالتكميل على نفسه ومن هو اقرب الناس اليه قال تعالى وانذر عشيرتك الاقربين وأمر اهلك بالصلوة قوا انفسكم واهليكم نارا وقصدا الى تكميل الكل بتكميلهم لانهم قدوة يؤتسى بهم وقيل اهله امته فان الانبياء عليهم السلام آباء الامم وكان عند ربه مرضيا لاتصافه بالنعوت الجليلة التي من جملتها ما ذكر من خصاله الحميدة واذكر في الكتاب ادريس وهو سبط شيث وجد ابي نوح فانه نوح بن لمك بن متوشلخ بن اخنوخ وهو ادريس عليهم السلام واشتقاقه من الدرس يرده منع صرفه نعم لا يبعد ان يكون معناه في تلك اللغة قريبا من ذلك فلقب به لكثرة دراسته روي انه تعالى انزل عليه ثلثين صحيفة وانه اول من خط بالقلم ونظر في علم النجوم

والحساب

والحساب انه كان صديقا ملازما للصدق في جميع احواله نبيا خبر آخر لكان مخصص للاول اذ ليس كل صديق نبيا ورفعناه مكانا عليا هو شرف النبوة والزلفى عند الله عز وجل وقيل علو الرتبة بالذكر الجميل في الدنيا كما في قوله تعالى ورفعنا لك ذكرك وقيل الجنة وقيل السماء السادسة او الرابعة روي عن كعب وغيره في سبب رفع ادريس عليه السلام انه سار ذات يوم في حاجة فاصابه وهج الشمس فقال يا رب اني قد مشيت فيها يوما وقد اصابني منها ما اصابني فكيف من يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما اصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف فقال يا رب ما الذي قضيت فيه قال ان عبدي ادريس قد سألني ان اخفف عنك حملها وحرها فاجبته قال يا رب اجعل بيني وبينه خلة فاذن الله تعالى فرفعه الى السماء اولئك اشارة الى المذكورين في السورة الكريمة وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم في الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى الذين انعم الله عليهم صفته اي انعم عليهم بفنون النعم الدينية والدنيوية حسبما اشير اليه مجملا وقوله تعالى من النبيين بيان للموصول وقوله تعالى من ذرية آدم بدل منه باعادة الجار ويجوز ان يكون كلمة من فيه للتبعيض لان المنعم عليهم اعم من الانبياء واخص من الذرية وممن حملنا مع نوح اي ومن ذرية من حملنا معه خصوصا وهم من عدا ادريس عليه السلام فان ابراهيم كان من ذرية سام بن نوح ومن ذرية ابراهيم وهم الباقون واسرائيل عطف على ابراهيم اي ومن ذرية اسرائيل وكان منهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى وفيه دليل على ان اولاد البنات من الذرية وممن هدينا واجتبينا اي ومن جملة من هديناهم الى الحق واجتبيناهم للنبوة والكرامة وقوله تعالى اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا خبر لاولئك ويجوز ان يكون الخبر هو الموصول وهذا استئنافا مسوقا لبيان خشيتهم من الله تعالى واخباتهم له مع ما لهم من علو الرتبة وسمو الطبقة في شرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله عز سلطانه وسجدا وبكيا حالان من ضمير خروا اي ساجدين باكين عن النبي صلى الله عليه وسلم اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا والبكي جمع باك كالسجود جمع ساجد واصله بكوي فاجتمع الواو والياء وسبقت احديهما بالسكون فقلبت الواو ياء وادغمت الياء في الياء وحركت الكاف بالكسر لمجانسة الياء وقرئ يتلى بالياء التحتانية لان التأنيث غير حقيقي وقرئ بكيا بكسر الباء للاتباع قالوا ينبغي ان يدعو الساجد في سجوده بما يليق بآيتها فههنا يقول اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهديين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك وفي آية الاسرى يقول اللهم اجعلني من الباكين اليك الخاشعين لك وفي آية تنزيل السجدة اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك واعوذ بك من ان اكون من المستكبرين عن امرك فخلف من بعدهم خلف يقال لعقب الخير خلف بفتح اللام ولعقب الشر خلف بالسكون اي فعقبهم وجاء بعدهم عقب سوء اضاعوا الصلوة وقرئ الصلوات اي تركوها او اخروها عن وقتها واتبعوا الشهوات من شرب الخمر واستحلال نكاح الاخت من الاب والانهماك في فنون المعاصي وعن علي رضي الله عنه هم من بنى الشديد وركب المنظور ولبس المشهور فسوف يلقون غيا اي شرا فان كل شر عند العرب غي وكل خير رشاد كقوله فمن يلق خيرا يحمد الناس امره ومن يغو لا يعدم على الغي لائما وعن الضحاك جزاء غي كقوله تعالى يلق اثاما اي جزاء آثام او غيا عن طريق الجنة وقيل غي واد في جهنم يستعيذ منه اوديتها وقوله تعالى الا من تاب وآمن وعمل صالحا يدل على ان الآية في حق الكفرة فاولئك اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا اي فاولئك المنعوتون بالتوبة والايمان والعمل الصالح يدخلون الجنة بموجب الوعد المحتوم وقرئ يدخلون على البناء للمفعول ولا يظلمون شيئا اي لا ينقصون من جزاء اعمالهم شيئا من النقص وفيه تنبيه على ان كفرهم السابق لا يضرهم ولا

ينقص اجورهم جنات عدن بدل من الجنة بدل البعض لاشتمالها عليها و ما بينهما
اعتراض او نصب على المدح وقرئ بالرفع على انه خبر لمبتداء محذوف اى هى او تلك جنات
الخ او مبتداء وخبره التى وعد الخ وقرئ جنة عدن نصبا ورفعا وعدن علم لمعنى العدن
وهو الاقامة كما ان فينة وسحر وامس فيمن لم يصرفها اعلام لمعانى الغنية وهى
الساعة التى انت فيها والسحر والامس فجرى لذلك مجرى العدن او هو علم لارض الجنة
خاصة ولولا ذلك لما ساغ ابدال ما اضيف اليه من الجنة بلا وصف عند غير البصريين
ولا وصفه بقوله تعالى التى وعد الرحمن عباده وجعله بدلا منه خلاف الظاهر
فان الموصول فى حكم المشتق وقد نصوا على ان البدل بالمشتق ضعيف والتعرض لعنوان
الرحمة للايذان بان وعدها وانجازه لكمال سعة رحمته تعالى والباء فى قوله تعالى
بالغيب متعلقة بمضمر هو حال من المضمر العائد الى الجنات او من عباده اى وعدها
اياهم ملتبسة او ملتبسين بالغيب اى غائبة عنهم غير حاضرة او غائبين عنها لايرونها
وانما امنوا بها بمجرد الاخبار او بمضمر هو سبب للوعد اى وعدها اياهم بسبب ايمانهم
انه كان وعده اى موعوده كائنا ما كان فيدخل فيه الجنات الموعودة دخولا اوليا
ولما كانت هى مثابة يرجع اليها قيل ماتيا اى يأتيه من وعد له لا محالة بغير خلف
وقيل هو مفعول بمعنى فاعل وقيل ماتيا اى مفعولا منجزا من اتى اليه احسانا اى
فعله لايسمعون فيها لغوا اى فضول كلام لا طائل تحته وهو كناية عن عدم صدور
اللغو عن اهلها وفيه تنبيه على ان اللغو مما ينبغى ان يجتنب عنه فى هذه الدار ما
امكن الا سلاما استثناء منقطع اى لكن يسمعون تسليم الملئكة عليهم او تسليم بعضهم
على بعض او متصل بطريق التعليق بالمحال اى لا يسمعون لغوا ما الا سلاما فحيث استحال
كون السلام لغوا استحال سماعهم له بالكلية كما فى قوله ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب او على ان معناه الدعاء بالسلامة وهم اغنياء عنه فهو
من باب اللغو ظاهرا وانما فائدته الاكرام وقوله تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا
وارد على عادة المتنعمين فى هذه الدار وقيل المراد دوام رزقهم ودروده فـ
الافليس فيها بكرة ولا عشى تلك الجنة مبتداء وخبر جئ به لتعظيم شان الجنة وتعيين
اهلها فان ما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها وعلو رتبتها التى
نورث اى نورثها من عبادنا من كان تقيا اى نبقيها عليهم بتقواهم ونمتعهم
بها كما نبقى على الوارث مال مورثه ونمتعه به والوراثة اقوى ما يستعمل فى التملك و
الاستحقاق من الالفاظ من حيث انها لا يعقب بفسخ ولا استرجاع ولا ابطال وقيل
يورث المتقون من الجنة المساكن التى كانت لاهل النار لو آمنوا واطاعوا زيادة فى
كرامتهم وقرئ نورث بالتشديد وما نتنزل الا بامر ربك حكاية لقول جبريل حين
استبطأه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن اصحاب الكهف وذى القرنين والروح فلم
يدر كيف يجيب ورجا ان يوحى اليه فيه فابطأ عليه اربعين يوما او خمسة عشر فشق
ذلك عليه مشقة شديدة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه ثم نزل ببيان ذلك وانزل الله عز وجل
هذه الآية وسورة والضحى والتنزل النزول على مهل لانه مطاوع للتنزيل وقد يطلق
على مطلق النزول كما يطلق التنزيل على الانزال والمعنى وما ننزل وقتا غب وقت الا بامر
الله تعالى على ما تقتضيه حكمته وقرئ وما يتنزل بالياء والضمير للوحى له ما بين ايدينا
وما خلفنا وما بين ذلك وهو ما نحن فيه من الاماكن والازمنة ولا ننتقل من مكان
الى مكان ولا ننزل فى زمان دون زمان الا بامره ومشيته وما كان ربك نسيا
اى تاركا لك يعنى ان عدم النزول لم يكن الا لعدم الامر به لحكمة بالغة فيه ولم يكن
لتركه تعالى لك وتوديعه اياك كما زعمت الكفرة وفى اعادة اسم الرب المعرب عن التبليغ الى
الكمال اللائق مضافا الى ضميره عم والاشعار بعلته الحكم ما لا يخفى وقيل اول
الآية حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة مخاطبا بعضهم بعضا بطريق التبجح و
الابتهاج والمعنى وما ننزل الجنة الا بامر الله تعالى ولطفه وهو مالك الامور كلها

(نظير ...)

وسافلها ومترقبها وحاضرها فما وجدناه وما نجده من لطفه وفضله وقوله تعالى وما
كان ربك نسيا تقرير لقولهم من جهة الله تعالى اى وما كان ناسيا لاعمال العاملين وما وعد
هم من الثواب عليها وقوله تعالى رب السموات والارض وما بينهما بيان لاستحالة
النسيان عليه تعالى فان من بيده ملكوت السموات والارض وما بينهما كيف يتصور ان يحوم
حول ساحته سبحانه الغفلة والنسيان وهو خبر مبتدأ محذوف او بدل من ربك والفاء
فى قوله فاعبده واصطبر لعبادته لترتيب ما بعدها من موجب الامرين على
ما قبلها من كونه تعالى رب السموات والارض وما بينهما وقيل من كونه تعالى غير تارك
له عليه السلام او غير ناس لاعمال العاملين والمعنى فحين عرفته تعالى بما ذكر من الربوبية
الكاملة فاعبده الخ فان ايجاب معرفته تعالى كذلك لعبادته مما لا ريب فيه او حين عرفت
انه تعالى لا ينساك او لا ينسى اعمال العاملين كائنا من كان فاقبل على عبادته واصطبر على
مشاقها ولا تحزن بابطاء الوحى وهزء الكفرة فانه يراقبك ويراعيك ويلطف بك فى الدنيا
والآخرة وتعدية الاصطبار باللام لا بحرف الاستعلاء كما فى قوله تعالى واصطبر عليها
لتضمنه معنى الثبات للعبادة فيما يورد عليه من الشدائد والمشاق كقولك للمبارز اصطبر
لقرنك اى اثبت له فيما يورد عليك من شداته هل تعلم له سميا السمى هو الشريك فى
الاسم والظاهر ان يراد به ههنا الشريك فى اسم خاص وقد عبر عنه تعالى بذلك وهو
رب السموات والارض وما بينهما والمراد بانكار العلم ونفيه انكار المعلوم ونفيه على
ابلغ وجه واكده فالجملة تقرير لما افاده الفاء من علية ربوبيته العامة لوجوب عبادته
بل لوجوب تخصيصها به تعالى ببيان استقلاله عز وجل بذلك الاسم وانتفاء اطلاقه
على الغير بالكلية حقا وباطلا وقيل المراد هو الشريك فى الاسم الجليل فان المشركين مع
غلوهم فى المكابرة لم يسموا الصنم بالجلالة اصلا وقيل هو الشريك فى اسم الآله
والمراد بالتسمية التسمية على الحق فالمعنى هل تعلم شيئا يسمى بالاستحقاق الها واما
التسمية على الباطل فهى كلا تسمية فتقرير الجملة لوجوب العبادة حينئذ باعتبار ما فى
الاسمين الكريمين من الاشعار باستحقاق العبادة فتدبر ويقول الانسان المراد به
اما الجنس باسره واسناد القول الى الكل لوجود القول فيما بينهم وان لم يقله الجميع
كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم واما البعض المعهود منهم وهم
الكفرة او ابى بن خلف فانه اخذ عظاما بالية ففتها فقال يزعم محمد انا نبعث بعد ما
نموت ونصير الى هذه الحالة اى يقول بطريق الانكار والاستبعاد ائذا ما مت لسوف
اخرج حيا اى ابعث من الارض او من حال الموت وتقديم الظرف وايلاؤه حرف الانكار
لما ان المنكر كون ما بعده الموت وقت الحيوة وانتصابه بفعل دل عليه اخرج لا به فان
ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها وهى ههنا مخلصة للتوكيد مجردة عن معنى الحال كما
خلصت الهمزة واللام للتعويض فى يالله فساغ اقترانها بحرف الاستقبال وقرئ اذا
ما مت بهمزة واحدة مكسورة على الخبر اولا يذكر الانسان من الذكر الذى يراد به التفكر
والاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والاشعار بان الانسانية من دواعى التفكر
فيما جرى عليه من شؤن التكوين المنجية بالقلع عن القول المذكور وهو السر فى اسناده
الى الجنس او الى الفرد بذلك العنوان والهمزة للانكار التوبيخى والواو لعطف الجملة المنفية
على مقدر يدل عليه يقول اى ايقول ذلك ولا يذكر انا خلقناه من قبل اى من قبل
الحالة التى هو فيها وهى حالة بقائه ولم يك شيئا اى والحال انه لم يكن حينئذ شيئا
اصلا فحيث خلقناه وهو فى تلك الحالة المنافية للخلق بالكلية مع كونه ابعد من
الوقوع فلان نبعثه بجمع المواد المتفرقة وايجاد مثل ما كان فيها من الاعراض اولى و
اظهر فما له لا يذكره فيقع فيما يقع فيه من النكير وقرئ يذكر ويتذكر على الاصل فوربك
اقسامه باسمه عزت اسماؤه مضافا الى ضميره عليه السلام لتحقيق الامر بالاشعار
بالعلية وتفخيم شانه عليه السلام ورفع منزلته لنحشرنهم لنجمعن القائلين
بالسوق الى المحشر بعد ما اخرجناهم من الارض احياء ففيه اثبات للبعث بالطريق

البرهانى على ابلغ وجه وآكده كانه امر واضح غنى عن التصريح به وانما المحتاج الى البيان ما بعد
ذلك من الاهوال والشياطين معطوف على الضمير المنصوب او مفعول معه روى
ان الكفرة يحشرون مع قرنائهم من الشياطين التى كانت تغويهم كل منهم مع شيطانه
فى سلسلة وهذا وان كان مختصا بهم لكن ساغ نسبته الى الجنس باعتبار انهم لما حشروا
وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حشروا معهم جميعا كما ساغ نسبة القول المحكى
اليه مع كون القائل بعض افراده ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ليرى السعداء ما
نجاهم الله تعالى منه فيزدادوا غبطة وسرورا وينال الاشقياء ما ادخروا لمعادهم
عدة ويزدادوا غيظا من رجوع السعداء عنهم الى دار الثواب وشماتتهم بهم
والجثى جمع جاث من جثا اذا قعد على ركبتيه واصله جثو وبواوين فاستثقل اجتماعهما
بعد ضمتين فكسرت الثاء للتخفيف فانقلبت الواو الاولى ياء لسكونها وانكسار ما
قبلها فاجتمعت واو وياء وسبقت احديهما بالسكون فقلبت الواو ياء وادغمت فيها الياء
الاولى وكسرت الجيم اتباعا لما بعدها وقرئ بضمها ونصبه على الحالية من الضمير
البارز اى لنحضرنهم حول جهنم جاثين على ركبهم لما يدهمهم من هول المطلع
او لانه من توابع التواقف للحساب قبل التواصل الى الثواب والعقاب فان اهل الموقف
جاثون كما ينطق به قوله تعالى وترى كل امة جاثية على ما هو المعتاد فى مواقف التقاول
وان كان المراد بالانسان الكفرة فلعلهم يساقون من الموقف الى شاطئ جهنم جثاة
اهانة بهم او لعجزهم عن القيام لما اعتراهم من الشدة ثم لننزعن من كل شيعة
اى من كل امة شاعت دينا من الاديان ايهم اشد على الرحمن عتيا اى من كان منهم
اعصى واعتى فنطرحهم فيها وفى ذكر الاشد تنبيه على انه تعالى يعفو عن بعض من اهل
العصيان وعلى تقدير تفسير الانسان بالكفرة فالمعنى انا نميز من كل طايفة منهم اعصاهم
فاعصاهم واعتاهم فاعتاهم فنطرحهم فى النار على الترتيب او ندخل كلا منهم طبقتها
اللايقة به وايهم مبنى على الضم عند سيبويه لان حقه ان يبنى كساير الموصولات
لكنه اعرب حملا على كل وبعض للزوم الاضافة واذا حذف صدر صلته زاد نقصه فعاد
الى حقه ومنصوب المحل بننزعن ولذلك قرئ منصوبا ومرفوع عند غيره بالابتداء على انه
استفهامى وخبره اشد والجملة محكية والتقدير لننزعن من كل شيعة الذين يقال لهم
ايهم اشد او معلق عنها لننزعن لتضمنه معنى التمييز اللازم للعلم او مستانفة والفعل
واقع على كل شيعة على زيادة من او على معنى لننزعن بعض كل شيعة كقوله تعالى ووهبنا
لهم من رحمتنا وعلى للبيان فيتعلق بمحذوف كان سائلا قال على من عتوا فقيل على الرحمن
او متعلق بافعل وكذا الباء فى قوله تعالى ثم لنحن اعلم بالذين هم اولى بها صليا اى هم
اولى بصليها او صليهم اولى بالنار وهم المنتزعون ويجوز ان يراد بهم وباشدهم
عتيا رؤساء الشيع فان عذابهم مضاعف لضلالهم واضلالهم والصلى كالعتى صيغة
واعلالا وقرئ بضم الصاد وان منكم التفات لاظهار مزيد الاعتناء بمضمون
الكلام وقيل هو خطاب للناس من غير التفات الى المذكور ويؤيد الاول انه قرئ وان
منهم اى ما منكم ايها الانسان الا واردها اى واصلها وحاضرها ونهاية بها
المؤمنون وهى خامدة وتنهار بغيرهم وعن جابر انه عليه السلام سئل عنه فقال اذا دخل
اهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض اليس قد وعدنا ربنا ان نرد النار فيقال لهم قد
وردتموها وهى خامدة واما قوله تعالى اولئك عنها مبعدون فالمراد به الابعاد عن
عذابها وقيل ورودها الجواز على الصراط الممدود عليها كان اى ورودهم اياها
على ربك حتما مقضيا اى امرا محتوما اوجبه الله عز وجل على ذاته وقضى انه لابد
من وقوعه البتة وقيل اقسم عليه ثم ننجى الذين اتقوا الكفر والمعاصى مما كانوا عليه
من حال الجثو على الركب على الوجه الذى سلف فيساقون الى الجنة وقرئ ننجى بالتخفيف
وننجى وينجى على البناء للمفعول وقرئ ثمه ننجى بفتح الثاء اى هناك ننجيهم ونذر الظالمين
بالكفر والمعاصى فيها جثيا منهارا بهم كما كانوا قبل فيه دليل على ان المراد بالورود الجثو

حوالبها

حوالبها وان المؤمنين يفارقون الفجرة بعد تجاثيهم حولها ويلقى الفجرة فيها على هيئاتهم
قوله تعالى واذا تتلى عليهم الاية الى آخرها حكاية لما قالوا عند سماع الآيات الناعية عليهم
فظاعة حالهم ووخامة مآلهم اى اذا تتلى على المشركين اياتنا التى من جملتها هاتيك
الآيات الناطقة بحسن حال المؤمنين وسوء حال الكفرة وقوله تعالى بينات اى مرتلات
الالفاظ مبينات المعانى بنفسها او ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم او بينات الاعجاز
حال مؤكدة من اياتنا قال الذين كفروا اى قالوا ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على
انهم قالوا ما قالوا كافرين بما يتلى عليهم رادين له او قال الذين مردوا منهم على الكفر و
مرنوا على العتو والعناد وهو النضر بن الحرث واتباعه الفجرة واللام فى قوله تعالى للذين امنوا
للتبليغ كما فى مثل قوله تعالى وقال لهم نبيهم وقيل لام الاجل كما فى قوله تعالى وقال الذين كفروا
للذين امنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه اى قالوا لاجلهم وفى حقهم والاول هو الاولى
لان قولهم ليس فى حق المؤمنين فقط كما ينطق به قوله تعالى اى الفريقين اى المؤمنين
والكافرين كانهم قالوا اينا خير نحن او انتم مقاما اى مكانا وقرئ بضم الميم اى موضع
اقامة ومنزل واحسن نديا اى مجلسا ومجتمعا يروى انهم كانوا يرجلون شعورهم
ويدهنونها ويتطيبون ويتزينون بالزينة الفاخرة ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين يريدون
بذلك ان خيريتهم حالا واحسنيتهم منالا مما لا يقبل الانكار وان ذلك لكرامتهم على الله
سبحانه وزلفاهم عنده اذ هو العيار على الفضل والنقصان والرفعة والضعة وان
من ضرورته هوان المؤمنين عليه تعالى لقصور حظهم العاجل وما هذا القياس العقيم
والراى السقيم الا لكونهم جهلة لا يعلمون الا ظاهرا من الحيوة الدنيا وذلك مبلغهم
من العلم فرد عليهم ذلك من جهته بقوله تعالى وكم اهلكنا قبلهم من قرن هم
احسن اثاثا ورئيا اى كثيرا من القرون التى كانوا افضل منهم فيما يفتخرون به من الحظوظ
الدنيوية كعاد وثمود واضرابهم من الامم العاتية قبل هؤلاء اهلكناهم بفنون العذاب
ولو كان ما آتيناهم لكرامتهم علينا لما فعلنا بهم ما فعلنا وفيه من التهديد والوعيد ما لا
يخفى كانه قيل فلينتظر هؤلاء ايضا مثل ذلك فكم مفعول اهلكنا ومن قرن بيان لابهامها
واهل كل عصر قرن لمن بعدهم لانهم يتقدمونهم مأخوذ من قرن الدابة وهو مقدمها
وقوله تعالى هم احسن اثاثا فى حيز النصب على انه صفة لكم واثاثا تمييز النسبة وهو متاع
البيت وقيل هو ما جد منه والخرثى ما لبس منه ورث والرئى المنظر فعل من الرؤية لما يرى
كالطحن لما يطحن وقرئ ريا على قلب الهمزة ياء وادغامها او على انه من الرى وهو
النعمة والترفه وقرئ رييا على القلب وريا بحذف الهمزة وزيا بالزاء المعجمة من الزى و
هو الجمع فانه عبارة عن المحاسن المجموعة قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا
لما بين عاقبة الامر الامم المهلكة مع ما كان لهم من التمتع بفنون الحظوظ العاجلة امر رسول
الله صلى الله عليه وسلم بان يجيب هؤلاء المفتخرين بما لهم من الحظوظ ببيان مآل امر
الفريقين اما على وجه كلى متناول لهم ولغيرهم من المنهمكين فى اللذة الفانية المبتهجين
بها على ان من على عمومها واما على وجه خاص بهم على انها عبارة عنهم ووصفهم
بالتمكن لذمهم والاشعار بعلة الحكم اى من كان مستقرا فى الضلالة مغمورا بالجهل
والغفلة عن عواقب الامور فليمدد له الرحمن اى يمد له ويمهله بطول العمر واعطاء المال و
التمكين من التصرفات واخراجه على صيغة الامر للايذان بان ذلك مما ينبغى ان يفعل بموجب
الحكمة لقطع المعاذير كما ينبئ عنه قوله عز وجل اولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر او
للاستدراج كما ينطق به قوله تعالى انما نملى لهم ليزدادوا اثما وقيل المراد به الدعاء بالمد
والتنفيس واعتبار الاستقرار فى الضلالة لما ان المد لا يكون الا للمصرين عليها اذ رب ضال
يهديه الله عز وجل والتعرض لعنوان الرحمانية لما ان المد من احكام الرحمة الدنيوية
وقوله تعالى حتى اذا رأوا ما يوعدون غاية للمد الممتد لا لقول المفتخرين كما قيل
اذ ليس فيه امتداد بحسب الذات وهو ظاهر ولا استمرار بحسب التكرار كوقوعه فى حيز
جواب اذا وجمع الضمير فى الفعلين باعتبار معنى من كما ان الافراد فى الضميرين الاولين

باعتبار لفظهما وقوله تعالى اما العذاب واما الساعة تفصيل للموعود بدل منه على سبيل البدل
فانه اما العذاب الدنيوى بغلبة المسلمين واستيلائهم عليهم وتعذيبهم اياهم قتلا
واسرا واما يوم القيمة وما ينالهم فيه من الخزى والنكال على طريقة منع الخلو دون منع
الجمع فان العذاب الاخروى لا ينفك عنهم بحال وقوله تعالى فسيعلمون جواب الشرط والجملة
محكية بعد حتى اى حتى اذا عاينوا ما يوعدون من العذاب الدنيوى والاخروى فقط فسيعلمون
حينئذ من هو شر مكانا من الفريقين بان يشاهدوا الامر على عكس ما كانوا يقدرونه فيعلمون
انهم شر مكانا لا خير مقاما واضعف جندا اى فئة وانصارا لا احسن نديا كما كانوا
يدعونه وليس المراد ان له ثمة جندا ضعفاء كلا ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا وانما ذكر ذلك ردا لما كانوا يزعمون ان لهم اعوانا من الاعيان وانصارا من الاخيار
يفتخرون بذلك في الاندية والمحافل ويزيد الله الذين اهتدوا هدى كلام مستأنف سيق
لبيان حال المهتدين اثر بيان حال الضالين وقيل عطف على فليمدد لانه في معنى الخبر
حسبما عرفته كانه قيل من كان في الضلالة يمده الله ويزيد المهتدين هداية كقوله تعالى
والذين اهتدوا زادهم هدى وقيل عطف على الشرطية المحكية بعد القول كانه لما
بين ان امهال الكافر وتمتيعه بالحيوة ليس لفضله عقب ذلك ببيان ان قصور حظ المؤمن
منها ليس لنقصه بل لانه تعالى اراد به ما هو خير من ذلك وقوله تعالى والباقيات الصالحات
خير على تقديري الاستيناف والعطف كلام مستأنف وارد من جهته تعالى لبيان
فضل اعمال المهتدين غير داخل في حيز الكلام الملقن لقوله تعالى عند ربك اى الطاعات
التى تبقى فوائدها وتدوم عوائدها ومن جملتها ما قيل من الصلوات الخمس وما قيل
من قول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر خير عند ربك والتعرض لعنوان
الربوبية مع الاضافة الى ضميره لتشريفه صلى الله عليه وسلم ثوابا اى عائدة مما يتمتع
به الكفرة من النعم المخدجة الفانية التى يفتخرون بها لا سيما ومآلها النعيم المقيم ومآل هذه الحسرة
السرمدية والعذاب الاليم كما اشير اليه بقوله وخير مردا اى مرجعا وعاقبة وتكرير
الخير لمزيد الاعتناء ببيان الخيرية وتأكيد لها وفي التفضيل مع ان ما للكفرة بمعزل ان
يكون له خيرية في العاقبة تهكم بهم افرأيت الذى كفر باياتنا اى باياتنا التى من جملتها
ايات البعث نزلت في العاص بن وائل كان لخباب بن الارت عليه مال فاقتضاه فقال لا
حتى تكفر بمحمد قال لا والله لا اكفر به حيا ولا ميتا ولا حين بعثت قال اذا بعثت جئنى فيكون لى
ثمة مال وولد فاعطيك وفى رواية قال لا اكفر به حتى يميتك الله ثم تبعث فقال انى لمبعوث ثم
مبعوث قال نعم قال دعنى حتى اموت وابعث فسأوتى مالا وولدا فاقضيك فنزلت
فالهمزة للتعجيب من حاله والايذان بانها من الغرابة والشناعة بحيث يجب ان يرى ويقضى
منها العجب ومن فرق بين الم تر وارايت بعد بيان اشتراكهما في الاستعمال لقصد التعجيب
بان الاول يعلق بنفس المتعجب منه فيقال الم تر الى الذى صنع كذا بمعنى انظر اليه فتعجب
من حاله والثانى يعلق بمثل المتعجب منه فيقال ارايت مثل الذى صنع كذا بمعنى انه من الغرابة
بحيث لا يرى مثله فقد حفظ شيئا وغابت عنه اشياء وكانه ذهب عليه قوله عز وجل
ارايت الذى يكذب بالدين والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى انظرت فرايت
الذى كفر باياتنا الباهرة التى حقها ان يؤمن بها كل من يشاهدها وقال مستهزئا بها
مصدرا لكلامه باليمين الفاجرة والله لاوتين في الاخرة مالا وولدا اى انظر اليه
فتعجب من حالته البديعة وجرأته الشنيعة هذا هو الذى يستدعيه جزالة النظم الكريم
وقد قيل ان ارايت بمعنى اخبر والفاء على اصلها والمعنى اخبر بقصة هذا الكافر عقيب حديث
اولئك الذين قالوا اى الفريقين خير مقاما الاية وانت خبير بان المشهور استعمال ارايت
في معنى اخبرنى بطريق الاستفهام جاريا على اصله او مخرجا الى ما يناسبه من المعانى لا
بطريق الامر بالاخبار لغيره وقرئ ولدا على انه جمع ولد كاسد جمع اسد او على انه لغة فيه كالعرب
والعرب وقوله تعالى اطلع الغيب رد لكلمته الشنعاء واظهار لبطلانها اثر ما اشير اليه بالتعجيب
منها اى قد بلغ من عظمة الشأن الى ان ارتقى الى علم الغيب الذى استأثر به العليم الخبير حتى ادعى

ان يؤتى في الاخرة مالا وولدا واقسم عليه ام اتخذ عند الرحمن عهدا بذلك فانه
لا يتوصل الى العلم به الا باحد هذين الطريقين والتعرض لعنوان الرحمانية للاشعار بعلية
الرحمة لايتاء ما يدعيه وقيل العهد كلمة الشهادة وقيل العهد كلمة الشهادة وقيل
العمل الصالح فان وعده تعالى بالثواب عليهما كالعهد وهذا مجاراة مع اللعين بحسب
منطوق مقاله كما ان كلامه مع خباب كان كذلك وقوله تعالى كلا ردع له عن التفوه
بتلك العظيمة وتنبيه على خطائه سنكتب ما يقول اى سنظهر انا كتبنا قوله تعالى اذا ما
انتسبنا لم تلدنى لئيمة اى يتبين انى لم تلدنى لئيمة او سننتقم منه انتقام من كتب
جريمة الجانى وحفظها عليه فان نفس الكتبة لا تكاد تتأخر عن القول لقوله عز وعلا ما
يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد فمبنى الاول تنزيل اظهار الشئ الخفى منزلة احداث الامر
المعدوم بجامع ان كلا منهما اخراج من الكمون الى البروز فيكون استعارة تبعية مبنية
على تشبيه اظهار الكتابة على رؤس الاشهاد باحداثها ومدار الثانى تسمية الشئ باسم
سببه فان كتابة جريمة المجرم سبب لعقوبته قطعا ونمد له من العذاب مدا مكان
ما يدعيه لنفسه من الامداد بالمال والولد اى نطول له من العذاب ما يستحقه
او نزيد عذابه ونضاعف له لكفره وافترائه على الله سبحانه واستهزائه باياته
العظام ولذلك اكد بالمصدر دلالة على فرط الغضب ونرثه بموته ما يقول اى
مسمى ما يقول ومصداقه وهو ما اوتيه في الدنيا من المال والولد وفيه ايذان بانه
ليس لما يقول مصداق موجود سوى ما ذكر اى ننزع عنه ما اتيناه ويأتينا يوم
القيمة فردا لا يصحبه مال ولا ولد كان له في الدنيا فضلا ان يؤتى ثمة زائدا وقيل
نزوى عنه ما زعم انه يناله في الاخرة ونعطيه من يستحقه ويأباه معنى الارث
وقيل المراد بما يقول نفس القول المذكور لا مسماه والمعنى انما يقول هذا القول ما
دام حيا فاذا قبضناه حلنا بينه وبين ان يقوله ويأتينا رافضا له منفردا عنه وانت
خبير بان ذلك مبنى على ان صدور القول المذكور عنه بطريق الاعتقاد وانه مستمر
على التفوه به راج لوقوع مضمونه ولا ريب في ان ذلك مستحيل ممن كفر بالبعث وانما قال
ما قال بطريق الاستهزاء وتعليق اداء دينه بالمحال واتخذوا من دون الله الهة
حكاية لجناية عامة للكل مستتبعة لضد ما يرجون ترتبه عليها اثر حكاية مقالة
الكافر المعهود واستتباعها لنقيض مضمونها اى اتخذوا الاصنام الهة متجاوزين
الله تعالى ليكونوا لهم عزا اى ليتعززوا بهم بان يكونوا لهم وصلة اليه عز وجل
وشفعاء عنده كلا ردع لهم عن ذلك الاعتقاد الباطل وانكار لوقوع ما علقوا
به اطماعهم الفارغة سيكفرون بعبادتهم اى ستجحد الالهة عبادتهم لها كما في
قوله تعالى والله ربنا ما كنا مشركين ومعنى قوله تعالى ويكونون عليهم ضدا على الاول
تكون الالهة التى كانوا يرجون ان تكون لهم عزا ضدا للعز اى ذلا وهوانا او تكون
عونا عليهم والة لعذابهم حيث تجعل وقود النار وحصب جهنم او حيث كانت
عبادتهم لها سببا لعذابهم واطلاق الضد على العون لما ان عون الرجل يضاد عدوه
وينافيه باعانته له عليه وعلى الثانى يكون الكفرة ضدا واعداء للالهة كافرين بها
بعد ان كانوا يحبونها كحب الله ويعبدونها وتوحيد الضد لوحدة المعنى الذى
عليه يدور مضادتهم فانهم بذلك كشئ واحد كما في قوله صلى الله عليه وسلم وهم
يد على من سواهم وقرئ كلا بفتح الكاف والتنوين على قلب الالف نونا في الوقف قلب
الف الاطلاق في قوله اقلى اللوم عاذل والعتابن وقولى ان اصبت لقد اصابن او على
معنى كل هذا الراى كلا وقرئ كلا بالضم بفعل يفسره ما بعده اى سيجحدون كلا سيكفرون
الخ الم تر انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما
نطقت به الايات الكريمة السالفة وحكته عن هؤلاء الكفرة الغواة والمردة العتاة من
فنون القبائح من الاقاويل والافاعيل والتمادى في الغى والانهماك في الضلال والافراط
في العناد والتصميم على الكفر من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم والاجماع على

مدافعة الحق بعد اتضاحه وانتفاء الشك عنه بالكلية وتنبيه على ان جميع ذلك منهم باضلال
الشياطين واغوائهم لا لان له مسوغا ما في الجملة ومعنى ارسال الشياطين عليهم اما
تسليطهم عليهم وتمكينهم من اضلالهم واما تقييضهم لهم وليس المراد تعجيبه عليه
السلام من ارسالهم عليهم كما يوهمه تعليق الرؤية به بل مما ذكر من احوال الكفرة من حيث
كونها من آثار اغواء الشياطين كما ينبئ عنه قوله تعالى تؤزهم ازا فانه اما حال مقدرة
من الشياطين او استئناف وقع جوابا عما نشأ من صدر الكلام كانه قيل ماذا
يفعل الشياطين بهم حينئذ فقيل تؤزهم اى تغريهم وتهيجهم على المعاصي تهييجا
شديدا بانواع الوساوس والتسويلات فان الاز والهز والاستفزاز اخوات معناها
شدة الازعاج فلا تعجل عليهم اى بان يهلكوا حسبما يقتضيه جناياتهم ويبيدوا
عن آخرهم وتطهر الارض من فسادهم والفاء للاشعار بكون ما قبلها مظنة
لوقوع المنهي عنه محوجة الى النهي كما في قوله ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما
من الجنة وقوله تعالى انما نعد لهم عدا تعليل لموجب النهي ببيان اقتراب هلاكهم اى
لا تستعجل بهلاكهم فانه لم يبق لهم الا ايام وانفاس نعدها عدا يوم نحشر المتقين
منصوب على الظرفية بفعل مؤخر قد حذف للاشعار بضيق العبارة عن حصره وشرحه
لكمال فظاعة ما يقع فيه من الطامة التامة والدواهي العامة كانه قيل يوم نحشر المتقين اى
نجمعهم الى الرحمن الى ربهم الذي يغمرهم برحمته الواسعة وفدا وافدين عليه كما يفد
الوفود على الملوك منتظرين لكرامتهم وانعامهم ونسوق المجرمين كما تساق البهائم
الى جهنم وردا عطاشا فان من يرد الماء لا يورده الا العطش او كالدواب التي ترد الماء نفعل
بالفريقين من الافعال ما لا يفي ببيانه نطاق المقال وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدر
خوطب بالنبي صلعم اى اذكر لهم بطريق الترغيب والترهيب يوم نحشر الخ وقيل على الظرفية
لقوله تعالى لا يملكون الشفاعة والذي يقتضيه مقام التهويل ويستدعيه جزالة التنزيل
ان ينتصب باحد الوجهين الاولين ويكون هذا استئنافا مبينا لبعض ما فيه من الامور
الدالة على هوله وضميره عائد الى العباد المدلول عليهم بذكر الفريقين لانحصارهم فيهما
وقيل الى المتقين خاصة وقيل الى المجرمين من الكفرة واهل الاسلام والشفاعة على
الاولين مصدر من المبني للفاعل وعلى الثالث ينبغي ان يكون مصدرا من المبني للمفعول وقوله
تعالى الا من اتخذ عند الرحمن عهدا على الاول استثناء متصل من لا يملكون ومحل المستثنى اما
الرفع على البدل او النصب على اصل الاستثناء والمعنى لا يملك العباد ان يشفعوا لغيرهم الا من
استعد له بالتحلي بالايمان والتقوى او من امر بذلك من قولهم عهد الامير الى فلان بكذا اذا امره فيكون
ترغيبا للناس في تحصيل الايمان والتقوى المؤدي الى نيل هذه الرتبة وعلى الثاني استثناء من
الشفاعة على حذف المضاف والمستثنى منصوب على البدل او على اصل الاستثناء اى لا يملك
المتقون الشفاعة الا شفاعة من اتخذ العهد بالاسلام فيكون ترغيبا في الاسلام وعلى الثالث استثناء
من لا يملكون ايضا والمستثنى مرفوع على البدل او منصوب على الاصل والمعنى لا يملك المجرمون
ان يشفع لهم الا من كان منهم مسلما وقالوا اتخذ الرحمن ولدا حكاية لجناية اليهود والنصارى
ومن يزعم من العرب ان الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا اثر حكاية جناية
عبدة الاصنام بطريق عطف القصة على القصة وقوله تعالى لقد جئتم شيئا ادا رد
لمقالتهم الباطلة وتهويل لامرها بطريق الالتفات المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب
مفصح عن غاية التشنيع والتقبيح وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجراءة والاد بالكسر
والفتح العظيم المنكر والادة الشدة وادني الامر وآدني اثقلني وعظم علي اى فعلتم امرا منكرا
شديدا لا يقادر قدره فان جاء واتى يستعملان في معنى فعل فيعديان تعديته وقوله تعالى تكاد
السموات الخ صفة لادا او استئناف ببيان عظم شأنه في الشدة والهول وقرئ يكاد
بالتذكير يتفطرن منه يتشققن مرة بعد اخرى من عظم ذلك الامر وقرئ ينفطرن والاول
ابلغ لان تفعل مطاوع فعل وانفعل مطاوع فعل ولان اصل التفعل التكلف وتنشق الارض
اى وتكاد تنشق الارض وتخر الجبال اى تسقط وتتهدم وقوله تعالى هدا مصدر مؤكد لمحذوف

هو حال

هو حال من الجبال اى تهد هدا او مصدر من المبني للمفعول مؤكد لتخر على غير المصدر لانه حينئذ
بمعنى التهدم والخرور كانه قيل وتخر الجبال خرورا او مصدر بمعنى المفعول منصوب على
الحالية اى مهدودة او مفعول له اى لانها تهد وهذا تقرير لكونه ادا ان هول تلك الكلمة
الشنعاء وعظمها بحيث لو تصورت بصورة محسوسة لم تطق بها هاتيك الاجرام العظام
وتفتتت من شدتها او ان فظاعتها في استجلاب الغضب واستيجاب السخط بحيث لولا
حلمه تعالى لخرب العالم وبددت قوائمه غضبا على من تفوه بها ان دعوا للرحمن ولدا
منصوب على حذف اللام المتعلقة بتكاد او مجرور باضمارها اى تكاد السموات يتفطرن
والارض تنشق والجبال تخر لان دعوا له سبحانه ولدا وقيل اللام متعلقة بهدا وقيل
الجملة بدل من الضمير المجرور في منه كما في قوله على حوده لضن بالماء حاتم وقيل خبر مبتدأ
محذوف اى الموجب لذلك ان دعوا الخ وقيل فاعل هدا اى هدها دعاء الولد والاولى
هو الاول ودعوا من دعى بمعنى سمى المتعدي الى المفعولين وقد اقتصر على ثانيهما ليتناول
كل ما دعي له ولدا او من دعا بمعنى نسب الذي مطاوعه ادعى الى فلان اى انتسب اليه وقوله
تعالى وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولدا حال من فاعل قالوا او دعوا مقررة لبطلان مقالتهم
واستحالة تحقق مضمونها اى قالوا اتخذ الرحمن ولدا او ان دعوا للرحمن ولدا والحال
انه ما يليق به تعالى اتخاذ الولد ولا يتطلب له لو طلب مثلا لاستحالته في نفسه ووضع
الرحمن موضع الضمير للاشعار بعلة الحكم بالتنبيه على ان كل ما سواه تعالى اما نعمة او منعم عليه
فكيف يتسنى ان يجانس من هو مبدأ النعم ومولي اصولها وفروعها حتى يتوهم ان يتخذه
ولدا وقد صرح به في قوله عز قائلا ان كل من في السموات والارض اى ما منهم احد من الملكة
والثقلين الا آتي الرحمن عبدا الا وهو مملوك له يأوي اليه بالعبودية والانقياد وقرئ
آت الرحمن على الاصل لقد احصاهم اى حصرهم واحاط بهم بحيث لا يكاد يخرج منهم
احد من حيطة علمه وقبضة قدرته وملكوته وعدهم عدا اى عد اشخاصهم و
انفاسهم وافعالهم وكل شيء عنده بمقدار وكلهم آتيه يوم القيمة فردا اى كل واحد منهم
آت اياه تعالى منفردا من الاتباع والانصار وفي صيغة الفاعل من الدلالة على اتيانهم كذلك
البتة ما ليس في صيغة المضارع لو قيل يأتيه فاذا كان شأنه تعالى وشأنهم كما ذكر فانى
يتوهم احتمال ان يتخذ شيئا منهم ولدا ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لما فصلت
قبائح احوال الكفرة عقب ذلك بذكر محاسن احوال المؤمنين سيجعل لهم الرحمن ودا
اى سيحدث لهم في القلوب مودة من غير تعرض منهم لاسبابها سوى ما لهم من الايمان
والعمل الصالح والتعرض لعنوان الرحمانية لما ان الموعود من آثارها وعن النبي صلى الله عليه
وسلم اذا احب الله عبدا يقول لجبريل عليه السلام احببت فلانا فاحبه فيحبه جبريل ثم
ينادي في اهل السماء ان الله احب فلانا فاحبوه فيحبه اهل السماء ثم يوضع له المحبة في الارض
والسين لان السورة مكية وكانوا اذ ذاك ممقوتين بين الكفرة فوعدهم ذلك ثم
انجزه حين دجا الاسلام او لان الموعود في القيامة حين تعرض حسناتهم على رؤوس
الاشهاد فينزع ما في صدورهم من الغل الذي كان في الدنيا ولعل افراد هذا بالوعد
من بين ما سيؤتون يوم القيمة من الكرامات السنية لما ان الكفرة سيقع بينهم يومئذ
تباغض وتضاد وتقاطع وتلاعن فانما يسرناه اى القرآن بلسانك بان انزلناه على
لغتك والباء بمعنى على وقيل ضمن التيسير معنى الانزال اى يسرنا القرآن منزلين بلغتك والفاء
لتعليل امر ينساق اليه النظم الكريم كانه قيل بعد ايحاء السورة الكريمة بلغ هذا المنزل او بشر
به وانذر فانما يسرناه بلسانك العربي المبين لتبشر به المتقين اى الصائرين الى التقوى
بامتثال ما فيه من الامر والنهي وتنذر به قوما لدا لا يؤمنون لجاجا وعنادا واللد
جمع الالد وهو الشديد الخصومة اللجوج المعاند وقوله تعالى وكم اهلكنا قبلهم من قرن
وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في ضمن وعيد الكفرة بالاهلاك وحث له عليه السلام
على الانذار اى قرنا كثيرا اهلكنا قبل هؤلاء المعاندين وقوله تعالى هل تحس منهم من
احد استئناف مقرر لمضمون ما قبله اى هل تشعر باحد منهم وترى او تسمع لهم ركزا

اى صوتاً خفياً واصل التركيب هو الخفاء ومنه ركز الرمح اذا غيب طرفه فى الارض والركاز للمال المدفون المخفى والمعنى اهلكناهم بالكلية واستاصلناهم بحيث لا يرى منهم احد ولا يسمع منهم صوت خفى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة مريم اعطى عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى ومريم وعيسى وسائر الانبياء المذكورين فيها وبعدد من دعى الله تعالى فى الدنيا ومن لم يدع الله سبحانه وتعالى

سورة طه مكية وهى مائة وثلثون وخمس آية

بسم الله الرحمن الرحيم

طه فخمهما قالون وابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب على الاصل والطاء وحده ابو عمرو وورش لاستعلائه واما لهما الباقون وهو من الفواتح التى يصدر بها السور الكريمة وعليه جمهور المتقدمين وقيل معناه يا رجل وهو مروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبى الا انه عند سعيد على اللغة النبطية وعند قتادة على السريانية وعند عكرمة على الحبشية وعند الكلبى على لغة عك وقيل عك وهى لغة يمانية قالوا ان صح فلعل اصله يا هذا فتصرفوا فيه بقلب الياء طاء وحذف ذا من هذا وما استشهد به من قول الشاعر ان السفاهة طه فى خلائقكم لا قدس الله اخلاق الملاعين ليس بنص فى ذلك لجواز كونه قسماً كما فى حم لا ينصرون وقد جوز ان يكون الاصل طاها بصيغة الامر من الوطى فقلبت الهمزة فى يطا الفا لانفتاح ما قبلها كما فى قول من قال لا هناك المرتع وها ضمير الارض على انه خطاب لرسول الله صلعم بان يطا الارض بقدميه لما كان يقوم فى تهجده على احدى رجليه مبالغة فى المجاهدة ولكن يأباه كتابتهما على صورة الحرف كما يأبى التفسير بيا رجل فان الكتابة على صورة الحرف مع كون التلفظ بخلافه من خصائص حروف المعجم وقرئ طه اما على ان اصله طأ فقلبت همزته هاء كما فى امثال هرقت او قلبت الهمزة فى يطا الفا كما مر ثم بنى منه الامر والحق به هاء السكت واما على انه اكتفى فى التلفظ بشطرى الاسمين واقيما مقامهما فى الدلالة على المسميين فكانهما اسماهما الدالان عليهما وعلى هذا ينبغى ان يحمل قول من قال اكتفى بشطرى الكلمتين وعبر عنهما باسمهما والا فالشطران لم يذكرا من حيث انهما مسميان لاسمهما ليقعا معبراً عنهما بل من حيث انهما جزآن لهما قد اكتفى بذكرهما عن ذكرهما ولذلك وقع التلفظ بانفسهما لا باسميهما بان يراد بضمير التثنية فى الموضعين الشطران من حيث مسميان لا من حيث هما جزآن للاسمين ويراد باسمهما الشطران من حيث هما قائمان مقام الاسمين فالمعنى اكتفى فى التلفظ بشطرى الكلمتين اى الاسمين فعبر عنهما اى عن الشطرين من حيث هما مسميان بهما من حيث هما قائمان مقام الاسمين واما حمله على معنى انه اكتفى فى الكتابة بشطرى الكلمتين يعنى طا على تقديرى كونه امراً وكونه حرف نداء وها على تقديرى كونها كناية عن الارض وكونها حرف تنبيه وعبر عن ذينك الشطرين فى التلفظ باسمهما فبين البطلان كيف وطا وها على ما ذكر من التقادير ليسا باسمين للحرفين المذكورين بل الاول امر او حرف نداء والثانى ضمير الارض او حرف تنبيه على ان كتابة صورة الحرف والتلفظ بغيره من خواص حروف المعجم فالحق ما سلف من انها من الفواتح اما مسرودة على نمط التعديد او اسم للسورة على احد الوجهين المذكورين فى مطلع سورة البقرة فلا محل لها من الاعراب وكذا ما بعدها من قوله تعالى ما انزلنا عليك القران لتشقى فانه استئناف مسوق لتسليته صلى الله عليه وسلم عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب فان الشقاء شايع فى ذلك المعنى ومنه اشقى من رائض مهر اى ما انزلناه عليك لتتعب بالمبالغة فى مكابدة الشدائد فى مقاولة العتاة ومحاورة الطغاة وفرط التاسف على كفرهم به والتحسر على ان يؤمنوا كقوله عز وجل فلعلك باخع نفسك على آثارهم الآية بل للتبليغ فعلت فلا عليك ان لم يؤمنوا به بعد ذلك او لصرفه عليه السلام عما كان عليه من المبالغة فى المجاهدة فى العبادة كما روى انه عليه السلام كان يقوم بالليل حتى ترم قدماه فقال له جبريل عليه السلام ابق على نفسك فان لها عليك حقاً اى ما انزلناه عليك لتتعب بنهك نفسك وحملها على الرياضات الشاقة والشدائد الفادحة

وما بعثت الا بالحنيفية السمحة وقيل ان ابا جهل والنضر بن الحارث قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انك شقى حيث تركت دين آبائك وان القران عليك لتشقى به فرد ذلك بان ما انزلناه عليك لما قالوا والاول هو الانسب كما يشهد به الاستثناء الآتى هذا واما اسماً للقران محله الرفع على انه مبتدا وما بعده خبره والقران ظاهر اوقع موقع العائد الى المبتدا كانه قيل القران ما انزلنا عليك لتشقى والنصب على اضمار فعل القسم او الجر بتقدير حرفه وما بعده جوابه وعلى هذين الوجهين يجوز ان يكون يجوز ان يكون اسماً للسورة ايضاً بخلاف الوجه الاول فانه لا يتسنى على ذلك التقدير لكن لا لان المبتدا يبقى حينئذ بلا عائد ولا قائم مقامه فان القران صادق على السورة لا محالة اما بطريق الاتحاد بان يراد به القدر المشترك بين الكل والبعض او باعتبار الاندراج ان اريد به الكل بل لان نفى كون انزاله للشقاء يستدعى سبق وقوع الشقاء مترتباً على انزاله قطعاً اما بحسب الحقيقة كما اذا اريد به معنى التعب او بحسب زعم الكفرة كما لو اريد به ضد السعادة ولا ريب فى ان ذلك انما يتصور فى انزال ما انزل من قبل واما انزال السورة الكريمة فليس مما يمكن ترتب الشقاء السابق عليه حتى يتصدى لنفيه منه اما باعتبار الاتحاد فظاهر واما باعتبار الاندراج فلان ما له ان يقال هذه السورة ما انزلنا القران المشتمل عليها لتشقى ولا يخفى ان جعلها مخبراً عنها مع انه لا دخل لانزالها فى الشقاء السابق اصلاً مما لا يليق بشان التنزيل الجليل وقوله تعالى الا تذكرة نصب على انه مفعول له لانزلنا لكن لا من حيث انه معلل بالشقاء على معنى ما انزلنا عليك القران لتتعب بتبليغه الا تذكرة الآية كقولك ما ضربتك للتاديب الا اشفاقاً لما انه يجب فى امثاله ان يكون بين العلتين ملابسة بالسببية والمسببية حتماً كما فى المثال المذكور وفى قولك ما شافهتك بالسوء لتتاذى الا زجراً لغيرك فان التاديب فى الاول مسبب عن الاشفاق والتاذى فى الثانى سبب لزجر الغير وقد عرفت ما بين الشقاء والتذكرة من التنافى ولا يجدى ان يراد به التعب فى الجملة المجامع للتذكرة لظهور ان لا ملابسة بينهما بما ذكر من السببية والمسببية وذلك ان لو قيل مكان الا تذكرة الا تكثيراً للثواب فان الاجر بقدر التعب ولا من حيث انه بدل من محل لتشقى كما فى قوله تعالى ما فعلوه الا قليل لوجوب المجانسة بين البدلين وقد عرفت حالهما بل من حيث انه معطوف عليه بحسب المعنى بعد نفيه بطريق الاستدراك المستفاد من الاستثناء المنقطع كانه قيل ما انزلنا عليك القران لتتعب فى تبليغه ولكن تذكرة لمن يخشى وقد جرد التذكرة عن اللام لكونها فعلاً لفاعل الفعل المعلل اى لمن من شانه ان يخشى الله عز وعلا ويتاثر بالانذار لرقة قلبه ولين عريكته او لمن علم الله تعالى انه يخشى بالتخويف وتخصيصها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ لانهم المنتفعون بها وقوله تعالى تنزيلاً مصدر مؤكد لمضمر مستانف مقرر لما قبله اى نزل تنزيلاً او لما يفيده الجملة الاستثنائية فانها متضمنة لان يقال انزلناه للتذكرة والاول هو الانسب بما بعده من الالتفات او منصوب على المدح والاختصاص وقيل هو منصوب بيخشى على المفعولية اى يخشى تنزيلاً من الله تعالى وانت خبير بان تعليق الخشية والخوف ونظائرهما بطلق التنزيل معهود نعم قد يعلق ذلك ببعض اجزائه المشتملة على الوعيد ونظائره كما فى قوله تعالى يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم وقيل هو بدل من تذكرة لكن لا على انه مفعول له لانزلنا اذ لا يعلل الشئ بنفسه ولا بنوعه بل على انه مصدر بمعنى الفاعل واقع موقع الحال من الكاف فى عليك او من القران ولا مساغ له الا بان يكون قيد لانزلنا بعد تقييده بالقيد الاول وقد عرفت حاله فيما سلف وقرئ تنزيل على انه خبر لمبتدا محذوف ومن فى قوله تعالى ممن خلق الارض والسموات العلى متعلقة بتنزيلاً او بمضمر هو صفة له مؤكدة لما فى تنكيره من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية ونسبة التنزيل الى الموصول بطريق الالتفات الى الغيبة بعد نسبته الى نون العظمة لبيان فخامته تعالى بحسب الافعال والصفات اثر بيانها بحسب الذات بطريق الابهام ثم التفسير لزيادة تحقيق وتقرير وتخصيص خلقهما بالذكر مع ان المراد خلقهما بجميع

مايتعلق بهما كما يفصح عنه قوله تعالى ما في السموات وما في الارض الآية لاصالتهما واستتباعهما
لما عداهما وتقديم الارض لكونه اقرب الى الحسّ واظهر عنده ووصف السموات بالعلى و
هي جمع العليا تأنيث الاعلى لتأكيد الفخامة مع ما فيه من مراعاة الفواصل وكل ذلك الى قوله تعالى
له الاسماء الحسنى مسوق لتعظيم شان المنزل عز وجل المستتبع لتعظيم المنزل الداعي الى تربية
المهابة وادخال الروعة المؤدية الى استنزال المتمردين عن رتبة العتو والطغيان واستمالتهم
نحو الخشية المفضية الى التذكر والايمان الرحمن رفع على المدح اي هو الرحمن وقد عرفت
في صدر سورة البقرة ان المرفوع مدحا في حكم الصفة الجارية على ما قبله وان لم يكن تابعا
له في الاعراب ولذلك التزموا حذف المبتدأ ليكون في صورة متعلق من متعلقاته وقد
قرئ بالجر على انه صفة صريحة للموصول وما قيل من ان الاسماء الناقصة لا يوصف
منها الا الذي وحده مذهب الكوفيين واياما كان فوصفه بالرحمانية اثر وصفه
بخالقية السموات والارض للاشعار بان خلقهما من آثار رحمته تعالى كما ان قوله تعالى رب السموات
والارض وما بينهما الرحمن للايذان بان ربوبيته تعالى بطريق الرحمة وفيه اشارة الى
ان تنزيل القرآن ايضا من احكام رحمته تعالى كما ينبئ عنه قوله عز وجل الرحمن علم القرآن
او رفع على الابتداء واللام للعهد والاشارة الى الموصول والخبر قوله تعالى على العرش
استوى وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذي شانه ان يكون معلوم الثبوت للموضوع
عند المخاطبين للايذان بان ذلك امر بين لا ستره به غني عن الاخبار به صريحا وعلى
متعلقة باستوى قدمت عليه لمراعاة الفواصل والجار والمجرور على الاول خبر مبتدا
محذوف كما في قراءة الجر وقد جوز ان يكون خبرا بعد خبر والاستواء على العرش مجاز
من الملك والسلطان متفرع على الكناية فيمن يجوز عليه القعود على السرير يقال استوى فلان
على سرير الملك يراد به ملك وان لم يقعد على السرير اصلا والمراد بيان تعلق ارادته الشريفة
بايجاد الكائنات والتدبير في امرها وقوله تعالى له ما في السموات وما في الارض سواء كان
ذلك بالجزئية منهما او بالحلول فيهما وما بينهما من الموجودات الكائنة في الجو
دائما كالهواء والسحاب او اكثريا كالطير اي له وحده دون غيره لا شركة ولا استقلالا لا كلا ماذكر
ملكا وتصرفا واحياء واماتة وايجادا واعداما وما تحت الثرى اي ما وراء التراب وذكره
مع دخوله تحت ما في الارض لزيادة التقرير وروي عن محمد بن كعب انه ما تحت الارضين
السبع وعن السدي ان الثرى هو الصخرة التي عليها الارض السابعة وان تجهر بالقول
بيان لاحاطة علمه تعالى بجميع الاشياء اثر بيان سعة سلطنته وشمول قدرته لجميع الكائنات
اي وان تجهر بذكره تعالى ودعائه فاعلم انه تعالى غني عن جهرك فانه يعلم السر واخفى
اي ما اسررته الى غيرك وشيئا اخفى من ذلك وهو ما اخطرته ببالك من غير ان تتفوه به
اصلا او ما اسررته لنفسك واخفى منه وهو ما ستسره فيها فيما سيأتي وتنكيره للمبالغة
في هذا اما نهي عن الجهر كقوله تعالى واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر
من القول واما ارشاد للعباد الى ان الجهر ليس لاسماعه سبحانه بل لغرض آخر من تصوير
النفس بالذكر وتثبيته فيها ومنعها من الاشتغال بغيره وقطع الوسوسة عنها وهضمها
بالتضرع والجؤار وقوله تعالى الله خبر مبتدا محذوف والجملة استئناف مسوق لبيان
ان ما ذكر من صفات الكمال موصوفها ذلك المعبود بالحق اي ذلك المنعوت بما ذكر من
النعوت الجليلة الله عز وجل وقوله تعالى لا اله الا هو تحقيق للحق وتصريح بما تضمنه
ما قبله من اختصاص الالوهية به سبحانه فان ما اسند اليه تعالى من خلق جميع الموجودات
والرحمانية والمالكية للكل والعلم الشامل مما يقتضيه اقتضاء بينا وقوله تعالى له الاسماء
الحسنى بيان لكون ما ذكر من الخالقية والرحمانية والمالكية والعالمية اسماؤه وصفاته من غير
تعدد في ذاته تعالى فانه روي ان المشركين حين سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقول
يا الله يا رحمن قالوا ينهانا ان نعبد الهين وهو يدعو الها آخر والحسنى تأنيث الاحسن
يوصف به الواحدة المؤنثة والجمع من المذكر والمؤنث كمآرب اخرى وآياتنا الكبرى وهل
اتاك حديث موسى استئناف مسوق لتقرير امر التوحيد الذي انتهى مساق الحديث وبيان

انذام

انه امر مستمر فيما بين الانبياء كابرا عن كابر وقد خوطب به موسى عليه السلام حيث
قيل له انني انا الله لا اله الا انا وبه ختم عليه السلام مقالته حيث قال انما الهكم الله
الذي لا اله الا هو واما ما قيل من ان ذلك لترغيب النبي صلى الله عليه وسلم في الائتساء
بموسى عليه السلام في تحمل اعباء النبوة والصبر على مقاساة الخطوب في تبليغ احكام الرسالة
فيأباه ان مساق النظم الكريم لصرفه عليه السلام عن اقتحام المشاق وقوله تعالى اذ رأى
نارا ظرف للحديث وقيل لمضمر مؤخر اي حين رأى نارا كان كيت وكيت وقيل مفعول لمضمر
مقدم اي اذكر وقت رؤيته نارا روي انه عليه السلام استأذن شعيبا عليه السلام في الخروج
الى امه واخيه فخرج باهله واخذ على غير الطريق مخافة من ملوك الشام فلما وافى
وادي طوى وهو بالجانب الغربي من الطور ولد له في ليلة مظلمة شاتية مثلجة وكانت ليلة
الجمعة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وقدح فصلد زنده فبينما هو في
ذلك اذ رأى نارا على يسار الطريق من جانب الطور فقال لاهله امكثوا اي اقيموا
مكانكم امرهم عليه السلام بذلك لئلا يتبعوه فيما عزم عليه من الذهاب الى النار كما
هو المعتاد لا لئلا ينتقلوا الى موضع آخر فانه مما لا يخطر بالبال والخطاب للمرأة والولد
والخادم وقيل لها وحدها والجمع اما لظاهر لفظ الاهل او للتفخيم كما في قول من
قال وان شئت حرمت النساء سواكم اني آنست نارا اي ابصرتها ابصارا بينا لا
شبهة فيه وقيل الايناس خاص بابصار ما يؤنس به والجملة تعليل للامر والمأمور به
لعلي آتيكم منها اي اجيئكم من النار بقبس اي بشعلة مقتبسة من معظم النار
وهي المرادة بالجذوة في سورة القصص وبالشهاب القبس او اجد على النار هدى
هاديا يدلني على الطريق على انه مصدر سمي به الفاعل مبالغة او حذف المضاف اي
ذا هداية او على انه اذا وجد الهادي فقد وجد الهدى وقيل هاديا يهديني الى
ابواب الدين فان افكار الابرار مغمورة بالهمة الدينية في عامة احوالهم لا يشغلهم
عنها شاغل والاول هو الاظهر لان مساق النظم الكريم لتسلية اهله وقد نص
عليه في سورة القصص حيث قيل لعلي آتيكم منها بخبر او جذوة الآية وكلمة او في
الموضعين لمنع الخلو دون منع الجمع ومعنى الاستعلاء في قوله تعالى على النار ان اهل
النار يستعلون المكان القريب منها او لانهم عند الاصطلاء يكتنفونها قياما وقعودا
فيشرفون عليها ولما كان الاتيان بهما مترقبا غير محقق الوقوع صدر الجملة
بكلمة الترجي وهي اما علة لفعل قد حذف ثقة بما يدل عليه من الامر بالمكث والاخبار
بايناس النار وتفاديا عن التصريح بما يوحشهم واما حال من فاعله اي فاذهب اليها
لآتيكم او كي آتيكم او راجيا ان آتيكم منها بقبس الآية وقد مر تحقيقه مفصلا في تفسير
قوله تعالى يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون
فلما اتاها اي النار التي آنسها قال ابن عباس رضي الله عنهما رأى شجرة خضراء
اطافت بها من اسفلها الى اعلاها نار بيضاء تتقد كاضوء ما يكون فوقف متعجبا
من شدة ضوئها قالوا النار اربعة اصناف صنف يأكل ولا يشرب وهي نار الدنيا وصنف
يشرب ولا يأكل وهي نار الشجر الاخضر وصنف يأكل ويشرب وهي نار جهنم وصنف
لا يأكل ولا يشرب وهي نار موسى عليه السلام وقالوا ايضا هي اربعة انواع نوع
له نور واحراق وهي نار الدنيا ونوع لا نور له ولا احراق وهي نار الاشجار و
نوع له نور بلا احراق وهي نار موسى عليه السلام ونوع له احراق بلا نور
وهي نار الجحيم روي ان الشجرة كانت عوسجة وقيل كانت سمرة نودي يا موسى
اي نودي فقيل يا موسى انى انا ربك او عومل النداء معاملة الفعل لكونه ضربا
منه وقرئ بالفتح اي باني وتكرير الضمير لتأكيد الدلالة وتحقيق المعرفة واماطة
الشبهة روي انه لما نودي يا موسى قال من المتكلم فقال الله عز وجل انا ربك
فوسوس اليه ابليس لعلك تسمع كلام شيطان فقال انا عرفت انه كلام الله تعالى بانى
اسمعه من جميع الجهات بجميع الاعضاء قلت وذلك لان سماع ما ليس من شانه

اي ذكر

ذلك من الاعضاء ليس الا من آثار قدرة الخلاق العليم تعالى وتقدس وقيل تلقى عليه السلام
كلام رب العزة تلقيا روحانيا ثم تمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل الى الحس المشترك
فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهة فاخلع نعليك امر عليه السلام بذلك
لان الحفوة ادخل فى التواضع وحسن الادب ولذلك كان السلف الصالحون يطوفون
بالكعبة حافين وقيل ليباشر الوادى بقدميه تبركا به وقيل لما ان نعليه كانا من جلد
حمار غير مدبوغ وقيل معناه فرغ قلبك من الاهل والمال والفاء لترتيب الامر على ما
قبلها فان ربوبيته تعالى له عليه السلام من موجبات الامر ودواعيه وقوله تعالى
انك بالوادى المقدس تعليل لوجوب الخلع المامور به وبيان لسبب ورود الامر بذلك
من شرف البقعة وقدسها روى انه عليه السلام خلعهما والقاهما وراء الوادى
طوى بضم التاء غير منون وقرئ منونا وقرئ بالكسر منونا وغير منون فمن نونه اوله
بالمكان دون البقعة وقيل هو كثنى من الطى مصدر لنودى او المقدس اى نودى
نداءين او قدس مرة بعد اخرى وانا اخترتك اى اصطفيتك للنبوة والرسالة وقرئ
وانا اخترناك بالفتح والكسر والفاء فى قوله تعالى فاستمع لترتيب الامر او المامور
به على ما قبلها فان اختياره عليه السلام لما ذكر من موجبات الاستماع والامر به واللام فى قوله
تعالى لما يوحى متعلقة باستمع وما موصولة او مصدرية اى فاستمع للذى يوحى اليك
او للوحى لا باخترتك كما قيل لكن لا لما قيل من انه من باب التنازع واعمال الاول فلابد
حينئذ عن اعادة الضمير مع الثانى بل لان قوله تعالى انى انا الله لا اله الا انا بدل من
ما يوحى ولا ريب فى ان اختياره عليه السلام ليس لهذا الوحى فقط والفاء فى قوله تعالى
فاعبدنى لترتيب المامور به على ما قبلها فان اختصاص الالوهية به سبحانه وتعالى من
موجبات تخصيص العبادة به عز وجل واقم الصلوة خصت الصلاة بالذكر وافردت
بالامر مع اندراجها فى الامر بالعبادة لفضلها وانافتها على سائر العبادات مما
ينطق به من ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره ذلك وقوله تعالى لذكرى اى
لتذكرنى فان الذكر كما ينبغى لا يتحقق الا فى ضمن العبادة والصلوة او لتذكرنى فيها
لاشتمالها على الاذكار او لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى او لاخلاص ذكرى
وابتغاء وجهى لا ترائى بها ولا تقصد بها غرضا اخر او لتكون ذاكرا لى غير ناسى
وقيل لذكرى اياها وامرى بها فى الكتب او لان اذكرك بالمدح والثناء وقيل لاوقات
ذكرى وهى مواقيت الصلوات او لذكر صلواتى لما روى انه عليه السلام قال من نام
عن صلوة او نسيها فليصلها اذا ذكرها لان الله تعالى يقول فاقم الصلوة لذكرى
وقرئ لذكرى بالف التانيث وللذكرى معرفا وللذكر بالتعريف والتذكير وقوله تعالى
ان الساعة آتية تعليل لوجوب العبادة واقامة الصلوة اى كائنة لا محالة وانما
عبر عن ذلك بالاتيان تحقيقا لحصولها بابرازها فى معرض امر محقق متوجه نحو
المخاطبين اكاد اخفيها اى لا اظهرها بان اقول انها آتية ولولا ان فى الاخبار
بذلك من اللطف وقطع الاعذار لما فعلت او اكاد اظهرها بايقاعها من اخفاه
اذا اظهره بسلب خفائه ويؤيده القراءة بفتح الهمزة من خفاه بمعنى اظهره وقيل اخفاه
من الاضداد يجيئ بمعنى الاظهار والستر وقوله تعالى لتجزى كل نفس بما تسعى
متعلق باتية وما بينهما اعتراض او باخفيها على المعنى الاخير وما مصدرية اى
لتجزى بسعيها فى تحصيل ما ذكر من الامور المامور بها وتخصيصه فى معرض
الغاية لاتيانها مع انه لجزاء كل نفس بما صدر عنها سواء كان سعيا فيما ذكر او تقاعدا
عنه بالمرة او سعيا فى تحصيل ما يضاده للايذان بان المراد بالذات من اتيانها هو
الاثابة بالعبادة واما العقاب بتركها فمن مقتضيات سوء اختيار العصاة وبان
المامور به فى قوة الوجوب والساعة فى شدة الهول والفظاعة بحيث يوجبان
على كل نفس ان تسعى فى الامتثال بالامر وتجد فى تحصيل ما ينجيها من الطاعات
وتحترز عن اقتراف ما يرديها من المعاصى وعليه مدار الامر فى قوله تعالى هو الذى

خلق السموات والارض فى ستة ايام وكان عرشه على الماء ليبلوكم ايكم احسن عملا
فان الابتلاء مع شموله لكافة المكلفين باعتبار اعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح ايضا
لا الى الحسن والاحسن فقط قد علق بالاخيرين لما ذكر من ان المقصود الاصلى من
ابداع تلك البدايع على ذلك النمط الرائع انما هو ظهور كمال احسان المحسنين وان ذلك
لكونه على اتم الوجوه الرائقة واكمل الانحاء اللائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لا يحيد
احد عن سنته المستبين بل يهتدى كل فرد الى ما يرشد اليه من مطلق الايمان والطاعة
وانما التفاوت بينهم فى مراتبهما بحسب القوة والضعف واما الاعراض عن ذلك والوقوع
فى مهاوى الضلال فبمعزل من الوقوع فضلا عن ان ينتظم فى سلك الغاية لذلك
الصنع البديع وانما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له ومسوغ
هذا ويجوز ان يراد بالسعى مطلق العمل فلا يصدنك عنها اى عن ذكر الساعة و
مراقبتها او قيل عن تصديقها والاول هو الاليق بشان موسى عليه السلام وان كان النهى
بطريق التهييج والالهاب وتقديم الجار والمجرور على قوله تعالى من لا يؤمن بها لما مر
مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا اخر تبقى
النفس مستشرفة له فيتمكن عند وروده لها فضل تمكن ولان فى المؤخر نوع طول
ربما يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للكافر عن
صد موسى عليه السلام عن الساعة لكنه فى الحقيقة نهى له عليه السلام عن الانصداد عنها
على ابلغ وجه واكده فان النهى عن اسباب الشئ ومباديه المؤدية اليه نهى عنه
بالطريق البرهانى وابطال للسببية عن اصلها كما فى قوله تعالى ولا يجرمنكم فان صد
الكافر حيث كان سببا لانصداده عليه السلام كان النهى عنه نهيا باصله وموجبه وابطالا
بالكلية ويجوز ان يكون من باب النهى عن المسبب وارادة النهى عن السبب على ان يراد نهيه
عليه السلام عن اظهار لين الجانب للكفرة فان ذلك سبب لصدهم اياه كما فى قوله لا ارينك
ههنا فان المراد به نهى المخاطب عن الحضور لديه الموجب لرؤيته واتبع هواه اى ما
يهواه نفسه من اللذات الحسية الفانية فتردى اى فتهلك فان الاغفال عنها وعن
تحصيل ما ينجى عن اهوالها مستتبع للهلاك لا محالة وهو فى محل النصب على جواب النهى
او فى محل الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف اى فانت تردى وما تلك بيمينك يا موسى
شروع فى حكاية ما كلفه عليه السلام من الامور المتعلقة بالخلق اثر حكاية ما امر به من الشؤن
الخاصة بنفسه فما استفهامية فى حيز الرفع بالابتداء وتلك خبره او بالعكس
وهو ادخل بحسب المعنى واوفق بالجواب وبيمينك متعلق بمضمر وقع حالا اى وما
تلك قارة او ماخوذة بيمينك والعامل معنى الاشارة كما فى قوله عز وعلا وهذا بعلى شيخا وقيل
تلك موصولة اى ما التى هى بيمينك واياما كان فالاستفهام استيقاظ وتنبيه له عليه السلام على
ما سيبدو له من التعاجيب وتكرير النداء لزيادة التأنيس والتنبيه قال هى عصاى
نسبها الى نفسه تحقيقا لوجه كونها بيمينه وتمهيدا لما يعقبه من الافاعيل المنسوبة
اليه عليه السلام وقرئ عصى على لغة هذيل اتوكأ عليها اى اعتمد عليها عند الاعياء
او الوقوف على رأس القطيع واهش بها اى اخبط بها الورق واسقطه على غنمى
وقرئ اهش بكسر الهاء وكلاهما من هش الخبز يهش اذا انكسر لهشاشته وقرئ بالسين
غير المعجمة وهو زجر الغنم وتعديته بعلى لتضمين معنى الانحاء والاقبال اى ازجرها منحيا
ومقبلا عليها ولى فيها مآرب اخرى اى حاجات اخر من هذا الباب مثل ما روى انه
عليه السلام كان اذا سار القاها على عاتقه فعلق بها ادواته من القوس والكنانة و
الحلاب ونحوها واذا كان فى البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها والقى عليها
الكساء واستظل به واذا قصر الرشاء وصله بها واذا تعرضت لغنمه السباع قاتل بها وقيل
ومن جملة المآرب انها كانت ذات شعبتين ومحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن واذا اراد
كسره لواه بالشعبتين وكانه عليه السلام فهم ان المقصود من السؤال بيان حقيقتها
وتفصيل منافعها بطريق الاستقصاء حتى اذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقة وبدت منها

حواص بربعة علم انها ايات باهرة ومعجزات قاهرة احدثها الله تعالى وليست من الخواص
المترتبة عليها فذكر حقيقتها ومنافعها على التفصيل والاجمال على معنى انها من جنس
العصا مستتبعة لمنافع بنات جنسها يطابق جوابه الغرض الذى فهمه من سؤال العليم الخبير
قال استيناف مبنى على سؤال ينساق اليه الذهن كانه قيل فماذا قال عز وجل قال القها
يا موسى لترى من شانها ما لم يخطر ببالك من الامور وتكرير النداء لتاكيد التنبيه فالقاها
على الارض فاذا هى حية تسعى روى انه عليه السلام حين القاها انقلبت حية صفراء
فى غلظ العصا ثم انتفخت وعظمت فلذلك شبهت بالجان تارة وسميت ثعبانا اخرى وعبر
عنها ههنا بالاسم العام للحالين وقيل قد انقلبت من اول الامر ثعبانا وهو الاليق بالمقام
كما يفصح عنه قوله عز وجل فاذا هى ثعبان مبين وانما شبهت بالجان فى الجلادة وسرعة
الحركة لا فى صغر الجثة وقوله تعالى تسعى اما صفة لحية او خبر ثان عند من يجوز كونه جملة
قال استيناف كما سبق خذها ولا تخف عن ابن عباس رضى الله عنهما انقلبت ثعبانا
ذكرا يبتلع كل شىء من الصخر والشجر فلما رآها كذلك خاف ونفر وملكه ما يملك البشر عند مشاهدة
الاهوال والمخاوف من الفزع والنفار وفى عطف النهى على الامر اشعار بان عدم النهى
عنه مقصود لذاته لا لتحقيق المامور به فقط وقوله تعالى سنعيدها سيرتها الاولى مع
كونه استينافا مسوق لتعليل الامتثال بالامر والنهى فان اعادتها الى ما كانت عليها من
موجبات اخذها وعدم الخوف منها عدة كريمة باظهار معجزة اخرى على يديه عليه السلام وايذان بكونها
مسخرة له ليكون على طمانينة من امره ولا يعتريه شائبة تزلزل عند محاجة فرعون اى
سنعيدها بعد الاخذ الى حالتها الاولى التى هى الهيئة العصوية قيل بلغ عليه السلام عند
ذلك من الثقة وعدم الخوف الى حيث كان يدخل يده فى فمها وياخذ بلحييها والسيرة فعلة
من السير تجوز بها للطريقة والهيئة وانتصابها على نزع الجار اى الى سيرتها او على ان اعاد
منقول من عاده بمعنى عاد اليه او على الظرفية اى سنعيدها فى طريقتها او على تقدير رفعها
وايقاعها حالا من المفعول اى سنعيدها عصا كما كانت من قبل تسير سيرتها اى سائرة
سيرتها الاولى فتنتفع بها كما كنت تنتفع من قبل واضمم يدك الى جناحك امر عليه السلام
بذلك بعد ما اخذ الحية وانقلبت عصا كما كانت اى ادخلها تحت عضدك فان جناحى
الانسان جنباه كما ان جناحى العسكر ناحيتاه مستعار من جناحى الطائر وقد سميا
جناحين لانه يجنحهما اى يميلهما عند الطيران وقوله تعالى تخرج جواب الامر وقوله تعالى
بيضاء حال من الضمير فيه وقوله تعالى من غير سوء متعلق بمحذوف هو حال من الضمير
فى بيضاء اى كائنة من غير عيب وقبح كنى به عن البرص كما كنى بالسوءة عن العورة لما ان
الطباع تعافه وتنفر عنه روى انه عليه السلام كان آدم فاخرج يده من مدرعته بيضاء
لها شعاع كشعاع الشمس تغشى البصر آية اخرى اى معجزة اخرى غير العصا وانتصابها
على الحالية اما من الضمير فى تخرج على انها بدل من الحال الاولى واما من الضمير فى بيضاء
او من الضمير فى الجار والمجرور وقيل هى منصوبة بفعل مضمر نحو خذ او دونك
وقوله تعالى لنريك من آياتنا الكبرى متعلق بمضمر ينساق اليه النظم الكريم كانه قيل
فعلنا ما فعلنا من الامر والاظهار لنريك بذلك بعض آياتنا الكبرى على ان الكبرى
صفة لآياتنا او نريك بذلك من آياتنا ما هى كبرى على ان الكبرى مفعول ثان لنريك
ومن آياتنا متعلق بمحذوف هو حال من ذلك المفعول واياما كان فالآية الكبرى
عبارة عن العصا واليد جميعا واما تعلقه بما دل عليه آية اى دللنا بها لنريك الخ او
بقوله تعالى واضمم او بقوله تخرج او بما قدر من خذ ودونك كما قال بكل من ذلك قائل
فيؤدى الى عراء آية العصا عن وصف الكبر فتدبر اذهب الى فرعون تخلص الى ما هو
المقصد من تمهيد المقدمات السالفة فصل عما قبله من الاوامر ايذانا باصالته اى
اذهب اليه بما رايته من الآيات الكبرى وادعه الى عبادتى وحذره نقمتى وقوله تعالى
انه طغى تعليل للامر او لوجوب المامور به اى جاوز الحد فى التكبر والعتو والتجبر حتى
تجاسر على العظيمة التى هى دعوى الربوبية قال استينافا مبنى على سؤال ينساق اليه

هلة

الذهن كانه قيل فماذا قال عليه السلام حين امر بهذا الامر الخطير والخطب العسير فقيل
قال مستعينا بربه عز وجل رب اشرح لى صدرى ويسر لى امرى لما امر بما امر به من
الخطب الجليل تضرع الى ربه عز وجل واظهر عجزه بقوله ويضيق صدرى ولا ينطلق
لسانى وسأله تعالى ان يوسع صدره ويفسح قلبه ويجعله عليما بشؤون الحق واحوال
الخلق حليما حمولا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد والمكاره بجميل الصبر
وحسن الثبات ويتلقاها بصدر فسيح وجاش رابط وان يسهل عليه مع ذلك امره
الذى هو اجل الامور واعظمها واصعب الخطوب واهولها بتوفيق الاسباب ورفع
الموانع وفى زيادة كلمة لى مع انتظام الكلام بدونها تاكيد لطلب الشرح والتيسير
بابهام المشروح والميسر اولا وتفسيرهما ثانيا وفى تقديمهما وتكريرهما اظهار
مزيد اعتناء بشان كل من المطلوبين وفضل اهتمام باستدعاء حصولهما له
واختصاصهما به واحلل عقدة من لسانى روى انه عليه السلام كان فى لسانه
رتة من جمرة ادخلها فاه فى صغره وذلك ان فرعون حمله ذات يوم فاخذ
لحيته فنتفها لما كان فيها من الجواهر فغضب وامر بقتله فقالت آسية انه صبى
لا يفرق بين الجمر والياقوت فاحضرا بين يديه فاخذ الجمرة فوضعها فى فيه قيل واحترقت
يده فاجتهد فرعون فى علاجها فلم تبرأ ثم دعاه قال الى اى رب تدعونى قال الى الذى ابرأ
يدى وقد عجزت عنه واختلف فى زوال العقدة بكمالها فمن قال به تمسك بقوله تعالى قد
اوتيت سؤلك ومن لم يقل به احتج بقوله تعالى هو افصح منى وقوله تعالى ولا يكاد يبين واجاب
عن الاول بانه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية بل حل عقدة تمنع الافهام ولذلك
نكرها ووصفها بقوله من لسانى اى عقدة كائنة من عقد لسانى وجعل قوله تعالى
يفقهوا قولى جواب الامر وغرضا من الدعاء فبحلها فى الجملة يتحقق ايتاء سؤله
عليه السلام والحق ان ما ذكر لا يدل على بقائها فى الجملة اما قوله تعالى هو افصح
منى فلانه عليه السلام قاله قبل استدعاء الحل كما ستعرفه على ان افصحيته منه
عليهما السلام لا تستدعى بقاءها اصلا بل تستدعى عدم البقاء لما ان الافصحية توجب
ثبوت اصل الفصاحة فى المفعول ايضا وذلك مناف للعقدة راسا واما قوله تعالى ولا
يكاد يبين فمن باب غلق اللعين فى العتو والطغيان والا لدل على عدم زوالها اصلا

المفضول

وتنكيرها انما يفيد قلتها فى نفسها لا قلتها باعتبار كونها بعضا من الكثير وتعلق
كلمة من فى قوله تعالى من لسانى بمحذوف هو صفة لها ليس بمقطوع به بل الظاهر تعلقها
بنفس الفعل فان المحلول اذا كان متعلقا بشىء ومتصلا به فكما يتعلق الحل به يتعلق
بذلك الشىء ايضا باعتبار ازالته عنه او ابتداء حصوله منه واجعل لى وزيرا من اهلى
هرون اخى اى معينا يعاوننى فى تحمل اعباء ما كلفته على ان اشتقاقه من الوزر
الذى هو الثقل او ملجأ اعتصم برايه على انه من الوزر وهو الملجأ وقيل اصله ازير
من الازر بمعنى القوة فعيل بمعنى مفاعل كالعشير والجليس قلبت همزته واوا كقلبها
فى موازر ونصبه على انه مفعول ثان لاجعل قدم على الاول الذى هو قوله تعالى
هرون اعتناء بشان الوزارة ولى صلة للجعل او متعلق بمحذوف هو حال
من وزيرا اذ هو صفة له فى الاصل ومن اهلى اما صفة لوزيرا او صلة لاجعل
وقيل مفعولاه لى وزيرا وهرون عطف بيان للوزير ومن اهلى كما مر من الوجهين
واخى فى الوجهين بدل من هرون او عطف بيان آخر وقيل هما وزيرا من اهلى ولى
تبيين كما فى قوله تعالى ولم يكن له كفوا احد ورد بان شرط المفعولين فى باب
النواسخ صحة انعقاد الجملة الاسمية ولا مساغ لجعل وزيرا مبتدأ والخبر
عنه ما بعده اشدد به ازرى واشركه فى امرى كلاهما على صيغة الدعاء اى
احكم به قوتى واجعله شريكى فى امر الرسالة حتى نتعاون على ادائها كما ينبغى وفصل
الاول عن الدعاء السابق لكمال الاتصال بينهما فان شد الازر عبارة عن جعله وزيرا
واما الاشراك فى الامر فحيث كان من احكام الوزارة توسط بينهما العاطف كى نسبحك

كثيرا ونذكرك كثيرا غاية للادعية الثلثة الاخيرة فان فعل كل واحد منهما من التسبيح
والذكر مع كونه مكثرا لفعل الآخر ومضاعفا له بسبب انضمامه اليه مكثر له فى نفسه
ايضا بسبب تقويته وتاييده اذ ليس المراد بالتسبيح والذكر ما يكون منهما بالقلب او
فى الخلوات حتى لا يتفاوت حاله عند التعدد والانفراد بل ما يكون منهما فى تضاعيف اداء
الرسالة ودعوة المردة العتاة الى الحق وذلك مما لا ريب فى اختلاف حاله فى حالتى التعدد
والانفراد فان كلا منهما يصدر عنه بتاييد الآخر من اظهار الحق ما لا يكاد يصدر
عنه مثله حال الانفراد وكثيرا فى الموضعين نعت لمصدر محذوف او زمان محذوف اى
ننزهك عما لا يليق بك من الصفات والافعال التى من جملتها ما يدعيه فرعون الطاغية
ويقبله منه فئته الباغية من ادعاء الشركة فى الالوهية ونصفك بما يليق بك من صفات
الكمال ونعوت الجمال والجلال تنزيها كثيرا او زمانا كثيرا من جملته زمان دعوة فرعون
واوان المحاجة معه واما ما قيل من ان المعنى كى نصلى لك كثيرا ونحمدك ونثنى عليك
فلا يساعده المقام انك كنت بنا بصيرا اى عالما باحوالنا وبان ما دعوتك به مما يصلحنا
ويفيدنا فى تحقيق ما كلفته من اقامة مراسم الرسالة وبان هرون نعم الردء فى اداء ما
امرت به والباء متعلقة ببصيرا قدمت عليه لمراعاة الفواصل قال قد اوتيت سؤلك اى
اعطيت سؤلك فعل بمعنى مفعول كالخبز والاكل بمعنى المخبوز والماكول والايتاء عبارة عن
تعلق ارادته تعالى بوقوع تلك المطالب وحصولها له عليه السلام البتة وتقديره اياها حتما
فكلها حاصلة له عليه السلام وان كان وقوع بعضها بالفعل مترقبا بعد كتيسير الامر وشد
الازر وباعتباره قيل سنشد عضدك باخيك وقوله تعالى يا موسى تشريف له عليه السلام
بشرف الخطاب اثر تشريفه بشرف قبول الدعاء وقوله تعالى ولقد مننا عليك كلام
مستأنف مسوق لتقرير ما قبله وزيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول ببيان
انه تعالى حيث انعم عليه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء منه وطلب فلان ينعم عليه
بمثلها وهو طالب له وداع اولى واحرى وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك اى وبالله
لقد انعمنا مرة اخرى اى فى وقت غير هذا الوقت لا ان ذلك مؤخر من هذا فان اخرى
تأنيث آخر بمعنى غير والمرة فى الاصل اسم للمرور الواحد ثم اطلق على كل فعلة واحدة
من الفعلات متعدية كانت او لازمة ثم شاع فى كل فرد واحد من افراد ماله افراد متجددة
فصار علما فى ذلك حتى جعل معيارا لما فى معناه من ساير الاشياء فقيل هذا بناء المرة ويقرب
منها الكرة والتارة والدفعة والمراد بها ههنا الوقت الممتد الذى وقع فيه ما سيأتى
ذكره من المنن العظيمة الكثيرة وقوله تعالى اذ اوحينا الى امك ما يوحى ظرف لمننا
والمراد بالايحاء اما الايحاء على لسان نبى وفيها كقوله تعالى واذ اوحيت الى الحواريين
الآية واما الايحاء بواسطة الملك لا على وجه النبوة كما اوحى الى مريم واما الالهام
كما فى قوله تعالى واوحى ربك الى النحل واما الاراءة فى المنام والمراد بما يوحى ما سيأتى
من الامر بقذفه فى التابوت وقذفه فى البحر ابهم اولا تهويلا له وتفخيما لشانه ثم
فسر ليكون اقر عند النفس وقيل معناه ما ينبغى ان يوحى ولا يخل به لعظم شانه وفرط
الاهتمام به وقيل ما لا يعلم الا بالوحى وفيه انه لا يلائم المعنيين الاخيرين للوحى
اذ لا تفخيم لشانه فى ان يكون مما لا يعلم الا بالالهام او بالاراءة فى المنام وان فى
قوله تعالى ان اقذفيه فى التابوت مفسرة لان الوحى من باب القول او مصدرية
حذف عنها الباء اى بان اقذفيه والقذف ههنا الوضع واما فى قوله تعالى
فاقذفيه فى اليم فالالقاء وهذا التفصيل هو المراد بقوله تعالى فاذا خفت عليه
فالقيه فى اليم لا القذف بلا تابوت فليلقه اليم بالساحل لما كان القاء البحر اياه
بالساحل امرا واجب الوقوع لتعلق الارادة الربانية به جعل البحر كانه ذو تمييز مطيع
امر بذلك واخرج الجواب مخرج الامر والضمائر كلها لموسى عليه السلام و
المقذوف فى البحر والملقى بالساحل وان كان هو التابوت اصالة لكن لما كان المقصود
بالذات ما فيه جعل التابوت تبعا له فى ذلك يأخذه عدو لى وعدو له جواب للامر

بالالقاء وتكرير العدو للمبالغة والتصريح بالامر والاشعار بان عداوته له مع تحققها
لا تؤثر فيه ولا تضره بل تؤدى الى المحبة فان الامر بما هو سبب للهلاك صورة من
قذفه فى البحر ووقوعه فى يد عدو الله تعالى وعدوه مشعر بان هناك لطفا خفيا
مندرجا تحت قهر صورى وقيل الاول باعتبار الواقع والثانى باعتبار المتوقع وليس
المراد بالساحل نفس الشاطئ بل ما يقابل الوسط وهو ما يلى الساحل من البحر بحيث
يجرى ماؤه الى نهر فرعون لما روى انها جعلت فى التابوت قطنا ووضعته فيه ثم
قيرته والقته فى اليم وكان يشرع منه الى بستان فرعون نهر فدفعه الماء اليه فاتى به
الى بركة فى البستان وكان فرعون جالسا ثمة مع آسية بنت مزاحم فامر به فاخرج ففتح
فاذا هو صبى اصبح الناس وجها فاحبه عدو الله حبا شديدا لا يكاد يتمالك الصبر عنه وذلك
قوله تعالى والقيت عليك محبة منى كلمة من متعلقة بمحذوف هو صفة لمحبة مؤكدة لما فى
تنكيرها من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية اى محبة عظيمة كائنة منى قد زرعتها فى
القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك ولذلك احبك عدو الله وآله وقيل هى متعلقة بالقيت
اى احببتك ومن احبه الله تعالى احبته القلوب لا محالة وقوله تعالى ولتصنع على عينى
متعلق بالقيت معطوف على علة له مضمرة اى ليتعطف عليك ولتربى بالحنو والشفقة
بمراقبتى وحفظى او بمضمر مؤخر هو عبارة عن ما قبله من القاء المحبة والجملة مبتداء اى و
لتصنع على عينى فعلت ذلك وقرئ ولتصنع على صيغة الامر بسكون اللام وكسرها وقرئ بفتح
التاء والنصب اى وليكون عملك على عين منى لئلا يخالف به عن امرى اذ تمشى اختك
ظرف لتصنع على ان المراد به وقت وقوع مشيها الى بيت فرعون وما ترتب عليه من القول و
الرجع الى امها وتربيتها له بالبر والحنو وهو المصداق لقوله تعالى ولتصنع على عينى اذ
لا شفقة اعظم من شفقة الام وصنعها على موجب مراعاته تعالى وقيل هو بدل
من اذ اوحينا على ان المراد زمان متسع متباعد الاطراف وهو الانسب بما سيأتى من
قوله تعالى فنجيناك من الغم الخ فان جميع ذلك من المنن الالهية ولا تعلق لشئ منها بصنع
المذكور واما كونه ظرفا لالقيت كما جوز فربما يوهم ان القاء المحبة لم يحصل قبل ذلك
ولا ريب فى ان معظم آثار القائها ظهر عند فتح التابوت فتقول اى لفرعون وآسية
حين رأتهما يطلبان له عليه السلام مرضعة يقبل ثديها وكان لا يقبل ثديا وصيغة
المضارع فى الفعلين لحكاية الحال الماضية هل ادلكم على من يكفله اى يضمه الى نفسه
ويربيه وذلك انما يكون بقبوله ثديها يروى انه فشى الخبر بمصر ان آل فرعون اخذوا
غلاما فى النيل لا يرتضع ثدى امراة واضطروا الى تتبع النساء فخرجت اخته مريم
لتعرف خبره فجاءتهم متنكرة فقالت ما قالت وقالوا ما قالوا فجاءت بامه فقبل ثديها فالفاء
فى قوله تعالى فرجعناك الى امك فصيحة معربة عن محذوف قبلها يعطف عليه ما بعدها
اى فقالوا دلينا عليها فجاءت بامك فرجعناك اليها كى تقر عينها بلقائك ولا تحزن
اى لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك والا فزوال الحزن مقدم على السرور المعبر
عنه بقرة العين فان التخلية متقدمة على التحلية وقيل ولا تحزن انت بفقد اشفاقها
وقتلت نفسا هى نفس القبطى الذى استغاثه الاسرائيلى عليه فنجيناك من الغم
اى غم قتله خوفا من عقاب الله تعالى بالمغفرة ومن اقتصاص فرعون بالانجاء عنه بالمهاجرة
الى مدين وفتناك فتونا اى ابتليناك ابتلاء او فنونا من الابتلاء على انه جمع فتن
او فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحجوز فى حجزة وبدور فى بدرة اى خلصناك مرة بعد
اخرى وهو اجمال ما ناله فى سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الالاف والمشى راجلا
وفقد الزاد وقد روى ان سعيد بن جبير سأل عنه ابن عباس رضى الله عنهم فقال
خلصناك من محنة بعد محنة ولد فى عام كان يقتل فيه الولدان فهذه فتنة يا ابن جبير
والقته امه فى البحر وهم فرعون بقتله وقتل قبطيا واجر نفسه عشر سنين وضل الطريق
وتفرقت غنمه فى ليلة مظلمة وكان يقول عند كل واحدة فهذه فتنة يا ابن جبير ولكن
الذى يقتضيه النظم الكريم ان لا تعد اجارة نفسه وما بعدها من تلك الفتون ضرورة

ان المراد بهما وقع قبل وصوله عليه السلام الى مدين بقضية الفاء في قوله تعالى فلبثت
سنين في اهل مدين اذ لا ريب في ان الاجارة المذكورة وما بعدها مما وقع بعد الوصول
اليهم وقد اشير بذكر لبثه عليه السلام فيهم دون وصوله اليهم الى جميع ما قاساه
في تضاعيف تلك السنين العشر من فنون الشدائد والمكاره التي كل واحد منها فتنة واي
فتنة ومدين بلدة شعيب عليه السلام على ثماني مراحل من مصر ثم جئت اي المكان
الذي اونس فيه النار ووقع فيه النداء والحوار وفي كلمة التراخي ايذان بان مجيئه عليه
السلام كان بعد اللتيا والتي من ضلال الطريق وتفرق الغنم في الليلة المظلمة الشاتية
وغير ذلك على قدر اي تقدير قدرته لان اكلمك واستنبئك في وقت قد عينته لذلك
فما جئت الا على ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر وقيل على مقدار من الزمان
يوحى فيه الى الانبياء عليهم السلام وهو رأس اربعين سنة وقوله تعالى يا موسى
تشريف له عليه السلام وتنبيه على انتهاء الحكاية التي هي تفصيل المرة الاخرى التي
وقعت قبل المرة المحكية اولا وقوله تعالى واصطنعتك لنفسي تذكير لقوله تعالى وانا اخترتك
وتمهيد لارساله عليه السلام الى فرعون مؤيدا باخيه حسبما استدعاه بعد تذكير المنن
السابقة تأكيدا لوثوقه عليه السلام بحصول نظائرها اللاحقة وهذا
تمثيل لما خوله عز وعلا من الكرامة العظمى بتقريب الملك بعض خواصه واصطناعه
لنفسه وترشيحه لبعض اموره الجليلة والعدول عن نون العظمة الواقعة في قوله تعالى
وفتناك ونظيريه السابقين تمهيد لافراد لفظ النفس اللائق بالمقام فانه ادخل في تحقيق
معنى الاصطناع والاستخلاص اي اصطفيتك برسالاتي وبكلامي وقوله تعالى اذهب
انت واخوك اي وليذهب اخوك حسبما استدعيت استئناف لبيان ما هو المقصود
بالاصطناع بآياتي اي بمعجزاتي التي اريتكها من اليد والعصا فانهما وان كانتا اثنتين
لكن في كل منهما آيات شتى كما في قوله تعالى فيه آيات بينات مقام ابراهيم فان انقلاب
العصا حيوانا آية وكونها ثعبانا عظيما لا يقادر قدره آية اخرى وسرعة حركته مع
عظم جرمه آية اخرى وكونه مع ذلك مسخرا له عليه السلام بحيث كان يدخل يده في فمه فلا يضره آية اخرى
ثم انقلابها عصا آية اخرى وكذلك اليد فان بياضها في نفسه آية وشعاعها آية ثم
رجوعها الى حالتها الاولى آية اخرى والباء للمصاحبة لا للتعدية اذ المراد ذهابهما الى فرعون
ملتبسين بالآيات متمسكين بها في اجراء احكام الرسالة واكمال امر الدعوة لا مجرد اذهابهما
وايصالها اليه ولا تنيا لا تفترا ولا تقصرا وقرئ لا تنيا بكسر التاء للاتباع في ذكري
اي فيما يليق بي من الصفات الجليلة والافعال الجميلة عند تبليغ رسالتي والدعاء الي و
قيل المعنى لا تنيا في تبليغ رسالتي فان الذكر يقع على جميع العبادات وهو اجلها واعظمها
وقيل لا تنسياني حيثما تقلبتما واستمدا به العون والتأييد واعلما ان امرا من الامور
لا يتأتى ولا يتسنى الا بذكري اذهبا الى فرعون جمعهما في صيغة امر الحاضر مع غيبة
هرون اذ ذاك للتغليب وكذا الحال في صيغة النهي روي انه اوحي الى هرون وهو بمصر
ان يتلقى موسى عليهما السلام وقيل سمع باقباله فتلقاه انه طغى تعليل لموجب الامر
والفاء في قوله تعالى فقولا له قولا لينا لترتيب ما بعدها على طغيانه فان تليين القول
مما يكسر سورة عناد العتاة ويلين عريكة الطغاة قال ابن عباس رضي الله عنهما لا تعنفا
في قولكما وقيل القول اللين مثل هل لك الى ان تزكى واهديك الى ربك فانها دعوة في صورة
عرض ومشورة ويرده ما سيجيء من قوله تعالى فقولا انا رسولا ربك الآيتين وقيل
كنياه وكان له ثلاث كنى ابو العباس وابو الوليد وابو مرة وقيل شبابا لا يهرم وبقي
له لذة المطعم والمشرب والمنكح وملكا لا يزول الا بالموت وقرئ لينا لعله يتذكر
بما بلغتماه من ذكري ويرغب فيما رغبتماه فيه او يخشى عقابي ومحل الجملة النصب على
الحال من ضمير التثنية اي فقولا له قولا لينا راجيين ان يتذكر او يخشى وكلمة او لمنع
الخلو اي باشرا الامر مباشرة من يرجو ويطمع ان يثمر عمله ولا يخيب سعيه وهو
يجتهد بطوقه ويحتشد باقصى وسعه وجدوى ارسالهما اليه مع العلم بحاله الزام

الحجة وقطع المعذرة قالا ربنا اسند القول اليهما مع ان القائل حقيقة هو موسى عليه السلام
بطريق التغليب ايذانا باصالته في كل قول وفعل وتبعية هرون عليه السلام له في كل ما يأتي
ويذر ويجوز ان يكون هرون قد قال ذلك بعد تلاقيهما فحكي ذلك مع قول موسى عليه السلام
عند نزول الآية كما في قوله تعالى يا ايها الرسل كلوا من الطيبات فان هذا الخطاب قد حكي
لنا بصيغة الجمع مع ان كلا من المخاطبين لم يخاطب الا بطريق الانفراد ضرورة استحالة
اجتماعهم في الوجود فكيف باجتماعهم في الخطاب اننا نخاف ان يفرط علينا اي يعجل
علينا بالعقوبة ولا يصبر الى اتمام الدعوة واظهار المعجزة من فرط اذا تقدم ومنه الفارط
وفرس فارط يسبق الخيل وقرئ يفرط من افرطه اذا حمله على العجلة اي نخاف ان يحمله
حامل من الاستكبار او الخوف على الملك او غيرهما على المعاجلة بالعقاب او ان يطغى اي
يزداد طغيانا الى ان يقول في شأنك ما لا ينبغي لكمال جرأته وقساوته واطلاقه من
حسن الادب واظهار كلمة ان مع سداد المعنى بدونه لاظهار كمال الاعتناء بالامر
والاشعار بتحقق الخوف من كل منهما قال استئناف مبني على السؤال الناشئ من النظم الكريم
ولعل اسناد الفعل الى ضمير الغيبة للاشعار بانتقال الكلام من مساق الى آخر فان ما قبله من
الافعال الواردة على صيغة التكلم حكاية لموسى عليه السلام بخلاف ما سيأتي من قوله تعالى قلنا
لا تخف انك انت الاعلى فان ما قبله ايضا وارد بطريق الحكاية لرسول الله صلى الله
عليه وسلم كأنه قيل فماذا قال لهما ربهما عند تضرعهما اليه فقيل قال لا تخافا ما توهمتما
من الامرين وقوله تعالى انني معكما تعليل لموجب النهي ومزيد تسلية لهما والمراد بالمعية
كمال الحفظ والنصرة كما ينبئ عنه قوله تعالى اسمع وارى اي ما يجري بينكما وبينه من
قول وفعل فافعل في كل حال ما يليق بها من دفع ضر وشر وجلب نفع وخير ويجوز ان لا يقدر شيء على
معنى انني حافظكما سميعا بصيرا والحافظ الناصر اذا كان كذلك فقد تم وبلغت النصرة
غايتها فأتياه امر باتيانه الذي هو عبارة عن الوصول اليه بعدما امرا بالذهاب اليه
فلا تكرار وهو عطف على لا تخافا باعتبار تعليله بما بعده فقولا انا رسولا ربك امر بذلك
تحقيقا للحق من اول الامر ليعرف الطاغية شأنهما ويبني جوابه عليه وكذا التعرض لربوبيته
تعالى له والفاء في قوله تعالى فارسل معنا بني اسرائيل لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان
كونهما رسولي ربه مما يوجب ارسالهم معهما والمراد بالارسال اطلاقهم من الاسر والعسر
واخراجهم من تحت يده العادية لا تكليفهم ان يذهبوا معهما الى الشام كما ينبئ عنه
قوله تعالى ولا تعذبهم اي بابقائهم على ما كانوا عليه من العذاب فانهم كانوا
تحت ملكة القبط يستخدمونهم في الاعمال الصعبة الفادحة من الحفر ونقل الاحجار
وغيرهما من الامور الشاقة ويقتلون ذكور اولادهم عاما دون عام ويستخدمون
نساءهم وتوسيط حكم الارسال بين بيان رسالتهما وبين ذكر المجيء بآية دالة على صحتها
لاظهار الاعتناء به مع ما فيه من تهوين الامر على فرعون فان ارسالهم معهما من غير
تعرض لنفسه وقومه بفنون التكاليف الشاقة كما هو حكم الرسالة عادة ليس مما يشق عليه
حق المشقة ولان في بيان مجيء الآية نوع طول كما ترى فتأخير ذلك عنه مخل بتجاوب اطراف
النظم الكريم واما ما قيل من ان ذلك دليل على ان تخليص المؤمنين عن الكفرة اهم من
دعوتهم الى الايمان فكلا قد جئناك بآية من ربك تقرير لما تضمنه الكلام السابق
من دعوى الرسالة وتعليل لوجوب الارسال فان مجيئهما بالآية من جهته تعالى مما
يحقق رسالتهما ويقررها ويوجب الامتثال بامرهما واظهار اسم الرب في موقع الاضمار
مع الاضافة الى ضمير المخاطب لتأكيد ما ذكر من التقرير والتعليل وتوحيد الآية مع تعددها
لان المراد اثبات الدعوى ببرهانها لا بيان تعدد الحجة وكذلك قوله تعالى قد جئتكم ببينة
وقوله تعالى اولو جئتك بشيء مبين واما قوله تعالى فأت بآية ان كنت من الصادقين فالظاهر
ان المراد بها آية من الآيات والسلام المستتبع لسلامة الدارين من الله تعالى والملائكة
وغيرهم من المسلمين على من اتبع الهدى بتصديق آيات الله تعالى الهادية الى الحق وفيه
من ترغيبه في اتباعهما على الطف وجه ما لا يخفى انا قد اوحي الينا من جهة ربنا ان العذاب

الدنيوي والاخروي على من كذب اى باياته تعالى وتولى اى اعرض عن قبولها وفيه من
التلطيف فى الوعيد حيث لم يصرح بحلول العذاب به ما لا مزيد عليه قال اى فرعون بعد
ما اتياه وبلغاه ما امرا به وانما طوى ذكره للايجاز والاشعار بانهما لما امرا بذلك سارعا
الى الامتثال به من غير تلعثم وبان ذلك من الظهور بحيث لا حاجة الى التصريح به فمن
ربكما يا موسى لم يضف الرب الى نفسه ولو بطريق حكاية ما فى قوله تعالى انا رسولا ربك
وقوله تعالى قد جئناك باية من ربك لغاية عتوه ونهاية طغيانه بل اضافه اليهما لما
ان المرسل لابد ان يكون ربا للرسول او لانهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل بان قالا انا
رسول رب العالمين كما وقع فى سورة الشعراء والاقتصار ههنا على ذكر ربوبيته تعالى
لفرعون لكفايته فيما هو المقصود والفاء لترتيب السؤال على ما سبق من كونهما رسولى ربهما
اى اذا كنتما رسولى ربكما فاخبرا من ربكما الذى ارسلكما وتخصيص النداء بموسى
عليه السلام مع توجيه الخطاب اليهما لما انه الاصل فى الرسالة وهرون وزيره واما ما
قيل من ان ذلك لانه قد عرف ان له عليه السلام رتة فاراد ان يفحمه فيرده ما شاهده
منه عليه السلام من حسن البيان القاطع لذلك الطمع الفارغ واما قوله تعالى ولا يكاد
يبين فمن غلوه فى الخبث والدعارة كما مر قال اى موسى عليه السلام مجيبا له ربنا
اما مبتدا وقوله تعالى الذى اعطى كل شئ خلقه خبره او هو خبر لمبتدا محذوف
والموصول صفته وايا ما كان فلم يريدا بضمير المتكلم انفسهما فقط حسبما اراد
اللعين بل جميع المخلوقات تحقيقا للحق وردا عليه كما يفصح عنه ما فى حيز الصلة اى
هو ربنا الذى اعطى كل شئ من الاشياء خلقه اى صورته وشكله اللائق بما نيط به من
الخواص والمنافع او اعطى مخلوقاته كل شئ تحتاج هى اليه وترتفق به وتقديم
المفعول الثانى للاهتمام به او اعطى كل حيوان نظيره فى الخلق والصورة حيث زوج الحصان
بالحجر والبعير بالناقة والرجل بالمراة ولم يزوج شيئا من ذلك بخلاف جنسه وقرئ خلقه
على صيغة الماضى على ان الجملة صفة للمضاف او المضاف اليه وحذف المفعول الثانى اما
للاقتصار على الاول اى كل شئ خلقه الله تعالى لم يحرمه من عطائه وانعامه او للاختصار
مع كونه منويا مدلولا عليه بقرينة الحال اى اعطى كل شئ خلقه تعالى ما يحتاج اليه
ثم هدى اى الى طريق الانتفاع والارتفاق بما اعطاه وعرفه كيف يتوصل الى بقائه
وكماله اما اختيارا كما فى الحيوانات او طبعا كما فى الجمادات والقوى الطبيعية النباتية
والحيوانية ولما كان الخلق الذى هو عبارة عن تركيب الاجزاء وتسوية الاجسام متقدما
على الهداية التى هى عبارة عن ابداع القوى المحركة والمدركة فى تلك الاجسام وسط
بينهما كلمة التراخى ولقد ساق عليه السلام جوابه على نمط رائق واسلوب لائق حيث
بين انه تعالى عالم قادر بالذات لجميع الاشياء منعم عليها بجميع ما يليق بها بطريق
التفضل وضمنه ان ارساله تعالى اياه الى الطاغية من جملة هداياته تعالى اياه بعد ان
هداه الى الحق بالهدايات التكوينية حيث ركب فيه العقل وساير المشاعر والالات الظاهرة
والباطنة قال فما بال القرون الاولى لما شاهد اللعين ما نظمه عليه السلام فى سلك
الاستدلال من البرهان النير على الطراز الرائع خاف ان يظهر للناس حقية مقالاته
عليه السلام وبطلان خرافات نفسه ظهورا بينا اراد ان يصرفه عليه السلام عن
سننه الى ما يعنيه من الامور التى لا تعلق لها بالرسالة من الحكايات ويشغله عما
هو بصدده عسى يظهر فيه نوع غفلة فيتسلق بذلك الى ان يدعى بين يدى قومه
نوع معرفة فقال ما حال القرون الماضية والامم الخالية وماذا جرى عليهم من الحوادث
المفصلة فاجاب عليه السلام بان العلم باحوالهم مفصلة مما لا ملابسة له بمنصب
الرسالة وانما علمها عند الله عز وجل واما ما قيل من انه ساله عن حال من خلا من القرون
وعن شقاء من شقى منهم وسعادة من سعد فيأباه قوله تعالى قال علمها عند ربى
فان معناه انه من الغيوب التى لا يعلمها الا الله تعالى وانما انا عبد لا اعلم منها الا ما علمنيه
من الامور المتعلقة بما ارسلت به ولو كان المسؤل عنه ما ذكر من الشقاوة والسعادة لاجيب

ببيان

ببيان ان من اتبع الهدى منهم فقد سلم ومن تولى فقد عذب حسبما نطق به قوله
تعالى والسلام الايتين فى كتاب اى مثبت فى اللوح المحفوظ بتفاصيله ويجوز ان يكون
ذلك تمثيلا لتمكنه وتقرره فى علم الله عز وجل بما استحفظه العالم وقيده بالكتبة كما
يلوح به قوله تعالى لا يضل ربى ولا ينسى اى لا يخطئ ابتداء ولا يذهب عليه بقاء
بل هو ثابت ابدا فانهما محالان عليه سبحانه وهو على الاول لبيان ان اثباته فى اللوح
ليس لحاجته اليه تعالى فى العلم به ابتداء او بقاء واظهار ربى فى موقع الاضمار للتلذذ
بذكره ولزيادة التقرير والاشعار بعلة الحكم فان الربوبية مما يقتضى عدم الضلال
والنسيان حتما ولقد اجاب عليه السلام عن السؤال بجواب عبقرى بديع حيث كشف
عن حقيقة الحق حجابها مع انه لم يخرج عما كان بصدده من بيان شئونه تعالى ثم
تخلص اليه حيث قال بطريق الحكاية عن الله عز وجل لما سيأتى من الالتفات الذى جعل
لكم الارض مهدا على ان الموصول اما مرفوع على المدح او منصوب عليه او خبر مبتدا
محذوف اى جعلها لكم كالمهد تتمهدونها او ذات مهد وهو مصدر سمى به
المفعول وقرئ مهادا وهو اسم لما يمهد كالفراش او جمع مهد اى جعل كل موضع
منها مهدا لكل واحد منكم وسلك لكم فيها سبلا اى حصل لكم طرقا ووسطها
بين الجبال والاودية والبرارى تسلكونها من قطر الى قطر لتقضوا منها مآربكم
وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها وانزل من السماء ماء هو المطر فاخرجنا به اى
بذلك الماء وهو عطف على انزل داخل تحت الحكاية وانما التفت الى التكلم للتنبيه
على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة والايذان بانه لا يتأتى الا
من قادر مطاع عظيم الشأن تنقاد لامره وتذعن لمشيئته الاشياء المختلفة كما فى
قوله تعالى الم تر ان الله انزل من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة خلا ان ما
قبل الالتفات هناك صريح كلامه تعالى واما ههنا فحكاية عنه تعالى وجعل قوله تعالى فاخرجنا
به هو المحكى مع كون ما قبله كلام موسى عليه السلام خلاف الظاهر مع انه يفوت
حينئذ الالتفات لعدم اتحاد المتكلم ازواجا اصنافا سميت بذلك لازدواجها واقتران
بعضها ببعض من نبات بيان او صفة لازواجا اى كائنة من نبات وكذا قوله تعالى
شتى اى متفرقة جمع شتيت ويجوز ان يكون صفة لنبات لما انه فى الاصل مصدر يستوى
فيه الواحد والجمع يعنى انها شتى مختلفة فى الطعم والرائحة والشكل والنفع بعضها
صالح للناس على اختلاف وجوه الصلاح وبعضها للبهائم فان من تمام نعمته تعالى
ان ارزاق عباده لما كان تحصيلها بعمل الانعام جعل علفها مما يفضل عن حاجاتهم
ولا يليق بكونه طعاما لهم وقوله تعالى كلوا وارعوا انعامكم حال من ضمير فاخرجنا
على ارادة القول اى اخرجنا منها اصناف النبات قائلين كلوا وارعوا انعامكم اى
معديها لانتفاعكم بالذات وبالواسطة اذنين فى ذلك ان فى ذلك اشارة الى ما ذكر
من شئونه تعالى وافعاله وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته
فى الكمال والتنكير فى قوله تعالى لايات للتفخيم كما وكيفا اى لايات كثيرة جليلة واضحة
الدلالة على شئون الله تعالى فى ذاته وصفاته وافعاله وعلى صحة نبوة موسى وهرون
عليهما السلام لاولى النهى جمع نهية سمى بها العقل لنهيه عن اتباع الباطل و
ارتكاب القبيح كما سمى بالعقل والحجر لعقله وحجره عن ذلك اى لذوى العقول الناهية
عن الاباطيل التى من جملتها ما يدعيه الطاغية ويقبله منه فئته الباغية وتخصيص
كونها ايات بهم مع انها ايات للعالمين باعتبار انهم المنتفعون بها منها
خلقناكم اى فى ضمن خلق ابيكم آدم عليه السلام منها فان كل فرد من افراد
البشر له حظ من خلقه عليه السلام اذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه
عليه السلام بل كانت انموذجا منطويا على فطرة ساير افراد الجنس انطواء اجماليا
مستتبعة لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام منها خلقا للكل منها وقيل
المعنى خلقنا ابدانكم من النطفة المتولدة من الاغذية المتولدة من الارض بوسايط

وقيل ان الملك الموكل بالرحم ليأخذ من تربة المكان الذى يدفن فيه المولود فيبددها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة وفيها نعيدكم بالاماتة وتفريق الاجزاء وايثار كلمة فى على كلمة الى للدلالة على الاستقرار المديد فيها ومنها نخرجكم تارة اخرى بتاليف اجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة ورد الارواح اليها وكون هذا الاخراج تارة اخرى باعتبار ان خلقهم من الارض اخراج لهم منها وان لم يكن على نهج التارة الثانية والتارة فى الاصل اسم للتور الواحد وهو الجريان ثم اطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات المتجددة كما مر فى المرة ولقد اريناه حكاية اجمالية لما جرى بين موسى عليه السلام وبين فرعون اثر حكاية ما ذكره عليه السلام بجلائل نعمائه الداعية له الى قبول الحق والانقياد له وتصديرها بالقسم لابراز كمال العناية بمضمونها واسناد الاراءة الى نون العظمة نظرا الى الحقيقة لا الى موسى نظرا الى الظاهر لتهويل الايات وتفخيم شانها واظهار كمال شناعة اللعين وتماديه فى المكابرة والعناد اى وبالله لقد بصرنا فرعون او عرفناه اياتنا حين قال لموسى عليه السلام ان كنت جئت باية فات بها ان كنت من الصادقين فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين وصيغة الجمع مع كونهما اثنين باعتبار ما فى تضاعيفهما من بدائع الامور التى كل منها اية بينة لقوم يعقلون حسبما بين فى تفسير قوله تعالى اذهب انت واخوك باياتى وقد ظهر عند فرعون امور اخر كل واحد منهما داهية دهيا فانه روى انه عليه السلام لما القاها انقلبت ثعبانا اشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الاسفل على الارض والاعلى على سور القصر فتوجه نحو فرعون فهرب واحدث وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون الفا من قومه فصاح فرعون يا موسى انشدك بالذى ارسلك الا اخذته فاخذه فعاد عصا وروى انها انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة نحو فرعون وجعلت تقول يا موسى مرنى بما شئت ويقول فرعون انشدك الخ ونزع يده من جيبه فاذا هى بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن حدود العادات قد غلب شعاعها شعاع الشمس يجتمع عليه النظارة تعجبا من امره ففى تضاعيف كل من الايتين ايات جمة لكنها لما كانت غير مذكورة صراحة اكدت بقوله تعالى كلها كانه قيل اريناه اياتنا بجميع مستتبعاتهما وتفاصيلهما قصدا الى بيان انه لم يبق له فى ذلك عذر ما ولا مساغ لعد بقية الايات التسع منها لما انها انما ظهرت على يده عليه السلام بعد ما غلب السحرة على مهل فى نحو من عشرين سنة كما مر فى تفسير سورة الاعراف ولا ريب فى ان امر السحرة مترتب بعد وابعد من ذلك ان يعد منها ما جعل لاهلاكهم لا للارشاد الى الايمان من فلق البحر وما ظهر بعد مهلكه من الايات الظاهرة لبنى اسرائيل من نتق الجبل والحجر سواء اريد به الحجر الذى فر بثوبه او الذى انفجرت منه العيون وكذا ان يعد منها الايات الظاهرة على الانبياء عليهم السلام بناء على ان حكايته عليه السلام اياها لفرعون فى حكم اظهارها بين يديه واراءته اياها لاستحالة الكذب عليه فان حكايته عليه السلام اياها لفرعون مما لم يجر ذكره ههنا على ان ما سياتى من حمله ما اظهره عليه السلام على السحر والتصدى للمعارضة بالمثل يأباه اباء بينا وينطق بان المراد بها ما ذكرناه قطعا ولولا ذلك لجاز جعل ما فصله عليه السلام من افعاله تعالى الدالة على اختصاصه بالربوبية واحكامها من جملة الايات فكذب موسى عليه السلام من غير تردد وتاخير مع ما شاهد فى يده من الشواهد الناطقة بصدقه جحودا وعنادا وابى الايمان والطاعة لعتوه واستكباره وقيل كذب بالايات جميعا وابى ان يقبل شيئا منها او ابى قبول الحق وقوله تعالى قال اجئتنا لتخرجنا من ارضنا بسحرك يا موسى استئناف مبين لكيفية تكذيبه وابائه والهمزة لانكار الواقع واستقباحه وادعاء انه امر محال والمجىء اما على حقيقته او بمعنى الاقبال على الامر والتصدى له اى اجئتنا من مكانك الذى كنت فيه بعد ما غبت عنا او اقبلت علينا لتخرجنا من مصر بما اظهرته من السحر فان ذلك مما لا يصدر عن العاقل لكونه من باب محاولة المحال وانما قاله لقومه على غاية المقت لموسى عليه السلام بابراز ان مراده عليه السلام ليس مجرد

الجاء بنى اسرائيل من ايديهم بل اخراج القبط من وطنهم وحيازة اموالهم واملاكهم بالكلية حتى لا يتوجه الى اتباعه احد ويبالغوا فى المدافعة والمخاصمة وسمى ما اظهره عليه السلام من المعجزة الباهرة سحرا لتجسيرهم على المقابلة ثم ادعى انه يعارضه بمثله ما اتى به عليه السلام فقال فلنأتينك بسحر مثله الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها واللام جواب قسم محذوف كانه قيل اذا كان كذلك فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك فاجعل بيننا وبينك موعدا اى وعدا كما ينبئ عنه وصفه بقوله تعالى لا نخلفه فان المناسب لا المكان والزمان اى لا نخلف ذلك الوعد نحن ولا انت وانما فوض اللعين امر الوعد الى موسى عليه السلام للاحتراز عن نسبته الى ضعف القلب وضيق المجال واظهار الجلادة واراءة انه متمكن من تهيئة اسباب المعارضة وترتيب الات المغالبة طال الامد ام قصر كما ان تقديم ضميره على ضمير موسى عليه السلام وتوسيط كلمة النفى بينهما للايذان بمسارعته الى عدم الاخلاف وان عدم اخلافه لا يوجب عدم اخلافه عليه السلام ولذلك اكد النفى بتكرير حرفه وانتصاب مكانا سوى بفعل يدل عليه المصدر لا به فانه موصوف او بانه بدل من موعدا على تقدير مكان مضاف اليه فحينئذ يكون مطابقة الجواب فى قوله تعالى قال موعدكم يوم الزينة من حيث المعنى فان يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه يومئذ او باضمار مثل مكان موعدكم مكان يوم الزينة كما هو على الاول او وعدكم وعد يوم الزينة وقرئ يوم بالنصب وهو ظاهر فى ان المراد به المصدر ومعنى سوى منتصفا يستوى مسافته الينا واليك وهو فى النعت كقولهم قوم عدى فى الشذوذ وقرئ بكسر السين قيل يوم الزينة يوم عاشوراء او يوم النيروز او يوم عيد كان لهم فى كل عام وانما عينه عليه السلام باليقين لاظهار كمال قوته وكونه على ثقة من امره وعدم مبالاته بهم لما ان ذلك اليوم وقت ظهور غاية شوكتهم وليكون ظهور الحق وزهوق الباطل فى يوم مشهود على رؤس الاشهاد ويشيع ذلك فيما بين كل حاضر وباد وان يحشر الناس ضحى عطف على يوم او الزينة وقرئ على البناء للفاعل بالتاء على خطاب فرعون وبالياء على ان الضمير له سنن الملوك او لليوم فتولى فرعون اى انصرف عن المجلس فجمع كيده اى ما يكاد به من السحرة وادواتهم ثم اتى اى الموعد ومعه ما جمعه من كيده وفى كلمة التراخى ايماء الى انه لم يسارع اليه بل اتاه بعد لاى وتلعثم وقوله تعالى قال لهم موسى الخ بطريق الاستئناف المبنى على السؤال يقضى بان المترقب من احواله عليه السلام حينئذ والمحتاج الى السؤال والبيان ليس الا ما صدر عنه عليه السلام من الكلام واما اتيانه او لا فامر محقق غنى عن التصريح به كانه قيل فماذا صنع موسى عند اتيان فرعون بمن جمعه من السحرة فقيل قال لهم بطريق النصيحة ويلكم لا تفتروا على الله كذبا بان تدعوا اياتى التى ستظهر على يدى سحرا كما فعل فرعون فيسحتكم اى يستأصلكم بسببه بعذاب هائل لا يقادر قدره وقرئ فيسحتكم من الثلاثى على لغة اهل الحجاز والاسحات لغة بنى تميم ونجد وقد خاب من افترى اى على الله كائنا من كان باى وجه كان فيدخل فيه الافتراء المنهى عنه دخولا اوليا او قد خاب فرعون المفترى فلا تكونوا مثله فى الخيبة والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها فتنازعوا اى السحرة حين سمعوا كلامه عليه السلام كان ذلك غاظهم فتنازعوا امرهم الذى اريد منهم من مغالبته عليه السلام وتشاوروا وتناظروا بينهم فى كيفية المعارضة وتجاذبوا اهداب القول فى ذلك واسروا النجوى اى من موسى عليه السلام لئلا يقف عليه فيدافعه وكان نجواهم ما نطق به قوله تعالى قالوا اى بطريق التناجى والاسرار ان هذان لساحران الخ فانه تفسير له ونتيجة لتنازعهم وخلاصة ما استقرت عليه اراؤهم بعد التناظر والتشاور وان مخففة من ان قد اهملت عن العمل واللام فارقة وقرئ بتشديد نون هذان وقيل هى نافية واللام بمعنى الا اى ما هذان الا ساحران وقرئ ان بالتشديد وهذان اسمها على لغة بلحارث وابن كعب فانهم يعربون التثنية تقديرا وقيل اسمها ضمير الشان المحذوف وهذان

لساحران خبرها وقيل ان بمعنى نعم ومابعدها جملة من مبتدا وخبر وفيهما ان اللام لاتدخل
خبر المبتدأ وقيل اصله انه هذان لهما ساحران فحذف الضمير وفيه ان المؤكد باللام
لايليق به الحذف وقرئ ان هذين لساحران وهي قراءة واضحة يريدان ان يخرجاكم من
ارضكم اي ارض مصر بالاستيلاء عليها بسحرهما الذي اظهراه من قبل ويذهبا
بطريقتكم المثلى اي بمذهبكم الذي افضل المذاهب وامثلها باظهار مذهبهما واعلاء
دينهما يريدون به ماكان عليه قوم فرعون لا طريقة السحر فانهم ماكانوا يعتقدونه دينا
وقيل ارادوا اهل طريقتكم وهم بنو اسرائيل لقول موسى عليه السلام ارسل معنا
بني اسرائيل وكانوا ارباب علم فيما بينهم ويأباه ان اخراجهم من ارضهم انما يكون
بالاستيلاء عليها تمكنا وتصرفا فكيف يتصور حينئذ نقل بني اسرائيل الى الشام وحمل الالحاح
على اخراج بني اسرائيل منها مع بقاء قوم فرعون على حالهم مما يجب تنزيه التنزيل عن
امثاله على ان هذه المقالة منهم للاغراء بالمبالغة والاهتمام بالمناصبة فلا بد ان
يكون الانذار والتحذير باشد المكاره واشقها عليهم ولا ريب في ان اخراج بني اسرائيل
من بينهم والذهاب بهم الى الشام وهم آمنون في ديارهم ليس فيه كثير محذور
وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم واشرافهم لما انهم قدوة لغيرهم ولا يخفى ان تخصيص
الاذهاب بهم مما لامزية فيه فاجمعوا كيدكم تصريح بالمطلوب اثر
تمهيد المقدمات والفاء فصيحة اي اذا كان الامر كما ذكر من كونهما ساحرين يريدان
بكم ماذكر من الاخراج والاذهاب فازمعوا كيدكم واجعلوه مجمعا عليه بحيث لايتخلف
عنه واحد منكم وارموا عن قوس واحدة وقرئ فاجمعوا من الجمع ويعضده قوله تعالى
فجمع كيده اي فاجمعوا ادوات سحركم ورتبوها كما ينبغي ثم ائتوا صفا اي مصطفين
امروا بذلك لانه اهيب في صدور الرائين وادخل في استجلاب الرهبة من المشاهدين
قيل كانوا سبعين الفا مع كل منهم حبل وعصا واقبلوا عليه اقبالة واحدة وقيل كانوا
اثنين وسبعين ساحرا اثنان من القبط والباقي من بني اسرائيل وقيل تسعمائة ثلثمائة من
الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية وقيل خمسة عشر الفا وقيل بضعة و
ثلثين الفا والله اعلم ولعل الموعد كان مكانا متسعا خاطبهم موسى ع م بما ذكر في قطر من
اقطاره وتنازعوا امرهم في قطر آخر منه ثم امروا بان يأتوا وسطه على الوجه المذكور وقد
فسر الصف بالمصلى لاجتماع الناس فيه في الاعياد والصلوات ووجه صحته ان يكون علما لموضع
معين من المكان الموعود واما ارادة مصلى من المصليات بعد تعيين المكان الموعود فلا
مساغ لها قطعا وقوله تعالى وقد افلح اليوم من استعلى اعتراض تذييلي من قبلهم مؤكد
لما قبله من الامرين اي قد فاز بالمطلوب من غلب يريدون بالمطلوب ما وعدهم فرعون
من الاجر والتقريب حسبما نطق به قوله تعالى قال نعم وانكم لمن المقربين وبمن غلب انفسهم
جميعا على طريقة قولهم بعزة فرعون انا لنحن الغالبون او من غلب منهم حثا لهم
على بذل المجهود في المغالبة هذا هو اللائق بتجاوب اطراف النظم الكريم وقد قيل
نجواهم ان قالوا حين سمعوا مقالة موسى عليه السلام ما هذا بقول ساحر وقيل كان
ذلك ان قالوا ان غلبنا موسى اتبعناه وقيل كان ذلك قولهم ان كان ساحرا فسنغلبه
وان كان من السماء فله امر فيكون اسرارهم حينئذ من فرعون وملائه ويحمل قولهم
ان هذان لساحران الخ على انهم اختلفوا فيما بينهم على الاقاويل المذكورة ثم رجعوا
عن ذلك بعد التنازع والتناظر واستقرت آراؤهم على ذلك وابوا الا المناصبة للمعارضة
واما جعل ضمير قالوا لفرعون وملائه على انهم قالوا ذلك للسحرة ردا لهم عن الاختلاف
وامروهم بالاجماع والازماع واظهار الجلادة بالاتيان على وجه الاصطفاف فمخل
بجزالة النظم الكريم كما يشهد به الذوق السليم قالوا استئناف مبني على سؤال ناشئ
من حكاية ما جرى بين السحرة من المقاولة كانه قيل فماذا فعلوا بعد ما قالوا فيما بينهم
ما قالوا فقيل قالوا يا موسى وانما لم يتعرض لاجماعهم واتيانهم بطريق الاصطفاف اشعارا
بظهور امرهما وغناهما عن البيان اما ان تلقي اي ما تلقيه اولا على ان المفعول محذوف

لظهوره او تفعل الالقاء اولا على ان الفعل منزل منزلة اللازم واما ان نكون اول من
القى ما يلقيه او اول من يفعل الالقاء خيروه عليه السلام بما ذكر مراعاة للادب لما راوا
منه عليه السلام ما راوا من مخايل الخير ورزانة الرأي واظهارا للجلادة بارائة انه
لا يختلف حالهم بالتقديم والتاخير وان مع ما في حيزها منصوب بفعل مضمر او مرفوع
بخبرية مبتدأ محذوف اي اختر القاءك اولا او القاءنا اولا او الامر اما القاؤك او القاؤنا
قال استئناف كما سلف ناشئ من حكاية تخيير السحرة اياه عليه السلام كانه قيل فماذا قال
عليه السلام فقيل قال بل القوا انتم اولا مقابلة للادب باحسن منه حيث بت
القول بالقائهم اولا واظهارا لعدم المبالاة بسحرهم ومساعدة لما اوهموا من الميل
الى البدء وليبرزوا ما معهم ويستفرغوا اقصى جهدهم ويستنفدوا قصارى وسعهم
ثم يظهر الله عز وجل سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه لما علم ان ما سيظهر
بيده سيلقف ما يصنعون من مكايد السحر فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من
سحرهم انها تسعى الفاء فصيحة معربة عن مسارعتهم الى الالقاء كما في قوله تعالى
فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق اي فالقوا فاذا حبالهم وهي للمفاجأة والتحقيق
انها ظرفية تستدعي متعلقا ينصبها وجملة مضاف اليها لكنها خصت بكون متعلقها
فعل المفاجأة والجملة ابتدائية والمعنى فالقوا ففاجأ موسى وقت ان يخيل اليه سعي
حبالهم وعصيهم من سحرهم وذلك انهم كانوا لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها
الشمس اضطربت واهتزت فخيل اليه انها تتحرك وقرئ تخيل بالتاء على اسناده الى
ضمير الحبال والعصي وابدال انها تسعى منه بدل الاشتمال وقرئ نخيل باسناده اليه تعالى
وقرئ تخيل بحذف احدى التائين من تتخيل فاوجس في نفسه خيفة موسى اي
اضمر فيها بعض خوف من مفاجأته بمقتضى البشرية المجبولة على النفرة من الحيات
والاحتراز من ضررها المعتاد من اللسع ونحوه وقيل من ان يخالج الناس شك فلا يتبعوه
وليس بذاك كما ستعرفه وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل قلنا لا تخف اي ما توهمت
انك انت الاعلى تعليل لما يوجبه النهي من الانتهاء عن الخوف وتقرير لغلبته على ابلغ
وجه وآكده كما يعرب عنه الاستئناف وحرف التحقيق وتكرير الضمير وتعريف الخبر
ولفظ العلو المنبئ عن الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل والق ما في يمينك اي عصاك
كما وقع في سورة الاعراف وانما اوثر الابهام تهويلا لامرها وتفخيما لشأنها وايذانا
بانها ليست من جنس العصا المعهودة المستتبعة للآثار المعتادة بل خارجة عن حدود
سائر افراد الجنس مبهمة الكنه مستتبعة لآثار غريبة وعدم مراعاة هذه النكتة عند
حكاية الامر في موضع آخر لا يستدعي عدم مراعاتها عند وقوع المحكي هذا وحمل
الابهام على التحقير بان يراد لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم والق العويد الذي
في يدك فانه بقدرة الله تعالى يتلقفها مع وحدته وكثرتها وصغره وعظمها يأباه ظهور
حالها فيما مر مرتين على ان ذلك المعنى انما يليق بما لو فعلت العصا ما فعلت وهي على
هيئتها الاصلية وقد كان منها ما كان وقوله تعالى تلقف ما صنعوا بالجزم جوابا
للامر من لقفه اذا ابتلعه والتقمه بسرعة والتأنيث لكون ما عبارة عن العصا اي
تبتلع ما صنعوه من الحبال والعصي التي خيل اليك سعيها وحقيقتها والتعبير عنها بما
صنعوا للتحقير والايذان بالتمويه والتزوير وقرئ تلقف بتشديد القاف واسقاط
احدى التائين من تتلقف وقرئ بالرفع على الحال او الاستئناف والجملة الامرية معطوفة
على النهي متممة بما في حيزها لتعليل موجبه ببيان كيفية غلبته عليه السلام وعلوه فان
ابتلاع عصاه لاباطيلهم التي منها اوجس في نفسه ما اوجس مما يقلع مادته بالكلية
وهذا كما ترى صريح في ان خوفه عليه السلام لم يكن مما ذكر من مخالجة الشك للناس
وعدم اتباعهم له عليه السلام والا لعلل بما يزيله من الوعد بما يوجب ايمانهم و
اتباعهم له وقوله تعالى ان ما صنعوا الخ تعليل لقوله تعالى تلقف ما صنعوا وما اما موصولة او
موصوفة اي ان الذي صنعوه وان شيئا صنعوه كيد ساحر بالرفع على انه خبر لان اي كيد

جنس الساحر وتنكيره للتوسل به الى تنكير ما اضيف اليه للتحقير وقرئ بالنصب على انه مفعول صنعوا
وماكافة وقرئ كيد سحر على ان الاضافة للبيان كما فى علم فقه او على معنى ذى سحر او على
تسمية الساحر سحرا مبالغة وقوله تعالى ولا يفلح الساحر اى هذا الجنس حيث اتى اى حيث
كان واين اقبل من تمام التعليل وعدم التعرض لشأن العصا وكونها معجزة الهية مع ما فى
ذلك من تقوية التعليل للايذان بظهور امرها والفاء فى قوله تعالى فالقى السحرة سجدا كما سلف
فصيحة معربة عن محذوف ينساق اليها النظم الكريم غنيين عن التصريح بهما لعدم احتمال
تردد موسى عليه السلام فى الامتثال بالامر واستحالة عدم وقوع اللقف الموعود اى فالقاه
عليه السلام فوقع ما وقع من اللقف فالقى السحرة سجدا لما تيقنوا ان ذلك ليس من باب السحر
وانما هى آية من آيات الله عز وجل روى ان رئيسهم قال كنا نغلب الناس وكانت الآلات
تبقى علينا فلو كان هذا سحرا فاين ما القيناه من الآلات فاستدل بتغير احوال الاجسام على
الصانع القادر العالم وبظهور ذلك على يد موسى على صحة رسالته لاجرم القاهم ما
شاهدوه على وجوههم وتابوا وآمنوا واتوا بما هو غاية الخضوع قيل لم يرفعوا
رؤسهم حتى راوا الجنة والنار والثواب والعقاب وعن عكرمة لما خروا سجدا اراهم الله
تعالى فى سجودهم منازلهم فى الجنة ولا ينافيه قولهم انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا
الخ لان كون تلك المنازل منازلهم باعتبار صدور هذا القول عنهم قالوا استئناف كما مر
غير مرة آمنا برب هرون وموسى تأخير موسى عند حكاية كلامهم لرعاية الفواصل
وقد جوز ان تكون ترتيب كلامهم ايضا هكذا اما لكبر سن هرون عليه السلام واما
للمبالغة فى الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون وقومه حيث كان فرعون
ربى موسى عليه السلام فى صغره فلو قدموا موسى لربما توهم اللعين وقومه من اول
الامر ان مرادهم فرعون قال اى فرعون للسحرة آمنتم له اى لموسى ع م واللام
لتضمين الفعل معنى الاتباع وقرئ على الاستفهام التوبيخى قبل ان آذن لكم اى
من غير ان آذن لكم فى الايمان كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى لا ان اذنه
لهم فى ذلك واقع بعده او متوقع انه يعنى موسى عليه السلام لكبيركم اى فى فنكم
واعلمكم به واستاذكم الذى علمكم السحر فتواطأتم على ما فعلتم او فعلكم شيئا
دون شئ فلذلك غلبكم وهذه شبهة زورها اللعين والقاها على قومه واراهم ان امر
الايمان منوط باذنه فلما كان ايمانهم بغير اذنه لم يكن معتدا به وانهم من تلامذته ع م
فلا عبرة بما اظهره كما لا عبرة بما اظهروه وذلك لما اعتراهم من الخوف من اقتداء الناس بالسحرة
فى الايمان بالله تعالى ثم اقبل عليهم بالوعيد المؤكد حيث قال فلاقطعن اى فوالله لاقطعن
ايديكم وارجلكم من خلاف اى اليد اليمنى والرجل اليسرى ومن ابتدائية كان القطع
ابتداء من مخالفة العضو العضو فان المبتدى من المعروض مبتدى من العارض ايضا وهى
مع مجرورها فى حيز النصب على الحالية اى لاقطعنها مختلفات وتعيين تلك الحال للايذان
بتحقيق الامر وايقاعه لا محالة بتعيين كيفيته المعهودة فى باب السياسة لا لانها اقطع
من غيرها ولاصلبنكم فى جذوع النخل اى عليها وايثار كلمة فى للدلالة على ابقائهم
عليها زمانا مديدا تشبيها لاستمرارهم عليها باستقرار المظروف فى الظرف المشتمل عليه
قالوا هو اول من صلب وصيغة التفعيل فى الفعلين للتكثير وقد قرئا بالتخفيف
ولتعلمن اينا يريد به نفسه وموسى عليه السلام لقوله تعالى آمنتم له قبل ان آذن لكم
واللام مع الايمان فى كتاب الله تعالى وهذا اما لقصد توضيع موسى عليه السلام والهزء
به لانه لم يكن من التعذيب فى شئ واما لاراءة ان ايمانهم لم يكن عن مشاهدة المعجزة
ومعاينة البرهان بل كان عن خوف من قبل موسى ع م حيث رأوا ابتلاع عصاه لحبالهم
وعصيهم فخافوا عن انفسهم ايضا وقيل يريد به رب موسى الذى آمنوا به بقولهم آمنا
برب هرون وموسى اشد عذابا وابقى اى ادوم قالوا غير مكترثين بوعيده لن نؤثرك
لن نختارك بالايمان والاتباع على ما جاءنا من الله تعالى على يد موسى عليه السلام من
البينات من المعجزات الظاهرة فان ما ظهر بيده ع م من العصا كان مشتملا على معجزات

جمة

جمة كما مر تحقيقه فيما سلف فانهم كانوا عارفين بجلائلها ودقائقها والذى فطرنا
اى خلقنا وسائر المخلوقات وهو عطف على ما جاءنا وتأخيره لان ما فى ضمنه آية عقلية
نظرية وما شاهدوه آية حسية ظاهرة وايراده تعالى بعنوان فاطريته تعالى لهم
للاشارة بعلة الحكم فان خالقيته تعالى لهم وكون فرعون من جملة مخلوقاته مما
يوجب عدم ايثارهم له عليه سبحانه وتعالى وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعون بقوله
آمنتم له قبل ان آذن لكم وقيل هو قسم محذوف الجواب لدلالة المذكور عليه اى و
حق الذى فطرنا لا نؤثرك الخ ولا مساغ لكون المذكور جوابا له عند من جوز تقديم
الجواب ايضا لما ان القسم لا يجاب بلن الا على شذوذ وقوله تعالى فاقض ما انت قاض
جواب عن تهديده بقوله لاقطعن الخ اى فاصنع ما انت صانعه او فاحكم ما انت حاكم
به وقوله تعالى انما تقضى هذه الحيوة الدنيا مع ما بعده تعليل لعدم المبالاة المستفاد مما
سبق من الامر بالقضاء اى انما تصنع ما تهواه او تحكم بما تراه فى هذه الحيوة الدنيا
فحسب وما لنا من رغبة فى عذبها ولا رهبة من عذابها انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا
التى اقترفناها من الكفر والمعاصى ولا يؤاخذنا بها فى الدار الآخرة لا ليمتعنا بتلك
الحيوة الفانية حتى نتأثر بما اوعدتنا به من القطع والصلب وقوله تعالى وما اكرهتنا
عليه من السحر عطف على خطايانا اى ويغفر لنا السحر الذى عملناه فى معارضة موسى عليه
السلام باكراهك وحشرك ايانا من المدائن القاصية خصوه بالذكر مع اندراجه فى
خطاياهم اظهارا لغاية نفرتهم عنه ورغبتهم فى مغفرته وذكر الاكراه للايذان بانه
مما يجب ان يفرد بالاستغفار منه مع صدوره عنهم بالاكراه وفيه نوع اعتذار لاستجلاب
المغفرة وقيل اراد الاكراه على تعلم السحر حيث روى ان رؤساهم كانوا اثنين
وسبعين اثنان منهم من القبط والباقى من بنى اسرائيل وكان فرعون اكرههم على تعلم
السحر وقيل انه اكرههم على المعارضة حيث روى انهم قالوا لفرعون ارنا موسى نائما
ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ما هذا بسحر فان الساحر اذا نام بطل سحره فابى
الا ان يعارضوه ويأباه تصديهم للمعارضة على الرغبة والنشاط كما يعرب عنه قولهم
اين لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين وقولهم بعزة فرعون انا لنحن الغالبون والله خير
اى فى حد ذاته وهو ناظر الى قولهم والذى فطرنا وابقى اى جزاء ثوابا كان او عذابا
او خير ثوابا وابقى عذابا وقوله تعالى انه الى آخر الشرطيتين تعليل من جهتهم لكونه تعالى
خيرا وابقى وتحقيق له وابطال لما ادعاه فرعون وتصديرهما بضمير الشان للتنبيه على فخامة
مضمونها لان مناط وضع الضمير موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره مع ما فيه من
زيادة التقرير فان الضمير لا يفهم منه من اول الامر الا شان مبهم له خطر فيبقى
الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن كانه قيل ان الشان الخطير
هذا اى حق له تعالى من يأت ربه مجرما بان مات على الكفر والمعاصى فان له جهنم لا يموت
فيها فينتهى عذابه وهذا تحقيق لكون عذابه ابقى ولا يحيى حيوة ينتفع بها ومن يأته
مؤمنا به تعالى وبما جاء من عنده من المعجزات التى من جملتها ما شاهدناه قد عمل الصالحات
الصالحة كالحسنة جارية مجرى الاسم ولذلك لا يذكر غالبا مع الموصوف وهى كل
ما استقام من الاعمال بدليل العقل والنقل فاولئك اشارة الى من والجمع باعتبار
معناها كما ان الافراد فى الفعلين السابقين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد
للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فاولئك المؤمنون العاملون للصالحات لهم بسبب
ايمانهم واعمالهم الصالحة الدرجات العلى اى المنازل الرفيعة وليس فيه ما يدل على
عدم اعتبار الايمان المجرد عن العمل الصالح فى استتباع الثواب لان ما نيط بالايمان المقرون بالاعمال
الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى لا بالثواب مطلقا وهل التشاجر الا فيه جنات
عدن بدل من الدرجات العلى او بيان وقد مر ان عدنا علم لمعنى الاقامة او لارض الجنة
فقوله تعالى تجرى من تحتها الانهار حال من الجنات وقوله تعالى خالدين فيها حال من
الضمير فى لهم والعامل معنى الاستقرار او الاشارة وذلك اشارة الى ما اتيح لهم من الفوز بما

ذكر من الدرجات العلى ومعنى البعد لما مر من التفخيم جزاء من تزكى اي تطهر من دنس
الكفر والمعاصي بما ذكر من الايمان والاعمال الصالحة وهذا تحقيق لكون ثوابه ابقى وتقديم
ذكر حال المجرم للمسارعة الى بيان اشدية عذابه ودوامه ردا على ما ادعاه فرعون بقوله
اينا اشد عذابا وابقى هذا وقد قيل هذه الايات الثلاث ابتداء كلام من الله عز وجل
قالوا ليس في القرآن ان فرعون فعل باولئك المؤمنين ما اوعدهم به ولم يثبت في الاخبار
ولقد اوحينا الى موسى حكاية اجمالية لما انتهى اليه امر فرعون وقومه وقد طوى في البين
ذكر ما جرى عليهم من الآيات المفصلات الظاهرة على يدي موسى عليه السلام بعد ما غلب
السحرة في نحو من عشرين سنة حسبما فصل في سورة الاعراف وتصديرها بالقسم لابراز
كمال العناية بمضمونها وان في قوله تعالى ان اسر بعبادي اما مفسرة لان الوحي فيه معنى
القول او مصدرية حذف عنها الجار والتعبير عنهم بعنوان كونهم عباد الله تعالى لاظهار
المرحمة والاعتناء بامرهم والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون بهم حيث استعبدهم وهم
عباده عز وجل وفعل بهم من فنون الظلم ما فعل اي قد بالله لقد اوحينا اليه عليه السلام
ان اسر بعبادي الذين ارسلتك لانقاذهم من ملكة فرعون اي سر بهم من مصر
ليلا فاضرب لهم اي فاجعل او فاتخذ لهم طريقا في البحر يبسا اي يابسا على انه
مصدر وصف به الفاعل مبالغة وقرئ يبسا وهو اما مخفف منه او وصف كصعب
او جمع يابس كصحب وصف به الواحد للمبالغة او لتعدده حسب تعدد الاسباط لا
تخاف دركا حال من المأمور اي امنا من ان يدرككم العدو او صفة اخرى لطريقا
والعائد محذوف وقرئ لا تخف جوابا للامر ولا تخشى عطف على لا تخاف داخل
في حكمه اي ولا تخشى الغرق وعلى قراءة الجزم استيناف اي وانت لا تخشى او عطف عليه
والالف للاطلاق كما في قوله تعالى وتظنون بالله الظنونا وتقديم نفي الخوف المذكور
للمسارعة في المسارعة الى ازاحة ما كانوا عليه من الخوف العظيم حيث قالوا انا لمدركون
فاتبعهم فرعون بجنوده اي تبعهم ومعه جنوده حتى لحقوهم يقال اتبعتهم اي تبعتهم
وذلك اذا كانوا سبقوك فلحقتهم ويؤيده انه قرئ فاتبعهم من الافتعال وقيل المعنى
اتبعهم فرعون نفسه فحذف المفعول الثاني وقيل الباء زائدة والمعنى فاتبعهم فرعون
جنوده اي ساقهم خلفهم وايا ما كان فالفاء فصيحة معربة عن مضمر قد طوى ذكره
ثقة بغاية ظهوره وايذانا بكمال مسارعة موسى عليه السلام الى الامتثال بالامر اي ففعل
ما امر به من الاسراء بهم وضرب الطريق وسلوكه فاتبعهم فرعون بجنوده برا وبحرا
روي ان موسى عليه السلام خرج بهم اول الليل وكانوا ستمائة وسبعين الفا فاخبر
فرعون بذلك فاتبعهم بعساكره وكانت مقدمته سبعمائة الف فقص اثرهم فلحقهم بحيث
تراءى الجمعان فعند ذلك ضرب عليه السلام بعصاه البحر فانفلق على اثني عشر فرقا كل
فرق كالطود العظيم فعبر موسى عليه السلام بمن معه من الاسباط سالمين وتبعهم
فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم اي علاهم منه وغمرهم ما غمرهم
من الامر الهائل الذي لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه وقيل غشيهم ما سمعت قصته
وليس بذاك فان مدار التهويل والتفخيم خروجه عن حدود الفهم والوصف لا سماع
قصته وقرئ فغشاهم من اليم ما غشاهم اي غطاهم والفاعل هو الله عز وجل او
ما غشاهم او فرعون لانه الذي ورطهم للهلكة وياباه الاظهار في قوله تعالى واضل
فرعون قومه اي سلك بهم مسلكا اداهم الى الخيبة والخسران في الدين والدنيا معا حيث ماتوا
على الكفر بالعذاب الهائل الدنيوي المتصل بالعذاب الخالد الاخروي وقوله تعالى وما هدى
اي ما ارشدهم قط الى طريق موصل الى مطلب من المطالب الدينية تقرير لاضلاله
وتاكيد له اذ رب مضل قد يرشد من يضله الى بعض مطالبه وفيه نوع تهكم به في
قوله تعالى وما اهديكم الا سبيل الرشاد فان نفي الهداية من شخص مشعر بكونه ممن
يتصور منه الهداية في الجملة وذلك انما يتصور في حقه بطريق التهكم وحمل الاضلال
والهداية على ما يختص بالديني منهما ياباه مقام بيان سوقه لجنوده الى مساق الهلاك

الدنيوي وجعلهما عبارة عن الاضلال في البحر والانجاء منه مما لا يقبله العقل السليم يا بني
اسرائيل حكاية لما خاطبهم الله تعالى بعد اغراق فرعون وقومه وانجائهم منهم لكن
لا عقيب ذلك بل بعد ما افاض عليهم من فنون النعم الدينية والدنيوية ما افاض و
قيل هو انشاء خطاب للذين كانوا منهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم على معنى انه
تعالى قد من عليهم بما فعل بآبائهم اصالة وبهم تبعا ويرده ما سياتي من قوله تعالى
وما اعجلك الآية ضرورة استحالة حمله على الانشاء فالوجه سوق الحكاية بتقدير قلنا
عطفا على اوحينا اي وقلنا يا بني اسرائيل قد انجيناكم من عدوكم فرعون وقومه
حيث كانوا يبغونكم الغوائل ويسومونكم سوء العذاب يذبحون ابناءكم ويستحيون
نساءكم وقرئ نجيناكم ونجيتكم وواعدناكم جانب الطور الايمن بالنصب على
انه صفة للمضاف وقرئ بالجر للجوار اي واعدناكم بواسطة نبيكم اتيان جانبه
الايمن نظرا الى السالك من مصر الى الشام اي اتيان موسى عليه السلام للمناجاة و
انزال التوراة عليه ونسبة المواعدة اليهم مع كونها لموسى عليه السلام خاصة او له
وللسبعين المختارين نظرا الى ملابستها اياهم وسراية منفعتها اليهم وابقاء لمقام
الامتنان حقه كما في قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم حيث نسب الخلق
والتصوير الى المخاطبين مع ان المخلوق والمصور بالذات هو آدم عليه السلام و
قرئ واعدتكم ووعدناكم ونزلنا عليكم المن والسلوى اي الترنجبين و
السماني حيث كان ينزل عليهم وهم في التيه مثل الثلج من الفجر الى الطلوع لكل
انسان صاع ويبعث الجنوب عليهم السماني فيذبح الرجل منه ما يكفيه كما مر مرارا
كلوا جملة مستانفة مسوقة لبيان اباحة ما ذكر لهم واتمام للنعمة عليهم من
طيبات ما رزقناكم من لذائذه او حلالاته وقرئ رزقتكم وفي البدء بنعمة الانجاء
ثم بالنعمة الدينية ثم بالنعمة الدنيوية من حسن النظم ولطف الترتيب ما لا يخفى
ولا تطغوا فيه اي فيما رزقناكم بالاخلال بشكره والتعدي لما حد لكم فيه كالسرف
والبطر والمنع من المستحق فيحل عليكم غضبي جواب للنهي اي فيلزمكم عقوبتي و
يجب لكم من حل الدين اذا وجب اداؤه ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى اي
تردى وهلك وقيل وقع في الهاوية وقرئ فيحل بضم الحاء من حل يحل اذا نزل
واني لغفار لمن تاب من الشرك والمعاصي التي من جملتها الطغيان فيما ذكر وآمن
بما يجب الايمان به وعمل صالحا اي عملا صالحا مستقيما عند الشرع والعقل وفيه ترغيب
لمن وقع منه الطغيان فيما ذكر وحث على التوبة والايمان وقوله تعالى ثم اهتدى اي
استقام على الهدى اشارة الى ان من لم يستمر عليه بمعزل من الغفران وثم للتراخي
الرتبي وما اعجلك عن قومك يا موسى حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه
السلام من الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجب المواعدة المذكورة اي وقلنا
له اي شيء اعجلك منفردا عن قومك وهذا كما ترى سؤال عن سبب تقدمه على النقباء مسوق
لانكار انفراده عنهم لما في ذلك بحسب الظاهر من مخايل اغفاله لهم وعدم الاعتداد
بهم مع كونه مأمورا باستصحابهم واحضارهم معه لا لانكار نفس العجلة
الصادرة عنه عليه السلام لكونها نقيصة منافية للجزم اللائق باولي العزم و
لذلك اجاب عليه السلام بنفي الانفراد المنافي للاستصحاب والمعية حيث قال هم
اولاء على اثري يعني انهم معي وانما سبقتهم بخطى يسيرة ظننت انها لا تخل
بالمعية ولا تقدح في الاستصحاب فان ذلك مما لا يعتد به فيما بين الرفقة اصلا
وبعد ما ذكر ع م ان تقدمه ذلك ليس لامر منكر ذكر انه لامر مرضي حيث قال وعجلت
اليك رب لترضى عني بمسارعتي الى الامتثال بامرك واعتنائي بالوفاء بعهدك وزيادة
رب لمزيد الضراعة والابتهال رغبة في قبول العذر قال استيناف مبني على سؤال نشأ
من حكاية اعتذاره ع م وهو السر في وروده على صيغة الغائب لا انه التفات
من التكلم الى الغيبة لما ان المقدر فيما سبق من الموضعين على صيغة التكلم كانه قيل

جهة السامعين فماذا قال له ربه حينئذ فقيل قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك أي
ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم وهم الذين خلفهم مع هرون
عليه السلام وكانوا ستمائة ألف ما نجى منهم من عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفا والفاء
لترتيب الإخبار بما ذكر من الابتلاء على إخبار موسى عليه السلام بعجلته لكن لا لأن
الإخبار بها سبب موجب للإخبار به بل لما بينهما من المناسبة المصححة للانتقال من
أحدهما إلى الآخر من حيث أن مدار الابتلاء المذكور عجلة القوم فإنه روي أنهم أقاموا
على ما وصى به موسى عليه السلام عشرين ليلة بعد ذهابه فحسبوها مع أيامها أربعين
وقالوا قد أكملنا العدة وليس من موسى عين ولا أثر وأضلهم السامري
حيث كان هو المدبر في الفتنة فقال لهم إنما أخلف موسى عليه السلام ميعادكم لما معكم
من حلي وهو حرام عليكم فكان من أمر العجل ما كان فأخبر تعالى بوقوع هذه الفتنة عند
قدومه إما باعتبار تحققها في علمه تعالى ومشيئته وإما بطريق التعبير عن المتوقع
بالواقع كما في قوله تعالى ونادى أصحاب الجنة ونظائره أو لأن السامري كان قد عزم على
إيقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه السلام وتصدى لترتيب مباديها وتمهيد مبانيها
فكانت الفتنة واقعة عند الإخبار بها وقرئ وأضلهم السامري على صيغة التفضيل
أي أشدهم ضلالا لأنه ضال ومضل والسامري منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل
يقال لها السامرة وقيل كان علجا من كرمان وقيل من أهل باجرما واسمه موسى بن ظفر
وكان منافقا قد أظهر الإسلام وكان من قوم يعبدون البقر فرجع موسى إلى قومه
عند رجوعه المعهود أي بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة لا عقيب الإخبار
بالفتنة فسببية ما قبل الفاء لما بعدها إنما هي باعتبار قيد الرجوع المستفاد من قوله
تعالى غضبان أسفا لا باعتبار نفسه وإن كانت داخلة عليه حقيقة فإن كون الرجوع بعد
تمام الأربعين أمر مقرر مشهور لا يذهب الوهم إلى كونه عند الإخبار بالفتنة كما
إذا قلت شايعت الحجاج ودعوت لهم بالسلامة فرجعوا سالمين فإن أحدا لا يرتاب
في أن المراد رجوعهم المعتاد إثر الدعاء وأن سببية الدعاء باعتبار وصف السلامة
لا باعتبار نفس الرجوع والأسف الشديد الغضب وقيل الحزين قال استئناف مبني
على سؤال ناشئ من حكاية رجوعه كذلك كأنه قيل فماذا فعل بهم فقيل قال يا قوم
ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا بأن يعطيكم التوراة فيها ما فيها من النور والهدى
والهمزة لإنكار عدم الوعد ونفيه وتقرير وجوده على أبلغ وجه وآكده أي وعدكم
بحيث لا سبيل لكم إلى إنكاره والفاء في قوله تعالى أفطال عليكم العهد أي الزمان
للعطف على مقدر والهمزة لإنكار المعطوف ونفيه فقط أي أوعدكم ذلك فطال
زمان الإنجاز فأخطأتم بسببه أم أردتم أن يحل أي يجب عليكم غضب شديد
لا يقادر قدره كائن من ربكم أي من مالك أمركم على الإطلاق فأخلفتم موعدي
أي وعدكم إياي بالثبات على أمرتكم به إلى أن أرجع من الميقات من إضافة المصدر
إلى مفعوله للقصد إلى زيادة تقبيح حالهم فإن إخلافهم الوعد الجاري فيما بينهم و
بينه عليه السلام من حيث إضافته إليه عليه السلام أشنع منه من حيث إضافته
إليهم والفاء لترتيب ما بعدها على كل واحد من شقي الترديد على سبيل البدل كأنه قيل
أنسيتم الوعد بطول العهد فأخلفتموه خطأ أم أردتم حلول الغضب عليكم فأخلفتموه
عمدا وأما جعل الموعد مضافا إلى فاعله وحمل إخلافه على معنى وجدان الخلف فيه أي
فوجدتم الخلف في موعدي لكم بالعود بعد الأربعين فمما لا يساعده السباق ولا السياق
أصلا قالوا ما أخلفنا موعدك أي وعدنا إياك الثبات على ما أمرتنا به وإيثاره
على أن يقال موعدنا على إضافة المصدر إلى فاعله لما مر آنفا بملكنا أي بأن ملكنا
أمورنا يعنون أنا لو خلينا وأمورنا ولم يسول لنا السامري ما سوله مع مساعدة
بعض الأحوال لما أخلفناه وقرئ بملكنا بكسر الميم وضمها والكل لغات في مصدر ملكت
الشيء ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم استدراك عما سبق واعتذار عما فعلوا

ببيان

ببيان منشأ الخطأ وقرئ حملنا بالتخفيف أي حملنا أحمالا من حلي القبط التي استعرناها
منهم حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس وقيل كانوا استعاروها لعيد كان لهم
ثم لم يردوها إليهم عند الخروج مخافة أن يقفوا على أمرهم وقيل هي ما ألقاه البحر
على الساحل بعد إغراقهم فأخذوها ولعل تسميتهم لها أوزارا لأنها تبعات وآثام
حيث لم تكن الغنائم تحل حينئذ فقذفناها أي في النار رجاء للخلاص عن ذنبها
فكذلك أي فمثل ذلك القذف ألقى السامري أي ما كان معه منها وقد كان أراهم
أنه أيضا يلقي ما كان معه من الحلي فقالوا ما قالوا على زعمهم وإنما كان الذي ألقاه
التربة التي أخذها من أثر الرسول كما سيأتي روي أنه قال لهم إنما تأخر موسى
عنكم لما معكم من الأوزار فالرأي أن نحفر حفيرة ونسجر فيها نارا ونقذف فيها كل
ما معنا ففعلوا فأخرج أي السامري لهم للقائلين عجلا من تلك الحلي المذابة
وتأخيره مع كونه مفعولا صريحا عن الجار والمجرور لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم
والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم
فإن قوله تعالى جسدا أي جثة ذا دم ولحم أو جسدا من ذهب لا روح له بدل
منه وقوله تعالى له خوار أي صوت عجل نعت له فقالوا أي السامري ومن افتتن
به أول ما رآه هذا إلهكم وإله موسى فنسي أي غفل عنه وذهب يطلبه في
الطور وهذا حكاية لنتيجة فتنة السامري فعلا وقولا من جهته تعالى قصدا إلى زيادة
تقريرها ثم ترتيب الإنكار عليها لا من جهة القائلين وإلا لقيل فأخرج لنا والحمل
على أن عدولهم إلى ضمير الغيبة لبيان أن الإخراج والقول المذكورين للكل لا للعبدة فقط
خلاف الظاهر مع أنه مخل باعتذارهم فإن مخالفة بعضهم للسامري وعدم
افتتانهم بتسويله مع كون الإخراج والخطاب لهم مما يهون مخالفته للمعتذرين
فافتتانهم بعد ذلك أعظم جناية وأكثر شناعة وأما ما قيل من أن المعتذرين هم الذين
لم يعبدوا العجل وأن نسبة الإخلاف إلى أنفسهم وهم برآء منه من قبيل قولهم بنو
فلان قتلوا فلانا مع أن القاتل واحد منهم كأنهم قالوا ما وجد الإخلاف فيما بيننا
بأمر كنا نملكه بل تمكنت الشبهة في قلوب العبدة حيث فعل السامري ما فعل فأخرج لهم
ما أخرج وقال ما قال فلم نقدر على صرفهم عن ذلك ولم نفارقهم مخافة ازدياد
الفتنة فيقضي بفساده سباق النظم الكريم وسياقه وقوله تعالى أفلا يرون إلخ إنكار و
تقبيح من جهته تعالى لحال الضالين والمضلين جميعا وتسفيه لهم فيما أقدموا عليه
من المنكر الذي لا يشتبه بطلانه واستحالته على أحد وهو اتخاذه إلها والفاء للعطف
على مقدر يقتضيه المقام أي ألا يتفكرون فلا يعلمون أن لا يرجع إليهم قولا أي أنه
لا يرجع إليهم كلاما ولا يرد عليهم جوابا فكيف يتوهمون أنه إله وقرئ يرجع بالنصب
قالوا فالرؤية حينئذ بصرية فإن أن الناصبة لا تقع بعد أفعال اليقين أي ألا ينظرون
فلا يبصرون عدم رجعه إليهم قولا من الأقوال وتعليق الإبصار بما ذكر مع كونه أمرا
عدميا للتنبيه على كمال ظهوره المستدعي لمزيد تشنيعهم وتركيك عقولهم وقوله تعالى
ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا عطف على لا يرجع داخل معه في حيز الرؤية أي أفلا
يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضرا أو يجلب لهم نفعا ولا يقدر على أن يضرهم
إن لم يعبدوه أو ينفعهم إن عبدوه ولقد قال لهم هرون من قبل جملة قسمية
مؤكدة لما قبلها من الإنكار والتشنيع ببيان عتوهم واستعصائهم على الرسول إثر
بيان مكابرتهم لقضية العقول أي وبالله لقد نصح لهم هرون ونبههم على كنه الأمر
من قبل رجوع موسى عليه السلام إليهم وخطابه إياهم بما ذكر من المقالات وقيل
من قبل قول السامري كأنه عليه السلام أول ما أبصره حين طلع من الحفيرة توهم
منهم الافتتان به فسارع إلى تحذيرهم وقال لهم يا قوم إنما فتنتم به أي أوقعتم
في الفتنة بالعجل أو أضللتم به على توجيه القصر المستفاد من كلمة إنما إلى نفس الفعل بالقياس
أي مقابله الذي يدعيه القوم لا إلى قيده المذكور بالقياس إلى قيد آخر على معنى إنما فعل بكم الفتنة

لا الارشاد الى الحق لا على معنى انما فتنتم بالعجل لا بغيره وقوله تعالى وان ربكم الرحمن بكسر
ان عطفا على انما ارشاد لهم الى الحق اثر زجرهم عن الباطل والتعرض لعنوان الربوبية
والرحمة للاعتناء باستمالتهم الى الحق كما ان التعرض لوصف العجل للاهتمام بالزجر عن الباطل
اى ان ربكم المستحق للعبادة هو الرحمن لا غير والفاء فى قوله تعالى فاتبعونى لترتيب ما
بعدها على ما قبلها من مضمون الجملتين اى اذا كان الامر كذلك فاتبعونى فى الثبات
على الدين واطيعوا امرى هذا واتركوا عبادة ما عرفتم شانه قالوا فى جواب هرون
عليه السلام لن نبرح عليه على العجل وعبادته عاكفين مقيمين حتى يرجع الينا موسى
جعلوا رجوعه عم اليهم غاية لعكوفهم على عبادة العجل لكن لا على طريق الوعد
بتركها عند رجوعه عليه السلام بل بطريق التعلل والتسويف وقد دسوا تحت ذلك
انه عليه السلام لا يرجع بشئ مبين تعويلا على مقالة السامرى روى انهم لما قالوه اعتزلهم
هرون عليه السلام فى اثنى عشر الفا وهم الذين لم يعبدوا العجل فلما رجع موسى عم و
سمع الصياح وكانوا يرقصون حول العجل قال للسبعين الذين كانوا معه هذا صوت الفتنة
فقال لهم ما قال وسمع منهم ما قالوا وقوله تعالى قال استيناف مبنى على سؤال نشا من
حكاية جوابهم لهرون كانه قيل فماذا قال موسى لهرون حين سمع جوابهم له وهل رضى
بسكوته بعد ما شاهد منهم فقيل قال له وهو مغتاظ قد اخذ بلحيته وراسه
يا هرون ما منعك اذ رايتهم ضلوا بعبادة العجل وبلغوا من المكابرة الى ان شافهوك
بتلك المقالة الشنعاء الا تتبعنى اى ان تتبعنى على ان لا مزيدة وهو مفعول ثان لمنع
وعامل فى اذا اى منعك حين رؤيتك لضلالهم من ان تتبعنى فى الغضب لله تعالى
والمقاتلة مع من كفر به وقيل المعنى ما حملك على ان لا تتبعنى فان المنع عن الشئ مستلزم للحمل
على مقابله وقيل ما منعك ان تلحقنى وتخبرنى بضلالهم فيكون مفارقتك مزجرة
لهم وفيه ان نصايح هرون حيث لم يزجرهم عما كانوا عليه فلان لا يزجرهم مفارقته اياهم
عنه اولى والاعتذار بانهم اذا علموا انه يلحقه ويخبره عليهما السلام بالقصة يخافون
رجوع موسى عليه السلام فينزجرون عن ذلك بمعزل من حيز القبول كيف لا وقد صرحوا
بانهم عاكفون عليه الى حين رجوعه عليه السلام افعصيت امرى اى بالصلابة
فى الدين والمحاماة عليه فان قوله له عليهما السلام اخلفنى متضمن للامر بهما حتما فان
الخلافة لا تتحقق الا بمباشرة الخليفة ما كان يباشره المستخلف لو كان حاضرا والهمزة
للانكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى الم تتبعنى او اخالفتنى
فعصيت امرى قال يا ابن ام خص الام بالاضافة استعطافا لحقها وترقيقا لقلبه
لا لما قيل من انه كان اخاه لام فان الجمهور على انهما كانا شقيقين لا تاخذ بلحيتى
ولا براسى اى بشعر راسى روى انه عليه السلام اخذ شعر راسه بيمينه ولحيته
بشماله من شدة غيظه وفرط غضبه لله تعالى وكان حديدا متصلبا فى كل شئ فلم يتمالك
حين راهم يعبدون العجل ففعل ما فعل وقوله تعالى انى خشيت الخ استيناف سيق لتعليل
موجب النهى ببيان الداعى الى ترك المقاتلة وتحقيق انه غير عاص لامره بل ممتثل
به اى انى خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض وتفانوا وتفرقوا ان تقول فرقت بين
بنى اسرائيل برايك مع كونهم ابناء واحد كما ينبئ عنه ذكرهم بذلك العنوان دون
القوم ونحوه واراد بالتفريق ما يستتبعه القتال من التفريق الذى لا يرجى بعده
الاجتماع ولم ترقب قولى يريد به قوله اخلفنى فى قومى واصلح الخ يعنى انى رايت
ان الاصلاح فى حفظ الدهماء والمداراة معهم الى ان ترجع اليهم فلذلك استانيتك
لتكون انت المتدارك للامر حسبما رايت لا سيما وقد كانوا فى غاية القوة ونحن على
القلة والضعف كما يعرب عنه قوله تعالى ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى قال استيناف
وقع جوابا عما نشا من حكاية ما سلف من اعتذار القوم باسناد الفساد الى السامرى و
اعتذار هرون عليه السلام كانه قيل فماذا صنع موسى بعد سماع ما حكى من الاعتذارين
واستقرار اصل الفتنة على السامرى فقيل قال موبخا هذا شانهم فما خطبك يا سامرى

اى ما شانك وما مطلوبك مما فعلت خاطبه عليه السلام بذلك ليظهر للناس بطلان كيده
باعترافه ويفعل به وبما صنعه من العقاب ما يكون نكالا للمفتونين به ولمن خلفهم من
الامم قال اى السامرى مجيبا له عليه السلام بصرت بما لم يبصروا به بضم الصاد
فيهما وقرئ بكسرها فى الاول وفتحها فى الثانى وقرئ بالتاء على الوجهين على خطاب موسى
عليه السلام وقومه اى علمت ما لم يعلمه القوم وفطنت ما لم يفطنوا له او رايت ما لم
يروه وهو الانسب بما سياتى من قوله وكذلك سولت لى نفسى لا سيما على القراءة بالخطاب
فان ادعاء علم ما لم يعلمه موسى عليه السلام جراءة عظيمة لا يليق بشانه ولا بمقامه
بخلاف ادعاء رؤية ما لم يره عليه السلام فانها مما يقع بحسب ما يتفق وقد كان
راى ان جبريل عليه السلام جاء راكب الفرس وكان كلما رفع الفرس يديه او رجليه
على الطريق اليبس يخرج من تحته النبات فى الحال فعرف ان له شانا فاخذ من موطئه
حفنة وذلك قوله تعالى فقبضت قبضة من اثر الرسول وقرئ من اثر فرس الرسول اى
من تربة موطئ فرس الملك الذى ارسل اليك ليذهب بك الى الطور ولعل ذكره بعنوان
الرسالة للاشعار بوقوفه على ما لم يقف عليه القوم من الاسرار الالهية تاكيدا لما صدر به
مقالته والتنبيه على وقت اخذ ما اخذه والقبضة المرة من القبض اطلقت على المقبوض مرة
وقرئ بضم القاف وهو اسم المقبوض كالغرفة والمضغة وقرئ فقبصت قبصة بالصاد
المهملة والاول للاخذ بجميع الكف والثانى باطراف الاصابع ونحوهما الخضم والقضم
فنبذتها اى فى الحلى المذابة فكان ما كان وكذلك سولت لى نفسى اى ما فعلته من
القبض والنبذ فقوله تعالى ذلك اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده ومحل الكاف فى
الاصل النصب على انه مصدر تشبيهى اى نعت لمصدر محذوف والتقدير سولت لى نفسى تسويلا
كائنا مثل ذلك التسويل فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة لافادة
تاكيد ما افاده اسم الاشارة من الفخامة فصار نفس المصدر لا نعتا له اى ذلك
التزيين البديع زينت لى نفسى ما فعلته لا تزيينا ادنى منه ولذلك فعلته وحاصل جوابه
ان ما فعله انما صدر عنه بمحض اتباع هوى النفس الامارة بالسوء واغوائها لا بشئ آخر
من البرهان العقلى او الالهام الالهى فعند ذلك قال عم فاذهب اى من بين الناس وقوله
تعالى فان لك فى الحيوة الخ تعليل لموجب الامر وفى متعلقة بالاستقرار فى لك اى ثابت
لك فى الحيوة او بمحذوف وقع حالا من الكاف والعامل معنى الاستقرار فى الظرف
المذكور لاعتماده على ما هو مبتدا معنى لا بقوله تعالى ان تقول لا مساس لمكان ان اى ثابت
لك كائنا فى الحيوة اى مدة حيوتك ان تفارقهم مفارقة كلية لكن لا بحسب الاختيار
بموجب التكليف بل بحسب الاضطرار الملجئ اليها وذلك انه تعالى رماه بداء عقام لا يكاد
يمس احدا او يمسه احد كائنا من كان الا حما من ساعته حمى شديدة فتحامى الناس و
تحاموه وكان يصيح باقصى طوقه لا مساس وحرم عليهم ملاقاته ومواجهته ومكالمته
ومبايعته وغيرها مما يعتاد جريانه فيما بين الناس من المعاملات وصار بين الناس
اوحش من القاتل اللاجئ الى الحرم ومن الوحش النافر فى البرية ويقال ان قومه باق
فيهم تلك الحالة الى اليوم وقرئ لا مساس كفجار وهو علم للمسة ولعل السر فى مقابلة جنايته
بتلك العقوبة خاصة ما بينهما من مناسبة التضاد فانه لما انشا الفتنة بما كانت ملابسته
سببا لحيوة الموات عوقب بما يضاده حيث جعلت ملابسته سببا للحمى التى هى من اسباب
موت الاحياء وان لك موعدا اى فى الآخرة لن تخلفه اى لن يخلفك الله ذلك الوعد
بل ينجزه لك البتة بعد ما عاقبك فى الدنيا وقرئ بكسر اللام والاظهر انه من اخلفت
الموعد اى وجدته خلفا وقرئ بالنون على حكاية قول الله عز وجل وانظر الى الهك الذى
ظلت عليه عاكفا اى ظلت مقيما على عبادته فحذفت اللام الاولى تخفيفا وقرئ بكسر
الظاء بنقل حركة اللام اليها لنحرقنه جواب قسم محذوف اى بالنار ويؤيده قراءة
لنحرقنه من الاحراق وقيل بالمبرد على انه مبالغة فى حرق اذا برد بالمبرد ويعضده قراءة
لنحرقنه ثم لننسفنه اى لنذرينه وقرئ بضم السين فى اليم رمادا او مبرودا

كانه هباء نسفا بحيث لا يبقى منه عين ولا اثر ولقد فعل عليه السلام ذلك كله حينئذ كما
يشهد به الامر بالنظر وانما لم يصرح به تنبيها على كمال ظهوره واستحالة الخلف فى وعده
المؤكد باليمين انما الهكم الله استيناف مسوق لتحقيق الحق اثر ابطال الباطل
بتلوين الخطاب وتوجيهه الى الكل اى انما معبودكم المستحق للعبادة الله الذى لا اله
فى الوجود لشئ من الاشياء الا هو وحده من غير ان يشاركه شئ من الاشياء بوجه
من الوجوه التى من جملتها احكام الالوهية وقرئ الله لا اله الا هو الرحمن رب العرش
وقوله تعالى وسع كل شئ علما اى وسع علمه كل ما من شانه ان يعلم بدل من الصلة
كانه قيل انما الهكم الذى وسع كل شئ علما لا غيره كائنا ما كان فيدخل فيه العجل
دخولا اوليا وقرئ وسّع بالتشديد فيكون انتصاب علما على المفعولية لانه على القراءة
الاولى فاعل حقيقة وبنقل الفعل الى التعدية الى المفعولين صار الفاعل مفعولا اول كانه
وسع علمه كل شئ ربه ثم حديث موسى عليه السلام المذكور لتقرير امر التوحيد
حسبما نطقت به خاتمته وقوله تعالى كذلك نقص عليك كلام مستانف خوطب به النبى
صلى الله عليه وسلم بطريق الوعد الجميل بتنزيل امثال ما مر من انباء الامم السالفة
وذلك اشارة الى اقتصاص حديث موسى عم وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو
رتبته وبعد منزلته فى الفضل ومحل الكاف النصب على انه نعت لمصدر مقدر اى نقص
عليك من انباء ما قد سبق من الحوادث الماضية الجارية على الامم الخالية قصا مثل ذلك
القص المار والتقديم للقصر المفيد لزيادة التعيين ومن فى قوله تعالى من انباء فى حيز النصب
اما على انه مفعول نقص باعتبار مضمونه واما على انه متعلق بمحذوف هو صفة للمفعول كما فى قوله تعالى
ومنا دون ذلك اى جمع دون ذلك والمعنى نقص عليك بعض انباء ما قد سبق او بعضا
كائنا من انباء ما قد سبق وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول الخ وتاخيره
من عليك لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر اى مثل ذلك القص البديع
الذى سمعته نقص عليك ما ذكر من الانباء لا قصا ناقصا منه تبصرة لك وتوفيرا لعلمك
وتكثيرا لمعجزاتك وتذكيرا للمستبصرين من امتك وقد آتيناك من لدنا ذكرا اى كتابا منطويا
على هذه الاقاصيص والاخبار حقيقا بالتفكر والاعتبار وكلمة من متعلقة بآتيناك وتنكير
ذكرا للتفخيم وتاخيره عن الجار والمجرور لما ان مرجع الافادة فى الجملة كون المؤتى من لدنه
تعالى ذكرا عظيما وقرآنا كريما جامعا لكل كمال لا كون ذلك الذكر مؤتى من لدنه عز وجل مع ما
فيه من نوع طول بما بعده من الصفة فتقديمه يذهب برونق النظم الكريم من اعرض عنه
عن ذلك الذكر العظيم الشان المستتبع لسعادة الدارين وقيل عن عز وجل ومن اما شرطية
او موصولة واياما كانت فالجملة صفة لذكرا فانه اى المعرض عنه يحمل يوم القيمة وزرا
اى عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وسائر ذنوبه وتسميتها وزرا اما لتشبيهها فى ثقلها على
المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذى يفدح الحامل وينقض ظهره او لانها جزاء الوزر
وهو الاثم والاول هو الانسب بما سيأتى من تسميتها حملا وقوله تعالى خالدين فيه
اى فى الوزر او فى احتماله المستمر حال من المستكن فى يحمل والجمع بالنظر الى معنى من لما ان
الخلود فى النار مما يتحقق حال اجتماع اهلها كما ان الافراد كما فيما سبق من الضمائر الثلثة
بالنظر الى لفظها وساء لهم يوم القيمة حملا اى بئس لهم ففيه ضمير مبهم يفسره حملا والمخصوص
بالذم محذوف اى ساء حملا وزرهم واللام للبيان كما فى هيت لك كانه لما قيل ساء
قيل لمن يقال هذا فاجيب لهم واعادة يوم القيمة لزيادة التقرير وتهويل الامر يوم ينفخ
فى الصور بدل من يوم القيمة او منصوب باضمار اذكر او ظرف لمضمر قد حذف للايذان
بضيق العبارة عن حصره وبيانه حسبما مر فى تفسير قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل
وقوله يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا وقرئ ننفخ بالنون على اسناد النفخ الى الامر به
تعظيما له وبالياء المفتوحة على ان ضميره لله عز وجل او لاسرافيل عليه السلام وان
لم يجر ذكره لشهرته ونحشر المجرمين يومئذ اى يوم ينفخ فى الصور وذكره صريحا مع
تعين ان الحشر لا يكون الا يومئذ للتهويل ونحشر المجرمين زرقا اى حال كونهم

زرق

زرق العيون وانما جعلوا كذلك لان الزرقة اسوء الوان العين وابغضها الى العرب فان
الروم الذين كانوا اعدى عدوهم زرق ولذلك قالوا فى صفة العدو اسود الكبد و
اصهب السبال وازرق العين او عميا لان حدقة الاعمى تزرق وقوله تعالى يتخافتون
بينهم اى يخفضون اصواتهم ويخفونها لما يملأ صدورهم من الرعب والهول
استيناف ببيان ما ياتون وما يذرون حينئذ او حال اخرى من المجرمين اى يقول بعضهم
لبعض بطريق المخافتة ان لبثتم اى ما لبثتم فى الدنيا الا عشرا اى عشر ليال استقصارا
لمدة لبثهم فيها لزوالها او لاستطالتهم مدة الآخرة او لتأسفهم عليها لما عاينوا
الشدائد وايقنوا انهم استحقوها على اضاعتها فى قضاء الاوطار واتباع الشهوات
او فى القبر وهو الانسب بحالهم فانهم حين يشاهدون البعث الذى كانوا ينكرونه
فى الدنيا ويعدونه من قبيل المحالات لا يتمالكون من ان يقولوا ذلك اعترافا به و
تحقيقا لسرعة وقوعه كانهم قالوا قد بعثتم وما لبثتم فى القبر الا مدة يسيرة والا فحالهم
اقطع من ان تمكنهم من الاشتغال بتذكير ايام النعمة والسرور واستقصارها والتأسف
عليها نحن اعلم بما يقولون وهو مدة لبثهم اذ يقول امثلهم طريقة اى اعدلهم
رأيا او عملا ان لبثتم الا يوما ونسبة هذا القول الى امثلهم استرجاح منه تعالى
له لكن لكونه اقرب الى الصدق بل لكونه ادل على شدة الهول ويسئلونك عن الجبال
اى عن مآل امرها وقد سأل عنه رجل من ثقيف وقيل مشركوا مكة على طريق الاستهزاء
فقل ينسفها ربى نسفا اى يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها والفاء
للمسارعة الى الزام السائلين فيذرها الضمير اما للجبال باعتبار اجزائها السافلة الباقية
بعد النسف وهى مقارها ومراكزها اى فيذر ما انبسط منها وسوى سطحه سطوح
سائر اجزاء الارض بعد نسف ما نتأ منها ونشز واما للارض المدلول عليها بقرينة الحال
لانها الباقية بعد نسف الجبال وعلى التقديرين يذر الكل قاعا صفصفا لان الجبال
اذا سويت وجعل سطحها مساويا لسطوح سائر اجزاء الارض فقد جعل الكل سطحا
واحدا والقاع قيل السهل وقيل المنكشف من الارض وقيل المستوى الصلب منها
وقيل ما لا نبات فيه ولا بناء والصفصف الارض المستوية الملساء كان اجزاءه صف
واحد من كل جهة وانتصاب قاعا على الحالية من الضمير المنصوب او هو مفعول
ثان ليذر على تضمين معنى التصيير وصفصفا اما حال ثانية او بدل من المفعول الثانى
وقوله تعالى لا ترى فيها اى فى مقار الجبال او فى الارض على ما مر من التفصيل عوجا
بكسر العين اى اعوجاجا ما كانه لغاية خفائه من قبيل ما فى المعانى اى لا تدركه ان
تاملت بالمقاييس الهندسية ولا امتا اى نتوا يسيرا استيناف مبين لكيفية ما سبق
من القاع الصفصف او حال اخرى او صفة لقاعا والخطاب لكل احد ممن يتأتى منه الرؤية
وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق
الى المؤخر مع ما فيه من طول ربما يخل تقديمه بتجاوب اطراف النظم الكريم يومئذ
اى يوم اذ نسفت الجبال على اضافة اليوم الى وقت النسف وهو ظرف لقوله تعالى
يتبعون الداعى وقيل بدل من يوم القيمة وليس بذاك اى يتبع الناس داعى الله عز
وجل الى المحشر وهو اسرافيل عليه السلام يدعو الناس عند النفخة الثانية قائما
على صخرة بيت المقدس ويقول ايتها العظام النخرة والاوصال المتفرقة واللحوم المتمزقة
قومى الى عرض الرحمن فيقبلون من كل اوب الى صوبه لا عوج له لا يعوج له مدعو
ولا يعدل عنه وخشعت الاصوات للرحمن اى خفضت لهيبته فلا تسمع الا همسا اى
صوتا خفيا ومنه الهميس لصوت اخفاف الابل وقد فسر الهمس بخفق اقدامهم
ونقلها الى المحشر يومئذ اى يوم اذ يقع ما ذكر من الامور الهائلة لا تنفع الشفاعة
من الشفعاء احدا الا من اذن له الرحمن ان يشفع له ورضى له قولا اى ورضى لاجله
قول الشافع فى شانه او رضى قوله لاجله وفى شانه واما من عداه فلا تكاد تنفعه وان
فرض صدورها عن الشفعاء المتصدين للشفاعة للناس كقوله تعالى فما تنفعهم شفاعة

الشافعين فالاستثناء كما ترى من اعم المفاعيل واما كونه استثناء من الشفاعة على معنى لا تنفع الشفاعة الا شفاعة من اذن له الرحمن ان يشفع لغيره كما جوز فلا سبيل اليه لما ان حكم الشفاعة ممن لم يؤذن ان لا يملكها ولا تصدر هى عنه اصلا كما فى قوله تعالى لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا وقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى فالاخبار عنها بمجرد عدم نفعها للمشفوع له ربما يوهم امكان صدورها عمن لم يؤذن له مع اخلاله بمقتضى مقام تهويل اليوم واما قوله تعالى ولا يقبل منها شفاعة فمعناه عدم الاذن فى الشفاعة لا عدم قبولها بعد وقوعها يعلم ما بين ايديهم اى ما تقدمهم من الاحوال وقيل من امر الدنيا وما خلفهم وما بعدهم مما يستقبلونه وقيل من امر الآخرة ولا يحيطون به علما اى لا يحيط علمهم بمعلوماته تعالى وقيل بذاته اى من حيث اتصافه بصفات الكمال التى من جملتها العلم الشامل وقيل الضمير لاحد الموصولين او لمجموعهما فانهم لا يعلمون جميع ذلك ولا تفصيل ما علموا منه وعنت الوجوه للحى القيوم اى ذلت وخضعت خضوع العناة اى الاسارى فى يد الملك القهار ولعلها وجوه المجرمين كقوله تعالى سيئت وجوه الذين كفروا ويؤيده قوله تعالى وقد خاب من حمل ظلما قال ابن عباس خسر من اشرك بالله ولم يتب وهو استيناف لبيان ما لاجله عنت وجوههم او اعتراض كانه قيل خابوا وخسروا وقيل حال من الوجوه ومن عبارة عنها مغنية عن ضميرها وقيل الوجوه على العموم فالمعنى حينئذ وقد خاب من حمل منهم ظلما فقوله تعالى ومن يعمل من الصالحات الخ قسيم لقوله تعالى وقد خاب من حمل ظلما لا لقوله تعالى وعنت الوجوه الخ كما انه كذلك على الوجه الاول اى ومن يعمل بعض الصالحات او بعضا من الصالحات على احد الوجهين المذكورين فى تفسير قوله تعالى من انباء ما قد سبق وهو مؤمن فان الايمان شرط فى صحة الطاعات وقبول الحسنات فلا يخاف ظلما اى منع ثواب مستحق بموجب الوعد ولا هضما ولا كسرا منه بنقص او لا يخاف جزاء ظلم وهضم اذ لم يصدر عنه ظلم ولا هضم حتى يخافهما وقرئ ولا يخف على النهى وكذلك عطف على كذلك نقص وذلك اشارة الى انزال ما سبق من الآيات المتضمنة للوعيد المنبئة عما سيقع من احوال القيمة واهوالها اى مثل ذلك الانزال انزلناه اى القرآن كله واضماره من غير سبق ذكره للايذان بنباهة شانه وكونه مركوزا فى العقول حاضرا فى الاذهان قرآنا عربيا ليفهمه العرب ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز الدال على كونه خارجا عن طوق البشر نازلا من عند خلاق القوى والقدر وصرفنا فيه من الوعيد اى كررنا فيه بعض الوعيد او بعضا من الوعيد حسبما اشير اليه آنفا لعلهم يتقون اى كى يتقوا الكفر والمعاصى بالفعل او يحدث لهم ذكرا اتعاظا واعتبارا مؤديا بالآخرة الى الاتقاء فتعالى الله استعظام له تعالى ولشؤونه التى يصرف عليها عباده من الاوامر والنواهى والوعد والوعيد وغير ذلك اى ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته وافعاله واحواله الملك النافذ امره ونهيه الحقيق بان يرجى وعده ويخشى وعيده الحق فى ملكوته والوهيته لذاته او الثابت فى ذاته وصفاته ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه اى يتم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا القى اليه جبريل عليهما السلام الوحى يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة اعتناء به بالتلقى والحفظ فنهى عن ذلك اثر ذكر الانزال بطريق الاستطراد لما ان استقرار الالفاظ فى الاذهان تابع لاستقرار معانيها فيها وربما يشغل التلفظ بكلمة عن سماع ما بعدها وامر باستفادة العلم واستزادته منه تعالى فقيل وقل اى فى نفسك رب زدنى علما اى سل الله عز وجل زيادة العلم فانه الموصل الى طلبتك دون الاستعجال وقيل انه نهى عن تبليغ ما كان مجملا قبل ان يأتى بيانه وليس بذاك فان تبليغ المجمل وتلاوته قبل البيان مما لا ريب فى صحته ومشروعيته ولقد عهدنا الى آدم كلام مستأنف مسوق لتقرير ما سبق من تصريف الوعيد فى القرآن وبيان ان اساس بنى آدم على العصيان

وعرقه

وعرقه راسخ فى النسيان مع ما فيه من انجاز الموعود فى قوله تعالى كذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق يقال عهد اليه الملك وعزم عليه واوعز اليه وتقدم اليه اذا امره ووصاه والمعهود محذوف يدل عليه ما بعده واللام جواب قسم محذوف اى واقسم او وبالله او وتالله لقد امرناه ووصيناه من قبل اى من قبل هذا الزمان فنسى اى العهد ولم يعتن به حتى غفل عنه او تركه ترك المنسى عنه وقرئ فنسى اى نساه الشيطان ولم نجد له عزما تصميم رأى وثبات قدم فى الامور اذ لو كان كذلك لما ازله الشيطان ولما استطاع ان يغره وقد كان ذلك منه عليه السلام فى بدء امره من قبل ان يجرب الامور ويتولى حارها وقارها ويذوق شريها واريها عن النبى صلى الله عليه وسلم لو وزنت احلام بنى آدم بحلم آدم لرجح حلمه وقد قال الله تعالى ولم نجد له عزما وقيل عزما على الذنب فانه اخطأ ولم يتعمد وقوله تعالى ولم نجد ان كان من الوجود العلمى فله عزما مفعولاه قدم الثانى على الاول لكونه ظرفا وان كان من الوجود المقابل للعدم وهو الانسب لان مصب الفائدة هو المفعول وليس فى الاخبار بكون العزم المعدوم له مزيد مزية فله متعلق به قدم على مفعوله لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر او بمحذوف هو حال من مفعوله المنكر كانه قيل ولم نصادف له عزما وقوله تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم شروع فى بيان المعهود وكيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم اى واذكر وقت قولنا لهم وتعليق الذكر بالوقت مع ان المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث لما مر مرارا من المبالغة فى ايجاب ذكرها فان الوقت مشتمل على تفاصيل الامور الواقعة فيه فالامر بذكره امر بذكر تفاصيل ما وقع فيه بالطريق البرهانى ولان الوقت مشتمل على اعيان الحوادث فاذا ذكر صارت الحوادث كانها موجودة فى ذهن المخاطب بوجوداتها العينية اى اذكر ما وقع فى ذلك الوقت منا ومنه حتى يتبين لك نسيانه وفقدان عزمه فسجدوا الا ابليس قد سبق الكلام فيه مرارا ابى جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ عن الاخبار بعدم سجوده كانه قيل ما باله لم يسجد فقيل ابى واستكبر ومفعول ابى اما محذوف اى ابى السجود كما فى قوله تعالى ابى ان يكون مع الساجدين وغير منوى راسا بتنزيله منزلة اللازم اى فعل الاباء واظهره فقلنا عقيب ذلك اعتناء بنصحه يا آدم ان هذا الذى رأيت ما فعل عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما اى لا يكونن سببا لاخراجكما من الجنة والمراد نهيهما من ان يكونا بحيث يتسبب الشيطان الى اخراجهما منها بالطريق البرهانى كما فى قولك لا ارينك ههنا والفاء لترتيب موجب النهى على عداوته لهما او على الاخبار بها فتشقى جواب للنهى واسناد الشقاء اليه خاصة بعد تعليق الاخراج الموجب له بهما معا لاصالته فى الامور واستلزام شقائه لشقائها مع ما فيه من مراعاة الفواصل وقيل المراد بالشقاء التعب فى تحصيل مبادى المعاش وذلك وظائف الرجال ان لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى تعليل لما يوجبه النهى فان اجتماع اسباب الراحة فيها مما يوجب المبالغة فى الاهتمام بتحصيل مبادى البقاء فيها والجد فى الانتهاء عما يؤدى الى الخروج عنها والعدول عن التصريح بان له عليه السلام فيها تنعما بفنون النعم من المآكل والمشارب وتمتعا باصناف الملابس البهية والمساكن المرضية مع ان فيه من الترغيب فى البقاء فيها ما لا يخفى الى ما ذكر من نفى نقائضها التى هى الجوع والعطش والعرى والضحو لتذكير تلك الامور المنكرة والتنبيه على ما فيها من انواع الشقوة التى حذره عنها ليبالغ فى التحامى عن السبب المؤدى اليها على ان الترغيب قد حصل بما سوغ له من التمتع بجميع ما فيها سوى ما استثنى من الشجرة حسبما ينطق به قوله تعالى ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما وقد طوى ذكره ههنا اكتفاء بما ذكر فى موضع آخر واقتصر على

ما ذكر من الترغيب المتضمن للترهيب ومعنى ان لا تجوع فيها الخ ان لا يصيبه شئ من
الامور الاربعة اصلا فان الشبع والري والكسوة قد يحصل بعد عروض اضدادها
باعواز الطعام والشراب واللباس والمسكن وليس الامر فيها كذلك بل كلما وقع
فيها شهوة وميل الى شئ من الامور المذكورة تمتع به من غير ان يصل الى حد الضرورة
ووجه افراده عليه السلام بما ذكر ما مر آنفا وفصل الظما عن الجوع في الذكر مع
تجانسهما وتقارنهما في الذكر عادة وكذا حال العري والضحى المتجانسين لتوفية مقام
الامتنان حقه بالاشارة الى ان نفي كل واحد من تلك الامور نعمة على حيالها ولو جمع
بين الجوع والظما لربما توهم ان نفيهما نعمة واحدة وكذا الحال في الجمع بين العري
والضحو على منهاج قصة البقرة ولزيادة التقرير بالتنبيه على ان نفي كل واحد من
الامور المذكورة مقصود بالذات مذكور بالاصالة لا ان نفي بعضها مذكور
للاستطراد والتبعية لنفي بعض آخر كما عسى يتوهم لو جمع بين كل من المتجانسين و
قرئ انك بالكسر والجمهور على الفتح بالعطف على ان لا تجوع وصحة وقوع الجملة المصدرة
بان المفتوحة اسما للمكسورة المشاركة لها في افادة التحقيق مع امتناع وقوعها خبرا لها
لما ان المحذور اجتماع حرفي التحقيق في مادة واحدة ولا اجتماع فيما نحن فيه لاختلاف مناط
التحقيق فيما في حيزيهما بخلاف ما لو وقعت خبرا لها فان اتحاد المناط حينئذ مما لا ريب فيه
بيان ان كل واحدة من المكسورة والمفتوحة موضوعة لتحقيق مضمون الجملة الخبرية
المنعقدة من اسمها وخبرها ولا يخفى ان مرجع خبريتها ما فيها من الحكم الايجابي و
السلبي وان مناط ذلك الحكم خبرها لا اسمها فمدلول كل منهما تحقيق ثبوت خبرها لاسمها
لا ثبوت اسمها في نفسه فاللازم من وقوع الجملة المصدرة بالمفتوحة اسما للمكسورة
تحقيق ثبوت خبرها لتلك الجملة المأولة بالمصدر واما تحقيق ثبوتها في نفسها فهو مدلول المفتوحة
حتما فلم يلزم اجتماع حرفي التحقيق في مادة واحدة قطعا وانما لم يجوزوا ان يقال ان ان زيدا
قائم حق مع اختلاف المناط بل شرطوا الفصل بالخبر كقولنا ان عندي ان زيدا قائم للتجافي
عن صورة الاجتماع والواو العاطفة وان كانت نائبة عن المكسورة التي يمتنع دخولها على
المفتوحة بلا فصل وقائمة مقامها في افضاء معناها واجراء احكامها على مدخولها لكنها
حيث لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق لم يلزم من دخولها على المفتوحة اجتماع حرفي التحقيق اصلا فالمعنى
ان لك عدم الجوع وعدم العري وعدم الظما خلا انه لم يقتصر على بيان ان الثابت له عليه
السلام عدم الظماء والضحى مطلقا كما فعل مثله في المعطوف عليه بل قصد بيان ان الثابت
له عليه السلام تحقيق عدمهما فوضع موضع الحرف المصدر المحض ان المفيدة له كانه
قيل ان لك عدم ظمائك على التحقيق فوسوس اليه الشيطان اي انهى اليه وسوسته
او اسرها اليه قال اما بدل من وسوس او استيناف وقع جوابا عن سؤال نشاء منه كانه
قيل فماذا قال في وسوسته فقيل قال يا ادم هل ادلك على شجرة الخلد اي شجرة من اكل
منها خلد ولم يمت اصلا سواء كان على حاله او بان يكون ملكا لقوله تعالى الا ان تكونا
ملكين او تكونا من الخالدين وملك لا يبلى اي لا يزول ولا يختل بوجه من الوجوه فاكلا
منها فبدت لهما سوآتهما قال ابن عباس رضي الله عنهما عريا عن النور الذي كان تعالى البسهما
حتى بدت فروجهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة قد مر تفسيره في سورة
الاعراف وعصى آدم ربه بما ذكر من اكل الشجرة فغوى ضل عن مطلوبه الذي هو
الخلود او عن المامور به او عن الرشد حيث اغتر بقول العدو وقرئ فغوى من غوى الفصيل
اذا اتخم من اللبن وفي وصفه عليه السلام بالعصيان والغواية مع صغر زلته تعظيم
لها وزجر بليغ لاولاده عن امثالها ثم اجتباه ربه اي اصطفاه وقربه اليه بالحمل
على التوبة والتوفيق لها من اجتبى الشئ بمعنى جباه لنفسه اي جمعه كقولك اجتمعته
او من جبى الى كذا فاجتبيته مثل جليت على العروس فاجتليتها واصل الكلمة الجمع وفي التعرض
لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام مزيد تشريف له عليه السلام فتاب عليه
اي قبل توبته حين تاب هو وزوجته قائلين ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا

لنكونن من الخاسرين وافراده عليه السلام بالاجتباء وقبول التوبة قد مر وجهه وهدى
اي الى الثبات على التوبة والتمسك باسباب العصمة قال استيناف مبني على سؤال نشا من
الاخبار بانه تعالى قبل توبته وهداه كانه قيل فماذا امره تعالى بعد ذلك فقيل قال له ولزوجته
اهبطا منها جميعا اي انزلا من الجنة الى الارض وقوله تعالى بعضكم لبعض عدو حال
من ضمير المخاطب في اهبطا والجمع لما انهما اصل الذرية ومنشاء الاولاد اي متعاديا
في امر المعاش كما عليه الناس من التجاذب والتحارب فاما يأتينكم مني هدى من
كتاب ورسول فمن اتبع هداي وضع الظاهر موضع المضمر مع الاضافة الى ضميره تعالى
لتشريفه والمبالغة في ايجاب اتباعه فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الاخرة ومن
اعرض عن ذكري اي عن الهدى الذاكر لي والداعي الي فان له في الدنيا معيشة
ضنكا ضيقا وصف به ولذلك يستوي فيه المذكر والمؤنث وقرئ ضنكى كسكرى وذلك
لان مجامع همته ومطامح نظره مقصورة على اعراض الدنيا وهو متهالك على ازديادها
وخائف من انتقاصها بخلاف المؤمن الطالب للاخرة مع انه قد يضيق الله تعالى بشوم
الكفر ويوسع ببركة الايمان كما قال تعالى وضربت عليهم الذلة والمسكنة وقال ولو ان
اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولو ان اهل الكتاب آمنوا
الى قوله لاكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم وقيل هو الضريع والزقوم في النار
وقيل عذاب القبر ونحشره وقرئ بسكون الهاء على لفظ الوقف وبالجزم عطفا
على محل فان له معيشة ضنكا لانه جواب الشرط يوم القيمة اعمى فاقد البصر كما في قوله
تعالى نحشرهم يوم القيمة على وجوههم عميا وبكما وصما لا اعمى عن الحجة كما قيل قال
استيناف كما مر رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيرا اي في الدنيا وقرئ اعمى بالامالة
في الموضعين لي في الاول فقط لكونه جديرا بالتغيير لكونه راس الاية ومحل الوقف
قال كذلك اي مثل ذلك فعلت انت ثم فسر بقوله تعالى اتتك آياتنا واضحة نيرة
بحيث لا يخفى على احد فنسيتها اي عميت عنها وتركتها ترك المنسي الذي لا يذكر اصلا و
كذلك ومثل ذلك النسيان الذي كنت فعلته في الدنيا اليوم تنسى تترك في العمى والعذاب
جزاء وفاقا لكن لا ابدا كما قيل بل الى ما شاء الله تعالى ثم يزيله عنه فيرى اهوال القيمة و
يشاهد مقعده في النار ويكون ذلك له عذابا فوق العذاب وكذا البكم والصمم يزيلها
الله تعالى عنهم اسمع بهم وابصر يوم يأتوننا وكذلك اي مثل ذلك الجزاء الموافق
للجناية نجزي من اسرف بالانهماك في الشهوات ولم يؤمن بآيات ربه بل
كذب بها واعرض عنها ولعذاب الاخرة على الاطلاق عذاب النار اشد وابقى اي من
ضنك العيش او منه ومن الحشر على العمى افلم يهد لهم كم اهلكنا قبلهم من القرون
كلام مستانف مسوق لتقرير ما قبله من قوله تعالى وكذلك نجزي الاية والهمزة للانكار
التوبيخي والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام واستعمال الهداية باللام اما لتنزيلها
منزلة اللازم فلا حاجة الى المفعول او لانها بمعنى التبيين والمفعول محذوف واياما
كان فالفاعل هو الجملة بمضمونها ومعناها وضمير لهم للمشركين المعاصرين لرسول الله
صلى الله عليه وسلم والمعنى اغفلوا فلم يفعل الهداية لهم او فلم يبين لهم مآل
امرهم كثرة اهلاكنا للقرون الاولى وقد مر في قوله عز وعلا او لم يهد للذين
يرثون الارض من بعد اهلها الاية وقيل الفاعل الضمير العائد الى الله عز وجل ويؤيده
القراءة بنون العظمة وقوله تعالى كم اهلكنا الخ اما معلق للفعل ساد مسد مفعوله او
مفسر لمفعوله المحذوف هكذا قيل والاوجه ان لا يلاحظ له مفعول كانه قيل افلم
يفعل الله تعالى لهم الهداية ثم قيل بطريق الالتفات كم اهلكنا الخ بيانا لتلك الهداية و
من القرون في محل النصب على انه وصف لمميز كم اي كم قرنا كائنا من القرون وقوله
تعالى يمشون في مساكنهم حال من القرون او من مفعول اهلكنا اي اهلكناهم وهم
في حال امن وتقلب في ديارهم او من الضمير في لهم مؤكد للانكار والعامل يهد والمعنى
افلم يهد لهم اهلاكنا للقرون السالفة من اصحاب الحجر وثمود وقريات قوم لوط

ما كونهم ملتبسين في مساكنهم اذا سافروا الى الشام مشاهدين لآثار هلاكهم مع ان
ذلك مما يوجب ان يهتدوا الى الحق فيعتبروا لئلا يحل بهم مثل ما حل باولئك وقرئ
يمشون على البناء للمفعول اى يمكنون من المشي ان في ذلك تعليل للانكار وتقرير
للهداية مع عدم اهتدائهم وذلك اشارة الى مضمون قوله تعالى كم اهلكنا الخ وما فيه
من معنى البعد للاشعار ببعد منزلته وعلو شانه في بابه لآيات كثيرة عظيمة واضحات
الهداية الظاهرة الدلالة على الحق فاذن هو هاد وايما هاد ويجوز ان كلمة في تجريدية
فافهم لاولي النهى لذوي العقول الناهية عن القبائح التي من اقبحها ما يتعاطاه كفار مكة
من الكفر بآيات الله تعالى والتعامي عنها وغير ذلك من فنون المعاصي وفيه دلالة على ان
مضمون الجملة هو الفاعل لا المفعول وقوله تعالى ولولا كلمة سبقت من ربك كلام مستانف
مسوق لبيان حكمة عدم وقوع ما يشعر به قوله تعالى افلم يهد لهم الآية من ان يصيبهم
مثل ما اصاب القرون المهلكة اى ولولا الكلمة السابقة وهي العدة بتاخير عذاب هذه الامة
الى الآخرة لحكمة تقتضيه ومصلحة تستدعيه لكان عقاب جناياتهم لزاما اى لازما
لهؤلاء الكفرة بحيث لا يتاخر عن جناياتهم ساعة لزوم ما نزل باولئك الغابرين
وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام تلويح بان ذلك التاخير
لتشريفه عليه السلام كما ينبئ عنه قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم واللزام اما مصدر
لازم وصف به مبالغة واما فعال بمعنى مفعل جعل آلة اللزوم لفرط لزومه كما يقال
لزاز خصم واجل مسمى عطف على كلمة اى ولولا اجل مسمى لاعمارهم او لعذابهم
وهو يوم القيمة او يوم بدر لما تاخر عذابهم اصلا وفصله عما عطف عليه للمسارعة
الى بيان جواب لولا وللاشعار باستقلال كل منهما بنفي لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآي
الكريمة وقد جوز عطفه على المستكن في كان العائد الى الاخذ العاجل لاجل مسمى لازمين
لهم كداب عاد وثمود واضرابهم ولم ينفرد الاجل المسمى دون الاخذ العاجل فاصبر
على ما يقولون اى اذا كان الامر على ما ذكر من ان تاخير عذابهم ليس باهمال بل امهال
وانه لازم لهم البتة فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر فان علمه صلى الله عليه وسلم
بانهم معذبون لا محالة مما يسليه ويحمله على الصبر وسبح ملتبسا بحمد ربك اى صل
وانت حامد لربك الذي يبلغك الى كمالك على هدايته وتوفيقه او نزهه تعالى عما ينسبونه
اليه مما لا يليق بشانه الرفيع حامدا له على ما ميزك بالهدى معترفا بانه مولى النعم
كلها والاول هو الاظهر المناسب لقوله تعالى قبل طلوع الشمس الخ فان توقيت التنزيه غير معهود
فالمراد صلوة الفجر وقبل غروبها يعني صلوة الظهر والعصر لانهما قبل غروبها بعد زوالها و
جمعهما لمناسبته لقوله تعالى قبل طلوع الشمس وقيل صلوة العصر ومن آناء الليل اى من ساعاته
جمع انى بالكسر والقصر واناء بالفتح والمد فسبح اى فصل والمراد به المغرب والعشاء و
تقديم الوقت فيهما لاختصاصهما بمزيد الفضل فان القلب فيهما اجمع والنفس الى الاستراحة
اميل فتكون العبادة فيهما اشق ولذلك قال تعالى ان ناشئة الليل هي اشد وطأ واقوم
قيلا واطراف النهار تكرير لصلاتي الفجر والمغرب ايذانا باختصاصهما بمزيد مزية
ومجيئه بلفظ الجمع لامن الالباس كقول من قال ظهراهما مثل ظهور الترسين او امر بصلوة الظهر
فانه نهاية النصف الاول من النهار وبداية النصف الاخير وجمعه باعتبار النصفين او لان
النهار جنس او امر بالتطوع في اجزاء النهار لعلك ترضى متعلق بسبح اي سبح في هذه
الاوقات رجاء ان تنال عنده تعالى ما ترضى به نفسك وقرئ ترضى على صيغة البناء للمفعول من
ارضى اى يرضيك ربك ولا تمدن عينيك اى لا تطل نظرهما بطريق الرغبة والميل
الى ما متعنا به من زخارف الدنيا وقوله تعالى ازواجا منهم اى اصنافا من
الكفرة مفعول متعنا قدم عليه الجار والمجرور للاعتناء به او هو حال من الضمير في
المفعول منهم اى الى الذين متعنا به وهو اصناف وانواع بعضهم على انه معنى من
التبعيضية او بعضا منهم على حذف الموصوف كما مر مرارا زهرة الحيوة الدنيا
منصوب بمحذوف يدل عليه متعنا اى اعطينا او به على تضمين معناه او بالبدلية من محل به او من

عذابهم

ازواجا

ازواجا بتقدير مضاف او بدونه او بالذم وهي الزينة والبهجة وقرئ زهرة بفتح الهاء
وهي لغة كالجهرة او جمع زاهر وصف لهم بانهم زاهروا الدنيا لتنعمهم وبهاء زيهم
بخلاف ما عليه المؤمنون الزهاد لنفتنهم فيه متعلق بمتعنا جيء به للتنفير عنه ببيان
سوء عاقبته مآلا اثر اظهار بهجته حالا اى لنعاملهم معاملة من يبتليهم و
يختبرهم فيه او لنعذبهم في الآخرة بسببه ورزق ربك اى ما ادخر لك في الآخرة
او ما رزقك في الدنيا من النبوة والهدى خير مما منحهم في الدنيا لانه مع كونه في
نفسه اجل ما يتنافس فيه المتنافسون مامون الغائلة بخلاف ما منحوه وابقى فانه
لا يكاد ينقطع نفسه او اثره ابدا كما عليه زهرة الدنيا وامر اهلك بالصلوة امر
عليه السلام بان يامر اهل بيته او التابعين له من امته بالصلوة بعد ما امر هو بها
ليتعاونوا على الاستعانة على خصاصتهم ولا يهتموا بامر المعيشة ولا يلتفتوا لفت
ارباب الثروة واصطبر عليها وثابر عليها غير مشتغل بامر المعاش لا نسالك رزقا
اى لا نكلفك ان ترزق نفسك ولا اهلك نحن نرزقك واياهم ففرغ بالك لامر
الآخرة والعاقبة الحميدة للتقوى اى لاهل التقوى على حذف المضاف واقامة
المضاف اليه مقامه تنبيها على ان ملاك الامر هو التقوى روي انه عليه السلام كان
اذا اصاب اهله ضر امرهم بالصلوة وتلا هذه الآية وقالوا لولا يأتينا باية من
ربه حكاية لبعض اقاويلهم الباطلة التي امر عليه السلام بالصبر عليها اى هلا
ياتينا باية تدل على صدقه في دعوى النبوة او باية مما اقترحوها بلغوا من المكابرة
والعناد الى حيث لم يعدوا ما شاهدوا من المعجزات التي تخر لها صم الجبال من قبيل
الآيات حتى اجترؤا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء وقوله تعالى اولم تاتهم بينة ما
في الصحف الاولى اى التوراة والانجيل وسائر الكتب السماوية رد من جهته عز
وعلا لمقالتهم القبيحة وتكذيب لهم فيما دسوا تحتها من انكار اتيان الآية باتيان
القرآن الكريم الذي هو ام الآيات واس المعجزات واعظمها وابقاها لان حقيقة المعجزة
اختصاص مدعي النبوة بنوع من الامور الخارقة للعادات اي امر كان ولا ريب في
ان العلم اجل الامور واعلاها اذ هو اصل الاعمال ومبدا الافعال ولقد ظهر مع
حيازته لجميع علوم الاولين والآخرين على يدي امي لم يمارس شيئا من العلوم ولم
يدارس احدا من اهلها اصلا فاي معجزة تراد بعد وروده واي اية ترام مع وجوده
وفي ايراده بعنوان كونه بينة لما في الصحف الاولى من التوراة والانجيل وسائر الكتب
السماوية اي شاهدا بحقية ما فيها من العقائد الحقة واصول الاحكام التي اجمعت عليها
كافة الرسل وبصحة ما نطق به من انباء الامم من حيث انه غني باعجازه عما يشهد
بحقيته حقيق باثبات حقية غيره ما لا يخفى من تنويه شانه وانارة برهانه ومزيد
تقرير وتحقيق لاتيانه واسناد الاتيان اليه مع جعلهم اياه ماتيا به للتنبيه على
اصالته فيه مع ما فيه من المناسبة للبينة والهمزة لانكار الوقوع والواو للعطف على
مقدر تقتضيه المقام كانه قيل الم ياتهم سائر الآيات ولم تاتهم خاصة بينة ما
في الصحف الاولى تقريرا لاتيانه وايذانا بانه من الوضوح بحيث لا يتاتى
منهم انكاره اصلا وان اجترؤا على انكار سائر الآيات مكابرة وعنادا وقرئ
اولم ياتهم بالياء التحتانية وقرئ الصحف بالسكون تخفيفا وقوله تعالى ولو انا
اهلكناهم بعذاب الخ الآية جملة مستانفة سيقت لتقرير ما قبلها من كون القرآن
آية بينة لا يمكن انكارها ببيان انهم يعترفون بها يوم القيمة والمعنى لو انا
اهلكناهم في الدنيا بعذاب مستاصل من قبله متعلق باهلكنا او بمحذوف
هو صفة لعذاب اى بعذاب كائن من قبل اتيان البينة او من قبل محمد صلى الله عليه وسلم
لقالوا اى يوم القيمة ربنا لولا ارسلت الينا في الدنيا رسولا مع كتاب
فنتبع آياتك التي جاءنا بها من قبل ان نذل بالعذاب في الدنيا ونخزى
بدخول النار اليوم ولكنا لم نهلكهم قبل اتيانها فانقطعت معذرتهم

فعند ذلك قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ قل كل واولئك الكفرة المتربّدين كل اى كل واحد منا ومنكم متربص منتظر لما يؤل اليه امرنا وامركم فتربصوا وقرئ فتمتعوا فستعلمون عن قريب من اصحاب الصراط السوى اى المستقيم وقرئ السوا اى الوسط الجيد وقرئ السوء والسوءى تصغير السوء ومن اهتدى من الضلالة ومن فى الموضعين استفهامية محلها الرفع بالابتداء اخبرهما والجملة سادّ مسدّ مفعولى العلم او مفعوله ويجوز كون الثانية موصولة بخلاف الاولى لعدم العائد فتكون معطوفة على محل الجملة الاستفهامية المعلق عنها الفعل على ان العلم بمعنى المعرفة او على اصحاب او على الصراط وقيل العائد فى الاول محذوف والتقدير من هم اصحاب الصراط عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طه اعطى يوم القيمة ثواب المهاجرين والانصار وقال صلى الله عليه وسلم لا يقرأ اهل الجنة من القران الا سورة طه ويس والله اعلم

سورة الانبياء عليهم السلام وهى مائة واحدى وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

اقترب للناس حسابهم مناسبة هذه الفاتحة الكريمة لما قبلها من الخاتمة الشريفة غنية عن البيان قال ابن عباس رضى الله عنهما المراد بالناس المشركون وهو الذى يفصح عنه ما بعده والمراد باقتراب حسابهم اقترابه فى ضمن اقتراب الساعة واسناد الاقتراب اليه لا الى الساعة مع استتباعها له ولسائر ما فيها من الاحوال والاهوال الفظيعة لانسياق الكلام الى بيان غفلتهم عنه واعراضهم عما يذكرهم واللام متعلقة بالفعل وتقديمها على الفاعل للمسارعة الى ادخال الروعة فان نسبة الاقتراب اليهم من اول الامر مما يسوؤهم ويورثهم رهبة وانزعاجا من المقترب كما ان تقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح فى قوله هو الذى خلق لكم ما فى الارض لتعجيل المسرة لما ان بيان كون المخلوق لاجل المخاطبين مما يسرّهم ويزيدهم رغبة فيما خلق لهم وشوقا اليه وجعلها تاكيدا للاضافة على ان الاصل المتعارف فيما بين الاوساط اقترب حساب الناس ثم اقترب للناس الحساب ثم اقترب للناس حسابهم مع انه تعسف تام بمعزل مما يقتضيه المقام وانما الذى يستدعيه حسن النظام ما قدمناه والمعنى دنا منهم حساب اعمالهم السيئة الموجبة للعقاب وفى اسناد الاقتراب المبنى على التوجه نحوهم الى الحساب مع امكان العكس بان يعتبر التوجه والاقبال من جهتهم نحوه من تفخيم شانه وتهويل امره ما لا يخفى لما فيه من تصويره بصورة شئ مقبل عليهم لا يزال يطلبهم ويصيبهم لا محالة ومعنى اقترابه لهم تقاربه ودنوه منهم بعد بعده عنهم فانه فى كل ساعة من ساعات الزمان اقرب اليهم منه فى الساعة السابقة واما الاعتذار بان قربه بالاضافة الى ما مضى من الزمان او بالنسبة الى الله عز وجل او باعتبار ان كل آت قريب فلا تعلق له بما نحن فيه من الاقتراب المستفاد من صيغة الماضى ولا حاجة اليه فى تحقيق اصل معناه نعم قد يفهم منه عرفا كونه فى نفسه ايضا فيصار حينئذ الى التوجيه بالوجه الاول دون الاخيرين اما الثانى فلا سبيل الى اعتباره ههنا لان قربه بالنسبة اليه تعالى مما لا يتصور فيه التجدد والتفاوت حتما وانما اعتباره فى قوله تعالى لعل الساعة قريب ونظائره مما لا دلالة فيه على الحدوث واما الثالث فلا دلالة على القرب حقيقة ولو بالنسبة الى شئ آخر وهم فى غفلة اى فى غفلة تامة منه ساهون عنه بالمرة لا انهم غير مبالين به مع اعترافهم باتيانه بل منكرون له كافرون به مع اقتضاء عقولهم ان الاعمال لا بد لها من الجزاء معرضون اى عن الآيات والنذر المنبهة لهم عن سنة الغفلة وهما خبران للضمير وحيث كانت الغفلة امرا جبليا لهم جعل الخبر الاول ظرفا منبئا عن الاستقرار بخلاف الاعراض حال من الناس وقد جوز كون الظرف حالا من المستكن فى معرضون ما يأتيهم من ذكر من طائفة نازلة من القران تذكرهم ذلك اكمل تذكير وتنبههم عن الغفلة اتم تنبيه كانها نفس الذكر ومن فى قوله تعالى من ربهم محدث لابتداء الغاية مجازا متعلقة بيأتيهم او بمحذوف هو صفة

لذكر وايا ما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه وكمال شناعة ما فعلوا به والتعرض لعنوان الربوبية لتشديد التشنيع محدث بالجر صفة لذكر وقرئ بالرفع حملا على محله او محدث تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة وقوله تعالى الا استمعوه استثناء مفرغ محله النصب على انه حال من مفعول يأتيهم باضمار قد او بدونه على الخلاف المشهور وقوله تعالى وهم يلعبون حال من فاعل استمعوه وقوله تعالى لاهية قلوبهم اما حال اخرى منه او من واو يلعبون والمعنى ما يأتيهم ذكر من ربهم محدث فى حال من الاحوال الا حال استماعهم اياه لاعبين مستهزئين به لاهين عنه او لاعبين به حال كون قلوبهم لاهية عنه لتناهى غفلتهم وفرط اعراضهم عن النظر فى الامور والتفكر فى العواقب وقرئ لاهيةٌ بالرفع على انه خبر بعد خبر واسروا النجوى كلام مستأنف مسوق لبيان جناية خاصة اثر حكاية جناياتهم المعتادة والنجوى اسم من التناجى ومعنى اسرارها مع انها لا تكون الا سرا انهم بالغوا فى اخفائها او اسروا نفس التناجى بحيث لم يشعر احد بانهم متناجون وقوله تعالى الذين ظلموا بدل من واو اسروا منبئ عن كونهم موصوفين بالظلم الفاحش فيما اسروا به او هو مبتدا خبره اسروا النجوى قدم عليه اهتماما به والمعنى هم اسروا النجوى فوضع الموصول موضع الضمير تسجيلا على فعلهم بكونه ظلما او منصوب على الذم وقوله تعالى هل هذا الا بشر مثلكم الخ فى حيز النصب على انه مفعول لقول مضمر هو جواب عن سؤال نشأ عما قبله كانه قيل ماذا قالوا فى نجواهم فقيل قالوا هل هذا الخ او بدل من اسروا او معطوف عليه او على انه بدل من النجوى اى اسروا هذا الحديث وهل بمعنى النفى والهمزة فى قوله تعالى افتاتون السحر للانكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى وانتم تبصرون حال من فاعل تاتون مقررة للانكار ومؤكدة للاستبعاد والمعنى ما هذا الا بشر مثلكم اى من جنسكم وما اتى به سحر تعلمون ذلك فتاتونه وتحضرونه على وجه الاذعان والقبول وانتم تعاينون انه سحر قالوه بناء على ما ارتكز فى اعتقادهم الزائغ ان الرسول لا يكون الا ملكا وان كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر وزل عنهم ان ارسال البشر الى عامة البشر هو الذى يقتضيه الحكمة التشريعية قاتلهم الله انى يؤفكون وانما اسروا ذلك لانه كان على طريق توثيق العهد وترتيب مبادى المباشرة الشر والفساد وتمهيد مقدمات المكر والكيد فى هدم امر النبوة واطفاء نور الدين والله متم نوره ولو كره المشركون قال ربى يعلم القول فى السماء والارض حكاية من جهته تعالى لما قاله عليه السلام بعد ما اوحى اليه احوالهم واقوالهم بيانا لظهور امرهم وانكشاف سرهم وايثار القول المنتظم للسر والجهر على السر لاثبات علمه تعالى بالسر على النهج البرهانى مع ما فيه من الايذان بان علمه تعالى بالسر والجهر على وتيرة واحدة لا تفاوت بينهما بالجلاء والخفاء قطعا كما فى علوم الخلق وقرئ قل ربى الخ وقوله تعالى فى السماء والارض متعلق بمحذوف وقع حالا من القول اى كائنا فى السماء والارض وقوله تعالى وهو السميع العليم اى المبالغ فى العلم بالمسموعات والمعلومات التى من جملتها ما اسروه من النجوى فيجازيهم باقوالهم وافعالهم اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله متضمن للوعيد بل قالوا اضغاث احلام اضراب من جهته تعالى وانتقال من حكاية قولهم السابق الى حكاية قول آخر مضطرب فى مطارب البطلان اى لم يقتصروا على ان يقولوا فى حقه عليه السلام هل هذا الا بشر وفى حق ما ظهر على يده من القران الكريم انه سحر بل قالوا تخاليط الاحلام ثم اضربوا عنه فقالوا بل افتراه من تلقاء نفسه من غير ان يكون له اصل او شبهة اصل ثم قالوا بل هو شاعر وما اتى به شعر يخيل الى السامع معانى لا حقيقة لها وهكذا شان المبطل المحجوج متحير لا يزال يتردد بين باطل وابطل ويتذبذب بين فاسد وافسد فالاضراب الاول من جهته تعالى والثانى والثالث من قبلهم وقد قيل الكل من قبلهم حيث اضربوا

عن قولهم هو سحر الى انه تخاليط احلام ثم الى انه كلام مفترى ثم الى انه قول شاعر ولا ريب
فى انه كان ينبغى حينئذ ان يقال قالوا بل اضغاث احلام واعتذار بان بل قالوا معنى لقالوا
المضمر قبل قوله تعالى هل هذا الا بشر الخ كانه قيل واسروا النجوى قالوا هل هذا الى قوله بل اضغاث
احلام وانما صرح بقالوا بعد بل لبعد العهد مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن امثاله
فليأتنا باية جواب شرط محذوف يفصح عنه السياق كانه قيل وان لم يكن كما قلنا بل كان رسولا
من الله تعالى فليأتنا كما ارسل الاولون اى مثل الاية التى ارسل بها الاولون كاليد والعصا
ونظايرهما حتى نؤمن به فما موصولة ومحل الكاف الجر على انها صفة لاية ويجوز ان
يكون مصدرية فالكاف منصوبة على انها مصدر تشبيهى اى نعت لمصدر محذوف اى
فليأتنا باية اتيانا كائنا مثل ارسال الاولين بها وصحة التشبيه من حيث ان الاتيان بالاية
من فروع الارسال بها اى مثل اتيان مرتب على الارسال ويجوز ان يحمل النظم الكريم على
انه اريد كل واحد من الاتيان والارسال فى كل واحد من طرفى التشبيه لكنه ترك فى جانب
المشبه ذكر الارسال وفى جانب المشبه به ذكر الاتيان اكتفاء بما ذكر فى كل موطن عما ترك
فى الموطن الاخر حسبما مر فى اخر سورة يونس ما امنت قبلهم من قرية كلام مستانف
مسوق لتكذيبهم فيما ينبئ عنه خاتمة مقالهم من الوعد الضمنى بالايمان كما اشير اليه
وبيان انهم فى اقتراح تلك الايات كالباحث عن حتفه بظلفه وان فى ترك الاجابة اليه
ابقاء عليهم كيف لا ولو اعطوا ما اقترحوا مع عدم ايمانهم قطعا لوجب استيصالهم
لجريان سنة الله عز وجل فى الامم السالفة على ان المقترحين اذا اعطوا ما اقترحوه ثم لم يؤمنوا
نزل بهم عذاب الاستيصال لا محالة وقد سبقت كلمة الحق منه تعالى ان هذه الامة لا يعذبون
بعذاب الاستيصال فقوله من قرية اى من اهل قرية فى محل الرفع على الفاعلية ومن مزيدة
لتاكيد العموم وقوله تعالى اهلكناها اى باهلاك اهلها لعدم ايمانهم بعد مجئ ما اقترحوه
من الايات صفة لقرية والهمزة فى قوله تعالى افهم يؤمنون لانكار الوقوع والفاء للعطف
اما على مقدر دخلته الهمزة فافادت انكار وقوع ايمانهم ونفيه عقيب عدم ايمان الاولين فالمعنى
انه لم يؤمن امة من الامم المهلكة عند اعطاء ما اقترحوه من الايات أهم لم يؤمنوا
فهؤلاء يؤمنون لو اجيبوا ما سألوا واعطوا ما اقترحوا مع كونهم اعتى منهم واطغى واما على
ما امنت على ان الفاء متقدمة على الهمزة فى الاعتبار مفيدة لترتيب انكار وقوع ايمانهم على عدم
ايمان الاولين وانما قدمت عليها الهمزة لاقتضائها الصدارة كما هو راى الجمهور
وقوله عز وجل وما ارسلنا قبلك الا رجالا جواب لقولهم هل هذا الا بشر الخ المتضمن
لرد ما دسوا تحت قولهم كما ارسل الاولون من التعريض بعدم كونه صلى الله عليه وسلم
مثل اولئك الرسل صلوات الله عليهم اجمعين ولذلك قدم عليه جواب قولهم فليأتنا باية
ولانهم قالوا ذلك بطريق التعجيز فلا بد من المسارعة الى رده وابطاله كما مر فى تفسير قوله
تعالى انما يأتيكم به الله ان شاء وما انتم بمعجزين وقوله تعالى ما ننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا
اذا منظرين ولان فى هذا الجواب نوع بسط يخل تقديمه بتجاوب اطراف النظم الكريم
والحق ان ما اتخذوه سببا للتكذيب موجب للتصديق فى الحقيقة لان مقتضى الحكمة ان يرسل
الى البشر البشر والى الملك الملك حسبما ينطق به قوله تعالى قل لو كان فى الارض ملائكة يمشون
مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا فان عامة البشر بمعزل من استحقاق
المفاوضة الملكية لتوقفها على التناسب بين المفيض والمستفيض فبعث الملك اليهم مزاحم
للحكمة التى عليها يدور فلك التكوين والتشريع وانما الذى يقتضيه الحكمة ان يبعث الملك
منهم الى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا
العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب ويلقوا الى جانب وقوله تعالى نوحى اليهم
استيناف مبنى لكيفية الارسال وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية المستمرة وحذف
المفعول لعدم القصد الى خصوصه والمعنى وما ارسلنا الى الامم قبل ارسالك الى امتك
الا رجالا مخصوصين من افراد الجنس مستأهلين للاصطفاء والارسال نوحى اليهم
بواسطة الملك ما يوحى من الشرايع والاحكام وغيرهما من القصص والاخبار كما نوحى اليك

من غير

من غير فرق بينهما فى حقيقة الوحى وحقيقة مدلوله حسبما يحكيه قوله تعالى انا اوحينا اليك
كما اوحينا الى نوح والنبيين الى قوله تعالى وكلم الله موسى تكليما كما لا فرق بينك وبينهم
فى البشرية فما لهم لا يفهمون انك لست بدعا من الرسل وان ما اوحى اليك ليس
مخالفا لما اوحى اليهم فيقولون ما يقولون وقرئ يوحى اليهم بالياء على صيغة المبنى
للمفعول جريا على سنن الكبرياء وايذانا بتعيين الفاعل وقوله تعالى فاسألوا اهل الذكر
ان كنتم لا تعلمون تلوين للخطاب وتوجيه له الى الكفرة لتبكيتهم واستنزالهم
عن رتبة الاستبعاد والنكير اثر تحقيق الحق على طريقة الخطاب لرسول الله صلى الله
عليه وسلم لان الحقيق بالخطاب فى امثال تلك الحقايق الانيقة واما الوقوف عليها
بالاستخبار من الغير فهو من وظايف العوام والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها
وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه اى ان كنتم لا تعلمون ما ذكر فاسألوا
ايها الجهلة اهل الكتاب الواقفين على احوال الرسل السالفة عليهم الصلوة والسلام لتزول
شبهتكم امروا بذلك لان اخبار الجم الغفير يوجب العلم لا سيما وهم كانوا يشايعون
المشركين فى عداوته صلى الله عليه وسلم ويشاورونهم فى امره ففيه من الدلالة على
كمال وضوح الامر وقوة شان النبى صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى وما جعلناهم
جسدا بيان لكون الرسل عليهم السلام اسوة لساير افراد الجنس فى احكام الطبيعة البشرية اثر
بيان كونهم اسوة لهم فى نفس البشرية والجسد جسم الانسان والجن والملائكة ونصبه اما على
انه مفعول ثان للجعل لكن لا بمعنى جعله جسدا بعد ان لم يكن كذلك كما هو المشهور
من معنى التصيير بل بمعنى جعله كذلك ابتداء على طريقة قولهم سبحان من صغر البعوض
وكبر الفيل كما مر فى قوله تعالى وجعلنا اية النهار مبصرة واما حال من الضمير والجعل ابداعى
وافراده لارادة الجنس المنتظم للكثير ايضا وقيل بتقدير المضاف اى ذوى جسد
وقوله تعالى لا يأكلون الطعام صفة له اى وما جعلناهم جسدا مستغنيا عن
الاكل والشرب بل محتاجا الى ذلك لتحصيل بدل ما يتحلل منه وما كانوا خالدين
لان مآل التحلل هو الفناء لا محالة وفى ايثار ما كانوا على ما جعلناهم تنبيه على
ان عدم الخلود مقتضى جبلتهم التى اشير اليها بقوله تعالى وما جعلناهم الخ لا
بالجعل المستانف والمراد بالخلود اما المكث المديد كما هو شان الملائكة او الابدية
وهم معتقدون انهم لا يموتون والمعنى جعلناهم اجسادا متغذية صائرة الى الموت
بالاخرة على حسب اجالهم لا ملائكة ولا اجسادا مستغنية عن الاغذية مصونة عن التحلل
كالملائكة فلم يكن لها خلود كخلودهم فالجملة مقررة لما قبلها من كون الرسل السالفة عليهم
السلام بشرا لا ملكا مع ما فى ذلك من الرد على قولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام وقوله
تعالى ثم صدقناهم الوعد عطف على ما يفهم من حكاية وحيه تعالى اليهم على الاستمرار
التجددى كانه قيل اوحينا اليهم ما اوحينا ثم صدقناهم فى الوعد الذى وعدناهم
فى تضاعيف الوحى باهلاك اعدائهم فانجيناهم ومن نشاء من المؤمنين وغيرهم
ممن تستدعى الحكمة ابقاءه كمن سيؤمن هو او بعض فروعه بالاخرة وهو السر فى
حماية العرب من عذاب الاستيصال واهلكنا المسرفين اى المجاوزين الحدود
فى الكفر والمعاصى لقد انزلنا اليكم كلام مستانف مسوق لتحقيق حقية القران
العظيم الذى ذكر فى صدر السورة الكريمة اعراض الناس عما يأتيهم من اياته و
استهزاؤهم به وتسميتهم تارة سحرا وتارة اضغاث احلام واخرى مفترى و
شعرا وبيان علو رتبته اثر تحقيق رسالته صلى الله عليه وسلم ببيان انه كساير
الرسل الكرام عليهم الصلوة والسلام قد صدر بالتوكيد القسمى اظهارا لمزيد
الاعتناء بمضمونه وايذانا بكون المخاطبين فى اقصى مراتب النكير اى والله لقد انزلنا
اليكم يا معشر قريش كتابا عظيم الشان نير البرهان وقوله تعالى فيه ذكركم صفة
لكتابا مؤكدة لما افاد التنكير التفخيمى من كونه جليل المقدار بانه جميل الاثار
مستجلب لهم منافع جليلة اى فيه شرفكم وصيتكم كقوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك

وقيل ما يحتاجون اليه في امور دينكم ودنياكم وقيل فيه ما تطلبون به حسن الذكر من مكارم
الاخلاق وقيل فيه موعظتكم وهو الانسب بسباق النظم الكريم وسياقه فان قوله تعالى
افلا تعقلون انكار توبيخي فيه بعث لهم على التدبر في امر الكتاب فيما في تضاعيفه
من فنون المواعظ والزواجر التي من جملتها القوارع السابقة واللاحقة والفاء
للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام اي الا تتفكرون فلا تعقلون ان الامر كذلك او لا
تعقلون شيئا من الاشياء التي من جملتها ما ذكر وقوله تعالى وكم قصمنا من قرية نوع
تفصيل لاجمال قوله تعالى واهلكنا المسرفين وبيان لكيفية اهلاكهم وسببه وتنبيه على كثرتهم
وكم خبرية مفيدة للتكثير محلها النصب على انه مفعول لقصمنا ومن قرية تمييز وفي لفظ
القصم الذي هو عبارة عن الكسر بابانة اجزاء المكسور وازالة تاليفها بالكلية من الدلالة على
قوة الغضب وشدة السخط ما لا يخفى وقوله تعالى كانت ظالمة في محل الجر على انها صفة
لقرية بتقدير مضاف ينبئ عنه الضمير الاتي اي وكثيرا قصمنا من اهل قرية كانوا ظالمين
بآيات الله تعالى كافرين بها كدأبكم وانشأنا بعدها اي بعد اهلاكها قوما آخرين
ليسوا منهم نسبا ولا دينا ففيه تنبيه على استئصال الاولين وقطع دابرهم بالكلية
وهو السر في تقديم حكاية انشاء هؤلاء على حكاية مبادي اهلاك اولئك بقوله تعالى
فلما احسوا بأسنا اي ادركوا عذابنا الشديد ادراكا تاما كانه ادراك المشاهد
المحسوس اذا هم منها يركضون يهربون مسرعين راكضين دوابهم او مشبهين
بهم في فرط الاسراع لا تركضوا اي قيل لهم بلسان الحال او بلسان المقال من الملك او
ممن ثمة من المؤمنين بطريق الاستهزاء والتوبيخ لا تركضوا وارجعوا الى ما اترفتم فيه
من التنعم والتلذذ والاتراف ابطار النعمة ومساكنكم التي كنتم تفتخرون بها لعلكم
تسألون تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات والنوازل او تتفقدون
اذا رأيتم مساكنكم خالية وتسألون اين اصحابها او يسألكم الوافدون نوالكم على
انهم كانوا اسخياء ينفقون اموالهم رئاء او بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما الى تهكم
قالوا لما يئسوا من الخلاص بالهرب وايقنوا بنزول العذاب يا ويلنا اي هلاكنا انا كنا
ظالمين اي مستوجبين للعذاب وهذا اعتراف منهم بالظلم وباستتباعه للعذاب وندم
عليه حين لم ينفعهم ذلك فما زالت تلك دعواهم اي فما زالوا يرددون تلك الكلمة
وتسميتها دعوى اي دعوة لان المولول كانه يدعو الويل قائلا يا ويل تعال فهذا اوانك
حتى جعلناهم حصيدا اي مثل الحصيد وهو المحصود من الزرع والنبت ولذلك لم يجمع
خامدين اي ميتين من خمدت النار اذا طفئت وهو مع حصيدا في حيز المفعول الثاني
للجعل كقولك جعلته حلوا حامضا والمعنى جعلناهم جامعين للمماثلة الحصيد والخمود
او حال من الضمير المنصوب في جعلناهم او المستكن في حصيدا او صفة لحصيدا لتعدده معنى
لانه في حكم جعلناهم امثال حصيد وما خلقنا السماء والارض اشارة اجمالية الى ان
تكوين العالم وابداع بني آدم مؤسس على قواعد الحكم البالغة المستتبعة للغايات الجليلة
تنبيه على ان ما حكي من العذاب الهائل والعقاب النازل باهل القرى من مقتضيات تلك
الحكم ومتفرعاتها حسب اقتضاء اعمالهم اياه وان للمخاطبين المقتدين بآثارهم ذنوبا
مثل ذنوبهم اي ما خلقناهما وما بينهما من المخلوقات التي لا تحصى اجناسها وافرادها
ولا تحصر انواعها وآحادها على هذا النمط البديع والاسلوب المنيع خالية عن الحكم
والمصالح وانما عبر عن ذلك باللعب واللهو حيث قيل لاعبين لبيان كمال تنزهه تعالى
عن الخلق الخالي عن الحكمة بتصويره بصورة ما لا يرتاب احد في استحالة صدوره عنه
سبحانه بل انما خلقناهما وما بينهما لتكون مبدأ للوجود الانساني وسببا لمعاشه ودليلا
يقوده الى تحصيل معرفتنا التي هي الغاية القصوى بواسطة طاعتنا وعبادتنا كما ينطق به
قوله تعالى وهو الذي خلق السموات والارض في ستة ايام وكان عرشه على الماء
ليبلوكم ايكم احسن عملا وقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وقوله تعالى
لو اردنا ان نتخذ لهوا استئناف مقرر لما قبله من انتفاء اللعب واللهو اي لو اردنا ان

نتخذ ما يتلهى به ويلعب لاتخذناه من لدنا اي من جهة قدرتنا او من عندنا مما
يليق بشأننا من المجردات لا من الاجسام المرفوعة والاجرام الموضوعة كديدن الجبابرة
في رفع العروش وتحسينها وتسوية الفروش وتزيينها لكن يستحيل ارادتنا له لمنافاته
الحكمة فيستحيل اتخاذنا له قطعا وقوله تعالى ان كنا فاعلين جوابه محذوف ثقة
بدلالة ما قبله عليه اي ان كنا فاعلين لاتخذناه وقيل ان نافية اي ما كنا فاعلين اي
لاتخاذ اللهو لعدم ارادتنا اياه فيكون بيانا لانتفاء التالي لانتفاء المقدم او لارادة
اتخاذه فيكون بيانا لانتفاء المقدم المستلزم لانتفاء التالي وقيل اللهو الولد بلغة اليمن
وقيل الزوجة والمراد الرد على النصارى ولا يخفى بعده بل نقذف بالحق على الباطل
اضراب عن اتخاذ اللهو بل عن ارادته كانه قيل لكنا لا نريده بل شأننا ان نغلب الحق
الذي من جملته الجد على الباطل الذي من قبيله اللهو وتخصيص شأنه هذا من بين
سائر شؤونه تعالى بالذكر للتخلص الى ما سيأتي من الوعيد فيدمغه اي يمحقه بالكلية
كما فعلنا باهل القرى المحكية وقد استعير لايراد الحق على الباطل القذف الذي هو الرمي
الشديد بالجرم الصلب كالصخرة ولمحقه للباطل الدمغ الذي هو كسر الشيء الرخو الاجوف
وهو الدماغ بحيث يشق غشاءه المؤدي الى زهوق الروح تصويرا له بذلك وقرئ
فيدمغه بالنصب وهو ضعيف وقرئ فيدمغه بضم الميم فاذا هو زاهق اي
ذاهب بالكلية وفي اذا الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة
في الذهاب والبطلان ما لا يخفى فكانه زاهق من الاصل ولكم الويل مما تصفون
وعيد لقريش بان لهم ايضا مثل ما لاولئك من العذاب والعقاب ومن تعليلية متعلقة
بالاستقرار الذي تعلق به الخبر او بمحذوف هو حال من الويل او من ضميره في
الخبر وما اما مصدرية او موصولة او موصوفة اي واستقر لكم الويل والهلاك
من اجل وصفكم له سبحانه بما لا يليق بشأنه الجليل او بالذي تصفونه او بشيء
تصفونه به من الولد او كائنا مما تصفونه تعالى به وله من في السموات والارض
استئناف مقرر لما قبله من خلقه تعالى لجميع مخلوقاته على حكمة بالغة ونظام كامل
وانه تعالى يحق الحق ويزهق الباطل اي له تعالى خاصة جميع المخلوقات خلقا
وملكا وتدبيرا وتصرفا واحياء واماتة وتعذيبا واثابة من غير ان يكون لاحد
في ذلك دخل ما استقلالا او استتباعا ومن عنده وهم الملائكة عليهم السلام
عبر عنهم بذلك اثر ما عبر عنهم بمن في السموات تنزيلا لهم لكرامتهم عليه عز
وجل وزلفاهم عنده منزلة المقربين عند الملوك بطريق التمثيل وهو مبتدأ خبره لا يستكبرون
عن عبادته اي لا يتعظمون عنها ولا يعدون انفسهم كبيرا ولا يستحسرون ولا
يكلون ولا يعيون وصيغة الاستفعال المنبئة عن المبالغة في الحسور للتنبيه
على ان عباداتهم بثقلها ودوامها حقيقة بان يستحسر منها ومع ذلك لا يستحسرون
لا لافادة نفي المبالغة في الحسور مع ثبوت اصله في الجملة كما ان نفي الظلامية في قوله
تعالى وما انا بظلام للعبيد لافادة كثرة الظلم المفروض تعلقه بالعبيد لا لافادة نفي
المبالغة في الظلم مع ثبوت اصل الظلم في الجملة وقيل من عنده معطوف على من
الاولى وافرادهم بالذكر مع دخولهم في من في السموات والارض للتعظيم كما في
قوله تعالى وجبريل وميكال فقوله لا يستكبرون حينئذ حال من الثانية يسبحون الليل
والنهار اي ينزهونه في جميع الاوقات ويعظمونه ويمجدونه دائما وهو
استئناف وقع جوابا عما نشأ مما قبله كانه قيل ماذا يصنعون في عبادتهم او
كيف يعبدون فقيل يسبحون الخ او حال من فاعل يستحسرون وكذا قوله تعالى لا يفترون
اي لا يتخلل تسبيحهم فترة اصلا بفراغ او بشغل آخر ام اتخذوا آلهة حكاية
لجناية اخرى من جناياتهم بطريق الاضراب والانتقال من فن الى فن آخر من
التوبيخ اثر تحقيق الحق ببيان انه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة
وانهم قاطبة تحت ملكوته وقهره وان عباده مذعنون لطاعته ومثابرون

على عبادته منزهون له عن كل ما لايليق بشانه من الامور التى من جملتها الانداد و
معنى الهمزة فى ام المنقطعة انكار الوقوع لا انكار الواقع وقوله تعالى من الارض متعلق
باتخذوا او بمحذوف هو صفة الآلهة واياما كان فالمراد هو التحقير لا التخصيص
وقوله تعالى هم ينشرون اى يبعثون الموتى صفة لآلهة وهو الذى يدور عليه
الانكار والتجهيل والتشنيع لا نفس الاتخاذ فانه واقع لامحالة اى بل اتخذوا آلهة
من الارض هم خاصة مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى كلا فان ما
اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك وهم وان لم يقولوا بذلك صريحا لكنهم حيث ادعوا
لها الالهية فكانهم ادعوا لها الانشار ضرورة انه من الخصائص الالهية حتما ومعنى
التخصيص فى تقديم الضمير ما اشير اليه من التنبيه على كمال مباينة حالهم للانشار
الموجبة لمزيد الانكار كما فى قوله تعالى أفى الله شك وقوله تعالى أبالله وآياته كنتم تستهزءون فان
تقديم الجار والمجرور للتنبيه على كمال مباينة امره تعالى لان يشك فيه ويستهزأ به ويجوز
ان يجعل ذلك من مستتبعات ادعائهم الباطل فان الالوهية مقتضية للاستقلال
بالابداء والاعادة فحيث ادعوا للاصنام الالهية فكانهم ادعوا لها الاستقلال
بالانشار كما انهم جعلوا بذلك مدعين لاصل الانشار لو كان فيهما آلهة الا الله
ابطال لتعدد الاله باقامة البرهان على انتفائه على استحالته وايراد الجمع لوروده
اثر انكار اتخاذ الآلهة لا لان للجمعية مدخلا فى الاستدلال وكذا فرض كونها
فيهما والا بمعنى غير على انها صفة الآلهة ولا مساغ للاستثناء لاستحالة شموله ما قبلها
لما بعدها وافضائه الى فساد المعنى لدلالته حينئذ على ان الفساد لكونها فيهما بدونه
تعالى ولا للرفع على البدل لانه متفرع على الاستثناء ومشروط بان يكون فى كلام غير
موجب اى لو كان فى السموات والارض آلهة غير الله كما هو اعتقادهم الباطل لفسدتا
اى لبطلتا بما فيهما جميعا وحيث انتفى التالى علم انتفاء المقدم قطعا بيان الملازمة
ان الالهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الاطلاق تغييرا وتبديلا
وايجادا واعداما واحياء واماتة فبقاؤهما على ما هما عليه اما بتاثير كل منهما وهو
محال لاستحالة وقوع المعلول المعين بعلل متعددة واما بتاثير واحد منها فالبواقى
بمعزل من الالهية قطعا واعلم ان جعل التالى فسادهما بعد وجودهما لما انه اعتبر
فى المقدم تعدد الآلهة فيهما والا فالبرهان يقتضى باستحالة التعدد على الاطلاق
فانه لو تعدد الاله فان توافق الكل فى المراد تطاردت عليه القدر وان تخالف تعاوقت
فلا يوجد موجود اصلا وحيث انتفى التالى تعين انتفاء المقدم والفاء فى قوله تعالى
فسبحان الله لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان اى
فسبحوه سبحانه اللائق به ونزهوه عما لا يليق به من الامور التى من جملتها ان يكون
له شريك فى الالوهية وايراد الجلالة فى موقع الاضمار للاشعار بعلة الحكم فان الالوهية
مناط لجميع صفات كماله التى من جملتها تنزهه تعالى عما لا يليق به ولتربية المهابة
وادخال الروعة وقوله تعالى رب العرش صفة للاسم الجليل مؤكدة لتنزهه
عز وجل عما يصفون متعلق بالتسبيح اى فسبحوه عما يصفونه من ان يكون من
دونه آلهة لا يسأل عما يفعل استئناف ببيان انه تعالى لقوة عظمته وعزة
سلطانه القاهر بحيث ليس لاحد من مخلوقاته ان يناقشه ويسأله عما يفعل من
افعاله اثر بيان ان ليس له شريك فى الالهية وهم اى العباد يسألون عما يفعلون
نقيرا وقطميرا لانهم مملوكون له تعالى مستعبدون ففيه وعيد للكفرة ام اتخذوا
من دونه آلهة اضراب وانتقال من اظهار بطلان كون ما اتخذوه آلهة آلهة
حقيقة باظهار خلوها عن خصائص الالهية التى من جملتها الانشار واقامة
البرهان القاطع على استحالة تعدد الاله على الاطلاق وتفرده سبحانه بالالوهية
الى اظهار بطلان اتخاذهم تلك الآلهة مع عرائها عن تلك الخصائص بالمرة شركاء
لله عز سلطانه وتبكيتهم بالجائهم الى اقامة البرهان على دعواهم الباطلة وتحقيق

ان

ان جميع الكتب السماوية ناطقة بحقية التوحيد وبطلان الاشراك والهمزة لانكار
الاتخاذ المذكور واستقباحه واستعظامه ومن متعلقة باتخذوا والمعنى بل اتخذوا
متجاوزين اياه تعالى مع ظهور شؤونه الجليلة الموجبة بالالوهية مع ظهور خلوهم
عن خواص الالوهية بالكلية قل لهم بطريق التبكيت والقام الحجر هاتوا برهانكم
على ما تدعونه من جهة العقل او النقل فانه لا صحة لقول لا دليل عليه فى الامور
الدينية لاسيما فى مثل هذا الشان الخطير وما فى اضافة البرهان الى ضميرهم من الاشعار
بان لهم برهانا ضرب من التهكم بهم وقوله تعالى هذا ذكر من معى وذكر من قبلى
انارة لبرهانه واشارة الى انه مما نطقت به الكتب الالهية قاطبة وشهدت به السنة
الرسل المتقدمة كافة وزيادة تهييج لهم على اقامة البرهان لاظهار كمال عجزهم اى
هذا الوحى الوارد فى شان التوحيد المتضمن للبرهان القاطع العقلى ذكر امتى اى
عظتهم وذكر الامم السالفة قد اقمته فاقيموا انتم ايضا برهانكم وقيل المعنى
هذا كتاب انزل على امتى وهذا كتاب انزل على امم الانبياء عليهم السلام من الكتب الثلاثة
والصحف فراجعوها وانظروا هل فى واحد منها غير الامر بالتوحيد والنهى عن الاشراك
ففيه تبكيت لهم متضمن لاثبات نقيض مدعاهم وقرئ بالتنوين والاعمال كقوله
تعالى او اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما وبه وبمن الجارة على ان مع اسم هو ظرف
كقبل وبعد وقوله تعالى بل اكثرهم لا يعلمون الحق اضراب من جهته تعالى غير داخل
فى الكلام الملقن وانتقال من الامر بتبكيتهم بمطالبة البرهان الى بيان انه لا ينجع فيهم
المحاجة باظهار حقية الحق وبطلان الباطل فان اكثرهم لا يفهمون الحق ولا يميزون
بينه وبين الباطل فهم لاجل ذلك معرضون اى مستمرون على الاعراض عن
التوحيد واتباع الرسول لا يرعوون عما هم عليه من الغى والضلال وان كررت
عليهم البينات والحجج او معرضون عما القى عليهم من البراهين العقلية والنقلية
وقرئ الحق بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف وسط بين السبب والمسبب
تاكيدا للسببية وقوله تعالى وما ارسلنا من قبلك من رسول اليه انه لا اله الا
انا فاعبدون استئناف مقرر لما اجمل فيما قبله من كون التوحيد مما نطقت به
الكتب الالهية واجمعت عليه الرسل عليهم السلام وقرئ يوحى على صيغة الغائب
مبنيا للمفعول واياما كان فصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا لصورة
الوحى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا حكاية لجناية فريق من المشركين جئ بها لاظهار
بطلانها وبيان تنزهه تعالى عن ذلك اثر بيان تنزهه سبحانه عن الشركاء على الاطلاق
وهم حى من خزاعة يقولون الملائكة بنات الله تعالى ونقل الواحدى ان قريشا
وبعض اجناس العرب جهينة وبنى سلمة وخزاعة وبنى مليح يقولون ذلك والتعرض
لعنوان الرحمانية المنبئة عن كون جميع ما سواه تعالى مربوبا له تعالى نعمة او منعما
عليه لابراز كمال شناعة مقالتهم الباطلة سبحانه اى تنزه بالذات تنزهه اللائق به
على ان السبحان مصدر من سبح اى بعد او اسبحه تسبيحه على انه علم للتسبيح وهو
مقول على السنة العباد او سبحوه تسبيحه وقوله تعالى بل عباد اضراب وابطال
لما قالوه كانه قيل ليست الملائكة كما قالوا بل هم عباد له تعالى مكرمون مقربون عنده
وقرئ مكرمون بالتشديد وفيه تنبيه على منشأ غلط القوم وقوله تعالى لا يسبقونه
بالقول صفة اخرى لعباد منبئة عن كمال طاعتهم وانقيادهم لامره تعالى اى
لا يقولون شيئا حتى يقوله تعالى او يأمرهم به واصله لا يسبق قولهم قوله تعالى
فاسند السبق اليهم منسوبا اليه تعالى تنزيلا لسبق قولهم قوله تعالى منزلة سبقهم
اياه تعالى لمزيد تنزيههم عن ذلك وللتنبيه على غاية استهجان السبق المعرض به
للذين يقولون ما لا يقوله الله تعالى وجعل القول محلا للسبق واداة له ثم انيب اللام
عن الاضافة للاختصار والتجافى عن التكرار وقرئ لا يسبقونه بضم الباء من سابقته
فسبقته اسبقه وفيه مزيد استهجان للسبق واشعار بان من سبق قوله تعالى فقد

الا نوحى

تصدى لمغالبته تعالى في السبق فسبقه فغلبه والعياذ بالله تعالى وزيادة تنزيه لهم عما نفي
عنهم ببيان ان ذلك عندهم بمنزلة الغلبة بطريق المبالغة فانى يتوهم صدوره عنهم
وهم بامره يعملون بيان لتبعيتهم له تعالى في الاعمال اثر بيان تبعيتهم له تعالى
في الاقوال فان نفي سبقهم له تعالى بالقول عبارة عن
تبعيتهم له تعالى فيه كانه قيل هم بامره يقولون وبامره يعملون لا بغير امره اصلا
فالقصر المستفاد من تقديم الجار معتبر بالنسبة الى غير امره لا الى امر غيره يعلم ما
بين ايديهم وما خلفهم استيناف وقع تعليلا لما قبله وتمهيدا لما بعده فانهم
لعلمهم باحاطته تعالى بما قدموا واخروا من الاقوال والاعمال لا يزالون يراقبون احوالهم فلا
يقدمون على قول او عمل بغير امره تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى ان يشفع له مهابة
منه تعالى وهم مع ذلك من خشيته عز وجل مشفقون مرتعدون واصل الخشية
الخوف مع التعظيم ولذلك خص بها العلماء والاشفاق الخوف مع الاعتناء فعند تعديته
بمن يكون معنى الخوف فيه اظهر وعند تعديته بعلى ينعكس الامر ومن يقل منهم اي
من الملائكة اذ الكلام فيهم وفي كونهم بمعزل مما قالوا في حقهم اني اله من دونه
متجاوزا اياه تعالى فذلك الذي فرض قوله فرض محال نجزيه جهنم كسائر
المجرمين ولا يغني عنهم ما ذكر من صفاتهم السنية وافعالهم المرضية وفيه من
الدلالة على قوة ملكوته تعالى وعزة جبروته واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم
في حقهم ما توهمه اولئك الكفرة ما لا يخفى كذلك نجزي الظالمين مصدر تشبيهي
مؤكد لمضمون ما قبله اي مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي الذين يضعون الاشياء في غير
مواضعها ويتعدون اطوارهم والقصر المستفاد من التقديم معتبر بالنسبة الى النقصان
دون الزيادة اي لا جزاء انقص منه اولم ير الذين كفروا تجهيل لهم بتقصيرهم
في التدبر في الآيات التكوينية الدالة على استقلاله تعالى بالالوهية وكون جميع ما
سواه مقهورا تحت ملكوته والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر وقرئ بغير
واو والرؤية قلبية اي الم يتفكروا ولم يعلموا ان السموات والارض كانتا اي جماعتا
السموات والارضين كما في قوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا
رتقا الرتق الضم والالتحام والمعنى اما على حذف المضاف او هو بمعنى المفعول
اي كانتا ذواتي رتق او مرتوقتين وقرئ رتقا اي شيئا رتقا اي مرتوقا ففتقناهما
قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عكرمة والحسن البصري وقتادة وسعيد بن جبير
كانتا شيئا واحدا ملتزمين ففصل الله تعالى بينهما ورفع السماء الى حيث هي واقر الارض
وقال كعب خلق الله السموات ملتصقين ثم خلق ريحا فتوسطتها ففتقتها وعن الحسن
خلق الله تعالى الارض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم اصعد
الدخان وخلق منه السموات وامسك الفهر في موضعها وبسط منها الارض وذلك
قوله تعالى كانتا رتقا ففتقناهما وقال مجاهد والسدي كانت السموات مرتتقة
طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات وكذلك الارض كانت مرتتقة طبقة واحدة
ففتقها فجعلها سبع ارضين وقال ابن عباس في رواية عطاء وعليه اكثر المفسرين
ان السموات كانتا رتقا مستوية صلبة لا تمطر والارض رتقا لا تنبت ففتق السماء
بالمطر والارض بالنبات فيكون المراد بالسموات السماء الدنيا والجمع باعتبار الآفاق
او السموات جميعا على ان لها مدخلا في الامطار وعلم الكفرة الرتق والفتق بهذا المعنى مما
لا سترة به واما بالمعاني الاول فهم وان لم يعلموهما لكنهم متمكنون من علمهما اما بطريق
النظر والتفكر فان الفتق عارض مفتقر الى مؤثر قديم واما بالاستفسار من العلماء
ومطالعة الكتب وجعلنا من الماء كل شيء حي اي خلقنا من الماء كل حيوان كقوله تعالى
والله خلق كل دابة من ماء وذلك لانه من اعظم مواده او لفرط احتياجه اليه و
انتفاعه به او صيرنا كل شيء حي من الماء اي بسبب منه لا بد له من ذلك وتقديم المفعول
الثاني للاهتمام به لا لمجرد ان المفعولين في الاصل مبتدأ وخبر وحق الخبر كونه ظرفا

ان يتقدم على المبتدأ فان ذلك مصحح محض لا مرجح وقرئ حيا على انه صفة كل او مفعول
ثان والظرف كما في الوجه الاول قدم على المفعول للاهتمام به والتشويق الى المؤخر
افلا يؤمنون انكار لعدم ايمانهم بالله تعالى وحده مع ظهور ما يوجبه حتما من الآيات
الآفاقية والانفسية الدالة على تفرده عز وجل بالالوهية وعلى كون ما سواه
من مخلوقاته مقهورة تحت ملكوته وقدرته والفاء للعطف على مقدر يستدعيه
الانكار السابق اي ايعلمون ذلك فلا يؤمنون وجعلنا في الارض رواسي اي جبالا ثوابت
جمع راسية من رسا الشيء اذا ثبت ورسخ ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث في غير
العقلاء مما لا ريب في صحته كقوله تعالى اشهر معلومات واياما معدودات ان تميد بهم
اي كراهة ان تتحرك وتضطرب بهم او لئلا تميد بهم بحذف اللام ولا لعدم الالتباس
وجعلنا فيها اي في الارض وتكرير الفعل لاختلاف المجعولين ولتوفية مقام الامتنان حقه
او في الرواسي لانها المحتاجة الى الطرق فجاجا مسالك واسعة وانما قدم على قوله تعالى
سبلا وهو وصف له ليصير حالا فيفيد انه تعالى حين خلقها خلقها كذلك وليبدل منها
سبلا فيدل ضمنا على انه تعالى خلقها ووسعها للسابلة مع ما فيه من التوكيد لعلهم
يهتدون اي الى مصالحهم ومهماتهم وجعلنا السماء سقفا محفوظا من الوقوع
بقدرتنا القاهرة او من الفساد والانحلال الى الوقت المعلوم بمشيئتنا او من استراق
السمع بالشهب وهم عن آياتها الدالة على وحدانيته تعالى وعلمه وقدرته و
حكمته وارادته التي بعضها محسوس وبعضها معلوم بالبحث عنه في علمي الطبيعة
والهيئة معرضون لا يتدبرون فيها فيبقون على ما هم عليه من الكفر والضلال وقوله
تعالى وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر اللذين هما آيتاهما بيان لبعض تلك الآيات
التي هم عنها معرضون بطريق الالتفات الموجب لتأكيد الاعتناء بفحوى الكلام اي هو
الذي خلقهن وحده كل اي كل واحد منهما على ان التنوين عوض عن المضاف اليه في فلك يسبحون
اي يجرون في سطح الفلك كالسبح في الماء والمراد بالفلك الجنس كقولك كساهم الخليفة حلة
والجملة حال من الشمس والقمر وجاز انفرادهما بها لعدم اللبس والضمير لهما والجمع
باعتبار المطالع وجعل الضمير واو العقلاء لان السباحة حالهم وما جعلنا لبشر من
قبلك الخلد اي في الدنيا لكونه مخالفا للحكمة التكوينية والتشريعية افان مت
بمقتضى حكمتنا فهم الخالدون نزلت حين قالوا نتربص به ريب المنون والفاء لتعليق
الشرطية بما قبلها والهمزة لانكار مضمونها بعد تقرير القاعدة الكلية النافية لذلك
بالمرة والمراد بانكار خلودهم ونفيه انكار ما هو مدار له وجودا وعدما من شماتتهم بموته
عليه السلام فان الشماتة بما يعتريه ايضا مما لا ينبغي ان يصدر عن العاقل كانه قيل افان
مت فهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك وقوله تعالى كل نفس ذائقة الموت اي ذائقة
مرارة مفارقتها جسدها برهان على ما انكر من خلودهم ونبلوكم الخطاب اما للناس
كافة بطريق التلوين او للكفرة بطريق الالتفات اي نعاملكم معاملة من يبلوكم بالشر
والخير بالبلايا والنعم هل تصبرون وتشكرون اولا فتنة مصدر مؤكد لنبلوكم من غير
لفظه والينا ترجعون لا الى غيرنا لا استقلالا ولا اشتراكا فنجازيكم حسبما يظهر
منكم من الاعمال فهو على الاول وعد ووعيد وعلى الثاني وعيد محض وفيه ايماء الى
ان المقصود من هذه الحيوة الدنيا الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب وقرئ يرجعون
بالياء على الالتفات واذا رآك الذين كفروا اي المشركون ان يتخذونك الا هزوا
اي ما يتخذونك الا مهزوا به على معنى قصر معاملتهم معه عليه السلام على اتخاذهم
اياه هزوا لا على معنى قصر اتخاذهم على كونه هزوا كما هو المتبادر كانه قيل ما يفعلون
بك الا اتخاذك هزوا وقد مر تحقيقه في قوله تعالى ان اتبع الا ما يوحى الي في سورة الانعام
اهذا الذي يذكر آلهتكم على ارادة القول اي ويقولون او قائلين ذلك اي يذكرهم
بسوء كما في قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم الخ وقوله تعالى وهم بذكر الرحمن هم كافرون
في حيز النصب على الحالية من ضمير القول المقدر والمعنى انهم يعيبون عليه عليه السلام

ان يذكر آلهتهم التى لاتضرّ ولاتنفع بالسّوء والحال انهم بذكر الرّحمن المنعم عليهم بما يليق به
من التوحيد او بارشاد الخلق بارسال الرّسل وانزال الكتب او بالقرآن كافرون فهم احقاء
بالعيب والانكار فالضمير الاوّل مبتدا خبره كافرون وبذكر متعلق بالخبر والتقدير وهم
كافرون بذكر الرّحمن والضمير الثانى تاكيد لفظىّ للاوّل فوقع الفصل بين العامل ومعموله
بالموكّد دون الموكّد والمؤكّد بالمعمول خلق الانسان من عجل جعل لفرط استعجاله
وقلّة صبره كانه مخلوق منه تنزيلا لما طبع عليه من الاخلاق منزلة ماطبع منه من
الاركان ايذانا بغاية لزومه له وعدم انفكاكه عنه ومن عجلته مبادرته الى الكفر
واستعجاله بالوعد روى انها نزلت فى النضر بن الحارث حين استعجل العذاب بقوله اللّهمّ
ان كان هذا هو الحقّ من عندك فامطر الاية وعن ابن عبّاس رضى الله عنهما ان المراد
بالانسان آدم عليه السّلام وانه حين بلغ الرّوح صدره ولم يتبالغ فيه اراد ان يقوم
وروى انه لما دخل الرّوح فى عينيه نظر الى ثمار الجنّة ولما دخل جوفه اشتهى الطعام
وقيل خلق الله تعالى فى آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس فاسرع فى خلقه قبل
غيبتها فالمعنى خلق الانسان خلقا ناشئا من عجل فذكره لبيان انه من دواعى عجلته
فى الامور والاظهر انّ المراد به الجنس وان كان خلقه عليه السّلام ساريا الى اولاده
وقيل العجل الطين بلغة حمير ولا تقريب له ههنا وقوله تعالى ساريكم اياتى تلوين للخطاب
وصرف له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المستعجلين بطريق التهديد والوعيد
اى ساريكم نقماتى فى الاخرة كعذاب النار وغيره فلا تستعجلون بالاتيان بها والنهى
عما جبلت عليه نفوسهم ليقعدوها عن مرادها ويقولون متى هذا الوعد اى وقت
مجئ السّاعة التى كانوا يوعدون وانما كانوا يقولونه استعجالا لمجيئه بطريق الاستهزاء
والانكار كما يرشد اليه الجواب لاطلبا لتعيين وقته بطريق الالزام كما فى سورة الملك
ان كنتم صادقين اى فى وعدكم بانه ياتينا والخطاب للنبىّ صلّى الله عليه وسلم
والمؤمنين الذين يتلون الايات الكريمة المنبئة عن مجئ السّاعة وجواب الشرط محذوف
ثقة بدلالة ما قبله عليه حسبما حذف فى مثل قوله تعالى فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين
فانّ قولهم متى هذا الوعد استبطاء منهم للموعود وطلب لاتيانه بطريق العجلة
فان ذلك فى قوّة الامر بالاتيان عجلة كانه قيل فليأتنا بسرعة ان كنتم صادقين لو
يعلم الذين كفروا استيناف مسوق لبيان شدّة هول ما يستعجلونه وفظاعة ما فيه
من العذاب وانهم انما يستعجلونه لجهلهم بشانه وايثار صيغة المضارع فى الشرط
وان كان المعنى على المضىّ لافادة استمرار عدم العلم فانّ المضارع المنفىّ الواقع موقع الماضى
ليس بنصّ فى افادة انتفاء استمرار الفعل بل يفيد استمرار انتفائه ايضا بحسب المقام
كما فى قولك لو تحسن الىّ لشكرتك فانّ المعنى انّ انتفاء الشكر لاستمرار انتفاء الاحسان
لا لانتفاء استمرار الاحسان ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما فى حيّز الصّلة
على علّة استعجالهم وقوله تعالى حين لايكفّون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم
مفعول يعلم وهو عبارة عن الوقت الموعود الذى كانوا يستعجلونه واضافته الى الجملة
الجارية مجرى الصّفة التى حقها ان تكون معلومة الانتساب الى الموصوف عند المخاطب
ايضا مع انكار الكفرة بذلك للايذان بانه من الظهور بحيث لا حاجة له الى الاخبار به
وانما حقّه الانتظام فى سلك المسلمات المفروغ عنها وجواب لو محذوف اى لو لم يستمرّ
عدم علمهم بالوقت الذى يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد من الحين الذى يحيط بهم
النار فيه من كل جانب وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدام والخلف
لكونهما اشهر الجوانب واستلزام الاحاطة بهما للاحاطة بالكلّ بحيث لايقدرون
على دفعها بانفسهم من جانب من جوانبهم ولا هم ينصرون من جهة الغير
فى دفعها الخ لما فعلوا ما فعلوا من الاستعجال ويجوز ان يكون يعلم متروك المفعول
منزلا منزلة اللازم اى لو كان لهم علم لما فعلوه وقوله تعالى حين الخ استيناف مقرّر
لجهلهم ومبيّن لاستمراره الى ذلك الوقت كانه قيل حين يرون ما يرون يعلمون

حقيقة الحال بل تاتيهم عطف على لايكفّون اى لايكفّونها بل تاتيهم اى العدة او النار
او السّاعة بغتة فتبهتهم اى تغلبهم او تحيّرهم وقرئ الفعلان بالتذكير على انّ
الضمير للوعد او الحين وكذا الها فى قوله تعالى فلا يستطيعون ردّها بناء على الوعد
بالنار او العدة والحين بالسّاعة ويجوز عوده الى النار وقيل الى البغتة اى لايستطيعون
ردّها عنهم بالكلّيّة ولاهم ينظرون اى يمهلون ليستريحوا طرفة عين وفيه تذكير
لامهالهم فى الدّنيا ولقد استهزئ برسل من قبلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم
عن استهزائهم به عليه السّلام فى ضمن الاستعجال وعدة ضمنية بانه يصيبهم مثل ما اصاب
المستهزئين بالرسل السّالفة عليهم الصّلوة والسّلام وتصديرها بالقسم لزيادة تحقيق
مضمونها وتنوين الرّسل للتفخيم والتكثير ومن متعلّقة بمحذوف هو صفة له اى وبالله لقد
استهزئ برسل اولى شان خطير وذوى عدد كثير كائنين من زمان قبل زمانك على
حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه فحاق اى احاط عقيب ذلك او نزل او حلّ
او نحو ذلك فانّ معناه يدور على الشمول واللزوم ولايكاد يستعمل الّا فى الشرّ والحيق
ما يشتمل على الانسان من مكروه فعله وقوله تعالى بالذين سخروا منهم اى من اولئك الرّسل
عليهم السّلام متعلق بحاق وتقديمه على فاعله الذى هو قوله تعالى ما كانوا به يستهزءون
للمسارعة الى بيان لحوق الشرّ بهم واما موصولة مفيدة للتهويل والضمير المجرور عائد اليها
والجارّ متعلق بالفعل وتقديمه عليه لرعاية الفواصل اى فاحاط بهم الذى كانوا يستهزءون
به حيث اهلكوا لاجله واما مصدرية فالضمير المجرور راجع الى جنس الرّسول المدلول
عليه بالجمع كما قالوا ولعلّ ايثاره على الجمع للتنبيه على انه يحيق بهم جزاء استهزائهم بكلّ واحد
واحد منهم عليهم السّلام لاجزاء استهزائهم بكلّهم من حيث هو كلّ فقط اى فنزل
بهم جزاء استهزائهم على وضع السّبب موضع المسبّب ايذانا بكمال الملابسة بينهما او عين
استهزائهم ان اريد بذلك العذاب الاخروىّ بناء على تجسّم الاعمال فانّ الاعمال الظاهرة
فى هذه النشاة بصور عرضيّة تبرز فى النشاة الاخرة بصور جوهريّة مناسبة لها فى الحسن
والقبح وعلى ذلك بنى الوزن وقد مرّ تفصيله فى سورة الاعراف وفى قوله تعالى انما بغيكم
على انفسكم الاية الى آخرها قل خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم اثر تسلية بما
ذكر من مصير امرهم الى الهلاك وامر له عليه السّلام بان يقول لاولئك المستهزئين بطريق
التقريع والتبكيت من يكلؤكم اى يحفظكم بالليل والنهار من الرحمن اى من
باسه الذى تستحقون نزوله ليلا او نهارا وتقديم الليل لما انّ الدّواهى اكثر فيه وقوعا
واشدّ وقعا وفى التعرّض لعنوان الرّحمانية ايذان بان كالئهم ليس الا رحمته العامة
وبعد ما امر عليه السّلام بما ذكر من السّؤال على الوجه المذكور حسبما يقتضيه حالهم لانهم
بحيث لولا انّ الله تعالى يحفظهم فى الملوين لحلّ بهم فنون الآفات فهم احقّاء بان يكلّفوا
الاعتراف بذلك فيقفوا على ما هم عليه من الاشراك اضرب عن ذلك بقوله تعالى
بل هم عن ذكر ربّهم معرضون ببيان ان لهم حالا اخرى مقتضية لصرف الخطاب
عنهم وهى انهم لايخطرون ذكره تعالى ببالهم فضلا ان يخافوا باسه ويعدّوا ما كانوا
عليه من الامن والدعة حفظا وكلاءة حتى يسئلوا عن الكالئ على طريقة قول من قال
عوّجوا لحبيب النّعمى دمنة الدّار ماذا تحيّون من نؤى واحجار وفى تعليق الاعراض بذكره
تعالى وايراد اسم الرّبّ المضاف الى ضميرهم المنبئ عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره
وتربيته تعالى من الدلالة على كونهم فى الغاية القاصية من الضلالة والغىّ ما لا يخفى
وكلمة ام فى قوله تعالى ام لهم آلهة تمنعهم من دوننا منقطعة وما فيها من معنى
بل للاضراب والانتقال عمّا قبله من بيان انّ جهلهم بحفظه تعالى اياهم لعدم خوفهم
الناشى عن اعراضهم عن ذكر ربّهم بالكلّيّة الى توبيخهم باعتمادهم على آلهتهم
واسنادهم الحفظ اليها والهمزة لانكار ان تكون لهم آلهة تقدر على ذلك والمعنى بل الهم
آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا وحفظنا او من عذاب كائن من عندنا فهم معوّلون
عليها واثقون بحفظها وفى توجيه الانكار والنفى الى وجود الآلهة الموصوفة بما ذكر من

متعلق بقوله اضرب
عن ذلك لا بقوله
سالوا منه

المنع لا الى نفس الصفة بان يقال او تمنعهم آلهتهم الى من الدلالة على سقوطها عن مرتبة
الوجود فضلا عن رتبة المنع ما لا يخفى وقوله عز وعلا لا يستطيعون نصر انفسهم ولا
هم منا يصحبون استيناف مقرر لما قبله من الانكار وموضح لبطلان اعتقادهم اى هم
لا يستطيعون ان ينصرون انفسهم ولا يصحبون بالنصر من جهتنا فكيف يتوهم ان ينصروا
غيرهم وقوله تعالى بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر اضراب عما توهموا
ببيان ان الداعي الى حفظهم تمتيعنا اياهم بما قدر لهم من الاعمار او عن الدلالة على
بطلانه ببيان ما اوهمهم ذلك وهو انه تعالى متعهم بالحيوة الدنيا وامهلهم حتى
طالت اعمارهم فحسبوا ان لا يزالوا كذلك وانه بسبب ما هم عليه ولذلك عقب بما يدل
على انه طمع فارغ وامل كاذب حيث قيل افلا يرون اى الا ينظرون فلا يرون انا
نأتى الارض اى ارض الكفرة ننقصها من اطرافها فكيف يتوهمون انهم ناجون من
بأسنا وهو تمثيل وتصوير لما يجريه الله عز وجل من ديارهم على ايدى المسلمين و
يضيفها الى دار السلام افهم الغالبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين
والفاء لانكار الترتيب الغالبية على ما ذكر من نقص ارض الكفرة بتسليط المسلمين عليها كانه
قيل ابعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم كما مر فى قوله تعالى افمن كان على
بينة من ربه وقوله تعالى قل افاتخذتم من دونه اولياء وفى التعريف تعريض بان المسلمين
هم المتعينون للغلبة المعروفون بها قل انما انذركم بعد ما بين من جهته تعالى غاية هول
ما يستعجله المستعجلون ونهاية سوء حالهم عند اتيانه ونعى عليهم جهلهم بذلك واعراضهم
عن ذكر ربهم الذى يكلؤهم من طوارق الليل والنهار وغير ذلك من مساوى احوالهم
امر عليه السلام بان يقول لهم انما انذركم ما تستعجلونه من الساعة بالوحى الصادق
الناطق باتيانها وفظاعة ما فيها من الاهوال اى انما شأنى ان انذركم بالاخبار بذلك
لا بالاتيان بها فانه مزاحم للحكمة التكوينية والتشريعية اذ الايمان برهان لا عيانى و
قوله تعالى ولا يسمع الصم الدعاء اما من تتمة الكلام الملقن تذييل له بطريق الاعتراض
قد امر عليه السلام بان يقوله توبيخا وتقريعا وتسجيلا عليهم بكمال الجهل والعناد و
اللام للجنس المنتظم للمخاطبين انتظاما اوليا او للعهد فوضع المظهر موضع
المضمر للتسجيل عليهم بالتصام وتقييد نفى السماع بقوله تعالى اذا ما ينذرون مع
ان الصم لا يسمعون الكلام انذارا كان او تبشيرا لبيان كمال شدة الصمم كما ان
ايثار الدعاء الذى هو عبارة عن الصوت والنداء على الكلام لذلك فان الانذار عادة
يكون باصوات عالية مكررة مقارنة لهيآت دالة عليه فاذا لم يسمعوها يكون صممهم
فى غاية لا غاية وراءها واما من جهته تعالى على طريقة قوله تعالى بل هم عن ذكر ربهم معرضون
ويؤيده القراءة على خطاب النبى صلى الله عليه وسلم من الاسماع بنصب الصم والدعاء
كانه قيل لهم قل لهم ذلك وانت بمعزل من اسماعهم وقرئ بالياء ايضا على ان الفاعل
هو عليه السلام وقرئ على البناء للمفعول اى لا يقدر احد على اسماع الصم وقوله تعالى
ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك بيان لسرعة تأثرهم من مجئ نفس العذاب اثر بيان عدم
تأثرهم من مجئ خبره على نهج التوكيد القسمي اى وبالله لئن اصابهم ادنى اصابة ادنى شئ
من عذابه تعالى كما ينبئ عنه المس والنفحة بجوهرها وبنائها فان اصل النفح هبوب
رائحة الشئ ليقولن يا ويلنا انا كنا ظالمين ليدعن على انفسهم بالويل والهلاك
ويعترفن عليها بالظلم وقوله تعالى ونضع الموازين القسط بيان لما سيقع عند اتيان
ما انذروه اى نقيم الموازين العادلة التى توزن بها صحائف الاعمال وقيل وضع
الموازين تمثيل لارصاد الحساب السوى والجزاء على حسب الاعمال وقد مر تفصيل
ما فيه من الكلام فى سورة الاعراف وافراد القسط لانه مصدر وصف به مبالغة
ليوم القيمة التى كانوا يستعجلونها اى لجزائه او لاجل اهله او فيه كما فى قولك جئت
لخمس خلون من الشهر فلا تظلم نفس من النفوس شيئا حقا من حقوقها او شيئا ما من
الظلم بل يوفى كل ذى حق حقه ان خيرا فخير وان شرا فشر والفاء لترتيب انتفاء الظلم على

وضع

وضع الموازين وان كان اى العمل المدلول عليه بوضع الموازين مثقال حبة من خردل اى مقدار حبة كائنة
من خردل اى وان كان فى غاية القلة والحقارة فان حبة الخردل مثل فى الصغر وقرئ مثقال حبة
بالرفع على ان كان تامة اتينا بها اى احضرنا ذلك العمل المعبر عنه بمثقال حبة الخردل للوزن والتأنيث
لاضافته الى الحبة وقرئ آتينا بها اى جازينا بها من الايتاء بمعنى المجازاة والمكافاة لانهم اتوه بالاعمال
واتاهم بالجزاء وقرئ اثبنا من الثواب وقرئ جئنا بها وكفى بنا حاسبين اذ لا مزيد على علمنا وعدلنا

بالجزاء

ولقد اتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين نوع تفصيل لما اجمل فى قوله تعالى وما ارسلنا
قبلك الا رجالا نوحى اليهم الخ وقوله تعالى واهلكنا المسرفين واشارة الى كيفية انجائهم واهلاك اعدائهم
وتصدير بالتوكيد القسمي لاظهار كمال الاعتناء بمضمونه والمراد بالفرقان هو التوراة
وكذا بالضياء والذكر اى وبالله لقد اتيناهما وحيا ساطعا وكتابا جامعا بين كونه
فارقا بين الحق والباطل وضياء يستضاء به فى ظلمة الجهل والغواية وذكرا يتعظ
به الناس وتخصيص المتقين بالذكر لانهم المستضيئون بانواره المغتنمون المغانم آثاره
او ذكرى ما يحتاجون اليه من الشرائع والاحكام وقيل الفرقان النصر وقيل فلق البحر
والاول هو اللائق بمساق النظم الكريم فانه لتحقيق امر القرآن المشارك لسائر
الكتب الالهية لا سيما التوراة فيما ذكر من الصفات ولان فلق البحر هو الذى اقترحه الكفرة
مثله بقولهم فليأتنا بآية كما ارسل الاولون وقرئ ضياء بغير واو على انه حال من
الفرقان وقوله تعالى الذين يخشون ربهم اى عذابه مجرور المحل على انه صفة مادحة
للمتقين او بدل او بيان او منصوب او مرفوع على المدح بالغيب حال من المفعول اى
يخشون عذابه تعالى وهو غائب عنهم غير مشاهد لهم ففيه تعريض بالكفرة حيث لا
يتأثرون بالانذار ما لم يشاهدوا ما انذروه وقيل من الفاعل وهم من الساعة مشفقون
اى خائفون منها بطريق الاعتناء وتقديم الجار لمراعاة الفواصل وتخصيص اشفاقهم
منها بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الاطلاق للايذان بكونها معظم المخوفات وللتنصيص
على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون وايثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الاشفاق
ودوامه وهذا اى القرآن الكريم اشير اليه بهذا ايذانا بغاية وضوح امره ذكر يتذكر
به من تذكر ووصف بالوصف الاخير للتوراة لمناسبة المقام وموافقته لما مر فى صدر
السورة الكريمة مبارك كثير الخير عزيز النفع يتبرك به انزلناه اما صفة ثانية لذكر
او خبر آخر افانتم له منكرون انكار لانكارهم بعد ظهور كون انزاله كايتاء
التوراة كانه قيل ابعد ان علمتم ان شانه كشان التوراة فى الايتاء والايحاء انتم
منكرون لكونه منزلا من عندنا فان ذلك بعد ملاحظة حال التوراة مما لا مساغ
له اصلا ولقد اتينا ابراهيم رشده اى الرشد اللائق به وبامثاله من الرسل الكبار
وهو الاهتداء الكامل المستند الى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحى والاقتدار على
اصلاح الامة باستعمال النواميس الالهية وقرئ رشده وهما لغة كالحزن والحزن
من قبل اى من قبل ايتاء موسى وهرون التورية وتقديم ذكر ايتائها لما بينه و
بين انزال القرآن من الشبه التام وقيل من قبل استنبائه او قبل بلوغه ويأباه المقام
وكنا به عالمين اى بانه اهل لما آتيناه وفيه من الدليل على انه تعالى عالم بالجزئيات
مختار فى افعاله ما لا يخفى اذ قال لابيه وقومه ظرف لآتينا على انه وقت متسع وقع
فيه الايتاء وما ترتب عليه من افعاله واقواله وقيل مفعول لمضمر مستانف وقع تعليلا
لما قبله اى اذكر وقت قوله لهم ما هذه التماثيل التى انتم لها عاكفون لتقف
على كمال رشده وغاية فضله والتمثال اسم لشئ مصنوع مشبها بخلق من خلائق الله
تعالى وهذا تجاهل منه عليه السلام حيث سألهم عن اصنامهم بما التى يطلب بها
بيان الحقيقة او شرح الاسم كانه لا يعرف انها ماذا مع احاطته بان حقيقتها حجر
او شجر اتخذوها معبودا وعبر عن عبادتهم لها بمطلق العكوف الذى هو عبارة
عن اللزوم والاستمرار على الشئ لغرض من الاغراض قصدا الى تحقيرها حيث لا لها
وتوبيخا لهم على اجلالها واللام فى لها للاختصاص دون التعدية والالجئ بكلمة

على والمعنى انتم فاعلون العكوف لها وقد جوّز تضمين العكوف معنى العبادة كما ينبئ عنه
قوله تعالى قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين اجابوا بذلك لما ان مآل سؤاله عليه السلام
الاستفسار عن سبب عبادتهم لها كما ينبئ عنه وصفه عليه السلام اياهم بالعكوف
لها كانه عليه السلام قال ما هي هل تستحق ما تصنعون من العكوف عليها فلما لم يكن
لهم ملجأ يعتد به التجأوا الى التقليد فابطله عليه السلام على طريقة التوكيد القسمي
حيث قال لقد كنتم وآباؤكم الذين سنّوا لكم هذه السنة الباطلة في ضلال عجيب
لا يقادر قدره مبين اى ظاهر بين بحيث لا يخفى على احد من العقلاء كونه كذلك
ومعنى كنتم مطلق استقرارهم على الضلال لا استقرارهم الماضي الحاصل قبل زمان
الخطاب المتناول لهم ولآبائهم اى والله لقد كنتم مستقرين على ضلال عظيم ظاهر
لعدم استناده الى دليل ما والتقليد انما يجوز فيما يحتمل الحقية في الجملة قالوا لما
سمعوا مقالته عليه السلام استبعادا لكون ما هم عليه ضلالا وتعجبا من تضليله
عليه السلام اياهم بطريق التوكيد القسمي وترددا في كون ذلك منه عليه السلام
على وجه الجد أجئتنا بالحق اى بالجد أم انت من اللاعبين فتقول ما تقول على
وجه المداعبة والمزاح وفي ايراد الشق الاخير بالجملة الاسمية الدالة على الثبات ايذان
برجحانه عندهم قال عليه السلام اضرابا عما بنوا عليه مقالتهم من اعتقاد كونها
اربابا لهم كما يفصح عنه قولهم نعبد اصناما فنظل لها عاكفين كانه قيل ليس الامر
كذلك بل ربكم رب السموات والارض الذي فطرهن وقيل هو اضراب عن كونه
لاعبا باقامة البرهان على ما ادعاه وضمير هن للسموات والارض ووصفه تعالى بايجادهن
اثر وصفه تعالى بربوبيته تعالى لهن تحقيقا للحق وتنبيها
على ان ما لا يكون كذلك بمعزل من الربوبية اى انشأهن بما فيهن من المخلوقات التي
من جملتها انتم وآباؤكم وما تعبدونه من غير مثال يحتذى به ولا قانون ينتحيه
ورجع الضمير الى التماثيل ادخل في تضليلهم واظهر في الزام الحجة عليهم لما فيه من
التصريح المغني عن التامل في كون ما يعبدونه من جملة المخلوقات وانا على ذلكم الذي
ذكرته من كون ربكم رب السموات والارض فقط دون ما عداه كائنا ما كان من الشاهدين
اى العالمين به على سبيل الحقيقة المبرهنين عليه فان الشاهد على الشيء من تحققه و
حققه وشهادته على ذلك ادلاؤه بالحجة عليه واثباته بها كانه قال وانا ابين ذلك
وابرهن عليه وتالله وقرئ بالباء وهو الاصل والتاء بدل من الواو التي هي بدل
من الاصل وفيها تعجب لاكيدن اصنامكم اى لاجتهدن في كسرها وفيه ايذان
بصعوبة الانتهاز وتوقفه على استعمال الحيل وانما قاله عليه السلام سرا وقيل سمعه
رجل واحد بعد ان تولوا مدبرين من عبادتها الى عيدكم وقرئ تولوا من التولي
بحذف احدى التاءين ويعضدها قوله تعالى فتولوا عنه مدبرين والفاء في قوله تعالى
فجعلهم فصيحة اى فولوا فجعلهم جذاذا اى قطاعا فعال بمعنى مفعول من الجذ الذي
هو القطع كالحطام من الحطم الذي هو الكسر وقرئ بالكسر وهي لغة او جمع جذيذ
كخفاف وخفيف وقرئ بالفتح وجذذا جمع جذيذ وجذذا جمع جذة وروي
ان آزر خرج به في يوم عيد لهم فبدأوا ببيت الاصنام فدخلوه فسجدوا لها ووضعوا
بينها طعاما خرجوا به معهم وقالوا الى ان نرجع بركت الآلهة على طعامنا فذهبوا
وبقي ابراهيم عليه السلام فنظر الى الاصنام وكانت سبعين صنما مصطفة وثمة
صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وفي عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسر الكل
بفاس كان في يده ولم يبق الا الكبير وعلق الفاس في عنقه وذلك قوله تعالى الا كبيرا لهم
اى للاصنام لعلهم اليه اى الى ابراهيم عليه السلام يرجعون فيحاجهم بما
سيأتي فيحجهم ويبكتهم وقيل يرجعون الى الكبير فيسألونه عن الكاسر لان من شان
المعبود ان يرجع اليه في الملمات وقيل يرجعون الى الله تعالى وتوحيده عند تحققهم عجز
آلهتهم عن دفع ما يصيبهم وعن الاضرار بمن كسرهم قالوا اى حين رجعوا من

عيدهم ورأوا ما رأوا من فعل هذا بآلهتنا على طريقة الانكار والتوبيخ والتشنيع وانما
عبّروا عنها بما ذكر ولم يشيروا اليها بهؤلاء وهي بين ايديهم مبالغة في التشنيع وقوله تعالى
انه لمن الظالمين استئناف مقرر لما قبله وقيل موصولة وهذه الجملة في حيز الرفع على انها
خبر لها والمعنى ان الذي فعل هذا الكسر والحطم بآلهتنا انه معدود من جملة الظلمة اما
لجراءته على اهانتها وهي حقيقة بالاعظام او لافراطه في الكسر والحطم وتماديه في
الاستهانة لها او بتعريض نفسه للهلكة قالوا اى بعض منهم مجيبين للسائلين
سمعنا فتى يذكرهم اى يعيبهم فلعله فعل ذلك بها فقوله تعالى يذكرهم اما مفعول ثان
لسمع لتعلقه بالعين او صفة لفتى مصححة لتعلقه به هذا اذا كان القائلون سمعوه عليه
السلام بالذات يذكرهم وان كانوا قد سمعوا من الناس انه عم يذكرهم بسوء
فلا حاجة الى المصحح يقال له ابراهيم صفة اخرى لفتى اى يطلق عليه هذا الاسم قالوا
اى السائلون فأتوا به على اعين الناس اى بمرأى منهم بحيث يكون نصب اعينهم في
مكان مرتفع لا يكاد يخفى على احد لعلهم يشهدون اى يحضرون عقوبتنا له وقيل
لعلهم يشهدون بفعله او بقوله ذلك فالضمير حينئذ ليس للناس بل لبعض منهم مبهم او
معهود قالوا استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية قولهم كانه قيل فماذا فعلوا
به بعد ذلك هل أتوا به او لا فقيل قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم اقتصارا على
حكاية مخاطبتهم اياه عليه السلام للتنبيه على ان اتيانهم به ومسارعتهم الى ذلك امر
محقق غني عن البيان قال بل فعله كبيرهم هذا مشيرا الى الذي لم يكسره سلك عم
مسلكا تعريضيا يؤديه الى مقصده الذي هو الزامهم الحجة على الطف وجه واحسنه
بحملهم على التامل في شان آلهتهم مع ما فيه من التوقي من الكذب حيث ابرز الكبير
قولا في معرض المباشر للفعل باسناده اليه كما ابرزه في ذلك المعرض فعلا بجعل الفاس في عنقه
فقد قصد اسناده اليه بطريق التسبيب حيث كانت تلك الاصنام غاظته عم حين ابصرها
مصطفة مرتبة للعبادة من دون الله سبحانه وكان غيظ كبيرها اكبر واشد حسب
زيادة تعظيمهم له فاسند الفعل اليه باعتبار انه الحامل عليه وقيل هو حكاية لما يقود الى
تجويزه مذهبهم كانه قال لهم ما تنكرون ان يفعله كبيرهم فان من حق من يعبد
ويدعى الها ان يقدر على ما هو اشد من ذلك ويحكى انه عم قال فعله كبيرهم هذا غضب
ان تعبد معه هذه الصغار وهو اكبر منها فيكون تمثيلا اراد به عليه السلام تنبيههم
على غضب الله تعالى عليهم لاشراكهم بعبادتهم الاصنام واما ما قيل من انه عليه السلام
لم يقصد نسبة الفعل الصادر عنه الى الصنم بل انما قصد تقريره لنفسه واثباته لها
على اسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم ومثل لذلك بما لو قال
لك امي فيما كتبته بخط رشيق وانت شهير بحسن الخط أأنت كتبت هذا فقلت له بل
انت بل انت كتبته كان قصدك تقرير الكتابة لنفسك مع الاستهزاء بالسائل لا نفيها
عنك واثباتها له فبمعزل من التحقيق لان خلاصة المعنى في المثال المذكور مجرد
تقرير الكتابة لنفسك وادعاء ظهوره لا مع الاستهزاء بالسائل وتجهيله في السؤال
لابتنائه على ان صدورها عن غيرك محتمل عنده مع استحالته عندك ولا ريب في ان
مراده عم من اسناد الكسر الى الصنم ليس مجرد تقريره لنفسه ولا تجهيلهم في سؤالهم
لابتنائه على احتمال صدوره عن الغير عندهم بل انما مراده عم توجيههم نحو
التامل في احوال اصنامهم كما ينبئ عنه قوله تعالى فاسألوهم ان كانوا ينطقون
اى ان كانوا ممن يمكن ان ينطقوا وانما لم يقل عم ان كانوا يسمعون او يعقلون مع
ان السؤال موقوف على السمع والعقل ايضا لما ان نتيجة السؤال هو الجواب وان عدم نطقهم
اظهر وتبكيتهم بذلك ادخل وقد حصل ذلك اولا حسبما نطق به قوله تعالى فرجعوا
الى انفسهم اى راجعوا عقولهم وتذكروا ان ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه و
لا على الاضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل ان يقدر على دفع مضرة عن غيره او
جلب منفعة له فكيف يستحق ان يكون معبودا فقالوا اى قال بعضهم لبعض فيما بينهم

انكم انتم الظالمون اى بهذا السؤال لانه كان على طريقة التوبيخ المستتبع للمؤاخذة او بعبادة
الاصنام لا من ظلمتموه بقولكم انه لمن الظالمين او انتم الظالمون بعبادتها لا من كسرها
ثم نكسوا على رؤسهم اى انقلبوا الى المجادلة بعد ما استقاموا بالمراجعة شبه عودهم
الى الباطل بصيرورة اسفل الشئ اعلاه وقرئ نكسوا بالتشديد ونكسوا على البناء
للفاعل اى نكسوا انفسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون على ارادة القول اى قائلين
والله لقد علمت ان ليس من شانهم النطق فكيف تامرنا بسؤالهم على ان المراد
استمرار نفى النطق لا نفى استمرار النطق كما يوهمه صيغة المضارع قال مبكتا لهم افتعبدون
اى اتعلمون ذلك فتعبدون من دون الله اى متجاوزين عبادته تعالى ما لا ينفعكم
شيئا من النفع ولا يضركم فان العلم بحالة المنافية للالوهية مما يوجب الاجتناب
عن عبادته قطعا اف لكم ولما تعبدون من دون الله تضجر منه عليه السلام من
اصرارهم على الباطل البين واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لمزيد استقباح
ما فعلوا واف صوت المتضجر ومعناه قبحا ونتنا واللام لبيان المتافف له افلا تعقلون
اى الا تتفكرون فلا تعقلون قبح صنيعكم قالوا اى قال بعضهم لبعض لما عجزوا عن
المحاجة وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وهكذا ديدن المبطل المحجوج اذا قرعت
شبهته بالحجة القاطعة وافتضح لا يبقى له مفزع الا المناصبة حرقوه فانه اشد العقوبة
وانصروا الهتكم بالانتقام لها ان كنتم فاعلين اى للنصر او لشئ يعتد به قيل
القائل نمرود بن كنعان بن السنحاريب بن نمرود بن كوش بن حام بن نوح وقيل
رجل من اكراد فارس اسمه هينون وقيل هدير خسفت به الارض روى انهم لما اجمعوا
على احراقه عليه السلام بنوا له حظيرة بكوثى قرية من قرى الانباط وذلك قوله تعالى قالوا ابنوا له بنيانا
فالقوه فى الجحيم فجمعوا له صلاب الحطب من اصناف الخشب مدة اربعين يوما فاوقدوا
نارا عظيمة لا يكاد يحوم حولها احد حتى ان كانت الطير لتمر بها وهى فى اقصى الجو فتحترق
من شدة وهجها ولم يكد احد يحوم حولها فلم يعلموا كيف يلقونه عليه السلام فيها
فاتى ابليس وعلمهم عمل المنجنيق فعملوه وقيل صنعه رجل من الاكراد فخسف الله
تعالى به الارض وهو يتجلجل فيها الى يوم القيمة ثم عمدوا الى ابراهيم عليه السلام فوضعوه
فيه مغلولا ثم رموا به فيها فقال له جبريل عليهما السلام هل لك حاجة قال اما اليك فلا قال
فاسئل ربك قال حسبى من سؤالى علمه بحالى فجعل الله تعالى ببركة قوله الحظيرة روضة وذلك
قوله تعالى قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم اى كونى ذات برد وسلام اى
ابردى بردا غير ضار وفيه مبالغات جعل النار المسخرة لقدرته تعالى مامورة مطاوعة
واقامة كونى ذات برد مقام ابردى ثم حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه
وقيل نصب سلاما بفعله اى وسلمنا سلاما عليه روى ان الله الملائكة اخذوا بضبعى
ابراهيم واقعدوه على الارض فاذا عين ماء عذب وورد احمر ونرجس ولم تحرق
النار منه الا وثاقه وروى انه عليه السلام مكث فيها اربعين يوما او خمسين
وقال ما كنت اطيب عيشا منى اذ كنت فيها قال ابن يسار وبعث الله تعالى ملك الظل
فقعد الى جنبه يونسه فنظر نمرود من صرحه فاشرف عليه فرآه جالسا فى روضة مونقة
ومعه جليس على احسن ما يكون من الهيئة والنار محيطة به فناداه يا ابراهيم هل
تستطيع ان تخرج منها قال نعم قال فقم فاخرج فقام يمشى فخرج منها فاستقبله نمرود
وعظمه وقال من الرجل الذى رأيته معك قال ذلك ملك الظل ارسله ربى ليونسنى
فقال انى مقرب الى الهك قربانا لما رايت من قدرته وعزته فيما صنع بك فقال عليه السلام
لا يقبل منك ما دمت على دينك هذا قال لا استطيع ترك ملكى ولكن سوف اذبح له اربعة
آلاف بقرة فذبحها وكف عن ابراهيم عليه السلام وكان اذ ذاك ابن ست عشرة سنة
وهذا كما ترى من ابدع المعجزات فانه انقلاب النار هواء طيبا وان لم يكن بدعا من
قدرة الله عز وجل لكن وقوع ذلك على هذه الهيئة مما يخرق العادات وقيل كانت النار
على حالها لكنه تعالى دفع عنه عليه السلام اذاها كما تراه فى السمندر كما يشعر به ظاهر قوله تعالى

على ابراهيم واردوا به كيدا مكرا عظيما فى الاضرار به فجعلناهم الاخسرين اى اخسر
من كل خاسر حيث عاد سعيهم فى اطفاء نور الحق برهانا قاطعا على انه عليه السلام على
الحق وهم على الباطل وموجبا لارتفاع درجته واستحقاقهم لاشد العذاب ونجيناه
ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين اى من العراق الى الشام وبركاته العامة
ان اكثر الانبياء بعثوا فيه فانتشرت فى العالمين شرائعهم التى هى مبادى الكمالات والخيرات
الدينية والدنيوية وقيل كثرة النعم والخصب الغالب روى انه عليه السلام نزل بفلسطين
ولوط عليه السلام بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة ووهبنا له اسحق ويعقوب
نافلة اى عطية فهى حال منهما او ولد ولد او زيادة على ما سأل وهو اسحق فتختص
بيعقوب ولا لبس فيه للقرينة الظاهرة وكلا اى كل واحد من هؤلاء الاربعة لا بعضهم
دون بعض جعلنا صالحين بان وفقناهم للصلاح فى الدين والدنيا فصاروا كاملين
وجعلناهم ائمة يقتدى بهم فى امور الدين اجابة لدعائه عليه السلام بقوله ومن ذريتى
يهدون اى الامة الى الحق بامرنا لهم بذلك وارسالنا اياهم حتى صاروا مكملين
واوحينا اليهم فعل الخيرات ليحثوهم عليه فيتم كمالهم بانضمام العمل الى العلم واصله
ان تفعل الخيرات ثم فعل الخيرات وكذا قوله تعالى واقام الصلوة وايتاء الزكوة وهو من
عطف الخاص على العام دلالة على فضله وانافته وحذفت تاء الاقامة المعوضة من
احدى الالفين لقيام المضاف اليه مقامه وكانوا لنا خاصة دون غيرنا عابدين
لا يخطر ببالهم غير عبادتنا ولوطا قيل هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى آتيناه اى
وآتينا لوطا وقيل باذكر حكما اى حكمة او نبوة او فصلا بين الخصوم بالحق وعلما
بما ينبغى علمه للانبياء عليهم السلام ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث اى
اللواطة وصفت بصفة اهلها واسندت اليها على حذف المضاف واقامتها مقامه
كما يؤذن به قوله تعالى انهم كانوا قوم سوء فاسقين فانه كالتعليل له وادخلناه
فى رحمتنا اى فى اهل رحمتنا او فى جنتنا انه من الصالحين الذين سبقت لهم منا
الحسنى ونوحا اى اذكر نوحا اى خبره وقوله تعالى اذ نادى اى دعا الله تعالى على
قومه بالهلاك ظرف للمضاف المقدر اى اذكر نبأه الواقع وقت دعائه من قبل
اى من قبل هؤلاء المذكورين فاستجبنا له اى دعاءه الذى من جملته قوله انى مغلوب
فانتصر فنجيناه واهله من الكرب العظيم وهو الطوفان وقيل اذية قومه
واصله الكرب الغم الشديد ونصرناه نصرا مستتبعا للانتقام والانتصار ولذلك
قيل من القوم الذين كذبوا باياتنا وحمله على فانتصر يأباه ما ذكر من دعائه عليه
السلام فان ظاهره يوجب اسناد الانتصار اليه تعالى مع ما فيه من تهويل الامر وقوله
تعالى انهم كانوا قوم سوء تعليل لما قبله وتمهيد لما بعده من قوله تعالى فاغرقناهم
اجمعين فان الاصرار على تكذيب الحق والانهماك فى الشر والفساد مما يوجب
الاهلاك قطعا وداود وسليمان اما عطف على نوحا معمول لعامله واما
لمضمر معطوف على ذلك العامل بتقدير المضاف وقوله تعالى اذ يحكمان ظرف للمضاف
المقدر وصيغة المضارع حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها اى اذكر خبرهما
وقت حكمهما فى الحرث اى فى حق الزرع او الكرم المتدلى عناقيده كما قيل او بدل اشتمال
منهما وقوله تعالى اذ نفشت اى تفرقت وانتشرت فيه غنم القوم ليلا بلا راع فرعته
وافسدته ظرف للحكم وكنا لحكمهم اى لحكم الحاكمين والمتحاكمين اليهما فان الاضافة
لمجرد الاختصاص المنتظم لاختصاص القيام واختصاص الوقوع وقرئ لحكمهما
شاهدين حاضرين علما والجملة اعتراض مقرر للحكم ومفيد لمزيد الاعتناء بشانه
ففهمناها سليمان عطف على يحكمان فانه فى حكم الماضى وقرئ فافهمناها والضمير
للحكومة او الفتيا روى انه دخل على داود عليه السلام رجلان فقال احدهما ان غنم
هذا دخلت فى حرثى ليلا فافسدته فقضى له بالغنم فخرجا فمرا على سليمان عليه
السلام فاخبراه بذلك فقال غير هذا ارفق بالفريقين فسمعه داود فدعاه له بحق

النبوة والابوة الا اخبرني بالذي ارفق بالفريقين فقال ارى ان تدفع الغنم الى صاحب الارض لينتفع بدرّها ونسلها وصوفها والحرث الى ارباب الغنم ليقوموا عليه حتى يعود الى ما كان ثم يترادا فقال القضاء ما قضيت وامضى الحكم بذلك والذى عندى ان حكمهما عليهما السلام كان بالاجتهاد فان قول سليمان عليه السلام غير هذا ارفق بالفريقين ثم قوله ارى ان تدفع الخ صريح فى انه ليس بطريق الوحى والالبتّ القول بذلك ولما ناشده داود عليهما السلام لاظهار ما عنده بل وجب عليه ان يظهره بداءً وحرم عليه كتمه ومن ضرورته ان يكون القضاء السابق ايضا كذلك ضرورة استحالة نقض حكم النص بالاجتهاد بل اقول والله تعالى اعلم ان رأى سليمان عليه السلام استحسان كما ينبئ عنه قوله ارفق بالفريقين ورأى داود عليه السلام قياس كما ان العبد اذا جنى على النفس يدفعه المولى عند ابى حنيفة الى المجنى عليه او يفديه ويبيعه فى ذلك او يفديه عند الشافعى وقد روى انه لم يكن بين قيمة الحرث وقيمة الغنم تفاوت واما سليمان عليه السلام فقد استحسن حيث جعل الانتفاع بالغنم بازاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير ان يزول ملك المالك من الغنم واوجب على صاحب الغنم ان يعمل فى الحرث الى ان يزول الضرر الذى اتاه من قبله كما قال اصحاب الشافعى فيمن غصب عبدا فابق منه انه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوّته الغاصب من المنافع فاذا ظهر الآبق ترادا وفى قوله تعالى ففهمناها سليمان دليل على رجحان قوله ورجوع داود عليه السلام اليه مع ان الحكم المبنى على الاجتهاد لا ينقض باجتهاد آخر وان كان اقوى منه لما ان ذلك من خصايص شريعتنا على انه ورد فى الاخبار ان داود عليه السلام لم يكن بتّ الحكم فى ذلك حتى سمع من سليمان ما سمع واما حكم المسئلة فى شريعتنا فعند ابى حنيفة رحمه الله لا ضمان ان لم يكن معها سايق او قايد وعند الشافعى يجب الضمان ليلا لا نهارا وقوله تعالى وكلا آتينا حكما وعلما لدفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهيم من عدم كون حكم داود عليه السلام حكما شرعيا اى وكل واحد منهما آتينا حكما وعلما كثيرا لا سليمان وحده وهذا انما يدل على ان خطاء المجتهد لا يقدح فى كونه مجتهدا وقيل بل على ان كل مجتهد مصيب وهو مخالف لقوله تعالى ففهمناها سليمان ولولا النقل لاحتمل توافقهما على ان قوله تعالى ففهمناها سليمان لاظهار ما تفضل عليه فى صغره فانه عليه السلام كان حينئذ ابن احدى عشرة سنة وسخرنا مع داود الجبال شروع فى بيان ما يختص بكل منهما من كراماته تعالى اثر بيان كرامته العامة لهما يسبحن اى يقدسن الله عز وجل معه بصوت يتمثل له او يخلق الله تعالى فيها الكلام وقيل يسرن معه من السباحة وهو حال من الجبال او استيناف مبين لكيفية التسخير ومع متعلقة بالتسخير وقيل بالتسبيح وهو بعيد والطير عطف على الجبال او مفعول معه وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر محذوف اى والطير مسخرات وقيل على العطف على الضمير فى يسبحن وفيه ضعف لعدم التاكيد والفصل وكنا فاعلين اى من شاننا ان نفعل امثاله فليس ذلك ببدع منا وان كان بديعا عندكم وعلمناه صنعة لبوس اى عمل الدرع وهو فى الاصل اللباس وقال قائلهم البس لكل حالة لبوسها اما نعيمها واما بؤسها وقيل كانت صفايح فحلقها وسردها لكم متعلق بعلمنا او بمحذوف هو صفة لبوس لتحصنكم اى اللبوس بتأويل الدرع وقرئ بالتذكير على ان الضمير لداود عليه السلام او للبوس وقرئ بنون العظمة وهو بدل اشتمال من لكم باعادة الجار مبين لكيفية الاختصاص والمنفعة المستفادة من لام لكم من بأسكم قيل من حرب عدوكم وقيل من وقع السلاح فيكم فهل انتم شاكرون امر وارد على صورة الاستفهام للمبالغة او التقريع ولسليمان الريح اى وسخرنا له الريح وايراد اللام ههنا دون الاول للدلالة على ما بين التسخيرين من التفاوت فان تسخير ما سخر له عليه السلام من الريح وغيرها كان بطريق الانقياد الكلى له والامتثال بامره ونهيه والمقهورية تحت ملكوته واما تسخير الجبال والطير لداود عليه السلام فلم يكن بهذه المثابة بل بطريق التبعية له عليه السلام والاقتداء به فى عبادة الله عز وعلا عاصفة حال من الريح والعامل فيها الفعل المقدر اى وسخرنا له الريح حال كونها شديدة الهبوب من حيث انها كانت تبعد بكرسيه فى مدة يسيرة من الزمان كما قال تعالى غدوها شهر ورواحها شهر وكانت رخاء فى نفسها طيبة وقيل كانت رخاء تارة وعاصفة اخرى حسب ارادته عليه السلام وقرئ الريح بالرفع على الابتداء والخبر هو الظرف المقدم وعاصفة حينئذ حال من ضمير المبتدإ فى الخبر والعامل ما فيه من معنى الاستقرار وقرئ الرياح نصبا ورفعا تجرى بامره بمشيئته حال ثانية او بدل من الاولى او حال من ضميرها الى الارض التى باركنا فيها وهى الشام رواحا بعد ما سارت به منه بكرة قال الكلبى كان سليمان عليه السلام وقومه يركبون عليها من اصطخر الى الشام والى حيث شاء ثم يعود الى منزله وكنا بكل شئ عالمين فنجريه حسبما يقتضيه الحكمة ومن الشياطين اى وسخرنا له من الشياطين من يغوصون له فى البحار ويستخرجون له من نفايسه وقيل من رفع على الابتداء وخبره ما قبله والاول هو الاظهر ويعملون عملا دون ذلك اى غير ما ذكر من بناء المدن والقصور واختراع الصنايع الغريبة لقوله تعالى يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل الآية وهؤلاء اما الفرقة الاولى او غيرها لعموم كلمة من كانه قيل ومن يعملون وجمع الضمير الراجع اليها باعتبار معناها بعد ما روعى جانبه بقوله تعالى ومن الشياطين روى ان المسخر له عليه السلام كفارهم لا مؤمنوهم لقوله تعالى ومن الشياطين وقوله تعالى وكنا لهم حافظين اى من ان يزيغوا عن امره او يفسدوا على ما هو مقتضى جبلتهم قيل وكل بهم جمعا من الملئكة وجمعا من مؤمنى الجن وقال الزجاج كان يحفظهم من ان يفسدوا ما عملوا وكان دأبهم ان يفسدوا بالليل ما عملوا بالنهار وايوب الكلام فيه كما مر فى قوله تعالى وداود وسليمان اى واذكر خبر ايوب اذ نادى ربه انى اى بانى مسنى الضر وقرئ بالكسر على اضمار القول او تضمين النداء معناه والضر شايع فى كل ضرر وبالضم خاص بما فى النفس من مرض وهزال ونحوهما وانت ارحم الراحمين وصفه تعالى بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها واكتفى به عن عرض المطلب لطفا فى السؤال وكان عليه السلام روميا من ولد عيص بن اسحاق استنبأه الله تعالى وكثر اهله وماله فابتلاه الله تعالى بهلاك اولاده بهدم بيت عليهم وذهاب امواله والمرض فى بدنه ثمانى عشرة سنة او ثلاث عشرة سنة او سبعا وسبعة اشهر وسبعة ايام وسبع ساعات روى ان امرأته ماخر بنت ميشا بن يوسف عليه السلام او رحمة بنت افرايم بن يوسف قالت له يوما لو دعوت الله تعالى فقال كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال استحيى من الله تعالى ان ادعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى وروى ان ابليس اتاها على هيئة عظيمة فقال انا اله الارض فعلت بزوجك ما فعلت لانه تركنى وعبد اله السماء فلو سجد لى سجدة لرددت عليه وعليك جميع ما اخذت منكما وفى رواية لو سجدت لى سجدة لرجعت المال والولد وعافيت زوجك فرجعت الى ايوب وكان ملقى فى الكناسة لا يقرب منه احد فاخبرته بالقصة فقال عليه السلام كانك افتتنت بقول اللعين لئن عافانى الله عز وجل اضربنك مائة سوط وحرام على ان اذوق بعد هذا شيئا من طعامك وشرابك فطردها فبقى طريحا فى الكناسة لا يحوم حوله احد من الناس فعند ذلك خر ساجدا فقال رب انى مسنى الضر وانت ارحم الراحمين فقيل له ارفع رأسك فقد استوجبت لك اركض برجلك فركض فنبعت من تحته عين ماء فاغتسل منها فلم يبق فى ظاهر بدنه دابة الا سقطت ولا جراحة الا برئت ثم ركض مرة اخرى فنبعت عين اخرى فشرب منها فلم يبق فى جوفه داء الا خرج وعاد صحيحا ورجع اليه شبابه وجماله ثم كسى حلة وذلك قوله تعالى فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر فلما قام يلتفت فلا يرى شيئا مما كان له من الاهل والمال الا وقد ضاعفه الله تعالى وذلك قوله تعالى وآتيناه اهله ومثلهم معهم وقيل كان ذلك بان ولد له ضعف ما كان ثم ان

امرأته قالت في نفسها هب انه طردني افاتركه حتى يموت جوعا ويأكله السباع لارجعن اليه فلما رجعت ما رأت تلك الكناسة ولا تلك الحال وقد تغيرت الامور فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وهابت صاحب الحلة ان تأتيه وتسأل عنه فارسل اليها ايوب ودعاها فقال ما تريدين يا امة الله فبكت وقالت اريد ذلك المبتلى الذي كان ملقى على الكناسة قال لها ما كان منك فبكت وقالت بعلي قال اتعرفينه اذا رأيته قالت وهل يخفى علي فتبسم فقال انا ذلك فعرفته بضحكه فاعتنقته رحمة من عندنا وذكرى للعابدين اي اتيناه ما ذكر لرحمتنا ايوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما اثيب او لرحمتنا العابدين الذين من جملتهم ايوب وذكرنا اياهم بالاحسان وعدم نسياننا لهم واسمعيل وادريس وذا الكفل اي واذكرهم وذو الكفل الياس وقيل يوشع بن نون وقيل زكريا سمي به لانه كان ذا حظ من الله تعالى او تكفل منه او ضعف عمل انبياء زمانه وثوابهم فان الكفل يجيء بمعنى النصيب والكفالة والضعف كل اي كل واحد من هؤلاء من الصابرين اي على مشاق التكاليف وشدائد النوب والجملة استيناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الامر بذكرهم وادخلناهم في رحمتنا اي في النبوة او في نعمة الآخرة انهم من الصالحين اي الكاملين في الصلاح الكامل الذي لا يحوم حوله شائبة الفساد وهم الانبياء فان صلاحهم معصوم من كدر الفساد وذا النون اي واذكر صاحب الحوت وهو يونس عليه السلام اذ ذهب مغاضبا اي مراغما لقومه لما برم من طول دعوته اياهم وشدة شكيمتهم وتمادي اصرارهم مهاجرا عنهم قبل ان يؤمر وقيل وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم ولم يعرف الحال فظن انه كذبهم فغضب من ذلك وهو من بناء المغالبة للمبالغة او لانه اغضبهم بالمهاجرة لخوفهم لحوق العذاب عندها وقرئ مغضبا فظن ان لن نقدر عليه اي لن نضيق عليه او لن نقضي عليه بالعقوبة من القدر ويؤيده انه قرئ مشددا او لن نعمل فيه قدرتنا وقيل هو تمثيل لحاله بحال من يظن ان لن نقدر عليه اي نعامل معاملة من يظن ان لن نقدر عليه في مراغمته قومه من غير انتظار الامر كما في قوله تعالى يحسب ان ماله اخلده اي نعامل معاملة من يحسب ذلك وقيل خطرة شيطانية سبقت الى وهمه فسميت ظنا للمبالغة وقرئ بالياء مخففا ومثقلا مبنيا للفاعل ومبنيا للمفعول فنادى الفاء فصيحة اي فكان ما كان من المساهمة والتقام الحوت فنادى في الظلمات اي في الظلمة الشديدة المتكاثفة او في ظلمات بطن الحوت والبحر والليل وقيل ابتلع حوته حوت اكبر منه فحصل في ظلمتي بطني الحوتين وظلمتي البحر والليل ان لا اله الا انت اي بانه لا اله الا انت على ان ان مخففة من ان وضمير الشان محذوف او اي لا اله الا انت على انها مفسرة سبحانك انزهك تنزيها لائقا بك من ان يعجزك شيء او ان يكون ابتلائي بهذا بغير سبب من جهتي اني كنت من الظالمين لانفسهم بتعريضها للهلكة حيث بادرت الى المهاجرة فاستجبنا له اي دعاءه الذي دعاه في ضمن الاعتراف بالذنب على الطف وجه واحسنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له ونجيناه من الغم بان قذفه الحوت الى الساحل بعد اربع ساعات كان في بطنها وقيل بعد ثلاثة ايام وقيل الغم غم الالتقام وقيل الخطيئة وكذلك اي مثل ذلك الانجاء الكامل ننجي المؤمنين من غموم دعوا الله تعالى فيها بالاخلاص لا انجاء ادنى منه وفي الامام نجي فلذلك اخفى الجماعة النون الثانية فانها تخفى مع حروف الفم وقرئ بتشديد الجيم على ان اصله ننجي فحذفت الثانية كما حذفت التاء في تظاهرون وهي وان كانت فاء فحذفها اوقع من حذف حرف المضارعة التي لمعنى ولا يقدح اختلاف حركتي النونين فان الداعي الى الحذف اجتماع المثلين مع تعذر الادغام وامتناع الحذف في تتجافى لخوف اللبس وقيل هو ماض مجهول اسند الى ضمير المصدر وسكن آخره تخفيفا ورد بانه لا يسند الى المصدر والمفعول مذكور والماضي لا يسكن آخره

وزكريا

وزكريا اي واذكر خبره اذ نادى ربه وقال رب لا تذرني فردا اي وحيدا بلا ولد يرثني وانت خير الوارثين فحسبي انت ان لم ترزقني وارثا فاستجبنا له اي دعاءه ووهبنا له يحيى وقد مر بيان كيفية الاستجابة والهبة في سورة مريم واصلحنا له زوجه اي اصلحناها للولادة بعد عقرها او اصلحناها للمعاشرة بتحسين خلقها وكانت حردة وقوله تعالى انهم كانوا يسارعون في الخيرات تعليل لما فصل من فنون احسانه تعالى المتعلقة بالانبياء المذكورين اي كانوا يبادرون في وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم في اصل الخير وهو السر في ايثار كلمة في على كلمة الى المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن اصل الخيرات متوجهين اليها كما في قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة ويدعوننا رغبا ورهبا ذوي رغب ورهب او راغبين في الثواب راجين للاجابة او في الطاعة وخائفين العقاب والمعصية او للرغب والرهب وكانوا لنا خاشعين اي مخبتين متضرعين او دائمي الوجل والمعنى انهم نالوا من الله تعالى ما نالوا بسبب اتصافهم بهذه الخصال الحميدة والتي احصنت فرجها اي اذكر خبر التي احصنته على الاطلاق من الحلال والحرام والتعبير عنها بالموصول لتفخيم شانها وتنزيهها عما زعموه في حقها اثر ذي اثير فنفخنا فيها اي احيينا عيسى في جوفها من روحنا من الروح الذي هو من امرنا وقيل فعلنا النفخ فيها من جهة روحنا جبريل عليه السلام وجعلناها وابنها اي قصتهما او حالهما آية للعالمين فان من تامل حالهما تحقق كمال قدرته عز وجل فالمراد بالآية ما حصل بهما من الآية التامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما وقيل اريد بالآية الجنس الشامل لما لكل واحد منهما من الآيات المستقلة وقيل المعنى وجعلناها آية وابنها آية فحذفت الاولى لدلالة الثانية عليها ان هذه اي ملة التوحيد والاسلام اشير اليها بهذه تنبيها على كمال ظهور امرها في الصحة والسداد امتكم اي ملتكم التي يجب ان تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها ولا تخلوا بشيء منها والخطاب للناس قاطبة امة واحدة نصب على الحالية من امتكم اي غير مختلفة فيما بين الانبياء عليهم السلام اذ لا مشاركة لغيرها في صحة الاتباع ولا احتمال لتبدلها وتغيرها كفروع الشرائع المتبدلة حسب تبدل الامم والاعصار وقرئ امتكم بالنصب على البدلية من اسم ان وامة واحدة بالرفع على الخبرية وقرئتا بالرفع على انهما خبران وانا ربكم لا اله لكم غيري فاعبدون خاصة لا غير وقوله تعالى وتقطعوا امرهم بينهم التفات الى الغيبة لينعى عليهم ما افسدوه من التفرق في الدين وجعل امره قطعا موزعة وينهى قبائح افعالهم الى الآخرين كانه قيل الا ترون الى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله تعالى الذي اجمعت عليه كافة الانبياء كل اي كل واحدة من الفرق المتقطعة او كل واحد من آحاد كل واحدة من تلك الفرق الينا راجعون بالبعث لا الى غيرنا فنجازيهم حينئذ بحسب اعمالهم وايراد اسم الفاعل للدلالة على الثبات والتحقق وقوله تعالى فمن يعمل من الصالحات الخ تفصيل للجزاء اي فمن يعمل بعض الصالحات او بعضا من الصالحات وهو مؤمن بالله ورسله فلا كفران لسعيه اي لا حرمان لثواب عمله ذلك عبر عن ذلك بالكفران الذي هو ستر النعمة وجحودها لبيان كمال نزاهته تعالى عنه بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وابراز الاثابة في معرض الامور الواجبة عليه تعالى ونفي نفي الجنس للمبالغة في التنزيه وعبر عن العمل بالسعي لاظهار الاعتداد به وانا له اي لسعيه كاتبون اي مثبتون في صحائف اعمالهم لا نغادر من ذلك شيئا وحرام على قرية اي ممتنع على اهلها غير متصور منهم وقرئ حرم وهي لغة كالحل والحرام اهلكناها قدرنا هلاكها او حكمنا به لغاية طغيانهم وعتوهم وقوله تعالى انهم لا يرجعون في حيز الرفع على انه مبتدأ خبره حرام او فاعل له ساد مسد خبره والجملة لتقرير مضمون ما قبلها من قوله تعالى كل الينا راجعون وما في ان من معنى التحقيق معتبر في النفي المستفاد من حرام لا في المنفي اي ممتنع البتة

عدم رجوعهم الينا للجزاء لا ان عدم رجوعهم المحقق ممتنع وتخصيص امتناع عدم
رجوعهم بالذكر مع شمول الامتناع لعدم رجوع الكل حسبما نطق به قوله تعالى
كل الينا راجعون لانهم المنكرون للبعث والرجوع دون غيرهم وقيل ممتنع رجوعهم
الى التوبة على ان لا صلة وقرئ انهم لا يرجعون بالكسر على انه استيناف تعليلي لما قبله وحرام
مبتدا محذوف اى حرام عليها ذلك وهو ما ذكر في الآية السابقة من العمل الصالح
المشفوع بالايمان والسعي المشكور ثم علل بقوله تعالى انهم لا يرجعون عما هم عليه من الكفر فكيف
لا يمتنع ذلك ويجوز حمل المفتوحة ايضا على هذا المعنى بحذف اللام عنها اى لانهم
لا يرجعون وحتى في قوله تعالى حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج الخ هي التي يحكى بعدها الكلام وهي
على الاول غاية لما يدل عليه ما قبلها كانه قيل يستمرون على ما هم عليه من الهلاك حتى
اذا قامت القيمة يرجعون الينا ويقولون يا ويلنا الخ وعلى الثاني غاية للحرمة اى
يستمر امتناع رجوعهم الى التوبة حتى اذا قامت القيمة يرجعون اليها حين لا ينفعهم التوبة
وعلى الثالث غاية لعدم الرجوع عن الكفر اى لا يرجعون عنه حتى اذا قامت القيمة
يرجعون عنه حين لا ينفعهم الرجوع ويأجوج ومأجوج قبيلتان من الانس قالوا
الناس عشرة اجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج والمراد بفتحها فتح سدها على
حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وقرئ فتحت بالتشديد وهم اى
يأجوج ومأجوج وقيل الناس من كل حدب اى نشز من الارض وقرئ جدث وهو
القبر ينسلون اى يسرعون واصله مقاربة الخطو مع الاسراع وقرئ بضم السين
واقترب الوعد الحق عطف على فتحت والمراد به ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب
والجزاء لا النفخة الاولى فاذا هي شاخصة ابصار الذين كفروا جواب الشرط واذا
للمفاجاة تسد مسد الفاء الجزائية كما في قوله تعالى اذا هم يقنطون فاذا دخلتها
الفاء تظاهرت على وصل الجزاء بالشرط والضمير للقصة او مبهم يفسره ما بعده
يا ويلنا على تقدير قول وقع حالا من الموصول اى يقولون يا ويلنا تعالى فهذا اوان حضورك
وقيل هو الجواب للشرط قد كنا في غفلة تامة من هذا الذي دهمنا من البعث والرجوع
اليه تعالى للجزاء ولم نعلم انه حق بل كنا ظالمين اضراب عما قبله من وصف انفسهم
بالغفلة اى لم نكن غافلين عنه حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر بل كنا ظالمين بتلك الآيات
والنذر مكذبين بها او ظالمين لانفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب وقوله تعالى
انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم خطاب لكفار مكة وتصريح بمآل
امرهم مع كونه معلوما مما سبق على وجه الاجمال مبالغة في الانذار وازاحة الاعذار
وما تعبدون عبارة عن اصنامهم لانها التي يعبدونها كما يفصح عنه كلمة ما وقد روي
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تلا الآية وقال له ابن الزبعرى خصمتك ورب الكعبة
اليست اليهود عبدوا عزيرا والنصارى المسيح وبنو مليح الملائكة رد عليه بقوله عليه السلام
ما اجهلك بلغة قومك اما فهمت ان ما لما لا يعقل ولا يعارضه ما روي انه عم
رده بقوله بل هم عبدوا الشياطين التي امرتهم بذلك ولا ما روي ان ابن الزبعرى
قال هذا شيء لآلهتنا خاصة او لكل من عبد من دون الله تعالى فقال عليه السلام بل لكل
من عبد من دون الله تعالى اذ ليس شيء منهما نصا في عموم كلمة ما كما ان الاول نص
في خصوصها وشمول حكم النص لا يقتضي شموله بطريق العبارة بل يكفي في ذلك شموله
لهم بطريق دلالة النص بجامع الشركة في المعبودية من دون الله تعالى فلعله عم
بعدما بين مدلول النظم الكريم بيادكو وعدم دخول المذكورين في حكمه بطريق العبارة
بين عدم دخولهم فيه بطريق الدلالة ايضا تاكيدا للرد والالزام وتكريرا للتبكيت و
الافحام لكن لا باعتبار كونهم معبودين لهم كما هو زعمهم فان اخراج بعض المعبودين
عن حكم مبني على الغضب على العبدة والمعبودين مما يوهم الرخصة في عبادته في الجملة
بل بتحقيق الحق وبيان انهم ليسوا من المعبودية في شيء حتى يتوهم دخولهم في الحكم
المذكور دلالة بموجب شركتهم للاصنام في المعبودية من دون الله تعالى وانما معبودهم الشياطين

التي

التي امرتهم بعبادتهم كما نطق به قوله تعالى سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون
الجن الآية فهم الداخلون في الحكم المذكور لاشتراكهم الاصنام في المعبودية من دونه
تعالى دون المذكورين عليهم السلام وهذا هو الوجه في التوفيق بين الاخبار المذكورة
واما تعميم كلمة ما للعقلاء ايضا وجعل ما سياتي من قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا
الحسنى الخ بيانا للتجوز او التخصيص فمما لا يساعده السباق والسياق كما يشهد به الذوق
السليم والحصب ما يرمى به ويهيج به النار من حصبه اذا رماه بالحصا وقرئ
بسكون الصاد وصفا له بالمصدر للمبالغة انتم لها واردون استيناف او بدل
من حصب جهنم واللام معوضة من على للدلالة على الاختصاص وان ورودهم
لاجلها والخطاب لهم ولما يعبدون تغليبا لو كان هؤلاء اى اصنامهم آلهة
كما يزعمون ما وردوها وحيث تبين ورودهم اياها تعين امتناع كونها آلهة
بالضرورة وهذا كما ترى صريح في ان المراد بما يعبدون هي الاصنام لان المراد اثبات
نقيض ما يدعونه وهم انما يدعون الهية الاصنام لا الهية الشياطين حتى يحتج
بورودها النار على عدم الهيتها واما ما وقع في الحديث الشريف فقد نطق بطريق التكملة
بانجرار الكلام اليه عند بيان ما سيق له النظم الكريم بطريق العبارة حيث سأل ابن الزبعرى عن
حال ساير المعبودين وكان الاقتصار على الجواب الاول مما يوهم الرخصة في عبادتهم في
الجملة لانهم المعبودون عندهم اجيب ببيان ان المعبودين هم الشياطين وانهم داخلون في حكم
النص لكن بطريق الدلالة لا بطريق العبارة لئلا يلزم التدافع بين الخبرين وكل اى من العبدة والمعبودين
فيها خالدون لا خلاص لهم عنها لهم فيها زفير اى انين وتنفس شديد وهو مع
كونه من افعال العبدة اضيف الى الكل للتغليب ويجوز ان يكون الضمير للعبدة لعدم الالتباس
وكذا في قوله تعالى وهم فيها لا يسمعون اى لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول
وفظاعة العذاب وقيل لا يسمعون ما يسرهم من الكلام ان الذين سبقت لهم منا
الحسنى شروع في بيان حال المؤمنين اثر شرح حال الكفرة حسبما جرت به سنة التنزيل
من شفع الوعد بالوعيد وايراد الترغيب مع الترهيب اى سبقت لهم منا في التقدير الخصلة
الحسنى التي هي احسن الخصال وهي السعادة وقيل التوفيق للطاعة او سبقت لهم كلمتنا
بالبشرى بالثواب على الطاعة وهو الاظهر لادخل في الحمل عليها ان الاولين مع خفائهما
ليسا من مقدورات المكلفين فالجملة مع ما بعدها تفصيل لما اجمل في قوله تعالى فمن
يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون كما ان ما قبلها من قوله تعالى
انكم وما تعبدون الخ تفصيل لما اجمل في قوله تعالى وحرام الخ اولئك اشارة الى الموصول
باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وبعد
منزلتهم في الشرف والفضل اى اولئك المنعوتون بما ذكر من النعت الجميل عنها اى
عن جهنم مبعدون لانهم في الجنة وشتان بينها وبين النار وما روي ان عليا رضه خطب
يوما فقرأ هذه الآية ثم قال انا منهم وابو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد
وعبد الرحمن بن عوف وابو عبيدة بن الجراح رضوان الله اجمعين ثم اقيمت الصلوة
فقام يجر رداءه ويقول لا يسمعون حسيسها ليس بنص في كون الموصول عبارة
عن طائفة مخصوصة والحسيس صوت يحس به اى لا يسمعون صوتها سمعا ضعيفا
كما هو المعهود عند كون المصوت بعيدا وان كان صوته في غاية الشدة لا انهم لا يسمعون
صوتها الخفي في نفسه فقط والجملة بدل من مبعدون او حال من ضميره مسوقة للمبالغة
في انقاذهم عنها وقوله تعالى وهم فيما اشتهت انفسهم خالدون بيان لفوزهم
بالمطالب اثر بيان خلاصهم عن المهالك والمعاطب اى دائمون في غاية التنعم وتقديم
الظرف للقصر والاهتمام به وقوله تعالى لا يحزنهم الفزع الاكبر بيان لنجاتهم من الافزاع
بالكلية بعد بيان نجاتهم لانهم اذا لم يحزنهم اكبر الافزاع لا يحزنهم ما عداه
بالضرورة عن الحسن انه الانصراف الى النار وعن الضحاك حين يطبق على النار وقيل حين
يذبح الموت في صورة كبش املح وقيل النفخة الاخيرة لقوله تعالى ففزع من في السموات ومن

من النار صح

فى الارض وليس بذاك فان الامن من ذلك الفزع من استثناه الله تعالى بقوله الا من شاء الله لا جميع المؤمنين الموصوفين بالاعمال الصالحة على ان الاكثرين على ان ذلك فى النفخة الاولى دون الاخيرة كما سيأتى فى سورة النمل **وتتلقاهم الملائكة** اى تستقبلهم مهنئين لهم **هذا يومكم** على ارادة القول اى قائلين هذا اليوم يومكم **الذى كنتم توعدون** فى الدنيا وتبشرون بما فيه من فنون المثوبات على الايمان والطاعات وهذا كما ترى صريح فى ان المراد بالذين سبقت لهم منا الحسنى كافة المؤمنين الموصوفين بالايمان والاعمال الصالحة لا من ذكر من المسيح وعزير والملائكة عليهم السلام خاصة كما قيل **يوم نطوى السماء** بنون العظمة منصوب بماذكر وقيل ظرف لقوله تعالى لا يحزنهم الفزع وقيل تتلقاهم وقيل حال مقدرة من الضمير المحذوف فى توعدون والطى ضد النشر وقيل المحو وقرئ يطوى بالياء والتاء والبناء للمفعول **كطى السجل** وهى الصحيفة اى طيا كطى الطومار وقرئ السجل كلفظ الدلو وبالكسر والسجل على وزن العتل وهما لغتان واللام فى قوله تعالى **للكتب** متعلق بمحذوف هو حال من السجل او صفة له على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته كطى السجل كائنا للكتب او الكائن للكتب فان الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها فسجلها بعض اجزائها وبه يتعلق الطى حقيقة وقرئ للكتاب وهو اما مصدر واللام للتعليل اى كما يطوى الطومار للكتابة او اسم كالامام فاللام كماذكر اولا وقيل السجل اسم ملك يطوى كتب اعمال بنى آدم اذا رفعت اليه وقيل هو كاتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم **كما بدأنا اول خلق نعيده** اى نعيد ما خلقناه مبتدأ اعادة مثل بدئنا اياه فى كونهما ايجادا بعد العدم او جمعا من الاجزاء المتبددة والمقصود بيان صحة الاعادة بالقياس على المبدأ لشمول الامكان الذاتى المصحح للمقدورية وتناول القدرة لهما على السواء وما كافة او مصدرية واول مفعول لبدأنا والفعل يفسره نعيده او موصولة والكاف متعلقة بمحذوف يفسره نعيده اى نعيد مثل الذى بدأناه واول خلق ظرف لبدأنا او حال من ضمير الموصول المحذوف **وعدا** مصدر مؤكد لفعله ومقرر لنعيده او منتصب به لانه عدة بالاعادة **علينا** اى علينا انجازه **انا كنا فاعلين** لما ذكر لا محالة **ولقد كتبنا فى الزبور** هو كتاب داود عليه السلام وقيل هو اسم لجنس ما انزل على الانبياء عليهم السلام **من بعد الذكر** اى التورية وقيل اللوح المحفوظ اى وبالله لقد كتبنا فى كتاب داود بعد ما كتبنا فى التورية او كتبنا فى جميع الكتب المنزلة بعد ما كتبنا واثبتنا فى اللوح المحفوظ **ان الارض يرثها عبادى الصالحون** اى عامة المؤمنين بعد اجلاء الكفار وهذا وعد منه تعالى باظهار الدين واعزاز اهله وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان المراد ارض الجنة كما ينبئ عنه قوله تعالى وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده واورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وقيل الارض المقدسة يرثها امة محمد صلى الله عليه وسلم **ان فى هذا** اى فيما ذكر فى السورة الكريمة من الاخبار والمواعظ البالغة والوعد والوعيد والبراهين القاطعة الدالة على التوحيد وصحة النبوة **لبلاغا** اى لكفاية او لسبب بلوغ الى البغية **لقوم عابدين** اى لقوم همهم العبادة دون العادة **وما ارسلناك** بما ذكر وبامثاله من الشرايع والاحكام وغير ذلك من الامور التى هى مناط لسعادة الدارين **الا رحمة للعالمين** هو فى حيز النصب على انه استثناء من اعم العلل او من اعم الاحوال اى وما ارسلناك بما ذكر لعلة من العلل الا لرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة او ما ارسلناك فى حال من الاحوال الا حال كونك رحمة لهم فان ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ومنشأ لانتظام مصالحهم فى النشأتين ومن لم يغتنم مغانم آثاره فانما فرط فى نفسه وحرمه حقه لا انه تعالى حرمه مما يسعده وقيل كونه رحمة فى حق الكفار امنهم من الخسف والمسخ والاستيصال حسبما ينطق به قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم **قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد** اى ما يوحى الى الا انه لا اله لكم الا اله واحد لانه المقصود الاصلى من البعثة واما ما عداه من الاحكام المتفرعة عليه فانما الاولى لقصر الحكم

على الشئ كقولك انما يقوم زيد اى ما يقوم الا زيد والثانية لقصر الشئ على الحكم كقولك انما زيد قائم اى ليس له الا صفة القيام **فهل انتم مسلمون** اى مخلصون العبادة لله تعالى مخصصون لها به تعالى والفاء للدلالة على ان ما قبلها موجب لما بعدها قالوا فيه دلالة على ان صفة الوحدانية يصح ان يكون طريقها السمع **فان تولوا** عن الاسلام ولم يلتفتوا الى ما يوجبه من الوحى **فقل آذنتكم** اى اعلمتكم ما امرت به او حربى لكم **على سواء** كائنين على سواء فى الاعلام به لم اطوه عن احد منكم او مستوين به انا وانتم فى العلم بما اعلمتكم به او فى المعادات او ايذانا على سواء وقيل اعلمتكم انى على سواء اى عدل واستقامة رأى بالبرهان النير **وان ادرى** اى ما ادرى **اقريب ام بعيد ما توعدون** من غلبة المسلمين وظهور الدين او الحشر مع كونه آتيا لا محالة **انه يعلم الجهر من القول** اى ما تجاهرون به من الطعن فى الاسلام وتكذيب الآيات التى من جملتها ما نطق بمجئ الموعود **ويعلم ما تكتمون** من الاحن والاحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه نقيرا وقطميرا **وان ادرى لعله فتنة لكم** اى ما ادرى لعل تأخير جزائكم استدراج لكم وزيادة فى افتتانكم او امتحان لكم لينظر كيف تعملون **ومتاع الى حين** اى وتمتيع لكم الى اجل مقدر تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة ليكون ذلك حجة عليكم **قال رب احكم بالحق** حكاية لدعائه صلعم وقرئ قل رب على صيغة الامر اى اقض بيننا وبين اهل مكة بالعدل المقتضى لتعجيل العذاب والتشديد عليهم وقد استجيب دعاؤه عليه السلام حيث عذبوا ببدر اى تعذيب وقرئ رب احكم بضم الباء وربى احكم على صيغة التفضيل وربى احكم من الاحكام **وربنا الرحمن** مبتداء وخبر اى كثير الرحمة على عباده وقوله تعالى **المستعان** اى المطلوب منه المعونة خبر آخر للمبتداء واضافة الرب فيما سبق الى ضميره عليه السلام خاصة لما ان الدعاء من الوظايف الخاصة به عليه السلام كما ان اضافته ههنا الى ضمير الجمع المنتظم للمؤمنين ايضا لما ان الاستعانة من الوظايف العامة لهم **على ما تصفون** من الحال فانهم كانوا يقولون ان الشوكة تكون لهم وان راية الاسلام تخفق ثم تركد وان المتوعد به لو كان حقا لنزل بهم الى غير ذلك مما لا خير فيه فاستجاب الله عز وجل دعوة رسول الله صلعم فخيب امالهم وغير احوالهم ونصر اولياءه عليهم فاصابهم يوم بدر ما اصابهم والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله وقرئ يصفون بالياء التحتانية وعن النبى صلعم من قرأ سورة اقترب حاسبه الله تعالى حسابا يسيرا وصافحه وسلم عليه كل نبى ذكر اسمه فى القرآن

سورة الحج مكية وهى ثمان وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

يا ايها الناس اتقوا ربكم خطاب يعم حكمه المكلفين عند النزول ومن سينتظم فى سلكهم بعد من الموجودين القاصرين عن رتبة التكليف والحادثين بعد ذلك الى يوم القيمة وان كان خطاب المشافهة مختصا بالفريق الاول على الوجه الذى مر تقريره فى مطلع سورة النساء ولفظ الناس ينتظم الذكور والاناث حقيقة واما صيغة جمع المذكر فواردة على نهج التغليب لعدم تناولها للاناث حقيقة الا عند الحنابلة والمأمور به مطلق التقوى الذى هو التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك ويندرج فيه الايمان بالله واليوم الآخر حسبما ورد به الشرع اندراجا اوليا والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لتأييد الامر وتأكيد ايجاب الامتثال به ترهيبا وترغيبا اى احذروا عقوبة مالك اموركم ومربيكم وقوله تعالى **ان زلزلة الساعة شئ عظيم** تعليل لموجب الامر بذكر بعض عقوباته الهائلة فان ملاحظة عظمها وهولها وفظاعة ما هى من مباديه ومقدماته من الاحوال والاهوال التى لا ملجأ منها سوى التدرع بلباس التقوى مما يوجب مزيد الاعتناء بملابسته وملازمته لا محالة والزلزلة التحريك الشديد والازعاج العنيف بطريق التكرير بحيث يزيل الاشياء من مقارها ويخرجها من مراكزها واضافتها الى الساعة اما اضافة المصدر الى فاعله على المجاز الحكمى كانها هى التى تزلزل الاشياء او اضافة الى الظرف اما باجرائه مجرى المفعول به اتساعا او بتقدير فى كما فى قوله تعالى بل مكر الليل والنهار وهى الزلزلة المذكورة فى قوله تعالى

اذا زلزلت الارض زلزالها عن الحسن انها تكون يوم القيمة وعن ابن عباس رضى الله عنهما زلزلة
الساعة قيامها وعن علقمة والشعبى انها قبل طلوع الشمس من مغربها فاضافتها الى الساعة
حينئذ لكونها من اشراطها وفى التعبير عنها بالشئ ايذان بان العقول قاصرة عن ادراك
كنهها والعبارة ضيقة لا تحيط بها الا على وجه الابهام وقوله تعالى يوم ترونها منصوب
بما بعده قدم عليه اهتماما به والضمير للزلزلة اى وقت رؤيتكم اياها ومشاهدتكم
لهول مطلعها تذهل كل مرضعة اى مباشرة للارضاع عما ارضعت اى تغفل وتذهب
مع دهشة عما هى بصدد ارضاعه من طفلها الذى القمته ثديها والتعبير عنه بما دون
من لتاكيد الذهول وكونه بحيث لا يخطر ببالها انه ماذا الا انها تعرف شيئيته لكن
لا تدرى من هو بخصوصه وقيل مصدرية اى تذهل عن ارضاعها والاول ادل
على شدة الهول وكمال الانزعاج وقرئ تذهل من الاذهال مبنيا للمفعول ومبنيا للفاعل
مع نصب كل اى تذهلها الزلزلة وتضع كل ذات حمل حملها اى تلقى جنينها لغير تمام
كما ان المرضعة تذهل عن ولدها لغير فطام وهذا ظاهر على قول علقمة والشعبى
واما على ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فقد قيل انه تمثيل لتهويل الامر وفيه
ان الامر حينئذ اشد من ذلك واعظم واهول مما وصف واطم وقيل ان ذلك يكون عند
النفخة الثانية فانهم يقومون على ما صعقوا فى النفخة الاولى فتقوم المرضعة على ارضاعها
والحامل على حملها ولا ريب فى ان قيام الناس عن قبورهم بعد النفخة الثانية لا قبلها حتى
تتصور ما ذكر وترى الناس بفتح التاء والراء على خطاب كل احد من المخاطبين برؤية
الزلزلة والاختلاف بالجمعية والافراد لما ان المرئى فى الاول هى الزلزلة التى يشاهدها
الجميع وفى الثانى حال من عدا المخاطب منهم فلا بد من افراد المخاطب على وجه يعم
كل واحد منهم لكن من غير اعتبار اتصافه بتلك الحالة فان المراد بيان تاثير الزلزلة فى
المرئى لا فى الرائى باختلاف مشاعرهم لان مدار حسبة رؤيته للزلزلة لا لغيرها كانه
قيل ويصير الناس سكارى الخ واثما اوثر عليه ما فى التنزيل للايذان بكمال ظهور تلك
الحالة فيهم وبلوغها من الجلاء الى حد لا يكاد يخفى على احد اى يراهم كل احد سكارى
اى كانهم سكارى وما هم بسكارى حقيقة ولكن عذاب الله شديد فرهقهم
هوله ويطير عقولهم ويسلب تمييزهم فهو الذى جعلهم كما وصفوا وقرئ ترى بضم
التاء وفتح الراء مسندا الى المخاطبين من اريتك قائما او رؤيتك قائما والناس منصوب
اى تظنهم سكارى وقرئ برفع الناس على اسناد الفعل المجهول اليه والتانيث على تاويل الجماعة
وقرئ ترى بضم التاء وكسر الراء اى ترى الزلزلة الخلق جميع الناس سكارى وقرئ سكرى
والسكرى كعطشى وجرى اجراء للسكر مجرى العلل ومن الناس كلام مبتدا جئ به اثر بيان
عظم شان الساعة المنبئة عن البعث بيانا لحال بعض المنكرين لها ومحل الجار الرفع على الابتداء
اما بحمله على المعنى او بتقدير ما يتعلق به كما مر مرارا اى وبعض الناس او وبعض كائن
من الناس من يجادل فى الله اى فى شانه تعالى ويقول فيه ما لا خير فيه من الاباطيل
وقوله تعالى بغير علم حال من ضمير يجادل موضحة لما يشعر بها المجادلة من الجهل اى
ملابسا بغير علم روى انها نزلت فى النضر بن الحارث وكان جدلا يقول الملئكة بنات
الله والقران اساطير الاولين ولا بعث بعد الموت وهى عامة له ولاضرابه من العتاة
المتمردين ويتبع اى فيما يتعاطاه من المجادلة او فى كل ما ياتى وما يذر من الامور الباطلة
التى من جملتها ذلك كل شيطان مريد عات متمرد متجرد للفساد واصله العرى
المنبئ عن التمحض له كالتشمر ولعله ماخوذ من تجرد المصارعين عند المصارعة قال
الزجاج المريد والمارد المرتفع الاملس والمراد اما رؤساء الكفرة الذين يدعون من دونهم
الى الكفر واما ابليس وجنوده وقوله تعالى كتب عليه اى على الشيطان صفة اخرى له
وقوله تعالى انه فاعل كتب والضمير للشان اى رقم به لظهور ذلك من حاله ان الشان
من تولاه اى اتخذه وليا وتبعه فانه يضله بالفتح على انه خبر مبتدا محذوف او مبتدا
خبره محذوف والجملة جواب الشرط ان جعلت من شرطية وخبرها ان جعلت موصولة متضمنة

لمعنى الشرط اى من تولاه فشانه انه يضله من طريق الجنة او طريق الحق او فحق انه يضله فطعا او
قيل فانه معطوف على انه وفيه من التعسف ما لا يخفى وقيل مما لا يخلو عن التمحل والتاويل
وقرئ فانه بالكسر على انه خبر لمن او جواب لها وقرئ بالكسر فيهما على حكاية المكتوب كما هو
مثلها فى قولك كتبت ان الله يامر بالعدل والاحسان او على اضمار القول او تضمين الكتب
معناه على راى من يراه ويهديه الى عذاب السعير بحمله على مباشرة ما يؤدى اليه
من السيئات يا ايها الناس اثر ما حكى احوال المجادلين بغير علم واشير الى ما يؤول اليه
امرهم اقيمت الحجة الدالة على تحقق ما جادلوا فيه من البعث ان كنتم فى ريب من
البعث من امكانه وكونه مقدورا له تعالى او من وقوعه وقرئ من البعث بالتحريك كالجلب
فى الجلب والتعبير عن اعتقادهم فى حقه بالريب مع التنكير المنبئ عن القلة مع انهم
جازمون باستحالته وايراد كلمة الشك مع تقرر حالهم فى ذلك وايثار ما عليه النظم
الكريم على ان يقال ان ارتبتم فى البعث قد مر تحقيقه فى قوله تعالى وان كنتم فى ريب مما نزلنا
على عبدنا فانا خلقناكم اى فانظروا الى مبدا خلقكم ليزول ريبكم فانا خلقناكم اى
خلقنا كل فرد منكم من تراب فى ضمن خلق آدم منه خلقا اجماليا فان خلق كل فرد
من افراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام اذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على
نفسه بل كانت انموذجا منطويا على فطرة سائر افراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان
آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام من التراب خلقا للكل منه كما مر تحقيقه مرارا
ثم من نطفة اى ثم خلقناكم خلقا تفصيليا من نطفة اى منى من النطف الذى
هى الصب ثم من علقة اى قطعة من الدم جامدة متكونة من المنى ثم من مضغة
اى قطعة من اللحم متكونة من العلقة وهى فى الاصل مقدار ما يمضغ مخلقة بالجر
صفة اى مستبينة الخلق مصورة وغير مخلقة اى لم يستبن خلقها وصورتها بعد
والمراد تفصيل حال المضغة وكونها اولا قطعة لم يظهر فيها شئ من الاعضاء ثم
ظهرت بعد ذلك شيئا فشيئا وكان مقتضى الترتيب السابق المبنى على التدرج من المبادى
البعيدة الى القريبة ان يقدم غير المخلقة وانما اخرت عنها لانها عدم الملكة على المخلقة
هذا وقد فسرتا بالمسواة وغير المسواة وبالتامة والساقطة وليس بذاك وفى جعل كل
واحدة من هذه المراتب مبدا لخلقهم لا لخلق ما بعدها من المراتب كما فى قوله تعالى ثم
خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة الآية مزيد دلالة على عظم قدرته تعالى وكسر
لسورة استبعادهم لنبين لكم متعلق بخلقنا وترك المفعول لتفخيمه كما وكيفا اى
خلقناكم على هذا النمط البديع لنبين لكم بذلك ما لا تحصره العبارة من الحقائق و
الدقائق التى من جملتها سر البعث فان من تامل فيما ذكر من الخلق التدريجى تاملا حقيقيا
جزم جزما ضروريا بان من قدر على خلق البشر اولا من تراب لم يشم رائحة الحيوة
قط وانشائه على وجه مصحح لتوليد مثله مرة بعد اخرى بتصريفه فى اطوار الخلقة و
تحويله من حال الى حال مع ما بين تلك الاطوار والاحوال من المخالفة والتباين فهو
قادر على اعادته بل هو اهون فى القياس نظرا الى الفاعل والقابل وقرئ ليبين بطريق
الالتفات وقوله تعالى ونقر فى الارحام ما نشاء استيناف مسوق لبيان حالهم
بعد تمام خلقهم وعدم نظم هذا وما عطف فى سلك الخلق المعلل بالتبيين مع كونهما
من متماته ومن مبادى التبيين ايضا لما ان دلالة الاول على كمال قدرته تعالى على جميع
المقدورات التى من جملتها البعث المبحوث عنه اجلى واظهر اى ونحن نقر فى الارحام
بعد ذلك ما نشاء ان نقره فيها الى اجل مسمى هو وقت الوضع وادناه ستة اشهر و
اقصاه سنتان وقيل اربع سنين وفيه اشارة الى ان بعض ما فى الارحام لا يشاء الله اقراره
فيها بعد تكامل خلقه فتسقطه والتعرض للازلاق لا يناسب المقام لان الكلام فيما جرى عليه
اطواره وهذا صريح فى ان المراد بغير المخلقة ليس من ولد ناقصا او معيبا وان ما فصل الى
ههنا هى الاطوار المتواردة على المولود قبل الولادة وقرئ يقر بالياء ونقر بضم القاف من
قررت الماء اذا صببته ثم نخرجكم اى من بطون امهاتكم بعد اقراركم فيها عند تمام

الاجل المسمّى طفلاً اى حال كونكم اطفالاً والافراد باعتبار كل واحد منهم او بارادة الجنس
المنتظم للواحد والمتعدد وقرئ يخرجكم بالياء وقوله تعالى ثم لتبلغوا اشدكم علة
لنخرجكم معطوفة على علة اخرى له مناسبة لها كانه قيل ثم نخرجكم لتكبروا شيئا فشيئا ثم لتبلغوا
كمالكم فى القوة والعقل والتمييز وقيل التقدير ثم نمهلكم لتبلغوا الخ وما قيل انه معطوف
على نبين مخل بجزالة النظم الكريم هذا وقد قرئ ما قبله من الفعلين بالنصب حكاية
وغيبة فهو حينئذ عطف على نبين مثلهما والمعنى خلقناكم على التدريج المذكور لغايتين
مترتبتين عليه احديهما ان نبين شؤوننا والثانية ان نقركم فى الارحام ثم نخرجكم صغارا
ثم لتبلغوا اشدكم وتقديم التبيين على ما بعده مع ان حصوله بالفعل بعد الكل للايذان
بانه غاية الغايات ومقصود بالذات واعادة اللام ههنا مع تجريد الاولين عنها للاشعار
باصالته فى الغرضية بالنسبة اليهما اذ عليه يدور التكليف المؤدى الى السعادة والشقاوة
وايثار البلوغ مسندا الى المخاطبين على التبليغ مسندا اليه تعالى كالافعال السابقة لانه المناسب
لبيان حال اتصافهم بالكمال واستقلالهم بمبدئية الآثار والاشد من الفاظ الجموع
التى لم يستعمل لها واحد كالاسرة والقتود كانها حيث كانت شدة فى غير شئ بنيت على لفظ الجمع
ومنكم من يتوفى اى بعد بلوغ الاشد او قبله وقرئ يتوفى مبنيا للفاعل اى يتوفاه الله
تعالى ومنكم من يرد الى ارذل العمر وهو الهرم والخرف وقرئ بسكون الميم وايراد
الرد والتوفى على صيغة المبنى للمفعول للجرى على سنن الكبرياء لتعين الفاعل لكيلا يعلم
من بعد علم اى علم كثير شيئا اى شيئا من الاشياء او شيئا من العلم فى انتقاص علمه و
انتكاس حاله اى ليعود الى ما كان عليه فى اوان الطفولية من ضعف البنية وسخافة العقل
وقلة الفهم فينسى ما علمه وينكر ما عرفه ويعجز عما قدر عليه وفيه من التنبيه على صحة البعث ما لا
يخفى وترى الارض هامدة حجة اخرى على صحة البعث والخطاب لكل احد ممن يتأتى منه الرؤية
وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وهى بصرية وهامدة حال من الارض اى ميتة
يابسة من همدت النار اذا صارت رمادا فاذا انزلنا عليها الماء اى المطر اهتزت تحركت
بالنبات وربت انتفخت وازدادت وقرئ ربأت اى ارتفعت وانبتت من كل زوج اى
صنف بهيج حسن رائق يسر ناظره ذلك بان الله هو الحق كلام مستأنف جئ به اثر تحقيق
حقية البعث واقامة البرهان عليه من العالمين الانسانى والنباتى لبيان ان ذلك من آثار الوهيته تعالى
واحكام شؤونه الذاتية والوصفية والفعلية وان ما ينكرونه وجوده بل امكانه من اتيان
الساعة والبعث من اسباب تلك الآثار العجيبة التى يشاهدونها فى الانفس والآفاق و
مبادى صدورها عنه تعالى وفيه من الايذان بقوة الدليل واصالة المدلول فى التحقق و
اظهار بطلان انكاره ما لا يخفى فان انكار تحقق السبب مع الجزم بتحقق المسبب مما يقضى
ببطلانه بديهة العقول والمراد بالحق هو الثابت الذى يحق ثبوته لا محالة لكونه لذاته لا
الثابت مطلقا وذلك اشارة الى ما ذكر من خلق الانسان على اطوار مختلفة وتصريفه فى احوال
متباينة واحياء الارض بعد موتها وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته فى الكمال
وهو مبتدأ خبره الجار والمجرور اى ذلك الصنع حاصل بسبب انه تعالى هو الحق وحده فى ذاته
وصفاته وافعاله المحقق لما سواه من الاشياء وانه يحيى الموتى اى شانه وعادته احياؤها
وحاصله انه تعالى قادر على احيائها بدءا واعادة والا لما احيى النطفة والارض الميتة
مرارا بعد مرار وما يفيده صيغة المضارع من التجدد انما هو باعتبار تعلق القدرة
ومتعلقها لا باعتبار نفسها وانه على كل شئ قدير اى مبالغ فى القدرة والا لما اوجد هذه
الموجودات الفائتة للحصر التى من جملتها ما ذكر واما الاستدلال على ذلك بان قدرته لذاته
الذى نسبته الى الكل سواء فلما دلت المشاهدة على قدرته على احياء بعض الاموات لزم
اقتداره على احياء كلها فمنشؤه الغفول عما سيق له النظم الكريم من بيان الآثار الخاصة
المذكورة من فروع القدرة العامة التامة ومسبباتها وتخصيص احياء الموتى بالذكر مع كونه
من جملة الاشياء المقدور عليها للتصريح بما فيه النزاع والدفع فى نحور المنكرين وتقديمه
لابراز الاعتناء به وان الساعة آتية اى فيما سيأتى وايثار صيغة الفاعل على الفعل للدلالة

وهذا رد على البيضاوى وهو محل بحث وتأمل لمحرره

على تحقق

على تحقق اتيانها وتقرره البتة لاقتضاء الحكمة اياه لا محالة وتعليله بان التغير من مقدمات
الانصرام وطلائعه مبنى على ما ذكر من الغفول وقوله تعالى لا ريب فيها اما خبر ثان
لان او حال من ضمير الساعة فى الخبر ومعنى نفى الريب عنها انها فى ظهور امرها ووضوح
دلائلها التكوينية والتنزيلية بحيث ليس فيها مظنة ان يرتاب فى اتيانها حسبما مر
فى مطلع سورة البقرة والجملة عطف على المجرور بالباء كما قبلها من الجملتين داخلة
مثلهما فى حيز السببية وكذا قوله عز وجل وان الله يبعث من فى القبور لكن لا من حيث
ان اتيان الساعة وبعث الموتى مؤثران فيما ذكر من افاعيله تعالى تأثير القدرة فيها بل
من حيث ان كلا منهما سبب داع له عز وجل بموجب رأفته بالعباد المبنية على الحكم البالغة
الى ما ذكر من خلقهم ومن احياء الارض الميتة على نمط بديع صالح للاستشهاد به
على امكانهما ليتأملوا فى ذلك ويستدلوا به على وقوعهما لا محالة ويصدقوا بما
ينطق بهما من الوحى المبين وينالوا به السعادة الابدية ولولا ذلك لما فعل تعالى ما فعل
بل لما خلق العالم رأسا وهذا كما ترى من احكام حقيته تعالى فى افعاله وابتنائها على الحكم
الباهرة كما ان ما قبله من احكام حقيته تعالى فى صفاته وكونها فى غاية الكمال وقد جعل
اتيان الساعة وبعث من فى القبور لكونهما من روادف الحكمة كناية عن كونه تعالى حكيما كانه
قيل ذلك بسبب انه تعالى قادر على احياء الموتى وعلى كل مقدور وانه حكيم لا يخلف
ميعاده وقد وعد الساعة والبعث فلا بد ان يفى بما وعد وانت خبير بان مآله الاستدلال
بحكمته تعالى على اتيان الساعة والبعث وليس الكلام فى ذلك بل انما هو فى سببيتهما لما مر
من خلق الانسان واحياء الارض فتأمل وكن على الحق المبين وقيل قوله تعالى ان الساعة آتية
ليس معطوفا على المجرور بالباء ولا داخلا فى حيز السببية بل هو خبر والمبتدأ محذوف لفهم المعنى
والتقدير والامر ان الساعة آتية وان الثانية معطوفة على الاولى وقيل المعنى ذلك لتعلموا ان الله
هو الحق المبين ومن الناس من يجادل فى الله هو ابو جهل بن هشام حسبما روى عن ابن
عباس رضى الله عنهما وقيل هو من يتصدى لاضلال الناس واغوائهم كائنا من كان ان الاول
من يقلدهم على ان الشيطان عبارة عن المضل المغوى على الاطلاق بغير علم متعلق
بمحذوف وقع حالا من ضمير يجادل اى كائنا بغير علم والمراد بالعلم العلم الضرورى كما ان
المراد بالهدى فى قوله تعالى ولا هدى هو الاستدلال والنظر الصحيح الهادى الى المعرفة
ولا كتاب منير وهو مظهر للحق اى يجادل فى شانه تعالى من غير تمسك بمقدمة
ضرورية ولا بحجة نظرية ولا ببرهان سمعى كما فى قوله تعالى ويعبدون من دون الله ما لم
ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم واما ما قيل من ان المراد به المجادل الاول والتكرير
للتأكيد والتمهيد لما بعده من بيان انه لا سند له من استدلال او وحى فلا يساعده النظم
الكريم كيف لا وان وصفه باتباع كل شيطان موصوف بما ذكر يغنى عن وصفه بالاعراض
عن الدليل العقلى والسمعى ثانى عطفه حال اخرى من فاعل يجادل اى عاطفا لجانبه وطاويا
لكشحه معرضا متكبرا فان ثنى العطف كناية عن التكبر وقرئ بفتح العين اى مانعا لتعطفه
ليضل عن سبيل الله متعلق بيجادل فان غرضه الاضلال عنه وان لم يعترف بانه
اضلال والمراد به اما الاخراج من الهدى الى الضلال فالمفعول من يجادله من المؤمنين
والناس جميعا بتغليب المؤمنين على غيرهم واما التثبيت على الضلال او الزيادة عليه
مجازا فالمفعول هم الكفرة خاصة وقرئ بفتح الياء وجعل ضلاله غاية لجداله من حيث
ان المراد به الضلال المبين الذى لا هداية له بعده مع تمكنه منها قبل ذلك له فى الدنيا
خزى جملة مستأنفة مسوقة لبيان نتيجة ما سلكه من الطريقة اى يثبت له فى الدنيا بسبب
ما فعله خزى وهو ما اصابه يوم بدر من القتل والصغار ونذيقه يوم القيامة عذاب
الحريق اى النار المحرقة ذلك اى ما ذكر من العذاب الدنيوى والاخروى وما فيه
من معنى البعد للايذان بكونه فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة وهو مبتدأ
خبره قوله تعالى بما قدمت يداك اى بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصى واسناده الى
يديه لما ان الاكتساب عادة يكون بالايدى والالتفات لتأكيد الوعيد وتشديد التهديد ومحل

ان في قوله تعالى وان الله ليس بظلام للعبيد الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف اى والامر
انه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعبير عن ذلك بنفي الظلم مع ان تعذيبهم
بغير ذنب ليس بظلم قطعا على ما تقرر من قاعدة اهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغا
قد مر تحقيقه في سورة آل عمران والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبلها
واما ما قيل من ان محل ان هو الجر بالعطف على ما قدمت فقد عرفت حاله في سورة الانفال
ومن الناس من يعبد الله على حرف شروع في بيان حال المذبذبين اثر بيان حال المجاهرين
اى ومنهم من يعبده تعالى على طرف من الدين لا ثبات له فيه كالذي ينحرف الى طرف الجيش فان
احس بظفر قر والا فر فان اصابه خير اى دنيوي من الصحة والسعة اطمأن به اى ثبت
على ما كان عليه ظاهرا لا انه اطمأن به اطمئنان المؤمنين الذين لا يلويهم عنه صارف
ولا يثنيهم عاطف وان اصابته فتنة اى شيء يفتتن به من مكروه يعتريه في نفسه او
اهله او ماله انقلب على وجهه روي انها نزلت في اعاريب قدموا الى المدينة وكان
احدهم اذا صح بدنه ونتجت فرسه مهرا سريا وولدت امرأته ولدا سويا وكثر ماله وما
شيته قال ما اصبت منذ دخلت في ديني هذا الا خيرا واطمأن وان كان الامر بخلافه قال
ما اصبت منذ دخلت الا شرا وانقلب وعن ابي سعيد رضي الله عنه ان يهوديا اسلم فاصابته مصائب
فتشاءم بالاسلام فاتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال اقلني فقال عليه السلام ان الاسلام لا يقال
فنزلت وقيل نزلت في المؤلفة قلوبهم خسر الدنيا والآخرة فقدهما وضيعهما بذهاب
عصمته وحبوط عمله بالارتداد وقرئ خاسر بالنصب على الحال والرفع على الفاعلية ووضع
الظاهر موضع الضمير تنصيصا على خسرانه او على انه خبر مبتدأ محذوف ذلك اى ما ذكر
من الخسران وما فيه من معنى البعد للايذان بكونه في غاية ما يكون هو الخسران المبين الواضح
كونه خسرانا تاما لا يضره اذا لم يعبده وما لا ينفعه ان عبده اى جمادا ليس من شانه الضر
والنفع كما يلوح به تكرير كلمة ما ذلك الدعاء هو الضلال البعيد عن الحق والهدى مستعار
من ضلال من ابعد في التيه ضالا عن الطريق يدعو لمن ضره اقرب من نفعه استئناف
مسوق لبيان مآل دعائه المذكور وتقرير كونه ضلالا بعيدا مع ازاحة ما عسى يتوهم من نفي
الضر عن معبوده بطريق المباشرة نفيه عنه بطريق التسبيب ايضا فالدعاء بمعنى القول
واللام داخلة على الجملة الواقعة مقولا له ومن مبتدأ وضره مبتدأ ثان خبره اقرب والجملة
صلة للمبتدأ الاول وقوله تعالى لبئس المولى ولبئس العشير جواب لقسم مقدر هو وجوابه خبر
للمبتدأ الاول وايثار من على ما مع كون معبوده جمادا وايراد صيغة التفضيل مع خلوه عن
النفع بالمرة للمبالغة في تقبيح حاله والامعان في ذمه اى يقول ذلك الكافر يوم القيامة بدعاء
وصراخ حين يرى تضرره بمعبوده ودخوله النار بسببه ولا يرى منه اثر النفع اصلا لمن
ضره اقرب من نفعه والله لبئس الناصر هو ولبئس الصاحب هو فكيف بما هو ضرر محض
عار عن النفع بالكلية ويجوز ان يكون يدعو الثاني اعادة للاول لا تاكيدا له فقط بل
وتمهيدا لما بعده من بيان سوء حال معبوده اثر بيان سوء حال عبادته بقوله تعالى
ذلك هو الضلال البعيد كانه قيل من جهته تعالى بعد ذكر عبادته لما لا يضره ولا ينفعه يدعو
ذلك ثم قيل لمن ضره اقرب من نفعه والله لبئس المولى ولبئس العشير فكلمة من وصيغة
التفضيل للتهكم به وقيل اللام زائدة ومن مفعول يدعو ويؤيده القراءة بغير لام اى
يعبد من ضره اقرب من نفعه وايراد كلمة من وصيغة التفضيل به ايضا والجملة القسمية
مستأنفة ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات استئناف جيء به لبيان
كمال حسن حال المؤمنين العابدين له تعالى اى ان الله عز وجل يتفضل عليهم بالاثابة وراء من اجل
المنافع واعظم الخيرات اثر بيان غاية سوء حال الكفرة وما لهم من فريقي المجاهرين والمذبذبين
وان معبودهم لا يجديهم شيئا من النفع بل يضرهم مضرة عظيمة وانهم يعترفون بسوء
ولايته وعشرته ويذمونه مذمة تامة وقوله تعالى تجري من تحتها الانهار صفة
لجنات فان اريد بها الاشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها فجريان الانهار من تحتها ظاهر
وان اريد بها الارض فلا بد من تقدير مضاف اى من تحت اشجارها وان جعلت عبارة عن

يدعو من دون الله

نفع بدل

مجموع

مجموع الارض والاشجار فاعتبار التحتية بالنظر الى الجزء الظاهر المصحح لاطلاق اسم الجنة على
الكل كما مر تفصيله في اوائل سورة البقرة وقوله تعالى ان الله يفعل ما يريد تعليل لما قبله و
تقرير له بطريق التحقيق اى يفعل البتة كل ما يريده من الافعال المتقنة اللائقة المبنية
على الحكم الرائقة التي من جملتها اثابة من آمن به وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم
وعقاب من اشرك به وكذب برسوله صلى الله عليه وسلم ولما كان هذا من آثار نصرته
تعالى له عليه السلام عقب بقوله عز وجل من كان يظن ان لن ينصره الله في الدنيا والآخرة
تحقيقا لها وتقريرا لثبوتها على ابلغ وجه وآكده وفيه ايجاز بارع واختصار رائع
والمعنى انه تعالى ناصر لرسوله في الدنيا والآخرة لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف
يثنيه فمن كان يغيظه ذلك من اعاديه وحساده ويظن ان لن يفعله تعالى بسبب
مدافعته ببعض الامور ومباشرة ما يرده من المكايد فليبالغ في استفراغ المجهود و
ليتجاوز في الجد كل حد معهود فقصارى امره وعاقبة مكره ان يختنق خنقا مما يرى
من ضلال مساعيه وعدم انتاج مقدماته ومباديه فليمدد بسبب الى السماء
فليمدد حبلا الى سقف بيته ثم ليقطع اى ليختنق من قطع اذا اختنق لانه يقطع نفسه
بحبس مجاريه وقيل ليقطع الحبل بعد الاختناق على ان المراد به فرض القطع وتقديره
كما ان المراد بالنظر في قوله تعالى فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ تقدير النظر وتصويره
اى فليتصور في نفسه النظر هل يذهبن كيده ذلك الذي هو اقصى ما انتهت اليه
قدرته في باب المضادة والمضارة ما يغيظه من النصرة كلا ويجوز ان يراد فلينظر
الآن انه ان فعل ذلك هل يذهب ما يغيظه وقيل المعنى فليمدد حبلا الى السماء المظلة
وليصعد عليه ثم ليقطع الوحي وقيل ليقطع المسافة حتى يبلغ عنانها فيجتهد في
دفع نصره ويأباه ان مساق النظم الكريم بيان ان الامور المفروضة على تقدير وقوعها
وتحققها بمعزل من اذهاب ما يغيظ ومن البين ان لا معنى لفرض وقوع الامور
الممتنعة وترتيب الامر بالنظر عليه لا سيما قطع الوحي فان فرض وقوعه مخل بالمرام قطعا و
قيل كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد
الله رسوله صلى الله عليه وسلم من النصر وآخرون من المشركين يريدون اتباعه
عليه السلام ويخشون ان لا يثبت امره فنزلت وقد فسر النصر بالرزق فالمعنى ان
الارزاق بيد الله تعالى لا تنال الا بمشيئته فلا بد للعبد من الرضا بقسمته فمن ظن
ان الله تعالى غير رازقه ولم يصبر ولم يستسلم فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق
فان ذلك لا يقلب القسمة ولا يرده مرزوقا وكذلك اى مثل ذلك الانزال
البديع المنطوي على الحكم البالغة انزلناه اى القرآن الكريم كله وقوله تعالى آيات
بينات اى واضحات الدلالة على معانيها الرائقة حال من الضمير المنصوب مبينة
لما اشير اليه بذلك وان الله يهدي به ابتداء او يثبت على الهدى او يزيد فيه
من يريد هدايته او تثبيته او زيادته فيها ومحل الجملة اما الجر على حذف الجار المتعلق
بمحذوف مؤخر اى ولان الله يهدي من يريد انزله كذلك او الرفع على انه خبر لمبتدأ
محذوف اى والامر ان الله يهدي من يريد هدايته ان الذين آمنوا اى بما ذكر
من الآيات البينات بهداية الله تعالى او بكل ما يجب ان يؤمن به فيدخل فيه ما ذكر
دخولا اوليا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس قيل هم
قوم يعبدون النار وقيل الشمس والقمر وقيل هم قوم من النصارى اعتزلوا عنهم
ولبسوا المسوح وقيل اخذوا من دين النصارى شيئا ومن دين اليهود وهم
القائلون بان للعالم اصلين نورا وظلمة والذين اشركوا هم عبدة الاصنام
وقوله تعالى ان الله يفصل بينهم يوم القيامة في حيز الرفع على انه خبر لان السابقة
وتصدير طرفي الجملة بحرف التحقيق لزيادة التقرير والتاكيد اى يقضي بين
المؤمنين وبين الفرق الخمس المتفقة على ملة الكفر باظهار المحق من المبطل وتوفية
كل منهما حقه من الجزاء باثابة الاول وعقاب الثاني بحسب استحقاق افراد كل

منهما وقوله تعالى ان الله على كل شيء شهيد تعليل لما قبله من الفصل اي عالم بكل شيء من الاشياء
ومراقب لاحواله ومن قضيته الاحاطة بتفاصيل ما صدر عن كل فرد من افراد الفرق المذكورة
واجراء جزائه اللائق به عليه وقوله تعالى الم تر ان الله يسجد له من في السموات
ومن في الارض الخ بيان لما يوجب الفصل المذكور من اعمال الفرق المذكورة مع الاشارة
الى كيفيته وكونه بطريق التعذيب والاثابة والاكرام والاهانة اثر بيان ما يوجبه
من كونه تعالى شهيدا على جميع الاشياء التي من جملتها احوالهم وافعالهم والمراد
بالرؤية العلم عبر عنه بها اشعارا بظهور المعلوم والخطاب لكل احد ممن يتأتى منه الرؤية
بناء على انه من الجلاء بحيث لا يخفى على احد والمراد بالسجود هو الانقياد التام لتدبيره
تعالى بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهه باكمل افعال المكلف في باب الطاعة ايذانا بكونه
في اقصى مراتب التسخر والتذلل لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء سواء جعلت كلمة من
عامة لغيرهم ايضا وهو الانسب بالمقام لافادته شمول الحكم لكل ما فيهما بطريق القرار
فيهما او بطريق الجزئية منهما فيكون قوله تعالى والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر
والدواب افرادا لها بالذكر لشهرتها واستبعاد ذلك منها عادة او جعلت خاصة
بالعقلاء لعدم شمول سجود الطاعة لكلهم حسبما ينبئ عنه قوله تعالى وكثير من الناس
فانه مرتفع بفعل مضمر يدل عليه المذكور اي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة
ومن قضيته انتفاء ذلك عن بعضهم وقيل هو مرفوع على الابتداء حذف خبره ثقة بدلالة
خبر قسيمه عليه نحو حق له الثواب والاول هو الاولى لما فيه من الترغيب في السجود والطاعة
وقد جوز ان يكون من الناس خبرا له اي من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون
والمتقون وان يكون قوله تعالى وكثير معطوفا على كثير الاول للايذان بغاية الكثرة ثم يخبر
عنهم باستحقاق العذاب كانه قيل وكثير وكثير من الناس حق عليه العذاب اي بكفره
واستعصائه وقرئ حق بالضم وحقا اي حق عليه العذاب حقا ومن يهن الله بان
كتب عليه الشقاء حسبما علمه من صرف اختياره الى الشر فما له من مكرم يكرمه بالسعادة
وقرئ بفتح الراء على انه مصدر ميمي ان الله يفعل ما يشاء من الاشياء التي من جملتها
الاكرام والاهانة هذان تعيين لطرفي الخصام وازاحة لما عسى يتبادر الى الوهم
من كونه بين كل واحدة من الفرق الست وبين البواقي وتحرير لمحله اي فريق المؤمنين وفريق
الكفرة المنقسم الى الفرق الخمس خصمان اي فريقان مختصمان وانما قيل اختصموا
في ربهم حملا على المعنى اي اختصموا في شأنه عز وجل وقيل في دينه وقيل في ذاته
وصفاته والكل من شؤونه تعالى فان اعتقاد كل من الفريقين بحقية ما هو عليه وبطلان
ما عليه صاحبه وبناء اقواله وافعاله عليه خصومة للفريق الآخر وان لم يجر بينهما التحاور
والخصام وقيل تخاصمت اليهود والمؤمنون فقالت اليهود نحن احق بالله واقدم منكم
كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المؤمنون نحن احق بالله منكم آمنا بمحمد وبما انزل الله
من كتاب وانتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم كفرتم به حسدا فنزلت فالذين كفروا
تفصيل لما اجمل في قوله تعالى يفصل بينهم يوم القيمة قطعت لهم اي قدرت على مقادير
جثثهم وقرئ بالتخفيف ثياب من نار اي نيران هائلة تحيط بهم احاطة الثياب
بلابسها يصب من فوق رؤسهم الحميم اي الماء الحار الذي انتهت حرارته قال
ابن عباس رضي الله عنهما لو قطرت قطرة منها على جبال الدنيا لاذابتها والجملة مستأنفة
او خبر ثان للموصول او حال من ضمير لهم يصهر به اي يذاب ما في بطونهم من الامعاء
والاحشاء وقرئ يصهر بالتشديد والجلود عطف على ما وتأخيره عنه اما لمراعاة
الفواصل او للاشعار بغاية شدة الحرارة بايهام ان تأثيرها في الباطن اقدم من تأثيرها
في الظاهر مع ان ملابستها على العكس والجملة حال من الحميم ولهم للكفرة اي لتعذيبهم
ولهم مقامع من حديد جمع مقمعة وهي آلة القمع كلما ارادوا ان يخرجوا منها
اي اشرفوا على الخروج من النار ودنوا منه حسبما يروى انها تضربهم بلهيبها فترفعهم
حتى اذا كانوا في اعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا من غم اي من غم شديد

من غمومها وهو بدل اشتمال من الهاء باعادة الجار والرابط محذوف كما اشير اليه او مفعول
له للخروج اعيدوا فيها اي في قعرها بان ردوا من اعاليها الى اسافلها من غير ان
يخرجوا منها وذوقوا على تقدير قول معطوف على اعيدوا اي وقيل لهم ذوقوا
عذاب الحريق اي الغليظ من النار المنتشر العظيم الاهلاك ان الله يدخل الذين
آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار بيان لحسن حال المؤمنين
اثر بيان سوء حال الكفرة وقد غير الاسلوب فيه باسناد الادخال الى الله عز وجل و
تصدير الجملة بحرف التحقيق ايذانا بكمال مباينة حالهم لحال الكفرة واظهارا لمزيد العناية
بامر المؤمنين ودلالة على تحقيق مضمون الكلام يحلون فيها على البناء للمفعول بالتشديد
من التحلية وقرئ بالتخفيف من الاحلاء بمعنى الالباس اي يحليهم الملائكة بامره تعالى
وقرئ يحلون من حليت المرأة اذا لبست حليها ومن في قوله تعالى من اساور اما
للتبعيض اي بعض اساور وهي جمع اسورة جمع سوار او للبيان لما ان ذكر التحلية
مما ينبئ عن الحلي المبهم وقيل زائدة وقيل نعت لمفعول محذوف ليحلون فانه
بمعنى يلبسون من ذهب بيان للاساور ولؤلؤا عطف على محل من اساور او
على المفعول المحذوف او منصوب بفعل مضمر يدل عليه يحلون اي يؤتون وقرئ
بالجر عطفا على اساور وقرئ لولؤا بقلب الهمزة الثانية واوا ولوليا بقلبهما ياء
بعد قلبها واوا وليليا بقلبهما ياء ولباسهم فيها حرير غير الاسلوب حيث لم يقل
ويلبسون فيها حريرا لكن لا للدلالة على ان الحرير ثيابهم المعتادة او لمجرد المحافظة
على هيئة الفواصل بل للايذان بان ثبوت اللباس لهم امر محقق غني عن البيان اذ لا يمكن
عراؤهم عنه وانما المحتاج الى البيان ان لباسهم ماذا بخلاف الاساور واللؤلؤ
فانها ليست من اللوازم الضرورية فجعل بيان تحليتهم بها مقصودا بالذات
ولعل هذا هو الباعث الى تقديم بيان التحلية على بيان حال اللباس وهدوا الى
الطيب من القول وهو قولهم الحمد لله الذي صدقنا وعده واورثنا الارض
نتبوأ من الجنة الآية وهدوا الى صراط الحميد اي المحمود نفسه او عاقبته و
هو الجنة ووجه تأخير هذه الهداية عن ذكر الهداية الى القول المذكور المتأخر عن
دخول الجنة المتأخر عن الهداية الى طريقها لرعاية الفواصل وقيل المراد بالحميد
الحق المستحق لذاته لغاية الحمد وهو الله عز وجل وصراطه الاسلام ووجه التأخير
حينئذ ان ذكر الحمد يستدعي ذكر المحمود ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله ليس المراد
به حالا ولا استقبالا وانما هو استمرار الصد ولذلك حسن عطفه على الماضي كما في قوله
تعالى الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله وقيل هو حال من فاعل كفروا اي وهم
يصدون وخبر ان محذوف لدلالة آخر الآية الكريمة عليه فان من الحد في الحرم
حيث عوقب بالعذاب الاليم فلان يعاقب من جمع اليه الكفر والصد عن سبيل الله
باشد من ذلك احق واولى والمسجد الحرام عطف على سبيل الله قيل المراد به مكة
بدليل وصفه بقوله تعالى الذي جعلناه للناس اي كائنا من كان من غير فرق بين مكي
وآفاقي سواء العاكف فيه والباد اي المقيم والطارئ وسواء اي مستويا مفعول ثان
لجعلناه والعاكف مرتفع به واللام متعلق به ظرف له وفائدة وصف المسجد الحرام بذلك
زيادة تشنيع الصادين عنه وقرئ سواء بالرفع على انه خبر مقدم والعاكف مبتدأ والجملة
مفعول ثان للجعل وقرئ العاكف بالجر على انه بدل من الناس ومن يرد فيه مما ترك مفعوله
ليتناول كل متناول كانه قيل ومن يرد فيه مرادا ما بالحاد بعدول عن القصد
بظلم بغير حق وهما حالان مترادفان والثاني بدل من الاول باعادة الجار او صلة
له اي ملحدا بسبب الظلم كالاشراك واقتراف الآثام نذقه من عذاب اليم جواب
لمن واذ بوأنا يقال بوأه منزلا اي انزله فيه ولما لزمه جعل الثاني مباءة للاول قيل
لابراهيم مكان البيت وعليه مبني قول ابن عباس رضي الله عنهما جعلناه اي اذكر
وقت جعلنا مكان البيت مباءة له عليه السلام اي مرجعا يرجع اليه للعمارة والعبادة و

توجيه الامر بالذكر الى الوقت مع ان المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيانه غير
مرة وقيل اللام زائدة ومكان ظرف كما فى اصل الاستعمال اى انزلناه فيه قيل رفع البيت الى
السماء ايام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فاعلم الله تعالى ابراهيم عليه السلام مكانه
بريح ارسلها يقال لها الخجوج كنست ما حوله فبناه على اسه القديم روى ان الكعبة بنيت
خمس مرات احديها بناء الملئكة وكانت من ياقوتة حمراء ثم رفعت ايام الطوفان والثانية
بناء ابراهيم عليه السلام والثالثة بناء قريش فى الجاهلية وقد حضر رسول الله صلى الله
عليه وسلم هذا البناء والرابعة بناء ابن الزبير والخامسة بناء الحجاج وقد اوردنا ما
فى هذا الشان من الاقاويل فى تفسير قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت
وان فى قوله تعالى ان لا تشرك بى شيئا مفسرة لبوّأنا من حيث انه متضمن لمعنى تعبد
لان التبوئة للعبادة او مصدرية موصولة بالنهى وقد مر تحقيقه فى اوائل سورة هود
اى فعلنا ذلك لئلا تشرك بى فى العبادة شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود اى
وطهر بيتى من الاوثان والاقذار لمن يطوف به ويصلى فيه ولعل التعبير عن الصلوة باركانها للدلالة
على ان كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك فكيف وقد اجتمعت وقرئ يشرك بالياء واذن
فى الناس اى ناد فيهم وقرئ آذن بالحج بدعوة الحج والامر به روى انه عليه السلام
صعد ابا قبيس فقال يا ايها الناس حجوا بيت ربكم فاسمعه الله تعالى من فى اصلاب الرجال
وارحام النساء فيما بين المشرق والمغرب ممن سبق فى علمه تعالى ان يحج وقيل الخطاب لرسول
الله صلى الله عليه وسلم امر بذلك فى حجة الوداع وياباه كون السورة مكية يأتوك جواب
الامر رجالا اى مشاة جمع راجل كقيام جمع قائم وقرئ بضم الراء وتخفيف الجيم
وتشديده ورجالى كعجالى وعلى كل ضامر عطف على رجالا اى وركبانا على كل بعير
مهزول اتعبه بعد الشقة فهزله او زاد هزاله يأتين صفة لضامر محمولة على المعنى
وقرئ يأتون على انه صفة للرجال والركبان او استيناف فيكون الضمير للناس من كل فج طريق
واسع عميق بعيد وقرئ معيق يقال بئر بعيدة العميق وبعيدة المعيق بمعنى كالجذب والجبذ
ليشهدوا متعلق بيأتوك لا باذن اى ليحضروا منافع عظيمة الخطر كثيرة العدد او نوعا
من المنافع الدينية والدنيوية المختصة بهذه العبادة واللام فى قوله تعالى لهم متعلق بمحذوف
هو صفة لمنافع اى منافع كائنة لهم ويذكروا اسم الله عند اعداد الهدايا والضحايا و
ذبحها وفى جعله غاية للاتيان ايذان بانه الغاية القصوى دون غيره وقيل هو كناية
عن الذبح لانه لا ينفك عنه فى ايام معلومات هى ايام النحر كما ينبئ عنه قوله تعالى على ما
رزقهم من بهيمة الانعام فان المراد بالذكر ما وقع عند الذبح وقيل هى عشر ذى الحجة
وقد علق الفعل بالمرزوق وبين بالبهيمة تحريضا على التقرب وتنبيها على الذكر فكلوا
منها التفات الى الخطاب والفاء فصيحة عاطفة لمدخولها على مقدر قد حذف للاشعار
بانه امر محقق غير محتاج الى التصريح به كما فى قوله تعالى فانفجرت اى فاذكروا اسم الله تعالى
على ضحاياكم فكلوا من لحومها والامر للاباحة وازاحة ما كانت عليه اهل الجاهلية من التحرج
فيه او للندب الى مواساة الفقراء ومساواتهم واطعموا البائس اى الذى اصابه بؤس وشدة
الفقير المحتاج وهذا الامر للوجوب وقد قيل به فى الاول ايضا ثم ليقضوا تفثهم
اى ليؤدوا ازالة وسخهم او ليحكموها بقص الشارب والاظفار ونتف الابط والاستحداد
عند الاحلال وليوفوا نذورهم ما ينذرون من البر فى حجهم وقيل مواجب الحج وقرئ
بفتح الواو وتشديد الفاء وليطوفوا طواف الركن الذى به تمام التحلل فانه قرينة قضاء
التفث وقيل طواف الوداع بالبيت العتيق اى القديم فانه اول بيت وضع للناس او المعتق
من تسلط الجبابرة فكم من جبار سار اليه ليهدمه فقصمه الله عز وجل واما الحجاج الثقفى
فانما قصد اخراج ابن الزبير رضى الله عنهما منه لا التسلط عليه ذلك اى الامر ذلك وهذا
وامثاله يطلق للفصل بين الكلامين اى بين وجهى كلام واحد ومن يعظم حرمات الله
اى احكامه وسائر ما لا يحل هتكه بالعلم بوجوب مراعاتها والعمل بموجبه وقيل الحرم
وما يتعلق بالحج من التكاليف وقيل الكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام فهو

خير له اى فالتعظيم خير له ثوابا عند ربه اى فى الآخرة والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة
الى ضميره لتشريفه والاشعار بعلة الحكم واحلت لكم الانعام وهى الازواج
الثمانية على الاطلاق فقوله تعالى الا ما يتلى عليكم اى الا ما يتلى عليكم آية تحريمه استثناء
متصل منها على ان ما عبارة عما حرم منها لعارض كالميتة وما اهل به لغير الله تعالى والجملة
اعتراض جئ به تقريرا لما قبله من الامر بالاكل والاطعام ودفعا لما عسى يتوهم ان الاحرام
يحرمه كما يحرم الصيد وعدم الاكتفاء ببيان عدم كونها من ذلك القبيل بحمل الانعام على ما
ذكر من الضحايا والهدايا المعهودة خاصة لئلا يحتاج الى الاستثناء المذكور اذ ليس
فيها ما حرم لعارض قطعا لمراعاة حسن التخلص الى ما بعده من قوله تعالى فاجتنبوا الرجس
من الاوثان فانه مترتب على ما يفيده قوله تعالى ومن يعظم حرمات الله من وجوب
مراعاتها والاجتناب عن هتكها ولما كان بيان حل الانعام من دواعى التعاطى لا من مبادى
الاجتناب عقب بما يوجب الاجتناب عنه من الحرمات ثم امر بالاجتناب عما هو اقصى الحرمات
كانه قيل ومن يعظم حرمات الله فهو خير له والانعام ليست من الحرمات فانها محللة لكم
الا ما يتلى عليكم آية تحريمه فانه مما يوجب الاجتناب عنه فاجتنبوا ما هو معظم الامور التى
يجب الاجتناب عنها وقوله تعالى واجتنبوا قول الزور تعميم بعد تخصيص فان عبادة الاوثان
رأس الزور وكانه لما حث على تعظيم الحرمات اتبع ذلك ردا لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر
والسوائب ونحوهما والافتراء على الله تعالى بانه حكم بذلك وقيل شهادة الزور لما روى
انه عليه السلام قال عدلت شهادة الزور الاشراك بالله تعالى ثلاثا وتلا هذه الآية والزور
من الزور وهو الانحراف كالافك الماخوذ من الافك الذى هو القلب والصرف فان الكذب
منحرف مصروف عن الواقع وقيل هو قول اهل الجاهلية فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا
شريك هو لك تملكه وما ملك حنفاء لله مائلين عن كل دين زائغ الى الدين الحق
مخلصين لله تعالى غير مشركين به اى شيئا من الاشياء فيدخل فى ذلك الاوثان دخولا
اوليا وهما حالان من واو فاجتنبوا ومن يشرك بالله جملة مبتدأة مؤكدة لما قبلها
من الاجتناب من الاشراك واظهار اسم الجليل لاظهار كمال قبح الاشراك فكانما خر من السماء
لانه سقط من اوج الايمان الى حضيض الكفر فتخطفه الطير فان الاهواء الردية توزع
افكاره وقرئ فتخطفه بفتح الخاء وتشديد الطاء وبكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما
واصلها تختطفه او تهوى به الريح اى تسقط وتقذفه فى مكان سحيق بعيد
فان الشيطان قد طوح به فى الضلالة واو للتخيير كما فى او كصيب او للتنويع ويجوز
ان يكون من باب التشبيه المركب فيكون المعنى ومن يشرك بالله فقد هلكت نفسه هلاكا
شبيها بهلاك احد الهالكين ذلك اى الامر ذلك او امتثلوا ذلك ومن يعظم شعائر الله
اى الهدايا فانها من معالم الحج وشعائره تعالى كما ينبئ عنه والبدن جعلناها لكم من
شعائر الله وهو الاوفق لما بعده وتعظيمها اعتقاد ان التقرب بها من اجل القربات
وان يختارها حسانا سمانا غالية الاثمان روى انه صلى الله عليه وسلم اهدى مائة
بدنة فيها جمل لابى جهل فى انفه برة من ذهب وان عمر رضه اهدى نجيبة
طلبت منه بثلثمائة دينار فانها اى فان تعظيمها من تقوى القلوب اى من افعال
ذوى تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات والعائد الى من فان تعظيمها ناشئ
من تقوى القلوب وتخصيصها بالاضافة لانها مراكز التقوى التى اذا ثبتت فيها وتمكنت
ظهر اثرها فى سائر الاعضاء لكم فيها اى فى الهدايا منافع هى درها ونسلها و
صوفها وظهرها الى اجل مسمى هو وقت نحرها والتصدق بلحمها والاكل منه
ثم محلها اى وجوب نحرها او وقت نحرها منتهية الى البيت العتيق اى الى ما يليه
من الحرم وثم للتراخى الزمانى او الرتبى اى لكم فيها منافع دنيوية الى وقت نحرها ثم
منافع دينية اعظم منها فى النفع محلها اى وجوب نحرها او وقت وجوب نحرها الى
البيت العتيق اى منتهية اليه هذا وقد قيل المراد بالشعائر مناسك الحج ومعالمه و
المعنى لكم فيها منافع بالاجر والثواب فى قضاء المناسك واقامة شعائر الحج الى اجل مسمى

هو انقضاء ايام الحج ثم محلها اى محل الناس من احرامهم الى البيت العتيق اى منته اليه بان
يطوفوا به طواف الزيارة يوم النحر بعد قضاء المناسك فاضافة المحل اليها لادنى ملابسة ولكل امة
اى لكل اهل دين جعلنا منسكا اى متعبدا وقربانا يتقربون اليه الى الله عز وجل وقرئ
بكسر السين اى موضع نسك وتقديم الجار والمجرور على الفعل للتخصيص اى لكل امة من
الامم جعلنا منسكا لا لبعض منهم دون بعض ليذكروا اسم الله خاصة دون غيره
ويجعلوا نسيكتهم لوجهه الكريم علل الجعل به تنبيها على ان المقصود الاصلى من المناسك
تذكر المعبود على ما رزقهم من بهيمة الانعام عند ذبحها وفيه تنبيه على ان القربان يجب
ان يكون من الانعام والخطاب فى قوله تعالى فالهكم اله واحد للكل تغليبا والفاء لترتيب ما
بعدها على ما قبلها فان جعله تعالى لكل امة من الامم منسكا مما يدل على وحدانيته تعالى
وانما قيل اله واحد ولم يقل واحد لما ان المراد بيان انه تعالى واحد فى ذاته كما انه واحد فى
الهيته للكل والفاء فى قوله تعالى فله اسلموا لترتيب ما بعدها من الامر بالاسلام وحدانيته
تعالى وتقديم الجار والمجرور على الامر للقصر اى فاذا كان الهكم الها واحدا فاخلصوا له التقرب
او الذكر واجعلوه لوجهه خاصة ولا تشوبوه بالشرك وبشر المخبتين تجريد للخطاب الى
رسول الله صلعم اى المتواضعين او المخلصين فان الاخبات من الوظايف الخاصة بهم
الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم منه تعالى لاشراق اشعة جلاله عليها والصابرين على
ما اصابهم من مشاق التكاليف ومؤنات النوايب والمقيمى الصلوة فى اوقاتها وقرئ بنصب
الصلاة على تقدير النون وقرئ والمقيمين الصلوة على الاصل ومما رزقناهم ينفقون فى وجوه الخيرات
والبدن بضم الباء وسكون الدال وقرئ بضمها وهما جمع بدنة وقيل الاصل ضم الدال
كخشب وخشبة والتسكين تخفيف منه وقرئ بتشديد النون على لفظ الوقف وانما
سميت بها الابل لعظم بدنها ماخوذة من بدن بدانة وحيث شاركها البقرة فى الاجزاء عن
سبعة بقوله صلعم البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة جعلا فى الشريعة جنسا واحدا
وانتصابه بمضمر يفسره جعلناها لكم وقرئ بالرفع على انه مبتدا والجملة خبره وقوله
تعالى من شعائر الله اى من اعلام دينه التى شرعها الله تعالى مفعول ثان للجعل ولكم
ظرف لغو متعلق به وقوله تعالى لكم فيها خير اى منافع دينية ودنيوية جملة مستانفة
مقررة لما قبلها فاذكروا اسم الله عليها بان تقولوا عند ذبحها الله اكبر لا اله الا الله
والله اكبر منك واليك صواف اى قايمات قد صففن ايديهن وارجلهن وقرئ صوافن
من صفن الفرس اذا قام على ثلاث وعلى طرف سنبك الرابعة لان البدنة تعقل احدى
يديها فتقوم على ثلاث وقرئ صوافنا بابدال التنوين من حرف الاطلاق عند الوقف
وقرئ صوافى اى خوالص لوجه الله عز وجل وصواف على لغة من يسكن الياء على الاطلاق
كما فى قوله تعالى ارى باق على الحدثان فاذا وجبت جنوبها سقطت على الارض وهى
كناية عن الموت فكلوا منها واطعموا القانع اى الراضى بما عنده وبما يعطى من غير مسئلة
ويؤيده انه قرئ القنع والسائل من قنع اليه قنوعا اذا خضع له فى السؤال والمعتر
اى المتعرض للسؤال وقرئ المعترى يقال عره وعراه واعتره واعتراه كذلك مثل ذلك التسخير
البديع المفهوم من قوله تعالى صواف سخرناها لكم مع كمال عظمها ونهاية قوتها فلا تستعصى
عليكم حتى تاخذونها منقادة فتعقلونها وتحبسونها صافة قوايمها ثم تطعنون فى لباتها
لعلكم تشكرون لتشكروا انعامنا عليكم بالتقرب والاخلاص لن ينال الله اى لن يبلغ مرضاته
ولن يقع موقع القبول لحومها المتصدق بها ولا دماؤها المهراقة بالنحر من حيث
انها لحوم ودماء ولكن يناله التقوى منكم ولكن يصيبه تقوى قلوبكم التى يدعوكم
الى الامتثال بامره تعالى وتعظيمه والتقرب اليه والاخلاص وقيل كان اهل الجاهلية يلطخون
الكعبة بدماء قرابينهم فهم به المسلمون فنزلت كذلك سخرها لكم تكرير للتذكير و
التعليل بقوله تعالى لتكبروا الله اى لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر عليه
غيره فتوحدوه بالكبريا وقيل هو التكبير عند الاحلال او الذبح على ما هداكم اى ارشدكم
الى طريق تسخيرها وكيفية التقرب بها وما مصدرية او موصولة اى على هدايته اياكم او على ما هداكم

اليه وعلى متعلقة بتكبروا لتضمنه معنى الشكر وبشر المحسنين اى المخلصين فى كل ما
ياتون وما يذرون فى امور دينهم ان الله يدافع عن الذين امنوا كلام مستانف مسوق
لتوطين قلوب المؤمنين ببيان ان الله تعالى ناصرهم على اعدائهم بحيث لا يقدرون
على صدهم عن الحج ليتفرغوا الى اداء مناسكه وتصديره بكلمة التحقيق لابراز الاعتناء
التام بمضمونه وصيغة المفاعلة اما للمبالغة او للدلالة على تكرر الدفع فانها قد
تجرد عن وقوع الفعل المتكرر من الجانبين فيبقى تكرره كما فى الممارسة اى يبالغ فى دفع
غائلة المشركين وضررهم الذى من جملته الصد عن سبيل الله تعالى مبالغة من يغالب فيه او
يدفعها عنهم مرة بعد اخرى حسبما يتجدد منهم القصد الى الاضرار بالمسلمين كما فى قوله تعالى
كلما اوقدوا نارا للحرب اطفاها الله وقرئ يدفع والمفعول محذوف وقوله تعالى ان الله
لا يحب كل خوان كفور تعليل لما فى ضمن الوعد الكريم من الوعيد للمشركين وايذان بان
دفعهم بطريق القهر والخزى ونفى المحبة كناية عن البغض اى ان الله يبغض كل خوان
فى اماناته تعالى وهى اوامره ونواهيه او فى جميع الامانات التى معظمها لكفور لنعمته
وصيغة المبالغة فيهما لبيان انهم كذلك لا لتقييد البغض بغاية الخيانة والكفر او للمبالغة فى نفى
المحبة على اعتبار النفى اولا وايراد معنى المبالغة ثانيا اذن اى رخص وقرئ على البناء
للفاعل اى اذن الله تعالى للذين يقاتلون اى يقاتلهم المشركون والمأذون فيه
محذوف لدلالة المذكور عليه فان مقاتلة المشركين اياهم دالة على مقاتلتهم
اياهم دلالة نيرة وقرئ على صيغة المبنى للفاعل اى يريدون ان يقاتلوا المشركين
فيما سياتى ويحرصون عليه فدلالته على المحذوف اظهر بانهم ظلموا اى بسبب انهم
ظلموا وهم اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم كان المشركون يؤذونهم
وكانوا ياتونه عليه السلام بين مضروب ومشجوج ويتظلمون اليه فيقول عليه السلام
اصبروا فانى لم اؤمر بالقتال حتى هاجروا فانزلت وهى اول اية نزلت فى القتال بعد
ما نهى عنه فى نيف وسبعين اية وان الله على نصرهم لقدير وعد لهم بالنصر و
تاكيد لما مر من العدة الكريمة بالرفع وتصريح بان المراد به ليس مجرد تخليصهم عن ايدى
المشركين بل تغليبهم واظهارهم عليهم واخبار بقدرته تعالى على نصرهم وارد على
سنن الكبرياء وتاكيده بكلمة التحقيق واللام لمزيد تحقيق واللام مضمونه وزيادة
توطين نفوس المؤمنين وقوله تعالى الذين اخرجوا من ديارهم فى حيز الجر على انه صفة
للموصول الاول او بيان له او بدل منه او فى محل النصب على المدح او فى محل الرفع باضمار
مبتدا والجملة مرفوعة على المدح والمراد بديارهم مكة المعظمة بغير حق متعلق
باخرجوا اى اخرجوا بغير ما يوجب اخراجهم وقوله تعالى الا ان يقولوا ربنا الله بدل من حق
اى بغير موجب سوى التوحيد الذى ينبغى ان يكون موجبا للاقرار والتمكين دون
الاخراج والتسيير لكن لا على الظاهر بل على طريقة قول النابغة ولا عيب فيهم غير ان
سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب وقيل الاستثناء منقطع ولولا دفع الله
الناس بعضهم ببعض بتسليط المؤمنين على الكافرين فى كل عصر وزمان وقرئ
دفاع لهدمت لخربت باستيلاء المشركين على اهل الملل وقرئ هدمت بالتخفيف
صوامع للرهابنة وبيع للنصارى وصلوات اى وكنايس لليهود سميت بها
لانها تصلى فيها وقيل صلوتا بالعبرية فعربت ومساجد للمسلمين يذكر فيها اسم الله
كثيرا اى ذكرا كثيرا او وقتا كثيرا صفة مادحة للمساجد خصت بها دلالة على
فضلها وفضل اهلها وقيل صفة للاربع وليس كذلك فان بيان ماذكر الله عز و
جل فى الصوامع والبيع والكنايس بعد انتساخ شرعيتها مما لا يقتضيه المقام و
لا يرتضيه الافهام ولينصرن الله من ينصره اى وبالله لينصرن الله من ينصر اولياءه
او من ينصر دينه ولقد انجز الله عز سلطانه وعده حيث سلط المهاجرين
والانصار على صناديد العرب واكاسرة العجم وقياصرة الروم واورثهم ارضهم
وديارهم ان الله لقوى على كل ما يريده من مراداته التى من جملتها نصرهم عزيز

لا يمانعه شيء ولا يدافعه ﴿الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلوة واتوا الزكوة وامروا
بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ وصف من الله عز وجل للذين اخرجوا من ديارهم بما سيكون
منهم من حسن السيرة عند تمكينه تعالى اياهم في الارض واعطائه اياهم زمام الاحكام
منبئ عن عدة كريمة على ابلغ وجه والطفه وعن عثمان رضي الله عنه هذا والله
ثناء قبل بلاء يريد انه تعالى اثنى عليهم قبل ان يحدثوا من الخير ما احدثوا قالوا وفيه دليل
على صحة امر الخلفاء الراشدين لانه تعالى لم يعط التمكين ونفاذ الامر مع السيرة العادلة
غيرهم من المهاجرين لا حظ في ذلك للانصار والطلقاء وعن الحسن هم امة محمد صلى الله عليه
وسلم وقيل الذين بدل من قوله من ينصره ﴿ولله عاقبة الامور﴾ فان مرجعها
الحكمه وتقديره فقط وفيه تاكيد للوعد باظهار اوليائه واعلاء كلمته ﴿وان يكذبوك
فقد كذبت قبلهم قوم نوح﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم متضمنة للوعد
الكريم باهلاك من يعاديه من الكفرة وتعيين لكيفية نصره تعالى له الموعود بقوله تعالى
ولينصرن الله من ينصره وبيان لرجوع عاقبة الامور اليه تعالى وصيغة المضارع في الشرط
مع تحقق التكذيب لما ان المقصود تسليته عليه السلام عما يترتب على التكذيب من الحزن
المتوقع اى وان تحزن على تكذيبهم اياك فاعلم انك لست باوحدي في ذلك فقد كذبت
قبل تكذيب قومك اياك قوم نوح ﴿وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط واصحاب
مدين﴾ اى رسلهم ممن ذكر ومن لم يذكر وانما حذف لكمال ظهور المراد ولان المراد
نفس الفعل اى فعلت التكذيب ﴿وكذب موسى﴾ غير النظم الكريم بذكر المفعول
وبناء الفعل له لا لان قومه بنوا اسرائيل وهم لم يكذبوه وانما كذبه القبط لما ان ذلك انما يقتضي
عدم ذكرهم بعنوان كونهم قوم موسى لا بعنوان آخر على ان بني اسرائيل ايضا قد كذبوه
مرة بعد اخرى حسبما ينطق به قوله تعالى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ونحو ذلك من
الآيات الكريمة بل للايذان بان تكذيبهم له كان في غاية الشناعة لكون آياته في كمال الوضوح
وقوله تعالى ﴿فامليت للكافرين﴾ اى امهلتهم حتى انصرمت حبال آجالهم والفاء لترتيب
امهال كل فريق من فرق المكذبين على تكذيب ذلك الفريق لا لترتيب امهال الكل على تكذيب
الكل ووضع الظاهر موضع الضمير العائد الى المكذبين لذمهم بالكفر والتصريح بمكذبي موسى
عليه السلام حيث لم يذكروا فيما قبل صريحا ﴿ثم اخذتهم﴾ اى اخذت كل فريق من
فرق المكذبين بعد انقضاء مدة املائه وامهاله ﴿فكيف كان نكير﴾ اى انكاري عليهم
بالاهلاك اى فكان ذلك في غاية ما يكون من الهول والفظاعة وقوله تعالى ﴿فكاين
من قرية﴾ منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى ﴿اهلكناها﴾ اى فاهلكنا كثيرا من القرى باهلاك
اهلها والجملة بدل من قوله تعالى كان نكير او مرفوع على الابتداء واهلكناها خبره اى
فكثير من القرى اهلكناها وقرئ اهلكتها على وفق قوله تعالى فامليت للكافرين ثم اخذتهم
فكيف كان نكير ﴿وهي ظالمة﴾ جملة حالية من مفعول اهلكنا وقوله تعالى ﴿فهي خاوية﴾
عطف على اهلكناها لا على وهي ظالمة لانها حال والاهلاك ليس في حال خوائها فعلى
الاول لا محل له من الاعراب كالمعطوف عليه وعلى الثاني في محل الرفع فعطفه على الخبر
والخواء اما بمعنى السقوط من خوى النجم اذا سقط فالمعنى فهي ساقطة حيطانها على
عروشها اى سقوفها بان تعطل بنيانها فخرت سقوفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت
فوق السقوف واسناد السقوط على العروش اليها لتنزيل الحيطان منزلة كل البنيان
لكونها عمدة فيه واما بمعنى الخلو من خوى المنزل اذا خلا من اهله فالمعنى فهي خالية
مع بقاء عروشها وسلامتها فيكون على بمعنى مع ويجوز ان يكون على عروشها خبرا بعد
خبر اى فهي خالية على عروشها اى قائمة مشرفة على عروشها على معنى ان السقوف سقطت
الى الارض وبقيت الحيطان فهي مشرفة على السقوف الساقطة واسناد الاشراف الى الكل
مع كونه حال الحيطان لما مر آنفا ﴿وبئر معطلة﴾ عطف على قرية اى وكم بئر معطلة اى عامرة
في البوادي تركت لا يستقى منها لهلاك اهلها وقرئ بالتخفيف من اعطله بمعنى عطله ﴿و
قصر مشيد﴾ مرفوع البنيان او مجصص اخليناه عن ساكنيه وهذا يؤيد كون معنى خاوية

على عروشها خالية مع بقاء عروشها وقيل المراد بالبئر بئر بسفح جبل بحضرموت وبالقصر قصر
مشرف على قلته كان لقوم حنظلة بن صفوان من بقايا قوم صالح فلما قتلوه اهلكهم الله
تعالى وعطلهما ﴿افلم يسيروا في الارض﴾ حث لهم على ان يسافروا ليروا مصارع المهلكين
فيعتبروا وهم وان كانوا قد سافروا فيها ولكنهم حيث لم يسافروا للاعتبار جعلوا غير
مسافرين فحثوا على ذلك والفاء لعطف ما بعدها على مقدر يقتضيه المقام اى اغفلوا
فلم يسيروا فيها ﴿فتكون لهم﴾ بسبب ما شاهدوه من موارد الاعتبار ومظان الاستبصار
﴿قلوب يعقلون بها﴾ ما يجب ان يعقل من التوحيد ﴿او آذان يسمعون بها﴾ ما يجب
ان يسمع من الوحي او من اخبار الامم المهلكة ممن يجاورهم من الناس فانهم اعرف
منهم بحالهم ﴿فانها لا تعمى الابصار﴾ الضمير للقصة او مبهم يفسره الابصار وفي
تعمى ضمير راجع اليه وقد اقيم الظاهر مقامه ﴿ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ اى
ليس الخلل في مشاعرهم وانما هو في عقولهم باتباع الهوى والانهماك في الغفلة و
ذكر الصدور للتاكيد ونفي توهم التجوز وفضل التنبيه على ان العمى الحقيقي ليس المتعارف
الذي يختص بالبصر قيل لما نزل قوله تعالى من كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى
قال ابن ام مكتوم يا رسول الله انا في الدنيا اعمى افاكون في الآخرة اعمى فنزلت ﴿و
يستعجلونك بالعذاب﴾ كانوا منكرين لمجيء العذاب المتوعد به اشد الانكار وانما
كانوا يستعجلون به استهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم وتعجيزا له على زعمهم
فحكى عنهم ذلك بطريق التخطئة والاستنكار فقوله تعالى ﴿ولن يخلف الله وعده﴾
اما جملة حالية جيء بها لبيان بطلان انكارهم لمجيئه في ضمن استعجالهم به واظهار
خطائهم فيه كانه قيل كيف ينكرون مجيء العذاب الموعود والحال انه تعالى
لا يخلف وعده ابدا وقد سبق الوعد فلا بد من مجيئه حتما او اعتراضية مبينة
لما ذكر وقوله تعالى ﴿وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون﴾ جملة مستانفة
ان كانت الاولى حالية ومعطوفة عليها ان كانت اعتراضية سيقت لبيان خطائهم
في الاستعجال المذكور ببيان كمال سعة ساحة حلمه تعالى ووقاره واظهار غاية ضيق
عطنهم المستتبع لكون المدة القصيرة عنده تعالى مددا طوالا عندهم حسبما ينطق
به قوله تعالى انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ولذلك يرون مجيئه بعيدا ويتخذونه
ذريعة الى انكاره ويجترئون على الاستعجال به ولا يدرون ان معيار تقدير الامور
كلها وقوعا واخبارا ما عنده تعالى من المقدار وقرئ يعدون على صيغة الغيبة اى
يعده المستعجلون اوفق لهذا المعنى وقد جعل الخطاب في القراءة المشهورة لهم ايضا
بطريق الالتفات لكن الظاهر انه للرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين
وقيل المراد بوعده تعالى ما جعل لهلاك كل امة من موعد معين واجل مسمى كما في
قوله تعالى ويستعجلونك بالعذاب ولولا اجل مسمى لجاءهم العذاب فتكون الجملة الاولى
حالية كانت او اعتراضية مبينة لبطلان الاستعجال به ببيان استحالة مجيئه قبل وقته الموعود
والجملة الاخيرة بيانا لبطلانه ببيان ابتنائه على استطالة ما هو قصير عنده تعالى
على الوجه الذي مر بيانه فلا يكون في النظم الكريم حينئذ تعرض لانكارهم الذي دسوه
تحت الاستعجال بل يكون الجواب مبنيا على ظاهر مقالهم ويكتفى في رد انكارهم ببيان
عاقبة من قبلهم من امثالهم هذا وحمل المستعجل به على عذاب الآخرة وجعل اليوم
عبارة عن يوم العذاب المستطال لشدته او عن ايام الآخرة الطويلة حقيقة و
المستطالة لشدة عذابها مما لا يساعده سياق النظم الكريم ولا سباقه فان كلا منهما
ناطق بان المراد هو العذاب الدنيوي وان الزمان الممتد هو الذي مر عليهم قبل
حلوله بطريق الاملاء والامهال لا الزمان المقارن له الا يرى الى قوله تعالى ﴿وكاين من
قرية﴾ الخ فانه كما سلف من قوله تعالى فامليت للكافرين ثم اخذتهم صريح في ان المراد
هو الاخذ العاجل الشديد بعد الاملاء المديد اى وكم من اهل قرية فحذف
المضاف واقيم المضاف اليه مقامه في الاعراب ورجع الضمائر والاحكام مبالغة

فى التعميم والتهويل اى امليت لها كما امليت لهؤلاء حتى انكروا مجئ ما وعدوا من العذاب
واستعجلوا به استهزاء برسلهم كما فعل هؤلاء وهى ظالمة جملة حالية معتبرة
لكمال حلمه تعالى ومشعرة بطريق التعريض بظلم المستعجلين اى امليت لها والحال انها
ظالمة مستوجبة لتعجيل العقوبة كهؤلاء ثم اخذتها بالعذاب والنكال بعد
طول الاملاء والامهال وقوله تعالى والى المصير اعتراض تذييلى مقرر لما قبله ومصرح
بما افاده ذلك بطريق التعريض من ان مآل امر المستعجلين ايضا ما ذكر من الاخذ الوبيل
اى الى حكمى مرجع الكل جميعا لا الى احد غيرى لا استقلالا ولا شركة فافعل بهم ما
افعل مما يليق باعمالهم قل يا ايها الناس انما انا لكم نذير مبين انذركم انذارا بينا
بما اوحى من انباء الامم المهلكة من غير ان يكون لى دخل فى اتيان ما توعدونه من
العذاب حتى تستعجلونى به والاقتصار على الانذار مع بيان حال الفريقين بعده لما اشير
اليه من ان مساق الحديث للمشركين وعقابهم وانما ذكر المؤمنون وثوابهم زيادة فى
غيظهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة لما فرط منهم من الذنوب ورزق
كريم هى الجنة والكريم من كل نوع ما يجمع فضائله ويحوز كمالاته والذين سعوا فى آياتنا
معاجزين اى سابقين او مسابقين فى زعمهم وتقديرهم طامعين ان كيدهم
للاسلام يتم لهم واصله من عاجزه وعجزه فاعجزه اذا سابقه فسبقه لان كلا من
المتسابقين يريد اعجاز الآخر عن اللحاق به وقرئ معجزين اى مثبطين الناس عن الايمان
على انه حال مقدرة اولئك الموصوفون بما ذكر من السعى والمعاجزة اصحاب الجحيم
اى ملازموا النار الموقدة وقيل هو اسم دركة من دركاتها وما ارسلنا من قبلك
من رسول ولا نبى الرسول من بعثه الله تعالى بشريعة جديدة يدعو الناس اليها والنبى
يعمه ومن بعثه لتقرير شريعة سابقة كانبياء بنى اسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى
عليهم الصلاة والسلام ولذلك شبه عليه السلام علماء امته بهم فالنبى اعم من الرسول
ويدل عليه انه عليه السلام سئل عن الانبياء فقال مائة الف واربعة وعشرون الفا
قيل فكم الرسل منهم فقال ثلثمائة وثلثة عشر جما غفيرا وقيل الرسول من جمع الى المعجزة كتابا
منزلا عليه والنبى غير الرسول من لا كتاب له وقيل الرسول من يأتيه الملك بالوحى والنبى يقال له
ولمن يوحى اليه فى المنام الا اذا تمنى اى هيأ فى نفسه ما يهواه القى الشيطان فى امنيته
فى تشهيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه السلام وانه ليغان على قلبى فاستغفر الله
فى اليوم سبعين مرة فينسخ الله ما يلقى الشيطان فيبطله ويذهب به بعصمته عن
الركون اليه وارشاده الى ما يزيحه ثم يحكم الله آياته اى يثبت آياته الداعية
الى الاستغراق فى شؤن الحق وصيغة المضارع فى الفعلين للدلالة على الاستمرار التجددى و
اظهار الجلالة فى موضع الاضمار لزيادة التقرير والايذان بان الالوهية من موجبات احكام
آياته الباهرة والله عليم مبالغ فى العلم بكل ما من شانه ان يعلم ومن جملته ما صدر عن
العباد من قول وفعل عمدا او خطأ حكيم فى كل ما يفعل والاظهار ههنا ايضا لما ذكر مع
ما فيه من تاكيد استقلال الاعتراض التذييلى قيل حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت
وقيل تمنى لحرصه على ايمان قومه ان ينزل عليه ما يقربهم اليه واستمر به ذلك حتى كان
فى ناديهم فنزلت عليه سورة النجم فاخذ يقرؤها فلما بلغ ومناة الثالثة الاخرى
وسوس اليه الشيطان حتى سبق لسانه سهوا الى ان قال تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى ففرح به
المشركون حتى شايعوه بالسجود لما سجد فى آخرها بحيث لم يبق فى المسجد مؤمن ولا مشرك
الا سجد ثم نبهه جبريل عليهما السلام فاغتم به فعزاه الله عز وجل بهذه الآية وهو مردود
عند المحققين ولئن صح فابتلاء يتميز به الثابت على الايمان عن المتزلزل فيه وقيل
تمنى بمعنى قرأ كقوله تمنى كتاب الله اول ليلة تمنى داود الزبور على رسل وامنيته قرائته والقاء الشيطان
فيها ان تكلم بذلك رافعا صوته بحيث ظن السامعون انه من قراءة النبى صلى الله عليه
وسلم وقد رد بانه ايضا يخل بالوثوق بالقرآن ولا يندفع بقوله تعالى فينسخ الله ما يلقى
الشيطان ثم يحكم الله آياته لانه ايضا يحتمله وفى الآية دلالة على جواز السهو من الانبياء

عليهم السلام وتطرق الوسوسة ليجعل ما يلقى الشيطان علة لما ينبئ عنه ما ذكر من القاء
الشيطان من تمكينه تعالى اياه من ذلك فى حق النبى صلى الله عليه وسلم خاصة كما يعرب
عنه سياق النظم الكريم لما ان تمكينه تعالى اياه من الالقاء فى حق سائر الانبياء عليهم
السلام لا يمكن تعليله بما سيأتى وفيه دلالة على ان ما يلقيه امر ظاهر يعرفه المحق و
المبطل فتنة للذين فى قلوبهم مرض اى شك ونفاق كما فى قوله تعالى فى قلوبهم
مرض الآية والقاسية قلوبهم اى المشركين وان الظالمين اى الفريقين
المذكورين فوضع الظاهر موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم مع ما وصفوا به
من المرض والقساوة لفى شقاق بعيد اى عداوة شديدة ومخالفة تامة ووصف
الشقاق بالبعد مع ان الموصوف به حقيقة هو معروضه للمبالغة والجملة اعتراض
تذييلى مقرر لمضمون ما قبله وليعلم الذين اوتوا العلم انه اى القرآن الحق
من ربك اى هو الحق النازل من عنده تعالى وقيل ليعلموا ان تمكين الشيطان
من الالقاء هو الحق المتضمن للحكمة البالغة والغاية الجميلة لانه مما جرت به عادته
فى جنس الانس من لدن آدم عليه السلام فحينئذ لا حاجة الى تخصيص التمكين
فيما سبق بالالقاء فى حقه عليه السلام لكن يأباه قوله تعالى فيؤمنوا به اى بالقرآن
اى يثبتوا على الايمان به او يزدادوا ايمانا برد ما يلقى الشيطان فتخبت له قلوبهم
بالانقياد والخشية والاذعان لما فيه من الاوامر والنواهى ورجع الضميرين لا سيما
الثانى الى تمكين الشيطان من الالقاء مما لا وجه له وان الله لهادى الذين آمنوا
اى فى الامور الدينية خصوصا فى المداحض والمشكلات التى من جملتها ما ذكر
الى صراط مستقيم هو النظر الصحيح الموصل الى الحق الصريح والجملة اعتراض مقرر
لما قبله ولا يزال الذين كفروا فى مرية اى فى شك وجدال منه اى من القرآن وقيل
من الرسول صلى الله عليه وسلم والاول هو الاظهر بشهادة ما سبق من قوله تعالى
ثم يحكم الله آياته وقوله تعالى انه الحق من ربك فيؤمنوا به وما لحق من قوله تعالى والذين كذبوا
بآياتنا واما تجويز كون الضمير لما القى الشيطان فى امنيته فمما لا مساغ له لان ذكر لبس
من هناتهم التى تستمر الى الامد المذكور بل انما هى مريتهم فى شأن القرآن ولا يجدى
حمل من على السببية دون الابتدائية لما ان مريتهم المستمرة كما انها ليست مبتدأة من
ذلك ليست ناشئة منه ضرورة انها مستمرة من لدن نزول القرآن الكريم حتى تأتيهم
الساعة اى القيمة نفسها كما يؤذن به قوله تعالى بغتة اى فجأة فانها الموصوفة
بالاتيان كذلك لا اشراطها وقيل الموت او يأتيهم عذاب يوم عقيم اى يوم
لا يوم بعده كان كل يوم يلد ما بعده من الايام فما لا يوم بعده يكون عقيما والمراد
الساعة ايضا كانه قيل او يأتيهم عذابها فوضع ذلك موضع ضميرها لمزيد
التهويل ولا سبيل الى حمل الساعة على اشراطها لما عرفته واما ما قيل من ان المراد يوم
حرب يقتلون فيه كيوم بدر سمى به لان اولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم
لم يلدن او لان المقاتلين ابناء الحرب فاذا قتلوا صارت عقيما اى ثكلى فوصف اليوم
بوصفها اتساعا او لانه لا خير لهم فيه ومنه الريح العقيم لما لم ينشئ مطرا ولم
يلقح شجرا او لانه لا مثل له لقتال الملائكة عليهم السلام فيه فمما لا يساعده سياق
النظم الكريم اصلا كيف لا وان تخصيص الملك والتصرف الكلى فيه بالله عز وجل ثم
بيان ما يقع فيه من حكمه تعالى بين الفريقين بالثواب والعذاب الاخرويين يقضى بان
المراد به يوم القيمة قضاء بينا لا ريب فيه الملك اى السلطان القاهر والاستيلاء
التام والتصرف على الاطلاق يومئذ لله وحده بلا شريك اصلا بحيث لا يكون فيه
لاحد تصرف من التصرفات فى امر من الامور لا حقيقة ولا مجازا ولا صورة ولا
معنى فى الدنيا فان للبعض فيها تصرفا صوريا فى الجملة وليس التنوين نائبا عما
يدل عليه الغاية من زوال مريتهم كما قيل ولا يستلزمه وذلك من ايمانهم كما قيل
لما ان القيد المعتبر مع اليوم حيث وسط بين طرفى الجملة يجب ان يكون مدارا لحكمها اعنى

كون الملك لله مما ذكر فضلا عن المدارية له فلا سبيل الى اعتبار شئ منهما مع اليوم قطعا
وانما الذى يدور عليه ما ذكر اتيان الساعة التى هى منتهى تصرفات الخلق ومبدأ ظهور
احكام الملك الحق جل جلاله فاذن هو نائب عن نفس الجملة الواقعة غاية لمريتهم فالمعنى
الملك يوم اذ تاتيهم الساعة او عذابها لله تعالى وقوله تعالى • يحكم بينهم • جملة
مستانفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ من الاخبار بكون الملك يومئذ لله كانه قيل
فماذا يصنع بهم حينئذ فقيل بين فريقى المؤمنين به والممارين فيه بالمجازاة وقوله تعالى
فالذين امنوا الخ تغيير للحكم المذكور وتفصيل له اى فالذين امنوا بالقران الكريم ولم
يماروا فيه • وعملوا الصالحات • امتثالا بما امروا فى تضاعيفه • فى جنات النعيم •
اى مستقرون فيها • والذين كفروا وكذبوا باياتنا • اى اصروا على ذلك واستمروا فاولئك
اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الكفر والتكذيب وما فيه من
معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الشر والفساد اى اولئك الموصوفون بما ذكر من
الكفر والتكذيب وهو مبتدأ وقوله تعالى • لهم عذاب • جملة اسمية من مبتدأ وخبر مقدم
عليه وقعت خبرا لاولئك او لهم خبر لاولئك وعذاب مرتفع على الفاعلية بالاستقرار
فى الجار والمجرور لاعتماده على المبتدأ واولئك مع خبره على الوجهين خبر للموصول و
تصديره بالفاء للدلالة على ان تعذيب الكفار بسبب اعمالهم السيئة كما ان تجريد الموصول
الاول عنها للايذان بان اثابة المؤمنين بطريق التفضل لا لايجاب الاعمال الصالحة اياها
وقوله تعالى • مهين • صفة لعذاب مؤكدة لما افاده التنوين من الفخامة وفيه من المبالغة
من وجوه شتى ما لا يخفى • والذين هاجروا فى سبيل الله • اى فى الجهاد حسبما يلوح به
قوله تعالى • ثم قتلوا او ماتوا • اى فى تضاعيف المهاجرة ومحل الموصول الرفع على الابتداء
وقوله تعالى • ليرزقنهم الله • جواب لقسم محذوف والجملة خبره ومن منع وقوع الجملة
القسمية وجوابها للمبتدأ يضمر قولا هو الخبر والجملة محكية به وقوله • رزقا حسنا •
اما مفعول ثان على انه من باب الرعى والذبح اى مرزوقا حسنا او مصدر مؤكد والمراد
به ما لا ينقطع ابدا من نعيم الجنة وانما سوى بينهما فى الوعد لاستوائهما فى القصد واصل
العمل على ان مراتب الحسن متفاوتة فيجوز تفاوت حال المرزوقين حسب تفاوت
الارزاق الحسنة وروى ان بعض اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبى الله هؤلاء
الذين قتلوا فى سبيل الله قد علمنا ما اعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك
كما جاهدوا فما لنا ان متنا معك فنزلت فى طوائف خرجوا من مكة الى المدينة
للهجرة فتبعهم المشركون فقاتلوهم • وان الله لهو خير الرازقين • فانه يرزق بغير حساب
مع ان ما يرزقه لا يقدر عليه احد غيره والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله وقوله
تعالى • ليدخلنهم مدخلا يرضونه • بدل من قوله تعالى ليرزقنهم الله او استيناف مقرر
لمضمونه ومدخلا اما اسم مكان اريد به الجنة فهو مفعول ثان للادخال او مصدر
ميمى اكد به فعله قال ابن عباس رضى الله عنهما انما قيل يرضونه لما انهم يرون فيها
ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيرضونه • وان الله لعليم • باحوالهم
واحوال معاديهم • حليم • لا يعاجلهم بالعقوبة • ذلك • خبر مبتدأ محذوف اى الامر
ذلك والجملة لتقرير ما قبله والتنبيه على ان ما بعده كلام مستانف • ومن عاقب بمثل
ما عوقب به • اى لم يزد فى الاقتصاص وانما سمى الابتداء بالعقاب الذى هو جزاء
الجناية للمشاكلة او لكونه سببا له • ثم بغى عليه • بالمعاودة الى العقوبة • لينصرنه الله •
على من بغى عليه لا محالة • ان الله لعفو غفور • اى مبالغ فى العفو والغفران فيعفوا
عن المنتصر ويغفر له ما صدر عنه من ترجيح الانتقام على العفو والصبر المندوب
اليهما بقوله تعالى ولمن صبر وغفر فان ذلك اى ما ذكر من الصبر والمغفرة من عزم الامور
فان فيه حثا بليغا على العفو والمغفرة فانه تعالى مع كمال قدرته لما كان يعفو ويغفر فغيره
اولى بذلك وتنبيها على انه تعالى قادر على العقوبة اذ لا يوصف بالعفو الا القادر
على ضده • ذلك • اشارة الى النصر وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته ومحله الرفع

على الابتداء خبره قوله تعالى • بان الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل • اى بسبب
انه تعالى من شانه وسنته تغليب بعض مخلوقاته على بعض والمداولة بين الاشياء
المتضادة وعبر عن ذلك بادخال احد الملوين فى الاخر بان يزيد فيه ما ينقص عن الاخر
اى بتحصيل احدهما فى مكان الاخر لكونه اظهر المواد واوضحها • وان الله سميع •
بكل المسموعات التى من جملتها قول المعاقب • بصير • بجميع المبصرات ومن جملتها
افعاله • ذلك • اى الاتصاف بما ذكر من كمال القدرة والعلم وما فيه من معنى البعد
لما مر آنفا وهو مبتدأ خبره قوله تعالى • بان الله هو الحق • الواجب لذاته الثابت فى
نفسه وصفاته وافعاله وحده فان وجوب وجوده ووحدته يقتضيان كونه
مبدأ لكل ما يوجد من الموجودات عالما بكل المعلومات والثابت الهيته فلا يصلح لها الا من كان
عالما قادرا • وان ما يدعون من دونه • الها وقرئ على البناء للمفعول على ان الواو لما
فانه عبارة عن الالهة وقرئ بالتاء على خطاب المشركين • هو الباطل • اى المعدوم فى
حد ذاته او الباطل الوهيته • وان الله هو العلى • على جميع الاشياء • الكبير • عن ان يكون
له شريك لا شئ اعلى منه شانا واكبر سلطانا • الم تر ان الله انزل من السماء ماء • استفهام
تقرير كما يفصح عنه الرفع فى قوله تعالى • فتصبح الارض مخضرة • بالعطف على انزل
وايثار صيغة الاستقبال للاشعار بتجدد اثر الانزال واستمراره او لاستحضار صورة
الاخضرار • ان الله لطيف • يصل لطفه او علمه الى كل ما جل ودق • خبير • بما يليق
من التدابير الحسنة ظاهرا وباطنا • له ما فى السموات وما فى الارض • خلقا وملكا و
تصرفا • وان الله لهو الغنى • عن كل شئ • الحميد • المستوجب للحمد بصفاته وافعاله الم
تر ان الله سخر • لكم ما فى الارض • اى جعل ما فيها من الاشياء مذللة لكم معدة لمنافعكم
تتصرفون فيها كيف شئتم فلا اصلب من الحجر ولا اشد من الحديد ولا اهيب من النار وهى
مسخرة لكم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام
بالمقدم والتشويق الى المؤخر • والفلك • عطف على ما او على اسم ان وقرئ
بالرفع على الابتداء • تجرى فى البحر بامره • حال من الفلك على الاول وخبر على الاخير و
يمسك السماء ان تقع على الارض • اى من ان تقع وكراهة ان تقع بان خلقها على هيئة
متداعية الى الاستمساك • الا باذنه • اى بمشيئته وذلك يوم القيمة وفيه رد لاستمساكها
بذاتها فانها مساوية فى الجسمية لسائر الاجسام القابلة للميل الهابط فتقبله كقبول
غيرها • ان الله بالناس لرءوف رحيم • حيث هيأ لهم اسباب معاشهم وفتح عليهم ابواب
المنافع واوضح لهم مناهج الاستدلال بالايات التكوينية والتنزيلية • وهو الذى
احياكم • بعد ان كنتم جمادا عناصر ونطفا حسبما فصل فى مطلع السورة الكريمة • ثم
يميتكم • عند مجئ آجالكم • ثم يحييكم • عند البعث • ان الانسان لكفور • اى لجحود للنعم
مع ظهورها وهذا وصف للجنس بوصف بعض افراده • لكل امة • كلام مستانف جئ
به لزجر معاصريه عليه السلام من اهل الاديان السالفة عن منازعته عليه السلام
ببيان حال ما تمسكوا به من الشرايع واظهار خطائهم فى النظر اى لكل امة معينة من
الامم الخالية والباقية • جعلنا • اى وضعنا وعينا • منسكا • اى شريعة خاصة لا لامة اخرى
منهم على معنى عينا كل شريعة لامة معينة من الامم بحيث لا تتخطى امة منهم شريعتها
المعينة لها الى شريعة اخرى لا استقلالا ولا اشتراكا وقوله تعالى • هم ناسكوه • صفة لمنسكا
مؤكدة للقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور على الفعل والضمير لكل امة باعتبار خصوصها
اى تلك الامة المعينة ناسكوه والعاملون به لا امة اخرى فالامة التى كانت من مبعث موسى
الى مبعث عيسى عليهما السلام منسكهم التوراة هم ناسكوها والعاملون بها لا غيرهم والتى
كانت من مبعث عيسى الى مبعث النبى عليهما السلام منسكهم الانجيل وهم العاملون به لا غيرهم
واما الامة الموجودة عند بعث النبى صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم من الموجودين
الى يوم القيمة فهم امة واحدة منسكهم الفرقان ليس الا كما مر فى تفسير قوله تعالى لكل جعلنا منكم شرعة
ومنهاجا والفاء فى قوله تعالى • فلا ينازعنك فى الامر • لترتيب النهى على ما قبلها فان تعيينه تعالى

لكل امة من الامم التي من جملتهم هذه الامة شريعة مستقلة بحيث لا تتخطى امة منهم شريعتها
المعينة لها موجب لطاعة هؤلاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم منازعتهم
اياه في امر الدين زعما منهم ان شريعتهم ما عين لابائهم الاولين من التوراة والانجيل
فانهما شريعتان لمن مضى من الامم قبل انتساخهما وهؤلاء امة مستقلة منسكهم القرآن
المجيد والنهي اما على حقيقة او كناية عن نهيه عليه السلام عن الالتفات الى نزاعهم
المبني على زعمهم المذكور واما جعله عبارة عن نهيه عليه السلام عن منازعتهم فلا يساعده
المقام وقرئ فلا ينزعنك على تهييجه عليه السلام والمبالغة في تثبيته واياما كان
فمحل النزاع ما ذكرناه وتخصيصه بامر النسائك وجعله عبارة عن قول الخزاعيين وغيرهم للمسلمين
ما لكم تاكلون ما قتلتم ولا تاكلون ما قتله الله تعالى مما لا سبيل اليه اصلا كيف لا وانه يستدعي
ان تكون اكل الميتة وسائر ما يدينونه من الاباطيل من جملة المناسك التي جعلها الله
تعالى لبعض الامم ولا يرتاب في بطلانه عاقل وادع اي وادعهم او وادع الناس كافة
على انهم داخلون فيهم دخولا اوليا الى ربك الى توحيده وعبادته حسبما بين لهم
في منسكهم وشريعتهم انك لعلى هدى مستقيم الى طريق موصل الى الحق سوي والمراد
به اما الدين والشريعة او ادلتها وان جادلوك بعد ظهور الحق بما ذكر من التحقيق ولزوم
الحجة عليهم فقل لهم على سبيل الوعيد الله اعلم بما تعملون من الاباطيل التي من جملتها
المجادلة الله يحكم بينكم يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين يوم القيامة بالثواب والعقاب
كما فصل في الدنيا بالحجج والايات فيما كنتم فيه تختلفون من امر الدين الم تعلم استيناف
مقرر لمضمون ما قبله والاستفهام للتقرير اي قد علمت ان الله يعلم ما في السماء و
الارض فلا يخفى عليه شيء من الاشياء التي من جملتها ما يقوله الكفرة وما يعملونه ان
ذلك اي ما في السماء والارض في كتاب هو اللوح قد كتب فيه قبل حدوثه فلا يهمنك امرهم
مع علمنا به وحفظنا له ان ذلك اي ما ذكر من العلم والاحاطة به واثباته في اللوح او الحكم بينكم
على الله يسير فان علمه وقدرته مقتضى ذاته فلا يخفى عليه شيء ولا يعسر عليه مقدور
ويعبدون من دون الله حكاية لبعض اباطيل المشركين واحوالهم الدالة على كمال سخافة
عقولهم وركاكة ارائهم هي بناء امر دينهم على غير مبني من دليل سمعي او عقلي واعراضهم
عما القي عليهم من سلطان بين هو اساس الدين وقاعدته اشد اعراض اي يعبدون متجاوزين
عبادة الله ما لم ينزل به اي بجواز عبادته سلطانا اي حجة وما ليس لهم به اي
بجواز عبادته علم من ضرورة العقل او استدلاله وما للظالمين اي الذين ارتكبوا
مثل هذا الظلم العظيم الذي يقضي ببطلانه وكونه ظلما بديهة العقول من نصير
يساعدهم بنصرة مذهبهم وتقرير رأيهم او بدفع العذاب الذي يعتريهم بسبب ظلمهم واذا
تتلى عليهم اياتنا عطف على يعبدون وما بينهما اعتراض وصيغة المضارع للدلالة
على الاستمرار التجددي بينات اي حال كونها واضحات الدلالة على العقائد الحقة والاحكام
الصادقة او على بطلان ما هم عليه من عبادة الاصنام او على كونها من عند الله عز وجل
تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر اي الانكار كالمكرم بمعنى الاكرام او الفظيع من
التجهم والبسور او الشر الذي يقصدونه بظهور مخايله من الاوضاع والهيئات
وهو الانسب بقوله تعالى يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم اياتنا اي يثبون
ويبطشون بهم من فرط الغيظ والغضب لاباطيل اخذوها تقليدا وهل جهالة اعظم
واطم من ان يعبدوا ما لا يوهم صحة عبادته شيء ما اصلا بل يقضي ببطلانها العقل والنقل
ويظهروا لمن يهديهم الى الحق البين بالسلطان المبين مثل هذا المنكر الشنيع كلا ولهذا وضع
الذين كفروا موضع الضمير قل ردا عليهم واقناطا عما يقصدونه من الاضرار بالمسلمين
افانبئكم اي اخاطبكم فاخبركم بشر من ذلكم الذي فيكم من غيظكم على التالين
وسطوتكم بهم او مما تبغون بهم من الغوائل او مما اصابكم من الضجر بسبب ما تلوه
عليكم النار اي هو النار على انه جواب لسؤال مقدر كانه قيل ما هو او مبتدأ خبره قوله تعالى وعدها الله
الذين كفروا وقرئ النار بالنصب على الاختصاص وبالجر بدلا من شر فيكون الجملة الفعلية

استينافا

استينافا كالوجه الاول او حالا من النار باضمار قد وبئس المصير النار يا ايها الناس
ضرب مثل اي بين لكم حال مستغربة او قصة بديعة رائقة حقيقة بان تسمى مثلا وتسير في
الامصار والاعصار او جعل لله مثل اي مثل في استحقاق العبادة واريد بذلك ما حكى
عنهم من عبادتهم للاصنام فاستمعوا له اي للمثل نفسه استماع تدبر وتفكر او فاستمعوا
لاجله ما اقول فقوله تعالى ان الذين تدعون من دون الله الخ بيان للمثل وتفسير له على الاول
وتعليل لبطلان جعلهم الاصنام مثلا لله سبحانه في استحقاق العبادة على الثاني وقرئ
بياء الغيبة مبنيا للمفعول والراجع الى الموصول على الاول محذوف لن يخلقوا
ذبابا اي لن يقدروا على خلقه ابدا مع صغره وحقارته فان لن بما فيها من تاكيد النفي
دالة على منافاة ما بين المنفي والمنفي عنه ولو اجتمعوا له اي لخلقه وجواب لو محذوف
لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على شرطية اخرى محذوفة ثقة بدلالة هذه عليها
اي لو لم يجتمعوا عليه لن يخلقوه ولو اجتمعوا له لن يخلقوه كما مر تحقيقه مرارا او هما
في موضع الحال كانه قيل لن يخلقوا ذبابا على كل حال وان يسلبهم الذباب شيئا بيان
لعجزهم عن الامتناع عما يفعل بهم الذباب بعد بيان عجزهم عن خلقه اي ان يأخذ الذباب
منهم شيئا لا يستنقذوه منه مع غاية ضعفه ولقد جهلوا غاية التجهيل في اشراكهم
بالله القادر على جميع المقدورات المتفرد بايجاد كافة الموجودات تماثيل هي اعجز
الاشياء وبين ذلك بانها لا تقدر على اقل الاحياء واذلها ولو اتفقوا عليه لا تقوى على
مقاومة هذا الاقل الاذل وتعجز عن ذبه عن نفسها واستنقاذ ما يختطفه منها قيل كانوا
يطلونها بالطيب والعسل ويغلقون عليها الابواب فيدخل الذباب من الكوى فياكله ضعف
الطالب والمطلوب اي عابد الصنم ومعبوده او الذباب الطالب لما يسلبه عن الصنم من
الطيب والصنم المطلوب منه ذلك او الصنم والذباب كان يطلبه ليستنقذ منه ما يسلبه
ولو حققت وجدت الصنم اعجز من الذباب بدرجات وعابده اجهل من كل جاهل
واضل من كل ضال ما قدروا الله حق قدره اي ما عرفوه حق معرفته حيث اشركوا به
وسموا باسمه ما هو ابعد الاشياء مناسبة ان الله لقوي على خلق الممكنات باسرها
وافناء الموجودات عن آخرها عزيز غالب على جميع الاشياء وقد عرفت حال الهتهم
المقهورة لاذلها العجزة عن اقلها والجملة تعليل لما قبلها من نفي معرفتهم له تعالى الله يصطفي
من الملائكة رسلا يتوسطون بينه تعالى وبين الانبياء عليهم السلام بالوحي ومن
الناس وهم المختصون بالنفوس الزكية المؤيدون بالقوة القدسية المتعلقون بكلا العالمين
الروحاني والجسماني يتلقون من جانب ويلقون الى جانب ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق
عن التبتل الى جناب الحق فيدعونهم اليه تعالى بما انزل عليهم ويعلمونهم شرائعه واحكامه
كانه تعالى لما قرر وحدانيته في الالوهية ونفى ان يشاركه فيها شيء من الاشياء بين
ان له عبادا مصطفين للرسالة يتوسل باجابتهم والاقتداء بهم الى عبادته عز وجل وهو اعلى
الدرجات واقصى الغايات لمن عداه من الموجودات تقريرا للنبوة وتزييفا لقولهم
لو شاء الله لانزل ملائكة وقولهم انما نعبدهم ليقربونا الى الله تعالى زلفى وقولهم الملائكة
بنات الله وغير ذلك من الاباطيل ان الله سميع بصير عليم بجميع المسموعات والمبصرات
فلا يخفى عليه شيء من الاقوال والافعال يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم والى الله
ترجع الامور لا الى احد غيره لا اشتراكا ولا استقلالا يا ايها الذين امنوا اركعوا
واسجدوا اي في صلاتكم امرهم بهما لما انهم ما كانوا يفعلونهما اول الاسلام او صلوا
عبر عن الصلاة بهما لانهما اعظم اركانها او اخضعوا لله وخروا سجدا واعبدوا
ربكم بسائر ما تعبدكم به وافعلوا الخير وتحروا ما هو خير واصلح في كل ما تأتون وما
تذرون كنوافل الطاعات وصلة الارحام ومكارم الاخلاق لعلكم تفلحون اي افعلوا هذه
كلها وانتم راجون بها الفلاح غير متيقنين له واثقين باعمالكم والاية اية سجدة عند
الشافعي رحمه الله لظاهر ما فيها من الامر بالسجود ولقوله عليه السلام فضلت
سورة الحج بسجدتين من لم يسجدهما فلا يقرأها وجاهدوا في الله اي لله تعالى ولاجله

اعداء دينه الظاهرة كاهل الزيغ والباطنة كالهوى والنفس وعنه عليه السلام انه رجع من
غزوة تبوك فقال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر حق جهاده اى جهادا
فيه حقا خالصا لوجهه فعكس واضيف الحق الى الجهاد مبالغة كقولك هو حق عالم واضيف
الجهاد الى الضمير اتساعا او لانه مختص به تعالى من حيث انه مفعول لوجهه ومن اجله
هو اجتباكم اى هو اختاركم لدينه ونصرته لا غيره وفيه تنبيه على ما يقتضى الجهاد و
يدعو اليه وما جعل عليكم فى الدين من حرج اى ضيق بتكليف ما يشق عليكم اقامته
اشارة الى انه لا مانع لهم عنه ولا عذر لهم فى تركه او الى الرخصة فى اغفال بعض ما امرهم
به حيث يشق عليهم لقوله عليه السلام اذا امرتكم بشئ فأتوا منه ما استطعتم وقيل
ذلك بان جعل لهم من كل ذنب مخرجا بان رخص لهم فى المضايق وفتح عليهم باب التوبة
وسوغ لهم الكفارات فى حقوقه والاروش والديات فى حقوق العباد ملة ابيكم ابراهيم
نصب على المصدرية بفعل دل عليه مضمون ما قبله بحذف المضاف اى وسع عليكم دينكم
توسعة ملة ابيكم او على الاغراء او على الاختصاص وانما جعله اباهم لانه ابو رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهو كالاب لامته من حيث انه سبب لحياتهم الابدية ووجودهم
على الوجه المعتد به فى الآخرة او لان اكثر العرب كانوا من ذريته فغلبوا على غيرهم
هو سماكم المسلمين من قبل فى الكتب المتقدمة وفى هذا اى فى القرآن والضمير لله تعالى
ويؤيده انه قرئ الله سماكم او لابراهيم وتسميتهم بالمسلمين فى القرآن وان لم تكن منه عليه
السلام كانت بسبب تسميته من قبل فى قوله تعالى ومن ذريتنا امة مسلمة لك وقيل وفى هذا
تقديره وفى هذا بيان تسميته اياكم مسلمين ليكون الرسول يوم القيمة متعلق بسماكم شهيدا
عليكم بانه بلغكم فيدل على قبول شهادته لنفسه اعتمادا على عصمته او بطاعة من
اطاع وعصيان من عصى وتكونوا شهداء على الناس بتبليغ الرسل اليهم فاقيموا
الصلوة وآتوا الزكوة اى فتقربوا الى الله تعالى بانواع الطاعات وتخصيصهما بالذكر
لانافتهما وفضلهما واعتصموا بالله اى ثقوا به فى مجامع اموركم ولا تطلبوا الاعانة و
النصرة الا منه هو موليكم ناصركم ومتولى اموركم فنعم المولى ونعم النصير اذ لا مثل له
فى الولاية والنصرة بل لا ولى ولا نصير فى الحقيقة سواه عز وجل عن النبى صلى الله عليه
وسلم من قرأ سورة الحج اعطى من الاجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر
فيما مضى وما بقى والله الموفق بمنه وكرمه ونسأله اللطف والاعانة

سورة المؤمنون مكية وهى مائة وثمانى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قد افلح المؤمنون الفلاح الفوز بالمرام والنجاة من المكروه وقيل البقاء فى الخير والافلاح
الدخول فى ذلك كالابشار الذى هو الدخول فى البشارة وقد يجئ متعديا بمعنى الادخال
فيه وعليه قراءة من قرأ على البناء للمفعول وكلمة قد ههنا لافادة ثبوت ما كان متوقع
الثبوت من قبل لا لتوقع الاخبار به ضرورة ان المتوقع من حال المؤمنين ثبوت الفلاح
لهم لا الاخبار بذلك فالمعنى قد فازوا بكل خير ونجوا من كل ضير حسبما كان ذلك متوقعا
من حالهم فان ايمانهم وما تفرع عليه من اعمالهم الصالحة من دواعى الفلاح بموجب
الوعد الكريم خلا انه ان اريد بالافلاح حقيقة الدخول فى الفلاح الذى لا يتحقق الا فى
الآخرة فالاخبار به على صيغة الماضى للدلالة على تحققه لا محالة بتنزيله منزلة الثابت
وان اريد كونهم بحال تستتبعه البتة فصيغة الماضى فى محلها وقرئ افلحوا على الابهام و
التفسير او على لغة اكلونى البراغيث وقرئ افلح بضمة اكتفى بها عن الواو كما فى قول من قال فلو ان
الاطبا كان حولى والمراد بالمؤمنين اما المصدقون بما علم ضرورة انه من دين نبينا صلى الله
عليه وسلم من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها فقوله تعالى الذين هم فى صلوتهم
خاشعون وما عطف عليه صفات مخصصة لهم واما الآتون بفروعه ايضا كما ينبئ عنه
اضافة الصلوة اليهم فهى صفات موضحة او مادحة لهم حسب اعتبار ما ذكر فى حيز الصلة

من المعانى مع الايمان اجمالا او تفصيلا كما مر فى اوائل سورة البقرة والخشوع الخوف والتذلل
اى خائفون من الله عز وجل متذللون له ملزمون ابصارهم مساجدهم روى انه
عليه السلام كان اذا صلى رفع بصره الى السماء فلما نزلت رمى ببصره نحو مسجده وانه
رأى مصليا يعبث بلحيته فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه والذين هم عن اللغو
اى عما لا يعنيهم من الاقوال والافعال معرضون اى فى عامة اوقاتهم كما ينبئ عنه
الاسم الدال على الاستمرار فيدخل فى ذلك اعراضهم عنه حال اشتغالهم بالصلوة دخولا
اوليا ومدار اعراضهم عنه ما فيه من الحالة الداعية الى الاعراض عنه لا مجرد الاشتغال
بالجد فى امور الدين كما قيل فان ذلك ربما يوهم ان لا يكون فى اللغو نفسه ما يزجرهم
عن تعاطيه وهو ابلغ من ان يقال لا يلهون من وجوه جعل الجملة اسمية وبناء الحكم
على الضمير والتعبير عنه بالاسم وتقديم الصلة عليه واقامة الاعراض مقام الترك
ليدل على تباعدهم عنه رأسا مباشرة وتسببا وميلا وحضورا فان اصله ان يكون فى
عرض غير عرضه والذين هم للزكوة فاعلون وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع فى
الصلوة للدلالة على انهم بلغوا الغاية القاصية من القيام بالطاعات البدنية والمالية والتجنب
عن المحرمات وسائر ما يوجب المروءة اجتنابه وتوسيط حديث الاعراض بينهما لكمال ملابسته
بالخشوع فى الصلوة والزكوة مصدر لانه الامر الصادر عن الفاعل لا المحل الذى هو
موقعه ومعنى الفعل قد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ويجوز ان
يراد بها العين على تقدير المضاف والذين هم لفروجهم حافظون ممسكون لها فالاستثناء
فى قوله تعالى الا على ازواجهم من نفى الارسال الذى ينبئ عنه الحفظ اى لا يرسلونها على
احد الا على ازواجهم وفيه ايذان بان قوتهم الشهوية داعية لهم الى ما لا يخفى وانهم
حافظون لها من استيفاء مقتضاها وبذلك يتحقق كمال العفة ويجوز ان يكون على بمعنى
من واليه ذهب الفراء كما فى قوله تعالى اذا اكتالوا على الناس اى حافظون لها من كل احد
الا من ازواجهم وقيل هى متعلقة بمحذوف وقع حالا من ضمير حافظون اى حافظون لها فى جميع
الاحوال الا حال كونهم والين او قوامين على ازواجهم وقيل بمحذوف يدل عليه غير ملومين
كانه قيل يلامون على كل مباشر الا ما اطلق لهم فانهم غير ملومين وحمل الحفظ على القصر
عليهن ليكون المعنى حافظون فروجهم على الازواج لا يتعداهن ثم يقال غير حافظين الا
عليهن تأكيدا على تأكيد تكلف على تكلف او ما ملكت ايمانهم اى سراريهم عبر عنهن
بما اجراء لهن لمملوكيتهن مجرى غير العقلاء او لانوثتهن المنبئة عن القصور وقوله تعالى فانهم
غير ملومين تعليل لما يفيده الاستثناء من عدم حفظ فروجهم منهن اى فانهم غير ملومين على
عدم حفظها منهن فمن ابتغى وراء ذلك الذى ذكر من الحد المتسع وهو اربع من
الحرائر وما شاء من الاماء فاولئك هم العادون الكاملون فى العدوان المتناهون فيه و
ليس فيه ما يدل حتما على تحريم المتعة حسبما نقل عن القاسم بن محمد فانه قال انها ليست
زوجة له فوجب ان لا تحل له اما انها ليست زوجة له فلانهما لا يتوارثان بالاجماع ولو كانت
زوجة له لحصل التوارث لقوله تعالى ولكم نصف ما ترك ازواجكم لان لهم ان يقولوا انها
زوجة له فى الجملة واما ان كل زوجة ترث فلم لا يستثنونها واما ما قيل من انه ان
اريد لو كانت زوجة حال الحيوة لم يفد وان اريد بعد الموت فالملازمة ممنوعة فليس
له معنى محصل نعم لو عكس لكان له وجه والذين هم لاماناتهم وعهدهم لما يؤتمنون
عليه ويعاهدون من جهة الحق او الخلق راعون اى قائمون عليها حافظون لها
على وجه الاصلاح وقرئ لامانتهم والذين هم على صلواتهم المفروضة عليهم
يحافظون يواظبون عليها ويؤدونها فى اوقاتها ولفظ الفعل فيه لما فى الصلوة من
التجدد والتكرر وهو السر فى جمعها وليس فيه تكرير لما ان الخشوع فى الصلوة غير المحافظة
عليها وفصلهما للايذان بان كلا منهما فضيلة مستقلة على حيالها ولو قرنا فى الذكر لربما
توهم ان مجموع الخشوع والمحافظة فضيلة واحدة اولئك اشارة الى المؤمنين باعتبار
اتصافهم بما ذكر من الصفات وايثارها على الاضمار للاشعار بامتيازهم بها عن غيرهم

ونزولهم منزلة المشار اليهم حسًّا وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقتهم وبعد درجتهم في الفضل والشرف اى اولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة هم الوارثون اى الاحقاء بان يسمّوا وراثا دون من عداهم ممن ورث رغائب الاموال والذخائر وكرائمها الذين يرثون الفردوس بيان لما يرثونه وتقييد للوراثة بعد اطلاقها وتفسير لها بعد ابهامها تفخيما لشانها ورفعا لمحلها وهي استعارة لاستحقاقهم الفردوس باعمالهم حسبما يقتضيه الوعد الكريم للمبالغة فيه وقيل انهم يرثون من الكفار منازلهم فيها حيث فوّتوها على انفسهم لانه تعالى خلق لكل انسان منزلا في الجنة ومنزلا في النار هم فيها اى في الفردوس والتانيث لانه اسم للجنة او لطبقتها العليا وهو البستان الجامع لاصناف الثمر روى انه تعالى بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل خلالها المسك الاذفر وفي رواية ولبنة من مسك فذرى وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان خالدون لا يخرجون منها ابدا والجملة اما مستانفة مقررة لما قبلها واما حال مقدرة من فاعل يرثون او مفعوله اذ فيها ذكر كل منهما ومعنى الكلام لا يموتون ولا يخرجون منها ولقد خلقنا الانسان شروع في بيان مبدأ خلق الانسان وتقلبه في اطوار الخلقة وادوار الفطرة بيانا اجماليا اثر بيان حال بعض افراده السعداء واللام جواب قسم والواو ابتدائية وقيل عاطفة على ما قبلها والمراد بالانسان الجنس اى وبالله لقد خلقنا جنس الانسان في ضمن خلق آدم عليه السلام خلقا اجماليا حسبما تحققه في سورة الحج وغيرها واما كونه مخلوقا من سلالة جعلت نطفا بعد ادوار واطوار فبعيد من سلالة السلالة ما سلّ من الشيء واستخرج منه فان فعالة اسم لما يحصل من الفعل فتارة تكون مقصودا منه كالخلاصة واخرى غير مقصود منه كالقلامة والكناسة والسلالة من قبيل الاول فانها مقصودة بالسل ومن ابتدائية متعلقة بالخلق وما في قوله تعالى من طين بيانية متعلقة بمحذوف وقع صفة لسلالة اى خلقناه من سلالة كائنة من طين ويجوز ان يتعلق بسلالة على انها بمعنى مسلولة فهي ابتدائية كالاولى وقيل المراد بالانسان آدم عليه السلام فانه الذي خلق من صفوة سلّت من الطين وقد وقفت على التحقيق ثم جعلناه اى الجنس باعتبار افراده المغايرة لآدم عليه السلام او جعلنا نسله على حذف المضاف ان اريد بالانسان آدم عليه السلام نطفة بان خلقناه منها او ثم جعلنا السلالة نطفة والتذكير بتاويل الجوهر او المسلول او الماء في قرار اى مستقر وهو الرحم عبّر عنها بالقرار الذي هو مصدر مبالغة وقوله تعالى مكين وصف لها بصفة ما استقر فيها مثل طريق سائر او بمكانتها في نفسها فانها مكّنت بحيث هي واحرزت ثم خلقنا النطفة علقة اى دما جامدا بان احلنا النطفة البيضاء علقة حمراء فخلقنا العلقة مضغة اى قطعة لحم لا استبانة ولا تمايز فيها فخلقنا المضغة اى غالبها ومعظمها او كلها عظاما بان صلبناها وجعلناها عمودا للبدن على هيئات واوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة فكسونا العظام المعهودة لحما من بقية المضغة او مما انبتنا عليها بقدرتنا مما يصل اليها اى كسونا كل عظم من تلك العظام ما يليق به من اللحم على مقدار لائق به وهيئة مناسبة له واختلاف العواطف للتنبيه على تفاوت الاستحالات وجمع العظام لاختلافها وقرئ على التوحيد فيهما اكتفاء بالجنس وبتوحيد الاول فقط وبتوحيد الثاني فحسب ثم انشاناه خلقا آخر هي صورة البدن او الروح او القوى بنفخه فيه او المجموع وثم لكمال التفاوت بين الخلقين واحتج به ابو حنيفة رحمه الله على ان من غصب بيضة فافرخت عنده لزمه ضمان البيضة لا الفرخ لانه خلق آخر فتبارك الله فتعالى شانه في علمه الشامل وقدرته الباهرة والالتفات الى الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال الروعة والاشعار بان ما ذكر من الافاعيل العجيبة من احكام الالوهية وللايذان بان حق كل من سمع ما فصّل من آثار قدرته عز وعلا او لاحظه ان يسارع الى التكلم به اجلالا واعظاما لشؤنه تعالى احسن الخالقين بدل من الجلالة وقيل نعت بناء على ان الاضافة ليست محضة وقيل خبر مبتدأ محذوف اى هو احسن الخالقين خلقا اى المقدرين تقديرا حذف المميز لدلالة الخالقين عليه كما حذف المأذون فيه في قوله تعالى اذن للذين يقاتلون لدلالة الصلة عليه اى احسن الخالقين

خلقا

خلقا فالحسن للخلق قيل نظيره قوله عليه السلام ان الله جميل يحب الجمال اى جميل فعله فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه فانقلب مرفوعا فاستكن روى ان عبد الله بن سعد بن ابي سرح كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي فلما انتهى عليه السلام الى قوله خلقا آخر سارع عبد الله الى النطق به قبل املائه عليه السلام فقال عليه السلام اكتب هكذا نزلت فشك عبد الله فقال ان كان محمد يوحى اليه فانا كذلك فلحق بمكة كافرا ثم اسلم يوم الفتح وقيل مات على كفره وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال لما نزلت هذه الآية قال عمر رضي الله عنه فتبارك الله احسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا نزلت يا عمر وكان رضي الله عنه يفتخر بذلك ويقول وافقت ربي في اربع الصلوة خلف المقام وضرب الحجاب على النسوة وقولي لهن عسى ربه ان طلقكن الآية والرابع فتبارك الله احسن الخالقين انظر كيف وقعت هذه الواقعة سببا لسعادة عمر رضي الله عنه وشقاوة ابن ابي سرح حسبما قال تعالى يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا لا يقال فقد تكلم البشر ابتداء بمثل نظم القرآن وذلك قادح في اعجازه لما ان الخارج عن قدرة البشر ما كان مقدار اقصر السور على ان اعجاز هذه الآية الكريمة منوط بما قبلها كما يعرب عنه الفاء فانها اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله ثم انكم بعد ذلك اى بعد ما ذكر من الامور العجيبة حسبما ينبئ عنه ما في اسم الاشارة من معنى البعد المشعر بعلو رتبة المشار اليه وبعد منزلته في الفضل والكمال وكونه بذلك ممتازا منزلا منزلة الامور الحسية لميتون لصائرون الى الموت لا محالة كما يؤذن به صيغة النعت الدالة على الثبوت دون الحدوث الذي يفيده صيغة الفاعل وقد قرئ لمائتون ثم انكم يوم القيمة اى عند النفخة الثانية تبعثون من قبوركم للحساب والمجازاة بالثواب والعقاب ولقد خلقنا فوقكم بيان لخلق ما يحتاج اليه بقاؤهم اثر بيان خلقهم اى خلقنا في جهة العلو من غير اعتبار فوقيتها لهم لان تلك النسبة انما تعرض لها بعد خلقهم سبع طرائق هي السموات السبع سميت بها لانها طورق بعضها فوق بعض مطارقة النعل فان كل ما فوقه مثله فهو طريقه او لانها طرائق الملائكة او الكواكب فيها مسيرها وما كنا عن الخلق عن ذلك المخلوق الذي هو السموات او عن جميع المخلوقات التي من جملتها او عن الناس غافلين مهملين امرها بل نحفظها عن الزوال والاختلال وندبر امرها حتى تبلغ منتهى ما قدر لها من الكمال حسبما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشية وتصل الى ما في الارض منافعها كما ينبئ عنه قوله تعالى وانزلنا من السماء ماء هو المطر والانهار النازلة من الجنة قيل هي خمسة انهار سيحون نهر الهند وجيحون نهر بلخ ودجلة والفرات نهرا العراق والنيل نهر مصر انزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة فاستودعها الجبال واجراها في الارض وجعل فيها منافع للناس في فنون معايشهم ومن ابتدائية متعلقة بانزلنا وتقديمها على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر والعدول عن الاضمار لان الانزال لا يعتبر فيه عنوان كونها طرائق بل مجرد كونها جهة العلو بقدر بتقدير لائق لاستجلاب منافعهم ودفع مضارهم او بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم فاسكناه في الارض اى جعلناه ثابتا قارا فيها وانا على ذهاب به اى ازالته بالافساد او التصعيد او التغوير بحيث يتعذر استنباطه لقادرون كما كنا قادرين على انزاله وفي تنكير ذهاب ايماء الى كثرة طرقه ومبالغة في الايعاد ولذلك جعل ابلغ من قوله تعالى قل أرأيتم ان اصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين فانشانا لكم به بجنات من نخيل واعناب لكم فيها في الجنات فواكه كثيرة تتفكهون بها ومنها من الجنات تأكلون تغذيا وترزقون وتحصلون معايشكم من قولهم فلان يأكل من حرفته ويجوز ان يعود الضمير للنخيل والاعناب اى لكم في ثمراتها انواع من الفواكه الرطب والعنب والتمر والزبيب والعصير والدبس وغير ذلك وطعام تاكلونه وشجرة بالنصب عطف على جنات وقرئ بالرفع على انه مبتدأ خبره محذوف دل عليه ما قبله اى ومما انشئ لكم به شجرة وتخصيصها بالذكر من بين سائر الاشجار لاستقلالها بمنافع معروفة

قيل هي اول شجرة نبتت بعد الطوفان وقوله تعالى تخرج من طور سيناء وهو جبل موسى
عليه السلام بين مصر وايلة وقيل بفلسطين ويقال له طور سينين فاما ان يكون الطور
اسم الجبل وسيناء اسم البقعة اضيف اليها او المركب منهما علم له كامرئ القيس ومنع
صرفه على قراءة من كسر السين للتعريف والعجمة او التأنيث على تأويل البقعة لا للالف لانه
فيعال كديماس من السناء بالمد وهو الرفعة او بالقصر وهو النور او ملحق بفعلال
كعلباء من السين اذ لا فعلاء بألف التأنيث بخلاف سيناء فانه فيعال ككيسان او فعلاء
كصحراء اذ لا فعلال في كلامهم وقرئ بالكسر والقصر والجملة صفة لشجرة وتخصيصها
بالخروج منه مع خروجها من سائر البقاع ايضا لتعظيمها ولانه المنشأ الاصلي لها
وقوله تعالى تنبت بالدهن صفة اخرى لشجرة والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا منها
اي تنبت ملتبسة به ويجوز كونها صلة معدية اي تنبته بمعنى تتضمنه وتحمله
فان النبات حقيقة صفة للشجرة لا للدهن وقرئ تنبت من الافعال وهو اما من الانبات
بمعنى النبات كما في قول زهير رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قطينا لهم حتى اذا انبت
البقل او على تقدير تنبت زيتونها ملتبسا بالدهن وقرئ على البناء للمفعول وهو كالاول
وتثمر بالدهن وتخرج بالدهن وتنبت بالدهان وصبغ للآكلين معطوف على الدهن جار
على اعرابه عطف احد وصفي الشيء على الآخر اي تنبت بالشيء الجامع بين كونها دهنا يدهن
به ويسرج منه وكونه اداما يصبغ فيه الخبز اي يغمس للائتدام وقرئ وصباغ كدباغ في دبغ
وان لكم في الانعام لعبرة بيان للنعم الفائضة عليهم من جهة الحيوان اثر بيان النعم
الواصلة اليهم من جهة الماء والنبات وقد بين انها مع كونها في نفسها نعمة ينتفعون
بها على وجوه شتى عبرة لابد من ان يعتبروا بها ويستدلوا باحوالها على عظيم قدرة الله عز
وعلا وسابغ رحمته ويشكروه ولا يكفروه وخص هذا بالحيوان لما ان محل العبرة فيه اظهر
مما في النبات وقوله تعالى نسقيكم مما في بطونها تفصيل لما فيها من مواقع العبرة وما
في بطونها عبارة اما عن الالبان فمن تبعيضية والمراد بالبطون الجوف او عن العلف الذي
يتكون منه اللبن فمن ابتدائية والبطون على حقيقتها وقرئ بفتح النون وبالتاء اي تسقيكم
الانعام ولكم فيها منافع كثيرة غير ما ذكر من اصوافها واشعارها ومنها تأكلون
فتنتفعون باعيانها كما تنتفعون بما يحصل منها وعليها اي على الانعام فان الحمل عليها لا
يقتضي الحمل على جميع انواعها بل يتحقق بالحمل على البعض كالابل ونحوها وقيل المراد هي الابل
خاصة لانها هي المحمول عليها عندهم والمناسب للفلك فانها سفائن البر قال ذو الرمة
سفينة بر تحت خدي زمامها فالضمير فيه كما في قوله تعالى وبعولتهن احق بردهن وعلى
الفلك تحملون اي في البر والبحر وفي الجمع بينها وبين الفلك في ايقاع الحمل عليها مبالغة في
تحملها الحمل وهو الداعي الى تأخير ذكر هذه المنفعة مع كونها من المنافع الحاصلة منها من
ذكر منفعة الاكل المتعلقة بعينها ولقد ارسلنا نوحا الى قومه شروع في بيان اهمال الامم
السابقة وتركهم النظر والاعتبار فيما عدد من النعم الفائتة وعدم تذكرهم بتذكير رسلهم
وما حاق بهم لذلك من فنون العذاب تحذيرا للمخاطبين وتقديم قصة نوح عليه السلام على
سائر القصص مما لا يخفى وجهه وفي ايرادها اثر قوله تعالى وعلى الفلك تحملون من حسن
الموقع ما لا يوصف والواو ابتدائية واللام جواب قسم محذوف وتصدير القصة به
لاظهار كمال الاعتناء بمضمونها اي وبالله لقد ارسلنا نوحا الى وشيبة الكريم وكيفية بعثه
وكمية لبثه فيما بينهم قد مر تفصيله في سورة الاعراف وسورة هود فقال متعطفا عليهم
ومستميلا لهم الى الحق يا قوم اعبدوا الله اي اعبدوه وحده كما يفصح عنه قوله تعالى في
سورة هود ان لا تعبدوا الا الله وترك التقييد به للايذان بانها هي العبادة فقط واما العبادة بالاشراك
فليس من العبادة في شيء راسا وقوله تعالى ما لكم من اله غيره استئناف مسوق لتعليل
العبادة المأمور بها او تعليل الامر بها وغيره بالرفع صفة لاله باعتبار محله الذي هو الرفع
على انه فاعل او مبتدأ خبره لكم او محذوف ولكم للتخصيص والتبيين اي ما لكم في الوجود
او في العالم اله غيره تعالى وقرئ بالجر باعتبار لفظه افلا تتقون اي افلا تتقون انفسكم

عذابه

عذابه الذي يستوجبه ما انتم عليه من ترك عبادته تعالى كما يفصح عنه قوله تعالى اني اخاف
عليكم عذاب يوم عظيم وقوله تعالى عذاب يوم اليم وقيل افلا تخافون ان ترفضوا
عبادة الله الذي هو ربكم الخ وليس بذاك وقيل افلا تخافون ان يزيل عنكم نعمه الخ
وفيه ما فيه والهمزة لانكار الواقع واستقباحه والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام
اي أتعرفون ذلك اي مضمون قوله تعالى ما لكم من اله غيره فلا تتقون عذابه بسبب
اشراككم به في العبادة ما لا يستحق الوجود لولا ايجاده تعالى اياه فضلا عن استحقاق
العبادة فالمنكر عدم الاتقاء مع تحقق ما يوجبه او الا تلاحظون ذلك فلا تتقونه
فالمنكر كلا الامرين فالمبالغة حينئذ في الكمية وفي الاول في الكيفية فقال الملأ اي الاشراف
الذين كفروا من قومه وصف الملأ بما ذكر مع اشتراك الكل فيه للايذان بكمال عراقتهم
في الكفر وشدة شكيمتهم فيه اي قالوا لعوامهم ما هذا الا بشر مثلكم اي في الجنس
والوصف من غير فرق بينكم وبينه وصفوه عليه السلام بذلك مبالغة في وضع
رتبته العالية وحطها عن منصب النبوة يريد ان يتفضل عليكم اي يريد ان يطلب
الفضل عليكم ويتقدمكم بادعاء الرسالة مع كونه مثلكم ووصفوه بذلك اغضابا
للمخاطبين عليه عليه السلام واغراء لهم على معاداته عليه السلام وقوله تعالى
ولو شاء الله لانزل ملائكة بيان لعدم رسالة البشر على الاطلاق على زعمهم الفاسد
بعد تحقيق بشريته عليه السلام اي لو شاء الله تعالى ارسال الرسول لارسل رسلا من
الملائكة وانما قيل لانزل لان ارسال الملائكة لا يكون الا بطريق الانزال فمفعول المشيئة مطلق
الارسال المفهوم من الجواب لا نفس مضمونه كما في قوله تعالى ولو شاء الله لهداكم ونظائره
ما سمعنا بهذا اي بمثل هذا الكلام الذي هو الامر بعبادة الله تعالى خاصة وترك عبادة ما
سواه وقيل بمثل نوح عليه السلام في دعوى النبوة في آبائنا الاولين اي الماضين قبل بعثته
عليه السلام قالوه اما لكونهم وآبائهم في فترة متطاولة واما لفرط غلوهم في التكذيب
والعناد وانهماكهم في الغي والفساد واياما كان فقولهم هذا ينبغي ان يكون هو
الصادر عنهم في مبادي دعوته عليه السلام كما ينبئ عنه الفاء في قوله تعالى فقال الملأ
الخ وقيل معناه ما سمعنا به عليه السلام انه نبي فالمراد بآبائهم الاولين الذين مضوا
قبلهم في زمن نوح عليه السلام وقولهم المذكور هو الذي صدر عنهم في اواخر
امره عليه السلام وهو المناسب لما بعده من حكاية دعائه عليه السلام وقولهم
ان هو اي ما هو الا رجل به جنة اي جنون او جن يخبلونه ولذلك يقول ما يقول
فتربصوا به اي احتملوه واصبروا عليه وانتظروا حتى حين لعله يفيق مما فيه محمول
حينئذ على ترامي احوالهم في المكابرة والعناد واضرابهم عما وصفوه عليه السلام
به من البشرية وارادة التفضل الى وصفه عليه السلام بما تري ذوهم يعرفون انه
عليه السلام ارجح الناس عقلا وارزنهم قولا وعلى الاول على تناقض مقالاتهم
الفاسدة قاتلهم الله انى يؤفكون قال استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية كلام
الكفرة كأنه قيل فماذا قال عليه السلام بعد ما سمع منهم هذه الاباطيل فقيل قال لما
رآهم قد اصروا على الكفر والتكذيب وتمادوا في الغواية والضلال حتى يئس من ايمانهم
بالكلية وقد اوحي اليه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن رب انصرني باهلاكهم
بالمرة فانه حكاية اجمالية لقوله عليه السلام رب لا تذر على الارض من الكافرين
ديارا الخ بما كذبون اي بسبب تكذيبهم اياي او بدل تكذيبهم فاوحينا اليه
عند ذلك ان اصنع الفلك ان مفسرة لما في الوحي من معنى القول باعيننا
ملتبسا بحفظنا وكلاءتنا كأن معه منه عز وجل حفاظا وحراسا يكلؤونه باعينهم
من التعدي او من الزيغ في الصنعة ووحينا وامرنا وتعليمنا لكيفية صنعها والفاء
في قوله تعالى فاذا جاء امرنا لترتيب مضمون ما بعدها على تمام صنع الفلك والمراد بالامر
العذاب كما في قوله تعالى لا عاصم اليوم من امر الله لا الامر بالركوب كما قيل وبمجيئه وكمال
اقترابه او ابتداء ظهوره اي اذا جاء اثر تمام الفلك عذابنا وقوله تعالى وفار التنور

عطف بيان لمجيء الامر روي انه قيل له عليه السلام اذا فار الماء من التنور اركب انت ومن
معك وكان تنور آدم عليه السلام فصار الى نوح عليه السلام فلما نبع منه الماء اخبرته
امرأته فركبوا واختلف في مكانه فقيل كان في مسجد الكوفة اي في موضعه عن يمين
الداخل من باب كندة اليوم وقيل كان في عين وردة من الشام وقد مر تفسيره في سورة
هود فاسلك فيها اي ادخل فيها يقال سلك فيه اي دخل فيه وسلكه فيه اي ادخله فيه
ومنه قوله تعالى ما سلككم في سقر من كل امة زوجين اي فردين مزدوجين كما
يعرب عنه قوله تعالى اثنين فانه نص في الفردين دون الجمعين او الفريقين وقرئ
بالاضافة على ان المفعول اثنين اي من كل امتي زوجين وهما امة الذكر وامة الانثى
كالجمال والنوق والحصن والرماك وهذا صريح في ان الامر كان قبل صنعة الفلك وفي
سورة هود حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين فالوجه
ان يحمل اما على انه حكاية لامر آخر تنجيزي ورد عند فور التنور الذي نيط
به الامر التعليقي اعتناء بشأن المأمور به او على ان ذلك هو الامر السابق بعينه لكن
لما كان الامر التعليقي قبل تحقق المعلق به في حق ايجاب المأمور به بمنزلة العدم جعل
كأنه انما حدث عند تحققه فحكي على صورة التنجيز وقد مر في تفسير قوله واذ قلنا
للملائكة اسجدوا لآدم واهلك منصوب بفعل معطوف على فاسلك لا بالعطف على زوجين
او اثنين على القراءتين لادائه الى اختلال المعنى اي واسلك اهلك والمراد به امرأته وبنوه
وتأخير الامر بادخالهم عما ذكر من ادخال الازواج فيها لكونه عريقا فيما امر به من الادخال
فانه محتاج الى مزاولة الاعمال منه عليه السلام بل الى معاونة من اهله واتباعه واما هم
فانما يدخلونها باختيارهم بعد ذلك ولان في المؤخر ضرب تفصيل بذكر الاستثناء وغيره
فتقديمه يؤدي الى الاخلال بتجاوب اطراف النظم الكريم الا من سبق عليه القول منهم
اي القول باهلاك الكفرة وانما جيء بعلى لكون السابق ضارا كما جيء باللام في قوله تعالى ان الذين
سبقت لهم منا الحسنى لكونه نافعا ولا تخاطبني في الذين ظلموا بالدعاء لانجائهم انهم
مغرقون تعليل للنهي او لما ينبئ عنه من عدم قبول الدعاء اي انهم مقضي عليهم بالاغراق
لا محالة لظلمهم بالاشراك وسائر المعاصي ومن هذا شأنه لا يشفع له ولا يشفع فيه كيف
لا وقد امر بالحمد على النجاة منهم بهلاكهم بقوله تعالى فاذا استويت انت ومن معك
اي من اهلك واشياعك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين
على طريقة قوله تعالى فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين وقل رب انزلني
في السفينة او منها منزلا مباركا اي انزالا او موضع انزال يستتبع خيرا كثيرا وقرئ منزلا اي
موضع نزول وانت خير المنزلين امر عليه السلام بان يشفع دعاءه بما يطابقه من ثنائه عز
وجل توسلا به الى الاجابة وافراده عم بالامر مع شركة الكل في الاستواء والنجاة
لاظهار فضله عليه السلام والاشعار بان في دعائه وثنائه مندوحة عما
عداه ان في ذلك الذي ذكر مما فعل به عليه السلام وبقومه لآيات جليلة
يستدل بها اولوا الابصار ويعتبر بها ذووا الاعتبار وان كنا لمبتلين ان مخففة
من ان واللام فارقة بينها وبين النافية وضمير الشأن محذوف اي وان الشأن كنا مصيبين
قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد او مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من
يعتبر ويتذكر كقوله تعالى ولقد تركناها آية فهل من مدكر ثم انشأنا من بعدهم اي من
بعد اهلاكهم قرنا آخرين هم عاد حسبما روي عن ابن عباس وعليه اكثر المفسرين وهو
الاوفق لما هو المعهود في سائر السور الكريمة من ايراد قصتهم اثر قصة قوم نوح وقيل
هم ثمود فارسلنا فيهم جعل القرن موضعا للارسال كما في قوله تعالى كذلك ارسلناك في امة
ونحوه لا غاية له كما في مثل قوله تعالى لقد ارسلنا نوحا الى قومه للايذان من اول الامر بان
من ارسل اليهم لم يأتهم من غير مكانهم بل انما نشأ فيما بين اظهرهم كما ينبئ عنه قوله
تعالى رسولا منهم اي من جملتهم نسبا فانهما عليهما السلام كانا منهم وان في قوله تعالى
ان اعبدوا الله مفسرة لارسلنا لتضمنه معنى القول اي قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا

اي من كل صح

الله تعالى

الله تعالى وقوله تعالى ما لكم من اله غيره تعليل للعبادة المأمور بها او للامر بها او لوجوب
الامتثال به افلا تتقون اي عذابه الذي يستدعيه ما انتم عليه من الشرك والمعاصي
في العطف كالذي مر في قصة نوح عليه السلام وقال الملأ من قومه حكاية لقولهم
الباطل اثر حكاية القول الحق الذي نطق به حكاية ارسال الرسول بطريق العطف على
ان المراد حكاية مطلق تكذيبهم له عليه السلام اجمالا لا حكاية ما جرى بينه وبينهم
من المحاورة والمقاولة تفصيلا حتى يحكى بطريق الاستئناف المبني على السؤال كما ينبئ
عنه ما سيأتي من حكاية سائر الامم اي وقال الاشراف من قومه الذين كفروا في محل
الرفع على انه صفة للملأ وصفوا بذلك ذما لهم وتنبيها على غلوهم في الكفر وتأخيره
من قومه لعطف قوله تعالى وكذبوا بلقاء الآخرة وما عطف عليه على الصلة الاولى
اي كذبوا بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب او بمعادهم الى الحيوة الثانية
بالبعث واترفناهم ونعمناهم في الحيوة الدنيا بكثرة الاموال والاولاد اي قالوا
لاعقابهم مضلين لهم ما هذا الا بشر مثلكم اي في الصفات والاحوال وايثار
مثلكم على مثلنا للمبالغة في تهوين امره عليه السلام وتوهينه يأكل مما تأكلون
منه ويشرب مما تشربون تقرير للمماثلة وما خبرية والعائد الى الثاني منصوب محذوف
او مجرور قد حذف مع الجار لدلالة ما قبله عليه ولئن اطعتم بشرا مثلكم اي فيما
ذكر من الاحوال والصفات اي ان امتثلتم باوامره انكم اذا اي على تقدير
الاتباع لخاسرون عقولكم ومغبونون في آرائكم حيث اذللتم انفسكم انظر كيف
جعلوا اتباع الرسول الحق الذي يوصلهم الى سعادة الدارين خسرانا دون عبادة
الاصنام التي لا خسران وراءها قاتلهم الله انى يؤفكون واذا واقع بين اسم ان و
خبرها لتأكيد مضمون الشرط والجملة جواب لقسم محذوف قبل ان الشرطية المصدرة
باللام الموطئة اي والله لئن اطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون ايعدكم استئناف
مسوق لتقرير ما قبله من زجرهم عن اتباعه عليه السلام بانكار وقوع ما يدعوهم
الى الايمان به واستبعاده انكم اذا متم بكسر الميم من مات يمات وقرئ بضمها من
مات يموت وكنتم ترابا وعظاما نخرة مجردة عن اللحوم والاعصاب اي كان بعض
اجزائكم من اللحم ونظائره ترابا وبعضها عظاما وتقديم التراب لعراقته في الاستبعاد
وانقلابه من الاجزاء البادية او كان متقدموكم ترابا صرفا ومتأخروكم عظاما وقوله
تعالى انكم تأكيد للاول لطول الفصل بينه وبين خبره الذي هو قوله تعالى مخرجون
اي من القبور احياء كما كنتم وقيل انكم مخرجون مبتدأ واذا متم خبره على معنى
اخراجكم اذا متم ثم اخبر بالجملة عن انكم وقيل رفع انكم مخرجون بفعل هو جزاء الشرط
كأنه قيل اذا متم وقع اخراجكم ثم اوقعت الجملة الشرطية خبرا عن انكم والذي يقتضيه
جزالة النظم الكريم هو الاول وقرئ ايعدكم اذا متم الخ هيهات هيهات تكرير لتأكيد البعد
اي بعد الوقوع او الصحة لما توعدون وقيل اللام لبيان المستبعد ما هو كما في هيت
لك كأنهم لما صوتوا بكلمة الاستبعاد قيل لماذا هذا الاستبعاد فقيل لما توعدون و
قيل هيهات بمعنى البعد وهو مبتدأ خبره لما توعدون وقرئ بالفتح منونا للتنكير
وبالضم منونا على انه جمع هيهة وغير منون تشبيها بقبل وبالكسر على الوجهين وبالسكون
على لفظ الوقف وابدال التاء هاء ان هي الا حياتنا الدنيا اصله ان الحيوة الا حياتنا
فاقيم الضمير مقام الاولى لدلالة الثانية عليها حذرا من التكرار واشعارا باغنائها عن التصريح
كما في هي النفس تتحمل ما حملت وهي العرب تقول ما شاءت وحيث كان الضمير بمعنى الحيوة
الدالة على الجنس كانت ان النافية بمنزلة لا النافية للجنس وقوله تعالى نموت ونحيى
جملة مفسرة لما ادعوه من ان الحيوة هي الحيوة الدنيا اي يموت بعضنا ويولد بعض الى
انقراض العصر وما نحن بمبعوثين بعد الموت ان هو اي ما هو الا رجل افترى
على الله كذبا فيما يدعيه من الرسالة وفيما يعدنا من ان الله تعالى يبعثنا وما نحن
له بمؤمنين بمصدقين فيما يقوله قال اي هود عليه السلام عند يأسه من ايمانهم بعد

ماسلك فى دعوتهم كل مسلك متضرعا الى الله عز وجل رب انصرنى عليهم وانتقم لى منهم
بما كذبون اى بسبب تكذيبهم اياى واصرارهم عليه قال تعالى اجابة لدعائه وعدة
بالقبول عما قليل اى عن زمان قليل وما مزيدة بين الجار والمجرور لتأكيد معنى القلة
كما زيدت فى قوله تعالى فبما رحمة من الله او نكرة موصوفة اى عن شئ قليل ليصبحن
نادمين على ما فعلوا من التكذيب وذلك عند معاينتهم للعذاب فأخذتهم الصيحة لعلهم
حين اصابتهم الريح العقيم اصيبوا فى تضاعيفها بصيحة هائلة ايضا وقد روى ان شداد
بن عاد حين اتم بناء ارم وسار اليها باهله فلما دنى منها بعث الله عليهم صيحة من السماء
فهلكوا وقيل الصيحة نفس العذاب والموت وقيل هى العذاب المصطلم قال قائلهم
صاح الزمان بآل برمك صيحة خروا لشدتها على الاذقان بالحق متعلق بالاخذ اى
بالامر الثابت الذى لا دفاع له او بالعدل من الله تعالى او بالوعد الصدق فجعلناهم غثاء
اى كغثاء السيل وهو حميله فبعدا للقوم الظالمين اخبار او دعاء وبعدا من المصادر
التى لا يكاد يستعمل ناصبها والمعنى بعدوا بعدا اى هلكوا واللام لبيان من قيل له بعدا
ووضع الظاهر موضع الضمير للتعليل ثم انشأنا من بعدهم اى بعد هلاكهم قرونا
آخرين هم قوم صالح ولوط وشعيب عليهم السلام وغيرهم ما تسبق من امة
اجلها اى ما تتقدم امة من الامم المهلكة الوقت الذى عين لهلاكهم اى ما تهلك
امة قبل مجئ اجلها وما يستأخرون ذلك الاجل ساعة وقوله تعالى ثم ارسلنا رسلنا
عطف على انشأنا لكن لا على معنى ان ارسالهم متراخ من انشاء القرون المذكورة جميعا
بل على معنى ان ارسال كل رسول متأخر عن انشاء قرن مخصوص بذلك الرسول كانه
قيل ثم انشأنا من بعدهم قرونا آخرين قد ارسلنا الى كل قرن منهم رسولا خاصا به و
الفصل بين المعطوفين بالجملة المعترضة الناطقة بعدم تقدم الامم اجلها المضروب
لهلاكهم للمسارعة الى بيان هلاكهم على وجه اجمالى تترا اى متواترين واحدا
بعد واحد من الوتر وهو الفرد والتاء بدل من الواو كما فى تولج ويتقور والالف للتأنيث
باعتبار ان الرسل جماعة وقرئ بالتنوين على انه مصدر بمعنى الفاعل وقع حالا اى
قوله تعالى كلما جاء امة رسولها كذبوه استئناف مبين لمجئ كل رسول منه ولما صدر
عنهم عند تبليغ الرسالة والمراد بالمجئ اما التبليغ واما حقيقة المجئ للايذان بانهم
كذبوه فى اول الملاقاة واضافة الرسول الى الامة مع اضافة كلهم فيما سبق الى
نون العظمة لتحقيق ان كل رسول جاء امته الخاصة به لا ان كلهم جاؤا كل الامم
وللاشعار بكمال شناعتهم وضلالهم حيث كذبت كل واحدة منهم رسولها المعين لها
وقيل لان الارسال لائق بالمرسل والمجئ بالمرسل اليهم فاتبعنا بعضهم بعضا فى الهلاك
حسبما تبع بعضهم بعضا فى مباشرة اسبابه التى هى الكفر والتكذيب وسائر المعاصى
وجعلناهم احاديث لم يبق منهم الا حكايات يعتبر بها المعتبرون وهو اسم جمع
للحديث او جمع احدوثة وهى ما يتحدث به تلهيا كاعاجيب جمع اعجوبة وهى
ما يتعجب منه اى جعلناهم احاديث يتحدث بها تلهيا وتعجبا فبعدا لقوم لا يؤمنون
اقتصر ههنا على وصفهم بعدم الايمان حسبما اقتصر على حكاية تكذيبهم اجمالا واما
القرون الاولون فحيث نقل عنهم ما مر من الغلو وتجاوز الحد فى الكفر والعدوان
وصفوا بالظلم ثم ارسلنا موسى واخاه هرون باياتنا هى الآيات التسع من اليد
والعصا والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والطاعون ولا مساغ
لعد فلق البحر منها اذ المراد هى الآيات التى كذبوها واستكبروا عنها وسلطان
مبين اى حجة واضحة ملزمة للخصم وهى اما العصا وافرادها بالذكر مع اندراجها
فى الآيات لما انها ام آياته عليه السلام واولاها وقد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها
ثعبانا وتلقفها لما افكته السحرة حسبما فصل فى تفسير سورة طه واما التعرض لانفلاق
البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها وحراستها وصيرورتها شمعة وشجرة خضراء
مثمرة ودلوا ورشاء وغير ذلك مما ظهر منها من قبل ومن بعد فى غير مشهد فرعون وقومه فغير

ملائم

ملائم لمقتضى المقام واما نفس الآيات كقوله الى الملك القرم وابن الهمام الخ عبر عنها بذلك على
طريقة العطف تنبيها على جمعها العنوانين الجليلين وتنزيلا لتغايرهما منزلة التغاير الذاتى
الى فرعون وملائه اى اشراف قومه خصوا بالذكر لان ارسال بنى اسرائيل منوط بآرائهم
لا بآراء اعقابهم فاستكبروا عن الانقياد وتمردوا وكانوا قوما عالين متكبرين
متمردين فقالوا عطف على استكبروا وما بينهما اعتراض مقرر للاستكبار اى كانوا
قوما عادتهم الاستكبار والتمرد اى قالوا فيما بينهم بطريق المناصحة انؤمن لبشرين
مثلنا ثنى البشر لانه يطلق على الواحد كقوله تعالى بشرا سويا كما يطلق على الجمع كما فى
قوله تعالى فاما ترين من البشر احدا ولم يثن المثل نظرا الى كونه فى حكم المصدر وهذه
القصص كما ترى تدل على ان مدار شبه المنكرين للنبوة قياس حال الانبياء على احوالهم
بناء على جهلهم بتفاصيل شؤن الحقيقة البشرية وتباين طبقات افرادها فى مراقى الكمال
ومهاوى النقصان بحيث يكون بعضها فى اعلى عليين وهم المختصون بالنفوس الزكية
المؤيدون بالقوة القدسية المتعلقون لصفاء جواهرهم بكلا العالمين الروحانى والجسمانى
يتلقون من جانب ويلقون الى جانب ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل الى
جناب الحق وبعضها فى اسفل سافلين كاولئك الجهلة الذين هم كالانعام بل هم اضل
سبيلا وقومهما يعنون بنى اسرائيل لنا عابدون اى خادمون منقادون لنا كالعبيد
وكانهم قصدوا بذلك التعريض بشأنهما عليهما السلام وحط رتبتهما العلية عن
منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية واللام فى لنا متعلقة بعابدون قدمت
عليه رعاية للفواصل والجملة حال من فاعل نؤمن مؤكدة لانكار الايمان لهما بناء على
زعمهم الفاسد المؤسس على قياس الرسالة الدينية على الرياسات الدنيوية الدائرة
على التقدم فى نيل الحظوظ الدنيوية من المال والجاه كدأب قريش حيث قالوا لو كان خيرا ما
سبقونا اليه وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وجهلهم بان
مناط الاصطفاء للرسالة هو السبق فى حيازة ما ذكر من النعوت واحراز الملكات السنية
جبلة واكتسابا فكذبوهما اى فتموا على تكذيبهما واصروا واستكبروا استكبارا فكانوا
من المهلكين بالغرق فى بحر قلزم ولقد آتينا اى بعد اهلاكهم وانجاء بنى اسرائيل
من ملكتهم موسى الكتاب اى التوراة وحيث كان ايتاؤه عليه السلام اياها لارشاد
قومه الى الحق كما هو شأن الكتب الالهية جعلوا كانهم اوتوها فقيل لعلهم يهتدون
اى الى طريق الحق بالعمل بما فيها من الشرائع والاحكام وقيل اريد آتينا قوم موسى فحذف
المضاف واقيم المضاف اليه مقامه كما فى قوله تعالى على خوف من فرعون وملائهم اى من
آل فرعون وملائهم ولا سبيل الى عود الضمير الى فرعون وقومه لظهور ان التوراة انما
نزلت بعد اغراقهم لبنى اسرائيل واما الاستشهاد على ذلك بقوله تعالى ولقد آتينا
موسى الكتاب من بعد ما اهلكنا القرون الاولى مما لا سبيل اليه ضرورة ان ليس
المراد بالقرون الاولى ما يتناول قوم فرعون بل من قبلهم من الامم المهلكة خاصة
كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط كما سيأتى فى سورة القصص و
جعلنا ابن مريم وامه آية اى آية دالة على عظيم قدرتنا بولادته منها من
غير مسيس بشر فالآية امر واحد نسب اليهما او جعلنا ابن مريم آية بان تكلم فى
المهد فظهرت منه معجزات جمة وامه آية بانها ولدته من غير مسيس فحذفت
الاولى لدلالة الثانية عليها والتعبير عنهما بما ذكر من العنوانين وهما كونه عليه السلام
ابنها وكونها امه للايذان من اول الامر بحيثية كونهما آية فان نسبته عليه السلام
اليها مع ان النسب الى الآباء دالة على ان لا اب له اى جعلنا ابن مريم وحده من غير ان
يكون له اب وامه التى ولدته خاصة من غير مشاركة الاب آية وتقديمه لاصالته
فيما ذكر من كونه آية كما ان تقديم امه فى قوله تعالى وجعلناها وابنها آية للعالمين
لاصالتها فيما نسب اليها من الاحصان والنفخ وآويناهما الى ربوة اى ارض
مرتفعة قيل هى ايليا ارض بيت المقدس فانها مرتفعة وانها كبد الارض واقرب الارض

الى السماء بثمانية عشر ميلاً على ما يروى عن كعب وقيل دمشق وغوطتها وقيل فلسطين والرملة
وقيل مصر فان قراها على الربى وقرئ بكسر الراء وضمها ورباوة بالكسر والضم ذات
قرار مستقر من ارض منبسطة سهلة يستقر عليها ساكنوها وقيل ذات ثمار وزروع
لاجلها يستقر فيها ساكنوها ومعين اى وماء معين ظاهر جار فعيل من معن الماء
اذا جرى واصله الابعاد فى المشى او من الماعون وهو النفع لانه نفاع او مفعول من عانه
اذا ادركه بالعين فانه لظهوره يدرك بالعيون وصف ماؤها بذلك للايذان بكونه
جامعاً لفنون المنافع من الشرب وسقى ما يسقى من الحيوان والنبات بغير كلفة والتنزه بمنظره
المونق يا ايها الرسل كلوا من الطيبات حكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم
على وجه الاجمال لما خوطب به كل رسول فى عصره جئ بها اثر حكاية ايواء عيسى عليه السلام
وامه الى الربوة ايذاناً بان ترتيب مبادى التنعم لم يكن من خصائصه عليه السلام
بل اباحة الطيبات شرع قديم جرى عليه جميع الرسل عليهم السلام ووصوا به اى
وقلنا لكل رسول كل من الطيبات واعمل صالحاً فعبر عن تلك الاوامر المتعددة المتعلقة
بالرسل بصيغة الجمع عند الحكاية اجمالا للايجاز وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه
الرهابنة من رفض الطيبات ما لا يخفى وقيل حكاية لما ذكر لعيسى عم وامه عند
ايوائهما الى الربوة ليقتدوا بالرسل فى تناول ما رزقا وقيل نداء وخطاب له والجمع
للتعظيم وعن الحسن ومجاهد وقتادة والسدى والكلبى رحمهم الله تعالى انه خطاب
لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحده على دأب العرب فى مخاطبة الواحد بلفظ الجمع
وفيه ابانة لفضله وقيامه مقام الكل فى حيازة كمالاتهم والطيبات ما يستطاب و
يستلذ من مباحات المآكل والفواكه حسبما ينبئ عنه سياق النظم الكريم فالامر للترفيه
واعملوا صالحاً اى عملاً صالحاً فانه المقصود منكم والنافع عند ربكم انى بما تعملون
من الاعمال الظاهرة والباطنة عليم فاجازيكم عليه وان هذه استئناف داخل
فيما خوطب به الرسل عليهم السلام على الوجه المذكور مسوق لبيان ان ملة الاسلام
والتوحيد مما امر به كافة الرسل والامم وانما اشير اليها بهذه للتنبيه على كمال ظهور امرها
فى الصحة والسداد وانتظامها بسبب ذلك فى سلك الامور المشاهدة امتكم
اى ملتكم وشريعتكم ايها الرسل امة واحدة اى ملة وشريعة متحدة فى اصول الشرائع التى لا
تتبدل بتبدل الاعصار وقيل هذه اشارة الى الامم المؤمنة للرسل والمعنى ان هذه جماعتكم
جماعة واحدة متفقة على الايمان والتوحيد فى العبادة وانا ربكم من غير ان يكون لى شريك
فى الربوبية وضمير المخاطب فيه وفى قوله تعالى فاتقون فى شق العصا والمخالفة بالاخلال
بمواجب ما ذكر من اختصاص الربوبية للرسل والامم جميعاً على ان الامر فى حق الرسل
للتهييج والالهاب وفى حق الامم للتحذير والايجاب والفاء لترتيب الامر او وجوب
الامتثال به على ما قبله من اختصاص الربوبية به تعالى واتحاد الامة فان كلا منهما
موجب للاتقاء حتماً وقرئ وان هذه بفتح الهمزة على حذف اللام اى ولان هذه امتكم
امة واحدة وانا ربكم فاتقون اى اتقوا فاتقون كما مر فى قوله تعالى واياى فارهبون وقيل على
العطف على ما اى انى عليم بان امتكم امة الخ وقيل على حذف فعل عامل فيه اى واعلموا
ان هذه امتكم الخ وقرئ وان هذه على انها مخففة من ان فتقطعوا امرهم حكاية لما ظهر من
امم الرسل بعدهم من مخالفة الامر وشق العصا والضمير لما دل عليه الامة من اربابها او لها على
التفسيرين والفاء لترتيب عصيانهم على الامر لزيادة تقبيح حالهم اى تقطعوا امر دينهم مع
اتحاده وجعلوه قطعاً متفرقة واديانا مختلفة بينهم زبراً اى قطعا جمع زبور بمعنى الفرقة
ويؤيده قراءة زبراً بفتح الباء جمع زبرة وهو حال من امرهم او من واو تقطعوا او مفعول
ثان له فانه متضمن لمعنى جعلوا وقيل كتبا فيكون مفعولاً ثانياً او حالا من امرهم على تقدير
المضاف اى مثل زبر وقرئ بتخفيف الباء كرسل فى رسل كل حزب من اولئك المتحزبين بما لديهم
من الدين الذى اختاروه فرحون معجبون معتقدون انه الحق فذرهم فى غمرتهم
شبه ما هم فيه من الجهالة بالماء الذى يغمر القامة لانهم مغمورون فيها لاعبون بها وقرئ غمراتهم

والخطاب

والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والفاء لترتيب الامر بالترك على ما قبله من كونهم
فرحين بما لديهم فان انهماكهم فيما هم فيه واصرارهم عليه من مخايل كونهم مطبوعاً
على قلوبهم اى اتركهم على حالهم حتى حين اى الى حين قتلهم او موتهم على الكفر او
عذابهم فهو وعيد لهم بعذاب الدنيا والاخرة وتسلية لرسول الله صلى الله عليه
وسلم ونهى له عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره وفى التنكير والابهام ما لا
يخفى من التهويل ايحسبون انما نمدهم به اى نعطيهم اياه ونجعله مدداً لهم
فما موصولة وقوله تعالى من مال وبنين بيان لها وتقديم المال على البنين مع كونهم
اعز منه قد مر وجهه فى سورة الكهف لاخبار ان وانما الخبر قوله تعالى نسارع لهم
فى الخيرات على حذف الراجع الى الاسم اى ايحسبون ان الذى نمدهم به من المال و
البنين نسارع به لهم فيما فيه خيرهم واكرامهم على ان الهمزة لانكار الواقع واستقباحه
وقوله بل لا يشعرون عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام اى كلا لا نفعل ذلك بل هم
لا يشعرون شيئاً اصلاً كالبهائم لا فطنة لهم ولا شعور ليتأملوا ويعرفوا ان ذلك
الامداد استدراج لهم واستجرار الى زيادة الاثم وهم يحسبونه مسارعة لهم فى
الخيرات وقرئ يمدهم على الغيبة وكذلك يسارع ويسرع ويحتمل ان يكون فيهما ضمير
الممد به وقرئ يسارع مبنياً للمفعول ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون استئناف
مسوق لبيان من له المسارعة فى الخيرات اثر اقناط الكفار عنها وابطال حسبانهم الكاذب
اى من خوف عذابه حذرون والذين هم بآيات ربهم المنصوبة والمنزلة
يؤمنون بتصديق مدلولها والذين هم بربهم لا يشركون شركاً جلياً ولا خفياً و
لذلك عبر عن الايمان بالايات والتعرض لعنوان الربوبية فى المواقع الثلاثة للاشعار بعليتها
للاشفاق والايمان وعدم الاشراك والذين يؤتون ما آتوا اى يعطون ما اعطوه
من الصدقات وقرئ يأتون ما اتوا اى يفعلون ما فعلوه من الطاعات وايا ما كان
فصيغة الماضى فى الصلة الثانية للدلالة على التحقق كما ان صيغة المضارع فى الاولى للدلالة
على الاستمرار وقلوبهم وجلة حال من فاعل يؤتون او يأتون اى يؤتون ما آتوه
او يفعلون من العبادات ما فعلوه والحال ان قلوبهم خائفة اشد الخوف انهم الى
ربهم راجعون اى من ان رجوعهم اليه عز وجل على ان مناط الوجل ان لا يقبل منهم
ذلك وان لا يقع على الوجه اللائق فيؤاخذوا به حينئذ لا مجرد رجوعهم اليه تعالى
وقيل لان مرجعهم اليه تعالى والموصولات الاربعة عبارة عن طائفة واحدة متصفة
بما ذكر فى حيز صلاتها من الاوصاف الاربعة لا عن طوائف كل واحدة منها متصفة
بواحدة من الاوصاف المذكورة كانه قيل ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون
وبآيات ربهم يؤمنون الخ وانما كرر الموصول ايذاناً باستقلال كل واحدة من تلك
الصفات بفضيلة باهرة على حيالها وتنزيلاً لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف
بها اولئك اشارة اليهم باعتبار اتصافهم بها وما فيه من معنى البعد للاشعار
ببعد رتبتهم فى الفضل اى اولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة خاصة دون
غيرهم يسارعون فى الخيرات اى فى نيل الخيرات التى من جملتها الخيرات العاجلة
الموعودة على الاعمال الصالحة كما فى قوله تعالى فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب
الاخرة وقوله تعالى وآتيناه اجره فى الدنيا وانه فى الاخرة لمن الصالحين فقد اثبت لهم
ما نفى عن اضدادهم خلا انه غير الاسلوب حيث لم يقل اولئك نسارع لهم فى الخيرات
بل اسند المسارعة اليهم ايماء الى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن اعمالهم وايثار
كلمة فى على كلمة الى للايذان بانهم متقلبون فى فنون الخيرات لا انهم خارجون عنها متوجهون
اليها بطريق المسارعة كما فى قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة الاية وهم
لها سابقون اى اياها سابقون واللام لتقوية العمل كما فى قوله تعالى هم لها عاملون
اى ينالونها قبل الاخرة حيث عجلت لهم فى الدنيا وقيل المراد بالخيرات الطاعات والمعنى
يرغبون فى الطاعات والعبادات اشد الرغبة وهم لاجلها فاعلون السبق او لاجلها

سابقون الناس والاول هو الاولى ولا نكلف نفسا الا وسعها جملة مستأنفة سيقت
للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدى الى نيل الخيرات ببيان سهولته
وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة اى عادتنا جارية على ان لا نكلف نفسا من
النفوس الا ما فى وسعها على ان المراد استمرار النفى بمعونة المقام لا نفى الاستمرار كما مر مرارا
او للترخيص فيما هو قاصر عن درجة اعمال اولئك الصالحين ببيان انه تعالى لا يكلف عباده الا
ما فى وسعهم فان لم يبلغوا فى فعل الطاعات مراتب السابقين فلا عليهم بعد ان يبذلوا طاقتهم
ويستفرغوا وسعهم قال مقاتل من لم يستطع القيام فليصل قاعدا ومن لم يستطع القعود
فليومئ ايماء وقوله تعالى ولدينا كتاب الخ تتمة لما قبله ببيان احوال ما كلفوه من الاعمال
واحكامها المترتبة عليها من الحساب والثواب والعقاب والمراد بالكتاب صحائف الاعمال
التى يقرؤنها عند الحساب حسبما يعرب عنه قوله تعالى ينطق بالحق كقوله تعالى هذا كتابنا
ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون اى عندنا كتاب قد اثبت فيه اعمال
كل احد على ما هى عليه او اعمال السابقين والمقتصدين جميعا لا انه اثبت فيه اعمال الاولين
واهمل اعمال الآخرين ففيه قطع معذرتهم ايضا وقوله بالحق متعلق بينطق اى يظهر
الحق المطابق للواقع على ما هو عليه ذاتا ووصفا ويبينه للناظر كما يبينه النطق ويظهره
للسامع فيظهر هنالك جلائل اعمالهم ودقائقها ويرتب عليها اجزيتها ان خيرا فخير وان
شرا فشر وقوله تعالى وهم لا يظلمون بيان لفضله تعالى وعدله فى الجزاء اثر بيان لطفه
فى التكليف وكتب الاعمال اى لا يظلمون فى الجزاء بنقص ثواب او بزيادة عذاب بل يجزون
بقدر اعمالهم التى كلفوها ونطقت بها صحائفها بالحق وقد جوز ان يكون تقريرا لما
قبله من التكليف وكتب الاعمال اى لا يظلمون بتكليف ما ليس فى وسعهم ولا بعدم كتب
بعض اعمالهم التى من جملتها اعمال المقتصدين بناء على قصورها عن درجة اعمال
السابقين بل يكتب كل منها على مقاديرها وطبقاتها والتعبير عما ذكر من الامور بالظلم
مع ان شيئا منها ليس بظلم على ما تقرر من ان الاعمال الصالحة لا يوجب اصل الثواب فضلا
عن ايجاب مرتبة معينة منه حتى يعد الاثابة بما دونها نقصا وكذلك الاعمال السيئة
لا توجب درجة معينة من العذاب حتى يعد التعذيب بما فوقها زيادة وكذا تكليف ما فى
الوسع وكتب الاعمال ليسا مما يجب عليه سبحانه حتى يعد تركهما ظلما لكمال تنزيه ساحة
السبحان عنها بتصويرها بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى وتسميتها باسمه وقوله تعالى
بل قلوبهم فى غمرة من هذا اضراب عما قبله والضمير للكفرة لا للكل كما قبله اى بل قلوب
الكفرة فى غفلة غامرة لها من هذا الذى بين فى القرآن من ان لديه تعالى كتابا ينطق بالحق
ويظهر لهم اعمالهم السيئة على رؤس الاشهاد فيجزون بها كما ينبئ عنه ما سيأتى من قوله
تعالى قد كانت آياتى تتلى عليكم الخ وقيل مما عليه اولئك الموصوفون بالاعمال الصالحة
ولهم اعمال سيئة كثيرة من دون ذلك الذى ذكر من كون قلوبهم فى غفلة عظيمة
مما ذكر وهى فنون كفرهم ومعاصيهم التى من جملتها ما سيأتى من طعنهم فى القرآن حسبما
ينبئ عنه قوله تعالى مستكبرين به سامرا تهجرون وقيل متخطية لما وصف به المؤمنون من
الاعمال الصالحة المذكورة وفيه انه لا مزية فى وصف اعمالهم الخبيثة بالتخطى للاعمال
الحسنة للمؤمنين وقيل متخطية عما هم عليه من الشرك ولا يخفى بعده لعدم جريان ذكره
هم لها عاملون مستمرون عليها معتادون فعلها ضارون بها لا يكادون يبرحونها
حتى اذا اخذنا مترفيهم اى متنعميهم وهم الذين امدهم الله تعالى بما ذكر من المال
والبنين وحتى مع كونها غاية لاعمالهم المذكورة مبدأ لما بعدها من مضمون الشرطية
اى لا يزالون يعملون اعمالهم الى حيث اذا اخذنا رؤساءهم بالعذاب قيل هو القتل
والاسر يوم بدر وقيل هو الجوع الذى اصابهم حين دعا عليهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم بقوله اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف
فقحطوا حتى اكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرقة والاولاد والحق انه العذاب
الاخروى اذ هو الذى يفاجئون عنده الجؤار فيجابون بالرد والاقناط عن النصر واما عذاب

يوم

يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جؤار حسبما ينبئ عنه قوله تعالى ولقد اخذناهم بالعذاب
فما استكانوا لربهم وما يتضرعون فان المراد بهذا العذاب ما جرى عليهم يوم بدر من
القتل والاسر حتما واما عذاب الجوع فان ابا سفيان وان تضرع فيه الى رسول الله
صلعم لكن لم يرد عليه بالاقناط حيث روى انه عليه السلام قد دعا بكشفه فكشف عنهم
ذلك اذا هم يجأرون اى فاجؤا الصراخ بالاستغاثة من الله عز وجل كقوله تعالى
فاليه تجأرون وهو جواب الشرط وتخصيص مترفيهم بما ذكر من الاخذ بالعذاب
ومفاجأة الجؤار مع عمومه لغيرهم ايضا لغاية ظهور انعكاس حالهم وانتكاس
امرهم وكون ذلك اشق عليهم ولانهم مع كونهم ممتنعين محميين بحماية غيرهم
من المنعة والحشم حين لقوا ما لقوا من الحالة الفظيعة فلان يلقاها من عداهم من
الحماة والخدم اولى واقدم لا تجأروا اليوم على اضمار القول مسوقا لردهم وتبكيتهم
واقناطهم عما علقوا اطماعهم الفارغة من الاغاثة والاعانة من جهته تعالى وتخصيص
اليوم بالذكر لتهويله والايذان بتفويتهم وقت الجؤار وقد جوز كونه جواب الشرط
وانت خبير بان المقصود الاصلى فى الجملة الشرطية هو الجواب فيؤدى ذلك الى ان يكون
مفاجأتهم الى الجؤار غير مقصود اصلى وقوله انكم منا لا تنصرون تعليل للنهى عن الجؤار
ببيان عدم افادته ونفعه اى لا يلحقكم من جهتنا نصرة تنجيكم مما دهمكم وقيل
لا تغاثون ولا تمنعون منا ولا يساعده سباق النظم الكريم لان جؤارهم ليس الى غيره
تعالى حتى يرد عليهم بعدم منصوريتهم من قبله ولا سياقه فانه قوله تعالى قد كانت
آياتى تتلى عليكم الخ صريح فى انه تعليل لما ذكرنا من عدم لحوق النصر من جهته تعالى
بسبب كفرهم بالآيات ولو كان النصر المنفى متوهما من الغير لعلل بعجزه وذله او بعزة الله
تعالى وقدرته وقوته اى قد كانت آياتى تتلى عليكم فى الدنيا فكنتم على اعقابكم تنكصون
اى تعرضون عن سماعها اشد الاعراض فضلا عن تصديقها والعمل بها والنكوص الرجوع
قهقرى مستكبرين به اى بالبيت الحرام او بالحرم والاضمار قبل الذكر لاشتهار استكبارهم
وافتخارهم بانهم خدامه وقوامه او بكتابى الذى عبر عنه بآياتى على تضمين الاستكبار
معنى التكذيب او لان استكبارهم على المسلمين قد حدث بسبب استماعه ويجوز ان يتعلق
الباء بقوله تعالى سامرا اى يسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه حيث كانوا يجتمعون حول البيت
بالليل يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرا وشعرا والسامر كالحاضر
فى الاطلاق على الجمع وقيل هو مصدر جاء على لفظ الفاعل وقرئ سمرا وسمارا وان
تتعلق بقوله تعالى تهجرون من الهجر بالفتح بمعنى الهذيان او الترك اى تهذون فى شأن
القرآن او تتركونه او من الهجر بالضم وهو الفحش ويؤيده قراءة تهجرون من اهجر فى
منطقه اذا افحش فيه وقرئ تهجرون من هجر الذى هو مبالغة فى هجر اذا هذى افلم
يدبروا القول الهمزة لانكار الواقع واستقباحه والفاء للعطف على مقدر يستدعيه
عليه الكلام اى افعلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر فلم يدبروا القرآن
ليعرفوا بما فيه من اعجاز النظم وصحة المدلول والاخبار عن الغيب انه الحق من ربهم
فيؤمنوا به فضلا عما فعلوا فى شأنه من القبائح وام فى قوله تعالى ام جاءهم ما لم يأت
آباءهم الاولين منقطعة وما فيها من معنى بل للاضراب والانتقال عن التوبيخ بما ذكر
الى التوبيخ بآخر والهمزة لانكار الوقوع لا لانكار الواقع اى بل اجاءهم من الكتاب ما لم يأت
آباءهم الاولين حتى استبدعوه واستبعدوه فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال
يعنى ان مجئ الكتب من جهته تعالى الى الرسل عليهم السلام سنة قديمة له تعالى لا يكاد يتسنى
انكاره وان مجئ القرآن على طريقته فمن اين ينكرونه وقيل ام جاءهم من الامن من
عذابه تعالى ما لم يأت آباءهم الاولين كاسمعيل عليه السلام واعقابه من عدنان
وقحطان ومضر وربيعة وقس والحارث ابن كعب واسد بن خزيمة وتميم بن مرة
وتبع وضبة بن اد فآمنوا به تعالى وبكتبه ورسله واطاعوه ام لم يعرفوا رسولهم
اضراب وانتقال من التوبيخ بما ذكر الى التوبيخ بوجه آخر والهمزة لانكار الوقوع ايضا اى بل

الم يعرفوه عليه السلام بالامانة والصدق وحسن الاخلاق وكمال العلم مع عدم التعلم من
احد وغير ذلك مما حازه من الكمالات اللائقة بالانبياء عليهم السلام فهم له منكرون اى
جاحدون بنبوته فجحودهم بها مترتب على عدم معرفتهم بشانه عليه السلام ومن
ضرورة انتفاء المبنى بطلان ما بنى عليه او فهم غير عارفين له عليه السلام فهو
تاكيد لما قبله ام يقولون به جنة انتقال الى توبيخ آخر والهمزة لانكار الواقع كالاولى
اى بل ايقولون به جنة اى جنون مع انه ارجح الناس عقلا واثقبهم ذهنا واتقنهم
رايا واوفرهم رزانة ولقد روعى فى هذه التوبيخات الاربعة التى اثنان منها متعلقان
بالقرآن والباقيان به عليه السلام الترقى من الادنى الى الاعلى حيث وبخوا اولا بعدم التدبر
وذلك يتحقق مع كون القول غير متعرض له بوجه من الوجوه ثم وبخوا بشئ لو اتصف به القول
لكان سببا للعدم بتصديقهم به ثم وبخوا بما يتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم من عدم
معرفتهم به عليه السلام وذلك يتحقق بعدم المعرفة بخير ولا شر ثم بما لو كان فيه لدام
ذلك لقدح فى رسالته عليه السلام بل جاءهم بالحق اضراب عما يدل عليه ما سبق
اى ليس الامر كما زعموا فى حق القرآن والرسول عليه السلام بل جاءهم بالحق اى الصدق
الثابت الذى لا محيد عنه اصلا ولا مدخل فيه للباطل بوجه من الوجوه واكثرهم للحق
من حيث هو حق اى حق كان لا لهذا الحق فقط كما ينبئ عنه الاظهار فى موضع الاضمار
كارهون لما فى جبلتهم من الزيغ والانحراف المناسب للباطل ولذلك كرهوا هذا
الحق الابلج وزاغوا عن الطريق الانهج وتخصيص اكثرهم بهذا الوصف لا يقتضى
الا عدم كراهة الباقين لكل حق من الحقوق وذلك لا ينافى كراهتهم لهذا الحق المبين
فتامل وقيل تقييد الحكم بالاكثر لان منهم من ترك الايمان استنكافا من توبيخ قومه
او لقلة فطنته وعدم تفكره لا كراهة الحق وانت خبير بان التعرض لعدم كراهة
بعضهم للحق مع اتفاق الكل على الكفر مما لا يساعده المقام اصلا ولو اتبع الحق اهواءهم
استئناف مسوق لبيان ان اهواءهم الزائغة التى ما كرهوا الحق الا لعدم موافقته اياها
مقتضية للطامة اى لو كان ما كرهوه من الحق الذى من جملته ما جاء به عم موافقا لاهوائهم
الباطلة لفسدت السموات والارض ومن فيهن وخرجت عن الصلاح والانتظام بالكلية
لان مناط النظام ليس الا ذلك وفيه من تنويه شان الحق والتنبيه على سمو مكانه
ما لا يخفى واما ما قيل لو اتبع الحق الذى جاء به عليه السلام اهواءهم وانقلب شركا لجاء الله
تعالى بيوم القيمة ولاهلك العالم ولم يؤخر ففيه انه لا يلائم فرض مجيئه عليه السلام
به وكذا ما قيل لو كان فى الواقع آلهة لا يناسب المقام واما ما قيل لو اتبع الحق اهواءهم
لخرج عن الالهية مما لا احتمال له اصلا بل اتيناهم بذكرهم انتقال من تشنيعهم
بكراهة الحق الذى به يقوم العالم الى تشنيعهم بالاعراض عما جبل عليه كل نفس من
الرغبة فيما فيه خيرها والمراد بالذكر القرآن الذى هو فخرهم وشرفهم حسبما ينطق به
قوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك اى بل اتيناهم بفخرهم وشرفهم الذى كان يجب
عليهم ان يقبلوا عليه اكمل اقبال فهم بما فعلوا من النكوص عن ذكرهم اى فخرهم
وشرفهم خاصة معرضون لا عن غير ذلك مما لا يوجب الاقبال عليه والاعتناء
به وفى وضع الظاهر موضع الضمير مزيد تشنيع لهم وتقريع والفاء لترتيب ما
بعدها من اعراضهم عن ذكرهم على ما قبلها من ايتاء ذكرهم لا لترتيب الاعراض
على الايتاء مطلقا فان المستتبع لكون اعراضهم اعراضا عن ذكرهم هو ايتاء ذكرهم لا الايتاء
مطلقا وفى اسناد الايتاء بالذكر الى نون العظمة بعد اسناده الى ضميره عم تنويه
لشان النبى صلى الله عليه وسلم وتنبيه على كونه بمثابة عظيمة منه عز وجل وفى
ايراد القرآن الكريم عند نسبته اليه عليه السلام بعنوان الحقية وعند نسبته اليه تعالى بعنوان
الذكر من النكتة السرية والحكمة العبقرية ما لا يخفى فان التصريح بحقيته المستلزمة
لحقية من جاء به هو الذى يقتضيه مقام حكاية ما قاله المبطلون فى شانه واما
التشريف فانما يليق به تعالى لاسيما رسول الله صلى الله عليه وسلم احد المشرفين وقيل المراد بالذكر

ماتمنوه

ما تمنوه بقولهم لو ان عندنا ذكرا من الاولين وقيل وعظهم وايد ذلك بانه قرئ بذكراهم
وفى التشنيع على الاول اين اشد فان الاعراض عن وعظهم ليس فى مثابة اعراضهم عن
شرفهم او عن ذكرهم الذين يتمنونه فى الشناعة والقباحة ام تسألهم ترقى فى توبيخهم
بما ذكر من قولهم ام يقولون به جنة الى التوبيخ بوجه آخر كانه قيل ام يزعمون
انك تسألهم على اداء الرسالة خرجا اى جعلا فلاجل ذلك لا يؤمنون بك وقوله تعالى
فخراج ربك خير اى رزقه فى الدنيا وثوابه فى الآخرة تعليل لنفى السؤال المستفاد من
الانكار اى تسألهم ذلك فانما رزقك الله تعالى فى الدنيا والعقبى خير لك من ذلك وفى
التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من تعليل الحكم وتشريفه
عليه السلام ما لا يخفى والخرج بازاء الدخل يقال لكل ما تخرجه الى غيرك والخراج غالب فى
الضريبة على الارض وقيل الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك وقيل الخرج اخص من
الخراج ففى النظم الكريم اشعار بالكثرة واللزوم وقرئ خرجا فخرج وخراجا فخراج و
هو خير الرازقين تقرير لخيرية خراجه تعالى وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم
تشهد العقول السليمة باستقامته ليس فيه شائبة اعوجاج توجب اتهامهم لك
بوجه من الوجوه ولقد الزمهم الله عز وعلا وازاح عللهم فى هذه الآيات حيث
حصر اقسام ما يؤدى الى الانكار والاتهام وبين انتفاءها ما عدا كراهتهم للحق و
قلة فطنتهم وان الذين لا يؤمنون بالآخرة وصفوا بذلك تشنيعا لهم بما هم عليه من
الانهماك فى الدنيا وزعمهم ان لا حيوة الا الحيوة الدنيا واشعارا بعلة الحكم فان الايمان بالآخرة
وخوف ما فيها من الدواهى من اقوى الدواعى الى طلب الحق وسلوك سبيله عن الصراط اى
عن جنس الصراط لناكبون لعادلون فضلا عن الصراط المستقيم او عن الصراط المستقيم
الذى تدعوهم اليه والاول ادل على كمال ضلالهم وغاية غوايتهم لما انه ينبئ عن
كون ما ذهبوا اليه مما لا يطلق عليه اسم الصراط ولو كان معوجا ولو رحمناهم
وكشفنا ما بهم من ضر اى قحط وجدب للجوا لتمادوا فى طغيانهم افراطهم
فى الكفر والاستكبار وعداوة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يعمهون
اى عامهين عن الهدى روى انه لما اسلم ثمامة بن اثال الحنفى ولحق باليمامة ومنع
الميرة من اهل مكة واخذهم الله تعالى بالسنين حتى اكلوا العلهز جاء ابو سفيان الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال له انشدك الله والرحم الست تزعم انك بعثت رحمة
للعالمين قال بلى فقال قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع فنزلت والمعنى لو كشفنا
عنهم ما اصابهم من القحط والهزال برحمتنا اياهم ووجدوا الخصب لارتدوا الى
ما كانوا عليه من الافراط فى الكفر والاستكبار ولذهب عنهم هذا التملق والابلاس
وقد كان كذلك وقوله تعالى ولقد اخذناهم بالعذاب استئناف مسوق
للاستشهاد على مضمون الشرطية والمراد بالعذاب ما نالهم يوم بدر من القتل والاسر
اصابهم من فنون العذاب التى من جملتها القحط المذكور واللام جواب قسم محذوف
اى وبالله لقد اخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم بذلك اى لم يخضعوا ولم
يتذللوا على انه اما استفعال من الكون لان الخاضع ينتقل من كون الى كون او افتعال من
السكون قد اشبعت فتحته كمنتزاح فى منتزح بل اقاموا على ما كانوا عليه من العتو والاستكبار
وقوله تعالى وما يتضرعون اعتراض مقرر لمضمون ما قبله اى وليس من عادتهم التضرع
اليه تعالى حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد هو عذاب الآخرة كما ينبئ عنه
التهويل بفتح الباب والوصف بالشدة وقرئ فتحنا بالتشديد اذا هم فيه مبلسون
اى متحيرون آيسون من كل خير اى محناهم بكل محنة من القتل والاسر والجوع وغير
ذلك فما روى منهم لين مقادة وتوجه الى الاسلام قط واما ما اظهره ابو سفيان
فليس من الاستكانة له تعالى والتضرع اليه تعالى فى شئ وانما هو نوع خنوع الى ان يتم غرضه
فحاله كما قيل اذا جاع ضغا واذا شبع طغا واكثرهم مستمرون على ذلك الى ان يروا عذاب الآخرة
فحينئذ يبلسون وقيل المراد بالباب الجوع فانه اشد واعم من القتل والاسر والمعنى اخذناهم

أو لابما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم فما وجد منهم تضرع ولا
استكانة حتى فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أطم وأتم فأبلسوا الساعة وخضعت
رقابهم وجاءك أعتاهم وأشدهم شكيمة في العناد ليستعطفك والوجه هو الأول
وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار لتشاهدوا بها الآيات التنزيلية والتكوينية
والأفئدة لتتفكروا بها ما تشاهدونها وتعتبروا اعتبارا لائقا قليلا ما تشكرون
أي تشكرون شكرا قليلا غير معتد به تشكرون تلك النعم الجليلة لما أن العمدة في الشكر صرف تلك القوى
التي هي في أنفسها نعم باهرة إلى ما خلقت هي له وأنتم تخلون بذلك إخلالا عظيما
وهو الذي ذرأكم في الأرض أي خلقكم وبثكم فيها بالتناسل وإليه تحشرون
أي تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم لا إلى غيره فما لكم لا تؤمنون به ولا تشكرونه وهو
الذي يحيي ويميت من غير أن يشاركه في ذلك شيء من الأشياء وله خاصة اختلاف
الليل والنهار أي هو المؤثر في اختلافهما أي تعاقبهما أو اختلافهما ازديادا أو
انتقاصا أو لأمره وقضائه اختلافهما أفلا تعقلون أي ألا تتفكرون فلا تعقلون
أو أتتفكرون فلا تعقلون بالنظر والتأمل أن الكل منا وأن قدرتنا تعم جميع الممكنات
التي من جملتها البعث وقرئ يعقلون على أن الالتفات إلى الغيبة لحكاية سوء حال
المخاطبين لغيرهم وقيل على أن الخطاب الأول لتغليب المؤمنين وليس بذاك بل قالوا
عطف على مضمر يقتضيه المقام أي فلم يعقلوا بل قالوا مثل ما قال الأولون أي آباؤهم
ومن دان بدينهم قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون تفسير لما قبله
من المبهم وتفصيل لما فيه من الإجمال وقد مر الكلام فيه لقد وعدنا نحن وآباؤنا
هذا أي البعث من قبل متعلق بالفعل من حيث إسناده إلى آبائهم لا إليهم أي ووعد
آباؤنا من قبل أو بمحذوف وقع حالا من آباؤنا أي كائنين من قبل إن هذا أي
ما هذا إلا أساطير الأولين أي أكاذيبهم التي سطروها جمع أسطورة كأحدوثة و
أعجوبة وقيل جمع أسطار جمع سطر قل لمن الأرض ومن فيها من المخلوقات
تغليبا للعقلاء على غيرهم إن كنتم تعلمون جوابه محذوف ثقة بدلالة الاستفهام
عليه أي إن كنتم تعلمون شيئا ما فأخبروني به فإن ذلك كاف في الجواب وفيه من المبالغة
في وضوح الأمر وفي تجهيلهم ما لا يخفى أو إن كنتم تعلمون ذلك فأخبروني وفيه
استهانة بهم وتقرير لجهلهم ولذلك أخبر بجوابهم قبل أن يجيبوا حيث قيل سيقولون
لله لأن بديهة العقل تضطرهم إلى الاعتراف بأنه تعالى خالقها قل أي عند اعترافهم
بذلك تبكيتا لهم أفلا تذكرون أي أتعلمون ذلك أو أتقولون ذلك فلا تتذكرون أي من فطر
الأرض وما فيها ابتداء قادر على إعادتها ثانيا فإن البدء ليس بأهون من الإعادة
بل الأمر بالعكس في قياس العقول وقرئ تتذكرون على الأصل قل من رب السموات
السبع ورب العرش العظيم أعيد الرب تنويها لشأن العرش ورفعا لمحله من أن يكون
تبعا للسموات وجودا وذكرا ولقد روعي في الأمر بالسؤال الترقي من الأدنى إلى الأعلى
سيقولون لله باللام نظرا إلى معنى السؤال فإن قولك من ربه ولمن هو في معنى
واحد وقرئ هو وما بعده بغير لام نظرا إلى لفظ السؤال قل إنكارا لهم وتوبيخا أفلا
تتقون أي أتعلمون ذلك ولا تتقون أنفسكم عقابه بعدم العمل بموجب العلم
حيث تكفرون به وتنكرون البعث وتثبتون له شريكا في الربوبية قل من بيده ملكوت
كل شيء مما ذكر ومما لم يذكر أي ملكه التام القاهر وقيل خزائنه وهو يجير أي يغيث
غيره إذا شاء ولا يجار عليه أي ولا يغيث أحد عليه أي لا يمنع أحد منه بالنصر عليه
إن كنتم تعلمون أي شيئا ما أو ذلك فأجيبوني على ما سبق سيقولون لله أي لله
ملكوت كل شيء وهو الذي يجير ولا يجار عليه قل فأنى تسحرون أي فمن أين تخدعون
وتصرفون عن الرشد مع علمكم به إلى ما أنتم عليه من الغي فإن من لا يكون مسحورا
مختل العقل لا يكون كذلك بل أتيناهم بالحق الذي لا محيد عنه من التوحيد والوعد
بالبعث وإنهم لكاذبون فيما قالوا من الشرك وإنكار البعث ما اتخذ الله من ولد

كما يقوله

كما يقوله النصارى والقائلون إن الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا وما كان
معه من إله يشاركه في الألوهية كما يقوله عبدة الأوثان وغيرهم إذا لذهب كل إله
بما خلق جواب لمحاجتهم وجزاء للشرط قد حذف لدلالة ما قبله عليه أي لو كان معه
آلهة كما يزعمون لذهب كل واحد منهم بما خلقه واستبد به وامتاز ملكه عن ملك
الآخرين ووقع بينهم التغالب والتحارب كما هو الجاري فيما بين الملوك ولعلا بعضهم على
بعض فلم يكن بيده وحده ملكوت كل شيء وهو باطل لا يقول به عاقل قط مع قيام البرهان
على استناد جميع الممكنات إلى واجب الوجود الواحد بالذات سبحان الله عما يصفون
أي يصفونه به من أن يكون له أنداد وأولاد عالم الغيب والشهادة بالجر على أنه بدل
من الجلالة وقيل صفة لها وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وأيا ما كان فهو دليل
آخر على انتفاء الشريك بناء على توافقهم في تفرده تعالى بذلك ولذلك رتب عليه بالفاء
قوله تعالى فتعالى عما يشركون فإن تفرده تعالى بذلك موجب لتعاليه عن أن يكون له
شريك قل رب إما تريني أي إن كان لا بد من أن تريني ما يوعدون من العذاب الدنيوي
المستأصل وأما العذاب الأخروي فلا يناسبه المقام رب فلا تجعلني في القوم الظالمين
أي قرينا لهم فيما هم فيه من العذاب وفيه إيذان بكمال فظاعة ما وعدوه من العذاب
وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه من لا يكاد يمكن أن يحيق به ورد لإنكارهم
إياه واستعجالهم به على طريقة الاستهزاء به وقيل أمر به هضما لنفسه وقيل لأن
شؤم الكفرة قد يحيق بمن وراءهم كقوله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم
خاصة وروي أنه تعالى أخبر نبيه عليه السلام بأن له في أمته نقمة ولم يطلعه على وقتها
فأمره بهذا الدعاء وتكرير النداء وتصدير كل من الشرط والجزاء لإبراز كمال الضراعة
والابتهال وإنا على أن نريك ما نعدهم من العذاب لقادرون ولكنا نؤخره
لعلمنا بأن بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمنون أو لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم وقيل
قد أراه ذلك وهو ما أصابهم يوم بدر أو فتح مكة ولا يخفى بعده فإن المتبادر أن
يكون ما يستحقونه من العذاب الموعود عذابا هائلا مستأصلا لا يظهر على يديه عليه
السلام للحكمة الداعية إليه ادفع بالتي هي أحسن السيئة وهو الصفح عنها والإحسان
في مقابلتها لكن لا بحيث يؤدي إلى وهن في الدين وقيل هي كلمة التوحيد والسيئة الشرك
وقيل هو الأمر بالمعروف والسيئة المنكر وهو أبلغ من ادفع بالحسنة السيئة لما فيه
من التنصيص على التفضيل وتقديم الجار والمجرور على المفعول في الموضعين للاهتمام
نحن أعلم بما يصفون أي بما يصفونك به أو بوصفهم إياك على خلاف ما أنت عليه
وفيه وعيد لهم بالجزاء والعقوبة وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإرشاد
له عليه السلام إلى تفويض أمره إليه تعالى وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين
أي وساوسهم المغرية على خلاف ما أمرت به من المحاسن التي من جملتها دفع الحسنة
بالسيئة وأصل الهمز النخس ومنه مهماز الرائض شبه حثهم للناس على المعاصي بهمز
الرائض الدواب على الإسراع أو الوثب والجمع للمرات أو لتنوع الوساوس أو لتعدد
المضاف إليه وأعوذ بك رب أن يحضرون أمر عليه السلام بأن يعوذ به تعالى من حضورهم
بعد ما أمر بالعوذ به من همزاتهم للمبالغة في التحذير عن ملابستهم وإعادة الفعل
مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به وعرض نهاية الابتهال في الاستعاذة
أي أعوذ بك من أن يحضروني ويحوموا حولي في حال من الأحوال وتخصيص حال
الصلاة وقراءة القرآن كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أو حال حلول الأجل
كما روي عن عكرمة لأنها أحرى الأحوال بالاستعاذة منها حتى إذا جاء أحدهم
الموت حتى هي التي يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية وهي مع ذلك غاية لما
قبلها متعلقة بيصفون وما بينهما اعتراض مؤكد للإغضاء بالاستعاذة به تعالى من الشياطين
أن يزلوه عليه السلام عن الحلم ويغروه على الانتقام لكن لا بمعنى أنه العامل فيه لفساد
المعنى بل بمعنى أنه معمول لمحذوف يدل عليه ذلك وتعلقها بكاذبون في غاية البعد

لفظا ومعنى اى يستمرون على الوصف المذكور حتى اذا جاء احدهم اى احدكان الموت الذى
لا مرد له وظهرت له احوال الآخرة قال تحسرا على ما فرط منه من الايمان والطاعة رب
ارجعون اى ردنى الى الدنيا والواو لتعظيم المخاطب وقيل لتكرير قوله ارجعنى كما قيل
فى قفا نبك ونظايره لعلى اعمل صالحا فيما تركت اى فى الايمان الذى تركته لم ينظمه
فى سلك الرجاء كساير الاعمال الصالحة بان يقول لعلى او من فاعمل الخ للاشعار بانه
امر مقرر الوقوع غنى عن الاخبار بوقوعه قطعا فضلا عن كونه مرجو الوقوع اى لعلى
اعمل فى الايمان الذى آتى به البتة عملا صالحا وقيل فيما تركته من المال او من الدنيا و
عنه عليه السلام اذا عاين المؤمن الملئكة قالوا انرجعك الى الدنيا فيقول الى دار الهموم
والاحزان بل قدوما الى الله تبارك وتعالى واما الكافر فيقول ارجعونى كلا ردع عن
طلب الرجعة واستبعاد لها انها اى قوله رب ارجعون الخ كلمة هو قائلها لا
محالة لتسلط الحسرة عليه ومن ورائهم اى امامهم والضمير لاحدهم والجمع باعتبار
المعنى لانه فى حكم كلهم كما ان الافراد فى الضماير الاول باعتبار اللفظ برزخ حائل بينهم
وبين الرجعة الى يوم يبعثون يوم القيمة وهو اقناط كلى عن الرجعة الى الدنيا لما علم انه
لا رجعة يوم البعث الى الدنيا وانما الرجعة يومئذ الى الحيوة الاخروية فاذا نفخ فى الصور
لقيام الساعة وهو النفخة الثانية التى يقع عندها البعث والنشور وقيل المعنى فاذا نفخ فى
الاجساد ارواحها على ان الصور جمع الصورة لا القرن ويؤيده القراءة بفتح الواو به مع كسر الصاد
فلا انساب بينهم تنفعهم لزوال التراحم والتعاطف من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة
بحيث يفر المرء من اخيه وامه وابيه وصاحبته وبنيه او لا انساب يفتخرون بها يومئذ
كما هى بينهم اليوم ولا يتساءلون اى لا يسأل بعضهم بعضا لاشتغال كل منهم بنفسه ولا
يناقضه قوله تعالى فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون لان هذا عند ابتداء النفخة الثانية
وذاك بعد ذلك فمن ثقلت موازينه موزونات حسناته من العقايد والاعمال
اى فمن كانت له عقايد صحيحة واعمال صالحة يكون لها وزن وقدر عند الله تعالى فاولئك
هم المفلحون الفايزون بكل مطلوب الناجون عن كل مهروب ومن خفت موازينه
ومن لم يكن له من العقايد والاعمال ما له وزن وقدر عنده تعالى وهم الكفار لقوله
تعالى ولا نقيم لهم يوم القيمة وزنا وقد مر تفصيل ما فى هذا المقام من الكلام فى تفسير
سورة الاعراف فاولئك الذين خسروا انفسهم ضيعوها بتضييع زمان استكمالها
وابطلوا استعدادها لنيل كمالها واسم الاشارة فى الموضعين عبارة عن الموصول وجمعه
باعتبار معناه كما ان افراد الضميرين فى الصلتين باعتبار لفظه فى جهنم خالدون
بدل من الصلة او خبر ثان لاولئك تلفح وجوههم النار تحرقها واللفح كالنفح الا انه اشد
تاثيرا منه وتخصيص الوجوه بذلك لانها اشرف الاعضاء فبيان حالها ازجر عن المعاصى
المؤدية الى النار وهو السر فى تقديمها على الفاعل وهم فيها كالحون من شدة الاحتراق
والكلوح تقلص الشفتين من الاسنان وقرئ كلحون الم تكن آياتى تتلى عليكم على
اضمار القول اى يقال لهم تعنيفا وتوبيخا وتذكيرا لما به استحقوا ما ابتلوا به من العذاب
الم تكن آياتى تتلى عليكم فى الدنيا فكنتم بها تكذبون حينئذ قالوا ربنا غلبت علينا
اى ملكتنا شقوتنا التى اقترفناها بسوء اختيارنا كما ينبئ عنه اضافتها الى انفسهم
وقرئ شقوتنا بالفتح وشقاوتنا ايضا بالفتح والكسر وكنا بسبب ذلك قوما ضالين
عن الحق ولذلك فعلنا ما فعلنا من التكذيب وهذا كما ترى اعتراف منهم بان ما اصابهم
قد اصابهم بسوء صنيعهم واما ما قيل من انه اعتذار منهم بغلبة ما كتب عليهم من
الشقاوة الازلية فمع انه باطل فى نفسه لما انه لا يكتب عليهم من السعادة والشقاوة
الا ما علم الله تعالى انهم يفعلونه باختيارهم ضرورة ان العلم تابع للمعلوم يرده
قوله تعالى ربنا اخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون اى اخرجنا من النار وارجعنا الى
الدنيا فان عدنا بعد ذلك الى ما كنا عليه من الكفر والمعاصى فانا متجاوزون الحد
فى الظلم ولو كان اعتقادهم انهم مجبورون على ما صدر عنهم لما سألوا الرجعة الى الدنيا

ولما وعدوا

ولما وعدوا الايمان والطاعة بل حقق لهم فان عدنا صريح فى انهم حينئذ على الايمان والطاعة
وانما الموعود على تقدير الرجعة الى الدنيا الثبات عليهما لا احداثهما قال اخسؤا فيها اى
اسكتوا فى النار سكوت هوان وذلوا وانزجروا انزجار الكلاب اذا زجرت من خسأت الكلب
اذا زجرته فخسأ اى انزجر ولا تكلمون اى باستدعاء الاخراج من النار والرجع
الى الدنيا وقيل لا تكلمون فى رفع العذاب ويرده التعليل الآتى وقيل لا تكلمون رأسا وهو
آخر كلام يتكلمون به ثم لا كلام بعد ذلك الا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلب لا
يفهمون ولا يفهمون ويرده الخطابات الآتية قطعا وقوله تعالى انه تعليل لما قبله من
الزجر عن الدعاء اى ان الشان وقرئ بالفتح اى لان الشان كان فريق من عبادى وهم
المؤمنون وقيل هم الصحابة وقيل اهل الصفة رضوان الله عليهم اجمعين يقولون
فى الدنيا ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا اى
اسكتوا عن الدعاء بقولكم ربنا الخ لانكم كنتم تستهزؤن بالداعين بقولهم ربنا الخ
وتتشاغلون باستهزائهم حتى انسوكم اى الاستهزاء بهم ذكرى من فرط اشتغالكم
باستهزائهم وكنتم منهم تضحكون وذلك غاية الاستهزاء وقوله تعالى انى جزيتهم
اليوم استيناف لبيان حسن حالهم وانهم انتفعوا بما آذوهم بما صبروا بسبب صبرهم
على اذيتكم وقوله تعالى انهم هم الفايزون ثانى مفعولى الجزاء اى جزيتهم فوزهم
بمجامع مراداتهم مخصوصين به وقرئ بكسر الهمزة على انه تعليل للجزاء وبيان لكونه فى
غاية ما يكون من الحسن قال اى الله عز وجل او الملك المامور بذلك تذكيرا لما لبثوا
فيما سألوا الرجوع اليه من الدنيا بعد التنبيه على استحالته بقوله تعالى اخسؤا فيها الخ وقرئ
قل على الامر للملك كم لبثتم فى الارض التى تدعون ان ترجعوا اليها عدد سنين تمييز لكم
قالوا لبثنا يوما او بعض يوم استقصارا للمدة لبثهم فيها فاسأل العادين اى المتمكنين
من العد فانا بما دهمنا من العذاب بمعزل من ذلك او الملئكة العادين لاعمار العباد واعمالهم
وقرئ العادين بالتخفيف اى المتعدين فانهم ايضا يقولون ما نقول كانهم الاتباع
يسمون الرؤسا بذلك لظلمهم اياهم باضلالهم وقرئ العاديين اى القدماء المعمرين
فانهم ايضا يستقصرون مدة لبثهم قال اى الله تعالى او الملك وقرئ قل كما سبق ان لبثتم
الا قليلا تصديق لهم فى ذلك لو انكم كنتم تعلمون اى تعلمون شيئا او لو كنتم من
اهل العلم والجواب محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه اى لعلمتم يومئذ قلة لبثكم فيها
كما علمتم اليوم ولعملتم بموجبه ولم تخلدوا اليها افحسبتم انما خلقناكم عبثا اى الم
تعلموا شيئا فحسبتم انما خلقناكم بغير حكمة بالغة حتى انكرتم البعث فعبثا حال من نون
العظمة اى عابثين او مفعول له اى انما خلقناكم للعبث وانكم الينا لا ترجعون عطف
على انما فان خلقكم بغير بعث من قبيل العبث وانما خلقناكم لنتعبدكم ونجازيكم على اعمالكم
وقرئ ترجعون بفتح التاء من الرجوع فتعالى الله استعظام له تعالى ولشؤنه التى
تصرف عليها عباده من البدء والاعادة والاثابة والعقاب بموجب الحكمة البالغة
اى ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته واحواله وافعاله عن
خلو افعاله عن الحكم والمصالح والغايات الحميدة الملك الحق الذى يحق له الملك على
الاطلاق ايجادا واعداما بدءا واعادة احياء واماتة عقابا واثابة وكل ما سواه
مملوك له مقهور تحت ملكوته لا اله الا هو فان كل ما عداه عبيده رب العرش
الكريم فكيف بما تحته ومحاط به من الموجودات كائنا ما كان ووصفه بالكرم اما لانه
منه ينزل الوحى الذى منه القرآن الكريم او الخير والبركة والرحمة او لنسبته الى اكرم
الاكرمين وقرئ الكريم بالرفع على انه صفة الرب كما فى قوله تعالى ذو العرش المجيد ومن
يدع مع الله الها آخر يعبده افرادا او اشراكا لا برهان له به صفة لازمة لالها
كقوله تعالى يطير بجناحيه جئ بها للتاكيد وبناء الحكم عليه تنبيها على ان التدين بما لا دليل
عليه باطل فكيف بما شهدت بديهة العقول بخلافه او اعتراض بين الشرط والجزاء كقولك
من احسن الى زيد لا احق منه بالاحسان فالله مثيبه فانما حسابه عند ربه فهو مجاز

له على قدر ما يستحقه انه لا يفلح الكافرون اى ان الشأن الخ وقرئ بالفتح على انه تعليل او خبر
ومعناه حسابه عدم الفلاح والاصل حسابه انه لا يفلح هو فوضع الكافرون موضع الضمير
لان من يدع فى معنى الجمع وكذلك حسابه انه لا يفلح فى معنى حسابهم انهم لا يفلحون بدئت
السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين وختمت بنفى الفلاح عن الكافرين ثم امر رسول الله
صلى الله عليه وسلم بالاستغفار والاسترحام فقيل وقل رب اغفر وارحم وانت خير
الراحمين ايذانا بانهما من اهم الامور الدينية حيث امر به من قد غفر له ما تقدم
من ذنبه وما تأخر فكيف بمن عداه عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المؤمنين
بشرته الملائكة بالروح والريحان وما تقر به عينه عند نزول ملك الموت عنه وعنه
انه قال لقد انزلت على عشر آيات من اقامهن دخل الجنة ثم قرأ قد افلح المؤمنون حتى ختم العشر
وروى ان اولها وآخرها من كنوز الجنة من عمل بثلث آيات من اولها واتعظ باربع من آخرها نجا وافلح

سورة النور مكية وقيل مدنية وهى اربع وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم وبه العون

سورة خبر مبتدأ محذوف اى هذه سورة وانما اشير اليها مع عدم سبق ذكرها لانها باعتبار كونها
فى شرف الذكر فى حكم الحاضر المشاهد وقوله تعالى انزلناها مع ما عطف عليه صفات لها مؤكدة
لما افاده التنكير من الفخامة من حيث الذات بالفخامة من حيث الصفات واما كونها مبتدأ محذوف
الخبر على ان يكون التقدير فيما اوحينا اليك سورة انزلناها فيأباه ان مقتضى المقام بيان شأن
هذه السورة الكريمة لا ان فى جملة ما اوحى الى النبى صلى الله عليه وسلم سورة شأنها كذا
وكذا وحملها على السورة الكريمة بمعونة المقام يوهم ان غيرها من السور الكريمة ليست
على تلك الصفات وقرئ بالنصب على اضمار فعل يفسره انزلناها فلا محل له حينئذ من
الاعراب او على تقدير اقرأ ونحوه او دونك عند من يسوغ حذف اداة الاغراء فمحل انزلناها
النصب على الوصفية وفرضناها اى اوجبنا ما فيها من الاحكام ايجابا قطعيا وفيه من
الايذان بغاية وكادة الفرضية ما لا يخفى وقرئ فرضناها بالتشديد لتأكيد الايجاب او
لتعدد الفرائض او لكثرة المفروض عليهم من السلف والخلف وانزلنا فيها اى فى تضاعيف
السورة آيات بينات ان اريد بها الآيات نيطت بها الاحكام المفروضة وهو
الاظهر فكونها فى السورة ظاهر ومعنى كونها بينات وضوح دلالتها على احكامها
لا على معانيها على الاطلاق فانها اسوة لسائر الآيات فى ذلك وتكرير انزلنا مع
استلزام انزال السورة لانزالها لابراز كمال العناية بشأنها وان اريد جميع الآيات فالظرفية
باعتبار اشتمال الكل على كل واحد من اجزائه وتكرير انزلنا مع ان جميع الآيات عين السورة
وانزالها عين انزالها لاستقلالها بعنوان رائق داع الى تخصيص انزالها بالذكر ابانة
لخطرها ورفعا لمحلها كقوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ بعد قوله تعالى نجينا هودا
والذين آمنوا معه برحمة منا لعلكم تذكرون بحذف احدى التائين وقرئ
بادغام الثانية فى الذال اى تتذكرونها فتعملون بموجبها عند وقوع الحوادث
الداعية الى اجراء احكامها وفيه ايذان بان حقها ان تكون على ذكر منهم بحيث متى
مست الحاجة اليها استحضروها الزانية والزانى شروع فى تفصيل ما ذكر من
الآيات البينات وبيان احكامها والزانية هى المرأة المطاوعة للزنا الممكنة منه كما
ينبئ عنه الصيغة لا المزنية كرها وتقديمها على الزانى لانها الاصل فى الفعل لكون
الداعية فيها اوفر ولولا تمكينها منه لم يقع ورفعهما على الابتداء والخبر قوله تعالى فاجلدوا
كل واحد منهما مائة جلدة والفاء لتضمين المبتدأ معنى الشرط اذ اللام بمعنى الموصول
والتقدير التى زنت والذى زنا كما فى قوله تعالى واللذان يأتيانها منكم فآذوهما
وقيل الخبر محذوف اى فيما انزلنا او فيما فرضنا الزانية والزانى اى حكمهما و
قوله تعالى فاجلدوا الخ بيان لذلك الحكم وكان هذا عاما فى حق المحصن وغيره وقد
نسخ فى حق المحصن قطعا ويكفينا فى تعيين الناسخ القطع فانه عليه السلام قد
رجم ماعزا وغيره فيكون من باب نسخ الكتاب بالسنة المشهورة وفى الايضاح

الرجم حكم ثبت بالسنة المشهورة المتفق عليها فجازت الزيادة بها على الكتاب وروى
عن على رضى الله عنه جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل
نسخ بآية منسوخة التلاوة هى الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله
والله عزيز حكيم ويأباه ما روى عن على رضى الله عنه ولا تأخذكم بهما رأفة وقرئ
بفتح الهمزة وبالمد ايضا على فعالة اى رحمة ورقة فى دين الله فى طاعته واقامة
حده فتعطلوه او تسامحوا فيه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو سرقت
فاطمة لقطعت يدها ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر من باب التهييج والالهاب
فان الايمان بهما يقتضى الجد فى طاعته تعالى والاجتهاد فى اجراء احكامه وذكر اليوم
الآخر لتذكير ما فيه من العقاب فى مقابلة المسامحة والتعطيل وليشهد عذابهما طائفة
من المؤمنين اى لتحضره زيادة فى التنكيل فان التفضيح قد ينكل اكثر مما ينكل التعذيب والطائفة
فرقة يمكن ان يكون حافة حول الشئ من الطوف واقلها ثلاثة كما روى عن قتادة
وعن ابن عباس رضى الله عنهما اربعة الى اربعين وعن الحسن عشرة والمراد جمع يحصل به
التشهير والزجر الزانى لا ينكح الا زانية او مشركة والزانية لا ينكحها الا زان او مشرك حكم
مؤسس على الغالب المعتاد جئ به لزجر المؤمنين عن نكاح الزوانى بعد زجرهم عن الزنا
بهن وقد رغب بعض من ضعفة المهاجرين فى نكاح موسرات كانت بالمدينة من بغايا
المشركين فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك فنفروا عنه ببيان انه من افعال
الزناة وخصائص المشركين كانه قيل الزانى لا يرغب الا فى نكاح احداهما والزانية
لا يرغب فى نكاحها الا احدهما فلا تحوموا حوله كيلا تنتظموا فى سلكهما او تتسموا بسمتهما
فايراد الجملة الاولى مع ان مناط التنفير هى الثانية اما للتعريض بقصرهم الرغبة عليهن
حيث استأذنوا فى نكاحهن او لتأكيد العلاقة بين الجانبين مبالغة فى الزجر والتنفير
وعدم التعرض فى الجملة الثانية للمشركة للتنبيه على ان مناط الزجر والتنفير هو الزنا لا
مجرد الاشراك وانما تعرض لها فى الاولى اشباعا فى التنفير عن الزانية بنظمها فى سلك
المشركة وحرم ذلك اى نكاح الزوانى على المؤمنين لما ان فيه من التشبه بالفسقة
والتعرض للتهمة والتسبب لسوء المقالة والطعن فى النسب واختلال امر المعاش وغير ذلك
من المفاسد ما لا يكاد يليق باحد من الادانى والاراذل فضلا عن المؤمنين ولذلك
عبر عن التنزيه بالتحريم مبالغة فى الزجر وقيل النفى بمعنى النهى وقد قرئ به والتحريم على
حقيقته والحكم اما مخصوص بسبب النزول او منسوخ بقوله تعالى وانكحوا الايامى منكم
فانه متناول للمسافحات ويؤيده ما روى انه عليه السلام سئل عن ذلك فقال اوله
سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرم الحلال وما قيل من ان المراد بالنكاح هو الوطء
بين البطلان والذين يرمون المحصنات بيان لحكم العفائف اذا نسبن الى الزنا
بعد بيان حكم الزوانى ويعتبر فى الاحصان ههنا مع مدلوله الوضعى الذى هو العفة
عن الزنا بعد الحرية والبلوغ والاسلام وفى التعبير عن التفوه بما قالوا فى حقهن بالرمى
المنبئ عن صلابة الآلة وايلام المرمى وبعده عن الرامى ايذان بشدة تأثيره فيهن وكونه رجما
بالغيب والمراد به رميهن بالزنا لا غير وعدم التصريح به للاكتفاء بايرادهن عقيب الزوانى
ووصفهن بالاحصان الدال بالوضع على نزاهتهن عن الزنا خاصة فان ذلك بمنزلة
التصريح بكون رميهن به لا محالة ولا حاجة فى ذلك الى الاستشهاد باعتبار الاربعة من الشهداء
على ان فيه مؤنة بيان تأخر نزول الآية عن قوله تعالى فاستشهدوا عليهن اربعة ولا بعدم
وجوب الحد بالرمى بغير الزنا على ان فيه شبه المصادرة كانه قيل والذين يرمون العفائف
المنزهات عما رمين به من الزنا ثم لم يأتوا باربعة شهداء يشهدون عليهن بما رموهن
به وفى كلمة ثم اشعار بجواز تأخير الاتيان بالشهود كما ان فى كلمة لم اشارة الى تحقق العجز عن
الاتيان بهم وتقرره خلا ان اجتماع الشهود لا بد منه عند الاداء خلافا للشافعى فانه جوز التراخى
بين الشهادات كما بين الرمى والشهادة ويجوز ان يكون احدهم زوج المقذوفة
خلافا له وقرئ باربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة لظهور كذبهم وافترائهم

الزانية او المشركة

بعجزهم عن الاتيان بالشهداء لقوله تعالى فاذ لم يأتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون
وانتصاب ثمانين كانتصاب المصادر ونصب جلدة على التمييز وتخصيص رميهن بهذا الحكم
مع ان حكم رمي المحصنين ايضا ذلك لخصوص الواقعة وشيوع الرمي فيهن ولا تقبلوا لهم
شهادة عطف على اجلدوا داخل في حكمه تتمة له لما فيه من معنى الزجر لانه مؤلم للقلب
كما ان الجلد مؤلم للبدن وقد آذى المقذوف بلسانه فعوقب باهدار منافعه جزاء وفاقا
واللام في لهم متعلقة بمحذوف هو حال من شهادة قدمت عليها لكونها نكرة ولو
تاخرت عنها لكانت صفة لها وفائدتها تخصيص الرد بشهادتهم الناشئة عن اهليتهم
الثابتة لهم عند الرمي وهو السر في قبول شهادة الكافر المحدود في القذف بعد
التوبة والاسلام لانها ليست ناشئة من اهليته السابقة بل من اهلية حدثت له
بعد اسلامه فلا يتناولها الرد فتدبر ودع عنك ما قيل من ان المسلمين لا يعبأون بسب
الكفار فلا يلحق المقذوف بقذف الكافر من الشين والشنار ما يلحقه بقذف المسلم فان
ذلك بدون ما مر من الاعتبار تعليل في مقابلة النص ولا يخفى حاله فالمعنى لا تقبلوا منهم شهادة
من الشهادات حال كونها حاصلة لهم عند الرمي ابدا اي مدة حياتهم وان تابوا
واصلحوا لما عرفت من انه تتمة للحد كانه قيل فاجلدوهم وردوا شهادتهم اي فاجمعوا
لهم الجلد والرد فيبقى كاصله واولئك هم الفاسقون كلام مستانف مقرر لما قبله
مبين لسوء حالهم عند الله عز وجل وما في اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد
منزلتهم في الشر والفساد اي اولئك هم المحكوم عليهم بالفسق والخروج عن الطاعة
والتجاوز عن الحدود والكاملون فيه كانهم هم المستحقون لاطلاق اسم الفاسق
عليهم لا غيرهم من الفسقة وقوله تعالى الا الذين تابوا استثناء من الفاسقين كما ينبئ عنه
التعليل الآتي ومحل المستثنى النصب لانه عن موجب وقوله تعالى من بعد ذلك لتهويل المتوب
عنه اي من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب العظيم الهائل واصلحوا اي اصلحوا اعمالهم التي
من جملتها ما فرط منهم بالتلافي والتدارك ومنه الاستسلام للحد والاستحلال من
المقذوف فان الله غفور رحيم تعليل لما يفيده الاستثناء من العفو عن المؤاخذة
بموجب الفسق كانه قيل فحينئذ لا يؤاخذهم الله تعالى بما فرط منهم ولا ينظمهم في سلك
الفاسقين لانه تعالى مبالغ في المغفرة والرحمة هذا وقد علق الشافعي رحمه الله الاستثناء بالنهي
فمحل المستثنى حينئذ الجر على البدلية من الضمير في لهم وجعل الابد عبارة عن مدة كونه قاذفا
فتنتهي بالتوبة فتقبل شهادته بعدها والذين يرمون ازواجهم بيان لحكم الرامين لازواجهم
خاصة بعد بيان حكم الرامين لغيرهن لكن لا بان يكون هذا مخصصا للمحصنات بالاجنبيات
ليلزم بقاء الآية السابقة ظنية فلا يثبت بها الحد فان من شرائط التخصيص ان لا يكون
المخصص متراخي النزول بل بكونه ناسخا لعمومها ضرورة تراخي نزوله كما سيأتي فيبقى
الآية السابقة قطعية الدلالة فيما بقي بعد النسخ لما بين في موضعه ان دليل النسخ غير
معلل ولم يكن لهم شهداء يشهدون بما رموهن به من الزنا وقرئ بتاء تانيث الفعل الا
انفسهم بدل من شهداء او صفة لها على ان الا بمعنى غير جعلوا من جملة الشهداء ايذانا
من اول الامر بعدم الغاء قولهم بالمرة ونظمه في سلك الشهادة في الجملة وبذلك
ازداد حسن اضافة الشهادة اليهم في قوله تعالى فشهادة احدهم اي شهادة
كل واحد منهم وهو مبتدا وقوله تعالى اربع شهادات خبره اي فشهادتهم
المشروعة اربع شهادات بالله متعلق بشهادات لقربها وقيل بشهادة لتقدمها
وقرئ اربع شهادات بالنصب على المصدر والعامل فشهادة على انه اما خبر لمبتدا
محذوف اي فالواجب شهادة احدهم واما مبتدا محذوف الخبر اي فشهادة احدهم
واجبة انه لمن الصادقين اي فيما رماها به من الزنى واصله على انه الخ فحذف الجار
وكسرت ان وعلق العامل عنها للتاكيد والخامسة اي الشهادة الخامسة للاربع
المتقدمة اي الجاعلة لها خمسا بانضمامها اليهن وافرادها عنهن مع كونها شهادة
ايضا لاستقلالها بالفحوى ووكادتها في افادة ما يقصد بالشهادة من تحقيق الخبر

واظهار الصدق وهي مبتدا خبره ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين فيما رماها
به من الزنى فاذا لاعن الزوج حبست الزوجة حتى تعترف فترجم او تلاعن ويدرؤا
عنها العذاب اي العذاب الدنيوي وهو الحبس المغيا على احد الوجهين بالرجم الذي
هو اشد العذاب ان تشهد اربع شهادات بالله انه اي الزوج لمن الكاذبين
اي فيما رماني به من الزنى والخامسة بالنصب عطفا على اربع شهادات ان غضب الله
عليها ان كان اي الزوج من الصادقين اي فيما رماني به من الزنى وقرئ والخامسة
بالرفع على الابتداء وقرئ ان بالتخفيف في الموضعين ورفع اللعنة والغضب وقرئ ان
غضب الله وتخصيص الغضب بجانب المراة للتغليظ عليها لما انها مادة الفجور ولان النساء
كثيرا ما يستعملن اللعن فربما يجترئن على التفوه لسقوط وقعه عن قلوبهن بخلاف غضبه
تعالى روي ان آية القذف لما نزلت قراها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر
فقام عاصم بن عدي الانصاري رضي الله عنه فقال جعلني الله فداك ان وجد رجل
مع امراته رجلا فاخبر جلد ثمانين وردت شهادته وفسق وان ضربه بالسيف
قتل وان سكت سكت على غيظ والى ان يجيء باربعة شهداء فقد قضى الرجل حاجته و
مضى اللهم افتح وخرج فاستقبله هلال بن امية او عويمر فقال ما وراءك قال
شر وجدت على امراتي خولة وهي بنت عاصم شريك بن سحماء فقال والله هذا
سؤالي ما اسرع ما ابتليت به فرجعا فاخبرا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلم
خولة فانكرت فنزلت فلاعن بينهما والفرقة الواقعة باللعان في حكم التطليقة
البائنة عند ابي حنيفة ومحمد رحمهما الله ولا يتابد حكمها حتى اذا اكذب الرجل نفسه
بعد ذلك فحد جاز له ان يتزوجها وعند ابي يوسف وزفر والحسن بن زياد و
الشافعي رحمهم الله هي فرقة بغير طلاق توجب تحريما مؤبدا ليس لهما اجتماع بعد ذلك
ابدا ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله تواب حكيم التفات الى خطاب
الرامين والمرميات بطريق التغليب لتوفية مقام الامتنان حقه وجواب لولا محذوف
لتهويله والاشعار بضيق العبارة عن حصره كانه قيل لولا تفضله تعالى عليكم
ورحمته وانه تعالى مبالغ في قبول التوبة حكيم في جميع افعاله واحكامه التي
من جملتها ما شرع لكم من حكم اللعان لكان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان
ومن جملته انه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حد القذف مع ان
الظاهر صدقه لانه اعرف بحال زوجته وانه لا يفتري عليها لاشتراكهما في الفضاحة
وبعد ما شرع لهم ذلك لو جعل شهاداته موجبة لحد الزنى عليها لفات النظر لها
ولو جعل شهاداتها موجبة لحد القذف عليه لفات النظر له ولا ريب في خروج الكل
عن سنن الحكمة والفضل والرحمة فجعل شهادات كل منهما مع الجزم بكذب احدهما
حتما دارئة لما توجه اليه من الغائلة الدنيوية وقد ابتلى الكاذب منهما في تضاعيف
شهاداته من العذاب بما هو اتم مما درات عنه واطم وفي ذلك من احكام الحكم
البالغة وآثار الفضل والرحمة ما لا يخفى اما على الصادق فظاهر واما على الكاذب
فهو امهاله والستر عليه في الدنيا ودرء الحد عنه وتعريضه للتوبة حسبما ينبئ عنه
التعرض لعنوان توابيته سبحانه ما اعظم شانه واوسع رحمته وادق حكمته
ان الذين جاؤا بالافك اي بابلغ ما يكون من الكذب والافتراء وقيل هو البهتان لا
تشعر به حتى يفجاك واصله الافك وهو القلب لانه مافوك عن وجهه وسننه والمراد
به ما افك به الصديقة ام المؤمنين رضي الله عنها وفي لفظ المجيء اشارة الى انهم
اظهروه من عند انفسهم من غير ان يكون له اصل وذلك ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم كان اذا اراد سفرا اقرع بين نسائه فايتهن خرجت قرعتها استصحبها قالت
عائشة رضي الله عنها فاقرع بيننا في غزوة غزاها قبل غزوة بني المصطلق فخرج
سهمي فخرجت معه صلى الله عليه وسلم بعد نزول آية الحجاب فحملت في هودج
فسرنا حتى اذا قفلنا ودنونا من المدينة نزلنا منزلا ثم نودي بالرحيل فقمت ومشيت

حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني اقبلت الى رحلي فلمست صدري فاذا عقدي من
جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمسته فحبسني ابتغاؤه واقبل الرهط الذين كانوا يرحلون
بي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري وهم يحسبون اني فيه لخفتي فلم يستنكروا
خفة الهودج وذهبوا بالبعير ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم
وليس فيها داع ولا مجيب فتيممت منزلي وظننت انهم سيفقدونني ويعودون في طلبي
فبينا انا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمي من وراء
الجيش فلما رآني عرفني فاستيقظت باسترجاعه فخمرت وجهي بجلبابي ووالله ما تكلمنا
بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى اناخ راحلته فوطئ على يديها
فقمت اليها فركبتها وانطلق يقود بي الراحلة حتى اتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة
وهم نزول وافتقدني الناس حين نزلوا وماج القوم في ذكري فبينا الناس كذلك
اذ هجمت عليهم فخاض الناس في حديثي فهلك من هلك وقوله تعالى عصبة منكم
خبر ان اي جماعة وهي من العشرة الى الاربعين وكذا العصابة وهم عبد الله بن ابي
وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن اثاثة وحمنة بنت جحش ومن
ساعدهم وقوله تعالى لا تحسبوه شرا لكم استئناف خوطب به رسول الله صلى
الله عليه وسلم وابو بكر وعائشة وصفوان رضي الله عنهم تسلية لهم من اول
الامر والضمير للافك بل هو خير لكم لاكتسابكم به الثواب العظيم وظهور كرامتكم
على الله عز وجل بانزال ثماني عشرة اية في نزاهة ساحتكم وتعظيم شأنكم وتشديد
الوعيد فيمن تكلم فيكم والثناء على من ظن بكم خيرا لكل امرئ منهم اي من اولئك
العصبة ما اكتسب من الاثم بقدر ما خاض فيه والذي تولى كبره اي معظمه و
قرئ بضم الكاف وهي لغة فيه منهم من العصبة وهو ابن ابي فانه بدأ به واذاعه
بين الناس عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل هو وحسان ومسطح فانهما
شايعاه بالتصريح به فافراد الموصول حينئذ باعتبار الفوج او الفريق او نحوهما
له عذاب عظيم اي في الآخرة او في الدنيا ايضا فانهم جلدوا وردت شهادتهم
وصار ابن ابي مطرودا مشهودا عليه بالنفاق وحسان اعمى واشل اليدين ومسطح
مكفوف البصر وفي التعبير عنه بالذي وتكرير الاسناد وتنكير العذاب ووصفه بالعظم
من تهويل الخطب ما لا يخفى لولا اذ سمعتموه تلوين للخطاب وصرف له عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم وذويه الى الخائضين بطريق الالتفات لتشديد ما في لولا
التحضيضية من التوبيخ ثم العدول عنه الى الغيبة في قوله تعالى ظن المؤمنون والمؤمنات
بانفسهم خيرا لتأكيد التوبيخ والتشنيع لكن لا بطريق الاعراض عنهم وحكاية جناياتهم
لغيرهم على وجه المباثة بل بالتوسل بذلك الى وصفهم بما يوجب الاتيان بالمحضض
عليه ويقتضيه اقتضاء تاما ويزجرهم عن ضده زجرا بليغا فان كون وصف الايمان
مما يحملهم على احسان الظن ويكفهم عن اساءته بانفسهم اي بابناء جنسهم
النازلين منزلة انفسهم كقوله تعالى ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم وقوله تعالى ولا
تلمزوا انفسكم مما لا ريب فيه فاخلالهم بموجب ذلك الوصف اقبح واشنع والتوبيخ
عليه ادخل مع ما فيه من التوسل به الى التصريح بتوبيخ الخائضات ثم ان كان المراد بالايمان
الحقيقي فايجابه لما ذكر واضح والتوبيخ خاص بالمؤمنين وان كان مطلق الايمان الشامل
لما يظهره المنافقون ايضا فايجابه له من حيث انهم كانوا يحترزون عن اظهار ما ينافي
مدعاهم فالتوبيخ حينئذ متوجه الى الكل وتوسيط الظرف بين لولا وفعلها لتخصيص
التحضيض باول زمان سماعهم وقصر التوبيخ على تأخير الاتيان بالمحضض عليه عن
ذلك الآن والتردد فيه ليفيد ان عدم الاتيان به رأسا في غاية ما يكون من القباحة
والشناعة اي كان الواجب ان يظن المؤمنون والمؤمنات اول ما سمعوه ممن اخترعه
بالذات او بالواسطة من غير تلعثم وتردد بمثلهم من آحاد المؤمنين خيرا وقالوا في
ذلك الآن هذا افك مبين اي ظاهر مكشوف كونه افكا فكيف بالصديقة ابنة الصديق

ام المؤمنين

ام المؤمنين حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا جاؤوا عليه باربعة شهداء اما من
تمام القول المحضض عليه مسوق لحث السامعين على الزام المسمعين وتكذيبهم اثر
تكذيب ما سمعوه منهم بقولهم هذا افك مبين وتوبيخهم على تركه اي هلا جاء الخائضون
باربعة شهداء يشهدون على ما قالوا فاذ لم يأتوا بالشهداء وانما قيل بالشهداء لزيادة
التقرير فاولئك اشارة الى الخائضين وما فيه من معنى البعد للايذان بغلوهم في
الفساد وبعد منزلتهم في الشر اي اولئك المفسدون عند الله اي في حكمه و
شرعه المؤسس على الدلائل الظاهرة المتقنة هم الكاذبون الكاملون في الكذب
المشهود عليهم بذلك المستحقون لاطلاق الاسم عليهم دون غيرهم ولذلك رتب
عليه الحد خاصة واما كلام مبتدأ مسوق من جهته تعالى للاحتجاج على كذبهم بكون
ما قالوه قولا لا يساعده الدليل اصلا ولولا فضل الله عليكم خطاب للسامعين و
المسمعين جميعا ورحمته في الدنيا من فنون النعم التي من جملتها الامهال للتوبة
والآخرة من ضروب الآلاء التي من جملتها العفو والمغفرة بعد التوبة لمسكم عاجلا
فيما افضتم فيه بسبب ما خضتم فيه من حديث الافك والابهام لتهويل امره و
الاستهجان بذكره يقال افاض في الحديث وخاض واندفع وهضب بمعنى عذاب
عظيم يستحقر دونه التوبيخ والجلد اذ تلقونه بحذف احدى التاءين ظرف للمس
اي لمسكم ذلك العذاب العظيم وقت تلقيكم اياه من المخترعين بألسنتكم والتلقي
والتلقف والتلقن معان متقاربة خلا ان في الاول معنى الاستقبال وفي الثاني معنى
الخطف والاخذ بسرعة وفي الثالث معنى الحذق والمهارة وقرئ تتلقونه على الاصل
وتلقونه من لقيه وتلقونه بكسر حرف المضارعة وتلقونه من القاء بعضهم على
بعض وتلقونه وتألقونه من الولق والالق وهو الكذب وتثقفونه من ثقفته
اذا طلبته فوجدته وتقفونه اي تتبعونه وتقولون بافواهكم ما ليس لكم
به علم اي تقولون قولا مختصا بالافواه من غير ان يكون له مصداق ومنشأ في القلوب
لانه ليس بتعبير عن علم به في قلوبكم كقوله تعالى يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم
وتحسبونه هينا سهلا لا تبعة له او ليس له كثير عقوبة وهو عند الله والحال انه
عند الله عز وجل عظيم لا يقادر قدره في الوزر واستجرار العذاب ولولا اذ
سمعتموه من المخترعين او المشايعين لهم قلتم تكذيبا لهم وتهويلا لما ارتكبوه
ما يكون لنا ما يمكننا ان نتكلم بهذا وما يصدر عنا ذلك بوجه من الوجوه وحاصله
نفي وجود التكلم به لا نفي وجوده على وجه الصحة او الاستقامة والابتغاء وهذا
اشارة الى ما سمعوه وتوسيط الظرف بين لولا وقلتم لما مر من تخصيص التحضيض
باول وقت السماع وقصر التوبيخ واللوم على تأخير القول المذكور عن ذلك الآن
ليفيد انه المحتمل للوقوع المفتقر الى التحضيض الى تركه واما ترك القول نفسه رأسا
فمما لا يتوهم وقوعه حتى يحضض على فعله ويلام على تركه وعلى هذا ينبغي ان يحمل
ما قيل ان المعنى انه كان الواجب عليهم ان يتفادوا اول ما سمعوا بالافك عن التكلم
به فلما كان ذكر الوقت اهم وجب التقديم واما ما قيل من ان ظروف الاشياء منزلة منزلة
انفسها لوقوعها فيها وانها لا تنفك عنها فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع في غيرها فهي
ضابطة ربما تستعمل فيما اذا وقع الظرف موضع المعزو بان جعل مفعولا صريحا
لفعل مذكور كما في قوله تعالى واذكروا اذ جعلكم خلفاء او مقدر كعامة الظروف
المنصوبة باضمار اذكر واما ههنا فلا حاجة اليها اصلا لما تحققت ان مناط التقديم
توجيه التحضيض اليه وذلك يتحقق في جميع متعلقات الفعل كما في قوله تعالى فلولا
ان كنتم غير مدينين ترجعونها سبحانك تعجب ممن تفوه به واصله ان يذكر عند معاينة
العجيب من صنائعه تعالى تنزيها لله سبحانه من ان يصعب عليه امثاله ثم كثر حتى
استعمل في كل متعجب منه او تنزيه له تعالى من ان يكون حرمة نبيه فاجرة فان فجورها
تنفير عنه ومخل بمقصود الزواج فيكون تقريرا لما قبله وتمهيدا لقوله تعالى هذا بهتان

عظيم لعظمة المبهوت عليه واستحالة صدقه فان حقارة الذنوب وعظمها باعتبار
متعلقاتها يعظكم الله اى ينصحكم ان تعودوا لمثله اى كراهة ان تعودوا او يزجركم
من ان تعودوا او فى ان تعودوا من قولك وعظته فى كذا فتركه ابداً اى مدة حياتكم
ان كنتم مؤمنين فان الايمان وازع عنه لامحالة وفيه تهييج وتقريع ويبين الله
لكم الآيات الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب دلالة واضحة لتتعظوا وتتأدبوا
بها اى ينزلها كذلك اى مبينة ظاهرة الدلالة على معانيها لا انه يبينها بعد ان لم تكن كذلك
وهذا كما فى قولهم سبحان من صغّر البعوض وكبّر الفيل اى خلقهما صغيراً وكبيراً ومنه
قولك ضيّق فم الركية ووسّع اسفلها واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتفخيم
شان البيان والله عليم باحوال جميع مخلوقاته جلائلها ودقائقها حكيم فى جميع
تدابيره وافعاله فانى يمكن صدق ما قيل فى حق حرمة من اصطفاه لرسالته وبعثه
الى كافة الخلق ليرشدهم الى الحق ويزكيهم ويطهرهم تطهيراً واظهار الاسم الجليل
ههنا لتأكيد استقلال الاعتراض التذييلى والاشعار بعلية الالوهية للعلم و
الحكمة ان الذين يحبون اى يريدون ويقصدون ان تشيع الفاحشة اى تنتشر
الخصلة المفرطة فى القبح وهى الفرية والرمى بالزنا او نفس الزنا فالمراد بشيوعها شيوع
خبرها اى يحبون تشيع خبرها ويتصدون مع ذلك لاشاعتها وانما لم يصرح به اكتفاء بذكر
المحبة فانها مستتبعة له لامحالة فى الذين آمنوا متعلق بتشيع اى تشيع فيما بين
الناس وذكر المؤمنين لانهم العمدة فيهم او بمضمر هو حال من الفاحشة فالموصول
عبارة عن المؤمنين خاصة اى يحبون ان تشيع الفاحشة كائنة فى حق المؤمنين وفى
شانهم لهم بسبب ما ذكر عذاب اليم فى الدنيا من الحد وغيره مما يتفق من البلايا
الدنيوية ولقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن ابى وحسانا و
مسطحا حد القذف وضرب صفوان حسانا ضربة بالسيف وكف بصره والآخرة من
عذاب النار وغير ذلك مما يعلمه الله عز وجل والله يعلم جميع الامور التى من جملتها
ما فى الضمائر من المحبة المذكورة وانتم لا تعلمون ما يعلمه تعالى بل انما تعلمون ما ظهر لكم
من الاقوال والافعال المحسوسة فابنوا امركم على ما تعلمونه وعاقبوا فى الدنيا على ما
شاهدتموه من الاحوال الظاهرة والله سبحانه هو المتولى للسرائر فيعاقب فى الآخرة على
ما تكنه الصدور هذا جعل العذاب العظيم فى الدنيا عبارة عن حد القذف او منتظما له
كما اطبق عليه الجمهور اما اذا ابقى على اطلاقه يراد بالمحبة نفسها من غير ان يقارنها
التصدى للاشاعة وهو الانسب بسياق النظم الكريم فيكون ترتيب العذاب عليها
تنبيها على ان عذاب من يباشر الاشاعة ويتولاها اشد واعظم ويكون الاعتراض
التذييلى اعنى قوله تعالى والله يعلم وانتم لا تعلمون تقريراً لثبوت العذاب العظيم
لهم وتعليلا له ولولا فضل الله عليكم ورحمته تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب
للتنبيه على كمال عظم الجريرة وان الله رؤف رحيم عطف على فضل الله واظهار
الاسم الجليل لتربية المهابة والاشعار باستتباع صفة الالوهية للرأفة والرحمة و
تغيير سبكه وتصديره بحرف التحقيق لما ان المراد بيان اتصافه تعالى فى ذاته بالرأفة التى
هى كمال الرحمة وبالرحيمية التى هى المبالغة فيها على الدوام والاستمرار لا بيان حدوث
تعلق رأفته ورحمته بهم كما انه المراد بالمعطوف عليه وجواب لولا محذوف لدلالة
ما قبله عليه يا ايها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان اى لا تسلكوا مسالكه
فى كل ما تأتون وما تذرون من الافاعيل التى من جملتها اشاعة الفاحشة وحبها
وقرئ خطوات بسكون الطاء وبفتحها ايضا ومن يتبع خطوات الشيطان وضع الظاهران
موضع ضميرهما حيث لم يقل ومن يتبعها او ومن يتبع خطواته لزيادة التقرير والمبالغة
فى التنفير والتحذير فانه يأمر بالفحشاء والمنكر علة للجزاء وضعت موضعه كانه
قيل فقد ارتكب الفحشاء والمنكر لان دأبه المستمر ان يأمر بهما فمن اتبع خطواته فقد امتثل
بامره قطعاً والفحشاء ما افرط قبحه كالفاحشة والمنكر ما ينكره الشرع وضمير انه للشيطان

بدل
تشيع

وقيل

وقيل للشان على راى من لا يوجب عود الضمير من الجملة الجزائية الى اسم الشرط او على ان الاصل
يأمره وقيل هو عائد الى من اى فان ذلك المتبع يأمر الناس بهما لان شان الشيطان هو
الاضلال فمن اتبعه يترقى من رتبة الضلال والفساد الى رتبة الاضلال والافساد
ولولا فضل الله عليكم ورحمته التى من جملتها هاتيك البيانات والتوفيق للتوبة الممحصة
للذنوب وشرع الحدود المكفرة لها ما زكى اى ما طهر من دنسها وقرئ ما زكى بالتشديد
اى ما طهر الله تعالى ومن فى قوله تعالى منكم بيانية وفى قوله تعالى من احد زائدة واحد
فى حيز الرفع على الفاعلية على القراءة الاولى وفى محل النصب على المفعولية على القراءة
الثانية ابداً لا الى نهاية ولكن الله يزكى يطهر من يشاء من عباده بافاضة آثار
فضله ورحمته عليه وحمله على التوبة ثم قبولها منه كما فعل بكم والله سميع
مبالغ فى سمع الاقوال التى من جملتها ما اظهروه من التوبة عليم بجميع المعلومات
التى من جملتها نياتهم وفيه حث لهم على الاخلاص فى التوبة واظهار الاسم الجليل
للايذان باستدعاء الالوهية للسمع والعلم مع ما فيه من تأكيد استقلال الاعتراض
التذييلى ولا يأتل اى لا يحلف افتعال من الالية وقيل لا يقصر من الألو والاول
هو الاظهر لنزوله فى شان الصديق رضى الله عنه حين حلف ان لا ينفق على مسطح بعد
وكان ينفق عليه لكونه ابن خالته وكان من فقراء المهاجرين ويعضده قراءة من قرأ
ولا يتأل اولوا الفضل منكم فى الدين وكفى به دليلا على فضل الصديق رضى الله عنه والسعة
فى المال ان يؤتوا اى على ان لا يؤتوا وقرئ بتاء الخطاب على الالتفات اولى القربى
والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله صفات لموصوف واحد جئ بها بطريق العطف
تنبيها على ان كلا منها علة مستقلة لاستحقاقه الايتاء وقيل لموصوفات اقيمت هى
مقامها وحذف المفعول الثانى لغاية ظهوره اى على ان لا يؤتوهم شيئا وليعفوا
ما فرط منهم وليصفحوا بالاغضاء وقد قرئ الامران بتاء الخطاب على وفق قوله تعالى
الا تحبون ان يغفر الله لكم اى بمقابلة عفوكم وصفحكم واحسانكم الى من اساء اليكم
والله غفور رحيم مبالغ فى المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على المؤاخذة وكثرة
ذنوب العباد الداعية اليها وفيه ترغيب عظيم فى العفو ووعد كريم بمقابلته كانه قيل
الا تحبون ان يغفر الله لكم فهذا من موجباته روى انه صلى الله عليه وسلم قرأها
على ابى بكر رضى الله عنه فقال بلى احب ان يغفر الله لى فرجع الى مسطح نفقته وقال
والله لا انزعها ابداً ان الذين يرمون المحصنات اى العفائف مما رمين به من
الفاحشة الغافلات عنها على الاطلاق بحيث لم يخطر ببالهن شئ منها ولا من
مقدماتها اصلا ففيها من الدلالة على كمال النزاهة ما ليس فى المحصنات اى السليمات
الصدور النقيات القلوب عن كل سوء المؤمنات اى المتصفات بالايمان بكل ما
يجب ان يؤمن به من الواجبات والمحظورات وغيرها ايمانا حقيقيا تفصيليا كما ينبئ
عنه تأخير المؤمنات عما قبلها مع اصالة وصف الايمان فانه للايذان بان المراد بها المعنى
الوصفى المعرب عما ذكر لا المعنى الاسمى المصحح لاطلاق الاسم فى الجملة كما هو المتبادر
على تقدير التقديم والمراد بها عائشة الصديقة رضى الله عنها والجمع باعتبار ان
رميها رمى لسائر امهات المؤمنين لاشتراك الكل فى العصمة والنزاهة والانتساب
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فى قوله تعالى كذبت قوم نوح المرسلين ونظائره
وقيل امهات المؤمنين فيدخل فيهن الصديقة دخولا اوليا واما ما قيل من ان المراد
هى الصديقة والجمع باعتبار استتباعها للمتصفات بالصفات المذكورة من نساء الامة
فيأباه ان العقوبات المترتبة على رمى هؤلاء عقوبات مختصة بالكفار والمنافقين
ولا ريب فى ان رمى غير امهات المؤمنين ليس بكفر فيجب ان يكون المراد اياهن على احد الوجهين
فانهن قد خصصن من بين سائر المؤمنات فجعل رميهن كفراً ابرازاً لكرامتهن على الله
عز وجل وحماية لحمى الرسالة عن ان يحوم حوله احد بسوء حتى ان ابن عباس رضى الله عنهما
جعله اغلظ من سائر افراد الكفر حيث سئل عن هذه الآيات فقال من اذنب ذنبا ثم تاب منه

قبلت توبته الا من خاض في امر عايشة رضي الله عنها وهل هو منه رضي الله عنه الا التهويل امر الافك والتنبيه على انه امر غليظ لعنوا بما قالوا في حقهن في الدنيا والاخرة حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين والملائكة ابدا ولهم مع ما ذكر من اللعن الابدي عذاب عظيم هائل لا يقادر قدره لغاية عظم ما اقترفوه من الجناية وقوله تعالى يوم تشهد عليهم الخ اما متصل بما قبله مسوق لتقرير العذاب المذكور بتعيين وقت حلوله وتهويله ببيان ظهور جناياتهم الموجبة له مع سائر جناياتهم المستتبعة لعقوباتها على كيفية هائلة وهيأة خارقة للعادات فيوم ظرف لما في الجار والمجرور المتقدم من معنى الاستقرار لا للعذاب وان اغضينا عن وصفه لاخلاله بجزالة المعنى واما منقطع عنه مسوق لتهويل اليوم بتهويل ما يحويه على انه ظرف لفعل موخر قد ضرب عنه الذكر صفحا للايذان بقصور العبارة عن تفصيل ما يقع فيه من الطامة التامة والداهية العامة كانه قيل يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون يكون من الاحوال والاهوال ما لا يحيط به حيطة المقال على ان الموصول المذكور عبارة عن جميع اعمالهم السيئة وجناياتهم القبيحة لا عن جناياتهم المعهودة فقط ومعنى شهادة الجوارح المذكورة بها انه تعالى ينطقها بقدرته فتخبر كل جارحة منها بما صدر عنها من افاعيل صاحبها لا ان كلا منها تخبر بجناياتهم المعهودة فحسب والموصول المحذوف عبارة عنها وعن فنون العقوبات المترتبة عليها كافة لا عن احداها خاصة ففيه من ضروب التهويل بالاجمال والتفصيل ما لا مزيد عليه وجعل الموصول المذكور عبارة عن خصوص جناياتهم المعهودة وحمل شهادة الجوارح على اخبار الكل بها فقط تحجير للواسع وتهوين لامر الوازع والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرارهم عليها في الدنيا وتقديم عليهم على الفاعل للمسارعة الى بيان كون الشهادة ضارة لهم مع ما فيه من التشويق الى المؤخر كما مر مرارا وقوله تعالى يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق اي يوم اذ تشهد جوارحهم باعمالهم القبيحة يعطيهم الله جزاءهم الثابت الذي يحق ان يثبت لهم وافيا كاملا كلام مبتدا مسوق لبيان ترتب حكم الشهادة عليها متضمن لبيان ذلك المبهم المحذوف على وجه الاجمال ويجوز ان يكون تشهد ظرفا ليوفيهم ويومئذ بدلا منه وقيل هو منصوب على انه مفعول لفعل مضمر اي اذكر يوم تشهد وقرئ يوم يشهد بالتذكير للفصل ويعلمون عند معاينتهم الاهوال والخطوب حسبما نطق به القرآن الكريم ان الله هو الحق الثابت الذي يحق ان يثبت لا محالة في ذاته وصفاته وافعاله التي من جملتها كلماته التامات المنبئة عن الشؤون التي يشاهدونها منطبقة عليها المبين المظهر للاشياء كما هي في انفسها والظاهر انه هو الحق وتفسيره بظهور الوهيته تعالى وعدم مشاركة الغير له فيها وعدم قدرة ما سواه على الثواب والعقاب ليس له كثير مناسبة للمقام كما ان تفسير الحق بذي الحق البين اي العادل الظاهر عدله كذلك ولو تتبعت ما في القرآن المجيد من آيات الوعيد الواردة في حق كل كفار مريب وجبار عنيد لا تجد شيئا منها فوق هاتيك القوارع المشحونة بفنون التهديد والتشديد وما ذاك الا لاظهار منزلة النبي صلى الله عليه وسلم في علو الشان والنباهة وابراز رتبة الصديقة رضي الله عنها في العفة والنزاهة وقوله تعالى الخبيثات الخ كلام مستانف مؤسس على قاعدة السنة الالهية الجارية فيما بين الخلق على موجب ان لله ملكا يسوق الاهل الى الاهل اي الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال اي مختصات بهم لا يكدن يتجاوزنهم الى غيرهم على ان اللام للاختصاص والخبيثون ايضا للخبيثات لان المجانسة من دواعي الانضمام والطيبات منهن للطيبين منهم والطيبون ايضا للطيبات منهن بحيث لا يكادون يجاوزونهن الى من عداهن وحيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اطيب الاطيبين وخيرة الاولين والآخرين تبين كون الصديقة رضي الله عنها من اطيب الطيبات بالضرورة واتضح بطلان ما قيل في حقها من الخرافات حسبما نطق به قوله تعالى اولئك مبرؤن مما يقولون

على

على ان الاشارة الى اهل البيت المنتظمين للصديقة انتظاما اوليا وقيل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والصديقة وصفوان وما في اسم الاشارة من معنى البعد للايذان بعلو رتبة المشار اليهم وبعد منزلتهم في الفضل اي اولئك الموصوفون بعلو الشان مبرؤن مما يقوله اهل الافك في حقهم من الاكاذيب الباطلة وقيل الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال والنساء اي مختصة ولائقة بهم لا ينبغي ان تقال في حق غيرهم وكذا الخبيثون من الفريقين احقاء بان يقال في حقهم خبائث القول والطيبات من الكلم للطيبين من الفريقين مختصة وحقيقة بهم وهم احقاء بان يقال في شانهم طيبات الكلم اولئك الطيبون مبرؤن مما يقول الخبيثون في حقهم فمآله تنزيه الصديقة ايضا وقيل الخبيثات مختصة بالخبيثين من فريقي الرجال والنساء لا تصدر عن غيرهم والخبيثون من الفريقين مختصون بخبائث القول متعرضون لها والطيبات من الكلام للطيبين من الفريقين اي مختصة بهم لا تصدر عن غيرهم والطيبون من الفريقين مختصون بطيبات الكلام لا يصدر عنهم غيرها اولئك الطيبون مبرؤن مما يقوله الخبيثون من الخبائث اي لا يصدر عنهم مثل ذلك فمآله تنزيه القائلين سبحانك هذا بهتان عظيم لهم مغفرة عظيمة لما لا يخلو عنه البشر من الذنب ورزق كريم هو الجنة يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم اثر ما فصل الزواجر عن الزنا وعن رمي العفائف عنه شرع في تفصيل الزواجر عما عسى يؤدي الى احدهما من مخالطة الرجال بالنساء ودخولهم عليهن في اوقات الخلوات وتعليم الآداب الجميلة والافاعيل المرضية المستتبعة لسعادة الدارين ووصف البيوت بمغايرة بيوتهم خارج مخرج العادة التي هي سكنى كل احد في ملكه والا فالآجر والمعير ايضا منهيان عن الدخول بغير اذن وقرئ بيوتا غير بيوتكم بكسر الباء لاجل الياء حتى تستانسوا اي تستاذنوا من يملك الاذن من اصحابها من الاستيناس بمعنى الاستعلام من آنس الشيء اذا ابصره فان المستاذن للحال مستكشف انه هل يؤذن له او من الاستيناس الذي هو خلاف الاستيحاش لما ان المستاذن مستوحش خائف ان لا يؤذن له فاذا اذن له استانس وتسلموا على اهلها عند الاستيذان روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ان التسليم ان يقول السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات فان اذن له دخل والا رجع ذلكم اي الاستيذان مع التسليم خير لكم من ان تدخلوا بغتة او على تحية الجاهلية حيث كان الرجل منهم اذا اراد ان يدخل بيتا غير بيته يقول حييتم صباحا حييتم مساء فربما اصاب الرجل مع امراته في لحاف وروي ان رجلا قال للنبي صلعم أأستاذن على امي قال نعم قال ليس لها خادم غيري أأستاذن عليها كلما دخلت قال عليه السلام اتحب ان تراها عريانة قال لا قال عليه السلام فاستاذن لعلكم تذكرون متعلق بمضمر اي امرتم به او قيل لكم هذا كي تتذكروا وتتعظوا وتعملوا بموجبه فان لم تجدوا فيها احدا اي ممن يملك الاذن على ان من لا يملكه من النساء والولدان وجدانه كفقدانه او احدا اصلا على ان مدلول النص الكريم عبارة هو النهي عن دخول البيوت الخالية لما فيه من الاطلاع على ما يعتاد الناس اخفاءه مع ان التصرف في ملك الغير محظور مطلقا واما حرمة دخول ما فيه النساء والولدان فثابتة بدلالة النص لان الدخول حين حرم مع ما ذكر من العلة فلان يحرم عند انضمام ما هو اقوى منه اليه الاطلاع على العورات اولى فلا تدخلوها واصبروا حتى يؤذن لكم اي من جهة من يملك الاذن عند اتيانه ومن فسره بقوله حتى ياتي من ياذن لكم او حتى تجدوا من ياذن لكم فقد ابرز القطعي في معرض الاحتمال ولما كان جعل النهي مغيا بالاذن مما يوهم الرخصة في الانتظار على الابواب مطلقا بل في تكرير الاستيذان ولو مع الرد دفع ذلك بقوله تعالى وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا اي ان امرتم من جهة اهل البيت بالرجوع سواء كان الامر ممن يملك الاذن او لا فارجعوا ولا تلحوا بتكرير الاستيذان كما في الوجه الاول ولا تلجوا بالاصرار على الانتظار الى ان ياتي

الاذن كما فى الثانى فان ذلك مما يجلب الكراهة فى قلوب الناس ويقدح فى المروءة اى قدح هو
اى الرجوع ازكى لكم اى اطهر بما لا يخلو عنه اللج والعناد والوقوف على الابواب
من دنس الدناءة والرذالة والله بما تعملون عليم فيعلم ما تأتون وما تذرون
مما كلفتموه فيجازيكم عليه ليس عليكم جناح ان تدخلوا اى بغير استيذان بيوتا
غير مسكونة اى غير موضوعة لسكنى طائفة مخصوصة فقط بل ليتمتع بها من
يضطر اليها كائنا من كان من غير ان يتخذها سكنا كالربط والخانات والحوانيت
والحمامات ونحوها فانها معدة لمصالح الناس كافة كما ينبئ عنه قوله تعالى فيها متاع لكم
فانه صفة للبيوت او استيناف جار مجرى التعليل لعدم الجناح اى فيها حق تمتع لكم
كالاستكنان من الحر والبرد وايواء الامتعة والرحال والشرى والبيع والاغتسال
وغير ذلك مما يليق بحال البيوت وداخليها فلا بأس بدخولها بغير استيذان من
داخليها من قبل ولا ممن يتولى امرها ويقوم بتدبيرها من قوام الرباطات والخانات واصحاب
الحوانيت ومتصرفى الحمامات ونحوهم ويروى ان ابا بكر رضى الله عنه قال يا رسول
الله ان الله تعالى قد انزل عليك آية فى الاستيذان وانا نختلف فى تجاراتنا فننزل هذه
الخانات افلا ندخلها الا باذن فنزلت وقيل هى الخرابات يتبرز فيها والمتاع التبرز
والظاهر انها من جملة ما ينتظمه البيوت لا انها المرادة فقط وقوله تعالى والله يعلم
ما تبدون وما تكتمون وعيد لمن يدخل مدخلا من هذه المداخل لفساد او اطلاع
على عورات قل للمؤمنين شروع فى بيان احكام كلية شاملة للمؤمنين كافة يندرج
فيها حكم المستأذنين عند دخولهم البيوت اندراجا اوليا وتلوين الخطاب وتوجيهه
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفويض ما فى حيزه من الاوامر والنواهى الى رأيه
عليه السلام لانها تكاليف متعلقة بامور جزئية كثيرة الوقوع حقيقة بان يكون
الآمر بها والمتصدى لتدبيرها حافظا ومهيمنا عليهم ومفعول الامر امر آخر قد حذف
تعويلا على دلالة جوابه عليه اى قل لهم غضوا يغضوا من ابصارهم عما يحرم
ويقتصروا به على ما يحل ويحفظوا فروجهم الا على ازواجهم او ما ملكت ايمانهم
وتقييد الغض بمن التبعيضية دون الحفظ لما فى امر النظر من السعة وقيل المراد بالحفظ
ههنا خاصة هو الستر ذلك اى ما ذكر من الغض والحفظ ازكى لهم اى اطهر لهم من
دنس الريبة ان الله خبير بما يصنعون لا يخفى عليه شئ مما يصدر عنهم من الافاعيل
التى من جملتها اجالة النظر واستعمال سائر الحواس وتحريك الجوارح وما يقصدون
بذلك فليكونوا على حذر منه فى كل ما يأتون وما يذرون وقل للمؤمنات يغضضن
من ابصارهن فلا ينظرن الى ما لا يحل لهن النظر اليه ويحفظن فروجهن بالتستر
او التصون عن الزنا وتقديم الغض لان النظر بريد الزنا ورائد الفساد ولا يبدين
زينتهن كالحلى وغيرها مما يتزين به وفيه من المبالغة فى النهى عن ابداء مواقعها
ما لا يخفى الا ما ظهر منها عند مزاولة الامور التى لا بد منها عادة كالخاتم والكحل
والخضاب ونحوها فان فى سترها حرجا بينا وقيل المراد بالزينة مواضعها على حذف
المضاف او ما يعم المحاسن الخلقية والتزيينية والمستثنى هو الوجه والكفان
لانها ليست بعورة وليضربن بخمرهن على جيوبهن ارشاد الى كيفية اخفاء بعض مواقع
الزينة بعد النهى عن ابدائها وقد كانت النساء على عادة الجاهلية يسدلن خمرهن من
خلفهن فتبدو نحورهن وقلائدهن من جيوبهن لوسعها فامرن بارسال خمرهن
الى جيوبهن سترا لما يبدو منها وقد ضمن الضرب معنى الالقاء فعدى بعلى وقرئ بكسر
الجيم كما تقدم ولا يبدين زينتهن كرر النهى لاستثناء بعض مواد الرخصة عنه
باعتبار الناظر بعد ما استثنى عنه بعض مواد الضرورة باعتبار المنظور الا لبعولتهن
فانهم المقصودون بالزينة ولهم ان ينظروا الى جميع بدنهن حتى الموضع المعهود
او آبائهن او آباء بعولتهن او ابنائهن او ابناء بعولتهن او اخوانهن او بنى اخوانهن
لكثرة المخالطة الضرورية بينهم وبينهن وقلة توقع الفتنة من قبلهم لما فى طباع

الفريقين

الفريقين من النفرة عن مماسة القرائب ولهم ان ينظروا منهن ما يبدو عند المهنة والخدمة
وعدم ذكر الاعمام والاخوال لما ان الاحوط ان يتسترن عنهم حذارا من ان يصفوهن
لابنائهم او نسائهن المختصات بهن بالصحبة والخدمة من حرائر المؤمنات فان
الكوافر لا يتحرجن عن وصفهن للرجال او ما ملكت ايمانهن اى من الاماء فان عبد المرأة
بمنزلة الاجنبى منها وقيل من الاماء والعبيد لما روى انه عليه السلام اتى فاطمة
رضى الله عنها بعبد وهبه لها وعليها ثوب اذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها واذا غطت رجليها
لم يبلغ رأسها فقال عليه السلام انه ليس عليك بأس انما هو ابوك وغلامك او التابعين
غير اولى الاربة من الرجال اى اولى الحاجة الى النساء وهم الشيوخ الهم والممسوحون
وفى المجبوب والخصى خلاف وقيل هم البله الذين يتبعون الناس لفضل طعامهم ولا
يعرفون شيئا من امور النساء وقرئ غير بالنصب على الحالية او الطفل الذين لم يظهروا
على عورات النساء لعدم تمييزهم من الظهور بمعنى الاطلاع او لعدم بلوغهم حد
الشهوة من الظهور بمعنى الغلبة والطفل جنس وضع موضع الجمع اكتفاء بدلالة
الوصف ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين اى ما يخفينه من الرؤية من
زينتهن اى لا يضربن بارجلهن الارض ليتقعقع خلخالهن فيعلم انهن ذوات
خلخال فان ذلك مما يورث الرجال ميلا اليهن ويوهم ان لهن ميلا اليهم وفى
النهى عن ابداء صوت الحلى بعد النهى عن ابدائها من المبالغة فى الزجر عن ابداء
مواضعها ما لا يخفى وتوبوا الى الله جميعا تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم الى الكل بطريق التغليب لابراز كمال العناية بما فى حيزه من
امر التوبة وانها من معظمات المهمات الحقيقية بان يكون سبحانه وتعالى هو الآمر
بها لما انه لا يكاد يخلو احد من المكلفين عن نوع تفريط فى اقامة مواجب التكاليف كما
ينبغى وناهيك بقوله صلى الله عليه وسلم شيبتنى سورة هود لما فيها من قوله عز و
جل فاستقم كما امرت لا سيما اذا كان المأمور به الكف عن الشهوات وقيل توبوا عما كنتم
تفعلونه فى الجاهلية فانه وان جب بالاسلام لكن يجب الندم عليه والعزم على
تركه كلما خطر بباله وفى تكرير الخطاب بقوله تعالى ايها المؤمنون تأكيد للايجاب
وايذان بان وصف الايمان موجب للامتثال حتما وقرئ ايه المؤمنون لعلكم تفلحون
تفوزون بذلك بسعادة الدارين وانكحوا الايامى منكم بعد ما زجر تعالى عن
السفاح ومباديه القريبة والبعيدة امر بالنكاح فانه مع كونه مقصودا بالذات
من حيث كونه مناطا لبقاء النوع خير مزجرة عن ذلك وايامى مقلوب ايايم جمع
ايم وهو من لا زوج له من الرجال والنساء بكرا كان او ثيبا كما يفصح عنه قول
من قال فان تنكحى انكح وان تتأيمى وان كنت افتى منكم اتأيم اى زوجوا من لا زوج
له من الاحرار والحرائر والصالحين من عبادكم وامائكم على ان الخطاب
للاولياء والسادات واعتبار الصلاح فى الارقاء لان من لا صلاح له منهم بمعزل من
ان يكون خليقا بان يعتنى مولاه بشأنه ويشفق عليه ويتكلف فى نظم مصالحه بما لا بد
منه شرعا وعادة من بذل المال والمنافع بل حقه ان لا يستبقيه عنده واما عدم
اعتبار الصلاح فى الاحرار والحرائر فلان الغالب فيهم الصلاح على انهم مستبدون
فى التصرفات المتعلقة بانفسهم واموالهم فاذا عزموا النكاح فلا بد من مساعدة
الاولياء لهم اذ ليس عليهم فى ذلك غرامة حتى يعتبر فى مقابلتها غنيمة عائدة
اليهم عاجلة او آجلة وقيل المراد هو الصلاح للنكاح والقيام بحقوقه ان يكونوا
فقراء يغنهم الله من فضله ازاحة لما عسى يكون وازعا من النكاح من فقر احد الجانبين
اى لا يمنعن فقر الخاطب او المخطوبة من المناكحة فان فى فضل الله عز وجل غنية عن
المال فانه غاد ورائح يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب او وعد منه سبحانه بالاغناء
لقوله عليه السلام اطلبوا الغنى فى هذه الآية لكنه مشروط بالمشيئة كما فى قوله تعالى وان
خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء والله واسع غنى ذو سعة

لايرزأه اغناء الخلايق اذ لانفاد لنعمته ولاغاية لقدرته ومع ذلك علم يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة وليستعفف ارشاد للعاجزين عن مبادى النكاح واسبابها الى ما هو اولى لهم واحرى بهم بعد بيان جواز مناكحة الفقراء اى ليجتهد فى العفة وقمع الشهوة الذين لايجدون نكاحا اى اسباب نكاح او لايتمكنون مما ينكح به من المال حتى يغنيهم الله من فضله عدة كريمة بالتفضل عليهم بالغنى ولطف لهم فى استعفافهم وتقوية لقلوبهم وايذان بان فضله تعالى اولى بالاعفاء وادنى من الصلحاء والذين يبتغون الكتاب بعد ما امر بانكاح صالحى المماليك الاحقاء بالانكاح امر بكتابة من يستحقها منهم والكتاب مصدر كاتب كالمكاتبة اى الذين يطلبون المكاتبة مما ملكت ايمانكم عبدا كان او امة وهى ان يقول المولى لمملوكه كاتبتك على كذا درهما تؤديه الىّ وتعتق ويقول المملوك قبلته او نحو ذلك فان اداه اليه عتق قالوا معناه كتبت لك على نفسى ان تعتق منى اذا وفيت بالمال وكتبت لى على نفسك ان تفى بذلك او كتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت على العتق عنده والتحقيق ان المكاتبة اسم للعقد الحاصل من مجموع كلاميهما كساير العقود الشرعية المنعقدة بالايجاب والقبول ولاريب فى ان ذلك لايصدر حقيقة الا من المتعاقدين وليس وظيفة كل منهما فى الحقيقة الاتيان باحد شطريه معربا عما يتم من قبله ويصدر عنه من الفعل الخاص به من غير تعرض لما يتم من قبل صاحبه ويصدر عنه من فعله الخاص به الا ان كلا من ذينك الفعلين لما كان بحيث لايمكن تحققه فى نفسه الا منوطا بتحقق الآخر ضرورة ان التزام العتق بمقابلة البدل من جهة المولى لايتصور تحققه وتحصله الا بالتزام البدل من طرف العبد كما ان عقد البيع الذى هو تمليك المبيع بالثمن من جهة البايع لايمكن تحققه الا بتملكه به من جانب المشترى لم يكن بد من تضمين احدهما الآخر وقت الانشاء فكما ان قول البايع بعت انشاء لعقد البيع على معنى انه ايقاع لما يتم من قبله اصالة ولما يتم من قبل المشترى ضمنا ايقاعا متوقعا على رايه توقفا شبيها بتوقف عقد الفضولى كذلك قول المولى كاتبتك على كذا انشاء لعقد الكتابة اى ايقاع لما يتم من قبله من التزام العتق بمقابلة البدل اصالة ولما يتم من قبل العبد من التزام البدل ضمنا ايقاعا متوقفا على قبوله فاذا قبل تم العقد ومحل الموصول الرفع على الابتداء خبره فكاتبوهم والفاء لتضمنه معنى الشرط والنصب على انه مفعول لمضمر يفسره هذا والامر فيه للندب لان الكتابة عقد يتضمن الارفاق فلا يجب كغيرها ويجوز حالا او مؤجلا او منجما وغير منجم وعند الشافعى رحمه الله لايجوز الا مؤجلا منجما وقد فصل فى موضعه ان علمتم فيه خيرا اى امانة ورشدا وقدرة على اداء البدل بتحصيله من وجه حلال وصلاحا لايؤذى الناس بعد العتق واطلاق العنان واتوهم من مال الله الذى اتاكم امر للموالى ببذل شئ من اموالهم وفى حكمه حط شئ من مال الكتابة ويكفى فى ذلك اقل ما يتمول وعن على رضى الله عنه حط الربع وعن ابن عباس الثلث وهو للندب عندنا وعند الشافعى رحمه الله للوجوب ويرده قوله عليه السلام المكاتب عبد ما بقى عليه درهم اذ لو وجب الحط لسقط عنه الباقى حتما وايضا لو وجب الحط لكان وجوبه معلقا بالعقد فيكون العقد موجبا ومسقطا معا وايضا فهو عقد معاوضة فلا يجبر على الحطيطة كالبيع وقيل معنى آتوهم اقرضوهم وقيل امر لهم بان ينفقوا عليهم بعد ان يؤدوا ويعتقوا واضافة المال اليه تعالى ووصفه بايتائه للحث على الامتثال بالامر بتحقيق المامور به كما فى قوله تعالى وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فان ملاحظة وصول المال اليهم من جهته تعالى مع كونه هو المالك الحقيقى من اقوى الدواعى الى صرفه الى الجهة المامور بها وقيل هو امر باعطاء سهمهم من الصدقات فالامر للوجوب حتما والاضافة والوصف لتعيين المأخذ وقيل هو امر ندب لعامة المسلمين باعانة المكاتبين بالتصدق عليهم ويحل ذلك للمولى وان كان غنيا لتبدل العنوان حسبما ينطق به قوله عليه السلام فى حديث بريرة هو لها صدقة

ولناهدية

ولناهدية ولاتكرهوا فتياتكم اى امائكم فان كلا من الفتى والفتاة كناية مشهورة عن العبد والامة وعلى ذلك مبنى قوله عليه السلام ليقل احدكم فتاى وفتاتى ولا يقل عبدى وامتى ولهذه العبارة فى هذا المقام باعتبار مفهومها الاصلى حسن موقع ومزيد مناسبة لقوله تعالى على البغاء وهو الزنا من حيث صدوره عن النساء لانهن اللاتى يتوقع منهن ذلك غالبا دون من عداهن من العجايز والصغاير وقوله تعالى ان اردن تحصنا ليس لتخصيص النهى بصورة ارادتهن التعفف عن الزنا واخراج ماعداها من حكمه كما اذا كان الاكراه بسبب كراهتهن لخصوص الزانى او لخصوص الزمان او لخصوص المكان او لغير ذلك من الامور المصححة للاكراه فى الجملة بل للمحافظة على عادتهم المستمرة حيث كانوا يكرهونهن على البغاء وهن يردن التعفف عنه مع وفور شهوتهن الآمرة بالفجور وقصورهن فى معرفة الامور الداعية الى المحاسن الزاجرة عن تعاطى القبايح فان عبد الله بن ابى كانت له ست جوار يكرههن على الزنا وضرب عليهن ضرايب فشكت اثنتان منهن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وفيه من زيادة تقبيح حالهم وتشنيعهم على ما كانوا يفعلونه من القبايح ما لا يخفى فان من له ادنى مروة لايكاد يرضى بفجور من يحويه حرمه من امائه فضلا عن امرهن به واكراههن عليه لاسيما عند ارادتهن التعفف فتامل ودع عنك ما قيل من ان ذلك لان الاكراه لايتانى الامع ارادة التحصن وما قيل من انه ان جعل شرطا للنهى لايلزم من عدمه جواز الاكراه لجواز ان يكون ارتفاع النهى لامتناع المنهى عنه فانهما بمعزل من التحقيق وايثار كلمة ان على اذا مع تحقق الارادة فى مورد النص حتما للايذان بوجوب الانتهاء عن الاكراه عند كون ارادة التحصن فى حيز التردد والشك فكيف اذا كانت محققة الوقوع كما هو الواقع وتعليله بان الارادة المذكورة منهن فى حيز الشاذ النادر مع خلوه عن الجدوى بالكلية يأباه اعتبار تحققها اباء ظاهرا وقوله تعالى لتبتغوا عرض الحيوة الدنيا قيد للاكراه لكن لاباعتبار انه مدار للنهى عنه بل باعتبار انه المعتاد فيما بينهم كما قبله جيء به تشنيعا لهم فيما هم عليه من احتمال الوزر الكبير لاجل النزر الحقير اى لا تفعلوا ما انتم عليه من اكراههن على البغاء لطلب المتاع السريع الزوال الوشيك الاضمحلال فالمراد بالابتغاء الطلب المقارن لنيل المطلوب واستيفائه بالفعل اذ هو الصالح لكونه غاية للاكراه مترتبا عليه لا المطلق المتناول للطلب السابق الباعث عليه ومن يكرههن الى جملة مستأنفة سيقت لتقرير النهى وتأكيد وجوب العمل به ببيان خلاص المكرهات عن عقوبة المكره عليه عبارة ورجوع غائلة الاكراه الى المكرهين اشارة اى ومن يكرههن على ما ذكر من البغاء فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم اى لهن كما وقع فى مصحف ابن مسعود وعليه قراءة ابن عباس رضى الله عنهم وكما ينبئ عنه قوله تعالى من بعد اكراههن اى كونهن مكرهات على ان الاكراه مصدر من المبنى للمفعول فان توسيطه بين اسم ان وخبرها للايذان بان ذلك هو السبب للمغفرة والرحمة وكان الحسن البصرى اذا قرأ هذه الآية يقول لهن والله لهن وفى تخصيصهما بهن وتعيين مدارهما مع سبق ذكر المكرهين ايضا فى الشرطية دلالة بينة على كونهم محرومين منهما بالكلية كأنه قيل لا للمكره ولظهور هذا التقدير اكتفى به عن العائد الى اسم الشرط فتجويز تعلقهما بهم بشرط التوبة استقلالا او معهن اخلال بجزالة النظم الجليل وتهوين لامر النهى فى مقام التهويل وحاجتهن الى المغفرة المنبئة عن سابقة الاثم اما باعتبار انهن وان كن مكرهات لايخلون فى تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة ما بحكم الجبلة البشرية واما باعتبار ان الاكراه قد يكون قاصرا عن حد الالجاء المزيل للاختيار بالمرة واما الغاية تهويل امر الزنا وحث المكرهات على التثبت فى التجافى عنه والتشديد فى تحذير المكرهين ببيان انهن حيث عرضة للعقوبة لولا ان تداركهن المغفرة والرحمة مع قيام العذر فى حقهن فما حال من يكرههن فى استحقاق العذاب ولقد انزلنا اليكم آيات مبينات كلام مستانف جيء به فى تضاعيف ما ورد من

الآيات السابقة واللاحقة لبيان جلالة شؤونها المستوجبة للاقبال الكلى على العمل بمضمونها
وصدر بالقسم الذى يعرب عنه اللام لابراز كمال العناية بشأنه اى وبالله لقد انزلنا
اليكم فى هذه السورة الكريمة آيات مبينات لكل ما بكم حاجة الى بيانه من الحدود وسائر
الاحكام والآداب وغير ذلك مما هو من مبادى بيانها على ان اسناد التبيين اليها مجازى
او آيات واضحات تصدقها الكتب القديمة والعقول السليمة على ان مبينات من بين بمعنى تبين
ومنه المثل قد بين الصبح لذى عينين وقرئ على صيغة المفعول اى التى بينت واوضحت
فى هذه السورة فى معانى الاحكام والحدود وقد جوز ان يكون الاصل مبينا فيها
الاحكام فاتسع فى الظرف باجرائه مجرى المفعول ومثلا من الذين خلوا من قبلكم
عطف على آيات اى وانزلنا مثلا كائنا من قبيل امثال الذين مضوا من قبلكم من القصص
العجيبة والامثال المضروبة لهم فى الكتب السابقة والكلمات الجارية على ألسنة الانبياء
عليهم السلام فينتظم قصة عائشة رضى الله عنها المحاكية لقصة يوسف ع م وقصة
مريم رضى الله عنها وسائر الامثال الواردة فى السورة الكريمة انتظاما واضحا وتخصيص
الآيات المبينات بو وحمل المثل على القصة العجيبة فقط يأباه تعقيب الكلام بما سيأتى
من التمثيلات وموعظة تتعظون به وتنزجرون عما لا ينبغى من المحرمات والمكروهات
وسائر ما يخل بمحاسن الآداب فهى عبارة عما سبق من الآيات والمثل لظهور كونها
من المواعظ بالمعنى المذكور ومدار العطف هو التغاير العنوانى المنزل منزلة التغاير الذاتى
وقد خصت الآيات بما بين الحدود والاحكام والموعظة بما وعظ به من قوله تعالى
ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله وقوله تعالى اذ سمعتموه وغير ذلك من الآيات
الواردة فى شأن الآداب وانما قيل للمتقين مع شمول الموعظة للكل حسب شمول
الانزال لقوله تعالى انزلنا اليكم حثا للمخاطبين على الاعتناء بالانتظام فى سلك المتقين
ببيان انهم المغتنمون لآثارها المقتبسون من انوارها فحسب وقيل المراد بالآيات
المبينات والمثل والموعظة جميع ما فى القرآن المجيد من الآيات والامثال والمواعظ
فقوله تعالى الله نور السموات والارض الخ حينئذ استئناف مسوق لتقرير
ما فيها من البيان مع الاشعار بكونه فى غاية الكمال على الوجه الذى ستعرفه
واما على الاول فلتحقيق ان بيانه تعالى ليس مقصورا على ما ورد فى السورة الكريمة
بل هو شامل لكل ما يحتاج بيانه من الاحكام والشرائع ومباديها وغاياتها المترتبة عليها
فى الدنيا والآخرة وغير ذلك مما له مدخل فى البيان وانه واقع منه تعالى على اتم الوجوه
واكملها حيث عبر عنه بالتنوير الذى هو اقوى مراتب البيان واجلاها وعبر عن المنور
بنفس النور تنبيها على قوة التنوير وشدة التأثير وايذانا بانه تعالى ظاهر بذاته وكل ما
سواه ظاهر باظهاره كما ان النور نير بذاته وما عداه مستنير به واضيف النور الى
السموات والارض للدلالة على كمال شيوع البيان المستعار له وغاية شموله لكل ما
يليق من الامور التى لها مدخل فى ارشاد الناس بواسطة بيان شمول المستعار منه
لجميع ما يقبله ويستحقه من الاجرام العلوية والسفلية فانهما قطران للعالم الجسمانى
الذى لا مظهر للنور الحسى سواه او على شمول البيان لاحوالهما واحوال ما فيهما من
الموجودات اذ ما من موجود الا وقد بين من احواله ما يستحق البيان اما تفصيلا او
اجمالا كيف لا ولا ريب فى بيان كونه دليلا على وجود الصانع وصفاته وشاهدا
بصحة البعث او على تعلق البيان باهلهما كما قال ابن عباس رضى الله عنهما هادى اهل
السموات والارض فهم بنوره يهتدون وبهداه من حيرة الضلالة ينجون هذا
واما حمل التنوير على اخراجه تعالى للماهيات من العدم الى الوجود اذ هو الاصل
فى الاظهار كما ان الاعدام هو الاصل فى الاخفاء او على تزيين السموات بالنيرين و
سائر الكواكب وما يفيض عنها من الانوار او بالملائكة عليهم السلام وتزيين الارض
بالانبياء عليهم السلام والعلماء والمؤمنين او بالنبات والاشجار او على تدبيره تعالى
لامورها وامور ما فيهما فمما لا يلائم المقام ولا يساعده حسن النظام مثل نوره

اى نوره

اى نوره الفائض منه تعالى على الاشياء المستنيرة به وهو القرآن المبين كما يعرب عنه ما قبله
من وصف آياته بالانزال والتبيين وقد صرح بكونه نورا ايضا فى قوله تعالى وانزلنا
اليكم نورا مبينا وبه قال ابن عباس والحسن وزيد ابن اسلم وجعله عبارة عن الحق
وان شاع استعارته له كاستعارة الظلمة للباطل يأباه مقام بيان شأن الآيات
ووصفها بما ذكر من التبيين مع عدم سبق ذكر الحق ولان المعتبر فى مفهوم النور
هو الظهور والاظهار كما هو شأن القرآن الكريم واما الحق فالمعتبر فى مفهومه من
حيث هو حق هو الظهور لا الاظهار والمراد بالمثل الصفة العجيبة اى صفة نوره العجيبة
كمشكاة اى كصفة كوة غير نافذة فى الجدار فى الانارة والتنوير فيها مصباح
سراج ضخم ثاقب وقيل المشكاة الانبوبة فى وسط القنديل والمصباح الفتيلة المشتعلة
المصباح فى زجاجة اى قنديل من الزجاج الصافى الازهر وقرئ بفتح الزاء وكسرها
فى الموضعين الزجاجة كانها كوكب درى متلألئ وقاد شبيه بالدر فى صفائه
وزهرته ودرارى الكواكب عظامها المشهورة وقرئ درئ بدال مكسورة وراء
مشددة وياء ممدودة بعدها همزة على انه فعيل من الدرء وهو الدفع اى مبالغ
فى دفع الظلام بضوئه او فى دفع بعض اجزائه لبعض عند البريق واللمعان
وقرئ بضم الدال والباقى على حاله وفى اعادة المصباح والزجاجة معرفين اثر
سبقهما منكرين والاخبار عنهما بما بعدهما مع انتظام الكلام بان يقال كمشكاة
فيها مصباح فى زجاجة كانها كوكب درى من تفخيم شأنهما ورفع مكانهما بالتفسير
اثر الابهام والتفصيل بعد الاجمال واثبات ما بعدهما لهما بطريق الاخبار
المنبئ عن القصد الاصلى دون الوصف المبنى على الاشارة الى الثبوت فى الجملة ما لا
يخفى ومحل الجملة الاولى الرفع على انها صفة لمصباح ومحل الثانية الجر على انها صفة
لزجاجة واللام مغنية عن الرابط كانه قيل فيها مصباح هو فى زجاجة هى كانها كوكب
درى يوقد من شجرة اى يبتدأ ايقاد المصباح من شجرة مباركة اى كثيرة المنافع
بان رويت ذبالته بزيتها وقيل انما وصفت بالبركة لانها تنبت فى الارض التى بارك
الله تعالى فيها للعالمين زيتونة بدل من شجرة وفى ابهامها ووصفها بالبركة
ثم الابدال عنها تفخيم لشأنها وقرئ توقد بالتاء على ان الضمير القائم مقام الفاعل
للزجاجة دون المصباح وقرئ توقد على صيغة الماضى من التفعل اى ابتدأ توقد
المصباح منها وقرئ توقد بحذف احدى التاءين من تتوقد على اسناده الى
الزجاجة لا شرقية ولا غربية تقع الشمس عليها احيانا دون حين بل بحيث تقع عليها طول
النهار التى على قلة او صحراء واسعة فتقع الشمس عليها حالتى الطلوع والغروب وهذا
قول ابن عباس رض وسعيد بن جبير وقتادة وقال الفراء والزجاج لا شرقية وحدها
ولا غربية وحدها لكنها شرقية غربية اى يصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها
فتكون شرقية غربية تأخذ حظها من الامرين فيكون زيتها اضوأ وقيل لا نابتة فى
شرق المعمورة ولا غربها بل فى وسطها وهو الشام فان زيتونها اجود ما يكون وقيل
لا فى مضحى تشرق الشمس عليها دائما فتحرقها ولا فى مقنأة تغيب عنها دائما فتتركها
نيا وفى الحديث لا خير فى شجرة ولا نبات فى مقنأة ولا خير فيهما فى مضحى يكاد زيتها
يضئ ولو لم تمسسه نار اى هو فى الصفاء والانارة بحيث يكاد يضئ بنفسه
من غير مساس نار اصلا وكلمة لو فى امثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاء شئ فى
الزمان الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما قبلها
عليه ملاحظة قصدية الا عند القصد الى بيان الاعراب على القواعد الصناعية
بل هى لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم الموجب او المنفى على كل حال
مفروض من الاحوال المقارنة له اجمالا بادخالها على ابعدها منه اما لوجود
المانع كما فى قوله تعالى اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة واما لعدم
الشرط كما فى هذه الآية الكريمة ليظهر بثبوته او انتفائه معه ثبوته او انتفاؤه مع ما عداه

من الاحوال بطريق الاولوية لما ان الشئ متى تحقق مع ما ينافيه من وجود المانع او عدم
الشرط فلان يتحقق بدونه ذلك اولى ولذلك لا يذكر معه شئ آخر من سائر الاحوال
ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الاحوال
المغايرة لها عند تعددها وهذا معنى قولهم انها لاستقصاء الاحوال على سبيل
الاجمال وهذا امر مطرد فى الخبر الموجب والمنفى فانك اذا قلت فلان جواد يعطى ولو
كان فقيرًا او بخيل لا يعطى ولو كان غنيا تريد بيان تحقق الاعطاء فى الاول وعدم
تحققه فى الثانى فى جميع الاحوال المفروضة والتقدير يعطى لو لم يكن فقيرًا ولو
كان فقيرًا ولا يعطى لو لم يكن غنيًا ولو كان غنيًا فالجملة مع ما عطفت هى عليه فى
حيز النصب على الحالية من المستكن فى الفعل الموجب او المنفى اى يعطى او لا يعطى كائنًا
على جميع الاحوال وتقدير الآية الكريمة يكاد زيتها يضئ لو مسته نار ولو لم تمسسه
نار اى يضئ كائنًا على كل حال من وجود الشرط وعدمه وقد حذفت الجملة الاولى
حسبما هو المطرد فى الباب لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة نور خبر مبتدأ
محذوف وقوله تعالى على نور متعلق بمحذوف هو صفة له مؤكدة لما افاده التنكير
من الفخامة والجملة فذلكة للتمثيل وتصريح بما حصل منه وتمهيد لما يعقبه اى ذلك
النور الذى عبر به عن القرآن ومثلت صفته العجيبة الشان بما فصل من صفة المشكاة
نور عظيم كائن على نور كذلك لا على انه عبارة عن نور واحد معين او غير معين فوق
نور آخر مثله ولا عن مجموع نورين اثنين فقط بل عن نور متضاعف من غير تحديد
لتضاعفه بحد معين وتحديد مراتب تضاعف ما مثل به من نور المشكاة بما ذكر لكونه
اقصى مراتب تضاعفه عادة فان المصباح اذا كان فى مكان متضايق كالمشكاة كان اضوأ
له واجمع لنوره بسبب انضمام الشعاع المنعكس منه الى اصل الشعاع بخلاف المكان المتسع
فان الضوء ينبث فيه وينتشر والقنديل اعون شئ على زيادة الانارة وكذلك الزيت وصفاؤه
وراء هذه المراتب مما يزيد نورها اشراقًا ويمده باضاءة مرتبة اخرى عادة هذا وجعل
النور عبارة عن النور المشبه به مما لا يليق بشان التنزيل الجليل يهدى الله لنوره اى يهدى
هداية خاصة موصلة الى المطلوب حتما لذلك النور المتضاعف العظيم الشان واظهاره
فى مقام الاضمار لزيادة تقريره وتاكيد فخامته الذاتية بفخامته الاضافية الناشئة
من اضافته الى ضميره عز وجل من يشاء هدايته من عباده بان يوفقهم لفهم ما فيه من
دلائل حقيته وكونه من عند الله تعالى من الاعجاز والاخبار عن الغيب وغير ذلك من موجبات
الايمان به وفيه ايذان بان مناط هذه الهداية وملاكها ليس الا مشيئته تعالى وان تظاهر
الاسباب بدونها بمعزل من الافضاء الى المطالب ويضرب الله الامثال للناس فى تضاعيف
الهداية حسبما يقتضى حالهم فان له دخلا عظيما فى باب الارشاد لانه ابراز للمعقول
فى هيئة المحسوس وتصوير لاوابد المعانى بصورة الماثل ولذلك مثل نوره المعبر به
عن القرآن المبين بنور المشكاة واظهار اسم الجليل فى مقام الاضمار للايذان باختلاف
حال ما اسند اليه تعالى من الهداية الخاصة وضرب الامثال الذى هو من قبيل الهداية
العامة كما يفصح عنه تعلق الاولى بمن يشاء والثانية بالناس كافة والله بكل شئ
عليم معقولا كان او محسوسًا ظاهرًا كان او باطنًا ومن قضيته ان تتعلق مشيئته
بهداية من يليق بها ويستحقها من الناس دون من عداهم لمخالفته الحكمة التى عليها
مبنى التكوين والتشريع وان يكون هدايته العامة على فنون مختلفة وطرائق شتى
حسبما يقتضيه احوالهم والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله وفى اظهار الاسم
الجليل لتاكيد استقلال الجملة والاشعار بعلة الحكم وبما ذكر من اختلاف حال المحكوم
به ذاتًا وتعلقًا فى بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه لما ذكر شان القرآن
الكريم فى بيانه للشرائع والاحكام ومباديها وغاياتها المترتبة عليها من الثواب
والعقاب وغير ذلك من احوال الآخرة واهوالها واشير الى كونه فى غاية ما يكون
من التوضيح والاظهار حيث مثل بما فصل من نور المشكاة واشير الى ان ذلك النور مع

كونه

كونه فى اقصى مراتب الظهور وانما يهتدى بهداه من تعلقت مشيئة الله تعالى بهدايته دون
من عداه عقب ذلك بذكر الفريقين وتصوير بعض اعمالهم المعربة عن كيفية حالهم
فى الاهتداء وعدمه اى المراد بالبيوت المساجد كلها حسبما روى عن ابن عباس رضى
الله عنهما وقيل هى المساجد التى بناها نبى من انبياء الله تعالى الكعبة التى بناها ابراهيم
ابراهيم واسمعيل عليهما السلام وبيت المقدس الذى بناه داود وسليمن عليهما السلام
ومسجد المدينة ومسجد قبا اللذان بناهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنكيرها للتفخيم
والمراد بالاذن فى رفعها الامر ببنائها رفيعة لا كسائر البيوت وقيل هو الامر برفع
مقدارها بعبادة الله تعالى فيها فيكون عطف الذكر عليه من قبيل العطف التفسيرى واياما
كان ففى التعبير عنه بالاذن تلويح بان اللائق بحال المامور ان يكون متوجهًا الى المامور
به قبل ورود الامر به ناويا لتحقيقه كانه مستاذن فى ذلك فيقع الامر به موقع
الاذن فيه والمراد بذكر اسمه تعالى ما يعم جميع اذكاره تعالى وكلمة فى متعلقة بقوله تعالى
يسبح له وقوله تعالى فيها تكرير لها للتاكيد والتذكير لما بينهما من الفاصلة وللايذان
بان التقديم للاهتمام لا لقصر التسبيح على الوقوع فى البيوت فقط واصل التسبيح التنزيه
والتقديس يستعمل باللام وبدونه ايضا كما فى قوله تعالى سبح اسم ربك الاعلى
قالوا اريد به الصلوات المفروضة كما ينبئ عنه تعيين الاوقات بقوله تعالى بالغدو
والآصال اى بالغدوات والعشايا على ان الغدو اما جمع غداة كقنى فى جمع قناة
كما قيل او مصدر اطلق على الوقت حسبما يشعر به اقترانه بالآصال وهو جمع اصيل
هو العشى وهو شامل للاوقات ما عدا صلوة الفجر المؤداة بالغداة ويجوز ان يراد به
نفس التنزيه على انه عبارة عما يقع منه فى اثناء الصلوات واوقاتها لزيادة شرفه و
انافته على سائر افراده او عما يقع فى جميع الاوقات واوا طرفى النهار بالذكر لقيامهما مقام
كلها لكونهما العمدة فيهما لكونهما مشهودين وكونهما اشهر ما يقع فيه المباشرة للاعمال
وللاشتغال بالاشغال وقرئ والايصال وهو الدخول فى الاصيل وقوله تعالى رجال
فاعل يسبح وتاخيره عن الظروف لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر
ولان فى وصفه نوع طول فيخل تقديمه بحسن الانتظام وقرئ يسبح على البناء للمفعول
باسناده الى احد الظروف ورجال مرفوع بما ينبئ عنه حكاية الفعل من غير تسمية الفاعل
على طريقة قوله ليبك يزيد ضارع لخصومة كانه قيل من يسبح له فقيل يسبح له رجال
وقرئ تسبح بتانيث الفعل مبنيا للفاعل لان جمع التكسير قد يعامل معاملة المؤنث
ومبنيا للمفعول على ان يسند الى اوقات الغدو والآصال بزيادة الباء وتجعل الاوقات
مسبحة مع كونها مسبحا فيها او يسند الى ضمير التسبيحة على اى تسبح له التسبيحة على المجاز
المسوغ لاسناده الى الوقتين كما خرجوا قراءة ابى جعفر ليجزى قومًا اى ليجزى الجزاء قومًا بل هذا
اولى من ذلك اذ ليس هنا مفعول صريح لا تلهيهم تجارة صفة لرجال مؤكدة لما
افاده التنكير من الفخامة مفيدة لكمال تبتلهم الى الله تعالى واستغراقهم فيما حكى عنهم
من التسبيح من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم كائنا ما كان وتخصيص التجارة
بالذكر لكونها اقوى الصوارف عندهم واشهرها اى لا يشغلهم نوع من انواع
التجارة ولا بيع اى ولا فرد من افراد البياعات وان كان فى غاية الربح وافراده
بالذكر مع اندراجه تحت التجارة للايذان بانافته على سائر انواعها لان ربحه
متيقن ناجز وربح ما عداه متوقع فى ثانى الحال عند البيع فلم يلزم من نفى الهائه ما عداه
نفى الهائه ولذلك كررت كلمة لا لتذكير النفى وتاكيده وقد نقل عن الواقدى ان المراد
بالتجارة هو الشرى لانه اصلها ومبدؤها وقيل هو الجلب لانه الغالب فيها ومنه
يقال تجر فى كذا اى جلبه عن ذكر الله بالتسبيح والتحميد واقام الصلوة اى اقامتها
لمواقيتها من غير تاخير وقد اسقطت التاء المعوضة عن العين الساقطة بالاعلال
وعوض عنها الاضافة كما فى قوله واخلفوك عد الامر الذى وعدوا اى عدة الامر
وايتاء الزكوة اى المال الذى فرض اخراجه للمستحقين وايراده ههنا وان لم يكن

مما يفعل فى البيوت لكونه قرينة لا تفارق اقامة الصلوة فى عامة المواضع مع ما فيه من التنبيه
على ان محاسن اعمالهم غير منحصرة فيما يقع فى المساجد وكذلك قوله تعالى يخافون الخ
فانه صفة ثانية لرجال او حال من مفعول لا تلهيهم واياما كان فليس خوفهم مقصورا
على كونهم فى المساجد وقوله يوما مفعول ليخافون لا ظرف له وقوله تعالى تتقلب فيه
القلوب والابصار صفة ليوما اى تضطرب وتتغير فى انفسها من الهول والفزع
وتشخص كما فى قوله تعالى واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر او تتغير احوالها
وتتقلب فتفقه القلوب بعد ان كانت مطبوعا عليها وتبصر الابصار بعد ان كانت عميا
او تتقلب القلوب بين توقع النجاة وخوف الهلاك والابصار من اى ناحية يؤخذ
بهم ويؤتى كتابهم ليجزيهم الله متعلق بمحذوف يدل عليه ما حكى من اعمالهم المرضية
اى يفعلون ما يفعلون من المداومة على التسبيح والذكر وايتاء الزكوة والخوف من غير
صارف لهم عن ذلك ليجزيهم الله تعالى احسن ما عملوا اى احسن جزاء اعمالهم
حسبما وعد لهم بمقابلة حسنة واحدة عشر امثالها الى سبعمائة ضعف ويزيدهم
من فضله اى يتفضل عليهم باشياء لم توعد لهم بخصوصياتها او بمقاديرها ولم
يخطر ببالهم كيفياتها ولا كمياتها بل انما وعدت بطريق الاجمال فى مثل قوله تعالى للذين احسنوا
الحسنى وزيادة وقوله عليه السلام حكاية عنه عز وجل اعددت لعبادى الصالحين
ما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وغير ذلك من المواعيد الكريمة
التى من جملتها قوله تعالى والله يرزق من يشاء بغير حساب فانه تذييل مقرر
للزيادة ووعد كريم بانه تعالى يعطيهم غير اجزية اعمالهم من الخيرات ما لا يفى به
الحساب واما عدم سبق الوعد بالزيادة ولو اجمالا وعدم خطورها ببالهم ولو
بوجه ما فيأباه نظمها فى سلك الغاية والموصول عبارة عما ذكرت صفاتهم الجميلة
كانه قيل والله يرزقهم بغير حساب ووضعه موضع ضميرهم للتنبيه بما فى حيز الصلة
على ان مناط الرزق المذكور محض مشيئته تعالى لا اعمالهم المحكية كما انها المناط لما سبق
من الهداية لنوره تعالى لا لتظاهر الاسباب وللايذان بانهم ممن شاء الله ان يرزقهم كما
انهم ممن شاء الله تعالى ان يهديهم لنوره حسبما يعرب عنه ما فصل من اعمالهم الحسنة
فان جميع ما ذكر من الذكر والتسبيح واقامة الصلوة وايتاء الزكوة وخوف اليوم الاخر
واهواله ورجاء الثواب مقتبس من القران العظيم الذى هو المعنى بالنور وبه يتم
بيان احوال من اهتدى بهداه على اوضح وجه واجلاه هذا وقد قيل قوله تعالى فى بيوت
الخ من تتمة التمثيل وكلمة فى متعلقة بمحذوف هو صفة لمشكوة اى كائنة فى بيوت
وقيل لمصباح وقيل لزجاجة وقيل متعلقة بيوقد والكل مما لا يليق بشان التنزيل
الجليل كيف لا وان ما بعد قوله تعالى ولو لم تمسسه نار على ما هو الحق او ما بعد قوله
تعالى نور على نور على ما قيل الى قوله تعالى بكل شئ عليم كلام متعلق بالمثل قطعا
فتوسيطه بين اجزاء التمثيل مع كونه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه بالاجنبى
يؤدى الى كون ذكر حال المنتفعين بالتمثيل المهتدين بنور القران الكريم بطريق الاستتباع
والاستطراد مع كون بيان حال اضدادهم مقصودا بالذات ومثل هذا مما لا عهد
به فى كلام الناس فضلا ان يحمل عليه الكلام المعجز والذين كفروا عطف على ما
ينساق اليه ما قبله كانه قيل الذين امنوا اعمالهم حالا ومالا كما وصف والذين
كفروا اعمالهم اى اعمالهم التى هى من ابواب البر كصلة الارحام وفك العناة
وسقاية الحاج وعمارة البيت واغاثة الملهوفين وقرى الاضياف ونحو ذلك
مما لو قارنه الايمان لاستتبع الثواب كما فى قوله تعالى مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم
كرماد الاية كسراب وهو ما يرى فى الفلوات من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة فيظن
انه ماء يسرب اى يجرى بقيعة متعلق بمحذوف هو صفة لسراب اى كائن
فى قاع وهى الارض المنبسطة المستوية وقيل هى جمع قاع كجيرة جمع جار وقرئ
بقيعات بتاء ممدودة كديمات اما على انها جمع قيعة او على ان الاصل قيعة

قد اشبعت

قد اشبعت فتحة العين فتولد منها الف يحسبه الظمآن ماء صفة اخرى لسراب وتخصيص
الحسبان بالظمآن مع شموله لكل من يراه كائنا من كان من العطشان والريان لتكميل التشبيه
بتحقيق شركة طرفيه فى وجه الشبه الذى هو المطلع المطمع والمقطع المؤيس حتى اذا
جاءه اى اذا جاء العطشان ما حسبه ماء وقيل موضعه لم يجده اى ما حسبه ماء وعلق
به رجاءه شيئا اصلا محققا ولا متوهما كما كان يراه من قبل فضلا عن وجدانه ماء وبه
تم حال احوال الكفرة بطريق التمثيل وقوله تعالى ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله
سريع الحساب بيان لبقية احوالهم العارضة لهم بعد ذلك بطريق التكملة لئلا يتوهم
ان قصارى امرهم هو الخيبة والقنوط فقط كما هو شان الظمآن ويظهر انه يعتريهم
بعد ذلك من سوء الحال ما لا قدر عنده للخيبة اصلا فليست الجملة معطوفة على
لم يجده شيئا بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل من عدم وجدان الكفرة من اعمالهم المذكورة
عينا ولا اثرا كما فى قوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا كيف
لا وان الحكم بان اعمال الكفرة كسراب يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا حكم
بانها بحيث يحسبونها فى الدنيا نافعة لهم فى الاخرة حتى اذا جاؤها لم يجدوها
شيئا كانه قيل حتى اذا جاء الكفرة يوم القيمة اعمالهم التى كانوا فى الدنيا يحسبونها نافعة لهم
فى الاخرة لم يجدوها شيئا ووجدوا الله اى حكمه وقضاءه عند المجئ وقيل عند العمل
فوفاهم اى اعطاهم وافيا كاملا حسابهم اى حساب اعمالهم المذكورة وجزاءها فان
اعتقادهم لنفعها بغير ايمان وعملهم بموجبه كفر على كفر موجب للعقاب قطعا وافراد
الضميرين الراجعين الى الذين كفروا اما لارادة الجنس كالظمآن الواقع فى التمثيل واما للحمل
على كل واحد منهم وكذا افراد ما يرجع الى اعمالهم هذا وقد قيل نزلت فى عتبة بن
ربيعة بن امية كانت قد تعبد فى الجاهلية ولبس المسوح والتمس الدين فلما جاء
الاسلام كفر او كظلمات عطف على كسراب وكلمة او للتنويع اثر ما مثلت اعمالهم
التى كانوا يعتمدون عليها اقوى اعتماد ويفتخرون بها فى كل واد وناد بما ذكر من حال
السراب مع زيادة حساب وعقاب مثلت اعمالهم القبيحة التى ليست فيها شائبة
خيرية يغتر بها المغترون بظلمات كائنة فى بحر لجى اى عميق كثير الماء منسوب الى اللج
هو معظم ماء البحر وقيل الى اللجة وهى ايضا معظمه يغشاه صفة اخرى للبحر اى يستره
ويغطيه بالكلية موج وقوله تعالى من فوقه موج جملة من مبتدا وخبر محلها الرفع
على انها صفة لموج او الصفة هى الجار والمجرور وموج الثانى فاعل له لاعتماده على
الموصوف والكلام فيه كما مر فى قوله تعالى نور على نور اى يغشاه امواج متراكمة متراكبة
بعضها على بعض وقوله تعالى من فوقه سحاب صفة لموج الثانى على احد الوجهين المذكورين
اى من فوق ذلك الموج سحاب ظلمانى ستر اضواء النجوم وفيه ايماء الى غاية تراكم الامواج
وتضاعفها حتى كانها بلغت السحاب ظلمات خبر مبتدا محذوف اى هى ظلمات بعضها
فوق بعض اى متكاثفة متراكمة وهذا بيان لكمال شدة الظلمات كما ان قوله تعالى
نور على نور بيان لغاية قوة النور خلا ان ذلك متعلق بالمشبه وهذا بالمشبه به كما
يعرب عنه ما بعده وقرئ بالجر على الابدال من الاولى وقرئ باضافة السحاب اليها اذا اخرج
اى من ابتلى بها واضماره من غير ذكر لدلالة المعنى عليه دلالة واضحة يده وجعلها
بمرأى منه قريبة من عينه لينظر اليها لم يكد يراها وهى اقرب شئ منه فضلا عن ان
يراها ومن لم يجعل الله له نورا الخ اعتراض تذييلى جئ به لتقرير ما افاده التمثيل
من كون اعمال الكفرة كما فصل وتحقيق ان ذلك لعدم هدايته تعالى اياهم لنوره
وايراد الموصول للاشارة بما فى حيز الصلة الى علة الحكم وانهم ممن لم يشأ الله تعالى
هدايتهم اى ومن لم يشأ الله ان يهديه لنوره الذى هو القرآن هداية خاصة
مستتبعة للاهتداء حتما ولم يوفقه للايمان به فما له من نور اى فما له هداية ما
من احد اصلا وقوله تعالى الم تر الخ استيناف خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم للايذان
بانه تعالى قد افاض عليه عليه السلام اعلى مراتب النور واجلاها وبين له من

اسرار الملك و الملكوت ادقها واخفاها والهمزة للتقرير اى قد علمت علمًا يقينًا شبيهًا بالمشاهدة
فى القوة والرصانة بالوحى الصريح والاستدلال الصحيح ان الله يسبح له اى ينزهه تعالى
على الدوام فى ذاته وصفاته وافعاله عن كل ما لا يليق بشانه الجليل من نقص او خلل
من فى السموات والارض اى ما فيهما اما بطريق الاستقرار فيهما من العقلاء وغيرهم
كاينًا من كان او بطريق الجزئية منها تنزيهًا معنويًا يفهمه العقول السليمة فان كل
موجود من الموجودات الممكنة مركبًا كان او بسيطًا فهو من حيث ماهيته و وجوده واحواله
يدل على وجود صانع واجب الوجود متصف بصفات الكمال مقدس عن كل ما لا يليق بشان
من شؤنه الجليلة وقد نبه على كمال قوة تلك الدلالة وغاية وضوحها حيث عبر عنها
بما يخص العقلاء من التسبيح الذى هو اقوى مراتب التنزيه واظهرها تنزيلا للسان الحال
منزلة لسان المقال واكد ذلك بايثار كلمة من على ما كان كل شئ مما عز وهان وكل فرد
من افراد الاعراض والاعيان عاقل ناطق و مخبر صادق بعلو شانه تعالى وعزة سلطانه
وتخصيص التنزيه بالذكر مع دلالة ما فيها على اتصافه تعالى بنعوت الكمال ايضًا لما ان مساق
الكلام لتقبيح حال الكفرة فى اخلالهم بالتنزيه بجعلهم الجمادات شركاء له فى الالوهية
ونسبتهم الى اتخاذ الولد تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا وحمل التسبيح على ما يليق بكل نوع من
انواع المخلوقات بان يراد به معنى مجازى شامل لتسبيح العقلاء وغيرهم حسبما هو
المتبادر من قوله تعالى كل قد علم صلوته وتسبيحه يرده ان بعضًا من العقلاء وهم
الكفرة من الثقلين لا يسبحونه بذلك المعنى قطعًا وانما تسبيحهم ما ذكر من الدلالة
التى يشاركهم فيها غير العقلاء ايضًا وفيه مزيد تخطئة لهم وتعيير ببيان انهم
يسبحونه تعالى باعتبار اخس جهاتهم التى هى الجمادية والجسمية والحيوانية ولا
يسبحونه باعتبار اشرفها التى هى الانسانية والطير بالرفع عطفًا على من و
تخصيصها بالذكر مع اندراجها فى جملة ما فى الارض لعدم استمرار قرارها فيها و
استقلالها بصنع بارع وانشاء رائع قصد بيان تسبيحها من تلك الجهة لوضوح انبائها
عن كمال قدرة صانعها ولطف تدبير مبدعها حسبما يعرب عنه التقييد
بقوله تعالى صافات اى تسبحه تعالى حال كونها صافات اجنحتها فان اعطاءه
تعالى للاجرام الثقيلة ما تتمكن به من الوقوف فى الجو والحركة كيف تشاء من الاجنحة
والاذناب الخفيفة وارشادها الى كيفية استعمالها بالقبض والبسط حجة نيرة
واضحة للكنون واية بينة لقوم يعقلون دالة على كمال قدرة الصانع المجيد وغاية
حكمة المبدئ المعيد وقوله تعالى كل قد علم صلوته وتسبيحه بيان لكمال عراقة
كل واحد مما ذكر فى التنزيه ورسوخ قدمه فيه بتمثيل حاله بحال من يعلم ما
يصدر عنه من الافاعيل فيفعلها عن قصد ونية لا عن اتفاق بلا روية وقد ادمج
فى تضاعيف الاشارة الى ان لكل واحد من الاشياء المذكورة مع ما ذكر من التنزيه
حاجة ذاتية اليه تعالى واستفاضة منه لما يهمه بلسان استعداده وتحقيقه ان كل
احد من الموجودات الممكنة فى حد ذاته بمعزل من استحقاق الوجود لكنه
مستعد لان يفيض عليه منه تعالى ما يليق بشانه من الوجود وما يتبعه من الكمالات
ابتداء وبقاء فهو مستفيض منه تعالى على الاستمرار فيفيض عليه فى كل آن من فنون
الفيوض المتعلقة بذاته وصفاته ما لا يحيط به نطاق البيان بحيث لو انقطع ما بينه
وبين العناية الربانية من العلاقة لانعدم بالمرة وقد عبر عن تلك الاستفاضة
المعنوية بالصلوة التى هى الدعاء والابتهال لتكميل التمثيل وافادة المزايا المذكورة
فيما مر على التفصيل وتقديمها على التسبيح فى الذكر لتقدمها عليه فى الرتبة هذا ويجوز
ان يكون العلم على حقيقته ويراد به مطلق الادراك وبما ناب عنه التنوين فى كل
انواع الطير او افرادها وبالصلوة والتسبيح ما الهمه الله تعالى كل واحد منها من
الدعاء والتسبيح المخصوصين به لكن لا على ان يكون الطير معطوفًا على كلمة من
مرفوعًا برافعها فانه يؤدى الى ان يراد بالتسبيح معنى مجازى شامل للتسبيح المقالى

والحالى

والحالى من العقلاء وغيرهم وقد عرفت ما فيه بل بفعل مضمر اريد به التسبيح المخصوص
بالطير معطوف على المذكور كما مر فى قوله تعالى كل قد علم صلوته وتسبيحه اى دعاءه
وتسبيحه اللذين الهمهما الله عز وجل اياه لبيان كمال رسوخه فيهما وان صدورهما عنه
ليس بطريق الاتفاق بلا روية بل عن علم وايقان من غير اخلال بشئ منهما حسبما
الهمه الله عز وجل فان الهامه تعالى لكل نوع من انواع المخلوقات علومًا دقيقة لا يكاد
يهتدى اليها جهابذة العقلاء مما لا سبيل الى انكاره اصلا كيف وان القنفذ مع كونه ابعد
الاشياء من الادراك قالوا انه يحس بالشمال والجنوب قبل هبوبها فيغير المدخل الى
جحرها حتى روى انه كان بقسطنطنية قبل الفتح الاسلامى رجل قد اثرى بسبب انه كان
ينذر الناس بالرياح قبل هبوبها وينتفعون بانذاره بتدارك امور سفائنهم و
غيرها وكان السبب فى ذلك انه كان يقتنى فى داره قنفذًا يستدل باحواله على ما
ذكر وتخصيص تسبيح الطير بهذا المعنى بالذكر لما ان اصواتها اظهر لما ان اصواتها اظهر
وجودًا واقرب حملا على التسبيح وقوله تعالى والله عليم بما يفعلونه اى ما يفعلونه اعتراض
مقرر لمضمون ما قبله وما على الوجه الاول عبارة عما ذكر من الدلالة الشاملة لجميع
الموجودات من العقلاء وغيرهم والتعبير عنها بالفعل مسندًا الى ضمير العقلاء لما مر غيره
وعلى الثانى اما عبارة عنها وعن التسبيح الخاص بالطير معًا او عن تسبيح الطير فقط
فالفعل على حقيقته واسناده الى ضمير العقلاء لما مر والاعتراض حينئذ مقرر لتسبيح الطير
فقط وعلى الاولين لتسبيح الكل هذا وقد قيل ان الضمير فى قوله تعالى قد علم لله عز و
جل وفى صلوته وتسبيحه لكل اى قد علم الله تعالى صلوة كل واحد مما فى السموات
والارض وتسبيحه فالاعتراض حينئذ مقرر لمضمونه على الوجهين لكن لا على ان يكون
ما عبارة عما يتعلق به علمه تعالى من صلوته وتسبيحه بل عن جميع احواله العارضة
وافعاله الصادرة عنه وهما داخلتان فيها دخولا اوليًا ولله ملك السموات
والارض لا لغيره لانه الخالق لهما ولما فيهما من الذوات والصفات وهو المتصرف
فى جميعها ايجادًا واعدامًا بدأ واعادة وقوله تعالى والى الله اى اليه تعالى خاصة
لا الى غيره المصير اى رجوع الكل بالفناء والبعث بيان لاختصاص الملك به تعالى
فى المعاد اثر بيان اختصاصه به تعالى فى المبداء واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار
لتربية المهابة والاشعار بعلة الحكم الم تر ان الله يزجى سحابًا الازجاء سوق الشئ
برفق وسهولة غلب فى سوق شئ يسير او غير معتد به ومنه البضاعة المزجاة
ففيه ايماء الى ان السحاب بالنسبة الى قدرته تعالى مما لا يعتد به ثم يؤلف بينه اى
بين اجزائه بضم بعضها الى بعض وقرئ يؤلف بغير همزة ثم يجعله ركامًا اى متراكمًا
بعضه فوق بعض فترى الودق اى المطر اثر تراكمه وتكاثفه وقوله تعالى يخرج
من خلاله اى من فتوقه حال من الودق لان الرؤية بصرية وفى تعقيب الجعل المذكور
برؤيته خارجًا لا بخروجه من المبالغة فى سرعة الخروج على طريقة قوله تعالى فقلنا
اضرب بعصاك البحر فانفلق ومن الاعتناء بتقرير الرؤية ما لا يخفى والخلال جمع خلل
كجبال وجبل وقيل مفرد كحجاب وحجاز ويؤيده انه قرئ من خلله وينزل من السماء
من الغمام فان كل ما علاك سماء من جبال اى من قطع عظام تشبه الجبال فى العظم
كائنة فيها وقوله تعالى من برد مفعول ينزل على ان من تبعيضية والاوليان
لابتداء الغاية على ان الثانية بدل اشتمال من الاولى باعادة الجار اى ينزل مبتدئًا
من السماء من جبال فيها بعض برد وقيل المفعول محذوف ومن برد بيان للجبال اى
ينزل مبتدئًا من السماء من جبال فيها من جنس البرد بردًا والاول اظهر لخلوه
عن ارتكاب الحذف والتصريح ببعضية المنزل وقيل المفعول من جبال على ان من
تبعيضية ومن برد بيان للجبال اى ينزل من السماء بعض جبال كائنة فيها من
برد اى مشبهة بالجبال فى الكثرة واياما كان فتقديم الجار والمجرور على المفعول لما
مر غير مرة من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر وقيل المراد بالسماء المظلة و

وفيها جبال من برد كما ان فى الارض جبالًا من حجر وليس فى العقل ما ينفيه من قاطع والمشهور
ان الابخرة اذا تصاعدت ولم تحللها حرارة فبلغت الطبقة البادرة من الهواء وقوى
البرد اجتمع هناك وصار سحابًا وان لم يشتد البرد تقاطر مطرًا وان اشتد فان وصل
الى الاجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجًا والا نزل بردًا وقد يبرد الهواء بردًا مفرطًا
فينقبض وينعقد سحابًا وينزل منه المطر او الثلج وكل ذلك مستند الى ارادة الله ومشيئته
المبنية على الحكم والمصالح فيصيب به اى بما ينزله من البرد من يشاء ان يصيبه به
فيناله ما يناله من ضرر نفسه وماله ويصرفه عمن يشاء ان يصرفه عنه فينجو
من غائلته يكاد سنا برقه اى ضوء برق السحاب الموصوف بما مر من الازجاء والتاليف
وغيرهما واضافة البرق اليه قبل الاخبار بوجوده فيه للايذان بظهور امره واستغنائه
عن التصريح به وقرئ بمعنى الرفعة والعلو وبادغام الدال فى السين وبرقه بفتح الراء
على انه جمع برقة وهى مقدار من البرق كالغرفة وبضمها للاتباع بضمة الباء يذهب
بالابصار اى يخطفها من فرط الاضاءة وسرعة ورودها وفى اطلاق الابصار
مزيد تهويل لامره وبيان لشدة تاثيره فيها كانه يكاد يذهب بها ولو عند الاغماض
وهذا من اقوى الدلائل على كمال القدرة من حيث انه توكيد للضد من الضد وقرئ
يذهب من الاذهاب على زيادة الباء يقلب الله الليل والنهار بالمعاقبة بينهما
او بنقص احدهما وزيادة الآخر او بتغيير احوالهما بالحر والبرد وغيرهما مما يقع فيهما
من الامور التى من جملتها ما ذكر من ازجاء السحاب وما ترتب عليه ان فى ذلك اشارة
الى ما فصل آنفًا وما فيه من معنى البعد مع قرب المشار اليه للايذان بعلو رتبته وبعد
منزلته لعبرة لدلالة واضحة على وجود الصانع القديم ووحدته وكمال قدرته
واحاطة علمه بجميع الاشياء ونفاذ مشيئته وتنزهه عما لا يليق بشانه العلى
لاولى الابصار لكل من له بصر والله خلق كل دابة اى خلق كل حيوان يدب
على الارض وقرئ خالق كل دابة بالاضافة من ماء هو جزء مادته او ماء مخصوص
هو النطفة فيكون تنزيلا للغالب منزلة الكل لان من الحيوانات ما يتولد لا عن نطفة
وقيل من ماء متعلق بدابة وليست صلة للخلق فمنهم من يمشى على بطنه كالحية
وتسمية حركتها مشيًا مع كونها زحفًا بطريق الاستعارة او المشاكلة ومنهم من
يمشى على رجلين كالانس والطير ومنهم من يمشى على اربع كالنعم والوحش
وعدم التعرض لما يمشى على اكثر من اربع كالعناكب ونحوها من الحشرات لعدم الاعتداد
بها وتذكير الضمير فى منهم لتغليب العقلاء والتعبير عن الاصناف بكلمة من ليوافق
التفصيل الاجمال والترتيب لتقديم ما هو اعرف فى القدرة يخلق الله ما يشاء
مما ذكر ومما لم يذكر بسيطًا كان او مركبًا على ما يشاء من الصور والاعضاء
والهيئات والحركات والطبائع والافاعيل مع اتحاد العنصر واظهار الاسم الجليل
فى موضع الاضمار لتفخيم شان الخلق المذكور والايذان بانه من احكام الالوهية
ان الله على كل شئ قدير فيفعل ما يشاء كما يشاء واظهار الجلالة لما ذكر مع تاكيد
استقلال الاستيناف التعليلى لقد انزلنا آيات مبينات اى لكل ما يليق بيانه
من الاحكام الدينية والاسرار التكوينية والله يهدى من يشاء ان يهديه
بتوفيقه للنظر الصحيح فيها وارشاده الى التامل فى مطاويها الى صراط مستقيم
موصل الى حقيقة الحق والفوز بالجنة ويقولون آمنا بالله وبالرسول شروع
فى بيان احوال بعض من لم يشاء الله هدايته الى الصراط المستقيم قال الحسن نزلت
فى المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان ويسرون الكفر وقيل نزلت فى بشر المنافق
خاصم يهوديًا فدعاه الى كعب بن الاشرف واليهودى يدعوه الى النبى صلى الله عليه
وسلم وقيل فى المغيرة بن وائل خاصم عليًا رضى الله عنه فى ارض فى ماء فابى ان
يحاكم الى الرسول صلعم وايًا ما كان فصيغة الجمع للايذان بان للقائل طائفة يساعدونه
ويشايعونه فى تلك المقالة كما يقال بنو فلان قتلوا فلانًا والقاتل واحد منهم واطعنا

اى اطعناهما

اى اطعناهما فى الامر والنهى ثم يتولى عن قبول حكمه فريق منهم من بعد ذلك اى من
بعد ما صدر عنهم ما صدر من ادعاء الايمان بالله وبالرسول والطاعة لهما على
التفصيل وما فى ذلك من معنى البعد للايذان بكونه امرًا معتدًا به واجب الرعاية وما اولئك
اشارة الى القائلين لا الى الفريق المتولى منهم فقط لعدم اقتضاء نفى الايمان عنهم نفيه
عن الاولين بخلاف العكس فان نفيه عن القائلين مقتض لنفيه عنهم على ابلغ وجه وآكده
وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلتهم فى الكفر والفساد اى وما اولئك
الذين يدعون الايمان والطاعة ثم يتولى بعضهم الذين يشاركونهم فى العقد
والعمل بالمؤمنين اى المؤمنين حقيقة كما يعرب عنه اللام اى ليسوا بالمؤمنين المعهودين
بالاخلاص فى الايمان والثبات عليه واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم اى الرسول
بينهم لانه المباشر للحكم حقيقة وان كان ذلك حكم الله تعالى حقيقة وذكر الله تعالى
لتفخيمه عليه السلام والايذان بجلالة محله عنده تعالى اذا فريق منهم معرضون
اى فاجأ فريق منهم الاعراض عن المحاكمة اليه عليه السلام لكون الحق عليهم وعلمهم
بانه عليه السلام يحكم بالحق عليهم وهو شرح للتولى ومبالغة فيه وان يكن لهم الحق
لا عليهم يأتوا اليه مذعنين منقادين لجزمهم بانه عليه السلام يحكم لهم والى
صلة ليأتوا فان الاتيان والمجئ يعديان بالى او لمذعنين على تضمين معنى الاسراع والاقبال
كما فى قوله تعالى فاقبلوا اليه يزفون والتقديم للاختصاص افى قلوبهم مرض
انكار واستقباح لاعراضهم المذكور وبيان لمنشائه بعد استقصاء عدة من
القبائح المحققة فيهم والمتوقعة منهم وترديد المنشائية بينها فمدار الاستفهام
ليس نفس ما وليته الهمزة وام من الامور الثلاثة بل هو منشائيتها له كانه قيل
اذلك اى اعراضهم المذكور لانهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم ام لانهم ارتابوا
فى امر نبوته عليه السلام مع ظهور حقيتها ام لانهم يخافون ان يحيف الله عليهم
ورسوله ثم اضرب عن الكل وابطلت منشائيته وحكم بان المنشئ شئ آخر من شنائعهم
حيث قيل بل اولئك هم الظالمون اى ليس ذلك لشئ مما ذكر اما الاولان فلانه لو كان
لشئ منهما لاعرضوا عنه عليه السلام عند كون الحق لهم ولما اتوا اليه عليه السلام
مذعنين لحكمه لتحقق نفاقهم وارتيابهم حينئذ ايضًا واما الثالث فلانتفائه رأسًا
حيث كانوا لا يخافون الحيف اصلا لمعرفتهم بتفاصيل احواله عليه السلام فى الامانة
والثبات على الحق بل لانهم هم الظالمون يريدون ان يظلموا من له الحق عليهم ويتم
لهم جحوده فيأبون المحاكمة اليه عليه السلام لعلمهم بانه عليه السلام يقضى عليهم
بالحق فمناط النفى المستفاد من الاضراب فى الاولين هو وصف منشائيتهما للاعراض
فقط مع تحققهما فى نفسهما وفى الثالث هو الاصل والوصف جميعا هذا وقد خص
الارتياب بما له منشأ مصحح لعروضه لهم فى الجملة والمعنى ام ارتابوا بان رأوا منه
عليه السلام تهمة فزالت ثقتهم ويقينهم به عليه السلام فمدار النفى حينئذ
نفس الارتياب ومنشئيته معًا فتأمل فيما ذكر على التفصيل ودع عنك ما قيل وقيل
حسبما يقتضيه النظر الجليل انما كان قول المؤمنين بالنصب على انه خبر كان وان
مع ما فى حيزها اسمها وقرئ بالرفع على العكس والاول اقوى صناعة لان الاولى
للاسمية ما هو اوغل فى التعريف وذلك هو الفعل المصدر بان لا سبيل اليه للتنكير
بخلاف قول المؤمنين فانه يحتمله كما اذا احتزلت عنه الاضافة لكن قراءة الرفع اقعد
بحسب المعنى واوفى لمقتضى المقام لما ان مصب الفائدة وموقع البيان فى الجمل هو
الخبر فالاحق بالخبرية ما هو اكثر افادة واظهر دلالة على الحدوث واوفر اشتمالا
على نسب خاصة بعيدة من الوقوع فى الخارج وفى ذهن السامع ولا ريب فى ان ذلك ههنا
فى ان مع ما فى حيزها اتم واكمل فاذن هو الحقيق بالخبرية واما ما تفيده الاضافة من
النسبة المطلقة الاجمالية فحيث كانت قليلة الجدوى سهلة الحصول خارجًا وذهنًا
كان حقها ان تلاحظه ملاحظة مجملة وتجعل عنوانًا للموضوع فالمعنى انما كان مطلق

القول الصادر عن المؤمنين ﴿إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم﴾ أي الرسول عليه السلام ﴿بينهم﴾ أي وبين خصومهم سواء كانوا منهم أو من غيرهم ﴿أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ أي خصوصية هذا القول المحكي عنهم لا قولا آخر أصلا وأما قراءة النصب فمعناها إنما كان قول المؤمنين إنما كان قولا لهم عند الدعوة خصوصية قولهم المحكي عنهم ففيه من جعل أخص النسبتين وأبعدهما وقوعا وحضورا في الأذهان وأحقهما بالبيان مفروغا عنها عنوانا للموضوع وإبراز ما هو بخلافها في معرض القصد الأصلي ما لا يخفى وقرئ ليحكم على بناء الفعل للمفعول مسندا إلى مصدره مجازا كقوله تعالى ﴿لقد تقطع بينكم﴾ أي وقع بينكم ﴿وأولئك﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار صدور القول المذكور عنهم وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم في الفضل أي أولئك المنعوتون بما ذكر من النعت الجميل ﴿هم المفلحون﴾ أي هم الفائزون بكل مطلب والناجون عن كل محذور ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ استئناف جيء به لتقرير مضمون ما قبله من حسن حال المؤمنين وترغيب من عداهم في الانتظام في سلكهم أي ومن يطعهما كائنا من كان فيما أمرا به من الأحكام الشرعية اللازمة والمتعدية وقيل في الفرائض والسنن والأول هو الأنسب للمقام ﴿ويخش الله ويتقه﴾ بإسكان القاف المبني على تشبيهه بكتف وقرئ بكسر القاف والهاء وبإسكان الهاء أي ويخش الله على ما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل ﴿فأولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من الطاعة والخشية والاتقاء ﴿هم الفائزون﴾ بالنعيم المقيم لا من عداهم ﴿وأقسموا بالله﴾ حكاية لبعض آخر من أكاذيبهم مؤكد بالأيمان الفاجرة وقوله تعالى ﴿جهد أيمانهم﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد لفعله الذي هو في حيز النصب على أنه حال من فاعل أقسموا أي أقسموا به تعالى يجهدون أيمانهم جهدا ومعنى جهد اليمين بلوغ غايتها بطريق الاستعارة من قولهم جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها أي جاهدين بالغين أقصى مراتب اليمين في الشدة والوكادة وقيل هو مصدر مؤكد لأقسموا أي أقسموا أقسام اجتهاد في اليمين قال مقاتل من حلف بالله فقد اجتهد في اليمين ﴿لئن أمرتهم﴾ أي بالخروج إلى الغزو لا عن ديارهم وأموالهم كما قيل لأنه حكاية لما كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا وإن أقمت أقمنا وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا وقوله تعالى ﴿ليخرجن﴾ جواب لأقسموا بطريق حكاية فعلهم لا حكاية قولهم وحيث كانت مقالتهم هذه كاذبة ويمينهم فاجرة أمر عليه السلام بردها حيث قيل ﴿قل﴾ أي ردا عليهم وزجرا لهم عن التفوه بها وإظهارا لعدم القبول لكونهم كاذبين فيها ﴿لا تقسموا﴾ أي على ما ينبئ عنه كلامكم من الطاعة وقوله تعالى ﴿طاعة معروفة﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة تعليل للنهي أي لا تقسموا على ما تدعون من الطاعة لأن طاعتكم طاعة نفاقية واقعة باللسان فقط من غير مواطأة من القلب وإنما عبر عنها بمعروفة للإيذان بأن كونها كذلك مشهور معروف لكل أحد وقرئ بالنصب والمعنى تطيعون طاعة معروفة هذا وحملها على الطاعة الحقيقية بتقدير ما يناسبها من مبتدأ أو خبر أو فعل مثل الذي يطلب منكم طاعة معروفة حقيقية لا نفاقية أو طاعة معروفة أمثل أو لتكن طاعة معروفة أو أطيعوا طاعة معروفة مما لا يساعده المقام ﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة التي من جملتها ما تظهرونه من الأكاذيب المؤكدة بالأيمان الفاجرة وما تضمرونه في قلوبكم من الكفر والنفاق والعزيمة على مخادعة المؤمنين وغيرها من فنون الشر والفساد والجملة تعليل للحكم بأن طاعتهم طاعة نفاقية مشعر بأن مدار شهرة أمرها فيما بين المؤمنين إخباره تعالى بذلك ووعيد لهم بأنه تعالى مجازيهم بجميع أعمالهم السيئة التي منها نفاقهم ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ كرر الأمر بالقول لإبراز كمال العناية به والإشعار باختلافهما من حيث إن المقول في الأول نهي بطريق الرد كما في قوله تعالى ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ وفي الثاني أمر بطريق التكليف

والتشريع وإطلاق الطاعة المأمور بها عن وصف الصحة والإخلاص ونحوهما بعد وصف طاعتهم بما ذكر للتنبيه على أنها ليست من الطاعة في شيء أصلا وقوله تعالى ﴿فإن تولوا﴾ خطاب للمأمورين بالطاعة من جهته تعالى وارد لتأكيد الأمر بها والمبالغة في إيجاب الامتثال به والحمل عليه بالترهيب والترغيب لما أن تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعاني وصرفه عن سننه المسلوك ينبئ عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم ويستجلب مزيد رغبة فيه من السامع كما أشير إليه في تفسير قوله تعالى ﴿ولو جئنا بمثله مددا﴾ لا سيما إذا كان ذلك بتغيير الخطاب بالواسطة إلى الخطاب بالذات فإن في خطابه تعالى إياهم بالذات بعد أمره تعالى إياهم بوساطته عليه السلام وتصديه لبيان حكم الامتثال بالأمر والتولي عنه إجمالا وتفصيلا من إفادة ما ذكر من التأكيد والمبالغة ما لا غاية وراءه وتوهم أنه داخل تحت القول المأمور بحكايته من جهته تعالى وأنه أبلغ في التبكيت تعكيس للأمر والفاء لترتيب ما بعدها على تبليغه عليه السلام للمأمور به إليهم وعدم التصريح به للإيذان بغاية ظهور مسارعته عليه السلام إلى تبليغ ما أمر به وعدم الحاجة إلى الذكر أي إن تتولوا عن الطاعة إثر ما أمرتم بها ﴿فإنما عليه﴾ أي فاعلموا إنما عليه عليه السلام ﴿ما حمل﴾ أي أمر به من التبليغ وقد شاهدتموه عند قوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴿وعليكم ما حملتم﴾ أي ما أمرتم به من الطاعة ولعل التعبير عنه بالتحميل للإشعار بثقله وكونه مؤنة باقية في عهدتهم بعد كأنه قيل وحيث توليتم عن ذلك فقد بقيتم تحت ذلك الحمل الثقيل وقوله تعالى ما حمل محمول على المشاكلة ﴿وإن تطيعوه﴾ أي فيما أمركم به من الطاعة ﴿تهتدوا﴾ إلى الحق الذي هو المقصد الأصلي الموصل إلى كل خير والمنجي عن كل شر وتأخيره عن بيان حكم التولي لما في تقديم الترهيب من تأكيد الترغيب وتقريبه مما هو من بابه من الوعد الكريم وقوله تعالى ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ اعتراض مقرر لما قبله من أن غائلة التولي وفائدة الإطاعة مقصورتان عليهم واللام إما للجنس المنتظم له عليه السلام انتظاما أوليا أو للعهد أي ما على جنس الرسول كائنا من كان أو ما عليه عليه السلام إلا التبليغ الموضح لكل ما يحتاج إلى الإيضاح أو الواضح على أن المبين من أبان بمعنى بان وقد علمتم أنه قد فعله بما لا مزيد عليه وإنما بقي ما حملتم وقوله تعالى ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم﴾ استئناف مقرر لما في قوله تعالى وإن تطيعوه تهتدوا من الوعد الكريم ومعرب عنه بطريق التصريح ومبين لتفاصيل ما أجمل فيه من فنون العادات الدينية والدنيوية التي هي من آثار الاهتداء ومتضمن لما هو المراد بالطاعة التي نيط بها الاهتداء والمراد بالذين آمنوا كل من اتصف بالإيمان بعد الكفر على الإطلاق من أي طائفة كان وفي أي وقت كان لا من آمن من طائفة المنافقين فقط ولا من آمن بعد نزول الآية الكريمة فحسب ضرورة عموم الوعد الكريم للكل كافة فالخطاب في منكم لعامة الكفرة لا للمنافقين خاصة ومن تبعيضية ﴿وعملوا الصالحات﴾ عطف على آمنوا داخل معه في حيز الصلة وبه يتم تفسير الطاعة التي أمر بها ورتب عليها ما نظم في سلك الوعد الكريم كما أشير إليه وتوسيط الظرف بين المعطوفين لإظهار أصالة الإيمان وعراقته في استتباع الآثار والأحكام والإيذان بكونه أول ما يطلب منهم وأهم ما يجب عليهم وأما تأخيره عنهما في قوله وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما فلأن من هناك بيانية والضمير للذين معه عليه الصلاة والسلام من خلص المؤمنين ولا ريب في أنهم جامعون بين الإيمان والأعمال الصالحة مثابرون عليهما فلا بد من ورود بيانهم بعد ذكر نعوتهم الجليلة كما لا يخفى هذا ومن جعل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللأمة عموما على أن من تبعيضية أو له عليه السلام ولمن معه من المؤمنين خصوصا على أنها بيانية فقد نأى عما يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقه بمنازل أو بعد عما يليق بشأنه عليه السلام بمراحل ﴿ليستخلفنهم في الأرض﴾ جواب للقسم إما بالإضمار أو بتنزيل وعده تعالى منزلة القسم لتحقق إنجازه لا محالة أي ليجعلنهم خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك

في ممالكهم او خلفاء من الذين لم يكونوا على حالهم من الايمان والاعمال الصالحة كما استخلف
الذين من قبلهم هم بنوا اسرائيل استخلفهم الله عز وجل في مصر والشام بعد اهلاك
فرعون والجبابرة او هم ومن قبلهم من الامم المؤمنة التي اشير اليهم في قوله تعالى
الم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم
الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات الى قوله تعالى فاوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين
ولنسكننكم الارض من بعدهم ومحل الكاف النصب على انه مصدر تشبيهي مؤكد
لفعل بعد تاكيده بالقسم وما مصدرية اى ليستخلفنهم استخلافا كائنا كاستخلافه
تعالى الذين من قبلهم وقرئ كما استخلف على البناء للمفعول فليس العامل في الكاف
حينئذ الفعل المذكور بل ما يدل هو عليه من فعل مبني للمفعول جار منه مجرى المطاوع
فان استخلافه تعالى اياهم مستلزم لكونهم مستخلفين لا محالة كانه قيل ليستخلفنهم
فيها اى في الارض فيستخلفن فيها استخلافا اى مستخلفية كائنة كمستخلفية من
قبلهم وقد مر تحقيقه في قوله تعالى كما سئل موسى من قبل ومن هذا القبيل قوله
تعالى فانبته الله نباتا حسنا على احد الوجهين اى فنبت نباتا حسنا وعليه قول من
قال وعضة دهر يا ابن مروان لم يدع من المال الا مسحت او مجلف اى فلم يبق
مسحت الخ ويمكنن لهم دينهم عطف على ليستخلفنهم منتظم معه في سلك
الجواب وتاخيره عنه مع كونه اجل الرغائب الموعودة واعظمها لما ان النفوس الى الحظوظ
العاجلة اميل فتصدير المواعيد بها في الاستمالة ادخل والمعنى ليجعلن دينهم ثابتا مقررا
بحيث يستمرون على العمل باحكامه ويرجعون اليه في كل ما يأتون وما يذرون والتعبير
عن ذلك بالتمكين الذي هو جعل الشيء مكانا لآخر يقال مكن له في الارض اى جعلها مقرا
له ومنه قوله تعالى انا مكنا له في الارض ونظائره وكلمة في للايذان بان ما جعل مقرا له قطعة
منها لا كلها للدلالة على كمال ثبات الدين ورصانة احكامه وسلامته عن التغيير والتبديل
لابتنائه على تشبيه بالارض في الثبات والقرار مع ما فيه من مراعاة المناسبة بينه و
بين الاستخلاف في الارض وتقديم صلة التمكين على مفعوله الصريح للمسارعة الى بيان
كون الموعود من منافعهم تشويقا لهم اليه وترغيبا لهم في قبوله عند وروده ولان في
توسيطها بينه وبين وصفه اعني قوله تعالى الذي ارتضى لهم وتاخيرها عنه من الاخلال
بجزالة النظم الكريم ما لا يخفى وفي اضافة الدين اليهم وهو دين الاسلام ثم وصفه
بارتضائه لهم تأليف لقلوبهم ومزيد ترغيب فيه وفضل تثبيت عليه وليبدلنهم
بالتشديد وقرئ بالتخفيف من الابدال من بعد خوفهم اى من الاعداء امنا حيث
كان اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة عشر سنين بل اكثر خائفين ثم هاجروا
الى المدينة وكانوا يصبحون في السلاح ويمسون كذلك حتى قال رجل منهم ما يأتي علينا
يوم نأمن فيه فقال عليه السلام لا تغبرون الا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ
العظيم محتبيا ليس معه حديدة فانزل الله عز وجل هذه الآية وانجز وعده واظهرهم
على جزيرة العرب وفتح لهم بلاد الشرق والغرب وصاروا الى حال يخافهم كل من عداهم
وفيه من الدلالة على صحة النبوة للاخبار بالغيب على ما هو عليه قبل وقوعه ما لا يخفى
وقيل المراد الخوف من العذاب والامن منه في الآخرة يعبدونني حال من الموصول الاول
مفيدة لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد او استئناف ببيان المقتضي للاستخلاف
وما انتظم معه في سلك الوعد لا يشركون بي شيئا حال من الواو اى يعبدونني غير مشركين
بي في العبادة شيئا ومن كفر اى اتصف بالكفر بان ثبت واستمر عليه ولم يتأثر بما
مر من الترهيب والترغيب فان الاصرار عليه بعد مشاهدة دلائل التوحيد كفر مستأنف
زائد على الاصل وقيل كفر بعد الايمان وقيل كفر هذه النعمة العظيمة والاول هو الانسب
بالمقام بعد ذلك اى بعد ذلك الوعد الكريم بما فصل من المطالب العالية المستوجبة
لغاية الاهتمام بتحصيلها والسعي الجميل في حيازتها فاولئك البادون عن الحق
التائهون في تيه الغواية والضلالة هم الفاسقون الكاملون في الفسق

والخروج عن حدود الكفر والطغيان واقيموا الصلوة واتوا الزكوة عطف على مقدر
ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام فان خطابه تعالى للمأمورين بالطاعة على
طريق الترهيب من التولي بقوله تعالى فان تولوا الى الخ وترغيبه تعالى اياهم في الطاعة
بقوله تعالى وان تطيعوه تهتدوا الخ ووعده تعالى اياهم على الايمان والعمل الصالح بما فصل
من الاستخلاف وما يتلوه من الرغائب الموعودة ووعيده على الكفر مما يوجب الامر
بالايمان والعمل الصالح والنهي عن الكفر فكانه قيل فآمنوا واعملوا صالحا واقيموا او فلا
تكفروا واقيموا وعطفه على اطيعوا الله مما لا يليق بجزالة النظم الكريم واطيعوا الرسول
امرهم الله سبحانه بالذات بما امرهم به بواسطة الرسول عليه السلام من طاعته التي
هي طاعته تعالى في الحقيقة تاكيدا للامر السابق وتقريرا لمضمونه على ان المراد بالمطاع
فيه جميع الاحكام الشرعية المنتظمة للآداب المرضية ايضا اى واطيعوه في كل ما
يأمركم به وينهاكم عنه او تكميلا لما قبله من الامرين الخاصين المتعلقين بالصلوة
والزكوة على ان المراد بما عداهما من الشرائع اى واطيعوه في سائر ما يأمركم
به الخ وقوله تعالى لعلكم ترحمون متعلق على الاول بالامر الاخير المشتمل على جميع
الاوامر وعلى الثاني بالاوامر الثلاثة اى افعلوا ما ذكر من الاقامة والايتاء والاطاعة
راجين ان ترحموا لا تحسبن الذين كفروا لما بين حال من اطاعه عليه السلام
واشير الى فوزه بالرحمة المطلقة المستتبعة لسعادة الدارين عقب ذلك ببيان حال
من عصاه عليه السلام وما آل امره في الدنيا والآخرة بعد بيان تناهيه في الفسق تكميلا
لامر الترغيب والترهيب والخطاب اما لكل احد ممن يصلح له كائنا من كان واما
للرسول صلى الله عليه وسلم على منهاج قوله تعالى فلا تكونن من المشركين ونظائره
للايذان بان الحسبان المذكور من القبح والمحذورية بحيث ينهى عنه من يمتنع صدوره
عنه فكيف بمن يمكن ذلك منه ومحل الموصول النصب على انه مفعول اول للحسبان
وقوله تعالى معجزين ثانيهما وقوله تعالى في الارض ظرف معجزين لكن لا لافادة كون
الاعجاز المنفي فيها لا في غيرها فان ذلك مما لا يحتاج الى البيان بل لافادة شمول عدم
الاعجاز لجميع اجزائها اى لا تحسبنهم معجزين الله عز وجل عن ادراكهم واهلاكهم في
قطر من اقطار الارض بما رحبت وان هربوا منها كل مهرب وقرئ لا يحسبن بياء الغيبة على
ان الفاعل كل احد والمعنى كما ذكر اى لا يحسبن احد الكافرين معجزين له سبحانه في الارض
او هو الموصول والمفعول الاول محذوف لكونه عبارة عن انفسهم كانه قيل لا
يحسبن الكافرون انفسهم معجزين في الارض وانما جعل معجزين مفعولا اولا وفي
الارض مفعولا ثانيا فبمعزل من المطابقة لمقتضى المقام ضرورة ان مصب الفائدة
هو المفعول الثاني ولا فائدة في بيان كون المعجزين في الارض وقد مر في قوله تعالى
في الارض خليفة وقوله تعالى ومأواهم النار معطوف على جملة النهي
بتأويلها بجملة خبرية لان المقصود بالنهي عن الحسبان تحقيق نفي الحسبان كانه قيل
ليس الذين كفروا معجزين ومأواهم الخ او على جملة مقدرة وقعت تعليلا للنهي كانه
قيل لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الارض فانهم مدركون ومأواهم الخ وقيل
الجملة المقدرة بل هم مقهورون فتدبر ولبئس المصير جواب لقسم مقدر و
المخصوص بالذم محذوف اى وبالله لبئس المصير هي النار والجملة اعتراض تذييلي
مقرر لما قبله وفي ايراد النار بعنوان كونها مأوى ومصيرا لهم اثر نفي فوتهم بالهرب
في الارض كل مهرب من الجزالة ما لا غاية وراءه فلله در شأن التنزيل يا ايها الذين
آمنوا رجوع الى بيان تتمة الاحكام السابقة بعد تمهيد ما يوجب الامتثال بالاوامر
والنواهي الواردة فيها وفي الاحكام اللاحقة من التمثيلات والترغيب والترهيب
والوعد والوعيد والخطاب اما للرجال خاصة والنساء داخلات في الحكم بدلالة
النص او للفريقين جميعا بطريق التغليب روي ان غلاما لاسماء بنت ابي مرثد
دخل عليها في وقت كرهته فنزلت وقيل ارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدلجا

اى ص

بن عمرو الانصاري وكان غلاما وقت الظهيرة ليدعو عمر رضي الله عنه فدخل عليه وهو
نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر رضي الله عنه لوددت ان الله تعالى نهى اباءنا
وابناءنا وخدمنا ان لا يدخلوا علينا هذه الساعات الا باذن ثم انطلق معه الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجده وقد انزلت عليه هذه الاية ليستاذنكم
الذين ملكت ايمانكم من العبيد والجواري والذين لم يبلغوا الحلم اي الصبيان
القاصرون عن درجة البلوغ المعهود والتعبير عنه بالحلم لكونه اظهر دلائله منكم
اي من الاحرار ثلاث مرات اي ثلاثة اوقات في اليوم والليلة والتعبير عنها بالمرات
للايذان بان مدار وجوب الاستئذان مقارنة تلك الاوقات لمرور المستاذنين
بالمخاطبين لا انفسها من قبل صلوة الفجر لظهور انه وقت القيام عن المضاجع وطرح
ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة ومحله النصب على انه بدل من ثلث مرات او الرفع
على انه خبر لمبتدأ محذوف اي احدها من قبل الخ وحين تضعون ثيابكم اي ثيابكم
التي تلبسونها في النهار وتخلعونها لاجل القيلولة وقوله تعالى من الظهيرة وهي شدة
الحر عند انتصاف النهار بيان للحين والتصريح بمدار الامر اعني وضع الثياب في هذا
الحين دون الاول والاخر لما ان التجرد عن الثياب فيه لاجل القيلولة لقلة زمانها كما
ينبئ عنه ايراد الحين مضافا الى فعل حادث متقض ووقوعها في النهار الذي هو مئنة
لكثرة الورود والصدور ومظنة لظهور الاحوال وبروز الامور ليس من التحقق والاطراد
بمنزلة ما في الوقتين المذكورين فان تحقق التجرد واطراده فيهما امر معروف لا يحتاج الى
التصريح به ومن بعد صلوة العشاء ضرورة انه وقت التجرد عن اللباس والالتحاف باللحاف
وليس المراد بالقبلية والبعدية المذكورتين مطلقهما المتحقق في الوقت الممتد المتخلل بين
الصلوتين كما في قوله تعالى وان كنت من قبله لمن الغافلين وقوله تعالى من بعد ان نزغ الشيطان
بيني وبين اخوتي بل ما يعرض منهما لطرفي ذلك الوقت الممتد المتصلين بالصلوتين المذكورتين
اتصالا عاديا وقوله تعالى ثلاث عورات خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى لكم متعلق
بمحذوف هو صفة لثلاث عورات اي كائنة لكم والجملة استيناف مسوق لبيان علة
وجوب الاستئذان اي هن ثلاثة اوقات يختل بها التستر عادة والعورة في الاصل هو
الخلل غلب في الخلل الواقع فيما يهم حفظه ويعتني بستره اطلقت على الاوقات المشتملة عليها
مبالغة كانها نفس العورة وقرئ ثلاث عورات بالنصب بدلا من ثلث مرات ليس عليكم ولا
عليهم اي على المماليك والصبيان جناح اي اثم في الدخول بغير استئذان لعدم ما يوجبه
من مخالفة الامر والاطلاع على العورات بعدهن اي بعد كل واحد من تلك العورات
الثلاث وهي الاوقات المتخللة بين كل اثنتين منهن وايرادها بعنوان البعدية مع ان كل
وقت من تلك الاوقات قبل عورة من العورات كما انها بعد اخرى منهن لتوفية حق
التكليف في الترخيص الذي هو عبارة عن رفعه اذ الرخصة انما تتصور في فعل يقع بعد
زمان وقوع الفعل المكلف به والجملة على القراءتين مستانفة مسوقة لتقرير ما قبلها بالطرد
والعكس وقد جوز على القراءة الاولى كونها في محل الرفع على انها صفة اخرى لثلث عورات
واما على القراءة الثانية فهي مستانفة لا غير اذ لو جعلت صفة لثلث عورات وهي بدل
من ثلث مرات لكان التقدير ليستاذنكم هؤلاء في ثلاث عورات لا اثم في ترك الاستئذان
بعدهن وحيث كان انتفاء الاثم حينئذ مما لم يعلمه السامع الا بهذا الكلام لم يتسن
ابرازه في معرض الصفة بخلاف قراءة الرفع فان انتفاء الاثم حينئذ معلوم من صدر الكلام
وقوله تعالى طوافون عليكم استيناف ببيان العذر المرخص في ترك الاستئذان وهي
المخالطة الضرورية وكثرة المداخلة وفيه دليل على تعليل الاحكام وكذا في الفرق بين
الاوقات الثلاثة وبين غيرها بكونها عورات بعضكم على بعض اي بعضكم
طائف على بعض طوافا كثيرا او بعضكم يطوف على بعض كذلك اشارة الى مصدر
الفعل الذي بعده وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا من تفخيم شان المشار اليه والايذان
ببعد منزلته وكونه من الوضوح بمنزلة المشار اليه حسا اي مثل ذلك التبيين يبين الله

لكم

لكم الايات الدالة على الاحكام اي ينزلها مبينة واضحة الدلالات عليها لا انه تعالى
يبينها بعد ان لم تكن كذلك والكاف مقحمة وقد مر تفصيله في قوله تعالى وكذلك جعلناكم
امة وسطا ولكم متعلق بيبين وتقديمه على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام
بالمقدم والتشويق الى المؤخر وقيل يبين على الاحكام وليس بواضح مع انه مؤد الى
تخصيص الايات بما ذكر ههنا والله عليم مبالغ في العلم بجميع المعلومات فيعلم احوالكم
حكيم في جميع افاعيله فيشرع لكم ما فيه صلاح امركم معاشا ومعادا واذا بلغ الاطفال
منكم الحلم لما بين فيما مر انفا حكم الاطفال في انه لا جناح في ترك الاستئذان فيما عدا
الاوقات الثلثة عقب ببيان حالهم بعد البلوغ دفعا لما عسى يتوهم انهم وان كانوا اجانب
ليسوا كسائر الاجانب بسبب اعتيادهم الدخول اي اذا بلغ الاطفال الاحرار الاجانب
فليستاذنوا اذا ارادوا الدخول عليكم وقوله تعالى كما استاذن الذين من قبلهم
في حيز النصب على انه نعت لمصدر مؤكد للفعل السابق والموصول عبارة عمن قيل
لهم لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستانسوا الاية ووصفهم بكونهم قبل هؤلاء
باعتبار ذكرهم قبل ذكرهم لا باعتبار بلوغهم قبل بلوغهم كما قيل لما ان المقصود بالتشبيه
بيان كيفية استيذان هؤلاء وزيادة ايضاحه ولا يتسنى ذلك الا بتشبيهه باستيذان
المعهودين عند السامع ولا ريب في ان بلوغهم قبل بلوغ هؤلاء مما لا يخطر ببال
احد وان كان الامر كذلك في الواقع وانما المعهود المعروف ذكرهم قبل ذكرهم اي
فليستاذنوا استيذانا كائنا مثل استيذان المذكورين قبلهم بان يستاذنوا في جميع
الاوقات ويرجعوا ان قيل لهم ارجعوا حسبما فصل فيما سلف كذلك يبين الله لكم
اياته والله عليم حكيم الكلام فيه كالذي سبق والتكرير للتاكيد والمبالغة في الامر
بالاستيذان واضافة الايات الى ضمير الجلالة لتشريفها والقواعد من النساء اي العجائز
اللاتي قعدن عن الحيض والحمل اللاتي لا يرجون نكاحا اي لا يطمعن فيه لكبرهن
فليس عليهن جناح ان يضعن ثيابهن اي الثياب الظاهرة كالجلباب ونحوه و
الفاء فيه لان اللام في القواعد بمعنى اللاتي او للوصف بها غير متبرجات بزينة غير
مظهرات لزينة مما امر باخفائه في قوله تعالى ولا يبدين زينتهن واصل التبرج التكلف
في اظهار ما يخفى من قولهم سفينة بارجة لا غطاء عليها والبرج سعة العين بحيث
يرى بياضها محيطا بسوادها كله الا انه خص بكشف المراة زينتها ومحاسنها للرجال
وان يستعففن بترك الوضع خير لهن من الوضع لبعده من التهمة والله سميع
مبالغ في سمع جميع ما يسمع فيسمع ما يجري بينهن وبين الرجال من المقاولة عليم
فيعلم مقاصدهن وفيه من الترهيب ما لا يخفى ليس على الاعمى حرج ولا على
الاعرج حرج ولا على المريض حرج كانت هؤلاء الطوائف يتحرجون من مواكلة
الاصحاء حذرا من استقذارهم اياهم وخوفا من تاذيهم بافعالهم واوضاعهم
فان الاعمى ربما سبقت يده الى ما سبقت اليه عين اكيله وهو لا يشعر به والاعرج
يتفسح في مجلسه فياخذ اكثر من موضعه فيضيق على جليسه والمريض لا يخلو عن حالة تؤذي
قرينه وقيل كانوا يدخلون على الرجل لطلب العلم فاذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب
بهم الى بيوت ابائهم وامهاتهم او الى بعض من سماهم الله عز وجل في الاية الكريمة
فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون ذهب بنا الى بيت غيره ولعل اهله كارهون لذلك
وكذا كانوا يتحرجون من الاكل من اموال الذين كانوا اذا خرجوا الى الغزو خلفوا
هؤلاء الضعفاء في بيوتهم ودفعوا اليهم مفاتيحها واذنوا لهم ان ياكلوا مما
فيها مخافة ان لا يكون اذنهم عن طيب نفس منهم وكان غير هؤلاء ايضا يتحرجون
من الاكل في بيوت غيرهم فقيل لهم ليس على الطوائف المعدودة ولا على انفسكم
اي عليكم وعلى من يماثلكم في الاحوال من المؤمنين حرج ان تاكلوا اي تاكلوا
انتم وهو معكم وتعميم الخطاب للطوائف المذكورة ايضا يأباه ما قبله وما بعده
فان الخطاب فيهما لغير اولئك الطوائف حتما من بيوتكم اي البيوت التي فيها ازواجكم

دعيائكم فيدخل فيها بيوت الاولاد لان بيتهم كبيته لقوله عليه السلام انت ومالك
لابيك وقوله عليه السلام ان اطيب مال الرجال من كسبه وان ولده من كسبه او بيوت
آبائكم او بيوت امهاتكم وقرئ بكسر الهمزة والميم وبكسر الاولى وفتح الثانية او بيوت
اخوانكم او بيوت اخواتكم او بيوت اعمامكم او بيوت عماتكم او بيوت اخوالكم او بيوت
خالاتكم او ما ملكتم مفاتحه من البيوت التي تملكون التصرف فيها باذن اربابها
على الوجه الذي مر بيانه وقيل هي بيوت المماليك والمفاتح جمع مفتح وجمع المفتاح
مفاتيح وقرئ مفتاحه او صديقكم اى او بيوت صديقكم وان لم يكن بينكم وبينهم
قرابة نسبية فانهم ارضى بالتبسط واسر به كثير من الاقرباء روى عن ابن عباس رضه
ان الصديق اكبر من الوالدين ان الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء
والامهات بل قالوا فما لنا من شافعين ولا صديق حميم والصديق يقع على الواحد
والجمع كالخليط والقطين ونظائرهما وهذا فيما اذا علم رضى صاحب البيت بصريح
الاذن او بقرينة دالة عليه ولذلك خصص هؤلاء بالذكر لاعتيادهم التبسط
فيما بينهم وقوله تعالى ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا او اشتاتا كلام مستأنف
مسوق لبيان حكم آخر من جنس ما بين قبله حيث كان فريق من المؤمنين كبني ليث
بن عمرو بن كنانة يتحرجون ان يأكلوا طعامهم منفردين وكان الرجل منهم لا يأكل
ويمكث يومه حتى يجد ضيفا يأكل معه فان لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئا وربما
قعد الرجل والطعام بين يديه لا يتناوله من الصباح الى الرواح وربما كانت معه
الابل الحفل فلا يشرب من البانها حتى يجد من يشاربه فاذا امسى ولم يجد احدا
اكل وقيل كان الغنى منهم يدخل على الفقير من ذوى قرابته وصداقته فيدعوه الى
طعامه فيقول انى اتحرج ان آكل معك وانا غنى وانت فقير وقيل كان قوم من الانصار
لا يأكلون اذا نزل بهم ضيف الا مع ضيفهم فرخص لهم في ان يأكلوا كيف شاؤا وقيل كانوا
اذا اجتمعوا ليأكلوا طعاما عزلوا للاعمى واشباهه طعاما على حدة فبين الله تعالى ان
ذلك ليس بواجب وقوله تعالى جميعا حال من فاعل تأكلوا واشتاتا عطف عليه داخل
في حكمه وهو جمع شت على انه صفة كالحق يقال امر شت اى متفرق او على انه في الاصل
مصدر وصف به مبالغة اى ليس عليكم ان تأكلوا مجتمعين او متفرقين فاذا دخلتم شروع
في بيان الآداب التي يجب رعايتها عند مباشرة ما رخص فيه اثر بيان الرخصة فيه بيوتا
اى من البيوت المذكورة فسلموا على انفسكم اى على اهلها الذين بمنزلة انفسكم لما
بينكم وبينهم من القرابة الدينية والنسبية الموجبة لذلك تحية من عند الله
اى ثابتة بامره مشروعة من لدنه ويجوز ان يكون صلة للتحية فانها طلب الحياة التي هي من عنده تعالى
وانتصابها على المصدرية لانها بمعنى التسليم مباركة مستتبعة لزيادة الخير والثواب
ودوامها طيبة يطيب بها نفس المستمع وعن انس رضه انه عليه السلام قال متى
لقيت احدا من امتى فسلم عليه يطل عمرك واذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير
وصل صلوة الضحى فانها صلوة الابرار الاوابين كذلك يبين الله لكم الآيات
تكرير لتأكيد الاحكام المختتمة به وتفخيمها لعلكم تعقلون اى ما في تضاعيفها
من الشرائع والاحكام وتعملون بموجبها وتفوزون بذلك سعادة الدارين
وفي تعليل هذا التبيين بهذه الغاية بعد تذييل الاوليين بما يوجبهما من الجزالة
ما لا يخفى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله استئناف جيء به
في اواخر الاحكام السابقة تقريرا لها وتأكيدا لمراعاتها وتكميلا لها ببيان
بعض آخر من جنسها وانما ذكر الايمان بالله ورسوله في حيز الصلة للموصول خبرا
للمبتدأ مع تضمنه له قطعا تقريرا لما قبله وتمهيدا لما بعده وايذانا بانه حقيق بان
يجعل قرينا للايمان بهما منتظما في سلكه فقوله تعالى واذا كانوا معه على امر جامع الخ
معطوف على آمنوا داخل معه في حيز الصلة اى انما الكاملون في الايمان الذين آمنوا بالله ورسوله
عن صميم قلوبهم واطاعوهما في جميع الاحكام التي من جملتها ما فصل من قبل من

المقصود صح

الاحكام

الاحكام المتعلقة بعامة احوالهم المطردة في الوقوع واحوالهم الواقعة بحسب الاتفاق كما
اذا كانوا معه عليه السلام على امر مهم يجب اجتماعهم في شأنه كالجمعة والاعياد والحروب
وغيرها من الامور الداعية الى اجتماع اولى الآراء والتجارب ووصف الامر بالجمع
للمبالغة وقرئ امر جميع لم يذهبوا اى من المجمع مع كون ذلك الامر مما لا يوجب
حضورهم لا محالة كما عند اقامة الجمعة ولقاء العدو بل يسوغ التخلف عنه حتى
يستأذنوه عليه السلام في الذهاب لا على نفس الاستئذان غاية لعدم الذهاب بل الغاية
هي الاذن المنوط برأيه عليه السلام والاقتصار على ذكره لانه الذي يتم من قبلهم
وهو المعتبر في كمال الايمان لا الاذن ولا الذهاب المترتب عليه واعتباره في ذلك لما انه
كالمصداق لصحته والمميز للمخلص عن المنافق فان ديدنه التسلل للفرار ولتعظيم
ما في الذهاب بغير اذنه عليه السلام من الجناية وللتنبيه على ذلك عقب بقوله
تعالى ان الذين يستأذنونك اولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فقضى بان المستأذنين
هم المؤمنون بالله ورسوله كما حكم في الاول بان الكاملين في الايمان هم الجامعون
بين الايمان بهما وبين الاستئذان وفي اولئك من تفخيم شأن المستأذنين ما لا يخفى
فاذا استأذنوك بيان لما هو وظيفته عليه السلام في هذا الباب اثر بيان ما هو
وظيفة المؤمنين وان الاذن عند الاستئذان ليس بامر محتوم بل هو مفوض الى رأيه
عليه السلام والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها اى بعد ما تحقق ان الكاملين
في الايمان المستأذنون فاذا فاذا استأذنوك لبعض شأنهم اى لبعض امرهم
المهم وخطبهم الملم فاذن لمن شئت منهم لما علمت في ذلك من حكمة و
مصلحة واستغفر لهم الله فان الاستئذان وان كان لعذر قوى لا يخلو عن شائبة
تقديم لامر الدنيا على امر الآخرة ان الله غفور رحيم مبالغ في مغفرة فرطات العباد
رحيم مبالغ في افاضة آثار الرحمة عليهم والجملة تعليل للمغفرة الموعود في ضمن الامر
بالاستغفار لهم يا ايها الذين آمنوا لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم استئناف
مقرر لمضمون ما قبله والالتفات لابراز مزيد الاعتناء بشأنه اى لا تجعلوا دعوته
عليه السلام اياكم في الاعتقاد والعمل بها كدعاء بعضكم بعضا اى لا تقيسوا
دعاءه عليه السلام اياكم على دعاء بعضكم بعضا في حال من الاحوال وامر من الامور
التي من جملتها المساهلة فيه والرجوع عن مجلسه عليه السلام بغير استئذان فان
ذلك من المحرمات وقيل لا تجعلوا دعاءه ربه كدعاء صغيركم كبيركم يجيبه مرة
ويرده اخرى فان دعاءه مستجاب لا مرد له عند الله عز وجل وتقرير الجملة حينئذ
لما قبلها اما من حيث ان استجابته تعالى لدعائه عليه السلام مما يوجب امتثالهم باوامره
عليه السلام ومتابعتهم له في الورود والصدور اكمل ايجاب واما من حيث
انها موجبة للاحتراز عن التعرض لسخطه عليه السلام المؤدى الى ما يوجب هلاكهم
من دعائه عليه السلام عليهم واما ما قيل من ان المعنى لا تجعلوا نداءه عليه السلام
كنداء بعضكم بعضا باسمه ورفع الصوت والنداء من وراء الحجرات ولكن بلقبه
المعظم مثل يا رسول الله يا نبي الله مع غاية التوقير والتفخيم والتواضع وخفض الصوت
فلا يناسب المقام فان قوله تعالى قد يعلم الله الذين يتسللون منكم الخ وعيد لمخالفي
امره عليه السلام فيما ذكر من قبل فتوسط ما ذكر بينهما مما لا وجه له والتسلل الخروج
من البين على التدريج والخفية وقد للتحقيق كما ان رب يجيء للتكثير حسبما بين في
مطلع سورة الحجر اى يعلم الله الذين يخرجون من الجماعة قليلا قليلا على خفية لواذا
اى ملاوذة بان يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج او بان يلوذ بمن يخرج بالاذن اراءة
انه من اتباعه وقرئ بفتح اللام وانتصابه على الحالية من ضمير يتسللون اى ملاوذين
او على انه مصدر مؤكد لفعل مضمر هو الحال في الحقيقة اى يلوذون لواذا والفاء
في قوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن امره لترتيب الحذر او الامر به على ما قبلها
من علمه تعالى باحوالهم فانه مما يوجب الحذر البتة اى يخالفون امره بترك مقتضاه

لا الاذن

ويذهبون سمتا خلاف سمته وعن اما لتضمنه معنى الاعراض او حمله على معنى يصدون
عن امره دون المؤمنين من خالفه من الامر اذا صد عنه دونه وحذف المفعول لما ان
المقصود بيان المخالف والمخالف عنه والضمير لله تعالى لانه الآمر حقيقة او للرسول صلى الله
عليه وسلم لانه المقصود بالذكر ان تصيبهم فتنة اى محنة فى الدنيا او يصيبهم
عذاب اليم اى فى الآخرة وكلمة او لمنع الخلو دون الجمع واعادة الفعل صريحا للاعتناء
بالتهديد والتحذير واستدل به على ان الامر للايجاب فان ترتيب العذاب على مخالفته
كما يعرب عن التحذير عن اصابتهما يوجب وجوب الامتثال حتما الا ان لله ما فى السموات
والارض من الموجودات باسرها خلقا وملكا وتصرفا ايجادا واعداما بدءا واعادة
قد يعلم ما انتم عليه ايها المكلفون من الاحوال والاوضاع التى من جملتها الموافقة
والمخالفة والاخلاص والنفاق ويوم يرجعون اليه عطف على ما انتم
عليه اى يعلم يوم يرجع المنافقون المخالفون للامر اليه تعالى للجزاء والعقاب وتعليق
علمه تعالى بيوم رجعهم لا برجعهم لزيادة تحقيق علمه تعالى بذلك وغاية تقريره لما
ان العلم بوقت وقوع الشئ المستلزم للعلم بوقوعه على ابلغ وجه واكده وفيه
اشعار بان علمه تعالى لنفس رجعهم من الظهور بحيث لا يحتاج الى البيان قطعا ويجوز
ان يكون الخطاب ايضا خاصا بالمنافقين على طريقة الالتفات وقرئ يرجعون مبنيا
للفاعل فينبئهم بما عملوا من الاعمال السيئة التى من جملتها مخالفة الامر فيرتب
عليه ما يليق به من التوبيخ والجزاء وقد مر وجه التعبير عن الجزاء بالتنبئة فى قوله
تعالى انما بغيكم على انفسكم الآية والله بكل شئ عليم لا يعزب عنه مثقال ذرة فى
الارض ولا فى السماء عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النور اعطى من الاجر
عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقى

سورة الفرقان مكية وهى سبع و آية

بسم الله الرحمن الرحيم

تبارك الذى نزل الفرقان على عبده البركة النماء والزيادة حسية كانت او معنوية
وكثرة الخير ودوامه ايضا ونسبتها الى الله عز وجل على المعنى الاول وهو الاليق بالمقام باعتبار
تعاليه عما سواه فى ذاته وصفاته وافعاله التى من جملتها تنزيل القرآن الكريم المعجز الناطق
بعلو شانه تعالى وسمو صفاته وابتناء افعاله على اساس الحكم والمصالح وخلوها عن
شائبة الخلل بالكلية وصيغة التفاعل للمبالغة فيما ذكر فان ما لا يتصور نسبته اليه
سبحانه حقيقة من الصيغ كالتكبر ونحوه لا تنسب اليه تعالى الا باعتبار غاياتها وعلى المعنى الثانى
باعتبار كثرة ما يفيض منه على مخلوقاته لا سيما على الانسان من فنون الخيرات التى من جملتها
تنزيل القرآن المنطوى على جميع الخيرات الدينية والدنيوية والصيغة حينئذ يجوز ان
تكون لافادة نماء تلك الخيرات وتزايدها شيئا فشيئا وآنا فآنا بحسب حدوثها او
حدوث متعلقاتها ولاستقلالها بالدلالة على غاية الكمال وتحققها بالفعل والاشعار
بالتعجب المناسب للانشاء والانباء عن نهاية التعظيم لم يجز استعمالها فى حق غيره تعالى
ولا استعمال غيرها من الصيغ فى حقه تعالى والفرقان مصدر فرق بين الشيئين اى فصل
بينهما سمى به القرآن لغاية فرقه بين الحق والباطل باحكامه او بين المحق والمبطل باعجازه
او لكونه مفصولا بعضه من بعض فى نفسه او فى انزاله على عبده محمد صلى الله عليه
وسلم وايراده عليه السلام بذلك العنوان لتشريفه والايذان بكونه عليه السلام
فى اقصى مراتب العبودية والتنبيه على ان الرسول لا يكون الا عبدا للمرسل ردا على النصارى
ليكون غاية التنزيل اى نزله عليه ليكون هو عليه السلام او الفرقان للعالمين
من الثقلين نذيرا اى منذرا او انذارا مبالغة او ليكون تنزيله انذارا وعدم
التعرض للتبشير لانسياق الكلام على احوال الكفرة وتقديم اللام على عاملها لمراعاة
الفواصل وابراز تنزيل الفرقان فى معرض الصلة التى حقها ان تكون معلومة الثبوت
للموصول عند السامع مع انكار الكفرة له لاجرائه مجرى المعلوم المسلم تنبيها على كمال قوة

دلائله وكونه بحيث لا يكاد يجهله احد كفى له تعالى لا ريب فيه الذى له ملك السموات
والارض اى له خاصة دون غيره لا استقلالا ولا اشتراكا السلطان القاهر و
الاستيلاء الباهر عليهما المستلزمان للقدرة التامة والتصرف الكلى فيهما وفيما فيهما
ايجادا واعداما احياء واماتة وامرا ونهيا حسبما يقتضيه مشيئته المبنية على الحكم و
المصالح ومحله الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها او على
انه نعت للموصول الاول او بيان له او بدل منه وما بينهما ليس باجنبى لانه من تمام
صلته ومعلومية مضمونه للكفرة مما لا ريب فيه لقوله تعالى قل من رب السموات السبع
ورب العرش العظيم سيقولون الله ونظائره او مبتدأ له تعالى بالرفع او بالنصب
ولم يتخذ ولدا كما يزعم الذين يقولون فى حق المسيح والملائكة ما يقولون فسبحان الله
عما يصفون فهو معطوف على ما قبله من الجملة الظرفية ونظمه فى سلك الصلة
للايذان بان مضمونه من الوضوح والظهور بحيث لا يكاد يجهله جاهل لا سيما بعد
تقرير ما قبله ولم يكن له شريك فى الملك اى ملك السموات والارض وهو ايضا عطف
على الصلة وافراده بالذكر مع ان ما ذكر من اختصاص ملكهما به تعالى مستلزم له قطعا للتصريح
ببطلان زعم الثنوية القائلين بتعدد الآلهة والرد فى نحورهم وتوسيط نفى اتخاذ
الولد بينهما للتنبيه على استقلاله واصالته والاحتراز عن توهم كونه تتمة للاول
وخلق كل شئ اى احدث كل موجود من الموجودات احداثا جاريا على سنن التقدير
حسبما اقتضته ارادته المبنية على الحكم البالغة بان خلق كلا منها من مواد مخصوصة
على صور معينة ورتب فيه قوى وخواص مختلفة الآثار والاحكام فقدره اى
هيأه لما اراد به من الخصائص والافعال اللائقة به تقديرا بديعا لا يقادر قدره ولا
يبلغ كنهه كهيئة الانسان للفهم والادراك والنظر والتدبر فى امور المعاد والمعاش
واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الاعمال المختلفة وهكذا احوال ساير الانواع
وقيل اريد بالخلق مطلق الايجاد والاحداث مجازا من غير ملاحظة معنى التقدير
وان لم يخل عنه فى نفس الامر فالمعنى اوجد كل شئ فقدره فى ذلك الايجاد تقديرا
واما ما قيل من انه سمى احداثه تعالى خلقا لانه تعالى لا يحدث شيئا الا على وجه التقدير
من غير تفاوت ففيه ان ارتكاب المجاز بحمل الخلق على مطلق الاحداث لتجريده عن
معنى التقدير فاعتباره فيه بوجه من الوجوه مخل بالمرام قطعا وقيل المراد بالتقدير
الثانى هو التقدير للبقاء الى الاجل المسمى وايا ما كان فالجملة جارية مجرى التعليل لما قبلها
من الجمل المنتظمة مثلها فى سلك الصلة فان خلقه تعالى لجميع الاشياء على ذلك النمط
البديع كما يقتضى استقلاله بها لاتصافه بصفات الالوهية يقتضى انتظام كل ما سواه كائنا
ما كان تحت ملكوته القاهرة بحيث لا يشذ عنها شئ من ذلك قطعا ومن كان كذلك
كيف يتوهم كونه ولدا له سبحانه او شريكا فى ملكه واتخذوا من دونه آلهة بعد
ما بين حقيقة الحق فى مطلع السورة الكريمة بذكر تنزيله تعالى للفرقان العظيم
على رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفه تعالى بصفات الكمال وتنزيهه عما لا يليق بشانه
الجليل عقب ذلك بحكاية اباطيل المشركين فى حق المنزل سبحانه وتعالى والمنزل والمنزل
عليه واظهار بطلانها والاضمار من غير جريان ذكرهم للثقة بدلالة ما قبله من نفى
الشريك عليهم اى اتخذوا لانفسهم متجاوزين الله الذى ذكر بعض شؤونه العظيمة
من اختصاص ملك السموات والارض به تعالى وانتفاء الولد والشريك منه وخلق
جميع الاشياء وتقديرها ابدع تقدير آلهة لا يخلقون شيئا اى لا يقدرون
على خلق شئ من الاشياء اصلا وهم يخلقون كسائر المخلوقات وقيل لا يقدرون
على ان يختلقوا اشياء وهم يختلقون حيث يختلقهم عبدتهم بالنحت والتصوير
وقوله تعالى ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا بيان لما لم يدل عليه ما قبله من
مراتب عجزهم وضعفهم فان بعض المخلوقين العاجزين عن الخلق ربما يملك دفع الضر
وجلب النفع فى الجملة كالحيوان وهؤلاء لا يقدرون على التصرف فى ضر ما [illegible] نفعه

عن انفسهم ولا في نفع ما حتى يجلبوه اليهم فكيف يملكون شيئاً منهما لغيرهم وتقديم ذكر
الضرّ لان دفعه مع كونه اهمّ في نفسه اول مراتب النفع واقدمها والتنصيص على قوله
تعالى ﴿ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً﴾ اي لا يقدرون على التصرف في شيء منها
باماتة الاحياء واحياء الموتى وبعثهم بعد بيان عجزهم عما هو اهون من هذه الامور
من دفع الضر وجلب النفع للتصريح بعجزهم عن كل واحد مما ذكر على التفصيل
والتنبيه على ان الاله يجب ان يكون قادراً على جميع ذلك وفيه ايذان بغاية جهلهم وسخافة
عقولهم كانهم غير عارفين بانتفائها عن آلهتهم من الامور المذكورة مفتقرون الى التصريح
بذلك ﴿وقال الذين كفروا ان هذا الا افك﴾ شروع في حكاية اباطيلهم المتعلقة
بالمنزل والمنزل عليه معاً وابطالها والموصول اما عبارة عن غلاتهم في الكفر و
الطغيان وهم النضر بن الحارث وعبد الله بن امية ونوفل بن خويلد ومن ضامّهم
وروي عن الكلبي ومقاتل ان القائل هو النضر بن الحارث والجمع لمشايعة الباقين
له في ذلك واما عن كلهم ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمّهم بما في حيز الصلة
والايذان بان ما تفوّهوا به كفر عظيم وفي كلمة هذا حطّ لرتبة المشار اليه اي ما هذا
الا كذب مصروف عن وجهه ﴿افتراه﴾ يريدون انه اختلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم
﴿واعانه عليه﴾ اي على اختلاقه ﴿قوم آخرون﴾ يعنون اليهود بان يلقوا اليه اخبار
الامم الدارجة وهو يعبّر عنها بعبارته وقيل هما جبر ويسار كانا يصنعان السيف
بمكة ويقرآن التوراة والانجيل وقيل هو عابس وقد مرّ تفصيله في سورة النحل ﴿فقد
جاءوا ظلماً﴾ منصوب بجاءوا فان جاء واتى يستعملان في معنى فعل فيعدّيان تعديته او
بنزع الخافض اي بظلم قاله الزجاج والتنوين للتفخيم اي جاءوا بما قالوا ظلماً هائلاً عظيماً
لا يقادر قدره حيث جعلوا الحق البحت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه افكاً مفترى من قبل البشر وهو من جهة نظمه الرائق وطرزه الفائق بحيث لو
اجتمعت الانس والجن على مباراته لعجزوا عن الاتيان بمثل آية من آياته ومن جهة
اشتماله على الحكم الخفية والاحكام المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية والامور
الغيبية بحيث لا يناله عقول البشر ولا يفي بفهمه القوى والقدر ﴿وزوراً﴾ اي كذباً
كبيراً لا يبلغ غايته حيث نسبوا اليه عليه السلام ما هو بريء منه والفاء لترتيب ما بعدها
على ما قبلها لكن لا على انهما امران متغايران حقيقة يقع احدهما عقيب الآخر او يحصل
بسببه بل على ان الثاني هو عين الاول حقيقة وانما الترتيب بحسب التغاير الاعتباري
وقد لتحقيق ذلك المعنى فان ما جاءوه من الظلم والزور هو عين ما حكي عنهم لكنه
لما كان مغايراً له في المفهوم واظهر بطلاناً رتّب عليه بالفاء ترتيب اللازم على
الملزوم تهويلاً لامره ﴿وقالوا اساطير الاولين﴾ بعد ما جعلوا الحق الذي لا محيد
عنه افكاً مختلقاً باعانة البشر بيّنوا على زعمهم الفاسد كيفية الاعانة والاساطير
جمع اسطار او اسطورة كاحدوثة وهي ما سطره المتقدمون من الخرافات ﴿اكتتبها﴾
اي كتبها لنفسه على الاسناد المجازي او استكتبها وقرئ على البناء للمفعول لانه عليه
السلام امّيّ واصله اكتتبها له كاتب فحذف اللام وافضى الفعل الى الضمير فصار اكتتبها
اياه كاتب ثم حذف الفاعل لعدم تعلق الغرض العلمي بخصوصه وبني الفعل للضمير المنفصل
فاستتر فيه ﴿فهي تملى عليه﴾ اي تلقى عليه تلك الاساطير بعد اكتتابها ليحفظها من افواه
من يمليها عليه من ذلك المكتتب لكونه امّياً لا يقدر على ان يتلقاها منه بالقراءة او
تملى على الكاتب على ان معنى اكتتبها اراد اكتتابها او استكتابها ورجع الضمير المجرور
اليه عليه السلام لاسناد الكتابة في ضمن الاكتتاب اليه عليه السلام ﴿بكرة واصيلاً﴾
اي دائماً او خفية قبل انتشار الناس وحين يأوون الى مساكنهم انظر الى هذه
الرتبة من الجراءة العظيمة قاتلهم الله انى يؤفكون ﴿قل﴾ لهم رداً عليهم وتحقيقاً
للحق ﴿انزله الذي يعلم السر في السموات والارض﴾ وصفه تعالى باحاطة علمه
بجميع المعلومات الجلية والخفية للايذان بانطواء ما انزله على اسرار مطوية عن

عقول

عقول البشر مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم بجناياتهم المحكية التي هي من جملة معلوماته
تعالى اي ليس ذلك مما يفترى ويفتعل باعانة قوم وكتابة آخرين من الاحاديث
الملفقة واساطير الاولين بل هو امر سماوي انزله الله الذي لا يعزب عن علمه شيء
من الاشياء واودع فيه فنون الحكم والاسرار على وجه بديع لا تحوم حوله
الافهام حيث اعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته واخبركم بمغيبات مستقبلة و
امور مكنونة لا يهتدى اليها ولا يوقف عليها الا بتوفيق العليم الخبير وقد جعلتموه
افكاً مفترى من قبيل الاساطير واستوجبتم بذلك ان يصبّ عليكم سوط العذاب
صبّاً فقوله تعالى ﴿انه كان غفوراً رحيماً﴾ تعليل لما هو المشاهد من تأخير العقوبة اي
انه تعالى ازلاً وابداً مستمر على المغفرة والرحمة المستتبعتين للتأخير فلذلك لا يعجل
بعقوبتكم على ما تقولون في حقه مع كمال استيجابه اياها وغاية قدرته تعالى عليها
﴿وقالوا مال هذا الرسول﴾ شروع في حكاية جناياتهم المتعلقة بخصوصية المنزل
عليه وما استفهامية بمعنى انكار الوقوع ونفيه مرفوعة على الابتداء وخبرها ما
بعدها من الجار والمجرور وفي هذا تصغير لشانه عليه السلام وتسميته عليه السلام
رسولاً بطريق الاستهزاء به عليه السلام كما قال فرعون ان رسولكم الذي ارسل اليكم
وقوله تعالى ﴿يأكل الطعام﴾ حال من الرسول والعامل فيها ما عمل في الجار من معنى الاستقرار
اي اي شيء واي سبب حصل لهذا الذي يدّعي الرسالة حال كونه يأكل الطعام كما
نأكل ﴿ويمشي في الاسواق﴾ لابتغاء الارزاق كما نفعله على توجيه الانكار والنفي الى
السبب فقط مع تحقق المسبّب الذي هو مضمون الجملة الحالية كما في قوله فما لهم لا
يؤمنون وقوله تعالى ما لكم لا ترجون لله وقاراً فكما ان كلاً من عدم الايمان وعدم
الرجاء امر محقق قد انكر واستبعد تحققه لانتفاء سببه بل لوجود سبب نقيضه
كذلك كل من الاكل والمشي امر محقق قد استبعد تحققه لانتفاء سببه بل لوجود
سبب عدمه خلا ان استبعاد المسبّب وانكار السبب ونفيه في عدم الايمان وعدم الرجاء بطريق
التحقيق وفي الاكل والمشي بطريق التهكم والاستهزاء فانهم لا يستبعدونهما ولا ينكرون
سببهما حقيقة بل هم معترفون بوجودهما وتحقق سببهما وانما الذي يستبعدونه
الرسالة المنافية لهما على زعمهم يعنون انه ان صح ما يدّعيه فما باله لم يخالف
حاله حالنا وهل هو الا لعمههم وركاكة عقولهم وقصور انظارهم على المحسوسات
فان تميّز الرسل عمّن عداهم ليس بامور جسمانية وانما هو بامور نفسانية كما
يشير اليه بقوله تعالى قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم اله واحد ﴿لولا انزل
عليه ملك﴾ اي على صورته وهيئته ﴿فيكون معه نذيراً﴾ تنزل منهم عن اقتراح ان
يكون ملكاً مستغنياً عن الاكل والشرب الى اقتراح ان يكون معه ملك يصدقه ويكون
ردأً له في الانذار وهو يعبّر عنه ويفسّر ما يقوله للعامة وقوله تعالى ﴿او يلقى اليه كنز﴾
تنزل من تلك المرتبة الى اقتراح ان يلقى اليه من السماء كنز يستظهر به ولا يحتاج الى
طلب المعاش ويكون دليلاً على صدقه وقوله تعالى ﴿او تكون له جنة يأكل منها﴾
تنزل من ذلك الى اقتراح ما هو ايسر منه واقرب من الوقوع وقرئ نأكل بنون الحكاية
وفيه مزيد مكابرة وفرط تحكم ﴿وقال الظالمون﴾ هم القائلون الاولون وانما وضع
المظهر موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم وتجاوز الحد فيما قالوا لكونه اضلالاً خارجاً
عن حد الضلال مع ما فيه من نسبته عليه السلام الى المسحورية اي قالوا للمؤمنين
﴿ان تتبعون﴾ اي ما تتبعون ﴿الا رجلاً مسحوراً﴾ قد سحر فغلب على عقله وقيل ذا سحر
وهي الرئة اي بشراً لا ملكاً على ان الوصف لزيادة التقرير والاول هو الانسب بحالهم
﴿انظر كيف ضربوا لك الامثال﴾ استعظام للاباطيل التي اجترءوا على التفوّه بها وتعجيب
منها اي انظر كيف قالوا في حقك تلك الاقاويل العجيبة الخارجة عن العقول الجارية
لغرابتها مجرى الامثال واخترعوا لك تلك الصفات والاحوال الشاذة البعيدة من
الوقوع ﴿فضلّوا﴾ اي عن طريق المحاجة حيث لم يأتوا بشيء يمكن صدوره عمّن له ادنى

عقل وتميز فبقوا متحيرين فلا يستطيعون سبيلا الى القدح فى نبوتك بان يجدوا قولا يستقرون عليه وان كان باطلا فى نفسه او فضلوا عن الحق ضلالا مبينا فلا يجدون طريقا موصلا اليه فان من اعتاد استعمال امثال هذه الاباطيل لا يكاد يهتدى الى استعمال المقدمات الحقة تبارك الذى اى تكاثر وتزايد خير الذى ان شاء جعل لك فى الدنيا شيئا عاجلا خيرا لك من ذلك الذى اقترحوه من ان يكون لك جنة تاكل منها بان يعجل لك مثل ما وعدك فى الاخرة وقوله تعالى جنات تجرى من تحتها الانهار بدل من خيرا او محقق لخيريته مما قالوا لان ذلك كان مطلقا عن قيد التعدد وجريان الانهار ويجعل لك قصورا عطف على محل الجزاء الذى هو جعل وقرى بالرفع عطفا على نفسه لان الشرط اذا كان ماضيا جاز فى جزائه الجزم والرفع كما فى قول القائل وان اتاه خليل يوم مسئلة يقول لا غايب مالى وحرم ويجوز ان يكون استينافا بوعد ما يكون فى الاخرة وقرى بالنصب على انه جواب بالواو وتعليق ذلك بمشيته تعالى للايذان بان عدم جعلها بمشيته المبنية على الحكم والمصالح وعدم التعرض لجواب الاقتراحين الاولين للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل واستغنائهما عن الجواب لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة التشريعية وانما الذى له وجه فى الجملة هو الاقتراح الاخير فانه غير مناف للحكمة بالكلية فان بعض الانبياء عليهم السلام قد اوتوا فى الدنيا مع النبوة ملكا عظيما بل كذبوا بالساعة اضراب عن توبيخهم بحكاية جنايتهم السابقة وانتقال منه الى توبيخهم بحكاية جنايتهم الاخرى للتخلص الى بيان ما لهم فى الاخرة بسببها من فنون العذاب بقوله تعالى واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا اى اعتدنا لهم نارا عظيمة شديدة الاشتعال شانها كيت وكيت بسبب تكذيبهم بها على ما يشعر به وضع الموصول موضع ضميرهم اى لكل من كذب بها كائنا من كان وهم داخلون فى زمرتهم دخولا اوليا ووضع الساعة موضع ضميرها للمبالغة فى التشنيع ومدار اعتاد السعير لهم وان لم يكن مجرد تكذيبهم بالساعة بل مع تكذيبهم بساير ما جاء به الشريعة الشريفة لكن الساعة لما كانت هى العلة القريبة لدخولهم السعير اشير الى سببية تكذيبها لدخولها وقيل عطف على قالوا اما لهذا الخ على معنى بل اتوا باعجب من ذلك حيث كذبوا بالساعة وانكروها والحال انا قد اعتدنا لكل من كذب بها سعيرا فان جراتهم على التكذيب بها وعدم خوفهم بما اعد لمن كذب بها من انواع العذاب اعجب من القول السابق وقيل هو متصل بما قبله من الجواب المبنى على التحقيق المبنى عن الوعد بالجنات فى الاخرة مسوق لبيان ان ذلك لا يجدى نفعا ولا يحلى بطائل على طريقة قول من قال عوجوا النعم فحيوا دمنة الدار ماذا تحيون من نوى واحجار والمعنى انهم لا يؤمنون بالساعة فكيف يقتنعون بهذا الجواب وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك فى الاخرة وقيل المعنى بل كذبوا بها فقصرت انظارهم على الحظوظ الدنيوية وظنوا ان الكرامة ليست الا بالمال وجعلوا فقرك ذريعة الى تكذيبك وقوله تعالى اذا راتهم الخ صفة للسعير اى اذا كانت منهم بمراى الناظر فى البعد كقوله عليه السلام لا تتراى ناراهما اى لا تتقاربان بحيث تكون احديهما بمراى من الاخرى على المجاز كان بعضها يرى البعض ونسبة الرؤية اليها لا اليهم للايذان بان التغيظ والزفير منها لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها اياهم حقيقة او تمثيلا وفى قوله تعالى من مكان بعيد اشعار بان بعد ما بينها وبينهم من المسافة حين راتهم خارج عن حدود البعد المعتاد فى المسافات المعهودة وفيه مزيد تهويل لامرها قال الكلبى والسدى من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة سنة سمعوا لها تغيظا وزفيرا اى صوت تغيظ على تشبيه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره وهو صوت يسمع من جوفه هذا وان الحيوة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية امكن ان يخلق الله تعالى فيها حيوة فترى وتتغيظ وتزفر وقيل ان ذلك لزبانيتها فنسب اليها على حذف المضاف واذا القوا منها مكانا نصب

على الظرفية ومنها حال منه لانه فى الاصل صفة له ضيقا صفة لمكانا مفيدة لزيادة شدة فان الكرب مع ضيق كما ان الروح مع السعة وهو السر فى وصف الجنة بان عرضها السموات والارض وعن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم تضيق جهنم عليهم كما يضيق الزج على الرمح وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال والذى نفسى بيده انهم يستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط قال الكلبى الاسفلون يرفعهم اللهب والاعلون يحطهم الداخلون فيزدحمون فيها وقرى ضيقا بسكون الياء مقرنين حال من مفعول القوا منها مكانا ضيقا اى لكونهم مقرنين قد قرنت ايديهم الى اعناقهم بالجوامع وقيل مقرنين مع الشياطين فى السلاسل كل كافر مع شيطان وفى ارجلهم الاصفاد دعوا هنالك اى فى ذلك المكان الهايل والحالة الفظيعة ثبورا اى يتمنون هلاكا وينادونه يا ثبوراه تعال فهذا حينك واوانك لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا على تقدير قولا ما منصوب على انه حال من فاعل دعوا اى دعوه مقولا لهم ذلك حقيقة بان يخاطبهم الملئكة به لتنبيههم على خلود عذابهم وانهم لا يجابون الى ما يدعونه ولا ينالون ما يتمنونه من الهلاك المنجى او تمثيلا وتصويرا لحالهم بحال من يقال له ذلك من غير ان يكون هناك قول ولا خطاب اى دعوه حال كونهم احقاء بان يقال لهم ذلك واما مستانف وقع جوابا عن سؤال ينسحب عليه الكلام كانه قيل فماذا يكون عند دعائهم المذكور فقيل يقال لهم ذلك اقناطا عما علقوا به اطماعهم من الهلاك وتنبيها على ان عذابهم الملجئ لهم الى استدعاء الهلاك بالمرة ابدى لا خلاص لهم منه اى لا تقتصروا على دعاء ثبور واحد وادعوا ثبورا كثيرا اى بحسب كثرة الدعاء المتعلق به لا بحسب كثرته فى نفسه فان ما يدعونه ثبور واحد فى حد ذاته لكنه كلما تعلق به دعاء من تلك الادعية الكثيرة صار كانه ثبور مغاير لما تعلق به دعاء آخر منها وتحقيقه لا تدعوه دعاء واحدا وادعوه ادعية كثيرة فان ما انتم فيه من العذاب لغاية شدته وطول مدته مستوجب لتكرر الدعاء فى كل آن وهذا ادل على فظاعة العذاب وهوله من جعل تعدد الدعاء وتجدده لتعدد العذاب بتعدد انواعه والوانه او لتعدده بتجدد الجلود كما لا يخفى واما ما قيل من ان المعنى انكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا انما هو ثبور كثير اما لان العذاب انواع والوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته او لانهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها فلا غاية لهلاكهم فلا يلايم المقام كيف لا وهم انما يدعون هلاكا ينهى عذابهم وينجيهم منه فلا بد ان يكون الجواب اقناطا لهم عن ذلك ببيان استحالته ودوام ما يوجب استدعاءه من العذاب الشديد وتقييد النهى والامر باليوم لمزيد التهويل والتفظيع والتنبيه على انه ليس كساير الايام المعهودة قل تقريعا لهم وتهكما بهم وتحسيرا على ما فاتهم اذلك اشارة الى ما ذكر من السعير باعتبار اتصافها بما فصل من الاحوال الهايلة وما فيه من معنى البعد للاشعار بكونها فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة اى قل لهم اذلك الذى ذكر من السعير التى اعتدت لمن كذب بالساعة وشانها كيت وكيت وشان اهلها ذيت وذيت خير ام جنة الخلد التى وعد المتقون اى وعدها المتقون واضافة الجنة الى الخلد للمدح وقيل للتمييز عن جنات الدنيا والمراد بالمتقين المتصفون بمطلق التقوى لا بالمرتبة الثانية والثالثة منها فقط كانت تلك الجنة لهم فى علم الله تعالى او فى اللوح او لان وعد الله تعالى فهو كاين لا محالة فحكى تحققه ووقوعه جزاء على اعمالهم حسبما مر من الوعد الكريم ومصيرا ينقلبون اليه لهم فيها ما يشاؤن اى ما يشاؤنه من فنون الملاذ والمشتهيات وانواع النعيم كما فى قوله تعالى ولكم فيها ما تشتهى انفسكم ولعل كل فريق منهم يقتنع بما ابيح له من درجات النعيم ولا يمتد اعناق هممهم الى ما فوق ذلك من المراتب العالية فلا يلزم الحرمان ولا تساوى مراتب اهل الجنان خالدين حال من الضمير

المستكن في الجار والمجرور لاعتماده على المبتدأ وقيل من فاعل يشاؤن كان ما
يشاؤنه وقيل الوعد المدلول عليه بقوله تعالى وعد المتقون على ربك وعدا مسؤلا
اى موعودا حقيقا بان يسأل ويطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون او مسؤلا
يسأله الناس في دعائهم بقولهم ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك والملائكة بقولهم ربنا
وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم وما في على من معنى الوجوب لامتناع الخلف في
وعده تعالى ولا يلزم منه الالجاء الى الانجاز فان تعلق الارادة بالموعود متقدم على
الوعد الموجب للانجاز وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عم من تشريفه
والاشعار بانه عليه السلام هو الفائز اثر ذي اثير بمغانم الوعد الكريم ما لا يخفى
ويوم يحشرهم نصب على انه مفعول لمضمر مقدم معطوف على قوله تعالى قل اذلك اى واذكر
لهم بعد التقريع والتحسير يوم يحشرهم الله عز وجل وتعليق التذكير باليوم مع
ان المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث الهائلة قد مر وجهه غير مرة او على انه
ظرف لمضمر مؤخر قد حذف للتنبيه على كمال هوله وفظاعة ما فيه والايذان بقصور
العبارة عن بيانه اى يوم يحشرهم يكون من الاحوال والاهوال ما لا يفي ببيانه المقال و
قرئ بنون العظمة بطريق الالتفات من الغيبة الى التكلم وبكسر الشين ايضا وما يعبدون
من دون الله اريد به ما يعم العقلاء وغيرهم اما لان كلمة ما موضوعة للكل كما
ينبئ عنه انك اذا رأيت شبحا من بعيد تقول ما هو ولانه اريد به الوصف لا الذات
كأنه قيل ومعبوديهم او لتغليب الاصنام على غيرها تنبيها على انهم مثلها في السقوط عن
رتبة المعبودية او اعتبارا لغلبة عبدتها او اريد به الملائكة والمسيح وعزير بقرينة السؤال
والجواب او الاصنام ينطقها الله تعالى او تكلم بلسان الحال كما قيل في شهادة الايدي
والارجل فيقول اى الله عز وجل للمعبودين اثر حشر الكل تقريعا للعبدة وتبكيتا
لهم وقرئ بالنون كما عطف عليه وقرئ هذا بالياء والاول بالنون على طريق الالتفات
الى الغيبة ءانتم اضللتم عبادي هؤلاء بان دعوتموهم الى عبادتكم كما في قوله تعالى
ءانت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله ام هم ضلوا السبيل اى
عن السبيل بانفسهم لاخلالهم بالنظر الصحيح واعراضهم عن المرشد فحذف الجار واوصل
الفعل الى المفعول كقوله تعالى وهو يهدي السبيل اى الاصل الى السبيل او للسبيل وتقديم الضميرين
على الفعلين لان المقصود بالسؤال هو المتصدي للفعل لا نفسه قالوا استئناف مبني على سؤال
نشأ من حكاية السؤال كأنه قيل فماذا قالوا في الجواب فقيل قالوا سبحانك تعجبا مما قيل
لهم لانهم اما ملائكة معصومون او جمادات لا قدرة لها على شئ او اشعارا بانهم الموسومون
بتسبيحه تعالى وتوحيده فكيف يتأتى منهم اضلال عباده او تنزيها له تعالى عن الانداد ما كان
ينبغي لنا اى ما صح وما استقام لنا ان نتخذ من دونك اى متجاوزين اياك من
اولياء نعبدهم لما بنا من الحالة المنافية له فانى يتصور ان نحمل غيرنا على ان يتخذ وليا غيرك
فضلا ان يتخذنا وليا او ان نتخذ من دونك اولياء اى اتباعا فان الولي كما يطلق
على المتبوع على التابع كالمولى يطلق على الاعلى والاسفل ومنها اولياء الشيطان اى اتباعه
وقرئ على البناء للمفعول من المتعدي الى مفعولين كما في قوله تعالى واتخذ الله ابراهيم خليلا
ومفعوله الثاني من اولياء على ان من للتبعيض اى ان نتخذ بعض اولياء وهي على الاول
مزيدة وتنكير اولياء من حيث انهم اولياء مخصوصون وهم الجن والاصنام ولكن
متعتهم وآباءهم استدراك مسوق لبيان انهم هم الضالون بعد بيان تنزههم عن
اضلالهم وقد نعى عليهم سوء صنيعهم حيث جعلوا اسباب الهداية اسبابا للضلالة
اى ما اضللناهم ولكنك متعتهم وآباءهم بانواع النعم ليعرفوا حقها ويشكروها فاستغرقوا
في الشهوات وانهمكوا فيها حتى نسوا الذكر اى غفلوا عن ذكرك او عن التذكر في
في آلائك والتدبر في آياتك فجعلوا اسباب الهداية بسوء اختيارهم ذريعة الى الغواية
وكانوا في قضائك المبني على علمك الازلي المتعلق بما سيصدر عنهم فيما لا يزال باختيارهم
من الاعمال السيئة قوما بورا هالكين على ان بورا مصدر وصف به الفاعل مبالغة

ولذلك

ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع او جمع بائر كعوذ في جمع عائذ والجملة اعتراض
تذييلي مقرر لمضمون ما قبله وقوله تعالى فقد كذبوكم حكاية لاحتجاجه تعالى على العبدة
بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن المعبودين عند تمام جوابهم وتوجيهه الى العبدة
مبالغة في تقريعهم وتبكيتهم على تقدير قول مرتب على الجواب اى فقال الله تعالى عند ذلك
فقد كذبكم المعبودون ايها الكفرة بما تقولون اى في قولكم انهم آلهة وقيل في قولكم
هؤلاء اضلونا ناديا باه ان تكذيبهم في هذا القول لا تعلق له بما بعده من عدم استطاعتهم
للصرف والنصر اصلا وانما الذي تستتبعه تكذيبهم في زعمهم انهم آلهتهم وناصرهم
وايا ما كان فالباء بمعنى في او هي صلة للتكذيب على ان الجار والمجرور بدل اشتمال من الضمير
المنصوب وقرئ بالياء اى كذبوكم بقولهم سبحانك الآية فما تستطيعون اى ما
تملكون صرفا اى دفعا للعذاب عنكم بوجه من الوجوه كما يعرب عنه التنكير اى لا
بالذات ولا بالواسطة وقيل حيلة من قولهم انه ليتصرف في اموره اى يحتال فيها
وقيل توبة ولا نصرا اى فردا من افراد النصر لا من جهة انفسكم ولا من جهة
غيركم والفاء لترتيب عدم الاستطاعة على ما قبلها من التكذيب لكن لا على معنى انه
لولاه لوجدت الاستطاعة حقيقة بل في زعمهم حيث كانوا يزعمون انهم يدفعون
عنهم العذاب وينصرونهم وفيه ضرب تهكم بهم وقرئ يستطيعون على صيغة
الغيبة اى ما يستطيع آلهتكم ان يصرفوا عنكم العذاب او حيلوا لكم ولا ان ينصروكم
وترتب ما بعد الفاء على قبلها كما مر بيانه ومن يظلم منكم ايها المكلفون
كدأب هؤلاء حيث ركبوا متن المكابرة والعناد واستمروا على ما هم عليه من الفساد
وتجاوزوا في اللجاج كل حد معتاد نذقه في الآخرة عذابا كبيرا لا يقادر قدره
وهو عذاب النار وقرئ يذقه على ان الضمير لله سبحانه وقيل للمصدر الفعل الواقع
شرطا وتعميم الظلم لا يستلزم اشتراك الفاسق للكافر في اذاقة العذاب الكبير فان
الشرط في اقتضاء الجزاء مقيد بعدم المزاحم وفاقا وهو التوبة والاحباط بالطاعة
اجماعا وبالعفو عندنا وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام
ويمشون في الاسواق جواب عن قولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق
والجملة الواقعة بعد الا صفة لموصوف قد حذف ثقة بدلالة الجار والمجرور عليه
واقيمت هي مقامه كما في قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم والمعنى ما ارسلنا قبلك
احدا من المرسلين الا آكلين وماشين وقيل هي حال والتقدير الا وانهم ليأكلون الخ
وقرئ يمشون على البناء للمفعول اى يمشيهم حوائجهم او الناس وجعلنا بعضكم
الخطاب بتعميمه لسائر الرسل عليهم السلام بطريق التغليب والمراد بهذا البعض كفار الامم
فان اختصاصهم بالرسل وتبعيتهم لهم مصحح لان يعدوا بعضا منهم وبما في قوله
تعالى لبعض رسلهم لكن لا على معنى جعلنا مجموع البعض الاول فتنة اى
ابتلاء ومحنة لمجموع البعض الثاني ولا على معنى جعلنا كل فرد من افراد البعض الاول
فتنة لكل فرد من افراد البعض الثاني ولا على معنى جعلنا بعضا مبهما من الاولين
فتنة لبعض منهم من الآخرين ضرورة ان مجموع الرسل من حيث هو مجموع غير
مفتون بمجموع الامم ولا كل فرد منهم بكل فرد من الامم ولا بعض مبهم من الآخرين
ببعض مبهم من الاولين بل على معنى جعلنا كل بعض معين من الامم فتنة لبعض معين
من الرسل كأنه قيل وجعلنا كل امة مخصوصة من الامم الكافرة فتنة لرسولها المعين
المبعوث اليها وانما لم يصرح بذلك تعويلا على شهادة الحال هذا واما تعميم الخطاب
لجميع المكلفين وابقاء البعضين على العموم والابهام على معنى وجعلنا بعضكم ايها
الناس فتنة لبعض آخر منكم فيأباه قوله تعالى اتصبرون فانه غاية للجعل المذكور
ومن البين ان ليس ابتلاء كل احد من آحاد الناس مغيا بالصبر بل بما يناسب حاله على
ان الاقتصار على ذكره من غير تعرض لما قابله مما يدل على ان اللائق بحال المفتون
والمتوقع صدوره عنهم هو الصبر لا غير فلا بد ان يكون المراد بهم الرسل فيحصل به

تسليته عم فالمعنى جرت سنتنا بموجب حكمتنا على ابتلاء المرسلين باممهم وبمناصبتهم لهم العداوة
وايذائهم لهم واقاويلهم الخارجة عن حدود الانصاف لتعلم حبركم وقوله تعالى
وكان ربك بصيرا وعد كريم للرسول عم بالاجر الجزيل لصبره الجميل مع مزيد تشريف عم
بالالتفات الى الاسم الرب مضافا الى ضميره صلعم وقال الذين لا يرجون لقاءنا شروع في
حكاية بعض آخر من اقاويلهم الباطلة وبيان بطلانها اثر ابطال اباطيلهم السابقة والجملة معطوفة
على قوله تعالى وقالوا مال هذا الرسول الخ ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما في حيز
الصلة على ان ما يحكى عنهم في الشناعة بحيث لا يصدر عمن يعتقد المصير الى الله عز وجل
ولقاء الشيء عبارة عن مصادفته من غير ان يمنعه مانع من ادراكه بوجه من الوجوه والمراد
بلقائه تعالى اما الرجوع اليه تعالى بالبعث والحشر او لقاء حسابه كما في قوله تعالى انى ظننت انى ملاق
حسابيه وبعدم رجائهم اياه عدم توقعهم له اصلا لانكارهم البعث والحساب بالكلية لا عدم
املهم حسن اللقاء ولا عدم خوفهم سوء اللقاء لان عدمهما غير مستلزم لما هم عليه من العتو
والاستكبار وانكار البعث والحساب راسا اى وقال الذين لا يتوقعون الرجوع الينا او
حسابنا المؤدى الى سوء الحساب الذى يستوجبه مقالتهم لولا انزل علينا الملئكة
اى هلا انزلوا علينا ليخبرونا بصدق محمد عليه السلام وقيل هلا انزلوا علينا بطريق
الرسالة وهو الانسب لقولهم او نرى ربنا من حيث ان كلا القولين ناشئ عن غاية
غلوهم في المكابرة والعتو حسبما يعرب عنه قوله تعالى لقد استكبروا في انفسهم اى في
شانها حتى اجترؤا على التفوه بمثل هذه العظيمة الشنعاء وعتوا اى تجاوزوا الحد في
الظلم والطغيان عتوا كبيرا بالغا اقصى غاياته حيث املوا نيل مرتبة المفاوضة الالهية
من غير توسط الرسول والملك كما قالوا لولا يكلمنا الله ولم يكتفوا بما عاينوا من المعجزات
القاهرة التى تخر لها صم الجبال فذهبوا في الاقتراح كل مذهب حتى منتهم انفسهم الخبيثة
امانى لا تكاد ترنو اليها احداق الامم ولا يمتد اليها اعناق الهمم ولا ينالها الا اولو
العزائم الماضية من الانبياء عليهم الصلوة والسلام واللام جواب قسم محذوف و في
اى والله لقد استكبروا الاية وفيه من الدلالة على غاية قبح ما هم عليه والاشعار بالتعجب
من استكبارهم وعتوهم ما لا يخفى يوم يرون الملئكة استيناف مسوق لبيان ما
يلقونه عند مشاهدتهم لما اقترحوه من نزول الملئكة عليهم السلام بعد
استعظامه وبيان كونه في غاية ما يكون من الشناعة وانما قيل يوم يرون دون ان
يقال يوم ينزل الملئكة ايذانا من اول الامر بان رؤيتهم لهم ليست على طريق الاجابة
الى ما اقترحوه بل على وجه آخر غير معهود ويوم منصوب على الظرفية بما يدل عليه
قوله تعالى لا بشرى يومئذ للمجرمين فانه في معنى لا يبشر يومئذ المجرمون والعدول
نفى الجنس للمبالغة في نفى البشرى وما قيل من انه بمعنى يمنعون البشرى او يعدمونها تهوين
للخطب في مقام التهويل فان منع البشرى وفقدانها مشعران بان هناك بشرى يمنعونها او
يفقدونها واين هذا من نفيها بالكلية وحيث كان نفيها كناية عن اثبات ضدها
كما ان نفى المحبة في مثل قوله تعالى والله لا يحب الكافرين كناية عن البغض والمقت دل
على ثبوت النذرى لهم على ابلغ وجه وآكده وقيل منصوب بفعل مقدر يؤكد بشرى
على ان لا غير نافية للجنس وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم عليه اى اذكر يوم
رؤيتهم الملئكة ويومئذ على كل حال تكرير للتاكيد والتهويل مع ما فيه من الايذان
بان تقديم الظرف للاهتمام لا للقصر نفى البشرى على ذلك الوقت فقط فان ذلك مخل
بتفظيع حالهم وللمجرمين تبيين على انه مظهر وضع موضع الضمير تسجيلا عليهم بالاجرام
مع ما هم عليه من الكفر وحمله على العموم بحيث يتناول فساق المؤمنين ثم الالتجا
فى اخراجهم عن الحرمان الكلى الى ان نفى البشرى حينئذ لا يستلزم نفيه في جميع الاوقات
فيجوز ان يبشروا بالعفو والشفاعة في وقت آخر بمعزل من الحق ويقولون عطف
على ما ذكر من الفعل المنفى المبنى عن كمال فظاعة ما يحيق بهم من الشر وغاية هول
مطلعه بيانا انهم يقولون عند مشاهدتهم له حجرا محجورا وهى كلمة يتكلمون

بها عند لقاء عدو من نور وهجوم نازلة هائلة يضعونها موضع الاستعاذة حيث يطلبون
من الله تعالى ان يمنع المكروه فلا يلحقهم فكان المعنى نسأل الله تعالى ان يمنع ذلك منعا و
يحجره حجرا وكسر الحاء تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد كما في قعدك وعمرك وقد
قرئ حجرا بالضم والمعنى انهم يطلبون نزول الملئكة عليهم السلام ويقترحونه و
هم اذا راوهم كرهوا لقاءهم اشد كراهة وفزعوا منهم فزعا شديدا وقالوا
ما كانوا يقولونه عند نزول خطب شنيع وحلول باس فظيع ومحجورا صفة لحجرا
واردة للتاكيد كما قالوا ذيل ذائل وليل اليل وقيل يقولها الملئكة ايقاظا للكفرة بمعنى
حراما محرما عليكم الغفران او الجنة او البشرى اى جعل الله تعالى ذلك حراما عليكم
وليس بواضح وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا بيان لحال ما
كانوا يعملونه في الدنيا من صلة رحم واغاثة ملهوف وقرى ضيف ومن على اسير
وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم التى لو كانوا عملوها مع الايمان لنالوا ثوابها
بتمثيل حالهم وحال اعمالهم المذكورة بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا
عليه فقدم الى اشيائهم وقصد الى ما تحت ايديهم فافنى عليها بالافساد والتخريق
ومزقها كل ممزق بحيث لم يدع لها عينا ولا اثرا اى عمدنا اليها وابطلناها اى
اظهرنا بطلانها بالكلية من غير ان يكون هناك قدوم ولا شيء يقصد تشبيه به
والهباء شبه غبار يرى في شعاع الشمس يطلع من الكوة من الهبوة وهى الغبار ومنثورا
صفته شبه به اعمالهم المحبطة في الحقارة وعدم الجدوى ثم بالمنثور منه في
الانتشار بحيث لا يمكن نظمه او مفعول ثالث من حيث انه كالخبر بعد الخبر كما في قوله تعالى
كونوا قردة خاسئين اصحاب الجنة هم المؤمنون المشار اليهم في قوله تعالى قل اذلك خير ام جنة
الخلد التى وعد المتقون الخ يومئذ اى يوم اذ يكون ما ذكر من عدم التبشير وقوله حجرا
محجورا وجعل اعمالهم هباء منثورا خير مستقرا المستقر المكان الذى يستقر فيه
في اكثر الاوقات للتجالس والتحادث واحسن مقيلا المقيل المكان الذى يؤوى
اليه للاسترواح الى الازواج والتمتع بمغازلتهن سمى بذلك لما ان التمتع به يكون وقت
القيلولة غالبا وقيل لانه يفرغ من الحساب في منتصف ذلك اليوم فيقيل اهل الجنة
فى الجنة واهل النار في النار وفي وصفه بزيادة الحسن مع حصول الخيرية بعطفه
على المستقر رمز الى انه مزين بفنون الزين والزخارف والتفضيل المعتبر فيهما اما لارادة
الزيادة على الاطلاق اى هم في اقصى ما يكون من خيرية المستقر وحسن المقيل واما
بالاضافة الى ما للكفرة المتنعمين في الدنيا او الى ما لهم في الآخرة بطريق التهكم بهم كما مر
فى قوله تعالى قل اذلك خير الاية هذا وقد جوز ان يراد باحدهما المصدر او الزمان
اشارة الى ان مكانهم وزمانهم اطيب مما يتخيل من الامكنة والازمنة ويوم
تشقق السماء اى تتفتح واصله تتشقق فحذفت احدى التائين كما في تلظى وقرئ بادغام
التاء في الشين بالغمام بسبب طلوع الغمام منها وهو الغمام الذى ذكر في قوله تعالى
هل ينظرون الا ان ياتيهم الله في ظلل من الغمام والملئكة قيل هو غمام ابيض رقيق مثل
الضبابة ولم يكن الا لبنى اسرائيل ونزل الملئكة تنزيلا اى تنزيلا عجيبا غير معهود
قيل تنشق سماء سماء وتنزل الملئكة خلال ذلك الغمام بصحايف اعمال العباد وقرئ
ونزلت الملئكة ونزل وننزل على صيغة المتكلم من الانزال والتنزيل ونزل الملئكة
ونزل الملئكة ونزل الملئكة على حذف النون الذى هو فاء الفعل من ننزل الملك
يومئذ الحق للرحمن اى السلطنة القاهرة والاستيلاء الكلى العام الثابت صورة
ومعنى ظاهرا وباطنا بحيث لا زوال له اصلا ثابت للرحمن يومئذ فالملك مبتدا
والحق صفته وللرحمن خبره ويومئذ ظرف لثبوت الخبر للمبتدا وفائدة التقييد
ان ثبوت الملك المذكور له تعالى خاصة يومئذ واما فيما عداه من ايام الدنيا فيكون
لغيره ايضا تصرف صورى في الجملة وقيل الملك مبتدا والحق خبره وللرحمن متعلق
بالحق او بمحذوف على التبيين او بمحذوف هو صفة للحق ويومئذ معمول للملك وقيل

الخبر يومئذ والحق نعت للملك وللرحمن على ما ذكر وايا ما كان فالجملة بعناها عاملة فى الظرف
اى ينفرد الله تعالى بالملك يوم تشقق وقيل الظرف منصوب باذكر فالجملة حينئذ استئناف
مسوق لبيان احواله واهواله وايراده تعالى بعنوان الرحمانية للايذان بان اتصافه تعالى
بغاية الرحمة لا يهون الخطب على الكفرة لعدم استحقاقهم للرحمة كما فى قوله تعالى يا ايها
الانسان ما غرك بربك الكريم والمعنى ان الملك الحقيقى يومئذ للرحمن وكان ذلك اليوم
مع كون الملك فيه لله المبالغ فى الرحمة لعباده يوما على الكافرين عسيرا شديدا لهم وتقديم
الجار والمجرور لمراعاة الفواصل واما للمؤمنين فيكون يسيرا بفضل الله تعالى وقد جاء فى
الحديث انه يهون يوم القيمة على المؤمن حتى يكون اخف عليه من صلوة مكتوبة
صلاها فى الدنيا والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله ويوم يعض الظالم على يديه
عض اليدين والانامل واكل البنان وحرق الاسنان ونحوها كنايات من الغيظ
والحسرة لانها من روادفها والمراد بالظالم اما عقبة بن ابى معيط على ما قيل
من انه كان يكثر مجالسة النبى عليه السلام فدعاه عليه السلام يوما الى ضيافته
فابى عليه السلام ان يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل وكان ابى بن
خلف صديقه فعاتبه وقال صبأت فقال لا ولكن ابى ان لا يأكل من طعامى وهو
فى بيتى فاستحييت منه فشهدت له فقال انى لا ارضى منك الا ان تأتيه فتطأ قفاه وتبزق
فى وجهه فوجده ساجدا فى دار الندوة ففعل ذلك فقال عليه السلام لا القاك خارجا
من مكة الا علوت رأسك بالسيف فاسر يوم بدر فامر عليا رضى الله عنه فقتله وقيل
قتله عاصم بن ثابت الانصارى وطعن عليه السلام ابيا يوم احد فى المبارزة فرجع
الى مكة فمات واما جنس الظالم وهو داخل فيه دخولا اوليا وقوله تعالى يقول
حال من فاعل يعض وقوله تعالى يا ليتنى الخ محكى به ويا اما لمجرد التنبيه من غير قصد
الى تعيين المنبه او المنادى محذوف اى يا هؤلاء ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا
اى طريقا واحدا منجيا من هذه الورطات وهو طريق الحق ولم يتشعب بى طرق
الضلالة او حصلت فى صحبته عليه السلام ولم اكن ضالا الا طريقى لى فقط يا ويلتا
بقلب الياء المتكلم الفا فى صحارى ومدارى وقرئ على الاصل يا ويلتى اى هلكتى
تعالى واحضرى فهذا اوانك ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا يريد من اضله تعالى فى
الدنيا فان فلانا كناية عن الاعلام كما ان الهن كناية عن الاجناس وقيل فلان كناية عن
علم ذكور من يعقل وفلانة عن علم اناثهم وقيل كناية عن نكرة من يعقل من الذكور وفلة
عمن يعقل من الاناث والفلان والفلانة من غير العاقل ويختص فل بالنداء الا فى ضرورة
كما فى قوله فى لجة امسك فلانا من فوق قوله حذ احدنا ثانى عن فل وفلان وليس
فل مرخما من فلان خلافا للفراء واختلفوا فى لام فل وفلان فقيل واو وقيل ياء هذا
فان اريد بالظالم عقبة ففلان كناية عن ابى وان اريد به الجنس فهو كناية عن علم
كل من يضله كائنا من كان من شياطين الانس والجن وهذا التمنى المتمنى منه وان كان
مسوقا لابراز الندم والحسرة لكنه متضمن لنوع تعلل واعتذار بتوريك جنايته الى الغير
وقوله تعالى لقد اضلنى عن الذكر تعليل لتمنيه المذكور وتوضيح لتعلله وتصديره
باللام القسمية للمبالغة فى بيان خطائه واظهار ندمه وحسرته اى والله لقد اضلنى
عن ذكر الله تعالى او عن القرآن او عن موعظة الرسول صلى الله عليه وسلم او كلمة
الشهادة بعد اذ جاءنى وتمكنت منه وقوله تعالى وكان الشيطان للانسان
خذولا اى مبالغا فى الخذلان حيث يواليه حتى يؤديه الى الهلاك ثم يتركه
ولا ينفعه اعتراض مقرر لمضمون ما قبله اما من جهته تعالى او من تمام كلام الظالم على انه
سمى خليله شيطانا بعد وصفه بالاضلال الذى هو اخص الاوصاف الشيطانية
او على انه اراد بالشيطان ابليس لانه الذى حمله على مخالة المضلين ومخالفة الرسول
الهادى عليه السلام بوسوسته واغوائه فان وصفه بالخذلان يشعر بانه كان
يعده فى الدنيا ويمنيه بانه ينفعه فى الاخرة وهو اوفق لحال ابليس وقال الرسول

عطف على قوله تعالى قال الذين لا يرجون لقاءنا وما بينهما اعتراض مسوق لاستعظام ما قالوه
وبيان ما يحيق بهم فى الآخرة من الاهوال والخطوب وايراده عليه السلام بعنوان
الرسالة لتحقيق الحق والرد على نحورهم حيث كان ما حكى عنهم قدحا فى رسالته عليه
السلام اى قالوا كيت وكيت وقال الرسول اثر ما شاهد منهم غاية العتو ونهاية
الطغيان بطريق البث الى ربه عز وجل يا رب ان قومى يعنى الذين حكى عنهم ما
حكى من الشنائع اتخذوا هذا القرآن الذى من جملته هذه الآيات الناطقة
بما يحيق بهم فى الآخرة من فنون العقاب كما ينبئ عنه كلمة الاشارة مهجورا اى متروكا
بالكلية ولم يؤمنوا به ولم يرفعوا اليه رأسا ولم يتأثروا بوعيده وفيه تلويح بان
من حق المؤمن ان يكون كثير التعاهد للقرآن كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم
فانه روى عنه صلى الله عليه وسلم من تعلم القرآن وعلق مصحفا لم يتعاهده ولم
ينظر فيه جاء يوم القيمة متعلقا به يقول يا رب العالمين عبدك هذا اتخذنى مهجورا اقض
بينى وبينه وقيل هو من هجر اذا هذى اى جعلوه مهجورا فيه اما على زعمهم الباطلة
واما بان هجروا فيه اذا سمعوه كما يحكى عنهم من قولهم لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا
فيه وقد جوز ان يكون المهجور بمعنى الهجر كالمجلود والمعقول فالمعنى اتخذوه هجرا
وهذيانا وفيه من التحذير والتخويف ما لا يخفى فان الانبياء اذا شكوا الى الله تعالى
قومهم عجل لهم العذاب ولم ينظروا وقوله تعالى وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من
المجرمين تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحمل له على الاقتداء بمن قبله من الانبياء
عليهم السلام اى كما جعلنا لك اعداء من المشركين يقولون ما يقولون ويفعلون ما
يفعلون من الاباطيل جعلنا لكل نبى من الانبياء الذين هم اصحاب الشريعة والدعوة
اليها عدوا من مجرمى قومهم فاصبر كما صبروا وقوله تعالى وكفى بربك هاديا ونصيرا
وعد كريم له عليه السلام بالهداية الى كافة مطالبه والنصر على اعدائه اى كفاك
مالك امرك ومبلغك الى الكمال هاديا لك الى ما يوصلك الى غاية الغايات التى من جملتها
تبليغ الكتاب اجله واجراء احكامه فى اكناف الدنيا الى يوم القيمة ونصيرا لك على جميع
من يعاديك وقال الذين كفروا حكاية لاقتراحهم الخاص بالقرآن الكريم بعد
حكاية اقتراحهم فى حقه عليه السلام والقائلون هم القائلون اولا وايرادهم
بعنوان الكفر لذمهم به والاشعار بعلة الحكم لولا نزل عليه القرآن التنزيل
ههنا مجرد عن معنى التدريج كما فى قوله تعالى يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا
من السماء ويجوز ان يراد به الدلالة على كثرة المنزل فى نفسه اى هلا انزل كله
جملة واحدة كالكتب الثلاثة وبطلان هذه الكلمة الحمقاء مما لا يكاد يخفى على احد فان
الكتب المتقدمة لم يكن شاهد صحتها ودليل كونها من عند الله تعالى اعجازها واما
القرآن الكريم فبينة صحته وآية كونه من عند الله تعالى نظمه المعجز الباقى على مر
الدهور المتحقق فى كل جزء من اجزائه المقدرة بمقدار اقصر السور حسبما وقع
به التحدى ولا ريب فى ان ما يدور عليه فلك الاعجاز هو المطابقة لما يقتضيه
الاحوال ومن ضرورة تغيرها وتجددها تغير ما يطابقها حتما على ان فيه فوائد جمة
قد اشير الى بعض منها بقوله تعالى كذلك لنثبت به فؤادك فانه استئناف وارد
من جهته تعالى لرد مقالتهم الباطلة وبيان الحكمة فى التنزيل التدريجى ومحل الكاف
النصب على انها صفة لمصدر مؤكد لمضمر معلل بما بعده وذلك اشارة الى ما يفهم
من كلامهم اى مثل ذلك التنزيل المفرق الذى قدحوا فيه واقترحوا خلافه نزلناه
لا تنزيلا مغايرا له لنقوى بذلك التنزيل المفرق فؤادك فان فيه تيسير الحفظ النظم
وفهم المعانى وضبط الاحكام والوقوف على تفاصيل ما روعى فيها من الحكم والمصالح
المبنية على المناسبة على انها منوطة باسبابها الداعية الى شرعها ابتداء
او تبديلا بالنسخ من احوال المكلفين وكذلك عامة ما ورد فى القرآن المجيد من الاخبار
وغيرها متعلقة بامور حادثة من الاقاويل والافاعيل ومن قضية تجددها تجدد

ما يتعلق بها كالاقتراحات الواقعة من الكفرة الداعية الى حكايتها وابطالها وبيان ما يؤول
اليه حالهم في الآخرة على انهم في هذا الاقتراح كالباحث عن حتفه بظلفه حيث امروا بالاتيان
بمثل نوبة من نوب التنزيل فظهر عجزهم عن المعارضة وضاقت عليهم الارض بما
رحبت فكيف لو تحدوا بكله وقوله تعالى ورتلناه ترتيلا عطف على ذلك المضمر وتنكير
ترتيلا للتفخيم اي كذلك نزلناه ورتلناه ترتيلا بديعا لا يقادر قدره ومعنى ترتيله
تفريقه آية بعد آية قاله النخعي والحسن وقتادة وقال ابن عباس رضي الله عنهما بيناه بيانا
فيه ترتيل وتثبت وقال السدي فصلناه تفصيلا وقال مجاهد جعلنا بعضه في اثر بعضه
وقيل هو الامر بترتيل قراءته بقوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا وقيل قرأناه عليك بلسان
جبريل شيئا فشيئا في عشرين او في ثلث وعشرين سنة على تؤدة وتمهل ولا يأتونك
بمثل من الامثال التي من جملتها ما حكي من اقتراحاتهم القبيحة الخارجة عن دائرة
العقول الجارية لذلك مجرى الامثال اي لا يأتونك بكلام عجيب هو مثل في البطلان
يريدون به القدح في حقك وحق القرآن الا جئناك في مقابلته بالحق اي بالجواب
الحق الثابت الذي ينحي عليه بالابطال ويحسم مادة القيل والقال كما مر من الاجوبة
الحقة القالعة لعروق اسئلتهم الشنيعة الدامغة لها بالكلية وقوله تعالى واحسن
تفسيرا عطف على الحق اي جئناك باحسن تفسيرا او على محل بالحق اي اتيناك الحق و
احسن تفسيرا اي بيانا وتفصيلا على معنى انه في الغاية مما يكون من الحسن في حد ذاته
لا ان ما يأتون به له حسن في الجملة وهذا احسن منه كما مر والاستثناء مفرغ محله النصب
على الحالية اي لا يأتونك بمثل الا حال اتياننا اياك الحق الذي لا محيد عنه وفيه من الدلالة
على المسارعة الى ابطال ما اتوا به وتثبيت فؤاده عليه السلام ما لا يخفى وهذا بعبارته
ناطق ببطلان جميع الاسئلة وبصحة جميع الاجوبة وباشارته منبئ عن بطلان
السؤال الاخير وصحة جوابه اذ لولا ان تنزيل القرآن على التدريج لما امكن ابطال تلك
الاقتراحات الشنيعة ولما حصل تثبيت فؤاده عليه السلام من تلك الحيثية هذا وقد
جوز ان يكون المثل عبارة عن الصفة الغريبة التي كانوا يقترحون كونه عليه السلام
عليها من مقارنة الملك والاستغناء عن الاكل والشرب وحيازة الكنز والجنة ونزول
القرآن عليه جملة واحدة على معنى لا يأتونك بحالة عجيبة يقترحون اتصافك بها قائلين
هلا كان على هذه الحالة الا اعطيناك نحن من الاحوال الممكنة ما يحق لك في حكمتنا ومشيئتنا
ان تعطاه وما هو احسن تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته وهو الذي انت عليه
في الذات والصفات ويأباه الاستثناء المذكور فان المتبادر منه ان يكون ما اعطاه
الله تعالى من الحق مترتبا على ما اتوا به من الاباطيل دامغا لها ولا ريب في ان ما آتاه
الله تعالى من الملكات السنية اللائقة بالرسالة قد آتاه من اول الامر لا بمقابلة ما حكي
عنهم من الاقتراحات لاجل دمغها وابطالها الذين يحشرون على وجوههم
الى جهنم اي يحشرون كائنين على وجوههم يسحبون عليها ويجرون الى جهنم
وقيل مقلوبين وجوههم على قفاهم وارجلهم الى فوق روي عنه عليه السلام
يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة اثلاث ثلث على الدواب وثلث على وجوههم
وثلث على اقدامهم ينسلون نسلا واما ما قيل متعلقة قلوبهم بالسفليات متوجهة
وجوههم اليها فبعيد لان هول ذلك اليوم ليس بحيث يبقى لهم عند تعلق
بالسفليات او توجه اليها في الجملة ومحل الموصول اما النصب والرفع على الذم
او الرفع على الابتداء وقوله تعالى اولئك بدل منه او بيان له وقوله تعالى شر مكانا
واضل سبيلا خبر له او اسم الاشارة مبتدأ ثان وشر خبره والجملة خبر للموصول
ووصف سبيل بالضلال من باب الاسناد المجازي للمبالغة والمفضل عليه الرسول
صلى الله عليه وسلم على منهاج قوله تعالى قل هل انبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله
من لعنه الله وغضب عليه كانه قيل ان حاملهم على هذه الاقتراحات تحقير مكانه
عليه السلام وتضليل سبيله ولا يعلمون حالهم ليعلموا انهم شر مكانا واضل سبيلا وقيل

متصل بقوله تعالى اصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا واحسن مقيلا ولقد آتينا موسى الكتاب
جملة مستأنفة سيقت لتأكيد ما مر من التسلية والوعد بالهداية والنصر في قوله تعالى
وكفى بربك هاديا ونصيرا بحكاية ما جرى بين من ذكر من الانبياء عليهم السلام
وبين قومهم حكاية اجمالية كافية فيما هو المقصود واللام جواب لقسم محذوف
اي وبالله لقد آتينا موسى التوراة اي انزلناها عليه بالآخرة وجعلنا معه الظرف
متعلق بجعلنا وقوله تعالى اخاه مفعول اول له وقوله تعالى هرون بدل من اخاه
او عطف بيان له على عكس ما وقع في سورة طه وقوله تعالى وزيرا مفعول ثان
وقد مر تحقيق معنى الوزير اي جعلناه في اول الامر وزيرا له فقلنا لهما حينئذ
اذهبا الى القوم الذين كذبوا باياتنا هم فرعون وقومه والآيات هي المعجزات
التسع المفصلات الظاهرة على يدي موسى عليه السلام ولم يوصف القوم لهما
عند ارسالهما اليهم بهذا الوصف ضرورة تأخر تكذيب الآيات عن اظهارها
المتأخر عن ذهابهما المتأخر عن الامر به بل انما وصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله
صلى الله عليه وسلم بيانا لعلة استحقاقهم لما يحكى بعده من التدمير اي فذهبا اليهم
فارياهم آياتنا كلها فكذبوها تكذيبا مستمرا فدمرناهم اثر ذلك التكذيب المستمر
تدميرا عجيبا هائلا لا يقادر قدره ولا يدرك كنهه فاقتصر على حاشيتي القصة
اكتفاء بما هو المقصود وحمل قوله تعالى فدمرناهم على معنى فحكمنا بتدميرهم مع كونه
تعسفا ظاهرا مما لا وجه له اذ لا فائدة يعتد بها في حكاية الحكم بتدمير قد وقع
وانقضى والتعرض في مطلع القصة لايتاء الكتاب مع انه كان بعد مهلك القوم ولم
يكن له مدخل في هلاكهم كسائر الآيات للايذان من اول الامر ببلوغه عليه السلام
غاية الكمال ونيله نهاية الآمال التي هي انجاء بني اسرائيل من ملكة فرعون وارشادهم
الى طريق الحق بما في التوراة من الاحكام اذ به يحصل تأكيد الوعد على الوجه
الذي مر بيانه وقرئ فدمرتهم وفدمراهم وفدمرانهم على التأكيد بالنون
الثقيلة وقوم نوح منصوب بمضمر يدل عليه قوله تعالى فدمرناهم اي ودمرنا قوم
نوح وقيل عطف على مفعول فدمرناهم وليس من ضرورة ترتب تدميرهم
على ما قبله ترتب تدمير هؤلاء عليه لاسيما وقد بين سببه بقوله تعالى لما كذبوا
الرسل اي نوحا ومن قبله من الرسل او نوحا وحده لان تكذيبه تكذيب للكل
لاتفاقهم على التوحيد والاسلام وقيل هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى
اغرقناهم وانما يتسنى ذلك على تقدير كون كلمة لما ظرف زمان واما على تقدير
كونها حرف وجود لوجود فلا لانه حينئذ جواب لما وجواب لما لا يفسر ما قبله مع انه
مخل بعطف المنصوبات الآتية على قوم نوح لما ان اهلاكهم ليس بالاغراق فالوجه
ما تقدم وقوله تعالى اغرقناهم استئناف مبين لكيفية تدميرهم وجعلناهم
اي جعلنا اغراقهم او قصتهم للناس آية اي آية عظيمة يعتبر بها كل من شاهدها
او سمعها وهي مفعول ثان لجعلنا وللناس ظرف لغو له او متعلق بمحذوف وقع حالا
من آية اذ لو تأخر عنها لكان صفة لها واعتدنا للظالمين اي لهم والاظهار
في موقع الاضمار للايذان بتجاوزهم الحد في الكفر والتكذيب عذابا اليما هو
عذاب الآخرة اذ لا فائدة في الاخبار باعتداد العذاب الذي قد اخبر بوقوعه من
قبل او لجميع الظالمين الباقين الذين لم يعتبروا بما جرى عليهم من العذاب فيدخل
في زمرتهم قريش دخولا اوليا ويحتمل العذاب الدنيوي والاخروي وعادا عطف على
قوم نوح على المفعول الاول لجعلناهم وقيل على محل للظالمين اذ هو في معنى ووعدنا
الظالمين وكلاهما بعيد وثمود الكلام فيه وفيما بعده كما فيما قبله وقرئ وثمودا
على تأويل الحي او على انه اسم الاب الاقصى واصحاب الرس هم قوم يعبدون
الاصنام فبعث الله تعالى اليهم شعيبا عليه السلام فكذبوه فبينما هم حول الرس
وهي البئر التي لم تطو بعد اذ انهارت فخسف بهم وبديارهم وقيل الرس قرية

يفلج اليمامة كان فيها بقايا ثمود فبعث اليهم نبي فقتلوه فهلكوا وقيل هو الاخدود وقيل بئر بانطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار وقيل هم اصحاب حنظلة بن صفوان النبي صلى الله عليه وسلم ابتلاهم الله تعالى بطير عظيم كان فيها من كل لون وسموها عنقاء لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتح او دمخ فتنقض على صبيانهم فتخطفهم ان اعوزها الصيد ولذلك سميت مغربا فدعا عليها حنظلة عليه السلام فاصابتها الصاعقة ثم انهم قتلوه عليه السلام فاهلكوا وقيل قوم كذبوا رسولهم ورسوه اى دسوه فى بئر «وقرونا» اى اهل قرون قيل القرن اربعون سنة وقيل سبعون وقيل مائة وقيل مائة وعشرون «بين ذلك» اى بين ذلك المذكور من الطوائف والامم وقد يذكر الذاكر اشياء مختلفة ثم يشير اليها بذلك ويحسب الحاسب اعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت على ذلك المذكور وذلك المحسوب «كثيرا» لا يعلم مقدارها الا العليم الخبير ولعل الاكتفاء فى شؤون تلك القرون بهذا البيان الاجمالي لما ان كل قرن منها لم يكن فى الشهرة وغرابة القصة بمثابة الامم المذكورة «وكلا» منصوب بمضمر يدل عليه ما بعده فان ضرب المثل فى معنى التذكير والتحذير والمحذوف الذى عوض عنه التنوين عبارة اما عن الامم التى لم يذكر اسباب اهلاكهم واما عن الكل فان ما حكى عن قوم نوح وقوم فرعون تكذيبهم للايات والرسل لا عدم التاثر من الامثال المضروبة اى ذكرنا وانذرنا كل واحد من المذكورين «ضربنا له الامثال» اى بينا له القصص العجيبة الزاجرة عما هم عليه من الكفر والمعاصى بواسطة الرسل «وكلا» اى كل واحد منهم لا بعضهم دون بعض «تبرنا تتبيرا» عجيبا هائلا لما انهم لم يتاثروا بذلك ولم يرفعوا له رأسا وتمادوا على ما هم عليه من الكفر والعدوان واصل التتبير التفتيت قال الزجاج كل شئ كسرته وفتته فقد تبرته ومنه التبر لفتات الذهب والفضة «ولقد اتوا» جملة مستانفة مسوقة لبيان مشاهدتهم لآثار هلاك بعض الامم المتبرة وعدم اتعاظهم بها وتصديرها بالقسم لمزيد تقرير مضمونها اى وبالله تعالى لقد اتى قريش فى متاجرهم الى الشام «على القرية التى امطرت» اى اهلكت بالحجارة وهى قرى قوم لوط وكانت خمس قرى ما نجت منها الا واحدة كان اهلها لا يعملون العمل الخبيث واما البواقى فاهلكها الله بالحجارة وهى المرادة بقوله تعالى «مطر السوء» وانتصابه اما على انه مصدر مؤكد بحذف الزوائد كما قيل فى انبته الله تعالى نباتا حسنا اى امطار السوء او على انه مفعول ثان اذ المعنى اعطيت او اوليت مطر السوء «افلم يكونوا يرونها» توبيخ لهم على تركهم التذكر عند مشاهدة ما يوجبه والهمزة لانكار نفى استمرار رؤيتهم لها وتقرير استمرارها حسب استمرار ما يوجبها من اتيانهم عليها لا لانكار استمرار نفى رؤيتهم وتقرير رؤيتهم لها فى الجملة والفاء لعطف مدخولها على مقدر يقتضيه المقام اى الم يكونوا ينظرون اليها فلم يكونوا يرونها او اكانوا ينظرون اليها فلم يكونوا يرونها فى مرار مرورهم ليتعظوا بما كانوا يشاهدونها من آثار العذاب فالمنكر فى الاول ترك النظر وعدم الرؤية معا وفى الثانى عدم الرؤية مع تحقق النظر الموجب لها وقوله تعالى «بل كانوا لا يرجون نشورا» اما اضراب عما قبله من عدم رؤيتهم لآثار ما جرى على اهل القرى من العقوبة وبيان لكون عدم اتعاظهم بسبب انكارهم لكون ذلك عقوبة لمعاصيهم لا لعدم رؤيتهم لآثارها خلا انه اكتفى عن التصريح بانكارهم ذلك بذكر ما يستلزمه من انكارهم للجزاء الاخروى الذى هو الغاية من خلق العالم وقد كنى عن ذلك بعدم رجاء النشور اى عدم توقعه كانه قيل بل كانوا ينكرون النشور المستتبع للجزاء الاخروى ولا يرون لنفس من النفوس نشورا اصلا مع تحققه حتما وشموله للناس عموما واطراده وقوعا فكيف يعترفون بالجزاء الدنيوى فى حق طائفة خاصة مع عدم الاطراد والملازمة بينه وبين المعاصى حتى يتذكروا ويتعظوا بما شاهدوه من آثار الهلاك وانما يحملونه على الاتفاق واما انتقال من التوبيخ بما ذكر من ترك التذكر

الى التوبيخ بما هو اعظم منه من عدم توقع النشور «واذا راوك ان يتخذونك الا هزوا» اى ما يتخذونك الا موضع هزء او مهزوا به على معنى قصر معاملتهم معه عليه السلام على اتخاذهم اياه هزوا لا على معنى قصر اتخاذهم على كونه هزوا كما هو المتبادر من ظاهر العبارة كانه قيل ما يفعلون بك الا اتخاذك هزوا وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى ان اتبع الا ما يوحى الى من سورة الانعام وقوله تعالى «اهذا الذى بعث الله رسولا» محكى بعد قول مضمر هو حال من فاعل يتخذونك اى يستهزؤن بك قائلين اهذا الذى الخ والاشارة للاستحقار وابراز بعث الله رسولا فى معرض التسليم بجعله صلة للموصول الذى هو صفته عليه السلام مع كونهم فى غاية النكير لبعثه بطريق التهكم والاستهزاء والا لقالوا ابعث الله هذا رسولا او هذا الذى يزعم انه بعثه الله رسولا «ان كاد» ان مخففة من ان وضمير الشان محذوف اى انه كاد «ليضلنا عن آلهتنا» اى ليصرفنا عن عبادتها صرفا كليا بحيث يبعدنا عنها لا عن عبادتها فقط والعدول الى الاضلال لغاية ضلالهم بادعاء ان عبادتها طريق سوى «لولا ان صبرنا عليها» ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها ولولا فى امثال هذا الكلام يجرى مجرى التقييد للحكم المطلق من حيث المعنى كما اشير اليه فى قوله تعالى ولقد همت به الخ وهذا اعتراف منهم بانه صلى الله عليه وسلم قد بلغ من الاجتهاد فى الدعوة الى الحق واظهار المعجزات واقامة الحجج والبينات الى حيث شارفوا ان يتركوا دينهم لولا فرط لجاجهم وغاية عنادهم يروى انه من قول ابى جهل «وسوف يعلمون» جواب من جهته تعالى لآخر كلامهم ورد لما ينبئ عن من نسبته عليه السلام الى الضلال فى ضمن الاضلال اى سوف يعلمون البتة وان تراخى «حين يرون العذاب» الذى يستوجبه كفرهم وعنادهم «من اضل سبيلا» وفيه ما لا يخفى من الوعيد والتنبيه على انه تعالى لا يهملهم وان امهلهم «ارايت من اتخذ الهه هواه» تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من شناعة حالهم بعد حكاية قبائحهم من الاقوال والافعال وبيان ما لهم من المصير والمآل وتنبيه على ان ذلك من الغرابة بحيث يجب ان يرى ويتعجب منه والهه مفعول ثان لاتخذ قدم على الاول للاعتناء به لانه الذى يدور عليه امر التعجب ومن توهم انهما على الترتيب بناء على تساويهما فى التعريف فقد زل عنه ان المفعول الثانى فى هذا الباب هو المتلبس بالحالة الحادثة اى ارايت من جعل هواه الها لنفسه من غير ان يلاحظه وبنى عليه امر دينه معرضا عن استماع الحجة الباهرة والبرهان النير بالكلية على معنى انظر اليه وتعجب منه وقوله تعالى «افانت تكون عليه وكيلا» انكار واستبعاد لكونه عليه السلام حفيظا عليه يزجره عما هو عليه من الضلال ويرشده الى الحق طوعا او كرها والفاء لترتيب الانكار على ما قبله من الحالة كانه قيل ابعد ما شاهدت غلوه فى طاعة الهوى وعتوه عن اتباع الهدى تقسره على الايمان شاء او ابى وقوله تعالى «ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون» اضراب وانتقال عن الانكار المذكور الى انكار حسبانه عليه السلام لهم ممن يسمع او يعقل حسبما ينبئ عنه جده عليه السلام فى الدعوة واهتمامه بالارشاد والتذكير لكن لا على انه لا يقع كالاول بل على انه لا ينبغى ان يقع اى بل اتحسب ان اكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من الآيات حق السماع او يعقلون ما فى تضاعيفها من المواعظ الزاجرة عن القبائح الداعية الى المحاسن فتعتنى بشأنهم وتطمع فى ايمانهم وضمير اكثرهم لمن وجمعه باعتبار معناها كما ان الافراد فى الضمائر الاول باعتبار لفظها وضمير الفعلين للاكثر لا لما اضيف هو اليه وقوله تعالى «ان هم الا كالانعام» الخ جملة مستانفة مسوقة لتقرير النكير وتاكيده وحسم مادة الحسبان بالمرة اى ما هم فى عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات وانتفاء التدبر فيما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات الا كالبهائم التى هى مثل فى الغفلة وعلم فى الضلالة «بل هم اضل» منها «سبيلا» لما انها تنقاد لصاحبها الذى يعلفها ويتعهدها وتعرف من يحسن اليها ممن يسيء اليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدى لمراعيها ومشاربها

وتاوى الى معاطنها وهؤلاء لا ينقادون لربهم وخالقهم ورازقهم ولا يعرفون احسانه اليه من اساءة الشيطان الذى هو اعدى عدوهم ولا يطلبون الثواب الذى هو اعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذى هو اشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى والمورد العذب الروى ولانها ان لم تعتقد حقا مستتبعا لاكتساب الخير لم تعتقد باطلا مستوجبا لاقتراف الشر بخلاف هؤلاء حيث مهدوا قواعد الباطل وفرعوا عليها احكام الشرور ولان احكام جهالتها وضلالتها مقصورة على انفسها لا يتعدى الى احد وجهالة هؤلاء مؤدية الى ثوران الفتنة والفساد وصد الناس عن سنن السداد وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد ولانها غير معطلة لقوة من القوى المودعة فيها بل صارفة لها الى ما خلقت هى له فلا تقصير من قبلها فى طلب الكمال واما هؤلاء فهم معطلون لقواهم العقلية مضيعون للفطرة الاصلية التى فطر الناس عليها مستحقون بذلك اعظم العقاب واشد النكال ﴿الم تر الى ربك﴾ بيان لبعض دلائل التوحيد اثر بيان جهالة المعرضين عنها وضلالهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والهمزة للتقرير والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام لتشريفه وللايذان بان ما يعقبه من آثار ربوبيته تعالى ورحمته اى الم تنظر الى بديع صنعه تعالى ﴿كيف مد الظل﴾ اى كيف انشأ ظل اى مظل كان من جبل او بناء او شجر عند ابتداء طلوع الشمس ممتدا لا انه تعالى مده بعد ان لم يكن كذلك كما بعد نصف النهار الى غروبها فان ذلك مع خلوه عن التصريح بكونه بانشائه تعالى واحداثه يأباه سباق النظم الكريم واما ما قيل من ان المراد بالظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس وانه اطيب الاوقات فان الظلمة الخالصة تنفر عنها الطباع وشعاع الشمس يسخن الجو ويبهر البصر ولذلك وصف به الجنة فى قوله تعالى وظل ممدود ففيه سداد اذ لا ريب فى ان المراد تنبيه الناس على عظيم قدرة الله عز وجل وبالغ حكمته فيما يشاهدونه فلا بد ان يراد بالظل ما يتعارفونه من حالة مخصوصة يشاهدونها فى موضع يحول بينه وبين الشمس جسم كثيف مخالفة لما فى جوانبه من مواقع ضح الشمس وما ذكر وان كان فى الحقيقة ظلا للافق الشرقى لكنهم لا يعدونه ظلا ولا يصفونه باوصافه المعهودة ولعل توجيه الرؤية اليه سبحانه مع ان المراد تقرير رؤيته عليه السلام لكيفية مد الظل للتنبيه على ان نظره عليه السلام غير مقصور على ما يطالعه من الآثار والصنائع بل مطمح انظاره معرفة شؤون الصانع المجيد وقوله تعالى ﴿ولو شاء لجعله ساكنا﴾ جملة اعترضت بين المعطوفين للتنبيه من اول الامر على انه لا مدخل فيما ذكر من المد للاسباب العادية وانما المؤثر فيه المشيئة والقدرة ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء اى ولو شاء سكونه لجعله ساكنا اى ثابتا على حاله من الطول والامتداد وانما عبر عن ذلك بالسكون لما ان مقابله الذى هو تغير حاله حسب تغير الاوضاع بين المظل وبين الشمس يرى رأى العين حركة وانتقالا وحاصله انه لا يعتريه اختلاف حاله بان لا تنسخه الشمس واما التعليل بان يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد فمدار الفضول عما يسوق له النظم الكريم وينطق به صريحا من بيان كمال قدرته القاهرة وحكمته الباهرة بنسبة جميع الامور الحادثة اليه تعالى بالذات واسقاط الاسباب العادية عن رتبة السببية والتأثير بالكلية وقصرها على مجرد الدلالة على وجود المسببات لا بذكر قدرته تعالى على بعض الخوارق كاقامة الشمس فى مقام واحد على انها اعظم من ابقاء الظل على حاله فى الدلالة على ما ذكر من كمال القدرة والحكمة لكونه من فروعها ومستتبعاتها فهى اولى واحق بالايراد فى معرض البيان وقوله تعالى ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلا﴾ عطف على مد داخل فى حكمه اى جعلناها علامة يستدل باحوالها المتغيرة على احواله من غير ان يكون بينهما سببية وتأثير قطعا حسبما نطق به الشرطية المعترضة والالتفات الى نون العظمة لما فى الجعل المذكور العارى عن التأثير مع ما يشاهد بين الظل والشمس من الدوران المطرد المنبئ عن السببية من مزيد دلالة على عظم القدرة ودقة الحكمة وهو

السر فى ايراد كلمة التراخى وقوله تعالى ﴿ثم قبضناه﴾ عطف على مد داخل فى حكمه وثم للتراخى الزمانى لما ان فى بيانا كون القبض والمد مرتبين دائرين على قطب مصالح المخلوقات مزيد دلالة على الحكمة الربانية ويجوز للتراخى الرتبى اى ازلناه بعد ما انشأناه ممتدا ومحوناه بمحض قدرتنا ومشيئتنا عند ايقاع شعاع الشمس موقعه من غير ان يكون له تأثير فى ذلك اصلا وانما عبر عنه بالقبض المنبئ عن جمع المنبسط وطيه لما انه قد عبر عن احداثه بالمد الذى هو البسط طولا وقوله تعالى ﴿الينا﴾ للتنصيص على كون مرجعه اليه تعالى كما ان حدوثه منه عز وجل ﴿قبضا يسيرا﴾ اى على مهل قليلا قليلا حسب ارتفاع دليله على وتيرة معينة مطردة مستتبعة لمصالح المخلوقات ومرافقها وقيل ان الله تعالى حين بنى السماء كالقبة المضروبة ودحا الارض تحتها القت القبة ظلها على الارض لعدم النير وذلك مده تعالى اياه ولو شاء لجعله ساكنا مستقرا على تلك الحالة ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل اى سلطها عليه ونصبها دليلا متبوعا كما يتبع الدليل فى الطريق فهو يزيد بها وينقص ويمتد ويقلص ثم نسخه بها فقبضه قبضا سهلا يسيرا غير عسير او قبضا سهلا عند قيام الساعة بقبض اسبابه وهى الاجرام التى تلقى الظل فيكون قد ذكر اعدامه باعدام اسبابه كما ذكر انشاؤه بانشائها ووصفه باليسر على طريقة قوله تعالى ذلك حشر علينا يسير وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع ﴿وهو الذى جعل لكم الليل لباسا﴾ بيان لبعض بدائع آثار قدرته تعالى وحكمته وروائع احكام رحمته ونعمته الفائضة على الخلق وتلوين الخطاب لتوفية مقام الامتنان حقه واللام متعلقة بجعل وتقديمها على مفعوليه للاعتناء ببيان كون ما يعقبه من منافعهم وفى تعقيب بيان احوال الظل ببيان احكام الليل الذى هو ظل الارض من لطف المسلك ما لا مزيد عليه اى هو الذى جعل لكم الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس ﴿والنوم سباتا﴾ اى وجعل النوم الذى يقع فى الليل غالبا قطعا عن الافاعيل المختصة بحال اليقظة عبر عنه بالسبات الذى هو الموت لما بينهما من المشابهة التامة فى انقطاع احكام الحياة وعليه قوله تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل وقوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ﴿وجعل النهار نشورا﴾ اى زمان بعث من ذلك السبات كبعث الموتى على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه او نفس البعث على طريق المبالغة وفيه اشارة الى ان النوم واليقظة انموذج للموت والنشور وعن لقمان عليه السلام يا بنى كما تنام فتوقظ كذلك تموت وتنشر ﴿وهو الذى ارسل الرياح﴾ وقرئ بالتوحيد على ان المراد به الجنس ﴿بشرا﴾ تخفيف بشر جمع بشور اى مبشرين وقرئ بشرى وقرئ نشرا بالنون جمع نشور اى ناشرات للسحاب وقرئ بالتخفيف وبفتح النون ايضا على انه مصدر وصف به مبالغة وقوله تعالى ﴿بين يدى رحمته﴾ استعارة بديعة اى قدام المطر والالتفات الى نون العظمة فى قوله تعالى ﴿وانزلنا من السماء ماء طهورا﴾ لابراز كمال العناية بالانزال لانه نتيجة ما ذكر من ارسال الرياح اى انزلنا بعظمتنا بما رتبنا من ارسال الرياح من جهة الفوق ماء بليغا فى الطهارة وما قيل انه ما يكون طاهرا فى نفسه ومطهرا لغيره فهو شرح لبلاغته فى الطهارة كما ينبئ عنه قوله تعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به فان الطهور فى العربية اما صفة كما تقول ماء طهور او اسم كما فى قوله عليه السلام التراب طهور المؤمن وقد جاء بمعنى الطهارة كما فى قولك تطهرت طهورا حسنا كقولك وضوء حسنا ومنه قوله عليه السلام لا صلوة الا بطهور ووصف الماء به اشعار بتمام النعمة فيه وتتميم للنعمة فيما بعده فان الماء الطهور اهنأ وانفع مما خالطه ما يزيل طهوريته وتنبيه على ان ظواهرهم لما كانت مما ينبغى ان يطهروها فبواطنهم احق بذلك واولى ﴿لنحيى به﴾ اى بما انزلنا من الماء الطهور ﴿بلدة ميتا﴾ بانبات النبات والتذكير لان البلدة بمعنى البلد ولانه غير جار على الفعل كسائر ابنية المبالغة فاجرى مجرى الجامد والمراد به القطعة من الارض عامرة كانت او غامرة ﴿ونسقيه﴾ اى ذلك الماء الطهور عند جريانه فى الاودية

او اجتماعه فى الحياض والمنابع او الابار مما خلقنا انعاما واناسى كثيرا اى اهل البوادى
الذين يعيشون بالحيا ولذلك نكر الانعام والاناسى وتخصيصهم بالذكر لان اهل القرى
والامصار يقيمون بقرب الانهار والمنابع فيهم وبما لهم من الانعام غنية عن سقيا
السماء وسائر الحيوانات تبعد فى طلب الماء فلا يعوزها الشرب غالبا مع ان مساق
الايات الكريمة كما هو للدلالة على عظم القدرة فهو لتعداد انواع النعمة والانعام حيث
كانت قنية للاناسى عامة منافعهم ومعايشهم منوطة بها قدم سقيها على سقيهم
كما قدم عليها احياء الارض فانه سبب لحياتها وتعيشها وقرئ نسقيه واسقى وسقى
لغتان وقيل اسقاه جعل له سقيا واناسى جمع انسى وانسان كظرابى فى ظربان على ان
اصله اناسين فقلبت نونه ياء وقرئ اناسى بالتخفيف بحذف ياء افاعيل كاناعم فى اناعيم
ولقد صرفناه اى وبالله لقد كررنا هذا القول الذى هو ذكر انشاء السحاب وانزال
المطر لما مر من الغايات الجميلة فى القران وغيره من الكتب السماوية بينهم اى بين الناس
من المتقدمين والمتاخرين ليذكروا ليتفكروا ويعرفوا بذلك كمال قدرته تعالى وواسع
رحمته فى ذلك ويقوموا بشكر نعمته حق قيام وقيل الضمير للمطر وتصريفه بينهم انزاله
فى بعض البلاد دون غيرها او فى بعض الاوقات دون بعض او جعله تارة وابلا واخرى
طلا وحينا ديمة واخرى رهمة والاول هو الاظهر فابى اكثر الناس ممن
سلف وخلف الا كفورا اى لم يفعل الا كفران النعمة وقلة الاكتراث لها او الا جحودها
بان يقولوا مطرنا بنوء كذا ولا يذكروا صنع الله تعالى ورحمته ومن لا يرى الامطار الا
من الانواء فهو كافر بخلاف من يرى ان الكل بخلق الله تعالى والانواء امارات بجعله تعالى
ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا نبيا ينذر اهلها فيخف عليك اعباء النبوة لكن لم
نشأ ذلك فلم نفعله بل قصرنا الامر عليك حسبما ينطق به قوله تعالى ليكون للعالمين نذيرا
اجلالا لك وتعظيما وتفضيلا لك على سائر الرسل فلا تطع الكافرين اى فقابل ذلك
بالثبات والاجتهاد فى الدعوة واظهار الحق والتشدد معهم كانه نهى لرسول الله صلعم
عن المداراة معهم والتلطف فى الدعوة لما انه عليه السلام كان يود ان يدخلوا فى
الاسلام ويجتهد فى ذلك بتاليف قلوبهم اشد الاجتهاد وجاهدهم به اى
بالقران بتلاوة ما فى تضاعيفه من القوارع الزواجر والمواعظ وتذكير احوال الامم
المكذبة جهادا كبيرا فان دعوة كل العالمين على الوجه المذكور جهاد كبير لا يقادر قدره كما
وكيفا وقيل الضمير المجرور لترك الطاعة المفهوم من النهى عن الطاعة وانت خبير بان
مجرد ترك الطاعة يتحقق بلا دعوة اصلا وليس فيه شائبة الجهاد فضلا عن الجهاد
الكبير اللهم الا ان يجعل الباء للملابسة فيكون المعنى وجاهدهم بما ذكر من احكام
القران الكريم ملابسا بترك طاعتهم كانه قيل فجاهدهم بالشدة والعنف لا بالملاينة
والمداراة كما فى قوله تعالى يا ايها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم وقد
جعل الضمير لما دل عليه قوله تعالى ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا من كونه عليه السلام
نذير كافة القرى لانه لو بعث فى كل قرية نذيرا لوجبت على كل نذير مجاهدة قريته
فاجتمعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المجاهدات كلها فكبر من اجل ذلك جهاده و
عظم فقيل له وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة القرى جهادا كبيرا جامعا لكل مجاهدة
وانت خبير بان بيان سبب المجاهدة بحسب الكمية ليس فيه مزيد فائدة فانه بين بنفسه
وانما اللائق بالمقام بيان سبب كبرها وعظمها فى الكيفية وهو الذى مرج البحرين
اى خلاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان من مرج دابته اذا خلاها
هذا عذب فرات قامع للعطش لغاية عذوبته وهذا ملح اجاج بليغ الملوحة
وقرئ ملح فلعله تخفيف مالح كبرد فى بارد وجعل بينهما برزخا حاجزا غير مرئى
من قدرته كما فى قوله تعالى بغير عمد ترونها وحجرا محجورا وتنافرا مفرطا كان كلا
منهما يتعوذ من الاخر بتلك المقالة وقيل حدا محدودا وذلك كدجلة تدخل البحر
وتشقه وتجرى فى خلاله فراسخ لا يتغير طعمها وقيل المراد بالبحر العذب النهر العظيم

وبالملح

وبالملح البحر الكبير وبالبرزخ ما بينهما من الارض فيكون اثر القدرة فى الفصل واختلاف الصفة
مع ان مقتضى طبيعة كل عنصر التضام والتلاصق والتشابه فى الكيفية وهو الذى
خلق من الماء بشرا هو الماء الذى خمر به طينة آدم عليه السلام او جعله جزء من مادة
البشر ليجتمع ويسلس ويستعد لقبول الاشكال والهيئات بسهولة او هو النطفة فجعله
نسبا وصهرا اى قسمه قسمين ذوى نسب اى ذكورا ينتسب اليهم وذوات صهر اى
اناثا يصاهر بهن كقوله تعالى وجعل منه الزوجين الذكر والانثى وكان ربك قديرا
مبالغا فى القدرة حيث قدر على ان يخلق من مادة واحدة بشرا ذا اعضاء مختلفة وطباع
متباعدة وجعله قسمين متقابلين وربما يخلق من نطفة واحدة توامين ذكرا وانثى
ويعبدون من دون الله الذى شانه ما ذكر ما لا ينفعهم ولا يضرهم اذ ما
من مخلوق يستقل بالنفع والضر وكان الكافر على ربه الذى ذكرت آثار ربوبيته
ظهيرا يظاهر الشيطان بالعداوة والشرك والمراد بالكافر الجنس او ابو
جهل وقيل هينا مهينا لا اعتداد به عنده تعالى من قولهم ظهرت به اذا نبذته خلف
ظهرك فيكون كقوله تعالى ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم وما ارسلناك الا مبشرا
للمؤمنين ونذيرا للكافرين قل لهم ما اسئلكم عليه اى على تبليغ الرسالة الذى
ينبئ عنه الارسال من اجر من جهتكم الا من شاء ان يتخذ الى ربه سبيلا اى الا فعل
من يريد ان يتقرب اليه تعالى ويطلب الزلفى عنده بالايمان والطاعة حسبما ادعوهم اليها
صور ذلك بصورة الاجر من حيث انه مقصود الاتيان به واستثنى منه قلعا كليا لشائبة
الطمع واظهارا لغاية الشفقة عليهم حيث جعل ذلك مع كون نفعه عائدا اليهم عائدا
اليه عم وقيل الاستثناء منقطع اى لكن من شاء ان يتخذ الى ربه سبيلا فليفعل وتوكل على الحى الذى
لا يموت فى الاستكفاء عن شرورهم والاغناء عن اجورهم فانه الحقيق بان يتوكل عليه
دون الاحياء الذين من شانهم الموت فانهم اذا ماتوا ضاع من توكل عليهم وسبح بحمده
ونزهه عن صفات النقصان مثنيا عليه بنعوت الكمال طالبا لمزيد الانعام بالشكر على
سوابقه وكفى به بذنوب عباده ما ظهر منها وما بطن خبيرا اى مطلعا عليها
بحيث لا يخفى عليه شىء منها فيجزيهم جزاء وافيا الذى خلق السموات والارض وما
بينهما فى ستة ايام ثم استوى على العرش قد سلف تفسيره ومحل الموصول الجر على
انه صفة اخرى للحى وصف بالصفة الفعلية بعد وصفه بالابدية التى هى من الصفات الذاتية
والاشارة الى اتصافه بالعلم الشامل لتقرير وجوب التوكل عليه تعالى وتاكيده فان من انشأ هذه
الاجرام العظام على هذا النمط الفائق والنسق الرائق بتدبير متين وترتيب رصين فى
اوقات معينة مع كمال قدرته على ابداعها دفعة لحكم جليلة وغايات جميلة لا تقف على
تفاصيلها العقول احق من يتوكل عليه واولى من يفوض الامر اليه الرحمن مرفوع على
المدح اى هو الرحمن وهو فى الحقيقة وصف آخر للحى كما قرئ بالجر مفيد لزيادة تاكيد
ما ذكر من وجوب التوكل عليه تعالى وان لم يتبعه فى الاعراب لما تقرر من ان المنصوب
والمرفوع مدحا وان خرجا عن التبعية لما قبلهما صورة حيث لم يتبعاه فى الاعراب
وبذلك سميا قطعا لكنهما تابعان له حقيقة الا يرى كيف التزم حذف الفعل والمبتدأ
فى النصب والرفع روما لتصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات ما قبله وتنبيها لشدة
الاتصال بينهما وقد مر تمام التحقيق فى تفسير قوله عز وجل الذين يؤمنون بالغيب الاية وقيل
الموصول مبتدأ والرحمن خبره وقيل الرحمن بدل من المستكن فى استوى فاسأل به اى
بتفاصيل ما ذكر اجمالا من الخلق والاستواء لا بنفسهما فقط اذ بعد بيانهما لا يبقى الى السؤال
حاجة فى تعديته بالباء فائدة فانها مبنية على تضمينه معنى الاعتناء
المستدعى لكون المسؤل امرا خطيرا مهتما بشانه غير حاصل للسائل وظاهر
ان نفس الخلق والاستواء بعد الذكر ليس كذلك وما قيل من ان التقدير
ان شككت فيه فاسأل به خبيرا على ان الخطاب له عليه السلام والمراد
غيره بمعزل من السداد بل التقدير ان شئت تحقيق ما ذكر او تفصيل ما ذكر

او ما ليس من شانه النفع
والضر اصلا وهو الاصنام او
كل ما يعبد من دونه تعالى ح

فاسئل معتنيا به خبيرًا عظيم الشان محيطا بظواهر الامور وبواطنها وهو الله سبحانه
يطلعك على جلية الامر وقيل فاسئل به من وجده في الكتب المتقدمة ليصدقك فيه
فلا حاجة حينئذ الى ما ذكرنا وقيل الضمير للرحمن والمعنى ان انكروا اطلاقه على الله تعالى
فاسئل عنه من يخبرك من اهل الكتاب ليعرفوا مجئ ما يرادفه في كتبهم وعلى هذا
يجوز ان يكون الرحمن مبتداء وما بعده خبرًا وقرئ فسل ❁ واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن
قالوا وما الرحمن قالوه لما انهم ما كانوا يطلقونه على الله تعالى او لانهم ظنوا ان المراد
به غيره تعالى ولذلك قالوا ❁ انسجد لما تأمرنا ❁ اى للذى تأمرنا بسجوده او لامرك
ايانا من غير ان نعرف ان المسجود ماذا وقيل لانه كان معربا لم يسمعوه وقرئ يأمرنا بياء
الغيبة على انه قول بعضهم لبعض ❁ وزادهم ❁ اى الامر بسجود الرحمن ❁ نفورًا ❁ عن الايمان
تبارك الذى جعل في السماء بروجًا ❁ هي البروج الاثنى عشر سميت به وهي القصور العالية
لانها للكواكب السيارة كالمنازل الرفيعة لسكانها واشتقاقه من التبرج لظهوره ❁ وجعل
فيها سراجًا ❁ هي الشمس لقوله تعالى وجعل الشمس سراجًا وقرئ سُرُجًا وهي الشمس و
الكواكب الكبار ❁ وقمرًا منيرًا ❁ مضيئًا بالليل وقرئ قُمْرًا اى ذا قمر وهي جمع قمراء ولما
ان الليالي بالقمر تكون قمرا اضيف اليها ثم حذف واجرى حكمه على المضاف اليه القائم
مقامه كما في قول حسان رضى الله عنه بردى يصفق بالرحيق السلسل اى ماء
بردى ويحتمل ان يكون بمعنى القمر كالرُّشد والرَّشَد والعُرب والعَرَب ❁ وهو الذى جعل الليل
والنهار خلفة ❁ اى ذوى خلفة يخلف كل منهما الآخر بان يقوم مقامه فيما ينبغى ان
يعمل فيه او بان يعتقبا كقوله تعالى واختلاف الليل والنهار وهي اسم للحالة من خلف كالركبة و
الجلسة من ركب وجلس ❁ لمن اراد ان يذكر ❁ اى يتذكر آلاء الله عز وجل ويتفكر في بدايع
صنعه فيعلم انه لابد لها من صانع حكيم واجب الذات رحيم للعباد ❁ او اراد شكورًا ❁ اى
ان يشكر الله تعالى على ما فيهما من النعم او ليكونا وقتين للذاكرين من فاته ورده في احدهما
تداركه في الآخر وقرئ ان يذكر من ذكر بمعنى تذكر ❁ وعباد الرحمن ❁ كلام مستانف
مسوق لبيان اوصاف خلص عباد الرحمن واحوالهم الدنيوية والاخروية بعد بيان
حال النافرين عن عبادته والسجود له والاضافة للتشريف وهو مبتداء وخبره ما بعده من
الموصول وما عطف عليه وقيل هو ما في آخر السورة الكريمة من الجملة المصدرة باسم
الاشارة وقرئ عُبّاد الرحمن اى عباده المقبولون ❁ الذين يمشون على الارض هونا ❁ اى
بسكينة وتواضع وهونا مصدر وصف به ونصبه اما على انه حال من فاعل يمشون او على انه
نعت لمصدره اى يمشون هينين لينى الجانب من غير فظاظة او مشيا هينا وقوله تعالى
❁ واذا خاطبهم الجاهلون ❁ اى السفهاء كما في قول من قال الا لا يجهلن احد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا ❁ قالوا سلامًا ❁ بيان لحالهم في المعاملة مع غيرهم اثر
بيان حالهم في انفسهم اى اذا خاطبوهم بالسوء قالوا تسلمًا منكم ومتاركة لا خير
بيننا وبينكم ولا شر وقيل سدادًا من القول يسلمون به من الاذية والاثم وليس فيه
تعرض لمعاملتهم مع الكفرة حتى يقال نسختها آية القتال كما نقل عن ابى العالية وقوله
تعالى ❁ والذين يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا ❁ بيان لحالهم في معاملتهم مع ربهم اى
يكونون ساجدين لربهم وقائمين اى يحيون الليل كلا او بعضا بالصلوة وقيل من
قرأ شيئا من القرآن في صلوة وان قل فقد بات ساجدا وقائما وقيل هم الركعتان
بعد المغرب والركعتان بعد العشاء وتقديم السجود على القيام لرعاية الفواصل ❁ والذين
يقولون ❁ اى في اعقاب صلواتهم او في عامة اوقاتهم ❁ ربنا اصرف عنا عذاب جهنم
ان عذابها كان غرامًا ❁ اى شرا دائما وهلاكا لازما وفيه مزيد مدح لهم ببيان
انهم مع حسن معاملتهم مع الخلق واجتهادهم في عبادة الحق يخافون العذاب و
يبتهلون الى الله تعالى في صرفه عنهم غير محتفلين باعمالهم كقوله تعالى والذين يؤتون
ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون ❁ انها ساءت مستقرًا ومقاما ❁
تعليل لاستدعائهم المذكور بسوء حالها في نفسها اثر تعليله بسوء حال عذابها ويجوز

ان يكونا تعليلا للاولى وليس بذاك وساءت في حكم بئست وفيها ضمير مبهم يفسره مستقرا
والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هي وهذا الضمير هو الذى
ربط الجملة باسم ان وجعلها خبرا لها قيل ويجوز ان يكون ساءت بمعنى احزنت وفيها
ضمير اسم ان ومستقرا حالا او تمييز وهو بعيد خال عما في الاول من المبالغة في بيان سوء
حالها وكذا جعل التعليلين من جهته تعالى ❁ والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ❁ لم يجاوزوا
حد الكرم ❁ ولم يقتروا ❁ ولم يضيقوا تضييق الشحيح وقيل الاسراف هو الانفاق في
المعاصي والقتر منع الواجبات والقرب وقرئ بكسر التاء مع فتح الياء وبكسرها مخففة
ومشددة مع ضم الياء ❁ وكان بين ذلك ❁ اى بين ما ذكر من الاسراف والقتر ❁ قوامًا ❁
وسطا وعدلا سمى به لاستقامة الطرفين كما سمى به سواء لاستوائهما وقرئ بالكسر
وهو ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص وهو خبر ثان او حال مؤكدة او هو الخبر
وبين ذلك لغو وقد جوز ان يكون اسم كان على انه مبنى لاضافته الى غير متمكن ولا
يخفى ضعفه فانه بمعنى القوام فيكون كالاخبار بشئ عن نفسه ❁ والذين لا يدعون مع
الله الها آخر ❁ شروع في بيان اجتنابهم عن المعاصى بعد بيان اتيانهم بالطاعات
وذكر نفى الاسراف والقتر لتحقيق معنى الاقتصاد والتصريح بوصفهم بنفى الاشراك
مع ظهور ايمانهم لاظهار كمال الاعتناء بالتوحيد والاخلاص وتهويل امر القتل
والزنا بنظمهما في سلكه وللتعريض بما كان عليه الكفرة من قريش وغيرهم اى لا يعبدون
معه تعالى الها آخر ❁ ولا يقتلون النفس التى حرم الله ❁ اى حرمها بمعنى حرم قتلها فحذف
المضاف واقيم المضاف اليه مقامه مبالغة ❁ الا بالحق ❁ اى لا يقتلونها بسبب من الاسباب
الا بسبب الحق المزيل لحرمتها في التحريم وعصمتها ولا يقتلون قتلا ما الا قتلا ملتبسا
بالحق او يقتلونها في حال من الاحوال الا حال كونهم ملتبسين بالحق ❁ ولا يزنون ❁
اى الذين لا يفعلون شيئا من هذه العظايم القبيحة التى جمعهن الكفرة حيث كانوا
مع اشراكهم به سبحانه مدا ومين على قتل النفوس المحرمة التى من جملتها المؤدة مكبين
على الزنا لا يرعوون عنه اصلا ❁ ومن يفعل ذلك ❁ اى ما ذكر كما هو دأب الكفرة المذكورين
❁ يلق ❁ في الآخرة وقرئ يلقى وقرئ يلق بالتشديد مجزوما ❁ اثامًا ❁ وهو جزاء الاثم
كالوبال والنكال وزنا ومعنى وقيل هو الاثم اى يلق جزاء الاثم والتنوين على
التقديرين للتفخيم وقرئ اياما اى شدائد يقال يوم ذو ايام لليوم العصيب ❁ يضاعف
له العذاب يوم القيمة ❁ بدل من يلق لاتحادهما في المعنى كقوله متى تأتنا تلمم بنا في
ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا تاججا وقرئ بالرفع على الاستيناف او على الحالية
وكذا ما عطف عليه وقرئ يضعف ونضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب ❁ ويخلد
فيه ❁ في ذلك العذاب المضاعف ❁ مهانًا ❁ ذليلا مستحقرا جامعا للعذاب الجسمانى و
الروحانى وقرئ يخلد ويخلد مبنيا للمفعول من الاخلاد والتخليد وقرئ تخلد
بالتاء على الالتفات المنبئ عن شدة الغضب ومضاعفة العذاب لانضمام المعاصى الى
الكفر كما يفصح عنه قوله تعالى ❁ الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا ❁ وذكر الموصوف
مع جريان الصالح والصالحات مجرى الاسم للاعتناء به والتنصيص على مغايرته للاعمال
السابقة ❁ فاولئك ❁ اشارة الى الموصول والجمع باعتبار معناه كما ان الافراد في الافعال
الثلاثة باعتبار لفظه اى اولئك الموصوفون بالتوبة والايمان والعمل الصالح ❁ يبدل الله
سيئاتهم حسنات ❁ بان يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعاتهم
او يبدل بملكة المعصية ودواعيها في النفس ملكة الطاعة بان يزيل الاولى ويأتى بالثانية
وقيل بان يوفقه لاضداد ما سلف منه او بان يثبت له بدل كل عقاب ثوابا وقيل يبدلهم
بالشرك ايمانا وبقتل المسلمين قتل المشركين وبالزنا عفة واحصانا ❁ وكان الله غفورا رحيما ❁
اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من المحو والاثبات ❁ ومن تاب ❁ اى عن المعاصى بتركها بالكلية
والندم عليها ❁ وعمل صالحًا ❁ يتلافى به ما فرط منه او خرج عن المعاصى ودخل في الطاعات
❁ فانه ❁ بما فعل ❁ يتوب الى الله ❁ اى يرجع اليه تعالى ❁ متابًا ❁ اى متابا عظيم الشان مرضيا عنده تعالى

ماحيًا للعقاب محصلًا للثواب او يتوب متابًا الى الله تعالى الذى يحب التوابين ويحسن اليهم او فانه يرجع اليه تعالى او الى ثوابه مرجعًا حسنًا وهذا تعميم بعد تخصيص • والذين لا يشهدون الزور لا يقيمون الشهادة الكاذبة او لا يحضرون محاضر الكذب فان مشاهدة الباطل مشاركة فيه • واذا مروا على طريق الاتفاق باللغو اى ما يجب ان يلغى ويطرح مما خير فيه • مروا كرامًا معرضين عنه مكرمين انفسهم عن الوقوف والخوض فيه ومن ذلك الاغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يستهجن التصريح به • والذين اذا ذكروا بآيات ربهم المنطوية على المواعظ والاحكام لم يخروا عليها صمًا وعميانًا اى اكبوا عليها سامعين باذان واعية مجتلين لها بعيون راعية وانما عبر عن ذلك بنفى الضد تعريضًا بما يفعله الكفرة والمنافقون وقيل الضمير للمعاصى المدلول عليها باللغو • والذين يقولون ربنا هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قرة اعين • بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضايل فان المؤمن اذا ساعده اهله فى طاعة الله عز وجل وشاركوه فيها يسر بهم قلبه وقرت بهم عينه لما يشاهده من مشايعتهم له فى مناهج الدين وتوقع لحوقهم به فى الجنة حسبما وعد بقوله تعالى الحقنا بهم ذريتهم ومن ابتدائية او بيانية وقرئ وذريتنا وتنكير الاعين لارادة تنكير القرة تعظيمًا وتقليلها لان المراد اعين المتقين ولا ريب فى قلتها نظرا الى غيرها • واجعلنا للمتقين امامًا • اى اجعلنا بحيث يقتدون بنا فى اقامة مراسم الدين بافاضة العلم والتوفيق للعمل وتوحيده للدلالة على الجنس وعدم الالتباس كقوله تعالى ثم يخرجكم طفلا ولان المراد واجعل كل واحد منا امامًا او لانهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم كذا قالوا وانت خبير بان مدار الكل صدور هذا الدعاء اما عن الكل بطريق المعية وانه محال لاستحالة اجتماعهم فى عصر واحد فما ظنك باجتماعهم فى مجلس واحد واتفاقهم على كلمة واحدة واما عن كل واحد منهم بطريق تشريك غيره فى استدعاء الامامة وانه ليس بثابت جزمًا بل الظاهر صدوره عنهم بطريق الانفراد وان عبارة كل واحد منهم عند الدعاء واجعلنى للمتقين امامًا خلا انه حكيت عبارات الكل بصيغة المتكلم مع الغير للقصد الى الايجاز على طريقة قوله تعالى يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا وابقى امامًا على حاله وقيل الامام جمع آم بمعنى قاصد كصيام جمع صايم ومعناه قاصدين لهم مقتدين بهم واعادة الموصول فى المواقع السبعة مع كفاية ذكر الصلوة بطريق العطف على صلة الموصول الاول للايذان بان كل واحد مما ذكر فى حيز صلة الموصولات المذكورة وصف جليل على حياله له شان خطير حقيق بان يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل شئ من ذلك تتمة لغيره وتوسيط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنوانى منزلة الاختلاف الذاتى كما فى قوله الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتايب فى المزدحم • اولئك اشارة الى المتصفين بما فصل فى حيز صلة الموصولات الثمانية من حيث اتصافهم به وفيه دلالة على انهم متميزون بذلك اكمل تميز منتظمون بسببه فى سلك الامور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى يجزون الغرفة • والجملة مستانفة لا محل لها من الاعراب مبينة لما لهم فى الآخرة من السعادة الابدية اثر بيان ما لهم فى الدنيا من الاعمال السنية الغرفة الدرجة العالية من المنازل وكل بناء مرتفع عال اى يثابون اعلى منازل الجنة وهو اسم جنس اريد به الجمع كقوله تعالى وهم فى الغرفات آمنون وقيل هى اسم من اسماء الجنة • بما صبروا • بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات • ويلقون فيها • من جهة الملئكة • تحية وسلامًا • اى يحييهم الملئكة ويدعون لهم بطول الحيوة وسلامة عن الآفات ويعطون التبعية والتخليد مع السلامة من كل آفة وقيل يحيى بعضهم بعضًا ويسلم عليه وقرئ يلقون من لقى • خالدين فيها • لا يموتون ولا يخرجون • حسنت مستقرًا ومقامًا • الكلام فيه كالذى مر فى مقابله • قل • امر لرسول الله صلى الله عليه وسلم

باخ

بان يبين للناس ان الفائزين بتلك النعماء الجليلة التى يتنافس فيها المتنافسون انما نالوها بما عد من محاسنهم ولولاها لم يعتد بهم اصلًا اى قل لهم كافة مشافهًا لهم بما صدر عن جنسهم من خير وشر • ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم • اى اى عبؤ يعبؤ بكم او اى اعتداد يعتد بكم لولا عبادتكم له تعالى حسبما مر تفصيله فان خلق له الانسان معرفته تعالى وطاعته والا فهو وساير البهايم سواء وقال الزجاج معناه اى وزن يكون لكم عنده وقيل معناه ما يصنع بكم ربى لولا دعاؤه اياكم الى الاسلام وقيل ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه الهة ويجوز ان تكون ما نافية • وقوله تعالى • فقد كذبتم • بيان لحال الكفرة من المخاطبين كما ان ما قبله بيان لحال المؤمنين منهم اى فقد كذبتم بما اخبرتكم به وخالفتموه ايها الكفرة ولم تعملوا عمل اولئك المذكورين فقيل فقد قصرتم فى العبادة من قولهم كذب القتال اذا لم يبالغ فيه وقرئ فقد كذب الكافرون اى الكافرون منكم لعموم الخطاب للفريقين وفايدته الايذان بان مناط فوز احدهما وخسران الآخر مع الاتحاد الجنسى المصحح للاشتراك فى الفوز ليس الا اختلافهما فى الاعمال • فسوف يكون لزامًا • اى يكون جزاء التكذيب او اثره لازمًا يحيق لا محالة حتى يكبكم فى النار كما يعرب عنه الفاء الدالة على لزوم ما بعدها لما قبلها وانما اضمر من غير ذكر للايذان بغاية ظهوره وتهويل امره وللتنبيه على انه مما لا يكتنهه البيان وقيل يكون العذاب لزامًا وعن مجاهد رحمه الله تعالى هو القتل يوم بدر وانه لوزم بين القتلى وقرئ لزامًا بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت عن رسول الله صلعم من قرأ سورة الفرقان لقى الله تعالى وهو مؤمن بان الساعة آتية وادخل الجنة بغير نصب

سورة الشعراء مكية وهى مائتان وست وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

طسم • بتفخيم الالف وبامالتها واظهار النون وبادغامها فى الميم وهو اما مسرود على نمط التعديد بطريق التحدى على احد الوجهين المذكورين فى فاتحة سورة البقرة فلا محل له من الاعراب واما اسم للسورة كما عليه اطباق الاكثر فمحله الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف وهو اظهر من الرفع على الابتداء وقد مر وجهه فى مطلع سورة يونس او النصب بتقدير فعل لائق بالمقام نحو اذكر او اقرأ وتلك فى قوله تعالى • تلك آيات الكتاب المبين • اشارة الى السورة سواء كان طسم مسرودًا على نمط التعديد او اسمًا للسورة حسبما مر تحقيقه هناك وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلة المشار اليه فى الفخامة ومحله الرفع على انه مبتدأ خبره ما بعده وعلى تقدير كون طسم مبتدأ فهو مبتدأ ثان او بدل من الاول والمراد بالكتاب القرآن والمبين الظاهر اعجازه على انه من ابان بمعنى بان او المبين للاحكام الشرعية وما يتعلق بها والفاصل بين الحق والباطل والآيات مخصوصة منه مترجمة باسم مستقل والمراد ببيان كونها بعضًا منه وصفها بما اشتهر به الكل من النعوت الفاضلة • لعلك باخع نفسك • اى قاتل واصل البخع ان يبلغ بالذبح البخاع وهو عرق مستبطن الفقار وذلك اقصى حد الذبح وقرئ باخع نفسك على الاضافة • ولعل للاشفاق اى اشفق على نفسك اى تقتلها حسرة على ما فاتك من الاسلام قومك • ان لا يكونوا مؤمنين • اى لعدم ايمانهم بذلك الكتاب المبين او خيفة ان لا يؤمنوا به • وقوله تعالى • ان نشأ • الخ استيناف مسوق لتعليل ما يفهم من الكلام من النهى عن التحسر المذكور ببيان ان ايمانهم ليس مما تعلقت به مشيته الله تعالى حتمًا فلا وجه للطمع فيه والتألم من فواته ومفعول المشية محذوف لكونه مضمون الجزاء اعنى قوله تعالى • ننزل عليهم من السماء آية • اى ملجئة لهم الى الايمان قاسرة عليه وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مرارًا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر • فظلت اعناقهم لها خاضعين • اى منقادين واصله فظلوا لها خاضعين فاقحمت الاعناق لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع وترك الخبر على حاله وقيل لما وصفت الاعناق بصفات العقلاء اجريت مجراهم فى الصيغة ايضًا كما فى

تعالى رأيتهم لى ساجدين وقيل اريد بها الرؤساء والجماعات من قولهم جاءنا عنق من الناس
اى فوج منهم وقرئ خاضعة وقوله تعالى فظلت اعناقهم عطف على ننزل باعتبار محله
وقوله تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين بيان لشدة شكيمتهم وعدم
ارعوائهم عما كانوا عليه من الكفر والتكذيب بغير ما ذكر من الآية الملجئة لصرف رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن الحرص على اسلامهم وقطع رجائه عنه ومن الاولى مزيدة لتأكيد
العموم والثانية لابتداء الغاية مجازا متعلقة بيأتيهم او بمحذوف هو صفة لذكر واياما كان
ففيه دلالة على فضله وشرفه وشناعة ما فعلوا به والتعرض لعنوان الرحمة لتغليظ
شناعتهم وتهويل جنايتهم فان الاعراض عما يأتيهم من جنابه عز وجل على الاطلاق شنيع
قبيح وعما يأتيهم بموجب رحمته تعالى لمحض منفعتهم اشنع واقبح اى ما يأتيهم من موعظة
من المواعظ القرآنية او من طائفة نازلة من القرآن تذكرهم اكمل تذكير وتنبههم عن
الغفلة اتم تنبيه كأنها نفس الذكر من جهته تعالى بمقتضى رحمته الواسعة مجدد تنزيله
حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة الا جددوا اعراضا عنه على وجه التكذيب والاستهزاء
واصرارا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال والاستثناء مفرغ من اعم الاحوال محله
النصب على الحالية من مفعول يأتيهم باضمار قد او بدونه على الخلاف المشهور اى ما يأتيهم
من ذكر فى حال من الاحوال الا حال كونهم معرضين عنه فقد كذبوا اى كذبوا بالذكر الذى يأتيهم
تكذيبا صريحا مقارنا للاستهزاء به ولم يكتفوا بالاعراض عنه حيث جعلوه تارة سحرا واخرى
اساطير واخرى شعرا والفاء فى قوله تعالى فسيأتيهم لترتيب ما بعدها على ما قبلها والسين
لتأكيد مضمون الجملة وتقريره اى فسيأتيهم البتة من غير تخلف اصلا انباء ما كانوا
به يستهزءون وتبدل عما يقتضيه ظاهر ما سلف من الاعراض والتكذيب للايذان بانهما كانا
مقارنين للاستهزاء كما اشير اليه حسبما وقع فى قوله تعالى وما يأتيهم من آية من آيات
ربهم الا كانوا عنها معرضين فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم انباء ما كانوا
به يستهزءون وانباؤه ما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة والآجلة عبر عنها بذلك
اما لكونها مما انبأ بها القرآن الكريم واما لانهم بمشاهدتها يقفون على حقيقة
القرآن كما يقفون على الاحوال الخافية عنهم باستماع الانباء وفيه تهويل له لان النبأ
لا يطلق الا على خبر خطير له وقع عظيم اى فسيأتيهم لا محالة مصداق ما كانوا به يستهزءون
به قبل من غير ان يتدبروا فى احواله ويقفوا عليها اولم يروا الهمزة للانكار التوبيخى
والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى افعلوا ما فعلوا من الاعراض عن الآيات
والتكذيب والاستهزاء بها ولم ينظروا الى الارض اى الى عجائبها الزاجرة عما فعلوا الداعية
الى الاقبال على ما اعرضوا عنه والى الايمان به وقوله تعالى كم انبتنا فيها من كل زوج كريم
استئناف مبين لما فى الارض من الآيات الزاجرة عن الكفر الداعية الى الايمان وكم خبرية منصوبة
بما بعدها على المفعولية والجمع بينها وبين كل لافادة الاحاطة والكثرة معا ومن كل زوج
اى صنف كثير والكريم من كل شئ مرضيه ومحموده اى كثيرا من كل صنف مرضى كثير المنافع
انبتنا فيها وتخصيص انباته بالذكر دون ما عداه من الاصناف لاختصاصه بالدلالة
على القدرة والنعمة معا ويحتمل ان يراد به جميع اصناف النبات نافعها وضارها و
يكون وصف الكل بالكرم للتنبيه على انه تعالى ما انبت شيئا الا وفيه فائدة كما نطق به قوله
تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا فان الحكيم لا يكاد يفعل فعلا الا وفيه حكمة بالغة
وان غفل عنها الغافلون ولم يتوصل الى معرفة كنهها العاقلون ان فى ذلك اشارة
الى مصدر انبتنا او الى كل واحد من تلك الازواج وايا ما كان فما فيه من معنى البعد
للايذان ببعد منزلته فى الفضل لآية اى آية عظيمة دالة على كمال قدرة منبتها وغاية
وفور علمه وحكمته ونهاية سعة رحمته موجبة للايمان وازعة عن الكفر وما كان
اكثرهم اى اكثر قومه عليه السلام مؤمنين قيل اى فى علم الله تعالى وقضائه حيث
علم ازلا انهم سيصرفون فيما لا يزال اختيارهم الذى عليه يدور امر التكليف الى
جانب الشر ولا يتدبرون فى هذه الآيات العظام وقال سيبويه كان صلة والمعنى

وما اكثرهم

وما اكثرهم مؤمنين وهو الانسب بمقام بيان عتوهم وغلوهم فى المكابرة والعناد مع
تعاضد موجبات الايمان من جهته تعالى واما نسبة كفرهم الى علمه تعالى وقضائه فربما
يتوهم منها كونهم معذورين فيه بحسب الظاهر لان ما اشير اليه من التحقيق مما خفى
على مهرة العلماء المتقنين كأنه قيل ان فى ذلك لآية باهرة موجبة للايمان وما اكثرهم
مؤمنين مع ذلك لغاية تماديهم فى الكفر والضلال وانهماكهم فى الغى والجهالة و
نسبة عدم الايمان الى اكثرهم لان منهم من سيؤمن وان ربك لهو العزيز الغالب
على كل ما يريده من الامور التى من جملتها الانتقام من هؤلاء الرحيم المبالغ فى
الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يؤاخذهم بغتة بما اجترؤا عليه من العظائم الموجبة
لفنون العقوبات وفى التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من
تشريفه والعدة الخفية بالانتقام من الكفرة ما لا يخفى واذ نادى ربك موسى
كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من اعراضهم عن كل ما يأتيهم من الآيات التنزيلية
وتكذيبهم بها اثر بيان اعراضهم عما يشاهدونه من الآيات التكوينية واذ منصوب
على المفعولية بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم اى واذكر لاولئك المعرضين
المكذبين وقت ندائه تعالى اياه عليه السلام وذكرهم بما جرى على قوم فرعون بسبب
تكذيبهم اياه زجرا لهم عما هم عليه من التكذيب وتحذيرا من ان يحيق بهم مثل
ما حاق باضرابهم المكذبين الظالمين حتى يتضح لك انهم لا يؤمنون بما يأتيهم من الآيات
لكن لا بقياس حال هؤلاء بحال اولئك فقط بل بمشاهدة اصرارهم على ما هم عليه بعد
سماع الوحى الناطق بقصتهم وعدم اتعاظهم بذلك كما يلوح به تكرير قوله
تعالى ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين عقيب كل قصة وتوجيه الامر بالذكر
الى الوقت مع ان المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر سره مرارا ان ائت
بمعنى اى ائت على ان ان مفسرة او بان ائت على انها مصدرية حذف عنها الجار القوم الظالمين
اى بالكفر والمعاصى واستعباد بنى اسرائيل وذبح ابنائهم وليس هذا مطلع ما ورد
فى حيز النداء وانما هو ما فصل فى سورة طه من قوله تعالى انى انا ربك الى قوله تعالى لنريك
من آياتنا الكبرى وايراده ما جرى فى قصة واحدة من المقالات بعبارات شتى واساليب
مختلفة قد مر تحقيقه فى اوائل سورة الاعراف عند قوله تعالى قال انظرنى قوم فرعون
بدل من الاول او عطف بيان له جئ به للايذان بانهم علم فى الظلم كأن معنى القوم
الظالمين وترجمته قوم فرعون والاقتصار على ذكر قومه للايذان بشهرة ان نفسه
اول داخل فى الحكم الا يتقون استئناف جئ به اثر ارساله عليه السلام اليهم للانذار
تعجيبا من غلوهم فى الظلم وافراطهم فى العدوان وقرئ بتاء الخطاب على طريقة
الالتفات المنبئ عن زيادة الغضب عليهم كأن ذكر ظلمهم ادى الى مشافهتهم بذلك
وهم وان كانوا حينئذ غيبا لكنهم قد اجروا مجرى الحاضرين فى كلام المرسل اليهم من حيث
انه مبلغه اليهم واسماعه مبدأ اسماعهم مع ما فيه من مزيد الحث على التقوى لمن
تدبر وتأمل وقرئ بكسر النون اكتفاء به عن ياء المتكلم وقد جوز ان يكون بمعنى الا يا ناس
اتقون نحو الا يا اسجدوا قال استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية ما مضى
كأنه قيل فماذا قال موسى عليه السلام فقيل قال متضرعا الى الله عز وجل رب انى
اخاف ان يكذبون من اول الامر ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى معطوفان
على اخاف فارسل اى جبريل عليه السلام الى هرون ليكون معى واتعاضد به فى
تبليغ الرسالة رتب عليه السلام استدعاءه ذلك على الامور الثلاثة خوف التكذيب
وضيق الصدر وازدياد ما كان فيه عليه السلام من حبسة اللسان بانقباض الروح
الى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق لانها اذا اجتمعت مست الحاجة الى معين
يقوى قلبه وينوب منابه اذا اعتراه حبسة حتى لا يختل دعوته ولا ينقطع حجته و
ليس هذا من التعلل والتوقف فى تلقى الامر فى شئ وانما هو استدعاء لما يعينه على
الامتثال به وتمهيد عذره فيه وقرئ ويضيق ولا ينطلق بالنصب عطفا على يكذبون

فيكونان من جملة ما يخاف منه ولهم على ذنب اى تبعة ذنب فحذف المضاف واقيم المضاف
اليه مقامه او سمى باسمه والمراد به قتل القبطى وتسميته ذنبا بحسب زعمهم كما ينبئ عنه
قوله لهم وهذا اشارة الى القصة مبسوطة فى غير موضع فاخاف اى ان اتيتهم وحدى
ان يقتلون بمقابلته قبل اداء الرسالة كما ينبغى وليس هذا ايضا تعللا وانما هو استدفاع
للبلية المتوقعة قبل وقوعها وقوله تعالى قال كلا فاذهبا باياتنا حكاية لاجابته
تعالى الى الطلبتين الدفع المفهوم من الردع عن الخوف وضم اخيه المفهوم من توجيه
الخطاب اليهما بطريق التغليب فانه معطوف على مضمر ينبئ عنه الردع كانه قيل ارتدع
يا موسى عما تظن فاذهب انت ومن استدعيته وفى قوله تعالى باياتنا رمز الى انها
تدفع ما يخافه وقوله تعالى انا معكم مستمعون تعليل للردع عن الخوف ومزيد تسلية
لهما بضمان كمال الحفظ والنصرة كقوله تعالى انني معكما اسمع وارى وحيث كان الموعود
محضرا من فرعون اعتبر ههنا فى المعية وقيل اجريا مجرى الجماعة ديا باه ما قبله وما بعده
من ضمير التثنية اى سامعون ما يجرى بينكما وبينه فنظهركما عليه مثل حاله تعالى بحال ذى
شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع ما يجرى بينهم ليمد اولياءه ويظهرهم على اعدائهم
مبالغة فى الوعد بالاعانة او استعير الاستماع الذى هو بمعنى الاصغاء للسمع الذى هو
العلم بالحروف والاصوات وهو خبر ثان او خبر وحده ومعكم ظرف لغو والفاء فى قوله
تعالى فاتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين لترتيب ما بعدها على ما قبلها من الوعد
الكريم وليس هذا مجرد تاكيد للامر بالذهاب لان معناه الوصول الى المأتى لا مجرد
التوجه اليه كالذهاب وافراد الرسول اما باعتبار رسالة كل منهما او لاتحاد مطلبهما
او لانه مصدر وصف به وان فى قوله تعالى ان ارسل معنا بنى اسرائيل مفسرة لتضمن
الارسال المفهوم من الرسول معنى القول ومعنى ارسالهم تخليتهم وشانهم ليذهبوا
معهما الى الشام قال اى فرعون لموسى عليه السلام بعد ما اتياه وقالا له ما امرا به
يروى انهما انطلقا الى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب ان ههنا
انسانا يزعم انه رسول رب العالمين فقال ائذن له لعلنا نضحك فاديا اليه الرسالة فعرف
موسى عليه السلام فقال عند ذلك الم نربك فينا فى حجرنا ومنازلنا وليدا اى
طفلا عبر عنه بذلك لقرب عهده بالولادة ولبثت فينا من عمرك سنين قيل
لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج الى مدين واقام به عشر سنين ثم عاد اليهم يدعوهم
الى الله عز وجل ثلاثين سنة ثم بقى بعد الغرق خمسين وقيل وكز القبطى وهو ابن
ثنتى عشرة سنة وفر منهم على اثر ذلك والله اعلم وفعلت فعلتك التى فعلت
يعنى قتل القبطى بعد ما عدد عليه نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال وبخه بما جرى
عليه من قتل خبازه وعظم ذلك وفظعه وقرئ فعلتك بكسر الفاء لانها كانت نوعا من
القتل وانت من الكافرين اى بنعمتى حيث عمدت الى قتل رجل من خواصى وانت حينئذ
ممن يكفرهما الان وقد افترى عليه عليه السلام او جهل امره حيث كان يعايشهم
بالتقية والا فاين هو عليه السلام من مشاركتهم فى الدين فالجملة حينئذ حال من احدى
التائين ويجوز ان يكون حكما مبتدأ عليه بانه من الكافرين بالهيته او ممن يكفرون فى دينهم
حيث كانت لهم الهة يعبدونهم او من الكافرين بالنعم المعتادين لغمطها ومن اعتاد
ذلك لا يكون مثل هذه الجناية بدعا منه قال مجيبا له مصدقا له فى القتل ومكذبا
فيما نسبه اليه من الكفر فعلتها اذا وانا من الضالين اى من الجاهلين وقد قرئ
كذلك لا من الكافرين كما زعمت افتراء اى من الفاعلين فعل الجهلة والسفهاء او من
المخطئين لانه لم يتعمد قتله بل اراد تاديبه او الذاهلين عما يؤدى اليه الوكز او الناسين
كقوله تعالى ان تضل احدهما فتذكر احديهما الاخرى ففررت منكم الى ربى لما
خفتكم ان تصيبونى بمضرة وتؤاخذونى بما لا استحقه بجنايتى من العقاب فوهب
لى ربى حكما اى حكمة او نبوة وجعلنى من المرسلين ردا ولا بد لك ما وبخه
به قدحا فى نبوته ثم كر على ما عده عليه من النعمة ولم يصرح برده حيث كان صدقا غير قادح

فى دعواه بل نبه على ان ذلك كان فى الحقيقة نقمة فقال وتلك نعمة تمنها على ان عبدت بنى
اسرائيل اى تلك التربية نعمة تمن بها على ظاهرا وهى فى الحقيقة تعبيدك بنى اسرائيل وقصدك
اياهم بذبح ابنائهم فانه السبب فى وقوعى عندك وحصولى فى تربيتك وقيل انه مقدر
بهمزة الانكار اى اوتلك نعمة تمنها على وهى ان عبدت بنى اسرائيل ومحل ان عبدت الرفع
على انه خبر مبتدأ محذوف او بدل من نعمة او الجر باضمار الباء او النصب بحذفها و
قيل تلك اشارة الى خصلة شنعاء مبهمة وان عبدت عطف بيان لها والمعنى تعبيدك بنى
اسرائيل نعمة تمنها على وتوحيد الخطاب فى تمنها وجمعه فيما قبله لان المنة منه خاصة
والخوف والفرار منه ومن ملائه قال فرعون لما سمع منه عليه السلام تلك المقالة
المتينة وشاهد تصلبه به فى امره وعدم تاثره بما قدمه من الابراق والارعاد
شرع فى الاعتراض على دعواه عليه السلام فبدأ بالاستفسار عن المرسل فقال وما
رب العالمين حكاية لما وقع فى عبارته عليه السلام اى اى شئ رب العالمين الذى
تدعى انك رسوله منكرا لان يكون للعالمين رب سواه حسبما يعرب عنه قوله
انا ربكم الاعلى وقوله ما علمت لكم من اله غيرى وينطق به وعيده عند تمام اجوبته عليه
السلام قال موسى عليه السلام مجيبا له رب السموات والارض وما بينهما
بتعيين ما اراد بالعالمين وتفصيله لزيادة التحقيق والتقرير وحسم مادة تزوير
اللعين وتشكيله بحمل العالمين على ما تحت مملكته ان كنتم موقنين اى ان كنتم
موقنين بالاشياء محققين لها علمتم ذلك او ان كنتم موقنين بشئ من الاشياء فهذا
اولى بالايقان لظهوره وانارة دليله قال اى فرعون عند سماع جوابه عليه
السلام خوفا فى قلوب قومه واذعانهم له لمن حوله من اشراف قومه قال ابن
عباس رضى الله عنهما كانوا خمسمائة عليهم الاساور وكانت للملوك خاصة الا
تستمعون مرائيا لهم ان ما سمعوه من جوابه عليه السلام مع كونه مما لا يليق بان يعد
به امر حقيق بان يتعجب منه كانه قال الا تستمعون ما يقوله فاستمعوه وتعجبوا منه حيث
يدعى خلاف امر محقق لا اشتباه فيه يريد به ربوبيته نفسه قال عليه السلام مصرحا بما كان
مندرجا تحت جوابه السابق ربكم ورب آبائكم الاولين وحطا له من ادعاء الربوبية
الى مرتبة المربوبية قال اى فرعون لما واجهه موسى عليه السلام بما ذكر غاظه ذلك وخاف من
تاثر قومه منه فاراهم ان ما قاله عليه السلام مما لا يصدر عن العقلاء صدا لهم عن
قبوله فقال مؤكدا لمقالته الشنعاء بحرفى التوكيد ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون
ليفتنهم بذلك ويصرفهم عن قبول الحق وسماه رسولا بطريق الاستهزاء واضافه
الى مخاطبيه ترفعا من ان يكون مرسلا الى نفسه قال عليه السلام رب المشرق
والمغرب وما بينهما قاله عليه السلام تكميلا لجوابه الاول وتفسيرا له وتنبيها على
جهلهم وعدم فهمهم لمعنى مقالته فان بيان ربوبيته تعالى للسموات والارض وما بينهما
وان كان متضمنا لبيان ربوبيته تعالى للخافقين وما بينهما لكن لما لم يكن فيه تصريح باستناد
حركات السموات وما فيها وتغيرات احوالها واوضاعها وكون الارض تارة مظلمة و
اخرى منورة الى الله تعالى ارشدهم الى طريق معرفة ربوبيته تعالى لما ذكر فان ذكر
المشرق والمغرب ينبئ عن شروق الشمس وغروبها المنوطين بحركات السموات وما فيها على نمط
بديع يترتب عليه هذه الاوضاع الرصينة وكل ذلك امور حادثة مفتقرة الى محدث قادر
عليم حكيم لا كذوات السموات والارض التى ربما يتوهم جهلة المتوهمين باستمرارها و
استغنائها عن الموجد المتصرف ان كنتم تعقلون اى ان كنتم تعقلون شيئا من
الاشياء او ان كنتم من اهل العقل علمتم ان الامر كما قلته وفيه ايذان بغاية وضوح
الامر بحيث لا يشتبه على من له عقل فى الجملة وتلويح بانهم بمعزل من دائرة العقل وانهم
المتصفون بما رموه عليه السلام به من الجنون قال لما سمع اللعين منه عليه السلام
تلك المقالات المبنية على اساس الحكم البالغة وشاهد شدة حزمه وقوة عزمه على
تمشية امره وانه مما لا يجارى فى حلبة المحاورة ضرب صفحا عن المقاولة بالانصاف

وناى بجانبه الى عدوة الجور والاعتساف فقال مظهرا لما كان يضمره عند السؤال والجواب لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين لم يقتنع منه عم بترك دعوى الرسالة وعدم التعرض له حتى كلفه عليه السلام ان يتخذه الها لغاية عتوه وغلوه فيما فيه من دعوى الالوهية وهذا صريح فى ان تعجبه وتعجيبه من الجواب الاول ونسبته عم الى الجنون فى الجواب الثانى كان لنسبته عليه السلام الربوبية الى غيره واما ما قيل من ان سؤاله كان عن حقيقة المرسل وتعجبه من جوابه كان لعدم مطابقته له لكونه بذكر احواله فلا يساعده النظم الكريم ولا حال فرعون ولا مقاله واللام فى المسجونين للعهد اى لاجعلنك ممن عرفت احوالهم فى سجونى حيث كان يطرحهم فى هوة عميقة حتى يموتوا ولذلك لم يقل لاسجننك قال اولو جئتك بشئ مبين اى افتفعل بى ذلك ولو جئتك بشئ مبين اى موضح لصدق دعواى يريد به المعجزة فانها جامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده والتعبير عنها بالشئ للتهويل قالوا الواو فى اولو جئتك للحال دخلت عليها همزة الاستفهام اى جائيا بشئ مبين وقد سلف منا مرارا انها للعطف وان كلمة لو ليست لانتفاء الشئ فى الزمان الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف تعويلا على دلالة ما قبلها عليه ملاحظة قصدية الا عند القصد الى بيان الاعراب على القواعد الصناعية بل هى لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم الموجب او المنفى على كل حال مفروض من الاحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على ابعدها وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته او انتفائه معه ثبوته او انتفاؤه مع ما عداه من الاحوال بطريق الاولوية لما ان الشئ متى تحقق مع المنافى القوى فلان يتحقق مع غيره اولى ولذلك لا يذكر معه شئ من سائر الاحوال ويكتفى عنه بذكر العاطف للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الاحوال المغايرة لها عند تعددها ليظهر ما ذكر من تحقق الحكم على جميع الاحوال فانك اذا قلت فلان جواد يعطى ولو كان فقيرا تريد بيان تحقق الاعطاء منه على كل حال من احواله المفروضة فتعلق الحكم بابعدها منه ليظهر بتحققه معه تحققه مع ما عداه من الاحوال التى لا منافاة بينها وبين الحكم بطريق الاولوية المصححة للاكتفاء بذكر العاطف عن تفصيلها كانك قلت فلان جواد يعطى لو لم يكن فقيرا اى يعطى حال كونه غنيا وحال كونه فقيرا فالحال فى الحقيقة كلتا الجملتين المتعاطفتين لا المذكورة على ان الواو للحال وتصدير المجئ بما ذكر من كلمة لو دون ان ليس لبيان استبعاده فى نفسه بل بالنسبة الى فرعون والمعنى اتفعل بى ذلك حال عدم مجيئى بشئ مبين وحال مجيئى به قال فأت به ان كنت من الصادقين اى فيما يدل عليه كلامك من انك تأتى بشئ مبين موضح لصدق دعواك او فى دعوى الرسالة وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين اى ظاهر ثعبانيته لا انه شئ يشبهه واشتقاق الثعبان من ثعبت الماء فانثعب اى فجرته فانفجر وقد مر بيان كيفية الحال فى سورة الاعراف وسورة طه ونزع يده من جيبه فاذا هى بيضاء للناظرين قيل لما راى فرعون الآية الاولى قال هل لك غيرها فاخرج يده فقال ما هذه قال فرعون يدك فما فيها فادخلها فى ابطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشى الابصار ويسد الافق قال للملاء حوله اى مستقرين حوله فهو ظرف وقع موقع الحال ان هذا لساحر عليم فائق فى فن السحر يريد ان يخرجكم قسرا من ارضكم بسحره فماذا تامرون بهته سلطان المعجزة وحيره حتى حطه عن ذروة ادعاء الربوبية الى حضيض الخضوع لعبيده فى زعمه والامتثال بامرهم او الى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعد ما كان مستقلا فى الراى والتدبير واظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه ونسبة الاخراج والارض اليهم لتنفيرهم عن موسى عم قالوا ارجه واخاه اخر امرهما وقيل احبسهما وابعث فى المداين حاشرين اى شرطا يحشرون السحرة ياتوك اى الحاشرون بكل سحار عليم فائق فى فن السحر وقرئ بكل ساحر فجمع السحرة لميقات يوم معلوم

هو ما

هو ما عينه موسى عليه السلام بقوله موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى وقيل للناس هل انتم مجتمعون قيل لهم ذلك استبطاء لهم فى الاجتماع وحثا لهم على المبادرة اليه لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين اى نتبعهم فى دينهم ان كانوا هم الغالبين لا موسى عليه السلام وليس مرادهم بذلك ان يتبعوا دينهم حقيقة وانما مرادهم ان لا يتبعوا موسى عليه السلام لكنهم ساقوا كلامهم مساق الكناية حملا لهم على الاهتمام والجد فى المبالغة فلما جاء السحرة قالوا لفرعون ائن لنا لاجرا اى اجرا عظيما ان كنا نحن الغالبين لا موسى عليه السلام قال نعم لكم ذلك وانكم مع ذلك اذن لمن المقربين عندى قيل قال لهم تكونون اول من يدخل على وآخر من يخرج عنى وقرئ نعم بكسر العين وهما لغتان قال لهم موسى اى بعد ما قال له السحرة اما ان تلقى واما ان نكون اول من القى القوا ما انتم ملقون ولم يرد به الامر بالسحر والتمويه بل الاذن فى تقديم ما هم فاعلوه البتة توسلا به الى اظهار الحق وابطال الباطل فالقوا حبالهم وعصيهم وقالوا اى وقد قالوا عند الالقاء بعزة فرعون انا لنحن الغالبون قالوا ذلك لفرط اعتقادهم فى انفسهم واتيانهم باقصى ما يمكن ان يؤتى به من السحر فالقى موسى عصاه فاذا هى تلقف اى تبتلع بسرعة وقرئ تلقف بحذف احدى التائين مما تتلقف ما يأفكون اى ما يقلبونه من وجهه وصورته بتمويههم وتزويرهم فيخيلون حبالهم وعصيهم انها حيات تسعى والتعبير عنه بالافك تسمية للماء فوك به مبالغة فالقى السحرة ساجدين اى اثر ما شاهدوا ذلك من غير تلعثم وتردد غير متمالكين كان ملقيا القاهم لعلمهم بان مثل ذلك خارج عن حدود السحر وانه امر الهى قد ظهر على يده عليه السلام لتصديقه وفيه دليل على ان قصارى ما ينتهى اليه همم السحرة هو التمويه والتزوير وتخييل شئ لا حقيقة له قالوا آمنا برب العالمين بدل اشتمال من القوا او حال باضمار قد وقوله تعالى رب موسى وهرون بدل من رب العالمين للتوضيح ودفع توهم ارادة فرعون حيث كان قومه الجهلة يسمونه بذلك وللاشعار بان الموجب لايمانهم به تعالى ما اجراه على ايديهما من المعجزة القاهرة قال اى فرعون للسحرة آمنتم له قبل ان اذن لكم اى بغير ان اذن لكم كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى لا ان الاذن منه ممكن او متوقع انه لكبيركم الذى علمكم السحر فتواطأتم على ما فعلتم او علمكم شيئا دون شئ فلذلك غلبكم اراد بذلك التلبيس على قومه كيلا يعتقدوا انهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق وقرئ أامنتم بهمزتين فلسوف تعلمون اى وبال ما فعلتم وقوله تعالى لاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولاصلبنكم اجمعين بيان لما اوعدهم به قالوا اى السحرة لا ضير لا ضرر فيه علينا وقوله تعالى انا الى ربنا منقلبون تعليل لعدم الضير اى لا ضير فى ذلك بل لنا فيه نفع عظيم لما يحصل لنا فى الصبر عليه لوجه الله تعالى من تكفير الخطايا والثواب العظيم او لا ضير علينا فيما تتوعدنا به من القتل انه لا بد لنا من الانقلاب الى ربنا بسبب من اسباب الموت والقتل اهونها وارجاها وقوله تعالى انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنا اى لان كنا اول المؤمنين اى من اتباع فرعون او من اهل المشهد تعليل ثان لنفى الضير اى لا ضير علينا فى قتلك انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا لكوننا اول المؤمنين وقرئ ان كنا على الشرط لهضم النفس وعدم الثقة بالخاتمة او على طريقة المدل بامره كقول العامل لمستاجر اخر اجرته ان كنت عملت لك فوفنى حقى واوحينا الى موسى ان اسر بعبادى وذلك بعد بضع سنين اقام بين اظهرهم يدعوهم الى الحق ويظهر لهم الآيات فلم يزيدوا الا عتوا وعنادا حسبما فصل فى سورة الاعراف بقوله تعالى ولقد اخذنا آل فرعون بالسنين الآيات وقرئ بكسر النون ووصل الالف من اسر وقرئ ان سر من السير انكم متبعون تعليل للامر بالاسراء اى يتبعكم فرعون وجنوده مصبحين فاسر بمن معك حتى لا يدركوكم قبل الوصول الى البحر بل يكونوا على اثركم حين تلجون البحر فيدخلوا مدخلكم فاطبقه عليهم فاغرقهم فارسل فرعون حين اخبر بسيرهم فى المدائن حاشرين جامعين للعساكر ليتبعوهم ان هؤلاء يريد بنى اسرائيل لشرذمة قليلون استقلهم وهم ستمائة الف وسبعون

الفا بالنسبة الى جنوده اذ روى انه ارسل في اثرهم الف الف وخمسمائة ملك مسوّر مع كل ملك الف
وخرج فرعون في جمع عظيم وكانت مقدمته سبعمائة الف رجل على حصان وعلى راسه بيضة وعن
ابن عباس رضي الله عنهما خرج فرعون في الف الف حصان سوى الاناث وانهم لنا لغائظون اى فاعلون
ما يغيظنا وانا لجميع حاذرون يريد انهم لقلتهم لا يبالى بهم ولا يتوقع غلبتهم
علوهم ولكنهم يفعلون افعالا تغيظنا وتضيق صدورنا ونحن قوم من عادتنا التيقظ
والحذر واستعمال الحزم في الامور فاذا خرج علينا خارج سارعنا الى اطفاء نائرة فساده
وهذه معاذير اعتذر بها الى اهل المدائن كيلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه وقرى
حذرون فالاول دال على التجدد والثاني على الثبات وقيل الحاذر المؤدي في السلاح
وقرى حادرون بالدال المهملة اى اقوياء واشداء وقيل مدججون في السلاح قد كسبهم ذلك
حدارة في اجسامهم فاخرجناهم بان خلقنا فيهم داعية الخروج بهذا السبب فحملتهم
عليه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كانت لهم جملة كذلك اما مصدر
تشبيهى لاخرجنا اى مثل ذلك الاخراج العجيب اخرجناهم او صفة لمقام كريم اى من مقام
كريم كائن كذلك او خبر لمبتداء محذوف اى الامر كذلك واورثناها بنى اسرائيل اى
ملكناها اياهم على طريقة تمليك مال المورث للوارث كانهم ملكوها من حين خروج اربابها
منها قبل ان يقبضوها ويتسلموها فاتبعوهم اى فلحقوهم وقرى فاتّبعوهم مشرقين
داخلين في وقت شروق الشمس اى طلوعها فلما تراءى الجمعان تقاربا بحيث رأى
كل واحد منهما الآخر وقرى تراءت الفئتان قال اصحاب موسى انا لمدركون جاؤا
بالجملة الاسمية مؤكدة بحرفى التاكيد للدلالة على تحقق الادراك واللحاق وتنجزهما وقرى
لمدّركون بتشديد الدال من ادّرك الشئ اذا تتابع ففنى اى لمتتابعون في الهلاك على ايديهم
قال كلا ارتدعوا عن ذلك فانهم لا يدركونكم ان معى ربى بالنصرة والهداية سيهدين
البتة الى طريق النجاة منهم بالكلية روى ان يوشع عليه السلام قال يا كليم الله اين امرت
فقد غشينا فرعون والبحر امامنا قال عليه السلام ههنا فخاض يوشع الماء وضرب موسى
عليه السلام بعصاه البحر فكان ما كان وروى ان مؤمنا من آل فرعون كان بين يدى
موسى عليه السلام فقال اين امرت فهذا البحر امامك وقد غشيك آل فرعون قال امرت
بالبحر ولعلى اومر بما اصنع فامر بما امر به وذلك قوله تعالى فاوحينا الى موسى ان اضرب
بعصاك البحر القلزم او النيل فانفلق الفاء فصيحة اى فضرب فانفلق فصار اثنى عشر
فرقا بعدد الاسباط بينهن المسالك فكان كل فرق كالطود العظيم كالجبل المنيف الثابت
في مقره فدخلوا في شعابها كل سبط في شعب منها وازلفنا اى قربنا ثمة الآخرين
اى فرعون وقومه حتى دخلوا على اثرهم مداخلهم وانجينا موسى ومن معه
اجمعين بحفظ البحر على تلك الهيئة الى ان عبروا الى البر ثم اغرقنا الآخرين باطباقه
عليهم ان في ذلك اى في جميع ما فصل مما صدر عن موسى عليه السلام وظهر على
يديه من المعجزات القاهرة ومما فعل فرعون وقومه من الاقوال والافعال وما فعل بهم من
العذاب والنكال وما في اسم الاشارة من معنى البعد لتهويل امر المشار اليه وتفظيعه كتنكير الآية
في قوله تعالى لآية اى آية وآية عظيمة لا تكاد توصف موجبة لان يعتبر بها المعتبرون و
يقيسوا شان النبي صلى الله عليه وسلم بشان موسى عليه السلام وحال انفسهم بحال اولئك
المهلكين ويجتنبوا تعاطي ما كانوا يتعاطونه من الكفر والمعاصي ومخالفة [illegible] الرسول ويؤمنوا
بالله تعالى ويطيعوا رسوله كيلا يحل بهم مثل ما حل باولئك او ان فيما فصل من القصة من
حيث حكايته عليه السلام اياها على ما هي عليه من غير ان يسمعها من احد لآية عظيمة دالة
على ان ذلك بطريق الوحي الصادق موجبة للايمان بالله تعالى وحده وطاعة رسوله عليه
السلام وما كان اكثرهم اى اكثر هؤلاء الذين سمعوا منه عليه السلام مؤمنين
لان يقيسوا شانه بشان موسى عليه السلام وحال انفسهم بحال اولئك المكذبين
المهلكين ولا بان يتدبروا في حكايته لقصتهم من غير ان يسمعها من احد مع كون كل من
الطريقين مما يؤدي الى الايمان قطعا ومعنى ما كان اكثرهم مؤمنين وما اكثرهم مؤمنين على ان

المتسورون بالحديد وغير السلاح

كان

ظ عنه

كان زائدة كما هو راى سيبويه فيكون كقوله تعالى وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وهو اخبار
منه تعالى بما سيكون من المشركين بعد ما سمعوا الآيات الناطقة بالقصة تقريرا لما مر من
قوله تعالى ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنها معرضين فقد كذبوا الخ و
ايثار الجملة الاسمية للدلالة على استقرارهم على عدم الايمان استمرارهم عليه ويجوز ان يجعل
كان بمعنى صار كما قيل ذلك في قوله تعالى وكان من الكافرين فالمعنى وما كان اكثرهم مؤمنين
مع ما سمعوا من الآية العظيمة الموجبة له بما ذكر من الطريقين فيكون الاخبار بعدم الصيرورة
قبل الحدوث للدلالة على كمال تحققه وتقرره كقوله تعالى اتى امر الله الآية وان ربك
لهو العزيز الغالب على كل ما يريده من الامور التي من جملتها الانتقام من المكذبين
الرحيم البالغ في الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يعجل عقوبتهم بعدم ايمانهم بعد مشاهدة هذه
الآية العظيمة بطريق الوحي مع كمال استحقاقهم لذلك هذا هو الذي يقتضيه جزالة النظم
الكريم من مطلع السورة الكريمة الى آخر القصص السبع بل الى آخر السورة الكريمة اقتضاء بينا
لا ريب فيه واما ما قيل من ان ضمير اكثرهم لاهل عصر فرعون من القبط وغيرهم وان المعنى وما كان
اكثر اهل مصر مؤمنين حيث لم يؤمن منهم الا آسية وحزقيل ومريم ابنة ياموشا التي دلت
على تابوت يوسف عليه السلام وبنو اسرائيل بعد ما نجوا سالوا بقرة يعبدونها واتخذوا
العجل وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فبمعزل من التحقيق كيف لا ومساق كل قصة
من القصص الواردة في السورة الكريمة سوى قصة ابراهيم عليه السلام انما هو لبيان
حال طائفة معينة قد عتوا عن امر ربهم وعصوا رسله عليهم السلام كما يفصح عنه تصدير القصص
بتكذيبهم المرسلين بعد ما شاهدوا بايديهم من الآيات العظام ما يوجب عليهم الايمان
ويزجرهم عن الكفر والعصيان واصروا على ما هم عليه من التكذيب فعاقبهم الله تعالى
لذلك بالعقوبة الدنيوية وقطع دابرهم بالكلية فكيف يمكن ان يخبر عنهم بعدم ايمان
اكثرهم لا سيما بعد الاخبار باهلاكهم وعد المؤمنين من جملتهم اولا واخراجهم منها
اخرا مع عدم مشاركتهم لهم في شئ مما حكى عنهم من الجنايات اصلا مما يجب تنزيه
التنزيل عن امثاله فتدبر واتل عليهم عطف على المضمر المقدر عاملا لاذ نادى اى
واتل على المشركين نبأ ابراهيم اى خبره العظيم الشان حسبما اوحى اليك لتقف على ما ذكر
من عدم ايمانهم بما يأتيهم من الآيات باحد الطريقين اذ قال منصوب اما على الظرفية للنبأ
اى نبأه وقت قوله لابيه وقومه او على المفعولية لاتل على انه بدل من نبأ اى واتل عليهم
وقت قوله لهم ما تعبدون على ان المتلو ما قاله لهم في ذلك الوقت سألهم عليه السلام
عن ذلك ليبني على جوابهم ان ما يعبدونه بمعزل من استحقاق العبادة بالكلية قالوا
نعبد اصناما فنظل لها عاكفين لم يقتصروا على الجواب الكافي بان يقولوا اصناما كما في قوله
تعالى ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو وقوله تعالى ماذا انزل ربكم قالوا الحق ونظائرهما
بل اطنبوا فيه باظهار الفعل وعطف دوام عكوفهم على اصنامهم قصدا الى ابراز ما في
نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك والمراد بالظلول الدوام وقيل كانوا يعبدونها
بالنهار دون الليل وصلة العكوف كلمة على وايراد اللام لافادة معنى زائد كانهم قالوا
فنظل لاجلها مقبلين على عبادتها ومستديرين حولها وهذا ايضا من جملة اطنابهم
قال استيناف مبني على سؤال نشأ من تفصيل جوابهم هل يسمعونكم اى هل يسمعون
دعاءكم على حذف المضاف او يسمعونكم كقولك سمعت زيدا يقول كيت وكيت فحذف
لدلالة قوله تعالى اذ تدعون عليه وقرى هل يسمعونكم من الاسماع اى هل يسمعونكم
شيئا من الاشياء او الجواب عن دعائكم وهل يقدرون على ذلك وصيغة المضارع مع
اذ على حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها كانه قيل لهم استحضروا الاحوال الماضية
التي كنتم تدعونها فيها واجيبوا هل سمعوا او اسمعوا قط او ينفعونكم بسبب عبادتكم
لها او يضرون اى يضرونكم بترككم لعبادتها اذ لا بد للعبادة لا سيما عند كونها على ما
وصفتم من المبالغة فيها من جلب نفع او دفع ضر قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون
اعترفوا بانها بمعزل مما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة واضطروا الى اظهار لا سند لهم

سوى التقليد اى ما علمنا او ما رأينا منهم ما ذكر من الامور بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون اى مثل عبادتنا يعبدون فاقتدينا بهم قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون اى انظرتم فابصرتم او تأملتم فعلمتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون حق الابصار او حق العلم وقوله تعالى فانهم عدو لي بيان لحال ما يعبدونه بعد التنبيه على عدم علمهم بذلك اى فاعلموا انهم اعداء لعابديهم الذين يحبونهم كحب الله تعالى لما انهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه او لان من يغريهم على عبادتهم ويحملهم عليها هو الشيطان الذى هو اعدى عدو الانسان لكنه عليه السلام صور الامر فى نفسه تعريضا لهم فانه انفع فى النصيحة من التصريح واشعارا بانها نصيحة بدأ بها نفسه ليكون ادعى الى القبول والعدو والصديق يجيئان فى معنى الواحد والجمع ومنه قوله تعالى وهم لكم عدو تشبيها بالمصادر للموازنة كالقبول والولوع والحنين والصهيل الا رب العالمين استثناء منقطع اى لكن رب العالمين ليس كذلك بل هو وليي فى الدنيا والآخرة لا يزال يتفضل علىّ بمنافعهما حسبما يعرب عنه ما وصفه تعالى به من احكام الولاية وقيل وهو قول الزجاج على ان الضمير لكل معبود وكان من آبائهم من عبد الله تعالى الذي خلقني صفة لرب العالمين وجعله مبتدأ وما بعده خبرا غير حقيق بجزالة التنزيل وانما وصفه تعالى بذلك بما عطف عليه مع اندراج الكل تحت ربوبيته تعالى للعالمين تصريحا بالنعم الخاصة به عليه السلام وتفصيلا لها لكونها ادخل فى اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى وقصر الالتجاء فى جلب المنافع الدينية والدنيوية ودفع المضار العاجلة والآجلة عليه تعالى فهو يهدين اى هو يهديني وحده الى كل ما يهمني ويصلحني من امور الدين والدنيا هداية متصلة حين الخلق ونفخ الروح متجددة على الاستمرار كما ينبئ عنه الفاء وصيغة المضارع فانه تعالى يهدى كل ما خلقه لما خلق له من امور المعاش والمعاد هداية مندرجة من مبدأ ايجاده الى منتهى اجله يتمكن بها من جلب منافعه ودفع مضاره اما طبعا واما اختيارا مبدؤها بالنسبة الى الانسان هداية الجنين لامتصاص دم الطمث ومنتهاها الهداية الى طريق الجنة والتنعم بنعيمها المقيم والذى هو يطعمني ويسقين عطف على الصفة الاولى وتكرير الموصول فى المواقع الثلاثة مع كفاية عطف ما وقع فى حيز الصلة من الجمل الست على صلة الموصول الاول للايذان بان كل واحدة من تلك الصلات نعت جليل له تعالى مستقل فى استيجاب الحكم وحقيق بان يجرى عليه تعالى بحيالها ولا يجعل من روادف غيرها واذا مرضت فهو يشفين عطف على يطعمني ويسقين نظمهما فى سلك الصلة لموصول واحد لما ان الصحة والمرض من متفرعات الاكل والشرب غالبا ونسبة المرض الى نفسه والشفاء الى الله تعالى مع انهما منه تعالى لمراعاة حسن الادب كما قال الخضر عليه السلام فاردت ان اعيبها وقال فاراد ربك ان يبلغا اشدهما واما الاماتة فحيث كانت من معظم خصائصه تعالى كالاحياء بدأ واعادة وقد نيطت امور الآخرة جميعا بها وبما بعدها من البعث نظمهما فى سمط واحد فى قوله تعالى والذى يميتنى ثم يحيين على ان الموت لكونه ذريعة الى نيله عليه السلام الحياة الابدية بمعزل من ان يكون غير مطبوع عنده عليه السلام والذى اطمع ان يغفر لى خطيئتى يوم الدين ذكره عليه السلام هضما لنفسه وتعليما للامة ان يجتنبوا المعاصى ويكونوا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم وتلافيا لما عسى يندر منه عليه السلام من الصغائر وتنبيها لابيه وقومه على ان يتأملوا فى امرهم فيقفوا على انهم من سوء الحال فى درجة لا يقادر قدرها فان حاله عليه السلام مع كونه فى طاعة الله وعبادته فى الغاية القاصية حيث كانت بتلك المثابة فما ظنك بحال اولئك المغمورين فى الكفر وفنون المعاصى والخطايا وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث انى سقيم بل فعله كبيرهم وقوله لسارة هى اختى مما لا سبيل اليه لانها مع كونها معاريض لا من قبيل الخطايا المفتقرة الى الاستغفار انما صدرت عنه عليه السلام بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه اما الثالثة فظاهرة لوقوعها بعد مهاجرته عليه السلام بالشام واما الاوليان فلانهما وقعتا مكتنفتين بكسر الاصنام

ومن البين ان جريان هذه المقالات فيما بينهم كان فى مبادى الامر وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين مع انها انما تغفر فى الدنيا لان اثرها يومئذ يتبين ولان فى ذلك تهويلا له واشارة الى وقوع الجزاء فيه ان لم تغفر رب هب لى حكما بعد ما ذكر عليه السلام لهم فنون الالطاف الفائضة عليه من الله عز وجل من مبدأ خلقه الى يوم بعثه حمله ذلك على مناجاته تعالى ودعائه لربط العتيد وجلب المزيد والحكم الحكمة التى هى الكمال فى العلم والعمل بحيث يتمكن به من خلافة الحق ورياسة الخلق والحقنى بالصالحين ووفقنى من العلوم والاعمال والملكات لما يرشحنى للانتظام فى زمرة الكاملين الراسخين فى الصلاح المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها او اجمع بينى وبينهم فى الجنة ولقد اجابه تعالى حيث قال وانه فى الآخرة لمن الصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين اى جاها وحسن صيت فى الدنيا يبقى اثره الى يوم الدين ولذلك لا ترى امة من الامم الا وهى محبة ومثنية عليه او صادقا من ذريتى يجدد اصل دينى ويدعو الناس الى ما كنت ادعوهم اليه من التوحيد وهو النبى صلى الله عليه وسلم ولذلك قال عليه السلام انا دعوة ابراهيم عليه السلام واجعلنى فى الآخرة من ورثة جنة النعيم وقد مر معنى الوراثة فى سورة مريم واغفر لابى بالهداية والتوفيق للايمان كما يلوح به تعليله بقوله تعالى انه كان من الضالين اى طريق الحق وقد مر تحقيق المقام فى تفسير سورة التوبة وسورة مريم بما لا مزيد عليه ولا تخزنى بمعاتبتى على ما فرطت او بنقص رتبتى عن بعض الوراث او بتعذيبى لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلا كل ذلك مبنى على هضم النفس منه عليه السلام او بتعذيب والدى او ببعثه فى عداد الضالين بعدم توفيقه للايمان وهو من الخزى بمعنى الهوان او من الخزاية بمعنى الحياء يوم يبعثون اى الناس كافة والاضمار قبل الذكر لما فى عموم البعث من الشهرة الفاشية المغنية منه وتخصيصه بالضالين مما يخل بتهويل الامر يوم لا ينفع مال ولا بنون بدل من يوم يبعثون جئ به تأكيدا للتهويل وتمهيدا لما يعقبه من الاستثناء وهو من اعم المفاعيل اى لا ينفع مال وان كان مصروفا فى الدنيا الى وجوه البر والخيرات ولا بنون وان كانوا صلحاء مستأهلين للشفاعة احدا الا من اتى الله بقلب سليم اى عن مرض الكفر والنفاق ضرورة اشتراط نفع كل منهما بالايمان وفيه تأييد لكون استغفاره عليه السلام لابيه طلبا لهدايته الى الايمان لاستحالة طلب مغفرته بعد موته كافرا مع علمه عليه السلام بعدم نفعه لانه من باب الشفاعة وقيل هو استثناء من فاعل ينفع بتقدير المضاف اى الا مال من او بنو من اتى الله الآية وقيل المضاف المحذوف ليس من المستثنى منه حقيقة بل يعتبر من الاعتبار كما فى قوله تحية بينهم ضرب وجيع اى الا حال من اتى الله بقلب سليم على انها عبارة عن سلامة القلب كأنه قيل الا سلامة قلب من اتى الله الآية وقيل المضاف المحذوف ما دل عليه المال والبنون من الغنى وهو المستثنى منه كأنه قيل يوم لا ينفع غنى الا غنى من اتى الله الآية لان غنى المرء فى دينه سلامة قلبه وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لكن سلامة قلبه تنفعه وازلفت الجنة للمتقين عطف على لا ينفع وصيغة الماضى فيه وفيما بعده من الجمل المنتظمة معه فى سلك العطف للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره كما ان صيغة المضارع فى المعطوف عليه للدلالة على استمرار انتفاء النفع ودوامه حسبما يقتضيه مقام التهويل والتفظيع اى قربت الجنة للمتقين عن الكفر والمعاصى بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بانهم المحشورون اليها وبرزت الجحيم للغاوين الضالين عن طريق الحق الذى هو الايمان والتقوى اى جعلت بارزة لهم بحيث يرونها مع ما فيها من انواع الاحوال الهائلة ويوقنون بانهم مواقعوها ولا يجدون عنها مصرفا وقيل لهم اينما كنتم تعبدون من دون الله اى اين آلهتكم الذين كنتم تزعمون فى الدنيا انهم شفعاؤكم فى هذا الموقف هل ينصرونكم بدفع العذاب عنكم او ينتصرون بدفعه عن انفسهم وهذا سؤال تقريع وتبكيت لا يتوقع له جواب ولذلك قيل فكبكبوا فيها اى القوا فى الجحيم على وجوههم مرة بعد اخرى الى ان يستقروا

فيها هم اى آلهتهم والغاوون الذين كانوا يعبدونهم وفى تأخير ذكرهم عن
ذكر آلهتهم رمز الى انهم يؤخرون عنها فى الكبكبة ليشاهدوا سوء حالها فيزدادوا
غمّا الى غمّهم ۞ وجنود ابليس ۞ اى شياطينه الذين كانوا يغوونهم ويوسوسون اليهم
ويسوّلون لهم ما هم عليه من عبادة الاصنام وسائر فنون الكفر والمعاصى ليجتمعوا فى العذاب
حسبما كانوا مجتمعين فيما يوجبه وقيل متبعوه من عصاة الثقلين والاول هو الوجه اجمعون
تأكيد للضمير وما عطف عليه وقوله تعالى قالوا الخ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ
من حكاية حالهم كأنه قيل ماذا قالوا حين فعل بهم ما فعل فقيل قال العبدة وهم فيها
يختصمون اى قالوا معترفين بخطائهم فى انهماكهم فى الضلالة متحسرين معتذرين
لانفسهم والحال انهم فى الجحيم بصدد الاختصام مع من معهم من المذكورين مخاطبين
لمعبوديهم على ان الله تعالى يجعل الاصنام صالحة للاختصام بان يعطيها القدرة على الفهم
والنطق تالله ان كنا لفى ضلال مبين ۞ ان مخففة من الثقيلة قد حذف اسمها الذى هو
ضمير الشأن واللام فارقة بينها وبين النافية اى ان الشأن كنا فى ضلال واضح لا خفاء فيه و
وصفهم له بالوضوح للاشباع فى اظهار ندمهم وتحسرهم وبيان عظم خطائهم فى
رأيهم مع وضوح الحق كما ينبئ عنه تصدير قسمهم بحرف التاء المشعرة بالتعجب وقوله
تعالى اذ نسويكم برب العالمين ۞ ظرف لكونهم فى ضلال مبين وقيل لما دل عليه الكلام اى
ضللنا وقيل للضلال المذكور وان كان فيه ضعف صناعى من حيث ان المصدر الموصوف
لا يعمل بعد الوصف وقيل ظرف لمبين وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية اى تالله لقد
كنا فى غاية الضلال الفاحش وقت تسويتنا اياكم ايها الاصنام فى استحقاق العبادة برب
العالمين الذى انتم ادنى مخلوقاته واذلهم واعجزهم وقولهم وما اضلنا الا المجرمون ۞
بيان لسبب ضلالهم بعد اعترافهم بصدوره عنهم لكن لا على معنى قصر الاضلال على
المجرمين دون من عداهم بل على معنى قصر ضلالهم على كونه بسبب اضلالهم من غير ان يستقلوا
فى تحققه او يكونه بسبب اضلال الغير كأنه قيل وما صدر عنا ذلك الضلال الفاحش الا
بسبب اضلالهم والمراد بالمجرمين الذين اضلوهم رؤساؤهم وكبراؤهم كما فى قوله
تعالى ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا وعن السدى الاولون الذين
اقتدوا بهم وايا ما كان ففيه اوفر نصيب من التعريض للذين قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك
يفعلون وعن ابن جريج ابليس وابن آدم القاتل لانه اول من سن القتل وانواع المعاصى
فما لنا من شافعين ۞ كما للمؤمنين من الملئكة والانبياء عليهم السلام ولا صديق حميم ۞
كما نرى لهم اصدقاء او فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم
شفعاء واصدقاء على ان عدمهما كناية عن عداوتهما كما ان عدم المحبة فى مثل قوله تعالى
والله لا يحب الفساد كناية عن البغض حسبما ينبئ عنه قوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض
عدو الا المتقين او وقعنا فى مهلكة لا يخلصنا منها شافع ولا صديق على ان المراد بعدمهما
عدم اثرهما وجمع الشافع لكثرة الشفعاء عادة كما ان افراد الصديق لقلته او لصحة
اطلاقه على الجمع كالعدو تشبيها لهما بالمصادر كالحنين والقبول وكلمة لو فى قوله تعالى فلو
ان لنا كرة للتمنى كليت لما بين معنييهما تلاقيا فى معنى الفرض والتقدير كأنه قيل فليت
لنا كرة اى رجعة الى الدنيا وقيل هى على اصلها من الشرط وجوابه محذوف كأنه قيل
فلو ان لنا كرة لفعلنا من الخيرات كيت وكيت ويأباه قوله فنكون من المؤمنين لتحتم كونه
جوابا للتمنى مفيدا لترتب ايمانهم على وقوع الكرة البتة بلا تخلف كما هو مقتضى
حالهم وعطفه على كرة على طريقة للبس عباءة وتقر عينى كما يستدعيه كون لو على اصلها
انما يفيد تحقق مضمون الجواب على تقدير تحقق كرتهم وايمانهم معا من غير دلالة على
استلزام الكرة للايمان اصلا مع انه المقصود حتما ان فى ذلك ۞ اى فيما ذكر من نبأ ابراهيم ع م
المشتمل على بيان بطلان ما كان عليه اهل مكة من عبادة الاصنام وتفصيل ما يؤول اليه امر
عبدتها يوم القيمة من اعترافهم بخطائهم الفاحش وندمهم وتحسرهم على ما فاتهم
من الايمان وتمنيهم الرجعة الى الدنيا ليكونوا من المؤمنين عند مشاهدتهم لما ازلفت لهم

جنات النعيم وبرزت لانفسهم الجحيم وغشيهم ما غشيهم من الوان العذاب وانواع العقاب
لآية اى آية عظيمة لا يقادر قدرها موجبة على عبدة الاصنام كافة لا سيما على اهل مكة
الذين يدعون انهم على ملة ابراهيم عليه السلام ان يجتنبوا كل الاجتناب ما كانوا عليه
من عبادتها خوفا ان يحيق بهم مثل ما حاق باولئك من العذاب بحكم الاشتراك فيما يوجبه
او ان فى ذكر نبائه وتلاوته عليهم على ما هو عليه من غير ان يسمعه من احد لآية
عظيمة دالة على ان ما يتلوه عليهم وحى صادق نازل من جهة الله تعالى موجبة للايمان به
قطعا ۞ وما كان اكثرهم مؤمنين ۞ اى اكثر هؤلاء الذين يتلو عليهم النبأ مؤمنين
بل هم مصرون على ما كانوا عليه من الكفر والضلال واما ان ضمير اكثرهم لقوم ابراهيم عليه
السلام كما توهموا فمما لا سبيل اليه اصلا لظهور انهم ما ازدادوا بما سمعوا منه عليه
السلام الا طغيانا وكفرا حتى اجترؤا على تلك العظيمة التى فعلوا به عليه السلام فكيف يعبر
عنهم بعدم ايمان اكثرهم وانما آمن لوط فنجاهما الله عز وجل الى الشام وقد مر
بقية الكلام فى آخر قصة موسى عليه السلام وان ربك لهو العزيز الرحيم ۞ اى هو القادر
على تعجيل العقوبة لقومك ولكنه يمهلهم بحكم رحمته الواسعة ليؤمن بعض منهم او
من ذرياتهم كذبت قوم نوح المرسلين ۞ القوم مؤنث ولذلك يصغر على قويمة وقيل
القوم بمعنى الامة وتكذيبهم للمرسلين اما باعتبار اجماع الكل على التوحيد واصول
الشرائع التى لا تختلف باختلاف الازمنة والاعصار واما لان المراد بالجمع الواحد كما
يقال فلان يركب الدواب ويلبس البرود وما له الا دابة وبردة واذ فى قوله تعالى
اذ قال لهم ۞ ظرف للتكذيب على انه عبارة عن زمان مديد وقع فيه ما وقع من الجانبين
الى تمام الامر كما ان تكذيبهم عبارة عما صدر عنهم من حين ابتداء دعوته عليه السلام
الى انتهائها اخوهم ۞ اى نسيبهم نوح الا تتقون ۞ الله حيث تعبدون غيره انى
لكم رسول ۞ من جهته تعالى امين ۞ مشهور بالامانة فيما بينكم فاتقوا الله واطيعون ۞
فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله تعالى وما اسئلكم عليه ۞ اى على ما انا متصد
له من الدعاء والنصح من اجر ۞ اصلا ان اجرى ۞ فيما اتولاه الا على رب العالمين ۞ والفاء
فى قوله تعالى فاتقوا الله واطيعون لترتيب ما بعدها على ما قبلها من تنزهه عليه السلام
من الطمع كما ان نظيرتها السابقة لترتيب ما بعدها على امانته والتكرير للتأكيد والتنبيه
على ان كلا منهما مستقل فى ايجاب التقوى والطاعة فكيف اذا اجتمعا وقرئ ان اجرى
بسكون الياء قالوا انؤمن لك واتبعك الارذلون ۞ اى الاقلون جاها ومالا جمع الارذل
على الصحة فانه بالغلبة صار جاريا مجرى الاسم كالاكبر والاكابر وقيل ارذال جمع ارذل
ورذل كالكالب والكلب وكلب وقرئ واتباعك وهو جمع تابع كشاهد واشهاد او
جمع تبع كبطل وابطال يعنون انه لا عبرة باتباعهم لك اذ ليس لهم رزانة عقل ولا
اصابة رأى وقد كان ذلك منهم فى بادئ الرأى كما ذكر فى موضع آخر وهذا من كمال
سخافة عقولهم وقصرهم انظارهم على حطام الدنيا وكون الاشرف عندهم
من هو اكثر منها حظا والارذل من حرمها وجهلهم بانها لا تزن عند الله تعالى
جناح بعوضة وان النعيم هو نعيم الآخرة والاشرف من فاز به والارذل من حرمه
قال وما علمى بما كانوا يعملون ۞ جواب عما اشير اليه من قولهم انهم لم يؤمنوا عن نظر
وبصيرة اى ما وظيفتى الا اعتبار الظواهر وبناء الاحكام عليها دون التفتيش عن
بواطنهم والشق عن قلوبهم ان حسابهم ۞ اى ما محاسبة اعمالهم والتنقير عن كيفياتها
البارزة والكامنة الا على ربى ۞ فانه المطلع على السرائر والضمائر لو تشعرون ۞
اى بشئ من الاشياء او لو كنتم من اهل الشعور لعلمتم ذلك ولكنكم لستم كذلك
فتقولون ما تقولون وما انا بطارد المؤمنين ۞ جواب عما اوهمه كلامهم من
استدعاء طردهم وتعليق ايمانهم بذلك حيث جعلوا اتباعهم مانعا عنه وقوله تعالى
ان انا الا نذير مبين ۞ كالعلة له اى ما انا الا رسول مبعوث لانذار المكلفين وزجرهم
عن الكفر والمعاصى سواء كانوا من الاعزاء او الاذلاء فكيف يتسنى لى طرد الفقراء لاستتباع

الاغنياء او ما على الا انذاركم بالبرهان الواضح وقد فعلته وما على استرضاء بعضكم بطرد الاخرين قالوا لئن لم تنته يا نوح عما تقول لتكونن من المرجومين من المشتومين او من المرميين بالحجارة فالوه فاتلهم الله تعالى فى اواخر الامر ومعنى قوله تعالى قال رب ان قومى كذبون تمعا على تكذيبى واصروا على ذلك بعد ما دعوتهم هذه الازمنة المتطاولة ولم يزدهم دعائى الا فرارا كما يعرب عنه دعائه بقوله فافتح بينى وبينهم فتحا اى احكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا وهذه حكاية اجمالية لدعائه المفصل فى سورة نوح ونجنى ومن معى من المؤمنين اى من قصدهم او من شؤم اعمالهم فانجيناه ومن معه حسب دعائه فى الفلك المشحون اى المملوء بهم وبما لابد لهم منه ثم اغرقنا بعد اى بعد انجائهم الباقين اى من قومه ان فى ذلك لاية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم الكلام فيه كالذى مر خلا ان حمل اكثرهم على اكثر قوم نوح ابعد من السداد وابعد كذبت عاد المرسلين انث عاد باعتبار القبيلة وهو اسم ابيهم الاقصى اذ قال لهم اخوهم هود الا تتقون الكلام فى ان المراد بتكذيبهم وبما وقع فيه من الزمان ماذا كما مر فى صدر قصة نوح عليه السلام اى الا تتقون الله تعالى فتفعلون ما تفعلون انى لكم رسول امين فاتقوا الله واطيعون وما اسئلكم عليه من اجر ان اجرى الا على رب العالمين الكلام فيه كالذى مر وتصدير القصص به للتنبيه على ان مبنى البعثة هو الدعاء الى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو الى الثواب ويبعده من العقاب وان الانبياء عليهم السلام مجمعون على ذلك وان اختلفوا فى بعض فروع الشرائع المختلفة باختلاف الازمنة والاعصار وانهم متنزهون عن المطالع الدينية والاغراض الدنيوية بالجملة اتبنون بكل ريع اى مكان مرتفع ومنه ريع الارض لارتفاعها اية علما للمارة تعبثون ببنائها اذ كانوا يهتدون بالنجوم فى اسفارهم فلا يحتاجون اليها او بروج الحمام او بنيانا يجتمعون اليه للعبث بمن مر عليهم او قصورا عالية يفتخرون بها وتتخذون مصانع اى ماخذ الماء وقيل قصورا مشيدة وحصونا لعلكم تخلدون اى راجين ان تخلدوا فى الدنيا اى عاملين عمل من يرجو ذلك فلذلك تحكمون بنيانها واذا بطشتم بسوط او سيف بطشتم جبارين متسلطين غاشمين بلا رافة ولا قصد تاديب ولا نظر فى العاقبة فاتقوا الله واتركوا هذه الافعال واطيعون فيما ادعوكم اليه فانه انفع لكم واتقوا الذى امدكم بما تعلمون من انواع النعماء واصناف الالاء اجملها اولا ثم فصلها بقوله امدكم بانعام وبنين باعادة الفعل لزيادة التقرير فان التفصيل بعد الاجمال والتفسير اثر الابهام ادخل فى ذلك وجنات وعيون انى اخاف عليكم ان لم تقوموا بشكر هذه النعم عذاب يوم عظيم فى الدنيا والاخرة فان كفران النعمة مستتبع للعذاب كما ان شكرها مستلزم لزيادتها قال تعالى لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد قالوا سواء علينا اوعظت ام لم تكن من الواعظين فانا لن نرعوى عما نحن عليه وتغيير الشق الثانى عن مقابلة للمبالغة فى بيان قلة اعتدادهم بوعظه كانهم قالوا ام لم تكن من اهل الوعظ ومباشريه اصلا ان هذا ما هذا الذى جئتنا به الا خلق الاولين اى عادتهم كانوا يلفقون مثله ويسطرونه او ما هذا الذى نحن عليه من الدين الا خلق الاولين وعادتهم ونحن بهم مقتدون او ما هذا الذى نحن عليه من الموت والحيوة الا عادة قديمة لم يزل الناس عليها وقرئ خلق الاولين بفتح الخاء اى اختلاف الاولين كما قالوا اساطير الاولين او ما خلقنا هذا الا خلقهم نحيى كما حيوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا حساب وما نحن بمعذبين على ما نحن عليه من الاعمال فكذبوه اى اصروا على ذلك فاهلكناهم بسببه بريح صرصر ان فى ذلك لاية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم كذبت ثمود المرسلين اذ قال لهم اخوهم صالح الا تتقون الله تعالى انى لكم رسول امين فاتقوا الله واطيعون وما اسئلكم عليه من اجر ان اجرى الا على رب العالمين اتتركون فيما هاهنا امنين انكار ونفى لان يتركوا فيما هم فيه من النعمة او تذكير للنعمة فى تخليته تعالى اياهم

واسباب تنعمهم آمنين وقوله تعالى فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم تفسير لما قبله من المبهم والهضيم اللطيف اللين للطف الثمر او لان النخل انثى وطلع الاناث الطف وهو ما يطلع منها كنصل السيف فى جوفه وشماريخ القنو او متدل متكسر من كثرة الحمل وافراد النخل لفضله على سائر اشجار الجنات او لان المراد بها غيرها من الاشجار وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين بطرين او حاذقين من الفراهة وهى النشاط فان الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب وقرئ فرهين وهو ابلغ فاتقوا الله واطيعون ولا تطيعوا امر المسرفين استعير الطاعة التى هى انقياد الامر لامتثال الامر وارتسامه او نسب حكم الامر الى امره مجازا

الذين يفسدون فى الارض

ولا يصلحون على يفسدون لبيان خلوص افسادهم عن مخالطة الاصلاح قالوا انما انت من المسحرين اى الذين سحروا حتى غلب على عقلهم او من ذوى السحر اى الرئة اى من الانس فيكون قوله تعالى ما انت الا بشر مثلنا تاكيدا له فات باية ان كنت من الصادقين اى فى دعواك قال هذه ناقة اى بعد ما اخرجها الله من الصخرة بدعائه عليه السلام حسبما مر تفصيله فى سورة الاعراف وسورة هود لها شرب اى نصيب من الماء كالسقى والقيت للحظ من السقى والقوت وقرئ بالضم ولكم شرب يوم معلوم فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموا على شربها ولا تمسوها بسوء كضرب وعقر فياخذكم عذاب يوم عظيم وصف اليوم بالعظم لعظم ما يحل فيه وهو ابلغ من تعظيم العذاب فعقروها اسند العقر الى كلهم لما ان عاقرها عقرها برايهم ولذلك عمهم العذاب فاصبحوا نادمين خوفا من حلول العذاب لا توبة او عند معاينتهم لبادية ولذلك لم ينفعهم الندم وان كان بطريق التوبة فاخذهم العذاب اى العذاب الموعود ان فى ذلك لاية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم قيل فى نفى الايمان عن اكثرهم فى هذا المعرض ايماء الى انه لو امن اكثرهم او شطرهم لما اخذوا بالعذاب وان قريشا انما عصموا من مثله ببركة من آمن منهم وانت خبير بان قريشا هم المشهورون بعدم ايمان اكثرهم كذبت قوم لوط المرسلين اذ قال لهم اخوهم لوط الا تتقون انى لكم رسول امين فاتقوا الله واطيعون وما اسئلكم من اجر ان اجرى الا على رب العالمين اتاتون الذكران من العالمين اى اتاتون من بين بنى آدم من العالمين الذكران لا يشارككم فيه غيركم او اتاتون من اولاد ادم مع كثرتهم وغلبة النساء مع كونهن اليق بالاستمتاع فالمراد بالعالمين على الاول كل ما ينكح من الحيوان وعلى الثانى الناس وتذرون ما خلق لكم ربكم لاجل استمتاعكم وكلمة من فى قوله تعالى من ازواجكم للبيان ان اريد بما جنس الاناث وهو الظاهر وللتبعيض ان اريد بها العضو المباح منهن تعريضا بانهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم ايضا بل انتم قوم عادون متعدون متجاوزون الحد فى جميع المعاصى وهذا من جملتها او قيل متجاوزون عن حد الشهوة حيث زادوا على سائر الناس بل الحيوانات قالوا لئن لم تنته يا لوط اى عن تقبيح امرنا او نهينا عنه او عن دعوى النبوة التى من جملة احكامها التعرض لنا لتكونن من المخرجين اى من المنفيين من قريتنا ولعلهم كانوا يخرجون من اخرجوه من بينهم على عنف وسوء حال قال انى لعملكم من القالين اى من المبغضين غاية البغض كانه يقلى الفؤاد والكبد لشدته وهو ابلغ من ان يقال انى لعملكم قال لدلالته على انه عليه السلام من زمرة الراسخين فى بغضه المشهورين فى قلاه ولعله عليه السلام اراد اظهار الكراهة من مساكنتهم والرغبة فى الخلاص من سوء جوارهم ولذلك اعرض عن محاورتهم وتوجه الى الله تعالى قائلا رب نجنى واهلى مما يعملون اى من شؤم عملهم وغائلته فنجيناه واهله اجمعين اى اهل بيته ومن اتبعه فى الدين باخراجهم من بينهم عند مشارفة حلول العذاب بهم الا عجوزا هى امراة لوط استثنيت من اهله فلا يضره كونها كافرة لان لها شركة فى الاهلية بحق الزواج فى الغابرين اى مقدرا كونها من الباقين فى العذاب لانها كانت مائلة

الا القوم راضية بفعلهم وقد اصابها الحجر في الطريق فاهلكها كما مر في سورة الحجر وسورة
هود وقيل كانت فيمن بقى فى القرية ولم تخرج مع لوط عليه السلام ثم دمرنا الآخرين
اهلكنا هم اشد اهلاك وافظعه وامطرنا عليهم مطرا اى مطرا غير معهود
قيل امطر الله تعالى على شذاذ القوم حجارة فاهلكتهم فساء مطر المنذرين
اللام فيه للجنس وبه يتسنى وقوع المضاف اليه فاعل ساء والمخصوص بالذم محذوف
وهو مطرهم ان فى ذلك لاية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز
الرحيم كذب اصحاب الايكة المرسلين الايكة الغيضة التى تنبت ناعم الشجر وهى
غيضة بقرب مدين يسكنها طائفة وكانوا ممن بعث اليهم شعيب عليه السلام وكان
اجنبيا منهم ولذلك قيل اذ قال لهم شعيب الا تتقون ولم يقل اخوهم وقيل
الايكة الشجر الملتف وكان شجرهم الدوم وهى المقل وقرئ بحذف الهمزة والقاء
حركتها على اللام وقرئت كذلك مفتوحة على انها ليكة وهى اسم بلدهم وانما كتبت
ههنا وفى ص بغير الف اتباعا للفظ اللافظ انى لكم رسول امين فاتقوا الله و
اطيعون وما اسئلكم عليه من اجر ان اجرى الا على رب العالمين اوفوا الكيل اى اتموه
ولا تكونوا من المخسرين اى حقوق الناس بالتطفيف وزنوا اى الموزونات بالقسطاس
المستقيم بالميزان السوى وهو ان كان عربيا فان كان من القسط ففعلاس بتكرير العين
والا ففعلال وقرئ بضم القاف ولا تبخسوا الناس اشياءهم اى لا تنقصوا شيئا
من حقوقهم اى حق كان وهذا تعميم بعد تخصيص بعض المواد بالذكر لغاية انهماكهم
فيها ولا تعثوا فى الارض مفسدين بالقتل والغارة وقطع الطريق واتقوا الذى
خلقكم والجبلة الاولين اى وذوى الجبلة الاولين وهم من تقدمهم من الخلائق
وقرئ بضم الجيم والباء وبكسر الجيم وسكون الباء كالخلقة قالوا انما انت من المسحرين
وما انت الا بشر مثلنا وادخال الواو بين الجملتين للدلالة على ان كلا من التسحير والبشرية
مناف للرسالة مبالغة فى التكذيب وان نظنك لمن الكاذبين اى فيما تدعيه من النبوة
فاسقط علينا كسفا من السماء اى قطعا وقرئ بسكون السين وهو ايضا جمع كسفة و
قيل الكسف والكسفة كالريع والريعة وهى القطعة والمراد بالسماء اما السحاب والمظلة
ولعله جواب لما اشعر به الامر بالتقوى من التهديد ان كنت من الصادقين فى
دعواك ولم يكن طلبهم ذلك الا لتصميمهم على الجحود والتكذيب والا لما اخطروه ببالهم
فضلا ان يطلبوه قال ربى اعلم بما تعملون من الكفر والمعاصى وبما تستحقون بسببه
من العذاب فينزله عليكم فى وقته المقدر لا محالة فكذبوه اى فتمادوا على تكذيبه واصروا
عليه فاخذهم عذاب يوم الظلة حسبما اقترحوا اما ان ارادوا بالسماء السحاب فظاهر واما
ان ارادوا المظلة فلان نزول العذاب من جهتها فى اضافة العذاب الى يوم الظلة دون
نفسها ايذان بان لهم يومئذ عذابا آخر غير عذاب الظلة وذلك بان سلط الله عليهم الحر
سبعة ايام ولياليها فاخذهم بانفاسهم لا ظل ولا ماء ولا سرب فاضطروا الى ان خرجوا الى البرية
فاظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما فاجتمعوا تحتها فامطرت عليهم نارا فاحترقوا
جميعا وروى ان شعيبا عليه السلام بعث الى امتين اصحاب مدين واصحاب الايكة فاهلكت
مدين بالصيحة والرجفة واصحاب الايكة بعذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم
اى فى الشدة والهول وفظاعة ما وقع فيه من الطامة والداهية التامة ان فى ذلك
لاية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم هذا آخر القصص السبع
التى اوحيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لصرفه عليه السلام عن الحرص على اسلام
قومه وقطع رجائه عنه ودفع تحسره على فواته تحقيقا لمضمون ما مر فى مطلع
السورة الكريمة من قوله تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين
فقد كذبوا الآية فان كل واحدة من هذه القصص ذكر مستقل متجدد النزول قد اتاهم
من جهته تعالى بموجب رحمته الواسعة وما كان اكثرهم مؤمنين بعد ما سمعوها
على التفصيل قصة بعد قصة لا بان يتدبروا فيها ويعتبروا بما فى كل واحدة منها من الدواعى

الى الايمان والزواجر عن الكفر والطغيان ولا بان يتأملوا فى شأن الآيات الكريمة الناطقة
بتلك القصص على ما هى عليه مع علمهم بانه عليه السلام لم يسمع شيئا منها من احد
اصلا واستمروا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال كأن لم يسمعوا شيئا يزجرهم عن ذلك
قطعا كما حقق فى خاتمة قصة موسى عليه السلام وانه اى ما ذكر من الآيات الكريمة
الناطقة بالقصص المحكية او القرآن الذى هى من جملته لتنزيل رب العالمين اى منزل
من جهته تعالى سمى به مبالغة ووصفه تعالى بربوبية العالمين للايذان بان تنزيله من احكام
تربيته تعالى ورأفته للكل كقوله تعالى وما ارسلناك الا رحمة للعالمين نزل به
اى انزله الروح الامين اى جبريل عليه السلام فانه امين وحيه تعالى وموصله
الى انبيائه عليهم السلام وقرئ بتشديد الزاى ونصب الروح والامين اى جعل الله تعالى
الروح الامين نازلا به على قلبك اى روحك وان اريد به العضو فتخصيصه به لان
المعانى الروحانية تنزل اولا على الروح ثم تنتقل منه الى القلب لما بينهما من التعلق
ثم تتصعد الى الدماغ فينتقش بها اللوح المتخيلة لتكون من المنذرين متعلق بنزل
به اى انزله لتنذرهم بما فى تضاعيفه من العقوبات الهائلة وايثار ما عليه
النظم الكريم للدلالة على انتظامه عليه السلام فى سلك اولئك المنذرين المشهورين
فى حقية الرسالة وتقرر وقوع العذاب المنذر بلسان عربى مبين واضح المعنى
ظاهر المدلول لئلا يبقى لهم عذر ما وهو ايضا متعلق بنزل به وتأخيره للاعتناء
بامر الانذار وللايماء الى ان مدار كونه من جملة المنذرين المذكورين عليهم السلام
مجرد انزاله عليه عليه السلام لا انزاله باللسان العربى وجعله متعلقا بالمنذرين كما جوزه
الجمهور يؤدى الى ان غاية الانزال كونه عليه السلام من جملة المنذرين باللغة
العربية فقط من هود وصالح وشعيب ولا يخفى فساده كيف لا والطامة الكبرى فى باب
الانذار ما انذره نوح وموسى عليهما السلام واشد الزواجر تأثيرا فى قلوب المشركين
ما انذره ابراهيم عليه السلام لانتمائهم اليه وادعائهم انهم على ملته عليه السلام
وانه لفى زبر الاولين اى وان ذكره او معناه لفى الكتب المتقدمة فان احكامه التى لا
تحتمل النسخ والتبديل بحسب تبدل الاعصار من التوحيد وسائر ما يتعلق بالذات و
الصفات مسطورة فيها وكذا ما فى تضاعيفه من المواعظ والقصص وقيل الضمير لرسول
الله صلى الله عليه وسلم بواضح اولم يكن لهم آية الهمزة للانكار والنفى والواو
للعطف على مقدر يقتضيه المقام كانه قيل اغفلوا عن ذلك ولم يكن لهم آية
دالة على انه تنزيل من رب العالمين وانه فى زبر الاولين على ان لهم متعلق بالكون
قدم على اسمه وخبره للاهتمام به او بمحذوف هو حال من آية قدمت عليها لكونها
نكرة وآية خبر لكون قدم على اسمه الذى هو قوله تعالى ان يعلمه علماء بنى اسرائيل
لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر اى يعرفوه بنعوته المذكورة فى
كتبهم ويعرفوا من انزل عليه وقرئ تكن بالتأنيث وجعلت آية اسما وان يعلمه خبرا وفيه
ضعف حيث وقع النكرة اسما والمعرفة خبرا وقد قيل فى تكن ضمير القصة وآية ان يعلمه جملة
واقعة موقع الخبر ويجوز ان يكون لهم هى جملة الشان وان يعلمه بدلا من آية ويجوز
مع نصب آية تأنيث يكن كما فى قوله تعالى ثم لم تكن فتنتهم الا ان قالوا وقرئ تعلمه
بالتاء ولو نزلناه كما هو بنظمه الرائق المعجز على بعض الاعجمين الذين لا يقدرون
على التكلم بالعربية وهو جمع اعجمى على التخفيف ولذلك جمع جمع السلامة وقرئ الاعجميين
وفى لفظ البعض اشارة الى كون ذلك واحدا من عرض تلك الطائفة كائنا من كان
فقرأه عليهم قراءة صحيحة خارقة للعادات ما كانوا به مؤمنين مع انضمام
اعجاز القراءة الى اعجاز المقروء لفرط عنادهم وشدة شكيمتهم فى المكابرة وقيل
المعنى ولو نزلناه على بعض الاعجمين بلغة العجم فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين لعدم
فهمهم واستنكافهم من اتباع العجم وليس بذاك فانه بمعزل من المناسبة لمقام بيان
تماديهم فى المكابرة والعناد كذلك سلكناه اى مثل ذلك السلك البديع المذكور سلكناه

اى ادخلنا القرآن في قلوب المجرمين ففهموا معانيه وعرفوا فصاحته وانه خارج عن القوى البشرية من حيث النظم المعجز ومن حيث الاخبار عن الغيب وقد انضم اليه اتفاق علماء اهل الكتاب المنزلة قبله على تضمنها للبشارة بانزاله وبعثة من انزل عليه باوصافه فقوله تعالى لا يؤمنون به جملة مستأنفة مسوقة لبيان انهم لا يتأثرون بامثال تلك الامور الداعية الى الايمان بل يستمرون على ما هم عليه حتى يروا العذاب الاليم الملجئ الى الايمان به حين لا ينفعهم الايمان فيأتيهم بغتة اى فجاءة في الدنيا والآخرة وهم لا يشعرون باتيانه فيقولوا هل نحن منظرون تحسرا على ما فات من الايمان وتمنيا للامهال لتلافي ما فرطوه وقيل معنى كذلك سلكناه مثل تلك الحال وتلك الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه في قلوبهم وقوله تعالى لا يؤمنون به في موضع الايضاح والتلخيص له او في موقع الحال اى سلكناه فيها غير مؤمن به والاول هو الانسب بمقام بيان غاية عنادهم ومكابرتهم مع تعاضد ادلة الايمان تأخذ مبادي الهداية والارشاد وانقطاع اعذارهم بالكلية وقيل ضمير سلكناه للكفر المدلول عليه بما قبله من قوله تعالى ما كانوا به مؤمنين ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد ادخلنا الشرك والتكذيب في قلوب المجرمين افبعذابنا يستعجلون بقولهم امطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم وقولهم فاتنا بما تعدنا ونحوهما وحالهم عند نزول العذاب كما وصف من طلب الانظار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى ايكون حالهم كما ذكر من الاستنظار عند نزول العذاب الاليم فيستعجلون بعذابنا وبينهما من التنافي ما لا يخفى على احد او ايغفلون عن ذلك مع تحققه وتقرره فيستعجلون الخ وانما قدم الجار والمجرور للايذان بان مصب الانكار والتوبيخ كون المستعجل به عذابه تعالى مع ما فيه من رعاية الفواصل افرأيت لما كانت الرؤية من اقوى اسباب الاخبار بالشيء واشهرها شاع استعمال ارأيت في معنى اخبرني والخطاب لكل من يصلح له كائنا من كان والفاء لترتيب الاستخبار على قولهم هل نحن منظرون وما بينهما اعتراض للتوبيخ والتبكيت وهي مقدمة في المعنى على الهمزة وتأخيرها عنها صورة لاقتضاء الهمزة الصدارة كما هو رأى الجمهور اى فاخبرني ان متعناهم سنين متطاولة بطول الاعمار وطيب المعايش ثم جاءهم ما كانوا يوعدون من العذاب ما اغنى عنهم اى شيء او اى اغناء اغنى عنهم ما كانوا يمتعون اى كونهم ممتعين ذلك التمتيع المديد على ان ما مصدرية او ما كانوا يمتعون من متاع الحياة الدنيا على انها موصولة حذف عائدها وايا ما كان فالاستفهام للانكار والنفي وقيل ما نافية اى لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول في دفع العذاب وتخفيفه والاول هو الاولى لكونه اوفق لصورة الاستخبار وادل على انتفاء الاغناء على ابلغ وجه وآكده كان كل من من شانه الخطاب قد كلف ان يخبر بان تمتيعهم ماذا افادهم واى شيء اغنى عنهم فلم يقدر احد على ان يخبر بشيء من ذلك اصلا وقرئ يمتعون من الامتاع وما اهلكنا من قرية من القرى المهلكة الا لها منذرون قد انذروا اهلها الزاما للحجة ذكرى اى تذكرة ومحلها النصب على العلة او المصدر لانها في معنى الانذار كانه قيل مذكرون ذكرى او على انه مصدر مؤكد لفعل هو صفة لمنذرون اى الا لها منذرون يذكرونهم ذكرى او الرفع على انه صفة منذرون باضمار ذوو او بجعلهم ذكرى لامعانهم في التذكرة او خبر مبتدأ محذوف والجملة اعتراضية وضمير لها للقرى المدلول عليها بمفردها الواقع في حيز النفي على معنى ان للكل منذرين اعم من ان يكون لكل قرية منها منذر واحد او اكثر وما كنا ظالمين فنهلك غير الظالمين وقبل الانذار والتعبير عن ذلك بنفي الظالمية مع ان اهلاكهم قبل الانذار ليس بظلم اصلا على ما تقرر من قاعدة اهل السنة لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من الظلم وقد مر في سورة آل عمران عند قوله تعالى وان الله ليس بظلام للعبيد وما تنزلت به الشياطين رد لما زعمه الكفرة في حق القرآن الكريم من انه من قبيل ما يلقيه الشياطين على الكهنة بعد تحقيق الحق ببيان انه نزل به الروح الامين وما ينبغي لهم اى وما يصح وما يستقيم

لهم ذلك وما يستطيعون ذلك اصلا انهم عن السمع لكلام الملائكة لمعزولون لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة في صفاء الذوات والاستعداد لقبول فيضان انوار الحق والانتقاش بصور العلوم الربانية والمعارف النورانية كيف لا ونفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة بالذات غير مستعدة الا لقبول ما لا خير فيه اصلا من فنون الشرور فمن اين لهم ان يحوموا حول القرآن الكريم المنطوي على الحقائق الرائقة الغيبية التي لا يتمكن تلقيها الا من الملائكة عليهم السلام فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم مع ظهور استحالة صدور المنهي عنه عليه السلام تهييجا وحثا على ازدياد الاخلاص ولطفا لسائر المكلفين ببيان ان الاشراك من القبح والسوء بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه فكيف بمن عداه وانذر العذاب الذي يستتبعه الشرك والمعاصي عشيرتك الاقربين الاقرب منهم فالاقرب فان الاهتمام بشانهم اهم روي انه لما نزلت صعد الصفا وناداهم فخذا فخذا حتى اجتمعوا اليه فقال لو اخبرتكم ان بسفح هذا الجبل خيلا اكنتم مصدقي قالوا نعم قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد وروي انه قال يا بني عبد المطلب يا بني هاشم يا بني عبد مناف افتدوا انفسكم من النار فاني لا اغني عنكم شيئا ثم قال يا عائشة بنت ابي بكر ويا حفصة بنت عمر ويا فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ويا صفية عمة محمد اشترين انفسكم من النار فاني لا اغني عنكن شيئا واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين اى لين جانبك لهم مستعار من حال الطائر فانه اذا اراد ان يحط خفض جناحه ومن للتبيين لان من اتبع اعم ممن اتبع لدين او لغيره او للتبعيض على ان المراد بالمؤمنين المشارفون للايمان او المصدقون باللسان فحسب فان عصوك ولم يتبعوك فقل اني بريء مما تعملون اى مما تعملونه او من اعمالكم وتوكل على العزيز الرحيم الذي يقدر على قهر اعدائه ونصر اوليائه يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم وقرئ فتوكل على انه بدل من جواب الشرط الذي يراك حين تقوم اى الى التهجد وتقلبك في الساجدين وترددك في تصفح احوال المتهجدين كما روي انه لما نسخ فرض قيام الليل طاف عليه السلام تلك الليلة ببيوت اصحابه لينظر ما يصنعون حرصا على كثرة طاعاتهم فوجدها كبيوت الزنانير لما سمع منها من دندنتهم بذكر الله تعالى والتلاوة او تصرفك فيما بين المصلين بالقيام والركوع والسجود والقعود اذا اممتهم وانما وصف الله تعالى ذاته بعلمه بحاله عليه السلام التي بها يستاهل ولايته بعد ان عبر عنه بما ينبئ عن قهر اعدائه ونصر اوليائه من وصفي العزيز الرحيم تحقيقا للتوكل وتوطينا لقلبه عليه انه هو السميع بما تقوله العليم بما تنويه وتعمله هل انبئكم على من تنزل الشياطين اى تتنزل بحذف احدى التائين وهو استئناف مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بيان امتناع تنزلهم بالقرآن ودخول حرف الجر على من الاستفهامية لما انها ليست موضوعة للاستفهام بل الاصل امن فحذف حرف الاستفهام واستمر الاستعمال على حذفه كما حذف من هل والاصل اهل وقوله تعالى تنزل على كل افاك اثيم قصر لتنزلهم على كل من اتصف بالافك الكثير والاثم الكبير من الكهنة والمتنبئة وتخصيص له بهم بحيث لا يتخطاهم الى غيرهم وحيث كانت ساحة رسول الله صلى الله عليه وسلم منزهة من ان يحوم حولها شائبة شيء من تلك الاوصاف اتضح استحالة تنزلهم عليه عليه السلام يلقون اى الافاكون السمع الى الشياطين فيتلقون منهم اوهاما وامارات لنقصان علمهم فيضمون اليها بحسب تخيلاتهم الباطلة خرافات لا يطابق اكثرها الواقع وذلك قوله تعالى واكثرهم كاذبون اى فيما قالوه من الاقاويل وقد ورد في الحديث الكلمة يخطفها الجني فيقرها في اذن وليه فيزيد فيها اكثر من مائة كذبة او يلقون السمع اى المسموع من الشياطين الى الناس واكثرهم كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا اليهم والاظهر ان الاكثرية باعتبار اقوالهم على معنى ان هؤلاء قلما يصدقون

فيما يحكون عن الجنى واما اكثر فهم كاذبون ومآله واكثر اقوالهم كاذبة لا باعتبار
ذواتهم حتى يلزم من نسبة الكذب الى اكثرهم كون اقلهم صادقين على الاطلاق
وليس معنى الافاك من لا ينطق الا بالافك حتى يمتنع منه الصدق بل من يكثر الافك فلا
ينافيه ان يصدق نادرا فى بعض الاحايين وقيل الضمير للشياطين اى يلقون السمع اى
المسموع من الملاء الاعلى قبل ان رجموا من بعض المغيبات الى اوليائهم واكثرهم
كاذبون فيما يوحون به اليهم اذ لا يسمعونهم على نحو ما تكلمت به الملئكة لشرارتهم
او لقصور فهمهم او ضبطهم او افهامهم ولا سبيل الى حمل القاء السمع على تسمعهم
وانصاتهم الى الملاء الاعلى قبل الرجم كما جوزه الجمهور لما ان يلقون كما
صرحوا به اما حال من ضمير تنزل مفيدة لمقارنة التنزل للالقاء او استيناف مبنى
للغرض من التنزل مبنى على السؤال عنه ولا ريب فى ان القاء السمع الى الملاء الاعلى بمعزل
من احتمال ان يقارن التنزل او يكون غرضا منه لتقدمه عليه قطعا فانما المحتمل لهما
الالقاء بالمعنى الاول فالمعنى على تقدير كونه حالا تنزل الشياطين على الافاكين ملقين
اليهم ما سمعوه من الملاء الاعلى وعلى تقدير كونه جوابا عن سؤال من قال لم تنزل
عليهم وماذا يفعلون بهم يلقون اليهم ما سمعوه وحمله على استيناف الاخبار كما فعله
بعضهم غير سديد لان ذكر حالهم السابقة على تنزلهم المذكور قبله غير خليق بجزالة
التنزيل واما على تقدير كون ضمير يلقون للافاكين فهو صفة لكل افاك لانه فى معنى الجمع
سواء اريد بالقاء السمع الاصغاء الى الشياطين او القاء المسموع الى الناس ويجوز
ان يكون استيناف اخبار بحالهم على كلا التقديرين لما ان كلا من تلقيهم من الشياطين
والقائهم الى الناس يكون بعد التنزل وان يكون استينافا مبنيا على السؤال على التقدير
الاول فقط كانه قيل ما يفعلون عند تنزل الشياطين عليهم فقيل يلقون اليهم
اسماعهم ليحفظوا ما يوحون به اليهم وقوله تعالى واكثرهم كاذبون على التقدير
الاول استيناف فقط وعلى الثانى يحتمل الحالية من ضمير يلقون اى يلقون ما سمعوه
من الشياطين الى الناس والحال انهم فى اكثر اقوالهم كاذبون فتدبر والشعراء
يتبعهم الغاوون استيناف مسوق لابطال ما قالوا فى القرآن العظيم من انه
من قبيل الشعر وان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشعراء ببيان حال الشعراء المنافية
لحاله صلى الله عليه وسلم بعد ابطال ما قالوا انه من قبيل ما يلقى الشياطين على الكهنة
من الاباطيل بما مر من بيان احوالهم المضادة لاحواله عليه السلام والمعنى ان الشعراء
يتبعهم اى يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم الغاوون الضالون
عن السنن الحائرون فيما يأتون وما يذرون لا يستمرون على وتيرة واحدة فى الافعال
والاقوال والاحوال لا غيرهم من اهل الرشد المهتدين الى طريق الحق الثابتين عليه
وقوله تعالى الم تر انهم فى كل واد يهيمون استشهاد على ان الشعراء انما يتبعهم
الغاوون وتقرير له والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية للقصد الى ان حالهم من الجلاء
والظهور بحيث لا يختص برؤية راء دون راء اى الم تر ان الشعراء فى كل واد من اودية
القيل والقال وفى كل شعب من شعاب الوهم والخيال وفى كل مسلك من مسالك الغى
والضلال يهيمون على وجوههم لا يهتدون الى سبيل معين من السبل يتحيرون فى فيافى
الغواية والسفاهة ويتيهون فى تيه المجون والوقاحة ديدنهم تمزيق الاعراض
المحمية والقدح فى الانساب الطاهرة السنية والنسب بالحرم والغزل والابتهار
والتردد بين طرفى الافراط والتفريط فى المدح والهجاء وانهم يقولون ما لا يفعلون
من الافاعيل غير مبالين بما يستتبعه من اللوائم فكيف يتوهم ان يتبعهم فى مسلكهم ذلك
ويلتحق بهم وينتظم فى سلكهم من تنزهت ساحته عن ان يحوم حولها شائبة
الاتصاف بشئ من الامور المذكورة واتصف بمحاسن الصفات الجليلة وتخلق
بمكارم الاخلاق الجميلة وحاز جميع الكمالات القدسية وفاز بجملة الملكات الانسية
مستقرا على المنهاج القويم مستمرا على الصراط المستقيم ناطقا بكل امر رشيد داعيا الى صراط

العزيز الحميد مؤيدا بمعجزات قاهرة وآيات ظاهرة مشحونة بفنون الحكم الباهرة وصنوف
المعارف الزاهرة مستقلة بنظم رائق اعجز كل منطيق ماهر وبكت كل مفلق ساحر هذا وقد
قيل فى تنزيهه عليه السلام من ان يكون من الشعراء ان اتباع الشعراء الغاوون واتباع
محمد صلى الله عليه وسلم ليسوا كذلك ولا ريب فى ان تعليل عدم كونه عليه السلام
منهم بكون اتباعه عليه السلام غير غاوين مما لا يليق بشأنه العالى وقيل الغاوون
الراوون وقيل الشياطين وقيل هم شعراء قريش عبد الله بن الزبعرى وهبيرة ابن ابى
وهب المخزومى ومسافع بن عبد مناف وابو عزة الجمحى ومن ثقيف امية بن ابى الصلت
قالوا نحن نقول مثل قول محمد صلى الله عليه وسلم وقرئ والشعراء بالنصب على اضمار فعل
يفسره الظاهر وقرئ يتبعهم على التخفيف ويتبعهم بسكون العين تشبيها لبعضه بعضد
الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا
استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله عز وجل ويكون اكثر
اشعارهم فى التوحيد والثناء على الله تعالى والحث على طاعته والحكمة والموعظة
والزهد فى الدنيا والترغيب عن الركون اليها والزجر عن الاغترار بزخارفها والافتتان
بملاذها الفانية ولو وقع منهم فى بعض الاوقات هجو وقع ذلك منهم بطريق الانتصار
ممن هجاهم وقيل المراد بالمستثنين عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن
مالك وكعب بن زهير بن ابى سلمى والذين كانوا ينافحون عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم ويكافحون هجاة قريش وعن كعب بن مالك رضى الله عنهم ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال له اهجهم فوالذى نفسى بيده لهو اشد عليهم من النبل وكان يقول
لحسان رضى الله عنه قل وروح القدس معك وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب
ينقلبون تهديد شديد ووعيد اكيد لما فى سيعلم من تهويل متعلقه وفى الذين
ظلموا من الاطلاق والتعميم وفى اى منقلب ينقلبون من الابهام والتهويل وقد قاله
ابو بكر لعمر رضى الله عنهما حين عهد اليه وقرئ اى منفلت ينفلتون من الانفلات حتى
النجاة والمعنى ان الظالمين يطمعون ان ينفلتوا من عذاب الله وسيعلمون ان ليس لهم
وجه من وجوه الانفلات عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الشعراء كان له
عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وصالح وشعيب وابراهيم
وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلوة والسلام

سورة النمل وهى اربع وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

طس بالتفخيم وقرئ بالامالة والكلام فيه كالذى مر فى نظائره من الفواتح الشريفة
ومحله على تقدير كونه اسما للسورة وهو الاظهر الاشهر الرفع على انه خبر لمبتدأ
محذوف اى هذا طس اى مسمى به والاشارة اليه قبل ذكره قد مر وجهها فى فاتحة سورة
يونس وغيرها ورفعه بالابتداء على ان ما بعده خبره ضعيف لما ذكر هناك تلك اشارة
الى نفس السورة لانها التى نوهت بذكر اسمها لا الى آياتها لعدم ذكرها صريحا ولان
اضافتها اليها تأبى اضافتها الى القرآن كما سيأتى وما فى اسم الاشارة من معنى البعد
مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد منزلته فى الفضل والشرف ومحله الرفع على
الابتداء خبره آيات القرآن والجملة مستأنفة مقررة لما افاده التسمية من نباهة شأن المسمى
والقرآن عبارة عن الكل او عن الجميع المنزل عند نزول السورة حسبما ذكر فى فاتحة فاتحة
الكتاب اى تلك السورة آيات القرآن المعروف بعلو الشأن اى بعض منه مترجم مستقل
باسم خاص وكتاب اى كتاب عظيم الشأن مبين مظهر لما فى تضاعيفه من الحكم والاحكام
واحوال الآخرة التى من جملتها الثواب والعقاب او لسبيل الرشد والغى او فارق بين
الحق والباطل والحلال والحرام او ظاهر الاعجاز على انه من ابان بمعنى بان ولقد فخم شأن
الجليل بما جمع فيه من وصف القرآنية المنبئة عن كونه بديعا فى بابه ممتازا عن غيره
بالنظم المعجز كما يعرب عنه قوله تعالى قرآنا عربيا غير ذى عوج ووصف الكتابية المعربة عن

اشتماله على صفات كمال الكتب الالهية فكانه كلها وقدم الوصف الاول ههنا نظرا الى تقدم حال القرائية على حال الكتابية وعكس في سورة الحجر نظرا الى ما ذكرنا هناك من الوجه وما قيل من ان الكتاب هو اللوح المحفوظ وابانته انه خط فيه ما هو كائن فهو يبينه للناظرين فيه لا يساعده اضافة الايات اليه اذ لا عهد باشتماله على الايات ولا وصفه بالهداية والبشارة اذ هما باعتبار ابانته فلابد من اعتبارها بالنسبة الى الناس الذين من جملتهم المؤمنون لا الى الناظرين فيه وقرئ وكتاب بالرفع على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه اى وايات كتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين في حيز النصب على الحالية من الايات على انهما مصدران اقيما مقام الفاعل للمبالغة كانهما نفس الهدى والبشارة والعامل معنى الاشارة اى هادية ومبشرة او الرفع على انهما بدلان من الايات او خبران اخران لتلك او لمبتدأ محذوف ومعنى هدايتها لهم وهم مهتدون انها تزيدهم هدى قال تعالى فاما الذين امنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون واما معنى تبشيرها اياهم فظاهر لانها تبشرهم برحمة من الله ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم وقوله تعالى الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة صفة مادحة لهم وتخصيصهما بالذكر لانهما قرينتا الايمان وقطر العبادات البدنية والمالية مستتبعان لساير الاعمال الصالحة وقوله تعالى وهم بالاخرة هم يوقنون جملة اعتراضية كانه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالاخرة حق الايقان لا من عداهم لان تحمل مشاق العبادات لخوف العقاب ورجاء الثواب او هو من تتمة الصلة والواو حالية او عاطفة له على الصلة الاولى وتغيير نظمه للدلالة على قوة يقينهم وثباته وانهم اوحديون فيه ان الذين لا يؤمنون بالاخرة بيان لاحوال الكفرة بعد بيان احوال المؤمنين اى لا يؤمنون بها وبما فيها من الثواب على الاعمال الصالحة والعقاب على السيئات حسبما ينطق به القران زينا لهم اعمالهم القبيحة حيث جعلناها مشتهاة للطبع محبوبة للنفس كما ينبئ عنه قوله عم حفت النار بالشهوات او الاعمال الحسنة ببيان حسنها في انفسها حالا واستتباعها لفنون المنافع مآلا واضافتها اليهم باعتبار امرهم بها وايجابها عليهم فهم يعمهون يتحيرون ويترددون على التجدد والاستمرار في الاشتغال بها والانهماك فيها من غير ملاحظة لما يتبعها من نفع وضر او في الضلال والاعراض عنها والفاء على الاول لترتيب المسبب على السبب وعلى الثاني لترتيب ضد المسبب على السبب كما في قولك وعظته فلم يتعظ وفيه ايذان بكمال عتوهم ومكابرتهم وتعكيسهم في الامور اولئك اشارة الى المذكورين وهو مبتدأ خبره الموصول بعده اى اولئك الموصوفون بالكفر والعمه الذين لهم سوء العذاب اى في الدنيا كالقتل والاسر يوم بدر وهم في الاخرة هم الاخسرون اى اشد الناس خسرانا لفوات الثواب واستحقاق العذاب وانك لتلقى القران كلام مستانف قد سيق بعد بيان بعض شؤون القران الكريم تمهيدا لما يعقبه من الاقاصيص وتصديره بحرفي التاكيد لابراز كمال العناية بمضمونه اى لتؤتاه بطريق التلقية والتلقين من لدن حكيم عليم اى اى حكيم واي عليم وفي تفخيمهما تفخيم لشان القران وتنصيص على علو طبقته عليه السلام في معرفته والاحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق فان من تلقى العلوم والحكم من مثل ذلك الحكيم العليم يكون علما في رصانة العلم والحكمة والجمع بينهما مع دخول العلم في الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على اتقان الفعل وللاشعار بان ما في القران من العلوم منها ما هو حكمة كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالقصص والاخبار الغيبية وقوله تعالى اذ قال موسى لاهله منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبي صلعم وامر بتلاوة بعض من القران الذي يلقاه عليه السلام من لدنه عز وجل تقريرا لما قبله وتحقيقا له اى اذكر لهم وقت قوله عليه السلام لاهله في وادي طوى وقد غشيتهم ظلمة الليل وقدح فاصلد زنده فبدا له من جانب الطور نارا اني انست نارا ساتيكم منها بخبر اى عن حال الطريق وقد كانوا ضلوه والسين للدلالة

على نوع بعد في المسافة وتاكيد الوعد والجمع ان صح انه لم يكن معه عليه السلام الا امراته لما كنى عنها بالاهل او للتعظيم مبالغة في التسلية او اتيكم بشهاب قبس بتنوينهما على ان الثاني بدل من الاول او صفة له لانه بمعنى مقبوس اى بشعلة نار مقبوسة اى ماخوذة من اصلها وقرئ بالاضافة وعلى التقديرين فالمراد تعيين المقصود الذي هو القبس الجامع لمنفعتي الضياء والاصطلاء لان من النار ما ليس بقبس كالجمر وكلتا العدتين منه عليه السلام بطريق الظن كما يفصح عن ذلك ما في سورة طه من صيغة الترجي والترديد للايذان بانه ان لم يظفر بهما لم يعدم احدهما بناء على ظاهر الامر وثقة بسنة الله تعالى فانه تعالى لا يكاد يجمع على عبده حرمانين لعلكم تصطلون رجاء ان تستدفئوا بها والصلا النار العظيمة فلما جاءها نودي من جانب الطور الايمن ان بورك معناه اى بورك على ان ان مفسرة لما في النداء من معنى القول او بان بورك على انها مصدرية حذف عنها الجار جريا على القاعدة المستمرة وقيل مخففة من الثقيلة ولا ضير في فقدان التعويض بلا او قد او السين او سوف لما ان الدعاء يخالف غيره في كثير من الاحكام من في النار ومن حولها اى من في مكان النار وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله سبحانه نودي من شاطئ الواد الايمن في البقعة المباركة ومن حولها مكانها وقرئ تباركت الارض ومن حولها والظاهر عمومه لكل من ذلك الوادي وحواليه من ارض الشام الموسومة بالبركات لكونها مبعث الانبياء عليهم السلام وكفاتهم احياء وامواتا ولا سيما تلك البقعة التي كلم الله تعالى موسى وقيل المراد موسى والملائكة الحاضرون وتصدير الخطاب بذلك بشارة بانه قد قضي له امر عظيم ديني ينتشر بركاته في اقطار الشام وهو تكليمه تعالى اياه عليه السلام واستنباؤه له واظهار المعجزات على يديه وسبحان الله رب العالمين تعجيب لموسى عليه السلام من ذلك وايذان بان ذلك مريده ومكونه رب العالمين تنبيها على ان الكائن من جلائل الامور وعظائم الشؤون ومن احكام تربيته تعالى للعالمين يا موسى انه انا الله استيناف مسوق لبيان اثار البركة المذكورة والضمير اما للشان وانا الله جملة مفسرة له واما راجع الى المتكلم وانا خبره والله بيان له وقوله تعالى العزيز الحكيم صفتان لله تعالى ممهدتان لما اريد اظهاره على يده من المعجزة اى انا القوي القادر على ما لا يناله الاوهام من الامور العظام التي من جملتها امر العصا واليد الفاعل كل ما افعله بحكمة بالغة وتدبير رصين والق عصاك عطف على بورك منتظم معه في سلك تفسير النداء اى نودي ان بورك وان الق عصاك حسبما نطق به قوله تعالى وان الق عصاك بتكرير حرف التفسير كما تقول كتبت اليه ان حج وان اعتمر وان شئت ان حج واعتمر والفاء في قوله تعالى فلما راها تهتز فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقة بظهورها ودلالة على سرعة وقوع مضمونها كما في قوله فلما راينه اكبرنه بعد قوله تعالى اخرج عليهن كانه قيل فالقاها فانقلبت حية تسعى فابصرها فلما ابصرها متحركة بسرعة واضطراب وقوله تعالى كانها جان اى حية خفيفة سريعة الحركة جملة حالية اما من مفعول راى مثل تهتز كما اشير اليه او من ضمير تهتز على طريقة التداخل وقرئ جان على لغة من جد في الهرب من التقاء الساكنين ولى مدبرا من الخوف ولم يعقب اى لم يرجع على عقبيه من عقب المقاتل اذا كر بعد الفر وانما اعتراه الرعب لظنه ان ذلك لامر اريد به كما ينبئ عنه قوله تعالى يا موسى لا تخف اى من غيري ثقة بي او مطلقا لقوله تعالى اني لا يخاف لدي المرسلون فانه يدل على نفي الخوف عنهم مطلقا لكن لا في جميع الاوقات بل حين يوحى اليهم كوقت الخطاب فانهم حينئذ مستغرقون في مطالعة شؤون الله عز وجل لا يخطر ببالهم خوف من احد اصلا واما في ساير الاحيان فهم اخوف الناس سبحانه او لا يكون لهم عندي سوء عاقبة ليخافوا منه الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فاني غفور رحيم استثناء منقطع استدرك به ما عسى يختلج في الخلد من نفي الخوف عن كلهم مع ان منهم من فرطت منه صغيرة ما مما يجوز صدوره عن الانبياء عليهم الصلوة والسلام فانهم وان صدر عنهم شيء من ذلك فقد فعلوا عقيبه ما يبطله

ويستحقون به من الله تعالى مغفرة ورحمة وقد قصد به التعريض بما وقع من موسى عم
من وكزه القبطى والاستغفار وتسميتها ظلما لقوله عليه السلام رب انى ظلمت نفسى
فاغفر لى فغفر له وادخل يدك فى جيبك لانه كان مدرعة صوف لا كم لها وقيل
الجيب القميص لانه يجاب اى يقطع تخرج بيضاء من غير سوء اى آفة كبرص ونحوه
فى تسع آيات فى جملتها او معها على ان التسع هى الفلق والطوفان والجراد والقمل
والضفادع والدم والطمسة والجدب فى بواديهم والنقصان فى مزارعهم ولمن
عد العصا واليد من التسع ان يعد الاخيرين واحدا ولا يعد الفلق منها لانه لم
يبعث به الى فرعون او اذهب فى تسع آيات على انه استيناف بالارسال فيتعلق به الى فرعون
وقومه وعلى الاولين يتعلق بنحو مبعوثا او مرسلا انهم كانوا قوما فاسقين تعليل
للارسال اى خارجين عن الحدود فى الكفر والعدوان فلما جاءتهم آياتنا وظهرت على يد
موسى مبصرة بينة اسم فاعل اطلق على المفعول اشعارا بانها لفرط وضوحها وانارتها
كانها تبصر نفسها لو كانت مما يبصر او ذات تبصر من حيث انها تهدى والعمى لا تهتدى فضلا
عن الهداية او مبصرة كل من ينظر اليها ويتأمل فيها وقرئ مبصرة اى مكانا يكثر فيه
التبصر قالوا هذا سحر مبين واضح سحريته وجحدوا بها اى كذبوا بها واستيقنتها انفسهم
الواو للحال اى وقد استيقنتها اى علمتها انفسهم علما يقينا ظلما اى للآيات كقوله تعالى
بما كانوا باياتنا يظلمون ولقد ظلموا بها اى ظلم حيث حطوها عن رتبتها العالية وسموها
سحرا وقيل ظلما لانفسهم وليس بذلك وعلوا اى استكبارا عن الايمان بها كقوله
تعالى والذين كذبوا باياتنا واستكبروا عنها وانتصابهما اما على العلة من جحدوا بها
او على الحالية من فاعله اى جحدوا بها ظالمين لها مستكبرين عنها فانظر كيف كان عاقبة
المفسدين من الاغراق على الوجه الهائل الذى هو عبرة للعالمين وانما لم يذكر تنبيها على انه
عرضة لكل ناظر مشهور فيما بين كل باد وحاضر ولقد آتينا داود وسليمان علما
كلام مستانف مسوق لتقرير ما سبق من انه عليه السلام من لدنه تعالى كقصة موسى
عليه السلام وتصديره بالقسم لاظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه اى آتينا كل
واحد منهما طائفة من علم لائقة به من علم الشرائع والاحكام وغير ذلك مما يختص
بكل منهما كصنعة لبوس ومنطق الطير او علما سنيا عزيزا وقالا اى قال كل واحد منهما
شكرا لما اوتيه من العلم الحمد لله الذى فضلنا بما آتانا من العلم على كثير من عباده
المؤمنين على ان عبارة كل منهما فضلنى لا انه عبر عنها عند الحكاية بصيغة التكلم
مع الغير ايجازا فان حكاية الاقوال المتعددة سواء كانت صادرة عن المتكلم او عن
غيره بعبارة جامعة للكل مما ليس بعزيز من الاول قوله تعالى يا ايها الرسل كلوا من الطيبات
واعملوا صالحا وقد مر فى سورة قد افلح المؤمنون ولهذا ظهر حسن موقع العطف
بالواو اذ المتبادر من العطف بالفاء ترتب حمد كل منهما على ايتاء ما اوتى كل منهما لا على ايتاء
ما اوتى نفسه فقط وقيل فى العطف بالواو اشعار بان ما قالاه بعض ما احدث فيهما ايتاء
العلم وشئ من مواجبه فاضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد كانه قيل ولقد آتيناهما علما
فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه وقالا الحمد لله الآية وتأمل والكثير المفضل عليه من لم
يؤت مثل علمهما وقيل من لم يؤت علما وياباه تبيين الكثير بالمؤمنين فان خلوهم من
العلم بالمرة مما لا يمكن وفى تخصيصهما الاكثر بالذكر رمزا الى ان البعض مفضلون عليهما
وفيه اوضح دليل على فضل العلم وشرف اهله حيث شكرا على العلم وجعلاه اساس الفضل
ولم يعتبرا دونه ما اوتيا من الملك الذى لم يؤته غيرهما وتحريض للعلماء على ان
يحمدوا الله تعالى على ما آتاهم من فضله وان يتواضعوا ويعتقدوا انهم وان فضلوا على
كثير فقد فضل عليهم كثير وفوق كل ذى علم عليم ونعما قال امير المؤمنين رضى
كل الناس افقه من عمر وورث سليمان داود اى النبوة والعلم او الملك بان قام
مقامه فى ذلك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر وقال تشهيرا لنعمة الله تعالى و
تنويها بها ودعاء للناس الى التصديق بذكر المعجزات الباهرة التى اوتيها يا ايها الناس

علمنا

علمنا منطق الطير واوتينا من كل شئ المنطق فى المتعارف كل لفظ يعبر به عما فى الضمير مفردا
او مركبا وقد يطلق على كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد يقال نطقت الحمامة
وكل صنف من اصناف الطير يتفاهم اصواته والذى علمه سليمان عليه السلام من
منطق الطير هو ما يفهم بعضهم من بعض من معانيه واغراضه ويحكى انه مر على بلبل فى شجرة
يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لاصحابه اتدرون ما يقول هذا قالوا الله ونبيه اعلم قال يقول
اذا اكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وصاحت فاختة فاخبر انها تقول ليت ذا الخلق
لم يخلقوا وصاح طاوس فقال يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال يقول
استغفروا الله يا مذنبون وصاح طيطوى فقال يقول كل حى ميت وكل جديد بال وصاح
خطاف فقال يقول قدموا خيرا تجدوه وصاح قمرى فاخبر انه يقول سبحان ربى الاعلى
وصاحت رخمة فقال يقول سبحان ربى الاعلى ملء سمائه وارضه وقال الحدأة تقول
كل شئ هالك الا الله والقطاة تقول من سكت سلم والببغاء يقول ويل لمن همه الدنيا
والديك يقول اذكروا الله يا غافلون والنسر يقول يا ابن آدم عش ما شئت
آخرك الموت والعقاب يقول فى البعد من الناس انس والضفدع يقول سبحان ربى
القدوس واراد عليه السلام بقوله علمنا واوتينا بالنون التى يقال لها نون الواحد
المطاع بيان حاله وصفته من كونه ملكا مطاعا لكن لا تكبرا وتجبرا بل تمهيدا لما اراد منهم
من حسن الطاعة والانقياد له فى اوامره ونواهيه حيث كان على عزيمة المسير وبقوله
من كل شئ كثرة ما اوتيه كما يقال فلان يقصده كل احد ويعلم كل شئ ويراد به كثرة
قصاده وغزارة علمه ومثله قوله تعالى واوتيت من كل شئ وقال ابن عباس رضى الله عنهما
كل ما يهمه من امر الدنيا والآخرة وقال مقاتل يعنى النبوة والملك وتسخير الجن والانس
والشياطين والريح ان هذا اشارة الى ما ذكر من التعليم والايتاء لهو الفضل
والاحسان من الله تعالى المبين الواضح الذى لا يخفى على احد او ان هذا الفضل الذى
اوتيه لهو الفضل المبين على انه عليه السلام قاله على سبيل الشكر والمحمدة كما قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم انا سيد ولد آدم ولا فخر اى اقول هذا القول شكرا لا فخرا ولعله
عليه السلام رتب على كلامه ذلك دعوة الناس الى الغزو فان اخبارهم بايتاء كل شئ
من الاشياء التى من جملتها آلات الحرب واسباب الغزو مما ينبئ عن ذلك يغنى قوله تعالى
وحشر لسليمان جنوده جمع له عساكره من الجن والانس والطير بمباشرة مخاطبيه
فانهم كانوا رؤساء مملكته وعظماء دولته من الثقلين وغيرهم بتعميم الناس
للكل تغليبا وتقديم الجن على الانس فى البيان للمسارعة الى الايذان بكمال قوة ملكه وعزة
سلطانه من اول الامر لما ان الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة بعيدة من الحشر
والتسخير فهم يوزعون اى يحبس اوائلهم على اواخرهم اى يوقف سلاف العسكر
حتى يلحقهم التوالى فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم احد وذلك للكثرة العظيمة ويجوز
ان يكون ذلك لترتيب الصفوف كما هو المعتاد فى العساكر وفيه اشعار بكمال مسارعتهم
الى السير وتخصيص حبس اوائلهم بالذكر دون سوق اواخرهم مع ان التلاحق يحصل
بذلك ايضا لما ان اواخرهم غير قادرين على ما يقدر عليه اوائلهم من السير السريع وهذا
اذا لم يكن سيرهم بتسيير الريح فى الجو روى ان معسكره عليه السلام كان مائة فرسخ
فى مائة خمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للانس وخمسة وعشرون للطير
وخمسة وعشرون للوحش وكان له عليه السلام الف بيت من قوارير على الخشب فيها
ثلاثمائة منكوحة وسبعمائة سرية وقد نسجت له الجن بساطا من ذهب وابريسم
فرسخا فى فرسخ وكان يوضع منبره فى وسطه وهو من ذهب فيقعد عليه وحوله
ستمائة الف كرسى من ذهب وفضة فيقعد الانبياء عليهم السلام على كراسى الذهب
والعلماء على كراسى الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظلله
الطير باجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر و
يروى انه كان يأمر الريح العاصف تحمله ويأمر الرخاء تسيره فاوحى الله تعالى اليه وهو يسير

بين السماء والارض انى قد زدت فى ملكك لا يتكلم احد بشئ الا القته الريح فى سمعك ويحكى
انه مر بحراث فقال لقد اوتى آل داود ملكا عظيما فالقته الريح فى اذنه فنزل فمشى الى الحراث
وقال انما مشيت اليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ثم قال لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى
خير مما اوتى آل داود «حتى اذا اتوا على وادى النمل» حتى هى التى يبتدأ بها الكلام ومع
ذلك هى غاية لما قبلها كالتى فى قوله تعالى حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل
الآية وهى ههنا غاية لما ينبئ عنه قوله تعالى فهم يوزعون من السير كانه قيل فساروا
حتى اذا اتوا الخ وواد النمل بالشام كثير النمل على ما قاله مقاتل وبالطائف على ما قاله كعب وقيل
هو واد تسكنه الجن والنمل مراكبهم وتعدية الفعل اليه بكلمة على اما لان اتيانهم كان
من فوق واما لان المراد بالاتيان عليه قطعه من قولهم اتى على الشئ اذا انفده وبلغ آخره
ولعلهم ارادوا ان ينزلوا عند منتهى الوادى اذ حينئذ يخافهم ما فى الارض لا عند سيرهم
فى الهواء وقوله تعالى «قالت نملة» جواب اذا كانها لما رأتهم متوجهين الى الوادى فرت
منهم فصاحت صيحة تنبهت بها ما بحضرتها من النمل لمرادها فتبعها فى الفرار فشبه ذلك
بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم فاجروا مجراهم حيث جعلت هى قائلة وما عداها من
النمل مقولا لهم حيث قيل «يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم» مع انه لا يمتنع ان يخلق الله
تعالى فيها النطق وفيما عداها العقل والفهم وقرئ نملة يا ايها النمل بضم الميم وهو الاصل
كالرجل وتسكين الميم تخفيف منه كالسبع فى السبع وقرئ بضم النون والميم قيل كانت
نملة عرجاء تمشى تتكاوس فنادت بما قالت فسمع سليمان عليه السلام كلامها من ثلاثة
اميال وقيل كان اسمها طاخية وقرئ مسكنكم وقوله تعالى «لا يحطمنكم سليمان وجنوده»
نهى فى الحقيقة للنمل عن التأخر فى دخول مساكنهم وان كانت بحسب الظاهر نهيا له عم
ولجنوده عن الحطم كقولهم لا ارينك ههنا فهو استئناف او بدل من الامر كقول من قال
فقلت له ارحل لا تقيمن عندنا لا جواب له فان النون لا تدخله فى السعة وقرئ لا يحطمنكم
بالنون الخفيفة بفتح الحاء وكسرها واصله لا يحتطمنكم وقوله تعالى «وهم لا يشعرون» حال
من فاعل يحطمنكم مفيدة لتقييد الحطم بحال عدم شعورهم بمكانهم حتى لو شعروا بذلك
لم يحطموا وارادت بذلك الايذان بانها عارفة بشؤون سليمان وسائر الانبياء عليهم
السلام فى عصمتهم عن الظلم والايذاء وقيل هو استئناف اى فهم سليمان ما قالته
والقوم لا يشعرون بذلك «فتبسم ضاحكا من قولها» تعجبا من حذرها واهتدائها
الى تدبير مصالحها ومصالح بنى نوعها وسرورا لشهرة حاله وحال جنوده فى باب
التقوى والشفقة فيما بين اصناف المخلوقات التى هى ابعدها من ادراك امثال هذه الامور
وابتهاجا بما خصه الله تعالى به من ادراك همسها وفهم مرادها روى انها احست بصوت
الجنود ولا تعلم انهم فى الهواء فامر سليمان عليه السلام الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى
دخلن مساكنهن «وقال رب اوزعنى ان اشكر نعمتك» اى اجعلنى ازع شكر نعمتك عندى
واكفه وارتبطه بحيث لا ينقلب عنى حتى لا انفك عن شكرك اصلا وقرئ بفتح ياء اوزعنى
«التى انعمت على وعلى والدى» ادرج فيه ذكرهما تكثيرا للنعمة فان الانعام عليهما انعام
عليه مستوجب للشكر «وان اعمل صالحا ترضاه» اتماما للشكر واستدامة للنعمة «وادخلنى
برحمتك فى عبادك الصالحين» فى جملتهم التى هى دار الصالحين «وتفقد الطير» اى تعرف
احوال الطير فلم ير الهدهد فيما بينها «فقال ما لى لا ارى الهدهد ام كان من الغائبين»
كانه قال اولا ما لى لا اراه لساتر ستره او لسبب آخر ثم بدا له انه غائب فاضرب عنه
فاخذ يقول اهو غائب «لاعذبنه عذابا شديدا» قيل كان تعذيبه للطير بنتف ريشه
وتشميسه وقيل بجعله مع ضده فى قفص وقيل بالتفريق بينه وبين الفه «او لاذبحنه»
ليعتبر به ابناء جنسه «او ليأتينى بسلطان مبين» بحجة تبين عذره والحلف فى الحقيقة
على احد الاولين على تقدير عدم الثالث وقرئ ليأتيننى او لاهما مفتوحة مشددة
قيل انه عم لما اتم بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره فوافى الحرم واقام به ما شاء
وكان يقرب كل يوم طول مقامه بخمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين الف شاة

ثم عزم على السير الى اليمن فخرج من مكة صباحا يؤم سهيلا فوافى صنعاء وقت الزوال
وذلك مسيرة شهر فرأى ارضا حسناء اعجبته خضرتها فنزل ليتغدى ويصلى فلم يجدوا
الماء وكان الهدهد قناقنه وكان يرى الماء من تحت الارض كما يرى الماء فى الزجاجة فيجئ
الشياطين فيسلخونها كما يسلخ الاهاب ويستخرجون الماء فتفقده لذلك وقد كان حين
نزل سليمان عم حلق الهدهد فرأى هدهدا واقعا فانحط اليه فوصف له ملك سليمان
عم وما سخر له من كل شئ وذكر له صاحبه ملك بلقيس وان تحت يدها اثنى عشر
الف قائد تحت يد كل قائد مائة الف وذهب معه لينظر فما رجع الا بعد العصر
وذلك قوله تعالى «فمكث غير بعيد» اى زمانا غير مديد وقرئ بضم الكاف و
ذكر انه وقعت نفحة من الشمس على راس سليمان عم فنظر فاذا موضع الهدهد خال
فدعى عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه فقال لسيد الطير وهو
العقاب على به فارتفعت فنظرت فاذا هو مقبل فقصدته فناشدها الله تعالى وقال
بحق الله الذى قواك واقدرك على الا رحمتنى فتركته وقالت ثكلتك امك ان
نبى الله قد حلف ليعذبنك قال وما استثنى قالت بلى قال او ليأتينى بعذر مبين فلما قرب من
سليمان عم ارخى ذنبه وجناحيه يجرها على الارض تواضعا فلما دنى منه اخذ
عليه السلام براسه فمده اليه فقال يا نبى الله اذكر وقوفك بين يدى الله تعالى فارتعد
سليمان عليه السلام وعفا عنه ثم سأله «فقال احطت بما لم تحط به» اى علما و
معرفة وحفظته من جميع جهاته وقرئ احطت بادغام الطاء فى التاء باطباق وبغير
اطباق ولا خفاء فى انه لم يرد بما ادعى الاحاطة به ما هو من حقائق العلوم ودقائق الحكم
التى يكون معرفتها والاحاطة بها من وظائف ارباب العلم والحكمة لتوقفها على علم
رصين وفضل مبين حتى يكون اثباتها لنفسه بين يدى نبى الله سليمان عليه السلام
تعديا عن طوره وتجاوزا عن دائرة قدره ونفيها عنه عليه السلام جناية على جنابه
فيحتاج الى الاعتذار بان ذلك كان منه بطريق الالهام كافحه عليه السلام بذلك
مع ما اوتى عليه السلام من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والاحاطة بالمعلومات
الكثيرة ابتلاء له عليه السلام فى علمه وتنبيها على ان فى ادنى خلقه تعالى واضعفهم
من احاط علما بما لم يحط به ليتحاقر اليه نفسه ويتصاغر اليه علمه ويكون لطفا له فى
ترك الاعجاب الذى هو فتنة العلماء بل اراد به ما هو من الامور المحسوسة التى لا تعد
الاحاطة بها فضيلة ولا الغفلة عنها نقيصة لعدم توقف ادراكها الا على مجرد احساس
يستوى فيه العقلاء وغيرهم وقد علم انه عليه السلام لم يشاهده ولم يسمع خبره
من غيره قطعا فعبر عنه بما ذكر لترويج كلامه عنده عليه السلام وترغيبه فى الاصغاء
الى اعتذاره واستمالة قلبه نحو قبوله فان النفس للاعتذار المبنى على امر بديع اقبل
والى تلقى ما لا تعلمه اميل ثم ابده بقوله «وجئتك من سبأ بنبأ يقين» حيث فسر ابهامه
نوع تفسير واراه عليه السلام انه كان بصدد اقامة خدمة مهمة له حيث عبر عما
جاء به بالنبأ الذى هو الخبر الخطير والشأن الكبير ووصفه بما وصفه والافها اصدر عنه
عليه السلام مع ما حكى عنه ما حكى من الحمد والشكر واستدعاء الايزاع حتى يليق
بالحكمة الالهية تنبيه عليه السلام على تركه وسبأ منصرف على انه اسم لحى سموا باسم
ابيهم الاكبر وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان قالوا اسمه عبد شمس لقب به لكونه
اول من سبى وقرئ بفتح الهمزة غير منصرف على انه اسم للقبيلة ثم سميت مدينة مأرب
بسبأ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلث وعلى هذه القراءة يجوز ان يراد به القبيلة و
المدينة واما على القراءة الاولى فالمراد هو المجئ لا غير وعدم وقوف سليمان عليه السلام
على انبائهم قبل انباء الهدهد ليس بامر بديع لا بد له من حكمة داعية اليه البتة وان استحال
خلو افعاله تعالى من الحكم والمصالح لما ان المسافة بين محطه عليه السلام وبين مأرب
وان كانت قصيرة لكن مدة ما بين نزوله عليه السلام هناك وبين مجئ الهدهد بالخبر
ايضا قصيرة نعم اختصاص الهدهد بذلك مع كون الجن اقوى منه مبنى على حكم بالغة

يستأثر بها علام الغيوب وقوله تعالى انى وجدت امرأة تملكهم استئناف لبيان ما جاء به
من النبأ وتفصيل له اثر الاجمال وهى بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان وكان
ابوها ملك ارض اليمن كلها وورث الملك من اربعين ابا ولم يكن له ولد غيرها فغلبت
بعده على الملك ودانت لها الامة وكانت هى وقومها مجوسا يعبدون الشمس وايثار وجدت
على رأيت لما اشير اليه من الايذان بكونه عند غيبته بصدد خدمته عليه السلام بابراز
نفسه فى معرض من يتفقد احوالها ويتعرفها كانها طلبته وضالته ليعرضها على
سليمان عليه السلام وضمير تملكهم لسبأ على انه اسم الحى او لاهلها المدلول عليهم
بذكر مدينتهم على انه اسم لها واوتيت من كل شىء اى من الاشياء التى يحتاج
اليها الملوك ولها عرش عظيم قيل كان ثلاثين ذراعا فى ثلاثين عرضا وسمكا
وقيل ثمانين فى ثمانين من ذهب وفضة مكللا بالجواهر وكانت قوائمه من ياقوت
احمر واخضر ودر وزمرد وعليه سبعة ابيات على كل بيت باب مغلوق واستعظام الهدهد لعرشها
مع ما كان يشاهده من ملك سليمان عليه السلام اما بالنسبة الى حالها او الى عروش امثالها
من الملوك وقد جوز ان لا يكون لسليمان عليه السلام واما ما كان فى صفته من المدح بين يديه عم
لما مر من ترغيبه عليه السلام فى الاصغاء الى حديثه وتوجيه عزيمته عم نحو تسخيرها ولذلك
عقبه بما يوجب غزوها من كفرها وكفر قومها حيث قال وجدتها وقومها يسجدون للشمس
من دون الله اى يعبدونها متجاوزين عبادة الله تعالى وزين لهم الشيطان اعمالهم
التى هى عبادة الشمس ونظائرها من اصناف الكفر والمعاصى فصدهم بسبب ذلك
عن السبيل اى سبيل الحق والصواب فان تزيين اعمالهم لا يتصور بدون التقبيح طرق
كفرهم وضلالهم ومن ضرورته نسبة طريق الحق الى العوج فهم بسبب ذلك لا يهتدون اليه وقوله
تعالى الا يسجدوا لله مفعول له اما للصد او للتزيين على حذف اللام منه اى فصدهم لان لا
يسجدوا لله تعالى او زين لهم اعمالهم لان لا يسجدوا او بدل على حاله من اعمالهم وما بينهما اعتراض
اى زين لهم ان لا يسجدوا وقيل هو فى موقع المفعول ليهتدوا باسقاط الخافض ولا مزيدة
كما فى قوله تعالى لئلا يعلم اهل الكتاب والمعنى انهم لا يهتدون الى ان يسجدوا له تعالى وقرئ الا يا اسجدوا
على التنبيه والنداء والمنادى محذوف اى الا يا قوم اسجدوا كما فى قوله الا يا اسلمى يا دار مى
على البلى ونظائره وهذا يحتمل ان يكون استئنافا من جهة الله عز وجل او من سليمان عم ويوقف على لا
يهتدون ويكون امرا بالسجود وعلى الوجوه المتقدمة ذما على تركه واياما كان فالسجود واجب
وقرئ هلا وهلا بقلب الهمزتين هاء وقرئ هلا تسجدون بمعنى الا تسجدون على الخطاب الذى يخرج
الخبء فى السموات والارض اى يظهر ما هو مخبوء ومخفى فيهما كائنا ما كان وتخصيص هذا الوصف
بالذكر بصدد بيان تفرده تعالى باستحقاق السجود له من بين سائر اوصافه الموجبة لذلك لما انه
ارسخ فى معرفته والاحاطة باحكامه بمشاهدة آثاره التى من جملتها ما اودعه الله تعالى فى نفسه من
القدرة على معرفة الماء تحت الارض واشار بقوله تعالى ويعلم ما تخفون وما تعلنون على يخرج
الى انه تعالى يخرج ما فى العالم الانسانى من الخفايا كما يخرج ما فى العالم الكبير من الخبايا لما ان المراد يظهر
ما تخفونه من الاحوال فيجازيكم بها وذكر ما تعلنون لتوسيع دائرة العلم او للتنبيه على تساويهما
بالنسبة الى العلم الالهى وقرئ ما يخفون وما يعلنون على صيغة الغيبة بلا التفات واخراج الخبء
يعم اشراق الكواكب واظهارها من آفاقها بعد استتارها وراءها وانزال الامطار وانبات النبات
بل الانشاء الذى هو اخراج ما فى الشىء بالقوة الى الفعل والابداع الذى هو اخراج ما فى الامكان و
العدم الى الوجود وغير ذلك من غيوبه عز وجل وقرئ الخب بتخفيف الهمزة بالحذف وقرئ الخبا
بتخفيفها بالقلب وقرئ الا تسجدون لله الذى يخرج الخبء من السماء والارض ويعلم سركم وما
تعلنون الله لا اله الا هو رب العرش العظيم الذى هو اول الاجرام واعظمها وقرئ العظيم
بالرفع على انه صفة الرب واعلم ان ما حكى من الهدهد من قوله الذى يخرج الخبء الى هنا ليس
داخلا تحت قوله احطت بما لم تحط به وانما هو من العلوم والمعارف التى اقتبسها من سليمان عم
اورده بيانا لما هو عليه واظهارا لتصلبه فى الدين وكل ذلك لتوجيه قلبه عم نحو قبول
كلامه وصرف عنان عزيمته عليه السلام الى غزوها وتسخير ولايتها قال استئناف وقع

بعطف قوله صح

جوابا

جوابا عن سؤال نشأ من حكاية كلام الهدهد كانه قيل فماذا فعل سليمان عليه السلام عند
ذلك فقيل قال سننظر اى فيما ذكرته من النظر بمعنى التأمل والسين للتأكيد اى سنتعرف
بالتجربة البتة اصدقت ام كنت من الكاذبين كان مقتضى الظاهر ام كذبت وايثار ما عليه النظم
الكريم للايذان بان كذبه فى هذه المادة يستلزم انتظامه فى سلك الموسومين بالكذب
الراسخين فيه فان مساق هذه الاقاويل الملفقة على ترتيب انيق يستميل قلوب السامعين
نحو قبولها من غير ان يكون لها مصداق اصلا لا سيما بين يدى نبى عظيم الشأن لا يكاد يصدر
الا عمن له قدم راسخ فى الكذب والافك وقوله تعالى اذهب بكتابى هذا فالقه اليهم
استئناف مبين لكيفية النظر الذى هو وعده عليه السلام وقد قاله بعد ما كتب كتابه
فى ذلك المجلس او بعده وتخصيصه عليه السلام اياه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه
من امناء الجن الاقوياء على التصرف والتعرف لما عاين فيه من مخايل العلم والحكمة وصحة الفراسة
ولئلا يبقى له عذر اصلا ثم تول عنهم اى تنح الى مكان قريب تتوارى فيه فانظر
اى تأمل وتعرف ماذا يرجعون اى ماذا يرجع بعضهم الى بعض من القول وجمع الضمائر
لما ان مضمون الكتاب الكريم دعوة الكل الى الاسلام قالت اى بعد ما ذهب الهدهد
بالكتاب فالقاه اليهم وتنحى عنهم حسبما امر به وانما طوى ذكره ايذانا بكمال مسارعته
الى اقامة ما امر به من الخدمة واشعارا باستغنائه عن التصريح به لغاية ظهوره
وروى انه عم كتب كتابه وطبعه بالمسك وختمه بخاتمه ودفعه الى الهدهد فوجد
الهدهد راقدة فى قصرها بمأرب وكانت اذا رقدت غلقت الابواب ووضعت المفاتيح
تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهى مستلقية وقيل نقرها فانتبهت
فزعة وقيل اتاها والقادة والجنود حواليها فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها
فالقى الكتاب فى حجرها وكانت قارئة عربية من نسل تبع الحميرى كما مر فلما رأت الخاتم ارتعدت و
خضعت فعند ذلك قالت لاشراف قومها يا ايها الملأ انى القى الى كتاب كريم وصفته بالكرم لكرم
مضمونه او لكونه من عند ملك كريم او لكونه مختوما او لغرابة شأنه ووصوله اليها على منهاج
غير معتاد انه من سليمان استئناف وقع جوابا لسؤال مقدر كانه قيل ممن هو وماذا مضمونه
فقالت انه من سليمان وانه اى مضمونه او المكتوب فيه بسم الله الرحمن الرحيم وفيه اشارة
الى سبب وصفها اياه بالكرم وقرئ انه وانه بالفتح على حذف اللام كانه عللت كرمه بكونه من سليمان
وبكونه مصدرا باسم الله تعالى وقيل على انه بدل من كتاب وقرئ ان من سليمان وان بسم الله
على ان المفسرة ان لا تعلوا على ان مفسرة ولا ناهية اى لا تتكبروا كما يفعل جبابرة الملوك
وقيل مصدرية ناصبة للفعل ولا نافية محلها الرفع على انها بدل من كتاب او خبر لمبتدأ مضمر
يليق بالمقام اى مضمونه ان لا تعلوا او النصب باسقاط الخافض اى بان لا تعلوا وقرئ ان لا تغلوا
بالغين المعجمة اى لا تجاوزوا حدكم واتونى مسلمين اى مؤمنين وقيل منقادين والاول هو
الاليق بشأن النبى عم على ان الايمان مستتبع للانقياد حتما يروى ان نسخة الكتاب من
عبد الله سليمان بن داود الى بلقيس ملكة سبأ السلام على من اتبع الهدى اما بعد فلا
تعلوا على واتونى مسلمين وليس الامر فيه بالاسلام قبل اقامة الحجة على رسالته حتى
يتوهم كونه استدعاء للتقليد فان القاء الكتاب اليها على تلك الحالة معجزة باهرة دالة على
رسالة مرسلها دلالة بينة قالت كررت حكاية قولها للايذان بغاية اعتنائها بما فى حيزه من
قولها يا ايها الملأ افتونى فى امرى اى اجيبونى فى امرى الذى حزبنى وذكرت لكم
خلاصته وعبرت عن الجواب بالفتوى الذى هو الجواب فى الحوادث المشكلة غالبا تهويلا
للامر ورفعا لمحلهم بالاشعار بانهم قادرون على حل المشكلات الملمة وقولها ما كنت
قاطعة امرا اى من الامور المتعلقة بالملك حتى تشهدون اى الا بمحضركم وبموجب آرائكم
استعطاف لهم واستمالة لقلوبهم لئلا يخالفوها فى الرأى والتدبير قالوا استئناف
مبنى على سؤال نشأ من حكاية قولها كانه قيل فماذا قالوا فى جوابها فقيل قالوا نحن
اولوا قوة فى الاجساد والآلات والعدد واولوا بأس شديد اى نجدة وشجاعة
مفرطة وبلاء فى الحرب والامر اليك اى هو موكول اليك فانظرى ماذا تأمرين

ونحن مطيعون لك فمرينا بامرك نمتثل به و نتبع رايك وارادو ونحن من ابناء الحرب لامن ابناء
الراى والمشورة واليك الراى والتدبير فانظرى ماذا ترين نكن فى الخدمة فلما احست
منهم الميل الى الحرب والعدول عن سنن الصواب شرعت فى تزييف مقالتهم المبنية
على الغفلة عن شان سليمان عليه السلام وذلك قوله قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية
من القرى على منهاج المقاتلة والحراب افسدوها بتخريب عماراتها واتلاف ما فيها
من الاموال وجعلوا اعزة اهلها اذلة بالقتل والاسر والاجلاء وغير ذلك من فنون
الاهانة والاذلال وكذلك يفعلون تاكيد لما وصفت من حالهم بطريق الاعتراض
التذييلى وتقرير له بان ذلك عادتهم المستمرة وقيل تصديق لها من جهة الله تعالى
على طريقة قوله تعالى ولو جئنا بمثله مددا اثر قوله تعالى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات
ربى وانى مرسلة اليهم بهدية تقرير لرايها بعدما زيفت اراءهم واتت بالجملة
الاسمية الدالة على الثبات المصدرة بحرف التحقيق للايذان بانها مزمعة على رايها
لا يلويها عنه صارف ولا يثنيها عاطف اى وانى مرسلة اليهم رسلا بهدية عظيمة
فناظرة بم يرجع المرسلون حتى اعمل بما يقتضيه الحال روى انها بعثت خمسمائة غلام
عليهم ثياب الجوارى وحليهن الاساور والاطواق والقرطة راكبى خيل مغشاة
بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر وخمسمائة جارية على رماك
فى زى الغلمان والف لبنة من ذهب وفضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع
والمسك والعنبر وحقا فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب وبعثت رجلا من اشراف
قومها المنذر بن عمرو واخر ذا راى وعقل وقالت ان كان نبيا ميز بين الغلمان والجوارى
وثقب الدرة ثقبا مستويا وسلك فى الخرزة خيطا ثم قالت للمنذر ان نظر اليك نظر غضبان
فهو ملك فلا يهولنك وان رايته بشا لطيفا فهو نبى فاقبل الهدهد فاخبر سليمان عليه السلام بذلك
فامر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة وفرشوه فى ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ
وجعلوا حول الميدان حائطا شرفاته من الذهب والفضة وامر باحسن الدواب فى البر
والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن وامر باولاد الجن وهم خلق كثير فاقيموا
على اليمين واليسار ثم قعد على سريره والكراسى من جانبيه واصطفت الشياطين
صفوفا فراسخ والانس صفوفا فراسخ والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك فلما دنا
القوم ونظروا وبهتوا وراوا الدواب تروث على اللبن فتقاصرت اليهم نفوسهم ورموا
بما معهم ولما وقفوا بين يديه نظر اليهم بوجه طلق وقال ما وراءكم وقال اين الحق
واخبره جبريل عليهما السلام بما فيه فقال لهم ان فيه كذا وكذا ثم امر بالارضة فاخذت شعرة ونفذت
فى الجزعة فجعل رزقها فى الفواكه ودعا بالماء فكانت الجارية تاخذ الماء بيدها فتجعله فى
الاخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما ياخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية وذلك قوله
تعالى فلما جاء سليمان اى الرسول قال اى مخاطبا للرسول والمرسل تغليبا للحاضر على الغائب
وقيل للرسول ومن معه ويؤيده انه قرئ فلما جاؤا والاول اولى لما فيه من تشديد
الانكار وتوبيخ وتعميمهما لبلقيس وقومها ويؤيده الافراد فى قوله تعالى ارجع اليهم
اتمدوننى بمال وهو انكار لامدادهم اياه عم بالمال مع علو شانه وسعة سلطانه
وتوبيخ لهم بذلك وتنكير مال للتحقير وقوله تعالى فما اتانى الله اى مما رايتم اثاره من
النبوة والملك الذى لا غاية وراءه خير مما اتاكم اى من المال الذى من جملته ما جئتم به
فلا حاجة لى الى هديتكم ولا وقع لها عندى تعليل للانكار ولعله عليه السلام انما قال
لهم هذه المقالة الى اخرها بعد ما جرى بينه وبينهم ما حكى من قصة الحق وغيرها كما
اشير اليه لا انه عم خاطبهم بها اول ما جاؤه كما يفهم من ظاهر قوله تعالى فلما جاء
الخ وقرئ اتمدون بالادغام وبنون واحدة وبنونين وحذف الياء و
قوله تعالى بل انتم بهديتكم تفرحون اضراب عما ذكر من انكار
الامداد بالمال الى التوبيخ بفرحهم بهديتهم التى اهدوها
اليه عليه السلام فرح افتخار وامتنان واعتداد

بها

[illegible]

بها كما ينبئ عنه ما ذكر من حديث الحق والجزعة وتغيير زى الغلمان والجوارى وغير ذلك
فائدة الاضراب التنبيه على ان امداده عليه السلام بالمال منكر قبيح وعد ذلك مع انه
لا قدر له عنده مما يتنافس فيه المتنافسون اقبح والتوبيخ به ادخل وقال المصنف اليه
المهدى اليه والمعنى بل انتم بما يهدى اليكم تفرحون حبا لزيادة المال لما انكم لا تعلمون
الا ظاهرا من الحيوة الدنيا ارجع افراد الضمير ههنا بعد جمع الضمائر الخمسة فيما سبق
لاختصاص الرجوع بالرسول وعموم الامداد ونحوه للكل اى ارجع ايها الرسول
اليهم اى الى بلقيس وقومها فلنأتينهم اى فوالله لنأتينهم بجنود لا قبل
لهم بها اى لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة لهم على مقابلتها وقرئ بهم و
لنخرجنهم عطف على جواب القسم منها من سبا اذلة اى حال كونهم اذلة
بعد ما كانوا فيه من العز والتمكين وفى جمع القلة تاكيد لذلتهم وقوله تعالى وهم
صاغرون اى اسارى مهانون حال اخرى مفيدة لكون اخراجهم بطريق الاسر لا بطريق
الاجلاء وعدم وقوع جواب القسم لانه كان معلقا بشرط قد حذف عند الحكاية ثقة
بدلالة الحال عليه كانه قيل ارجع اليهم فليأتوا مسلمين والا فلنأتينهم الخ قال يا ايها
الملؤا ايكم يأتينى بعرشها قاله عليه السلام لما دنا مجئ بلقيس اليه يروى انه لما رجعت
رسلها اليها بما حكى من خبر سليمان عليه السلام قالت قد علمت والله ما هذا بملك
ولا لنا به من طاقة وبعثت الى سليمان انى قادمة عليك بملوك قومى حتى انظر ما امرك
وما تدعو اليه من دينك ثم اذنت بالرحيل الى سليمان عليه السلام فشخصت اليه فى
اثنى عشر الف قيل تحت كل قيل الوف ويروى انها امرت فجعل عرشها فى اخر سبعة ابيات
بعضها فى بعض فى اخر قصر من قصور سبعة لها وغلقت الابواب ووكلت بها حرسا
يحفظونه ولعله اوحى الى سليمان عليه السلام باستيثاقها من عرشها فاراد ان يريها
بعض ما خصه الله عز وجل سلطانه به من اجراء العجائب على يده مع اطلاعها
على عظيم قدرته تعالى وصحة نبوته عليه السلام ويختبر عقلها بان ينكر عرشها فينظر
اتعرفه ام لا وتقييد الاتيان به بقوله تعالى قبل ان يأتونى مسلمين لما ان ذلك
ابدع واغرب وابعد من الوقوع عادة وادل على عظم قدرة الله تعالى وصحة نبوته
عليه السلام وليكون اختبارها واطلاعها على بدائع المعجزات فى اول مجيئها وقيل
لانها اذا اتت مسلمة لم يحل له اخذه لها بغير رضاها قال عفريت اى مارد خبيث
من الجن بيان له اذ يقال للرجل الخبيث المنكر المعفر لاقرانه وكان اسمه ذكوان او صخرا
انا اتيك به اى بعرشها قبل ان تقوم من مقامك اى من مجلسك للحكومة وكان
يجلس الى نصف النهار واتيك اما صيغة المضارع او الفاعل وهو الانسب لمقام
ادعاء الاتيان به لا محالة واوفق لما عطف عليه من الجملة الاسمية اى انا ات به فى تلك
المدة البتة وانى عليه اى على الاتيان به لقوى لا يثقل على حمله امين لا اختزل منه
شيئا ولا ابدله قال الذى عنده علم من الكتاب فصل عما قبله للايذان بما بين القائلين
ومقاليهما وكيفيتى قدرتيهما على الاتيان به من كمال التباين او لاسقاط الاول عن
درجة الاعتبار قيل هو اصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام وقيل رجل كان
عنده اسم الله الاعظم الذى اذا سئل به اجاب وقيل الخضر او جبريل او ملك
ايده الله عز وجل به عليهم السلام وقيل هو سليمان نفسه وفيه بعد ولا يخفى
والمراد بالكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب المنزلة او اللوح وتنكير علم للتفخيم والرمز
الى انه علم غير معهود ومن ابتدائية انا اتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك
الطرف تحريك الاجفان وفتحها للنظر الى شئ وارتداده انضمامها ولكونه امرا طبيعيا غير
منوط بالقصد اوثر الارتداد على الرد ولما لم يكن بين هذا الوعد وانجازه مدة ما
كما فى وعد العفريت استغنى عن التاكيد وطوى عند الحكاية ذكر الاتيان به للايذان
بانه امر محقق غنى عن الاخبار به وجئ بالفاء الفصيحة الداخلة على جملة معطوفة
مقدرة دالة على تحققه فقط كما فى قوله عز وجل فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق ونظائره

بل داخلة على الشرطية حيث قيل فلما رآه مستقرا عنده اى راى العرش حاضرا لديه كما فى قوله عز وجل فلما رأينه اكبرنه للدلالة على كمال ظهور ما ذكر من تحققه واستغنائه عن الاخبار به ببيان ظهور ما يترتب عليه من رؤية سليمان عليه السلام اياه واستغنائه ايضا عن التصريح به اذ التقدير فاتاه به فرآه فلما رآه الخ فحذف ما حذف لما ذكر وللايذان بكمال سرعة الاتيان به كانه لم يقع بين الوعد به وبين رؤيته عليه السلام اياه شىء ما اصلا وفى تقييد رؤيته باستقراره عنده تاكيد لهذا المعنى لايهامه انه لم يتوسط بينهما ابتداء الاتيان ايضا كانه لم يزل موجودا عنده مع ما فيه من الدلالة على دوام قراره عنده منتظما فى سلك ملكه قال اى سليمان عليه السلام تلقيا للنعمة بالشكر جريا على سنن ابناء جنسه من انبياء الله عليهم السلام وخلص عباده هذا اى حضور العرش بين يديه فى هذه المدة القصيرة او التمكن من احضاره بالواسطة او بالذات كما قيل من فضل ربى اى تفضله علىّ من غير استحقاق له من قبلى ليبلونى ءاشكر بان اراه محض فضله تعالى من غير حول من جهتى ولا قوة واقوم بحقه ام اكفر بان اجد لنفسى مدخلا فى البين او اقصر فى اقامة مواجبه كما هو شان سائر النعم الفائضة على العباد ومن شكر فانما يشكر لنفسه لانه يرتبط به عتيدها ويستجلب به مزيدها ويحط به عن ذمته عبء الواجب ويتخلص عن وصمة الكفران ومن كفر اى لم يشكر فان ربى غنى عن شكره كريم بترك تعجيل العقوبة والانعام مع عدم الشكر ايضا قال اى سليمان عليه السلام كررت الحكاية مع كون المحكى سابقا ولاحقا من كلامه عليه السلام تنبيها على ما بين السابق واللاحق من المخالفة لما ان الاول من باب الشكر لله تعالى والثانى امر لخدمه نكروا لها عرشها اى غيروا هيأته بوجه من الوجوه ننظر بالجزم على انه جواب الامر وقرئ بالرفع على الاستئناف اتهتدى الى معرفته او الى الجواب اللائق بالمقام وقيل الى الايمان بالله تعالى ورسوله عند رؤيتها لتقدم عرشها من مسافة طويلة فى مدة قليلة وقد خلفته مغلقة عليه الابواب موكلة عليه الحراس والحجاب ويأباه تعليق النظر المتعلق بالاهتداء بالتنكير فان ذلك مما لا دخل فيه للتنكير ام تكون اى بالنسبة الى علمنا من الذين لا يهتدون اى الى ما ذكر من معرفة عرشها او الجواب الصواب فان كونها فى نفس الامر منهم وان كان امرا مستمرا لكن كونها منهم عند سليمان عليه السلام وقومه امر حادث يظهر بالاختبار فلما جاءت شروع فى حكاية التجربة التى قصدها سليمان اى فلما جاءت بلقيس سليمان وقد كان العرش بين يديها قيل اى من جهة سليمان عليه السلام بالذات او بالواسطة اهكذا عرشك لم يقل اهذا عرشك لئلا يكون تلقينا لها فيفوت ما هو المقصود من الامر بالتنكير من ابراز العرش فى معرض الاشكال والاشتباه حتى تتبين حالها وقد ذكرت عنده عليه السلام بسخافة العقل قالت كانه هو فانبأت عن كمال رجاحة عقلها حيث لم تقل هو هو مع علمها بحقيقة الحال تلويحا بما اعتراه من التنكير من نوع مغايرة فى الصفات مع اتحاد الذات ومراعاة لحسن الادب فى محاورته عليه السلام واوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين من تتمة كلامها كانها ظنت انه عليه السلام اراد بذلك اختبار عقلها واظهار معجزة لها فقالت واوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة التى شاهدناها بما سمعناه من المنذر من الايات الدالة على ذلك وكنا مسلمين من ذلك الوقت وفيه من الدلالة على كمال رزانة رأيها ورصانة فكرها ما لا يخفى وقوله تعالى وصدها ما كانت تعبد من دون الله بيان من جهته تعالى لما كان يمنعها من اظهار ما ادعته من الاسلام الى الآن اى صدها عن ذلك عبادتها القديمة للشمس وقوله تعالى انها كانت من قوم كافرين تعليل لسببية عبادتها المذكورة للصد اى انها كانت من قوم راسخين فى الكفر ولذلك لم تكن قادرة على اظهار اسلامها وهى بين ظهرانيهم الى ان دخلت تحت ملكة سليمان عليه السلام وقرئ انها بالفتح على البدلية من فاعل صدها او على التعليل بحذف اللام هذا واما ما قيل

من ان قوله تعالى واوتينا العلم الى قوله تعالى من قوم كافرين من كلام سليمان عليه السلام وملائه كانهم لما سمعوا قولها كانه هو تفطنوا لاسلامها فقالوا استحسانا لشانها اصابت فى الجواب وعلمت قدرة الله تعالى وصحة النبوة بما سمعت من المنذر من الآيات المتقدمة وبما عاينت من هذه الآية الباهرة من امر عرشها ورزقت الاسلام فعطفوا على ذلك قولهم واوتينا العلم الخ اى واوتينا نحن العلم بالله تعالى وبقدرته وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها ولم يزل على دين الاسلام شكرا لله تعالى على فضلهم عليها وسبقهم الى العلم بالله تعالى والاسلام قبلها وصدها عن التقدم الى الاسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهرانى الكفرة فمما لا يخفى ما فيه من البعد والتعسف قيل لها ادخلى الصرح الصرح القصر وقيل صحن الدار روى انه سليمان عليه السلام امر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج ابيض واجرى من تحته الماء والقى فيه من دواب البحر السمك وغيره ووضع سريره فى صدره فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والانس وانما فعل ذلك ليزيدها استعظاما لامره وتحققا لنبوته وثباتا على الدين وزعموا ان الجن كرهوا ان يتزوجها فتفضى اليه باسرارهم لانها كانت بنت جنية وقيل خافوا ان يولد له منها ولد تجتمع له فطنة الجن والانس فيخرجوا من ملك سليمان الى ملك هو اشد وافظع فقالوا ان فى عقلها شيئا وهى شعراء الساقين ورجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ورجلها فلما رأته وهو حاضر بين يديها كما يعرب عنه الامر بدخول لها واحاطت بنفا صيل امواله خبرا حسبته لجة وكشفت عن ساقيها وتشمرت لئلا يبتل اذيالها فاذا هى احسن الناس ساقا وقدما خلا انها شعراء قيل هى السبب فى اتخاذ النورة امر بها الشياطين فاتخذوها واستنكحها عليه السلام وامر الجن فبنوا لها سلحين وغمدان وكان يزورها فى الشهر مرة ويقيم عندها ثلاثة ايام وقيل بل زوجها ذا تبع ملك همدان وسلطه على اليمن وامر زوبعة امير جن اليمن ان يطيعه فبنى له المصانع وقرئ ساقيها حملا للمفرد على الجمع فى سؤق واسؤق قال عليه السلام حين راى ما اعتراها من الدهشة والرعب انه اى ما توهمته ماء صرح ممرد اى مملس من قوارير من الزجاج قالت حين عاينت تلك المعجزة ايضا رب انى ظلمت نفسى بما كنت عليه الى الآن من عبادة الشمس وقيل بظنى بسليمان حيث ظننت انه يريد اغراقها فى اللجة وهو بعيد واسلمت مع سليمان تابعة له مقتدية به وما فى قوله تعالى لله رب العالمين من الالتفات الى الاسم الجليل ووصفه بربوبية العالمين لاظهار معرفتها بالوهيته تعالى وتفرده باستحقاق العبادة وربوبيته لجميع الموجودات التى من جملتها ما كانت تعبده قبل ذلك من الشمس ولقد ارسلنا عطف على قوله تعالى ولقد اتينا داود وسليمان علما مسوق لما سيق هو له من تقرير انه عليه السلام يلقى القرآن من لدن حكيم عليم فان هذه القصة ايضا من جملة القرآن الكريم الذى لقيه عليه السلام واللام جواب قسم محذوف اى وبالله لقد ارسلنا الى ثمود اخاهم صالحا ان فى قوله تعالى ان اعبدوا الله مفسرة لما فى الارسال من معنى القول او مصدرية حذف عنها الباء وقرئ بضم النون اتباعا لها للباء فاذا هم فريقان يختصمون ففاجؤا التفرق والاختصام فامن فريق وكفر فريق والواو لمجموع الفريقين قال عليه السلام للفريق الكافر منهم بعد ما شاهد منهم ما شاهد من نهاية العتو والعناد حتى بلغوا من المكابرة الى ان قالوا له عليه السلام يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين يا قوم لم تستعجلون بالسيئة اى بالعقوبة السيئة قبل الحسنة اى التوبة فتؤخرونها الى حين نزولها حيث كانوا من جهلهم وغوايتهم يقولون ان وقع ايعاده تبنا حينئذ والا فنحن على ما كنا عليه لولا تستغفرون الله هلا تستغفرونه تعالى قبل نزوله لعلكم ترحمون بقبولها اذ لا امكان للقبول عند النزول قالوا اطيرنا اصله تطيرنا والتطير التشاؤم عبر عنه

تفطنوا

علمه فعطفوا

بذلك لما انهم كانوا اذا خرجوا مسافرين فيمرون بطائر يزجرونه فان مر سانحا يتمنوا وان مر بارحا
تشاءموا فلما نسبوا الخير والشر الى الطائر استعير لما كان سببا لهما من قدر الله تعالى وقسمته او من
عمل العبد اى تشاءمنا بك وبمن معك فى دينك حيث تتابعت علينا الشدائد وقد كانوا
قحطوا او لم نزل فى اختلاف وافتراق منذ اخترعتم دينكم قال طائركم اى سببكم الذى
منه ينالكم من الشر عند الله وهو قدره او عملكم المكتوب عنده وقوله تعالى بل انتم قوم تفتنون
اى تختبرون بتعاقب السراء والضراء او تعذبون او يفتنكم الشيطان بوسوسته اليكم
الطيرة اضراب من بيان طائرهم الذى هو مبدأ ما يحيق بهم الى ذكر ما هو الداعى اليه وكان
فى المدينة وهى الحجر تسعة رهط اى اشخاص وبهذا الاعتبار وقع تمييزا للتسعة لا
باعتبار لفظه والفرق بينه وبين النفر انه من الثلاثة او من السبعة الى العشرة والنفر
من الثلاثة الى التسعة واسماؤهم حسبما نقل عن وهب الهذيل بن عبد رب وغنم بن غنم
ورئاب بن مهرج ومصدع بن مهرج وعمر بن كردبة وعاصم بن مخرمة وسبيط بن صدقة
وسمعان بن صفى وقدار بن سالف وهم الذين سعوا فى عقر الناقة وكانوا عتاة
قوم صالح وكانوا من ابناء اشرافهم يفسدون فى الارض لا فى المدينة فقط افسادا
بحتا لا يخالطه شئ ما من الاصلاح كما ينطق به قوله تعالى ولا يصلحون اى لا يفعلون
شيئا من الاصلاح او لا يصلحون شيئا من الاشياء قالوا استئناف ببيان بعض ما فعلوا
من الفساد اى قال بعضهم لبعض فى اثناء المشاورة فى امر صالح عليه السلام وكان
ذلك غبما انذرهم بالعذاب وقوله تعالى تمتعوا فى داركم ثلاثة ايام تقاسموا بالله
اما امر مقول لقالوا او ماض وقع بدلا منه او حالا من فاعله باضمار قد وقوله تعالى
لنبيتنه واهله اى لنباغتن صالحا واهله ليلا ولنقتلنهم وقرئ بالتاء على خطاب بعضهم
لبعض وقرئ بياء الغيبة وضم التاء على ان تقاسموا فعل ماض ثم لنقولن لوليه اى لولى
صالح وقرئ بالتاء والياء كما قبله ما شهدنا مهلك اهله اى ما حضرنا هلاكهم او
وقت هلاكهم او مكان هلاكهم فضلا ان تولى اهلاكهم وقرئ مهلك بفتح اللام
فيكون مصدرا وانا لصادقون من تمام القول او حال اى نقول ما نقول
والحال انا لصادقون فى ذلك لان الشاهد للشئ غير المباشر له عرفا او لانا ما
شهدنا مهلكهم وحده بل مهلكه ومهلكهم جميعا كقولك ما رأيت ثمة رجلا بل رجلين
ومكروا مكرا بهذه المواضعة ومكرنا مكرا اى اهلكناهم اهلاكا غير معهود وهم
لا يشعرون اى جازيناهم مكرهم من حيث لا يحتسبون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم
شروع فى بيان ما ترتب على ما باشروه من المكر وكيف معلقة لفعل النظر ومحل الجملة
النصب بنزع الخافض اى فتفكر فى انه كيف كان عاقبة مكرهم وقوله تعالى انا دمرناهم
اما بدل من عاقبة مكرهم على انه فاعل كان وهى تامة وكيف حال اى فانظر كيف
حصل اى على اى وجه حدث تدميرنا اياهم واما خبر لمبتدأ محذوف والجملة مبينة
لما فى عاقبة مكرهم من الابهام اى هى تدميرنا اياهم وقومهم الذين لم يكونوا
معهم فى مباشرة التبييت اجمعين بحيث لم يشذ منهم شاذ واما تعليل لما ينبئ عنه
الامر بالنظر فى كيفية عاقبة مكرهم من غاية الهول والفظاعة بحذف الجار اى لانا
دمرناهم الخ وقيل كان ناقصة اسمها عاقبة مكرهم خبرها كيف كان فلا وجه حينئذ
ان يكون قوله تعالى انا دمرناهم الخ تعليلا لما ذكر وقرئ انا دمرناهم الخ بالكسر على الاستئناف
روى انه كان لصالح عليه السلام مسجد فى الحجر فى شعب يصلى فيه فقالوا زعم صالح انه
يفرغ منا الى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن اهله قبل الثلاث فخرجوا الى الشعب وقالوا اذا
جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا الى اهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة من الهضب حيالهم
فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فلم يدر قومهم اين هم ولم يدروا
ما فعل بقومهم وعذب الله تعالى كلا منهم فى مكانه ونجى صالحا ومن معه وقيل
جاؤا بالليل شاهرى سيوفهم وقد ارسل الله تعالى الملائكة ملاء دار صالح فدمغوهم
بالحجارة يرون الحجارة ولا يرون راميا فتلك بيوتهم جملة مقررة لما قبلها

ما ينالكم صح

وقوله

وقوله تعالى خاوية اى خالية او ساقطة متهدمة بما ظلموا اى بسبب ظلمهم
المذكور حال من بيوتهم والعامل معنى الاشارة وقرئ خاوية بالرفع على انه خبر لمبتدأ
محذوف ان فى ذلك اى فيما ذكر من التدمير العجيب بظلمهم لآية لعبرة عظيمة
لقوم يعلمون اى من شانه ان يعلم من الاشياء او لقوم يتصفون بالعلم وانجينا
الذين آمنوا صالحا ومن معه من المؤمنين وكانوا يتقون اى الكفر والمعاصى اتقاء
مستمرا فلذلك خصوا بالنجاة ولوطا منصوب بمضمر معطوف على ارسلنا فى صدر
قصة صالح داخل معه فى حيز القسم اى وارسلنا لوطا وقوله تعالى اذ قال لقومه
ظرف للارسال على ان المراد به امر ممتد وقع فيه الارسال وما جرى بينه وبين قومه
من الاقوال والاحوال وقيل انتصاب لوطا باضمار اذكر واذ بدل منه وقيل بالعطف
على الذين آمنوا اى وانجينا لوطا وهو بعيد أتأتون الفاحشة اى الفعلة المتناهية
فى القبح والسماجة وقوله تعالى وانتم تبصرون جملة حالية من فاعل تأتون
مفيدة لتأكيد الانكار وتشديد التوبيخ فان تعاطى القبيح من العالم بقبحه اقبح
واشنع وتبصرون من بصر القلب اى اتفعلونها والحال انكم تعلمون علما يقينا بكونها
كذلك وقيل يبصرها بعضكم من بعض لما كانوا يعلنون بها أئنكم لتأتون
الرجال شهوة تثنية للانكار وتكرير للتوبيخ وبيان لما يأتونه من الفاحشة بطريق
التصريح وتحلية الجملة بحرفى التأكيد للايذان بان مضمونها مما لا يصدق
وقوعه احد لكمال بعده من العقول وايراد المفعول بعنوان الرجولية لتربية التقبيح
وتحقيق المباينة بينها وبين الشهوة التى علل بها الاتيان من دون النساء متجاوزين
النساء اللاتى هن بل انتم قوم تجهلون تفعلون فعل الجاهلين بقبحه او
تجهلون العاقبة او الجهل بمعنى السفاهة والمجون اى بل انتم قوم سفهاء
ماجنون والتاء فيه مع كونه صفة لقوم لكونهم فى حيز الخطاب فما كان
جواب قومه الا ان قالوا اخرجوا آل لوط من قريتكم انهم اناس يتطهرون يتنزهون
عن افعالنا او عن الاقذار ويعدون فعلنا قذرا وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه
استهزاء وقد مر فى سورة الاعراف ان هذا الجواب هو الذى صدر عنهم فى المرة الاخيرة
من مرات مواعظ لوط عليه السلام بالامر والنهى لا انه لم يصدر عنهم كلام آخر غيره
فانجيناه واهله الا امرأته قدرناها اى قدرنا انها من الغابرين اى الباقين
فى العذاب وامطرنا عليهم مطرا غير معهود فساء مطر المنذرين قد مر بيان
كيفية ما جرى عليهم من العذاب غير مرة قل الحمد لله وسلام على عباده الذين
اصطفى اثر ما قص الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم قصص الانبياء المذكورين
عليهم السلام واخبارهم الناطقة بكمال قدرته تعالى وعظم شانه وما خصهم
به من الآيات القاهرة والمعجزات الباهرة الدالة على جلالة اقدارهم وصحة اخبارهم
وبين السنتهم حقية الاسلام والتوحيد وبطلان الكفر والاشراك وان من
اقتدى بهم فقد اهتدى ومن اعرض عنهم فقد تردى فى مهاوى الردى وشرح
صدره عليه السلام بما فى تضاعيف تلك القصص من فنون المعارف الربانية ونور
قلبه بانوار الملكات السبحانية الفائضة من عالم القدس وقرر بذلك فحوى ما نطق
به قوله عز وجل وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم امره صلى الله عليه وسلم بان
يحمده على ما افاض عليه من تلك النعم التى لا مطمح وراءها لطامع ولا مطمح من
دونها لطامح ويسلم على كافة الانبياء الذين من جملتهم الذين قصت عليهم
اخبارهم التى هى من جملة المعارف التى اوحيت اليه عليه السلام اداء لحق تقدمهم
واجتهادهم فى الدين وقيل هو امر للوط عليه السلام بان يحمده تعالى على اهلاك
كفرة قومه ويسلم على من اصطفاه بالعصمة عن الفواحش والنجاة عن الهلاك
ولا يخفى بعده آلله خير اما يشركون اى الله الذى ذكرت شئونه العظيمة
خير اما يشركونه به تعالى من الاصنام ومرجع الترديد الى التعريض بتبكيت

الكفرة من جهته وتسفيه آرائهم الركيكة والتهكم بهم اذ من البين ان ليس فيما اشركوه به
تعالى شائبة خير ما حتى يمكن ان يوازن بينه وبين من لا خير الا خيره ولا اله غيره وقرئ
تشركون بالتاء الفوقانية بطريق تلوين الخطاب وتوجيهه الى الكفرة وهو الاليق
بما بعده من سياق النظم الكريم المبني على خطابهم وجعله من جملة القول المأمور
به يأباه قوله تعالى فانبتنا الخ فانه صريح في ان التبكيت من قبله عز وجل بالذات و
حمله على انه حكاية منه عليه السلام لما امر به بعبارته كما في قوله تعالى قل يا عبادي
الذين اسرفوا على انفسهم تعسف ظاهر من داع اليه وام في قوله تعالى أمن خلق
السموات والارض منقطعة وما فيها من كلمة بل على القراءة الاولى للاضراب والانتقال
من التبكيت تعريضا الى التصريح به خطابا على وجه اظهر منه لمزيد التأكيد والتشديد
واما على القراءة الثانية فلتثنية التبكيت وتكرير الالزام كنظائرها الآتية والهمزة لتقرير
اي حملهم على الاقرار بالحق على وجه الاضطرار فانه لا يتمالك احد ممن له ادنى
تمييز ولا يقدر على ان لا يعترف بخيرية من خلق جميع المخلوقات وافاض على كل منها ما
يليق به من منافعه من اخس تلك المخلوقات وادناها بان لا خيرية فيه بوجه
من الوجوه قطعا ومن مبتدأ خبره محذوف مع ام المعادلة للهمزة تعويلا على ما سبق
في الاستفهام الاول خلا ان يشركون ههنا بتاء الخطاب على القراءتين معا وهكذا في المواقع
الاربعة الآتية والمعنى بل أمن خلق قطري العالم الجسماني ومبدأ منافع ما بينهما و
انزل لكم التفات الى خطاب الكفرة على القراءة الاولى لتشديد التبكيت والالزام اي انزل
لاجلكم ومنفعتكم من السماء ماء اي نوعا منه هو المطر فانبتنا به حدائق اي
بساتين محدقة ومحاطة بالحوائط ذات بهجة اي ذات حسن ورونق يبتهج
به النظار ما كان لكم اي ما صح وما امكن لكم ان تنبتوا شجرها فضلا عن
ثمرها وسائر صفاتها البديعة خير ام ما تشركون وقرئ أمن بالتخفيف على انه بدل
من الله وتقديم صلتي الانزال على مفعوله لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر
والالتفات الى التكلم في قوله تعالى فانبتنا لتأكيد اختصاص الفعل بذاته تعالى والايذان بان
انبات تلك الحدائق المختلفة الاصناف والاوصاف والالوان والطعوم والروائح
والاشكال مع ما لها من الحسن البارع والبهاء الرائع بماء واحد مما لا يكاد يقدر عليه
الا هو وحده حسبما ينبئ عنه تقييدها بقوله تعالى ما كان لكم الخ سواء كانت صفة
لها او حالا وتوحيد وصفها الاول اعني ذات بهجة لما ان المعنى جماعة حدائق
ذات بهجة على نهج قولهم النساء ذهبت وكذا الحال في ضمير شجرها أإله مع الله
اي اله آخر كائن مع الله الذي ذكر بعض افعاله التي لا يكاد يقدر عليها غيره حتى
يتوهم جعله شريكا له تعالى في العبادة وهذا تبكيت لهم بنفي الالوهية عما يشركونه
به تعالى في ضمن النفي الكلي على الطريقة البرهانية بعد تبكيتهم بنفي الخيرية عنه
بما ذكر من الترديد فان احدا ممن له تمييز في الجملة كما لا يقدر على انكار انتفاء
الخيرية عنه بالمرة لا يكاد يقدر على انكار انتفاء الالوهية عنه رأسا لاسيما بعد
ملاحظة انتفاء احكامها عما سواه تعالى وهكذا الحال في المواقع الاربعة الآتية
وقيل المراد نفي ان يكون معه تعالى اله آخر فيما ذكر من الخلق وما عطف عليه لكن
لا على ان التبكيت بنفس ذلك النفي فقط كيف لا وهم لا ينكرونه حسبما ينطق
به قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله بل باشراكهم
به تعالى في العبادة ما يعترفون بعدم مشاركته له تعالى فيما ذكر من لوازم الالوهية
كأنه قيل أإله آخر مع الله في خواص الالوهية حتى يجعل شريكا له تعالى في العبادة
وقيل المعنى أغيره يقرن به ويجعل له شريكا في العبادة مع تفرده تعالى بالخلق
والتكوين فالانكار للتوبيخ والتبكيت مع تحقق المنكر دون النفي كما في الوجهين
السابقين والاول هو الاظهر الموافق لقوله تعالى وما كان معه من اله والاوفق
بمقام لافادته نفي وجود اله آخر معه تعالى رأسا لا نفي معيته في الخلق وفرعه

فقط

فقط وقرئ أإله بتوسيط مدة بين الهمزتين وباخراج الثانية بين بين وقرئ أإلها باضمار فعل
يناسب المقام مثل أتدعون او أتشركون بل هم قوم يعدلون اضراب وانتقال من
تبكيتهم بطريق الخطاب الى بيان سوء حالهم وحكايته لغيرهم اي بل هم قوم عادتهم
العدول عن طريق الحق الواضح الذي هو التوحيد والعكوف على الباطل البين الذي
هو الاشراك وقيل يعدلون به تعالى غيره وهو بعيد خال عن الافادة أمن جعل
الارض قرارا قيل هو بدل من أمن خلق السموات الخ وكذا ما بعده من الجمل الثلث
وحكم الكل واحد والاظهر ان كل واحدة منها اضراب وانتقال من التبكيت
بما قبلها الى التبكيت بوجه آخر ادخل في الالزام بجهة من الجهات اي جعلها بحيث
يستقر عليها الانسان والدواب بابداء بعضها من الماء ودحوها وتسويتها حسبما
يدور عليه منافعهم وجعل خلالها اي اوساطها انهارا جارية ينتفعون بها
وجعل لها رواسي اي جبالا ثوابت تمنعها ان تميد باهلها ويتكون فيها المعادن
وينبع في حضيضها الينابيع ويتعلق بها من المصالح ما لا يحصى وجعل بين البحرين
اي العذب والمالح او خليجي فارس والروم حاجزا برزخا مانعا من الممازجة
وقد مر في سورة الفرقان والجعل في المواقع الثلثة الاخيرة ابداعي وتأخير مفعوله
عن الظرف لما مر مرارا من التشويق أإله مع الله في الوجود او في الابداع هذه
البدائع على ما مر بل اكثرهم لا يعلمون اي شيئا من الاشياء ولذلك لا يفهمون بطلان
ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره أمن يجيب المضطر اذا دعاه وهو الذي
احوجته شدة من الشدائد والجأته الى اللجاء والضراعة الى الله عز وجل اسم مفعول
من الاضطرار الذي هو افتعال من الضرورة وعن ابن عباس رضي الله عنهما
هو المجهود وعن السدي من لا حول له ولا قوة وقيل المذنب اذا استغفر واللام
للجنس لا للاستغراق حتى يلزم اجابة كل مضطر ويكشف السوء وهو الذي
يعتري الانسان مما يسوؤه ويجعلكم خلفاء الارض اي خلفا فيها بان ورثكم
سكناها والتصرف فيها ممن قبلكم من الامم وقيل المراد بالخلافة الملك والتسلط
أإله مع الله الذي يفيض على كافة الانام هذه النعم الجسام قليلا ما تذكرون
اي تذكرا قليلا او زمانا قليلا تتذكرون وما مزيدة لتأكيد معنى القلة التي اريد
بها العدم او ما يجري مجراه في الحقارة وعدم الجدوى وفي تذييل الكلام
بنفي التذكر منهم ايذان بان مضمونه مركوز في ذهن كل ذكي وغبي وانه من الوضوح
بحيث لا يتوقف الا على التوجه اليه وتذكره وقرئ تتذكرون على الاصل وتذكرون
ويذكرون بالتاء والياء مع الادغام أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر اي
في ظلمات الليالي فيهما على ان الاضافة للملابسة او في مشتبهات الطرق يقال طريقة
ظلماء وعمياء للتي لا منار بها ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وهي المطر
ولئن صح ان السبب الاكثري في تكون الريح معاودة الادخنة الصاعدة من الطبقة
الباردة لانكسار حرها وتموجها للهواء فلا ريب ان الاسباب الفاعلية والقابلية
لذلك كله من خلق الله عز وجل والفاعل للسبب فاعل للمسبب قطعا أإله مع الله نفي
لان يكون معه اله آخر وقوله تعالى تعالى الله عما يشركون تقرير وتحقيق له و
اظهار الاسم الجليل في موقع الاضمار للاشعار بعلة الحكم اي تعالى وتنزه
بذاته المتفردة بالالوهية المستتبعة لجميع صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال
المقتضية لكون كل المخلوقات مقهورا تحت قدرته عما يشركون اي عن وجود
ما يشركونه به تعالى لا مطلقا فان وجوده مما لا مرد له بل عن وجوده معه الها
بعنوان كونه الها وشريكا له تعالى او عن اشراكهم أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده اي
بل أمن يبدأ الخلق ثم يعيده بعد الموت بالبعث ومن يرزقكم من السماء والارض
اي باسباب سماوية وارضية قد رتبها على ترتيب بديع تقتضيه الحكمة التي
عليها بني امر التكوين خير ام ما تشركونه في العبادة من جماد لا يتوهم قدرته

على شئ ما اصلا االه آخر موجود مع الله حتى يجعل شريكا له فى العبادة وقوله تعالى قل هاتوا
برهانكم امر له عليه السلام بتبكيتهم اثر تبكيت اى هاتوا برهانا عقليا ونقليا يدل
على ان معه تعالى الها لا على ان غيره تعالى يقدر على شئ مما ذكر من افعاله تعالى كما قيل
فانهم لا يدعونه صريحا ولا يلتزمون كونه من لوازم الالوهية وان كان منها فى
الحقيقة فمطالبتهم بالبرهان عليه لا على صريح دعواهم مما وجه له وفى اضافة
البرهان الى ضميرهم تهكم بهم لما فيها من ايهام ان لهم برهانا وانى لهم ذلك
ان كنتم صادقين اى فى تلك الدعوى قل لا يعلم من فى السموات والارض
الغيب الا الله بعد ما حقق تفرده تعالى بالالوهية ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة
التامة والرحمة الشاملة العامة عقب بذكر ما هو من لوازمه وهو اختصاصه بعلم
الغيب تكميلا لما قبله وتمهيدا لما بعده من امر البعث والاستثناء منقطع ورفع المستثنى
على اللغة التميمية للدلالة على استحالة علم الغيب من اهل السموات والارض بتعليقه
بكونه سبحانه وتعالى منهم كانه قيل ان كان الله تعالى ممن فيهما ففيهم من يعلم الغيب
او متصل على ان المراد ممن فى السموات والارض من تعلق علمه بهما واطلع عليهما اطلاع
الحاضر فيهما فان ذلك معنى مجازى عام له تعالى ولاولى العلم من خلقه ومن
موصولة او موصوفة وما يشعرون ايان يبعثون اى متى ينشرون من القبور مع
كونه مما لا بد لهم منه ومن اهم الامور عندهم وايان مركبة من اى وآن وقرئ
بكسر الهمزة والضمير للكفرة وان كان عدم الشعور بما ذكر عاما لئلا يلزم التفكيك بينه
وبين ما سياتى من الضمائر الخاصة بهم قطعا وقيل للكل لمن واسناد خواص الكفرة
الى الجميع من قبيل قولهم بنو فلان فعلوا كذا والفاعل بعض منهم بل ادارك علمهم
فى الآخرة لما نفى عنهم علم الغيب واكد ذلك بنفى شعورهم بوقت ما هو مصيرهم
لا محالة بولغ فى تاكيده وتقريره بان اضرب عنه وبين انهم فى جهل افحش من جهلهم
بوقت بعثهم حيث لا يعلمون احوال الآخرة مطلقا مع تعاضد اسباب معرفتها على ان
معنى ادارك علمهم فى الآخرة تدارك وتتابع علمهم فى شان الآخرة التى ما ذكر من
البعث حال من احوالها حتى انقطع ولم يبق لهم علم بشئ مما سيكون فيها قطعا
لكن لا على معنى انه كان لهم علم بذلك على الحقيقة ثم انتفى شيئا فشيئا بل على طريقة
المجاز بتنزيل اسباب العلم ومباديه من الدلائل العقلية والسمعية منزلة نفسه
واجراء تساقطها عن درجة اعتبارهم كلما لاحظوها مجرى تتابعها الى الانقطاع
ثم اضرب وانتقل عن بيان عدم علمهم بها الى بيان ما هو اسوء منه
وهو حيرتهم فى ذلك حيث قيل بل هم فى شك منها اى فى شك مريب من نفس
الآخرة وتحققها كمن تحير فى امر لا يجد عليه دليلا فضلا عن الامور التى ستقع فيها
ثم اضرب عن ذلك الى بيان ان ما هم فيه اشد وافظع من الشك حيث قيل بل هم منها عمون
بحيث لا يكادون يدركون دلائلها لاختلال بصائرهم بالكلية وقرئ بل ادرك
علمهم بمعنى انتهى وفنى وقد فسره الحسن البصرى باضمحل علمهم وقيل كلتا الصيغتين
على معناها الظاهرى اى تكامل واستحكم او تم اسباب علمهم بان القيامة كائنة لا محالة
من الآيات القاطعة والحجج الساطعة وتمكنوا من المعرفة فضل تمكن وهم جاهلون
فى ذلك وقوله تعالى بل هم فى شك منها اضراب وانتقال من وصفهم بطلوع الجهل
الى وصفهم بالشك وقوله تعالى بل هم منها عمون اضراب من وصفهم بالشك
الى وصفهم بما هو اشد منه وافظع من العمى وانت خبير بان تنزيل اسباب العلم منزلة
العلم سنن مسلوك لكن دلالة النظم الكريم على جهلهم حينئذ ليست بواضحة و
قيل المراد بوصفهم باستحكام العلم وتكامله التهكم بهم فيكون وصفا لهم بالجهل
مبالغة والاضراب على ما ذكر واصل ادارك تدارك وبه قرأ ابى فابدلت
التاء دالا وسكنت فتعذر الابتداء فاجتلبت همزة الوصل فصار ادارك
وقرئ بل ادرك واصله افتعل وبل اادرك بهمزتين وبل آادرك بالف بينهما وبل

ادرک

ادرك بالتخفيف والنقل وبل ادرك بفتح اللام وتشديد الدال واصله بل ادرك على الاستفهام
وبلى ادرك وبلى ادارك وام تدارك وام ادرك فهذه ثنتا عشرة قراءة ففيه استفهام
صريح او مضمن من ذلك فهو انكار ونفى وما فيه بلى فاثبات لشعورهم وتفسير له
بالادراك على وجه التهكم الذى هو ابلغ وجوه النفى والانكار وما بعده اضراب
عن التفسير مبالغة فى النفى ودلالة على ان شعورهم بها انهم شاكون فيها بل انهم منها
عمون او رد وانكار لشعورهم وقال الذين كفروا بيان لجهلهم بالآخرة وعمههم
منها بحكاية انكارهم للبعث ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما فى حيز صلته
والاشعار بعلة حكمهم الباطل فى قولهم ائذا كنا ترابا وآباؤنا ائنا لمخرجون
اى انخرج من القبور اذا كنا ترابا كما ينبئ عنه مخرجون ولا مساغ لان يكون هو العامل
فى اذا لاجتماع موانع لو تفرد واحد منها لكفى فى المنع وتقييد الاخراج بوقت كونهم
ترابا ليس لتخصيص الانكار بالاخراج حينئذ فقط فانهم منكرون للاحياء بعد
الموت مطلقا وان كان البدن على حاله بل لتقوية الانكار بتوجيهه الى الاخراج فى
حالة منافية له وقوله تعالى وآباؤنا عطف على اسم كان وقام الفصل مع الخبر مقام
الفصل بالتاكيد وتكرير الهمزة فى ائنا للمبالغة والتشديد فى الانكار وتحلية الجملة
بان واللام لتاكيد الانكار لا لانكار التاكيد كما يوهمه ظاهر النظم فان تقديم الهمزة
لاقتضائها الصدارة كما فى قوله تعالى افلا تعقلون ونظائره على رأى الجمهور فان المعنى
عندهم تعقيب الانكار لا انكار التعقيب كما هو المشهور وقرئ اذا كنا بهمزة واحدة
مكسورة وقرئ انا لمخرجون على الخبر لقد وعدنا هذا اى الاخراج نحن وآباؤنا من
قبل اى من قبل وعد محمد عليه السلام وتقديم الموعود على نحن لانه المقصود بالذكر
حيث اخر به المبعوث والجملة استئناف مسوق لتقرير الانكار وتصديرها بالقسم لمزيد
التاكيد وقوله تعالى ان هذا الا اساطير الاولين تقرير اثر تقرير قل سيروا فى الارض
فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين بسبب تكذيبهم للرسل عليهم السلام فيما دعوهم
اليه من الايمان بالله عز وجل وحده وباليوم الآخر الذى تنكرونه فان فى مشاهدة
عاقبتهم ما فيه كفاية لاولى الابصار وفى التعبير عن المكذبين بالمجرمين لطف بالمؤمنين
فى ترك الجرائم ولا تحزن عليهم لاصرارهم على الكفر والتكذيب ولا تكن فى ضيق
فى حرج صدر مما يمكرون من مكرهم فان الله يعصمك من الناس وقرئ بكسر الضاد
وهو ايضا مصدر ويجوز ان يكون المفتوح مخففا من ضيق وقد قرئ كذلك اى
لا تكن فى امر ضيق ويقولون متى هذا الوعد اى العذاب العاجل الموعود ان كنتم صادقين
فى اخباركم باتيانه والجمع باعتبار شركة المؤمنين فى الاخبار بذلك قل عسى ان يكون
ردف لكم اى تبعكم ولحقكم واللام مزيدة للتاكيد كالباء فى قوله تعالى ولا تلقوا بايديكم
الى التهلكة او الفعل مضمن معنى فعل يتعدى باللام وقرئ بفتح الدال وهى لغة فيه بعض الذى
تستعجلون وهو عذاب يوم بدر وعسى ولعل وسوف فى مواعيد الملوك بمنزلة الجزم
بها وانما يطلقونها اظهارا للوقار واشعارا بان الرمز من امثالهم كالتصريح ممن
عداهم وعلى ذلك مجرى وعد الله تعالى ووعيده وايثار ما عليه النظم الكريم على ان يقال
عسى ان يردفكم لكونه ادل على تحقق الوعد وان ربك لذو فضل على الناس اى لذو
افضال وانعام على كافة الناس ومن جملة انعاماته تاخير عقوبة هؤلاء على ما يرتكبونه
من المعاصى التى من جملتها استعجال العذاب ولكن اكثرهم لا يشكرون لا يعرفون حق
النعمة فيه فلا يشكرونه بل يستعجلون بجهلهم وقوعه كدأب هؤلاء وان ربك ليعلم
ما تكن صدورهم اى ما تخفيه وقرئ بفتح التاء من كننت الشئ اى سترته وما يعلنون
من الافعال والاقوال التى من جملتها ما حكى عنهم من استعجال العذاب وفيه ايذان
بان لهم قبائح غير ما يظهرونه وانه تعالى يجازيهم على الكل وتقديم السر على العلن
قد مر سره فى سورة البقرة عند قوله تعالى اولا يعلمون ان الله يعلم ما يسرون وما
يعلنون وما من غائبة فى السماء والارض اى من خافية فيهما وهما من الصفات

الغالبة والتاء للمبالغة كما في الراوية او اسمان لما يغيب ويخفى والتاء للنقل الى الاسمية الا في كتاب
مبين اى بين او مبين لما فيه لمن يطالعه وهو اللوح المحفوظ وقيل هو القضاء العدل بطريق
الاستعارة ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون من
جملته ما اختلفوا في شان المسيح وتحزبوا فيه احزابا وركبوا متن العنق والغلق
في الافراط والتفريط والتشبيه والتنزيه ووقع بينهم التناكر في اشياء حتى بلغ المشاقة
الى حيث لعن بعضهم بعضا وقد نزل القرآن الكريم ببيان كنه الامر لو كانوا في حيز الانصاف
وانه لهدى ورحمة للمؤمنين على الاطلاق فيدخل فيهم من آمن من بني اسرائيل
دخولا اوليا ان ربك يقضي بينهم اى بين بني اسرائيل بحكمه بما يحكم به وهو
الحق او بحكمته ويؤيده انه قرئ بحكمه وهو العزيز فلا يرد حكمه وقضاؤه العليم
بجميع الاشياء التي من جملتها ما يقضى به والفاء في قوله تعالى فتوكل على الله لترتيب
الامر على ما ذكر من شؤونه عز وجل فانها موجبة للتوكل عليه وداعية الى الامر به اى
فتوكل على الله الذي هذا شانه فانه موجب على كل احد ان يتوكل عليه ويفوض جميع
اموره اليه وقوله تعالى انك على الحق المبين تعليل صريح للتوكل عليه تعالى بكونه عم
على الحق المبين او الفاصل بينه وبين الباطل او بين المحق والمبطل فان كونه عليه السلام
كذلك مما يوجب الوثوق بحفظه تعالى ونصرته وتاييده لا محالة وقوله تعالى انك
لا تسمع الموتى الخ تعليل آخر للتوكل الذي هو عبارة عن التبتل الى الله تعالى وتفويض الامر
اليه والاعراض عن التشبث بما سواه وقد علل اولا بما يوجبه من جهته تعالى اعنى
قضاءه بالحق وعزته وعلمه تعالى وثانيا بما يوجبه من جهته عم على احد الوجهين اعنى كونه
عليه السلام على الحق ومن جهته تعالى على الوجه الآخر اعنى اعانته تعالى وتاييده للمحق
ثم علل ثالثا بما يوجبه لكن لا بالذات بل بواسطة ايجابه للاعراض عن التشبث بما سواه
تعالى فان كونهم كالموتى والصم والعمي موجب لقطع الطمع عن مشايعتهم ومعاضدتهم
راسا وداع الى تخصيص الاعتضاد به تعالى وهو المعنى بالتوكل عليه تعالى وانما شبهوا
بالموتى لعدم تاثرهم بما يتلى عليهم من القوارع واطلاق الاسماع من المفعول لبيان
عدم سماعهم لشيء من المسموعات ولعل المراد تشبيه قلوبهم بالموتى فيما ذكر من عدم الشعور
فان القلب مشعر من المشاعر اشير الى بطلانه بالمرة ثم بين بطلان مشعري الاذن والعين كما في
قوله تعالى لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها
والا فبعد تشبيه انفسهم بالموتى لا يظهر لتشبيههم بالصم والعمي مزيد مزية ولا
تسمع الصم الدعاء اى الدعوة الى امر من الامور وتقييد النفي بقوله تعالى اذا ولوا
مدبرين لتكميل التشبيه وتاكيد النفي فانهم مع صممهم عن الدعاء الى الحق معرضون
عن الداعي مولون على ادبارهم ولا ريب في ان الاصم لا يسمع الدعاء مع كون الداعي
بمقابلة صماخه قريبا منه فكيف اذا كان خلفه بعيدا منه وقرئ ولا يسمع الصم الدعاء
وما انت بهادي العمي عن ضلالتهم هداية موصلة الى المطلوب كما في قوله تعالى
انك لا تهدي من احببت فان الاهتداء منوط بالبصر وعن متعلقة بالهداية باعتبار
تضمنه معنى الصرف وقيل بالعمي يقال عمي عن كذا وفيه وايراد الجملة الاسمية للمبالغة
في نفي الهداية وقرئ وما انت تهدي العمي ان تسمع اى ما تسمع سماعا يجدي السامع
نفعا الا من يؤمن بآياتنا اى من من شانهم الايمان بها وايراد الاسماع في
النفي والاثبات دون الهداية مع قربها بان يقال ان تهدي الا من يؤمن الخ لما
ان طريق الهداية هو اسماع الآيات التنزيلية فهم مسلمون تعليل لايمانهم
بها كانه قيل فانهم منقادون للحق وقيل مخلصون لله تعالى من قوله تعالى بلى من
اسلم وجهه لله واذا وقع القول عليهم بيان لما اشير اليه بقوله تعالى بعض الذي
يستعجلون من بقية ما يستعجلونه من الساعة ومباديها والمراد بالقول ما نطق
من الآيات الكريمة بمجيء الساعة وما فيها من فنون الاهوال التي كانوا يستعجلونها
بوقوعه قيامها وحصولها عبر عن ذلك به للايذان بشدة وقعها وتاثيرها

واسناده

واسناده الى القول لما ان المراد بيان وقوعها من حيث انها مصداق للقول الناطق بمجيئها
وقد اريد بالوقوع دنوه واقترابه كما في قوله تعالى اتى امر الله اى اذا دنى ووقوع مدلول
القول المذكور الذي لا يكادون يسمعونه ومصداقه اخرجنا لهم دابة من الارض
وهي الجساسة وفي التعبير عنها باسم الجنس وتاكيد ابهامه بالتنوين التفخيمي من الدلالة
على غرابة شانها وخروج اوصافها عن طور البيان ما لا يخفى وقد ورد في الحديث ان
طولها ستون ذراعا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب وروى ان لها اربع قوائم وله
زغب وريش وجناحان وعن ابن جريج في وصفها راس ثور وعين خنزير واذن فيل
وقرن ايل وعنق نعامة وصدر اسد ولون نمر وخاصرة هرة وذنب كبش وخف بعير وما
بين المفصلين اثنا عشر ذراعا بذراع آدم عليه السلام وقال وهب وجهها وجه
الرجل وباقي خلقها خلق الطير وروى عن علي رضي الله عنه انه قال ليس بدابة لها
ذنب ولكن لها لحية كانه يشير الى انه رجل والمشهور انها دابة وروى لا يخرج
الا راسها وراسها يبلغ اعنان السماء او يبلغ السحاب وعن ابي هريرة رضي الله عنه
فيها كل لون ما بين قرنيها فرسخ للراكب وعن الحسن رضي الله عنه لا يتم خروجها الا
بعد ثلاثة ايام وعن علي رضي الله عنه انها تخرج ثلاثة ايام والناس ينظرون فلا
يخرج الا ثلثها وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه سئل من اين تخرج الدابة فقال من اعظم
المساجد حرمة على الله تعالى يعني المسجد الحرام وروى انها تخرج ثلاث خرجات باقصى اليمن ثم
تتكمن ثم تخرج بالبادية ثم تتكمن دهرا طويلا فبينا الناس في اعظم المساجد حرمة على الله
تعالى واكرمها فما يهولهم الا خروجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج
من المسجد فقوم يهربون وقوم يقفون نظارة وقيل تخرج من الصفا وروى
بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون اذ تضطرب الارض تحتهم تحرك
القنديل وتنشق الصفا مما يلي المسعى فتخرج الدابة من الصفا ومعها عصا موسى
وخاتم سليمان عليهما السلام فتضرب المؤمن في مسجده بالعصا فتنكت نكتة بيضاء
فتفشو حتى يضيء لها وجهه وتكتب بين عينيه مؤمن وتنكت الكافر بالخاتم في انفه
فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه وتكتب بين عينيه كافر ثم تقول لهم انت فلان من اهل
الجنة وانت يا فلان من اهل النار وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قرع الصفا بعصاه
وهو محرم وقال ان الدابة لتسمع قرع عصاي هذه وروى ابو هريرة عن النبي صلعم
انه قال بئس الشعب شعب جياد مرتين او ثلاثا قيل ولم ذاك يا رسول الله قال
تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين فتتكلم بالعربية
بلسان ذلق وذلك قوله تعالى تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون اى تكلمهم
بانهم كانوا لا يوقنون بآيات الله تعالى الناطقة بمجيء الساعة ومباديها وبجميع آياتها التي
من جملتها تلك الآيات وقيل بآياته التي من جملتها خروجها بين الساعة والاول
هو الحق كما ستحيط به علما وقرئ بان الناس الآية واضافة الآيات الى نون العظمة
لانها حكاية منه تعالى لمعنى قولها لا لعين عبارتها وقيل لانها حكاية منها لقول الله
عز وجل وقيل لاختصاصها به تعالى واثرتها عنده كما يقول بعض خواص الملك
خيلنا وبلادنا وانما الخيل والبلاد لمولاه وقيل هناك مضاف محذوف اى بآيات ربنا
ووصفهم بعدم الايقان بها مع انهم كانوا جاحدين بها للايذان بانه كان من
حقهم ان يوقنوا بها ويقطعوا بصحتها وقد اتصفوا بنقيضه وقرئ ان الناس بالكسر على
اضمار القول او اجراء الكلام مجراه والكلام في الاضافة كالذي سبق وقيل هو استئناف
مسوق من جهته تعالى لتعليل اخراجها او تكلمها ويرده الجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل
فانه صريح في كونه حكاية لعدم ايقانهم السابق في الدنيا والمراد بالناس اما الكفرة على
الاطلاق او مشركوا مكة وقد روي عن وهب انها تخبر كل من تراه ان اهل مكة كانوا
بمحمد والقرآن لا يوقنون وقرئ تكلمهم من الكلم الذي هو الجرح والمراد به ما نقل
من الوسم بالعصا والخاتم وقد جوز كون القراءة المشهورة ايضا منه لمعنى التكثير ولا يخفى

بعد قوله ويوم نحشر من كل امة بيان اجمالى لحال المكذبين عند قيام الساعة بعد بيان
بعض مباديها ويوم منصوب بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم والمراد بهذا
الحشر هو الحشر للعذاب بعد الحشر الكلى الشامل لكافة الخلق وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت
مع ان المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيان سره مرارا اى واذكر
لهم وقت حشرنا اى جمعنا من كل امة من امم الانبياء عليهم السلام او من اهل كل قرن من
القرون جماعة كثيرة فمن تبعيضية لان كل امة منقسمة الى مصدق ومكذب وقوله تعالى
ممن يكذب باياتنا بيان للفوج اى فوجا مكذبين بها فهم يوزعون اى يحبس
اولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى موقف التوبيخ والمناقشة وفيه من
الدلالة على كثرة عددهم وتباعد اطرافهم ما لا يخفى وعن ابن عباس رضى الله عنهما
ابو جهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة يساقون بين يدى اهل مكة وهكذا
يحشر قادة سائر الامم بين ايديهم الى النار حتى اذا جاؤا الى موقف السؤال والجواب
والمناقشة والحساب قال اى الله عز وجل موبخا لهم على التكذيب والالتفات لتربية
المهابة اكذبتم باياتى الناطقة بلقاء يومكم هذا وقوله تعالى ولم تحيطوا بها علما
جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحه ومؤكدة للانكار والتوبيخ
اى اكذبتم بها بادى الراى غير ناظرين فيها نظرا يؤدى الى العلم بكنهها وانها
حقيقة بالتصديق حتما وهذا نص فى ان المراد بالايات فيما سلف فى الموضعين هى الايات
القرآنية لانها هى المنطوية على دلايل الصحة وشواهد الصدق التى لم يحيطوا بها علما
مع وجوب ان يتأملوا ويتدبروا فيها لا نفس الساعة وما فيها وقيل هو معطوف على
اكذبتم اى اجمعتم بين التكذيب وعدم التدبر فيها اماذا كنتم تعملون اى ام اى
شئ كنتم تعملون بها وام اى شئ كنتم تعملون غير ذلك بمعنى انه لم يكن لهم عمل غير ذلك كانهم
لم يخلقوا الا للكفر والمعاصى مع انهم ما خلقوا الا للايمان والطاعة يخاطبون بذلك
تبكيتا ثم يكبون فى النار وذلك قوله تعالى ووقع القول عليهم اى حل بهم العذاب
الذى هو مدلول القول الناطق بحلوله ونزوله بما ظلموا بسبب ظلمهم الذى هو
تكذيبهم بايات الله فهم لا ينطقون لانقطاعهم عن الجواب بالكلية وابتلائهم
بشغل شاغل من العذاب الاليم الم يروا انا جعلنا الليل ليسكنوا فيه الرؤية قلبية
لا بصرية لان نفس الليل والنهار وان كانا من المبصرات لكن جعلهما كما ذكر من قبيل
المعقولات اى الم يعلموا انا جعلنا الليل بما فيه من الاظلام ليستريحوا فيه بالنوم والقرار
والنهار مبصرا اى ليبصروا بما فيه من الاضاءة طرق التقلب فى امور المعاش فبولغ
فيه حيث جعل الابصار الذى هو حال الناس حالا له ووصفا من اوصافه التى جعل
عليها بحيث لا ينفك عنها ولم يسلك فى الليل هذا المسلك لما ان تأثير ظلام الليل فى السكون
ليس بمثابة تأثير ضوء النهار فى الابصار ان فى ذلك اى فى جعلهما كما وصفا وما
فى اسم الاشارة من معنى البعد للاشعار ببعد درجته فى الفضل لايات اى عظيمة
كثيرة لقوم يؤمنون دالة على صحة البعث وصدق الآيات الناطقة به دلالة واضحة
كيف لا وان من تأمل فى تعاقب الليل والنهار واختلافهما على وجوه بديعة مبنية
على حكم رائقة يحار فى فهمها العقول ولا يحيط بها الا الله عز وجل وشاهد فى الآفاق
تبدل ظلمة الليل المحاكية للموت بضياء النهار المضاهى للحيوة وعاين فى نفسه تبدل
النوم الذى هو اخو الموت بالانتباه الذى هو مثل الحيوة قضى بان الساعة آتية لا ريب
فيها وان الله يبعث من فى القبور قضاء متقنا وجزم بانه تعالى قد جعل هذا انموذجا
له ودليلا يستدل به على تحققه وان الايات الناطقة به وبكون حال الليل والنهار
برهانا عليه وسائر الايات كلها حق نازل من عند الله تعالى ويوم ينفخ فى الصور
اما معطوف على يوم نحشر منصوب بناصبه او بمضمر معطوف عليه والصور هو
القرن الذى ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال لما فرغ الله تعالى من خلق السموات والارض خلق الصور فاعطاه

اسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره الى العرش متى يؤمر قال قلت يا رسول الله ما الصور
قال القرن قال قلت كيف هو قال عظيم والذى نفسى بيده ان عظم دائرة فيه كعرض السموات
والارض فيؤمر بالنفخ فيه فينفخ نفخة لا يبقى عندها فى الحيوة احد غير ما شاء الله تعالى
وذلك قوله تعالى ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله
ثم يؤمر باخرى فينفخ نفخة لا يبقى معه ميت الا بعث وقام وذلك قوله تعالى ثم نفخ فيه
اخرى فاذا هم قيام ينظرون والذى يستدعيه سباق النظم الكريم وسياقه ان المراد
بالنفخ ههنا هى النفخة الثانية وبالفزع فى قوله تعالى ففزع من فى السموات ومن فى الارض
ما يعترى الكل عند البعث والنشور بمشاهدة الامور الهائلة الخارقة للعادات فى الانفس
والآفاق من الرعب والتهيب الضروريين الجبليين وايراد صيغة الماضى مع كون المعطوف
عليه اعنى ينفخ مضارعا للدلالة على تحقق وقوعه اثر النفخ ولعل تأخير بيان الاحوال
الواقعة عند ابتداء النفخة عن بيان ما يقع بعدها من حشر المكذبين من كل امة لتثنية التهويل
بتكرير التذكير ايذانا بان كل واحد منهما طامة كبرى وداهية دهياء حقيقة بالتذكير على
حيالها ولو روعى الترتيب الوقوعى لربما توهم ان الكل داهية واحدة قد امر بذكرها
كما مر فى قصة البقرة الا من شاء الله اى ان لا يفزع قيل هم جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل
عليهم السلام وقيل الحور والخزنة وحملة العرش وكل اى كل واحد من المبعوثين
عند النفخة اتوه حضروا الموقف بين يدى رب العزة جل جلاله للسؤال والجواب والمناقشة
والحساب وقرئ اتاه باعتبار لفظة الكل كما ان القراءة الاولى باعتبار معناه وقرئ اتوه اى
حاضروه داخرين اى صاغرين وقرئ دخرين وقوله تعالى وترى الجبال عطف على ينفخ داخل
فى حكم التذكير وقوله عز وعلا تحسبها جامدة اى ثابتة فى اماكنها اما بدل منه
او حال من ضمير ترى او من مفعوله وقوله تعالى وهى تمر مر السحاب حال من ضمير الجبال
فى تحسبها او فى جامدة اى تراها راى العين ساكنة والحال انها تمر مر السحاب الذى
تسيره الرياح سيرا حثيثا وذلك ان الاجرام العظام اذا تحركت نحو سمت لا يكاد يتبين
حركتها وعليه قول من قال بأرعن مثل الطود تحسب انهم وقوف لحاج والركاب
تهملج وقد ادمج فى هذا التشبيه تشبيه حال الجبال بحال السحاب فى تخلخل الاجزاء وانتفاشها
كما فى قوله تعالى وتكون الجبال كالعهن المنفوش وهذا ايضا مما يقع بعد النفخة الثانية عند
حشر الخلق يبدل الله عز وجل الارض غير الارض ويغير هيئاتها ويسير الجبال عن
مقارها على ما ذكر من الهيئة الهائلة ليشاهدها اهل المحشر وهى وان اندكت وتصدعت
عند النفخة الاولى لكن تسييرها وتسوية الارض انما يكونان بعد النفخة الثانية كما نطق
به قوله تعالى ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى
فيها عوجا ولا امتا يومئذ يتبعون الداعى وقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض
والسموات وبرزوا لله الواحد القهار فان اتباع الداعى الذى هو اسرافيل عليه السلام
وبروز الخلق لله تعالى لا يكون الا بعد النفخة الثانية وقد قالوا فى تفسير قوله تعالى
ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم ان صيغة الماضى فى المعطوف مع كون
المعطوف عليه مستقبلا للدلالة على تقدم الحشر على التسيير والرؤية كانه قيل وحشرناهم قبل
ذلك هذا وقد قيل ان المراد هى النفخة الاولى والفزع هو الذى يستتبع الموت لغاية شدة
الهول كما فى قوله تعالى فصعق من فى السموات ومن فى الارض الخ فيختص اثرها بمن كان حيا عند
وقوعها دون من مات قبل ذلك من الامم وجوز ان يراد بالاتيان داخرين رجوعهم الى
امره تعالى وانقيادهم له ولا ريب فى ان ذلك مما ينبغى ان ينزه ساحة التنزيل عن امثاله
وابعد من هذا ما قيل ان المراد بهذه النفخة نفخة الفزع التى تكون قبل نفخة الصعق
وهى التى اريدت بقوله تعالى ما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة ما لها من فواق فيسير
الله تعالى عندها الجبال فتمر مر السحاب فتكون سرابا وترج الارض باهلها رجا
فتكون كالسفينة الموثقة فى البحر او كالقنديل المعلق ترجحه الارواح فانه مما لا ارتباط
له بالمقام قطعا والحق الذى لا محيد عنه ما قدمناه ومما هو نص فى الباب ما سيأتى

من قوله تعالى وهم من فزع يومئذ آمنون صنع الله مصدر مؤكد لمضمون ما قبله اى صنع
الله ذلك صنعا على انه عبارة عما ذكر من النفخ فى الصور وما ترتب عليه جميعا قصد
به التنبيه على عظم شان تلك الافاعيل وتهويل امرها والايذان بانها ليست بطريق اخلال
نظام العالم وافساد احوال الكائنات بالكلية من غير ان يدعو اليها داعية او يكون
لها عاقبة بل هى من قبيل بدائع صنع الله تعالى المبنية على اساس الحكمة المستتبعة للغايات
الجميلة التى لاجلها رتبت مقدمات الخلق ومبادى الابداع على الوجه المتين والنهج
الرصين كما يعرب عنه قوله تعالى الذى اتقن كل شئ اى احكم خلقه وسواه على ما
يقتضيه الحكمة وقوله تعالى انه خبير بما تفعلون تعليل لكون ما ذكر صنعا محكما له تعالى
ببيان ان علمه تعالى بظواهر افعال المكلفين وبواطنها مما يدعو الى اظهارها وبيان كيفياتها
على ما هى عليه من الحسن والسوء وترتيب اجزيتها عليها بعد بعثهم وحشرهم وجعل
السموات والارض والجبال على وفق ما نطق به التنزيل ليتحققوا بمشاهدة ذلك ان
وعد الله حق لا ريب فيه وقرى خبير بما يفعلون وقوله تعالى من جاء بالحسنة فله خير
منها بيان لما اشير اليه باحاطة علمه تعالى بافعالهم من ترتيب اجزيتها عليها اى من جاء
منكم او من اولئك الذين اتقوه تعالى بالحسنة فله من الجزاء ما هو خير منها اما باعتبار انه
اضعافها واما باعتبار دوامه وانقضائها وقيل فله خير حاصل من جهتها وهو الجنة
وعن ابن عباس رضى الله عنهما الحسنة كلمة الشهادة وهم اى الذين جاؤا بالحسنات
من فزع اى عظيم هائل لا يقادر قدره وهو الفزع الحاصل من مشاهدة العذاب
بعد تمام المحاسبة وظهور الحسنات والسيئات وهو الذى فى قوله تعالى لا يحزنهم
الفزع الاكبر وعن الحسن رضى الله عنه حين يؤمر بالعبد الى النار وقال ابن جريج حين
يذبح الموت وينادى المنادى يا اهل الجنة خلود فلا موت ويا اهل النار خلود فلا موت
يومئذ اى يوم اذ ينفخ فى الصور آمنون لا يعتريهم ذلك الفزع الهائل ولا يلحقهم
ضرره اصلا واما الفزع الذى يعترى كل من فى السموات ومن فى الارض غير من استثناه
الله تعالى فانما هو التهيب والرعب الحاصل فى ابتداء النفخة من معاينة فنون الدواهى
والاهوال ولا يكاد يخلو منه احد بحكم الجبلة وان كان آمنا من لحوق الضرر والامن
يستعمل بالجار وبدونه كما فى قوله تعالى افامنوا مكر الله وقرى من فزع يومئذ بالاضافة
مع كسر الميم وفتحها ايضا والمراد هو الفزع المذكور فى القراءة الاولى لا جميع الافزاع
الحاصلة يومئذ ومدار الاضافة كونه اعظم الافزاع واكبرها كان ما عداه ليس
بفزع بالنسبة اليه ومن جاء بالسيئة قيل هو الشرك فكبت وجوههم فى النار
اى كبوا فيها على وجوههم منكوسين او كبت فيها انفسهم على طريقة ولا تلقوا
بايديكم الى التهلكة هل تجزون الا ما كنتم تعملون على الالتفات للتشديد او
على اضمار القول اى مقولا لهم ذلك انما امرت ان اعبد رب هذه البلدة الذى حرمها
امر عليه السلام بان يقول لهم ذلك بعد ما بين لهم احوال المبدا والمعاد وشرح
احوال القيمة تنبيها لهم على انه قد اتم امر الدعوة بما لا مزيد عليه ولم يبق له عليه
السلام بعد ذلك سوى الاشتغال بعبادة الله عز وجل والاستغراق فى مراقبته غير
مبال بهم ضلوا ام رشدوا اصلحوا او افسدوا ليحملهم ذلك على ان يهتموا بامور انفسهم
ولا يتوهموا من شدة اعتنائه عليه السلام بامر دعوتهم انه عليه السلام يظهر لهم ما
يلجئهم الى الايمان لا محالة ويشتغلوا بتدارك احوالهم ويتوجهوا نحو التدبر فيما شاهدوه
من الآيات الباهرة والبلدة هى مكة المعظمة وتخصيصها بالاضافة لتفخيم شانها واجلال
مكانها والتعرض لتحريمه تعالى اياها تشريف لها بعد تشريف وتعظيم اثر تعظيم مع ما فيه من
الاشعار بعلة الامر وموجب الامتثال به كما فى قوله تعالى فليعبدوا رب هذا البيت الذى اطعمهم
من جوع وآمنهم من خوف ومن الرمز الى غاية شناعة ما فعلوا فيها الا يرى انهم مع
كونها محرمة من ان تنتهك حرمتها باختلاء خلاها وعضد شجرها وتنفير صيدها و
ارادة الالحاد فيها بوجه من الوجوه قد استمروا فيها على تعاطى اخزا افراد الفجور واشنع احاد

الاحاديث

الاحاديث تركوا عبادة ربها ونصبوا فيها الاوثان وعكفوا على عبادتها قاتلهم الله انى
يؤفكون وقرى حرمها بالتخفيف وقوله تعالى وله كل شئ اى خلقا وملكا وتصرفا من
غير ان يشاركه شئ فى شئ من ذلك تحقيق للحق وتنبيه على ان افراد مكة بالاضافة
لما ذكر من التفخيم والتشريف مع عموم الربوبية لجميع الموجودات وامرت ان اكون
من المسلمين اى اثبت على ما كنت عليه من كونى من جملة الثابتين على ملة الاسلام والتوحيد اى
الذين اسلموا وجوههم لله خالصة من قوله تعالى ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله
وان اتلو القرآن اى اواظب على تلاوته لينكشف لى حقائقه الرائقة المخزونة فى تضاعيفه
شيئا فشيئا او على تلاوته على الناس بطريق تكرير الدعوة وتثنية الارشاد فيكون ذلك تنبيها
على كفايته فى الهداية والارشاد من غير حاجة الى اظهار معجزة اخرى فمعنى قوله
تعالى فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه حينئذ فمن اهتدى بالايمان به والعمل بما فيه من الشرائع و
الاحكام وعلى الاول فمن اهتدى باتباعه اياى فيما ذكر من العبادة والاسلام وتلاوة القرآن
فانما منافع اهتدائه عائدة اليه لا الى ومن ضل بالكفر به والاعراض عن العمل بما فيه
او بمخالفتى فيما ذكر فقل فى حقه انما انا من المنذرين وقد خرجت عن عهدة الانذار
فليس على من وبال ضلاله شئ وانما هو عليه فقط وقل الحمد لله اى على ما افاض على
من نعمائه التى اجلها نعمة النبوة المستتبعة لفنون النعم الدينية والدنيوية ووفقنى لتحمل
اعبائها وتبليغ احكامها الى كافة الورى بالآيات البينة والبراهين النيرة وقوله تعالى
سيريكم آياته من جملة الكلام المأمور به اى سيريكم البتة فى الدنيا آياته الباهرة
التى نطق بها القرآن كخروج الدابة وسائر الاشراط وقد عد منها وقعة بدر ويأباه
قوله تعالى فتعرفونها اى فتعرفون انها آيات الله تعالى حين لا ينفعكم المعرفة لانهم لا يعرفون
بكون وقعة بدر كذلك وقيل سيريكم فى الآخرة وقوله تعالى وما ربك بغافل عما تعملون
كلام مسوق من جهته تعالى بطريق التذييل مقرر لما قبله متضمن للوعد والوعيد كما ينبئ
عنه اضافة الرب الى ضمير النبى صلى الله عليه وسلم وتخصيص الخطاب اولا به عليه السلام
وتعميمه ثانيا للكفرة تغليبا اى وما ربك بغافل عما تعمل انت من الحسنات وما تعملون انتم
ايها الكفرة من السيئات فيجازى كلا منكم بعمله لا محالة وقرى عما يعملون على الغيبة
فهو وعيد محض والمعنى وما ربك بغافل عن اعمالهم فسيعذبهم البتة فلا يحسبوا ان
تاخير عذابهم لغفلته تعالى عن اعمالهم الموجبة له والله اعلم عن النبى صلعم
من قرأ سورة طس كان له من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق سليمان وهودا وصالحا و
ابراهيم وشعيبا عليهم السلام ومن كذب بهم ويخرج من قبره وهو ينادى لا اله الا الله

سورة القصص مكية وهى ثمان وثمانون آية
بسم الله الرحمن الرحيم

طسم تلك آيات الكتاب المبين قد مر ما يتعلق به من الكلام بالاجمال والتفصيل فى اشباهه
نتلو عليك اى نقرأ بواسطة جبريل عليه السلام ويجوز ان يكون التلاوة مجازا من التنزيل
من نبإ موسى وفرعون مفعول نتلو اى بعض نبإيهما بالحق متعلق بمحذوف هو
حال من فاعل نتلو او من مفعوله او صفة لمصدره اى نتلو عليك بعض نبإيهما ملتبسين او
ملتبسا بالحق او تلاوة ملتبسة بالحق لقوم يؤمنون متعلق بنتلو وتخصيصهم بذلك مع
عموم الدعوة والبيان للكل لانهم المنتفعون به ان فرعون علا فى الارض استيناف
جار مجرى التفسير للمجمل الموعود وتصديره بحرف التاكيد للاعتناء بتحقيق مضمون ما بعده
انه تجبر وطغى فى الارض وجاوز الحدود المعهودة فى الظلم والعدوان وجعل
اهلها شيعا اى فرقا يشيعونه فى كل ما يريد من الشر والفساد او يشيع بعضهم بعضا
فى طاعته او اصنافا فى استخدامه يستعمل كل صنف فى عمل ويسخره فيه من بناء وحرث وحفر
وغير ذلك من الاعمال الشاقة ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية او فرقا مختلفة قد اغرى
بينهم العداوة والبغضاء لئلا تتفق كلمتهم يستضعف طائفة منهم وهم بنو
اسرائيل والجملة اما حال من فاعل جعل او صفة لشيعا او استيناف وقوله تعالى يذبح ابناءهم

ويستحيي نساءهم بدل منها وكان ذلك لما ان كاهنا قال له يولد في بني اسرائيل مولود يذهب
ملكك على يده وما ذاك الا لغاية حمقه اذ لو صدق فما فائدة القتل وان كذب فما وجهه
انه كان من المفسدين اى الراسخين في الافساد ولذلك اجترأ على مثل تلك العظيمة
من قتل المعصومين من اولاد الانبياء عليهم السلام ونريد ان نمن اى نتفضل على
الذين استضعفوا في الارض على الوجه المذكور بانجائهم من بأسه وصيغة المضارع
في نريد حكاية حال ماضية وهو معطوف على ان فرعون علا لتناسبهما في الوقوع في حيز
التفسير للنبأ او حال من يستضعف بتقدير المبتدأ اى يستضعفهم فرعون ونحن نريد
ان نمن عليهم وليس من ضرورة مقارنة الارادة للاستضعاف مقارنة المراد له لما ان
تعلق الارادة للمن تعلق استقبالي على ان منة الله تعالى عليهم بالخلاص لما كانت في شرف
الوقوع جاز اجراؤها مجرى الواقع المقارن له ووضع الموصول موضع الضمير لابانة قدر
النعمة في المنة بذكر حالتهم السابقة المباينة لها ونجعلهم ائمة يقتدى بهم في امور
الدين بعد ان كانوا اتباعا مسخرين لآخرين ونجعلهم الوارثين لجميع ما كان منتظما
في سلك ملك فرعون وقومه وراثة معهودة فيما بينهم كما ينبئ عنه تعريف الوارثين
وتأخير ذكر وراثتهم له عن ذكر جعلهم ائمة مع تقدمها عليه زمانا لانحطاط رتبتها
عن الامامة ولئلا ينفصل عنه ما بعده مع كونه من روادفه اعني قوله تعالى ونمكن لهم
في الارض الخ اى نسلطهم على مصر والشام يتصرفون فيهما كيف ما يشاؤن واصل
التمكين ان تجعل للشيء مكانا يتمكن فيه ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم اى
من اولئك المستضعفين ما كانوا يحذرون ويجتهدون في دفعه من ذهاب ملكهم
وهلكهم على يد مولود منهم وقرئ يرى بالياء ورفع ما بعده على الفاعلية واوحينا
الى ام موسى بالهام او رؤيا ان ارضعيه ما امكنك اخفاؤه فاذا خفت عليه بان
يحس به الجيران عند بكائه وينموا عليه فالقيه في اليم في البحر وهو النيل ولا تخافي
عليه ضيعة بالغرق ولا شدة ولا تحزني انا رادوه اليك عن قريب بحيث تأمنين عليه
وجاعلوه من المرسلين والجملة تعليل للنهي عن الخوف والحزن وايثار الجملة الاسمية و
تصديرها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها اى انا فاعلون لرده وجعله من
المرسلين لا محالة روي ان بعض القوابل الموكلات من قبل فرعون بحبالى بني اسرائيل كانت
مصافية لام موسى فقالت لها لينفعني حبك اليوم فعالجتها فلما وقع الى الارض هالها نور
بين عينيه وارتعش كل مفصل منها ودخل حبه في قلبها ثم قالت ما جئتك الا لاقبل مولودك
واخبر فرعون ولكني وجدت لابنك في قلبي محبة ما وجدت مثلها لاحد فاحفظيه فلما
خرجت جاء عيون فرعون فلفته في خرقة فالقته في تنور مسجور لم تعلم ما تصنع لما طاش من
عقلها فطلبوا فلم يلقوا شيئا فخرجوا وهي لا تدري مكانه فسمعت بكاءه من التنور فانطلقت
اليه وقد جعل الله النار عليه بردا وسلاما فلما الح فرعون في طلب الولدان اوحى الله تعالى اليها
ما اوحى وقد روي انها ارضعته ثلاثة اشهر في تابوت من بردي مطلي بالقار من داخله
والفاء في قوله تعالى فالتقطه آل فرعون فصيحة مفصحة عن عطفه على جملة مترتبة على ما
قبلها من الامر بالالقاء قد حذفت تعويلا على دلالة الحال وايذانا بكمال سرعة الامتثال اى فالقته
في اليم بعد ما جعلته في التابوت حسبما امرت به فالتقطه آل فرعون اى اخذوه اخذ اعتناء
به وصيانة له عن الضياع قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره كان لفرعون يومئذ بنت لم يكن
له ولد غيرها وكانت من اكرم الناس اليه وكان بها برص شديد عجزت الاطباء عن علاجه
فقالوا لا تبرأ الا من قبل البحر يؤخذ منه شبه الانس يوم كذا وساعة كذا من شهر
كذا حين تشرق الشمس فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ فلما كان ذلك اليوم غدا
فرعون في مجلس له على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان
بن الوليد الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف الصديق عليه السلام وقيل كانت من
بني اسرائيل من سبط موسى وقيل كانت عمته حكاه السهيلي واقبلت بنت فرعون في
جواريها حتى جلست على شاطئ النيل فاذا بتابوت في النيل تضربه الامواج فتعلق بشجرة فقال

فرعون

فرعون ائتوني به فابتدروا بالسفن فاحضروه بين يديه فعالجوا فتحه فلم يقدروا عليه وقصدوا
كسره فاعياهم فنظرت آسية فرأت نورا في جوف التابوت لم يره غيرها فعالجته ففتحته فاذا
هو بصبي صغير في مهده واذا نور بين عينيه وهو يمص ابهامه لبنا فالقى الله تعالى محبته
في قلوب القوم وعمدت ابنة فرعون الى ريقه فلطخت به برصها فبرئت من ساعته وقيل لما
نظرت الى وجهه برئت فقالت الغواة من قوم فرعون انا نظن ان هذا هو الذي تحذر منه
رمي في البحر فرقا منك فاقتله فهم فرعون بقتله فاستوهبته آسية فتركه كما سيأتي واللام
في قوله تعالى ليكون لهم عدوا وحزنا لام العاقبة ابرز مدخولها في معرض العلة لالتقاطهم
تشبيها له في الترتب عليه بالغرض الحامل عليه وقرئ حزنا وهما لغتان كالسقم والسقم جعل
عليه السلام نفس الحزن ايذانا بقوة سببيته لحزنهم ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا
خاطئين اى في كل ما يأتون وما يذرون فلا غرو في ان قتلوا لاجله الوفا ثم اخذوه يربونه
ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون روي انه ذبح في طلبه عليه السلام تسعون الف
وليد وكانوا مذنبين فعاقبهم الله تعالى بان ربى عدوهم على ايديهم فالجملة اعتراضية
لتأكيد خطائهم او لبيان الموجب لما ابتلوا به وقرئ خاطين على انه تخفيف خاطئين
او على انه بمعنى متعدين الصواب الى الخطأ وقالت امرأة فرعون اى لفرعون حين
اخرجته من التابوت قرة عين لي ولك اى هو قرة عين لنا لانهما لما رأياه احباه او
لما ذكر من برء بنته من البرص بريقه وفي الحديث انه قال لك لا لي ولو قال لي كما هو لك
لهداه الله تعالى كما هداها لا تقتلوه خاطبته بلفظ الجمع تعظيما ليساعدها فيما تريده
عسى ان ينفعنا فان فيه مخائل اليمن ودلائل النجابة وذلك لما رأت فيه من العلامات
المذكورة او نتخذه ولدا اى نتبناه فانه خليق بذلك وهم لا يشعرون حال من
آل فرعون والتقدير فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقالت امرأته له كيت
وكيت وهم لا يشعرون بانهم على خطأ عظيم فيما صنعوا من الالتقاط ورجاء النفع منه
والتبني له وقوله ان فرعون الآية اعتراض وقع بين المعطوفين لتأكيد خطائهم وقيل
حال من احد ضميري نتخذه على ان الضمير للناس اى وهم لا يعلمون انه لغيرنا وقد تبنيناه
واصبح فؤاد ام موسى فارغا صفرا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه
في يد فرعون كقوله تعالى وافئدتهم هواء اى خلاء لا عقول فيها ويعضده انه قرئ فزعا
من قولهم دماؤهم بينهم فزع اى هدر وقيل فارغا من الهم والحزن لغاية وثوقها
بوعد الله تعالى او لسماعها ان فرعون عطف عليه وتبناه وقرئ مؤسى بالهمزة اجراء للضمة
في جارة الواو مجرى ضمتها فهمزت كما في وجوه ان كادت لتبدي به اى انها كادت
لتظهر بموسى اى بامره وقصته من فرط الحيرة والدهشة او الفرح لتبنيه لولا ان ربطنا
على قلبها بالصبر والثبات لتكون من المؤمنين اى المصدقين بوعد الله تعالى او من الواثقين
بحفظه لا بتبني فرعون وتعطفه وهو علة الربط وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله
عليه وقالت لاخته مريم والتعبير عنها باخوته دون ان يقال لبنتها للتصريح بمدار
المحبة الموجبة للامتثال بالامر قصيه اى اتبعي اثره وتتبعي خبره فبصرت به اى ابصرته
عن جنب عن بعد وقرئ بسكون النون وعن جانب والكل بمعنى وهم لا يشعرون
انها تقصه وتتعرف حاله وانها اخته وحرمنا عليه المراضع اى منعناه ان يرتضع
من المرضعات والمراضع جمع مرضع وهي المرأة ترضع او مرضع وهو الرضاع او موضعه
اعني الثدي من قبل اى من قبل قصها اثره فقالت عند رؤيتها العدم قبوله الثدي
واعتناء فرعون بامره وطلبهم من يقبل ثديها هل ادلكم على اهل بيت يكفلونه لكم
اى لاجلكم وهم له ناصحون لا يقصرون في ارضاعه وتربيته روي ان هامان
لما سمعه منها قال انها لتعرفه واهله فخذوها حتى تخبر بحاله فقالت انما اردت وهم
للملك ناصحون فامرها فرعون بان تأتي بمن يكفله فاتت بامه وموسى على يد فرعون يبكي
وهو يعلله فدفعه اليها فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال من انت
منه فقد ابى كل ثدي الا ثديك فقالت اني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا اوتى بصبي الا

تبلى ثديه فى يدها واجرى عليها فرجعت به الى بيتها من يومها وذلك قوله تعالى فرددناه الى
امه كى تقر عينها بوصول ولدها اليها ولا تحزن بفراقه ولتعلم ان وعد الله
اى جميع ما وعده من رده وجعله من المرسلين حق لاخلف فيه بمشاهدة بعضه
وقياس بعضه عليه ولكن اكثرهم لا يعلمون ان الامر كذلك فيرتابون فيه
او ان الغرض الاصلى من الرد علمها بذلك وما سواه تبع وفيه تعريض بما فرط منها
حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون ولما بلغ اشده اى المبلغ الذى لا يزيد عليه نشوه
وذلك من ثلثين الى اربعين سنة فان العقل يكمل حينئذ وروى انه لم يبعث نبى الا
على راس الاربعين واستوى اى اعتدل قده او عقله آتيناه حكما اى نبوة
وعلما بالدين او علم الحكماء والعلماء وسمتهم قبل استنبائه فلا يقول ولا يفعل
فعلا يستجهل فيه وهو اوفق لنظم القصة لانه تعالى استنبأه بعد الهجرة فى المراجعة
وكذلك ومثل ذلك الذى فعلنا بموسى وامه نجزى المحسنين على احسانهم
ودخل المدينة اى مصر من قصر فرعون وقيل منف او حابين او عين الشمس
من نواحيها على حين غفلة من اهلها فى وقت لا يعتاد دخولها او لا يتوقعونه
فيه قيل كان وقت القيلولة وقيل بين العشائين فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا
من شيعته اى ممن شايعه على دينه وهم بنوا اسرائل وهذا من عدوه اى
من مخالفيه دينا وهم القبط والاشارة على الحكاية فاستغاثه الذى من شيعته
اى سأله ان يغيثه بالاعانة كما ينبئ عنه تعديته بعلى وقرئ استعانه على الذى من عدوه
فوكزه موسى اى ضرب القبطى بجمع كفه وقرئ فلكزه اى فضرب به صدره فقضى
عليه فقتله واصله انهى حياته من قوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر قال هذا من
عمل الشيطان لانه لم يكن مأمورا بقتل الكفار او لانه كان مأمونا فيما بينهم
فلم يكن له اغتيالهم ولا يقدح ذلك فى عصمته لكونه خطأ وانما عده من عمل الشيطان
وسماه ظلما واستغفر عنه جريا على سنن المقربين فى استعظام ما فرط منهم ولو
كان من محقرات الصغاير انه عدو مضل مبين ظاهر العداوة والاضلال قال
توسيط بين كلاميه عليه السلام لابانة ما بينهما من المخالفة من حيث انه مناجاة
ودعاء بخلاف الاول رب انى ظلمت نفسى اى بقتله فاغفر لى ذنبى فغفر له
ذلك انه هو الغفور الرحيم اى المبالغ فى مغفرة ذنوب عباده ورحمتهم قال رب
بما انعمت على اما قسم محذوف الجواب اى اقسم بانعامك على بالمغفرة لاتوبن فلن
اكون بعد هذا ابدا ظهيرا للمجرمين واما استعطاف اى بحق انعامك على اعصمنى
فلن اكون معينا لمن تؤدى معاونته الى الجرم وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه عليه
السلام لم يستثن فابتلى به مرة اخرى وهذا يؤيد الاول وقيل معناه بما انعمت
على من القوة اعين اولياءك فلن استعملها فى مظاهرة اعدائك فاصبح فى المدينة خائفا
يترقب يترصد الاستقادة او الاجناد فاذا الذى استنصره بالامس يستصرخه
اى يستغيثه برفع الصوت من الصراخ قال له موسى انك لغوى مبين اى بين الغواية
تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر فلما ان اراد موسى ان يبطش بالذى هو عدو
لهما اى لموسى وللاسرائيلى اذ لم يكن على دينهما ولان القبط كانوا اعداء بنى اسرائل
على الاطلاق وقرئ يبطش بضم الطاء قال اى الاسرائيلى ظانا انه عليه السلام
يبطش به حسبما يوهمه تسميته اياه غويا يا موسى اتريد ان تقتلنى كما قتلت نفسا
بالامس قالوا لما سمع القبطى قول الاسرائيلى علم ان موسى هو الذى قتل ذلك الفرعونى
فانطلق الى فرعون فاخبره بذلك وامر فرعون بقتل موسى عليه السلام وقيل
قاله القبطى ان تريد اى ما تريد الا ان تكون جبارا فى الارض وهو الذى
يفعل كلما يريد من الضرب والقتل ولا ينظر فى العواقب وقيل المتعظم الذى
لا يتواضع لامر الله تعالى وما تريد ان تكون من المصلحين بين الناس بالقول
والفعل وجاء رجل من اقصى المدينة اى كائن من آخرها او جاء من آخرها

يسعى

يسعى اى يسرع صفة لرجل او حال منه على ان الجار والمجرور صفة له لا متعلق بجاء فان
تخصصه يلحقه بالمعارف قيل هو مؤمن من آل فرعون واسمه حزقيل وقيل شمعون وقيل
شمعان قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك اى يتشاورون بسببك فان كلا
من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر فاخرج اى من المدينة انى لك من
الناصحين اللام للبيان لان معمول الصلة لا يتقدمها فخرج منها اى من المدينة
خائفا يترقب لحوق الطالبين قال رب نجنى من القوم الظالمين خلصنى منهم
واحفظنى من لحوقهم ولما توجه تلقاء مدين اى نحو مدين وهو قرية شعيب
عليه السلام سميت باسم مدين بن ابراهيم ولم تكن تحت سلطان فرعون وكان بينها
وبين مصر مسيرة ثمانية ايام قال عسى ربى ان يهدينى سواء السبيل توكلا على الله
تعالى وثقة بحسن توفيقه وكان لا يعرف الطرق فعن له ثلاث طرائق فاخذ فى الوسطى
وجاء الطلاب فشرعوا فى الاخريين وقيل خرج حافيا لا يعيش الا بورق الشجر فما وصل
حتى سقط خف قدميه وقيل جاء ملك على فرس وبيده عنزة فانطلق به الى مدين
ولما ورد ماء مدين اى وصل اليه وهو بئر كانوا يسقون منها وجد عليه اى فوق
شفيرها امة اى جماعة كثيرة من الناس يسقون اى مواشيهم ووجد من
دونهم فى موضع اسفل منهم امرأتين تذودان اى تمنعان ما معهما
من الاغنام عن التقدم الى البئر كيلا تختلط باغنامهم مع عدم الفائدة فى التقدم قال
عليه السلام لهما حين رآهما على ما هما عليه من التأخر والذود ما خطبكما ما شأنكما
فيما انتما عليه من التأخر والذود ولم تباشرا السقى كراب هؤلاء قالتا لا نسقى
حتى يصدر الرعاء اى عادتنا ان لا نسقى حتى يصرف الرعاة مواشيهم بعد ريها
عن الماء عجزا عن مساجلتهم وحذرا عن مخالطة الرجال الا انا لا نسقى اليوم الى تلك
الغاية وحذف مفعول السقى والذود والاصدار لما ان الغرض هو بيان تلك
الافعال انفسها اذ هى التى دعت موسى عليه السلام الى ما صنع فى حقهما من المعروف
فانه عليه السلام انما رحمهما لكونهما على الذياد للعجز والعفة وكونهم على السقى غير
مبالين بهما وما رحمهما لكون مذودهما غنما ومسقيهم ابلا مثلا وقرئ لا نسقى من
الاسقاء ويصدر من الصدور والرعاء بضم الراء وهو اسم جمع كالرخال واما الرعاء فجمع
قياسى كصيام وقيام وقوله تعالى وابونا شيخ كبير ابلاء منهما العذر اليه عليه السلام
فى توليهما للسقى بانفسهما كانهما قالتا انا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر
على مساجلة الرجال ومزاحمتهم وما لنا رجل يقوم بذلك وابونا شيخ كبير السن قد
اضعفه الكبر فلا بد لنا من تأخير السقى الى ان يقضى الناس اوطارهم من الماء فسقى
لهما رحمة عليهما والكلام فى حذف مفعوله كما مر آنفا وروى ان الرعاة كانوا يضعون
على رأس البئر حجرا لا يقله الا سبعة رجال وقيل اربعون وقيل اربعون وقيل مائة
فاقله واخذه مع ما كان به من الوصب والجراحة والجوع ولعله عليه السلام زاحمهم
فى السقى لهما فوضعوا الحجر على البئر لتعجيزه عليه السلام عن ذلك فان الظاهر انه
عقيب ما شاهد حالهما سارع الى السقى لهما وقد روى انه دفعهم عن الماء الى ان سقى
لهما وقيل كانت هناك بئر اخرى عليها الصخرة المذكورة وروى انه عليه السلام سألهم
دلوا من ماء فاعطوه دلوهم وقالوا استق بها وكان لا ينزعها الا اربعون فاستقى بها
وصبها فى الحوض ودعا بالبركة وروى غنمهما واصدرهما ثم تولى الى الظل الذى
كان هناك فقال رب انى لما انزلت الى اى اى شئ انزلته الى من خير جل او قل
وحمله الاكثرون على الطعام بمعونة المقام فقير اى محتاج ولتضمنه معنى السؤال
والطلب جئ بلام الدعامة لتقوية العمل وقيل المعنى لما انزلت الى من خير عظيم هو خير
الدارين صرت فقيرا فى الدنيا لانه كان فى سعة من العيش عند فرعون قاله عليه السلام
اظهارا للتبجح والشكر على ذلك فجاءته احديهما قيل هى كبراهما واسمها صفوراء او
صفراء وقيل صغراهما واسمها صغيرا اى جاءته عقيب ما رجعتا الى ابيهما روى انهما لما رجعتا

الى ابيهما قبل الناس واغنامهما حفّل بطان قال لهما ما اعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى
لنا فقال لاحدهما اذهبي فادعيه لي وقوله تعالى تمشي حال من فاعل جاءت وقوله تعالى على استحياء
متعلق بمحذوف هو حال من ضمير تمشي اي جاءته تمشي كائنة على استحياء فمعناه انها كانت على
استحياء حالتي المشي والمجيء معا لا عند المجيء فقط وتنكير استحياء للتفخيم قيل جاءت متخفرة اي شديدة
الحياء وقيل قد استترت بكم درعها قالت استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية مجيئها
اياه عليه السلام كأنه قيل فماذا قالت له عليه السلام فقيل قالت ان ابي يدعوك ليجزيك
اجر ما سقيت لنا اي جزاء سقيك لنا اسندت الدعوة الى ابيها وعللتها بالجزاء لئلا يوهم
كلامها ريبة وفيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفة ما لا يخفى روي انه عليه السلام
اجابها فانطلقا وهي امامه فالزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها امشي خلفي
وانعتي الى الطريق ففعلت حتى اتيا دار شعيب عليهما السلام فلما جاءه وقص عليه القصص
اي ما جرى عليه من الخبر المقصوص فانه مصدر سمي به المفعول كالعلل قال لا تخف نجوت
من القوم الظالمين الذي يلوح من ظاهر النظم الكريم ان موسى عليه السلام انما اجاب
المستدعية من غير تلعثم ليتبرك برؤية شعيب عليه السلام وليستظهر برأيه لا ليأخذ
بمعروفه حسبما صرحت به الاية الى ما روي ان شعيبا لما قدم اليه طعاما قال انا اهل بيت
لا نبيع ديننا بطلاع الارض ذهبا ولا نأخذ على المعروف ثمنا ولم يتناول حتى قال شعيب عليهما
السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا فتناول بعد ذلك على سبيل التقبل لمعروف مبتدإ
كيف لا وقد قص عليه قصصه وعرفه انه من بيت النبوة من اولاد يعقوب عليه السلام ومثله
حقيق ويكرم لا سيما في دار نبي من انبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وقيل ليس
بمستنكر منه عليه السلام ان يقبل الاجر لاضطرار الفقر والفاقة وقد روي عن عطاء بن
السائب انه عليه السلام رفع صوته بدعائه ليسمعها ولذلك قيل له ليجزيك الخ ولعله
عليه السلام انما فعله ليكون ذريعة الى استدعائه لا الى استيفاء الاجر قالت احداهما وهي التي
استدعته الى ابيها وهي التي زوجها من موسى عليهما السلام يا ابت استأجره اي
لرعي الغنم والقيام بامرها ان خير من استأجرت القوي الامين تعليل جار مجرى الدليل
على انه حقيق بالاستئجار وللمبالغة في ذلك جعل اسما لان وذكر الفعل على صيغة الماضي
للدلالة على انه امين مجرب روي ان شعيبا عليه السلام قال لها وما اعلمك بقوته
وامانته فذكرت ما شاهدت منه عليه السلام من اقلال الحجر ونزع الدلو وانه صوب
رأسه حتى بلغته رسالته وامرها بالمشي خلفه قال اني اريد ان انكحك احدى ابنتي هاتين على
ان تأجرني اي تكون اجيرا لي او تثيبني من اجرته كذا اذا اثبته اياه فقوله تعالى ثماني
حجج على الاول ظرف وعلى الثاني مفعول به على تقدير مضاف اي رعية ثماني حجج ونقل
عن المبرد انه يقال اجرت داري ومملوكي غير ممدود واجرت ممدودا والاول اكثر
فعلى هذا يكون المفعول الثاني محذوفا والمعنى على ان تأجرني نفسك وقوله تعالى ثماني
حجج ظرف كالوجه الاول فان اتممت عشرا في الخدمة والعمل فمن عندك اي فهو
من عندك بطريق التفضل لا من عندي بطريق الالزام عليك وهذا من شعيب عرض لرأيه
على موسى عليهما السلام واستدعاء منه للعقد لا انشاء وتحقيق له بالفعل وما اريد
ان اشق عليك بالزام اتمام العشر او المناقشة في مراعاة الاوقات واستيفاء الاعمال
واشتقاق المشقة من الشق فان ما يصعب عليك يشق عليك اعتقادك في اطاقته
ويوزع رأيك في مزاولته ستجدني ان شاء الله من الصالحين في حسن المعاملة ولين
الجانب والوفاء بالعهد ومراده عليه السلام بالاستثناء التبرك به وتفويض امره الى توفيقه
تعالى لا تعليق صلاحه بمشيئته تعالى قال ذلك بيني وبينك مبتدأ وخبر اي ذلك الذي
قلته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم وثابت بيننا جميعا لا يخرج عنه واحد منا لا
انا عما شرطت علي ولا انت عما شرطت على نفسك وقوله تعالى ايما الاجلين اي
اكثرهما او اقصرهما قضيت اي وفيتكه باداء الخدمة فيه فلا عدوان علي تصريح
بالمراد وتقرير لامر الخيرة اي لا عدوان علي بطلب الزيادة على ما قضيته من

الاجلين

بأن يضيف صح

الاجلين وتعميم انتفاء العدوان لكلا الاجلين بصدد المشارطة مع عدم تحقق العدوان
في اكثرهما رأسا للقصد الى التسوية بينهما في الانتفاء اي كما لا اطالب بالزيادة على العشر
لا اطالب بالزيادة على الثمان او ايما الاجلين قضيت فلا اثم علي يعني كما لا اثم علي في قضاء
الاكثر لا اثم علي في قضاء الاقصر فقط وقرئ اي الاجلين ما قضيت فما مزيدة لتأكيد
القضاء كما انها في القراءة الاولى مزيدة لتأكيد ابهام اي وشياعها وقرئ ايما بسكون الياء
كقول من قال تنظرت نصرا والسماكين ايهما علي من الغيث استهلت مواطره والله على ما نقول
من الشروط الجارية بيننا وكيل شاهد وحفيظ فلا سبيل لاحد منا الى الخروج عنه اصلا
وليس ما حكي عنهما عليهما السلام تمام ما جرى بينهما من الكلام في انشاء عقد النكاح وعقد
الاجارة وايقاعهما بل هو بيان لما عزما عليه واتفقا على ايقاعه حسبما يتوقف عليه مساق
القصة اجمالا من غير تعرض لبيان مواجب العقدين في تلك الشريعة تفصيلا روي انهما لما اتما
العقد قال شعيب لموسى عليهما السلام ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصي وكانت عنده
عصي الانبياء عليهم السلام فاخذ عصا هبط بها آدم عليه السلام من الجنة ولم يزل الانبياء
يتوارثونها حتى وقعت الى شعيب عليه السلام فمسها وكان مكفوفا فضن بها فقال غيرها فما وقع
في يده الا هي سبع مرات فعلم ان له شأنا وقيل اخذها جبريل عليه السلام بعد موت آدم عليه السلام
فكانت معه حتى لقي بها موسى ليلا وقيل اودعها شعيبا ملك في صورة رجل فامر بنته ان
تأتيه بعصا فاتته بها فردها سبع مرات فلم يقع في يدها غيرها فدفعها اليه ثم ندم لانها
وديعة فتبعه فاختصما فيها ورضيا ان يحكم بينهما اول طالع فاتاهما الملك فقال القياها فمن
رفعها فهي له فعالجها الشيخ فلم يطقها ورفعها موسى وعن الحسن رضي الله عنه ما كانت الا
عصا من الشجر اعترضها اعتراضا وعن الكلبي الشجرة التي منها نودي شجرة العوسج ومنها
كانت عصاه ولما اصبح قال له شعيب صلوات الله عليهما اذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ
على يمينك فان الكلأ وان كان بها اكثر الا ان فيها تنينا اخشاه عليك وعلى الغنم فاخذت
الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها ومشى على اثرها فاذا عشب وريف لم ير مثله فنام
فاذا بالتنين قد اقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت الى جنب موسى عليه السلام
دامية فلما ابصرها دامية والتنين مقتولا ارتاح لذلك ولما راح الى شعيب عليهما السلام
مس الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فاخبره موسى عليه السلام ففرح
وعلم ان لموسى وللعصا شأنا وقال له اني وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كل ادرع
ودرعاء فاوحي اليه في المنام ان اضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ثم سقى فما اخطأت
واحدة الا وضعت ادرع ودرعاء فوفى له بشرطه والفاء في قوله تعالى فلما قضى موسى
الاجل فصيحة اي فعقد العقدين وباشر موسى ما التزمه فلما اتم الاجل وسار باهله
نحو مصر باذن من شعيب عليهما السلام روي انه عليه السلام قضى ابعد الاجلين
ومكث عنده بعد ذلك عشر سنين ثم عزم على العود الى مصر فاستأذنه في ذلك فاذن
له فخرج باهله آنس من جانب الطور اي ابصر من الجهة التي تلي الطور نارا قال
لاهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر الطريق وقد كانوا ضلوه او
جذوة اي عود غليظ سواء كانت في رأسه نار او لا قال قائلهم باتت حواطب ليلى
يلتمسن لها جزل الجذى غير خوار ولا دعر وقال والقى على قبس من النار جذوة
شديدا عليها حرها والتهابها ولذلك بين بقوله تعالى من النار وقرئ بكسر
الجيم وبضمها وكلها لغات لعلكم تصطلون اي تستدفئون فلما اتاها اي
النار التي آنسها نودي من شاطئ الوادي الايمن اي اتاه النداء من الشاطئ الايمن
بالنسبة الى موسى عليه السلام في البقعة المباركة متصل بالشاطئ او صلة لنودي
من الشجرة بدل اشتمال من شاطئ لانها كانت ثابتة على الشاطئ ان يا موسى اني
انا الله رب العالمين وهذا وان خالف لفظا لما في طه والنمل لكنه موافق له في المعنى
المراد وان الق عصاك عطف على ان يا موسى وكلاهما مفسر لنودي والفاء في
قوله تعالى فلما رآها تهتز فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت تعويلا على دلالة الحال

اى تجر صح

عليها اشعارًا بغاية سرعة تحقق مدلو لاتها اى فالقاها فصارت ثعبانًا فاهتزت فلما رأها
تهتز كانها جان اى فى سرعة الحركة مع غاية عظم جثتها ولى مدبرًا اى منهزمًا من الخوف
ولم يعقب اى لم يرجع ياموسى اى قيل ياموسى اقبل ولا تخف انك من الامنين
عن المخاوف فانه لايخاف لدى المرسلون اسلك يدك فى جيبك اى ادخلها فيه تخرج
بيضاء من غير سوء اى عيب واضمم اليك جناحك اى يديك المبسوطتين المبسوطتين
لتتقى بها الحية كالخايف الفزع بادخال اليمنى تحت العضد الايسر واليسرى تحت الايمن او بادخالهما
فى الجيب فيكون تكريرًا لغرض آخر هو ان يكون فى وجه العدو واظهار جراءة ومبدأ لظهور
معجزة ويجوز ان يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا ثعبانًا استعارة من حال
الطاير فانه اذا خاف نشر جناحيه واذا امن واطمأن ضمهما اليه من الرهب اى من اجل الرهب
اى اذا اعتراك الخوف فافعل ذلك تجلدًا وضبطًا لنفسك وقرئ بضم الراء وسكون الهاء وبضمها والكل لغات فذانك اشارة الى العصا واليد وقرئ بتشديد النون فالمخفف مثنى
ذاك والمشدد مثنى ذلك برهانان حجتان نيرتان وبرهان فعلان لقولهم ابره الرجل
اذا ابيض ويقال للمراة البيضاء برهاء وبرهرهة ونظيره تسمية الحجة سلطانًا من التسليط
وهو الزيت لانارتها وقيل هو فعلال لقولهم برهن ومن فى قوله تعالى من ربك متعلقة
بمحذوف هو صفة لبرهانان اى كائنان منه تعالى الى فرعون وملائه واصلان ومنتهيان اليهم انهم كانوا قومًا فاسقين خارجين عن حدود الظلم والعدوان
فكانوا احقاء بان نرسلك اليهم بهاتين المعجزتين الباهرتين قال رب انى قتلت منهم
نفسًا فاخاف ان يقتلون بمقابلتها واخى هرون هو افصح منى لسانًا فارسله معى ردءًا
اى معينًا وهو فى الاصل اسم مايعان به كالدف وقرئ ردًا بالتخفيف يصدقنى بتلخيص
الحق وتقرير الحجة بتوضيحها وتزييف الشبهة انى اخاف ان يكذبون ولسانى لايطاوعنى
عند المحاجة وقيل المراد تصديق القوم لتقريره وتوضيحه لكنه اسند اليه اسناد الفعل
الى السبب وقرئ يصدقنى بالجزم على انه جواب الامر قال سنشد عضدك باخيك اى
سنقويك به فان قوة الشخص بشدة اليد على مزاولة الامور ولذلك يعبر عنه باليد
وشدتها بشدة العضد ونجعل لكما سلطانًا اى تسلطًا وغلبة وقيل حجة وليس بذاك
فلا يصلون اليكما باستيلاء او محاجة باياتنا متعلق بمحذوف قد صرح به فى مواضع
آخر اى اذهبا باياتنا او بنجعل اى نسلطكما باياتنا او بمعنى لايصلون اى تمتنعون
منهم بها وقيل هو قسم وجوابه لايصلون وقيل هو بيان للغالبون فى قوله تعالى انتما
ومن اتبعكما الغالبون بمعنى انه صلة لما يبينه او صلة له على ان اللام للتعريف لابمعنى الذى
فلما جاءهم موسى باياتنا بينات اى واضحات الدلالة على صحة رسالة موسى عليه
السلام منه تعالى والمراد بها العصا واليد اذ هما اللتان اظهرهما موسى عليه السلام
اذ ذاك والتعبير عنهما بصيغة الجمع قد مر سره فى سورة طه قالوا ما هذا الا سحر مفترى
اى سحر مختلق لم يفعل قبل هذا مثله او سحر تعمله ثم تفتريه على الله تعالى او سحر
موصوف بالافتراء كسائر اصناف السحر وما سمعنا بهذا اى السحر او ادعاء النبوة فى
ابائنا الاولين اى واقعًا فى ايامهم وقال موسى ربى اعلم بمن جاء بالهدى من
عنده يريد به نفسه وقرئ قال بغير واو لانه جواب عن مقالهم ووجه العطف ان المراد
حكاية القولين ليوازن السامع بينهما فيميز صحيحها من الفاسد ومن تكون له عاقبة
الدار اى العاقبة المحمودة فى الدار وهى الدنيا وعاقبتها الاصلية هى الجنة لانها خلقت
مجازًا الى الآخرة ومزرعة لها والمقصود بالذات منها الثواب واما العقاب فمن نتايج
اعمال العصاة وسيئات الغواة وقرئ يكون بالياء التحتانية انه لايفلح الظالمون اى
لايفوزون بمطلوب ولا ينجون عن محذور وقال فرعون يا ايها الملأ ما علمت لكم
من اله غيرى قاله اللعين بعد ما جمع السحرة وتصدى للمعارضة فكان من امرهم ما كان
فاوقد لى يا هامان على الطين اى اصنع آجرًا فاجعل لى منه صرحًا اى قصرًا رفيعًا
لعلى اطلع الى اله موسى كانه توهم انه لو كان لكان جسمًا فى السماء يمكن الرقى اليه ثم قال

وانى لاظنه من الكاذبين اى اراد ان يبنى له رصدًا يترصد منه اوضاع الكواكب فيرى
هل فيها ما يدل على بعثة رسول وتبدل دولة وقيل المراد بنفى العلم نفى المعلوم كما فى
قوله تعالى قل اتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الارض فان معناه بما ليس فيهن وهذا من
خواص العلوم الفعلية فانها لازمة لتحقق معلوماتها فيلزم من انتفائها انتفاء
معلوماتها ولا كذلك العلوم الانفعالية قيل اول من اتخذ الآجر فرعون ولذلك امر باتخاذه
على وجه يتضمن تعليم الصنعة مع ما فيه من تعظيم ولذلك نادى هامان باسمه بيا فى وسط
الكلام واستكبر هو وجنوده فى الارض ارض مصر بغير الحق بغير استحقاق وظنوا انهم
الينا لا يرجعون بالبعث للجزاء وقرئ بفتح الياء وكسر الجيم من رجع رجوعًا والاول من
رجوع رجعًا وهو انسب بالمقام فاخذناه وجنوده عقيب ما بلغوا من الكفر والعتو
اقصى الغايات فنبذناهم فى اليم قد مر تفصيله وفيه من تفخيم شأن الاخذ وتهويله
واستحقار المأخوذين المنبوذين ما لا يخفى كانه تعالى اخذهم مع كثرتهم فى كف وطرحهم فى البحر ونظيره قوله تعالى وما قدروا الله حق قدره والارض جميعًا قبضته يوم
القيمة والسموات مطويات بيمينه فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وبينها للناس
ليعتبروا بها وجعلناهم اى صيرناهم فى عهدهم ائمة يدعون الناس الى النار اى الى ما
يؤدى اليها من الكفر والمعاصى اى قدوة يقتدى بهم اهل الضلال لما مر من اختيارهم
الى تحصيل تلك الحالة وقيل سميناهم ائمة دعاة الى النار كما فى قوله تعالى وجعلوا
الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا فالانسب حينئذ ان يكون الجعل بعدهم فيما بين الامم
ويكون الدعوة الى نفس النار وقيل معنى الجعل منع الالطاف الصارفة عن ذلك ويوم
القيمة لا ينصرون بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه واتبعناهم فى هذه
الدنيا لعنة طردًا وابعادًا من الرحمة ولعنًا من اللاعنين حيث لا يزال يلعنهم الملائكة
عليهم السلام والمؤمنون خلفًا عن سلف ويوم القيمة هم من المقبوحين من
المطرودين المبعدين وقيل من الموسومين بعلامة منكرة كزرقة العيون وسواد الوجه
قال ابن عباس رضى الله عنهما يقال قبحه الله وقبحه اذا جعله قبيحًا وقال ابو عبيدة من
المقبوحين من المهلكين ويوم القيمة اما متعلق بالمقبوحين على ان اللام للتعريف لابمعنى
الذى او بمحذوف يفسره ذلك كانه قيل وقبحوا يوم القيمة نحو لعملكم من القالين ولقد آتينا
موسى الكتاب اى التوراة من بعد ما اهلكنا القرون الاولى هم اقوام نوح وهود وصالح
ولوط عليهم السلام والتعرض لبيان كون ايتائها بعد اهلاكهم للاشعار بمساس الحاجة
الداعية اليه تمهيدًا لما يعقبه من بيان الحاجة الداعية الى انزال القرآن الكريم على رسول
الله صلى الله عليه وسلم فان اهلاك القرون الاولى من موجبات اندراس معالم
الشرايع وانطماس آثارها واحكامها المؤدين الى اختلال نظام العالم وفساد
احوال الامم المستدعين للتشريع الجديد بتقرير الاصول الباقية على ممر الدهور و
ترتيب الفروع المتبدلة بتبدل العصور وتذكير احوال الامم الخالية الموجبة للاعتبار
كانه قيل ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجة الى ايتائها بصاير للناس اى
انوارًا لقلوبهم تبصر بها الحقايق وتميز بين الحق والباطل حيث كانت عميًا عن الفهم والادراك
بالكلية فان البصيرة نور القلب الذى يستبصر كما ان البصر نور العين الذى به تبصر
وهدى اى هداية الى الشرايع والاحكام التى هى سبيل الله تعالى ورحمة حيث ينال من
عمل به رحمة الله تعالى وانتصاب الكل على الحالية من الكتاب على انه نفس البصاير والهدى
والرحمة او على حذف المضاف اى ذا بصاير الخ وقيل على العلة اى آتيناه الكتاب للبصاير
والهدى والرحمة لعلهم يتذكرون ليكونوا على حال يرجى منهم التذكر وقد مر تحقيق
القول فى ذلك عند قوله تعالى لعلكم تتقون من سورة البقرة وقوله تعالى وما كنت
بجانب الغربى شروع فى بيان انزال القرآن الكريم ايضًا واقع فى زمان شدة مساس
الحاجة اليه واقتضاء الحكمة له البتة وقد صدر بتحقيق كونه وحيًا صادقًا من عند الله عز
وجل ببيان ان الوقوف على ما فصل من الاحوال لا يتسنى الا بالمشاهدة او التعلم ممن شاهدها وحيث

انتفى كلاهما تبين انه بوحى من علام الغيوب لامحالة على طريقة قوله تعالى وماكنت لديهم اذ يلقون
اقلامهم ايهم يكفل مريم الآية اى وماكنت بجانب الجبل الغربى او المكان الغربى الذى وقع
فيه الميقات على حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه او الجانب الغربى على اضافة الموصوف
الى الصفة كمسجد الجامع اذ قضينا الى موسى الامر اى عهدنا اليه واحكمنا امر نبوته بالوحى
وايتاء التوراة وماكنت من الشاهدين اى من جملة الشاهدين للوحى وهم السبعون
المختارون للميقات حتى تشاهد ماجرى من امر موسى فى ميقاته وكتبة التوراة
له فى الالواح فتخبره للناس ولكنا انشانا قرونا اى ولكنا خلقنا بين زمانك و
زمان موسى قرونا كثيرة فتطاول عليهم العمر وتمادى الامد فتغيرت الشرايع
والاحكام وعميت عليهم الانباء لاسيما على آخرهم فاقتضى الحال التشريع الجديد فاوحينا
اليك فحذف المستدرك اكتفاء بذكر مايوجبه ويدل عليه وقوله تعالى وماكنت
ثاويا فى اهل مدين نفى لاحتمال كون معرفته عليه السلام للقصة بالسماع ممن شاهدها
اى وماكنت مقيما فى اهل مدين من شعيب والمؤمنين به وقوله تعالى تتلوا عليهم اى تقرأ
على اهل مدين بطريق التعلم منهم آياتنا الناطقة بالقصة اما حال من المستكن فى
ثاويا او خبر ثان لكنت ولكنا كنا مرسلين اياك وموحين اليك تلك الآيات ونظايرها
وماكنت بجانب الطور اذ نادينا اى وقت ندائنا موسى انى انا الله رب العالمين
واستنبائنا اياه وارسالنا له الى فرعون ولكن رحمة من ربك اى ولكن ارسلناك
بالقرآن الناطق بماذكر وبغيره لرحمة عظيمة كائنة منا لك وللناس وقيل علمناك وقيل
وعرفناك ذلك وليس بذاك كما ستعرفه والالتفات الى اسم الرب للاشعار بعلة الرحمة
وتشريفه عليه السلام بالاضافة وقد اكتفى عن ذكر المستدرك ههنا بذكر مايوجبه من
جهته تعالى كما اكتفى فى الاول بذكر مايوجبه من جهة الناس وصرح به فيما بينهما تنصيصا
على ماهو المقصود واشعارا بانه المراد فيهما ايضا ولله در شان التنزيل وقوله تعالى
لتنذر قوما متعلق بالفعل المعلل بالرحمة فهو ماذكرنا من ارسالهم بالقرآن حتما لما
انه المعلل بالانذار لا بتعليم ماذكر وقرئ رحمة بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى
ما اتاهم من نذير من قبلك صفة لقوما اى لم يأتهم نذير لوقوعهم فى فترة بينك وبين
عيسى حسبما هى خمسمائة وخمسون سنة او بينك وبين اسمعيل بناء على ان دعوة موسى
وعيسى كانت مختصة ببنى اسرائيل لعلهم يتذكرون اى يتعظون بانذارك وتغيير الترتيب
الوقوعى بين قضاء الامر والثواء فى اهل مدين والنداء للتنبيه على ان كلا من ذلك
برهان مستقل على ان حكايته عليه السلام للقصة بطريق الوحى الالهى ولو ذكر اولا
نفى ثوائه عليه السلام فى اهل مدين ثم نفى حضوره عليه السلام عند النداء ثم نفى
حضوره عند قضاء الامر كما هو الموافق للترتيب الوقوعى لربما توهم ان الكل دليل
واحد على ماذكر كما مر فى قصة البقرة ولولا ان تصيبهم مصيبة اى عقوبة
بما قدمت ايديهم اى بما اقترفوا من الكفر والمعاصى فيقولوا عطف على تصيبهم
داخل فى حيز لولا الامتناعية على ان مدار انتفاء مايجاب به هو امتناعه لا امتناع
المعطوف عليه وانما ذكر فى حيزها للايذان بانه السبب الملجئ لهم الى قولهم ربنا لولا
ارسلت الينا رسولا اى هلا ارسلت الينا رسولا مؤيدا من عندك بالآيات فنتبع
آياتك الظاهرة على يده وهو جواب لولا الثانية ونكون من المؤمنين بها وجواب
لولا الاولى محذوف ثقة بدلالة الحال عليه والمعنى لولا قولهم هذا عند اصابة عقوبة
جناياتهم التى قدموها ما ارسلناك لكن لما كان قولهم ذلك محققا لامحيد عنه ارسلناك
قطعا لمعاذيرهم بالكلية فلما جاءهم اى اهل مكة الحق من عندنا وهو القرآن المنزل
عليه عليه الصلوة والسلام قالوا تعنتا واقتراحا لولا اوتى يعنون عليه السلام
مثل ما اوتى موسى من الكتاب المنزل جملة واما اليد والعصا فلا تعلق لهما بالمقام كساير
معجزاته عليه السلام وقوله تعالى اولم يكفروا بما اوتى موسى من قبل رد عليهم واظهار لكون
ما قالوه تعنتا محضا لا طلبا لما يرشدهم الى الحق اى الم يكفروا من قبل هذا القول بما اوتى

موسى

موسى من الكتاب كما كفروا بهذا الحق وقوله تعالى قالوا استيناف مسوق لتقرير كفرهم المستفاد
من الانكار السابق وبيان كيفيته وقوله تعالى سحران خبر لمبتدأ محذوف اى هما يعنون
ما اوتى محمد وما اوتى موسى عليهما السلام سحران تظاهرا اى تعاونا بتصديق
كل واحد منهما الآخر وذلك انهم بعثوا رهطا منهم الى رؤساء اليهود فى عيد لهم
فسألوهم عن شأنه عليه السلام فقالوا انا نجده فى التوراة بنعته وصفته فلما رجع الرهط
واخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك وقوله تعالى وقالوا انا بكل اى بكل واحد من الكتابين
كافرون تصريح بكفرهم بهما وتاكيد لكفرهم المفهوم من تسميتهما سحرا وذلك لغاية
عتوهم وتماديهم فى الكفر والطغيان وقرئ ساحران تظاهرا يعنون موسى ومحمدا صلى الله
عليهما وسلم هذا هو الذى يستدعيه جزالة النظم الكريم الجليل فتامل ودع عنك ما قيل
وقيل الا ترى الى قوله تعالى قل فأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما مما اوتياه
من التوراة والقرآن وسميتموهما سحرين فانه نص فيما ذكر وقوله تعالى اتبعه جواب
للامر اى ان تأتوا به اتبعه ومثل هذا الشرط مما يأتى به من يدل بوضوح حجته و
سنوح محجته لان الاتيان بما هو اهدى من الكتابين امر بين الاستحالة فيوسع دائرة
الكلام للتبكيت والافحام ان كنتم صادقين اى فى انهما سحران مختلقان وفى ايراد
كلمة ان مع امتناع صدقهم نوع تهكم بهم فان لم يستجيبوا لك اى فان لم يفعلوا
ما كلفتهم من الاتيان بكتاب اهدى منهما كقوله تعالى فان لم تفعلوا وانما عبر عنه
بالاستجابة ايذانا بانه عليه السلام على كمال امن من امره كأن امره عليه السلام لهم
بالاتيان بماذكر دعاء لهم الى امر يريد وقوعه والاستجابة تتعدى الى الدعاء بنفسه
والى الداعى باللام فيحذف الدعاء عند ذلك غالبا ولا يكاد يقال استجاب الله له
دعاءه فاعلم انما يتبعون اهواءهم الزايفة من غير ان يكون لهم متمسك ما اصلا
اذ لو كان لهم ذلك لاتوا به ومن اضل ممن اتبع هواه استفهام انكارى للنفى اى لا
اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله اى هو اضل من كل ضال وان كان
ظاهر السبك لنفى الاضل لا لنفى المساوى كما مر فى نظايره مرارا وتقييد اتباع الهوى
بعدم الهدى من الله تعالى لزيادة التقرير والاشباع فى التشنيع والتضليل والا
فمقارنته لهدايته تعالى بينة الاستحالة ان الله لا يهدى القوم الظالمين الذين ظلموا
انفسهم بالانهماك فى اتباع الهوى والاعراض عن الآيات الهادية الى الحق المبين
ولقد وصلنا لهم القول وقرئ بالتخفيف اى انزلنا القرآن عليهم متواصلا بعضه
اثر بعض حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة او متتابعا وعدا ووعيدا وقصصا وعبرا
ومواعظ ونصايح لعلهم يتذكرون فيؤمنون بما فيه الذين آتيناهم الكتاب من
قبله اى من قبل ايتاء القرآن هم به يؤمنون وهم مؤمنوا اهل الكتاب وقيل
اربعون من اهل الانجيل اثنان وثلاثون جاؤا مع جعفر من الحبشة وثمانية من الشام
واذا يتلى اى القرآن عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا اى الحق الذى كنا نعرف
حقيته وهو استيناف لبيان ما اوجب ايمانهم وقوله تعالى انا كنا من قبله اى من قبل
نزوله مسلمين بيان لكون ايمانهم به امرا متقادم العهد لما شاهدوا ذكره فى الكتب
المتقدمة وانهم على دين الاسلام قبل نزول القرآن اولئك الموصوفون بماذكر من
النعوت يؤتون اجرهم مرتين مرة على ايمانهم بكتابهم ومرة على ايمانهم بالقرآن بما
صبروا بصبرهم وثباتهم على الايمانين او على الايمان بالقرآن قبل النزول وبعده او
على اذى من هاجرهم من اهل دينهم ومن المشركين ويدرؤن بالحسنة السيئة
اى يدفعون بالطاعة المعصية لقوله عليه السلام اتبع الحسنة السيئة تمحها ومما
رزقناهم ينفقون فى سبيل الخير واذا سمعوا اللغو من اللاغين اعرضوا عنه
عن اللغو تكرما كقوله تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما وقالوا لهم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم
سلام عليكم بطريق المتاركة والتوديع لا نبتغى الجاهلين لا نطلب صحبتهم
ولا نريد مخالطتهم انك لا تهدى هداية موصلة الى البغية لا محالة من احببت

من الناس ولا تقدر على ان تدخله في الاسلام وان بذلت فيه غاية المجهود وجاوزت في السعي
كل حد معهود ولكن الله يهدي من يشاء ان يهديه فيدخله في الاسلام وهو اعلم
بالمهتدين بالمستعدين لذلك والجمهور على انها نزلت في ابي طالب فانه لما احتضر جاءه
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا عم قل لا اله الا الله كلمة احاج بها لك عند الله
قال يا ابن اخي قد علمت انك لصادق ولكني اكره ان يقال جزع عند الموت ولولا ان
يكون عليك وعلى بني ابيك غضاضة بعدي لقلتها ولاقررت بها عينك عند الفراق لما ارى
من شدة وجدك ونصيحتك ولكني سوف اموت على ملة الاشياخ عبد المطلب وهاشم
وعبد مناف وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا نزلت في الحارث بن
عثمان بن نوفل بن عبد مناف حيث اتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال نحن نعلم انك على
الحق ولكنا نخاف ان اتبعناك وخالفنا العرب وانما نحن اكلة رأس ان يتخطفونا من ارضنا فرد
عليهم بقوله تعالى اولم نمكن لهم حرما امنا اي الم نعصمهم ولم نجعل مكانهم حرما ذا امن لحرمة
البيت الحرام الذي تتناحر العرب حوله وهم امنون فيه يجبى اليه وقرئ تجبى اي يجمع ويحمل
اليه ثمرات كل شيء من كل اوب والجملة صفة اخرى لحرما دافعة لما عسى يتوهم من تضررهم
بانقطاع الميرة رزقا من لدنا فاذا كان حالهم ما ذكر وهم عبدة اصنام فكيف يخافون
التخطف اذا ضموا الى حرمة البيت حرمة التوحيد ولكن اكثرهم لا يعلمون اي
جهلة لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموا ذلك وقيل هو متعلق بقوله تعالى من لدنا اي
قليل منهم يتدبرون فيعلمون ان ذلك رزق من عند الله تعالى اذ لو علموا لما خافوا غيره
وانتصاب رزقا على انه مصدر مؤكد لمعنى يجبى وحال من الثمرات على انه بمعنى مرزوقا
لتخصصها بالاضافة ثم بين ان الامر بالعكس وانهم احقاء بان يخافوا باس الله تعالى
بقوله وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها اي وكثيرا من اهل قرية كانت حالهم
كحال هؤلاء في الامن وخفض العيش والدعة حتى اشروا فدمرنا عليهم وخربنا ديارهم
فتلك مساكنهم خاوية بما ظلموا لم تسكن من بعدهم من بعد تدميرهم الا
قليلا اي الا زمانا قليلا اذ لا يسكنها الا المارة يوما او بعض يوم او لم يسكن من
يسكنها الا قليلا من شؤم معاصيهم وكنا نحن الوارثين منهم اذ لم يخلفهم
احد يتصرف تصرفهم في ديارهم وسائر ذات ايديهم وانتصاب معيشتها بنزع
الخافض او بجعلها ظرفا بنفسها كقولك زيد ظني مقيم او باضمار زمان مضاف اليه
او بجعله مفعولا لبطرت بتضمين معنى كفرت وما كان ربك مهلك القرى بيان
للعناية الربانية اثر بيان اهلاك القرى المذكورة اي وما صح وما استقام بل استحال
في سنته المبنية على الحكم البالغة او ما كان في حكمه الماضي وقضائه السابق ان
يهلك القرى قبل الانذار بل كانت عادته ان لا يهلكها حتى يبعث في امها اي في
اصلها وقصبتها التي هي اعمالها وتوابعها لكون اهلها افطن وانبل رسولا يتلو عليهم
اياتنا الناطقة بالحق ويدعوهم اليه بالترغيب والترهيب وذلك لالزام الحجة وقطع
المعذرة بان يقولوا لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع اياتك والالتفات الى نون العظمة
لتربية المهابة وادخال الروعة وقوله تعالى وما كنا مهلكي القرى عطف على ما كان
ربك وقوله تعالى الا واهلها ظالمون استثناء مفرغ من اعم الاحوال اي وما كنا
مهلكين لاهل القرى بعدما بعثنا في امها رسولا يدعوهم الى الحق ويرشدهم اليه
في حال من الاحوال الا حال كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفر باياتنا فالبعث
غاية لعدم صحة الاهلاك بموجب السنة الالهية لا لعدم وقوعه حتى يلزم تحقق
الاهلاك عقيب البعث وقد مر تحقيقه في سورة بني اسرائيل وما اوتيتم من شيء من
امور الدنيا فمتاع الحيوة الدنيا وزينتها اي فهو شيء شانه ان يتمتع ويتزين به اياما
قلائل وما عند الله وهو الثواب خير في نفسه من ذلك لانه لذة خالصة عن شوائب
الالم وبهجة كاملة عارية عن سمة الهم وابقى لانه ابدي افلا تعقلون
الا تتفكرون فلا تعقلون هذا الامر الواضح فتستبدلون الذي هو ادنى بالذي هو خير

وقرئ

وقرئ على الالتفات المنبئ على اقتضاء سوء صنيعهم الاعراض عن مخاطبتهم افمن وعدناه
وعدا حسنا اي وعدا بالجنة فان حسن الوعد بحسن الموعود فهو لاقيه اي مدركه
لا محالة لاستحالة الخلف في وعده تعالى ولذلك جيء بالجملة الاسمية المفيدة لتحققه البتة
وعطفت بالفاء المنبئة عن معنى السببية كمن متعناه متاع الحيوة الدنيا الذي هو مشوب
بالالام منغص بالاكدار مستتبع للتحسر على الانقطاع ومعنى الفاء الاولى ترتيب انكار
التشابه بين اهل الدنيا واهل الاخرة على ما قبلها من ظهور التفاوت بين متاع الحيوة الدنيا
وبين ما عند الله تعالى اي ابعد هذا التفاوت الظاهر يسوى بين الفريقين وقوله كانه
قيل كمن متعناه متاع الحيوة الدنيا ثم هو يوم القيمة من المحضرين اي من الذين يحضرون النار او العذاب واثار
الجملة الاسمية للدلالة على التحقق حتما وفي جعله من جملة المحضرين من التهويل ما لا يخفى
وثم للتراخي في الزمان او في الرتبة وقرئ ثم هو بسكون الهاء تشبيها للمنفصل بالمتصل
ويوم يناديهم منصوب بالعطف على يوم القيمة لاختلافهما عنوانا وان اتحدا ذاتا او
باضمار اذكر فيقول تفسير للنداء اين شركائي الذين كنتم تزعمون اي الذين كنتم تزعمونهم
شركائي فحذف المفعولان معا ثقة بدلالة الكلام عليهما قال استيناف مبني على حكاية
السؤال كانه قيل فماذا صدر عنهم حينئذ فقيل قال الذين حق عليهم القول وهم
شركاؤهم من الشياطين او رؤساؤهم الذين اتخذوهم اربابا من دون الله تعالى بان
اطاعوهم في كل ما امروهم به ونهوهم عنه ومعنى حق عليهم القول انه ثبت مقتضاه
وتحقق مؤداه وهو قوله تعالى لاملان جهنم من الجنة والناس اجمعين وغيره من ايات الوعيد
وتخصيصهم بهذا الحكم مع شموله للاتباع ايضا لاصالتهم في الكفر واستحقاق العذاب
حسبما يشعر به قوله تعالى لاملان جهنم منك وممن تبعك منهم ومسارعتهم الى الجواب
مع كون السؤال للعبدة اما لتفطنهم ان السؤال عنهم لاستحضارهم وتوبيخهم بالاضلال
وجزمهم بان العبدة سيقولون هؤلاء اضلونا واما لان العبدة قد قالوه اعتذارا
وهؤلاء انما قالوا ما قالوا ردا لقولهم الا انه لم يحك قول العبدة ايجازا لظهوره
ربنا هؤلاء الذين اغوينا اي هم الذين اغويناهم فحذف الراجع الى الموصول ومرادهم
بالاشارة بيان انهم يقولون ما يقولون بمحضر منهم وانهم غير قادرين على انكاره
ورده وقوله تعالى اغويناهم كما غوينا هو الجواب حقيقة وما قبله تمهيد له اي ما اكرهناهم
على الغي وانما اغويناهم بطريق الوسوسة والتسويل لا بالقسر والالجاء فغووا باختيارهم
غيا مثل غينا باختيارنا ويجوز ان يكون الذين صفة لاسم الاشارة واغويناهم الخبر
تبرأنا اليك منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصي هوى منهم وهو تقرير لما قبله و
لذلك لم يعطف وكذا قوله تعالى ما كانوا ايانا يعبدون اي ما كانوا يعبدوننا وانما كانوا
يعبدون اهواءهم وقيل ما مصدرية متصلة بقوله تعالى تبرأنا اي تبرأنا من عبادتهم
ايانا وقيل ادعوا شركاءكم اما تهكما بهم او تبكيتا لهم فدعوهم لفرط الحيرة فلم
يستجيبوا لهم ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة ورأوا العذاب
قد غشيهم لو انهم كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب
او الى الحق لما لقوا ما لقوا وقيل لو للتمني اي تمنوا لو انهم كانوا مهتدين ويوم يناديهم
فيقول ماذا اجبتم المرسلين عطف على ما قبله سئلوا اولا عن اشراكهم وثانيا عن جوابهم
للرسل الذين نهوهم عن ذلك فعميت عليهم الانباء يومئذ اي صارت كالعمي
عنهم لا تهتدي اليهم واصله فعموا عن الانباء وقد عكس للمبالغة والتنبيه على ان
ما يحضر الذهن يفيض عليه ويصل اليه من خارج فاذا اخطأه لم يكن له حيلة الى
استحضاره وتعدية الفعل بعلى لتضمنه معنى الخفاء والاشتباه والمراد بالانباء اما ما
طلب منهم مما اجابوا به الرسل او جميع الانباء وهي داخلة فيه دخولا اوليا واذا كانت الرسل
عليهم السلام يفوضون العلم في ذلك المقام الهائل الى علام الغيوب مع نزاهتهم عن غائلة
السؤال فما ظنك باولئك الضلال من الامم فهم لا يتساءلون لا يسأل بعضهم بعضا
عن الجواب لفرط الدهشة او العلم بان الكل سواء في الجهل فاما من تاب من الشرك وامن

و عمل صالحًا اى جمع بين الايمان والعمل الصالح فعسى ان يكون من المفلحين اى الفائزين
بالمطلوب عنده تعالى الناجين عن المهروب وعسى للتحقيق على عادة الكرام او للترجى من قبل
التائب عن المهروب بمعنى فليتوقع الافلاح وربك يخلق ما يشاء اى يخلقه و يختار
ما يشاء اختياره من غير ايجاب عليه ولا منع له اصلا ماكان لهم الخيرة اى التخير كالطيرة
بمعنى التطير والمراد نفى الاختيار المؤثر عنهم و ذلك مما لا ريب فيه وقيل المراد انه ليس
لاحد من خلقه ان يختار عليه ولذلك خلا عن العاطف ويؤيده ما روى انه نزل فى
قول الوليد بن المغيرة لولا نزل هذا القران على رجل من القريتين عظيم والمعنى لا يبعث الله
تعالى الرسل باختيار المرسل اليهم وقيل معناه ويختار الذى كان لهم فيه الخيرة والصلاح
سبحان الله اى تنزه بذاته تنزها خاصًا به من ان ينازعه احد او يزاحم اختياره
اختياره وتعالى عما يشركون عن اشراكهم او عن مشاركة ما يشركونه به وربك
يعلم ما تكن صدورهم كعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقده وما يعلنون
كالطعن فيه وهو الله اى المستحق للعبادة لا اله الا هو لا احد يستحقها الا هو
له الحمد فى الاولى والاخرة لانه المولى للنعم كلها عاجلها واجلها على الخلق كافة يحمده
المؤمنون فى الاخرة كما حمدوه فى الدنيا بقولهم الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن الحمد لله الذى
صدقنا وعده ابتهاجًا بفضله والتذاذًا بحمده وله الحكم اى القضاء النافذ فى كل شئ من
غير مشاركة فيه لغيره واليه ترجعون بالبعث لا الى غيره قل تقريرًا لما ذكر ارايتم اى
اخبرونى ان جعل الله عليكم الليل سرمدًا دائمًا من السرد وهو المتابعة والاطراد
والميم مزيدة كما فى دلامص من الدلاص يقال درع دلاص اى ملساء لينة الى يوم القيمة
باسكان الشمس تحت الارض او تحريكها حول الافق الغائر من اله غير الله صفة لاله
يأتيكم بضياء صفة اخرى له عليها يدور امر التبكيت والالزام كما فى قوله تعالى قل من يرزقكم
من السماء والارض وقوله فمن يأتيكم بماء معين ونظائرهما خلا انه قصد بيان انتفاء
الموصوف بانتفاء الصفة ولم يقل هل اله الخ لايراد التبكيت والالزام على زعمهم وقرئ
بضئاء بهمزتين افلا تسمعون هذا الكلام الحق سماع تدبر واستبصار حتى
تذعنوا له وتعملوا بموجبه قل ارايتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدًا الى يوم القيمة
باسكانها فى وسط السماء او بتحريكها على مدار فوق الافق من اله غير الله يأتيكم
بليل تسكنون فيه استراحة من متاعب الاسفار ولعل تجريد الضياء عن ذكر منافعه لكونه
مقصودًا بذاته ظاهر الاستتباع لما نيط به من المنافع افلا تبصرون هذه المنفعة الظاهرة التى لا تخفى
على من له بصر ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه اى فى الليل ولتبتغوا من
فضله فى النهار بانواع المكاسب ولعلكم تشكرون ولكى تشكروا نعمته تعالى فعل
ما فعل او لتعرفوا نعمته تعالى وتشكروه عليها ويوم يناديهم منصوب باذكر
فيقول اين شركائى الذين كنتم تزعمون تقريع اثر تقريع للاشعار بانه لا شئ
اجلب لغضب الله عز وجل من الاشراك كما لا شئ ادخل فى مرضاته من توحيده سبحانه
وقوله تعالى ونزعنا عطف على يناديهم وصيغة الماضى للدلالة على التحقق او حال من
فاعله باضمار قد والالتفات الى نون العظمة لابراز كمال الاعتناء بشان النزع وتهويله
اى اخرجنا من كل امة من الامم شهيدًا نبيًا يشهد عليهم بما كانوا عليه كقوله تعالى
فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد فقلنا لكل من تلك الامم هاتوا برهانكم على صحة
ما كنتم تدينون به فعلموا يومئذ ان الحق لله فى الالهية لا يشاركه فيها احد و
ضل عنهم اى غاب عنهم غيبة الضائع ما كانوا يفترون فى الدنيا من الباطل ان قارون
كان من قوم موسى كان ابن عمه يصهر ابن قاهث بن لاوى بن يعقوب وموسى
عليه السلام ابن عمران بن قاهث وقيل كان موسى عليه السلام ابن اخيه وكان
يسمى المنور لحسن صورته وقيل كان اقرأ بنى اسرائيل للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامرى
وقال اذا كانت النبوة لموسى والمذبح والقربان لهرون فما لى وروى انه لما جاوزهم
موسى البحر وصارت الرسالة والحبورة والقربان لهارون وجد قارون لنفسه وحسدهما

فقال

فقال لموسى الامر لكما و لست على شئ الى متى اصبر قال موسى عليه السلام هذا صنع الله تعالى
قال لا اصدقك حتى تأتى باية فامر روساء بنى اسرائيل ان يجئ كل واحد بعصاه فحزمها
والقاها فى القبة التى كان الوحى ينزل اليه فيها فكانوا يحرسون عصيهم بالليل فاصبحوا فاذا
بعصاها دون تهتز ولها ورق اخضر فقال قارون ماهو باعجب مما تصنع من
السحر ذلك قوله تعالى فبغى عليهم فيطلب الفضل عليهم وان يكونوا تحت امره او
ظلمهم قيل وذلك حين ملكه فرعون على بنى اسرائيل وقيل حسدهم وذلك ما ذكر
منه فى حق موسى وهرون عليهما السلام واتيناه من الكنوز اى الاموال
المدخرة ما ان مفاتحه اى مفاتح صناديقه وهو جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح
به وقيل خزائنه وقياس واحدها المفتح بالفتح لتنوء بالعصبة اولى القوة خبر ان و
الجملة صلة ماهو ثانى مفعولى اتى وناءبه الحمل اذا اثقله حتى اماله و العصبة والعصابة
الجماعة الكثيرة وقرئ لينوء بالياء على اعطاء المضاف حكم المضاف اليه كما
مر فى قوله تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين اذ قال له قومه منصوب بتنوء
وقيل ببغى ورد بان البغى ليس مقيدًا بذلك الوقت وقيل باتيناه ورد بان الايتاء
ايضا غير مقيد به وقيل بمضمر فقيل هو اذكر وقيل هو اظهر الفرح ويجوز ان يكون
منصوبًا بما بعده من قوله تعالى قال انما اوتيته ويكون الجملة مقررة لبغيه لا تفرح اى
لا تبطر والفرح فى الدنيا مذموم مطلقا لانه نتيجة حبها والرضى بها والذهول عن
ذهابها فان العلم بان ما فيها من اللذة مفارقة لا محالة توجب الترح حتمًا ولذلك قال تعالى
ولا تفرحوا بما اتاكم وعلل النهى ههنا بكونه مانعًا من محبته عز وجل ان الله لا يحب
الفرحين اى بزخارف الدنيا وابتغ وقرئ واتبع فيما اتاك الله من الغنى الدار الاخرة
اى ثواب الله تعالى فيها بصرفه الى ما يكون وسيلة اليه ولا تنس اى لا تترك ترك
المنسى نصيبك من الدنيا وهو ان تحصل بها اخرتك وتأخذ منها ما يكفيك و
احسن اى عباد الله تعالى كما احسن الله اليك فيما انعم به عليك وقيل احسن بالشكر
والطاعة كما احسن الله اليك بالانعام ولا تبغ الفساد فى الارض نهى عما كان عليه
من الظلم والبغى ان الله لا يحب المفسدين لسوء افعالهم قال مجيبًا لناصحيه انما
اوتيته على علم عندى كان يريد به الرد على قولهم كما احسن الله اليك لانبائه عن انه تعالى
انعم عليه بتلك الاموال والذخائر من غير سبب واستحقاق من قبله اى فضلت به على الناس
واستوجبت به التفوق عليهم بالمال والجاه وعلى علم فى موقع الحال وهو علم التوراة
وكان اعلمهم بها وقيل علم الكيميا وقيل علم التجارة والدهقنة وسائر المكاسب وقيل
علم فتح الكنوز والدفائن وعندى صفة له او متعلق باوتيته كقولك جاز هذا
عندى اى فى ظنى ورأيى اولم يعلم ان الله قد اهلك من قبله من القرون من هو اشد منه
قوة واكثر جمعًا توبيخ له من جهة الله عز وجل على اغتراره بقوته وكثرة ماله مع علمه
بذلك قراءة فى التوراة وتلقيا من موسى عليه السلام وسماعًا من حفاظ التواريخ وتعجيب
منه فالمعنى الم يقرأ التوراة ولم يعلم ما فعل الله تعالى باضرابه من اهل القرون السابقة
حتى لا يغتر بما اغتر به او رد لادعائه العلم وتعظمه به بنفى هذا العلم منه فالمعنى اعلم
ما ادعاه ولم يعلم هذا حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين ولا يسئل عن ذنوبهم
المجرمون سؤال استعلام بل يعذبون بها بغتة كان قارون لما هدد بذكر اهلاك
من قبله ممن كان اقوى منه واغنى اكد بذلك بان بين ان ذلك لم يكن مما يخص اولئك
المهلكين بل الله تعالى مطلع على ذنوب كافة المجرمين يعاقبهم عليها لا محالة فخرج
على قومه عطف على قال وما بينهما اعتراض وقوله تعالى فى زينته اما متعلق
بخرج او بمحذوف هو حال من فاعله اى فخرج عليهم كائنًا فى زينته قيل خرج
على بغلة شهباء عليه الارجوان وعليها سرج من ذهب ومعه اربعة الاف على زيه
وقيل عليهم وعلى خيولهم الديباج الاحمر وعن يمينه ثلاثمائة غلام وعن يساره
ثلاثمائة جارية بيض عليهن الحلى والديباج وقيل فى تسعين الفا عليهم المعصفرات

وهو اول يوم روى فيه المعصفر ﴿قال الذين يريدون الحيوة الدنيا﴾ من المؤمنين جريا
على سنن الجبلة البشرية من الرغبة فى السعة واليسار ﴿ياليت لنا مثل ما اوتى قارون﴾
وعن قتادة انهم تمنوه ليتقربوا به الى الله تعالى وينفقوه فى سبيل الخير وقيل كان المتمنون
قوما كفارا ﴿انه لذو حظ عظيم﴾ تعليل لتمنيهم وتاكيد له ﴿وقال الذين اوتوا العلم﴾ اى
باحوال الدنيا والاخرة كما ينبغى وانما لم يوصفوا بارادة ثواب الاخرة تنبيها على ان العلم
باحوال النشاتين يقتضى الاعراض عن الاولى والاقبال عن الثانية حتما وان تمنى المتمنين
ليس الا لعدم علمهم بهما كما ينبغى ﴿ويلكم﴾ دعاء بالهلاك شاع استعماله فى الزجر عما
لا يرتضى ﴿ثواب الله﴾ فى الاخرة ﴿خير﴾ مما تتمنونه ﴿لمن آمن وعمل صالحا﴾ فلا يليق بكم
ان تتمنوه غير مكتفين بثوابه تعالى ﴿ولا يلقاها﴾ اى هذه الكلمة التى تكلم بها العلماء او
ان الثواب فانه بمعنى المثوبة او الجنة او الايمان والعمل الصالح فانهما فى معنى السيرة والطريقة
﴿الا الصابرون﴾ اى على الطاعات وعن الشهوات ﴿فخسفنا به وبداره الارض﴾ روى
انه كان يؤذى موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه لقرابته حتى نزلت الزكوة
فصالحه عن كل الف على واحد فحسبه فاستكثره فعمد الى ان يفضح موسى عليه السلام بين
بنى اسرائيل فجعل لبغى من بغايا بنى اسرائيل الف دينار وقيل طشتا من ذهب مملوة
ذهبا فلما كان يوم عيد قام موسى عليه السلام خطيبا فقال من سرق قطعناه ومن
زنى غير محصن جلدناه ومن زنى محصنا رجمناه فقال قارون ولو كنت قال ولو كنت
قال ان بنى اسرائيل يزعمون انك فجرت بفلانة فاحضرت فناشدها عليه السلام ان
تصدق فقالت جعل لى قارون جعلا على ان ارميك بنفسى فخر موسى ساجدا لربه يبكى ويقول
يا رب ان كنت رسولك فاغضب لى فاوحى اليه ان مر الارض بما شئت فقال يا بنى اسرائيل ان الله
تعالى بعثنى الى قارون كما بعثنى الى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معى فليعتزل له
فاعتزلوا جميعا غير رجلين ثم قال يا ارض خذيهم فاخذتهم الى الركب ثم قال خذيهم فاخذتهم
الى الاوساط ثم قال خذيهم فاخذتهم الى الاعناق وهم يناشدونه عليه السلام بالله
تعالى وبالرحم وهو لا يلتفت اليهم لشدة غيظه ثم قال خذيهم فانطبقت عليهم فاصبحت
بنو اسرائيل يتناجون بينهم انما دعا عليه موسى عليه السلام ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله تعالى
حتى خسف بداره وامواله ﴿فما كان له من فئة﴾ جماعة مشفقة ﴿ينصرونه من دون
الله﴾ بدفع العذاب عنه ﴿وما كان من المنتصرين﴾ اى الممتنعين منه بوجه من الوجوه
يقال نصره من عدوه فانتصر اى منعه فامتنع ﴿واصبح الذين تمنوا مكانه﴾ منزلته ﴿بالامس﴾
منذ زمان قريب ﴿يقولون ويكان الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾ اى
يفعل كل واحد من البسط والقدر بمحض مشيئته لا لكرامة توجب البسط ولا لهوان
يقتضى القبض وويكان عند البصريين مركب من وى للتعجب وكان للتشبيه والمعنى ما
اشبه الامر ان الله يبسط الخ وعند الكوفيين من ويك بمعنى ويلك وان وتقديره ويك
اعلم ان الله وانما يستعمل عند التنبه على الخطاء والتندم والمعنى انهم قد تنبهوا على خطائهم
فى تمنيهم وتندموا على ذلك ﴿لولا ان من الله علينا﴾ بعدم اعطائه ايانا ما تمنيناه و
اعطانا مثل ما اعطاه اياه وقرئ لولا من الله علينا ﴿لخسف بنا﴾ كما خسف به وقرئ لخسف
بنا على البناء للمفعول وبنا هو القائم مقام الفاعل وقرئ لانخسف بنا كقولك انقطع
به وقرئ لتخسف بنا ﴿ويكانه لا يفلح الكافرون﴾ لنعمة الله تعالى والمكذبون برسله
وبما وعدوا من ثواب الاخرة ﴿تلك الدار الاخرة﴾ اشارة تعظيم وتفخيم كانه قيل
تلك التى سمعت خبرها وبلغك وصفها ﴿نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض﴾
اى غلبة وتسلطا ﴿ولا فسادا﴾ اى ظلما وعدوانا على العباد كداب فرعون وقارون
وفى تعليق الموعد بترك ارادتهما لا بترك انفسهما مزيد تحذير منهما وعن على
رضى الله عنه ان الرجل ليعجبه ان يكون شراك نعله اجود من شراك نعل صاحبه فيدخل
تحتها ﴿والعاقبة﴾ الحميدة ﴿للمتقين﴾ اى الذين يتقون ما لا يرضاه الله تعالى من الافعال
والاقوال ﴿من جاء بالحسنة فله﴾ بمقابلتها ﴿خير منها﴾ ذاتا ووصفا وقدرا ﴿ومن

جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات﴾ وضع فيه الموصول والظاهر موضع الضمير لتهجين
حالهم بتكرير اسناد السيئة اليهم ﴿الا ما كانوا يعملون﴾ اى الا مثل ما كانوا يعملون فحذف
المثل واقيم مقامه ما كانوا يعملون مبالغة فى المماثلة ﴿ان الذى فرض عليك القرآن﴾
اوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به ﴿لرادك الى معاد﴾ اى معاد يمتد اليه اعناق الهمم
ويرنوا اليه احداق الامم وهو المقام المحمود الذى وعدك ان يبعثك فيه وقيل هو مكة
المعظمة على انه تعالى وعده وهو بمكة فى اذية وشدة من اهلها انه يهاجر به منها ثم
يعيده اليها بعز ظاهر وسلطان قاهر وقيل نزلت عليه حين بلغ الجحفة فى مهاجره
وقد اشتاق الى مولده ومولد آبائه وحرم ابراهيم عليه السلام فنزل جبريل عليه
السلام فقال له اتشتاق الى مكة قال نعم فاوحاها اليه ﴿قل ربى اعلم من جاء
بالهدى﴾ وما يستحقه من الثواب والنصر ومن منتصب بفعل يدل عليه اعلم اى يعلم
وقيل باعلم على انه بمعنى عالم ﴿ومن هو فى ضلال مبين﴾ وما استحقه من العذاب
والاذلال يعنى بذلك نفسه والمشركين وهو تقرير للوعيد السابق وكذا قوله تعالى ﴿وما
كنت ترجوا ان يلقى اليك الكتاب﴾ اى سيردك الى معادك كما القى اليك الكتاب وما كنت
ترجوه ﴿الا رحمة من ربك﴾ ولكن القاه اليك رحمة منه ويجوز ان يكون استثناء محمولا
على المعنى كانه قيل وما القى اليك الكتاب الا رحمة اى لاجل الترحم ﴿فلا تكونن ظهيرا
للكافرين﴾ بمداراتهم والتحمل عنهم والاجابة الى طلبهم ﴿ولا يصدنك﴾ اى الكافرون
﴿عن آيات الله﴾ اى عن قراءتها والعمل بها ﴿بعد اذ انزلت اليك﴾ وفرضت عليك وقرئ
يصدنك من اصد المنقول من صد اللازم ﴿وادع﴾ الناس ﴿الى ربك﴾ الى عبادته
وتوحيده ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ بمساعدتهم فى الامور ﴿ولا تدع مع الله الها
آخر﴾ هذا وما قبله للتهييج والالهاب وقطع اطماع المشركين عن مساعدته عليه السلام
واظهار ان المنهى عنه فى القبح والشرية بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه اصلا
﴿لا اله الا هو﴾ وحده ﴿كل شئ هالك الا وجهه﴾ الا ذاته فان ما عداه كائنا ما كان ممكن
فى حد ذاته عرضة للهلاك والعدم ﴿له الحكم﴾ اى القضاء النافذ فى الخلق ﴿واليه
ترجعون﴾ عند البعث للجزاء بالحق والعدل عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ
سورة طسم القصص كان له من الاجر بعدد من صدق بموسى وكذب ولم يبق ملك فى
السموات والارض الا شهد له يوم القيمة انه كان صادقا

سورة العنكبوت مكية وهى سبع وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم﴾ الكلام فيه كالذى مر مرارا فى نظائره من الفواتح الكريمة خلا ان ما بعده لا يحتمل ان
يتعلق به تعلقا اعرابيا ﴿احسب الناس﴾ الحسبان ونظائره لا يتعلق بمعانى المفردات بل
بمضامين الجمل المفيدة لثبوت شئ لشئ او انتفاء شئ عن شئ بحيث يتحصل منها مفعولاه
اما بالفعل كما فى عامة المواقع واما بنوع تصرف كما فى الجمل المصدرة بان والواقعة صلة
للموصول الاسمى او الحرفى فان كلا منها صالحة لان يسبك منها مفعولاه لان قوله تعالى
﴿احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ فى قوة ان يقال احسبوا
انفسهم متروكين بلا فتنة بمجرد ان يقولوا آمنا او ان يقال احسبوا تركهم غير مفتونين
بقولهم آمنا حاصلا متحققا والمعنى انكار الحسبان المذكور واستبعاده وتحقيق انه
تعالى يمتحنهم بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض ما تشتهيه النفس و
وظائف الطاعات وفنون المصائب فى الانفس والاموال ليتميز المخلص من المنافق
والراسخ فى الدين من المتزلزل فيه ويجازيهم بحسب مراتب اعمالهم فان مجرد الايمان
وان كان عن خلوص لا يقتضى غير الخلاص من الخلود فى النار روى انها نزلت فى ناس
من الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين جزعوا من اذية المشركين وقيل فى عمار قد
عذب فى الله وقيل مهجع مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما رماه عامر بن الحضرمى
بسهم يوم بدر فقتله فجزع عليه ابواه وامرأته وهو اول من استشهد يومئذ من المسلمين

سورة العنكبوت

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الشهداء مهجع وهو اول من يدعى الى باب الجنة
من هذه الامة ولقد فتنا الذين من قبلهم متصل بقوله تعالى احسب او بقوله لا يفتنون
والمعنى ان ذلك سنة قديمة مبنية على الحكم البالغة جارية فيما بين الامم كلها فلا ينبغي
ان يتوقع خلافها والمعنى ان الامم الماضية قد اصابهم من ضروب الفتن والمحن ما هو
اشد مما اصاب هؤلاء فصبروا كما يعرب عنه قوله تعالى وكاين من نبي قاتل معه ربيون
كثير فما وهنوا لما اصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا الايات وعن النبي صلى
الله عليه وسلم قد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على راسه فيفرق فرقتين
ما يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بامشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه
ذلك عن دينه فليعلمن الله الذين صدقوا اي في قولهم آمنا وليعلمن الكاذبين
في ذلك والفاء لترتيب ما بعدها على ما يفصح عنه ما قبلها من وقوع الامتحان واللام
جواب القسم والالتفات الى الاسم الجليل لادخال الروعة وتربية المهابة وتكرير
الجواب لزيادة التاكيد والتقرير اي فوالله ليتعلقن علمه بالامتحان تعلقا حاليا يتميز به
الذين صدقوا في الايمان الذي اظهروه والذين هم كاذبون فيه مستمرون على الكذب و
يترتب عليه اجزيتهم من الثواب والعقاب ولذلك قيل المعنى ليميزن او ليجازين وقرئ
وليعلمن من الاعلام اي فليعرفنهم الناس او ليسمنهم بسمة يعرفون بها يوم القيمة كبياض الوجوه
وسوادها ام حسب الذين يعملون السيات ان يسبقونا اي يفوتونا فلا نقدر على مجازاتهم
بمساوي اعمالهم وهو ساد مسد مفعولي حسب لاشتماله على مسند ومسند اليه وام منقطعة
وما فيها من معنى بل للاضراب والانتقال عن التوبيخ بانكار حسبانهم متروكين غير مفتونين
الى التوبيخ بانكار ما هو ابطل من الحسبان الاول وهو حسبانهم ان لا يجازوا بمساويهم
وهم وان لم يحسبوا انهم يفوتونه تعالى ولم يحدثوا نفوسهم بذلك لكنهم حيث
اصروا على المعاصي ولم يتفكروا في العاقبة نزلوا منزلة من يطمع في ذلك كما في قوله يحسب
ان ماله اخلده ساء ما يحكمون اي بئس الذي يحكمونه حكمهم ذلك او بئس حكما يحكمونه
حكمهم ذلك من كان يرجو لقاء الله اي يتوقع ملاقاة جزائه ثوابا او عقابا او ملاقاة
حكمه يوم القيمة وقيل يرجو لقاء الله عز وجل في الجنة وقيل يرجو ثوابه وقيل يخاف
عقابه وقيل لقاؤه تعالى عبارة عن الوصول الى العاقبة من تلقي ملك الموت والبعث والحساب
والجزاء على تمثيل تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل وقد علم مولاه بجميع
ما كان ياتي ويذر فاما ان يلقاه ببشر وكرامة لما رضي من افعاله او بضده لما سخطه فان
اجل الله الاجل عبارة عن غاية زمان ممتد عينت لامر من الامور وقد يطلق على كل ذلك
الزمان والاول هو الاشهر في الاستعمال اي فان الوقت الذي عينه تعالى لذلك لآت لا محالة
من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لان اجزاء الزمان على التقضي والتصرم دائما فلا بد
من اتيان ذلك الجزء ايضا البتة واتيانه وقته موجب لاتيان اللقاء حتما والجواب محذوف
اي فليختر من الاعمال ما يؤدي الى حسن الثواب وليحذر ما يسوقه الى سوء العذاب
كما في قوله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه
احدا وفيه من الوعد والوعيد ما لا يخفى وقيل فليبادر ما يحقق امله ويصدق
رجاءه او ما يوجب القربة والزلفى وهو السميع لاقوال العباد العليم باحوالهم من
الاعمال الظاهرة والعقائد ومن جاهد في طاعة الله عز وجل فانما يجاهد لنفسه
لعود منفعتها اليها ان الله لغني عن العالمين فلا حاجة له الى طاعتهم وانما امرهم
بها تعريضا لهم للثواب بموجب رحمته والذين امنوا وعملوا الصالحات لنكفرن
عنهم سياتهم الكفر بالايمان والمعاصي بما يتبعها من الطاعات ولنجزينهم احسن
الذي كانوا يعملون اي احسن جزاء اعمالهم لا جزاء احسن اعمالهم فقط ووصينا
الانسان بوالديه حسنا اي بايتاء والديه وايلائهما فعلا ذا حسن او ما هو في
حد ذاته حسن لفرط حسنه كقوله تعالى وقولوا للناس حسنا ووصى يجري مجرى
امر معنى وتصرفا غير انه يستعمل فيما كان في المامور به نفع عائد الى المامور او غيره وقيل هو بمعنى

قال فالمعنى وقلنا احسن بوالديك حسنا وقيل انتصاب حسنا بمضمر على تقدير قول مفسر للتوصية
اي وقلنا اولهما او افعل بهما حسنا وهو اوفق لما بعده وعليه يحسن الوقف على بوالديه و
قرئ حسنا واحسانا وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم اي بالالهية عبر عن
نفيها بنفي العلم بها للايذان بان ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه وان لم يعلم بطلانه فكيف
بما علم بطلانه فلا تطعهما في ذلك فانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ولا بد من
من اضمار القول ان لم يضمر فيما قبل وفي تعليق النهي عن طاعتهما بمجاهدتهما في التكليف
اشعار بان موجب النهي فيما دونها من التكليف ثابت بطريق الاولوية الي مرجعكم
اي مرجع من آمن منكم ومن اشرك ومن بر بوالديه ومن عقه فانبئكم بما كنتم تعملون
بان اجازي كلا منكم بعمله ان خيرا فخير وان شرا فشر والاية نزلت في سعد بن ابي
وقاص عند اسلامه حيث حلفت امه حمنة بنت ابي سفيان بن امية ان لا تنتقل من
الضح الى الظل ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد فلبثت ثلاثة ايام كذلك وكذا التي في سورة
لقمان وسورة الاحقاف وقيل نزلت في عياش بن ابي ربيعة المخزومي وذلك انه هاجر
مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى نزلا المدينة فخرج ابو جهل والحارث اخواه لامه
اسماء فنزلا بعياش وقالا له ان من دين محمد صلى الله عليه وسلم صلة الارحام وبر
الوالدين وقد تركت امك لا تطعم ولا تشرب ولا تاوي بيتا حتى تراك فاخرج معنا وفتلا
منه في الذروة والغارب فاستشار عمر رضي الله عنه فقال هما يخدعانك ولك علي
ان اقسم ما لي بيني وبينك فما زالا به حتى اطاعهما وعصى عمر رضه فقال عمر رضه اما اذا
عصيتني فخذ ناقتي فليس في الدنيا بعير يلحقها فان رابك منهما ريب فارجع فلما انتهوا الى
البيداء قالا ان ناقتي قد كلت فاحملني معك فنزل ليوطئ لنفسه وله فاخذاه فشداه وثاقا
وجلده كل واحد مائة جلدة وذهبا به الى امه فقالت لا تزال في عذاب حتى ترجع عن دين
محمد والذين امنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين اي في زمرة الراسخين
في الصلاح والكمال منتهى درجات المؤمنين وغاية مامول انبياء الله المرسلين قال الله
تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين وقال في حق
ابراهيم عليه السلام وانه في الاخرة لمن الصالحين او في مدخل الصالحين وهي الجنة
ومن الناس من يقول امنا بالله فاذا اوذي في الله اي في شانه تعالى بان عذبهم الكفرة
على الايمان جعل فتنة الناس اي ما يصيبه من اذيتهم كعذاب الله في الشدة والهول
فيرتد عن الدين مع انه لا قدر لها عند نفحة من عذابه تعالى اصلا ولئن جاء نصر
من ربك اي فتح وغنيمة ليقولن بضم اللام نظرا الى معنى من كما ان الافراد فيما سبق
بالنظر الى لفظها وقرئ بالفتح انا كنا معكم اي مشايعين لكم في الدين فاشركونا في المغنم
وهم ناس من ضعفة المسلمين كانوا اذا مسهم اذى من الكفار وافقوهم وكانوا
يكتمونه من المسلمين فرد عليهم ذلك بقوله تعالى اوليس الله باعلم بما في صدور
العالمين اي باعلم منهم بما في صدورهم من الاخلاص والنفاق حتى يفعلوا ما يفعلون
من الارتداد والاخفاء عن المسلمين وادعاء كونهم منهم لنيل الغنيمة وهذا هو الاوفق
لما سبق وما لحق من قوله تعالى وليعلمن الله الذين امنوا اي بالاخلاص وليعلمن المنافقين
سواء كان كفرهم باذية الكفرة او لا اي ليجزينهم بما لهم من الايمان والنفاق وقال الذين
كفروا للذين امنوا بيان لحملهم للمؤمنين على الكفر بالاستمالة بعد بيان حملهم لهم
عليه بالاذية والوعيد ووصفهم بالكفر ههنا دون ما سبق لما ان مساق الكلام لبيان
جناياتهم وفيما سبق لبيان جناية من اضلوه واللام للتبليغ اي قالوا مخاطبين لهم اتبعوا
سبيلنا اي اسلكوا طريقتنا التي يسلكها في الدين عبر عن ذلك بالاتباع الذي هو المشي خلف
ماش آخر تنزيلا للمسلك منزلة السالك فيه او اتبعونا في طريقتنا ولنحمل خطاياكم اي
ان كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها بالبعث كما تقولون وانما امروا انفسهم بالحمل عاطفين
له على امرهم بالاتباع للمبالغة في تعليق الحمل بالاتباع والوعد بتخفيف الاوزار عنهم ان
كان ثمة وزر فرد عليهم بقوله تعالى وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء وقرئ من

من خطيئاتهم اى وماهم بحاملين شيئا من خطاياهم التى التزموا ان يحملوا كلها على ان من الاولى للتبيين والثانية مزيدة للاستغراق والجملة اعتراض او حال انهم لكاذبون حيث اخبروا فى ضمن وعدهم بالحمل بانهم قادرون على انجاز ما وعدوا فان الكذب كما يتطرق الى الكلام باعتبار منطوقه يتطرق اليه باعتبار ما يلزم مدلوله كما مر فى قوله تعالى انبئونى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين وليحملن اثقالهم بيان لما يستتبعه قولهم ذلك فى الآخرة من المضرة لانفسهم بعد بيان عدم منفعته لمخاطبيهم اصلا والتعبير عن الخطايا بالاثقال للايذان بغاية ثقلها وكونها فادحة واللام جواب قسم مضمر اى والله ليحملن اثقال انفسهم كاملة واثقالا اخر مع اثقالهم لما تسببوا له بالاضلال والحمل على الكفر والمعاصى من غير ان ينتقص من اثقال من اضلوه شئ ما اصلا وليسألن يوم القيمة سؤال تقريع وتبكيت عما كانوا يفترون اى يختلقونه فى الدنيا من الاكاذيب والاباطيل التى من جملتها كذبهم هذا ولقد ارسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاما شروع فى بيان افتتان الانبياء عليهم السلام باذية اممهم اثر بيان افتتان المؤمنين باذية الكفار تأكيدا للانكار على الذين يحسبون ان يتركوا بمجرد الايمان بلا ابتلاء وحثا لهم على الصبر فان الانبياء عليهم السلام حيث ابتلوا بما اصابهم من جهة اممهم من فنون المكاره وصبروا عليها فلان يصبر هؤلاء اولى واحرى قالوا كان عمر نوح عليه السلام الفا وخمسين عاما وعاش بعد الطوفان ستين سنة وعن وهب انه عاش الفا واربعمائة سنة ولعل ما عليه النظم الكريم للدلالة على كمال العدد فان تسعمائة وخمسين قد يطلق على ما يقرب منه ولما فى ذكر الالف من تخييل طول المدة فان المقصود من القصة تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتثبيته على ما كان عليه من مكابدة ما يناله من الكفرة واظهار ركاكة رأى الذين يحسبون انهم يتركون بلا ابتلاء واختلاف المميز لما فى التكرير من نوع بشاعة فاخذهم الطوفان اى عقيب تمام المدة المذكورة والطوفان يطلق على كل ما يطوف بشئ على كثرة وشدة من السيل والريح والظلام وقد غلب على طوفان الماء وهم ظالمون اى والحال انهم مستمرون على الظلم لم يتأثروا بما سمعوا من نوح عليه السلام من الآيات ولم يرعووا عما هم عليه من الكفر والمعاصى هذه المدة المتمادية فانجيناه اى نوحا عليه السلام واصحاب السفينة اى ومن ركب فيها معه من اولاده واتباعه وكانوا ثمانين وقيل ثمانية وسبعين وقيل عشرة وقيل ثمانية نصفهم ذكور ونصفهم اناث وجعلناها اى السفينة او الحادثة والقصة آية للعالمين يتعظون بها وابراهيم نصب بالعطف على نوحا وقيل باضمار اذكر وقرئ بالرفع على تقدير ومن المرسلين ابراهيم اذ قال لقومه على الاول ظرف للارسال اى ارسلناه حين تكامل عقله وقدر على النظر والاستدلال وترقى من رتبة الكمال الى درجة التكميل حيث تصدى لارشاد الخلق الى طريق الحق وعلى الثانى بدل اشتمال من ابراهيم اعبدوا الله اى وحده واتقوه ان تشركوا به شيئا ذلكم اى ما ذكر من العبادة والتقوى خير لكم اى مما انتم عليه ومعنى التفضيل مع انه لا خيرية فيه قطعا باعتبار زعمهم الباطل ان كنتم تعلمون اى الخير والشر وتميزون احدهما من الآخر او ان كنتم تعلمون شيئا من الاشياء بوجه من الوجوه فان ذلك كاف فى الحكم بخيرية ما ذكر من العبادة والتقوى انما تعبدون من دون الله اوثانا بيان لبطلان دينهم وشريته فى نفسه بعد بيان شريته بالنسبة الى الدين الحق اى انما تعبدون من دونه تعالى اوثانا هى فى نفسها تماثيل مصنوعة لكم ليس فيها وصف غير ذلك وتخلقون افكا اى وتكذبون كذبا حيث تسمونها آلهة وتدعون انها شفعاؤكم عند الله او تعملونها وتنحتونها للافك وقرئ تخلقون بالتشديد للتكثير فى الخلق بمعنى الكذب والافتراء او تخلقون بحذف احدى التائين من تخلق بمعنى تكذب وتخرص وقرئ افكا على انه مصدر كالكذب واللعب او نعت بمعنى خلقا ذا افك ان الذين تعبدون من دون الله بيان لشرية ما يعبدونه من حيث انه لا يكاد يجدى لهم نفعا لا يملكون لكم رزقا اى لا يقدرون على ان يرزقوكم شيئا من الرزق فابتغوا عند الله الرزق

كله فانه

كله فانه هو الرزاق ذو القوة المتين واعبدوه وحده واشكروا له على نعمائه متوسلين الى مطالبكم بعبادته مقيدين بالشكر للعتيد ومستجلبين للمزيد اليه ترجعون اى بالموت ثم البعث لا الى غيره فافعلوا ما امرتكم به وقرئ ترجعون من رجع رجوعا وان تكذبوا اى تكذبونى فيما اخبرتكم به من انكم اليه ترجعون بالبعث فقد كذب امم من قبلكم تعليل للجواب اى فلا تضرونى بتكذيبكم فان من قبلكم من الامم قد كذبوا من قبلى من الرسل وهم شيث وادريس ونوح عليهم السلام فلم يضرهم تكذيبهم شيئا وانما ضر انفسهم حيث تسبب لما حل بهم من العذاب فكذا تكذيبكم وما على الرسول الا البلاغ المبين اى التبليغ الذى لا يبقى معه شك وما عليه ان يصدقه قومه البتة وقد خرجت عن عهدة التبليغ بما لا مزيد عليه فلا يضرنى تكذيبكم بعد ذلك اصلا اولم يروا كيف يبدئ الله الخلق كلام مستأنف مسوق من جهته تعالى للانكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله وسنوح سبيله والهمزة لانكار عدم رؤيتهم الموجب لتقريرها والواو للعطف على مقدر اى ألم ينظروا ولم يعلموا علما جاريا مجرى الرؤية فى الجلاء والظهور كيفية خلق الله تعالى الخلق ابتداء من مادة ومن غير مادة اى قد علموا ذلك وقرئ بصيغة الخطاب لتشديد الانكار وتأكيده وقرئ يبدأ وقوله تعالى ثم يعيده عطف على اولم يروا لا على يبدئ لعدم وقوع الرؤية عليه فهو اخبار بانه تعالى يعيد الخلق قياسا على الابداء وقد جوز العطف على يبدئ بتأويل الاعادة بانشائه تعالى كل سنة مثل ما انشأه فى السنة السابقة من النبات والثمار وغيرهما فان ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه من غير ريب ان ذلك اى ما ذكر من الاعادة على الله يسير اذ لا يفتقر فعله الى شئ اصلا قل سيروا فى الارض امر لابراهيم عليه السلام ان يقول لهم ذلك اى سيروا فيها فانظروا كيف بدأ الخلق اى كيف خلقهم ابتداء على اطوار مختلفة وطبائع متغايرة واخلاق شتى فان ترتيب النظر على السير فى الارض مؤذن بتتبع احوال اصناف الخلق القاطنين فى اقطارها ثم الله ينشئ النشأة الآخرة بعد النشأة الاولى التى شاهدتموها والتعبير عن الاعادة التى هى محل النزاع بالنشأة الآخرة المشعرة بكون البدء نشأة اولى للتنبيه على انهما شأن واحد من شؤون الله تعالى حقيقة واسما من حيث ان كلا منهما اختراع واخراج من العدم الى الوجود لا فرق بينهما الا بالاولية والآخرية وقرئ النشاءة بالمد وهما لغتان كالرأفة والرآفة ومحلها النصب على انها مصدر مؤكد لينشئ بحذف الزوائد والاصل الانشاءة او بحذف العامل اى ينشئ فينشؤون النشأة الآخرة كما فى قوله تعالى وانبتها نباتا حسنا والجملة معطوفة على جملة سيروا فى الارض داخلة معها فى حيز القول واظهار الاسم الجليل وايقاعه مبتدأ مع اضماره فى بدأ لابراز مزيد الاعتناء ببيان تحقق الاعادة بالاشارة الى علة الحكم وتكرير الاسناد وقوله تعالى ان الله على كل شئ قدير تعليل لما قبله بطريق التحقيق فان من علم قدرته تعالى على جميع الاشياء التى من جملتها الاعادة لا يتصور ان يتردد فى قدرته عليها ولا فى وقوعها بعد ما اخبر به يعذب اى بعد النشأة الآخرة من يشاء اى تعذيبه وهم المنكرون لها حتما ويرحم من يشاء اى رحمته وهم المصدقون بها والجملة تكملة لما قبلها وتقديم التعذيب لما ان الترهيب انسب بالمقام من الترغيب واليه تقلبون عند ذلك لا الى غيره فيفعل بكم ما يشاء من التعذيب والرحمة وما انتم بمعجزين له تعالى عن اجراء حكمه وقضائه عليكم فى الارض ولا فى السماء اى بالتوارى فى الارض او الهبوط ولا بالتحصن فى السماء التى هى افسح منها لو استطعتم الرقى فيها كما فى قوله تعالى ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا او القلاع الذاهبة فيها وقيل فى السماء صفة لمحذوف معطوف على انتم اى ولا من فى السموات وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير يحرسكم مما يصيبكم من بلاء يظهر من الارض او ينزل من السماء ويدفعه عنكم والذين كفروا بآيات الله اى بدلائله التكوينية والتنزيلية الدالة

من فى السماء ظا

على ذاته وصفاته وافعاله فيدخل فيها النشاة الاولى الدالة على تحقق البعث والآيات
الناطقة به دخولا اوليا وتخصيصها بدلائل وحدانيته تعالى لا يناسب المقام ولقائه
الذى ينطق به تلك الآيات اولئك اى الموصوفون بما ذكر من الكفر باياته تعالى ولقائه
يئسوا من رحمتى اى ييأسون منها يوم القيمة وصيغة الماضى للدلالة على تحققه او يئسوا
منها فى الدنيا لانكارهم البعث والجزاء واولئك لهم عذاب اليم وفى تكرير اسم
الاشارة وتكرير الاسناد وتنكير العذاب ووصفه بالاليم من الدلالة على كمال فظاعة
حالهم ما لا يخفى اى اولئك الموصوفون بالكفر بايات الله تعالى ولقائه باليأس من رحمته
الممتازون بذلك عن سائر الكفرة لهم بسبب تلك الاوصاف القبيحة عذاب لا يقادر
قدره فى الشدة والايلام فما كان جواب قومه بالنصب على انه خبر كان واسمها
قوله تعالى الا ان قالوا اقتلوه او حرقوه وقرئ بالرفع على العكس وقد مر ما فيه فى
نظائره وليس المراد انهم لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن حجج ابراهيم عم الا هذه
المقالة الشنيعة كما هو المتبادر من ظاهر النظم الكريم بل ان ذلك هو الذى استقر عليه
جوابهم بعد اللتيا والتى فى المرة الاخيرة والا فقد صدر عنهم من الخرافات والاباطيل
ما لا يحصى فانجاه من النار الفاء فصيحة اى فالقوه فى النار فانجاه الله تعالى منها
بان جعلها عليه عم بردا وسلاما حسبما بين فى مواضع آخر وقد مر فى سورة الانبياء
بيان كيفية القائه عليه السلام فيها وانجائه تعالى اياه تفصيلا قيل لم ينتفع يومئذ
بالنار فى موضع اصلا ان فى ذلك اى فى انجائه منها لآيات بينة عجيبة هى
حفظه تعالى اياه من حرها واخمادها فى زمان يسير وانشاء روض فى مكانها لقوم
يؤمنون واما من عداهم فهم عن اجتلائها غافلون ومن الفوز بمغانم آثارها
محرومون وقال اى ابراهيم عليه السلام مخاطبا لهم انما اتخذتم من دون
الله اوثانا مودة بينكم فى الحيوة الدنيا اى لتتوادوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم
على عبادتها وائتلافكم وثانى مفعولى اتخذتم محذوف اى اوثانا الهة ويجوز
ان يكون مودة هو المفعول بتقدير المضاف او بتأويلها بالمودودة او بجعلها نفس
المودة مبالغة اى اتخذتم اوثانا بسبب المودة بينكم او مودودة او نفس المودة و
قرئ مودة منونة منصوبة ناصبة للظرف وقرئت بالرفع والاضافة على انها خبر
مبتدأ محذوف اى هى مودودة او نفس المودة او سبب مودة بينكم والجملة صفة اوثانا
او خبران على ان ما مصدرية او موصولة قد حذف عائدها وهو المفعول الاول وقرئت
مرفوعة منونة ومضافة بفتح بينكم كما قرئ لقد تقطع بينكم على احد الوجهين وقرئ
انما مودة بينكم والمعنى ان اتخاذكم اياها مودة بينكم ليس الا فى الحيوة وقد اخبرتم احكامه
حيث فعلتم بى ما فعلتم لاجل مودتكم لها انتصارا منى كما ينبئ عنه قوله تعالى وانصروا
الهتكم ثم يوم القيمة ينقلب الامور ويتبدل التواد تباغضا والتلاطف تلاعنا حيث
يكفر بعضكم وهم العبدة ببعض وهم الاوثان ويلعن بعضكم بعضا اى يلعن
كل فريق منكم ومن الاوثان حيث ينطقها الله الفريق الآخر ومأواكم النار اى
هى منزلكم الذى تأوون اليه ولا ترجعون منه ابدا وما لكم من ناصرين
يخلصونكم منها كما خلصنى ربى من النار التى القيتمونى فيها وجمع الناصر لوقوعه
فى مقابلة الجمع اى ما لاحد منكم من ناصر اصلا فآمن له لوط اى صدقه فى
جميع مقالاته لا فى نبوته وما دعى اليه من التوحيد فقط فانه كان منزها عن
الكفر وما قيل انه آمن له حين رأى النار لم تحرقه ينبغى ان يحمل على ما ذكرنا او على
ان يراد بالايمان الرتبة العالية منها وهى التى لا يرتقى اليها الا همم الافراد الكمل
ولوط هو ابن اخته عليهما السلام وقال انى مهاجر اى من قومى الى ربى
الى حيث امرنى به انه هو العزيز الغالب على امره فيمنعنى من اعدائى الحكيم
الذى لا يفعل فعلا الا وفيه حكمة ومصلحة فلا يأمرنى الا بما فيه صلاحى
وروى انه هاجر من كوثى من سواد الكوفة مع لوط وسارة ابنة عمه الى حران ثم منها

الى الشام

الى الشام فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم ووهبنا له اسحق ويعقوب ولدا ونافلة
حين ايس من ولادة عجوز عاقر وجعلنا فى ذريته النبوة فكثر منهم الانبياء والكتاب اى
جنس الكتاب المتناول للكتب الاربعة وآتيناه اجره بمقابلة هجرته الينا فى الدنيا باعطاء
الولد والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وانتماء اهل الملل اليه والثناء والصلوة عليه
آخر الدهر وانه فى الآخرة لمن الصالحين اى الكاملين فى الصلاح ولوطا منصوب
اما بالعطف على نوحا او على ابراهيم والكلام فى قوله تعالى اذ قال لقومه كالذى
مر فى قصة ابراهيم عليه السلام انكم لتأتون الفاحشة اى الفعلة المتناهية
فى القبح وقرئ ائنكم ما سبقكم بها من احد من العالمين استئناف مقرر لكمال
قبحها فان اجماع جميع افراد العالمين على التحاشى عنها ليس الا لكونها مما يشمئز منه
الطباع وتنفر منه النفوس ائنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتتعرضون للسابلة
اى بالفاحشة حيث روى انهم كانوا كثيرا ما يفعلونها بالغرباء وقيل تقطعون سبيل
النسل بالاعراض عن الحرث واتيان ما ليس بحرث وقيل تقطعون السبيل بالقتل واخذ
المال وتأتون فى ناديكم اى تفعلون فى مجلسكم الجامع لاصحابكم المنكر كالجماع والضراط
وحل الازار وغيرها مما لا خير فيه من الافاعيل المنكرة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو
الحذف بالحصى والرمى بالبنادق والفرقعة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل
الازار والسباب والفحش فى المزاح وقيل السخرية بمن مر بهم وقيل المجاهرة فى ناديهم
بذلك العمل فما كان جواب قومه الا ان قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين
اى فما كان جوابا من جهتهم شئ من الاشياء الا هذه الكلمة الشنيعة اى لم يصدر
عنهم فى هذه المرة من مرات مواعظ لوط عم وقد كان اوعدهم فيها بالعذاب واما ما فى سورة
الاعراف من قوله تعالى وما كان جواب قومه الا ان قالوا اخرجوهم من قريتكم الآية
وما فى سورة النمل من قوله تعالى فما كان جواب قومه الا ان قالوا اخرجوا آل لوط من
قريتكم الآية فهو الذى صدر عنهم بعد هذه المرة الاخيرة من مرات المقاولات الجارية بينهم
وبينه عم وقد مر تحقيقه فى سورة الاعراف قال رب انصرنى اى بانزال العذاب الموعود
على القوم المفسدين بابتداع الفاحشة وسنها فيمن بعدهم والاصرار عليها و
استعجال العذاب بطريق الاستهزاء وانما وصفهم بذلك مبالغة فى استنزال العذاب
عليهم ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى اى بالبشارة بالولد والنافلة قالوا اى
لابراهيم عليه السلام فى تضاعيف الكلام حسبما فصل فى سورة هود وسورة الحجر
انا مهلكوا اهل هذه القرية اى قرية سدوم والاضافة لفظية لان المعنى على الاستقبال
ان اهلها كانوا ظالمين تعليل للاهلاك باصرارهم على الظلم وتماديهم فى فنون
الفساد وانواع المعاصى قال ان فيها لوطا فكيف تهلكونها قالوا نحن اعلم بمن فيها
لننجينه واهله ارادوا انهم غير غافلين عن مكان لوط عم فيها بل عمن لم
يتعرض له ابراهيم عم من اتباعه المؤمنين وانهم معتنون بشأنهم اتم اعتناء
حسبما يفصح عنه تصدير الوعد بالتنجية بالقسم اى والله لننجينه واهله
الا امرأته كانت من الغابرين اى الباقين فى العذاب او فى القرية ولما
ان جاءت رسلنا المذكورون بعد مفارقتهم لابراهيم عليه السلام لوطا سيئ
بهم اعتراه المساءة بسببهم مخافة ان يتعرض لهم قومه بسوء وكلمة ان صلة لتأكيد
ما بين الفعلين من الاتصال وضاق بهم ذرعا اى ضاق بشأنهم وتدبير امرهم
ذرعه اى طاقته كقولهم ضاقت يده وبازائه رحب ذرعه بكذا اذا كان مطيقا
به قادرا عليه وذلك ان طويل الذراع ينال ما لا يناله قصير الذراع وقالوا لما
شاهدوا فيه مخايل التضجر من جهتهم وعاينوا انه قد عجز عن مدافعة قومه
بعد اللتيا والتى حتى آلت به الحال الى ان قال لو ان لى بكم قوة او آوى الى ركن شديد
لا تخف اى من قومك علينا ولا تحزن اى على شئ وقيل باهلاكنا اياهم انا منجوك واهلك
مما يصيبهم من العذاب الا امرأتك كانت من الغابرين وقرئ لننجينه ومنجوك

وهى المرة

من الانجاء وايا ما كان فمحل الجر على المختار ونصب اهلك باضمار فعل او بالعطف على محلها
باعتبار الاصل انا منزلون على اهل هذه القرية رجزا من السماء استئناف مسوق لبيان
ما اشير اليه بوعد التنجية من نزول العذاب عليهم والرجز العذاب الذى يقلق المعذب
اى يزعجه من قولهم ارتجز اذا ارتجس واضطرب وقرئ منزلون بالتشديد بما كانوا
يفسقون بسبب فسقهم المستمر ولقد تركنا منها اى من القرية اية بينة هى قصتها
العجيبة واثار ديارها الخربة وقيل الحجارة الممطورة فانها كانت باقية بعدها وقيل
الماء الاسود على الوجه الارض لقوم يعقلون يستعملون عقولهم فى الاستبصار
والاعتبار وهو متعلق اما بتركنا او ببينة والى مدين اخاهم شعيبا متعلق بمضمر
معطوف على ارسلنا فى قصة نوح اى وارسلنا الى مدين شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله
وحده وارجوا اليوم الاخر اى توقعوه وما سيقع فيه من فنون الاهوال وافعلوا
اليوم من الاعمال ما تامنون غائلته وقيل وارجوا ثوابه بطريق اقامة المسبب مقام
السبب وقيل الرجا بمعنى الخوف ولا تعثوا فى الارض مفسدين فكذبوه فاخذتهم الرجفة
اى الزلزلة الشديدة وفى سورة هود واخذت الذين ظلموا الصيحة اى صيحة جبريل م فانها
الموجبة للرجفة بسبب تموجها للهواء وما يجاورها من الارض فاصبحوا فى دارهم اى
بلدهم او منازلهم والافراد لامن اللبس جاثمين باركين على الركب ميتين وعادا وثمود
منصوبان باضمار فعل ينبئ عنه ما قبله اى اهلكنا وقرئ ثمود ابتاويل الحى وقد تبين لكم
من مساكنهم اى وقد ظهر لكم اهلاكنا اياهم من جهة مساكنهم بالنظر اليها عند اجتيازكم
بها ذهابا الى الشام وايابا منه وزين لهم الشيطان اعمالهم من فنون الكفر والمعاصى
فصدهم عن السبيل السوى الموصل الى الحق وكانوا مستبصرين متمكنين من النظر
والاستدلال ولكنهم لم يفعلوا ذلك او متبينين ان العذاب لاحق بهم باخبار الرسل عليهم
السلام لهم ولكنهم لجوا حتى لقوا ما لقوا وقارون وفرعون وهامان معطوف على عادا
قبل تقديم قارون لشرف نسبه ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الارض وما كانوا
سابقين مفلتين فائتين من قولهم سبق طالبه اذا فاته ولم يدركه ولقد ادركهم
امر الله عز وجل اى ادراك فتداركوا نحو الدمار والهلاك فهلا تفسيرها ينبئ عنه
عدم سبقهم بطريق الابهام اى فكل واحد من المذكورين اخذنا بذنبه اى عاقبنا
بجنايته لا بعضه دون بعض كما يشعر به تقديم المفعول فمنهم من ارسلنا عليه
حاصبا تفصيل للاخذ اى ريحا عاصفا فيها حصباء وقيل ملكا رماهم بها وهم
قوم لوط ومنهم من اخذته الصيحة كمدين وثمود ومنهم من خسفنا به
الارض كقارون ومنهم من اغرقنا كقوم نوح وفرعون وقومه وما كان الله
ليظلمهم بما فعل بهم فان ذلك محال من جهته تعالى ولكن كانوا انفسهم يظلمون
بالاستمرار على مباشرة ما يوجب ذلك من انواع الكفر والمعاصى مثل الذين اتخذوا من
دون الله اولياء فيما اتخذوه معتمدا ومتكلا كمثل العنكبوت اتخذت بيتا فيما
نسجته فى الوهن والخور بل ذلك اوهن من هذا لان له حقيقة وانتفاعا
فى الجملة او مثلهم بالاضافة الى الموحد كمثله بالاضافة الى رجل يبنى بيتا من حجر
وجص والعنكبوت يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والغالب فى الاستعمال
التانيث وتاؤه كتاء طاغوت ويجمع على عناكب وعنكبونات واما العكاب والعكب
والاعكب فاسماء الجموع وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت حيث لا يرى بشئ يدانيه
فى الوهن والوهى لو كانوا يعلمون اى شيئا من الاشياء لجزموا ان
هذا مثلهم او ان دينهم اوهى من ذلك ويجوز ان يجعل بيت العنكبوت عبارة
عن دينهم تحقيقا للتمثيل فالمعنى وان اوهن ما يعتمد به فى الدين دينهم ان الله يعلم
ما تدعون من دونه من شئ على اضمار القول اى قل للكفرة ان الله الخ وما استفهامية
منصوبة بتدعون معلقة ليعلم ومن للتبيين او نافية ومن مزيدة وشئ مفعول تدعون
او مصدرية وشئ عبارة عن المصدر او موصولة مفعول ليعلم ومفعول يدعون عائدة

المحذوف

المحذوف وقرئ يدعون بالياء والكلام على الاول تجهيل لهم وتاكيد للمثل وعلى الاخيرين
وعيد لهم وهو العزيز الحكيم تعليل على المعنيين فان اشراك ما لا يعد شيئا بمن هذا
شانه من فرط الغباوة وان الجماد بالنسبة الى القادر القاهر على كل شئ البالغ فى العلم و
اتقان الفعل الغاية القاصية كالمعدوم البحت وان من هذه صفاته قادر على مجازاتهم
وتلك الامثال اى هذا المثل وامثاله نضربها للناس تقريبا لما بعد من افهامهم وما
يعقلها على ما هى عليه من الحسن واستتباع الفوائد الا العالمون الراسخون فى العلم
المتدبرون فى الاشياء على ما ينبغى وعنه صلى الله عليه وسلم انه تلى هذه فقال العالم من
عقل عن الله تعالى فعمل بطاعته واجتنب سخطه خلق الله السموات والارض بالحق
اى محقا مراعيا للحكم والمصالح على انه حال من فاعل خلق او ملتبسة بالحق الذى لا
محيد عنه مستتبعة للمنافع الدينية والدنيوية على انه حال من مفعوله فانها مع اشتمالها على
جميع ما يتعلق معاشهم شواهد دالة على شؤنه تعالى المتعلقة بذاته وصفاته كما يفصح
عنه قوله تعالى ان فى ذلك لاية للمؤمنين دالة لهم على ما ذكر من شؤنه سبحانه و
تخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الهداية والارشاد فى خلقهما للكل لانهم المنتفعون
بذلك اتل ما اوحى اليك من الكتاب تقربا الى الله بقراءته وتذكرا لما فى تضاعيفه من
المعانى وتذكيرا للناس وحملا لهم على العمل بما فيه من الاحكام ومحاسن الاداب ومكارم
الاخلاق واقم الصلوة اى دم على اقامتها وحيث كانت الصلوة منتظمة للصلوات
المكتوبة المؤداة بالجماعة وكان امره عليه السلام باقامتها متضمنا لامر الامة بها علل بقوله
تعالى ان الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر كانه قيل وصل بهم ان الصلوة تنهاهم عن
الفحشاء والمنكر ومعنى نهيها عنهما انها سبب للانتهاء عنهما لانها مناجاة لله تعالى فلا بد
ان تكون على طاعته مع اقبال تام واعراض كلى عن معاصيه قال ابن مسعود رضى الله عنهم
فى الصلوة منتهى ومزدجر عن معاصى الله تعالى فمن لم يامره صلوته بالمعروف ولم تنهه
عن المنكر لم يزدد بصلوته من الله تعالى الا بعدا وقال الحسن وقتادة من لم تنهه صلوته
عن الفحشاء والمنكر فصلوته وبال عليه وروى انس رضى الله عنه ان فتى من الانصار
كان يصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لا يدع شيئا من الفواحش الا ركبه
فوصف له عليه السلام حاله فقال ان صلوته ستنهاه فلم يلبث ان تاب وحسن حاله
ولذكر الله اكبر اى وللصلوة اكبر من سائر الطاعات وانما عبر عنها به كما فى قوله تعالى
فاسعوا الى ذكر الله للايذان بان ما فيها من ذكر الله تعالى هو العمدة فى كونها مفضلة على الحسنات
ناهية عن السيئات وقيل ولذكر الله تعالى عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما ووعيده
عليهما اكبر فى الزجر عنهما وقيل ولذكر الله اياكم برحمته اكبر من ذكركم اياه بطاعته والله
يعلم ما تصنعون منه ومن سائر الطاعات فيجازيكم بها احسن المجازاة ولا تجادلوا
اهل الكتاب من اليهود والنصارى الا بالتى هى احسن اى بالخصلة التى هى احسن كمقابلة
الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشاغبة بالنصح والسورة بالاناة على وجه لا يؤدى الى الضعف
ولا يؤدى الى الحطام الدنية وقيل منسوخ باية السيف الا الذين ظلموا منهم بالافراط
فى الاعتداد والعناد او باثبات الولد وقولهم يد الله مغلولة ونحو ذلك فانه يجب
حينئذ المدافعة بما يليق بحالهم وقولوا امنا بالذى انزل الينا من القران وانزل اليكم
اى وبالذى انزل اليكم من التوراة والانجيل قد مر تحقيق كيفية الايمان بهما فى خاتمة
سورة البقرة وعن النبى صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا اهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا
امنا بالله وبكتبه ورسله فان قالوا باطلا لم تصدقوهم وان قالوا حقا لم تكذبوهم
والهنا والهكم واحد لا شريك له فى الالوهية ونحن له مسلمون مطيعون خاصة
وفيه تعريض بحال الفريقين حيث اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله
وكذلك تجريد للخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك اشارة الى مصدر الفعل
الذى بعده وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه فى الفضل اى مثل
ذلك الانزال البديع الموافق لانزال سائر الكتب انزلنا اليك الكتاب اى القران الذى من
جملته هذه الاية الناطقة بما ذكر من المجادلة فالذين اتيناهم الكتاب من الطائفتين

يؤمنون به اريد بهم عبد الله بن سلام واضرابه من اهل الكتابين خاصة كأن من عداهم لم يؤتوا الكتاب حيث لم يعملوا بما فيه او من تقدم عهد الرسول صلى الله عليه وسلم منهم حيث كانوا مصدقين بنزوله حسبما شاهدوا في كتابيهما وتخصيصهم بايتاء الكتاب للايذان بان من بعدهم من معاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزع عنهم الكتاب بالنسخ فلم يؤتوه والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان ايمانهم به مترتب على انزاله على الوجه المذكور ومن هؤلاء اى ومن العرب او واهل مكة على الاول او ممن عصر عليه السلام على الثاني من يؤمن به اى بالقرآن وما يجحد باياتنا عبر عن الكتاب بالايات للتنبيه على ظهور دلالتها على معانيها وعلى كونها من عند الله تعالى واضيفت الى نون العظمة لمزيد تفخيمها وغاية تشنيع من يجحد بها الا الكافرون المتوغلون في الكفر المصممون عليه فان ذلك يصدهم عن التامل فيما يؤديهم الى معرفة حقيقتها وقيل هم كعب بن الاشرف واصحابه وما كنت تتلو من قبله اى ما كنت قبل انزالنا اليك الكتاب تقدر على ان تتلو شيئا من كتاب ولا تخطه ولا تقدر على ان تخطه بيمينك حسبما هو المعتاد او ما كانت عادتك ان تتلوه ولا ان تخطه اذا لارتاب المبطلون اى لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط او ممن يعتادهما لارتابوا وقالوا لعله التقطه من كتب الاوائل وحيث لم تكن كذلك لم يبق في شانك منشأ ريب اصلا وتسميتهم مبطلين في ارتيابهم على التقدير المفروض لكونهم مبطلين في اتباعهم للاحتمال المذكور مع ظهور نزاهته عليه السلام عن ذلك بل هو اى القرآن ايات بينات واضحات ثابتة راسخة في صدور الذين اوتوا العلم من غير ان يلتقط من كتاب يحفظونه بحيث لا يقدر احد على تحريفه وما يجحد باياتنا مع كونها كما ذكر الا الظالمون المتجاوزون للحدود في الشر والمكابرة والفساد وقالوا لولا انزل عليه ايات من ربه مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى عليهم السلام وقرئ اية قل انما الايات عند الله ينزلها حسبما يشاء من غير دخل لاحد في ذلك قطعا وانما انا نذير مبين ليس من شاني الا الانذار بما اوتيت من الايات اولم يكفهم كلام مستأنف وارد من جهته تعالى ردا على اقتراحهم وبيانا لبطلانه والهمزة للانكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى اقصر ولم يكفهم اية مغنية عن سائر الايات انا انزلنا عليك الكتاب الناطق بالحق المصدق لما بين يديه من الكتب السماوية وانت بمعزل من مدارستها وممارستها يتلى عليهم في كل زمان ومكان فلا يزال معهم اية ثابتة لا تزول ولا تضمحل كما تزول كل اية بعد كونها وتكون في مكان دون مكان او يتلى على اليهود بتحقيق ما في ايديهم من نعتك ونعت دينك ان في ذلك الكتاب العظيم الشان الباقي على مر الدهور لرحمة اى نعمة عظيمة وذكرى اى تذكرة لقوم يؤمنون اى لقوم همهم الايمان لا التعنت كاولئك المقترحين وقيل ان ناسا من المؤمنين اتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتف فيها بعض ما يقوله اليهود فقال كفى بها ضلالة قوم ان يرغبوا عما جاء به نبيهم الى ما جاء به غير نبيهم فنزلت قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا بما صدر عني وعنكم يعلم ما في السموات والارض اى من الامور التي من جملتها شاني وشانكم فهو تقرير لما قبله من كفايته تعالى شهيدا والذين امنوا بالباطل وهو ما يعبدون من دون الله تعالى وكفروا بالله مع تعاضد موجبات الايمان به اولئك هم الخاسرون المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالايمان بان ضيعوا الفطرة الاصلية والادلة السمعية الموجبة للايمان والاية من قبيل المجادلة بالتي هي احسن حيث لم يصرح بنسبة الايمان بالباطل والكفر بالله والخسران اليهم بل ذكر على منهاج الابهام كما في قوله تعالى وانا او اياكم لعلى هدى او في ضلال مبين ويستعجلونك بالعذاب على طريقة الاستهزاء بقولهم متى هذا الوعد وقولهم امطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب ونحو ذلك ولولا اجل مسمى قد ضربه الله تعالى لعذابهم وبينه في اللوح لجاءهم العذاب المعين لهم حسبما استعجلوا به

قيل

قيل المراد بالاجل يوم القيمة لما روى انه تعالى وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لا يعذب قومه بعذاب الاستئصال وان يؤخر عذابهم الى يوم القيمة وقيل يوم بدر وقيل وقت فنائهم باجالهم وفيه بعد ظاهر لما انهم ما كانوا يوعدون بفنائهم الطبيعي ولا كانوا يستعجلون به وليأتينهم جملة مستأنفة مبينة لما اشير اليه في الجملة السابقة من مجيء العذاب عند محل الاجل اى وبالله ليأتينهم العذاب الذي عين لهم عند حلول الاجل بغتة اى فجأة وهم لا يشعرون اى باتيانه ولعل المراد باتيانه كذلك انه لا ياتيهم بطريق التعجيل عند استعجالهم والاجابة الى مسؤلهم فان ذلك اتيان برايهم وشعورهم لا انه ياتيهم وهم غارون امنون لا يخطرونه بالبال كداب بعض العقوبات النازلة على بعض الامم بياتا وهم نائمون او ضحى وهم يلعبون لما ان اتيان عذاب الاخرة وعذاب يوم بدر ليس من هذا القبيل يستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين استئناف مسوق لغاية تجهيلهم وركاكة رايهم وفيه دلالة على ان ما استعجلوه عذاب الاخرة اى يستعجلونك بالعذاب والحال ان محل العذاب الذي لا عذاب فوقه محيط بهم كانه قيل يستعجلونك بالعذاب وان العذاب لمحيط بهم اى سيحيط بهم وانما جيء بالجملة الاسمية دلالة على تحقق الاحاطة واستمرارها وتنزيلا لحال السبب منزلة حال المسبب فان الكفر والمعاصي الموجبة لدخول جهنم محيطة بهم وقيل ان الكفر والمعاصي هي النار في الحقيقة لكنها ظهرت في هذه النشأة بهذه الصورة وقد مر تفصيله في سورة الاعراف عند قوله والوزن يومئذ الحق ولام الكافرين اما للعهد ووضع الظاهر موضع المضمر للاشعار بعلة الحكم او للجنس وهم داخلون فيه دخولا اوليا يوم يغشاهم العذاب ظرف لمضمر قد طوى ذكره ايذانا بغاية كثرته وفظاعته كانه قيل يوم يغشاهم العذاب الذي اشير اليه باحاطة جهنم بهم يكون من الاحوال والاهوال ما لا يفي به المقال وقيل ظرف للاحاطة من فوقهم ومن تحت ارجلهم اى من جميع جهاتهم ويقول اى الله عز وجل ويعضده القراءة بنون العظمة او بعض ملائكته بامره ذوقوا ما كنتم تعملون اى جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار من السيئات التي من جملتها الاستعجال بالعذاب يا عبادي الذين امنوا خطاب تشريف لبعض المؤمنين الذين لا يتمكنون من اقامة امور الدين كما ينبغي لممانعة من جهة الكفرة وارشاد لهم الى الطريق الاسلم ان ارضي واسعة فاياي فاعبدون اى اذا لم يتسهل لكم العبادة في بلد ولم يتيسر لكم اظهار دينكم فهاجروا الى حيث يتسنى لكم ذلك وعنه عليه السلام من فر بدينه من ارض الى ارض ولو كان شبرا استوجب الجنة وكان رفيق ابراهيم ومحمد عليهما السلام والفاء جواب شرط محذوف اذ المعنى ان ارضي واسعة ان لم تخلصوا العبادة لي في ارض فاخلصوها في غيرها ثم حذف الشرط وعوض عنه تقديم المفعول مع افادة تقديمه معنى الاختصاص والاخلاص كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون جملة مستأنفة جيء بها حثا على المسارعة في الامتثال بالامر اى كل نفس من النفوس ذائقة مرارة الموت وكربه راجعة الى حكمنا وجزائنا بحسب اعمالها فمن كانت هذه عاقبته فليس له بد من التزود والاستعداد لها وقرئ يرجعون والذين امنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم لننزلنهم من الجنة غرفا اى علالي وهو مفعول ثان للتبوئة وقرئ لنثوينهم من الثواء بمعنى الاقامة فانتصاب غرفا حينئذ اما باجرائه مجرى لننزلنهم او بنزع الخافض او بتشبيه الظرف المؤقت بالمبهم كما في قوله تعالى لاقعدن لهم صراطك المستقيم تجري من تحتها الانهار صفة لغرفا خالدين فيها اى في الغرف او في الجنة نعم اجر العاملين اى الاعمال الصالحة والمخصوص بالمدح محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه وقرئ فنعم الذين صبروا اما صفة للعاملين او نصب على المدح اى صبروا على اذية المشركين وشدائد المهاجرة وغير ذلك من المحن والمشاق وعلى ربهم يتوكلون اى ولم يتوكلوا فيما ياتون ويذرون الا على الله تعالى وكاين من دابة لا تحمل رزقها روى ان النبي صلى الله عليه وسلم لما امر المؤمنين الذين كانوا بمكة

بالمهاجرة الى المدينة قالوا كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة فنزلت اى وكم من دابة لا تطيق
حمل رزقها لضعفها او لا تدخره وانما تصبح ولا معيشة عندها الله يرزقها واياكم
ثم انها مع ضعفها وتوكلها واياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء فى انه لا يرزقها
واياكم الا الله تعالى لان رزق الكل باسباب هو المسبب لها وحده فلا تخافوا الفقر بالمهاجرة
وهو السميع المبالغ فى السمع فيسمع قولكم هذا العليم المبالغ فى العلم فيعلم ضمائركم
ولئن سألتهم اى اهل مكة من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن
الله اذ لا سبيل لهم الى انكاره ولا الى التردد فيه فانى يؤفكون انكار واستبعاد
من جهته تعالى لتركهم العمل بموجبه اى فكيف يصرفون عن الاقرار بتفرده تعالى
فى الالهية مع اقرارهم بتفرده تعالى فيما ذكر من الخلق والتسخير الله يبسط الرزق لمن
يشاء اى يبسطه له من عباده ويقدر له اى يقدر لمن يشاء ان يقدر له منهم كائنا من
كان على ان الضمير مبهم حسب ابهام مرجعه او يقدر لمن يبسطه له على التعاقب ان الله
بكل شئ عليم فيعلم من يليق ببسط الرزق فيبسطه له ومن يليق بقدره له فيقدر له
او فيعلم ان كلا من البسط والقدر فى اى وقت يوافق الحكمة والمصلحة فيفعل
كلا منهما فى وقته ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فاحيى به الارض بعد
موتها ليقولن الله معترفين بانه الموجد للممكنات باسرها اصولها وفروعها ثم انهم
يشركون به بعض مخلوقاته الذى لا يكاد يتوهم منه القدرة على شئ ما اصلا قل الحمد لله
على ان جعل الحق بحيث لا يجترئ المبطلون على جحوده وان اظهر حجتك عليهم و
قيل على ان عصمك من امثال هذه الضلالات ولا يخفى بل اكثرهم لا يعقلون
اى شيئا من الاشياء فلذلك لا يعملون بمقتضى قولهم هذا فيشركون به سبحانه اخس
مخلوقاته وقيل لا يعقلون ما تريد بتحميدك عند مقالهم ذلك وما هذه الحيوة
الدنيا اشارة تحقير وازدراء للدنيا وكيف لا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء الا لهو ولعب
اى الا كما يلهى ويلعب الصبيان يجتمعون عليه ويبتهجون به ساعة ثم يتفرقون عنه
وان الدار الاخرة لهى الحيوان اى لهى دار الحيوة الحقيقية لامتناع طريان الموت
والفناء عليها او هى فى ذاتها حيوة للمبالغة والحيوان مصدر حى سمى به ذو الحيوة
واصله حييان فقلبت الياء الثانية واوا لما فى بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب
اللازم للحيوان ولذلك اختير على الحيوة فى هذا المقام المقتضى للمبالغة لو كانوا يعلمون
اى لما اثروا عليها الدنيا التى اصلها عدم الحيوة ثم ما يحدث فيها من الحيوة عارضة
سريعة الزوال وشيكة الاضمحلال فاذا ركبوا فى الفلك متصل بما دل عليه شرح
حالهم والركوب هو الاستعلاء على الشئ المتحرك وهو متعد بنفسه كما فى قوله تعالى والخيل
والبغال والحمير لتركبوها واستعماله ههنا وفى امثاله بكلمة فى للايذان بان المركوب
فى نفسه من قبيل الامكنة وحركته قسرية غير ارادية كما مر فى سورة هود والمعنى انهم
على ما وصفوا من الاشراك فاذا ركبوا فى البحر ولقوا شدة دعوا الله مخلصين له الدين
اى كائنين على صورة المخلصين لدينهم من المؤمنين حيث لا يدعون غير الله تعالى لعلمهم
بانه لا يكشف الشدائد عنهم الا هو فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون اى فاجؤا
المعاودة الى الشرك ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا اى يفاجئون الاشراك ليكونوا كافرين
بما آتيناهم من نعمة الانجاء التى حقها ان يشكروها فسوف يعلمون اى عاقبة ذلك
وغائلته حين يرون العذاب اولم يروا اى الم ينظروا ولم يشاهدوا انا جعلنا
اى بلدهم حرما آمنا مصونا عن النهب والتعدى سالما اهله من كل سوء ويتخطف
الناس من حولهم اى والحال انهم يختلسون من حولهم قتلا وسبيا اذ كانت العرب
حوله فى تغاور وتناهب افبالباطل يؤمنون اى ابعد ظهور الحق الذى لا ريب فيه
بالباطل خاصة يؤمنون دون الحق وبنعمة الله يكفرون وهى المستوجبة للشكر حيث
يشركون به غيره وتقديم الصلة فى الموضعين لاظهار كمال شناعة ما فعلوا ومن اظلم

ممن

ممن افترى على الله كذبا بان زعم ان له شريكا اى هو اظلم من كل ظالم وان كان سبك
النظم دالا على نفى الاظلم من غير تعرض لنفى المساوى وقد مر مرارا او كذب بالحق لما جاءه
اى بالرسول او بالقرآن وفى لما تسفيه لهم بان لم يتوقفوا ولم يتأملوا حين جاءهم بل
سارعوا الى التكذيب اثر ذى اثير اليس فى جهنم مثوى للكافرين تقرير لثوائهم فيها
كقول من قال الستم خير من ركب المطايا اى لا يستوجبون الثواء فيها وقد فعلوا ما فعلوا
من الافتراء على الله تعالى والتكذيب بالحق الصريح او انكار واستبعاد لاجترائهم
على ما ذكر من الافتراء والتكذيب مع علمهم بحال الكفرة اى الم يعلموا ان فى جهنم مثوى
للكافرين حتى اجترؤا هذه الجراءة والذين جاهدوا فينا اى فى شأننا ولوجهنا خالصا
اطلق المجاهدة ليعم جهاد الاعادى الظاهرة والباطنة لنهدينهم سبلنا سبل
السير الينا والوصول الى جنابنا او لنزيدنهم هداية الى سبل الخير وتوفيقا لسلوكها
كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وفى الحديث من عمل بما علم ورثه الله
تعالى علم ما لم يعلم وان الله لمع المحسنين معية النصرة والمعونة وعنه عليه
السلام من قرأ سورة العنكبوت كان له من الاجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين
والمنافقين وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم و
صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ابدا دائما الى يوم الدين ثم

سورة الروم مكية وهى ستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الم الكلام فيه كالذى مر فى امثاله من الفواتح الكريمة غلبت الروم فى ادنى الارض اى
ادنى ارض العرب منهم اذ هى الارض المعهودة عندهم وهى اطراف الشام او فى ادنى ارضهم
من العرب على ان اللام عوض عن المضاف اليه قال مجاهد هى ارض الجزيرة وهى ادنى ارض
الروم الى فارس وعن ابن عباس رضى الله عنهما الاردن وفلسطين وقرئ فى ادانى الارض وهم
اى الروم من بعد غلبهم اى من بعد مغلوبيتهم وقرئ بسكون اللام وهى لغة
كالجلب والجلب سيغلبون اى سيغلبون فارس فى بضع سنين روى ان فارس غزوا الروم
فوافوهم باذرعات وبصرى وقيل بالجزيرة كما مر فغلبوا عليهم وبلغ الخبر مكة ففرح
المشركون وشمتوا بالمسلمين وقالوا انتم والنصارى اهل كتاب ونحن وفارس اميون وقد ظهر
اخواننا على اخوانكم فلنظهرن عليكم فقال ابو بكر رضه لا يقرن الله اعينكم فوالله ليظهرن
الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له ابى بن خلف اللعين كذبت اجعل بيننا اجلا اناحبك
عليه فناحبه على عشر قلائص من كل منهما وجعل الاجل ثلث سنين فاخبر به ابو بكر
رسول الله صلعم فقال البضع ما بين الثلث الى التسع فزايده فى الخطر ومادّه فى الاجل
فجعلاها مائة قلوص الى تسع سنين ومات ابى من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم
وظهرت الروم على فارس عند رأس سبع سنين وذلك يوم الحديبية وقيل كان النصر
يوم بدر للفريقين فاخذ ابو بكر الخطر من ذرية ابى فجاء به الى رسول الله صلعم
فقال تصدق به وكان ذلك قبل تحريم القمار وهذه الآيات البينات الباهرة الشاهدة
بصحة النبوة وكون القرآن من عند الله عز وجل حيث اخبرت عن الغيب الذى لا يعلمه
الا العليم الخبير وقرئ غلبت على البناء للفاعل وسيغلبون على البناء للمفعول والمعنى ان الروم
غلبت على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون وقد غزاهم المسلمون فى السنة التاسعة
من نزولها ففتحوا بعض بلادها فاضافة الغلب حينئذ الى الفاعل لله الامر من قبل ومن
بعد اى فى اول الوقتين وفى آخرهما حين غلبوا وحين يغلبون كانه قيل من قبل كونهم
غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم
غالبين والمعنى ان كلا من كونهم مغلوبين اولا وغالبين آخرا ليس الا بامر الله تعالى
وقضائه وتلك الايام نداولها بين الناس وقرئ من قبل ومن بعد بالجر من غير تقدير
مضاف اليه واقتطاعه كانه قيل قبلا وبعدا بمعنى اولا وآخرا ويومئذ اى يوم

اذ غلبت الروم على فارس و يحل ما وعده الله لها من غلبتهم يفرح المؤمنون بنصر الله و
تغليبه من له كتاب على من لا كتاب له و غيظ من شمت بهم من كفار مكة و كون ذلك من دلائل
غلبة المؤمنين على الكفار و قيل بنصر الله اظهار صدق المؤمنين فيما اخبروا به المشركين
من غلبة الروم على فارس و قيل بنصره الله تعالى انه ولى بعض الظالمين بعضاً و فرق بين
كلمتهم حتى تناقصوا و تفانوا و فل كل منهما شوكة الاخر و فى ذلك قوة و عن ابى سعيد
الخدرى انه وافق ذلك يوم بدر و فيه من نصر الله العزيز للمؤمنين و فرحهم بذلك
ما لا يخفى والاول هو الانسب لقوله تعالى ينصر من يشاء اى من يشاء ان ينصره من
عباده على عدوه و يغلبه عليه فانه استيناف مقرر لمضمون قوله تعالى لله الامر من قبل و من
بعد و هو العزيز البالغ فى العزة والغلبة فلا يعجزه من يشاء ان ينصر عليه كائناً من كان الرحيم
المبالغ فى الرحمة فينصر من يشاء ان ينصره اى فريق كان والمراد بالرحمة هى الدنيوية اما
على القراءة المشهورة فظاهر لما ان كلا الفريقين لا يستحق الرحمة الاخروية و اما على
القراءة الاخيرة فلان المسلمين وان كانوا مستحقين لها لكن المراد ههنا نصرهم الذى هو
من آثار الرحمة الدنيوية و تقديم وصف العزة لتقدمه فى الاعتبار وعد الله مصدر
مؤكد لنفسه لان ما قبله فى معنى الوعد كانه قيل وعد الله وعداً لا يخلف الله وعده
اى وعد كان مما يتعلق بالدنيا والاخرة لاستحالة الكذب عليه سبحانه و اظهار الاسم
فى موقع الاضمار لتعليل الحكم و تفخيمه والجملة استيناف مقرر لمعنى المصدر و قد جوز
ان تكون حالاً منه فيكون كالمصدر الموصوف كانه قيل وعد الله وعداً غير مخلف
و لكن اكثر الناس لا يعلمون اى ما سبق من شؤونه تعالى يعلمون ظاهراً من الحيوة
الدنيا و هو ما يشاهدونه من زخارفها و ملاذها و سائر احوالها الموافقة لشهواتهم
الملائمة لاهوائهم المستدعية لانهماكهم فيها و عكوفهم عليها لا تمتعهم بزخارفها
و تنعمهم بملاذها كما قيل فانهما ليسا مما علموه منها بل من افعالهم المترتبة على علومهم
و تنكير ظاهراً للتحقير و التخسيس دون الوحدة كما توهم اى يعلمون ظاهراً حقيراً
خسيساً من الدنيا و هم عن الاخرة التى هى الغاية القصوى و المطلب الاسنى هم غافلون
لا يخطرونها بالبال و لا يدركون من الدنيا ما يؤدى الى معرفتها من احوالها و لا
يتفكرون فيها كما سيأتى والجملة معطوفة على يعلمون و ايرادها اسمية للدلالة على استمرار
غفلتهم و دوامها و هم الثانية تكرير للاولى او مبتدأ و غافلون خبره والجملة خبر للاولى و
على الوجهين مناد على تمكن غفلتهم عن الاخرة المحققة لمقتضى الجملة المتقدمة تقريراً
لجهالتهم و تشبيهاً لهم بالبهائم المقصور ادراكاتها من الدنيا على ظواهرها الخسيسة
دون احوالها التى هى من مبادى العلم بامور الاخرة و اشعاراً بان العلم المذكور
و عدم العلم راسا سيان اولم يتفكروا انكار و استقباح لقصر نظرهم على ما ذكر
من ظاهر الحيوة الدنيا مع الغفلة عن الاخرة والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام
و قوله تعالى فى انفسهم ظرف للتفكر و ذكره مع ظهور استحالة كونه فى غيرها لتحقيق
امره و تصوير حال المتفكرين و قوله تعالى ما خلق الله السموات و الارض و ما بينهما الا
بالحق متعلق اما بالعلم الذى يؤدى اليه التفكر و يدل عليه او بالقول الذى يترتب عليه
كما فى قوله تعالى و يتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا اى اعلموا
ظاهر الحيوة الدنيا فقط او اقصروا النظر عليه و لم يحدثوا التفكر فى قلوبهم فيعلموا انه
تعالى ما خلقهما و ما بينهما من المخلوقات التى هم من جملتها ملتبسة بشئ من الاشياء
الا ملتبسة بالحق او يقولوا هذا القول معترفين بمضمونه اثر ما علموه و المراد بالحق
هو الثابت الذى يحق ان يثبت لا محالة لابتنائه على الحكمة البالغة و الغرض الصحيح
الذى هو استشهاد المكلفين بذواتها و صفاتها و احوالها المتغيرة على وجود صانعها
عز و جل و وحدته و علمه و قدرته و حكمته و اختصاصه بالمعبودية و صحة
اخباره التى من جملتها احياؤهم بعد الفناء بالحيوة الابدية و مجازاتهم بحسب
اعمالهم عما بين المحسن من المسئ و امتياز درجات افراد كل من الفريقين حسب

امتياز

امتياز طبقات علومهم و اعتقاداتهم المترتبة على انظارهم فيما نصب فى المصنوعات من
الايات و الدلائل و الامارات و المخائل كما نطق به قوله تعالى و هو الذى خلق السموات
و الارض فى ستة ايام و كان عرشه على الماء ليبلوكم ايكم احسن عملا فان العمل غير مختص
بعمل الجوارح و لذلك فسره عليه السلام بقوله ايكم احسن عقلا و اورع عن محارم الله
و اسرع فى طاعة الله و قد مر تحقيقه فى اوائل سورة هود عليه السلام و قوله تعالى
و اجل مسمى عطف على الحق اى و باجل معين قدره الله تعالى لبقائها لا بد لها من ان
تنتهى اليه لا محالة و هو وقت قيام الساعة هذا و قد جوز ان يكون قوله تعالى
فى انفسهم صلة للتفكر على معنى اولم يتفكروا فى انفسهم التى هى اقرب المخلوقات
اليهم و هم اعلم بشؤونها و اخبر باحوالها منهم باحوال ما عداها فيتدبروا
ما اودعها الله تعالى ظاهراً و باطناً من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الاهمال
و انه لا بد لها من انتهاء الى وقت يجازيها الحكيم الذى دبر امرها على الاحسان
احساناً و على الاساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك ان سائر الخلائق كذلك امرها جار
على الحكمة و التدبير و انه لا بد لها من الانتهاء الى ذلك الوقت و انت خبير بان امر معاد
الانسان و مجازاته بما عمل من الاساءة و الاحسان هو المقصود بالذات و المحتاج الى
الاثبات فجعله ذريعة الى اثبات معاد ما عداه مع كونه بمعزل من الجزاء
تعكيس للامر فتدبر و قوله تعالى و ان كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون تذييل
مقرر لما قبله ببيان ان اكثرهم غير مقتصرين على ما ذكر من الغفلة عن احوال الاخرة
و الاعراض عن التفكر فيما يرشدهم الى معرفتها من خلق السموات و الارض و ما
بينهما من المصنوعات بل هم منكرون جاحدون بلقاء حسابه تعالى و جزائه بالبعث
اولم يسيروا توبيخ لهم بعدم اتعاظهم بمشاهدة احوال امثالهم الدالة على عاقبتهم
و مآلهم و الهمزة لتقرير المنفى و الواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى اقعدوا
فى اماكنهم و لم يسيروا فى الارض و قوله تعالى فينظروا عطف على يسيروا داخل
فى حكم التقرير و التوبيخ و المعنى انهم قد ساروا فى اقطار الارض و شاهدوا
كيف كان عاقبة الذين من قبلهم من الامم المهلكة كعاد و ثمود و قوله تعالى
كانوا اشد منهم قوة الخ بيان لمبدأ احوالهم و مآلها يعنى انهم كانوا اقدر
منهم على التمتع بالحيوة الدنيا حيث كانوا اشد منهم قوة و اثاروا الارض اى
قلبوها للزراعة و الحرث و قيل لاستنباط المياه و استخراج المعادن و غير ذلك
و عمروها اى عمرها اولئك بفنون العمارات من الزراعة و الغرس و البناء و غيرها
مما يعد عمارة لها اكثر مما عمروها اى عمارة اكثر كما و كيفا و زماناً من عمارة
هؤلاء اياها كيف لا و هم اهل واد غير ذى زرع لا تبسط لهم فى غيره و فيه تهكم بهم
حيث كانوا مغترين بالدنيا مفتخرين بمتاعها مع ضعف حالهم و ضيق عطنهم اذ
مدار امرها على التبسط فى البلاد و التسلط على العباد و التقلب فى اكنافها
باصناف التصرفات و هؤلاء ضعفة ملجؤن الى واد لا نفع فيه يخافون ان
يتخطفهم الناس و جاءتهم رسلهم بالبينات بالمعجزات او الايات الواضحات
فما كان الله ليظلمهم اى فكذبوهم فاهلكهم فما كان الله تعالى ليهلكهم من غير
جرم يستدعيه من قبلهم و التعبير عن ذلك بالظلم مع ان اهلاكه تعالى اياهم بلا
جرم ليس من الظلم فى شئ على ما تقرر من قاعدة اهل السنة لاظهار كمال نزاهته تعالى
عن ذلك بابرازه فى معرض ما يستحيل صدوره عنه تعالى و قد مر فى سورة الانفال و سورة
آل عمران و لكن كانوا انفسهم يظلمون بان اجترؤا على اقتراف ما يوجبه من المعاصى
العظيمة ثم كان عاقبة الذين اساؤا اى عملوا السيئات و ضع الموصول موضع
ضميرهم للتسجيل عليهم بالاساءة و الاشعار بعلة الحكم السوءى اى العقوبة
التى هى اسوء العقوبات و افظعها التى هى العقوبة بالنار فانها تأنيث الاسوء كالحسنى
تأنيث الاحسن او مصدر كالبشرى وصف به العقوبة مبالغة كانها نفس السوءى

وهي مرفوعة على انها اسم كان وخبرها عاقبة وقرئ على العكس وهو ادخل في الجزالة وقوله تعالى
ان كذبوا بآيات الله علة لما اشير اليه من تعذيبهم الدنيوي والاخروي اي لان كذبوا
بآيات الله المنزلة على رسله عليهم السلام ومعجزاته الظاهرة على ايديهم وقوله تعالى وكانوا
بها يستهزؤن عطف على كذبوا داخل معه في حكم العلية وايراد الاستهزاء بصيغة المضارع
للدلالة على استمراره وتجدده هذا هو اللائق بجزالة النظم الكريم وقد قيل وقيل
الله يبدؤ الخلق اي ينشئهم ثم يعيده بعد الموت بالبعث ثم اليه ترجعون
الى موقف الحساب والجزاء والالتفات للمبالغة في الترهيب وقرئ بالياء ويوم تقوم
الساعة التي هي وقت اعادة الخلق ورجعهم اليه يبلس المجرمون اي يسكتون متحيرين
ولا ينبسون يقال ناظرته فابلس اذا سكت وايس من ان يحتج وقرئ بفتح اللام
من ابلسه اذا افحمه واسكته ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء يجيرونهم
من عذاب الله تعالى كما كانوا يزعمونه وصيغة الجمع لوقوعها في مقابلة الجمع اي لم يكن لهم
لواحد منهم شفيع اصلا وكانوا بشركائهم كافرين اي بالهتهم وشركتهم لله سبحانه
حيث وقفوا على كنه امرهم وصيغة الماضي للدلالة على تحققه وقيل كانوا في الدنيا كافرين
بسببهم وليس بذاك اذ ليس في الاخبار به فائدة يعتد بها ويوم تقوم الساعة اعيد
لتهويله وتفظيع ما يقع فيه وقوله تعالى يومئذ يتفرقون تهويل له اثر تهويل وفيه
رمز الى ان التفرق يقع في بعض منه وضمير يتفرقون لجميع الخلق المدلول عليه بما تقدم
من بدئهم واعادتهم ورجعهم لا المجرمون خاصة وليس المراد بتفرقهم افتراق كل فرد
منهم عن الآخر بل تفرقهم الى فريقي المؤمنين والكافرين كما في قوله تعالى فريق في الجنة
وفريق في السعير وذلك بعد تمام الحساب فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم
في روضة يحبرون تفصيل وبيان لاحوال ذينك الفريقين والروضة كل ارض ذات
نبات وماء ورونق ونضارة وتنكيرها للتفخيم والمراد بها الجنة والحبور السرور
يقال حبره اذا سره سرورا تهلل له وجهه وقيل الحبرة كل نعمة حسنة والتحبير التحسين
واختلفت فيه الاقاويل لاحتمال وجوه جميع المسار فعن ابن عباس ومجاهد يكرمون
وعن قتادة ينعمون وعن ابن كيسان يحلون وعن ابي بكر بن عياش التيجان على رؤسهم
وعن وكيع السماع في الجنة وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه ذكر الجنة وما فيها من
النعيم وفي آخر القوم اعرابي فقال يا رسول الله هل في الجنة السماع قال عليه السلام
يا اعرابي ان في الجنة لنهرا حافتاه الابكار من كل بيضاء خوصانية يتغنين باصوات
لم يسمع الخلائق بمثلها قط فذلك افضل نعيم الجنة قال الراوي فسألت ابا الدرداء
بم يتغنين قال بالتسبيح وروي ان في الجنة لاشجارا عليها اجراس من فضة فاذا
اراد اهل الجنة السماع بعث الله تعالى ريحا من تحت العرش فتقع في الاشجار فتحرك
تلك الاجراس باصوات لو سمعها اهل الدنيا لماتوا طربا واما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا
التي من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فصل ولقاء الآخرة صرح بذلك مع اندراجه
في تكذيب الآيات للاعتناء بامره وقوله تعالى فاولئك اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه
بما في حيز الصلة من الكفر والتكذيب بآياته تعالى وبلقاء الآخرة للايذان بكمال تميزهم
بذلك عن غيرهم وانتظامهم في سلك المشاهدات وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد
بالمشار اليه للاشعار ببعد منزلتهم في الشر اي اولئك الموصوفون بما فصل من القبائح
في العذاب محضرون على الدوام لا يغيبون عنه ابدا فسبحان الله حين تمسون
وحين تصبحون وله الحمد في السموات والارض وعشيا وحين تظهرون اثر ما
بين حال فريقي المؤمنين العاملين للصالحات والكافرين المكذبين بالآيات وما لهما
من الثواب والعذاب امروا بما ينجي من الثاني ويفضي الى الاول من تنزيه الله عز وجل
عن كل ما لا يليق بشانه سبحانه ومن حمده تعالى على نعمه العظام وتقديم الاول على
الثاني لما ان التخلية متقدمة على التحلية والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها اي
اذا علمتم ذلك فسبحوا الله تعالى اي نزهوه عما ذكر سبحانه اي تسبيحه اللائق به في هذه الاوقات

واحمدوه فان الاخبار بثبوت الحمد له تعالى ووجوبه على المميزين من اهل السموات والارض
في معنى الامر به على ابلغ وجه واكده وتوسيطه بين اوقات التسبيح للاعتناء بشانه و
الاشعار بان حقهما ان يجمع بينهما كما ينبئ عنه قوله تعالى ونحن نسبح بحمدك وقوله
تعالى فسبح بحمد ربك وقوله صلى الله عليه وسلم من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان
الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر وقوله عليه السلام من
قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يات احد يوم القيمة بافضل
بما جاء به الا احد قال مثل ما قال او زاد عليه وقوله عليه الصلوة والسلام كلمتان
خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم
وغير ذلك مما لا يحصى من الآيات والاحاديث وتخصيصهما بتلك الاوقات للدلالة
على ان ما يحدث فيها من آيات قدرته تعالى واحكام رحمته ونعمه شواهد ناطقة
بتنزهه تعالى واستحقاقه الحمد وموجبة لتسبيحه وتحميده حتما وقوله تعالى وعشيا
عطف على حين تمسون وتقديم عليه على حين تظهرون لمراعاة الفواصل وتغيير الاسلوب لما انه لا يجي
منه الفعل بمعنى الدخول في العشي كالمساء والصباح والظهيرة ولعل السر في ذلك انه ليس
من الاوقات التي يختلف فيها احوال الناس وتتغير تغيرا ظاهرا مصححا لوصفهم بالخروج
عما قبلها والدخول فيها كالاوقات المذكورة فان كلا منها وقت يتغير فيه الاحوال تغيرا ظاهرا
اما في المساء والصباح فظاهر واما في الظهيرة فلانها وقت يعتاد فيه التجرد عن الثياب
للقيلولة كما مر في سورة النور وقيل المراد بالتسبيح والحمد الصلوة لاشتمالها عليهما وقد
روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ان الآية جامعة للصلوات الخمس تمسون صلوة المغرب
والعشاء وتصبحون صلوة الفجر وعشيا صلوة العشاء وتظهرون صلوة الظهر و
لذلك ذهب الحسن الى انها مدنية اذ كان يقول ان الواجب بمكة ركعتان في اي
وقت اتفقتا وانما فرضت الخمس بالمدينة والجمهور على انها فرضت بمكة وهو الحق
لحديث المعراج وفي آخره خمس صلوات كل يوم وليلة وعن النبي عليه السلام من سره
ان يكال له بالقفيز الاوفى فليقل فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الآية وعنه
عليه السلام من قال حين يصبح فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الى قوله تعالى
وكذلك تخرجون ادرك ما فاته في يومه ومن قالها حين يمسي ادرك ما فاته في
ليلته وقرئ حينا تمسون وحينا تصبحون اي تمسون فيه وتصبحون فيه يخرج الحي
من الميت كالانسان من النطفة والطير من البيضة ويخرج الميت من الحي النطفة
والبيضة من الحيوان ويحيي الارض بالنبات بعد موتها بيبسها وكذلك
اي ومثل ذلك الاخراج تخرجون من قبوركم وقرئ تخرجون بفتح التاء وضم الراء
وهذا نوع تفصيل لقوله تعالى الله يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن آياته الباهرة
الدالة على انكم تبعثون دلالة اوضح مما سبق فان دلالة بدء خلقهم على اعادتهم
اظهر من دلالة اخراج الحي من الميت واخراج الميت من الحي ومن دلالة احياء الارض
بعد موتها عليها ان خلقكم اي في ضمن خلق آدم لما مر مرارا من ان خلقه عليه السلام
منطو على خلق ذرياته انطواء اجماليا من تراب لم يشم رائحة الحيوة قط ولا مناسبة
بينه وبين ما انتم عليه في ذاتكم وصفاتكم ثم اذا انتم بشر تنتشرون اي فاجأتم بعد
ذلك وقت كونكم بشرا تنتشرون في الارض وهذا مجمل ما فصل في قوله تعالى يا ايها
الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة الآية ومن
آياته الدالة على ما ذكر من البعث وما بعده من الجزاء ان خلق لكم اي لاجلكم
من انفسكم ازواجا فان خلق اصل ازواجكم حواء من ضلع آدم عليه السلام متضمن
لخلقهن من انفسكم على ما عرفته من التحقيق او من جنسكم لا من جنس آخر وهو
الاوفق لقوله تعالى لتسكنوا اليها اي لتألفوها وتميلوا اليها وتطمئنوا بها فان
المجانسة من دواعي التضام والتعارف كما ان المخالفة من اسباب التنافر والتفرق
وجعل بينكم اي بين الازواج اما على تغليب الرجال على النساء في الخطاب او على حذف

ظرف معطوف على الظرف المذكور اى جعل بينكم وبينهن كما فى قوله تعالى لا نفرق بين احد
من رسله وقيل او بين افراد الجنس اى بين الرجال والنساء ويأباه قوله تعالى مودة ورحمة
فان المراد بهما ما كان منهما بعصمة الزواج قطعا اى جعل بينكم بالزواج الذى شرعه
لكم توادا وتراحما من غير ان يكون بينكم سابقة معرفة ولا رابطة مصححة للتعاطف
من قرابة او رحم قيل المودة والرحمة من قبل الله تعالى والفرك من الشيطان
وعن الحسن رضى الله عنه المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد كما قال تعالى
ورحمة منا ان فى ذلك اى فيما ذكر من خلقهم من تراب وخلق ازواجهم من انفسهم
والقاء المودة والرحمة بينهم وما فيه من معنى البعد مع قرب المشار اليه للاشعار
ببعد منزلته لآيات عظيمة لا يكتنه كنهها كثيرة لا يقادر قدرها لقوم يتفكرون
فى تضاعيف تلك الافاعيل المبنية على الحكم البالغة والجملة تذييل مقرر
لمضمون ما قبله مع التنبيه على ان ما ذكر ليس باية فذة كما ينبئ عنه قوله تعالى
ومن اياته بل هى مشتملة على ايات شتى ومن اياته الدالة على ما ذكر من امر
البعث وما يتلوه من الجزاء خلق السموات والارض اما من حيث ان القادر على
خلقهما بما فيهما من المخلوقات بلا مادة مستعدة لها اظهر قدرة على اعادة ما كان
حيا قبل ذلك واما من حيث ان خلقهما وما فيهما ليس الا لمعاش البشر ومعاده كما يفصح
عنه قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا وقوله تعالى وهو الذى خلق
السموات والارض فى ستة ايام وكان عرشه على الماء ليبلوكم ايكم احسن عملا
واختلاف السنتكم اى لغاتكم بان علم كل صنف لغته او الهمه وضعها واقدره عليها او
اجناس نطقكم واشكاله فانك لا تكاد تسمع منطقين متساويين فى الكيفية من كل وجه
والوانكم ببياض الجلد وسواده وتوسط فيما بينهما او تخطيطات الاعضاء وهيئاتها
والوانها وحلاها بحيث وقع بها التمايز بين الاشخاص حتى ان التوأمين مع توافق
موادهما واسبابهما والامور الملاقية لهما فى جميع خلقهما التخليق يختلفان فى شئ من
ذلك لا محالة وان كانا فى غاية التشابه وانما نظم هذا فى سلك الايات الافاقية من خلق
السموات والارض مع كونه من الايات الانفسية الحقيقية بالانتظام فى سلك ما سبق من
خلق انفسهم وازواجهم للايذان باستقلاله والاحتراز عن توهم كونه من تتمات
خلقهم ان فى ذلك اى فيما ذكر من خلق السموات والارض واختلاف الالسنة والالوان
لآيات عظيمة فى انفسها كثيرة فى عددها للعالمين اى المتصفين بالعلم كما فى قوله
تعالى وما يعقلها الا العالمون وقرئ بفتح اللام وفيه دلالة على كمال وضوح الايات
وعدم خفائها على احد من الخلق كافة ومن اياته منامكم بالليل والنهار لاستراحة
القوى النفسانية وتقوى القوى الطبيعية وابتغاؤكم من فضله فيهما فان كلا
من المنام وابتغاء الفضل يقع فى الملوين وان كان الاغلب وقوع الاول فى الاول
والثانى فى الثانى او منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار كما هو المعتاد والموافق لسائر
الايات الواردة فى ذلك خلا انه فصل بين القرينين الاوليين بالقرينين الاخريين لانهما
زمانان والزمان مع ما وقع فيه كشئ واحد مع اعانة اللف على الاتحاد ان فى ذلك لآيات لقوم
يسمعون اى من شأنهم ان يسمعوا الكلام سماع تفهم واستبصار حيث يتأملون فى
تضاعيف هذا البيان ويستدلون بذلك على شؤونه تعالى ومن اياته يريكم البرق الفعل
اما مقدر بان كما فى قول من قال الا ايهذا الزاجرى احضر الوغى اى ان احضر او منزل
منزلة المصدر وبه فسر المثل المشهور تسمع بالمعيدى خير من ان تراه او هو على حاله صفة
لمحذوف اى اية يريكم البرق كقول من قال وما الدهر الا تارتان فمنهما اموت
واخرى ابتغى العيش اكدح اى فمنهما تارة اموت فيها واخرى ابتغى فيها او ومن اياته
شئ او سحاب يريكم البرق خوفا من الصاعقة او للمسافر وطمعا فى الغيث او
للمقيم ونصبهما على العلة لفعل يستلزمه المذكور فان اراءتهم البرق مستلزم لرؤيتهم
اياه او للمذكور نفسه على تقدير مضاف نحو ارادة خوف وطمع او على تأويل الخوف

والطمع

والطمع بالاخافة والاطماع كقولك فعلته رغما للشيطان او على الحال نحو كلمته شفاها
وينزل من السماء ماء وقرئ بالتخفيف فيحيى به الارض بالنبات بعد موتها بيبسها
ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون فانها من الظهور بحيث يكفى فى ادراكها مجرد العقل
عند استعماله فى استنباط اسبابها وكيفية تكونها ومن اياته ان تقوم السماء والارض
بامره اى بارادته تعالى لقيامهما والتعبير عنها بالامر للدلالة على كمال القدرة والغنى عن
المبادى والاسباب وليس المراد باقامتهما انشاءهما لانه قد بين حاله بقوله تعالى ومن
اياته خلق السموات والارض ولا اقامتهما بغير مقيم محسوس كما قيل فان ذلك من تتمات
انشائهما وان لم يصرح به تعويلا على ما ذكر فى غير موضع من قوله تعالى خلق السموات
بغير عمد ترونها الاية بل قيامهما واستمرارهما على ما هما عليه الى اجلهما الذى نطق به
قوله تعالى فيما قبل ما خلق الله السموات والارض الا بالحق واجل مسمى وحيث كانت هذه
الاية متأخرة عن سائر الايات المعدودة متصلة بالبعث فى الوجود اخرت عنهن
وجعلت متصلة به فى الذكر ايضا فقيل ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا انتم
تخرجون فانه كلام مسوق للاخبار بوقوع البعث ووجوده بعد انقضاء اجل قيامهما
مترتب على تعداد اياته الدالة عليه غير منتظم فى سلكها كما قيل كانه قيل ومن اياته
قيام السموات والارض على هيئتهما بامره تعالى الى اجل مسمى قدره الله تعالى لقيامهما ثم
اذا دعاكم اى بعد انقضاء الاجل من الارض وانتم فى قبوركم دعوة واحدة بان قال
ايها الموتى اخرجوا فاجاءتم الخروج منها وذلك قوله تعالى يومئذ يتبعون الداعى
ومن الارض متعلق بدعاكم اذ يكفى فى ذلك كون المدعو فيها يقال دعوته من اسفل
الوادى فطلع الى لا بتخرجون لان ما بعد اذا لا يعمل فيما قبلها وله من
فى السموات والارض من الملائكة والثقلين خلقا وملكا وتصرفا ليس لغيره
شركة فى ذلك بوجه من الوجوه كل له قانتون اى منقادون لفعله لا يمتنعون
عليه فى شأن من شؤونه تعالى وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده بعد موتهم وتكريره
لزيادة التقرير والتمهيد لما بعده من قوله تعالى وهو اهون عليه اى بالاضافة
الى قدركم والقياس على اصولكم والا فهما عليه سواء وقيل اهون بمعنى هين وتذكير
الضمير مع رجوعه الى الاعادة لما انها مؤولة بان يعيد وقيل هو راجع الى الخلق
وليس بذاك واما ما قيل من ان الاشياء بطريق التفضل الذى يتخير فيه الفاعل بين
الفعل والترك والاعادة من قبيل الواجب الذى لا بد من فعله حتما فكان اقرب الى الحصول
من الانشاء المتردد بين الحصول وعدمه فبمعزل من التحصيل اذ ليس المراد بالهوينة
الفعل اقربيته الى الوجود باعتبار كثرة الامور الداعية للفاعل الى ايجاده وقوة
اقتضائها لتعلق قدرته به بل اسهلية تأتيه وصدوره عنه بعد تعلق قدرته
بوجوده وكونه واجبا بالغير ولا تفاوت فى ذلك بين ان يكون ذلك التعلق بطريق الايجاب
او بطريق الاختيار وله المثل الاعلى اى الوصف الاعلى العجيب الشان من القدرة
العامة والحكمة التامة وسائر صفات الكمال التى ليس لغيره ما يدانيها فضلا عما يساويها
ومن فسره بقول لا اله الا الله اراد به الوصف بالوحدانية فى السموات والارض متعلق
بمضمون الجملة المتقدمة على معنى انه تعالى قد وصف به وعرف فيهما على السنة الخلائق
والسنة الدلائل وقيل متعلق بالاعلى وقيل بمحذوف هو حال منه او من المثل او من
ضميره فى الاعلى وهو العزيز القادر الذى لا يعجز عن بدء ممكن واعادته الحكيم
الذى يجرى الافعال على سنن الحكمة والمصلحة ضرب لكم مثلا يتبين به بطلان الشرك
من انفسكم اى منتزعا من احوالها التى هى اقرب الامور اليكم واعرفها عندكم
واظهرها دلالة على ما ذكر من بطلان الشرك لكونها بطريق الاولوية وقوله
تعالى هل لكم الخ تصوير للمثل اى هل لكم مما ملكت ايمانكم من العبيد والاماء
من شركاء فيما رزقناكم من الاموال وما يجرى مجراها مما تتصرفون فيها فمن الاولى
ابتدائية والثانية تبعيضية والثالثة مزيدة لتأكيد النفى المستفاد من الاستفهام وقوله تعالى

فانتم فيه سواء تحقيق لمعنى الشركة وبيان لكونهم وشركائهم متساوين فى التصرف فيما
ذكر من غير مزية لهم عليها على ان هناك محذوفا معطوفا على انتم لانه عام للفريقين
بطريق التغليب اى هل ترضون لانفسكم والحال ان عبيدكم امثالكم فى البشرية واحكامها
ان يشارككم فيما رزقناكم وهو مستعار لكم فانتم وهم فيه سواء شرع يتصرفون فيه
كتصرفكم من غير فرق بينكم وبينهم تخافونهم خبر آخر لانتم او حال من ضمير الفاعل
فى سواء اى تهابون ان تستبدوا بالتصرف فيه بدون رايهم كخيفتكم انفسكم اى
خيفة كائنة مثل خيفتكم من الاحرار المساهمين لكم فيما ذكر والمعنى نفى مضمون ما
فصل من الجملة الاستفهامية اى لا ترضون بان يشارككم فيما هو معار لكم مماليككم وهم
امثالكم فى البشرية غير مخلوقين لكم بل لله تعالى فكيف تشركون به سبحانه فى المعبودية
التى هى من خصائصها الذاتية مخلوقه بل مصنوع مخلوقه حيث تصنعونه بايديكم
ثم تعبدونه كذلك اى مثل ذلك التفصيل الواضح نفصل الآيات اى نبينها ونوضحها
لا تفصيلا ادنى منه فان التمثيل تصوير للمعانى المعقولة بصورة المحسوس وابراز لاوابد
المدركات على هيئات المانوس فيكون فى غاية الايضاح والبيان لقوم يعقلون
اى يستعملون عقولهم فى تدبر الامور وتخصيصهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات
للكل لانهم المنتفعون بها بل اتبع الذين ظلموا اعراض عن مخاطبتهم ومحاولة ارشادهم
الى الحق بضرب المثل وتفصيل الآيات واستعمال المقدمات الحقة المعقولة وبيان
لاستحالة تبعيتهم للحق كانه قيل لم يعقلوا شيئا من الآيات المفصلة بل اتبعوا اهواءهم
الزائغة ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بانهم فى ذلك الاتباع ظالمون
واضعون للشئ فى غير موضعه او ظالمون لانفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بغير علم
اى جاهلين ببطلان ما اتوا مكبين عليه لا يلويهم عنه صارف حسبما يصرف العالم اذا
اتبع الباطل علمه ببطلانه فمن يهدى من اضل الله اى خلق فيه الضلال لصرف
اختياره الى كسبه اى لا يقدر على هدايته احد وما لهم اى لمن اضله الله تعالى
والجمع باعتبار المعنى من ناصرين يخلصونهم من الضلال ويحفظونهم من
تبعاته وآفاته على معنى ليس لواحد منهم ناصر واحد على ما هو قاعدة مقابلة الجمع
بالجمع فاقم وجهك للدين تمثيل لاقباله على الدين واستقامته وثباته عليه واهتمامه
بترتيب اسبابه فان من اهتم بشئ محسوس بالبصر عقد عليه طرفه وسدد اليه
نظره وقوم له وجهه مقبلا به عليه اى فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت يمينا وشمالا
وقوله تعالى حنيفا حال من المامور او من الدين فطرة الله الفطرة الخلقة و
انتصابها على الاغراء اى الزموا او عليكم فطرة الله فان الخطاب للكل كما يفصح عنه
قوله تعالى منيبين والافراد فى اقم لما ان الرسول صلى الله عليه وسلم امام الامة فامره
عليه السلام مستتبع لامرهم والمراد بلزومها الجريان على موجبها وعدم الاخلال به
باتباع الهوى وتسويل الشياطين وقيل على المصدر اى فطر الله فطرة وقوله تعالى التى
فطر الناس عليها صفة لفطرة الله مؤكدة لوجوب الامتثال بالامر فان خلق الله الناس
على فطرته التى هى عبارة عن قبولهم للحق وتمكنهم من ادراكه او عن ملة الاسلام من
موجبات لزومها والتمسك بها قطعا فانهم لو خلوا وما خلقوا عليه ادى بهم اليها وما
اختاروا عليها دينا آخر ومن غوى منهم فباغواء شياطين الانس والجن ومنه قوله تعالى
عليه السلام حكاية عن رب العزة كل عبادى خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن
دينهم وامروهم ان يشركوا بى غيرى وقوله عليه السلام كل مولود يولد على الفطرة حتى
يكون ابواه هما اللذان يهودانه وينصرانه وقوله تعالى لا تبديل لخلق الله تعليل للامر
بلزوم فطرته تعالى او لوجوب الامتثال به اى لا صحة ولا استقامة لتبديله بالاخلال
بموجبه وعدم ترتيب مقتضاه عليه باتباع الهوى وقبول وسوسة الشيطان
وقيل لا يقدر احد على ان يغيره فلا بد حينئذ من حمل التبديل على تبديل نفس الفطرة
بازالتها راسا ووضع فطرة اخرى مكانها غير مصححة لقبول الحق والتمكن من ادراكه

ضرورة ان التبديل بالمعنى الاول مقدور بل واقع قطعا فالتعليل حينئذ من جهة ان سلامة
الفطرة متحققة فى كل احد فلا بد من لزومها بترتيب مقتضاه عليها وعدم الاخلال
به بما ذكر من اتباع الهوى وخطوات الشيطان ذلك اشارة الى الدين المامور باقامة
الوجه له او الى لزوم فطرة الله المستفاد من الاغراء او الى الفطرة ان فسرت بالملة والتذكير
بتاويل المذكور او باعتبار الخبر الدين القيم المستوى الذى لا عوج فيه ولكن اكثر
الناس لا يعلمون ذلك فيصدون عنه صدودا منيبين اليه حال من الضمير فى الناصب
المقدر لفطرة الله او فى اقم لعمومه للامة حسبما اشير اليه وما بينهما اعتراض اى راجعين
اليه من اناب اذا رجع مرة بعد اخرى وقوله تعالى واتقوه من مخالفة امره عطف على المقدر
المذكور وكذا قوله تعالى واقيموا الصلوة ولا تكونوا من المشركين المبدلين لفطرة الله تعالى
تبديلا من الذين فرقوا دينهم بدل من المشركين باعادة الجار وتفريقهم لدينهم
اختلافهم فيما يعبدونه على اختلاف اهوائهم وفائدة الابدال التحذير عن الانتماء
الى حزب من احزاب المشركين ببيان ان الكل على الضلال المبين وقرئ فارقوا اى تركوا
دينهم الذى امروا به وكانوا شيعا اى فرقا تشايع كل منها امامها الذى اضلها كل
حزب بما لديهم من الدين المعوج المؤسس على الرأى الزائغ والزعم الباطل فرحون
مسرورون ظنا منهم انه حق وانى له ذلك فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من
تفريق دينهم وكونهم شيعا وقد جوز ان يكون فرحون صفة لكل على ان الخبر هو الظرف
المتقدم اعنى من الذين فرقوا ولا يخفى بعده واذا مس الناس ضر اى شدة دعوا ربهم منيبين
اليه راجعين من دعاء غيره ثم اذا اذاقهم منه رحمة خلاصا من تلك الشدة اذا فريق
منهم بربهم الذين كانوا دعوه منيبين اليه يشركون اى فاجاء فريق منهم الاشراك
وتخصيص هذا الفعل ببعضهم لما ان بعضهم ليسوا كذلك كما فى قوله تعالى فلما
نجاهم الى البر فمنهم مقتصد اى مقيم على الطريق القصد او متوسط فى الكفر لانزجاره
فى الجملة ليكفروا بما آتيناهم اللام فيه للعاقبة وقيل للامر التهديدى كقوله تعالى فتمتعوا
غير انه التفت فيه للمبالغة وقرئ ليتمتعوا فسوف تعلمون عاقبة تمتعكم وقرئ بالياء
على ان تمتعوا ماض والالتفات الى الغيبة فى قوله تعالى ام انزلنا عليهم للايذان بالاعراض
عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة سلطانا اى حجة واضحة وقيل ذا سلطان
اى ملكا معه برهان فهو يتكلم تكلم دلالة كما فى قوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم
بالحق او تكلم نطق بما كانوا به يشركون باشراكهم به تعالى او بالامر الذى بسببه
يشركون واذا اذقنا الناس رحمة اى نعمة من صحة وسعة فرحوا بها بطرا واشرا
لا حمدا او شكرا وان تصبهم سيئة شدة بما قدمت ايديهم بشؤم معاصيهم اذا هم
يقنطون فاجؤا القنوط من رحمته تعالى وقرئ بكسر النون اولم يروا اى الم ينظروا ولم
يشاهدوا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر فما لهم لم يشكروا ولم يحتسبوا فى
السراء والضراء كالمؤمنين ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون فيستدلون بها على كمال
القدرة والحكمة فآت ذا القربى حقه من الصلة والصدقة وساير المبرات والمسكين وابن
السبيل ما يستحقانه والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم او لمن بسط له كما يؤذن به الفاء
ذلك خير للذين يريدون وجه الله ذاته او جهته ويقصدون بما يؤتونهم اياه تعالى
خالصا او جهة التقرب اليه لا جهة اخرى واولئك هم المفلحون حيث حصلوا بما
بسط لهم النعيم المقيم وما آتيتم من ربا زيادة خالية عن العوض عند المعاملة
وقرئ اتيتم بالقصر اى غشيتموه او رهقتموه من اعطاء ربا ليربوا فى اموال الناس
ليزيد ويزكو فى اموالهم فلا يربوا عند الله اى لا يبارك فيه وقرئ لتربوا اى
لتزيدوا او لتصيروا ذوى ربا وما آتيتم من زكوة تريدون وجه الله اى تبتغون به
وجهه تعالى خالصا فاولئك هم المضعفون اى ذووا الاضعاف من الثواب ونظير
المضعف المقوى والموسر لذى القوة واليسار او الذين ضعفوا ثوابهم واموالهم بالبركة
وقرئ بفتح العين وفى تغيير النظم الكريم والالتفات من الجزالة ما لا يخفى الله الذى خلقكم

ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء اثبت له تعالى
لوازم الالوهية وخواصها ونفاها راسا عما اتخذوه شركاء لله تعالى من الاصنام وغيرها
موكدا بالانكار على ما دل عليه البرهان والعيان ووقع عليه الوفاق ثم استنتج منه
تنزهه عن الشركاء بقوله تعالى سبحانه وتعالى عما يشركون وقد جوز ان يكون الموصول
صفة والخبر هل من شركائكم والربط قوله تعالى من ذلكم لانه بمعنى من افعاله ومن الاولى
والثانية تفيد ان شيوع الحكم في جنس الشركاء والافعال والثالثة مزيدة لتعميم المنفي
وكل منها مستقلة بالتاكيد وقرئ تشركون بصيغة الخطاب ظهر الفساد في البر والبحر
كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق واخفاق الغاصة ومحق البركات وكثرة المضار
او الضلالة والظلم وقيل المراد بالبحر قرى السواحل وقرئ والبحور بما كسبت ايدي الناس
بشوم معاصيهم او بكسبهم اياها وقيل ظهر الفساد في البر بقتل قابيل اخاه هابيل
وفي البحر بان جلندى كان ياخذ كل سفينة غصبا ليذيقهم بعض الذي عملوا اي بعض
جزائه فان تمامه في الآخرة واللام للعلة او للعاقبة وقرئ لنذيقهم بالنون لعلهم
يرجعون عما كانوا عليه قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل
لتشاهدوا آثارهم كان اكثرهم مشركين استئناف للدلالة على ان ما اصابهم لفشو
الشرك فيما بينهم او كان الشرك في اكثرهم وما دونه من المعاصي في قليل منهم فاقم
وجهك للدين القيم اي البليغ الاستقامة من قبل ان ياتي يوم لا مرد له لا يقدر
احد على رده من الله متعلق بياتي او بمرد لانه مصدر والمعنى لا يرده الله تعالى لتعلق
ارادته القديمة بمجيئه يومئذ يصدعون اصله يتصدعون اي يتفرقون فريق في الجنة
وفريق في السعير من كفر فعليه كفره اي وبال كفره وهو النار المؤبدة ومن عمل
صالحا فلانفسهم يمهدون اي يسوون منزلا في الجنة وتقديم الظرف في الموضعين
للدلالة على الاختصاص ليجزي الذين امنوا وعملوا الصالحات من فضله متعلق
بيصدعون وقيل بيمهدون اي يتفرقون بتفريق الله تعالى فريقين ليجزي كلا منهما
بحسب اعمالهم وحيث كان جزاء المؤمنين هو المقصود بالذات ابرز ذلك في معرض
الغاية وعبر عنه بالفضل لما ان الاثابة بطريق التفضل لا الوجوب واشير الى جزاء الفريق
الآخر بقوله تعالى انه لا يحب الكافرين فان عدم محبته تعالى كناية عن بغضه الموجب
لغضبه المستتبع للعقوبة لا محالة ومن آياته ان يرسل الرياح اي الشمال والصبا
والجنوب فانها رياح الرحمة واما الدبور فريح العذاب ومنه قوله صلى الله عليه و
سلم اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا وقرئ الريح على ارادة الجنس
مبشرات بالمطر وليذيقكم من رحمته وهي المنافع التابعة لها وقيل الخصب
التابع لنزول المطر المسبب منها او الروح الذي هو مع هبوبها واللام متعلقة بيرسل
والجملة معطوفة على مبشرات على المعنى كانه قيل ليبشركم بها وليذيقكم او بمحذوف
يفهم من ذكر الارسال تقديره وليذيقكم وليكون كذا وكذا يرسلها لا لامر آخر لا تعلق
له بمنافعكم ولتجري الفلك بسوقها بامره ولتبتغوا من فضله بتجارة البحر ولعلكم
تشكرون ولتشكروا نعمة الله فيما ذكر من الغايات الجليلة ولقد ارسلنا من
قبلك رسلا الى قومهم كما ارسلناك الى قومك فجاؤهم بالبينات اي جاء كل
رسول قومه بما يخصه من البينات كما جئت قومك ببيناتك والفاء في قوله تعالى
فانتقمنا من الذين اجرموا فصيحة اي فكذبوهم فانتقمنا منهم وانما وضع موضع ضميرهم
الموصول للتنبيه على مكان المحذوف والاشعار بكونه علة للانتقام وفي قوله تعالى وكان
حقا علينا نصر المؤمنين مزيد تشريف وتكرمة للمؤمنين حيث جعلوا مستحقين على
الله تعالى ان ينصرهم واشعار بان الانتقام من الكفرة لاجلهم وقد يوقف على حقا
على انه متعلق بالانتقام ولعل توسيط الآية الكريمة بطريق الاعتراض بين ما سبق
وما لحق من احوال الرياح واحكامها لانذار الكفرة وتحذيرهم من الاخلال
بمواجب الشكر المطلوب بقوله تعالى لعلكم تشكرون بمقابلة النعم المعدودة المنوطة

بارسالها

بارسالها كيلا يحل بهم مثل ما حل باولئك الامم من الانتقام الله الذي يرسل الرياح
استئناف مسوق لبيان ما اجمل فيما سبق من احوال الرياح فتثير سحابا فيبسطه متصلا
تارة في السماء في جوها كيف يشاء سائرا او واقفا مطبقا وغير مطبق من جانب دون
جانب الى غير ذلك ويجعله كسفا تارة اخرى اي قطعا وقرئ بسكون السين على انه مخفف
جمع كسفة او مصدر وصف به فترى الودق المطر يخرج من خلاله في التارتين
فاذا اصاب به من يشاء من عباده اي بلادهم واراضيهم اذا هم يستبشرون
فاجؤا الاستبشار بمجيء الخصب وان كانوا ان مخففة من ان وضمير الشان الذي
هو اسمها محذوف اي وان الشان كانوا من قبل ان ينزل عليهم اي المطر من قبله
تكرير للتاكيد والايذان بطول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم منه وقيل الضمير للمطر
او السحاب او الارسال وقيل للكسف على القراءة بالسكون وليس بواضح واقرب من
ذلك ان يكون الضمير للاستبشار ومن متعلقة بينزل ليفيد سرعة تقلب قلوبهم من
الياس الى الاستبشار بالاشارة الى غاية تقارب زمانيهما ببيان اتصال الياس بالتنزيل
المتصل بالاستبشار بشهادة اذا الفجائية لمبلسين خبر كانوا واللام فارقة اي
آيسين فانظر الى آثار رحمة الله المترتبة على تنزيل المطر من النبات والاشجار
وانواع الثمار والفاء للدلالة على سرعة ترتبها عليه وقرئ اثر بالتوحيد وقوله تعالى
كيف يحيي اي الله تعالى الارض بعد موتها في حيز النصب بنزع الخافض وكيف معلق
لانظر اي فانظر الى احيائه البديع للارض بعد موتها وقيل على الحالية بالتاويل
وايا ما كان فالمراد بالامر بالنظر التنبيه على عظم قدرته تعالى وسعة رحمته مع ما
فيه من التمهيد لما يعقبه من امر البعث وقرئ تحيي بالتاء على الاسناد الى ضمير الرحمة
ان ذلك العظيم الشان الذي ذكر بعض شؤنه لمحيي الموتى لقادر على احيائهم فانه احدث
ما كان في مواد ابدانهم من القوى الحيوانية كما ان احياء الارض احداث لمثل ما كان
فيها من القوى النباتية او لمحييهم البتة وقوله تعالى وهو على كل شيء قدير تذييل
مقرر لمضمون ما قبله اي مبالغ في القدرة على جميع الاشياء من جملتها احياؤهم لما ان
نسبة قدرته الى الكل سواء ولئن ارسلنا ريحا فراوه اي الاثر المدلول عليه بالآثار
او النبات المعبر عنه بالآثار فانه اسم جنس يعم القليل والكثير مصفرا بعد خضرته
وقد جوز ان يكون الضمير للسحاب لانه اذا كان مصفرا لم يمطر ولا يخفى بعده واللام
في لئن موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط والفاء في فراوه فصيحة واللام في
قوله تعالى لظلوا لام جواب القسم الساد مسد الجوابين اي والله لئن ارسلنا ريحا
حارة او باردة فضربت زرعهم بالصفار فراوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون
من غير تلعثم وفيه من ذمهم بعدم تثبتهم وسرعة تزلزلهم بين طرفي الافراط و
التفريط ما لا يخفى حيث كان الواجب عليهم ان يتوكلوا على الله تعالى في كل حال ويلجؤا اليه
بالاستغفار اذا احتبس عنهم القطر ولا ييأسوا من روح الله تعالى ويبادروا الى الشكر
بالطاعة اذا اصابهم برحمته ولا يفرطوا في الاستبشار وان يصبروا على بلائه اذا اعترى
زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمائه فعكسوا الامر وابوا ما يجديهم واتوا بما يرديهم فانك لا
تسمع الموتى لما انهم مثلهم لانسداد مشاعرهم عن الحق ولا تسمع الصم الدعاء
اذا ولوا مدبرين تقييد الحكم بما ذكر لبيان كمال سوء حال الكفرة والتنبيه على انهم
جامعون لخصلتي السوء نبو اسماعهم عن الحق واعراضهم عن الاصغاء اليه ولو كان
فيهم احديهما لكفاهم ذلك فكيف وقد جمعوهما فان الاصم المقبل الى المتكلم
ربما يفطن من اوضاعه وحركاته بشيء من كلامه وان لم يسمعه اصلا واما اذا كان
معرضا عنه فلا يكاد يفهم منه شيئا وقرئ بالياء المفتوحة ورفع الصم وما انت بهادي العمي عن
ضلالتهم سموا عميا اما لفقدهم المقصود الحقيقي من الابصار او لعمى قلوبهم وقرئ تهدي العمي
ان تسمع اي ما تسمع الا من يؤمن باياتنا فان ايمانهم يدعوهم الى التدبر فيها
وتلقيها بالقبول او الا من يشارف الايمان بها ويقبل عليها اقبالا لائقا فهم مسلمون

منقادون لما نامرهم به من الحق ﴿الله الذي خلقكم من ضعف﴾ مبتدا وخبر ابتدا كم ضعفاء وجعل الضعف اساس امركم كقوله تعالى ﴿وخلق الانسان ضعيفا﴾ اى خلقكم من اصل ضعيف هو النطفة ﴿ثم جعل من بعد ضعف قوة﴾ وذلك عند بلوغكم الحلم وتعلق بابدانكم الروح ﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة﴾ اذا اخذ منكم السن وقرئ بضم الضاد فى الكل وهو اقوى لقول ابن عمر رضى الله عنهما قراتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقرانى من ضعف وهما لغتان كالفقر والفقر والتنكير مع التكرير لان المتقدم غير المتاخر ﴿يخلق ما يشاء﴾ من الاشياء التى من جملتها ما ذكر من الضعف والقوة والشيبة ﴿وهو العليم القدير﴾ المبالغ فى العلم والقدرة فان الترديد فيما ذكر من الاطوار المختلفة من اوضح دلائل العلم والقدرة ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ اى القيمة سميت بها لانها تقوم فى اخر ساعة من ساعات الدنيا او لانها تقع بغتة وصارت علما لها كالنجم للثريا والكوكب للزهرة ﴿يقسم المجرمون ما لبثوا﴾ فى القبور او فى الدنيا والاول هو الاظهر لان لبثهم مغيا بيوم البعث كما سياتى وليس لبثهم فى الدنيا كذلك وقيل فيما بين فناء الدنيا والبعث وانقطاع عذابهم وفى الحديث ما بين فناء الدنيا والبعث اربعون وهو محتمل للساعات والايام والاعوام وقيل لا يعلم اهى اربعون سنة او اربعون الف سنة ﴿غير ساعة﴾ استقلوا مدة لبثهم نسيانا او كذبا او تخمينا ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾ مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون فى الدنيا عن الحق والصدق ﴿وقال الذين اوتوا العلم والايمان﴾ فى الدنيا من الملئكة والانس ﴿لقد لبثتم فى كتاب الله﴾ فى علمه او قضائه او ما كتبه وعينه او فى اللوح او القران وهو قوله ﴿ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون﴾ ﴿الى يوم البعث﴾ ردوا بذلك ما قالوه وايدوه باليمين كانهم من فرط حيرتهم لم يدروا ان ذلك هو البعث الموعود الذى كانوا ينكرونه وكانوا يسمعون انه يكون بعد فناء الخلق كافة ويقدرون لذلك زمانا مديدا وان لم يعتقدوا تحققه فرد العالمون مقالتهم ونبهوهم على انهم لبثوا الى غاية بعيدة كانوا يسمعونها وينكرونها ويكتوهم بالاخبار بوقوعها حيث قالوا ﴿فهذا يوم البعث﴾ الذى كنتم توعدون فى الدنيا ﴿ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ انه حق فتستعجلون بها استهزاء والفاء جواب شرط محذوف كما فى قول من قال قالوا خراسان اقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾ اى عذرهم وقرئ تنفع بالتاء محافظة على ظاهر اللفظ وان توسط بينهما فاصل ﴿ولا هم يستعتبون﴾ لا يدعون الى ما يقتضى اعتابهم اى ازالة عتبهم من التوبة والطاعة كما دعوا اليه فى الدنيا من قولهم استعتبنى فلان فاعتبته اى استرضانى فارضيته ﴿ولقد ضربنا للناس فى هذا القران من كل مثل﴾ اى وبالله لقد بينا كل حال ووصفنا لهم كل صفة كانها فى غرابتها مثل وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشان كصفة المبعوثين يوم القيمة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم ويفعل بهم من رد اعتذارهم ﴿ولئن جئتهم باية﴾ من ايات القرآن الناطقة بامثال ذلك ﴿ليقولن الذين كفروا﴾ لفرط عتوهم وعنادهم وقساوة قلوبهم مخاطبين للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ﴿ان انتم الا مبطلون﴾ اى مزورون ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الطبع الفظيع ﴿يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾ لا يطلبون العلم ولا يتحرون الحق بل يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها فان الجهل المركب يمنع ادراك الحق ويوجب تكذيب المحق ﴿فاصبر﴾ على ما تشاهد منهم من الاقوال الباطلة والافعال السيئة ﴿ان وعد الله حق﴾ وقد وعدك بالنصرة واظهار الدين واعلاء كلمة الحق ولا بد من انجازه والوفاء به لا محالة ﴿ولا يستخفنك﴾ لا يحملنك على الخفة والقلق ﴿الذين لا يوقنون﴾ بما تتلو عليهم من الايات البينة بتكذيبهم اياها وايذائهم لك باباطيلهم التى من جملتها قولهم ان انتم الا مبطلون فانهم ضالون ولا يستبدع منهم امثال ذلك وقرئ بالنون المخففة وقرئ ولا يستحقنك من الاستحقاق اى لا يفتننك فيملكوك ويكونوا احق بك من المؤمنين وايا ما كان فظاهر

النظم الكريم

النظم الكريم وان كان نهيا للكفرة عن استخفافه عليه السلام واستحقاقه لكنه فى الحقيقة نهى له عليه السلام عن التاثر من استخفافهم والافتتان بفتنتهم على طريق الكناية كما فى قوله تعالى ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا﴾ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرا سورة الروم كان له من الاجر عشر حسنات بعدد كل ملك يسبح الله تعالى بين السماء والارض وادرك ما ضيع يومه وليلته

سورة لقمان مكية وهى اربع وثلثون اية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم تلك ايات الكتاب﴾ سلف بيانه فى نظائره ﴿الحكيم﴾ اى ذى الحكمة لاشتماله عليها او هو وصف له بنعته تعالى فاصله الحكيم منزله او قائله فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه فانقلب مرفوعا فاستكن فى الصفة المشبهة وقيل الحكيم فعيل بمعنى مفعل كما قالوا اعقدت اللبن فهو عقيد اى معقد وهو قليل وقيل بمعنى فاعل ﴿هدى ورحمة﴾ بالنصب على الحالية من الآيات والعامل فيهما معنى الاشارة وقرئا بالرفع على انهما خبران اخران لاسم الاشارة او لمبتدا محذوف ﴿للمحسنين﴾ اى العاملين للحسنات فان اريد بها مشاهيرها المعهودة فى الدين فقوله تعالى ﴿الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم بالاخرة هم يوقنون﴾ بيان لما عملوها من الحسنات على طريقة قوله الالمعى الذى يظن بك الظن كان قد راى وقد سمعا وان اريد بها جميع الحسنات فهو تخصيص لهذه الثلث بالذكر من بين سائر شعبها لاظهار فضلها وانافتها على غيرها وتخصيص الوجه الاول بصورة كون الموصول صفة للمحسنين والوجه الاخر بصورة كونه مبتدا مما لا وجه له ﴿اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون﴾ الفائزون بكل مطلوب والناجون من كل مهروب لحيازتهم قطرى العلم والعمل وقد مر ما فيه من المقال فى مطلع سورة البقرة بما لا مزيد عليه ﴿ومن الناس﴾ محله الرفع على الابتداء باعتبار مضمونه او بتقدير الموصوف ومن فى قوله تعالى ﴿من يشترى لهو الحديث﴾ موصولة او موصوفة محلها الرفع على الخبرية والمعنى وبعض الناس او وبعض من الناس الذى يشترى او فريق يشترى على ان مناط الافادة والمقصود بالاصالة هو اتصافهم بما فى حيز الصلة او الصفة لا كونهم ذوات اولئك المذكورين كما مر فى قوله تعالى ﴿ومن الناس من يقول امنا بالله وباليوم الاخر﴾ الاية ولهو الحديث ما يلهى عما يعنى من المهمات كالاحاديث التى لا اصل لها والاساطير التى لا اعتداد بها والمضاحك وسائر ما لا خير فيه من فضول الكلام والاضافة بمعنى من التبيينية ان اريد بالحديث المنكر وبمعنى التبعيضية ان اريد به الاعم من ذلك وقيل نزلت الاية فى النضر بن الحارث اشترى كتب الاعاجم وكان يحدث بها قريشا ويقول ان كان محمد عليه السلام يحدثكم بحديث عاد وثمود فانا احدثكم بحديث رستم واسفنديار والاكاسرة وقيل كان يشترى القيان ويحملهن على معاشرة من اراد الاسلام ومنعه عنه ﴿ليضل عن سبيل الله﴾ اى دينه الحق الموصل اليه تعالى او عن قراءة كتابه الهادى اليه تعالى وقرئ ليضل بفتح الياء اى ليثبت ويستمر على ضلاله او ليزداد فيه ﴿بغير علم﴾ اى بحال ما يشتريه او بالتجارة حيث استبدل الشر البحت بالخير المحض ﴿ويتخذها﴾ بالنصب عطفا على يضل والضمير للسبيل فانه مما يذكر ويؤنث وهو دين الاسلام او القران اى ويتخذها ﴿هزوا﴾ مهزوءا به وقرئ ويتخذها بالرفع عطفا على يشترى وقوله تعالى ﴿اولئك﴾ اشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما ان الافراد فى الفعلين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بذكر المشار اليه للايذان ببعد منزلتهم فى الشرارة اى اولئك الموصوفون بما ذكر من الاشتراء والاضلال ﴿لهم عذاب مهين﴾ لما اتصفوا به من اهانتهم الحق بايثار الباطل عليه وترغيب الناس فيه ﴿واذا تتلى عليه﴾ اى على المشترى افرد الضمير فيه وفيما بعده كالضماير الثلثة الاول باعتبار لفظه من بعد ما جمع فيما بينهما باعتبار معناها ﴿اياتنا﴾ التى هى ايات الكتاب الحكيم وهدى ورحمة للمحسنين ﴿ولى﴾ اعرض عنها غير معتد بها ﴿مستكبرا﴾ مبالغا فى التكبر ﴿كان لم يسمعها﴾ حال من ضمير ولى او من ضمير مستكبر والاصل كانه فحذف ضمير الشان وخففت المثقلة اى مشبها حاله حال من لم يسمعها وهو سامع وفيه رمز الى ان من يسمعها لا يتصور منه التولية

سورة لقمان

والاستكبار لما فيها من الامور الموجبة للاقبال عليها والخضوع لها على طريقة قول من قال كانك
لم تجرح على ابن طريف كان في اذنيه وقرا حال من ضمير لم يسمعها اى مشبها حاله حال من في
اذنيه ثقل مانع من السماع ويجوز ان يكونا استينافين وقرئ في اذنيه بسكون الذال فبشره
بعذاب اليم اى فاعلمه بان العذاب المفرط في الايلام لاحق به لا محالة وذكر البشارة للتهكم
ان الذين امنوا وعملوا الصالحات بيان لحال المؤمنين باياته تعالى اثر بيان الكافرين بها اى الذين امنوا
باياته وعملوا بموجبها لهم بمقابلة ما ذكر من ايمانهم واعمالهم جنات النعيم اى نعيم جنات
فعكس للمبالغة والجملة خبر ان والاحسن ان يجعل لهم هو الخبر لان وجنات النعيم مرتفعا به على
الفاعلية وقوله تعالى خالدين فيها حال من الضمير في لهم او من جنات النعيم لاشتماله على ضمير
يهما والعامل ما تعلق به اللام وعد الله حقا مصدران مؤكدان الاول لنفسه والثانى
لغيره لان قوله تعالى لهم جنات النعيم في معنى وعدهم الله جنات النعيم فاكد معنى الوعد
بالوعد واما حقا فدال على معنى الثبات اكد به معنى الوعد ومؤكدهما جميعا لهم جنات النعيم
وهو العزيز الذى لا يغلبه شئ ليمنعه من انجاز وعده او تحقيق وعيده الحكيم
الذى لا يفعل الا بما يقتضيه الحكمة والمصلحة خلق السموات بغير عمد الخ استيناف سيق
للاستشهاد بما فصل فيه على عزته تعالى التى هى كمال القدرة وحكمته التى هى كمال العلم
تمهيد قاعدة التوحيد وتقريره وابطال امر الاشراك وتبكيت اهله والعمد جمع عماد
كاهب جمع اهاب وهو ما يعمد به اى يسند يقال عمدت الحائط اذا ادعمته اى بغير دعائم
على ان الجمع لتعدد السموات وقوله تعالى ترونها استيناف جئ به للاستشهاد على ما ذكر
من خلقه تعالى لها غير معمودة بمشاهدتهم لها كذلك او صفة لعمد اى خلقها بغير عمد مرئية
على ان التقييد للرمز الى انه تعالى عمدها بعمد لا ترى هى عمدة القدرة والقى في الارض
رواسى بيان لصنعه البديع في قرار الارض اثر بيان صنعه الحكيم في قرار السموات
اى القى فيها جبالا ثوابت وقد مر ما فيه من الكلام في سورة الرعد ان تميد بكم كراهة
ان تميل بكم فان بساطة اجزائها تقتضى تبدل احيازها واوضاعها لامتناع
اختصاص كل منها لذاته او لشئ من لوازمه بحيز معين ووضع مخصوص وبث فيها
من كل دابة من كل نوع من انواعها وانزلنا من السماء ماء هو المطر فانبتنا فيها بسبب ذلك
الماء من كل زوج كريم من كل صنف كثير المنافع والالتفات الى نون العظمة في الفعلين
لابراز مزيد الاعتناء بامرهما هذا اى ما ذكر من السموات والارض وما تعلق بهما
من الامور المعدودة خلق الله اى مخلوقه فاروني ماذا خلق الذين من دونه
مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه في العبادة حتى استحقوا به المعبودية وماذا نصب
بخلق او ما مرتفع بالابتداء وخبره ذا بصلته واروني متعلق به وقوله تعالى بل الظالمون
في ضلال مبين اضراب عن تبكيتهم بما ذكر الى التسجيل عليهم بالضلال البين المستدعى
للاعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحقة لاستحالة ان يفهموا منها شيئا
فيهتدوا به الى العلم ببطلان ما هم عليه او يتأثروا من الالزام والتبكيت فينزجروا عنه
ووضع الظاهر موضع ضميرهم للدلالة على انهم باشراكهم واضعون للشئ في غير موضعه
ومتعدون عن الحد وظالمون لانفسهم بتعريضها للعذاب الخالد ولقد اتينا لقمان
الحكمة كلام مستانف مسوق لبيان بطلان الشرك وهو لقمان بن عوراء من اولاد
آزر بن اخت ايوب عليه السلام او خالته وعاش حتى ادرك داود عليه السلام واخذ
منه العلم وكان يفتى قبل مبعثه وقيل كان قاضيا في بنى اسرائيل والجمهور على انه كان حكيما
ولم يكن نبيا والحكمة في عرف العلماء استكمال النفس الانسانية باقتباس العلوم
النظرية واكتساب الملكة التامة على الافعال الفاضلة على قدر طاقتها ومن حكمته
انه صحب داود عليه السلام شهورا وكان يسرد الدرع فلم يسأله عنها فلما اتمها لبسها
فقال نعم لبوس الحرب انت فقال الصمت حكمة وقليل فاعله فقال له داود عليه السلام
يحق ما سميت حكيما وان داود عليه السلام قال له يوما كيف اصبحت قال اصبحت في
يدى غيرى فتفكر داود عليه السلام فيه فصعق صعقة وانه امره مولاه بان يذبح شاة

ويأتى

ويأتى باطيب مضغتين منها فاتى باللسان والقلب ثم بعد ايام امره بان يأتى باخبث مضغتين
منها فاتى بهما ايضا فسأله عن ذلك فقال هما اطيب شئ اذا طابا واخبث شئ اذا خبثا ومعنى
ان اشكر لله اى اشكر له تعالى على ان ان مفسرة فان ايتاء الحكمة في معنى القول وقوله
تعالى ومن يشكر الخ استيناف مقرر لمضمون ما قبله موجب للامتثال بالامر اى ومن يشكر
له تعالى فانما يشكر لنفسه لان منفعته التى هى ارتباط العتيد واستجلاب المزيد مقصورة
عليها ومن كفر فان الله غنى عن كل شئ فلا يحتاج الى الشكر ليتضرر بكفر من كفر حميد
حقيق بالحمد وان لم يحمده احد او محمود بالفعل ينطق بحمده جميع المخلوقات بلسان الحال
وعدم التعرض لكونه تعالى مشكورا لما ان الحمد متضمن للشكر بل هو رأسه كما قال عم
الحمد رأس الشكر لم يشكر الله عبد لم يحمده فاثباته له تعالى اثبات للشكر له قطعا واذ قال
لقمان لابنه انعم وقيل اشكم وقيل ماثان وهو يعظه يا بنى تصغير اشفاق
وقرئ يا بنى باسكان الياء وبكسرها لا تشرك بالله قيل كان ابنه كافرا فلم يزل به حتى
اسلم ومن وقف على لا تشرك جعل بالله قسما ان الشرك لظلم عظيم تعليل للنهى او الانتهاء
عن الشرك ووصينا الانسان بوالديه الخ كلام مستانف اعترض به على نهج الاستطراد
في اثناء وصية لقمان تاكيدا لما فيها من النهى عن الشرك وقوله تعالى حملته امه الى قوله
في عامين اعتراض بين المفسر والمفسر وقوله تعالى وهنا حال من امه اى ذات وهن او مصدر
مؤكد لفعل هو الحال اى تهن وهنا وقوله تعالى على وهن صفة للمصدر اى كائنا على
وهن اى تضعف ضعفا فوق ضعف فانها لا يزال يتضاعف ضعفها وقرئ وهنا على
وهن بالتحريك يقال وهن يهن وهنا ووهن يوهن وهنا وفصاله في عامين اى
فطامه في تمام عامين وهى مدة الرضاع عند الشافعى وعند ابى حنيفة رحمهما الله هى
ثلثون شهرا وقد بين وجهه في موضعه وقرئ وفصله ان اشكر لى ولوالديك تفسير لوصينا
وما بينهما اعتراض مؤكد للوصية في حقها خاصة ولذلك قال عليه السلام لمن قال له من ابر
امك ثم امك ثم قال بعد ذلك ثم اباك الى المصير تعليل لوجوب الامتثال بالامر اى الى الرجوع
لا الى غيرى فاجازيك على ما صدر عنك من الشكر والكفر وان جاهداك على ان تشرك بى
ما ليس لك به علم اى بشركته له تعالى في استحقاق العبادة علم فلا تطعهما في ذلك
وصاحبهما في الدنيا معروفا اى صحابا معروفا يرتضيه الشرع ويقتضيه المروءة واتبع
سبيل من اناب الى بالتوحيد والاخلاص في الطاعة ثم الى مرجعكم اى مرجعك و
مرجعهما ومرجع من اناب الى فانبئكم عند رجوعكم بما كنتم تعملون بان اجازى كلا منكم
بما صدر عنه من الخير والشر وقوله تعالى يا بنى الخ شروع في حكاية بقية وصايا لقمان اثر تقرير
ما في مطلعها من النهى عن الشرك وتاكيده بالاعتراض انها ان تك مثقال حبة من خردل
اى ان الخصلة من الاساءة او الاحسان ان تك مثلا في الصغر كحبة الخردل وقرئ برفع مثقال
على ان الضمير للقصة وكان تامة والتانيث لاضافة المثقال الى الحبة كما في قول من قال كما
شرقت صدر القناة من الدم او لان المراد به الحسنة او السيئة فتكن في صخرة او في السماء
او في الارض اى فتكن مع كونها في اقصى غايات الصغر والخفاء في اخفى مكان واحرزه كجوف
الصخرة او حيث كانت في العالم العلوى او السفلى يأت بها الله اى يحضرها ويحاسب عليها ان الله
لطيف يصل علمه الى كل خفى خبير بكنهه وبعد ما امره بالتوحيد الذى هو اول ما يجب
على الانسان في ضمن النهى عن الشرك ونبهه على كمال علم الله تعالى وقدرته امره بالصلوة التى
هى اكمل العبادات تكميلا له من حيث العمل بعد تكميله من حيث الاعتقاد فقال مستميلا له يا بنى
اقم الصلوة تكميلا لنفسك وأمر بالمعروف وانه عن المنكر تكميلا لغيرك واصبر على
ما اصابك من الشدائد والمحن لا سيما فيما امرت به ان ذلك اشارة الى كل ما ذكر وما
فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه لما مر مرارا من الاشعار ببعد منزلته في الفضل
من عزم الامور اى مما عزمه الله وقطعه على عباده من الامور لمزيد مزيتها مصدر
اطلق على المفعول وقد جوز ان يكون بمعنى الفاعل من قوله تعالى فاذا عزم الامر اى جد والجملة
تعليل لوجوب الامتثال بما سبق من الامر والنهى وايذان بان ما بعدها ليس بمثابة ولا تصعر

خدك للناس اى لا تمله ولا تولهم صفحة وجهك كما هو ديدن المتكبرين من الصعر وهو داء يصيب البعير فيلوى منه عنقه وقرئ ولا تصاعر وقرئ ولا تصعر من الافعال والكل بمعنى مثل علاه وعالاه واعلاه ولا تمش فى الارض مرحا اى فرحا مصدر وقع موقع الحال او مصدر موكد لفعل هو الحال اى تمرح مرحا او لاجل المرح والبطر ان الله لا يحب كل مختال فخور تعليل للنهى او موجبه وتأخير الفخور مع كونه بمقابلة المصعر خده عن المختال وهو بمقابلة الماشى مرحا لرعاية الفواصل واقصد فى مشيك بعد الاجتناب عن المرح اى توسط بين الدبيب والاسراع وعنه عليه السلام سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن وقول عائشة فى عمر رضى الله تعالى عنهما كان اذا مشى اسرع فالمراد به ما فوق دبيب المتماوت وقرئ بقطع الهمزة من اقصد الرامى اذا سدد سهمه نحو الرمية واغضض من صوتك وانقص منه واقصر ان انكر الاصوات اى اوحشها لصوت الحمير تعليل للامر على ابلغ وجه وآكده مبنى على تشبيه الرافعين اصواتهم بالحمير وتمثيل اصواتهم بالنهاق وافراط فى التحذير عن رفع الصوت والتنفير عنه وافراد الصوت مع اضافته الى الجمع لما ان المراد ليس بيان حال صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع بل بيان حال صوت هذا الجنس من بين اصوات سائر الاجناس وقوله تعالى الم تروا ان الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض رجوع الى سنن ما سلف قبل قصة لقمان من خطاب المشركين وتوبيخ لهم على اصرارهم على ما هم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد والمراد بالتسخير ما جعل المسخر بحيث ينفع المسخر له اعم من ان يكون منقادا له يتصرف فيه كيف يشاء ويستعمله حسبما يريد كعامة ما فى الارض من الاشياء المسخرة للانسان المستعملة له من الجماد والحيوان او لا يكون كذلك بل يكون سببا لحصول مراده من غير ان يكون له دخل فى استعماله كجميع ما فى السموات من الاشياء التى نيطت بها مصالح العباد معاشا او معادا واما جعله منقادا للامر مذللا على ان معنى لكم لاجلكم فان جميع ما فى السموات والارض من الكائنات مسخرة لله تعالى مستتبعة لمنافع الخلق وما يستعمله الانسان حسبما يشاء وان كان مسخرا له بحسب الظاهر فهو فى الحقيقة مسخر لله تعالى واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة محسوسة ومعقولة معروفة لكم وغير معروفة وقد مر شرح النعمة وتفصيلها فى الفاتحة وقرئ اصبغ بالصاد وهو جار فى كل سين قارنه الغين او الخاء او القاف كما تقول فى سلخ صلخ وفى سقر صقر وفى سالغ صالغ وقرئ نعمة ومن الناس من يجادل فى الله فى توحيده وصفاته بغير علم مستفاد من دليل ولا هدى من جهة الرسول عليه السلام ولا كتاب منير انزله الله سبحانه بل بمجرد التقليد واذا قيل لهم اى لمن يجادل والجمع باعتبار المعنى اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا يريدون به عبادة الاصنام اولو كان الشيطان يدعوهم اى آباءهم لا انفسهم كما قيل فان مدار انكار الاتباع واستبعاده كون المتبوعين تابعين للشيطان لا كون انفسهم كذلك اى ايتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك الى عذاب السعير فهم متوجهون اليه حسب دعوته والجملة فى حيز النصب على الحالية وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى اولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون من سورة البقرة بما لا مزيد عليه ومن يسلم وجهه الى الله بان فوض اليه مجامع اموره واقبل عليه بكليته وحيث عدى باللام قصد معنى الاختصاص وقرئ بالتشديد وهو محسن اى فى اعماله آت بها جامعة بين الحسن الذاتى والوصفى وقد مر فى آخر سورة النحل فقد استمسك بالعروة الوثقى اى تعلق باوثق ما يتعلق به من الاسباب وهو تمثيل لحال المتوكل المشتغل بالطاعة بحال من اراد ان يترقى الى شاهق جبل فتمسك باوثق عرى الحبل المتدلى منه والى الله لا الى احد غيره عاقبة الامور فيجازيه احسن الجزاء ومن كفر فلا يحزنك كفره فانه لا يضرك فى الدنيا ولا فى الآخرة وقرئ فلا يحزنك من احزن المنقول من حزن بكسر الزاء وليس بمستفيض الينا مرجعهم لا الى غيرنا فننبئهم بما عملوا فى الدنيا من الكفر والمعاصى بالعذاب والعقاب والجمع فى الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما ان الافراد فى الاول باعتبار لفظها ان الله عليم بذات

الصدور

الصدور تعليل للتنبئة المعبر بها عن التعذيب نمتعهم قليلا تمتيعا او زمانا قليلا فان ما يزول وان كان بعد امد طويل بالنسبة الى ما يدوم قليل ثم نضطرهم الى عذاب غليظ يثقل عليهم ثقل الاجرام الغلاظ او يضم الى الاحراق الضغط والتضييق ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله لغاية وضوح الامر بحيث اضطروا الى الاعتراف به قل الحمد لله على ان جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد ينكرها المكابرون ايضا بل اكثرهم لا يعلمون شيئا من الاشياء فلذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم وقيل لا يعلمون ان ذلك يلزمهم لله ما فى السموات وما فى الارض فلا يستحق العبادة فيهما غيره ان الله هو الغنى عن العالمين الحميد المستحق للحمد وان لم يحمده احد او المحمود بالفعل يحمده كل مخلوق بلسان الحال ولو ان ما فى الارض من شجرة اقلام اى لو ان الاشجار اقلام وتوحيد الشجرة لما ان المراد تفصيل الآحاد والبحر يمده من بعده اى بعد نفاده سبعة ابحر اى والحال ان البحر المحيط بسعته يمده الابحر السبعة مدا لا ينقطع ابدا وكتبت بتلك الاقلام وبذلك المداد كلمات الله ما نفدت كلمات الله ونفدت تلك الاقلام والمداد كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى وقرئ يمده من الامداد بالياء والتاء واسناد المد الى الابحر السبعة دون البحر المحيط مع كونه اعظم منها واطم لانها هى المجاورة للجبال ومنابع المياه الجارية واليها ينصب الانهار العظام اولا ومنها ينصب الى البحر المحيط ثانيا وايثار جمع القلة فى الكلمات للايذان بان ما ذكر لا يفى بالقليل منها فكيف بالكثير ان الله عزيز لا يعجزه شئ حكيم لا يخرج عن علمه وحكمته امر فلا تنفد كلماته المؤسسة عليها ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة اى الا كخلقها وبعثها فى سهولة التأتى اذ لا يشغله شان عن شان لان مناط وجود الكل تعلق ارادته الواجبة مع قدرته الذاتية حسبما عنه قوله تعالى انما امرنا لشئ اذا اردناه ان نقول له كن فيكون ان الله سميع يسمع كل مسموع بصير يبصر كل مبصر لا يشغله علم بعضها عن علم بعض فكذلك الخلق والبعث الم تر قيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل عام لكل احد ممن يصلح للخطاب وهو الاوفق لما سبق وما لحق اى الم تعلم علما قويا جاريا مجرى الرؤية ان الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل اى يدخل كل واحد منهما فى الآخر ويضيفه اليه فيتفاوت بذلك حاله زيادة ونقصانا وسخر الشمس والقمر عطف على يولج والاختلاف بينهما صيغة لما ان ايلاج احد الملوين فى الآخر متجدد فى كل حين واما تسخير النيرين فامر لا تعدد فيه ولا تجدد وانما التعدد والتجدد فى آثاره وقد اشير الى ذلك حيث قيل كل يجرى اى بحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على المدارات اليومية المتخالفة المتعددة حسب تعدد الايام جريا مستمرا الى اجل مسمى قدره الله تعالى لجريهما وهو يوم القيمة كما روى عن الحسن رحمه الله فانه لا ينقطع جريهما الا حينئذ والجملة على تقدير عموم الخطاب اعتراض بين المعطوفين لبيان الواقع بطريق الاستطراد وعلى تقدير اختصاصه به عليه السلام يجوز ان يكون حالا من الشمس والقمر فان جريانهما الى يوم القيمة من جملة ما فى حيز رؤيته عليه السلام هذا وقد جعل جريانهما عبارة عن حركتهما الخاصة بهما فى فلكهما والاجل المسمى عن منتهى دورتهما وجعل مدة الجريان للشمس سنة وللقمر شهرا فالجملة حينئذ بيان لحكم تسخيرهما وتنبيه على كيفية ايلاج احد الملوين فى الآخر وكون ذلك بحسب اختلاف جريان الشمس على مداراتها اليومية فكلما كان جريانها متوجها الى سمت الرأس تزداد القوس التى هى فوق الارض كبرا فيزداد النهار طولا بانضمام بعض اجزاء الليل اليه الى ان يبلغ المدار الذى هو اقرب المدارات الى سمت الرأس وذلك عند بلوغها الى رأس السرطان ثم ترجع متوجهة الى التباعد عن سمت الرأس فلا تزال القسى التى فوق الارض تزداد صغرا فيزداد النهار قصرا بانضمام بعض اجزائه الى الليل الى ان يبلغ المدار الذى هو ابعد المدارات اليومية عن سمت الرأس وذلك عند بلوغها برج الجدى وقوله تعالى وان الله بما تعملون خبير عطف على ان الله يولج الخ داخل معه فى حيز الرؤية على تقديرى خصوص الخطاب وعمومه فان من شاهد مثل ذلك الصنع

الرايق والتدبير اللايق لايكاد يغفل عن كون صانعه عز وجل محيطا بجلائل اعماله ودقايقها ذلك
اشارة الى ما تلى من الآيات الكريمة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها فى الفضل
وهو مبتدا خبره قوله تعالى بان الله هو الحق اى بسبب بيان انه تعالى هو الحق الهيته فقط و
لاجله لكونها ناطقة بحقية التوحيد وان ما يدعون من دونه الباطل اى ولاجل بيان
بطلان الهية ما يدعونه من دونه تعالى لكونها شاهدة بذلك شهادة بينة لا ريب
فيها وقرئ بالتاء والتصريح بذلك مع ان الدلالة على اختصاص حقية الالهية به تعالى
مستتبعة للدلالة على بطلان الهية ما عداه لابراز كمال الاعتناء بامر التوحيد وللايذان
بان الدلالة على بطلان ما ذكر ليست بطريق الاستتباع فقط بل بطريق الاستقلال ايضا
وان الله هو العلى الكبير اى وبيان انه تعالى هو المترفع عن كل شئ المتسلط عليه فان ما
فى تضاعيف الآيات الكريمة مبين لاختصاص العلو والكبرياء به تعالى اى بيانا هذا وقيل ذلك
اى ما ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص البارئ تعالى بها بسبب
انه الثابت فى ذاته الواجب من جميع جهاته او الثابت الهيته وانت خبير بان حقيته
تعالى وعلوه وكبريائه وان كانت صالحة لمناطية ما ذكر من الاحكام المعدودة لكن بطلان
الهية الاصنام لا دخل له فى المناطية قطعا فلا مساغ لنظمه فى سلك الاسباب بل هو تعكيس
للامر ضرورة ان الاحكام المذكورة هى المقتضية لبطلانها لا ان بطلانها يقتضيها الم تر ان الفلك
تجرى فى البحر بنعمة الله باحسانه فى تهيئة اسبابه وهو استشهاد آخر على باهر قدرته و
غاية حكمته وشمول انعامه والباء اما متعلقة بتجرى او بمقدر هو حال من فاعله اى ملتبسة
بنعمته تعالى وقرئ الفلك بضم اللام وبنعمات الله وعين فعلات يجوز فيه الكسر والفتح والسكون
ليريكم من آياته اى بعض دلايل وحدته وعلمه وقدرته وقوله تعالى ان فى ذلك لآيات
لكل صبار شكور تعليل لما قبله اى ان فيما ذكر لآيات عظيمة فى ذاتها كثيرة فى عددها لكل
من يبالغ فى الصبر على المشاق فيتعب نفسه فى التفكر فى الانفس والآفاق ويبالغ فى الشكر
على نعمائه وهما صفتا المؤمن فكانه قيل لكل مؤمن واذا غشيهم اى علاهم واحاط بهم
موج كالظلل كما يظل من جبل او سحاب او غيرهما وقرئ كالظلال جمع الظلة كقلة وقلال
دعوا الله مخلصين له الدين لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد بما دهاهم من
الدواهى والشدايد فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد اى مقيم على القصد السوى
الذى هو التوحيد او متوسط فى الكفر لانزجاره فى الجملة وما يجحد باياتنا الا كل ختار
غدار فانه نقض للعهد الفطرى او رفض لما كان فى البحر والختر اشد الغدر واقبحه كفور
مبالغ فى كفران نعم الله تعالى يا ايها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده
اى لا يقضى عنه وقرئ لا يجزئ من اجزأ اذا اغنى والعائد الى الموصول محذوف اى لا يجزى
فيه ولا مولود عطف على والد او هو مبتدا خبره هو جاز عن والده شيئا وتغيير النظم
للدلالة على ان المولود اولى بان لا يجزى وقطع طمع من توقع من المؤمنين ان ينفع اباه
اياه الكافرين فى الآخرة ان وعد الله بالثواب والعقاب حق لا يمكن اخلافه اصلا فلا تغرنكم الحيوة
الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور اى الشيطان المبالغ فى الغرور بان يحملكم على المعاصى بتزيينها
لكم ويرجيكم التوبة والمغفرة ان الله عنده علم الساعة علم وقت قيامها لما روى
الحارث بن عمرو اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال متى الساعة وانى قد القيت حباتى
فى الارض فمتى السماء تمطر وحمل امرأتى ذكر او انثى وما اعمل غدا واين اموت فنزلت وعنه
عليه السلام مفاتح الغيب خمس وتلا هذه الآية وينزل الغيث فى ابانه الذى قدره الله
والى محله الذى عينه فى علمه وقرئ ينزل من الانزال ويعلم ما فى الارحام من
ذكر او انثى اى تام او ناقص وما تدرى نفس من النفوس ماذا تكسب غدا من خير
او شر وربما يعزم على شئ منهما فيفعل خلافه وما تدرى نفس باى ارض تموت كما لا
تدرى فى اى وقت تموت روى ان ملك الموت مر على سليمان عليه السلام فجعل ينظر الى
رجل من جلسائه فقال الرجل من هذا قال ملك الموت فقال كانه يريدنى فمر الريح ان تحملنى
وتلقينى ببلاد الهند ففعل ثم قال الملك لسليمان عليه السلام كان دوام نظرى اليه تعجبا

منه حيث كنت امرت بان اقبض روحه بالهند وهو عندك ونسبة العلم الى الله تعالى والدراية
الى العبد للايذان بانه ان اعمل حيله وبذل فى التعرف وسعه لم يعرف ما هو الحق به
من كسبه وعاقبته فكيف بغيره مما لم ينصب له دليل عليه وقرئ باية ارض وشبه سيبويه
تانيثها بتانيث كل فى كلتهن ان الله عليم مبالغ فى العلم فلا يعزب عن علمه شئ من الاشياء
التى من جملتها ما ذكر خبير يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
من قرا سورة لقمان كان لقمان رفيقا له يوم القيمة واعطى من الحسنات عشرا بعدد
من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر والله اعلم

سورة السجدة مكية وهى تسع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الم اما اسم للسورة فمحله الرفع على انه خبر لمبتدا محذوف اى هذا مسمى بالم والاشارة
اليها قبل جريان ذكرها قد عرفت سرها واما مسرود على نمط التعديد فلا محل له من الاعراب
وقوله تعالى تنزيل الكتاب على الاول خبر بعد خبر على انه مصدر اطلق على المفعول مبالغة وعلى الثانى
خبر لمبتدا محذوف اى المؤلف من جنس ما ذكر تنزيل الكتاب وقيل خبر لالم اى المسمى به تنزيل
الكتاب وقد مر مرارا ان ما يجعل عنوانا للموضوع حقه ان يكون قبل ذلك معلوم الانتساب
اليه واذ لا عهد بالتسمية قبل فحقها الاخبار بها وقوله تعالى لا ريب فيه خبر ثالث على
الوجه الاول وثان على الاخيرين وقيل خبر لتنزيل الكتاب فقوله تعالى من رب العالمين
متعلق بمضمر هو حال من الضمير المجرور اى كائنا منه لا بتنزيل لان المصدر لا يعمل فيما بعد
الخبر والاوجه حينئذ انه الخبر ولا ريب فيه حال من الكتاب واعتراض والضمير فى فيه راجع
الى مضمون الجملة كانه قيل لا ريب فى ذلك اى فى كونه منزلا من رب العالمين ويؤيده قوله تعالى
ام يقولون افتراه فان قولهم هذا انكار منهم لكونه من رب العالمين فلا بد ان يكون مورده
حكما مقصود الافادة لا قيدا للحكم بنفى الريب عنه وقد رد عليهم ذلك وابطل حيث جئ
بام المنقطعة انكارا له وتعجيبا منه لغاية ظهور بطلانه واستحالة كونه مفترى ثم اضرب عنه الى
بيان حقية ما انكروه حيث قيل بل هو الحق من ربك باضافة اسم الرب الى ضميره عليه السلام
بعد اضافته فيما سبق الى العالمين تشريفا له عليه السلام ثم ايد ذلك ببيان غايته حيث قيل
لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون فان بيان غاية الشئ وحكمته
لا سيما عند كونها غاية حميدة مستتبعة لمنافع جليلة فى وقت شدة الحاجة اليها مما يقرر
وجود الشئ ويؤكده لا محالة ولقد كانت قريش اضل الناس واحوجهم الى الهداية بارسال
الرسول وتنزيل الكتاب حيث لم يبعث اليهم من رسول قبله عليه السلام اى ما اتاهم من نذير
من قبل انذارك او من قبل زمانك والترجى معتبر من جهته عليه السلام اى لتنذرهم راجيا
لاهتدائهم او لرجاء اهتدائهم واعلم ان ما ذكر من التاييد انما يتسنى على ما ذكر من كون تنزيل
الكتاب مبتدا واما على ساير الوجوه فلا تاييد اصلا لان قوله تعالى من رب العالمين خبر
رابع على الوجه الاول وخبر ثالث على الوجهين الاخيرين واياما كان فكونه من رب العالمين حكم
مقصود الافادة لا قيد لحكم آخر فتدبر الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة ايام
ثم استوى على العرش مر بيانه فيما سلف ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع اى
ما لكم اذا جاوزتم رضاه تعالى احد ينصركم ويشفع لكم ويجيركم من باسه اى وما لكم
سواه ولى ولا شفيع بل هو الذى يتولى مصالحكم وينصركم فى مواطن النصر على ان الشفيع
عبارة عن الناصر مجازا فاذا خذلكم لم يبق لكم ولى ولا نصير افلا تتذكرون اى الا
تسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون بها او اتسمعونها فلا تتذكرون بها فالانكار على
الاول متوجه الى عدم السماع وعدم التذكر معا وعلى الثانى على عدم التذكر مع تحقق ما
يوجبه من السماع يدبر الامر من السماء الى الارض قيل يدبر امر الدنيا باسباب سماوية
من الملائكة وغيرها نازلة آثارها واحكامها الى الارض ثم يعرج اليه اى يثبت فى علمه
موجودا بالفعل فى يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون اى فى برهة من الزمان
متطاولة والمراد بيان طول امتداد ما بين تدبير الحوادث وحدوثها من الزمان وقيل

يدبر امر الحوادث اليومية باثباتها فى اللوح المحفوظ فينزل بها الملئكة ثم يعرج اليه فى زمان هو
كالف سنة مما تعدون فان ما بين السماء والارض مسيرة خمسماية عام وقيل يقضى قضاء الف
سنة فينزل به الملك ثم يعرج بعد الالف لالف آخر وقيل يدبر امر الدنيا جميعا الى قيام الساعة
ثم يعرج اليه الامر كله عند قيامها وقيل يدبر المامور به من الطاعات منزلا من السماء الى الارض
بالوحى ثم لا يعرج اليه خالصا الا فى مدة متطاولة لقلة المخلصين والاعمال الخلص وانت خبير
بان قلة الاعمال الخالصة لا يقتضى بطء عروجها الى السماء بل قلته وقرئ يعدون بالياء ذلك
اشارة الى الله عز وجل باعتبار اتصافه بما ذكر من خلق السموات والارض والاستواء على العرش
وانحصار الولاية والنصرة فيه وتدبير امر الكائنات على ما ذكر من الوجه البديع وهو
مبتدأ خبره ما بعده اى ذلك العظيم الشأن عالم الغيب والشهادة فيدبرهما حسبما يقتضيه
الحكمة العزيز الغالب على امره الرحيم على عباده وهما خبران آخران وفيه ايماء الى انه
تعالى متفضل فى جميع ما ذكر فاعل بالاحسان الذى احسن كل شئ خلقه خبر آخر ونصب
على المدح اى احسن كل مخلوق خلقه اذ ما من مخلوق خلقه الا وهو مرتب على ما يقتضيه
الحكمة واوجبته المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وان تفاوتت الى حسن واحسن كما قال تعالى لقد خلقنا الانسان
فى احسن تقويم وقيل علم كيف يخلقه من قوله قيمة المرء ما يحسن اى يحسن معرفته ويعرفه معرفة
حسنة بتحقيق وايقان وقرئ خلقه على انه بدل اشتمال من كل شئ والضمير للمبدل منه اى حسن خلق كل
شئ وقيل بدل الكل على ان الضمير لله تعالى والخلق بمعنى المخلوق اى احسن كل مخلوقاته وقيل
هو مفعول ثان لاحسن على تضمينه معنى اعطى اى اعطى كل شئ خلقه اللائق به بطريق الاحسان
والتفضل وقيل هو مفعول الاول وكل شئ مفعوله الثانى والخلق بمعنى المخلوق وضميره
لله سبحانه على تضمين الاحسان معنى الالهام والتعريف والمعنى الهم خلقه كل شئ مما يحتاجون
اليه وقال ابو البقاء فى مخلوقاته كل شئ مما يحتاجون اليه فيؤل الى معنى قوله تعالى الذى اعطى
كل شئ خلقه ثم هدى وبدأ خلق الانسان من بين جميع المخلوقات من طين على وجه بديع
يحار العقول فى فهمه بدأ آدم على فطرة عجيبة منطوية على فطرة سائر افراد الجنس انطواء
اجماليا مستتبعا لخروج كل فرد منها من القوة الى الفعل بحسب استعداداتها المتفاوتة
قربا وبعدا كما ينبئ عنه قوله تعالى ثم جعل نسله اى ذريته سميت بذلك لانها تنسل
وتنفصل منه من سلالة من ماء مهين هو المنى الممتهن ثم سواه اى عدله بتكميل اعضائه
فى الرحم وتصويرها على ما ينبغى ونفخ فيه من روحه اضافه اليه تعالى تشريفا له وايذانا بانه
خلق عجيب وصنع بديع وان له شأنا له مناسبة الى حضرة الربوبية وان اقصى ما ينتهى اليه
العقول البشرية من معرفته هذا القدر الذى يعبر عنه تارة بالاضافة اليه تعالى واخرى بالنسبة
الى امره تعالى كما فى قوله تعالى قل الروح من امر ربى وجعل لكم السمع والابصار والافئدة
الجعل ابداعى واللام متعلقة به والتقديم على المفعول الصريح لما مر مرات من الاهتمام
بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم
اى خلق لمنفعتكم تلك المشاعر لتعرفوا انها مع كونها فى انفسها نعما جليلة لا يقادر قدرها
وسائل الى التمتع بسائر النعم الدينية والدنيوية الفائضة عليكم وتشكروها بان تصرفوا كلا منها
الى ما خلق هو له فتدركوا بسمعكم الايات التنزيلية الناطقة بالتوحيد والبعث وبابصاركم
الايات التكوينية الشاهدة بهما وتستدلوا بافئدتكم على حقيقتهما وقوله تعالى قليلا
ما تشكرون بيان لكفرهم بتلك النعم بطريق الاعتراض التذييلى على القلة بمعنى النفى كما
ينبئ عنه ما بعده اى شكرا قليلا او زمانا قليلا تشكرون وفى حكاية احوال الانسان
من مبدأ فطرته الى نفخ الروح فيه بطريق الغيبة وحكاية احواله بعد ذلك بطريق الخطاب
عن استعداده للفهم وصلاحيته له من الجزالة ما لا غاية وراءه وقالوا كلام
مستأنف مسوق لبيان اباطيلهم بطريق الالتفات ايذانا بان ما ذكر من عدم شكرهم
بتلك النعم موجب للاعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة ائذا
ضللنا فى الارض اى صرنا ترابا مخلوطا بترابها بحيث لا نتميز منه او غبنا فيها بالدفن
وقرئ ضللنا بكسر اللام من باب علم وصللنا بالصاد المهملة من صل اللحم اذا انتن و

قيل من

٦٢٨

قيل من الصلة وهى الارض اى صرنا من جنس الصلة قيل القائل ابى ابن خلف ولرضاهم بقوله
اسند القول الى الكل والعامل فى اذا ما يدل عليه قوله تعالى ائنا لفى خلق جديد وهو
نبعث او يجدد خلقنا والهمزة لتذكير الانكار السابق وتاكيده وقرئ انا على الخبر وايا ما كان
فالمعنى على تاكيد الانكار لا انكار التاكيد كما هو المتبادر من تقدم الهمزة على ان فانها مؤخرة
عنها فى الاعتبار وانما تقديمها عليها لاقتضائها الصدارة بل هم بلقاء ربهم كافرون
اضراب وانتقال من بيان كفرهم بالبعث الى بيان ما هو ابلغ واشنع منه وهو كفرهم بالوصول
الى العاقبة وما يلقونه فيها من الاحوال والاهوال جميعا قل بيانا للحق وردا على زعمهم
الباطل يتوفاكم ملك الموت لا كما تزعمون ان الموت من الاحوال الطبيعية العارضة للحيوان
بموجب الجبلة اى يقبض ارواحكم بحيث لا يدع فيكم شيئا او لا يترك منكم احدا على
اشد ما يكون من الوجوه وافظعها من ضرب وجوههم وادبارهم الذى وكل بكم اى بقبض
ارواحكم واحصاء آجالكم ثم الى ربكم ترجعون بالبعث للحساب والجزاء ولو ترى
اذ المجرمون وهم القائلون ائذا ضللنا فى الارض الاية او جنس المجرمين وهم من
جملتهم ناكسوا رؤسهم عند ربهم من الحياء والخزى عند ظهور قبائحهم التى
اقترفوها فى الدنيا ربنا اى يقولون ربنا ابصرنا وسمعنا اى صرنا ممن يبصر ويسمع وحصل
لنا الاستعداد لادراك الايات المبصرة والايات المسموعة وكنا من قبل عميا وصما لا يدرك
شيئا فارجعنا الى الدنيا نعمل عملا صالحا حسبما يقتضيه تلك الايات وقوله تعالى انا
موقنون ادعاء منهم لصحة الافئدة والاقتدار على فهم معانى الايات والعمل بموجبها كما ان ما
قبله ادعاء لصحة مشعرى البصر والسمع كانهم قالوا وايقنا وكنا من قبل لا نعقل شيئا اصلا وانما
عدلوا الى الجملة الاسمية المؤكدة اظهارا لثباتهم على الايقان وكمال رغبتهم فيه وكل ذلك
للجد فى الاستدعاء طمعا فى الاجابة الى ما سألوه من الرجعة وانى لهم ذلك ويجوز ان يقدر
لكل من الفعلين مفعول مناسب له مما يبصرونه ويسمعونه فانهم حينئذ يشاهدون الكفر
والمعاصى على صور منكرة هائلة ويخبرهم الملائكة بان مصيرهم الى النار لا محالة فالمعنى
ابصرنا قبح اعمالنا وكنا نراها فى الدنيا حسنة وسمعنا ان مردنا الى النار وهو الانسب
لما بعده من الوعد بالعمل الصالح هذا وقد قيل المعنى وسمعنا منك تصديق رسلك وانت
خبير بان تصديقه تعالى لهم حينئذ يكون باظهار مدلول ما اخبروا به من الوعد والوعيد
لا بالاخبار بانهم صادقون حتى يسمعوه وقيل وسمعنا قول الرسل اى سمعنا سمع
طاعة واذعان ولا يقدر لترى مفعول اذ المعنى لو تكون منك رؤية فى ذلك الوقت
او يقدر ما ينبئ عنه صلة اذ والمضى فيها وفى لو باعتبار ان الثابت فى علم الله تعالى بمنزلة
الواقع وجواب لو محذوف اى لرأيت امرا فظيعا لا يقادر قدره والخطاب لكل احد ممن
يصلح له كائنا من كان اذ المراد بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الفظاعة الى حيث لا يختص
استغرابها واستفظاعها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة الامور البديعة والدواهى
الفظيعة بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها هذا ومن علل عموم الخطاب
بالقصد الى بيان ان حالهم قد بلغت من الظهور الى حيث يمتنع خفاؤها البتة فلا يختص
رؤية راء دون راء بل كل من يتأتى منه الرؤية فله مدخل فى هذا الخطاب فقد نأى عن
تحقيق الحق لان المقصود بيان كمال فظاعة حالهم كما يفصح عنه جواب المحذوف لا بيان كمال ظهورها
فانه مسوق مساق المسلمات فتدبر ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها مقدر بقول معطوف
على ما قدر قبل قوله تعالى ربنا ابصرنا الخ اى ونقول لو شئنا اى لو تعلقت مشيئتنا تعلقا
فعليا بان نعطى كل نفس من النفوس البرة والفاجرة ما تهتدى به الى الايمان والعمل الصالح لاعطيناها
اياه فى الدنيا التى هى دار الكسب وما اخرناه الى دار الجزاء ولكن حق القول منى اى سبقت كلمتى
حيث قلت لابليس عند قوله لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين فالحق والحق اقول
لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين وهو المعنى بقوله تعالى لاملأن جهنم من الجنة والناس
اجمعين كما يلوح به تقديم الجنة على الناس فبموجب ذلك القول لم نشأ اعطاء الهدى
على العموم بل منعناه من اتباع ابليس الذين انتم من جملتهم حيث صرفتم اختياركم الى الغى

وهو صاحب المفتاح

باغوائه ومشيئتنا لافعال العباد منوطة باختيارهم اياها فلما لم يختاروا الهدى واختاروا الضلالة
لم نشأ اعطاءه لكم وانما اعطيناه الذين اختاروه من النفوس البرة وهم المعنيون بما سيأتى
من قوله تعالى انما يؤمن بآياتنا الاية فيكون مناط عدم مشيئته اعطاء الهدى فى الحقيقة سوء
اختيارهم لا تحقق القول انما قيدنا المشيئة بما مر من التعلق الفعلى بافعال العباد عند حدوثها
لان المشيئة الازلية من حيث تعلقها بما سيكون من افعالهم اجمالا متقدمة على تحقق كلمة
العذاب فلا يكون عدمها منوطا بتحققها وانما مناطه علمه تعالى اذ لا يعرف اختيارهم فيما سيأتى
الى الغى وايثارهم له على الهدى فلو اريد تهم من تلك الحيثية لا يستدرك بعدمها
وينوط ذلك بما ذكر من المناط على منهاج قوله تعالى ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم
فمن توهم ان المعنى ولو شئنا لاعطينا كل نفس ما عندنا من اللطف الذى لو كان منهم
اختياره لاهتدوا ولكن لم نعطهم لما علمنا منهم اختيار الكفر وايثاره فقد اشتبه
عليه الشؤون والفاء فى قوله تعالى فذوقوا لترتيب الامر بالذوق على ما يعرب عنه ما قبله
من نفى الرجوع الى الدنيا او على الوعيد المحكى والباء فى قوله تعالى بما نسيتم لقاء يومكم
هذا للايذان بان تعذيبهم ليس لمجرد سبق الوعيد به فقط بل هو وسبق الوعيد ايضا
بسبب موجب له من قبلهم كانه قيل لا رجوع لكم الى الدنيا او حق وعيدى فذوقوا بسبب
نسيانكم لقاء هذا اليوم الهائل وترككم التفكر فيه والاستعداد له بالكلية انا نسيناكم
اى تركناكم فى العذاب ترك المنسى بالمرة وقوله تعالى وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون
تكرير للتاكيد والتشديد وتعيين المفعول المطوى للذوق والاشعار بان سببه ليس مجرد
ما ذكر من النسيان بل له اسباب اخر من فنون الكفر والمعاصى التى كانوا مستمرين عليها
فى الدنيا وعدم نظم الكل فى سلك واحد للتنبيه على استقلال كل منها فى استيجاب
العذاب وفى ابهام المذوق اولا وبيانه ثانيا بتكرير الامر وتوسيط الاستيناف المنبئ
عن كمال السخط بينهما من الدلالة على غاية التشديد فى الانتقام منهم ما لا يخفى وقوله تعالى انما يؤمن
بآياتنا استيناف مسوق لتقرير عدم استحقاقهم لايتاء الهدى والاشعار بعدم ايمانهم
لو اوتوه بتعيين من يستحقه بطريق القصر كانه قيل انكم لا تؤمنون بآياتنا ولا تعملون عملا
صالحا ولو رجعناكم الى الدنيا كما تدعون حسبما ينطق به قوله تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا
عنه وانما يؤمن بها الذين اذا ذكروا بها اى وعظوا خروا سجدا اى تذللا من غير
تردد ولا تلعثم فضلا عن التسويف الى معاينة ما نطقت به من الوعد والوعيد اى سقطوا
على وجوههم وسبحوا بحمد ربهم اى ونزهوه عند ذلك عن كل ما لا يليق به من الامور
التى من جملتها العجز عن البعث ملتبسين بحمده تعالى على نعمائه التى اجلها الهداية بايتاء
الآيات والتوفيق للاهتداء بها والتعرض لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الاضافة
الى ضميرهم للاشعار بعلة التسبيح والتحميد وبانهم يفعلونهما بملاحظة ربوبيته تعالى لهم وهم
لا يستكبرون اى والحال انهم خاضعون له تعالى لا يستكبرون عما فعلوا من الخرور والتسبيح
والتحميد تتجافى جنوبهم اى ترتفع وتتنحى عن المضاجع اى الفرش ومواضع المنام والجملة
مستأنفة لبيان بقية محاسنهم وهم المتهجدون بالليل قال انس رضى الله عنه نزلت فينا
معاشر الانصار كنا نصلى المغرب فلا نرجع الى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبى صلعم وعن انس
ايضا انه قال نزلت فى اناس من اصحاب النبى صلعم كانوا يصلون من صلوة المغرب
الى صلوة العشاء وهى صلوة الاوابين وهو قول ابى حازم ومحمد بن المنكدر وهو مروى
عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال عطاء هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الاخرة والفجر
فى جماعة والمشهور ان المراد منه صلوة الليل وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والاوزاعى
وجماعة لقوله صلى الله عليه وسلم افضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم وافضل الصلوة
بعد الفريضة صلوة الليل وعن النبى صلى الله عليه وسلم فى تفسيرها قيام العبد من الليل وعنه
عليه الصلوة والسلام اذا جمع الله الاولين والآخرين جاء مناد ينادى بصوت يسمع الخلائق
كلهم سيعلم اهل الجمع من اولى بالكرم ثم يرجع فينادى ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع
فيقومون وهم قليل ثم يرجع فيقول ليقم الذين يحمدون الله فى البأساء والضراء فيقومون وهم

قليل فيسرحون جميعا الى الجنة ثم يحاسب سائر الناس وقوله تعالى يدعون ربهم حال من ضمير جنوبهم
اى داعين له تعالى على الاستمرار خوفا من سخطه وعذابه وعدم قبول عبادته وطمعا فى
رحمته ومما رزقناهم من المال ينفقون فى وجوه البر والحسنات فلا تعلم نفس من النفوس
لا ملك مقرب ولا نبى مرسل فضلا عمن عداهم ما اخفى لهم اى لاولئك الذين عددت
نعوتهم الجليلة من قرة اعين مما تقر به عينهم وعنه عليه السلام يقول الله عز وجل
اعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما
اطلعتم عليه اقرأوا ان شئتم فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة اعين وقرئ ما اخفى لهم
وما نخفى لهم وما اخفيت لهم على صيغة المتكلم وما اخفى لهم على البناء للفاعل وهو الله
سبحانه وقرئ قرات اعين لاختلاف انواعها والعلم بمعنى المعرفة وما موصولة او استفهامية
علق عنها الفعل جزاء بما كانوا يعملون اى جوزوا جزاء او اخفى لهم للجزاء بما كانوا يعملونه
فى الدنيا من الاعمال الصالحة قيل هؤلاء القوم اخفوا اعمالهم فاخفى الله تعالى ثوابهم افمن
كان مؤمنا كمن كان فاسقا اى ابعد ظهور ما بينهما من التباين البين يتوهم كون
المؤمن الذى حكيت اوصافه الفاضلة كالفاسق الذى ذكرت احواله لا يستوون التصريح
به مع افادة الانكار لنفى المشابهة بالمرة على ابلغ وجه واكده لبناء التفصيل الآتى عليه والجمع
باعتبار معنى من كما ان الافراد فيما سبق باعتبار لفظها وقوله تعالى الذين آمنوا و
عملوا الصالحات فلهم جنات المأوى تفصيل لمراتب الفريقين فى الآخرة بعد ذكر احوالهما
فى الدنيا واضيفت الجنة الى المأوى لانها المأوى الحقيقى وانما الدنيا منزل مرتحل عنه لا
محالة وقيل المأوى جنة من الجنات وايا ما كان فلا يبعد ان يكون فيه رمز الى ما ذكر من
تجافيهم عن مضاجعهم التى هى مأواهم فى الدنيا نزلا اى ثوابا وهو فى الاصل ما يعد
للنازل من الطعام والشراب وانتصابه على الحالية بما كانوا يعملون فى الدنيا من الاعمال
الصالحة او باعمالهم واما الذين فسقوا اى خرجوا عن الطاعة فمأواهم اى ملجأ
وهم ومنزلهم النار مكان جنات المأوى للمؤمنين كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا
فيها استيناف لبيان كيفية كون النار مأواهم يروى انه يضربهم لهب النار فيرتفعون
الى طبقاتها حتى اذا قربوا من بابها وارادوا ان يخرجوا منها يضربهم اللهب فيهوون
الى قعرها وهكذا يفعل بهم ابدا وكلمة فى للدلالة على انهم مستقرون فيها وانما
الاعادة من بعض طبقاتها الى بعض وقيل لهم تشديدا عليهم وزيادة فى غيظهم
ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به اى بعذاب النار على الاستمرار فى الدنيا ولنذيقنهم
من العذاب الادنى اى عذاب الدنيا وهو ما محنوا به من السنة سبع سنين والقتل
والاسر دون العذاب الاكبر الذى هو عذاب الآخرة لعلهم لعل الذين يشاهدونه
وهم فى الحيوة يرجعون يتوبون عن الكفر روى ان الوليد بن عقبة فاخر عليا رضى
الله عنه يوم بدر فنزلت هذه الآيات ومن اظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم اعرض
عنها بيان اجمالى لحال من قابل آيات الله تعالى بالاعراض بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح
والتحميد وكلمة ثم لاستبعاد الاعراض عنها عقلا مع غاية وضوحها وارشادها الى
سعادة الدارين وكما فى بيت الحماسة لا يكشف الغماء الا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها
اى هو اظلم من كل ظالم وان كان سبك التركيب على نفى الاظلم من غير تعرض لنفى المساوى وقد مر مرارا
انا من المجرمين اى من كل من اتصف بالاجرام وان هانت جريمته منتقمون فكيف ممن هو اظلم
من كل ظالم واشد جرما من كل مجرم ولقد آتينا موسى الكتاب اى التورية عبر عنها باسم الجنس
لتحقيق المجانسة بينها وبين الفرقان والتنبيه على ان ايتاءه لرسول الله صلى الله عليه وسلم كايتائها
لموسى عم فلا تكن فى مرية من لقائه من لقاء الكتاب الذى هو الفرقان كقوله وانك لتلقى
القرآن والمعنى انا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحى
فلا تكن فى شك من انك لقيت مثله ونظيره وقيل من لقاء موسى الكتاب او من لقائك موسى عم
وعنه عليه السلام رأيت ليلة اسرى بى موسى عليه السلام رجلا آدم طوالا جعدا كانه من
رجال شنوءة وجعلناه اى الكتاب الذى آتيناه موسى هدى لبنى اسرائيل قيل لم يتعبد بما فى

التورية ولد اسمعيل وجعلنا منهم ائمة يهدون بقيتهم بما فى تضاعيف الكتاب من الحكم
والاحكام الى طريق الحق او يهدونهم الى ما فيه من دين الله وشرايعه بامرنا اياهم بذلك
او بتوفيقنا له لما صبروا وهى لما التى فيها معنى الجزاء نحو احسنت اليك كما جئتنى والتقدير للائمة
تقديره لما صبروا جعلناهم ائمة او هى ظرف بمعنى الحين اى جعلناهم ائمة حين صبروا والمراد
صبرهم على مشاق الطاعات ومقاساة الشدائد فى نصرة الدين او صبرهم عن الدنيا وقرئ لما صبروا
اى لصبرهم وكانوا باياتنا التى فى تضاعيف الكتاب يوقنون لامعانهم فيها النظر والمعنى
كذلك لنجعلن الكتاب الذى آتيناك هدى لامتك ولنجعلن منهم ائمة يهدون مثل تلك
الهداية ان ربك هو يفصل اى يقضى بينهم قيل بين الانبياء واممهم وقيل بين المؤمنين
والمشركين يوم القيمة فيميز بين المحق والمبطل فيما كانوا فيه يختلفون من امور الدين اولم
يهد لهم الهمزة للانكار والواو للعطف على منوى يقتضيه المقام وفعل الهداية اما من قبيل فلان
يعطى فى ان المراد ايقاع نفس الفعل بلا ملاحظة المفعول واما بمعنى التبيين والمفعول محذوف
والفاعل ما دل عليه قوله تعالى كم اهلكنا اى اغفلوا ولم يفعل الهداية لهم او ولم
يبين لهم مآل امرهم كثرة اهلاكنا من قبلهم من القرون مثل عاد وثمود وقوم لوط
وقرئ نهد لهم بنون العظمة وقد جوز ان يكون الفاعل على القراءة الاولى ايضا ضميره تعالى
فيكون قوله تعالى كم اهلكنا الخ استئنافا مبينا لكيفية هدايته تعالى يمشون فى مساكنهم اى
يمرون فى متاجرهم على ديارهم وبلادهم ويشاهدون آثار هلاكهم والجملة حال من
ضمير لهم وقرئ يمشون للتكثير ان فى ذلك اى فيما ذكر من كثرة اهلاكنا للامم الخالية
العاتية او فى مساكنهم لآيات عظيمة فى انفسها كثيرة فى عددها افلا يسمعون هذه
الآيات سماع تدبر واتعاظ اولم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز اى التى جرز نباتها
اى قطع وازيل بالمرة وقيل هو اسم موضع باليمن فنخرج به من تلك الارض زرعا تأكل
منه اى من ذلك الزرع انعامهم كالتبن والقصيل والورق وبعض الحبوب المخصوصة
بها وقرئ يأكل بالياء وانفسهم كالحبوب التى يقتاتونها والاثمار افلا يبصرون اى الا
ينظرون فلا يبصرون ذلك ليستدلوا به على كمال قدرته تعالى وفضله ويقولون كان المسلمون
يقولون ان الله سيفتح لنا على المشركين او يفصل بيننا وبينهم وكان اهل مكة اذا سمعوه يقولون
بطريق الاستعجال تكذيبا واستهزاء متى هذا الفتح اى النصر او الفصل بالحكومة ان كنتم صادقين
فى ان الله تعالى ينصركم او يفصل بيننا وبينكم قل تبكيتا لهم وتحقيقا للحق يوم الفتح لا ينفع
الذين كفروا ايمانهم ولا هم ينظرون يوم الفتح يوم القيمة وهو يوم الفصل بين المؤمنين
واعدائهم ويوم نصرهم عليهم وقيل هو يوم بدر وعن مجاهد والحسن رحمهما الله يوم فتح
مكة والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم للتنبيه على انه ليس مما ينبغى ان يسأل عنه لكونه
امرا بينا غنيا عن الاخبار وكذا ايمانهم واستنظارهم يومئذ وانما المحتاج الى البيان عدم
نفع ذلك الايمان وعدم الانظار كانه قيل لا تستعجلوا فكانى بكم قد آمنتم فلم ينفعكم
واستنظرتم فلم تنظروا وهذا على الوجه الاول ظاهر واما على الاخيرين فالموصول عبارة عن
المقتولين يومئذ عن كافة الكفرة كما فى الوجه الاول كيف لا وقد نفع الايمان الطلقاء يوم
الفتح وناسا آمنوا يوم بدر فاعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم وانتظر النصرة عليهم
وهلاكهم انهم منتظرون قيل اى الغلبة عليكم كقوله تعالى فتربصوا انا معكم متربصون
والاظهر ان يقال انهم منتظرون هلاكهم كما فى قوله تعالى هل ينظرون الا ان يأتيهم الله فى ظلل من
الغمام الآية ويقرب منه ما قيل وانتظر عذابنا لهم فانهم منتظروه فان استعجالهم المذكور
وعكوفهم على ما هم عليه من الكفر والمعاصى فى حكم انتظارهم العذاب المترتب عليه لا محالة وقرئ على
صيغة المفعول على معنى انهم احقاء بان ينتظر هلاكهم او فان الملئكة ينتظرونه عن النبى صلى الله
عليه وسلم من قرأ الم تنزيل وتبارك الذى بيده الملك اعطى من الاجر كانما احيى ليلة القدر وعنه
عليه السلام من قرأ الم تنزيل فى بيته لم يدخل الشيطان فى بيته ثلثة ايام

سورة الاحزاب مدنية بسم الله الرحمن الرحيم

يا ايها النبى اتق الله فى ندائه عليه السلام بعنوان النبوة تنويه بشأنه وتنبيه على سمو مكانه

والمراد

والمراد بالتقوى المأمور به الثبات عليه والازدياد منه فان له بابا واسعا وعرضا عريضا لا ينال
مداه ولا تطع الكافرين اى المجاهرين بالكفر والمنافقين اى المضمرين له اى فيما يعود بوهن
فى الدين واعطاء دنية فيما بين المسلمين روى ان ابا سفيان بن حرب وعكرمة بن ابى جهل وابا
الاعور السلمى قدموا عليه عليه السلام فى الموادعة التى كانت بينه عليه السلام وبينهم وقام
معهم عبد الله بن ابى ومعتب بن قشير والجد بن قيس فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم
ارفض ذكر الهتنا وقل انها تشفع وتنفع وندعك وربك فشق ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم
والمؤمنين وهموا بقتلهم فنزلت اى اتق الله فى نقض العهد ونبذ الموادعة ولا تساعد الكافرين
من اهل مكة والمنافقين من اهل المدينة فيما طلبوا اليك ان الله كان عليما حكيما مبالغا فى العلم
والحكمة فيعلم جميع الاشياء من المصالح والمفاسد فلا يأمرك الا بما فيه مصلحة ولا ينهاك الا عما فيه
مفسدة ولا يحكم الا بما يقتضيه الحكمة البالغة فالجملة تعليل للامر والنهى مؤكد لوجوب الامتثال
واتبع اى فى كل ما تأتى وتذر من امور الدين ما يوحى اليك من ربك من الآيات التى من جملتها
هذه الآيات الآمرة بتقوى الله الناهية عن مساعدة الكفرة والمنافقين والتعرض لعنوان
الربوبية لتأكيد وجوب الامتثال بالامر ان الله كان بما تعملون خبيرا قيل الخطاب لرسول الله صلى
الله عليه وسلم والجمع للتعظيم وقيل له عليه السلام وللمؤمنين وقيل للغائبين بطريق الالتفات
ولا يخفى بعده نعم يجوز ان يكون للكل على ضرب من التغليب وايا ما كان فالجملة تعليل للامر
وتأكيد لموجبه اما على الوجهين الاولين فبطريق الترغيب والترهيب كانه قيل ان الله خبير بما تعملونه
من الامتثال وتركه فيرتب على كل منهما جزاءه ثوابا او عقابا واما على الوجه الاخير فبطريق الترغيب
فقط كانه قيل ان الله خبير بما يعمله كلا الفريقين فيرشدك الى ما فيه صلاح حالك وانتظام امرك
ويطلعك على ما يعملونه من المكايد والمفاسد ويأمرك بما ينبغى لك ان تعمله ويأخذ فيها وردها
فلا بد من اتباع الوحى والعمل بمقتضاه حتما وتوكل على الله اى فوض جميع امورك اليه وكفى
بالله وكيلا حافظا موكولا اليه كل الامور ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه شروع فى
القاء الوحى الذى امر عليه السلام باتباعه وهذا مثل ضربه الله تعالى تمهيدا لما يعقبه من قوله تعالى
وما جعل ازواجكم اللائى تظاهرون منهن امهاتكم وما جعل ادعياءكم ابناءكم وتنبيها على ان كون
المظاهر منها اما وكون الدعى ابنا اى بمنزلة الام والابن فى الآثار والاحكام المعهودة فيما بينهم
فى الاستحالة بمنزلة اجتماع قلبين فى جوف واحد وقيل هو رد لما كانت العرب تزعم من ان
اللبيب الاريب له قلبان ولذلك قيل لابى معمر او لجميل بن اسد الفهرى ذو القلبين اى ما جمع الله
قلبين فى رجل وذكر الجوف لزيادة التقرير كما فى قوله تعالى ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ولا
زوجية وامومة فى امرأة ولا دعوة وبنوة فى شخص لكن لا بمعنى نفى الجمع بين حقيقة الزوجية و
الامومة ونفى الجمع بين حقيقة الدعوة والبنوة كما فى القلب ولا بمعنى نفى الجمع بين احكام الزوجية
والامومة ونفى الجمع بين احكام الدعوة واحكام النبوة على الاطلاق بل بمعنى نفى الجمع بين
حقيقة الزوجية واحكام الامومة ونفى الجمع بين حقيقة الدعوة واحكام النبوة لابطال ما
كانوا عليه من اجراء احكام الامومة على المظاهر منها واجراء احكام النبوة على الدعى ومعنى
الظهار ان يقول لزوجته انت على كظهر امى مأخوذ من الظهر باعتبار اللفظ كالتلبية من لبيك
وتعديته بمن لتضمنه معنى التجنب لانه كان طلاقا من الجاهلية وهو فى الاسلام يقتضى
الطلاق والحرمة الى اداء الكفارة كما عدى آلى بها وهو بمعنى حلف وذكر الظهار للكناية
عن البطن الذى هو عموده فان ذكره قريب من ذكر الفرج او للتغليظ فى التحريم فانهم
كانوا يحرمون اتيان الزوجة وظهرها الى السماء وقرئ اللاء وقرئ تظاهرون بحذف
احدى التائين من تتظاهرون وتظاهرون بادغام التاء الثانية فى الظاء وتظهرون من
اظهر بمعنى تظهر وتظهرون من ظهر بمعنى ظاهر كعقد بمعنى عاقد وتظهرون من ظهر ظهورا والادعياء
جمع دعى وهو الذى يدعى ولدا على الشذوذ لاختصاص افعلاء بفعيل بمعنى فاعل كتقى واتقياء
كانه شبه به فى اللفظ فجمع جمعه كقتلاء واسراء ذلكم اشارة الى ما يفهم مما ذكر من
الظهار والدعاء او الى الاخير الذى هو المقصود من سياق الكلام اى دعاؤكم بقولكم
هذا ابنى قولكم بافواهكم فقط من غير ان يكون له مصداق وحقيقة فى الاعيان فاذن

هو بمعزل من استتباع احكام البنوة كما زعمتم والله يقول الحق المطابق للواقع وهو يهدى
السبيل اى سبيل الحق لا غير فدعوا اقوالكم وخذوا بقوله عز وجل ادعوهم لآبائهم
اى انسبوهم اليهم وخصوهم بهم وقوله تعالى هو اقسط عند الله تعليل له والضمير لمصدر
ادعوا كما فى قوله تعالى اعدلوا هو اقرب للتقوى واقسط افعل تفضيل قصد به الزيادة
مطلقا من القسط بمعنى العدل اى الدعاء لآبائهم بالغ فى العدل والصدق فى حكم الله
تعالى وقضائه فان لم تعلموا آباءهم فتنسبوهم اليهم فاخوانكم فهم اخوانكم فى
الدين ومواليكم واولياؤكم فيه اى فادعوهم بالاخوة الدينية والمولوية وليس
وليس عليكم جناح اى اثم فيما اخطأتم به اى فيما فعلتموه من ذلك مخطئين بالسهو
والنسيان او سبق اللسان ولكن ما تعمدت قلوبكم اى ولكن الجناح فيما تعمدت قلوبكم
بعد النهى او ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح اى ولكن الجناح فيما تعمدت قلوبكم بعد النهى
او ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح وكان الله غفورا رحيما لعفوه عن المخطئ وحكم التبنى
بقوله هو ابنى اذا كان عبدا للقائل العتق على كل حال ولا يثبت نسبه منه الا اذا كان مجهول
النسب وكان بحيث يولد مثله لمثل المتبنى ولم يقر قبله بنسبه من غيره النبى اولى بالمؤمنين من
انفسهم اى فى كل امر من امور الدين والدنيا كما يشهد به الاطلاق فيجب عليهم ان يكون
احب اليهم من انفسهم وحكمه انفذ عليهم من حكمها وحقه آثر لديهم من حقوقها
وشفقتهم عليه اقدم من شفقتهم عليها روى انه عليه السلام اراد غزوة تبوك فامر
الناس بالخروج فقال اناس نستأذن آباءنا وامهاتنا فنزلت وقرئ وهو اب لهم اى فى الدين
فان كل نبى اب لامته من حيث انه اصل فيما به الحيوة الابدية ولذلك صار المؤمنون
اخوة وازواجه امهاتهم اى منزلات منازلهن فى التحريم واستحقاق التعظيم
واما فيما عدا ذلك فهن كالاجنبيات ولذلك قالت عائشة رضى الله عنها لسنا امهات النساء واولوا
الارحام اى ذوو القرابات بعضهم اولى ببعض فى التوارث وهو نسخ لما كان فى صدر
الاسلام من التوارث بالهجرة والموالاة فى الدين فى كتاب الله فى اللوح او فيما انزله
وهو هذه الآية او آية المواريث او فيما فرض الله تعالى من المؤمنين والمهاجرين بيان لاولى
الارحام او صلة لاولى اى اولو الارحام بحق القرابة اولى بالميراث من المؤمنين بحق
الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة الا ان تفعلوا الى اوليائكم معروفا استثناء من اعم
ما يقدر الاولوية فيه من النفع والمراد بفعل المعروف التوصية او منقطع كان ذلك فى الكتاب
مسطورا اى كان ما ذكر من الآيتين ثابتا فى اللوح او القرآن وقيل فى التوراة واذ اخذنا من
النبيين ميثاقهم اى اذكر وقت اخذنا من النبيين كافة عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء
الى الدين الحق ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم تخصيصهم بالذكر
مع اندراجهم فى النبيين للايذان بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم
من مشاهير ارباب الشرائع واساطين اولى العزم من الرسل وتقديم نبينا عليهم الصلوة
والسلام لابانة خطره الجليل واخذنا منهم ميثاقا غليظا اى عهدا عظيم الشان
او مؤكدا باليمين وهذا هو الميثاق الاول بعينه واخذه هو اخذه والعطف مبنى على تنزيل
التغاير العنوانى منزلة التغاير الذاتى تفخيما لشأنه كما فى قوله تعالى ونجيناهم من عذاب
غليظ اثر قوله تعالى فلما جاء امرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا وقوله تعالى
ليسأل الصادقين عن صدقهم متعلق بمضمر مستأنف مسوق لبيان ما هو داع الى ما ذكر
من اخذ الميثاق وغاية له لا باخذنا فان المقصود تذكير نفس الميثاق ثم بيان الغرض
منه بيانا قصديا كما ينبئ عنه تغيير الاسلوب بالالتفات الى الغيبة اى فعل الله ذلك
ليسأل يوم القيمة الانبياء ووضع الصادقين موضع ضميرهم للايذان من اول الامر
بانهم صادقون فيما سئلوا عنه وانما السؤال لحكمة تقتضيه اى ليسأل الانبياء الذين صدقوا
عهودهم عما قالوه لقومهم او عن تصديقهم اياهم تبكيتا لهم كما فى قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل
فيقول ماذا اجبتم او المصدقين لهم عن تصديقهم فان مصدق الصادق صادق
وتصديقه صدق واما ما قيل من ان المعنى ليسأل المؤمنين الذين صدقوا عهدهم حين اشهدهم

على

على انفسهم عن صدقهم عهدهم فيأباه مقام تذكير ميثاق النبيين وقوله تعالى واعد للكافرين
عذابا اليما عطف على ما ذكر من المضمر لا على اخذنا كما قيل والتوجيه بان بعثة الرسل واخذ الميثاق
منهم لاثابة المؤمنين او بان المعنى ان الله تعالى اكد على الانبياء الدعوة الى دينه لاجل اثابة المؤمنين
تعسف ظاهر مع انه مفض الى كون بيان اعداد العذاب الاليم للكافرين غير مقصود بالذات
نعم يجوز عطفه على ما دل عليه قوله تعالى ليسأل الصادقين كانه قيل فاثاب المؤمنين واعد
للكافرين الآية يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ان جعل النعمة مصدرا فالجار
متعلق بها والا فهو متعلق بمحذوف هو حال منها اى كائنة عليكم اذ جاءتكم جنود
ظرف لنفس النعمة او لثبوتها لهم وقيل منصوب باذكروا على انه بدل اشتمال من نعمة الله
والمراد بالجنود الاحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير وكانوا زهاء اثنى عشر
الفا فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم باقبالهم ضرب الخندق على المدينة باشارة
سلمان الفارسى ثم خرج فى ثلثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين
القوم وامر بالذرارى والنساء فرفعوا فى الآطام واشتد الخوف وظن المؤمنون كل ظن و
نجم النفاق فى المنافقين حتى قال معتب بن قشير كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر لا نقدر ان
نذهب الى الغائط ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم الا ان فوارس من قريش
منهم عمرو بن عبد ود وعكرمة بن ابى جهل وهبيرة بن ابى وهب ونوفل بن عبد الله
وضرار بن الخطاب ومرداس اخو بنى محارب قد ركبوا خيولهم وتيمموا من الخندق مكانا
مضيقا فضربوا خيولهم فاقتحموا فجالت بهم فى السبخة بين الخندق وسلع فخرج على
بن ابى طالب رضى الله عنه فى نفر من المسلمين حتى اخذ عليهم الثغرة التى اقتحموا منها فاقبلت الفرسان
نحوهم وكان عمرو معلما ليرى مكانه فقال على رضى الله عنه يا عمرو انى ادعوك الى الله ورسوله
والاسلام قال لا حاجة لى اليه قال فانى ادعوك الى النزال قال يا ابن اخى والله لا احب
ان اقتلك قال على رضى الله عنه لكنى والله احب ان اقتلك فحمى عمرو عند ذلك وكان غيورا مشهورا
بالشجاعة واقتحم عن فرسه فعقره او ضرب وجهه ثم اقبل على على فتناولا وتجاولا
فضربه على رضى الله عنه ضربة فيها نفسه فلما قتله انهزمت خيله حتى اقتحمت من الخندق هاربة
وقتل مع عمرو رجلان منبه بن عثمان بن عبد الدار ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومى
قتله ايضا على رضى الله عنه وقيل لم يكن بينهم الا الترامى بالنبل والحجارة حتى انزل الله
تعالى النصر وذلك قوله فارسلنا عليهم ريحا عطف على جاءتكم مسوق لبيان النعمة
اجمالا وسيأتى بقيتها فى آخر القصة وجنودا لم تروها الملائكة عليهم السلام
وكانوا الفا فبعث الله عليهم صبا باردة فى ليلة شاتية فاحصرتهم وسفت التراب فى
وجوههم وامر الملائكة فقلعت الاوتاد وقطعت الاطناب واطفأت النيران واكفأت
القدور وماجت الخيل بعضها فى بعض وقذف فى قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة فى
جوانب عسكرهم فقال طليحة بن خويلد الاسدى اما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء
فانهزموا من غير قتال وكان الله بما تعملون من حفر الخندق وترتيب مبادى
الحراب وقيل من التجائكم اليه ورجائكم من فضله وقرئ بالياء اى بما يعمله الكفار اى
من التحزب والمحاربة او من الكفر والمعاصى بصيرا ولذلك فعل ما فعل من نصركم عليهم
والجملة اعتراض مقرر لما قبله اذ جاؤكم بدل من اذ جاءتكم من فوقكم من اعلى
الوادى من جهة المشرق وهم بنو غطفان ومن تابعهم من اهل نجد قائدهم عيينة
بن حصن وعامر بن الطفيل فى هوازن وضامتهم اليهود من قريظة والنضير ومن
اسفل منكم اى من اسفل الوادى من قبل المغرب وهم قريش ومن شايعهم من
الاحابيش وبنى كنانة واهل تهامة وقائدهم ابو سفيان وكانوا عشرة آلاف واذ زاغت
الابصار عطف على ما قبله داخل معه فى حكم التذكير اى حين مالت عن سننها وانحرفت
عن مستوى نظرها حيرة وشخوصا وقيل عدلت عن كل شئ فلم تلتفت الا الى عدوها لشدة
الروع وبلغت القلوب الحناجر لان الرئة تنتفخ من شدة الفزع فيرتفع القلب بارتفاعها
الى رأس الحنجرة وهى منتهى الحلقوم وقيل هو مثل فى اضطراب القلوب ووجيبها وان لم تبلغ

الحناجر حقيقة والخطاب فى قوله تعالى وتظنون بالله الظنونا لمن يظهر الايمان على الاطلاق اى
تظنون به تعالى انواع الظنون المختلفة حيث ظن المخلصون الثبت القلوب ان الله تعالى منجز وعده
فى اعلاء دينه كما يعرب عنه ما سيحكى عنهم من قولهم هذا ما وعدنا الله ورسوله و
صدق الله ورسوله الآية او يمتحنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال والضعاف القلوب
والمنافقون ما حكى عنهم مما لا خير فيه والجملة معطوفة على زاغت وصيغة المضارع
لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار وقرئ الظنون بغير الف وهو القياس وزيادتها لمراعاة
الفواصل كما تزاد فى القوافى هنالك ظرف زمان او ظرف مكان لما بعده اى فى ذلك الزمان
الهائل او المكان الدحض ابتلى المؤمنون اى عوملوا معاملة من يختبر فظهر المخلص من
المنافق والراسخ من المتزلزل وزلزلوا زلزالا شديدا من الهول والفزع وقرئ بفتح
الزاء واذ يقول المنافقون عطف على اذ زاغت وصيغة المضارع لما مر من الدلالة على
استمرار القول واستحضار صورته والذين فى قلوبهم مرض اى ضعف اعتقاد
ما وعدنا الله ورسوله من اعلاء الدين والظفر الا غرورا اى وعد غرور وقيل
قولا باطلا القائل معتب بن قشير واضرابه رضوانه به قال يعدنا محمد بفتح كنوز كسرى
وقيصر واحدنا لا يقدر ان يتبرز فرقا ما هذا الا وعد غرور واذ قالت طائفة منهم
هم اوس بن قيظى واتباعه وقيل عبد الله بن ابى واشياعه يا اهل يثرب هو اسم
المدينة المطهرة وقيل اسم بقعة وقعت المدينة فى ناحية منها وقد نهى النبى صلى الله
عليه وسلم ان تسمى بها كراهة لها وقال هى طيبة او طابة كانهم ذكروها بذلك الاسم
مخالفة له صلعم ونداؤهم اياهم بعنوان اهليتهم لها ترشيح لما بعده من الامر
بالرجوع اليها لا مقام لكم لا موضع اقامة لكم او لا اقامة لكم ههنا يريدون
المعسكر وقرئ بفتح الميم اى لا قيام او لا موضع قيام لكم فارجعوا اى الى منازلكم
بالمدينة مرادهم الامر بالفرار لكنهم عبروا عنه بالرجوع ترويجا لمقالهم وايذانا
بانه ليس من قبيل الفرار المذموم وقيل المعنى لا قيام لكم فى دين محمد فارجعوا الى
ما كنتم عليه من الشرك اى فارجعوا عما بايعتموه عليه واسلموه الى اعدائه او لا مقام
لكم فى يثرب فارجعوا كفارا ليتسنى لكم المقام بها والاول هو الانسب لما بعده فان قوله
ويستأذن فريق منهم النبى معطوف على قالت وصيغة المضارع لما مر من استحضار الصورة
وهم بنو حارثة وبنو سلمة استاذنوه فى الرجوع ممتثلين بامرهم وقوله
تعالى يقولون بدل من يستأذن او حال من فاعله او استيناف مبنى على السؤال عن
كيفية الاستيذان ان بيوتنا عورة اى غير حصينة معرضة للعدو والسراق فاذن لنا حتى
نحصنها ثم نرجع الى العسكر والعورة فى الاصل الخلل اطلقت على المختل مبالغة وقد جوز
ان يكون تخفيف عورة من عورت الدار اى اختلت وقد قرئ بها والاول هو الانسب
بمقام الاعتذار كما يفصح عنه تصديرهم مقالهم بحرف التحقيق وما هى بعورة اى انها
ليست كذلك ان يريدون ما يريدون بالاستيذان الا فرارا من القتال ولو دخلت
عليهم اسند الدخول الى بيوتهم واوقع عليهم لما ان المراد فرض دخولها وهم فيها
لا فرض دخولها مطلقا كما هو المفهوم لو لم يذكر الجار والمجرور ولا فرض الدخول
عليهم مطلقا كما هو المفهوم لو اسند الى الجار والمجرور من اقطارها
اى من جميع جوانبها لا من بعضها دون بعض فالمعنى لو كانت بيوتهم مختلة بالكلية
ودخلها كل من اراد من اهل الدعارة والفساد ثم سئلوا من جهة طائفة اخرى
عند تلك النازلة والرجفة الهائلة الفتنة اى الردة والرجعة الى الكفر مكان ما سئلوا
الآن من الايمان والطاعة لآتوها لاعطوها غير مبالين بما دهاهم من الداهية
الدهياء والغارة الشعواء وقرئ لاتوها بالقصر اى لفعلوها وجاؤها وما تلبثوا
بها بالفتنة اى ما البثوها وما اخروها الا يسيرا ريثما يسع السؤال والجواب من
الزمان فضلا عن التعلل باختلال البيوت مع سلامتها كما فعلوا الآن وقيل ما لبثوا
بالمدينة بعد الارتداد الا يسيرا والاول هو اللائق بالمقام هذا واما تخصيص فرض الدخول

بتلك العساكر المتحزبة فمع منافاته للعموم المستفاد من تجريد الدخول عن الفاعل ففيه ضرب
من فساد الوضع لما عرفت من ان مساق النظم الكريم لبيان انهم اذا دعوا الى الحق تعللوا وانثنوا
بيسير وان دعوا الى الباطل سارعوا اليه اثر ذى اثير من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم
ففرض الدخول عليهم من جهة العساكر المذكورة واسناد سؤال الفتنة والدعوة الى
الكفر الى طائفة اخرى مع ان العساكر هم المعروفون بعداوة الدين المباشرون لقتال المؤمنين
المصرون على الاعراض عن الحق المجدون فى الدعاء الى الكفر والضلال بمعزل من التقريب
ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار فان بنى حارثة عاهدوا رسول الله
صلى الله عليه وسلم يوم احد حين فشلوا ان لا يعودوا لمثله وقيل هم قوم غابوا عن
وقعة بدر وراوا ما اعطى الله اهل بدر من الكرامة والفضيلة لئن اشهدنا الله
قتالا لنقاتلن وكان عهد الله مسئولا مطلوبا مقتضى حتى يوفى به وقيل مسئولا عن
الوفاء به ومجازى عليه قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت او القتل فانه لا بد
لكل شخص من حتف انف او قتل سيف فى وقت معين سبق به القضاء وجرى عليه القلم
واذا لا تمتعون الا قليلا اى وان نفعكم الفرار مثلا فمتعتم بالتاخير لم يكن ذلك التمتيع
الا تمتيعا او زمانا قليلا قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان اراد بكم سوءا او اراد بكم
رحمة اى او يصيبكم بسوء ان اراد بكم رحمة فاختصر الكلام وحمل الثانى على الاول لما فى
العصمة من معنى المنع ولا يجدون لهم من دون الله وليا ينفعهم ولا نصيرا يدفع عنهم
الضرر قد يعلم الله المعوقين منكم اى المثبطين للناس عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم وهم المنافقون والقائلين لاخوانهم من منافقى المدينة هلم الينا وهو
صوت سمى به فعل متعد نحو احضر او قرب ويستوى فيه الواحد والجماعة على لغة اهل
الحجاز واما بنو تميم فيقولون هلم يا رجل وهلموا يا رجال اى قربوا انفسكم الينا و
هذا يدل على انهم عند هذا القول خارجون من العسكر متوجهون نحو المدينة ولا ياتون
الباس اى الحرب والقتال الا قليلا اى اتيانا او زمانا او باسا قليلا فانهم يعتذرون
ويثبطون ما امكن لهم ويخرجون مع المؤمنين يوهمونهم انهم معهم ولا تراهم
يبارزون ويقاتلون الا شيئا قليلا اذا اضطروا اليه كقوله تعالى ما قاتلوا الا قليلا
وقيل من تتمة كلامهم معناه ولا ياتى اصحاب محمد حرب الاحزاب ولا يقاومونهم
الا قليلا اشحة عليكم اى بخلاء عليكم بالمعاونة او النفقة فى سبيل الله او الظفر
والغنيمة جمع شحيح ونصبه على الحالية من فاعل ياتون او من المعوقين او على الذم
فاذا جاء الخوف رايتهم ينظرون اليك تدور اعينهم فى احداقهم كالذى يغشى
عليه من الموت صفة لمصدر ينظرون او حال من فاعله او لمصدر تدور او حال
من اعينهم اى ينظرون نظرا كائنا كنظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذرا
وخورا ولواذا بك او ينظرون كائنين كالذى الخ او تدور اعينهم دورانا كائنا كدوران
عينه او تدور اعينهم كائنة كعينه فاذا ذهب الخوف وحيزت الغنائم سلقوكم
ضربوكم بالسنة حداد وقالوا وفروا قسمتنا فانا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم و
بمكاننا غلبتم عدوكم وبنا نصرتم عليه والسلق البسط بقهر باليد او باللسان وقرئ
صلقوكم اشحة على الخير نصب على الحالية او الذم ويؤيده القراءة بالرفع اولئك
الموصوفون بما ذكر من صفات السوء لم يؤمنوا بالاخلاص فاحبط الله اعمالهم
اى اظهر بطلانها اذ لم يثبت لهم اعمال فتبطل او ابطل تصنعهم ونفاقهم فلم يبق مستتبعا
لمنفعة دنيوية اصلا وكان ذلك الاحباط على الله يسيرا هينا وتخصيص يسره بالذكر
مع ان كل شئ عليه تعالى يسير لبيان ان اعمالهم حقيقة بان يظهر حبوطها لكمال تعاضد الدواعى
وعدم الصوارف بالكلية يحسبون الاحزاب لم يذهبوا اى هؤلاء لجبنهم يظنون
ان الاحزاب لم ينهزموا ففروا الى داخل المدينة وان يات الاحزاب كرة ثانية يودوا
لو انهم بادون فى الاعراب تمنوا انهم خارجون الى البدو وحاصلون بين الاعراب وقرئ
بدى جمع باد كغاز وغزى يسئلون كل قادم من جانب المدينة وقرئ يساءلون اى يتساءلون

ومعناه يقول بعضهم لبعض ماذا سمعت ماذا بلغك او يتساءلون الاعراب كما يقال رأيت
الهلال وتراءيناه فان صيغة التفاعل قد تجرد عن معنى كون ما اسندت اليه فاعلا من وجه
ومفعولا من وجه ويكتفى بتعدد الفاعل كما فى المثال المذكور ونظائره عن انبائكم
عما جرى عليكم ولو كانوا فيكم هذه الكرة ولم يرجعوا الى المدينة وكان قتال ما قاتلوا
الا قليلا رياء وخوفا من التعيير لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة خصلة
حسنة حقها ان يؤتسى بها كالثبات فى الحرب ومقاساة الشدائد او هو فى نفسه قدوة
يحق التأسى به كقولك فى البيضة عشرون منا حديد اى هى فى نفسها هذا القدر من الحديد
وقرئ بكسر الهمزة وهى لغة فيها لمن كان يرجو الله واليوم الآخر اى ثواب الله او لقاءه
او ايام الله واليوم الآخر خصوصا وقيل هو مثل قولك ارجو زيدا وفضله فان اليوم
الآخر من ايام الله تعالى ولمن كان صلة لحسنة او صفة لها وقيل بدل من لكم والاكثرون
على ان ضمير المخاطب لا يبدل منه وذكر الله اى وقرن الرجاء بذكر الله كثيرا اى ذكرا كثيرا او
زمانا كثيرا فان المثابرة على ذكره تعالى تؤدى الى ملازمة الطاعة وبها يتحقق الائتساء
برسول الله صلعم ولما رأى المؤمنون الاحزاب بيان لما صدر عن خلص المؤمنين عند
اشتباه الشئون واختلاط الظنون بعد حكاية ما صدر عن غيرهم اى لما شاهدوهم
حسبما وصفوا لهم قالوا هذا مشيرين الى ما شاهدوه من حيث هو من غير ان يخطر
ببالهم لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه فانهما من احكام اللفظ كما مر فى قوله تعالى
فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى وجعله اشارة الى الخطب او البلاء من نتائج النظر
الجليل فتدبر نعم يجوز التذكير باعتبار الخبر الذى هو ما وعدنا الله ورسوله فان ذلك
العنوان اول ما يخطر ببالهم عند المشاهدة ومرادهم بذلك ما وعدوه بقوله تعالى
ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء
والضراء الى قوله تعالى الا ان نصر الله قريب وقوله عليه السلام سيشتد الامر باجتماع الاحزاب
عليكم والعاقبة لكم عليهم وقوله عليه السلام ان الاحزاب سائرون اليكم بعد تسع
ليال او عشر وقرئ بكسر الراء وفتح الهمزة وصدق الله ورسوله اى ظهر صدق خبر
الله تعالى ورسوله او صدقا فى النصرة والثواب كما صدقا فى البلاء واظهار الاسم للتعظيم
وما زادهم اى ما رأوه الا ايمانا بالله تعالى وبمواعيده وتسليما لاوامره ومقاديره
من المؤمنين اى المؤمنين بالاخلاص مطلقا لا الذين حكيت محاسنهم خاصة رجال
صدقوا ما عاهدوا الله عليه من الثبات مع رسول الله عليه السلام والمقاتلة لاعداء الدين
وهم رجال من الصحابة رضى الله عنهم نذروا انهم اذا لقوا حربا مع رسول الله
صلعم ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله
وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وحمزة ومصعب بن عمير وانس بن النضر وغيرهم رضوان
الله تعالى عليهم اجمعين ومعنى صدقوا اتوا بالصدق من صدقنى اذا قال الصدق
ومحل ما عاهدوا النصب اما بطرح الخافض عنه وايصال الفعل اليه كما فى قولهم صدقنى
سن بكره اى فى سنه واما بجعل المعاهد عليه مصدوقا على المجاز كأنهم خاطبوه خطاب
من قال لكوماته نحرتنى الاعداء ان لم تنحرى وقالوا له سنفى بك وحيث وفوا به فقد
صدقوه ولو كانوا نكثوه لكذبوه ولكان مكذوبا فمنهم من قضى نحبه تفصيل لحال الصادقين
وتقسيم لهم الى قسمين والنحب النذر وهو ان يلتزم الانسان شيئا من اعماله ويوجبه على
نفسه وقضاؤه الفراغ منه والوفاء به ومحل الجار والمجرور الرفع على الابتداء على احد
الوجهين المذكورين فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله الآية اى فبعضهم
فبعض منهم من خرج عن العهدة كحمزة ومصعب بن عمير وانس بن النضر عم انس بن
مالك وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم اجمعين فانهم قد قضوا نذورهم سواء كان
النذر على حقيقته بان يكون ما نذروه افعالهم الاختيارية التى هى المقاتلة المغياة
بما ليس منها ولا يدخل تحت النذر وهو الموت شهيدا او كان مستعارا لالتزامه على
ما سيأتى ومنهم اى وبعضهم او وبعض منهم من ينتظر اى قضاء نحبه لكونه

موقتا

موقتا كعثمان وطلحة وغيرهما ممن استشهد بعد ذلك رضوان الله تعالى عليهم اجمعين فانهم مستمرون
على نذورهم قد قضوا بعضها وهو الثبات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقتال الى حين
نزول الآية الكريمة ومنتظرون لقضاء بعضها الباقى وهو القتال الى الموت شهيدا هذا ويجوز ان يكون
النحب مستعارا لالتزام الموت شهيدا اما بتنزيل التزام اسبابها التى هى افعال اختيارية للناذر
منزلة التزامه نفسه واما بتنزيل نفسه منزلة اسبابه وايراد الالتزام عليه وهو الانسب
بمقام المدح واياما كان ففى وصفهم بالانتظار المنبئ عن الرغبة فى المنتظر شهادة حقة بكمال
اشتياقهم الى الشهادة واما ما قيل من ان النحب استعير للموت لانه كنذر لازم فى رقبة كل حيوان
فمسخ للاستعارة وذهاب برونقها واخراج للنظم الكريم عن مقتضى المقام بالكلية وما
بدلوا عطف على صدقوا وفاعله فاعله اى وما بدلوا عهدهم وما غيروه تبديلا اى تبديلا
ما لا اصلا ولا وصفا بل ثبتوا عليه راغبين فيه مراعين لحقوقه على احسن ما يكون اما الذين
قضوا فظاهر واما الباقون فيشهد به انتظارهم اصدق شهادة وتعميم عدم التبديل للفريق
الاول مع ظهور حالهم للايذان بمساواة الفريق الثانى لهم فى الحكم ويجوز ان يكون
ضمير بدلوا للمنتظرين خاصة بناء على ان المحتاج الى البيان حالهم وقد روى ان طلحة رضى الله عنه
ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم احد حتى اصيبت يده فقال عليه السلام اوجب
طلحة الجنة وفى رواية اوجب طلحة وعنه عليه السلام فى رواية جابر من سره ان ينظر
الى شهيد يمشى على الارض فلينظر الى طلحة بن عبيد الله وفى رواية عائشة رضى الله عنها من سره ان ينظر
الى شهيد يمشى على الارض وقد قضى نحبه فلينظر الى طلحة وهذا يشير الى انه من الاولين حكما
ليجزى الله الصادقين بصدقهم متعلق بمضمر مستأنف مسوق بطريق الفذلكة لبيان ما
هو داعى الى وقوع ما حكى من الاهوال والاحوال على التفصيل وغاية له كما مر فى قوله تعالى
ليسأل الصادقين عن صدقهم كأنه قيل وقع جميع ما وقع ليجزى الله الصادقين بما
صدر عنهم من الصدق والوفاء قولا وفعلا ويعذب المنافقين بما صدر عنهم من
الاعمال والاقوال المحكية ان شاء تعذيبهم او يتوب عليهم ان تابوا وقيل متعلق
بما قبله من نفى التبديل المنطوق واثباته المعرض به كأن المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة
السوء كما قصد المخلصون بالثبات والوفاء العاقبة الحسنى وقيل تعليل لصدقوا وقيل لما يفهم
من قوله تعالى وما زادهم الا ايمانا وتسليما وقيل لما يستفاد من قوله تعالى ولما رأى
المؤمنون الاحزاب كأنه قيل ابتلاهم الله تعالى برؤية ذلك الخطب ليجزى الآية فتأمل
وبالله التوفيق ان الله كان غفورا رحيما اى لمن تاب وهو اعتراض فيه بعث الى التوبة
وقوله تعالى ورد الله الذين كفروا رجوع الى حكاية بقية القصة وتفصيل تتمة
النعمة المشار اليها اجمالا بقوله تعالى فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها معطوف
على المضمر المقدر قبل قوله تعالى ليجزى الله كأنه قيل اثر حكاية الامور المذكورة
وقع ما وقع من الحوادث ورد الله الخ واما على ارسلنا وقد وسط بينهما بيان كون ما نزل
بهم واقعة طامة تحيرت بها العقول والافهام وداهية تامة تحاكت منها الركب
وزلت الاقدام وتفصيل ما صدر عن فريقى اهل الايمان واهل الكفر والنفاق من الاحوال
والاقوال لاظهار عظم النعمة وابانة خطرها الجليل ببيان وصولها اليهم عند غاية
احتياجهم اليها اى فارسلنا ريحا وجنودا لم تروها ورددنا بذلك الذين كفروا
والالتفات الى الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال الروعة وقوله تعالى بغيظهم حال
من الموصول اى ملتبسين به وكذا قوله تعالى لم ينالوا خيرا بتداخل او تعاقب اى غير ظافرين
بخير او الثانية بيان للاولى او استئناف وكفى الله المؤمنين القتال بما ذكر من ارسال
الريح والجنود وكان الله قويا على احداث كل ما يريد عزيزا غالبا على كل شئ وانزل
الذين ظاهروهم اى عاونوا الاحزاب المردودة من اهل الكتاب وهم بنو قريظة
من صياصيهم من حصونهم جمع صيصة وهى ما يتحصن به ولذلك يقال لقرن الثور
والظبى وشوكة الديك وقذف فى قلوبهم الرعب الخوف الشديد بحيث اسلموا انفسهم
للقتل واهليهم واولادهم للاسر حسبما ينطق به قوله تعالى فريقا تقتلون وتأسرون فريقا

من غير ان يكون من جهتهم حراك فضلا عن المخالفة والاستعصاء وروي ان جبريل عليه السلام
اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة الليلة التي انهزم فيها الاحزاب ورجع المسلمون
الى المدينة ووضعوا السلاح فقال اتنزع لامتك والملائكة ما وضعوا السلاح ان الله يامرك
ان تسير الى بني قريظة وانا عامد اليهم فاذن في الناس ان لا يصلوا العصر الا ببني قريظة
فحاصرهم احدى وعشرين او خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار فقال لهم
تنزلون على حكمي فابوا فقال على حكم سعد بن معاذ فرضوا به فحكم سعد بقتل مقاتلهم
وسبي ذراريهم ونسائهم فكبر النبي صلى الله عليه وسلم لقد حكمت بحكم الله من فوق
سبعة ارقعة فقتل منهم ستمائة مقاتل وقيل من ثمان مائة الى تسعمائة واسر سبعمائة
وقرئ تاسرون بضم السين كما قرئ الرعب بضم العين ولعل تاخير المفعول في الجملة الثانية
مع ان مساق الكلام لتفصيله وتقسيمه كما في قوله تعالى ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون
وقوله تعالى فريقا كذبوا وفريقا يقتلون لمراعاة الفواصل واورثكم ارضهم وديارهم
اي حصونهم واموالهم نقودهم واثاثهم ومواشيهم روي ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم جعل عقارهم للمهاجرين دون الانصار فقالت الانصار في ذلك
فقال عليه السلام انكم في منازلكم فقال عمر رضي الله عنه اما تخمس كما خمست يوم بدر
قال عليه السلام انما جعلت هذه لي طعمة دون الناس قالوا رضينا بما صنع الله ورسوله
وارضا لم تطؤها اي اورثكم في علمه وتقديره ارضا لم تقبضوها بعد كفارس والروم
وقيل كل ارض تفتح الى يوم القيمة وقيل خيبر وكان الله على كل شيء قديرا فقد شاهدتم
بعض مقدوراته من ايراث الاراضي التي سلمتموها فقيسوا عليها ما عداها
يا ايها النبي قل لازواجك ان كنتن تردن الحيوة الدنيا اي السعة والتنعم فيها وزينتها
وزخارفها فتعالين اي اقبلن بارادتكن واختياركن لاحدى الخصلتين كما يقال اقبل
يخاصمني وذهب يكلمني وقام يهددني امتعكن بالجزم جوابا للامر وكذا واسرحكن اي
اعطكن المتعة واطلقكن سراحا جميلا طلاقا من غير ضرار وقرئ بالرفع على الاستئناف
روي انهن سالنه عليه السلام ثياب الزينة وزيادة النفقة فنزلت فبدأ بعائشة فخيرها
فاختارت الله ورسوله والدار الاخرة ثم اختارت الباقيات اختيارها فشكر لهن الله ذلك
فنزل لا يحل لك النساء من بعد واختلف في ان هذا التخيير هل كان تفويض الطلاق اليهن
حتى يقع الطلاق بنفس الاختيار اولا فذهب الحسن وقتادة واكثر اهل العلم الى انه لم يكن
تفويض الطلاق وانما كان تخييرا لهن بين الارادتين على انهن ان اردن الدنيا فارقهن كما ينبئ
عنه قوله تعالى فتعالين امتعكن واسرحكن وذهب اخرون الى انه كان تفويضا للطلاق اليهن
حتى لو انهن اخترن انفسهن كان ذلك طلاقا وكذا اختلف في حكم التخيير فقال عمر وابن مسعود
وابن عباس رضي الله تعالى عنهم اذا خير رجل امراته فاختارت زوجها لا يقع شيء اصلا ولو
اختارت نفسها وقعت طلقة بائنة عندنا ورجعية عند الشافعي وهو قول عمر بن عبد العزيز
وابن ابي ليلى وسفيان رحمهم الله وروي عن زيد بن ثابت انها ان اختارت زوجها تقع
طلقة واحدة وان اختارت نفسها يقع ثلث طلقات وهو قول الحسن ورواية عن مالك
وروي عن علي رضه انها اذا اختارت زوجها فواحدة رجعية وان اختارت نفسها
فواحدة بائنة وروي عنه ايضا انها ان اختارت زوجها لا يقع شيء اصلا وعليه اجماع
فقهاء الامصار وقد روي عن عائشة رضها خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه
ولم يعده طلاقا وتقديم التمتيع على التسريح من باب الكرم وفيه قطع لمعاذيرهن من
اول الامر والمتعة في المطلقة التي لم يدخل بها ولم يفرض لها صداق عند العقد واجبة
عندنا وفيما عداهن مستحبة وهي درع وخمار وملحفة بحسب السعة والاقتار الا ان يكون
نصف مهرها اقل من ذلك فحينئذ يجب لها الاقل منهما ولا ينقص من خمسة دراهم وان
كنتن تردن الله ورسوله اي تردن رسوله وذكر الله عز وجل للايذان بجلالة محله
عليه السلام عنده تعالى والدار الاخرة اي نعيمها الذي لا قدر عنده للدنيا وما فيها
جميعا فان الله اعد للمحسنات منكن بمقابلة احسانهن اجرا عظيما لا يقادر قدره

ولايبلغ

ولا يبلغ غايته ومن للتبيين لان كلهن محسنات وتجريد الشرطية الاولى عن الوعيد للمبالغة في
تحقيق معنى التخيير والاحتراز عن شائبة الاكراه وهو السر فيما ذكر من تقديم التمتيع على التسريح
وفي وصف التسريح بالجميل يا نساء النبي تلوين للخطاب وتوجيه له اليهن لاظهار الاعتناء
بنصحهن ونداؤهن ههنا وفيما بعده بالاضافة اليه عليه السلام لانها التي يدور عليها ما
يرد عليهن من الاحكام من يات منكن بفاحشة بكبيرة مبينة ظاهرة القبح من بين بمعنى
تبين وقرئ بفتح الياء والمراد بها كل ما اقترفن من الكبائر وقيل هي عصيانهن لرسول
الله صلى الله عليه وسلم ونشوزهن وطلبهن منه ما يشق عليه او ما يضيق به ذرعه
ويغتم لاجله وقرئ تات بالفوقانية يضاعف لها العذاب ضعفين اي يعذبن ضعفي
عذاب غيرهن اي مثليه لان الذنب منهن اقبح فان زيادة قبحه تابعة لزيادة فضل
المذنب والنعمة عليه ولذلك جعل حد الحر ضعف حد الرقيق وعوتب الانبياء عليهم السلام
بما لا يعاتب به الامم وقرئ يضعف على البناء للمفعول ونضاعف ونضعف بنون
العظمة على البناء للفاعل ونصب العذاب وكان ذلك على الله يسيرا لا يمنعه عن التضعيف
كونهن نساء النبي صلى الله عليه وسلم بل يدعوه اليه لمراعاة حقه ومن يقنت منكن
وقرئ بالتاء اي ومن يدم على الطاعة لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها اجرها مرتين
على الطاعة والتقوى واخرى على طلبهن رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقناعة وحسن
المعاشرة وقرئ يعمل بالياء حملا على لفظ من ويؤتها على ان فيه ضمير اسم الله تعالى واعتدنا
لها في الجنة زيادة على اجرها المضاعف رزقا كريما مرضيا يا نساء النبي لستن كاحد من
النساء اصل احد وحد بمعنى الواحد ثم وضع في النفي مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد
والكثير والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل والشرف ان اتقيتن
مخالفة حكم الله تعالى ورضاء رسوله او ان اتصفتن بالتقوى كما هو اللائق بحالكن فلا
تخضعن بالقول عند مخاطبة الناس اي لا تجئن بقولكن خاضعا لينا على سنن قول
المريبات والمومسات فيطمع الذي في قلبه مرض اي فجور وريبة وقرئ بالجزم
عطفا على محل فعل النهي على انه نهي لمريض القلب عن الطمع عقيب نهيهن عن الاطماع
بالقول الخاضع كانه قيل فلا تخضعن بالقول فلا يطمع مريض القلب وقلن قولا معروفا
بعيدا من الريبة والاطماع بجد وخشونة من غير تخنيث وقولا حسنا مع كونه
خشنا وقرن في بيوتكن امر من قر يقر من باب علم واصله اقررن فحذفت الراء
الاولى ونقلت فتحتها الى ما قبلها كما في قولك ظلن او من قار يقار اذا اجتمع وقرئ بكسر
القاف من قر يقر وقارا اذا ثبت واستقر واصله او قرن ففعل به ما فعل بعدن
من وعد او من قر يقر حذفت احدى راءي اقررن ونقلت كسرتها الى القاف
كما تقول ظلن ولا تبرجن اي لا تتبخترن في مشيكن تبرج الجاهلية الاولى اي تبرجا
مثل تبرج النساء في الجاهلية القديمة وهي ما بين ادم ونوح وقيل ما بين ادريس
ونوح عليهم السلام وقيل الزمان الذي ولد فيه ابراهيم عليه السلام كانت المراة تلبس درعا
من اللؤلؤ وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال وقيل زمن داود وسليمان عليهما
السلام والجاهلية الاخرى ما بين عيسى ومحمد عليهما السلام وقيل الجاهلية الاولى
جاهلية الكفر والجاهلية الاخرى الفسوق في الاسلام ويؤيده قوله عم لابي الدرداء
ان فيك جاهلية قال جاهلية كفر او جاهلية اسلام قال بل جاهلية كفر واقمن الصلوة
واتين الزكوة امرهن بهما لانافتهما على غيرهما وكونهما اصلي الطاعة البدنية والمالية
واطعن الله ورسوله اي في ما تاتين وما تذرن لا سيما فيما امرتن به ونهيتن عنه انما
يريد الله ليذهب عنكم الرجس اي الذنب المدنس لعرضكم وهو تعليل لامرهن ونهيهن
على الاستئناف ولذلك عمم الحكم بتعميم الخطاب لغيرهن وصرح بالمقصود حيث قيل
بطريق النداء او المدح اهل البيت مرادا بهم من حواهم بيت النبوة ويطهركم من
اوضار الاوزار والمعاصي تطهيرا بليغا واستعارة الرجس للمعصية والترشيح بالتطهير
لتزيين التنفير عنها وهذه كما ترى اية بينة وحجة نيرة على كون نساء النبي صلعم

من اهل بيته قاضية ببطلان رأى الشيعة فى تخصيصهم اهلية البيت بفاطمة رضى الله عنها
وعلى وابنيه رضوان الله تعالى عليهم واما ما تمسكوا به من ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم خرج ذات غدوة وعليه مرط مرجل من شعر اسود وجلس فاتت فاطمة فادخلها
فيه ثم جاء على فادخله فيه ثم جاء الحسن والحسين فادخلهما فيه ثم قال انما يريد الله
ليذهب عنكم الرجس اهل البيت فانما يدل على كونهم من اهل البيت لا على ان من
عداهم ليسوا كذلك ولو فرضت دلالته على ذلك لما اعتد بها لكونها فى مقابلة النص
واذكرن ما يتلى فى بيوتكن اى اذكرن للناس بطريق العظة والتذكير ما يتلى فى
بيوتكن من ايات الله والحكمة من الكتاب الجامع بين كونه ايات الله البينة الدالة
على صدق النبوة بنظمه المعجز وكونه حكمة منطوية على فنون العلم والشرايع وهو تذكير بما انعم
عليهن حيث جعلهن اهل بيت النبوة ومهبط الوحى وما شاهدن من برحاء الوحى مما يوجب
قوة الايمان والحرص على الطاعة حثا على الانتهاء والائتمار فيما كلفنه والتعرض للتلاوة فى البيوت
دون النزول فيها مع انه الانسب لكونها مهبط الوحى لعمومها لجميع الايات ووقوعها فى كل
البيوت الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير بخلاف النزول وعدم تعيين التالى لتعم تلاوة
جبريل وتلاوة النبى عليهما السلام وتلاوتهن وتلاوة غيرهن تعليما وتعلما ان الله كان
لطيفا خبيرا يعلم ويدبر ما يصلح فى الدين ولذلك فعل ما فعل من الامر والنهى او يعلم من
يصلح للنبوة ومن يستاهل ان يكون من اهل بيته ان المسلمين والمسلمات اى الداخلين
فى السلم المنقادين لحكم الله تعالى من الذكور والاناث والمؤمنين والمؤمنات المصدقين
بما يجب ان يصدق به من الفريقين والقانتين والقانتات المداومين على الطاعات القائمين
بها والصادقين والصادقات فى القول والعمل والصابرين والصابرات على الطاعات وعن
المعاصى والخاشعين والخاشعات المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم والمتصدقين
والمتصدقات بما وجب فى مالهم والصائمين والصائمات الصوم المفروض والحافظين
فروجهم والحافظات عن الحرام والذاكرين الله كثيرا والذاكرات بقلوبهم والسنتهم
اعد الله لهم بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة مغفرة لما اقترفوا من الصغائر لانهن
مكفرات بما عملوا من الاعمال الصالحة واجرا عظيما على ما صدر عنهم من الطاعات والاية
وعد لهن ولامثالهن على الطاعة والتدرع بهذه الخصال الحميدة روى ان ازواج النبى
صلى الله عليه وسلم ورضى عنهن قلن يا رسول الله ذكر الله الرجال فى القران بخير فما فينا
خير نذكر به انا نخاف ان لا تقبل منا طاعة فنزلت وقيل السائلة ام سلمة وروى انه لما
نزل فى نساء النبى صلى الله عليه وسلم ما نزل قال نساء المؤمنين فما نزل فينا شىء فنزلت
وعطف الاناث على الذكور لاختلاف الجنسين وهو ضرورى واما عطف الزوجين على
الزوجين فلتغاير الوصفين فلا يكون ضروريا ولذلك ترك فى قوله تعالى مسلمات مؤمنات
وفائدته الدلالة على ان مدار اعداد ما اعد لهم جمعهم بين هذه النعوت الجميلة وما كان لمؤمن
ولا مؤمنة اى ما صح وما استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين اذا قضى الله ورسوله امرا
اى اذا قضى رسول الله وذكر الله تعالى لتعظيم امره او للاشعار بان قضاءه قضاء الله
عز وجل نزل فى زينب بنت جحش بنت عمته اميمة بنت عبد المطلب خطبها رسول الله صلى الله
عليه وسلم لزيد بن حارثة فابت هى واخوها عبد الله وقيل فى ام كلثوم بنت عقبة بن ابى
معيط وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم فزوجها من زيد فسخطت هى واخوها وقالا
انما اردنا رسول الله فزوجنا عبده ان يكون لهم الخيرة من امرهم اى ان يختاروا
من امرهم ما شاؤا بل يجب عليهم ان يجعلوا رايهم تبعا لرايه عليه السلام و
اختيارهم تلوا لاختياره وجمع الضميرين لعموم مؤمن ومؤمنة لوقوعها فى سياق
النفى وقيل الضمير الثانى للرسول عليه السلام والجمع للتعظيم وقرئ تكون بالتاء ومن
يعص الله ورسوله فى امر من الامور ويعمل فيه برايه فقد ضل طريق الحق
ضلالا مبينا اى بين الانحراف عن سنن الصواب واذ تقول اى واذكر وقت قولك
للذى انعم الله عليه بتوفيقه للاسلام وتوفيقك لحسن تربيته ومراعاته وانعمت

عليه

عليه بالعمل بما وفقك الله له من فنون الاحسان التى من جملتها تحريره وهو زيد بن حارثة
وايراده بالعنوان المذكور لبيان منافاة حاله لما صدر عنه عليه السلام من اظهار خلاف
ما فى ضميره اذ هو انما يقع عند الاستحياء او الاحتشام وكلاهما مما لا يتصور فى حق زيد
امسك عليك زوجك اى زينب وذلك انه عليه السلام ابصرها بعد ما انكحها اياه فوقع
فى نفسه حالة جبلية لا يكاد يسلم عنها البشر فقال سبحان مقلب القلوب وسمعت زينب
بالتسبيحة فذكرتها لزيد ففطن لذلك فوقع فى نفسه كراهة صحبتها فاتى النبى صلى الله
عليه وسلم وقال اريد ان افارق صاحبتى فقال ما لك ارابك منها شىء قال لا والله ما
رايت منها الا خيرا ولكنها لشرفها تتعظم على فقال عليك زوجك واتق الله فى
امرها فلا تطلقها اضرارا وتعللا بتكبرها وتخفى ما فى نفسك ما الله مبديه وهو
نكاحها ان طلقها او ارادة طلاقها وتخشى الناس تعييرهم اياك به والله احق ان تخشاه
اى ان كان فيه ما يخشى والواو للحال وليست المعاتبة على الاخفاء وحده بل على الاخفاء مخافة
قالة الناس واظهار ما ينافى اضماره فان الاولى فى امثال ذلك ان يصمت او يفوض الامر
الى رايه فلما قضى زيد منها وطرا بحيث لم يبق له فيها حاجة وطلقها وانقضت
عدتها وقيل قضاء الوطر كناية عن الطلاق مثل لا حاجة لى فيك زوجناكها وقرئ
زوجتكها والمراد الامر بتزويجها منه عليه السلام وقيل جعلها زوجته بلا واسطة
عقد ويؤيده انها كانت تقول لسائر نساء النبى صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى تولى
نكاحى وانتن زوجكن اولياؤكن وقيل كان زيد السفير فى خطبتها وذلك ابتلاء
عظيم وشاهد عدل بقوة ايمانه لكيلا يكون على المؤمنين حرج ضيق ومشقة فى
ازواج ادعيائهم اى فى حق تزوجهن اذا قضوا منهن وطرا فان لهم فى رسول الله
اسوة حسنة وفيه دلالة على ان حكمه عليه السلام وحكم الامة سواء الا ما خصه
الدليل وكان امر الله اى ما يريد تكوينه من الامور او مأموره الحاصل بكن مفعولا
مكونا لا محالة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله ما كان على النبى من حرج اى ما صح
وما استقام فى الحكمة ان يكون ضيق فيما فرض الله له اى قسم له وقدر من قولهم
فرض له فى الديوان كذا ومنه فروض العساكر لاعطياتهم سنة الله اسم موضوع
موضع المصدر كقولهم تربا وجندلا مؤكد لما قبله من نفى الحرج اى سن الله ذلك
سنة فى الذين خلوا مضوا من قبل من الانبياء عليهم السلام حيث وسع عليهم
فى باب النكاح وغيره ولقد كانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلثمائة سرية ولسليمان
عليه السلام ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية وقوله تعالى وكان امر الله قدرا مقدورا اى قضاء
مقضيا وحكما مبتوتا اعتراض وسط بين الموصولين الجاريين مجرى الواحد للمسارعة
الى تقرير نفى الحرج وتحقيقه الذين يبلغون رسالات الله صفة للذين خلوا او
مدح لهم بالنصب او بالرفع وقرئ رسالة الله ويخشونه فى كل ما ياتون ويذرون
لا سيما فى امر تبليغ الرسالة حيث لا يحرفون منها حرفا ولا تاخذهم فى ذلك لومة
لائم ولا يخشون احدا الا الله فى وصفهم بقصرهم الخشية على الله تعالى تعريض بما صدر عنه
عليه السلام من الاحتراز عن لائمة الخلق بعد التصريح فى قوله تعالى وتخشى الناس والله احق
ان تخشاه وكفى بالله حسيبا كافيا للمخاوف فينبغى ان لا يخشى غيره او محاسبا على الصغيرة
والكبيرة فيجب ان يكون حق الخشية منه تعالى ما كان محمد ابا احد من رجالكم اى على
الحقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الوالد وولده من حرمة المصاهرة وغيرها
ولا ينتقض عمومه بكونه عليه السلام ابا للطاهر والقاسم وابراهيم لانهم لم يبلغوا
الحلم ولو بلغوا لكانوا رجاله عليه السلام لا لهم ولكن رسول الله اى كان رسول الله
وكل رسول ابو امته لكن لا حقيقة بل بمعنى انه شفيق ناصح لهم وسبب لحياتهم الابدية
وما زيد الا واحد من رجالكم الذين لا ولاد بينهم وبينه عليه السلام فحكمه حكمهم و
ليس للتبنى والادعاء حكم سوى التقريب والاختصاص وخاتم النبيين اى كان آخرهم

أي تعلم به وقرئ بكسر التاء أي كان خاتمهم ويؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه
ولكن نبيا ختم النبيين وأيا ما كان فلو كان له ابن بالغ لكان نبيا ولم يكن هو عليه السلام
خاتم النبيين كما يروى أنه قال في ابراهيم حين توفي لو عاش لكان نبيا ولا يقدح فيه
نزول عيسى بعده عليهما السلام لأن معنى كونه خاتم النبيين أنه لا ينبأ أحد بعده وعيسى
ممن نبئ قبله وحين ينزل انما ينزل عاملا على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم مصليا الى
الى قبلته كأنه بعض أمته وكان الله بكل شيء عليما ومن جملته هذه الأحكام والحكم التي
بينها لكم وكنتم منها في شك مريب يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله بما هو أهله من
التهليل والتحميد والتمجيد والتقديس ذكرا كثيرا يعم الأوقات والأحوال وسبحوه و
نزهوه عما لا يليق به بكرة وأصيلا أي أول النهار وآخره على أن تخصيصهما بالذكر ليس
لقصر التسبيح عليهما دون سائر الأوقات بل لابانة فضلهما على سائر الأوقات لكونهما
مشهودين كافراد التسبيح به من بين الأذكار مع اندراجه فيها لكونه العمدة فيها وقيل
كلا الفعلين متوجه اليهما كقولك صم وصل يوم الجمعة وقيل المراد بالتسبيح الصلوة هو الذي
يصلي عليكم الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من الأمرين فان صلوته تعالى
عليهم مع عدم استحقاقهم لها وغناه عن العالمين مما يوجب عليهم المداومة
على ما يستوجبه تعالى عليهم من ذكره تعالى وتسبيحه وقوله تعالى وملائكته عطف على
المستكن في يصلي لمكان الفصل المغني عن التأكيد بالمنفصل لكن لا على أن يراد بالصلوة الرحمة
أولا والاستغفار ثانيا فان استعمال اللفظ الواحد في معنيين متغايرين مما لا مساغ
له بل على أن يراد بها معنى مجازي عام يكون كلا المعنيين فردا حقيقيا له وهو الاعتناء بما
فيه خيرهم وصلاح أمرهم فان كلا من الرحمة والاستغفار فرد حقيقي له والترحم
والانعطاف المعنوي المأخوذ من الصلوة المشتملة على الانعطاف الصوري الذي هو الركوع
والسجود ولا ريب في أن استغفار الملائكة ودعاءهم للمؤمنين ترحم عليهم وأما أن ذلك
سبب للرحمة لكونهم مجابي الدعوة كما قيل فاعتباره ينزع الى الجمع بين المعنيين المتغايرين
فتدبر ليخرجكم من الظلمات الى النور متعلق بيصلي أي يعتني بأموركم هو وملائكته ليخرجكم
بذلك من ظلمات المعصية الى نور الطاعة وقوله تعالى وكان بالمؤمنين رحيما اعتراض
مقرر لمضمون ما قبله أي كان بكافة المؤمنين الذين أنتم من زمرتهم رحيما ولذلك
يفعل بكم ما يفعل من الاعتناء باصلاحكم بالذات وبالواسطة ويهديكم الى الايمان والطاعة
أو كان بكم رحيما على أن المؤمنين مظهر وضع موضع المضمر مدحا لهم واشعارا بعلة
الرحمة وقوله تعالى تحيتهم يوم يلقونه سلام بيان للأحكام الآجلة لرحمته تعالى بهم
بعد بيان آثارها العاجلة التي هي العناية بأمرهم وهدايتهم الى الطاعة أي ما يحيون
به على أنه مصدر أضيف الى مفعوله يوم لقائه عند الموت أو عند البعث من القبور
أو عند دخول الجنة تسليم عليهم من الله عز وجل تعظيما لهم أو من الملائكة بشارة لهم
بالجنة أو تكرمة لهم كما في قوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم
أو اخبار بالسلامة عن كل مكروه وآفة وقوله تعالى وأعد لهم أجرا كريما بيان لآثار رحمته
الفائضة عليهم بعد دخول الجنة عقيب بيان آثار رحمته الواصلة اليهم قبل ذلك و
لعل ايثار الجملة الفعلية على الاسمية المناسبة لما قبلها بأن يقال مثلا وأجرهم أجر كريم
أو ولهم أجر كريم للمبالغة في الترغيب والتشويق الى الموعود ببيان أن الأجر الذي هو المقصد
الأقصى من بين سائر آثار الرحمة موجود بالفعل مهيأ لهم مع ما فيه من مراعاة الفواصل
يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا على من بعثت اليهم تراقب أحوالهم وتشاهد
أعمالهم وتتحمل منهم الشهادة بما صدر عنهم من التصديق والتكذيب وسائر ما هم
عليه من الهدى والضلال وتؤديها يوم القيامة أداء مقبولا فيما لهم وما عليهم و
هو حال مقدرة ومبشرا ونذيرا تبشر المؤمنين بالجنة وتنذر الكفار بالنار وداعيا
الى الله أي الى الاقرار به وبوحدانيته وبسائر ما يجب الايمان به من صفاته وأفعاله باذنه

اي بتيسيره

أي بتيسيره أطلق عليه مجازا لما أنه من أسبابه وقيد به الدعوة ايذانا بأنها أمر صعب المنال
وخطب في غاية الاعضال لا يتأتى الا بامداد من جانب قدسه كيف لا وقد صرف للوجوه
عن القبل المعبودة وادخال للأعناق في قلادة غير معهودة وسراجا منيرا يستضاء به في
ظلمات الجهل والغواية ويهتدى بأنواره الى مناهج الرشد والهداية وبشر المؤمنين عطف
على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل فراقب أحوال الناس وبشر المؤمنين منهم بأن لهم من الله
فضلا كبيرا أي على مؤمني سائر الأمم في الرتبة والشرف أو زيادة على أجور أعمالهم
بطريق التفضل والاحسان ولا تطع الكافرين والمنافقين نهي على مداراتهم في أمر
الدعوة واستعمال لين الجانب في التبليغ والمسامحة في الانذار كنى عن ذلك بالنهي عن طاعتهم
مبالغة في الزجر والتنفير عن المنهي عنه بنظمه في سلكها وتصويره بصورتها ومن حمل
النهي على التهييج والالهاب فقد أبعد عن التحقيق بمراحل ودع أذاهم أي لا تبال
بايذائهم لك بسبب تصلبك في الدعوة والانذار وتوكل على الله في كل ما تأتي وما
تذر من الشؤون التي من جملتها هذا الشأن فانه تعالى يكفيكهم وكفى بالله وكيلا موكولا
اليه الأمور في كل الأحوال واظهار الاسم الجليل في موقع الاضمار لتعليل الحكم وتأكيد
استقلال الاعتراض التذييلي ولما وصف عليه السلام بنعوت خمسة قوبل كل منها
بخطاب يناسبه خلا أنه لم يذكر مقابل الشاهد صريحا وهو الأمر بالمراقبة ثقة بظهور
دلالة مقابل المبشر عليه وهو الأمر بالتبشير حسبما ذكر آنفا وقوبل النذير بالنهي عن مداراة
الكفار والمنافقين والمسامحة في انذارهم كما حققته وقوبل الداعي اليه تعالى باذنه
بالأمر بالتوكل عليه من حيث أنه عبارة عن الاستمداد منه تعالى والاستعانة به وقوبل
السراج المنير بالاكتفاء به تعالى فان من أيده الله تعالى بالقوة القدسية ورشحه للنبوة وجعله
برهانا نيرا يهدي الخلق من ظلمات الغي الى نور الرشاد حقيق بأن يكتفي به عن كل ما سواه
يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن أي
تجامعوهن وقرئ تماسوهن بضم التاء فما لكم عليهن من عدة بأيام يتربصن فيها بأنفسهن
تعتدونها تستوفون عددها من عددت الدراهم فاعتدها وحقيقته عدها لنفسه وكذلك
كلته فاكتاله والاسناد الى الرجال للدلالة على أن العدة حق الأزواج كما أشعر به قوله تعالى فما لكم
وقرئ تعتدونها على ابدال احدى الدالين بالتاء أو على أنه من الاعتداء بمعنى تعتدون
فيها والخلوة الصحيحة في حكم المس وتخصيص المؤمنات مع عموم الحكم للكتابيات للتنبيه
على أن المؤمن من شأنه أن يتخير لنطفته ولا ينكح الا مؤمنة وفائدة ثم ازاحة ما عسى
يتوهم أن تراخي الطلاق ريثما يمكن الاصابة يؤثر في العدة كما يؤثر في النسب فمتعوهن
أي ان لم يكن مفروضا لها في العقد فان الواجب للمفروض لها نصف المفروض دون المتعة فانها
مستحبة عندنا في رواية وفي أخرى غير مستحبة وسرحوهن أي أخرجوهن من منازلكم
اذ ليس لكم عليهن عدة سراحا جميلا من غير ضرار ولا منع حق ولا مساغ لتفسيره
بالطلاق السني لأنه انما يتسنى في المدخول بهن يا أيها النبي انا أحللنا لك أزواجك
اللاتي آتيت أجورهن أي مهورهن فانها أجور الأبضاع وايتاؤها اما اعطاؤها
معجلة أو تسميتها في العقد وأيا ما كان فتقييد الاحلال له عليه السلام لتوقف الحل عليه
ضرورة أنه يصح العقد بلا تسمية ويجب مهر المثل أو المتعة على تقديري الدخول وعدمه
بل لايثار الأفضل والأولى له عليه السلام كتقييد احلال المملوكة بكونها مسبية في قوله
تعالى وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك فان المشتراة لا يتحقق بدء أمرها وما جرى عليها
وكتقييد القرائب بكونهن مهاجرات معه في قوله تعالى وبنات عمك وبنات عماتك و
بنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك ويحتمل تقييد الحل بذلك في حقه عليه
خاصة ويعضده قول أم هانئ بنت أبي طالب خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم
فاعتذرت اليه فعذرني ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحل له لأني لم أهاجر معه كنت من
الطلقاء وامرأة مؤمنة بالنصب عطفا على مفعول أحللنا اذ ليس معنى أحللنا انشاء الاحلال
الناجز بل اعلام مطلق الاحلال المنتظم لما سبق ولحق وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف

اى احللنا ها لك ايضا ان وهبت نفسها للنبى اى ملكته بضعها باى عبارة كانت بلا مهر ان اتفق ذلك كما ينبئ عنه تنكيرها لكن لا مطلقا بل عند ارادته عليه السلام استنكاحها كما نطق به قوله تعالى ان اراد النبى ان يستنكحها اى ان يتملك بضعها كذلك اى بلا مهر فان ذلك جار منه عليه السلام مجرى القبول وحيث لم يكن هذا نصا فى كون تمليكها بلفظ الهبة لم يصلح ان يكون مناطا للخلاف فى انعقاد النكاح بلفظ الهبة ايجابا او سلبا واختلف فى اتفاق هذا العقد فعن ابن عباس رضى الله عنهما لم يكن عنده عليه السلام احد منهن بالهبة وقيل الموهوبات اربع ميمونة بنت الحارث وزينب بنت خزيمة الانصارية وام شريك بنت جابر وخولة بنت حكيم وايراده عم فى الموضعين بعنوان النبوة بطريق الالتفات للتكرمة والايذان بانها المناط لثبوت الحكم فيختص به عم حسب اختصاصها به كما ينطق به قوله تعالى خالصة لك اى خلص لك احلالها خالصة اى خلوصا فان الفاعلة فى المصادر غير عزيز كالعاقبة والكاذبة او خلص احلال ما احللنا لك من المذكورات على القيود المذكورة خالصة ومعنى قوله تعالى من دون المؤمنين على الاول ان الاحلال المذكور فى المادة المعهودة غير متحقق فى حقهم وانما المتحقق هناك الاحلال بمهر المثل وعلى الثانى ان احلال الجميع على القيود المذكورة غير متحقق فى حقهم بل المتحقق فيه احلال البعض المعدود على الوجه المعهود وقرئ خالصة بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف اى ذاك خلوص لك وخصوص او هى اى تلك المرأة او الهبة خالصة لك لا يتجاوز المؤمنين حيث لا تحل لهم بغير المثل ولا تصح الهبة بل يجب مهر المثل وقوله تعالى قد علمنا ما فرضنا عليهم اى على المؤمنين فى ازواجهم اى فى حقهن اعتراض مقرر لما قبله من خلوص الاحلال المذكور برسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم تجاوزه للمؤمنين ببيان انه قد فرض عليهم من شرائط العقد وحقوقه ما لم يفرض عليه عليه السلام تكرمة له وتوسعة عليه اى قد علمنا ما ينبغى ان يفرض عليهم فى حق ازواجهم وما ملكت ايمانهم وعلى اى حد واى صفة يحق ان يفرض عليهم ففرضنا ما فرضنا على ذلك الوجه وخصصناك ببعض الخصايص لكى لا يكون لك حرج اى ضيق واللام متعلقة بخالصة باعتبار ما فيها من معنى ثبوت الاحلال وحصوله له عليه السلام لا باعتبار اختصاصه به عليه السلام لان مدار انتفاء الحرج هو الاول لا الثانى الذى هو عبارة عن عدم ثبوته لغيره وكان الله غفورا لما يعسر التحرز عنه رحيما ولذلك وسع الامر فى مواقع الحرج ترجى من تشاء منهن اى تؤخرها وتترك مضاجعتها وتؤوى اليك من تشاء وتضم اليك من تشاء منهن وتضاجعها او تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء وقرئ ترجئ بالهمزة والمعنى واحد ومن ابتغيت اى طلبت ممن عزلت طلقت بالرجعة فلا جناح عليك فى ذلك وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض لانه اما ان يطلق او يمسك فاذا امسك ضاجع او ترك وقسم او لم يقسم واذا طلق فاما ان يخلى المعزولة او يبتغيها وروى انه ارجأ منهن سودة وجويرية وصفية وميمونة وام حبيبة فكان يقسم لهن ما شاء كما شاء وكانت ممن آوى اليه عايشة وحفصة وام سلمة وزينب ارجى خمسا وآوى اربعا وروى انه كان يسوى بينهن مع ما اطلق له وخير الا سودة فانها وهبت ليلتها لعايشة رضى الله عنها وقالت لا تطلقنى حتى احشر فى زمرة نسائك ذلك اى ما ذكر من تفويض الامر الى مشيتك ادنى ان تقر اعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن اى اقرب الى قرة عيونهن ورضاهن جميعا لانه حكم كلهن فيه سواء ان سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك وان رجحت بعضهن علمن انه بحكم الله فتطمئن به نفوسهن وقرئ تقر بضم التاء ونصب اعينهن وتقر على البناء للمفعول وكلهن تاكيد لنون يرضين وقرئ بالنصب على انه تاكيد لهن والله يعلم ما فى قلوبكم من الضمائر والخواطر فاجتهدوا فى احسانها وكان الله عليما مبالغا فى العلم فيعلم كل ما تبدونه وتخفونه حليما لا يعاجل بالعقوبة فلا تغتروا بتاخيرها فانه امهال لا اهمال لا يحل لك النساء بالياء لان تانيث الجمع غير حقيقى ولوجود الفصل وقرئ بالتاء من بعد اى من بعد التسع وهو فى حقه كالاربع فى حقنا وقال ابن عباس وقتاده من بعد

هؤلاء التسع اللاتى خيرتهن فاخترنك وقيل من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما تؤتيهن من الوصل والهجران ولا ان تبدل اى تتبدل بحذف احدى التائين بهن اى بهؤلاء التسع من ازواج بان تطلق واحدة منها وتنكح مكانها اخرى ومن مزيدة لتاكيد الاستغراق اراد الله تعالى لهن كرامة وجزاء على ما اخترن ورضين فقصر رسوله عليهن وهن التسع اللاتى توفى عليه السلام عنهن وهن عايشة بنت ابى بكر وحفصة بنت عمر وام حبيبة بنت ابى سفيان وسودة بنت زمعة وام سلمة بنت امية وصفية بنت حيى الخيبرية وميمونة بنت الحارث الهلالية وزينب بنت جحش الاسدية وجويرية بنت الحارث المصطلقية وقال المعنى لا يحل لك النساء من بعد الاجناس الاربعة اللاتى احللناهن لك بالصفة التى تقدم ذكرها من الاعرابيات والغرائب او من الكتابيات او من الاماء بالنكاح ويأباه قوله تعالى ولا ان تبدل بهن فان معنى احلال الاجناس المذكورة احلال نكاحهن فلا بد ان يكون معنى التبدل بهن احلال نكاح غيرهن بدل احلال نكاحهن وذلك انما يتصور بالنسخ الذى ليس من الوظايف البشرية ولو اعجبك حسنهن اى حسن الازواج المستبدلة وهو حال من فاعل تتبدل لا من مفعوله وهو من ازواج لتوغله فى التنكير وقيل تقديره مفروضا اعجابك بهن وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى ولامة مؤمنة خير من مشركة ولو اعجبك وقيل هى اسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن ابى طالب رضى الله عنه اى هى ممن اعجبه عليه السلام حسنهن واختلف فى ان الآية محكمة او منسوخة قيل بقوله تعالى ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء وقيل بقوله تعالى انا احللنا لك وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف وقيل بالسنة وعن عايشة رضى الله تعالى عنها ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احل له النساء وقال انس رضى الله عنه مات رسول الله صلى الله عليه وسلم على التحريم الا ما ملكت يمينك استثناء من النساء لانه يتناول الازواج والاماء وقيل منقطع وكان الله على كل شئ رقيبا حافظا مهيمنا فاحذروا مجاوزة حدوده وتخطى حلاله الى حرامه يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى شروع فى بيان ما يجب مراعاته على الناس من حقوق نساء النبى صلى الله عليه وسلم اثر بيان ما يجب مراعاته عليه عليه السلام من الحقوق المتعلقة بهن وقوله تعالى الا ان يؤذن لكم استثناء مفرغ من اعم الاحوال اى لا تدخلوها فى حال من الاحوال الا حال كونكم مأذونا لكم وقيل من اعم الاوقات اى لا تدخلوها فى وقت من الاوقات الا وقت ان يؤذن لكم ورد عليه بان النحاة نصوا على ان الوقوع موقع الظرف مختص بالمصدر الصريح دون المأول لا يقال آتيك ان يصيح الديك وانما يقال آتيك صياح الديك وقوله تعالى الى طعام متعلق بيؤذن بتضمين معنى الدعاء للاشعار بانه لا ينبغى ان يدخلوا على الطعام بغير دعوة وان تحقق الاذن كما يشعر به قوله تعالى غير ناظرين اناه اى غير منتظرين وقته او ادراكه وهو حال من فاعل لا تدخلوا على ان الاستثناء واقع على الوقت والحال معا عند من يجوزه او من المجرور فى لكم وقرئ بالجر صفة لطعام فيكون جاريا على غير من هو له بلا ابراز الضمير ولا مساغ له عند البصريين وقرئ بالامالة لانه مصدر انى الطعام اى ادرك ولكن اذا دعيتم فادخلوا استدراك من النهى عن الدخول بغير اذن وفيه دلالة بينة على ان المراد بالاذن الى الطعام هو الدعوة اليه فاذا طعمتم فانتشروا فتفرقوا ولا تلبثوا لانه خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبى صلى الله عليه وسلم فيدخلون ويقعدون منتظرين لادراكه مخصوصة بهم وبامثالهم والا لما جاز لاحد ان يدخل بيوته عليه السلام باذن لغير الطعام ولا اللبث بعد الطعام ولا مستانسين لحديث اى لحديث بعضكم بعضا او لحديث اهل البيت بالتسمع له عطف على ناظرين او مقدر بفعل اى ولا تدخلوا او لا تمكثوا مستانسين الخ ان ذلكم اى الاستيناس الذى كنتم تفعلونه من قبل كان يؤذى النبى لتضييق المنزل عليه وعلى اهله وايجابه للاشتغال بما لا يعنيه وصده عن الاشتغال بما يعنيه فيستحيى منكم اى من اخراجكم لقوله تعالى والله لا يستحيى من الحق فانه يستدعى ان يكون المستحيى منه

امراً حقاً متعلقاً بهم لا انفسهم وما ذلك الا اخراجهم فينبغي ان لا يترك حياء ولذلك لم يتركه تعالى وامركم بالخروج والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشاكلة وقرئ لا يستحي بحذف الياء الاولى والقاء حركتها الى ما قبلها واذا سألتموهن الضمير لنساء النبي المدلول عليهن بذكر بيوته عليه السلام متاعاً اي شيئاً يتمتع به من الماعون وغيره فاسألوهن اي المتاع من وراء حجاب اي ستر روي ان عمر رضي الله عنه قال يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو امرت امهات المؤمنين بالحجاب فنزلت وقيل انه عليه السلام كان يطعم ومعه بعض اصحابه فاصابت يد رجل منهم يد عائشة رضي الله عنها فكره النبي ذلك فنزلت ذلكم اي ما ذكر من عدم الدخول بغير اذن وعدم الاستيناس للحديث عند الدخول وسؤال المتاع من وراء حجاب اطهر لقلوبكم وقلوبهن اي اكثر تطهيراً من الخواطر الشيطانية وما كان لكم اي ما صح وما استقام لكم ان تؤذوا رسول الله اي ان تفعلوا في حياته فعلا يكرهه ويتأذى به ولا ان تنكحوا ازواجه من بعده ابداً اي من بعد وفاته او فراقه ان ذلكم اشارة الى ما ذكر من ايذائه عليه السلام ونكاح ازواجه من بعده وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته في الشر والفساد كان عند الله عظيماً اي امراً عظيماً وخطباً هائلاً لا يقادر قدره وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله صلى الله عليه وسلم وايجاب حرمته حياً وميتاً ما لا يخفى ولذلك بالغ تعالى في الوعيد حيث قال ان تبدوا شيئاً مما لا خير فيه كنكاحهن على السنتكم او تخفوه في صدوركم فان الله كان بكل شيء عليما فيجازيكم بما صدر عنكم من المعاصي البادية والخافية لا محالة وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل وتشديد ومبالغة في الوعيد لا جناح عليهن في آبائهن ولا ابنائهن ولا اخوانهن ولا ابناء اخوانهن ولا ابناء اخواتهن استيناف لبيان من لا يجب الاحتجاب عنهم روي انه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والابناء والاقارب يا رسول الله او نكلمهم ايضاً من وراء الحجاب فنزلت وانما لم يذكر العم والخال لانهما بمنزلة الوالدين ولذلك سمي العم اباً في قوله تعالى واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق او لانه اكتفى عن ذكرهما بذكر ابناء الاخوة وابناء الاخوات فان مناط عدم لزوم الاحتجاب بينهن وبين الفريقين عين ما بينهن وبين العم والخال من العمومة والخؤلة لما انهن عمات الابناء الاخوة وخالات لابناء الاخوات وقيل لانه كره ترك الاحتجاب منهما مخافة ان يصفاهن لابنائهما ولا نسائهن اي نساء المؤمنات ولا ما ملكت ايمانهن من العبيد والاماء وقيل من الاماء خاصة وقد مر في سورة النور واتقين الله في كل ما تأتين وما تذرن لا سيما فيما امرتن به ونهيتن عنه ان الله كان على كل شيء شهيداً لا يخفى عليه خافية ولا يتفاوت في علمه الاحوال ان الله وملائكته وقرئ وملائكته بالرفع عطفاً على محل ان واسمها عند الكوفيين وحملا على حذف الخبر ثقة بدلالة ما بعده عليه رأي البصريين يصلون على النبي قيل الصلوة من الله تعالى الرحمة ومن الملائكة الاستغفار وقال ابن عباس رضي الله عنهما اراد ان الله يرحمه والملائكة يدعون له وعنه ايضاً يصلون يبركون وقال ابو العالية صلوة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة وصلوتهم ودعاؤهم له فينبغي ان يراد بها في يصلون معنى مجازي عام يكون كل واحد من المعاني المذكورة فرداً حقيقياً له اي يعتنون بما فيه خيره وصلاح امره ويهتمون باظهار شرفه وتعظيم شأنه وذلك من الله سبحانه بالرحمة ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه اعتنوا انتم ايضاً بذلك فانكم اولى به وسلموا تسليما قائلين اللهم صل على محمد وسلم او نحو ذلك وقيل المراد بالتسليم انقياد امره والآية دليل على وجوب الصلوة والسلام عليه مطلقاً من غير تعرض لوجوب التكرار وعدمه قيل يجب ذلك كلما جرى ذكره لقوله صلى الله عليه وسلم رغم انف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي وقوله عليه السلام من ذكرت عنده فلم يصل علي دخل النار فابعده الله ويروى انه عليه السلام قال وكل الله تعالى بي ملكين فلا اذكر عند مسلم فيصلي علي الا قال ذانك الملكان غفر الله لك وقال الله تعالى

وملائكته

وملائكته جواباً لذينك الملكين آمين ولا اذكر عند مسلم فلا يصلي علي الا قال ذانك الملكان لا غفر الله لك ويقول الله تعالى وملائكته جواباً لذينك الملكين آمين ومنهم من قال يجب في كل مجلس مرة وان تكرر ذكره عليه السلام كما في آية السجدة وتشميت العاطس وكذلك في كل دعاء في اوله وآخره ومنهم من قال بالوجوب في العمر مرة وكذا قال في اظهار الشهادتين والذي يقتضيه الاحتياط ويستدعيه معرفة علو شأنه صلى الله عليه وسلم ان يصلي عليه كلما جرى ذكره الرفيع واما الصلوة عليه في الصلوة بان يقال اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد فليست بشرط في جواز الصلوة عندنا وعن ابراهيم النخعي رحمه الله ان الصحابة رضي الله عنهم كانوا يكتفون عن ذلك بما في التشهد وهو السلام عليك ايها النبي واما الشافعي رحمه الله فقد جعلها شرطاً واما الصلوة على غير الانبياء عليهم الصلوة والسلام فتجوز تبعاً ويكره استقلالاً لانه في العرف شعار ذكر الرسل ولذلك كره ان يقال محمد عز وجل مع كونه عزيزاً جليلاً ان الذين يؤذون الله ورسوله اريد بالايذاء اما فعل ما يكرهانه من الكفر والمعاصي مجازاً لاستحالة حقيقة التأذي في حقه تعالى وقيل في ايذائه تعالى هو قول اليهود والنصارى والمشركين يد الله مغلولة وثالث ثلثة والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله والاصنام شركاؤه تعالى عن ذلك علواً كبيراً وقيل قول الذين يلحدون في آياته وفي ايذاء الرسول عليه السلام قولهم شاعر وساحر كاهن مجنون وقيل هو كسر رباعيته وشج وجهه الكريم يوم احد وقيل طعنهم في نكاح صفية والحق هو العموم فيهما واما ايذاؤه عليه السلام خاصة بطريق الحقيقة وذكر الله عز وجل لتعظيمه والايذان بجلالة مقداره عنده تعالى وان ايذاءه عليه السلام ايذاء له سبحانه لعنهم الله طردهم وابعدهم من رحمته في الدنيا والآخرة بحيث لا يكادون ينالون فيهما شيئاً منها واعد لهم مع ذلك عذاباً مهيناً يصيبهم في الآخرة خاصة والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات يفعلون بهم ما يتأذون به من قول او فعل وتقييده بقوله تعالى بغير ما اكتسبوا اي بغير جناية يستحقون بها الاذية بعد اطلاقه فيما قبله للايذان بان اذى الله ورسوله لا يكون الا غير حق واما اذى هؤلاء فمنه ومنه فقد احتملوا بهتاناً واثماً مبيناً اي ظاهراً بيناً قيل انها نزلت في منافقين كانوا يؤذون علياً رضي الله عنه ويسمعونه ما لا خير فيه وقيل في اهل الافك وقال الضحاك والكلبي في زناة يتبعون النساء اذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن وكانوا لا يتعرضون الا للاماء ولكن ربما كان يقع منهم التعرض للحرائر ايضاً جهلا او تجاهلا لاتحاد الكل في الزي واللباس والظاهر عمومه لكل ما ذكر ولما سيأتي من اراجيف المرجفين يا ايها النبي بعد ما بين سوء حال المؤذين زجراً لهم عن الايذاء امر النبي صلى الله عليه وسلم بان يأمر بعض المتأذين منهم بما يدفع ايذاءهم في الجملة من التستر والتميز عن مواقع الايذاء فقيل قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن الجلباب ثوب اوسع من الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على راسها وتبقي منه ما ترسله الى صدرها وقيل هي الملحفة وكل ما يتستر به اي يغطين بها وجوههن وابدانهن اذا برزن لداعية من الدواعي ومن للتبعيض لما مر من ان المعهود التلفع ببعضها وارخاء بعضها وعن السدي تغطي احدى عينيها وجبهتها والشق الآخر الا العين ذلك اي ما ذكر من التغطي ادنى اقرب ان يعرفن ويميزن عن الاماء والقينات اللاتي هن مواقع تعرضهم وايذائهم فلا يؤذين من جهة اهل الريبة بالتعرض لهن وكان الله غفوراً لما سلف منهن من التفريط رحيماً بعباده حيث يراعي من مصالحهم امثال هاتيك الجزئيات لئن لم ينته المنافقون عما هم عليه من النفاق واحكامها الموجبة للايذاء والذين في قلوبهم مرض عما هم عليه من التزلزل وما يستتبعه مما لا خير فيه والمرجفون في المدينة من الفريقين عما هم عليه من نشر اخبار السوء عن سرايا المسلمين وغير ذلك من الاراجيف الملفقة المستتبعة للاذية واصل الارجاف التحريك من الرجفة التي هي الزلزلة وصفت به الاخبار الكاذبة

لكونها منزلة غير ثابتة لنغرينك بهم لنأمرنك بقتالهم واجلائهم او بما يضطرهم الى الجلاء
وتحرضنك على ذلك ثم لا يجاورونك عطف على جواب القسم وثم للدلالة على ان
الجلاء ومفارقة جوار الرسول عليه السلام اعظم ما يصيبهم فيها اى فى المدينة الا
قليلا زمانا او جوارا قليلا ريثما يتبين حالهم من الانتهاء وعدمه ملعونين نصب
على الشتم او الحال على ان الاستثناء وارد عليه ايضا على راى من يجوزه كما مر فى قوله
تعالى غير ناظرين اناه ولا سبيل الى انتصابه عن قوله تعالى اينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلا
لان ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها سنة الله فى الذين خلوا من قبل اى سن الله ذلك فى
الامم الماضية سنة وهى ان يقتل الذين نافقوا الانبياء عليهم السلام وسعوا فى توهين امرهم
بالارجاف ونحوه اينما ثقفوا ولن تجد لسنة الله تبديلا اصلا لابتنائها على اساس الحكمة
التى عليها يدور فلك التشريع يسألك الناس عن الساعة اى عن وقت قيامها كان المشركون
يسألونه عليه السلام عن ذلك استعجالا بطريق الاستهزاء واليهود امتحانا لما ان الله تعالى
عمى وقتها فى التوراة وسائر الكتب قل انما علمها عند الله لا يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا
مرسلا وقوله تعالى وما يدريك خطاب مستقل له عليه السلام غير داخل تحت الامر مسوق
لبيان انها مع كونها غير معلومة للخلق مرجوة المجئ عن قريب اى اى شئ يعلمك بوقت
قيامها اى لا يعلمك به شئ اصلا لعل الساعة تكون قريبا اى شيئا قريبا او تكون الساعة فى
وقت قريب وانتصابه على الظرفية ويجوز ان يكون التذكير باعتبار ان الساعة فى معنى اليوم
او الوقت وفيه تهديد للمستعجلين وتبكيت للمتعنتين والاظهار فى حيز الاضمار للتهويل
وزيادة التقرير وتأكيد استقلال الجملة كما اشير اليه ان الله لعن الكافرين على الاطلاق
اى طردهم وابعدهم من رحمته العاجلة والآجلة واعد لهم مع ذلك سعيرا نارا شديدة
الاتقاد يقاسون لهبها فى الآخرة خالدين فيها ابدا لا يجدون وليا يحفظهم ولا نصيرا
يخلصهم منها يوم تقلب وجوههم فى النار ظرف لعدم الوجدان وقيل لخالدين
وقيل لنصيرا وقيل مفعولا لاذكر اى يوم تصرف وجوههم فيها من جهة الى جهة
كاللحم يشوى فى النار او يطبخ فى القدر فيدور به الغليان من جهة الى جهة
او من حال الى حال او يطرحون فيها مقلوبين منكوسين وقرئ تقلب بحذف احدى التائين
من تتقلب ونقلب باسناد الفعل الى نون العظمة ونصب وجوههم وتقلب باسناده
الى السعير وتخصيص الوجوه بالذكر لما انها اكرم الاعضاء ففيه مزيد تفظيع للامر و
تهويل للخطب ويجوز ان يكون عبارة عن كل الجسد فقوله تعالى يقولون استئناف مبنى
على سؤال نشأ من حكاية حالهم الفظيعة كانه قيل فماذا يصنعون عند ذلك فقيل يقولون
متحسرين على ما فاتهم يا ليتنا اطعنا الله واطعنا الرسولا فلا نبتلى بهذا العذاب او حال
من ضمير وجوههم او من نفسها او هو العامل فى يوم وقالوا عطف على يقولون و
العدول الى صيغة الماضى للاشعار بان قولهم هذا ليس مستمرا كقولهم السابق بل هو
ضرب اعتذار ارادوا به ضربا من التشفى بمضاعفة عذاب الذين القوهم فى تلك
الورطة وان علموا عدم قبوله فى حق خلاصهم منها ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا
يعنون قادتهم الذين لقنوهم الكفر وقرئ ساداتنا للدلالة على الكثرة والتعبير عنهم
بعنوان السيادة والكبر لتقوية الاعتذار والا فهم فى مقام التحقير والاهانة فاضلونا
السبيلا بما زينوا لنا الاباطيل والالف للاطلاق كما فى اطعنا الرسولا ربنا آتهم ضعفين
من العذاب اى مثلى العذاب الذى آتيتناه لانهم ضلوا واضلوا والعنهم لعنا كبيرا اى
شديدا عظيما وقرئ كثيرا وتصدير الدعاء بالنداء مكررا للمبالغة فى الجؤار واستدعاء
الاجابة يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى قيل نزلت فى شان زيد
وزينب وما سمع فيه من قالة فبرأه الله مما قالوا اى فاظهر براءته عليه السلام
مما قالوا فى حقه اى من مضمونه ومؤداه الذى هو الامر المعيب وذلك ان قارون
اغرى مومسة على قذفه عليه السلام بنفسها بان دفع اليها مالا عظيما فاظهر الله تعالى
نزاهته عليه السلام عن ذلك بان اقرت المومسة بالمصانعة الجارية بينها وبين قارون

وفعل

وفعل بقارون ما فصل فى سورة القصص وقيل اتهمه ناس بقتل هارون عند خروجه معه
الى الطور فمات هناك فحملته الملائكة ومروا به حتى راوه غير مقتول وقيل احياه الله
تعالى فاخبرهم ببراءته وقيل قرفوه بعيب فى بدنه من برص او ادرة لفرط تستره
حياء فاطلعهم الله تعالى على براءته بان فر الحجر بثوبه حين وضعه عليه عند اغتساله والقصة
مشهورة وكان عند الله وجيها ذا قربة ووجاهة وقرئ وكان عبد الله وجيها
يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله اى فى كل ما تأتون وما تذرون لا سيما فى ارتكاب ما
يكرهه فضلا عما يؤذى رسوله عليه السلام وقولوا فى كل شان من الشؤون قولا
سديدا قاصدا الى الحق من سد يسد سدادا يقال سدد السهم نحو الرمية اذا لم
يعدل به عن سمتها والمراد نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب الجائر عن العدول
والقصد يصلح لكم اعمالكم يوفقكم للعمل ومن يطع الله ورسوله فى الاوامر
والنواهى التى من جملتها هذه التكليفات فقد فاز فى الدارين فوزا عظيما لا يقادر
قدره ولا يبلغ غايته انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين ان
يحملنها واشفقن منها لما بين عظم شان طاعة الله ورسوله ببيان مآل الخارجين
عنها من العذاب الاليم ومنال المراعين لها من الفوز العظيم عقب ذلك ببيان ما
يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة امرها بطريق التمثيل مع الايذان بان ما صدر
عنهم من الطاعة وتركها صدر عنهم بعد القبول والالتزام وعبر عنها بالامانة تنبيها
على انها حقوق مرعية اودعها الله تعالى المكلفين وائتمنهم عليها واوجب عليها واوجب
عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد وامرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وادائها من غير اخلال
بشئ من حقوقها وعبر عن اعتبارها بالنسبة الى استعداد ما ذكر من السموات وغيرها بالعرض
عليهن لاظهار مزيد الاعتناء بامرها والرغبة فى قبولهن لها وعن عدم استعدادهن لقبولها
بالاباء والاشفاق منها لتهويل امرها وتربية فخامتها وعن قبوله لها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة
المعتبرة فيها بجعلها من قبيل الاجسام الثقيلة التى يستعمل فيها القوى الجسمانية التى
اشدها واعظمها ما فيهن من القوة والشدة والمعنى ان تلك الامانة فى عظم الشان
بحيث لو كلفت هاتيك الاجرام العظام التى هى مثل فى القوة والشدة مراعاتها وكانت
ذات شعور وادراك لابين قبولها واشفقن منها ولكن صرف الكلام عن سننه بتصوير
المفروض بصورة المحقق روما لزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضيحه وحملها
الانسان اى عند عرضها عليه اما باعتبارها بالاضافة الى استعداده او بتكليفه اياها
يوم الميثاق اى تكلفها والتزمها مع ما فيها من ضعف البنية ورخاوة القوة وهو
اما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطرى او عن اعترافه بقوله بلى وقوله تعالى
انه كان ظلوما جهولا اعتراض وسط بين الحمل وغايته للايذان من اول الامر بعدم
وفائه بما عهده وتحمله اى انه كان مفرطا فى الظلم مبالغا فى الجهل اى بحسب غالب
افراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة او اعترافهم السابق دون من عداهم
من الذين لم يبدلوا فطرة الله تبديلا والى الفريق الاول اشير بقوله عز وجل ليعذب الله
المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات اى حملها الانسان ليعذب الله بعض
افراده الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة على ان اللام للعاقبة فان التعذيب
وان لم يكن غرضا من الحمل لكن ترتبه عليه بالنسبة الى بعض افراده ترتب الاغراض
على الافعال المعللة بها ابرز فى معرض الغرض اى كان عاقبة حمل الانسان لها ان
يعذب الله هؤلاء من افراده لخيانتهم الامانة وخروجهم عن الطاعة بالكلية
والى الفريق الثانى اشير بقوله ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات اى كان عاقبة حمله
لها ان يتوب الله تعالى على هؤلاء من افراده اى يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربقة الطاعة
عن رقابهم بالمرة وتلافيهم لما فرط منهم من فرطات قلما يخلو عنها الانسان بحكم
جبلته وتداركهم لها بالتوبة والانابة والالتفات الى الاسم الجليل اولا لتهويل
الخطب وتربية المهابة والاظهار فى موقع الاضمار ثانيا لابراز مزيد الاعتناء بامر المؤمنين

اخلال

توفية لكل من مقامي الوعيد والوعد حقه والله تعالى اعلم وجعل الامانة التي شانها ان يكون من جهته تعالى عبارة عن الطاعة التي هي من افعال المكلفين التابعة للتكليف بمعزل من التقريب وحمل الكلام على تقرير الوعد الكريم الذي ينبئ عنه قوله تعالى ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما بجعل تعظيم شان الطاعة ذريعة الى ذلك بان من قام بحقوق مثل هذا الامر العظيم الشان وراعاها فهو جدير بان يفوز بخير الدارين يأباه وصفه بالظلم والجهل اولا وتعليل الحمل بتعذيب فريق والتوبة على فريق ثانيا وقيل المراد بالامانة مطلق الانقياد الشامل للطبيعي والاختياري وبعرضها استدعاؤها الذي يعم طلب الفعل من المختار وارادة صدوره من غيره وبحملها الخيانة فيها والامتناع عن ادائها فيكون الاباء امتناعا عن الخيانة واتيانا بالمراد فالمعنى ان هذه الاجرام مع عظمها وقوتها ابين الخيانة لامانتنا وابين بما امرناهن به كقوله تعالى اتينا طائعين وخانها الانسان حيث لم يأت بما امرناه به انه كان ظلوما جهولا وقيل انه تعالى لما خلق هذه الاجرام خلق فيها فهما وقال لها اني فرضت فريضة وخلقت جنة لمن اطاعني فيها ونارا لمن عصاني فقلن نحن مسخرات لما خلقتنا لا نحتمل فريضة ولا نبغي ثوابا ولا عقابا ولما خلق آدم عليه السلام عرض عليه مثل ذلك فحمله وكان ظلوما لنفسه بتحمله ما يشق عليها بوخامة عاقبته وقيل المراد بالامانة العقل والتكليف وبعرضها عليهن اعتبارها بالاضافة الى استعدادهن وباباؤهن الاباء الطبيعي الذي هو عدم اللياقة والاستعداد لها وبحمل الانسان قابليته واستعداده لها وكونه ظلوما جهولا لما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية وهذا قريب من التحقيق فتامل والله الموفق وقرئ ويتوب الله على الاستئناف وكان الله غفورا رحيما مبالغا في الرحمة والمغفرة حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم واثاب بالفوز على طاعتهم قال صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الاحزاب وعلمها اهله وما ملكت يمينه اعطي الامان من عذاب القبر

سورة سبأ مكية وهي اربع وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الارض اي له تعالى خلقا وملكا وتصرفا بالايجاد والاعدام والاحياء والاماتة جميع ما وجد فيهما داخلا في حقيقتهما او خارجا عنهما متمكنا فيهما فكانه قيل له جميع المخلوقات كما مر في آية الكرسي ووصفه تعالى بذلك لتقرير ما افاده تعليق الحمد المعرف بلام الحقيقة بالاسم الجليل من اختصاص جميع افراده به تعالى على ما بين في فاتحة الفاتحة ببيان تفرده تعالى واستقلاله بما يوجب ذلك وكون كل ما سواه من الموجودات التي من جملتها الانسان تحت ملكوته تعالى ليس لها في حد ذاتها استحقاق الوجود فضلا عما عداه من صفاتها بل كل ذلك نعم فائضة عليها من جهته عز وجل فما هذا شانه فهو بمعزل من استحقاق الحمد الذي مداره الجميل الصادر عن القادر بالاختيار فظهر اختصاص جميع افراده به تعالى وقوله تعالى وله الحمد في الآخرة بيان لاختصاص الحمد الاخروي به تعالى اثر بيان اختصاص الدنيوي به على ان الجار متعلق اما بنفس الحمد او بما تعلق به الخبر من الاستقرار واطلاقه عن ذكر ما يشعر بالمحمود عليه ليس للاكتفاء بذكر كونه في الآخرة عن التعيين كما اكتفي فيما سبق بذكر كون المحمود عليه في الدنيا عن ذكر كون الحمد ايضا فيها بل ليعم النعم الاخروية كما في قوله تعالى الحمد لله الذي صدقنا وعده واورثنا الجنة وقوله تعالى الذي احلنا دار المقامة من فضله الآية وما يكون ذريعة الى نيلها من النعم الدنيوية كما في قوله تعالى الحمد لله الذي هدانا لهذا اي لما جزاؤه هذا من الايمان والعمل الصالح والفرق بين الحمدين مع كون نعمتي الدنيا والآخرة بطريق التفضل ان الاول على نهج العبادة والثاني على وجه التلذذ والاغتباط وقد ورد في الخبر انهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس وهو الحكيم الذي احكم امور الدين والدنيا ودبرها حسبما تقتضيه الحكمة الخبير ببواطن الاشياء ومكنوناتها وقوله تعالى يعلم ما يلج في الارض الخ تفصيل لبعض ما يحيط به علمه من الامور التي نيطت بها مصالحهم الدينية والدنيوية اي يعلم ما يدخل فيها من الغيث والكنوز والدفائن

والاموات ونحوها وما يخرج منها كالحيوان والنبات وماء العيون ونحوها وما ينزل من السماء كالملائكة والكتب والمقادير ونحوها وقرئ وما ننزل بالتشديد وبنون العظمة وما يعرج فيها كالملائكة واعمال العباد والابخرة والادخنة وهو الرحيم للحامدين على ما ذكر من نعمه الغفور للمفرطين في ذلك بلطفه وكرمه وقال الذين كفروا لا تاتينا الساعة ارادوا بضمير المتكلم جنس البشر قاطبة لا انفسهم او معاصريهم فقط كما ارادوا بنفي اتيانها نفي وجودها بالكلية لا عدم حضورها مع تحققها في نفس الامر وانما عبروا عنه بذلك لانهم كانوا يوعدون باتيانها ولان وجود الامور الزمانية المستقبلة لا سيما اجزاء الزمان لا يكون الا بالاتيان والحضور وقيل هو استبطاء لاتيانها الموعود بطريق الهزؤ والسخرية كقولهم متى هذا الوعد قل بلى رد لكلامهم واثبات لما نفوه على معنى ليس الامر الا اتيانها وقوله تعالى وربي لتاتينكم تاكيد له على اتم الوجوه واكملها وقرئ ليأتينكم على تاويل الساعة باليوم او الوقت وقوله تعالى عالم الغيب الخ امداد للتاكيد وتشديد له اثر تشديد وكسر لسورة نكيرهم واستبعادهم فان تعقيب القسم بجلائل نعوت المقسم به على الاطلاق يؤذن بفخامة شان المقسم عليه وقوة ثباته وصحته لما ان ذلك في حكم الاستشهاد على الامر ولا ريب في ان المستشهد به كلما كان اجل واعلى كانت الشهادة آكد واقوى والمستشهد عليه احق بالثبوت واولى لا سيما اذا خص بالذكر من النعوت ما له تعلق خاص بالمقسم عليه كما نحن فيه فان وصفه بعلم الغيب الذي اشهر افراده وادخلها في الخفاء هو المقسم عليه تنبيه على علة الحكم وكونه مما لا يحوم حوله شائبة ريب ما وفائدة الامر بهذه المرتبة من اليمين ان لا يبقى للمعاندين عذر ما اصلا فانهم كانوا يعرفون امانته ونزاهته عن وصمة الكذب فضلا عن اليمين الفاجرة وانما لم يصدقوا مكابرة وقرئ علام الغيوب وعالم الغيوب بالرفع على المدح لا يعزب عنه اي لا يبعد وقرئ بكسر الزاء مثقال ذرة مقدار اصغر نملة في السموات ولا في الارض اي كائنة فيهما ولا اصغر من ذلك اي من مثقال ذرة ولا اكبر اي منه ورفعهما على الابتداء والخبر قوله تعالى الا في كتاب مبين هو اللوح المحفوظ والجملة مؤكدة لنفي العزوب وقرئ ولا اصغر ولا اكبر بفتح الراء على نفي الجنس ولا يجوز ان يعطف المرفوع على مثقال ولا المفتوح على ذرة بانه فتح في حيز الجر لامتناع الصرف لما ان الاستثناء يمنعه اللهم الا ان يجعل الضمير في عنه للغيب ويجعل المثبت في اللوح خارجا عنه لبروزه للمطالعين له فيكون المعنى لا ينفصل عن الغيب شيء الا مسطورا في اللوح ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات علة لقوله تعالى لتاتينكم وبيان لما يقتضي اتيانها اولئك اشارة الى الموصول من حيث اتصافه بما في حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم في الفضل والشرف اي اولئك الموصوفون بالصفات الجليلة لهم بسبب ذلك مغفرة لما فرط منهم من بعض فرطات قلما يخلو عنه البشر ورزق كريم لا تعب فيه ولا من عليه والذين سعوا في آياتنا بالقدح فيها وصد الناس عن التصديق بها معاجزين اي مسابقين كي يفوتونا وقرئ معجزين اي مثبطين عن الايمان من اراده اولئك لهم عذاب الكلام فيه كالذي مر آنفا ومن في قوله تعالى من رجز للبيان قال قتادة رحمه الله الرجز سوء العذاب وقوله تعالى اليم بالرفع صفة عذاب اي اولئك الساعون لهم عذاب من جنس سوء العذاب شديد الايلام وقرئ اليم بالجر صفة لرجز ويرى الذين اوتوا العلم اي يعلم اولوا العلم من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن شايعهم من علماء الامة او من آمن من علماء اهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب واضرابهما رضي الله تعالى عنهم الذي انزل اليك من ربك اي القرآن هو الحق بالنصب على انه مفعول ثان ليرى والمفعول الاول هو الموصول الثاني وهو ضمير الفصل وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر والجملة هي المفعول الثاني ليرى وقوله تعالى ويرى الخ مستانف مسوق للاستشهاد باولي العلم على الجهلة الساعين في الآيات وقيل منصوب عطفا على يجزي اي وليعلم اولوا العلم عند مجيء الساعة معاينة انه الحق حسبما علموه الآن برهانا ويحتجوا به على المكذبين وقد جوز ان يراد

ولا في الارض

باولی العلم من لم يؤمن من الاحبار ای ليعلموا يومئذ انه هو الحق فيزدادوا حسرة وغما و
يهدى عطف على الحق عطف الفعل على الاسم لانه فی تاويله كما فی قوله صافات ويقبضن
ای وقابضات كانه قيل ويرى الذين اوتوا العلم الذی انزل اليك الحق وهاديا الى صراط العزيز
الحميد الذی هو التوحيد والتدرع بلباس التقوى وقيل مستانف وقيل حال من الذی
انزل على اضمار مبتدا ای وهو يهدى كما فی قول من قال نجوت واذ هنهم مالكا وقال
الذين كفروا هم كفار قريش قالوا مخاطبا بعضهم لبعض هل ندلكم على رجل يعنون
به النبی صلى الله عليه وسلم وانما قصدوا بالتنكير الطنز والسخرية قاتلهم الله تعالى
ينبئكم ای يحدثكم بعجب عجاب وقرئ ينبئكم من الانباء اذا مزقتم كل ممزق
ای اذا متم ومزقت اجسادكم كل تمزيق وفرقت كل تفريق بحيث صرتم ترابا ورفاتا
انكم لفی خلق جديد ای مستقرون فيه عدل اليه عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث
مثل تبعثون او تخلقون خلقا جديدا للاشباع فی الاستبعاد والتعجيب وكذلك تقديم
الظرف والعامل فيه ما دل عليه المذكور لا نفسه لما ان ما بعد ان لا يعمل فيما قبلها وجديد
بمعنى فاعل من جد فهو جديد وقل فهو قليل وقيل بمعنى مفعول من جد النساج الثوب
او قطعه ثم شاع افترى على الله كذبا فيما قاله ام به جنة ای جنون يوهمه ذلك
ويلقيه على لسانه واستدلال بهذا الترديد على ان بين الكذب والصدق واسطة هو ما
لا يكون من الاخبار عن بصيرة بين الفساد لظهور كون الافتراء اخص من الكذب بل
الذين لا يؤمنون بالآخرة فی العذاب والضلال البعيد جواب من جهة الله تعالى عن ترديدهم
الوارد على طريقة الاستفهام بالاضراب عن شقيه وابطالهما واثبات قسم ثالث كاشف
حقيقة الحال ناع عليهم سوء حالهم وابتلاهم بما قالوا فی حقه عليه السلام كانه
قيل ليس الامر كما زعموا بل هم فی كمال اختلال العقل وغاية الضلال عن الفهم والادراك
الذی هو الجنون حقيقة وفيما يؤدی اليه ذلك من العذاب ولذلك يقولون ما يقولون
وتقديم العذاب على ما يوجبه ويستتبعه للمسارعة الى بيان ما يسوءهم ويفت فی اعضادهم
والاشعار بغاية سرعة ترتبه عليه كانه يسابقه فيسبقه ووصف الضلال بالبعد الذی هو
وصف الضال للمبالغة ووضع الموصول موضع ضميرهم للتنبيه على ان علة ما ارتكبوه
واجترؤا عليه من الشناعة الفظيعة كفرهم بالآخرة وما فيها من فنون العقاب ولولاه
لما فعلوا ذلك خوفا من غائلته وقوله تعالى افلم يروا الى ما بين ايديهم وما خلفهم
من السماء والارض استيناف مسوق لتهويل ما اجترؤا عليه من تكذيب آيات الله تعالى واستعظام
ما قالوا فی حقه عليه السلام وانه من العظائم الموجبة لنزول اشد العقاب وحلول افظع
العذاب من غير ريث وتأخير والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى ان
نشأ الخ بيان لما ينبئ عنه ذكر احاطتهما بهم من المحذور المتوقع من جهتهما وفيه تنبيه على
انه لم يبق من اسباب وقوعه الا تعلق المشيئة به ای افعلوا ما فعلوا من المنكر الهائل المستتبع
للعقوبة فلم ينظروا الى ما احاط بهم من جميع جوانبهم بحيث لا مفر لهم عنه ولا محيص
ان نشأ جريا على موجب جناياتهم نخسف بهم الارض كما خسفنا بقارون او نسقط
عليهم كسفا ای قطعا من السماء كما اسقطناها على اصحاب الايكة لاستيجابهم ذلك بما
ارتكبوا من الجرائم وهو تذكير بما يعاينون مما يدل على كمال قدرته وما يحتمل فيه ازاحة
لاستحالتهم البعث حتى جعلوه افتراء وهزؤا وتهديد عليها والمعنى اعموا فلم ينظروا الى ما احاط
بجوانبهم من السماء والارض ولم يتفكروا اهم اشد خلقا ام هی وان نشأ نخسف بهم الارض او
نسقط عليهم كسفا لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات فتأمل وكن على الحق المبين وقرئ
يخسف ويسقط بالياء لقوله تعالى افترى على الله وكسفا بسكون السين ان فی ذلك ای فيما ذكر
من السماء والارض من حيث احاطتهما بالناظر من جميع الجوانب او فيما تلی من الوحی الناطق بما
ذكر لآية واضحة لكل عبد منيب شأنه الانابة الى ربه فانه اذا تأمل فيهما او فی الوحی
المذكور ينزجر عن تعاطی القبائح وينيب اليه تعالى وفيه حث بليغ على التوبة والانابة وقد اكد ذلك
بقوله تعالى ولقد آتينا داود منا فضلا ای آتيناه لحسن انابته وصحة توبته فضلا على سائر

الانبياء عليهم السلام ای نوعا من الفضل وهو ما ذكر بعد فانه معجزة خاصة به عليه السلام
او على سائر الناس فيندرج فيه النبوة والكتاب والملك والصوت الحسن فتنكيره للتفخيم ومنا
لتاكيد فخامته الذاتية بفخامته الاضافية كما فی قوله تعالى وآتيناه من لدنا علما وتقديمه على
المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا اخر تبقى النفس
مترقبة له فاذا ورد لها يتمكن عندها فضل تمكن يا جبال اوبی معه من التأويب ای
رجعی معه التسبيح او النوحة على الذنب وذلك اما بان يخلق الله تعالى فيها صوتا مثل
صوته كما خلق الكلام فی الشجرة او بان يتمثل له ذلك وقرئ اوبی من الاوب ای ارجعی
معه فی التسبيح كلما رجع فيه وكان كلما سبح عليه السلام يسمع من الجبال ما يسمع من المسبح
معجزة له عم وقيل كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين وكانت الجبال تسعده على نوحه
باصدائها والطير باصواتها وهو بدل من آتيناه باضمار قلنا او من فضلا باضمار قولنا
والطير بالنصب عطفا على فضلا بمعنى وسخرنا له الطير لان ايتاءها اياه عليه السلام تسخيرها
له فلا حاجة الى اضماره كما نقل عن الكسائی ولا الى تقدير مضاف ای تسبيح الطير كما نقل عنه
فی رواية وقيل عطفا على محل الجبال وفيه من التكلف لفظا ومعنى ما لا يخفى وقرئ بالرفع
عطفا على لفظها تشبيها للحركة البنائية العارضة بالحركة الاعرابية وقد جوز انتصابه على انه
مفعول معه والاول هو الوجه وفی تنزيل الجبال والطير منزلة العقلاء المطيعين لامره تعالى المذعنين
لحكمه المشعر بانه ما من حيوان وجماد وصامت وناطق الا وهو منقاد لمشيته غير ممتنع على
ارادته من الفخامة المعربة عن غاية عظمة شانه تعالى وكمال كبرياء سلطانه ما لا يخفى
على اولی الالباب والنا له الحديد ای جعلناه لينا فی نفسه كالشمع يصرفه فی يده كيف يشاء
من غير احماء بنار ولا ضرب بمطرقة او جعلناه بالنسبة الى قوته التی آتيناها اياه لينا كالشمع
بالنسبة الى سائر القوى البشرية ان اعمل امرناه ان اعمل على ان ان مصدرية حذف عنها
الباء وفی حملها على المفسرة تكلف لا يخفى سابغات واسعات وقرئ صابغات وهی الدروع
الواسعة الصافية وهو عم اول من اتخذها وكانت قبل صفائح قالوا كان عليه السلام حين ملك
على بنی اسرائيل يخرج متنكرا فيسأل الناس ما تقولون فی داود فيثنون عليه فقيض الله تعالى
ملكا فی صورة آدمی فسأله على عادته فقال نعم الرجل لولا خصلة فيه فريع داود فسأله عنها
فقال لولا انه يطعم عياله من بيت المال فعند ذلك سأل ربه ان يسبب له ما يستغنی به عن بيت
المال فعلمه تعالى صنعة الدروع وقيل كان يبيع الدرع باربعة الاف فينفق منها على نفسه
وعياله ويتصدق على الفقراء وقدر فی السرد السرد نسج الدروع ای اقتصد فی نسجها
بحيث تتناسب حلقها وقيل قدر مساميرها فلا تعملها دقاقا ولا غلاظا ورد بان دروعه
عم لم تكن مسمرة كما ينبئ عنه الانة الحديد وقيل معنى قدر فی السرد لا تصرف جميع اوقاتك
اليه بل مقدار ما يحصل به القوت واما الباقی فاصرفه الى العبادة وهو الانسب بقوله تعالى
واعملوا صالحا عمم الخطاب حسب عموم التكليف له عليه السلام ولاهله انی بما تعملون
بصير تعليل للامر او لوجوب الامتثال به ولسليمان الريح ای وسخرنا له الريح وقرئ برفع
الريح ای ولسليمان الريح مسخرة وقرئ الرياح غدوها شهر ورواحها شهر ای جريها
بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشی كذلك والجملة اما مستانفة او حال من الريح وقرئ
غدوتها وروحتها وعن الحسن رحمه الله كان يغدو ای من دمشق فيقيل باصطخر ثم يروح فيكون
رواحه بكابل وقيل كان يتغدى بالری ويتعشى بسمرقند ويحكى ان بعضهم رأى مكتوبا فی منزل بناحية
دجلة كتبه بعض اصحاب سليمان عم نحن نزلناه وما بنيناه ومبنيا وجدناه غدونا
من اصطخر فقلناه ونحن رائحون منه فبائتون بالشام ان شاء الله واسلنا له عين القطر
ای النحاس المذاب اساله من معدنه كما الان الحديد لداود عليهما السلام فنبع منه نبوع الماء
من الينبوع ولذلك سمی عينا وكان ذلك باليمن وقيل كان يسيل فی الشهر ثلاثة ايام وقوله
تعالى ومن الجن من يعمل بين يديه اما جملة من مبتدأ وخبر او من يعمل عطف على الريح
ومن الجن حال متقدمة باذن ربه بامره تعالى كما ينبئ عنه قوله تعالى ومن يزغ منهم عن امرنا
ای ومن يعدل منهم عما امرنا به من طاعة سليمان وقرئ يزغ على البناء للمفعول من ازاغه

نذقه من عذاب السعير اى عذاب النار فى الاخرة روى عن السدى رحمه الله كان معه
ملك بيده سوط من نار كلما استعصى عليه ضربه من حيث لايراه الجن يعملون له ما يشاء
تفصيل لما ذكر من عملهم وقوله تعالى من محاريب الخ بيان لما يشاء اى من قصور حصينة
ومساكن شريفة سميت بذلك لانها يذب عنها ويحارب عليها وقيل هى المساجد وتماثيل
وصور الملئكة والانبياء عليهم السلام على ما اعتادوه فانها كانت تعمل حينئذ فى المساجد ليراها
الناس ويعبدوا عباداتهم وحرمة التصاوير شرع جديد وروى انهم عملوا اسدين فى اسفل
كرسيه ونسرين فوقه فاذا اراد ان يصعد بسط الاسدان ذراعيهما واذا قعد اظله النسران
باجنحتهما وجفان جمع جفنة وهى الصحفة كالجواب كالحياض الكبار جمع جابية من
الجباية لاجتماع الماء فيها وهى من الصفات الغالبة كالدابة وقرئ باثبات الياء قيل كان
يقعد على الجفنة الف رجل وقدور راسيات ثابتات على الاثافى لاتنزل عنها لعظمها اعملوا
آل داود شكرا حكاية لما قيل لهم وشكرا نصب على انه مفعول له او مصدر لاعملوا لان العمل
للمنعم شكر له او لفعله المحذوف اى اشكروا شكرا او حال اى شاكرين او مفعول به اى اعملوا
شكرا وقليل من عبادى الشكور اى المتوفر على اداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه اكثر
اوقاته ومع ذلك لا يوفى حقه لان التوفيق للشكر نعمة تستدعى شكرا آخر لا الى نهاية و
لذلك قيل الشكور من يرى عجزه عن الشكر وروى انه جزء ساعات الليل والنهار على اهله
فلا تكن تاتى ساعة من الساعات الا وانسان من آل داود قائم يصلى فلما قضينا عليه الموت
اى على سليمان عليه السلام ما دلهم اى الجن او آله على موته الا دابة الارض اى الارضة
اضيفت الى فعلها وقرئ بفتح الراء وهو تأثر الخشبة من فعلها يقال ارضت الارضة الخشبة
ارضا فارضت ارضا مثل اكلت القوادح اسنانه اكلا فاكلت اكلا تاكل منسأته اى
عصاه من نسأت البعير اذا طردته لانه يطرد بها ما يطرد وقرئ منساته بالف ساكنة بدلا من
الهمزة وبهمزة ساكنة وباخراجها بين بين عند الوقف ومنساءته على مفعالة كميضاة فى ميضأة
ومن ساته اى من طرف عصاه من ساة القوس وفيه لغتان كما فى قحة بالكسر والفتح وقرئ
اكلت منساته فلما خر تبينت الجن من تبينت الشئ اذا علمته بعد التباسه عليك اى علمت
الجن علما بينا بعد التباس الامر عليهم ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين
اى انهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا موته عليه السلام حينما وقع فلم يلبثوا
بعده حولا فى تسخيره الى ان خر او من تبين الشئ اذا ظهر وتجلى اى ظهرت الجن وان مع ما فى حيزها
بدل اشتمال من الجن اى ان الجن لو كانوا يعلمون الغيب الخ وقرئ تبينت الجن على البناء
للمفعول على ان المتبين فى الحقيقة هو ان مع ما فى صلتها لانه بدل وقرئ تبينت له الانس
والضمير فى كانوا للجن فى قوله تعالى ومن الجن من يعمل وفى قراءة ابن مسعود رضى تبينت الانس ان الجن
لو كانوا يعلمون الغيب روى ان داود اسس بنيان بيت المقدس فى موضع فسطاط موسى
فتوفى قبل تمامه فوصى به الى سليمان عليهما السلام فاستعمل فيه الجن والشياطين فباشروه
حتى اذا حان اجله وعلم به سأل ربه ان يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه ولتبطل دعواهم
علم الغيب فدعاهم فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب فقام يصلى متكئا على عصاه
فقبض روحه وهو متكئ عليها فبقى كذلك وهم فيما امروا به من الاعمال حتى اكلت الارضة
عصاه فخر ميتا وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه اينما صلى عليه السلام فلم يكن ينظر اليه
شيطان فى صلوته الا احترق فمر به يوما شيطان فنظر فاذا سليمان عم قد خر ميتا
ففتحوا عنه فاذا العصا قد اكلتها الارضة فارادوا ان يعرفوا وقت موته فوضعوا الارضة
على العصا فاكلت منها فى يوم وليلة مقدارا فحسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ
سنة وكان عمره عليه السلام ثلثا وخمسين سنة ملك وهو ابن ثلث عشرة سنة وبقى فى ملكه
اربعين سنة وابتداء بناء بيت المقدس لاربع مضين من ملكه لقد كان لسبإ شروع فى بيان لاخبار
بعض الكافرين بنعم الله تعالى اثر بيان احوال الشاكرين بها اى لاولاد سبا ابن يشجب بن يعرب
بن قحطان وقرئ بمنع الصرف على انه اسم القبيلة وقرئ بقلب الهمزة الفا ولعله اخراج لها
بين بين فى مسكنهم وقرئ بكسر الكاف كالمسجد وقرئ بلفظ الجمع اى مواضع سكناهم وهى

باليمن يقال

باليمن يقال له مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلث ليال آية دالة بملاحظة احوالها السابقة
واللاحقة على وجود الصانع المختار القادر على كل ما يشاء من الامور البديعة المجازى للمحسن
والمسئ معاضدة للبرهان السابق كما فى قصتى داود وسليمان عليهما السلام جنتان
بدل من آية او خبر لمبتدإ محذوف اى هى جنتان وفيه معنى المدح ويؤيده قراءة النصب
على المدح والمراد بهما جماعتان من البساتين عن يمين وشمال جماعة عن يمين بلدهم وجماعة
عن شماله كل واحدة من تينك الجماعتين فى تقاربها وتضامها كانها جنة واحدة او
بستانا عن كل رجل منهم عن يمين مسكنه وعن شماله كلوا من رزق ربكم واشكروا له حكاية
لما قيل لهم على لسان نبيهم تكميلا للنعمة وتذكيرا لحقوقها او لما نطق به لسان الحال او بيان لكونهم
احقاء بان يقال لهم ذلك بلدة طيبة ورب غفور استيناف مبين لما يوجب الشكر المأمور
به اى بلدكم بلدة طيبة وربكم الذى رزقكم ما فيها من الطيبات وطلب منكم الشكر رب
غفور لفرطات من يشكره وقرئ الكل بالنصب على المدح قيل كانت اطيب البلاد هواء
واخصبها وكانت المرأة تخرج وعلى راسها المكتل فتعمل بيديها وتسير فيما بين الاشجار فيمتلئ
المكتل مما يتساقط فيه من الثمار ولم يكن فيه من موذيات الهوام شئ فاعرضوا عن الشكر بعد
ابانة الآيات الداعية اليه قيل ارسل اليهم ثلثة عشر نبيا فدعوهم الى الله تعالى وذكروهم
بنعمه وانذروهم عقابه فكذبوهم فارسلنا عليهم سيل العرم اى سيل الامر العرم
اى الصعب من عرم الرجل فهو عارم وعرم اذا شرس خلقه وصعب او المطر الشديد
وقيل العرم جمع عرمة وهى الحجارة المركومة وقيل السكر الذى يحبس الماء وقيل هو اسم
للبناء الذى يجعل سدا وقيل هو البناء الرصين الذى بنته الملكة بلقيس بين الجبلين
بالصخر والقار وحقنت به ماء العيون والامطار وتركت فيها خروقا على ما يحتاجون
اليه فى سقيهم وقيل العرم الجرذ الذى بنت عليهم ذلك السد وهو الفار الاعمى الذى
يقال له الخلد سلطه الله تعالى على سدهم فنقبه فغرق بلادهم وقيل العرم اسم الوادى و
قرئ العرم بسكون الراء قالوا كان ذلك فى الفترة كانت بين عيسى والنبى صلى الله عليه وسلم
وبدلناهم بجنتيهم اى اذهبنا جنتيهم واتيناهم بدلهما جنتين ذواتى اكل خمط اى ثمر
بشع فان الخمط كل نبت اخذ طعما من مرارة حتى لا يمكن اكله وقيل هو الحامض والمر من كل شئ
وقيل هو ثمر شجرة يقال لها فسوة الضبع على صورة الخشخاش لا ينتفع بها وقيل هو الاراك
او كل شجر ذى شوك والتقدير اكل اكل خمط فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه وقرئ اكل خمط
بالاضافة وتخفيف اكل واثل وشئ من سدر قليل معطوفان على اكل لا على خمط
فان الاثل هو الطرفاء وقيل شجر يشبهه اعظم منه ولا ثمر له وقرئ واثلا وشيئا عطفا على
جنتين قيل وصف السدر بالقلة لما ان جناه وهو النبق مما يطيب اكله ولذلك يغرس فى البساتين
والصحيح ان السدر صنفان صنف يؤكل من ثمره وينتفع بورقه لغسل اليد وصنف له ثمرة
عفصة لا تؤكل اصلا ولا ينتفع بورقه وهو الضال والمراد ههنا هو الثانى حتما وقال قتادة
كان شجرهم خير الشجر فصيره الله تعالى من شر الشجر باعمالهم وتسمية البدل جنتين للمشاكلة
والتهكم ذلك اشارة الى مصدر قوله تعالى جزيناهم او الى ما ذكر من التبديل وما فيه
من معنى البعد للايذان ببعد رتبته فى الفظاعة ومحله على الاول النصب على انه مصدر مؤكد
للفعل المذكور وعلى الثانى النصب على انه مفعول ثان له اى ذلك الجزاء الفظيع جزيناهم
لا جزاء آخر او ذلك التبديل جزيناهم لا غيره بما كفروا بسبب كفرانهم النعمة حيث
نزعناها منهم ووضعنا مكانها ضدها او بسبب كفرهم بالرسل وهل نجازى الا الكفور
اى وما نجازى هذا الجزاء الا المبالغ فى الكفران او الكفر وقرئ يجازى على البناء للفاعل
وهو الله عز وجل وهل يجازى على البناء للمفعول ورفع الكفور وهل يجزى على البناء
للمفعول ايضا وهذا بيان لما اوتوا من النعم الحاضرة فى مساكنهم وما فعلوا بها من الكفران
وما فعل بهم من الجزاء وقوله تعالى وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها حكاية لما اوتوا
من النعم البادية فى مسايرهم ومتاجرهم وما فعلوا بها من الكفران وما حاق بهم بسبب ذلك
تكملة لقصتهم وبيانا لعاقبتهم وانما لم يذكر الكل معا لما فى التثنية والتكرير من زيادة تنبيه

وتذكيره هو عطف على كان لسبإ لا على ما بعده من الجمل الناطقة بافعالهم او باجزيتها اى وجعلنا مع ما
آتيناهم فى مساكنهم من فنون النعم بينهم اى بين بلادهم وبين القرى الشامية التى باركنا
فيها للعالمين قرى ظاهرة متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهى ظاهرة لاعين اهلها
او راكبة متن الطريق ظاهرة للسابلة غير بعيدة عن مسالكهم حتى يخفى عليهم وقدرنا فيها
السير اى جعلناها فى نسبة بعضها الى بعض على مقدار معين يليق بحال ابناء السبيل قيل كان
قيل كان الغادى من قرية يقيل فى اخرى والرائح منها يبيت فى اخرى الى ان يبلغ الشام كل
ذلك كان تكميلا لما اوتوا من انواع النعماء وتوفيرا لها فى الحضر والسفر سيروا فيها على ارادة
القول اى وقلنا لهم سيروا فى تلك القرى ليالى واياما اى متى شئتم من الليالى والايام آمنين
من كل ما تكرهونه لا يختلف الامن فيها باختلاف الاوقات او سيروا فيها آمنين وان تطاولت
مدة سفركم وامتدت ليالى واياما كثيرة او سيروا فيها ليالى اعماركم وايامها لا تلقون فيها الا
الامن لكن لا على الحقيقة بل على تنزيل تمكينهم من السير المذكور وتسوية مباديه على الوجه
المذكور منزلة امرهم بذلك فقالوا ربنا باعد بين اسفارنا وقرئ يا ربنا بطروا النعمة
وسئموا طيب العيش وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو اسرائيل الثوم والبصل
مكان المن والسلوى وقالوا لو كان اجنى جناننا ابعد لكان اجدر ان نشتهيه وسألوا ان يجعل الله
تعالى بينهم وبين الشام مفاوز وقفارا ليركبوا فيها الرواحل ويتزودوا الازواد ويتطاولوا فيها
على الفقراء فعجل الله تعالى لهم الاجابة بتخريب تلك القرى المتوسطة وجعلها بلقعا لا يسمع
فيه داع ولا مجيب وقرئ بعّد وربنا بعد بين اسفارنا على النداء واسناد الفعل الى بين ورفعه
به كما يقال سير فرسخان وبوعد بين اسفارنا وقرئ ربنا باعد بين اسفارنا وبين سفرنا
وبعّد برفع ربنا على الابتداء والمعنى على خلاف الاول وهو استبعاد مسايرهم مع قصرها
ودنوها لسهولة سلوكها وظلموا انفسهم حيث عرضوها للسخط والعذاب حين بطروا
النعمة او غمطوها لفرط تنعمهم وغاية ترفههم وعدم اعتدادهم بنعم الله تعالى كانوا يتشاحون
على الله تعالى ويتحازنون فجعلناهم احاديث اى جعلناهم بحيث يتحدث الناس بهم
متعجبين من احوالهم ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم ومزقناهم كل ممزق اى فرقناهم
كل تفريق على ان الممزق مصدر او كل مطرح ومكان تفريق على انه اسم مكان وفى عبارة
التمزيق الخاص بتفريق المتصل وخرقه من تهويل الامر والدلالة على شدة التأثير والايلام
ما لا يخفى اى مزقناهم تمزيقا لا غاية وراءه بحيث يضرب به الامثال فى كل فرقة ليس بعدها
وصال حتى لحق غسان بالشام وانمار بيثرب وجذام بتهامة والازد بعمان واصل قصتهم على
ما رواه الكلبى عن ابى صالح ان عمرو بن عامر من اولاد سبا بينهما اثنا عشر ابا وهو الذى
يقال له مزيقيا بن ماء السماء اخبرته طريفة الكاهنة بخراب سد مأرب وتغريق سيل العرم
الجنتين وعن ابى زيد الانصارى ان عمرا رأى جرذا يحفر السد فعلم انه لا بقاء له بعد وقيل انه
كان كاهنا وقد علمه بكهانته فباع املاكه وسار بقومه وهم الوف من بلد الى بلد حتى انتهى
الى مكة المعظمة واهلها جرهم وكانوا قهروا الناس وحازوا ولاية البيت على بنى اسمعيل
عليه السلام وغيرهم فارسل اليهم ثعلبة بن عمرو بن عامر ليفسحوا لهم المقام معهم الى ان يرجع
اليه رواده الذين ارسلهم الى اصقاع البلاد يطلبون له موضعا يسعه ومن معه من قومه
فابوا فاقتتلوا ثلثة ايام فانهزمت جرهم ولم يفلت منهم الا الشريد واقام ثعلبة بمكة
وما حولها فى قومه وعساكره حولا فاصابتهم الحمى فاضطروا الى الخروج وقد رجع اليه
رواده فافترقوا فرقتين فرقة توجهت نحو عمان وهم الازد وكندة وحمير ومن يتلوهم
وسار ثعلبة نحو الشام فنزل الاوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بالمدينة وهم الانصار
ومضت غسان فنزلوا بالشام وانخزعت خزاعة بمكة فاقام ربيعة بن حارثة بن عمرو
بن عامر وهو لحى فولى امر مكة وحجابة الكعبة ثم جاءهم اولاد اسمعيل عليه السلام
فسألهم السكنى معهم وحولهم فاذنوا لهم فى ذلك وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما
ان فروة بن مسيك الغطيفى سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن سبا فقال عليه السلام هو
رجل كان له عشرة اولاد ستة منهم سكنوا اليمن وهم مذحج وكندة والازد والاشعريون

وحمير وانمار

وحمير وانمار منهم بجيلة وخثعم واربعة منهم سكنوا الشام وهم لخم وجذام وعاملة و
غسان لما هلكت اموالهم وخربت بلادهم تفرقوا ايدى سبا شذر مذر فنزلت
طوائف منهم بالحجاز فمنهم خزاعة نزلوا بظاهر مكة ونزلت الاوس والخزرج بيثرب
فكانوا اول من سكنها ثم نزل عندهم ثلث قبائل من اليهود بنو قينقاع وبنو قريظة و
النضير فخالفوا الاوس والخزرج واقاموا عندهم ونزلت طوائف اخر منهم بالشام وهم
الذين تنصروا فيما بعد وهم غسان وعاملة ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم
وسبا تجمع هذه القبائل كلها والجمهور على ان جميع العرب قسمان قحطانية وعدنانية
والقحطانية شعبان سبا وحضرموت والعدنانية شعبان ربيعة ومضر واما قضاعة
فمختلف فيها فبعضهم ينسبونها الى قحطان وبعضهم الى عدنان والله تعالى اعلم ان فى
ذلك اى فيما ذكر من قصتهم لآيات عظيمة لكل صبار شكور اى شانه الصبر عن
الشهوات ودواعى الهوى وعلى مشاق الطاعات والشكر على النعم وتخصيص هؤلاء بذلك
لانهم المنتفعون بها ولقد صدق عليهم ابليس ظنه اى حقق عليهم ظنه او وجده
صادقا وقرئ بالتخفيف اى صدق فى ظنه او صدق بظن ظنه ويجوز تعدية الفعل اليه بنفسه
لانه نوع من القول وقرئ بنصب ابليس ورفع الظن مع التشديد بمعنى وجده ظنه صادقا
ومع التخفيف بمعنى قال الصدق وحين ظنه حيث قال لاغوينهم وبرفعهما والتخفيف على الابدال
وذلك اما ظنه بسبا حين رأى انهماكهم فى الشهوات او ببنى آدم حين شاهد آدم عم
قد اصغى الى وسوسته قال ان ذريته اضعف منه عزما وقيل ظن ذلك عند اخبار الله
تعالى الملائكة انه يجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وقال لاضلنهم ولاغوينهم
فاتبعوه اى اهل سبا او الناس الا فريقا من المؤمنين الا فريقا هم المؤمنون لم
يتبعوه على ان من بيانية وتقليلهم بالاضافة الى الكفار او الا فريقا من فرق المؤمنين لم
يتبعوه وهم المخلصون وما كان له عليهم من سلطان اى تسلط واستيلاء بالوسوسة
والاستغواء وقوله تعالى الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك استثناء
مفرغ من اعم العلل ومن موصولة اى وما كان تسلطه عليهم الا ليتعلق علمنا بمن يؤمن
بالآخرة متميزا ممن هو فى شك منها تعلقا حاليا يترتب عليه الجزاء او الا ليتميز المؤمن من
الشاك او الا ليؤمن من قدر ايمانه ويشك من قدر ضلاله والمراد من حصول العلم حصول
متعلقه مبالغة وربك على كل شئ حفيظ اى محافظ عليه فان فعيلا ومفاعلا
صيغتان متآخيتان قل اى للمشركين اظهارا لبطلان ما هم عليه وتبكيتا لهم ادعوا
الذين زعمتم اى زعمتموهم آلهة وهما مفعولا زعم ثم حذف الاول تخفيفا لطول
لطول الموصول بصلته والثانى لقيام صفته اعنى قوله تعالى من دون الله مقامه
ولا سبيل الى جعله مفعولا ثانيا لانه لا يلتئم مع الضمير كلاما وكذا لا يملكون لانهم
لا يزعمونه والمعنى ادعوهم فيما يهمكم من جلب نفع او دفع ضر لعلهم يستجيبون
لكم ان صح دعواكم ثم اجاب عنهم اشعارا بتعين الجواب فانه لا يقبل المكابرة
لا يملكون مثقال ذرة من خير وشر ونفع وضر فى السموات ولا فى الارض اى
فى امر ما من الامور وذكرهما للتعميم عرفا او لان آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة
والكواكب وبعضها ارضية كالاصنام او لان الاسباب القريبة للخير والشر سماوية و
ارضية والجملة استئناف لبيان حالهم وما لهم اى لآلهتهم فيهما من شرك اى شركة
لا خلقا ولا ملكا ولا تصرفا وما له اى الله تعالى منهم من آلهتهم من ظهير يعينه
فى تدبير امرهما ولا تنفع الشفاعة عنده اى لا توجد علما كما فى قوله ولا ترى الضب
بها ينجحر لقوله تعالى من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه وانما علق النفى بنفعها لا بوقوعها تصريحا
بنفى ما هو غرضهم من وقوعها وقوله تعالى الا لمن اذن له استثناء مفرغ من اعم الاحوال اى لا تنفع
الشفاعة فى حال من الاحوال الا كائنة لمن اذن له فى الشفاعة من النبيين والملئكة و
نحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة فتبين حرمان الكفرة منها بالكلية اما من جهة
اصنامهم فلظهور انتفاء الاذن بها ضرورة استحالة الاذن فى الشفاعة لجماد لا يعقل

ويتطوق واما من جهة من يعبد ونه من الملائكة فلان اذ نهم مقصور على الشفاعة للمستحقين
لها لقوله تعالى لا يتكلمون الا من اذن له الرحمن وقال صوابا ومن البين ان الشفاعة للكفرة بمعزل
من الصواب اي ولا ينفع الشفاعة من الشفعاء المستأهلين لها في حال من الاحوال الا كائنة
الا لمن اذن له اي لاجله وفي شانه من المستحقين للشفاعة واما من عداهم من غير المستحقين
لها فلا تنفعهم اصلا وان فرض وقوعها وصدورها عن الشفعاء اذ لم يؤذن لهم
في شفاعتهم بل في شفاعة غيرهم فعلى هذا يثبت حرمانهم عن شفاعة هؤلاء بعبارة
النص وعن شفاعة الاصنام بدلالته اذ حين حرموها من جهة القادرين على شفاعة
بعض المحتاجين اليها فلان يحرموها من جهة العجزة عنها اولى وقرئ اذن له مبنيا للمفعول
حتى اذا فزع عن قلوبهم اي قلوب الشفعاء والمشفوع لهم من المؤمنين واما الكفرة
فهم من موقف الاستشفاع بمعزل عن التفزيع عن قلوبهم بالف منزل والتفزيع ازالة الفزع
ثم ترك ذكر الفزع واسند الفعل الى الجار والمجرور وحتى غاية لما ينبئ عنه ما قبلها من الاشعار
بوقوع الاذن لمن اذن له فانه مسبوق بالاستئذان المستدعي للترقب والانتظار للجواب
كانه سئل كيف يؤذن لهم فقيل يتربصون في موقف الاستئذان والاستدعاء ويتوقفون
على وجل وفزع مليا حتى اذا ازيل الفزع عن قلوبهم بعد اللتيا والتي وظهرت لهم تباشير
الاجابة قالوا اي المشفوع لهم اذ هم المحتاجون الى الاذن والمهتمون بامره ماذا قال ربكم
اي في شان الاذن قالوا اي الشفعاء لانهم المباشرون للاستئذان بالذات المتوسطون
بينهم وبينه عز وجل بالشفاعة الحق اي قال ربنا القول الحق وهو الاذن في الشفاعة
للمستحقين لها وقرئ مرفوعا اي ما قاله وهو العلي الكبير من تمام كلام الشفعاء قالوه
اعترافا بغاية عظمة جناب العزة عز وجل وقصور شان كل من سواه اي هو المتفرد بالعلو
والكبرياء ليس لاحد من اشراف الخلائق ان يتكلم الا باذنه وقرئ فزع مخففا بمعنى فزع
على البناء للفاعل وهو الله وحده وقرئ بالراء المهملة والغين المعجمة كفرغ اي نفي
الوجل عنها وافني من فرغ الزاد اذا لم يبق منه شيء وهو من الاسناد المجازي لان الفراغ
وهو الخلو حال ظرفه عند نفاده فاسند اليه على عكس قولهم جرى النهر وعن الحسن تخفيف
الراء واصله فرغ الوجل عنها اي انتفى عنها وفني ثم حذف الفاعل واسند الى الجار
والمجرور وبه يعرف حال التفريغ وقرئ افرنقع عن قلوبهم بمعنى انكشف عنها قل من
يرزقكم من السموات والارض امر عليه السلام بتبكيت المشركين بحملهم على الاقرار
بان الهتهم لا يملكون مثقال ذرة فيهما وان الرزاق هو الله تعالى فانهم لا ينكرونه كما
ينطق به قوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض امن يملك السمع والابصار فسيقولون
الله وحيث كانوا يتلعثمون احيانا في الجواب مخافة الالزام قيل له عليه السلام قل الله
اذ لا جواب سواه عندهم ايضا وانا او اياكم لعلى هدى او في ضلال مبين اي ان
احد الفريقين من الذين يوحدون المتوحد بالرزق والقدرة الذاتية ويخصونه
بالعبادة والذين يشركون به في العبادة الجماد النازل في ادنى المراتب الامكانية لعلى
احد الامرين من الهدى والضلال المبين وهذا بعد ما سبق من التقرير البليغ الناطق
بتعيين من هو على الهدى ومن هو في الضلال ابلغ من التصريح بذلك لجريانه على
سنن الانصاف المسكت للخصم الالد وقرئ وانا او اياكم اما على هدى او في ضلال
مبين واختلاف الجارين للايذان بان الهادي كمن استعلى منارا ينظر الاشياء ويتطلع
عليها والضال كانه منغمس في ظلام لا يرى شيئا او محبوس في مطمورة لا يستطيع
الخروج عنها قل لا تسألون عما اجرمنا ولا نسأل عما تعملون وهذا ابلغ في الانصاف
وابعد من الجدل والاعتساف حيث اسند فيه الاجرام وان اريد به الزلة وترك
الاولى الى انفسهم ومطلق العمل الى المخاطبين مع ان اعمالهم اكبر الكبائر قل يجمع بيننا
ربنا يوم القيمة عند الحشر والحساب ثم يفتح بيننا بالحق اي يحكم بيننا ويفصل بعد
ظهور حال كل منا ومنكم بان يدخل المحقين الجنة والمبطلين النار وهو الفتاح الحاكم الفصل
في القضايا المنغلقة العليم بما ينبغي ان يقضى به قل اروني الذين الحقتم اي الحقتموهم

به

به شركاء اريد بامرهم باراءة الاصنام مع كونها بمرأى منه عليه السلام اظهار خطئهم العظيم
واطلاعهم على بطلان رأيهم اي اورونيها لانظر باي صفة الحقتموها بالذي ليس كمثله
شيء في استحقاق العبادة وفيه مزيد تبكيت لهم بعد الزام الحجة عليهم كلا ردع لهم
عن المشاركة بعد ابطال المقايسة بل هو الله العزيز الحكيم اي الموصوف بالغلبة القاهرة و
الحكمة الباهرة فاين شركاؤكم التي هي احسن الاشياء واذلها من هذه الرتبة العالية والضمير اما
لله عز وجل او للشان كما في قل هو الله احد وما ارسلناك الا كافة للناس اي الا رسالة
عامة لهم فانها اذا عمتهم فقد كفتهم ان يخرج منها احد منهم او الا جامعا لهم في الابلاغ فهي
حال من الكاف والتاء للمبالغة ولا سبيل الى جعلها حالا من الناس لاستحالة تقدم الحال
على صاحبها المجرور بشيرا ونذيرا ولكن اكثر الناس لا يعلمون ذلك فيحملهم جهلهم على ما هم
عليه من الغي والضلال ويقولون من فرط جهلهم وغاية غيهم متى هذا الوعد
بطريق الاستهزاء يعنون به المبشر به والمنذر عنه او الموعود بقوله تعالى يجمع بيننا ربنا
ثم يفتح بيننا ان كنتم صادقين مخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به قل
لكم ميعاد يوم اي وعد يوم او زمان وعد والاضافة للتبيين وقرئ ميعاد يوم منونين
على البدل ويوما باضمار اعني للتعظيم لا تستأخرون عنه عند مفاجاته ساعة ولا تستقدمون
صفة لميعاد وفي هذا الجواب من المبالغة في التهديد ما لا يخفى حيث جعل الاستئخار في الاستحالة
كالاستقدام الممتنع عقلا وقد مر بيانه مرارا ويجوز نفي الاستئخار والاستقدام غير مقيد
بالمفاجاة فيكون وصف الميعاد بذلك لتحقيقه وتقريره وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا
القران ولا بالذي بين يديه اي من الكتب القديمة الدالة على البعث وقيل ان كفار مكة سألوا
اهل الكتاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبروهم انهم يجدون نعته في كتبهم فغضبوا فقالوا
ذلك وقيل الذي بين يديه القيمة ولو ترى اذ الظالمون المنكرون للبعث موقوفون عند ربهم
اي في موقف المحاسبة يرجع بعضهم الى بعض القول اي يتحاورون ويراجعون القول
يقول الذين استضعفوا بدل من يرجع الخ اي يقول الاتباع للذين استكبروا في الدنيا
واستتبعوهم في الغي والضلال لولا انتم اي لولا اضلالكم وصدكم لنا عن الايمان لكنا مؤمنين
باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم قال الذين استكبروا للذين استضعفوا استئناف مبني على السؤال
كانه قيل فماذا قال الذين استكبروا في الجواب فقيل قالوا انحن صددناكم عن الهدى
بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين منكرين لكونهم هم الصادين لهم عن الايمان مثبتين انهم
هم الصادون بانفسهم بسبب كونهم راسخين في الاجرام وقال الذين استضعفوا
للذين استكبروا اضرابا عن اضرابهم وابطالا له بل مكر الليل والنهار اي بل صدنا
مكركم بنا بالليل والنهار فحذف المضاف اليه واقيم مقامه الظرف اتساعا او جعل ليلهم
ونهارهم ماكرين على الاسناد المجازي وقرئ بل مكر الليل والنهار بالتنوين ونصب الظرفين
اي بل صدنا مكركم في الليل والنهار على ان التنوين عوض عن المضاف اليه او مكر
عظيم على انه للتفخيم وقرئ بل مكر الليل والنهار بالرفع والنصب اي تكرون الاغواء مكرا
دائبا لا تفترون عنه فالرفع على الفاعلية اي بل صدنا مكركم الاغواء في الليل والنهار على
ما سبق من الاتساع في الظرف باقامته مقام المضاف اليه والنصب على المصدرية اي بل
تكرون الاغواء مكر الليل والنهار اي مكرا دائما وقوله تعالى اذ تامروننا ظرف للمكر اي
بل مكركم الدائم وقت امركم لنا ان نكفر بالله ونجعل له اندادا على ان المراد بمكرهم
اما نفس امرهم بما ذكر في قوله تعالى يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء و
جعلكم ملوكا فان الجعلين المذكورين نعمة من الله تعالى واي نعمة واما امور اخر مقارنة
لامرهم داعية الى الامتثال به من الترغيب والترهيب وغير ذلك واسروا الندامة لما راوا
العذاب اي اضمر الفريقان الندامة على ما فعلا من الضلال والاضلال واخفاها كل منهما عن الاخر
مخافة التعيير او اظهروها فانه من الاضداد وهو المناسب لحالهم وجعلنا الاغلال في اعناق
الذين كفروا اي في اعناقهم والاظهار في موضع الاضمار للتنويه بذمهم والتنبيه على
موجب اغلالهم هل يجزون الا ما كانوا يعملون اي لا يجزون الا جزاء ما كانوا يعملون

اى الابا كانوا يحملونه على نزع الجار وما ارسلنا فى قرية من القرى من نذير الا قال مترفوها انا بما ارسلتم به كافرون تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما منى به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به والمنافسة بكثرة الاموال والاولاد والمفاخرة بحظوظ الدنيا وزخارفها والتكبر بذلك على المؤمنين والاستهانة بهم من اجله وقولهم اى الفريقين خير مقاما واحسن نديا بانه لم يرسل قط الى اهل قرية من نذير الا قال مترفوهم مثل ما قال مترفوا اهل مكة فى حقه عليه السلام وكاد وابه نحو ما كاد وابه وقاسوا امور الاخرة الموهومة او المفروضة عندهم على امور الدنيا وزعموا انهم لو لم يكرموا على الله تعالى لما رزقهم طيبات الدنيا ولولا ان المؤمنين هانوا عليه تعالى لما حرمهم اياها وعلى ذلك الرأى الركيك بنوا احكامهم وقالوا نحن اكثر اموالا واولادا وما نحن بمعذبين اما بناء على انتفاء العذاب الاخروى راسا او على اعتقاد انه تعالى اكرمهم فى الدنيا فلا يهينهم فى الاخرة على تقدير وقوعها فرد عليهم حسبما لمادة طمعهم الفارغ وتحقيقا للحق الذى عليه يدور امر التكوين قل ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء ان يبسط عليه ويقدر على من يشاء ان يقدره عليه من غير ان يكون لاحد من الفريقين داع الى ما فعل به من البسط والقدر فربما يوسع على العاصى ويضيق على المطيع وربما يعكس الامر وربما يوسع عليهما معا وقد يضيق عليهما وقد يوسع على شخص تارة ويضيق عليه اخرى يفعل كلا من ذلك حسبما يقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة فلا ينقاس على ذلك امر الثواب والعذاب الذين مناطهما الطاعة وعدمها وقرئ ويقدر بالتشديد ولكن اكثر الناس لا يعلمون ذلك فيزعمون ان مدار البسط هو الشرف والكرامة ومدار القدر هو الهوان ولا يدرون ان الاول كثيرا ما يكون بطريق الاستدراج والثانى بطريق الابتلاء ورفع الدرجات وما اموالكم ولا اولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى كلام مستأنف من جهته عز وعلا خوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغة فى تحقيق الحق وتقرير ما سبق اى وما جماعة اموالكم واولادكم بالجماعة التى تقربكم عندنا قربة فان الجمع المكسر عقلاء وغير عقلائه سواء فى حكم التأنيث او بالخصلة التى تقربكم وقرئ بالذى اى بالشئ الذى الا من امن وعمل صالحا استثناء من مفعول تقربكم اى وما الاموال والاولاد تقرب احدا الا المؤمن الصالح الذى انفق امواله فى سبيل الله تعالى وعلم اولاده الخير ورباهم على الصلاح ورشحهم للطاعة وقيل من اموالكم واولادكم على حذف المضاف اى الا اموال الخ فاولئك اشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما ان الافراد فى الفعلين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل اى فاولئك المنعوتون بالايمان والعمل الصالح لهم جزاء الضعف اى ثابت لهم ذلك على ان الجار والمجرور خبر لما بعده والجملة خبر لاولئك وفيه تأكيد لتكرر الاسناد او يثبت لهم ذلك على ان الجار والمجرور خبر لاولئك وما بعده مرتفع على الفاعلية واضافة الجزاء الى الضعف من اضافة المصدر الى المفعول اصله فاولئك لهم ان يجازوا الضعف ثم جزاء الضعف ثم جزاء الضعف ومعناه ان يضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشرا فما فوقها وقرئ جزاء الضعف على فاولئك لهم الضعف جزاء وجزاء الضعف على ان يجازوا الضعف وجزاء الضعف بالرفع على ان الضعف بدل من جزاء بما عملوا من الصالحات وهم فى الغرفات اى غرفات الجنة امنون من جميع المكاره وقرئ بفتح الراء وسكونها وقرئ فى الغرفة على ارادة الجنس والذين يسعون فى اياتنا بالرد والطعن فيها معاجزين سابقين لانبيائنا او زاعمين انهم يفوتوننا اولئك فى العذاب محضرون لا يجديهم ما عولوا عليه نفعا قل ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده اى يوسعه عليه تارة ويقدر له اى يضيقه عليه تارة اخرى فلا تخشوا الفقراء وانفقوا فى سبيل الله وتعرضوا لنفحاته تعالى وما انفقتم من شئ فهو يخلفه عوضا اما عاجلا واما اجلا وهو خير الرازقين فان غيره واسطة فى ايصال رزقه لا حقيقة لرازقيته ويوم يحشرهم جميعا اى المستكبرين والمستضعفين وما كانوا يعبدون من دون الله ويوم ظرف لمضمر

متأخر سيأتى تقديره او مفعول لمضمر مقدم نحو اذكر يوم يقول للملائكة اهؤلاء اياكم كانوا يعبدون تقريعا للمشركين وتبكيتا لهم على نهج قوله تعالى أانت قلت للناس اتخذونى وامى الهين من دون الله وتخصيص الملئكة لانهم اشرف شركائهم والصالحون للخطاب منهم ولان عبادتهم مبدأ الشرك فيظهر قصورهم عن رتبة المعبودية وتنزههم عن عبادتهم يظهر حال سائر شركائهم بطريق الاولوية وقرئ الفعلان بالنون قالوا استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية سؤال الملئكة كانهم قيل فماذا يقول الملئكة فيقيل يقولون متنزهين عن ذلك سبحانك انت ولينا من دونهم والعدول الى صيغة الماضى للدلالة على التحقق اى انت الذى نواليه من دونهم لا موالاة بيننا وبينهم كانهم بينوا بذلك برائتهم من الرضا بعبادتهم ثم اضربوا عن ذلك ونفوا انهم عبدوهم حقيقة بقولهم بل كانوا يعبدون الجن اى الشياطين حيث اطاعوهم فى عبادة غير الله سبحانه وقيل كانوا يتمثلون لهم ويخيلون لهم انهم الملائكة فيعبدونهم وقيل يدخلون اجواف الاصنام اذا عبدت فيعبدون بعبادتها اكثرهم بهم مؤمنون الضمير الاول للانس او للمشركين والاكثر بمعنى الكل والثانى للجن فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا من جملة ما يقال للملئكة عند جوابهم بالتنزه والتبرء عما نسب اليهم الكفرة يخاطبون بذلك على رؤس الاشهاد اظهارا لعجزهم وقصورهم عند عبدتهم وتنصيصا على ما يوجب خيبة رجائهم بالكلية والفاء ليس لترتيب ما بعدها من الحكم على جواب الملئكة فانه محقق اجابوا بذلك ام لا بل لترتيب الاخبار به عليه ونسبة عدم النفع والضر الى البعض المبهم للمبالغة فيما هو المقصود الذى هو بيان عدم نفع الملئكة للعبدة بنظمه فى سلك عدم نفع العبدة لهم كان نفع الملائكة لعبدتهم فى الاستحالة والانتفاء كنفع العبدة لهم والتعرض لعدم الضر مع انه لا بحث عنه اصلا فاما لتعميم العجز او لحمل عدم النفع على تقدير العبادة وعدم الضر على تقدير تركها ولان المراد دفع الضر على حذف المضاف وتقييد هذا الحكم بذلك اليوم مع ثبوته على الاطلاق لانعقاد رجائهم على تحقق النفع يومئذ وقوله عز وجل ونقول للذين ظلموا عطف على نقول للملائكة لا على يملك كما قيل لانه مما يقال يوم القيمة خطابا للملائكة مترتبا على جوابهم المحكى وهذا حكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما سيقال للعبدة يومئذ اثر حكاية ما سيقال للملائكة اى يوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة كذا وكذا ويقولون كذا وكذا ونقول للمشركين ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون يكون من الاحوال والاهوال ما لا يحيط به نطاق المقال وقوله تعالى واذا تتلى عليهم اياتنا بينات بيان لبعض اخر من كفرانهم اى اذا تتلى عليهم بلسان الرسول صلى الله عليه وسلم اياتنا الناطقة بحقية التوحيد وبطلان الشرك قالوا ما هذا يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم الا رجل يريد ان يصدكم عما كان يعبد اباؤكم فيستتبعكم بما يستبدعه من غير ان يكون هناك دين الهى واضافة الاباء الى المخاطبين لا الى انفسهم لتحريك عرق العصبية منهم مبالغة فى تقريرهم على الشرك وتنفيرهم عن التوحيد وقالوا ما هذا يعنون القران الكريم الا افك اى كلام مصروف عن وجهه لا مصداق له فى الواقع مفترى باسناده الى الله تعالى وقال الذين كفروا للحق اى لامر النبوة او الاسلام او القران على ان العطف لاختلاف العنوان بان يراد بالاول معناه وبالثانى نظمه المعجز لما جاءهم من غير تدبر ولا تامل فيه ان هذا الا سحر مبين ظاهر سحريته وفى تكرير الفعل والتصريح بذكر الكفرة وما فى اللامين من الاشارة الى القائلين والمقول فيه وما فى لما من المسارعة الى البت بهذا القول الباطل انكار عظيم له وتعجب بليغ منه وما اتيناهم من كتب يدرسونها فيها دليل على صحة الاشراك كما فى قوله تعالى ام انزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون وقوله تعالى ام اتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون وقرئ يدرسونها ويدرسونها بتشديد الدال يفتعلون من الدرس وما ارسلنا اليهم قبلك من نذير يدعوهم اليه وينذرهم بالعقاب ان لم يشركوا وقد بان من قبل ان لا وجه له بوجه من الوجوه فمن اين

ذهبوا هذا المذهب الزايغ هذا غاية تجهيل لهم وتسفيه لرايهم ثم هددهم بقوله تعالى
وكذب الذين من قبلهم من الامم المتقدمة والقرون الخالية كما كذبوا وما بلغوا
معشار ما اتيناهم اى ما بلغ هؤلاء عشر ما اتينا اولئك من القوة وطول العمر وكثرة
المال او ما بلغ اولئك عشر ما اتينا هؤلاء من البينات والهدى فكذبوا رسلى عطف
على كذب الذين الخ بطريق التفصيل والتفسير كقوله تعالى كذبت قوم نوح فكذبوا عبدنا
الخ فكيف كان نكير اى انكارى لهم بالتدمير فليحذر هؤلاء من مثل ذلك قل انما
اعظكم بواحدة اى ما ارشدكم وانصح لكم الا بخصلة واحدة هى ما دل عليه قوله تعالى
ان تقوموا لله على انه بدل منها او بيان لها او خبر مبتداء محذوف اى هى ان تقوموا
من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم او تنتصبوا للامر خالصا لوجه الله تعالى
معرضا عن المماراة والتقليد مثنى وفرادى اى متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا فان
الازدحام يشوش الافهام ويخلط الافكار بالازهام وفى تقديم مثنى ايذان بانه اوثق
واقرب من الاطمئنان ثم تتفكروا فى امره صلى الله عليه وسلم وما جاء به لتعلموا حقيقته
وقوله تعالى ما بصاحبكم من جنة استيناف مسوق من جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر
والتامل بان مثل هذا الامر العظيم الذى تحت ملك الدنيا والآخرة لا يتصدى لادعائه
الا مجنون لا يبالى بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان وظهور عجزه او مؤيد من عند الله
مرشح للنبوة واثق بحجته وبرهانه واذ قد علمتم انه عليه السلام ارجح العالمين عقلا
اصدقهم قولا وانزههم نفسا وافضلهم علما واحسنهم عملا واجمعهم للكمالات
البشرية وجب ان تصدقوه فى دعواه فكيف وقد انضم الى ذلك معجزات تخر لها صم
الجبال ويجوز ان يتعلق بما قبله على معنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقد
جوز ان يكون ما استفهامية على معنى ثم تتفكروا اى شئ به من آثار الجنون ان هو الا
نذير لكم بين يدى عذاب شديد هو عذاب الآخرة فانه عليه السلام مبعوث فى نسم
الساعة قل ما سألتكم من اجر اى اى شئ سألتكم من اجر على الرسالة فهو لكم والمراد
نفى السؤال راسا كقول من قال لمن لم يعطه شيئا ان اعطيتنى شيئا فخذه وقيل ما موصولة اريد
به ما سألهم بقوله تعالى ما اسألكم عليه من اجر الا من شاء ان يتخذ الى ربه سبيلا و
قوله تعالى لا اسألكم عليه اجرا الا المودة فى القربى واتخاذ السبيل اليه منفعتهم الكبرى وقرباه
عليه السلام قرباهم ان اجرى الا على الله وهو على كل شئ شهيد مطلع يعلم صدقى
وخلوص نيتى وقرئ ان اجرى بسكون الياء قل ان ربى يقذف بالحق اى يلقيه وينزله
على من يجتبيه من عباده او يرمى به الباطل فيدمغه او يرمى به اقطار الآفاق فيكون
وعدا باظهار الاسلام واعلاء كلمة الحق علام الغيوب صفة محمولة على محل ان واسمها
او بدل من المستكن فى يقذف او خبر ثان او خبر مبتداء محذوف وقرئ بالنصب صفة لربى
او مقدرا باعنى وقرئ بكسر الغين وبالفتح كصبور مبالغة غايب قل جاء الحق اى الاسلام
والتوحيد وما يبدئ الباطل وما يعيده اى ذهب الشرك بحيث لم يبق اثره اصلا ماخوذ
من هلاك الحى فانه اذا هلك لم يبق له ابداء ولا اعادة فجعل مثلا فى الهلاك بالمرة و
منه قول عبيد اقفر من اهله عبيد فليس يبدى ولا يعيد وقيل الباطل ابليس او الصنم
والمعنى لا ينشئ خلقا ولا يعيد او لا يبدى خيرا لاهله ولا يعيد وقيل ما استفهامية
منصوبة بما بعدها قل ان ضللت عن الطريق الحق فانما اضل على نفسى فان وبال ضلالى
عليها لانه بسببها اذ هى الجاهلة بالذات والامارة بالسوء وبهذا الاعتبار قوبل الشرطية
بقوله تعالى وان اهتديت فبما يوحى الى ربى لان الاهتداء بهدايته وتوفيقه وقرئ ربى
بفتح الياء انه سميع قريب يعلم قول كل من المهتدى والضال وفعله وان بالغ فى اخفائهما
ولو ترى اذ فزعوا عند الموت او البعث او يوم بدر وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان ثمانين الفا
يغزون الكعبة ليخربوها فاذا دخلوا البيداء خسف بهم وجواب لو محذوف اى لرايت
امرا هائلا فلا فوت فلا يفوتون الله عز وجل بهرب او تحصن واخذوا من مكان قريب
من ظهر الارض الى بطنها او من الموقف الى النار او من صحراء بدر الى قليبها او من تحت اقدامهم اذا

خسف

خسف بهم والجملة معطوفة على فزعوا وقيل على لا فوت على معنى اذ فزعوا فلم يفوتوا واخذوا
ويؤيده انه قرئ واخذ بالعطف على محله اى لا فوت هناك وهناك اخذ وقالوا آمنا به اى
بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد مر ذكره فى قوله تعالى بصاحبكم وانى لهم التناوش
التناوش التناول السهل اى ومن اين لهم ان يتناولوا الايمان تناولا سهلا من مكان
بعيد فانه فى حيز التكليف وهم منه بمعزل بعيد وهو تمثيل حالهم فى الاستخلاص بالايمان
بعد ما فات عنهم وبعد بحال من يريد ان يتناول الشئ من غلوة تناوله من ذراع
فى الاستحالة وقرئ بالهمزة على قلب الواو لضمها وهو من ناشت الشئ اذا طلبته وعن ابى
عمرو التناؤش بالهمزة التناول من بعد فى لهم ناشت اذا ابطات وتاخرت ومنه قول
من قال تمنى نئيشا ان تكون اطاعنى وقد حدثت بعد الامور امور وقد كفروا به اى
بمحمد صلى الله عليه وسلم او بالعذاب الشديد الذى انذرهم اياه من قبل من قبل ذلك
فى اوان التكليف ويقذفون بالغيب ويرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم فى حق
الرسول عليه السلام من المطاعن او فى العذاب المذكور من بت القول بنفيه من مكان بعيد
من جهة بعيدة من حاله عليه السلام حيث ينسبونه الى الشعر والسحر والكذب وان
ابعد شئ مما جاء به الشعر والسحر وابعد شئ من عادته المعروفة فيما بين الدانى والقاصى
الكذب ولعله تمثيل لحالهم فى ذلك بحال من يرمى شيئا لا يراه من مكان بعيد لا مجال
للوهم فى لحوقه وقرئ ويقذفون على ان الشيطان يلقى اليهم ويلقنهم ذلك وهو معطوف على
وقد كفروا به على حكاية الحال الماضية او على قالوا فيكون تمثيلا لحالهم بحال القاذف فى تحصيل
ما ضيعوه من الايمان فى الدنيا وحيل بينهم وبين ما يشتهون من نفع الايمان والنجاة من النار
وقرئ باشمام الضم للحاء كما فعل باشياعهم من قبل اى باشباههم من كفرة الامم
الدارجة انهم كانوا فى شك مريب اى موقع فى الريبة او ذى ريبة والاول منقول
ممن يصح ان يربيا من الاعيان الى المعنى والثانى من صاحب الشك الى الشك كما يقال شعر شاعر والله
اعلم عن رسول الله صلعم من قرأ سورة سبا لم يبق رسول ولا نبى الا كان له يوم القيمة رفيقا ومصافحا

سورة الفاطر مكية وهى خمس واربعون آية بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله فاطر السموات والارض مبدعهما من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه من الفطر
وهو الشق وقيل الشق طولا كانه شق العدم باخراجهما منه واضافته محضة لانه بمعنى الماضى
فهو نعت للاسم الجليل ومن جعلها غير محضة جعله بدلا منه وهو قليل فى المشتق جاعل
الملائكة الكلام فى اضافته وكونه نعتا او بدلا كما قبله وقوله تعالى رسلا منصوب به على
الوجه الثانى من الاضافة بالاتفاق واما على الاول فكذلك عند الكسائى واما عند البصريين
فبمضمر قال ابو سعيد السيرافى اسم الفاعل المتعدى الى اثنين يعمل فى الثانى لان باضافته الى
الاول تعذرت اضافته الى الثانى فتعين نصبه له وعلل بعضهم ذلك بانه بالاضافة اشبه المعرف
باللام فعمل عمله وقرئ جاعل بالرفع على المدح وقرئ الذى فطر السموات والارض وجعل الملائكة
اى جاعلهم وسايط بينه تعالى وبين انبيائه والصالحين من عباده يبلغون اليهم
رسالاته بالوحى والالهام والرؤيا الصادقة او بينه تعالى وبين خلقه ايضا حيث
يوصلون اليهم آثار قدرته وصنعه هذا على تقدير كون الجعل تصييريا واما على تقدير
كونه ابداعيا فرسلا نصب على الحالية وقرئ رسلا بسكون السين اولى اجنحة صفة
لرسلا واولو اسم جمع لذو كما ان اولاء اسم جمع لذا ونظيرهما فى الاسماء المتمكنة
المخاض والخلفة وقوله تعالى مثنى وثلث ورباع صفات لاجنحة اى ذوى اجنحة
متعددة متفاوتة فى العدد حسب تفاوت ما لهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون
او يسرعون بها والمعنى ان من الملائكة خلقا لكل واحد منهم جناحان وخلقا اجنحة
كل منهم ثلثة وخلقا آخر لكل منهم اربعة اجنحة ويروى ان صنفا من الملائكة لهم
ستة اجنحة بجناحين منها يلفون اجسادهم وباخرين منها يطيرون فيما امروا به

عندهم الا ممن قرئ باللام ... هو عليه لان اسم الفاعل اذا كان بمعنى الماضى لا يعمل

من جهته تعالى وجناحان منها مرخيان على وجوههم حياء من الله تعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه رأى جبريل عليهما السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح وروى انه سأله عليهما السلام ان يتراءى له فى صورته فقال انك لن تطيق ذلك قال انى احب ان تفعل فخرج عليه السلام فى ليلة مقمرة فاتاه جبريل صلوات الله عليهما فى صورته فغشى عليه عليه السلام ثم افاق وجبريل مسنده واحدى يديه على صدره والاخرى بين كتفيه فقال سبحان الله ما كنت ارى ان شيئا من الخلق هكذا فقال جبريل عليه السلام فكيف لو رأيت اسرافيل له اثنا عشر جناحا جناح منها بالمشرق وجناح منها بالمغرب وان العرش على كاهله وانه ليتضاءل الاحايين لعظمة الله عز وجل حتى يعود مثل الوصع وهو العصفور الصغير يزيد فى الخلق ما يشاء استئناف مقرر لما قبله من تفاوت احوال الملائكة فى عدد الاجنحة ومؤذن بان ذلك من احكام مشيئته تعالى لا امر راجع الى ذواتهم ببيان حكم كلى ناطق بانه تعالى يزيد فى اى خلق كان كل ما يشاء ان يزيده بموجب مشيئته ومقتضى حكمته من الامور التى لا يحيط بها الوصف وما روى عن النبى صلعم من تخصيص بعض المعانى بالذكر من الوجه الحسن والصوت والشعر الحسن فبيان لبعض المواد المعهودة بطريق التمثيل لا بطريق الحصر فيها وقوله تعالى ان الله على كل شئ قدير تعليل بطريق التحقيق للحكم المذكور فان شمول قدرته تعالى لجميع الاشياء مما يوجب قدرته تعالى على ان يزيد كل ما يشاؤه ايجابا بينا ما يفتح الله للناس من رحمة عبر عن ارسالها بالفتح ايذانا بانها انفس الخزائن التى يتنافس فيها المتنافسون واعزها منالا وتنكيرها للاشاعة والابهام اى اى شئ يفتح الله من خزائن رحمته اية رحمة كانت من نعمة وصحة وامن وعلم وحكمة الى غير ذلك مما لا يحاط به فلا ممسك لها اى لا احد يقدر على امساكها وما اى اى شئ يمسك فلا مرسل له اى لا احد يقدر على ارساله واختلاف الضميرين لما ان مرجع الاول مفسر بالرحمة ومرجع الثانى مطلق يتناولها وغيرها كائنا ما كان وفيه اشعار بان رحمته سبقت غضبه من بعده اى من بعد امساكه وهو العزيز الغالب على كل ما يشاء من الامور التى من جملتها الفتح والامساك الحكيم الذى يفعل كل ما يفعل حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تذييل مقرر لما قبلها معرب عن كون كل من الفتح والامساك بموجب الحكمة التى عليها يدور امر التكوين وبعد ما بين سبحانه انه الموجد للملك والملكوت والمتصرف فيهما بالقبض والبسط من غير ان يكون لاحد فى ذلك دخل ما بوجه من الوجوه امر الناس قاطبة او اهل مكة خاصة بشكر نعمه فقال يا ايها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ان جعلت النعمة مصدرا او كائنة عليكم ان جعلت اسما اى راعوها واحفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها وتخصيص العبادة والطاعة بموليها ولما كانت نعم الله تعالى مع تشعب فنونها منحصرة فى نعمة الايجاد ونعمة الابقاء نفى ان يكون فى الوجود شئ غيره تعالى يصدر عنه احدى النعمتين بطريق الاستفهام الانكارى المنادى باستحالة ان يجاب عنه بنعم فقال هل من خالق غير الله اى هل خالق مغاير له تعالى موجود على ان خالق مبتدأ محذوف الخبر زيدت عليه كلمة من لتأكيد العموم وغير الله نعت له باعتبار محله كما انه نعت له فى قراءة الجر باعتبار لفظه وقرئ بالنصب على الاستثناء وقوله تعالى يرزقكم من السماء والارض اى بالمطر والنبات كلام مبتدأ على التقادير لا محل له من الاعراب داخل فى حيز النفى والانكار ولا مساغ لما قيل من انه صفة اخرى لخالق مرفوعة المحل ومجرورته لان معناه نفى وجود خالق موصوف بوصفى المغايرة والرازقية معا من غير تعرض لنفى وجود ما اتصف بالمغايرة فقط ولا لما قيل من انه الخبر للمبتدأ ولا لما قيل من انه مفسر لمضمر ارتفع به قوله تعالى من خالق على الفاعلية اى هل يرزقكم من خالق الخ لان معناهما نفى رازقية خالق مغاير له تعالى من غير تعرض لنفى وجوده راسا مع انه المراد حتما الا يرى الى قوله تعالى لا اله الا هو فانه استئناف مسوق لتقرير النفى المستفاد منه قصدا وجار مجرى الجواب عما يوهمه الاستفهام وصورة بحيث كان هذا ناطقا بنفى الوجود تعين ان يكون ذلك ايضا كذلك قطعا والفاء فى قوله تعالى فانى

وما يمسك صح

اى انعامه عليكم صح

يؤفكون لترتيب انكار عدولهم عن التوحيد الى الاشراك على ما قبلها كانه قيل واذا تبين تفرده تعالى بالالوهية والخالقية والرازقية فمن اى وجه يصرفون عن التوحيد الى الشرك وقوله تعالى وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك تلوين للخطاب بتوجيهه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين خطابى الناس مسارعة الى تسليته عم بعموم البلية اولا والاشارة الى الوعد والوعيد ثانيا اى وان استمروا على ان يكذبوك فيما بلغت اليهم من الحق المبين بعد ما اقمت عليه الحجة والقمتهم الحجر فتأس باولئك الرسل فى المصابرة على ما اصابهم من قبل قومهم فوضع موضعه ما ذكر اكتفاء بذكر السبب عن ذكر المسبب وتنكير الرسل للتفخيم الموجب لمزيد التسلية والتوجه الى المصابرة اى رسل اولوا شان خطير وذووا عدد كثير والى الله ترجع الامور لا الى غيره فيجازى كلا منك ومنهم بما انتم عليه من الاحوال التى من جملتها صبرك وتكذيبهم وفى الاقتصار على ذكر اختصاص المرجع بالله تعالى مع ابهام الجزاء ثوابا وعقابا من المبالغة فى الوعد والوعيد ما لا يخفى وقرئ ترجع بفتح التاء من الرجوع والاول ادخل فى التهويل يا ايها الناس رجوع الى خطابهم وتكرير النداء لتأكيد العظة والتذكير ان وعد الله المشار اليه بقوله الى الله ترجع الامور اليه تعالى من البعث والجزاء حق ثابت لا محالة من غير خلف فلا تغرنكم الحيوة الدنيا بان يذهلكم التمتع بمتاعها ويلهيكم التلهى بزخارفها عن تدارك ما يهمكم يوم حلول الميعاد والمراد نهيهم عن الاغترار بها وان توجه النهى صورة اليها كما فى قوله لا يجرمنكم شقاقى ولا يغرنكم بالله وعفوه وكرمه تعالى الغرور اى المبالغ فى الغرور وهو الشيطان بان يمنيكم المغفرة مع الاصرار على المعاصى قائلا اعملوا ما شئتم ان الله غفور يغفر الذنوب جميعا فان ذلك وان امكن لكن تعاطى الذنوب بهذا التوقع من قبيل تناول السم تعويلا على دفع الطبيعة وتكرير فعل النهى للمبالغة فيه ولاختلاف الغرورين فى الكيفية وقرئ الغرور بالضم على انه مصدر او جمع غار كقعود جمع قاعد ان الشيطان لكم عدو عداوة قديمة لا تكاد تزول وتقديم لكم للاهتمام به فاتخذوه عدوا بمخالفتكم له فى عقائدكم وافعالكم وكونكم على حذر منه فى مجامع احوالكم وقوله تعالى انما يدعوا حزبه ليكونوا من اصحاب السعير تقرير لعداوته وتحذير من طاعته بالتنبيه على ان غرضه فى دعوة شيعته الى اتباع الهوى والركون الى ملاذ الدنيا ليس تحصيل مطالبهم ومنافعهم الدنيوية كما هو مقصد المتحابين فى الدنيا عند سعى بعضهم فى حاجة بعض بل هو توريطهم والقاؤهم فى العذاب المخلد من حيث لا يحتسبون الذين كفروا لهم بسبب كفرهم واجابتهم لدعوة الشيطان واتباعهم لخطواته عذاب شديد لا يقادر قدره مديد لا يبلغ مداه والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم بسبب ما ذكر من الايمان والعمل الصالح الذى من جملته عداوة الشيطان مغفرة عظيمة واجر كبير لا غاية لهما افمن زين له سوء عمله فرآه حسنا اما تقرير لما سبق من التباين البين بين عاقبتى الفريقين ببيان تباين حاليهما المؤديين الى تينك العاقبتين والفاء لانكار ترتب ما بعدها على ما قبلها اى ابعد كون حالهما كما ذكر يكون من زين له الكفر من جهة الشيطان فانهمك فيه كمن استقبحه واجتنبه واختار الايمان والعمل الصالح حتى لا يكون عاقبتاهما كما ذكر فحذف ما حذف لدلالة ما سبق عليه وقوله تعالى فان الله يضل الخ تقرير له وتحقيق للحق ببيان ان الكل بمشيئته تعالى اى فانه تعالى يضل من يشاء ان يضله لاستحسانه واستحبابه الضلال وصرف اختياره اليه فيرده اسفل سافلين ويهدى من يشاء ان يهديه لصرف اختياره الى الهدى فيرفعه الى اعلى عليين واما تمهيد لما يعقبه من نهيه عليه السلام عن التحسر والتحزن عليهم لعدم اسلامهم ببيان انهم ليسوا باهل لذلك بل لان يضرب عنهم صفحا ولا يبالى بهم قطعا اى ابعد كون حالهم كما ذكر يتحسر عليهم فحذف لما دل عليه قوله تعالى فلا تذهب نفسك عليهم حسرات دلالة بينة واما تمهيد لصرفه عليه السلام عما كان عليه من الحرص الشديد على اسلامهم والمبالغة فى دعوتهم اليه ببيان استحالة تحولهم عن الكفر لكونه فى غاية

تحصيل صح

من جملته

الحسن عندهم اى بعد ما ذكر من زين له الكفر من قبل الشيطان فراه حسنا فانهمك فيه بقبل الهداية
حتى يطمع فى اسلامه وتتعب نفسك فى دعوته فحذف لدلالة ما مر من قوله
تعالى فان الله يضل من يشاء الخ على انه ممن شاء الله تعالى ان يضله فمن يهدى من اضل الله
وما لهم من ناصرين وقرئ فلا تذهب نفسك وقوله تعالى حسرات اما مفعول له اى فلا
تهلك نفسك للحسرات والجمع للدلالة على تضاعف اغتمامه عليه السلام على احوالهم
او على كثرة قبائح اعمالهم الموجبة للتاسف والتحسر وعليهم صلة تذهب كما يقال هلك
عليه حبا ومات عليه حزنا او هو بيان للمتحسر عليه ولا يجوز ان يتعلق بحسرات لان المصدر
لا يتقدم عليه صلته واما حال كان كلها صارت حسرات وقوله تعالى ان الله عليم بما
يصنعون اى من القبائح تعليل لما قبله على الوجوه الثلاثة مع ما فيه من الوعيد عن ابن
عباس رضى الله عنهما انها نزلت فى ابى جهل ومشركى مكة والله الذى ارسل الرياح
مبتداء وخبر وقرئ الريح وصيغة المضارع فى قوله تعالى فتثير سحابا لحكاية الحال
الماضية استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة ولان المراد بيان
احداثها لتلك الخاصية ولذلك اسند اليها او للدلالة على استمرار الاثارة فسقناه الى بلد
ميت وقرئ بالتخفيف فاحيينا به الارض اى بالمطر النازل منه المدلول عليه بالسحاب
فان بينهما تلازما فى الذهن كما فى الخارج او بالسحاب فانه سبب السبب بعد موتها
اى يبسها وايراد الفعلين على صيغة الماضى للدلالة على التحقق واسنادهما الى نون العظمة
المنبئ عن اختصاصهما به تعالى لما فيهما من مزيد الصنع ولتكميل المماثلة بين احياء الارض
وبين البعث الذى شبه به بقوله تعالى كذلك النشور فى كمال الاختصاص بالقدرة الربانية
والكاف فى حيز الرفع على الخبرية اى مثل ذلك الاحياء الذى تشاهده احياء الاموات فى
صحة المقدورية وسهولة التاتى من غير تفاوت بينهما اصلا سوى الالف فى الاول
دون الثانى وقيل فى كيفية الاحياء يرسل الله تعالى من تحت العرش ماء فينبت منه اجساد
الخلق من كان يريد العزة هم المشركون الذين كانوا يتعززون بعبادة الاصنام كقوله
تعالى واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا والذين كانوا يتعززون بهم من
الذين آمنوا بالسنتهم كما فى قوله تعالى الذين يتخذون الكافرين اولياء من دون المؤمنين
ايبتغون عندهم العزة والجمع بين كان ويريد للدلالة على دوام الارادة واستمرارها فلله العزة
جميعا اى له تعالى وحده لا لغيره عزة الدنيا وعزة الاخرة اى فليطلبها منه لا من غيره
فاستغنى عن ذكره بذكر دليله ايذانا بان اختصاص العزة به تعالى موجب لتخصيص طلبها
به تعالى وقوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه بيان لما يطلب
به العزة وهو التوحيد والعمل الصالح وصعودهما اليه مجاز عن قبوله تعالى اياهما
او صعود الكتبة بصحيفتهما وتقديم الجار والمجرور عبارة عن كمال الاعتداد به
كقوله تعالى هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات اى اليه يصل الكلم الطيب الذى
به يطلب العزة لا الى الملئكة الموكلين باعمال العباد فقط وهو يعز صاحبه ويعطى طلبته
بالذات والمستكن فى يرفعه للكلم فان مدار قبول العمل هو التوحيد ويؤيده القراءة
بنصب العمل او للعمل فانه يحقق الايمان ويقويه ولا ينال الدرجات العالية الا به وقرئ يصعد
من الاصعاد على البناءين والمصعد هو الله تعالى او المتكلم به او الملك وقيل الكلم الطيب
يتناول الذكر والدعاء والاستغفار وقراءة القرآن وعنه عليه السلام انه سبحان الله
والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر اذا قالها العبد عرج بها الملك الى السماء فحيا بها وجه
الرحمن فاذا لم يكن عمل صالح لم يقبل وعن ابن مسعود رضى الله عنهما ما من عبد مسلم
يقول خمس كلمات سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر وتبارك الله الا اخذهن
ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن فما يمر بهن على جمع من الملائكة الا استغفروا
لقائلهن حتى يحيى بهن وجه رب العالمين ومصداقه قوله عز وجل اليه يصعد
الكلم الطيب الخ والذين يمكرون السيئات بيان لحال الكلم الخبيث والعمل السيئ
واهلهما بعد بيان حال الكلم الطيب والعمل الصالح وانتصاب السيئات على انها صفة

للمصدر المحذوف اى يمكرون المكرات السيئات وهى مكرات قريش بالنبى صلى الله عليه وسلم
فى دار الندوة وتداورهم الرأى فى احدى الثلث التى هى الاثبات والقتل والاخراج
لهم بسبب مكراتهم عذاب شديد لا يقادر قدره ولا يؤبه عنده لما يمكرون ومكر اولئك
وضع اسم الاشارة موضع ضميرهم للايذان بكمال تميزهم بما هم فيه من الشر والفساد
عن سائر المفسدين واشتهارهم بذلك وما فيه من معنى البعد للتنبيه على ترامى امرهم
فى الطغيان وبعد منزلتهم فى العدوان اى ومكر اولئك المفسدين الذين ارادوا
ان يمكروا به عليه السلام هو يبور اى هو يهلك ويفسد خاصة لا من مكروا به ولقد ابارهم الله
تعالى بعد ابارة مكراتهم حيث اخرجهم من مكة وقتلهم واثبتهم فى قليب بدر فجمع
عليهم مكراتهم الثلث التى اكتفوا فى حقه عليه السلام بواحدة منهن والله خلقكم من تراب
دليل على امر صحة البعث والنشور اى خلقكم ابتداء منه فى ضمن خلق آدم عليه السلام
خلقا اجماليا كما مر تحقيقه مرارا ثم من نطفة ثم خلقكم منها خلقا تفصيليا ثم جعلكم
ازواجا اى اصنافا او ذكرانا واناثا وعن قتادة جعل بعضكم زوجا لبعض وما تحمل
من انثى ولا تضع الا بعلمه اى ملتبسة بعلمه تابعة لمشيئته وما يعمر من معمر اى من
احد وانما سمى معمرا باعتبار مصيره اى وما يمد فى عمر احد ولا ينقص من عمره اى من عمر
احد على طريقة قولهم لا يثيب الله عبدا ولا يعاقبه الا بحق لكن لا على معنى لا ينقص
عمره بعد كونه زائدا بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصا وقيل الزيادة والنقص فى عمر
واحد باعتبار اسباب مختلفة اثبتت فى اللوح مثل ان يكتب فيه ان حج فلان فعمره ستون
والا فاربعون واليه اشار صلى الله عليه وسلم بقوله الصدقة والصلة تعمران الديار و
تزيدان فى الاعمار وقيل المراد بالنقص ما يمر من عمره وينقص فانه يكتب فى الصحيفة
كذا وكذا سنة ثم يكتب تحت ذلك ذهب يوم ذهب يومان وهكذا حتى يأتى على آخره
وقرئ ولا ينقص على البناء للفاعل ومن عمره بسكون الميم الا فى كتاب عن ابن عباس رضى الله عنهما
انه اللوح وقيل علم الله عز وجل وقيل صحيفة انسان ان ذلك اى ما ذكر من الخلق
وما بعده مع كونه محار العقول والافهام على الله يسير لاستغنائه عن الاسباب
فكذلك البعث وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج
مثل ضرب للمؤمن والكافر والفرات الذى يكسر العطش والسائغ الذى يسهل انحداره
لعذوبته والاجاج الذى يحرق بملوحته وقرئ سيغ كسيد وسيغ بالتخفيف وملح ككتف
وقوله تعالى ومن كل اى من كل واحد منهما تأكلون لحما طريا وتستخرجون اى من الملح خاصة
حلية تلبسونها اما استطراد فى صفة البحرين وما فيهما من النعم والمنافع واما تكملة
للتمثيل والمعنى كما انهما وان اشتركا فى بعض الفوائد لا يتساويان من حيث انهما متفاوتان
فيما هو المقصود بالذات من الماء لما خالط احدهما ما افسده وغيره عن كمال فطرته لا يساوى
الكافر المؤمن وان شاركه فى بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة ونحوهما لتباينهما
فيما هو الخاصية العظمى لبقاء احدهما على فطرته الاصلية وحيازته لكماله اللائق دون
الآخر او تفضيل للاجاج على الكافر من حيث انه يشارك العذب فى منافع كثيرة والكافر
خلو من المنافع بالكلية على طريقة قوله تعالى ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة او
اشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء
وان منها لما يهبط من خشية الله والمراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان وترى الفلك فيه اى
فى كل منهما وافراد ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحق لان الخطاب لكل احد يتأتى منه
الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط مواخر شواق للماء بجريها مقبلة ومدبرة بريح
واحدة لتبتغوا من فضله من فضل الله تعالى بالنقلة فيها واللام متعلقة بمواخر وقد جوز
تعلقها بما يدل عليه الافعال المذكورة اى فعل ذلك لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون
اى ولتشكروا على ذلك وحرف الترجى للايذان بكونه مرضيا عنده تعالى يولج الليل فى النهار
ويولج النهار فى الليل بزيادة احدهما ونقص الآخر باضافة بعض اجزاء كل منهما الى الآخر
وسخر الشمس والقمر عطف على يولج واختلافهما صيغة لما ان ايلاج احد الملوين

فى الآخر متجدد حينا فحينا واما تسخير النيرين فامر لا تعدد فيه وانما المتعدد المتجدد آثاره
وقد اشير اليه بقوله تعالى كل يجرى اى بحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على المدارات
اليومية المتعددة حسب تعدد ايام السنة جريانا مستمرا لاجل مسمى قدره الله تعالى
لجريانهما وهو يوم القيمة كما روى عن الحسن رحمه الله وقيل جريانهما عبارة عن حركتهما
الخاصتين بهما فى فلكيهما والاجل المسمى عن منتهى دوريهما ومدة الجريان للشمس سنة
وللقمر شهر وقد مر تفصيله فى سورة لقمان ذلكم اشارة الى فاعل الافاعيل المذكورة وما
فيه من معنى البعد للايذان بغاية العظمة وهو مبتدا وما بعده اخبار مترادفة اى ذلكم
العظيم الشان الذى ابدع هذه الصنايع البديعة الله ربكم له الملك وفيه من الدلالة
على ان ابداعه تعالى لتلك البدايع مما يوجب ثبوت تلك الاخبار له ما لا يخفى ويجوز ان
يكون الاخير كلاما مبتدا فى مقابلة قوله تعالى والذين تدعون من دونه ما يملكون
من قطمير للدلالة على تفرده تعالى بالالوهية والربوبية وقرى يدعون بالياء التحتانية
والقطمير لفافة النواة وهو مثل فى الحقارة والقلة ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم
استيناف مقرر لمضمون ما قبله كاشف عن جلية حال ما يدعونه بانه جماد ليس من شانه السماع و
لو سمعوا على الفرض والتقدير ما استجابوا لكم لعجزهم عن الافعال بالمرة لا لما قيل من انهم
متبرؤن منكم ومما تدعون لهم فان ذلك مما لا يتصور منهم فى الدنيا ويوم القيمة يكفرون
بشرككم اى يجحدون باشراككم لهم وعبادتكم اياهم بقولهم ما كنتم ايانا تعبدون و
ولا ينبئك مثل خبير اى لا يخبرك بالامر مخبر مثل خبير اخبرك به وهو الحق سبحانه فانه
الخبير بكنه الامور دون سائر المخبرين والمراد تحقيق ما اخبر به من حال الهتهم ونفى
ما يدعون لهم من الالهية يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله فى انفسكم وفيما يعن لكم
من امر مهم او خطب ملم وتعريف الفقراء للمبالغة فى فقرهم كانهم لكثرة افتقارهم
وشدة احتياجهم هم الفقراء فحسب وان افتقار سائر الخلايق بالنسبة الى فقرهم بمنزلة
العدم ولذلك قال تعالى وخلق الانسان ضعيفا والله هو الغنى الحميد اى المستغنى
على الاطلاق المنعم على سائر الموجودات المستوجب للحمد ان يشا يذهبكم ويات بخلق
جديد ليسوا على صفتكم بل مستمرون على الطاعة او بعالم آخر غير ما تعرفونه وما ذلك
اى ما ذكر من الاذهاب بهم والاتيان باخرين على الله بعزيز بمتعذر ولا متعسر
ولا تزر وازرة اى لا تحمل نفس آثمة وزر اخرى اثم نفس اخرى بل انما تحمل كل منهما
وزرها واما ما فى قوله تعالى وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم من حمل المضلين
اثقالا غير اثقالهم فهو حمل اثقال اضلالهم مع اثقال ضلالهم وكلاهما اوزارهم ليس
فيها من اوزار غيرهم شئ وان تدع مثقلة اى نفس اثقلها الاوزار الى حملها ليحمل
بعض اوزارها لا يحمل منه شئ لم يجب بحمل شئ منه ولو كان اى المدعو المفهوم
من الدعوة ذا قربى ذا قرابة من الداعى وقرى ذو قربى وهذا نفى للحمل اختيارا
والاول نفى له اجبارا انما تنذر استيناف مسوق لبيان من يتعظ بما ذكر
اى تنذر بهذه الانذارات الذين يخشون ربهم بالغيب اى يخشونه تعالى غائبين عن
عذابه او عن الناس فى خلواتهم او يخشون عذابه وهو غائب منهم واقاموا
الصلوة اى راعوها كما ينبغى وجعلوها منارا منصوبا وعلما مرفوعا اى انما ينفع
انذارك وتحذيرك هؤلاء من قومك دون من عداهم من اهل التمرد والعناد ومن
تزكى اى تطهر من اوضار الاوزار والمعاصى بالتاثر من هذه الانذارات فانما يتزكى لنفسه
لاقتصار نفعه عليها كما ان من تدنس بها لا يتدنس الا عليها وقرى من ازكى فانما
يزكى وهو اعتراض مقرر لخشيتهم واقامتهم الصلوة لانهما معظم مبادى التزكى والى
الله المصير لا الى احد غيره استقلالا او اشتراكا فيجازيهم على تزكيهم احسن الجزاء
وما يستوى الاعمى والبصير اى الكافر والمؤمن ولا الظلمات ولا النور اى ولا الباطل
ولا الحق وجمع الظلمات مع افراد النور لتعدد فنون الباطل واتحاد الحق ولا الظل ولا الحرور
اى ولا الثواب ولا العقاب وادخال لا على المتقابلين لتذكير نفى الاستواء

وتوسيطها بينهما للتاكيد والحرور فعول من الحر غلب على السموم وقيل السموم ما يهب نهارا
والحرور ما يهب ليلا وما يستوى الاحياء ولا الاموات تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين
ابلغ من الاول ولذلك كرر الفعل واوثر صيغة الجمع فى الطرفين تحقيقا للتباين بين
افراد الفريقين وقيل تمثيل للعلماء والجهلة ان الله يسمع من يشاء اى يسمعه ويوفقه
لفهم آياته والاتعاظ بعظاته وما انت بمسمع من فى القبور ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر
بالاموات واشباع فى اقناطه عليه السلام من ايمانهم ان انت الا نذير ما عليك الا الانذار
واما الاسماع البتة فليس من وظايفك ولا حيلة لك اليه فى المطبوع على قلوبهم انا ارسلناك
بالحق اى محقين او محقا انت او ارسالا مصحوبا بالحق ويجوز ان يتعلق بقوله بشيرا
ونذيرا اى بشيرا بالوعد الحق ونذيرا بالوعيد الحق وان من امة اى ما من امة من
الامم الدارجة فى الازمنة الماضية الا خلا اى مضى فيها نذير من نبى او عالم
ينذرهم والاكتفاء بذكره للعلم بان النذارة قرينة البشارة لا سيما وقد اقترنا آنفا
ولان الانذار هو الانسب بالمقام وان يكذبوك اى تموا على تكذيبك فلا تبال بهم و
بتكذيبهم فقد كذب الذين من قبلهم من الامم العاتية جاءتهم رسلهم بالبينات
اى المعجزات الظاهرة الدالة على نبوتهم وبالزبر كصحف ابراهيم وبالكتاب المنير
كالتورية والانجيل والزبور على ارادة التفصيل دون الجمع ويجوز ان يراد بهما واحد
والعطف لتغاير العنوانين ثم اخذت الذين كفروا وضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم
بما فى حيز الصلة والاشعار بعلة الاخذ فكيف كان نكير اى انكارى بالعقوبة وفيه مزيد
تشديد وتهويل لها الم تر استيناف مسوق لتقرير ما قبله من اختلاف احوال الناس
ببيان ان الاختلاف والتفاوت امر مطرد فى جميع المخلوقات من النبات والجماد والحيوان و
الرؤية قلبية اى الم تعلم ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به بذلك الماء والالتفات
لاظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة
ثمرات مختلفا الوانها اى اجناسها او اصنافها على ان كلا منها ذو اصناف مختلفة او
هيآتها واشكالها او الوانها من الصفرة والخضرة والحمرة وغيرها وهو الاوفق لما فى
قوله تعالى ومن الجبال جدد اى ذو جدد اى خطط وطرائق ويقال جدة الحمار للخطة
السوداء على ظهره وقرى جدد بالضم جمع جديدة بمعنى الجدة وجدد بفتحتين وهو
الطريق الواضح بيض وحمر مختلف الوانها بالشدة والضعف وغرابيب سود عطف على
بيض او على جدد كانه قيل ومن الجبال مخطط ذو جدد ومنها ما هو على لون واحد
غرابيب وهو تاكيد لمضمر يفسره ما بعده فان الغربيب تاكيد للاسود كالفاقع للاصفر
والقانى للاحمر ومن حق التاكيد ان يتبع المؤكد ونظيره فى الصفة قول النابغة والمؤمن
العائذات الطير يمسحها وفى مثله مزيد تاكيد لما فيه من التكرار باعتبار الاضمار والاظهار
ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه اى ومنهم بعض مختلف الوانه او وبعضهم
مختلف الوانه على ما مر فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وايراد الجملتين
اسميتين مع مشاركتهما لما قبلهما من الجملة الفعلية فى الاستشهاد بمضمونها على تباين
الناس فى الاحوال الباطنة لما ان اختلاف الجبال والناس والدواب والانعام فيما ذكر من
الالوان امر مستمر فعبر عنه بما يدل على الاستمرار واما اخراج الثمرات المختلفة فحيث كان
امرا حادثا عبر عنه بما يدل على الحدوث ثم لما كان فيه نوع خفاء علق به الرؤية بطريق
الاستفهام التقريرى المنبئ عن الحمل عليها والترغيب فيها بخلاف احوال الجبال والناس وغيرهما فانها
مشاهدة غنية عن التامل فلذلك جردت عن التعليق بالرؤية فتدبر وقوله تعالى كذلك
مصدر تشبيهى لقوله تعالى مختلف اى صفة لمصدره المؤكد تقديره مختلف اختلافا كائنا
كذلك اى كاختلاف الثمار والجبال وقرى الوانها وقرى والدواب بالتخفيف مبالغة فى الهرب من
التقاء الساكنين وقوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء لقوله تعالى انما تنذر الذين
يخشون ربهم بالغيب بتعيين من يخشاه عز وجل من الناس بعد بيان اختلاف طبقاتهم
وتباين مراتبهم اما فى الاوصاف المعنوية فبطريق التمثيل واما فى الاوصاف الصورية فبطريق

التصريح بتوفيه لكل واحدة منهما حقها اللائق بها من البيان اى انما يخشاه تعالى بالغيب العالمون
عز وجل وبما يليق به من صفاته الجليلة وافعاله الجميلة لما ان مدار الخشية
معرفة المخشى والعلم بشؤونه فمن كان اعلم به تعالى كان اخشى منه عز وجل كما قال عم انا اخشاكم
لله واتقاكم له ولذلك عقب بذكر افعاله الدالة على كمال قدرته وحيث كان الكفرة بمعزل
من هذه المعرفة امتنع انذارهم بالكلية وتقديم المفعول لان المقصود حصر الفاعلية ولو
اخر انعكس الامر وقرئ برفع الاسم الجليل ونصب العلماء على ان الخشية مستعارة للتعظيم
فان المعظم يكون مهيبا ان الله عزيز غفور تعليل لوجوب الخشية لدلالته على انه
معاقب للمصر على طغيانه غفور للتائب عن عصيانه ان الذين يتلون كتاب الله اى يداومون
على قراءته او متابعة ما فيه حتى صارت سمة لهم وعنوانا والمراد بكتاب الله تعالى القران وقيل
جنس كتب الله تعالى فيكون ثناء على المصدقين من الامم بعد اقتصاص حال المكذبين
منهم وليس بذاك فان صيغة المضارع منادية باستمرار مشروعية تلاوته والعمل بما فيه
واستتباعهم لما سيأتى من توفية الاجور وزيادة الفضل وحملها على حكاية الحال الماضية
مع كونه تعسفا ظاهرا مما لا سبيل اليه كيف لا والمقصود الترغيب فى دين الاسلام
والعمل بالقران الناسخ لما بين يديه من الكتب فالتعرض لبيان حقيتها قبل انتساخها والاشباع
فى ذكر استتباعها لما ذكر من الفوائد العظيمة مما يورث الرغبة فى تلاوتها والاقبال على
العمل بها وتخصيص التلاوة بما لم ينسخ منها باطل قطعا لما ان الباقى مشروعا ليس الا حكمها
لكن لا من حيث انه حكمها بل من حيث انه حكم القران واما تلاوتها فبمعزل من المشروعية
واستتباع الاجر بالمرة فتدبر واقاموا الصلوة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية
كيفما اتفق من غير قصد اليهما وقيل السر فى المسنونة والعلانية فى المفروضة يرجون
تجارة تحصيل ثواب بالطاعة وهو خبر ان قوله تعالى لن تبور اى لن تكسد ولن
تهلك بالخسران اصلا صفة للتجارة جئ بها للدلالة على انها ليست كسائر التجارات الدائرة
بين الربح والخسران لانه اشتراء باق بفان والاخبار برجائهم من اكرم الاكرمين عدة
قطعية بحصول مرجوهم وقوله تعالى ليوفيهم اجورهم متعلق بلن تبور على معنى
ينتفى عنها الكساد وتنفق عند الله تعالى ليوفيهم اجور اعمالهم ويزيدهم من فضله
على ذلك من خزائن رحمته ما يشاء وقد جوز تعلقه بما عد من افعالهم المرضية
اى فعلوا ذلك ليوفيهم الخ وقيل بيرجون على ان اللام للعاقبة انه غفور شكور
تعليل لما قبله من التوفية والزيادة اى غفور لفرطاتهم شكور لطاعاتهم اى مجازيهم
عليها وقيل هو خبر ان الذين ويرجون حال من واو وانفقوا والذى اوحينا اليك من
الكتاب وهو القران ومن للتبيين او الجنس ومن للتبعيض وقيل اللوح ومن للابتداء
هو الحق مصدقا لما بين يديه اى احقه مصدقا لما تقدمه من الكتب السماوية حال
مؤكدة لان حقيته تستلزم موافقته اياه فى العقائد واصول الاحكام ان الله بعباده لخبير
بصير محيط ببواطن امورهم وظواهرها فلو كان فى احوالك ما ينافى النبوة لم يوح اليك مثل
هذا الحق المعجز الذى هو عيار على سائر الكتب وتقديم الخبير للتنبيه على ان العمدة هى الامور
الروحانية ثم اورثنا الكتاب اى قضينا بتوريثه منك او نورثه والتعبير عنه بالماضى
لتقرره وتحققه وقيل اورثناه من الامم السالفة اى اخرناه عنهم واعطيناه الذين
اصطفينا من عبادنا وهم علماء الامة من الصحابة ومن بعدهم ممن يسير بسيرتهم او
الامة باسرهم فان الله تعالى اصطفاهم على سائر الامم وجعلهم امة وسطا ليكونوا شهداء
على الناس واختصهم بكرامة الانتماء الى افضل رسله عليهم الصلوة والسلام وليس من
ضرورة وراثة الكتاب مراعاته حق رعايته لقوله تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب
الآية فمنهم ظالم لنفسه بالتقصير فى العمل به وهو المرجا لامر الله تعالى ومنهم مقتصد
يعمل به فى اغلب الاوقات ولا يخلو من خلط السيئ ومنهم سابق بالخيرات باذن الله
قيل هم السابقون الاولون من المهاجرين والانصار وقيل هم المداومون على اقامة
مواجبه علما وعملا وتعليما وفى قوله تعالى باذن الله اى بتيسيره وتوفيقه تنبيه على عزة

منار

منال هذه الرتبة وصعوبة مأخذها وقيل الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم
وقيل الظالم المجرم والمقتصد الذى خلط الصالح بالسيئ والسابق الذى ترجحت حسناته
بحيث صارت سيئاته مكفرة وهو معنى قوله عليه السلام اما الذين سبقوا فاولئك
يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب واما المقتصدون فاولئك يحاسبون حسابا يسيرا
واما الذين ظلموا انفسهم فاولئك يحبسون فى طول المحشر ثم يتلقاهم الله تعالى برحمته
وقد روى ان عمر رضى الله عنه قال وهو على المنبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقنا
سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له ذلك اشارة الى السبق بالخيرات وما فيه من
معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه لعلو رتبته وبعد منزلته فى الشرف هو الفضل الكبير
من الله عز وعلا لا ينال الا بتوفيقه تعالى جنات عدن اما بدل من الفضل الكبير بتنزيل
السبب منزلة المسبب او مبتدأ خبره يدخلونها وعلى الاول هو مستأنف وجمع الضمير لان
المراد بالسابق الجنس وتخصيص حال السابقين ومآلهم بالذكر والسكوت عن الفريقين
الاخيرين وان لم يدل على حرمانهما من دخول الجنة مطلقا لكن فيه تحذير لهما من
التقصير وتحريضا على السعى فى ادراك شأو السابقين وقرئ جنات عدن وجنة عدن على
النصب بفعل يفسره الظاهر وقرئ يدخلونها على البناء للمفعول يحلون فيها خبر ثان او حال
مقدرة وقرئ يحلون من حليت المرأة فهى حالية من اساور هى جمع اسورة جمع سوار
من ذهب من الاولى تبعيضية والثانية بيانية اى يحلون بعض اساور من ذهب كانه افضل
من سائر افرادها ولؤلؤا بالنصب عطف على محل من اساور وقرئ بالجر عطفا على ذهب
اى من ذهب مرصع باللؤلؤ او من ذهب فى صفاء اللؤلؤ ولباسهم فيها حرير
وتغيير الاسلوب قد مر فى سورة الحج وقالوا اى يقولون وصيغة الماضى للدلالة على
على التحقق الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن وهو ما اهمهم من خوف سوء العاقبة وعن ابن
عباس رضى الله عنهما حزن الاعراض والآفات وعنه حزن الموت وعن الضحاك حزن وسوسة
ابليس وقيل هم المعاش وقيل حزن زوال النعمة والظاهر انه الجنس المنتظم لجميع احزان
الدين والدنيا وقرئ الحزن وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس على اهل لا اله الا
الله وحشة فى قبورهم ولا فى محشرهم ولا فى مسيرهم وكانى باهل لا اله الا الله يخرجون
من قبورهم ينفضون التراب عن وجوههم ويقولون الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن
ان ربنا لغفور اى للمذنبين شكور للمطيعين الذى احلنا دار المقامة اى دار
الاقامة التى لا انتقال عنها ابدا من فضله من انعامه وتفضله من غير ان يوجبه
شئ من قبلنا لا يمسنا فيها نصب تعب ولا يمسنا فيها لغوب كلال والفرق بينهما ان
النصب نفس المشقة والكلفة واللغوب ما يحدث منه من الفتور والتصريح بنفى الثانى
مع استلزام نفى الاول له وتكرير الفعل المنفى للمبالغة فى بيان انتفاء كل منهما والذين كفروا
لهم نار جهنم لا يقضى عليهم لا يحكم عليهم بموت ثان فيموتوا ويستريحوا ونصبه
باضمار ان وقرئ فيموتون عطفا على يقضى كقوله تعالى ولا يؤذن لهم فيعتذرون ولا يخفف
عنهم من عذابها بل كلما خبت زيد اسعارها كذلك اى مثل ذلك الجزاء الفظيع
نجزى كل كفور مبالغ فى الكفر او الكفران لا جزاء اخف وادنى منه وقرئ يجزى على البناء
للمفعول واسناده الى كل وقرئ نجازى وهم يصطرخون فيها يستغيثون والاصطراخ
افتعال من الصراخ استعمل فى الاستغاثة لجهر المستغيث صوته ربنا اخرجنا نعمل صالحا غير الذى
كنا نعمل باضمار القول وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير الصالح
والاعتراف به والاشعار بان استخراجهم لتلافيه وانهم كانوا يحسبونه صالحا والآن تبين
خلافه وقوله تعالى اولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر جواب من جهته تعالى وتوبيخ لهم
والهمزة للانكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام وما نكرة موصوفة اى الم
نمهلكم اولم نؤخركم ولم نعمركم عمرا يتذكر فيه من تذكر اى يتمكن فيه المتذكر من التذكر والتفكر
قيل هو اربعون سنة وعن ابن عباس رضى الله عنهما ستون سنة وروى ذلك عن على رضى الله تعالى
عنهم وهو العمر الذى اعذر الله فيه الى ابن آدم قال عم اعذر الله الى امرئ اخر اجله

حتى بلغ ستين سنة وقوله تعالى وجاءكم النذير عطف على الجملة الاستفهامية لانها فى معنى قد عمرناكم كما فى قوله تعالى الم نشرح لك صدرك ووضعنا الخ لانه فى معنى قد شرحنا الخ والمراد بالنذير رسول الله صلى الله عليه وسلم او ما معه من القرآن وقيل العقل وقيل الشيب وقيل موت الاقارب والاقتصار على ذكر النذير لانه الذى يقتضيه المقام والفاء فى قوله تعالى فذوقوا لترتيب الامر بالذوق على ما قبلها من التعمير ومجئ النذير وفى قوله تعالى فما للظالمين من نصير للتعليل ان الله عالم غيب السموات والارض بالاضافة وقرئ بالتنوين ونصب غيب على المفعولية اى لا يخفى عليه خافية فيهما فلا يخفى عليه احوالهم انه عليم بذات الصدور وقيل انه تعليل لما قبله لانه اذا علم مضمرات الصدور وهى اخفى ما يكون كان اعلم بغيرها هو الذى جعلكم خلائف فى الارض يقال للمستخلف خليفة وخليف والاول يجمع خلائف والثانى خلفاء والمعنى انه تعالى جعلكم خلفاءه فى ارضه والقى اليكم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها واباح لكم منافعها او جعلكم خلفاء ممن قبلكم من الامم واورثكم ما بايديهم من متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة فمن كفر منكم مثل هذه النعمة السنية وغمطها فعليه كفره اى وبال كفره لا يتعداه الى غيره وقوله تعالى ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا بيان لوبال الكفرة وغائلته وهو مقت الله تعالى اياهم اى بغضه الشديد الذى ليس وراءه خزى وصغار وخسار الآخرة الذى ما بعده شر وخسار والتكرير لزيادة التقرير والتنبيه على ان اقتضاء الكفر لكل واحد من الامرين الهائلين القبيحين بطريق الاستقلال والاصالة قل ارأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله اى آلهتكم والاضافة اليهم لانهم جعلوهم شركاء لله تعالى من غير ان يكون له اصل ما اصلا وقيل جعلوهم شركاء لانفسهم فيما يملكونه ويأباه سباق النظم الكريم وسياقه اروني ماذا خلقوا من الارض بدل اشتمال من ارأيتم كانه قيل اخبروني عن شركائكم اروني اى جزء خلقوا من الارض ام لهم شرك فى السموات اى ام لهم شركة مع الله سبحانه فى خلق السموات ليستحقوا بذلك شركة فى الالوهية ذاتية ام آتيناهم كتابا ينطق بانا اتخذناهم شركاء فهم على بينة منه اى حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بان لهم شركة جعلية ويجوز ان يكون ضمير آتيناهم للمشركين كما فى قوله تعالى ام انزلنا عليهم سلطانا الخ وقرئ على بينات وفيه ايماء الى ان الشرك امر خطير لابد فى اثباته من تعاضد الدلائل بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا لما نفى انواع الحجج فى ذلك اضرب عنه بذكر ما حملهم عليه وهو تقرير الاسلاف للاخلاف واضلال الرؤساء للاتباع بانهم شفعاء عند الله يشفعون لهم بالتقرب اليهم ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا استئناف مسوق لبيان غاية قبح الشرك وهوله اى يمسكهما كراهة زوالهما او يمنعهما ان تزولا لان الامساك منع ولئن زالتا ان امسكهما اى ما امسكهما من احد من بعده من بعد امساكه تعالى او من بعد الزوال والجملة سادة مسد الجوابين ومن الاولى مزيدة لتاكيد العموم والثانية للابتداء انه كان حليما غفورا غير معاجل بالعقوبة التى تستوجبها جناياتهم حيث امسكهما وكانتا جديرتين بان تهدا هدا حسبما قال تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وقرئ ولو زالتا واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن اهدى من احدى الامم بلغ قريشا قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا لعن الله اليهود والنصارى اتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن اتانا رسول لنكونن اهدى من احدى الامم اليهود والنصارى وغيرهم او من الامة التى يقال لها احدى الامم تفضيلا لها على غيرها فى الهدى والاستقامة فلما جاءهم نذير واى نذير اشرف الرسل عليهم السلام ما زادهم اى النذير او مجيئه الا نفورا تباعدا عن الحق استكبارا فى الارض بدل من نفورا او مفعول له ومكر السيئ اصله وان مكروا السيئ اى المكر السيئ ثم ومكرا السيئ ثم ومكر السيئ وقرئ بسكون الهمزة فى الوصل ولعله اختلاس ظن سكونا او وقفة خفيفة وقرئ ومكرا سيئا ولا يحيق المكر السيئ الا باهله فهل ينظرون

اى ما ينتظرون الا سنة الاولين اى سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم فلن تجد لسنة الله تبديلا اى بان يضع موضع العذاب غير العذاب ولن تجد لسنة الله تحويلا بان ينقله من المكذبين الى غيرهم والفاء لتعليل ما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب من مجيئه ونفى وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفى وجودهما بالطريق البرهانى وتخصيص كل منهما بنفى مستقل لتاكيد انتفائهما اولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم استشهاد على ما قبله من جريان سنته على تعذيب المكذبين بما يشاهدونه فى مسايرهم الى الشام واليمن والعراق من آثار دمار الامم الماضية العاتية والهمزة للانكار والنفى والواو للعطف على مقدر يليق بالمقام اى اقعدوا فى مساكنهم ولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة من قبلهم وكانوا اشد منهم قوة واطول اعمارا فما نفعهم طول المدى وما اغنى عنهم شدة القوى ومحل الجملة النصب على الحالية وقوله تعالى وما كان الله ليعجزه من شئ اى ليسبقه ويفوته فى السموات ولا فى الارض اعتراض مقرر لما يفهم مما قبله من استيصال الامم السالفة وقوله تعالى انه كان عليما قديرا اى مبالغا فى العلم والقدرة ولذلك علم بجميع اعمالهم السيئة فعاقبهم بموجبها تعليل لذلك ولو يؤاخذ الله الناس جميعا بما كسبوا من السيئات كما فعل باولئك ما ترك على ظهرها اى على ظهر الارض من دابة من نسمة تدب عليها من بنى آدم وقيل ومن غيرهم ايضا من شؤم معاصيهم وهو المروى عن ابن مسعود وانس رضى الله عنهما ويعضد الاول قوله تعالى ولكن يؤخرهم الى اجل مسمى وهو يوم القيمة فاذا جاء اجلهم فان الله كان بعباده بصيرا فيجازيهم عند ذلك باعمالهم ان خيرا فخير وان شرا فشر عن النبى صلعم من قرأ سورة الملئكة دعته ثمانية ابواب الجنة ان ادخل من اى باب شئت

سورة يس مكية وهى ثمانون آية ثلاث

بسم الله الرحمن الرحيم

يس اما مسرود على نمط التعديد فلا حظ له من الاعراب او اسم للسورة كما نص عليه الخليل وسيبويه وعليه الاكثر فمحله الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف او النصب على انه مفعول لفعل مضمر وعليهما مدار قراءة ياسين بالرفع والنصب اى هذه ياسين او اقرأ ياسين ولا مساغ للنصب باضمار فعل القسم لان بعده مقسما به وقد ابوا الجمع بين قسمين على شئ واحد قبل انقضاء الاول ولا مجال للعطف لاختلافهما اعرابا وقيل هو مجرور باضمار باء القسم مفتوح لكونه غير منصرف كما سلف فى فاتحة سورة البقرة من ان ما كانت من هذه الفواتح مفردة مثل صاد وقاف ونون او كانت موازنة لمفرد نحو طاسين وياسين وحاميم الموازنة لقابيل وهابيل تتأتى فيها الاعراب اللفظى ذكره سيبويه فى باب اسماء السور من كتابه وقيل هما حركتا بناء كما فى حيث واين حسبما يشهد بذلك قراءة ياسين بالكسر كجير وقيل الفتح والكسر تحريك للجد فى الهرب من التقاء الساكنين وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان معناه يا انسان فى لغة طى وقالوا المراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعل اصله يا انيسين فاقتصر على شطره كما قيل من الله فى ايمن الله والقرآن بالجر على انه مقسم به ابتداء وقد جوز ان يكون عطفا على يس على تقدير كونه مجرورا باضمار باء القسم الحكيم اى المتضمن للحكمة او الناطق بها بطريق الاستعارة او المتصف بها على الاسناد المجازى وقد جوز ان يكون الاصل الحكيم قائله فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه فبانقلابه مرفوعا بعد الجر استكن فى الصفة المشبهة كما مر فى سورة لقمان انك لمن المرسلين جواب للقسم والجملة لرد انكار الكفرة بقولهم فى حقه عليه السلام لست مرسلا وهذه الشهادة منه عز وجل من جملة ما اشير اليه بقوله فى جوابهم قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم وفى تخصيص القرآن بالاقسام به اولا وبوصفه بالحكيم ثانيا تنويه بشانه وتنبيه على انه كما يشهد برسالته عم من حيث نظمه المعجز المنطوى على بدائع الحكم يشهد بها من هذه الحيثية ايضا لما ان الاقسام بالشئ استشهاد به على تحقق مضمون الجملة القسمية وتقوية لثبوته فيكون شاهدا به ودليلا عليه

قطعًا وقوله تعالى على صراط مستقيم خبر آخر لان او حال من المستكن في الجار والمجرور على انه
عبارة عن الشريعة الشريفة بكمالها لا عن التوحيد فقط وفائدته بيان ان شريعته عم اقوم
الشرايع واعدلها كما يعرب عنه التنكير التفخيمي والوصف اثر بيان انه عم من جملة المرسلين
بالشرايع تنزيل العزيز الرحيم نصب على المدح وقرئ بالرفع على انه خبر مبتداء محذوف
وبالجر على انه بدل من القران وايّاما كان فهو مصدر بمعنى المفعول عبر به عن القرآن
بيانًا لكمال عراقته في كونه منزلًا من عند الله عز وجل كانه نفس التنزيل واظهارًا لفخامته
الاضافية بعد بيان فخامته الذاتية بوصفه بالحكمة وفي تخصيص الاسمين الكريمين المعربين
عن الغلبة التامة والرأفة العامة حث على الايمان به ترهيبًا وترغيبًا واشعار بان
تنزيله ناشئ عن غاية الرحمة حسبما نطق به قوله تعالى وما ارسلناك الا رحمة للعالمين و
قيل النصب على انه مصدر مؤكد لفعله المضمر اي نزل تنزيل العزيز الرحيم على انه استيناف
مسوق لبيان ما ذكر من فخامة شان القران وعلى كل تقدير ففيه فضل تاكيد لمضمون الجملة
القسمية لتنذر متعلق بتنزيل على الوجوه الاول وبعامله المضمر على الوجه الاخير اي
لتنذر به كما في صدر الاعراف وقيل متعلق بما يدل عليه لمن المرسلين اي انك مرسل لتنذر
قومًا ما انذر اباؤهم اي لم ينذر اباؤهم الاقربون لتطاول مدة الفترة على ان ما
نافية فيكون صفة مبينة لغاية احتياجهم الى الانذار او الذي انذر او شيئًا انذر
اباؤهم الابعدون على انها موصولة او موصوفة فيكون مفعولًا ثانيًا لتنذر او انذار اباءهم
الاقدمين على انها مصدرية فيكون نعتًا لمصدر مؤكد اي لتنذر انذارًا كائنًا مثل انذار هم
فهم غافلون على الوجه الاول متعلق بنفي الانذار مترتب عليه والضمير للفريقين اي لم تنذر اباؤهم
فهم جميعًا لاجله غافلون وعلى الوجوه الباقية متعلق بقوله تعالى لتنذر او بما يفيده
انك لمن المرسلين وارد لتعليل انذاره عليه السلام او ارساله بغفلتهم المحوجة اليهما
على ان الضمير للقوم خاصة فالمعنى فهم غافلون عنه اي عما انذر اباؤهم الاقدمون لامتداد
المدة واللام في قوله تعالى لقد حق القول على اكثرهم جواب القسم اي والله لقد ثبت و
تحقق عليهم البتة لكن لا بطريق الجبر من غير ان يكون من قبلهم ما يقتضيه بل بسبب اصرارهم
الاختياري على الكفر والانكار وعدم تأثرهم من التذكير والانذار وغلوهم في العتو
والطغيان وتماديهم في اتباع خطوات الشيطان بحيث لا يلويهم صارف ولا يثنيهم
عاطف كيف لا والمراد بما حق من القول قوله تعالى لابليس عند قوله لاغوينهم اجمعين
لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين وهو المعني بقوله تعالى لاملأن جهنم من
الجنة والناس اجمعين كما يلوح به تقديم الجنة على الناس فانه كما ترى قد اوقع فيه
الحكم بادخال جهنم على من تبع ابليس وذلك تعليل له بتبعيته قطعًا وثبوت القول على هؤلاء
الذين عبر عنهم باكثرهم انما هو لكونهم من جملة اولئك المصرين على تبعية ابليس ابدًا
واذ قد تبين ان مناط ثبوت القول وتحققه عليهم اصرارهم على الكفر الى الموت ظهر ان
قوله تعالى فهم لا يؤمنون متفرع في الحقيقة على ذلك لا على ثبوت القول وقوله تعالى
انا جعلنا في اعناقهم اغلالًا تقرير لتصميمهم على الكفر وعدم ارعوائهم عنه بتمثيل حالهم
بحال الذين غلت اعناقهم فهي الى الاذقان اي فالاغلال منتهية الى اذقانهم فلا تدعهم
يلتفتون الى الحق ولا يعطفون اعناقهم نحوه ولا يطاطئون رؤسهم له فهم مقمحون
رافعون رؤسهم غاضون ابصارهم بحيث لا يكادون يرون الحق او ينظرون الى جهته
وجعلنا من بين ايديهم سدًا ومن خلفهم سدًا فاغشيناهم فهم لا يبصرون اما تتمة
للتمثيل وتكميل له اي تكميل اي وجعلنا مع ما ذكر من امامهم سدًا عظيمًا ومن
ورائهم سدًا كذلك فغطينا بهما ابصارهم فهم بسبب ذلك لا يقدرون على ابصار
شيء ما اصلًا واما تمثيل مستقل فان ما ذكر من جعلهم محصورين بين سدين هائلين
قد غطينا ابصارهم بحيث لا يبصرون شيئًا قطعًا كاف في الكشف عن كمال فظاعة حالهم و
كونهم محبوسين في مطمورة الغي والجهالات محرومين عن النظر في الادلة والآيات وقرئ
سدًا بالضم وهي لغة فيه وقيل ما كان من عمل الناس فهو بالفتح وما كان من خلق الله فبالضم وقرئ فاعشيناهم
من العشا وقيل الآيتان في بني مخزوم وذلك ان ابا جهل حلف لئن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم

يصلي ليرضخن رأسه فاتاه وهو عليه السلام يصلي ومعه حجر ليدمغه فلما رفع يده انثنت الى عنقه
ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد فرجع الى قومه فاخبرهم بذلك فقال مخزومي آخر انا
اقتله بهذا الحجر فذهب فاعمى الله تعالى بصره وسواء عليهم ءانذرتهم ام لم تنذرهم
بيان لشانهم بطريق التصريح اثر بيانه بطريق التمثيل اي مستو عندهم انذارك وعدمه
حسبما مر تحقيقه في سورة البقرة وقوله تعالى لا يؤمنون استيناف مؤكد لما قبله مبين لما
فيه من اجمال ما فيه الاستواء او حال مؤكدة له او بدل منه ولما بين كون الانذار عندهم
كعدمه عقب ببيان من يتأثر منه فقيل انما تنذر اي انذارًا مستتبعًا للاثر من اتبع
الذكر اي القران بالتامل فيه او الوعظ ولم يصر على اتباع خطوات الشيطان وخشي
الرحمن بالغيب اي خاف عقابه وهو غائب عنه على انه حال من الفاعل او المفعول
او خافه في سريرته ولم يغتر برحمته فانه منتقم قهار كما انه رحيم غفار كما نطق به
قوله تعالى نبئ عبادي اني انا الغفور الرحيم وان عذابي هو العذاب الاليم فبشره بمغفرة
عظيمة واجر كريم لا يقادر قدره والفاء لترتيب البشارة او الامر بها على ما قبلها
من اتباع الذكر والخشية انا نحن نحيي الموتى بيان لشان عظيم ينطوي على الانذار والتبشير
انطواء اجماليًا اي نبعثهم بعد مماتهم وعن الحسن احياؤهم اخراجهم من الشرك الى
الايمان فهو حينئذ عدة كريمة بتحقيق المبشر به ونكتب ما قدموا اي ما اسلفوا من
الاعمال الصالحة وغيرها واثارهم التي ابقوها من الحسنات كعلم علموه او كتاب الفوه
او حبيس وقفوه او بناء بنوه من المساجد والرباطات والقناطر وغير ذلك من وجوه
البر ومن السيئات كتاسيس قوانين الظلم والعدوان وترتيب مبادي الشر والفساد فيما
بين العباد وغير ذلك من فنون الشرور التي احدثوها وسنوها لمن بعدهم من المفسدين و
قيل هي آثار المشائين الى المساجد ولعل المراد انها من جملة الاثار وقرئ ويكتب على البناء
للمفعول ورفع اثارهم وكل شيء من الاشياء كائنًا ما كان احصيناه في امام مبين اصل
عظيم الشان مظهر لجميع الاشياء مما كان وما سيكون وهو اللوح المحفوظ وقرئ كل شيء بالرفع
واضرب لهم مثلًا اصحاب القرية ضرب المثل يستعمل تارة في تطبيق حالة غريبة بحالة
اخرى مثلها كما في قوله تعالى ضرب الله مثلًا للذين كفروا امراة نوح وامراة لوط في ذكر
حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد الى تطبيقها بنظيرة لها كما في قوله تعالى وضربنا
لكم الامثال على احد الوجهين اي بينا لكم احوالًا بديعة هي في الغرابة كالامثال
والمعنى على الاول اجعل اصحاب القرية مثلًا لهؤلاء في الغلو في الكفر والاصرار على
تكذيب الرسل اي طبق حالهم بحالهم على ان مثلًا مفعول ثان لاضرب واصحاب القرية
مفعوله الاول اخر عنه ليتصل به ما هو شرحه وبيانه وعلى الثاني اذكر وبين لهم قصة هي
كالمثل في الغرابة وقوله تعالى اصحاب القرية بدل منه بتقدير المضاف اي مثل اصحاب القرية والقرية انطاكية اذ
جاءها المرسلون بدل اشتمال من اصحاب القرية وهم رسل عيسى عم الى اهلها ونسبة
ارسالهم اليه تعالى في قوله اذ ارسلنا اليهم اثنين بناء على انه كان بامره تعالى لتكميل التمثيل
وتتميم التسلية وهما يحيى ويونس وقيل غيرهما فكذبوهما اي فاتياهم فدعوهم الى الحق
فكذبوهما في الرسالة فعززنا اي قوينا يقال عزز المطر الارض اذا لبدها وقرئ بالتخفيف
من عزه اذا غلبه وقهره وحذف المفعول لدلالة ما قبله عليه ولان المقصود ذكر
المعزز به بثالث هو شمعون فقالوا اي جميعًا انا اليكم مرسلون مؤكدين كلامهم لسبق
الانكار لما ان تكذيبهما تكذيب للثالث لاتحاد كلمتهم وذلك انهم كانوا عبدة اصنام
فارسل اليهم عيسى عم اثنين فلما قربا من المدينة رأيا شيخًا يرعى غنيمات له وهو حبيب
النجار صاحب يس فسألهما فاخبراه فقال امعكما آية فقالا نشفي المريض ونبرئ الاكمه
والابرص وكان له ولد مريض منذ سنتين فمسحاه فقام فآمن حبيب وفشا الخبر وشفي على ايديهما
خلق وبلغ حديثهما الى الملك وقال لهما النا اله سوى آلهتنا قالا نعم من اوجدك والهتك
فقال حتى انظر في امركما فتبعهما الناس وقيل ضربوهما وقيل حبسا ثم بعث عيسى عليه السلام
شمعون فدخل متنكرًا وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به ورفعوا خبره الى الملك فانس

به فقال له يوما بلغني انك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه قال لا حال الغضب بيني وبين
ذلك فدعاهما فقال شمعون من ارسلكما قال الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك فقال صفاه
واوجزا قالا يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فقال آيتكما قالا ما يتمنى الملك فدعا بغلام مطموس
العينين فدعوا الله تعالى حتى انشق له بصر فاخذا بندقتين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا
مقلتين ينظر بهما فقال شمعون ارأيت لو سألت آلهتك حتى تصنع مثل هذا فيكون لك ولها الشرف
قال ليس لي عنك سر ان آلهتنا لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع وكان شمعون يدخل معهم
على الصنم فيصلي ويتضرع ويحسبون انه منهم ثم قال ان قدر الهكما على احياء ميت آمنا
فدعوا بغلام مات من سبعة ايام فقام وقال اني ادخلت في سبعة اودية من النار وانا احذركم
ما انتم فيه فآمنوا وقال فتحت ابواب السماء فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة
قال الملك من هو قال شمعون هذا فتعجب الملك فلما رأى شمعون ان قوله قد اثر فيه نصحه
فآمن وآمن قوم ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل فهلكوا هكذا قالوا ولكن لا
يساعده سياق النظم الكريم حيث اقتصر فيه على حكاية تماديهم في العناد واللجاج وركوبهم
متن المكابرة في الحجاج ولم يذكر فيه ممن يؤمن احد سوى حبيب ولو ان الملك وقوما
من حواشيه آمنوا لكان الظاهر ان يظاهروا الرسل ويساعدوهم قبلوا في ذلك او قتلوا كدأب
النجار الشهيد ولكان لهم فيه ذكر ما بوجه من الوجوه اللهم الا ان يكون ايمان الملك
بطريق الخفية على خوف من عتاة ملائه فيعتزل عنهم معتذرا بعذر من الاعذار قالوا اي
اهل انطاكية الذين لم يؤمنوا مخاطبين للثلاثة ما انتم الا بشر مثلنا من غير مزية لكم
علينا موجبة لاختصاصكم بما تدعونه ورفع بشر لانتقاض النفي المقتضي لاعمال ما بالا
وما انزل الرحمن من شيء مما تدعونه من الوحي والرسالة ان انتم الا تكذبون في دعوى
رسالته قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون استشهدوا بعلم الله تعالى وهو يجري مجرى
القسم مع ما فيه من تحذيرهم معارضة علم الله تعالى وزادوا اللام المؤكدة لما شاهدوا
منهم من شدة الانكار وما علينا اي من جهة ربنا الا البلاغ المبين اي الا تبليغ
رسالته تبليغا ظاهرا بينا بالآيات الشاهدة بالصحة وقد خرجنا عن عهدته فلا مؤاخذة
لنا بعد ذلك من جهة ربنا او ما علينا شيء نطالب به من جهتكم الا تبليغ الرسالة على
الوجه المذكور وقد فعلناه فاي شيء تطلبون منا حتى تصدقونا بذلك قالوا لما ضاقت عليهم
الحيل وعيت بهم العلل انا تطيرنا بكم تشاءمنا بكم جريا على ديدن الجهلة حيث كانوا يتيمنون
بكل ما يوافق شهواتهم وان كان مستجلبا لكل شر ووبال ويتشاءمون بما لا يوافقها وان
كان مستتبعا لسعادة الدارين او بناء على ان الدعوة لا تخلو عن الوعيد بما يكرهونه من اصابة
ضر متعلق بانفسهم واهليهم واموالهم ان لم يؤمنوا فكانوا ينفرون عنه وقد روي
انه حبس عنهم القطر فقالوا لئن لم تنتهوا اي عن مقالتكم هذه لنرجمنكم بالحجارة
وليمسنكم منا عذاب اليم لا يقادر قدره قالوا طائركم اي سبب شؤمكم معكم
لا من قبلنا وهو سوء عقيدتكم وقبح اعمالكم وقرئ طيركم أئن ذكرتم اي وعظتم بما
فيه سعادتكم وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه اي تطيرتم وتوعدتم
بالرجم والتعذيب وقرئ بالف بين همزتين وبفتح ان بمعنى اتطيرتم لان ذكرتم وان ذكرتم
بغير استفهام وأين ذكرتم بمعنى طائركم معكم حيث جرى ذكركم وهو ابلغ بل انتم قوم مسرفون
اضراب عما يقتضيه الشرطية من كون التذكير سببا للشؤم او مصححا للتوعد اي ليس الامر
كذلك بل انتم قوم عادتكم الاسراف في العصيان فلذلك اتاكم الشؤم او في الظلم والعدوان
ولذلك توعدتم وتشاءمتم بمن يجب اكرامه والتبرك به وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى
هو حبيب النجار وما كان اعلمهم وهو ممن آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهما
ستمائة سنة كما آمن به تبع الاكبر وورقة بن نوفل وغيرهما ولم يؤمن بنبي غيره احد قبل
مبعثه وقيل كان في غار يعبد الله تعالى فلما بلغه خبر الرسل عليهم السلام اظهر دينه قال
استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية مجيئه ساعيا كانه قيل فماذا قال عند مجيئه
فقيل قال يا قوم اتبعوا المرسلين تعرض لعنوان رسالتهم حثا لهم على اتباعهم كما ان خطابهم

بيا قوم

بيا قوم لتأليف قلوبهم واستمالتها نحو قبول نصيحته وقوله اتبعوا من لا يسألكم اجرا وهم مهتدون
تكرير للتأكيد وللتوسل به الى وصفهم بما يرغبهم في اتباعهم من التنزه عن الغرض الدنيوي
والاهتداء الى خير الدنيا والدين وما لي لا اعبد الذي فطرني تلطف في الارشاد بايراده
في معرض المناصحة لنفسه وامحاض النصح حيث اراهم انه اختار لهم ما يختار لنفسه والمراد
تقريعهم على ترك عبادة خالقهم الى عبادة غيره كما ينبئ عنه قوله واليه ترجعون مبالغة في
التهديد ثم عاد الى المساق الاول فقال أأتخذ من دونه آلهة انكار ونفي لاتخاذ
الآلهة على الاطلاق وقوله تعالى ان يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا اي
لا تنفعني شيئا من النفع ولا ينقذون من ذلك الضر بالنصرة والمظاهرة استئناف سيق
لتعليل النفي المذكور وجعله صفة لآلهة كما ذهب اليه بعضهم مما يوهم ان هناك آلهة
ليست كذلك وقرئ ان يردني بفتح الياء على معنى ان يوردني ضرا اي يجعلني موردا اني اذا
اي اذا اتخذت من دونه آلهة لفي ضلال مبين فان اشراك ما ليس من شأنه النفع ولا
دفع الضر بالخالق المقتدر الذي لا قادر غيره ولا خير الا خيره ضلال بين لا يخفى على احد ممن
له تمييز في الجملة اني آمنت بربكم خطاب منه للرسل بطريق التلوين قيل لما نصح قومه بما
ذكر هموا برجمه فاسرع نحو الرسل قبل ان يقتلوه فقال ذلك وانما اكده اظهارا لصدوره
عنه بكمال الرغبة والنشاط واضاف الرب الى ضميرهم روما لزيادة التقرب واظهارا للاختصاص
والاقتداء بهم كانه قال بربكم الذي ارسلكم والذي تدعوننا الى الايمان به فاسمعون
اي اسمعوا ايماني واشهدوا لي به عند الله تعالى وقيل الخطاب للكفرة شافههم بذلك
اظهارا للتصلب في الدين وعدم المبالاة بالقتل واضافة الرب الى ضميرهم لتحقيق الحق
والتنبيه على بطلان ما هم عليه من اتخاذ الاصنام اربابا وقيل للناس جميعا قيل ادخل الجنة
قيل له ذلك لما قتلوه اكراما له بدخولها حينئذ كسائر الشهداء وقيل لما هموا بقتله رفعه
الله تعالى الى الجنة قاله الحسن وعن قتادة ادخله الله الجنة وهو فيها حي يرزق وقيل معناه
البشرى بدخول الجنة وانه من اهلها وانما لم يقل له لان الغرض بيان المقول لا المقول
له لظهوره وللمبالغة في المسارعة الى بيانه والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ
من حكاية حاله ومقاله كانه قيل كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب في دينه والتسخي
بروحه لوجهه تعالى فقيل قيل ادخل الجنة وكذا قوله تعالى قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي
ربي وجعلني من المكرمين فانه جواب عن سؤال نشأ من حكاية حاله كانه قيل فماذا قال عند
نيله تلك الكرامة السنية فقيل قال الخ وانما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب
مثله بالتوبة عن الكفر والدخول في الايمان والطاعة جريا على سنن الاولياء في كظم الغيظ
والترحم على الاعداء او ليعلموا انهم كانوا على خطأ عظيم في امره وانه كان على الحق وان
عداوتهم لم تكسبه الا سعادة وقرئ من المكرمين وما موصولة او مصدرية والباء صلة
يعلمون او استفهامية وردت على الاصل والباء متعلقة بغفر اي باي شيء غفر لي ربي يريد به
تفخيم شأن المهاجرة عن ملتهم والمصابرة على اذيتهم وما انزلنا على قومه من بعده من بعد
قتله او رفعه من جند من السماء لاهلاكهم والانتقام منهم كما فعلناه يوم بدر والخندق
بل كفينا امرهم بصيحة ملك وفيه استحقار لهم ولاهلاكهم وايماء الى تفخيم شأن الرسول صلى الله عليه وسلم
وما كنا منزلين وما صح في حكمتنا ان ننزل لاهلاك قومه جندا من السماء لما انا قدرنا
لكل شيء سببا حيث اهلكنا بعض من اهلكنا من الامم بالحاصب وبعضهم بالصيحة وبعضهم
بالخسف وبعضهم بالاغراق وجعلنا انزال الجند من خصائصك في الانتصار من قومك
وقيل ما موصولة معطوفة على جند اي ومما كنا منزلين على من قبلهم من حجارة وريح
وامطار شديدة وغيرها ان كانت اي ما كانت الاخذة والعقوبة الا صيحة واحدة صاح
بها جبريل عليه السلام وقرئ الا صيحة بالرفع على ان كانت تامة وقرئ الا زقية واحدة
من زقا الطائر اذا صاح فاذا هم خامدون ميتون شبهوا بالنار الخامدة رمزا الى ان
الحي كالنار الساطعة في الحركة والالتهاب والميت كالرماد كما قال لبيد وما المرء الا كالشهاب
وضوئه يحور رمادا بعد اذ هو ساطع يا حسرة على العباد تعالي فهذه من الاحوال التي حقها

ان محضرين فيها وهي ما دل عليه قوله تعالى ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزءون فان المستهزئين بالناصحين الذين نيطت بنصحهم سعادة الدارين احقاء ان يتحسروا ويتحسر عليهم المتحسرون او يتلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين وقد جوز ان يكون تحسرا عليهم من جهة الله تعالى بطريق الاستعارة لتعظيم ما جنوه على انفسهم ويؤيده قراءة يا حسرتا لان المعنى يا حسرتي ونصبها لطولها بما تعلق بها من الجار وقيل باضمار فعلها والمنادى محذوف وقرئ يا حسرة العباد بالاضافة الى الفاعل او المفعول ويا حسره على العباد باجراء الوصل مجرى الوقف الم يروا اى الم يعلموا وهو معلق عن العمل في قوله تعالى كم اهلكنا قبلهم من القرون لان كم لا يعمل فيها ما قبلها وان كانت خبرية لان اصلها الاستفهام خلا ان معناه نافذ في الجملة كما نفذ في قولك الم تران زيدا لمنطلق وان لم يعمل في لفظه انهم اليهم لا يرجعون بدل من كم اهلكنا على المعنى اى الم يروا كثرة اهلاكنا من قبلهم من المذكورين آنفا ومن غيرهم كونهم غير راجعين اليهم وقرئ بالكسر على الاستيناف وقرئ الم يروا من اهلكنا والبدل حينئذ بدل اشتمال وان كل لما جميع لدينا محضرون بيان لرجوع الكل الى المحشر بعد بيان عدم الرجوع الى الدنيا وان نافية وتنوين كل عوض من المضاف اليه ولما بمعنى الا وجميع فعيل بمعنى مفعول ولدينا ظرف له او لما بعده والمعنى ما كلهم الا مجموعون لدينا محضرون للحساب والجزاء وقيل محضرون معذبون فكل عبارة عن الكفرة وقرئ لما بالتخفيف على ان ان مخففة من الثقيلة واللام فارقة وما مزيدة للتاكيد والمعنى ان كلهم مجموعون الخ وآية لهم الارض الميتة بالتخفيف وقرئ بالتشديد فقوله تعالى آية خبر مقدم للاهتمام به وتنكيرها للتفخيم ولهم اما متعلقة بها لانها بمعنى العلامة او بمضمر هو صفة لها والارض مبتداء والميتة صفتها وقوله تعالى احييناها استيناف مبين لكيفية كونها آية وقيل آية مبتداء ولهم خبر والارض الميتة مبتدا موصوف واحييناها خبره والجملة مفسرة لآية وقيل الارض مبتدا واحييناها خبره والجملة خبر لآية وقيل الخبر لها هو الارض واحييناها صفتها لان المراد بها الجنس لا المعينة والاولى هو الاولى لان مصب الفائدة هو كون الارض آية لهم لا كون الآية هي الارض واخرجنا منها حبا جنس الحب فمنه يأكلون تقديم الصلة للدلالة على ان الحب معظم ما يؤكل ويعاش به وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب اى من انواع النخل والعنب ولذلك جمعا دون الحب فان الدال على الجنس مشعر بالاختلاف ولا كذلك الدال على الانواع وذكر النخيل دون التمور ليطابق الحب والاعناب لاختصاص شجرها بمزيد النفع وآثار الصنع وفجرنا فيها وقرئ بالتخفيف والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظا ومعنى من العيون اى بعضا من العيون فحذف الموصوف واقيمت الصفة مقامه او العيون ومن مزيدة على راى الاخفش ليأكلوا من ثمره متعلق بجعلنا وتاخيره عن تفجير العيون لانه من مبادى الاثمار اى وجعلنا فيها جنات من نخيل ورتبنا مبادى اثمارها ليأكلوا من ثمر ما ذكر من الجنات والنخيل باجراء الضمير مجرى اسم الاشارة وقيل الضمير لله تعالى بطريق الالتفات الى الغيبة والاضافة لان الثمر بخلقه تعالى وقرئ بضمتين وهي لغة فيه او جمع ثمار وبضمة وسكون وما عملته ايديهم عطف على ثمره وهو ما يتخذ منه من العصير والدبس ونحوهما وقيل ما نافية والمعنى ان الثمر بخلق الله تعالى لا بفعلهم ومحل الجملة النصب على الحالية ويؤيد الاول قراءة عملت بلا هاء فان حذف العائد من الصلة احسن من الحذف من غيرها افلا يشكرون انكار واستقباح لعدم شكرهم للنعم المعدودة والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى ايرون هذه النعم او ايتنعمون بها فلا يشكرونها سبحان الذى خلق الازواج كلها استيناف مسوق لتنزيهه تعالى عما فعلوه من ترك شكره على الآية المذكورة واستعظام ما ذكر في حيز الصلة من بدائع آثار قدرته واسرار حكمته وروائع نعمائه الموجبة للشكر وتخصيص العبادة به والتعجيب من اخلالهم بذلك والحالة هذه وسبحان علم للتسبيح الذى هو التبعيد عن السوء اعتقادا وقولا اى اعتقاد البعد عنه والحكم به من سبح في الارض والماء اذا ابعد فيهما وامعن ومنه فرس سبوح اى واسع الجري وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه اى اسبح

سبحانه

سبحانه اى انزهه عما لا يليق به عقدا وعملا تنزيها خاصا به حقيقا بشانه وفيه مبالغة من جهة الاشتقاق من التسبيح ومن جهة النقل الى التفعيل ومن جهة العدول عن المصدر الدال على الجنس الى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما العلم المشير الى الحقيقة الحاضرة في الذهن ومن جهة اقامته مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران اريد به التنزه التام والتباعد الكلي عن السوء ففيه مبالغة من جهة اسناد التنزه الى الذات المقدسة فالمعنى تنزه بذاته عن كل ما لا يليق به مما فعلوه وما تركوه وعلى الاول حكم منه عز وجل بذلك وتلقين للمؤمنين ان يقولوه ويعتقدوا مضمونه ولا يخلوا به ولا يغفلوا عنه والمراد بالازواج الاصناف والانواع مما تنبت الارض بيان لها والمراد به كل ما ينبت فيها من الاشياء المذكورة وغيرها ومن انفسهم اى خلق الازواج من انفسهم اى الذكر والانثى ومما لا يعلمون اى والازواج مما لم يطلعهم الله تعالى على خصوصياته لعدم قدرتهم على الاحاطة بها ولما لم يتعلق بذلك شيء من مصالحهم الدينية والدنيوية وانما اطلعهم على ذلك بطريق الاجمال على منهاج قوله تعالى ويخلق ما لا تعلمون لما نيط به وقوفهم على عظم قدرته وسعة ملكه وسلطانه وآية لهم الليل جملة من خبر مقدم ومبتداء مؤخر كما مر وقوله تعالى نسلخ منه النهار جملة مبنية لكيفية كونه آية اى نزيله ونكشف عن مكانه مستعار من السلخ وهو ازالة ما بين الحيوان وجلده من الاتصال والاغلب في الاستعمال تعليقه بالجلد يقال سلخت الاهاب من الشاة وقد يعكس ومنه الشاة المسلوخة فاذا هم مظلمون اى داخلون في الظلام مفاجاءة وفيه رمز الى ان الاصل هو الظلام والنور عارض والشمس تجري لمستقر لها لحد معين ينتهي اليه دورها فشبه بمستقر المسافر اذا قطع مسيره او لكبد السماء فان حركتها فيه توجد ابطاء بحيث يظن ان لها هناك وقفة قال والشمس حيرى لها في الجو تدويم او لاستقرار لها على نهج مخصوص او لمنتهى مقدر لكل يوم من المشارق والمغارب فان لها في دورها ثلاثمائة وستين مشرقا ومغربا تطلع كل يوم من مطلع وتغرب من مغرب ثم لا تعود اليهما الى العام القابل او لمنقطع جريها عند خراب العالم وقرئ الى مستقرها وقرئ لا مستقر لها اى لا سكون لها فانها متحركة دائما وقرئ لا مستقر لها على ان لا بمعنى ليس ذلك اشارة الى جريها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته اى ذلك الجري البديع المنطوي على الحكم الرائعة التي تحار في فهمها العقول والافهام تقدير العزيز الغالب بقدرته على كل مقدور العليم المحيط علمه بكل معلوم والقمر قدرناه بالنصب باضمار فعل يفسره الظاهر وقرئ بالرفع على الابتداء اى قدرنا له منازل وقيل قدرنا مسيره منازل وقيل قدرناه ذا منازل وهي ثمانية وعشرون السرطان البطين الثريا الدبران الهقعة الهنعة الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العواء السماك الغفر الزبانى الاكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود سعد الاخبية فرع الدلو المقدم فرع الدلو المؤخر الرشاء وهو بطن الحوت ينزل كل ليلة في واحد منها لا يتخطاها ولا يتقاصر عنها فاذا كان في آخر منازله وهو الذى قبيل الاجتماع دق واستقوس حتى عاد كالعرجون اى كالشمراخ المعوج من الانعراج وهو الاعوجاج وقرئ كالعرجون وهما لغتان كالبزيون والبزيون القديم العتيق وقيل هو ما مر عليه حول فصاعدا لا الشمس ينبغي لها اى يصح ويتسهل لها ان تدرك القمر في سرعة السير فان ذلك يخل بتكون النبات وتعيش الحيوان او في الآثار والمنافع او في المكان بان تنزل في منزله او في سلطانه فتطمس نوره وايلاء حرف النفي الشمس للدلالة على انها مسخرة لا يتيسر لها الا ما قدر لها ولا الليل سابق النهار اى يسبقه فيفوته ولكن يعاقبه وقيل المراد بهما آيتاهما وهما النيران وبالسبق سبق القمر الى سلطان الشمس فيكون عكسا للاول وايراد السبق مكان الادراك لانه الملائم لسرعة سيره وكل اى وكلهم على ان التنوين عوض من المضاف اليه الذى هو الضمير العائد الى الشمس والقمر والجمع باعتبار التكاثر العارض لهما بتكاثر مطالعهما فان اختلاف الاحوال يوجب تعددا ما في الذات او الى الكواكب فان ذكرهما مشعر بها في فلك يسبحون يسيرون بانبساط وسهولة

عن ابن عباس في وجود الشمس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله تعالى خلق خلقه فلم يبق من خلقه غير آدم فخلقه من غير آدم ... اربع عشرة ذا ما ما كان في سابق علمه انه لما ابرم من نعمه مثل الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها شمسين خلقها في سابع علمه انه يطمسها فخلقها لا يطيقها كما كان في العظم ولكن غاير في صغرها من غاراتها دون الشمس في العظم وبعد منها من الارض ولو ترك ارتفاع السماء ... كما خلقها لم يعرف الليل من النهار الشمس والقمر ... الاجير الى متى يعمل ولا الصائم الى متى يصوم ولا المرأة متى تنقضي عدتها ولا يدرى الصاعة والدين والزراع متى يزرعون ولا الراحة للابدان فكان الله انظر لعباده وارحم بهم كنز الاسرار

وحكى عن ابن الغزني في فقه اللغة خلاف فيما خلقت منه الشمس فقيل من نور العرش وقيل ملك احرق فيه خلق من نار ويحتمل هذا العجيج والشعاع ان الله ثم ... وقيل انها سحابة ملتهبة نارا وقيل الاجزاء كثيرة من نار محرقة وقيل في مقدارها لاهل الهندسة اضعاف الارض مائة وستين مرة كنز الاسرار

سئل النبي عليه السلام عن مستقرها قال مستقرها تحت العرش وقيل مستقرها يوم القيمة وقيل مستقرها آخر مطالعها في المنقلبين لانها نهاية مطلعها فاذا استقر وصولها كرت راجعة والاخرى لا تستقر في جريها طرفة عين وقيل مستقرها وقوفها عند الزوال حصر معصب

الهنعة

وآية لهم أنا حملنا ذريتهم أولادهم الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم أو صبيانهم ونساءهم الذين يستصحبونهم فإن الذرية تطلق عليهن لا سيما مع الاختلاط وتخصيصهم بالذكر لما أن استقرارهم في السفن أشق واستمساكهم فيها أبدع في الفلك المشحون أي المملوء قيل هو فلك نوح عليه السلام وحمل ذرياتهم فيها حمل آبائهم الأقدمين وفي أصلابهم هؤلاء وذرياتهم وتخصيص أعقابهم بالذكر دونهم لأنه أبلغ في الامتنان وأدخل في التعجيب الذي عليه يدور كونه آية وخلقنا لهم من مثله مما يماثل الفلك ما يركبون من الإبل فإنها سفائن البر أو مما يماثل ذلك الفلك من السفن والزوارق وجعلها مخلوقة لله تعالى مع كونها من مصنوعات العباد ليس لمجرد كون صنعهم بإقدار الله تعالى وإلهامه بل لما بين اختصاص أصلها بقدرته تعالى وحكمته حسبما يعرب عنه قوله عز وجل واصنع الفلك بأعيننا ووحينا والتعبير عن ملابستهم بهذه السفن بالركوب لأنها باختيارهم كما أن التعبير عن ملابسة ذريتهم بفلك نوح عليه السلام بالحمل لكونها بغير شعور منهم واختيار وإن نشأ نغرقهم إلخ من تمام الآية فإنهم معترفون بمضمونه كما ينطق به قوله تعالى وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين وقرئ نغرقهم بالتشديد وفي تعليق الإغراق بمحض المشيئة إشعار بأنه قد تكامل ما يوجب إهلاكهم من معاصيهم ولم يبق إلا تعلق مشيئته تعالى به أي إن نشأ نغرقهم في اليم مع ما حملنا هم فيه من الفلك فحديث خلق الإبل حينئذ كلام جيء به في خلال الآية بطريق الاستطراد لكمال التماثل بين الإبل والفلك فكأنها نوع منه أو مع ما يركبون من السفن والزوارق فلا صريخ لهم أي فلا مغيث لهم يحرسهم من الغرق ويدفعه عنهم قبل وقوعه وقيل فلا استغاثة لهم من قولهم أتاهم الصريخ ولا هم ينقذون أي ينجون منه بعد وقوعه وقوله تعالى إلا رحمة منا ومتاعا استثناء مفرغ من أعم العلل الشاملة للباعث المتقدم والغاية المتأخرة أي لا يغاثون ولا ينقذون لشيء من الأشياء إلا لرحمة عظيمة من قبلنا داعية إلى الإغاثة والإنقاذ وتمتيع بالحياة مترتب عليهما ويجوز أن يراد بالرحمة ما يقارن التمتيع من الرحمة الدنيوية فيكون كلاهما غاية للإغاثة والإنقاذ أي لنوع من الرحمة والتمتيع إلى حين أي إلى زمان قدر فيه آجالهم كما قيل ولم أسلم لكي أبقى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام وإذا قيل لهم اتقوا بيان لإعراضهم عن الآيات التنزيلية بعد بيان إعراضهم عن الآيات الآفاقية التي كانوا يشاهدونها وعدم تأملهم فيها أي إذا قيل لهم بطريق الإنذار بما نزل من الآيات أو بغيره اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم من الآفات والنوازل فإنها محيطة بكم أو ما يصيبكم من المكاره من حيث تحتسبون ومن حيث لا تحتسبون أو من الوقائع النازلة على الأمم الخالية قبلكم والعذاب المعد لكم في الآخرة أو من نوازل السماء ونوائب الأرض أو من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة أو ما تقدم من الذنوب وما تأخر لعلكم ترحمون إما حال من واو اتقوا أو غاية له أي راجين أن ترحموا أو كي ترحموا فتنجوا من ذلك لما عرفتم أن مناط النجاة ليس إلا رحمة الله تعالى وجواب إذا محذوف ثقة بانفهامه من قوله تعالى وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين انفهاما بينا أما إذا كان الإنذار بالآية الكريمة فبعبارة النص وأما إن كان بغيرها فبدلالته لأنهم حين أعرضوا عن آيات ربهم فلأن يعرضوا عن غيرها بطريق الأولوية كأنه قيل وإذا قيل لهم اتقوا العذاب أعرضوا حسبما اعتادوه وما نافية وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددي ومن الأولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية تبعيضية واقعة مع مجرورها صفة لآية وإضافة الآيات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترؤوا عليه في حقها والمراد بها إما الآيات التنزيلية فإتيانها نزولها والمعنى ما ينزل إليهم آية من الآيات القرآنية التي من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله تعالى وسوابغ آلائه الموجبة للإقبال عليها والإيمان بها إلا كانوا عنها معرضين على وجه التكذيب والاستهزاء وإما ما يعمها وغيرها من الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات التي

من جملتها

من جملتها الآيات الثلاث المعدودة آنفا فالمراد بإتيانها ما يعم نزول الوحي وظهور تلك الأمور لهم والمعنى ما يظهر لهم من الآيات التي من جملتها ما ذكر من شؤونه الشاهدة بوحدانيته تعالى وتفرده بالألوهية إلا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدي إلى الإيمان به تعالى وإيثاره على أن يقال إلا أعرضوا عنها كما وقع مثله في قوله تعالى وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر للدلالة على استمرارهم على الإعراض حسب استمرار إتيان الآيات وعن متعلقة بمعرضين قدمت عليه مراعاة للفواصل والجملة في حيز النصب على أنها حال من مفعول تأتي أو من فاعله المتخصص بالوصف لاشتمالها على ضمير كل منهما والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي ما تأتيهم من آية من آيات ربهم في حال من أحوالهم إلا حال إعراضهم عنها أو ما تأتيهم آية منها في حال من أحوالها إلا حال إعراضهم عنها وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله أي أعطاكم بطريق التفضل والإنعام من أنواع الأموال عبر عنها بذلك تحقيقا للحق وترغيبا في الإنفاق على منهاج قوله تعالى وأحسن كما أحسن الله إليك وتنبيها على عظم جنايتهم في ترك الامتثال بالأمر وكذلك من التبعيضية أي إذا قيل لهم بطريق النصيحة أنفقوا بعض ما أعطاكم الله تعالى من فضله على المحتاجين فإن ذلك مما يرد البلاء ويدفع المكاره قال الذين كفروا بالصانع عز وجل وهم زنادقة كانوا بمكة للذين آمنوا تهكما بهم وبما كانوا عليه من تعليق الأمور بمشيئته تعالى أنطعم حسبما يعظوننا به من لو يشاء الله أطعمه أي على زعمكم وعن ابن عباس رضي الله عنهما كان بمكة زنادقة إذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن وقيل قاله مشركو قريش حين استطعمهم فقراء المؤمنين من أموالهم التي زعموا أنهم جعلوها لله تعالى من الحرث والأنعام يوهمون أنه تعالى لما لم يشأ إطعامهم وهو قادر عليه فنحن أحق بذلك وما هو إلا لفرط جهالتهم فإن الله تعالى يطعم عباده بأسباب من جملتها حث الأغنياء على إطعام الفقراء وتوفيقهم لذلك إن أنتم إلا في ضلال مبين حيث تأمروننا بما يخالف مشيئة الله وقد جوز أن يكون جوابا لهم من جهته تعالى أو حكاية لجواب المؤمنين لهم ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين أي فيما تعدوننا به من قيام الساعة مخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين لما أنهم أيضا كانوا يتلون عليهم آيات الوعيد لقيامها ومعنى القرب في هذا إما بطريق الاستهزاء وإما باعتبار قرب العهد بالوعد ما ينظرون جواب من جهته تعالى أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة هي النفخة الأولى تأخذهم مفاجأة وهم يخصمون أي يتخاصمون في متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم شيء من مخايلها كقوله تعالى فأخذتهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون فلا يغتروا بعدم ظهور علائمها ولا يزعموا أنها لا تأتيهم وأصل يخصمون يختصمون فسكنت التاء وأدغمت في الصاد ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين وقرئ بكسر الياء للاتباع وبفتح الخاء على إلقاء حركة التاء عليه وقرئ على الاختلاس وبالإسكان على تجويز الجمع بين الساكنين إذا كان الثاني مدغما وإن لم يكن الأول حرف مد وقرئ يخصمون من خصمه إذا جادله فلا يستطيعون توصية في شيء من أمورهم إن كانوا فيما بين أهليهم ولا إلى أهلهم يرجعون إن كانوا في خارج أبوابهم بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا ونفخ في الصور هي النفخة الثانية بينها وبين الأولى أربعون سنة أي ينفخ فيه وصيغة الماضي للدلالة على تحقق وقوعها فإذا هم من الأجداث أي القبور جمع جدث وقرئ بالفاء إلى ربهم مالك أمرهم على الإطلاق ينسلون يسرعون بطريق الإجبار دون الاختيار لقوله تعالى لدينا محضرون وقرئ بضم السين قالوا أي في ابتداء بعثهم من القبور يا ويلنا أحضر فهذا أوانك وقرئ يا ويلتا من بعثنا من مرقدنا وقرئ من أهبنا من هب من نومه إذا انتبه وقرئ من هبنا بمعنى أهبنا وقيل أصله هب بنا فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير قيل فيه ترشيح ورمز وإشعار بأنهم لاختلاط عقولهم يظنون أنهم كانوا نياما وعن مجاهد أن للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم فإذا صيح بأهل القبور

يقولون ذلك وعن ابن عباس رضى الله عنهما وابى ابن كعب وقتادة رحمهم الله ان الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون فاذا بعثوا بالنفخة الثانية وشاهدوا من اهوال القيمة ما شاهدوا دعوا بالويل وقالوا ذلك وقيل اذا عاينوا جهنم وما فيها من الوان العذاب يصير عذاب القبر فى جنبها مثل النوم فيقولون ذلك وقرئ من بعثنا ومن هبنا من الجارة والمصدر والمرقد اما مصدر اى من رقادنا او اسم مكان اريد به الجنس فينتظم مراقد الكل هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون جملة من مبتدا وخبر وما موصولة محذوف العائد او مصدرية وهو جواب من قبل الملائكة او المؤمنين عدل به عن سنن سؤالهم تذكيرا لكفرهم وتقريعا لهم عليه وتنبيها على ان الذى يهمهم هو السؤال عن نفس البعث ماذا هو دون الباعث كانهم قالوا بعثكم الرحمن الذى وعدكم ذلك فى كتبه وارسل اليكم الرسل فصدقوكم فيه وليس الامر كما تتوهمونه حتى تسئلوا عن الباعث وقيل هو من كلام الكافرين حيث يتذكرون ما سمعوه من الرسل عليهم السلام فيجيبون به انفسهم او بعضهم بعضا وقيل هذا صفة لمرقدنا وما وعد الخ خبر مبتداء محذوف او مبتداء خبر محذوف اى ما وعد الرحمن وصدق المرسلون حق ان كانت اى ما كانت النفخة التى حكيت آنفا الا صيحة واحدة حصلت من نفخ اسرافيل عليه السلام فى الصور فاذا هم جميع اى مجموع لدينا محضرون من غير لبث ما طرفة عين وفيه من تهوين امر البعث والحشر والايذان باستغنائهما عن الاسباب ما لا يخفى فاليوم لا تظلم نفس من النفوس برة كانت او فاجرة شيئا من الظلم ولا تجزون الا ما كنتم تعملون اى الا جزاء ما كنتم تعملونه فى الدنيا على الاستمرار من الكفر والمعاصى على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه للتنبيه على قوة التلازم والارتباط بينهما كانهما شئ واحد او الا بما كنتم تعملونه اى بمقابلته او بسببه وتعميم الخطاب للمؤمنين يرده انه تعالى يوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله اضعافا مضاعفة وهذه حكاية لما سيقال لهم حين يرون العذاب المعد لهم تحقيقا للحق وتقريعا لهم وقوله تعالى ان اصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون من جملة ما سيقال لهم يومئذ زيادة لحسرتهم وندامتهم فان الاخبار بحسن حال اعدائهم اثر بيان سوء حالهم مما يزيدهم مساءة وفى هذه الحكاية مزجرة لهؤلاء الكفرة عما هم عليه ومدعاة الى الاقتداء بسيرة المؤمنين والشغل هو الشأن الذى يصد المرء ويشغله عما سواه من شؤنه لكونه اهم عنده من الكل اما لايجابه كمال المسرة والبهجة او كمال المساءة والغم والمراد ههنا هو الاول وما فيه من التنكير والابهام للايذان بارتفاعه عن رتبة البيان والمراد به ما هم فيه من فنون الملاذ التى تلهيهم عما عداها بالكلية واما ان المراد به افتضاض الابكار او السماع وضرب الاوتار او التزاور او ضيافة الله تعالى او شغلهم عما فيه اهل النار على الاطلاق او شغلهم عن اهاليهم فى النار لا يهمهم امرهم ولا يبالون بهم كيلا يدخل عليهم تنغيص فى نعيمهم كما روى كل واحد منها عن واحد من اكابر السلف فليس مرادهم بذلك حصر شغلهم فيما ذكروه فقط بل بيان انه من جملة اشغالهم وتخصيص كل منهم كلا من تلك الامور بالذكر محمول على اقتضاء مقام البيان اياه وهو مع جاره خبر لان وفاكهون خبر آخر لها اى انهم مستقرون فى شغل واى شغل فى شغل عظيم الشأن متنعمون بنعيم مقيم فائزون بملك كبير والتعبير عن حالهم هذه بالجملة الاسمية قبل تحققها بتنزيل المترقب المتوقع منزلة الواقع للايذان بغاية سرعة تحققها ووقوعها لزيادة مساءة المخاطبين بذلك وقرئ فى شغل بسكون الغين وفى شغل بفتحتين وبفتحة وسكون والكل لغات وقرئ فكهون للمبالغة وفكهون بضم الكاف وهى لغة كنطس وفاكهين وفكهين على الحال من المستكن فى الظرف وقوله تعالى هم وازواجهم فى ظلال على الارائك متكئون استيناف مسوق لبيان كيفية شغلهم وتفكههم وتكميلها بما يزيدهم بهجة وسرورا من شركة ازواجهم لهم فيما هم فيه من الشغل والفكاهة على انهم مبتدأ وازواجهم عطف عليه ومتكئون خبر والجاران صلتان له قدما عليه لمراعاة الفواصل

اوهو والجاران بما تعلقا به من الاستقرار اخبار مترتبة وقيل الخبر هو الظرف الاول والثانى مستأنف على انه متعلق بمتكئون وهو خبر لمبتدا محذوف وقيل على انه خبر مقدم ومتكئون مبتدا مؤخر وقرئ متكئين بلا هم نصبا على الحال من المستكن فى الظرفين او احدهما وقيل هم تاكيد للمستكن فى خبر ان ومتكئون خبر آخر لها وعلى الارائك متعلق وكذا فى ظلال او هذا بمضمر هو حال من المعطوفين والظلال جمع ظل كشعاب جمع شعب او جمع ظلة كقباب جمع قبة ويؤيده قراءة فى ظلل والارائك جمع اريكة وهى السرير المزين بالثياب والستور قال ثعلب لا يكون اريكة حتى تكون عليها حجلة وقوله تعالى لهم فيها فاكهة الخ بيان لما يتمتعون به فى الجنة من المآكل والمشارب ويتلذذون به من الملاذ الجسمانية والروحانية بعد بيان حالهم فيها من مجالس الانس ومحافل القدس تكميلا لبيان كيفية ما هم فيه من الشغل والبهجة اى لهم فيها فاكهة كثيرة من كل نوع من انواع الفواكه وما فى قوله تعالى ولهم ما يدعون موصولة او موصوفة عبر بها عن مدعو عظيم الشأن معين او مبهم ايذانا بانه الحقيق بالدعاء دون ما عداه ثم صرح به روما لزيادة التقرير بالتحقيق بعد التشويق كما ستعرفه او هى باقية على عمومها قصد بها التعميم بعد تخصيص المواد المعتادة بالذكر واياما كان فهو مبتداء ولهم خبره والجملة معطوفة على الجملة السابقة وعدم الاكتفاء بعطف ما يدعون على فاكهة لئلا يتوهم كون ما عبارة عن توابع الفاكهة وتتماتها والمعنى ولهم ما يدعون به لانفسهم من مدعو عظيم الشأن او كل ما يدعون كائنا ما كان من اسباب البهجة وموجبات السرور واياما كان ففيه دلالة على انهم فى اقصى غاية البهجة والغبطة ويدعون يفتعلون من الدعاء كما اشير اليه مثل اشتوى واجتمل اذا شوى وجمل لنفسه وقيل بمعنى يتداعون كالارتماء بمعنى الترامى وقيل بمعنى يتمنون من قولهم ادع ما شئت بمعنى تمنه على وقال الزجاج هو من الدعاء اى ما يدعو به اهل الجنة ياتيهم فيكون الافتعال بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحلة ويعضده القراءة بالتخفيف كما ذكره الكواشى وقوله تعالى سلام على التقدير الاول بدل من ما يدعون او خبر لمبتدا محذوف وقولا مصدر مؤكد لفعل هو صفة لسلام وما بعده من الجار متعلق بمضمر هو صفة له كانه قيل ولهم سلام وما يدعون سلام يقال لهم قولا كائنا من جهة رب رحيم اى يسلم عليهم من جهته تعالى بواسطة الملك او بدونها مبالغة فى تعظيمهم قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما والملئكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين واما على التقدير الثانى فقد قيل انه خبر لما يدعون ولهم لبيان الجهة كما يقال لزيد الشرف متوفر على ان الشرف مبتداء ومتوفر خبره والجار والمجرور لبيان من له ذلك اى ما يدعون سالم لهم خالص لا شوب فيه وقولا حينئذ مصدر مؤكد لمضمون الجملة اى عدة من رب رحيم والاوجه ان ينتصب على الاختصاص وقيل هو مبتداء محذوف الخبر اى لهم سلام اى تسليم قولا من رب رحيم او سلامة من الآفات فيكون قولا مصدرا مؤكدا لمضمون الجملة كما سبق وقيل تقديره سلام عليهم فيكون حكاية لما سيقال لهم من جهته تعالى يومئذ وقيل خبره الفعل المقدر ناصبا لقولا وقيل خبره من رب رحيم وقرئ سلاما بالنصب على الحالية اى لهم مرادهم سالما خالصا وقرئ سلم وهو بمعنى السلام فى المعنيين وامتازوا اليوم عطف اما على الجملة السابقة المسوقة لبيان احوال اهل الجنة لكن لا على ان المقصود عطف فعل الامر بخصوصه حتى يتمحل له مشاكل يصح عطفه عليه بل على انه عطف قصة سوء حال هؤلاء وكيفية عقابهم على قصة حسن حال اولئك ووصف ثوابهم كما مر فى قوله تعالى وبشر الذين آمنوا الآية وكان تغيير السبك لتخييل كمال التباين بين الفريقين وحاليهما واما على مضمر ينساق اليه حكاية حال اهل الجنة كانه اثر بيان كونهم فى شغل عظيم الشأن وفوزهم بنعيم مقيم يقصر عنه البيان فليقروا بذلك عينا وامتازوا عنهم ايها المجرمون الى مصيركم وعن قتادة اعتزلوا عن كل خير وعن الضحاك لكل كافر بيت من النار يكون فيه لا يرى ولا يرى واما ما قيل من ان المعنى فليمتازوا وانفردوا عن السواد لما ان المحكى عنهم ليس مصيرهم الى

ماذكر من الحال المرضية حتى يتسنى ترتيب الامر المذكور عليه بل انما هو استقرارهم عليها بالفعل وكون
ذلك بطريق تنزيل المترقب منزلة الواقع لا يجدى نفعا لان مناط الاضمار انسياق الافهام
اليه وانصباب نظم الكلام عليه فبعد ما نزلت تلك الحال منزلة الواقع بالفعل لما اقتضاه المقام
من النكتة البارعة والحكمة الرائعة حسبما مر بيانه واسقط كونها مترقبة عن درجة
الاعتبار بالكلية يكون التصدى لاضمار شئ يتعلق به اخراجا للنظم الكريم عن الجزالة بالمرة
الم اعهد اليكم يا بنى آدم ان لا تعبدوا الشيطان من جملة ما يقال لهم بطريق التقريع والالزام
والتبكيت بين الامر بالامتياز وبين الامر بدخول جهنم بقوله تعالى اصلوها اليوم الخ والعهد
الوصية والتقدم بامر فيه خير ومنفعة والمراد ههنا ما كلفهم الله تعالى على السنة الرسل
عليهم السلام من الاوامر والنواهى التى من جملتها قوله تعالى يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان
كما اخرج ابويكم من الجنة الآية وقوله تعالى ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين
وغيرهما من الآيات الكريمة الواردة فى هذا المعنى وقيل هو الميثاق المأخوذ عليهم حين
اخرجوا من ظهور بنى آدم واشهدوا على انفسهم وقيل هو ما نصب لهم من الحجج
العقلية والسمعية الآمرة بعبادته تعالى الزاجرة عن عبادة غيره والمراد بعبادة الشيطان
طاعته فيما يوسوس به اليهم ويزينه لهم عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير
عنها ولوقوعها فى مقابلة عبادته عز وجل وقرئ اعهد بكسر الهمزة واعهد بكسر
الهاء واحهد بالحاء مكان العين واحد بالادغام وهى لغة بنى تميم انه لكم عدو مبين
اى ظاهر العداوة وهو تعليل لوجوب الانتهاء عن المنهى وقيل تعليل للنهى وان اعبدونى
عطف على ان لا تعبدوا وعلى ان ان فيهما مفسرة للعهد الذى فيه معنى القول بالنهى والامر
او مصدرية حذف عنها الجار اى الم اعهد اليكم فى ترك عبادة الشيطان وفى عبادتى
وتقديم النهى على الامر لما ان حق التخلية التقدم على التحلية كما فى كلمة التوحيد وليتصل
به قوله تعالى هذا صراط مستقيم فانه اشارة الى عبادته تعالى التى هى عبارة عن التوحيد
الاسلام وهو المشار اليه بقوله تعالى هذا صراط على مستقيم والمقصود بقوله تعالى لاقعدن
لهم صراطك المستقيم والتنكير للتفخيم واللام فى قوله تعالى ولقد اضل منكم جبلا كثيرا
جواب قسم محذوف والجملة استئناف مسوق لتشديد التوبيخ وتأكيد التقريع ببيان
ان جناياتهم ليست بنقض العهد فقط بل به وبعدم الاتعاظ بما شاهدوا من العقوبات
النازلة على الامم الخالية بسبب طاعتهم للشيطان فالخطاب لمتأخريهم الذين من جملتهم كفار
مكة خصوا بزيادة التوبيخ والتقريع لتضاعف جناياتهم والجبل بكسر الجيم والباء وتشديد
اللام الخلق وقرئ بضمتين وتشديد وبضمتين وتخفيف وبضمة وسكون وبكسرتين
وتخفيف وبكسرة وسكون والكل لغات وقرئ جبلا جمع جبلة كفطر وخلق فى جمع فطرة
وخلقة وقرئ جيلا بالياء وهو الصنف من الناس اى وبالله لقد اضل منكم خلقا كثيرا
او صنفا كثيرا عن ذلك الصراط المستقيم الذى امرتكم بالثبات عليه فاصابهم لاجل ذلك
ما اصابهم من العقوبات الهائلة التى ملأ الآفاق اخبارها وبقى مدى الدهر
آثارها والفاء فى قوله تعالى افلم تكونوا تعقلون للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى
اكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون انها لضلالهم او افلم تكونوا
تعقلون شيئا اصلا حتى ترتدعوا عما كانوا عليه كيلا يحيق بكم العقاب وقوله تعالى
هذه جهنم التى كنتم توعدون استئناف يخاطبون به بعد تمام التوبيخ والتقريع
والالزام والتبكيت عند اشرافهم على شفير جهنم اى كنتم توعدونها على السنة الرسل
عليهم السلام بمقابلة عبادة الشيطان مثل قوله تعالى لاملأن جهنم منك وممن تبعك
اجمعين وقوله تعالى قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا وقوله تعالى
قال اخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لاملأن جهنم منكم اجمعين وغير
ذلك مما لا يحصى وقوله تعالى اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون امر تنكيل واهانة كقوله
تعالى ذق انك انت العزيز الخ اى ادخلوها وقاسوا فنون عذابها اليوم بكفركم
المستمر فى الدنيا وقوله تعالى اليوم نختم على افواههم اى نمنعها عن الكلام التفات

الى الغيبة للايذان بان ذكر احوالهم القبيحة استدعى ان يعرض عنهم وتحكى احوالهم الفظيعة
لغيرهم مع ما فيه من الايماء الى ان ذلك من مقتضيات الختم لان الخطاب لتلقى الجواب
وقد انقطع بالكلية وقرئ يختم وتكلمنا ايديهم وتشهد ارجلهم بما كانوا يكسبون
يروى انهم يجحدون ويخاصمون فيشهد عليهم جيرانهم واهاليهم وعشائرهم فيحلفون
ما كانوا مشركين فحينئذ يختم على افواههم وتكلم ايديهم وارجلهم وفى الحديث يقول
العبد يوم القيامة انى لا اجيز على شاهدا الا من نفسى فيختم على فيه ويقال لاركانه انطقى
فتنطق باعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن اناضل وقيل
تكليم الاركان وشهادتها دلالتها على افعالها وظهور آثار المعاصى عليها وقرئ وتتكلم
ايديهم وقرئ ولتكلمنا ايديهم ولتشهد بلام كى والنصب على معنى ولذلك نختم على
افواههم وقرئ ولتكلمنا ايديهم ولتشهد بلام الامر والجزم ولو نشاء لطمسنا على
اعينهم الطمس تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة ومفعول المشيئة محذوف على
القاعدة المستمرة التى هى وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء اى لو نشاء ان
نطمس على اعينهم لفعلنا وايثار صيغة الاستقبال وان كان المعنى على المضى لافادة ان عدم
الطمس على اعينهم لاستمرار عدم المشيئة فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى
افادة انتفاء استمرار الفعل بل قد يفيد استمرار انتفائه بحسب المقام كما مر فى قوله
تعالى ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير فاستبقوا الصراط اى فارادوا ان يستبقوا
الى الطريق الذى اعتادوا سلوكه على ان انتصابه بنزع الجار او هو بتضمين الاستباق
معنى الابتداء او بالظرفية فانى يبصرون الطريق وجهة السلوك ولو نشاء لمسخناهم
بتغيير صورهم وابطال قواهم على مكانتهم اى مكانهم الا ان المكانة اخص كالمقامة
والمقام وقرئ على مكاناتهم اى لمسخناهم مسخا يجمدهم مكانهم لا يقدرون ان
يبرحوه باقبال ولا ادبار ولا رجوع وذلك قوله تعالى فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون
اى ولا رجوعا فوضع موضعه الفعل لمراعاة الفاصلة عن ابن عباس رضى الله عنهما قردة
وخنازير وقيل حجارة وعن قتادة لاقعدناهم على ارجلهم وازمناهم وقرئ مضيا
بكسر الميم وفتحها وليس مساق الشرطيتين لمجرد بيان قدرته تعالى على ما ذكر من عقوبة
الطمس والمسخ بل لبيان انهم بما هم عليه من الكفر ونقض العهد وعدم الاتعاظ بما
شاهدوا من آثار دمار امثالهم احقاء بان يفعل بهم فى الدنيا تلك العقوبة كما فعل
بهم فى الآخرة عقوبة الختم وان المانع من ذلك ليس الا عدم تعلق المشيئة الالهية به
كانه قيل لو نشاء عقوبتهم بما ذكر من الطمس والمسخ جريا على موجب جناياتهم المستدعية
لها لفعلناها ولكنا لم نشأها جريا على سنن الرحمة الداعية الى امهالهم ومن نعمره
اى نطل عمره ننكسه فى الخلق اى نقلبه فيه ونخلقه على عكس ما خلقناه اولا فلا يزال
يتزايد ضعفه ويتناقص قوته وينتقض بنيته ويتغير شكله وصورته حتى يعود الى حالة
شبيهة بحال الصبى فى ضعف الجسد وقلة العقل والخلو عن الفهم والادراك وقرئ
ننكسه من الثلاثى وننكسه من الانكاس افلا يعقلون اى ايرون ذلك فلا يعقلون
ان من قدر على ذلك يقدر على ما ذكر من الطمس والمسخ وان عدم ايقاعهما لعدم
تعلق مشيئته تعالى بهما وقرئ تعقلون بالتاء لجرى الخطاب قبله وما علمناه الشعر رد
وابطال لما كانوا يقولونه فى حقه عليه السلام من انه شاعر وما يقوله شعر اى ما علمناه
الشعر بتعليم القرآن على معنى ان القرآن ليس بشعر فان الشعر كلام متكلف موضوع
ومقال مزخرف مصنوع منسوج على منوال الوزن والقافية مبنى على خيالات واوهام واهية
فاين ذلك من التنزيل الجليل الخطر المنزه عن مماثلة كلام البشر المشحون بفنون الحكم
والاحكام الباهرة الموصلة الى سعادة الدنيا والآخرة ومن اين اشتبه عليهم الشئون
واختلط بهم الظنون قاتلهم الله انى يؤفكون وما ينبغى له وما يصح له الشعر ولا
يتأتى له لو طلبه اى جعلناه بحيث لو اراد قرض الشعر لم يتأت له كما جعلناه اميا لا
يتهدى للخط لتكون الحجة اثبت والشبهة ادحض واما قوله عليه السلام انا النبى لا كذب

انا ابن عبد المطلب وقوله عليه السلام هل انت الا اصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت فمن
قبيل الاتفاقات الواردة من غير قصد اليها وعزم على ترتيبها وقيل الضمير في له للقرآن اي و
ما ينبغي للقرآن ان يكون شعرا ان هو اي ما القرآن الا ذكر اي عظة من الله عز وجل
وارشاد للثقلين كما قال تعالى ان هو الا ذكر للعالمين وقرآن مبين اي كتاب سماوي بين
كونه كذلك او فارق بين الحق والباطل يقرأ في المحاريب ويتلى في المعابد وينال بتلاوته
والعمل بما فيه فوز الدارين فكم بينه وبين ما قالوا لينذر اي القرآن او الرسول ويؤيده قراءة
بالتاء وقرئ لينذر من نذر به اي علمه ولينذر مبنيا للمفعول من الانذار من كان حيا
اي عاقلا متأملا فان الغافل بمنزلة الميت او مؤمنا في علم الله تعالى فان الحياة الابدية بالايمان
وتخصيص الانذار به لانه المنتفع به ويحق القول اي تجب كلمة العذاب على الكافرين
المصرين على الكفر وفي ايرادهم بمقابلة من كان حيا اشعار بانهم لخلوهم عن آثار الحياة
واحكامها التي هي المعرفة اموات في الحقيقة اولم يروا الهمزة للانكار والتعجيب والواو
للعطف على جملة منفية مقدرة مستتبعة للمعطوف اي الم يتفكروا او الم يلاحظوا ولم يعلموا
علما يقينيا متاخما للمعاينة انا خلقنا لهم اي لاجلهم وانتفاعهم مما عملت ايدينا
اي مما تولينا احداثه بالذات وذكر الايدي واسناد العمل اليها استعارة تفيد مبالغة
في الاختصاص والتفرد بالاحداث والاعتناء به انعاما مفعول خلقنا وتأخيره عن الجارين
المتعلقين به مع ان حقه التقدم عليهما لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر
فان ما حقه التقدم اذا اخر تبقى النفس مترقبة فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن لا
سيما عند كون المقدم منبئا عن كون المؤخر امرا نافعا خطيرا كما في النظم الكريم فان الجار الاول
المعرب عن كون المؤخر من منافعهم والثاني المفصح عن كونه من الامور الخطيرة يزيدان النفس
شوقا اليه ورغبة فيه ولان في تأخيره جمعا بينه وبين احكامه المتفرعة عليه بقوله تعالى
فهم لها مالكون الآيات اي فملكناها اياهم وايثار الجملة الاسمية على ذلك للدلالة على استقرار
مالكيتهم بها واستمرارها واللام متعلقة بمالكون مقوية لعمله اي فهم مالكون لها بتمليكنا
اياها لهم متصرفون فيها بالاستقلال مختصون بالانتفاع بها لا يزاحمهم في ذلك غيرهم
او قادرون على ضبطها متمكنون من التصرف فيها باقدارنا وتمكيننا وتسخيرنا اياها لهم كما في قول
من قال اصبحت لا احمل السلاح ولا املك راس البعير ان نفرا والاول هو الاظهر ليكون قوله تعالى
وذللناها لهم تأسيسا لنعمة على حيالها لا تتمة لما قبلها اي صيرناها منقادة لهم بحيث
لا تستعصي عليهم في شيء مما يريدون بها حتى الذبح حسبما ينطق به قوله تعالى فمنها
ركوبهم الى آخره فان الفاء فيه لتفريع احكام التذليل عليه وتفصيلها اي فبعض منها ركوبهم
اي مركوبهم اي معظم منافعها الركوب وعدم التعرض للحمل لكونه من تتمات الركوب
وقرئ ركوبتهم وهي بمعناه كالحلوب والحلوبة وقيل الركوبة اسم جمع وقرئ ركوبهم
اي ذو ركوبهم ومنها يأكلون اي وبعض منها يأكلون لحمه ولهم فيها اي في
الانعام بكلا قسميها منافع غير الركوب والاكل كالجلود والاصواف والاوبار وغيرها
وكان الحراثة بالثيران ومشارب من اللبن جمع مشرب وهذا مجمل ما فصل في سورة
النحل افلا يشكرون اي ايشاهدون هذه النعم او ايتنعمون بها فلا يشكرون المنعم
بها واتخذوا من دون الله اي متجاوزين الله الذي شاهدوا تفرده بتلك القدرة
الباهرة وتفضله عليهم بهاتيك النعم المتظاهرة آلهة من الاصنام واشركوها به
تعالى في العبادة لعلهم ينصرون رجاء ان ينصروا من جهتهم فيما حزبهم من الامور
او يشفعوا لهم في الآخرة وقوله تعالى لا يستطيعون نصرهم الى آخره استئناف سيق
لبيان بطلان رأيهم وخيبة رجائهم وانعكاس تدبيرهم لا يقدر آلهتهم على نصرهم
وهم اي المشركون لهم اي لآلهتهم جند محضرون يشيعونهم عند مساقهم
الى النار وقيل معدون في الدنيا لحفظهم والذب عنهم ولا يساعده مساق
النظم الكريم فان الفاء في قوله تعالى فلا يحزنك قولهم لترتيب النهي على ما قبله فلا بد
ان يكون عبارة عن خسرانهم وحرمانهم عما علقوا به اطماعهم الفارغة وانعكاس الامر

عليهم بترتب الشر على ما رتبوه لرجاء الخير فان ذلك مما يهون الخطب ويورث السلوة واما
كونهم معدين لحفظهم وحفظهم فبمعزل من ذلك والنهي وان كان بحسب الظاهر متوجها
الى قولهم لكنه في الحقيقة متوجه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهي له عليه السلام
عن التأثر منه بطريق الكناية على ابلغ وجه وآكده فان النهي عن اسباب الشيء ومباديه
المؤدية اليه نهي عنه بالطريق البرهاني وابطال للسببية وقد توجه النهي الى المسبب ويراد
عن السبب كما في قوله لا ارينك ههنا يريد به نهي مخاطبه عن الحضور لديه والمراد بقولهم
ما ينبئ عنه ما ذكرنا اتخاذهم الاصنام آلهة فان ذلك مما لا يخلو عن التفوه بقولهم هؤلاء
آلهتنا وانهم شركاء الله سبحانه في المعبودية وغير ذلك مما يورث الحزن وقرئ يحزنك
بضم الياء وكسر الزاي من احزن المنقول من حزن اللازم وقوله تعالى انا نعلم ما يسرون وما
يعلنون تعليل صريح للنهي بطريق الاستيناف بعد تعليله بطريق الاشعار فان العلم بما ذكر
مستلزم للمجازاة قطعا اي انا نجازيهم بجميع جناياتهم الخافية والبادية التي لا يعزب
عن علمنا شيء منها وفيه فضل تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقديم السر على العلن اما
للمبالغة في بيان شمول علمه تعالى لجميع المعلومات كان علمه تعالى بما يسرونه اقدم منه بما يعلنونه
مع استوائهما في الحقيقة فان علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود
كل شيء في نفسه علم بالنسبة اليه تعالى وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الاشياء البارزة
والكامنة واما لان مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن اذ ما من يعلن الا وهو او
مباديه مضمر في القلب قبل ذلك فتعلق علمه تعالى بحالته الاولى متقدم على تعلقه بحالته
الثانية حقيقة اولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان
انكارهم البعث بعد ما شاهدوا في انفسهم اوضح دلائله واعدل شواهده كما ان ما سبق
مسوق لبيان بطلان اشراكهم بالله تعالى بعد ما عاينوا فيما بايديهم ما يوجب التوحيد و
الاسلام واما ما قيل من انه تسلية ثانية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتهوين ما يقولونه
بالنسبة الى انكارهم الحشر فكلا والهمزة للانكار والتعجيب والواو للعطف على جملة مقدرة هي
مستتبعة للمعطوف كما مر في الجملة الانكارية السابقة اي الم يتفكر الانسان ولم يعلم
علما يقينيا انا خلقناه من نطفة الخ وهي عين الجملة السابقة اعيدت تأكيدا للنكير
السابق وتمهيدا لانكار ما هو احق منه بالانكار والتعجيب لما ان المنكر هناك عدم علمهم
بما يتعلق بخلق اسباب معايشهم وههنا عدم علمهم بما يتعلق بخلق انفسهم ولا ريب
في ان علم الانسان باحوال نفسه اهم واحاطته بها اسهل واكمل فالانكار والتعجيب من الاخلال
بذلك ادخل كأنه قيل الم يعلموا خلقه تعالى الاسباب معايشهم ولم يعلموا خلقه تعالى
لانفسهم ايضا مع كون العلم بذلك في غاية الظهور ونهاية الاهمية على
معنى ان المنكر الاول بعيد قبيح والثاني ابعد واقبح ويجوز ان يكون الواو لعطف الجملة
الانكارية الثانية على الاولى على انها متقدمة في الاعتبار وان تقدم الهمزة عليها
لاقتضائها الصدارة في الكلام كما هو رأي الجمهور وايراد الانسان موضع الضمير
لان مدار الانكار متعلق باحواله من حيث هو انسان كما في قوله تعالى اولا يذكر الانسان
انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا وقوله تعالى فاذا هو خصيم مبين اي شديد الخصومة
والجدال بالباطل عطف على الجملة المنفية داخل في حيز الانكار والتعجب كأنه قيل اولم
ير انا خلقناه من اخس الاشياء وامهنها ففاجأ خصومتنا في امر يشهد بصحته و
تحققه مبدأ فطرته شهادة بينة وايراد الجملة الاسمية للدلالة على استقراره في
الخصومة واستمراره عليها روي ان جماعة من كفار قريش منهم ابي بن خلف الجمحي
وابو جهل والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة تكلموا في ذلك فقال لهم ابي بن خلف
الا ترون الى ما يقول محمد ان الله يبعث الاموات ثم قال واللات والعزى لاصيرن
اليه ولاخصمنه واخذ عظما باليا فجعل يفته بيده ويقول يا محمد اترى الله يحيي هذا
بعد ما رم قال صلى الله عليه وسلم نعم ويبعثك ويدخلك النار فنزلت وقيل معنى
قوله تعالى فاذا هو خصيم مبين فاذا هو بعد ما كان ماء مهينا رجل مميز منطيق قادر

على الخصام مبين معرب عما فى نفسه فصيح فهو حينئذ معطوف على خلقناه غير داخل تحت الانكار والتعجيب بل هو من متممات شواهد صحة البعث فقوله تعالى وضرب لنا مثلا معطوف حينئذ على الجملة المنفية داخل فى حيز الانكار والتقبيح واما على التقدير الاول فهو عطف على الجملة الفجائية والمعنى ففاجاء خصومتنا وضرب لنا مثلا اى اورد فى شاننا قصة عجيبة فى نفس الامر هى فى الغرابة والبعد عن العقول كالمثل وهو انكار احيائنا العظام او قصة عجيبة فى زعمه واستبعدها وعدها من قبيل المثل وانكرها اشد الانكار وهى احياؤنا اياها او جعل لنا مثلا ونظيرا من الخلق وقاس قدرتنا على قدرتهم ونفى الكل على العموم وقوله تعالى ونسى خلقه اى خلقنا اياه على الوجه المذكور الدال على بطلان ما ضربه اما عطف على ضرب داخل فى حيز الانكار والتعجيب او حال من فاعله باضمار قد او بدونه وقوله تعالى قال استيناف وقع جوابا عن سؤال نشاء من حكاية ضربه المثل كانه قيل اى مثل ضرب او ماذا قال فقيل قال من يحيى العظام منكرا له اشد النكير مؤكدا بقوله وهى رميم اى بالية اشد البلى بعيدة من الحيوة غاية البعد فالمثل على الاول هو انكار احيائه تعالى للعظام فانه امر عجيب فى نفس الامر حقيق لغرابته وبعده من العقول بان يعد مثلا ضرورة جزم العقول ببطلان الانكار ووقوع المنكر لكونه كالانشاء بل اهون منه فى قياس العقل وعلى الثانى هو احياؤه تعالى لها فانه امر عجيب فى زعمه قد استبعده وعده من قبيل المثل وانكره اشد الانكار مع انه فى نفس الامر اقرب شئ من الوقوع لما سبق من كونه مثل الانشاء او هو اهون منه واما على الثالث فلا فرق بين ان يكون المثل هو الانكار او المنكر وعدم تانيث الرميم مع وقوعه خبرا للمؤنث لانه اسم لما بلى من العظام غير صفة كالرفات وقد تمسك بظاهر الاية الكريمة من اثبت للعظم حيوة وبنى عليه الحكم بنجاسة عظم الميتة واما اصحابنا فلا يقولون بحياته كالشعر ويقولون المراد باحياء العظام ردها الى ما كانت عليه من الغضاضة والرطوبة فى بدن حى حساس قل تبكيتا له بتذكير ما نسيه من فطرته الدالة على حقيقة الحال وارشاده الى طريقة الاستشهاد بها يحييها الذى انشاها اول مرة فان قدرته كما هى لاستحالة التغير فيها والمادة على حالها وهو بكل خلق عليم مبالغ فى العلم بتفاصيل كيفيات الخلق والايجاد انشاء واعادة محيط بجميع الاجزاء المتفتتة المتبددة لكل شخص من الاشخاص اصولها وفروعها واوضاع بعضها من بعض من الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق فيعيد كلا من ذلك على النمط السابق مع القوى التى كانت قبل والجملة اما اعتراض تذييلى مقرر لمضمون الجواب او معطوفة على الصلة والعدول الى الجملة الاسمية للتنبيه على ان علمه تعالى بما ذكر امر مستمر ليس كانشائه للمنشآت وقوله تعالى الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا بدل من الموصول الاول وعدم الاكتفاء بعطف صلته على صلته للتاكيد ولتفاوتهما فى كيفية الدلالة اى خلق لاجلكم ومنفعتكم منه نارا على ان الجعل ابداعى والجاران متعلقان به قدما على مفعوله الصريح مع تاخرهما عنه رتبة لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر ووصف الشجر بالاخضر نظرا الى اللفظ وقد قرئ الخضراء بالنظر الى المعنى وهو المرخ والعفار يقطع الرجل منهما عصيتين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو انثى فينقدح النار باذن الله تعالى وذلك قوله تعالى فاذا انتم منه توقدون فمن قدر على احداث النار من الشجر الاخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها بكيفيته كان اقدر على اعادة الغضاضة الى ما كان غضا فطرأ عليه اليبوسة والبلى وقوله تعالى اوليس الذى خلق السموات والارض الخ استيناف مسوق من جهته عز وجل لتحقيق مضمون الجواب الذى امر عليه السلام بان يخاطبهم بذلك ويلزمهم الحجة الباهرة للانكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى اليس الذى انشاها اول مرة وليس الذى جعل لهم من الشجر الاخضر نارا وليس الذى خلق السموات والارض مع كبر جرمهما وعظم شانهما بقادر على ان يخلق مثلهم فى الصغر والقماءة بالنسبة اليهما فان بديهة العقل قاضية بان من قدر على خلقهما فهو على خلق الاناسى اقدر كما قال

تعالى لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس وقرئ يقدر وقوله تعالى بلى جواب من جهته تعالى وتصريح بما افادة الاستفهام الانكارى من تقرير ما بعد النفى وايذان بتعين الجواب نطقوا به او تلعثموا فيه مخافة الالزام وقوله تعالى وهو الخلاق العليم عطف على ما يفيده الايجاب اى بلى هو قادر على ذلك وهو المبالغ فى الخلق والعلم كيفا وكما انما امره اى شانه اذا اراد شيئا من الاشياء ان يقول له كن اى ان يعلق به قدرته فيكون فيحدث من غير توقف على شئ آخر اصلا وهذا تمثيل لتاثير قدرته تعالى فيما اراده بالامر الآمر المطاع للمامور المطيع فى سرعة حصول المامور به من غير توقف على شئ ما وقرئ فيكون بالنصب عطفا على يقول فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ تنزيه له عز وجل عما وصفوه تعالى به وتعجيب مما قالوا فى شانه تعالى وقد مر تحقيق معنى سبحان والفاء للاشارة الى ان ما فصل من شؤونه تعالى موجبة لتنزهه وتنزيهه اكمل ايجاب كما ان وصفه تعالى بالمالكية الكلية المطلقة للاشعار بانها مقتضية لذلك ايضا والملكوت مبالغة فى الملك كالرحموت والرهبوت وقرئ ترجعون ملكة كل شئ وملك كل شئ ومملكة كل شئ واليه ترجعون لا الى غيره وقرئ ترجعون بفتح التاء من الرجوع وفيه من الوعد والوعيد ما لا يخفى عن ابن عباس رضى الله عنهما كنت لا اعلم ما روى فى فضايل يس وقراءتها كيف خصت بذلك فاذا انه لهذه الاية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لكل شئ قلبا وان قلب القرآن ياسين وايما مسلم قرئ عنده اذا نزل به ملك الموت سورة ياسين نزل بكل حرف فيها عشرة املاك يقومون بين يديه صفوفا يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون غسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه وايما مسلم قرا ياسين وهو فى سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان خازن الجنة بشربة من شراب الجنة يشربها وهو على فراشه فيقبض ملك الموت روحه وهو ريان فيمكث فى قبره وهو ريان ولا يحتاج الى حوض من حياض الانبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان وقال صلعم ان فى القرآن سورة يشفع قاريها ويغفر لمستمعها الا وهى سورة ياسين

سورة الصافات مكية وهى ١٨٢ آية

بسم الله الرحمن الرحيم

والصافات صفا اقسام من الله عز وجل بطوائف الملائكة الفاعلات للصفوف على ان المراد ايقاع نفس الفعل من غير قصد الى المفعول او الصافات انفسها اى الناظمات لها فى سلك الصفوف بقيامها فى مقاماتها المعلومة حسبما ينطق به قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم وعلى هذين المعنيين مدار قوله تعالى وانا لنحن الصافون وقيل الصافات اقدامها فى الصلوة وقيل اجنحتها فى الهواء فالزاجرات زجرا اى الفاعلات للزجر والزاجرات لما نيط بها زجره من الاجرام العلوية والسفلية وغيرها على وجه يليق بالمزجور ومن جملة ذلك زجر العباد عن المعاصى وزجر الشياطين عن الوسوسة والاغواء وعن استراق السمع كما سيأتى وصفا وزجرا مصدران مؤكدان لما قبلهما اى صفا بديعا وزجرا بليغا واما ذكرا فى قوله تعالى فالتاليات ذكرا فمفعول التاليات اى التاليات ذكرا عظيم الشان من آيات الله تعالى وكتبه المنزلة عليهم السلام وغيرها من التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد وقيل هو ايضا مصدر مؤكد لما قبله فان التلاوة من باب الذكر ثم ان هذه الصفات ان اجريت على الكل فعطفها بالفاء للدلالة على ترتبها فى الفضل اما بكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة او على العكس وان اجريت كل واحدة منهن على طوائف معينة فهو للدلالة على ترتب الموصوفات فى مراتب الفضل بمعنى ان طوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات افضل والتاليات ابهر فضلا او على العكس وقيل المراد بالمذكورات نفوس العلماء العمال الصافات انفسها فى صفوف الجماعات واقدامها فى الصلوات الزاجرات بالمواعظ والنصايح عن القبايح التاليات آيات الله تعالى الدارسات شرايعه واحكامه وقيل طوائف الغزاة الصافات انفسهم فى مواطن الحروب كانهم بنيان مرصوص او طوائف قوادهم الصافات لهم فيها

الزاجرات الخيل للجهاد سوقاً والعدو في المعارك طرداً التاليات آيات الله تعالى ذكره وتسبيحه في
تضاعيف ذلك والكلام في العطف ودلالته على ترتب الصفات في الفضل او ترتب موصوفاتها
فيه كالذي سلف واما الدلالة على الترتيب في الوجود كما في قوله يا لهف زيابة للحارث
الصابح فالغانم فالآيب فغير ظاهرة في شيء من الطوائف المذكورة فانه لو سلم تقدم الصف
على الزجر في الملئكة والغزاة فتأخر التلاوة عن الزجر غير ظاهر وقيل الصافات الطير من قوله
تعالى والطير صافات والزاجرات كل ما يزجر عن المعاصي والتاليات كل من يتلو كتاب الله
وقيل الزاجرات القوارع القرآنية وقرئ بادغام التاء في الصاد والزاء والذال ان الهكم
لواحد جواب للقسم والجملة تحقيق للحق الذي هو التوحيد بما هو المألوف في كلامهم
من التأكيد القسمي وتمهيد لما يعقبه من البرهان الناطق به اعني قوله تعالى رب السموات
والارض وما بينهما ورب المشارق فان وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع
من اوضح دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته واعدل شواهد وحدته كما مر في قوله
تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ورب خبر ثان لان او خبر لمبتدأ محذوف اي مالك
السموات والارض وما بينهما من الموجودات ومربيها ومبلغها الى كمالاتها والمراد بالمشارق
مشارق الشمس واعادة الرب فيها لغاية ظهور آثار الربوبية فيها وتجددها
كل يوم فانها ثلثمائة وستون مشرقاً تشرق كل يوم من مشرق منها وبحسبها تختلف المغارب
وتغرب كل يوم في مغرب منها واما قوله تعالى رب المشرقين ورب المغربين فهما مشرقا
الصيف والشتاء ومغرباهما انا زينا السماء الدنيا اي القربى منكم بزينة عجيبة بديعة
الكواكب بالجر بدل من زينة على ان المراد بها الاسم اي ما يزان به لا المصدر فان الكواكب
بانفسها واوضاع بعضها من بعض زينة واي زينة وقرئ بالاضافة على انها بيانية
لما ان الزينة مبهمة صادقة على كل ما يزان به فيقع الكواكب بيانا لها ويجوز ان يراد بزينة
الكواكب ما زينت هي به وهو ضوؤها وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما بزينة الكواكب بضوء
الكواكب هذا واما على تقدير كون الزينة مصدرا فالمعنى على تقدير اضافتها الى الفاعل بان
زانت الكواكب اياها واصله بزينة الكواكب وعلى تقدير اضافتها الى المفعول بان زان الله
الكواكب وحسنها واصله بزينة الكواكب والمراد هو التزيين في رأي العين فان جميع
الكواكب من الثوابت والسيارات تبدو للناظرين كانها جواهر متلألئة في سطح سماء الدنيا
بصور بديعة واشكال رائقة ولا يقدح في ذلك ارتكاز الثوابت في الفلك الثامن وما
عدا القمر في الستة المتوسطة ان ثبت ذلك وحفظا منصوب اما بعطفه على زينة باعتبار
المعنى كانه قيل انا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظا من كل شيطان مارد اي خارج
عن الطاعة برمي الشهب واما باضمار فعله واما بتقدير فعل مؤخر معلل به كأنه قيل وحفظا من كل
شيطان مارد زيناها بالكواكب كقوله تعالى انا زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما
للشياطين وقوله تعالى لا يسمعون الى الملأ الاعلى كلام مبتدأ مسوق لبيان حالهم بعد بيان
حفظ السماء عنهم مع التنبيه على كيفية الحفظ وما يعتريهم في اثناء ذلك من العذاب ولا
سبيل الى جعله صفة لكل شيطان ولا جوابا عن سؤال مقدر لعدم استقامة المعنى ولا
علة للحفظ على ان يكون الاصل لئلا يسمعوا فحذف اللام كما حذف من قولك جئتك
ان تكرمني فبقي ان لا يسمعوا ثم حذف ان واهدر عملها كما في قول من قال الا ايهذا
الزاجري احضر الوغى لما ان كل واحد من ذينك الحذفين غير منكر بانفراده فاما اجتماعهما
فمن انكر المنكرات التي يجب تنزيه ساحة التنزيل الجليل عن امثالها واصل يسمعون يتسمعون
والملأ الاعلى الملئكة وعن ابن عباس رضي الله عنهما هم الكتبة وعنه اشراف الملئكة
عليهم السلام اي لا يتطلبون السماع والاصغاء اليهم وقرئ يسمعون بالتخفيف و
يقذفون يرمون من كل جانب من جميع جوانب السماء اذا قصدوا الصعود اليها
دحورا علة للقذف اي للدحور وهو الطرد او حال بمعنى مدحورين او مصدر مؤكد
له لانهما من واد واحد وقرئ دحورا بفتح الدال اي قذفا دحورا مبالغا في الطرد
ويجوز ان يكون مصدرا كالقبول والولوع ولهم عذاب واصب اي ولهم في الآخرة

غير ما في

غير ما في الدنيا من عذاب الرجم بالشهب عذاب شديد دائم غير منقطع كقوله تعالى واعتدنا لهم
عذاب السعير الا من خطف الخطفة استثناء من واو يسمعون ومن بدل منه والخطف
الاختلاس والمراد اختلاس كلام الملئكة مسارقة كما يعرب عنه تعريف الخطفة وقرئ بكسر الخاء
والطاء المشددة وبفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها واصلهما اختطف فاتبعه شهاب
اي تبعه ولحقه وقرئ فاتبعه والشهاب ما يرى منقضا من السماء ثاقب مضيء في الغاية
كأنه يثقب الجو بضوئه يرجم به الشياطين اذا صعدوا لاستراق السمع فيقتلهم او يحرقهم
او يخبلهم فالغاوا انما يعودون من يسلم منهم حينا طمعا في السلامة وقيل المراد كراكب
السفينة فاستفتهم فاستخبر مشركي مكة اهم اشد خلقا اي اقوى خلقة وامتن
بنية او اصعب خلقا واشق ايجادا ام من خلقنا من الملائكة والسماء والارض
وما بينهما والمشارق والكواكب والشهب الثواقب ومن لتغليب العقلاء على غيرهم ويدل
عليه اطلاقه ومجيئه بعد ذلك لاستقلاله من قراءة امن عددنا وقوله انا خلقناهم من طين
لازب فانه الفارق بينهم وبينها لا بينهم وبين من قبلهم من الامم كعاد وثمود ولان
المراد اثبات المعاد ورد استحالتهم اي عدهم له محالا والامر فيه بالاضافة اليهم والى
من قبلهم سواء وقرئ لازم ولاتب بل عجبت اي من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق
العظيمة وانكارهم للبعث ويسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث وقرئ بضم التاء على
معنى انه بلغ كمال قدرتي وكثرة مخلوقاتي الى حيث عجبت منها وهؤلاء لجهلهم يسخرون
منها او عجبت من ان ينكروا البعث ممن هذه افاعيله ويسخروا ممن يجوزه والعجب من الله
تعالى اما على الفرض والتخييل او على معنى الاستعظام اللازم له فانه روعة تعتري الانسان
عند استعظام الشيء وقيل انه مقدر بالقول اي قل يا محمد بل عجبت واذا ذكروا اي ودأبهم
المستمر انهم اذا وعظوا بشيء من المواعظ لا يذكرون لا يتعظون واذا ذكر لهم ما يدل
على صحة البعث لا ينتفعون به لغاية بلادتهم وقصور فكرهم واذا رأوا آية اي معجزة
تدل على صدق القائل به يستسخرون يبالغون في السخرية ويقولون انه سحر او يستدعي
بعضهم من بعض منها وقالوا ان هذا اي ما يرونه من الآية الباهرة الا سحر مبين
ظاهر سحريته أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما اي كان بعض اجزائنا ترابا وبعضها
عظاما وتقديم التراب لانه منقلب من الاجزاء البادية والعامل في اذا ما دل عليه
مبعوثون في قوله تعالى ائنا لمبعوثون اي نبعث لا نفسه لان دونه خطوطا هي الهمزة واللام
لو تفرد واحد منها لكفى في المنع وتقديم الظرف لتقوية الانكار بالبعث بتوجيهه الى
حالة منافية له غاية المنافاة وكذا تكرير الهمزة في ائنا للمبالغة والتشديد في ذلك
وكذا تحلية الجملة بان واللام لتأكيد الانكار لا لانكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم فان
تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما في مثل قوله تعالى افلا تعقلون على رأي الجمهور فان
المعنى عندهم تعقيب الانكار لا انكار التعقيب كما هو المشهور وقرئ بطرح الهمزة الاولى وبطرح
الثانية فقط او آباؤنا الاولون رفع على الابتداء وخبره محذوف عند سيبويه وفيه
آباؤنا الاولون ايضا مبعوثون وقيل عطف على محل ان واسمها وقيل على الضمير في مبعوثون
للفصل بهمزة الانكار الجارية مجرى حرف النفي في قوله تعالى ما اشركنا ولا آباؤنا واياً ما
كان فمرادهم زيادة الاستبعاد بناء على انهم اقدم فبعثهم ابعد على زعمهم وقرئ او
آباؤنا قل تبكيتا لهم نعم والخطاب في قوله تعالى وانتم داخرون لهم ولآبائهم بطريق
التغليب والجملة حال من فاعل ما دل عليه نعم اي كلكم مبعوثون والحال انكم صاغرون
اذلاء وقرئ بكسر العين وهي لغة فيه فانما هي زجرة واحدة هي ضمير مبهم يفسره خبره او
ضمير البعثة والجملة جواب لشرط مضمر او تعليل لنهي مقدر اي اذا كان كذلك فانما هي الخ او لا
تستصعبوه فانما هي الخ والزجرة الصيحة من زجر الراعي غنمه اذا صاح عليها وهي النفخة الثانية
فاذا هم قائمون من مراقدهم احياء ينظرون يبصرون كما كانوا او ينتظرون ما
يفعل بهم وقالوا اي المبعوثون وصيغة الماضي للدلالة على التحقق والتقرر يا
ويلنا اي هلاكنا احضر فهذا اوان حضورك وقوله تعالى هذا يوم الدين تعليل لدعائهم

الويل بطريق الاستئناف اى اليوم الذى نجازى فيه باعمالنا وانما علموا ذلك لانهم كانوا يسمعون
فى الدنيا انهم يبعثون ويحاسبون ويجزون باعمالهم فلما شاهدوا البعث ايقنوا بما بعده
ايضا وقوله تعالى هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون كلام الملئكة جوابا لهم بطريق
التوبيخ والتقريع وقيل هو ايضا من كلام بعضهم لبعض والفصل القضاء او الفرق بين
فرق الهدى والضلال وقوله تعالى احشروا الذين ظلموا خطاب الله تعالى للملائكة او من
بعضهم لبعض بحشر الظلمة من مقامهم الى الموقف وقيل من الموقف الى الجحيم و
ازواجهم اى اشباههم ونظراءهم من العصاة عابد الصنم مع عبدته وعابد
الكوكب مع عبدته كقوله تعالى وكنتم ازواجا ثلثة وقيل قرناءهم من الشياطين وقيل
نساءهم اللاتى على دينهم وما كانوا يعبدون من دون الله من الاصنام ونحوها
زيادة فى تحسيرهم وتخجيلهم قيل هو عام مخصوص بقوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا
الحسنى الآية الكريمة وانت خبير بان الموصول عبارة عن المشركين خاصة جئ به لتعليل
الحكم بما فى حيز صلته فلا عموم ولا تخصيص فاهدوهم الى صراط الجحيم اى عرفوهم
طريقها ووجهوهم اليها وفيه تهكم بهم وقفوهم احبسوهم فى الموقف كان
الملائكة عليهم السلام سارعوا الى ما امروا به من حشرهم الى الجحيم فامروا بذلك و
علل بقوله تعالى انهم مسئولون ايذانا من اول الامر بان ذلك ليس لعفو عنهم ولا ليستريحوا
بتاخير العذاب فى الجملة بل ليسألون لكن لا عن عقائدهم واعمالهم كما قيل فان ذلك قد وقع
قبل الامر بهم الى الجحيم بل عما ينطق به قوله عز وجل ما لكم لا تناصرون بطريق التوبيخ
والتقريع والتهكم اى لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم تزعمونه فى الدنيا وتاخير هذا السؤال
الى ذلك الوقت لانه وقت تنجز العذاب وشدة الحاجة الى النصرة وحالة انقطاع الرجاء عنها
بالكلية فالتوبيخ والتقريع حينئذ اشد وقعا وتاثيرا وقرئ لا تتناصرون ولا تناصرون بالادغام
بل هم اليوم مستسلمون منقادون خاضعون لظهور عجزهم وانسداد باب الحيل
عليهم او اسلم بعضهم بعضا وخذله عن عجز فكلهم مستسلم غير منتصر واقبل حينئذ
بعضهم على بعض هم الاتباع والرؤساء او الكفرة والقرناء يتساءلون يسأل بعضهم بعضا
سؤال توبيخ بطريق الخصومة والجدال قالوا استيناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من
حكاية تساءلهم كانه قيل كيف تساءلوا فقيل قالوا اى الاتباع للرؤساء او الكل للقرناء انكم
كنتم تاتوننا فى الدنيا عن اليمين عن اقوى الوجوه وامتنها او عن الدين او عن الخير كانكم
تنفعوننا نفع السانح فتبعناكم فهلكنا مستعار من يمين الانسان الذى هو اشرف الجانبين و
اقواهما وانفعهما ولذلك يسمى يمينا ويتيمن بالسانح او عن القوة والقسر فتقسروننا عن
الغى وهو الاوفق للجواب او عن الحلف حيث كانوا يحلفون انهم على الحق قالوا استيناف
كما سبق اى قال الرؤساء او القرناء بل لم تكونوا مؤمنين اى لم نمنعكم من الايمان بل لم
تؤمنوا باختياركم واعرضتم عنه مع تمكنكم منه وآثرتم الكفر عليه وما كان لنا عليكم من سلطان
من قهر وتسلط نسلبكم به اختياركم بل كنتم قوما طاغين مختارين للطغيان مصرين
عليه فحق علينا اى لزمنا وثبت علينا قول ربنا وهو قوله تعالى لاملأن جهنم
منك وممن تبعك انا لذائقون اى العذاب الذى ورد به الوعيد فاغويناكم فدعوناكم
الى الغى دعوة محلية فاستجبتم لنا باختياركم واستحببتم الغى على الرشد انا كنا غاوين
فلا عتب علينا فى تعرضنا لاغوائكم بتلك المرتبة من الدعوة لتكونوا امثالنا فى الغواية
فانهم اى الاتباع والمتبوعين يومئذ فى العذاب مشتركون حسبما كانوا مشتركين فى الغواية
انا كذلك اى مثل ذلك الفعل الذى يقتضيه الحكمة التشريعية نفعل بالمجرمين المتناهين
فى الاجرام وهم المشركون كما يعرب عنه التعليل بقوله تعالى انهم كانوا اذا قيل لهم بطريق
الدعوة والتلقين لا اله الا الله يستكبرون عن القبول ويقولون ائنا لتاركوا الهتنا
لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين رد عليهم وتكذيب لهم ببيان ان ما
جاء به من التوحيد هو الحق الذى قام به البرهان واجمع عليه كافة الرسل عليهم السلام
فاين الشعر والجنون من ساحته الرفيعة انكم بما فعلتم من الاشراك وتكذيب الرسول عم

والاستكبار

والاستكبار لذائقوا العذاب الاليم والالتفات لاظهار كمال الغضب عليهم وقرئ بنصب
العذاب على تقدير النون كقوله ولا ذاكر الله الا قليلا وقرئ لذائقون العذاب على الاصل
وما تجزون الا ما كنتم تعملون اى الا جزاء ما كنتم تعملونه من السيئات او الا بما كنتم
تعملونه منها الا عباد الله المخلصين استثناء منقطع من ضمير ذائقوا وما بينهما اعتراض
جئ به مسارعة الى تحقيق الحق ببيان ان ذوقهم العذاب ليس الا من جهتهم لا من جهة
غيرهم اصلا وجعله استثناء من ضمير تجزون على معنى ان الكفرة لا يجزون الا بقدر اعمالهم
دون عباد الله المخلصين فانهم يجزون اضعافا مضاعفة مما لا وجه له اصلا لا سيما
جعله استثناء متصلا بتعميم الخطاب فى تجزون لجميع المكلفين فانه ليس فى حيز الاحتمال
فالمعنى انكم لذائقوا العذاب الاليم لكن عباد الله المخلصين الموحدين ليسوا كذلك
وقوله تعالى اولئك اشارة اليهم للايذان بانهم ممتازون بما اتصفوا به من الاخلاص
فى عبادته تعالى عمن عداهم امتيازا بالغا منتظمون بسببه فى سلك الامور المشاهدة
وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم
فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى لهم اما خبر له وقوله تعالى رزق مرتفع على الفاعلية
بما فيه من الاستقرار او مبتدأ ولهم خبر مقدم والجملة خبر لاولئك والجملة الكبرى استيناف
مبين لما افاده الاستثناء اجمالا بيانا تفصيلا وقيل هى خبر للاستثناء المنقطع على انه
متأول بالمبتدأ وقوله تعالى معلوم اى معلوم الخصائص من حسن المنظر ولذة الطعم وطيب
الرائحة ونحوها من نعوت الكمال وقيل معلوم الوقت كقوله تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة
وعشيا وقوله تعالى فواكه اما بدل من رزق او خبر مبتدأ مضمر اى ذلك الرزق فواكه و
تخصيصها بالذكر لان ارزاق اهل الجنة كلها فواكه اى ما يؤكل لمجرد التلذذ دون الاقتيات
لانهم مستغنون عن القوت لكون خلقتهم محكمة محفوظة من التحلل المحوج الى البدل
وقيل لان الفواكه من اتباع سائر الاطعمة فذكرها مغن عن ذكرها وهم مكرمون عند الله عز
وجل لا يلحقهم هوان وذلك اعظم المثوبات واليقها باولى الهمم وقيل مكرمون فى نيله
حيث يصل اليهم بغير تعب وسؤال كما هو شان ارزاق الدنيا وقرئ مكرمون بالتشديد فى جنات
النعيم اى فى جنات ليس فيها الا النعيم وهو ظرف او حال من المستكن فى مكرمون او
خبر ثان لاولئك وقوله تعالى على سرر محتمل للحالية والخبرية فى قوله تعالى متقابلين
حال من المستكن فيه او فى مكرمون وقوله تعالى يطاف عليهم اما استيناف مبنى على
سؤال نشأ من حكاية تكامل مجالس انسهم او حال من الضمير فى متقابلين او فى احد
الجارين وقد جوز كونه صفة لمكرمون بكأس باناء فيه خمر او بخمر فان الكأس يطلق على
الخمر كما فى قول من قال وكأس شربت على لذة واخرى تداويت منها بها من معين
متعلق بمضمر هو صفة لكأس اى كائنة من شراب معين او نهر معين وهو الجارى على وجه
الارض الظاهر للعيون او الخارج من العيون من عان الماء اذا نبع وصف به الخمر وهو للماء
لانها تجرى فى الجنة فى انهار كما يجرى الماء قال تعالى وانهار من خمر بيضاء لذة للشاربين
صفتان ايضا لكأس ووصفها بلذة اما للمبالغة كانها نفس اللذة او لانها تانيث اللذ بمعنى
اللذيذ ووزنه فعل قال ولذ كطعم الصرخدى تركته بارض العدى من خيفة الحدثان
يريد به النوم لا فيها غول اى غائلة كما فى خمور الدنيا من غاله اذا افسده واهلكه
ومنه الغول ولا هم عنها ينزفون يسكرون من نزف الشارب فهو نزيف ومنزوف
اذا ذهب عقله ويقال للمطعون نزف فمات اذا خرج دمه كله افرد هذا بالنفى مع اندراجه
فيما قبله من نفى الغول عنها لما انه من معظم مفاسد الخمر كانه جنس برأسه والمعنى لا فيها
نوع من انواع الفساد من مغص او صداع او خمار او عربدة او لغو او تاثيم ولا هم
يسكرون وقرئ ينزفون بكسر الزاء من انزف الشارب اذا نفد عقله او شرابه وقرئ ينزفون
بضم الزاء من نزف ينزف بضم الزاء فيها وعندهم قاصرات الطرف قصرن ابصارهن
على ازواجهن لا يمددن طرفا الى غيرهم عين نجل العيون جمع عيناء والنجل سعة
العين كانهن بيض مكنون شبههن ببيض النعامة المصون من الغبار ونحوه فى

بلد بالشام ينسب اليه الخمر

الصفاء والبياض المخلوط بادنى صفرة فان ذلك احسن الوان الابدان فاقبل بعضهم على بعض
يتساءلون معطوف على يطاف اى يشربون فيتحادثون على الشراب كما هو عادة
الشرب قال وما بقيت من اللذات الا احاديث الكرام على المدام فيقبل بعضهم على
بعض يتساءلون عن الفضائل والمعارف وعما جرى لهم وعليهم فى الدنيا فالتعبير عنه
بصيغة الماضى للتاكيد والدلالة على تحقق الوقوع حتما قال قائل منهم فى تضاعيف
محاوراتهم انى كان لى فى الدنيا قرين مصاحب يقول على طريقة التوبيخ بما كنت
عليه من الايمان والتصديق بالبعث ائنك لمن المصدقين اى بالبعث وقرئ بتشديد
الصاد من التصدق والاول هو الاوفق لقوله تعالى ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما ائنا
لمدينون اى لمبعوثون ومجزيون من الدين بمعنى الجزاء او لمسوسون يقال دانه اى ساسه
ومنه الحديث العاقل من دان نفسه وقيل كان رجل تصدق بماله لوجه الله تعالى
فاحتاج فاستجدى بعض اخوانه فقال اين مالك قال تصدقت به ليعوضنى الله تعالى
فى الآخرة خيرا منه فقال ائنك من المصدقين بيوم الدين او من المتصدقين لطلب الثواب
والله لا اعطيك شيئا فيكون التعرض لذكر موتهم وكونهم ترابا وعظاما لتاكيد
انكار الجزاء المبنى على انكار البعث قال اى ذلك القائل بعد ما حكى لجلسائه مقالة قرينه
فى الدنيا هل انتم مطلعون اى الى اهل النار لاريكم ذلك القرين يريد بذلك بيان صدقه
فيما حكاه وقيل القائل هو الله او بعض الملئكة يقول لهم هل تحبون ان تطلعوا على اهل
النار لاريكم ذلك القرين فتعلموا اين منزلتكم من منزلتهم قيل ان فى الجنة كوى
ينظر منها اهلها الى اهل النار فاطلع اى عليهم فرآه اى قرينه فى سواء الجحيم اى
فى وسطها وقرئ فاطلع على لفظ المضارع المنصوب وقرئ مطلعون فاطلع وفاطلع بالتخفيف
على لفظ الماضى والمضارع المنصوب يقال طلع علينا فلان واطلع واطلع بمعنى واحد والمعنى
هل انتم مطلعون الى القرين فاطلع انا ايضا او عرض عليهم الاطلاع فقبلوا ما عرضه
فاطلع هو بعد ذلك وان جعل الاطلاع متعديا فالمعنى انه لما شرط فى اطلاعه اطلاعهم كما
هو دين الجلساء فكانهم مطلعوه وقيل الخطاب على هذا للملائكة وقرئ مطلعون بكسر
النون اراد مطلعون اياى فوضع المتصل موضع المنفصل كقوله هم الفاعلون الخير والآمرونه
اذا ما خشوا من محدث الدهر معظما او شبه اسم الفاعل بالمضارع لما بينهما من التآخى
قال اى القائل مخاطبا لقرينه تالله ان كدت لتردين اى لتهلكنى بالاغواء وقرئ لتغوين
والتاء فيه معنى التعجب وان هى المخففة من ان وضمير الشان الذى هو اسمها محذوف و
واللام فارقة اى تالله ان الشان كدت لتردين ولولا نعمة ربى بالهداية والعصمة
لكنت من المحضرين اى من الذين احضروا العذاب كما احضرته انت وامثالك وقوله تعالى
افما نحن بميتين رجوع الى محاورة جلسائه بعد اتمام الكلام مع قرينه تبجحا وابتهاجا
بما اتاح الله عز وجل لهم من الفضل العظيم والنعيم المقيم والهمزة للتقرير وفيها معنى
التعجب والفاء للعطف على مقدر يقتضيه نظم الكلام اى انحن مخلدون منعمون فما نحن
بميتين اى بمن شانه الموت وقرئ بمائتين الا موتتنا الاولى التى كانت فى الدنيا
وهى متناولة لما فى القبر بعد الاحياء للسؤال قاله تصديقا لقوله تعالى لا يذوقون فيها الموت
الا الموتة الاولى وقيل ان اهل الجنة اول ما دخلوا الجنة لا يعلمون انهم لا يموتون فاذا جئ
بالموت على صورة كبش املح وذبح فنودى يا اهل الجنة خلود فلا موت ويا اهل النار خلود
فلا موت يعلمونه فيقولون ذلك تحدثا بنعمة الله تعالى واغتباطا بها وما نحن بمعذبين
كالكفار فان النجاة من العذاب ايضا نعمة جليلة مستوجبة للتحدث بها ان هذا اى الامر العظيم
الذى نحن فيه لهو الفوز العظيم وقيل هو من قول الله عز وجل تقريرا لقولهم وتصديقا
له وقرئ لهو الرزق العظيم وهو ما رزقوه من السعادة العظمى لمثل هذا فليعمل
العاملون اى لنيل هذا المرام الجليل يجب ان يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية السريعة
الانصرام المشوبة بفنون الآلام وهذا ايضا يحتمل ان يكون من كلام رب العزة اذلك
خير نزلا ام شجرة الزقوم اصل النزل الفضل والريع فاستعير للحاصل من الشئ فانتصابه

على التمييز

اى طلب الجدوى

على التمييز اى ذلك الرزق المعلوم الذى حاصله اللذة والسرور خير نزلا ام شجرة الزقوم
التى حاصلها الالم والغم ويقال النزل لما يقام ويهيأ من الطعام الحاضر للنازل فانتصابه
على الحالية والمعنى ان الرزق المعلوم نزل اهل الجنة واهل النار نزلهم شجرة الزقوم
فايهما خير فى كونه نزلا والزقوم اسم شجرة صغيرة الورق دفرة مرة كريهة الرائحة
تكون فى تهامة سميت به الشجرة الموصوفة انا جعلناها فتنة للظالمين محنة وعذابا
لهم فى الآخرة وابتلاء فى الدنيا فانهم لما سمعوا انها فى النار قالوا كيف يمكن ذلك والنار
تحرق الشجر ولم يعلموا ان من قدر على خلق حيوان يعيش فى النار ويتلذذ بها اقدر
على خلق الشجر فى النار وحفظه من الاحراق انها شجرة تخرج فى اصل الجحيم منبتها
فى قعر جهنم واغصانها ترتفع الى دركاتها وقرئ ثابتة فى اصل الجحيم طلعها اى
حملها الذى يخرج منها مستعار من طلع النخلة لمشاركته له فى الشكل والطلوع من الشجر
قالوا اول التمر طلع ثم خلال ثم بلح ثم بسر ثم رطب ثم تمر كانه رؤس الشياطين
فى التناهى فى القبح والهول وتشبيه بالمخيل كتشبيه الفائق فى الحسن بالملك وقيل الشياطين
الحيات الهائلة القبيحة المنظر لها اعراف وقيل ان شجرا يقال له الاستن خشنا منتنا مرا
منكر الصورة يسمى ثمره رؤس الشياطين فانهم لآكلون منها اى من الشجرة او من طلعها
فالتانيث مكتسب من المضاف اليه فمالئون منها البطون لغلبة الجوع او للقسر
على اكلها وان كرهوها ليكون ذلك بابا من العذاب ثم ان لهم عليها على الشجرة التى ملؤا
منها بطونهم بعد ما شبعوا منها وغلبهم العطش وطال استسقاؤهم كما ينبئ عنه كلمة
ثم ويجوز ان يكون لما فى شرابهم من مزيد الكراهة والبشاعة لشوبا من حميم
لشرابا من غساق او صديد مشوبا بماء حميم يقطع امعاءهم وقرئ بالضم وهو اسم
لما يشاب والاول مصدر سمى به ثم ان مرجعهم اى مصيرهم وقرئ كذلك
لالى الجحيم الى دركاتها والى نفسها فان الزقوم والحميم نزل يقدم اليهم قبل دخولها
وقيل الحميم خارج عنها لقوله تعالى هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين
حميم آن يذهب بهم عن مقارهم ومنازلهم فى الجحيم الى شجرة الزقوم فيأكلون
منها الى ان يمتلئوا ثم يسقون من الحميم ثم يردون الى الجحيم ويؤيده انه قرئ ثم
ان منقلبهم انهم الفوا اباءهم ضالين تعليل لاستحقاقهم ما ذكر من فنون العذاب
بتقليد الآباء فى الدين من غير ان يكون لهم ولا لآبائهم شئ يتمسك به اصلا اى وجدوهم
ضالين فى نفس الامر ليس لهم ما يصلح شبهة فضلا عن صلاحية الدليل فهم على آثارهم
يهرعون من غير ان يتدبروا انهم على الحق او لا مع ظهور كونهم على الباطل بادنى تامل
والاهراع الاسراع الشديد كانهم يزعجون ويحثون حثا على الاسراع على آثارهم وقيل
هو اسراع فيه شبه رعدة ولقد ضل قبلهم اى قبل قومك قريش اكثر الاولين من
الامم السالفة وهو جواب قسم محذوف وكذا قوله تعالى ولقد ارسلنا فيهم منذرين
اى انبياء اولى عدد كثير وذوى شان خطير بينوا لهم بطلان ما هم عليه وانذروهم
عاقبته الوخيمة وتكرير القسم لابراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون كل من الجملتين فانظر كيف
كان عاقبة المنذرين من الهول والفظاعة لما لم يلتفتوا الى الانذار ولم يرفعوا له رأسا
والخطاب اما للرسول صلى الله عليه وسلم او لكل احد ممن يتمكن من مشاهدة آثارهم
حيث كان المعنى انهم اهلكوا اهلاكا فظيعا استثنى عنهم المخاطبون بقوله تعالى الا عباد الله
المخلصين اى الذين اخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للايمان والعمل بموجب الانذار وقرئ
المخلصين بكسر اللام اى الذين اخلصوا دينهم لله تعالى ولقد نادانا نوح نوع
نوع تفصيل لما اجمل فيما قبل ببيان احوال بعض المرسلين وحسن عاقبتهم متضمن لبيان سوء
عاقبة بعض المنذرين حسبما اشير اليه بقوله تعالى فانظر كيف كان عاقبة المنذرين كقوم
نوح وآل فرعون وقوم لوط وقوم الياس ولبيان حسن عاقبة بعضهم الذين اخلصوا
لله تعالى ووفقهم للايمان كما اشير اليه الاستثناء كقوم يونس عليهم السلام وتقديم
قصة نوح على سائر القصص غنى عن البيان واللام جواب قسم محذوف وكذا ما

في قوله تعالى فلنعم المجيبون اي وبالله لقد دعانا نوح حين يئس من ايمان قومه بعدما
دعاهم اليه احقابا ودهورا فلم تزدهم دعوته الا فرارا ونفورا فاجبناه احسن الاجابة
فوالله لنعم المجيبون نحن فحذف ما حذف ثقة بدلالة ما ذكر عليه والجمع دليل العظمة
والكبرياء ونجيناه واهله من الكرب العظيم اي من الغرق وقيل من اذية قومه وجعلنا
ذريته هم الباقين فحسب حيث اهلكنا الكفرة بموجب دعائه رب لا تذر على الارض من
الكافرين ديارا وقد روي انه مات كل من كان معه في السفينة غير ابنائه وازواجه
اوهم الذين بقوا متناسلين الى يوم القيمة قال قتادة رضي الله عنه الناس كلهم من ذرية نوح
عم وكان له ثلثة اولاد سام وحام ويافث فسام ابو العرب وفارس والروم وحام
ابو السودان من المشرق الى المغرب ويافث ابو الترك ويأجوج ومأجوج وتركنا عليه
في الاخرين من الامم سلام على نوح اي هذا الكلام بعينه وهو وارد على الحكاية
كقولك قرأت سورة انا انزلناها والمعنى يسلمون عليه تسليما ويدعون له على الدوام امة
بعد امة وقيل ثمة قول مقدر اي فقلنا وقيل ضمن تركنا معنى قلنا وقوله تعالى في العالمين
متعلق بالجار والمجرور ومعناه الدعاء بثبات هذه التحية واستمرارها ابدا في العالمين
من الملئكة والثقلين جميعا وقوله تعالى انا كذلك نجزي المحسنين تعليل لما فعل به عليه
السلام من التكرمة السنية من اجابة دعائه وابقاء ذريته وتبقية ذكره الجميل
وتسليم العالمين عليه الى آخر الدهر بكونه من زمرة المعروفين بالاحسان الراسخين فيه
وان ذلك من قبيل مجازاة الاحسان بالاحسان وذلك اشارة الى ما ذكر من الكرامات
السنية التي وقعت جزاء له عليه السلام وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد
بالمشار اليه للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته في الفضل والشرف والكاف متعلقة بما بعدها
اي مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي الكاملين في الاحسان لا جزاء ادنى منه وقوله تعالى انه من
عبادنا المؤمنين تعليل لكونه من المحسنين بخلوص عبوديته وكمال ايمانه وفيه من الدلالة
على جلالة قدرهما ما لا يخفى ثم اغرقنا الاخرين اي المغايرين لنوح واهله وهم
كفار قومه اجمعين وان من شيعته اي ممن شايعه في اصول الدين لابراهيم
وان اختلفت فروع شرائعهما ويجوز ان يكون بين شريعتيهما اتفاق كلي او اكثري وا
عن ابن عباس من اهل دينه وعلى سنته او ممن شايعه على التصلب في دين الله تعالى ومصابرة
المكذبين وما كان بينهما الا نبيان هود وصالح عليهم السلام وكان بين نوح وابراهيم
الفان وستمائة واربعون سنة اذ جاء ربه منصوب باذكر او متعلق بما في الشيعة من
معنى المشايعة بقلب سليم اي من آفات القلوب او من العلائق الشاغلة عن التبتل
الى الله عز وجل ومعنى المجيء به ربه اخلاصه له كانه جاء به متحففا اياه بطريق التمثيل
اذ قال لابيه وقومه ماذا تعبدون بدل من الاولى او ظرف لجاء او لسليم اي اي
شيء تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون اي اتريدون آلهة دون الله افكا
اي للافك فقدم المفعول على الفعل للعناية ثم المفعول له على المفعول به لان الاهم
مكافحتهم بانهم على افك وباطل في شركهم ويجوز ان يكون افكا مفعولا به بمعنى
اتريدون افكا ثم يفسر الافك بقوله آلهة من دون الله تعالى دلالة على انها افك في نفسها
للمبالغة ويراد بها عبادتها بحذف المضاف ويجوز ان يكون حالا بمعنى آفكين فما ظنكم
برب العالمين اي بمن هو حقيق بالعبادة لكونه ربا للعالمين حتى تركتم عبادته خاصة
واشركتم به اخس مخلوقاته او فما ظنكم به اي شيء هو من الاشياء حتى جعلتم الاصنام
انداد او فما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم بعد ما فعلتم ما فعلتم من
الاشراك به فنظر نظرة في النجوم قيل كانت له عليه السلام حمى لها نوبة معينة في
بعض ساعات الليل فنظر ليعرف هل هي تلك الساعة فاذا هي قد حضرت فقال
اني سقيم وكان صادقا في ذلك فجعله عذرا في تخلفه عن عيدهم وقيل اراد اني
سقيم القلب لكفركم وقيل نظر في علمها او في كتبها او احكامها ولا منع من ذلك
حيث كان قصده عليه السلام ايهامهم حين ارادوا ان يخرجوا به عليه السلام الى

معبدهم

معبدهم ليتركوه فان القوم كانوا نجامين فاوهمهم انه قد استدل بامارة في علم النجوم على
انه سقيم اي مشارف للسقم وهو الطاعون وكان اغلب الاسقام عليهم وكانوا يخافون
العدوى ليتفرقوا عنه فهربوا منه الى معبدهم وتركوه في بيت الاصنام وذلك قوله تعالى
فتولوا عنه مدبرين اي هاربين مخافة العدوى فراغ الى آلهتهم اي ذهب اليها في
خفية واصله الميل بحيلة فقال للاصنام استهزاء الا تاكلون اي من الطعام الذي كانوا
يصنعونه عندهم ليتبركوا به ما لكم لا تنطقون اي بجوابي فراغ عليهم فمال مستعليا
عليهم وقوله تعالى ضربا باليمين مصدر مؤكد لراغ عليهم فانه بمعنى ضربهم او لفعل
مضمر هو حال من فاعله اي فراغ عليهم يضربهم ضربا وهو الحال منه على انه مصدر بمعنى
الفاعل اي فراغ عليهم ضاربا باليمين اي ضربا شديدا قويا وذلك لان اليمين اقوى الجارحتين
واشدهما وقوة الآلة تقتضي قوة الفعل وشدته وقيل بالقوة والمتانة كما في قوله اذا
ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين اي بالقوة وعلى ذلك مدار تسمية الحلف باليمين
لانه يقوي الكلام ويؤكده وقيل بسبب الحلف وهو قوله وتالله لاكيدن اصنامكم فاقبلوا
اليه اي المامورون باحضاره عم بعد ما رجعوا عن عيدهم الى بيت الاصنام فوجدوها
مكسورة فسألوا عن الفاعل فظنوا انه عليه السلام فعله فقيل فأتوا به يزفون حال من
واو اقبلوا اي يسرعون من زفيف النعام وقرئ يزفون من ازف اذا دخل في الزفيف او
من ازفه اي حمله على الزفيف اي يزف بعضهم بعضا ويزفون على البناء للمفعول اي
يحملون على الزفيف ويزفون من وزف يزف اذا اسرع ويزفون من زفاه اذا حداه كان
بعضهم يزفوا بعضا لتسارعهم اليه عليه السلام قال اي بعد ما اتوا به عليه السلام
وجرى بينه عليه السلام وبينهم من المحاورات ما نطق به قوله تعالى قالوا أانت فعلت هذا
بآلهتنا يا ابراهيم الى قوله تعالى لقد علمت ما هؤلاء ينطقون اتعبدون ما تنحتون
ما تنحتونه من الاصنام وقوله تعالى والله خلقكم وما تعملون حال من فاعل تعبدون
مؤكد للانكار والتوبيخ والحال انه تعالى خلقكم وخلق ما تعملونه فان جوهر اصنامهم
ومادتها بخلقه وشكلها وان كان بفعلهم لكنه باقداره تعالى اياهم عليه وخلقه ما يتوقف
عليه فعلهم من الدواعي والعدد والاسباب وما تعملون اما عبارة عن الاصنام فوضعه
موضع ضمير ما تنحتون للايذان بان مخلوقيتها لله عز وجل ليس من حيث نحتهم لها فقط
بل من حيث سائر اعمالهم ايضا من التصوير والتحلية والتزيين ونحوها واما على عمومه
فينتظم الاصنام انتظاما اوليا مع ما فيه من تحقيق الحق ببيان ان جميع ما يعملونه
كائنا ما كان مخلوق له سبحانه وقيل ما مصدرية اي عملكم على انه بمعنى المفعول وقيل
بمعناه فان فعلهم اذا كان بخلق الله تعالى كان مفعولهم المتوقف على فعلهم اولى بذلك
قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه في الجحيم اي في النار الشديد الاتقاد من الجحمة وهي شدة
التأجج واللام عوض عن المضاف اليه اي جحيم ذلك البنيان وقد ذكر شانهم له في سورة
الانبياء فارادوا به كيدا فانه عليه السلام لما قهرهم بالحجة والقمهم الحجر قصدوا ما
قصدوا لئلا يظهر للعامة عجزهم فجعلناهم الاسفلين الاذلين بابطال كيدهم
وجعله برهانا نيرا على علو شانه عم بجعل النار عليه بردا وسلاما وقال اني
ذاهب الى ربي اي مهاجر الى حيث امرني ربي كما قال اني مهاجر الى ربي وهو الشام او
الى حيث اتجرد فيه لعبادته تعالى سيهدين اي الى ما فيه صلاح ديني او الى مقصدي وبت
القول بذلك لسبق الوعد او لفرط توكله او للبناء على عادته تعالى معه ولم يكن كذلك
حال موسى عليه السلام حيث قال عسى ربي ان يهديني سواء السبيل ولذلك اتى بصيغة
التوقع رب هب لي من الصالحين اي بعض الصالحين يعينني على الدعوة والطاعة ويؤنسني
في الغربة يعني الولد لان لفظ الهبة على الاطلاق خاص به وان كان قد ورد مقيدا بالاخ
في قوله تعالى ووهبنا له من رحمتنا اخاه هرون نبيا ولقوله تعالى فبشرناه بغلام
حليم فانه صريح في ان المبشر به عين ما استوهبه عليه السلام ولقد جمع فيه بشارات
ثلث بشارة انه غلام وانه يبلغ اوان الحلم وانه يكون حليما واي حلم يعادل حلمه عم

فاعل

حين عرض عليه ابوه الذبح فقال يا ابت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين وقيل
نعت الله الانبياء عليهم السلام باقل مما نعتهم بالحلم لعزة وجوده في غير ابراهيم وابنه فانه
تعالى نعتهما وحالهما المحكية بعد اعدل بينة بذلك والفاء في قوله تعالى فلما بلغ معه السعي
فصيحة معربة عن مقدر قد حذف تعويلا على شهادة الحال وايذانا بعدم الحاجة الى التصريح
به لاستحالة التخلف والتأخر بعد البشارة كما في قوله تعالى فلما رأينه اكبرنه وفي قوله تعالى
فلما رآه مستقرا عنده اى فوهبناه له فنشأ فلما بلغ رتبة ان يسعى معه في اشغاله و
حوائجه ومعه متعلق بمحذوف ينبئ عنه السعي لا بنفسه لان صلة المصدر لا يتقدمه ولا ببلغ
لان بلوغهما لم يكن معا كانه لما ذكر السعي قيل مع من فقيل معه وتخصيصه لان الاب
اكمل في الرفق والاستصلاح فلا يستسعيه قبل اوانه او لانه استوهبه لذلك وكان
له يومئذ ثلث عشرة سنة قال اى ابراهيم عليه السلام يا بني اني ارى في المنام اني
اذبحك اى ارى هذه الصورة بعينها او ما هذه عبارته وتأويله وقيل انه رأى
ليلة التروية كان قائلا يقول له ان الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما اصبح روّى في ذلك
من الصباح الى الرواح امن الله هذا الحلم او من الشيطان فمن ثمة سمي يوم التروية فلما
امسى رأى مثل ذلك فعرف انه من الله تعالى فمن ثم سمي يوم عرفة ثم رأى مثله في الليلة
الثالثة فهمّ بنحره فسمي يوم النحر وقيل ان الملائكة حين بشرته بغلام حليم قال اذن
ذبيح الله فلما ولد وبلغ حد السعي معه قيل له اوف بنذرك والاظهر ان المخاطب
اسمعيل اذ هو الذي وهب اثر المهاجرة ولان البشارة باسحق بعد معطوف
على البشارة بهذا الغلام ولقوله صلى الله عليه وسلم انا ابن الذبيحين فاحدهما جده
اسمعيل عليه السلام والآخر ابوه عبد الله فان عبد المطلب نذر ان يذبح ولدا ان سهل
الله له حفر بئر زمزم او بلغ بنوه عشرة فلما حصل ذلك وخرج السهم على عبد الله فداه
بمائة من الابل ولذلك سنت الدية مائة ولان ذلك كان بمكة وكان قرنا الكبش معلقين
بالكعبة حتى احترقا في ايام الزبير ولم يكن اسحق ثمه ولان بشارة اسحق كانت مقرونة
بولادة يعقوب منه فلا يناسبه الامر بذبحه مراهقا وما روي انه صلى الله عليه وسلم
سئل اى النسب اشرف فقال يوسف صديق الله ابن يعقوب اسرائيل الله ابن اسحق
ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله فالصحيح انه عليه الصلوة والسلام قال يوسف بن
يعقوب بن اسحق بن ابراهيم والزوائد من الراوي وما روي من ان يعقوب كتب الى
يوسف مثل ذلك لم يثبت وقرئ انيَ بفتح الياء فيهما فانظر ماذا ترى من الرأي وانما
شاوره فيه وهو امر محتوم ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله تعالى فيثبت قدمه ان جزع
ويأمن عليه ان سلم ليوطن نفسه عليه فيهون ويكتسب المثوبة عليه بالانقياد له قبل
نزوله وقرئ ماذا تُرى بضم التاء وكسر الراء وبفتحها مبنيا للمفعول قال يا ابت افعل
ما تؤمر اى تؤمر به فحذف الجار اولا على القاعدة المطردة ثم حذف العائد الى الموصول
بعد انقلابه منصوبا بايصاله الى الفعل او حذفا دفعة او افعل امرك على اضافة المصدر
الى المفعول وتسمية المأمور به امرا وقرئ ما تؤمر وصيغة المضارع للدلالة على ان الامر
متعلق به متوجه اليه مستمر الى حين الامتثال به ستجدني ان شاء الله من الصابرين
على الذبح او قضاء الله تعالى فلما اسلما اى استسلما لامر الله تعالى وانقادا وخضعا له يقال
سلم لامر الله واسلم واستسلم بمعنى واحد وقد قرئ بهن جميعا واصلها من قولك سلم
هذا لفلان اذا خلص له ومعناه سلم من ان ينازع فيه وقولهم سلم لامر الله واسلم
له منقولان منه ومعناهما اخلص نفسه لله وجعلها سالمة له وكذلك معنى استسلم استخلص
نفسه له تعالى وعن قتادة رضي الله عنه في اسلما اسلم ابراهيم ابنه واسمعيل نفسه وتله
للجبين صرعه على شقه فوقع جبينه على الارض وهو احد جانبي الجبهة وقيل كبه على
وجهه باشارته كيلا يرى منه ما يورث رقة تحول بينه وبين امر الله تعالى وكان ذلك
عند الصخرة من منى وقيل في الموضع المشرف على مسجد منى وقيل في المنحر الذي ينحر اليوم
وناديناه ان يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا بالعزم على الاتيان بالمأمور به وترتيب مقدماته

وقد روي انه امرّ السكين بقوته على حلقه مرارا فلم يقطع ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين
فعند ذلك وقع النداء وجواب لما محذوف ايذانا بعدم وفاء التعبير بتفاصيله كانه قيل
كان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان من استبشارهما لله تعالى على ما انعم به عليهما
من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق لما لم يوفق احد لمثله واظهار فضلهما بذلك على العالمين
مع احراز الثواب العظيم الى غير ذلك انا كذلك نجزي المحسنين تعليل لتفريج تلك الكربة
عنهما باحسانهما واحتج به من جوز النسخ قبل وقوع المأمور به فانه عم كان مأمورا
بالذبح لقوله تعالى افعل ما تؤمر ولم يحصل ان هذا لهو البلاء المبين الابتلاء البين الذي
يتميز فيه المخلص عن غيره او المحنة البينة الصعوبة اذ لا شيء اصعب منها وفديناه بذبح
بما يذبح بدله فيتم به الفعل عظيم اى عظيم الجثة سمين او عظيم القدر لانه
يفدى به الله نبيا ابن نبي واي نبي من نسله سيد المرسلين قيل كان كبشا من الجنة
عن ابن عباس رضي الله عنهما انه الكبش الذي قربه هابيل فتقبل منه وكان يرعى في الجنة حتى
فدي به اسمعيل عليه السلام وقيل فدي بوعل اهبط عليه من ثبير وروي انه هرب
من ابراهيم عليه السلام عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى اخذه فبقي سنة في الرمي
وروي انه رمى الشيطان حين تعرض له بالوسوسة عند ذبح ولده وروي انه لما ذبحه قال
جبريل عليه السلام الله اكبر الله اكبر فقال الذبيح لا اله الا الله والله اكبر فقال ابراهيم
الله اكبر ولله الحمد فبقي سنة والفادي في الحقيقة هو ابراهيم وانما قيل وفديناه لانه
تعالى هو المعطي له والآمر به على التجوز في الفداء او الاسناد وتركنا عليه في الآخرين سلام على
ابراهيم قد سلف بيانه في خاتمة قصة نوح كذلك نجزي المحسنين ذلك اشارة الى
ابقاء ذكره الجميل فيما بين الامم لا الى ما اشير اليه فيما سبق فلا تكرار وعدم تصدير الجملة بانا
للاكتفاء بها مرّ آنفا انه من عبادنا المؤمنين الراسخين في الايمان على وجه الايقان والاطمئنان
وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين اى مقضيا بنبوته مقدرا كونه من الصالحين
وبهذا الاعتبار وقعا حالين ولا حاجة الى وجود المبشر به وقت البشارة فان وجود ذي الحال
ليس بشرط وانما الشرط مقارنة تعلق الفعل به لاعتبار معنى الحال فلا حاجة الى تقدير مضاف
يجعل عاملا فيهما مثل وبشرناه بوجود اسحق اى بان يوجد اسحق نبيا من الصالحين
ومع ذلك لا يصير نظير قوله فادخلوها خالدين فان الداخلين كانوا مقدرين خلودهم
وقت الدخول واسحق عليه السلام لم يكن مقدرا نبوة نفسه وصلاحها حين ما يوجد
ومن فسر الغلام باسحق جعل المقصود من البشارة نبوته وفي ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم
لشانه وايماء الى انه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الاطلاق وباركنا
عليه على ابراهيم في اولاده وعلى اسحق بان اخرجنا من صلبه انبياء بني اسرائيل و
غيرهم كايوب وشعيب عليهم السلام او افضنا عليهما بركات الدين والدنيا وقرئ
وبركنا ومن ذريتهما محسن في عمله او لنفسه بالايمان والطاعة وظالم لنفسه
بالكفر والمعاصي مبين ظاهر ظلمه وفيه تنبيه على ان النسب لا تأثير له في الهداية والضلال
وان الظلم في اعقابهما لا يعود عليهما بنقيصة ولا عيب ولقد مننا على موسى وهرون
اى انعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من النعم الدينية والدنيوية ونجيناهما وقومهما
وهم بنو اسرائيل من الكرب العظيم هو ملكة آل فرعون وتسلطهم عليهم بالوان
العسف والعذاب كما في قوله تعالى واذ نجيناكم من آل فرعون وقيل هو الغرق وهو بعيد
لانه لم يكن عليهم كربا ومشقة ونصرناهم اى اياهما وقومهما على عدوهم فكانوا
بسبب ذلك هم الغالبين عليهم غلبة لا غاية وراءها بعد ان كان قومهما في قسرهم
واسرهم مقهورين تحت ايديهم العادية يسومونهم سوء العذاب وهذه التنجية وان
كانت بحسب الوجود مقارنة لما ذكر من النصرة والغلبة لكنها لما كانت بحسب المفهوم عبارة
عن التخليص عن المكروه بدئ بها ثم بالنصر الذي يتحقق مدلوله بمحض تنجية المنصور
من عدوه من غير تغليبه عليه بالغلبة لتوفية مقام الامتنان حقه باظهار ان كل مرتبة من هذه
المراتب الثلث نعمة جليلة على حيالها وآتيناهما بعد ذلك الكتاب المستبين اى البليغ في

البيان والتفصيل وهو التورية وهديناهما الصراط المستقيم الموصل الى الحق والصواب
بما فيه من تفاصيل الشرايع وتفاريع الاحكام وتركنا عليهما فى الاخرين سلام على موسى
وهرون اى ابقينا فيما بين الامم الاخرين هذا الذكر الجميل والثناء الجزيل انا كذلك الجزاء
الكامل نجزى المحسنين الذين هما من جملتهم لا جزاء قاصرا عنه انهما من عبادنا المؤمنين
سبق بيانه وان الياس لمن المرسلين هو الياس بن ياسين من سبط هرون اخى موسى
عليه السلام بعث بعده وقيل ادريس لانه قرئ مكانه ادريس وادراس وقرئ ايليس وقرئ
الياس بحذف الهمزة اذ قال لقومه الا تتقون اى عذاب الله تعالى اتدعون بعلا
اتعبدونه وتطلبون الخير منه وهو اسم صنم كان لاهل بك من الشام وهو البلد الموقف
اليوم ببعلبك قيل كان من ذهب طوله عشرون ذراعا وله اربعة اوجه فتنوا به وعظموه
حتى اخدموه اربعماية سادن وجعلوهم انبياء فكان الشيطان يدخل جوفه ويتكلم بشريعة
الضلالة والسدنة يحفظونها ويعلمونها وقيل البعل الرب بلغة اليمن اى اتعبدون
بعض البعول وتذرون احسن الخالقين اى وتتركون عبادته وقد اشير
الى المقتضى للانكار المعنى بالهمزة ثم صرح به بقوله تعالى الله ربكم ورب اباءكم
الاولين بالنصب على البدلية من احسن الخالقين وقرئ بالرفع على الابتداء والتعرض لذكر
ربوبيته تعالى لاباءهم لتاكيد انكار تركهم عبادته تعالى والاشعار ببطلان اراء اباءهم ايضا
فكذبوه فانهم بسبب تكذيبهم ذلك لمحضرون اى العذاب والاطلاق للاكتفاء
بالقرينة على ان الاحضار المطلق مخصوص بالشر عرفا الا عباد الله المخلصين استثناء
من ضمير محضرون وتركنا عليه فى الاخرين سلام على الياسين هى لغة فى الياس كسينا فى
سينين وقيل هو جمع له اريد به هو واتباعه كالمهلبين والخبيبين وفيه ان العلم اذا
جمع يجب تعريفه كالمثالين وقرئ باضافة آل ياسين لانهما فى المصحف مفصولان فيكون ياسين
ابا الياس انا كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين مر تفسيره وان لوطا لمن
المرسلين اذ نجيناه اى اذكر وقت تنجيتنا اياه واهله اجمعين الا عجوزا فى الغابرين اى
الباقين فى العذاب او الماضين الهالكين ثم دمرنا الاخرين فان فى ذلك شواهد على جلالة قدره
وكونه من جملة المرسلين وانكم يا اهل مكة لتمرون عليهم على منازلهم فى متاجركم
الى الشام وتشاهدون آثار هلاكهم فان سدوم فى طريق الشام مصبحين داخلين
فى الصباح وبالليل اى ومساء او نهارا وليلا ولعلها وقعت بقرب منزل يمر بها
المرتحل عنه صباحا والقاصد له مساء افلا تعقلون اتشاهدون ذلك فلا تعقلون
حتى تعتبروا به وتخافوا ان يصيبكم مثل ما اصابهم وان يونس لمن المرسلين وقرئ بكسر
النون اذ ابق اى هرب واصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير اذن
ربه حسن اطلاقه عليه الى الفلك المشحون اى المملوء فساهم فقارع اهله فكان من
المدحضين فصار من المغلوبين بالقرعة واصله المزلق عن مقام الظفر روى انه عليه
السلام لما وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل ان يأمره الله تعالى فركب السفينة فوقفت
فقالوا فيها عبد آبق فاقترعوا فخرجت القرعة عليه فقال انا الآبق ورمى بنفسه فى الماء
فالتقمه الحوت فابتلعه من اللقمة وهو مليم داخل فى الملامة او آت بما يلام عليه
او مليم نفسه وقرئ مليم بالفتح مبنيا من ليم كمشيب فى مشوب فلولا انه كان من المسبحين
الذاكرين الله كثيرا بالتسبيح مدة عمره او فى بطن الحوت وهو قوله لا اله الا انت سبحانك
انى كنت من الظالمين وقيل من المصلين فانه عليه السلام كان كثير الصلوة فى الرخاء
للبث فى بطنه الى يوم يبعثون حيا وقيل ميتا وفيه حث على اكثار الذكر وتعظيم لشانه
ومن اقبل عليه فى السراء اخذ بيده عند الضراء فنبذناه بالعراء بان حملنا الحوت
على لفظه بالمكان الخالى عما يغطيه من شجر او نبت روى ان الحوت سار مع السفينة رافعا
راسه يتنفس فيه يونس عليه السلام ويسبح ولم يفارقهم حتى انتهوا الى البر
فلفظه سالما لم يتغير منه شئ فاسلموا وروى ان الحوت قذفه بساحل قرية من
الموصل واختلف فى مقدار لبثه فقيل اربعون يوما وقيل عشرون وقيل سبعة وقيل

ثلثة وقيل لم يلبث الا قليلا ثم اخرج من بطنه بعيد الوقت الذى التقم فيه روى انه حين
ابتلعه اوحى الله تعالى الى الحوت انى جعلت بطنك له سجنا ولم اجعله لك طعاما وهو
سقيم مما ناله قيل صار بدنه كبدن الطفل حين يولد وانبتنا عليه اى فوقه مظلة
عليه شجرة من يقطين وهو كل ما ينبسط على الارض ولا يقوم على ساق كشجر البطيخ
والقثاء والحنظل وهو يفعيل من قطن بالمكان اذا اقام به والاكثرون على انه الدباء غطته
باوراقها عن الذباب فانه لا يقع عليه ويدل عليه انه قيل لرسول الله صلى الله
عليه وسلم انك تحب القرع قال اجل هى شجرة اخى يونس وقيل هى التين وقيل الموز
تغطى بورقه واستظل باغصانه وافطر على ثماره وقيل كان يستظل بالشجرة وكانت
وعلة تختلف اليه فيشرب من لبنها وارسلناه الى مائة الف هم قومه الذين هرب
منهم وهم اهل نينوى والمراد به ارساله السابق اخبر اولا بانه من المرسلين على
الاطلاق ثم اخبر بانه قد ارسل الى امة جمة وكان توسيط تذكير وقت هربه
الى الفلك وما بعده بينهما لتذكير سببه وهو ما جرى بينه عليه السلام وبين قومه من
انذاره اياهم عذاب الله تعالى وتعيينه لوقت حلوله وتعللهم وتعليقهم لايمانهم بظهور
اماراته عليه السلام كما مر تفصيله فى سورة يونس ليعلم ان ايمانهم الذى سيحكى بعد
لم يكن عقيب الارسال كما هو المتبادر من ترتيب الايمان عليه بالفاء بل بعد اللتيا والتى
وقيل هو ارسال آخر اليهم وقيل الى غيرهم وليس بظاهر او يزيدون اى فى مرأى
الناظر فانه اذا نظر اليهم قال انهم مائة الف او يزيدون والمراد هو الوصف بالكثرة
وقرئ بالواو فآمنوا اى بعد ما شاهدوا علائم حلول العذاب ايمانا خالصا فمتعناهم
اى بالحيوة الدنيا الى حين قدره الله تعالى لهم قيل ولعل عدم ختم هذه القصة
وقصة لوط بما ختم به سائر القصص للتفرقة بينهما وبين ارباب الشرائع واولى العزم
من الرسل او اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين فى آخر السورة فاستفتهم
امر الله عز وجل فى صدر السورة الكريمة رسوله صلى الله عليه وسلم بتبكيت قريش وابطال
مذهبهم فى انكار البعث بطريق الاستفتاء وساق البراهين القاطعة الناطقة بتحققه
لا محالة وبين وقوعه وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب واستثنى منهم عباده
المخلصين وفصل ما لهم من النعيم المقيم ثم ذكر انه قد ضل من قبلهم اكثر الاولين
وانه تعالى ارسل اليهم منذرين على وجه الاجمال ثم اورد قصص كل واحد منهم
على وجه التفصيل مبينا فى كل قصة منها انهم من عباده تعالى واصفا لهم تارة بالاخلاص
واخرى بالايمان ثم امره عليه الصلوة والسلام ههنا بتبكيتهم بطريق الاستفتاء عن
وجه امر منكر خارج عن العقول بالكلية وهى القسمة الباطلة اللازمة لما كانوا عليه من
الاعتقاد الزائغ حيث كانوا يقولون كبعض احياء من العرب جهينة وبنى سلمة وخزاعة
وبنى مليح الملائكة بنات الله والفاء لترتيب الامر على ما سبق من كون اولئك الرسل
الذين هم اعلام الخلق عليهم السلام عباده تعالى فان ذلك مما يؤكد التبكيت و
يظهر بطلان مذهبهم الفاسد ثم تبكيتهم بما يتضمنه كفرهم المذكور من الاستهانة
بالملائكة بجعلهم اناثا ثم ابطل اصل كفرهم المنطوى على هذين الكفرين وهو نسبة الولد اليه
سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ولم ينظمه فى سلك التبكيت لمشاركتهم النصارى
فى ذلك اى فاستخبرهم الربك البنات اللاتى هن اوضع الجنسين ولهم البنون
الذين هم ارفعهما فان ذلك مما لا يقول به من له ادنى شئ من العقل وقوله تعالى ام خلقنا
الملائكة اناثا اضراب وانتقال من التبكيت بالاستفتاء السابق الى التبكيت بهذا كما
اشير اليه اى بل اخلقنا الملائكة الذين هم من اشرف الخلائق وابعدهم من صفات الاجسام
ورذائل الطبائع اناثا والانوثة من اخس صفات الحيوان وقوله تعالى وهم شاهدون
استهزاء بهم وتجهيل لهم كقوله تعالى اشهدوا خلقهم وقوله تعالى ما اشهدتهم خلق
السموات والارض ولا خلق انفسهم فان امثال هذه الامور لا تعلم الا بالمشاهدة
اذ لا سبيل الى معرفتها بطريق العقل وانتفاء النقل مما لا ريب فيه فلا بد ان يكون القائل بانوثتهم

شاهدًا عند خلقهم والجملة اما حال من فاعل خلقنا اى بل خلقناهم اناثا والحال انهم
حاضرون حينئذ او عطف على خلقنا اى بل ام شاهدون وقوله تعالى الا انهم من
افكهم ليقولون ولد الله استيناف من جهته غير داخل تحت الامر بالاستفتاء
مسوق لابطال اصل مذهبهم الفاسد ببيان ان مبناه ليس الا الافك الصريح والافتراء
القبيح من غير ان يكون لهم دليل او شبهة قطعا وانهم لكاذبون فى قولهم ذلك كذبا بيّنا
لا ريب فيه وقرئ ولد الله على انه خبر مبتدأ محذوف اى الملائكة ولده تعالى عن ذلك
علوا كبيرا مفعول يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث اصطفى البنات على البنين
اثبات لافكهم وتقرير لكذبهم فيما قالوا ببيان استلزامه لامر بيّن الاستحالة وهو الاصطفاء
اى تعالى البنات على البنين والاصطفاء اخذ صفوة الشئ لنفسه وقرئ بكسر الهمزة على حذف
حرف الاستفهام ثقة بدلالة القراين عليه وجعله بدلا من ولد الله ضعيف وتقدير القول
اى لكاذبون فى قولهم اصطفى الخ تعسف بعيد افلا تذكرون بحذف احدى التائين
من تتذكرون وقرئ تذكرون من ذكر والفاء للعطف على مقدر اى الا تلاحظون ذلك فلا
تتذكرون بطلانه فانه مركوز فى عقل كل ذكى وغبى ام لكم سلطان مبين اضراب
وانتقال من توبيخهم وتبكيتهم بما ذكر الى تبكيتهم بتكليفهم ما لا يدخل تحت الوجود
اصلا اى بل الكم حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بان الملائكة بناته تعالى ضرورة ان
الحكم بذلك لا بد له من سند حسى او عقلى وحيث انتفى كلاهما فلا بد من سند نقلى فاتوا
بكتابكم الناطق بصحة دعواكم ان كنتم صادقين فيها وفى هذه الايات من الانباء عن
السخط العظيم والانكار الفظيع لاقاويلهم والاستبعاد الشديد لاباطيلهم وتسفيه احلامهم
وتركيك عقولهم وافهامهم مع استهزائهم وتعجيب من جهلهم ما لا يخفى على من تامل
فيها وقوله تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا التفات الى الغيبة للايذان بانقطاعهم
عن الجواب وسقوطهم عن درجة الخطاب واقتضاء حالهم ان يعرض عنهم ويحكى
جناياتهم لاخرين والمراد بالجنة الملائكة قالوا الجنس واحد ولكن من خبث من الجن ومرد
وكان شرا كله فهو شيطان ومن طهر منهم ونسك وكان خيرا كله فهو ملك وانما عبر عنهم
بذلك الاسم وضعا منهم وتقصيرا بهم مع عظم شانهم فيما بين الخلق ان يبلغوا منزلة
المناسبة التى اضافوها اليهم فجعلهم هذا عبارة عن قولهم الملائكة بنات الله وانما
اعيد ذكره تمهيدا لما يعقبه من قوله تعالى ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون اى وبالله
لقد علمت الجنة التى عظموها بان جعلوا بينها وبينه تعالى نسبا وهم الملئكة ان الكفرة لمحضرون
النار معذبون بها لكذبهم وافترائهم فى قولهم ذلك والمراد به المبالغة فى التكذيب
ببيان ان الذين يدعى هؤلاء لهم تلك النسبة ويعلمون انهم اعلم منهم بحقيقة الحال
يكذبونهم فى ذلك ويحكمون بانهم معذبون لاجله حكما مؤكدا وقيل ان قوما من
الزنادقة يقولون الله تعالى وابليس اخوان فالله هو الخير الكريم وابليس هو الشرير اللئيم
وهو المراد بقوله تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا قال الامام الرازى وهذا القول
عندى اقرب الاقاويل وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان واهرمن وقال مجاهد
قالت قريش الملائكة بنات الله فقال ابو بكر الصديق رضه فمن امهاتهم تبكيتا لهم
فقالوا سروات الجن وقيل معنى جعلوا بينه وبين الجنة نسبا جعلوا بينهما مناسبة حيث
اشركوا به تعالى الجن فى استحقاق العبادة فعلى هذه الاقاويل يجوز ان يكون الضمير فى انهم
لمحضرون للجنة فالمعنى لقد علمت الشياطين ان الله تعالى يحضرهم النار ويعذبهم بها
ولو كانوا مناسبين له تعالى او شركاء فى استحقاق العبادة لما عذبهم والوجه هو الاول فان
قوله سبحان الله عما يصفون حكاية لتنزيه الملئكة اياه تعالى عما وصفه المشركون به بعد
تكذيبهم لهم فى ذلك وبتقدير قول معطوف على علمت وقوله تعالى الا عباد الله المخلصين
شهادة منهم ببراءة المخلصين من ان يصفوه تعالى بذلك متضمنة لتبرؤهم منه بحكم
اندراجهم فى زمرة المخلصين على ابلغ وجه واكده على انه استثناء منقطع من واو يصفون
كانه قيل ولقد علمت الملائكة ان المشركين لمعذبون لقولهم ذلك وقالوا سبحان الله عما

يصفونه

يصفونه به لكن عباد الله الذين نحن من جملتهم براء من ذلك الوصف وقوله تعالى فانكم
وما تعبدون ما انتم عليه بفاتنين تعليل وتحقيق لبراءة المخلصين مما ذكر ببيان
عجزهم عن اغوائهم واضلالهم والالتفات الى الخطاب لاظهار كمال الاعتناء بتحقيق
مضمون الكلام وما تعبدون عبارة عن الشياطين الذين اغووهم وفيه ايذان بتبرؤهم
عنهم وعن عبادتهم كقولهم بل كانوا يعبدون الجن وما نافية وانتم خطاب لهم
ولمعبوديهم تغليبا وعلى متعلقة بفاتنين يقال فتن فلان على فلان امرأته اى
افسدها عليه والمعنى فانكم ومعبوديكم ايها المشركون لستم بفاتنين عليه تعالى بافساد
عباده واضلالهم الا من هو صال الجحيم منهم اى داخلها لعلمه تعالى بانه يصر على
الكفر بسوء اختياره ويصير من اهل النار لا محالة واما المخلصون منهم فانتم بمعزل من
افسادهم واضلالهم فهم لاجرم براء من ان يفتنوا بكم ويسلكوا مسلككم فى
وصفه تعالى بما وصفتموه به وقرئ صال بضم اللام على انه جمع محمول على معنى من قد
سقط واوه لالتقاء الساكنين وقوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم تبيين لجلية امرهم
وتعيين لحيزهم فى موقف العبودية بعد ما ذكر من تكذيب الكفرة فيما قالوا وتنزيه الله تعالى
عن ذلك وتبرئة المخلصين عنه واظهار لقصور شانهم وقماءتهم اى وما منا احد الا
له مقام معلوم فى العبادة والانتهاء الى امر الله عز وجل مقصور عليه لا يتجاوزه ولا يستطيع
ان يزل عنه خضوعا لعظمته وخشوعا لهيبته وتواضعا لجلاله كما روى فمنهم راكع لا
يقيم صلبه وساجد لا يرفع رأسه قال ابن عباس رضى الله عنهما ما فى السموات موضع شبر
الا وعليه ملك يصلى او يسبح وروى انه قال عليه السلام اطت السماء وحق لها ان تئط
والذى نفسى بيده ما فيها موضع اربع اصابع الا وفيه ملك واضع جبهته ساجد لله تعالى
وقال السدى الا له مقام معلوم فى القربة والمشاهدة وانا لنحن الصافون فى
مواقف الطاعة ومواطن الخدمة وانا لنحن المسبحون المقدسون لله تعالى عن كل ما
لا يليق بجناب كبريائه وتحلية كلامهم بفنون التاكيد لابراز ان صدوره عنهم بكمال
الرغبة والنشاط هذا هو الذى يقتضيه جزالة التنزيل وقد ذكر فى تفسير الايات الكريمة
واعرابها وجوه اخر فتامل والله الموفق وان كانوا ليقولون ان هى المخففة من الثقيلة
وضمير الشان محذوف واللام هى الفارقة اى ان الشان كانت قريش تقول لو ان
عندنا ذكرا من الاولين اى كتابا من كتب الاولين من التورية والانجيل لكنا عباد الله
المخلصين اى لاخلصنا العبادة لله تعالى ولما خالفنا كما خالفوا وهذا كقولهم لئن جاءهم
نذير ليكونن اهدى من احدى الامم والفاء فى قوله تعالى فكفروا به فصيحة كما فى
قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق اى فجاءهم ذكر واى ذكر سيد الاذكار
وكتاب مهيمن على سائر الكتب والاسفار فكفروا به فسوف يعلمون اى عاقبة كفرهم
وغائلته ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين استئناف مقرر للوعيد وتصديره
بالقسم لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونه اى وبالله لقد سبق وعدنا لهم بالنصرة والغلبة
وهو قوله تعالى انهم لهم المنصورون وان جندنا وهم اتباع المرسلين لهم
الغالبون على اعدائهم فى الدنيا والاخرة ولا يقدح فى ذلك انهزامهم فى بعض المشاهد
فان قاعدة امرهم واساسه الظفر والنصرة وان وقع فى تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء
والمحنة والحكم للغالب وعن ابن عباس رضهما ان لم ينصروا فى الدنيا نصروا فى الاخرة
وقرئ على عبادنا بتضمين سبقت معنى حقت وتسميتها كلمة مع انها كلمات لانتظامها فى
معنى واحد وقرئ كلماتنا فتول عنهم فاعرض عنهم واصبر حتى حين الى مدة
يسيرة وهى مدة الكف عن القتال وقيل يوم بدر وقيل يوم الفتح وابصرهم على اسوء
حال وافظع نكال حل بهم من القتل والاسر والمراد بابصارهم الانباء بغاية قربه كان
بين يديه فسوف يبصرون ما يقع حينئذ من الامور وسوف للوعيد دون التبعيد
افبعذابنا يستعجلون روى انه لما نزل فسوف يبصرون قالوا متى هذا فنزل فاذا نزل
بساحتهم اى فاذا نزل العذاب الموعود بفنائهم كانه جيش قد هجمهم فاناخ بفنائهم

بغتة فشن الغارة وقطع دابرهم بالمرة وقيل المراد نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح وقرئ نزل بساحتهم على اسناده الى الجار والمجرور وقرئ نزل مبنيا للمفعول من التنزيل اى نزل العذاب فساء صباح المنذرين فبئس صباح المنذرين صباحهم واللام للجنس والصباح مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب ولما كثرت منهم الغارة فى الصباح سموها صباحا وان وقعت ليلا روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اتى خيبر وكانوا خارجين الى مزارعهم ومعهم المساحى قالوا محمد والخميس ورجعوا الى حصنهم فقال صلى الله عليه وسلم الله اكبر خربت خيبر انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين وتول عنهم حتى حين وابصر فسوف يبصرون تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتاكيد لوقوع الميعاد وغب تاكيد مع ما فى اطلاق الفعلين عن المفعول من الايذان بان ما يبصره عليه السلام حينئذ من فنون المسار وما يبصرونه من الوان المضار لا يحيط به الوصف والبيان وقيل اريد بالاول عذاب الدنيا وبالثانى عذاب الاخرة سبحان ربك رب العزة عما يصفون تنزيه لله سبحانه عن كل ما يصفه المشركون به مما لا يليق بجناب كبريائه وجبروته مما ذكر فى السورة وما لم يذكر من الامور التى من جملتها ترك انجاز الموعود على موجب كلمته السابقة لا سيما فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية المعربة عن التربية والتكميل والمالكية الكلية مع الاضافة الى ضميره عم اولا والى العزة ثانيا كانه قيل سبحان من هو مربيك ومكملك ومالك العزة والغلبة على الاطلاق عما يصفه المشركون به من الاشياء ومنها ترك نصرتك عليهم كما يدل عليه استعجالهم بالعذاب وقوله تعالى وسلام على المرسلين تشريف لهم عليهم السلام بعد تنزيهه تعالى عما ذكر وتنويه بشانهم وايذان بانهم سالمون عن كل المكاره فائزون بجميع المآرب وقوله تعالى والحمد لله رب العالمين اشارة وصفه عز وجل بصفاته الكريمة الثبوتية بعد التنبيه على اتصافه بجميع صفاته السلبية وايذان باستتباعها للافعال الجميلة التى من جملتها افاضته عليهم من فنون الكرامات السنية والكمالات الدينية والدنيوية واسباغه عليهم وعلى من تبعهم من صنوف النعماء الظاهرة والباطنة الموجبة لحمده تعالى واشعار بان ما وعده عليه السلام من النصرة والغلبة قد تحققت والمراد تنبيه المؤمنين على كيفية تسبيحه تعالى وتحميده والتسليم على رسله الذين هم وسائط بينهم وبينه عز وعلا فى فيضان الكمالات الدينية والدنيوية عليهم ولعل توسيط التسليم على المرسلين بين تسبيحه تعالى وتحميده لختم السورة الكريمة بحمده تعالى مع ما فيه من الاشعار بان توفيقه تعالى للتسليم عليهم من جملة نعمه الموجبة للحمد عن على رضى الله عنه من احب ان يكتال بالمكيال الاوفى من الاجر يوم القيمة فليكن آخر كلامه اذا قام من مجلسه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ والصافات اعطى من الاجر عشر حسنات بعدد كل جنى وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرئ من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيمة انه كان مؤمنا بالمرسلين

سورة ص مكية وهى ست وثمانون آية بسم الله الرحمن الرحيم

ص بالسكون على الوقف وقرئ بالكسر والفتح لالتقاء الساكنين ويجوز ان يكون الفتح باضمار حرف القسم فى موقع الجر كقولهم الله لافعلن بالجر وان يكون ذلك نصبا باضمار اذكر او اقرأ لا فتحا كما مر فى فاتحة سورة البقرة وامتناع الصرف للتعريف والتانيث لانها علم للسورة وقد مر فيها من قرأ صاد بالتنوين على انه اسم الكتاب او التنزيل وقيل هو فى قراءة الكسر امر من المصاداة وهى المعارضة والمقابلة ومنها الصدى الذى ينعكس من الاجسام الصلبة بمقابلة الصوت ومعناه عارض القرآن بعملك فاعمل باوامره وانته عن نواهيه وتخلق باخلاقه ثم ان جعل اسما للحرف مسرودا على منهاج التحدى او الرمز الى الكلام مثل صدق الله او صدق محمد كما نقل عن اكابر السلف او اسما للسورة

خبر المبتدأ محذوف او نصبا على اضمار اذكر او اقرأ او امر من المصاداة فالواو فى قوله تعالى والقرآن ذى الذكر للقسم وان جعل مقسما به فهى للعطف عليه فان اريد بالقرآن كله فالمغايرة بينهما حقيقية وان اريد به عين السورة فهى اعتبارية كما فى قولك مررت بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة واياما كان ففى التكرير مزيد تاكيد لمضمون الجملة المقسم عليها والذكر الشرف والنباهة كما فى قوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك او الذكرى والموعظة او ذكر ما يحتاج اليه فى امر الدين من الشرائع والاحكام وغيرها من اقاصيص الانبياء عليهم السلام واخبار الامم الدارجة والوعد والوعيد وجواب القسم على الوجه الاول والرابع والخامس محذوف هو ما ينبئ عنه التحدى والامر والاقسام به من كون المتحدى به معجزا وكون المامور به واجبا وكون المقسم به حقيقا بالاعظام اى اقسم بالقرآن او بصاد وبه انه لمعجز ولواجب العمل به او الحقيق بالاعظام واما على الوجهين الباقيين فهو الكلام المرموز اليه ونفس الجملة المذكورة قبل القسم فان التسمية تنويه بشان المسمى وتنبيه على عظم خطره اى انه لصادق والقرآن ذى الذكر او هذه السورة عظيمة الشان والقرآن الخ على طريقة قولهم هذا حاتم والله ولما كان كل واحد من هذه الاجوبة منبئا عن انتفاء الريب عن مضمونه بالكلية انباء بينا كان قوله تعالى بل الذين كفروا فى عزة وشقاق اضرابا عن ذلك كانه قيل لا ريب فيه قطعا وليس عدم اذعان الكفرة له لشائبة ريب ما فيه بل هم فى استكبار وحمية شديدة وشقاق بعيد لله تعالى ورسوله ولذلك لا يذعنون له وقيل الجواب ما دل عليه الجملة الاضرابية اى ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه بل الذين كفروا الخ وقرئ فى غرة اى فى غفلة عما يجب عليهم التنبه له من مبادى الايمان ودواعيه كم اهلكنا من قبلهم من قرن وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان ما اصاب من قبلهم من المستكبرين وكم مفعول اهلكنا ومن قرن تمييز والمعنى قرونا كثيرا اهلكنا من القرون الخالية فنادوا عند نزول باسنا وحلول نقمتنا استغاثة وتوبة لينجوا من ذلك وقوله تعالى ولات حين مناص حال من ضمير نادوا اى نادوا واستغاثوا طلبا للنجاة والحال ان ليس الحين حين مناص اى فوت ونجاة من ناصه اى فاته لا من ناص بمعنى تاخر ولا هى المشبهة بليس زيدت عليها تاء التانيث للتاكيد كما زيدت على رب وثم وخصت بنفى الاحيان ولم يبرز الا احد معموليها والاكثر حذف اسمها وقيل هى النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفى الاحيان وحين مناص منصوب على انها اسمها اى ولا حين مناص لهم او بفعل مضمر اى ولا ارى حين مناص وقرئ بالرفع فهو على الاول اسمها والخبر محذوف اى ليس حين مناص حاصلا لهم وعلى الثانى مبتدأ محذوف الخبر اى ولا حين مناص كائن لهم وقرئ بالكسر كما فى قوله طلبوا صلحنا ولات اوان فاجبنا ان لات حين بقاء اما لان لات تجر الاحيان كما ان لولا تجر الضمائر فى نحو قوله لولاك هذا العام لم احجج او لان اوان شبه باذ فى قوله نهيتك عن طلابك ام عمرو بعافية وانت اذ صحيح فى انه زمان قطع منه المضاف اليه وعوض التنوين لان اصله اوان صلح ثم حمل عليه حين مناص تنزيلا لقطع المضاف اليه من مناص اذ اصله حين مناصهم منزلة قطعه من حين لما بين المضافين من الاتحاد ثم بنى الحين لاضافته الى غير متمكن وقرئ لات بالكسر كجير ويقف الكوفيون عليها بالهاء كالاسماء والبصرية بالتاء كالافعال وما قيل من ان التاء مزيدة على حين لاتصالها بها فى الامام مما لا وجه له فان خط المصحف خارج عن القياس وعجبوا ان جاءهم منذر منهم حكاية لاباطيلهم المتفرعة على ما حكى من استكبارهم وشقاقهم اى عجبوا من ان جاءهم رسول من جنسهم بل ادون منهم فى الرياسة الدنيوية والمال على معنى انهم عدوا ذلك امرا عجيبا خارجا عن احتمال الوقوع وانكروه اشد الانكار لا انهم اعتقدوا وقوعه وتعجبوا منه وقال الكافرون وضع فيه الظاهر موضع الضمير غضبا عليهم وايذانا بانه لا يتجاسر على مثل ما يقولونه الا المتوغلون فى الكفر والفسوق هذا ساحر فيما يظهره من الخوارق كذاب فيما يسنده الى الله تعالى من الارسال والانزال اجعل الالهة الها واحدا بان نفى الالوهية عنهم

وقصرها على واحد ان هذا لشئ عجيب بليغ فى العجب وذلك لانه خلاف ما الفوا عليه
آباءهم الذين اجمعوا على الوهيتهم وواظبوا على عبادتهم كابرا عن كابر فان مدار كل ما
يأتون وما يذرون من امور دينهم هو التقليد والاعتياد فيعدون ما يخالف ما اعتادوه
عجيبا بل محالا واما جعل مدار تعجبهم عدم وفاء علم الواحد وقدرته بالاشياء الكثيرة فلا
وجه له لما انهم لا يدعون ان لآلهتهم علما او قدرة ومدخلا فى حدوث شئ من الاشياء حتى
يلزم من نفى الوهيتهم بقاء الآثار بلا مؤثر وقرئ عجاب بالتشديد وهو ابلغ ككرام وكرام
روى انه لما اسلم عمر رضى الله عنه شق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون من
صناديدهم فاتوا اباطالب فقالوا انت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء
وجئناك لتقضى بيننا وبين ابن اخيك فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا
ابن اخى هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك فقال صلى الله عليه وسلم
ماذا تسألوننى قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك والهك فقال صلى الله عليه
وسلم ارأيتم ان اعطيتكم ما سألتم امعطىّ انتم كلمة واحدة تملكون بها العرب و
تدين لكم بها العجم قالوا نعم وعشرا فقال قولوا لا اله الا الله فقاموا وقالوا ذلك
وانطلق الملأ منهم اى وانطلق الاشراف من قريش عن مجلس ابى طالب بعد ما بكتهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجواب العتيد وشاهدوا تصلبه عم فى الدين وعزيمته
على ان يظهره على الدين كله ويئسوا مما كانوا يرجونه بتوسط ابى طالب من المصالحة
على الوجه المذكور ان امشوا اى قائلين بعضهم لبعض على وجه النصيحة امشوا و
اصبروا على آلهتكم اى واثبتوا على عبادتها متحملين لما تسمعونه فى حقها من القدح
وان هى المفسرة لان الانطلاق عن مجلس التقاول لا يخلو عن القول وقيل المراد
بالانطلاق الاندفاع فى القول وامشوا من مشت المرأة اذا كثرت ولادتها ومنه الماشية
للتفاؤل اى اجتمعوا واكثروا وقرئ امشوا بغير ان على اضمار القول وقرئ يمشون ان اصبروا
ان هذا لشئ يراد تعليل للامر بالصبر او لوجوب الامتثال به اى هذا الذى شاهدناه من
محمد صلى الله عليه وسلم من امر التوحيد ونفى آلهتنا وابطال امرها لشئ يراد اى من
جهته عليه السلام امضاؤه وتنفيذه لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه
لا قول يقال من طرف اللسان او امر يرجى فيه المسامحة بشفاعة او امتنان فاقطعوا اطماعكم
عن استنزاله من رأيه بواسطة ابى طالب وشفاعته وحسبكم ان لا تمنعوا من عبادة
آلهتكم بالكلية فاصبروا عليها وتحملوا ما تسمعونه فى حقها من القدح وسوء المقالة
وقيل ان هذا الامر لشئ يريده الله تعالى ويحكم بامضائه وما اراد الله تعالى كونه فلا مرد
له ولا ينفع فيه الا الصبر وقيل ان هذا الامر لشئ من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك
لنا منه وقيل ان دينكم لشئ يراد اى يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه وقيل ان
هذا الذى يدعيه من التوحيد او يقصده من الرياسة والترفع على العرب والعجم
لشئ يتمنى ويريده كل احد فتأمل فى هذه الاقاويل واختر منها ما يساعده النظم الجليل
ما سمعنا بهذا الذى يقوله فى الملة الآخرة اى الملة النصرانية التى هى آخر الملل
فانهم مثلثة اى فى الملة التى ادركنا عليها آباءنا ويجوز ان يكون الجار والمجرور حالا
من هذا اى ما سمعنا بهذا من اهل الكتاب ولا الكهان كائنا فى الملة المترقبة ولقد
كذبوا فى ذلك اقبح كذب فان حديث البعثة والتوحيد كان اشهر الامور قبل الظهور ان
هذا اى ما هذا الا اختلاق اى كذب اختلقه أأنزل عليه الذكر اى القرآن من بيننا
ونحن رؤساء الناس واشرافهم كقولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين
عظيم ومرادهم انكار كونه ذكرا منزلا من الله عز وجل كقولهم لو كان خيرا ما
سبقونا اليه وامثال هذه المقالات الباطلة دليل على ان مناط تكذيبهم ليس الا الحسد
وقصر النظر على الحطام الدنيوى بل هم فى شك من ذكرى اى من القرآن او الوحى
لميلهم الى التقليد واعراضهم عن النظر فى الادلة المؤدية الى العلم بحقيقته وليس
فى عقيدتهم ما يبتون به فهم مذبذبون بين الاوهام ينسبونه تارة الى السحر واخرى

الى الاختلاق بل لما يذوقوا عذاب اى بل لم يذوقوا بعد عذابى فاذا ذاقوه تبين لهم
حقيقة الحال وفى لما دلالة على ان ذوقهم على شرف الوقوع والمعنى انهم لا يصدقون
به حتى يمسهم العذاب وقيل لم يذوقوا عذابى الموعود فى القرآن ولذلك شكوا فيه ام
عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب بل اعندهم خزائن رحمته تعالى يتصرفون فيها حسبما
يشاؤن حتى يصيبوا بها من شاؤا ويصرفوها عمن شاؤا ويتحكموا فيها بمقتضى
آرائهم فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم والمعنى ان النبوة عطية من الله عز وجل يتفضل
بها على من يشاء من عباده المصطفين لا مانع له فانه العزيز اى الغالب الذى لا يغالب الوهاب
الذى له ان يهب كل ما يشاء لكل من يشاء وفى اضافة اسم الرب المنبئ عن التربية
والتبليغ الى الكمال الى ضميره عم من تشريفه واللطف به ما لا يخفى وقوله تعالى ام لهم
ملك السموات والارض وما بينهما ترشيح لما سبق اى بل الهم ملك هذه العوالم
العلوية والسفلية حتى يتكلموا فى امور الربانية ويتحكموا فى التدابير الالهية التى
يستأثر بها رب العزة والكبرياء وقوله تعالى فليرتقوا فى الاسباب جواب شرط محذوف
اى ان كان لهم ما ذكر من الملك فليصعدوا فى المعارج والمناهج التى يتوصل بها الى العرش
حتى يستووا عليه ويدبروا امر العالم وينزلوا الوحى الى من يختارون ويستصوبون
وفيه من التهكم بهم ما لا غاية وراءه والسبب فى الاصل هو الوصلة وقيل المراد
بالاسباب السموات لانها اسباب الحوادث السفلية وقيل ابوابها جند ما هنالك
مهزوم من الاحزاب اى هم جند ما من الكفار المتحزبين على الرسل مهزوم مكسور
عما قريب فلا تبال بما يقولون ولا تكترث بما يهذون وما مزيدة للتقليل والتحقير نحو
قولك اكلت شيئا ما وقيل للتعظيم على الهزء وهنالك اشارة الى حيث وضعوا فيه
انفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم وقوله تعالى كذبت قبلهم قوم نوح وعاد و
فرعون ذو الاوتاد الخ استئناف مقرر لمضمون ما قبله ببيان احوال العتاة الطغاة الذين
هؤلاء جند ما من جنودهم مما فعلوا من التكذيب وفعل بهم من العقاب وذو الاوتاد
معناه ذو الملك الثابت اصله من ثبات البيت المطنب باوتاده فاستعير لثبات الملك
ورسوخ السلطنة واستقامة الامر قال الاسود بن يعفر ولقد غنوا فيها بانعم عيشة
فى ظل ملك ثابت الاوتاد او ذو الجموع الكثيرة سموا بذلك لان بعضهم يشد بعضا
كالوتد يشد البناء وقيل نصب اربع سوار وكان يمد يدى المعذب ورجليه اليها
ويضرب عليها اوتادا ويتركه حتى يموت وقيل كان يمده بين اربعة اوتاد فى الارض
ويرسل عليه العقارب والحيات وقيل كانت له اوتاد وحبال يلعب فيها بين
يديه وثمود وقوم لوط واصحاب الايكة اصحاب الغيضة من قوم شعيب
عليه السلام وقوله تعالى اولئك الاحزاب اما بدل من الطوائف المذكورة كما ان
ذلك الكتاب بدل من الم على احد الوجوه وفيه فضل تأكيد وتنبيه على انهم الذين جعل
الجند المهزوم منهم وقوله تعالى ان كل الا كذب الرسل استئناف جئ به تقريرا
لتكذيبهم وبيانا لكيفيته وتمهيدا لما يعقبه اى ما كل احد من اولئك الاحزاب
او ما كل حزب منهم الا كذب الرسل لان تكذيب واحد منهم تكذيب لهم جميعا
لاتفاق الكل على الحق وقيل ما كل حزب الا كذب رسوله على نهج مقابلة الجمع بالجمع
وايا ما كان فالاستثناء مفرغ من اعم العام فى خبر المبتدأ اى ما كل احد منهم محكوما
عليه بحكم الا محكوم عليه بانه كذب الرسل وقيل ما كل واحد منهم مخبرا عنه بخبر
الا مخبر عنه بانه كذب الرسل وفى اسناد التكذيب الى الطوائف المذكورة على وجه
الابهام اولا والايذان بان كلا منهم حزب على حياله تحزب على رسوله ثانيا وتبيين
كيفية تكذيبهم بالجملة الاستئنافية ثالثا فنون من المبالغة مسجلة عليهم باستحقاق
اشد العذاب وافظعه ولذلك رتب عليه قوله تعالى فحق عقاب اى ثبت ووقع
على كل منهم عقابى الذى كانت توجبه جناياتهم من اصناف العقوبات المفصلة فى
مواقعها واما مبتدأ وقوله تعالى ان كل الا كذب الرسل خبره بحذف العائد اى ان كل

منهم الخ والجملة استيناف مقرر لما قبله مؤكد لمضمونه مع ما فيه من بيان كيفية تكذيبهم
والتنبيه على انه على انهم الذين جعلوا الجند المهزوم منهم كما ذكر وقيل هو مبتدأ وخبر
والمعنى ان الاحزاب الذين جعلوا الجند المهزوم منهم هم هم وانهم الذين وجد منهم
التكذيب فتدبر واما ما قيل من انه خبر والمبتدأ قوله وعاد الخ او قوله وقوم لوط
الخ فمما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن امثاله وما ينظر هؤلاء شروع في بيان عقاب
كفار مكة اثر بيان عقاب اضرابهم من الاحزاب الذين اخبر فيما سبق بانهم جند حقير
منهم مهزوم عن قريب فان ذلك مما يوجب انتظار السامع وترقبه الى بيانه قطعا
وفي الاشارة اليهم بهؤلاء تحقير لشأنهم وتهوين لامرهم واما جعله اشارة الى الاحزاب
باعتبار حضورهم بحسب الذكر او حضورهم في علم الله عز وجل فليس في حيز الاحتمال
اصلا كيف لا والانتظار سواء كان حقيقة او استهزاء انما يتصور في حق من لم يترتب
على اعماله نتايجها بعد وبعد ما بين عقاب الاحزاب واستيصالهم بالمرة لم يبق مما
اريد بيانه من عقوبتهم امر منتظر وانما الذين في مرصد الانتظار كفار مكة حيث ارتكبوا
من عزايم الجرايم وكبائر الجرائر الموجبة لاشد العقوبات مثل ما ارتكب الاحزاب او اشد
منه ولما يلاقوا بعد شيئا من غوائلها اى وما ينتظر هؤلاء الكفرة الذين هم امثال
اولئك الطوائف المهلكة في الكفر والتكذيب الا صيحة واحدة هي النفخة الثانية لا بمعنى
ان عقابهم نفسها بما فيها من الشدة والهول فانها داهية يعم هولها جميع الامم
برها وفاجرها بل بمعنى انه ليس بينهم وبين حلول ما اعد لهم من العقاب الفظيع الا هي
حيث اخرت عقوبتهم الى الاخرة لما ان تعذيبهم بالاستيصال حسبما يستحقونه والنبي
صلى الله عليه وسلم بين اظهرهم خارج عن السنة الالهية المبنية على الحكم الباهرة
كما نطق به قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم واما ما قيل من انها النفخة
الاولى فمما لا وجه له اصلا لما انه لا يشاهد هولها ولا يصعق بها الا من كان
حيا عند وقوعها وليس عقابهم الموعود واقعا عقيبها ولا العذاب المطلق مؤخرا
اليها بل يحل بهم من حين موتهم ما لها من فواق اى من توقف مقدار فواق
هو ما بين الحلبتين وقرئ بضم الفاء وهما لغتان وقوله تعالى وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل
يوم الحساب حكاية لما قالوه عند سماعهم بتأخير عقابهم الى الاخرة اى قالوا بطريق
الاستهزاء والسخرية عجل لنا قطنا من العذاب الذي توعدنا به ولا تؤخره الى يوم الحساب
الذي مبدؤه الصيحة المذكورة والقط القطعة من الشئ من قطه اذا قطعه ويقال لصحيفة
الجايزة قط لانها قطعة من القرطاس وقد فسر بها اى عجل لنا صحيفة اعمالنا لننظر
فيها وقيل ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد الله المؤمنين الجنة فقالوا على
سبيل الهزء به عجل لنا نصيبنا منها وتصدير دعائهم بالنداء المذكور للامعان في الاستهزاء
كانهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال اصبر على ما يقولون من امثال هذه
المقالات الباطلة واذكر لهم عبدنا داود اى قصته تهويلا لامر المعصية في اعينهم
وتنبيها لهم على كمال قبح ما اجترؤا عليه من المعاصي فانه عليه السلام مع علو شأنه
واختصاصه بعظائم النعم والكرامات لما الم بصغيرة نزل عن منزلته ووبخته
الملائكة بالتمثيل والتعريض حتى تفطن فاستغفر ربه واناب ووجد منه ما يحكى
من بكائه الدائم وغمه الواصب ونَدَمه الدائم فما الظن بهؤلاء الكفرة الاذلين
من كل ذليل المرتكبين لاكبر الكبائر المصرين على اعظم المعاصي او تذكر قصته عليه السلام
ومن نفسك ان تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل اذيتهم كيلا يلقاك
ما لقيه من المعاتبة ذا الايد اى ذا القوة يقال فلان ايد وذو ايد واد بمعنى واياد
كل شئ ما يتقوى به انه اواب رجاع الى مرضاة الله تعالى وهو تعليل لكونه ذا الايد
ودليل على ان المراد به القوة في الدين فانه عليه السلام كان يصوم يوما ويفطر
يوما ويقوم نصف الليل انا سخرنا الجبال معه استيناف مسوق لتعليل قوته
في الدين واوابيته الى مرضاته تعالى ومع متعلقة بالتسخير وايثارها على اللام لما اشير

الكنايه صح

البه

اليه في سورة الانبياء من ان تسخير الجبال له عليه السلام لم يكن بطريق التبعية له عليه السلام
والاقتداء به في عبادة الله تعالى وقيل متعلقة بما بعدها وهو اقرب بالنسبة الى ما في سورة
الانبياء يسبحن اى يقدسن الله عز وجل بصوت يتمثل له او يخلق الله تعالى فيها الكلام
او بلسان الحال وقيل يسرن معه من السباحة وهو حال من الجبال وضع موضع مسبحات
للدلالة على تجدد التسبيح حالا بعد حال واستيناف مبين لكيفية التسخير بالعشي
والاشراق اى ووقت الاشراق وهو حين تشرق الشمس اى تضئ ويصفو شعاعها
وهو وقت الضحى واما شروقها فطلوعها يقال شرقت الشمس ولما تشرق وعن ام هانئ
رضي الله عنها انه عليه السلام صلى صلوة الضحى وقال هذه صلوة الاشراق وعن ابن
عباس رضي الله عنهما ما عرفت صلوة الضحى الا بهذه الاية والطير عطف على
الجبال محشورة حال من الطير والعامل سخرنا اى وسخرنا الطير حال كونها محشورة
عن ابن عباس رضي الله عنهما كان اذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت اليه الطير
فسبحت وذلك حشرها وقرئ والطير محشورة بالرفع على الابتداء والخبرية كل له
اواب استيناف مقرر لمضمون ما قبله مصرح بما فهم منه اجمالا من تسبيح الطير
اى كل واحد من الجبال والطير لاجل تسبيحه رجاع الى التسبيح ووضع الاواب
موضع المسبح اما لانها كانت ترجع التسبيح والمرجع رجاع لانه يرجع الى فعله رجوعا
بعد رجوع واما لان الاواب هو التواب الكثير الرجوع الى الله تعالى ومن دابه اكثار
الذكر وادامة التسبيح والتقديس وقيل الضمير لله تعالى اى كل من داود والجبال
والطير لله تعالى اواب اى مسبح مرجع للتسبيح وشددنا ملكه قويناه بالهيبة والنصرة
وكثرة الجنود وقرئ بالتشديد للمبالغة قيل كان يبيت حول محرابه اربعون الف مستلئم
وقيل ادعى رجل على آخر بقرة وعجز عن اقامة البينة فاوحى اليه في المنام ان اقتل المدعى
عليه فتاخر فاعيد الوحي في اليقظة فاعلمه الرجل فقال ان الله تعالى لم يأخذني بهذا
الذنب ولكن باني قتلت ابى هذا غيلة فقتله فقال الناس ان اذنب احد ذنبا اظهره الله
تعالى عليه فقتله فهابوه وعظمت هيبته في القلوب وآتيناه الحكمة النبوة وكمال العلم
واتقان العمل وقيل الزبور وعلم الشرائع وقيل كل كلام وافق الحق فهو حكمة
وفصل الخطاب اى فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل او الكلام الملخص الذي
ينبه المخاطب على المرام من غير التباس لما قد روعي فيه مظان الفصل والوصل و
العطف والاستيناف والاضمار والاظهار والحذف والتكرار وانما سمي به اما
بعد لانه يفصل المقصود عما سبق تمهيدا له كالحمد والصلوة وقيل هو الخطاب
الفصل الذي ليس فيه ايجاز مخل ولا اطناب ممل كما جاء في نعت كلام النبوة فصل
لا نزر ولا هذر وهل اتاك نبأ الخصم استفهام معناه التعجيب والتشويق الى
استماع ما في حيزه لايذانه بانه من الانباء البديعة التي حقها ان تشيع فيما بين كل
حاضر وباد والخصم في الاصل مصدر ولذلك يطلق على الواحد وما فوقه
كالضيف ومعنى خصمان فريقان اذ تسوروا المحراب اى تصعدوا سوره ونزلوا اليه
والسور الحائط المرتفع ونظيره تسنمه اذا علا سنامه وتذراه على ذروته واذ متعلقة
بمحذوف اى نبأ تحاكم الخصم اذ تسوروا او بالنبأ على ان المراد به الواقع في عهد
داود عليه السلام وان اسناد الاتيان اليه على حذف مضاف اى قصة نبأ الخصم
او بالخصم لما فيه من معنى الخصومة لا باتى لان اتيانه الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن
حينئذ وقوله تعالى اذ دخلوا على داود بدل مما قبله او ظرف لتسوروا ففزع منهم روي
انه تعالى بعث اليه ملكين في صورة انسانين قيل هما جبريل وميكائيل عليهما السلام
فطلبا ان يدخلا عليه فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الحرس فتسوروا عليه المحراب
بمن معهما من الملائكة فلم يشعر الا وهما بين يديه جالسان ففزع منهم لانهم نزلوا
عليه من فوق على خلاف العادة والحرس حوله وفي غير يوم الحكومة والقضاء قال
ابن عباس رضي الله عنهما ان داود جزأ زمانه اربعة اجزاء يوما للعبادة ويوما للقضاء

ويوماً للاشتغال بخاصة نفسه ويوماً للوعظ والتذكير قالوا استئناف وقع جواباً عن
سؤال نشأ من حكاية فزعه عليه السلام كانه قيل فماذا قالت الملائكة عند مشاهدتهم
لفزعه عليهم السلام فقيل قالوا ازالة لفزعه لا تخف خصمان اى نحن فوجان
متخاصمان على تسمية مصاحب الخصم خصماً بغى بعضنا على بعض هو على الفرض
وقصد التعريض فلا كذب فيه فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط اى لا تجر فى الحكومة
وقرئ ولا تشطط اى لا تبعد عن الحق وقرئ ولا تشطط ولا تشاطط وكلها من معنى
الشطط وهو مجاوزة الحد وتخطى الحق واهدنا الى سواء الصراط الى وسط طريق
الحق بزجر الباغى عما سلكه من طريق الجور وارشاده الى منهاج العدل ان هذا اخى
استئناف لبيان ما فيه الخصومة اى اخى فى الدين او فى الصحبة والتعرض لذلك تمهيد
لبيان كمال قبح ما فعل به صاحبه له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة هى الانثى من
الضأن وقد يكنى بها عن المرأة والكناية والتعريض ابلغ فى المقصود وقرئ تسع
وتسعون بفتح التاء ونعجة بكسر النون وقرئ ولى نعجة بسكون الياء فقال اكفلنيها
اى ملكنيها وحقيقته اجعلنى اكفلها كما اكفل ما تحت يدى وقيل اجعلها كفلى اى نصيبى
وعزنى فى الخطاب اى غلبنى فى مخاطبته اياى محاجة بان جاء بحجاج لم اقدر على
رده او فى مغالبته اياى فى الخطبة يقال خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبنى خطاباً اى
غالبنى فى الخطبة فغلبنى حيث زوجها دونى وقرئ وعازنى اى غالبنى وعزنى
بتخفيف الزاء طلباً للخفة وهو تخفيف غريب كانه قيس على ظلت ومست قال لقد
ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه جواب قسم محذوف قصد به عليه السلام المبالغة
فى انكار فعل صاحبه وتهجين طمعه فى نعجة من ليس له غيرها مع ان له قطيعاً منها
ولعله عليه السلام قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادعاه عليه او بناه على تقدير صدق
المدعى والسؤال مصدر مضاف الى مفعوله وتعديته الى مفعول آخر بالى لتضمينه معنى
الاضافة والضم وان كثيراً من الخلطاء اى الشركاء الذين خلطوا اموالهم ليبغى
ليتعدى وقرئ بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة وحذفها وبحذف الياء اكتفاء
بالكسر بعضهم على بعض غير مراع لحق الصحبة والشركة الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
منهم فانهم يتحامون عن البغى والعدوان وقليل ما هم اى وهم قليل وما
مزيدة للابهام والتعجب من قلتهم والجملة اعتراض وظن داود انما فتناه الظن
مستعار للعلم الاستدلالى لما بينهما من المشابهة الظاهرة اى علم بما جرى فى مجلس
الحكومة وقيل لما قضى بينهما نظر احدهما الى صاحبه فضحك ثم صعدا الى السماء
حيال وجهه فعلم عليه السلام انه ابتلاء وليس المعنى على تخصيص الفتنة به عليه السلام
دون غيره بتوجيه القصر المستفاد من كلمة انما الى المفعول بالقياس الى مفعول آخر
هو الاستعمال الشائع الوارد على توجيه القصر الى متعلقات الفعل وقيوده باعتبار النفى
فيه والاثبات فيها كما فى مثل قولك انما ضربت زيداً وانما ضربته تأديباً بل على تخصيص
حاله عم بالفتنة بتوجيه القصر الى نفس الفعل بالقياس الى ما يغايره من الافعال
لكن لا باعتبار النفى والاثبات معاً فى خصوصية الفعل فانه غير ممكن قطعاً بل
باعتبار النفى فيما فيه من معنى مطلق الفعل واعتبار الاثبات فيما يقارنه من معنى
المخصوص فان كل فعل من الافعال المخصوصة ينحل عند التحقيق الى معنى مطلق هو
مدلول لفظ الفعل والى معنى مخصوص يقارنه ويقيده وهو اثره فى الحقيقة فان
معنى نصر مثلاً فعل النصر يرشدك الى ذلك قولهم معنى فلان يعطى ويمنع يفعل الاعطاء
والمنع فمورد القصر فى الحقيقة ما يتعلق بالفعل باعتبار النفى فيه والاثبات فيما
يتعلق به فالمعنى وعلم داود انما فعلنا به الفتنة لا غير قيل ابتليناه بامرأة اوريا
وقيل امتحناه بتلك الحكومة هل يتنبه بها لما قصد منها وايثار طريق التمثيل لانه
ابلغ فى التوبيخ فان التأمل فيه اذا اداه الى الشعور بما هو الغرض كان اوقع فى نفسه
واعظم تأثيراً فى قلبه وادعى الى التنبيه للخطاء مع ما فيه من مراعاة حرمته عم

بترك المجاهرة والاشعار بانه امر يستحيى من التصريح به وتصويره بصورة التحاكم لالجائه
عليه السلام الى التصريح بنسبة نفسه الى الظلم وتنبيه عليه السلام على ان اوريا بصدد
الخصام فاستغفر ربه اثر ما علم ان ما صدر عنه ذنب وخر راكعاً اى ساجداً على
تسمية السجود ركوعاً لانه مبدأه او خر للسجود راكعاً اى مصلياً كانه احرم بركعتى
الاستغفار واناب اى رجع الى الله تعالى بالتوبة واصل القصة ان داود عليه السلام
رأى امرأة رجل يقال له اوريا فمال قلبه اليها فسأله ان يطلقها فاستحيى ان يرده ففعل
فتزوجها وهى ام سليمان عليه السلام وعلى ابيه وكان ذلك جائزاً فى شريعته معتاداً فيما
بين امته غير مخل بالمروءة حيث كان يسأل بعضهم بعضاً ان ينزل له عن امرأته فيتزوجها
اذا اعجبته وقد كان الانصار فى صدر الاسلام يواسون المهاجرين بمثل ذلك من
غير نكير خلا انه عليه السلام لعظم منزلته وارتفاع مرتبته وعلو شأنه نبه بالتمثيل على انه
لم يكن ينبغى له ان يتعاطى ما يتعاطاه آحاد امته ويسأل رجلاً ليس له الا امرأة واحدة
ان ينزل عنها فيتزوجها مع كثرة نسائه بل كان يجب عليه ان يغالب هواه ويقهر نفسه
ويصبر على ما امتحن به وقيل لم يكن اوريا تزوجها بل كان خطبها ثم خطبها داود
عليه السلام فآثره عليه السلام اهلها فكان ذنبه عليه السلام ان خطب على
خطبة اخيه المسلم هذا واما ما يذكر من انه عليه السلام دخل ذات يوم محرابه
واغلق بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور فبينما هو كذلك اذ جاءه الشيطان فى صورة حمامة
من ذهب فمد يده ليأخذها لابن له صغير فطارت فامتد اليها فطارت فوقعت فى كوة
فتبعها فابصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها فغطى بدنها وهى امرأة اوريا وهو من
غزاة البلقاء فكتب الى ايوب بن صوريا وهو صاحب بعث البلقاء ان ابعث اوريا وقدمه
على التابوت وكان من يتقدم على التابوت لا يحل له ان يرجع حتى يفتح الله على يديه او
يستشهد ففتح الله تعالى على يديه وسلم فامر برده مرة اخرى وثالثة حتى قتل واتاه خبر قتله
فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء وتزوج امرأته فافك مبتدع مكروه ومكر مخترع
بئسما مكروه تمجه الاسماع وتنفر عنه الطباع ويل لمن ابتدعه واشاعه وتباً لمن اخترعه
واذاعه ولذلك قال على رضى الله عنه من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه
القصاص جلدته مائة وستين وذلك حد الفرية على الانبياء صلوات الله تعالى
عليهم هذا وقد قيل ان قوماً قصدوا ان يقتلوه عليه السلام فتسوروا المحراب
ودخلوا عليه فوجدوا عنده اقواماً فتصنعوا بهذا التحاكم فعلم عليه السلام غرضهم
فهم بان ينتقم منهم فظن ان ذلك ابتلاء من الله عز وجل فاستغفر ربه مما هم
به فاناب فغفرنا له ذلك اى ما استغفر عنه وروى انه عم بقى ساجداً اربعين
يوماً وليلة لا يرفع راسه الا لصلوة مكتوبة او لما لا بد منه ولا يرقأ دمعه نبت
العشب الى راسه ولم يشرب ماء الا ثلثاه دمع وجهد نفسه راغباً الى الله تعالى فى العفو
عنه حتى كاد يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له اسمه ايشا على ملكه ودعا الى نفسه
فاجتمع اليه اهل الزيغ من بنى اسرائيل فلما غفر له حاربه فهزمه وان له عندنا لزلفى
لقربة وكرامة بعد المغفرة وحسن مآب حسن مرجع فى الجنة يا داود انا جعلناك خليفة
فى الارض اما حكاية لما خوطب به عم مبينة لزلفاه عنده عز وجل واما مقول لقول
مقدر هو معطوف على غفرنا او حال من فاعله اى وقلنا له او قائلين له يا داود الخ اى
استخلفناك على الملك فيها والحكم فيما بين اهلها او جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الانبياء
القائمين بالحق وفيه دليل بين على ان حاله عليه السلام بعد التوبة كما كانت قبلها لم
يتغير قط فاحكم بين الناس بالحق بحكم الله تعالى فان الخلافة بكلا معنييه مقتضية له
حتماً ولا تتبع الهوى اى هوى النفس فى الحكومات وغيرها من امور الدين والدنيا
فيضلك عن سبيل الله بالنصب على انه جواب النهى وقيل هو مجزوم بالعطف على النهى مفتوح
لالتقاء الساكنين اى فيكون الهوى او اتباعه سبباً لضلالك عن دلائله التى نصبها على
الحق تكويناً وتشريعاً وقوله تعالى ان الذين يضلون عن سبيل الله تعليل لما قبله ببيان

غائلته واظهار سبيل الله فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والايذان بكمال شناعة الضلال
عنه لهم عذاب شديد جملة من خبر ومبتداء وقعت خبرا لان او الظرف خبر لان و
عذاب مرتفع على الفاعلية بما فيه من الاستقرار بما نسوا بسبب نسيانهم وقوله تعالى
يوم الحساب اما مفعول لنسوا فيكون تعليلا صريحا لثبوت العذاب الشديد لهم بنسيان
يوم الحساب بعد الاشعار بعلية ما يستتبعه ويستلزمه اعنى الضلال عن سبيل الله فانه
مستلزم لنسيان يوم الحساب بالمرة بل هذا فرد من افراده او ظرف لقوله تعالى لهم اى لهم
عذاب شديد يوم القيمة بسبب نسيانهم الذى هو عبارة عن ضلالهم ومن ضرورته
ان يكون مفعوله سبيل الله فيكون التعليل المصرح به حينئذ عين التعليل المشعر به بالذات
غيره بالعنوان ومن لم يتنبه لهذا السر السرى قال بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن السبيل فان
تذكره يقتضى ملازمة الحق ومخالفة الهوى فتدبر وما خلقنا السماء والارض وما بينهما
باطلا كلام مستانف مقرر لما قبله من امر البعث والحساب والجزاء اى ما خلقناهما وما
بينهما من المخلوقات على هذا النظام البديع الذى يحار فى فهمه العقول خلقا باطلا اى خاليا
عن الغاية الجليلة والحكمة الباهرة بل منطويا على الحق المبين والحكم البالغة حيث خلقنا من
بين ما خلقنا نفوسا اودعناها العقل والتمييز بين الحق والباطل والنافع والضار و
مكناها من التصرفات العلمية والعملية فى استجلاب منافعها واستدفاع مضارها و
نصبنا للحق دلائل آفاقية وانفسية ومنحناها القدرة على الاستشهاد بها ثم لم نقتصر
على ذلك المقدار من الالطاف بل ارسلنا اليها رسلا وانزلنا عليها كتبا بينا فيها كل
دقيق وجليل وازحنا عللها بالكلية وعرضناها بالتكليف للمنافع العظيمة واعددنا لها
عاقبة وجزاء على حسب اعمالها ذلك اشارة الى ما نفى من خلق ما ذكر باطلا ظن الذين كفروا
اى مظنونهم فان جحودهم بامر البعث والجزاء الذى عليه يدور فلك تكوين العالم
قول منهم ببطلان خلق ما ذكر وخلوه عن الحكمة سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا
فويل للذين كفروا مبتداء وخبر والفاء لافادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل
كما ان الموصول موضع ضميرهم للاشعار بما فى حيز الصلة بعلية كفرهم له ولا تنافى
بينهما لان ظنهم من باب كفرهم ومن فى قوله تعالى من النار تعليلية كما فى قوله تعالى
فويل لهم مما كتبت ايديهم ونظائره مفيدة لعلية النار لثبوت الويل لهم صريحا بعد الاشعار
بعلية ما يؤدى اليها من ظنهم وكفرهم اى فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم
وكفرهم ام نجعل الذين امنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض ام منقطعة وما
فيها من بل للاضراب الانتقالى عن تقرير امر البعث والحساب والجزاء بما مر من نفى
خلق العالم خاليا عن الحكم والمصالح الى تقريره وتحقيقه بما فى الهمزة من انكار التسوية
بين الفريقين ونفيها على ابلغ وجه واكده اى بل انجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين
فى اقطار الارض كما يقتضيه عدم البعث وما يترتب عليه من الجزاء لاستواء الفريقين
فى التمتع بالحيوة الدنيا بل الكفرة اوفر حظا منها من المؤمنين لكن ذلك الجعل محال فتعين البعث
والجزاء حتما لرفع الاولين الى اعلى عليين ورد الآخرين الى اسفل سافلين وقوله تعالى ام
نجعل المتقين كالفجار اضراب وانتقال عن اثبات ما ذكر بلزوم المحال الذى هو التسوية بين
الفريقين المذكورين على الاطلاق الى اثباته بلزوم ما هو اظهر منه استحالة وهى
التسوية بين اتقياء المؤمنين واشقياء الكفرة وحمل الفجار على فجرة المؤمنين مما لا
يساعده المقام ويجوز ان يراد بهذين الفريقين عين الاولين ويكون التكرير باعتبار وصفين
آخرين هما ادخل فى انكار التسوية من الوصفين الاولين وقيل قال كفار قريش للمؤمنين
انا نعطى فى الآخرة من الخير ما تعطون فنزلت كتاب خبر مبتداء محذوف هو عبارة عن القرآن
او السورة وقوله تعالى انزلناه اليك صفته وقوله تعالى مبارك خبر ثان للمبتداء او
صفة لكتاب عند من يجوز تاخير الوصف الصريح عن غير الصريح وقرئ مباركا على انه
حال من مفعول انزلنا ومعنى المبارك الكثير المنافع الدينية والدنيوية وقوله تعالى ليدبروا
اياته متعلق بانزلناه اى انزلناه ليتفكروا فى اياته التى من جملتها هذه الآيات المعربة

عن اسرار التكوين والتشريع فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من المعانى الفائقة والتأويلات اللائقة
وقرئ ليتدبروا على الاصل ولتدبروا على الخطاب اى انت وعلماء امتك بحذف
احدى التائين وليتذكر اولوا الالباب اى وليتعظ به ذوو العقول السليمة او
ليستحضروا ما هو كالمركوز فى عقولهم فى فرط تمكنهم من معرفته لما نصب عليه من
الدلائل فان الكتب الالهية مبينة لما لا يعرف الا بالشرع ومرشدة الى ما لا سبيل للعقل
اليه ووهبنا لداود سليمان نعم العبد وقرئ نعم العبد اى سليمان كما ينبئ عنه
تاخيره عن داود مع كونه مفعولا صريحا لوهبنا ولان قوله تعالى انه اواب اى
رجاع الى الله تعالى بالتوبة او الى التسبيح مرجح له تعليل للمدح وهو من حاله لان الضمير
المجرور فى قوله تعالى اذ عرض عليه راجع اليه عليه السلام قطعا واذ منصوب باذكر
اى اذكر ما صدر عنه اذ عرض عليه بالعشى هو من الظهر الى آخر النهار الصافنات
فانه يشهد بانه اواب وقيل ظرف لاواب وقيل لنعم وتاخير الصافنات عن الظرفين
لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر والصافن من الخيل الذى يجمع يديه ويسويهما
واما الذى يقف على سنبكه فهو المتخيم الجياد جمع جواد وجود وهو الذى يسرع
فى جريه وقيل الذى يجود عند الركض وقيل وصفت بالصفون والجودة لبيان جمعها
بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية اى اذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى
مواقفها واذا جرت كانت سراعا خفافا فى جريها وقيل هو جمع جيد روى انه عم
غزا اهل دمشق ونصيبين واصاب الف فرس وقيل اصابها ابوه من العمالقة
فورثها منه وقيل خرجت من البحر لها اجنحة فقعد يوما بعد ما صلى الظهر على كرسيه
فاستعرضها فلم تزل عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر او عن ورد كان له من الذكر
وقتئذ وتهيبوه فلم يعلموه فاغتم لما فاته فاستردها فعقرها مقربا لله تعالى وبقى مائة فما
فى ايدى الناس من الجياد فمن نسلها وقيل لما عقرها ابدله الله عز وجل خيرا منها
وهى الريح تجرى بامره فقال انى احببت حب الخير عن ذكر ربى قاله عم عند غروب الشمس
اعترافا بما صدر عنه من الاشتغال بها عن الصلوة وندما عليه وتمهيدا لما يعقبه من
الامر بردها وعقرها والتعقيب باعتبار اواخر العرض المستمر دون ابتدائه والتأكيد
للدلالة على ان اعترافه وندمه عن صميم القلب لا لتحقيق مضمون الخبر واصل احببت ان
يعدى بعلى لانه بمعنى آثرت لكن لما انيب مناب انبت عدى تعديته وحب الخير مفعوله
كانه انبت حب الخير عن ذكر ربى ووضعته موضعه والخير المال الكثير والمراد به الخيل التى شغلته
عليه السلام ويحتمل انه سماها خيرا لتعلق الخير بها قال عليه السلام الخير معقود بنواصى
الخيل الى يوم القيمة وقرئ انى حتى توارت بالحجاب متعلق بقوله تعالى احببت باعتبار
استمرار المحبة ودوامها حسب استمرار التعرض اى انبت حب الخير عن ذكر ربى واستمر
ذلك حتى توارت اى غربت الشمس تشبيها لغروبها فى مغربها بتوارى المخباة بحجابها و
اضمارها من غير ذكر لدلالة العشى عليها وقيل الضمير للصافنات اى حتى توارت بحجاب
الليل اى بظلامه ردوها على من تمام مقالة سليمان عليه السلام ومرمى غرضه
من تقديم ما قدمه ومن لم يتنبه له مع ظهوره توهم انه متصل بمضمر هو جواب لمضمر
آخر كان سائلا قال فماذا قال سليمان فقيل قال ردوها فتامل والفاء فى قوله تعالى
فطفق مسحا فصيحة مفصحة عن جملة قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وايذانا
بغاية سرعة الامتثال بالامر اى فردوها عليه فاخذ يمسح السيف مسحا بالسوق و
الاعناق اى بسوقها واعناقها يقطعها من قولهم مسح علاوته اى ضرب عنقه وقيل جعل
يمسح بيده اعناقها وسوقها حبا لها واعجابا بها وليس بذلك وقرئ بالسؤوق على
همز الواو لضمتها كما فى ادور وقرئ بالسوق تنزيلا لضمة السين منزلة ضمة الواو
وقرئ بالساق اكتفاء بالواحد من الجمع لامن الالباس ولقد فتنا سليمان والقينا على
كرسيه جسدا ثم اناب اظهر ما قيل فى فتنته عليه السلام ما روى مرفوعا انه
قال لاطوفن الليلة على سبعين امرأة يأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى

ولم يقل انشاء الله فطاف عليهن فلم يحمل الا امراة واحدة جاءت بشق رجل والذى نفسى
بيده لو قال انشاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا اجمعون وقيل ولد له ابن فاجتمعت
الشياطين على قتله فعلم ذلك وكان يغذوه فى السحاب فما شعر به الا ان القى على كرسيه ميتا
فتنبه لخطائه حيث لم يتوكل على الله وقيل انه غزا صيدون من الجزاير فقتل ملكها و
اصاب بنتا له تسمى جرادة من احسن الناس فاصطفاها لنفسه واسلمت واحبها وكان لا
يرقأ دمعها جزعا على ابيها فامر الشياطين فمثلوا لها صورته وكانت تغدو اليها وتروح
مع ولائدها يسجدون لها كعادتهن فى ملكه فاخبره آصف بذلك فكسر الصورة وعاقب
المراة ثم خرج وحده الى فلاة وفرش له الرماد فجلس عليه تائبا الى الله تعالى متضرعا و
كانت له امة يقال لها امينة اذا دخل للطهارة او لاصابة امراة يعطيها خاتمه وكان ملكه
فيه فاعطاها يوما فتمثل لها بصورته شيطان اسمه صخر واخذ الخاتم فتختم به وجلس على
كرسيه فاجتمع عليه الخلق ونفذ حكمه فى كل شئ الا فى نسائه وغير سليمان على هيئته فاتى
امينة لطلب الخاتم فانكرته فطردته فعرف ان الخطيئة قد ادركته فكان يدور على البيوت
يتكفف واذا قال انا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ثم عمد الى السماكين ينقل لهم السمك
فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على ذلك اربعين صباحا عدد ما عبد الوثن فى بيته
فانكر آصف وعظماء بنى اسرائيل حكم الشيطان ثم طار اللعين وقذف الخاتم فى البحر فابتلعه
سمكة فوقعت فى يد سليمان فبقر بطنها فاذا هو بالخاتم فتختم به وخر ساجدا و
عاد اليه ملكه وجاب صخرة لصخر فجعله فيها وسد عليه باخرى ثم اوثقها بالحديد
والرصاص وقذفه فى البحر وعلى هذا فالجسد عبارة عن صخر سمى به وهو جسم لا روح
فيه لانه تمثل بما لم يكن كذلك والخطيئة تغافله عليه السلام عن حال اهله لان اتخاذ
التماثيل لم يكن محظورا حينئذ وسجود الصورة بغير علم منه لا يضره قال بدل من اناب
وتفسير له رب اغفر لى اى ما صدر عنى من الزلة وهب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى
لا يتسهل له ولا يكون ليكون معجزة لى مناسبة لحالى فانه عليه السلام لما نشأ فى بيت
الملك والنبوة وورثهما معا استدعى من ربه معجزة جامعة لحكمهما او لا ينبغى لاحد
ان يسلبه منى بعد هذه السلبة او لا يصح لاحد من بعدى لعظمته كقولك لفلان ما ليس
لاحد من الفضل والمال على ارادة وصف الملك بالعظمة لا ان يعطى احد مثله فيكون
منافسة وقيل كان ملكا عظيما فخاف ان يعطى مثله احد فلا يحافظ على حدود الله
تعالى وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بامر الدين جريا على سنن
الانبياء عليهم السلام والصالحين وكون ذلك ادخل فى الاجابة وقرئ لى بفتح الياء
انك انت الوهاب تعليل للدعاء بالمغفرة والهبة معا لا بالاخيرة فقط فان المغفرة ايضا
من احكام وصف الوهابية قطعا فسخرنا له الريح اى فذللناها لطاعته اجابة
لدعوته فعاد امره عليه السلام الى ما كان عليه قبل الفتنة وقرئ الرياح تجرى
بامره بيان لتسخيرها له رخاء اى لينة من الرخاوة طيبة لا تزعزع وقيل طيعة لا تمتنع
عليه كالمأمور المنقاد حيث اصاب اى حيث قصد واراد حكى الاصمعى عن العرب
اصاب الصواب فاخطأ الجواب والشياطين عطف على الريح كل بناء وغواص بدل
من الشياطين وآخرين مقرنين فى الاصفاد عطف على كل بناء داخل فى حكم البدل
كانه عليه السلام فصل الشياطين الى عملة استعملهم فى الاعمال الشاقة من البناء والغوص
ونحو ذلك والى مردة قرن بعضهم مع بعض فى السلاسل ليكفهم عن الشر والفساد
ولعل اجسامهم شفافة فلا ترى صلبة فيمكن تقييدها ويقدرون على الاعمال
الصعبة وقد جوز ان يكون الاقران فى الاصفاد عبارة عن كفهم عن الشرور بطريق
التمثيل والصفد القيد وسمى به العطاء لانه يرتبط بالمنعم عليه وفرقوا بين فعليهما
فقالوا صفده قيده واصفده على عكس وعد واوعد وقوله تعالى هذا الخ اما حكاية
لما خوطب به سليمان عليه السلام مبينة لعظم شان ما اوتى من الملك فانه مفوض
اليه تفويضا كليا واما مقول لقول مقدر هو معطوف على سخرنا او حال من فاعله كما مر

فى خاتمة قصة داود عليه السلام اى وقلنا له او قائلين له هذا الذى اعطيناكه من الملك
العظيم والبسطة والتسلط على ما لم يسلط عليه غيرك عطاؤنا الخاص بك فامنن
او امسك فاعط من شئت وامنع من شئت بغير حساب حال من المستكن فى الامر
غير محاسب على منه وامساكه لتفويض التصرف فيه اليك على الاطلاق او من العطاء اى
هذا عطاؤنا ملتبسا بغير حساب لغاية كثرته او صلة له وما بينهما اعتراض على التقديرين
وقيل الاشارة الى تسخير الشياطين والمراد بالمن والامساك الاطلاق والتقييد وان له
عندنا لزلفى فى الآخرة مع ما له من الملك العظيم فى الدنيا وحسن مآب هو الجنة قيل فتن
سليمان عليه السلام بعد ما ملك عشرين سنة وملك بعد الفتنة عشرين سنة وذكر
الفقيه ابو حنيفة احمد بن داود الدينورى فى تاريخه ان سليمان عليه السلام ورث ملك
ابيه فى عصر كيخسرو بن سياوش وسار من الشام الى العراق فبلغ خبره كيخسرو فهرب الى خراسان
فلم يلبث حتى هلك ثم سار سليمان عليه السلام الى مرو ثم الى بلاد الترك فوغل فيها ثم
جاز بلاد الصين ثم عطف الى ان وافى بلاد فارس فنزلها اياما ثم عاد الى الشام ثم امر
ببناء بيت المقدس فلما فرغ منه سار الى تهامة ثم الى صنعاء وكان من حديثه مع صاحبتها
ما ذكره الله عز وجل وغزا بلاد المغرب والاندلس وطنجة وغيرها والله تعالى اعلم
واذكر عبدنا ايوب عطف على اذكر عبدنا داود وعدم تصدير قصة سليمان عم
بهذا العنوان لكمال الاتصال بينه وبين داود عليهما السلام وايوب عم وهو
ابن عيص بن اسحق عليه السلام اذ نادى ربه بدل اشتمال من عبدنا وايوب
عطف بيان له انى بانى مسنى الشيطان بفتح الياء مسنى وقرئ باسكانها واسقاطها بنصب
اى تعب وقرئ بفتح النون وبفتحتين وبضمتين للتثقيل وعذاب اى الم وصب
يريد مرضه وما كان يقاسيه من فنون الشدائد وهو المراد بالضر فى قوله انى مسنى
الضر وهو حكاية لكلامه الذى ناداه به بعبارته والا لقيل انه مسه والاسناد
الى الشيطان اما لانه تعالى مسه بذلك لما فعل بوسوسته كما قيل انه اعجب بكثرة ماله
او استغاثه مظلوم فلم يغثه او كانت مواشيه فى ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه
او لامتحان صبره فيكون اعترافا بالذنب او مراعاة للادب او لانه وسوس الى اتباعه
حتى رفضوه واخرجوه من ديارهم او لان المراد بالنصب والعذاب ما كان يوسوس
به اليه فى مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء والقنوط من الرحمة ويغريه على
الكراهة والجزع فالتجأ الى الله تعالى فى ان يكفيه ذلك بكشف البلاء او بالتوفيق لدفعه
ورده بالصبر الجميل وليس هذا تمام دعائه عليه السلام بل من جملته قوله وانت
ارحم الراحمين فاكتفى ههنا عن ذكره بما فى سورة الانبياء كما ترك هناك ذكر الشيطان ثقة
بما ذكر ههنا وقوله تعالى اركض برجلك الخ اما حكاية لما قيل له او مقول لقول
مقدر معطوف على نادى اى فقلنا له اركض برجلك اى اضرب بها الارض وكذا قوله تعالى
هذا مغتسل بارد وشراب فانه ايضا اما حكاية لما قيل له بعد امتثاله بالامر ونبوع
الماء او مقول لقول مقدر معطوف على مقدر ينساق اليه الكلام كانه قيل فضربها
فنبعت عين فقلنا له هذا مغتسل تغتسل فيه وتشرب منه فيبرأ ظاهرك وباطنك وقيل
نبعت عينان حارة للاغتسال وباردة للشرب ويأباه النظم الكريم وقوله تعالى ووهبنا
له اهله معطوف على مقدر مترتب على مقدر آخر يقتضيه القول المقدر آنفا كانه
قيل فاغتسل واشرب فكشفنا بذلك ما به من ضر كما فى سورة الانبياء ووهبنا له
اهله باحيائهم بعد هلاكهم وهو المروى عن الحسن رحمه الله او بجمعهم بعد تفرقهم
كما قيل ومثلهم معهم عطف على اهله فكان له من الاولاد ضعف ما كان له قبل
رحمة منا اى لرحمة عظيمة عليه من قبلنا وذكرى لاولى الالباب ولتذكيرهم
بذلك ليصبروا على الشدائد كما صبر ويلجأوا الى الله عز وجل فيما يحيق بهم كما لجأ
ليفعل بهم ما فعل به من حسن العاقبة وخذ بيدك ضغثا معطوف على اركض
او على وهبنا بتقدير قلنا اى وقلنا خذ بيدك الخ والاول اقرب لفظا وهذا انسب معنى فان

ظاهرهم

الحاجة الى هذا الامر لانمس الابعد الضحى فان امرأته رحمة بنت افرائيم بن يوسف وقيل ليا بنت
يعقوب وقيل ماخير بنت ميشا بن يوسف عليه السلام ذهبت لحاجة فابطأت فحلف ان برئ
ليضربنها مائة ضربة فامره الله تعالى باخذ الضغث والضغث الحزمة الصغيرة من الحشيش
ونحوه وعن ابن عباس رضي الله عنهما قبضة من الشجر وقال فاضرب به اى بذلك الضغث ولا
تحنث في يمينك فان البر يتحقق به ولقد شرع الله سبحانه هذه الرخصة رحمة عليه
وعليها لحسن خدمتها اياه ورضاه عنها وهي باقية ويجب ان يصيب المضروب كل واحد من
المائة اما باطرافها قائمة او باعراضها مبسوطة على هيئة الضرب انا وجدناه صابرا فيما
اصابه في النفس والاهل وليس في شكواه الى الله تعالى اخلال بذلك فانه لا يسمى جزعا
كتمني العافية وطلب الشفاء على انه قال ذلك خيفة الفتنة في الدين حيث كان الشيطان
يوسوس الى قومه بانه لو كان نبيا لما ابتلي بمثل ما ابتلي به وارادة القوة على الطاعة فقد بلغ امره
الى ان لم يبق منه الا القلب واللسان ويروى انه عم قال في مناجاته الهي قد علمت
انه لم يخالف لساني قلبي ولم يتبع قلبي بصري ولم يهبني ما ملكت يميني ولم اكل الا ومعي
يتيم ولم ابت شبعان ولا كاسيا ومعي جائع او عريان فكشف الله تعالى عنه نعم العبد اى
ايوب انه اواب تعليل لمدحه اى رجاع الى الله تعالى واذكر عبادنا ابراهيم واسحق
ويعقوب عطف بيان لعبادنا وقرئ عبدنا اما على ان ابراهيم وحده لمزيد شرفه عطف
بيان وقيل بدل وقيل نصب باضمار اعني والباقيات عطف على عبدنا واما على ان عبدنا
اسم جنس وضع موضع الجمع اولى الايدي والابصار اولى القوة في الطاعة
والبصيرة في الدين او اولى الاعمال الجليلة والعلوم الشريفة فعبر بالايدي عن الاعمال لان
اكثرها تباشر بها وبالابصار عن المعارف لانها اقوى مباديها وفيه تعريض بالجهلة البطالين
انهم كالزمنى والعماة وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع تمكنهم منهما وقرئ اولى
الايد بطرح الياء والاكتفاء بالكسرة وقرئ اولى الايادي على جمع الجمع انا اخلصناهم
بخالصة تعليل لما وصفوا به من شرف العبودية وعلو الرتبة في العلم والعمل اى جعلناهم
خالصين لنا بخصلة خالصة عظيمة الشان كما ينبئ عنه التنكير التفخيمي وقوله تعالى ذكرى الدار
بيان للخالصة بعد ابهامها للتفخيم اى تذكر للدار الآخرة دائما فان خلوصهم في الطاعة
بسبب تذكرهم لها وذلك لان مطمح انظارهم ومطرح افكارهم في كل ما يأتون
وما يذرون جوار الله عز وجل والفوز بلقائه ولا يتسنى ذلك الا في الآخرة وقيل
اخلصناهم بتوفيقهم لها واللطف بهم في اختيارها ويعضد الاول قراءة من قرأ
بخالصتهم واطلاق الدار للاشعار بانها الدار في الحقيقة وانما الدنيا معبر وقرئ
باضافة خالصة الى ذكرى اى بما خلص من ذكرى الدار على معنى انهم لا يشوبون ذكراها
بهم آخر اصلا او تذكرهم الآخرة وترغيبهم فيها وتزهيدهم في الدنيا كما هو شأن
الانبياء عليهم السلام وقيل ذكرى الدار الثناء الجميل في الدنيا ولسان الصدق الذي
ليس لغيرهم وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار لمن المختارين من امثالهم المصطفين
عليهم في الخير والاخيار جمع خير كشر واشرار وقيل جمع خير او خير مخفف كاموات جمع
ميت وميت واذكر اسمعيل فصل ذكره عن ذكر ابيه واخيه للاشعار بعراقته في الصبر
الذي هو المقصود بالتذكير واليسع هو ابن اخطوب بن العجوز استخلفه الياس على بني
اسرائيل ثم استنبئ واللام فيه حرف تعريف دخل على يسع كما في قول من قال رأيت الوليد بن
اليزيد مباركا وقرئ والليسع كان اصله ليسع فيعل من اللسع دخل عليه حرف التعريف وقيل
هو على القراءتين علم اعجمي دخل عليه اللام وقيل هو يوشع وذا الكفل هو ابن عم يوشع
او بشر بن ايوب واختلف في نبوته ولقبه وقيل فر اليه مائة نبي من بني اسرائيل من القتل
فآواهم وكفلهم وقيل كفل بعمل رجل صالح كان يصلي كل يوم مائة صلاة وكل اى وكلهم
من الاخيار المشهورين بالخيرية هذا اشارة الى ما تقدم من الآيات الناطقة
بمحاسنهم ذكر اى شرف لهم وذكر جميل يذكرون به ابدا او نوع من الذكر الذي هو
القرآن وباب منه مشتمل على انباء الانبياء وعن ابن عباس رضي الله عنهما هذا ذكر من مضى

من الانبياء

من الانبياء وقوله تعالى وان للمتقين لحسن مآب شروع في بيان اجرهم الجزيل في الآجل
بعد بيان ذكرهم الجميل في العاجل وهو باب آخر من ابواب التنزيل والمراد بالمتقين اما
الجنس وهم داخلون في الحكم دخولا اوليا واما نفس المذكورين عبر عنهم بذلك
مدحا لهم بالتقوى التي هي الغاية القاصية من الكمال جنات عدن عطف بيان لحسن
مآب عند من يجوز تخالفهما تعريفا وتنكيرا فان عدنا معرفة لقوله تعالى جنات
عدن التي وعد الرحمن عباده او بدل منه او نصب على المدح وقوله تعالى
مفتحة لهم الابواب حال من جنات عدن والعامل فيها ما في للمتقين من معنى الفعل
والابواب مرتفعة باسم المفعول والرابط بين الحال وصاحبها اما ضمير مقدر كما هو
رأي البصريين اى الابواب منها او الالف واللام القائمة مقامه كما هو رأي الكوفيين
اذ الاصل ابوابها وقرئتا مرفوعتين على المبتدأ والخبر او على انهما خبران لمحذوف اى
هي جنات عدن هي مفتحة متكئين فيها حال من ضمير لهم والعامل فيها مفتحة وقوله
تعالى يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب استئناف لبيان حالهم فيها وقيل هو ايضا
حال مما ذكر او من ضمير متكئين والاقتصار على دعاء الفاكهة للايذان بان
مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذي فانه لتحصيل بدل المتحلل ولا تحلل
ثمة وعندهم قاصرات الطرف اى على ازواجهن لا ينظرن الى غيرهم اتراب
لدات لهم فان التحاب بين الاقران ارسخ او بعضهن لبعض لا عجوز فيهن ولا صبية
واشتقاقه من التراب فانه يمسهم في وقت واحد هذا ما توعدون ليوم الحساب
اى لاجله فان الحساب علة للوصول الى الجزاء وقرئ بالياء ليوافق ما قبله والالتفات
اليق بمقام الامتنان والتكريم ان هذا اى ما ذكر من الوان النعم والكرامات لرزقنا
اعطيناكموه ما له من نفاد انقطاع ابدا هذا اى الامر هذا او هذا كما ذكر او هذا
ذكر وقوله تعالى وان للطاغين لشر مآب شروع في بيان اضداد الفريق السابق جهنم
اعرابه كما سلف يصلونها اى يدخلونها حال من جهنم فبئس المهاد وهو المهد
والمفرش مستعار من فراش النائم والمخصوص بالذم محذوف وهو جهنم لقوله تعالى
من جهنم مهاد هذا فليذوقوه اى ليذوقوه وقوله هذا فليذوقوه كقوله تعالى فاياي
فارهبون او العذاب هذا فليذوقوه او هذا مبتدأ وخبره حميم وغساق وما
بينهما اعتراض وهو على الاولين خبر مبتدأ محذوف اى هو حميم والغساق ما
يغسق من صديد اهل النار من غسقت العين اذا سال دمعها وقيل الحميم يحرق
بحره والغساق ببرده وقيل لو قطرت منه قطرة في المشرق لنتنت اهل المغرب ولو
قطرت قطرة في المغرب لنتنت اهل المشرق وقيل الغساق عذاب لا يعلمه الا الله تعالى
وقرئ بتخفيف السين وآخر من شكله اى ومذوق آخر او عذاب آخر من مثل
هذا المذوق او العذاب في الشدة والفظاعة وقرئ واخر اى ومذوقات اخر او
انواع عذاب آخر وتوحيد ضمير شكله بتأويل ما ذكر او الشراب الشامل للحميم والغساق
او هو راجع الى الغساق ازواج اى اجناس وهو خبر لآخر لانه يجوز ان يكون ضروبا
او صفة له او للثلاثة او مرتفع بالجار والخبر محذوف هذا فوج مقتحم معكم حكاية
ما يقال من جهة الخزنة لرؤساء الطاغين اذا دخلوا النار واقتحمها معهم فوج
تبعهم في الكفر والضلالة والاقتحام الدخول في الشيء بشدة قال الراغب الاقتحام
توسط شدة مخيفة وقوله تعالى لا مرحبا بهم من تمام كلام الخزنة بطريق الدعاء
على الفوج او صفة للفوج او حال منه اى مقولا او مقولا في حقهم لا مرحبا بهم
اى ما اتوا مرحبا ولا رحبت بهم الدار مرحبا انهم صالوا النار تعليل من جهة الخزنة لاستحقاقهم
الدعاء عليهم او وصفهم بما ذكر وقيل لا مرحبا بهم الى هنا كلام الرؤساء في حق
اتباعهم عند خطاب الخزنة لهم باقتحام الفوج معهم تضجرا من مقارنتهم وتنفرا
من مصاحبتهم وقيل كل ذلك كلام الرؤساء بعضهم مع بعض في حق الاتباع قالوا

المغرب

اى الاتباع عند سماعهم ما قيل في حقهم ووجه خطابهم للرؤساء في قولهم بل انتم لا مرحبا بكم الى آخره على الوجهين الاخيرين ظاهر واما على الوجه الاول فلعلهم انما خاطبوهم مع ان الظاهر ان يقولوا بطريق الاعتذار الى الخزنة بل هم لا مرحبا بهم قصدا منهم الى اظهار صدقهم بالمخاصمة مع الرؤساء والتحاكم الى الخزنة طمعا في قضائهم بتخفيف عذابهم او تضعيف عذاب خصمائهم اى بل انتم احق بما قيل لنا او قلتم وقوله تعالى انتم قدمتموه لنا تعليل لاحقيتهم بذلك اى انتم قدمتم العذاب او الصلى لنا او قدمتمونا فيه بتقديم ما يؤدى اليه من العقائد الزائغة والاعمال السيئة وتزيينها في اعيننا واغرائنا عليها لا انا باشرناها من تلقاء انفسنا فبئس القرار اى فبئس المقر جهنم قصدوا بذمها تغليظ جناية الرؤساء عليهم قالوا اى الاتباع ايضا وتوسيطه بين كلاميهم لما بينهما من التباين البين ذاتا وخطابا اى قالوا معرضين عن خصومتهم متضرعين الى الله تعالى ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار كقولهم ربنا هؤلاء اضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار اى عذابا مضاعفا اى ذا ضعف وذلك بان يزيد عليه مثله ويكون ضعفين كقوله ربنا آتهم ضعفين من العذاب وقيل المراد بالضعف الحيات والافاعى وقالوا اى الطاغون ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار يعنون فقراء المسلمين الذين كانوا يسترذلونهم ويسخرون منهم اتخذناهم سخريا بهمزة استفهام سقطت لاجلها همزة الوصل والجملة استئناف لا محل لها من الاعراب قالوه انكارا على انفسهم وتأنيبا لها في الاستسخار منهم ام زاغت الابصار متصل باتخذناهم على ان ام متصلة والمعنى اى الامرين فعلنا بهم الاستسخار منهم ام الازدراء بهم وتحقيرهم وان ابصارنا كانت تزيغ عنهم وتقتحمهم على معنى انكار كل واحد من الفعلين على انفسهم توبيخا لها او على انها منقطعة والمعنى اتخذناهم سخريا بل ازاغت عنهم ابصارنا كقولك ازيد عندك ام عندك عمرو على معنى توبيخ انفسهم على الاستسخار ثم الاضراب والانتقال منه الى التوبيخ على الازدراء والتحقير وقرئ اتخذناهم بغير همزة على انه صفة اخرى لرجالا فقوله تعالى ام زاغت متصل بقوله تعالى ما لنا لا نرى والمعنى ما لنا لا نراهم في النار اليسوا فيها فلذلك لا نراهم ام زاغت عنهم ابصارنا وهم فيها وقد جوز ان يكون الهمزة مقدرة على هذه القراءة وقرئ سخريا بضم السين ان ذلك اى الذى حكى من احوالهم لحق لا بد من وقوعه البتة وقوله تعالى تخاصم اهل النار خبر مبتدأ محذوف والجملة بيان لذلك وفي الابهام اولا والتبيين ثانيا مزيد تقرير له وقيل بدل من محل ذلك وقيل بدل من حق او عطف بيان له وقرئ بالنصب على انه بدل من ذلك وما قيل من انه صفة له فقد قيل عليه ان اسم الاشارة لا يوصف الا بالمعرف باللام يقال بهذا الرجل ولا يقال بهذا غلام الرجل قل امر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقول للمشركين انما انا منذر من جهته تعالى انذركم عذابه وما من اله في الوجود الا الله الواحد القهار الذى لا يقبل الشركة اصلا القهار لكل شئ سواه رب السموات والارض وما بينهما من المخلوقات فكيف يتوهم ان يكون له شريك منها العزيز الذى لا يغلب في امر من اموره الغفار المبالغ في المغفرة يغفر ما يشاء لمن يشاء وفي هذه النعوت من تقرير التوحيد والوعد للموحدين والوعيد للمشركين ما لا يخفى وتثنية ما يشعر بالوعيد من وصفى القهر والعزة وتقديمهما على وصف المغفرة لتوفية مقام الانذار حقه قل تكرير الامر للايذان بان المقول امر جليل له شان خطير لا بد من الاعتناء به امرا وايتمارا هو اى ما انبأتكم به من انى منذر من جهته تعالى وانه تعالى واحد لا شريك له وانه متصف بما ذكر من الصفات الجليلة والاظهر انه القرآن وما ذكر داخل فيه دخولا اوليا كما يشهد به آخر السورة الكريمة وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وقتادة نبأ عظيم وارد من جهته تعالى وقوله تعالى انتم عنه معرضون استئناف ناع عليهم سوء صنيعهم به مبينا انهم لا يقدرون قدره الجليل

حيث يعرضون عنه مع عظمته وكونه موجبا للاقبال الكلى عليه وتلقيه بحسن القبول وقيل صفة اخرى لنبأ وقوله تعالى ما كان لى من علم بالملأ الاعلى الخ استئناف مسوق لتحقيق انه نبأ عظيم وارد من جهته تعالى بذكر نبأ من انبائه على التفصيل من غير سابقة معرفة به ولا مباشرة سبب من اسبابها المعتادة فان ذلك حجة بينة دالة على ان ذلك بطريق الوحى من عند الله تعالى وان سائر انبائه ايضا كذلك والملأ الاعلى هم الملئكة وآدم عليهم السلام وابليس عليه اللعنة وقوله تعالى اذ يختصمون متعلق بمحذوف يقتضيه المقام اذ المراد نفى علمه عليه السلام بحالهم لا بذواتهم والتقدير ما كان لى فيما سبق علم ما بوجه من الوجوه بحال الملأ الاعلى وقت اختصامهم وتقدير الكلام كما اختاره الجمهور تحجير للواسع فان علمه عليه السلام غير مقصور على ما جرى بينهم من الاقوال فقط بل عام لها وللافعال ايضا من سجود الملائكة عليهم السلام واستكبار ابليس وكفره حسبما ينطق به الوحى فلا بد من اعتبار العموم في نفيه ايضا لا محالة وقوله تعالى ان يوحى الى الا انما انا نذير مبين اعتراض وسط بين اجمال اختصامهم وتفصيله تقريرا لثبوت علمه عليه السلام وتعيينا لسببه الا ان بيان انتفائه فيما سبق لما كان منبئا عن ثبوته الآن ومن البين عدم ملابسته عليه السلام بشئ من مباديه المعهودة تعين انه ليس الا بطريق الوحى حتما فجعل امرا مسلم الثبوت غنيا عن الاخبار به قصدا وجعل مصب الفائدة والمقصود اخباره ما هو داع الى الوحى ومصحح له تحقيقا لقوله تعالى انما انا منذر في ضمن تحقيق علمه عليه السلام بقصة الملأ الاعلى فالقائم مقام الفاعل ليوحى اما ضمير عائد الى الحال المقدر او ما يعمه وغيره فالمعنى ما يوحى الى حال الملأ الاعلى او ما يوحى الى ما يوحى من الامور الغيبية التى من جملتها حالهم الا لانما انا نذير مبين من جهته تعالى فان كونه عليه السلام كذلك من دواعى الوحى اليه وموجباته حتما واما ان القائم مقام الفاعل هو الجار والمجرور وهو انما انا نذير مبين بلا تقدير الجار وان المعنى ما يوحى الى الا ان انذر وابلغ ولا افرط في ذلك كما قيل فمع ما فيه من الاضطرار الى التكلف في توجيه قصر الوحى على كونه للانذار في الاول وقصره على الانذار في الثانى فلا يساعده سياق النظم الكريم وسياقه كيف لا والاعتراض حينئذ يكون اجنبيا مما توسط بينهما من اجمال الاختصام وتفصيله فتأمل والله المرشد وقرئ انما بالكسر على الحكاية وقوله تعالى اذ قال ربك للملئكة شروع في تفصيل ما اجمل من الاختصام الذى هو ما جرى بينهم من التقاول وحيث كان تكليمه تعالى اياهم بواسطة الملك صح اسناد الاختصام الى الملئكة واذ بدل من اذ الاولى وليس من ضرورة البدلية دخولها على نفس الاختصام بل يكفى اشتمال ما في حيزها عليه فان القصة ناطقة بذلك تفصيلا والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام لتشريفه عليه السلام والايذان بان الوحى هذا النبأ اليه تربية وتأييد له عليه السلام والكاف وارد باعتبار حال الآمر لكونه ادل على كونه وحيا منزلا من عنده تعالى كما في قوله تعالى قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم الخ دون حال المأمور والا لقيل ربى لانه داخل في حيز الامر انى خالق اى فيما سيأتى وفيه ما ليس في صيغة المضارع من الدلالة على انه تعالى فاعل له البتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه بشرا قيل اى جسما كثيفا يلاقى ويباشر وقيل خلقا بادى البشرة بلا صوف ولا شعر ولعل ما جرى عند وقوع المحكى ليس هذا الاسم الذى لم يخلق مسماه حينئذ فضلا عن تسميته به بل عبارة كاشفة عن حاله وانما عبر عنه بهذا الاسم عند الحكاية من طين لم يتعرض لاوصافه من التغير والاسوداد والمسنونية اكتفاء بما ذكر في مواقع اخر فاذا سويته اى صورته بالصورة الانسانية والخلقة البشرية او سويت اجزاء بدنه بتعديل طبائعه ونفخت فيه من روحى النفخ اجراء الريح الى تجويف جسم صالح لامساكها والامتلاء بها وليس ثمة نفخ ولا منفوخ وانما هو تمثيل لافاضة ما به الحيوة بالفعل على المادة القابلة لها اى فاذا اكملت استعداده وافضت عليه ما يحيى به من الروح التى هى من امرى فقعوا له امر من وقع وفيه دليل على ان المأمور به ليس مجرد الانحناء كما قيل اى اسقطوا

له ساجدين تحية له وتكريما فسجد الملائكة اى فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد له
الملائكة كلهم بحيث لم يبق منهم احد الا سجد اجمعون اى بطريق المعية بحيث لم يتاخر
فى ذلك احد منهم عن احد ولا اختصاص لافادة هذا المعنى بالحالية بل يفيده التاكيد ايضا
وقيل اكد بتاكيدين مبالغة فى التعميم هذا واما ان سجودهم هذا هل ترتب على ما حكى
من الامر التعليقى كما يقتضيه هذه الاية الكريمة والتى فى سورة الحجر فان ظاهرهما مما يستدعى
ترتبه عليه من غير ان يتوسط بينهما شئ غير ما يفصح عنه الفاء الفصيحة من الخلق والتسوية
ونفخ الروح او على الامر التنجيزى كما يقتضيه ما فى سورة البقرة وما فى سورة الاعراف وما
فى سورة بنى اسرائيل وما فى سورة الكهف وما فى سورة طه من الايات الكريمة فقد
مر تحقيقه بتوفيق الله عز وجل فى سورة البقرة وسورة الاعراف الا ابليس استثناء
متصل لما انه كان جنيا مفردا مغمورا بالوف من الملائكة موصوفا بصفاتهم فغلبوا عليه
ثم استثنى استثناء واحد منهم او لان من الملائكة جنسا يتوالدون وهو منهم او منقطع
وقوله تعالى استكبر على الاول استيناف مبين لكيفية ترك السجود المفهوم من الاستثناء
فان تركه يحتمل ان تكون للتامل والتروى وبه يتحقق انه للاباء والاستكبار وعلى الثانى يجوز
اتصاله بما قبله اى لكن ابليس استكبر وكان من الكافرين اى وصار منهم بمخالفته للامر واستكباره
عن الطاعة او كان منهم فى علم الله عز وجل قال يا ابليس ما منعك ان تسجد لما خلقت
بيدى اى خلقته بالذات من غير توسط اب وام والتثنية لابراز كمال الاعتناء بخلقه عم
المستدعى لاجلاله واعظامه قصدا الى تاكيد الانكار وتشديد التوبيخ استكبرت
بهمزة الانكار وطرح همزة الوصل اى اتكبرت من غير استحقاق ام كنت من العالين
المستحقين للتفوق وقيل استكبرت الان ام لم تزل منذ كنت من المستكبرين وقرئ
بحذف همزة الاستفهام ثقة بدلالة ام عليها وقوله تعالى قال انا خير منه ادعاء منه
لشئ مستلزم لمنعه من السجود على زعمه واشعار بانه لا يليق ان يسجد الفاضل للمفضول
كما يعرب عنه قوله لم اكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون وقوله تعالى
خلقتنى من نار وخلقته من طين تعليل لما ادعاه من فضله عليه عم ولقد اخطأ اللعين
حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر وزل عنه ما من جهة الفاعل كما انبأ
عنه قوله تعالى لما خلقت بيدى وما من جهة الصورة كما نبه عنه قوله تعالى ونفخت فيه
من روحى وما من جهة الغاية وهو ملاك الامر ولذلك امر الملائكة بسجوده عليهم السلام
حين ظهر لهم انه اعلم منهم بما يدور عليه امر الخلافة فى الارض وان له خواص ليست
لغيره قال فاخرج منها الفاء لترتيب الامر على ما ظهر من اللعين من المخالفة للامر الجليل
وتعليلها بالاباطيل اى فاخرج من الجنة او من زمرة الملائكة وهو المراد بالامر بالهبوط
لا الهبوط من السماء كما قيل فان وسوسته لادم عم كانت بعد هذا الطرد وقد
بين كيفية وسوسته فى سورة البقرة وقيل اخرج من الخلقة التى كنت فيها وانسلخ
منها فانه كان يفتخر بخلقته فغير الله تعالى خلقته فاسود بعد ما كان ابيض وقبح بعد ما كان
حسنا واظلم بعد ما كان نورانيا وقوله تعالى انك رجيم تعليل للامر بالخروج اى مطرود
من كل خير وكرامة فان من يطرد يرجم بالحجارة او شيطان يرجم بالشهب وان عليك
لعنتى اى ابعادى عن الرحمة وتقييدها بالاضافة مع اطلاقها فى قوله تعالى وان عليك
اللعنة لما ان لعنة اللاعنين من الملائكة والثقلين ايضا من جهته تعالى وانهم يدعون
عليه بلعنة الله تعالى وابعاده عن الرحمة الى يوم الدين اى يوم الجزاء والعقوبة وفيه
ايذان بان اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لجنايته بل هى انموذج مما سيلقاه مستمرة
الى ذلك اليوم لكن لا على انها تنقطع يومئذ كما يوهمه ظاهر التوقيت بل على انه سيلقى
يومئذ من الوان العذاب وافانين العقاب ما ينسى عنده اللعنة وتصير كالزايل الابدى الى
قوله فاذن مؤذن منهم ان لعنة الله على الظالمين وقوله تعالى ويلعن بعضهم بعضا قال
رب فانظرنى اى امهلنى واخرنى والفاء متعلقة بمحذوف ينسحب عليه الكلام اى اذا
جعلتنى رجيما فامهلنى ولا تمتنى الى يوم يبعثون اى آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم واراد

بذلك ان يجد فسحة لاغوائهم ويأخذ منهم ثاره وينجو من الموت بالكلية اذ لا موت بعد
يوم البعث قال فانك من المنظرين ورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول
ما سأله للآخرين على وجه يشعر بكون السائل تبعا لهم فى ذلك دليل واضح على انه اخبار
بالانظار المقدر لهم ازلا لا انشاء لانظار خاص به قد وقع اجابة لدعائه وان استنظاره
كان طلبا لتاخير الموت اذ به يتحقق كونه منهم لا التاخير العقوبة كما قيل فان ذلك معلوم
من اضافة اليوم الى الدين اى انك من جملة الذين اخرت آجالهم ازلا حسبما يقتضيه
حكمة التكوين الى يوم الوقت المعلوم الذى قدره الله تعالى وعينه لفناء الخلائق وهو وقت
النفخة الاولى لا الى وقت البعث الذى هو المسؤل والفاء ليست لربط نفس الانظار بالاستنظار
بل لربط الاخبار المذكور به كما فى قول من قال فان ترحم فانت لذاك اهل فانه لا امكان
لجعل الفاء فيه لربط ما له تعالى من الاهلية القديمة للرحمة بوقوع الرحمة الحادثة بل هى
لربط الاخبار بتلك الاهلية للرحمة بوقوعها هذا وقد ترك التوقيت فى سورة الاعراف
كما ترك النداء والفاء فى الاستنظار والانظار تعويلا على ما ذكر ههنا وفى سورة
الحجر وان خطر ببالك ان كل وجه من وجوه النظم الكريم لابد ان يكون له مقام يقتضيه
مغاير لمقام غيره وان ما حكى من اللعين انما صدر عنه مرة وكذا جوابه لم يقع الا دفعة
فمقام الاستنظار والانظار ان اقتضى احد الوجوه المحكية فذلك الوجه هو المطابق
لمقتضى الحال والبالغ الى رتبة البلاغة ودرجة الاعجاز واما ما عداه من الوجوه فهو
بمعزل من بلوغ طبقة البلاغة فضلا عن العروج الى معارج الاعجاز فقد سلف تحقيقه
فى سورة الاعراف بفضل الله تعالى وتوفيقه قال فبعزتك الباء للقسم والفاء لترتيب
مضمون الجملة على الانظار ولا ينافيه قوله تعالى فبما اغويتنى وقوله تعالى رب بما اغويتنى
فان اغوائه تعالى اياه اثر من آثار قدرته تعالى وعزته وحكم من احكام قهره وسلطنته
فمآل الاقسام بهما واحد ولعل اللعين اقسم بهما جميعا فحكى تارة قسمه باحدهما واخرى
بالآخر اى فاقسم بعزتك لاغوينهم اجمعين اى ذرية آدم بتزيين المعاصى لهم
الا عبادك منهم المخلصين وهم الذين اخلصهم الله لطاعته وعصمهم من الغواية
وقرئ المخلصين على صيغة الفاعل اى الذين اخلصوا قلوبهم او اعمالهم لله
تعالى قال اى الله عز وجل فالحق والحق اقول برفع الاول على انه مبتدأ محذوف
الخبر او خبر محذوف المبتدأ او نصب الثانى على انه مفعول لما بعده قدم عليه للقصر اى
لا اقول الا الحق والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها اى فالحق قسمى لاملان جهنم
على ان الحق اما اسمه تعالى او نقيض الباطل عظمه الله تعالى باقسامه به او فانا الحق او فقولى
الحق وقوله لاملان الخ جواب لقسم محذوف اى والله لاملان الخ وقوله تعالى والحق اقول
على كل تقدير اعتراض مقرر على الوجهين الاولين لمضمون الجملة القسمية وعلى الوجه الثالث
لمضمون الجملة المتقدمة اعنى فقولى الحق وقرئا منصوبين على ان الاول مقسم به كقولك
الله لافعلن وجوابه لاملان وما بينهما اعتراض وقرئا مجرورين على ان الاول
مقسم به قد اضمر حرف قسمه كقولك الله لافعلن والحق اقول على حكاية لفظ المقسم به
على تقدير كونه نقيض الباطل ومعناه التاكيد والتشديد وقرئ بجر الاول على اضمار
حرف القسم ونصب الثانى على المفعولية منك اى من جنسك من الشياطين وممن
تبعك فى الغواية والضلال منهم من ذرية آدم اجمعين تاكيد للكاف وما
عطف عليه اى لاملانها من المتبوعين والاتباع اجمعين كقوله تعالى لمن تبعك منهم
لاملان جهنم منكم اجمعين وهذا القول هو المراد بقوله تعالى ولكن حق القول
منى لاملان جهنم من الجنة والناس اجمعين وحيث كان مناط الحكم ههنا اتباع الشيطان
اتضح ان مدار عدم المشية فى قوله تعالى ولو شئنا لاتينا كل نفس هداها اتباع الكفرة للشيطان
بسوء اختيارهم لا تحقق القول فليس فى ذلك شائبة الجبر فتدبر قل ما اسألكم عليه
على القرآن او على تبليغ ما يوحى الى من اجر دنيوى وما انا من المتكلفين اى المتصنعين
بما ليسوا من اهله حتى انتحل النبوة واتقول القرآن ان هو اى ما هو الا ذكر من الله عز وجل

ها فالحق قسمى
فانا الحق
او فقولى الحق

الخلائق

للعالمين للثقلين كافة ولتعلمن نبأه اى ما انبأ به من الوعد والوعيد وغيرهما او صحة خبره وانه الحق والصدق بعد حين بعد الموت او يوم القيمة او عند ظهور الاسلام وفشوه وقيل من بقى علم ذلك اذا ظهر امره وعلا ومن مات علمه بعد الموت وفيه من التهديد ما لا يخفى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره الله تعالى لداود عليه السلام عشر حسنات وعصمه ان يصر على ذنب صغير او كبير وقال ابو امامة عصمه الله تعالى من كل ذنب صغيرا وكبيرا والله تعالى اعلم

سورة الزمر مكية وهى سبعون آية بسم الله الرحمن الرحيم

تنزيل الكتاب خبر لمبتدأ محذوف هو اسم اشارة اشير به الى السورة تنزيلا لها منزلة الحاضر المشار اليه لكونها على شرف الذكر والحضور كما مر مرارا وقد قيل هو ضمير عائد الى الذكر فى قوله تعالى ان هو الا ذكر للعالمين وقوله تعالى من الله العزيز الحكيم صلة للتنزيل او خبر ثان او حال من التنزيل عاملها معنى الاشارة او من الكتاب الذى هو مفعول معنى عاملها المضاف وقيل هو خبر لتنزيل الكتاب والوجه الاول اوفى بمقتضى المقام الذى هو بيان شأن السورة او القرآن تنزيل الكتاب من الله تعالى لا بيان ان تنزيل الكتاب منه تعالى لا من غيره كما يفيده الوجه الاخير وقد قرئ تنزيل الكتاب بالنصب على اضمار فعل نحو اقرأ او الزم والتعرض لوصفى العزة والحكمة للايذان بظهور اثريهما فى الكتاب بجريان احكامه ونفاذ اوامره ونواهيه من غير مدافع ولا ممانع وبابتناء جميع ما فيه على اساس الحكم الباهرة وقوله تعالى انا انزلنا اليك الكتاب بالحق شروع فى بيان شأن المنزل اليه وما يجب عليه اثر بيان شأن المنزل وكونه من عند الله تعالى والمراد بالكتاب هو القرآن واظهاره على تقدير كونه هو المراد بالاول ايضا لتعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنه والباء اما متعلقة بالانزال اى بسبب الحق واثباته واظهاره او بداعية الحق واقتضائه للانزال واما بمحذوف هو حال من نون العظمة او من الكتاب اى انزلناه اليك محقين فى ذلك او انزلناه ملتبسا بالحق والصواب اى كل ما فيه حق لا ريب فيه موجب للعمل به حتما والفاء فى قوله تعالى فاعبد الله مخلصا له الدين لترتيب الامر بالعبادة على انزال الكتاب اليه عليه السلام بالحق اى فاعبده تعالى مخلصا له الدين من شوائب الشرك والرياء حسبما بين فى تضاعيف ما انزل اليك وقرئ برفع الدين على انه مبتدأ خبره الظرف المقدم عليه لتأكيد الاختصاص المستفاد من اللام والجملة استئناف وقع تعليلا للامر باخلاص العبادة وقوله تعالى الا لله الدين الخالص استئناف مقرر لما قبله من الامر باخلاص الدين له تعالى ووجوب الامتثال به وعلى القراءة الاخيرة مؤكد لاختصاص الدين به تعالى اى الا هو الذى يجب ان يخص باخلاص الطاعة له لانه المتفرد بصفات الالوهية التى من جملتها الاطلاع على السرائر والضمائر وقوله تعالى والذين اتخذوا من دونه اولياء الخ تحقيق لحقية ما ذكر من اخلاص الدين الذى هو عبارة عن التوحيد ببيان بطلان الشرك الذى هو عبارة عن ترك اخلاصه والموصول عبارة عن المشركين ومحله الرفع على الابتداء خبره ما سيأتى من الجملة المصدرة بان والاولياء عن الملائكة وعيسى عليهم السلام والاصنام وقوله تعالى ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى حال بتقدير القول من واو اتخذوا مبينة لكيفية اشراكهم وعدم خلوص دينهم والاستثناء مفرغ من اعم العلل وزلفى مصدر مؤكد على غير لفظ المصدر ملاق له فى المعنى اى والذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى بل شابوها بعبادة غيره قائلين ما نعبدهم لشئ من الاشياء الا ليقربونا الى الله تعالى تقريبا ان الله يحكم بينهم اى وبين خصمائهم الذين هم المخلصون للدين وقد حذف لدلالة الحال عليه كما فى قوله تعالى لا نفرق بين احد من رسله على احد الوجهين اى بين احد منهم وبين غيره وعليه قول النابغة فما كان بين الخير لو جاء سالما ابو حجر الا ليال قلائل اى بين الخير وبينى وقيل ضمير بينهم للفريقين جميعا فيما هم فيه يختلفون من الدين الذى اختلفوا فيه بالتوحيد والاشراك وادعى كل فريق صحة ما انتحله وحكمه تعالى فى ذلك ادخال الموحدين الجنة

والمشركين

والمشركين النار فالضمير للفريقين هذا هو الذى يستدعيه مساق النظم الكريم واما تجويز ان يكون الموصول عبارة عن المعبودين على حذف العائد اليه والمشركين من غير ذكر تعويلا على دلالة المساق عليهم ويكون التقدير والذين اتخذهم المشركون اولياء قائلين ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله تعالى ان الله يحكم بينهم اى بين العبدة والمعبودين فيما هم فيه يختلفون حيث يرجو العبدة شفاعتهم وهم يلعنونهم فبمعزل من السداد كيف لا وليس فيما ذكر من طلب الشفاعة واللعن مادة تختلف فيها الفريقان اختلافا محوجا الى الحكم والفصل وانما ذلك ما بين فريقى الموحدين والمشركين فى الدنيا من الاختلاف فى الدين الباقى الى يوم القيمة وقرئ قالوا ما نعبدهم فهو بدل من الصلة لا خبر للموصول كما قيل اذ ليس فى الاخبار بذلك مزيد مزية وقرئ ما نعبدكم الا لتقربونا حكاية لما خاطبوا به آلهتهم وقرئ نعبدهم اتباعا للباء ان الله لا يهدى اى لا يوفق للاهتداء الى الحق الذى هو طريق النجاة عن المكروه والفوز بالمطلوب من هو كاذب كفار اى راسخ فى الكذب مبالغ فى الكفر كما يعرب عنه قراءة كذاب وكذوب فانهما فاقدان للبصيرة غير قابلين للاهتداء لتغييرهما الفطرة الاصلية بالتمرن فى الضلالة والتمادى فى الغى والجملة تعليل لما ذكر من حكمه تعالى لو اراد الله ان يتخذ ولدا الخ استئناف مسوق لتحقيق الحق وابطال القول بان الملائكة بنات الله وعيسى ابنه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ببيان استحالة اتخاذ الولد فى حقه تعالى على الاطلاق ليندرج فيه استحالة ما قيل اندراجا اوليا اى لو اراد الله تعالى ان يتخذ ولدا لاصطفى اى لاتخذ مما يخلق اى من جملة ما يخلقه او من ما يخلقه ما يشاء ان يتخذه اذ لا موجود سواه الا وهو مخلوق له تعالى لامتناع تعدد الواجب ووجوب استناد جميع ما عداه اليه ومن البين ان اتخاذ الولد منوط بالمماثلة بين المتخذ والمتخذ وان المخلوق لا يماثل خالقه حتى يمكن اتخاذه ولدا فما فرضناه اتخاذ ولد لم يكن اتخاذ ولد بل اصطفاء عبد واليه اشير حيث وضع الاصطفاء موضع الاتخاذ الذى يقتضيه الشرطية تنبيها على استحالة مقدمها لاستلزام فرض وقوعه بل فرض ارادته وقوع انتفائه اى لو اراد الله تعالى ان يتخذ ولدا لفعل شيئا ليس هو من اتخاذ الولد فى شئ اصلا بل انما هو اصطفاء عبد ولا ريب فى ان ما يستلزم فرض وقوعه انتفاءه فهو ممتنع قطعا فكأنه قيل لو اراد الله ان يتخذ ولدا لامتنع ولم يصح لكن لا على ان الامتناع منوط بتحقق الارادة بل على انها متحقق عند عدمها بطريق الاولوية على منوال لو لم يخف الله لم يعصه وقوله تعالى سبحانه تقرير لما ذكر من استحالة اتخاذ الولد فى حقه تعالى وتأكيد له ببيان تنزهه تعالى عنه اى تنزه بالذات عن ذلك تنزهه الخاص به على ان السبحان مصدر من سبح اذا بعد او اسبحه تسبيحا لائقا به على انه علم للتسبيح مقول على السنة العباد او سبحوه تسبيحا حقيقا بشأنه وقوله تعالى هو الله الواحد القهار استئناف مبين لتنزهه بحسب الصفات اثر بيان تنزهه تعالى عنه بحسب الذات فان صفة الالوهية المستتبعة لسائر صفات الكمال النافية لسمات النقصان والوحدة الذاتية الموجبة لامتناع المماثلة والمشاركة بينه تعالى وبين غيره على الاطلاق مما يقضى بتنزهه تعالى عما قالوا قضاء متقنا وكذا وصف القهارية لما ان اتخاذ الولد شأن من يكون تحت ملكوت الغير عرضة للفناء ليقوم ولده مقامه عند فنائه ومن هو مستحيل الفناء قهار لكل الكائنات كيف يتصور ان يتخذ من الاشياء الفانية ما يقوم مقامه وقوله تعالى خلق السموات والارض بالحق تفصيل لبعض افعاله تعالى الدالة على تفرده تعالى بما ذكر من الصفات الجليلة اى خلقهما وما بينهما من الموجودات ملتبسة بالحق والصواب مشتملة على الحكم والمصالح وقوله تعالى يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل بيان لكيفية تصرفه تعالى فيهما بعد بيان خلقهما فان حدوث الليل والنهار فى الارض منوط بتحريك السموات اى يغشى كل واحد منهما الآخر كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللابس او يغيبه به كما يغيب الملفوف باللفافة او يجعله كارا عليه كرورا متتابعا تتابع اكوار

العمامة وصيغة المضارع للدلالة على التجدد وسخر الشمس والقمر جعلهما منقادين لامره
تعالى وقوله تعالى كل يجرى لاجل مسمى بيان لكيفية تسخيرهما اى كل منهما يجرى لمنتهى دورته
او منقطع حركته وقد مر تفصيله غير مرة الا هو العزيز الغالب القادر على كل شئ
من الاشياء التى من جملتها عقاب العصاة الغفار المبالغ فى المغفرة ولذلك لا يعاجل
بالعقوبة وسلب ما فى هذه الصنائع البديعة من آثار الرحمة وتصدير الجملة بحرف
التنبيه لاظهار كمال الاعتناء بمضمونها خلقكم من نفس واحدة بيان لبعض آخر
من افعاله الدالة على ما ذكر وترك عطفه على خلق السموات للايذان باستقلاله فى الدلالة
ولتعلقه بالعالم السفلى والبداية بخلق الانسان لعراقته فى الدلالة لما فيه من تعاجيب
آثار القدرة واسرار الحكمة واصالته فى المعرفة فان الانسان بحال نفسه اعرف والمراد
بالنفس نفس آدم عليه السلام وقوله تعالى ثم جعل منها زوجها عطف على محذوف
هو صفة لنفس اى من نفس خلقها ثم جعل منها زوجها او على معنى واحدة اى من نفس
وحدت ثم جعل منها زوجها فشفعها او على خلقكم لتفاوت ما بينهما فى الدلالة فانهما
وان كانتا آيتين دالتين على ما ذكر لكن الاولى لاستمرارها صارت معتادة واما الثانية
فحيث لم تكن معتادة خارجة عن قياس الاولى كما يشعر به التعبير عنه بالجعل دون الخلق
كانت ادخل فى كونها آية واجلب للتعجب من السامع فعطفت على الاولى بثم دلالة على
مباينتها لها فضلا ومزية وتراخيها عنها فيما يرجع الى زيادة كونها آية فهو من
التراخى فى الحال والمنزلة وقيل اخرج ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق منه حواء
ففيه ثلث آيات مترتبة خلق آدم عليه السلام بلا اب وام وخلق حواء من قصيراه
ثم تشعب الخلق الفائت للحصر منهما وقوله تعالى وانزل لكم بيان لبعض آخر من
افعاله الدالة على ما ذكر اى قضى او قسم لكم فان قضاياه وقسمه توصف بالنزول
من السماء حيث تكتب فى اللوح المحفوظ او احدث لكم باسباب نازلة من السماء كالامطار
واشعة الكواكب من الانعام ثمانية ازواج ذكرا وانثى هى الابل والبقر والضأن
والمعز وقيل خلقها فى الجنة ثم انزلها وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مرارا
من الاعتناء بما قدم والتشويق الى ما اخر فان كون الانزال لمنافعهم وكونه من الجهة
العالية من الامور المهمة المشوقة الى ما انزل لا محالة وقوله تعالى يخلقكم فى
بطون امهاتكم استيناف مسوق لبيان كيفية خلقهم واطواره المختلفة الدالة على القدرة
الباهرة وصيغة المضارع للدلالة على التدرج والتجدد وقوله تعالى خلقا من بعد خلق
مصدر مؤكد اى يخلقكم فيها خلقا كائنا من بعد خلق مدرجا حيوانا سويا من بعد
عظام مكسوة لحما من عظام عارية من بعد مضغة مخلقة من بعد مضغة غير مخلقة
من بعد علقة من بعد نطفة فى ظلمات ثلث متعلق بيخلقكم وهى ظلمة البطن
وظلمة الرحم وظلمة المشيمة او ظلمة الصلب والبطن والرحم ذلكم اشارة اليه تعالى
باعتبار افعاله المذكورة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته تعالى فى العظمة والكبرياء
ومحله الرفع على الابتداء اى ذلكم العظيم الشان الذى عددت افعاله الله وقوله تعالى
ربكم خبر آخر اى مربيكم فيما ذكر من الاطوار وفيما بعدها ومالككم المستحق لتخصيص
العبادة به له الملك على الاطلاق فى الدنيا والآخرة ليس لغيره شركة فى ذلك بوجه من
الوجوه والجملة خبر آخر وكذا قوله تعالى لا اله الا هو والفاء فى قوله تعالى فانى تصرفون
لترتيب ما بعدها على ما ذكر من شؤونه تعالى اى فكيف تصرفون عن عبادته تعالى مع وفور
موجباتها ودواعيها وانتفاء الصارف عنها بالكلية الى عبادة غيره من غير داع اليها
مع كثرة الصوارف عنها ان تكفروا به تعالى بعد مشاهدة ما ذكر من فنون نعمائه ومعرفة
شؤونه العظيمة الموجبة للايمان والشكر فان الله غنى عنكم اى فاعلموا انه تعالى غنى
عن ايمانكم وشكركم غير متأثر من انتفائهما ولا يرضى لعباده الكفر اى عدم رضاه بكفر
عباده لاجل منفعتهم ودفع مضرتهم رحمة عليهم لا لتضرره تعالى به وان تشكروا يرضه لكم اى
يرض الشكر لاجلكم ومنفعتكم لانه سبب لفوزكم بسعادة الدارين لا لانتفاعه تعالى وانما قيل

لعباده لا لكم لتعميم الحكم وتعليله بكونهم عباده تعالى وقرئ باسكان الهاء ولا تزر وازرة
وزر اخرى بيان لعدم سراية كفر الكافر الى غيره اصلا اى لا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس اخرى
ثم الى ربكم مرجعكم بالبعث بعد الموت فينبئكم عند ذلك بما كنتم تعملون اى كنتم تعملونه
فى الدنيا من اعمال الكفر والايمان اى يجازيكم بذلك ثوابا وعقابا انه عليم بذات
الصدور اى بمضمرات القلوب فكيف بالاعمال الظاهرة وهو تعليل للتنبئة واذا مس الانسان
ضر من مرض وغيره دعا ربه منيبا اليه راجعا اليه مما كان يدعو فى حالة الرخاء لعلمه
بانه بمعزل من القدرة على كشف ضره وهذا وصف للجنس بحال بعض افراده كقوله تعالى
ان الانسان لظلوم كفار ثم اذا خوله نعمة منه اى اعطاه نعمة عظيمة من جنابه تعالى من التخول
وهو التعهد اى جعله خائل مال من قولهم فلان خائل مال اذا كان متعهدا له حسن القيام به
او من الخول وهو الافتخار اى جعله يختال ويفتخر نسى ما كان يدعو اليه اى نسى
الضر الذى كان يدعو الله تعالى فيما سبق الى كشفه من قبل اى من قبل التخويل او نسى
ربه الذى كان يدعوه ويتضرع اليه اما بناء على ان ما بمعنى من كما فى قوله تعالى وما خلق الذكر
والانثى وقوله تعالى ولا انتم عابدون ما اعبد واما ايذانا بان نسيانه بلغ الى حيث
لا يعرف مدعوه ما هو فضلا من ان يعرفه من هو كما مر فى قوله تعالى عما ارضعت وجعل
لله اندادا شركاء فى العبادة ليضل الناس بذلك عن سبيله الذى هو التوحيد و
قرئ ليضل بفتح الياء اى ليزداد ضلالا او يثبت عليه والا فاصل الضلال غير متأخر عن
الجعل المذكور واللام لام العاقبة كما فى قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا
خلا ان هذا اقرب الى الحقيقة لان الجاعل ههنا قاصد بجعله المذكور حقيقة الاضلال
والضلال وان لم يعرف لجهله انهما اضلال وضلال واما آل فرعون فهم غير قاصدين
بالتقاطهم العداوة اصلا قل تهديدا لذلك الضال المضل وبيانا لحاله ومآله تمتع
بكفرك قليلا اى تمتعا قليلا او زمانا قليلا انك من اصحاب النار اى من ملازميها
والمعذبين فيها على الدوام وهو تعليل لقلة التمتع وفيه من الاقناط من النجاة ما لا يخفى
كانه قيل اذ قد ابيت قبول ما امرت به من الايمان والطاعة فمن حقك ان تؤمر بتركه
لتذوق عقوبته امن هو قانت آناء الليل الخ من تمام الكلام المأمور به وام اما
متصلة قد حذف معادلها ثقة بدلالة مساق الكلام عليه كانه قيل له تأكيدا للتهديد
وتهكما به انت احسن حالا ومآلا ام من هو قائم بمواجب الطاعات ودائم على اداء
وظائف العبادات فى ساعات الليل حالتى السراء والضراء لا عند مساس الضر فقط كدابك
حال كونه ساجدا وقائما اى جامعا بين الوصفين المحمودين وتقديم السجود على القيام لكونه
ادخل فى معنى العبادة وقرئ كلاهما بالرفع على انه خبر بعد خبر يحذر الآخرة حال اخرى
على التداخل او الترادف او استيناف وقع جوابا عما نشأ من حكاية حاله من القنوت والسجود
والقيام كانه قيل ما باله يفعل ذلك فقيل يحذر عذاب الآخرة ويرجو رحمة ربه فينجو
بذلك مما يحذره ويفوز بما يرجوه كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن
التبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضمير الراجى لا انه يحذر ضر الدنيا ويرجو خيرها فقط واما
منقطعة وما فيها من الاضراب للانتقال من التهديد الى التبكيت بتكليف الجواب الملجئ الى الاعتراف
بما بينهما من التباين البين كانه قيل بل امن هو قانت الخ افضل امن هو كافر مثلك كما هو
المعنى على قراءة التخفيف قل بيانا للحق وتنبيها على شرف العلم والعمل هل يستوى الذين يعلمون
حقائق الاحوال فيعملون بموجب علمهم كالقانت المذكور والذين لا يعلمون اى ما ذكر او
شيئا فيعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم كدأبك والاستفهام للتنبيه على ان كون الاولين
فى اعلى معارج الخير وكون الآخرين فى اقصى مدارج الشر من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على
احد من منصف ومكابر وقيل هو وارد على سبيل التشبيه اى كما لا يستوى العالمون والجاهلون
لا يستوى القانتون والعاصون وقوله تعالى انما يتذكر اولوا الالباب كلام مستقل غير داخل فى
الكلام المأمور به وارد من جهته تعالى بعد الامر بما ذكر من القوارع الزاجرة عن الكفر والمعاصى لبيان
عدم تأثيرها فى قلوب الكفرة لاختلال عقولهم كما فى قول من قال عوجوا لخيق النعمى دمنة الدار

ماذا يحيون من نوى واحجار اى اغا يتعظ بهذه البيانات الواضحة اصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وهؤلاء بعزل من ذلك وقرئ انما يذكر بالادغام قل يا عبادى الذين امنوا اتقوا ربكم امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتذكير المؤمنين وحملهم على التقوى والطاعة اثر تخصيص التذكر باولى الالباب ايذانا بانهم هم كما سيصرح به اي قل لهم قولى هذا بعينه تشريف لهم باضافتهم الى ضمير الجلالة ومزيد اعتناء بشان المامور فان نقل عين امر الله تعالى ادخل فى ايجاب الامتثال به وقوله تعالى للذين احسنوا تعليل للامر او لوجوب الامتثال به وايراد الاحسان فى حيز الصلة دون التقوى للايذان بانه من باب الاحسان وانهما متلازمان وكذا الصبر كما مر فى قوله تعالى ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وفى قوله تعالى انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين وقوله تعالى فى هذه الدنيا متعلق باحسنوا اى عملوا الاعمال الحسنة فى هذه الدنيا على وجه الاخلاص وهو الذى عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الاحسان بقوله عليه السلام ان تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك حسنة اى حسنة عظيمة لا يكتنه كنهها وهى الجنة وقيل هو متعلق بحسنة على انه بيان لمكانها او حال من ضميرها فى الظرف فالمراد بها حينئذ الصحة والعافية وارض الله واسعة فمن تعسر عليه التوفر على التقوى والاحسان فى وطنه فليهاجر الى حيث يتمكن فيه من ذلك كما هو سنة الانبياء والصالحين فانه لا عذر له فى التفريط اصلا وقوله تعالى انما يوفى الصابرون الخ ترغيب فى التقوى المامور به وايثار الصابرين على المتقين للايذان بانهم حائزون لفضيلة الصبر كحيازتهم لفضيلة الاحسان لما اشير اليه من استلزام التقوى لهما مع ما فيه من زيادة حث على المصابرة والمجاهدة فى تحمل مشاق المهاجرة ومتاعبها اى انما يوفى الذين صبروا على دينهم وحافظوا على حدوده ولم يفرطوا فى مراعاة حقوقه لما اعتراهم فى ذلك من فنون الالام والبلايا التى من جملتها مهاجرة الاهل ومفارقة الاوطان اجرهم بمقابلة ما كابدوا من الصبر بغير حساب بحيث لا يحصى ولا يحصر عن ابن عباس رضى الله عنهما لا يهتدى اليه حساب الحساب ولا يعرف وفى الحديث انه ينصب الموازين يوم القيمة لاهل الصلوة والصدقة والحج فيوفون بها اجورهم ولا تنصب لاهل البلاء بل يصب عليهم الاجر صبا حتى يتمنى اهل العافية فى الدنيا ان اجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به اهل البلاء من الفضل قل انى امرت ان اعبد الله مخلصا له الدين اى من كل ما ينافيه من الشرك والريا وغير ذلك امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان ما امر به نفسه من الاخلاص فى عبادة الله تعالى الذى هو عبارة عما امر به المؤمنون من التقوى مبالغة فى حثهم على الاتيان بما كلفوه وتمهيدا لما يعقبه مما خوطب به المشركون وامرت لان اكون اول المسلمين اى وامرت بذلك لاجل ان اكون مقدمهم فى الدنيا والاخرة لان احراز قصب السبق فى الدين بالاخلاص فيه والعطف لمغايرة الثانى الاول بتقييده بالعلة والاشعار بان العبادة المذكورة كما يقتضى الامر بها لذاتها يقتضيه لما يلزمها من السبق فى الدين ويجوز ان تجعل اللام مزيدة كما فى اردت لان اقوم بدليل قوله تعالى وامرت ان اكون اول من اسلم فالمعنى وامرت ان اكون اول من اسلم من اهل زمانى او من قومى او اكون اول من دعا غيره الى ما دعا اليه نفسه قل انى اخاف ان عصيت ربى بترك الاخلاص والميل الى ما انتم عليه من الشرك عذاب يوم عظيم هو يوم القيمة وصف بالعظمة لعظمة ما فيه من الدواهى والاهوال قل الله اعبد لا غيره لا استقلالا ولا اشتراكا مخلصا له دينى من كل شوب امر عليه السلام او لا ببيان كونه مامورا بعبادة الله تعالى واخلاص الدين له ثم بالاخبار بخوفه من العذاب على تقدير العصيان ثم بالاخبار بامتثاله بالامر على ابلغ وجه واكده اظهارا لتصلبه فى الدين وحسما لاطماعهم الفارغة وتمهيدا لتهديدهم بقوله تعالى فاعبدوا ما شئتم ان تعبدوه من دونه تعالى وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم ما لا يخفى كانهم لما لم ينتهوا عما نهوا عنه امروا به كى يحل بهم العقاب قل ان

الخاسرين اى الكاملين فى الخسران الذى هو عبارة عن اضاعة ما يهمه واتلاف ما لا بد منه الذين خسروا انفسهم واهليهم باختيارهم الكفر لهما اى اضاعوهما واتلفوهما يوم القيمة حين يدخلون النار حيث عرضوهما للعذاب السرمدى واوقعوهما فى هلكة لا هلكة وراءها وقيل خسروا اهليهم لانهم ان كانوا من اهل النار فقد خسروهم كما خسروا انفسهم وان كانوا من اهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لا اياب بعده وفيه ان المحذور ذهاب ما لو آب لانتفع به الخاسر وذلك غير متصور فى الشق الاخير وقيل خسروهم لانهم لم يدخلوا مدخل الذين لهم اهل فى الجنة وخسروا اهليهم الذين كانوا يتمتعون بهم لو امنوا وايا ما كان فليس المراد مجرد تعريف الكاملين فى الخسران بما ذكر بل بيان انهم هم اما بجعل الموصول عبارة عنهم وعما هم مندرجون فيه اندراجا اوليا وما فى قوله تعالى الا ذلك هو الخسران المبين من استيناف الجملة وتصديرها بحرف التنبيه والاشارة بذلك الى بعد منزلة المشار اليه فى الشر وتوسيط ضمير الفصل وتعريف الخسران ووصفه بالمبين من الدلالة على كمال هوله وفظاعته وانه لا خسران وراءه ما لا يخفى وقوله تعالى لهم من فوقهم ظلل من النار الخ نوع بيان لخسرانهم بعد تهويله بطريق الابهام على ان لهم خبر لظلل ومن فوقهم متعلق بمحذوف هو حال من ظلل والاظهر انه حال من الضمير فى الظرف المقدم ومن النار صفة لظلل اى لهم كائنة من فوقهم ظلل كثيرة متراكبة بعضها فوق بعض كائنة من النار ومن تحتهم ايضا ظلل اى اطباق كثيرة بعضها تحت بعض ظلل للاخرين بل لهم عند ترديهم فى دركاتها ذلك العذاب المنقطع اى الفظيع هو الذى يخوف الله عباده ويحذرهم اياه بآيات الوعيد ليجتنبوا ما يوقعهم فيه يا عبادى فاتقون ولا تتعرضوا لما يوجب سخطى وهذه عظة من الله بالغة منطوية على غاية اللطف والمرحمة وقرئ يا عبادى والذين اجتنبوا الطاغوت اى البالغ اقصى غاية الطغيان فعلوت منه بتقديم اللام على العين بنى للمبالغة فى المصدر كالرحموت والعظموت ثم وصف به للمبالغة فى النعت والمراد هو الشيطان ان يعبدوها بدل الاشتمال منه فان عبادة غير الله تعالى عبادة للشيطان اذ هو الامر بها والمزين لها وانابوا الى الله واقبلوا اليه معرضين عما سواه اقبالا كليا لهم البشرى بالثواب على السنة الرسل او الملئكة عند حضور الموت وحين يحشرون وبعد ذلك فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه هم الموصوفون بالاجتناب والانابة باعيانهم لكن وضع موضع ضميرهم الظاهر تشريفا لهم بالاضافة ودلالة على ان مدار اتصافهم بالوصفين الجليلين كونهم نقادا فى الدين يميزون الحق من الباطل ويؤثرون الافضل فالافضل اولئك اشارة اليهم باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجليلة وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل ومحله الرفع على الابتداء خبره بما بعده من الموصول اى اولئك المنعوتون بالمحاسن الجميلة الذين هداهم الله لدينه للدين الحق واولئك هم اولوا الالباب اى هم اصحاب العقول السليمة عن معارضة الوهم ومنازعة الهوى المستحقون للهداية لا غيرهم وفيه دلالة على ان الهداية يحصل بفعل الله تعالى وقبول النفس افمن حق عليه كلمة العذاب افانت تنقذ من فى النار بيان لاحوال الاضداد المذكورين على طريقة الاجمال وتسجيل عليهم بحرمان الهداية وهم عبدة الطاغوت ومتبعوا خطواتها كما يلوح به التعبير عن حق عليه كلمة العذاب فان المراد بها قوله تعالى لابليس لاملأن جهنم الخ وقوله لمن تبعك منهم لاملأن جهنم منكم اجمعين واصل الكلام امن حق عليه العذاب افانت تنقذه على انها شرطية دخل عليها الهمزة لانكار مضمونها ثم الفاء لعطفها على جملة مستتبعة لها مقدرة بعد الهمزة ليتعلق الانكار والنفى بمضمونيهما معا اى اانت مالك امر الناس فمن حق عليه كلمة العذاب فانت تنقذه ثم كررت الهمزة فى الجزاء لتاكيد الانكار وتذكيره لما طال الكلام ثم وضع موضع الضمير من فى النار لمزيد تشديد الانكار والاستبعاد والتنبيه على ان المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقع فى النار وان اجتهاده عليه السلام فى دعائهم الى الايمان سعى فى انقاذهم من النار ويجوز ان يكون الجزاء محذوفا وقوله تعالى افانت الخ

جملة مستقلة مسوقة لتقرير مضمون الجملة السابقة وتعيين ما حذف منها وتشديد
الانكار بتنزيل من استحق العذاب منزلة من دخل النار وتصوير الاجتهاد في
دعائه الى الايمان بصورة الانقاذ من النار كانه قيل أي لا فمن حق عليه العذاب
فانت تخلصه منه ثم شدد التنكير فقيل افانت تنقذ من في النار وفيه تلويح بانه تعالى
هو الذي يقدر على الانقاذ لا غير وحيث كان المراد بمن في النار الذين قيل في حقهم لهم
من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل استدرك عنهم بقوله تعالى لكن الذين اتقوا ربهم
لهم غرف من فوقها غرف وهم الذين خوطبوا بقوله تعالى يا عباد فاتقون ووصفوا
بما عدد من الصفات الفاضلة وهم المخاطبون ايضا فيما سبق بقوله تعالى يا عبادي الذين
آمنوا اتقوا ربكم الآية وبين ان لهم درجات عالية في جنات النعيم بمقابلة ما للكفرة
من دركات سافلة في الجحيم اي لهم علالي بعضها فوق بعض مبنية بناء المنازل المبنية
المؤسسة على الارض في الرصانة والاحكام تجري من تحتها من تحت تلك الغرف الانهار
وعد الله مصدر مؤكد لقوله تعالى لهم غرف الخ فانه وعد واي وعد لا يخلف الله
الميعاد لاستحالته عليه سبحانه الم تر ان الله انزل من السماء ماء استيناف وارد
اما لتمثيل الحيوة الدنيا في سرعة الزوال وقرب الاضمحلال بما ذكر من احوال الزرع ترغيبا
عن زخارفها وزينتها وتحذيرا من الاغترار ببهجتها كما في نظائر قوله تعالى انما مثل
الحيوة الدنيا الآية او للاستشهاد على تحقق الموعود من الانهار الجارية من تحت الغرف
بما يشاهد من انزال الماء من السماء وما يترتب عليه من آثار قدرته تعالى واحكام حكمته
ورحمته والمراد بالماء المطر وقيل كل ماء في الارض فهو من السماء ينزل منها الى الصخرة
ثم يقسمه الله تعالى بين البقاع فسلكه فادخله ونظمه ينابيع في الارض اي عيونا
ومجاري كالعروق في الاجساد وقيل مياها نابعة فيها فان الينبوع يطلق على المنبع
والنابع فنصبها على الحال وعلى الاول بنزع الجار اي في ينابيع ثم يخرج به زرعا مختلفا
الوانه اصنافه من بر وشعير وغيرهما او كيفياته من الالوان والطعوم وغيرهما وكلمة
ثم للتراخي في الرتبة او الزمان وصيغة المضارع لاستحضار الصورة ثم يهيج اي يتم
جفافه ويشرف على ان يثور من منابته فتراه مصفرا من بعد خضرته ونضرته و
قرئ مصفارا ثم يجعله حطاما فتاتا متكسرة كان لم يغن بالامس ولكون هذه
الحالة من الآثار القوية علقت بجعل الله تعالى كالاخراج ان في ذلك اشارة الى ما ذكر
تفصيلا وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته في الغرابة والدلالة على ما قصد
بيانه لذكرى لتذكيرا عظيما لاولي الالباب لاصحاب العقول الخالصة عن شوائب
الخلل وتنبيها لهم على حقيقة الحال يتذكرون بذلك ان حال الحيوة الدنيا في
سرعة التقضي والانصرام كما يشاهدونه من حال الحطام في كل عام فلا يغترون ببهجتها
ولا يفتتنون بفتنتها او يجزمون بان من قدر على انزال الماء من السماء واجرائه في
ينابيع الارض قادر على اجراء الانهار من تحت الغرف هذا واما ما قيل ان في ذلك لتذكيرا
وتنبيها على انه لا بد من صانع حكيم وانه كائن عن تقدير وتدبير لا عن تعطيل واهمال فبمعزل
من تفسير الآية الكريمة وانما يليق ذلك بما لو ذكر من الآثار الجليلة والافعال الجميلة من غير
اسناد لها الى مؤثر ما وحيث ذكرت مسندة الى الله عز وجل تعين ان يكون متعلق التذكير
والتنبيه شؤونه تعالى وشؤون آثاره حسبما بين لا وجوده تعالى وقوله تعالى افمن شرح الله صدره
للاسلام الخ استيناف جار مجرى التعليل لما قبله من تخصيص الذكرى باولي الالباب وشرح
الصدر للاسلام عبارة عن تكميل الاستعداد له فانه محل للقلب الذي هو منبع للروح
التي تتعلق بها النفس القابلة للاسلام فانشراحه مستدع لاتساع القلب واستضاءته بنوره
فانه روي انه عليه السلام قال اذا دخل النور القلب انشرح وانفسح فقيل فما علامة
ذلك قال عليه السلام الانابة الى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتاهب للموت
قبل نزوله والكلام في الهمزة والفاء كالذي مر في قوله تعالى افمن حق عليه كلمة و
خبر من محذوف لدلالة ما بعده عليه والتقدير اكل الناس سواء فمن شرح الله صدره اي خلقه

متسع

متسع الصدر مستعدا للاسلام فبقي على الفطرة الاصلية ولم يتغير بالعوارض المكتسبة
القادحة فيها فهو بموجب ذلك مستقر على نور عظيم من ربه وهو اللطف الالهي
الفائض عليه عند مشاهدة الآيات التكوينية والتنزيلية والتوفيق للاهتداء بها الى
الحق كمن قسا قلبه وحرج صدره بسبب تبديل فطرة الله بسوء اختياره واستولت عليه ظلمات
الغي والضلالة فاعرض عن تلك الآيات بالكلية حتى لا يتذكر بها ولا يغتنمها فويل للقاسية
قلوبهم من ذكر الله اي من اجل ذكره الذي حقه ان تنشرح له الصدور وتطمئن به
القلوب اي اذا ذكر الله تعالى عندهم او آياته اشمأزوا من اجله وازدادت قلوبهم
قساوة كقوله تعالى فزادتهم رجسا وقرئ عن ذكر الله اي عن قبوله اولئك البعداء الموصوفون
بما ذكر من قساوة القلوب في ضلال بعيد عن الحق مبين ظاهر كونه ضلالا لكل احد قيل
نزلت الآية في حمزة وعلي رضي الله عنهما وابي لهب وولده وقيل في عمار بن ياسر رضي
الله عنهم وابي جهل وذويه الله نزل احسن الحديث هو القرآن الكريم روي
ان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوا ملة فقالوا له عليه السلام حدثنا حديثا
وعن ابن مسعود وابن عباس قالوا لو حدثتنا فنزلت والمعنى ان فيه مندوحة عن
سائر الاحاديث وفي ايقاع الاسم الجليل مبتدأ وبناء نزل عليه من تفخيم احسن الحديث
ورفع محله والاستشهاد على حسنه وتاكيد استناده اليه تعالى وانه من عنده لا يمكن
صدوره عن غيره والتنبيه على انه وحي معجز ما لا يخفى كتابا بدل من احسن الحديث او حال
منه سواء اكتسب من المضاف اليه تعريفا او لا فان مساغ مجيء الحال من النكرة المضافة اتفاقي
ووقوعه حالا مع كونه اسما لا صفة اما لاتصافه بقوله تعالى متشابها او لكونه في قوة
مكتوبا ومعنى كونه متشابها تشابه معانيه في الصحة والاحكام والابتناء على الحق
والصدق واستتباع منافع الخلق في المعاد والمعاش وتناسب الفاظه في الفصاحة وتجاوب
نظمه في الاعجاز مثاني صفة اخرى لكتابا او حال اخرى منه وهو جمع مثنى بمعنى مردد
ومكرر لما ثني من قصصه وانبائه واحكامه واوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه وقيل
لانه يثنى في التلاوة وقيل هو جمع مثنى مفعل من التثنية بمعنى التكرير والاعادة كما في قوله تعالى فارجع
البصر كرتين اي كرة بعد كرة ووقوعه صفة لكتابا باعتبار تفاصيله كما يقال القرآن سور
وآيات ويجوز ان ينتصب على التمييز من متشابها كما يقال رايت رجلا حسنا شمائل اي شمائله
والمعنى متشابهة مثانيه تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم قيل صفة لكتابا
او حال منه لتخصصه بالصفة والاظهر انه استيناف مسوق لبيان آثاره الظاهرة في سامعيه
بعد بيان اوصافه في نفسه ولتقرير كونه احسن الحديث والاقشعرار التقبض يقال اقشعر
الجلد اذا تقبض تقبضا شديدا وتركيبه من القشع وهو الاديم اليابس قد ضم اليه الراء
فيكون رباعيا ودالا على معنى زائد يقال اقشعر جلده وقف شعره اذا عرض له خوف شديد
من منكر هائل دهمه بغتة والمراد اما بيان افراط خشيتهم بطريق التمثيل والتصوير او بيان حصول
تلك الحالة وعروضها لهم بطريق التحقيق والمعنى انهم اذا سمعوا بالقرآن وقوارع
آيات وعيده اصابتهم هيبة وخشية تقشعر منها جلودهم واذا ذكروا رحمة
الله تعالى تبدلت خشيتهم رجاء ورهبتهم رغبة وذلك قوله تعالى ثم تلين جلودهم
وقلوبهم الى ذكر الله اي ساكنة مطمئنة الى ذكر رحمته تعالى وانما لم يصرح بها ايذانا
بانها اول ما يخطر بالبال عند ذكره تعالى ذلك اي الكتاب الذي شرح احواله هدى الله
يهدي به من يشاء ان يهديه لصرف مقدوره الى الاهتداء بتامله فيما في تضاعيفه من
شواهد الحقية ودلائل كونه من عند الله ومن يضلل اي يخلق فيه الضلال لصرف قدرته
الى مباديها واعراضه عما يرشده الى الحق بالكلية وعدم تاثره بوعيده ووعده اصلا
او ومن يخذل فما له من هاد يخلصه من ورطة الضلال وقيل ذلك الذي ذكر من الخشية
والرجاء اثر هداه تعالى يهدي بذلك الاثر من يشاء من عباده ومن يضلل اي ومن لم يؤثر
فيه لطفه لقسوة قلبه واصراره على فجوره فما له من هاد من مؤثر فيه بشيء قط افمن
يتقي بوجهه الخ استيناف جار مجرى التعليل لما قبله من تباين حالي المهتدي والضال والكلام

في الهمزة والفاء وحذف الخبر كالذي مر في نظيريه والتقدير اكل الناس سواء فمن شانه انه
يتقي نفسه بوجهه الذي هو اشرف اعضائه سوء العذاب اى العذاب السيئ الشديد يوم
القيمة لكون يده التي بها كان يتقي المكاره والمخاوف مغلولة الى عنقه كمن هو امن لا يعتريه
مكروه ولا يحتاج الى الاتقاء بوجه من الوجوه وقيل نزلت في ابي جهل وقيل للظالمين
عطف على يتقي اى ويقال لهم من جهة خزنة النار وصيغة الماضي للدلالة على التحقق
والتقرر وقيل هو حال من ضمير يتقي باضمار قد ووضع المظهر في مقام المضمر للتسجيل
عليهم بالظلم والاشعار بعلة الامر في قوله تعالى ذوقوا ما كنتم تكسبون اى وبال ما
كنتم تكسبونه في الدنيا على الدوام من الكفر والمعاصي كذب الذين من قبلهم استيناف
مسوق لبيان ما اصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوي اثر بيان ما يصيب الكل من العذاب
الاخروي اى كذب الذين من قبلهم من الامم السالفة فاتيهم العذاب المقدر لكل
امة منهم من حيث لا يشعرون من الجهة التي لا يحتسبون ولا يخطر ببالهم اتيان الشر
منها فاذاقهم الله الخزي اى الذل والصغار في الحيوة الدنيا كالمسخ والخسف
والقتل والسبي والاجلاء ونحو ذلك من فنون النكال ولعذاب الاخرة المعد لهم
اكبر لشدته وسرمديته لو كانوا يعلمون اى لو كان من شانهم ان يعلموا شيئا لعلموا
ذلك واعتبروا به ولقد ضربنا للناس في هذا القران من كل مثل يحتاج اليه الناظر في
اموردينه لعلهم يتذكرون كي يتذكروا به ويتعظوا قرانا عربيا حال مؤكدة من هذا
على ان مدار التاكيد هو الوصف كقولك جاءني زيد رجلا صالحا ومدح له غير ذي عوج
لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه فهو ابلغ من المستقيم واخص بالمعاني وقيل المراد
بالعوج الشك لعلهم يتقون علة اخرى مرتبة على الاولى ضرب الله مثلا رجلا فيه
شركاء متشاكسون ايراد لمثل من الامثال القرانية بعد بيان ان الحكمة في ضربها هو التذكر
والاتعاظ بها وتحصيل التقوى والمراد بضرب المثل ههنا تطبيق حالة عجيبة باخرى مثلها
وجعلها كما مر في سورة يس ومثلا مفعول ثان لضرب ورجلا مفعوله الاول اخر عن الثاني
للتشويق اليه وليتصل به ما هو من تتمته التي هي العمدة في التمثيل وفيه ليس بصلة للشركاء كما قيل
بل هو خبر له وبيانه في الاصل كذلك مما لا حاجة اليه والجملة في حيز النصب على انه وصفا
لرجلا والوصف هو الجار والمجرور وشركاء مرتفع به على انه الفاعلية لاعتماده على الموصوف
فالمعنى جعل الله مثلا للمشرك حسبما يقود اليه مذهبه من ادعاء كل من معبوديه عبوديته
عبدا يشارك فيه جماعة يتجاذبونه ويتعاورونه في مهمات شتى المتباينة في تحيره وتوزع
قلبه ورجلا اى وجعل للموحد مثلا رجلا سلما اى خالصا لرجل فرد ليس لغيره عليه
سبيل اصلا وقرئ سلما بفتح الشين وكسرها مع سكون اللام وكلا مصادر من سلم له كذا
اى خلص نعت بها مبالغة او حذف منها ذو وقرئ سالما وسالم اى وهناك رجل سالم و
تخصيص الرجل لانه افطن لما يجري عليه من الضر والنفع هل يستويان مثلا انكار و
استبعاد لاستوائهما ونفي له على ابلغ وجه واكده وايذان بان ذلك من الجلاء والظهور
بحيث لا يقدر احد ان يتفوه باستوائهما او يتلعثم في الحكم بتباينهما ضرورة ان احدهما في اعلى
عليين والاخر في اسفل سافلين وهو السر في ابهام الفاضل والمفضول وانتصاب مثلا على
التمييز اى هل يستوي حالاهما وصفتاهما والاقتصار في التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرئ
مثلين كقوله تعالى اكثر اموالا واولادا للاشعار باختلاف النوع اولان المراد هل يستويان
في الوصفين على ان الضمير للمثلين لان التقدير مثل رجل فيه الخ ومثل رجل الخ وقوله تعالى
الحمد لله تقرير لما قبله من نفي الاستواء بطريق الاعتراض وتنبيه للموحدين على ان ما لهم
من المزية بتوفيق الله تعالى وانها نعمة جليلة موجبة عليهم ان يداوموا على حمده و
عبادته او على انه بيانه تعالى بضرب المثل ان لهم المثل الاعلى وللمشركين مثل السوء صنع جميل
ولطف تام منه عز وجل مستوجب لحمده وعبادته وقوله تعالى بل اكثرهم لا يعلمون اضراب
وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور الى بيان ان اكثر الناس وهم المشركون لا يعلمون
ذلك مع كمال ظهوره فيبقون في ورطة الشرك والضلال وقوله تعالى انك ميت وانهم

ميتون تمهيد لما يعقبه من الاختصام يوم القيمة وقرئ مائت ومائتون وقيل كانوا يتربصون
برسول الله صلى الله عليه وسلم موته اى انكم جميعا بصدد الموت ثم انكم يوم القيمة
عند ربكم اى مالك اموركم تختصمون فتحتج عليهم انت بانك بلغتهم ما ارسلت
به من الاحكام والمواعظ التي من جملتها ما في تضاعيف هذه الايات واجتهدت
في الدعوة الى الحق حق الاجتهاد وهم قد لجوا في المكابرة والعناد وقيل المراد به الاختصام
العام الجاري في الدنيا بين الانام والاول هو الاظهر الانسب بقوله تعالى فمن اظلم
ممن كذب على الله فانه الخ مسوق لبيان حال كل من طرفي الاختصام الجاري في شان
الكفر والايمان لا غير اى اظلم من كل ظالم من افترى على الله سبحانه وتعالى بان اضاف اليه الشريك
والولد وكذب بالصدق اى بالامر الذي هو عين الحق ونفس الصدق وهو ما جاء به
النبي صلى الله عليه وسلم اذ جاءه اى في اول مجيئه من غير تدبر فيه ولا تامل اليس
في جهنم مثوى للكافرين اى لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه وسارعوا الى التكذيب
بالصدق من اول الامر والجمع باعتبار معنى من كما ان الافراد في الضمائر السابقة
باعتبار لفظها اى لجنس الكفرة وهم داخلون في الحكم دخولا اوليا والذي جاء بالصدق
الموصول عبارة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعه كما ان المراد في قوله تعالى
ولقد اتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون هو عليه السلام وقومه وقيل عن الجنس المتناول
للرسل والمؤمنين بهم ويؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه والذين جاؤا بالصدق
وصدقوا به وقيل هو صفة لموصوف محذوف هو الفوج او الفريق اولئك الموصوفون
بما ذكر من المجيء بالصدق والتصديق به هم المتقون المنعوتون بالتقوى التي هي اجل
الرغائب وقرئ وصدق به بالتخفيف اى صدق به الناس فاداه اليهم كما نزل عليه من
غير تغيير وقيل وصار صادقا به اى بسببه لان ما جاء به من القران معجزة دالة على صدقه
عليه السلام وقرئ صدق به على البناء للمفعول لهم ما يشاؤن عند ربهم بيان لما لهم
في الاخرة من حسن المآب بعد بيان ما لهم في الدنيا من محاسن الاعمال اى لهم كل ما يشاؤنه
من جلب المنافع ودفع المضار في الاخرة في الجنة فقط لما ان بعض ما يشاؤنه من تكفير
السيئات والامن من الفزع الاكبر وسائر اهوال القيمة انما يقع قبل دخول الجنة ذلك
الذي ذكر من حصول كل ما يشاؤنه جزاء المحسنين اى الذين احسنوا وقد مر في
تفسير الاحسان غير مرة وقوله تعالى ليكفر الله عنهم اسوأ الذي عملوا الخ متعلق بقوله
تعالى لهم ما يشاؤن لكن باعتبار منطوقه ضرورة ان التكفير المذكور لا يتصور
كونه غاية لثبوت ما يشاؤن لهم في الاخرة كيف لا وهو بعض ما سيثبت لهم فيها بل
باعتبار فحواه فانه حيث لم يكن اخبارا بما ثبت لهم فيما مضى بل بما سيثبت لهم فيما سياتي
كان في معنى الوعد به كما مر في قوله تعالى وعد الله فانه مصدر مؤكد لما قبله من قوله تعالى
لهم غرف من فوقها غرف فانه في معنى وعدهم الله غرفا فانتصب به وعد الله كانه قيل
وعد الله جميع ما يشاؤنه من زوال المضار وحصول المسار ليكفر عنهم بموجب ذلك
الوعد اسوأ الذي عملوا دفعا لمضارهم ويجزيهم اجرهم باحسن الذي كانوا يعملون
اعطاء لمنافعهم واظهار الاسم الجليل في موقع الاضمار لابراز كمال الاعتناء بمضمون
الكلام واضافة الاسوأ والاحسن الى ما بعدهما ليست من قبيل اضافة المفضل عليه بل
من اضافة الشيء الى بعضه للقصد الى التحقيق والتوضيح من غير اعتبار تفضيله عليه وانما
المعتبر فيهما مطلق الفضل والزيادة لا على المضاف اليه المعين بخصوصه كما في قولهم الناقص
والاشج اعدلا بني مروان هذا ان الزيادة المعتبرة فيهما ليست بطريق الحقيقة بل
هي في الاول بالنظر الى ما يليق بحالهم من استعظام سيئاتهم وان قلت واستصغار حسناتهم
وان جلت والثاني بالنظر الى لطف اكرم الاكرمين من استكثار الحسنة اليسيرة ومقابلتها
بالمثوبات الكثيرة وحمل الزيادة على الحقيقة وان امكن في الاول بناء على ان تخصيص الاسوأ
بالذكر لبيان تكفير ما دونه بطريق الاولوية ضرورة استلزام تكفير الاسوأ لتكفير السيء لكن لا
يمكن ذلك في الاحسن كان الاحسن نظمهما في سلك واحد من الاعتبار والجمع بين صيغتي الماضي

الى المفضل صح

والمستقبل في صلة الموصول الثاني دون الاول للايذان باستمرارهم على الاعمال القبيحة بخلاف
السيئة اليس الله بكاف عبده انكار ونفي لعدم كفايته تعالى على ابلغ وجه واكده كان الكفاية
من التحقق والظهور بحيث لا يقدر احد على ان يتفوه بعدمها او يتلعثم في الجواب
بوجودها والمراد بالعبد اما رسول الله صلى الله عليه وسلم او الجنس المنتظم له عليه السلام
انتظاما اوليا ويؤيده قراءة من قرا عباده وفسر بالانبياء عليهم السلام وكذا قراءة
من قرا بكافي عباده على الاضافة ويكافي عباده على صيغة المغالبة اما من الكفاية لافادة
المبالغة فيها واما من المكافاة بمعنى المجازاة وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم
عما قالت له قريش انا نخاف ان يخبلك آلهتنا ويصيبك معرتها لعيبك اياها وفي رواية قالوا
لتكفن عن شتم آلهتنا او ليصيبنك منهم خبل او جنون كما قال قوم هود ان نقول الا اعتراك
بعض آلهتنا بسوء وذلك قوله تعالى ويخوفونك بالذين من دونه اي الاوثان
التي اتخذوها آلهة من دونه تعالى والجملة استيناف وقيل حال ومن يضلل الله حتى
غفل عن كفايته وعصمته له عليه السلام وخوفه بما لا ينفع ولا يضر اصلا فما له من هاد
يهديه الى خير ما ومن يهد الله فما له من مضل يصرفه عن مقصده او يصيبه بسوء يخل
بسلوكه اذ لا راد لفعله ولا معارض لارادته كما ينطق به قوله تعالى اليس الله بعزيز غالب لا
يغالب منيع لا يمانع ولا ينازع ذي انتقام ينتقم من اعدائه لاوليائه واظهار الاسم
الجليل في موقع الاضمار لتحقيق مضمون الكلام وتربية المهابة ولئن سالتهم من خلق
السموات والارض ليقولن الله لوضوح الدليل وسنوح السبيل قل تبكيتا لهم افرايتم
ما تدعون من دون الله ان ارادني الله بضر هل هن كاشفات ضره اي بعد ما تحققتم ان
خالق العالم العلوي والسفلي هو الله عز وجل فاخبروني ان آلهتكم ان ارادني الله بضر
هل يكشفن عني ذلك الضر او ارادني برحمة اي او ان ارادني بنفع هل هن ممسكات
رحمته فيمنعنها عني وقرئ كاشفات ضره وممسكات رحمته بالتنوين فيهما ونصب ضره
ورحمته وتعليق ارادة الضر والرحمة بنفسه عليه السلام للرد في نحورهم حيث كانوا خوفوه
معرة الاوثان ولما فيه من الايذان بامحاض النصيحة قل حسبي الله اي في جميع اموري
من اصابة الخير ودفع الشر روي انه عليه السلام لما سالهم سكتوا فنزل ذلك عليه يتوكل
المتوكلون لا على غيره اصلا لعلمهم بان كل ما سواه تحت ملكوته تعالى قل يا قوم اعملوا
على مكانتكم على حالتكم التي انتم عليها من العداوة التي تمكنتم فيها فان المكانة تستعار
من العين للمعنى كما يستعار هنا وحيث للزمان مع كونهما للمكان وقرئ على مكاناتكم
اني عامل اي على مكانتي فحذف للاختصار والمبالغة في الوعيد والاشعار بان حاله لا تزال
تزداد قوة بنصر الله عز وجل وتاييده ولذلك توعدهم بكونه منصورا عليهم في الدارين
بقوله تعالى فسوف تعلمون من ياتيه عذاب يخزيه فان خزي اعدائه دليل غلبته ثم
وقد عذبهم الله واخزاهم يوم بدر ويحل عليه عذاب مقيم اي دائم هو عذاب النار
انا انزلنا عليك الكتاب للناس لاجلهم فانه مناط مصالحهم في المعاش والمعاد بالحق
حال من فاعل انزلنا او من مفعوله فمن اهتدى بان عمل بما فيه فلنفسه اي انما نفع به
نفسه ومن ضل بان لم يعمل بموجبه فانما يضل عليها لما ان وبال ضلاله مقصور عليها
وما انت عليهم بوكيل لتجبرهم على الهدى وما وظيفتك الا البلاغ وقد بلغت اي بلاغ الله
يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها اي يقبضها من الابدان بان يقطع
تعلقها عنها وتصرفها فيها اما ظاهرا وباطنا كما عند الموت او ظاهرا فقط كما عند النوم
فيمسك التي قضى عليها الموت ولا يردها الى البدن وقرئ قضي على البناء للمفعول ورفع الموت
ويرسل الاخرى اي النائمة الى بدنها عند التيقظ الى اجل مسمى هو الوقت المضروب
لموته وهو غاية لجنس الارسال الواقع بعد الامساك لا لفرد منه فان ذلك مما لا امتداد فيه
ولا كمية وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ان في ابن آدم نفسا وروحا بينهما مثل شعاع الشمس
فالنفس هي التي بها العقل والتمييز والروح هي التي بها النفس والتحرك فتتوفيان عند الموت و
تتوفى النفس وحدها عند النوم قريب مما ذكر ان في ذلك اي فيما ذكر من التوفي على

الوجهين والامساك في احدهما والارسال في الاخرى لآيات عجيبة دالة على كمال قدرته تعالى
وحكمته وشمول رحمته لقوم يتفكرون في كيفية تعلقها بالابدان وتوفيها عنها تارة
بالكلية كما عند الموت وامساكها باقية لا تفنى بفنائها وما يعتريها من السعادة والشقاوة
واخرى عن ظواهرها فقط كما عند النوم وارسالها حينا بعد حين الى انقضاء آجالها ام
اتخذوا اي بل اتخذ قريش من دون الله من دون اذنه تعالى شفعاء تشفع لهم
عنده تعالى قل اولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون الهمزة لانكار الواقع واستقباحه
والتوبيخ عليه اي قل اتتخذونهم شفعاء ولو كانوا لا يملكون شيئا من الاشياء ولا
يعقلونه فضلا عن ان يملكوا الشفاعة عند الله تعالى او هي لانكار الوقوع ونفيه على ان المراد
بيان ان ما فعلوا ليس من اتخاذ الشفعاء في شيء لانه فرع كون الاوثان شفعاء في شيء لانه فرع
كون الاوثان شفعاء وذلك اظهر المحالات فالمقدر غير ما قدر اولا وعلى اي تقدير كان
فالواو للعطف على شرطية قد حذفت لدلالة المذكورة عليها اي ايشفعون لو كانوا
يملكون شيئا ولو كانوا لا يملكون الخ وجواب لو محذوف لدلالة المذكور عليه وقد مر
تحقيقه مرارا قل بعد تبكيتهم وتجهيلهم بما ذكر تحقيقا للحق لله الشفاعة جميعا
اي هو مالكها لا يستطيع احد شفاعة ما الا ان يكون المشفوع له مرتضى والشفيع ماذونا
وكلاهما مفقود ههنا وقوله تعالى له ملك السموات والارض تقرير وتاكيد اي له ملكهما وما فيهما
من المخلوقات لا يملك احد ان يتكلم في امر من اموره بدون اذنه ورضاه ثم اليه ترجعون
يوم القيمة لا الى احد سواه لا استقلالا ولا اشتراكا فيفعل يومئذ ما يريد واذا ذكر الله
وحده دون آلهتهم اشمازت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة اي انقبضت ونفرت
كما في قوله تعالى واذا ذكرت ربك في القران وحده ولوا على ادبارهم نفورا واذا ذكر الذين
من دونه فرادى او مع ذكر الله اذا هم يستبشرون لفرط افتتانهم بها ونسيانهم
حق الله تعالى ولقد بولغ في بيان حاليهم القبيحتين بحيث بلغ الغاية فيهما فان الاستبشار
هو ان يمتلئ القلب سرورا حتى ينبسط له بشرة الوجه والاشمئزاز ان يمتلئ غيظا وغما
ينقبض منه اديم الوجه والعامل في اذا الاولى اشمازت وفي الثانية ما هو العامل في اذا
المفاجاة تقديره وقت ذكر الذين من دونه فاجؤوا وقت الاستبشار قل اللهم فاطر السموات
والارض عالم الغيب والشهادة اي التجئ اليه تعالى بالدعاء لما تحيرت في امر الدعوة وضجرت
من شدة شكيمتهم في المكابرة والعناد فانه القادر على الاشياء بجملتها والعالم بالاحوال
بالاحوال برمتها انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اي حكما يسلمه كل
مكابر معاند ويخضع له كل عات مارد وهو العذاب الدنيوي والاخروي وقوله تعالى ولو ان للذين
ظلموا ما في الارض جميعا الخ كلام مستانف مسوق لبيان آثار الحكم الذي استدعاه النبي صلعم
وغاية شدته وفظاعته اي لو ان لهم جميع ما في الدنيا من الاموال والذخائر
ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيمة اي لجعلوا كل ذلك فدية لانفسهم
من العذاب الشديد وهيهات ولات حين مناص وهذا كما ترى وعيد شديد واقناط
كلي لهم من الخلاص وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون اي ظهر لهم من فنون
العقوبات ما لم يكن في حسابهم وهذه غاية من الوعيد لا غاية وراءها ونظيره في
الوعد قوله تعالى فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة اعين وبدا لهم سيئات ما عملوا
او كسبوا حين يعرض عليهم صحائفهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن اي احاط
بهم جزاؤه فاذا مس الانسان ضر دعانا اخبار عن الجنس بما يفعله غالب افراده والفاء
لترتيب ما بعدها من المناقضة والتعكيس على ما مر من حالتيهم القبيحتين وما بينهما
اعتراض مؤكد للانكار عليهم اي انهم يشمئزون عن ذكر الله تعالى وحده ويستبشرون
بذكر الآلهة فاذا مسهم ضر دعوا من اشمازوا عن ذكره دون من استبشروا بذكره ثم اذا
خولناه نعمة منا اعطيناه اياها تفضلا فان التخويل مختص به لا يطلق على ما اعطى جزاء
قال انما اوتيته على علم اي على علم مني بوجوه كسبه او باني ساعطاه لما لي من الاستحقاق
او على علم من الله تعالى بي وباستحقاقي والهاء لما ان جعلت موصوفة والا فلنعمة والتذكير

لما ان المراد شيئا من النعمة بل هي فتنة اي محنة وابتلاء له ايشكر ام يكفر وهو رد لما قاله وتغيير
السبك للمبالغة فيه والايذان بان ذلك ليس من باب الايتاء المنبئ عن الكرامة وانما هو امر
مباين له بالكلية وتانيث الضمير باعتبار لفظ النعمة او باعتبار الخبر وقرئ بالتذكير
ولكن اكثرهم لا يعلمون ان الامر كذلك وفيه دلالة على ان المراد بالانسان هو الجنس قد قالها
الذين من قبلهم الهاء لقوله انما اوتيته على علم لانها كلمة او جملة وقرئ بالتذكير
والموصول عبارة عن قارون وقومه حيث قال انما اوتيته على علم عندي وهم راضون
به فما اغنى عنهم ما كانوا يكسبون من متاع الدنيا ويجمعون منه فاصابهم سيئات
ما كسبوا جزاء سيئات اعمالهم او اجزية ما كسبوا وتسميتها سيئات لانها في مقابلة سيئاتهم
وجزاء سيئة سيئة مثلها والذين ظلموا من هؤلاء المشركين ومن للبيان او للتبعيض اي
افرطوا في الظلم والعتو سيصيبهم سيئات ما كسبوا من الكفر والمعاصي كما اصاب
اولئك والسين للتاكيد وقد اصابهم اي اصابة حيث قحطوا سبع سنين وقتل صناديدهم
يوم بدر وما هم بمعجزين اي فائتين اولم يعلموا اي اقالوا ذلك ولم يعلموا اي اغفلوا
ولم يعلموا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء اي يبسط له ويقدر لمن يشاء ان يقدر
له من غير ان يكون لاحد مدخل ما في ذلك حيث حبس عنهم الرزق سبعا ثم بسط لهم سبعا
ان في ذلك الذي ذكر لآيات دالة على ان الحوادث كافة من الله عز وجل لقوم يؤمنون
اذ هم المستدلون بها على مدلولاتها قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم اي افرطوا
في الجناية عليها بالاسراف في المعاصي واضافة العباد تخصصه بالمؤمنين على ما هو عرف
القرآن الكريم لا تقنطوا من رحمة الله لا تيأسوا من مغفرته اولا وتفضله ثانيا ان الله
يغفر الذنوب جميعا عفوا لمن يشاء ولو بعد حين بتعذيب في الجملة وبغيره حسبما يشاء
وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر كيف لا وقوله تعالى ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر
ما دون ذلك لمن يشاء ظاهر في الاطلاق فيما عدا الشرك ومما يدل عليه التعليل بقوله
تعالى انه هو الغفور الرحيم على المبالغة وافادة الحصر والوعد بالرحمة بعد المغفرة و
تقديم ما يستدعي عموم المغفرة مما في عبادي من الدلالة على الذلة والاختصاص
المقتضيين للترحم وتخصيص ضرر الاسراف بانفسهم والنهي عن القنوط مطلقا عن
الرحمة فضلا عن المغفرة واطلاقها وتعليله بان الله يغفر الذنوب ووضع الاسم الجليل
موضع الضمير لدلالته على انه المستغني والمنعم على الاطلاق والتاكيد بالجميع وما روي
من اسباب النزول الدالة على ورود الآية فيمن تاب لا يقتضي اختصاص الحكم بهم و
وجوب حمل المطلق على المقيد في كلام واحد مثل اكرم الفضلاء اكرم الكاملين غير
مسلم فكيف فيما هو بمنزلة كلام واحد ولا يخل بذلك الامر بالتوبة والاخلاص في
قوله تعالى وانيبوا الى ربكم واسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون اذ ليس
المدعى ان الآية تدل على حصول المغفرة لكل احد من غير توبة وسبق تعذيب لتغني عن
الامر بهما وتنافي الوعيد بالعذاب واتبعوا احسن ما انزل اليكم من ربكم اي القرآن او
المأمور به دون المنهي عنه او العزائم دون الرخص او الناسخ دون المنسوخ ولعله ما هو انجى
واسلم كالانابة والمواظبة على الطاعة من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وانتم لا تشعرون
بمجيئه لتتداركوا وتتاهبوا له ان تقول نفس اي كراهة ان تقول والتنكير للتكثير كما في
قوله تعالى علمت نفس ما احضرت فانه مسلك ربما يسلك عند ارادة التكثير والتعميم وقد
مر تحقيقه في مطلع سورة الحجر يا حسرتا بالالف بدلا من ياء الاضافة وقرئ يا حسرتاه
بهاء السكت وقفا وقرئ يا حسرتاي بالجمع بين العوضين وقرئ يا حسرتي على الاصل
اي احضري فهذا اوان حضورك على ما فرطت اي على تفريطي وتقصيري في جنب الله اي
جانبه وفي حقه وطاعته وعليه قول من قال اما تتقين الله في جنب وامق له كبد حرى
وعين ترقرق وهو كناية فيها مبالغة وقيل في ذات الله تعالى على تقدير مضاف كالطاعة و
قيل في قربه من قوله تعالى والصاحب بالجنب وقرئ في ذكر الله وان كنت لمن الساخرين اي
المستهزئين بدين الله تعالى واهله ومحل الجملة النصب على الحال اي فرطت وانا ساخر او تقول

لو ان الله

لو ان الله هداني بالارشاد الى الحق لكنت من المتقين من الشرك والمعاصي او تقول حين
ترى العذاب لو ان لي كرة رجعة الى الدنيا فاكون من المحسنين في العقيدة والعمل والدلالة
على انها لا تخلو عن هذه الاقوال تحسرا وتحيرا وتعللا بما لا طائل تحته وقوله تعالى بلى قد
جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين رد من الله تعالى عليه لما تضمنه
قوله لو ان الله هداني من معنى النفي وفصله عنه لما ان تقديمه يفرق القرائن وتاخير
المردود يخل بالترتيب الوجودي لانه يتحسر بالتفريط ثم يتعلل بفقد الهداية ثم يتمنى
الرجعة وهو لا يمنع تاثير قدرة الله تعالى في فعل العبد ولا ما فيه من اسناد الفعل اليه كما
عرفت وتذكير الخطاب باعتبار المعنى وقرئ بالتانيث ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله
بان وصفوه بما لا يليق بشانه كاتخاذ الولد وجوههم مسودة بما ينالهم من الشدة او
بما يتخيل عليها من ظلمة الجهل والجملة حال قد اكتفي فيها بالضمير عن الواو على ان الرؤية
بصرية او مفعول ثان لها على انها عرفانية اليس في جهنم مثوى اي مقام للمتكبرين
عن الايمان والطاعة وهو تقرير لما قبله من رؤيتهم كذلك وينجي الله الذين اتقوا
الشرك والمعاصي اي من جهنم وقرئ ينجي من الانجاء بمفازتهم مصدر ميمي اما من
فاز بالمطلوب اي ظفر به والباء متعلقة بمحذوف هو حال من الموصول مفيدة لمقارنة
تنجيتهم من العذاب لنيل الثواب اي ينجيهم الله من مثوى المتكبرين ملتبسين بفوزهم
بمطلوبهم الذي هو الجنة وقوله تعالى لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون اما حال اخرى
من الموصول او من ضمير مفازتهم مفيدة لكون نجاتهم او فوزهم بالجنة غير مسبوقة
بمساس العذاب والحزن واما من فاز منه اي نجا منه والباء للملابسة وقوله تعالى
لا يمسهم الخ تفسير وبيان لمفازتهم اي ينجيهم الله ملتبسين بنجاتهم الخاصة بهم اي بنفي
السوء والحزن عنهم او للسببية اما على حذف المضاف اي ينجيهم بسبب مفازتهم التي
هي تقواهم كما يشعر به ايراده في حيز الصلة واما على اطلاق المفازة على سببها الذي
هو التقوى وليس المراد نفي دوام المساس والحزن بل دوام نفيهما كما مر مرارا الله خالق كل
شيء من خير وشر وايمان وكفر لكن لا بالجبر بل بمباشرة الكاسب لاسبابهما وهو على كل شيء وكيل
يتولى التصرف فيه كيفما شاء له مقاليد السموات والارض لا يملك امرها ولا يتمكن من
التصرف فيها غيره وهو عبارة عن قدرته تعالى وحفظه لها وفيها مزيد دلالة على الاستقلال
والاستبداد لان الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها الا من بيده مفاتيحها وهو جمع مقليد
او مقلاد من قلدته اذا الزمته وقيل جمع اقليد معرب كليد على الشذوذ كالمذاكير وعن
عثمان رضي الله عنه انه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن المقاليد فقال عليه السلام
تفسيرها لا اله الا الله والله اكبر وسبحان الله وبحمده واستغفر الله ولا حول ولا قوة الا بالله
العلي العظيم هو الاول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير
والمعنى على هذا ان لله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد وهي مفاتيح خير السموات والارض
من تكلم بها اصابه والذين كفروا بآيات الله اولئك هم الخاسرون متصل بما قبله
والمعنى ان الله تعالى خالق لجميع الاشياء ومتصرف فيها كيفما يشاء بالاحياء والاماتة بيده مقاليد
العالم العلوي والسفلي والذين كفروا بآياته التكوينية المنصوبة في الآفاق والانفس
والتنزيلية التي من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بذلك هم الخاسرون خسرانا لا خسار
وراءه هذا وقيل هو متصل بقوله تعالى وينجي الله وما بينهما اعتراض فتدبر قل افغير الله تأمروني
اعبد ايها الجاهلون اي ابعد مشاهدة هذه الآيات غير الله اعبد وتأمروني اعتراض
للدلالة على انهم امروه به عقيب ذلك وقالوا استلم بعض آلهتنا نؤمن بالهك لفرط
غباوتهم ويجوز ان ينتصب غير بما يدل عليه تأمروني اعبد لانه بمعنى تعبدونني وتقولون
لي اعبد على ان اصله تأمرونني ان اعبد فحذف ان ورفع ما بعدها كما في قوله الا ايهذا
الزاجري احضر الوغى وان اشهد اللذات هل انت مخلدي ويؤيده قراءة اعبد بالنصب
وقرئ تأمرونني باظهار النونين على الاصل وبحذف الثانية ولقد اوحي اليك والى الذين
من قبلك اي من الرسل عليهم السلام لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين



بكلام وارد على طريقة الفرض لتهييج الرسل واقناط الكفرة والايذان بغاية شناعة الاشراك وقبحه
وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن ان يباشره فكيف بمن عداه وافراد الخطاب باعتبار
كل واحد واللام الاولى موطئة للقسم والاخريان للجواب واطلاق الاحباط يحتمل ان يكون
من خصائصهم لان الاشراك منهم اشد واقبح وان يكون مقيدا بالموت كما صرح به في
قوله تعالى ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فاولئك حبطت اعمالهم وعطف
الخسران عليه من عطف المسبب على السبب بل الله فاعبد رد لما امروه ولولا دلالة
التقديم على القصر لم يكن كذلك وكن من الشاكرين انعامه عليك وفيه اشارة الى ما
يوجب الاختصاص ويقتضيه وما قدروا الله حق قدره ما قدروا عظمته تعالى في انفسهم
حق عظمته حيث جعلوا له شريكا ووصفوه بما لا يليق بشانه الجليلة وقرئ بالتشديد
والارض جميعا قبضته يوم القيمة والسموات مطويات بيمينه تنبيه على غاية عظمته وكمال
قدرته وحقارة الافعال العظام التي تتحير فيها الاوهام بالنسبة الى قدرته تعالى دلالة على
ان تخريب العالم اهون شئ عليه على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة واليمين
حقيقة ولا مجازا كقولهم شابت لمة الليل والقبضة المرة من القبض اطلقت بمعنى القبضة
وهي المقدار المقبوض بالكف تسمية بالمصدر او بتقدير ذات قبضة وقرئ بالنصب على الظرف
تشبيها للموقت بالمبهم وتاكيدا الارض بالجميع لان المراد بها الارضون السبع او جميع ابعاضها
البادية والغائرة وقرئ مطويات على انها حال والسموات معطوفة على الارض منظومة
في حكمها سبحانه وتعالى عما يشركون ما ابعد وما اعلى من هذه قدرته وعظمته عن
اشراكهم او عما يشركونه من الشركاء ونفخ في الصور هي النفخة الاولى فصعق من
في السموات ومن في الارض اي خروا امواتا او مغشيا عليهم الا من شاء الله قيل
هم جبريل وميكائيل واسرافيل فانهم لا يموتون بعد وقيل حملة العرش ثم نفخ فيه اخرى
نفخة اخرى هي النفخة الثانية واخرى يحتمل النصب والرفع فاذا هم قيام قائمون من
قبورهم او متوقفون وقرئ بالنصب على ان الخبر ينظرون وهو حال من ضميره والمعنى
يقلبون ابصارهم في الجوانب كالمبهوتين او ينتظرون ما يفعل بهم واشرقت الارض
بنور ربها بما اقام فيها من العدل استعير له النور لانه يزين البقاع ويظهر الحقوق كما
يسمى الظلم ظلمة وفي الحديث الظلم ظلمات يوم القيمة ولذلك اضيف الاسم الجليل
الى ضمير الارض او بنور خلقه فيها بلا توسط اجسام مضيئة ولذلك اضيف الى الاسم
الجليل ووضع الكتاب الحساب والجزاء من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه
او صحايف الاعمال في ايدي العمال واكتفى باسم الجنس عن الجمع وقيل اللوح المحفوظ
يقابل به الصحايف وجيء بالنبيين والشهداء للامم وعليهم من الملئكة والمؤمنين
وقيل المستشهدون وقضي بينهم بين العباد بالحق وهم لا يظلمون بنقص ثواب
او زيادة عقاب على ما جرى به الوعد ووفيت كل نفس ما عملت اي جزاءه وهو اعلم
بما يفعلون فلا يفوته شئ من افعالهم وقوله تعالى وسيق الذين كفروا الى جهنم
زمرا الخ تفصيل للتوفية وبيان لكيفيتها اي سيقوا اليها بالعنف والاهانة افواجا
متفرقة بعضها في اثر بعض مترتبة حسب ترتب طبقاتهم في الضلالة والشرارة والزمر
جمع زمرة واشتقاقها من الزمر وهو الصوت اذ الجماعة لا تخلو عنه حتى اذا جاؤها
فتحت ابوابها ليدخلوها وحتى هي التي تحكى بعدها الجملة وقرئ بالتشديد وقال
لهم خزنتها تقريعا وتوبيخا الم ياتكم رسل منكم من جنسكم وقرئ نذر منكم
يتلون عليكم ايات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا اي وقتكم هذا وهو وقت
دخولهم النار وفيه دليل على انه لا تكليف قبل الشرع من حيث انهم عللوا توبيخهم
باتيان الرسل وتبليغ الكتب قالوا بلى قد اتونا وانذرونا ولكن حقت كلمة العذاب
على الكافرين حيث قال الله تعالى لابليس لاملان جهنم منك وممن تبعك منهم
اجمعين وقد كنا ممن تبعه وكذبنا الرسل وقلنا ما نزل الله من شئ ان انتم الا تكذبون
قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها اي مقدرا خلودكم فيها وابهام القائل

لتهويل المقول فبئس مثوى المتكبرين اللام للجنس والمخصوص بالذم محذوف ثقة بذكره آنفا
اي فبئس مثواهم جهنم ولا يقدح ما فيه من الاشعار بان كون مثواهم جهنم لتكبرهم عن
الحق في ان دخولهم النار لسبق كلمة العذاب عليهم فانها انما حقت عليهم بناء على تكبرهم
وكفرهم وقد مر تحقيقه في سورة الم السجدة وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة
مساق اعزاز وتشريف للاسراع بهم الى دار الكرامة وقيل سيق مراكبهم اذ لا يذهب بهم
الا راكبين زمرا متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم في الفضل وعلو الطبقة حتى اذا
جاؤها وفتحت ابوابها وقرئ بالتشديد وجواب اذا محذوف للايذان بان لهم حينئذ
من فنون الكرامات ما لا يحدق به نطاق العبارات كانه قيل حتى اذا جاؤها وقد
فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم من جميع المكاره والآلام طبتم طهرتم
من دنس المعاصي او طبتم نفسا بما اتيح لكم من النعيم فادخلوها خالدين كان ما كان
مما يقصر عنه البيان وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده بالبعث والثواب واورثنا
الارض يريدون المكان الذي استقروا فيه على الاستعارة وايراثها تمليكها مخلفة
عليهم من اعمالهم او تمكينهم من التصرف فيه تمكين الوارث فيما يرثه نتبوأ من الجنة
حيث نشاء اي يتبوأ كل واحد منها في اي مكان اراده من جنته الواسعة على ان فيها مقامات
معنوية لا يتمانع واردها فنعم اجر العاملين الجنة وترى الملائكة حافين محدقين من
حول العرش اي حوله ومن مزيدة او لابتداء الحفوف يسبحون بحمد ربهم اي ينزهونه
تعالى عما لا يليق به ملتبسين بحمده والجملة حال ثانية او مقيدة للاولى والمعنى ذاكرين
له تعالى بوصفي جلاله واكرامه تلذذا به وفيه اشعار بان اقصى درجات العليين واعلى
لذائذهم هو الاستغراق في شؤنه عز وجل وقضي بينهم بالحق اي بين الخلق بادخال
بعضهم النار وبعضهم الجنة او بين الملائكة باقامتهم في منازلهم على حسب تفاضلهم
وقيل الحمد لله رب العالمين على ما قضى بيننا بالحق وانزل كلا منا منزلته التي
هي حقه والقائلون هم المؤمنون ممن قضي بينهم والملائكة وطي ذكرهم لتعينهم وتعظيمهم
عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله رجاءه يوم
القيمة واعطاه ثواب الخائفين وعن عائشة رضي الله عنها انه صلى الله عليه وسلم
كان يقرأ كل ليلة بني اسرائيل والزمر والله اعلم

سورة المؤمن مكية وهي اربع وثمانون آية بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمن

حم بتفخيم الالف وتسكين الميم وقرئ بامالة الالف وباخراجها بين بين وبفتح الميم لالتقاء
الساكنين او نصبها باضمار اقرأ ونحوه ومنع الصرف للتعريف والتانيث او للتعريف وكونها
على زنة قابيل وهابيل وبقية الكلام فيه وفي قوله تعالى تنزيل الكتاب كالذي سلف
في الم السجدة وقوله تعالى من الله العزيز العليم كما في مطلع سورة الزمر في الوجوه كلها
ووجه التعرض لنعتي العزة والعلم ما ذكر هناك غافر الذنب وقابل التوب شديد
العقاب ذي الطول اما صفات اخر لتحقيق ما فيهما من الترغيب والترهيب والحث على ما هو
المقصود والاضافة فيها حقيقية على انه لم يرد بها زمان مخصوص واريد بشديد العقاب
مشدده او الشديد عقابه بحذف اللام للازدواج وامن الالتباس او ابدال وجعله وحده
بدلا كما فعله الزجاج مشوش للنظم وتوسيط الواو بين الاولين لافادة الجمع بين محو
الذنوب وقبول التوبة او تغاير الوصفين اذ ربما يتوهم الاتحاد او تغاير موقع الفعلين
لان الغفر هو الستر مع بقاء الذنب وذلك لمن لم يتب فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له و
التوب مصدر كالتوبة وقيل هو جمعها والطول الفضل بترك العقاب المستحق وفي توحيد
صفة العذاب مغمورة بصفات الرحمة دليل سبقها ورجحانها لا اله الا هو فيجب
الاقبال الكلي على طاعته في اوامره ونواهيه اليه المصير فحسب لا الى غيره لا استقلالا
ولا اشتراكا فيجازي كلا من المطيع والعاصي ما يجادل في ايات الله اي بالطعن فيها
واستعمال المقدمات الباطلة لادحاض الحق كقوله تعالى وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق

الا الذين كفروا بها واما الذين آمنوا فلا يخطر ببالهم شائبة شبهة منها فضلاً عن الطعن
فيها واما الجدال فيها لحل مشكلاتها وكشف معضلاتها واستنباط حقايقها الكلية وتوضيح
مناهج الحق فى مضايق الافهام ومزالق الاقدام وابطال شبه اهل الزيغ والضلال فمن
اعظم الطاعات ولذلك قال عليه السلام ان جدالاً فى القرآن كفر بالتنكير للفرق بين جدال
وجدال والفاء فى قوله تعالى فلا يغررك تقلبهم فى البلاد لترتيب النهى او وجوب الانتهاء على
ما قبلها من التسجيل عليهم بالكفر الذى لا شئ امقت منه عند الله تعالى ولا اجلب لخسران
الدنيا والآخرة فان من تحقق ذلك لا يكاد يغتر بما لهم من حظوظ الدنيا وزخارفها فانهم
مأخوذون عما قليل اخذ من قبلهم من الامم حسبما ينطق به قوله تعالى كذبت قبلهم
قوم نوح والاحزاب من بعدهم اى الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم بعد
قوم نوح مثل عاد وثمود واضرابهم وهمت كل امة من تلك الامم العاتية برسولهم وقرئ برسولها
ليأخذوه ليتمكنوا منه فيصيبوا به ما ارادوا من تعذيب او قتل من الاخذ بمعنى الاسر
وجادلوا بالباطل الذى لا اصل ولا حقيقة له اصلاً ليدحضوا به الحق الذى لا محيد عنه
كما فعل هؤلاء فأخذتهم بسبب ذلك اخذ عزيز مقتدر فكيف كان عقاب الذى
عاقبتهم به فان آثار دمارهم عبرة للناظرين ولآخذن هؤلاء ايضاً لاتحادهم فى
الطريقة واشتراكهم فى الجريرة كما ينبئ عنه قوله تعالى وكذلك حقت كلمة ربك اى
كما وجب وثبت حكمه تعالى وقضاؤه بالتعذيب على اولئك الامم المكذبة المتحزبة على
رسلهم المجادلة بالباطل لادحاض الحق به وجب ايضاً على الذين كفروا اى كفروا بك وتحزبوا
عليك وهموا بما لم ينالوا كما ينبئ عنه اضافة اسم الرب الى ضميره عم فان ذلك للاشعار بان
وجوب كلمة العذاب عليهم من احكام تربيته التى من جملتها نصرته عم وتعذيب اعدائه
وذلك انما يتحقق بكون الموصول عبارة عن كفار قومه لا عن الامم المهلكة وقوله تعالى
انهم اصحاب النار فى حيز النصب بحذف لام التعليل لانهم مستحقوا اشد العقوبات
وافظعها التى هى عذاب النار وملازموها ابداً لكونهم كفاراً معاندين متحزبين
على الرسول عليه السلام كدأب من قبلهم من الامم المهلكة فهم لسائر فنون العقوبات
اشد استحقاقاً واحق استيجاباً وقيل هو فى محل الرفع على انه بدل من كلمة ربك و
المعنى مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة المهلكة كونهم من اصحاب النار اى كما وجب اهلاكهم
فى الدنيا بعذاب الاستيصال كذلك وجب تعذيبهم بعذاب النار فى الآخرة ومحل الكاف
على التقديرين النصب على انه نعت لمصدر محذوف الذين يحملون العرش ومن حوله
وهم اعلى طبقات الملائكة عليهم السلام واولهم وجوداً وحملهم اياه وحفيفهم
حوله مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له وكناية عن زلفاهم من ذى العرش جل جلاله و
مكانتهم عنده ومحل الموصول الرفع على الابتداء خبره يسبحون بحمد ربهم والجملة
استيناف مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان ان اشراف الملائكة عليهم
السلام مثابرون على ولاية من معه من المؤمنين ونصرتهم واستدعاء ما يسعدهم
فى الدارين اى ينزهونه تعالى عن كل ما لا يليق بشأنه الجليل ملتبسين بحمده على نعمائه التى
لا تتناهى ويؤمنون به ايماناً حقيقياً بحالهم والتصريح به مع الغنى عن ذكره رأساً لاظهار
فضيلة الايمان وابراز شرف اهله والاشعار بعلة دعائهم للمؤمنين حسبما ينطق به قوله
تعالى ويستغفرون للذين آمنوا فان المشاركة فى الايمان اقوى المناسبات واتمها و
ادعى الدواعى الى النصح والشفقة وفى نظم استغفارهم لهم فى سلك وظايفهم المفروضة
عليهم من تسبيحهم وتحميدهم وايمانهم ايذان بكمال اعتنائهم به واشعار بوقوعه
عند الله تعالى فى موقع القبول روى ان حملة العرش ارجلهم فى الارض السفلى ورؤسهم
قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وعن النبى عليه السلام لا تتفكروا
فى عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق الله تعالى من الملائكة فان خلقاً من الملائكة
يقال له اسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله وقدماه فى الارض السفلى وقد
مرق راسه من سبع سموات وانه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوصع وفى الحديث

ان الله

ان الله امر جميع الملائكة ان يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً على سائرهم و
قيل خلق الله تعالى العرش من جوهرة خضراء وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع
ثمانين الف عام وقيل حول العرش سبعون الف صف من الملائكة يطوفون به مهللين
مكبرين ومن ورائهم سبعون الف صف قيام قد وضعوا ايديهم على عواتقهم رافعين
اصواتهم بالتهليل والتكبير ومن ورائهم مائة الف صف قد وضعوا ايمانهم على الشمائل
ما منهم احد الا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر ربنا على ارادة القول اى يقولون ربنا
على انه اما بيان لاستغفارهم او حال وسعت كل شئ رحمة وعلماً اى وسعت رحمتك
وعلمك فأزيل عن اصله للاغراق فى وصفه تعالى بالرحمة والعلم والمبالغة فى عمومهما
وتقديم الرحمة لانها المقصودة بالذات ههنا والفاء فى قوله تعالى فاغفر للذين تابوا
واتبعوا سبيلك اى للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيل الحق لترتيب الدعاء على ما
قبلها من سعة الرحمة والعلم وقهم عذاب الجحيم واحفظهم عنه وهو تصريح بعد اشعار
للتأكيد ربنا وادخلهم عطف على قهم وتوسيط النداء بينهما للمبالغة فى الجؤار جنات
عدن التى وعدتهم اى وعدتهم اياها وقرئ جنة عدن ومن صلح من آبائهم و
ازواجهم وذرياتهم اى صلاحاً مصححاً لدخول الجنة فى الجملة وان كان دون صلاح
اصولهم وهو عطف على الضمير الاول اى وادخلها معهم هؤلاء ليتم سرورهم و
يتضاعف ابتهاجهم او على الثانى لكن لا بناء على الوعد العام للكل كما قيل اذ لا يبقى حينئذ
للعطف وجه بل بناء على الوعد الخاص بهم بقوله تعالى الحقنا بهم ذرياتهم بان يكونوا على
درجة من ذرياتهم قال سعيد بن جبير يدخل المؤمن الجنة فيقول اين ابى اين ولدى
اين زوجى فيقال انهم لم يعملوا مثل عملك فيقول انى كنت اعمل لى ولهم فيقال ادخلوهم
الجنة وسبق الوعد بالادخال والالحاق لا يستدعى حصول الموعود بلا توسط شفاعة واستغفار
وعليه مبنى قول من قال فائدة الاستغفار زيادة الكرامة والثواب والاول هو الاولى لان
الدعاء بالادخال فيه صريح وفى الثانى ضمنى وقرئ صلح بالضم وذريتهم بالافراد انك انت
العزيز اى الغالب الذى لا يمتنع عليه مقدور الحكيم اى الذى لا يفعل الا ما يقتضيه
الحكمة الباهرة من الامور التى من جملتها انجاز الوعد فالجملة تعليل لما قبلها وقهم السيئات
اى العقوبات لان جزاء السيئة سيئة او جزاء السيئات على حذف المضاف وهو تعميم
بعد تخصيص او مخصوص بالاتباع او المعاصى فى الدنيا فمعنى قوله ومن تق السيئات
يومئذ فقد رحمته ومن تقه المعاصى فى الدنيا فقد رحمته فى الآخرة كأنهم طلبوا لهم السبب
بعد ما سألوا المسبب وذلك اشارة الى الرحمة المفهومة من رحمته او اليها والى الوقاية و
ما فيه من معنى البعد لما مر مراراً من الايذان ببعد درجة المشار اليه هو الفوز العظيم الذى
لا مطمع وراءه لطامع ان الذين كفروا شروع فى بيان احوال الكفرة بعد دخولهم النار بعد ما
بين فيما سبق انهم اصحاب النار ينادون اى من مكان بعيد وهم فى النار وقد مقتوا
انفسهم الامارة بالسوء التى وقعوا فيما وقعوا باتباع هواها او مقت بعضهم بعضاً من
الاصحاب كقوله تعالى يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً اى ابغضوها اشد البغض
وانكروها ابلغ الانكار واظهروا ذلك على رؤس الاشهاد فيقال لهم عند ذلك لمقت الله
اكبر من مقتكم انفسكم اى لمقت الله انفسكم الامارة بالسوء او لمقته اياكم فى
الدنيا اذ تدعون من جهة الانبياء الى الايمان فتأبون قبوله فتكفرون اتباعاً لانفسكم
الامارة ومسارعة الى هواها او اقتداء باخلائكم المضلين واستحباباً لآرائهم اكبر من
مقتكم انفسكم الامارة او من مقت بعضكم بعضاً اليوم فاذ ظرف للمقت الاول وان توسط بينهما
الخبر لما فى الظروف من الاتساع وقيل لمصدر آخر مقدر اى مقته اياكم اذ تدعون وقيل مفعول
لاذكروا والاول هو الوجه وقيل كلا المقتين فى الآخرة واذ تدعون تعليل لما بين الظرف و
السبب من علاقة اللزوم والمعنى لمقت الله اياكم الآن اكبر من مقتكم انفسكم لما كنتم تدعون
الى الايمان فتكفرون وتخصيص هذا الوجه بصورة كون المراد بانفسهم اضرابهم مما لا داعى
اليه قالوا ربنا امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين صفتان لمصدر الفعلين المذكورين اى اماتتين

واحياءتين او موتتين وحياتين على انهما مصدران لهما ايضا بحذف الزوائد او الفعلين يدل عليهما المذكوران فان الاماتة والاحياء ينبئان عن الموت والحياة حتما كانه قيل امتنا فمتنا موتتين اثنتين واحييتنا فحيينا حياتين اثنتين على طريقة قول من قال وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع من المال الا مسحت او مجلف اى لم يدع فلم يبق الا مسحت الخ قيل ارادوا بالاماتة الاولى خلقهم امواتا وبالثانية اماتتهم عند انقضاء اجالهم على ان الاماتة جعل الشئ عادم الحيوة اعم من ان يكون بانشائه كذلك كما فى قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل او بجعله كذلك بعد الحيوة وبالاحيائين الاول واحياء البعث وقيل ارادوا بالاماتة الاولى ما بعد حيوة الدنيا وبالثانية ما بعد حيوة القبر وبالاحيائين ما فى القبر وما عند البعث وهو الانسب بحالهم واما حديث لزوم الزيادة على النص ضرورة تحقق حيوة الدنيا فمدفوع لكن لا بما قيل من عدم اعتدادهم بها لزوالها وانقضائها وانقطاع آثارها واحكامها بل بان مقصودهم احداث الاعتراف بما كانوا ينكرونه فى الدنيا كما ينطق به قولهم فاعترفنا بذنوبنا والتزام العمل بموجب ذلك الاعتراف ليتوسلوا بذلك الى ما علقوا به اطماعهم الفارغة من الرجع الى الدنيا كما قد صرحوا به قالوا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون وهو الذى ارادوه بقولهم فهل الى خروج من سبيل مع نوع استبعاد واستشعار يأس منه لا انهم قالوه بطريق القنوط البحت كما قيل ولا ريب فى ان الذى كانوا ينكرونه ويفرعون عليه فنون الكفر والمعاصى ليس الا الاحياء بعد الموت واما الاحياء الاول فلم يكونوا ينكرونه لينظموه فى سلك ما اعترفوا به وزعموا ان الاعتراف به يجديهم نفعا وانما ذكروا الموتة الاولى مع كونهم معترفين بها فى الدنيا لتوقف حيوة القبر عليها وكذا حال الموتة فى القبر فان مقصدهم الاصلى هو الاعتراف بالاحيائين وانما ذكروا الاماتتين لترتبهما عليهما ذكرا حسب ترتبهما عليهما وجودا وتنكير سبيل للابهام اى من سبيل ما كيفما كان وقوله تعالى ذلكم الخ جواب لهم باستحالة حصول ما يرجونه ببيان ما يوجبها من اعمالهم السيئة اى ذلكم الذى انتم فيه من العذاب مطلقا لا مقيدا بالخلود كما قيل بانه اى بسبب ان الشان اذا دعى الله فى الدنيا اى عبد وحده اى منفردا كفرتم اى بتوحيده وان يشرك به تؤمنوا اى بالاشراك به وتسارعوا فيه وفى ايراد اذا وصيغة الماضى فى الشرطية الاولى وان وصيغة المضارع فى الثانية ما لا يخفى من الدلالة على كمال سوء حالهم وحيث كان حالكم كذلك فالحكم لله الذى لا يحكم الا بالحق ولا يقضى الا بما تقتضيه الحكمة العلى الكبير الذى ليس كمثله شئ فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى افعاله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه وقد حكم بانه لا مغفرة للمشرك ولا نهاية لعقوبته كما لا نهاية لشناعته فلا سبيل لكم الى الخروج ابدا هو الذى يريكم اياته الدالة على شئونه العظيمة الموجبة لتفرده بالالوهية لتستدلوا بها على ذلك وتعملوا بموجبها فتوحدوه تعالى وتخصوه بالعبادة وينزل بالتشديد وقرئ بالتخفيف من الانزال لكم من السماء رزقا اى سبب رزق وهو المطر وافراده بالذكر مع كونه من جملة الآيات الدالة على كمال قدرته تعالى لتفرده بعنوان كونه من آثار رحمته وجلائل نعمته الموجبة للشكر وصيغة المضارع فى الفعلين للدلالة على تجدد الاراءة والتنزيل واستمرارهما وتقديم الجار والمجرور على المفعول لما مر مرارا وما يتذكر بتلك الآيات الباهرة ولا يعمل بمقتضاها الا من ينيب الى الله تعالى ويتفكر فيما اودعه فى تضاعيف مصنوعاته من شواهد قدرته الكاملة ونعمته الشاملة الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى ومن ليس كذلك فهو بمعزل من التذكر والايقاظ فادعوا الله مخلصين له الدين اى اذا كان الامر كما ذكر من اختصاص التذكر بمن ينيب فاعبدوه ايها المؤمنون مخلصين له دينكم بموجب انابتكم اليه تعالى وايمانكم به ولو كره الكافرون ذلك وغاظهم اخلاصكم رفيع الدرجات نحو بديع السموات على انه صفة مشبهة اضيفت الى فاعلها بعد النقل الى فعل بالضم كما هو المشهور وتفسيره بالرافع ليكون من اضافة اسم الفاعل الى المفعول بعيد فى الاستعمال اى رفيع درجات ملائكته اى معارجهم او مصاعدهم الى العرش ذو العرش اى مالكه وهما خبران اخران لقوله تعالى هو اخبر عنه بهما

ايذانا

ايذانا بعلو شانه تعالى وعظم سلطانه الموجبين لتخصيص العبادة به واخلاص الدين له اما بطريق الاستشهاد بهما عليهما فان ارتفاع معارج ملائكته الى العرش وكون العرش العظيم المحيط باكناف العالم العلوى والسفلى تحت ملكوته وقبضة قدرته مما يقضى بكون علو شانه وعظيم سلطانه فى غاية لا غاية وراءها واما بجعلهما عبارة عنهما بطريق المجاز المتفرع على الكناية كالاستواء على العرش وتمهيدا لما يعقبهما من قوله تعالى يلقى الروح من امره فانه خبر آخر لما ذكر منبئ عن انزال الرزق الروحانى الذى هو الوحى بعد بيان انزال الرزق الجسمانى الذى هو المطر اى ينزل الوحى الجارى من القلوب منزلة الروح من الاجساد وقوله تعالى من امره بيان للروح الذى اريد به الوحى فانه امر بالخير او حال منه اى حال كونه ناشئا ومبتدأ من امره او صفة له على راى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته اى الروح الكائن من امره او متعلق بيلقى ومن للسببية كالباء فى مثل قوله مما خطيئاتهم اى يلقى الوحى بسبب امره على من يشاء من عباده وهو الذى اصطفاه لرسالته وتبليغ احكامه اليهم لينذر اى الله تعالى او الملقى عليه او الروح وقرئ لتنذر على ان الفاعل هو الرسول عم او الروح لانها قد تؤنث يوم التلاق اما ظرف للمفعول الثانى اى لينذر الناس العذاب يوم التلاق وهو يوم القيمة لانه يتلاقى فيه الارواح والاجساد واهل السموات واهل الارض او هو المفعول الثانى اتساعا او اصالة فانه من شدة هوله وفظاعته حقيق بالانذار اصالة وقرئ لينذر على البناء للمفعول ورفع اليوم يوم هم بارزون بدل من يوم التلاق اى خارجون من قبورهم او ظاهرون لا يسترهم شئ من جبل او اكمة او بناء لكون الارض يومئذ قاعا صفصفا ولا عليهم ثياب انما هم عراة مكشوفون كما جاء فى الحديث يحشرون عراة حفاة غرلا وقيل ظاهرة نفوسهم لا يحجبهم غواشى الابدان او اعمالهم وسرائرهم لا يخفى على الله منهم شئ استيناف لبيان بروزهم وتقرير له وازاحة لما كان يتوهمه المتوهمون فى الدنيا من الاستتار توهما باطلا او خبر ثان وقيل حال من ضمير بارزون اى لا يخفى عليه تعالى شئ ما من اعيانهم واعمالهم واحوالهم الجلية والخفية السابقة واللاحقة لمن الملك اليوم لله الواحد القهار حكاية لما يقع حينئذ من السؤال والجواب بتقدير قول معطوف على ما قبله من الجملة المنفية المستانفة او مستانف يقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية بروزهم وظهور احوالهم كانه قيل فماذا يكون حينئذ فقيل يقال الخ اى ينادى مناد لمن الملك اليوم فيجيبه اهل المحشر لله الواحد القهار وقيل المجيب هو السائل بعينه لما روى انه يجمع الله الخلائق يوم القيمة فى صعيد واحد فى ارض بيضاء كانها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط فاول ما يتكلم به ان ينادى مناد لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقيل هى حكاية لما ينطق به لسان الحال من تقطع اسباب التصرفات المجازية واختصاص جميع الافاعيل بقبضة القدرة الالهية اليوم تجزى كل نفس بما كسبت الخ اما من تتمة الجواب لبيان حكم اختصاص الملك به تعالى ونتيجته التى هى حكم السوى والقضاء بالحق او حكاية لما سيقوله تعالى يومئذ عقيب السؤال والجواب اى تجزى كل نفس من النفوس البرة والفاجرة بما كسبت من خير او شر لا ظلم اليوم بنقص ثواب او زيادة عذاب ان الله سريع الحساب اى سريع حسابه تعالى اذ لا يشغله تعالى شان عن شان فيحاسب الخلائق قاطبة فى اقرب زمان كما نقل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه تعالى اذا اخذ فى حسابهم لم يقل اهل الجنة الا فيها ولا اهل النار الا فيها فيكون تعليلا لقوله تعالى اليوم تجزى الخ فان كون ذلك اليوم بعينه يوم التلاق ويوم البروز ربما يوهم استبعاد وقوع الكل فيه او سريع مجيئه فيكون تعليلا للانذار وانذرهم يوم الآزفة اى القيمة سميت بها لازوفها وهو القرب غير ان فيه اشعارا بضيق وقيل الخطة الآزفة وهى مشارفة اهل النار دخولها وقيل وقت حضور الموت كما فى قوله تعالى فلولا اذا بلغت الحلقوم وقوله كلا اذا بلغت التراقى اذ القلوب لدى الحناجر بدل من يوم الآزفة فانها ترتفع من اماكنها فتلتصق بحلوقهم فلا تعود فيتروحوا ولا تخرج فيستريحوا بالموت كاظمين على الغم حال من اصحاب القلوب على المعنى اذ الاصل قلوبهم او من ضميرها فى الظرف وجمع السلامة باعتبار ان الكظم من احوال العقلاء كقوله تعالى فظلت اعناقهم لها خاضعين

او من مفعول انذرهم على انها حال مقدرة اى انذرهم مقدرا كظمهم او مشارفين الكظم ما للظالمين من حميم اى قريب مشفق ولا شفيع يطاع اى لا شفيع مشفع على معنى نفى الشفاعة والطاعة معا على طريقة قوله على لا احب لا يهتدى بمناره والضمائر ان عادت الى الكفار وهو الظاهر فوضع الظالمين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم وتعليل الحكم به يعلم خائنة الاعين النظرة الخائنة كالنظرة الثانية الى غير المحرم واستراق النظر اليه وخيانة الاعين على انها مصدر كالعاقبة وما تخفى الصدور من الضمائر والاسرار والجملة خبر آخر مثل يلقى الروح للدلالة على انه ما من خفى الا وهو متعلق العلم والجزاء والله يقضى بالحق لانه المالك الحاكم على الاطلاق فلا يقضى شيأ الا وهو حق وعدل والذين يدعون يعبدونهم من دونه تعالى لا يقضون لهم بشئ تهكم بهم لان الجماد لا يقال فى حقه يقضى او لا يقضى وقرئ تدعون على الخطاب التفاتا او على اضمار قل ان الله هو السميع البصير تقرير لعلمه تعالى بخائنة الاعين وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه اولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم اى مآل حال من قبلهم من الامم المكذبة لرسلهم كعاد وثمود واضرابهم كانوا هم اشد منهم قوة قدرة وتمكنا من التصرفات وانما جئ بضمير الفصل مع ان حقه التوسط بين معرفتين لمضاهاة افعل من للمعرفة فى امتناع دخول اللام عليه وقرئ اشد منكم بالكاف وآثارا فى الارض مثل القلاع الحصينة والمدائن المتينة وقيل المعنى واكثر آثارا كقوله متقلدا سيفا ورمحا فاخذهم الله بذنوبهم اخذا وبيلا وما كان لهم من الله من واق اى من واق يقيهم عذاب الله ذلك اى ما ذكر من الاخذ بانهم بسبب انهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات اى بالمعجزات او بالاحكام الظاهرة فكفروا فاخذهم الله انه قوى متمكن مما يريد غاية التمكن شديد العقاب لا يعبأ عند عقابه بعقاب ولقد ارسلنا موسى باياتنا وهى معجزاته وسلطان مبين اى وحجة قاهرة وهى اما عين الآيات والعطف لتغاير العنوانين واما بعض مشاهيرها كالعصا افردت بالذكر مع اندراجها تحت الآيات لانافتها افراد جبريل وميكائيل به مع دخولهما فى الملائكة عليهم السلام الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب اى فيما اظهره من المعجزات وفيما ادعاه من رسالة رب العالمين فلما جاءهم بالحق من عندنا وهو ما ظهر على يده من المعجزات القاهرة قالوا اقتلوا ابناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم كما قال فرعون سنقتل ابناءهم ونستحيى نساءهم اى اعيدوا عليهم ما كنتم تفعلونه اولا وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان فلما بعث عليه السلام واحس بانه قد وقع ما وقع اعاده عليهم غيظا وحنقا وزعما منه انه يصدهم بذلك عن مظاهرته ظنا منهم انه المولود الذى حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكهم على يده وما كيد الكافرين الا فى ضلال اى فى ضياع وبطلان لا يغنى عنهم شيأ وينفذ عليهم لامحالة القدر المقدور والقضاء المحتوم واللام اما للعهد والاظهار فى موقع الاضمار لذمهم بالكفر والاشعار بعلة الحكم او للجنس وهم داخلون فيه دخولا اوليا والجملة اعتراض جئ به فى تضاعيف ما حكى عنهم من الاباطيل للمسارعة الى بيان بطلان ما اظهروه من الابراق والارعاد واضمحلاله بالمرة وقال فرعون ذرونى اقتل موسى كان ملاؤه اذا هم بقتله عليه السلام كفوه بقولهم ليس هذا بالذى تخافه فانه اقل من ذلك واضعف وما هو الا بعض السحرة وبقولهم اذا قتلته ادخلت على الناس شبهة واعتقدوا انك عجزت عن معارضته بالحجة وعدلت الى المقارعة بالسيف والظاهر من دهاء اللعين ونكارته انه قد استيقن انه نبى وان ما جاء به آيات باهرة وما هو بسحر ولكن كان يخاف ان هم بقتله ان يعاجل بالهلاك وكان قوله هذا تمويها على قومه وايهاما انهم هم الكافون له عن قتله ولولاهم لقتله وما كان الذى يكفه الا ما فى نفسه من الفزع الهائل وقوله وليدع ربه تجلد منه واظهار لعدم المبالاة

بدعائه ولكنه اخوف ما يخافه انى اخاف ان لم اقتله ان يبدل دينكم اى يغير ما انتم عليه من الدين الذى هو عبارة عن عبادته وعبادة الاصنام لتقربهم اليه او ان يظهر فى الارض الفساد ما يفسد دنياكم من التحارب والتهارج ان لم يقدر على تبديل دينكم بالكلية وقرئ بالواو الجامعة وقرئ بفتح الياء والهاء ورفع الفساد وقرئ يظهر بتشديد الظاء والهاء من تظهر بمعنى تظاهر اى تتابع وتعاون وقال موسى اى لقومه حين سمع بما يقوله اللعين من حديث قتله عليه السلام انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب صدر عليه السلام كلامه بان تأكيدا له واظهارا لمزيد الاعتناء بمضمونه وفرط الرغبة فيه وخص الرب المنبئ عن الحفظ والتربية لانهما الذى يستدعيه واضافه اليه واليهم حثا لهم على موافقته فى العياذ به تعالى والتوكل عليه فان فى تظاهر النفوس تأثيرا قويا فى استجلاب الاجابة ولم يسم فرعون بل ذكره بوصف يعمه وغيره من الجبابرة لتعميم الاستعاذة والاشعار بعلة القساوة والجراءة على الله تعالى وقرئ عت بالادغام وقال رجل مؤمن من آل فرعون قيل كان قبطيا ابن عم لفرعون آمن بموسى سرا وقيل كان اسرائيليا او غريبا موحدا يكتم ايمانه اى من فرعون وملائه أتقتلون رجلا اتقصدون قتله ان يقول لان يقول او كراهة ان يقول ربى الله اى وحده من غير روية وتأمل فى امره وقد جاءكم بالبينات والحال انه قد جاءكم بالمعجزات الظاهرة التى شاهدتموها وعهدتموها من ربكم اضافه اليهم بعد ذكر البينات احتجاجا عليهم واستنزالا لهم عن رتبة المكابرة ثم اخذهم بالاحتجاج من باب الاحتياط فقال وان يك كاذبا فعليه كذبه لا يتخطاه وبال كذبه فيحتاج فى دفعه الى قتله وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم اى ان لم يصبكم كله فلا اقل من اصابة بعضه لاسيما ان تعرضتم له بسوء وهذا كلام صادر عن غاية الانصاف وعدم التعصب ولذلك قدم من شقى الترديد كونه كاذبا او يصبكم ما يعدكم من عذاب الدنيا وهو بعض ما يعدهم كأنه خوفهم بما هو اظهر احتمالا عندهم وتفسير البعض بالكل مستدلا بقول لبيد تراك امكنة اذا لم ارضها او يرتبط بعض النفوس حمامها مردود لما ان مراده بالبعض نفسه ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب احتجاج آخر ذو وجهين احدهما انه لو كان مسرفا كذابا لما هداه الله تعالى الى البينات ولما ايده بتلك المعجزات وثانيهما ان كان كذلك خذله الله واهلكه فلا حاجة لكم الى قتله ولعله اراد به المعنى الثانى وهو عاكف على المعنى الاول لتلين شكيمتهم وقد عرض به لفرعون بانه مسرف كذاب لا يهديه الله سبيل الصواب ومنهاج النجاة يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين غالبين عالين على بنى اسرائيل فى الارض اى ارض مصر لا يقاومكم احد فى هذا الوقت فمن ينصرنا من بأس الله من اخذه وعذابه ان جاءنا اى فلا تفسدوا امركم ولا تتعرضوا لبأس الله بقتله فانه ان جاءنا لم يمنعنا منه احد وانما نسب ما يسرهم من الملك والظهور فى الارض اليهم خاصة ونظم نفسه فى سلكهم فيما يسوؤهم من مجئ بأس الله تعالى تطييبا لقلوبهم وايذانا بانه مناصح لهم ساع فى تحصيل ما يجديهم ودفع ما يرديهم سعيه فى حق نفسه ليتأثروا بنصحه قال فرعون بعد ما سمع نصحه ما اريكم اى ما اشير عليكم الا ما ارى واستصوبه من قتله وما اهديكم بهذا الرأى الا سبيل الرشاد اى الصواب او لا اعلمكم الا ما اعلم ولا اسر عنكم خلاف ما اظهر ولقد كذب حيث كان مستشعرا للخوف الشديد ولكنه كان يتجلد ولولاه لما استشار احدا ابدا وقرئ بتشديد الشين للمبالغة من رشد كعلام او من رشد كعباد لا من ارشد كجبار من اجبر لانه مقصور على السماع او للنسبة الى الرشد كعواج وبتات غير منظور الى فعل وقال الذى آمن مخاطبا لقومه يا قوم انى اخاف عليكم فى تكذيبه والتعرض له بالسوء مثل يوم الاحزاب مثل ايام الامم الماضية يعنى وقائعهم وجمع الاحزاب مع التفسير اغنى عن جمع اليوم مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود اى مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر وايذاء الرسل والذين من بعدهم كقوم لوط وما الله يريد ظلما للعباد فلا يعاقبهم بغير ذنب ولا يخلى الظالم منهم بغير انتقام وهو ابلغ من قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد لما ان المنفى فيه

ارادة الظلم ما فيستفى الظلم بطريق الاولوية يا قوم انى اخاف عليكم يوم التناد خوفهم بالعذاب
الاخروى بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوى ويوم التناد يوم القيمة لانه ينادى فيه بعضهم
للاستغاثة او يتصايحون بالويل والثبور او يتنادى اصحاب الجنة واصحاب النار حسبما
حكى فى سورة الاعراف وقرئ بتشديد الدال وهو ان يند بعضهم من بعض كقوله تعالى
يوم يفر المرء من اخيه وعن الضحاك اذا سمعوا زفير النار ندوا هربا فلا يأتون قطرا من
الاقطار الا وجدوا ملائكة صفوفا فبينما هم يموج بعضهم فى بعض اذ سمعوا مناديا
اقبلوا الى الحساب يوم تولون مدبرين بدل من يوم التناد اى منصرفين عن الموقف
الى النار او فارين منها حسبما نقل آنفا ما لكم من الله من عاصم يعصمكم من عذابه
والجملة حال اخرى من ضمير تولون ومن يضلل الله فما له من هاد يهديه الى طريق النجاة
ولقد جاءكم يوسف هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام على ان فرعونه فرعون
موسى او على نسبة احوال الآباء الى الاولاد وقيل سبطه يوسف بن ابراهيم بن يوسف
الصديق من قبل موسى بالبينات بالمعجزات الواضحة فما زلتم فى شك مما جاءكم به
من الدين حتى اذا هلك بالموت قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ضما الى تكذيب
رسالته تكذيب رسالة من بعده او جزما بان لا يبعث بعده رسول مع الشك فى رسالته
وقرئ الن يبعث الله على ان بعضهم يقرر بعضا بنفى البعث كذلك مثل ذلك الاضلال
الفظيع يضل الله من هو مسرف فى عصيانه مرتاب فى دينه شاك فيما تشهد به البينات
لغلبة الوهم والانهماك فى التقليد الذين يجادلون فى آيات الله بدل من الموصول الاول
او بيانه او صفة باعتبار معناه كانه قيل كل مسرف مرتاب او المسرفين المرتابين بغير سلطان
متعلق بيجادلون اى بغير حجة صالحة للتمسك بها فى الجملة اتاهم صفة سلطان
كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا فيه ضرب من التعجب والاستعظام وفى كبر ضمير
يعود الى من وتذكيره باعتبار اللفظ وقيل الى الجدال المستفاد من يجادلون كذلك
اى مثل ذلك الطبع الفظيع يطبع الله على كل قلب متكبر جبار فيصدر عنه امثال
ما ذكر من الاسراف والارتياب والمجادلة بالباطل وقرئ بتنوين قلب ووصفه بالتكبر
والتجبر لانه منبعهما وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا اى بناء مكشوفا عاليا
من صرح الشئ اذا ظهر لعلى ابلغ الاسباب اى الطرق اسباب السموات بيان لها
وفى ابهامها ثم ايضاحها تفخيم لشانها وتشويق للسامع الى معرفتها فاطلع الى
اله موسى بالنصب على جواب الترجى وقرئ بالرفع عطفا على ابلغ ولعله اراد ان يبنى
له رصدا فى موضع عال ليرصد منه احوال الكواكب التى هى اسباب سماوية تدل على
الحوادث الارضية فيرى هل فيها ما يدل على ارسال الله تعالى اياه او ان يرى فساد قوله
عليه السلام بان اخباره من اله السماء يتوقف على اطلاعه عليه ووصوله اليه وذلك
لا يتأتى الا بالصعود الى السماء وهو مما لا يقوى عليه الانسان وما ذاك الا لجهله بالله
سبحانه وكيفية استنبائه وانى لاظنه كاذبا فيما يدعيه من الرسالة وكذلك اى
مثل ذلك التزيين البليغ المفرط زين لفرعون سوء عمله فانهمك فيه انهماكا لا يرعوى
عنه بحال وصد عن السبيل اى سبيل الرشاد والفاعل فى الحقيقة هو الله تعالى ويؤيده
قراءة زين بالفتح وبالتوسط الشيطان وقرئ وصد على ان فرعون صد الناس عن الهدى
بامثال هذه التمويهات والشبهات ويؤيده قوله تعالى وما كيد فرعون الا فى تباب اى
خسار وهلاك او على انه من صد صدودا اى اعرض وقرئ بكسر الصاد على نقل حركة الدال
اليه وقرئ وصد على انه عطف على سوء عمله وقرئ وصدوا اى هو وقومه وقال
الذى آمن اى مؤمن آل فرعون وقيل موسى عليه السلام يا قوم اتبعون فيما دللتكم
عليه اهدكم سبيل الرشاد اى سبيلا يصل سالكه الى المقصود وفيه تعريض بان ما
سلكه فرعون وقومه سبيل الغى والضلال يا قوم انما هذه الحيوة الدنيا متاع اى
تمتع يسير لسرعة زوالها اجمل لهم اولا ثم فسر فافتتح بذم الدنيا وتصغير شانها لان
الاخلاد اليها راس كل شر ومنه يتشعب فنون ما يؤدى الى سخط الله تعالى ثم ثنى بتعظيم

الآخرة فقال وان الآخرة هى دار القرار لخلودها ودوام ما فيها من عمل فى الدنيا
سيئة فلا يجزى فى الآخرة الا مثلها عدلا من الله تعالى وفيه دليل على ان الجنايات
تغرم بامثالها ومن عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك الذين عملوا
ذلك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب اى بغير تقدير وموازنة بالعمل
بل اضعافا مضاعفة فضلا من الله عز وجل ورحمة وجعل العمل عمدة والايمان حالا
للايذان بانه لا عبرة بالعمل بدونه وان ثوابه اعلى من ذلك ويا قوم ما لى ادعوكم
الى النجاة وتدعوننى الى النار كرر نداءهم ايقاظا لهم عن سنة الغفلة واعتناء
بالمنادى له ومبالغة فى توبيخهم على ما يقابلون به نصحه ومدار التعجب الذى يلوح
به الاستفهام دعوتهم اياه الى النار ودعوته اياهم الى النجاة كانه قيل اخبرونى
كيف هذه الحال ادعوكم الى الخير وتدعوننى الى الشر وقد جعله بعضهم من قبيل ما لى
اراك حزينا اى ما لك تكون حزينا وقوله تعالى تدعوننى لاكفر بالله بدل او بيان فيه
تعليل والدعاء كالهداية فى التعدية بالى واللام واشرك به ما ليس لى به بشركته
تعالى فى المعبودية وقيل بربوبيته علم والمراد نفى المعلوم والاشعار بان الالوهية
لا بد لها من برهان موجب للعلم بها وانا ادعوكم الى العزيز الغفار الجامع لجميع صفات الالوهية
من كمال القدرة والغلبة وما يتوقف عليه من العلم والارادة والتمكن من المجازاة والقدرة
على التعذيب والغفران لا جرم اى لا رد لما دعوه اليه وجرم فعل ماض بمعنى حق وفاعله
قوله تعالى انما تدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة اى حق ووجب
عدم دعوة آلهتكم الى عبادتها اصلا او عدم دعوة مستجابة او عدم استجابة
دعوة لها وقيل جرم بمعنى كسب وفاعله مستكن فيه اى كسب ذلك الدعاء اليه بطلان
دعوته بمعنى ما حصل من ذلك الا ظهور بطلان دعوته وقيل جرم فعل من الجرم
وهو القطع كما ان بدا من لا بد فعل من التبديد اى التفريق والمعنى لا قطع لبطلان
الوهية الاصنام اى لا ينقطع فى وقت ما فينقلب حقا ويؤيده قولهم لا جرم
انه يفعل بضم الجيم وسكون الراء وفعل وفعل اخوان كرشد ورشد وان مردنا
الى الله اى بالموت عطف على ان ما تدعوننى داخل فى حكمه وكذا قوله تعالى وان
المسرفين اى فى الضلال والطغيان كالاشراك وسفك الدماء هم اصحاب
النار اى ملازموها فستذكرون وقرئ فستذكرون اى فسيذكر بعضكم بعضا
عند معاينة العذاب ما اقول لكم من النصائح وافوض امرى الى الله قاله لما
انهم كانوا توعدوه ان الله بصير بالعباد فيحرس من يلوذ به من المكاره فوقاه الله
سيئات ما مكروا شدائد مكرهم وما هموا به من الحاق انواع العذاب بمن خالفهم
قيل نجا مع موسى عليه السلام وحاق بآل فرعون اى بفرعون وقومه وعدم
التصريح به للاستغناء بذكرهم من ذكره ضرورة انه اولى منهم بذلك وقيل بطلبة
المؤمن من قومه لما انه فر الى جبل فاتبعه طائفة ليأخذوه فوجدوه يصلى والوحوش
صفوف حوله فرجعوا رعبا فقتلهم سوء العذاب الغرق والقتل والنار يعرضون
عليها غدوا وعشيا جملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية سوء العذاب او النار
خبر مبتدأ محذوف كان قائلا قال ما سوء العذاب فقيل هو النار ويعرضون استئناف
للبيان او بدل من سوء العذاب ويعرضون حال منها او من الآل ولا يشترط فى الحيوة
ان يكون العقاب بعد ذلك السوء بعينه حتى يرد ان آل فرعون لم يهموا بتعذيبه بالنار
ليكون ابتلاؤهم بها من قبيل رجوع ما هموا به عليهم بل يكفى فى ذلك ان يكون
مما يطلق عليه اسم السوء وقرئت منصوبة على الاختصاص او باضمار فعل يفسره
يعرضون مثل يصلون فان عرضهم على النار احراقهم بها من قولهم عرض الاسارى
على السيف اذا قتلوا به وذلك لارواحهم كما روى ابن مسعود رضى الله عنه ان
ارواحهم فى اجواف طير سود تعرض على النار بكرة وعشيا الى يوم القيمة وذكر
الوقتين اما للتخصيص واما فيما بينهما فالله تعالى اعلم بحالهم واما للتأبيد هذا
ما دامت الدنيا ويوم تقوم الساعة يقال للملائكة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب

اى عذاب جهنم فانه اشد مما كانوا فيه او اشد عذاب جهنم فان عذابها الوان بعضها
اشد من بعض وقرئ ادخلوا من الدخول اى يقال لهم ادخلوا يا آل فرعون اشد العذاب
واذ يتحاجون فى النار اى واذكر لقومك وقت تخاصمهم فيها فيقول الضعفاء منهم
للذين استكبروا وهم رؤساؤهم انا كنا لكم تبعا اتباعا كخدم فى جمع خادم او
ذوى تبع اى اتباع على اضمار المضاف او تبعا على الوصف بالمصدر مبالغة فهل انتم مغنون
عنا نصيبا من النار بالدفع او بالحمل ونصيبا منصوب بمضمر يدل عليه مغنون اى
دافعون عنا نصيبا الخ او بمغنون على تضمنه معنى الحمل اى مغنون عنا حاملين نصيبا الخ
او نصب على المصدرية كشيئا فى قوله تعالى لن تغنى عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله
شيئا فانه موقع عنا فكذلك نصيبا قال الذين استكبروا انا كل فيها اى نحن وانتم نغنى
عنكم ولو قدرنا لاغنينا عن انفسنا وقرئ كلا على التاكيد لاسم ان بمعنى كلنا وتنوينه
عوض عن المضاف اليه ولا مساغ لجعله حالا من المستكن فى الظرف فانه لا يعمل فى الحال
المتقدمة كما يعمل فى الظرف المتقدم فانك تقول كل يوم ثوب ولا تقول جديدا لك ان الله
قد حكم بين العباد وقضى قضاء متقنا لا مرد له ولا معقب لحكمه وقال الذين فى النار من
الضعفاء والمستكبرين جميعا لما ضاقت حيلهم وعيت بهم عللهم لخزنة جهنم
اى للقوام بتعذيب اهل النار ووضع جهنم موضع الضمير للتهويل والتفظيع او لبيان
محلهم فيها بان تكون جهنم ابعد دركات النار وفيها اعتى الكفرة واطغاهم او لكون
الملائكة الموكلين بعذاب اهلها اقدر على الشفاعة لمزيد قربهم من الله تعالى ادعوا ربكم
يخفف عنا يوما اى مقدار يوم او فى يوم ما من الايام على انه ظرف لا معيار شيئا
من العذاب واقتصارهم فى الاستدعاء على ما ذكر من تخفيف قدر يسير من العذاب فى
مقدار قصير من الزمان دون رفعه راسا او تخفيف قدر كثير فى زمان مديد لان ذلك
عندهم مما ليس فى حيز الامكان ولا يكاد يدخل تحت امانيهم قالوا اى الخزنة اولم
تك تاتيكم رسلكم بالبينات اى الم تنتبهوا على هذا ولم تك تاتيكم رسلكم فى الدنيا
على الاستمرار بالحجج الواضحة الدالة على سوء مغبة ما كنتم عليه من الكفر والمعاصى كما فى قوله
تعالى الم ياتكم رسل منكم يتلون عليكم ايات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا
ارادوا بذلك الزامهم وتوبيخهم على اضاعة اوقات الدعاء وتعطيل اسباب الاجابة
قالوا بلى اى اتونا بها فكذبناهم كما نطق به قوله تعالى بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما
نزل الله من شئ ان انتم الا فى ضلال كبير والفاء فى قوله تعالى قالوا فادعوا فصيحة كما
فى قول من قال فقد جئنا خراسانا اى اذا كان الامر كذلك فادعوا انتم فان الدعاء
لمن يفعل ذلك مما يستحيل صدوره عنا وتعليل امتناعهم عن الدعاء بعدم الاذن فيه
مع عرائه عن بيان السبب من قبلهم كما يفصح عنه الفاء ربما يوهم ان الاذن فى حيز
الامكان وان لهم لو اذن لهم فيه لفعلوا ولم يريدوا بامرهم بالدعاء اطماعهم فى
الاجابة بل اقناطهم منها واظهار خيبتهم حسبما صرح به فى قولهم وما دعاء الكافرين
الا فى ضلال اى ضياع وبطلان وقوله تعالى انا لننصر رسلنا والذين امنوا الخ كلام مستانف
مسوق من جهته تعالى لبيان ان ما اصاب الكفرة من العذاب المحكى من فروع حكم كلى تقتضيه
الحكمة وهو ان شاننا المستمر انا ننصر رسلنا واتباعهم فى الحيوة الدنيا بالحجة والظفر
والانتقام لهم من الكفرة بالاستيصال والقتل والسبى وغير ذلك من العقوبات ولا يقدح
فى ذلك ما قد يتفق لهم من صورة الغلبة امتحانا اذ العبرة انما هى بالعواقب وغالب
الامر ويوم يقوم الاشهاد اى يوم القيمة عبر عنه بذلك للاشعار بكيفية النصرة وانها
تكون عند جميع الاولين والاخرين بشهادة الاشهاد للرسل بالتبليغ وعلى الكفرة بالتكذيب
يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم بدل من الاول وعدم نفع المعذرة لانها باطلة وقرئ لا تنفع
بالتاء ولهم اللعنة اى البعد عن الرحمة ولهم سوء الدار اى جهنم ولقد اتينا موسى
الهدى ما يهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع واورثنا بنى اسرائيل الكتاب
وتركنا عليهم من بعده التورية هدى وذكرى هداية وتذكرة او هاديا ومذكرا لاولى

الالباب

الالباب لذوى العقول السليمة العاملين بما فى تضاعيفه فاصبر على ما نالك من اذية
المشركين ان وعد الله اى وعده الذى ينطق به قوله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم
لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون او وعده الخاص بك او جميع مواعيده التى من
جملتها ذلك حق لا يحتمل الاخلاف اصلا واستشهد بحال موسى وفرعون واستغفر
لذنبك تداركا لما فرط منك من ترك الاولى فى بعض الاحايين فانه تعالى كافيك فى نصرة
دينك واظهاره على الدين كله وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار اى ودم على التسبيح
ملتبسا بحمده تعالى وقيل صل لهذين الوقتين اذ كان الواجب بمكة ركعتين بكرة وركعتين
عشيا وقيل صل شكرا لربك بالعشى والابكار وقيل هما صلوة العصر وصلوة الفجر
ان الذين يجادلون فى ايات الله ويجحدونها بغير سلطان اتاهم فى ذلك
من جهته تعالى وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة اتيانه للايذان بان التكلم فى امر
الدين لا بد من استناده الى سلطان مبين البتة وهذا عام لكل مجادل مبطل وان نزل فى
مشركى مكة وقوله تعالى ان فى صدورهم الا كبر خبر لان اى ما فى قلوبهم الا تكبر عن
الحق وتعظم عن التفكر والتعلم او الا ارادة الرياسة والتقدم على الاطلاق او الا ارادة
ان تكون النبوة لهم دونك حسدا وبغيا حسبما قالوا لولا نزل هذا القران على رجل من
القريتين عظيم وقالوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه ولذلك يجادلون فيها لا ان فيها
موقع جدال ما او ان لهم شيئا يتوهم ان يصلح مدارا لمجادلتهم فى الجملة وقوله تعالى
ما هم ببالغيه صفة لكبر قال مجاهد ما هم ببالغى مقتضى ذلك الكبر وهو ما ارادوه
من الرياسة او النبوة وقيل المجادلون هم اليهود وكانوا يقولون لست صاحبنا المذكور
فى التورية بل هو المسيح بن داود يريدون الدجال يخرج فى اخر الزمان ويبلغ سلطانه
البر والبحر وتسير معه الانهار وهو اية من ايات الله تعالى فيرجع الينا الملك فسمى الله تعالى
تمنيهم ذلك كبرا ونفى ان يبلغوا متمناهم فاستعذ بالله اى فالتجئ اليه من كيد من
يحسدك ويبغى عليك وفيه رمز الى انه من همزات الشياطين انه هو السميع البصير
لاقوالكم وافعالكم وقوله تعالى لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس تحقيق للحق
وتبيين لاشهر ما يجادلون فيه من امر البعث على منهاج قوله تعالى اوليس الذى خلق السموات
والارض بقادر على ان يخلق مثلهم ولكن اكثر الناس لا يعلمون لقصورهم فى النظر
والتامل لفرط غفلتهم واتباعهم لاهوائهم وما يستوى الاعمى والبصير اى الغافل
والمستبصر والذين امنوا وعملوا الصالحات ولا المسئ اى والمحسن والمسئ فلا بد
ان يكون لهم حال اخرى يظهر فيها ما بين الفريقين من التفاوت وهى فيما بعد البعث و
زيادة لا فى المسئ لتاكيد النفى لطول الكلام بالصلة ولان المقصود نفى مساواته للمحسن
فيما له من الفضل والكرامة والعاطف الثانى عطف الموصول بما عطف عليه على الاعمى والبصير
لتغاير الوصفين فى المقصود او الدلالة بالصراحة والتمثيل قليلا ما تتذكرون على
الخطاب بطريق الالتفات اى تذكرا قليلا تتذكرون وقرئ على الغيبة والضمير للناس
او الكفار ان الساعة لاتية لا ريب فيها اى فى مجيئها لوضوح شواهدها واجماع الرسل على
الوعد بوقوعها ولكن اكثر الناس لا يؤمنون لا يصدقون بها لقصور انظارهم على ظواهر
ما يحسون به وقال ربكم ادعونى اى اعبدونى استجب لكم اى اثبكم لقوله تعالى
ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين اى صاغرين اذلاء وان
فسر الدعاء بالسؤال كان الامر الصارف عنه منزلا منزلة الاستكبار عن العبادة للمبالغة او المراد
بالعبادة الدعاء فانه من افضل ابوابها وقرئ سيدخلون على صيغة المبنى للمفعول من الادخال
الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه بان خلقه باردا مظلما ليؤدى الى ضعف المحركات
وهدو الحواس لتستريحوا فيه وتقديم الجار والمجرور على المفعول وقد مر سره مرارا
والنهار مبصرا اى مبصرا فيه او به ان الله لذو فضل على الناس لا يوازيه ولا يدانيه
فضل على الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون لجهلهم بالمنعم واغفالهم مواضع النعم
وتكرير الناس لتخصيص الكفران بهم ذلكم المتفرد بالافعال المقتضية للالوهية والربوبية

الله ربكم خالق كل شيء لا اله الا هو اخبار مترادفة تخصص اللاحقة منها السابقة و
تقررها وقرئ خالق بالنصب على الاختصاص فيكون لا اله الا هو استينافا بما هو كالنتيجة
للاوصاف المذكورة فانى تؤفكون فكيف ومن اى وجه تصرفون عن عبادته خاصة الى عبادة
غيره كذلك يؤفك الذين كانوا بايات الله يجحدون اى مثل ذلك الافك العجيب الذي
لا وجه له ولا مصحح اصلا كل من جحد باياته تعالى اى اية كانت لا افكا آخر له وجه ومصحح في
الجملة الله الذي جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء بيان لفضله تعالى المتعلق بالمكان
بعد بيان فضله المتعلق بالزمان وقوله تعالى وصوركم فاحسن صوركم بيان لفضله المتعلق
بانفسهم والفاء في فاحسن تفسيرية فان الاحسان عين التصوير اى صوركم احسن تصوير
حيث خلقكم منتصب القامة بادى البشرة متناسب الاعضاء والتخطيط متهيا لمزاولة
لمزاولة الصنايع واكتساب الكمالات ورزقكم من الطيبات اى اللذائذ ذلكم الذي
نعت بما ذكر من النعوت الجليلة الله ربكم خبران لذلكم فتبارك الله اى تعالى بذاته
رب العالمين اى مالكهم ومربيهم والكل تحت ملكوته مفتقر اليه في ذاته ووجوده
وساير احواله جميعا بحيث لو انقطع فيضه عنه انا لانعدم بالكلية هو الحي المتفرد
بالحيوة الذاتية الحقيقية لا اله الا هو اذ لا موجود يدانيه في ذاته وصفاته وافعاله فادعوه
فاعبدوه خاصة لاختصاص ما يوجبه به تعالى مخلصين له الدين اى الطاعة من
الشرك الجلي والخفي الحمد لله رب العالمين اى قائلين ذلك عن ابن عباس رضي الله
عنهما من قال لا اله الا الله فليقل على اثرها الحمد لله رب العالمين قل اني نهيت ان اعبد
الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي من الحجج والايات لكونها مؤيدة
لادلة العقل منبهة عليها فان الايات التنزيلية مفسرات للايات التكوينية الافاقية
الانفسية وامرت ان اسلم لرب العالمين اى بان انقاد له واخلص له ديني هو الذي
خلقكم من تراب اى في ضمن خلق آدم عليه السلام منه حسبما مر تحقيقه مرارا ثم من
نطفة اى ثم خلقكم خلقا تفصيليا من نطفة اى مني ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا اى
اطفالا والافراد لارادة الجنس او لارادة كل واحد من افراده ثم لتبلغوا اشدكم
علة ليخرجكم معطوفة على علة اخرى له مناسبة لها كانه قيل ثم يخرجكم طفلا لتكبروا
شيئا فشيئا ثم لتبلغوا كمالكم في القوة والعقل وكذا الكلام في قوله تعالى ثم لتكونوا شيوخا
ويجوز عطفه على لتبلغوا وقرئ شيخا كقوله تعالى طفلا ومنكم من يتوفى من قبل اى
من قبل الشيخوخة بعد بلوغ الاشد او قبله ايضا ولتبلغوا متعلق بفعل مقدر بعده
اى ولتبلغوا اجلا مسمى هو وقت الموت او يوم القيمة يفعل ذلك ولعلكم تعقلون
ولكي تعقلوا ما في ذلك من فنون الحكم والعبر هو الذي يحيي الاموات ويميت الاحياء
الذي يفعل الاحياء والاماتة فاذا قضى امرا اى اراد امرا من الامور فانما يقول
له كن فيكون من غير توقف على شيء من الاشياء اصلا وهذا تمثيل لتاثير قدرته تعالى
في المقدورات عند تعلق ارادته بها وتصوير لسرعة ترتب المكونات على تكوينه
من غير ان يكون هناك امر ومامور والفاء الاولى للدلالة على ان ما بعدها من نتايج ما
قبلها من اختصاص الاحياء والاماتة به سبحانه الم تر الى الذين يجادلون في ايات الله
انى يصرفون تعجيب من احوالهم الشنيعة وارائهم الركيكة وتمهيد لما يعقبه من بيان
تكذيبهم بكل القرآن وبساير الكتب والشرايع وترتيب الوعيد على ذلك كما ان ما سبق من
قوله تعالى ان الذين يجادلون في ايات الله الى بيان لابتناء جدالهم على مبنى فاسد لا يكاد
تحت الوجود هو الامنية الفارغة فلا تكرير فيه اى انظر الى هؤلاء المكابرين المجادلين في
آياته تعالى الواضحة الموجبة للايمان بها الزاجرة عن الجدال فيها كيف يصرفون عنها مع تعاضد
الدواعي الى الاقبال عليها وانتفاء الصوارف عنها بالكلية وقوله تعالى الذين كذبوا بالكتاب
اى بكل القرآن او بجنس الكتب السماوية فان تكذيبه تكذيب لها في محل الجر على انه بدل
من الموصول الاول او في حيز النصب او الرفع على الذم وانما وصل الموصول الثاني بالتكذيب
دون المجادلة لان المعتاد وقوع المجادلة في بعض المواد لا في الكل وصيغة الماضي للدلالة

على

على التحقق كما ان صيغة المضارع في الصلة الاولى للدلالة على تجدد المجادلة وتكررها وبما ارسلنا
به رسلنا من ساير الكتب او مطلق الوحي والشرايع فسوف يعلمون كنه ما فعلوا من الجدال
والتكذيب عند مشاهدتهم لعقوباته اذ الاغلال في اعناقهم ظرف ليعلمون اذ المعنى على
الاستقبال ولفظ الماضي لتيقنه والسلاسل عطف على الاغلال والجار في نية التاخير وقيل
مبتدا حذف خبره لدلالة خبر الاول عليه وقيل قوله تعالى يسحبون بحذف العايد اى
يسحبون بها وهو على الاولين حال من المستكن في الظرف وقيل استيناف وقع جوابا عن
سؤال نشأ من حكاية حالهم كانه قيل فماذا يكون حالهم بعد ذلك فقيل يسحبون في الحميم
وقرئ والسلاسل يسحبون بالنصب وفتح الياء على تقديم المفعول وعطف الفعلية على الاسمية و
السلاسل بالجر حملا على المعنى لان قوله تعالى الاغلال في اعناقهم في معنى اعناقهم في الاغلال
او اضمارا للباء ويدل عليه القراءة به ثم في النار يسجرون اى يحرقون من سجر التنور اذا ملاه
بالوقود ومنه السجير للصديق كانه سجر بالحب اى ملي والمراد بيان انهم يعذبون بانواع
العذاب وينقلون من باب الى باب ثم قيل لهم اينما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا
عنا اى يقال لهم ويقولون وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ومعنى ضلوا عنا غابوا
عنا وذلك قبل ان يقرن بهم آلهتهم وضاعوا عنا فلم نجد ما كنا نتوقع منهم بل لم نكن
ندعوا من قبل شيئا اى بل تبين لنا انا لم نكن نعبد شيئا بعبادتهم لما ظهر لنا اليوم انهم لم يكونوا شيئا
يعتد به كقولك حسبته شيئا فلم يكن كذلك اى مثل ذلك الضلال الفظيع يضل الله الكافرين
حيث لا يهتدون الى شيء ينفعهم في الآخرة او كما ضل عنهم آلهتهم يضلهم عن آلهتهم حتى
لو تطالبوا لم يتصادفوا ذلكم الاضلال بما كنتم تفرحون في الارض اى تبطرون وتتكبرون
بغير الحق وهو الشرك والطغيان وبما كنتم تمرحون تتوسعون في البطر والاشر والالتفات
للمبالغة في التوبيخ ادخلوا ابواب جهنم اى ابوابها السبعة المقسومة لكم خالدين فيها
مقدرا خلودكم فيها فبئس مثوى المتكبرين اى عن الحق جهنم والتعبير عن مدخلهم
بالمثوى لكون دخولهم بطريق الخلود فاصبر الى ان يلاقوا ما اعد لهم من العذاب
ان وعد الله بتعذيبهم حق كاين لا محالة فاما نرينك اى فان نرك وما مزيدة لتاكيد
الشرطية ولذلك لحقت النون الفعل ولا تلحقه مع ان وحدها بعض الذي نعدهم وهو
القتل والاسر او نتوفينك قبل ذلك فالينا يرجعون يوم القيمة فنجازيهم باعمالهم وهو
جواب نتوفينك وجواب نرينك محذوف مثل فذاك ويجوز ان يكون جوابا لهما بمعنى ان
نعذبهم في حياتك او لم نعذبهم فانا نعذبهم في الآخرة اشد العذاب وافظعه كما ينبئ عنه
الاقتصار على ذكر الرجوع في هذا المعرض ولقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا
عليك ومنهم من لم نقصص عليك اذ قيل عدد الانبياء عليهم السلام مائة واربعة
وعشرون الفا والمذكور قصصهم افراد معدودة وقيل اربعة الاف من بني اسرائيل واربعة
آلاف من ساير الناس وما كان لرسول اى وما صح وما استقام لرسول منهم ان ياتي
باية الا باذن الله فان المعجزات على تشعب فنونها عطايا من الله قسمها بينهم حسبما
اقتضته مشيته المبنية على الحكم البالغة كساير القسم ليس لهم اختيار في ايثار بعضها
والاستبداد باتيان المقترح بها فاذا جاء امر الله بالعذاب في الدنيا والآخرة قضي بالحق
بانجاء المحق واثابته واهلاك المبطل وتعذيبه وخسر هنالك اى وقت مجيء امر الله اسم
مكان استعير للزمان المبطلون اى المتمسكون بالباطل على الاطلاق فيدخل فيهم المعاندون
المقترحون دخولا اوليا الله الذي جعل لكم الانعام قيل هي الابل خاصة اى خلقها
لاجلكم ومصلحتكم وقوله تعالى لتركبوا منها ومنها تاكلون تفصيل لما دل عليه اللام
اجمالا ومن لابتداء الغاية ومعناها ابتداء الركوب والاكل منها اى تعلقهما بها وقيل
للتبعيض اى لتركبوا بعضها وتاكلوا بعضها لا على ان كلا من الركوب والاكل مختص
ببعض معين منها بحيث لا يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر بل على ان كل بعض منها صالح
لكل منهما وتغيير النظم الكريم في الجملة الثانية لمراعاة الفواصل مع الاشعار باصالة الركوب
ولكم فيها منافع اخر غير الركوب والاكل كالبانها واوبارها وجلودها ولتبلغوا عليها

حاجة في صدوركم بحمل اثقالكم من بلد الى بلد وعليها وعلى الفلك تحملون لعل المراد به حمل
النساء والولدان عليها بالهوادج وهو السر في فصله عن الركوب والجمع بينها وبين الفلك
في الحمل لما بينهما من المناسبة التامة حتى سميت سفاين البر وقيل هي الازواج الثمانية فمعنى
الركوب والاكل منها تعلقهما بالكل لكن لا على ان كلا منها يجوز تعلقه بكل منها ولا على ان كلا
منهما مختص ببعض معين منها بحيث لا يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر بل على ان بعضها يتعلق
به الاكل فقط كالغنم وبعضها يتعلق به كلاهما كالابل والبقر والمنافع تعم الكل وبلوغ الحاجة
عليها يعم البقر ويريكم آياته دلائله الدالة على كمال قدرته ووفور رحمته فاي آيات
الله اي فاي آية من تلك الآيات الباهرة تنكرون فان كلا منها من الظهور بحيث
لا يكاد يجترئ على انكارها من له عقل في الجملة وهو ناصب لاي واضافة الآيات الى الاسم
الجليل لتربية المهابة وتهويل انكارها وتذكير اي هو الشائع المستفيض والتانيث قليل
لان التفرقة بين المذكر والمؤنث في الاسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب وهي في اي
اغرب لابهامه افلم يسيروا اي اقعدوا فلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين
من قبلهم من الامم المهلكة وقوله تعالى كانوا اكثر منهم واشد قوة الخ استيناف
مسوق لبيان مبادي احوالهم وعواقبها وآثارا في الارض باقية بعدهم من الابنية
والقصور والمصانع وقيل هي آثار اقدامهم في الارض لعظم اجرامهم فما اغنى عنهم ما
كانوا يكسبون ما الاولى نافية او استفهامية منصوبة باغنى والثانية موصولة او مصدرية
مرفوعة اي لم يغن عنهم او اي شيء اغنى عنهم مكسوبهم او كسبهم فلما جاءتهم رسلهم
بالبينات بالمعجزات او بالآيات الواضحة فرحوا بما عندهم من العلم اي اظهروا الفرح
بذلك وهو ما لهم من العقائد الزائغة والشبه الداحضة وتسميتها علما للتهكم بهم او
علم الطبايع والتنجيم والصنائع ونحو ذلك او هو الانبياء الذي اظهره رسلهم على ان معنى
فرحهم به ضحكهم منه واستهزاؤهم به ويؤيده قوله تعالى وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن
وقيل الفرح ايضا للرسل فانهم لما شاهدوا تمادي جهلهم وسوء عاقبتهم فرحوا بما
اوتوا من العلم المؤدي الى حسن العاقبة وشكروا الله عليه وحاق بالكافرين جزاء جهلهم
واستهزائهم فلما رأوا بأسنا شدة عذابنا ومنه قوله تعالى بعذاب بئيس قالوا آمنا بالله
وحده وكفرنا بما كنا به مشركين يعنون الاصنام فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا
اي عند رؤية عذابنا لامتناع قبوله حينئذ ولذلك قيل فلم يك بمعنى لم يصح ولم يستقم والفاء
الاولى لبيان عاقبة كثرتهم وشدة قوتهم وما كانوا يكسبون بذلك زعما منهم ان ذلك
يغني عنهم فلم يترتب عليه الا عدم الاغناء فبهذا الاعتبار جرى مجرى النتيجة وان كان
عكس الغرض ونقيض المطلوب كما في قولك وعظته فلم يتعظ والثانية تفسير وتفصيل لما
ابهم واجمل من عدم الاغناء وقد كثر في الكلام مثل هذه الفاء ومبناها على ان التفسير
بعد الابهام والتفصيل بعد الاجمال والثالثة لمجرد التعقيب وجعل ما بعدها تابعا لما قبلها واقعا
عقيبه لان مضمون قوله تعالى فلما جاءتهم الخ هو انهم كفروا فصار مجموع الكلام بمنزلة ان
يقال فكفروا ثم لما رأوا بأسنا آمنوا والرابعة للعطف على آمنوا كانه قيل فآمنوا فلم ينفعهم لان
النافع هو الايمان الاختياري سنة الله التي قد خلت في عباده اي سن الله تعالى ذلك سنة ماضية
في العباد وهو من المصادر المؤكدة وخسر هنالك الكافرون اي وقت رؤيتهم البأس
على انه اسم مكان قد استعير للزمان كما سلف آنفا عن رسول الله صلعم من قرأ
سورة المؤمن لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن الا صلى عليه واستغفر له

سورة فصلت مكية وهي خمسون آية بسم الله الرحمن الرحيم

حم ان جعل اسما للسورة فهو اما خبر لمبتدأ محذوف وهو الاظهر لما مر مرارا او مبتدأ
خبره تنزيل وهو على الاول خبر بعد خبر وخبر لمبتدأ محذوف وان جعل مسرودا على نمط التعديد فقوله
تعالى من الرحمن الرحيم متعلق به مؤكد لما افاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية
او خبر آخر او تنزيل مبتدأ لتخصصه بالصفة خبره كتاب وهو على الوجوه الاول بدل منه او خبر

آخر

آخر او خبر لمحذوف وفي نسبة التنزيل الى الرحمن الرحيم للايذان بانه مدار للمصالح الدينية و
الدنيوية واقع بمقتضى الرحمة الربانية حسبما ينبئ عنه قوله تعالى وما ارسلناك الا رحمة للعالمين
فصلت آياته ميزت بحسب النظم والمعنى وجعلت تفاصيل في اساليب مختلفة ومعان متغايرة
من احكام وقصص ومواعظ ووعد ووعيد وقرئ فصلت اي فرقت بين الحق والباطل
او فصل بعضها من بعض باختلاف الاساليب والمعاني من قولك فصل من البلد فصولا قرآنا
عربيا نصب على المدح او الحالية من كتاب لتخصصه بالصفة او من آياته لقوم يعلمون اي
معانيه لكونه على لسانهم وقيل لاهل العلم والنظر لانهم المنتفعون به واللام متعلقة
بمحذوف هو صفة اخرى لقرآنا اي كائنا لقوم الخ او بتنزيل على ان من الرحمن الرحيم ليست
بصفة له او بفصلت بشيرا ونذيرا صفتان اخريان لقرآنا اي بشيرا لاهل الطاعة و
نذيرا لاهل المعصية او حالان من كتاب او من آياته وقرئا بالرفع على الوصفية لكتاب
او الخبرية لمحذوف فاعرض اكثرهم عن تدبره مع كونه على لغتهم فهم لا يسمعون
سماع تفكر وتأمل حتى يفهموا جلالة قدره فيؤمنوا به وقالوا اي لرسول الله صلعم
عند دعوته اياهم الى الايمان والعمل بما في القرآن قلوبنا في اكنة اي اغطية متكاثفة
مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر اي صمم واصله الثقل وقرئ بالكسر وقرئ بفتح القاف
ومن بيننا وبينك حجاب غليظ يمنعنا عن التواصل ومن للدلالة على ان الحجاب مبتدأ
من الجانبين بحيث استوعب ما بينهما من المسافة المتوسطة ولم يبق ثمة فراغ اصلا وهذه
تمثيلات لنبو قلوبهم عن ادراك الحق وقبوله ومج اسماعهم له كان بها صمما وامتناع
مواصلتهم وموافقتهم للرسول صلعم فاعمل اي على دينك وقيل في ابطال امرنا اننا عاملون
اي على ديننا وقيل في ابطال امرك والاول هو الاظهر فان قوله تعالى قل انما انا بشر مثلكم يوحى
الي انما الهكم اله واحد تلقين للجواب عنه اي لست من جنس مغاير لكم حتى يكون بيني و
بينكم حجاب وتباين مصحح لتباين الاعمال والاديان كما ينبئ عنه قولكم فاعمل اننا عاملون بل انما
انا بشر مثلكم مأمور بما امرتم به حيث اخبرنا جميعا بالتوحيد بخطاب جامع بيني وبينكم
فان الخطاب في الهكم محكي منتظم للكل لا انه خطاب منه عليه السلام للكفرة كما في مثلكم
وقيل المعنى لست ملكا ولا جنيا لا يمكنكم التلقي منه ولا ادعوكم الى ما تنبو عنه العقول
والاسماع وانما ادعوكم الى التوحيد والاستقامة في العمل وقد يدل عليهما دلائل العقل وشواهد
النقل وقيل المعنى اني لست ملكا وانما انا بشر مثلكم وقد اوحي الي دونكم فصحت بالوحي الي
وانا بشر نبوتي واذا صحت نبوتي وجب عليكم اتباعي فتأمل والفاء في قوله تعالى فاستقيموا اليه
لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ايحاء الوحدانية فان ذلك موجب لاستقامتهم اليه تعالى
بالتوحيد والاخلاص في الاعمال واستغفروه مما كنتم عليه من سوء العقيدة والعمل و
قوله تعالى وويل للمشركين ترهيب وتنفير لهم عن الشرك اثر ترغيب في التوحيد ووصفهم بقوله
تعالى الذين لا يؤتون الزكوة لزيادة التحذير والتخويف عن منع الزكوة حيث جعل من
اوصاف المشركين وقرن بالكفر بالآخرة حيث قيل وهم بالآخرة هم كافرون وهو عطف على
لا يؤتون داخل في حيز الصلة واختلافهما بالفعلية والاسمية لما ان عدم ايتائها متجدد
والكفر امر مستمر ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما انه فسر لا يؤتون الزكوة بقوله لا يقولون لا اله الا الله
فانها زكوة الانفس والمعنى لا يطهرون انفسهم من الشرك بالتوحيد وهو مأخوذ من قوله تعالى
ونفس وما سواها وقال الضحاك ومقاتل لا ينفقون في الطاعة ولا يتصدقون وقال مجاهد
لا يزكون اعمالهم ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم اجر غير ممنون اي لا يمن به عليهم
من المن واصله الثقل او لا يقطع من مننت الحبل قطعته وقيل نزلت في المرضى والهرمى اذا
عجزوا عن الطاعة كتب لهم الاجر كاصح ما كانوا يعملون قل ائنكم لتكفرون انكار وتشنيع لكفرهم
وان واللام اما لتاكيد الانكار وتقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة لا لانكار التاكيد واما
للاشعار بان كفرهم من البعد بحيث ينكره العقلاء وقوعه فيحتاج الى التاكيد وانما علق
كفرهم بالموصول حيث قيل بالذي خلق الارض في يومين لتفخيم شانه تعالى واستعظام كفرهم
به اي بالعظيم الشان الذي قدر وجودها اي حكم بانها ستوجد في مقدار يومين او في نوبتين

على ان ما يوجد فى كل نوبة يوجد باسرع ما يكون والايام الحقيقى انما يتحقق بعد وجودها وتسوية السموات وابداع نيراتها وترتيب حركاتها **وتجعلون له اندادا** عطف على تكفرون داخل فى حكم الانكار والتوبيخ وجمع الانداد باعتبار ما هو الواقع لا بان يكون مدار الانكار هو التعدد اى وتجعلون له اندادا والحال انه لا يمكن ان يكون له ند واحد **ذلك** اشارة الى الموصوف باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد منزلته فى العظمة وافراد الكاف لما مر مرارا من ان المراد ليس تعيين المخاطبين وهو مبتدأ خبره ما بعده اى ذلك العظيم الشان الذى فعل ما ذكر **رب العالمين** اى خالق جميع الموجودات ومربيها دون الارض خاصة فكيف يتصور ان يكون احسن مخلوق فانه ندا له وقوله تعالى **وجعل فيها رواسى** عطف على خلق داخل فى حكم الصلة والجعل ابداعى وحديث لزوم الفصل بينهما بجملتين خارجتين عن حيز الصلة مدفوع بان الاولى متحدة بقوله تعالى تكفرون فهو بمنزلة الاعادة له والثانية اعتراضية مقررة لمضمون الكلام بمنزلة التاكيد فالفصل بهما كلا فصل على ان فيه فائدة التنبيه على ان مجرد المعطوف عليه كاف فى كفوء ربوبيته للعالمين واستحالة ان يجعل له ند فكيف اذا انضم اليه المعطوفات وقيل هو عطف على مقدر اى خلقها وجعل الخ وقيل كلام مستانف وايا ما كان فالمراد تقدير الجعل لا الجعل بالفعل وقوله تعالى **من فوقها** متعلق بجعل او بمضمر هو صفة لرواسى اى كائنة من فوقها مرتفعة عليها ليكون منافعها معرضة لاهلها ويظهر للنظار ما فيها من مراصد الاعتبار ومطارح الافكار **وبارك فيها** اى قدر ان يكثر خيرها بان يخلق انواع الحيوان التى من جملتها الانسان واصناف النبات التى منها معايشهم **وقدر فيها اقواتها** اى حكم بالفعل بان يوجد فيما سيأتى لاهلها من الانواع المختلفة اقواتها المناسبة لها على مقدار معين يقتضيه الحكمة وقرئ وقسم فيها اقواتها **فى اربعة ايام** متعلق بحصول الامور المذكورة لا بتقديرها اى قدر حصولها فى يومين وانما قيل فى اربعة ايام اى تتمة اربعة ايام تصريحا بالفذلكة **سواء** مصدر موكد لمضمر هو صفة لايام اى استوت سواء اى استواء كما ينبئ عنه القراءة بالجر وقيل هو حال من الضمير فى اقواتها او فى فيها وقرئ بالرفع اى هى سواء **للسائلين** متعلق بمحذوف تقديره هذا الحصر للسائلين عن مدة خلق الارض وما فيها او بقدر اى قدر فيها اقواتها لاجل السائلين اى الطالبين لها المحتاجين اليها من المقتاتين وقوله تعالى **ثم استوى الى السماء** شروع فى بيان كيفية التكوين اثر بيان كيفية التقدير ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالارض واهلها لما ان بيان اعتنائه تعالى بامر المخاطبين وترتيب مبادى معايشهم قبل خلقهم مما يحملهم على الايمان ويزجرهم عن الكفر والطغيان اى ثم قصد نحوها قصدا سويا لا يلوى على غيره **وهى دخان** اى امر ظلمانى عبر به عن مادتها او عن الاجزاء المتصغرة التى ركبت هى منها او دخان مرتفع من الماء كما سيأتى وانما خص الاستواء بالسماء مع ان الخطاب المترتب عليه متوجه اليهما معا حسبما ينطق به قوله تعالى **فقال لها وللارض** اكتفاء بذكر تقديرها وتقدير ما فيها كانه قيل فقال لها وللارض التى قدر وجودها ووجود ما فيها **ائتيا** اى كونا واحدثا على وجه معين وفى وقت مقدر لكل منكما وهو عبارة عن تعلق ارادته تعالى بوجودهما تعلقا فعليا بطريق التمثيل بعد تقدير امرهما من غير ان يكون هناك امر ومامور كما فى قوله تعالى كن وقوله تعالى **طوعا او كرها** تمثيل لتحتم تاثير قدرته تعالى فيهما واستحالة امتناعهما من ذلك لا اثبات الطوع والكره لهما وهما مصدران وقعا موقع الحال اى طائعين او كارهين وقوله تعالى **قالتا اتينا طائعين** اى منقادين تمثيل لكمال تاثرهما بالذات عن القدرة الربانية وحصولهما كما امرتا به وتصوير لكون وجودهما كما هما عليه جاريا على مقتضى الحكمة البالغة فان الطوع منبئ عن ذلك والكره موهم لخلافه وانما قيل طائعين باعتبار كونهما فى معرض الخطاب والجواب كقوله تعالى ساجدين وقوله تعالى **فقضاهن سبع سموات** تفسير وتفصيل لتكوين السماء المجمل المعبر عنه بالامر وجوابه لا انه فعل مترتب على تكوينها اى خلقهن خلقا ابداعيا واتقن امرهن حسبما يقتضيه الحكمة والضمير اما للسماء على المعنى او مبهم وسبع سموات حال على الاول تمييز على الثانى **فى يومين** فى وقت مقدر بيومين وقد بين مقدار زمان

خلق الارض وخلق ما فيها عند بيان تقديرهما فكان خلق الكل فى ستة ايام حسبما نص عليه فى مواقع من التنزيل **واوحى فى كل سماء امرها** عطف على قضاهن اى خلق فى كل منها ما فيها من الملئكة والنيرات وغير ذلك مما لا يعلمه الا الله كما قاله قتادة والسدى فالوحى عبارة عن التكوين كالامر مقيد بما قيد به المعطوف عليه من الوقت او اوحى الى اهل كل منها اوامره وكلفهم ما يليق بهم من التكاليف فهو بمعناه ومطلق عن القيد المذكور وايا ما كان فعلى ما قرر من التفصيل لا دلالة فى الاية الكريمة على الترتيب بين ايجاد الارض وايجاد السماء وانما الترتيب بين التقدير والايجاد واما على تقدير كون الخلق وما عطف عليه من الافعال الثلثة على معانيها الظاهرة فهى وما فى سورة البقرة من قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسويهن سبع سموات تدلان على تقدم خلق الارض وما فيها على خلق السماء وما فيها وعليه اطباق اهل التفسير وقد روى ان العرش الاعظم كان قبل خلق السموات والارض على الماء ثم انه تعالى احدث فى الماء اضطرابا فازبد فارتفع منه دخان فاما الزبد فبقى على وجه الماء فخلق فيه اليبوسة فجعله ارضا واحدة ثم فتقها فجعلها ارضين واما الدخان فارتفع وعلى فخلق منه السموات وروى انه تعالى خلق جرم الارض يوم الاحد ويوم الاثنين ودحاها وخلق ما فيها يوم الثلثاء ويوم الاربعاء وخلق السموات وما فيهن يوم الخميس ويوم الجمعة وخلق آدم عليه السلام فى آخر ساعة منه وهى الساعة التى تقوم فيها القيمة وقيل ان خلق جرم الارض مقدم على خلق السموات لكن دحوها وخلق ما فيها مؤخر عنه لقوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها ولما روى عن الحسن رحمه الله من انه تعالى خلق الارض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليه دخان ملتزق بها ثم اصعد الدخان وخلق منه السموات وامسك الفهر فى موضعها وبسط منها الارض وذلك قوله تعالى كانتا رتقا ففتقناهما الاية وليس المراد بنظمها مع السماء فى سلك الامر بالاتيان انشاؤها وامداثها بل انشاء دحوها وجعلها على وجه خاص يليق بها من شكل ووصف مخصوص كانه قيل ائتيا على ما ينبغى ان تأتيا عليه ائتى يا ارض مدحوة قرارا ومهادا لاهلك وائتى يا سماء مقببة سقفا لهم ومعنى الاتيان الحصول على ذلك الوجه كما ينبئ عنه قراءة آتيا وآتينا من المواتاة وهى الموافقة وانت خبير بان المذكور قبل الامر بالاتيان ليس مجرد خلق جرم الارض حتى يتاتى ما ذكر بل خلق ما فيها ايضا من الامور المتاخرة عن دحوها قطعا فالاظهر ان يسلك مسلك الاولين ويحمل الامر بالاتيان على تكوينهما متوافقتين على الوجه المذكور وليس من ضرورته ان يكون دحوها مترتبا على ذلك التكوين وانما اللازم ترتب حصوله المتوافق عليه ولا ريب فى ان تكوين السماء على الوجه اللائق بها كاف فى حصوله ولا يقدح فى ذلك تكوين الارض على الوجه المذكور قبل ذلك وان يجعل الارض فى قوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها منصوبا بمضمر قد حذف على شريطة التفسير ويجعل ذلك اشارة الى ذكر ما ذكر من بناء السماء ورفع سمكها وتسويتها وغيرها او الى انفسها ويحمل البعدية اما على انه قاصر عن الاول فى الدلالة على القدرة القاهرة كما قيل واما على انه ادخل فى الالزام لما ان المنافع المنوطة بما فى الارض اكثر وتعلق مصالح الناس بذلك اظهر واحاطتهم بتفاصيلها اكمل وليس ما روى عن الحسن رضى الله عنه نصا فى تأخر دحو الارض عن خلق السماء فان بسط الارض معطوف على اصعاد الدخان وخلق السماء بالواو ولا دلالة فى ذلك على الترتيب قطعا وقد نقل الامام الواحدى عن مقاتل رحمه الله تعالى ان خلق السماء مقدم على ايجاد الارض فضلا عن دحوها فلا بد من حمل الامر باتيانهما حينئذ ايضا على ما ذكر من التواتى والمواتاة ولا يقدح فى ذلك تقدم خلق السماء على خلق الارض كما لم يقدح فيه تقدم خلق الارض على خلق السماء هذا كله على تقدير كون كلمة ثم للتراخى الزمانى واما على تقدير كونها للتراخى الرتبى كما جنح اليه الاكثر فلا دلالة فى الاية الكريمة على الترتيب كما فى الوجه الاول على ذلك بنى الكلام فى تفسير قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا الاية وانما لم يحمل الخلق هناك على معنى التقدير كما حمل عليه ههنا لتوفيه مقام الامتنان حقه **وزينا السماء الدنيا بمصابيح** من الكواكب فانها كلها ترى متلالئة عليها كانها فيها والالتفات الى نون العظمة

في الدلالة

لابراز مزيد العناية بالامر وقوله تعالى وحفظا مصدر مؤكد لفعل معطوف على زينا اى و
حفظناها من الآفات او من المسترقة حفظا وقيل مفعول له على المعنى كانه قيل وخلقنا
المصابيح زينة وحفظا ذلك الذى ذكر بتفاصيله تقدير العزيز العليم البالغ فى القدرة
والعلم فان اعرضوا متصل بقوله تعالى قل ائنكم الخ اى فان اعرضوا عن التدبر فيما ذكر من
عظائم الامور الداعية الى الايمان او عن الايمان بعد هذا البيان فقل لهم انذرتكم
وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الانذار المنبئ عن تحقق المنذر صاعقة اى عذابا هائلا
شديد الوقع كانه صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود وقرئ صعقة مثل صعقة عاد وثمود
وهى المرة من الصعق او الصعوق يقال صعقته الصاعقة صعقا فصعق صعقا وهو من باب
فعلته ففعل اذ جاءتهم الرسل حال من صاعقة عاد ولا سداد لجعله ظرفا لانذرتكم
او صفة لصاعقة لفساد المعنى واما جعله صفة لصاعقة عاد اى الكائنة اذ جاءتهم ففيه
حذف الموصول مع بعض صلته من بين ايديهم ومن خلفهم متعلق بجاءتهم اى
من جميع جوانبهم واجتهدوا بهم من كل جهة او من جهة الزمان الماضى بالانذار عما
جرى فيه على الكفار او من جهة المستقبل بالتحذير عما سيحيق بهم من عذاب الدنيا ومن
عذاب الاخرة وقيل المعنى جاءتهم الرسل المتقدمون والمتاخرون على تنزيل مجئ كلامهم
ودعوتهم الى الحق منزلة مجئ انفسهم فان هودا وصالحا كانا داعيين لهم الى الايمان بهما
وبجميع الرسل ممن جاء من بين ايديهم اى من قبلهم وممن يجئ من خلفهم اى من بعدهم
فكان الرسل قد جاؤهم وخاطبوهم بقوله تعالى الا تعبدوا الا الله اى بان لا تعبدوا على
ان مصدرية او ان لا تعبدوا على انها مفسرة قالوا لو شاء الله ربنا اى ارسال الرسل
لا انزال الملئكة كما قيل فانه عار عن افادة ما ارادوه من نفى رسالة البشر وقد مر فيما سلف
لانزل ملائكة اى لارسلهم لكن لما كان ارسالهم بطريق الانزال قيل لانزل فانا بما ارسلتم
به اى على زعمكم وفيه ضرب تهكم بهم كافرون لما انكم بشر مثلنا من غير فضل لكم علينا
روى ان ابا جهل قال فى ملاء من قريش قد التبس علينا امر محمد فلو التمستم لنا رجلا عالما
بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم اتانا ببيان من امره فقال عتبة بن ربيعة والله لقد سمعت الشعر
والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علما وما يخفى على فاتاه فقال انت يا محمد خير ام هاشم انت
خير ام عبد المطلب انت خير ام عبد الله فبم تشتم آلهتنا وتضللنا فان كنت تريد الرياسة
عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا وان تك بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن اى بنات قريش
شئت وان كان بك المال جمعنا لك ما تستغنى ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت فلما فرغ عتبة
قال صلى الله عليه وسلم بسم الله الرحمن الرحيم الى قوله تعالى مثل صاعقة عاد و
ثمود فامسك عتبة على فيه عليه السلام وناشده بالرحم ورجع الى اهله ولم يخرج الى
قريش فلما احتبس عنهم قالوا ما نرى عتبة الا قد صبأ فانطلقوا اليه وقالوا يا عتبة ما حبسك
عنا الا انك قد صبأت فغضب ثم قال والله لقد كلمته فاجابنى بشئ والله ما هو بشعر ولا كهانة
ولا سحر ولما بلغ صاعقة عاد وثمود امسكت بفيه وناشدته بالرحم ان يكف وقد علمتم ان
محمدا اذا قال شيئا لم يكذب فخفت ان ينزل بكم العذاب فاما عاد فاستكبروا فى الارض شروع
فى حكاية ما يخص بكل واحد من الطائفتين من الجناية والعذاب اثر حكاية ما يعم
الكل من الكفر المطلق اى فتعظموا فيها على اهلها او استعلوا فيها واستولوا على اهلها
بغير الحق اى بغير استحقاق للتعظم والولاية وقالوا من اشد منا قوة مدلين بشدتهم وقوتهم
منا قوة حيث كانوا ذوى اجسام طوال وخلق عظيم وقد بلغ من قوتهم ان الرجل كان ينزع
الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده اولم يروا اى اغفلوا او لم ينظروا ولم يعلموا علما جليا
شبيها بالمشاهدة والعيان ان الله الذى خلقهم هو اشد منهم قوة اى قدرة فانه
تعالى قادر بالذات مقتدر على ما لا يتناهى قوى على ما لا يقدر عليه غيره مفيض للقوى والقدر
على كل قوى وقادر وايرادنا ورد فى حيز الصلة خلقهم دون خلق السموات والارض لادعائهم
الشدة فى القوة وفيه ضرب من التهكم بهم وكانوا باياتنا المنزلة على الرسل عليهم السلام
يجحدون اى ينكرونها وهم يعرفون حقيتها وهو عطف على فاستكبروا وكقوله تعالى وقالوا

ومابينهما اعتراض للرد على كلمتهم الشنعاء فارسلنا عليهم ريحا صرصرا اى باردة تهلك
وتحرق بشدة بردها من الصر وهو البرد الذى يصر اى يجمع ويقبض او عاصفة تصوت
فى هبوبها من الصرير فى ايام نحسات جمع نحسة من نحس نحسا نقيض سعد سعدا
وقرئ بالسكون على التخفيف او على انه نعت على فعل او وصف بمصدر مبالغة قيل كن آخر
شوال من الاربعاء الى الاربعاء وما عذب قوم الا فى يوم الاربعاء لنذيقهم عذاب الخزى
فى الحيوة الدنيا وقرئ لتذيقهم على اسناد الاذاقة الى الريح او الى الايام واضيف
العذاب الى الخزى الذى هو الذل والاستكانة على انه وصف له كما يعرب عنه قوله تعالى
ولعذاب الآخرة اخزى وهو فى الحقيقة وصف للمعذب وقد وصف به العذاب للمبالغة
وهم لا ينصرون بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه واما ثمود فهديناهم
فدللناهم على الحق بنصب الايات التكوينية وارسال الرسل وانزال الايات التشريعية وازحنا
عللهم بالكلية وقد مر تحقيق معنى الهدى فى تفسير قوله تعالى هدى للمتقين وقرئ ثمود
بالنصب بفعل يفسره ما بعده ومنونا فى الحالين وبضم الثاء فاستحبوا العمى على الهدى اى
اختاروا الضلالة على الهداية فاخذتهم صاعقة العذاب الهون داهية العذاب وقارعة
العذاب والهون الهوان وصف به العذاب مبالغة او ابدل منه بما كانوا يكسبون من اختيار
الضلالة ونجينا الذين امنوا وكانوا يتقون من تلك الصاعقة ويوم يحشر اعداء الله
شروع فى بيان عقوباتهم الآجلة اثر بيان عقوباتهم العاجلة والتعبير عنهم باعداء الله
تعالى لذمهم والايذان بعلة ما يحيق بهم من الوان العذاب وقيل المراد بهم الكفار من
الاولين والآخرين ويرده ما سيأتى من قوله تعالى فى امم قد خلت من قبلهم من الجن والانس
وقرئ يحشر على بناء الفاعل ونصب اعداء الله تعالى وبنون العظمة وضم الشين و
كسرها الى النار اى الى الموقف للحساب اذ هناك يتحقق الشهادة الآتية لا بعد تمام السؤال
والجواب وسوقهم الى النار والتعبير عنه بالنار اما للايذان بانها عاقبة حشرهم وانهم على
شرف دخولها واما لان حسابهم يكون على شفيرها ويوم اما منصوب باذكر او ظرف لمضمر
مؤخر قد حذف ايهاما لقصور العبارة عن تفصيله كما مر فى قوله تعالى يوم يجمع الله
الرسل وقيل ظرف لما يدل عليه قوله تعالى فهم يوزعون اى يحبس اولهم على آخرهم
ليتلاحقوا وهو عبارة عن كثرتهم وقيل يساقون ويدفعون الى النار وقوله تعالى
حتى اذا ما جاؤها اى جميعا غاية ليحشروا وليوزعون اى حتى اذا حضروها وما مزيدة
لتاكيد اتصال الشهادة بالحضور شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم
بما كانوا يعملون فى الدنيا من فنون الكفر والمعاصى بان ينطقها الله تعالى ويظهر عليها
آثار ما اقترفوا بها وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان المراد بشهادة الجلود شهادة
الفروج وهو الانسب بتخصيص السؤال بها فى قوله تعالى وقالوا لجلودهم لم شهدتم
علينا فان ما تشهد به من الزنا اعظم جناية وقبحا واجلب للخزى والعقوبة مما
يشهد به السمع والابصار من الجنايات المكتسبة بتوسطهما وقيل المراد بالجلود
الجوارح اى سألوها سؤال توبيخ لما روى انهم قالوا لها فعنكن كنا نناضل وفى رواية
بعدا لكن وسحقا عنكن كنت اجادل وصيغة جمع العقلاء فى خطاب الجلود وفى قوله
قالوا انطقنا الله الذى انطق كل شئ لوقوعها فى موقع السؤال والجواب المختصين
بالعقلاء اى انطقنا الله الذى انطق كل ناطق واقدرنا على بيان الواقع فشهدنا عليكم
بما عملتم بواسطتنا من القبائح وما كتمناها وقيل ما نطقنا باختيارنا بل انطقنا الله
الذى انطق كل شئ وليس بذاك لما فيه من ايهام الاضطرار فى الاخبار وقيل سألوها
سؤال تعجب فالمعنى حينئذ وليس نطقنا بعجب من قدرة الله الذى انطق كل حى وهو
خلقكم اول مرة واليه ترجعون فان من قدر على خلقكم وانشائكم اولا وعلى
اعادتكم ورجعكم الى جزائه ثانيا لا يتعجب من انطاقه لجوارحكم ولعل صيغة المضارع
مع ان هذه المحاورة بعد البعث والرجع لما ان المراد بالرجع ليس مجرد الرد الى الحيوة بالبعث
بل ما يعمه وما يترتب عليه من العذاب الخالد المترقب عند التخاطب على تغليب المتوقع على الواقع

على ان فيه مراعاة الفواصل وقوله تعالى وما كنتم تستترون ان يشهد عليكم سمعكم ولا ابصاركم
ولا جلودكم حكاية لما سيقال لهم يومئذ من جهته تعالى بطريق التوبيخ والتقريع تقريرًا
لجواب الجلود اى ما كنتم تستترون فى الدنيا عند مباشرتكم الفواحش مخافة ان تشهد عليكم
جوارحكم بذلك كما كنتم تستترون الناس مخافة الافتضاح عندهم بل كنتم جاحدين
بالبعث والجزاء رأسًا ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيرًا مما تعملون من القبائح المخفية فلا
يظهرها فى الآخرة ولذلك اجترأتم على ما فعلتم وفيه ايذان بان شهادة الجوارح باعلامه
تعالى حينئذ لا بانها كانت عالمة بما شهدت به عند صدوره عنهم عن ابن مسعود رضى الله
تعالى عنه كنت مستترًا باستار الكعبة فدخل ثلثة نفر ثقفيان وقرشى او قرشيان وثقفى فقال
احدهم اترون ان الله يسمع ما نقول قال آخر يسمع ان جهرنا ولا يسمع ان اخفينا فذكرت
ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فانزل الله تعالى وما كنتم تستترون الآية فالحكم المحكى حينئذ يكون
خاصًا بمن كان على ذلك الاعتقاد من الكفرة ولعل الانسب ان يراد بالظن معنى مجازى
يعم معناه الحقيقى وما يجرى مجراه من الاعمال المنبئة عنه كما فى قوله يحسب ان ماله اخلده
ليعم ما حكى من الحال جميع اصناف الكفرة فتدبر وذلكم اشارة الى ما ذكر من ظنهم وما فيه
من معنى البعد للايذان بغاية بعد منزلته فى الشر والسوء وهو مبتدأ وقوله تعالى ظنكم الذى
ظننتم بربكم ارداكم خبران له ويجوز ان يكون ظنكم بدلا وارداكم خبرًا فاصبحتم بسبب
ذلك الظن السوء الذى اهلككم من الخاسرين اذ صار ما منحوا لنيل سعادة الدارين
سببًا لشقاء النشأتين فان يصبروا فالنار مثوى لهم اى محل ثواء واقامة ابدية
لهم بحيث لا براح لهم منها والالتفات الى الغيبة للايذان باقتضاء حالهم ان يعرض عنهم
ويحكى سوء حالهم لغيرهم او للاشعار بابعادهم عن حيز الخطاب والقائهم فى غيابة دركات
النار وان يستعتبوا اى يسألوا العتبى وهو الرجوع الى ما يحبونه جزعًا مما هم فيه
فما هم من المعتبين المجابين اليها ونظيره قوله تعالى سواء علينا اجزعنا ام صبرنا ما لنا من
محيص وقرئ وان يستعتبوا فما هم من المعتبين اى ان يسألوا ان يرضوا ربهم فما هم
فاعلون لفوات المكنة وقيضنا لهم اى قدرنا وقرنا للكفرة فى الدنيا قرناء جمع قرين
اى اخدانا من الشياطين يستولون عليهم استيلاء القيض على البيض وهو القشر وقيل
اصل القيض البدل ومنه المقايضة للمعاوضة فزينوا لهم ما بين ايديهم من امور الدنيا واتباع
الشهوات وما خلفهم من امور الآخرة حيث اروهم ان لا بعث ولا حساب ولا مكروه قط
وحق عليهم القول اى ثبت وتقرر عليهم كلمة العذاب وتحقق موجبها ومصداقها
وهى قوله تعالى لابليس فالحق والحق اقول لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين
وقوله تعالى اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا كما مر مرارًا فى امم حال
من الضمير المجرور اى كائنين فى جملة امم وقيل فى بمعنى مع وهذا كما ترى صريح فى ان المراد
باعداء الله تعالى فيما سبق المعهودون من عاد وثمود لا الكفار من الاولين والآخرين كما
قيل قد خلت صفة لامم اى مضت من قبلهم من الجن والانس على الكفر والعصيان
كدأب هؤلاء انهم كانوا خاسرين تعليل لاستحقاقهم العذاب والضمير للاولين و
الآخرين وقال الذين كفروا من رؤساء المشركين لاعقابهم او قال بعضهم لبعض
لا تسمعوا لهذا القرآن اى لا تنصتوا له والغوا فيه وعارضوه بالخرافات من الرجز
والشعر والتصدية والمكاء او ارفعوا اصواتكم بها لتشوشوا على القارئ وقرئ بضم
الغين والمعنى واحد يقال لغى يلغى كلقى يلقى ولغا يلغو اذا هذى لعلكم تغلبون اى تغلبونه
على قراءته فلنذيقن الذين كفروا اى فوالله لنذيقن هؤلاء القائلين واللاغين او جميع
الكفار وهم داخلون فيها دخولا اوليًا عذابًا شديدًا لا يقادر قدره ولنجزينهم اسوأ
الذى كانوا يعملون اى جزاء سيئات اعمالهم التى هى فى نفسها اسوأ وقيل انه لا يجازيهم
بمحاسن اعمالهم كاغاثة الملهوف وصلة الارحام وقرى الاضياف لانها محبطة بالكفر
وعن ابن عباس رضى الله عنهما عذابًا شديدًا يوم بدر واسوأ الذى كانوا يعملون فى الآخرة
ذلك مبتدأ وقوله تعالى جزاء اعداء الله خبره اى ما ذكر من الجزاء جزاء معد لاعدائه تعالى

وقوله

وقوله تعالى النار عطف بيان للجزاء وذلك خبر مبتدأ محذوف اى الامر ذلك على انه عبارة
عن مضمون الجملة لا عن الجزاء وما بعده جملة مستقلة مبينة لما قبلها وقوله تعالى لهم فيها
دار الخلد جملة مستقلة مقررة لما قبلها او النار مبتدأ هى خبره اى هى بعينها دار اقامتهم
على ان فى للتجريد وهو ان ينتزع من امر ذى صفة امر آخر مثله مبالغة لكماله فيها يقال
فى البيضة عشرون منا حديد وقيل هى على معناها والمراد ان لهم فى النار المشتملة على
الدركات دارًا مخصوصة هم فيها خالدون جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون منصوب بفعل
مقدر اى يجزون جزاء او بالمصدر السابق فان المصدر ينتصب بمثله كما فى قوله تعالى فان جهنم جزاؤكم جزاء
موفورًا والباء الاولى متعلقة بجزاء والثانية بيجحدون قدمت عليه لمراعاة الفواصل اى بسبب
ما كانوا يجحدون بآياتنا الحقة او يلغون فيها وذكر الجحود لكونه سببا للغو وقال الذين
كفروا وهم متقلبون فيما ذكر من العذاب ربنا ارنا اللذين اضلانا من الجن والانس يعنون
فريقى شياطين النوعين المقيضين لهم الحاملين لهم على الكفر والمعاصى بالتسويل والتزيين
وقيل هما ابليس وقابيل فانهما سنا الكفر والقتل بغير حق وقرئ ارنا تخفيفا كفخذ فى فخذ
وقيل معناه اعطناهما وقرئ باختلاس كسرة الراء نجعلهما تحت اقدامنا اى ندسهما انتقامًا
منهما وقيل نجعلهما فى الدرك الاسفل ليكونا من الاسفلين اى ذلا ومهانة او مكانا ان
الذين قالوا ربنا الله شروع فى بيان حسن احوال المؤمنين فى الدنيا والآخرة بعد بيان سوء
حال الكفرة فيهما اى قالوه اعترافا بربوبيته تعالى واقرارًا بوحدانيته ثم استقاموا اى ثبتوا
على الاقرار ومقتضياته على ان ثم للتراخى فى الزمان او فى الرتبة فان الاستقامة لها الشان
كله وما روى عن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم فى معناها من الثبات على الايمان واخلاص
العمل واداء الفرائض بيان لجزئياتها تتنزل عليهم الملائكة من جهته تعالى يمدونهم فيما يعن
لهم من الامور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق
الالهام كما ان الكفرة يغويهم ما قيض لهم من قرناء السوء بتزيين القبائح وقيل تتنزل
عند الموت بالبشرى وقيل اذا قاموا من قبورهم وقيل البشرى فى مواطن ثلثة عند الموت وفى
القبر وعند البعث والاظهر هو العموم والاطلاق كما ستعرفه ان لا تخافوا ما تقدمون عليه
فان الخوف غم يلحق لتوقع المكروه ولا تحزنوا على ما خلفتم فانه غم يلحق لوقوعه
من فوات نافع او حصول ضار وقيل المراد نهيهم عن الغموم على الاطلاق والمعنى ان الله تعالى
كتب لكم الامن من كل غم فلن يذوقوه ابدًا وان اما مفسرة او مخففة من الثقيلة والاصل
بانه لا تخافوا والهاء ضمير الشان وقرئ لا تخافوا اى يقولون لا تخافوا اى يقولون لا تخافوا
على انه حال من الملائكة او استئناف وابشروا اى سروا بالجنة التى كنتم توعدون فى الدنيا
على السنة الرسل هذا من بشاراتهم فى احد المواطن الثلثة وقوله تعالى نحن اولياؤكم فى
الحيوة الدنيا الخ من بشاراتهم فى الدنيا اى اعوانكم فى اموركم نلهمكم الحق ونرشدكم الى
ما فيه خيركم وصلاحكم ولعل ذلك عبارة عما يخطر ببال المؤمنين المستمرين على الطاعات
من ان ذلك بتوفيق الله تعالى وتأييده لهم بواسطة الملئكة وفى الآخرة نمدكم بالشفاعة
ونتلقاكم بالكرامة حين يقع بين الكفرة وقرنائهم ما يقع من التعادى والخصام ولكم فيها
اى فى الآخرة ما تشتهى انفسكم من فنون الطيبات ولكم فيها ما تدعون ما تتمنون
افتعال من الدعاء بمعنى الطلب اى تدعون لانفسكم وهو اعم من الاول ولكم فى الموضعين
خبر وما مبتدأ وفيها حال من ضميره فى الخبر وعدم الاكتفاء بعطف ما تدعون على ما تشتهى
للاشباع فى البشارة والايذان باستقلال كل منهما نزلا من غفور رحيم حال مما تدعون
مفيدة لكون ما يتمنونه بالنسبة الى ما يعطون من عظائم الاجور كالنزل للضيف
ومن احسن قولا ممن دعا الى الله اى الى توحيده تعالى وطاعته عن ابن عباس رضى الله عنهما
هو رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الى الاسلام وعنه انهم اصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم وقيل نزلت فى المؤذنين والحق ان حكمها عام لكل من جمع ما فيها من
الخصال الحميدة وان نزلت فيمن ذكر وعمل صالحا فيما بينه وبين ربه وقال اننى من المسلمين
ابتهاجا بانه منهم واتخاذا للاسلام دينا ونحلة من قولهم هذا قول فلان اى مذهبه لانه

تكلم بذلك وقرئ اى بنون واحدة ولا تستوى الحسنة ولا السيئة جملة مستانفة سيقت
لبيان محاسن الاعمال الجارية بين العباد اثر بيان محاسن الاعمال الجارية بين العبد وبين الرب
عز وجل ترغيبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصبر على اذية المشركين ومقابلة اساءتهم
بالاحسان اى لا يستوى الخصلة الحسنة والسيئة فى الاثار والاحكام والثانية مزيدة لتاكيد
النفى وقوله تعالى ادفع بالتى هى احسن الخ استيناف مبين لحسن عاقبة الحسنة اى ادفع السيئة
حيث اعترضتك من بعض اعاديك بالتى هى احسن ما يمكن دفعها به من الحسنات كالاحسان
الى من اساء فانه احسن من العفو واخراجه مخرج الجواب عن سؤال من قال كيف اصنع للمبالغة
ولذلك وضع احسن موضع الحسنة وقوله تعالى فاذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم
بيان لنتيجة الدفع المامور به اى فاذا فعلت ذلك صار عدوك المشاق مثل الولى الشفيق
وما يلقاها اى ما يلقى هذه الخصلة والسجية التى هى مقابلة الاساءة بالاحسان الا الذين صبروا
اى شانهم الصبر وما يلقاها الا ذو حظ عظيم من الخير وكمال النفس وقيل الحظ العظيم الجنة
وقيل هو الثواب قيل نزلت فى ابى سفيان بن حرب وكان موذيا لرسول الله صلى الله
عليه وسلم فصار وليا مصافيا واما ينزغنك من الشيطان نزغ النزغ والنسغ بمعنى
واحد وهو شبه النخس شبه به وسوسة الشيطان لانها بعث على الشر وجعل نازغا
على طريقة جد جده او اريد واما ينزغنك نازغ وصفا للشيطان بالمصدر اى وان صرفك
الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتى هى احسن فاستعذ بالله من شره ولا تطعه
انه هو السميع العليم باستعاذتك العليم بنيتك او بصلاحك وفى جعل ترك الدفع
بالاحسن من اثار نزغات الشيطان مزيد تحذير وتنفير عنه ومن اياته الدالة على شونه
العظيمة الليل والنهار والشمس والقمر كل منها مخلوق من مخلوقاته مسخر لامره
لا تسجدوا للشمس ولا للقمر لانهما من جملة مخلوقاته المسخرة لامره مثلكم واسجدوا
لله الذى خلقهن الضمير للاربعة لان حكم جماعة ما لا يعقل حكم الانثى او الاناث
او لانها عبارة عن الايات وتعليق الفعل بالكل مع كفاية بيان مخلوقية الشمس والقمر
للايذان بكمال سقوطهما عن رتبة المسجودية بنظمهما فى المخلوقية فى سلك الاعراض
التى لا قيام لها بذاتها وهو السر فى نظم الكل فى سلك اياته تعالى ان كنتم اياه تعبدون
فان السجود اقصى مراتب العبادة فلا بد من تخصيصه به سبحانه وهو موضع السجود
عند الشافعى رحمه الله وعندنا آخر الاية الاخرى لانه تمام المعنى فان استكبروا عن الامتثال
فالذين عند ربك من الملئكة يسبحون له بالليل والنهار اى دائما وهم لا يسأمون
لا يفترون ولا يملون وقرئ لا يسامون بكسر الياء ومن اياته انك ترى الارض خاشعة
يابسة متطامنة مستعار من الخشوع بمعنى التذلل فاذا انزلنا عليها الماء اى المطر اهتزت
وربت اى تحركت بالنبات وانتفخت لان النبت اذا دنى ان يظهر ارتفعت له الارض
وانتفخت ثم تصدعت عن النبات وقيل تزخرفت بالنبات وقرئ ربات اى ارتفعت
ان الذى احياها بما ذكر بعد موتها لمحيى الموتى بالبعث انه على كل شئ من الاشياء
التى من جملتها الاحياء قدير مبالغ فى القدرة ان الذين يلحدون يميلون عن
الاستقامة وقرئ يلحدون فى اياتنا بالطعن فيها وتحريفها بحملها على المحامل الباطلة
لا يخفون علينا فنجازيهم بالحادهم وقوله تعالى افمن يلقى فى النار خير ام من ياتى
آمنا يوم القيمة تنبيه على كيفية الجزاء اعملوا ما شئتم من الاعمال المؤدية الى ما
ذكر من الالقاء فى النار والاتيان آمنا وفيه تهديد شديد انه بما تعملون بصير
فيجازيكم بحسب اعمالكم وقوله تعالى ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم بدل من قوله
تعالى ان الذين يلحدون الخ وخبران هو الخبر السابق وقيل مستانف وخبرها محذوف
وقال الكسائى سد مسده الخبر السابق والذكر القرآن وقوله تعالى وانه لكتاب عزيز
اى كثير المنافع عديم النظير او منيع لا يتاتى معارضته جملة حالية مفيدة لغاية شناعة
الكفر به وقوله تعالى لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه اى لا يتطرق اليه الباطل من
جهة من الجهات صفة اخرى لكتاب وقوله تعالى تنزيل من حكيم حميد خبر لمبتدا محذوف او صفة

اخرى لكتاب مفيدة لفخامته الاضافية كما ان الصفتين السابقتين مفيدتان لفخامته الذاتية
وقوله تعالى لا ياتيه الخ اعتراض عند من لا يجوز تقديم غير الصريح من الصفات على الصريح
كل ذلك لتاكيد بطلان الكفر بالقرآن وقوله تعالى ما يقال لك الخ تسلية لرسول الله صلى الله
عليه وسلم عما يصيبه من اذية الكفار اى ما يقال فى شانك وشان ما انزل اليك من القرآن
من جهة كفار قومك الا ما قد قيل للرسل من قبلك اى الا مثل ما قد قيل فى حقهم
مما لا خير فيه ان ربك لذو مغفرة لانبيائه وذو عقاب اليم لاعدائهم وقد نصر
من قبلك من الرسل وانتقم من اعدائهم وسيفعل مثل ذلك بك وباعدائك ايضا ولو
جعلناه قرآنا اعجميا جواب لقولهم هلا انزل القرآن بلغة العجم والضمير للذكر لقالوا
لولا فصلت اياته اى بينت بلساننا نفقهه وقوله تعالى ااعجمى وعربى انكار مقرر
للتخصيص والاعجمى يقال للكلام لا يفهم وللمتكلم به والياء للمبالغة فى الوصف كاحمرى
والمعنى الكلام اعجمى ورسولا او مرسل اليه عربى على ان الافراد مع كون المرسل اليهم امة
جمة لما ان المراد بيان التنافى والتنافر بين الكلام وبين المخاطب به لا بيان كون المخاطب
واحدا او جمعا وقرئ اعجمى اى كلام منسوب الى امة العجم وقرئ اعجمى على الاخبار
بان القرآن اعجمى والمتكلم او المخاطب عربى ويجوز ان يراد هلا فصلت اياته فجعل بعضها
اعجميا لافهام العجم وبعضها عربيا لافهام العرب واياما كان فالمقصود
بيان ان آيات الله تعالى على اى وجه جاءتهم وجدوا فيها متعنتا يتعللون به قل هو للذين
امنوا هدى يهديهم الى الحق وشفاء لما فى الصدور من شك وشبهة والذين
لا يؤمنون مبتدا خبره فى اذانهم وقر على ان التقدير هو اى القرآن فى اذانهم
وقر على ان وقر خبر للضمير المقدر وفى اذانهم متعلق بمحذوف وقع حالا من وقر
وهو اوفق لقوله تعالى وهو عليهم عمى وقيل خبر الموصول فى اذانهم ووقر فاعل
الظرف وقيل وقر مبتدا والظرف خبره والجملة خبر للموصول وقيل التقدير والذين
لا يؤمنون فى اذانهم منه وقر وهى جوز العطف على عاملين عطف الموصول على
الموصول الاول اى هو للاولين هدى وشفاء وللاخرين وقر فى اذانهم اولئك
اشارة الى الموصول الثانى باعتبار اتصافه بما فى حيز صلته وملاحظة ما اثبت له ومافيه
من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد منزلته فى الشر مع ما فيه من
كمال المناسبة للنداء من بعيد اى اولئك البعداء الموصوفون بما ذكر من التصام عن الحق
الذى يسمعونه والتعامى عن الايات الظاهرة التى يشاهدونها ينادون من مكان بعيد
تمثيل لهم فى عدم قبولهم واستماعهم له بمن ينادى من مسافة نائية لا يكاد يسمع
من مثلها الاصوات ولقد اتينا موسى الكتاب فاختلف فيه كلام مستانف مسوق
لبيان ان الاختلاف فى بيان الكتب عادة قديمة للامم غير مختص بقومك على منهاج قوله
تعالى ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك اى وبالله لقد اتيناه التوراة فاختلف
فيها فمن مصدق لها ومكذب وهكذا حال قومك فى شان ما آتيناك من القرآن فمن مؤمن
به وكافر ولولا كلمة سبقت من ربك فى حق امتك المكذبة وهى العدة بتاخير عذابهم
وفصل ما بينهم وبين المؤمنين من الخصومة الى يوم القيمة بنحو قوله تعالى بل الساعة
موعدهم وقوله تعالى ولكن يؤخرهم الى اجل مسمى لقضى بينهم باستيصال المكذبين
كما فعل بمكذبى الامم السالفة وانهم اى كفار قومك لفى شك منه مريب اى من القرآن
وجعل الضمير الاول لليهود والثانى للتورية مما لا وجه له من عمل صالحا بان آمن
بالكتب وعمل بموجبها فلنفسه اى فلنفسه يعمله او نفعه لنفسه لا لغيره ومن اساء
فعليها ضرره لا على غيره وما ربك بظلام للعبيد اعتراض تذييلى مقرر لمضمون
ما قبله مبنى على تنزيل ترك اثابة المحسن بعمله او اثابة الغير بعمله وتنزيل التعذيب بغير
اساءة او باساءة غيره منزلة الظلم الذى يستحيل صدوره عنه تعالى وقد مر ما فى المقام من
التحقيق والتفصيل فى سورة آل عمران وسورة الانفال اليه يرد علم الساعة اى
اذا سئل عنها يقال الله يعلم او لا يعلمها الا الله وما تخرج من ثمرات من اكمامها اى

من اى عيتها جمع كم بالكسر وهو وعاء الثمرة كجف الطلعة وقرئ من ثمرة على ارادة الجنس والجمع
لاختلاف الانواع وقد قرئ بجمع الضمير ايضا وما نافية ومن الاولى مزيدة للاستغراق وفي
احتمال ان تكون موصولة معطوفة على الساعة ومن مبينة بعيد وما تحمل من انثى ولا تضع
الا بعلمه استثناء مفرغ من اعم الاحوال اى وما يحدث شئ من
خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع ملابسا بشئ من الاشياء الا ملابسا بعلمه
المحيط ويوم يناديهم اين شركائي اى بزعمكم كما نص عليه فى قوله تعالى اين شركائي
الذين زعمتم وفيه تهكم بهم وتقريع لهم ويوم منصوب باذكر او ظرف لمضمر مؤخر
قد ترك ايذانا بقصور البيان عنه كما مر فى قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل قالوا آذناك
اى اخبرناك ما منا من شهيد من احد يشهد لهم بالشركة اذ تبرأنا منهم لما عاينا
الحال وما منا احد الا هو موحد لك اى ما منا من احد يشاهدهم لانهم ضلوا
عنهم وقيل هو قول الشركاء اى ما منا من شهيد يشهد لهم بانهم كانوا
محقين وقولهم آذناك اما لان هذا التوبيخ مسبوق بتوبيخ آخر مجاب بهذا الجواب
اولان معناه انك علمت من قلوبنا وعقائدنا الان انا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة لانه
اذا علمه من نفوسهم فكانهم اعلموه او لان معناه الانشاء لا الاخبار بايذان
قد كان قبل ذلك وضل عنهم ما كانوا يدعون اى يعبدون من قبل اى غابوا
عنهم او ظهر عدم نفعهم فكان حضورهم كغيبتهم وظنوا اى ايقنوا ما لهم من
محيص مهرب وظن معلق عنه بحرف النفي لا يسأم الانسان اى لا يمل ولا يفتر
من دعاء الخير من طلب السعة فى النعمة واسباب المعيشة وقرئ من دعاء بالخير
وان مسه الشر اى العسر والضيقة فيؤس قنوط فيه مبالغة من جهة البناء ومن
جهة التكرير ومن جهة ان القنوط عبارة عن يأس مفرط يظهر اثره فى الشخص فيتضاءل
وينكسر اى مبالغ فى قطع الرجاء من فضل الله ورحمته وهذا وصف للجنس بوصف غالب
افراده لما ان اليأس من رحمته تعالى لا يتأتى الا من الكافر وسيصرح به ولئن اذقناه رحمة
منا من بعد ضراء مسته بتفريجها عنه ليقولن هذا لى اى حقى استحقه لما لى من الفضل
والعمل او لى لا لغيرى فلا يزول عنى ابدا وما اظن الساعة قائمة اى تقوم فيما سيأتى
ولئن رجعت الى ربى على تقدير قيامها ان لى عنده للحسنى اى للحالة الحسنى من
الكرامة وذلك لاعتقاده ان ما اصابه من نعم الدنيا لاستحقاقه له وان نعم الآخرة
كذلك فلننبئن الذين كفروا بما عملوا اى لنعلمنهم بحقيقة اعمالهم حين اظهرناها بصورها
الحقيقية وقد مر تحقيقه فى سورة الاعراف عند قوله تعالى والوزن يومئذ الحق وفى قوله
تعالى انما بغيكم على انفسكم من سورة يونس عم ولنذيقنهم من عذاب غليظ لا
يقادر قدره ولا يبلغ كنهه واذا انعمنا على الانسان اعرض اى عن الشكر ونأى
بجانبه اى ذهب بنفسه وتباعد بكليته تكبرا وتعظما والجانب مجاز عن النفس كما فى
قوله تعالى فى جنب الله ويجوز ان يراد به عطفه ويكون عبارة عن الانحراف والازورار
كما قالوا ثنى عطفه وتولى بركنه واذا مسه الشر فذو دعاء عريض اى كثير مستعار
مما له عرض متسع للاشعار بكثرته واستمراره وهو ابلغ من الطويل اذ الطول اطول
الامتدادين فاذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله ولعل هذا شان بعض غير البعض الذى
حكى عنه اليأس والقنوط او شان الكل فى بعض الاوقات قل ارأيتم اى اخبرونى ان كان اى
القرآن من عند الله ثم كفرتم به مع تعاضد موجبات الايمان به من اضل ممن هو
فى شقاق بعيد اى من اضل منكم فوضع الموصول موضع الضمير شرحا لحالهم وتعليلا
لمزيد ضلالهم سنريهم آياتنا الدالة على حقيته وكونه من عند الله فى الآفاق
هو ما اخبرهم النبى صلى الله عليه وسلم من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية وما
يسر الله تعالى له ولخلفائه من الفتوح والظهور على آفاق الدنيا والاستيلاء على بلاد
المشارق والمغارب على وجه خارق للعادة وفى انفسهم هو ما ظهر فيما بين اهل مكة
وما حل بهم وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى الآفاق اى منازل الامم الخالية وآثارهم

وفى انفسهم

وفى انفسهم يوم بدر وقال مجاهد والحسن والسدى فى الآفاق ما يفتح الله من القرى
عليه عليه السلام والمسلمين وفى انفسهم فتح مكة وقيل فى الآفاق اى فى اقطار السموات
والارض من الشمس والقمر والنجوم وما يترتب عليها من الليل والنهار والاضواء
والظلال والظلمات ومن النبات والاشجار والانهار وفى انفسهم من لطيف
الصنعة وبديع الحكمة فى تكوين الاجنة فى ظلمات الارحام وحدوث الاعضاء العجيبة
والتركيبات الغريبة كقوله تعالى وفى انفسكم افلا تبصرون واعتذر بان معنى السين مع
ان اراءة تلك الآيات قد حصلت قبل ذلك انه تعالى سيطلعهم على تلك الآيات زمانا
فزمانا ويزيدهم وقوفا على حقائقها يوما فيوما حتى يتبين لهم بذلك انه الحق
اى القرآن او الاسلام او التوحيد اولم يكف بربك استئناف وارد لتوبيخهم على ترددهم
فى شان القرآن وعنادهم المحوج الى اراءة الآيات وعدم اكتفائهم باخباره تعالى
والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى الم يغن ولم يكف ربك
والباء مزيدة للتاكيد ولا يكاد يزاد الا مع كفى وقوله تعالى انه على كل شئ شهيد بدل
منه اى الم يغنهم عن اراءة الآيات الموعودة المبينة لحقية القرآن ولم يكفهم فى ذلك
انه تعالى شهيد على جميع الاشياء وقد اخبر انه من عنده ان هذا الموعود من اظهار
آيات الله فى الآفاق وفى انفسهم سيرونه ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك ان
القرآن تنزيل عالم الغيب الذى هو على كل شئ شهيد اى مطلع يستوى عنده غيبه وشهادته
فيكفيهم ذلك دليلا على انه حق وانه من عنده ولو لم يكن كذلك لما قوى هذه القوة ولما نصر
حاملوه هذه النصرة فتأمل واما ما قيل من ان المعنى اولم يكفك انه تعالى على كل شئ
شهيد محقق له فيحقق امرك باظهار الآيات الموعودة كما حقق سائر الاشياء الموعودة ففيه
اشعار ربما لا يليق بجلالة منصبه عليه السلام من التردد فيما ذكر من تحقيق الموعود ورده
قوله تعالى الا انهم فى مرية من لقاء ربهم اى فى شك عظيم من ذلك بالبعث والجزاء
فانه صريح فى ان عدم الكفاية معتبر بالنسبة اليهم وقرئ مرية بالضم وهى لغة فيها
الا انه بكل شئ محيط عالم بجميع الاشياء جملها وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها فلا
يخفى عليه خافية منهم وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم لا محالة عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة السجدة اعطاه الله تعالى بكل حرف عشر حسنات

سورة الشورى مكية وهى ثلاث وخمسون آية بسم الله الرحمن الرحيم

حم عسق اسما للسورة ولذلك فصل بينهما وعدا آيتين وقيل اسم واحد فالفصل ليناسب
سائر الحواميم وقرئ حم سق فعلى الاول هما خبران لمبتدأ محذوف وقيل حم مبتدأ وعسق
خبره وعلى الثانى الكل خبر واحد وقوله تعالى كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله
العزيز الحكيم كلام مستأنف وارد لتحقيق ان مضمون السورة موافق لما فى تضاعيف سائر
الكتب المنزلة على الرسل المتقدمة فى الدعوة الى التوحيد والارشاد الى الحق او ان ايحاءها
مثل ايحائها بعد تنويهها بذكر اسمها والتنبيه على فخامة شانها والكاف فى حيز النصب على انه
مفعول ليوحى على الاول وعلى انه نعت لمصدر مؤكد له على الثانى وذلك على الاول
اشارة الى ما فيها وعلى الثانى الى ايحائها وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبة المشار
اليه وبعد منزلته فى الفضل اى مثل ما فى هذه السورة من المعانى اوحى اليك فى سائر
السور والى من قبلك من الرسل فى كتبهم على ان مناط المماثلة ما اشير اليه من الدعوة الى
التوحيد والارشاد الى الحق وما فيه صلاح العباد فى المعاش والمعاد او مثل ايحائها اوحى
اليك عند ايحاء سائر السور والى سائر الرسل عند ايحاء كتبهم اليهم لا ايحاء مغايرا
له كما فى قوله تعالى انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح الآية على ان مدار المثلية كونه
بواسطة الملك وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية للايذان باستمرار الوحى وان ايحاء
مثله عادته وفى جعل مضمون السورة او ايحائها مشبها به من تفخيمها ما لا يخفى وكذا فى وصفه
بوصفى العزة والحكمة وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل مع ما فيه من التشويق وقرئ يوحى

على البناء للمفعول على ان كذلك مبتداء ويوحى خبره المسند الى ضميره او مصدره ويوحى مسندا
الى اليك والله مرتفع بما دل عليه يوحى كانه قيل من يوحى فقيل الله والله العزيز الحكيم صفتا
له او مبتدا كما فى قراءة نوحى والعزيز وما بعده خبران له او العزيز الحكيم صفتان له وقوله
تعالى له ما فى السموات وما فى الارض وهو العلى العظيم خبران له وعلى الوجوه السابقة
استيناف مقرر لعزته وحكمته تكاد السموات وقرئ بالياء يتفطرن يتشققن من
عظمة الله تعالى وقيل من دعاء الولد له كما فى سورة مريم وقرئ ينفطرن والاول ابلغ لانه
مطاوع فطر وهذا مطاوع فطر وقرئ تتفطرن بالتاء لتاكيد التانيث وهو نادر من فوقهن
اى يبتدئ التفطر من جهتهن الفوقانية وتخصيصها على الاول لما ان اعظم الآيات
وادلها على العظمة والجلال من تلك الجهة وعلى الثانى للدلالة على التفطر من تحتهن
بالطريق الاولى لان تلك الكلمة الشنعاء الواقعة فى الارض حين اثرت فى جهة الفوق
فلان تؤثر فى جهة التحت اولى وقيل الضمير للارض فانها فى معنى الارضين والملئكة
يسبحون بحمد ربهم ينزهونه تعالى عما لا يليق به ملتبسين بحمده ويستغفرون لمن فى
الارض بالسعى فيما يستدعى مغفرتهم من الشفاعة والالهام وترتيب الاسباب المقربة
الى الطاعة واستدعاء تاخير العقوبة طمعا فى ايمان الكافر وتوبة الفاسق وهذا يعم
المؤمن والكافر بل لو فسر الاستغفار بالسعى فيما يدفع الخلل المتوقع عم الحيوان الجماد وحيث
خص بالمؤمنين كما فى قوله تعالى ويستغفرون للذين امنوا فالمراد به الشفاعة الا ان
هو الغفور الرحيم اذ ما من مخلوق الا وله حظ عظيم من رحمته تعالى والاية على الاول زيادة
تقرير لعظمته تعالى وعلى الثانى بيان لكمال تقدسه عما نسب اليه وان ترك معاجلتهم بالعقاب
على تلك الكلمة الشنعاء بسبب استغفار الملئكة وفرط غفرانه ورحمته ففيها رمز الى انه تعالى
يقبل استغفارهم ويزيدهم على ما طلبوه من المغفرة رحمة والذين اتخذوا من دونه
اولياء شركاء وانداد الله حفيظ عليهم رقيب على احوالهم واعمالهم فيجازيهم
بها وما انت عليهم بوكيل بموكل بهم او بموكول اليه امرهم وانما وظيفتك الانذار
وكذلك اوحينا اليك قرانا عربيا ذلك اشارة الى مصدر اوحينا ومحل الكاف النصب
على المصدرية وقرانا عربيا مفعول لاوحينا اى ومثل ذلك الايحاء البديع البين المفهم
اوحينا اليك قرانا عربيا لا لبس فيه عليك ولا على قومك وقيل اشارة الى معنى الآية
المتقدمة من انه تعالى هو الحفيظ عليهم وانما انت نذير فحسب فالكاف مفعول به لاوحينا و
قرانا عربيا حال من المفعول به اى اوحينا اليك وهو قران عربى بين لتنذر ام القرى
اى اهلها وهى مكة ومن حولها من العرب وتنذر يوم الجمع اى يوم القيمة لانه يجمع
فيه الخلائق قال الله تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع وقيل يجمع فيه الارواح والاشباح و
قيل الاعمال والعمال والانذار يتعدى الى مفعولين وقد يستعمل ثانيهما بالباء وقد حذف
ههنا ثانى مفعولى الاول واول مفعولى الثانى للتهويل وايهام التعميم وقرئ لينذر بالياء
على ان فاعله ضمير القران لا ريب فيه اعتراض مقرر لما قبله فريق فى الجنة وفريق فى
السعير اى بعد جمعهم فى الموقف فانهم يجمعون فيه اولا ثم يفرقون بعد الحساب
والتقدير منهم فريق والضمير للمجموعين لدلالة الجمع عليه وقرئا منصوبين على الحالية
منهما اى وتنذر يوم جمعهم متفرقين اى مشارفين للتفرق او متفرقين فى دارى
الثواب والعقاب ولو شاء الله لجعلهم اى فى الدنيا امة واحدة قيل مهتدين
او ضالين وهو تفصيل لما اجمله ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله على دين واحد فمعنى
قوله تعالى ولكن يدخل من يشاء فى رحمته انه تعالى يدخل فى رحمته من يشاء ان يدخله
فيها ويدخل فى عذابه من يشاء ان يدخله فيه ولا ريب فى ان مشيئته تعالى لكل من الادخالين
تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله ومن ضرورة اختلاف الرحمة والعذاب
اختلاف حال الداخلين فيهما قطعا فلم يشاء جعل الكل امة واحدة بل جعلهم فريقين
وانما قيل والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير للايذان بان الادخال فى العذاب
من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم لا من جهته تعالى كما فى الادخال فى الرحمة الا انه

من المبالغة فى الوعيد وقيل مؤمنين كلهم وهو ما قاله مقاتل على دين الاسلام كما فى قوله
تعالى ولو شاء لجمعهم على الهدى وقوله تعالى ولو شئنا لاتينا كل نفس هداها والمعنى لو
شاء الله مشيئة قدرة لقسرهم على الايمان ولكنه شاء مشيئة حكمة وكلفهم وبنى امرهم
على ما يختارون ليدخل المؤمنين فى رحمته وهم المراد دون بقوله تعالى من يشاء ويترك
ويترك الظالمين بغير ولى ولا نصير وانت خبير بان فرض جعل الكل مؤمنين يأباه تصدير
الاستدراك بادخال بعضهم فى رحمته اذ الكل حينئذ داخلون فيها فكان المناسب ح
تصديره باخراج بعضهم من بينهم وادخالهم فى عذابه فالذى يقتضيه سياق النظم
الكريم وسياقه ان يراد الاتحاد فى الكفر كما فى قوله تعالى كان الناس امة واحدة فبعث
الله النبيين الاية على احد الوجهين بان يراد بهم الذين هم فى فترة ادريس او فى فترة
نوح عليهما السلام فالمعنى ولو شاء الله لجعلهم امة واحدة متفقة على الكفر بان لا يرسل
اليهم رسولا لينذرهم ما ذكر من يوم الجمع وما فيه من الوان الاهوال فيبقوا على ما هم
عليه من الكفر ولكن يدخل من يشاء فى رحمته اى شانه ذلك فيرسل الى الكل من ينذرهم
ما ذكر فيتأثر بعضهم بالانذار فيصرفون اختيارهم الى الحق فيوفقهم الله تعالى للايمان
والطاعة ويدخلهم فى رحمته ولا يتأثر به الاخرون ويتمادون فى غيهم وهم الظالمون
فيبقون فى الدنيا على ما هم عليه من الكفر ويصيرون فى الاخرة الى السعير من غير ولى يلى امرهم
ولا نصير يخلصهم من العذاب ام اتخذوا من دونه اولياء جملة مستانفة مقررة
لما قبلها من انتفاء ان يكون للظالمين ولى او نصير وام منقطعة وما فيها من بل للانتقال
من بيان ما قبلها الى بيان ما بعدها والهمزة لانكار الوقوع ونفيه على ابلغ وجه واكده لا للانكار
الواقع واستقباحه كما قيل اذ المراد بيان ان ما فعلوا ليس من اتخاذ الاولياء فى شئ
لان ذلك فرع كون الاصنام اولياء وهو اظهر الممتنعات اى بل اتخذوا متجاوزين الله
اولياء من الاصنام وغيرها هيهات وقوله تعالى فالله هو الولى جواب شرط محذوف
كانه قيل بعد ابطال ولاية ما اتخذوه اولياء ان ارادوا اولياء فى الحقيقة فالله هو الولى
لا ولى سواه وهو يحيى الموتى اى ومن شانه ذلك وهو على كل شئ قدير فهو الحقيق
بان يتخذ وليا فليخصوه بالاتخاذ دون من لا يقدر على شئ وما اختلفتم فيه من
شئ حكاية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين اى ما خالفكم الكفار فيه
من امور الدين فاختلفتم انتم وهم فحكمه راجع الى الله وهو اثابة المحقين وعقاب
المبطلين ذلكم الحاكم العظيم الشان الله ربى مالكى عليه توكلت فى مجامع امورى
خاصة لا الى غيره واليه انيب ارجع فى كل ما يعن لى من معضلات الامور لا الى احد سواه
وحيث كان التوكل امرا واحدا مستمرا والانابة متعددة متجددة حسب تجدد موادها
فى الاول صيغة الماضى وفى الثانية صيغة المضارع وقيل وما اختلفتم فيه وتنازعتم من
شئ من الخصومات فتحاكموا فيه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تؤثروا على حكومته
حكومة غيره وقيل وما اختلفتم فيه من تاويل اية واشتبه عليكم فارجعوا فى بيانه
الى المحكم من كتاب الله والظاهر من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل وما وقع بينكم
الخلاف فيه من العلوم التى لا تتعلق بتكليفكم ولا طريق لكم الى علمه فقولوا الله اعلم
كمعرفة الروح ولا مساغ هذا على الاجتهاد لعدم جوازه بحضرة الرسول عليه الصلوة
والسلام فاطر السموات والارض خبر آخر لذلكم او خبر لمبتداء محذوف او مبتداء خبره
جعل لكم وقرئ بالجر على انه بدل من الضمير او وصف للاسم الجليل فى قوله تعالى الى
الله وما بينهما اعتراض بين الصفة والموصوف من انفسكم من جنسكم ازواجا
نساء وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح قد مر سره غير مرة ومن الانعام
اى وجعل للانعام من جنسها ازواجا او خلق لكم من الانعام اصنافا او ذكورا واناثا
يذرؤكم يكثركم من الذرء وهو البث وفى معناه الذرو والذر فيه اى فيما ذكر من
التدبير فان جعل الناس والانعام ازواجا يكون بينهم توالد كالمنبع للبث والتكثير ليس
كمثله شئ فى شان من الشؤن التى من جملتها هذا التدبير البديع والمراد من مثله ذاته كما

وتزع

في قولهم مثلك لا يفعل كذا على قصد المبالغة في نفيه عنه فانه اذا نفي عمن يناسبه كان نفيه عنه
اولى ثم سلكت هذه الطريقة في شان من لا مثل له وقيل مثله صفته اي كصفته صفة وهو
السميع البصير المبالغ في العلم بكل ما يسمع ويبصر له مقاليد السموات والارض
اي خزائنهما يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر يوسع ويضيق حسبما تقتضيه مشيئته
المؤسسة على الحكم البالغة انه بكل شيء عليم مبالغ في الاحاطة به فيفعل كل ما يفعل
على ما ينبغي ان يفعل عليه والجملة تعليل لما قبلها وتمهيد لما بعدها من قوله تعالى شرع لكم
من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى
وعيسى وايذان بان ما شرع لهم صادر عن كمال العلم والحكمة كما ان بيان نسبته الى
المذكورين عليهم الصلوة والسلام تنبيه على كونه دينا قديما اجمع عليه الرسل والخطاب
لامته عليه الصلوة والسلام اي شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ومن بعده من ارباب
الشرايع واولي العزايم من مشاهير الانبياء عليهم الصلوة والسلام وامرهم به امرا موكدا
على ان تخصيصهم بالذكر لما ذكر من علو شانهم ولاستمالة قلوب الكفرة اليه لاتفاق
الكل على نبوة بعضهم وتفرد اليهود في شان موسى عليه الصلوة والسلام وتفرد
النصارى في حق عيسى عليه الصلوة والسلام والا فما من نبي الا وهو مامور بما امروا به وهو
عبارة عن التوحيد ودين الاسلام وما لا يختلف باختلاف الامم وتبدل الاعصار من
اصول الشرايع والاحكام كما ينبئ عنه التوصية فانها معربة عن تاكيد الامر والاعتناء بشان
المامور به بايحائه اليه عليه الصلوة والسلام اما ما ذكر في صدر السورة الكريمة وفي قوله
تعالى وكذلك اوحينا الآية او ما يعمهما وغيرهما مما وقع في ساير المواقع التي من جملتها
قوله تعالى ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وقوله تعالى قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي
انما الهكم اله واحد وغير ذلك والتعبير عن ذلك عند نسبته اليه عليه الصلوة والسلام
بالذي لزيادة تفخيم شانه من تلك الحيثية وايثار الايحاء على ما قبله وما بعده من التوصية
لمراعاة ما وقع في الآيات المذكورة ولما في الايحاء من التصريح برسالته عليه السلام
القامع لانكار الكفرة والالتفات الى نون العظمة لاظهار كمال الاعتناء بايحائه وهو
السر في تقديمه على ما بعده مع تقدمه عليه زمانا وتقديم توصية نوح عليه الصلوة
والسلام للمسارعة الى بيان كون المشروع لهم دينا قديما وتوجيه الخطاب اليه عليه
الصلوة والسلام بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على انه تعالى شرعه لهم على لسانه عليه
الصلوة والسلام ان اقيموا الدين اي دين الاسلام الذي هو توحيد الله تعالى
والطاعة والايمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء وساير ما يكون الرجل به مؤمنا والمراد
باقامته تعديل اركانه وحفظه من ان يقع فيه زيغ او المواظبة عليه والتشمر له ومحل ان
ان اقيموا اما النصب على انه بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه او الرفع على انه جواب
عن سؤال نشأ من ابهام المشروع كانه قيل وما ذاك فقيل هو اقامة الدين وقيل بدل
من ضمير به وليس بذاك لما انه مع افضائه الى خروجه عن حيز الايحاء الى النبي عليه الصلوة
والسلام مستلزم لكون الخطاب في قوله تعالى ولا تتفرقوا فيه للانبياء المذكورين عليهم
الصلوة والسلام وتوجيه النهي الى اممهم تمحل ظاهر مع ان الاظهر انه متوجه الى امته
صلعم وانهم المتفرقون كما ستحيط به خبرا اي لا تتفرقوا في الدين الذي هو عبارة عما
ذكر من الاصول دون الفروع المختلفة حسب اختلاف الامم باختلاف الاعصار كما ينطق به
قوله تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا وقوله تعالى كبر على المشركين شروع في بيان
احوال بعض من شرع لهم ما شرع من الدين القويم اي عظم وشق عليهم ما تدعوهم
من التوحيد ورفض عبادة الاصنام واستبعدوه حيث قالوا اجعل الالهة الها واحدا ان
هذا لشيء عجاب وقوله تعالى الله يجتبي اليه من يشاء استيناف وارد لتحقيق الحق وفيه اشعار
بان منهم من يجيب الى الدعوة اي الله يجتلب الى ما تدعوهم اليه من يشاء ان يجتلبه الله
وهو من صرف اختياره الى ما دعي اليه كما ينبئ عنه قوله تعالى ويهدي اليه من ينيب اي يقبل
اليه حيث يمده بالتوفيق والالطاف وقوله تعالى وما تفرقوا شروع في بيان احوال اهل الكتاب

عقيب الاشارة الاجمالية الى احوال اهل الشرك قال ابن عباس رضي الله عنهما هم اليهود والنصارى
لقوله تعالى وما تفرق الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة اي وما تفرقوا في الدين الذي
دعوا اليه ولم يؤمنوا كما آمن بعضهم الا من بعد ما جاءهم العلم بحقيته بما شاهدوا
في رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن من دلائل الحقية حسبما وجدوه في كتابهم او
العلم بمبعثه عليه الصلوة والسلام وهو استثناء مفرغ من اعم الاحوال او من اعم
الاوقات اي وما تفرقوا في حال من الاحوال او في وقت من الاوقات الا حال مجيء العلم
او الا وقت مجيء العلم بغيا بينهم وحمية وطلبا للرياسة لا لان لهم في ذلك شبهة ولولا
كلمة سبقت من ربك وهي العدة بتاخير العقوبة الى اجل مسمى هو يوم القيمة لقضي
بينهم لاوقع القضاء بينهم باستيصالهم لاستيجاب جناياتهم لذلك قطعا وقوله
تعالى وان الذين اورثوا الكتاب من بعدهم الخ بيان لكيفية كفر المشركين بالقرآن اثر
بيان كيفية كفر اهل الكتاب وقرئ ورثوا وورثوا اي وان المشركين الذين اورثوا
القرآن من بعد ما اورث اهل الكتاب كتابهم لفي شك منه من القرآن مريب
موقع في القلق او في الريبة ولذلك لا يؤمنون به لا لمحض البغي والمكابرة بعد ما
علموا بحقيته كدأب اهل الكتابين هذا واما ما قيل من ان ضمير تفرقوا لامم الانبياء
عليهم السلام وان المراد تفرق كل امة بعد نبيها مع علمهم بان الفرقة ضلال وفساد
وامر متوعد عليه على السنة الانبياء عليهم السلام فيرده قوله تعالى ولولا كلمة سبقت
من ربك الى اجل مسمى لقضي بينهم وكذا ما قيل من ان الناس كانوا امة واحدة مؤمنين
بعد ما اهلك الله تعالى اهل الارض بطوفان فلما مات الآباء اختلف الابناء فيما بينهم
وذلك حين بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وجاءهم العلم وانما اختلفوا للبغي بينهم
فان مشاهير الامم المذكورة قد اصابهم عذاب الاستيصال من غير انظار وتمهيل على
ان مساق النظم الكريم لبيان احوال هذه الامة وانما ذكر من ذكر الانبياء عليهم السلام لتحقيق
ان ما شرع لهؤلاء دين قديم اجمع عليه اولئك الاعلام عليهم الصلوة والسلام تاكيدا
لوجوب اقامته وتشديدا للزجر عن التفرق والاختلاف فيه فالتعرض لبيان تفرق اممهم عنه
ربما يوهم الاخلال بذلك المرام فلذلك اي فلاجل ما ذكر من التفرق والشك المريب او
فلاجل انه شرع الدين القويم القديم الحقيق بان يتنافس فيه المتنافسون فادع اي الناس
كافة الى اقامة ذلك الدين والعمل بموجبه فان كلا من تفرقهم وكونهم في شك مريب ومن
شرع ذلك الدين لهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب للدعوة اليه والامر
بها وليس المشار اليه ما ذكر من التوصية والامر بالاقامة والنهي عن التفرق حتى يتوهم
شائبة التكرار وقيل المشار اليه نفس الدين المشروع واللام بمعنى الى كما في قوله تعالى
بان ربك اوحى لها اي فالى ذلك الدين فادع واستقم عليه وعلى الدعوة اليه كما
امرت واوحي اليك ولا تتبع اهواءهم الباطلة وقل آمنت بما انزل الله من كتاب اي
كتاب كان من الكتب المنزلة لا كالذين آمنوا ببعض منها وكفروا ببعض
وفيه تحقيق للحق وبيان لاتفاق الكتب في الاصول وتاليف لقلوب اهل الكتابين و
تعريض بهم وقد مر بيان كيفية الايمان بها في خاتمة سورة البقرة وامرت لاعدل بينكم
في تبليغ الشرايع والاحكام وفصل القضايا عند المحاكمة والخصام وقيل معناه لاسوي
بيني وبينكم ولا آمركم بما لا اعمله ولا اخالفكم الى ما انهاكم عنه ولا افرق بين
اكابركم واصاغركم واللام اما على حقيقتها والمامور به محذوف اي امرت بذلك
لاعدل او زائدة اي امرت ان اعدل والباء محذوفة الله ربنا وربكم اي خالقنا
جميعا ومتولي امورنا لنا اعمالنا لا يتخطانا جزاؤها ثوابا وعقابا ولكم اعمالكم
لا يجاوزكم آثارها لنستفيد بحسناتكم ونتضرر بسيئاتكم لا حجة بيننا وبينكم اي
لا محاجة ولا خصومة لان الحق قد ظهر ولم يبق للمحاجة حاجة ولا للمخالفة محمل
سوى المكابرة الله يجمع بيننا يوم القيمة واليه المصير فيظهر هناك حالنا وحالكم وهذا
كما ترى محاجزة في مواقف المجاوبة لا متاركة في مواطن المحاربة حتى يصار الى النسخ بآية

وامهال

القتال والذين يحاجون فى الله اى فى دينه من بعد ما استجيب له من بعد ما استجاب له الناس ودخلوا فيه والتعبير عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم اليه او من بعد ما استجاب الله لرسوله عليه السلام وايده بنصره او من بعد ما استجاب له اهل الكتاب بان اقروا بنعوته عليه الصلوة والسلام واستفتحوا به قبل مبعثه عليه السلام وذلك ان اليهود والنصارى كانوا يقولون للمؤمنين كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم واولى بالحق حجتهم داحضة عند ربهم زائلة باطلة بل لا حجة لهم اصلا وانما عبر عن اباطيلهم بالحجة مجاراة معهم على زعمهم الباطل وعليهم غضب عظيم لمكابرتهم الحق بعد ظهوره ولهم عذاب شديد لا يقادر قدره الله الذى انزل الكتاب اى جنس الكتاب بالحق ملتبسا به فى احكامه واخباره او بما يحق انزاله من العقائد والاحكام والميزان والشرع الذى يوازن الذى يوازن به الحقوق ويسوى الناس او نفس العدل بان انزل الامر به او آلة الوزن وما يدريك اى اى شىء يجعلك عالما لعل الساعة التى يخبر بمجيئها الكتاب الناطق بالحق قريب اى شىء قريب اى قريب مجيئها وقيل القريب بمعنى ذات قرب او الساعة بمعنى البعث والمعنى انها على جناح الاتيان فاتبع الكتاب واعمل به وواظب على العدل قبل ان يفاجئك اليوم الذى يوزن فيه الاعمال ويوفى جزاؤها يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها استعجال انكار واستهزاء كانوا يقولون متى هى ليتها قامت حتى يظهر لنا الحق اهو الذى نحن عليه ام الذى عليه محمد واصحابه والذين امنوا مشفقون منها خائفون منها مع اعتناء بها لتوقع الثواب ويعلمون انها الحق اى الكائن لا محالة الا ان الذين يمارون فى الساعة يجادلون فيها من المرية او من مريت الناقة اذا مسحت ضرعها بشدة للحلب لان كلا من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة لفى ضلال بعيد عن الحق فان البعث اشبه الغائبات بالمحسوسات فمن لم يهتد الى تجويزه فهو عن الاهتداء الى ما وراءه ابعد فابعد الله لطيف بعباده اى بر بليغ البر بهم يفيض عليهم من فنون الطافه ما لا يكاد يناله ايدى الافكار والظنون يرزق من يشاء اى يرزقه كيفما يشاء فيختص كلا من عباده بنوع من البر على ما يقتضيه مشيته المبنية على الحكم البالغة وهو القوى الباهر القدرة الغالب على كل شىء العزيز المنيع الذى لا يغلب من كان يريد حرث الآخرة الحرث فى الاصل القاء البذر فى الارض يطلق على الزرع الحاصل منه ويستعمل فى ثمرات الاعمال ونتائجها بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهها بالغلال الحاصلة من البذور المتضمن لتشبيه الاعمال بالبذور اى من كان يريد باعماله ثواب الآخرة نزد له فى حرثه نضاعف له ثوابه بالواحد عشرة الى سبعمائة فما فوقها ومن كان يريد باعماله حرث الدنيا وهو متاعها وطيباتها نؤته منها اى شيئا منها حسبما قسمنا له لا ما يريده ويبتغيه وما له فى الآخرة من نصيب اذ كانت همته مقصورة على الدنيا وقد مر تفصيله فى سورة الاسراء ام لهم شركاء اى بل لهم شركاء من الشياطين والهمزة للتقرير والتقريع شرعوا لهم بالتسويل من الدين ما لم يأذن به الله كالشرك وانكار البعث والعمل للدنيا وقيل شركاؤهم اوثانهم واضافتها اليهم لانهم الذين جعلوها شركاء لله تعالى واسناد الشرع اليها لانها سبب ضلالتهم وافتتانهم كقوله تعالى انهن اضللن كثيرا اى تماثيل من سن الضلالة لهم ولولا كلمة الفصل اى القضاء السابق بتأخير الجزاء او العدة بان الفصل يكون يوم القيمة لقضى بينهم اى بين الكافرين والمؤمنين او بين المشركين وشركائهم وان الظالمين لهم عذاب اليم وقرئ بالفتح عطفا على كلمة الفصل اى ولولا كلمة الفصل وتقدير عذاب الظالمين فى الآخرة لقضى بينهم فى الدنيا فان العذاب الاليم غالب فى العذاب الآخرة ترى الظالمين يوم القيمة والخطاب لكل احد ممن يصلح له للقصد الى ان سوء حالهم غير مختص برؤية راء دون راء مشفقين خائفين مما كسبوا من السيئات وهو واقع بهم اى وباله لاحق بهم لا محالة اشفقوا او لم يشفقوا والجملة حال من ضمير مشفقين او اعتراض والذين امنوا وعملوا

الصالحات

الصالحات فى روضات الجنات مستقرون فى اطيب بقاعها وانزهها لهم ما يشاؤن عند ربهم اى ما يشتهونه من فنون المستلذات حاصل لهم عند ربهم على ان عند ربهم ظرف للاستقرار العامل فى لهم وقيل ظرف ليشاؤن ذلك اشارة الى ما ذكر من حال المؤمنين وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه هو الفضل الكبير الذى لا يقادر قدره ولا يبلغ غايته ذلك الفضل الكبير هو الذى يبشر الله عباده اى يبشرهم به فحذف الجار ثم العائد الى الموصول كما فى قوله تعالى اهذا الذى بعث الله رسولا او ذلك التبشير الذى يبشره الله تعالى عباده الذين امنوا وعملوا الصالحات وقرئ يبشر من ابشر قل لا اسئلكم روى انه اجتمع المشركون فى مجمع لهم فقال بعضهم لبعض اترون ان محمدا يسئل على ما يتعاطاه اجرا فنزلت اى لا اطلب منكم على ما انا عليه من التبليغ والبشارة اجرا نفعا الا المودة فى القربى اى الا ان تودونى لقرابتى منكم او تودوا اهل قرابتى وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لا اسئلكم اجرا قط ولكن اسئلكم المودة وفى القربى حال منها اى الا المودة ثابتة فى القربى متمكنة فى اهلها او فى حق القرابة والقربى مصدر كالزلفى بمعنى القرابة روى انها لما نزلت قيل يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم قال على وفاطمة وابناهما وعن النبى صلى الله عليه وسلم حرمت الجنة على من ظلم اهل بيتى واذانى فى عترتى ومن اصطنع صنيعة الى احد من ولد عبد المطلب ولم يجازه فانا اجازيه عليها غدا اذا لقينى يوم القيمة وقيل القربى التقرب الى الله اى الا ان تتوددوا الله ورسوله فى تقربكم اليه بالطاعة والعمل الصالح وقرئ الا مودة فى القربى ومن يقترف حسنة اى يكتسب اى حسنة كانت فتتناول مودة ذى القربى تناولا اوليا وعن السدى انها المرادة وقيل فى الصديق رضى الله عنه ومودته فيهم نزد له فيها اى فى الحسنة حسنا بمضاعفة الثواب وقرئ يزد اى يزد الله وقرئ حسنى ان الله غفور لمن اذنب شكور لمن اطاع بتوفية الثواب والتفضل عليه بالزيادة ام يقولون بل يقولون افترى محمد على الله كذبا بدعوى النبوة وتلاوة القرآن على ان الهمزة للانكار التوبيخى كانه قيل ايتمالكون ان ينسبوا مثله عليه الصلوة والسلام وهو هو الى الافتراء لا سيما الافتراء على الله الذى هو اعظم الفرى وافحشها وقوله تعالى فان يشاء الله يختم على قلبك استشهاد على بطلان ما قالوا ببيان انه عم لو افترى على الله تعالى لمنعه من ذلك قطعا وتحقيقه ان دعوى كون القرآن افتراء عليه تعالى قول منهم بانه تعالى لا يشاء صدوره عن النبى صلى الله عليه وسلم بل يشاء عدم صدوره عنه ومن ضرورته منعه عنه قطعا فكانه قيل لو كان افتراء عليه تعالى لشاء عدم صدوره عنك وان يشاء ذلك يختم على قلبك بحيث لا يخطر ببالك معنى من معانيه ولم تنطق بحرف من حروفه وحيث لم يكن الامر كذلك بل تواتر الوحى حينا فحينا تبين انه من عند الله تعالى هذا وقيل المعنى ان يشأ يجعلك من المختوم على قلوبهم فانه لا يجترئ على الافتراء عليه تعالى الا من كان كذلك ومؤداه استبعاد الافتراء من مثله عليه الصلوة والسلام فانه فى البعد مثل الشرك بالله والدخول فى جملة المختوم على قلوبهم وعن قتادة يختم على قلبك ينسك القرآن ويقطع عنك الوحى يعنى لو افترى على الله الكذب لفعل به ذلك وهذا معنى ما قيل لو كذب على الله لانساه القرآن وقيل يختم على قلبك يربط عليه بالصبر حتى لا يشق عليك اذاهم ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته استئناف مقرر لنفى الافتراء غير معطوف على يختم كما ينبئ عنه اظهار الاسم الجليل وسقوط الواو كما فى بعض المصاحف لاتباع اللفظ كما فى قوله تعالى ويدع الانسان بالشر اى ومن عادته تعالى انه يمحو الباطل ويثبت الحق بوحيه او بقضائه كقوله تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فلو كان افتراء كما زعموا لمحقه ودمغه او عدة لرسول الله صلعم بانه تعالى يمحو الباطل الذى هم عليه من البهت والتكذيب ويثبت الحق الذى هو عليه بالقرآن او بقضائه الذى لا مرد له بنصرته عليهم انه عليم بذات الصدور فيجرى عليها احكامها اللائقة بها من المحو والاثبات وهو الذى يقبل التوبة عن عباده التوبة هو الرجوع عن المعاصى

بالندم عليها والعزم على ان لا يعاودها ابدا وروى جابر رضي الله عنه ان اعرابيا دخل مسجد رسول
الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم اني استغفرك واتوب اليك وكبر فلما فرغ من صلوته قال له علي
رضي الله عنه يا هذا ان سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين وتوبتك هذه تحتاج
الى التوبة فقال يا امير المؤمنين وما التوبة قال اسم يقع على ستة معان على الماضي من الذنوب
الندامة ولتضييع الفرائض الاعادة ورد المظالم واذابة النفس في الطاعة كما ربيتها
في المعصية واذاقتها مرارة الطاعة كما اذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك
ضحكته ويعفو عن السيئات صغيرها وكبيرها لمن يشاء ويعلم ما يفعلون كائنا ما
كان من خير وشر فيجازي ويتجاوز حسبما يقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح و
قرئ بما تفعلون بالتاء ويستجيب الذين امنوا وعملوا الصالحات اي يستجيب
الله لهم فحذف اللام كما في قوله تعالى واذا كالوهم اي كالوا لهم والمراد اجابة
دعوتهم والاثابة على طاعتهم فانها كدعاء وطلب لما يترتب عليها ومنه قوله عم افضل
الدعاء الحمد لله او يستجيبون الله بالطاعة اذا دعاهم اليها وعن ابراهيم بن ادهم
انه قيل له ما لنا ندعو فلا نجاب قال لانه دعاكم ولم تجيبوه ثم قرأ والله يدعو
الى دار السلام ويزيدهم من فضله على ما سألوا واستحقوا بموجب الوعد و
الكافرون لهم عذاب شديد بدل ما للمؤمنين من الثواب والفضل المزيد ولو بسط
الله الرزق لعباده لبغوا في الارض لتكبروا وافسدوا فيها بطرا او لعلا بعضهم
على بعض بالاستيلاء والاستعلاء كما عليه الجبلة البشرية واصل البغي طلب تجاوز
الاقتصاد فيما يتحرى من حيث الكمية والكيفية ولكن ينزل بقدر اي بتقدير
ما يشاء اي ينزله مما يقتضيه مشيئته انه بعباده خبير بصير محيط بخفايا
امورهم وجلاياها فيقدر لكل واحد منهم في كل وقت من اوقاتهم ما يليق بشانهم
فيفقر ويغني ويمنع ويعطي ويقبض ويبسط حسبما يقتضيه الحكمة الربانية ولو اغناهم
جميعا لبغوا ولو افقرهم لهلكوا وروي ان اهل الصفة تمنوا الغنى فنزلت وقيل نزلت في العرب
كانوا اذا اخصبوا تحاربوا واذا اجدبوا انتجعوا وهو الذي ينزل الغيث اي المطر الذي
يغيثهم من الجدب ولذلك خص بالنافع منه وقرئ ينزل من الانزال من بعد ما قنطوا
يئسوا منه وتقييد تنزيله بذلك مع تحققه بدونه ايضا لتذكير كمال النعمة وقرئ
بكسر النون وينشر رحمته اي بركات الغيث ومنافعه في كل شيء من السهل والجبل والنبات
والحيوان او رحمته الواسعة المنتظمة لما ذكر انتظاما اوليا وهو الولي الذي يتولى عباده
بالاحسان ونشر الرحمة الحميد المستحق للحمد على ذلك لا غيره ومن اياته خلق السموات
والارض على ما هما عليه من تعاجيب الصنائع فانها بذاتها تدل على شؤونه العظيمة
وما بث فيهما عطف على السموات او الخلق من دابة من حي على اطلاق اسم المسبب
على السبب او مما يدب على الارض فان ما يختص باحد الشيئين المتجاورين يصح نسبته
اليهما كما في قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وانما يخرج من الملح وقد جوز
ان يكون للملئكة عليهم السلام مشي مع الطيران فيوصفوا بالدبيب وان يخلق الله
في السماء حيوانا يمشون فيها مشي الاناسي على الارض كما ينبئ عنه قوله تعالى ويخلق
ما لا تعلمون وقد روي ان النبي عليه السلام قال فوق السماء السابعة بحر بين
اسفله واعلاه كما بين السماء والارض ثم فوق ذلك ثمانية اوعال بين ركبهن و
اظلافهن كما بين السماء والارض ثم فوق ذلك العرش العظيم وهو على جمعهم اي حشرهم
بعد البعث للمحاسبة وقوله تعالى اذا يشاء متعلق بما قبله لا بقوله تعالى قدير فان المقيد
بالمشية جمعه تعالى لا قدرته واذا عند كونها بمعنى الوقت كما تدخل الماضي تدخل المضارع
وما اصابكم من مصيبة اي مصيبة كانت فبما كسبت ايديكم اي فهي بسبب معاصيكم
التي اكتسبتموها والفاء لان ما شرطية او متضمنة لمعنى الشرط وقرئ بدونها اكتفاء بما
في الباء من معنى السببية ويعفو عن كثير من الذنوب فلا يعاقب عليها والاية مخصوصة
بالمجرمين فان ما اصاب غيرهم لاسباب اخر منها تعريضه للثواب بالصبر عليه وما انتم بمعجزين

في الارض

في الارض فائتين ما قضي عليكم من المصائب وان هربتم من اقطارها كل مهرب وما لكم
من دون الله من ولي يحميكم منها ولا نصير يدفعها عنكم ومن اياته الجوار
السفن الجارية في البحر وقرئ الجواري كالاعلام اي كالجبال على الاطلاق لا التي
عليها النار للاهتداء خاصة ان يشا يسكن الريح التي تجري بها وقرئ الرياح فيظللن
رواكد على ظهره فيبقين ثوابت على ظهر البحر اي غير جاريات لا غير متحركات اصلا ان
في ذلك الذي ذكر من السفن اللاتي يجرين تارة ويركدن اخرى على حسب مشيئته
تعالى لايات عظيمة في انفسها كثيرة في العدد دالة على ما ذكر من شؤونه تعالى لكل صبار
شكور لكل من حبس نفسه عن التوجه الى ما لا ينبغي ووكل همته بالنظر في ايات الله تعالى والتفكر
في الاية او كل مؤمن كامل فان الايمان نصفه صبر ونصفه شكر او يوبقهن بما كسبوا
عطف على يسكن والمعنى ان يشا يسكن الريح فيركدن او يرسلها فيغرقن بعصفها و
ايقاع الايباق عليهن مع انه حال اهلهن للمبالغة والتهويل واجراء حكمه على
العفو في قوله تعالى ويعف عن كثير لما ان المعنى او يرسلها فيوبق ناسا وينج اخرين
بطريق العفو عنهم وقرئ ويعفوا على الاستيناف ويعلم الذين يجادلون في اياتنا
عطف على علة مقدرة مثل لينتقم منهم وليعلم الخ كما في قوله تعالى ولنجعله اية للناس
وقوله تعالى ولنعلمه من تاويل الاحاديث ونظائرهما وقرئ بالرفع على الاستيناف و
بالجزم عطفا على يعف فيكون المعنى او ان يشا يجمع بين اهلاك قوم وانجاء قوم وتحذير
قوم ما لهم من محيص اي من مهرب من العذاب والجملة معلق عنها الفعل فما
اوتيتم من شيء مما ترغبون وتتنافسون فيه فمتاع الحيوة الدنيا اي فهو متاعها
تتمتعون به مدة حياتكم وما عند الله من ثواب الاخرة خير ذاتا لخلوص نفعه
وابقى زمانا حيث لا يزول ولا يفنى للذين امنوا وعلى ربهم يتوكلون لا على غيره
اصلا والموصول الاول لما كان متضمنا لمعنى الشرط من حيث ان ايتاء ما اوتوا سبب للتمتع
بها في الحيوة الدنيا دخلت جوابها الفاء بخلاف الثاني وعن علي رضي الله عنه انه
تصدق ابو بكر رضي الله عنه بماله كله فلامه جمع من المسلمين فنزلت وقوله تعالى والذين
يجتنبون كبائر الاثم اي الكبائر من هذا الجنس والفواحش واذا ما غضبوا هم
يغفرون مع ما بعده عطف على الذين امنوا او مدح بالنصب والرفع وبناء يغفرون
على الضمير خبرا له للدلالة على انهم الاخصاء بالمغفرة حال الغضب لعزة منالها وقرئ
كبير الاثم وعن ابن عباس رضي الله عنهما كبير الاثم الشرك والذين استجابوا لربهم
واقاموا الصلوة نزلت في الانصار دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الايمان
فاستجابوا له وامرهم شورى بينهم اي ذو شورى لا ينفردون برأي حتى يتشاوروا
ويجتمعوا عليه وكانوا قبل الهجرة وبعدها اذا حزبهم امر اجتمعوا وتشاوروا ومما رزقناهم
ينفقون اي في سبيل الخير ولعل فصله عن قرينه بذكر المشاورة لوقوعها عند اجتماعهم
للصلوات والذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون اي ينتقمون ممن بغى عليهم على ما جعله الله
تعالى لهم كراهة التذلل وهو وصف لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر مهمات
الفضائل وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران فان كلا منهما فضيلة محمودة في موقع نفسه
ورذيلة مذمومة في موقع صاحبه فان الحلم عن العاجز وعوراء الكرام محمود
وعن المتغلب ولغو اللئام مذموم فانه اغراء على البغي وعليه قول من قال اذا انت
اكرمت الكريم ملكته وان انت اكرمت اللئيم تمردا فوضع الندى في موضع السيف
بالعلى مضر كوضع السيف في موضع الندى وقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها بيان
لوجه كون الانتصار من الخصال الحميدة مع كونه في نفسه اساءة الى الغير بالاشارة
الى ان البادي هو الذي فعله لنفسه فان الافعال مستتبعة لاجزيتها حتما ان خيرا فخير وان
شرا فشر وفيه تنبيه على حرمة التعدي واطلاق السيئة على الثانية لانها تسوء من
نزلت به فمن عفا عن المسيء اليه واصلح بينه وبين من يعاديه بالعفو والاغضاء
كما في قوله تعالى فاذا الذي بينك وبينه عداوة كانه ولي حميم فاجره على الله عدة

مبهمة منبئة عن عظم شان الموعود وخروجه عن حد المعهود انه لا يحب الظالمين
البادئين بالسيئة والمعتدين فى الانتقام ولمن انتصر بعد ظلمه اى بعد ما ظلم وقد قرئ
به فاولئك اشارة الى من باعتبار المعنى كما ان الضمير بن لها باعتبار اللفظ ما عليهم من
سبيل بالمعاتبة او المعاقبة انما السبيل على الذين يظلمون الناس يبتدؤنهم بالاضرار او
يعتدون فى الانتقام ويبغون فى الارض بغير الحق اى يتكبرون فيها تجبرا وفسادا اولئك
الموصوفون بما ذكر من الظلم والبغى بغير الحق لهم عذاب اليم بسبب ظلمهم وبغيهم
ولمن صبر على الاذى وغفر لمن ظلمه ولم ينتصر وفوض امره الى الله تعالى ان ذلك
الذى ذكر من الصبر والمغفرة لمن عزم الامور اى ان ذلك منه فحذف ثقة بغاية
ظهوره كما فى قولهم السمن منوان بدرهم وهذا فى المواد التى لا يؤدى العفو
الى الشر كما اشير اليه ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده من ناصر يتولاه من بعد خذلانه
تعالى اياه وترى الظالمين لما راوا العذاب اى حين يرونه وصيغة الماضى للدلالة
على التحقق يقولون هل الى مرد اى رجعة الى الدنيا من سبيل حتى نؤمن ونعمل
صالحا وتراهم يعرضون عليها اى على النار المدلول عليها بالعذاب والخطاب
فى الموضعين لكل من يتاتى منه الرؤية خاشعين من الذل متذللين متضائلين
مما دهاهم ينظرون من طرف خفى اى يبتدئ نظرهم الى النار من تحريك
لاجفانهم ضعيف كالمصبور ينظر الى السيف وقال الذين امنوا ان الخاسرين اى
المتصفين بحقيقة الخسران الذين خسروا انفسهم واهليهم بالتعريض للعذاب
الخالد يوم القيمة اما ظرف لخسروا والقول فى الدنيا او لقال اى يقولون حين
يرونهم على تلك الحال وصيغة الماضى للدلالة على تحققه الا ان الظالمين فى
عذاب مقيم اما من تمام كلامهم او تصديق من الله تعالى لهم وما كان لهم
من اولياء ينصرونهم برفع العذاب عنهم من دون الله حسبما كانوا يرجون
ذلك فى الدنيا ومن يضلل الله فما له من سبيل يؤدى سلوكه الى النجاة استجيبوا
لربكم اذ دعاكم الى الايمان على لسان نبيه من قبل ان ياتى يوم لا مرد له من الله
اى لا يرده الله بعد ما حكم به على ان من صلة مرد او من قبل ان ياتى من الله
يوم لا يمكن رده ما لكم من ملجإ يومئذ اى مفر تلتجئون اليه وما لكم من نكير
اى انكار لما اقترفتموه لانه مدون فى صحايف اعمالكم وتشهد عليكم جوارحكم
فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظا تلوين للكلام وصرف له عن خطاب
الناس بعد امرهم بالاستجابة وتوجيه له الى الرسول صلى الله عليه وسلم اى فان
لم يستجيبوا واعرضوا عما تدعوهم اليه فما ارسلناك رقيبا ومحاسبا عليهم ان
عليك الا البلاغ المبين وقد فعلت وانا اذا اذقنا الانسان منا رحمة اى نعمة
من الصحة والغنى والامن فرح بها اريد بالانسان الجنس لقوله تعالى وان تصبهم
سيئة اى بلاء من مرض وفقر وخوف بما قدمت ايديهم فان الانسان كفور
بليغ الكفر ينسى النعمة راسا ويذكر البلية ويستعظمها ولا يتامل سببها بل
يزعم انها اصابته بغير استحقاق لها واسناد هذه الخصلة الى الجنس مع كونها من
خواص المجرمين لغلبتهم فيما بين الافراد وتصدير الشرطية الاولى باذا مع اسناد
الاذاقة الى نون العظمة للتنبيه على ان ايصال النعمة محقق الوجود كثير الوقوع
وانه مقتضى الذات كما ان تصدير الثانية بان واسناد الاصابة الى السيئة وتعليلها
باعمالهم للايذان بندرة وقوعها وانها بمعزل من الانتظام فى سلك الارادة بالذات
ووضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل على ان هذا الجنس موسوم بكفران النعم لله
ملك السموات والارض فله وحده التصرف فيهما وفى كل ما فيهما
كيفما يشاء ومن جملته ان يقسم النعمة والبلية حسبما يريد يخلق ما يشاء مما
نعلمه ومما لا نعلمه يهب لمن يشاء اناثا من الاولاد ويهب لمن يشاء الذكور
منهم من غير ان يكون فى ذلك مدخل لاحد او يزوجهم اى يقرن بين الصنفين

فيهبهما

فيهبهما جميعا ذكرانا واناثا قالوا معنى يزوجهم ان تلد غلاما ثم جارية او تلد ذكرا
انثى توامين ويجعل من يشاء عقيما والمعنى يجعل احوال العباد فى حق الاولاد مختلفة
على ما يقتضيه المشيئة فيهب لبعض اما صنفا واحدا من ذكر او انثى واما صنفين
ويعقم آخرين ولعل تقديم الاناث لانها اكثر لتكثير النسل او لان مساق الاية للدلالة
على ان الواقع ما يتعلق به مشيئته تعالى لا ما يتعلق به مشيئة الانسان والاناث كذلك
او لان الكلام فى البلاء والعرب تعدهن اعظم البلايا او لتطييب قلوب ابائهن او للمحافظة
على الفواصل ولذلك عرف او لجبر التاخير وتغيير العاطف فى الثالث لانه قسيم المشترك
بين القسمين ولا حاجة اليه فى الرابع لافصاحه بانه قسيم المشترك بين الاقسام
المتقدمة وقيل المراد بيان احوال الانبياء عليهم السلام حيث وهب لشعيب ولوط
اناثا ولابراهيم ذكورا وللنبى صلى الله عليه وسلم ذكورا واناثا وجعل يحيى وعيسى
عقيمين انه عليم قدير مبالغ فى العلم والقدرة فيفعل ما فيه حكمة ومصلحة
وما كان لبشر اى وما صح لفرد من افراد البشر ان يكلمه الله بوجه من الوجوه
الا وحيا اى الا بان يوحى اليه ويلهمه ويقذف فى قلبه كما اوحى الى ام
موسى والى ابراهيم عليه الصلوة والسلام فى ذبح ولده وقد روى عن مجاهد
اوحى الله الزبور الى داود عليه السلام فى صدره او بان يسمعه كلامه الذى يخلقه
فى بعض الاجرام من غير ان يبصر السامع من يكلمه وهو المراد بقوله تعالى او من وراء
حجاب فانه تمثيل له بحال الملك المحتجب الذى يكلم بعض خواصه من وراء الحجاب
يسمع صوته ولا يرى شخصه وذلك كما كلم موسى وكما يكلم الملائكة عليهم السلام
او بان يكلمه بواسطة الملك وذلك قوله تعالى او يرسل رسولا اى ملكا فيوحى
ذلك الرسول الى المرسل اليه الذى هو الرسول البشرى باذنه اى بامره تعالى وتيسيره
ما يشاء ان يوحيه اليه وهذا هو الذى يجرى بينه تعالى وبين الانبياء عليهم الصلوة
والسلام فى عامة الاوقات من الكلام وقيل قوله تعالى وحيا وقوله تعالى او يرسل
مصدران واقعان موقع الحال وقوله تعالى او من وراء حجاب ظرف واقع موقعها
والتقدير وما صح ان كلمه الا موحيا او مسمعا من وراء حجاب او مرسلا وقرئ او يرسل
بالرفع على اضمار مبتدأ وروى ان اليهود قالت للنبى عليه السلام الا تكلم الله وتنظر اليه
ان كنت نبيا كما كلمه موسى ونظر اليه فانا لن نؤمن حتى تفعل ذلك فقال عليه الصلوة
والسلام لم ينظر موسى عليه السلام الى الله تعالى فنزلت وعن عائشة رضى الله عنها
من زعم ان محمدا راى ربه فقد اعظم على الله الفرية ثم قالت او لم تسمعوا ربكم
يقول فتلت هذه الآية انه على متعال عن صفات المخلوقين لا يتاتى جريان المفاوضة
بينه تعالى وبينهم الا باحد الوجوه المذكورة حكيم يجرى افعاله على سنن الحكمة
فيكلم تارة بواسطة واخرى بدونها اما الهاما واما خطابا وكذلك اى ومثل
ذلك الايحاء البديع اوحينا اليك روحا من امرنا هو القرآن الذى هو للقلوب
بمنزلة الروح للابدان حيث يحييها حيوة ابدية وقيل هو جبريل عليه السلام ومعنى ايحائه
اليه عليهما السلام ارساله اليه بالوحى ما كنت تدرى قبل الوحى ما الكتاب اى
اى شئ هو ولا الايمان اى الايمان بتفاصيل ما فى تضاعيف الكتاب من الامور
التى لا يهتدى اليها العقول لا الايمان بما يستقل به العقل والنظر فان درايته عليه السلام
له مما لا ريب فيه قطعا ولكن جعلناه اى الروح الذى اوحيناه اليك نورا نهدى
به من نشاء من عبادنا هدايته وهو الذى يصرف اختياره نحو الاهتداء به وقوله
تعالى وانك لتهدى تقرير لهدايته تعالى وبيان لكيفيتها ومفعول لتهدى محذوف
ثقة بغاية الظهور اى وانك لتهدى بذلك النور من نشاء هدايته الى صراط مستقيم
هو الاسلام وساير الشرائع والاحكام وقرئ لتهدى اى ليهديك الله وقرئ لتدعو
صراط الله بدل من الاول واضافته الى الاسم الجليل ثم وصفه تعالى بقوله الذى له ما
فى السموات وما فى الارض لتفخيم شانه وتقرير استقامته وتاكيد وجوب سلوكه

فان كون جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى خلقا وملكا وتصرفا مما يوجب ذلك اتم ايجاب
الا الى الله تصير الامور اى امور ما فيهما قاطبة لا الى غيره ففيه من الوعد للمهتدين الى
الصراط المستقيم والوعيد للضالين عنه ما لا يخفى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
من قرأ سورة حم عسق كان ممن يصلي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له

سورة الزخرف مكية وهي اية بسم الله الرحمن الرحيم

حم الكلام فيه كالذى مر في فاتحة سورة يس خلا ان الظاهر على تقدير اسميته كونه
اسما للقرآن لا للسورة كما قيل فان ذلك مخل بجزالة النظم الكريم والكتاب بالجر على
انه مقسم به اما ابتداء او عطفا على حم على تقدير كونه مجرورا باضمار باء القسم على ان
مدار العطف المغايرة في العنوان ومناط تكرير القسم المبالغة في تأكيد مضمون الجملة القسمية
المبين اى البين لمن انزل عليهم لكونه بلغتهم وعلى اساليبهم او المبين لطريق الهدى
من طرق الضلالة الموضح لكل ما يحتاج اليه في ابواب الديانة انا جعلناه قرانا عربيا
جواب للقسم لكن لا على ان مرجع التاكيد جعله كذلك كما قيل بل ما هو غايته التي
يعرب عنها قوله تعالى لعلكم تعقلون فانها المحتاجة الى التحقيق والتاكيد لكونها
منبئة عن الاعتناء بامرهم واتمام النعمة عليهم وازاحة اعذارهم اى جعلنا ذلك
الكتاب قرانا عربيا لكي تفهموه وتحيطوا بما فيه من النظم الرائق والمعنى الفائق و
تقفوا على ما يتضمنه من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر وتعرفوا حق
النعمة في ذلك وتنقطع اعذاركم بالكلية وانه في ام الكتاب اى في اللوح المحفوظ
فانه اصل الكتب السماوية وقرئ ام الكتاب بالكسر لدينا اى عندنا لعلي رفيع
القدر بين الكتب شريف حكيم ذو حكمة بالغة او محكم وهما خبران لان وما بينهما
بيان لمحل الحكم كانه قيل بعد بيان اتصافه بما ذكر من الوصفين الجليلين هذا في ام الكتاب
ولدينا والجملة اما عطف على الجملة المقسم عليها داخلة في حكمها ففي الاقسام بالقرآن
على علو قدره عنده تعالى براعة بديعة وايذان بانه من علو الشان بحيث لا يحتاج في
بيانه الى الاستشهاد عليه بالاقسام بغيره بل هو بذاته كاف في الشهادة على ذلك من
حيث الاقسام به كما انه كاف فيهما من حيث اعجازه ورمز الى انه لا يخطر بالبال عند ذكره
شيء آخر اولى منه بالاقسام به واما مستانفة مقررة لعلو شانه الذي انبأ عنه الاقسام
به على منهاج الاعتراض في قوله تعالى وانه لقسم لو تعلمون عظيم وبعد ما بين علو شان
القرآن العظيم وحقق ان انزاله على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا به ويعملوا بموجبه عقب ذلك
بانكار ان يكون الامر بخلافه فقيل افنضرب عنكم الذكر اى ننحيه ونبعده عنكم مجاز
من قولهم ضرب الغرائب عن الحوض وفيه اشعار باقتضاء الحكمة توجه الذكر اليهم و
ملازمته لهم كانه يتهافت عليهم والفاء للعطف على محذوف يقتضيه المقام اى انهملكم
فننحي الذكر عنكم صفحا اى اعراضا عنكم على انه مفعول له للمذكور او مصدر مؤكد
لما دل هو عليه فان التنحية منبئة عن الصفح والاعراض قطعا كانه قيل افنصفح عنكم
صفحا او بمعنى الجانب فينتصب على الظرفية اى افننحيه عنكم جانبا ان كنتم قوما مسرفين
اى لان كنتم منهمكين في الاسراف مصرين عليه على معنى ان حالكم وان اقتضى تخليتكم
وشأنكم حتى تموتوا على الكفر والضلالة وتبقوا في العذاب الخالد لكنا لسعة رحمتنا لا نفعل
ذلك بل نهديكم الى الحق بارسال الرسول الامين وانزال الكتاب المبين وقرئ ان بالكسر
على ان الجملة شرطية مخرجة للمحقق مخرج المشكوك لاستجهالهم والجزاء محذوف
ثقة بدلالة ما قبله عليه وقوله تعالى وكم ارسلنا من نبي في الاولين وما يأتيهم من نبي
الا كانوا به يستهزئون تقرير لما قبله ببيان ان اسراف الامم السالفة لم يمنعه تعالى من
ارسال الانبياء اليهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزاء قومه به
وقوله تعالى فاهلكنا اشد منهم بطشا اى من هؤلاء القوم المسرفين عدة له عليه
الصلاة والسلام ووعيد لهم بمثل ما جرى على الاولين ووصفهم باشدية البطش

لاثبات

لاثبات حكمهم لهؤلاء بطريق الاولوية ومضى مثل الاولين اى سلف في القرآن غير مرة
ذكر قصتهم التي حقها ان تسير مسير المثل ولئن سألتهم من خلق السموات والارض
ليقولن خلقهن العزيز العليم اى ليسندن خلقها الى من هذا شانه في الحقيقة وفي
نفس الامر لا انهم يعبرون عنه بهذا العنوان وسلوك هذه الطريقة للاشعار بان اتصافه
تعالى بما سرد من جلائل الصفات والافعال وبما يستلزمه ذلك من البعث والجزاء امر بين
لا ريب فيه وان الحجة قائمة عليهم شاؤا او ابوا وقد جوز ان يكون ذلك عين عبارتهم
وقوله تعالى الذي جعل لكم الارض مهدا استئناف من جهته تعالى اى بسطها لكم تستقرون
فيها وجعل لكم فيها سبلا تسلكونها في اسفاركم لعلكم تهتدون اى لكي تهتدوا بسلوكها
الى مقاصدكم او بالتفكر فيها الى التوحيد الذي هو المقصد الاصلي والذي نزل من السماء
ماء بقدر بمقدار يقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح فانشرنا به اى احيينا
بذلك الماء بلدة ميتا خاليا عن النماء والنبات بالكلية وقرئ ميتا بالتشديد وتذكيره
لان البلدة في معنى البلد والمكان والالتفات الى نون العظمة لاظهار كمال العناية بامر
الاحياء والاشعار بعظم خطره كذلك اى مثل ذلك الاحياء الذي هو في الحقيقة اخراج
النبات من الارض تخرجون اى تبعثون من قبوركم احياء وفي التعبير عن اخراج النبات
الذي هو احياء الموتى وعن احيائهم بالاخراج تفخيم لشان الانبات وتهوين لامر
البعث لتقويم سنن الاستدلال وتوضيح منهاج القياس والذي خلق الازواج
كلها اى اصناف المخلوقات وعن ابن عباس رضي الله عنهما الازواج الضروب والانواع
كالحلو والحامض والابيض والاسود والذكر والانثى وقيل كل ما سوى الله فهو زوج
كالفوق والتحت واليمين واليسار الى غير ذلك وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون
اى ما تركبونه تغليبا للانعام على الفلك فان الركوب متعد بنفسه واستعماله في الفلك
ونحوها بكلمة في للرمز الى مكانيتها وكون حركتها غير ارادية كما مر في سورة هود عند
قوله تعالى وقال اركبوا فيها لتستووا على ظهوره اى لتستعلوا على ظهور ما تركبونه من الفلك
والانعام والجمع باعتبار المعنى ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه اى تذكروها
بقلوبكم معترفين بها مستعظمين لها ثم تحمدوا عليها بالسنتكم وتقولوا سبحان الذي
سخر لنا هذا متعجبين من ذلك كما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان اذا وضع رجله
في الركاب قال بسم الله فاذا استوى على الدابة قال الحمد لله على كل حال سبحان الذي
سخر لنا هذا الى قوله تعالى لمنقلبون وكبر ثلاثا وهلل ثلاثا وما كنا له مقرنين اى مطيقين
من اقرن الشيء اذا اطاقه واصله وجده قرينته لان الصعب لا يكون قرينة للضعيف وقرئ
بالتشديد والمعنى واحد وهذا من تمام ذكر نعمته تعالى اذ بدون اعتراف المنعم عليه
بالعجز عن تحصيل النعمة لا يعرف قدرها ولا حق المنعم بها وانا الى ربنا لمنقلبون اى راجعون
وفيه ايذان بان حق الراكب ان يتامل فيما يلابسه من المسير ويتذكر منه المسافرة
العظمى التي هي الانقلاب الى الله تعالى فيبني امور مسيره ذلك على تلك الملاحظة ولا يخطر
بباله في شيء مما يأتي ويذر امرا ينافيها ومن ضرورته ان يكون ركوبه لامر مشروع
وجعلوا له من عباده جزءا متصل بقوله تعالى ولئن سألتهم الخ اي وقد جعلوا له سبحانه
بالسنتهم واعتقادهم بعد ذلك الاعتراف من عباده ولدا وانما عبر عنه بالجزء لمزيد
استحالته في حق الواحد الحق من جميع الجهات وقرئ جزؤا بضمتين ان الانسان لكفور مبين
ظاهر الكفران مبالغ فيه ولذلك يقولون ما يقولون سبحان الله عما يصفون ام اتخذ مما
يخلق بنات ام منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من بيان بطلان جعلهم له تعالى
ولدا على الاطلاق الى بيان بطلان جعلهم ذلك الولد من اخس صنفيه والهمزة للانكار و
التوبيخ والتعجيب من شانهم وقوله تعالى واصفاكم بالبنين اما عطف على اتخذ داخل في حكم
الانكار والتعجيب او حال من فاعله باضمار قد او بدونه على الخلاف المشهور والالتفات
الى خطابهم لتاكيد الالزام وتشديد التوبيخ اى بل اتخذ من خلقه اخس الصنفين
واختاركم افضلهما على معنى هبوا انكم اجترأتم على اضافة اتخاذ جنس الولد اليه سبحانه

مع ظهور استحالته وامتناعه اما كان لكم شئ من العقل ونبذ من الحيا حتى اجترأتم على
التفوه بالعظيمة الخارقة للعقول من ادعاء انه تعالى آثركم على نفسه بخير الصنفين واعلاهما
وترك له شرهما وادناهما وتنكير بنات وتعريف البنين لتربية ما اعتبر فيهما من الحقارة
والفخامة واذا بشر احدهم بما ضرب للرحمن مثلا الخ استئناف مقرر لما قبله وقيل حال
على معنى انهم نسبوا اليه ما ذكر ومن حالهم ان احدهم اذا بشر به اغتم والالتفات للايذان
باقتضاء ذكر قبائحهم ان يعرض عنهم ويحكي لغيرهم تعجيبا منها اي اذا اخبر احدهم
بولادة ما جعله مثلا له سبحانه اذ الولد لا بد ان يجانس الوالد ويماثله ظل وجهه مسودا
اي صار اسود في الغاية من سوء ما بشر به وهو كظيم مملو من الكرب والكآبة و
الجملة حال وقرئ مسود ومسواد على ان في ظل ضمير المبشر ووجهه مسود جملة وقعت
خبرا له اومن ينشأ في الحلية تكرير للانكار وتثنية للتوبيخ ومن منصوبة بمضمر
معطوف على جعلوا اي وجعلوا من شأنه ان يربى في الزينة وهو عاجز عن ان يتولى لامره
بنفسه فالهمزة لانكار الواقع واستقباحه وقد جوز انتصابها بمضمر معطوف على اتخذ فالهمزة
حينئذ لانكار الوقوع واستبعاده واقحامها بين المعطوفين لتذكير ما في ام المنقطعة من
الانكار وتاكيده والعطف لتغاير العنوانين اي او اتخذ من هذه الصفة الذميمة صفته
وهو مع ما ذكر من القصور في الخصام اي الجدال الذي لا يكاد يخلو عنه الانسان في العادة
غير مبين غير قادر على تقرير دعواه واقامة حجته لنقصان عقله وضعف رأيه
واضافة غير لا يمنع عمل ما بعده في الجار المتقدم لانه بمعنى النفي وقرئ ينشأ ويناشأ
من الافعال والمفاعلة والكل بمعنى ونظيره غلاه واعلاه وغالاه وجعلوا الملائكة الذين
هم عباد الرحمن اناثا بيان لتضمن كفرهم المذكور لكفر آخر وتقريع لهم بذلك وهو
جعلهم اكمل العباد واكرمهم على الله عز وجل انقصهم رأيا واخسهم صنفا وقرئ عبد
الرحمن وقرئ عند الرحمن على تمثيل زلفاهم وقرئ انثا وهو جمع الجمع اشهدوا خلقهم
اي احضروا خلق الله تعالى اياهم فشاهدوهم اناثا حتى يحكموا بانوثتهم فان ذلك
مما يعلم بالمشاهدة وهو تجهيل لهم وتهكم بهم وقرئ ااشهدوا بهمزتين مفتوحة
ومضمومة وآاشهدوا بالف بينهما ستكتب شهادتهم هذه في ديوان اعمالهم
ويسألون عنها يوم القيمة وقرئ سيكتب وسنكتب بالياء والنون وقرئ شهاداتهم وهي
قولهم ان لله جزءا وان له بنات وانها الملائكة وقرئ يساءلون من المساءلة للمبالغة و
قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم بيان لفن آخر من كفرهم اي لو شاء عدم عبادتنا للملائكة
مشيئة ارتضاء ما عبدناهم ارادوا بذلك بيان ان ما فعلوه حق مرضي عنده تعالى
وانهم انما يفعلونه بمشيئته تعالى لا الاعتذار من ارتكاب ما ارتكبوه بانه بمشيئته تعالى اباه منهم
مع اعترافهم بقبحه حتى ينتهض ذمهم به دليلا للمعتزلة ومبنى كلامهم الباطل على
مقدمتين احديهما ان عبادتهم لهم بمشيئته تعالى والثانية ان ذلك مستلزم لكونها
مرضية عنده تعالى ولقد اخطأوا في الثانية حيث جهلوا ان المشيئة عبارة عن ترجيح
بعض الممكنات على بعض كائنا ما كان من غير اعتبار الرضى والسخط في شئ من الطرفين
ولذلك جهلوا بقوله تعالى ما لهم بذلك اي بما ارادوا بقولهم ذلك من كون ما فعلوا
بمشيئة الارتضاء لا بمطلق المشيئة فان ذلك محقق ينطق به ما لا يحصى من الآيات
الكريمة من علم يستند الى سند ما ان هم الا يخرصون يتمحلون تمحلا باطلا و
قد جوز ان يشار بذلك الى اصل الدعوى كأنه لما اظهر وجوه فسادها وحكى شبههم
المزيفة نفى ان يكون لهم بها علم من طريق العقل ثم اضرب عنه الى ابطال ان يكون
لهم سند من جهة النقل فقيل ام آتيناهم كتابا من قبله من قبل القرآن او من قبل
ادعائهم ينطق بصحة ما يدعونه فهم به بذلك الكتاب مستمسكون وعليه معولون
بل قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون اي لم يأتوا بحجة
عقلية او نقلية بل اعترفوا بان لا سند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم والامة
الدين والطريقة التي تؤم اي تقصد كالرحلة لما ترحل اليه وقرئ امة بالكسر وهي الحالة

التي عليها الآمّ اي القاصد وقوله تعالى على آثارهم مهتدون خبران والظرف صلة لمهتدون
وكذلك اي والامر كما ذكر من عجزهم عن الحجة وتشبثهم بذيل التقليد وقوله تعالى ما
ارسلنا من قبلك من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون
استئناف مبين لذلك دال على ان التقليد فيما بينهم ضلال قديم ليس لاسلافهم ايضا
سند غيره وتخصيص المترفين بتلك المقالة للايذان بان التنعم وحب البطالة هو الذي
صرفهم عن النظر الى التقليد قال حكاية لما جرى بين المنذرين وبين اممهم عند تعللهم
بتقليد آبائهم اي قال كل نذير من اولئك المنذرين لاممهم اولو جئتكم اي اتقتدون
بآبائكم ولو جئتكم باهدى بدين اهدى مما وجدتم عليه آباءكم من الضلالة التي
ليست من الهداية في شئ وانما عبر عنها بذلك مجاراة معهم على مسلك الانصاف و
قرئ قل على انه حكاية امر ماض اوحي حينئذ الى كل نذير لا على انه خطاب للرسول صلعم
كما قيل لقوله تعالى قالوا انا بما ارسلتم به كافرون فانه حكاية عن الامم قطعا اي قال
كل امة لنذيرها انا بما ارسلت به الخ وقد اجمل عند الحكاية للايجاز كما مر في قوله تعالى
يا ايها الرسل كلوا من الطيبات وجعله حكاية عن قومه ع م بحمل صيغة الجمع على تغليبه
على سائر المنذرين عليهم السلام وتوجيه كفرهم الى ما ارسل به الكل من التوحيد لاجماعهم
عليه كما في نظائر قوله تعالى كذبت عاد المرسلين تمحل بعيد يرده بالكلية قوله تعالى فانتقمنا
منهم اي بالاستئصال فانظر كيف كان عاقبة المكذبين من الامم المذكورين فلا تكترث
بتكذيب قومك واذ قال ابراهيم اي واذكر لهم وقت قوله عليه السلام لابيه وقومه
المكبين على التقليد كيف تبرأ مما هم فيه بقوله انني براء مما تعبدون وتمسك بالبرهان
ليسلكوا مسلكه في الاستدلال او ليقلدوه ان لم يكن لهم بد من التقليد فانه اشرف
آبائهم وبراء مصدر نعت به مبالغة ولذلك يستوي فيه الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث
وقرئ برئ وبراء بضم ككريم وكرام وما اما مصدرية او موصولة حذف عائدها اي انني
برئ من عبادتكم او معبودكم الا الذي فطرني استثناء منقطع او متصل على ان ما
تعم اولي العلم وغيرهم وانهم كانوا يعبدون الله والاصنام او صفة على ان ما موصوفة
اي انني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني فانه سيهدين اي سيثبتني على الهداية
او سيهدين الى ما وراء الذي هداني اليه الى الآن والوجه ان السين للتأكيد دون التسويف
وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار وجعلها اي جعل ابراهيم كلمة التوحيد
التي ما تكلم به عبارة عنها كلمة باقية في عقبه اي في ذريته حيث وصاهم بها كما نطق به
قوله تعالى ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب الآية فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى و
يدعو الى توحيده وقرئ كلمة وفي عقبه على التخفيف لعلهم يرجعون علة للجعل
اي جعلها باقية في عقبه رجاء ان يرجع اليها من اشرك منهم بدعاء الموحد بل متعت
هؤلاء اضراب عن محذوف ينساق اليه الكلام كأنه قيل جعلها كلمة باقية في عقبه
بان وصى بها بنيه رجاء ان يرجع اليها من اشرك منهم بدعاء الموحد فلم يحصل
ما رجاه بل متعت منهم هؤلاء المعاصرين للرسول عليه السلام من اهل مكة وآباءهم
في المد في العمر والنعمة فاغتروا بالمهلة وانهمكوا في الشهوات وشغلوا بها عن كلمة التوحيد
حتى جاءهم اي هؤلاء الحق اي القرآن ورسول اي رسول مبين ظاهر الرسالة
واضحها بالمعجزات الباهرة او مبين للتوحيد بالآيات البينات والحجج وقرئ متعنا ومتعت
بالخطاب على انه تعالى اعترض به على ذاته في قوله تعالى وجعلها كلمة باقية او مبالغة في تعييرهم
فان التمتيع بزيادة النعم يوجب عليهم ان يجعلوه سببا لزيادة الشكر والثبات على
التوحيد والايمان فجعله سببا لزيادة الكفران اقصى مراتب الكفر والضلال ولما
جاءهم الحق لينبههم عما هم فيه من الغفلة ويرشدهم الى التوحيد ازدادوا
كفرا وعتوا وضموا الى كفرهم السابق معاندة الحق والاستهانة به حيث قالوا هذا سحر
وانا به كافرون فسموا القرآن سحرا وكفروا به واستحقروا رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين اي من احدى القريتين

مكة والطائف على نهج قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان عظيم اى بالجاه والمال كالوليد
بن المغيرة المخزومى وعروة بن مسعود الثقفى وقيل حبيب بن عمرو بن عمير الثقفى وعن مجاهد
عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل ولم يتفوهوا بهذه العظيمة حسدا على نزوله
الى الرسول صلى الله عليه وسلم دون من ذكر من عظمائهم مع اعترافهم بقرآنيته
بل استدلالا على عدمها بمعنى انه لو كان قرآنا لنزل الى احد هؤلاء بناء على ما زعموا
من ان الرسالة منصب جليل القدر لا يليق به الا من له جلالة من حيث المال والجاه ولم
يدروا انها رتبة روحانية لا يترقى اليها الا همم الخواص المختصين بالنفوس الزكية
المؤيدين بالقوة القدسية المتحلين بالفضائل الانسية واما المتزخرفون بالزخارف
الدنيوية المتمتعون بالحظوظ الدنية فهم من استحقاق تلك الرتبة بألف منزل وقوله تعالى
اهم يقسمون رحمة ربك انكار فيه تجهيل لهم وتعجيب من تحكمهم والمراد بالرحمة النبوة
نحن قسمنا بينهم معيشتهم اى اسباب معيشتهم فى الحيوة الدنيا قسمة تقتضيها
مشيئتنا المبنية على الحكم والمصالح ولم نفوض امرها اليهم علما منا بعجزهم عن تدبيرها
بالكلية ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات فى الرزق وسائر مبادى المعاش
درجات متفاوتة بحسب القرب والبعد حسبما تقتضيه الحكمة فمن ضعيف وقوى و
فقير وغنى وخادم ومخدوم وحاكم ومحكوم ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ليصرف
بعضهم بعضا فى مصالحهم ويستخدموهم فى مهنهم ويسخروهم فى اشغالهم حتى
يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا الى مرافقهم لا لكمال فى الموسع ولا لنقص فى المقتر ولو فوضنا
ذلك الى تدبيرهم لضاعوا وهلكوا فاذا كانوا فى تدبير خويصة امرهم وما يصلحهم من متاع
الدنيا الدنية وهو على طرف الثمام على هذه الحالة فما ظنهم بانفسهم فى تدبير امر الدين
وهو ابعد من مناط العيوق ومن اين لهم البحث عن امر النبوة والتخير لها من يصلح لها ويقوم
بامرها ورحمة ربك اى النبوة وما يتبعها من سعادة الدارين خير مما يجمعون من
حطام الدنيا الدنية الفانية وقوله تعالى ولولا ان يكون الناس امة واحدة استئناف مبين
لحقارة متاع الدنيا ودناءة قدره عند الله عز وجل والمعنى ان حقارة شأنه بحيث لولا
ان يرغب الناس لحبهم الدنيا فى الكفر اذا راوا اهله فى سعة وتنعم فيجتمعوا عليه لاعطيناه
بحذافيره من هو شر الخلائق وادناهم منزلة وذلك قوله تعالى لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من
فضة اى متخذة منها ولبيوتهم بدل اشتمال من لمن ووجه الضمير باعتبار معنى من كما ان افراد
المستكن فى يكفر باعتبار لفظها والسقف جمع سقف كرهن جمع رهن وعن الفراء انه جمع
سقيفة كسفن وسفينة وقرئ سقفا بسكون القاف تخفيفا وسقفا اكتفاء بجمع البيوت
وسقفا كانه لغة فى سقف وسقوفا ومعارج اى جعلنا لهم معارج من فضة اى
مصاعد جمع معرج وقرئ معاريج جمع معراج عليها يظهرون اى يعلون السطوح والعلالى
ولبيوتهم اى وجعلنا لبيوتهم ابوابا وسررا من فضة عليها اى على سرر يتكئون ولعل
تكرير ذكر بيوتهم لزيادة التقرير وزخرفا اى زينة عطفا على سقفا او ذهبا عطفا على
محل من فضة وان كل ذلك لما متاع الحيوة الدنيا اى وما كل ما ذكر من البيوت الموصوفة
بالصفات المفصلة الا شئ يتمتع به فى الحيوة الدنيا وفى معناه ما قرئ وما كل ذلك الا
متاع الحيوة الدنيا وقرئ بتخفيف لما على ان ان هى المخففة واللام هى الفارقة وقرئ بكسر
اللام على انها لام العلة وما موصولة قد حذف عائدها اى للذى هو متاع الحيوة كما فى قوله
تعالى تماما على الذى احسن والآخرة بما فيها من فنون النعيم التى يقصر عنها البيان خير
عند ربك للمتقين اى عن الكفر والمعاصى وبهذا تبين ان العظيم هو العظيم فى الآخرة
لا فى الدنيا ومن يعش اى يتعام عن ذكر الرحمن وهو القرآن واضافته الى اسم الرحمن للايذان
بنزوله رحمة للعالمين وقرئ يعش بالفتح اى يعم يقال عشى يعشى اذا كان فى بصره
آفة وعشى يعشو اذا تعشى بلا آفة كعرج وعرج وقرئ يعشو على ان من موصولة غير
متضمنة معنى الشرط والمعنى ومن يعرض عنه لفرط اشتغاله بزهرة الحيوة الدنيا وانهماكه فى حظوظها
الفانية والشهوات نقيض له شيطانا فهو له قرين لا يفارقه ولا يزال يوسوسه ويغويه

وقرئ

وقرئ يقيض بالياء على اسناده الى ضمير الرحمن ومن رفع يعشو فحقه ان يرفع يقيض وانهم
اى الشياطين الذين قيض كل واحد منهم لكل واحد ممن يعشو ليصدونهم اى
قرناءهم فمدار جمع الضميرين اعتبار معنى من كما ان مدار افراد الضمائر السابقة اعتبار
لفظها عن السبيل المستبين الذى يدعو اليه القرآن ويحسبون اى العاشون
انهم اى الشياطين مهتدون اى الى السبيل المستقيم والا لما اتبعوهم او يحسبون
ان انفسهم مهتدون لان اعتقاد كون الشياطين مهتدين مستلزم لاعتقاد كونهم كذلك لاتحاد
مسلكهما والجملة حال من مفعول يصدون بتقدير المبتدأ او من فاعله او منهما لاشتمالها
على ضميريهما اى وانهم ليصدونهم عن الطريق الحق وهم يحسبون انهم مهتدون
اليه وصيغة المضارع فى الافعال الاربعة للدلالة على الاستمرار التجددى لقوله تعالى حتى
اذا جاءنا فان حتى وان كانت ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية لكنها تقتضى حتما
ان تكون غاية لامر ممتد كما مر مرارا وافراد الضمائر فى جاء وما بعده لما ان المراد حكاية
مقالة كل واحد واحد من العاشين لقرينه لتهويل الامر وتفظيع الحال والمعنى يستمر العاشون
على ما ذكر من مقارنة الشياطين والصد والحسبان الباطل حتى اذا جاءنا كل واحد منهم
مع قرينه يوم القيمة قال مخاطبا له يا ليت بينى وبينك فى الدنيا بعد المشرقين اى بعد
المشرق والمغرب اى تباعد كل منهما عن الآخر فغلب المشرق وثنى واضيف البعد اليهما
فبئس القرين اى انت وقوله تعالى ولن ينفعكم الخ حكاية لما سيقال لهم حينئذ من جهة الله
عز وجل توبيخا وتقريعا اى لن ينفعكم اليوم اى يوم القيمة تمنيكم لمباعدتهم
اذ ظلمتم اى لاجل ظلمكم انفسكم فى الدنيا باتباعكم اياهم فى الكفر والمعاصى وقيل
اذ ظلمتم بدل من اليوم اى تبين عندكم وعند الناس جميعا انكم ظلمتم انفسكم فى
الدنيا وعليه قول من قال اذا ما انتسبنا لم تلد فى لئيمة اى تبين انى لم تلد فى لئيمة بل كريمة وقوله
تعالى انكم فى العذاب مشتركون تعليل لنفى النفع اى لان حقكم ان تشتركوا انتم وقرناؤكم فى
العذاب كما كنتم مشتركين فى سببه فى الدنيا ويجوز ان يسند الفعل اليه لكن لا ينفعكم اشتراككم
فى العذاب كما ينفع الواقعين فى شدائد الدنيا اشتراكهم فيها لتعاونهم فى تحمل اعبائها
وتقسمهم لعنائها لان كل منهم ما لا يبلغه طاقته كما قيل لان الانتفاع بذلك الوجه
ليس مما يخطر ببالهم حتى يرد عليهم بنفيه بل المعنى لن يحصل لكم التشفى بكون قرنائكم
معذبين مثلكم حيث كنتم تدعون عليهم بقولكم ربنا وآتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا
كبيرا وقولكم فآتهم عذابا ضعفا من النار ونظائرهما لتتشفوا بذلك كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم يبالغ فى المجاهدة فى دعاء قومه وهم لا يزيدون الا غيا وتعاميا
عما يشاهدونه من شواهد النبوة وتصاما عما يسمعونه من بينات القرآن فنزل افانت
تسمع الصم او تهدى العمى وهو انكار تعجيب من ان يكون هو الذى يقدر على
هدايتهم وهم قد تمرنوا فى الكفر واستغرقوا فى الضلال بحيث صار ما بهم من العشا عمى
مقرونا بالصمم ومن كان فى ضلال مبين عطف على العمى باعتبار تغاير الوصفين ومدار
الانكار هو التمكن والاستقرار فى الضلال المفرط بحيث لا ارعواء له منه لا توهم القصور
من قبل الهادى ففيه رمز الى انه لا يقدر على ذلك الا الله تعالى وحده بالقسر والالجاء
فاما نذهبن بك اى فان قبضناك قبل ان نبصرك عذابهم ونشفى بذلك صدرك و
صدور المؤمنين فانا منهم منتقمون لا محالة فى الدنيا والآخرة فما مزيدة للتأكيد بمنزلة
لام القسم فى انها لا تفارق النون المؤكدة او نرينك الذى وعدناهم اى او اردنا
ان نريك العذاب الذى وعدناهم فانا عليهم مقتدرون بحيث لا مناص لهم
تحت ملكتنا وقهرنا ولقد اراه عليه السلام ذلك يوم بدر فاستمسك بالذى اوحى
اليك من الآيات والشرائع سواء عجلنا لك الموعود او اخرناه الى اليوم الآخر وقرئ اوحى
على البناء للفاعل وهو الله عز وجل انك على صراط مستقيم تعليل للاستمساك او للامر به
وانه لذكر لشرف عظيم لك ولقومك وسوف تسألون يوم القيمة عنه وعن قيامكم
بحقوقه واسأل من ارسلنا قبلك من رسلنا اى واسأل اممهم وعلماء دينهم كقوله

لا يغنى لن ج

تعالى فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك وفائدة هذا المجاز التنبيه على ان المسؤل عنه عين
ما نطقت به السنة الرسل لا ما يقوله اممهم وعلماؤهم من تلقاء انفسهم قال الفرا
هم انما يخبرونه عن كتب الرسل فاذا سألهم فكانه سأل الانبياء عليهم الصلوة والسلام
اجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون اى هل حكمنا بعبادة الاوثان وهل جاءت فى ملة من
مللهم والمراد به الاستشهاد باجماع الانبياء على التوحيد والتنبيه على انه ليس ببدع
ابتدعه حتى يكذب ويعادى ولقد ارسلنا موسى باياتنا الى فرعون وملائه فقال
انى رسول رب العالمين اريد باقتصاصه تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستشهاد
بدعوة موسى عليه السلام الى التوحيد اثر ما اشير الى اجماع جميع الرسل عليهم السلام عليه
فلما جاءهم باياتنا اذا هم منها يضحكون اى فاجؤا وقت ضحكهم منها اى استهزؤا
بها اول ما رأوها ولم يتاملوا فيها وما نريهم من آية من الايات الا هى اكبر من
اختها اى الا وهى بالغة اقصى مراتب الاعجاز بحيث يحسب كل من ينظر اليها انها اكبر من
كل ما يقاس بها من الايات والمراد وصف الكل بغاية الكبر من غير ملاحظة قصور فى شئ
منها او الا وهى مختصة بنوع من الاعجاز مفضلة بذلك الاعتبار على غيرها واخذناهم
بالعذاب كالسنين والطوفان والجراد وغيرها لعلهم يرجعون لكى يرجعوا عما هم
عليه من الكفر وقالوا يا ايها الساحر نادوه بذلك فى مثل تلك الحالة لغاية عتوهم
ونهاية حماقتهم وقيل كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم الساحر و
قرئ ايه الساحر بضم الهاء ادع لنا ربك ليكشف عنا العذاب بما عهد عندك بعهده
عندك من النبوة او من استجابة دعوتك او من كشف العذاب عمن اهتدى او بما عهد
عندك فوفيت به من الايمان والطاعة اننا لمهتدون اى لمؤمنون على تقدير كشف
العذاب عنا بدعوتك كقولهم لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك فلما كشفنا عنهم
العذاب بدعوته اذا هم ينكثون فاجؤا وقت نكث عهدهم بالاهتداء وقد مر تفصيله
فى الاعراف ونادى فرعون بنفسه او بمناديه فى قومه فى مجمعهم وفيما بينهم
بعد ان كشف العذاب عنهم مخافة ان يؤمنوا قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه
الانهار انهار النيل ومعظمها اربعة نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر
تنيس تجرى من تحتى اى من تحت قصرى او امرى وقيل من تحت سريرى لارتفاعه
وقيل بين يدى فى جنانى وبساتينى والواو اما عاطفة لهذه الانهار على ملك مصر
فتجرى حال منها او للحال فهذه مبتدأ والانهار صفتها وتجرى خبر للمبتدأ افلا
تبصرون ذلك يريد به استعظام ملكه ام انا خير ام مع هذه المملكة والبسطة
من هذا الذى هو مهين اى ضعيف حقير من المهانة وهى القلة ولا يكاد يبين
اى الكلام قاله افتراء عليه عليه السلام وتنقيصا له عليه السلام فى اعين الناس
باعتبار ما كان فى لسانه عليه السلام من نوع رتة وقد كانت ذهبت عنه لقوله
تعالى قد اوتيت سؤلك يا موسى وام منقطعة والهمزة للتقرير كأنه قال اثر ما عدد
اسباب فضله ومبادى خيريته اثبت عندكم واستقر لديكم انى انا خير وهذه
حالى من هذا الخ واما متصلة فالمعنى افلا تبصرون ام تبصرون خلا انه وضع قوله انا خير
موضع تبصرون لانهم اذا قالوا له انت خير كانوا عنده بصراء وهذا من باب تنزيل السبب
منزلة المسبب ويجوز ان يجعل من تنزيل المسبب منزلة السبب فان ابصارهم لما ذكر من
اسباب فضله على زعمه لحكمهم بخيريته فلولا القى عليه اسورة من ذهب اى فهلا القى
عليه مقاليد الملك ان كان صادقا قالوا انهم كانوا اذا سودوا رجلا سوروه وطوقوه و
قرئ اساورة جمع اسوار بطوق من ذهب واسورة جمع سوار بمعنى السوار على تعويض
التاء من ياء اساوير وقد قرئ والقى عليه اسورة واساور على البناء للفاعل وهو
الله تعالى او جاء معه الملائكة مقترنين مقرونين يعينونه او يصدقونه من قرنته
به فاقترن او متقارنين بمعنى تقارن فاستخف قومه فاستفزهم وطلب منهم
الخفة فى مطاوعته او فاستخف احلامهم فاطاعوه فيما امرهم به انهم كانوا قوما فاسقين

فلذلك سارعوا الى طاعة ذلك الفاسق الغوى فلما آسفونا اى اغضبونا اشد الغضب منقول
من اسف اذا اشتد غضبه انتقمنا منهم فاغرقناهم اجمعين فى اليم فجعلناهم سلفا
قدوة لمن بعدهم من الكفار يسلكون مسلكهم فى استيجاب مثل ما حل بهم من العذاب
وهو اما مصدر نعت به او جمع سالف كخدم جمع خادم وقرئ بضم السين واللام على
انه جمع سليف اى فريق قد سلف كرغف او سالف كصبر او سلف كاسد وقرئ سلفا
بابدال ضمة اللام فتحة او على انه جمع سلفة اى ثلة قد سلفت ومثلا للآخرين
اى عظة او قصة عجيبة تسير مسير الامثال لهم فيقال مثلكم مثل قوم فرعون
ولما ضرب ابن مريم مثلا اى ضربه ابن الزبعرى حين جادل رسول الله صلى الله عليه وسلم
فى قوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم حيث قال اهذا لنا ولآلهتنا
او لجميع الامم فقال عليه الصلوة والسلام هو لكم ولآلهتكم ولجميع الامم فقال اللعين
خصمتك ورب الكعبة أليست النصارى يعبدون المسيح واليهود عزيرا وبنو مليح الملائكة
فان كان هؤلاء فى النار فقد رضينا ان نكون نحن وآلهتنا معهم ففرح به قومه و
ضحكوا وارتفعت اصواتهم وذلك قوله تعالى اذا قومك منه اى من ذلك المثل يصدون
اى يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحا وجذلا وقرئ يصدون اى من اجل ذلك المثل يعرضون
عن الحق اى يثبتون على ما كانوا عليه من الاعراض او يزدادون فيه وقيل هو ايضا
من الصديد وهما لغتان فيه نحو يعكف ويعكف وهو الانسب بمعنى المفاجأة وقالوا
أآلهتنا خير ام هو حكاية لطرف من المثل المضروب قالوه تمهيدا لما بنوا عليه من الباطل
المموه بما يغتر به السفهاء اى ظاهر ان عيسى خير من آلهتنا فحيث كان هو فى النار فلا
بأس بكوننا مع آلهتنا فيها علم ان ما نقل عنهم من الفرح ورفع الاصوات لم يكن لما قيل من انه
عليه الصلوة والسلام سكت عند ذلك الى ان نزل قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا
الحسنى الآية فان ذلك مع ايهامه لما يجب تنزيه ساحته عليه السلام عنه من شائبة الافحام
من اول الامر خلاف الواقع كيف لا وقد روى ان قول ابن الزبعرى خصمتك ورب الكعبة
صدر عنه من اول الامر عند سماع الآية الكريمة فرد عليه السلام ما اجهلك بلغة قومك
اما فهمت ان ما لما لا يعقل فانما لم يخص عليه السلام بهذا الحكم بآلهتهم حين سأل اللعين
عن الخصوص والعموم عملا بما ذكر من اختصاص كلمة ما بغير العقلاء لان اخراج بعض المعبودين
عنه عند المحاجة موهم للرخصة فى عبادته فى الجملة فعممه للكل لكن لا بطريق عبارة النص
بل بطريق الدلالة بجامع الاشتراك فى المعبودية من دون الله تعالى ثم بين عليه الصلوة
والسلام بقوله بل هم عبدوا الشياطين التى امرتهم بذلك ان الملائكة والمسيح عزل
من ان يكونوا معبوديهم كما نطق به قوله تعالى سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا
يعبدون الجن الآية وقد قرر كيفية المقام عند قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية بل
انما كان ما اظهروه من الاحوال المنكرة لمحض وقاحتهم وتهالكهم على المكابرة والعناد
كما ينطق به قوله تعالى ما ضربوه لك الا جدلا اى ما ضربوا لك ذلك المثل الا لاجل
الجدال والخصام لا لطلب الحق حتى يذعنوا له عند ظهوره ببيانك بل هم قوم
خصمون اى لد شداد الخصومة مجبولون على المحك واللجاج وقيل لما سمعوا قوله تعالى
ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب قالوا نحن اهدى من النصارى
لانهم عبدوا آدميا ونحن نعبد الملائكة فنزلت فقولهم آلهتنا خير هو حينئذ تفضيل
لآلهتهم على عيسى عليه السلام لان المراد بهم الملائكة ومعنى ما ضربوه الخ ما قالوا هذا
القول الا للجدل وقيل لما نزلت ان مثل عيسى الآية قالوا ما يريد محمد بهذا الا ان
نعبده وانه يستاهل ان يعبد وان كان بشرا كما عبدت النصارى المسيح وهو بشر ومعنى
يصدون يضجون ويضجرون والضمير فى ام هو لمحمد عليه الصلوة والسلام وغرضهم
بالموازنة بينه عليه السلام وبين آلهتهم الاستهزاء به وقد جوز ان يكون مرادهم
التنصل عما انكر عليهم من قولهم الملائكة بنات الله تعالى ومن عبادتهم لهم كانهم قالوا
ما قلنا بدعا من القول ولا فعلنا منكرا من الفعل فان النصارى جعلوا المسيح ابن الله وعبدوه

فنحن اشرف منهم قولا و فعلا حيث نسبنا اليه الملئكة وهم نسبوا اليه الا ناسى فقوله تعالى ان هو
الا عبد انعمنا عليه اى بالنبوة وجعلناه مثلا لبنى اسرائل اى امرا عجيبا حقيقا بان يسير
ذكره كالامثال السائرة على الوجه الاول استيناف مسوق لتنزيهه عم عن ان ينسب
اليه ما نسب الى الاصنام بطريق الرمز كما نطق به صريحا قوله تعالى ان الذين سبقت
لهم منا الحسنى الآية وفيه تنبيه على بطلان رأى من رفعه عن رتبة العبودية وتعريض بفساد
رأى من يرى رأيهم فى شان الملئكة و على الثانى والرابع لبيانا انه قياس باطل بباطل او
بابطل على زعمهم و ما عيسى الا عبد كسائر العبيد قصارى امره انه ممن انعمنا عليهم
بالنبوة و خصصناه ببعض الخواص البديعة بان خلقناه بوجه بديع وقد خلقنا آدم بوجه
ابدع منه فاين هو من رتبة الربوبية و من اين يتوهم صحة مذهب عبدته حتى يفتخر عبدة
الملئكة بكونهم اهدى منهم او يعتذروا بان حالهم اشف واخف من حالهم و اما
على الوجه الثالث فهو لرد هم و تكذيبهم فى افترائهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم
بيانا ان عيسى فى الحقيقة وفيما اوحى الى الرسول عليهما السلام الا انه عبد منعم عليه كما ذكر
فكيف يرضى عليه الصلوة والسلام بعبوديته او كيف يتوهم الرضى بعبوديته نفسه وقوله تعالى
ولو نشاء الخ لتحقيق ان مثل عيسى عم ليس ببديع من قدرة الله تعالى وانه تعالى
قادر على ابدع من ذلك وابدع مع التنبيه على سقوط الملائكة ايضا من درجة المعبودية
اى قدرتنا بحيث لو نشاء لجعلنا اى لخلقنا بطريق التوالد منكم وانتم رجال ليس من شانكم
الولادة ملائكة كما خلقناهم بطريق الابداع فى الارض مستقرين فيها كما جعلناهم مستقرين
فى السماء يخلفون اى يخلفونكم مثل اولادكم فيما تاتون وما تذرون ويباشرون الافاعيل
المنوطة بمباشرتكم مع ان شانهم التسبيح والتقديس فى السماء فمن شانهم بهذه المثابة
بالنسبة الى القدرة الربانية كيف يتوهم استحقاقهم للمعبودية او انتسابهم اليه تعالى
عن ذلك علوا كبيرا وانه وان عيسى عليه السلام لعلم الساعة اى انه بنزوله شرط من
اشراطها وتسميته علما لحصوله به او بحدوثه بغير اب او باحيائه الموتى دليل على صحة
البعث الذى هو معظم ما ينكره الكفرة من الامور الواقعة فى الساعة وقرئ لعلم اى علامة
وقرئ للعلم وقرئ لذكر على تسمية ما يذكر به ذكرا كتسمية ما يعلم به علما وفى الحديث ان عيسى
عليه السلام ينزل على ثنية بالارض المقدسة يقال لها افيق وعليه ممصرتان وبيده حربة
وبها يقتل الدجال فياتى بيت المقدس والناس فى صلاة الصبح فيتاخر الامام فيقدمه عيسى
عليه السلام ويصلى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير ويكسر
الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى الا من آمن به وقيل الضمير للقرآن لما
ان فيه الاعلام بالساعة فلا تمترن بها فلا تشكن فى وقوعها واتبعون اى واتبعوا
هداى او شرعى او رسولى وقيل هو قول الرسول مامورا من جهته تعالى هذا اى
الذى ادعوكم اليه او القرآن على ان الضمير فى انه له صراط مستقيم موصل الى الحق ولا
يصدنكم الشيطان عن اتباعى انه لكم عدو مبين بين العداوة حيث اخرج اباءكم من الجنة
وعرضكم للبلية ولما جاء عيسى بالبينات اى بالمعجزات او بآيات الانجيل او بالشرائع
الواضحات قال لبنى اسرائل قد جئتكم بالحكمة اى الانجيل والشريعة ولابين لكم
عطف على مقدر ينبئ عنه المجئ بالحكمة كانه قيل قد جئتكم بالحكمة لاعلمكم اياها ولابين
لكم بعض الذى تختلفون فيه وهو ما يتعلق بامور الدين واما ما يتعلق بامور الدنيا
فليس بيانه من وظائف الانبياء عليهم السلام كما قال عليه الصلوة والسلام انتم اعلم
بامور دنياكم فاتقوا الله فى مخالفتى واطيعون فيما ابلغه عنه تعالى ان الله هو
ربى وربكم فاعبدوه بيان لما امرهم بالطاعة فيه وهو اعتقاد التوحيد والتعبد
بالشرائع هذا اى التوحيد والتعبد بالشرائع صراط مستقيم لا يضل سالكه وهو اما
من تتمة كلامه عليه السلام او استيناف من جهته تعالى مقرر لمقالة عيسى عليه السلام
فاختلف الاحزاب الفرق المتحزبة من بينهم اى من بين من بعث اليهم من اليهود والنصارى
فويل للذين ظلموا من المختلفين من عذاب يوم اليم هو يوم القيمة هل ينظرون اى

ينظر

ينظر الناس الا الساعة ان تاتيهم اى الا اتيان الساعة بغتة اى فجاءة لكن لا عند كونهم
مترقبين لها بل غافلين عنها مشتغلين بامور الدنيا منكرين لها وذلك قوله تعالى وهم
لا يشعرون الاخلاء المتحابون فى الدنيا على الاطلاق او فى الامور الدنيوية يومئذ
يوم اذ تاتيهم الساعة بعضهم لبعض عدو لانقطاع ما بينهم من علائق الخلة و
التحاب لظهور كونها اسبابا للعذاب الا المتقين فان خلتهم فى الدنيا لما كانت فى الله
تبقى على حالها بل تزداد بمشاهدة كل منهم اثار خلتهم من الثواب ورفع الدرجات
والاستثناء على الاول متصل وعلى الثانى منقطع يا عبادى لا خوف عليكم اليوم
ولا انتم تحزنون حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون فى الله يومئذ تشريفا لهم
وتطييبا لقلوبهم الذين آمنوا بآياتنا صفة للمنادى او نصب على المدح وكانوا مسلمين
اى مخلصين وجوههم لنا جاعلين انفسهم سالمة لطاعتنا وهو حال من واو آمنوا عن
مقاتل اذا بعث الله الناس فزع كل احد فينادى مناد يا عبادى فيرفع الخلائق رؤسهم
على الرجاء ثم يتبعها الذين آمنوا الآية فينكس اهل الاديان الباطلة رؤسهم ادخلوا الجنة
انتم وازواجكم نساؤكم المؤمنات تحبرون تسرون سرورا يظهر حباره اى
اثره على وجوهكم او تزينون من الحبر وهو حسن الهيئة او تكرمون اكراما بليغا
والحبرة المبالغة فيما وصف بجميل يطاف عليهم بعد دخولهم الجنة حسبما امروا به
بصحاف من ذهب واكواب كذلك والصحاف جمع صحفة قيل هى كالقصعة وقيل اعظم
القصاع الجفنة ثم القصعة ثم الصحفة ثم المكيلة والاكواب جمع كوب وهو كوز لا
عروة له وفيها اى فى الجنة ما تشتهيه الانفس من فنون الملاذ وقرئ ما تشتهى و
تلذ الاعين اى تستلذه وتقر بمشاهدته وقرئ وتلذه وانتم فيها خالدون
اتمام للنعمة واكمال للسرور فان كل نعيم زائل بالاخرة مقارن لخوفه لا محالة والالتفات
للتشريف وتلك الجنة مبتدا وخبر التى اورثتموها وقرئ ورثتموها بما كنتم تعملون
فى الدنيا من الاعمال الصالحة يشبه جزاء العمل بالميراث لانه يخلفه العامل عليه وقيل تلك
الجنة مبتدا وصفة والموصول مع صلته خبره وقيل هو صفة الجنة كالوجه الاول
والخبر بما كنتم تعملون فتتعلق الباء بمحذوف لا باورثتموها كما فى الاولين لكم فيها فاكهة
كثيرة بحسب الانواع والاصناف لا بحسب الافراد منها تاكلون اى بعضها تاكلون فى كل
نوبة واما الباقى فعلى الاشجار على الدوام لا ترى فيها شجرة خلت عن ثمرها لحظة فهى مزينة
بالثمار ابدا موقرة بها وعن النبى صلى الله عليه وسلم لا ينزع رجل فى الجنة من ثمرها الا
نبت مثلاها مكانها ان المجرمين اى الراسخين فى الاجرام وهم الكفار حسبما ينبئ عنه
ايرادهم فى مقابلة المؤمنين بالآيات فى عذاب جهنم خالدون خبر ان او خالدون
هو الخبر وفى متعلقة به لا يفتر عنهم اى لا يخفف العذاب عنهم من قولهم فترت عنه
الحمى اذا سكنت قليلا والتركيب للضعف وهم فيه اى فى العذاب وقرئ فيها اى
فى النار مبلسون آيسون من النجاة وما ظلمناهم بذلك ولكن كانوا هم الظالمين
لتعريضهم انفسهم للعذاب الخالد ونادوا خازن النار يا مالك وقرئ يا مال على الترخيم
بالضم والكسر ولعله رمز الى ضعفهم وعجزهم عن تأدية اللفظ بتمامه ليقض علينا
ربك اى ليمتنا حتى نستريح من قضى عليه اذا اماته والمعنى سل ربك ان يقضى علينا
وهذا لا ينافى ما ذكر من ابلاسهم لانه جؤار وتمن للموت لفرط الشدة قال انكم ماكثون
اى فى العذاب ابدا لا خلاص لكم منه بموت ولا بغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما انه
لا يجيب الا بعد الف سنة وقيل بعد مائة وقيل بعد اربعين سنة لقد جئناكم بالحق
فى الدنيا بارسال الرسل وانزال الكتب وهو خطاب توبيخ وتقريع من جهة الله تعالى مقرر
لجواب مالك ومبين لسبب مكثهم وقيل فى قال ضمير الله تعالى ولكن اكثركم للحق اى
حق كان كارهون لا يقبلونه وينفرون منه واما الحق المعهود الذى هو التوحيد او القرآن
فكلكم كارهون له مشمئزون منه ام ابرموا امرا كلام مبتدأ ناع على المشركين ما
فعلوا من الكيد برسول الله صلى الله عليه وسلم وام منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال

من توبيخ اهل النار الى حكاية جناية هؤلاء والهمزة للانكار فان اريد بالابرام الاحكام
حقيقة فهي لانكار الوقوع واستبعاده وان اريد الاحكام صورة فهي لانكار الواقع و
استقباحه اى ابرام مشركوا مكة امرا من كيدهم ومكرهم برسول الله صلى الله عليه و
سلم فانا مبرمون كيدنا حقيقة لاهم او فانا مبرمون كيدنا بهم حقيقة كما ابرموا
كيدهم صورة كقوله تعالى ام يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون وكانوا يتناجون
فى انديتهم ويتشاورون فى اموره عليه الصلوة والسلام ام يحسبون اى بل ايحسبون
انا لا نسمع سرهم وهو ما حدثوا به انفسهم او غيرهم فى مكان خال ونجواهم
اى ما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجى بلى نحن نسمعها ونطلع عليهما ورسلنا
الذين يحفظون عليهم اعمالهم ويلازمونهم اينما كانوا لديهم عندهم يكتبون
اى يكتبونهما او يكتبون كل ما صدر عنهم من الافعال والاقوال التى من جملتها ما ذكر
من سرهم ونجويهم والجملة اما عطف على ما يترجم عنه بلى اى حال اى نسمعها و
الحالات رسلنا يكتبونه قل اى للكفرة تحقيقا للحق وتنبيها لهم على ان مخالفتك
لهم بعدم عبادتك لما يعبدونه من الملائكة عليهم السلام ليست لبغضك وعداوتك
لهم او لمعبوديهم بل انما هو لجزمك باستحالة ما نسبوا اليهم وبنوا عليه عبادتهم من كونهم
بنات الله تعالى ان كان للرحمن ولد فانا اول العابدين اى له وذلك لانه عليه السلام اعلم
الناس بشؤنه تعالى وبما يجوز عليه وبما لا يجوز واولاهم بمراعاة حقوقه ومن مواجب
تعظيم الوالد تعظيم ولده وفيه من الدلالة على انتفاء كونهم كذلك على ابلغ الوجوه
واقواها وعلى كون رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوة يقين وثبات قدم فى باب
التوحيد ما لا يخفى مع ما فيه من استنزال الكفرة عن رتبة المكابرة حسبما يعرب عنه
ايراد ان مكان لو المنبئة عن امتناع مقدم الشرطية وقيل ان كان للرحمن ولد فى
زعمكم فانا اول العابدين الموحدين لله تعالى وقيل فانا اول الآنفين اى المستنكفين
منه او من ان يكون له ولد من عبد يعبد اذا اشتد انفه وقيل ان نافية اى ما كان للرحمن
ولد فانا اول من قال بذلك وقرئ ولد سبحان رب السموات والارض رب العرش عما
يصفون اى يصفونه به من ان يكون له ولد وفى اضافة اسم الرب الى اعظم الاجرام
واقواها تنبيه على انها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت ملكوته وربوبيته كيف
يتوهم ان يكون شئ منها جزأ منه سبحانه وفى تكرير اسم الرب تفخيم لشأن العرش
فذرهم حيث لم يذعنوا للحق بعد ما سمعوا هذا البرهان الجلى يخوضوا فى
اباطيلهم ويلعبوا فى دنياهم فان ما هم فيه من الافعال والاقوال ليست الا من باب
الجهل واللعب والجزم فى الفعل لجواب الامر حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون من يوم
القيمة فانهم يومئذ يعلمون ما فعلوا وما يفعل بهم وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله
الظرفان متعلقان بالمعنى الوصفى الذى ينبئ عنه الاسم الجليل من معنى المعبودية
بالحق بناء على اختصاصه بالمعبود بالحق كما مر فى تفسير البسملة كانه قيل وهو الذى
مستحق لان يعبد فيهما وقد مر تحقيقه فى سورة الانعام وقرئ وهو الذى فى السماء
الله وفى الارض الله والراجع الى الموصول مبتدأ قد حذف لطول الصلة بمتعلق الخبر
والعطف عليه ولا مساغ لكون الجار خبرا مقدما واله مبتدأ مؤخرا للزوم عرى الجملة
حينئذ عن العائد نعم يجوز ان يكون صلة للموصول واله خبر المبتدأ محذوف على ان الجملة
بيان للصلة وان كونه فى السماء على سبيل الالهية لا سبيل الاستقرار وفيه نفى
للآلهة السماوية والارضية وتخصيص لاستحقاق الالهية به تعالى وقوله تعالى
وهو الحكيم العليم كالدليل على ما قبله وتبارك الذى له ملك السموات والارض
وما بينهما اما على الدوام كالهواء او بعض الاوقات كالطير وعنده علم الساعة
اى العلم بالساعة التى فيها تقوم القيمة واليه ترجعون للجزاء والالتفات للتهديد
وقرئ على الغيبة وقرئ تحشرون بالتاء ولا يملك الذين يدعون اى يدعونه وقرئ بالتاء
مخففا ومشددا من دونه الشفاعة كما يزعمون الا من شهد بالحق الذى هو التوحيد
وهم يعلمون بما يشهد به عن بصيرة وايقان واخلاص وجمع الضمير باعتبار معنى من

كما

كما ان الافراد اولا باعتبار لفظها والاستثناء اما متصل والموصول عام لكل ما يعبد من
دون الله او منفصل على انه خاص بالاصنام ولئن سألتهم من خلقهم اى سألت
العابدين والمعبودين ليقولن الله لتعذر الانكار لغاية بطلانه فانى يؤفكون
فكيف يصرفون عن عبادته الى عبادة غيره مع اعترافهم بكون الكل مخلوقا له تعالى
وقيله بالجر اما على انه عطف على الساعة اى عنده علم الساعة وعلم قوله عليه السلام
يا رب والقول والقيل والقال كلها مصادر او على ان الواو للقسم وقوله
تعالى ان هؤلاء قوم لا يؤمنون جوابه وفى الاقسام به من رفع شأنه وتفخيم
دعائه والتجائه اليه تعالى ما لا يخفى وقرئ بالنصب بالعطف على سرهم او على محل الساعة او
باضمار فعله او بتقدير فعل القسم وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر ما بعده وقد جوز
عطفه على علم الساعة فاصفح عنهم فاعرض عن دعوتهم واقنط عن ايمانهم
وقل سلام اى امرى تسلم منكم ومتاركة فسوف يعلمون حالهم البتة وان تأخر
ذلك وهو وعيد من الله تعالى وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرئ تعلمون على انه
داخل فى حيز قل عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم
القيمة يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا انتم تحزنون ادخلوا الجنة بغير حساب

سورة الدخان مكية وهى سبع وخمسون اية بسم الله الرحمن الرحيم

حم والكتاب المبين الكلام فيه كالذى سلف فى السورة السابقة انا انزلناه اى الكتاب
المبين الذى هو القرآن فى ليلة مباركة هى ليلة القدر وقيل ليلة البراءة ابتدئ فيها انزاله او
انزل فيها جملة الى السماء الدنيا من اللوح واملاه جبريل عليه السلام على السفرة ثم كان ينزله
على النبى صلى الله عليه وسلم نجوما فى ثلث وعشرين سنة كما مر فى سورة الفاتحة ووصفها
بالبركة لما ان نزول القرآن مستتبع للمنافع الدينية والدنيوية باجمعها او لما فيها من
تنزل الملائكة والرحمة واجابة الدعوة وقسم النعمة وفصل الاقضية وفضيلة العبادة واعطاء
تمام الشفاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل يزيد فى هذه الليلة ماء زمزم زيادة
ظاهرة انا كنا منذرين استيناف مبين لما يقتضى الانزال كانه قيل انا انزلناه لان من
شأننا الانذار والتحذير من العقاب وقيل جواب للقسم وقوله تعالى انا انزلناه الى اعتراض
وقيل جواب ثان بغير عاطف فيها يفرق كل امر حكيم استيناف كما قبله فان كونها
مفرق الامور المحكمة او الملتبسة بالحكمة الموافقة لها يستدعى ان ينزل فيها القرآن الذى
هو من عظائمها وقيل صفة اخرى لليلة وما بينهما اعتراض وهذا يدل على انها ليلة القدر
ومعنى يفرق انه يكتب ويفصل كل امر حكيم من ارزاق العباد وآجالهم وجميع امورهم
من هذه الليلة الى الاخرى من السنة القابلة وقيل يبدأ فى استنساخ ذلك من اللوح
فى ليلة البراءة ويقع الفراغ فى ليلة القدر فتدفع نسخة الارزاق الى ميكائيل ونسخة الحروب
الى جبريل وكذا الزلازل والخسف والصواعق ونسخة الاعمال الى اسماعيل صاحب سماء
الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب الى ملك الموت عليهم السلام وقرئ يفرق
بالتشديد وقرئ يفرق على البناء للفاعل اى يفرق الله تعالى كل امر حكيم وقرئ نفرق بنون العظمة امرا
من عندنا نصب على الاختصاص اى اعنى بهذا الامر امرا حاصلا من عندنا على مقتضى
حكمتنا وهو بيان لفخامته الاضافية بعد بيان فخامته الذاتية ويجوز كونه حالا من كل امر
لتخصصه بالوصف او من ضميره فى حكيم وقد جوز ان يراد به مقابل النهى ويجعل مصدرا
مؤكدا ليفرق لاتحاد الامر والفرقان فى المعنى او لفعله المضمر لما ان الفرق به او حالا من
احد ضميرى انزلناه اى آمرين او مأمورا انا كنا مرسلين بدل من انا كنا منذرين وقيل
جواب ثالث وقيل مستأنف وقوله تعالى رحمة من ربك غاية للارسال متأخرة عنه على
ان المراد بها الرحمة الواصلة الى العباد وباعث متقدم عليه على ان المراد مبدؤها اى انا انزلنا
القرآن لان من عادتنا ارسال الرسل بالكتب الى العباد لاجل افاضة رحمتنا عليهم او لاقتضاء
رحمتنا السابقة ارسالهم ووضع الرب موضع الضمير للايذان بان ذلك من احكام الربوبية

ومقتضاها واضافته الى ضميره عليه السلام لتشريفه او تعليل ليفرق او لقوله تعالى امرا على ان
قوله تعالى رحمة مفعول للارسال كما في قوله تعالى وما يمسك فلا مرسل له اى يفرق فيها كل
امر او يصدر الاوامر من عندنا لان من عادتنا ارسال رحمتنا ولا ريب في ان كلا من قسمة
الارزاق وغيرها والاوامر الصادرة عنه تعالى من باب الرحمة فان الغاية لتكليف العباد
تعريضهم للمنافع وقرئ رحمة بالرفع اى تلك رحمة وقوله تعالى انه هو السميع العليم
تحقيق لربوبيته تعالى وانها لا تحق الا لمن هذه نعوته رب السموات والارض وما بينهما
بدل من ربك او بيان او نعت وقرئ بالرفع على انه خبر آخر او استئناف على اضمار مبتدء
ان كنتم موقنين اى ان كنتم من اهل الايقان في العلوم او ان كنتم موقنين في اقراركم
بانه تعالى رب السموات والارض وما بينهما اذ سئلتم من خلقها فقلتم الله علمتم ان
الامر كما قلنا او ان كنتم مريدين اليقين فاعلموا ذلك لا اله الا هو جملة مستأنفة
مقررة لما قبلها وقيل خبر لقوله رب السموات الخ وما بينهما اعتراض يحيى ويميت مستأنفة
كما قبلها وكذا قوله تعالى ربكم ورب آبائكم الاولين باضمار مبتدء او بدل من رب
السموات على قراءة الرفع او بيان او نعت له وقيل فاعل ليميت وفي يحيى ضمير راجع الى رب
السموات وقرئا بالجر بدلا من رب السموات على قراءة الجر بل هم في شك مما ذكر من
شؤونه تعالى غير موقنين في اقرارهم يلعبون لا يقولون ما يقولون عن جد واذعان
بل مخلوطا بهزء ولعب والفاء في قوله تعالى فارتقب لترتيب الارتقاب او الامر به على
ما قبلها فان كونهم في شك مما يوجب ذلك حتما اى فانتظر لهم يوم تأتي السماء
بدخان مبين اى يوم شدة ومجاعة فان الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان
اما لضعف بصره او لان في عام القحط يظلم الهواء لقلة الامطار وكثرة الغبار او لان العرب
تسمى الشر الغالب دخانا وذلك ان قريشا لما استعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم
دعا عليهم فقال اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف
فاخذتهم سنة حتى اكلوا الجيف والعظام والعلهز وكان الرجل يرى بين السماء والارض
الدخان وكان يحدث الرجل ويسمع كلامه ولا يراه من الدخان وذلك قوله تعالى يغشى
الناس اى يحيط بهم هذا عذاب اليم اى قائلين ذلك فمشى اليه عليه الصلوة والسلام
ابو سفيان ونفر معه وناشدوه الله والرحم وواعدوه ان دعا لهم وكشف عنهم
ان يؤمنوا وذلك قوله تعالى ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون وهذا قول ابن عباس
وابن مسعود رضي الله عنهم وبه اخذ مجاهد ومقاتل وهو اختيار الفراء والزجاج
وقيل هو دخان يأتي من السماء قبل يوم القيمة فيدخل في اسماع الكفرة حتى يكون
رأس الواحد كالرأس الحنيذ ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام وتكون الارض
كلها كبيت اوقد فيه ليس فيه خصاص وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم اول الآيات
الدخان ونزول عيسى بن مريم ونار تخرج من قعر عدن ابين تسوق الناس الى
المحشر قال حذيفة يا رسول الله وما الدخان فتلا الآية وقال يملأ ما بين المشرق
والمغرب يمكث اربعين يوما وليلة اما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة واما الكافر
فهو كالسكران يخرج من منخريه واذنيه ودبره والاول هو الذي يستدعيه مساق
النظم الكريم قطعا فان قوله تعالى انى لهم الذكرى الخ رد لكلامهم واستدعائهم
الكشف وتكذيب لهم في الوعد بالايمان المنبئ عن التذكر والاتعاظ بما اعتراهم
من الداهية اى كيف يتذكرون او من اين يتذكرون بذلك ويفون بما وعدوه من
الايمان عند كشف العذاب عنهم وقد جاءهم رسول مبين اى والحال انهم شاهدوا
من دواعي التذكر وموجبات الاتعاظ ما هو اعظم منه في ايجابهما حيث جاءهم
رسول عظيم الشأن وبين لهم مناهج الحق باظهار آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة تخر لها
صم الجبال ثم تولوا عنه عن ذلك الرسول وهو هو ريثما شاهدوا منه ما شاهدوا
من العظائم الموجبة للاقبال اليه ولم يقتنعوا بالتولي وقالوا في حقه معلم مجنون اى قالوا
تارة يعلمه غلام اعجمي لبعض ثقيف واخرى مجنون او يقول بعضهم كذا وآخرون كذا

فهل

فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم ان يتأثروا بالعظة والتذكير وما مثلهم الا كمثل الكلب اذا جاع
ضغا واذا شبع طغى وقوله تعالى انا كاشفوا العذاب قليلا انكم عائدون جواب من جهته
تعالى عن قولهم ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ
والتهديد وبينهما اعتراض اى انا نكشف العذاب المعهود عنكم كشفا قليلا او زمانا قليلا
انكم تعودون اثر ذلك الى ما كنتم عليه من العتو والاصرار على الكفر وتنسون هذه الحالة
وصيغة الفاعل في الفعلين للدلالة على تحققهما لا محالة ولقد وقع كلاهما حيث كشفه الله
تعالى بدعاء النبي عليه السلام فما لبثوا ان عادوا الى ما كانوا فيه من العتو والعناد ومن
فسر الدخان بما هو من الاشراط قال اذا جاء الدخان تضور المعذبون به من الكفار و
المنافقين فغوثوا وقالوا ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون فيكشفه الله تعالى عنهم
بعد اربعين يوما فريثما يكشفه عنهم يرتدون ولا يتمهلون يوم نبطش البطشة الكبرى
اى يوم القيمة وقيل يوم بدر وهو ظرف لما دل عليه قوله تعالى انا منتقمون لا
لمنتقمون لان ان مانعة عن ذلك اى يومئذ ننتقم انا منتقمون وقيل هو بدل من يوم
تأتي الخ وقرئ نبطش اى نحمل الملئكة على ان يبطشوا بهم البطشة الكبرى وهو التناول
بعنف وصولة او نجعل البطشة الكبرى باطشة بهم وقرئ نبطش بضم الطاء وهي
لغة ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون اى امتحناهم بارسال موسى عليه السلام
او اوقعناهم في الفتنة بالامهال وتوسيع الرزق عليهم وتوسيع الرزق عليهم
وقرئ بالتشديد للمبالغة او لكثرة القوم وجاءهم رسول كريم على الله تعالى او على
المؤمنين او في نفسه لان الله تعالى لم يبعث نبيا الا من سراة قومه وكرامهم ان
ادوا الى عباد الله اى بان ادوا الى بني اسرائيل وارسلوهم معي او بان ادوا الي يا عباد الله
حقه من الايمان وقبول الدعوة وقيل ان مفسرة لان مجيء الرسول لا يكون الا برسالة
ودعوة وقيل مخففة من الثقيلة اى جاءهم بان الشأن ادوا الى الخ وقوله تعالى انى لكم
امين تعليل للامر او لوجوب المأمور به اى رسول غير ظنين قد ائتمنني الله تعالى على وحيه
وصدقني بالمعجزات القاهرة وان لا تعلوا على الله اى لا تتكبروا عليه تعالى بالاستهانة
بوحيه وبرسوله وان كالتي سلفت وقوله تعالى انى آتيكم اى من جهته تعالى بسلطان
مبين تعليل للنهي اى آتيكم بحجة واضحة لا سبيل الى انكارها وآتيكم على صيغة الفاعل
او المضارع وفي ايراد الاداء مع الامين والسلطان مع العلاء من الجزالة ما لا يخفى
واني عذت بربي وربكم اى التجأت اليه وتوكلت عليه ان ترجمون من ان ترجموني
اى تؤذوني ضربا او شتما او ان تقتلوني قيل لما قال وان لا تعلوا على الله توعدوه
بالقتل وقرئ بادغام الذال في التاء وان لم تؤمنوا لي فاعتزلون اى وان كابرتم
مقتضى العقل ولم تؤمنوا لي فخلوني كفافا لا علي ولا لي ولا تتعرضوا لي بشر واذى
فليس ذلك جزاء من يدعوكم الى ما فيه فلاحكم وحمله على معنى فاقطعوا اسباب الوصلة
عني فلا موالاة بيني وبين من لا يؤمن يأباه المقام فدعا ربه بعد ما تموا على
تكذيبه ان هؤلاء اى بان هؤلاء قوم مجرمون وهو تعريض بالدعاء عليهم
بذكر ما استوجبوه به ولذلك سمي دعاء وقرئ بالكسر على اضمار القول قيل كان دعاؤه
اللهم عجل لهم ما يستحقونه باجرامهم وقيل هو قوله ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم
الظالمين فاسر بعبادي ليلا باضمار القول اما بعد الفاء اى فقال ربه اسر بعبادي
واما قبلها كانه قيل قال ان كان الامر كما تقول فاسر بعبادي اى بني اسرائيل فقد
دبر الله تعالى ان تتقدموا وقرئ بوصل الهمزة من سرى انكم متبعون اى يتبعكم
فرعون وجنوده بعد ما علموا بخروجكم واترك البحر رهوا مفتوحا ذا فجوة واسعة
وساكنا على هيئته بعد ما جاوزته ولا تضرب بعصاك لينطبق ولا تغيره عن حاله ليدخله
القبط انهم جند مغرقون وقرئ انهم بالفتح اى لانهم كم تركوا اى كثيرا تركوا
بمصر من جنات وعيون وزروع ومقام كريم محافل مزينة ومنازل
محسنة ونعمة اى تنعم كانوا فيها فاكهين متنعمين وقرئ فكهين كذلك الكاف

في حيز النصب وذلك اشارة الى مصدر فعل يدل عليه تركوا اى مثل ذلك السلب سلبناهم
اياها واورثناها قوما آخرين وقيل مثل ذلك الاخراج اخرجناهم منها وقيل في حيز
الرفع على الخبرية اى الامر كذلك فحينئذ يكون اورثناها معطوفا على تركوا وعلى الاولين
على الفعل المقدر فما بكت عليهم السماء والارض مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم
والاعتداد بوجودهم فيه تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده فيقال له
بكت عليهم السماء والارض ومنه ما روى ان المؤمن ليبكى عليه مصلاه ومحل عبادته
ومصاعد عمله ومهابط رزقه وآثاره في الارض وقيل تقديره اهل السماء والارض
وما كانوا لما جاء وقت هلاكهم منظرين ممهلين الى وقت آخر او الى الآخرة بل
عجل لهم في الدنيا ولقد نجينا بنى اسرائيل بما فعلنا بفرعون وقومه ما فعلنا
من العذاب المهين من استعباد فرعون اياهم وقتل ابنائهم واستحياء نسائهم على
الخسف والضيم من فرعون بدل من العذاب اما على جعله نفس العذاب لافراطه فيه
واما على حذف المضاف اى عذاب فرعون او حال من المهين اى كائنا من فرعون
وقرئ من فرعون على معنى هل تعرفونه من هو في عتوه وتفرعنه وفي ابهام امره
اولا وتبيينه بقوله تعالى انه كان عاليا من المسرفين ثانيا من الافصاح عن كنه امره
في الشر والفساد ما لا مزيد عليه وقوله تعالى من المسرفين اما خبر ثان لكان اى كان متكبرا
مسرفا او حال من الضمير في عاليا اى كان رفيع الطبقة من بين المسرفين فائقا لهم بليغا
في الاسراف ولقد اخترناهم اى بنى اسرائيل على علم اى عالمين بانهم احقاء بالاختيار
او عالمين بانهم يزيغون في بعض الاوقات ويكثر منهم الفرطات على العالمين جميعا لكثرة
الانبياء فيهم او على عالمى زمانهم وآتيناهم من الآيات كفلق البحر وتظليل الغمام
وانزال المن والسلوى وغيرها من عظائم الآيات التى لم يعهد مثلها في غيرهم ما فيه
بلاء مبين نعمة جلية او اختبار ظاهر لننظر كيف يعملون ان هؤلاء يعنى كفار قريش
لان الكلام فيهم وقصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على تماثلهم في الاصرار
على الضلالة والتحذير عن حلول مثل ما حل بهم ليقولون ان هى الا موتتنا الاولى
اى ما العاقبة ونهاية الامر الا الموتة الاولى المزيلة للحيوة الدنيوية ولا قصد فيه
الى اثبات موتة اخرى كما في قولك حج زيد الحجة الاولى ومات وقيل لما قيل لهم
انكم تموتون موتة تعقبها حيوة كما تقدمتكم موتة كذلك قالوا ان هى الا موتتنا الاولى
اى ما الموتة التى تعقبها حيوة الا الموتة الاولى وقيل المعنى ليست الموتة الا هذه الموتة
دون الموتة التى تعقب حيوة القبر كما تزعمون وما نحن بمنشرين بمبعوثين فاتوا بآبائنا
خطاب لمن وعدهم بالنشور من الرسول عليه الصلوة والسلام والمؤمنين ان كنتم صادقين
فيما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى ليظهر انه حق وقيل كانوا يطلبون اليهم
ان يدعوا الله تعالى فينشر لهم قصى بن كلاب ليشاوروه وكان كبيرهم ومفزعهم
في المهمات والملمات اهم خير رد لقولهم وتهديد لهم اى اهم خير في القوة والمنعة
اللتين يدفع بهما اسباب الهلاك ام قوم تبع هو تبع الحميرى الذى سار
بالجيوش وحير الحيرة وبنى سمرقند وقيل هدمها وكان مؤمنا وقومه كافرين
ولذلك ذمهم الله تعالى دونه وكان يكتب في عنوان كتابه بسم الله الذى ملك بحرا و
بحرا اى بحارا كثيرة وعن النبى صلى الله عليه وسلم لا تسبوا تبعا فانه كان قد اسلم
وعنه عليه الصلوة والسلام ما ادرى اكان تبع نبيا او غير نبى وعن ابن عباس رضى الله
عنهما انه كان نبيا وقيل لملوك اليمن التبابعة لانهم يتبعون كما يقال لهم الاقيال
لانهم يتقيلون والذين من قبلهم عطف على قوم تبع والمراد بهم عاد وثمود وامثالهم
من كل جبار عنيد اولى باس شديد والاستفهام لتقرير ان اولئك اقوى من هؤلاء
وقوله تعالى اهلكناهم استيناف ببيان عاقبة امرهم وقوله تعالى انهم كانوا مجرمين
تعليل لاهلاكهم ليعلم ان اولئك حيث اهلكوا بسبب اجرامهم مع ما كانوا في غاية
القوة والشدة فلان يهلك هؤلاء وهم شركاء لهم في الاجرام اضعف منهم في الشدة
والقوة

والقوة اولى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما اى ما بين الجنسين وقرئ وما
بينهن لاعبين لاهين من غير ان يكون في خلقها غرض صحيح وغاية حميدة ما خلقناهما
وما بينهما الا بالحق استثناء مفرغ من اعم الاحوال او اعم الاسباب اى ما خلقناهما
ملتبسا بشئ من الاشياء الا ملتبسا بالحق او ما خلقناهما بسبب من الاسباب الا بسبب
الحق الذى هو الايمان والطاعة والبعث والجزاء ولكن اكثرهم لا يعلمون
ان الامر كذلك فينكرون البعث والجزاء ان يوم الفصل اى فصل الحق عن الباطل
وتمييز المحق عن المبطل وفصل الرجل عن اقاربه واحبائه ميقاتهم وقت موعدهم
اجمعين وقرئ ميقاتهم بالنصب على انه اسم ان ويوم الفصل خبرها اى ان ميعاد
حسابهم وجزائهم في يوم الفصل يوم لا يغنى بدل من يوم الفصل او صفة
لميقاتهم او ظرف لما دل عليه الفصل لا لنفسه مولى من قرابة او غيرها عن مولى
اى مولى كان شيئا اى شيئا من الاغناء ولا هم ينصرون الضمير لمولى الاول باعتبار
المعنى لانه عام الا من رحم الله بالعفو عنه وقبول الشفاعة في حقه ومحله الرفع
على البدل من الواو او النصب على الاستثناء انه هو العزيز الذى لا ينصر من اراد
تعذيبه الرحيم لمن اراد ان يرحمه ان شجرة الزقوم وقرئ بكسر الشين وقد مر
معنى الزقوم في سورة الصافات طعام الاثيم اى الكثير الآثام والمراد به الكافر لدلالة
ما قبله وما بعده عليه كالمهل وهو ما يمهل في النار حتى يذوب وقيل هو دردى
الزيت يغلى في البطون وقرئ بالتاء على اسناد الفعل الى الشجرة كغلى الحميم غليانا
كغليه خذوه على ارادة القول والخطاب للزبانية فاعتلوه اى جروه والعتل الاخذ
بمجامع الشئ وجره بقهر وعنف وقرئ بضم التاء وهى لغة فيه الى سواء الجحيم
اى وسطه ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم كان الاصل يصب من فوق
رؤسهم الحميم فقيل يصب من فوق رؤسهم عذاب هو الحميم للمبالغة ثم اضيف
العذاب الى الحميم للتخفيف وزيد من للدلالة على ان المصبوب بعض هذا النوع ذق
انك انت العزيز الكريم اى وقولوا له ذلك استهزاء به وتقريعا له على ما كان
يزعمه روى ان ابا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين جبليها اى جبلى
مكة وهما ابو قبيس وثور اعز ولا اكرم منى فوالله ما تستطيع انت ولا ربك ان تفعلا بى شيئا
وقرئ بالفتح اى لانك او عذاب انك ان هذا اى العذاب ما كنتم به تمترون تشكون
وتمارون فيه والجمع باعتبار المعنى لان المراد جنس الاثيم ان المتقين اى عن الكفر
والمعاصى في مقام في موضع قيام والمراد المكان على الاطلاق فانه من الخاص الذى شاع
استعماله في معنى العموم وقرئ بضم الميم وهو موضع اقامة امين يأمن صاحبه
الآفات والانتقال عنه وهو من الامن الذى هو ضد الخيانة وصف به المكان بطريق الاستعارة
كان المكان المخيف يخون صاحبه لما يلقى فيه من المكاره في جنات وعيون بدل من مقام
جئ به دلالة على نزاهته او اشتماله على طيبات المآكل والمشارب يلبسون من سندس
واستبرق خبر ثان او حال من الضمير في الجار او استيناف والسندس ما رق من الحرير
والاستبرق ما غلظ منه معرب به متقابلين في المجالس ليستأنس بعضهم ببعض كذلك
اى الامر كذلك او كذلك آتيناهم وزوجناهم بحور عين على الوصف وقرئ
بالاضافة اى قرناهم بهن والحور جمع الحوراء وهى البيضاء والعين جمع العيناء وهى العظيمة
العينين واختلف في انهن نساء الدنيا او غيرها يدعون فيها بكل فاكهة
اى يطلبون ويأمرون باحضار ما يشتهونه من الفواكه لا يتخصص شئ منها بمكان
ولا زمان آمنين من كل ما يسوءهم لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى
بل يستمرون على الحيوة والاستثناء منقطع او متصل على ان المراد بيان استحالة ذوق
الموت فيها على الاطلاق كانه قيل لا يذوقون فيها الموت الا اذا امكن ذوق
الموتة الاولى حينئذ ووقاهم عذاب الجحيم وقرئ مشددا للمبالغة في الوقاية
فضلا من ربك اى اعطوا ذلك كله عطاء وتفضلا منه تعالى وقرئ بالرفع اى

ذلك فضل ذلك هو الفوز العظيم الذى لا فوز وراءه اذ هو خلاص عن جميع المكاره و
نيل لكل المطالب وقوله تعالى فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون فذلكة للسورة الكريمة
اى انما انزلنا الكتاب المبين بلغتك كى يفهمه قومك ويتذكروا به ويعملوا بموجبه واذ لم
يفعلوا ذلك فارتقب فانتظر ما يحل بهم انهم مرتقبون ما يحل بك روى عن النبى
صلى الله عليه وسلم من قرأ حم الدخان ليلة جمعة اصبح مغفورا له

سورة الجاثية مكية وهى ست وثلثون آية بسم الله الرحمن الرحيم

حم الكلام فيه كما مر فى فاتحة سورة المؤمن فان جعل اسما للسورة فمحله الرفع
على انه خبر لمبتدأ محذوف اى هذا مسمى بحم والاشارة الى السورة قبل جريان ذكرها قد
وقفت على سره مرارا وان جعل مسرودا على نمط التعديد فلا حظ له من الاعراب وقوله تعالى
تنزيل الكتاب على الاول خبر بعد خبر على انه مصدر اطلق على المفعول مبالغة وعلى الثانى خبر
لمبتدأ مضمر يلوح به ما قبله اى المؤلف من جنس ما ذكر تنزيل الكتاب وقيل هو خبر لحم اى
المسمى به تنزيل الخ وقد مر مرارا ان الذى يجعل عنوانا للموضوع حقه ان يكون قبل ذلك
معلوم الانتساب اليه اذ لا عهد بالتسمية بعد فحقها الاخبار بها واما جعله خبرا له بتقدير
المضاف وابقاء التنزيل على اصله اى تنزيل حم تنزيل الكتاب فمع اعرابه عن افادة فائدة
يعتد بها مخل على تمحل وقوله تعالى من الله العزيز الحكيم كما مر فى صدر سورة الزمر
على التفصيل وقيل حم مقسم به وتنزيل الكتاب صفته وجواب القسم قوله تعالى ان فى
السموات والارض لآيات للمؤمنين وهو على الوجوه المتقدمة كلام مستأنف مسوق للتنبيه على
الآيات التكوينية الآفاقية والانفسية ومحل الآيات اما نفس السموات والارض فانهما منطويتان
من فنون الآيات على ما يفصح عنه النبأ واما خلقهما كما فى قوله تعالى ان فى خلق السموات والارض
وهو الاوفق لقوله تعالى وفى خلقكم اى من نطفة ثم من علقة متقلبة فى اطوار
مختلفة الى تمام الخلق وما يبث من دابة عطف على المضاف دون المضاف اليه اى وفيما
ينشره ويفرقه من دابة آيات بالرفع على انه مبتدأ خبره الظرف المقدم والجملة معطوفة
على ما قبلها من الجملة المصدرة بان وقيل آيات عطف على ما قبلها من آيات باعتبار المحل
عند من يجوزه وقرئ آية بالتوحيد وقرئ آيات بالنصب عطفا على ما قبلها من اسم ان
والخبر كانه قيل وان فى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون اى من
شأنهم ان يوقنوا بالاشياء على ما هى عليه واختلاف الليل والنهار بالجر على اضمار الجار
المذكور فى الآيتين قبله وقد قرئ به والمراد باختلافهما اما تعاقبهما او تفاوتهما
طولا وقصرا وما انزل الله من السماء عطف على اختلاف من رزق اى من مطر
وهو سبب للرزق عبر عنه بذلك تنبيها على كونه آية من جهتى القدرة والرحمة
فاحيا به الارض بان اخرج منها اصناف الزروع والثمرات والنبات بعد موتها وعرائها
عن آثار الحيوة وانتفاء قوة التنمية عنها وخلو اشجارها عن الثمار وتصريف الرياح من
جهة الى اخرى ومن حال الى حال وقرئ بتوحيد الريح وتأخيره عن انزال المطر مع تقدمه
عليه فى الوجود اما للايذان بانه آية مستقلة حيث لو روعى الترتيب الوجودى لربما توهم ان
مجموع تصريف الرياح وانزال المطر آية واحدة واما لان كون التصريف آية ليس لمجرد
كونه مبدأ لانشاء المطر بل له ولسائر المنافع التى من جملتها سوق السفن فى البحار
آيات لقوم يؤمنون بالرفع على انه مبتدأ خبره ما تقدم من الجار والمجرور والجملة
معطوفة على ما قبلها وقرئ بالنصب على الاختصاص وقيل على انها اسم ان والمجرور
المتقدم خبرها بطريق العطف على معمولى عاملين مختلفين وهما ان وفى اقيمت الواو
مقامهما فعملت الجر فى اختلاف والنصب فى آيات وتنكير آيات فى المواقع الثلاثة للتفخيم
كما وكيفا واختلاف الفواصل لاختلاف مراتب الآيات فى الدقة والجلاء تلك آيات الله
مبتدأ وخبر وقوله تعالى نتلوها عليك حال عاملها معنى الاشارة وقيل هو الخبر وآيات
الله بدلا او عطف بيان بالحق حال من فاعل نتلو او من مفعوله اى نتلوها محقين او ملتبسة

بالحق

بالحق فباى حديث من الاحاديث بعد الله وآياته اى بعد آيات الله وتقديم الاسم
الجليل لتعظيمها كما فى قولهم اعجبنى زيد وكرمه او بعد حديث الله الذى هو القرآن حسبما نطق
به قوله تعالى الله نزل احسن الحديث وهو المراد بآياته ايضا ومناط العطف التغاير العنوانى
يؤمنون بصيغة الغيبة وقرئ بالتاء ويل لكل افاك كذاب اثيم كثير الآثام يسمع آيات
الله صفة اخرى لافاك وقيل استئناف وقيل حال من الضمير فى اثيم تتلى عليه حال
من آيات الله ولا مساغ لجعله مفعولا ثانيا ليسمع لان شرطه ان يكون ما بعده مما
لا يسمع كقولك سمعت زيدا يقرأ ثم يصر اى يقيم على كفره واصله من اصرار الحمار على
العانة مستكبرا عن الايمان بما سمعه من آيات الله تعالى والاذعان لما تنطق به من الحق
مزدريا لها معجبا بما عنده من الاباطيل وقيل نزلت فى النضر بن الحارث وكان يشترى من
احاديث الاعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن لكنها وردت بعبارة عامة ناعية
عليه وعلى كل من يسير سيرته ما هم فيه من الشر والفساد وكلمة ثم لاستبعاد الاصرار
والاستكبار بعد سماع الآيات التى حقها ان تذعن لها القلوب وتخضع لها الرقاب كما
فى قول من قال يرى غمرات الموت ثم يزورها كان لم يسمعها اى كانه لم يسمعها فخفف
وحذف ضمير الشان والجملة حال من يصر شبيها بغير السامع فبشره بعذاب اليم على اصراره
واستكباره واذا علم من آياتنا شيئا اى اذا بلغه من آياتنا شئ وعلم انه من آياتنا لا انه علمه
كما هو عليه فانه بمعزل من ذلك العلم وقيل اذا علم منها شيئا يمكن ان يتشبث به المعاند
ويجد له محملا فاسدا يتوسل به الى الطعن والغميزة اتخذها اى الآيات كلها هزوا اى
مهزوا بها لا ما سمعه فقط وقيل الضمير للشئ والتأنيث لانه فى معنى الآية اولئك اشارة الى
كل افاك من حيث الاتصاف بما ذكر من القبائح والجمع باعتبار كل واحد واحد لهم بسبب
جناياتهم المذكورة عذاب مهين وصف العذاب بالاهانة توفية لحق استكبارهم
واستهزائهم بآيات الله سبحانه وتعالى من ورائهم جهنم اى من قدامهم لانهم
متوجهون الى ما اعد لهم او من خلفهم لانهم معرضون عن ذلك مقبلون على الدنيا
فان الوراء اسم للجهة التى يواريها الشخص من خلف وقدام ولا يغنى عنهم ولا يدفع ما
كسبوا من الاموال والاولاد شيئا من عذاب الله تعالى او شيئا من الاغناء ولا ما اتخذوا
من دون الله اولياء اى الاصنام وتوسيط حرف النفى بين المعطوفين مع ان عدم اغناء الاصنام
اظهر واجلى من عدم اغناء الاموال والاولاد قطعا مبنى على زعمهم الفاسد حيث كانوا
يطمعون فى شفاعتهم وفيه تهكم ولهم فيما وراءهم من جهنم عذاب عظيم
لا يقادر قدره هذا اى القرآن هدى فى غاية الكمال من الهداية كانه نفسها والذين
كفروا اى بالقرآن وانما وضع موضع ضميره قوله تعالى بآيات ربهم لزيادة تشنيع كفرهم
به وتفظيع حالهم لهم عذاب من رجز اى من اشد العذاب اليم بالرفع صفة
عذاب وقرئ بالجر على انه صفة رجز وتنوين عذاب فى المواقع الثلاثة للتفخيم ورفعه اما
على الابتداء واما على الفاعلية الله الذى سخر لكم البحر بان جعله املس السطح يطفو
عليه ما يتخلخل كالاخشاب ولا يمنع الغوص والخرق لميعانه لتجرى الفلك فيه بامره
وانتم راكبوها ولتبتغوا من فضله بالتجارة والغوص والصيد وغيرها ولعلكم تشكرون
ولكى تشكروا النعم المترتبة على ذلك وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض من
الموجودات بان جعلها مدارا لمنافعكم جميعا اما حال من ما فى السموات والارض او توكيد له
منه متعلق بمحذوف هو صفة لجميعا او حال من ما اى جميعا كائنا منه تعالى او سخر
لكم هذه الاشياء كائنة منه مخلوقة له تعالى او خبر لمحذوف اى هى جميعا منه تعالى
وقرئ منة على المفعول له ومنه على انه فاعل سخر على الاسناد المجازى او خبر مبتدأ
محذوف اى ذلك منه ان فى ذلك اى فيما ذكر من الامور العظام لآيات عظيمة
الشان كثيرة العدد لقوم يتفكرون فى بدائع صنع الله تعالى فانهم يقفون بذلك
على جلائل نعمه تعالى ودقائقها ويوفقون لشكرها قل للذين آمنوا حذف المقول
لدلالة الجواب عليه فانه جواب الامر باعتبار تعلقه به لا باعتبار نفسه فقط اى قل

لهم اغفروا يغفروا للذين لا يرجون ايام الله اى يعفوا ويصفحوا عن الذين لا يتوقعون
وقايعه تعالى باعدائه من قولهم ايام العرب لوقايعها وقيل لا يؤملون الاوقات التى وقتها
الله تعالى لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها وقيل نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بها
وقيل نزلت فى عمر رضى الله عنه حين شتمه غفارى فهم ان يبطش به وقيل حين قال ابن
ابى ما قال وذلك انهم نزلوا فى غزوة بنى المصطلق على بئر يقال لها المريسيع فارسل
ابن ابى غلامه يستقى فابطأ عليه فلما اتاه قال له ما حبسك قال غلام عمر قعد على طرف
البئر فما ترك احدا يستقى حتى ملأ قرب النبى صلى الله عليه وسلم وقرب ابى بكر فقال ابن
ابى ما مثلنا ومثل هؤلاء الا كما قيل سمن كلبك يأكلك فبلغ ذلك عمر رضى الله عنه فاشتمل
سيفه يريد التوجه اليه فانزلها الله تعالى ليجزى قوما بما كانوا يكسبون تعليل للامر
بالمغفرة والمراد بالقوم المؤمنون والتنكير لمدحهم والثناء عليهم اى امروا بذلك ليجزى يوم القيمة
قوما ايما قوم قوما مخصوصين بما كسبوا فى الدنيا من الاعمال الحسنة التى من جملتها الصبر
على اذية الكفار والاغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه وما يقصر عنه البيان من
الثواب العظيم هذا وقد جوز ان يراد بالقوم الكفرة وبما كانوا يكسبون سيئاتهم التى من
جملتها ما حكى من الكلمة الخبيثة والتنكير للتحقير وفيه ان مطلق الجزاء لا يصلح تعليلا للامر
بالمغفرة لتحققه على تقديرى المغفرة وعدمها فلابد من تخصيصه بالكل بان لا يتحقق
بعض منه فى الدنيا او بما يصدر عنه تعالى بالذات وفى ذلك من التكلف ما لا يخفى وان
يراد كلا الفريقين وهو اكثر تكلفا واشد تمحلا وقرئ ليجزى قوم وليجزى قوما اى ليجزى
الجزاء قوما وقرئ لنجزى بنون العظمة من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها لا
يكاد يسرى عمل الى غير عامله ثم الى ربكم مالك اموركم ترجعون فيجازيكم على
اعمالكم خيرا كان او شرا ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب اى التوراة والحكم اى الحكمة
النظرية والعملية والفقه فى الدين او فصل الخصومات بين الناس اذ كان الملك
فيهم والنبوة حيث كثر فيهم الانبياء ما لم يكثر فى غيرهم ورزقناهم من الطيبات
مما احل الله تعالى من اللذائذ كالمن والسلوى وفضلناهم على العالمين حيث
آتيناهم ما لم نؤت من عداهم من فلق البحر واظلال الغمام ونظائرهما وقيل على عالمى
زمانهم وآتيناهم بينات من الامر دلائل ظاهرة فى امر الدين ومعجزات قاهرة
وقال ابن عباس رضى الله عنهما هو العلم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم وما بين لهم من
امره وانه يهاجر من تهامة الى يثرب ويكون انصاره اهل يثرب فما اختلفوا فى ذلك
الامر الا من بعد ما جاءهم العلم بحقيقته وحقيته فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف
موجبا لرسوخه بغيا بينهم اى عداوة وحسدا لا شكا فيه ان ربك يقضى بينهم
يوم القيمة بالمؤاخذة والجزاء فيما كانوا فيه يختلفون من امر الدين ثم جعلناك
على شريعة اى سنة وطريقة عظيمة الشأن من الامر اى امر الدين فاتبعها
باجراء احكامها فى نفسك وفى غيرك من غير اخلال بشئ منها ولا تتبع اهواء الذين
لا يعلمون اى آراء الجهلة واعتقاداتهم الزائغة التابعة للشهوات وهم رؤساء
قريش كانوا يقولون له عليه السلام ارجع الى دين آبائك انهم لن يغنوا عنك من الله
شيئا مما اراد بك ان اتبعتهم وان الظالمين بعضهم اولياء بعض لا يواليهم
ولا يتبع اهواءهم الا من كان ظالما مثلهم والله ولى المتقين الذين انت
قدوتهم فدم على ما انت عليه من توليه خاصة والاعراض عما سواه بالكلية هذا
اى القرآن او اتباع الشريعة بصائر للناس فان فيه من معالم الدين وشعائر الشرائع بمنزلة
البصائر فى القلوب وهدى من ورطة الضلالة ورحمة عظيمة لقوم يوقنون
من شأنهم الايقان بالامور ام حسب الذين اجترحوا السيئات استئناف مسوق
لبيان تباين حال المسيئين والمحسنين اثر بيان تباين حالى الظالمين والمتقين وام منقطعة وما
فيها من معنى بل للانتقال من البيان الاول الى الثانى والهمزة لانكار الحسبان لكن لا بطريق
انكار الوقوع ونفيه كما فى قوله تعالى ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض

ام نجعل

ام نجعل المتقين كالفجار بل بطريق انكار الواقع واستقباحه والتوبيخ عليه والاجتراح الاكتساب
ان نجعلهم اى نصيرهم فى الحكم والاعتبار وهم على ما هم عليه من مساوى الاحوال
كالذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم فيما هم فيه من محاسن الاعمال ونعاملهم
معاملتهم فى الكرامة ورفع الدرجة وقوله تعالى سواء محياهم ومماتهم اى محيى
الفريقين جميعا ومماتهم حال من الضمير فى الظرف والموصول معا لاشتماله على ضميرهما
على ان السواء بمعنى المستوى ومحياهم ومماتهم مرتفعان به على الفاعلية والمعنى ام حسبوا
ان نجعلهم كائنين حال كون الكل مستويا محياهم ومماتهم كلا لا يستوون فى شئ منهما
فان هؤلاء فى عز الايمان والطاعة وشرفهما فى المحيا وفى رحمة الله تعالى ورضوانه فى
الممات واولئك فى ذل الكفر والمعاصى وهوانهما فى المحيا وفى لعنة الله والعذاب الخالد
فى الممات شتان بينهما وقد قيل المراد انكار ان يستووا فى الممات كما استووا فى الحيوة
لان المسيئين والمحسنين مستو محياهم فى الرزق والصحة وانما يفترقون فى الممات وقرئ
محياهم ومماتهم بالنصب على انهما ظرفان كمقدم الحاج وسواء حال على حاله اى حال
كونهم مستوين فى محياهم ومماتهم وقد ذكر فى الآية الكريمة وجوه اخر من الاعراب
والذى يليق بجزالة التنزيل هو الاول فتدبر وقرئ سواء بالرفع على انه خبر ومحياهم مبتدأ
فقيل الجملة بدل من الكاف وقيل حال واياما كان فنسبة حسبان التساوى اليهم فى ضمن
الانكار التوبيخى مع انهم بمعزل منه جازمون بفضلهم على المؤمنين للمبالغة فى الانكار
والتشديد فى التوبيخ فان انكار حسبان التساوى والتوبيخ عليه انكار لحسبان الجزم
بالفضل وتوبيخ عليه على ابلغ وجه واكده ساء ما يحكمون اى ساء حكمهم هذا او
بئس شيئا حكموا به ذلك وخلق الله السموات والارض بالحق استئناف مقرر لما
سبق من الحكم فان خلق الله تعالى لهما ولما فيهما بالحق المقتضى للعدل يستدعى لا محالة
تفضيل المحسن على المسيئ فى المحيا والممات وانتصار المظلوم من الظالم واذ لم يطرد ذلك
فى المحيا فهو بعد الممات حتما ولتجزى كل نفس بما كسبت عطف على بالحق لان فيه معنى
التعليل اذ معناه خلقها مقرونة بالحكمة والصواب دون العبث والباطل فحاصله خلقها
لاجل ذلك ولتجزى الخ او على علة محذوفة مثل ليدل بها على قدرته او ليعدل ولتجزى
وهم اى النفوس المدلول عليها بكل نفس لا يظلمون بنقص ثواب او بزيادة عقاب
وتسمية ذلك ظلما مع انه ليس كذلك على ما عرف من قاعدة اهل السنة لبيان غاية تنزه
ساحة لطفه تعالى عما ذكر بتنزيله منزلة الظلم الذى يستحيل صدوره عنه تعالى افرأيت من اتخذ
الهه هواه تعجيب من حال من ترك متابعة الهدى الى مطاوعة الهوى فكانه عبده اى
انظر فرأيته فان ذلك مما يقضى منه التعجب وقرئ آلهة هواه لان احدهم كان يستحسن حجرا
فيعبده فاذا رأى احسن منه رفضه اليه فكانه اتخذ آلهة شتى واضله الله وخذله على
علم اى عالما بضلاله وتبديله لفطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها وختم على سمعه وقلبه
بحيث لا يتأثر بالمواعظ ولا يتفكر فى الآيات والنذر وجعل على بصره غشاوة مانعة عن
الاستبصار والاعتبار وقرئ بفتح العين وضمها وقرئ غشوة فمن يهديه من بعد الله
اى من بعد اضلال الله تعالى اياه بموجب تعاميه عن الهدى وتماديه فى الغى افلا تذكرون
اى الا تلاحظون فلا تذكرون وقرئ تتذكرون على الاصل وقالوا بيان لاحكام ضلالهم المحكى
اى قالوا من غاية غيهم وضلالهم ما هى اى ما الحيوة الا حيوتنا الدنيا التى نحن فيها
نموت ونحيى اى يصيبنا الموت والحيوة فيها وليس وراء ذلك حيوة وقيل نكون نطفا وما
قبلها وما بعدها ونحيى بعد ذلك او نموت بانفسنا ونحيى ببقاء اولادنا او يموت بعضنا
ويحيى بعضنا وقد جوز ان يريدوا به التناسخ فانه عقيدة اكثر عبدة الاوثان وقرئ
نحيى وما يهلكنا الا الدهر الا مرور الزمان وهو فى الاصل مدة بقاء العالم من دهره اى
غلبه وقرئ الا دهر يمر وكانوا يزعمون ان المؤثر فى هلاك الانفس هو مرور الايام
والليالى وينكرون ملك الموت وقبضه للارواح بامر الله تعالى ويضيفون الحوادث الى الدهر
والزمان ومنه قوله عليه الصلوة والسلام لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر اى فان الله

هو الآتي بالحوادث لا الدهر وما لهم بذلك اي بما ذكر من اقتصار الحيوة على ما في الدنيا
واسناد الحيوة والموت الى الدهر من علم ما مستند الى عقل او نقل ان هم الا يظنون ماهم
الا قاصرون امرهم الظن والتقليد من غير ان يكون لهم شئ يصح ان يتمسك به في الجملة هذا
معتقدهم الفاسد في انفسهم واذا تتلى عليهم اياتنا الناطقة بالحق الذي من جملته
البعث بينات واضحات الدلالة على ما نطقت به او مبينات له ما كان حجتهم بالنصب
على انه خبر كان اي ما كان متمسكا لهم شئ من الاشياء الا ان قالوا ائتوا بآبائنا ان
كنتم صادقين في انا نبعث بعد الموت اي الا هذا القول الباطل الذي يستحيل ان يكون من
قبيل الحجة وتسميته حجة اما لسوقهم اياه مساق الحجة على سبيل التهكم بهم او لانه
من قبيل تحية بينهم ضرب وجيع وقرئ برفع حجتهم على انها اسم كان فالمعنى ما كان حجتهم
شيا من الاشيا الا هذا القول الباطل قل الله يحييكم ابتداء ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم لا كما
تزعمون من انكم تحيون وتموتون بحكم الدهر ثم يجمعكم بعد البعث الى يوم القيمة للجزاء لا ريب
فيه اي في جمعكم فان من قدر على البدء قدر على الاعادة والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لا محالة
والوعد المصدق بالآيات دل على وقوعها حتما والاتيان بآبائهم حيث كان مزاحما للحكمة
التشريعية امتنع ايقاعه ولكن اكثر الناس لا يعلمون استدراك من قوله تعالى لا ريب
فيه وهو اما من تمام الكلام المأمور به او كلام مسوق من جهته تعالى تحقيقا للحق و
تنبيها على ان ارتيابهم لجهلهم وقصورهم في النظر والتفكر لا لان فيه شائبة ريب ولله ملك السموات
والارض بيانا لاختصاص الملك المطلق والتصرف الكلي فيهما وفيما بينهما بالله عز وجل اثر
بيان تصرفه تعالى في الناس بالاحياء والاماتة والبعث والجمع للمجازاة ويوم تقوم
الساعة يومئذ يخسر المبطلون العامل في يوم يخسر ويومئذ بدل منه وترى كل
امة من الامم المجموعة جاثية باركة على الركب مستوفزة وقرئ جاذية اي جالسة
على اطراف الاصابع والجذو اشد استيفازا من الجثو وعن ابن عباس رضي الله عنهما
جاثية مجتمعة وقيل جماعات من الجثوة وهي الجماعة كل امة تدعى الى كتابها الى
صحيفة اعمالها وقرئ كل بالنصب على انه بدل من الاول وتدعى صفة او حال او مفعول
ثان اليوم تجزون ما كنتم تعملون اي يقال لهم ذلك وقوله تعالى هذا كتابنا
الخ من تمام ما يقال حينئذ وحيث كان كتاب كل امة مكتوبا بامر الله تعالى اضيف
الى نون العظمة تفخيما لشأنه وتهويلا لامره فهذا مبتدأ وكتابنا خبره وقوله تعالى ينطق
عليكم اي يشهد عليكم بالحق من غير زيادة ولا نقص خبر آخر او حال وبالحق حال
من فاعل ينطق وقوله تعالى انا كنا نستنسخ الخ تعليل لنطقه عليهم باعمالهم من غير
اخلال بشئ منها اي انا كنا فيما قبل نستكتب الملائكة ما كنتم تعملون في الدنيا من الاعمال
حسنة كانت او سيئة وقوله تعالى فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم
في رحمته اي في جنته تفصيل لما يفعل بالامم بعد بيان ما حق طبولا به من الكلام المنطوي
على الوعد والوعيد ذلك الذي ذكر من الادخال في رحمته تعالى هو الفوز المبين
الظاهر كونه فوزا لا فوز وراءه واما الذين كفروا افلم تكن اياتي تتلى عليكم اي فيقال
لهم بطريق التوبيخ والتقريع الم يكن تأتيكم رسلي فلم تكن اياتي تتلى عليكم فحذف المعطوف
عليه ثقة بدلالة القرينة عليه فاستكبرتم عن الايمان بها وكنتم قوما مجرمين اي
قوما عادتهم الاجرام واذا قيل ان وعد الله اي ما وعده من الامور الآتية او
وعده بذلك حق اي واقع لا محالة او مطابق للواقع والساعة التي هي اشهر ما وعده
لا ريب فيها اي في وقوعها وقرئ والساعة بالنصب عطفا على اسم ان وقراءة الرفع
للعطف على محل ان واسمها قلتم لغاية عتوكم ما ندري ما الساعة اي اي شئ
هي استغرابا لها ان نظن الا ظنا اي ما نفعل الا ظنا وقد مر تحقيقه في قوله تعالى ان اتبع
الا ما يوحى الي وقيل ما نعتقد الا ظنا اي لا علما وقيل ما نحن الا نظن ظنا وقيل
ما نظن الا ظنا ضعيفا ويرده قوله تعالى وما نحن بمستيقنين اي لامكانه فان مقابل
الاستيقان مطلق الظن لا الضعيف منه ولعل هؤلاء غير القائلين ما هي الا حياتنا الدنيا

بدالهم

وبدا لهم اي ظهر لهم حينئذ سيئات ما عملوا على ما هي عليه من الصورة المنكرة الهائلة وعاينوا
وخامة عاقبتها او جزاؤها فان جزاء السيئة سيئة وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن من
من الجزاء والعقاب وقيل اليوم ننساكم نترككم في العذاب ترك المنسي كما نسيتم في
الدنيا لقاء يومكم هذا اي كما تركتم عدته ولم تبالوا به واضافة اللقاء الى اليوم اضافة
المصدر الى ظرفه ومأواكم النار وما لكم من ناصرين اي ما لاحد منكم ناصر واحد
يخلصكم منها ذلكم العذاب بانكم بسبب انكم اتخذتم ايات الله هزوا اي مهزوا
بها ولم ترفعوا اليها رأسا وغرتكم الحيوة الدنيا فحسبتم ان لا حيوة سواها فاليوم
لا يخرجون منها اي من النار وقرئ يخرجون من الخروج والالتفات الى الغيبة للايذان
باسقاطهم عن رتبة الخطاب استهانة بهم او بنقلهم من مقام الخطاب الى غيابة
النار ولا هم يستعتبون اي يطلب منهم ان يعتبوا ربهم اي يرضوه لفوات اوانه
فلله الحمد خاصة رب السموات ورب الارض رب العالمين فلا يستحق الحمد احد
سواه وتكرير الرب للتأكيد والايذان بان ربوبيته تعالى لكل منها بطريق الاصالة
وقرئ برفع الثلاثة على المدح باضمار هو وله الكبرياء في السموات والارض لظهور آثارها
واحكامها فيهما واظهارهما في موضع الاضمار لتفخيم شان الكبرياء وهو العزيز الذي
لا يغلب الحكيم في كل ما قضى وقدر فاحمدوه وكبروه واطيعوه عن النبي صلعم
من قرأ حم الجاثية ستر الله تعالى عورته وسكن روعته يوم الحساب

سورة الاحقاف مكية وهي ... اية بسم الله الرحمن الرحيم

حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم الكلام فيه كالذي مر مطلع السورة السابقة
ما خلقنا السموات والارض بما فيهما من حيث الجزئية منها ومن حيث الاستقرار فيهما
وما بينهما من المخلوقات الا بالحق استثناء مفرغ من اعم المفاعيل اي الا خلقا ملتبسا بالحق
الذي تقتضيه الحكمة التكوينية والتشريعية او من اعم الاحوال من فاعل خلقنا او من مفعوله
اي ما خلقناها في حال من الاحوال الا حال ملابستنا بالحق او حال ملابستها به وفيه من الدلالة
على وجود الصانع تعالى وصفات كماله وابتناء افعاله على حكم بالغة وانتهائها الى غايات
جليلة ما لا يخفى واجل مسمى عطف على الحق بتقدير مضاف اي وبتقدير اجل مسمى ينتهي
اليه امور الكل وهو يوم القيمة يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد
القهار وقيل هو آخر مدة البقاء المقدر لكل واحد ويأباه قوله تعالى والذين كفروا
عما انذروا معرضون فان ما انذروه يوم القيمة وما فيه من الطامة التامة والاهوال
العامة لا آخر اعمارهم ويجوز كون ما مصدرية والجملة حالية اي ما خلقنا الخلق الا
بالحق وتقدير الاجل الذي يجازون عنده والحال انهم غير مؤمنين به معرضون عنه وعن
الاستعداد له قل توبيخا لهم وتبكيتا ارأيتم اخبروني وقرئ ارأيتكم ما تدعون ما تعبدون
من دون الله من الاصنام اروني تأكيد لارأيتم ماذا خلقوا من الارض بيان
للابهام في ماذا ام لهم شرك اي شركة مع الله تعالى في السموات اي خلقها او ملكها
وتدبيرها حتى يتوهم ان يكون لهم شائبة استحقاق للمعبودية فان ما لا مدخل له
في وجود شئ من الاشياء بوجه من الوجوه فهو بمعزل من ذلك الاستحقاق بالمرة وان
كان من الاحياء العقلاء فما ظنكم بالجماد وقوله تعالى ائتوني بكتاب الخ تبكيت لهم بتعجيزهم عن
الاتيان بسند نقلي بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الاتيان بسند عقلي اي ائتوني بكتاب الهي كائن
من قبل هذا الكتاب اي القرآن الناطق بالتوحيد وابطال الشرك دال على صحة دينكم
او اثارة من علم او بقية من علم بقيت عليكم من علوم الاولين شاهدة باستحقاقهم
للعبادة ان كنتم صادقين في دعواكم فانها لا تكاد تصح ما لم يقم عليها برهان عقلي او
سلطان نقلي وحيث لم يقم عليها شئ منهما وقد قامت على خلافها ادلة العقل والنقل تبين بطلانها
وقرئ اثارة بكسر الهمزة اي مناظرة فانها تثير المعاني واثرة اي شئ اوثرتم به وخصصتم
من علم مطلوب من غيركم واثرة بالحركات الثلاث مع سكون الثاء اثا المكسورة فبمعنى الاثرة

واما المفتوحة فهي المرة من اثر الحديث اي رواه واما المضمومة فاسم ما يؤثر كالخطبة التي هي اسم ما يخطب به ومن اضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له انكار ونفي لان يكون احد يساوي المشركين في الضلال وان كان سبك التركيب لنفي الاضل منهم من غير تعرض لنفي المساوي كما مر غير مرة اي هم اضل من كل ضال حيث تركوا عبادة خالقهم السميع القادر المجيب الخبير الى عبادة مصنوعهم العاري عن السمع والقدرة والاستجابة الى يوم القيمة غاية لنفي الاستجابة وهم عن دعائهم الضمير الاول لمفعول يدعو والثاني لفاعله والجمع فيهما باعتبار معنى من كما ان الافراد فيما سبق باعتبار لفظها غافلون لكونهم جمادات وضمائر العقلاء لاجرائهم اياها مجرى العقلاء ووصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغفلة مع ظهور حالها للتهكم بها وبعبدتها كقوله تعالى ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم الاية واذا حشر الناس عند قيام القيمة كانوا لهم اعداء وكانوا بعبادتهم كافرين اي مكذبين بلسان الحال او المقال على ما يروى انه تعالى يحيي الاصنام فتتبرأ من عبادتهم وقد جوز ان يراد بهم كل من يعبد من دون الله من الملائكة والجن والانس وغيرهم ويبنى ارجاع الضماير واسناد العداوة والكفر اليهم على التغليب ويراد بذلك تبرؤهم عنهم وعن عبادتهم وقيل ضمير كانوا للعبدة وذلك قولهم والله ربنا ما كنا مشركين واذا تتلى عليهم اياتنا بينات واضحات او مبينات قال الذين كفروا للحق اي لاجله وفي شانه وهو عبارة عن الايات المتلوة وضع موضع ضميرها تنصيصا على حقيتها ووجوب الايمان بها كما وضع الموصول موضع الضمير المتلو عليهم تسجيلا عليهم بكمال الكفر والضلالة لما جاءهم اي في اول ما جاءهم من غير تدبر وتامل هذا سحر مبين اي ظاهر كونه سحرا ام يقولون افتراه اضراب وانتقال من حكاية شناعتهم السابقة الى حكاية ما هو اشنع منها وما في ام من الهمزة للانكار التوبيخي المتضمن للتعجيب اي بل ايقولون افترى القران قل ان افتريته على الفرض فلا تملكون لي من الله شيئا اذ لا ريب في انه تعالى يعاجلني حينئذ بالعقوبة فكيف اجترئ على ان افتري عليه تعالى كذبا واعرض نفسي للعقوبة التي لا مناص عنها هو اعلم بما تفيضون فيه اي تندفعون فيه من القدح في وحي الله والطعن في اياته وتسميته سحرا تارة وفرية اخرى كفى به شهيدا بيني وبينكم حيث يشهد لي بالصدق والبلاغ وعليكم بالكذب والجحود وهو وعيد بجزاء افاضتهم وقوله تعالى وهو الغفور الرحيم وعد بالغفران والرحمة لمن تاب وآمن واشعار بحلم الله تعالى عنهم مع عظم جرايمهم قل ما كنت بدعا من الرسل البدع بمعنى البديع كالخل بمعنى الخليل وهو ما لا مثل له وقرئ بفتح الدال على انه صفة كقيم وزيم او جمع مقدر بمضاف اي اذا بدع وقد جوز ذلك في القراءة الاولى ايضا على انه مصدر كانوا يقترحون عليه عليه الصلوة والسلام ايات عجيبة ويسألون عن المغيبات عنادا ومكابرة فامر عليه السلام بان يقول لهم ما كنت بدعا من الرسل قادرا على ما لم يقدروا عليه حتى آتيكم بكل ما تقترحونه واخبركم بكل ما تسألون عنه من الغيوب فان من قبلي من الرسل عليهم الصلوة والسلام ما كانوا يأتون الا بما آتاهم الله تعالى من الايات ولا يخبرون الا بما اوحي اليهم وما ادري ما يفعل بي ولا بكم اي اي شيء يصيبنا فيما يستقبل من الزمان من افعاله تعالى وماذا يقدر لنا من قضاياه وعن الحسن ما ادري ما يصير اليه امري وامركم في الدنيا وعن ابن عباس رضي الله عنهما ما يفعل بي ولا بكم في الاخرة وقال هي منسوخة بقوله تعالى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تاخر وقيل يجوز ان يكون المنفي هي الدراية المفصلة والاظهر الاوفق لما ذكر من سبب النزول ان ما عبارة عما ليس علمه من وظايف النبوة من الحوادث والواقعات الدنيوية دون ما سيقع في الاخرة فان العلم بذلك من وظايف النبوة وقد ورد به الوحي الناطق بتفاصيل ما يفعل بالجانبين هذا وقد روي عن الكلبي ان اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقد ضجروا من اذية المشركين حتى متى نكون على هذا فقال ما ادري ما يفعل بي ولا بكم اأترك بمكة ام اومر بالخروج الى ارض ذات نخيل وشجر قد رفعت لي ورأيتها يعني في منامه وجوز ان تكون ما موصولة والاستفهامية اقضى لحق

مقام التبرئ عن الدراية وتكرير لا لتذكير النفي المنسحب اليه وتاكيده وقرئ ما يفعل على اسناد الفعل الى ضميره تعالى ان اتبع الا ما يوحى الي اي ما افعل الا اتباع ما يوحى الي على معنى قصر افعاله عليه الصلوة والسلام على اتباع الوحي لا قصر اتباعه على الوحي كما هو المسارع الى الافهام وقد مر تحقيقه في سورة الانعام وقرئ يوحي على البناء للفاعل وهو جواب عن اقتراحهم الاخبار عما لم يوح عليه السلام من الغيوب وقيل عن استعجال المسلمين ان يتخلصوا عن اذية المشركين والاول هو الاوفق لقوله تعالى وما انا الا نذير انذركم عقاب الله تعالى حسبما يوحى الي مبين بين الانذار بالمعجزات الباهرة قل ارايتم ان كان اي ما يوحى الي من القران من عند الله لا سحرا ولا مفترى كما تزعمون وقوله تعالى وكفرتم به حال باضمار قد من الضمير في الخبر وسطت بين اجزاء الشرط مسارعة الى التسجيل عليهم بالكفر او عطف على كان كما في قوله تعالى قل ارايتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به لكن لا على ان نظمه في سلك الشرط المتردد بين الوقوع وعدمه عندهم باعتبار حاله في نفسه بل باعتبار حال المعطوف عليه عندهم فان كفرهم به امر محقق عندهم ايضا وانما ترددهم في ان ذلك كفر بما من عند الله تعالى ام لا وكذا الحال في قوله تعالى وشهد شاهد من بني اسرائيل وما بعده من الفعلين فان الكل امور محققة عندهم وانما ترددهم في انها شهادة وايمان من عند الله تعالى واستكبار منه او لا والمعنى اخبروني ان كان ذلك في الحقيقة من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد عظيم الشان من بني اسرائيل الواقفين على شؤون الله تعالى واسرار الوحي بما اوتوا من التوراة على مثله اي مثل القران من المعاني المنطوية في التوراة المطابقة لما في القران من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك فانها عين ما فيه في الحقيقة كما يعرب عنه قوله تعالى وانه لفي زبر الاولين وقوله تعالى وانه لفي الصحف الاولى والمثلية باعتبار تاديتها بعبارات اخر او على مثل ما ذكر من كونه من عند الله تعالى والمثلية لما ذكر وقيل المثل صلة والفاء في قوله تعالى فآمن للدلالة على انه سارع الى الايمان بالقران لما علم انه من جنس الوحي الناطق بالحق وهو عبد الله بن سلام لما سمع بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة اتاه فنظر الى وجهه الكريم فعلم انه ليس بوجه كذاب وتامله وتحقق انه النبي المنتظر فقال له اني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن الا نبي ما اول اشراط الساعة وما اول ما ياكله اهل الجنة والولد ينزع الى ابيه او الى امه فقال عليه الصلوة والسلام اما اول اشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق الى المغرب واما اول طعام اهل الجنة فزيادة كبد حوت واما الولد فان سبق ماء الرجل نزعه وان سبق ماء المراة نزعته اشهد انك رسول الله حقا فقام ثم قال يا رسول الله ان اليهود قوم بهت وان علموا باسلامي قبل ان تسالهم عني بهتوني عندك فجاءت اليهود فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم اي رجل عبد الله فيكم قالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا واعلمنا وابن اعلمنا قال ارايتم ان اسلم عبد الله قالوا اعاذه الله من ذلك فخرج اليهم عبد الله فقال اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فقالوا شرنا وابن شرنا وانتقصوه قال هذا ما كنت اخاف يا رسول الله واحذر قال سعد ابن ابي وقاص رضه ما سمعت رسول الله عليه الصلوة والسلام يقول لاحد يمشي على الارض انه من اهل الجنة الا لعبد الله بن سلام وفيه نزل وشهد شاهد الاية وقيل الشاهد موسى عليه السلام وشهادته ما في التوراة من بعثة النبي عليهما الصلوة والسلام وبه قال الشعبي وقال مسروق والله ما نزلت في عبد الله بن سلام فان آل حم نزلت بمكة وانما اسلم عبد الله بالمدينة واجاب الكلبي بان الاية مدنية وان كانت السورة مكية واستكبرتم عطف على شهد شاهد وجواب الشرط محذوف والمعنى اخبروني ان كان من عند الله تعالى وشهد على ذلك اعلم بني اسرائيل فآمن به من غير تلعثم واستكبرتم عن الايمان به بعد هذه المرتبة من اضل منكم بقرينة قوله تعالى قل ارايتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من اضل ممن هو في شقاق بعيد وقوله تعالى ان الله لا يهدي القوم الظالمين فان عدم الهداية مما ينبئ عن الضلال قطعا ووصفهم بالظلم للاشعار بعلة الحكم فان تركه

تعالى لهدايتهم لظلمهم وقال الذين كفروا حكاية لبعض آخر من اقاويلهم الباطلة فى حق
القرآن العظيم والمؤمنين به اى قال كفار مكة للذين آمنوا اى لاجلهم لو كان اى
ما جاء به عليه السلام من القرآن والدين خيرا ما سبقونا اليه فان معالى الامور
لا ينالها ايدى الارذال وهم سقاط عامتهم فقراء وموال ورعاة قالوه زعما منهم
ان الرياسة الدينية مما ينال باسباب دنيوية كما قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل
من القريتين عظيم وذل عنهم انها منوطة بكمالات نفسانية وملكات روحانية
مبناها الاعراض عن زخارف الدنيا الدنية والاقبال على الآخرة بالكلية وان من فاز بها
فقد حازها بحذافيرها ومن حرمها فما له من خلاق وقيل قاله بنو عامر وغطفان واسد
واشجع لما اسلم جهينة ومزينة واسلم وغفار وقيل قالته اليهود حين اسلم عبد الله
بن سلام واصحابه ويأباه ان السورة مكية لا بد حينئذ من الالتجاء الى ادعاء ان الآية نزلت
بالمدينة واذ لم يهتدوا به ظرف لمحذوف يدل عليه ما قبله ويترتب عليه ما بعده اى واذ
لم يهتدوا بالقرآن قالوا ما قالوا فسيقولون غير مكتفين بنفى خيريته هذا افك قديم
كما قالوا اساطير الاولين وقيل المحذوف ظهر عنادهم وليس بذاك ومن قبله اى
من قبل القرآن وهو خبر لقوله تعالى كتاب موسى قيل والجملة حالية او مستأنفة وايا
ما كان فهو رد لقولهم هذا افك قديم وابطال له فان كونه مصدقا لكتاب موسى
مقرر لحقيته قطعا اماما ورحمة حالان من كتاب موسى اى اماما يقتدى به فى دين
الله تعالى وشرائعه كما يقتدى بالامام ورحمة من الله تعالى لمن آمن به وعمل بموجبه
وهذا الذى يقولون فى حقه ما يقولون كتاب عظيم الشان مصدق اى لكتاب
موسى الذى هو امام ورحمة او لما بين يديه من جميع الكتب الالهية وقد قرئ كذلك
لسانا عربيا حال من ضمير كتاب فى مصدق او من نفسه لتخصصه بالصفة وعاملها
معنى الاشارة وعلى الاول مصدق وقيل مفعول لمصدق اى يصدق ذا لسان
عربى لينذر الذين ظلموا متعلق بمصدق وفيه ضمير الكتاب او الله او الرسول عم
ويؤيد الاخير القراءة بتاء الخطاب وبشرى للمحسنين فى حيز النصب عطفا على محل
لينذر وقيل فى محل الرفع على انه خبر لمبتدأ مضمر اى وهو بشرى وقيل على انه عطف على مصدق
ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا اى جمعوا بين التوحيد الذى هو خلاصة
العلم والاستقامة فى امور الدين التى هى منتهى العمل وثم للدلالة على تراخى رتبة
العمل وتوقف الاعتداد به على التوحيد فلا خوف عليهم من لحوق مكروه ولا هم يحزنون
من فوات محبوب والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط والمراد بيان دوام نفى الحزن لا نفى
دوام الحزن كما يوهمه كون الخبر مضارعا وقد مر بيانه اولئك الموصوفون بما
ذكر من الوصفين الجليلين اصحاب الجنة خالدين فيها حال من المستكن فى اصحاب
وقوله تعالى جزاء منصوب اما بعامل مقدر اى يجزون جزاء او بمعنى تقدم فان قوله تعالى
اولئك اصحاب الجنة فى معنى جازيناهم بما كانوا يعملون من الحسنات العلمية
والعملية ووصينا الانسان بان يحسن بوالديه احسانا وقرئ حسنا اى بان
يفعل بهما حسنا اى فعلا ذا حسن او كانه فى ذاته نفس الحسن لفرط حسنه وقرئ بضم السين
ايضا وبفتحهما اى بان يفعل بهما فعلا حسنا او ووصيناه ايضا حسنا حملته امه كرها
ووضعته كرها اى ذات كره او حملا ذا كره وهو المشقة وقرئ بالفتح وهما لغتان
كالفقر والفقر وقيل المضموم اسم والمفتوح مصدر وحمله وفصاله اى مدة حمله و
فصاله وهو الفطام وقرئ وفصله والفصل والفصال كالعظم والعظام بناء ومعنى والمراد
به الرضاع التام المنتهى به كما اراد بالامد المدة من قال كل حى مستكمل مدة العمر ومود
اذا انتهى امده ثلاثون شهرا يمضى عليها بمعاناة المشاق ومقاساة الشدائد لاجله وهذا
دليل على ان اقل مدة الحمل ستة اشهر لما انه اذا حط عنه للفصال حولان لقوله تعالى
حولين كاملين لمن اراد ان يتم الرضاعة يبقى للحمل ذلك قيل ولعل تعيين اقل مدة الحمل
واكثر مدة الرضاع لانضباطهما وتحقق ارتباط النسب والرضاع بهما حتى اذا بلغ اشده

اى اكتهل

اى اكتهل واستحكم قوته وعقله وبلغ اربعين سنة قيل لم يبعث نبى قبل اربعين وقرئ
حتى اذا استوى وبلغ اشده قال رب اوزعنى اى الهمنى واصله اولعنى من اوزعته
بكذا ان اشكر نعمتك التى انعمت على وعلى والدى اى نعمة الدين او ما يعمها وغيرها وان اعمل
صالحا ترضاه التنكير للتفخيم والتكثير واصلح لى فى ذريتى اى واجعل الصلاح ساريا
فى ذريتى راسخا فيهم كما فى قوله يجرح فى عراقيبها نصلى قال ابن عباس رضى الله عنهما
اجاب الله تعالى دعاء ابى بكر رضى الله عنه فاعتق تسعة من المؤمنين منهم بلال وعامر
بن فهيرة ولم يرد شيئا من الخير الا اعانه الله تعالى عليه ودعا ايضا فقال واصلح لى فى ذريتى
فاجابه الله عز وجل فلم يكن له ولد الا آمنوا جميعا فاجتمع له اسلام ابويه واولاده
جميعا فادرك ابو قحافة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنه عبد الرحمن بن ابى بكر و
ابن عبد الرحمن ابو عتيق كلهم ادركوا النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن ذلك لاحد من
الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين انى تبت اليك عما لا ترضاه او عما يشغلنى
عن ذكرك وانى من المسلمين الذين اخلصوا لك انفسهم اولئك اشارة الى الانسان
والجمع لان المراد به الجنس المتصف بالوصف المحكى عنه وما فيه من معنى البعد للاشعار
بعلو رتبته وبعد منزلته اى اولئك المنعوتون بما ذكر من النعوت الجليلة الذين
نتقبل عنهم احسن ما عملوا من الطاعات فان المباح حسن لا يثاب عليه ونتجاوز عن
سيئاتهم وقرئ الفعلان بالياء على اسنادهما الى الله تعالى وعلى بنائهما للمفعول ورفع
احسن على انه قائم مقام الفاعل وكذا الجار والمجرور فى اصحاب الجنة اى كائنين فى
عدادهم منتظمين فى سلكهم وعد الصدق مصدر مؤكد لما ان قوله تعالى نتقبل
ونتجاوز وعد من الله تعالى لهم بالفضل والتجاوز الذى كانوا يوعدون على السنة الرسل
والذى قال لوالديه عند دعوتهما له الى الايمان اف لكما هو صوت يصدر عن المرء عند
تضجره واللام لبيان المؤفف كما فى هيت لك وقرئ اف بالفتح والكسر بغير تنوين وبالحركات
الثلاث مع تنوين والموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القول ولذلك اخبر عنه
بالمجموع كما سبق قيل هو فى الكافر العاق لوالديه المكذب بالبعث وعن قتادة هو نعت
عبد سوء عاق لوالديه فاجر لربه وما روى من انها نزلت فى عبد الرحمن بن ابى بكر
رضى الله عنهما قبل اسلامه يرده ما سيأتى من قوله تعالى اولئك الذين حق عليهم الآية
فانه كان من افاضل المسلمين وسرواتهم وقد كذبت الصديقة رضى الله عنها من
قال ذلك اتعداننى ان اخرج ابعث من القبر بعد الموت وقرئ اخرج من الخروج وقد
خلت القرون من قبلى ولم يبعث منهم احد وهما يستغيثان الله يسألانه ان
يغيثه ويوفقه للايمان ويلك آمن اى قائلين له ويلك وهو فى الاصل دعاء عليه
بالثبور اريد به الحث والتحريض على الايمان لا حقيقة الهلاك ان وعد الله حق اى
البعث اضافه اليه تحقيقا للحق وتنبيها على خطائه فى اسناد الوعد اليهما وقرئ ان
وعد الله اى آمن بان وعد الله حق فيقول مكذبا لهما ما هذا الذى تسميانه
وعد الله الا اساطير الاولين اباطيلهم التى سطروها فى الكتب من غير ان يكون لها
حقيقة اولئك القائلون هذه المقالات الباطلة الذين حق عليهم القول وهو
قوله تعالى لابليس لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين كما ينبئ عنه قوله
تعالى فى امم قد خلت من قبلهم من الجن والانس وقد مر تفصيله سورة فى الم
السجدة انهم جميعا كانوا خاسرين قد ضيعوا فطرتهم الاصلية الجارية مجرى
رؤوس اموالهم باتباع الشيطان والجملة تعليل للحكم بطريق الاستئناف التحقيقى
ولكل من الفريقين المذكورين درجات مما عملوا مراتب من اجزية ما عملوا من
الخير والشر والدرجات غالبة فى مراتب المثوبة وايرادها ههنا بطريق التغليب
وليوفيهم اعمالهم اى اجزية اعمالهم وقرئ بنون العظمة وهم لا يظلمون
بنقص ثواب الاولين وزيادة عقاب الآخرين والجملة اما حال مؤكدة للتوفية او
استئناف مقرر لها واللام متعلقة بمحذوف مؤخر كانه قيل وليوفيهم اعمالهم

ولا يظلمهم حقوقهم بفعل ما فعل من تقدير الاجزية على مقادير اعمالهم فجعل الثواب
درجات والعقاب دركات ويوم يعرض الذين كفروا على النار اى يعذبون بها من قولهم
عرض الاسارى على السيف اى قتلوا وقيل يعرض النار عليهم بطريق القلب مبالغة اذ
هبتم طيباتكم اى يقال لهم ذلك وهو الناصب للظرف وقرئ ااذهبتم بهمزتين
وبالف بينهما على الاستفهام التوبيخى اى اصبتم واخذتم ما كتب لكم من حظوظ
الدنيا ولذائذها فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فلم يبق لكم بعد ذلك شئ منها
فاليوم تجزون عذاب الهون اى الهوان وقد قرئ كذلك بما كنتم فى الدنيا تستكبرون
فى الارض بغير الحق بغير استحقاق لذلك وبما كنتم تفسقون اى تخرجون من طاعة الله
عز وجل اى بسبب استكباركم وفسقكم المستمرين وقرئ تفسقون بكسر السين واذكر
اى لكفار مكة اخا عاد اى هودا عليه السلام اذ انذر قومه بدل اشتمال منه اى
وقت انذاره اياهم بالاحقاف جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء من احقوقف
الشئ اذا اعوج وكانت عاد اصحاب عمد يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بارض
يقال لها الشحر من بلاد اليمن وقيل بين عمان ومهرة وقد خلت النذر اى الرسل
جمع نذير بمعنى المنذر من بين يديه اى من قبله ومن خلفه اى من بعده والجملة
اعتراض مقرر لما قبله مؤكد لوجوب العمل بموجب الانذار وسط بين انذر قومه وبين
قوله الا تعبدوا الا الله مسارعة الى ما ذكر من التقرير والتاكيد وايذانا باشتراكهم
فى العبارة المحكية والمعنى واذكر لقومك انذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب
العظيم وقد انذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه قومهم مثل ذلك فاذكرهم
واما جعلها حالا من فاعل انذر على معنى انه عليه السلام انذرهم وقال لهم لا
تعبدوا الا الله انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم وقد اعلمهم ان الرسل الذين
بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو انذاره فمع ما فيه من تكلف
تقدير الاعلام لا بد فى الخلق الى من بعده من الرسل من تنزيل الآتى منزلة الخالى
قالوا اجئتنا لتأفكنا اى لتصرفنا عن آلهتنا عن عبادتها فأتنا بما تعدنا من العذاب
العظيم ان كنت من الصادقين فى وعدك بنزوله بنا قال انما العلم اى بوقت
نزوله او العلم بجميع الاشياء التى من جملتها ذلك عند الله وحده لا علم لى بوقت
نزوله ولا مدخل لى فى اتيانه وحلوله وانما علمه عند الله تعالى فيأتيكم به فى وقته
المقدر له وابلغكم ما ارسلت به من مواجب الرسالة التى من جملتها بيان نزول
العذاب ان لم تنتهوا عن الشرك من غير وقوف على وقت نزوله وقرئ ابلغكم
من الابلاغ ولكنى اريكم قوما تجهلون حيث تقترحون على ما ليس من وظائف
الرسل من الاتيان بالعذاب وتعيين وقته والفاء فى قوله تعالى فلما راوه فصيحة و
الضمير اما مبهم يوضحه قوله تعالى عارضا اما تمييزا او حالا او راجع الى ما استعجلوه
بقولهم فأتنا بما تعدنا اى فأتاهم فلما راوه سحابا يعرض فى افق السماء مستقبل اوديتهم
او متوجه اوديتهم والاضافة فيه لفظية كما فى قوله تعالى قالوا هذا عارض ممطرنا
ولذلك وقعا وصفين للنكرة بل هو اى قال هود وقد قرئ كذلك وقرئ قل وهو
رد عليهم اى ليس الامر كذلك بل هو ما استعجلتم به من العذاب ريح بدل من ما
او خبر لمبتدأ محذوف فيها عذاب اليم صفة لريح وكذا قوله تعالى تدمر اى تهلك
كل شئ من نفوسهم واموالهم بامر ربها وقرئ يدمر كل شئ من دمر دمارا
اذا هلك فالعائد الى الموصوف محذوف او هو الهاء فى ربها ويجوز ان يكون
استئنافا واردا لبيان ان لكل ممكن فناء مقتضيا منوطا بامر بارئه ويكون الهاء
لكل شئ لكونه بمعنى الاشياء وفى ذكر الامر والرب والاضافة الى الريح من الدلالة
على عظمة شانه عز وجل ما لا يخفى والفاء فى قوله تعالى فاصبحوا لا يرى الا مساكنهم
فصيحة اى فجاءتهم الريح فدمرتهم فاصبحوا بحيث لا يرى الا مساكنهم وقرئ ترى بالتاء
ونصب مساكنهم خطابا لكل احد يتأتى منه الرؤية تنبيها على ان حالهم بحيث لو حضر

كل احد بلادهم لا يرى فيها الا مساكنهم كذلك اى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى القوم
المجرمين وقد مر تفصيل القصة فى سورة الاعراف وقد روى ان الريح كانت تدخل الفسطاط
والظعينة فترفعهما فى الجو حتى ترى كانها جرادة وقيل اول من ابصر العذاب امرأة
منهم قالت رأيت ريحا فيها كشهب النار وروى ان اول ما عرفوا به انه عذاب ما رأوا
ما كان فى الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير بها الريح بين السماء والارض فدخلوا
بيوتهم وغلقوا ابوابهم فقلعت الريح الابواب وصرعتهم فامال الله تعالى الاحقاف فكانوا
تحتها سبع ليال وثمانية ايام لهم انين ثم كشفت الريح عنهم فاحتملتهم فطرحتهم
فى البحر وروى ان هودا عليه السلام لما احس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطا
الى جنب عين تنبع وعن ابن عباس رضى الله عنهما اعتزل هود ومن معه فى حظيرة
ما يصيبهم من الريح الا ما يلين على الجلود وتلذه الانفس وانها لتمر من عاد بالظعن بين
السماء والارض وتدمغهم بالحجارة ولقد مكناهم اى قررنا عادا او اقدرناهم وما
فى قوله تعالى فيما ان مكناكم فيه موصولة او موصوفة وان نافية اى فى الذى او فى
شئ ما مكناكم فيه من السعة والبسطة وطول الاعمار وسائر مبادى التصرفات كما
فى قوله تعالى الم يروا كم اهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الارض ما لم نمكن لكم
ومما يحسن موقع ان ههنا التفصى عن تكرر لفظة ما وهو الداعى الى قلب الفها هاء فى مهما
وجعلها شرطية او زائدة مما لا يليق بالمقام وجعلنا لهم سمعا وابصارا وافئدة
ليستعملوها فيما خلقت له ويعرفوا بكل منها ما نيطت به معرفته من فنون النعم ويستدلوا
بها على شؤون منعمها عز وجل ويداوموا على شكره فما اغنى عنهم سمعهم حيث لم
يستعملوه فى استماع الوحى ومواعظ الرسل ولا ابصارهم حيث لم يجتلوا بها الآيات التكوينية
المنصوبة فى صحائف العالم ولا افئدتهم حيث لم يستعملوها فى معرفة الله من شئ
اى شيئا من الاغناء ومن مزيدة للتاكيد وقوله تعالى اذ كانوا يجحدون بآيات الله
متعلق بما اغنى وهو ظرف جرى مجرى التعليل من حيث ان الحكم مرتب على ما اضيف اليه فان
قولك اكرمته اذ اكرمنى فى قوة قولك اكرمته لاكرامه لانك اذا اكرمته وقت اكرامه
فانما اكرمته فيه لوجود اكرامه فيه وكذا الحال فى حيث وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن
من العذاب الذى كانوا يستعجلون بطريق الاستهزاء ويقولون فأتنا بما تعدنا ان كنت من
الصادقين ولقد اهلكنا ما حولكم يا اهل مكة من القرى كحجر ثمود وقرى قوم لوط وصرفنا
الآيات كررناها لهم لعلهم يرجعون لكى يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصى فلولا
نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة القربان ما يتقرب به الى الله تعالى
واحد مفعولى اتخذوا ضمير الموصول المحذوف والثانى آلهة وقربانا حال والتقدير
فهلا نصرهم وخلصهم من العذاب الذين اتخذوهم آلهة حال كونها متقربا بها الى الله
تعالى حيث كانوا يقولون انما نعبدهم ليقربونا الى الله زلفى وهؤلاء شفعاؤنا عند الله وفيه
تهكم بهم ولا مساغ لجعل قربانا مفعولا ثانيا وآلهة بدلا منه لفساد المعنى فان البدل
وان كان هو المقصود لكنه لا بد فى غير بدل الغلط من صحة المعنى بدونه ولا ريب فى ان
قولنا اتخذوهم من دون الله قربانا اى متقربا به مما لا صحة له قطعا لانه تعالى
متقرب اليه لا متقرب به فلا يصح انهم اتخذوهم قربانا متجاوزين الله فى ذلك وقرئ
قربانا بضم الراء بل ضلوا عنهم اى غابوا عنهم وفيه تهكم آخر بهم كأن عدم
نصرهم لغيبتهم او ضاعوا عنهم اى ظهر ضياعهم عنهم بالكلية وقيل امتنع نصرهم
امتناع نصر الغائب عن المنصور وذلك اى ضياع آلهتهم عنهم وامتناع
نصرهم افكهم اى اثر افكهم الذى هو اتخاذهم اياها آلهة ونتيجة شركهم
وقرئ افكهم وكلاهما مصدر كالحذر والحذر وقرئ افكهم على صيغة الماضى
فذلك اشارة حينئذ الى الاتخاذ اى وذلك الاتخاذ الذى هذه ثمرته وعاقبته
صرفهم عن الحق وقرئ افكهم بالتشديد للمبالغة وآفكهم من الافعال اى جعلهم آفكين
وقرئ آفكهم على صيغة اسم الفاعل مضافا الى ضميرهم اى قولهم الآفك اى ذو الافك كما يقال

قول كاذب وما كانوا يفترون عطف على افكهم واثر افترائهم على الله تعالى واثر ما كانوا يفترونه عليه تعالى وقرئ وذلك افكهم مما كانوا يفترون اى بعض ما كانوا يفترون من الافك واذ صرفنا اليك نفرا من الجن املناهم اليك واقبلنا بهم نحوك وقرئ صرّفنا بالتشديد للتكثير لانهم جماعة وهو السر في جمع الضمير في قوله تعالى يستمعون القرآن وما بعده وهو حال مقدرة من نفرا لتخصصه بالصفة او صفة اخرى له اى واذكر لقومك وقت صرفنا اليك نفرا كائنا من الجن مقدرا استماعهم القرآن فلما حضروه اى القرآن عند تلاوته او الرسول عند تلاوته على الالتفات والاول هو الاظهر قالوا اى قال بعضهم لبعض انصتوا اى اسكتوا لنسمعه فلما قضى اتم وفرغ عن تلاوته وقرئ على البناء للفاعل وهو ضمير الرسول عليه الصلوة والسلام وهذا يؤيد عود ضمير حضروه الى الرسول عليه الصلوة والسلام ولّوا الى قومهم منذرين مقدرين انذارهم عند رجوعهم اليهم روى ان الجن كانت تسترق السمع فلما حرست السماء ورجموا بالشهب قالوا ما هذا الا لنبأ حدث فنهض سبعة نفر او تسعة نفر من اشراف جن نصيبين او نينوى منهم زوبعة فضربوا حتى بلغوا تهامة ثم اندفعوا الى وادي نخلة فوافقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم في جوف الليل يصلي او في صلوة الفجر فاستمعوا لقراءته وذلك عند منصرفه من الطائف وعن سعيد ابن جبير ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم وانما كان يتلو في صلوته فمروا به فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر بهم فانبأه الله تعالى باستماعهم وقيل بل امر الله تعالى ان ينذر الجن ويقرأ عليهم فصرف اليهم نفرا منهم جمعهم له فقال عليه الصلوة والسلام اني امرت ان اقرأ على الجن الليلة فمن يتبعني قالها ثلاثا فاطرقوا الا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال فانطلقنا حتى اذا كنا على مكة في شعب الحجون خط لي خطا فقال لا تخرج منه حتى اعود اليك ثم افتتح القرآن وسمعت لغطا شديدا حتى خفت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وغشيته اسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما اسمع صوته عليه السلام ثم انقطعوا كقطع السحاب فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت شيئا قلت نعم رجالا سودا مستثفري ثياب بيض فقال اولئك جن نصيبين وكانوا اثني عشر الفا والسورة التي قرأها عليهم اقرأ باسم ربك قالوا اى عند رجوعهم الى قومهم يا قومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى قيل قالوه لانهم كانوا على اليهودية وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان الجن لم تكن سمعت بامر عيسى عليه الصلوة والسلام مصدقا لما بين يديه اى ارادوا به التوراة يهدي الى الحق من العقائد الصحيحة والى طريق مستقيم موصل اليه وهو الشرائع والاعمال الصالحة يا قومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به ارادوا به ما سمعوه من الكتاب وصفوه بالدعوة الى الله تعالى بعد ما وصفوه بالهداية الى الحق والصراط المستقيم لتلازمهما دعوهم الى ذلك بعد بيان حقيته واستقامته ترغيبا لهم في الاجابة ثم اكدوه بقولهم يغفر لكم من ذنوبكم اى بعض ذنوبكم وهو ما كان في خالص حق الله تعالى فان حقوق العباد لا تغفر بالايمان ويجركم من عذاب اليم معد للكفرة واختلف في ان لهم اجرا غير هذا اولا والاظهر انهم في حكم بني آدم ثوابا وعقابا وقوله تعالى ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض ايجاب للاجابة بطريق الترهيب اثر ايجابها بطريق الترغيب والتحقيق لكونهم منذرين واظهار داعي الله من غير اكتفاء باحد الضميرين للمبالغة في الايجاب بزيادة التقرير وتربية المهابة وادخال الروعة وتقييد الاعجاز بكونه في الارض لتوسيع الدائرة اى فليس بمعجز له تعالى بالهرب وان هرب كل مهرب من اقطارها او دخل في اعماقها وقوله تعالى وليس له من دونه اولياء بيان لاستحالة نجاته بواسطة الغير اثر بيان استحالة نجاته بنفسه وجمع الاولياء باعتبار معنى من فيكون من باب مقابلة الجمع بالجمع لانقسام الآحاد الى الآحاد كما ان الجمع في قوله تعالى اولئك بذلك الاعتبار اى اولئك الموصوفون بعدم اجابة

داعي الله في ضلال مبين اى ظاهر كونه ضلالا بحيث لا يخفى على احد حيث اعرضوا عن اجابة من هذا شانه اولم يروا الهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر يستدعيه المقام والرؤية قلبية اى الم يتفكروا ولم يعلموا علما جازما متاخيا للمشاهدة والعيان ان الله الذي خلق السموات والارض ابتداء من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه ولم يعي بخلقهن اى لم يتعب ولم ينصب بذلك اصلا ولم يعجز عنه يقال عيي بالامر اذا لم يعرف وجهه وقوله تعالى بقادر في حيز الرفع لانه خبر ان كما ينبئ عنه القراءة بغير باء ووجه دخولها في القراءة الاولى اشتمال النفي الوارد في صدر الآية على ان وما في حيزها كانه قيل او ليس الله بقادر على ان يحيي الموتى ولذلك اجيب عنه بقوله تعالى بلى انه على كل شيء قدير تقريرا للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود ويوم يعرض الذين كفروا على النار ظرف عامله قول مضمر مقول له اليس هذا بالحق على ان الاشارة الى ما يشاهدونه حينئذ من حيث هو من غير ان يخطر بالبال لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه اذ هو اللائق بتهويله وتفخيمه وقد مر في سورة الاحزاب وقيل هي الى العذاب وفيه تهكم بهم وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم وما نحن بمعذبين قالوا بلى وربنا اكدوا جوابهم بالقسم كانهم يطمعون في الخلاص بالاعتراف بحقيتها كما في الدنيا وانى لهم ذلك قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون بها في الدنيا ومعنى الامر الاهانة بهم والتوبيخ لهم والفاء في قوله تعالى فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل جواب شرط محذوف اى اذا كان عاقبة امر الكفرة ما ذكر فاصبر على ما يصيبك من جهتهم كما صبر اولوا الثبات والعزم من الرسل فانك من جملتهم بل من عليتهم ومن للتبيين وقيل للتبعيض والمراد باولي العزم اصحاب الشرائع الذين اجتهدوا في تأسيسها وتقريرها وصبروا على تحمل مشاقها ومعاداة الطاعنين فيها ومشاهيرهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وقيل هم الصابرون على بلاء الله كنوح صبر على اذية قومه كانوا يضربونه حتى يغشى عليه وابراهيم صبر على النار وعلى ذبح ولده والذبيح على الذبح ويعقوب على فقد الولد والبصر ويوسف على الجب والسجن وايوب على الضر وموسى قال له قومه انا لمدركون قال كلا ان معي ربي سيهدين وداود بكى على خطيئته اربعين سنة وعيسى لم يضع لبنة على لبنة صلوات الله عليهم اجمعين ولا تستعجل لهم اى لكفار مكة بالعذاب فانه على شرف النزول بهم كانهم يوم يرون ما يوعدون من العذاب لم يلبثوا في الدنيا الا ساعة يسيرة من نهار لما يشاهدون من شدة العذاب وطول مدته وقوله تعالى بلاغ خبر مبتدأ محذوف اى هذا الذي وعظتم به كفاية في الموعظة او تبليغ من الرسول ويؤيده انه قرئ بلغ اى بلغوا بلاغا فهل يهلك الا القوم الفاسقون اى الخارجون عن الاتعاظ به او عن الطاعة وقرئ بفتح الياء وكسر اللام وبفتحهما من هلك وهلك وبنون العظمة من الاهلاك ونصب القوم ووصفه عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الاحقاف كتب له عشر حسنات بعدد كل رملة في الدنيا

سورة محمد صلى الله عليه وسلم وهي ثمان وثلاثون آية بسم الله الرحمن الرحيم

الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله اى اعرضوا عن الاسلام وسلوك طريقه من صد صدودا او منعوا الناس عن ذلك من صده صدا كالمطعمين يوم بدر وقيل هم اثنا عشر رجلا من اهل الشرك كانوا يصدون الناس عن الاسلام ويأمرونهم بالكفر وقيل اهل الكتاب الذين كفروا وصدوا من اراد منهم ومن غيرهم ان يدخل في الاسلام وقيل هو عام في كل من كفر وصد اضل اعمالهم اى ابطلها واحبطها وجعلها ضائعة لا اثر لها اصلا لكن لا بمعنى انه ابطلها واحبطها بعد ان لم تكن كذلك بل بمعنى انه حكم ببطلانها وضياعها فان ما كانوا يعملونها من اعمال البر كصلة الارحام وقرى الاضياف وفك الاسارى وغيرها من المكارم ليس لها اثر من اصلها لعدم مقارنتها للايمان او ابطل ما عملوه

من الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصد عن سبيله بنصر رسوله واظهار دينه على الدين
كله وهو الاوفق لما سيأتي من قوله تعالى فتعسا لهم واضل اعمالهم وقوله تعالى فاذا لقيتم
الخ والذين امنوا وعملوا الصالحات قيل هم ناس من قريش وقيل من الانصار وقيل
هم مؤمنوا اهل الكتاب وقيل عام للكل وامنوا بما نزل على محمد خص بالذكر الايمان
بذلك مع اندراجه فيما قبله تنويها بشأنه وتنبيها على سمو مكانه من بين سائر
ما يجب الايمان به وانه الاصل في الكل ولذلك اكد بقوله تعالى وهو الحق من ربهم بطريق
حصر الحقية فيه وقيل حقيته بكونه ناسخا غير منسوخ فالحق على هذا مقابل الزائل وعلى
الاول مقابل الباطل وايا ما كان فقوله تعالى من ربهم حال من ضمير الحق وقرئ نزل
على البناء للفاعل وانزل على البنائين ونزل بالتخفيف كفر عنهم سيئاتهم اي سترها
بالايمان والعمل الصالح واصلح بالهم اي حالهم في الدين والدنيا بالتأييد والتوفيق
ذلك اشارة الى ما مر من اضلال الاعمال وتكفير السيئات واصلاح البال وهو مبتدأ
خبره قوله تعالى بان الذين كفروا اتبعوا الباطل وان الذين امنوا اتبعوا الحق من ربهم
اي ذلك كائن بسبب ان الاولين اتبعوا الشيطان كما قاله مجاهد ففعلوا ما فعلوا من الكفر
والصد فبيان سببية اتباعه للاضلال المذكور متضمن لبيان سببيتهما له لكونه
اصلا مستتبعا لهما قطعا وبسبب ان الاخرين اتبعوا الحق الذي لا محيد عنه كائنا
من ربهم ففعلوا ما فعلوا من الايمان بكتابه ومن الاعمال الصالحة فبيان سببيته
اتباعه لما ذكر من التكفير والاصلاح بعد الاشعار بسببية الايمان والعمل الصالح له متضمن
لبيان سببيتهما له لكونه مبدأ ومنشأ لهما حتما فلا تنافي بين الاشعار والتصريح في شيء من
الموضعين ويجوز ان يحمل الباطل على ما يقابل الحق وهو الزائل الذاهب الذي لا اصل له اصلا
فالتصريح بسببية اتباعه لاضلال اعمالهم وابطالها لبيان ان ابطالها لبطلان مبناها
وزواله واما حمله على ما لا ينتفع به فليس كما ينبغي لما ان الكفر والصد افحش منه فلا
وجه للتصريح بسببيته لما ذكر بطريق القصر بعد الاشعار بسببيتهما له فتدبر ويجوز
ان يراد بالباطل نفس الكفر والصد وبالحق نفس الايمان والاعمال الصالحة فيكون التنصيص
على سببيتهما لما ذكر من الاضلال ومن التكفير والاصلاح تصريحا بالسببية المشعر بها في
الموضعين كذلك اي مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله اي يبين للناس امثالهم
اي احوال الفريقين واوصافهما الجارية في الغرابة مجرى الامثال وهي اتباع الاولين
الباطل وخيبتهم وخسرانهم واتباع الاخرين الحق وفوزهم وفلاحهم والفاء
في قوله تعالى فاذا لقيتم الذين كفروا لترتيب ما في حيزها من الامر على ما قبلها فان
ضلال اعمال الكفرة وصلاح احوال المؤمنين وفلاحهم مما يوجب ان يترتب على كل من
من الجانبين ما يليق به من الاحكام اي فاذا كان الامر كما ذكر فاذا لقيتموهم في المحاربة
فضرب الرقاب اصله فاضربوا الرقاب ضربا فحذف الفعل وقدم المصدر وانيب
منابه مضافا الى المفعول وفيه اختصار وتأكيد بليغ والتعبير به عن القتل تصوير
له باشنع صورة وتهويل لامره وارشاد للغزاة الى ايسر ما يكون منه حتى اذا اثخنتموهم
اي اكثرتم قتلهم واغلظتموه من الشيء الثخين وهو الغليظ او اثقلتموهم بالقتل
والجراح حتى اذهبتم عنهم النهوض فشدوا الوثاق فأسروهم واحفظوهم
والوثاق اسم لما يوثق به وكذا الوثاق بالكسر وقد قرئ بذلك فاما منا
بعد واما فداء اي فاما تمنون بعد ذلك منا او تفدون فداء والمعنى التخيير
بين القتل والاسترقاق والمن والفداء وهذا ثابت عند الشافعي رحمه الله وعندنا
منسوخ قالوا نزل ذلك يوم بدر ثم نسخ والحكم اما القتل او الاسترقاق وعن
مجاهد ليس اليوم من ولا فداء انما هو الاسلام او ضرب العنق وقرئ فدى كعصا حتى تضع
الحرب اوزارها اوزار الحرب آلاتها واثقالها التي لا تقوم الا بها من السلاح والكراع
اسند وضعها اليها وهو لاهلها اسنادا مجازيا وحتى غاية عند الشافعي
رحمه الله لاحد الامور الاربعة او للمجموع والمعنى انهم لا يزالون على ذلك ابدا الى

من اضلال
اعمالهم

ان لا يكون مع المشركين حرب بان لا تبقى لهم شوكة وقيل بان ينزل عيسى عليه السلام واما
عند ابي حنيفة رحمه الله فان حمل الحرب على حرب بدر فهي غاية للمن والفداء والمعنى يمن
عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر اوزارها وان حملت على الجنس فهي غاية للضرب
والشد والمعنى انهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب اوزارها بان لا يبقى
للمشركين شوكة وقيل اوزارها آثامها اي حتى يترك المشركون شركهم ومعاصيهم
بان اسلموا ذلك اي الامر ذلك او افعلوا ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم لانتقم
منهم ببعض اسباب الهلكة والاستئصال ولكن لم يشأ ذلك ليبلو بعضكم ببعض
فامركم بالقتال وبلاكم بالكافرين لتجاهدوهم فتستوجبوا الثواب العظيم بموجب الوعد
والكافرين بكم ليعاجلهم على ايديكم ببعض عذابهم كي يرتدع بعضهم عن الكفر
والذين قتلوا في سبيل الله اي استشهدوا وقرئ قاتلوا اي جاهدوا وقتلوا وقتلوا
فلن يضل اعمالهم اي فلن يضيعها وقرئ تضل اعمالهم على البناء للمفعول وتضل
اعمالهم من ضل وعن قتادة انها نزلت في يوم احد سيهديهم في الدنيا الى ارشد الامور
وفي الاخرة الى الثواب او سيثبت هدايتهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم
في الدنيا بذكر اوصافها بحيث اشتاقوا اليها او بينها لهم بحيث يعلم كل احد منزله و
يهتدي اليه كأنه كان ساكنه مذ خلق وعن مقاتل ان الملك الموكل بعمله في الدنيا يمشي بين يديه
فيعرفه كل شيء اعطاه الله تعالى او طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة او حددها لهم وافرزها
من عرف الدار فجنة كل منهم محددة مفرزة والجملة اما مستأنفة او حال باضمار قد او
بدونه يا ايها الذين امنوا ان تنصروا الله اي دينه ورسوله ينصركم على اعدائكم ويفتح
لكم ويثبت اقدامكم في مواطن الحرب ومواقفها او على محجة الاسلام والذين كفروا
فتعسا لهم التعس الهلاك والعثار والسقوط والشر والبعد والانحطاط ورجل تاعس
وتعس وانتصابه بفعله الواجب حذفه سماعا اي فقال تعسا لهم او فقضى تعسا لهم
وقوله تعالى واضل اعمالهم عطف عليه داخل معه في حيز الخبرية للموصول ذلك اي
ما ذكر من التعس واضلال الاعمال بانهم بسبب انهم كرهوا ما انزل الله من القرآن
لما فيه من التوحيد وسائر الاحكام المخالفة لما ألفوه واشتهته انفسهم الامارة بالسوء
فاحبط لاجل ذلك اعمالهم التي لو كانوا عملوها مع الايمان لاثيبوا عليها افلم يسيروا
في الارض اي اقعدوا في اماكنهم فلم يسيروا فيها فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم
من الامم المكذبة فان آثار ديارهم تنبئ عن اخبارهم وقوله تعالى دمر الله عليهم
استئناف مبني على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل كيف كان عاقبتهم فقيل استأصل الله
عليهم ما اختص بهم من انفسهم واهليهم واموالهم يقال دمره اهلكه ودمر عليه اهلك
عليه ما يختص به وللكافرين اي ولهؤلاء الكافرين السائرين سيرتهم امثالها
امثال عواقبهم او عقوباتهم لكن لا على ان لهؤلاء امثال ما لاولئك واضعافه
بل مثله وانما جمع باعتبار مماثلته لعواقب متعددة حسب تعدد الامم المعذبة وقيل
يجوز ان يكون عذابهم اشد من عذاب الاولين وقد قتلوا واسروا بايدي من كانوا يستحقرونهم
ويستضعفونهم والقتل بيد المثل اشد ألما من الهلاك بسبب عام وقيل المراد بالكافرين
المتقدمون بطريق وضع الظاهر موضع الضمير كأنه قيل دمر الله عليهم في الدنيا ولهم
في الاخرة امثالها ذلك اشارة الى ثبوت امثال عقوبة الامم السابقة لهؤلاء بان الله
مولى الذين امنوا اي ناصرهم على اعدائهم وقرئ ولي الذين وان الكافرين لا مولى
لهم فيدفع عنهم ما حل بهم من العقوبة والعذاب ولا يخالف هذا قوله تعالى ثم ردوا
الى الله مولاهم الحق فان المولى هناك بمعنى المالك ان الله يدخل الذين امنوا وعملوا
الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار بيان لحكم ولايته تعالى لهم وثمرتها
الاخروية والذين كفروا يتمتعون اي ينتفعون في الدنيا بمتاعها ويأكلون كما تأكل
الانعام غافلين عن عواقبهم والنار مثوى لهم اي منزل ثواء واقامة والجملة اما
حال مقدرة من واو يأكلون او استئناف وكأين كلمة مركبة من الكاف واي بمعنى كم الخبرية

ومحلها الرفع بالابتداء وقوله تعالى من قرية تمييز لها وقوله تعالى هي اشد قوة من قريتك
صفة لقرية كما ان قوله تعالى التي اخرجتك صفة لقريتك وقد حذف عنهما المضاف واجري
احكامه عليهما كما يفصح عنه الخبر الذي هو قوله تعالى اهلكناهم اي وكم من اهل قرية هم
اشد قوة من اهل قريتك الذين كانوا سببا لخروجك من بينهم ووصف القرية الاولى بشدة
القوة للايذان باولوية الثانية منها بالاهلاك لضعف قوتها كما ان وصف الثانية
باخراجه عليه الصلوة والسلام للايذان باولويتها به لقوة جنايتها وعلى طريقته قول
النابغة كليث لعمري كان اكثر تامرا واسرح مما منك صرح بالذم وقوله تعالى فلا ناصر لهم
بيان لعدم خلاصهم من العذاب بواسطة الاعوان والانصار اثر بيان عدم خلاصهم
منه بانفسهم والفاء لترتيب ذكر ما بالغير على ما ذكر بالذات وهو حكاية حال ماضية
افمن كان على بينة من ربه تقرير لتباين حالي فريقي المؤمنين والكافرين وكون الاولين
في اعلى عليين والآخرين في اسفل سافلين وبيان لعلة ما لكل منهما من الحال والهمزة
للانكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقد قرئ بدونها ومن عبارة
عن المؤمنين المتمسكين بادلة الدين وجعلها عبارة عن النبي عليه السلام او عنه وعن
المؤمنين لا يساعده النظم الكريم على ان الموازنة بينه عليه الصلوة والسلام وبينهم
مما يأباه منصبه الجليل والتقدير اليس الامر كما ذكر فمن كان مستقرا على حجة ظاهرة
وبرهان نير من مالك امره ومربيه وهو القرآن الكريم وسائر المعجزات والحجج العقلية
كمن زين له سوء عمله من الشرك وسائر المعاصي مع كونه في نفسه اقبح القبائح
واتبعوا بسبب ذلك التزيين اهواءهم الزائغة وانهمكوا في فنون الضلالات
من غير ان يكون لهم شبهة توهم صحة ما هم عليه فضلا عن حجة تدل عليه
وجمع الضميرين الاخيرين باعتبار معنى من كما ان افراد الاولين باعتبار لفظها
مثل الجنة التي وعد المتقون استئناف مسوق لشرح محاسن الجنة الموعودة آنفا
للمؤمنين وبيان كيفية انهارها التي اشير الى جريانها من تحتها وعبر عنهم بالمتقين ايذانا
بان الايمان والعمل الصالح من باب التقوى الذي هو عبارة عن فعل الواجبات باسرها
وترك السيئات عن آخرها ومثلها وصفها العجيب الشان وهو مبتدأ محذوف الخبر
فقدره النضر بن شميل مثل الجنة ما تسمعون وقوله تعالى فيها انهار الخ مفسر له وقدره
سيبويه فيما يتلى عليكم مثل الجنة والاول هو الانسب بصدر النظم الكريم وقيل المثل
زائد كزيادة الاسم في قول من قال الى الحول ثم اسم السلام عليكما والجنة مبتدأ
خبره فيها انهار الخ من ماء غير آسن اي غير متغير الطعم والرائحة وقرئ غير أسن
وانهار من لبن لم يتغير طعمه بان صار قارصا ولا حاذرا كالبان الدنيا وانهار من
خمر لذة للشاربين لذيذة ليس فيها كراهة طعم وريح ولا غائلة سكر ولا خمار وانما هي
تلذذ محض ولذة اما تانيث لذ بمعنى لذيذ او مصدر نعت به مبالغة وقرئ لذة بالرفع
على انها صفة انهار وبالنصب على العلة اي لاجل لذة الشاربين وانهار من عسل
مصفى لا يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها وفي هذا تمثيل لما يجري مجرى الاشربة
في الجنة بانواع ما يستطاب منها ويستلذ في الدنيا بالتخلية عما ينقصها وينغصها والتحلية
بما يوجب غزارتها ودوامها ولهم فيها مع ما ذكر من فنون الانهار من كل الثمرات
اي صنف من كل الثمرات ومغفرة اي ولهم مغفرة عظيمة لا يقادر قدرها
وقوله تعالى من ربهم متعلق بمحذوف هو صفة لمغفرة مؤكدة لما افاده التنكير من الفخامة
الاضافية اي كائنة من ربهم وقوله تعالى كمن هو خالد في النار خبر لمبتدأ محذوف
تقديره امن هو خالد في هذه الجنة حسبما جرى به الوعد كمن هو خالد في النار كما
نطق به قوله تعالى والنار مثوى لهم وقيل هو خبر لمثل الجنة على ان في الكلام حذفا تقديره
امثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد في النار او امثل اهل الجنة كمثل من هو خالد في النار
فعري عن حرف الانكار وحذف ما حذف تصويرا لمكابرة من يسوي بين المتمسك بالبينة
وبين التابع للهوى بمكابرة من سوى بين الجنة الموصوفة بما فصل من الصفات الجليلة وبين

النار وسقوا ماء حميما مكان تلك الاشربة فقطع امعاءهم من فرط الحرارة قيل اذا دنا
منهم شوى وجوههم وانمازت فروة رؤوسهم فاذا شربوا قطع امعاءهم ومنهم من
يستمع اليك هم المنافقون وافراد الضمير باعتبار لفظه من كما ان جمعه فيما سيأتي باعتبار
معناها كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا
يراعونه حق رعايته تهاونا منهم حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا العلم
من الصحابة رضي الله عنهم ماذا قال آنفا اي ما الذي قال الساعة على طريقة الاستهزاء
وان كان بصورة الاستعلام وآنفا من قولهم انف الشيء لما تقدم منه مستعارا من
الجارحة ومنه استأنف الشيء وائتنف وهو ظرف بمعنى وقتا مؤتنفا او حال من الضمير في
قال وقرئ انفا اولئك الموصوفون بما ذكر الذين طبع الله على قلوبهم لعدم توجهها
نحو الخير اصلا واتبعوا اهواءهم الباطلة فلذلك فعلوا ما فعلوا مما لا خير فيه والذين
اهتدوا الى طريق الحق زادهم اي الله تعالى هدى بالتوفيق والالهام وآتاهم
تقواهم اعانهم على تقواهم او اعطاهم جزاءها او بين لهم ما يتقون فهل
ينظرون الا الساعة اي القيامة وقوله تعالى ان تأتيهم بغتة اي تباغتهم بغتة وهي
المفاجأة بدل اشتمال من الساعة والمعنى انهم لا يتذكرون بذكر احوال الامم الخالية ولا
بالاخبار باتيان الساعة وما فيها من عظائم الاهوال وما ينتظرون للتذكر الا اتيان
نفس الساعة بغتة وقرئ بغتة بفتح الغين وقوله تعالى فقد جاء اشراطها تعليل
لمفاجأتها لا لاتيانها مطلقا على معنى انه لم يبق من الامور الموجبة للتذكر امر مترقب ينتظرونه
سوى اتيان نفس الساعة اذ قد جاء اشراطها فلم يرفعوا لها رأسا ولم يعدوها من مبادي
اتيانها فيكون اتيانها بطريق المفاجأة لا محالة والاشراط جمع شرط بالتحريك وهي العلامة والمراد بها
مبعثه صلى الله عليه وسلم وانشقاق القمر ونحوهما وقوله تعالى فانى لهم اذا جاءتهم
ذكراهم حكم بخطأهم وفساد رأيهم في تأخير التذكر الى اتيانها ببيان استحالة نفع التذكر حينئذ
كقوله تعالى يومئذ يتذكر الانسان وانى له الذكرى اي وكيف لهم ذكراهم اذا جاءتهم
على ان انى خبر مقدم وذكراهم مبتدأ واذا جاءتهم اعتراض وسط بينهما رمزا الى غاية
سرعة مجيئها واطلاق المجيء عن قيد البغتة لما ان مدار استحالة نفع التذكر كونه عند
مجيئها مطلقا لا مقيدا بقيد البغتة وقرئ ان تأتهم على انه شرط مستأنف جزاؤه
فانى لهم الخ والمعنى ان تأتهم الساعة بغتة لانه قد ظهر اماراتها فكيف لهم تذكرهم
واتعاظهم اذا جاءتهم فاعلم انه لا اله الا الله اي اذا علمت ان مدار السعادة
هو التوحيد والطاعة ومناط الشقاوة هو الاشراك والعصيان فاثبت على ما انت
عليه من العلم بالوحدانية والعمل بموجبه واستغفر لذنبك وهو الذي ربما
يصدر عنه عليه السلام من ترك الاولى عبر عنه بالذنب نظرا الى منصبه الجليل كيف لا
وحسنات الابرار سيئات المقربين وارشادا له عليه الصلوة والسلام الى التواضع
وهضم النفس واستقصار العمل وللمؤمنين والمؤمنات اي لذنوبهم بالدعاء
لهم وترغيبهم فيما يستدعي غفرانهم وفي اعادة صلة الاستغفار تنبيه على اختلاف
متعلقيه جنسا وفي حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه اشعار بعراقتهم
في الذنب وفرط افتقارهم الى الاستغفار والله يعلم متقلبكم في الدنيا فانها
مراحل لا بد من قطعها لا محالة ومثواكم في العقبى فانها مواطن اقامتكم فلا يأمركم
الا بما هو خير لكم فيهما فبادروا الى الامتثال بما امركم به فانه المهم لكم في
المقامين وقيل يعلم جميع احوالكم فلا يخفى عليه شيء منها ويقول الذين آمنوا
حرصا منهم على الجهاد لولا نزلت سورة اي هلا نزلت سورة تؤمر
فيها بالجهاد فاذا انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال بطريق الامر به اي
مبينة لا تشابه ولا احتمال فيها لوجه آخر سوى وجوب القتال وعن قتادة كل سورة فيها
ذكر القتال فهي محكمة لم تنسخ وقرئ واذا نزلت سورة وقرئ وذكر على اسناد الفعل
ضميره تعالى ونصب القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض اي ضعف في الدين

وقيل نعّات وهو الاظهر الاوفق لسياق النظم الكريم ينظرون اليك نظر المغشي عليه من
الموت اى تشخص ابصارهم جبنًا وهلعًا كدأب من اصابته غشية الموت فاولى لهم
اى فويل لهم وهو افعل من الولي وهو القرب وقيل من آل ومعناه الدعاء عليهم بان يليهم
المكروه او يؤل اليه امرهم وقيل هو مشتق من الويل واصله اويل فقلبت العين الى ما بعد
اللام فوزنه افلع طاعة وقول معروف كلام مستأنف اى امرهم طاعة الخ او طاعة
وقول معروف خير لهم او حكاية لقولهم ويؤيده قراءة ابي يقولون طاعة وقول معروف
اى امرنا ذلك فاذا عزم الامر اسند العزم وهو الجد الى الامر وهو لاصحابه مجازًا كما
فى قوله تعالى ان ذلك من عزم الامور وعامل الظرف محذوف اى خالفوا وتخلفوا وقيل
ناقضوا وقيل كرهوا وقيل هو قوله تعالى فلو صدقوا الله على طريقة قولك اذا حضر لى
طعام فلو جئتني لاطعمتك اى فلو صدقوه تعالى فيما قالوا من الكلام المنبئ عن الحرص على
الجهاد بالجري على موجبه لكان اى الصدق خيرًا لهم وفيه دلالة على اشتراك الكل
فيما حكى عنهم من قوله تعالى لولا نزلت سورة وقيل فلو صدقوا فى الايمان وواطات قلوبهم
فى ذلك السنتهم وايًا ما كان فالمراد بهم الذين فى قلوبهم مرض وهم المخاطبون بقوله
تعالى فهل عسيتم الخ بطريق الالتفات لتاكيد التوبيخ وتشديد التقريع اى هل يتوقع منكم
ان توليتم امور الناس وتامرتم عليهم ان تفسدوا فى الارض وتقطعوا ارحامكم
تفاخرًا على الملك وتهالكًا على الدنيا فان من شاهد احوالكم الدالة على الضعف فى الدين
والحرص على الدنيا حين امرتم بالجهاد الذي هو عبارة عن احراز كل خير وصلاح ودفع
كل شر وفساد وانتم مامورون شانكم الطاعة والقول المعروف يتوقع منكم اذا اطلقت
اعنتكم وصرتم امرين بما ذكر من الافساد وقطع الارحام وقيل ان اعرضتم عن الاسلام
ان ترجعوا الى ما كنتم عليه فى الجاهلية من الافساد فى الارض بالتغاور والتناهب وقطع
الارحام بمقاتلة بعض الاقارب بعضًا ووأد البنات وفيه ان الواقع فى حيز الشرط فى مثل
هذا المقام لابد ان يكون محذورًا بتته باعتبار ما يستتبعه من المفاسد لا باعتبار ذاته
ولا ريب فى ان الاعراض عن الاسلام راس كل شر وفساد فحقه ان يجعل عمدة فى التوبيخ
لا وسيلة للتوبيخ بما دونه من المفاسد وقرئ وليتم على البناء للمفعول اى جعلتم ولاة وقرئ
توليتم اى تولاكم ولاة جور خرجتم معهم وساعدتموهم فى الافساد وقطيعة الرحم وقرئ
وتقطعوا من التقطع بحذف احدى التائين فانتصاب ارحامكم حينئذ على نزع الجار اى
فى ارحامكم وقرئ تقطعوا من القطع والحاق الضمير بعسى لغة اهل الحجاز واما بنو تميم فيقولون
عسى ان تفعلوا وعسى ان تفعل اولئك اشارة الى المخاطبين بطريق الالتفات ايذانا بان ذكر
هناتهم اوجب اسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية احوالهم الفظيعة لغيرهم وهو مبتدأ
خبره الذين لعنهم الله اى ابعدهم من رحمته فاصمهم عن استماع الحق لتصامهم عنه بسوء
اختيارهم واعمى ابصارهم لتعاميهم عما يشاهدونه من الايات المنصوبة فى الانفس
والافاق افلا يتدبرون القران اى الا يلاحظونه ولا يتصفحونه وما فيه من المواعظ
والزواجر حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات ام على قلوب اقفالها فلا يكاد
يصل اليها ذكر اصلًا وام منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من التوبيخ بعدم التدبر
الى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر والتفكر والهمزة للتقرير وتنكير القلوب اما
لتهويل حالها وتفظيع شانها بابهام امرها فى القساوة والجهالة كانه قيل على قلوب منكرة
لا يعرف حالها ولا يقادر قدرها فى القسوة واما لان المراد بها قلوب بعض منهم وهم المنافقون
واضافة الاقفال اليها للدلالة على انها اقفال مخصوصة بها مناسبة لها غير مجانسة لسائر
الاقفال المعهودة وقرئ اقفلها واقفالها على المصدر ان الذين ارتدوا على ادبارهم
رجعوا الى ما كانوا عليه من الكفر وهم المنافقون الذين وصفوا فيما سلف بمرض القلوب
وغيره من قبائح الافعال والاحوال فانهم قد كفروا به عليه السلام من بعد ما تبين لهم
الهدى بالدلائل الظاهرة والمعجزات القاهرة وقيل هم اهل اليهود وقيل اهل الكتابين
جميعًا كفروا به عليه السلام بعد ما وجدوا نعته فى كتابهم وعرفوا انه المنعوت

بذلك

بذلك وقوله تعالى الشيطان سول لهم جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبرًا لان اى سهل
لهم ركوب العظائم من السول وهو الاسترخاء وقيل من السول المخفف من السؤل لاستمرار
القلب فمعنى سول له امرًا حينئذ اوقعه فى امنيته فان السول الامنية وقرئ سول مبنيًا
للمفعول على حذف المضاف اى كيد الشيطان واملى لهم ومد لهم فى الامانى و
الآمال وقيل امهلهم الله تعالى ولم يعاجلهم بالعقوبة وقرئ املى لهم على صيغة التكلم
فالمعنى ان الشيطان يغويهم وانا انظرهم فالواو للحال او الاستيناف وقرئ املى لهم على
البناء للمفعول اى امهلوا ومد فى عمرهم ذلك اشارة الى ما ذكر من ارتدادهم لا الى
الاملاء كما نقل عن الواحدى ولا الى التسويل كما قيل لان شيئًا منهما ليس مسببًا من القول الاتى
وهو مبتدأ خبره قوله تعالى بانهم اى بسبب انهم قالوا يعنى المنافقين المذكورين لا
اليهود الكافرين به عليه السلام بعد ما وجدوا نعته فى التوراة كما قيل فان كفرهم به ليس
بسبب هذا القول ولو فرض صدوره عنهم سواء كان المقول لهم المنافقين او المشركين على راى القائل
بل من حين بعثته عليه السلام للذين كرهوا ما نزل الله اى لليهود الكارهين لنزول
القران على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع علمهم بانه من عند الله تعالى حسدًا وطمعًا
فى نزوله عليهم لا للمشركين كما قيل فان قوله تعالى سنطيعكم فى بعض الامر عبارة قطعًا
عما حكى عنهم بقوله تعالى الم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من اهل
الكتاب لئن اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم احدًا ابدًا وان قوتلتم لننصرنكم وهم بنو
قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادونهم وارادوا بالبعض الذى اشاروا الى
عدم اطاعتهم فيه اظهار كفرهم واعلان امرهم بالفعل قبل قتالهم واخراجهم من ديارهم
فانهم كانوا يابون ذلك قبل مساس الحاجة الضرورية الداعية اليه لما كان لهم فى اظهار
الايمان من المنافع الدنيوية وانما كانوا يقولون لهم ما يقولون سرًا كما يعرب عنه قوله تعالى
والله يعلم اسرارهم اى اخفاءهم لما يقولونه لليهود وقرئ اسرارهم اى جميع اسرارهم التى
من جملتها قولهم هذا والجملة اعتراض مقرر لما قبله متضمن للايعاد فى الدنيا والتعذيب
فى الاخرة والفاء فى قوله تعالى فكيف اذا توفتهم الملائكة لترتيب ما بعدها على ما قبلها
وكيف منصوب بفعل محذوف هو العامل فى الظرف كانه قيل يفعلون فى حياتهم
ما يفعلون من الحيل فكيف يفعلون اذا توفتهم الملائكة وقيل مرفوع على انه خبر لمبتدأ
محذوف اى فكيف حالهم او حيلتهم اذا توفتهم الخ وقرئ توفاهم على انه اما ماض او
مضارع قد حذف احدى تائيه يضربون وجوههم وادبارهم حال من فاعل توفاهم
او من مفعوله وهو تصوير لتوفيهم على اهول الوجوه وافظعها وعن ابن عباس رضى
الله عنهما لا يتوفى احد على معصية الا بضرب الملائكة وجهه ودبره ذلك التوفى الهائل
بانهم اى بسبب انهم اتبعوا ما اسخط الله من الكفر والمعاصى وكرهوا رضوانه اى
ما يرضاه من الايمان والطاعة حيث كفروا بعد الايمان وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا من
المعاملة مع اليهود فاحبط لاجل ذلك اعمالهم التى عملوها حال ايمانهم من الطاعات
او بعد ذلك من اعمال البر التى لو عملوها حال الايمان لانتفعوا بها ام حسب الذين فى
قلوبهم مرض هم المنافقون الذين فصلت احوالهم الشنيعة وصفوا بوصفهم السابق
لكونه مدارًا لما نعى عليهم بقوله تعالى ان لن يخرج الله اضغانهم فام منقطعة وان
مخففة من ان وضمير الشان الذى هو اسمها محذوف ولن بما فى حيزها خبرها والاضغان
جمع ضغن وهو الحقد اى بل احسب الذين فى قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين
انه لن يخرج الله احقادهم ولن يبرزها لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين فيبقى امورهم
مستورة والمعنى ان ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال ولو نشاء لاريناكهم
لعرفناكهم بدلائل تعرفهم باعيانهم معرفة متاخمة للرؤية والالتفات الى نون العظمة
لابراز العناية بالاراءة فلعرفتهم بسيماهم بعلاماتهم التى نسمهم بها وعن انس رضى
الله عنه ما خفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الاية شئ من المنافقين
كان يعرفهم بسيماهم ولقد كنا فى بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم

الناس فناموا ذات ليلة واصبحوا وعلى وجه كل واحد منهم مكتوب هذا منافق واللام الجواب كررت فى المعطوف للتأكيد والفاء لترتيب المعرفة على الاراءة واما ما فى قوله تعالى ولتعرفنهم فى لحن القول فلجواب قسم محذوف ولحن القول نحوه واسلوبه او امالته الى جهة تعريض وتورية ومنه قيل للمخطئ لاحن لعدله بالكلام عن سمت الصواب والله يعلم اعمالكم فيجازيكم بحسب قصدكم وهذا وعد للمؤمنين وايذان بان حالهم بخلاف حال المنافقين ولنبلونكم بالامر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقة حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين على مشاق الجهاد علما فعليا يتعلق به الجزاء ونبلو اخباركم ما يخبر به عن اعمالكم فيظهر حسنها وقبيحها او يبلو بالياء وقرئ ونبلو بسكون الواو على ونحن نبلو ان الذين كفروا وصدوا الناس عن سبيل الله وشاقوا الرسول وعادوه من بعد ما تبين لهم الهدى بما شاهدوا نعته عليه السلام فى التوراة وبما ظهر على يديه من المعجزات ونزل عليه من الآيات وهم قريظة والنضير او المطعمون يوم بدر لن يضروا الله بكفرهم وصدهم شيئا من الاشياء او شيئا من الضرر او لن يضروا رسول الله بمشاقته شيئا وقد حذف المضاف لتعظيمه وتفظيع مشاقته وسيحبط اعمالهم اى مكايدهم التى نصبوها فى ابطال دينه تعالى ومشاقة رسوله عليه السلام فلا يصلون بها الى ما كانوا يبغون من الغوائل ولا تثمر لهم الا القتل والجلاء عن اوطانهم يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول ولا تبطلوا اعمالكم بما ابطل به هؤلاء اعمالهم من الكفر والنفاق والعجب والرياء والمن والاذى ونحوها وليس فيه دليل على احباط الطاعات بالكبائر ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم حكم يعم كل من مات على الكفر وان صح نزوله فى اصحاب القليب فلا تهنوا اى لا تضعفوا وتدعوا الى السلم اى ولا تدعوا الكفار الى الصلح خورا فان ذلك اعطاء الدنية ويجوز ان يكون منصوبا باضمار ان على جواب النهى وقرئ ولا تدعوا من ادعى القوم بمعنى تداعوا نحو ارتموا الصيد وتراموا ومنه تراءوا الهلال فان صيغة التفاعل قد يراد بها صدور الفعل عن المتعدد من غير اعتبار وقوعه عليه ومنه قوله تعالى عم يتساءلون على احد الوجهين والفاء لترتيب النهى على ما سبق من الامر بالطاعة وقوله تعالى وانتم الاعلون جملة حالية مقررة لمعنى النهى مؤكدة لوجوب الانتهاء وكذا قوله تعالى والله معكم فان كونهم الاعلين وكونه عز وعلا ناصرهم من اقوى موجبات الاجتناب عما يوهم الذل والضراعة وكذا توفيته تعالى لاجور الاعمال حسبما يعرب عنه قوله تعالى ولن يتركم اعمالكم اى ولن يضيعها من وترت الرجل اذا قتلت له قتيلا من ولد او اخ او حميم فافردته منه من الوتر الذى هو الفرد عبر عن ترك الاثابة فى مقابلة الاعمال بالوتر الذى هو اضاعة شئ معتد به من الانفس والاموال مع ان الاعمال غير موجبة للثواب على قاعدة اهل السنة ابرازا لغاية اللطف بتصوير الثواب بصورة الحق المستحق وتنزيل ترك الاثابة منزلة اضاعة اعظم الحقوق واتلافها وقد مر فى قوله تعالى فاستجاب لهم ربهم انى لا اضيع عمل عامل منكم انما الحياة الدنيا لعب ولهو لا ثبات لها ولا اعتداد بها وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم اجوركم اى ثواب ايمانكم وتقواكم من الباقيات الصالحات التى يتنافس فيها المتنافسون ولا يسألكم اموالكم بحيث يخل اداؤها بمعاشكم وانما اقتصر على نزر يسير منها هو ربع العشر تؤدونها الى فقرائكم ان يسألكموها اى اموالكم فيحفكم اى يجهدكم بطلب الكل فان الاحفاء والالحاف المبالغة وبلوغ الغاية يقال احفى شاربه اى استأصله تبخلوا فلا تعطوا ويخرج اضغانكم اى احقادكم وضمير يخرج لله تعالى ويعضده القراءة بنون العظمة او للبخل لانه سبب الاضغان وقرئ يخرج من الخروج بالياء والتاء مسندا الى الاضغان ها انتم هؤلاء اى انتم ايها المخاطبون هؤلاء الموصوفون وقوله تعالى تدعون لتنفقوا فى سبيل الله استئناف مقرر لذلك او صلة لهؤلاء على انه بمعنى الذين اى ها انتم الذين تدعون ففيه توبيخ عظيم وتحقير من شأنهم والانفاق فى سبيل الله يعم نفقة الغزو والزكوة وغيرهما فمنكم من يبخل اى ناس يبخلون وهو فى حيز الدليل على الشرطية

السابقة

السابقة ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه فان كلا من نفع الانفاق وضرر البخل عائد اليه والبخل يستعمل بعن وعلى لتضمنه معنى الامساك والتعدى والله الغنى دون من عداه وانتم الفقراء فما يأمركم به فهو لاحتياجكم الى ما فيه من المنافع فان امتثلتم فلكم وان توليتم فعليكم وقوله تعالى وان تتولوا عطف على ان تؤمنوا اى وان تعرضوا عن الايمان والتقوى يستبدل قوما غيركم يخلفوا مكانكم قوما آخرين ثم لا يكونوا امثالكم فى التولى عن الايمان والتقوى بل يكونوا راغبين فيهما قيل هم الانصار وقيل الملائكة وقيل اهل فارس لما روى انه عليه السلام سئل عن القوم وكان سلمان الى جنبه فضرب على فخذه فقال هذا وقومه والذى نفسى بيده لو كان الايمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس وقيل كندة والنخع وقيل العجم وقيل الروم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة محمد كان حقا على الله عز وجل ان يسقيه من انهار الجنة

سورة الفتح مكية وهى آية بسم الله الرحمن الرحيم

انا فتحنا لك فتح البلد عبارة عن الظفر به عنوة او صلحا بحراب او بدونه فانه ما لم يظفر به منغلق مأخوذ من فتح باب الدار واسناده الى نون العظمة لاستناد افعال العباد اليه تعالى خلقا وايجادا والمراد به فتح مكة وهو المروى عن انس رضى الله عنه بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عند انصرافه عن الحديبية والتعبير عنه بصيغة الماضى على سنن سائر الاخبار الربانية للايذان بتحققه لا محالة تأكيدا للتبشير كما ان تصدير الكلام بحرف التحقيق لذلك وفيه من الفخامة المنبئة عن عظمة شأن المخبر جل جلاله وعز سلطانه ما لا يخفى وقيل هو ما اتيح له عليه السلام فى تلك السنة من فتح خيبر وهو المروى عن مجاهد وقيل هو صلح الحديبية فانه وان لم يكن فيه قتال شديد بل ترام بين الفريقين بسهام وحجارة لكن لما كان الظهور للمسلمين حيث سألهم المشركون الصلح كان فتحا بلا ريب وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما رموا المشركين حتى ادخلوهم ديارهم وعن الكلبى ظهروا عليهم حتى سألوا الصلح وقد روى انه عليه السلام حين بلغه ان رجلا قال ما هذا بفتح لقد صدونا عن البيت وصد هدينا قال بل هو اعظم الفتوح وقد رضى المشركون ان يدفعوكم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا اليكم فى الامان وقد رأوا منكم ما يكرهون وعن الشعبى نزلت بالحديبية واصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك الغزوة ما لم يصب فى غزوة حيث اصاب ان بويع بيعة الرضوان وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وبلغ الهدى محله واطعموا نخل خيبر وظهرت الروم على فارس ففرح المسلمون وكان فى فتح الحديبية آية عظيمة هى انه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة فتمضمض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مجه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه وقيل فجاش الماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد وقيل هو جميع ما فتح له ء م من الفتوح وقيل هو ما فتح الله له ء م من الاسلام والنبوة والدعوة بالحجة والسيف ولا فتح ابين منه واعظم وهو رأس الفتوح كافة اذ لا فتح من فتوح الاسلام الا وهو شعبة من شعبه وفرع من فروعه وقيل الفتح بمعنى القضاء ومنه الفتاحة للحكومة والمعنى قضينا لك على اهل مكة ان تدخلها من قابل وهو المروى عن قتادة وايا ما كان فحذف المفعول للقصد الى نفس الفعل والايذان بان مناط التبشير نفس الفتح الصادر عنه سبحانه لا خصوصية المفتوح فتحا مبينا بينا ظاهر الامر مكشوف الحال او فارقا بين الحق والباطل وقوله تعالى ليغفر لك الله غاية للفتح من حيث انه مترتب على سعيه ء م فى اعلاء كلمة الله تعالى بمكابدة مشاق الحروب واقتحام موارد الخطوب والالتفات الى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات للاشعار بان كل واحد مما انتظم فى سلك الغاية من افعاله تعالى صادر عنه تعالى من حيثية غير حيثية الآخر مترتبة على صفة من صفاته تعالى ما تقدم من ذنبك وما تأخر اى جميع ما فرط منك من ترك الاولى وتسميته ذنبا بالنظر الى منصبه الجليل ويتم نعمته عليك باعلاء الدين وضم الملك الى النبوة وغيرهما مما افاضه عليه من النعم الدينية والدنيوية ويهديك صراطا مستقيما فى تبليغ الرسالة واقامة

واقامة مراسم الرياسة واصل الاستقامة وان كانت حاصلة قبل الفتح لكن حصل بعد ذلك من
اتضاح سبل الحق واستقامة مناهجه ما لم يكن حاصلا قبل وينصرك الله اظهار الاسم
الجليل لكونه خاتمة الغايات ولاظهار كمال العناية بشأن النصر كما يعرب عنه تأكيده بقوله تعالى
نصرا عزيزا اى نصرا فيه عزة ومنعة او قويا منيعا على وصف المصدر بوصف صاحبه
مجازا للمبالغة او عزيزا صاحبه هو الذى انزل السكينة بيان لما افاض عليهم من
مبادى الفتح من الثبات والطمانينة اى انزلها فى قلوب المؤمنين بسبب الصلح والامن
اظهارا لفضله تعالى بتيسير الامن بعد الخوف ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم اى يقينا
منضما الى يقينهم او انزل فيها السكون الى ما جاء به عم من الشرائع ليزدادوا
ايمانا بها مقرونا مع ايمانهم بالوحدانية واليوم الآخر عن ابن عباس رضى الله عنهما ان اول
ما اتاهم به النبى صلى الله عليه وسلم التوحيد ثم الصلوة والزكوة والحج والجهاد فازدادوا
ايمانا مع ايمانهم او انزل فيها الوقار والعظمة لله ولرسوله ليزدادوا باعتقاد ذلك ايمانا
الى ايمانهم ولله جنود السموات والارض يدبر امرها كيفما يريد يسلط بعضها على بعض
تارة ويوقع بينها السلم اخرى حسبما يقتضيه مشيته المبنية على الحكم والمصالح وكان الله
عليما مبالغا فى العلم بجميع الامور حكيما فى تقديره وتدبيره وقوله تعالى ليدخل المؤمنين
والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها متعلق بما يدل عليه ما ذكر من
كون جنود السموات والارض له تعالى من معنى التصرف والتدبير اى دبر ما دبر من تسليط
المؤمنين ليعرفوا نعمة الله تعالى فى ذلك ويشكروها فيدخلهم الجنة ويكفر عنهم سيئاتهم
اى يغطيها ولا يظهرها وتقديم الادخال فى الذكر على التكفير مع ان الترتيب فى الوجود
على العكس للمسارعة الى بيان ما هو المطلب الاعلى وكان ذلك اى ما ذكر من الادخال والتكفير
عند الله فوزا عظيما لا يقادر قدره لانه منتهى ما يمتد اليه اعناق الهمم من جلب نفع
ودفع ضر وعند الله حال من فوزا لانه صفته فى الاصل فلما قدم عليه صار حالا اى كائنا عند الله
اى فى علمه وقضائه والجملة اعتراض مقرر لما قبله ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين
والمشركات عطف على يدخل وفى تقديم المنافقين على المشركين ما لا يخفى من الدلالة على
انهم احق منهم العذاب الظانين بالله ظن السوء اى ظن الامر السوء وهو ان لا ينصر رسوله
والمؤمنين عليهم دائرة السوء اى ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم و
داير عليهم وقرئ دائرة السوء بالضم وهما لغتان من ساء كالكره خلا ان المفتوح غلب
فى ان يضاف اليه ما يراد ذمه من كل شئ واما المضموم فجار مجرى الشر وغضب الله عليهم
ولعنهم واعد لهم جهنم عطف لما استحقوه فى الآخرة على ما استوجبوه فى الدنيا والواو
فى الاخيرين مع انتحائهما الفاء المفيدة بسببية ما قبلها لما بعدها للايذان باستقلال كل منها فى الوعيد و
اصالته من غير اعتبار واستتباع بعضها لبعض وساءت مصيرا اى جهنم ولله جنود
السموات والارض وكان الله عزيزا حكيما اعادة لما سبق قالوا فائدتها التنبيه على ان لله تعالى
جنود الرحمة وجنود العذاب وان المراد ههنا جنود العذاب كما ينبئ عنه التعرض لوصف العزة
انا ارسلناك شاهدا اى على امتك لقوله تعالى ويكون الرسول عليكم شهيدا ومبشرا على الطاعة
ونذيرا على المعصية لتؤمنوا بالله ورسوله الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولامته
وتعزروه وتقووا دينه ورسوله وتوقروه وتعظموه وتسبحوه وتنزهوه وتصلوا له من
التسبيح بكرة واصيلا غدوة وعشيا عن ابن عباس رضى الله عنهما صلوة الفجر وصلوة الظهر
وصلوة العصر وقرئ الافعال الاربعة بالياء التحتانية وقرئ وتعززوه بضم التاء وتخفيف
الزاء المكسورة وقرئ بفتح التاء وضم الزاء وكسرها وتعززوه بزائين وتوقروه من اوقره بمعنى وقره
ان الذين يبايعونك اى على قتال قريش تحت الشجرة وقوله تعالى انما يبايعون الله خبر ان يعنى
ان مبايعتك هى مبايعة الله عز وجل لان المقصود توثيق العهد بمراعاة اوامره ونواهيه
قوله تعالى يد الله فوق ايديهم حال او استيناف مؤكد له على طريقة التخييل والمعنى ان عقد الميثاق
مع الرسول كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى من يطع الرسول فقد اطاع الله
وقرئ انما يبايعون لله اى لاجله ولوجهه فمن نكث فانما ينكث على نفسه اى فمن نقض عهده

فانما يعود

فانما يعود ضرر نكثه على نفسه وقرئ بكسر الكاف ومن اوفى بما عاهد عليه الله بضم الهاء
فانه ابقى بعد حذف الواو توسلا بذلك الى تفخيم لام الجلالة وقرئ بكسرها اى ومن وفى
بعهده فسيؤتيه اجرا عظيما هو الجنة وقرئ فسنؤتيه بنون العظمة سيقول لك
المخلفون من الاعراب هم اعراب غفار ومزينة وجهينة واشجع واسلم والديل تخلفوا
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استنفر من حول المدينة من الاعراب واهل البوادى
ليخرجوا معه عند ارادته المسير الى مكة عام الحديبية معتمرا حذرا من قريش ان يعرضوا له
بحرب او يصدوه عن البيت واحرم عم وساق معه الهدى ليعلم انه لا يريد الحرب
وتثاقلوا عن الخروج وقالوا نذهب الى قوم قد غزوه فى عقر داره بالمدينة وقتلوا اصحابه
فيقاتلهم فاوحى الله تعالى اليه عليه السلام بانهم سيقولون ويقولون شغلتنا اموالنا
واهلونا ولم يكن لنا من يخلفنا فيهم ويقوم بمصالحهم ويحميهم من الضياع وقرئ شغلتنا
بالتشديد للتكثير فاستغفر لنا الله تعالى ليغفر لنا تخلفنا عنك حيث لم يكن ذلك باختيار بل
عن اضطرار يقولون بالسنتهم ما ليس فى قلوبهم بدل من سيقولوا واستينا ف
لتكذيبهم فى الاعتذار والاستغفار قل ردا لهم عند اعتذارهم اليك باباطيلهم فمن يملك
لكم من الله شيئا اى فمن يقدر لكم اى لاجلكم من مشية الله تعالى وقضائه على شئ من
النفع ان اراد بكم ضرا اى ما يضركم من هلاك الاهل والمال وضياعهما حتى تخلفوا عن الخروج
لحفظهما ودفع الضرر عنهما وقرئ ضرا بالضم او اراد بكم نفعا اى ومن يقدر على شئ
من الضرر ان اراد بكم ما ينفعكم من حفظ اموالكم واهليكم فاى حاجة الى التخلف لاجل
القيام بحفظهما وهذا تحقيق للحق ورد لهم بموجب ظاهر مقالتهم الكاذبة وتعميم الضرر
والنفع لما يتوقع على تقدير الخروج من القتل والهزيمة والظفر والغنيمة يرده قوله تعالى بل كان
الله بما تعملون خبيرا فانه اضراب عما قالوا وبيان لكذبه بعد بيان فساده على تقدير صدقه
اى ليس الامر كما تقولون بل كان الله خبيرا بجميع ما تعملون من الاعمال التى من جملتها تخلفكم
وما هو من مباديه وقوله تعالى بل ظننتم الخ بدل من كان الخ مفسر لما فيه من الابهام اى
بل ظننتم ان لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى اهليهم ابدا بان يستاصلهم المشركون
بالمرة فخشيتم ان كنتم معهم ان يصيبكم ما اصابهم فلاجل ذلك تخلفتم لا لما ذكرتم
من المعاذير الباطلة والاهلون جمع اهل وقد يجمع على اهلات كارضات على تقدير تاء
التأنيث واما الاهالى فاسم جمع كالليالى وقرئ الى اهلهم وزين ذلك فى قلوبكم وقبلتموه
واشتغلتم بشأن انفسكم غير مبالين بهم وقرئ زين على البناء للفاعل باسناده الى الله
سبحانه او الى الشيطان وظننتم ظن السوء المراد به اما الظن الاول والتكرير لتشديد
التوبيخ والتسجيل عليه بالسوء او ما يعمه وغيره من الظنون الفاسدة التى من جملتها
الظن بعدم صحة رسالته عليه السلام فان الجازم بصحتها لا يحوم حول فكره ما ذكر
من الاستيصال وكنتم قوما بورا اى هالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه
على انه جمع باير كعائذ وعوذ او فاسدين فى انفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم وقيل
البور من بار كالهلك من هلك بناء ومعنى ولذلك وصف به الواحد والجمع والمذكر
والمؤنث ومن لم يؤمن بالله ورسوله كلام مبتدأ من جهته تعالى غير داخل فى الكلام
الملقن مقرر لبوارهم ومبين لكيفيته اى ومن لم يؤمن بهما كدأب هؤلاء المخلفين
فانا اعتدنا للكافرين سعيرا اى لهم وانما وضع موضع الضمير الكافرين ايذانا بان من
لم يجمع بين الايمان بالله وبرسوله فهو كافر وانه مستوجب للسعير بكفره وتنكير سعيرا للتهويل
او لانها نار مخصوصة ولله ملك السموات والارض وما فيهما يتصرف فى الكل كيف
يشاء يغفر لمن يشاء ان يغفر له ويعذب من يشاء ان يعذبه من غير دخل لاحد
فى شئ منهما وجودا وعدما وفيه حسم لاطماعهم الفارغة فى استغفاره عليه السلام
لهم وكان الله غفورا رحيما مبالغا فى المغفرة والرحمة لمن يشاء ولا يشاء الا لمن
يقتضى الحكمة مغفرته ممن يؤمن به وبرسوله واما من عداه من الكافرين فهو بمعزل
من ذلك قطعا سيقول المخلفون اى المذكورون وقوله تعالى اذا انطلقتم الى مغانم

وقرئ بما عاهد عليه

لما خذونها ظرف لما قبله لا شرط لما بعده اي سيقولون عند انطلاقكم الى مغانم خيبر لتحوزوها
حسبما وعدكم اياها وخصكم بها عوضا مما فاتكم من غنائم مكة ذرونا نتبعكم الى خيبر
ونشهد معكم قتال اهلها يريدون ان يبدلوا كلام الله بان يشاركوا فى الغنائم التى خصها
باهل الحديبية فانه عليه السلام رجع من الحديبية فى ذى الحجة من سنة ست و
اقام بالمدينة بقيتها واوائل المحرم من سنة سبع ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها
وغنموا اموالا كثيرة فخصها بهم حسبما امره الله عز وجل وقرئ كلم الله وهو جمع كلمة و
ايا ما كان فالمراد ما ذكر من وعده تعالى غنائم خيبر لاهل الحديبية خاصة لا قوله تعالى لن
تخرجوا معى ابدا فان ذلك فى غزوة تبوك قل لن تتبعونا اي لا تتبعونا فانه نفى
فى معنى النهى للمبالغة كذلكم قال الله من قبل اى عند الانصراف من الحديبية فسيقولون
للمؤمنين عند سماع هذا النهى بل تحسدوننا اى ليس ذلك النهى حكم الله بل تحسدوننا
ان نشارككم فى الغنائم وقرئ تحسدوننا بكسر السين وقوله تعالى بل كانوا لا يفقهون
اى لا يفهمون الا قليلا اى الا فهما قليلا وهو فطنتهم لامور الدنيا رد لقولهم الباطل
ووصف لهم بما هو اعظم من الحسد واطم من الجهل المفرط وسوء الفهم فى امور الدين قل
للمخلفين من الاعراب كرر ذكرهم بهذا العنوان مبالغة فى ذمهم ستدعون الى قوم
اولى باس شديد هم بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب او غيرهم ممن ارتدوا بعد رسول
الله صلى الله عليه وسلم او المشركين لقوله تعالى تقاتلونهم او يسلمون اى يكون احد الامرين
المقاتلة ابدا او الاسلام لا غير كما يفصح عنه قراءة او يسلموا واما من عداهم فينتهى قتالهم
بالجزية كما ينتهى بالاسلام وفيه دليل على امامة ابى بكر رضى الله عنه اذ لم يتفق هذه الدعوة
لغيره الا اذا صح انهم ثقيف وهوازن فان ذلك كان فى عهد النبوة فيخص دوام
نفى الاتباع بما فى غزوة خيبر كما قاله محيى السنة وقيل هم فارس والروم ومعنى ينقادوا
فان الروم نصارى وفارس مجوس يقبل منهم الجزية فان تطيعوا يؤتكم الله اجرا حسنا
هو الغنيمة فى الدنيا والجنة فى الاخرة وان تتولوا عن الدعوة كما توليتم من قبل فى
الحديبية يعذبكم عذابا اليما لتضاعف جرمكم ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج
حرج ولا على المريض حرج اى فى التخلف عن الغزو لما بهم من العذر والعاهة فان
التكليف يدور على الاستطاعة وفى نفى الحرج عن كل من الطوائف المعدودة مزيد اعتناء
بامرهم وتوسيع لدائرة الرخصة ومن يطع الله ورسوله فيما ذكر من الاوامر والنواهى
يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار وقرئ ندخله بنون العظمة ومن يتول اى
عن الطاعة يعذبه وقرئ بالنون عذابا اليما لا يقادر قدره لقد رضى الله عن المؤمنين
هم الذين ذكر شأن مبايعتهم وبهذه الآية سميت بيعة الرضوان وقوله تعالى اذ يبايعونك
تحت الشجرة منصوب برضى وصيغة المضارع لاستحضار صورتها وتحت الشجرة
متعلق بمحذوف هو حال من مفعوله روى انه عليه السلام لما نزل الحديبية بعث خراش
بن امية الخزاعى رسولا الى اهل مكة فهموا به فمنعه الاحابيش فرجع فبعث عثمان بن عفان
رضى الله عنه فاخبرهم انه عليه السلام لم يأت لحرب وانما جاء زائرا لهذا البيت معظما
لحرمته فوقروه وقالوا ان شئت ان تطوف بالبيت فافعل فقال ما كنت لاطوف قبل ان يطوف
رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبس عندهم فارجف بانهم قتلوه فقال عليه الصلوة
والسلام لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا الناس الى البيعة فبايعوه تحت الشجرة وكانت
سمرة وقيل سدرة على ان يقاتلوا قريشا ولا يفروا وروى على الموت دونه وان لا يفروا
فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم انتم اليوم خير اهل الارض وكانوا الفا وخمسمائة
وخمسة وعشرين وقيل الفا واربعمائة وقيل الفا وثلثمائة وقوله تعالى
فعلم ما فى قلوبهم عطف على يبايعونك لما عرفت من انه بمعنى بايعوك لا على رضى
فان رضاه تعالى عنهم مترتب على علمه تعالى بما فى قلوبهم من الصدق والاخلاص عند
مبايعتهم له عليه السلام وقوله تعالى فانزل السكينة عليهم عطف على رضى اى
فانزل عليهم الطمانينة والامن وسكون النفس بالربط على قلوبهم وقيل بالصلح واثابهم

فتحا

فتحا قريبا هو فتح خيبر عقيب انصرافهم من الحديبية كما مر تفصيله وقرئ واتاهم ومغانم كثيرة
يأخذونها اى مغانم خيبر والالتفات الى الخطاب على قراءة الاعمش وطلحة ونافع لتشريفهم
فى مقام الامتنان وكان الله عزيزا غالبا حكيما مراعيا لمقتضى الحكمة فى احكامه وقضاياه
وعدكم الله مغانم كثيرة هى ما تفيئه على المؤمنين الى يوم القيمة تأخذونها فى اوقاتها
المقدرة لكل واحد منها فعجل لكم هذه اى غنائم خيبر وكف ايدى الناس عنكم اى
ايدى اهل خيبر وخلفائهم من بنى اسد وغطفان حيث جاؤا لنصرتهم فقذف الله
فى قلوبهم الرعب فنكصوا وقيل ايدى اهل مكة بالصلح ولتكون آية للمؤمنين امارة
يعرفون بها صدق الرسول عم فى وعده اياهم عند رجوعه من الحديبية ما ذكر من المغانم
وفتح مكة ودخول المسجد الحرام واللام متعلقة اما بمحذوف مؤخر اى ولتكون آية لهم
فعل ما فعل من التعجيل والكف او بما تعلق به علة اخرى محذوفة من احد الفعلين اى فعجل
لكم هذه وكف ايدى الناس لتغنموها ولتكون الخ فالواو على الاول اعتراضية وعلى الثانى عاطفة و
يهديكم بتلك الآية صراطا مستقيما هو الثقة بفضل الله تعالى والتوكل عليه فى كل ما تأتون
وما تذرون واخرى عطف على هذه اى فعجل لكم هذه المغانم ومغانم اخرى لم تقدروا
عليها وهى مغانم هوازن فى غزوة حنين ووصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها
من الجولة قبل ذلك لزيادة ترغيبهم فيها وقوله تعالى قد احاط الله بها صفة اخرى لاخرى
مفيدة لسهولة تأتيها بالنسبة الى قدرته تعالى بعد بيان صعوبة منالها بالنظر الى قدرتهم
اى قد قدرها الله عليها واستولى واظهركم عليها وقيل حفظها لكم ومنعها من غيركم
هذا وقد قيل ان اخرى منصوب بمضمر يفسره قد احاط الله بها اى وقضى الله اخرى
ولا ريب فى ان الاخبار بقضاء الله اياها بعد اندراجها فى جملة المغانم الموعودة بقوله تعالى
وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ليس فيه مزيد فائدة وانما الفائدة فى بيان تعجيلها
وكان الله على كل شئ قديرا لان قدرته تعالى ذاتية لا تختص بشئ دون شئ ولو قاتلكم
الذين كفروا اى اهل مكة ولم يصالحوكم وقيل حلفاء خيبر لولوا الادبار منهزمين
ثم لا يجدون وليا يحرسهم ولا نصيرا ينصرهم سنة الله التى قد خلت من قبل
اى سن الله غلبة انبيائه سنة قديمة فيمن مضى من الامم ولن تجد لسنة الله تبديلا
اى تغييرا وهو الذى كف ايديهم اى ايدى كفار مكة عنكم وايديكم عنهم ببطن
مكة اى فى داخلها من بعد ان اظفركم عليهم وذلك ان عكرمة بن ابى جهل خرج فى
خمسمائة الى الحديبية فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد على جند
فهزمهم حتى ادخلهم حيطان مكة ثم عاد وقيل كان يوم الفتح وبه استشهد ابو حنيفة رحمه الله
على ان مكة فتحت عنوة لا صلحا وكان الله بما تعملون من مقاتلتهم وهزمهم اولا والكف
عنهم ثانيا لتعظيم بيته الحرام وقرئ بالياء بصيرا فيجازيكم بذلك او يجازيهم هم
الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى بالنصب عطفا على الضمير المنصوب فى
صدوكم وقرئ بالجر عطفا على المسجد بحذف المضاف اى ونحر الهدى وبالرفع على و
صد الهدى وقوله تعالى معكوفا حال من الهدى اى محبوسا وقوله تعالى ان يبلغ محله بدل
اشتمال من الهدى او منصوب بنزع الخافض اى محبوسا ان يبلغ مكانه الذى يحل فيه نحره
وبه استدل ابو حنيفة رحمه الله على ان المحصر محل هديه الحرم قالوا بعض الحديبية من
الحرم وروى ان خيامه عليه السلام كانت فى الحل ومصلاه فى الحرم وهناك نحرت هداياه
رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد صدها عن محلها المعهود الذى هو منى ولولا
رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم لم تعرفوهم باعيانهم لاختلاطهم وهى
صفة لرجال ونساء وقوله تعالى ان تطؤهم ان توقعوا بهم وتهلكوهم بدل اشتمال منهم
او من الضمير المنصوب فى تعلموهم فتصيبكم منهم اى من جهتهم معرة اى مشقة ومكروه
كوجوب الدية او الكفارة بقتلهم والتأسف عليهم وتعيير الكفار وسوء قالتهم
والاثم بالتقصير فى البحث عنهم وهى مفعلة من عره اذا عراه ودهاه ما يكرهه بغير علم
متعلق بان تطؤهم اي غير عالمين بهم وجواب لولا محذوف لدلالة الكلام عليه والمعنى

لولا كراهة ان تهلكوا ناسًا مؤمنين بين الكافرين غير عالمين بهم فيصيبكم بذلك مكروه لما كف ايديكم عنهم وقوله تعالى ليدخل الله في رحمته متعلق بما يدل عليه الجواب المحذوف كانه قيل عقيبه لكن كفها عنهم ليدخل بذلك الكف المؤدى الى الفتح بلا محذور في رحمته الواسعة بقسميها من يشاء وهم المؤمنون فانهم كانوا خارجين من الرحمة الدنيوية التي من جملتها الامن مستضعفين تحت ايدى الكفرة واما الرحمة الاخروية فهم وان كانوا غير محرومين منها بالمرة لكنهم كانوا قاصرين في اقامة اسم العبادة كما ينبغي فتوفيقهم لاقامتها على الوجه الاتم ادخال لهم في الرحمة الاخروية وقد جوز ان يكون من يشاء عبارة عمن رغب في الاسلام من المشركين وياباه قوله تعالى لو تزيلوا الخ فان فرض التزيل وترتيب التعذيب عليه يقتضي تحقق المباينة بين الفريقين بالايمان والكفر قبل التزيل حتما اى لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض وقرئ لو تزايلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابًا اليمًا بقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم والجملة مستانفة مقررة لما قبلها اذ جعل الذين كفروا منصوب باذكر على المفعولية او بعذبنا على الظرفية وقيل عصرهوا حسن الله اليكم واياه ما كان فوضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما في حيز الصلة وتعليل الحكم به والجعل اما بمعنى الالقاء فقوله تعالى في قلوبهم الحمية اى الانفة والتكبر متعلق او بمعنى التصيير فهو متعلق بمحذوف هو مفعول ثان له اى جعلوها ثابتة راسخة في قلوبهم حمية الجاهلية بدل من الحمية اى حمية الملة الجاهلية او الحمية الناشئة من الجاهلية وقوله تعالى فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين على الاول عطف على جعل والمراد تذكير حسن صنع الرسول عليه السلام والمؤمنين بتوفيق الله تعالى وسوء صنيع الكفرة وعلى الثاني على ما يدل عليه الجملة الامتناعية كانه قيل لم يتزيلوا فلم نعذب فانزل الخ وعلى الثالث على المضمر تفسير له والسكينة الثبات والوقار روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحديبية بعث قريش سهيل بن عمرو القرشي وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص بن الاخنف على ان يعرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم ان يرجع من عامه ذلك على ان تخلى له قريش مكة من العام القابل ثلثة ايام ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتابا فقال عليه السلام لعلى رضى الله عنه اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا ما نعرف ما هذا اكتب باسمك اللهم ثم قال اكتب هذا ما صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم اهل مكة فقالوا لو كنا نعلم انك رسول الله ما صددناك من البيت وما قاتلناك اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله اهل مكة فقال صلى الله عليه وسلم اكتب ما يريدون فهم المؤمنون ان يابوا ذلك ويبطشوا بهم فانزل الله السكينة عليهم فتوقروا وحلموا والزمهم كلمة التقوى اى كلمة الشهادة او بسم الله الرحمن الرحيم او محمد رسول الله وقيل كلمة التقوى هي الوفا بالعهد والثبات عليه واضافتها الى التقوى لانها سبب التقوى واساسها او كلمة اهلها وكانوا احق بها متصفين بمزيد استحقاق لها على ان صيغة التفضيل للزيادة مطلقا وقيل احق بها من الكفار واهلها اى المستاهل لها وكان الله بكل شئ عليمًا فيعلم حق كل شئ فيسوقه الى مستحقه لقد صدق الله رسوله الرؤيا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل خروجه الى الحديبية كانه واصحابه قد دخلوا مكة امنين وقد حلقوا رؤسهم وقصروا فقص الرؤيا على اصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا انهم داخلوها في عامهم فلما تاخر ذلك قال عبد الله بن ابى وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت اى صدقه عليه السلام في رؤياه كما في قولهم صدقني سن بكره وتحقيقه اراه الرؤيا الصادقة وقوله تعالى بالحق اما صفة لمصدر مؤكد محذوف اى صدقًا ملتبسًا بالحق اى بالغرض الصحيح والحكمة البالغة التي هي التمييز بين الراسخ في الايمان والمتزلزل فيه او حال من الرؤيا اى ملتبسة بالحق ليست من قبيل اضغاث الاحلام وقد جوز ان يكون قسما بالحق الذى هو من اسماء الله تعالى او بنقيض الباطل وقوله تعالى لتدخلن المسجد الحرام جوابه وهو على الاولين جواب قسم محذوف اى والله لتدخلن الخ ان شاء الله تعليق للعدة بالمشية لتعليم العباد او للاشعار بان بعضهم لا يدخلونه

لموت او غيبة او غير ذلك او هي حكاية لما قاله ملك الرؤيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لما قاله عليه السلام لاصحابه آمنين حال من فاعل لتدخلن والشرط معترض وكذا قوله تعالى محلقين رؤسكم ومقصرين اى محلقا بعضكم ومقصرًا آخرون وقيل محلقين حال من ضمير آمنين فتكون متداخلة لا تخافون حال مؤكدة من فاعل لتدخلن او آمنين او محلقين او مقصرين او استيناف اى لا تخافون بعد ذلك فعلم ما لم تعلموا عطف على صدق والمراد بعلمه تعالى العلم الفعلى المتعلق بامر حادث بعد المعطوف عليه اى فعلم عقيب ما اراه الرؤيا الصادقة ما لم تعلموا من الحكمة الداعية الى تقديم ما يشهد بالصدق علمًا فعليًا فجعل لاجله من دون ذلك اى من دون تحقق مصداق ما اراه من دخول المسجد الحرام آمنين الخ فتحا قريبا وهو فتح خيبر والمراد بجعله وعده وانجازه من غير تسويف ليستدل به على صدق الرؤيا حسبما قال ولتكون اية للمؤمنين واما جعل ما في قوله تعالى ما لم تعلموا عبارة عن الحكمة في تاخير فتح مكة الى العام القابل كما جنح اليه الجمهور فيأباه الفاء فان علمه تعالى بذلك متقدم على اراءة الرؤيا قطعا هو الذى ارسل رسوله بالهدى اى ملتبسا به او بسببه ولاجله ودين الحق وبدين الحق اى الاسلام ليظهره على الدين كله ليعليه على جنس الدين بجميع افراده التي هي الاديان المختلفة بنسخ ما كان حقا من بعض الاحكام المتبدلة بتبدل الاعصار واظهار بطلان ما كان باطلا او بتسليط المسلمين على اهل سائر الاديان اذ ما من اهل دين الا وقد قهرهم المسلمون وفيه فضل تاكيد لما وعد من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين على انه سبحانه سيفتح لهم من البلاد ويقيض لهم من الغلبة على الاقاليم ما يستقلون اليه فتح مكة وكفى بالله شهيدًا على ان ما وعده كائن لا محالة او على نبوته عليه السلام باظهار المعجزات محمد خبر مبتدا محذوف وقوله تعالى رسول الله بدل او بيان او نعت اى ذلك الرسول المرسل بالهدى ودين الحق محمد رسول الله وقيل محمد مبتداء رسول الله خبره والجملة مبينة للمشهود به وقوله تعالى والذين معه مبتدا خبره اشداء على الكفار رحماء بينهم واشداء جمع شديد ورحماء جمع رحيم والمعنى انهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرأفة كقوله تعالى اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين وقرئ اشداء ورحماء بالنصب على المدح او على الحال من المستكن في معه لوقوعه صلة فالخبر حينئذ قوله تعالى تراهم ركعا سجدًا اى تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين لمواظبتهم على الصلوات وهو على الاول خبر آخر او استيناف وقوله تعالى يبتغون فضلا من الله ورضوانا اى ثوابا ورضى اما خبر آخر او حال من ضمير تراهم او من المستتر في ركعا سجدًا او استيناف مبنى على سؤال نشاء من بيان مواظبتهم على الركوع والسجود كانه ماذا يريدون بذلك فقيل يبتغون فضلا من الله الخ سيماهم اى سمتهم وقرئ سيمياؤهم بالياء بعد الميم والمد وهما لغتان وفيها لغة ثالثة هي السيماء بالمد وهو مبتداء خبره في وجوههم اى في جباههم وقوله تعالى من اثر السجود حال من المستكن في الجار اى من التأثير الذى يؤثره كثرة السجود وما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله عليه السلام لا تعلبوا صوركم اى لا تسموها انما هو فيما اذا اعتمد بجبهته على الارض ليحدث فيها تلك السمة وذلك محض رياء ونفاق والكلام فيما حدث في جبهة السجاد الذى لا يسجد الا خالصا لوجه الله عز وجل وكان الامام زين العابدين وعلى بن عبد الله بن العباس رضى الله عنهما يقال لهما ذو الثفنات لما احدثه كثرة سجودهما في مواقعه منهما اشباه ثفنات البعير قال قائلهم ديار على والحسين وجعفر وحمزة والسجاد ذى الثفنات وقيل صفرة الوجه من خشية الله عز وجل وقيل ندى الطهور وتراب الارض وقيل استنارة وجوههم من طول ما صلوا بالليل قال عليه الصلوة والسلام من كثر صلوته بالليل حسن وجهه بالنهار وقرئ من آثار السجود ومن اثر السجود بكسرة الهمزة ذلك اشارة الى ما ذكر

من نعوتهم الجليلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو شانه وبعد منزلته فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى مثلهم اى وصفهم العجيب الشان الجارى فى الغرابة مجرى الامثال وقوله تعالى فى التوراة حال من مثلهم والعامل معنى الاشارة وقوله تعالى ومثلهم فى الانجيل عطف على مثلهم الاول كانه قيل ذلك مثلهم فى التوراة والانجيل وتكرير مثلهم لتاكيد غرابته وزيادة تقريرها وقوله تعالى كزرع اخرج شطأه الخ تمثيل مستأنف اى هم كزرع اخرج فراخه وقيل تفسير لذلك على انه اشارة مبهمة وقيل خبر لقوله تعالى ومثلهم فى الانجيل على ان الكلام قد تم عند قوله تعالى مثلهم فى التوراة وقرئ شطأه بفتحات وقرئ شطاه بفتح الطاء وتخفيف الهمزة وشطاءه بالمد وشطه بحذف الهمزة ونقل حركتها الى ما قبلها وشطوه بقلبها واوا فآزره فقواه من الموازرة بمعنى المعاونة او من الايزار وهى الاعانة وقرئ فأزره بالتخفيف وفأزّره بالتشديد اى شد ازره وقواه فاستغلظ فصار غليظا بعد ما كان دقيقا فاستوى على سوقه فاستقام على قصبه جمع ساق وقرئ سؤقه بالهمزة يعجب الزراع بقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره وهو مثل ضربه الله عز وجل لاصحابه صلى الله عليه وسلم قلوا فى بدء الاسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى امرهم يوما فيوما بحيث اعجب الناس وقيل مكتوب فى الانجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر وقوله تعالى ليغيظ بهم الكفار علة لما يعرب عنه الكلام من تشبيههم بالزرع فى زكائه واستحكامه او لما بعده من قوله تعالى وعد الله الذين امنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة واجرا عظيما فان الكفار اذا سمعوا بما اعد للمؤمنين فى الآخرة مع ما لهم من الدنيا من العزة غاظهم ذلك اشد غيظ ومنهم للبيان عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفتح فكانما كان ممن مع محمد صلى الله عليه وسلم فتح مكة

سورة الحجرات مدنية وهى ثمانى عشرة آية بسم الله الرحمن الرحيم

يا ايها الذين امنوا تصدير الخطاب بالنداء لتنبيه المخاطبين على ان ما فى حيزه امر خطير يستدعى مزيد اعتنائهم بشانه وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته ووصفهم بالايمان لتنشيطهم والايذان بانه داع الى المحافظة عليه ووازع من الاخلال به لا تقدموا اى لا تفعلوا التقديم على ان ترك المفعول للقصد الى نفس الفعل من غير اعتبار تعلقه بامر من الامور على طريقة قولهم فلان يعطى ويمنع اى يفعل الاعطاء والمنع او لا تقدموا امرا من الامور على ان حذف المفعول للقصد الى تعميمه والاول اوفى بحق المقام لافادته النهى عن التلبس بنفس الفعل الموجب لانتفائه بالكلية المستلزم لانتفاء تعلقه بمفعوله بالطريق البرهانى وقد جوز ان يكون التقديم بمعنى التقدم ومنه مقدمة الجيش للجماعة المتقدمة ويعضده قراءة من قرأ لا تقدموا بحذف احدى التاءين من تتقدموا وقرئ لا تقدموا من القدوم وقوله تعالى بين يدى الله ورسوله مستعار مما بين الجهتين المسامتتين ليدى الانسان تهجينا لما نهوا عنه والمعنى لا تقطعوا امرا قبل ان يحكما به وقيل المراد بين يدى رسول الله وذكر الله تعالى لتعظيمه والايذان بجلالة محله عنده عز وجل قيل نزل فيما جرى بين ابى بكر وعمر رضى الله عنهما لدى النبى صلى الله عليه وسلم فى تامير الاقرع بن حابس او القعقاع بن معبد واتقوا الله فى كل ما تأتون وما تذرون من الاقوال والافعال التى من جملتها ما نحن فيه ان الله سميع لاقوالكم عليم بافعالكم فمن حقه ان يتقى ويراقب يا ايها الذين امنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبى شروع فى النهى عن التجاوز فى كيفية القول عند النبى عليه السلام بعد النهى عن التجاوز فى نفس القول والفعل واعادة النداء مع قرب العهد به للمبالغة فى الايقاظ والتنبيه والاشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشانه اى لا تبلغوا باصواتكم وراء حد يبلغه عليه السلام بصوته وقرئ لا ترفعوا باصواتكم على ان الباء زائدة ولا تجهروا له بالقول اذا كلمتموه كجهر بعضكم لبعض اى جهرا كائنا

كالجهر الجارى فيما بينكم بل اجعلوا صوتكم اخفض من صوته عليه السلام وتعهدوا فى مخاطبته اللين القريب من الهمس كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظم وحافظوا على مراعاة ابهة النبوة وجلالة مقدارها وقيل معنى لا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض لا تقولوا يا محمد يا احمد وخاطبوه بالنبوة وقال ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت هذه الآية قال ابو بكر يا رسول الله والله لا اكلمك الا السرار او اخا السرار حتى القى الله وعن عمر رضى الله عنه انه كان يكلمه عليه السلام كاخى السرار لا يسمعه حتى يستفهمه وكان ابو بكر رضى الله عنه اذا قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفود ارسل اليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى ان تحبط اعمالكم اما علة للنهى اى لا تجهروا خشية ان تحبط او كراهة ان تحبط كما فى قوله تعالى يبين الله لكم ان تضلوا او للنهى اى لا تجهروا لاجل الحبوط فان الجهر حيث كان بصدد الاداء الى الحبوط فكانه فعل لاجله على طريقة التمثيل كقوله تعالى ليكون لهم عدوا وحزنا وليس المراد بما نهى عنه من الرفع والجهر ما يقارنه الاستخفاف والاستهانة فان ذلك كفر بل ما يتوهم ان يؤدى اليه مما يجرى بينهم فى اثناء المحاورة من الرفع والجهر حسبما يعرب عنه قوله تعالى كجهر بعضكم لبعض خلا ان رفع الصوت فوق صوته عليه السلام لما كان منكرا محضا لم يقيد بشئ ولا ما يقع منهما فى حرب او مجادلة معاند او ارهاب عدو او نحو ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس وكان فى اذنه وقر وكان جهورى الصوت وربما كان يكلم رسول الله فيتأذى بصوته وعن انس رضى الله عنه انه لما نزلت الآية فقد ثابت وتفقده عليه السلام فاخبر بشانه فدعاه فسأله فقال يا رسول الله لقد انزلت اليك هذه الآية وانى رجل جهير الصوت فاخاف ان يكون عملى قد حبط فقال له عليه السلام لست هناك انك تعيش بخير وتموت بخير وانك من اهل الجنة واما ما يروى عن الحسن من انها نزلت فى بعض المنافقين الذين كانوا يرفعون اصواتهم فوق صوته عليه السلام فقد قيل محمله ان نهيهم مندرج تحت نهى المؤمنين بدلالة النص وانتم لا تشعرون حال من فاعل تحبط اى والحال انكم لا تشعرون بحبوطها وفيه مزيد تحذير مما نهوا عنه وقوله تعالى ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله الخ ترغيب فى الانتهاء عما نهوا عنه بعد ترهيب عن الاخلال به اى يخفضونها مراعاة للادب او خشية من مخالفة النهى اولئك اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه لما مر مرارا من تفخيم شانه وهو مبتدأ خبره الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى اى جربها للتقوى ومرنها عليها او عرفها كائنة للتقوى خالصة لها فان الامتحان سبب المعرفة واللام صلة لمحذوف او للفعل باعتبار الاصل او ضرب قلوبهم بضروب المحن والتكاليف الشاقة لاجل التقوى فانها لا تظهر الا بالاصطبار عليها او اخلصها للتقوى من امتحن الذهب اذا اذابه وميز ابريزه من خبيثه وعن عمر رضى الله عنه اذهب عنها الشهوات لهم فى الآخرة مغفرة عظيمة لذنوبهم واجر عظيم لا يقادر قدره والجملة اما خبر آخر لان كالجملة المصدرة باسم الاشارة او استيناف لبيان جزائهم احمادا لحالهم وتعريضا بسوء حال من ليس مثلهم ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اى من خارجها من خلفها او قدامها ومن ابتدائية دالة على ان المناداة نشأت من جهة الوراء وان المنادى داخل تحت الحجرة لوجوب اختلاف المبدأ والمنتهى بحسب الجهة بخلاف ما لو قيل ينادونك وراء الحجرات وقرئ الحجرات بفتح الجيم وبسكونها وثلاثتها جمع حجرة وهى القطعة من الارض المحجورة بالحائط ولذلك يقال لحظيرة الابل حجرة وهى فعلة من الحجر بمعنى مفعول كالغرفة والقبضة والمراد بها حجرات امهات المؤمنين ومناداتهم من ورائها اما بانهم اتوها حجرة حجرة فنادوه من ورائها او بانهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له عليه السلام فناداه بعض من وراء هذه وبعض من وراء تلك فاسند فعل الابعاض الى الكل وقد جوز ان يكونوا قد نادوه من وراء الحجرة التى كان عليه السلام فيها لكنها جمعت اجلالا له عليه السلام وقيل ان الذى ناداه عيينة بن

حصن الفزاري والاقرع بن حابس وفدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين رجلا
من بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالا يا محمد اخرج الينا وانما اسند النداء الى الكل
لانهم رضوا بذلك او امروا به او لانه وجد فيما بينهم اكثرهم لا يعقلون اذ لو كان
لهم عقل لما تجاسروا على هذه المرتبة من سوء الادب ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم
اى ولو تحقق صبرهم وانتظارهم حتى تخرج اليهم فان ان وان دلت بما في حيزها على
المصدر لكنها تفيد بنفسها التحقق والثبوت للفرق البين بين قولك بلغني قيامك وبلغني
انك قائم وحتى تفيد ان الصبر ينبغي ان يكون مغيا بخروجه عليه السلام فانها مختصة
بما هو غاية للشيء في نفسه ولذلك تقول اكلت السمكة حتى رأسها ولا تقول حتى نصفها
او ثلثها بخلاف الى فانها عامة وفي اليهم اشعار بانه لو خرج لا لاجلهم ينبغي ان يصبروا
حتى يفاتحهم بالكلام او يتوجه اليهم لكان اى الصبر المذكور خيرا لهم من
الاستعجال لما فيه من رعاية حسن الادب وتعظيم الرسول الموجبين للثناء والثواب
والاسعاف بالمسئول اذ روى انهم وفدوا شافعين في اسارى بني العنبر فاطلق النصف
وفادى النصف والله غفور رحيم بليغ المغفرة والرحمة واسعهما فلن يضيق
ساحتهما عن هؤلاء ان تابوا واصلحوا يا ايها الذين امنوا ان جاءكم فاسق بنبأ
فتبينوا اى فتعرفوا وتفحصوا روى انه عليه السلام بعث الوليد بن عقبة اخا عثمان
لامه مصدقا الى بني المصطلق وكان بينه وبينهم احنة فلما سمعوا به استقبلوه
فحسب انهم مقاتلوه فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد ارتدوا ومنعوا
الزكوة فهم عليه السلام بقتالهم فنزلت وقيل بعث اليهم خالد بن الوليد فوجدهم
منادين بالصلوة متهجدين فسلموا اليه الصدقات فرجع وفي ترتيب الامر بالتبين على
فسق المخبر اشارة الى قبول الواحد العدل في بعض المواد وقرئ فتثبتوا اى توقفوا الى
ان يتبين لكم الحال ان تصيبوا حذار ان تصيبوا قوما بجهالة ملتبسين بجهالة بحالهم فتصبحوا
بعد ظهور براءتهم عما اسند اليهم على ما فعلتم في حقهم نادمين مغتمين غما لازما
متمنين انه لم يقع فان تركيب هذه الاحرف الثلاثة يدور مع الدوام واعلموا ان فيكم
رسول الله ان في حيزها ساد مسد مفعولي اعلموا باعتبار ما بعده من قوله تعالى
لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم فانه حال من احد الضميرين في فيكم والمعنى ان فيكم
رسول الله كائنا على حالة يجب عليكم تغييرها او كائنين على حالة الخ وهي انكم تريدون
ان يتبع عليه السلام رأيكم في كثير من الحوادث ولو فعل ذلك لوقعتم في الجهد والهلاك
وفيه ايذان بان بعضهم زينوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم الايقاع ببني المصطلق تصديقا
لقول الوليد وانه عليه السلام لم يطع رأيهم واما صيغة المضارع فقد قيل انها للدلالة
على ان امتناع عنتهم لامتناع استمرار طاعته عليه السلام لهم لان عنتهم انما يلزم من
استمرار الطاعة فيما يعن لهم من الامور اذ فيه اختلال امر الايالة وانقلاب الرئيس
مرؤسا لا من طاعته في بعض ما يرونه نادرا بل فيها استمالتهم بلا معرة وقيل انها للدلالة
على ان امتناع عنتهم لاستمرار امتناع طاعته عليه السلام لهم في ذلك فان المضارع المنفي
قد يدل على استمرار النفي بحسب المقام كما في نظائر قوله تعالى ولا هم يحزنون والتحقيق
ان الاستمرار الذي يفيده صيغة المضارع يعتبر تارة بالنسبة الى ما يتعلق بالفعل من الامور
الزمانية المتجددة وذلك بان يعتبر الاستمرار في نفس الفعل على الابهام ثم يعتبر تعلق
ما يتعلق به بيانا لما فيه الاستمرار واخرى بالنسبة الى ما يتعلق به من نفس الزمان المتجدد
وذلك اذا اعتبر تعلقه بما يتعلق به اولا ثم اعتبر استمراره فيتعين ان يكون ذلك
بحسب الزمان فان اريد باستمرار الطاعة استمرارها وتجددها بحسب تجدد مواقعها
الكثيرة التي يفصح عنها قوله تعالى في كثير من الامر فالحق هو الاول ضرورة ان مدار امتناع
العنت هو امتناع ذلك الاستمرار سواء كان ذلك الامتناع بعدم وقوع الطاعة
في امر ما من تلك الامور الكثيرة اصلا او بعدم وقوعها في كلها مع وقوعها في بعض يسير منها
حتى لو لم يمتنع ذلك الاستمرار باحد الوجهين المذكورين بل وقعت الطاعة فيما ذكر

من كثير

من كثير من الامر في وقت من الاوقات وقع العنت قطعا وان اريد به استمرار الطاعة الواقعة
في الكل وتجددها بحسب تجدد الزمان واستمراره فالحق هو الثاني فان مناط امتناع
العنت حينئذ ليس امتناع استمرار الطاعة المذكورة ضرورة انه موجب لوقوع العنت
بل هو استمرار الزماني لامتناع تلك الطاعة الواقعة في تلك الامور الكثيرة باحد الوجهين
المذكورين حتى لو لم يستمر امتناعها بان وقعت تلك الطاعة في وقت من الاوقات وقع
العنت حتما واعلم ان الحق بالاختيار والاولى بالاعتبار هو الوجه الاول لانه اوفق للقاعدة
المقتضي لاعتبار الامتناع واردا على الاستمرار حسب ورود كلمة لو المفيدة للاول على
صيغة المضارع المفيدة للثاني على ان اعتبار الاستمرار واردا على النفي على خلاف القياس
بمعونة المقام انما يصار اليه اذا تعذر الجريان على موجب القياس او لم يكن فيه مزيد
مزية كما في مثل قوله تعالى ولا هم يحزنون حيث حمل على استمرار نفي الحزن عنهم اذ
ليس في نفي استمرار الحزن مزيد فائدة واما اذا انتظم الكلام مراعاة موجب القياس
حق الانتظام فالعدول عنه تمحل لا يخفى وقوله تعالى ولكن الله حبب اليكم الايمان الخ
تجريد للخطاب وتوجيه الى بعضهم بطريق الاستدراك بيانا لبراءتهم عن اوصاف
الاولين واحمادا لافعالهم اى ولكنه تعالى جعل الايمان محبوبا لديكم وزينه في
قلوبكم حتى رسخ حبه فيها ولذلك اتيتم بما يليق به من الاقوال والافعال وكره
اليكم الكفر والفسوق والعصيان ولذلك اجتنبتم عما لا يليق بها مما لا خير فيه من
اثارها واحكامها ولما كان في التحبيب والتكريه معنى انهاء المحبة والكراهة و
ايصالها اليهم استعملا بكلمة الى وقيل هو استدراك ببيان عذر الاولين كانه قيل
لم يكن ما صدر عنكم في حق بني المصطلق من خلل في عقيدتكم بل من فرط حبكم
للايمان وكراهتكم للكفر والفسوق والعصيان والاول هو الاظهر لقوله تعالى
اولئك هم الراشدون اى السالكون الى طريق السوي الموصل الى الحق والالتفات
الى الغيبة كالذي في قوله تعالى وما اتيتم من زكوة تريدون وجه الله فاولئك هم
المضعفون فضلا من الله ونعمة اى وانعاما تعليل لحبب او كره وما بينهما اعتراض
وقيل نصبهما بفعل مضمر اى جرى ذلك فضلا وقيل يبتغون فضلا والله عليم
مبالغ في العلم فيعلم احوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل حكيم يفعل كل ما
يفعل بموجب الحكمة وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا اى تقاتلوا والجمع باعتبار
المعنى فاصلحوا بينهما بالنصح والدعاء الى حكم الله فان بغت ان تعدت احديهما
على الاخرى ولم تتأثر بالنصيحة فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء اى ترجع الى امر الله الى حكمه
او الى ما امر به فان فاءت اليه واقلعت عن القتال حذارا من قتالكم فاصلحوا بينهما بالعدل
بفصل ما بينهما على حكم الله تعالى ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما عسى يكون بينهما قتال في وقت
آخر وتقييد الاصلاح بالعدل لانه مظنة الحيف لوقوعه بعد المقاتلة وقد اكد ذلك حيث
قيل واقسطوا اى واعدلوا في كل ما تأتون وما تذرون ان الله يحب المقسطين
فيجازيهم احسن الجزاء والاية نزلت في قتال حدث بين الاوس والخزرج في عهده
عليه السلام بالسعف والنعال وفيها دلالة على ان الباغي لا يخرج بالبغي عن الايمان وانه اذا امسك
عن الحرب ترك لانه فيء الى امر الله تعالى وانه يجب معاونة من بغى عليه بعد تقديم
النصح والسعي في المصالحة انما المؤمنون اخوة استيناف مقرر لما قبله من الامر
بالصلاح اى انهم منتسبون الى اصل واحد هو الايمان الموجب للحيوة الابدية والفاء في قوله
تعالى فاصلحوا بين اخويكم للايذان بان الاخوة الدينية موجبة للاصلاح ووضع المظهر
مقام المضمر مضافا الى المامورين للمبالغة في تأكيد وجوب الاصلاح والتحضيض عليه
وتخصيص الاثنين بالذكر لاثبات وجوب الاصلاح فيما فوق ذلك بطريق الاولوية
لتضاعف الفتنة والفساد فيه وقيل المراد بالاخوين الاوس والخزرج وقرئ
بين اخوتكم واخوانكم واتقوا الله في كل ما تأتون وما تذرون من الامور التي
من جملتها ما امرتم به من الاصلاح لعلكم ترحمون راجين ان ترحموا على تقواكم

يا ايها الذين امنوا لا يسخر قوم اى منكم من قوم آخرين ايضا منكم وقوله تعالى عسى ان
يكونوا خيرا منهم تعليل للنهى او لموجبه اى عسى ان يكون المسخور منهم خيرا عند الله
تعالى من الساخرين والقوم مختص بالرجال لانهم القوام على النساء وهو فى الاصل
اما جمع قائم كصوم وزور فى جمع صائم وزائر او مصدر نعت به فشاع فى الجمع واما
تعميمه للفريقين فى مثل قوم عاد وقوم فرعون فاما للتغليب او لانهن توابع واختيار
الجمع لغلبة وقوع السخرية فى المجامع والتنكير اما للتعميم او للقصد الى نهى بعضهم
عن سخرية بعض لما انها مما يجرى بين بعض وبعض ولا نساء اى ولا تسخر نساء من
المؤمنات من نساء منهن عسى ان يكن اى المسخور منهن خيرا منهن اى من الساخرات
فان مناط الخيرية فى الفريقين ليس ما يظهر للناس من الصور والاشكال ولا الاوضاع
والاطوار التى يدور عليها امر السخرية غالبا بل انما هو الامور الكامنة فى القلوب فلا يجترئ
احد على استحقار احد فلعله اجمع منه لما نيط به الخيرية عند الله تعالى فيظلم نفسه بتحقير
من وقره الله والاستهانة بمن عظمه الله تعالى وقرئ عسوا ان يكونوا وعسين ان يكن
فعسى حينئذ هى ذات الخبر كما فى قوله تعالى فهل عسيتم واما على الاول فهى التى لا خبر لها
ولا تلمزوا انفسكم اى ولا يعب بعضكم بعضا فان المؤمنين كنفس واحدة او لا
تفعلوا ما تلمزون به فان من فعل ما يستحق به اللمز فقد لمز نفسه واللمز الطعن
باللسان وقرئ بضم الميم ولا تنابزوا بالالقاب اى ولا يدع بعضكم بعضا بلقب السوء
فان النبز مختص به عرفا بئس الاسم الفسوق بعد الايمان اى بئس الذكر المرتفع
للمؤمنين ان يذكروا بالفسوق بعد دخولهم الايمان واشتهارهم به فان الاسم ههنا
بمعنى الذكر من قولهم طار اسمه فى الناس بالكرم او باللؤم والمراد به اما تهجين نسبة
الكفر والفسوق الى المؤمنين خصوصا اذ روى ان الآية نزلت فى صفية بنت حيى اتت
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان النساء يقلن لى يا يهودية بنت يهوديين
فقال عليه السلام هلا قلت ان ابى هرون وعمى موسى وزوجى محمد عليهم السلام او
الدلالة على ان التنابز فسق والجمع بينه وبين الايمان قبيح ومن لم يتب عما نهى عنه
فاولئك هم الظالمون بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب يا ايها الذين
امنوا اجتنبوا كثيرا من الظن اى كونوا على جانب منه وابهام الكثير لايجاب الاحتياط
والتأمل فى كل ظن ظن حتى يعلم انه من اى قبيل فان من الظن ما يجب اتباعه كالظن فيما
لا قاطع فيه من العمليات وحسن الظن بالله تعالى ومنه ما يحرم كالظن فى الالهيات و
النبوات وحيث يخالفه قاطع وظن السوء بالمؤمنين ومنه ما يباح كالظن فى الامور
المعاشية ان بعض الظن اثم تعليل للامر بالاجتناب او لموجبه بطريق الاستيناف
التحقيقى والاثم الذنب الذى يستحق العقوبة عليه وهمزته منقلبة من الواو كانه يثم الاعمال
اى يكسرها ولا تجسسوا اى ولا تبحثوا عن عورات المسلمين تفعل من الجس لما فيه
من معنى الطلب كما ان التلمس بمعنى التطلب لما فى اللمس من الطلب وقد جاء بمعنى
الطلب فى قوله تعالى وانا لمسنا السماء وقرئ بالحاء من الحس الذى هو اثر الجس وغايته ولتقاربهما
يقال للمشاعر الحواس بالحاء والجيم وفى الحديث لا تتبعوا عورات المسلمين فان من يتبع
عورات المسلمين يتبع الله عورته حتى يفضحه ولو فى جوف بيته ولا يغتب بعضكم
بعضا اى لا يذكر بعضكم بعضا بالسوء فى غيبته وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن الغيبة فقال ان تذكر اخاك بما يكره فان كان فيه فقد اغتبته وان لم يكن فيه فقد بهته
وعن ابن عباس رضى الله عنهما الغيبة ادام كلاب الناس ايحب احدكم ان يأكل لحم
اخيه ميتا تمثيل وتصوير لما يصدر عن المغتاب من حيث صدوره عنه ومن حيث
تعلقه بصاحبه على افحش وجه واشنعه طبعا وعقلا وشرعا مع مبالغات من فنون
شتى الاستفهام التقريرى واسناد الفعل الى احد ايذانا بان احدا من الاحدين لا يفعل
ذلك وتعليق المحبة بما هو فى غاية الكراهة وتمثيل الاغتياب باكل لحم الانسان وجعل
المأكول اخا للآكل ميتا واخراج تماثلهما مخرج امر بين غنى عن الاخبار به وقرئ ميّتا بالتشديد

وانتصابه

وانتصابه على الحالية من اللحم وقيل من الاخ والفاء فى قوله تعالى فكرهتموه لترتيب ما بعدها
على ما قبلها من التمثيل كانه قيل وحيث كان الامر كما ذكر فقد كرهتموه وقرئ كرّهتموه
اى جبلتم على كراهته واتقوا الله بترك ما امرتم باجتنابه والندم على ما صدر
عنكم من قبل ان الله تواب رحيم مبالغ فى قبول التوبة وافاضة الرحمة حيث يجعل
التائب كمن لا ذنب له ولا يخص ذلك بتائب دون تائب بل يعم الجميع وان كثرت ذنوبهم
روى ان رجلين من الصحابة بعثا سلمان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبغى لهما
اداما وكان اسامة على طعامه عليه السلام فقال ما عندى شئ فاخبرهما سلمان فقالا
لو بعثنا سلمان الى بئر سميحة لغار ماؤها فلما راحا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما
مالى ارى خضرة اللحم فى افواهكما فقالا ما تناولنا لحما قال انكما قد اغتبتما فنزلت يا ايها
الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى من آدم وحواء او خلقنا كل واحد منكم من اب وام
فالكل سواء فى ذلك فلا وجه للتفاخر بالنسب ويجوز ان يكون تأكيدا للنهى السابق
بتقرير الاخوة المانعة من الاغتياب وجعلناكم شعوبا وقبائل الشعب الجمع العظيم
المنتسبون الى اصل واحد وهو يجمع القبائل والقبيلة تجمع العمائر والعمارة تجمع البطون
والبطن يجمع الافخاذ والفخذ يجمع الفصائل فخزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة
وقصى بطن وهاشم فخذ والعباس فصيلة وقيل الشعوب بطون العجم والقبائل
بطون العرب لتعارفوا ليعرف بعضكم بعضا بحسب الانساب فلا يعتزى احد الى غير
آبائه لا لتفاخروا بالآباء والقبائل وتدعوا التفاوت والتفاضل فى الانساب وقرئ لتتعارفوا
على الاصل ولتعارفوا بالادغام ولتعرفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم تعليل للنهى عن
التفاخر بالانساب المستفاد من الكلام بطريق الاستيناف التحقيقى كانه قيل ان الاكرم
عنده تعالى هو الاتقى فان فاخرتم ففاخروا بالتقوى وقرئ بان المفتوحة على حذف لام التعليل
كانه قيل لم لا نتفاخر بالانساب فقيل لان اكرمكم عند الله اتقاكم لا انسبكم فان مدار
كمال النفوس وتفاوت الاشخاص هو التقوى فمن رام نيل الدرجات العلى فعليه بالتقوى
قال عليه السلام من سره ان يكون اكرم الناس فليتق الله وقال يا ايها الناس انما الناس
رجلان رجل مؤمن تقى كريم على الله وفاجر شقى هين على الله وعن ابن عباس رضى الله
عنهما كرم الدنيا الغنى وكرم الآخرة التقوى ان الله عليم بكم وباعمالكم خبير ببواطن
احوالكم قالت الاعراب آمنا نزلت فى نفر من بنى اسد قدموا المدينة فى سنة جدب
فاظهروا الشهادتين وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم اتيناك بالاثقال والعيال
ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان يريدون الصدقة ويمنون عليه عليه السلام ما فعلوا
قل لهم لم تؤمنوا اذ الايمان هو التصديق المقارن للثقة وطمأنينة القلب ولم
يحصل لكم ذلك والا لما مننتم على ما ذكرتم كما ينبئ عنه آخر السورة ولكن قولوا
اسلمنا فان الاسلام انقياد ودخول فى السلم واظهار الشهادة وترك المحاربة
مشعر به وايثار ما عليه النظم الكريم على ان يقال لا تقولوا آمنا ولكن قولوا اسلمنا او لم
تؤمنوا ولكن اسلمتم للاحتراز من النهى عن التلفظ بالايمان وللتفادى عن اخراج قولهم
مخرج التسليم والاعتداد به مع كونه تقولا محضا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم حال
من ضمير قولوا اى ولكن قولوا اسلمنا حال عدم مواطأة قلوبكم لالسنتكم وما فى لما
من معنى التوقع مشعر بان هؤلاء قد آمنوا فيما بعد وان تطيعوا الله ورسوله بالاخلاص
وترك النفاق لا يلتكم من اعمالكم لا ينقصكم شيئا من اجورها من لات يليت ليتا
اذا نقص وقرئ لا يألتكم من الألت وهى لغة غطفان او شيئا من النقص ان الله
غفور لما فرط من المطيعين رحيم بالتفضل عليهم انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله
ثم لم يرتابوا لم يشكوا من ارتاب مطاوع رابه اذا اوقعه فى الشك مع التهمة وفيه اشارة
الى ان فيهم ما يوجب نفى الايمان عنهم وثم للاشعار بان اشتراط عدم الارتياب فى
اعتبار الايمان ليس فى حال انشائه فقط بل فيما يستقبل فهى كما فى قوله تعالى ثم استقاموا
وجاهدوا باموالهم وانفسهم فى سبيل الله فى طاعته على تكثر فنونها من العبادات

البدنية المحضة والمالية الصرفة والمشتملة عليهما معا كالحج والجهاد اولئك الموصوفون بما ذكر من الاوصاف الجميلة هم الصادقون اى الذين صدقوا فى دعوى الايمان لا غيرهم روى انه لما نزلت الآية جاؤا وحلفوا انهم لمؤمنون الصادقون فنزل لتكذيبهم قوله تعالى قل اتعلمون الله بدينكم اى اتخبرونه بذلك بقولكم آمنا والتعبير عنه بالتعليم لغاية تشنيعهم والله يعلم ما فى السموات وما فى الارض حال من مفعول تعلمون مؤكدة لتشنيعهم وقوله تعالى والله بكل شئ عليم تذييل مقرر لما قبله اى مبالغ فى العلم بجميع الاشياء التى من جملتها ما اخفوه من الكفر عند اظهارهم الايمان وفيه مزيد تجهيل وتوبيخ لهم يمنون عليك ان اسلموا اى يعدون اسلامهم منة عليك وهى النعمة التى لا يطلب موليها ثوابا ممن انعم بها عليه من المن بمعنى القطع لان المقصود بها قطع حاجته وقيل النعمة الثقيلة من المن قل لا تمنوا على اسلامكم اى لا تعدوا اسلامكم منة على او لا تمنوا على باسلامكم فنصب بنزع الخافض بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان على ما زعمتم مع ان الهداية لا تستلزم الاهتداء وقرئ ان هداكم واذ هداكم ان كنتم صادقين فى ادعاء الايمان وجوابه محذوف يدل عليه ما قبله اى فلله المنة عليكم وفى سياق النظم الكريم من اللطف ما لا يخفى فانهم لما سموا ما صدر عنهم ايمانا ومنوا به فنفى كونه ايمانا وسمى اسلاما قيل يمنون عليك بما هو فى الحقيقة اسلام وليس بجدير بالمن بل لو صح ادعاؤهم للايمان فلله المنة عليهم بالهداية اليه لا لهم ان الله يعلم غيب السموات والارض اى ما غاب فيهما والله بصير بما تعملون فى سركم وعلانيتكم فكيف يخفى عليه ما فى ضمائركم وقرئ بالياء عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحجرات اعطى من الاجر بعدد من اطاع الله تعالى وعصاه

سورة ق مكية وهى خمس واربعون آية بسم الله الرحمن الرحيم

ق والقرآن المجيد اى ذى المجد والشرف على سائر الكتب او لانه كلام المجيد او لان من علم معانيه وعمل بما فيه مجد عند الله تعالى وعند الناس والكلام فيه كالذى فصل فى مطلع سورة ص وقوله تعالى بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم اى لان جاءهم منذر من جنسهم لا من جنس الملك او من جلدتهم اضراب عما ينبئ عنه جواب القسم المحذوف كانه قيل والقرآن المجيد انزلناه اليك لتنذر به الناس حسبما ورد فى صدر سورة الاعراف كانه قيل بعد ذلك لم يؤمنوا به بل جعلوا كلا من المنذر والمنذر به عرضة للنكير والتعجب مع كونهما اوفق شئ لقضية العقول واقربه الى التلقى بالقبول وقيل التقدير والقرآن المجيد انك لمنذر ثم قيل بعده انهم شكوا فيه ثم اضرب عنه وقيل بل عجبوا اى لم يكتفوا بالشك والرد جزموا بالخلاف حتى جعلوا ذلك من الامور العجيبة وقيل هو اضراب عما ينبئ عنه وصف القرآن بالمجد كانه قيل ليس سبب امتناعهم من الايمان بالقرآن ان لا مجد له ولكن لجهلهم فقال الكافرون هذا شئ عجيب تفسير لتعجبهم وبيان لكونه مقارنا لغاية الانكار مع زيادة تفصيل لمحل التعجب وهذا اشارة الى كونه عليه السلام منذرا بالقرآن واضمارهم اولا للاشعار بتعينهم بما اسند اليهم واظهارهم ثانيا للتسجيل عليهم بالكفر بموجبه او عطف لتعجبهم من البعث على تعجبهم من البعثة على ان هذا اشارة الى مبهم يفسره ما بعده من الجملة الانكارية ووضع المظهر موضع المضمر اما لسبق اتصافهم بما يوجب كفرهم واما للايذان بان تعجبهم من البعث لدلالته على استقصارهم لقدرة الله سبحانه عنه مع معاينتهم لقدرته تعالى على ما هو اشق منه فى قياس العقل من مصنوعاته البديعة اشنع من الاول واعرق فى كونه كفرا ائذا متنا وكنا ترابا تقرير للتعجب وتأكيد للانكار والعامل فى اذا مضمر غنى عن البيان لغاية شهرته مع دلالة ما بعده عليه اى احين نموت ونصير ترابا نرجع كما ينطق به النذير والمنذر به مع كمال التباين بيننا وبين الحيوة حينئذ وقرئ اذا متنا على لفظ الخبر او على حذف اداة الانكار ذلك اشارة

الى محل

الى محل النزاع رجع بعيد اى عن الاوهام او عن العادة او الامكان وقيل الرجع بمعنى المرجوع الذى هو الجواب فناصب الظرف حينئذ ما ينبئ عنه المنذر من البعث قد علمنا ما تنقص الارض منهم رد لاستبعادهم وازاحة له فان من عم علمه ولطفه حتى انتهى حيث علم ما تنقص الارض من اجساد الموتى وتأكل من لحومهم وعظامهم كيف يستبعد رجعه اياهم احياء كما كانوا عن النبى صلى الله عليه وسلم كل ابن آدم يبلى الا عجز الذنب وقيل ما تنقص الارض منهم ما يموت فيدفن فى الارض منهم وعندنا كتاب حفيظ حافظ لتفاصيل الاشياء كلها او محفوظ من التغير والمراد اما تمثيل علمه تعالى بكليات الاشياء وجزئياتها بعلم من عنده كتاب محيط يتلقى منه كل شئ او تأكيد لعلمه تعالى بها بثبوتها فى اللوح المحفوظ عنده بل كذبوا بالحق اضراب وانتقال من بيان شناعتهم السابقة الى بيان ما هو اشنع منه وافظع وهو تكذيبهم للنبوة الثابتة بالمعجزات الباهرة لما جاءهم من غير تأمل وتفكر وقرئ لما جاءهم بالكسر على ان اللام للتوقيت اى وقت مجيئه اياهم وقيل الحق القرآن او الاخبار بالبعث فهم فى امر مريج اى مضطرب لا قرار له من مرج الخاتم فى اصبعه حيث يقولون تارة انه شاعر وتارة انه ساحر واخرى كاهن افلم ينظروا اى اغفلوا او عموا فلم ينظروا الى السماء فوقهم بحيث يشاهدونها كل وقت كيف بنيناها اى رفعناها بغير عمد وزيناها بما فيها من الكواكب المرتبة على نظام بديع وما لها من فروج من فتوق لملاستها وسلامتها من كل عيب وخلل ولعل تأخير هذا لمراعاة الفواصل والارض مددناها اى بسطناها والقينا فيها رواسى جبالا ثوابت من رسا الشئ اى ثبت والتعبير عنها بهذا الوصف للايذان بان القاءها لارساء الارض بها وانبتنا فيها من كل زوج من كل صنف بهيج حسن تبصرة وذكرى علتان للافعال المذكورة معنى وان انتصبتا بالفعل الاخير او لفعل مقدر بطريق الاستئناف اى فعلنا ما فعلنا تبصيرا وتذكيرا لكل عبد منيب اى راجع الى ربه متفكر فى بدائع صنائعه وقوله تعالى ونزلنا من السماء ماء مباركا اى كثير المنافع شروع فى بيان كيفية انبات ما ذكر من كل زوج بهيج وهو عطف على انبتنا وما بينهما على الوجه الاخير اعتراض مقرر لما قبله ومنبه على ما بعده فانبتنا به اى بذلك الماء جنات كثيرة اى اشجارا ذوات ثمار وحب الحصيد اى حب الزرع الذى شأنه ان يحصد من البر والشعير وامثالهما وتخصيص انبات حبه بالذكر لانه المقصود بالذات والنخل عطف على جنات وتخصيصها بالذكر مع اندراجها فى الجنات لبيان فضلها على سائر الاشجار وتوسيط الحب بينهما لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقية مع ما فيه من مراعاة الفواصل باسقات اى طوالا او حوامل من ابسقت الشاة اذا حملت فيكون من باب افعل فهو فاعل وقرئ باصقات لاجل القاف لها طلع نضيد اى منضود بعضه فوق بعض والمراد تراكم الطلع او كثرة ما فيه من الثمر والجملة حال من النخل من باسقات بطريق الترادف او من ضميرها فى باسقات على التداخل او الحال هو الجار والمجرور وطلع مرتفع به على الفاعلية وقوله تعالى رزقا للعباد اى لنرزقهم علة لقوله تعالى فانبتنا وفى تعليله بذلك بعد تعليل انبتنا الاول بالتبصرة والتذكير تنبيه على ان الواجب على العبد ان يكون انتفاعه بذلك من حيث التذكر والاستبصار اهم واقدم من تمتعه به من حيث الرزق وقيل رزقا مصدر من معنى انبتنا لان الانبات رزق واحيينا به بذلك الماء بلدة ميتا ارضا جدبة لا نماء فيها اصلا بان جعلناها بحيث ربت وانبتت انواع النبات والازهار فصارت تهتز بها بعد ما كانت جامدة هامدة وتذكير ميتا لان البلدة بمعنى البلد والمكان كذلك الخروج جملة قدم فيها الخبر للقصد الى القصر وذلك اشارة الى الحيوة المستفادة من الاحياء وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد رتبتها اى مثل تلك الحيوة البديعة حياتكم بالبعث من القبور لا شئ مخالف لها وفى التعبير عن اخراج النبات من الارض بالاحياء وعن حيوة الموتى بالخروج تفخيم لشأن الانبات وتهوين لامر البعث وتحقيق للمماثلة بين اخراج النبات واحياء الموتى لتوضيح منهاج

القياس وتقريبه الى افهام الناس وقوله تعالى كذبت قبلهم قوم نوح الخ استيناف وارد لتقرير حقية البعث ببيان اتفاق كافة الرسل عليهم السلام عليها وتعذيب منكريها واصحاب الرس قيل هم ممن بعث اليهم شعيب عليه السلام وقيل كما مر في سورة الفرقان على التفصيل وثمود وعاد وفرعون اى هو وقومه ليلايم ما قبله وما بعده واخوان لوط قيل كانوا من اصهاره عليه السلام واصحاب الايكة هم ممن بعث اليهم شعيب عليه السلام غير اهل مدين وقوم تبع سبق شرح حالهم في سورة الدخان كل كذب الرسل اى فيما ارسلوا به من الشرايع التي من جملتها البعث الذي اجمعوا عليه قاطبة اى كل قوم من الاقوام المذكورين كذب رسولهم او كذب جميعهم جميع الرسل بالمعنى المذكور وافراد الضمير باعتبار لفظ الكل او كل واحد منهم كذب جميع الرسل لاتفاقهم على الدعوة الى التوحيد والانذار بالبعث والحشر فتكذيب واحد منهم تكذيب للكل وهذا على تقدير رسالة تبع ظاهر واما على تقدير عدمها وهو الاظهر فمعنى تكذيب قومه الرسل تكذيبهم بمن قبلهم من الرسل المجمعين على التوحيد والبعث والى ذلك كان يدعوهم تبع فحق وعيد اى فوجب وحل عليهم وعيدى وهي كلمة العذاب وفيه تسلية لرسول الله عليه السلام وتهديد لهم افعيينا بالخلق الاول استيناف مقرر لصحة البعث الذي حكيت احوال المنكرين له من الامم المهلكة والعي بالامر العجز عنه يقال عي بالامر وعيي به اذا لم يهتد لوجه عمله والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر ينبئ عنه العي من القصد والمباشرة كانه قيل اقصدنا الخلق الاول فعجزنا عنه حتى يتوهم عجزنا عن الاعادة بل هم في لبس من خلق جديد عطف على مقدر يدل عليه ما قبله كانه قيل هم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الاول بل هم في خلط وشبهة في خلق مستانف لما فيه من مخالفة العادة وتنكير خلق لتفخيم شانه والاشعار بخروجه عن حدود العادات والايذان بانه حقيق بان يبحث عنه ويهتم بمعرفته ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه اى ما تحدثه به نفسه وهو ما يخطر بالبال والوسوسة الصوت الخفي ومنه وسواس الحلي والضمير لما ان جعلت موصولة والباء كما في صوت بكذا او للانسان ان جعلت مصدرية والباء للتعدية ونحن اقرب اليه من حبل الوريد اى اعلم بحاله ممن كان اقرب اليه من حبل الوريد عبر عن قرب العلم بقرب الذات تجوزا لانه موجب له وحبل الوريد مثل في فرط القرب والحبل العرق واضافته بيانية والوريدان عرقان مكتنفان بصفحتي العنق في مقدمها متصلان بالوتين يردان من الراس اليه وقيل سمي وريدا لان الروح ترده اذ يتلقى المتلقيان منصوب بما في اقرب من معنى الفعل والمعنى انه لطيف يتوصل علمه الى ما لا شيء اخفى منه وهو اقرب من الانسان من كل قريب حين يتلقى ويتلقن الحفيظان ما يتلفظ به وفيه ايذان بانه تعالى غني عن استحفاظهما لاحاطة علمه بما يخفى عليهما وانما ذلك لما في كتبتهما وحفظهما لاعمال العبد وعرض صحايفهما يوم يقوم الاشهاد وعلم العبد بذلك مع علمه باحاطته تعالى بتفاصيل احواله خبرا من زيادة لطف له في الكف عن السيئات والرغبة في الحسنات وعنه عليه السلام ان مقعد ملكيك على ثنيتيك ولسانك قلمهما وريقك مدادهما وانت تجري فيما لا يعنيك لا تستحي من الله ولا منهما وقد جوز ان يكون تلقي الملكين بيانا للقرب على معنى انا اقرب اليه مطلعون على اعماله لان حفظتنا وكتبتنا موكلون به عن اليمين وعن الشمال قعيد اى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد اى مقاعد كالجليس بمعنى المجالس لفظا ومعنى فحذف الاول لدلالة الثاني عليه كما في قول من قال رماني بامر كنت منه ووالدي بريئا ومن اجل الطوي رماني وقيل يطلق الفعيل على الواحد والمتعدد كما في قوله تعالى والملئكة بعد ذلك ظهير ما يلفظ من قول ما يرمي به من فيه من خير او شر وقرئ ما يلفظ على البناء للمفعول الا لديه رقيب ملك يرقب عمله ذلك ويكتبه فان كان خيرا فهو صاحب اليمين بعينه والا فهو صاحب الشمال ووجه تغيير العنوان غني عن البيان والافراد مع وقوفهما معا على ما صدر عنه لما ان كلا منهما رقيب لما فوض اليه لا لما فوض الى صاحبه كما ينبئ عنه قوله تعالى عتيد اى معد مهيا

لكتابة

لكتابة ما امر به من الخير او الشر ومن لم يتنبه له توهم ان معناه رقيبان عتيدان وتخصيص القول بالذكر لاثبات الحكم في الفعل بدلالة النص واختلف فيما يكتبانه فقيل يكتبان كل شيء حتى انينه في مرضه وقيل انما يكتبان ما فيه اجر او وزر وهو الاظهر كما ينبئ عنه قوله عليه السلام كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل وكاتب الحسنات امير على كاتب السيئات فاذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا واذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح او يستغفر وجاءت سكرة الموت بالحق بعد ما ذكر استبعادهم للبعث والجزاء وازيح ذلك بتحقيق قدرته تعالى وعلمه وبيان ان جميع اعمالهم محفوظة مكتوبة عليهم اتبع ذلك ببيان ما يلاقونه لا محالة من الموت والبعث وما يتفرع عليه من الاحوال والاهوال وقد عبر عن وقوع كل منها بصيغة الماضي ايذانا بتحققها في غاية اقترابها وسكرة الموت شدتها الذاهبة بالعقل والباء اما للتعدية كما في قولك جاء الرسول بالخبر والمعنى احضرت سكرة الموت حقيقة الامر الذي نطقت به كتب الله ورسله او حقيقة الامر وجلية الحال من سعادة الميت وشقاوته وقيل الحق الذي لا بد ان يكون لا محالة من الموت والجزاء فان الانسان خلق له واما للملابسة كالتي في قوله تعالى تنبت بالدهن اى ملتبسة بالحق اى بحقيقة الحال او بالحكمة والغاية الجميلة وقرئ سكرة الحق بالموت والمعنى انها السكرة التي كتبت على الانسان بموجب الحكمة وانها لشدتها توجب ذهوق الروح او تستعقبه وقيل الباء بمعنى مع وقيل سكرة الحق سكرة الله تعالى على ان الاضافة للتهويل وقرئ سكرات الموت ذلك اى الموت ما كنت منه تحيد اى تميل وتنفر عنه والخطاب للانسان فان النفرة عنه شاملة لكل فرد من افراده طبعا ونفخ في الصور هي النفخة الثانية ذلك اى وقت ذلك النفخ على حذف المضاف يوم الوعيد اى يوم انجاز الوعيد الواقع في الدنيا او يوم وقوع الوعيد على انه عبارة عن العذاب الموعود وقيل ذلك اشارة الى الزمان المفهوم من نفخ فان الفعل كما يدل على الحدث يدل على الزمان وتخصيص الوعيد بالذكر مع انه يوم الوعد ايضا لتهويله ولذلك بدئ ببيان حال الكفرة وجاءت كل نفس من النفوس البرة والفاجرة معها سائق وشهيد وان اختلفت كيفية السوق والشهادة حسب اختلاف عملها اى معها ملكان احدهما يسوقها الى المحشر والآخر يشهد بعملها او ملك جامع بين الوصفين كانه قيل معها ملك يسوقها ويشهد عليها وقيل السائق كاتب السيئات والشهيد كاتب الحسنات وقيل السائق نفسه او قرينه والشهيد جوارحه واعماله ومحل معها النصب على الحالية من كل لاضافته الى ما هو في حكم المعرفة كانه قيل كل النفوس والجر على انه وصف لنفس والرفع على انه وصف لكل او حال اخرى منها او استيناف مبني على سؤال نشأ مما قبله كانه قيل فماذا يفعل بها فقيل يقال لقد كنت في غفلة الخ وخطاب الكل بذلك لما انه ما من احد الا وله غفلة ما من الآخرة وقيل الخطاب للكافر وقرئ كنت بكسر التاء باعتبار تانيث النفس والتذكير على القراءة المشهورة بتاويل الشخص كما في قول جبلة بن حريث يا نفس انك باللذات مسرور فكشفنا عنك غطاءك الغطاء الحجاب المغطي لامور المعاد وهو الغفلة والانهماك في المحسوسات والالف بها وقصر النظر عليها فبصرك اليوم حديد نافذ لزوال المانع للابصار وقرئ بكسر الكاف في المواضع الثلاثة وقال قرينه اى الشيطان المقيض له مشيرا اليه هذا ما لدي عتيد اى هذا ما عندي وفي ملكتي عتيد لجهنم قد هياته لها باغوائي واضلالي وقيل قال الملك الموكل به مشيرا الى ما معه من كتاب عمله هذا مكتوب عندي عتيد مهيا للعرض وما ان جعلت موصوفة فعتيد صفتها وان جعلت موصولة فهي بدل منها او خبر بعد خبر لمبتدا محذوف القيا في جهنم كل كفار خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد او للملكين من خزنة النار او لواحد على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل وتكريره كقول من قال فان تزجراني يا ابن عفان انزجر وان تدعاني احم عرضا ممنعا او على ان الالف بدل من نون التاكيد على اجراء الوصل مجرى الوقف ويؤيده انه قرئ القين بالنون الخفيفة عنيد معاند للحق مناع للخير كثير المنع للمال عن حقوقه

المفروضة وقيل المراد بالخير الاسلام فان الآية نزلت في الوليد بن المغيرة لما منع بني اخيه منه معتد ظالم متخط للحق مريب شاك في الله وفي دينه الذي جعل مع الله الها آخر مبتدأ متضمن لمعنى الشرط خبره فالقياه في العذاب الشديد او بدل من كل كفار وقوله تعالى فالقياه تكرير للتوكيد او مفعول لمضمر يفسره فالقياه قال قرينه اي الشيطان المقيض له وانما استؤنفت استئناف الجمل الواقعة في حكاية المقاولة لما انه جواب لمحذوف دل عليه قوله تعالى ربنا ما اطغيته فانه مبني على سابقة كلام اعتذر به الكافر كانه قال هو اطغاني فاجاب قرينه بتكذيبه واسناد الطغيان اليه بخلاف الجملة الاولى فانها واجبة العطف على ما قبلها دلالة على الجمع بين مفهوميهما في الحصول اعني مجيء كل نفس مع الملكين وقول قرينه ولكن كان هو بالذات في ضلال بعيد من الحق فاعنته عليه بالاغواء والدعوة اليه من غير قسر والجاء كما في قوله وما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي قال استئناف مبني على سؤال نشأ مما قبله كانه قيل فماذا قال الله تعالى فقيل قال تعالى لا تختصموا لدي اي في موقف الحساب والجزاء اذ لا فائدة في ذلك وقد قدمت اليكم بالوعيد على الطغيان في دار الكسب في كتبي وعلى السنة رسلي فلا تطمعوا في الخلاص عنه بما انتم فيه من التعلل بالمعاذير الباطلة والجملة حال فيها تعليل للنهي على معنى لا تختصموا وقد صح عندكم اني قدمت اليكم بالوعيد حيث قلت لابليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين فاتبعتموه معرضين عن الحق فلا وجه للاختصام في هذا الوقت والباء مزيدة او معدية على ان قدم بمعنى تقدم وقد جوز ان يكون قدمت واقعا على قوله تعالى ما يبدل القول لدي الخ ويكون بالوعيد متعلقا بمحذوف هو حال من المفعول او الفاعل اي وقد قدمت اليكم هذا القول ملتبسا بالوعيد مقترنا به او قدمته اليكم موعدا لكم به فلا تطمعوا ان ابدل وعيدي والعفو عن بعض المذنبين لاسباب داعية اليه ليس بتبديل فان دلائل العفو تدل على تخصيص الوعيد وقوله تعالى وما انا بظلام للعبيد وارد لتحقيق الحق على الوجه الكلي وتبيين ان عدم تبديل القول وتحقيق موجب الوعيد ليس من جهته تعالى من غير استحقاق له منهم بل انما ذلك بما صدر عنهم من الجنايات الموجبة له حسبما اشير اليه آنفا اي وما انا معذب للعبيد بغير ذنب من قبلهم والتعبير عنه بالظلم مع ان تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم على ما تقرر من قاعدة اهل السنة فضلا عن كونه ظلما مفرطا لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم وصيغة المبالغة لتاكيد هذا المعنى بابراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب في معرض المبالغة في الظلم وقيل هي لرعاية جمعية العبيد من قولهم فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده على انها مبالغة كما لا كيفا يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد سؤال وجواب جيء بهما على منهاج التمثيل والتخييل لتهويل امرها والمعنى انها مع اتساعها وتباعد اقطارها تطرح فيها من الجنة والناس فوجا بعد فوج حتى تمتلئ او انها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها بعد محل فارغ او انها لغيظها على العصاة تطلب زيادتهم وقرئ يقول بالياء والمزيد اما مصدر كالمحيد والمميد او مفعول كالمبيع ويوم اما منصوب باذكر او انذر او ظرف لنفخ فيكون ذلك حينئذ اشارة اليه من غير حاجة الى تقدير مضاف او لمقدر مؤخر اي يكون من الاحوال والاهوال ما يقصر عنه المقال وازلفت الجنة للمتقين شروع في بيان حال المؤمنين بعد النفخ ومجيء النفوس الى موقف الحساب وقد سبق تقديم بيان حال الكفرة عليه وهو عطف على نفخ اي قربت للمتقين عن الكفر والمعاصي بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بانهم محشورون اليها فائزون بها وقوله تعالى غير بعيد تاكيد للازلاف اي مكانا غير بعيد بحيث يشاهدونها او حال كونها غير بعيد اي شيئا غير بعيد ويجوز ان يكون التذكير لكونه على زنة المصدر الذي يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث او لتأويل الجنة بالبستان هذا ما توعدون اشارة الى الجنة والتذكير

لما ان المشار اليه هو المسمى من غير ان يخطر بالبال لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتانيثه فانهما من احكام اللفظ العربي كما مر في قوله تعالى فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي وفي قوله تعالى ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ويجوز ان يكون ذلك لتذكير الخبر وقيل هو اشارة الى الثواب وقيل الى مصدر ازلفت وقرئ يوعدون والجملة اما اعتراض بين البدل والمبدل منه واما مفعول لقول مقدر هو حال من المتقين او من الجنة والعامل ازلفت اي مقولا لهم او مقولا في حقها هذا ما توعدون لكل اواب اي رجاع الى الله تعالى بدل من المتقين باعادة الجار حفيظ حافظ لتوبته من النقض وقيل هو الذي يحفظ ذنبه حتى يرجع عنها ويستغفر منها وقيل هو الحافظ لاوامر الله تعالى وقيل لما استودعه الله تعالى من حقوقه من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب بدل بعد بدل او بدل من موصوف اواب ولا يجوز ان يكون في حكمه لان من لا يوصف به ولا يوصف الا بالذي او مبتدأ خبره ادخلوها بتأويل يقال لهم ادخلوها والجمع باعتبار معنى من وقوله تعالى بالغيب متعلق بمحذوف هو حال من فاعل خشي او من مفعوله او صفة لمصدر اي خشية ملتبسة بالغيب حيث خشي عقابه وهو غائب عنه او هو غائب عن الاعين لا يراه احد والتعرض لعنوان الرحمانية للاشعار بانهم مع خشيتهم عقابه راجون رحمته او بان علمهم بسعة رحمته تعالى لا يصدهم عن خشيته تعالى وانهم عاملون بموجب قوله تعالى نبئ عبادي اني انا الغفور الرحيم وان عذابي هو العذاب الاليم ووصف القلب بالانابة لما ان العبرة برجوعه الى الله تعالى بسلام متعلق بمحذوف هو حال من فاعل ادخلوها اي ملتبسين بسلامة من العذاب وزوال النعم او بسلام من جهة الله تعالى وملائكته ذلك اشارة الى الزمان الممتد الذي وقع في بعض منه ما ذكر من الامور يوم الخلود اذ لا انتهاء له ابدا لهم ما يشاؤون من فنون المطالب كائنا ما كان فيها متعلق بيشاؤون وقيل بمحذوف هو حال من الموصول او من عائده المحذوف من صلته ولدينا مزيد هو ما لا يخطر ببالهم ولا يندرج تحت مشيئتهم من معالي الكرامات التي لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقيل ان السحاب تمر باهل الجنة فتمطرهم الحور فيقول نحن المزيد الذي قال تعالى ولدينا مزيد وكم اهلكنا قبلهم اي قبل قومك من قرن هم اشد منهم بطشا اي قوة كعاد واضرابهم فنقبوا في البلاد اي خرقوا فيها ودوخوا وتصرفوا في اقطارها وجالوا في اكناف الارض كل مجال حذار الموت واصل التنقيب والنقب التنقير عن الامر والبحث والطلب والفاء للدلالة على ان شدة بطشهم اقدرتهم على التنقيب وقيل هي عاطفة في المعنى كانه قيل اشتد بطشهم فنقبوا الى آخره وقرئ بالتخفيف هل من محيص اي هل لهم من مخلص من امر الله تعالى والجملة اما على اضمار قول هو حال من واو نقبوا اي فنقبوا في البلاد قائلين هل من محيص او على اجراء التنقيب لما فيه من معنى التتبع والتفتيش مجرى القول او هو كلام مستانف وارد لنفي ان يكون لهم محيص وقيل ضمير نقبوا لاهل مكة اي ساروا في مسايرهم واسفارهم في بلاد القرون فهل رأوا لهم محيصا حتى يؤملوا مثله لانفسهم ويعضده القراءة على صيغة الامر وقرئ فنقبوا بكسر القاف من النقب وهو ان ينتقب خف البعير اي اكثروا السير حتى نقبت اقدامهم او اخفاف ابلهم ان في ذلك اي فيما ذكر من قصتهم وقيل فيما ذكر في السورة لذكرى لتذكرة وعظة لمن كان له قلب اي قلب سليم يدرك به كنه ما يشاهده من الامور ويتفكر فيها كما ينبغي فان من كان له ذلك يعلم ان مدار دمارهم هو الكفر فيرتدع عنه بمجرد مشاهدة الآثار من غير تذكير او القى السمع اي الى ما يتلى عليه من الوحي الناطق بما جرى عليهم فان من فعله يقف على جلية الامر فينزجر عما يؤدي اليه من الكفر فكلمة او لمنع الخلو دون الجمع فان القاء السمع لا يجدي بدون سلامة القلب كما يلوح به قوله تعالى وهو شهيد اي حاضر بفطنته لان من لا يحضر ذهنه فكانه غائب وتجريد القلب عما ذكر من الصفات للايذان بان من عري قلبه عنها كمن لا قلب له اصلا ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما من اصناف

المخلوقات فى ستة ايام وما مسنا بذلك مع كونه مما لا يفى به القوى والقدر من لغوب من اعياء ما ولا تعب فى الجملة وهذا رد على جهلة اليهود فى زعمهم انه تعالى بدا خلق العالم يوم الاحد وفرغ منه يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا فاصبر على ما يقولون اى ما يقوله المشركون فى شان البعث من الاباطيل المبنية على الانكار والاستبعاد فان من فعل هذه الافاعيل بلا فتور قادر على بعثهم والانتقام منهم او وما يقوله اليهود من مقالات الكفر وسبح بحمد ربك اى نزهه تعالى عن العجز عما يمكن وعن وقوع الخلف فى اخباره التى من جملتها الاخبار بوقوع البعث وعن وصفه تعالى بما يوجب التشبيه حامدا له تعالى على ما انعم به عليك من اصابة الحق وغيرها قبل طلوع الشمس وقبل الغروب هما وقت الفجر والعصر وفضيلتهما مشهورة ومن الليل فسبحه وسبحه بعض الليل وادبار السجود واعقاب الصلوات جمع دبر وقرئ بالكسر من ادبرت الصلوة اذا انقضت وتمت ومعناه وقت انقضاء السجود وقيل المراد بالتسبيح الصلوة فالمراد بما قبل الطلوع صلوة الفجر وبما قبل الغروب الظهر والعصر وبما من الليل العشاآن والتهجد وما يصلى بادبار السجود والنوافل بعد المكتوبات واستمع اى لما يوحى اليك من احوال القيمة وفيه تهويل وتفظيع للمخبر به يوم ينادى المنادى اى اسرافيل او جبريل عليهما السلام فيقول ايتها العظام البالية واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة ان الله يامركن ان يجتمعن لفصل القضاء وقيل اسرافيل ينفخ وجبريل ينادى بالحشر من مكان قريب بحيث يصل نداؤه الى الكل على سواء وقيل من صخرة بيت المقدس وقيل من تحت اقدامهم وقيل من منابت شعورهم يسمع من كل شعرة ولعل ذلك فى الاعادة مثل كن فى البدء يوم يسمعون الصيحة بدل من يوم ينادى الخ وهى النفخة الثانية بالحق متعلق بالصيحة والعامل فى الظرف ما يدل عليه قوله تعالى ذلك يوم الخروج اى يوم يسمعون الصيحة ملتبسة بالحق الذى هو البعث يخرجون من القبور انا نحن نحيى ونميت فى الدنيا من غير ان يشاركنا فى ذلك احد والينا المصير للجزاء فى الآخرة لا الى غيرنا لا استقلالا ولا اشتراكا يوم تشقق الارض عنهم بحذف احدى التائين من تتشقق وقرئ بتشديد الشين وتشقق على البناء للمفعول من التفعيل وتنشق سراعا مسرعين ذلك حشر اى بعث وجمع وسوق علينا يسير اى هين وتقديم الجار والمجرور لتخصيص اليسر به تعالى نحن اعلم بما يقولون من نفى البعث وتكذيب الآيات الناطقة به وغير ذلك مما لا خير فيه وما انت عليهم بجبار بمتسلط تقسرهم على الايمان او تفعل بهم ما تريد وانما انت مذكر فذكر بالقرآن من يخاف وعيد واما من عداهم فنحن نفعل بهم ما يوجبه اقوالهم ويستدعيه اعمالهم من الوان العقاب وفنون العذاب عن النبى صلعم من قرا سورة ق هون الله عليه تارات الموت وسكراته

سورة الذاريات مكية وهى ستون اية بسم الله الرحمن الرحيم

والذاريات ذروا اى الرياح التى تذرو التراب وغيره وقرئ بادغام التاء فى الذال فالحاملات وقرا اى السحب الحاملة للمطر والرياح الحاملة للسحاب وقرئ وقرا على تسمية المحمول بالمصدر فالجاريات يسرا اى السفن الجارية فى البحر والرياح الجارية فى مهابها او السحب الجارية فى الجو بسوق الرياح او الكواكب الجارية فى مجاريها ومنازلها ويسرا صفة لمصدر محذوف اى جريا ذا يسر فالمقسمات امرا اى الملئكة التى تقسم الامور من الامطار والارزاق وغيرها او السحب التى يقسم الله بها ارزاق العباد وقد جوز ان يراد بالكل الرياح تنزيلا لاختلاف العنوان منزلة اختلاف الذات فانها كما تذرو ما تذروه تثير السحاب وتحمله وتجرى فى الجو جريا سهلا وتقسم الامطار بتصريف السحاب فى الاقطار فان حملت الامور المقسم بها على ذوات مختلفة فالفاء لترتيب الاقسام باعتبار ما بينها من التفاوت فى الدلالة على كمال القدرة والا فهى لترتيب

ماصدر عن الريح من الافاعيل فانها تذرو الابخرة الى الجو حتى تنعقد سحابا فتجرى به باسطة له الى ما امرت به فتقسم المطر وقوله تعالى انما توعدون لصادق وان الدين لواقع جواب للقسم وفى تخصيص الامور المذكورة بالاقسام بها رمز الى شهادتها بتحقق مضمون الجملة المقسم عليها من حيث انها امور بديعة مخالفة لمقتضى الطبيعة فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود وما موصولة او مصدرية ووصف الوعد بالصدق كوصف العيشة بالرضى والدين الجزاء ووقوعه حصوله والسماء ذات الحبك قال ابن عباس وقتادة وعكرمة ذات الخلق المستوى وقال سعيد بن جبير ذات الزينة وقال مجاهد هى المتقنة البنيان وقال مقاتل والكلبى والضحاك ذات الطرائق والمراد اما الطرائق المحسوسة التى هى مسير الكواكب او المعقولة التى يسلكها النظار او النجوم فان لها طرائق وعن الحسن حبكها نجومها حيث تزينها كما تزين الموشى طرائق الوشى وهى اما جمع حباك او حبيكة كمثال ومثل وطريقة وطرق وقرئ الحبك بوزن القفل والحبك بوزن السلك والحبك كالجبل والحبك كالبرق والحبك كالنعم والحبك كالابل انكم لفى قول مختلف اى متخالف متناقض وهو قولهم فى حقه عليه السلام تارة شاعر واخرى ساحر وفى شان القرآن الكريم تارة شعر وتارة سحر واخرى اساطير وفى هذا الجواب تأييد لكون الحبك عبارة عن الاستواء كما يلوح به ما نقل عن الضحاك ان قول الكفرة لا يكون مستويا انما هو متناقض مختلف وقيل النكتة فى هذا القسم تشبيه اقوالهم فى اختلافها وتنافى اغراضها بطرائق السموات فى تباعدها واختلاف غاياتها وليس بذاك يؤفك عنه من افك اى يصرف عن القرآن او الرسول صلى الله عليه وسلم من صرف اذ لا صرف افظع منه واشد وقيل يصرف عنه من صرف فى علم الله تعالى وقضائه ويجوز ان يكون الضمير للقول المختلف على معنى يصدر افك من افك عن ذلك القول وقرئ من افك اى من افك الناس وهم قريش حيث كانوا يصدون الناس عن الايمان قتل الخراصون دعاء عليهم كقوله تعالى قتل الانسان ما اكفره واصله الدعاء بالقتل والهلاك ثم جرى مجرى لعن والخراصون الكذابون المقدرون ما لا صحة له وهم اصحاب القول المختلف كانه قيل قتل هؤلاء الخراصون وقرئ قتل الخراصين اى قتل الله الذين هم فى غمرة من الجهل والضلال ساهون غافلون عما امروا به يسئلون ايان يوم الدين اى متى وقوع يوم الجزاء لكن لا بطريق الاستعلام حقيقة بل بطريق الاستعجال استهزاء وقرئ ايان بكسر الهمزة يوم هم على النار يفتنون جواب للسؤال اى يقع يوم هم على النار يحرقون ويعذبون ويجوز ان يكون يوم خبرا لمبتدا محذوف اى هو يوم هم الخ والفتح لاضافته الى غير متمكن ويؤيده انه قرئ بالرفع ذوقوا فتنتكم اى مقولا لهم هذا القول وقوله تعالى هذا الذى كنتم به تستعجلون جملة من مبتدا وخبر داخلة تحت القول المضمر اى هذا ما كنتم تستعجلون به بطريق الاستهزاء ويجوز ان يكون هذا بدلا من فتنتكم بتاويل العذاب والذى صفته ان المتقين فى جنات وعيون لا يبلغ كنهها ولا يقادر قدرها آخذين ما آتاهم ربهم اى قابلين لما اعطاهم راضين به على معنى ان كل ما آتاهم حسن مرضى يتلقى بحسن القبول انهم كانوا قبل ذلك فى الدنيا محسنين اى لاعمالهم الصالحة آتين بها على ما ينبغى فلذلك نالوا ما نالوا من الفوز العظيم ومعنى الاحسان بالاجمال ما اشار اليه عليه السلام بقوله ان تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وقد فسر بقوله تعالى كانوا قليلا من الليل ما يهجعون اى كانوا يهجعون فى طائفة قليلة من الليل على ان قليلا ظرف او كانوا يهجعون هجوعا قليلا على انه صفة للمصدر وما مزيدة فى الوجهين ويجوز ان تكون مصدرية او موصولة مرتفعة بقليلا على الفاعلية اى كانوا قليلا من الليل هجوعهم او ما يهجعون فيه وفيه مبالغات فى تقليل نومهم واستراحتهم ذكر القليل والليل الذى هو وقت الراحة والهجوع الذى هو الغرار من النوم وزيادة ما ولا مساغ لجعل ما نافية على معنى انهم لا يهجعون من الليل قليلا بل يحيونه كله لما ان ما النافية

لا يعمل ما بعدها فيما قبلها وبالأسحار هم يستغفرون اى هم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم
يداومون على الاستغفار فى الاسحار كأنهم اسلفوا ليلهم باقتراف الجرائم وفى بناء
الفعل على الضمير اشعار بأنهم الاحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار كأنهم المختصون به لاستدامتهم
له واطنابهم فيه وفى اموالهم حق اى نصيب وافر يستوجبونه على انفسهم تقربا
الى الله واشفاقا على الناس للسائل والمحروم اى للمستجدى والمتعفف الذى يحسبه
الناس غنيا فيحرم الصدقة وفى الارض آيات للموقنين اى دلائل واضحة على شؤونه تعالى
على التفصيل من حيث انها مدحوة كالبساط الممهد ومسالك للمتقلبين وفيها فجاج فى
اقطارها والسالكين فى مناكبها وفيها سهل وجبل وبر وبحر وقطع متجاورات وعيون
متفجرة ومعادن متقننة وانها تلقح بالوان النبات وانواع الاشجار واصناف الثمار
المختلفة الالوان والطعوم والروائح وفيها دواب منبثة قد رتب كلها ودبر لمنافع
ساكنيها ومصالحهم فى صحتهم واعتلالهم وفى انفسكم اى وفى انفسكم آيات اذ
ليس فى العالم شئ الا وفى الانفس له نظير يدل دلالته على ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر
البهية والتركيبات العجيبة والتمكن من الافعال البديعة واستنباط الصنائع المختلفة
واستجماع الكمالات المتنوعة افلا تبصرون اى الا تنظرون فلا تبصرون بعين البصيرة
وفى السماء رزقكم اى اسباب رزقكم او تقديره وقيل المراد بالسماء السحاب
وبالرزق المطر فانه سبب الاقوات وما توعدون من الثواب لان الجنة فى السماء
السابعة او لان الاعمال وثوابها مكتوبة مقدرة فى السماء وقيل انه مبتدأ خبره
قوله تعالى فورب السماء والارض انه لحق على ان الضمير لما واما على الاول فالضمير
لما ذكر من امر الآيات والرزق وعلى انه مستعار لاسم الاشارة مثل ما انكم تنطقون اى
كما انه لا شك لكم فى انكم تنطقون ينبغى ان لا تشكوا فى حقيته ونصبه على الحالية من المستكن
فى لحق او على انه وصف لمصدر محذوف اى انه لحق حقا مثل نطقكم وقيل انه مبنى
على الفتح لاضافته الى غير متمكن وهو ما ان كانت عبارة عن شئ وان بما فى حيزها ان
جعلت زائدة ومحله الرفع على انه صفة لحق ويؤيده القراءة بالرفع هل اتاك حديث ضيف
ابراهيم المكرمين تفخيم لشأن الحديث وتنبيه على انه ليس مما علمه رسول الله صلى الله
عليه وسلم بغير طريق الوحى والضيف فى الاصل مصدر ضافه ولذلك يطلق على الواحد
والجماعة كالزور والصوم وكانوا اثنى عشر ملكا وقيل تسعة عاشرهم جبريل وقيل
ثلاثة جبريل وميكائيل وملك آخر معهما عليهم السلام وتسميتهم ضيفا لانهم
كانوا فى صورة الضيف حيث اضافهم ابراهيم عليه السلام او لانهم كانوا فى حسبانه
كذلك المكرمين عند الله تعالى او عند ابراهيم حيث خدمهم بنفسه وبزوجته

ای المکرمین ع

اذ دخلوا عليه ظرف للحديث او لما فى الضيف من معنى الفعل او للمكرمين ان فسر
باكرام ابراهيم فقالوا سلاما اى نسلم عليك سلاما قال اى ابراهيم سلام
اى عليكم سلام عدل به الى الرفع بالابتداء للقصد الى الثبات والدوام حتى تكون تحيته
عليه السلام احسن من تحيتهم وقرئا مرفوعين وقرئ سلم وقرئ منصوبا والمعنى
واحد قوم منكرون انكرهم عليهم السلام للسلام الذى هو علم للاسلام
او لانهم ليسوا ممن عهدهم من الناس او لان اوضاعهم واشكالهم خلاف ما عليه
الناس ولعله عليه السلام انما قاله فى نفسه من غير ان يشعرهم بذلك لانه خاطبهم
به جهرا او سألهم ان يعرفوه انفسهم كما قيل والا لكشفوا احوالهم عند ذكره
ولم يتصد عليه السلام لمقدمات الضيافة فراغ الى اهله اى ذهب اليهم على خفية
من ضيفه فان من ادب المضيف ان يبادر بالقرى ويبادر به حذرا من ان يكفه او يعذره
ويصير منتظرا والفاء فى قوله تعالى فجاء بعجل سمين فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت
ثقة بدلالة الحال عليها وايذانا بكمال سرعة المجئ بالطعام كما فى قوله تعالى فقلنا اضرب
بعصاك البحر فانفلق اى فذبح عجلا فحنذه فجاء به فقربه اليهم بان وضعه لديهم
حسبما هو المعتاد قال الا تأكلون انكار لعدم تعرضهم للاكل فاوجس منهم اضمر

فى نفسه خيفة لتوهم انهم جاؤا للشر وقيل وقع فى قلبه انهم ملئكة جاؤا للعذاب
قالوا لا تخف قيل مسح جبريل عليه السلام العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بامه
فعرفهم وامن منهم وبشروه وفى سورة الصافات وبشرناه اى بواسطتهم
بغلام هو اسحق عليه السلام عليم عند بلوغه واستوائه فاقبلت امرأته
سارة لما سمعت بشارتهم الى بيتها وكانت فى زاوية تنظر اليهم فى صرة فى صيحة
من الصرير ومحله النصب على الحالية او المفعولية ان جعلت اقبلت بمعنى اخذت كما يقال
اقبل يشتمنى فصكت وجهها اى لطمته من الحياء لما انها وجدت حرارة دم الطمث
وقيل ضربت باطراف اصابعها جبينها كما يفعله المتعجب وقالت عجوز عقيم اى انا
عجوز عاقر فكيف الد قالوا كذلك مثل ذلك القول الكريم قال ربك وانما نحن معبرون
نخبرك به عنه تعالى لا انا نقول من تلقاء انفسنا انه هو الحكيم العليم فيكون قوله
حقا وفعله متقنا لا محالة روى ان جبريل عليه السلام قال لها انظرى الى سقف بيتك
فنظرت فاذا جذوعه مورقة مثمرة ولم تكن هذه المفاوضة مع سارة فقط بل مع
ابراهيم ايضا حسبما شرح فى سورة الحجر وانما لم يذكر ههنا اكتفاء بما ذكر هناك
كما انه لم يذكر هناك سارة اكتفاء بما ذكر ههنا وفى سورة هود قال اى ابراهيم لما
علم انهم ملائكة ارسلوا لامر فما خطبكم اى شأنكم الخطير الذى لاجله ارسلتم سوى البشارة
ايها المرسلون قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين يعنون قوم لوط لنرسل عليهم اى بعد
ما قلبنا قراهم وجعلنا عاليها سافلها حسبما فصل فى سائر السور الكريمة حجارة من
طين اى طين متحجر هو السجيل مسومة مرسلة من اسمت الماشية اى ارسلتها
او معلمة من السومة وهى العلامة وقد مر تفصيله فى سورة هود عند ربك للمسرفين
المجاوزين الحد فى الفجور وقوله تعالى فاخرجنا الخ حكاية من جهته تعالى لما جرى على قوم
لوط عليه السلام بطريق الاجمال بعد حكاية ما جرى بين الملئكة وبين ابراهيم عليهم
السلام من الكلام والفاء فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت ثقة بذكرها فى مواضع
اخر كانه قيل فباشروا ما امروا به فاخرجنا بقولنا فاسر باهلك الخ من كان فيها اى فى
قرى قوم لوط واضمارها بغير ذكر لشهرتها من المؤمنين ممن آمن بلوط فما وجدنا
فيها غير بيت اى غير اهل بيت من المسلمين قيل هم لوط وابنتاه وقيل كان لوط
واهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر وتركنا فيها اى فى القرية آية علامة دالة على
ما اصابهم من العذاب قيل هى تلك الاحجار او صخر منضود فيها او ماء منتن للذين
يخافون العذاب الاليم اى من شأنهم ان يخافوه لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم
دون من عداهم من ذوى القلوب القاسية فانهم لا يعتدون بها ولا يعدونها آية وفى
موسى عطف على قوله وفى الارض او على قوله وتركنا فيها آية على معنى وجعلنا فى موسى
كقول من قال علفتها تبنا وماء باردا اذ ارسلناه قيل هو منصوب بآية وقيل
بمحذوف اى كائنة وقت ارسالنا وقيل بتركنا الى فرعون بسلطان مبين هو ما ظهر على يديه
من المعجزات الباهرة فتولى بركنه اى فاعرض عن الايمان به وازور كقوله تعالى ونأى
بجانبه وقيل فتولى بما يتقوى به من ملكه وعساكره فان الركن اسم لما يركن اليه الشئ
وقرئ بركنه بضم الكاف وقال ساحر اى هو ساحر او مجنون كانه نسب ما ظهر على يديه
من الخوارق العجيبة الى الجن وتردد فى انه حصل باختياره وسعيه او بغيرهما فاخذناه
وجنوده فنبذناهم فى اليم وفيه من الدلالة على غاية عظم شأن القدرة الربانية
ونهاية قماءة فرعون وقومه ما لا يخفى وهو مليم اى آت بما يلام عليه من الكفر
والطغيان والجملة حال من الضمير فى اخذناه وفى عاد اذ ارسلنا عليهم الريح العقيم
وصفت بالعقم لانها اهلكتهم وقطعت دابرهم او لانها لم تتضمن خيرا ما من انشاء
مطر والقاح شجر وهى النكباء او الدبور او الجنوب ما تذر من شئ اتت عليه اى
جرت عليه الا جعلته كالرميم هو كل ما رم وبلى وتفتت من عظم او نبات او غير
ذلك وفى ثمود اذ قيل لهم تمتعوا حتى حين وهو قوله تعالى تمتعوا فى داركم ثلثة ايام

قيل

قال لهم صالح عليه السلام تصبح وجوهكم غداً مصفرة وبعد غد محمرة وفي اليوم الثالث
ثم يصبحكم العذاب فعتوا عن أمر ربهم اى فاستكبروا عن الامتثال به فاخذتهم
الصاعقة قيل لما راوا العلامات التى بينها صالح عليه السلام من اصفرار وجوههم و
احمرارها واسودادها عمدوا الى قتله فنجاه الله تعالى الى ارض فلسطين ولما كان ضحوة
اليوم الرابع تحنطوا وتكفنوا بالانطاع فاتتهم الصيحة فهلكوا وقرئ الصعقة و
هى المرة من الصعق وهم ينظرون اليها يعاينونها فما استطاعوا من قيام كقوله تعالى
فاصبحوا فى دارهم جاثمين وما كانوا منتصرين بغيرهم كما لم يمتنعوا بانفسهم وقوم
نوح اى واهلكنا قوم نوح فان ما قبله يدل عليه او واذكر ويجوز ان يكون معطوفاً
على محل فى عاد ويؤيده القراءة بالجر وقيل هو معطوف على مفعول فاخذناه من قبل
هؤلاء المهلكين انهم كانوا قوماً فاسقين خارجين من الحدود فيما كانوا فيه من الكفر
والمعاصى والسماء بنيناها بايد اى بقوة وانا لموسعون لقادرون من الوسع بمعنى
الطاقة والموسع القادر على الانفاق او لموسعون السماء او ما بينها وبين الارض او الرزق
والارض فرشناها مهدناها وبسطناها ليستقروا عليها فنعم الماهدون اى نحن ومن
كل شئ اى من الاجناس خلقنا زوجين اى نوعين ذكراً وانثى وقيل متقابلين السماء
والارض والليل والنهار والشمس والقمر والبر والبحر ونحو ذلك لعلكم تذكرون
اى فعلنا ذلك كله كى تتذكروا فتعرفوا انه خالق الكل ورازقه وانه المستحق للعبادة
وانه قادر على اعادة الجميع فتعملوا بمقتضاه وقوله تعالى ففروا الى الله مقدر بقول
هو خطاب النبى صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين والفاء اما لترتيب الامر على ما حكى من آثار
غضبه الموجبة للفرار منها ومن احكام رحمته المستدعية للفرار اليها كانه قيل
قل لهم اذا كان الامر كذلك فاهربوا الى الله تعالى الذى هذه شؤونه بالايمان والطاعة كى
تنجوا من عقابه وتفوزوا بثوابه واما للعطف على جملة مقدرة مترتبة على قوله تعالى
لعلكم تذكرون كانه قيل قل لهم فتذكروا ففروا الى الله الخ وقوله تعالى انى لكم منه
نذير مبين تعليل للامر بالفرار اليه تعالى او لوجوب الامتثال به فان كونه عليه السلام
منذراً منه تعالى موجب عليه عليه السلام ان يامرهم بالفرار اليه وعليهم ان يمتثلوا
به اى انى لكم من جهته تعالى منذر بين كونه منذراً منه تعالى او مظهر لما يوجب اى يجب
اظهاره من العذاب المنذر به وفى امره تعالى للرسول عليه السلام بان يامرهم بالهرب
اليه من عقابه وتعليله بانه ينذرهم من جهته تعالى لا من تلقاء نفسه وعد كريم بنجاتهم من
المهروب وفوزهم بالمطلوب وقوله تعالى ولا تجعلوا مع الله الها آخر نهى موجب للفرار
من سبب العقاب بعد الامر بالفرار من نفسه كما يشعر به قوله تعالى انى لكم منه اى من
الجعل المنهى عنه نذير مبين فان تعلق كلمة من بالانذار مع كونه صلته الباء بتضمينه
معنى الافراد يقال فر منه اى هرب وافره غيره كانه قيل وفروا من ان تجعلوا معه تعالى
اعتقاداً او قولاً الهاً آخر وفيه تاكيد لما قبله من الامر بالفرار من العقاب اليه تعالى لكن
لا بطريق التكرير كما قيل بالنهى عن سببه وايجاب الفرار منه كذلك اى الامر مثل ما ذكر
من تكذيبهم الرسول وتسميتهم له ساحراً او مجنوناً وقوله تعالى ما اتى الذين من
قبلهم الخ تفسير له اى ما اتاهم من رسول من رسل الله تعالى الا قالوا فى حقه ساحر او مجنون
ولا سبيل الى انتصاب الكاف بأتى لامتناع عمل ما بعد ما النافية فيما قبلها اتواصوا به
انكار وتعجيب عن حالهم واجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة التى لا تكاد تخطر ببال
احد من العقلاء فضلاً عن التفوه بها اى اوصى بهذا القول بعضهم بعضاً حتى اتفقوا
عليه وقوله تعالى بل هم قوم طاغون اضراب عن كون مدار اتفاقهم على الشر تواصيهم
بذلك لكونه امراً اقبح من التواصى واشنع منه من الطغيان الشامل للكل الدال على ان
صدور تلك الكلمة الشنيعة عن كل واحد منهم بمقتضى جبلته الخبيثة لا بموجب
وصية من قبلهم بذلك من غير ان يكون ذلك مقتضى طباعهم فتول عنهم فاعرض
عن جدالهم فقد كررت عليهم الدعوة فابوا الا الاباء فما انت بملوم على التولى بعدما

بذلك

بذلت المجهود وجاوزت فى الابلاغ كل حد معهود وذكر اى افعل التذكير والموعظة ولا
تدعهما بالمرة اى فذكرهم وقد حذف الضمير لظهور الامر فان الذكرى تنفع المؤمنين
اى الذين قدر الله تعالى ايمانهم والذين آمنوا بالفعل فانها تزيدهم بصيرة وقوة
فى اليقين وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون استيناف مؤكد للامر مقرر لمضمون
تعليله فان كون خلقهم مغيا بعبادته تعالى مما يدعو عليه السلام الى تذكيرهم
ويوجب عليهم التذكر والاتعاظ ولعل تقديم خلق الجن فى الذكر لتقدمه على خلق الانس
فى الوجود ومعنى خلقهم لعبادته تعالى خلقهم مستعدين لها ومتمكنين منها اتم استعداد
واكمل تمكن مع كونها مطلوبة منهم بتنزيل ترتيب الغاية على ما هى ثمرة له منزلة ترتب
الغرض على ما هو غرض له فان استتباع افعاله تعالى لغايات جليلة مما لا نزاع فيه قطعاً
كيف لا وهى رحمة منه تعالى وتفضل على عباده وانما الذى لا يليق بجنابه تعالى تعليلها
بمعنى الباعث على الفعل بحيث لولاه لم يفعله لافضائه الى استكماله بفعله وهو الكامل
بالفعل من كل وجه واما بمعنى نهاية كمالية يفضى اليها فعل الفاعل الحق فغير منفى من
افعاله تعالى بل كلها جارية على ذلك المنهاج وعلى هذا الاعتبار يدور وصفه تعالى
بالحكمة ويكفى فى تحقق معنى التعليل على ما يقوله الفقهاء ويتعارفه اهل اللغة هذا
المقدار وبه يتحقق مدلول اللام واما ارادة الفاعل لها فليست من مقتضيات اللام حتى
يلزم من عدم صدور العبادة عن البعض تخلف المراد عن الارادة فان تعوق البعض
عن الوصول الى الغاية مع تعاضد المبادى وتآخذ المقدمات الموصلة اليها لا يمنع
كونها غاية كما فى قوله كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور ونظائره
وقيل المعنى الا ليؤمروا بعبادتى كما فى قوله تعالى وما امروا الا ليعبدوا الهاً واحداً وقيل
المراد سعداء الجنسين كما ان المراد بقوله تعالى ولقد ذرانا لجهنم كثيراً من الجن والانس
اشقياؤهم ويعضده قراءة من قرأ وما خلقت الجن والانس من المؤمنين وقال مجاهد واختاره
البغوى معناه الا ليعرفون ومداره قوله صلعم فيما يحكيه عن رب العزة كنت كنزاً مخفياً
فاحببت ان اعرف فخلقت الخلق لاعرف ولعل السر فى التعبير عن المعرفة بالعبادة على
طريقة اطلاق اسم السبب على المسبب التنبيه على ان المعتبر هى المعرفة الحاصلة بعبادته
تعالى لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون
بيان لكون شانه تعالى مع عباده متعالياً عن ان يكون كشان السادة مع عبيدهم حيث
يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم وتهيئة ارزاقهم اى ما اريد ان
اصرفهم فى تحصيل رزقى ولا رزقهم بل اتفضل عليهم برزقهم وبما يصلحهم ويعيشهم
من عندى فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتى ان الله هو الرزاق الذى يرزق كل ما يفتقر
الى الرزق وفيه تلويح بانه غنى عنه وقرئ انى انا الرزاق ذو القوة المتين بالرفع على
انه نعت للرزاق او خبر بعد خبر او لذو او خبر لمحذوف وقرئ بالجر على انه وصف للقوة على تأويل
الاقتدار والايد فان للذين ظلموا انفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بتكذيب رسول الله صلعم
اى وضعوا مكان التصديق تكذيباً وهم اهل مكة ذنوباً اى نصيباً وافراً من العذاب
مثل ذنوب اصحابهم مثل انصباء نظرائهم من الامم المحكية فهو ماخوذ
من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب وهو الدلو العظيم المملوء فلا يستعجلون اى لا يطلبوا
منى ان اعجل فى المجئ به يقال استعجله اى حثه على العجلة او امره بها ويقال استعجله
اى طلب وقوعه بالعجلة ومنه قوله تعالى اتى امر الله فلا تستعجلوه وهو جواب لقولهم متى هذا
الوعد ان كنتم صادقين فويل للذين كفروا وضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم
بما فى حيز الصلة من الكفر واشعاراً بعلة الحكم والفاء لترتيب ثبوت الويل لهم على ان
لهم عذاباً عظيماً كما ان الفاء الاولى لترتيب النهى عن الاستعجال على ذلك ومن فى قوله تعالى
من يومهم الذى كانوا يوعدون للتعليل اى يوعدونه من يوم وقيل يوم القيمة وهو الانسب
بما صدر السورة الكريمة الآتية والاول هو الاوفق لما قبله من حيث انهما من العذاب الدنيوى
عن النبى صلعم من قرأ والذاريات اعطاه عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت فى الدنيا

والطور الطور بالسريانية الجبل والمراد به طور سينين ... (سطر باهت)

سورة الطور مكية وهي تسع واربعون آية بسم الله الرحمن الرحيم

والطور الطور بالسريانية الجبل والمراد به طور سينين وهو جبل بمدين سمع فيه موسى عليه السلام
كلام الله عز وجل وكتاب مسطور مكتوب على وجه الانتظام فان السطر ترتيب الحروف
المكتوبة والمراد به القرآن او الواح موسى وهو انسب بالطور او ما يكتب في اللوح او ما يكتبه
الحفظة في رق منشور الرق الجلد الذي يكتب فيه استعير لما يكتب فيه الكتاب من الصحيفة
وتنكيرهما للتفخيم او الاشعار بانهما ليسا مما يتعارفه الناس والبيت المعمور اى الكعبة
وعمارتها بالحجاج والعمار والمجاورين او الضراح وهو في السماء الرابعة وعمرانه كثرة غاشيته
من الملائكة والسقف المرفوع اى السماء ولا يخفى حسن موقع العنوان المذكور والبحر
المسجور اى المملوء وهو البحر المحيط او الموقد من قوله تعالى واذا البحار سجرت فالمراد به
الجنس وروى ان الله تعالى يجعل البحار يوم القيمة نارا يسجر بها نار جهنم ان عذاب ربك
لواقع اى لنازل حتما جواب القسم وقوله تعالى ماله من دافع اما خبر ثان لان او صفة
لواقع ومن دافع اما مبتداء للظرف او مرتفع منه على الفاعلية ومن مزيدة للتاكيد
وتخصيص هذه الامور بالاقسام بها لما انها امور عظائم تنبئ عن عظم قدرة الله تعالى و
كمال علمه تعالى وحكمته الدالة على احاطته بتفاصيل اعمال العباد وضبطها الشاهدة بصدق
اخباره التي من جملتها الجملة المقسم عليها وقوله تعالى يوم تمور السماء مورا ظرف لواقع
مبين لكيفية الوقوع منبئ عن كمال هوله وفظاعته والمور الاضطراب والتردد في المجئ
والذهاب وقيل هو تحرك في تموج قيل تدور والرحى وتتكفأ باهلها تكفؤ
السفينة وقيل تختلف اجزاؤها وتسير الجبال سيرا اى تزول عن وجه الارض
فتصير هباء وتاكيد الفعلين بمصدريهما للايذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود
المعهودة اى مورا عجيبا وسيرا بديعا لا يدرك كنههما فويل يومئذ للمكذبين
اى اذا وقع ذلك او اذا كان الامر كما ذكر فويل يوم اذ يقع ذلك لهم الذين هم في
خوض اى اندفاع عجيب في الاباطيل والاكاذيب يلعبون يلهون يوم يدعون الى نار جهنم
دعا اى يدفعون اليها دفعا عنيفا شديدا بان يغل ايديهم الى اعناقهم وتجمع
نواصيهم الى اقدامهم فيدفعوا الى النار وقرئ يدعون من الدعاء فيكون دعا حالا بمعنى
مدعوعين ويوم اما بدل من يوم تمور او ظرف لقول مقدر قبل قوله تعالى هذه النار
التي كنتم بها تكذبون اى يقال لهم ذلك ومعنى التكذيب بها تكذيبهم بالوحي الناطق
بها وقوله تعالى افسحر هذا توبيخ وتقريع لهم حيث كانوا يسمونه سحرا كانه قيل
كنتم تقولون للقرآن الناطق بهذا سحر فهذا ايضا سحر وتقديم الخبر لانه محط الانكار ومدار
التوبيخ ام انتم لا تبصرون ام انتم عمى عن المخبر عنه كما كنتم عميا عن الخبر او سدت
ابصاركم كما سدت في الدنيا على زعمكم حيث كنتم تقولون انما سكرت ابصارنا بل نحن
قوم مسحورون اصلوها فاصبروا او لا تصبروا اى ادخلوها وقاسوا شدائدها
فافعلوا ما شئتم من الصبر وعدمه سواء عليكم اى الامران في عدم النفع لا بدفع
العذاب ولا بتخفيفه وقوله تعالى انما تجزون ما كنتم تعملون تعليل للاستواء فان الجزاء
حيث كان واجب الوقوع حتما كان الصبر وعدمه سواء في عدم النفع ان المتقين في جنات
ونعيم اى في اية جنات واى نعيم على ان التنوين للتفخيم او في جنات ونعيم مخصوصة
بالمتقين على انه للتنويع فاكهين ناعمين متلذذين بما آتاهم ربهم وقرئ فكهين
وفاكهون على انه الخبر والظرف لغو متعلق بالخبر او خبر آخر ووقاهم ربهم عذاب
الجحيم عطف على آتاهم على ان ما مصدرية او على خبر ان او حال باضمار قد اما
من المستكن في الخبر او في الحال واما من فاعل آتى او من مفعوله او منهما واظهار الرب
في موقع الاضمار مضافا الى ضميرهم للتشريف وتعليل كلوا واشربوا اى يقال لهم
كلوا واشربوا اكلا وشربا هنيئا او طعاما وشرابا هنيئا وهو الذي لا تنغيص فيه
بما كنتم تعملون بسببه او بمقابلته وقيل الباء زائدة وما فاعل هنيئا اى هنأكم ما كنتم تعملون

تدور السماء كما تدور الرحى

اى جزاؤه

اى جزاؤه متكئين على سرر مصفوفة مصطفة وزوجناهم بحور عين وقرئ بحور
عين على اضافة الموصوف الى صفته بالتاويل المشهور وقرئ بعيس عين والباء مع
ان التزويج مما يتعدى الى مفعولين لما فيه من معنى الوصل والالصاق او للسببية
اذ المعنى وقوله تعالى والذين آمنوا الخ كلام مستانف مسوق لبيان حال طائفة من اهل الجنة
اثر حال الكل وهم الذين شاركتهم ذريتهم في الايمان وهو مبتداء خبره الحقنا بهم
وقوله تعالى واتبعتهم ذريتهم عطف على آمنوا وقيل اعتراض وقوله تعالى بايمان
متعلق بالاتباع اى اتبعتهم ذريتهم بايمان في الجملة قاصر عن رتبة ايمان الآباء واعتبار
هذا القيد للايذان بثبوت الحكم في الايمان الكامل اصالة لا الحاقا وقرئ وذرياتهم للمبالغة
في الكثرة وذرياتهم بكسر الذال وقرئ واتبعناهم ذرياتهم اى جعلناهم تابعين
لهم في الايمان وقرئ اتبعتهم الحقنا بهم ذريتهم اى في الدرجة كما روى انه
عليه السلام قال ان الله تعالى يرفع ذرية المؤمن في درجته وان كانوا دونه لتقر بهم
عينه ثم تلا هذه الآية وما التناهم وما نقصنا الآباء بهذا الالحاق من عملهم من
ثواب عملهم من شئ بان اعطينا بعض مثوباتهم ابناءهم فتنتقص مثوبتهم و
ينحط درجتهم وانما رفعناهم الى منزلتهم بمحض التفضل والاحسان وقرئ
التناهم بكسر اللام من الت يالت كعلم يعلم والاول كضرب يضرب ولتناهم من لات
يليت والتناهم من التى يولت ولتناهم من ولت يلت والكل بمعنى واحد
هذا وقد قيل الموصول معطوف على حور والمعنى قرناهم بالحور وبالذين آمنوا
اى بالرفقاء والجلساء منهم فيتمتعون تارة بملاعبة الحور واخرى بموانسة الاخوان
المؤمنين وقوله تعالى واتبعتهم عطف على زوجناهم وقوله بايمان متعلق بما بعده
اى بسبب ايمان عظيم رفيع المحل وهو ايمان الآباء الحقنا بدرجاتهم ذريتهم وان
كانوا لا يستاهلونها تفضلا عليهم وعلى آبائهم ليتم سرورهم ويكمل نعيمهم
او بسبب ايمان دانى المنزلة وهو ايمان الذرية كانه قيل بشئ من الايمان لا يؤهلهم
لدرجة الآباء الحقناهم بهم كل امرئ بما كسب رهين قيل هو فعيل بمعنى المفعول
والمعنى كل امرئ مرهون عند الله بالعمل الصالح فان عمله فكه والا اهلكه وقيل بمعنى الفاعل
والمعنى كل امرئ بما كسب راهن اى دائم ثابت وهذا انسب بالمقام فان الدوام يقتضي
عدم المفارقة بين المرء وعمله ومن ضرورته ان لا ينقص من ثواب الآباء شئ فالجملة
تعليل لما قبلها وامددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون وزدناهم على ما كان
لهم عن مبادى التنعم وقتا فوقتا ما يشتهون من فنون النعماء والالوان الآلاء يتنازعون
فيها كاسا اى يتعاطون فيها هم وجلساؤهم بكمال رغبة واشتياق كما ينبئ عنه التعبير عن
ذلك بالتنازع كاسا اى خمرا تسمية لها باسم محلها لا لغو فيها اى في شربها حيث
لا يتكلمون في اثناء الشرب بلغو الحديث وسقط الكلام ولا تاثيم ولا يفعلون ما
يؤثم به فاعله اى ينسب الى الاثم لو فعله في دار التكليف كما هو ديدن المنادمين في
الدنيا وانما يتكلمون بالحكم واحاسن الكلام ويفعلون ما يفعله الكرام وقرئ لا لغو فيها
ولا تاثيم بالفتح ويطوف عليهم اى بالكاس غلمان لهم اى مماليك مخصوصون
بهم وقيل هم اولادهم الذين سبقوهم كانهم لؤلؤ مكنون في الصدف من
بياضهم وصفائهم اى مخزون لانه لا يخزن الا الثمين الغالى القيمة قيل لقتادة
هذا الخادم فكيف المخدوم فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي
بيده ان فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وعنه
عليه السلام ان ادنى اهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه فيجيبه الف
ببابه لبيك لبيك واقبل بعضهم على بعض يتساءلون اى يسأل كل بعض منهم بعضا
آخر عن احواله واعماله فيكون كل بعض سائلا ومسؤلا لا انه يسأل بعض معين منهم
بعضا آخر معينا قالوا اى المسؤلون وهم كل واحد منهم في الحقيقة انا كنا قبل اى

بمعنى ... الذرية الا ... يلحق بدرجة الآباء ... بهم

في الدنيا في اهلنا مشفقين ارقاء القلوب خائفين من عصيان الله تعالى معتنين بطاعته او وجلين من العاقبة فمن الله علينا بالرحمة او التوفيق للحق ووقانا عذاب السموم عذاب النار النافذة في المسام نفوذ السموم وقرئ ووقانا بالتشديد انا كنا من قبل ندعوه اى نعبده او نسأله الوقاية انه هو البر المحسن الرحيم الكثير الرحمة الذى اذا عبد اثاب واذا سئل اجاب وقرئ انه بالفتح بمعنى لانه فذكر فاثبت على ما انت عليه من التذكير بما انزل اليك من الآيات والذكر الحكيم ولا تكترث بما يقولون مما لا خير فيه من الاباطيل فما انت بنعمة ربك بحمده وانعامه بصدق النبوة ورجاحة العقل بكاهن ولا مجنون كما يقولون قاتلهم الله انى يؤفكون ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون وهو ما يقلق النفوس ويشخص بها من حوادث الدهر وقيل المنون الموت وهو في الاصل فعول من منه اذا قطعه لان الموت قطوع اى بل ايقولون ننتظر به نوائب الدهر قل تربصوا فانى معكم من المتربصين اتربص هلاككم كما تتربصون هلاكى وفيه عدة كريمة باهلاكهم ام تأمرهم احلامهم اى عقولهم بهذا اى بهذا التناقض في المقال فان الكاهن يكون ذا فطنة ودقة نظر في الامور والمجنون مغطى عقله مختل فكره والشاعر ذو كلام موزون متسق مخيل فكيف يجتمع اوصاف هؤلاء في واحد وامر الاحلام بذلك مجاز عن ادائها اليها ام هم قوم طاغون مجاوزون الحدود في المكابرة والعناد لا يحومون حول الرشد والسداد ولذلك يقولون ما يقولون من الاكاذيب الخارجة عن دائرة العقول والظنون وقرئ بل هم ام يقولون تقوله اختلقه من تلقاء نفسه بل لا يؤمنون فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه الاباطيل التى لا يخفى على احد بطلانها كيف لا وما رسول الله صلى الله عليه وسلم الا واحد من العرب فكيف اتى بما عجز عنه كافة الامم من العرب والعجم فليأتوا بحديث مثله مثل القرآن في النعوت التى استقل بها من حيث النظم ومن حيث المعنى ان كانوا صادقين فيما زعموا فان في ذلك يستدعى قدرتهم على الاتيان بمثله بقضية مشاركتهم له عليه السلام في البشرية والقرابة مع ما بهم من طول الممارسة للخطب والاشعار وكثرة المزاولة لاساليب النظم والنثر والمبالغة في حفظ الوقائع والايام ولا ريب في ان القدرة على الشئ من موجبات الاتيان به ودواعى الامر بذلك ام خلقوا من غير شئ اى ام احدثوا وقدروا هذا التقدير البديع من غير محدث ومقدر وقيل ام خلقوا من اجل لا شئ من عبادة وجزاء ام هم الخالقون لانفسهم فلذلك لا يعبدون الله سبحانه ام خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون اى اذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والارض قالوا الله وهم غير موقنين بما قالوا والا لما اعرضوا عن عبادته ام عندهم خزائن ربك اى خزائن رزقه ورحمته حتى يرزقوا النبوة من شاؤا او يمسكوها عمن شاؤا او اعندهم خزائن علمه وحكمته حتى يختاروا لها من اقتضت الحكمة اختياره ام هم المسيطرون اى الغالبون على الامور يدبرونها كيف ما شاؤا حتى يدبروا امر الربوبية ويبنوا الامور على ارادتهم ومشيئتهم وقرئ المصيطرون بالصاد لمكان الطاء ام لهم سلم منصوب الى السماء يستمعون فيه صاعدين الى كلام الملئكة وما يوحى اليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من الامور التى يتقولون فيها رجما بالغيب ويعلقون بها اطماعهم الفارغة فليأت مستمعهم بسلطان مبين بحجة واضحة تصدق استماعه ام له البنات ولكم البنون تسفيه لهم وتركيك لعقولهم وايذان بان من هذا رأيه لا يكاد يعد من العقلاء فضلا عن الترقى الى عالم الملكوت والتطلع على الاسرار الغيبية والالتفات الى الخطاب لتشديد ما في ام المنقطعة من الانكار والتوبيخ ام تسألهم اجرا رجوع الى خطابه عليه السلام واعراض عنهم اى بل اتسألهم اجرا على تبليغ الرسالة فهم اى لاجل ذلك من مغرم من التزام غرامة فادحة مثقلون محملون الثقل فلذلك لا يتبعونك ام عندهم الغيب اى اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب فهم يكتبون ما فيه حتى يتكلموا في ذلك

بنفي

بنفى او اثبات ام يريدون كيدا هو كيدهم برسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الندوة فالذين كفروا هم المذكورون ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بما في حيز الصلة من الكفر وتعليل الحكم به او جميع الكفرة وهم داخلون فيه دخولا اوليا هم المكيدون اى هم الذين يحيق بهم كيدهم او يعود عليهم وباله لا من ارادوا ان يكيدوه وهو ما اصابهم يوم بدر او هم المغلوبون في الكيد من كايدته فكدته ام لهم اله غير الله يعينهم ويحرسهم من عذابه سبحان الله عما يشركون اى عن اشراكهم او عن شركة ما يشركونه وان يروا كسفا قطعة من السماء ساقطا لتعذيبهم يقولوا من فرط طغيانهم وعنادهم سحاب مركوم اى هم في الطغيان بحيث لو اسقطناه عليهم حسبما قالوا او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا لقالوا هذا سحاب تراكم بعضها على بعض يمطرنا ولم يصدقوا انه كسف ساقط للعذاب فذرهم حتى يلاقوا وقرئ حتى يلقوا يومهم الذى فيه يصعقون على البناء للمفعول من صعقته الصاعقة او من اصعقته وقرئ يصعقون بفتح الياء والعين وهو يوم يصيبهم الصعقة بالقتل يوم بدر لا النفخة الاولى كما قيل اذ لا يصعق بها الا من كان حيا حينئذ ولان قوله تعالى يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا اى شيئا من الاغناء بدل من يومهم ولا يخفى ان التعرض لبيان عدم نفع كيدهم يستدعى استعمالهم له طمعا في الانتفاع به وليس ذلك الا ما دبروه في امره صلى الله عليه وسلم من الكيد الذى من جملته مناصبتهم يوم بدر واما النفخة الاولى فليست مما يجرى في مدافعته الكيد والحيل وقيل هو يوم موتهم وفيه ما فيه مع ما يأباه الاضافة المنبئة عن اختصاصه بهم ولا هم ينصرون من جهة الغير في دفع العذاب عنهم وان للذين ظلموا اى لهم ووضع الموصول موضع الضمير لما ذكر من قبل اى وان لهؤلاء الظلمة عذابا آخر دون ذلك دون ما لاقوه من القتل اى قبله وهو القحط الذى اصابهم سبع سنين او وراءه كما في قوله تربك القذى من دونها وهى دونه وهو عذاب القبر وما بعده من فنون عذاب الآخرة وقرئ دون ذلك قريبا ولكن اكثرهم لا يعلمون ان الامر كما ذكر وفيه اشارة الى ان فيهم من يعلم ذلك وانما يصر على الكفر عنادا او لا يعلمون شيئا اصلا واصبر لحكم ربك بامهالهم الى يومهم الموعود وابقائك فيما بينهم مع مقاساة الاحزان ومعاناة الهموم فانك باعيننا اى في حفظنا وحمايتنا بحيث نراقبك ونكلؤك وجمع العين لجمع الضمير والايذان بغاية الاعتناء بالحفظ وسبح اى نزهه تعالى عما لا يليق به ملتبسا بحمد ربك على نعمائه الفائتة للحصر حين تقوم من اى مكان قمت قال سعيد بن جبير وعطاء اى قل حين تقوم من مجلسك سبحانك اللهم وبحمدك وقال ابن عباس معناه صل لله حين تقوم من منامك وقال الضحاك والربيع اذا قمت الى الصلوة فقل سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك الخ وقوله تعالى ومن الليل فسبحه افراد لبعض الليل بالتسبيح لما ان العبادة فيه اشق على النفس وابعد عن الرياء كما يلوح به تقديمه على الفعل وادبار النجوم اى وقت ادبارها من آخر الليل اى غيبتها بضوء الصباح وقيل التسبيح من الليل صلوة العشائين وادبار النجوم صلوة الفجر وقرئ وادبار النجوم بالفتح اى في اعقابها اذا غربت او خفيت عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الطور كان حقا على الله ان يؤمنه من عذابه وان ينعمه في جنته

سورة النجم مكية وهى ثنتان وستون آية بسم الله الرحمن الرحيم

والنجم اذا هوى المراد بالنجم اما الثريا فانه اسم غالب له او جنس النجوم وهويه غروبه وقيل طلوعه يقال هوى هويا بوزن قبول اذا غرب وهويا بوزن دخول اذا علا وصعد واما النجم من نجوم القرآن فهويه نزوله والعامل في اذا فعل القسم فانه بمعنى مطلق الوقت منسلخ من معنى الاستقبال كما في قولك آتيك اذا احمر البسر في الاقسام

بذلك على تنزهه عليه السلام عن شائبة الضلال والغواية من البراعة البديعة وحسن الموقع ما لا غاية وراءه اما على الاولين فلان النجم شانه ان يهتدى به السارى الى مسالك الدنيا كانه قيل والنجم الذى يهتدى به السابلة الى سواء السبيل ما ضل صاحبكم اى ما عدل عن طريق الحق الذى هو مسلك الآخرة وما غوى اى وما اعتقد باطلا قط اى هو فى غاية الهدى والرشد وليس مما تتوهمونه من الضلال والغواية فى شئ اصلا واما الثالث فلانه تنويه بشان القرآن كما اشير اليه فى مطلع سورة يس وسورة الزخرف وتنبيه على مناط اهتدائه عليه السلام ومدار رشاده كانه قيل والقرآن الذى هو علم فى الهداية الى مناهج الدين ومسالك الحق ما ضل عنها محمد عليه السلام وما غوى والخطاب لقريش وايراده عليه السلام بعنوان صاحبيته لهم للايذان بوقوفهم على تفاصيل احواله الشريفة واحاطتهم خبرا ببراءته عليه السلام مما نفى عنه بالكلية وباتصافه بغاية الهدى والرشاد فان طول صحبتهم له ومشاهدتهم لمحاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتما وتقييد القسم بوقت الهوى على الوجه الاخير ظاهر واما على الاولين فلان النجم لا يهتدى به السارى عند كونه فى وسط السماء ولا يعلم المشرق من المغرب ولا الشمال من الجنوب وانما يهتدى به عند هبوطه او صعوده مع ما فيه من كمال المناسبة لما سيحكى من تدلى جبريل من الافق الاعلى ودنوه منه عليهما السلام هذا هو اللائق بشان التنزيل الجليل واما حمل هويه على انتثاره يوم القيامة او على انقضاض النجم الذى يرجم به او حمل النجم على النبات وحمل هويه على سقوطه على الارض او ظهوره منها فمما لا يناسب المقام وما ينطق عن الهوى اى وما يصدر نطقه بالقرآن عن هواه ورأيه اصلا فان المراد استمرار نفى النطق عن الهوى لا نفى استمرار النطق عنه كما مر مرارا ان هو اى ما الذى ينطق به من القرآن الا وحى من الله تعالى وقوله تعالى يوحى صفة مؤكدة لوحى رافعة لاحتمال المجاز مفيدة للاستمرار التجددى علمه شديد القوى اى ملك شديد قواه وهو جبريل عليه السلام فانه الواسطة فى ابداء الخوارق وناهيك دليلا على شدة قوته انه قلع قرى قوم لوط من الماء الاسود الذى تحت الثرى وحملها على جناحه ورفعها الى السماء ثم قلبها وصاح بثمود صيحة فاصبحوا جاثمين وكان هبوطه على الانبياء وصعوده فى اسرع من رجعة الطرف ذو مرة اى حصافة فى عقله ورأيه ومتانة فى دينه فاستوى عطف على علمه بطريق التفسير فانه الى قوله تعالى ما اوحى بيان لكيفية التعليم اى فاستقام على صورته التى خلقه الله تعالى عليها دون الصورة التى كان يتمثل بها كلما هبط بالوحى وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم احب ان يراه فى صورته التى جبل عليها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء فطلع له جبريل عليهما السلام من المشرق فسد الارض من المغرب وملأ الافق فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل فى صورة الآدميين فضمه الى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه قيل ما رآه احد من الانبياء فى صورته غير النبى عليهم السلام فانه رآه فيها مرتين مرة فى الارض ومرة فى السماء وقيل استوى بقوته على ما جعل له من الامر وقوله تعالى وهو بالافق الاعلى اى افق الشمس حال من فاعل استوى ثم دنا اى اراد الدنو من النبى عليهما السلام فتدلى اى استرسل من الافق الاعلى مع تعلق به فدنا من النبى يقال تدلت الثمرة ودلى رجليه من السرير وادلى دلوه والدوالى الثمر المعلق فكان اى مقدار امتداد ما بينهما قاب قوسين اى مقدارهما فان القاب والقيب والقاد والقيد والقيس المقدار وقيل فكان جبريل عليه عليه السلام كما فى قولك هو منى معقد الازار او ادنى اى على تقديركم كما فى قوله تعالى او يزيدون والمراد تمثيل ملكة الاتصال وتحقيق استماعه لما اوحى اليه بنفى البعد الملبس فاوحى اى جبريل الى عبده عبد الله تعالى واضماره قبل الذكر لغاية ظهوره قوله تعالى ما ترك على ظهرها ما اوحى اى من الامور العظيمة التى لا تفى بها العبارة او فاوحى الله تعالى حينئذ بواسطة جبريل ما اوحى قيل اوحى اليه ان الجنة محرمة على

الانبياء

الانبياء حتى تدخلها وعلى الامم حتى يدخلها امتك ما كذب الفؤاد اى فؤاد محمد عليه السلام ما رأى اى ما رآه ببصره من صورة جبريل عليهما السلام اى ما قال فؤاده لما رآه لم اعرفك ولو قال ذلك لكان كاذبا لانه عرفه بقلبه كما رآه ببصره وقرئ ما كذّب اى صدقه ولم يشك انه جبريل بصورته افتمارونه على ما يرى اى اتكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة وابعد ما ذكر من احواله المنافية للمماراة تمارونه من المراء وهو الملاحاة والمجادلة واشتقاقه من مرى الناقة كأن كلا من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه وقرئ افتمرونه اى فتغلبونه فى المراء من ماريته فمريته ولما فيه من معنى الغلبة عدى بعلى كما يقال غلبته على كذا وقيل افتمرونه افتجحدونه من مراه حقه اى جحده ولقد رآه نزلة اخرى اى وبالله لقد رأى جبريل فى صورته مرة اخرى من النزول نصبت النزلة نصب الظرف الذى هو مرة لان الفعلة اسم للمرة من الفعل فكانت فى حكمها وقيل تقديره ولقد رآه نازلا نزلة اخرى فنصبها على المصدر عند سدرة المنتهى هى شجرة نبق فى السماء السابعة عن يمين العرش ثمرها كقلال هجر وورقها كآذان الفيول تنبع من اصلها الانهار التى ذكرها الله تعالى فى كتابه يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لا يقطعها والمنتهى موضع الانتهاء او الانتهاء كأنها فى منتهى الجنة وقيل اليها ينتهى علم الخلائق واعمالهم ولا يعلم احد ما وراءها وقيل ينتهى اليها ارواح الشهداء وقيل ينتهى اليها ما يهبط من فوقها ويصعد من تحتها قيل اضافة السدرة الى المنتهى اما اضافة الشئ الى مكانه كقولك اشجار البستان او اضافة المحل الى الحال كقولك كتاب الفقه والتقدير سدرة عندها منتهى العلوم او اضافة الملك الى المالك على حذف الجار والمجرور اى سدرة المنتهى اليه وهو الله عز وجل قال تعالى الى ربك المنتهى عندها جنة المأوى اى الجنة التى يأوى اليها المتقون او ارواح الشهداء والجملة حالية قيل الاحسن ان يكون الحال هو الظرف وجنة المأوى مرتفع به على الفاعلية وقوله تعالى اذ يغشى السدرة ما يغشى ظرف زمان لرآه لما بعده من الجملة المنفية كما قيل فان ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها والغشيان بمعنى التغطية والستر ومنه الغواشى او بمعنى الاتيان يقال فلان يغشانى كل حين اى يأتينى والاول هو الاليق بالمقام وفى ابهام ما يغشى من التفخيم ما لا يخفى وتأخيره عن المفعول للتشويق اليه اى ولقد رآه عند السدرة وقت ما غشيها مما لا يكتنهه الوصف ولا يفى به البيان كيفا ولا كما وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا للصورة البديعة او للايذان باستمرار الغشيان بطريق التجدد وقيل يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله تعالى عندها وقيل يزورونها متبركين بها كما يزور الناس الكعبة وقيل يغشاها سبحات انوار الله عز وجل حين يتجلى لها كما تجلى للجبل لكنها كانت اقوى من الجبل واثبت حيث لم يصبها ما اصابه من الدك وقيل يغشاها فراش او جراد من ذهب وهو قول ابن عباس وابن مسعود والضحاك وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال رأيت السدرة يغشاها فراش من ذهب ورأيت على كل ورقة ملكا قائما يسبح الله تعالى وعنه عليه السلام يغشاها رفرف من طير خضر ما زاغ البصر اى ما مال بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم عما رآه وما طغى وما تجاوزه مع ما شاهد هناك من الامور المذهلة مما لا يحصى بل اثبته اثباتا صحيحا مستيقنا او ما عدل عن رؤية العجائب التى امر برؤيتها ومكن منها وما جاوزها لقد رأى من آيات ربه الكبرى اى والله لقد رأى الآيات التى كبراها وعظماها حين عرج به الى السماء فارى من عجائب الملك والملكوت ما لا يحيط به نطاق العبارة ويجوز ان يكون الكبرى صفة للآيات والمفعول محذوف اى شيئا عظيما من آيات ربه وان يكون من مزيدة افرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى هى اصنام كانت لهم فاللات كانت لثقيف بالطائف وقيل لقريش بنخلة وهى فعلة من لوى لانهم كانوا يلوون عليها ويطوفون بها وقرئ بتشديد التاء على انه اسم فاعل اشتهر به رجل كان يلت السمن بالزيت ويطعمه الحاج وقيل كان يلت

السويق بالطائف ويطعمه الحاج فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه وقيل كان يجلس على حجر
فلما مات سمي الحجر باسمه وعبد من دون الله تعالى وقيل كان الحجر على صورته والعزى تأنيث
الاعز كانت لغطفان وهي شجرة كانوا يعبدونها فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم
خالد بن الوليد فقطعها فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها واضعة يدها على رأسها
وهي تولول فجعل خالد يضربها بالسيف حتى قتلها فاخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال تلك العزى ولن تعبد ابدا ومناة صخرة لهذيل وخزاعة وقيل لثقيف وكانها سميت
مناة لان دماء النسائك تمنى عندها اي تراق وقرئ ومناءة وهي مفعلة من النوء
كانهم كانوا يستمطرون عندها الانواء تبركا بها والاخرى صفة ذم لها وهي المتاخرة
الوضيعة المقدار وقد جوز ان يكون الاولية والتقدم عندهم اللات والعزى
ثم انهم كانوا مع ما ذكر من عبادتهم لها يقولون الملائكة وتلك الاصنام بنات الله تعالى الله
عن ذلك علوا كبيرا فقيل لهم توبيخا وتبكيتا افرايتم الخ والهمزة للانكار والفاء لتوجيهه
الى ترتيب المرئي به على ما ذكر من شئون الله تعالى مع المنافية لها غاية المنافاة وهي
قلبية ومفعولها الثاني محذوف لدلالة الحال عليه فالمعنى اعقيب ما سمعتم من
آثار كمال عظمة الله عز وجل في ملكه وملكوته وجلاله وجبروته واحكام قدرته
ونفاذ امره في الملأ الاعلى وما تحت الثرى وما بينهما رايتم هذه الاصنام مع غاية
حقارتها وقماءتها بنات له تعالى وقيل المعنى افرايتم هذه الاصنام مع حقارتها
وذلتها شركاء الله تعالى مع ما تقدم من عظمته وقيل اخبروني عن الهتكم هل لها
شيء من القدرة والعظمة التي وصف بها رب العزة في الآي السابقة وقيل المعنى
اظننتم ان هذه الاصنام التي تعبدونها تنفعكم وقيل اظننتم انها تشفع لكم
في الاخرة وقيل افرايتم الى هذه الاصنام ان عبدتموها لا تنفعكم وان تركتموها
لا تضركم والاول هو الحق كما يشهد به قوله تعالى الكم الذكر وله الانثى شهادة
بينة فانه توبيخ مبني على التوبيخ الاول وحيث كان مداره تفضيل جانب انفسهم
على جنابه تعالى بنسبتهم اليه تعالى الاناث مع اختيارهم لانفسهم الذكور وجب ان
يكون مناط الاول نفس تلك النسبة حتى يتسنى بناء التوبيخ الثاني عليه وظاهر ان ليس في
شيء من التقديرات المذكورة من تلك النسبة عين ولا اثر واما ما قيل من ان هذه الجملة
مفعول ثان للرؤية وحذف العائد الى المفعول الاول لما ان الاصل اخبروني ان
اللات والعزى ومناة الكم الذكر وله هن اي تلك الاصنام فوضع موضعها الانثى
لمراعاة الفواصل وتحقيق مناط التوبيخ فمع ما فيه من التمحلات التي ينبغي تنزيه
ساحة التنزيل عن امثالها يقتضي اقتصار التوبيخ على ترجيح جانبهم الحقير على جناب الله
العزيز الجليل من غير تعرض للتوبيخ على نسبة الولد اليه سبحانه تلك اشارة الى
القسمة المفهومة من الجملة الاستفهامية اذا قسمة ضيزى اي جائرة حيث
جعلتم له تعالى ما تستنكفون منه وهي فعلى من الضيز وهو الجور لكنه كسر فاؤه
لتسلم الياء كما فعل في بيض فان فعلى بالكسر لم يات في الوصف وقرئ ضئزى بالهمزة
من ضازه اذا ظلمه على انه مصدر نعت به وقرئ ضيزى اما على انه مصدر وصف
به كدعوى او على انه صفة كسكرى وعطشى ان هي الضمير للاصنام اي ما الاصنام
باعتبار الالوهية التي يدعونها الا اسماء محضة ليس تحتها مما تنبئ هي عنه
من معنى الالوهية شيء ما اصلا وقوله تعالى سميتموها صفة لاسماء وضميرها لها
لا للاصنام والمعنى جعلتموها اسماء فان التسمية نسبة بين الاسم والمسمى فاذا قيست
الى الاسم فمعناها جعله اسما للمسمى وان قيست الى المسمى فمعناها جعله مسمى للاسم
وانما اختير هنا المعنى الاول من غير تعرض للمسمى لتحقيق ان تلك الاصنام التي يسمونها
آلهة اسماء مجردة ليس لها مسميات قطعا كما في قوله تعالى ما تعبدون من دونه الا
اسماء سميتموها الآية لا ان هناك مسميات لكنها لا تستحق التسمية وقيل هي للاسماء
الثلاثة المذكورة حيث كانوا يطلقونها على تلك الاصنام لاعتقادهم انها تستحق العكوف

على

على عبادتها والاعزاز والتقرب اليها بالقرابين وانت خبير بانه لو سلم دلالة الاسماء المذكورة
على ثبوت تلك المعاني الخاصة للاصنام فليس في سلبها عنها مزيد فائدة بل انما هي في سلب
الالوهية عنها كما هو زعمهم المشهور في حق جميع الاصنام على وجه برهاني فان
انتفاء الموصوف يقتضي انتفاء الوصف بطريق الاولوية اي ما هي الا اسماء خالية
عن المسميات وضعتموها انتم وآباؤكم بمقتضى اهوائكم الباطلة ما انزل الله بها
من سلطان برهان تتعلقون به ان يتبعون التفات الى الغيبة للايذان بان تعداد قبائحهم
اقتضى الاعراض عنهم وحكاية جناياتهم لغيرهم اي ما يتبعون فيما ذكر من التسمية و
العمل بموجبها الا الظن الا توهم ان ما هم عليه حق توهما باطلا وما تهوى الانفس
اي تشتهيه انفسهم الامارة بالسوء ولقد جاءهم من ربهم الهدى قيل هي
حال من فاعل يتبعون او اعتراض وايا ما كان ففيه تأكيد لبطلان اتباع الظن وهوى
النفس وزيادة تقبيح لحالهم فان اتباعهما من اي شخص كان قبيح وممن هداه الله تعالى
بارسال الرسول عليه السلام وانزال الكتاب اقبح ام للانسان ما تمنى ام منقطعة
وما فيها من بل للانتقال من بيان ان ما هم عليه في غير مستند الا الى توهمهم وهوى
انفسهم الى بيان ان ذلك مما لا يجدي نفعا اصلا والهمزة للانكار والنفي اي ليس للانسان
كل ما يتمناه ويشتهيه نفسه من الامور التي من جملتها اطماعهم الفارغة في شفاعة
الآلهة ونظائرها التي لا تكاد تدخل تحت الوجود فلله الآخرة والاولى تعليل لانتفاء
ان يكون للانسان ما يتمناه حتما فان اختصاص امور الآخرة والاولى جميعا به تعالى
مقتض لانتفاء ان يكون له امر من الامور وقوله تعالى وكم من ملك في السموات
لا تغني شفاعتهم شيئا اقناط لهم عما علقوا به اطماعهم من شفاعة الملائكة لهم
موجب لاقناطهم عن شفاعة الاصنام بطريق الاولوية وكم خبرية مفيدة للتكثير
محلها الرفع على الابتداء والخبر هي الجملة المنفية وجمع الضمير في شفاعتهم مع افراد
الملك باعتبار المعنى اي وكثير من الملائكة لا تغني شفاعتهم عند الله شيئا من الاغناء
في وقت من الاوقات الا من بعد ان ياذن الله لهم في الشفاعة لمن يشاء ان يشفعوا
ويرضى ويراه اهلا للشفاعة من اهل التوحيد والايمان واما من عداهم من اهل
الكفر والطغيان فهم من اذن الله بمعزل ومن الشفاعة بالف منزل فاذا كان حال
الملائكة في باب الشفاعة كما ذكر فما ظنهم بحال الاصنام ان الذين لا يؤمنون بالآخرة
وبما فيها من العذاب على ما يتعاطونه من الكفر والمعاصي ليسمون الملائكة المنزهين
عن سمات النقصان على الاطلاق اي يسمون كل واحد منهم تسمية الانثى فان
قولهم الملائكة بنات الله قول منهم بان كلا منهم بنته سبحانه وهي التسمية بالانثى
وفي تعليقها بعدم الايمان بالآخرة اشعار بانها في الشناعة والفظاعة واستتباع
العقوبة في الآخرة بحيث لا يجترئ عليها الا من لا يؤمن بها رأسا وقوله تعالى وما
لهم به من علم حال من فاعل يسمون والحال انه لا علم لهم بما يقولون
اصلا وقرئ بها اي بالملائكة او بالتسمية ان يتبعون في ذلك الا الظن الفاسد
وان الظن اي جنس الظن كما يلوح به الاظهار في موقع الاضمار لا يغني من الحق
شيئا من الاغناء فان الحق الذي هو عبارة عن حقيقة الشيء لا يدرك الا بالعلم
والظن لا اعتداد به في شأن المعارف الحقيقية وانما يعتد به في العمليات وما يؤدي
اليها فاعرض عن من تولى عن ذكرنا اي عنهم ووضع الموصول موضع ضميرهم للتوصل
به الى وصفهم بما في حيز صلته من الاوصاف القبيحة وتعليل الحكم بها اي فاعرض
عن من اعرض عن ذكرنا المفيد للعلم اليقيني وهو القرآن المنطوي على علوم الاولين
والآخرين المذكر لامور الآخرة او عن ذكرنا كما ينبغي فان ذلك مستتبع لذكر الآخرة و
ما فيها من الامور المرغوب فيها والمرهوب عنها ولم يرد الا الحيوة الدنيا راضيا
بها قاصرا نظره عليها والمراد النهي عن دعوته والاعتناء بشانه فان من اعرض عما ذكر
وانهمك في الدنيا بحيث كانت هي منتهى همته وقصارى سعيه لا تزيده الدعوة الى خلافها

الاعناد او اصرار على الباطل ذلك اى ما اداهم اى ما هم فيه من التولى وقصر الارادة
على الحيوة الدنيا مبلغهم من العلم لا يكادون يجاوزونه الى غيره فلا يجديهم الدعوة
والارشاد وجمع الضمير فى مبلغهم باعتبار معنى من كما ان افراده فيما سبق باعتبار لفظها
والمراد بالعلم مطلق الادراك المنتظم للظن الفاسد والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها
من قصر الارادة على الحيوة الدنيا وقوله تعالى ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله
وهو اعلم بمن اهتدى تعليل للامر بالاعراض وتكرير قوله هو اعلم لزيادة التقرير
والايذان بكمال تباين المعلومين والمراد بمن ضل من اصر عليه ولم يرجع الى الهدى
اصلا وبمن اهتدى من من شانه الاهتداء فى الجملة اى هو المبالغ فى العلم بمن لا يرعوى
عن الضلال ابدا وبمن يقبل الاهتداء فى الجملة لا غيره فلا تتعب نفسك فى دعوتهم فانهم
من القبيل الاول وفى تعليل الامر باعراضه عليه السلام عن الاعتناء بامرهم باقتصار
العلم باحوال الفريقين عليه تعالى رمز الى انه تعالى يعاملهم بموجب علمه بهم فيجزى كلا منهم
بما يليق به من الجزاء ففيه وعيد ووعد ضمنا كما سياتى صريحا ولله ما فى السموات
وما فى الارض اى خلقا وملكا لغيره اصلا لا استقلالا ولا اشتراكا وقوله تعالى ليجزى
الخ متعلق بما دل عليه اعلم الخ وما بينهما اعتراض مقرر لما قبله فان كون الكل مخلوقا له
تعالى مما يقرر علمه تعالى باحوالهم الا يعلم من خلق كانه قيل فيعلم ضلال من ضل واهتداء
من اهتدى ويحفظهما ليجزى الذين اساؤا بما عملوا اى بعقاب ما عملوا من
الضلال الذى عبر عنه بالاساءة بيانا لحاله او بسبب ما عملوا ويجزى الذين احسنوا
اى اهتدوا بالحسنى اى المثوبة الحسنى التى هى الجنة او بسبب اعمالهم الحسنى وقيل
متعلق بما دل عليه قوله تعالى ولله ما فى السموات وما فى الارض كانه قيل خلق ما فيهما
ليجزى الخ وقيل متعلق بيضل واهتدى على ان اللام للعاقبة اى هو اعلم بمن ضل ليؤل
امره الى ان يجزيه الله بعمله وبمن اهتدى ليؤل امره الى ان يجزيه بالحسنى وفيه من البعد
ما لا يخفى وتكرير الفعل لابراز كمال الاعتناء بامر الجزاء والتنبيه على تباين الجزائين
الذين يجتنبون كبائر الاثم بدل من الموصول الثانى وصيغة الاستقبال فى صلته
للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره او بيان او نعت او منصوب على المدح وكبائر الاثم
ما يكبر عقابه من الذنوب وهو ما رتب عليه الوعيد بخصوصه وقرئ كبير الاثم على ارادة
الجنس والشرك والفواحش وما فحش من الكبائر خصوصا الا اللمم اى الا ما
ما قل وصغر فانه مغفور ممن يجتنب الكبائر قيل هى النظرة والغمزة والقبلة وقيل هى
الخطرة من الذنب وقيل كل ذنب لم يذكر الله حدا ولا عذابا وقيل عادة النفس
الحين بعد الحين والاستثناء منقطع ان ربك واسع المغفرة حيث يغفر الصغائر
باجتناب الكبائر فالجملة تعليل لاستثناء اللمم وتنبيه على ان اخراجه عن حكم
المؤاخذة به ليس لخلوه عن الذنب فى نفسه بل لسعة المغفرة الربانية وقيل المعنى له
ان يغفر لمن يشاء من المؤمنين ما شاء من الذنوب صغيرها وكبيرها ولعل تعقيب
وعيد المسيئين ووعد المحسنين بذلك حينئذ لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته تعالى ولا
يتوهم وجوب العقاب عليه تعالى هو اعلم بكم اى باحوالكم يعلمها اذ انشاكم فى ضمن
تحققه انشاء ابيكم ادم عليه السلام من الارض انشاء اجماليا حسبما مر مرارا واذ
انتم اجنة ووقت كونكم اجنة فى بطون امهاتكم على اطوار مختلفة مرتبة لا
يخفى عليه حال من احوالكم وعمل من اعمالكم التى من جملتها اللمم الذى لولا المغفرة
الواسعة لاصابكم وباله فالجملة استئناف مقرر لما قبلها والفاء فى قوله تعالى فلا تزكوا
انفسكم لترتيب النهى عن تزكية النفس على ما سبق من ان عدم المؤاخذة باللمم ليس
لعدم كونه من قبيل الذنوب بل لمحض مغفرته تعالى مع علمه بصدوره عنكم اى اذا
كان الامر كذلك فلا تثنوا عليها بالطهارة عن المعاصى بالكلية او بما يستلزمها من زكاء
العمل ونماء الخير بل اشكروا الله تعالى على فضله ومغفرته هو اعلم بمن اتقى المعاصى
جميعا وهو استئناف مقرر للنهى ومشعر بان فيهم من يتقيها باسرها وقيل كان ناس

يعملون

يعملون اعمالا حسنة ثم يقولون صلوتنا وصيامنا وحجنا فنزلت وهذا اذا كان بطريق الاعجاب
او الرياء فاما من اعتقد ان ما عمله من الاعمال الصالحة من الله تعالى وبتوفيقه و
تاييده ولم يقصد به التمدح لم يكن من المزكين انفسهم فان المسرة بالطاعة طاعة
وذكرها شكر افرايت الذى تولى اى عن اتباع الحق والثبات عليه واعطى قليلا
اى شيئا قليلا او اعطاء قليلا واكدى اى قطع العطاء من قولهم اكدى الحافر اذا بلغ الكدية
اى الصلابة كالصخرة فلا يمكنه ان يحفر قالوا نزلت فى الوليد بن المغيرة كان يتبع
رسول الله صلى الله عليه وسلم فعيره بعض المشركين وقال له تركت دين الاشياخ وضللتهم
فقال اخشى عذاب الله فضمن ان يحمل عنه العذاب ان اعطاه بعض ماله فارتد و
اعطاه بعض المشروط وبخل بالباقى وقيل نزلت فى العاص بن وائل السهمى لما انه كان
يوافق النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الامور وقيل فى ابى جهل كان ربما يوافق
الرسول عليه السلام فى بعض الامور وكان يقول والله ما يامرنا محمد الا بمكارم
الاخلاق وذلك قوله تعالى واعطى قليلا واكدى والاول هو الاشهر المناسب لما بعده
من قوله تعالى اعنده علم الغيب فهو يرى الخ اى اعنده علم بالامور الغيبية التى من
جملتها تحمل صاحبه عنه يوم القيمة ام لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى
وفى اى وفر واتم ما ابتلى به من الكلمات او امر به او بالغ فى الوفاء بما عاهد الله و
تخصيصه بذلك لاحتماله ما لم يحتمله غيره كالصبر على نار نمرود حتى انه اتاه جبريل
عليهما السلام حين يلقى فى النار فقال الك حاجة فقال اما اليك فلا وعلى ذبح الولد
ويروى انه كان يمشى كل يوم فرسخا يرتاد ضيفا فان وافقه اكرمه والا نوى الصوم
وتقديم موسى لما ان صحفه التى هى التوراة اشهر عندهم واكثر ان لا تزر وازرة وزر
اخرى اى انه لا تحمل نفس من شانها الحمل حمل نفس اخرى على ان ان هى المخففة من
الثقيلة وضمير الشان الذى هو اسمها محذوف والجملة المنفية خبرها ومحل الجملة الجر
على انه بدل مما فى صحف موسى او الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف كانه قيل ما
فى صحفهما فقيل هو الا تزر الخ والمعنى انه لا يؤخذ احد بذنب غيره ليتخلص الثانى
عن عقابه ولا يقدح فى ذلك قوله عليه السلام من سن سنة سيئة فله وزرها
ووزر من عمل بها الى يوم القيمة فان ذلك وزر الاضلال الذى هو وزره وقوله تعالى
وان ليس للانسان الا ما سعى بيان لعدم انتفاع الانسان بعمل غيره من حيث جلب النفع
اليه اثر بيان عدم انتفاعه من حيث دفع الضرر عنه واما شفاعة الانبياء واستغفار
الملئكة عليهم السلام ودعاء الاحياء للاموات وصدقتهم عنهم وغير ذلك مما
لا يكاد يحصى من الامور النافعة للانسان مع انها ليست من عمله قطعا فحيث كان
مناط منفعة كل منها عمله الذى هو الايمان والصلاح ولم يكن لشئ منها نفع ما
بدونه جعل النافع نفس عمله وان كان بانضمام عمل غيره اليه وان مخففة كاختها
معطوفة عليها وكذا قوله تعالى وان سعيه سوف يرى اى يعرض عليه ويكشف
له يوم القيمة فى صحيفته وميزانه من اريته الشئ ثم يجزاه اى يجزى الانسان
سعيه يقال جزاه الله بعمله وجزاه على عمله بحذف الجار وايصال الفعل ويجوز ان يجعل
الضمير للجزاء ثم يفسر بقوله تعالى الجزاء الاوفى اى يبدل هو عنه كما فى قوله تعالى
واسروا النجوى الذين ظلموا وان الى ربك المنتهى اى انتهاء الخلق ورجوعهم اليه تعالى لا الى
غيره استقلالا ولا اشتراكا وقرئ بكسر ان على الابتداء وانه هو اضحك وابكى اى هو
خلق فى قوى الضحك والبكاء وانه هو امات واحيى لا يقدر على الاماتة والاحياء
غيره فان اثر القاتل نقض البنية وتفريق الاتصال وانما يحصل الموت عنده بفعل الله على
العادة وانه خلق الزوجين الذكر والانثى من نطفة اذا تمنى تدفق فى الرحم
او تخلق او يقدر منها الولد من منى بمعنى قدر وان عليه النشاة الاخرى اى
الاحياء بعد الموت وفاء بوعده وقرئ النشاءة بالمد وهى ايضا مصدر نشا
وانه هو اغنى واقنى واعطى القنية وهى ما يتاثل من الاموال وافرادها بالذكر

كره ابو حنيفة رح قراءة القران عند القبور لانه لم يصح
عنده شئ فى ذلك عن النبى ع م ولم يكرهه محمد رح
وبه ناخذ لما فيه من النفع للميت لورود الاثار
بقراءة اية الكرسى وسورة الاخلاص والفاتحة
وغير ذلك عند القبور ومذهب اهل السنة
والجماعة ان للانسان ان يجعل ثواب عمله
لغيره ويصل لما روى انه ع م ضحى بكبشين
املحين احدهما عن نفسه والاخر عن امته
وروى ان رجلا قال يا رسول الله ان امى
افتلتت اى ماتت بغتة نفسها فهل لها
اجر ان تصدقت عنها قال ع م نعم ذلك
ورفعت امراة صبيها وقالت يا رسول الله
الهذا حج قال نعم ذلك ولك اجر والاثار فيه
كثيرة ومنع بعضهم من ذلك فقال لا يصل
متمسكا بقوله تعالى وان ليس للانسان
الا ما سعى وبقوله ع م اذا مات ابن ادم
انقطع عمله الا من ثلث الحديث والجواب
من الاية وجوه احدها انها سبقت على
قوله او لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم
الذى وفى فيكون اخبارا عما فى شريعتهما
فلا يلزمنا الثانى انه منسوخة بقوله تعالى
الحقنا بهم ذريتهم ادخل الذرية بصلاح
الاباء الثالث المراد بالانسان هنا الكافر [illegible]

لانها اشف الاموات او ارضى و بحقيقة جعل الرضى له قنية وانه هو رب الشعرى اى رب معبودهم وهى العبور وهى اشد ضياء من الغميصا وكانت خزاعة تعبدها سن لهم ذلك ابو كبشة رجل من اشرافهم وكانت قريش تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ابو كبشة تشبيها له عليه السلام به لمخالفته اياهم فى دينهم وانه اهلك عادا الاولى هى قوم هود عليه السلام وعاد الاخرى ارم وقيل الاولى القدما لانهم اولى الامم هلاكا بعد قوم نوح وقرئ عاد الولى بحذف الهمزة ونقل ضمتها الى اللام وعادلولى بادغام التنوين فى اللام وطرح همزة اولى ونقل حركتها الى لام التعريف وثمود عطف على عادا لان ما بعده لا يعمل فيه وقرئ وثمودا بالتنوين فما ابقى اى احدا من الفريقين وقوم نوح عطف عليه ايضا من قبل اى من قبل اهلاك عاد وثمود انهم كانوا هم اظلم واطغى من الفريقين حيث كانوا يؤذونه وينفرون الناس عنه وكانوا يحذرون صبيانهم ان يسمعوا منه وكانوا يضربونه عليه السلام حتى لا يكون به حراك وما اثر فيهم دعاؤه قريبا من الف سنة والمؤتفكة هى قرى قوم لوط ائتفكت باهلها اى انقلبت بهم اهوى اى اسقطها الى الارض بعد ان رفعها على جناح جبريل عليه السلام الى السماء فغشاها ما غشى من فنون العذاب وفيه من التهويل والتفظيع ما لا غاية وراءه فباى آلاء ربك تتمارى تتشكك والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم على طريقة قوله تعالى لئن اشركت ليحبطن عملك او لكل احد واسناد فعل التمارى الى الواحد باعتبار تعدده بحسب تعدد متعلقه حال صيغة التفاعل وان كانت موضوعة لافادة صدور الفعل من المتعدد ووقوعه بحيث يكون كل من ذلك فاعلا ومفعولا معا لكنها قد تجرد عن المعنى الثانى عنيرا دبها المعنى الاول فقط كما فى يتداعونهم اى يدعونهم وقد تجرد عنه ايضا فيكتفى بتعدد الفعل متعلقه كما فيما نحن فيه فان المراد تعدد بتعدد الآلاء المعدودة المتعددة وتسمية الامور المعدودة آلاء مع ان بعضها نقم لما انها ايضا نعم من حيث انها نصرة للانبياء والمؤمنين وانتقام لهم وفيها عظات وعبر للمعتبرين هذا نذير من النذر الاولى هذا اما اشارة الى القرآن والنذير مصدر او الى الرسول صلى الله عليه وسلم والنذير بمعنى المنذر وايا ما كان فالتنوين للتفخيم ومن متعلقة بمحذوف هو نعت لنذير مقررة له ومتضمن للوعيد اى هذا القرآن الذى تشاهدونه نذير من قبيل الانذارات المتقدمة التى سمعتم عاقبتها او هذا الرسول منذر من جنس المنذرين الاولين والاولى على تأويل الجماعة لمراعاة الفواصل وقد علمتم احوال قومهم المنذرين وفى تعقيبه بقوله تعالى ازفت الازفة اشعار بان تعذيبهم مؤخر الى يوم القيمة اى دنت الساعة الموصوفة بالدنو فى نحو قوله تعالى اقتربت الساعة ليس لها من دون الله كاشفة اى ليس لها نفس قادرة على كشفها عند وقوعها الا الله تعالى لكنه لا يكشفها او ليس لها الآن نفس كاشفة بتأخيرها الا الله تعالى فانه المؤخر لها او ليس لها كاشفة لوقتها الا الله كقوله تعالى لا يجليها لوقتها الا هو او ليس لها من غير الله تعالى كشف على ان كاشفة مصدر كالعافية افمن هذا الحديث اى القرآن تعجبون انكارا وتضحكون استهزاء مع كونه ابعد شئ من ذلك ولا تبكون حزنا على ما فرطتم فى شأنه وخوفا من ان يحيق بكم ما حاق بالامم المذكورة وانتم سامدون اى لاهون او مستكبرون من سمد البعير اذا رفع رأسه او مغنون لتشغلوا الناس عن استماعه من السمود بمعنى الغناء على لغة حمير او خاشعون جامدون من السمود بمعنى الجمود والخشوع كما فى قول من قال رمى الحدثان نسوة آل سعد بمقدار سمدن له سمودا فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا والجملة حال من فاعل لا تبكون خلا ان مضمونها على الوجه الاخير قيد للمنفى والانكار وارد على نفى البكاء والسمود معا وعلى الوجوه الاول قيد للنفى والانكار متوجه الى نفس

البكاء ووجود السمود والاول اوفق بحق المقام فتدبر والفاء فى قوله تعالى فاسجدوا لله واعبدوا لترتيب الامر او موجبه على ما تقرر من بطلان مقابلة القرآن بالانكار والاستهزاء ووجوب تلقيه بالايمان مع كمال الخضوع والخشوع اى اذا كان الامر كذلك فاسجدوا لله الذى انزله واعبدوه عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والنجم اعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وجحد به بمكة

سورة القمر مكية وهى خمس وخمسون آية بسم الله الرحمن الرحيم

اقتربت الساعة وانشق القمر روى ان الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر قال ابن عباس انفلق فلقتين فلقة ذهبت وفلقة بقيت وقال ابن مسعود رأيت حراء بين فلقتى القمر وعن عثمان ابن عطاء عن ابيه ان معناه سينشق يوم القيمة قوله تعالى وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر فانه ناطق بانه قد وقع وانهم قد شاهدوه بعد مشاهدة نظائره وقد قرئ وقد انشق القمر اى اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها ان القمر قد انشق ومعنى الاستمرار الاطراد او الاستحكام اى وان يروا آية من آيات الله تعالى يعرضوا عن التأمل فيها ليقفوا على حقيتها وعلو طبقتها ويقولوا سحر مطرد دائم يأتى به محمد عليه السلام على مر الزمان لا يكاد يختلف بحال كسائر انواع السحر او قوى مستحكم لا يمكن ازالته وقيل مستمر ذاهب يزول ولا يبقى تمنية لانفسهم وتعليلا وهو الانسب بغلوهم فى العناد والمكابرة ويؤيده ما سيأتى لرده وقرئ وان يروا على البناء للمفعول من الاراءة وكذبوا اى بالنبى صلى الله عليه وسلم وما عاينوه مما اظهره الله على يده من المعجزات واتبعوا اهواءهم التى زينها الشيطان لهم او كذبوا الآية التى هى انشقاق القمر واتبعوا اهواءهم وقالوا سحر القمر او سحر اعيننا والقمر بحاله وصيغة الماضى للدلالة على التحقق وقوله تعالى وكل امر مستقر استئناف مسوق لاقناطهم عما علقوا به امانيهم الفارغة من عدم استقرار امره عليه السلام حسبما قالوا سحر مستمر ببيان ثباته ورسوخه اى وكل امر من الامور منته الى غاية يستقر عليها لا محالة ومن جملتها امر النبى صلى الله عليه وسلم فيصير الى غاية يتبين عندها حقيته وعلو شأنه وابهام المستقر عليه للتنبيه على كمال ظهور الحال وعدم الحاجة الى التصريح به وقيل المعنى كل امر من امرهم وامره عليه السلام مستقر اى سيثبت ويستقر على حالة خذلان او نصرة فى الدنيا وشقاوة او سعادة فى الآخرة وقرئ بالفتح على انه مصدر او اسم مكان او اسم زمان اى ذو استقرار او ذو موضع استقرار او ذو زمان استقرار وبالكسر والجر على انه صفة امر وكل عطف على الساعة اى اقتربت الساعة وكل امر مستقر ولقد جاءهم اى فى القرآن وقوله تعالى من الانباء اى انباء القرون الخالية او انباء الآخرة متعلق بمحذوف هو حال مما بعده اى وبالله لقد جاءهم كائنا من الانباء ما فيه مزدجر اى ازدجار من تعذيب او وعيد او موضع ازدجار على ان فى بمعنى التجريد والمعنى انه فى نفسه موضع ازدجار وتاء الافتعال تقلب دالا مع الدال والذال والزاى للتناسب وقرئ مزجر بقلبها زايا وادغامها حكمة بالغة غايتها لا خلل فيها وهى بدل مما او خبر لمحذوف وقرئ بالنصب حالا منها فانها موصولة او موصوفة تخصصت بصفتها فساغ نصب الحال عنها فما تغن النذر نفى للاغناء او انكار له والفاء لترتيب عدم الاغناء على مجئ الحكمة البالغة مع كونه مظنة للاغناء وصيغة المضارع للدلالة على تجدد عدم الاغناء واستمراره حسب تجدد مجئ الزواجر واستمرارها وما على الوجه الثانى منصوب اى فاى اغناء تغنى النذر وهو جمع نذير بمعنى المنذر او مصدر بمعنى الانذار فتول عنهم لعلمك بان الانذار لا يؤثر فيهم البتة يوم يدع الداع منصوب بيخرجون او باذكر والداعى اسرافيل عليه السلام ويجوز ان يكون الدعاء فيه كالامر فى قوله تعالى كن فيكون واسقاط الياء للاكتفاء بالكسر تخفيفا الى شئ نكر اى منكر فظيع تنكره النفوس لعدم العهد بمثله وهو هول

لقيمة وقرئ نكُرٍ بالتخفيف ونُكُر بمعنى انكر خشعًا ابصارهم حال من فاعل يخرجون و
التقديم لان العامل متصرف اى يخرجون من الاجداث اذلة ابصارهم من شدة الهول
وقرئ خاشعًا والافراد والتذكير لان فاعله ظاهر غير حقيقي التانيث وقرئ خاشعة على
الاصل وقرئ خشع ابصارهم على الابتداء والخبر على ان الجملة حال كانهم جراد
منتشر في الكثرة والتموج والتفرق في الاقطار مهطعين الى الداع مسرعين مادّى
اعناقهم اليه او ناظرين اليه يقول الكافرون استيناف وقع جوابًا عما نشاء من وصف
اليوم بالاهوال واهله بسوء الحال كانه قيل فماذا يكون حينئذ فقيل يقول الكافرون
هذا يوم عسر اى صعب شديد وفي اسناد القول المذكور الى الكفار تلويح
بان المؤمنين ليسوا في تلك المرتبة من الشدة كذبت قبلهم قوم نوح شروع في
تعداد بعض ما ذكر من الانباء الموجبة للازدجار ونوع تفصيل لها وبيان لعدم تاثرهم
بها تقرير لفحوى قوله تعالى فما تغني النذر اى فعل التكذيب قبل تكذيب قومك قوم نوح
وقوله تعالى فكذبوا عبدنا تفسير لذلك التكذيب المبهم كما في قوله ونادى نوح ربه
فقال رب الخ وفيه مزيد تقرير وتحقيق للتكذيب وقيل معناه كذبوه تكذيبًا اثر تكذيب
كلما خلا منهم قرن مكذب جاء عقيبه قرن آخر مكذب مثله وقيل كذبت قوم نوح الرسل
فكذبوا عبدنا لانه من جملتهم وفي ذكره عليه السلام بعنوان العبودية مع الاضافة
الى نون العظمة تفخيم له عليه السلام ورفع لمحله وزيادة تشنيع لمكذبيه وقالوا مجنون
اى لم يقتصروا على مجرد التكذيب بل نسبوه الى الجنون وازدجر عطف على قالوا
اى وزجر عن التبليغ بانواع الاذية وقيل هو من جملة ما قالوه اى هو مجنون
وقد ازدجرته الجن وتخبطته فدعى ربه انّى بانّي وقرئ بالكسر على ارادة القول
مغلوب اى من جهة قومي ما لي قدرة على الانتقام منهم فانتصر اى فانتقم لي منهم
وذلك بعد تقرر ياسه منهم بعد اللتيا والتي فقد روي ان الواحد منهم كان
يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشيًا عليه ويقول اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون ففتحنا
ابواب السماء بماء منهمر منصب وهو تمثيل لكثرة الامطار وشدة انصبابها وقرئ
ففتّحنا بالتشديد لكثرة الابواب وفجرنا الارض عيونًا اى جعلنا الارض كلها كانها
عيون منفجرة واصله وفجرنا عيون الارض فغير قضاء لحق المقام فالتقى الماء اى ماء
السماء وماء الارض والافراد لتحقيق ان التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة و
التقارب بل بطريق الاختلاط والاتحاد وقرئ الماءان لاختلاف النوعين والماوان بقلب
الهمزة واوا على امر قد قدر اى كائنًا على حال قد قدرها الله تعالى من غير تفاوت او على
حال قدرت وسويت وهو ان قدر ما انزل على قدر ما اخرج او على امر قدره الله
تعالى وهو هلاك قوم نوح بالطوفان وحملناه اى نوحًا عليه السلام على ذات الواح
اخشاب عريضة ودسر ومسامير جمع دسار من الدسر وهو الدفع وهي صفة
للسفينة اقيمت مقامها من حيث انها كالشرح لها تؤدي مؤداها تجري باعيننا
بمرأى منا اى محفوظة بحفظنا جزاء لمن كان كفر اى فعلنا ذلك جزاء لنوح عم
لانه كان نعمة كفروها فان كل نبي نعمة من الله على امته ورحمة واي نعمة واي رحمة
وقد جوز ان يكون على حذف الجار وايصال الفعل الى الضمير واستتاره في الفعل بعد انقلابه
مرفوعًا وقرئ لمن كفر اى للكافرين ولقد تركناها اى السفينة او الفعلة آية يعتبر
بها من يقف على خبرها وقال قتادة ابقاها الله تعالى بارض الجزيرة وقيل على الجودي
دهرًا طويلًا حتى نظر اليها اوائل هذه الامة فهل من مدكر اى معتبر بتلك الآية
الحقيقية بالاعتبار وقرئ مذتكر على الاصل ومذكر بقلب التاء ذالًا والادغام فيها
فكيف كان عذابي ونذر استفهام تعظيم وتعجيب اى كانا على كيفية هائلة لا يحيط
بها الوصف والنذر جمع نذير بمعنى الانذار ولقد يسرنا القرآن الخ جملة قسمية وردت
في اواخر القصص الاربع تقريرًا لمضمون ما سبق من قوله تعالى ولقد جاءهم من الانباء
ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغني النذر وتنبيهًا على ان كل قصة منها مستقلة بايجاب

الادكار كافية في الازدجار ومع ذلك لم تقع واحدة في حيز الاعتبار اى وبالله لقد سهلنا القرآن
لقومك بان انزلناه على لغتهم وشحناه بانواع المواعظ والعبر وصرفنا فيه من الوعيد
والوعد للذكر اى للتذكر والاتعاظ فهل من مدكر انكار ونفي للمتعظ على ابلغ وجه وآكده
حيث يدل على انه لا يقدر احد ان يجيب المستفهم بنعم وحمل تيسيره على تسهيل حفظه
بجزالة نظمه وعذوبة الفاظه وعباراته مما لا يساعده المقام كذبت عاد اى هودا
عليه السلام ولم يتعرض لكيفية تكذيبهم له روما للاختصار ومسارعة الى بيان ما
فيه الازدجار من العذاب وقوله تعالى فكيف كان عذابي ونذر لتوجيه قلوب السامعين
نحو الاصغاء الى ما يلقى اليهم قبل ذكره لا للتهويل والتعظيم والتعجيب من حاله بعد بيانه
كما قبله وما بعده كانه قيل كذبت عاد فهل سمعتم او فاسمعوا كيف كان عذابي
وانذاري لهم وقوله تعالى انا ارسلنا عليهم ريحًا صرصرًا استيناف ببيان ما اجمل
اولا اى ارسلنا عليهم ريحًا باردة او شديدة الصوت في يوم نحس شؤم
مستمر اى شؤمه او مستمر عليهم الى ان اهلكهم او شامل لجميعهم كبيرهم وصغيرهم
او مشتد مرارته وكان يوم الاربعاء آخر الشهر تنزع الناس تقلعهم روي انهم
دخلوا الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح وصرعتهم موتى كانهم
اعجاز نخل منقعر اى منقلع عن مغارسه شبهوا باعجاز النخل وهي اصولها بلا فروع
لان الريح كانت تقلع رؤسهم فتبقى اجسادًا وجثثًا بلا رؤس وتذكير صفة نخل للنظر
الى اللفظ كما ان تانيثها في قوله تعالى اعجاز نخل خاوية للنظر الى المعنى وقوله تعالى فكيف
كان عذابي ونذر تهويل لهما وتعجيب امرهما بعد بيانهما فليس فيه شائبة تكرار
وما قيل من ان الاول لما حاق بهم في الدنيا والثاني لما يحيق بهم في الآخرة يرده
ترتيب الثاني على العذاب الدنيوي ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر الكلام فيه
كالذي مر فيما سبق كذبت ثمود بالنذر اى الانذارات والمواعظ التي سمعوها من
صالح او بالرسل عليهم السلام فان تكذيب احدهم تكذيب للكل لاتفاقهم على اصول
الشرائع فقالوا ابشرًا منا اى كائنًا من جنسنا وانتصابه بفعل يفسره ما بعده
واحدًا اى منفردًا لا تبع له او واحدًا من احادهم لا من اشرافهم وهو صفة اخرى
لبشرًا وتاخيره عن الصفة المؤولة للتنبيه على ان كلا من الجنسية والوحدة مما يمنع الاتباع
ولو قدم عليها لفاتت هذه النكتة وقرئ ابشر منا واحد على الابتداء وقوله تعالى
نتبعه خبره والاول اوجه للاستفهام انا اذًا اى على تقدير اتباعنا له وهو منفرد
ونحن امة جمة لفي ضلال عن الصواب وسعر اى جنون فان ذلك بمعزل من مقتضى
العقل وقيل كان يقول لهم ان لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق وسعر اى نيران
جمع سعير فعكسوا عليه لغاية عتوهم فقالوا ان اتبعناك كنا اذًا كما تقول أألقي الذكر اى الكتاب والوحي
عليه من بيننا وفينا من هو احق منه بذلك بل هو كذاب اشر اى ليس الامر كذلك
بل هو كذا وكذا حمله بطره على الترفع علينا بما ادعاه قوله تعالى سيعلمون غدًا من الكذاب الاشر
حكاية لما قاله تعالى لصالح عليه السلام وعدًا له ووعيدًا لقومه والسين لتقريب مضمون
الجملة وتاكيده والمراد بالغد وقت نزول العذاب اى سيعلمون البتة عن قريب من الكذاب
الاشر الذي حمله اشره وبطره على الترفع اصالح هو ام من كذبه وقرئ ستعلمون على الالتفات
لتشديد التوبيخ او على حكاية ما اجابهم به صالح وقرئ الاشِر كقولهم حَذِر في حَذْر
وقرئ الاشرّ اى الابلغ في الشرارة وهو اصل مرفوض كالاخير وقيل المراد بالغد يوم القيمة
ويأباه قوله تعالى انا مرسلوا الناقة الخ فانه استيناف مسوق لبيان مبادي الموعود حتما اى
مخرجوها من الهضبة حسبما سألوا فتنة لهم اى امتحانًا فارتقبهم اى فانتظرهم
وتبصر ما يصنعون واصطبر على اذيتهم ونبئهم ان الماء قسمة بينهم مقسوم
لها يوم ولهم يوم وبينهم لتغليب العقلاء كل شرب محتضر يحضره صاحبه في
نوبته فنادوا صاحبهم هو قدار بن سالف احيمر ثمود فتعاطى فعقر فاجترأ على
تعاطي الامر العظيم غير مكترث له فاحدث العقر بالناقة وقيل فتعاطى الناقة فعقرها

او فتعاطى السيف فقتلها او التعاطى تناول الشئ بتكلف فكيف كان عذابى ونذر الكلام
فيه كالذى مرّ في صدر قصة عاد انا ارسلنا عليهم صيحة واحدة هى صيحة جبريل عليه
السلام فكانوا اى فصاروا كهشيم المحتظر كالشجر اليابس الذى يتخذه من يعمل الحظيرة
لاجلها او كالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء وقرئ بفتح
الظاء اى كهشيم الحظيرة اى الشجر المتخذ لها ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت
قوم لوط بالنذر انا ارسلنا عليهم حاصبا اى ريحا تحصبهم اى ترميهم
بالحصباء الا آل لوط نجيناهم بسحر فى سحر وهو آخر الليل وهو السدس الاخير منه
اى ملتبسين بسحر نعمة من عندنا اى انعاما منا وهو علة لنجينا كذلك اى
مثل ذلك الجزاء العجيب نجزى من شكر نعمتنا بالايمان والطاعة ولقد انذرهم
لوط عليه السلام بطشتنا اى اخذتنا الشديدة بالعذاب فتماروا فكذبوا بالنذر
متشاكين ولقد راودوه عن ضيفه قصدوا الفجور بهم فطمسنا اعينهم
فمسحناها وسويناها كسائر الوجه روى انهم لما دخلوا داره عنوة صفقهم جبريل عليه السلام
صفقة فتركهم يترددون لا يهتدون الى الباب حتى اخرجهم لوط عليه السلام
فذوقوا عذابى ونذر اى فقلنا لهم ذوقوا على ألسنة الملئكة او ظاهر الحال
والمراد به الطمس فانه من جملة ما انذروه من العذاب ولقد صبحهم بكرة وقرئ
بكرة غير مصروفة على ان المراد بها اول نهار مخصوص عذاب مستقر لا يفارقهم حتى
يسلمهم الى النار وفى وصفه بالاستقرار ايماء الى ان ما قبله من عذاب الطمس ينتهى
به فذوقوا عذابى ونذر حكاية لما قيل لهم حينئذ من جهته تعالى تشديدا للعذاب
ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر مر ما فيه من الكلام ولقد جاء آل فرعون
النذر صدرت قصتهم بالتوكيد القسمى لابراز كمال الاعتناء بشانها لغاية عظم ما
فيها من الآيات وكثرتها وهول ما لاقوه من العذاب وقوة ايجابها للاتعاظ والاكتفاء
بذكر آل فرعون للعلم بان نفسه اولى بذلك اى وبالله لقد جاءهم الانذارات وقوله تعالى
كذبوا بآياتنا كلها استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية مجئ النذر كأنه قيل فماذا فعلوا
حينئذ فقيل كذبوا بآياتنا وهى الآيات التسع فأخذناهم اخذ عزيز لا يغالب مقتدر
لا يعجزه شئ أكفاركم يا معشر العرب خير قوة وشدة وعدة وعدة او مكانة من اولئكم
الكفار المعدودين والمعنى انه اصابهم ما اصابهم مع ظهور خيريتهم منكم فيما ذكر
من الامور فهل تطمعون ان لا يصيبكم مثل ذلك وانتم شر منهم مكانا واسوأ حالا و
وقوله تعالى ام لكم براءة فى الزبر اضراب وانتقال من التبكيت بما ذكر الى التبكيت بوجه
آخر اى بل ألكم براءة وامن من تبعات ما تعملون من الكفر والمعاصى وغوائلها فى الكتب
السماوية فلذلك تصرون على ما انتم عليه وقوله تعالى ام يقولون نحن جميع منتصر اضراب
من التبكيت المذكور الى وجه آخر من التبكيت والالتفات للايذان باقتضاء حالهم للاعراض
عنهم واسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية قبائحهم لغيرهم اى بل ايقولون
واثقين بشوكتهم نحن اولو حزم ورأى امرنا مجتمع لا نرام ولا نضام او منتصر
من الاعداء لا نغلب او متناصر ينصر بعضنا بعضا والافراد باعتبار لفظ الجميع وقوله تعالى
سيهزم الجمع رد وابطال لذلك والسين للتأكيد اى يهزم جمعهم البتة ويولون
الدبر اى الادبار وقد قرئ كذلك والتوحيد لارادة الجنس او ارادة ان كل واحد
منهم يولى دبره وقد كان كذلك يوم بدر قال سعيد بن المسيب سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه
يقول لما نزلت سيهزم الجمع ويولون الدبر كنت لا ادرى اى جمع يهزم فلما كان
يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع ويقول سيهزم
الجمع ويولون الدبر فعرفت تأويلها وقرئ سيهزم الجمع اى الله عز وعلا بل
الساعة موعدهم اى ليس هذا تمام عقوبتهم بل الساعة موعد اصل عذابهم وهذا من طلائعه
والساعة ادهى وامر اى فى اقصى غاية من الفظاعة والمرارة والداهية الامر الفظيع الذى
لا يهتدى الى الخلاص عنه واظهار الساعة فى موقع اضمارها لتربية تهويلها ان المجرمين من الاولين

والآخرين

والآخرين فى ضلال وسعر اى فى هلاك ونيران مسعرة فى الآخرة وقوله تعالى يوم يسحبون
الخ منصوب اما بما يفهم من قوله تعالى فى ضلال اى كائنون فى ضلال وسعر يوم يجرون
فى النار على وجوههم واما بقول مقدر بعده اى يوم يسحبون يقال لهم ذوقوا
مس سقر اى ذوقوا حرها والمها وسقر علم جهنم ولذلك لم يصرف من سقرته
النار وصقرته اذا لوحته والقول المقدر على الوجه الاول حال من الضمير فى
يسحبون انا كل شئ من الاشياء خلقناه بقدر اى ملتبسا بقدر معين اقتضته
الحكمة التى عليها يدور امر التكوين او مقدرا مكتوبا فى اللوح قبل وقوعه وكل شئ منصوب
بفعل يفسره ما بعده وقرئ بالرفع على انه مبتدأ وخلقناه خبره وما امرنا الا واحدة الا
كلمة واحدة سريعة التكوين وهو قوله تعالى كن او الا فعلة واحدة هو الايجاد بلا معالجة
كلمح بالبصر فى اليسر والسرعة وقيل معناه قوله وما امر الساعة الا كلمح البصر ولقد
اهلكنا اشياعكم اى اشباهكم فى الكفر من الامم وقيل اتباعكم فهل من مدكر
يتعظ بذلك وكل شئ فعلوه من الكفر والمعاصى مكتوب على التفصيل فى الزبر اى فى ديوان
الحفظة وكل صغير وكبير من الاعمال مستطر مسطور فى اللوح المحفوظ بتفاصيله
ولما كان بيان سوء حال الكفرة بقوله ان المجرمين الخ مما يستدعى بيان حسن حال
المؤمنين ليتكافأ الترهيب والترغيب بين ما لهم من حسن الحال بطريق الاجمال فقيل ان المتقين
اى من الكفر والمعاصى فى جنات عظيمة الشان ونهر اى انهار كذلك والافراد
للاكتفاء باسم الجنس مراعاة الفواصل وقرئ نهر جمع كأسد واسد فى مقعد صدق
فى مكان مرضى وقرئ فى مقاعد صدق عند مليك مقتدر اى مقربين عند مليك
لا يقادر قدر ملكه وسلطانه فلا شئ الا وهو تحت ملكوته سبحانه ما اعظم
شانه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القمر فى كل غب بعثه الله تعالى
يوم القيمة ووجهه مثل ليلة البدر

سورة الرحمن جل جلاله مكية وهى ست وسبعون آية بسم الله الرحمن الرحيم

لما عدد فى السورة السابقة ما نزل بالامم السالفة من ضروب نقم الله عز وجل وبين عقيب
كل ضرب منها ان القرآن قد يسر لحمل الناس على التذكر والاتعاظ ونعى عليهم اعراضهم عن ذلك
عدد فى هذه السورة الكريمة ما افاض على كافة الانام من فنون نعمه الدينية والدنيوية
الانفسية والآفاقية وانكر عليهم اثر كل فن منها اخلالهم بموجب شكرها وبدأ بتعليم
القرآن فقيل الرحمن علم القرآن لانه اعظم النعم شانا وارفعها مكانا كيف وهو
مدار للسعادة الدينية والدنيوية عيار على سائر الكتب السماوية ما من مرصد يرنو اليه
احداق الامم الا وهو منشأه ومناطه ولا مقصد يمتد اليه اعناق الهمم الا وهو
منهجه وصراطه واسناد تعليمه الى اسم الرحمن للايذان بانه من آثار الرحمة الواسعة
واحكامها وقد اقتصر على ذكره تنبيها على اصالته وجلالته قدره ثم قيل خلق الانسان
علمه البيان تعيينا للمعلم وتبيينا لكيفية التعليم والمراد بخلق الانسان انشاؤه على ما
هو عليه من القوى الظاهرة والباطنة والبيان هو التعبير عما فى الضمير وليس المراد
بتعليمه مجرد تمكين الانسان من بيان نفسه بل منه ومن فهم بيان غيره ايضا اذ هو الذى
يدور عليه تعليم القرآن والجمل الثلاث اخبار مترادفة للرحمن واخلاء الاخيرتين
عن العاطف لورودها على منهاج التعديد الشمس والقمر بحسبان اى يجريان
بحساب مقدر فى بروجهما ومنازلهما بحيث ينتظم بذلك امور الكائنات السفلية
ويختلف الفصول والاوقات ويعلم السنون والحساب والنجم اى النبات الذى
ينجم اى يطلع من الارض ولا ساق له والشجر الذى له ساق يسجدان اى ينقادان
له تعالى فيما يريد بهما طبعا انقياد الساجدين من المكلفين طوعا والجملتان خبران آخران
للرحمن جردتا عن الرابط اللفظى تعويلا على كمال قوة الارتباط المعنوى اذ لا يتوهم
ذهاب الوهم الى كون حال الشمس والقمر بتسخير غيره تعالى ولا الى كون سجود النجم والشجر

لماسواه تعالى كانه قيل الشمس والقمر بحسبانه والنجم والشجر يسجدان له واخلاء الجملة الاولى
عن العاطف لما ذكر من قبل وتوسيط العاطف بينها وبين الثانية لتناسبهما من حيث
التقابل لان الشمس والقمر علويان والنجم والشجر سفليان ومن حيث ان كلا من حال العلويين
وحال السفليين من باب الانقياد لامر الله تعالى والسماء رفعها اى خلقها مرفوعة
محلا ورتبة حيث جعلها منشأ احكامه وقضاياه ومتنزل اوامره ومحل ملئكته وفيه
من التنبيه على كبرياء شانه وعظم ملكه وسلطانه ما لا يخفى وقرئ بالرفع على الابتداء
ووضع الميزان اى شرع العدل وامر به بان وفر كل مستحق ما استحقه ووفى كل ذى
حق حقه حتى انتظم به امر العالم واستقام كما قال عليه السلام بالعدل قامت
السموات والارض قيل فعلى هذا الميزان القرآن وهو قول الحسين بن الفضل كما فى قوله
تعالى وانزلنا معهم الكتاب والميزان وقيل هو ما يعرف به مقادير الاشياء من ميزان
ومكيال ونحوهما وهو قول الحسن وقتادة والضحاك فالمعنى خلقه موضوعا مخفوضا
على الارض حيث علق به احكام عباده وقضاياهم وما يتعبدون به من التسوية والتعديل
فى اخذهم واعطائهم ان لا تطغوا فى الميزان اى لئلا تطغوا فيه على ان ان ناصبة
ولا نافية ولام العلة مقدرة متعلقة بقوله تعالى ووضع الميزان او ان لا تطغوا على
انها مفسرة لما فى الشرع من معنى القول ولا ناهية اى لا تتعدوا ولا تجاوزوا الانصاف
وقرئ لا تطغوا على ارادة القول واقيموا الوزن بالقسط قوموا وزنكم بالعدل
وقيل اقيموا لسان الميزان بالقسط والعدل وقيل الاقامة باليد والقسط بالقلب
ولا تخسروا الميزان اى لا تنقصوه امر اولا بالتسوية ثم نهى عن الطغيان الذى هو
اعتداء وزيادة ثم عن الخسران الذى هو تطفيف ونقصان وكرر لفظ الميزان
تشديدا للتوصية به وتاكيدا للامر باستعماله والحث عليه وقرئ ولا تخسروا بفتح التاء
وضم السين وكسرها يقال خسر الميزان يخسره ويخسره وبفتح السين ايضا على ان الاصل
ولا تخسروا فى الميزان فحذف الجار واوصل الفعل والارض وضعها اى خفضها
مدحوة على الماء للانام اى الخلق قيل المراد به كل ذى روح وقيل كل ما على ظهر الارض
من دابة وقيل الثقلان وقوله تعالى فيها فاكهة الخ استيناف مسوق لتقرير ما افادته
الجملة السابقة من كون الارض موضوعة لمنافع الانام وتفصيل المنافع العائدة الى
البشر وقيل حال مقدرة من الارض فالاحسن حينئذ ان يكون الحال هو الجار والمجرور
وفاكهة رفع على الفاعلية اى فيها ضروب كثيرة مما يتفكه به والنخل ذات الاكمام
هى اوعية التمر جمع كم او كل ما يكم اى يغطى من ليف وسعف وكفرى فانه مما ينتفع به
كالمكموم من ثمره وجماره وجذوعه والحب وهو ما يتغذى به كالحنطة والشعير
ذو العصف هو ورق الزرع وقيل التبن والريحان قيل هو الرزق اريد به اللب اى فيها
ما يتلذذ به من الفواكه والجامع بين التلذذ والتغذى وهو ثمرة النخل وما يتغذى به
وهو الحب الذى له عصف هو علف الانعام وريحان هو مطعم الناس وقرئ والحب
ذا العصف والريحان اى خلق الحب والريحان او اخص ويجوز ان يراد وذا الريحان
فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه والريحان اما فيعلان من روح فقلبت الواو
ياء وادغم ثم خفف او فعلان قلبت واوه ياء للتخفيف او للفرق بينه وبين
الروحان وهو ماله روح قاله القرطبى فباى الاء ربكما تكذبان الخطاب للثقلين المدلول
عليهما بقوله تعالى للانام وسينطق به قوله ايها الثقلان والفاء لترتيب الانكار والتوبيخ على
ما فصل من فنون النعماء وصنوف الالاء الموجبة للايمان والشكر حتما والتعرض لعنوان
الربوبية المنبئة عن المالكية الكلية مع الاضافة الى ضميرهم لتاكيد النكير وتشديد
التوبيخ ومعنى تكذيبهم بالالاء كفرهم بها اما بانكار كونه نعمة فى نفسه كتعليم
القرآن وما يستند اليه من النعم الدينية واما بانكار كونه من الله تعالى مع الاعتراف
بكونه نعمة فى نفسه كالنعم الدنيوية الواصلة اليهم باسناده الى غيره تعالى استقلالا او اشتراكا
صريحا او دلالة فان اشراكهم لالهتهم به فى قوله تعالى فى العبادة من دواعى اشراكهم لها به تعالى

والريحان صح

فيما يوجبها

فيما يوجبها والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب لما ان دلالة الالاء المذكورة على وجوب
الايمان والشكر شهادة منها بذلك فكفرهم بها تكذيب بها لا محالة اى فاذا كان الامر كما
فصل فباى فرد من افراد الالاء تكذبان مع ان كلا منها ناطق
بالحق شاهد بالصدق خلق الانسان من صلصال كالفخار تمهيد للتوبيخ على اخلالهم
بمواجب الشكر النعمة المتعلقة بذاتى كل واحد من الثقلين والصلصال الطين اليابس الذى
له صلصلة والفخار الخزف وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب جعله طينا
ثم حمأ مسنونا ثم صلصالا فلا تنافى بين الاية الناطقة باحدها وبين ما نطق باحد
الاخرين وخلق الجان اى الجن او ابا الجن من مارج من دخان صاف من نار بيان لمارج
فانه فى الاصل للمضطرب من مرج اذا اضطرب فباى الاء ربكما تكذبان مما افاض
عليكما فى تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم رب المشرقين ورب المغربين بالرفع على
انه مبتدأ محذوف اى الذى فعل ما ذكر من الافاعيل البديعة رب مشرقى
الصيف والشتاء ومغربيهما ومن قضيته ان يكون رب ما بينهما من الموجودات قاطبة وقيل على
الابتداء والخبر قوله تعالى مرج الخ وقرئ بالجر على انه بدل من ربكما فباى الاء ربكما تكذبان مما
فى ذلك من فوائد لا تحصى من اعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب
كل فصل فى وقته الى غير ذلك مرج البحرين اى ارسلهما من مرجت الدابة اذا ارسلتها
والمعنى ارسل البحر الملح والبحر العذب يلتقيان اى يتجاوزان ويتماس سطوحهما لا فصل بينهما
فى مرأى العين وقيل ارسل بحرى فارس والروم يلتقيان فى المحيط لانهما خليجان يتشعبان
منه بينهما برزخ اى حاجز من قدرة الله عز وجل او من الارض لا يبغيان اى لا يبغى
احدهما على الاخر بالممازجة وابطال الخاصية او لا يتجاوزان حديهما باغراق ما بينهما فباى
الاء ربكما تكذبان وليس منهما شئ يقبل التكذيب يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان اللؤلؤ
الدر والمرجان الخرز الاحمر المشهور وقيل اللؤلؤ كبار الدر والمرجان صغاره فنسبة
خروجهما حينئذ الى البحرين مع انهما انما يخرجان من الملح على ما قالوا لما قيل انهما لا يخرجان
الا من ملتقى الملح والعذب او لانهما لما التقيا وصارا كالشئ الواحد ساغ ان يقال يخرجان
منهما كما يقال يخرجان من البحر مع انهما لا يخرجان من جميع البحر ولكن من بعضه وهو
الاظهر وقرئ يخرج مبنيا للمفعول من الاخراج ومبنيا للفاعل بنصب اللؤلؤ والمرجان وبنون
العظمة فباى الاء ربكما تكذبان وله الجوار اى السفن جمع جارية وقرئ برفع الراء
وبحذف الياء كقول من قال لها ثنايا اربع حسان واربع فكلها ثمان المنشآت المرفوعات
الشرع او المصنوعات وقرئ بكسر الشين اى الرافعات الشرع او اللاتى ينشئن الامواج
بجريهن فى البحر كالاعلام كالجبال الشاهقة جمع علم وهو الجبل الطويل فباى الاء ربكما
تكذبان من خلق مواد السفن والارشاد الى اخذها وكيفية تركيبها واجرائها فى
البحر باسباب لا يقدر على خلقها وجمعها وترتيبها غيره سبحانه كل من عليها اى على
الارض من الحيوانات او المركبات ومن للتغليب او من الثقلين فان هالك لا محالة ويبقى
وجه ربك اى ذاته عز وجل ذو الجلال والاكرام اى ذو الاستغناء المطلق والفضل
التام وقيل الذى عنده الجلال والاكرام للمخلصين من عباده وهذه من عظائم صفاته
تعالى ولقد قال صلى الله عليه وسلم الظوا بياذا الجلال والاكرام وعنه عليه السلام انه
مر برجل وهو يصلى ويقول ياذا الجلال والاكرام فقال قد استجيب لك وقرئ ذى الجلال
والاكرام على انه صفة ربك واياما كان ففى وصفه تعالى بذلك بعد ذكر فناء الخلق وبقائه
تعالى ايذان بانه يفيض عليهم بعد فنائهم ايضا آثار لطفه وكرمه حسبما ينبئ عنه قوله
تعالى فباى الاء ربكما تكذبان فان احياءهم بالحيوة الابدية واثابتهم بالنعيم المقيم اجل
النعماء واعظم الالاء يسأله من فى السموات والارض قاطبة ما يحتاجون اليه فى ذواتهم
ووجوداتهم حدوثا وبقاء وفى سائر احوالهم سؤالا مستمرا بلسان المقال او بلسان الحال
فانهم كافة من حيث حقائقهم الممكنة بمعزل من استحقاق الوجود وما يتفرع عليه من
الكمالات بالمرة بحيث لو انقطع ما بينهم وبين العناية الالهية من العلاقة لم يشموا رائحة الوجود

اصلًا فهم فى كل آنٍ مستمرون على الاستدعاء والسؤال وقد مرّ فى تفسير قوله تعالى فان تعدّوا نعمة الله لا تحصوها من سورة ابراهيم كلّ يومٍ اى كل وقت من الاوقات هو فى شانٍ من الشؤن التى من جملتها اعطاء ما سألوا فانه تعالى لا يزال ينشئ اشخاصًا ويفنى آخرين ويأتى باحوالٍ ويذهب باحوالٍ حسبما تقتضيه مشيّته المبنيّة على الحِكَم البالغة وفى الحديث من شانه ان يغفر ذنبًا ويفرّج كربًا ويرفع قومًا ويضع آخرين قيل وفيه ردّ على اليهود حيث يقولون ان الله لا يقضى يوم السبت شيئًا فباىّ آلاء ربكما تكذبان مع مشاهدتكم لما ذكر من احسانه سنفرغ لكم اى سنتجرّد لحسابكم وجزائكم وذلك يوم القيمة عند انتهاء شؤن الخلق المشار اليها بقوله كل يومٍ هو فى شانٍ فلا يبقى حينئذٍ الاشان واحد هو الجزاء فعبّر عنه بالفراغ بهم بطريق التمثيل وقيل هو مستعار من قول المتهدّد لصاحبه سافرغ لك اى سأتجرّد للايقاع بك من كل ما يشغلنى عنه والمراد التوفّر على النكاية فيه والانتقام منه وقرئ سيفرغ مبنيًا للفاعل وللمفعول وقرئ سنفرغ اليكم اى سنقصد اليكم ايّها الثقلان هما الانس والجن سمّيا بذلك لثقلهما على الارض او لرزانة آرائهما او لانهما مثقلان بالتكليف فباىّ آلاء ربكما التى من جملتها التنبيه على ما سيلقونه يوم القيمة للتحذير عمّا يؤدّى الى سوء الحساب تكذبان بافواهكما واعمالكما يا معشر الجنّ والانس هما الثقلان خوطبا باسم جنسهما لزيادة التقرير ولانّ الجنّ مشهورون بالقدرة على الافاعيل الشاقّة فخوطبوا بما ينبئ عن ذلك لبيان انّ قدرتهم لا تفى بما كلّفوه ان استطعتم اى قدرتم على ان تنفذوا من اقطار السموات والارض اى ان تهربوا من قضائى وتخرجوا من ملكوتى ومن اقطار سمواتى وارضى فانفذوا منها وخلصوا انفسكم من عقابى لا تنفذون لا تقدرون على النفوذ الا بسلطانٍ اى بقوّة وقهرٍ وانتم من ذلك بمعزلٍ بعيد روى ان الملئكة تنزل فتحيط بجميع الخلائق فاذا رآهم الجنّ والانس هربوا فلا يأتون وجهًا الا وجدوا الملائكة احاطت به فباىّ آلاء ربكما تكذبان اى من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة على العقوبة يرسل عليكما شواظ قيل هو اللهب الخالص وقيل المختلط بالدخان وقيل اللهب الاحمر وقيل اللهب الاخضر المنقطع من النار وقيل هو الدخان الخارج من اللهب وقيل هو النار والدخان جميعًا وقرئ شواظ بكسر الشين من نارٍ متعلّق بيرسل او بمضمرٍ هو صفة لشواظ اى كائنٍ من نارٍ والتنوين للتفخيم ونحاسٌ اى دخانٌ وقيل صُفْرٌ مذابٌ يصبّ على رؤسهم وقرئ بكسر النون وقرئ بالجرّ عطفًا على نارٍ وقرئ نرسل بنون العظمة ونصب شواظًا ونحاسًا وقرئ نُحُسٌ جمع نحاس مثل لحاف ولحف وقرئ نحسّ اى نقتل بالعذاب فلا تنتصران اى لا تمتنعان فباىّ آلاء ربكما تكذبان فانّ بيان عاقبة ما هم عليه من الكفر والمعاصى لطف واىّ لطفٍ ونعمة اىّ نعمة فاذا انشقّت السماء اى انصدعت يوم القيمة فكانت وردةً كوردةٍ حمراء وقرئ وردةٌ بالرفع على ان كان تامّة اى حصلت سماء وردة فيكون من باب التجريد كقول من قال ولئن بقيت لأرحلنّ بغزوة تحوى الغنائم او يموت كريم كالدهان خبر ثانٍ لكانت او نعت لوردة او حال من اسم كانت اى كدهن الزيت وهو امّا جمع دهن او اسم لما يدهن به كالحزام والادام وقيل هو الاديم الاحمر وجواب اذا محذوف اى يكون من الاحوال والاهوال ما لا يحيط به دائرة المقال فباىّ آلاء ربكما تكذبان مع عظم شانها فيومئذٍ اى يوم اذ تنشقّ السماء حسبما ذكر لا يسئل عن ذنبه انس ولا جانّ لانهم يعرفون بسيماهم وذلك اوّل ما يخرجون من القبور ويحشرون الى الموقف ذودًا ذودًا على اختلاف مراتبهم وامّا قوله تعالى فوربّك لنسئلنّهم اجمعين ونحوه ففى موقف المناقشة والحساب وضمير ذنبه للانس لتقدّمه رتبة وافراده لما انّ المراد فردٌ من الانس كانه قيل لا يسئل عن ذنبه انسىّ ولا جنىّ فباىّ آلاء ربكما تكذبان مع كثرة منافعها فانّ الاخبار بما ذكر مما يزجركم عن الشرّ المؤدّى اليه وامّا ما قيل ممّا انعم الله تعالى على عباده المؤمنين فى هذا اليوم فلا تعلّق له بالمقام وقوله تعالى يعرف المجرمون بسيماهم استيناف يجرى مجرى التعليل لعدم السؤال قيل يعرفون بسواد الوجوه وزرقة العيون وقيل بما يعلوهم

من الكآبة والحزن فيؤخذ بالنواصى والاقدام الجارّ والمجرور هو القائم مقام الفاعل يقال اخذه اذا كان المأخوذ مقصودًا بالاخذ ومنه قوله تعالى خذوا حذركم ونحوه واخذ به اذا كان المأخوذ شيئًا من ملابسات المقصود بالأخذ ومنه قوله تعالى لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى وقول المستغيث خذ بيدى اخذ الله بيدك اى يجمع بين نواصيهم واقدامهم فى سلسلةٍ من وراء ظهورهم وقيل تسحبهم الملائكة تارةً تأخذ بالنواصى وتارة بالاقدام فباىّ آلاء ربكما تكذبان وقوله تعالى هذه جهنّم التى يكذّب بها المجرمون على ارادة القول اى يقال لهم ذلك بطريق التوبيخ على انّ الجملة امّا استيناف وقع جوابًا عن سؤالٍ ناشئ من حكاية الأخذ بالنواصى والاقدام لانّ الالف واللام عوض عن المضاف اليه وما بينهما اعتراض يطوفون بينها اى بين النار يحرقون بها وبين حميمٍ آنٍ ماءٍ بالغ من الحرارة اقصاها يصبّ عليهم او يسقون منه وقيل اذا استغاثوا من النار اغيثوا بالحميم فباىّ آلاء ربكما تكذبان وقد اشير الى سرّ كون بيان امثال هذه الأمور من قبيل الآلاء مرارًا ولمن خاف مقام ربّه شروع فى تعداد الآلاء الفائضة عليهم فى الآخرة بعد تعداد ما وصل اليهم فى الدنيا من الآلاء الدينيّة والدنيويّة واعلم ان ما عدّد فيما بين هذه الآية وبين خاتمة السورة الكريمة من فنون الكرامات كما انّ انفسها آلاء جليلة واصلة اليهم فى الآخرة كذلك حكاياتها الواصلة اليهم فى الدنيا آلاء عظيمة لكونها داعية لهم الى السعى فى تحصيل ما يؤدّى الى نيلها من الايمان والطاعة وانّ ما فصّل من فاتحة السورة الكريمة الى قوله تعالى كل يوم هو فى شانٍ من النعم الدينيّة والدنيويّة الانفسيّة والآفاقية آلاء جليلة واصلة اليهم فى الدنيا وكذلك حكاياتها من حيث ايجابها للشكر والمثابرة على ما يؤدّى الى استدامتها وامّا ما عدّد فيما بين قوله تعالى سنفرغ لكم وبين هذه الآية من الاهوال الهائلة التى ستقع فى الآخرة فليست من قبيل الآلاء وانّما الآلاء حكاياتها الموجبة للانزجار عمّا يؤدّى الى الابتلاء بها من الكفر والمعاصى كما اشير اليه فى تضاعيف تعدادها ومقامه تعالى موقفه الذى يقف فيه العباد للحساب يوم يقوم الناس لربّ العالمين او قيامه تعالى على احواله من قام عليه اذا راقبه او مقام الخائف عند ربّه للحساب باحد المعنيين واضافته الى الربّ للتفخيم والتهويل او مقحم للتهويل جنّتان جنّة للخائف الانسىّ وجنّة للخائف الجنّى فانّ الخطاب للفريقين والمعنى لكل خائفين منكما او لكل واحدٍ جنّة لعقيدته واخرى لعمله او جنّة لفعل الطاعات واخرى لترك المعاصى او جنّة يثاب بها واخرى يتفضّل بها عليه او روحانيّة وجسمانيّة وكذا ما جاء مثنّى بعد فباىّ آلاء ربكما تكذبان وقوله تعالى ذواتا افنانٍ صفة لجنّتان وما بينهما اعتراض وسّط بينهما تنبيهًا على انّ تكذيب كلّ من الموصوف والصفة موجب للانكار والتوبيخ والافنان امّا جمع فنّ اى ذواتا انواعٍ من الاشجار والثمار او جمع فننٍ اى ذواتا اغصانٍ متشعّبة من فروع الشجر وتخصيصها بالذكر لانها التى تورق وتثمر وتمدّ الظلّ فباىّ آلاء ربكما تكذبان وليس فيهما شئ يقبل التكذيب فيهما عينان تجريان صفة اخرى لجنّتان اى فى كل واحدة منهما عين تجرى كيف يشاء صاحبها فى الاعالى والاسافل وقيل تجريان من جبلٍ من مسك وعن ابن عباس والحسن تجريان بالماء الزلال احداهما التسنيم والاخرى السلسبيل وقيل احداهما من ماءٍ غير آسنٍ والاخرى من خمرٍ لذّةٍ للشاربين قال ابو بكر الورّاق فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه فى الدنيا تجريان من مخافة الله عزّ وجلّ فباىّ آلاء ربكما تكذبان وقوله تعالى فيهما من كل فاكهةٍ زوجان اى صنفان معروف وغريب او رطب ويابس صفة اخرى لجنّتان وتوسيط الاعتراض بين الصفات لما مرّ آنفًا فباىّ آلاء ربكما تكذبان وقوله تعالى متّكئين حال من الخائفين لانّ من خاف فى معنى الجمع او نصب على المدح على فرشٍ بطائنها من استبرقٍ من ديباجٍ ثخينٍ وحيث كانت بطائنها كذلك فما ظنّك بظهائرها وقيل ظهائرها من سندس وقيل من نور وجنى الجنّتين دانٍ اى ما يجتنى من اشجارهما من الثمار قريب ينالها القائم والقاعد والمضطجع قال ابن عباس تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولىّ الله ان شاء

قائمًا وان شاء قاعدًا وان شاء مضطجعًا وقرئ جنى بكسر الجيم فباى آلاء ربكما تكذبان وقوله تعالى فيهن اى فى الجنان المدلول عليها بقوله جنتان لما عرفت انهما لكل خائفين من الثقلين او لكل خائف حسب تعدد عمله وقد اعتبر الجمعية فى قوله متكئين وقيل فيما فيهما من الاماكن والقصور وقيل فى الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش قاصرات الطرف نساء يقصرن ابصارهن على ازواجهن لا ينظرن الى غيرهم لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان اى لم يمس الانسيات احد من الانس ولا الجنيات احد من الجن قبل ازواجهن المدلول عليهم بقاصرات الطرف وقيل بقوله متكئين وفيه دليل على ان الجن يطمثون وقرئ يطمثهن بضم الميم والجملة صفة لقاصرات الطرف لان اضافتها لفظية او حال منها لتخصصها بالاضافة فباى آلاء ربكما تكذبان وقوله تعالى كانهن الياقوت والمرجان اما صفة لقاصرات الطرف او حال منها كالتى قبلها او مشبهات بالياقوت فى حمرة الوجه والمرجان اى صغار الدر فى بياض البشرة وصفائها فان صغار الدر انصع بياضًا من كباره قيل ان الحوراء تلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من ورائها كما يرى الشراب الاحمر فى الزجاجة البيضاء فباى آلاء ربكما تكذبان وقوله تعالى هل جزاء الاحسان الا الاحسان استئناف مقرر لمضمون ما فصل قبله اى ما جزاء الاحسان فى العمل الا الاحسان فى الثواب فباى آلاء ربكما تكذبان وقوله ومن دونهما جنتان مبتدأ وخبر اى ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للخائفين المقربين جنتان آخريان لمن دونهم من اصحاب اليمين فباى آلاء ربكما تكذبان وقوله تعالى مدهامتان صفة لجنتان وسط بينهما الاعتراض لما ذكر من التنبيه على ان تكذيب كل من الموصوف والصفة حقيق بالانكار والتوبيخ اى خضراوان تضربان الى السواد من شدة الخضرة وفيه اشعار بان الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الارض وعلى الاوليين الاشجار والفواكه فباى آلاء ربكما تكذبان فيهما عينان نضاختان اى فوارتان بالماء والنضخ اكثر من النضح بالحاء المهملة وهو الرش فباى آلاء ربكما تكذبان فيهما فاكهة ونخل ورمان عطف الاخيران على الفاكهة عطف جبريل وميكائيل على الملائكة بيانًا لفضلهما فان ثمرة النخل فاكهة وغذاء والرمان فاكهة ودواء وعن هذا قال ابو حنيفة من حلف لا ياكل فاكهة فاكل رمانًا او رطبًا لم يحنث فباى آلاء ربكما تكذبان وقوله تعالى فيهن خيرات صفة اخرى لجنتان كالجملة التى قبلها والكلام فى جمع الضمير كالذى مر وخيرات مخففة من خيرات لان خيرًا الذى بمعنى اخير لا يجمع وقد قرئ على الاصل حسان اى حسان الخلق والخلق فباى آلاء ربكما تكذبان وقوله تعالى حور بدل من خيرات مقصورات فى الخيام قصرن فى خدورهن يقال امرأة قصيرة وقصورة اى مخدرة او مقصورات الطرف على ازواجهن وقيل ان الخيمة من خيامهن درة مجوفة فباى آلاء ربكما وقوله تعالى لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان كالذى مر من نظيره فى جميع الوجوه فباى آلاء ربكما تكذبان وقوله تعالى متكئين نصب على الاختصاص على رفرف خضر الرفرف اما اسم جنس او اسم جمع واحده رفرفة قيل هو ما تدلى من الاسرة من عالى الثياب وقيل هو ضرب من البسط او البسط وقيل الوسائد وقيل النمارق وقيل كل ثوب عريض رفرف ويقال لاطراف البسط وفضول الفسطاط رفارف ورفرف السحاب هيدبه وعبقرى حسان العبقرى منسوب الى عبقر تزعم العرب انه اسم بلد الجن فينسبون اليه كل شئ عجيب والمراد الجنس ولذلك وصف بالجمع حملًا على المعنى كما فى رفرف على احد الوجهين وقرئ على رفارف خضر بضمتين وعباقرى كمدائنى نسبة الى عباقر فى اسم البلد فباى آلاء ربكما تكذبان وقوله تعالى تبارك اسم ربك تنزيه وتقديس له تعالى فيه تقرير لما ذكر فى السورة الكريمة من الآلاء الفائضة على الانام اى تعالى اسمه الجليل الذى من جملته ما صدرت به السورة من اسم الرحمن المنبئ عن افاضة الآلاء المفصلة وارتفع مما لا يليق بشأنه من الامور التى من جملتها جحود نعمائه وتكذيبها واذا كان حال اسمه بملابسة دلالته عليه فما ظنك بذاته الاقدس الاعلى وقيل الاسم بمعنى الصفة وقيل مقحم كما فى قول من قال الى الحول ثم اسم السلام عليكما ذى الجلال والاكرام

وصف به الرب تكميلًا لما ذكر من التنزيه والتقرير وقرئ ذو الجلال على انه نعت للاسم عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الرحمن ادى شكر ما انعم الله تعالى عليه

سورة الواقعة مكية وهى تسع وتسعون آية بسم الله الرحمن الرحيم

اذا وقعت الواقعة اى اذا قامت القيمة وذلك عند النفخة الثانية والتعبير عنها بالواقعة للايذان بتحقق وقوعها لا محالة كانها واقعة فى نفسها مع قطع النظر عن الوقوع الواقع فى حيز الشرط كانه قيل كانت الكائنة وحدثت الحادثة وانتصاب اذا بمضمر ينبئ عن الهول والفظاعة كانه قيل اذا وقعت الواقعة يكون من الاهوال ما لا يفى به المقال وقيل بالنفى المفهوم من قوله تعالى ليس لوقعتها كاذبة اى لا يكون عند وقوعها نفس تكذب على الله تعالى او تكذب فى نفيها كما تكذب اليوم واللام كهى فى قوله تعالى يا ليتنى قدمت لحياتى وهذه الجملة على الوجه الاول اعتراض مقرر لمضمون الشرط على ان الكاذبة مصدر كالعافية اى ليس لاجل وقعتها وفى حقها كذب اصلا بل كل ما ورد فى شأنها من الاخبار حق صادق لا ريب فيه وقوله تعالى خافضة رافعة خبر مبتدأ محذوف اى هى خافضة لاقوام رافعة للآخرين وهو تقرير لعظمتها وتهويل لامرها فان الوقائع العظام شأنها كذلك او بيان لما يكون يومئذ من حط الاشقياء الى الدركات ورفع السعداء الى الدرجات ومن زلزلة الاشياء وازالة الاجرام عن مقارها بنثر الكواكب واسقاط السماء كسفا وتسيير الجبال فى الجو كالسحاب وتقديم الخفض على الرفع للتشديد فى التهويل وقرئ خافضة رافعة بالنصب على الحال من الواقعة وقوله تعالى اذا رجت الارض رجا اى زلزلت زلزالا شديدا بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل متعلق بخافضة رافعة اى تخفض وترفع وقت رج الارض اذ عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ويرتفع ما هو منخفض او بدل من اذا وقعت وبست الجبال بسا اى فتتت حتى صارت مثل السويق الملتوت من بس السويق اذا لته او سيقت وسيرت من اماكنها من بس الغنم اذا ساقها كقوله تعالى وسيرت الجبال وقرئ رجت وبست اى ارتجت وذهبت فكانت اى فصارت بسبب ذلك هباء غبارا منبثا منتشرا وكنتم اما خطاب للامة الحاضرة والامم السالفة تغليبا او للحاضرة فقط ازواجا اى اصنافا ثلاثة فكل صنف يكون مع صنف آخر فى الوجود او فى الذكر فهو زوج وقوله تعالى فاصحاب الميمنة ما اصحاب الميمنة واصحاب المشأمة ما اصحاب المشأمة تقسيم وتنويع للازواج الثلاثة مع الاشارة الاجمالية الى احوالهم قبل تفصيلها فقوله تعالى فاصحاب الميمنة مبتدأ وقوله ما اصحاب الميمنة خبره على ان ما الاستفهامية مبتدأ ثان ما بعده خبره والجملة خبر الاول والاصل ما هم اى اى شئ هم فى حالهم وصفتهم فان ما وان شاعت فى طلب مفهوم الاسم والحقيقة لكنها قد يطلب بها الصفة والحال تقول ما زيد فيقال عالم او طبيب فوضع الظاهر موضع الضمير لكونه ادخل فى التفخيم وكذا الكلام فى قوله واصحاب المشأمة ما اصحاب المشأمة والمراد تعجيب السامع من شأن الفريقين فى الفخامة والفظاعة كانه قيل فاصحاب الميمنة فى غاية حسن الحال واصحاب المشأمة فى نهاية سوء الحال وتكلموا فى الفريقين فقيل اصحاب الميمنة اصحاب المنزلة السنية واصحاب المشأمة اصحاب المنزلة الدنية اخذا من تيمنهم بالميامن وتشأمهم بالشمائل وقيل الذين يؤتون صحائفهم بايمانهم والذين يؤتونها بشمائلهم وقيل الذين يؤخذ بهم ذات اليمين الى الجنة والذين يؤخذ بهم ذات الشمال الى النار وقيل اصحاب اليمن واصحاب الشؤم فان السعداء ميامين على انفسهم بطاعتهم والاشقياء مشائيم عليها بمعاصيهم وقوله تعالى والسابقون السابقون هو القسم الثالث من الازواج الثلاثة ولعل تاخير ذكرهم مع كونهم اسبق الاقسام واقدمهم فى الفضل ليقترن ذكرهم ببيان محاسن احوالهم على ان ايرادهم بعنوان السبق مطلقا معرب عن احرازهم لقصب السبق من جميع الوجوه وتكلموا فيهم ايضا فقيل هم الذين سبقوا الى الايمان والطاعة عند ظهور الحق من غير تلعثم وتوان وقيل

الذين سبقوا في حيازة الفضائل والكمالات وقيل هم الذين صلوا القبلتين كما قال تعالى والسابقون
الاولون من المهاجرين والانصار وقيل هم السابقون الى الصلوات الخمس وقيل المسارعون
فى الخيرات دائما ما كان فالجملة مبتدأ وخبر والمعنى والسابقون هم الذين اشتهرت احوالهم
وعرفت محاسنهم كقول ابى النجم وشعرى شعرى وفيه من تفخيم شأنهم والايذان بشيوع استغنائهم
عن الوصف بالجميل ما لا يخفى وقيل السابقون الى طاعة الله تعالى السابقون الى الجنة او
السابقون الى الخير وقوله تعالى اولئك اشارة الى السابقين وما فيه من معنى البعد مع
قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد منزلتهم فى الفضل ومحله الرفع على الابتداء خبره ما بعده
اى اولئك الموصوفون بذلك النعت الجليل المقربون اى الذين قربت الى العرش العظيم
درجاتهم واعليت مراتبهم ورقيت الى حظائر القدس نفوسهم الزكية هذا اظهر
ما ذكر فى اعراب هذه الجمل واشهره والذى يقتضيه جزالة التنزيل ان قوله تعالى فاصحاب
الميمنة خبر مبتدأ محذوف وكذا قوله تعالى واصحاب المشأمة وقوله والسابقون فان
المترقب عند بيان انقسام الناس الى الاقسام الثلاثة بيان انفس الاقسام واما اوصافها
واحوالها فحقها ان تبين بعد ذلك باسنادها اليها والتقدير فاحدها اصحاب الميمنة
والآخر اصحاب المشأمة والثالث السابقون خلا انه لما اخر بيان احوال القسمين الاولين
عقب كل منهما بجملة معترضة بين القسمين منبئة عن ترامى احوالهما فى الخير والشر انباء
اجماليا مشعرا بان لاحوال كل منهما تفصيلا مترقبا لكن لا على ان ما الاستفهامية مبتدأ
وما بعدها خبر على ما رآه سيبويه فى امثاله بل على انها خبر لما بعدها فان مناط
الافادة بيان ان اصحاب الميمنة امر بديع كما يفيده كونها خبرا لا بيان ان امرا بديعا اصحاب
الميمنة كما يفيده كونها مبتدأ وكذا الحال فى ما اصحاب المشأمة واما القسم الاخير
فحيث قرن بيان محاسن احواله بذكره لم يحتج فيه الى تقديم الانموذج فقوله تعالى
السابقون مبتدأ والاظهار فى مقام الاضمار للتفخيم واولئك مبتدأ ثان او بدل من
الاول وما بعده خبر له او للثانى والجملة خبر للاول وقوله تعالى فى جنات النعيم
متعلق بالمقربون او بمضمر هو حال من ضميره اى كائنين فى جنات النعيم وقيل خبر ثان
لاسم الاشارة وفيه ان الاخبار بكونهم فيها بعد الاخبار بكونهم مقربين ليس فيه
مزيد مزية وقرئ فى جنة النعيم وقوله تعالى ثلة من الاولين خبر مبتدأ محذوف
اى هم امة كثيرة من الاولين وهم الامم السالفة من لدن آدم الى نبينا عليهم السلام
وعلى من بينهما من الانبياء العظام وقليل من الآخرين اى من هذه الامة ولا يخالفه
قوله عليه السلام ان امتى يكثرون سائر الامم فان اكثرية سابقى الامم السالفة من
سابقى هذه الامة لا تمنع اكثرية تابعى هؤلاء من تابعى اولئك ولا يرده قوله تعالى فى اصحاب
اليمين ثلة من الاولين وثلة من الآخرين لان كثرة كل من الفريقين فى انفسهما لا تنافى اكثرية
احدهما من الآخر وسيأتى ان الثلتين من هذه الامة وقد روى مرفوعا ان الاولين
والآخرين ههنا ايضا متقدمو هذه الامة ومتأخروهم واشتقاق الثلة من الثل
وهو الكسر على سرر موضونة حال اخرى من المقربين او من ضميرهم فى الحال الاولى وقيل
خبر آخر للضمير والموضونة المنسوجة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت او المتواصلة
من الوضن وهو النسج متكئين عليها متقابلين حالان من الضمير المستكن فيما تعلق به
على سرر اى مستقرين على سرر متكئين عليها متقابلين لا ينظر بعضهم من اقفاء بعض
وهو وصف لهم بحسن العشرة وتهذيب الاخلاق والآداب يطوف عليهم حال
اخرى او استيناف اى يدور حولهم للخدمة ولدان مخلدون اى مبقون ابدا
على شكل الولدان وطوره لا يتحولون عنها وقيل مقرطون والخلد القرط قيل هم اولاد
اهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيئات فيعاقبوا عليها روى ذلك
عن على وعن الحسن وفى الحديث اولاد الكفار خدام اهل الجنة باكواب بآنية لا عرى
لها ولا خراطيم واباريق اى آنية ذات عرى وخراطيم وكأس من معين اى خمر
جارية من العيون قيل انما افرد الكأس لانها لا تسمى كأسا الا اذا كانت مملوءة لا

يصدعون عنها اى بسببها وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها وقرئ لا يصدعون اى لا
يتصدعون ولا يتفرقون كقوله تعالى يومئذ يصدعون وقرئ ولا يصدعون اى لا يفرق
بعضهم بعضا ولا ينزفون اى لا يسكرون من انزف الشارب اذا نفد عقله او شرابه
وفاكهة مما يتخيرون اى يختارونه ويأخذون خيره وافضله ولحم طير مما
يشتهون اى يتمنون وقرئ ولحوم طير وحور عين بالرفع عطف على ولدان او مبتدأ
محذوف الخبر اى وفيها او لهم حور وقرئ بالجر عطفا على جنات النعيم كانه قيل هم
فى جنات وفاكهة ولحم ومصاحبة حور او على اكواب لان معنى يطوف عليهم ولدان
مخلدون باكواب ينعمون باكواب وبالنصب اى ويؤتون حورا كامثال اللؤلؤ المكنون
صفة لحور او حال جزاء بما كانوا يعملون مفعول له اى يفعل بهم ذلك كله جزاء باعمالهم
او مصدر مؤكد اى يجزون جزاء لا يسمعون فيها لغوا اى باطلا ولا تأثيما اى ولا
نسبة الى الاثم اى لا لغو فيها ولا تأثيم ولا سماع كقوله تعالى ولا ترى الضب بها ينجحر الا
قيلا اى قولا سلاما سلاما بدل من قيلا كقوله تعالى لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما او
صفته او مفعوله بمعنى لا يسمعون فيها الا ان يقولوا سلاما سلاما والمعنى انهم يفشون السلام
فيسلمون سلاما بعد سلام اى لا يسمع كل من المسلم والمسلم عليه الا سلام الآخر بدءا
او ردا وقرئ سلام سلام على الحكاية وقوله تعالى واصحاب اليمين شروع فى تفصيل
ما اجمل عند التقسيم من شؤونهم الفاضلة اثر تفصيل شؤون السابقين وهو مبتدأ
وقوله ما اصحاب اليمين جملة استفهامية مسوقة لتفخيم والتعجيب من حالهم وقد
عرفت كيفية سبكها ومحلها اما الرفع على انها خبر للمبتدأ او معترضة لها ولا محل لها
والخبر قوله تعالى فى سدر مخضود وهو على الاول خبر ثان للمبتدأ او خبر لمبتدأ
محذوف والجملة استيناف لبيان ما ابهم فى قوله ما اصحاب اليمين فى علو الشأن
اى هم فى سدر غير ذى شوك لا كسدر الدنيا وهو شجر النبق كانه خضد شوكه اى
قطع وقيل مخضود اى مثنى اغصانه لكثرة حمله من خضد الغصن اذا ثناه وهو رطب
وطلح منضود قد نضد حمله من اسفله الى اعلاه ليست له ساق بارزة وهو شجر الموز
او ام غيلان وله انوار كثيرة منتظمة طيبة الرائحة وعن السدى شجر يشبه طلح الدنيا
ولكن له ثمر احلى من العسل وعن على رضى الله عنه انه قرأ وطلع وما شأن الطلح وقرأ
قوله تعالى لها طلع نضيد فقيل او نحولها قال اى القرآن لا يهاج ولا يحول وعن ابن
عباس نحوه وظل ممدود ممتد منبسط لا يتقلص ولا يتفاوت كظل ما بين طلوع
الفجر وطلوع الشمس وماء مسكوب يسكب لهم اينما شاؤوا وكيف ما ارادوا بلا
تعب او مصبوب سائل يجرى على الارض فى غير اخدود وكانه مثل حال السابقين باقصى ما
يتصور لاهل المدن وحال اصحاب اليمين باكمل ما يتصور لاهل البوادى ايذانا
بالتفاوت بين الحالين وفاكهة كثيرة بحسب الانواع والاجناس لا مقطوعة
فى وقت من الاوقات كفواكه الدنيا ولا ممنوعة من متناوليها بوجه من الوجوه
لا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا وقرئ فاكهة كثيرة بالرفع على وهناك
فاكهة الخ كقوله تعالى وحور عين وفرش مرفوعة اى رفيعة القدر او منضدة مرتفعة
او مرفوعة على الاسرة وقيل الفرش النساء حيث يكنى بالفراش عن المرأة وارتفاعها كونهن
على الارائك قال تعالى هم وازواجهم على الارائك متكئون ويدل عليه قوله تعالى انا
انشأناهن انشاء وعلى التفسير الاول اضمر لهن لدلالة ذكر الفرش التى هى المضاجع
عليهن دلالة بينة والمعنى ابتدأنا خلقهن ابتداء جديدا او ابدعناهن من غير ولادة
ابداء او اعادة وفى الحديث هن اللواتى قبضن فى دار الدنيا عجائز شمطا رمصا جعلهن
الله بعد الكبر اترابا على ميلاد واحد فى الاستواء كلما اتاهن ازواجهن وجدوهن
ابكارا وذلك قوله تعالى فجعلناهن ابكارا وقوله تعالى عربا جمع عروبة وهى المتحببة
الى زوجها الحسنة التبعل وقرئ عربا بسكون الراء اترابا مستويات فى السن بنات
ثلاث وثلاثين سنة وكذا ازواجهن واللام فى قوله تعالى لاصحاب اليمين متعلقة

باشنأنا او جعلنا او باترابا كقولك هذا ترب لهذا اى مساوله فى السن وقيل مجذوف هو
صفة لابكارا اى كائنات لاصحاب اليمين او خبر مبتدا محذوف اى هن لاصحاب اليمين
وقيل خبر لقوله تعالى ثلة من الاولين وثلة من الآخرين وهو بعيد بل هو خبر مبتداء
محذوف ختمت به قصة اصحاب اليمين اى هم امة من الاولين وامة من الآخرين فقد
مر الكلام فيهما وعن ابى العالية ومجاهد وعطاء والضحاك ثلة من الاولين اى من سابقى
هذه الامة وثلة من الآخرين من هذه الامة فى آخر الزمان وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس
فى هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم جميعا من امتى واصحاب الشمال
شروع فى تفصيل احوالهم التى اشير عند التنويع الى هولها وفظاعتها بعد تفصيل حسن
حال اصحاب اليمين والكلام فى قوله تعالى ما اصحاب الشمال عين ما فصل فى نظيره وكذا فى
قوله تعالى فى سموم وحميم والسموم حر نار تنفذ فى المسام والحميم الماء المتناهى
فى الحرارة وظل من يحموم من دخان اسود بهيم لا بارد كسائر الظلال ولا كريم
فيه خير نفى الجملة سمى ذلك ظلا ثم نفى عنه وصفاه البرد والكرم الذى عبر به عن
دفع اذى الحر لتحقيق انه ليس بظل وقرئ لا بارد ولا كريم بالرفع اى لا هو بارد ولا
كريم وقوله تعالى انهم كانوا قبل ذلك مترفين تعليل لابتلائهم بما ذكر من
العذاب اى انهم كانوا قبل ما ذكر من سوء العذاب فى الدنيا منعمين بانواع النعم من الماكل
والمشارب والمساكن الطيبة والمقامات الكريمة منهمكين فى الشهوات فلا جرم
عذبوا بنقائضها وكانوا يصرون على الحنث العظيم اى الذنب العظيم الذى
هو الشرك ومنه قولهم بلغ الغلام الحنث اى الحلم ووقت المؤاخذة بالذنب وكانوا
يقولون لغاية عتوهم وعنادهم ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما اى كان بعض
اجزائنا من اللحم والجلد ترابا وبعضها عظاما نخرة وتقديم التراب لعراقته
فى الاستبعاد وانقلابه من الاجزاء البادية واذا متمحضة للظرفية والعامل فيها ما
دل عليه قوله تعالى ائنا لمبعوثون لا نفسه لان ما بعدان واللام والهمزة لا يعمل
فيما قبلها وهو نبعث وهو المرجع للانكار وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيص
انكاره به فانهم منكرون للاحياء بعد الموت وان كان البدن على حاله بل لتقوية الانكار
للبعث بتوجيهه اليه فى حالة منافية له بالكلية وتكرير الهمزة لتاكيد النكير وتحلية
الجملة بان لتاكيد الانكار لا انكار التاكيد كما عسى يتوهم من ظاهر النظم فان تقديم الهمزة
لاقتضائها الصدارة كما فى مثل قوله تعالى افلا تعقلون على راى الجمهور فان
المعنى عندهم تعقيب الانكار لا انكار التعقيب كما هو المشهور وليس مدار انكارهم
كونهم ثابتين فى المبعوثية بالفعل حال كونهم ترابا وعظاما بل كونهم بعرضية ذلك
واستعدادهم له ومرجعه الى انكار البعث بعد تلك الحالة وفيه من الدلالة على غلوهم
فى الكفر وتماديهم فى الضلال ما لا مزيد عليه وتكرير الهمزة فى قوله تعالى او آباؤنا
الاولون لتاكيد النكير والواو للعطف على المستكن فى لمبعوثون وحسن ذلك للفصل
بالهمزة يعنون ان بعث آبائهم الاولين ابعد من الوقوع وقرئ او آباؤنا فقل ردا
لانكارهم وتحقيقا للحق ان الاولين والآخرين من الامم الذين من جملتهم
انتم وآباؤكم وفى تقديم الاولين مبالغة فى الرد حيث كان انكارهم لبعث آبائهم
اشد من انكارهم لبعثهم مع مراعاة الترتيب الوجودى لمجموعون بعد البعث وقرئ
لمجمعون الى ميقات يوم معلوم الى ما وقتت به الدنيا من يوم معلوم والاضافة
بمعنى من كخاتم فضة ثم انكم ايها الضالون عطف على ان الاولين داخل تحت القول
وثم للتراخى زمانا او رتبة المكذبون اى بالبعث والخطاب لاهل مكة واضرابهم لآكلون
بعد البعث والجمع ودخول جهنم من شجر من زقوم من الاولى لابتداء الغاية
والثانية لبيان الشجر وتفسيره اى مبتدئون الاكل من شجر هو زقوم وقيل من الثانية
متعلقة بمضمر هو وصف لشجر اى كائن من زقوم فمالئون منها البطون اى بطونكم
من شدة الجوع فشاربون عليه عقيب ذلك بلا ريث من الحميم اى الماء الحار فى الغاية

وثانيث ضمير الشجرة لا وتذكيره ثانيا باعتبار المعنى واللفظ وقرئ من شجرة فضمير عليه حينئذ
للزقوم وقيل الاكل وقوله تعالى فشاربون شرب الهيم كالتفسير لما قبله على طريقة قوله
تعالى فكذبوا عبدنا اى لا يكون شربكم شربا معتادا بل يكون مثل شرب الهيم وهى الابل التى
بها الهيام وهو داء يصيبها فتشرب ولا تروى جمع اهيم وهيماء وقيل الهيم الرمال
على انه جمع الهيام بفتح الهاء وهو الرمل الذى لا يتماسك جمع على فعل كسحاب وسحب
ثم خفف وفعل به ما فعل بجمع ابيض والمعنى انه يسلط عليهم من الجوع والتهاب
النار فى احشائهم ما يضطرهم الى اكل الزقوم الذى هو كالمهل فاذا ملؤا منه بطونهم
وهو فى غاية الحرارة والحرارة سلط عليهم من العطش ما يضطرهم الى شرب الحميم
الذى يقطع امعاءهم فيشربونه شرب الهيم وقرئ شرب الهيم بالفتح وهو ايضا
مصدر وقرئ بالكسر على انه اسم المشروب هذا الذى ذكر من انواع العذاب نزلهم
يوم الدين اى يوم الجزاء فاذا كان ذلك نزلهم وهو ما يعد للنازل مما حضر فما ظنك
بما لهم بعد ما استقر لهم القرار واطمأنت بهم الدار فى النار وفيه من التهكم بهم
ما لا يخفى وقرئ نزلهم بسكون الزاء تخفيفا والجملة مسوقة من جهته تعالى بطريق
الفذلكة مقررة لمضمون الكلام الملقن غير داخلة تحت القول وقوله تعالى نحن خلقناكم
فلولا تصدقون تلوين للخطاب وتوجيه له الى الكفرة بطريق الالزام والتبكيت والفاء
لترتيب التحضيض على ما قبلها اى فهلا تصدقون بالخلق فان ما لا يحققه العمل ولا
يساعده بل ينبئ عن خلافه ليس من التصديق فى شئ وقيل بالبعث استدلالا
عليه بالانشاء فان من قدر عليه قدر على الاعادة حتما والاول هو الوجه كما ستحيط
به خبرا افرأيتم ما تمنون اى تقذفونه فى الارحام من النطف وقرئ بفتح التاء من
منى النطفة بمعنى امناها اانتم تخلقونه اى تقدرونه وتصورونه بشرا سويا
ام نحن الخالقون له من غير دخل شئ فيه وام قيل منقطعة لان ما بعدها جملة
فالمعنى بل انحن الخالقون على ان الاستفهام للتقرير وقيل متصلة ومجئ الخالقون
بعد نحن بطريق التاكيد لا بطريق الخبرية اصالة نحن قدرنا بينكم الموت اى
قسمناه عليكم ووقتنا موت كل احد بوقت معين حسبما تقتضيه مشيئتنا المبنية على
الحكم البالغة وقرئ قدرنا مخففا وما نحن بمسبوقين اى انا قادرون على ان نبدل
امثالكم لا يغلبنا احد على ان نذهبكم ونأتى مكانكم اشباهكم من الخلق وننشئكم
فيما لا تعلمون من الخلق والاطوار ولا تعهدون بمثلها قال الحسن اى نجعلكم قردة وخنازير
المعنى وننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا فمن هذا شانه كيف يعجز عن اعادتكم ويحتمل المعنى
وما سبقنا احد فهرب من الموت او يغير وقته وعلى ان نبدل الخ اما حال من فاعل قدرنا
او علة للتقدير وعلى بمعنى اللام وما بينهما اعتراض ولقد علمتم النشأة الاولى هى
خلقهم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة وقيل فطرة آدم عليه السلام من
التراب فلولا تذكرون فهلا تتذكرون ان من قدر عليها قدر على النشأة الاخرى
حتما فانه اقل صنعا لحصول المواد وتخصيص الاجزاء او سبق المثال وفيه دليل
على صحة القياس وقرئ فلولا تذكرون من الثلاثى وفى الخبر عجبا كل العجب للمكذب بالنشأة
الآخرة وهو يسعى لدار الغرور افرأيتم ما تحرثون اى تبذرون حبه وتعملون
فى ارضه اانتم تزرعونه تنبتونه وتردونه نباتا ام نحن الزارعون
اى المنبتون لا انتم والكلام فى ام كما مر آنفا لو نشاء لجعلناه حطاما هشيما متكسرا
بعد ما انبتناه وصار بحيث طمعتم فى حيازة غلاله فظلتم بسبب ذلك تفكهون تعجبون
من سوء حاله اثر ما شاهدتموه على احسن ما يكون من الحال او تندمون على ما تعبتم
فيه او انفقتم عليه او ما اقترفتم لاجله من المعاصى فتتحدثون فيه والتفكه التنقل
بصنوف الفاكهة وقد استعير للتنقل بالحديث وقرئ تفكنون اى تندمون وقرئ فظلتم بالكسر
وفظللتم على الاصل انا لمغرمون اى لملزمون غرامة ما انفقنا او مهلكون بهلاك رزقنا
من الغرام وهو الهلاك وقرئ ائنا على الاستفهام والجملة على القراءتين مقدرة بقول هو
فى حيز النصب على الحالية من فاعل تفكهون اى قائلين او تقولون انا لمغرمون بل نحن محرومون

حصاد رزقنا او محارفون محدودون لا حظ لنا ولا بخت لا مجدودون أفرأيتم الماء
الذى تشربون عذباً فراتاً وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعه لان الشرب
اهم المقاصد المنوطة به أأنتم انزلتموه من المزن اى من السحاب واحده مزنة وقيل
هو السحاب الابيض وماؤه اعذب أم نحن المنزلون له بقدرتنا لو نشاء جعلناه
اجاجاً ملحاً زعاقاً لا يمكن شربه وحذف اللام ههنا مع اثباتها فى الشرطية الاولى
للتعويل على علم السامع او الفرق بين المطعوم والمشروب فى الاهمية وصعوبة الفقد و
الشرطيتان مستأنفتان مسوقتان لبيان ان عصمته تعالى للزرع والماء عما يخل بالتمتع بهما
نعمة اخرى بعد نعمة الانبات والانزال مستوجبة للشكر فقوله تعالى فلولا تشكرون
تخصيص على الشكر الكل أفرأيتم النار التى تورون اى تقدحونها وتستخرجونها من الزناد
أأنتم انشأتم شجرتها التى منها الزناد وهى المرخ والعفار أم نحن المنشؤن
لها بقدرتنا والتعبير عن خلقها بالانشاء المنبئ عن بديع الصنع المعرب عن كمال القدرة
والحكمة لما فيه من الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الشجر التى لا تخلو عن النار حتى قيل
فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار كما ان التعبير عن نفخ الروح بالانشاء فى قوله تعالى
ثم انشأناه خلقاً آخر لذلك وقوله تعالى نحن جعلناها تذكرة استئناف مبين لمنافعها
اى جعلناها تذكرة لنار جهنم حيث علقنا بها اسباب المعاش لينظروا اليها ويذكروا
ما اوعدوا به من نار جهنم او تذكرة وانموذجاً من جهنم لما روى عن النبى صلى الله
عليه وسلم ناركم هذه التى يوقدها بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم وقيل
تبصرة فى امر البعث فانه ليس بابدع من اخراج النار من الشئ الرطب ومتاعاً ومنفعة
للمقوين للذين ينزلون القواء وهى القفر وتخصيصهم بذلك لانهم احوج اليها فان
المقيمين او النازلين بقرب منهم ليسوا بمضطرين الى الاقتداح بالزناد وقد جوز ان يراد
بالمقوين الذين خلت بطونهم ومزاودهم من الطعام وهو بعيد لعدم اختصاصها بهم
وسد خللهم فيما لا يؤكل الا بالطبخ وتأخير هذه المنفعة للتنبيه على ان الاهم هو النفع
الاخروى والفاء فى قوله تعالى فسبح باسم ربك العظيم لترتيب ما بعدها على ما عدد من
بدائع صنعه تعالى وروائع نعمه الموجبة لتسبيحه تعالى اما تنزيهاً له تعالى عما يقوله الجاحدون
بوحدانيته الكافرون بنعمته مع عظمها وكثرتها او تعجباً من امرهم فى غمط تلك النعم
الباهرة مع جلالة قدرها وظهور امرها او شكراً على تلك النعم السابغة اى فاحدث
التسبيح بذكر اسمه تعالى او بذكره فان اطلاق الاسم للشئ ذكر له والعظيم صفة للاسم
او الرب فلا اقسم اى فاقسم ولا مزيدة للتأكيد كما فى قوله تعالى لئلا يعلم او فلانا اقسم
فحذف المبتدأ واشبع فتحة لام الابتداء ويعضده قراءة من قرأ فلأقسم او فلا رد لكلام
يخالف المقسم عليه واما ما قيل من ان المعنى فلا اقسم اذ الامر اوضح من ان يحتاج الى
قسم فيأباه تعيين المقسم به وتفخيم شأن المقسم به بمواقع النجوم اى بمساقطها
وهى مغاربها وتخصيصها بالقسم لما فى غروبها من زوال اثرها والدلالة على وجود
مؤثر دائم لا يتغير او لان ذلك وقت قيام المتهجدين والمبتهلين اليه تعالى واوان نزول
الرحمة والرضوان عليهم او بمنازلها ومجاريها فان له تعالى فى ذلك من الدليل على
عظم قدرته وكمال حكمته ما لا يحيط به البيان وقيل النجوم نجوم القرآن ومواقعها
اوقات نزولها وقوله تعالى وانه لقسم لو تعلمون عظيم اعتراض فى اعتراض قصد
به المبالغة فى تحقيق مضمون الجملة القسمية وتأكيده حيث اعترض بقوله وانه لقسم
بين القسم وجوابه الذى هو قوله تعالى انه لقرآن كريم اى كثير النفع لاشتماله على
اصول العلوم المهمة فى صلاح المعاش والمعاد او حسن مرضى او كريم عند الله تعالى وقوله
تعالى لو تعلمون بين الموصوف والصفة وجواب لو اما متروك اريد به نفى علمهم او
محذوف ثقة بظهوره اى لعظمتموه او لعملتم بموجبه فى كتاب مكنون اى مصون
من غير المقربين من الملائكة لا يطلع عليه من سواهم وهو اللوح لا يمسه الا المطهرون
اما صفة اخرى لكتاب فالمراد بالمطهرين الملائكة المنزهون عن الكدورات الجسمانية واوضار

الاوزار

الاوزار او للقرآن فالمراد بهم المطهرون من الاحداث فيكون نفياً بمعنى النهى اى لا ينبغى
ان يمسه الا من كان على طهارة من الناس على طريقة قوله صلى الله عليه وسلم المسلم اخو المسلم
لا يظلمه ولا يسلمه اى لا ينبغى له ان يظلمه او يسلمه الى من يظلمه وقيل لا يطلبه الا المطهرون
من الكفر وقرئ المتطهرون والمطهرون بالادغام والمطهرون من اطهره بمعنى طهره
والمطهرون اى انفسهم او غيرهم بالاستغفار او غيره تنزيل من رب العالمين
صفة اخرى للقرآن وهو مصدر نعت به حتى جرى مجرى اسمه وقرئ تنزيلاً أفبهذا
الحديث الذى ذكرت نعوته الجليلة الموجبة لاعظامه واجلاله وهو القرآن الكريم
انتم مدهنون اى متهاونون به كمن يدهن فى الامر اى يلين جانبه ولا يتصلب
فيه تهاوناً به وتجعلون رزقكم اى شكر رزقكم انكم تكذبون اى تضعون
التكذيب موضع الشكر وقرئ وتجعلون شكركم انكم تكذبون اى تجعلون شكركم لنعمة
القرآن انكم تكذبون به وقيل الرزق المطر والمعنى وتجعلون شكر ما يرزقكم الله تعالى
من الغيث انكم تكذبون بكونه من الله تعالى حيث تنسبونه الى الانواء والاول هو الاوفق
لسباق النظم الكريم وسياقه فان قوله عز وجل فلولا اذا بلغت الحلقوم الى تبكيت
مبنى على تكذيبهم بالقرآن فيما نطق به قوله تعالى نحن خلقناكم الى هنا من القوارع
الدالة على كونهم تحت ملكوته تعالى من حيث ذواتهم ومن حيث طعامهم
وشرابهم وسائر اسباب معايشهم كما ستقف عليه ولولا للتحضيض لاظهار عجزهم
واذا ظرفية اى فهلا اذا بلغت النفس اى الروح وقيل نفس احدكم الحلقوم وتداعت الى
الخروج وانتم حينئذ ايها الحاضرون حول صاحبها تنظرون الى ما هو فيه من الغمرات ونحن
اقرب اليه علماً وقدرة وتصرفاً منكم حيث لا تعرفون من حاله الا ما تشاهدونه من آثار
الشدة من غير ان تقفوا على كنهها وكيفيتها واسبابها ولا ان تقدروا على دفع ادنى
شئ منها ونحن المتولون لتفاصيل احواله بعلمنا وقدرتنا او بملائكة الموت ولكن لا تبصرون لا
تدركون ذلك لجهلكم بشؤننا وقوله تعالى فلولا ان كنتم غير مدينين اى غير مربوبين من
دان السلطان رعيته اذا ساسهم واستعبدهم ناظر الى قوله تعالى نحن خلقناكم فلولا تصدقون
فان التحضيض يستدعى عدم المحضض عليه حتماً وقوله تعالى ترجعونها اى النفس الى
مقرها هو العامل فى اذا والمحضض عليه بلولا الاولى والثانية مكررة للتأكيد وهى مع
ما فى حيزها دليل جواب الشرط والمعنى ان كنتم غير مربوبين كما ينبئ عنه عدم تصديقكم بخلقنا
اياكم فهلا ترجعون النفس الى مقرها عند بلوغها الحلقوم ان كنتم صادقين فى اعتقادكم
فان عدم تصديقهم بخالقيته تعالى لهم عبارة عن تصديقهم بعدم خالقيته تعالى بموجب
مذهبهم وقوله تعالى فاما ان كان من المقربين الى شروع فى بيان حال المتوفى بعد الممات اثر بيان
حاله عند الوفاة اى فاما ان كان الذى بين حاله من السابقين من الازواج عبر عنهم باجل اوصافهم
فروح اى فله استراحة وقرئ فروح بضم الراء وفسر بالرحمة لانها سبب لحياة المرحوم
وبالحيوة الدائمة وريحان ورزق وجنة نعيم اى ذات تنعم واما ان كان من اصحاب
اليمين عبر عنهم بالعنوان السابق اذ لم يذكر لهم فيما سبق وصف واحد ينبئ عن شأنهم
سواه كما ذكر للفريقين الآخرين وقوله تعالى فسلام لك من اصحاب اليمين اخبار من
جهته تعالى بتسليم بعضهم على بعض كما يفصح عنه الكلام لا حكاية انشاء سلام بعضهم
على بعض والا لقيل عليك والالتفات الى خطاب كل واحد منهم للتشريف واما ان كان من
المكذبين الضالين وهم اصحاب الشمال عبر عنهم بذلك حسبما وصفوا به عند بيان احوالهم
بقوله ثم انكم ايها الضالون المكذبون ذماً لهم بذلك واشعاراً بسبب ما ابتلوا به من العذاب
فنزل اى فله نزل كائن من حميم يشرب بعد اكل الزقوم كما فصل فيما قبل وتصلية جحيم
اى ادخال فى النار وقيل اقامة فيها ومقاساة لالوان عذابها وقيل ذلك ما يجده فى
القبر من سموم النار ودخانها ان هذا اى الذى ذكر فى السورة الكريمة لهو حق
اليقين اى حق الخبر اليقين وقيل الحق الثابت من اليقين والفاء فى قوله تعالى فسبح باسم
ربك العظيم لترتيب التسبيح او الامر به على ما قبلها فان حقيته مما فصل فى تضاعيف السورة

الكريمة مما يوجب تنزيهه تعالى عما يليق بشأنه الجليل من الامور التي من جملتها الاشراك به و
التكذيب باياته الناطقة بالحق عن النبي صلعم من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة ابدا

سورة الحديد مدنية وهي تسع وعشرون اية بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحديد

سبح لله ما في السموات والارض التسبيح تنزيه الله تعالى اعتقادا وقولا وفعلا عما لا يليق بجنابه
سبحانه من سبح في الارض والماء اذا ذهب وابعد فيهما وحيث اسند ههنا الى غير العقلاء
ايضا فان ما في السموات والارض يعم جميع ما فيهما سواء كان مستقرا فيهما او جزءا منهما
كما مر في اية الكرسي اريد به معنى عام مجازي شامل لما نطق به لسان المقال كتسبيح
الملئكة والمؤمنين من الثقلين ولسان الحال كتسبيح غيرهم فان كل فرد من افراد الموجودات دال
يدل بامكانه وحدوثه على الصانع القديم الواجب الوجود والمتصف بالكمال المنزه
عن النقصان وهو المراد بقوله تعالى وان من شيء الا يسبح بحمده وهو متعد بنفسه كما في قوله و
تسبحوه واللام اما مزيدة للتاكيد كما في نصحت له وشكرت له او للتعليل اي فعل التسبيح
لاجل الله تعالى وخالصا لوجهه في بعض الفواتح ماضيا وفي البعض مضارعا للايذان
بتحققه في جميع الاوقات وفيه تنبيه على ان حق من من شأنه التسبيح الاختياري ان
يسبحه تعالى في جميع اوقاته كما عليه الملاء الاعلى حيث يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهو
العزيز القادر الغالب الذي لا يمانعه ولا ينازعه شيء الحكيم الذي لا يفعل الا ما يقتضيه
الحكمة والمصلحة والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله مشعر بعلية الحكم وكذا قوله
تعالى له ملك السموات والارض اي التصرف الكلي فيهما وفيما فيهما من الموجودات من
حيث الايجاد والاعدام وسائر التصرفات مما نعلمه وما لا نعلمه وقوله تعالى يحيي
ويميت استئناف مبين لبعض احكام الملك وجعله حالا من ضمير له ليس كما ينبغي وهو على كل شيء
من الاشياء التي من جملتها ما ذكر من الاحياء والاماتة قدير مبالغ في القدرة هو
الاول السابق على سائر الموجودات لما انه مبدئها ومبدعها والآخر الباقي بعد فنائها
حقيقة او نظرا الى ذاتها مع قطع النظر عن مبقيها فان جميع الموجودات الممكنة اذا قطع
النظر عن علتها فهي فانية والظاهر وجودا لكثرة دلائله الواضحة والباطن حقيقة فلا
تحوم حولها العقول والواو الاولى والاخيرة للجمع بين الوصفين المكتنفين بها والوسطى
للجمع بين المجموعين فهو متصف باستمرار الوجود في جميع الاوقات والظهور والخفاء وهو
بكل شيء عليم لا يعزب عن علمه شيء من الظاهر والخفي هو الذي خلق السموات والارض في ستة
ايام ثم استوى على العرش بيان لبعض احكام ملكهما وقد مر تفسيره مرارا يعلم ما يلج في
الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها مر بيانه في سورة سبا
وهو معكم اينما كنتم تمثيل لاحاطة علمه تعالى بهم وتصوير لعدم خروجهم عنه اينما داروا
وقوله تعالى والله بما تعملون بصير عبارة عن احاطته باعمالهم فتأخيره عن الخلق لما ان
المراد ما يدور عليه الجزاء من العلم التابع للمعلوم لا لما قيل من انه دليل عليه وقوله تعالى
له ملك السموات والارض تكرير للتاكيد وتمهيد لقوله تعالى والى الله ترجع الامور اي اليه
وحده لا الى غيره استقلالا او اشتراكا ترجع جميع الامور على البناء للمفعول من رجع
رجعا وقرئ على البناء للفاعل من رجع رجوعا يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل مر
تفسيره مرارا وقوله تعالى وهو عليم اي مبالغ في العلم بذات الصدور اي بمكنوناتها
اللازمة لها بيان لاحاطة علمه تعالى بما يضمرونه من نياتهم بعد بيان احاطته باعمالهم
التي يظهرونها امنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه اي جعلكم خلفاء
في التصرف فيه من غير ان تملكوه حقيقة عبر عما بايديهم من الاموال والارزاق بذلك
تحقيقا للحق وترغيبا لهم في الانفاق فان من علم انها لله عز وجل وانما هو بمنزلة الوكيل
يصرفها الى ما عينه الله تعالى من المصارف هان عليه الانفاق او جعلكم خلفاء من قبلكم
فيما كان بايديهم بتوريثه اياكم فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم اليكم وسينتقل منكم الى
من بعدكم فلا تبخلوا به فالذين امنوا منكم وانفقوا حسبما امروا به لهم بسبب ذلك اجر كبير

وفيه

وفيه من المبالغات ما لا يخفى حيث جعل الجملة اسمية واعيد ذكر الايمان والانفاق وكرر الاسناد
وفخم الاجر بالتنكير ووصف بالكبير وقوله عز وجل وما لكم لا تؤمنون بالله استئناف مسوق
لتوبيخهم على ترك الايمان حسبما امروا به بانكار ان يكون لهم في ذلك عذر ما في الجملة على ان لا
تؤمنون حال من الضمير في لكم والعامل ما فيه من معنى الاستقرار اي اي شيء حصل لكم غير مؤمنين
على توجيه الانكار والنفي الى السبب فقط مع تحقق المسبب لا الى السبب والمسبب جميعا كما في قوله
تعالى وما لي لا اعبد الذي فطرني فان همزة الاستفهام كما تكون تارة لانكار الواقع كما في
اتضرب اباك واخرى لانكار الوقوع كما في ااضرب ابي كذلك ما الاستفهامية قد تكون لانكار
سبب الواقع ونفيه فقط كما فيما نحن فيه وفي قوله ما لكم لا ترجون لله وقارا فيكون مضمون
الجملة محققا فان كلا من عدم الايمان وعدم الرجاء امر محقق قد انكر ونفي سببه وقد
تكون لانكار سبب الوقوع ونفيه فيسريان الى المسبب ايضا كما في قوله تعالى وما لي لا اعبد فيكون
مضمون الجملة الحالية مفروضا قطعا فان عدم العبادة امر مفروض حتما قد انكر ونفي سببه فانتفى
نفسه ايضا وقوله تعالى والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم حال من ضمير لا تؤمنون مفيدة لتوبيخهم
على الكفر مع تحقق ما يوجب عدمه بعد توبيخهم عليه مع عدم ما يوجبه اي واي عذر في ترك
الايمان والرسول يدعوكم اليه وينبهكم عليه وقوله تعالى وقد اخذ ميثاقكم حال من مفعول
يدعوكم اي وقد اخذ الله ميثاقكم بالايمان من قبل وذلك بنصب الادلة والتمكين من
النظر وقرئ وقد اخذ مبنيا للمفعول برفع ميثاقكم ان كنتم مؤمنين لموجب ما فان هذا
موجب لا موجب وراءه هو الذي ينزل على عبده حسبما يعن لكم من المصالح ايات بينات
واضحات ليخرجكم اي الله تعالى او العبد بها من الظلمات الى النور من ظلمات الكفر
الى نور الايمان وان الله بكم لرؤف رحيم حيث يهديكم الى سعادة الدارين بارسال
الرسول وتنزيل الايات بعد نصب الحجج العقلية وقوله تعالى وما لكم الا تنفقوا في سبيل
الله توبيخ لهم على ترك الانفاق المأمور به بعد توبيخهم على ترك الايمان بانكار
ان يكون لهم في ذلك ايضا عذر من الاعذار وحذف المفعول لظهور انه الذي بين
حاله فيما سبق وتعيين المنفق فيه لتشديد التوبيخ اي واي شيء لكم في ان لا تنفقوا فيما
هو قربة الى الله تعالى ما هو له في الحقيقة وانما انتم خلفاؤه في صرفه الى ما عينه من المصارف
وقوله تعالى ولله ميراث السموات والارض حال من فاعل الا تنفقوا ومفعوله مؤكدة
للتوبيخ فان ترك الانفاق بغير سبب قبيح منكر ومع تحقق ما يوجب الانفاق اشد في القبح
وادخل في الانكار فان بيان بقاء جميع ما في السموات والارض من الاموال بالآخرة لله عز
وجل من غير ان يبقى من اصحابها احد اقوى في ايجاب الانفاق عليهم من بيان انها
لله تعالى في الحقيقة وهم خلفاؤه في التصرف فيها كانه قيل وما لكم في ترك انفاقها
في سبيل الله والحال انه لا يبقى لكم منها شيء بل يبقى كلها لله تعالى واظهار الاسم الجليل في موقع
الاضمار لزيادة التقرير وتربية المهابة وقوله تعالى لا يستوي منكم من انفق من قبل
الفتح وقاتل بيان لتفاوت درجات المنفقين حسب تفاوت احوالهم في الانفاق بعد
بيان ان لهم اجرا كبيرا على الاطلاق حثا لهم على تحري الافضل وعطف القتال على الانفاق
للايذان بانه من اهم مواد الانفاق مع كونه في نفسه من افضل العبادات وانه لا يخلو
من الانفاق اصلا وقسيم من انفق محذوف لظهوره ودلالة ما بعده عليه وقرئ
قبل الفتح بغير من والفتح فتح مكة اولئك اشارة الى من انفق والجمع بالنظر الى معنى من
كما ان افراد الضميرين السابقين بالنظر الى لفظها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد
بالمشار اليه للاشعار ببعد منزلتهم وعلو طبقتهم في الفضل ومحله الرفع على الابتداء
اي اولئك المنعوتون بذينك النعتين اعظم درجة وارفع منزلة من الذين
انفقوا من بعد وقاتلوا لانهم انما فعلوا ما فعلوا من الانفاق والقتال قبل عزة الاسلام
وقوة اهله عند كمال الحاجة الى النصرة بالنفس والمال وهم السابقون الاولون من المهاجرين
والانصار الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم لو انفق احدكم مثل احد ذهبا ما بلغ مد
احدهم ولا نصيفه وهؤلاء فعلوا ما فعلوا بعد ظهور الدين ودخول الناس فيه افواجا

وقلة الحاجة الى الانفاق والقتال وكلاً اى واحد من الفريقين وعد الله الحسنى اى المثوبة
الحسنى وهى الجنة لا الاولين فقط وقرئ وكلٌّ بالرفع على الابتداء اى وكلٌّ وعده الله تعالى
والله بما تعملون خبير بظواهره وبواطنه فيجازيكم بحسبه وقيل نزلت الآية فى ابى
بكر رضى الله عنه فانه اول من آمن واول من انفق فى سبيل الله وخاصم الكفار حتى ضرب ضرباً
اشرف به على الهلاك وقوله تعالى من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً ندب بليغ
من الله تعالى الى الانفاق فى سبيله بعد الامر به والتوبيخ على تركه وبيان درجات
المنفقين اى من ذا الذى ينفق ماله فى سبيله تعالى رجاء ان يعوضه فانه كمن يقرضه
وحسن الانفاق بالاخلاص فيه وتحرى اكرم المال وافضل الجهات فيضاعفه له
بالنصب على جواب الاستفهام باعتبار المعنى كانه قيل ايقرض الله احد فيضاعفه
له اى فيعطيه اجره اضعافاً وله اجر كريم اى وذلك الاجر المضموم اليه الاضعاف
كريم فى نفسه حقيق بان يتنافس فيه المتنافسون وان لم يضاعف فكيف وقد ضوعف
اضعافاً كثيرة وقرئ بالرفع عطفاً على يقرض او حملاً على تقدير مبتدأ اى فهو يضاعفه
وقرئ يضعّفه بالرفع والنصب يوم ترى المؤمنين والمؤمنات ظرف لقوله تعالى
وله اجر كريم او لقوله فيضاعفه او منصوب باضمار اذكر تفخيماً لذلك اليوم وقوله
تعالى يسعى نورهم حال من مفعول ترى قيل نورهم الضياء الذى يرى بين ايديهم
وبايمانهم وقيل هو هداهم وبايمانهم كتبهم اى يسعى ايمانهم وعملهم الصالح
بين ايديهم وفى ايمانهم كتب اعمالهم وقيل هو القرآن وعن ابن مسعود رضى الله عنه
يؤتون نورهم على قدر اعمالهم فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ومنهم من يؤتى كالرجل
القائم وادناهم نوراً من نوره على ابهام رجله ينطفئ تارة ويلمع اخرى قال الحسن
يستضيئون به على الصراط وقال مقاتل يكون لهم دليلاً الى الجنة بشراكم اليوم جنات
مقدر بقول هو حال او استئناف اى يقال لهم بشراكم اى ما تبشرون به جنات او
بشراكم دخول جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك اى ما ذكر من
النور والبشرى بالجنان المخلدة هو الفوز العظيم الذى لا غاية وراءه وقرئ ذلك
الفوز العظيم يوم يقول المنافقون والمنافقات بدل من يوم ترى للذين آمنوا
انظرونا اى انتظرونا يقولون ذلك لما ان المؤمنين يسرع بهم الى الجنة كالبرق الخاطف
على ركاب تزف بهم وهؤلاء مشاة او انظروا الينا فانهم اذا نظروا اليهم استقبلوهم
بوجوههم فيستضيئون بالنور الذى بين ايديهم وقرئ انظرونا من النظرة وهى الامهال
جعل اتئادهم فى المضى الى ان يلحقوا بهم انظاراً لهم نقتبس من نوركم اى نستضئ
منه واصله اتخاذ القبس قيل طرداً لهم وتهكماً بهم من جهة المؤمنين او من جهة
الملائكة ارجعوا وراءكم اى الى الموقف فالتمسوا نوراً فانه من ثمة يقتبس او الى
الدنيا فالتمسوا النور بتحصيل مباديه من الايمان والاعمال الصالحة او ارجعوا خائبين
خاسرين فالتمسوا نوراً آخر وقد علموا ان لا نور وراءهم وانما قالوه تخييباً لهم او
ارادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة الكثيفة تهكماً بهم فضرب بينهم بين الفريقين
بسور اى حائط والباء زائدة له باب باطنه اى باطن السور او الباب وهو الجانب
الذى يلى الجنة فيه الرحمة وظاهره وهو الطرف الذى يلى النار من قبله من جهته
العذاب وقرئ فضرب على البناء للفاعل ينادونهم استئناف مبنى على السؤال
كانه قيل فماذا يفعلون بعد ضرب السور ومشاهدة العذاب فقيل ينادونهم
الم نكن فى الدنيا معكم يريدون به موافقتهم لهم فى الظاهر قالوا بلى كنتم
معنا بحسب الظاهر ولكنكم فتنتم انفسكم محنتموها بالنفاق واهلكتموها و
تربصتم بالمؤمنين الدوائر وارتبتم فى امر الدين وغرتكم الامانى الفارغة التى
من جملتها الطمع فى انتكاس امر الاسلام حتى جاء امر الله اى الموت وغركم بالله
الكريم الغرور اى غركم الشيطان بان الله عفو كريم لا يعذبكم وقرئ الغرور بالضم
فاليوم لا يؤخذ منكم فدية فداء وقرئ تؤخذ بالتاء ولا من الذين كفروا اى ظاهراً او باطناً

مأواكم النار لا تبرحون منها ابداً هى مولاكم اى اولى بكم وحقيقته مكانكم الذى يقال
فيه هو اولى بكم كما يقال هو مئنة الكرم اى مكان القول القائل انه لكريم او مكانكم عن
قريب من الولى وهو القرب او ناصركم على طريقة قوله تحية بينهم ضرب وجيع او متوليكم
تتولاكم كما توليتم موجباتها وبئس المصير اى النار الم يأن للذين آمنوا ان تخشع
قلوبهم لذكر الله استئناف ناع عليهم تثاقلهم فى امور الدين ورخاوة عقدهم
فيها واستبطاء لانتدابهم لما ندبوا اليه بالترغيب والترهيب وروى ان المؤمنين
كانوا مجدبين بمكة فلما هاجروا اصابوا الرزق والنعمة وفتروا عما كانوا عليه فنزلت
وعن ابن مسعود رضى الله عنه ما كان بين اسلامنا وبين ان عوتبنا بهذه الآية الا اربع سنين
وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان الله تعالى استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس
ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن اى الم يجئ وقت ان تخشع قلوبهم لذكره تعالى وتطمئن
به ويسارعوا الى طاعته بالامتثال باوامره والانتهاء عما نهوا عنه من غير توان ولا فتور
من انى الامر اذا جاء اناه اى وقته وقرئ الم يئن من آن يئين بمعنى انى وقرئ الما يأن
وفيه دلالة على ان المنفى متوقع وما نزل من الحق اى القرآن وهو عطف على ذكر الله تعالى
فان كان هو المراد به ايضاً فالعطف لتغاير العنوانين فانه ذكر وموعظة كما انه حق نازل
من السماء والا فالعطف كما فى قوله تعالى انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم
واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً ومعنى الخشوع له الانقياد التام لاوامره و
نواهيه والعكوف على العمل بما فيه من الاحكام التى من جملتها ما سبق وما لحق من
الانفاق فى سبيل الله تعالى وقرئ نزّل من التنزيل مبنياً للمفعول ومبنياً للفاعل وانزل و
لا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل عطف على تخشع وقرئ بالتاء على الالتفات
للاعتناء بالتحذير وقيل هو نهى عن مماثلة اهل الكتاب فى قسوة القلوب بعد ان وبخوا
وذلك ان بنى اسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم واذا سمعوا التوراة و
الانجيل خشعوا الله تعالى ورقت قلوبهم فطال عليهم الامد اى الاجل وقرئ الامدّ
بتشديد الدال اى الوقت الاطول وغلبهم الجفاء وزالت عنهم الروعة التى كانت تأتيهم
من الكتابين فقست قلوبهم فهى كالحجارة او اشد قسوة وكثير منهم فاسقون
اى خارجون عن حدود دينهم رافضين لما فى كتابهم بالكلية اعلموا ان الله يحيى
الارض بعد موتها تمثيل للاحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة باحياء الارض الميتة
بالغيث للترغيب فى الخشوع والتحذير عن القساوة قد بينا لكم الآيات التى من جملتها
هذه الآيات لعلكم تعقلون كى تعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها فتفوزوا بسعادة الدارين ان
المصدقين والمصدقات اى المتصدقين والمتصدقات وقد قرئ كذلك وقرئ بالتخفيف
الصاد من التصديق اى الذين صدقوا الله ورسوله واقرضوا الله قرضاً حسناً قيل هو
عطف على ما فى المصدقين من معنى الفعل فانه فى حكم الذين اصدقوا او صدقوا على
القراءتين وعقب بان فيه فصلاً بين اجزاء الصلة باجنبى وهو المصدقات واجيب بان المعنى
ان الناس الذين تصدقوا وتصدقن واقرضوا فهو عطف على الصلة من حيث المعنى
من غير فصل وقيل ان المصدقات ليس بعطف على المصدقين بل هو منصوب على الاختصاص
كانه قيل ان المصدقين على العموم تغليباً واخص المصدقات من بينهم كما تقول ان
الذين آمنوا ولا سيما العلماء منهم وعملوا الصالحات لهم كذا لكن لا على ان مدار التخصيص
مزيد استحقاقهن لمضاعفة الاجر كما فى المثال المذكور بل زيادة احتياجهن الى التصدق
الداعية الى الاعتناء بحثهن على التصدق لما روى انه عليه السلام قال يا معشر النساء تصدقن
فانى اريتكن اكثر اهل النار وقيل هو صلة لموصول محذوف معطوف على المصدقين
كانه قيل والذين اقرضوا والقرض الحسن عبارة عن التصدق من الطيب عن طيبة النفس
وخلوص النية على المستحق للصدقة يضاعف لهم على البناء للمفعول مسنداً الى ما
بعده من الجار والمجرور وقيل الى مصدر ما فى حيز الصلة على حذف مضاف اى ثواب
التصدق وقرئ يضعف بتشديد العين وفتحها ولهم اجر كريم مر بيانه ما فيه من الكلام

والذين امنوا بالله ورسله كافة وقد مر بيان كيفية الايمان بهم في خاتمة سورة البقرة
اولئك اشارة الى الموصول الذي هو مبتدأ وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار
اليه قد مر سره مرارا وهو مبتدأ ثان وقوله تعالى هم مبتدأ ثالث خبره الصديقون والشهداء
وهو مع خبره خبر للثاني وهو مع خبره خبر للاول او هم ضمير الفصل وما بعده خبر لاولئك والجملة
خبر للموصول اي اولئك عند ربهم بمنزلة الصديقين والشهداء المشهودين بعلو
الرتبة ورفعة المحل وهم الذين سبقوا الى التصديق واستشهدوا في سبيل الله تعالى
او هم المبالغون في الصدق حيث امنوا وصدقوا جميع اخباره تعالى ورسله والقائمون
بالشهادة لله تعالى بالوحدانية ولهم بالايمان او على الامم يوم القيامة وقوله تعالى لهم
اجرهم ونورهم بيان لثمرات ما وصفوا به من نعوت الكمال على انه جملة من مبتدأ
وخبر محلها الرفع على انه خبر ثان للموصول او الخبر هو الجار وما بعده مرتفع به على
الفاعلية والضمير الاول على الوجه للموصول والاخيران للصديقين والشهداء اي لهم
مثل اجرهم ونورهم المعروفين بغاية الكمال وعزة المنال وقد حذفت اداة التشبيه
تنبيها على قوة المماثلة وبلوغها حد الاتحاد كما فعل ذلك حيث قيل هم الصديقون والشهداء
وليست المماثلة بين ما للفريق الاول من الاجر والنور وبين تمام ما للفريقين الاخيرين
بل بين تمام ما للاول من الاصل والاضعاف وبين ما للاخيرين من الاصل بدون
الاضعاف واما على الوجه الثاني فمرجع الكل واحد والمعنى لهم الاجر والنور الموعودان
لهم هذا هو الذي يقتضيه جزالة النظم الكريم وقد قيل والشهداء مبتدأ وعند
ربهم خبره وقيل الخبر لهم اجرهم الخ والذين كفروا وكذبوا باياتنا اولئك
الموصوفون بتلك الصفة القبيحة اصحاب الجحيم بحيث لا يفارقونها ابدا اعلموا
انما الحيوة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد بعد
ما بين حال الفريقين في الاخرة شرح حال الحيوة الدنيا التي اطمأن بها الفريق الثاني واشير
الى انها من محقرات الامور التي لا يركن اليها العقلاء فضلا عن الاطمئنان بها وانها
مع ذلك سريعة الزوال وشيكة الاضمحلال حيث قيل كمثل غيث اعجب الكفار اي
الحراث نباته اي النبات الحاصل به ثم يهيج اي يجف بعد خضرته ونضارته
فتراه مصفرا بعد ما رايته ناضرا مونقا وقرئ مصفارا وانما لم يقل فيصفر ايذانا
بان اصفراره مقارن لجفافه وانما المترتب عليه رؤيته كذلك ثم يكون حطاما
هشيما متكسرا ومحل الكاف قيل النصب على الحالية من الضمير في لعب لانه في معنى الوصف وقيل
الرفع على انه خبر للحيوة الدنيا بتقدير المضاف اي مثل الحيوة الدنيا كمثل الخ وبعد ما
بين حقارة امر الدنيا تزهيدا فيها وتنفيرا عن العكوف عليها اشير الى فخامة شان الاخرة
وعظم ما فيها من اللذات والالام ترغيبا في تحصيل نعيمها المقيم وتحذيرا من عذابها
الاليم وقدم ذكر العذاب فقيل وفي الاخرة عذاب شديد لانه من نتائج الانهماك فيما فصل
من احوال الحيوة الدنيا ومغفرة عظيمة من الله ورضوان عظيم لا يقادر قدره وما الحيوة
الدنيا الا متاع الغرور اي لمن اطمأن بها ولم يجعلها ذريعة الى الاخرة عن سعيد بن
جبير الدنيا متاع الغرور ان الهتك عن طلب الاخرة فاما اذا دعتك الى طلب رضوان الله
فنعم المتاع ونعم الوسيلة سابقوا اي سارعوا مسارعة المسابقين لاقرانهم في المضمار
الى مغفرة عظيمة كائنة من ربكم اي الى موجباتها من الاعمال الصالحة وجنة عرضها
كعرض السماء والارض اي كعرضهما جميعا واذا كان عرضها كذلك فما ظنك بطولها
وقيل المراد بالعرض البسطة وتقديم المغفرة على الجنة لتقديم التخلية على التحلية اعدت
للذين امنوا بالله ورسله فيه دليل على ان الجنة مخلوقة بالفعل وان الايمان وحده كاف
في استحقاقها ذلك الذي وعد من المغفرة والجنة فضل الله عطاؤه يؤتيه تفضلا
واحسانا من يشاء ايتاءه اياه من غير ايجاب والله ذو الفضل العظيم ولذلك يؤتي
من يشاء مثل ذلك الفضل الذي لا غاية وراءه ما اصاب من مصيبة في الارض كجدب و
عاهة في الزروع والثمار ولا في انفسكم كمرض وآفة الا في كتاب اي الا مكتوب به

مثبتة في علم الله تعالى او في اللوح من قبل ان نبراها اي نخلق الانفس او المصائب او الارض
ان ذلك اي اثباتها في كتاب على الله يسير لاستغنائه فيه عن العدة والمدة لكيلا تأسوا
اي اخبرناكم بذلك لئلا تحزنوا على ما فاتكم من نعم الدنيا ولا تفرحوا بما اتاكم اي
اعطاكم الله تعالى منها فان من علم ان الكل مقدر يفوت ما قدر فواته ويأتي ما قدر
اتيانه لا محالة لا يعظم جزعه على ما فات ولا فرحه بما هو آت وقرئ بما اتاكم من الاتيان
وفي القراءة الاولى اشعار بان فوات النعم يلحقها اذا خليت وطباعها واما حصولها
وبقاؤها فلا بد لهما من سبب يوجدها ويبقيها وقرئ بما اوتيتم والمراد به نفي الاسا
المانع عن التسليم لامر الله تعالى والفرح الموجب للبطر والاختيال ولذلك عقب بقوله
تعالى والله لا يحب كل مختال فخور فان من فرح بالحظوظ الدنيوية وعظمت في نفسه
اختال وافتخر بها لا محالة وفي تخصيص التذييل بالنهي عن الفرح المذكور ايذان بانه اقبح من
الاسى الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل بدل من كل مختال فان المختال بالمال يضن
به غالبا ويأمر غيره به او مبتدأ خبره محذوف يدل عليه قوله تعالى ومن يتول فان الله
هو الغني الحميد فان معناه ومن يعرض عن الانفاق فان الله غني عنه وعن انفاقه محمود
في ذاته لا يضره الاعراض عن شكره المتقرب اليه بشيء من نعمه وفيه تهديد واشعار
بان الامر بالانفاق لمصلحة المنفق وقرئ فان الله الغني لقد ارسلنا رسلنا اي
الملئكة الى الانبياء او الانبياء الى الامم وهو الاظهر بالبينات اي الحجج والمعجزات و
انزلنا معهم الكتاب اي جنس الكتاب الشامل للكل والميزان ليقوم الناس بالقسط
اي بالعدل روي ان جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه الى نوح عليه السلام وقال
مر قومك يزنوا به وقيل اريد به العدل ليقام به السياسة ويدفع به العدوان
وانزلنا الحديد قيل نزل آدم عليه السلام من الجنة ومعه خمسة اشياء من
حديد السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة والابرة وروي ومعه المر والمسحاة
وعن الحسن وانزلنا الحديد خلقناه كقوله تعالى وانزل لكم من الانعام وذلك ان اوامره
تعالى وقضاياه واحكامه تنزل من السماء وقوله تعالى فيه بأس شديد لان آلات
الحروب انما تتخذ منه ومنافع للناس اذ ما من صنعة الا والحديد او ما يعمل بالحديد
آلتها والجملة حال من الحديد وقوله تعالى وليعلم الله من ينصره ورسله عطف على
محذوف يدل عليه ما قبله فانه حال متضمنة للتعليل كانه قيل ليستعملوه وليعلم الله
علما يتعلق به الجزاء من ينصره ورسله باستعمال السيوف والسلاح وسائر الاسلحة في
مجاهدة اعدائه او متعلق بمحذوف مؤخر والواو اعتراضية اي وليعلم الله من ينصره
ورسله انزله وقيل عطف على قوله تعالى ليقوم الناس بالقسط وقوله تعالى بالغيب
حال من فاعل ينصر او مفعوله اي غائبا منهم او غائبين منه وقوله تعالى ان الله قوي
عزيز اعتراض تذييلي جيء به تحقيقا للحق وتنبيها على ان تكليفهم الجهاد وتعريضهم للقتال
ليس لحاجته في اعلاء كلمته واظهار دينه الى نصرتهم بل انما هو لينتفعوا به ويصلوا
بامتثال الامر فيه الى الثواب والا فهو غني بقدرته وعزته عنهم في كل ما يريده ولقد
ارسلنا نوحا وابراهيم نوع تفصيل لما اجمل في قوله تعالى لقد ارسلنا رسلنا الخ
وتكرير القسم لاظهار مزيد الاعتناء بالامر اي وبالله لقد ارسلناهما وجعلنا في
ذريتهما النبوة والكتاب بان استنبأناهم واوحينا اليهم الكتب وقيل المراد بالكتاب
الخط بالقلم فمنهم اي من الذرية او من المرسل اليهم المدلول عليهم بذكر الارسال
والمرسلين مهتد الى الحق وكثير منهم فاسقون خارجون عن الطريق المستقيم
والعدول عن سنن المقابلة للمبالغة في الذم والايذان بغلبة الضلال وكثرتهم ثم
قفينا على آثارهم برسلنا اي ثم ارسلنا بعدهم رسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم اي ارسلنا
رسولا بعد رسول حتى انتهى الى عيسى بن مريم والضمير لنوح وابراهيم ومن
ارسل اليهم او من عاصرهم من الرسل لا للذرية فان الرسل المقفى بهم من الذرية
وآتيناه الانجيل وقرئ بفتح الهمزة فانه اعجمي لا يلزم فيه مراعاة ابنية العرب وجعلنا

في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة وقرئ رآفة على فعالة ورحمة اي وفقناهم للتراحم
والتعاطف بينهم ونحوه في شأن اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رحماء بينهم ورهبانية
منصوب اما بفعل مضمر يفسره الظاهر اي وابتدعوا رهبانية ابتدعوها واما بالعطف
على ما قبلها وابتدعوها صفة لها اي وجعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة
من عندهم اي وفقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانية واستحداثها وهي المبالغة
في العبادة بالرياضة والانقطاع عن الناس ومعناها الفعلة المنسوبة الى الرهبان وهو
الخائف فعلان من رهب كخشيان من خشي وقرئ بضم الراء كانها نسبة الى الرهبان
وهو جمع راهب كراكب وركبان وسبب ابتداعهم اياها ان الجبابرة ظهروا على المؤمنين
بعد رفع عيسى عليه السلام فقاتلوهم ثلاث مرات فقتلوا حتى لم يبق منهم الا القليل
فخافوا ان يفتتنوا في دينهم فاختاروا الرهبانية في قلل الجبال فارين بدينهم مخلصين
انفسهم للعبادة ما كتبناها عليهم جملة مستانفة وقيل صفة اخرى لرهبانية والنفي
على الوجه الاول متوجه الى اصل الفعل وقوله تعالى الا ابتغاء رضوان الله استثناء منقطع
اي ما فرضناها نحن عليهم رأسا ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله فذمهم حينئذ
بقوله تعالى فما رعوها حق رعايتها من حيث ان النذر عهد مع الله لا يحل نكثه لاسيما
اذا قصد به رضاه تعالى وعلى الوجه الثاني متوجه الى قيده لا الى نفسه والاستثناء متصل
من اعم العلل اي ما كتبناها عليهم بان وفقناهم لابتداعها لشيء من الاشياء الا ليبتغوا
بها رضوان الله ويستحقوا بها الثواب ومن ضرورة ذلك ان يحافظوا عليها ويراعوها
حق رعايتها فما رعاها كلهم بل بعضهم فآتينا الذين آمنوا منهم ايمانا صحيحا وهو
الايمان برسول الله صلعم بعد رعاية رهبانيتهم لا مجرد رعايتها فانها بعد البعثة لغو
محض وكفر بحت وانى لها استتباع الاجر اجرهم اي ما يخص بهم من الاجر وكثير منهم
فاسقون خارجون عن حد الاتباع وحمل الفريقين على من مضى من المراعين لحقوق الرهبانية
قبل النسخ والمخلين بها اذ ذاك بالتثليث والقول بالاتحاد وقصد السمعة من غير تعرض
لايمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وكفرهم به مما لا يساعده المقام يا ايها الذين آمنوا
اي بالرسل المتقدمة اتقوا الله فيما نهاكم عنه وآمنوا برسوله اي بمحمد صلى الله عليه وسلم
وفي الاطلاق ايذان بانه علم فرد في الرسالة لا يذهب الوهم الى غيره يؤتكم كفلين نصيبين
من رحمته لايمانكم بالرسول وبمن قبله من الرسل عليهم السلام لكن لا على معنى ان
شريعتهم باقية بعد البعثة بل على انها كانت حقة قبل النسخ ويجعل لكم نورا تمشون به يوم
القيمة حسبما نطق به قوله تعالى يسعى نورهم بين ايديهم وبايمانهم ويغفر لكم ما سلفتم
من الكفر والمعاصي والله غفور رحيم اي مبالغ في المغفرة والرحمة وقوله تعالى لئلا يعلم اهل
الكتاب متعلق بمضمون الجملة الطلبية المتضمنة لمعنى الشرط اذ التقدير ان تتقوا الله
وتؤمنوا برسوله يؤتكم كذا وكذا لئلا يعلم الذين لم يسلموا من اهل الكتاب اي ليعلموا ولا
مزيدة كما ينبئ عنه قراءة ليعلم ولكي يعلم ولان يعلم بادغام النون في الياء في قوله تعالى
ان لا يقدرون على شيء من فضل الله مخففة من الثقيلة واسمها الذي هو ضمير الشان محذوف
والجملة في حيز النصب على انها مفعول يعلم اي ليعلموا انه لا ينالون شيئا مما ذكر من فضله
من الكفلين والنور والمغفرة ولا يتمكنون من نيله حيث لم يأتوا بشرطه الذي هو الايمان
برسوله وقوله تعالى وان الفضل بيد الله عطف على ان لا يقدرون وقوله تعالى يؤتيه من
يشاء خبر ثان لان وقيل هو الخبر والجار والمجرور حال لازمة وقوله تعالى والله ذو الفضل
العظيم اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله وقد جوز ان يكون الامر بالتقوى والايمان
لغير اهل الكتاب فالمعنى اتقوا الله واثبتوا على ايمانكم برسول الله صلعم يؤتكم ما وعد من آمن
من اهل الكتاب من الكفلين في قوله تعالى اولئك يؤتون اجرهم مرتين ولا ينقصكم من مثل
اجرهم لانكم مثلهم في الايمانين لا تفرقون بين احد من رسله وروي ان مؤمني اهل الكتاب
افتخروا على سائر المؤمنين بانهم يؤتون اجرهم مرتين وادعوا الفضل عليهم فنزلت وقرئ
ليلا بقلب الهمزة ياء لانفتاحها بعد كسرة وقرئ بسكون الياء وفتح اللام كاسم المرأة وبكسر اللام

مع سكون

مع سكون الياء وقرئ ان لا يقدروا هذا وقد قيل لا غير مزيدة وضمير لا يقدرون للنبي عم واصحابه
والمعنى لئلا يعتقد اهل الكتاب انه لا يقدر النبي عم والمؤمنون به على شيء من فضل الله الذي
هو عبارة عما اوتوه من سعادة الدارين على ان عدم علمهم بعدم قدرتهم على ذلك
كناية عن علمهم بقدرتهم عليه فيكون قوله تعالى ان الفضل بيد الله الخ عطفا على ان لا
يعلم عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسله

سورة المجادلة مكية وهي عشرون آية بسم الله الرحمن الرحيم

قد سمع الله باظهار الدال وقرئ بادغامها في السين قول التي تجادلك في زوجها اي
تراجعك الكلام في شأنه وفيما صدر عنه في حقها من الظهار وقرئ تحاورك وتحاولك اي
تسائلك وتشتكي الى الله عطف على تجادلك اي تتضرع اليه تعالى وقيل حال من فاعله اي تجادلك
وهي متضرعة اليه تعالى وهي خولة بنت ثعلبة بن مالك ابن خزامة الخزرجية ظاهر عنها زوجها
اوس بن الصامت اخو عبادة ثم ندم على ما قال فقال لها ما اظنك الا قد حرمت علي فشق
عليها ذلك فاستفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حرمت عليه فقالت يا رسول الله
ما ذكر طلاقا فقال حرمت عليه وفي رواية ما اراك الا قد حرمت عليه في المرار كلها فقالت
اشكو الى الله فاقتي ووجدي وجعلت تراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلما قال عليه
السلام حرمت عليه هتفت وشكت الى الله تعالى فنزلت وفي كلمة قد اشعار بان رسول
الله عليه السلام والمجادلة كانا يتوقعان ان ينزل الله تعالى حكم الحادثة ويفرج عنها كربها
كما يلوح به ما روي انه عليه السلام قال لها عند استفتائها ما عندي في امرك شيء و
انها كانت ترفع رأسها الى السماء وتقول اللهم اني اشكو اليك فانزل على لسان نبيك
ومعنى سمعه تعالى لقولها اجابة دعائها لا مجرد علمه تعالى بذلك كما هو المعنى بقوله تعالى
والله يسمع تحاوركما اي يعلم تراجعكما الكلام وصيغة المضارع للدلالة على استمرار
السمع حسب استمرار التحاور وتجدده وفي نظمها في سلك الخطاب تغليبا تشريف لها
من جهتين فالجملة استيناف جار مجرى التعليل لما قبله فان الحافها في المسئلة ومبالغتها
في التضرع الى الله تعالى ومدافعته عليه السلام اياها بجواب مبني على التوقف وترقب الوحي
وعلمه تعالى بحالهما من دواعي الاجابة وقيل هي حال وهو بعيد وقوله تعالى ان الله سميع
بصير تعليل لما قبله بطريق التحقيق اي مبالغ في العلم بالمسموعات والمبصرات ومن قضيته
ان يسمع تحاورهما ويرى ما يقارنه من الهيئات التي من جملتها رفع رأسها الى السماء
وسائر آثار التضرع واظهار الاسم الجليل في الموقعين لتربية المهابة وتعليل الحكم
بوصف الالوهية وتأكيد استقلال الجملتين وقوله تعالى الذين يظاهرون منكم من نسائهم
شروع في بيان شأن الظهار في نفسه وحكمه المترتب عليه شرعا بطريق الاستيناف و
الظهار ان يقول الرجل لامرأته انت علي كظهر امي مشتق من الظهر وقد مر تفصيله في
الاحزاب والحق به الفقهاء تشبيهها بجزء محرم وفي منكم مزيد توبيخ للعرب وتهجين لعادتهم
فيه فانه كان من ايمان اهل جاهليتهم خاصة دون سائر الامم وقرئ يظاهرون من
اظاهر ويظاهرون من تظاهر ويظهرون وقوله تعالى ما هن امهاتهم خبر للموصول اي ما نساؤهم
امهاتهم على الحقيقة فهو كذب بحت وقرئ امهاتهم بالرفع على لغة تميم وبامهاتهم اي
ما هن امهاتهم الا اللائي ولدنهم فلا تشبه بهن في الحرمة الا من الحقها الشرع بهن من
المرضعات وازواج النبي صلى الله عليه وسلم فدخلن بذلك في حكم الامهات واما الزوجات
فابعد شيء من الامومة وانهم ليقولون بقولهم ذلك منكرا من القول على ان مناط
التأكيد ليس صدور القول عنهم فانه امر محقق بل كونه منكرا اي عند الشرع وعند
العقل والطبع ايضا كما يشعر به تنكيره ونظيره قوله تعالى انكم لتقولون قولا عظيما وزورا
اي محرفا عن الحق وان الله لعفو غفور اي مبالغ في العفو والمغفرة فيغفر لما سلف
منه على الاطلاق او بالمتاب عنه وقوله تعالى والذين يظاهرون من نسائهم ثم
يعودون لما قالوا تفصيل لحكم الظهار بعد بيان كونه امرا منكرا بطريق التشريع الكلي المنتظم

لحكم الحادثة انتظاماً اوليا اى والذين يقولون ذلك القول المنكر ثم يعودون لما قالوا اى
الى ما قالوا بالتدارك والتلافى لا بالتقرير والتكرير كما فى قوله تعالى ان تعودوا لمثله ابداً فان اللام
والى يتعاقبان كثيراً كما فى قوله تعالى هدانا لهذا وقوله تعالى فاهدوهم الى صراط الجحيم وقوله
تعالى بان ربك اوحى لها وقوله تعالى واوحى الى نوح فتحرير رقبة اى فتداركه او فعليه
او فالواجب اعتاق رقبة اى رقبة كانت وعند الشافعى رحمه الله يشترط الايمان والفاء
للسببية ومن فوائدها الدلالة على تكرر وجوب التحرير بتكرر الظهار وقيل ما قالوا
عبارة عما حرموه على انفسهم بلفظ الظهار تنزيلاً للقول منزلة المقول فيه كما ذكر فى قوله
تعالى ونرثه ما يقول اى المقول فيه من المال والولد فالمعنى ثم يريدون العود للاستمتاع
فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا اى من قبل ان يستمتع كل من المظاهر والمظاهر منها بالآخر
جماعاً ولمساً ونظراً الى الفرج بشهوة وان وقع شئ من ذلك قبل التكفير يجب عليه ان
يستغفر ولا يعود حتى يكفر وان اعتق بعض الرقبة ثم مس عليه ان يستأنف عند ابى
حنيفة رح ذلكم اشارة الى الحكم المذكور وهو مبتدأ خبره توعظون به اى
تزجرون به عن ارتكاب المنكر المذكور فان الغرامات مزاجر عن تعاطى الجنايات
والمراد بذكره بيان ان المقصود من شرع هذا الحكم ليس تعريضكم للثواب بمباشرتكم
لتحرير الرقبة الذى هو علم فى استتباع الثواب العظيم بل هو ردعكم وزجركم عن
مباشرة ما يوجبه والله بما تعملون من الاعمال التى من جملتها التكفير وما يوجبه من
جناية الظهار خبير اى عالم بظواهرها وبواطنها ومجازيكم بها فحافظوا على
حدود ما شرع لكم ولا تخلوا بشئ منها فمن لم يجد اى الرقبة فصيام شهرين
فعليه صيام شهرين متتابعين من قبل ان يتماسا ليلاً او نهاراً عمداً او خطأً فمن لم
يستطع اى الصيام لسبب من الاسباب فاطعام ستين مسكيناً لكل مسكين نصف صاع
من بر او صاع من غيره ويجب تقديمه على المسيس لكن لا يستأنف ان مس فى خلال
الاطعام ذلك اشارة الى ما مر من البيان والتعليم للاحكام والتنبيه عليها وما فيه
من معنى البعد قد مر سره مراراً ومحله اما الرفع على الابتداء او النصب بمضمر معلل بما
بعده اى ذلك واقع او فعلنا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتعملوا بشرائعه التى شرعها
لكم وترفضوا ما كنتم عليه فى جاهليتكم وتلك اشارة الى الاحكام المذكورة وما
فيه من معنى البعد لتعظيمها كما مر غير مرة حدود الله التى لا يجوز تعديها و
للكافرين اى الذين لا يعملون بها عذاب اليم عبر عنه بذلك للتغليظ على طريقة قوله
تعالى ومن كفر فان الله غنى عن العالمين ان الذين يحادون الله ورسوله اى يعادونهما
ويشاقونهما فان كلاً من المتعادين كما انه يكون فى عدوة وشق غير عدوة
الآخر وشقه كذلك يكون فى حد غير حد الآخر لورود المحادة فى اثناء ذكر حدود
الله دون المعاداة والمشاقة من حسن الموقع ما لا غاية وراءه كبتوا اى اخزوا وقيل
خذلوا وقيل اذلوا وقيل اهلكوا وقيل لعنوا وقيل غيظوا وهو ما وقع يوم
الخندق فالمعنى كبتوا سيكبتون على طريقة قوله تعالى اتى امر الله وقيل اصل الكبت
الكب كما كبت الذين من قبلهم من كفار الامم الماضية المعادين للرسل عليهم السلام
وقد انزلنا آيات بينات حال من واو كبتوا اى كبتوا لمحادتهم والحال انا قد انزلنا
آيات واضحات فيمن حاد الله ورسوله ممن قبلهم من الامم وفيما فعلنا بهم وقيل
آيات تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به وللكافرين اى بتلك الآيات او بكل
ما يجب الايمان به فيدخل فيه تلك الآيات دخولاً اولياً عذاب مهين يذهب بعزهم
وكبرهم يوم يبعثهم الله منصوب بما تعلق به اللام من الاستقرار او بمهين او
باضمار اذكر تعظيماً لليوم وتهويلاً له جميعاً اى كلهم بحيث لا يبقى منهم احد غير
مبعوث او مجتمعين فى حالة واحدة فينبئهم بما عملوا من القبائح ببيان صدورها
عنهم او بتصويرها فى تلك النشأة بما يليق بها من الصور الهائلة على رؤس الاشهاد
تخجيلاً لهم وتشهيراً لحالهم وتشديداً لعذابهم وقوله تعالى احصاه الله استئناف

ووقع جواباً عما نشأ مما قبله من السؤال اما عن كيفية التنبئة او عن سببها كانه قيل كيف
ينبئهم باعمالهم وهى اعراض منقضية متلاشية فقيل احصاه الله عدداً لم يفته منه
شئ فقوله تعالى ونسوه حينئذ حال من مفعول احصى باضمار قد او بدونه على الخلاف
المشهور او قيل لم ينبئهم بذلك فقيل احصاه الله ونسوه فينبئهم به ليعرفوا ان ما
عاينوه من العذاب انما حاق بهم لاجله وفيه مزيد توبيخ وتنديم لهم غير التخجيل و
التشهير والله على كل شئ شهيد لا يغيب عنه امر من الامور قط والجملة اعتراض تذييلى
مقرر لاحصائه تعالى وقوله تعالى الم تر ان الله يعلم ما فى السموات وما فى الارض استشهاد
على شمول شهادته تعالى كما فى قوله تعالى الم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه وفى قوله
الم تر انهم فى كل واد يهيمون اى الم تعلم علماً يقينياً متاخماً للمشاهدة ان الله تعالى يعلم ما
فيهما من الموجودات سواء كان ذلك بالاستقرار فيهما او بالجزئية منهما وقوله تعالى
ما يكون من نجوى ثلاثة الخ استئناف مقرر لما قبله من سعة علمه تعالى ومبين لكيفيته
ويكون من كان التامة وقرئ تكون بالتاء اعتباراً لتأنيث نجوى وان كان غير حقيقى
اى ما يقع من تناجى ثلاثة نفر اى من مسارتهم على ان نجوى مضافة الى ثلاثة او على
انها موصوفة بها بتقدير مضاف اى من اهل نجوى ثلاثة او بجعلهم نجوى فى انفسهم
مبالغة الا هو اى الله عز وجل رابعهم اى جاعلهم اربعة من حيث انه تعالى
يشاركهم فى الاطلاع عليه وهو استثناء مفرغ من اعم الاحوال ولا خمسة ولا نجوى
خمسة الا هو سادسهم وتخصيص العددين بالذكر اما لخصوص الواقعة فان الآية
نزلت فى تناجى المنافقين واما لبناء الكلام على اغلب عادات المتناجين وقد عمم الحكم
بعد ذلك فقيل ولا ادنى من ذلك اى مما ذكر كالواحد والاثنين ولا اكثر كالستة وما
فوقها الا هو معهم يعلم ما يجرى بينهم وقرئ ولا اكثر بالرفع عطفاً على محل من نجوى
او محل ولا ادنى بان جعل لا لنفى الجنس اينما كانوا من الاماكن ولو كانوا تحت الارض فان
علمه تعالى بالاشياء ليس لقرب مكانى حتى يتفاوت باختلاف الامكنة قرباً وبعداً ثم
ينبئهم وقرئ وينبئهم بالتخفيف بما عملوا يوم القيامة تفضيحاً لهم واظهاراً لما يوجب
عذابهم ان الله بكل شئ عليم لان نسبة ذاته المقتضية للعلم الى الكل سواء الم تر الى
الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه نزلت فى اليهود والمنافقين كانوا
يتناجون فيما بينهم ويتغامزون باعينهم اذا رأوا المؤمنين فنهاهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم ثم عادوا لمثل فعلهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والهمزة للتعجيب
من حالهم وصيغة المضارع للدلالة على تكرر عودهم وتجدده واستحضار صورته
العجيبة وقوله تعالى ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصية الرسول عطف عليه داخل
فى حكمه اى بما هو اثم فى نفسه وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول وذكره
بعنوان الرسالة بين الخطابين المتوجهين اليه عليه السلام لزيادة تشنيعهم
واستعظام معصيتهم وقرئ وينتجون بالاثم والعدوان بكسر العين ومعصيات
الرسول واذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله فيقولون السام عليك او انعم
صباحاً والله سبحانه يقول وسلام على المرسلين ويقولون فى انفسهم اى فيما
بينهم لولا يعذبنا الله بما نقول اى هلا يعذبنا الله بذلك لو كان محمد نبياً حسبهم
جهنم عذاباً يصلونها يدخلونها وبئس المصير اى جهنم يا ايها الذين
آمنوا اذا تناجيتم فى انديتكم وفى خلواتكم فلا تتناجوا بالاثم والعدوان
ومعصية الرسول كما يفعله المنافقون وقرئ فلا تنتجوا وفلا تناجوا بحذف احدى
التائين وتناجوا بالبر والتقوى اى بما يتضمن خير المؤمنين والاتقاء عن معصية الرسول
صلى الله عليه وسلم واتقوا الله الذى اليه تحشرون وحده لا الى غيره استقلالاً او اشتراكاً فيجازيكم
بكل ما تأتون وتذرون انما النجوى المعهودة التى هو التناجى بالاثم والعدوان من الشيطان
لا من غيره فانه المزين لها والحامل عليها وقوله تعالى ليحزن الذين آمنوا خبر آخر اى انما هى
ليحزن المؤمنين بتوهمهم انها فى نكبة اصابتهم وليس بضارهم اى الشيطان او التناجى

بضار المؤمنين شيئا من الاشياء او شيئا من الضرر الا باذن الله اى بمشيته وعلى الله
فليتوكل المتوكلون ولا يبالوا بنجواهم فانه تعالى يعصمهم من شره وضره يا ايها الذين امنوا
اذا قيل لكم تفسحوا اى توسعوا وليفسح بعضكم عن بعض ولا تتضاموا من قولهم افسح
اى تنح وقرئ تفاسحوا وقوله تعالى في المجالس متعلق بقيل وقرئ في المجلس على ان
المراد به الجنس وقيل مجلس الرسول صلعم وكانوا يتضامون تنافسا في القرب منه
عليه السلام وحرصا على استماع كلامه وقيل هو المجلس من مجالس القتال وهي مراكز
الغزاة كقوله تعالى مقاعد للقتال قيل كان الرجل يأتي الصف ويقول تفسحوا فيأبون
لحرصهم على الشهادة وقرئ في المجلس بفتح اللام فهو متعلق بتفسحوا قطعا اى توسعوا في
جلوسكم ولا تتضايقوا فيه فافسحوا يفسح الله لكم اى في كل ما تريدون التفسح فيه من
المكان والرزق والصدور والقبر وغيرها واذا قيل انشزوا اى انهضوا للتوسعة
على المقبلين او لما امرتم من صلاة او جهاد او غيرهما من اعمال الخير فانشزوا فانهضوا
ولا تتثبطوا ولا تفرطوا وقرئ بكسر الشين يرفع الله الذين امنوا منكم بالنصر وحسن
الذكر في الدنيا والايواء الى غرف الجنان في الاخرة والذين اوتوا العلم منهم خصوصا
درجات عالية بما جمعوا من اثرى العلم والعمل فان العلم مع علو رتبته يقتضي للعمل
المقرون به مزيد رفعة لا يدرك شأوه العمل العاري عنه وان كان في غاية الصلاح ولذلك
يقتدى بالعالم في افعاله ولا يقتدى بغيره وفي الحديث فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة
البدر على سائر الكواكب والله بما تعملون خبير تهديد لمن لم يمتثل بالامر وقرئ يعملون
بالياء التحتانية يا ايها الذين امنوا اذا ناجيتم الرسول في بعض شؤونكم المهمة الداعية
الى مناجاته عم فقدموا بين يدي نجواكم صدقة اى فتصدقوا قبلها مستعار ممن
له يدان وفي هذا الامر تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم وانفاع الفقراء والزجر عن الافراط
في السؤال والتمييز بين المخلص والمنافق ومحب الاخرة ومحب الدنيا واختلف في انه للندب
او للوجوب لكنه نسخ بقوله تعالى أاشفقتم وهو وان كان متصلا به تلاوة لكنه متراخ عنه
نزولا وعن علي رضه ان في كتاب الله اية ما عمل بها احد غيري كان لي دينار فصرفته
فكنت اذا ناجيته عم تصدقت بدرهم وهو على القول بالوجوب محمول على انه لم يتفق للاغنياء
مناجاة في مدة بقائه اذ روي انه لم يبق الا عشرا وقيل الا ساعة ذلك اى التصدق
خير لكم واطهر اى لانفسكم من الريبة وحب المال وهذا يشعر بالندب لكن قوله تعالى
فان لم تجدوا فان الله غفور رحيم منبئ عن الوجوب لانه ترخيص لمن لم يجد في المناجاة
بلا تصدق أاشفقتم ان تقدموا بين يدي نجواكم صدقات اى اخفتم الفقر
من تقديم الصدقات او اخفتم التقديم لما يعدكم الشيطان عليه من الفقر وجمع
صدقات لجمع المخاطبين فاذ لم تفعلوا ما امرتم به وشق عليكم ذلك وتاب الله عليكم
بان رخص لكم ان لا تفعلوه وفيه اشعار بان اشفاقهم ذنب تجاوز الله عنه لما رأى
منهم من الانفعال ما قام مقام توبتهم واذ على بابها من المضي وقيل بمعنى اذا كما في
قوله تعالى اذ الاغلال في اعناقهم وقيل بمعنى ان فاقيموا الصلوة واتوا الزكوة فاذا فرطتم
فيما امرتم به من تقديم الصدقات فتداركوه بالمثابرة على اقامة الصلوة وايتاء الزكوة
واطيعوا الله ورسوله في سائر الاوامر فان القيام بها كالجابر لما وقع في ذلك من
التفريط والله خبير بما تعملون ظاهرا وباطنا الم تر تعجيب من حال المنافقين الذين
كانوا يتخذون اليهود اولياء ويناصحونهم وينقلون اليهم اسرار المؤمنين اى الم تنظر
الى الذين تولوا اى والوا قوما غضب الله عليهم وهم اليهود كما انبأ عنه قوله تعالى
من لعنه الله وغضب عليه ما هم منكم ولا منهم لانهم منافقون مذبذبون
بين ذلك والجملة مستأنفة او حال من فاعل تولوا ويحلفون على الكذب اى يقولون
والله انا لمسلمون وهو عطف على تولوا داخل في حكم التعجيب وصيغة المضارع للدلالة على
تكرر الحلف وتجدده حسب تكرر ما يقتضيه وقوله تعالى وهم يعلمون حال من فاعل يحلفون
مفيدة لكمال شناعة ما فعلوا فان الحلف على ما يعلم انه كذب في غاية القبح وفيه دلالة على ان

الكذب

الكذب يعم ما يعلم المخبر عدم مطابقته للواقع وما لا يعلمه روي انه عم كان في حجرة من حجراته
فقال يدخل عليكم الان رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان فدخل عبد الله ابن نبتل
المنافق وكان ازرق فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما تشتمني انت واصحابك
فحلف بالله ما فعل فقال عليه السلام فعلت فانطلق فجاء باصحابه فحلفوا بالله ما سبوه
فنزلت اعد الله لهم بسبب ذلك عذابا شديدا نوعا من العذاب متفاقما انهم ساء ما كانوا
يعملون فيما مضى من الزمان المتطاول فتمرنوا على سوء العمل وضروا به واصروا عليه اتخذوا
ايمانهم الفاجرة التي يحلفون بها عند الحاجة وقرئ بكسر الهمزة اى ايمانهم الذي اظهروه
لاهل الاسلام جنة وقاية وسترة دون دمائهم واموالهم فالاتخاذ على هذه القراءة
عبارة عن التستر بما اظهروه بالفعل واما على القراءة الاولى فهي عبارة عن اعدادهم لايمانهم
الكاذبة وتهيئتهم لها الى وقت الحاجة ليحلفوا بها ويتخلصوا عن المؤاخذة لا عن استعمالها
بالفعل فان ذلك متأخر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية والخيانة واتخاذ الجنة
لابد ان يكون قبل المؤاخذة وعن سببها ايضا كما يعرب عنه الفاء في قوله تعالى فصدوا
اى الناس عن سبيل الله في خلال امنهم بتثبيط من لقوا عن الدخول في الاسلام وتضعيف
امر المسلمين عندهم فلهم عذاب مهين وعيد ثان بوصف آخر لعذابهم وقيل الاول
عذاب القبر وهذا عذاب الاخرة لن تغني عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله اى من
عذابه تعالى شيئا من الاغناء روي ان رجلا منهم قال لننصرن يوم القيمة بانفسنا واموالنا
واولادنا اولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات القبيحة اصحاب النار اى ملازموها
ومقارنوها هم فيها خالدون لا يخرجون منها ابدا يوم يبعثهم الله جميعا قيل هو ظرف
لقوله تعالى لهم عذاب مهين فيحلفون له اى لله تعالى يومئذ على انهم مسلمون كما يحلفون
لكم في الدنيا ويحسبون في الاخرة انهم بتلك الايمان الفاجرة على شيء من جلب منفعة
او دفع مضرة كما كانوا عليه في الدنيا حيث كانوا يدفعون بها عن ارواحهم واموالهم
ويستجرون بها فوائد دنيوية الا انهم هم الكاذبون البالغون في الكذب الى غاية لا مطمح
وراءها حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علام الغيوب وزعموا ان ايمانهم الفاجرة
تروج الكذب لديه كما تروجه عند الغافلين استحوذ عليهم الشيطان اى استولى
عليهم من حذت الابل اذا استوليت عليها وجمعتها وهو مما جاء على الاصل كما استصوب
واستنوق اى ملكهم فانساهم الله ذكره بحيث لم يذكروه بقلوبهم ولا بالسنتهم
اولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح حزب الشيطان اى جنوده واتباعه الا ان حزب
الشيطان هم الخاسرون اى الموصوفون بالخسران الذي لا غاية وراءه حيث فوتوا على انفسهم
النعيم المقيم واخذوا بدله العذاب الاليم وفي تصدير الجملة بحرفي التنبيه والتحقيق
واظهار المضافين معا في موقع الاضمار باحد الوجهين وتوسيط ضمير الفصل من فنون
التأكيد ما لا يخفى ان الذين يحادون الله ورسوله استئناف مسوق لتعليل ما
قبله من خسران حزب الشيطان عبر عنهم بالموصول للتنبيه بما في حيز الصلة على ان موادة
من حاد الله ورسوله محادة لهما والاشعار بحكم اولئك بما فعلوا من التولي والموادة
في الاذلين اى في جملة من هو اذل خلق الله من الاولين والاخرين لان ذلة احد المتخاصمين
على مقدار عزة الاخر وحيث كانت عزة الله عز وجل غير متناهية كانت ذلة من يحاده
كذلك كتب الله استئناف وارد لتعليل كونهم في الاذلين اى قضى واثبت في اللوح وحيث
جرى ذلك مجرى القسم اجيب بما يجاب به فقيل لاغلبن انا ورسلي اى بالحجة والسيف
وما يجري مجراهما او باحدهما ونظيره قوله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم
المنصورون وان جندنا لهم الغالبون وقرئ ورسلي بفتح الياء ان الله قوي على نصر اوليائه
عزيز لا يغالب عليه في مراده لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الاخر الخطاب للنبي
صلى الله عليه وسلم او لكل احد وتجد اما متعد الى اثنين فقوله تعالى يوادون من
حاد الله ورسوله مفعوله الثاني او الى واحد فهو حال من مفعوله لتخصصه بالصفة وقيل
صفة اخرى له اى قوما جامعين بين الايمان بالله واليوم الاخر وبين موادة اعداء الله ورسوله والمراد

بنفي الوجدان نفي الموادة على معنى انه لا ينبغي ان يتحقق ذلك وحقه ان يمتنع ولا يوجد بحال وان
جد في طلبه كل احد ولو كانوا اى من حاد الله ورسوله والجمع باعتبار معنى من كما ان الافراد
فيما قبله باعتبار لفظها آباءهم اباء الموادين او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم فان
قضية الايمان بالله تعالى ان يهجر الجميع بالمرة والكلام في لو قد مر على التفصيل مرارا اولئك
اشارة الى الذين لا يوادون وان كانوا اقرب الناس اليهم وامسهم رحما وما فيه من
معنى البعد لرفعة درجتهم في الفضل وهو مبتدأ خبره كتب في قلوبهم الايمان اى اثبته
فيها وفيه دلالة على خروج العمل من مفهوم الايمان فان جزء الثابت في القلب ثابت فيه
قطعا ولا شيء من اعمال الجوارح يثبت فيه وايدهم اى قواهم بروح منه اى من عند الله
تعالى وهو نور القلب او القرآن او النصر على العدو وقيل الضمير للايمان لحياة القلوب به فمن
تجريدية وهو تعالى يدخلهم الخ بيان لآثار رحمته الاخروية اثر بيان الطافه الدنيوية
اى ويدخلهم في الآخرة جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ابد الآبدين و
قوله تعالى رضي الله عنهم استئناف جار مجرى التعليل لما افاض عليهم من آثار رحمته
العاجلة وقوله تعالى ورضوا عنه بيان لابتهاجهم بما اوتوه عاجلا وآجلا وقوله تعالى اولئك
حزب الله تشريف لهم ببيان اختصاصهم به عز وجل وقوله تعالى الا ان حزب الله هم
المفلحون بيان لاختصاصهم بالفوز بسعادة النشأتين والكلام في تحلية الجملة بفنون
التأكيد كما مر في مثلها عن النبي صلعم من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله يوم القيمة

سورة الحشر مدنية وهي اربع وعشرون آية بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السموات وما في الارض وهو العزيز الحكيم مر ما فيه من الكلام في صدر
سورة الحديد وقد كرر الموصول ههنا لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كل من الفريقين
بالتسبيح روى انه صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة صالح بني النضير وهم رهط من اليهود
من ذرية هرون عليه السلام نزلوا المدينة في فتن بني اسرائيل انتظارا لبعثة النبي صلعم
وعاهدهم ان لا يكونوا له ولا عليه فلما ظهر عليه السلام يوم بدر قالوا هو النبي الذي نعته
في التوراة لا ترد له راية فلما كان يوم احد ما كان ارتابوا ونكثوا فخرج كعب بن الاشرف
في اربعين راكبا الى مكة فحالفوا قريشا عند الكعبة على قتاله عليه السلام فامر ع م محمد
بن مسلمة الانصاري فقتل كعبا غيلة وكان اخاه من الرضاعة ثم صبحهم بالكتائب فقال
لهم اخرجوا من المدينة فاستمهلوه عليه السلام عشرة ايام ليتجهزوا للخروج فدس عبد الله
بن ابي المنافق واصحابه اليهم لا تخرجوا من الحصن فان قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم
ولئن خرجتم لنخرجن معكم فدربوا على الازقة وحصنوها فحاصرهم صلى الله عليه
وسلم احدى وعشرين ليلة فلما قذف الله في قلوبهم الرعب وايسوا من نصر المنافقين
طلبوا الصلح فابى عليهم الا الجلاء على ان يحمل كل ثلاثة ابيات على بعير ما شاؤا من متاعهم
فجلوا الى الشام الى اريحاء واذرعات الا اهل بيتين منهم آل ابي الحقيق وآل حيي بن اخطب
فانهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة فانزل الله تعالى سبح لله ما في السموات الى قوله
تعالى والله على كل شيء قدير وقوله تعالى هو الذي اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم
بيان لبعض آثار عزته تعالى واحكام حكمته اثر وصفه تعالى بالعزة القاهرة والحكمة الباهرة
على الاطلاق والضمير راجع اليه تعالى بذلك العنوان اما بناء على كمال ظهور اتصافه تعالى بهما
مع مساعدة تامة من المقام او على جعله مستعارا لاسم الاشارة كما في قوله تعالى قل ارأيتم
ان اخذ الله سمعكم وابصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به اى بذلك
وعليه قول رؤبة بن العجاج كانه في الجلد توليع البهق كما هو المشهور كانه قيل ذلك
المنعوت بالعزة والحكمة الذي اخرج الخ ففيه اشعار بان في الاخراج حكمة باهرة وقوله تعالى
لاول الحشر اى في اول حشرهم الى الشام وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط وهم اول من
اخرج من جزيرة العرب الى الشام او هذا اول حشرهم وآخر حشرهم اجلاء عمر رضي الله عنه اياهم
من خيبر الى الشام وقيل آخر حشرهم حشر يوم القيمة لان المحشر يكون بالشام ما ظننتم

ايها

ايها المسلمون ان يخرجوا من ديارهم بهذا الذل والهوان لشدة بأسهم وقوة منعتهم و
ظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله اى ظنوا ان حصونهم تمنعهم او مانعتهم من بأس
الله وتغيير النظم بتقديم الخبر واسناد الجملة الى ضميرهم للدلالة على كمال وثوقهم بحصانة
حصونهم واعتقادهم في انفسهم انهم في عزة ومنعة لا يبالى معها باحد يتعرض
لهم او يطمع في معازتهم ويجوز ان يكون مانعتهم خبرا لان وحصونهم مرتفعا على
الفاعلية فاتاهم الله اى امر الله تعالى وقدره المقدور لهم من حيث لم يحتسبوا
ولم يخطر ببالهم وهو قتل رئيسهم كعب بن الاشرف فانه مما اضعف قوتهم و
فل شوكتهم وسلب قلوبهم الامن والطمانينة وقيل الضمير في اتاهم ولم يحتسبوا
للمؤمنين اى فاتاهم نصر الله وقرئ فآتاهم اى فآتاهم الله النصر او العذاب وقذف
في قلوبهم الرعب اى اثبت فيه الخوف الذي يرعبها اى يملؤها يخربون بيوتهم بايديهم
ليسدوا ما نقضوا منها من الخشب والحجارة افواه الازقة ولئلا يبقى بعد جلائهم
مساكن للمسلمين ولينقلوا معهم بعض آلاتها المرغوب فيها مما يقبل النقل وايدي المؤمنين
حيث كانوا يخربونها ازالة لمتحصنهم ومتمنعهم وتوسيعا لمجال القتال ونكاية لهم
واسناد هذا اليهم لما انهم السبب فيه فكانهم كلفوهم اياه وامروهم به قيل الجملة حال
او تفسير للرعب وقرئ يخربون بالتشديد للتكثير وقيل الاخراب التعطيل او ترك الشيء خرابا
والتخريب النقض والهدم فاعتبروا يا اولي الابصار فاتعظوا بما جرى عليهم من الامور
الهائلة على وجه لا يكاد يهتدي اليه الافكار واتقوا مباشرة ما اداهم اليه من الكفر و
المعاصي او انتقلوا من حال الفريقين الى حال انفسكم فلا تعولوا على تعاضد الاسباب بل توكلوا
على الله عز وجل وقد استدل به على حجية القياس كما فصل في موقعه ولولا ان كتب الله
عليهم الجلاء اى الخروج عن اوطانهم على ذلك الوجه الفظيع لعذبهم في الدنيا بالقتل
والسبي كما فعل ببني قريظة ولهم في الآخرة عذاب النار استئناف غير متعلق بجواب لولا
جيء به لبيان انهم ان نجوا من عذاب الدنيا بكتابة الجلاء لا نجاة لهم من عذاب الآخرة ذلك
اى ما حاق بهم وما سيحيق بانهم بسبب انهم شاقوا الله ورسوله وفعلوا ما فعلوا مما
حكي عنهم من القبائح ومن يشاق الله وقرئ يشاقق الله كما في الانفال والاقتصار
على ذكر مشاقته تعالى لتضمنها المشاقة له عليه السلام وليوافق قوله تعالى فان الله شديد
العقاب وهو اما نفس الجزاء قد حذف منه العائد الى من عند من يلتزمه اى شديد العقاب
له او تعليل للجزاء المحذوف اى يعاقبه الله فان الله شديد العقاب واياما كان فالشرطية تكملة لما
قبلها وتقرير لمضمونه وتحقيق للسببية بالطريق البرهاني كانه قيل ذلك الذي حاق بهم من
العقاب العاجل والآجل بسبب مشاقتهم لله تعالى ورسوله وكل من يشاق الله كائنا من كان
فله بسبب ذلك عقاب شديد فاذن لهم عقاب شديد ما قطعتم من لينة اى اى شيء
قطعتم من نخلة وهي فعلة من اللون وياؤها مقلوبة من واو لكسرة ما قبلها كديمة
وتجمع على الوان وقيل من اللين وتجمع على لين وهي النخلة الكريمة او تركتموها الضمير
لما وتأنيثه لتفسيره باللينة كما في قوله تعالى ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها
قائمة على اصولها كما كانت من غير ان تتعرضوا لها بشيء ما وقرئ على اصلها اما على الاكتفاء
من الواو بالضم او على انه جمع كرهن وقرئ قائما على اصوله ذهابا الى لفظ ما فباذن الله
فذاك اى قطعها وتركها بامر الله تعالى وليخزي الفاسقين اى ليذل اليهود ويغيظهم اذن
في قطعها وتركها لانهم اذا رأوا المؤمنين يتحكمون في اموالهم كيف احبوا ويتصرفون فيها
حسبما شاؤا من القطع والترك يزدادون غيظا ويتضاعفون حسرة واستدل به على
جواز هدم ديار الكفرة وقطع اشجارهم واحراق زروعهم زيادة لغيظهم وتخصيص اللينة
بالقطع ان كانت من الالوان لاستبقاء العجوة والبرنية اللتين هما كرام النخيل وان كانت هي
الكرام ليكون غيظهم اشد وقوله تعالى وما افاء الله على رسوله شروع في بيان حال ما اخذ
من اموالهم بعد بيان ما حل بانفسهم من العذاب العاجل والآجل وما فعل بديارهم ونخيلهم من التخريب
والقطع اى ما اعاده اليه من مالهم وفيه اشعار بانه كان حقيقا بان يكون له عليه السلام

وانما وقع في ايديهم بغير حق فرجعه الله الى مستحقه لانه تعالى خلق الناس لعبادته وخلق ما خلق
ليتوسلوا به الى طاعته فهو جدير بان يكون للمطيعين منهم من بني النضير فما اوجفتم
عليه اي اجريتم على تحصيله وتغنمه من الوجيف وهو سرعة السير من خيل ولا ركاب
هي ما يركب من الابل خاصة كما ان الراكب عندهم راكبها لا غير واما راكب الفرس فانما
يسمونه فارسا ولا واحد لها من لفظها وانما الواحدة منها راحلة والمعنى ما قطعتم
لها شقة بعيدة ولا لقيتم مشقة شديدة ولا قتالا شديدا وذلك لانه كانت
قراهم على ميلين من المدينة فمشوا اليها مشيا وما كان فيهم راكب الا النبي صلى الله
عليه وسلم فافتتحها صلحا من غير ان يجري بينهم مسايفة كانه قيل وما افاء الله
على رسوله منهم فما حصلتموه بكد اليمين وعرق الجبين ولكن الله يسلط رسله على
من يشاء اي سنته تعالى جارية على ان تسليطهم على من يشاء من اعدائهم تسليطا خاصا
وقد سلط النبي عليه السلام على هؤلاء تسليطا غير معتاد من غير ان تقتحموا مضايق
الخطوب وتقاسوا شدائد الحروب فلا حق لكم في اموالهم والله على كل شيء قدير
فيفعل ما يشاء كما يشاء تارة على الوجوه المعهودة واخرى على غيرها وقوله تعالى ما
افاء الله على رسوله من اهل القرى بيان لمصارف الفيء بعد بيان افاءته عليه من غير
ان يكون للمقاتلة فيه حق واعادة عين العبارة الاولى لزيادة التقرير ووضع اهل
القرى موضع ضميرهم للاشعار بشمول ما لعقاراتهم ايضا فلله وللرسول ولذي القربى
واليتامى والمساكين وابن السبيل اختلف في قسمة الفيء قيل يسدس لظاهر الآية ويصرف
سهم الله الى عمارة الكعبة وسائر المساجد وقيل يخمس لان ذكر الله للتعظيم ويصرف
الآن سهم الرسول صلى الله عليه وسلم الى الامام على قول والى العساكر والثغور على قول والى
مصالح المسلمين على قول يخمس خمسه كالغنيمة فانه صلى الله عليه وسلم كان يقسم الخمس
كذلك ويصرف الاخماس الاربعة كما يشاء والآن على الخلاف المذكور كيلا يكون اي الفيء
الذي حقه ان يكون للفقراء يعيشون به دولة بضم الدال وقرئ بفتحها وهي ما يدولها
الانسان اي يدور من الغنى والجد والغلبة وقيل الدولة بالفتح من الملك بالضم او بكسرها
في المال وبالفتح في النصرة اي كيلا يكون جدا بين الاغنياء منكم يتكاثرون به او كيلا
يكون دولة جاهلية بينكم فان الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة ويقولون
من عز بز يكون الفيء شيئا يتداوله الاغنياء عنهم ويتعاورونه فلا يصيب الفقراء والدولة
بالفتح بمعنى التداول وقيل الدولة بالضم ما يتداول كالغرفة اسم ما يغترف فالمعنى
كيلا يكون ذا تداول بينهم او كيلا يكون امساكه تداولا بينهم لا يخرجونه الى الفقراء وقرئ
دولة بالرفع على ان كان تامة اي كيلا يقع دولة ما فصل من المعاني وما آتاكم الرسول
اي ما اعطاكموه من الفيء او من الامر فخذوه فانه حقكم او فتمسكوا به فانه واجب عليكم وما
نهاكم عنه عن اخذه او عن تعاطيه فانتهوا عنه واتقوا الله في مخالفته عليه السلام ان الله
شديد العقاب فيعاقب من يخالف امره ونهيه للفقراء المهاجرين بدل من لذي
القربى وما عطف عليه فان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسمى فقيرا ومن اعطى اغنياء
ذوي القربى خص الابدال بما بعده او الفيء بخصوص اعتبار الفقر بفيء بني النضير فتعسف ظاهر
الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم حيث اضطرهم كفار مكة واحوجوهم الى الخروج
وكانوا مائة رجل فخرجوا منها يبتغون فضلا من الله ورضوانا اي طالبين منه تعالى
رزقا في الدنيا ومرضاة في الآخرة وصفوا بذلك لانها يدل على استحقاقهم للفيء من الاخراج
من الديار والاموال وقيد ذلك ثانيا بما يوجب تفخيم شانهم ويؤكده وينصرون الله ورسوله
عطف على يبتغون فهي حال مقدرة اي ناوين نصرة الله تعالى ورسوله او مقارنة فان خروجهم من
بين الكفار مراغمين لهم مهاجرين الى المدينة نصرة واي نصرة اولئك الموصوفون بما فصل
من الصفات الحميدة هم الصادقون الراسخون في الصدق حيث ظهر ذلك بما فعلوا ظهورا بينا
والذين تبوءوا الدار والايمان كلام مستأنف مسوق لمدح الانصار بخصال حميدة من جملتها
محبتهم للمهاجرين ورضاهم باختصاص الفيء بهم احسن رضى واكمله ومعنى تبوئهم الدار

انهم

انهم اتخذوا المدينة والايمان مباءة وتمكنوا فيهما اشد تمكن على تنزيل الحال منزلة المكان وقيل
ضمن التبوء معنى اللزوم وقيل تبوءوا الدار واخلصوا الايمان كقول من قال علفتها تبنا و
ماء باردا وقيل المعنى تبوءوا دار الهجرة ودار الايمان فحذف المضاف من الثاني والمضاف
اليه من الاول وعوض منه اللام وقيل سمى المدينة لكونها مظهره ومنشأه من
قبلهم اي من قبل هجرة المهاجرين على المعاني الاول ومن قبل تبوء المهاجرين على الاخير
ويجوز ان يجعل اتخاذ الايمان مباءة ولزومه واخلاصه على المعاني الاول عبارة عن اقامة
كافة حقوقه التي من جملتها اظهار عامة شعائره واحكامه ولا ريب في تقدم الانصار
في ذلك على المهاجرين لظهور عجزهم عن اظهار بعضها لا عن اخلاصه قلبا واعتقادا اذ لا
لا يتصور تقدمهم عليهم في ذلك يحبون من هاجر اليهم خبر للموصول اي يحبونهم
من حيث مهاجرتهم اليهم لمحبتهم الايمان ولا يجدون في صدورهم اي في نفوسهم
حاجة اي شيئا محتاجا اليه يقال خذ منه حاجتك اي ما تحتاج اليه وقيل اثر حاجة
كالطلب والحزازة والحسد والغيظ مما اوتوا اي مما اوتي المهاجرون من الفيء وغيره
ويؤثرون اي يقدمون المهاجرين على انفسهم في كل شيء من اسباب المعاش حتى ان من
كان عنده امرأتان كان ينزل عن احديهما ويزوجها واحدا منهم ولو كان بهم خصاصة
اي حاجة وخلة واصلها خصاص البيت وهي فروجه والجملة في حيز الحال وقد عرفت
وجهه مرارا وكان النبي صلى الله عليه وسلم قسم اموال بني النضير على المهاجرين ولم يعط
الانصار الا ثلاثة نفر محتاجين ابا دجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحارث بن
الصمة وقال لهم ان شئتم قسمتم للمهاجرين من اموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه
الغنيمة وان شئتم كانت لكم دياركم واموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة فقالت الانصار بل نقسم
لهم من اموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها فنزلت وهذا صريح في ان
قوله تعالى والذين تبوءوا الخ مستأنف غير معطوف على الفقراء والمهاجرين نعم يجوز عطفه
على اولئك فان ذلك انما يستدعي شركة الانصار للمهاجرين في الصدق دون الفيء فيكون قوله
تعالى يحبون وما عطف عليه استئنافا مقررا لصدقهم او حالا من ضمير تبوءوا ومن
يوق شح نفسه الشح بالضم والكسر وقد قرئ به ايضا اللؤم واضافته الى النفس لانه
غريزة فيها مقتضية للحرص على المنع الذي هو البخل اي ومن يوق بتوفيق الله تعالى شحها
حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الانفاق فاولئك اشارة الى من باعتبار
معناها العام المنتظم للمذكورين انتظاما اوليا هم المفلحون الفائزون بكل مطلوب
الناجون عن كل مكروه والجملة اعتراض وارد لمدح الانصار والثناء عليهم وقرئ يوقّ
بالتشديد والذين جاءوا من بعدهم هم الذين هاجروا بعد ما قوي الاسلام او
او التابعون باحسان وهم المؤمنون بعد الفريقين الى يوم القيمة ولذلك قيل ان الآية
قد استوعبت جميع المؤمنين واياما كان فالموصول مبتدأ خبره يقولون الخ والجملة
مسوقة لمدحهم بمحبتهم لمن تقدمهم من المؤمنين ومراعاتهم لحقوق الاخوة
في الدين والسبق بالايمان كما ان ما عطفت عليه من الجملة السابقة لمدح الانصار اي يدعون
لهم ربنا اغفر لنا ولاخواننا اي في الدين الذي هو اعز واشرف عندهم من النسب
الذين سبقونا بالايمان وصفوهم بذلك اعترافا بفضلهم ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين
امنوا وقرئ غمرا وهما الحقد للذين امنوا على الاطلاق ربنا انك رءوف رحيم اي
مبالغ في الرأفة والرحمة فحقيق بان تجيب دعاءنا الم تر الى الذين نافقوا حكاية لما
جرى بين الكفرة والمنافقين من الاقوال الكاذبة والاحوال الفاسدة وتعجيب منها بعد
حكاية محاسن احوال المؤمنين واقوالهم على اختلاف طبقاتهم والخطاب لرسول الله صلى
الله عليه وسلم او لكل احد ممن له حظ من الخطاب وقوله تعالى يقولون الخ استئناف لبيان
المتعجب منه وصيغة المضارع للدلالة على استمرار قولهم او لاستحضار صورته واللام
في قوله تعالى لاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب للتبليغ والمراد باخوتهم اما توافقهم
في الكفر او صداقتهم وموالاتهم واللام في قوله تعالى لئن اخرجتم اي من دياركم قسرا

موطئة للقسم وقوله تعالى لنخرجن معكم جواب القسم اى والله لئن اخرجتم لنخرجن معكم
البتة ونذهبن فى صحبتكم اينما ذهبتم ولا نطيع فيكم اى فى شأنكم احدا يمنعنا من
الخروج معكم ابدا وان طال الزمان وقيل لا نطيع فى قتالكم او خذلانكم وليس بذاك
لان تقدير القتال مترقب بعد ولان وعدهم لهم على ذلك التقدير وليس بمجرد
عدم طاعتهم لمن يدعوهم الى قتالهم بل نصرتهم عليه كما ينطق به قوله تعالى وان قوتلتم
لننصرنكم اى لنعاوننكم على عدوكم على ان دعوتهم الى خذلان اليهود مما لا يمكن
صدوره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين حتى يدعوا عدم طاعتهم فيها
ضرورة انها لو كانت لكانت عند استعدادهم لنصرتهم واظهار كفرهم ولا ريب فى
ان ما يفعله عم عند ذلك قتلهم لا دعوتهم الى ترك نصرتهم واما الخروج معهم
فليس بهذه المرتبة من اظهار الكفر لجواز ان يدعوا ان خروجهم معهم لما بينهم من الصداقة
الدنيوية للموافقة فى الدين والله يشهد انهم لكاذبون فى مواعيدهم المؤكدة بالايمان
الفاجرة وقوله لئن اخرجوا لا يخرجون معهم الى تكذيب لهم فى كل واحد من
اقوالهم على التفصيل بعد تكذيبهم فى الكل على الاجمال ولئن قوتلوا لا ينصرونهم وكان
الامر كذلك فان ابن ابى واصحابه ارسلوا الى بنى النضير ذلك سرا ثم اخلفوهم وفيه
حجة بينة لصحة النبوة واعجاز القرآن ولئن نصروهم على الفرض والتقدير ليولن الادبار
فرارا ثم لا ينصرون اى المنافقون بعد ذلك اى يهلكهم الله ولا ينفعهم نفاقهم
لظهور كفرهم او ليهلكن من اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين لانتم اشد رهبة
اى اشد مرهوبية على انها مصدر من المبنى للمفعول فى صدورهم من الله اى رهبتهم
منكم فى السر اشد مما يظهرونه لكم من رهبة الله فانهم كانوا يدعون عندهم رهبة
عظيمة من الله تعالى ذلك اى ما ذكر من كون رهبتهم منكم اشد من رهبة الله بانهم بسبب
انهم قوم لا يفقهون اى شيئا لا يعلموا عظمة الله تعالى فيخشوه حق خشيته لا يقاتلونكم
اى اليهود والمنافقون بمعنى لا يقدرون على قتالكم جميعا اى مجتمعين متفقين فى موطن
من المواطن الا فى قرى محصنة بالدروب والخنادق او من وراء جدر دون
ان يصحروا لكم ويبارزوكم لفرط رهبتهم وقرئ جدر بالتخفيف وقرئ جدار وبامالة
فتحة الدال وجدر وجدر وهما الجدار بأسهم بينهم شديد استيناف سيق لبيان
ان ما ذكر من رهبتهم ليس لضعفهم وجبنهم فى انفسهم فان بأسهم بالنسبة الى
اقرانهم شديد وانما ضعفهم وجبنهم بالنسبة بما قذف الله تعالى فى قلوبهم من الرعب
تحسبهم جميعا مجتمعين متفقين وقلوبهم شتى متفرقة لا الفة بينها ذلك بانهم
اى ما ذكر من تشتت قلوبهم بسبب انهم قوم لا يعقلون اى لا يعقلون شيئا حتى يعرفوا
الحق ويتبعوه وتطمئن به قلوبهم وتتحد كلمتهم ويرموا عن قوس واحدة فيقعون
فى تيه الضلال وتتشتت قلوبهم حسب تشتت طرقه وتفرق فنونه واما ما قيل من ان
المعنى لا يعقلون ان تشتت القلوب مما يوهن قواهم فبمعزل من السداد وقوله تعالى كمثل الذين
من قبلهم خبر مبتدأ محذوف تقديره مثلهم اى مثل المذكورين من اليهود والمنافقين
كمثل اهل بدر او بنى قينقاع على ما قيل انهم اخرجوا قبل بنى النضير قريبا فى زمان قريب
وانتصابه بمثل اذ التقدير كوقوع مثل الى آخره ذاقوا وبال امرهم اى سوء عاقبة كفرهم
فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب اليم لا يقادر قدره والمعنى ان حال هؤلاء كحال اولئك فى
الدنيا والآخرة لكن لا على ان حال كلهم كحالهم بل حال بعضهم الذين هم اليهود كذلك
واما حال المنافقين فهو ما نطق به قوله تعالى كمثل الشيطان فانه خبر ثان للمبتدأ المقدر
مبين لحالهم متضمن لحال اخرى لليهود وهى اغترارهم بمقالة المنافقين اولا وخيبتهم
آخرا وقد اجمل فى النظم الكريم حيث اسند كل من الخبرين الى المقدر المضاف الى ضمير الفريقين
من غير تعيين ما اسند اليه بخصوصه ثقة بان السامع يرد كلا من المثلين الى ما يماثله كأنه قيل
مثل اليهود فى حلول العذاب بهم كمثل الذين من قبلهم ومثل المنافقين فى اغرائهم اياهم على
القتال كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر اى اغراه على الكفر اغراء الآمر المأمور على المأمور به

فلما كفر

فلما كفر قال انى برئ منك وقرئ انا برئ منك وان اريد بالانسان الجنس فهذا التبرى من الشيطان
يكون يوم القيامة كما ينبئ عنه قوله تعالى انى اخاف الله رب العالمين وان اريد به ابو
جهل فقوله تعالى اكفر عبارة عن قول ابليس يوم بدر لا غالب لكم اليوم من الناس وانى
جار لكم وتبرؤه قوله يومئذ انى برئ منكم انى ارى ما لا ترون انى اخاف الله الآية
فكان عاقبتهما بالنصب على انه خبر كان واسمها انهما فى النار خالدين فيها وقرئ
بالعكس وقد مر انه اوضح خالدين فيها وقرئ خالدان فيها على انه خبر ان وفى النار
لغو وذلك جزاء الظالمين اى الخلود فى النار جزاء الظالمين على الاطلاق دون
هؤلاء خاصة يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله اى فى كل ما تأتون وتذرون ولتنظر
نفس ما قدمت لغد اى اى شئ قدمت من الاعمال ليوم القيامة عبر عنه بذلك لدنوه او
لان الدنيا كيوم والآخرة غده وتنكيره لتفخيمه وتهويله كأنه قيل لغد لا يعرف كنهه
لغاية عظمه واما تنكير نفس فلاستقلال الانفس النواظر فيما قدمن لذلك اليوم
الهائل كأنه قيل ولتنظر نفس واحدة فى ذلك واتقوا الله تكرير للتأكيد او الاول
فى اداء الواجبات كما يشعر به ما بعده من الامر بالعمل وهذا فى ترك المحارم كما يؤذن
به الوعيد بقوله تعالى ان الله خبير بما تعملون اى من المعاصى ولا تكونوا كالذين نسوا
الله اى نسوا حقوقه تعالى وما قدروه حق قدره ولم يراعوا مواجب اوامره ونواهيه
حق رعايتها فانساهم بسبب ذلك انفسهم اولئك هم الفاسقون الكاملون
فى الفسوق لا يستوى اصحاب النار الذين نسوا الله فاستحقوا الخلود فى النار و
اصحاب الجنة الذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود فى الجنة ولعل تقديم اصحاب النار فى الذكر
للايذان من اول الامر بان القصور الذى ينبئ عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من
جهة مقابليهم فان مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانا
وان جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص وعليه
قوله تعالى هل يستوى الاعمى والبصير ام هل تستوى الظلمات والنور الى غير ذلك من
المواقع واما قوله تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون فلعل تقديم الفاضل
فيه لان صلته ملكة لصلة المفضول والاعدام مسبوقة بملكاتها ولا دلالة فى الآية
الكريمة على ان المسلم لا يقتص بالكافر وان الكفار لا يملكون اموال المسلمين بالقهر
لان المراد عدم الاستواء فى الاحوال الاخروية كما ينبئ عنه التعبير عن الفريقين بصاحبية
النار وصاحبية الجنة وكذا قوله تعالى اصحاب الجنة هم الفائزون فانه استيناف
مبين لكيفية عدم الاستواء بين الفريقين اى هم الفائزون بكل مطلوب الناجون
عن كل مكروه لو انزلنا هذا القرآن العظيم الشان المنطوى على فنون القوارع على
جبل من الجبال لرايته مع كونه علما فى القسوة وعدم التأثر بما يصادمه خاشعا
متصدعا من خشية الله اى متشققا منها وقرئ مصدعا بالادغام وهذا تمثيل و
تخييل لعلو شان القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ كما ينطق به قوله تعالى و
وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون اريد به توبيخ الانسان على قسوة قلبه
وعدم تخشعه عند تلاوته وقلة تدبره فيه هو الله الذى لا اله الا هو وحده
عالم الغيب والشهادة اى ما غاب عن الحس من الجواهر القدسية واحوالها وما حضر له
من الاجرام واعراضها وتقديم الغيب على الشهادة لتقدمه فى الوجود وتعلق العلم القديم
به او المعدوم والموجود او السر والعلانية هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا اله الا هو
كرر لابراز الاعتناء بامر التوحيد الملك القدوس البليغ فى النزاهة عما يوجب نقصانا
ما وقرئ بالفتح وهى لغة فيه السلام ذو السلامة من كل نقص وآفة مصدر وصف به
للمبالغة المؤمن واهب الامن وقرئ بالفتح المؤمن به على حذف الجار المهيمن الرقيب
الحافظ لكل شئ مفيعل من الامن بقلب همزته هاء العزيز الغالب الجبار الذى جبر خلقه
على ما اراد او جبر احوالهم اى اصلحها المتكبر الذى عن كل ما يوجب حاجة او نقصانا
او البليغ الكبرياء والعظمة سبحان الله عما يشركون تنزيه له تعالى عما يشركونه به تعالى

او عن اشراكهم به تعالى اثر تعداد صفاته التى لا يمكن ان يشاركه تعالى فى شئ منها شئ ما اصلا هو الله الخالق المقدر للاشياء على مقتضى حكمته البارئ الموجد لها بريئا من التفاوت وقيل المميز بعضها من بعض بالاشكال المختلفة المصور الموجد لصورها وكيفياتها كما اراد له الاسماء الحسنى لدلالتها على المعانى الحسنة يسبح له ما فى السموات والارض ينطق بتنزهه عن جميع النقايض تنزها ظاهرا وهو العزيز الحكيم الجامع للكمالات كافة فانها مع تكثرها وتشعبها راجعة الى الكمال والقدرة والعلم عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحشر غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر

سورة الممتحنة وهى ثلث عشرة آية بسم الله الرحمن الرحيم

يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم اولياء نزلت فى حاطب بن ابى بلتعة وذلك انه لما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لغزوة الفتح كتب الى اهل مكة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم فخذوا حذركم وارسله مع سارة مولاة بنى المطلب فنزل جبريل عليه السلام بالخبر فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وعمارا وطلحة والزبير والمقداد وابا مرثد وقال انطلقوا حتى تاتوا روضة خاخ فان بها ظعينة معها كتاب حاطب الى اهل مكة فخذوه منها وخلوها فان ابت فاضربوا عنقها فادركوها فجحدت فسل على سيفه فاخرجته من عقاصها فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا وقال ما حملك على هذا فقال يا رسول الله ما كفرت منذ اسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولكنى كنت امرأ ملصقا فى قريش ليس فيهم من يحمى اهلى فاردت ان آخذ عندهم يدا وقد علمت ان كتابى لا يغنى عنهم شيئا فصدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل عذره تلقون اليهم بالمودة اى توصلون اليهم المودة على ان الباء زائدة كما فى قوله تعالى ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة او تلقون اليهم اخبار النبى عليه السلام بسبب التى بينكم وبينهم والجملة اما حال من فاعل لا تتخذوا او صفة لاولياء وابراز الضمير فى الصفات الجارية على غير من هى له انما يشترط فى الاسم دون الفعل او استيناف وقد كفروا بما جاءكم من الحق حال من فاعل تلقون وقيل من فاعل لا تتخذوا وقرئ لما جاء اى كفروا لاجل ما جاءكم بمعنى جعل ما هو سبب الايمان سببا للكفر يخرجون الرسول واياكم اى من مكة وهو اما حال من فاعل كفروا او استيناف مبين لكفرهم وصيغة المضارع لاستحضار الصورة وقوله تعالى ان تؤمنوا بالله ربكم تعليل للاخراج وفيه تغليب المخاطب على الغائب والالتفات من التكلم الى الغيبة للاشعار بما يوجب الايمان من الالوهية والربوبية ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى متعلق بلا تتخذوا كانه قيل لا تتولوا اعدائى ان كنتم اوليائى وقوله تعالى تسرون اليهم بالمودة استيناف وارد على نهج العتاب والتوبيخ اى تسرون اليهم المودة او الاخبار بسبب المودة وانا اعلم اى والحال انى اعلم منكم بما اخفيتم وما اعلنتم ومطلع رسولى عليه ما تسرون فاى طائل لكم فى الاسرار وقيل اعلم مضارع والباء مزيدة وما موصولة او مصدرية وتقديم الاخفاء على الاعلان قد مر وجهه فى قوله تعالى يعلم ما يسرون وما يعلنون ومن يفعله منكم اى الاتخاذ فقد ضل سواء السبيل فقد اخطأ طريق الحق والصواب ان يثقفوكم اى ان يظفروا بكم يكونوا لكم اعداء اى يظهروا ما فى قلوبهم من العداوة ويرتبوا عليها احكامها ويبسطوا اليكم ايديهم والسنتهم بالسوء بما يسوؤكم من القتل والاسر والشتم وودوا لو تكفرون اى تمنوا ارتدادكم وصيغة الماضى للايذان بتحقق ودادتهم قبل ان يثقفوكم ايضا لن تنفعكم ارحامكم قراباتكم ولا اولادكم الذين توالون المشركين لاجلهم وتتقربون اليهم محاماة عليهم يوم القيمة بجلب نفع او دفع ضر يفصل بينكم استيناف لبيان عدم نفع الارحام والاولاد يومئذ اى يفرق الله بينكم بما اعتراكم من الهول الموجب لفرار كل منكم من الآخر حسبما نطق به قوله تعالى يوم يفر المرء من اخيه الآية فما لكم ترفضون حق الله تعالى لمراعاة حق من هذا شانه

وقرئ يفصل ويفصل مبنيا للمفعول ويفصل ويفصل مبنيا للفاعل وهو الله تعالى ونفصل ونفصل بالنون والله بما تعملون بصير فيجازيكم به قد كانت لكم اسوة حسنة اى خصلة حميدة حقيقة بان يؤتسى ويقتدى بها فى ابراهيم والذين معه اى من اصحابه المؤمنين صفة ثانية لاسوة او خبر لكان ولكم للبيان او حال من المستكن فى حسنة او صلة لها لا لاسوة عند من لا يجوز العمل بعد الوصف اذ قالوا ظرف لخبر كان لقومهم انا برآء منكم جمع برئ كظريف وظرفاء وقرئ براء كظراف وبراء كرجال وبراء على الوصف بالمصدر مبالغة ومما تعبدون من دون الله من الاصنام كفرنا بكم اى بدينكم او بمعبودكم او بكم وبه فلا نعتد بشانكم وبآلهتكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا اى هذا دابنا معكم لا نتركه حتى تؤمنوا بالله وحده وتتركوا ما انتم عليه من الشرك فينقلب العداوة حينئذ ولاية والبغضاء محبة الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك استثناء من قوله تعالى اسوة حسنة فان استغفاره عليه السلام لابيه الكافر وان كان جائزا عقلا وشرعا لوقوعه قبل تبين انه من اصحاب الجحيم كما نطق به النص لكنه ليس مما ينبغى ان يؤتسى به اصلا اذ المراد به ما يجب الائتساء به حتما لورود الوعيد على الاعراض عنه بما سيأتى من قوله تعالى ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد فاستثناؤه من الاسوة انما يفيد عدم وجوب استدعاء الايمان والمغفرة للكافر المرجو ايمانه وذلك مما لا يرتاب فيه عاقل واما عدم جوازه فلا دلالة للاستثناء عليه قطعا هذا واما تعليل عدم كون استغفاره عليه السلام لابيه الكافر مما ينبغى ان يؤتسى به كان قبل النهى او لموعدة وعدها اياه فبمعزل من السداد بالكلية لابتنائه على تناول النهى لاستغفاره عليه السلام له وابتنائه عن كونه مؤتسى به لو لم ينه عنه وكلاهما بين البطلان لما ان مورد النهى هو الاستغفار للكافر بعد تبين امره وقد عرفت ان استغفاره عليه السلام لابيه كان قبل ذلك قطعا وان ما يؤتسى به ما يجب الائتساء به لا ما يجوز فعله فى الجملة وتجويز ان يكون استغفاره عليه السلام له بعد النهى كما هو المفهوم من ظاهر قوله او لموعدة وعدها اياه مما لا مساغ له وتوجيه الاستثناء الى العدة بالاستغفار لا الى نفس الاستغفار بقوله واغفر لابى الآية لانها كانت هى الحاملة له عليه السلام على الاستغفار وتخصيص هذه العدة بالذكر دون ما وقع فى سورة مريم من قوله تعالى سأستغفر لك ربى لورودها على طريق التوكيد القسمى واما جعل الاستغفار دائرا عليها وترتيب التبرئ على تبين الامر فقد مر بيانه وتحقيقه فى سورة التوبة وقوله تعالى وما املك لك من الله من شئ من تمام القول المستثنى محله النصب على انه حال من فاعل لاستغفرن لك اى استغفر لك وليس فى طاقتى الا الاستغفار فمورد الاستثناء نفس الاستغفار لا قيده الذى هو فى نفسه من خصال الخير لكونه اظهارا للعجز وتفويضا للامر الى الله تعالى وقوله تعالى ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير الخ من تمام ما نقل عن ابراهيم عليه السلام ومن معه من الاسوة الحسنة وتقديم الجار والمجرور لقصر التوكل والانابة والمصير على الله تعالى قالوه بعد المجاهرة وقشر العصا التجاء الى الله عز وجل فى جميع امورهم لا سيما فى مدافعة الكفرة وكفاية شرورهم كما ينطق به قوله تعالى ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا بان تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نطيقه واغفر لنا ما فرط منا من الذنوب ربنا انك انت العزيز الغالب الذى لا يذل من التجأ اليه ولا يخيب رجاء من توكل عليه الحكيم الذى لا يفعل الا ما فيه حكمة بالغة وتكرير النداء للمبالغة فى التضرع والجؤار هذا واما جعل الآيتين تلقينا للمؤمنين من جهته تعالى وامرا لهم بان يتوكلوا عليه وينيبوا اليه ويستعيذوا به من فتنة الكفرة ويستغفروا مما فرط منهم بتكلمة لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفرة فلا يساعده النظم الكريم لقد كان لكم فيهم اى فى ابراهيم ومن معه اسوة حسنة تكرير للمبالغة فى الحث على الائتساء به عليه السلام ولذلك صدر بالقسم وقوله تعالى لمن كان يرجو الله واليوم الآخر بدل من لكم فائدته الايذان بان

من يؤمن بالله واليوم الآخر لا يترك الاقتداء بهم وان تركه من مخايل عدم الايمان بهما كما
ينبئ عنه قوله تعالى ومن يتول فان الله هو الغني الحميد فانه مما يوعد بامثاله الكفرة
عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم اى من اقاربكم المشركين مودة
بان يوافقوكم فى الدين وعدهم الله تعالى بذلك لما رأى منهم من التصلب فى الدين
والتشدد فى معاداة آبائهم وابنائهم وسائر اقربائهم ومقاطعتهم اياهم بالكلية
تطييبا لقلوبهم ولقد انجز وعده الكريم حين اباح لهم الفتح فاسلم قومهم فتم بينهم
من التحاب والتصافى ما تم والله قدير اى مبالغ فى القدرة على تقليب القلوب و
تغيير الاحوال وتسهيل اسباب المودة والله غفور رحيم فيغفر لمن اسلم من المشركين
ويرحمهم وقيل غفور لما فرط منكم فى موالاتهم من قبل ولما بقى فى قلوبكم من ميل الرحم
لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم اى لا ينهاكم
عن البر بهؤلاء فان قوله تعالى ان تبروهم بدل من الموصول وتقسطوا اليهم
اى تقضوا اليهم بالقسط اى العدل ان الله يحب المقسطين اى العادلين روى
ان قتيلة بنت عبد العزى قدمت مشركة على بنتها اسماء بنت ابى بكر رضى الله عنه بهدايا
فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول فنزلت فامرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ان
تدخلها وتقبل منها وتكرمها وتحسن اليها وقيل المراد بهم خزاعة وكانوا صالحوا رسول الله
صلى الله عليه وسلم على ان لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم
فى الدين واخرجوكم من دياركم وهم عتاة اهل مكة وظاهروا على اخراجكم وهم سائر
اهلها ان تولوهم بدل اشتمال من الموصول اى انما ينهاكم عن ان تتولوهم ومن
يتولهم فاولئك هم الظالمون لوضعهم الولاية فى موضع العداوة او هم الظالمون
لانفسهم بتعريضها للعذاب يا ايها الذين آمنوا بيان لحكم من يظهر الايمان بعد بيان
حكم فريقى الكافرين اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات من بين الكفار فامتحنوهن
فاختبروهن بما يغلب على ظنكم موافقة قلوبهن للسانهن فى الايمان يروى
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول للتى يمتحنها بالله الذى لا اله الا هو ما
خرجت رغبة عن ارض الى ارض بالله ما خرجت التماس دنيا بالله ما خرجت الا حبا لله و
رسوله الله اعلم بايمانهن لانه المطلع على ما فى قلوبهن والجملة اعتراض فان
علمتموهن بعد الامتحان مؤمنات علما يمكنكم تحصيله وتبلغه طاقتكم بعد [illegible]
من الاستدلال بالعلائم والدلائل والاستشهاد بالامارات والمخايل وهو الظن الغالب
وتسميته علما للايذان بانه جار مجرى العلم فى وجوب العمل به فلا ترجعوهن الى
الكفار اى الى ازواجهن الكفرة لقوله تعالى لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن
فانه تعليل للنهى عن رجعهن اليهم والتكرير اما لتاكيد الحرمة او لان الاول لبيان
زوال النكاح الاول والثانى لبيان امتناع النكاح الجديد وآتوهم ما انفقوا اى
واعطوا ازواجهن مثل ما دفعوا اليهن من المهور وذلك ان صلح الحديبية كان على
ان من جاءنا منكم رددناه فجاءت سبيعة بنت الحارث الاسلمية مسلمة والنبى صلى
الله عليه وسلم بالحديبية فاقبل زوجها مسافر المخزومى وقيل صيفى بن الراهب
فقال يا محمد اردد على امرأتى فانك قد شرطت ان ترد علينا من اتاك منا فنزلت
لبيان ان الشرط انما كان فى الرجال دون النساء فاستحلفها رسول الله صلى الله عليه وسلم
فاعطى زوجها ما انفق وتزوجها عمر رضى الله عنه ولا جناح عليكم ان تنكحوهن فان
اسلامهن حال بينهن وبين ازواجهن الكفار اذا آتيتموهن اجورهن شرط ايتاء المهر
فى نكاحهن ايذانا بان ما اعطى ازواجهن لا يقوم مقامه ولا تمسكوا بعصم الكوافر جمع
عصمة وهى ما يعتصم به من عقد وسبب اى لا يكن بينكم وبين المشركات عصمة ولا علقة
زوجية قال ابن عباس رضى الله عنهما من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدن بها من
من نسائه لان اختلاف الدارين قطع عصمتها منه وعن النخعى هى المسلمة تلحق بدار
الحرب فتكفر وعن مجاهد امرهم بطلاق الباقيات مع الكفار ومفارقتهن وقرئ ولا تمسكوا

بالتشديد

بالتشديد ولا تمسكوا بحذف احدى التاءين من تتمسكوا واسألوا ما انفقتم من مهور نسائكم
اللاحقات بالكفار وليسألوا ما انفقوا من مهور ازواجهم المهاجرات ذلكم الذى
ذكر حكم الله وقوله تعالى يحكم بينكم كلام مستأنف او حال من حكم الله على حذف
الضمير اى يحكمه الله او جعل الحكم حاكما على المبالغة والله عليم حكيم يشرع ما تقتضيه
الحكمة البالغة روى انه لما نزلت الآية ادى المؤمنون ما امروا به من مهور المهاجرات
الى ازواجهن المشركين وابى المشركون ان يؤدوا شيئا من مهور الكوافر الى ازواجهن
المسلمين فنزل قوله تعالى وان فاتكم اى سبقكم وانفلت منكم شئ من ازواجكم الى
الكفار اى احد من ازواجكم وقد قرئ كذلك وايقاع شئ موقعه للتحقير والاشباع فى
التعميم او شئ من مهور ازواجكم فعاقبتم اى فجاءت عقبتكم اى نوبتكم من اداء المهر
شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من اداء هؤلاء مهور نساء اولئك تارة واداء
اولئك مهور هؤلاء اخرى بامر يتعاقبون فيه كما يتعاقب فى الركوب وغيره فآتوا الذين
ذهبت ازواجهم مثل ما انفقوا من مهر المهاجرة التى تزوجتموها ولا تؤتوه زوجها
الكافر وقيل معناه ان فاتكم فاصبتم من الكفار عقبى هى الغنيمة فآتوا بدل الفائت من الغنيمة
وقرئ فاعقبتم وفعقبتم بالتشديد وفعقبتم بالتخفيف وفتح القاف وبكسرها قيل جميع
من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة ام الحكم بنت ابى سفيان وفاطمة
بنت امية وبروع بنت عقبة وعبدة بنت عبد العزى وهند بنت ابى جهل وكلثوم بنت
جرول واتقوا الله الذى انتم به مؤمنون فان الايمان به تعالى يقتضى التقوى منه تعالى
يا ايها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك اى مبايعات لك اى قاصدات للمبايعة
نزلت يوم الفتح فانه عليه السلام لما فرغ عن بيعة الرجال شرع فى بيعة النساء على
ان لا يشركن بالله شيئا اى شيئا من الاشياء او شيئا من الاشراك ولا يسرقن ولا يزنين
ولا يقتلن اولادهن اريد به وأد البنات وقرئ ولا يقتلن بالتشديد ولا يأتين
ببهتان يفترينه بين ايديهن وارجلهن كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها
هو ولدى منك كنى عنه بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها لان بطنها الذى تحمله فيه
بين يديها ومخرجه بين رجليها ولا يعصينك فى معروف اى فيما تأمرهن به من
معروف وتنهاهن عنه من منكر والتقييد بالمعروف مع ان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يأمر
الا به للتنبيه على انه لا يجوز طاعة مخلوق فى معصية الخالق وتخصيص الامور المعدودة
بالذكر فى حقهن لكثرة وقوعها فيما بينهن مع اختصاص بعضها بهن فبايعهن اى على ما ذكر
وما لم يذكر لوضوح امره وظهور اصالته فى المبايعة من الصلوة والزكوة وسائر اركان
الدين وشعائر الاسلام وتقييد مبايعتهن بما ذكر من مجيئهن لحثهن على المسارعة
اليها مع كمال الرغبة فيها من غير دعوة لهن اليها واستغفر لهن الله زيادة على ما فى ضمن
المبايعة فانها عبارة عن ضمان الثواب من قبله عليه السلام بمقابلة الوفاء بالامور المذكورة
من قبلهن ان الله غفور رحيم اى مبالغ فى المغفرة والرحمة فيغفر لهن ويرحمهن
اذا وفين بما بايعن عليه واختلف فى كيفية مبايعته عليه السلام لهن يومئذ فروى
انه عليه السلام لما فرغ من بيعة الرجال جلس على الصفا ومعه عمر اسفل منه فجعل عليه السلام
يشترط عليهن البيعة وعمر يصافحهن وروى انه كلف امرأة وقفت على الصفا فبايعتهن
وقيل دعا بقدح من ماء فغمس فيه يده ثم غمس ايديهن وروى انه عليه السلام بايعهن
وبين يديه وايديهن ثوب قطرى والاظهر الاشهر ما قالت عائشة رضى الله عنها والله ما اخذ
رسول الله على النساء قط الا بما امر الله تعالى وما مست كف رسول الله صلى الله عليه وسلم كف امرأة
قط وكان يقول اذا اخذ عليهن قد بايعتكن كلاما وكان المؤمنات اذا هاجرن الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم يمتحنهن بقول الله عز وجل يا ايها النبى اذا جاءك المؤمنات الى آخر الآية فاذا اقررن
بذلك من قولهن قال لهن انطلقن فقد بايعتكن يا ايها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب
الله عليهم هم عامة الكفرة وقيل اليهود لما روى انها نزلت فى بعض فقراء المسلمين كانوا
يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم قد يئسوا من الآخرة لكفرهم بها او لعلمهم بانه لا خلاق

لهم فيها لعنادهم الرسول المنعوت في التوراة المؤيد بالايات كما يئس الكفار
من اصحاب القبور اي كما يئس منها الذين ماتوا منهم لانهم وقفوا على حقيقة
الحال وشاهدوا حرمانهم من نعيمها المقيم وابتلاءهم بعذابها الاليم والمراد وصفهم
بكمال اليأس منها وقيل المعنى كما يئسوا من موتاهم ان يبعثوا ويرجعوا الى الدنيا
احياء والاظهار في موضع الاضمار للاشعار بعلة يأسهم عن النبي صلى الله عليه وسلم
من قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاء يوم القيمة

سبح لله ما في السموات وما في الارض وهو العزيز الحكيم الكلام فيه كالذي مر في نظيره
يا ايها الذين امنوا لم تقولون ما لا تفعلون روي ان المسلمين قالوا لو علمنا احب الاعمال
الى الله تعالى لبذلنا فيه اموالنا وانفسنا فلما نزل الجهاد كرهوه فنزلت وما قيل من ان النازل
قوله تعالى ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا يأبى الانتظام وروي انهم قالوا يا رسول الله
لو نعلم احب الاعمال الى الله تعالى لسارعنا اليه فنزلت هل ادلكم على تجارة الى قوله
تعالى وتجاهدون في سبيل الله باموالكم وانفسكم فولوا يوم احد وفيه التزام ان ترتيب
الايات الكريمة ليس على ترتيب النزول وقيل لما اخبر الله تعالى بثواب شهداء بدر قالت
الصحابة اللهم اشهد لئن لقينا قتالا لنفرغن فيه وسعنا ففروا يوم احد فنزلت وقيل انها
نزلت فيمن يتمدح كاذبا حيث كان الرجل يقول قتلت ولم يقتل وطعنت ولم يطعن وهكذا
وقيل كان رجل قد آذى المسلمين يوم بدر ونكى فيهم فقتله صهيب وانتحل قتله آخر فنزلت
في المنتحل وقيل نزلت في المنافقين ونداؤهم بالايمان تهكم بهم وبايمانهم وليس
بذاك كما ستعرفه ولم مركبة من اللام الجارة وما الاستفهامية قد حذفت الفها
تخفيفا لكثرة استعمالهما معا كما في عم وفيم ونظائرهما معناها لاي شيء تقولون نفعل
ما لا تفعلونه من الخير والمعروف على ان مدار التعيير والتوبيخ في الحقيقة عدم فعلهم وانما
وجها الى قولهم تنبيها على تضاعيف معصيتهم ببيان ان المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط
بل الوعد به ايضا وقد كانوا يحسبونه معروفا ولو قيل لم لا تفعلون ما تقولون لفهم منه
ان المنكر هو ترك الموعود كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون بيان لغاية قبح ما فعلوه
وفرط سماجته وكبر من باب نعم وبئس فيه ضمير مبهم مفسر بالنكرة بعده وان تقولوا هو
المخصوص بالذم وقيل قصد فيه التعجب من غير لفظه واسند الى ان تقولوا ونصب
مقتا على تفسيره دلالة على ان قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه كبر عند
من يحقر دونه كل عظيم وقوله تعالى ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا
بيان لما هو مرضي عنده تعالى بعد بيان ما هو ممقوت عنده وهذا صريح في ان ما
قالوه عبارة عن الوعد بالقتال لا عما نقله المتمدح او انتحله المنتحل وادعاه المنافقون وان
مناط التعيير والتوبيخ هو اخلافهم لا وعدهم كما اشير اليه وقرئ يقاتلون بفتح التاء
ويقتلون وصفا مصدر وقع موقع الفاعل او المفعول ونصبه على الحالية من فاعل
يقاتلون اي صافين انفسهم او مصفوفين وقوله تعالى كانهم بنيان مرصوص حال
من المستكن في الحال الاولى اي مشبهين في تراصهم من غير فرجة وخلل ببنيان رص بعضه
الى بعض ورصف حتى صار شيئا واحدا وقوله تعالى واذ قال موسى لقومه كلام مستأنف
مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبي
صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين اي واذكر لهؤلاء المعرضين عن القتال وقت قول موسى
لبني اسرائيل حين ندبهم الى قتال الجبابرة بقوله يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي
كتب الله لكم ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين فلم يمتثلوا بامره وعصوه اشد
عصيان حيث قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا
منها فانا داخلون الى قوله تعالى فاذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون واصروا
على ذلك وآذوه عليه السلام كل الاذية يا قوم لم تؤذونني اي بالمخالفة والعصيان فيما امرتكم

به قوله

به قوله تعالى وقد تعلمون اني رسول الله اليكم جملة حالية مؤكدة لانكار الايذاء ونفي سببه
وقد لتحقيق العلم وصيغة المضارع للدلالة على استمراره اي والحال انكم تعلمون علما قطعيا
مستمرا بمشاهدة ما ظهر بيدي من المعجزات القاهرة التي معظمها اهلاك عدوكم وانجاؤكم
من ملكته اني رسول الله اليكم لارشدكم الى خير الدنيا والآخرة ومن قضية علمكم
بذلك ان تبالغوا في تعظيمي وتسارعوا الى طاعتي فلما زاغوا اي اصروا على الزيغ من الحق الذي
جاء به موسى عليه السلام واستمروا عليه ازاغ الله قلوبهم اي صرفها عن قبول
الحق والميل الى الصواب لصرف اختيارهم نحو الغي والضلال وقوله تعالى والله لا يهدي
القوم الفاسقين اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله من الازاغة ومؤذن بعلته
اي لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق المصرين على الغواية هداية
موصلة الى البغية لا هداية موصلة الى ما يوصل اليها فانها شاملة للكل والمراد بهم اما
المذكورون خاصة والاظهار في موضع الاضمار لذمهم بالفسق وتعليل عدم الهداية او
جنس الفاسقين وهم داخلون في حكمهم دخولا اوليا واياما كان فوصفهم بالفسق ناظر
الى ما في قوله تعالى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين وقوله تعالى فلا تأس على القوم الفاسقين
هذا هو الذي يقتضيه جزالة النظم الكريم ويرتضيه الذوق السليم واما ما قيل
بصدد بيان اسباب الاذية من انهم كانوا يؤذونه عليه السلام بانواع الاذى
من انتقاصه وعيبه في نفسه وجحود آياته وعصيانه فيما تعود اليهم منافعه وحقه
وعبادتهم البقر وطلبهم رؤية الله جهرة والتكذيب الذي هو تضييع حق الله تعالى وحقه
فمما لا تعلق له بالمقام وقوله تعالى واذ قال عيسى ابن مريم اما معطوف على اذ الاولى
معمول لعاملها واما معمول لمضمر معطوف على عاملها يا بني اسرائيل ناداهم بذلك استمالة
لقلوبهم الى تصديقه في قوله اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة
فان تصديقه عليه السلام اياها من اقوى الدواعي الى تصديقهم اياه وقوله تعالى
ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه احمد معطوف على مصدقا داع الى تصديقه
عليه السلام مثله من حيث ان البشارة به واقعة في التورية والعامل فيهما ما في
الرسول من معنى الارسال لا الجار فانه صلة للرسول والصلات بمعزل من تضمن معنى
الفعل وعليه يدور العمل اي ارسلت اليكم حال كوني مصدقا لما تقدمني من التورية
ومبشرا بمن يأتي من بعدي من رسول اسمه احمد اي محمد صلى الله عليه وسلم يريد
ان ديني التصديق بكتب الله تعالى وانبيائه جميعا ممن تقدم وتأخر وقرئ من بعدي
بفتح الياء فلما جاءهم بالبينات اي بالمعجزات الظاهرة قالوا هذا سحر مبين
مشيرا الى ما جاء به او اليه عليه السلام وتسميته سحرا للمبالغة ويؤيده قراءة من قرأ
هذا ساحر ومن اظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام اي اي الناس
اشد ظلما ممن يدعى الى الاسلام الذي يوصله الى سعادة الدارين فيضع موضع
الاجابة الافتراء على الله عز وجل بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده الى الحق هذا سحر
اي هو اظلم من كل ظالم وان لم يتعرض ظاهر الكلام لنفي المساوي وقد مر بيانه غير مرة
وقرئ يدعي دعاه وادعاه مثل لمسه والتمسه والله لا يهدي القوم الظالمين اي
لا يرشدهم الى ما فيه فلاحهم لعدم توجههم اليه يريدون ليطفئوا نور الله اي
يريدون ان يطفئوا دينه او كتابه او حجته النيرة واللام مزيدة لما فيها من معنى
الارادة تأكيدا لها كما زيدت لما فيها من معنى الاضافة تأكيدا لها في لا اباك او يريدون
الافتراء ليطفئوا نور الله بافواههم بطعنهم فيه مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور
الشمس بفيه ليطفئه والله متم نوره اي مبلغه الى غايته بنشره في الآفاق واعلائه وقرئ
متم نوره بالاضافة ولو كره الكافرون اي ارغاما لهم والجملة في حيز الحال على
[illegible] هو الذي ارسل رسوله بالهدى بالقرآن او بالمعجزات ودين الحق
والملة الحنيفية ليظهره على الدين كله ليعليه على جميع الاديان المخالفة له ولقد انجز الله
عز وجل وعده حيث جعله بحيث لم يبق دين من الاديان الا وهو مغلوب

مقهور بدين الاسلام ولو كره المشركون ذلك وقرئ هو الذى ارسل نبيه يا ايها الذين امنوا
هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم وقرئ تنجيكم بالتشديد وقوله تعالى
تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله باموالكم وانفسكم استيناف وقع
جوابا عما نشأ مما قبله كانهم قالوا كيف نعمل او ماذا نصنع فقيل تؤمنون بالله الخ
وهو خبر فى معنى الامر به للايذان بوجوب الامتثال فكانه قد وقع فاخبر بوقوعه ويؤيده قراءة
من قرأ امنوا بالله ورسوله وجاهدوا وقرئ تؤمنوا وتجاهدوا على اضمار لام
الامر ذلكم اشارة الى ما ذكر من الايمان والجهاد بقسميه وما فيه من معنى البعد لما مر
سره غير مرة خير لكم على الاطلاق او من اموالكم وانفسكم ان كنتم تعلمون اى ان كنتم
من اهل العلم فان الجهلة لا يعتد بافعالهما او ان كنتم تعلمون انه خير لكم كان خيرا لكم
حينئذ لانكم اذا علمتم ذلك واعتقدتموه احببتم الايمان والجهاد فوق ما تحبون انفسكم
واموالكم فتخلصون وتفلحون يغفر لكم ذنوبكم جواب للامر المدلول عليه بلفظ الخبر او
لشرط او استفهام دل عليه الكلام تقديره ان تؤمنوا وتجاهدوا او هل تقبلون
ان ادلكم يغفر لكم وجعله جوابا لهل ادلكم بعيد لان مجرد الدلالة لا يوجب المغفرة و
يدخلكم جنات تجرى من تحتها الانهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك اى
ما ذكر من المغفرة وادخال الجنة الموصوفة بما ذكر من الاوصاف الجليلة الفوز العظيم
الذى لا فوز وراءه واخرى ولكم الى هذه النعم العظيمة نعمة اخرى عاجلة تحبونها و
ترغبون فيها وفيه تعريض بانهم يؤثرون العاجل على الآجل وقيل اخرى منصوبة باضمار
يعطكم او تحبون ومبتدأ خبره نصر من الله وهو على الاول بدل او بيان وعلى تقدير
النصب خبر مبتدأ محذوف وفتح قريب اى عاجل عطف على نصر على الوجوه المذكورة وقرئ
نصرا وفتحا قريبا على الاختصاص او على المصدر اى تنصرون نصرا وتفتح لكم فتحا
او على البدلية من اخرى على تقدير نصبها اى يعطكم نعمة اخرى نصرا وفتحا وبشر المؤمنين
عطف على محذوف مثل قل يا ايها الذين امنوا وبشر او على تؤمنون فانه فى معنى امنوا كانه
قيل امنوا وجاهدوا ايها المؤمنون وبشرهم يا ايها الرسول بما وعدتهم عليهما عاجلا
واجلا يا ايها الذين امنوا كونوا انصار الله وقرئ انصارا لله بلا اضافة لان المعنى كونوا
بعض انصار الله وقرئ كونوا انتم انصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من
انصارى الى الله اى من جندى متوجها الى نصرة الله كما يقتضيه قوله تعالى قال الحواريون
نحن انصار الله والاضافة الاولى اضافة احد المتشاركين الى الاخر لما بينهما من الاختصاص
والثانية اضافة الفاعل الى المفعول والتشبيه باعتبار المعنى اى كونوا انصار الله كما
كان الحواريون انصاره حين قال لهم عيسى من انصارى الى الله او قل لهم كونوا كما قال عيسى
للحواريين والحواريون اصفياؤه وهم اول من امن به وكانوا اثنى عشر رجلا فامنت
طائفة من بنى اسرائيل اى بعيسى واطاعوه فيما امرهم به من نصرة الدين وكفرت طائفة
اخرى به وقاتلوهم فايدنا الذين امنوا على عدوهم اى قويناهم بالحجة او
بالسيف وذلك بعد رفع عيسى عليه السلام فاصبحوا ظاهرين غالبين عن النبى صلعم
من قرأ سورة الصف كان عيسى مصليا عليه مستغفرا له ما دام فى الدنيا وهو يوم القيمة رفيقه

يسبح لله ما فى السموات وما فى الارض الملك القدوس العزيز الحكيم وقد قرئ
الصفات الاربع بالرفع على المدح هو الذى بعث فى الاميين اى فى العرب لان اكثرهم لا يكتبون
ولا يقرؤون وقيل بدئت الكتابة بالطائف اخذوها من اهل الحيرة وهم من اهل الانبار رسولا
منهم اى كائنا من جملتهم اميا مثلهم يتلو عليهم اياته مع كونه اميا مثلهم لم
يعهد منه قراءة ولا تعلم ويزكيهم صفة اخرى لرسولا معطوفة على يتلو اى يحملهم على ما
يصيرون ازكياء من خبائث العقائد والاعمال ويعلمهم الكتاب والحكمة صفة اخرى
لرسولا معطوفة على يتلو اى يحملهم على ما يصيرون ازكياء مترتبة فى الوجود على التلاوة

وانما وسط

وانما وسط بينهما التزكية التى عبارة عن تكميل النفس بحسب قوتها العملية وتهذيبها
المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة للايذان بان
كلا من الامور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر فلو روعى ترتيب الوجود
لتبادر الى الفهم كون الكل نعمة واحدة كما مر فى سورة البقرة وهو السر فى التعبير عن القرآن
تارة بالايات واخرى بالكتاب والحكمة رمزا الى انه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة ولا
يقدح فيه شمول الحكمة لما فى تضاعيف الاحاديث النبوية من الاحكام والشرائع وان
كانوا من قبل لفى ضلال مبين من الشرك وخبث الجاهلية وهو بيان لشدة افتقارهم الى من
يرشدهم وازاحة لما عسى يتوهم من تعلمه عليه السلام من الغير وان هى المخففة واللام
هى الفارقة واخرين منهم عطف على الاميين او على المنصوب فى يعلمهم اى يعلمهم
ويعلم اخرين منهم اى من الاميين وهم الذين جاؤوا بعد الصحابة الى يوم الدين
فان دعوته عليه السلام وتعليمه يعم الجميع لما يلحقوا بهم صفة لاخرين لم يلحقوا
بهم بعد وسيلحقون وهو العزيز الحكيم المبالغ فى العزة والحكمة ولذلك مكن
رجلا اميا من ذلك الامر العظيم واصطفاه من بين كافة البشر ذلك الذى امتاز
به من بين سائر الافراد فضل الله واحسانه يؤتيه من يشاء تفضلا وعطية
والله ذو الفضل العظيم الذى يستحقر دونه نعم الدنيا ونعم الاخرة مثل
الذين حملوا التورية اى علموها وكلفوا العمل بها ثم لم يحملوها اى لم يعملوا بما فى
تضاعيفها من الآيات التى من جملتها الآيات الناطقة بنبوة رسول الله صلى الله عليه
وسلم كمثل الحمار يحمل اسفارا اى كتبا من العلم يتعب بحملها ولا ينتفع بها
ويحمل اما حال والعامل فيها معنى المثل او صفة للحمار اذ ليس المراد به معينا فهو فى حكم
النكرة كما فى قول من قال ولقد امر على اللئيم يسبنى بئس مثل القوم الذين كذبوا بايات
الله اى بئس مثلا مثل القوم الذين كذبوا بايات الله على ان التمييز محذوف والفاعل
المفسر به مستتر ومثل القوم هو المخصوص بالذم والموصول صفة للقوم او بئس
مثل القوم الذين كذبوا الخ على ان مثل القوم فاعل بئس والمخصوص بالذم الموصول
بحذف المضاف اى بئس مثل القوم المكذبين مثل هؤلاء على ان الموصول صفة القوم
والمخصوص بالذم محذوف وهم اليهود الذين كذبوا بما فى التورية من الايات
الشاهدة بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والله لا يهدى القوم الظالمين
الواضعين للتكذيب فى موضع التصديق او الظالمين لانفسهم بتعريضها للعذاب الخالد
قل يا ايها الذين هادوا اى تهودوا ان زعمتم انكم اولياء لله من دون الناس
كانوا يقولون نحن ابناء الله واحباؤه ويدعون ان الدار الاخرة لهم عند الله خالصة
ويقولون لن يدخل الجنة الا من كان هودا فامر رسول الله صلى الله عليه وسلم
بان يقول لهم اظهارا لكذبهم ان زعمتم ذلك فتمنوا الموت اى فتمنوا من الله
ان يميتكم وينقلكم من دار البلية الى دار الكرامة ان كنتم صادقين جوابه محذوف
لدلالة ما قبله عليه اى ان كنتم صادقين فى زعمكم واثقين بانه حق فتمنوا الموت فان
من ايقن بانه من اهل الجنة احب ان يتخلص اليها من هذه التى هى قرارة الاكدار
ولا يتمنونه ابدا اخبار بما سيكون منهم والباء فى قوله تعالى بما قدمت ايديهم
متعلقة بما يدل عليه النفى اى يابون التمنى بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصى الموجبة
لدخول النار ولما كانت اليد من بين جوارح الانسان مناط عامة افاعيله عبر بها تارة عن
النفس واخرى عن القدرة والله عليم بالظالمين اى بهم وايثار الاظهار على الاضمار
لذمهم والتسجيل عليهم بانهم ظالمون فى كل ما ياتون وما يذرون من الامور التى من
جملتها ادعاء ما هم عنه بمعزل والجملة تذييل لما قبلها مقررة لمضمونه اى عليم بهم و
بما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصى المفضية الى افانين العذاب وبما سيكون منهم من
الاحتراز عما يؤدى الى ذلك فوقع الامر كما ذكر فلم يتمن منهم موته احد كما يعرب
عنه قوله تعالى قل ان الموت الذى تفرون منه فان ذلك انما يقال لهم بعد ظهور فرارهم

من التمنى وقد قال عليه السلام لو تمنّوا لماتوا من ساعتهم وهذه احدى المعجزات اى ان
الموت الذى تفرّون منه ولا تجسرون على ان تتمنّوا مخافة ان تؤخذوا بوبالٍ فانه ملاقيكم
البتّة من غير صارفٍ يلويه ولا عاطفٍ يثنيه والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط باعتبار
الوصف وقرئ بدونها منه ملاقيكم ثمّ تردّون الى عالم الغيب والشهادة الذى لا يخفى
عليه خافية فينبّئكم بما كنتم تعملون من الكفر والمعاصى بان يجازيكم بها يا ايها الذين امنوا
اذا نودى للصلوة اى فعل النداء لها اى اذّن لها من يوم الجمعة بيان لاذا وتفسير
لها وقيل من بمعنى فى كما فى قوله تعالى ارونى ماذا خلقوا من الارض اى فى الارض
وانما سمّى جمعة لاجتماع الناس فيه للصلوة وقيل اوّل من سمّاها جمعة كعب بن لوى
وكانت العرب تسميه العروبة وقيل ان الانصار قالوا قبل الهجرة لليهود يوم يجمعون
فيه بكل سبعة ايام وللنصارى مثل ذلك فهلمّوا نجعل لنا يوما نجتمع فيه ونذكر الله تعالى
فيه ونصلّى فقالوا يوم السبت لليهود ويوم الاحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة
فاجتمعوا الى سعد بن زرارة فصلّى بهم ركعتين وذكّرهم فسمّوه يوم الجمعة لاجتماعهم
فيه فانزل الله آية الجمعة فهى اوّل جمعة كانت فى الاسلام واما اوّل جمعة جمعها
رسول الله صلى الله عليه وسلم فهى انه لما قدم المدينة المنوّرة مهاجرًا انزل قباء على
بنى عمرو بن عوف واقام بها يوم الاثنين والثلاثا والاربعاء والخميس واسّس مسجدهم
ثم خرج يوم الجمعة عامدًا الى المدينة المنوّرة فادركته صلوة الجمعة فى بنى سالم بن
عوف فى بطن وادٍ لهم فخطب وصلّى الجمعة فاسعوا الى ذكر الله اى امشوا و
اقصدوا الى الخطبة والصلوة وذروا البيع واتركوا المعاملة ذلكم اى السعى الى
ذكر الله وترك البيع خير لكم من مباشرته فان نفع الاخرة اجلّ وابقى ان كنتم
تعلمون اى الخير والشرّ الحقيقيين او ان كنتم اهل العلم فاذا قضيت الصلوة
اى اديت وفرغ منها فانتشروا فى الارض لاقامة مصالحكم وابتغوا من
فضل الله اى الربح فالامر للاطلاق بعد الحظر وعن ابن عباس رضى الله عنهما لم
يؤمروا بطلب شئ من الدنيا انما هى عيادة المرضى وحضور الجنائز وزيارة اخ فى الله
وعن الحسن وسعيد بن المسيّب طلب العلم وقيل صلوة التطوّع واذكروا الله كثيرا
ذكرا كثيرا او زمانا كثيرا او لا تخصّوا ذكره تعالى بالصلوة لعلكم تفلحون كى تفوزوا
بخير الدارين واذا رأوا تجارة او لهوا انفضّوا اليها روى ان اهل المدينة اصابهم جوع
وغلاء شديد فقدم دحية بن خليفة بتجارة من جهة الشام والنبى صلعم يخطب
يوم الجمعة فقاموا اليه خشية ان يسبقوا اليه فما بقى معه عليه السلام الا ثمانية
وقيل احد عشر وقيل اثنا عشر وقيل اربعون فقال عليه السلام والذى نفس محمد بيده
لو خرجوا جميعا لاضرم الله عليهم الوادى نارا وكانوا اذا اقبلت العير استقبلوها بالطبل
والصفق وهو المراد باللهو وتخصيص التجارة برجع الضمير لانها المقصودة او لان
الانفضاض للتجارة مع الحاجة اليها والانتفاع بها اذا كان مذموما فما ظنك بالانفضاض
الى اللهو وهو مذموم فى نفسه وقيل بتقديره اذا رأوا تجارة انفضّوا اليها او لهوا
انفضّوا اليه فحذف الثانى لدلالة الاول عليه وقرئ اليهما وتركوك قائما اى على المنبر
قل ما عند الله من الثواب خير من اللهو ومن التجارة فان ذلك نفع محقق مخلّد
بخلاف ما فيهما من النفع المتوهّم والله خير الرازقين فاليه اسعوا ومنه اطلبوا الرزق
عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الجمعة اعطى من الاجر عشر حسنات بعدد
من اتى الجمعة ومن لم يأتها فى امصار المسلمين

اذا جاءك المنافقون اى حضروا مجلسك قالوا نشهد انك لرسول الله مؤكّدين كلامهم
بانّ واللام للايذان بان شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم وخلوص اعتقادهم
ووفور رغبتهم ونشاطهم وقوله تعالى والله يعلم انك لرسوله اعتراض مقرّر لمنطوق

كلامهم وسّط بينه وبين قوله تعالى والله يشهد ان المنافقين لكاذبون تحقيقا وتعيينا
لما نيط به التكذيب من انهم قالوه عن اعتقاد كما اشير اليه واماطة من اوّل الامر لما عسى
يتوهّم من توجّه التكذيب الى منطوق كلامهم اى والله يشهد انهم لكاذبون فيما ضمّنوا
مقالتهم من انها صادرة عن اعتقاد وطمأنينة قلب والاظهار فى موقع الاضمار لذمّهم
والاشعار بعلّة الحكم اتخذوا ايمانهم الفاجرة التى من جملتها ما حكى عنهم جنّة اى وقاية
عمّا يتوجّه اليهم من المؤاخذة بالقتل والسبى او غير ذلك واتخاذها جنّة عبارة عن اعدادهم
وتهيئتهم لها الى وقت الحاجة ليحلفوا بها ويتخلّصوا من المؤاخذة لا عن استعمالها
بالفعل فان ذلك متأخّر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية لا بدّ ان يكون قبل
المؤاخذة وعن سببها ايضا كما يفصح عنه الفاء فى قوله تعالى فصدّوا عن سبيل الله اى فصدّوا
من اراد الدخول فى الاسلام بانه عليه السلام ليس برسول ومن اراد الانفاق فى
سبيل الله بالنهى عنه كما سيحكى عنهم ولا ريب فى ان هذا الصدّ منهم متقدّم على حلفهم
بالفعل وقرئ ايمانهم اى ما اظهروه على السنتهم فاتخاذه جنّة عبارة عن استعماله
بالفعل فانه وقاية دون دمائهم واموالهم فمعنى قوله تعالى فصدّوا حينئذ فاستمرّوا
على ما كانوا عليه من الصدّ والاعراض عن سبيله تعالى انهم ساء ما كانوا يعملون من
النفاق والصدّ وفى ساء معنى التعجّب وتعظيم امرهم عند السامعين ذلك اشارة الى ما
تقدّم من القول الناعى عليهم انهم اسوء الناس اعمالا او الى ما وصف من حالهم
فى النفاق والكذب والاستتار بالايمان الصورى وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد
بالمشار اليه لما مرّ مرارا من الاشعار ببعد منزلته فى الشرّ بانهم بسبب انهم امنوا اى
نطقوا بكلمة الشهادة كسائر من يدخل فى الاسلام ثم كفروا اى ظهر كفرهم بما شوهد منهم
من شواهد الكفر ودلائله او نطقوا بالايمان عند المؤمنين ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم
فطبع على قلوبهم حتى تمرّنوا على الكفر واطمأنّوا به وقرئ على البناء للفاعل وقرئ فطبع الله
فهم لا يفقهون حقيقة الايمان ولا يعرفون حقيته اصلا واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم
لضخامتها ويروقك منظرهم لصباحة وجوههم وان يقولوا تسمع لقولهم لفصاحتهم
وذلاقة السنتهم وحلاوة كلامهم وكان ابن أبىّ جسيما فصيحا يحضر مجلس
رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من امثاله وهم رؤساء المدينة وكان عليه السلام
ومن معه يعجبون بهياكلهم ويسمعون الى كلامهم وقيل الخطاب لكل احد ممن يصلح
للخطاب ويؤيده قراءة يسمع على البناء للمفعول وقوله تعالى كانهم خشب مسنّدة
فى حيّز الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف او كلام مستأنف لا محلّ له شبّهوا فى جلوسهم
فى مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم مستندين فيها بخشب منصوبة مسنّدة
الى الحائط فى كونهم اشباحا خالية من العلم والخير وقرئ خشب على انه جمع خشبة
كبدن جمع بدنة وقيل هو جمع خشباء وهى الخشبة التى دعر جوفها اى فسد
شبّهوا بها فى نفاقهم وفساد بواطنهم وقرئ خشب كمدرة ومدر يحسبون كل صيحة
عليهم اى واقعة عليهم ضارّة لهم لجبنهم واستقرار الرعب فى قلوبهم وقيل
كانوا على وجل من ان ينزل الله فيهم ما يهتك استارهم ويبيح دماءهم واموالهم
هم العدوّ اى هم الكاملون فى العداوة والراسخون فيها فان اعدى الاعادى
العدوّ المكاشر الذى يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوى والجملة مستأنفة و
جعلها مفعولا ثانيا للحسبان ممّا لا يساعده النظم الكريم اصلا فان الفاء فى قوله
فاحذرهم لترتيب الامر بالحذر على كونهم اعدى الاعداء قاتلهم الله دعاء
عليهم وطلب من ذاته تعالى ان يلعنهم ويخزيهم او تعليم للمؤمنين ان يدعوا عليهم
بذلك وقوله تعالى انّى يؤفكون تعجيب من حالهم اى كيف يصرفون عن الحق الى ما هم
عليه من الكفر والضلال واذا قيل لهم عند ظهور جنايتهم بطريق النصيحة
تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤسهم اى عطفوها استكبارا ورأيتهم
يصدّون يعرضون عن القائل او عن الاستغفار وهم مستكبرون عن ذلك سواء عليهم

استغفرت لهم كما اذا جاؤك معتذرين من جناياتهم وقرئ استغفرت بحذف حرف الاستفهام ثقة بدلالة ام عليه وقرئ استغفرت باشباع همزة الاستفهام لا بقلب همزة الوصل الفا ام لم تستغفر لهم كما اذا اصروا على قبايحهم واستكبروا عن الاعتذار والاستغفار لن يغفر الله لهم ابدا لاصرارهم على الفسق ورسوخهم في الكفر ان الله لا يهدي القوم الفاسقين الكاملين في الفسق الخارجين عن دائرة الاستصلاح المنهمكين في الكفر والنفاق والمراد اياهم باعيانهم والاظهار في موقع الاضمار لبيان غلوهم في الفسق او الجنس وهم داخلون في زمرتهم دخولا اوليا وقوله تعالى هم الذين يقولون اى للانصار لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا يعنون فقراء المهاجرين استئناف جار مجرى التعليل لفسقهم او لعدم مغفرته تعالى لهم وقرئ حتى ينفضوا من انفض القوم اذا فنيت ازوادهم وحقيقته حان لهم ان ينفضوا مزاودهم وقوله تعالى ولله خزائن السموات والارض رد وابطال لما زعموا من ان عدم انفاقهم يؤدي الى انفضاض الفقراء من حوله عليه السلام ببيان ان خزائن الارزاق بيد الله تعالى خاصة يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ولكن المنافقين لا يفقهون ذلك لجهلهم بالله تعالى وشؤونه ولذلك يقولون من مقالات الكفر ما يقولون يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل روي ان جهجاه بن سعيد اجير عمر رضي الله عنه نازع سنانا الجهني حليف ابن ابي واقتتلا فصرخ جهجاه يا للمهاجرين وسنان يا للانصار فاعان جهجاها جعال من فقراء المهاجرين ولطم سنانا فاشتكى الى ابن ابي فقال للانصار لا تنفقوا الخ والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل عنى بالاعز نفسه وبالاذل جانب المؤمنين واسناد القول المذكور الى المنافقين لرضاهم به فرد عليهم ذلك بقوله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين اى ولله الغلبة والقوة ولمن اعزه من رسوله والمؤمنين لا لغيرهم ولكن المنافقين لا يعلمون من فرط جهلهم وغرورهم فيهذون ما يهذون روي ان عبد الله بن ابي لما اراد ان يدخل المدينة اعترضه ابنه عبد الله بن عبد الله بن ابي وكان مخلصا وقال لئن لم تقر لله ولرسوله بالعز لاضربن عنقك فلما راى منه الجد قال اشهد ان العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فقال النبي صلى الله عليه وسلم لابنه جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا يا ايها الذين آمنوا لا تلهكم اموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله اى لا يشغلكم الاهتمام بتدبير امورها والاعتناء بمصالحها والتمتع بها عن الاشتغال بذكره عز وجل من الصلوة وسائر العبادات المذكرة للمعبود والمراد نهيهم عن التلهي بها وتوجيه النهي اليها للمبالغة كما في قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم الخ ومن يفعل ذلك اى التلهي بالدنيا عن الدين فاولئك هم الخاسرون اى الكاملون في الخسران حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني وانفقوا مما رزقناكم اى بعض ما اعطيناكم تفضلا من غير ان يكون حصوله من جهتكم ادخارا للآخرة من قبل ان يأتي احدكم الموت بان يشاهد دلائله ويعاين اماراته ومخائله وتقديم المفعول على الفاعل لما مر مرارا من الاهتمام بما قدم والتشويق الى ما اخر فيقول عند تيقنه بحلوله رب لولا اخرتني اى امهلتني الى اجل قريب اى امد قصير فاصدق بالنصب على جواب التمني وقرئ فاتصدق واكن من الصالحين بالجزم عطفا على محل فاصدق كانه قيل ان اخرتني اصدق واكن وقرئ واكون بالنصب عطفا على لفظه وقرئ واكون بالرفع وانا اكون عدة منه بالصلاح ولن يؤخر الله نفسا اى ولن يمهلها اذا جاء اجلها اى آخر عمرها وانتهى ان اريد بالاجل الزمان الممتد من اول العمر الخ والله خبير بما تعملون فمجازيكم عليه ان خيرا فخير وان شرا فشر فسارعوا في الخيرات واستعدوا لما هو آت وقرئ يعملون بالياء التحتانية عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المنافقين برئ من النفاق

يسبح لله ما في السموات وما في الارض اى ينزهه سبحانه جميع ما فيهما من المخلوقات

عما لايليق

عما لا يليق بجناب كبريائه تنزيها مستمرا له الملك وله الحمد لا لغيره اذ هو المبدئ لكل شئ وهو القائم به والمهيمن عليه وهو المولي لاصول النعم وفروعها واما ملك غيره فاسترعاء من جنابه وحمد غيره اعتداد بان نعمة الله جرت على يده وهو على كل شئ قدير لان نسبته ذاته المقتضية للقدرة الى الكل سواء هو الذي خلقكم خلقا بديعا حاويا لجميع مبادي الكمالات العلمية والعملية ومع ذلك فمنكم كافر اى فبعضكم او فبعض منكم مختار الكفر كاسب له على خلاف ما يستدعيه خلقته ومنكم مؤمن مختار للايمان كاسب له حسبما يقتضيه خلقته وكان الواجب عليكم جميعا ان تكونوا مختارين للايمان شاكرين لنعمة الخلق والايجاد وما يتفرع عليها من سائر النعم فما فعلتم ذلك مع تمكنكم منه بل تشعبتم شعبا وتفرقتم فرقا وتقديم الكفر لانه الاغلب فيما بينهم والانسب بمقام التوبيخ وحمله على معنى فمنكم كافر مقدر كفره موجه اليه ما يحمله عليه ومنكم مؤمن مقدر ايمانه موفق لما يدعوه اليه مما لا يلائم المقام والله بما تعملون بصير فيجازيكم بذلك فاختاروا منه ما يجديكم من الايمان والطاعة واياكم وما يرديكم من الكفر والعصيان خلق السموات والارض بالحق بالحكمة البالغة المتضمنة للمصالح الدينية والدنيوية وصوركم فاحسن صوركم حيث براكم في احسن تقويم واودع فيكم من القوى والمشاعر الظاهرة والباطنة ما نيط بها جميع الكمالات البارزة والكامنة وزينكم بصفوة صفات مصنوعاته وخصكم بخلاصة خصائص مبدعاته وجعلكم انموذج جميع مخلوقاته في هذه النشأة واليه المصير في النشأة الاخرة لا الى غيره استقلالا او اشتراكا فاحسنوا سرائركم باستعمال تلك القوى والمشاعر فيما خلقن له يعلم ما في السموات والارض من الامور الكلية والجزئية والاحوال الجلية والخفية ويعلم ما تسرون وما تعلنون اى ما تسرونه فيما بينكم وما تظهرونه من الامور والتصريح به مع اندراجه فيما قبله لانه الذي يدور عليه الجزاء ففيه تأكيد للوعد والوعيد وتشديد لهما وقوله تعالى والله عليم بذات الصدور اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من شمول علمه تعالى لسرهم وعلنهم اى هو محيط بجميع المضمرات المستكنة في صدور الناس بحيث لا تفارقها اصلا فكيف يخفى عليه ما يسرونه وما يعلنونه واظهار الجلالة للاشعار بعلة الحكم وتأكيد استقلال الجملة وتقديم تقرير القدرة على تقرير العلم لان دلالة المخلوقات على قدرته بالذات وعلى علمه بما فيها من الاتقان والاختصاص ببعض الانحاء الم يأتكم ايها الكفرة نبأ الذين كفروا من قبل كقوم نوح ومن بعدهم من الامم المصرة على الكفر فذاقوا وبال امرهم عطف على كفروا والوبال الثقل والشدة المترتبة على امر من الامور وامرهم كفرهم عبر عنه بذلك للايذان بانه امر هائل وجناية عظيمة اى الم يأتكم خبر الذين كفروا من قبل فذاقوا من غير مهلة ما يستتبعه كفرهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب اليم لا يقادر قدره ذلك اى ما ذكر من العذاب الذي ذاقوه في الدنيا وما سيذوقونه في الآخرة بانه بسبب ان الشان كانت تأتيهم رسلهم بالبينات اى بالمعجزات الظاهرة فقالوا عطف على كانت ابشر يهدوننا اى قال كل قوم من المذكورين في حق رسولهم الذي اتاهم بالمعجزات منكرين لكون الرسول من جنس البشر متعجبين من ذلك ابشر يهدوننا كما قالت ثمود ابشرا منا واحدا نتبعه وقد اجمل في الحكاية فاسند القول الى جميع الاقوام واريد بالبشر الجنس فوصف بالجمع كما اجمل الخطاب والامر في قوله تعالى يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا فكفروا اى بالرسل وتولوا عن التدبر فيما اتوا به من البينات وعن الايمان بهم واستغنى الله اى اظهر استغناءه عن ايمانهم وطاعتهم حيث اهلكهم وقطع دابرهم ولولا غناه تعالى عنهما لما فعل ذلك والله غني عن العالمين فضلا عن ايمانهم وطاعتهم حميد يحمده كل مخلوق بلسان الحال او مستحق للحمد بذاته وان لم يحمده حامد زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا الزعم ادعاء العلم يتعدى الى مفعولين

وقد قام مقامهما ان المخففة مع ما في حيزه والمراد بالموصول كفار مكة اى زعموا ان
الشأن لن يبعثوا بعد موتهم ابدا قل رد عليهم وابطالا لزعمهم باثبات ما نفوه بلى اى
تبعثون وقوله تعالى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم اى لتحاسبن وتجزون
باعمالكم جملة مستقلة داخلة تحت الامر واردة لتاكيد ما افاده كلمة بلى من اثبات
البعث ولبيان تحقق امر آخر متفرع عليه منوط به ففيه تاكيد لتحقق البعث بوجهين
وذلك اى ما ذكر من البعث والجزاء على الله يسير لتحقق القدرة التامة وقبول المادة
والفاء في قوله تعالى فآمنوا فصيحة مفصحة عن شرط قد حذف ثقة بغاية ظهوره
اى اذا كان الامر كذلك فآمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم والنور الذى
انزلنا وهو القرآن فانه باعجازه بين بنفسه مبين لغيره كما ان النور كذلك والالتفات
الى نون العظمة لابراز كمال العناية بامر الانزال والله بما تعملون من الامتثال بالامر
وعدمه خبير فمجازيكم عليه والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من الامر موجب
للامتثال به بالوعد والوعيد والالتفات الى الاسم الجليل لتربية المهابة وتاكيد استقلال
الجملة يوم يجمعكم ظرف لتنبؤن وقيل لخبير لما فيه من معنى الوعيد كأنه قيل والله
مجازيكم يوم يجمعكم او مفعول لاذكر وقرئ نجمعكم بنون العظمة ليوم الجمع
فيه الاولون والآخرون اى لاجل ما فيه من الحساب والجزاء ذلك يوم التغابن اى
يوم غبن بعض الناس بعضا بنزول السعداء منازل الاشقياء لو كانوا سعداء وبالعكس
وفي الحديث ما من عبد يدخل الجنة الا ارى مقعده من النار لو اساء ليزداد شكرا
وما من عبد يدخل النار الا ارى مقعده من الجنة لو احسن ليزداد حسرة وتخصيص
التغابن بذلك اليوم للايذان بان التغابن في الحقيقة هو الذى يقع فيه لا ما يقع في
امور الدنيا ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا اى عملا صالحا يكفر اى الله عز وجل وقرئ
بنون العظمة عنه سيئاته يوم القيمة ويدخله جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين
فيها ابدا وقرئ ندخله بالنون ذلك اى ما ذكر من تكفير السيئات وادخال الجنات
الفوز العظيم وقرئ [illegible] الذى لا فوز وراءه لانطوائه على النجاة من اعظم الهلكات و
الظفر باجل الطلبات والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك اصحاب النار خالدين فيها
وبئس المصير اى النار كأن هاتين الآيتين الكريمتين بيان لكيفية التغابن ما اصاب
من مصيبة من المصائب الدنيوية الا باذن الله اى بتقديره وارادته كأنها بذاتها
متوجهة الى الانسان متوقفة على اذنه تعالى ومن يؤمن بالله يهد قلبه عند اصابتها
للثبات والاسترجاع وقيل يهد قلبه حتى يعلم ما اصابه لم يكن ليخطئه وما اخطأه
لم يكن ليصيبه وقيل يهد قلبه اى يلطف به ويشرحه لازدياد الطاعة والخير وقرئ
يهد قلبه على البناء للمفعول ورفع قلبه وقرئ بنصبه على نهج سفه نفسه وقرئ
يهدأ قلبه بالهمزة اى يسكن والله بكل شئ من الاشياء التى من جملتها القلوب و
احوالها عليم فيعلم ايمان المؤمن ويهدى قلبه الى ما ذكر واطيعوا الله واطيعوا
الرسول كرر الامر للتاكيد وللايذان بالفرق بين الطاعتين في الكيفية وتوضيح مورد
التولى في قوله تعالى فان توليتم عن اطاعة الرسول وقوله تعالى فانما على رسولنا البلاغ
المبين تعليل للجواب المحذوف اى فلا بأس عليه اذ ما عليه الا التبليغ المبين وقد
فعل ذلك بما لا مزيد عليه واظهار الرسول مضافا الى نون العظمة في مقام اضماره
لتشريفه عليه السلام والاشعار بمدار الحكم الذى هو كون وظيفته عليه السلام محض
البلاغ ولزيادة تشنيع التولى عنه الله لا اله الا هو جملة مبتدأ وخبر اى هو
المستحق للمعبودية لا غير وفي اضمار خبر لا مثل في الوجود او يصح ان يوجد خلاف
للنحاة معروف وعلى الله اى عليه تعالى خاصة دون غيره لا استقلالا ولا اشتراكا
فليتوكل المؤمنون واظهار الجلالة في موقع الاضمار للاشعار بعلة التوكل والامر به فان
الالوهية مقتضية للتبتل اليه تعالى بالكلية وقطع التعلق عما سواه بالمرة يا ايها الذين
آمنوا ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم يشغلونكم عن طاعة الله تعالى ويخاصمونكم في امور

الدين او الدنيا فاحذروهم الضمير للعدو فانه يطلق على الجمع نحو قوله تعالى فانهم
عدو لى او للازواج والاولاد جميعا فالمامور به على الاول الحذر عن الكل وعلى الثانى
الحذر عن البعض لان منهم من ليس بعدو واما الحذر عن مجموع الفريقين لاشتمالهم
على العدو وان تعفوا عن ذنوبهم القابلة للعفو بان تكون متعلقة بامور الدنيا
او بامور الدين لكن مقارنة للتوبة وتصفحوا بترك التثريب والتعيير وتغفروا
باخفائها وتمهيد عذرها فان الله غفور رحيم يعاملكم بمثل ما عملتم
ويتفضل عليكم وقيل ان ناسا من المؤمنين ارادوا الهجرة عن مكة فثبطهم
ازواجهم واولادهم وقالوا تنطلقون وتضيعوننا فرقوا لهم ووقفوا فلما هاجروا
بعد ذلك ورأوا المهاجرين الاولين قد فقهوا في الدين ارادوا ان يعاقبوا ازواجهم
واولادهم فزين لهم العفو وقيل قالوا لهم اين تذهبون وتدعون بلدكم وعشيرتكم
واموالكم فغضبوا عليهم وقالوا لئن جمعنا الله في دار الهجرة لم نصبكم بخير فلما
هاجروا منعوهم الخير فحثوا على ان يعفوا عنهم ويردوا اليهم البر والصلة انما اموالكم
واولادكم فتنة بلاء ومحنة يوقعونكم في الاثم من حيث لا تحتسبون والله عنده
اجر عظيم لمن آثر محبة الله تعالى وطاعته على محبة الاموال والاولاد والسعى
فى تدبير مصالحهم فاتقوا الله ما استطعتم اى ابذلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم
واسمعوا مواعظه واطيعوا اوامره وانفقوا مما رزقكم في الوجوه التى امركم بالانفاق
فيها خالصا خيرا لانفسكم اى ائتوا خيرا لانفسكم وافعلوا ما هو خير لها وانفع وهو تاكيد
للحث على امتثال هذه الاوامر وبيان لكون الامور المذكورة خيرا لانفسكم ويجوز ان
يكون صفة لمصدر محذوف اى انفاقا خيرا او خبرا لكان مقدرا جوابا للامر اى
يكن خيرا لانفسكم ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون الفائزون بكل مرام
ان تقرضوا الله بصرف اموالكم الى المصارف التى عينها قرضا حسنا مقرونا بالاخلاص
وطيب النفس يضاعفه لكم بالواحد عشرة الى سبعمائة واكثر وقرئ يضعفه لكم
ويغفر لكم ببركة الانفاق ما فرط منكم من بعض الذنوب والله شكور يعطى
الجزيل بمقابلة النزر القليل حليم لا يعاجل بالعقوبة مع كثرة ذنوبكم عالم الغيب
والشهادة لا يخفى عليه خافية العزيز الحكيم المبالغ في القدرة والحكمة عن النبى
صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة التغابن دفع عنه موت الفجاءة

يا ايها النبى اذا طلقتم النساء تخصيص النداء به صلى الله عليه وسلم مع عموم الخطاب
لامته ايضا لتشريفه عليه السلام واظهار جلالة منصبه وتحقيق انه المخاطب حقيقة
ودخولهم في الخطاب لطريق استتباعه عليه السلام وتغليبه عليهم لا لان نداءه
كنداءهم فان ذلك الاعتبار لو كان في حيز الرعاية لكان الخطاب هو الاحق به لشمول
حكمه للكل قطعا والمعنى اذا اردتم تطليقهن وعزمتم عليه كما في قوله تعالى اذا قمتم
الى الصلوة فطلقوهن لعدتهن اى مستقبلات لها كقولك اتيته لليلة خلت من شهر
كذا فان المرأة اذا طلقت في طهر يعقبه القرء الاول من اقرائها فقد طلقت مستقبلة لعدتها
والمراد ان يطلقن في طهر لم يقع فيه جماع ثم يخلين حتى تنقضى عدتهن وهذا احسن
الطلاق وادخله في السنة واحصوا العدة واضبطوها واكملوها ثلاثة اقراء
كوامل واتقوا الله ربكم في تطويل العدة عليهن والاضرار بهن وفي وصفه
تعالى بربوبيته لهم تاكيد للامر ومبالغة في ايجاب الاتقاء لا تخرجوهن من بيوتهن
من مساكنهن عند الفراق الى ان تنقضى عدتهن واضافتها اليهن وهى لازواجهن
لتاكيد النهى ببيان كمال استحقاقهن لسكناها كأنها املاكهن ولا يخرجن ولو باذن
منكم فان الاذن بالخروج في حكم الاخراج وقيل المعنى لا يخرجن باستبداد منهن اما
اذا اتفقا على الخروج جاز اذ الحق لا يعدوهما الا ان يأتين بفاحشة مبينة استثناء

من الاول قيل هي الزنا فيخرجن لاقامة الحد عليهن وقيل الا ان يبذون على الازواج فيحل حينئذ
اخراجهن ويؤيده قراءة الا ان يفحشن عليكم او من الثاني للمبالغة في النهي عن الخروج ببيان
ان خروجها فاحشة وتلك اشارة الى ما ذكر من الاحكام وفي اسم الاشارة من
معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو درجتها وبعد منزلتها
حدود الله التي عينها لعباده ومن يتعد حدود الله اي حدوده المذكورة باي
امر يتعدى منها على ان الاظهار في حيز الاضمار لتهويل امر التعدي والاشعار بعلة الحكم
في قوله تعالى فقد ظلم نفسه اي اضر بها وتفسير الظلم بتعريضها للعقاب يأباه قوله تعالى
لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك امرا فانه استئناف مسوق لتعليل مضمون الشرطية
وقد قالوا ان الامر الذي يحدثه الله تعالى ان يقلب قلبه عما فعله بالتعدي الى خلافه فلا بد
ان يكون الظلم عبارة عن ضرر دنيوي يلحقه بسبب تعديه ولا يمكن تداركه او عن مطلق
الضرر الشامل للدنيوي والاخروي ويخص التعليل بالدنيوي لكون احتراز الناس منه
اشد واهتمامهم بدفعه اقوى وقوله تعالى لا تدري خطاب للمتعدي بطريق الالتفات
لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدي لا للنبي عليه السلام كما توهم فالمعنى ومن يتعد حدود
الله فقد اضر بنفسه فانك لا تدري ايها المتعدي عاقبة الامر لعل الله يحدث في
قلبك بعد ذلك الذي فعلت من التعدي امرا يقتضي خلاف ما فعلته فيبدل ببغضها محبة
وبالاعراض عنها اقبالا اليها ولا يتسنى تلافيه برجعة او استئناف نكاح فاذا بلغن
اجلهن شارفن آخر عدتهن فامسكوهن فراجعوهن بمعروف بحسن معاشرة
وانفاق لائق او فارقوهن بمعروف بايفاء الحق واتقاء الضرار بان يراجعها ثم يطلقها
تطويلا للعدة واشهدوا ذوي عدل منكم عند الرجعة والفرقة قطعا للتنازع
وهذا امر ندب كما في قوله تعالى واشهدوا اذا تبايعتم ويروى عن الشافعي
رحمه انه للوجوب في الرجعة واقيموا الشهادة لله ايها الشهود عند الحاجة خالصا
لوجهه تعالى ذلكم اشارة الى الحث على الشهادة والاقامة او على جميع ما في الآية
يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر اذ هو المنتفع به والمقصود تذكيره وقوله تعالى ومن يتق الله الخ جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من وجوب مراعاة
حدود الله تعالى بالوعد على الاتقاء عن تعديها كما ان ما تقدم من قوله تعالى ومن يتعد
حدود الله فقد ظلم نفسه مؤكد له بالوعيد على ان تعديها فالمعنى ومن يتق الله
فطلق للسنة ولم يضار المعتدة ولم يخرجها من مسكنها واحتاط في الاشهاد وغيره
من الامور يجعل له مخرجا مما عسى يقع في شان الازواج من الغموم والوقوع في المضايق
ويفرج عنه ما يعتريه من الكروب ويرزقه من حيث لا يحتسب اي من وجه لا يخطر
بباله ولا يحتسبه ويجوز ان يكون كلاما جيء به على نهج الاستطراد عند ذكر قوله تعالى
ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله الخ فالمعنى ومن يتق الله في كل ما يأتي وما يذر
يجعل له مخرجا ومخلصا من غموم الدنيا والآخرة فيندرج فيه ما نحن فيه اندراجا
اوليا عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قرأها فقال مخرجا من شبهات الدنيا ومن
غمرات الموت ومن شدائد يوم القيمة وقال عليه السلام اني لاعلم آية لو اخذ الناس
بها لكفتهم ومن يتق الله فما زال يقرأها ويعيدها وروي ان عوف بن مالك الاشجعي
اسر المشركون ابنه سالما فاتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اسر ابني وشكى اليه
الفاقة فقال عليه السلام اتق الله واكثر قول لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم
ففعل فبينما هو في بيته اذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الابل غفل عنها العدو
فاستاقها فنزلت ومن يتوكل على الله فهو حسبه اي كافيه في جميع اموره ان الله بالغ
امره بالاضافة اي منفذ امره وقرئ بتنوين بالغ ونصب امره اي يبلغ ما يريده لا يفوته
مراد ولا يعجزه مطلوب وقرئ برفع امره على انه مبتدأ وبالغ خبر مقدم والجملة خبر
ان او بالغ خبر ان وامره مرتفع به على الفاعلية اي نافذ امره على انه حال وخبر ان قوله تعالى
قد جعل الله لكل شيء قدرا اي تقديرا وتوقيتا او مقدارا وهو بيان لوجوب التوكل

عليه تعالى

عليه تعالى وتفويض الامر اليه لانه اذا علم ان كل شيء من الرزق وغيره لا يكون الا بتقديره
تعالى لا يبقى الا التسليم للقدر والتوكل على الله تعالى واللائي يئسن من المحيض من نسائكم
لكبرهن وقدروه بستين سنة وبخمس وخمسين ان ارتبتم اي شككتم وجهلتم
كيف عدتهن فعدتهن ثلثة اشهر واللائي لم يحضن بعد لصغرهن اي فعدتهن
ايضا كذلك فحذف ثقة بدلالة ما قبله عليه واولات الاحمال اجلهن اي منتهى عدتهن
ان يضعن حملهن سواء كن مطلقات او متوفى عنهن ازواجهن وقد نسخ به عموم
قوله تعالى والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا يتربصن بانفسهن اربعة اشهر وعشرا
لتراخي نزوله عن ذلك لما هو المشهور من قول ابن مسعود رضي الله عنه من شاء باهلته
ان سورة النساء القصرى نزلت بعد التي في سورة البقرة وقد صح ان سبيعة بنت الحارث
الاسلمية ولدت بعد وفاة زوجها بليال فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال لها قد حللت فتزوجي ومن يتق الله في شان احكامه ومراعاة حقوقها
يجعل له من امره يسرا اي يسهل عليه امره ويوفقه للخير ذلك اشارة الى ما ذكر
من الاحكام وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد منزلته
في الفضل وافراد الكاف مع ان الخطاب للجمع كما يفصح عنه قوله تعالى امر الله انزله
اليكم لما انها لمجرد الفرق بين الحاضر والمنقضي لا لتعيين خصوصية المخاطبين وقد مر
في قوله تعالى ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله من سورة البقرة ومن يتق الله بالمحافظة
على احكامه يكفر عنه سيئاته فان الحسنات يذهبن السيئات ويعظم له اجرا بالمضاعفة
وقوله تعالى اسكنوهن من حيث سكنتم استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ
مما قبله من الحث على التقوى كانه قيل كيف نعمل بالتقوى في شان المعتدات فقيل
اسكنوهن مسكنا من حيث سكنتم اي بعض مكان سكناكم وقوله تعالى من وجدكم اي
من وسعكم اي مما تطيقونه عطف بيان لقوله من حيث سكنتم وتفسير له ولا تضاروهن
في السكنى لتضيقوا عليهن وتلجئوهن الى الخروج وان كن اي المطلقات اولات
حمل فانفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فيخرجن من العدة اما المتوفى عنهن ازواجهن
فلا نفقة لهن فان ارضعن لكم بعد ذلك فآتوهن اجورهن على الارضاع و
ائتمروا بينكم بمعروف اي تشاوروا وحقيقته ليأمر بعضكم بعضا بجميل في الارضاع
والاجر ولا يكن من الاب مماكسة ولا من الام معاسرة وان تعاسرتم اي تضايقتم
فسترضع له اخرى اي فستوجد ولا تعوز مرضعة اخرى وفيه معاتبة للام على
المعاسرة لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله وان
قل اي لينفق كل واحد من الموسر والمعسر ما يبلغه وسعه لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها
جل او قل فانه تعالى لا يكلف الا وسعها وفيه تطييب لقلب المعسر وترغيب له في بذل مجهوده
وقد اكد ذلك بالوعد حيث قيل سيجعل الله بعد عسر يسرا اي عاجلا او آجلا وكاين
من قرية اي كثير من اهل قرية عتت اعرضت عن امر ربها ورسله بالعتو والتمرد
والعناد فحاسبناها حسابا شديدا بالاستقصاء والتنقير والمناقشة في كل نقير وقطمير
وعذبناها عذابا نكرا اي منكرا عظيما وقرئ نكرا والمراد حساب الآخرة وعذابها
والتعبير عنهما بلفظ الماضي للدلالة على تحققهما كما في قوله تعالى ونادى اصحاب الجنة فذاقت
وبال امرها وكان عاقبة امرها خسرا هائلا لا خسر وراءه اعد الله لهم عذابا
شديدا تكرير للوعيد وبيان لكونه مترقبا كانه قيل اعد الله لهم هذا العذاب فاتقوا
الله يا اولي الالباب ويجوز ان يراد بالحساب استقصاء ذنوبهم واثباتها في
صحائف الحفظة وبالعذاب ما اصابهم عاجلا وقد جوز ان يكون عتت وما عطف عليه
صفة للقرية واعد الله لهم جوابا لقوله تعالى كاين الذين آمنوا منصوب باضمار اعني
بيانا للمنادى او عطف بيان او نعت وفي ابداله منه ضعف لتعذر حلوله محله قد
انزل الله اليكم ذكرا هو جبريل عليه السلام وسمي به لكثرة ذكره او لنزوله بالذكر
الذي هو القرآن كما ينبئ عنه ابداله قوله تعالى رسولا منه او لانه مذكور في السموات

وفي الامداد اريد بالذكر الشرف كما في قوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك كانه في نفسه شرف اما لانه شرف للمنزل عليه واما لانه ذو مجد وشرف عند الله تعالى عند ذي العرش مكين او هو النبي صلى الله عليه وسلم وعليه الاكثر عبر عنه بالذكر لمواظبته على تلاوة القرآن او تبليغه والتذكير به وعبر عن ارساله بالانزال بطريق الترشيح او لانه مسبب عن انزال الوحي وابدال منه رسولا للبيان او هو القرآن ورسولا منصوب بمقدر مثل ارسلنا او بذكرا على انه المصدر المنون او بدل منه على انه بمعنى الرسالة وقوله تعالى يتلو عليكم آيات الله مبينات نعت لرسولا وآيات الله القرآن ومبينات حال منها اي حال كونها مبينات لكم ما تحتاجون اليه من الاحكام وقرئ مبينات اي بينها الله تعالى لقوله قد بينا لكم الآيات واللام في قوله تعالى ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات متعلقة بيتلو او بانزل وفاعل يخرج على الاول ضمير الرسول عليه السلام او ضمير الجلالة والموصول عبارة عن المؤمنين بعد انزاله اي ليحصل لهم الرسول او الله عز وجل ما هم عليه الآن من الايمان والعمل الصالح او ليخرج من علم او قدر انه سيؤمن من الظلمات الى النور من الضلالة الى الهدى ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا حسبما بين في تضاعيف ما انزل من الآيات المبينات يدخله جنات تجري من تحتها الانهار وقرئ ندخله بالنون وقوله تعالى خالدين فيها ابدا حال من مفعول يدخله والجمع باعتبار معنى من كما ان الافراد في الضمائر الثلثة باعتبار لفظها وقوله تعالى قد احسن الله له رزقا حال اخرى منه او من الضمير في خالدين بطريق التداخل وافراد ضميره فيه قد مر وجهه وفيه معنى التعجب والتعظيم لما رزقه الله المؤمنين من الثواب الله الذي خلق سبع سموات مبتدأ وخبر ومن الارض مثلهن اي خلق من الارض مثلهن في العدد وقرئ مثلهن بالرفع على انه مبتدأ ومن الارض خبره واختلف في كيفية طبقات الارض قال الجمهور على انها سبع ارضين طباقا بعضها فوق بعض بين كل ارض وارض مسافة كما بين السماء والارض وفي كل ارض سكان من خلق الله تعالى وقال الضحاك مطبقة بعضها فوق بعض من غير فتوق بخلاف السموات قال القرطبي والاول اصح لان الاخبار دالة عليه كما روى البخاري وغيره من ان كعبا حلف بالذي فلق البحر لموسى ان صهيبا حدثه ان النبي صلى الله عليه وسلم لم ير قرية يريد دخولها الا قال حين يراها اللهم رب السموات السبع وما اظللن ورب الارضين السبع وما اقللن ورب الشياطين وما اضللن ورب الرياح وما ذرين نسألك خير هذه القرية وخير اهلها ونعوذ بك من شرها وشر اهلها وشر من فيها وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان نافع بن الازرق سأله هل تحت الارض خلق قال نعم قال فما الخلق قال اما ملائكة او جن قال الماوردي وعلى هذا تختص دعوة الاسلام باهل الارض العليا دون من عداهم وان كان فيهن من يعقل من خلق وفي مشاهدتهم السماء واستمدادهم الضوء منها قولان احدهما انهم يشاهدون السماء من كل جانب من ارضهم ويستمدون الضياء منها والثاني انهم لا يشاهدون السماء وان الله تعالى خلق لهم ضياء يشاهدونه وحكى الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما انها سبع ارضين متفرقة بالبحار وتظل الجميع السماء يتنزل الامر بينهن اي يجري امره وقضاؤه بينهن وينفذ ملكه فيهن وعن قتادة في كل سماء وفي كل ارض خلق من خلقه وامر من امره وقضاء من قضائه وقيل ما يدبر فيهن من عجائب تدبيره وقرئ ينزل الامر لتعلموا ان الله على كل شيء قدير متعلق بخلق او بيتنزل او بمضمرهما اي فعل ذلك لتعلموا ان من قدر على ما ذكر قادر على كل شيء وان الله قد احاط بكل شيء علما لاستحالة صدور الافاعيل المذكورة ممن ليس كذلك ويجوز ان يكون العامل في اللام بيان ما ذكر من الخلق وتنزل الامر اي اوحى ذلك وبينه لتعلموا بما ذكر من الامور التي تشاهدونها والتي تتلقونها من الوحي من عجائب المصنوعات انه لا يخرج عن قدرته وعلمه شيء اصلا وقرئ ليعلموا عن النبي صلعم من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله صلعم

يا ايها النبي لم تحرم ما احل الله لك روي ان النبي صلى الله عليه وسلم خلا بمارية في يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة فقال لها اكتمي علي فقد حرمت مارية على نفسي وابشرك ان ابا بكر وعمر يملكان بعدي امر امتي فاخبرت به عائشة وكانتا متصادقتين وقيل خلا بها في يوم حفصة فارضاها بذلك واستكتمها فلم تكتم فطلقها واعتزل نساءه فنزل جبريل عليه السلام فقال راجعها فانها صوامة قوامة وانها لمن نسائك في الجنة وروي انه عليه السلام شرب عسلا في بيت زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة فقالتا نشم منك ريح المغافير وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره التفل فحرم العسل فنزلت فمعناه لم تحرم ما احل الله لك من ملك اليمين او من العسل تبتغي مرضات ازواجك اما تفسير لتحرم او حال من فاعله او استيناف ببيان ما دعاه اليه مؤذن بعدم صلاحيته لذلك والله غفور مبالغ في الغفران قد غفر لك هذه الزلة رحيم قد رحمك ولم يؤاخذك به وانما عاتبك محاماة على عصمتك قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم اي شرع لكم تحليلها وهو حل ما عقدته بالكفارة او بالاستثناء متصلا حتى لا يحنث والاول هو المراد ههنا والله مولاكم سيدكم ومتولي اموركم وهو العليم بما يصلحكم فيشرعه لكم الحكيم المتقن في افعاله واحكامه فلا يأمركم ولا ينهاكم الا حسبما يقتضيه الحكمة واذ اسر النبي الى بعض ازواجه وهي حفصة حديثا اي حديث تحريم مارية او العسل او امر الخلافة فلما نبأت به اي اخبرت حفصة عائشة بالحديث وافشته اليها وقرئ انبأت به واظهره الله عليه اي اطلع الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم على افشائه حفصة عرف اي النبي عليه السلام بعضه بعض الحديث الذي افشته قيل هو حديث الامامة روي انه عليه السلام قال لها الم اقل لك اكتمي علي قالت والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي فرحا بالكرامة التي خص الله تعالى بها اباها واعرض عن بعض اي عن تعريف بعض تكرما قيل هو حديث مارية فلما نبأها به اي اخبر النبي عليه السلام حفصة بما عرفه من الحديث قالت من انبأك هذا اي افشاها الحديث قال نبأني العليم الخبير الذي لا يخفى عليه خافية ان تتوبا الى الله خطاب لحفصة وعائشة على الالتفات للمبالغة في العتاب فقد صغت قلوبكما الفاء للتعليل كما في قولك اعبد ربك فالعبادة حق اي فقد وجد منكما ما يوجب التوبة من ميل قلوبكما عما يجب عليكما من مخالصة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب ما يحبه وكراهة ما يكرهه وقرئ فقد زاغت وان تظاهرا عليه باسقاط احدى التائين وقرئ على الاصل وبتشديد الظاء وتظهرا اي تتعاونا عليه بما يسوءه من الافراط في الغيرة وافشاء سره فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين اي فلن يعدم من يظاهره فان الله هو ناصره وجبريل رئيس الكروبيين قرينه ومن صلح من المؤمنين اتباعه واعوانه قال ابن عباس رضي الله عنهما اراد بصالح المؤمنين ابا بكر وعمر رضي الله عنهما وقد روي ذلك مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم وبه قال عكرمة ومقاتل وهو اللائق بتوسيطه بين جبريل والملائكة عليهم السلام فانه جمع بين الظهير المعنوي والظهير الصوري كيف لا وان جبريل ظهير له عليهما السلام يؤيده بالتأييدات الالهية وهما وزيراه وظهيراه في تدبير امور الرسالة وتمشية احكامها الظاهرة ولان بيان مظاهرتهما له عليه السلام اشد تأثيرا في قلوب بنتيهما وتوهينا لامرهما فكان حقيقا بالتقديم بخلاف ما اذا اريد به جنس الصالحين كما هو المشهور والملائكة مع تكاثر عددهم وامتلاء السموات من جموعهم بعد ذلك قيل اي بعد نصرة الله عز وجل وناموسه الاعظم وصالح المؤمنين ظهير اي فوج مظاهر له كانهم يد واحدة على من يعاديه فماذا يفيد تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه وما ينبئ عنه قوله تعالى بعد ذلك من فضل نصرتهم على نصرة غيرهم من حيث ان نصرة الكل نصرة الله تعالى وان نصرته تعالى بهم وبمظاهرتهم افضل من سائر وجوه نصرته هذا ما قالوا ولعل الانسب ان يجعل ذلك اشارة الى مظاهرة صالح المؤمنين خاصة ويكون بيان بعدية

مظاهرة الملئكة تداركا لما يوهمه الترتيب الذكري من افضلية المقدم فكانه قيل بعد ذكر مظاهرة صالح المؤمنين وسائر الملئكة بعد ذلك ظهير له عليه السلام ايذانا بعلو رتبة مظاهرتهم وبعد منزلتها وجبرا لفضلها عن مظاهرة جبريل عليه السلام عسى ربه ان طلقكن ان يبدله اى يعطيه عليه السلام بدلكن ازواجا خيرا منكن على التغليب او تعميم الخطاب وليس فيه ما يدل على انه عليه السلام لم يطلق حفصة وان في النساء خيرا منهن فان تعليق طلاق الكل لا ينافي تطليق واحدة وما علق بما لم يقع لا يجب وقوعه وقرئ ان يبدله بالتشديد مسلمات مؤمنات مقرات مخلصات او منقادات مصدقات قانتات مصليات او مواظبات على الطاعة تائبات من الذنوب عابدات متعبدات او متذللات لامر الرسول صلى الله عليه وسلم سائحات صائمات سمي الصائم سائحا لانه ان يسيح في النهار بلا زاد او مهاجرات وقرئ سيحات ثيبات وابكارا وسط بينهما العاطف لتنافيهما يا ايها الذين امنوا قوا انفسكم بترك المعاصي وفعل الطاعات واهليكم بان تاخذوهم بما تاخذون به انفسكم وقرئ واهلوكم عطفا على واو قوا فيكون انفسكم عبارة عن انفس الكل على تغليب المخاطبين اى قوا انتم واهلوكم انفسكم نارا وقودها الناس والحجارة اى نارا تتقد بهما اتقاد غيرها بالحطب وامر المؤمنين باتقاء هذه النار المعدة للكافرين كما نص عليه في سورة البقرة في التحذير عليها ملئكة اى تلي امرها وتعذيب اهلها وهم الزبانية غلاظ شداد غلاظ الاقوال شداد الافعال او غلاظ الخلق شداد الخلق اقوياء على الافعال الشديدة لا يعصون الله ما امرهم اى امره على انه بدل اشتمال من الله او فيما امرهم به على نزع الخافض اى لا يمتنعون من قبول الامر ويلتزمونه ويفعلون ما يؤمرون اى يؤدون ما يؤمرون به من غير تثاقل ولا توان وقوله تعالى يا ايها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم مقول لقول قد حذف ثقة بدلالة الحال عليه اى يقال لهم عند ادخال الملئكة اياهم النار حسبما امروا به انما تجزون ما كنتم تعملون في الدنيا من الكفر والمعاصي بعد ما نهيتم عنهما اشد النهي وامرتم بالايمان والطاعة فلا عذر لكم قطعا يا ايها الذين امنوا توبوا الى الله توبة نصوحا اى بالغة في النصح وصف التوبة بذلك على الاسناد المجازي وهو وصف التائبين وهو ان ينصحوا بالتوبة انفسهم فيأتوا بها على طريقتها وذلك ان يتوبوا عن القبائح لقبحها نادمين عليها مغتمين اشد الاغتمام لارتكابها عازمين على انهم لا يعودون في قبيح من القبائح موطنين انفسهم على ذلك لا يلويهم عنه صارف اصلا عن علي رضي الله عنه ان التوبة يجمعها ستة اشياء على الماضي من الذنوب الندامة وللفرائض الاعادة ورد المظالم واستحلال الخصوم وان تعزم على ان لا تعود وان تذيب نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية وان تذيقها مرارة الطاعة كما اذقتها حلاوة المعاصي وعن شهر بن حوشب ان لا يعود ولو حز بالسيف واحرق بالنار وقيل نصوحا من نصاحة الثوب اى توبة ترفو خروقك في دينك وترم خللك وقيل خالصة من قولهم عسل ناصح اذا خلص من الشمع ويجوز ان يراد توبة تنصح الناس اى تدعوهم الى مثلها لظهور اثرها في صاحبها واستعماله الجد والعزيمة في العمل بمقتضياتها وقرئ توبا نصوحا وقرئ نصوحا وهو مصدر نصح فان النصح والنصوح كالشكر والشكور اى ذات نصوح او تنصح نصوحا او توبوا النصح انفسكم على انه مفعول له عسى ربكم ان يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار ورد صيغة الاطماع للجري على سنن الكبرياء وللاشعار بانه تفضل والتوبة غير موجبة له وان العبد ينبغي ان يكون بين خوف ورجاء وان بالغ في اقامة وظائف العبادة يوم لا يخزي الله النبي ظرف ليدخلكم والذين امنوا معه عطف على النبي وفيه تعريض بمن اخزاهم الله تعالى من اهل الكفر والفسوق واستحماد الى المؤمنين على انه عصمهم من مثل حالهم وقيل هو مبتداء خبره قوله تعالى نورهم يسعى بين ايديهم وبايمانهم على الصراط وهو على الاول استيناف او حال وكذا

قوله

قوله تعالى يقولون الخ وعلى الثاني خبر اخر للموصول اى يقولون اذا طفئ نور المنافقين ربنا اتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شيء قدير وقيل يدعون تقربا الى الله تعالى مع تمام نورهم وقيل يتفاوت انوارهم بحسب اعمالهم فيسئلون اتمامه تفضلا وقيل السابقون الى الجنة يمرون مثل البرق على الصراط وبعضهم كالريح وبعضهم حبوا وزحفا اولئك الذين يقولون ربنا اتمم لنا نورنا يا ايها النبي جاهد الكفار بالسيف والمنافقين بالحجة واغلظ عليهم واستعمل الخشونة على الفريقين فيما تجاهدهما من القتال والمحاجة ومأواهم النار جهنم سيرون فيها عذابا غليظا وبئس المصير اى جهنم او مصيرهم ضرب الله مثلا للذين كفروا ضرب المثل في امثال هذه المواقع عبارة عن ايراد حالة غريبة ليعرف بها حالة اخرى مشاكلة لها في الغرابة اى جعل الله مثلا لحال هؤلاء الكفرة حالا وما لا على ان مثلا مفعول ثان لضرب واللام متعلقة به وقوله تعالى امرأة نوح وامرأة لوط اى حالهما مفعوله الاول اخر عنه ليتصل به ما هو شرح وتفسير لحالهما ويتضح بذلك حال هؤلاء فقوله تعالى كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين بيان لحالهما الداعية لهما الى الخير والصلاح اى كانتا في عصمة نبيين عظيمي الشان متمكنين من تحصيل خير الدنيا والاخرة وحيازة سعادتهما وقوله تعالى فخانتاهما بيان لما صدر عنهما من الجناية العظيمة مع تحقق ما ينفيها من صحبة النبي اى خانتاهما بالكفر والنفاق وهذا تصوير لحالهما المحاكية لحال هؤلاء الكفرة في خيانتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكفر والعصيان مع تمكنهم التام من الايمان والطاعة وقوله تعالى فلم يغنيا الخ بيان لما ادى اليه جنايتهما اى فلم يغن النبيان عنهما بحق الزواج من الله اى من عذابه تعالى شيئا اى شيئا من الاغناء وقيل لهما عند موتهما او يوم القيمة ادخلا النار مع الداخلين اى مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الانبياء وضرب الله مثلا للذين امنوا امرأة فرعون اى جعل حالها مثلا لحال المؤمنين في ان وصلة الكفرة لا تضرهم حيث كانت في الدنيا تحت اعدى اعداء الله تعالى وهي في اعلى غرف الجنة وقوله تعالى اذ قالت ظرف لمحذوف اشير اليه اى ضرب الله مثلا للمؤمنين حالها اذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة قريبا من رحمتك او في اعلى درجات المقربين روي انها لما قالت ذلك اريت بيتها في الجنة من درة وانتزع روحها ونجني من فرعون وعمله اى من نفسه الخبيثة وعمله السيء ونجني من القوم الظالمين من القبط التابعين له في الظلم ومريم ابنت عمران عطف على امرأة فرعون تسلية للارامل اى وضرب مثلا للذين امنوا حالها وما اوتيت من كرامة الدنيا والارض والاصطفاء على نساء العالمين مع كون قومها كفارا التي احصنت فرجها فنفخنا فيه وقرئ فيها اى في مريم من روحنا من روح خلقناه بلا توسط اصل وصدقت بكلمات ربها بصحفه المنزلة او بما اوحى الى انبيائه وكتبه وبجميع كتبه المنزلة وقرئ بكلمة الله وكتابه اى بعيسى وبالكتاب المنزل اليه الانجيل وكانت من القانتين اى من عداد المواظبين على الطاعة والتذكير للتغليب والاشعار بان طاعتها لم تقصر من طاعات الرجال حتى عدت من جملتهم او من نسلهم لانها من اعقاب هرون اخ موسى عليهما السلام وعن النبي صلى الله عليه وسلم كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا اربع اسية بنت مزاحم ومريم ابنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام وعن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة التحريم اتاه الله تعالى توبة نصوحا

تبارك الذي بيده الملك البركة النماء والزيادة حسية كانت او عقلية وكثرة الخير ودوامه ايضا ونسبتها الى الله عز وعلا على المعنى الاول وهو الاليق بالمقام باعتبار تعاليه عما سواه في ذاته وصفاته وافعاله وصيغة التفاعل للمبالغة في ذلك فانما لا يتصور

نسبته اليه تعالى من الصيغ كالتكبر ونحوه انما تنسب اليه سبحانه باعتبار غاياتها وعلى الثاني
باعتبار كثرة ما يفيض منه على مخلوقاته من فنون الخيرات والصيغة حينئذ يجوز ان يكون
الافادة عن تلك الخيرات وازديادها شيئا فشيئا وآنا فآنا بحسب حدوثها او حدوث
متعلقاتها ولاستقلالها بالدلالة على غاية الكمال وانبائها على نهاية التعظيم لم يجز
استعمالها في حق غيره سبحانه ولا استعمال غيرها من الصيغ في حقه تبارك وتعالى و
اسنادها الى الموصول للاستشهاد بما في حيز الصلة على تحقق مضمونها واليد مجاز
من القدرة التامة والاستيلاء الكامل اي تعالى وتعاظم بالذات عن كل ما سواه ذاتا
وصفة وفعلا الذي بقبضته قدرته التصرف الكلي في كل الامور وهو على كل شيء
من الاشياء قدير مبالغ في القدرة عليه يتصرف فيه حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على
الحكم البالغة والجملة معطوفة على الصلة مقررة لمضمونها مفيدة لجريان احكام
ملكه تعالى في جلائل الامور ودقائقها وقوله تعالى الذي خلق الموت والحيوة شروع
في تفصيل بعض احكام الملك وآثار القدرة وبيان ابتنائهما على قوانين الحكم والمصالح
واستتباعهما لغايات جليلة والموصول بدل من الموصول الاول داخل معه في
حكم الشهادة بتعاليه تعالى والموت عند اصحابنا صفة وجودية مضادة للحيوة واما
ما روي عن ابن عباس من انه تعالى خلق الموت في صورة كبش املح لا يمر بشيء ولا يجد
رائحته شيء الا مات وخلق الحيوة في صورة فرس ابلق لا تمر بشيء ولا يجد رائحتها شيء
الا حيي فكلام وارد على منهاج التمثيل والتصوير وقيل هو عدم الحيوة فمعنى خلقه
حينئذ تقديره او ازالة الحيوة واياما كان فالاقرب ان المراد به الموت الطاري
وبالحيوة ما قبله وما بعده لظهور مداريتهما لما ينطق به قوله تعالى ليبلوكم ايكم احسن
عملا فان استدعاء ملاحظتهما لاحسان العمل مما لا ريب فيه مع ان نفس العمل لا يتحقق
بدون الحيوة الدنيوية وتقديم الموت لكونه ادعى الى احسان العمل واللام متعلقة
بخلق اي خلق موتكم وحيوتكم على ان الالف واللام عوض عن المضاف اليه ليعاملكم
معاملة من يختبركم ايكم احسن عملا فيجازيكم على مراتب متفاوتة حسب تفاوت
طبقات علومكم واعمالكم فان العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره صلى الله عليه وسلم
بقوله ايكم احسن عمله واورع عن محارم الله واسرع في طاعة الله فان لكل من
القلب والقالب عملا خاصا به فكما ان الاول اشرف من الثاني كذلك الحال في عمله
كيف لا ولا عمل بدون معرفة الله عز وجل الواجبة على العباد اثر ذي اثير وانما طريقها
النظر والتفكر في بدائع صنع الله تعالى والتدبر في آياته المنصوبة في الانفس والآفاق وقد
روي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال لا تفضلوني على يونس بن متى فانه كان يرفع كل يوم
مثل عمل اهل الارض قالوا وانما كان ذلك التفكر في امر الله عز وجل الذي هو عمل القلب
ضرورة ان احدا لا يقدر على ان يعمل بجوارحه مثل عمل اهل الارض وتعليق فعل البلوى
اي تعقيبه بحرف الاستفهام لا التعليق المشهور الذي يقتضي عدم ايراد المفعول
اصلا مع اختصاصه بافعال القلوب لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالنظر و
نظائره ولذلك اجري مجراه بطريق التمثيل وقيل بطريق الاستعارة التبعية وايراد
صيغة التفضيل مع ان الابتلاء شامل لهم باعتبار اعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح
ايضا لا الى الحسن والاحسن فقط للايذان بان المراد بالذات والمقصد الاصلي من الابتلاء
هو ظهور كمال احسان المحسنين مع تحقق اهل الايمان والطاعة في الباقين
ايضا لكمال تعاضد الموجبات له واما الاعراض عن ذلك فبمعزل من الاندراج
تحت الوقوع فضلا عن الانتظام في سلك الغاية للافعال الالهية وانما هو عمل يصدر
عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له ولا تقريب وفيه من الترغيب في الترقي الى
معارج العلوم ومدارج الطاعات والزجر عن مباشرة نقائضها ما لا يخفى وهو العزيز
الغالب الذي لا يفوته من اساء العمل الغفور لمن تاب منهم الذي خلق سبع سموات
قيل هو نعت للعزيز الغفور او بيان او بدل والاوجه انه نصب او رفع على المدح متعلق

بالموصولين السابقين معنى وان كان منقطعا عنهما اعرابا كما مر تفصيله في قوله تعالى
الذين يؤمنون بالغيب من سورة البقرة منتظم معهما في سلك الشهادة بتعاليه سبحانه
ومع الموصول الثاني في كونه مدارا للبلوى كما نطق به قوله تعالى وهو الذي خلق السموات
والارض في ستة ايام وكان عرشه على الماء ليبلوكم ايكم احسن عملا و
قوله تعالى طباقا صفة لسبع سموات اي مطابقة على انه مصدر طابقت النعل اذا
خصفتها وصف به المفعول او مصدر مؤكد لمحذوف هو صفتها اي طوبقت طباقا
وقوله تعالى ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت صفة اخرى لسبع سموات وضع فيها خلق
الرحمن موضع الضمير للتعظيم والاشعار بعلة الحكم وبانه تعالى خلقها بقدرته القاهرة
رحمة وتفضلا وبان في ابداعها نعما جليلة او استئناف والخطاب للرسول صلى الله
عليه وسلم او لكل احد ممن يصلح للخطاب ومن لتاكيد النفي اي ما ترى فيه شيئا من
تفاوت اي اختلاف وعدم تناسب من الفوت فان كلا من المتفاوتين يفوت منه
بعض في الآخر وقرئ من تفوت ومعناهما واحد وقوله تعالى فارجع البصر هل ترى
من فطور متعلق به على معنى التسبيب حيث اخبر اولا بانه لا تفاوت في خلقهن ثم
قيل فارجع البصر حتى يتضح لك ذلك بالمعاينة ولا يبقى عندك شبهة ما والفطور الشقوق
والصدوع جمع فطر وهو الشق يقال فطره فانفطر ثم ارجع البصر كرتين اي رجعتين
اخريين في ارتياد الخلل والمراد بالتثنية التكرير والتكثير كما في لبيك وسعديك اي رجعة
بعد رجعة وان كثرت ينقلب اليك البصر خاسئا اي بعيدا محروما من اصابة ما
التمسه من العيب والخلل كانه يطرد عن ذلك طردا بالصغار والقماءة وهو حسير
اي كليل لطول المعاودة وكثرة المراجعة وقوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بيان لكون
خلق السموات في غاية الحسن والبهاء اثر بيان خلوها عن شائبة القصور وتصدير
الجملة بالقسم لابراز كمال الاعتناء بمضمونها اي وبالله لقد زينا اقرب السموات الى الارض
بمصابيح اي بكواكب مضيئة بالليل اضاءة السرج من السيارات والثوابت تتراءى كانها
كلها مركوزة فيها مع ان بعضها في سائر السموات وما ذاك الا لان كل واحدة منها
مخلوقة على نمط رائق يحار في فهمه الافكار وطراز فائق يهيم في دركه الانظار
وجعلناها رجوما للشياطين وجعلنا لها فائدة اخرى هي رجم اعدائكم بانقضاض
الشهب المقتبسة من نار الكواكب وقيل معناه جعلناها ظنونا ورجوما بالغيب
لشياطين الانس وهم المنجمون ولا يساعده المقام والرجوم جمع رجم بالفتح وهو
ما يرجم به واعتدنا لهم في الآخرة عذاب السعير بعد الاحراق في الدنيا بالشهب
وللذين كفروا بربهم من الشياطين وغيرهم عذاب جهنم وقرئ بالنصب على
انه عطف على عذاب السعير وللذين على لهم وبئس المصير اي جهنم اذا القوا
فيها سمعوا لها اي لجهنم وهو متعلق بمحذوف وقع حالا من قوله تعالى شهيقا
لانه في الاصل صفته فلما قدمت صارت حالا اي سمعوا كائنا لها شهيقا اي
صوتا كصوت الحمير وهو حسيسها المنكر الفظيع قالوا الشهيق في الصدر والزفير في
الحلق وهي تفور اي والحال انها تغلي بهم غليان المرجل بما فيه وجعل الشهيق لاهلها
منهم وممن طرح فيها قبلهم كما في قوله تعالى لهم فيها زفير وشهيق يرده قوله تعالى تكاد
تميز اي تتميز وتتفرق من الغيظ اي من شدة الغضب عليهم فانه صريح في
انه من آثار الغضب عليهم كما في قوله سمعوا لها تغيظا وزفيرا فاين هو من شهيقهم
الناشئ من شدة ما يقاسونه من العذاب الاليم والجملة اعتراض او حال من فاعل تفور
او خبر آخر وقوله تعالى كلما القي فيها فوج استئناف مسوق لبيان حال اهلها بعد بيان حال
نفسها وقيل حال من ضميرها اي كلما القي فيها جماعة من الكفرة سألهم خزنتها
بطريق التوبيخ والتقريع ليزدادوا عذابا فوق عذاب وحسرة على حسرة الم يأتكم
نذير يتلو عليكم آيات ربكم وينذركم لقاء يومكم هذا كما وقع في سورة الزمر
ويعرب عنه جوابهم ايضا قالوا اعترافا بانه تعالى قد ازاح عللهم بالكلية بلى قد جاءنا نذير

جامعين بين حرف الجواب ونفس الجملة المجاب بها مبالغة في الاعتراف بمجيء النذير وتحسرا على ما فاتهم من السعادة في تصديقهم وتمهيدا لبيان ما وقع منهم من التفريط تندما واغتماما على ذلك اي قال كل فوج من تلك الافواج قد جاءنا نذير اي واحد حقيقة او حكما كانبياء بني اسرائيل فانهم في حكم نذير واحد فانذرنا وتلى علينا ما نزل الله تعالى علينا من آياته فكذبنا ذلك النذير في كونه نذيرا من جهته تعالى وقلنا في حق ما تلاه من الآيات افراطا في التكذيب وتماديا في النكير ما نزل الله على احد من شيء من الاشياء فضلا عن تنزيل الآيات عليكم ان انتم اي ما انتم في ادعاء انه تعالى نزل عليكم آيات تنذروننا بما فيها الا في ضلال كبير بعيد عن الحق والصواب وجمع ضمير الخطاب مع ان مخاطب كل فوج نذيره لتغليبه على امثاله مبالغة في التكذيب وتماديا في التضليل كما ينبئ عنه تعميم المنزل مع ترك ذكر المنزل عليه فانه ملوح بعمومه حتما واما اقامة تكذيب الواحد مقام تكذيب الكل فامر تحقيقي يصار اليه لتهويل ما ارتكبوه من الجناية لا مساغ لاعتباره من جهتهم ولا لادراجه تحت عبارتهم كيف وهي منوطة بملاحظة اجماع المنذرين على ما لا يختلف من الشرائع والاحكام باختلاف العصور والاعوام واين هم من ذلك وقد حال الجريض دون القريض هذا اذا جعل ما ذكر حكاية عن كل واحد من الافواج واما اذا جعل حكاية عن الكل فالنذير اما بمعنى الجمع لانه فعيل او مصدر مقدر بمضاف عام اي اهل نذير او منعوت به فيتفق كلا طرفي الخطاب في الجمعية باحد الوجوه الثلاثة على التقدير الاول ولم يخف اعتبارها بالتقدير الاخير فقد اشتبه عليه الشؤون واختلط به الظنون وقد جوز ان يكون الخطاب من كلام الخزنة للكفار على ارادة القول على ان مرادهم بالضلال ما كانوا عليه في الدنيا او هلاكهم او عقاب ضلالهم تسمية له باسم سببه وان يكون من كلام الرسل للكفرة وقد حكوه للخزنة فتأمل وكن على الحق المبين وقالوا ايضا معترفين بانهم لم يكونوا ممن يسمع او يعقل لو كنا نسمع كلاما او نعقل شيئا ما كنا في اصحاب السعير اي في عدادهم ومن اتباعهم وهم الشياطين لقوله تعالى واعتدنا لهم عذاب السعير كانت الخزنة قالوا لهم في تضاعيف التوبيخ الم تسمعوا آيات ربكم ولم تعقلوا معانيها حتى لا تكذبوا بها فاجابوا بذلك فاعترفوا بذنبهم الذي هو كفرهم وتكذيبهم بآيات الله ورسله فسحقا بسكون الحاء وقرئ بضمها مصدر مؤكد اما الفعل متعد من المزيد بحذف الزوائد كما في قعدك الله اي فاسحقهم الله اي ابعدهم من رحمته سحقا اي اسحاقا او لفعل مترتب على ذلك الفعل اي فاسحقهم الله فسحقوا اي بعدوا سحقا اي بعدا كما في قول من قال وعضة دهر يا ابن مروان لم يدع من المال الا مسحت او مجلف اي لم يدع فلم يبق الا مسحت الخ وعلى هذين الوجهين قوله تعالى وانبتها نباتا حسنا واللام في قوله تعالى لاصحاب السعير للبيان كما في هيت لك ونحوه والمراد بهم الشياطين والداخلون في عدادهم بطريق التغليب ان الذين يخشون ربهم بالغيب اي يخافون عذابه غائبا عنهم او غائبين عنه او عن اعين الناس او بما خفي منهم وهو قلوبهم لهم مغفرة عظيمة لذنوبهم واجر كبير لا يقادر قدره واسروا قولكم او اجهروا به بيان لتساوي السر والجهر بالنسبة الى علمه تعالى كما في قوله تعالى سواء منكم من اسر القول ومن جهر به قال ابن عباس ما نزلت في المشركين كانوا ينالون من النبي صلى الله عليه وسلم فيوحى اليه عليه السلام فقال بعضهم لبعض اسروا قولكم كيلا يسمع رب محمد فقيل لهم اسروا ذلك او اجهروا به فان الله يعلمه وتقديم السر على الجهر للايذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من اول الامر والمبالغة في بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات كان علمه تعالى بما يسرونه اقدم منه بما يجهرون به مع كونهما في الحقيقة على السوية فان علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل شيء في نفسه علم بالنسبة اليه او لان مرتبة السر متقدمة على مرتبة الجهر اذ ما من شيء يجهر به الا وهو او مباديه مضمر في القلب يتعلق

بذ

به الاسرار غالبا فتعلق علمه تعالى بحالته الاولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية وقوله تعالى انه عليم بذات الصدور تعليل لما قبله وتقرير له وفي صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق ووصف الضمائر بصاحبيتها من الجزالة ما لا غاية وراءه كانه قيل انه مبالغ في الاحاطة بمضمرات جميع الناس واسرارهم الخفية المستكنة في صدورهم بحيث لا تكاد تفارقها اصلا فكيف يخفى عليه ما تسرونه وتجهرون به ويجوز ان يراد بذات الصدور القلوب التي في الصدور والمعنى انه عليم بالقلوب واحوالها فلا يخفى عليه سر من اسرارها وقوله تعالى الا يعلم من خلق انكار ونفي لعدم احاطة علمه تعالى بالمضمر والمظهر اي الا يعلم السر والجهر من اوجد بموجب حكمته جميع الاشياء التي هما من جملتها وقوله تعالى وهو اللطيف الخبير حال من فاعل يعلم مؤكد للانكار والنفي اي الا يعلم ذلك والحال انه المتوصل علمه الى ما ظهر من خلقه وما بطن ويجوز ان يكون من خلق منصوبا والمعنى الا يعلم الله من خلقه والحال انه بهذه المثابة من شمول العلم ولا مساغ لاخلاء العلم عن المفعول باجرائه مجرى يعطي ويمنع على معنى الا يكون عالما من خلق لان الخلق لا يتأتى بدون العلم لخلو الحال حينئذ عن الافادة لان نظم الكلام حينئذ الا يكون عالما وهو مبالغ في العلم هو الذي جعل لكم الارض ذلولا لينة ليسهل عليكم السلوك فيها وتقديم لكم على مفعولي الجعل مع ان حقه التأخر عنهما للاهتمام بما قدم والتشويق الى ما اخر فان ما حقه التقديم اذا اخر لا سيما عند كون المقدم مما يدل على كون المؤخر من منافع المخاطبين تبقى النفس مترقبة لوروده فيتمكن لديها عند ذكره فضل تمكن والفاء في قوله تعالى فامشوا في مناكبها لترتيب الامر على الجعل المذكور اي فاسلكوا في جوانبها او جبالها وهو مثل لفرط التذليل فان منكب البعير ارق اعضائه وانباها عن ان يطأه الراكب بقدمه فاذا جعل الارض في الذل بحيث يتأتى المشي في مناكبها لم يبق منها شيء لم يتذلل وكلوا من رزقه والتمسوا من نعم الله تعالى واليه النشور اي المرجع بعد البعث لا الى غيره فبالغوا في شكر نعمه وآلائه أأمنتم من في السماء اي الملائكة الموكلين بتدبير هذا العالم او الله سبحانه على تأويل من في السماء امره وقضاؤه او على زعم العرب حيث كانوا يزعمون انه تعالى في السماء اي أأمنتم من تزعمون انه في السماء وهو متعال عن المكان ان يخسف بكم الارض بعد ما جعلها لكم ذلولا تمشون في مناكبها وتأكلون من رزقه لكفرانكم تلك النعمة اي يقلبها ملتبسة بكم فيغيبكم فيها كما فعل بقارون وهو بدل اشتمال من من وقيل هو على حذف الجار اي من ان يخسف فاذا هي تمور اي تضطرب ذهابا ومجيئا على خلاف ما كانت عليه من الذل والاطمئنان ام أمنتم من في السماء اضراب عن التهديد بما ذكر وانتقال الى التهديد بوجه آخر اي بل أأمنتم من في السماء ان يرسل عليكم حاصبا اي حجارة من السماء كما ارسلها على قوم لوط واصحاب الفيل وقيل ريحا فيها حجارة وحصباء كانها تقلع الحصباء لشدتها وقوتها وقيل هي سحاب فيها حجارة فستعلمون عن قريب البتة كيف نذير اي انذاري عند مشاهدة المنذر به ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ وقرئ فسيعلمون بالياء ولقد كذب الذين من قبلهم من قبل كفار مكة من كفار الامم السالفة كقوم نوح وعاد واضرابهم والالتفات الى الغيبة لابراز الاعراض عنهم فكيف كان نكير اي انكاري عليهم بانزال العذاب اي كان على غاية الهول والفظاعة وهذا هو مورد التأكيد القسمي لا تكذيبهم فقط وفيه من المبالغة في تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشديد التهديد لقومه ما لا يخفى أولم يروا اغفلوا ولم ينظروا الى الطير فوقهم صافات باسطات اجنحتهن في الجو عند طيرانها فانهن اذا بسطنها صففن قوادمها صفا ويقبضن ويضممنها اذا ضربن بها جنوبهن حينا فحينا للاستظهار به على التحرك وهو السر في ايثار ويقبضن الدال على تجدد القبض تارة بعد تارة على قابضات ما يمسكهن في الجو عند الصف والقبض على خلاف مقتضى الطبع الا الرحمن الواسع رحمته كل شيء بان براهن على

بكم

اشكال وخصائص وهيئات هى للجرى فى الهواء، والجملة مستأنفة او حال من الضمير فى يقبضن انه بكل شئ بصير يعلم كيفية ابداع المبدعات وتدبير المصنوعات وقوله تعالى امن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن تبكيت لهم بنفى ان يكون لهم ناصر غير الله تعالى كما يلوح به التعرض لعنوان الرحمانية ويعضده قوله تعالى ما يمسكهن الا الرحمن او ناصر من عذابه تعالى كما هو الانسب بما سيأتى من قوله تعالى ان امسك رزقه تعالى كقوله تعالى ام لهم آلهة تمنعهم من دوننا فى المعنيين معا خلا ان الاستفهام هناك متوجه الى نفس المانع وتحققه وههنا الى تعيين الناصر لتبكيتهم باظهار عجزهم عن تعيينه وام منقطعة مقدرة ببل المفيدة للانتقال من توبيخهم على ترك التأمل فيما يشاهدونه من احوال الطير المنبئة عن تعاجيب آثار قدرة الله عز وجل الى التبكيت بما ذكر والالتفات للتشديد فى ذلك ولا سبيل الى تقدير الهمزة معها لان ما بعدها من الاستفهامية وهى مبتدأ وهذا خبره والموصول مع صلته صفته كما فى قوله تعالى من ذا الذى يشفع عنده وايثار هذا لتحقير المشار اليه وينصركم صفة لجند باعتبار لفظه ومن دون الرحمن على الوجه الاول اما حال من فاعل ينصركم او نعت لمصدره وعلى الثانى متعلق بينصركم كما فى قوله تعالى من ينصرنى من الله فالمعنى بل من هذا الحقير الذى هو فى زعمكم جند لكم ينصركم متجاوزا نصر الرحمن او ينصركم نصرا كائنا من دون نصره تعالى او ينصركم من عذاب كائن من عند الله عز وجل وتوهم ان ام معادلة لقوله تعالى اولم يروا الى مع القول بان من استفهامية مما لا تقريب له اصلا وقوله تعالى ان الكافرون الا فى غرور اعتراض مقرر لما قبله ناع عليهم ما هم فيه من غاية الضلال اى ما هم فى زعمهم انهم محفوظون من النوائب بحفظ آلهتهم لا بحفظه تعالى فقط او ان آلهتهم تحفظهم من بأس الله الا فى غرور عظيم وضلال فاحش من جهة الشيطان ليس لهم فى ذلك شئ يعتد به فى الجملة والالتفات الى الغيبة للايذان باقتضاء حالهم للاعراض عنهم وبيان قبائحهم لغيرهم والاظهار فى موضع الاضمار لذمهم بالكفر وتعليل غرورهم به والكلام فى قوله تعالى امن هذا الذى يرزقكم ان امسك اى الله عز وجل رزقه بامساك المطر وسائر مباديه كالذى مر بتفصيله خلا ان قوله تعالى بل لجوا فى عتو ونفور مبنى عن مقدر يستدعيه المقام كأنه قيل اثر تمام التبكيت والتعجيز لم يتأثروا بذلك ولم يذعنوا للحق بل لجوا اى تمادوا فى عتو اى عناد واستكبار وطغيان ونفور اى شراد عن الحق وقوله تعالى افمن يمشى مكبا على وجهه اهدى الخ مثل ضرب للمشرك والموحد توضيحا لحالهما وتحقيقا لشأن مذهبيهما والفاء لترتيب ذلك على ما ظهر من سوء حالهم وخرورهم فى مهاوى الغرور وركوبهم متن عشواء العتو والنفور وعدم اهتدائهم فى مسلك المحاجة الى جهة يتوهم فيها رشد فى الجملة فان تقدم الهمزة عليها صورة انما هو لاقتضائها الصدارة واما بحسب المعنى فالامر بالعكس كما هو المشهور حتى لو كان مكان الهمزة هل لقيل فهل من يمشى مكبا الخ والمكب الساقط على وجهه يقال اكبه جره على وجهه وحقيقته صار ذا كب ودخل فى الكب كاقشع الغمام اى صار ذا قشع والمعنى امن يمشى وهو يعثر فى كل ساعة ويخر على وجهه فى كل خطوة لتوعر طريقه واختلال قواه اهدى الى المقصد الذى يؤمه امن يمشى سويا اى قائما سالما من الخبط والعثار على صراط مستقيم مستوى الاجزاء لا عوج فيه ولا انحراف وقيل خبر من الثانية محذوف لدلالة خبر الاولى عليه ولا حاجة الى ذلك فان الثانية معطوفة على الاولى عطف المفرد على المفرد كقولك ازيد افضل ام عمرو وقيل اريد بالمكب الاعمى وبالسوى البصير وقيل من يمشى مكبا هو الذى يحشر على وجهه الى النار ومن يمشى سويا الذى يحشر على قدميه الى الجنة قل هو الذى انشأكم انشاء بديعا وجعل لكم السمع لتسمعوا آيات الله وتمتثلوا بما فيها من الاوامر والنواهى وتتعظوا بمواعظها والابصار لتنظروا بها الى الآيات التكوينية الشاهدة بشؤون الله عز وجل والافئدة لتتفكروا بها فيما تسمعونه وتشاهدونه من الآيات التنزيلية والتكوينية

وترتقوا

وترتقوا فى معارج الايمان والطاعة قليلا ما تشكرون باستعمالها فيما خلقت لاجله من الامور المذكورة وقليلا اما نعت لمحذوف وما مزيدة لتأكيد القلة اى شكرا قليلا او زمانا قليلا تشكرون وقيل القلة عبارة عن العدم قل هو الذى ذرأكم فى الارض اى خلقكم وكثركم فيها لا غيره واليه تحشرون للجزاء لا الى غيره اشتراكا او استقلالا فابنوا اموركم على ذلك ويقولون من فرط عتوهم وعنادهم متى هذا الوعد اى الحشر الموعود كما ينبئ عنه قوله تعالى واليه تحشرون ان كنتم صادقين يخاطبون به النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حيث كانوا مشاركين له عليه السلام فى الوعد وتلاوة الآيات المتضمنة له وجواب الشرط محذوف اى ان كنتم صادقين فيما تخبرونه من مجئ الساعة والحشر فبينوا وقته قل انما العلم اى العلم بوقته عند الله عز وجل لا يطلع عليه غيره كقوله تعالى قل انما علمها عند ربى وانما انا نذير مبين انذركم وقوع الموعود لا محالة واما العلم بوقت وقوعه فليس من وظائف الانذار والفاء فى قوله تعالى فلما رأوه فصيحة معربة عن تقدير جملتين وترتيب الشرطية عليهما كأنه قيل وقد اتاهم الموعود فرأوه فلما رأوه الخ كما مر تحقيقه فى قوله تعالى فلما رآه مستقرا عنده الا ان المقدر هناك امر واقع مرتب على ما قبله بالفاء وههنا امر منزل منزلة الواقع وارد على طريقة الاستئناف وقوله تعالى زلفة حال من مفعول رأوه اما بتقدير المضاف اى ذا زلفة وقرب او على انه مصدر بمعنى الفاعل او مزدلفا او على انه مصدر نعت به مبالغة او ظرف اى رأوه فى مكان ذى زلفة سيئت وجوه الذين كفروا بان غشيتها الكآبة ورهقتها القتر والذلة ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بالكفر وتعليل المساءة به وقيل توبيخا لهم وتشديدا لعذابهم هذا الذى كنتم به تدعون تكذبون اى تطلبونه فى الدنيا وتستعجلونه انكارا واستهزاء على انه تفتعلون من الدعاء وقيل هو من الدعوى اى تدعون ان لا بعث ولا حشر وقرئ تدعون وهذا وقد روى عن مجاهد ان الموعود عذاب يوم بدر وهو بعيد قل ارأيتم اى اخبرونى ان اهلكنى الله اى اماتنى والتعبير عنه بالاهلاك لما كانوا يدعون عليه صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين بالهلاك ومن معى من المؤمنين او رحمنا بتأخير آجالنا فنحن فى جوار رحمته متربصون لاحدى الحسنيين فمن يجير الكافرين من عذاب اليم اى لا يجيركم منه احد متنا او بقينا ووضع الكافرين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالكفر وتعليل نفى الانجاء به قل هو الرحمن اى الذى ادعوكم الى عبادته مولى النعم كلها آمنا به وحده لما علمنا ان كل ما سواه اما نعمة او منعم عليه وعليه توكلنا لا على غيره اصلا لعلمنا بان ما عداه كائنا ما كان بمعزل من النفع والضر فستعلمون عن قريب البتة من هو فى ضلال مبين منا ومنكم وقرئ فسيعلمون بالياء التحتانية قل ارأيتم اى اخبرونى ان اصبح ماؤكم غورا اى غائرا فى الارض بالكلية وقيل بحيث لا تناله الدلاء وهو مصدر وصف به فمن يأتيكم بماء معين جار او ظاهر سهل المأخذ عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الملك فكأنما احيى ليلة القدر

سورة القلم

ن بالسكون على الوقف وقرئ بالكسر وبالفتح لالتقاء الساكنين ويجوز ان يكون بالفتح باضمار حرف القسم فى موضع الجر كقولهم الله لافعلن بالجر ويجوز ان يكون ذلك نصبا باضمار اذكر لا فتحا كما سبق فى فاتحة سورة البقرة وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث على انه علم للسورة ثم ان جعل اسما للحرف مسرودا على نمط التعديد للتحدى باحد الطريقين المذكورين فى موقعه او اسما للسورة منصوبا على الوجه المذكور او مرفوعا على انه خبر لمبتدأ محذوف فالواو فى قوله تعالى والقلم للقسم وان جعل مقسما به فهى للعطف عليه وايا ما كان فان اريد به قلم اللوح والكرام الكاتبين فاستحقاقه للاعظام بالاقسام به ظاهر وان اريد به الجنس فاستحقاقه لما فى ايدى الناس لذلك لكثرة منافعه ولو لم يكن له مزية سوى كونه آلة لتحرير كتب الله عز قائلا لكفى به فضلا موجبا

لتعظيمه وقرئ بادغام النون في الواو وما يسطرون الضمير لاصحاب القلم المدلول عليهم
بذكره وقيل للقلم على ان المراد به اصحابه كانه قيل واصحاب القلم ومسطوراتهم
على ان ما موصولة او وسطرهم على انها مصدرية وقيل للقلم نفسه باسناد
الفعل الى الآلة واجرائه مجرى العقلاء لاقامته مقامهم وقيل المراد بالقلم ما خط
اللوح خاصة والجمع للتعظيم وقوله تعالى ما انت بنعمة ربك بمجنون جواب القسم
والباء متعلقة بمضمر هو حال من الضمير في خبر ما والعامل فيها معنى النفي كانه قيل
انت بريء من الجنون ملتبسا بنعمة الله تعالى التي هي النبوة والرياسة العامة والتعرض لوصف
الربوبية المنبئة عن التبليغ الى معارج الكمال مع الاضافة الى ضميره عليه السلام لتشريفه
عليه السلام والايذان بانه تعالى يتم نعمته عليه ويبلغه من العلو الى غاية لا غاية
وراءها والمراد تنزيهه صلى الله عليه وسلم عما كانوا ينسبونه عم اليه من الجنون حسدا
وعداوة ومكابرة مع جزمهم بانه عليه السلام في غاية الغايات القاصية ونهاية
النهايات النائية من حصانة العقل ورزانة الرأي وان لك بمقابلة مقاساتك الوان
الشدائد من جهتهم وتحملك لاعباء الرسالة لاجرا لثوابا عظيما لا يقادر قدره غير
ممنون مع عظمه كقوله تعالى عطاء غير مجذوذ او غير ممنون عليك من جهة الناس فانه
عطاؤه تعالى بلا توسط وانك لعلى خلق عظيم لا يدرك شاوه احد من الخلق ولذلك
تحتمل من جهتهم ما لا يكاد يحتمله البشر وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه عليه
السلام فقالت كان خلقه القرآن الست تقرأ القرآن قد افلح المؤمنون والجملتان
معطوفتان على جواب القسم فستبصر ويبصرون قال ابن عباس فستعلم ويعلمون
يوم القيامة حين يتبين الحق من الباطل وقيل فستبصرون ويبصرون في الدنيا بظهور
عاقبة امركم بغلبة الاسلام واستيلائك عليهم بالقتل والنهب وصيرورتك مهيبا
معظما في قلوب العالمين وكونهم اذلة صاغرين قال مقاتل هذا وعيد بعذاب يوم بدر
بايكم المفتون اي ايكم الذي فتن بالجنون والباء مزيدة او بايكم الجنون على ان المفتون
مصدر كالمعقول والمجلود او باي الفريقين منكم الجنون ابفريق المؤمنين ام بفريق
الكافرين او في ايهما يوجد من يستحق هذا الاسم وهو تعريض بابي جهل بن هشام
والوليد ابن المغيرة وغيرهما كقوله تعالى سيعلمون غدا من الكذاب الاشر وقوله تعالى
ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله تعليل لما ينبئ عنه ما قبله من ظهور جنونهم
بحيث لا يخفى على احد وتاكيد لما فيه من الوعد والوعيد اي هو اعلم بمن ضل عن سبيله تعالى المؤدي
الى سعادة الدارين وهام في تيه الضلال متوجها الى ما يفضيه الى الشقاوة الابدية
وهذا هو المجنون الذي لا يفرق بين النفع والضر بل يحسب الضرر نفعا فيؤثره والنفع
ضررا فيهجره وهو اعلم بالمهتدين الى سبيله الفائزين بكل مطلوب الناجين
عن كل محذور وهم العقلاء المراجيح فيجزي كلا من الفريقين حسبما يستحقه من
العقاب والثواب واعادة هو اعلم لزيادة التقرير والفاء في قوله تعالى فلا تطع المكذبين
لترتيب النهي على ما ينبئ عنه ما قبله من اهتدائه عليه السلام وضلالهم او على جميع
ما فصل من اول السورة وهذا تهييج والهاب للتصميم على معاصاتهم اي دم على ما
انت عليه من عدم طاعتهم وتصلب في ذلك او نهي عن مداهنتهم ومداراتهم باظهار
خلاف ما في ضميره عم استجلابا لقلوبهم لا عن طاعتهم حقيقة كما ينبئ عنه قوله تعالى
ودوا لو تدهن فانه تعليل للنهي او للانتهاء وانما عبر عنها بالطاعة للمبالغة في
الزجر والتنفير اي احبوا لو تلاينهم وتسامحهم في بعض الامور فيدهنون اي
فهم يدهنون حينئذ او فهم الآن يدهنون طمعا في ادهانك وقيل هو عطف على تدهن
داخل في حيز لو والمعنى ودوا لو يدهنون عقيب ادهانك ويأباه ما سيأتي من بناء ودهم
بالادهان على ان ادهانهم امر محقق لا يناسب ادخاله تحت التمني وايا ما كان فالمعتبر
في جانبهم حقيقة الادهان الذي هو اظهار الملاينة واضمار خلافها واما في جانبه عليه
السلام فالمعتبر بالنسبة الى ودادتهم هو اظهار الملاينة فقط واما اضمار خلافها فليس

في حيز الاعتبار بل هم في غاية الكراهة له وانما اعتباره بالنسبة اليه عليه السلام وفي بعض
المصاحف فيدهنوا على انه جواب التمني المفهوم من ودوا وانما بعده حكاية لودادتهم
وقيل على انه عطف على تدهن بناء على ان لو بمنزلة ان الناصبة فلا يكون لها جواب وينسبك
منها ومما بعدها مصدر يقع مفعولا لودوا كانه قيل ودوا ان تدهن فيدهنوا
وقيل على حقيقتها وجوابها محذوف وكذا مفعول ودوا اي ودوا ادهانك
لو تدهن فيدهنون لسروا بذلك ولا تطع كل حلاف كثير الحلف في الحق والباطل وتقديم
هذا الوصف على سائر الاوصاف الزاجرة عن الطاعة لكونه ادخل في الزجر مهين
حقير الرأي والتدبير هماز عياب طعان مشاء بنميم مضرب نقال للحديث من قوم
الى قوم على وجه السعاية والافساد بينهم فان النميم والنميمة السعاية مناع للخير اي
بخيل او مناع للناس من الخير الذي هو الايمان والطاعة والانفاق معتد متجاوز في
الظلم اثيم كثير الآثام عتل جاف غليظ من عتله اذا قاده بعنف وغلظة بعد
ذلك بعد ما عد من مثالبه زنيم دعي مأخوذ من الزنمة وهي الهنة من جلد الماعز
تقطع فتخلى متدلية في حلقها وقوله تعالى بعد ذلك دلالة على ان دعوته اشد
معايبه واقبح قبائحه قيل هو الوليد بن المغيرة فانه كان دعيا في قريش وليس من سنخهم
ادعاه المغيرة بعد ثماني عشرة من مولده وقيل هو الاخنس بن شريق اصله من ثقيف
وعداده في زهرة ان كان ذا مال وبنين متعلق بقوله لا تطع اي لا تطع من هذه مثالبه
لان كان متمولا مستظهرا بالبنين وقوله تعالى اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين
استئناف جار مجرى التعليل للنهي وقيل متعلق بما دل عليه الجملة الشرطية من معنى
الجحود والتكذيب لا بجواب الشرط لان ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله كانه قيل لكونه
مستظهرا بالمال والبنين كذب باياتنا وفيه انه يدل على ان مدار تكذيبه كونه ذا مال
وبنين من غير ان يكون لسائر قبائحه دخل في ذلك وقرئ أأن كان على معنى ألان كان
ذا مال كذب بها او اتطيعه لان كان ذا مال وقرئ ان كان بالكسر والشرط للمخاطب
اي لا تطع كل حلاف شارطا يساره لان اطاعة الكافر لغناه بمنزلة اشتراط غناه في الطاعة
سنسمه على الخرطوم بالكي على اكرم مواضعه لغاية اهانته واذلاله قيل اصاب انف
الوليد جراحة يوم بدر فبقيت علامتها وقيل معناه سنعلمه يوم القيامة بعلامة
مشوهة يبين بها عن سائر الكفرة انا بلوناهم اي اهل مكة بالقحط بدعوة رسول الله
صلى الله عليه وسلم كما بلونا اصحاب الجنة وهم قوم من اهل الصلاة كانت لابيهم هذه
الجنة دون صنعاء بفرسخين فكان يأخذ منها قوت سنة ويتصدق بالباقي وكان
ينادي الفقراء وقت الصرام ويترك لهم ما اخطاه المنجل وما اسفل الاكداس وما
اخطاه القطاف من العنب وما بقي على البساط الذي يبسط تحت النخلة اذا صرمت فكان
يجتمع لهم شيء كثير فلما مات ابوهم قال بنوه ان فعلنا ما كان يفعل ابونا ضاق علينا الامر
فحلفوا فيما بينهم وذلك قوله تعالى اذ اقسموا ليصرمنها مصبحين ليقطعنها داخلين
في الصباح ولا يستثنون اي لا يقولون ان شاء الله تعالى وتسميته استثناء مع انه شرط
من حيث ان مؤداه مؤدى الاستثناء فان قولك لاخرجن ان شاء الله ولا اخرج الا ان
يشاء الله بمعنى واحد او لا يستثنون حصة المساكين كما كان يفعله ابوهم والجملة مستانفة
فطاف عليها اي على الجنة بلاء طائف وقرئ طيف من ربك مبتدئ من جهته
تعالى وهم نائمون غافلون عما جرت به المقادير فاصبحت كالصريم كالبستان
الذي صرمت ثماره بحيث لم يبق فيها شيء فعيل بمعنى مفعول وقيل كالليل اي احترقت
فاسودت وقيل كالنهار اي يبست وابيضت سميا بذلك لان كلا منهما ينصرم عن صاحبه
ويسمى الصريم الرمال فتنادوا اي نادى بعضهم بعضا مصبحين داخلين في الصباح
ان اغدوا اي اغدوا على ان ان مفسرة او بان اغدوا على انها مصدرية اي اخرجوا
غدوة على حرثكم بساتينكم وضيعتكم وتعديته بعلى لتضمنه معنى الاقبال
او الاستيلاء ان كنتم صارمين قاصدين للصرم فانطلقوا وهم يتخافتون

اى يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافتة وخفى وخفت وخفد ثلاثتها فى معنى الكتم
ومنه الخفرود والخفاش ان لا يدخلنها اى الجنة اليوم عليكم مسكين اى مفسرة لما فى
التخافت من معنى القول وقرئ بطرحها على اضمار القول والمراد بنهى المسكين من الدخول
المبالغة فى النهى عن تمكينه من الدخول كقولهم لا ارينك ههنا وغدوا على حرد قادرين
اى على نكد لا غير من حاردت السنة اذا لم يكن فيها مطر وحاردت الابل اذا منعت درها
والمعنى انهم ارادوا ان يتنكدوا على المساكين ويحرموهم وهم قادرون على نفعهم
فغدوا بحال لا يقدرون فيها الا على النكد والحرمان وذلك انهم طلبوا حرمان المساكين
فتعجلوا الحرمان والمسكنة او وغدوا على محاردة جنتهم وذهاب خيرها قادرين على
اصابة خيرها ومنافعها اى غدوا حاصلين على النكد والحرمان مكان كونهم قادرين على
الانتفاع وقيل الحرد الحنق وقد قرئ بذلك اى لم يقدروا الا على حنق بعضهم لبعض
لقوله تعالى يتلاومون وقيل الحرد القصد والسرعة اى غدوا قاصدين الى جنتهم بسرعة
قادرين عند انفسهم على صرامها وقيل هو علم للجنة فلما رأوها قالوا فى بديهة
رؤيتهم انا لضالون اى طريق جنتنا وما هى بها بل نحن محرومون قالوه بعدما تأملوا
ووقفوا على حقيقة الامر مضربين عن قولهم الاول اى لسنا ضالين بل نحن محرومون
حرمنا خيرها بجنايتنا على انفسنا قال اوسطهم اى رأيا او سنا الم اقل لكم لولا
تسبحون لولا تذكرون الله تعالى وتتوبون اليه من خبث نيتكم وقد كان قال لهم حين
عزموا على ذلك اذكروا الله وتوبوا اليه عن هذه العزيمة الخبيثة من فوركم وسارعوا
الى حسم شرها قبل حلول النقمة فعصوه فعيرهم كما ينبئ عنه قوله تعالى قالوا سبحان ربنا
انا كنا ظالمين وقيل المراد بالتسبيح الاستثناء لاشتراكهما فى التعظيم او لانه تنزيه له تعالى عن
ان يجرى فى ملكه ما لا يشاؤه فاقبل بعضهم على بعض يتلاومون اى يلوم بعضهم بعضا
فان منهم من اشار بذلك ومنهم من استصوبه ومنهم من سكت راضيا به ومنهم
من انكره قالوا يا ويلنا انا كنا طاغين متجاوزين حدود الله عسى ربنا ان يبدلنا وقرئ
بالتشديد اى يعطينا بدلا منها ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة خيرا منها انا الى
ربنا راغبون راجون العفو طالبون الخير والى لانتهاء الرغبة او لتضمنها معنى الرجوع
عن مجاهد تابوا فابدلوا خيرا منها وروى انهم تعاقدوا وقالوا ان ابدلنا الله خيرا
منها لنصنعن كما صنع ابونا فدعوا الله تعالى وتضرعوا اليه فابدلهم الله تعالى من
ليلتهم ما هو خير منها قالوا ان الله تعالى امر جبريل عليه السلام ان يقتلع تلك الجنة
المحترقة فيجعلها بزغر من ارض الشام ويأخذ من الشام جنة فيجعلها مكانها وقال ابن مسعود
رضى الله عنه ان القوم لما اخلصوا وعلم الله منهم الصدق ابدلهم جنة يقال لها الحيوان
فيها عنب يحمل البغل منها عنقودا وقال ابو خالد اليمانى دخلت تلك الجنة فرأيت
كل عنقود منها كالرجل الاسود القائم وسئل قتادة عن اصحاب الجنة اهم من اهل الجنة
ام من اهل النار فقال لقد كلفتنى تعبا وعن الحسن قول اصحاب الجنة انا الى ربنا راغبون
لا ادرى ايمانا كان ذلك منهم او على حد ما يكون من المشركين اذا اصابتهم الشدة
فتوقف فى امرهم والاكثرون على انهم تابوا واخلصوا حكاه القشيرى كذلك العذاب
جملة من مبتدا وخبر لافادة القصر والالف واللام للعهد اى مثل الذى بلونا به اهل
مكة واصحاب الجنة عذاب الدنيا ولعذاب الآخرة اكبر اعظم واشد لو كانوا يعلمون
انه اكبر لاحترزوا عما يؤديهم اليه ان للمتقين اى من الكفر والمعاصى عند ربهم
اى فى الآخرة او فى جوار القدس جنات النعيم جنات ليس فيها الا التنعم الخالص
عن شائبة ما ينغصه من الكدورات وخوف الزوال كما عليه نعيم الدنيا وقوله
تعالى افنجعل المسلمين كالمجرمين تقرير لما قبله من فوز المتقين بجنات النعيم ورد
لما يقوله الكفرة عند سماعهم بحديث الآخرة وما وعد الله تعالى المسلمين فيها فانهم
كانوا يقولون ان صح انا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يكن حالنا وحالهم الا
مثل ما هى فى الدنيا والا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا واقصى امرهم ان يساوونا والهمزة

للانكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى انحيف فى الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين
ثم قيل لهم بطريق الالتفات لتأكيد الرد وتشديده ما لكم كيف تحكمون تعجيبا من
حكمهم واستبعادا له وايذانا بانه لا يصدر عن عاقل ام لكم كتاب نازل من السماء
فيه تدرسون اى تقرؤن ان لكم فيه لما تخيرون اى ما تختارونه وتشتهونه واصله ان
لكم بالفتح لانه مدروس فلما جئ باللام كسرت ويجوز ان يكون حكاية للمدروس كما هو فى
قوله تعالى وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين وتخير الشئ واختاره اخذ خيره
ام لكم ايمان علينا اى عهود مؤكدة بالايمان بالغة متناهية فى التوكيد وقرئت بالنصب
على الحال والعامل فيها احد الظرفين الى يوم القيامة متعلق بالمقدر فى لكم اى ثابتة لكم
الى يوم القيامة لا نخرج عن عهدتها حتى نحكمكم يومئذ ونعطيكم ما تحكمون او ببالغة اى
ايمان تبلغ ذلك اليوم وتنتهى اليه وافرة لم تبطل منها يمين ان لكم لما تحكمون جواب القسم
لان معنى ام لكم علينا ايمان او اقسمنا لكم سلهم تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول
الله صلى الله عليه وسلم باسقاطهم عن رتبة الخطاب اى سلهم مبكتا لهم ايهم
بذلك الحكم الخارج عن العقول زعيم اى قائم يتصدى لتصحيحه ام لهم شركاء
يشاركونهم فى هذا القول ويذهبون مذهبهم فليأتوا بشركائهم ان كانوا صادقين
فى دعواهم اذ لا اقل من التقليد وقد نبه فى هذه الآيات الكريمة على ان ليس لهم شئ
يتوهم ان يتشبثوا به حتى التقليد الذى لا يفلح من تشبث بذيله وقيل المعنى ام لهم
شركاء يجعلونهم مثل المسلمين فى الآخرة يوم يكشف عن ساق اى يوم يشتد الامر
ويصعب الخطب وكشف الساق مثل فى ذلك واصله تشمير المخدرات عن سوقهن فى
الهرب قال حاتم اخو الحرب ان عضت به الحرب عضها وان شمرت عن ساقها الحرب
شمرا وقيل ساق الشئ اصله الذى به قوامه كساق الشجر وساق الانسان اى يوم
يكشف عن اصل الامر فتظهر حقايق الامور واصولها بحيث تصير عيانا وتنكيره للتهويل
او للتعظيم وقرئ تكشف بالتاء على البناء للمفعول وللفاعل والفعل للساعة او للحال وقرئ
نكشف بالنون وتكشف بالتاء المضمومة وكسر الشين من اكشف الامر اى دخل فى الكشف
وناصب الظرف فليأتوا او مضمر مقدم اى اذكر يوم الخ او مؤخر اى يوم يكشف عن
ساق الخ يكون من الاهوال وعظائم الاحوال ما لا يبلغه الوصف ويدعون الى السجود
توبيخا وتعنيفا على تركهم اياه فى الدنيا وتحسيرا لهم على تفريطهم فى ذلك فلا يستطيعون
لزوال القدرة عليه وفيه دلالة على انهم يقصدون السجود فلا يتأتى منهم ذلك عن
ابن مسعود رضى الله عنه تعقم اصلابهم اى ترد عظاما بلا مفاصل لا تنثنى عند الرفع
والخفض وفى الحديث وتبقى اصلابهم طبقا واحدا اى فقارة واحدة خاشعة ابصارهم
حال من مرفوع يدعون على ان ابصارهم مرتفع به على الفاعلية ونسبة الخشوع الى الابصار
لظهور اثره فيها ترهقهم ذلة تلحقهم وتغشاهم ذلة شديدة وقد كانوا يدعون
الى السجود فى الدنيا والاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير او لان المراد به الصلوة
اى ما فيها من السجود والدعوة دعوة التكليف وهم سالمون متمكنون منه اقوى تمكن
اى فلا يجيبون اليه ويأبونه وانما ترك ذكره ثقة بظهوره فذرنى ومن يكذب بهذا
الحديث اى كله الى فانى اكفيكه امره اى حسبك فى الايقاع به والانتقام منه ان تكل امره
الى وتخلى بينى وبينه فانى عالم بما يستحقه من العذاب ومطيق له والفاء لترتيب الامر
على ما قبلها من احوالهم المحكية اى واذا كان حالهم فى الآخرة كذلك فذرنى ومن
يكذب بالقرآن وتوكل على فى الانتقام منه وقوله تعالى سنستدرجهم استئناف مسوق
لبيان كيفية العذاب المستفاد من الامر السابق اجمالا والضمير لمن والجمع باعتبار معناها
كما ان الافراد فى تكذب باعتبار لفظها اى سنستنزلهم الى العذاب درجة فدرجة
بالاحسان وادامة الصحة وازدياد النعمة من حيث لا يعلمون انه استدراج وهو
الانعام عليهم بل يزعمون انه ايثار لهم وتفضيل على المؤمنين مع انه سبب لهلاكهم
واملى لهم وامهلهم ليزدادوا اثما وهم يزعمون ان ذلك لارادة الخير بهم ان

طاغين

التقدير

متين لا يوقف عليه ولا يدفع بشيء وتسمية ذلك كيدا لكونه في صورة الكيد ام تسألهم على الابلاغ والارشاد اجرا دنيويا فهم لاجل ذلك من مغرم اى غرامة مالية مثقلون مكلفون حملا ثقيلا فيعرضون عنك ام عندهم الغيب اى اللوح او المغيبات فهم يكتبون منه ما يحكمون ويستغنون به عن علمك فاصبر لحكم ربك وهو امهالهم وتاخير نصرتك عليهم ولا تكن كصاحب الحوت اى يونس عليه السلام اذ نادى في بطن الحوت وهو مكظوم مملو غيظا والجملة حال من ضمير نادى وعليها يدور النهى لا على النداء فانه امر مستحسن ولذلك لم يذكر المنادى واذ منصوب بمضاف محذوف اى لا يكن حالك كحاله وقت ندائه اى لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة فتبتلى ببلائه لولا ان تداركه نعمة من ربه وقرئ رحمة وهو توفيقه للتوبة وقبولها منه وحسن تذكير الفعل للفصل بالضمير وقرئ تداركته وتداركه اى فتداركه على حكاية الحال الماضية بمعنى لو كان يقال فيه تتداركه لنبذ بالعراء بالارض الخالية من الاشجار وهو مذموم مليم مطرود من الرحمة والكرامة وهو حال من مرفوع نبذ عليها يعتمد جواب لولا لانها هى المنتفية لا النبذ بالعراء كما مر في الحال الاولى والجملة الشرطية استيناف وارد لبيان كون المنهى عنه امرا محذورا مستتبعا للغاية وقوله تعالى فاجتباه ربه عطف على مقدر اى فتداركته نعمة من ربه فاجتباه بان رد اليه الوحى وارسله الى مائة الف او يزيدون وقيل استنباه ان صح انه لم يكن نبيا قبل هذه الواقعة فجعله من الصالحين من الكاملين في الصلاح بان عصمه من ان يفعل فعلا يكون تركه اولى روى انها نزلت باحد حين هم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يدعو على المنهزمين من المؤمنين وقيل حين اراد ان يدعو على ثقيف وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بابصارهم وقرئ ليزلقونك بفتح الياء من زلقه بمعنى ازلقه ويزهقونك وان هى المخففة واللام دليلها والمعنى انهم من شدة عداوتهم لك ينظرون اليك شزرا بحيث يكادون يزلون قدمك فيرمونك من قولهم نظر الى نظرا يكاد يصرعنى اى لو امكنه بنظره الصرع لفعله او انهم يكادون يصيبونك بالعين اذ قد روى انه كان في بنى اسد عيانون فاراد بعضهم ان يعين رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وفي الحديث ان العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر ولعله من خصائص بعض النفوس وعن الحسن دواء الاصابة بالعين ان تقرأ هذه الآية لما سمعوا الذكر اى وقت سماعهم القرآن على ان لما ظرفية منصوبة بيزلقونك وذلك لاشتداد بغضهم وحسدهم عند سماعه ويقولون لغاية حيرتهم في امره عليه السلام ونهاية جهلهم بما في تضاعيف القرآن من تعاجيب الحكم وبدائع العلوم المحجوبة عن العقول المنغمسة باحكام الطبائع ولتنفير الناس عنه انه لمجنون وحيث كان مدار حكمهم الباطل ما سمعوه منه عم رد ذلك ببيان علو شانه وسطوع برهانه فقيل وما هو الا ذكر للعالمين على انه حال من فاعل يقولون مفيدة لغاية بطلان قولهم وتعجيب السامعين من جرأتهم على تفوه تلك العظيمة اى يقولون ذلك والحال انه ذكر للعالمين اى تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون اليه من امور دينهم فاين من انزل عليه ذلك وهو مطلع على اسراره طرا ومحيط بجميع حقائقه خبرا مما قالوا وقيل معناه شرف وفضل لقوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك وقيل الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكونه مذكرا وشرفا للعالمين لا ريب فيه عن رسول الله صلعم من قرأ سورة القلم اعطاه ثواب الذين حسن اخلاقهم

الحاقة اى الساعة او الحالة الثابتة الوقوع الواجبة المجىء او التى يحق فيها الامور الحقة من الحساب والثواب والعقاب او التى تحق فيها الامور اى تعرف على الحقيقة من حقه يحقه اذا عرف حقيقته جعل الفعل لها مجازا وهو لما فيها من الامور او لمن فيها من اولى العلم وايا ما كان فحذف الموصوف للايذان بكمال ظهور اتصافه بهذه الصفة وجريانها

مجرى الاسم وارتفاعها على الابتداء خبرها ما الحاقة على ان ما مبتدأ ثان والحاقة خبره والجملة خبر للمبتدأ الاول والاصل ما هى اى اى شيء هى في حالها وصفتها فان ما قد يطلب بها الصفة والحال فوضع الظاهر موضع الضمير تاكيدا لهولها هذا ما ذكروه في اعراب هذه الجملة ونظائرها وقد سبق في سورة الواقعة ان مقتضى التحقيق ان يكون ما الاستفهامية خبرا لما بعدها فان مناط الافادة بيان ان الحاقة امر بديع وخطب فظيع كما يفيده كون ما خبرا لا بيان ان امرا بديعا الحاقة كما يفيده كونها مبتدأ وكون الحاقة خبرا وقوله تعالى وما ادراك اى واى شيء اعلمك ما الحاقة تاكيد لهولها وفظاعتها ببيان خروجها عن دائرة علوم المخلوقات على معنى ان عظم شانها ومدى هولها وشدتها بحيث لا يكاد تبلغه دراية احد ولا وهمه وكيفما قدرت حالها فهى اعظم من ذلك واعظم فيتسنى الاعلام وما في حيز الرفع على الابتداء وادراك خبره ولا مساغ ههنا للعكس وما الحاقة جملة من مبتدأ وخبر على الوجه الذي عرفته محلها النصب على اسقاط الخافض لان ادرى يتعدى الى المفعول الثانى بالباء كما في قوله تعالى ولا ادراكم به فلما وقعت جملة الاستفهام معلقة له كانت في موضع المفعول الثانى والجملة الكبيرة معطوفة على ما قبلها من الجملة الواقعة خبرا لقوله تعالى الحاقة مؤكدة لهولها كما مر كذبت ثمود وعاد بالقارعة اى بالحالة التى تقرع الناس بفنون الافزاع والاهوال والسماء بالانشقاق والانفطار والارض والجبال بالدك والنسف والنجوم بالطمس والانكدار ووضعها موضع ضمير الحاقة للدلالة على معنى القرع فيها تشديدا لهولها والجملة استيناف مسوق لاعلام بعض احوال الحاقة له عليه السلام اثر تقرير انه ما ادراه عليه السلام بها احد كما في قوله تعالى وما ادراك ماهيه نار حامية ونظائره خلا ان المبين هناك نفس المسئول عنها وههنا حال من احوالها كما في قوله تعالى وما ادراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من الف شهر فان المبين هناك ليس نفس ليلة القدر بل فضلها وشرفها كذلك المبين هنا هول الحاقة وعظم شانها وكونها بحيث يحق اهلاك من يكذب بها كانه قيل وما ادراك ما الحاقة كذبت بها ثمود وعاد فاهلكوا فاما ثمود فاهلكوا بالطاغية اى بالواقعة المجاوزة للحد وهى الصيحة او الرجفة واما عاد فاهلكوا بريح صرصر اى شديدة الصوت لها صرصرة او شديدة البرد تحرق ببردها عاتية شديدة العصف كانها عتت على خزانها فلم يتمكنوا من ضبطها او على عاد فلم يقدروا على ردها وقوله تعالى سخرها عليهم الخ استيناف جىء به بيانا لكيفية اهلاكهم بالريح اى سلطها الله تعالى عليهم بقدرته القاهرة سبع ليال وثمانية ايام حسوما اى متتابعات جمع حاسم كشهود جمع شاهد من حسمت الدابة اذا تابعت بين كيها او نحسات حسمت كل خير واستاصلته او قاطعات قطعت دابرهم ويجوز ان يكون مصدرا منتصبا على العلة بمعنى قطعا او على المصدر لفعله المقدر حالا اى تحسمهم حسوما ويؤيده القراءة بالفتح وهى كانت ايام العجوز من صبيحة اربعاء الى غروب الاربعاء الآخر وانما سميت عجوزا لان عجوزا من عاد توارت في سرب فانتزعتها الريح في اليوم الثامن فاهلكتها وقيل هى ايام العجز وهى آخر الشتاء واسماؤها الصن والصنبر والوبر والآمر والمؤتمر والمعلل ومطفى الجمر وقيل مكفى الظعن فترى القوم ان كنت حاضرا حينئذ فيها في مهابها او في تلك الليالى والايام صرعى موتى جمع صريع كانهم اعجاز نخل اى اصول نخل خاوية متآكلة الاجواف فهل ترى لهم من باقية اى بقية او نفس باقية او بقاء على انها مصدر كالكاذبة والطاغية وجاء فرعون ومن قبله اى ومن تقدمه وقرئ ومن قبله اى ومن عنده من اتباعه ويؤيده انه قرئ ومن معه والمؤتفكات اى قرى قوم لوط اى اهلها بالخاطئة بالخطاء او بالفعلة او الافعال ذات الخطاء التى من جملتها تكذيب البعث والقيامة فعصوا رسول ربهم اى فعصى كل امة رسولها حين نهاهم عما كانوا يتعاطونه من القبائح فاخذهم اى الله عز وجل اخذة رابية اى زائدة في الشدة كما زادت قبائحهم في القبح من

ربا الشئ اذا زاد انا لما طغى الماء بسبب اصرار قوم نوح على فنون الكفر والمعاصى ومبالغتهم في تكذيبه عليه السلام فيما اوحى اليه من الاحكام من جملتها احوال القيمة حملناكم اى
اصلاب اباءكم في الجارية في سفينة نوح عليه السلام والمراد بحملهم فيها رفعهم
فوق الماء الى انقضاء ايام الطوفان لا مجرد رفعهم الى السفينة كما يعرب عنه كلمة في فانها
ليست بصلة للحمل بل متعلقة بمحذوف هو حال من مفعوله اى رفعناكم فوق الماء وحفظناكم
حال كونكم في السفينة الجارية بامرنا وحفظنا وفيه تنبيه على ان مدار نجاتهم محض
عصمته تعالى انما السفينة سبب صورى لنجعلها اى لنجعل الفعلة التى هى عبارة عن انجاء
المؤمنين واغراق الكافرين لكم تذكرة عبرة ودلالة على كمال قدرة الصانع وحكمته وقوة
قهره وسعة رحمته وتعيها اى تحفظها والوعى ان تحفظ الشئ في نفسك والايعاء ان
تحفظه في غير نفسك من وعاء وقرئ تعيها بسكون العين تشبيها له بكتف اذن واعية
اى اذن من شانها ان تحفظ ما يجب بتذكره واشاعته والتفكر فيه ولا تضيعه بترك
العمل به والتنكير للدلالة على قلتها وان من هذا شانه مع قلته يتسبب لنجاة الجم الغفير
وادامة نسلهم وقرئ اذن بالتخفيف فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة شروع في بيان
نفس الحاقة وكيفية وقوعها اثر بيان عظم شانها باهلاك مكذبيها وانما حسن اسناد
الفعل الى المصدر لتقيده وحسن تذكيره للفصل وقرئ نفخة واحدة بالنصب على اسناد
الفعل الى الجار والمجرور والمراد بها النفخة الاولى التى عندها خراب العالم وحملت
الارض والجبال اى قلعت ورفعت من اماكنها بمجرد القدرة الالهية او بتوسط الزلزلة
او الريح العاصفة فدكتا دكة واحدة اى فضربت الجملتان اثر رفعهما بعضها ببعض
ضربة واحدة حتى تندق وترجع كثيبا مهيلا وهباء منبثا وقيل فبسطتا بسطة
واحدة فصارتا قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا امتا من قولهم اندك السنام اذا
انفرش وبعير ادك وناقة دكاء ومنه الدكان فيومئذ فحينئذ وقعت الواقعة اى قامت
القيمة وانشقت السماء لنزول الملئكة فهى اى السماء يومئذ واهية ضعيفة مسترخية
بعدما كانت محكمة والملك اى الخلق المعروف بالملك على ارجائها اى جوانبها
رجا بالقصر اى تنشق السماء التى هى مساكنهم فيلجؤن الى اكنافها وحافاتها ويحمل
عرش ربك فوقهم فوق الملئكة الذين هم على الارجاء او فوق الثمانية يومئذ ثمانية
من الملئكة عن النبى صلى الله عليه وسلم هم اليوم اربعة فاذا كان يوم القيمة ايدهم الله
تعالى باربعة آخرين فيكونون ثمانية وروى ثمانية املاك ارجلهم في تخوم الارض السابعة
والعرش فوق رؤسهم وهم مطرقون مسبحون وقيل بعضهم على صورة الانسان وبعضهم
على صورة الاسد وبعضهم على صورة الثور وبعضهم على صورة النسر وروى
ثمانية املاك في خلق الاوعال ما بين اظلافها الى ركبها مسيرة سبعين عاما وعن
شهر بن حوشب اربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك
واربعة يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك وعن الحسن
الله اعلم اثمانية آلاف وعن الضحاك ثمانية صفوف لا يعلم عددهم الا الله
تعالى ويجوز ان يكون الثمانية من الروح او من خلق آخر وقيل هو تمثيل لعظمته
تعالى بما يشاهد من احوال السلاطين يوم خروجهم على الناس للقضاء العام لكونها
اقصى ما يتصور من العظمة والجلال والا فشئونه سبحانه اجل من كل ما يحيط به فلك
العبارة والاشارة يومئذ تعرضون اى تسألون وتحاسبون عبر عنه بذلك تشبيها له
بعرض السلطان العسكر لتعرف احوالهم روى ان في يوم القيمة ثلاث عرضات فاما عرضتان
فاعتذار واحتجاج وتوبيخ واما الثالثة ففيها تنتشر الكتب فيأخذ الفائز كتابه بيمينه
والهالك بشماله وهذا وان كان بعد النفخة الثانية لكن لما كان اليوم اسما لزمان متسع
يقع فيه النفختان والصعقة والنشور والحساب وادخال اهل الجنة الجنة واهل النار
النار صح جعله ظرفا للكل لا تخفى منكم خافية حال من مرفوع تعرضون اى تعرضون
غير خاف عليه تعالى سر من اسراركم وقيل ذلك ايضا حالا العرض لافشاء الحال والمبالغة في

العدل

العدل او غير خاف يومئذ على الناس كقوله تعالى يوم تبلى السرائر وقرئ يخفى بالياء التحتانية
فاما من اوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه اسم لخذ وفيه ثلاث لغات اجودها
ها يا رجل وها يا امرأة وهاؤما يا رجلان وامرأتان وهاؤم يا رجال وهاؤن
يا نسوة ومفعوله محذوف وقد وكتابيه مفعول اقرؤا لانه اقرب العاملين ولانه لو كان
مفعول هاؤم لقيل اقرؤه اذ الاولى اضماره حيث امكن والهاء فيه وفى حسابيه وما
ماليه وسلطانيه للسكت تثبت في الوقف وتسقط في الوصل واستحب اثباتها لثباتها
في الامام انى ظننت انى ملاق حسابيه اى علمت ولعل التعبير عنه بالظن للاشعار بانه
لا يقدح في الاعتقاد ما يهجس في النفس من الخطرات التى لا ينفك عنها العلوم النظرية
غالبا فهو في عيشة راضية ذات رضا على النسبة بالصيغة كما يقال دارع بالنسبة
بالحرف او جعل الفعل لها مجازا وهو لصاحبها وذلك لكونها صافية عن الشوائب دائمة
مقرونة بالتعظيم في جنة عالية مرتفعة المكان لانها في السماء او الدرجات او الابنية و
الاشجار قطوفها جمع قطف وهو ما يجتنى بسرعة والقطف بالفتح مصدر دانية
يتناولها القاعد كلوا واشربوا باضمار القول والجمع باعتبار المعنى هنيئا اكلا وشربا
هنيئا او هنيتم هنيئا بما اسلفتم بمقابلة ما قدمتم من الاعمال الصالحة
في الايام الخالية اى الماضية في الدنيا وعن مجاهد ايام الصيام وروى يقول
الله تعالى يا اوليائى طالما نظرت اليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الاشربة
وغارت اعينكم وخمصت بطونكم فكونوا اليوم في نعيمكم وكلوا واشربوا الآية واما
من اوتى كتابه بشماله ورأى ما فيه من قبائح الاعمال فيقول يا ليتنى لم اوت
كتابيه ولم ادر ما حسابيه لما شاهد من سوء العاقبة يا ليتها يا ليت الموتة التى متها
كانت القاضية اى القاطعة لامرى ولم ابعث بعدها ولم الق ما القى فضمير ليتها
للموتة ويجوز ان يكون لما شاهد من الحالة اى يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التى
قضت علىّ لانه وجدها امر من الموت فتمناه وعندها وقد جوز ان يكون للحيوة الدنيا
اى ليت الحيوة الدنيا كانت الموتة ولم اخلق حيا ما اغنى عنى ماليه مالى من المال والاتباع
على ان ما نافية والمفعول محذوف او استفهامية للانكار اى اى شئ اغنى عنى
ما كان لى من اليسار هلك عنى سلطانيه اى ملكى وتسلطى على الناس او حجتى التى
كنت احتج بها في الدنيا او تسلطى على القوى والآلات فعجزت عن استعمالها في العبادات خذوه
حكاية لما يقول الله عز وجل يومئذ لخزنة النار فغلوه اى شدوه بالاغلال ثم الجحيم
صلوه اى لا تصلوه الا الجحيم وهى النار العظيمة ليكون الجزاء على وفق المعصية حيث كان
يتعظم على الناس ثم في سلسلة ذرعها اى طولها سبعون ذراعا فاسلكوه فادخلوه
فيها بان تلفوها على جسده فهو فيما بينها مرهق لا يستطيع حراكا ما وتقديم السلسلة
كتقديم الجحيم للدلالة على الاختصاص والاهتمام بذكر الوان ما يعذب به وثم لتفاوت
ما بين الغل والتصلية وما بينها وبين السلك في السلسلة في الشدة انه كان لا يؤمن بالله
العظيم تعليل بطريق الاستيناف التحقيقى ووصفه تعالى بالعظيم للايذان بانه المستحق للعظمة
فحسب فمن نسبها الى نفسه استحق اعظم العقوبات ولا يحض على طعام المسكين ولا
يحث على بذل طعامه او على اطعامه فضلا ان يبذل من ماله وقيل ذكر الحض للتنبيه على
ان تارك الحض بهذه المنزلة فما ظنك بتارك الفعل وفيه دلالة على ان الكفار مخاطبون
بالفروع في حق المؤاخذة قالوا تخصيص الامرين بالذكر لما ان اقبح العقائد الكفر واشنع الرذائل
البخل وقسوة القلب فليس له اليوم هاهنا حميم اى قريب يحميه ويدفع عنه ويحزن عليه
لان اولياءه يتحامونه ويفرون منه ولا طعام الا من غسلين اى من غسالة اهل
النار وصديدهم فعلين من الغسل لا يأكله الا الخاطئون اصحاب الخطايا من خطئ
الرجل اذا تعمد الذنب من الخطاء المقابل للصواب دون الخطاء المقابل للعمد عن ابن عباس انهم
المشركون وقرئ الخاطيون بابدال الهمزة ياء وقرئ بطرحها وقد جوز ان يراد بهم الذين يتخطون
الحق الى الباطل ويتعدون حدود الله تعالى فلا اقسم اى فاقسم على ان لا مزيدة للتاكيد

واما حمله على معنى نفي الاقسام لظهور الامر واستغنائه عن التحقيق فيرده تعيين المقسم
به بقوله تعالى بما تبصرون وما لا تبصرون كما مرّ في سورة الواقعة اى اقسم بالمشاهدات
والمغيبات وقيل بالدنيا والآخرة وقيل بالاجسام والارواح والانس والجن والخلق
والخالق والنعم الظاهرة والباطنة والاول منتظم للكل انه اى القرآن لقول رسول
يبلغه عن الله تعالى فان الرسول لا يقول عن نفسه كريم على الله تعالى وهو النبي او جبريل
عليهما السلام وما هو بقول شاعر كما تزعمون تارة قليلا ما تؤمنون ايمانا قليلا
تؤمنون ولا بقول كاهن كما تدعون ذلك تارة اخرى قليلا ما تذكرون اى تذكرا قليلا
او زمانا قليلا تذكرون على ان القلة بمعنى النفي اى لا تؤمنون ولا تذكرون اصلا قيل
ذكر الايمان مع نفي الشاعرية والتذكر مع نفي الكاهنة لما ان عدم مشابهة القرآن الشعر
امر بين لا ينكره الا معاند بخلاف مباينته للكهانة فانها يتوقف على تذكر احوال له
صلى الله عليه وسلم ومعاني القرآن المنافية لطريق الكهنة ومعاني اقوالهم وانت خبير
بان ذلك ايضا مما لا يتوقف على تامل قطعا وقرئ بالياء فيهما تنزيل من رب العالمين
نزله على لسان جبريل عليه السلام ولو تقول علينا بعض الاقاويل سمى الافتراء تقولا
لانه قول متكلف والاقوال المفتراة اقاويل تحقيرا لها كانه جمع افعولة من القول
كالاضاحيك لاخذنا منه باليمين اى بيمينه ثم لقطعنا منه الوتين اى نياط قلبه
بضرب عنقه وهو تصوير لاهلاكه بافظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه وهو ان
يأخذ القتال بيمينه ويكفحه بالسيف ويضرب عنقه وقيل اليمين بمعنى القوة قال قائلهم
اذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين فما منكم من احد عنه عن القتل والمقتول
حاجزين دافعين وصف لاحد فانه عام وانه اى القرآن لتذكرة للمتقين
لانهم المنتفعون به وانا لنعلم ان منكم مكذبين فنجازيهم على تكذيبهم وانه
لحسرة على الكافرين عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين وانه لحق اليقين الذي
لا يحوم حوله ريب ما فسبح باسم ربك العظيم اى فسبح بذكر اسمه العظيم تنزيها
له عن الرضى بالتقول عليه وشكرا على ما اوحى اليك عن النبي صلى الله عليه وسلم
من قرأ سورة الحاقة حاسبه الله تعالى حسابا يسيرا

سأل سائل اى دعا داع بعذاب واقع اى استدعاه وطلبه وهو النضر بن الحارث
حيث قال انكارا واستهزاء ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء
او ائتنا بعذاب اليم وقيل ابو جهل حيث قال اسقط علينا كسفا من السماء وقيل هو الحارث
بن النعمان الفهري وذلك انه لما بلغه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في علي رضي الله
عنه من كنت مولاه فعلي مولاه قال اللهم ان كان ما يقول محمد حقا فامطر علينا حجارة
من السماء فما لبث حتى رماه الله تعالى بحجر فوقع على دماغه فخرج من اسفله فهلك من
ساعته وقيل هو الرسول صلى الله عليه وسلم استعجل عذابهم وقرئ سال وهو اما من
السؤال على لغة قريش فالمعنى ما مرّ او من السيلان ويؤيده انه قرئ سال سيل اى
اندفع واد بعذاب واقع وصيغة الماضي للدلالة على تحقق وقوعه اما في الدنيا وهو
عذاب يوم بدر فان النضر قتل يومئذ صبرا وقد مرّ حال الفهري واما في الآخرة فهو
عذاب النار للكافرين صفة اخرى لعذاب اى كائن للكافرين او صلة لواقع او متعلق
بسال اى دعا للكافرين بعذاب واقع وقوله تعالى ليس له دافع صفة اخرى لعذاب او
حال منه لتخصصه بالصفة او بالعمل او من الضمير في للكافرين على تقدير كونه صفة
لعذاب او استيناف من الله متعلق بواقع او بدافع اى ليس له دافع من جهته تعالى
ذي المعارج ذي المصاعد التي يصعد فيها الملائكة بالاوامر والنواهي او هي عبارة
عن السموات المترتبة بعضها فوق بعض تعرج الملائكة والروح اى جبريل عليه السلام
افرد بالذكر لتميزه وفضله وقيل الروح خلق هم حفظة على الملائكة كما ان الملائكة حفظة على

الناس اليه اى الى عرشه تعالى والى حيث تهبط منه اوامره تعالى وقيل هو من قبيل قول ابراهيم عليه
السلام اني ذاهب الى ربي اى الى حيث امرني به في يوم كان مقداره خمسين الف سنة
مما يعده الناس وهو بيان لارتفاع تلك المعارج وبعد مداها على منهاج التمثيل و
التخييل والمعنى انها من الارتفاع بحيث لو قدر قطعها في زمان لكان ذلك الزمان
مقدار خمسين الف سنة من سني الدنيا وقيل معناه تعرج الملائكة والروح الى عرشه
تعالى في يوم كان مقداره مقدار خمسين الف سنة اى يقطعون في يوم ما يقطعه
الانسان في خمسين الف سنة لو فرض ذلك وقيل في يوم متعلق بواقع وقيل بسال
على تقدير كونه من السيلان فالمراد به يوم القيمة واستطالته اما لانه كذلك في الحقيقة
او لشدته على الكفار او لكثرة ما فيه من الحالات والمحاسبات وايا ما كان فذلك في
حق الكافر واما في حق المؤمن فلما روى ابو سعيد الخدري رضي الله عنه انه
قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما اطول هذا اليوم فقال والذي نفسي بيده انه
ليخف على المؤمن حتى ان يكون اخف من صلوة مكتوبة يصليها في الدنيا وقوله تعالى
فاصبر صبرا جميلا متعلق بسال لان السؤال كان عن استهزاء وتعنت وتكذيب بالوحي
وذلك لم يضجره عليه السلام او كان عن تضجر واستبطاء للنصر او بسال سائل
او سال سيل فمعناه جاء العذاب لقرب وقوعه فقد شارفت الانتقام انهم يرونه
اى العذاب الواقع او يوم القيمة على تقدير تعلق في يوم بواقع بعيدا اى يستبعدونه
بطريق الاحالة فلذلك يسألون به ونراه قريبا هينا في قدرتنا غير بعيد علينا ولا
لا متعذر على ان البعد والقرب معتبران بالنسبة الى الامكان والجملة تعليل للامر
بالصبر وقوله تعالى يوم تكون السماء كالمهل متعلق بقريبا اى يمكن ولا يتعذر في
ذلك اليوم او بمضمر دل عليه واقع او بمضمر مؤخر اى يوم تكون السماء كالمهل الخ
يكون من الاحوال والاهوال ما لا يوصف او بدل من في يوم على تقدير تعلقه بواقع هذا
ما قالوا ولعل الاقرب انه قوله تعالى سال سائل حكاية لسؤالهم المعهود على طريقة قوله تعالى
يسئلونك عن الساعة وقوله تعالى متى هذا الوعد ونحوهما اذ هو المعهود بالوقوع على
الكافرين لا ما دعى به النضر او ابو جهل او الفهري فالسؤال بمعناه والباء بمعنى عن كما في قوله
تعالى فاسأل به خبيرا وقوله ليس له دافع الخ استيناف مسوق لبيان وقوع المسؤل عنه لا محالة
وقوله تعالى فاصبر صبرا جميلا مترتب عليه وقوله انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا
تعليل للامر بالصبر كما ذكر وقوله تعالى يوم يكون الخ متعلق بليس له دافع او بما يدل هو عليه اى
يقع يوم تكون السماء كالمهل وهو ما اذيب على مهل من الفلزات وقيل دردي الزيت و
تكون الجبال كالعهن كالصوف المصبوغ الوانا لاختلاف الوان الجبال منها جدد بيض
وحمر وغرابيب سود فاذا بست وطيرت في الجو اشبهت العهن المنفوش اذا طيرته
الريح ولا يسئل حميم حميما اى لا يسأل قريب قريبا من احواله ولا يكلمه لابتلاء كل منهم
بما يشغله عن ذلك وقرئ على البناء للمفعول اى لا يطلب من حميم حميمه او لا يسأل
منه حاله يبصرونهم اى يبصر الاحماء فلا يخفون عليهم ولا يمنعهم من التساؤل الا
اشتغالهم بحال انفسهم وقيل ما يغني عنه من مشاهدة الحال كبياض الوجه وسواده
والاول ادخل في التهويل وجمع الضميرين لعموم الحميم وقرئ يبصرونهم والجملة استيناف
يود المجرم اى يتمنى الكافر وقيل كل مذنب وقوله تعالى لو يفتدي من عذاب يومئذ اى
العذاب الذي ابتلوا به يومئذ ببنيه وصاحبته واخيه حكاية لودادتهم ولو في معنى
التمني وقيل هي بمنزلة ان الناصبة فلا يكون لها جواب وينسبك منها ومما بعدها مصدر
يقع مفعولا ليود والتقدير يود افتداءه ببنيه الخ والجملة استيناف لبيان ان اشتغال كل
مجرم بنفسه بلغ الى حيث يتمنى ان يفتدي باقرب الناس اليه واعلقهم بقلبه فضلا ان
يهتم بحاله ويسأل منها وقرئ يومئذ بالفتح على البناء للاضافة الى غير متمكن وبتنوين
عذاب ونصب يومئذ وانتصابه بعذاب لانه في معنى تعذيب وفصيلته اى عشيرته
التي فصل عنهم التي تؤويه اى تضمه في النسب او عند الشدائد ومن في الارض جميعا

من الثقلين اوالخلائق ومن للتغليب ثم ينجيه عطف على يفتدى اى يود لو يفتدى ثم لو ينجيه الافتداء وثم لاستبعاد الانجاء يعنى يتمنى لو كان هولاء جميعا تحت يده وبذلهم فى فداء نفسه ثم ينجيه ذلك وهيهات كلا ردع للمجرم عن الودادة وتصريح بامتناع انجاء الافتداء وضمير انها اما للنار المدلول عليها بذكر العذاب او هو مبهم ترجم عنه الخبر الذى هو قوله تعالى لظى وهى علم للنار منقول من اللظى بمعنى اللهب نزاعة للشوى نصب على الاختصاص او حال موكدة والشوى الاطراف او جمع شواة وهى جلد الراس وقرئ نزاعة بالرفع على انه خبر ثان لان او هو الخبر ولظى بدل من الضمير والضمير للقصة ولظى مبتداء ونزاعة خبره تدعو اى تجذب وتحضر وقيل تدعو وتقول لهم الى الى يا كافر يا منافق وقيل تدعو المنافقين والكافرين بلسان فصيح ثم تلتقطهم التقاط الحب وقيل تدعو تهلك وقيل تدعو زبانيتها من ادبر اى عن الحق وتولى اعرض عن الطاعة وجمع فاوعى اى جمع المال فجعله فى وعاء وكنزه ولم يؤد زكوته وحقوقه وتشاغل به عن الدين وزهى باقتنائه حرصا وتأملا ان الانسان خلق هلوعا الهلع سرعة الجزع عند مس المكروه وسرعة المنع عند مس الخير وقد فسره احسن تفسير قوله تعالى اذا مسه الشر اى الفقر او المرض ونحوهما جزوعا اى مبالغا فى الجزع مكثرا منه واذا مسه الخير اى السعة والصحة منوعا مبالغا فى المنع والامساك والاوصاف الثلاثة احوال مقدرة او محققة لانها طبائع جبل الانسان عليها واذا الاولى ظرف لجزوعا والثانية لمنوعا الا المصلين استثناء للمتصفين بالنعوت الجليلة الآتية من المطبوعين على القبائح الماضية لاباتهم نفوسهم عن الاستغراق فى طاعة الحق والاشفاق على الخلق والايمان بالجزاء والخوف من العقوبة وكسر الشهوة وايثار الآجل على العاجل على خلاف القبائح المذكورة الناشئة من الانهماك فى حب العاجل وقصر النظر عليه الذين هم على صلوتهم دائمون لا يشغلهم عنها شاغل والذين فى اموالهم حق معلوم اى نصيب معين يستوجبونه على انفسهم تقربا الى الله تعالى واشفاقا على الناس من الزكوة المفروضة والصدقات الموظفة للسائل الذى يسأله والمحروم الذى لا يسأل فيظن انه غنى فيحرم والذين يصدقون بيوم الدين اى باعمالهم حيث يتعبون انفسهم فى الطاعات البدنية والمالية طمعا فى المثوبة الاخروية بحيث يستدل بذلك على تصديقهم بيوم الجزاء والذين هم من عذاب ربهم مشفقون خائفون على انفسهم مع ما لهم من الاعمال الفاضلة استقصارا لها واستعظاما لجنابه عز وجل كقوله تعالى والذين يؤتون ما اتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون وقوله تعالى ان عذاب ربهم غير مأمون اعتراض مؤذن بانه لا ينبغى لاحد ان يأمن عذابه تعالى وان بالغ فى الطاعة والذين هم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم او ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين سلف تفسيره فى سورة المؤمنين فمن ابتغى اى طلب لنفسه وراء ذلك وراء ما ذكر من الازواج والمملوكات فاولئك المبتغون هم العادون المتعدون لحدود الله تعالى والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون لا يخلون بشىء من حقوقها والذين هم بشهاداتهم قائمون اى مقيمون لها بالعدل احياء لحقوق الناس وتخصيصها بالذكر مع اندراجها فى الامانات لابانة فضلها وقرئ لامانتهم وبشهادتهم على ارادة الجنس والذين هم على صلوتهم يحافظون اى يراعون شرائطها ويكملون فرائضها وسننها ومستحباتها وآدابها وتكرير ذكر الصلوة ووصفهم بها اولا وآخرا باعتبارين للدلالة على فضلها وانافتها على سائر الطاعات وتكرير الموصولات لتنزيل اختلاف الصفات منزلة اختلاف الذوات كما فى قول من قال الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتائب فى المزدحم ايذانا بان كل واحد من الاوصاف المذكورة نعت جليل على حياله له شأن خطير مستتبع لاحكام جمة حقيق بان يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل شىء منها تتمة للآخر اولئك اشارة الى الموصوفين بما ذكر من الصفات وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليهم للايذان بعلو شأنهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتداء خبره فى جنات اى مستقرون

فى جنات لا يقادر قدرها ولا يدرك كنهها وقوله تعالى مكرمون خبر آخر او هو الخبر وفى جنات متعلق به قدم عليه لمراعاة الفواصل او بمضمر هو حال من الضمير فى الخبر اى يكونون كائنين فى جنات فمال الذين كفروا قبلك حولك مهطعين مسرعين نحوك مادى اعناقهم اليك مقبلين بابصارهم عليك عن اليمين وعن الشمال عزين اى فرقا شتى جمع عزة واصلها عزوة من العزو وكأن كل فرقة تعتزى الى غير من يعتزى اليه الاخرى كان المشركون يتحلقون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم حلقا حلقا وفرقا فرقا ويستهزءون بكلامه عليه الصلوة والسلام ويقولون ان دخل هولاء الجنة كما يقول محمد صلى الله عليه وسلم فلندخلنها قبلهم فنزلت ايطمع كل امرئ منهم ان يدخل جنة نعيم بلا ايمان كلا ردع لهم عن ذلك الطمع الفارغ انا خلقناهم مما يعلمون قيل هو تعليل للردع والمعنى انا خلقناهم من اجل ما يعلمون كما فى قول الاعشى ءازمعت من آل ليلى ابتكارا وشطت على ذى هوى ان تزارا وهو تكميل النفس بالايمان والطاعة فمن لم يستكملها بذلك فهو بمعزل من ان يتبوأ مبوأ الكاملين فمن اين لهم ان يطمعوا فى دخول الجنة وهم مكبون على الكفر والفسوق وانكار البعث وقيل معناه انا خلقناهم مما يعلمون من نطفة مذرة فمن اين يتشرفون ويدعون التقدم ويقولون لندخلن الجنة قبلهم وقيل انهم مخلوقون من نطفة قذرة لا تناسب عالم القدس فمتى لم تستكمل بالايمان والطاعة ولم تتخلق بالاخلاق الملكية لم تستعد دخولها ولا يخفى ما فى الكل من التمحل والاقرب انه كلام مستأنف قد سيق تمهيدا لما بعده من بيان قدرته تعالى على ان يهلكهم لكفرهم بالبعث والجزاء واستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما نزل عليه من الوحى وادعائهم دخول الجنة بطريق السخرية وينشئ بدلهم قوما آخرين فان قدرته تعالى على ما يعلمون من النشأة الاولى حجة بينة على قدرته تعالى على ذلك كما يفصح عنه الفاء الفصيحة فى قوله تعالى فلا اقسم برب المشارق والمغارب والمعنى اذا كان الامر كما ذكر من انا خلقناهم مما يعلمون فاقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون على ان نبدل خيرا منهم اى نهلكهم بالمرة حسبما تقتضيه جناياتهم ونأتى بدلهم بخلق آخرين ليسوا على صفتهم وما نحن بمسبوقين بمغلوبين ان اردنا ذلك لكن مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة اقتضت تأخير عقوباتهم فذرهم فخلهم وشأنهم يخوضوا فى باطلهم الذى من جملته ما حكى عنهم ويلعبوا فى دنياهم حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون وهو يوم البعث عند النفخة الثانية لا يوم النفخة الاولى كما توهم فان قوله تعالى يوم يخرجون من الاجداث بدل من يومهم وقرئ يخرجون على البناء للمفعول من الاخراج سراعا حال من مرفوع يخرجون اى مسرعين كأنهم الى نصب وهو كل ما نصب فعبد من دون الله تعالى وقرئ بسكون الصاد وبفتح النون وسكون الصاد ايضا يوفضون يسرعون خاشعة ابصارهم وصفت ابصارهم بالخشوع مع انه وصف الكل لغاية ظهور آثاره فيها ترهقهم ذلة تغشاهم ذلة شديدة ذلك الذى ذكر ما سيقع فيه من الاحوال الهائلة اليوم الذى كانوا يوعدون فى الدنيا عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة سأل سائل اعطاه الله ثواب الذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون

سورة نوح عليه السلام مكية وهى ... آية بسم الله الرحمن الرحيم

انا ارسلنا نوحا الى قومه ان انذر قومك اى بان انذرهم على ان ان المصدرية حذف منها الجار واوصل اليها الفعل فان حذفه مع ان وان مطرد وجعلت صلتها امرا كما فى قوله تعالى وان اقم وجهك لان مدار وصلها بصيغ الافعال دلالتها على المصدر وذلك لا يختلف بالخبرية والانشائية ووجوب كون الصلة خبرية فى الموصول الاسمى انما هو للتوصل الى وصف المعارف بالجمل وهى لا توصف الا بالجمل الخبرية وليس

الموصول فى ذلك وحيث استوى الخبر والانشاء فى الدلالة على المصدر استويا فى صحة الوصل
بهما فيتجرد عند ذلك كل منهما عن المعنى الخاص بصيغته فيبقى الحدث المجرد عن معنى الامر
والنهى والمضى والاستقبال كانه قيل ارسلناه بالانذار وقيل المعنى ارسلناه بان
قلنا له انذر اى ارسلناه بالامر بالانذار ويجوز ان يكون ان مفسرة لما فى الارسال
من معنى القول فلا يكون للجملة محل من الاعراب وعلى الاول محلها النصب عند سيبويه
والفراء والجر عند الخليل والكسائى كما هو المعروف وقرئ انذر بغير ان لارادة القول من
قبل ان يأتيهم عذاب اليم عاجل او آجل لئلا يبقى لهم عذر ما اصلا قال استيناف مبنى
على سؤال نشأ من حكاية ارساله بالوجه المذكور كانه قيل فما فعل عليه السلام فقيل
قال لهم يا قوم انى لكم نذير مبين منذر موضح لحقيقة الامر وقوله تعالى ان اعبدوا
الله واتقوه واطيعون متعلق بنذير على الوجهين المذكورين يغفر لكم من ذنوبكم
اى بعض ذنوبكم وهو ما سلف فى الجاهلية فان الاسلام يجبه ويؤخركم الى اجل
مسمى هو الامد الاقصى الذى قدره الله تعالى لهم بشرط الايمان والطاعة وراء ما
قدره لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان فان وصف الاجل بالمسمى وتعليق
تأخيرهم اليه بالايمان والطاعة صريح فى ان لهم اجلا آخر لا يجاوزونه
ان لم يؤمنوا وهو المراد بقوله تعالى ان اجل الله اى ما قدر لكم على تقدير بقائكم
على الكفر اذا جاء وانتم على ما انتم عليه من الكفر لا يؤخر فبادروا الى الايمان والطاعة
قبل مجيئه حتى لا يتحقق شرطه الذى هو بقاؤكم على الكفر فلا يجئ ويتحقق
شرط التأخير الى الاجل المسمى فتؤخروا اليه ويجوز ان يراد به وقت اتيان العذاب
المذكور فى قوله تعالى من قبل ان يأتيهم عذاب اليم فانه اجل موقت له حتما وحمله
على الاجل الاطول مما لا يساعده المقام كيف لا والجملة تعليل للامر بالعبادة المستتبعة
للمغفرة والتأخير الى الاجل المسمى فلا بد ان يكون المنفى عند مجئ الاجل هو التأخير الموعود
فكيف يتصور ان تكون ما فرض مجيئه هو الاجل المسمى لو كنتم تعلمون اى لو كنتم
تعلمون شيئا لسارعتم الى ما امرتكم به قال اى نوح عليه السلام مناجيا ربه وحاكيا
له تعالى وهو اعلم بحال ما جرى بينه وبين قومه من القيل والقال فى تلك المدد الطوال
بعد ما بذل فى الدعوة غاية المجهود وجاوز فى الانذار كل حد معهود وضاقت عليه
الحيل وعييت به العلل رب انى دعوت قومى الى الايمان والطاعة ليلا ونهارا
اى دائما من غير فتور ولا توان فلم يزدهم دعائى الا فرارا مما دعوتهم واسناد
الزيادة الى الدعاء لسببيته لها كما فى قوله تعالى زادتهم ايمانا وانى كلما دعوتهم
اى الى الايمان لتغفر لهم بسببه جعلوا اصابعهم فى آذانهم اى سدوا
مسامعهم من استماع الدعوة واستغشوا ثيابهم اى بالغوا فى التغطى بها كانهم
طلبوا ان تغشاهم ثيابهم او تغشيهم لئلا يبصروه كراهة النظر اليه او لئلا يعرفهم
فيدعوهم واصروا اى اكبوا على الكفر والمعاصى مستعار من اصر الحمار على العانة
اذا صر اذنيه واقبل عليها واستكبروا من اتباعى وطاعتى استكبارا شديدا ثم
انى دعوتهم جهارا ثم انى اعلنت لهم واسررت لهم اسرارا اى دعوتهم تارة
بعد تارة ومرة غب مرة على وجوه متخالفة واساليب متفاوتة ثم لتفاوت الوجوه فان
الجهار اشد من الاسرار والجمع بينهما اغلظ من الافراد لتراخى بعضها من بعض وجهارا
منصوب بدعوتهم على المصدر لانه احد نوعى الدعاء او اراد بدعوتهم جاهرتهم او
هو صفة لمصدر اى دعوتهم دعاء جهارا اى مجاهرا به او مصدر فى موضع الحال
اى مجاهرا فقلت استغفروا ربكم بالتوبة عن الكفر والمعاصى انه كان غفارا
للتائبين كانهم تعللوا وقالوا ان كنا على الحق فكيف نتركه وان كنا على الباطل فكيف يقبلنا
بعد ما عكفنا عليه دهرا طويلا فامرهم بما يمحق ما سلف منهم من المعاصى ويجلب
اليهم المنافع ولذلك وعدهم بما هو اوقع فى قلوبهم واحب اليهم من المنافع
العاجلة وقيل لما كذبوه بعد تكرير الدعوة حبس الله تعالى عنهم القطر واعقم ارحام

نسائهم اربعين سنة وقيل سبعين سنة فوعدهم انهم ان آمنوا ان يرزقهم الله
الخصب ويرفع عنهم ما كانوا فيه يرسل السماء عليكم مدرارا اى كثير الدرور
والمراد بالسماء المظلة او السحاب ويمددكم باموال وبنين ويجعل لكم جنات
بساتين ويجعل لكم فيها انهارا جارية ما لكم لا ترجون لله وقارا انكار لان
يكون لهم سبب ما فى عدم رجائهم لله تعالى وقارا على ان الرجاء بمعنى الاعتقاد
ولا ترجون حال من ضمير المخاطبين والعامل فيها معنى الاستقرار فى لكم على ان الانكار
متوجه الى السبب فقط مع تحقق مضمون الجملة الحالية لا اليهما معا كما فى قوله تعالى
وما لى لا اعبد الذى فطرنى ولله متعلق بمضمر وقع حالا من وقارا ولو تأخر لكان صفة
له اى اى سبب حصل لكم حال كونكم غير معتقدين لله تعالى عظمة موجبة لتعظيمه
بالايمان به والطاعة له وقد خلقكم اطوارا اى والحال انكم على حال منافية لما انتم
عليه بالكلية وهو انكم تعلمون انه تعالى خلقكم تارات عناصر ثم اغذية ثم اخلاطا
ثم نطفا ثم علقا ثم مضغا ثم عظاما ولحوما ثم انشأكم خلقا آخر فان التقصير
فى توقير من هذه شؤونه فى القدرة القاهرة والاحسان التام مع العلم بها مما لا
يكاد يصدر عن العاقل هذا وقد قيل الرجاء بمعنى الامل اى ما لكم لا تأملون له تعالى
توقيرا اى تعظيما لمن عبده واطاعه ولا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله تعالى
اياكم فى دار الثواب ولله بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة للوقار والاول هو الذى
يستدعيه الجزالة التنزيلية فان اللائق بحال الكفرة استبعاد ان لا يعتقدوا وقار
الله تعالى وعظمته مع مشاهدتهم لآثارها واحكامها الموجبة للاعتقاد
حتما واما عدم رجائهم لتعظيم الله اياهم فى دار الثواب فليس فى حيز الاستبعاد
والانكار مع ان فى جعل الوقار بمعنى التوقير من التعسف وفى قوله تعالى ولله بيان للموقر
يقتضى ان يكون التوقير صادرا عنه تعالى والوقار وصفا للمخاطبين وكونه صلة للوقار
يوجب كون الوقار وصفا له تعالى وقيل ما لكم لا تخافون لله عظمة وقدرة على اخذكم
بالعقوبة اى اى عذر لكم فى ترك الخوف منه تعالى وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس
رضى الله عنهما ما لكم لا تخشون لله عقابا ولا ترجون منه ثوابا وعن مجاهد والضحاك ما لكم
لا تبالون لله عظمة قال قطرب هى لغة حجازية يقولون لم ارج اى لم ابال وقوله تعالى
الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا اى متطابقة بعضها فوق بعض وجعل
القمر فيهن نورا اى منورا لوجه الارض فى ظلمة الليل ونسبته الى الكل مع انه فى
السماء الدنيا لما انها محاطة بسائر السموات فما فيها يكون فى الكل او لان كل واحدة منها
شفافة لا تحجب ما وراءها فيرى الكل كانها سماء واحدة ومن ضرورة ذلك ان يكون
ما فى واحدة منها كانه فى الكل وجعل الشمس سراجا يزيل ظلمة الليل ويبصر اهل
الدنيا فى ضوئها وجه الارض ويشاهدون الآفاق كما يبصر اهل البيت فى ضوء
السراج ما يحتاجون الى ابصاره وليس القمر بهذه المثابة انما هو نور فى الجملة والله
انبتكم من الارض نباتا اى انشأكم منها فاستعير الانبات للانشاء لكونه ادل على
الحدوث والتكون من الارض ونباتا اما مصدر مؤكد لانبتكم بحذف الزوائد
ويسمى اسم مصدر او لما يترتب عليه من فعله اى انبتكم من الارض فنبتم نباتا ويجوز
ان يكون الاصل انبتكم من الارض انباتا فنبتم نباتا فحذف من الجملة الاولى المصدر
ومن الثانية الفعل اكتفاء فى كل منهما بما ذكر فى الاخرى كما مر فى قوله تعالى ام تريدون ان
تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل وقوله وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا
هو وان يردك بخير فلا راد لفضله ثم يعيدكم فيها بالدفن عند موتكم ويخرجكم
منها عند البعث والحشر اخراجا محققا لا ريب فيه والله جعل لكم الارض بساطا
تتقلبون عليها تقلبكم على بسطكم فى بيوتكم وتوسيط لكم بين الجعل ومفعوليه مع ان
حقه التأخر لما مر مرارا من الاهتمام ببيان كون المجعول من منافعهم والتشويق
الى المؤخر فان النفس عند تأخير ما حقه التقديم لا سيما عند كون التقديم ملوحا بكونه

من المنافع تبقى مترقبة حتى تكون عند وروده لها افضل تمكن لتسلكوا منها سبلا فجاجا
اى طرقا واسعة جمع فج وهو الطريق الواسع وقيل هو المسلك بين الجبلين ومن متعلقة
بما قبلها لما فيه من معنى الاتخاذ او بمضمر هو حال من سبلا اى كائنة من الارض ولو
تأخر لكان صفة قال نوح اعيد لفظ الحكاية لطول العهد بحكاية مناجاته لربه اى
قال مناجيا له تعالى رب انهم عصونى اى تموا على عصيانى فيما امرتهم به مع ما بالغت
فى ارشادهم بالعظة والتذكير واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا اى واستمروا
على اتباع رؤسائهم الذين ابطرتهم اموالهم وغرتهم اولادهم وصار ذلك سببا
لزيادة خسرانهم فى الآخرة فصاروا اسوة لهم فى الخسارة وفى وصفهم بذلك
اشعار بانهم انما اتبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الاموال والاولاد
لما شاهدوا فيهم من شبهة مصححة للاتباع فى الجملة وقرئ وولده بالضم و
السكون على انه لغة كالحزن او جمع كالاسد ومكروا عطف على صلة من والجمع
باعتبار معناها كما ان الافراد فى الضمائر الاول باعتبار لفظها مكرا كبارا اى كبيرا
فى الغاية وقرئ بالتخفيف والاول ابلغ منه وهو ابلغ من الكبير وذلك احتيالهم فى الدين
وصدهم للناس عنه وتحريشهم لهم على اذية نوح عليه السلام وقالوا لا تذرن
آلهتكم اى لا تتركوا عبادتها على الاطلاق الى عبادة رب نوح عليه السلام ولا تذرن
ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا اى ولا تذرن عبادة هؤلاء
خصوها بالذكر مع اندراجها فيما سبق لانها كانت اكبر اصنامهم واعظمها عندهم
وقد انتقلت هذه الاصنام عنهم الى العرب فكان ود لكلب وسواع لهمدان ويغوث
لمذحج ويعوق لمراد ونسر لحمير وقيل هى اسماء رجال صالحين كانوا بين آدم ونوح عليهما
السلام وقيل من اولاد آدم ماتوا فقال ابليس لمن بعدهم لو صورتم صورهم
فكنتم تنظرون اليهم وتتبركون بهم ففعلوا فلما مات اولئك قال لمن بعدهم انهم
كانوا يعبدونهم فعبدوهم وقيل كان ود على صورة رجل وسواع على صورة امرأة
ويغوث على صورة اسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر وقرئ ودا بضم
الواو ويغوثا ويعوقا للتناسب ومنع صرفهما للعجمة والعلمية وقد اضلوا اى
الرؤساء كثيرا خلقا كثيرا او الاصنام كقوله تعالى رب انهن اضللن كثيرا من الناس ولا
تزد الظالمين الا ضلالا عطف على قوله تعالى رب انهم عصونى على حكاية كلام نوح بعد
قال وبعد الواو النائبة عنه اى قال رب انهم عصونى وقال لا تزد الظالمين الا ضلالا
ووضع الظاهر موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم المفرط وتعليل الدعاء عليهم به
والمطلوب هو الضلال فى تمشية مكرهم ومصالح دنياهم او الضياع والهلاك كما فى
قوله تعالى ان المجرمين فى ضلال وسعر ويؤيده ما سيأتى من دعائه عليه السلام مما
خطيئاتهم اى من اجل خطيئاتهم وما مزيدة بين الجار والمجرور للتوكيد والتفخيم
ومن لم يرها جعلها نكرة وجعل خطيئاتهم بدلا منها وقرئ مما خطاياهم
ومن خطيئاتهم المعدودة وغيرها من خطاياهم اغرقوا بالطوفان لا بسبب آخر
فادخلوا نارا المراد اما عذاب القبر فهو عقيب الاغراق وان كانوا فى الماء عن الضحاك
انهم كانوا يغرقون من جانب ويحرقون من جانب او عذاب جهنم والتعقيب لتنزيله
منزلة المتعقب لاغراقهم لاقترابه وتحققه لا محالة وتنكير النار اما لتعظيمها وتهويلها
او لانه تعالى اعد لهم على حسب خطيئاتهم نوعا من النار فلم يجدوا لهم من دون الله
انصارا اى لم يجد احد منهم واحدا من الانصار وفيه تعريض باتخاذهم آلهة من
دون الله تعالى وبانها غير قادرة على نصرهم وتهكم بهم وقال نوح رب لا تذر
على الارض من الكافرين ديارا عطف على نظيره السابق وقوله تعالى مما خطيئاتهم الخ
اعتراض وسط بين دعائه عليه السلام للايذان من اول الامر بان ما اصابهم من الاغراق
والاحراق لم يصبهم الا لاجل خطيئاتهم التى عددها نوح عليه السلام واشار
الى استحقاقهم الاهلاك لاجلها لا انها حكاية لنفس الاغراق والاحراق على طريقة حكاية

ماجرى

ماجرى بينه وبينهم من الاحوال والاقوال والا لاخر عن حكاية دعائه هذا وديارا
من الاسماء المستعملة فى النفى العام يقال ما بالدار ديار وديور كقيام وقيوم اى احد
وهو فيعال من الدور او من الدار اصله ديوار ففعل به ما فعل باصل سيد لا فعال
والا لكان دوارا انك ان تذرهم عليها كلا او بعضا يضلوا عبادك عن طريق
الحق ولا يلدوا الا فاجرا كفارا اى الا من سيفجر ويكفر فوصفهم بما يصيرون اليه و
لانه اعتذار مما عسى يرد عليه من ان الدعاء بالاستئصال مع احتمال ان يكون من
اخلافهم من يؤمن منهم وانما قاله لاستحكام علمه بما يكون منهم ومن اعقابهم بعد
ما جربهم واستقرأ احوالهم قريبا من الف سنة رب اغفر لى ولوالدى ابو متوشلخ
وامه شمخا بنت انوش كانا مؤمنين وقيل هما آدم وحوا وقرئ ولولدى يريد ساما وحاما
ولمن دخل بيتى اى منزلى وقيل مسجدى وقيل سفينتى مؤمنا بهذا القيد خرجت
امرأته وابنه كنعان ولكن لم يجزم عليه السلام بخروجه الا بعد ما قيل له انه ليس من
اهلك وقد مر تفصيله فى سورة هود وللمؤمنين والمؤمنات عمهم بالدعاء اثر ما
خص به من يتصل به نسبا ودينا ولا تزد الظالمين الا تبارا اى هلاكا قيل غرق
معهم صبيانهم ايضا لكن لا على وجه العقاب لهم بل لتشديد عذاب آبائهم و
امهاتهم باراءة اهلاك اطفالهم الذين كانوا اعز عليهم من انفسهم قال عم
يهلكون مهلكا واحدا ويصدرون مصادر شتى وعن الحسن انه سئل عن ذلك
فقال علم الله برآءتهم فاهلكهم بغير عذاب وقيل اعقم الله تعالى ارحام
نسائهم وايبس اصلاب آبائهم قبل الطوفان باربعين او سبعين سنة فلم يكن
معهم صبى حين غرقوا عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة نوح كان من
المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح عليه السلام

سورة الجن مكية وهى ... آية بسم الله الرحمن الرحيم

قل اوحى الى وقرئ احى اصله وحى وقد قرئ كذلك من وحى اليه فقلبت الواو المضمومة
همزة كاعد وازن فى وعد ووزن انه بالفتح لانه فاعل اوحى والضمير للشان استمع
اى القرآن كما ذكر فى الاحقاف وقد حذف لدلالة ما بعده عليه نفر من الجن النفر
ما بين الثلاثة والعشرة والجن اجسام عاقلة خفية يغلب عليهم النارية او الهوائية
وقيل نوع من الارواح المجردة وقيل هى النفوس البشرية المفارقة عن ابدانها وفيه دلالة
على انه عليه السلام لم يشعر بهم وباستماعهم ولم يقرأ عليهم وانما اتفق حضورهم
فى بعض اوقات قراءته فسمعوها فاخبره الله تعالى بذلك وقد مر ما فيه من التفصيل
فى الاحقاف فقالوا لقومهم عند رجوعهم انا سمعنا قرآنا كتابا مقروا عجبا
بديعا مباينا لكلام الناس فى حسن النظم ودقة المعنى وهو مصدر وصف به
للمبالغة يهدى الى الرشد الى الحق والصواب فآمنا به اى بذلك القرآن ولن
نشرك بربنا احدا حسبما نطق به ما فيه من دلائل التوحيد وانه تعالى جد ربنا
بالفتح قالوا هو وما بعده من الجمل المصدرة بان فى احد عشر موضعا عطف على محل الجار
والمجرور فى فآمنا به كانه قيل فصدقناه وصدقنا انه تعالى جد ربنا اى ارتفع عظمته
من جد فلان فى عينى اى عظم تمكنه او سلطانه او غناه على انه مستعار من الجد
الذى هو البخت والمعنى وصفه بالاستغناء عن الصاحبة والولد لعظمته او لسلطانه
او لغناه وقرئ بالكسر وكذا الجمل المذكورة عطفا على المحكى بعد القول وهو الاظهر
لوضوح اندراج كلها تحت القول واما اندراج الجمل الآتية تحت الايمان والتصديق
كما يقتضيه العطف على محل الجار والمجرور ففيه اشكال كما ستحيط به خبرا وقوله
تعالى ما اتخذ صاحبة ولا ولدا بيان لحكم تعاليه جده وقرئ جدا ربنا على التمييز وجد
ربنا بالكسر اى صدق ربوبيته وحق الهيته عن اتخاذ الصاحبة والولد وذلك
انهم لما سمعوا القرآن ووفقوا للتوحيد والايمان تنبهوا للخطأ فيما اعتقده كفرة الجن

من تشبيه الله تعالى بخلقه فى اتخاذ الصاحبة والولد فاستعظموه ونزهوه تعالى عنه
وانه كان يقول سفيهنا اى ابليس او مردة الجن على الله شططا اى قولا
ذا شطط اى بعد عن القصد ومجاوزة للحد او هو شطط فى نفسه لفرط بعده عن
الحق وهو نسبة الصاحبة والولد اليه تعالى وتعلق الايمان والتصديق بهذا القول ليس
باعتبار نفسه فانهم كانوا عالمين بقول سفهائهم وقيل من قبل ايضا بل باعتبار
كونه شططا كانه قيل وصدقنا ان كان يقوله سفيهنا فى حقه تعالى كان شططا
واما تعلقهما بقوله تعالى وانا ظننا ان لن تقول الانس والجن على الله كذبا فظاهر
وهو اعتذار منهم عن تقليدهم لسفيههم اى كنا نظن انه لن يكذب على الله تعالى
احد ابدا ولذلك اتبعنا قوله وكذبا مصدر مؤكد لتقول لانه نوع من القول او
وصف لمصدره المحذوف اى قولا كذبا اى مكذوبا فيه وقرئ لن تقول بحذف
احدى التائين فكذبا مصدر مؤكد له لان الكذب هو التقول وانه كان رجال
من الانس يعوذون برجال من الجن كان الرجل من العرب اذا امسى فى واد قفر و
خاف على نفسه يقول اعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه يريد الجن وكبيرهم
فاذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا سدنا الانس والجن وذلك قوله تعالى فزادوهم
اى زاد الرجال العائذون رهقا اى تكبرا وعتوا او فزاد الجن العائذين غيا بان
اضلوهم حتى استعاذوا بهم وانهم ظنوا اى الانس كما ظننتم ايها الجن
على انه كلام بعضهم لبعض ان لن يبعث الله احدا وقيل المعنى ان الجن كما ظننتم
ايها الكفرة الخ فتكون هذه الآية وما قبلها من جملة الكلام الموحى به والاقرب انهما
كذلك على كل تقدير عطفا على انه استمع اذ لا معنى لادراجهما تحت ما ذكر من الايمان
والتصديق وكذا قوله تعالى وانا لمسنا السماء وما بعده من الجمل المصدرة بانا بمعنى انه
تكون معطوفة على ذلك على ان الموحى عين عبارة الجن بطريق الحكاية كانه قيل قل اوحى
الى كيت وكيت وهذه العبارات اى طلبنا بلوغ السماء او خبرها واللمس مستعار من المس للطلب
كالجس يقال لمسه والتمسه وتلمسه كطلبه واطلبه وتطلبه فوجدناها ملئت حرسا
اى حراسا اسم جمع كخدم مفرد اللفظ ولذلك قيل شديدا قويا وهم الملائكة
يمنعونهم عنها وشهبا جمع شهاب وهى الشعلة المقتبسة من نار الكواكب وانا
كنا نقعد قبل هذا منها من السماء مقاعد للسمع خالية عن الحرس والشهب او
صالحة للترصد والاستماع وللسمع متعلق بنقعد اى لاجل السمع او بمضمر هو صفة
لمقاعد اى مقاعد كائنة للسمع فمن يستمع الآن فى مقعد من المقاعد يجد له
شهابا رصدا اى شهابا راصدا له ولاجله يصده عن الاستماع بالرجم او ذوى شهاب
راصدين له على انه اسم مفرد فى معنى الجمع كالحرس قيل حدث هذا عند مبعث النبى
صلى الله عليه وسلم والصحيح انه كان قبل البعث ايضا لكنه كثر الرجم بعد البعثة و
زاد زيادة حتى تنبه لها الانس والجن ومنع الاستراق اصلا فقالوا ما هذا الا لامر
اراده الله تعالى باهل الارض وذلك وانا لا ندرى اشر اريد بمن فى الارض بحراسة
السماء ام اراد بهم ربهم رشدا اى خيرا ونسبة الخير الى الله تعالى دون الشر من
الآداب الشريفة القرآنية كما فى قوله تعالى واذا مرضت فهو يشفين ونظائره
وانا منا الصالحون اى الموصوفون بصلاح الحال فى شان انفسهم وفى معاملتهم
مع غيرهم المائلون الى الخير والصلاح حسبما يقتضيه الفطرة السليمة لا الى الشر و
الفساد كما هو مقتضى النفوس الشريرة ومنا دون ذلك اى قوم دون ذلك
فحذف الموصوف وهم المقتصدون فى صلاح الحال على الوجه المذكور لا فى الايمان
والتقوى كما توهم فان هذا بيان لحالهم قبل استماع القرآن كما يعرب عنه قوله تعالى
كنا طرائق قددا واما حالهم بعد استماعه فسيحكى بقوله تعالى وانا لما سمعنا
الهدى الى قوله وانا منا المسلمون اى كنا قبل هذا ذوى طرائق اى مذاهب او مثل طرائق
فى اختلاف الاحوال او كانت طرائقنا طرائق قددا اى متفرقة مختلفة جمع قدة

من قد

من قد كالقطعة من قطع وانا ظننا اى علمنا الآن ان لن نعجز الله اى ان الشان لن
نعجز الله تعالى كائنين فى الارض اينما كنا من اقطارها ولن نعجزه هربا هاربين منها
الى السماء او لن نعجزه فى الارض ان اراد بنا امرا او لن نعجزه هربا ان طلبنا وانا لما
سمعنا الهدى اى القرآن الذى هو الهدى بعينه آمنا به من غير تلعثم وتردد
فمن يؤمن بربه وبما انزله فلا يخاف فهو لا يخاف بخسا اى نقصا فى الجزاء
ولا رهقا ولا ان ترهقه ذلة او جزاء بخس ولا رهق اذ لم يبخس احدا
حقا ولا رهق ظلم احد فلا يخاف جزاءهما وفيه دلالة على ان من حق
من آمن بالله تعالى ان يجتنب المظالم وقرئ فلا يخف والاول ادل على تحقيق نجاة
المؤمن واختصاصه به وانا منا المسلمون ومنا القاسطون الجائرون عن الطريق
الذى هو الايمان والطاعة فمن اسلم فاولئك اشارة الى من اسلم و
الجمع باعتبار المعنى تحروا توخوا رشدا عظيما يبلغهم الى دار الثواب و
اما القاسطون الجائرون عن سنن الاسلام فكانوا لجهنم حطبا توقد بهم
كما توقد بكفرة الانس وان لو استقاموا ان مخففة من الثقيلة والجملة معطوفة قطعا
على انه استمع والمعنى واوحى الى ان الشان لو استقام الجن او الانس او كلاهما على
الطريقة التى هى ملة الاسلام لاسقيناهم ماء غدقا اى لوسعنا عليهم الرزق
وتخصيص الماء الغدق وهو الكثير بالذكر لانه اصل المعاش والسعة ولعزة وجوده
بين العرب وقيل لو استقام الجن على الطريقة المثلى اى لو ثبت ابوهم الجان على ما
كان عليه من عبادة الله تعالى وطاعته ولم يتكبر عن السجود لآدم عليه السلام و
لم يكفر وتبعه ولده فى الاسلام لانعمنا عليهم ووسعنا رزقهم لنفتنهم فيه
لنختبرهم كيف يشكرونه وقيل معناه لو استقام الجن على طريقتهم القديمة و
لم يسلموا باستماع القرآن لوسعنا عليهم الرزق استدراجا لنوقعهم فى الفتنة
ونعذبهم فى كفران النعمة ومن يعرض عن ذكر ربه عن عبادته او عن موعظته
او وحيه يسلكه يدخله عذابا صعدا اى شاقا صعبا يعلو المعذب ويغلبه على
انه مصدر وصف به مبالغة وان المساجد لله عطف على قوله تعالى انه استمع
اى واوحى الى ان المساجد مختصة بالله تعالى وقيل معناه ولان المساجد لله فلا تدعوا
اى لا تعبدوا فيها مع الله احدا غيره وقيل المراد بالمساجد المسجد الحرام والجمع
لان كل ناحية منه مسجد له قبلة مخصوصة او لانه قبلة المساجد وقيل الارض كلها
لانها جعلت مسجدا للنبى صلى الله عليه وسلم وقيل مواضع السجود على ان المراد
نهى السجود لغير الله تعالى وقيل اعضاء السجود السبعة وقيل السجدات على انه
جمع المصدر الميمى وانه من جملة الموحى اى واوحى الى ان الشان لما قام عبد الله
اى النبى صلى الله عليه وسلم وايراده بلفظ العبد للاشعار بما هو المقتضى لقيامه
وعبادته وللتواضع لانه واقع موقع كلامه عن نفسه يدعوه حال من فاعل قام
اى يعبده وذلك قيامه لصلاة الفجر بنخلة كما مر تفصيله فى الاحقاف كادوا اى
الجن يكونون عليه لبدا متراكمين من ازدحامهم عليه تعجبا مما شاهدوا من
عبادته وسمعوا من قراءته واقتداء اصحابه قياما وركوعا وسجودا لانهم راوا
ما لم يروا مثله وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره وقيل معناه لما قام رسولا يعبد الله وحده
مخالفا للمشركين كاد المشركون يزدحمون عليه متراكمين واللبد جمع لبدة وهى ما تلبد
بعضه على بعض ومنها لبدة الاسد وقرئ لبدا جمع لبدة وهى بمعنى اللبدة و
لبدا جمع لابد كساجد وسجد ولبدا بضمتين جمع لبود كصبور وصبر وعن
قتادة تلبدت الانس والجن على هذا الامر ليطفئوه فابى الله تعالى الا ان ينصره على من
ناواه قل انما ادعو ربى اى اعبده ولا اشرك به فى العبادة احدا فليس ذلك ببدع
ولا مستنكر يوجب التعجب او الاطباق على عداوتى وقرئ قال على انه حكاية لقوله
عم للمتراكمين عليه والاول هو الاظهر والاوفق لقوله تعالى قل انى لا املك لكم

ضرًّا ولا نفعًا كأنه اريد لا املك ضرًّا ولا نفعًا ولا غيًّا ولا رشدًا فترك من كلا المتقابلين ما ذكر في الآخر قل اني لن يجيرني من الله احدٌ ان اراد بي بسوء ولن اجد من دونه ملتحدًا ملتجأً ومعدلًا وهذا بيان لعجزه عليه السلام عن شؤن نفسه بعد بيان عجزه عن شؤن غيره وقوله تعالى الا بلاغًا من الله استثناء من قوله لا املك فان التبليغ ارشاد ونفع وما بينهما اعتراض مؤكد لنفي الاستطاعة اي ملتحدًا اي لن اجد من دونه منجًا الا ان ابلغ عنه تعالى ما ارسلني به وقيل الامركبة من ان الشرطية ولا النافية ومعناه ان لا ابلغ بلاغًا من الله والجواب محذوف لدلالة ما قبله عليه ورسالاته عطف على بلاغًا ومن الله صفته لا صلته اي لا املك لكم الا تبليغا كائنًا منه تعالى ورسالاته التي ارسلني بها ومن يعص الله ورسوله في الامر بالتوحيد اذ الكلام فيه فان له نار جهنم وقرئ بفتح الهمزة على فحقه ان له او فجزاؤه ان له نار جهنم خالدين فيها في النار او في جهنم والجمع باعتبار المعنى ابدًا بلا نهاية وقوله تعالى حتى اذا راوا ما يوعدون غاية لمحذوف يدل عليه الحال من استضعاف الكفار لانصاره عليه السلام واستقلالهم لعدده كانه قيل لا يزالون على ما هم عليه حتى اذا راوا ما يوعدون من فنون العذاب في الآخرة فسيعلمون حينئذ من اضعف ناصرًا واقل عددًا وحمل ما يوعدون على ما راوه يوم بدر يأباه قوله تعالى قل ان ادري اي ما ادري اقريب ما توعدون ام يجعل له ربي امدًا فانه رد لما قاله المشركون عند سماعهم ذلك متى يكون ذلك الموعود انكارًا له واستهزاء به فقيل قل انه كائن لا محالة واما وقته فما ادري متى يكون عالم الغيب بالرفع قيل هو بدل من ربي او بيان له ويأباه الفاء في قوله تعالى فلا يظهر على غيبه احدًا اذ يكون النظم حينئذ ام يجعل له عالم الغيب امدًا فلا يظهر عليه احدًا وفيه من الاختلال ما لا يخفى فهو خبر مبتدأ محذوف اي هو عالم الغيب والجملة استيناف مقرر لما قبله من عدم الدراية والفاء لترتيب عدم الاظهار على تفرده تعالى بعلم الغيب على الاطلاق اي فلا يطلع على غيبه اطلاعًا كاملا ينكشف به جلية الحال انكشافًا تامًّا موجبًا لعين اليقين احدًا من خلقه الا من ارتضى من رسول اي الا رسولا ارتضاه لاظهاره على بعض غيوبه المتعلقة برسالاته كما يعرب عنه بيان من ارتضى بالرسول تعلقا ما اما لكونه من مبادي رسالته بان يكون معجزة دالة على صحتها واما لكونه من اركانها واحكامها كعامة التكاليف الشرعية التي امر بها المكلفون وكيفيات اعمالهم واجزيتها المترتبة عليها في الآخرة وما تتوقف هي عليه من احوال الآخرة التي من جملتها قيام الساعة والبعث وغير ذلك من الامور الغيبية التي بيانها من وظائف الرسالة واما ما لا يتعلق بها على احد الوجهين من الغيوب التي من جملتها وقت قيام الساعة فلا يظهر عليه احدًا ابدًا على ان بيان وقته مخل بالحكمة التشريعية التي عليها يدور فلك الرسالة وليس فيه ما يدل على نفي كرامات الاولياء المتعلقة بالكشف فان اختصاص الغاية القاصية من مراتب الكشف بالرسل لا يستلزم عدم حصول مرتبة ما من تلك المراتب لغيرهم اصلا ولا يدعي احد لاحد من الاولياء ما في رتبة الرسل عليهم السلام من الكشف الكامل الحاصل بالوحي الصريح وقوله تعالى فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدًا تقرير وتحقيق للاظهار المستفاد من الاستثناء وبيان لكيفيته اي فانه تعالى يسلك من جميع جوانب الرسول عند اظهاره على غيبه حرسًا من الملائكة يحرسونه من تعرض الشياطين لما اظهره عليه من الغيوب المتعلقة برسالته وقوله تعالى ليعلم ان قد ابلغوا رسالات ربهم متعلق بيسلك غاية له من حيث انه مترتب على الابلاغ المترتب عليه اذ المراد به العلم المتعلق بالابلاغ الموجود بالفعل وان مخففة من الثقيلة واسمها الذي هو ضمير الشان محذوف والجملة خبرها ورسالات ربهم عبارة عن الغيب الذي اريد اظهار المرتضى عليه والجمع باعتبار تعدد افراده وضمير ابلغوا اما للرصد فالمعنى انه تعالى يسلكهم من جميع جوانب المرتضى ليعلم ان الشان قد ابلغوا

رسالات ربهم سالمة عن الاختطاف والتخليط علمًا مستتبعًا للجزاء وهو ان يعلمه موجودًا حاصلًا بالفعل كما في قوله تعالى حتى نعلم المجاهدين والغاية في الحقيقة هو الابلاغ والجهاد وايراد علمه تعالى لابراز اعتنائه تعالى بامرهما والاشعار بترتيب الجزاء عليهما والمبالغة في الحث عليهما والتحذير عن التفريط فيهما واما لمن ارتضى والجمع باعتبار معنى من كما ان الافراد في الضميرين السابقين باعتبار لفظها فالمعنى ليعلم انه قد ابلغ الرسل الموحى اليهم رسالات ربهم الى اممهم كما هي من غير اختطاف ولا تخليط بعد ما ابلغها الرصد اليهم كذلك وقوله تعالى واحاط بما لديهم اي بما عند الرصد او الرسل عليهم السلام حال من فاعل يسلك باضمار قد او بدونه على الخلاف المشهور جيء بها لتحقيق استغنائه تعالى في العلم بالابلاغ عما ذكر من سلك الرصد على الوجه المذكور اي يسلكهم بين يديه ومن خلفه ليترتب عليه علمه تعالى بما ذكر والحال انه تعالى قد احاط بما لديهم من الاحوال جميعًا واحصى كل شيء مما كان وما سيكون عددًا اي فردًا فردًا وهو تمييز منقول من المفعول به كقوله تعالى وفجرنا الارض عيونًا والاصل احصى عدد كل شيء وقيل هو حال اي معدودًا محصورًا او مصدر بمعنى احصاء وايا ما كان ففائدته بيان ان علمه تعالى بالاشياء ليس على وجه كلي اجمالي بل على وجه جزئي تفصيلي فان الاحصاء قد يراد به الاحاطة الاجمالية كما في قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها اي لا تقدروا على حصرها اجمالًا فضلًا عن التفصيل وذلك لان اصل الاحصاء ان الحاسب اذا بلغ عقدًا معينًا من الاعداد كالعشرة والمائة والالف وضع حصاة ليحفظ بها كمية ذلك العقد فيبني على ذلك حسابه هذا واما ما قيل من ان قوله تعالى واحاط بما لديهم الخ معطوف على مقدر يدل عليه قوله تعالى ليعلم كانه قيل قد علم ذلك واحاط بما لديهم الخ فبمعزل من السداد عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الجن كان له بعدد كل جني صدق محمدًا او كذب به عتق رقبة

سورة المزمل مكية وهو عشرون آية بسم الله الرحمن الرحيم

يا ايها المزمل اي المتزمل من تزمل بثيابه اذا تلفف بها فادغم التاء في الزاي وقد قرئ على الاصل وقرئ المزمل من زمله مبنيًا للمفعول ومبنيًا للفاعل قيل خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم تهجينًا لما كان عليه من الحال حيث كان عليه السلام متلففا بقطيفة مستعدًا للنوم كما يفعله من لا يهمه امر ولا يعنيه شان فامر بان يترك التزمل الى التشمر للعبادة والهجود الى التهجد وقيل دخل عليه السلام على خديجة رضي الله عنها وقد جئث فرقًا اول ما اتاه جبريل عليه السلام وبوادره ترعد فقال زملوني حسب انه عرض له فبينا هو على ذلك اذ ناداه جبريل فقال يا ايها المزمل فيكون تخصيص وصف التزمل بالخطاب للملاطفة والتأنيس كما في قوله عليه السلام لعلي رضي الله عنه حين غاضب فاطمة رضي الله عنها فاتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب قم يا ابا تراب ملاطفة له واشعارًا بانه غير عاتب عليه وقيل المعنى يا ايها الذي زمل امرًا عظيمًا وهو امر النبوة اي حمله والزمل الحمل وازدمله اي احتمله فالتعرض للوصف حينئذ للاشعار بعليته للقيام او للامر به فان تحمله عليه السلام لاعباء النبوة مما يوجب الاجتهاد في العبادة قم الليل اي قم الى الصلوة وانتصاب الليل على الظرفية وقيل القيام مستعار للصلوة ومعنى قم صل وقرئ بضم الميم وبفتحها الا قليلا استثناء من الليل وقوله تعالى نصفه بدل من الليل الباقي بعد الثنيا بدل الكل اي قم نصفه والتعبير عن النصف المخرج بالقليل لاظهار كمال الاعتداد بشان الجزء المقارن للقيام والايذان بفضله وكون القيام فيه بمنزلة القيام في اكثره في كثرة الثواب واعتبار قلته بالنسبة الى الكل مع عرائه عن الفائدة خلاف الظاهر او انقص منه اي انقص القيام من النصف المقارن له في الصورة الاولى قليلا اي نقصًا قليلا او مقدارًا قليلا بحيث لا ينحط الى نصف

النصف او زد عليه اى زد القيام على النصف المقارن له فالمعنى تخييره عليه السلام
بين ان يقوم نصفه او اقل منه او اكثر وقيل قوله نصفه بدل من قليلا والتخيير بحاله
وليس بسديد اما اولا فلان الحقيق بالاعتناء الذى ينبئ عنه الابدال هو الجزء
الباقى بعد الثنيا المقارن للقيام لا الجزء المخرج العارى عنه واما ثانيا فلان نقص القيام
وزيادته انما يعتبران بالقياس الى معياره الذى هو النصف المقارن له فلو جعل نصفه
بدلا من قليلا لزم اعتبار نقص القيام وزيادته بالقياس الى ما هو عار عنه بالكلية
والاعتذار بتساوى النصفين مع كونه تمحلا ظاهرا اعتراف بان الحقيق هو الاول
وقيل نصفه بدل من الليل والا قليلا استثناء من النصف والضمير فى منه وعليه
للنصف والمعنى التخيير بين ان يقوم اقل من نصف الليل على البتات وبين
ان يختار احد الامرين وهما النقصان من النصف والزيادة عليه وقيل الضميران
للاقل من النصف كانه قيل قم اقل من نصفه او قم انقص من ذلك الاقل
او ازيد منه قليلا وقيل والذى يليق بجزالة التنزيل هو الاول والله اعلم
بما كتابه الجليل ورتل القرآن فى اثناء ما ذكر من القيام اى اقرأه على تؤدة
وتبيين حروف ترتيلا بليغا بحيث يتمكن السامع من عدها من قولهم ثغر رتل
ورتل اذا كان مفلجا انا سنلقى عليك اى سنوحى اليك وايثار الالقاء عليه
قولا ثقيلا وهو القرآن العظيم المنطوى على تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين
لا سيما على الرسول صلى الله عليه وسلم فانه مأمور بتحملها وتحميلها للامة و
اعتراض بين الامر وتعليله لتسهيل ما كلفه عليه السلام من القيام وقيل معنى كونه
ثقيلا انه رصين لرزانة لفظه ومتانة معناه او ثقيل على المتأمل فيه لافتقاره
الى مزيد تصفية للسر وتجريد للنظر او ثقيل فى الميزان او على الكفار والفجار او
ثقيل تلقيه عن ابن عباس رضى الله عنهما كان اذا نزل عليه الوحى ثقل عليه وتربد
له جلده وعن عائشة رضى الله عنها رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد
فيفصم عنه وان جبينه ليرفض عرقا ان ناشئة الليل اى ان النفس التى تنشأ
من مضجعها الى العبادة اى تنهض من نشأ من مكانه اذا نهض او ان قيام الليل
على ان الناشئة مصدر من نشأ كالعاقبة او ان العبادة التى تنشأ بالليل اى تحدث
او ان ساعات الليل فانها تحدث واحدة بعد واحدة او ساعاتها الاول من نشأ
اذا ابتدأ هى اشد وطأ اى هن خاصة اشد ثبات قدم او كلفة فلا بد من
الاعتناء بالقيام وقرئ وطاء اى اشد مواطأة يواطئ قلبها لسانها ان اريد بها
النفس او يواطئ فيها قلب القائم لسانه ان اريد بها القيام او العبادة او الساعات
او اشد موافقة لما يراد من الخشوع والاخلاص واقوم قيلا واسد مقالا و
اثبت قراءة لحضور القلب وهدو الاصوات ان لك فى النهار سبحا طويلا اى تقلبا
وتصرفا فى مهماتك واشتغالا بشواغلك فلا تستطيع ان تتفرغ فعليك بها
فى الليل وهذا بيان للداعى الخارجى الى قيام الليل بعد بيان ما فى نفسه من الداعى
وقرئ سبخا اى تفرق قلب بالشواغل مستعار من سبخ الصوف وهو نفشه ونشر
اجزائه واذكر اسم ربك ودم على ذكره تعالى ليلا ونهارا على اى وجه كان من تسبيح
وتهليل وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراسة علم وتبتل اليه اى وانقطع اليه
بمجامع الهمة واستغراق العزيمة فى مراقبته وحيث لم يكن ذلك الا بتجريد نفسه عن
العوائق الصادة عن مراقبة الله تعالى وقطع العلائق عما سواه قيل تبتيلا مكان
تبتلا مع ما فيه من رعاية الفواصل رب المشرق والمغرب مرفوع على المدح وقيل
على الابتداء خبره لا اله الا هو وقرئ بالجر على انه بدل من ربك وقيل على اضمار
حرف القسم جوابه لا اله الا هو والفاء فى قوله تعالى فاتخذه وكيلا لترتيب الامر
وموجبه على اختصاص الالوهية والربوبية به تعالى واصبر على ما يقولون مما
لا خير فيه من الخرافات واهجرهم هجرا جميلا بان تجانبهم وتداريهم ولا تكافئهم

وتكل

وتكل امورهم الى ربهم كما يعرب عنه قوله تعالى وذرنى والمكذبين اى دعنى واياهم وكل
امرهم الى فانى اكفيكهم اولى النعمة ارباب التنعم وهم صناديد قريش ومهلهم
قليلا زمانا قليلا ان لدينا انكالا جمع نكل وهو القيد الثقيل والجملة تعليل للامر اى ان لدينا
امورا مضادة لتنعمهم وجحيما وطعاما ذا غصة ينشب فى الحلوق ولا يكاد يساغ
كالضريع والزقوم وعذابا اليما ونوعا آخر من العذاب مؤلما لا يقادر قدره ولا يدرك
كنهه كل ذلك معد لهم ومرصد وقوله تعالى يوم ترجف الارض والجبال اى تضطرب
وتتزلزل ظرف للاستقرار الذى تعلق به لدينا وقيل متعلق بمضمر هو صفة لعذابا اى
واقعا يوم ترجف وكانت الجبال مع صلابتها وارتفاعها كثيبا رملا
مجتمعا من كثب الشئ اذا جمعه كانه فعيل بمعنى مفعول مهيلا منثورا من هيل هيلا
اذا نثر واهيل انا ارسلنا اليكم يا اهل مكة رسولا شاهدا عليكم يشهد يوم القيمة
بما صدر عنكم من الكفر والعصيان كما ارسلنا الى فرعون رسولا هو موسى عليه السلام
وعدم تعيينه لعدم دخله فى التشبيه فعصى فرعون الرسول الذى ارسلناه
اليه ومحل الكاف النصب على انها صفة لمصدر محذوف اى انا ارسلنا اليكم رسولا
فعصيتموه كما يعرب عنه قوله تعالى شاهدا عليكم ارسالا كائنا كما ارسلنا الى فرعون
رسولا فعصاه وقوله تعالى فاخذناه اخذا وبيلا خارج من التشبيه جئ به للتنبيه
على انه سيحيق بهؤلاء ما حاق باولئك لا محالة والوبيل الثقيل الغليظ من قولهم
كلأ وبيل اى وخيم لا يستمرأ لثقله والوبيل العصا الضخمة فكيف تتقون اى كيف
تقون انفسكم ان كفرتم اى بقيتم على الكفر يوما اى عذاب يوم يجعل الولدان من شدة
هوله وفظاعة ما فيه من الدواهى شيبا شيوخا جمع اشيب اما حقيقة او تمثيلا
واصله ان الهموم والاحزان اذا تفاقمت على المرء ضعفت قواه واسرع فيه الشيب و
قد جوز ان يكون ذلك وصفا لليوم بالطول وليس بذاك السماء منفطر اى منشق
وقرئ متفطر اى متشقق والتذكير لاجرائه على موصوف مذكر اى شئ منفطر عبر عنها
بذلك للتنبيه على انه تبدلت حقيقتها وزال عنها اسمها ورسمها ولم يبق منها الا ما يعبر عنه
بالشئ وقيل لتأويل السماء بالسقف وقيل هو من باب النسب اى ذات انفطار والباء فى
قوله تعالى به مثلها فى فطرت العود بالقدوم كان وعده مفعولا الضمير لله عز وجل والمصدر
مضاف الى فاعله او لليوم وهو مضاف الى مفعوله ان هذه اشارة الى الآيات المنطوية
على القوارع المذكورة تذكرة موعظة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا بالتقرب اليه
بالايمان والطاعة فانه المنهاج الموصل الى مرضاته ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثى الليل
اى اقل منهما استعير له الادنى لما ان المسافة بين الشيئين اذا دنت قل ما بينهما من الاحياز
ونصفه وثلثه بالنصب عطفا على ادنى وقرئا بالجر عطفا على ثلثى الليل وطائفة من
الذين معك اى ويقوم معك طائفة من اصحابك والله يقدر الليل والنهار وحده
لا يقدر على تقديرهما احد اصلا فان تقديم الاسم الجليل مبتدأ وبناء يقدر عليه موجب
للاختصاص قطعا كما يعرب عنه قوله تعالى علم ان لن تحصوه اى علم ان الشأن لن
تقدروا على تقدير الاوقات ولن تستطيعوا ضبط الساعات ابدا فتاب عليكم بالترخيص
فى ترك القيام المقدر ورفع التبعة عنكم فى تركه فاقرءوا ما تيسر من القرآن فصلوا
ما تيسر لكم من صلوة الليل عبر عن الصلوة بالقراءة كما عبر عنها بسائر اركانها قيل كان
التهجد واجبا على التخيير المذكور فعسر عليهم القيام به فنسخ به ثم نسخ هذا بالصلوات
الخمس وقيل هى قراءة القرآن بعينها قالوا من قرأ مائة آية من القرآن فى ليلة لم
يحاجه وقيل من قرأ مائة آية كتب من القانتين وقيل خمسين آية علم ان سيكون
منكم مرضى استئناف مبين لحكمة اخرى داعية الى الترخيص والتخفيف وآخرون
يضربون فى الارض يسافرون فيها للتجارة يبتغون من فضل الله وهو الربح وقد
عمم ابتغاء الفضل لتحصيل العلم وآخرون يقاتلون فى سبيل الله واذا كان الامر
كما ذكر وتعاضدت الدواعى الى الترخيص فاقرءوا ما تيسر منه من غير تحمل المشاق و

اقيموا الصلوة اى المفروضة فاتوا الزكوة الواجبة وقيل هى زكوة الفطر اذ لم يكن بمكة زكوة ومن فسرها بالزكوة المفروضة جعل آخر السورة مدنيا واقرضوا الله قرضا حسنا اريد به الانفاق فى سبيل الخيرات او اداء الزكوة على احسن الوجوه وانفعها للفقراء وما تقدموا لانفسكم من خير اى خير كان مما ذكر وما لم يذكر تجدوه عند الله هو خيرا واعظم اجرا من الذى يؤخره الى الوصية عند الموت وخيرا ثانى مفعولى تجدوا وهو تاكيد او فصل وان لم يقع بين معرفتين فان افعل فى حكم المعرفة ولذلك يمتنع من حرف التعريف وقرئ هو خير على الابتداء والخبر واستغفروا الله فى كافة احوالكم فان الانسان قلما يخلو من تفريط ان الله غفور رحيم عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرا سورة المزمل رفع الله تعالى عنه العسر فى الدنيا والاخرة

سورة المدثر مكية وهى خمس وخمسون آية بسم الله الرحمن الرحيم

يا ايها المدثر اى المتدثر وهو لابس الدثار وهو ما يلبس فوق الشعار الذى يلى الجسد قيل هى اول سورة نزلت روى عن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال كنت على جبل حراء فنوديت يا محمد انك رسول الله فنظرت عن يمينى ويسارى فلم ار شيئا فنظرت فوقى فاذا به قاعد على عرش بين السماء والارض يعنى الملك الذى ناداه فرعبت ورجعت الى خديجة فقلت دثرونى فنزل جبريل وقال يا ايها المدثر وعن الزهرى ان اول ما نزل سورة اقرأ الى قوله تعالى ما لم يعلم فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يعلو شواهق الجبال فاتاه جبريل عليه السلام وقال انك نبى الله فرجع الى خديجة فقال دثرونى وصبوا على ماء باردا فنزل يا ايها المدثر وقيل سمع من قريش ما كرهه فاغتم فتغطى بثوبه متفكرا كما يفعل المغموم فامر ان لا يدع انذارهم وان لم يسمعوه واذوه وقيل كان نائما متدثرا وقيل المراد المتدثر بلباس النبوة والمعارف الالهية وقرئ المدثر على صيغة اسم المفعول من دثره اى الذى دثر هذا الامر العظيم وعصب به وفى حرف ابى المتدثر يا ايها المدثر على الاصل قم اى من مضجعك او قم قيام عزم وتصميم فانذر اى افعل الانذار واحدثه وقيل انذر قومك كقوله تعالى وانذر عشيرتك الاقربين او جميع الناس حسبما ينبئ عنه قوله تعالى وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا وربك فكبر واختص ربك بالتكبير وهو وصفه تعالى بالكبرياء اعتقادا وقولا ويروى انه لما نزل قال رسول الله الله اكبر فكبرت خديجة وفرحت وايقنت انه الوحى وقد يحمل على تكبير الصلوة والفاء لمعنى الشرط كانه قيل ما كان اى شئ حدث فلا تدع تكبيره او للدلالة على ان المقصود الاولى من الامر بالقيام ان يكبر ربه وينزهه من الشرك فان اول ما يجب معرفة الصانع جل جلاله ثم تنزيهه عما لا يليق بجنابه وثيابك فطهر مما ليس بطاهر فانه واجب فى الصلوة واولى واحب فى غيرها وذلك بصيانتها وحفظها عن النجاسات وغسلها بعد تلطخها وبتقصيرها ايضا فان طولها يؤدى الى جر الذيول على القاذورات وهو اول ما امر به عليه السلام من رفض العادات المذمومة وقيل هو امر بتطهير النفس مما يستقذر من الافعال ويستهجن من الاحوال يقال فلان طاهر الذيل والاردان اذا وصفوه بالنقاء من المعايب ومدانس الاخلاق والرجز فاهجر اى واهجر العذاب بالثبات على هجر ما يؤدى اليه من الماثم وقرئ بكسر الراء وهما لغتان كالذكر والذكر ولا تمنن تستكثر ولا تعط مستكثرا اى رائيا لما تعطيه كثيرا او طالبا للكثير على انه نهى عن الاستغزار وهو ان يهب شيئا وهو يطمع ان يتعوض من الموهوب له اكثر مما اعطاه وهو جائز ومنه الحديث المستغزر يثاب من هبته فالنهى اما للتحريم وهو خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم لان الله تعالى اختار له اشرف الاخلاق واحسن الاداب او للتنزيه للكل وقرئ تستكثر بالسكون اعتبارا بحال الوقف او ابدالا من تمنن كانه قيل ولا تستكثر على انه من المن الذى فى قوله

تعالى منا ولا اذى لان من يعطى يستكثره ويعتد به وقرئ بالنصب باضمار ان مع ابقاء عملها كقول من قال الا ايهذا الزاجرى احضر الوغا وقد قرئ باثباتها ويجوز فى قراءة الرفع ان يحذف وان ويبطل عملها كما يروى احضر الوغا بالرفع ولربك اى لوجهه تعالى او لامره فاصبر فاستعمل الصبر وقيل على اذية المشركين وقيل على اداء الفرائض فاذا نقر فى الناقور اى نفخ فى الصور وهو فاعول من النقر بمعنى التصويت واصله القرع الذى هو سبب الصوت والفاء للسببية كانه قيل اصبر على اذاهم فبين ايديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة اذاهم وتلقى عاقبة صبرك عليه والعامل فى اذا ما دل عليه قوله تعالى فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين فان معناه عسر الامر على الكافرين وذلك اشارة الى وقت النقر وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد منزلته فى الهول والفظاعة ومحله الرفع على الابتداء ويومئذ بدل منه مبنى على الفتح لاضافته الى غير متمكن والخبر يوم عسير وقيل يومئذ ظرف للخبر اذ التقدير وذلك الوقت وقوع يوم عسير وعلى متعلقة بعسير وقيل بمحذوف هو صفة لعسير او حال من المستكن فيه وقوله تعالى غير يسير تاكيد لعسره عليهم مشعر بيسره على المؤمنين واختلف فى ان المراد به يوم النفخة الاولى او الثانية والحق انها الثانية اذ هى التى يختص عسرها بالكافرين واما النفخة الاولى فحكمها الذى هو الاصعاق يعم البر والفاجر على انها مختصة بمن كان حيا عند وقوعها وقد جاء فى الاخبار ان فى الصور ثقبا بعدد الارواح كلها وانها تجمع فى تلك الثقب فى النفخة الثانية فتخرج عند النفخ من كل ثقبة روح الى الجسد الذى نزعت منه فيعود الجسد حيا باذن الله تعالى ذرنى ومن خلقت وحيدا حال اما من الياء اى ذرنى وحدى معه فانى اكفيكه فى الانتقام منه او من التاء اى خلقته وحدى لم يشركنى فى خلقه احد او من العائد المحذوف اى ومن خلقته وحيدا فريدا لا مال له ولا ولد وقيل نزلت فى الوليد بن المغيرة المخزومى وكان يلقب فى قومه بالوحيد فهو تهكم به وبلقبه وصرف له عن الغرض الذى يؤمونه من مدحه الى جهة ذمه بكونه وحيدا من المال والولد او وحيدا من ابيه لانه كان زنيما كما مر او وحيدا فى الشرارة وجعلت له مالا ممدودا مبسوطا كثيرا او ممدا بالنماء من مد النهر ومده نهر آخر قيل كان له الضرع والزرع والتجارة وعن ابن عباس هو ما كان له بين مكة والطائف من صنوف الاموال وقيل كان له بالطائف بستان لا ينقطع ثماره صيفا وشتاء وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير كان له الف دينار وقال قتادة ستة الاف دينار وقال سفيان الثورى اربعة الاف دينار وقال الثورى ايضا الف الف دينار وبنين شهودا حضورا معه بمكة يتمتع بمشاهدتهم لا يفارقونه للتصرف فى عمل او تجارة لكونهم مكفيين لوفور نعمهم وكثرة خدمهم او حضورا فى الانديه والمحافل لوجاهتهم واعتبارهم قيل كان له عشرة بنين وقيل ثلاثة عشر وقيل سبعة كلهم رجال الوليد بن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاص والقيس وعبد شمس اسلم منهم ثلاثة خالد وهشام وعمارة ومهدت له تمهيدا وبسطت له الرياسة والجاه العريض حتى لقب ريحانة قريش ثم يطمع ان ازيد على ما اوتيه وهو استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه اما لانه لا مزيد على ما اوتى سعة وكثرة او لانه مناف لما هو عليه من كفران النعم ومعاندة المنعم وقيل انه كان يقول ان كان محمد صادقا فما خلقت الجنة الا لى كلا ردع وزجر له عن طمعه الفارغ وقطع لرجائه الخائب وقوله تعالى انه كان لاياتنا عنيدا تعليل لذلك على وجه الاستئناف التحقيقى فان معاندة آيات المنعم مع كفران نعمته مع سبوغها مما يوجب حرمانه بالكلية وانما اوتى ما اوتى استدراجا قيل ما زال بعد نزول هذه الآية فى نقصان من ماله حتى هلك سارهقه صعودا ساغشيه بدل ما يطمعه من الزيادة او الجنة عقبة شاقة المصعد وهو مثل لما يلقى من العذاب الصعب الذى لا يطاق وعن النبى صلى الله عليه وسلم

فنوديت

يكلف ان يصعد عقبة فى النار كلما وضع يده عليها ذابت فاذا رفعها عادت واذا وضع
رجله ذابت فاذا رفعها عادت وعنه صلى الله عليه وسلم الصعود جبل من نار يصعد فيه
سبعين خريفا ثم يهوى فيه كذلك ابدا انه فكر وقدر تعليل للوعيد واستحقاقه
له او بيان لعناده لآياته تعالى اى فكر ماذا يقول فى شان القرآن وقدر فى نفسه ما يقوله
فقتل كيف قدر تعجيب من تقديره واصابته فيه الغرض الذى كان ينتحيه قريش قاتلهم الله
او ثناء عليه على طريق الاستهزاء به او حكاية لما كرره من قولهم قتل كيف قدر تهكما
بهم وباعجابهم بتقديره واستعظامهم لقوله ومعنى قولهم قتله الله ما اشجعه
واخزاه الله ما اشعره الاشعار بانه قد بلغ من الشجاعة والشعر مبلغا حقيقا بان يدعو
عليه حاسده بذلك روى ان الوليد قال لبنى مخزوم والله لقد سمعت من محمد آنفا
كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة
وان اعلاه لمثمر وان اسفله لمغدق وانه يعلو ولا يعلى فقالت قريش صبأ والله الوليد
والله لتصبأن قريش كلهم فقال ابن اخيه ابو جهل انا اكفيكموه فقعد عنده حزينا
وكلمه بما احماه فقام فاتاهم فقال تزعمون ان محمدا مجنون فهل رأيتموه يخنق و
تقولون انه كاهن فهل رأيتموه يتكهن وتزعمون انه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى
شعرا قط وتزعمون انه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب فقالوا فى كل ذلك اللهم لا ثم
قالوا فما هو ففكر فقالوا ما هو الا ساحر اما رأيتموه يفرق بين الرجل واهله وولده
ومواليه وما الذى يقوله الا سحر يأثره عن اهل بابل فارتج النادى فرحا وتفرقوا
معجبين بقوله متعجبين منه ثم قتل كيف قدر تكرير للمبالغة وثم للدلالة على ان الثانية
ابلغ من الاولى وفيما بعد على اصلها من التراخى الزمانى ثم نظر اى فى القرآن مرة بعد مرة
ثم عبس قطب وجهه لما لم يجد فيه مطعنا ولم يدر ماذا يقول وقيل نظر فى
وجوه الناس ثم قطب وجهه وقيل نظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قطب فى
وجهه وبسر اتباع لعبس ثم ادبر عن الحق او عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
واستكبر عن اتباعه فقال ان هذا الا سحر يؤثر يروى ويتعلم والفاء للدلالة
على ان هذه الكلمة لما خطرت بباله تفوه بها من غير تلعثم وتلبث وقوله تعالى ان هذا
الا قول البشر تاكيد لما قبله ولذلك اخلى عن العاطف ساصليه سقر بدل من
سارهقه صعودا وما ادراك ما سقر اى شئ اعلمك ما سقر على ان ما الاولى مبتدأ
وادراك خبره وما الثانية خبر لانها المفيدة لما قصد افادته من التهويل والتفظيع و
سقر مبتدأ اى اى شئ هى فى وصفها لما مر مرارا من ان ما قد يطلب بها الوصف وان
كان الغالب ان يطلب بها الاسم والحقيقة وقوله تعالى لا تبقى ولا تذر بيان للوصف او حال
وانجاز للوعد الضمنى الذى يلوح به وما ادراك ما سقر وقيل حال من سقر
وليس بذاك اى لا تبقى شيئا يلقى فيها الا اهلكته واذا هلك لم تذره هالكا حتى يعاد
او لا تبقى على شئ ولا تدعه من الهلاك بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة لواحة
للبشر مغيرة لاعالى الجسد مسودة لها قيل تلفح الجلد لفحة فتدعه اشد سوادا
من الليل وقيل تلوح للناس كقوله تعالى ثم لترونها عين اليقين وقرئ لواحة بالنصب
على الاختصاص للتهويل عليها تسعة عشر اى ملكا او صنفا او صفا او نقيبا
من الملئكة يلون امرها ويتسلطون على اهلها وقرئ بسكون عين عشر حذرا من
توالى الحركات فيما هو فى حكم اسم واحد وقرئ اعشر جمع عشير مثل يمين وايمن
وما جعلنا اصحاب النار اى المدبرين لامرها القائمين بتعذيب اهلها الا
ملائكة ليخالفوا جنس المعذبين فلا يرقوا لهم ولا يستروحوا اليهم ولانهم اقوى
الخلق واقومهم بحق الله عز وجل وبالغضب له تعالى واشدهم بأسا عن النبى صلى
الله عليه وسلم لاحدهم مثل قوة الثقلين يسوق احدهم الامة وعلى رقبته جبل
فيرمى فى النار ويرمى بالجبل عليهم وروى انه لما نزل عليها تسعة عشر قال
ابو جهل لقريش ايعجز كل عشرة منكم ان يبطشوا برجل منهم فقال ابو الاشد بن اسيد

بن كلدة الجمحى وما كان شديد البطش انا اكفيكم سبعة عشر فاكفونى انتم اثنين فنزلت اى
ما جعلناهم رجالا من جنسكم وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا اى ما جعلنا
عددهم الا العدد الذى تسبب لافتتانهم وهو التسعة عشر فعبر بالاثر عن المؤثر
تنبيها عن التلازم بينهما وليس المراد مجرد جعل عددهم ذلك العدد المعين
فى نفس الامر بل جعله فى القرآن ايضا كذلك وهو الحكم بان عليها تسعة عشر
اذ بذلك يتحقق افتتانهم باستقلالهم له واستبعادهم لتولى هذا العدد القليل
لتعذيب اكثر الثقلين واستهزائهم به حسبما ذكر وعليه يدور ما سيأتى من استيقان
اهل الكتاب وازدياد المؤمنين ايمانا قالوا المخصص لهذا العدد ان اختلاف النفوس
البشرية فى النظر والعمل بحسب القوى الحيوانية الاثنتى عشرة والطبيعية السبع
او ان جهنم سبع دركات ست منها لاصناف الكفرة وكل صنف يعذب بترك الاعتقاد
والاقرار والعمل انواعا من العذاب يناسبها وعلى كل نوع ملك او صنف او صف يتولاه
وواحدة لعصاة الامة يعذبون فيها بترك العمل نوعا يناسبه ويتولاه واحد او
ان الساعات اربع وعشرون خمسة منها مصروفة للصلوات الخمس فيبقى تسعة
عشر قد تصرف الى ما يؤاخذ به بانواع من العذاب يتولاها الزبانية ليستيقن
الذين اوتوا الكتاب متعلق بالجعل على المعنى المذكور اى ليكتسبوا اليقين بنبوته
صلى الله عليه والسلام وصدق القرآن لما شاهدوا ما فيه موافقا لما فى كتابهم
ويزداد الذين امنوا ايمانا اى يزداد ايمانهم كيفية بما رأوا من تسليم اهل الكتاب
وتصديقهم انه كذلك او كمية بانضمام ايمانهم بذلك الى ايمانهم بسائر ما
انزل ولا يرتاب الذين اوتوا الكتاب والمؤمنون تاكيد لما قبله من الاستيقان وازدياد
الايمان ونفى لما قد يعترى المستيقن من شبهة ما وانما لم ينظم المؤمنون فى سلك اهل
الكتاب فى نفى الارتياب حيث لم يقل ولا يرتابوا للتنبيه على تباين النفيين حالا فان انتفاء
الارتياب من اهل الكتاب مقارن لما ينافيه من الجحود ومن المؤمنين مقارن لما يقتضيه
من الايمان وكم بينهما والتعبير عنهم باسم الفاعل بعد ذكرهم بالموصول والصلة
الفعلية عن الحدوث للايذان بثباتهم على الايمان بعد ازدياده ورسوخهم فى
ذلك وليقول الذين فى قلوبهم مرض شك او نفاق فيكون اخبارا بما سيكون
فى المدينة بعد الهجرة والكافرون المصرون على التكذيب ماذا اراد الله بهذا
مثلا اى اى شئ اراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل وقيل لما استبعدوه حسبوا
انه مثل مضروب واسناد قولهم هذا بالتعليل مع كونه من باب فتنتهم للاشعار
باستقلاله فى الشناعة كذلك يضل الله من يشاء ذلك اشارة الى ما قبله من
معنى الاضلال والهداية ومحل الكاف فى الاصل النصب على انها صفة لمصدر
محذوف واصل التقدير يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء اضلالا و
هداية كائنين مثل ما ذكر من الاضلال والهداية فحذف المصدر واقيم
وصفه مقامه ثم قدم على الفعل لافادة القصر فصار النظم مثل ذلك الاضلال
وتلك الهداية يضل الله من يشاء اضلاله لصرف اختياره الى جانب الضلال
عند مشاهدته لآيات الله تعالى الناطقة بالحق ويهدى من يشاء هدايته
لصرف اختياره عند مشاهدة تلك الآيات الى جانب الهدى لا اضلالا وهداية
ادنى منهما وما يعلم جنود ربك اى جموع خلقه التى من جملتها الملائكة المذكورون
الا هو اذ لا سبيل لاحد الى حصر الممكنات والوقوف على حقائقها وصفاتها
ولو اجمالا فضلا عن الاطلاع على تفاصيل احوالها من كم وكيف ونسبة
وما هى اى سقر وعدة خزنتها او الآيات الناطقة باحوالها الا ذكرى
للبشر اى تذكرة لهم كلا ردع لمن انكرها او انكار ونفى لان يكون لهم
تذكرة والقمر والليل اذ ادبر وقرئ اذا دبر بمعنى ادبر كقبل بمعنى
اقبل ومنه قولهم صاروا كامس الدابر وقيل هو من دبر الليل النهار اذا

خلفه والصبح اذا اسفر اى اضاء وانكشف انها لاحدى الكبر جواب للقسم
او تعليل لكلا والقسم معترض للتوكيد والكبر جمع الكبرى جعلت الف التانيث كتائها
فكما جمعت فعلة على فعل جمعت فعلى عليها ونظيرها القواصع فى جمع القاصعة كانها
جمع قاصعة اى لاحدى البلايا او لاحدى الدواهى الكبر على معنى ان البلايا الكبرى
والدواهى الكبر كثيرة وهذه واحدة فى العظم لانظيرة لها نذيرا للبشر تمييز اى لاحدى
الكبر انذارا او حال مما دلت عليه الجملة اى كبرت منذرة وقرئ نذير بالرفع على انه
خبر بعد خبر لان او لمبتداء محذوف لمن شاء منكم ان يتقدم او يتاخر بدل من للبشر
اى من نذيرا لمن شاء منكم ان يسبق الى الخير فيهديه الله تعالى او لم يشاء فكذلك فيضله
وقيل لمن شاء خبر وان يتقدم او يتاخر مبتداء فيكون فى معنى قوله تعالى فمن شاء
فليؤمن ومن شاء فليكفر كل نفس بما كسبت رهينة مرهونة عند الله بكسبها والرهينة
اسم بمعنى الراهن كالشتيمة بمعنى الشتم لاصفة والا لقيل رهين لان فعيلا بمعنى مفعول
لايدخله التاء الا اصحاب اليمين فانهم فاكون رقابهم بما احسنوا من اعمالهم كما يفك
الراهن رهنه باداء الدين وقيل هم الملئكة وقيل الاطفال وقيل هم الذين سبقت لهم
من الله الحسنى وقيل الذين كانوا عن يمين آدم عليه السلام يوم الميثاق وقيل
الذين يعطون كتبهم بايمانهم فى جنات لايكتنه كنهه ولا يدرك وصفها وهو
خبر لمبتدا محذوف والجملة استيناف وقع جوابا عن سؤال نشاء مما قبله من استثناء
اصحاب اليمين كانه قيل ما بالهم فقيل هم فى جنات وقيل حال من اصحاب اليمين
وقيل من ضميرهم فى قوله تعالى يتساءلون وقيل ظرف للتساءل وليس المراد
بتساءلهم ان يسال بعضهم بعضا على ان يكون كل واحد منهم سائلا ومسؤلا معا
بل صدور السؤال عنهم مجردا عن وقوعه عليهم فان صيغة التفاعل وان وضعت
فى الاصل للدلالة على صدور الفعل عن المتعدد ووقوعه عليه معا بحيث يصير كل واحد
من ذلك فاعلا ومفعولا معا كما فى قولك ترائى القوم اى راى كل واحد منهم الآخر
لكنها قد تجرد عن المعنى الثانى ويقصد بها الدلالة على الاول فقط فيذكر للفعل حينئذ
مفعول كما فى قولك تراءوا الهلال فمعنى يتساءلون عن المجرمين يسالونهم عن احوالهم
وقد حذف المسئول لكونه عين المسئول عنه وقوله تعالى ما سلككم فى سقر مقدر بقول
هو حال من فاعل يتساءلون اى يسالونهم قائلين اى شئ ادخلكم فيها فتامل ودع
عنك ما تكلف فيه المتكلفون قالوا اى المجرمون مجيبين للسائلين لم نك من المصلين
للصلوات الواجبة ولم نك نطعم المسكين على معنى استمرار نفى الاطعام لا على نفى
استمرار الاطعام كما مر مرارا وفيه دلالة على ان الكفار مخاطبون بالفروع فى حق
المؤاخذة وكنا نخوض مع الخائضين اى نشرع فى الباطل مع الشارعين فيه
وكنا نكذب بيوم الدين اى بيوم الجزاء اضافوه الى الجزاء مع ان فيه من الدواهى
والاهوال مالاغاية له لانه ادناها واهونها وانهم ملابسوه وقد مضت بقية الدواهى
وتاخير جناياتهم هذه مع كونها اعظم من الكل لتفخيمها كانهم قالوا وكنا بعد ذلك
كله مكذبين بيوم الدين ولبيان كون تكذيبهم به مقارنا لسائر جناياتهم المعدودة
مستمرا الى آخر عمرهم حسبما نطق به قولهم حتى اتانا اليقين اى الموت ومقدماته فما
تنفعهم شفاعة الشافعين لو شفعوا لهم جميعا والفاء فى قوله تعالى فما لهم عن
التذكرة معرضين لترتيب انكار اعراضهم عن القرآن بغير سبب على ما قبلها من
موجبات الاقبال عليه والاتعاظ به من سوء حال المكذبين ومعرضين حال من الضمير
فى الجار الواقع خبرا لما الاستفهامية وعن متعلقة به اى فاذا كان حال المكذبين به على
ما ذكر فاى شئ حصل لهم معرضين عن القرآن مع تعاضد موجبات الاقبال عليه و
تاخذ الدواعى الى الايمان به وقوله تعالى كانهم حمر مستنفرة حال من المستكن فى معرضين
بطريق التداخل اى مشبهين بحمر نافرة فرت من قسورة اى من اسد فعولة من
القسر وهو القهر والغلبة وقيل هى جماعة الرماة الذين يتصيدونها شبهوا فى

اعراضهم عن القرآن واستماع ما فيه من المواعظ وشرادهم عنه بحمر جدت فى نفارها
مما افزعها وفيه من ذمهم وتهجين حالهم ما لا يخفى وقوله تعالى بل يريد كل امرئ
منهم ان يؤتى صحفا منشرة عطف على مقدر يقتضيه المقام كانه قيل لايكتفون
بتلك التذكرة ولا يرضون بها بل يريد كل واحد منهم ان يؤتى قراطيس تقرأ وهى
تنشر وذلك انهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لن نتبعك حتى تاتى كل واحد منا
بكتب من السماء عنوانها من رب العالمين الى فلان بن فلان يؤمر فيها باتباعك كما قالوا
لن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه وقرئ صحفا منشرة بسكون الحاء و
النون كلا ردع لهم عن تلك الجراءة بل لا يخافون الآخرة فلذلك يعرضون عن
التذكرة لا لامتناع ايتاء الصحف كلا ردع عن اعراضهم انه اى القرآن تذكرة
واى تذكرة فمن شاء ان يذكره ذكره وحاز بسببه سعادة الدارين وما
يذكرون بمجرد مشيتهم للذكر كما هو المفهوم من ظاهر قوله تعالى فمن شاء ذكره
اذ لا تاثير لمشية العبد وارادته فى افعاله وقوله تعالى الا ان يشاء الله استثناء
مفرغ من اعم العلل او من اعم الاحوال اى وما يذكرون بعلة من العلل او فى حال من
الاحوال الا بان يشاء الله او حال ان يشاء الله ذلك وهذا تصريح بان افعال
العباد بمشية عز وجل وقرئ تذكرون على الخطاب التفاتا وقرئ بهما مشددا
هو اهل التقوى اى حقيق بان يتقى عقابه ويؤمن به ويطاع واهل المغفرة حقيق
بان يغفر لمن آمن به واطاعه عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المدثر
اعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد من صدق محمدا وكذب به

سورة القيمة مكية وهى آية بسم الله الرحمن الرحيم

لا اقسم بيوم القيمة وادخال النافية على فعل القسم شائع وفائدتها توكيد القسم
قالوا انها صلة مثلها فى قوله تعالى لئلا يعلم اهل الكتاب وقيل هى للنفى لكن لا لنفى نفس
الاقسام بل لنفى ما ينبئ عنه من اعظام المقسم به وتفخيمه كان معنى لا اقسم بكذا لا اعظمه
باقسامى به حق اعظامه فانه حقيق باكثر من ذلك واكثر واما ما قيل من ان المعنى فى
الاقسام لوضوح الامر فقد عرفت ما فيه فى قوله تعالى فلا اقسم بمواقع النجوم وقيل
ان لا النفى ورد لكلام معهود قبل القسم كانهم انكروا البعث فقيل لا اى ليس الامر كما
كذلك ثم قيل اقسم بيوم القيمة كقولك والله ان البعث حق وايا ما كان ففى
الاقسام على تحقق البعث بيوم القيمة من الجزالة ما لامزيد عليه وقد مر تفصيله
فى سورة يس وسورة الزخرف ولا اقسم بالنفس اللوامة اى بالنفس المتقية
التى تلوم النفوس يومئذ على تقصيرهن فى التقوى ففيه طرف من البراعة التى
فى القسم السابق او بالنفس التى لاتزال تلوم نفسها وان اجتهدت فى الطاعات
او بالنفس المطمئنة اللائمة للنفس الامارة وقيل بالجنس لما روى انه
صلى الله عليه وسلم قال ليس من نفس برة ولا فاجرة الا وتلوم نفسها يوم القيمة
ان عملت خيرا قالت كيف لم ازدد وان عملت شرا قالت ليتنى كنت قصرت فان هذا
القول من اللوم ولا يكون مدارا للاعظام بالاقسام وان صدر عن النفس المؤمنة
المسيئة فكيف من الكافرة المندرجة تحت الجنس وقيل بنفس آدم عليه السلام فانها
لاتزال تتلوم على فعلها الذى خرجت به من الجنة وجواب القسم ما دل عليه قوله
تعالى ايحسب الانسان ان لن نجمع عظامه وهو ليبعثن والمراد بالانسان
الجنس والهمزة لانكار الواقع واستقباحه وان مخففة من الثقيلة وضمير الشان
الذى هو اسمها محذوف اى ايحسب ان الشان لن نجمع عظامه فان ذلك حسبان
باطل فانا نجمعها بعد تشتتها ورجوعها رميما ورفاتا مختلطا بالتراب وبعدما
سفتها الرياح وطيرتها فى اقطار الارض والقتها فى البحار وقيل ان
عدى بن ابى ربيعة ختن الاخنس بن شريق وهما اللذان كان النبى صلى الله عليه وسلم

يقول اللهم اكفني جارى السوء قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد حدثني عن
يوم القيمة متى يكون وكيف امره فاخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم لو عاينت ذلك
اليوم لم اصدقك او يجمع الله هذه العظام بلى اى نجمعها حال كوننا قادرين
على ان نسوى بنانه اى نجمع سلامياته ونضم بعضها الى بعض كما كانت مع صغرها
ولطافتها فكيف بكبار العظام او على ان نسوى اصابعه التى هى اطرافه وآخر ما
يتم به خلقه وقرئ قادرون اى نحن قادرون بل يريد الانسان ليفجر امامه
عطف على ايحسب اما على انه استفهام مثله اضرب عن التوبيخ بذلك الى التوبيخ
بهذا او على انه ايجاب انتقل اليه من الاستفهام اى بل يريد ليدوم على فجوره فيما
بين يديه من الاوقات وما يستقبله من الزمان لا يرعوى عنه يسئل ايان يوم
القيمة اى متى تكون استبعادا او استهزاء فاذا برق البصر اى تحير فزعا
من برق الرجل اذا نظر الى البرق ودهش بصره وقرئ بفتح الراء وهى لغة او
من البريق بمعنى لمع من شدة شخوصه وقرئ بلق اى انفتح وانفرج وخسف القمر
اى ذهب ضوءه وقرئ على البناء للمفعول وجمع الشمس والقمر بان يطلعهما الله من
المغرب وقيل جمعا فى ذهاب الضوء وقيل يجمعان اسودين مكورين كانهما ثوران
عقيران فى النار وتذكير الفعل لتقدمه وتغليب المعطوف يقول الانسان يومئذ اى يوم اذ
يقع هذه الامور اين المفر اى الفرار يأسا منه وقرئ بالكسر اى موضع الفرار وقد
جوز ان يكون هو ايضا مصدرا كالمرجع كلا ردع عن طلب المفر وتمنيه لا وزر لا ملجأ
مستعار من الجبل قيل كل ما التجأت اليه وتخلصت به فهو وزرك الى ربك يومئذ المستقر
اى اليه وحده استقرار العباد او الى حكمه استقلال امرهم او الى مشيئته موضع قرارهم
يدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار ينبؤا الانسان يومئذ اى يخبر كل امرئ برا
كان او فاجرا عند وزن الاعمال بما قدم اى عمل من عمل خيرا كان او شرا فيثاب بالاول
ويعاقب بالثانى واخر اى لم يعمل خيرا كان او شرا فيعاقب بالاول ويثاب بالثانى
او بما قدم من حسنة او سيئة وبما اخر من سنة حسنة او سيئة فعمل بها بعده او
بما قدم من مال تصدق به فى حياته وبما اخر فخلفه او وقفه او اوصى به او باول
عمله وآخره بل الانسان على نفسه بصيرة اى حجة بينة على نفسه شاهدة بما
صدر عنه من الاعمال السيئة كما يعرب عنه كلمة على وما سيأتى من الجملة الحالية
وصفت بالبصارة مجازا كما وصفت الآيات والابصار فى قوله تعالى فلما جاءتهم
آياتنا مبصرة او عين بصيرة او التاء للمبالغة ومعنى بل الترقى اى ينبؤ الانسان باعماله
بل هو يومئذ عالم بتفاصيل احواله شاهد على نفسه لان جوارحه تنطق بذلك
وقوله تعالى ولو القى معاذيره اى ولو جاء بكل معذرة يمكن ان يعتذر بها عن
نفسه حال من المستكن فى بصيرة او من مرفوع ينبؤا اى هو بصيرة على نفسه تشهد
عليه جوارحه وتقبل شهادتها ولو اعتذر بكل معذرة يمكن ان يعتذر بها عن
نفسه حال من المستكن فى بصيرة او من مرفوع ينبؤا اى هو بصيرة على نفسه يشهد عليه
جوارحه وتقبل شهادتها ولو اعتذر بكل معذرة او ينبؤ باعماله ولو اعتذر الخ
والمعاذير اسم جمع للمعذرة كالمناكير اسم جمع للمنكر وقيل هو جمع معذار وهو الستر
اى ولو ارخى ستوره كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا لقن الوحى نازع
جبريل عليه السلام القراءة ولم يصبر الى ان يتمها مسارعة الى الحفظ وخوفا
من ان يتفلت منه فامر عليه السلام بان يستنصت له ملقيا اليه قلبه وسمعه حتى يقضى
اليه الوحى ثم يقفيه بالدراسة الى ان يرسخ فيه فقيل لا تحرك به اى بالقرآن لسانك
عند القاء الوحى لتعجل به اى لتاخذه على عجلة مخافة ان يتفلت منه ان علينا
جمعه فى صدرك بحيث لا يذهب عليك شىء من معانيه وقرآنه اى اثبات قراءته
فى لسانك فاذا قرأناه اى اتممنا قراءته عليك بلسان جبريل عليه السلام واسناد القراءة
الى نون العظمة للمبالغة فى ايجاب التأنى فاتبع قرآنه فكن مقفيا له ولا تراسله ثم ان

علينا

علينا بيانه اى بيان ما اشكل عليك من معانيه واحكامه كلا ردع له صلى الله عليه وسلم
عن عادة العجلة وترغيب له فى الاناءة واكد ذلك بقوله تعالى بل تحبون العاجلة و
تذرون الآخرة على تعميم الخطاب للكل اى بل انتم يا بنى آدم لما خلقتم من عجل و
جبلتم عليه تعجلون فى كل شىء ولذلك تحبون العاجلة وتذرون الآخرة وقيل كلا
ردع للانسان عن الاغترار بالعاجل فيكون جمع الضمير فى الفعلين باعتبار معنى الجنس
ويؤيده قراءة الفعلين على صيغة الغيبة وجوه يومئذ ناضرة اى وجوه كثيرة و
هى وجوه المؤمنين المخلصين يوم اذ تقوم القيمة بهية متهللة يشاهد عليها
نضرة النعيم على ان وجوه مبتدأ وناضرة خبره ويومئذ منصوب بناضرة وناظرة
فى قوله تعالى الى ربها ناظرة خبر ثان للمبتدأ او نعت لناضرة والى ربها متعلقة بناظرة
وصحة وقوع النكرة مبتدأ لان المقام مقام تفصيل لا على ان ناضرة صفة لوجوه
والخبر ناظرة كما قيل لما هو المشهور من ان حق الصفة ان تكون معلومة الانتساب
الى الموصوف عند السامع وحيث لم يكن ثبوت النضرة للوجوه كذلك فحقه ان يخبر
به ومعنى كونها ناظرة الى ربها انها تراه تعالى مستغرقة فى مطالعة جماله بحيث تغفل
عما سواه وتشاهده تعالى بلا كيف ولا على جهة وليس هذا فى جميع الاحوال حتى
ينافيها نظرها الى غيره وقيل منتظرة انعامه ورد بان الانتظار لا يسند الى الوجه
وتفسيره بالجملة خلاف الظاهر وان المستعمل بمعناه لا يعدى بالى ووجوه يومئذ باسرة
شديدة العبوس وهى وجوه الكفرة تظن يتوقع اربابها ان يفعل بها فاقرة داهية
عظيمة تقصم فقار الظهر كلا ردع عن ايثار العاجلة على الآخرة اى ارتدعوا
عن ذلك وتنبهوا لما بين ايديكم من الموت الذى ينقطع عنده ما بينكم وبين العاجلة
من العلاقة اذا بلغت التراقى اى بلغت النفس اعالى الصدور وهى العظام المكتنفة
لثغرة النحر عن يمين وشمال وقيل من راق اى قال من حضر صاحبها من يرقيه
وينجيه مما هو فيه من الرقية وقيل هو من كلام ملائكة الموت ايكم يرقى بروحه
ملائكة الرحمة او ملائكة العذاب من الرقى وظن انه الفراق وايقن المحتضر اى
ما نزل به الفراق من الدنيا ونعيمها والتفت الساق بالساق والتوت ساقه
بساقه والتوت عليها عند قلق الموت وقيل هما شدة فراق الدنيا وشدة اقبال الآخرة
وقيل هما ساقاه حين تلفان فى اكفانه الى ربك يومئذ المساق اى الى الله
تعالى والى حكمه يساق لا الى غيره فلا صدق ما يجب تصديقه من الرسول عليه
السلام والقرآن الذى نزل عليه فلا صدق ماله ولا زكاه ولا صلى ما فرض
عليه والضمير فيهما للانسان المذكور فى قوله ايحسب الانسان وفيه دلالة على
ان الكفار مخاطبون بالفروع فى حق المؤاخذة كما مر ولكن كذب ما ذكر من
الرسول والقرآن وتولى عن الطاعة ثم ذهب الى اهله يتمطى يتبختر افتخارا
بذلك من المطيطاء المتبختر يمد خطاه فيكون اصله يتمطط او من المطا وهو الظهر
فانه يلويه اولى لك فاولى اى ويل لك واصله اولاك الله ما تكرهه واللام
مزيدة كما فى ردف لكم او اولى لك الهلاك وقيل هو افعل من الويل بعد القلب
ادنى من دون او فعلى من آل يؤل بمعنى عقباك النار ثم اولى لك فاولى اى
يتكرر عليه ذلك مرة بعد اخرى ايحسب الانسان ان يترك سدى ان يخلى مهملا
فلا يكلف ولا يجزى وقيل ان يترك فى قبره فلا يبعث وقوله تعالى الم يك نطفة
من منى يمنى الخ استيناف وارد لابطال الحسبان المذكور فان مداره لما كان
استبعادهم للاعادة استدل على تحققها ببدء الخلق ثم كان علقة اى بقدرة
الله تعالى لقوله ثم جعلنا النطفة علقة فخلق اى فقدر بان جعلها مضغة مخلقة
فسوى فعدله وكمل نشأته فجعل منه من الانسان الزوجين اى الصنفين
الذكر والانثى بدل من الزوجين اليس ذلك العظيم الشان الذى انشأ
هذا الانشاء البديع بقادر على ان يحيى الموتى وهو اهون من البدء وفى

قياس العقل روي ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأها قال سبحانك بلى وعنه عليه السلام من قرأ سورة القيمة شهدت له انا وجبريل يوم القيمة انه كان مؤمنا بيوم القيمة

سورة الانسان مدنية وهي احدى و آية بسم الله الرحمن الرحيم

هل أتى استفهام تقرير وتقريب فان هل بمعنى قد والاصل أهل أتى على الانسان قبل زمان قريب حين من الدهر اي طائفة محدودة كائنة من الزمن الممتد لم يكن شيئا مذكورا بل كان شيئا منسيا غير مذكور بالانسانية اصلا كالعنصر والنطفة وغير ذلك والجملة المنفية حال من الانسان اي غير مذكور او صفة اخرى لحين على حذف العائد الى الموصوف اي لم يكن فيه شيئا مذكورا والمراد بالانسان الجنس فالاظهار في قوله تعالى انا خلقنا الانسان من نطفة لزيادة التقرير او آدم عليه السلام وهو المروي عن ابن عباس وقتادة والثوري وعكرمة والشعبي قال ابن عباس في رواية ابي صالح عنه مرت به اربعون سنة قبل ان ينفخ فيه الروح وهو ملقى بين مكة والطائف وفي رواية الضحاك عنه انه خلق من طين فاقام اربعين سنة ثم من حمإ مسنون فاقام اربعين سنة ثم من صلصال فاقام اربعين سنة فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ثم نفخ فيه الروح وحكى الماوردي عن ابن عباس ان الحين المذكور ههنا هو الزمن الطويل الممتد الذي لا يعرف مقداره فيكون الاول اشارة الى خلقه عليه السلام وهذا بيانا لخلق بنيه امشاج اخلاط جمع مشج او مشيج من مشجت الشيء اذا خلطته وصف النطفة به لما ان المراد بها مجموع الماءين ولكل منهما اوصاف مختلفة من اللون والرقة والغلظ وخواص متباينة فان ماء الرجل ابيض غليظ فيه قوة العقد وماء المرأة اصفر رقيق فيه قوة الانعقاد يخلق منهما الولد فما كان من عصب وعظم وقوة فمن ماء الرجل وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة قال القرطبي وقد روي هذا مرفوعا وقيل مفرد كاعشار واكياس وقيل امشاج الوان واطوار فان النطفة تصير علقة ثم مضغة الى تمام الخلقة وقوله تعالى نبتليه حال من فاعل خلقنا اي مريدين ابتلاءه بالتكليف فيما سيأتي او ناقلين له من حال الى حال على طريقة الاستعارة كما روي عن ابن عباس نصرفه في بطن امه نطفة ثم علقة الى آخره فجعلناه سميعا بصيرا ليتمكن من استماع الآيات التنزيلية ومشاهدة الآيات التكوينية فهو كالمسبب من الابتلاء فلذلك عطف على الخلق المقيد به بالفاء ورتب عليه قوله تعالى انا هديناه السبيل بانزال الآيات ونصب الدلائل اما شاكرا واما كفورا حالان من مفعول هديناه اي مكناه واقدرناه على سلوك الطريق الموصل الى البغية في حالتيه جميعا او للتفصيل او التقسيم اي هديناه الى ما يوصل اليها في حالتيه جميعا او مقسوما اليهما بعضهم شاكر بالاهتداء والاخذ فيه وبعضهم كفور بالاعراض عنه وقيل من السبيل اي عرفناه السبيل اما سبيلا شاكرا او كفورا على وصف السبيل بوصف سالكه مجازا وقرئ اما بالفتح على حذف الجواب اي اما شاكرا فبتوفيقنا واما كفورا فبسوء اختياره لا بجبر كما اخبرنا من قبله وايراد الكفور لمراعاة الفواصل والاشعار بان الانسان قلما يخلو من كفران ما وانما المؤاخذ عليه الكفر المفرط انا اعتدنا للكافرين من افراد الانسان الذي هديناه السبيل سلاسل بها يقادون واغلالا بها يقيدون وسعيرا بها يحرقون وتقديم وعيدهم مع تأخرهم للجمع بينهما في الذكر كما في قوله تعالى يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فاما الذين اسودت وجوههم الآية ولان الانذار اهم وانفع وتصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين احسن على ان في وصفهم تفصيلا ربما يخل تقديمه بتجاوب اطراف النظم الكريم وقرئ سلاسلا للتناسب ان الابرار شروع في بيان حسن حال الشاكرين اثر بيان سوء حال الكافرين وايرادهم

البرّ للاشعار بما استحقوا به ما نالوه من الكرامة السنية والابرار جمع برّ او بارّ كربّ وارباب وشاهد واشهاد وقيل هو من ابرّ خالقه اي يطيعه وقيل من يمتثل بامره تعالى وقيل من يؤدي حق الله تعالى ويوفي بالنذر وعن الحسن البر من لا يؤذي الذرّ يشربون من كأس هي الزجاجة اذا كانت فيها خمر وتطلق على نفس الخمر ايضا فمن على الاول ابتدائية وعلى الثاني تبعيضية او بيانية كان مزاجها اي ما تمزج به كافورا اي ماء كافور وهو اسم عين في الجنة ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده والجملة صفة كأس وقوله تعالى عينا بدل من كافورا وعن قتادة تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك وقيل تخلق فيها رائحة الكافور وبياضه وبرده فكانها مزجت بالكافور فعينا على هذين القولين بدل من محل من كأس على تقدير مضاف اي يشربون خمرا خمر عين او نصب على الاختصاص وقوله تعالى يشرب بها عباد الله صفة عينا اي يشربون بها الخمر لكونها ممزوجة بها وقيل ضمن يشرب معنى يلتذ وقيل الباء بمعنى من وقيل زائدة ويعضده قراءة ابن ابي عبلة يشربها عباد الله وقيل الضمير للكأس والمعنى يشربون العين بتلك الكأس يفجرونها تفجيرا اي يجرونها حيثما شاؤوا من منازلهم اجراء سهلا لا يمتنع عليهم بل يجري جريا بقوة واندفاع والجملة صفة اخرى لعينا وقوله تعالى يوفون بالنذر استئناف مسوق لبيان ما لاجله رزقوا ما ذكر من النعيم مشتمل على نوع تفصيل لما ينبئ عنه اسم الابرار اجمالا كانه قيل ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية فقيل يوفون بما اوجبوه على انفسهم فكيف بما اوجبه الله تعالى عليهم ويخافون يوما كان شره مستطيرا فاشيا منتشرا في الاقطار غاية الانتشار من استطار الحريق والفجر وهو ابلغ من طار بمنزلة استنفر من نفر ويطعمون الطعام على حبه اي كائنين على حب الطعام والحاجة اليه كما في قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون او على حب الاطعام بان يكون ذلك بطيب النفس او كائنين على حب الله تعالى او اطعاما كائنا على حبه تعالى وهو الانسب لما سيأتي من قوله تعالى لوجه الله مسكينا ويتيما واسيرا اي اسير كان فانه صلى الله عليه وسلم يؤتى بالاسير فيدفعه الى بعض المسلمين فيقول احسن اليه او اسيرا مؤمنا فيدخل فيه المملوك والمسجون وقد سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الغريم اسيرا فقال غريمك اسيرك فاحسن الى اسيرك انما نطعمكم لوجه الله على ارادة قول هو في موقع الحال من فاعل يطعمون اي قائلين ذلك بلسان الحال او بلسان المقال ازاحة لتوهم المن المبطل للصدقة وتوقع المكافأة المنقصة للاجر وعن الصديقة رضي الله عنها انها كانت تبعث بالصدقة الى اهل بيت ثم تسأل الرسول ما قالوا فاذا ذكر دعاءهم دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصا عند الله تعالى لا نريد منكم جزاء ولا شكورا اي شكرا وهو تقرير وتأكيد لما قبله انا نخاف من ربنا يوما اي عذاب يوم عبوسا يعبس فيه الوجوه او يشبه الاسد العبوس في الشدة والضراوة قمطريرا شديد العبوس فلذلك نفعل بكم ما نفعل رجاء ان يقينا ربنا بذلك شره وقيل هو تعليل لعدم ارادة الجزاء والشكر اي انا نخاف عقاب الله تعالى ان اردناهما فوقاهم الله شر ذلك اليوم بسبب خوفهم وتحفظهم عنه ولقاهم نضرة وسرورا اي اعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة في الوجوه وسرورا في القلوب وجزاهم بما صبروا بصبرهم على مشاق الطاعات ومهاجرة هوى النفس في اجتناب المحرمات وايثار الاموال جنة بستانا يأكلون منه ما شاؤوا وحريرا يلبسونه ويتزينون به وعن ابن عباس ان الحسن والحسين رضي الله عنهم مرضا فعادهما النبي صلى الله عليه وسلم في ناس معه فقالوا لعلي رضي الله عنه لو نذرت على ولديك فنذر علي وفاطمة رضي الله عنهما وفضة جاريتهما ان برئا مما بهما ان يصوموا ثلاثة ايام فشفيا وما معهما شيء فاستقرض علي رضي الله عنه من شمعون الخيبري ثلاث اصوع من شعير فطحنت

فاطمة صاعًا فاختبزت خمسة اقراص على عددهم فوضعوها بين ايديهم ليفطروا به فوقف عليهم سائل فقال عليه السلام السلام عليكم اهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين اطعمكم الله تعالى من موائد الجنة فآثروه وباتوا لم يذوقوا الا الماء واصبحوا صيامًا فلما امسوا ووضعوا الطعام بين ايديهم وقف عليهم يتيم فآثروه ثم وقف عليهم في الثالثة اسير ففعلوا مثل ذلك فلما اصبحوا اخذ علي بيد الحسن والحسين رضي الله عنهم فاقبلوا الى النبي صلى الله عليه وسلم فلما ابصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال عليه السلام ما اشد ما يسوؤني ما ارى بكم وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها فساءه ذلك فنزل جبريل عم وقال خذها يا محمد هناك الله في اهل بيتك فاقرأه السورة متكئين فيها على الارائك حال من هم في جزاهم والعامل فيها جزاء وقيل صفة لجنة من غير ابراز الضمير والارائك هي السرر في الحجال وقوله تعالى لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا اما حال ثانية من الضمير او من المستكن في متكئين والمعنى انه يمر عليهم هواء معتدل لا حار محم ولا بارد مؤذ وقيل الزمهرير القمر في لغة طي والمعنى ان هواءها مضيء بذاته لا يحتاج الى شمس وقمر ودانية عليهم ظلالها عطف على ما قبلها حال مثلها او صفة لمحذوف معطوف على جنة اي وجنة اخرى دانية عليهم ظلالها على انهم وعدوا جنتين كما في قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقرئ دانية بالرفع على انه خبر لظلالها والجملة في حيز الحال والمعنى لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا والحال ان ظلالها دانية قالوا معناه ان ظلال اشجار الجنة قريبة من الابرار مظلة عليهم زيادة في نعيمهم على معنى انه لو كان هناك شمس مؤذية لكانت اشجارها مظلة عليهم مع انه لا شمس ثمة ولا قمر وذللت قطوفها تذليلا اي سخرت ثمارها لمتناوليها وسهل اخذها من الذل وهو ضد الصعوبة والجملة حال من دانية اي تدنو ظلالها عليهم مذللة لهم قطوفها او معطوفة على دانية اي دانية عليهم ظلالها ومذللة قطوفها او على تقدير رفع دانية فهي جملة فعلية معطوفة على جملة اسمية ويطاف عليهم بآنية من فضة واكواب الكوب الكوز العظيم الذي لا اذن له ولا عروة كانت قواريرا قوارير من فضة اي تكونت جامعة بين صفاء الزجاجة وشفيفها وبين الفضة وبياضها والجملة صفة الاكواب وقرئ بتنوين قوارير الثاني وقرئ بغير تنوين وقرئ الثاني بالرفع على هو قوارير قدروها تقديرا صفة لقوارير ومعنى تقديرهم لها انهم قدروها في انفسهم وارادوا ان تكون على مقادير واشكال معينة موافقة لشهواتهم فجاءت حسب ما قدروها باعمالهم الصالحة فجاءت على حسبها وقيل الضمير للطائفين بها المدلول عليهم بقوله ويطاف عليهم فالمعنى قدروا شرابها على قدر اشتهائهم وقرئ قدروها على البناء للمفعول اي جعلوا قادرين بها كما شاؤا من قدر منقولا من قدرت الشيء ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا اي ما يشبه الزنجبيل في الطعم وكان الشراب الممزوج به اطيب ما تستطيبه العرب والذ ما تلتذ به عينا بدل من زنجبيلا وقيل تمزج كأسهم بالزنجبيل بعينه او يخلق الله طعمه فيها فعينا حينئذ بدل من كأسا كانه قيل ويسقون فيها كأسا كأس عين او نصب على الاختصاص فيها تسمى سلسبيلا لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل ولذلك حكم بزيادة الباء والمراد بيان انها في طعم الزنجبيل وليس فيها لذعه بل نقيض اللذع الذي هو السلاسة ويطوف عليهم ولدان مخلدون اي دائمون على ما هم عليه من الطراوة والبهاء اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا لحسنهم وصفاء الوانهم واشراق وجوههم وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم وانعكاس اشعة بعضهم الى بعض واذا رأيت ثم ليس له مفعول ملفوظ ولا مقدر ولا منوي بل معناه ان بصرك اينما وقع في الجنة رأيت نعيما وملكا كبيرا اي هنيئا واسعا وفي الحديث ادنى اهل الجنة منزلة

ينظر

ينظر في ملكه مسيرة الف عام يرى اقصاه كما يرى ادناه وقيل لا زوال له وقيل اذا ارادوا شيئا كان وقيل يسلم عليهم الملائكة ويستاذنون عليهم عاليهم ثياب سندس خضر قيل عاليهم ظرف على انه خبر مقدم وثياب مبتدأ مؤخر والجملة صفة اخرى لولدان كانه قيل يطوف عليهم ولدان فوقهم ثياب الخ وقيل حال من ضمير عليهم او حسبتهم لؤلؤا منثورا عاليا لهم ثياب الخ وقرئ عاليهم بالرفع على انه مبتدأ خبره ثياب اي ما يعلوهم من لباسهم ثياب سندس وقرئ خضر بالجر حملا على سندس بالمعنى لكونه اسم جنس واستبرق بالرفع عطفا على ثياب وقرئ برفع الاول وجر الثاني وقرئ بالعكس وقرئ بجرهما وقرئ واستبرق بوصل الهمزة والفتح على انه استفعل من البريق جعل علما لهذا النوع من الثياب وحلوا اساور من فضة عطف على يطوف عليهم ولا ينافيه قوله تعالى اساور من ذهب لامكان الجمع والمعاقبة والتبعيض فان حلي اهل الجنة يختلف حسب اختلاف اعمالهم فلعله تعالى يفيض عليهم جزاء لما عملوه بايديهم حليا وانوارا تتفاوت تفاوت الذهب والفضة او حال من ضمير عاليهم باضمار قد وعلى هذا يجوز ان يكون هذا للخدم وذاك للمخدومين وسقاهم ربهم شرابا طهورا هو نوع آخر يفوق النوعين السالفين كما يرشد اليه اسناد سقيه الى رب العالمين ووصفه بالطهورية فانه يطهر شاربه عن دنس الميل الى الملاذ الحسية والركون الى ما سوى الحق فيتجرد لمطالعة جماله ملتذا بلقائه باقيا ببقائه وهي الغاية القاصية من منازل الصديقين ولذلك ختم بها مقالة ثواب الابرار ان هذا على اضمار القول اي يقال لهم ان هذا الذي ذكر من فنون الكرامات كان لكم جزاء بمقابلة اعمالكم الحسنة وكان سعيكم مشكورا مرضيا مقبولا مقابلا بالثواب انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا اي مفرقا منجما لحكمة بالغة مقتضية له لا غيرنا كما يعرب عنه تكرير الضمير مع ان فاصبر لحكم ربك بتاخير نصرك على الكفار فان له عاقبة حميدة ولا تطع منهم آثما او كفورا اي كل واحد من مرتكب الاثم الداعي لك اليه ومن الغالي في الكفر الداعي اليه وللدلالة على انهما سيان في استحقاق العصيان والاستقلال به والتقسيم باعتبار ما يدعونه اليه فان ترتب النهي على الوصفين مشعر بعليتهما له فلابد ان يكون النهي عن الاطاعة في الاثم والكفر لا فيما ليس باثم ولا كفر وقيل الآثم عتبة فانه كان ركابا للمآثم متعاطيا لانواع الفسوق والكفور الوليد فانه كان غاليا في الكفر شديد الشكيمة في العتو واذكر اسم ربك بكرة واصيلا وداوم على ذكره في جميع الاوقات او دم على صلوة الفجر والظهر والعصر فان الاصيل ينتظمهما ومن الليل فاسجد له وبعض الليل فصل له ولعله صلوة المغرب والعشاء وتقديم الظرف لما في صلوة الليل من مزيد كلفة وخلوص وسبحه ليلا طويلا وتهجد له قطعا من الليل طويلا ان هؤلاء الكفرة يحبون العاجلة وينهمكون في لذاتها الفانية ويذرون وراءهم اي امامهم لا يستعدون او ينبذون وراء ظهورهم يوما ثقيلا لا يعبؤن به ووصفه بالثقل لتشبيه شدته وهوله بثقل شيء فادح باهظ لحامله بطريق الاستعارة وهو كالتعليل لما امر به ونهي عنه نحن خلقناهم لا غيرنا وشددنا اسرهم اي احكمنا ربط مفاصلهم بالاعصاب واذا شئنا بدلنا امثالهم بعد اهلاكهم تبديلا بديعا لا ريب فيه هو البعث كما ينبئ عنه كلمة اذا او بدلنا هم غيرهم ممن يطيع كقوله تعالى يستبدل قوما غيركم واذا للدلالة على تحقق القدرة وقوة الداعية ان هذه تذكرة اشارة الى السورة او الآيات القريبة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا اي فمن شاء ان يتخذ اليه تعالى سبيلا اي وسيلة توصله الى ثوابه اتخذه اي تقرب اليه بالعمل بما في تضاعيفها وقوله تعالى وما تشاؤن الا ان يشاء الله تحقيق للحق ببيان ان مجرد مشيئتهم غير كافية في اتخاذ السبيل كما هو المفهوم من ظاهر الشرطية اي وما تشاؤن اتخاذ السبيل ولا تقدرون على تحصيله في وقت من الاوقات الا وقت مشيئته تعالى تحصيله لكم اذ لا دخل لمشيئة العبد الا

الكسب وانما التأثير والخلق لمشية الله عز وجل وقرئ يشاؤون بالياء وقرئ الا ما يشاء الله تعالى وقوله تعالى ان الله كان عليما حكيما بيان لكون مشيته تعالى مبنية على اساس العلم والحكمة والمعنى انه تعالى مبالغ في العلم والحكمة فيعلم ما يستاهله كل احد فلا يشاء لهم الا ما يستدعيه علمه ويقتضيه حكمته وقوله تعالى يدخل من يشاء في رحمته بيان لاحكام مشيته المترتبة على علمه وحكمته اى يدخل في رحمته من يشاء ان يدخله فيها وهو الذي يصرف مشيته نحو اتخاذ السبيل اليه تعالى حيث يوفقه لما يؤدى الى دخول الجنة من الايمان والطاعة والظالمين وهم الذين صرفوا مشيتهم الى خلاف ما ذكر اعد لهم عذابا اليما اى متناهيا في الايلام قال الزجاج نصب الظالمين لان ما قبله منصوب اى يدخل من يشاء في رحمته ويعذب الظالمين ويكون اعد لهم تفسيرا لهذا المضمر وقرئ بالرفع على الابتداء عن النبي صلعم من قرأ سورة هل اتى كان جزاؤه على الله تعالى جنة وحريرا

سورة المرسلات مكية وهي خمسون آية بسم الله الرحمن الرحيم

والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا والناشرات نشرا فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا اقسام من الله عز وجل بطوائف من الملائكة ارسلهن باوامره فعصفن عصف الرياح مسارعة في الامتثال به لامر وبطوائف اخرى نشرن اجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي او نشرن الشرائع في الاقطار او نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما اوحين ففرقن بين الحق والباطل فالقين ذكرا الى الانبياء عذرا للمحقين او نذرا للمبطلين ولعل تقديم نشر الشرائع ونشر النفوس والفرق على الالقاء للايذان بكونها غاية للالقاء حقيقة بالاعتناء بها او للاشعار بان كلا من الاوصاف المذكورة مستقل بالدلالة على استحقاق الطوائف الموصوفة بها للتفخيم والاجلال بالاقسام بهن ولو جئ بها على ترتيب الوقوع لربما فهم ان مجموع الالقاء والنشر والفرق هو الموجب لما ذكر من الاستحقاق او اقسام برياح عذاب ارسلهن فعصفن وبرياح رحمة نشرن السحاب في الجو ففرقن بينه كقوله تعالى ويجعله كسفا او لسحائب نشرن الموتى ففرقن كل صنف منها عن سائر الاصناف بالشكل واللون وسائر الخواص او فرقن بين من يشكر الله تعالى وبين من يكفر به فالقين ذكرا اما عذرا للمعتذرين الى الله تعالى بتوبتهم واستغفارهم عند مشاهدتهم لاثار رحمته تعالى في الغيث ويشكرونها واما انذارا للذين يكفرونها وينسبونها الى الانواء واسناد القاء الذكر اليهن لكونهن سببا في حصوله اذا شكرت النعمة فيهن او كفرت او اقسام بآيات القرآن المرسلة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعصفن سائر الكتب بالنسخ ونشرن آثار الهدى في مشارق الارض ومغاربها وفرقن بين الحق والباطل فالقين ذكر الحق في اكناف العالمين والعرف اما نقيض النكر وانتصابه على العلة اى ارسلن للاحسان والمعروف فان ارسال ملائكة العذاب معروف للانبياء عليهم السلام والمؤمنين او بمعنى المتتابعة من عرف الفرس وانتصابه على الحالية والعذر والنذر مصدران من عذر اذا محى الاساءة ومن انذر اذا خوف وانتصابهما على البدلية من ذكرا او على العلية وقرئا بالتثقيل انما توعدون لواقع جواب للقسم اى ان الذى توعدونه من مجئ القيمة كائن لا محالة فاذا النجوم طمست محيت ومحقت او ذهب بنورها واذا السماء فرجت صدعت وفتحت فكانت ابوابا واذا الجبال نسفت جعلت كالحب الذى ينسف بالمنسف ونحوه بست الجبال بسا وقيل اخذت من مقارها بسرعة من انتسفت الشئ اذا اختطفته وقرئ طمست وفرجت ونسفت مشددة واذا الرسل اقتت اى عين لهم الوقت الذى يحضرون فيه للشهادة على اممهم وذلك عند مجيئه وحضوره اذ لا يتعين لهم قبله او بلغوا الميقات الذى كانوا ينتظرونه وقرئ وقتت على الاصل وبالتخفيف فيهما لاى يوم اجلت مقدر بقول هو جواب لقوله لا اذا في قوله تعالى واذا الرسل اقتت او حال من مرفوع اقتت اى يقال لاى يوم اخرت الامور المتعلقة بالرسل والمراد تعظيم ذلك اليوم والتعجيب من هوله وقوله تعالى ليوم الفصل بيان

ليوم التاجيل وهو اليوم الذى يفصل فيه بين الخلائق وما ادريك ما يوم الفصل ما مبتدأ ادريك خبره اى اى شئ جعلك داريا ما هو فوضع موضع الضمير يوم الفصل لزيادة تفظيع وتهويل على ان ما خبر ويوم الفصل مبتدأ بالعكس كما اختاره سيبويه لان محط الفائدة بيان كون يوم الفصل امرا بديعا هائلا لا يقادر قدره لا يكتنه كنهه كما يفيده خبرية ما لا بيان كونه امرا بديعا من الامور يوم الفصل كما يفيد عكسه ويل يومئذ للمكذبين اى في ذلك اليوم الهائل وويل في الاصل مصدر منصوب ساد مسد فعله لكن عدل به الى الرفع للدلالة على ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه ويومئذ ظرف او صفته الم نهلك الاولين كقوم نوح وعاد وثمود لتكذيبهم به وقرئ نهلك بفتح النون من هلكه بمعنى اهلكه ثم نتبعهم الآخرين بالرفع على ثم نحن نتبعهم الآخرين من نظرائهم السالكين لمسلكهم في الكفر والتكذيب وهو وعيد لكفار مكة وقرئ ثم نتبعهم وقرئ نتبعهم بالجزم عطفا على نهلك فيكون المراد بالآخرين المتاخرين هلاكا من المذكورين كقوم لوط وشعيب وموسى عليهم السلام كذلك مثل ذلك الفعل الفظيع نفعل بالمجرمين اى سنتنا جارية على ذلك ويل يومئذ اى يوم اذ اهلكناهم للمكذبين بآيات الله تعالى وانبيائه وليس فيه تكرير لما ان الويل الاول لعذاب الآخرة وهذا لعذاب الدنيا الم نخلقكم اى الم نقدركم من ماء مهين اى من نطفة قذرة مهينة فجعلناه في قرار مكين هو الرحم الى قدر معلوم الى مقدار معلوم من الوقت قدره الله تعالى للولادة تسعة اشهر او اقل منها او اكثر فقدرنا اى فقدرناه وقد قرئ مشددا او فقدرنا على ذلك على ان المراد بالقدرة ما يقارن وجود المقدور بالفعل فنعم القادرون اى نحن ويل يومئذ للمكذبين بقدرتنا او على الاعادة الم نجعل الارض كفاتا الكفات اسم ما يكفت اى يضم ويجمع من كفت الشئ اذا ضمه وجمعه كالضمام والجماع لما يضم ويجمع اى الم نجعلها كفاتا تكفت احياء كثيرة على ظهرها وامواتا غير محصورة في بطنها وقيل هو مصدر نعت به للمبالغة وقيل جمع كافت كصائم وصيام او كفت وهو الوعاء اجرى على الارض باعتبار بقاعها وقيل تنكير احياء وامواتا لان احياء الانس وامواتهم بعض الاحياء والاموات وقيل انتصابهما على الحالية من محذوف اى كفاتا تكفتكم احياء وامواتا وجعلنا فيها رواسى اى جبالا ثوابت شامخات طوالا شواهق ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث في غير العقلاء مطرد كراجن ورواجن واشهر معلومات وتنكيرها للتفخيم او للاشعار بان فيها ما لم يعرف واسقيناكم ماء فراتا بان خلقنا فيها انهارا ومنابع ويل يومئذ للمكذبين بامثال هذه النعم العظيمة انطلقوا اى يقال لهم يومئذ للتوبيخ والتقريع انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون في الدنيا من العذاب انطلقوا خصوصا الى ظل دخان جهنم كقوله تعالى وظل من يحموم وقرئ انطلقوا على لفظ الماضي اخبارا بعد الامر عن عملهم بموجبه لاضطرارهم اليه طوعا او كرها ذى ثلث شعب يتشعب لعظمه ثلاث شعب كما هو شان الدخان العظيم تراه يتفرق ذوائب وقيل يخرج لسان من النار فيحيط بالكفار كالسرادق ويتشعب من دخانها ثلاث شعب فتظللهم حتى يفرغ من حسابهم والمؤمنون في ظل العرش قيل خصوصية الثلاث اما لان حجاب النفس عن انوار القدس الحق الحس والخيال والوهم او لان المؤدى الى هذا العذاب هو القوة الوهمية الشيطانية الحالة في الدماغ والقوة الغضبية السبعية التى عن يمين القلب والقوة الشهوانية البهيمية التى عن يساره ولذلك قيل تقف شعبة فوق الكافر وشعبة عن يمينه وشعبة عن يساره لا ظليل تهكم بهم او رد لما اوهمه لفظ الظل ولا يغنى من اللهب اى غير مغن لهم من حر اللهب شيئا انها ترمى بشرر كالقصر اى كل شررة كالقصر من القصور في عظمها وقيل هو الغليظ من الشجر الواحدة قصرة نحو جمر وجمرة وقرئ كالقصر بفتحتين وهى اعناق الابل واعناق النخل نحو شجرة وشجر وقرئ كالقصر بمعنى القصور كرهن ورهن وقرئ كالقصر جمع قصرة

كانها جمالة قيل هو جمع جمل والتاء لتانيث الجمع يقال جمل وجمال وجمالة وقيل اسم جمع كالحجارة صفر فان الشرارة لما فيه من النارية يكون اصفر وقيل سود لان سواد الابل يضرب الى الصفرة والاول تشبيه فى العظم وهذا فى اللون والكثرة والتتابع والاختلاط والحركة وقرئ جمالات جمع جمال او جمالة وقرئ جمالات جمع جمالة وقد قرئ بها وهو الجبل العظيم من حبال السفن وقلوس الجسور والتشبيه فى امتداده والتفافه ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم لا ينطقون اشارة الى وقت دخولهم النار اى هذا يوم لا ينطقون فيه بشئ لما ان السؤال والجواب قد انقضت قبل ذلك ويوم القيمة طويل له مواطن ومواقيت ينطقون فى وقت دون وقت فعبر عن كل وقت بيوم او لا ينطقون بشئ ينفعهم فان ذلك كلا نطق وقرئ بنصب اليوم اى هذا الذى فصل واقع يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون عطف على يؤذن منتظم فى سلك النفى اى لا يكون لهم اذن واعتذار متعقب له من غير ان يجعل الاعتذار مسببا عن الاذن كما لو نصب ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل بين الحق والباطل والمحق والمبطل جمعناكم خطاب لامة محمد صلى الله عليه وسلم والاولين من الامم وهذا تقرير وبيان للفصل فان كان لكم كيد فكيدون فان جميع من كنتم تقلدونهم وتعتدون بهم حاضرون وهذا تقريع لهم على كيد للمؤمنين فى الدنيا واظهار لعجزهم ويل يومئذ للمكذبين حيث ظهر ان لا حيلة لهم فى الخلاص من العذاب ان المتقين من الكفر والتكذيب فى ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون اى مستقرون فى فنون الترفه وانواع التنعم كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون مقدر بقول هو حال من ضمير المتقين فى الخبر اى مقولا لهم كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون فى الدنيا من الاعمال الصالحة انا كذلك الجزاء العظيم نجزى المحسنين اى فى عقائدهم واعمالهم لا جزاء ادنى منه ويل يومئذ للمكذبين حيث نال اعداؤهم هذا الثواب الجزيل وهم بقوا فى العذاب المخلد الوبيل كلوا وتمتعوا قليلا انكم مجرمون مقدر بقول هو حال من المكذبين اى الويل ثابت لهم مقولا لهم ذلك تذكيرا لهم بحالهم فى الدنيا وبما جنوا على انفسهم من ايثار المتاع الفانى عن قريب على النعيم الخالد وعلل ذلك باجرامهم دلالة على ان كل مجرم ماله هذا وقد قيل هو كلام مستانف خوطب به المكذبون فى الدنيا بعد بيان مآل حالهم وقرر ذلك بقوله تعالى ويل يومئذ للمكذبين لزيادة التوبيخ والتقريع واذا قيل لهم اركعوا اى اطيعوا الله واخشعوا وتواضعوا له بقبول وحيه واتباع دينه وارفضوا هذا الاستكبار والنخوة لا يركعون لا يخشعون ولا يقبلون ذلك ويصرون على ما هم عليه من الاستكبار وقيل اذا امروا بالصلوة وبالركوع لا يفعلون اذ روى انه نزل حين امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقيفا بالصلوة فقالوا لا نجبى فانها مسبة علينا فقال عليه الصلوة والسلام لا خير فى دين ليس فيه ركوع ولا سجود وقيل هو يوم القيمة حين يدعون الى السجود فلا يستطيعون ويل يومئذ للمكذبين وفيه دلالة على ان الكفار مخاطبون بالفروع فى حق المؤاخذة فباى حديث بعده اى بعد القران الناطق باحاديث الدارين واخبار النشاتين على نمط بديع معجز مؤسس على حجج قاطعة وبراهين ساطعة يؤمنون اذ لم يؤمنوا به وقرئ تؤمنون على الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والمرسلات كتب له انه ليس من المشركين والله اعلم

سورة النبأ مكية وهى اربعون آية بسم الله الرحمن الرحيم

عم اصله عما حذف منه الالف اما فرقا بين ما الاستفهامية وغيرها او قصدا للخفة لكثرة استعمالها وقرئ على الاصل وما فيها من الابهام للايذان بفخامة شان المسؤل عنه وهوله وخروجه من حدود الاجناس المعهودة اى عن اى شئ عظيم الشان يتساءلون اى اهل مكة وكانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم ويخوضون فيه انكارا واستهزاء لكن لا على طريقة التساؤل عن حقيقته ومسماه بل عن وقوعه الذى هو حال من احواله

ووصف

ووصف من اوصافه فان ما وان وضعت لطلب حقائق الاشياء ومسميات اسمائها كما فى قولك ما الملك وما الروح لكنها قد يطلب بها الصفة والحال تقول ما زيد فيقال عالم او طبيب وقيل كانوا يسالون عنه الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين استهزاء كقولهم يتداعونهم اى يدعونهم وتحقيقه ان صيغة التفاعل فى الافعال المتعدية موضوعة لافادة صدور الفعل عن المتعدد ووقوعه عليه بحيث يصير كل واحد من ذلك فاعلا ومفعولا معا لكنه يرفع باسناد الفعل اليه ترجيحا لجانب فاعليته ومفعوليته على دلالة العقل كما فى قولك تراءى القوم اى رأى كل واحد منهم الآخر وقد يجرد عن المعنى الثانى فيراد بها مجرد صدور الفعل عن المتعدد عاريا عن اعتبار وقوعه عليه فيذكر للفعل حينئذ مفعول متعدد كما فى المثال المذكور او واحد كما فى قولك تراءوا الهلال وقد يحذف لظهوره كما فى نحن فيه فالمعنى عن اى شئ يسال هؤلاء القوم الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وربما يجرد عن صدور الفعل عن المتعدد ايضا فيراد بها تعدده باعتبار تعدد متعلقه مع وحدة الفاعل كما فى قوله تعالى فباى آلاء ربك تتمارى وقوله تعالى عن النبأ العظيم بيان لشان المسؤل عنه اثر تفخيمه بابهام امره وتوجيه اذهان السامعين نحوه وتنزيلهم منزلة المستفهمين فان ايراده على طريقة الاستفهام من علام الغيوب للتنبيه على انه لانقطاع قرينه وانعدام نظيره خارج عن دائرة علوم الخلق خليق بان يعتنى بمعرفته ويسال عنه كانه قيل عن اى شئ يتساءلون هل اخبركم به ثم قيل بطريق الجواب عن النبأ العظيم على منهاج قوله تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار فعن متعلقة بما يدل عليه المذكور من مضمر حقه ان يقدر بعدها مسارعة الى البيان ومراعاة لترتيب السؤال هذا هو الحقيق بالجزالة التنزيلية وقد قيل هى متعلقة بالمذكور وعم متعلق بمضمر مفسر به وايد ذلك بانه قرئ عمه والاظهر انه مبنى على اجراء الوصل مجرى الوقف وقيل عن الاولى للتعليل كانه قيل لم يتساءلون عن النبأ العظيم وقيل عن الثانية استفهام مضمر كانه قيل عم يتساءلون اعن النبأ العظيم والنبأ الخبر الذى له شان وخطر وقد وصف بقوله تعالى الذى هم فيه مختلفون بعد وصفه بالعظيم تاكيدا لخطره اثر تاكيد واشعارا بمدار التساؤل عنه وفيه متعلق بمختلفون قدم عليه اهتماما ورعاية للفواصل وجعل الصلة جملة اسمية للدلالة على الثبات اى هم راسخون فى الاختلاف فيه فمنهم جازم باستحالته يقول ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيى وما يهلكنا الا الدهر وما نحن بمبعوثين وشاك يقول ما ندرى ما الساعة ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين وقيل منهم من ينكر المعادين معا كهؤلاء ومنهم من ينكر المعاد الجسمانى فقط كجمهور النصارى وقد حمل الاختلاف على الاختلاف فى كيفية الانكار فمنهم من ينكره لانكار الصانع المختار ومنهم من ينكره بناء على استحالة اعادة المعدوم بعينه وحمله على الاختلاف بالنفى والاثبات بناء على تعميم التساؤل لفريقى المسلمين والكافرين على ان سؤال الاولين ليزدادوا خشية واستعدادا وسؤال الآخرين ليزدادوا كفرا وعنادا يرده قوله تعالى كلا سيعلمون الخ فانه صريح فى ان المراد اختلاف الجاهلين به المنكرين له اذ عليه يدور الردع والوعيد لا على خلاف المؤمنين لهم وتخصيصهما بالكفرة بناء على تخصيص ضمير سيعلمون بهم مع عموم الضميرين السابقين للكل مما ينبغى تنزيه التنزيل عن امثاله هذا ما ادى اليه جليل النظر والذى يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظر الدقيق ان يحمل اختلافهم على مخالفتهم للنبى صلى الله عليه وسلم بان يعتبر فى الاختلاف محض صدور الفعل عن المتعدد حسبما ذكر فى التساؤل فان الافتعال والتفاعل صيغتان متآخيتان كالاستباق والتسابق والانتضال والتناضل الى غير ذلك يجرى فى كل منهما ما يجرى فى الاخرى لا على مخالفة بعضهم لبعض من الجانبين لان الكل وان استحق الردع والوعيد لكن استحقاق كل جانب لهما ليس لمخالفته للجانب الآخر اذ لا حقية فى شئ منهما حتى يستحق من يخالفه المؤاخذة بل لمخالفته له عليه السلام كلا ردع لهم

عن التسائل والاختلاف بالمعنيين المذكورين وسيعلمون وعيد لهم بطريق الاستيناف
تعليل للردع والسين للتقريب والتأكيد وليس مفعوله ما ينبئ عنه المقام من وقوع
ما يتساءلون عنه ووقوع ما يختلفون فيه كما في قوله تعالى واقسموا بالله جهد ايمانهم
لا يبعث الله من يموت الى قوله تعالى ليبين لهم الذى اختلفوا فيه الآية فان ذلك عار
عن صريح الوعيد بل هو عبارة عما يلاقونه من فنون الدواهى والعقوبات والتعبير عن لقائها
بالعلم لوقوعه فى معرض التسائل والاختلاف والمعنى ليرتدعوا عما هم عليه فانهم سيعلمون
عما قليل حقيقة الحال اذا حل بهم العذاب والنكال وقوله تعالى ثم كلا سيعلمون تكرير
للردع والوعيد للمبالغة فى التأكيد والتشديد وثم للدلالة على ان الوعيد الثانى ابلغ
واشد وقيل الاول عند النزع والثانى فى القيمة وقيل الاول للبعث والثانى للجزاء وقرئ
ستعلمون بالتاء على نهج الالتفات الى الخطاب الموافق لما بعده من الخطابات تشديدا
للردع والوعيد لا على تقدير قل لهم كما توهم فان فيه من الاخلال بجزالة النظم
الكريم ما لا يخفى وقوله تعالى الم نجعل الارض مهادا والجبال اوتادا الخ استيناف
مسوق لتحقيق النبأ المتساءل عنه بتعداد بعض الشواهد الناطقة بحقيته اثر ما نبه
عليها بما ذكر من الردع والوعيد ومن هنا اتضح ان المتسائل عنه هو البعث لا القرآن
او نبوة النبى صلى الله عليه وسلم كما قيل والهمزة للتقرير والالتفات الى الخطاب على القراءة
المشهورة للمبالغة فى الالزام والتبكيت والمهاد البساط والفراش وقرئ مهدا على
تشبيهها بمهد الصبى وهو ما يمهد له فينوم عليه تسمية للممهود بالمصدر وجعل
الجبال اوتادا لها ارساؤها بها كما يرسى البيت بالاوتاد وخلقناكم عطف على
المضارع المنفى بلم داخل فى حكمه فانه فى قوة اما جعلنا الخ او على ما يقتضيه الانكار
التقريرى فانه فى قوة ان يقال قد جعلنا الخ ازواجا اصنافا ذكرا وانثى ليسكن
كل من الصنفين الى الآخر وينتظم امر المعاشرة والمعاش ويتسنى التناسل وجعلنا نومكم
سباتا اى موتا فانه احد التوفيين لما بينهما من المشاركة التامة فى انقطاع احكام
الحيوة وعليه قوله تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل وقوله تعالى الله يتوفى الانفس حين
موتها والتى لم تمت فى منامها وقيل قطعا عن الاحساس والحركة لاراحة القوى
الحيوانية وازاحة كلالها والاول هو اللائق بالمقام كما ستعرفه وجعلنا الليل
اى الذى فيه يقع النوم غالبا لباسا يستركم بظلامه كما يستركم اللباس ولعل المراد
به ما يستتر به عند النوم من اللحاف ونحوه فان شبه الليل به اكمل واعتباره فى
تحقيق المقصد ادخل فهو جعل الليل محلا للنوم الذى جعل موتا كما جعل النهار محلا
لليقظة المعبر عنها بالحيوة فى قوله تعالى وجعلنا النهار معاشا اى وقت حيوة
تبعثون فيه من نومكم الذى هو الموت كما فى قوله تعالى وهو الذى جعل لكم الليل لباسا
والنوم سباتا وجعل النهار نشورا وجعل كون الليل لباسا عبارة عن ستره عن
العيون لمن اراد هربا من عدو او بياتا له او نحو ذلك مما لا مناسبة له بالمقام
وكذا جعل النهار وقت التقلب فى تحصيل المعايش والحوائج وبنينا فوقكم سبعا
شدادا اى سبع سموات قوية الخلق محكمة البناء لا يؤثر فيها مر الدهور
وكر العصور والتعبير عن خلقها بالبناء مبنى على تنزيلها منزلة القباب المضروبة
على الخلق وتقديم الظرف على المفعول ليس لمراعاة الفواصل فقط بل للتشويق اليه
فان ما حقه التقديم اذا اخر تبقى النفس مترقبة له فاذا ورد عليها تمكن عندها
فضل تمكن وجعلنا سراجا وهاجا هذا الجعل بمعنى الانشاء والابداع كالخلق خلا انه
مختص بالانشاء التكوينى وفيه معنى التقدير والتسوية وهذا عام له كما فى الآية
الكريمة وللتشريعى ايضا كما فى قوله تعالى ما جعل الله من بحيرة الخ وقوله لكل جعلنا منكم
شرعة ومنهاجا واياما كان ففيه انباء عن ملابسة مفعوله بشئ آخر بان يكون
فيه او له او منه او نحو ذلك ملابسة مصححة لان يتوسط بينهما شئ من الظروف لغوا
كان او مستقرا لكن لا على ان يكون عمدة فى الكلام بل قيدا فيه كما فى قوله تعالى وجعل بينهما برزخا

وقوله

وقوله تعالى جعل منها رواسى وقوله واجعل لنا من لدنك وليا الآية فان كل واحد من هذه
الظروف اما متعلق بنفس الجعل او بمحذوف وقع حالا من مفعوله تقدمت عليه لكونه
نكرة واياما كان فهو قيد فى الكلام حتى اذا اقتضى الحال وقوعه عمدة فيه يكون الجعل
متعديا الى اثنين هو ثانيهما كما فى قوله تعالى يجعلون اصابعهم فى آذانهم وربما يشتبه
الامر فيظن انه عمدة فيه وهو فى الحقيقة قيد باحد الوجهين كما سلف فى قوله تعالى انى
جاعل فى الارض خليفة والوهاج الوقاد المتلالئ من وهجت النار اذا اضاءت او البالغ
فى الحرارة من الوهج والمراد به الشمس والتعبير عنها بالسراج من روادف التعبير
عن خلق السموات بالبناء وانزلنا من المعصرات هى السحائب اذا اعصرت اى شارفت
ان تعصرها الرياح فتمطر كما فى احصد الزرع اذا حان له ان يحصد ومنه
اعصرت الجارية اذا دنت ان تحيض او الرياح التى حان لها ان تعصر السحاب
وقرئ بالمعصرات ووجه ذلك ان الانزال حيث كان من المعصرات سواء اريد
به السحائب او الرياح فقد كان بها كما يقال اعطاه من يده وبيده وقد فسرت المعصرات
بالرياح ذوات الاعاصير ووجهه ان الرياح هى التى تنشئ السحاب وتدر اخلافه
فصلحت ان تجعل مبدأ للانزال ماء ثجاجا اى منصبا بكثرة يقال ثج الماء اى
سال بكثرة وثجه اى اساله ومنه قوله صلى الله عليه وسلم افضل الحج العج والثج
اى رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدى وقرئ ثجاحا بالحاء بعد الجيم قالوا
مثاجح الماء مصابه لنخرج به بذلك الماء حبا يقتات كالحنطة والشعير ونحوهما
ونباتا يعتلف كالتبن والحشيش وتقديم الحب مع تأخره عن النبات فى الاخراج
لاصالته وشرفه لان غالبه غذاء الانسان وجنات الجنة فى الاصل هى المرة من مصدر
جنه اذا ستره تطلق على النخل والشجر المتكاثف المتظلل بالتفاف اغصانه قال زهير بن
ابى سلمى كان عينى فى غربى مقتلة من النواضح تسقى جنة سحقا وعلى الارض
ذات الشجر قال الفراء الجنة ما فيه النخيل والفردوس ما فيه الكرم والاول هو المراد
وقوله تعالى الفافا اى ملتفة تداخل بعضها فى بعض قالوا لا واحد له كالاوزاع
والاخياف وقيل الواحد لف ككن واكنان او لفيف كشريف واشراف وقيل هو جمع
لف جمع لفاء كخضر وخضراء وقيل جمع ملتفة بحذف الزوايد واعلم ان فيما ذكر من
افعاله عز وجل دلالة على صحة البعث وحقيته من وجوه ثلاثة الاول باعتبار
قدرته تعالى فان من قدر على انشاء هذه الافعال البديعة من غير مثال يحتذيه
ولا قانون ينتحيه كان على الاعادة اقدر واقوى الثانى باعتبار علمه وحكمته فان من
ابدع هذه المصنوعات على نمط رائع مستتبع لغايات جليلة ومنافع جميلة عائدة الى
الخلق يستحيل ان يفنيها بالكلية ولا يجعل لها عاقبة باقية والثالث باعتبار نفس الفعل
فان اليقظة بعد النوم انموذج للبعث بعد الموت يشاهدونها كل يوم وكذا اخراج الحب
والنبات من الارض الميتة يعاينونه كل حين كانه قيل الم نفعل هذه الافعال الآفاقية و
الانفسية الدالة بفنون الدلالات على حقية البعث الموجبة للايمان به فما لكم تخوضون
فيه انكارا وتتساءلون عنه استهزاء وقوله تعالى ان يوم الفصل كان ميقاتا شروع
فى بيان سر تأخير ما يتساءلون عنه ويستعجلون به قائلين متى هذا الوعد ان كنتم
صادقين ونوع تفصيل لكيفية وقوعه وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب
حسبما جرى به الوعيد اجمالا اى ان يوم فصل الله عز وعلا بين الخلائق كان فى علمه
وتقديره ميقاتا او ميعادا للبعث الاولين والآخرين وما يترتب عليه من الجزاء ثوابا
وعقابا لا يكاد يتخطاه بالتقدم والتأخر وقيل حدا توقت به الدنيا وتنتهى عنده او
حدا للخلائق ينتهون اليه ولا ريب فى انهما بمعزل من التقريب الذى اشير اليه على ان
الدنيا تنتهى عند النفخة الاولى وقوله تعالى يوم ينفخ فى الصور اى نفخة ثانية بدل
من يوم الفصل او عطف بيان له مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله ولا ضير فى تأخر الفصل
عن النفخ فانه زمان ممتد يقع فى مبدئه النفخة وفى بقيته الفصل ومباديه و

آثاره والصور هو القرن الذي ينفخ فيه اسرافيل عم عن ابي هريرة رضه ان رسول
الله قال لما فرغ الله تعالى من خلق السموات والارض خلق الصور فاعطاه اسرافيل فهو
واضعه على فيه شاخص بصره الى العرش متى يؤمر بالنفخ فيه فيؤمر بالنفخ فيه فينفخ فيه
نفخة لا يبقى عندها في الحيوة غير من شاء الله تعالى وذلك قوله ونفخ في الصور فصعق
من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله ثم يؤمر باخرى فينفخ نفخة لا يبقى معها
ميت الا بعث وقام وذلك قوله تعالى ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون والفاء في
قوله تعالى فتأتون فصيحة عن جملة قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وايذانا بغاية
سرعة الاتيان كما في قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق اي فتبعثون من قبوركم
فتأتون الى الموقف عقيب ذلك من غير لبث اصلا افواجا اي امما كل امة مع امامها
كما في قوله تعالى يوم ندعوا كل اناس بامامهم او زمرا وجماعات مختلفة الاحوال متباينة
الاوضاع حسب اختلاف اعمالهم وتباينها عن معاذ رضه انه سأل رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال عليه السلام يا معاذ سألت عن امر عظيم من الامور ثم ارسل عينيه
وقال تحشر عشرة اصناف من امتي بعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة
الخنازير وبعضهم منكسون ارجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها وبعضهم عمي وبعضهم
صم بكم وبعضهم يمضغون السنتهم فهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من افواههم
يتقذرهم اهل الجمع وبعضهم مقطعة ايديهم وارجلهم وبعضهم مصلبون
على جذوع من نار وبعضهم اشد نتنا من الجيف وبعضهم يلبسون جلبابا سابغة
من قطران لازقة بجلودهم فاما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس واما
الذين على صورة الخنازير فاهل السحت واما المنكسون على وجوههم فاكلة الربوا
واما العمي فالذين يجورون في الحكم واما الصم البكم فالمعجبون باعمالهم واما
الذين يمضغون السنتهم فالعلماء الذين خالفت اقوالهم اعمالهم واما الذين قطعت
ايديهم وارجلهم فهم الذين يؤذون جيرانهم واما المصلبون على جذوع
من نار فالسعاة بالناس الى السلطان واما الذين اشد نتنا من الجيف فالذين
يتبعون الشهوات واللذات ومنعوا حق الله تعالى في اموالهم واما الذين يلبسون الجلباب
فاهل الكبر والفخر والخيلاء وفتحت السماء عطف على ينفخ وصيغة الماضي للدلالة
على التحقق وقرئ فتحت بالتشديد وهو الانسب فكانت ابوابا اي كثرت ابوابها
المفتحة لنزول الملائكة نزولا غير معتاد حتى صارت كانها ليست الا ابوابا مفتحة
كقوله تعالى وفجرنا الارض عيونا كان كلها عيون متفجرة وهو المراد بقوله تعالى ويوم
تشقق السماء بالغمام الذي ذكر في قوله تعالى هل ينظرون الا ان يأتيهم الله اي
امره وبأسه في ظلل من الغمام والملائكة وقيل الابواب الطرق والمسالك اي
تكشط فينفتح مكانها وتصير طرقا لا يسدها شيء وسيرت الجبال اي في الجو
على هيئاتها بعد قلعها من مقارها كما يعرب عنه قوله تعالى وترى الجبال تحسبها
جامدة وهي تمر مر السحاب اي تراها رأي العين ساكنة في اماكنها والحال انها تمر مر السحاب
التي تسيرها الرياح سيرا حثيثا وذلك ان الاجرام العظام اذا تحركت نحوا من الانحاء
لا تكاد تتبين حركتها وان كانت في غاية السرعة لا سيما من بعيد وعليه قول
من قال بارعن مثل الطود تحسب انهم وقوف لحاج والركاب تهملج وقد ادمج في
هذا التشبيه تشبيه حال الجبال بحال السحاب في تخلخل الاجزاء وانتفاشها كما ينطق به
قوله تعالى وتكون الجبال كالعهن المنفوش يبدل الله الارض ويغير هيئاتها ويسير الجبال
على تلك الهيئة الهائلة عند حشر الخلائق بعد النفخة الثانية ليشاهدوها ثم
يفرقها في الهواء وذلك قوله تعالى فكانت سرابا اي فصارت بعد تسييرها مثل السراب
كقوله تعالى وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا اي غبارا منتشرا وهي وان اندكت
وانصدعت عند النفخة الاولى لكن تسييرها وتسوية الارض انما يكونان بعد النفخة
الثانية كما نطق به قوله تعالى ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا

لا ترى فيها عوجا ولا امتا يومئذ يتبعون الداعي وقوله يوم تبدل الارض غير الارض والسموات
وبرزوا لله الواحد القهار فان اتباع الداعي الذي هو اسرافيل عم وبروز الخلق
لله تعالى لا يكون الا بعد النفخة الثانية ان جهنم كانت مرصادا شروع في تفصيل احكام
الفصل الذي اضيف اليه اليوم اثر بيان هوله ووجه تقديم بيان حال الكفار غني
عن البيان والمرصاد اسم للمكان الذي يرصد فيه كالمضمار الذي هو اسم للمكان الذي
يضمر فيه الخيل والمنهاج اسم للمكان الذي ينهج فيه اي انها كانت في حكم الله تعالى
وقضائه موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها للطاغين
متعلق بمضمر هو اما نعت لمرصادا اي كائنا للطاغين وقوله تعالى مآبا بدل منه اي مرجعا
يرجعون اليه لا محالة واما حال من مآبا قدمت عليه لكونه نكرة ولو تأخرت لكانت
صفة له وقد جوز ان يتعلق بمآبا على انها مرصاد للفريقين مآب للكافرين
خاصة ولا يخفى بعده فان المتبادر من كونها مرصادا لطائفة كونهم معذبين
بها وقد قيل انها مرصاد لاهل الجنة ترصدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها
لان مجازهم عليها وهي مآب للطاغين وقيل المرصاد صيغة مبالغة من الرصد والمعنى
انها مجدة في ترصد الكفار لئلا يشذ منهم احد وقرئ ان بالفتح على تعليل قيام
الساعة بانها مرصاد للطاغين لابثين فيها حال مقدرة من المستكن في للطاغين
وقرئ لبثين وقوله تعالى احقابا ظرف للبثهم اي دهورا متتابعة كلما مضى حقب
تبعه حقب آخر الى غير نهاية فان الحقب لا يكاد يستعمل الا حيث يراد تتابع الازمنة
وتواليها فليس فيه ما يدل على تناهي تلك الاحقاب ولو اريد بالحقب ثمانون سنة
او سبعون الف سنة وقوله تعالى لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا الا حميما وغساقا
جملة مبتدأة اخبر عنهم بانهم لا يذوقون فيها شيئا ما من برد وروح ينفس عنهم
حر النار ولا من شراب يسكن من عطشهم ولكن يذوقون فيها حميما وغساقا
وقيل البرد النوم وقرئ غساقا بالتخفيف وكلاهما ما يسيل من صديدهم جزاء
اي جوزوا بذلك جزاء وفاقا ذا وفاق لاعمالهم او نفس الوفاق مبالغة
او وافقها وفاقا وقرئ وفاقا على انه فعال من وفقه كذا اي لائقا انهم كانوا لا
يرجون حسابا تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور اي كانوا لا يخافون ان يحاسبوا باعمالهم
وكذبوا بآياتنا الناطقة بذلك كذابا اي تكذيبا مفرطا ولذلك كانوا مصرين على الكفر
وفنون المعاصي وفعال من باب فعل شائع فيما بين الفصحاء وقرئ بالتخفيف وهو مصدر
كذب قال فصدقتها وكذبتها والمرء ينفعه كذابه وانتصابه اما بفعله المدلول عليه
بكذبوا اي وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذابا واما بنفس كذبوا لتضمنه معنى كذبوا فان كل من
يكذب بالحق فهو كاذب وقرئ كذابا وهو جمع كاذب فانتصابه على الحالية اي كذبوا
بآياتنا كاذبين وقد يكون الكذاب بمعنى الواحد البليغ في الكذب فيجعل صفة لمصدر
كذبوا اي تكذيبا كذابا مفرطا كذبه وكل شيء من الاشياء التي من جملتها اعمالهم وانتصا
به بمضمر يفسره احصيناه اي حفظناه وضبطناه وقرئ بالرفع على الابتداء كتابا مصدر
مؤكد لاحصيناه لما ان الاحصاء والكتبة من واد واحد او لفعله المقدر او حال
بمعنى مكتوبا في اللوح او في صحف الحفظة والجملة اعتراض وقوله تعالى فذوقوا
فلن نزيدكم الا عذابا مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات وفي الالتفات
المنبئ عن التشديد في التهديد وايراد لن المفيدة لكون ترك الزيادة من قبيل ما لا
يدخل تحت الصحة من الدلالة على تبالغ الغضب ما لا يخفى وقد روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم ان هذه الآية اشد ما في القرآن على اهل النار ان للمتقين
مفازا شروع في بيان محاسن احوال المؤمنين اثر بيان سوء احوال الكفرة اي
ان للذين يتقون الكفر وسائر قبائح اعمال الكفرة فوزا وظفرا بمباغيهم او موضع
فوز وقيل نجاة مما فيه اولئك او موضع نجاة وقوله تعالى حدائق واعنابا
اي بساتين فيها انواع الاشجار المثمرة وكروما بدل من مفازا وكواعب اي

شبابة فلكت ثديهن وهن النواهد اترابا اى لدات وكاسا دهاقا اى مترعة يقال ادهق الحوض اى ملاءه لا يسمعون فيها اى فى الجنة وقيل فى الكاس لغوا ولا كذابا اى لا ينطقون بلغو ولا يكذب بعضهم بعضا وقرئ كذابا بالتخفيف اى لا يكذب به او لا يكاذبه جزاء من ربك مصدر مؤكد منصوب بمعنى ان للمتقين مفازا فانه فى قوة ان يقال جازى المتقين بمفاز جزاء كائنا من ربك والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال شيئا فشيئا مع الاضافة الى ضميره صلى الله عليه وسلم مزيد تشريف له عليه السلام عطاء اى تفضلا واحسانا منه تعالى اذ لا يجب عليه شئ وهو بدل من جزاء حسابا صفة لعطاء بمعنى كافيا على انه مصدر اقيم مقام الوصف او بولغ فيه من احسبه الشئ اذا كفاه حتى قال حسبى وقيل على حسب اعمالهم وقرئ حسابا بالتشديد على انه بمعنى المحسب كالدراك بمعنى المدرك رب السموات والارض وما بينهما بدل من ربك وقوله تعالى الرحمن صفة له وقيل صفة للاول وايا ما كان ففى ذكر ربوبيته تعالى للكل ورحمته الواسعة اشعار بمدار الجزاء المذكور وقوله تعالى لا يملكون منه خطابا استئناف مقرر لما افاده الربوبية العامة من غاية العظمة والكبرياء واستقلاله تعالى بما ذكر من العطاء من غير ان يكون لاحد قدرة عليه وقرئ برفعهما فقيل على انهما خبران لمبتدا مضمر وقيل الثانى نعت للاول وقيل الاول مبتدا والثانى خبره ولا يملكون خبر آخر فهو الخبر والرحمن صفة للاول وقيل لا يملكون حال لازمة وقيل الاول مبتدا والرحمن مبتدا ثان ولا يملكون خبره والجملة خبر للاول وحصل الربط بتكرير المبتدا بمعناه على رأى من يقول به والاوجه ان يكون كلاهما مرفوعا على المدح او يكون الثانى نعتا للاول ولا يملكون استئنافا على حاله ففيه ما ذكر من الاشعار بمدار الجزاء والعطاء كما فى البدلية لما ان المرفوع او المنصوب مدحا تابع لما قبله معنى وان كان منقطعا عنه اعرابا كما فصل فى قوله تعالى الذين يؤمنون بالغيب من سورة البقرة وقرئ بجر الاول على البدلية ورفع الثانى على الابتداء والخبر ما بعده او على انه خبر لمبتدا مضمر وما بعده استئناف او خبر ثان او حال وضمير لا يملكون لاهل السموات والارض اى لا يملكون ان يخاطبوه تعالى من تلقاء انفسهم كما ينبئ عنه لفظ الملك خطابا ما فى شئ ما والمراد نفى قدرتهم على ان يخاطبوه تعالى بشئ من نقص العذاب او زيادة الثواب من غير اذنه على ابلغ وجه واكده وقيل ليس فى ايديهم مما يخاطب الله به ويأمره به فى امر الثواب والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك فيزيدون فيه او ينقصون منه يوم يقوم الروح والملائكة صفا قيل الروح خلق عظيم من الملائكة واشرف منهم واقرب من رب العالمين وقيل هو ملك ما خلق الله عز وجل بعد العرش خلقا اعظم منه عن ابن عباس رضى الله عنهما انه اذا كان يوم القيمة قام هو وحده صفا والملائكة كلهم صفا وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الروح جند من جنود الله تعالى ليسوا ملائكة لهم رؤس وايد وارجل يأكلون الطعام ثم قرأ يوم يقوم الروح الآية وهذا قول ابى صالح ومجاهد قالوا ما ينزل من السماء ملك الا ومعه واحد منهم نقله البغوى وقيل هم اشراف الملائكة وقيل هم الحفظة على الملائكة وقيل جبرئيل عليه السلام وصفا حال اى مصطفين قيل هما صفان الروح صف واحد او متعدد والملائكة صف وقيل صفوف وهو الاوفق لقوله تعالى والملك صفا صفا وقيل يقوم الكل صفا واحدا ويوم ظرف لقوله تعالى لا يتكلمون وقوله تعالى الا من اذن له الرحمن وقال صوابا بدل من ضمير لا يتكلمون العائد الى اهل السموات والارض الذين من جملتهم الروح والملائكة وذكر قيامهم واصطفافهم لتحقيق عظمة سلطانه تعالى وكبرياء ربوبيته وتهويل يوم البعث الذى عليه مدار الكلام من مطلع السورة الكريمة الى مقطعها والجملة استئناف مقرر لمضمون قوله لا يملكون الخ ومؤكد على معنى ان اهل السموات والارض اذا لم يقدروا يومئذ على ان يتكلموا بشئ من جنس الكلام الا من اذن الله تعالى له

منهم فى التكلم وقال ذلك المأذون له قولا صوابا اى حقا فكيف يملكون خطاب رب العزة مع كونه اخص من مطلق الكلام واعز منه مراما لا على معنى ان الروح والملائكة مع كونهم افضل الخلائق واقربهم الى الله اذا لم يقدروا ان يتكلموا بما هو صواب من الشفاعة لمن ارتضى الا باذنه فكيف يملكه غيرهم كما قيل فانه مؤسس على قاعدة الاعتزال فمن سلكه مع تجويزه ان يكون يوم ظرفا ليملكون فقد اشتبه عليه الشؤن واختلط به الظنون وقيل الا من اذن الخ منصوب على اصل الاستثناء والمعنى لا يتكلمون الا فى حق شخص اذن له الرحمن وقال ذلك الشخص صوابا اى حقا هو التوحيد واظهار الرحمن فى موقع الاضمار للايذان بان مناط الاذن هو الرحمة البالغة لا ان احدا يستحقه عليه سبحانه ذلك اشارة الى يوم قيامهم على الوجه المذكور وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو درجته وبعد منزلته فى الهول والفخامة ومحله الرفع على الابتداء خبره ما بعده اى ذلك اليوم العظيم الذى يقوم فيه الروح والملائكة مصطفين غير قادرين هم وغيرهم على التكلم من الهيبة والجلال اليوم الحق اى الثابت المتحقق لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه والفاء فى قوله تعالى فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا فصيحة تفصح عن شرط محذوف ومفعول المشيئة محذوف لوقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وانتفاء الغرابة فى تعلقها بها حسب القاعدة المستمرة والى ربه متعلق بمآبا قدم عليه اهتماما به ورعاية للفواصل كانه قيل واذا كان الامر كما ذكر من تحقق اليوم المذكور لا محالة فمن شاء ان يتخذ مرجعا الى ثواب ربه الذى ذكر شانه العظيم فعل ذلك بالايمان والطاعة وقال قتادة مآبا اى سبيلا وتعلق الجار به لما فيه من معنى الافضاء والايصال كما مر فى قوله تعالى من استطاع اليه سبيلا انا انذرناكم اى بما ذكر فى السورة من الآيات الناطقة بالبعث وبما بعده من الدواهى او بها وبسائر القوارع الواردة فى القرآن عذابا قريبا هو عذاب الآخرة وقربه لتحقق اتيانه حتما ولانه قريب بالنسبة اليه تعالى وان رأوه بعيدا وسيرونه قريبا لقوله تعالى كانهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية او ضحاها وعن قتادة هى عقوبة الدنيا لانه اقرب العذابين وعن مقاتل هو قتل قريش يوم بدر ويأباه قوله تعالى يوم ينظر المرء ما قدمت يداه فانه اما بدل من عذابا او ظرف لمضمر هو صفة له اى عذابا كائنا يوم ينظر المرء اى يشاهد ما قدمه من خير او شر على ان ما موصولة منصوبة بينظر والعائد محذوف او اى ينظر اى شئ قدمت يداه على انها استفهامية منصوبة بقدمت وقيل المرء عبارة عن الكافر وما فى قوله تعالى ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم قيل معنى تمنيه ليتنى كنت ترابا فى الدنيا فلم اخلق ولم اكلف او ليتنى كنت ترابا فى هذا اليوم فلم ابعث وقيل يحشر الله تعالى الحيوان فيقتص للجماء من القرناء ثم يرده ترابا فيود الكافر حاله وقيل الكافر ابليس يرى آدم وولده وثوابهم فيتمنى ان يكون الشئ الذى احتقره حين قال خلقتنى من نار وخلقته من طين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة عم يتساءلون سقاه الله برد الشراب يوم القيمة

سورة النازعات مكية وهى ست واربعون آية بسم الله الرحمن الرحيم

والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات امرا اقسام من الله عز وجل بطوائف الملائكة الذين ينزعون الارواح من الاجساد على الاطلاق كما قاله ابن عباس ومجاهد او ارواح الكفرة كما قاله على وابن مسعود وسعيد بن جبير ومسروق وينشطونها اى يخرجونها من الاجساد من نشط الدلو من البئر اذا اخرجها ويسبحون فى اخراجها سبح الغواص الذى يخرج من البحر ما يخرج فيسبقون بارواح الكفرة الى النار وبارواح المؤمنين الى الجنة فيدبرون امر عقابها وثوابها بان يهيئوها لادراك ما اعد لها من الآلام واللذات والعطف مع اتحاد الكل بتنزيل

سبيلا

التغاير العنواني منزلة التغاير الذاتي كما في قوله الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتائب
في المزدحم للاشعار بان كل واحد من الاوصاف المعدودة من معظمات الامور
حقيق بان يكون على حياله مناطاً لاستحقاق موصوفه للاجلال والاعظام بالاقسام
به من غير انضمام الاوصاف الأخر اليه والفاء في الاخيرين للدلالة على ترتبهما على ما
قبلهما بغير مهلة كما في قوله يا لهف زيابة للحارث الصابح فالغانم فالآيب وغرقاً
مصدر مؤكد بحذف الزوائد اي اغراقاً في النزع حيث تنزعها من اقاصي الاجساد
قال ابن مسعود تنزع روح الكافرين من جسده من تحت كل شعرة ومن تحت الاظافير
واصول القدمين ثم تغرقها في جسده ثم تنزعها حتى اذا كادت تخرج تردها
في جسده فهذا عملها بالكفار وقيل يرى الكافر نفسه في وقت النزع كانها تغرق
وانتصاب نشطاً وسبحاً وسبقاً ايضاً على المصدرية فاما امراً فمفعول للمدبرات
وتنكيره للتهويل والتفخيم ويجوز ان يراد بالسابحات وما بعدها طوائف من الملئكة
يسبحون في مضيهم اي يسرعون فيه فيسبقون الى ما امروا به من الامور الدنيوية
والاخروية والمقسم عليه محذوف تعويلاً على اشارة ما قبله من المقسم به اليه
ودلالة ما بعده من احوال القيمة عليه وهو لتبعثن فان الاقسام بمن يتولى نزع الارواح
ويقوم بتدبير امورها يلوح بكون المقسم عليه من قبيل تلك الامور لا محالة وفيه من الجزالة
ما لا يخفى وقد جوز ان يكون اقساماً بالنجوم التي تنزع من المشرق الى المغرب غرقاً في
النزع بان تقطع الفلك حتى تنحط في اقصى الغرب وتنشط من برج الى برج اي تخرج من نشط الثور
اذا خرج من بلد الى بلد وتسبح في الفلك فيسبق بعضها بعضاً فتدبر امراً نيط بها كاختلاف
الفصول وتقدير الازمنة وتبيين مواقيت العبادات وحيث كانت حركاتها من المشرق
الى المغرب قسرية وحركاتها من برج الى برج ملائمة عبر عن الاولى بالنزع وعن الثانية بالنشط
او بانفس الغزاة او ايديهم التي تنزع القسي باغراق السهام وينشطون بالسهم للرمي ويسبحون
في البر والبحر فيسبقون الى حرب العدو فيدبرون امرها او بخيلهم التي تنزع في اعنتها
نزعاً تغرق فيه الاعنة لطول اعناقها لانها عراب وتخرج من دار الاسلام الى دار الحرب
وتسبح في جريها فتسبق الى الغاية فتدبر امر الظفر والغلبة واسناد التدبير اليها لانها
من اسبابه هذا والذي يلوح بشان التنزيل هو الاول وقوله تعالى يوم ترجف الراجفة
منصوب بالجواب المضمر والمراد بالراجفة الواقعة التي ترجف عندها الاجرام الساكنة
اي تتحرك حركة شديدة وتتزلزل زلزلة عظيمة كالارض والجبال وهي النفخة الاولى
وقيل الراجفة الارض والجبال لقوله تعالى يوم ترجف الارض والجبال وقوله تعالى
تتبعها الرادفة اي الواقعة التي تردف الاولى وهي النفخة الثانية حال من الراجفة
مصححة لوقوع اليوم ظرفاً للبعث اي لتبعثن يوم النفخة الاولى حال كون النفخة الثانية
تابعة لها لا قبل ذلك فانه عبارة عن الزمان الممتد الذي يقع فيه النفختان و
بينهما اربعون سنة واعتبار امتداده مع ان البعث لا يكون الا عند النفخة الثانية لتهويل
اليوم ببيان كونه موقعاً لداهيتين عظيمتين لا يبقى عند وقوع الاولى حي الا مات
ولا عند وقوع الثانية ميت الا بعث وقام ووجه اضافته الى الاولى ظاهر وقيل يوم
ترجف منصوب باذكر فتكون الجملة استينافاً مقرراً لمضمون الجواب المضمر كانه قيل
لرسول الله صلى الله عليه وسلم اذكر لهم يوم النفختين فانه وقت بعثهم وقيل
هو منصوب بما دل عليه قوله تعالى قلوب يومئذ واجفة اي يوم ترجف وجفت
القلوب وقيل قلوب مبتدأ ويومئذ متعلق بواجفة وهي صفة لقلوب مسوغة
لوقوعه مبتدأ وقوله تعالى ابصارها اي ابصار اصحابها خاشعة جملة من
مبتدأ وخبر وقعت خبراً لقلوب وقد مر ان حق الصفة ان تكون معلومة الانتساب
الى الموصوف عند السامع حتى قالوا ان الصفات قبل العلم بها اخبار والاخبار بعد
العلم بها صفات فحيث كان ثبوت الوجيف للقلوب وثبوت الخشوع لابصار اصحابها
سواء في المعرفة والجهالة كان جعل الاول عنواناً للموضوع مسلم الثبوت مفروغاً عنه وجعل

الثاني مخبراً به مقصود الافادة تحكماً بحتاً على ان الوصف الذي هو عبارة عن شدة اضطراب
القلب وقلقه من الخوف والوجل اشد من خشوع البصر واهول فجعل اهون الشرين
عمدة واشدهما فضلة مما لا عهد له في الكلام وايضاً فتخصيص الخشوع بقلوب
موصوفة بصفة معينة غير مشعرة بالعموم والشمول تهوين للخطب في موقع التهويل
فالوجه ان يقال تنكير قلوب يقوم مقام الوصف المخصص سواء حمل على التنويع كما
قيل وان لم يذكر النوع المقابل فان المعنى منسحب عليه او على التكثير كما في شر اهر ذا ناب
فان التفخيم كما يكون بالكيفية يكون بالكمية ايضاً كانه قيل قلوب كثيرة يوم اذ تقع النفختان
واجفة اي شديدة الاضطراب قال ابن عباس خائفة وجلة وقال السدي زائلة
عن اماكنها كما في قوله تعالى اذ القلوب لدى الحناجر وقوله تعالى يقولون ائنا لمردودون
في الحافرة حكاية لما يقوله المنكرون للبعث المكذبون بالآيات الناطقة به اثر بيان
وقوعه بطريق التوكيد القسمي وذكر مقدماته الهائلة وما يعرض عند وقوعها للقلوب
والابصار اي يقولون اذا قيل لهم انكم تبعثون منكرين له متعجبين منه ائنا لمردودون
بعد موتنا في الحافرة اي في الحالة الاولى يعنون الحيوة من قولهم رجع فلان في حافرته
اي طريقته التي جاء فيها فحفرها اي اثر فيها بمشيه وتسميتها حافرة مع انها محفورة
كقوله تعالى عيشة راضية اي منسوبة الى الحفر والرضى او كقولهم نهاره صائم على
تشبيه القابل بالفاعل وقرئ في الحفرة وهي بمعنى المحفورة وقوله تعالى ائذا كنا عظاماً
نخرة تأكيد لانكار الرد ونفيه بنسبته الى حالة منافية له والعامل في اذا مضمر يدل
عليه مردودون اي ااذا كنا عظاماً بالية نرد ونبعث مع كونها ابعد شيء من الحيوة
وقرئ اذا كنا على الخبر او اسقاط حرف الانكار وناخرة من نخر العظم فهو نخر وناخر
وهو البالي الاجوف الذي يمر به الريح فيسمع له نخير قالوا حكاية لكفر آخر لهم
متفرع على كفرهم السابق ولعل توسيط قالوا بينهما للايذان بان صدور هذا الكفر
عنهم ليس بطريق الاطراد والاستمرار مثل كفرهم السابق المستمر صدوره عنهم في كافة
اوقاتهم حسبما ينبئ عنه حكايته بصيغة المضارع اي قالوا بطريق الاستهزاء
مشيرين الى ما انكروه من الرد في الحافرة مشعرين بغاية بعدها من الوقوع تلك
اذاً كرة خاسرة اي ذات خسران او خاسر اصحابها اي صحت فنحن اذن خاسرون
لتكذيبنا بها وقوله تعالى فانما هي زجرة واحدة تعليل لمقدر يقتضيه انكارهم
لاحياء العظام النخرة التي عبروا عنها بالكرة فان مدار ذلك كان استصعابهم اياها
رد عليهم ذلك فقيل لا تستصعبوها فانما هي صيحة واحدة اي حاصلة بصيحة واحدة
وهي النفخة الثانية عبر عنها بها تنبيها على كمال اتصالها بها كانها عينها وقيل هي راجع
الى الرادفة وقوله تعالى فاذا هم بالساهرة حينئذ بيان لترتب الكرة على الزجرة مفاجأة
اي فاذا هم احياء على وجه الارض بعد ما كانوا امواتاً في جوفها وعلى الاول
بيان لحضورهم الموقف عقيب الكرة التي عبر عنها بالزجرة والساهرة الارض
البيضاء المستوية سميت بذلك لان السراب يجري فيها من قولهم عين ساهرة جارية
الماء وفي ضدها نائمة وقيل لان سالكها لا ينام خوف الهلكة وقيل اسم لجهنم و
قال الراغب هي وجه الارض وقيل هي ارض القيمة وروى الضحاك عن ابن عباس
ان الساهرة ارض من فضة لم يعص الله تعالى عليها قط خلقها حينئذ وقيل هي ارض
يجددها الله عز وجل يوم القيمة وقيل هي اسم الارض السابعة يأتي بها الله
تعالى فيحاسب الخلائق عليها وذلك حين تبدل الارض غير الارض وقال الثوري الساهرة
ارض الشام وقال وهب بن منبه هي بيت المقدس وقيل الساهرة بمعنى الصحراء على شفير
جهنم وقوله تعالى هل اتيك حديث موسى كلام مستأنف وارد لتسلية رسول الله
صلى الله عليه وسلم من تكذيب قومه بانهم يصيبهم مثل ما اصاب من كان اقوى منهم
واعظم ومعنى هل اتاك ان اعتبر هذا اول ما اتاه عليه السلام من حديثه عليه السلام
ترغيب له عليه السلام في استماع حديثه كانه قيل هل اتاك حديثه انا اخبرك به وان

اعتبار اتيانه قبل هذا وهو المتبادر من الايجاز في الاقتصاص اليس قد اتاك حديثه وقت
قوله تعالى اذ ناديه ربه بالواد المقدس ظرف للحديث لا للاتيان لاختلاف وقتيهما
طوى بضم الطاء غير منون وقرئ منونا وقرئ بالكسر منونا وغير منون فمن نونه اوّله
بالمكان دون البقعة وقيل هو كثنى مصدر لناديه او المقدس اي ناداه نداءين او
المقدس مرة بعد اخرى اذهب الى فرعون على ارادة القول وقيل هو تفسير للنداء
اي ناداه اذهب وقيل هو على حذف ان المفسرة ويدل عليه قراءة عبد الله ان اذهب
لان في النداء معنى القول انه طغى تعليل للامر او لوجوب الامتثال به فقل بعد ما اتيته
هل لك رغبة وتوجه الى ان تزكى بحذف احدى التائين من تتزكى اي تتطهر من
دنس الكفر والطغيان وقرئ تزكى بالتشديد واهديك الى ربك وارشدك الى
معرفته عز وجل فتعرفه فتخشى اذ الخشية لا تكون الا بعد معرفته تعالى قال عز وجل
انما يخشى الله من عباده العلماء وجعل الخشية غاية للهداية لانها ملاك الامر من خشي
الله تعالى اتى منه كل خير ومن امن اجترأ على كل شر امر النبي صلى الله عليه وسلم بان
يخاطبه بالاستفهام الذي معناه العرض ليستدعيه بالتلطف في القول ويستنزله
بالمداراة من عتوه وهذا ضرب تفصيل لقوله تعالى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى
فالفاء في قوله تعالى فاراه الاية الكبرى فصيحة تفصح عن جمل قد طويت تعويلا
على تفصيلها في السور الاخرى فانه دعم ما اراه اياها عقيب هذا الامر بل بعد ما جرى
بينه وبين الله تعالى ما جرى من الاستدعاء والاجابة وغيرهما من المراجعات وبعد ما
جرى بينه وبين فرعون ما جرى من المحاورات الى ان قال ان كنت جئت باية فات بها
ان كنت من الصادقين والاراءة اما بمعنى التبصير او التعريف فان اللعين حين ابصرها
عرفها وادعاء سحريتها انما كان ارادة منه واظهار التجلد ونسبتها اليه دعم بالنظر
الى الظاهر كما ان نسبتها الى نون العظمة في قوله تعالى ولقد اريناه اياتنا بالنظر
الى الحقيقة والمراد بالاية الكبرى قلب العصا حية وهو قول ابن عباس فانها كانت
المقدمة والاصل والاخرى كالتبع لها او هما جميعا وهو قول مجاهد فانهما كالاية الواحدة
وقد عبر عنهما بصيغة الجمع حيث قيل اذهب انت واخوك باياتي باعتبار ما في تضاعيفهما
من بدايع الامور التي كل منها اية بينة لقوم يعقلون كما مر تفصيله في سورة طه ولا
مساغ لحملها على مجموع معجزاته فان ما عدا هاتين الايتين من الايات التسع انما
ظهرت على يده عليه السلام بعد ما غلب السحرة على مهل في نحو من عشرين سنة كما مر
في سورة الاعراف ولا ريب في ان هذا مطلع القصة وامر السحرة مترقب بعد فكذب بموسى
عليه السلام وسمى معجزته سحرا وعصى الله عز وجل بالتمرد بعد ما علم صحة الامر
ووجوب الطاعة اشد عصيان واقبحه حيث اجترأ على انكار وجود رب
العالمين رأسا وكان اللعين وقومه مامورين بعبادته عز وعلا وترك العظيمة
التي كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه الفئة الباغية لا بارسال بني اسرائيل من الاسر
والقسر فقط ثم ادبر اي تولى عن الطاعة او انصرف عن المجلس يسعى
اي يجتهد في معارضة الاية او اريد ثم اقبل اي انشاء يسعى فوضع موضعه
ادبر تحاشيا عن وصفه بالاقبال وقيل ادبر هاربا من الثعبان فانه روي
انه عليه السلام لما القى العصا انقلبت ثعبانا اشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون
ذراعا وضع لحيه الاسفل على الارض والاعلى على سور القصر فتوجه نحو فرعون فهرب
واحدث وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون الفا من قومه
وقيل انها انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة نحو فرعون
وجعلت تقول يا موسى مرني بما شئت ويقول فرعون انشدك بالذي ارسلك الا
اخذته فاخذه فعاد عصى ويأباه ان ذلك كان قبل الاصرار على التكذيب والعصيان
والتصدي للمعارضة كما يعرب عنه قوله تعالى فحشر اي فجمع السحرة لقوله فارسل
فرعون في المدائن حاشرين وقوله تعالى فتولى فرعون فجمع كيده اي ما يكاد به من السحرة

والآثهم

والآثهم وقيل جنوده ويجوز ان يراد جمع الناس فنادى في المجمع بنفسه او بواسطة
المنادي فقال انا ربكم الاعلى قيل قام فيهم خطيبا فقال تلك العظيمة فاخذه الله
نكال الاخرة والاولى النكال بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم وهو التعذيب
الذي ينكل من راه او سمعه ويمنعه من تعاطي ما يفضي اليه ومحله النصب على انه
مصدر مؤكد كوعد الله وصبغة الله كانه قيل نكل الله به نكال الاخرة والاولى
وهو الاحراق في الاخرة والاغراق في الدنيا وقيل مصدر لاخذ اي اخذه الله
اخذ نكال الخ وقيل مفعول له اي اخذه الله لاجل نكال الخ وقيل نصب على نزع الخافض
اي اخذ بنكال الاخرة والاولى واضافته الى الدارين باعتبار وقوع نفس الاخذ
فيهما لا باعتبار ان ما فيه من معنى المنع يكون فيهما فان ذلك لا يتصور في الاخرة
بل في الدنيا فان العقوبة الاخروية تنكل من سمعها وتمنعه من تعاطي ما يؤدي
اليها لا محالة وقيل المراد بالاخرة والاولى قوله انا ربكم الاعلى وقوله ما علمت
لكم من اله غيري قيل كان بين الكلمتين اربعون سنة فالاضافة اضافة المسبب
الى السبب ان في ذلك اي فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل وما فعل به لعبرة
عظيمة لمن يخشى اي لمن من شانه ان يخشى وهو من من شانه المعرفة وقوله
تعالى ءانتم اشد خلقا خطاب لاهل مكة المنكرين للبعث بناء على صعوبته في زعمهم
بطريق التوبيخ والتبكيت بعد ما بين كمال سهولته بالنسبة الى قدرة الله عز وجل
بقوله فانما هي زجرة واحدة اي اخلقكم بعد موتكم اشد اي اشق واصعب في تقديركم
ام السماء اي ام خلق السماء على عظمها وانطوائها على تعاجيب البدايع التي تحار
العقول عن ملاحظة ادناها كقوله تعالى لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس
وقوله اوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم وقوله
تعالى بناها الخ بيان وتفصيل لكيفية خلقها المستفاد من قوله ام السماء وفي عدم
ذكر الفاعل فيه وفيما عطف عليه من الافعال من التنبيه على تعينه وتفخيم شانه
عز وجل ما لا يخفى وقوله تعالى رفع سمكها بيان للبناء اي جعل مقدار ارتفاعها
من الارض وذهابها الى سمت العلو مديد ارفيعا مسيرة خمسمائة عام فسواها
فعدلها مستوية ملساء ليس فيها تفاوت ولا فطور او فتممها بما علم انها تتم به
من الكواكب والتداوير وغيرها مما لا يعلمه الا الخلاق العليم من قولهم سوى
امر فلان اذا اصلحه واغطش ليلها اي جعله مظلما يقال غطش الليل واغطشه
الله تعالى كما يقال ظلم واظلمه وقد مر هذا في قوله تعالى واذا اظلم عليهم
قاموا ويقال ايضا اغطش الليل كما يقال اظلم واخرج ضحاها اي ابرز نهارها
عبر عنه بالضحى لانه اشرف اوقاته واطيبها فكان احق بالذكر في مقام الامتنان
وهو السر في تاخير ذكره عن ذكر الليل وفي التعبير عن احداثه بالاخراج فان اضافة
النور بعد الظلمة اتم في الانعام واكمل في الاحسان واضافة الليل والضحى الى
السماء لدوران حدوثهما على حركتها ويجوز ان يكون اضافة الضحى اليها بواسطة
الشمس اي ابرز ضوء شمسها والتعبير عنه بالضحى لانه وقت قيام سلطانها و
كمال اشراقها والارض بعد ذلك دحيها اي بسطها ومهدها لسكنى اهلها
وتقلبهم في اقطارها وانتصاب الارض بمضمر يفسره دحاها اخرج منها ماءها
بان فجر منها عيونا واجرى انهارا ومرعاها اي رعيها وهو في الاصل موضع
الرعي وقيل هو مصدر ميمي بمعنى المفعول وتجريد الجملة عن العاطف اما لانها بيان
وتفسير لدحاها وتكملة له فان السكنى لا تتاتى بمجرد البسط والتمهيد لابد من
تسوية امر المعاش من الماكل والمشرب حتما واما لانها حال من فاعله باضمار قد
عند الجمهور او بدونه عند الكوفيين والاخفش كما في قوله او جاؤكم حصرت
صدورهم والجبال منصوب بمضمر يفسره ارساها اي اثبتها واثبت بها
الارض ان تميد باهلها وهذا تحقيق للحق وتنبيه على ان الرسو المنسوب اليها

فى مواضع كثيرة من التنزيل بالتعبير عنها بالرواسى ليس من مقتضيات ذواتها بل هو بارسائه
عز و جل ولولاه لما ثبتت فى انفسها فضلا عن اثباتها للارض و قرئ و الارض والجبال
بالرفع على الابتداء او لعل تقديم اخراج الماء والمرعى ذكرا مع تقدم الارساء عليه
وجودا و شدة تعلقه بالدحو لابراز كمال الاعتناء بامر الماكل و المشرب مع ما فيه من
دفع توهم رجوع ضميرى الماء والمرعى الى الجبال و هذا كما ترى يدل بظاهره على تاخر دحو الارض
عن خلق السماء و ما فيها كما يروى عن الحسن من انه تعالى خلق الارض فى موضع بيت
المقدس كهيئة الفهر عليه دخان ملتزق بها ثم اصعد الدخان و خلق منه السموات و
امسك الفهر فى موضعها و بسط منها الارض و لذلك قوله تعالى كانتا رتقا ففتقناهما الاية
وقد مر فى سورة حم السجدة ان قوله تعالى قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى
يومين الى قوله ثم استوى الى السماء وهى دخان الآية ان حمل ما فيه من الخلق و ما
عطف عليه من الافعال الثلاثة على معانيها الظاهرة لا على تقديرها فهو وما فى
سورة البقرة من قوله هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسويهن
سبع سموات يدلان على تقدم خلق الارض و ما فيها على خلق السماء و ما فيها وعليه
اطباق اكثر اهل التفسير وقد روى ان العرش كان قبل خلق السموات والارض على
الماء ثم انه تعالى احدث فى الماء اضطرابا فازبد فارتفع منه دخان فاما الزبد فبقى
على وجه الماء فخلق فيه اليبوسة فجعله ارضا واحدة ثم فتقها فجعلها ارضين
و اما الدخان فارتفع وعلا فخلق منه السموات و روى انه تعالى خلق جرم
الارض يوم الاحد ويوم الاثنين دحاها و خلق ما فيها يوم الثلاثا و يوم الاربعا
و خلق السموات و ما فيهن يوم الخميس و يوم الجمعة و خلق آدم عليه السلام
فى آخر ساعة منه وهى الساعة التى تقوم فيها القيمة فالاقرب كما قيل تاويل
هذه الآية بان يجعل ذلك اشارة الى ذكر ما ذكر من بناء السماء و رفع سمكها و تسويتها
و غيرها لا الى نفسها و يحمل بعدية الدحو عنها على البعدية فى الذكر كما هو المعهود
فى السنة العرب والعجم لا فى الوجود لما عرفت من ان انتصاب الارض بمضمر مقدم قد حذف
على شريطة التفسير لا بما ذكر بعده ليفيد القصر و يتعين البعدية فى الوجود و فائدة تاخيره
فى الذكر اما التنبيه على انه قاصر فى الدلالة على القدرة القاهرة بالنسبة الى احوال
السماء واما الاشعار بانه ادخل فى الالزام لما ان المنافع المنوطة بما فى الارض اكثر و تعلق
مصالح الناس بذلك اظهر و احاطتهم بتفاصيل احواله اكمل و ليس ما روى عن الحسن نصا
فى تاخر دحو الارض عن خلق السماء فان بسط الارض معطوف على اصعاد الدخان و
خلق السماء بالواو التى هى بمعزل من الدلالة على الترتيب هذا على تقدير حمل ما ذكر فى
آيات سورة السجدة من الخلق و ما عطف عليه من الافعال الثلاثة على معانيها الظاهرة
واما اذا حملت على تقديرها فلا دلالة فيها الا على تقدم تقدير الارض و ما فيها على
ايجاد السماء كما لا دلالة على الترتيب اصلا اذا حملت كلمة ثم فيها و فيما فى سورة البقرة
على التراخى فى الرتبة و قد سلف تفصيل الكلام فى السورة المذكورة و قوله تعالى متاعا
لكم ولانعامكم اما مفعول له اى فعل ذلك تمتيعا لكم و لانعامكم لان فائدة ما
ذكر من البسط و التمهيد واخراج الماء والمرعى واصلة اليهم و لانعامهم فان المراد
بالمرعى ما يعم ما ياكله الانسان و غيره بناء على استعارة الرعى لتناول الماكول على الاطلاق
كاستعارة المرسن للانف و قيل مصدر مؤكد لفعله المضمر اى متعكم بذلك متاعا
او مصدر من غير لفظه فان قوله تعالى اخرج منها ماءها و مرعاها فى معنى متع بذلك
و قوله تعالى فاذا جاءت الطامة الكبرى اى الداهية العظمى التى تطم على سائر الطامات
اى تعلوها و تغلبها و هى القيمة او النفخة الثانية و قيل هى الساعة التى يساق فيها الخلائق
الى محشرهم و قيل التى يساق فيها اهل الجنة الى الجنة و اهل النار الى النار شروع فى
بيان احوال معادهم اثر بيان احوال معاشهم بقوله تعالى متاعا لكم الخ والفاء للدلالة
على ترتب ما بعدها على ما قبلها كما قيل كما ينبئ عنه لفظ المتاع يوم يتذكر الانسان ما سعى

قيل هو بدل من اذا جاءت والاظهر انه منصوب باعنى كما قيل تفسيرا للطامة الكبرى فان
الابدال منها بالظرف المحض مما يوهن تعلقها بالجواب و يجوز ان يكون بدلا من الطامة
الكبرى مفتوحا لاضافته الى الفعل على رأى الكوفيين اى يتذكر كل احد ما عمله من
خير او شر بان يشاهده مدونا فى صحيفة اعماله و قد كان نسيه من فرط الغفلة و طول
الامد كقوله تعالى احصاه الله و نسوه و يجوز ان يكون ما مصدرية و برزت الجحيم عطف
على جاءت اظهارا بينا لا يخفى على احد لمن يرى كائنا من كان يروى انه يكشف عنها
فتتلظى فيراها كل ذى بصر و قرئ و برزت بالتخفيف و لمن رأى و لمن ترى على ان فيه
ضمير الجحيم كما فى قوله تعالى اذا رأتهم من مكان بعيد او على انه خطاب لرسول الله
صلى الله عليه وسلم اى لمن تراه من الكفار و قوله تعالى واما من طغى الخ جواب فاذا
جاءت على طريقة قوله تعالى فاما يأتينكم منى هدى الاية و قيل هو تفصيل للجواب
المحذوف تقديره انقسم الراؤن قسمين فاما من الخ والذى يستدعيه فخامة
التنزيل و يقتضيه مقام التهويل ان الجواب المحذوف كان من عظائم الشؤون ما
لم تشاهده العيون كما مر فى قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل فاما من عتا و تمرد عن الطاعة
و جاوز الحد فى العصيان و آثر الحيوة الدنيا الفانية التى هى على جناح الفوات
فانهمك فيها متمتعا به فيها و لم يستعد للحيوة الآخرة الابدية بالايمان و الطاعة فان
الجحيم الذى ذكر شانها هى المأوى اى هى مأواه واللام سادة مسد الاضافة
للعلم بان صاحب المأوى هو الطاغى كما فى قولك غض الطرف و دخول اللام
والظرف للتعريف لانهما معروفان و هى اما ضمير فصل او مبتدأ قيل نزلت الآية فى
النضر وابيه الحارث المشهورين بالغلو و الطغيان واما من خاف مقام ربه
اى مقامه بين يدى مالك امره يوم الطامة الكبرى يوم يتذكر الانسان ما سعى
و نهى النفس عن الهوى عن الميل اليه بحكم الجبلة البشرية و لم يعتد بمتاع الحيوة الدنيا
و زهرتها و لم يغتر بزخارفها و زينتها علما منه بوخامة عاقبتها فان الجنة هى المأوى
له لا غيرها و قيل نزلت الآيتان فى ابى عزيز بن عمير و مصعب بن عمير رضى
و قد قتل مصعب اخاه ابا عزيز يوم احد و وقى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى
استشهد رضى الله عنه هذا و قد قيل جواب اذا ما يدل عليه قوله تعالى يوم يتذكر الخ
اى فاذا جاءت الطامة الكبرى يتذكر الانسان ما سعى على طريقة قوله تعالى علمت نفس
ما احضرت و قوله علمت نفس ما قدمت و اخرت فيكون قوله و برزت الجحيم عطفا
عليه و صيغة الماضى للدلالة على التحقق او حالا من الانسان باضمار قد او بدونه
على اختلاف الرايين و لمن يرى مغن عن العائد و قوله فاما من طغى الخ تفصيلا لحال
الانسان الذى يتذكر ما سعى و تقسيما له بحسب اعماله اى القسمين المذكورين
يسئلونك عن الساعة ايان مرسيها متى ارساؤها اى اقامتها يريدون متى
يقيمها الله تعالى و يثبتها و يكونها و قيل ايان منتهاها و مستقرها كما ان مرسى
السفينة حيث تنتهى اليه و تستقر فيه و قوله تعالى فيم انت من ذكريها انكار ورد
لسؤال المشركين عنها اى فى اى شئ انت من ان تذكر لهم وقتها و تعلمهم به حتى يسئلونك
بيانها كقوله يسئلونك كانك حفى عنها اى ما انت من ذكرها لهم و تبيين وقتها فى شئ
لان ذلك فرع علمك به وانى لك ذلك و هو مما استأثر بعلمه علام الغيوب و من
قال بصدد التعليل فان ذكرها لا يزيدهم الا غيا فقد نأى عن الحق و قيل فيم انكار
لسؤالهم و ما بعده من الاستئناف تعليل للانكار و بيان لبطلان السؤال اى فيم هذا
السؤال ثم ابتدئ فقيل انت من ذكريها اى ارسالك و انت خاتم الانبياء المبعوث
فى نسم الساعة علامة من علاماتها و دليل يدلهم على العلم بوقوعها عن قريب
فحسبهم هذه المرتبة من العلم فمعنى قوله تعالى الى ربك منتهيها على هذا الوجه
اليه تعالى يرجع منتهى علمها اى علمها بكنهها و تفاصيل امرها و وقت وقوعها لا الى احد غيره
وانما وظيفتهم ان يعلموا باقترابها و مشارفتها و قد حصل لهم ذلك ببعثتك فما معنى

سؤالهم عنها بعد ذلك واما على الوجه الاول فمعناه اليه تعالى انتهاء علمها ليس لاحد منه شئ ما كائنا من كان فلاى شئ يسألونك عنها وقوله تعالى انما انت منذر من يخشاها على الوجه الاول تقرير لما قبله من قوله فيم انت من ذكراها وتحقيق لما هو المراد منه وبيان لوظيفته عليه السلام فى ذلك الشأن فان انكار كونه عليه السلام فى شئ من ذكراها مما يوهم بظاهره ان ليس له عليه السلام ان يذكرها بوجه من الوجوه فازيح ذلك ببيان ان المنفى عنه عليه السلام ذكرها لهم بتعيين وقتها حسبما كانوا يسألونه عنها فالمعنى انما انت منذر من يخشاها وظيفتك الامتثال بما امرت به من بيان اقترابها وتفصيل ما فيها من فنون الاهوال كما تحيط به خبرا لا تعيين وقتها الذى لم يفوض اليك فما لهم يسألونك عما ليس من وظايفك بيانه وعلى الوجه الثانى هو تقرير لقوله تعالى انت من ذكراها ببيان ان ارساله عليه السلام وهو خاتم الانبياء عليهم السلام منذر بمجئ الساعة كما ينطق به قوله عليه السلام بعثت انا والساعة كهاتين ان كادت لتسبقنى وقرئ منذر بالتنوين وهو الاصل والاضافة تخفيف صالح للحال والاستقبال فاذا اريد الماضى تعينت الاضافة وتخصيص الانذار بمن يخشى مع عموم الدعوة لانه المنتفع به وقوله تعالى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية او ضحاها اما تقرير وتأكيد لما ينبئ عنه الانذار من سرعة مجئ المنذر به لاسيما على الوجه الثانى اى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الانذار بها الا عشية يوم واحد او ضحاه فلما ترك اليوم اضيف ضحاه الى عشية واما رد لما ادمجوه فى سؤالهم فانهم كانوا يسألون عنها بطريق الاستبطاء مستعجلين بها وان كان على نهج الاستهزاء ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين فالمعنى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الوعيد بها الا عشية او ضحاها واعتبار كون اللبث فى الدنيا او فى القبور لا يقتضيه المقام وانما الذى يقتضيه اعتبار كونه بعد الانذار او بعد الوعيد تحقيقا للانذار وردا لاستبطائهم والجملة على الاول حال من الموصول فانه على تقديرى الاضافة وعدمها مفعول لمنذر كما ان قوله تعالى كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار حال من ضمير المفعول فى يحشرهم اى يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث فى الدنيا الا ساعة خلا ان التشبيه هناك فى الاحوال الظاهرة من الزى والهيئة وفيما نحن فيه فى الاعتقاد كأنه قيل تنذرهم مشبهين يوم يرونها فى الاعتقاد بمن لم يلبث بعد الانذار بها الا تلك المدة اليسيرة وعلى الثانى مستأنفة لا محل لها من الاعراب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والنازعات كان ممن حبسه الله تعالى فى القبر والقيامة حتى يدخل الجنة قدر صلوة مكتوبة

سورة عبس مكية وهى ثلث واربعون آية بسم الله الرحمن الرحيم

عبس وتولى ان جاءه الاعمى روى ان ابن مكتوم واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ابى ربيعة الفهرى وام مكتوم اسم ام ابيه اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وابو جهل ابن هشام والعباس بن عبد المطلب وامية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم الى الاسلام رجاء ان يسلم باسلامهم غيرهم فقال له يا رسول الله اقرئنى وعلمنى مما علمك الله وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله بالقوم فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس واعرض عنه فنزلت فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه ويقول اذا رآه مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى ويقول له هل لك من حاجة واستخلفه على المدينة مرتين وقرئ عبّس بالتشديد للمبالغة وان جاءه علة لتولى او عبس على اختلاف الرأيين اى لان جاءه الاعمى والتعرض لعنوان عماه اما لتمهيد عذره فى الاقدام على قطع كلامه عليه السلام بالقوم والايذان باستحقاقه بالرفق والرأفة واما لزيادة الانكار كأنه قيل تولى لكونه اعمى كما ان الالتفات فى قوله تعالى وما يدريك لذلك فان المشافهة ادخل فى تشديد

العتاب اى واى شئ يجعلك داريا بحاله حتى تعرض عنه وقوله تعالى لعله يزكى استئناف وارد لبيان ما يلوح به ما قبله فانه مع اشعاره بان له شأنا منافيا للاعراض عنه خارجا عن دائرة الغير والدراية مؤذن بانه تعالى يدريه ذلك اى لعله يتطهر بما يقتبس منك من اوضار الاوزار بالكلية وكلمة لعل مع تحقق التزكى واردة على سنن الكبرياء او على اعتبار معنى الترجى بالنسبة اليه عليه السلام للتنبيه على ان الاعراض عنه عند كونه مرجو التزكى مما لا يجوز فكيف اذا كان مقطوعا بالتزكى كما فى قولك لعلك ستندم على ما فعلت وفيه اشارة الى ان من تصدى لتزكيتهم من الكفرة لا يرجى منهم التزكى والتذكر اصلا وقوله تعالى او يذكر عطف على يزكى داخل معه فى حكم الترجى وقوله تعالى فتنفعه الذكرى بالنصب على جواب لعل وقرئ بالرفع عطفا على يذكر اى او يتذكر فتنفعه موعظتك ان لم يبلغ درجة التزكى التام وقيل الضمير فى لعل للكافر فالمعنى انك طمعت فى ان يتزكى او يذكر فتقربه الذكرى الى قبول الحق ولذلك توليت عن الاعمى وما يدريك ان ذلك مرجو الوقوع اما من استغنى اى عن الايمان وعما عندك من العلوم والمعارف التى ينطوى عليها القرآن فانت له تصدى اى تتصدى وتتعرض بالاقبال عليه والمدبر ليس من شيم الكرام وقرئ تصدى بادغام التاء فى الصاد وقرئ تصدى بضم التاء اى تعرض ومعناه يدعوك الى التصدى له داع من الحرص والتهالك على اسلامه وما عليك الا يزكى وليس عليك بأس فى ان لا يتزكى بالاسلام حتى تهتم بامره والتعرض عمن اسلم والجملة حال من ضمير تصدى وقيل ما استفهامية للانكار اى اى شئ فى ان لا يتزكى ومآله النفى ايضا واما من جاءك يسعى اى حال كونه مسرعا طالبا لما عندك من احكام الرشد وخصال الخير وهو يخشى اى الله تعالى وقيل يخشى اذية الكفار فى اتيانك وقيل يخشى الكبوة ان لم يكن معه قائد والجملة حال من فاعل يسعى كما انه حال من فاعل جاءك فانت عنه تلهى تتشاغل يقال لهى عنه والتهى وتلهى وقرئ تتلهى وتلهى اى يلهيك شأن الصناديد وفى تقديم ضميره عليه السلام على الفعلين تنبيه على ان مناط الانكار خصوصيته عليه السلام اى مثلك خصوصا لا ينبغى ان يتصدى للمستغنى ويتلهى عن الفقير الطالب للخير وتقديم له وعنه للتعريض باهتمامه عليه السلام بمضمونهما روى انه عليه السلام ما عبس بعد ذلك فى وجه فقير قط ولا تصدى لغنى كلا ردع له عليه السلام عما عوتب عليه من التصدى لمن استغنى عما دعاه اليه من الايمان والطاعة وما يوجبهما من القرآن الكريم مبالغا فى الاهتمام بامره متهالكا على اسلامه معرضا بسبب ذلك عن ارشاد من يسترشده وقوله تعالى انها تذكرة اى موعظة يجب ان يتعظ بها ويعمل بموجبها تعليل للردع عما ذكر ببيان علو رتبة القرآن العظيم الذى استغنى عنه من تصدى له وتحقيق ان شأنه ان تكون موعظة حقيقة بالاتعاظ بها فمن رغب فيها اتعظ بها كما نطق به قوله تعالى فمن شاء ذكره اى حفظه واتعظ به ومن رغب عنها كما فعله المستغنى فلا حاجة الى الاهتمام بامره فالضمير ان للقرآن وتأنيث الاول لتأنيث خبره وقيل الاول للسورة او للآيات السابقة والثانى للتذكرة والتذكير لانها فى معنى الذكر والوعظ وليس بذاك فان السورة والآيات وان كانت متصفة بما سيأتى من الصفات الشريفة لكنها ليست مما القى على من استغنى عنه واستحق بسبب ذكر ما سيأتى من الدعاء عليه والتعجب من كفره المفرط لنزولها بعد الحادثة واما من جوز رجوعهما الى العتاب المذكور فقد اخطأ واساء الادب وخبط خبطا يقضى منه العجب فتأمل وكن على الحق المبين وقوله تعالى فى صحف متعلق بمضمر هو صفة لتذكرة وما بينهما اعتراض جئ به للترغيب فيها والحث على حفظها اى كائنة فى صحف منتسخة من اللوح او خبر ثان لان مكرمة عند الله عز وجل مرفوعة اى فى السماء السابعة او مرفوعة المقدار والذكر مطهرة منزهة عن مساس ايدى الشياطين بايدى سفرة اى كتبة من الملائكة ينتسخون الكتب من اللوح على انه جمع سافر من السفر وهو الكتب وقيل بايدى رسل من الملائكة يسفرون بالوحى بينه

تعالى وبين الانبياء على انه جمع سفير من السفارة وحملهم على الانبياء عليهم السلام بعيد فان وظيفتهم التلقي من الوحي لا الكتب منه وارشاد الامة بالامر والنهي وتعليم الشرائع والاحكام لا مجرد السفارة اليهم وكذا حملهم على القراء لقرآتهم الاسفار او على اصحابه صلى الله عليه وسلم وقد قالوا هذه اللفظة مختصة بالملائكة لا تكاد تطلق على غيرهم وان جاز الاطلاق بحسب اللغة والباء متعلقة بمطهرة قال القفال لما لم يمسها الا الملائكة المطهرون اضيف التطهير اليها لطهارة من يمسها وقال القرطبي ان المراد بها في قوله تعالى لا يمسه الا المطهرون هؤلاء السفرة الكرام البررة كرام عند الله عز وجل او متعطفين على المؤمنين يكلمونهم ويستغفرون لهم بررة اتقياء وقيل مطيعين لله تعالى من قولهم فلان بر خالقه اى يطيعه وقيل صادقين من بر في يمينه قتل الانسان دعاء عليه باشنع الدعوات وقوله تعالى ما اكفره تعجب من افراطه في الكفران وبيان لاستحقاقه للدعاء عليه والمراد به اما من استغنى عن القرآن الكريم الذي ذكرت نعوته الجليلة الموجبة للاقبال عليه والايمان به واما الجنس باعتبار انتظامه له ولامثاله من افراده لا باعتبار جميع افراده وفيه مع قصر متنه وتقارب قطريه من الانباء عن سخط عظيم ومذمة بالغة ما لا غاية وراءه وقوله تعالى من اى شيء خلقه شروع في بيان افراطه في الكفران بتفصيل ما افاض عليه من مبدأ فطرته الى منتهى عمره من فنون النعم الموجبة لقضاء حقها بالشكر والطاعة مع اخلاله بذلك وفي الاستفهام من مبدأ خلقه ثم بيانه بقوله تعالى من نطفة خلقه تحقير له اى من اى شيء حقير مهين خلقه من نطفة مذرة خلقه فقدره فهيأه لما يصلح له ويليق به من الاعضاء والاشكال او فقدره اطوارا الى ان تم خلقه وقوله تعالى ثم السبيل يسره منصوب بمضمر يفسره الظاهر اى ثم سهل مخرجه من البطن بان فتح فم الرحم والهمه ان ينتكس او يسر له سبيل الخير والشر ومكنه من السلوك فيهما وتعريف السبيل باللام دون الاضافة للاشعار بعمومه ثم اماته فاقبره اى جعله ذا قبر يوارى فيه تكرمة له ولم يدعه مطروحا على وجه الارض جزرا للسباع والطير كسائر الحيوان يقال قبر الميت اذا دفنه واقبره اذا امر بدفنه او مكن منه وعد الاماتة من النعم لانها وصلة في الجملة الى الحيوة الابدية والنعيم المقيم ثم اذا شاء انشره اى اذا شاء انشاره انشره على القاعدة المستمرة في حذف مفعول المشية وفي تعليق الانشاء بمشيته تعالى ايذان بان وقته غير متعين بل هو تابع لها وقرئ نشره كلا ردع للانسان عما هو عليه وقوله تعالى لما يقض ما امره بيان لسبب الردع اى لم يقض بعد من لدن آدم عليه السلام الى هذه الغاية مع طول المدى وامتداده ما امره الله تعالى باسره اذ لا يخلو احد عن تقصير ما كذا قالوا وهكذا نقل عن مجاهد وقتادة ولا ريب في ان مساق الآيات الكريمة لبيان غاية عظم جناية الانسان وتحقيق كفرانه المفرط المستوجب للسخط العظيم وظاهر ان ذلك لا يتحقق بهذا القدر من نوع تقصير لا يخلو عنه احد من افراده كيف لا وقد قال صلى الله عليه وسلم شيبتني سورة هود لما فيها من قوله تعالى فاستقم كما امرت فالوجه ان يحمل عدم القضاء على عموم النفي لا على نفي العموم اما على ان المحكوم عليه هو المستغنى او هو الجنس لكن لا على الاطلاق بل على ان مصداق الحكم بعدم القضاء بعض افراده وقد اسند الى الكل كما في قوله تعالى ان الانسان لظلوم كفار للايذان بانه في اللوم بحكم المجانسة على طريقة قولهم بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد منهم واما على ان مصداقه الكل من حيث هو كل بطريق رفع الايجاب الكلي دون السلب الكلي فالمعنى لما يقض جميع افراده ما امره بل اخل به بعضها بالكفر والعصيان مع ان مقتضى ما فصل من فنون النعماء الشاملة للكل ان لا يتخلف عنه احد اصلا هذا وقد قيل كلا بمعنى حقا فيتعلق بما بعده اى حقا لم يعمل بما امر به وقوله تعالى فلينظر الانسان الى طعامه شروع في تعداد النعم المتعلقة ببقائه بعد تفصيل النعم المتعلقة بحدوثه اى فلينظر الى طعامه الذي عليه يدور امر معاشه

كيف

كيف دبرناه وقوله تعالى انا صببنا الماء اى الغيث بدل اشتمال من طعامه لان الماء سبب لحدوث الطعام فهو مشتمل عليه وقرئ انا على الاستيناف وقرئ انى بالامالة اى كيف صببنا الماء صبا عجيبا ثم شققنا الارض اى بالنبات شقا بديعا لائقا بما يشقها من النبات صغرا وكبرا وشكلا وهيئة وحمل شقها على ما بالكراب يجعل اسناده الى نون العظمة من قبيل اسناد الفعل الى سببه يأباه كلمة ثم والفاء في قوله تعالى فانبتنا فيها حبا فان الشق بالمعنى المذكور لا ترتب بينه وبين الامطار اصلا ولا بينه وبين انبات الحب بلا مهلة وانما الترتب بين الامطار وبين الشق بالنبات على التراخي المعهود وبين الشق المذكور وبين انبات الحب بلا مهلة فان المراد بالنبات ما نبت من الارض الى ان يتكامل النمو وينعقد الحب فان انشقاق الارض بالنبات لا يزال يتزايد ويتسع الى تلك المرتبة على ان مساق النظم الكريم لبيان النعم الفائضة من جنابه تعالى على وجه بديع خارج عن العادات المعهودة كما ينبئ عنه تأكيد الفعلين بالمصدرين فتوسيط فعل المنعم عليه في حصول تلك النعم مخل بالمرام وقوله تعالى وعنبا عطف على حبا وليس من لوازم العطف ان يقيد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف عليه فلا ضير في خلو انبات العنب عن شق الارض وقضبا اى رطبة سميت بمصدر قضبه اى قطعه مبالغة كانها لتكرر قطعها وتكثره نفس القطع وزيتونا ونخلا الكلام فيهما في امثالهما كما في العنب وحدائق غلبا اى عظاما وصف به الحدائق لتكاثفها وكثرة اشجارها او لانها ذات اشجار غلاظ مستعار من وصف الرقاب وفاكهة وابا اى مرعى من اب اذا امه اى قصده لانه يؤم وينتجع او من اب لكذا اذا تهيأ له لانه متهيئ للرعي او فاكهة يابسة تؤب للشتاء وعن الصديق رضي الله عنه سئل عن الاب فقال اى سماء تظلني واى ارض تقلني اذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به وعن عمر رضي الله عنه انه قرأ هذه الآية فقال كل هذا قد عرفنا فما الاب ثم رفض عصا كانت بيده وقال هذا لعمر الله التكلف وما عليك يا ابن ام عمر ان لا تدري ما الاب ثم قال اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه متاعا لكم ولانعامكم اما مفعول له اى فعل ذلك تمتيعا لكم ولمواشيكم فان بعض النعم المعدودة طعام لهم وبعضها علف لدوابهم والالتفات لتكميل الامتنان واما مصدر مؤكد لفعله المضمر بحذف الزوائد اى متعكم بذلك متاعا او لفعل مترتب عليه اى متعكم بذلك فتمتعتم متاعا اى تمتعا كما مر غير مرة او مصدر من غير لفظه فان ما ذكر من الافعال الثلاثة في معنى التمتيع فاذا جاءت الصاخة شروع في بيان احوال معادهم اثر بيان مبدأ خلقهم ومعاشهم والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها من فنون النعم عن قريب كما يشعر به لفظ المتاع بسرعة زوالها وقرب اضمحلالها والصاخة هي الداهية العظيمة التي يصخ لها الخلائق اى يصيخون لها من صخ لحديثه اذا اصاخ له واستمع وصفت بها النفخة الثانية لان الناس يصيخون لها وقيل هي الصيحة التي تصخ الآذان اى تصمها لشدتها وقعها وقيل هي مأخوذة من صخه بالحجر اى صكه وقوله تعالى يوم يفر المرء من اخيه وامه وابيه وصاحبته وبنيه اما منصوب باعني تفسيرا للصاخة او بدل منها مبني على الفتح بالاضافة الى الفعل على رأى الكوفيين وقيل بدل من اذا جاءت كما مر في قوله يومئذ يتذكر اى يعرض عنهم ولا يصاحبهم ولا يسأل عن حالهم كما في الدنيا لاشتغاله بحال نفسه واما تعليل ذلك بعلمه بانهم لا يغنون عنه شيئا او بالحذر عن مطالبتهم بالتبعات فيأباه قوله تعالى لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه فانه استيناف وارد لبيان سبب الفرار اى لكل واحد من المذكورين شغل شاغل وخطب هائل يكفيه في الاهتمام به واما الفرار حذرا من مطالبتهم او بغضا لهم كما يروى عن ابن عباس انه يفر قابيل من اخيه هابيل ويفر النبي صلى الله عليه وسلم من امه ويفر ابراهيم عليه السلام من ابيه ونوح عليه السلام من ابنه

وبدأ قيل بدأ بالاخ ثم بالابوين لانهما اقرب منه ثم بالصاحبة والبنين لانهم اقرب واحب كانه قيل يفر من اخيه بل من ابويه بل من صاحبته وبنيه وثم فيه الاخص فالاخص للمبالغة اه كمال

ولوط عليه السلام من امرأته فليس من قبيل هذا الفرار وكونه مايؤدي ان الرجل يفر من اصحابه واقربائه لئلا يروه على ماهو عليه من سوء الحال وقرئ يعنيه بالياء المفتوحة والعين المهملة اي يهمه من عناه الامر اذا اهمه اي اوقعه في الهم ومنه من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه لا من عناه اذا قصده كما قيل وقوله تعالى وجوه يومئذ مسفرة بيان لمآل امر المذكورين وانقسامهم الى السعداء والاشقياء بعد ذكر وقوعهم في داهية دهياء فوجوه مبتدأ وان كانت نكرة لكونها في حيز التنويع ومسفرة خبره ويومئذ متعلق به اي مضيئة متهللة من اسفر الصبح اذا اضاء وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان ذلك من قيام الليل وفي الحديث من كثر صلوته بالليل حسن وجهه بالنهار وعن الضحاك من آثار الوضوء وقيل من طول ما اغبرت في سبيل الله ضاحكة مستبشرة بما تشاهد من النعيم المقيم والبهجة الدائمة ووجوه يومئذ عليها غبرة اي غبار وكدورة ترهقها اي تعلوها وتغشاها قترة اي سواد وظلمة اولئك اشارة الى اصحاب تلك الوجوه وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتهم في سوء الحال اي اولئك الموصوفون بسواد الوجه وغيره هم الكفرة الفجرة الجامعون بين الكفر والفجور فلذلك جمع الله عز وجل الى سواد وجوههم الغبرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة عبس جاء يوم القيمة ووجهه ضاحك مستبشر

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التكوير مكية وهي تسع وعشرون آية

اذا الشمس كورت اي لفت من كورت العمامة اذا لففتها على ان المراد بذلك اما رفعها وازالتها من مقرها فان الثوب اذا اريد رفعه يلف لفا ويطوى ونحوه قوله تعالى يوم نطوي السماء واما لف ضوئها المنبسط في الآفاق المنتشر في الاقطار على انه عبارة عن ازالتها والذهاب بها بحكم استلزام زوال اللازم لزوال الملزوم او القيت عن فلكها كما وصفت النجوم بالانكدار من طعنه فكوره اذا القاه على الارض وعن ابي صالح كورت نكست وعن ابن عباس تكويرها ادخالها في العرش ومدار التركيب على الادارة والجمع وارتفاع الشمس على انه فاعل لفعل مضمر يفسره المذكور وعند البعض على الابتداء واذا النجوم انكدرت اي انقضت وقيل تناثرت وتساقطت روي عن ابن عباس انه لا يبقى يومئذ نجم الا سقط في الارض وعنه ان النجوم قناديل معلقة بين السماء والارض بسلاسل من نور بايدي ملائكة من نور فاذا مات من في السموات ومن في الارض تساقطت من ايديهم وقيل انكدارها انطماس نورها ويروى ان الشمس والنجوم تطرح في جهنم ليراها من عبدها كما قال تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم واذا الجبال سيرت اي عن اماكنها بالرجفة الحاصلة لا في الجو فان ذلك بعد النفخة الثانية واذا العشار عطلت جمع عشراء وهي الناقة التي اتى على حملها عشرة اشهر وهو اسمها الى ان تضع لتمام السنة وهي انفس مايكون عند اهلها واعزها عليهم عطلت تركت مهملة لاشتغال اهلها بانفسهم وقيل العشار السحائب فان العرب تشبهها بالحامل ومنه قوله تعالى فالحاملات وقرا وتعطيلها عدم امطارها وقرئ عطلت بالتخفيف واذا الوحوش حشرت اي جمعت من كل جانب وقيل بعثت للقصاص قال قتادة يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص فاذا اقضي بينها ردت ترابا فلا يبقى منها الا ما فيه سرور لبني آدم واعجاب لصورته كالطاوس ونحوه وقرئ حشرت بالتشديد واذا البحار سجرت اي احميت او مليت بتفجير بعضها الى بعض حتى تعود بحرا واحدا من سجر التنور اذا ملأه بالحطب ليحميه وقيل ملئت نيرانا تضطرم لتعذيب اهل النار وعن الحسن يذهب ماؤها حتى لا يبقى منها قطرة وقرئ سجرت بالتخفيف واذا النفوس زوجت اي قرنت باجسادها او قرنت كل نفس بشكلها او بكتابها او

بعلها

بعلها او نفوس المؤمنين بالحور ونفوس الكفرة بالشياطين واذا الموؤدة اي المدفونة حية وكانت العرب تئد البنات مخافة الاملاق او لحوق العار بهم من اجلهن قيل كان الرجل اذا ولدت له بنت البسها جبة من صوف او شعر حتى اذا بلغت ست سنين ذهب بها الى الصحراء وقد حفر لها حفرة فيلقيها فيها ويهيل عليها التراب وقيل كانت الحامل اذا اقربت حفرت فتمخضت على رأس الحفرة فاذا ولدت بنتا رمت بها وان ولدت ابنا حبسته سئلت باي ذنب قتلت توجيه السؤال اليها لتسليتها واظهار كمال الغيظ والسخط لوائدها واسقاطه عن درجة الخطاب والمبالغة في تبكيته كما في قوله تعالى أأنت قلت للناس اتخذوني وامي الهين وقرئ سألت اي خاصمت او سألت الله تعالى او قاتلها وانما قيل قتلت لما ان الكلام اخبار عنها لا حكاية لما خوطبت به حين سئلت ليقال قتلت على الخطاب ولا حكاية لكلامها حين سألت ليقال قتلت على الحكاية عن نفسها وقد قرئ كذلك وبالتشديد ايضا وعن ابن عباس انه سئل عن اطفال المشركين فقال لا يعذبون واحتج بهذه الآية واذا الصحف نشرت اي صحف الاعمال فانها تطوى عند الموت وتنشر عند الحساب عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يحشر الناس حفاة عراة فقالت ام سلمة فكيف بالنساء فقال شغل الناس يا ام سلمة قالت وما شغلهم قال نشر الصحف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل وقيل نشرت اي فرقت بين اصحابها عن مرثد بن وداعة اذا كان يوم القيمة تطايرت الصحف من تحت العرش فتقع صحيفة المؤمن في يده في جنة عالية وتقع صحيفة الكافر في يده في سموم وحميم اي مكتوب فيها ذلك وهي صحف غير صحف الاعمال واذا السماء كشطت قلعت وازيلت كما يكشط الاهاب عن الذبيحة والغطاء عن الشيء المستور به وقرئ قشطت واعتقاب الكاف والقاف غير عزيز كالكافور والقافور واذا الجحيم سعرت اي اوقدت ايقادا شديدا قيل سعرها غضب الله عز وجل وخطايا بني آدم وقرئ سعرت بالتخفيف واذا الجنة ازلفت اي قربت من المتقين كقوله تعالى وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد قيل هذه اثنتا عشرة خصلة ست منها في الدنيا اي فيما بين النفختين وهن من اول السورة الى قوله واذا البحار سجرت على ان المراد بحشر الوحوش جمعها من كل ناحية لا بعثها للقصاص وست في الآخرة اي بعد النفخة الثانية وقوله تعالى علمت نفس ما احضرت جواب اذا على ان المراد بها زمان واحد ممتد يسع ما في سياقها وسياق ما عطف عليها من الخصال مبدؤه النفخة الاولى ومنتهاه فصل القضاء بين الخلائق لكن لا بمعنى انها تعلم ما تعلم في كل جزء من اجزاء ذلك الوقت الممتد او في مبادئه وبعضها من رواد فه نسب علمها بذلك الى زمان وقوع كلها تهويلا للخطب وتفظيعا للحال والمراد بما احضرت اعمالها من الخير والشر وبحضورها اما حضور صحائفها كما يعرب عنه نشرت واما حضور انفسها على ما قالوا من ان الاعمال الظاهرة في هذه النشأة بصور عرضية تبرز في النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها في الحسن والقبح على كيفيات مخصوصة وهيئات معينة حتى ان الذنوب والمعاصي تتجسم هنالك وتتصور بصورة النار وعلى ذلك حمل قوله تعالى وان جهنم لمحيطة بالكافرين وقوله ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وكذا قوله عليه السلام في حق من يشرب من آنية الذهب والفضة انما يجرجر في بطنه نار جهنم ولا بعد في ذلك الا ترى ان العلم يظهر في عالم المثال على صورة اللبن كما لا يخفى على من له خبرة باحوال الحضرات الخمس وقد روي عن ابن عباس انه يؤتى بالاعمال الصالحة على صور حسنة وبالاعمال السيئة على صور قبيحة فتوضع في الميزان واياما كان فاسناد احضارها الى النفس مع انها تحضر بامر الله تعالى كما ينطق به قوله تعالى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا الآية لانها لما عملتها في الدنيا

فكأنها أحضرتها في الموقف ومعنى علمها بها حينئذ أنها تشاهدها على ما عليه في الحقيقة
فإن كانت صالحة تشاهدها على صور أحسن مما كانت تشاهدها عليه في الدنيا لأن الطاعات
لا تخلو فيها عن نوع مشقة وإن كانت سيئة تشاهدها على خلاف ما كانت تشاهدها
عليه ههنا لأنها كانت مزينة لها موافقة لهواها وتنكير النفس المفيد لثبوت العلم
المذكور لفرد من النفوس أو لبعض منها للإيذان بأن ثبوته لجميع أفرادها قاطبة
من الظهور والوضوح بحيث لا يكاد يحوم حوله شائبة اشتباه قطعا يعرفه كل أحد
ولو جيء بعبارة تدل على خلافه وللرمز إلى أن تلك النفوس العالمة بما ذكر مع توفر
أفرادها وتكثر أعدادها مما يستقل بالنسبة إلى جناب الكبرياء الذي أشير إلى بعض بدائع شئونه
المنبئة عن عظم سلطانه وأما ما قيل من أن هذا من قبيل عكس كلامهم الذي يقصدون
به الإفراط فيما يعكس عنه وتمثيله بقوله تعالى ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين
وبقول من قال قد أترك القرن مصفرا أنامله وبقول من قال حين سئل عن عدد فرسانه
رب فارس عندي وعنده المقانب قاصدا بذلك التمادي في تكثير فرسانه وإظهار براءته
من التزيد وأنه ممن يقلل كثير ما عنده فضلا عن أن يتزيد فمن لوائح النظر الجليل لما أن
الكلام المعكوس عنه فيما ذكر من الأمثلة مما يقبل الإفراط والتمادي فيه فإنه في الأول
كثيرا ما يود وفي الثاني ما ترك وفي الثالث كثير من الفرسان وكل واحد من ذلك قابل
للإفراط والمبالغة فيه لعدم انحصار مراتب الكثرة وقد قصد بعكسه ما ذكر من التمادي
في التكثير حسبما فصل وأما فيما نحن فيه فالكلام الذي عكس عنه علمت كل نفس ما أحضرت
كما صرح به القائل وليس فيه إمكان التكثير حتى يقصد بعكسه المبالغة والتمادي فيه
وغاية ما يمكن فيه من المبالغة ما ذكرناه فتأمل ويجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه
إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كل نفس إصلاح عملها مخافة
أن تكون من تلك التي علمت ما أحضرت فكيف وكل نفس تعلمه على طريقة قولك لمن
تنصحه لعلك ستندم على ما فعلت وربما ندم الإنسان على ما فعل فإنك لا تقصد بذلك
أن ندمه مرجو الوجود لا متيقن به أو نادر الوقوع بل تريد أن العاقل يجب عليه
أن يجتنب أمرا يرجى فيه الندم أو قلما يقع فيه فكيف به إذا كان قطعي الوجود كثير الوقوع
فلا أقسم بالخنس أي بالكواكب الرواجع من خنس إذا تأخر وهي ما عدا النيرين من
الدراري الخمسة وهي بهرام وزحل وعطارد والزهرة والمشتري وصفت بقوله
تعالى الجوار الكنس لأنها تجري مع الشمس والقمر وترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس
فخنوسها رجوعها وكنوسها اختفاؤها تحت ضوئها من كنس الوحش إذا دخل
كناسه وهو بيته الذي يتخذه من أغصان الشجر وقيل هي جميع الكواكب تخنس
بالنهار فتغيب عن العيون وتكنس بالليل أي تطلع في أماكنها كالوحش في كنسها
والليل إذا عسعس أي أدبر ظلامه أو أقبل فإنه من الأضداد وكذلك سعسع
قال الفراء أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدبر وعليه قول العجاج حتى
إذا الصبح لها تنفسا وانجاب عنها ليلها وعسعسا وقيل هي لغة قريش خاصة وقيل
معنى إقبال ظلامه أوفق لقوله تعالى والصبح إذا تنفس لأنه أول النهار وقيل ادبار
اقرب من تنفس الصبح ومعناه أن الصبح إذا أقبل يقبل بإقباله روح ونسيم فجعل
ذلك نفسا له مجازا فقيل تنفس الصبح إنه أي القرآن الكريم الناطق بما ذكر من
الدواهي الهائلة لقول رسول كريم هو جبريل عليه السلام قاله من جهة الله
عز وجل ذي قوة شديدة كقوله تعالى شديد القوى وقيل المراد القوة في أداء
طاعة الله تعالى وترك الإخلال بها من أول الخلق إلى آخر زمان التكليف عند
ذي العرش مكين ذي مكانة رفيعة عند الله عز وجل عندية إكرام وتشريف لا
عندية مكان مطاع فيما بين الملائكة المقربين يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه
ثمة أمين على الوحي وثمة ظرف لما قبله وقيل لما بعده وقرئ ثم تعظيما لوصف الأمانة
وتفضيلا لها على سائر الأوصاف وما صاحبكم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم

بمجنون

بمجنون كما بهتته الكفرة والتعرض لعنوان المصاحبة للتلويح بإحاطتهم بتفاصيل أحواله
عليه السلام للتباين البين بين وصفيهما وهو ضعيف إذ المقصود رد قول الكفرة
في حقه عليه السلام إنما يعلمه بشر أفترى على الله كذبا أم به جنة لا تعداد فضائلهما
والموازنة بينهما ولقد رآه أي وبالله لقد رأى رسول الله جبريل عليهما السلام
بالأفق المبين بمطلع الشمس الأعلى وما هو أي رسول الله صلى الله عليه وسلم
على الغيب على ما يخبره من الوحي إليه وغيره من الغيوب بضنين أي ببخيل لا يبخل
بالوحي ولا يقصر في التبليغ والتعليم وقرئ بظنين أي بمتهم من الظنة وهي التهمة
وما هو بقول شيطان رجيم أي قول بعض المسترقة للسمع وهو نفي لقولهم إنه
كهانة وسحر فأين تذهبون استضلال لهم فيما يسلكونه في أمر القرآن والفاء
لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ظهور أنه وحي مبين وليس مما يقولون في شيء
كما تقول لمن ترك الجادة بعد ظهورها هذا الطريق الواضح فأين تذهب إن هو أي
ما هو إلا ذكر للعالمين موعظة وتذكير لهم وقوله تعالى لمن شاء منكم بدل
من العالمين بإعادة الجار وقوله تعالى أن يستقيم مفعول شاء أي لمن شاء منكم الاستقامة
بتحري الحق وملازمة الصواب وإبداله من العالمين لأنهم المنتفعون بالتذكير وما
تشاؤون أي الاستقامة مشيئة مستتبعة لها في وقت من الأوقات إلا أن يشاء الله
أي إلا وقت أن يشاء الله تعالى تلك المشيئة أي المستتبعة للاستقامة فإن مشيئتكم
لا تستتبعها بدون مشيئة الله تعالى لها رب العالمين مالك الخلق ومربيهم أجمعين
عن رسول الله صلعم من قرأ سورة التكوير أعاذه الله أن يفضحه حين تنشر صحيفته

سورة الانفطار مدنية وهي عشرون آيات بسم الله الرحمن الرحيم

إذا السماء انفطرت أي انشقت لنزول الملائكة كقوله تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام
ونزل الملائكة تنزيلا وقوله وفتحت السماء فكانت أبوابا والكلام في ارتفاع السماء
كما مر في ارتفاع الشمس وإذا الكواكب انتثرت أي تساقطت متفرقة وإذا البحار
فجرت فتح بعضها إلى بعض فاختلط العذب بالأجاج وزال ما بينهما من البرزخ الحاجز
وصارت البحار بحرا واحدا وروي أن الأرض تنشف الماء بعد امتلاء البحار
فتصير مستوية وهو معنى التسجير عند الحسن وقيل إن مياه البحار الآن راكدة مجتمعة
فإذا فجرت تفرقت وذهبت وقرئ فجرت بالتخفيف مبنيا للمفعول ومبنيا للفاعل
أيضا بمعنى بغت من الفجور نظرا إلى قوله تعالى لا يبغيان وإذا القبور بعثرت أي
قلب ترابها وأخرج موتاها ونظيره بحثر لفظا ومعنى فهما مركبان من البعث
والبحث مع راء ضمت إليهما وقوله تعالى علمت نفس ما قدمت وأخرت جواب إذا لكن
لا على أنها تعلمه عند البعث بل عند نشر الصحف لما عرفت من أن المراد بها زمان
واحد ممتد مبدؤه النفخة الأولى ومنتهاه الفصل بين الخلائق لا أزمنة متعددة حسب
تعدد كلمة إذا وإنما كررت لتهويل ما في حيزها من الدواهي والكلام فيه كالذي
مر تفصيله في نظيره ومعنى ما قدمت وأخرت ما أسلف من عمل خير أو شر وأخر من
سنة حسنة أو سيئة يعمل بها بعده قاله ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم وعن ابن
عباس أيضا ما قدم من معصية وأخر من طاعة وهو قول قتادة وقيل ما قدم من أمواله
لنفسه وما أخر لورثته وقيل ما قدم من فرض وأخر من فرض وقيل أول عمله وآخره
ومعنى علمها بها علمها التفصيلي حسبما ذكر فيما مر يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم
أي أي شيء خدعك وجرأك على عصيانه وقد علمت ما بين يديك من الدواهي التامة
والزواجر الطامة وما سيكون حينئذ من مشاهدة أعمالك كلها والتعرض لعنوان كرمه
تعالى للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مدارا لاغتراره حسبما يغويه الشيطان و
يقول له افعل ما شئت فإن ربك كريم قد تفضل عليك في الدنيا وسيفعل مثله في الآخرة
فإنه قياس عقيم وتمنية باطلة بل هو مما يوجب المبالغة في الإقبال على الإيمان والطاعة

والاجتناب عن الكفر والعصيان كانه قيل ما حملك على عصيان ربك الموصوف بالصفات الزاجرة
عنه الداعية الى خلافه وقوله تعالى الذي خلقك فسواك فعدلك صفة ثانية مقررة
للربوبية مبينة للكرم منبهة على ان من قدر على ذلك بدءا اقدر على اعادته و
التسوية جعل الاعضاء سوية سليمة معدة لمنافعها وعدلها عدل بعضها ببعض بحيث
اعتدلت ولم تتفاوت او صرفها عن خلقة غير ملائمة لها وقرئ فعدلك بالتشديد اي
صيرك معتدلا متناسب الخلق من غير تفاوت فيه في اي صورة ما شاء ركبك اي
ركبك في اي صورة شاءها من الصور المختلفة وما مزيدة وشاء صفة لصورة اي
ركبك في اي صورة شاءها واختارها لك من الصور العجيبة الحسنة كقوله لقد خلقنا
الانسان في احسن تقويم وانما لم يعطف الجملة على ما قبلها لانها بيان لعدلك كلا ردع
عن الاغترار بكرم الله تعالى وجعله ذريعة الى الكفر والمعاصي مع كونه موجبا للشكر
والطاعة وقوله تعالى بل تكذبون بالدين اضراب عن جملة مقدرة ينساق اليها الكلام
كانه قيل بعد الردع بطريق الاعتراض وانتم لا ترتدعون عن ذلك بل تجترئون على
اعظم من ذلك حيث تكذبون بالجزاء والبعث رأسا او بدين الاسلام الذي هما من جملة
احكامه فلا تصدقون سؤالا ولا جوابا ولا ثوابا ولا عقابا وقيل كانه قيل انكم
لا تستقيمون على ما توجبه نعمي عليكم وارشادي لكم بل تكذبون الخ وقال القفال ليس
الامر كما يقولون من انه لا بعث ولا نشور ثم قيل انتم لا تتيقنون بهذا البيان بل تكذبون
بيوم الدين وقوله تعالى وان عليكم لحافظين حال من فاعل تكذبون مفيدة لبطلان
تكذيبهم وتحقق ما يكذبون به اي تكذبون بالجزاء والحال ان عليكم من قبلنا لحافظين
لاعمالكم كراما لدينا كاتبين لها يعلمون ما تفعلون من الافعال قليلا وكثيرا
ويضبطونه نقيرا وقطميرا لتجازوا بذلك وفي تعظيم الكاتبين بالثناء عليهم
تفخيم لامر الجزاء وانه عند الله عز وجل من جلائل الامور حيث يستعمل فيه هؤلاء
الكرام وقوله تعالى ان الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم استئناف مسوق
لبيان نتيجة الحفظ والكتاب من الثواب والعقاب وفي تنكير النعيم والجحيم من التفخيم
والتهويل ما لا يخفى وقوله تعالى يصلونها اما صفة لجحيم او استئناف مبني على
سؤال نشأ عن تهويلها كانه قيل ما حالهم فيها فقيل يقاسون حرها يوم الدين يوم
الجزاء الذي كانوا يكذبون به وما هم عنها بغائبين طرفة عين فان المراد دوام
نفي الغيبة لا نفي دوام الغيبة لما مر مرارا من ان الجملة الاسمية المنفية قد يراد
بها استمرار النفي لا نفي الاستمرار باعتبار ما تفيده من الدوام والثبات بعد النفي
لا قبله وقيل معناه وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجدون سمومها
في قبورهم حسبما قال النبي عليه السلام القبر روضة من رياض الجنة او حفرة
من حفر النيران وقوله تعالى وما ادراك ما يوم الدين ثم ما ادراك ما يوم الدين تفخيم
لشأن يوم الدين الذي يكذبون به اثر تفخيم وتهويل لامره بعد تهويل ببيان انه
خارج عن دائرة دراية الخلق على اي صورة تصوروه فهو فوقها وكيفما تخيلوه
فهو اطم من ذلك واعظم اي واي شيء جعلك داريا ما يوم الدين على ان ما
الاستفهامية خبر ليوم الدين لا بالعكس هو رأي سيبويه لما مر ان مدار الافادة
هو الخبر لا المبتدأ ولا ريب في ان مناط افادة الهول والفخامة هنا هو ما لا يوم الدين
اي اي شيء عجيب هو في الهول والفظاعة لما مر غير مرة ان كلمة ما قد يطلب بها
الوصف وان كانت موضوعة لطلب الحقيقة وشرح الاسم يقال ما زيد فيقال في
الجواب كاتب او طبيب وفي اظهار يوم الدين في موقع الاضمار تأكيد لهوله و
فخامته وقوله تعالى يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله بيان اجمالي لشأن
يوم الدين اثر ابهامه وبيان خروجه عن علوم الخلق بطريق انجاز الوعد فان
نفي ادرائهم مشعر بالوعد الكريم بالادراء قال ابن عباس كل ما في القرآن من قوله تعالى
ما ادراك فقد ادراه وكل ما فيه من قوله وما يدريك فقد طوي عنه ويوم مرفوع

على انه خبر مبتدأ محذوف وفتحته الفتحة لاضافته الى غير متمكن كانه قيل يوم لا تملك فيه
نفس من النفوس لنفس من النفوس شيئا من الاشياء الخ او منصوب باضمار اذكر كانه
قيل بعد تفخيم امر يوم الدين وتشويقه صلى الله عليه وسلم الى معرفته اذكر يوم لا تملك
نفس الخ فانه يدريك ما هو وقيل باضمار يدانون وليس بذاك فانه عار عن افادة
ما يفيده ما قبله كما ان ابداله من يوم الدين على قراءة الرفع كذلك بل الحق حينئذ الرفع
على انه خبر لمبتدأ محذوف والله تعالى اعلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
من قرأ سورة الانفطار كتب الله له بعدد كل قطرة من السماء حسنة وبعدد كل قبر حسنة

سورة المطففين مدنية وهي آية بسم الله الرحمن الرحيم

ويل للمطففين قيل الويل شدة الشر وقيل العذاب الاليم وقيل هو واد في جهنم
يهوي فيه الكافر اربعين خريفا قبل ان يبلغ قعره وقيل وقيل وايا ما كان فهو مبتدأ
وان كان نكرة لوقوعه في موقع الدعاء والتطفيف البخس في الكيل والوزن لان
ما يبخس شيء طفيف حقير روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة
وكان اهلها من اخبث الناس كيلا فنزلت فاحسنوا الكيل وقيل قدمها وبها رجل
يعرف بابي جهينة ومعه صاعان يكيل باحدهما ويكتال بالآخر وقيل كان اهل المدينة
تجارا يطففون وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة فنزلت فخرج
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال خمس بخمس ما نقض قوم العهد الا سلط
الله عليهم عدوهم وما حكموا بغير ما انزل الله الا فشا فيهم الفقر وما ظهرت
فيهم الفاحشة الا فشا فيهم الموت ولا طففوا الكيل الا منعوا النبات واخذوا
بالسنين ولا منعوا الزكاة الا حبس عنهم القطر وقوله تعالى الذين اذا اكتالوا على
الناس يستوفون الخ صفة كاشفة للمطففين شارحة لكيفية تطفيفهم الذي
استحقوا به الذم والدعاء بالويل اي اذا اكتالوا من الناس مكيلهم بحكم الشراء
ونحوه يأخذونه وافيا وافرا وتبديل كلمة على بمن لتضمين الاكتيال معنى الاستيلاء
او للاشارة الى انه اكتيال مضر بهم لكن لا على اعتبار الضرر في حيز الشرط الذي
يتضمنه كلمة اذا لاخلاله بالمعنى بل في نفس الامر بموجب الجواب فان المراد بالاستيفاء
ليس اخذ الحق وافيا من غير نقص بل مجرد الاخذ الوافي الوافر حسبما ارادوا باي
وجه تيسر من وجوه الحيل وكانوا يفعلونه بكبس المكيل وتحريك المكيال والاحتيال
في ملئه واما ما قيل من ان ذلك للدلالة على ان اكتيالهم لما لهم على الناس فمع
اقتضائه لعدم شمول الحكم لاكتيالهم قبل ان يكون لهم على الناس شيء بطريق
الشراء ونحوه مع انه الشائع فيما بينهم يقتضي ان يكون معنى الاستيفاء اخذ ما لهم
عليهم وافيا من غير نقص اذ هو المتبادر منه عند الاطلاق في معرض الحق فلا يكون
مدارا لذمهم والدعاء عليهم وحمل ما لهم عليهم على معنى سيكون لهم عليهم مع كونه بعيدا
جدا مما لا يجدي نفعا فان اعتبار كون المكيل لهم حالا كان او مآلا يستدعي كون
الاستيفاء بالمعنى المذكور حتما وهكذا حال ما نقل عن الفراء من ان من وعلى يتعقبان
في هذا الموضع لانه حق عليه فاذا قال اكتلت عليك فكانه قال اخذت ما عليك واذا
قال اكتلت منك فكقوله استوفيت منك فتأمل وقد جوز ان يكون على متعلقة
بيستوفون ويكون تقديمها على الفعل لافادة الخصوصية اي يستوفون على الناس
خاصة فاما انفسهم فيستوفون لها وانت خبير بان القصر بتقديم الجار والمجرور
انما يكون فيما يمكن تعلق الفعل بغير المجرور ايضا حسب تعلقه به فيقصد بالتقديم قصره
عليه بطريق القلب او الافراد او التعيين حسبما يقتضيه المقام ولا ريب في ان الاستيفاء
الذي هو عبارة عن الاخذ الوافي مما لا يتصور ان يكون على انفسهم حتى
يقصد بتقديم الجار والمجرور قصره على الناس على ان الحديث واقع في الفعل لا فيما وقع
عليه فتدبر والضمير البارز في قوله تعالى واذا كالوهم او وزنوهم للناس

اى اذا كالوا لهم او وزنوا لهم للبيع ونحوه يخسرون اى ينقصون يقال خسر الميزان
واخسره فحذف الجار واوصل الفعل كما فى قوله ولقد جنيتك اكموا وعساقلا اى
جنيت لك وجعل البارز تأكيدا للمستكن مما لا يليق بجزالة التنزيل ولعل ذكر الكيل مع الوزن
فى صورة الاخسار والاقتصار على الاكتيال فى صورة الاستيفاء لما انهم لم يكونوا
متمكنين من الاحتيال عند الاتزان تمكنهم منه عند الكيل والوزن وعدم التعرض
للمكيل والموزون فى الصورتين لان مساق الكلام لبيان سوء معاملتهم فى الاخذ
والاعطاء فى خصوصية المأخوذ والمعطى وقوله تعالى الا يظن اولئك انهم
مبعوثون استيناف وارد لتهويل ما ارتكبوه من التطفيف والتعجيب من اجترائهم
عليه واولئك اشارة الى المطففين ووضعه موضع ضميرهم للاشعار بمناط الحكم
الذى هو وصفهم فان الاشارة الى الشىء متعرضة له من حيث اتصافه بوصفه واما
الضمير فلا يتعرض لوصفه وللايذان بانهم ممتازون بذلك الوصف القبيح عن سائر
الناس اكمل امتياز نازلون منزلة الامور المشار اليها اشارة حسية وما فيه من
معنى البعد للاشعار ببعد درجتهم فى الشرارة والفساد اى الا يظن اولئك
الموصوفون بذلك الوصف الشنيع الهائل انهم مبعوثون ليوم عظيم لا يقادر
قدر عظمه وعظم ما فيه ومحاسبون فيه على مقدار الذرة والخردلة فان من يظن ذلك
وان كان ظنا ضعيفا متاخما للشك والوهم لا يكاد يتجاسر على امثال هاتيك القبائح فكيف
بمن يتيقنه وقوله تعالى يوم يقوم الناس لرب العالمين اى لحكمه وقضائه منصوب
باضمار اعنى وقيل بمبعوثون او مرفوع المحل خبر المبتدأ مضمر او مجرور بدلا من يوم
عظيم مبنى على الفتح لاضافته الى الفعل وان كان مضارعا كما هو رأى الكوفيين ويؤيد
الاخيرين القراءتان بالرفع وبالجر وفى هذا الانكار والتعجيب وايراد الظن ووصف اليوم
بالعظم وقيام الناس فيه كافة لله تعالى خاضعين ووصفه تعالى بربوبية العالمين
من البيان البليغ لعظم الذنب وتفاقم الاثم فى التطفيف وامثاله ما لا يخفى كلا ردع
عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب وقوله تعالى ان كتاب
الفجار لفى سجين الخ تعليل للردع او وجوب الارتداع بطريق التحقيق وسجين علم
لكتاب جامع هو ديوان الشر دون فيه اعمال الشياطين واعمال الكفرة والفسقة من
الثقلين منقول من وصف كحاتم واصله فعيل من السجن وهو الحبس والتضييق
لانه سبب الحبس والتضييق فى جهنم او لانه مطروح كما قيل تحت الارض السابعة
فى مكان وحش وهو مسكن ابليس وذريته فالمعنى ان كتاب الفجار الذين من جملتهم
المطففون اى ما يكتب من اعمالهم او كتابة اعمالهم لفى ذلك الكتاب المدون فيه قبائح
اعمال المذكورين وقوله تعالى وما ادراك ما سجين لتهويل امره اى هو بحيث لا يبلغه دراية
احد وقوله تعالى كتاب مرقوم اى مسطور بين الكتابة او معلم يعلم من رآه انه
لا خير فيه وقيل هو اسم المكان والتقدير ما كتاب السجين او محل كتاب مرقوم
وقوله تعالى ويل يومئذ للمكذبين متصل بقوله يوم يقوم الناس لرب العالمين وما
بينهما اعتراض وقوله تعالى الذين يكذبون بيوم الدين اما مجرور على انه صفة ذامة
للمكذبين او بدل منه او مرفوع او منصوب على الذم وما يكذب به الا كل معتد
اى متجاوز عن حدود النظر والاعتبار غال فى التقليد حتى استقصر قدرة الله تعالى
وعلمه عن الاعادة مع مشاهدته للبدء اثيم اى منهمك فى الشهوات المخدجة
الفانية بحيث شغلته عما وراءها من اللذات التامة الباقية وحملته على انكارها
اذا تتلى عليه آياتنا الناطقة بذلك قال من فرط جهله واعراضه عن الحق الذى
لا محيد عنه اساطير الاولين اى هى حكايات الاولين قال الكلبى المراد بالمعتد الاثيم
هو الوليد بن المغيرة وقيل النضر بن الحارث وقيل عام لكل من اتصف بالاوصاف المذكورة
وقرئ اذا يتلى بتذكير الفعل وقرئ ائذا تتلى على الاستفهام الانكارى كلا ردع للمعتد
الاثيم عن ذلك القول الباطل وتكذيب له فيه وقوله تعالى بل ران على قلوبهم ما كانوا

يكسبون

يكسبون بيان لما ادى بهم الى التفوه بتلك العظيمة اى ليس فى آياتنا ما يصح ان يقال فى شأنها مثل
هذه المقالات الباطلة بل ركب قلوبهم وغلب عليها ما كانوا يكسبونها من الكفر والمعاصى
حتى صارت كالصدأ فى المرآة فحال ذلك بينهم وبين معرفة الحق كما قال صلى الله عليه وسلم ان العبد
كلما اذنب ذنبا حصل فى قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه ولذلك قالوا ما قالوا والرين الصدأ
يقال ران عليه الذنب وغان عليه رينا وغينا ويقال ران فيه النوم اى رسخ فيه وقرئ
بادغام اللام فى الراء كلا ردع وزجر عن الكسب الرائن انهم عن ربهم يومئذ
لمحجوبون فلا يكادون يرونه بخلاف المؤمنين وقيل هو تمثيل لاهانتهم باهانة
من يحجب عن الدخول على الملوك وعن ابن عباس وقتادة وابن ابى مليكة محجوبون
عن رحمته وعن ابن كيسان عن كرامته ثم انهم لصالوا الجحيم اى داخلوا النار
وثم للتراخى فى الرتبة فان صلى الجحيم اشد من الاهانة والحرمان من الرحمة و
الكرامة ثم يقال لهم توبيخا وتقريعا من جهة الزبانية هذا الذى كنتم
به تكذبون فذوقوا عذابه كلا ردع عما كانوا عليه بعد ردع وزجر اثر
زجر وقوله تعالى ان كتاب الابرار لفى عليين استيناف مسوق لبيان محل كتاب الابرار
بعد بيان سوء حال الفجار متصلا ببيان سوء حال كتابهم وفيه تأكيد للردع ووجوب
الارتداع وكتابهم ما كتب من اعمالهم وعليون علم لديوان الخير الذى دون فيه
كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين منقول من جمع على فعيل من العلو سمى
بذلك اما لانه سبب الارتفاع الى اعالى الدرجات فى الجنة واما لانه مرفوع فى السماء
السابعة حيث يسكن الكروبيون تكريما له وتعظيما والكلام فى قوله تعالى وما ادراك ما عليون
كتاب مرقوم كما مر فى نظيره وقوله تعالى يشهده المقربون صفة اخرى لكتاب اى
يحضرونه ويحفظونه او يشهدون بما فيه يوم القيمة ان الابرار لفى نعيم شروع
بيان محاسن احوالهم اثر بيان حال كتابهم على طريقة ما مر فى شأن الفجار على الارائك
اى على الاسرة فى الحجال ولا يكاد يطلق الاريكة على السرير عندهم الا عند كونه
فى الحجلة ينظرون اى الى ما شاؤا مد اعينهم اليه من رغائب مناظر الجنة والى ما اولاهم
الله عز وجل من النعمة والكرامة والى اعدائهم يعذبون فى النار وما يحجب الحجال
ابصارهم عن الادراك تعرف فى وجوههم نضرة النعيم اى بهجة التنعم وماءه
ورونقه والخطاب لكل احد ممن له حظ من الخطاب للايذان بان ما لهم من آثار
النعمة واحكام البهجة بحيث لا يختص برؤيته راء دون راء يسقون من رحيق
شراب خالص لا غش فيه مختوم ختامه مسك اى مختوم اوانيه واكوابه بالمسك
مكان الطين ولعله تمثيل لكمال نفاسته وقيل ختامه مسك اى مقطعه رائحة مسك وقرئ
خاتمه بفتح التاء وكسرها اى ما يختم به ويقطع وفى ذلك اشارة الى الرحيق وهو
الانسب لما بعده او الى ما ذكر من احوالهم وما فيه من معنى البعد اما للاشعار
بعلو رتبته وبعد منزلته او لكونه فى الجنة اى فى ذلك خاصة دون غيره فليتنافس
المتنافسون اى فليرغب الراغبون بالمبادرة الى طاعة الله تعالى وقيل فليعمل العاملون كقوله
تعالى لمثل هذا فليعمل العاملون وقيل فليستبق المستبقون واصل التنافس التغالب فى الشىء
النفيس واصله من النفس لعزتها قال الواحدى نفست الشىء انفسه نفاسة والتنافس
تفاعل منه كان كل واحد من الشخصين يريد ان يستأثر به قال البغوى واصله من
الشىء النفيس الذى يحرص عليه نفوس الناس ويريده كل احد لنفسه وينفس به على
غيره اى يضن به ومزاجه من تسنيم عطف على ختامه صفة اخرى لرحيق
مثله وما بينهما اعتراض مقرر لنفاسته اى ما يمزج به ذلك الرحيق من ماء تسنيم
على ان من بيانية او تبعيضية او من تسنيم على انها ابتدائية والتسنيم علم لعين بعينها
سميت به اما لانها ارفع شراب فى الجنة واما لانها تأتيهم من فوق وروى انها تجرى
فى الهواء متسنمة فتنصب فى اوانيهم عينا نصب على الاختصاص وجوز ان يكون
حالا من تسنيم مع كونه جامدا لاتصافه بقوله تعالى يشرب بها المقربون فانهم

يشربون بها صرفاً وتمزج لسائر اهل الجنة فالباء مزيدة او بمعنى من وقوله تعالى ان الذين اجرموا
الخ حكاية لبعض قبائح مشركى قريش جئ بها تمهيدا لذكر بعض احوال الابرار فى الجنة كانوا
فى الدنيا من الذين امنوا يضحكون اى يستهزءون بفقرائهم كعمار وصهيب وخباب
وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين وتقديم الجار والمجرور اما للقصر اشعاراً
بغاية شناعة ما فعلوا اى كانوا من الذين امنوا يضحكون مع ظهور عدم استحقاقهم
لذلك على منهاج قوله تعالى أفى الله شك او لمراعاة الفواصل واذا مروا اى فقراء المؤمنين
بهم بالمشركين وهم فى انديتهم وهو الاظهر وان جاز العكس ايضا يتغامزون اى
يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون باعينهم واذا انقلبوا من مجالسهم الى اهلهم
انقلبوا فكهين ملتذين بذكرهم بالسوء والسخرية منهم وفيه اشارة الى انهم كانوا
لا يفعلون ذلك بمرأى من المارين بهم ويكتفون حينئذ بالتغامز وقرئ فاكهين قيل
هما بمعنى وقيل فكهين اشرين وقيل فرحين وفاكهين متفكهين وقيل ناعمين وقيل
مازحين واذا رأوهم اينما كانوا قالوا ان هؤلاء لضالون اى نسبوا المسلمين ممن
رأوهم ومن غيرهم بطريق التأكيد وما ارسلوا عليهم على المسلمين حافظين
حال من واو قالوا اى قالوا ذلك والحال انهم ما ارسلوا من جهة الله تعالى موكلين بهم
يحفظون عليهم احوالهم ويهيمنون على اعمالهم ويشهدون برشدهم وضلالهم
وهذا تهكم بهم واشعار بان ما اجترؤا عليه من القول من وظائف من ارسل من
جهته تعالى وقد جوز ان يكون ذلك من جملة قول المجرمين كانهم قالوا ان هؤلاء
لضالون وما ارسلوا علينا حافظين انكاراً لصدهم عن الشرك ودعائهم الى الاسلام
وانما قيل عليهم نقلا له بالمعنى كما فى قولك حلف ليفعلن لا بالعبارة كما فى قولك حلف
لافعلن فاليوم الذين امنوا اى المعهودون من الفقراء من الكفار اى المعهودين
وهو الاظهر وان امكن التعميم من الجانبين يضحكون حين يرونهم اذلاء مغلولين
قد غشيهم فنون الهوان والصغار بعد العزة والكبر ورهقهم الوان العذاب بعد
التنعم والترفه وتقديم الجار والمجرور للقصر تحقيقا للمقابلة اى فاليوم هم من
الكفار يضحكون لا الكفار منهم كما كانوا يفعلون فى الدنيا وقوله تعالى على الارائك ينظرون
حال من فاعل يضحكون اى يضحكون منهم ناظرين اليهم والى ما فيهم من سوء الحال
وقيل يفتح للكفار باب الى الجنة فيقال لهم اخرجوا اليها فاذا وصلوا اليها اغلق دونهم
يفعل بهم ذلك مراراً ويضحك المؤمنون منهم ويأباه قوله تعالى هل ثوب الكفار
ما كانوا يفعلون فانه صريح فى ان ضحك المؤمنين منهم جزاء لضحكهم منهم فى الدنيا
فلا بد من المجانسة والمشاكلة حتماً والتثويب والاثابة المجازاة وقرئ بادغام اللام
فى الثاء وعنه عليه الصلوة والسلام من قرأ سورة المطففين سقاه الله يوم القيمة من الرحيق المختوم

سورة الانشقاق مكية وهى خمس وعشرون اية بسم الله الرحمن الرحيم

اذا السماء انشقت اى بالغمام كما فى قوله تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام وعن على رضى الله عنه تنشق
من المجرة واذنت لربها اى استمعت اى انقادت واذعنت لتأثير قدرته تعالى
حين تعلقت ارادته بانشقاقها انقياد المأمور المطواع اذا ورد عليه امر الامر المطاع
والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة اليها للاشعار بعلة الحكم وهذه الجملة و
نظيرتها الاتية بمنزلة قوله تعالى اتينا طائعين فى الانباء عن كون ما نسب الى السماء
والارض من الانشقاق والمد وغيرهما جاريا على مقتضى الحكمة كما اشير اليه
فيما سلف وحقت اى جعلت حقيقة بالاستماع والانقياد لكن لا بعد ان لم تكن
كذلك بل فى نفسها وحد ذاتها من قولهم هو محقوق بكذا وحقيق به والمعنى
انقادت لربها وهى حقيقة بذلك لكن لا على ان المدار خصوصية ذاتها من بين
سائر المقدورات بل خصوصية القدرة القاهرة الربانية التى يتأتى لها كل مقدور
ولا يتخلف عنها امر من الامور فحق الجملة ان تكون اعتراضا مقررا لما قبلها لا معطوفة

عليه

عليه واذا الارض مدت اى بسطت بازالة جبالها واكامها عن مقارها وتسويتها
بحيث صارت قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا امتاً او زيدت سعة وبسطة من
مده بمعنى امده اى زاده والقت ما فيها اى رمت ما فى جوفها من الموتى والكنوز
كقوله تعالى واخرجت الارض اثقالها وتخلت وخلت عما فيها غاية الخلو حتى لم يبق
فيها شئ منه كانها تكلفت فى ذلك اقصى جهدها واذنت لربها فى الالقاء والتخلى
وحقت اى وهى حقيقة بذلك اى شأنها ذلك بالنسبة الى القدرة الربانية وتكرير
كلمة اذا مع اتحاد الافعال المنسوبة الى السماء والارض وقوعاً فى الوقت الممتد الذى
هو مدلولها قد مر سره فيما مر يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً اى جاهد
ومجد الى الموت وما بعده من الاحوال التى مثلت باللقاء مبالغ فى ذلك فان الكدح
جهد النفس فى العمل والكد فيه بحيث يؤثر فيها من كدح جلده اذا خدشه فملاقيه
اى فملاق له عقيب ذلك لا محالة من غير صارف يلويك عنه وقوله تعالى فاما من اوتى
كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً الخ قيل جواب اذا كما فى قوله تعالى فاما يأتينكم
منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقوله تعالى يا ايها الانسان
الخ وقيل هو محذوف للتهويل والايذان بقصور العبارة عن بيانه اى
لقى الانسان عمله وقيل هو ما دل عليه
بلاغة دلالة ما مر فى سورة التكوير والانفطار عليه وقيل هو ما دل عليه
قوله يا ايها الانسان الخ تقديره لاقى الانسان كدحه وقيل هو قوله تعالى فملاقيه
وما قبله اعتراض وقيل هو يا ايها الانسان الخ باضمار القول اى يقال يا ايها الانسان
ومعنى يسيراً سهلا لا مناقشة فيه ولا اعتراض وعن الصديقة رضى الله عنها هو
ان يعرف ذنوبه ثم يتجاوز عنه وينقلب الى اهله مسروراً اى عشيرته المؤمنين
او فريق المؤمنين مبتهجاً بحاله قائلا هاؤم اقرؤا كتابيه وقيل الى اهله فى الجنة
من الحور والغلمان واما من اوتى كتابه وراء ظهره اى يؤتاه بشماله من وراء
ظهره قيل تغل يمناه الى عنقه ويجعل شماله وراء ظهره فيؤتى كتابه بشماله وقيل
وقيل تخلع يده اليسرى من وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً اى يتمنى الثبور وهو
الهلاك ويدعو يا ثبوراه تعال فانه اوانك وانى له بذلك ويصلى سعيراً اى يدخلها
وقرئ يصلى كقوله تعالى وتصلية جحيم وقرئ ويصلى كما فى قوله ونصله جهنم انه
كان فى اهله فيما بين اهله وعشيرته فى الدنيا مسروراً مترفاً بطراً مستبشراً
كديدن الفجار الذين لا يهمهم ولا يخطر ببالهم امور الاخرة ولا يتفكرون
فى العواقب ولم يكن حزيناً متفكراً فى حاله ومآله كسنة الصلحاء والمتقين والجملة استئناف
لبيان علة ما قبلها وقوله تعالى انه ظن ان لن يحور تعليل لسروره فى الدنيا اى ظن
ان لن يرجع الى الله تعالى تكذيبا للمعاد وان مخففة من ان سادة مع ما فى حيزها
مسد مفعولى الظن او احدهما على الخلاف المعروف بلى ايجاب لما بعد لن وقوله تعالى
انه ربه كان به بصيراً تحقيق وتعليل له اى بلى ليحورن البتة ان ربه الذى خلقه كان
به وباعماله الموجبة للجزاء بصيراً بحيث لا تخفى منها خافية فلا بد من رجعه
وحسابه وجزائه عليها حتما وقيل نزلت الايتان فى ابى سلمة بن عبد الاشد
واخيه الاسود فلا اقسم بالشفق هى الحمرة التى تشاهد فى افق المغرب بعد الغروب
او البياض الذى يليها سمى به لرقته ومنه الشفقة التى هى عبارة عن رقة القلب والليل
وما وسق وما جمع وضم يقال وسقه فاتسق واستوسق اى جمعه فاجتمع وما عبارة
عما يجتمع بالليل ويأوى الى مكانه من الدواب وغيرها والقمر اذا اتسق اى اجتمع و
تم بدراً ليلة اربع عشر لتركبن طبقاً عن طبق اى لتلاقن حالا بعد حال كل واحدة
منها مطابقة لاختها فى الشدة والفظاعة وقيل الطبق جمع طبقة وهى المرتبة
وهو الاوفق للركوب المنبئ عن الاعتلاء والمعنى لتركبن احوالا بعد احوال هى طبقات
فى الشدة بعضها ارفع من بعضها وهى الموت وما بعده من مواطن القيمة ودواهيها
وقرئ لتركبن بالافراد على خطاب الانسان باعتبار اللفظ لا باعتبار شموله لافراده

كالقراءة الاولى وقرئ بكسر الباء على خطاب النفس وليركبن بالياء اى ليركبن الانسان ومحل
عن طبق النصب على انه صفة لطبقا اى طبقا مجاوزا لطبق او حال من الضمير في لتركبن
اى لتركبن طبقا مجاوزين او مجاوزا او مجاوزة على حسب القراءة والفاء في قوله
تعالى فما لهم لا يؤمنون لترتيب ما بعدها من الانكار والتعجيب على ما قبلها من احوال
يوم القيمة واهوالها الموجبة للايمان والسجود اى اذا كان حالهم يوم القيمة كما
ذكر فاى شئ لهم حال كونهم غير مؤمنين اى اى شئ يمنعهم من الايمان مع تعاضد
موجباته وقوله تعالى واذا قرئ عليهم القران لا يسجدون جملة شرطية محلها
النصب على الحالية نسقا على ما قبلها اى فاى مانع لهم حال عدم سجودهم وخضوعهم
واستكانتهم عند قراءة القران وقيل قرأ النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم واسجد
واقترب فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش يصفقون فوق رؤسهم ويصفرون
فنزلت وبه احتج ابو حنيفة على وجوب السجدة وعن ابن عباس ليس في المفصل سجدة
وعن ابي هريرة انه سجد فيها وقال والله ما سجدت الا بعد ان رأيت النبي صلعم
يسجد فيها وعن انس صليت خلف ابي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم فسجدوا وعن
الحسن هي غير واجبة بل الذين كفروا يكذبون بالقران الناطق بما ذكر من احوال
القيمة واهوالها مع تحقق موجبات تصديقه ولذلك لا يخضعون عند تلاوته
والله اعلم بما يوعون بما يضمرون في قلوبهم ويجمعون في صدورهم من الكفر
والحسد والبغي والبغضاء او بما يجمعون في صحفهم من اعمال السوء ويدخرون لانفسهم
من انواع العذاب علما فعليا فبشرهم بعذاب اليم لان علمه تعالى بذلك على الوجه
المذكور موجب لتعذيبهم حتما الا الذين امنوا وعملوا الصالحات استثناء
منقطع ان جعل الموصول عبارة عن المؤمنين كافة ومتصل ان اريد به من امن
منهم بعد ذلك وقوله تعالى لهم اجر غير ممنون اى غير مقطوع او ممنون به عليهم
استئناف مقرر لما افاده الاستثناء من انتفاء العذاب عنهم ومبين لكيفيته ومقارنته للثواب
العظيم عن رسول الله صلعم من قرأ سورة انشقت اعاذه الله ان يعطيه كتابه وراء ظهره

سورة البروج مكية وهي اثنان وعشرون اية بسم الله الرحمن الرحيم

والسماء ذات البروج هي البروج الاثنا عشر شبهت بالقصور لانها تنزلها السيارات و
يكون فيها الثوابت او منازل القمر او عظام الكواكب سميت بروجا لظهورها او
ابواب السماء فان النوازل تخرج منها واصل التركيب للظهور واليوم الموعود اى
يوم القيمة وشاهد ومشهود اى ومن يشهد في ذلك اليوم من الخلائق وما يحضر
فيه من العجائب وتنكيرهما للابهام في الوصف اى وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما
او للمبالغة في الكثرة وقيل الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم والمشهود يوم القيمة
وقيل عيسى عم وامته لقوله تعالى وكنت عليهم شهيدا الخ وقيل امة محمد عم
وسائر الامم وقيل يوم التروية ويوم عرفة وقيل يوم عرفة ويوم
الجمعة وقيل الحجر الاسود والحجيج وقيل الايام والليالي وبنوا ادم وعن الحسن ما
من يوم الا ينادي اني يوم جديد واني على ما يعمل في شهيد فاغتنمني فلو غابت
شمسي لم تدركني الى يوم القيمة وقيل الحفظة وبنوا ادم وقيل الانبياء ومحمد
عليهم السلام قتل اصحاب الاخدود قيل هو جواب القسم على حذف اللام منه
للطول والاصل لقتل كما في قول من قال حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا فما ان من
حديث ولا صال وقيل تقديره لقد قتل واياما كان فالجملة خبرية والاظهر انها
دعائية دالة على الجواب كانه قيل اقسم بهذه الاشياء انهم اى كفار مكة ملعونون
كما لعن اصحاب الاخدود لما ان السورة وردت لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه
من الايمان وتصبيرهم على اذية الكفرة وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب
على الايمان وصبرهم على ذلك حتى يأتسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم

ويعلموا

ويعلموا ان هؤلاء عند الله عز وجل بمنزلة اولئك المعذبين ملعونون مثلهم احقاء
بان يقال فيهم ما قد قيل فيهم وقرئ قتل بالتشديد والاخدود الخد في الارض
وهو الشق ونحوهما بناء ومعنى الحق والاحقوق روى عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه كان لبعض الملوك ساحر فلما كبر ضم اليه غلاما ليعلمه السحر وكان في طريق الغلام
راهب فسمع منه فرأى في طريقه ذات يوم دابة قد حبست الناس قيل كانت الدابة
اسدا فاخذ حجرا فقال اللهم ان كان الراهب احب اليك من الساحر فاقتلها
فقتلها فكان الغلام بعد ذلك يبرئ الاكمه والابرص ويشفي من الادواء وعمي
جليس للملك فابراه فابصره الملك فسأله من رد عليك بصرك فقال ربي فغضب
فعذبه فدل على الغلام فعذبه فدل على الراهب فلم يرجع الراهب عن دينه
فقد بالمنشار وابى الغلام فذهب به الى جبل ليطرح من ذروته فدعى فرجف
بالقوم فطاحوا ونجا فذهب به الى قرقور فلججوا به ليغرقوه فدعى فانكفأت
بهم السفينة فغرقوا ونجا فقال للملك لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد وتصلبني على
جذع وتاخذ سهما من كنانتي وتقول باسم الله رب الغلام ثم ترميني به فرماه
فوقع في صدغه فوضع يده عليه ومات فقال الناس امنا برب الغلام فقيل للملك نزل بك ما كنت
تحذر فامر باخاديد في افواه السكك واوقدت فيها النيران فمن لم يرجع منهم طرحه
فيها حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعست فقال الصبي يا اماه اصبري فانك على الحق
فاقتحمت وقيل قال لها قعي ولا تنافقي ما هي الا غميضة فصبرت قيل اخرج الغلام من قبره
في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه واصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل وعن
علي رضي الله عنه ان بعض ملوك المجوس وقع على اخته وهو سكران فلما صحى ندم و
طلب المخرج فقالت له المخرج ان تخطب بالناس فتقول ان الله قد احل نكاح الاخوات
ثم تخطبهم بعد ذلك ان الله حرمه فخطب فلم يقبلوا منه فقالت له ابسط فيهم
السوط ففعل فلم يقبلوا فقالت ابسط فيهم السيف ففعل فلم يقبلوا فامر بالاخاديد
وايقاد النار وطرح من ابى فيها فهم الذين ارادهم الله تعالى بقوله قتل
اصحاب الاخدود وقيل وقع الى نجران رجل ممن كان على دين عيسى عليه
السلام فدعاهم فاجابوه فسار اليهم ذو نواس اليهودي بجنوده من حمير
فخيرهم بين النار واليهودية فابوا فاحرق منهم اثني عشر الفا في الاخاديد
وقيل سبعين الفا وذكر ان طول الاخدود اربعون ذراعا وعرضه اثنا عشر
ذراعا النار بدل اشتمال من الاخدود ذات الوقود وصف لها بغاية العظم
وارتفاع اللهب وكثرة ما يوجبه من الحطب وابدان الناس وقرئ الوقود بالضم
وقوله تعالى اذ هم عليها قعود ظرف لقتل اى لعنوا حين احدقوا بالنار قاعدين
حولها في مكان مشرف عليها من حافات الاخدود كما في قوله تعالى وبات على
النار الندى والمحلق وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود اى يشهد بعضهم
لبعض عند الملك بان احدا لم يقصر فيما امر به او انهم شهود يشهدون بما فعلوا
بالمؤمنين يوم القيمة يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وقيل على بمعنى
مع والمعنى وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب حضور لا يرقون لهم لغاية
قسوة قلوبهم هذا هو الذي يستدعيه النظم الكريم وينطق به الروايات
المشهورة وقد روى ان الجبابرة لما القوا المؤمنين في النار وهم قعود حولها
علت بهم النار فاحرقتهم ونجى الله عز وجل المؤمنين منها سالمين والى هذا
القول ذهب الربيع بن انس والواحدي وعلى ذلك حملا قوله تعالى ولهم عذاب الحريق
وما نقموا منهم اى ما انكروا منهم ما عابوا الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد
استثناء مفصح عن براءتهم عما يعاب وينكر بالكلية على منهاج قوله ولا عيب
فيهم غير ان ضيوفهم تلام بنسيان الاحبة والوطن ووصفه تعالى بكونه
عزيزا غالبا يخشى عقابه وحميدا منعما يرجى ثوابه وتاكيد ذلك بقوله تعالى الذي له

ملك السموات والارض للاشعار بمناط ايمانهم وقوله تعالى والله على كل شىء شهيد
وعد لهم ووعيد شديد لمعذبيهم فان علمه تعالى بجميع الاشيا التى من جملتها
اعمال الفريقين يستدعى توفير جزاء كل منها حتما ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات
اى محنوهم فى دينهم ليرجعوا عنه والمراد بهم اما اصحاب الاخدود خاصة و
المفتونون المطروحون فى الاخدود واما الذين بلوهم فى ذلك بالاذية والتعذيب على
الاطلاق وهم داخلون فى جملتهم دخولا اوليا ثم لم يتوبوا اى عن كفرهم وفتنتهم
فان ما ذكر من الفتنة فى الذين لا يتصور من غير الكافر قطعا وقوله تعالى فلهم
عذاب جهنم جملة وقعت خبرا لان او الخبر لهم وعذاب مرتفع به على الفاعلية و
هو الاحسن والفاء لتضمن المبتداء معنى الشرط ولا ضير فى نسخه بان خالفه الاخفش
والمعنى لهم فى الاخرة عذاب جهنم بسبب كفرهم ولهم عذاب الحريق وهى نار اخرى
عظيمة بسبب فتنتهم للمؤمنين ان الذين امنوا وعملوا الصالحات على الاطلاق
من المفتونين وغيرهم لهم بسبب ما ذكر من الايمان والعمل الصالح جنات تجرى
من تحتها الانهار ان اريد بالجنات الاشجار فجريان الانهار من تحتها ظاهر
وان اريد بها الارض المشتملة عليها فالتحتية باعتبار جريها الظاهر فان اشجارها
ساترة لساحتها كما يعرب عنه اسم الجنة وقد مر بيانه مرارا ذلك اشارة اما الى
الجنات الموصوفة والتذكير لتاويلها بما ذكر للاشعار بان مدار الحكم عنوانها
الذى يتنافس فيه المتنافسون فان اسم الاشارة متعرض لذات المشار اليه من حيث
اتصافه بالاوصاف المذكورة لا لذاته فقط كما هو شان الضمير فاذا اشير الى الجنات من
حيث ذكرها فقد اعتبر معها عنوانها المذكور حتما واما الى ما يفيده قوله تعالى لهم جنات الخ من
حيازتهم لها فان حصولها لهم مستلزم لحيازتهم لها قطعا وايا ما كان فما فيه من معنى
البعد للايذان بعلو درجته وبعد منزلته فى الفضل والشرف ومحله الرفع على
الابتداء خبره ما بعده اى ذلك المذكور العظيم الشان الفوز الكبير الذى تصغر عنده
الدنيا وما فيها من فنون الرغائب بحذافيرها والفوز النجاة من الشر والظفر بالخير
فعلى الاول هو مصدر اطلق على المفعول مبالغة وعلى الثانى مصدر على حاله ان بطش
ربك لشديد استيناف به النبى صلعم ايذانا بان لكفار قومه نصيبا موفورا
من مضمونه كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره
عم والبطش الاخذ بعنف وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم وهو بطشه
بالجبابرة والظلمة واخذه اياهم بالعذاب والانتقام كقوله تعالى وكذلك
اخذ ربك اذا اخذ القرى وهى ظالمة ان اخذه اليم شديد انه هو يبدئ ويعيد
اى هو يبدئ الخلق وهو يعيده من غير دخل لاحد فى شىء منهما ففيه مزيد تقرير
لشدة بطشه او هو يبدئ البطش بالكفرة فى الدنيا ويعيده فى الاخرة وهو الغفور
لمن تاب وامن الودود المحب لمن اطاع ذو العرش خالقه وقيل المراد بالعرش الملك
اى ذو السلطنة القاهرة وقرئ ذى العرش على انه صفة ربك المجيد العظيم فى
ذاته وصفاته فانه واجب الوجود تام القدرة كامل الحكمة وقرئ بالجر على انه
صفة لربك او للعرش ومجده علوه وعظمته فعال لما يريد بحيث لا يتخلف عن ارادته
مراد من افعاله تعالى وافعال غيره وهو خبر مبتداء محذوف وقوله تعالى هل اتيك حديث
الجنود استيناف مقرر لشدة بطشه تعالى بالظلمة العصاة والكفرة العتاة وكونه
فعالا لما يريد متضمن لتسليته صلى الله عليه وسلم للاشعار بانه سيصيب قومه ما اصاب
الجنود فرعون وثمود بدل من الجنود لان المراد بفرعون هو وقومه والمراد
بحديثهم ما صدر عنهم من التمادى فى الكفر والضلال وما حل بهم من العذاب
والنكال والمعنى قد اتاك حديثهم وعرفت ما فعلوا وما فعل بهم فذكر قومك بشئون
الله وانذرهم ان يصيبهم مثل ما اصاب امثالهم وقوله تعالى بل الذين كفروا فى
تكذيب اضراب عن مماثلتهم لهم وبيان لكونهم اشد منهم فى الكفر والطغيان كانه

قيل

قيل ليسوا مثلهم فى ذلك بل هم اشد منهم فى استحقاق العذاب واستيجاب العقاب فانهم
مستقرون فى تكذيب شديد للقران الكريم او قيل ليست جنايتهم مجرد عدم التذكر
والاتعاظ بما سمعوا من حديثهم بل هم مع ذلك فى تكذيب شديد للقران الناطق
بذلك لكن لا انهم يكذبون بوقوع الحادثة بل بكون ما نطق به قرانا من
عند الله تعالى مع وضوح امره وظهور حاله بالبينات الباهرة والله من ورائهم
محيط تمثيل لعدم نجاتهم من باس الله تعالى بعدم فوت المحاط المحيط وقوله تعالى
بل هو قران مجيد رد لكفرهم وابطال لتكذيبهم وتحقيق للحق اى ليس الامر كما
قالوا بل هو كتاب شريف عالى الطبقة فيما بين الكتب الالهية فى النظم والمعنى وقرئ
قران مجيد بالاضافة اى قران رب مجيد فى لوح محفوظ اى من التحريف ووصول
الشياطين اليه وقرئ محفوظ بالرفع على انه صفة قران وقرئ فى لوح وهو الهوا
اى ما فوق السماء السابعة التى فيه اللوح عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرا سورة البروج
اعطاه الله تعالى بعدد كل جمعة وعرفة تكون فى الدنيا عشر حسنات

سورة الطارق مكية وهى سبعة عشر اية بسم الله الرحمن الرحيم

والسماء والطارق الطارق فى الاصل اسم فاعل من طرق طرقا وطروقا اذا جاء ليلا
قال الماوردى واصل الطرق الدق ومنه سميت المطرقة وانما سمى قاصد الليل
طارقا لاحتياجه الى طرق الباب غالبا ثم اتسع فى كل ما ظهر بالليل كائنا ما كان ثم اتسع
فى التوسيع حتى اطلق على الصور الخيالية البادية بالليل قال طرق الخيال ولا كليلة مدلج
سدكا بارحلنا ولم يتعرج والمراد ههنا الكوكب البادى بالليل اما على انه اسم جنس او
كوكب معهود وقيل الطارق النجم الذى يقال له كوكب الصبح وقوله تعالى وما
ادريك ما الطارق تنويه بشانه اثر تفخيمه بالاقسام به وتنبيه على ان رفعة
قدره بحيث لا ينالها ادراك الخلق فلا بد من تلقيها من الخلاق العليم فما الاولى
مبتداء وادريك خبره والثانية خبر والطارق مبتداء حسبما بين فى نظائره اى واى
شىء اعلمك ما الطارق وقوله تعالى النجم الثاقب خبر مبتداء محذوف والجملة
استيناف وقع جوابا عن استفهام نشا مما قبله ما هو فقيل هو النجم المضئ فى الغاية
كانه يثقب الظلام او الافلاك بضوءه وينفذ فيها والمراد به اما الجنس فان لكل
كوكب ضوءا ثاقبا لا محالة واما كوكب معهود قيل هو زحل وقيل هو الثريا وقيل هو
الجدى وقيل النجم الثاقب نجم فى السماء السابعة لا يسكنها غيره فاذا اخذت النجوم
امكنتها من السماء هبط فكان معها ثم يرجع الى مكانه من السماء السابعة وهو زحل
فهو طارق حين ينزل وحين يصعد وفى ايراده عند الاقسام به بوصف مشترك
بينه وبين غيره ثم الاشارة الى ان ذلك الوصف غير كاشف عن كنه امره وان
ذلك مما لا يبلغه افكار الخلائق ثم تفسيره بالنجم الثاقب من تفخيم شانه واجلال محله ما لا
يخفى وقوله تعالى ان كل نفس لما عليها حافظ جواب للقسم وما بينهما اعتراض جى به لما ذكر
من تاكيد فخامة المقسم به المستتبع لتاكيد مضمون الجملة المقسم عليها وان نافية
ولما بمعنى الا اى ما كل نفس الا عليها حافظ مهيمن رقيب وهو الله عز وجل كما فى قوله تعالى
وكان الله على كل شىء رقيبا وقيل من يحفظ عملها ويحصى عليها ما تكسب من خير
وشر كما فى قوله وان عليكم لحافظين كراما الاية وقوله ويرسل عليكم حفظة وقوله
تعالى له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه وقرئ مخففة على ان ان مخففة
من الثقيلة واسمها الذى هو ضمير الشان محذوف واللام هى الفارقة وما مزيدة
اى ان الشان كل نفس لعليها حافظ والفاء فى قوله تعالى فلينظر الانسان مم خلق
للتنبيه على ان ما بين من ان كل عليها حافظ يحصى عليها كل ما يصدر عنها من قول
وفعل مستوجب على الانسان ان يتفكر فى مبداء فطرته حق التفكر حتى يتضح له ان من
قدر على انشائه من مواد لم تشم رائحة الحيوة قط فهو قادر على اعادته بل اقدر على

قياس العقل فيعمل ليوم الاعادة والجزاء ما ينفعه يومئذ ويجديه ولا يملي على حافظه ما
يرديه وقوله تعالى خلق من ماء دافق استيناف وقع جوابا عن استفهام مقدر كأنه
قيل مم خلق فقيل خلق من ماء ذي دفق وهو صب فيه دفع وسيلان بسرعة
والمراد به الممتزج من المائين في الرحم كما ينبئ عنه قوله تعالى يخرج من بين الصلب
والترائب اي صلب الرجل وترائب المرأة وهي عظام صدرها قالوا ان النطفة
تتولد من فضل الهضم الرابع وينفصل عن جميع الاعضاء حتى يستعد لان يتولد
منها مثل تلك الاعضاء ومقرها عروق ملتف بعضها بالبعض عند البيضتين فالدماغ
اعظم الاعضاء معونة في توليدها ولذلك يشبهه ويورث الافراط في الجماع الضعف
فيه وله خليفة هي النخاع وهو في الصلب وشعب كثيرة نازلة الى الترائب وهما اقرب
الى اوعية المني فلذلك خصا بالذكر وقرئ الصلب بفتحتين والصلب بضمتين وفيه
لغة رابعة هي صالب انه الضمير للخالق تعالى فان قوله خلق يدل عليه اي ان ذلك الذي
خلقه ابتداء مما ذكر على رجعه اي اعادته بعد موته لقادر لبين القدرة يوم
تبلى السرائر اي تتعرف وتتصفح ما اسر في القلوب من العقائد والنيات وغيرها وما
اخفي من الاعمال ويميز بين ما طاب منها وما خبث وهو ظرف لرجعه فما له اي
للانسان من قوة في نفسه يمتنع بها ولا ناصر ينصره والسماء ذات الرجع اي المطر
سمي رجعا لما ان العرب كانوا يزعمون ان السحاب يحمل الماء من بحار الارض ثم يرجعه
الى الارض او اراد بذلك التفؤل ليرجع ولذلك سموه اوبا او لان الله تعالى
يرجعه حينا فحينا والارض ذات الصدع هو ما يتصدع عنه الارض من النبات او
مصدر من المبني للمفعول وهو تشققها بالنبات لا بالعيون كما قيل فان وصف السماء
والارض عند الاقسام بهما على حقية القرآن الناطق بالبعث بما ذكر من الوصفين
للايماء الى انهما في انفسهما من شواهده وهو السر في التعبير عنه وعن المطر بالرجع
وذلك في تشقق الارض بالنبات المحاكي للنشور حسبما ذكر في مواقع التنزيل لا في
تشققها بالعيون انه اي القرآن الذي من جملته ما تلي من الآيات الناطقة بمبدأ حال
الانسان ومعاده لقول فصل اي فاصل بين الحق والباطل مبالغ في ذلك كأنه نفس
الفصل وما هو بالهزل ليس في شيء منه شائبة هزل بل كله جد محض لا هوادة
فيه فمن حقه ان يهتدي به الغواة وتخضع له رقاب العتاة انهم اي اهل مكة
يكيدون في ابطال امره واطفاء نوره كيدا حسبما تفي به قدرتهم واكيد كيدا
اي اقابلهم بكيد متين لا يمكن رده حيث استدرجهم من حيث لا يعلمون فمهل
الكافرين اي لا تشتغل بالانتقام منهم ولا تدع عليهم بالهلاك او لا تستعجل
به والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان الاخبار بتوليه تعالى لكيدهم بالذات
مما يوجب امهالهم وترك التصدي لمكايدتهم قطعا وقوله تعالى امهلهم
بدل من مهل وقوله رويدا اما مصدر مؤكد لمعنى العامل او نعت لمصدره
المحذوف اي امهلهم امهالا رويدا اي قريبا كما قاله ابن عباس او قليلا كما
قاله قتادة قال ابو عبيدة هو في الاصل تصغير رود وانشد كأنها ثمل يمشي على
رود اي على مهل وقيل تصغير ارواد مصدر ارود بالترخيم وله في الاستعمال
وجهان آخران كونه اسم فعل نحو رويد زيدا وكونه حالا نحو سار القوم رويدا
اي متمهلين وفي ايراد البدل بصيغة لا تحتمل التكثير وتقييده برويدا على احد
الوجهين المذكورين من تسلية رسول الله عم وتسكين قلبه ما لا يخفى وعنه
عم من قرأ سورة الطارق اعطاه الله تعالى بعدد كل نجم في السماء عشر حسنات

سورة الأعلى مكية وهي تسع عشرة آية بسم الله الرحمن الرحيم

سبح اسم ربك الاعلى اي نزه اسمه عز وجل عن الالحاد فيه بالتأويلات الزائغة وعن
اطلاقه على غيره بوجه يشعر بتشاركهما فيه وعن ذكره لا على وجه الاعظام والاجلال والاعلى

اما

اما صفة للرب وهو الاظهر او للاسم وقرئ سبحان ربي الاعلى وفي الحديث لما نزلت فسبح
باسم ربك العظيم قال عليه السلام اجعلوها في ركوعكم فلما نزل سبح اسم ربك
الاعلى قال اجعلوها في سجودكم وكانوا يقولون في الركوع اللهم لك ركعت وفي
السجود اللهم لك سجدت الذي خلق فسوى صفة اخرى للرب على الوجه الاول
ومنصوب على المدح على الثاني لئلا يلزم الفصل بين الموصوف والصفة بصفة غيره
اي خلق كل شيء فسوى خلقه بان جعل له ما به يتأتى كماله ويتسنى معاشه وقوله تعالى
والذي قدر فهدى اما صفة اخرى للرب كالموصول الاول او معطوف عليه وكذا
حال ما بعده اي قدر اجناس الاشياء وانواعها وافرادها ومقاديرها وصفاتها
وافعالها وآجالها فهدى اي فوجه كل واحد منها الى ما يصدر عنه وينبغي له
طبعا واختيارا ويسره لما خلق له بخلق الميول والالهامات ونصب الدلائل
وانزال الآيات ولو تتبعت احوال النباتات والحيوانات لرأيت في كل منها ما يحار فيه
العقول يحكى ان الافعى اذا بلغت الف سنة عميت وقد الهمها الله تعالى ان تمسح
عينيها بورق الرازيانج الغض يرد اليها بصرها فربما كانت عند عروض العمى لها
في برية بينها وبين الريف مسافة طويلة فتطوي بها حتى تهجم في بعض البساتين
على شجرة الرازيانج لا تخطئها فتحك عينيها بورقها وترجع باصرة باذن الله عز وجل
ويروى ان التمساح لا يكون له دبر وانما يخرج فضلات ما يأكله من فمه حيث
قيض الله له طائرا قدر غذاءه من ذلك فاذا رآه التمساح يفتح فمه فيدخل الطائر
فيأكل ما فيه وقد خلق الله تعالى له من فوق منقاره ومن تحته قرنين لئلا يطبق عليه
التمساح فمه هذا واما فنون هداياته سبحانه وتعالى للانسان من حيث الجسمية
ومن حيث الحيوانية لا سيما من حيث الانسانية فمما لا يحيط به فلك العبارة و
التحرير لا يعلمه الا العليم الخبير والذي اخرج المرعى اي انبت ما ترعاه الدواب غضا
طريا يرف فجعله بعد ذلك غثاء احوى اي دريسا اسود وقيل احوى حال من
المرعى اي اخرجه احوى من شدة الخضرة والري فجعله غثاء بعد ذلك وقوله
تعالى سنقرئك فلا تنسى بيان لهدايته تعالى الخاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم
اثر بيان هدايته العامة لكافة مخلوقاته وهي هدايته عليه السلام لتلقي الوحي
وحفظ القرآن الذي هو هدى للعالمين وتوفيقه عليه السلام لهداية الناس
اجمعين والسين اما للتأكيد واما لان المراد اقراء ما اوحي اليه حينئذ وما
سيوحى اليه بعد ذلك فهو وعد كريم باستمرار الوحي في ضمن الوعد بالاقراء
اي سنقرئك ما نوحي اليك الآن وفيما بعد على لسان جبريل عم او سنجعلك قارئا
بالهام القراءة فلا تنسى اصلا من قوة الحفظ والاتقان مع انك امي لا تدري
ما الكتاب وما القراءة ليكون ذلك آية اخرى لك مع ما في تضاعيف ما تقرؤه من الآيات
البينات من حيث الاعجاز ومن حيث الاخبار بالمغيبات وقيل فلا تنسى نهي والالف
لمراعاة الفاصلة كما في قوله تعالى فاضلونا السبيلا وقوله الا ما شاء الله استثناء مفرغ من
اعم المفاعيل اي لا تنسى مما تقرؤه شيئا من الاشياء الا ما شاء الله ان تنساه ابدا بان
نسخ تلاوته والالتفات الى الاسم الجليل لتربية المهابة والايذان بدوران المشيئة
على عنوان الالوهية المستتبعة لسائر الصفات وقيل المراد به النسيان في الجملة على
القلة والندرة كما روي انه صلى الله عليه وسلم اسقط آية في قراءته في الصلوة فحسب
ابي انها نسخت فسأله فقال عم نسيتها او نفي النسيان رأسا فان القلة قد تستعمل
في النفي فالمراد بالنسيان حينئذ النسيان بالكلية اذ هو المنفي رأسا الا ما قد ينسى ثم
يذكر انه يعلم الجهر وما يخفى تعليل لما قبله اي يعلم ما ظهر من الامور وما
بطن التي من جملتها ما اوحي اليك فينسي ما يشاء انساءه ويبقي محفوظا ما يشاء
ابقاءه لما نيط بكل منهما من مصالح دينكم ونيسرك لليسرى عطف على سنقرئك كما
ينبئ عنه الالتفات الى الحكاية وما بينهما اعتراض وارد لما ذكر من التعليل وتعليق التيسير

به عليه السلام مع ان الشايع تعليقه بالامور المستحقة للفاعل كما فى قوله تعالى ويسر لى امرى الاية بقوة تمكينه عليه السلام من اليسرى والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكة راسخة له كانه عليه السلام جبل عليها كما فى قوله عليه السلام اعملوا فكل ميسر لما خلق له اى نوفقك توفيقا مستمرا للطريقة اليسرى فى كل باب من ابواب الدين علما وتعليما واهتداء وهداية فيندرج فيه تيسير طريق تلقى الوحى والاحاطة بما فيه من احكام الشريعة السمحة والنواميس الالهية مما يتعلق بتكميل نفسه عليه السلام وتكميل غيره كما يفصح عنه الفاء فى قوله تعالى فذكر ان نفعت الذكرى اى فذكر الناس حسبما يسرناك بتلقى الوحى واهدهم الى ما فى تضاعيفه من الاحكام الشرعية كما كنت تفعله لا بعد ما استتب لك الامر كما قيل وتقييد التذكير بنفع الذكرى لما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم طالما كان يذكرهم ويستفرغ فيه غاية المجهود ويتجاوز فى الجد كل حد معهود حرصا على ايمانهم وما كان يزيد ذلك لبعضهم الا كفرا وعنادا فامر عليه السلام بان يخص التذكير بموارد النفع فى الجملة بان يكون من يذكره كلا او بعضا ممن يرجى منه التذكر ولا يتعب نفسه فى تذكير من لا يورثه التذكير الا عتوا ونفورا من المطبوع على قلوبهم كما فى قوله تعالى فذكر بالقران من يخاف وعيد وقوله واعرض عمن تولى عن ذكرنا وقيل هو ذم للمذكرين واخبار عن حالهم واستبعاد لتاثير التذكير فيهم وتسجيل عليهم بالطبع على قلوبهم كقولك للواعظ عظ المكاسين ان سمعوا منك قصدا الى انه مما لا يكون والاول انسب لقوله تعالى سيذكر من يخشى اى سيتذكر بتذكيرك من من شانه ان يخشى الله تعالى حق خشيته او من يخشى الله فى الجملة فيزداد ذلك بالتذكير فيتفكر فى امر ما تذكر به فيقف على حقيته فيؤمن به وقيل ان بمعنى اذ كما فى قوله تعالى وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين اى اذ كنتم وقيل هى بمعنى ما اى فذكر ما نفعت الذكرى فانها لا تخلو عن نفع بكل حال وقيل هناك محذوف والتقدير ان نفعت الذكرى وان لم تنفع كقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر قاله الفراء والنحاس والجرجانى والزهراوى ويتجنبها اى الذكرى الاشقى من الكفرة لتوغله فى عداوة النبى صلى الله عليه وسلم وقيل نزلت فى الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة الذى يصلى النار الكبرى اى الطبقة السفلى من طبقات النار وقيل الكبرى نار جهنم والصغرى نار الدنيا لقوله عليه السلام ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ثم لا يموت فيها حتى يستريح ولا يحيى حيوة تنفعه وثم للتراخى فى مراتب الشدة لان التردد بين الموت والحيوة افظع من الصلى قد افلح اى نجا من المكروه وظفر بما يرجوه من تزكى اى تطهر من الكفر والمعاصى بتذكره واتعاظه بالذكرى او تكثر من التقوى والخشية من الزكاء وهو النماء وقيل تطهر للصلوة وقيل تزكى تفعل من الزكوة وكلمة قد لما ان عند الاخبار بسوء حال المتجنب عن الذكرى فى الاخرة يتوقع السامع الاخبار بحسن حال المتذكر فيها وينتظره وذكر اسم ربه بقلبه ولسانه فصلى اقام الصلوات الخمس كقوله تعالى اقم الصلوة لذكرى اى كبر تكبيرة الافتتاح فصلى وقيل تزكى اى تصدق صدقة الفطر وذكر اسم ربه كبر يوم العيد فصلى اى صلوته بل تؤثرون الحيوة الدنيا اضراب عن مقدر ينساق اليه الكلام كانه قيل اثر بيان ما يؤدى الى الفلاح لا تفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات العاجلة الفانية فتسعون لتحصيلها والخطاب اما للكفرة فالمراد بايثار الحيوة الدنيا هو الرضاء والاطمينان بها والاعراض عن الاخرة بالكلية كما فى قوله تعالى ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحيوة الدنيا واطمانوا بها الاية او للكل فالمراد بايثارها هو اعم مما ذكر وما لا يخلو عنه الناس غالبا من ترجيح جانب الدنيا على الاخرة فى السعى وترتيب المبادى والالتفات على الاول لتشديد التوبيخ وعلى الثانى كذلك فى حق الكفرة ولتشديد العتاب فى حق المسلمين وقرئ يؤثرون بالياء وقوله تعالى والاخرة خير وابقى حال من فاعل تؤثرون مؤكدة للتوبيخ والعتاب اى تؤثرونها على الاخرة والحال ان الاخرة خير فى نفسها لما ان نعيمها مع كونه فى غاية

مايكونن

مايكون من اللذة خالص عن شائبة الغائلة ابدى لا انصرام له وعدم تعرض لبيان تكدر نعيم الدنيا بالمنغصات وانقطاعه عما قليل لغاية ظهوره ان هذا اشارة الى ما ذكر من قوله تعالى قد افلح من تزكى وقيل الى ما فى السورة جميعا لفى الصحف الاولى اى ثابت فيها معناه صحف ابراهيم وموسى بدل من الصحف الاولى وفى ابهامها ووصفها بالقدم ثم بيانها وتفسيرها من تفخيم شانها ما لا يخفى روى ان جميع ما انزل الله عز وجل من كتاب مائة واربعة كتب انزل على آدم عشر صحف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى ادريس ثلاثين صحيفة وعلى ابراهيم عشر صحايف عليهم السلام والتوراة والانجيل والزبور والفرقان عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرا سورة الاعلى اعطاه الله عشر حسنات بعدد كل حرف انزله الله على ابراهيم وموسى ومحمد عليهم السلام

سورة الغاشية مكية وهى ست وعشرون اية بسم الله الرحمن الرحيم

هل اتيك حديث الغاشية قيل هل بمعنى قد كما فى قوله تعالى هل اتى على الانسان الاية قال قطرب اى قد جاءك يا محمد حديث الغاشية وليس بذاك بل هو استفهام اريد به التعجيب مما فى حيزه والتشويق الى استماعه والاشعار بانه من الاحاديث البديعة التى حقها ان يتناقلها الرواة ويتنافس فى تلقيها الوعاة من كل حاضر وباد والغاشية الداهية الشديدة التى تغشى الناس بشدائدها وتكتنفهم باهوالها وهى القيمة من قوله تعالى يوم يغشاهم العذاب الخ وقيل هى النار من قوله تعالى وتغشى وجوههم النار وقوله ومن فوقهم غواش والاول هو الحق فان ما سيروى من حديثها ليس مختصا بالنار واهلها بل ناطق باحوال اهل الجنة ايضا وقوله تعالى وجوه يومئذ خاشعة الى قوله مبثوثة استيناف وقع جوابا عن سؤال نشا من الاستفهام التشويقى كانه قيل من جهته عليه السلام ما اتانى حديثها ما هو فقيل وجوه يومئذ اى يوم اذ غشيت ذليلة قال ابن عباس لم يكن اتاه عليه السلام حديثها فاخبره عليه السلام عنها فقال وجوه يومئذ الخ فوجوه مبتدا ولا باس بتنكيرها لانها فى موقع التنويع وخاشعة خبره وقوله تعالى عاملة ناصبة خبران آخران لوجوه اذ المراد بها اصحابها اى تعمل اعمالا شاقة تتعب فيها وهى جر السلاسل والاغلال والخوض فى النار خوض الابل فى الوحل والصعود والهبوط فى تلال النار ووهادها وقيل عملت فى الدنيا اعمال السوء والتذت بها فهى يومئذ فى نصب منها وقيل عملت ونصبت فى اعمال لا تجدى عليها فى الاخرة وقوله تعالى تصلى اى تدخل نارا حامية اى متناهية فى الحر خبر آخر لوجوه وقيل هو الخبر وما قبله صفات لوجوه وقد عرفت ان الصفة حقها ان تكون معلومة الانتساب الى الموصوف عند السامع قبل جعلها صفة له ولا ريب فى ان صلى النار وما قبله من الخشوع والعمل والنصب امور متساوية فى الانتساب الى الوجوه معرفة وجهالة فجعل بعضها عنوانا للموضوع قيدا مفروغا عنه غير مقصود الافادة وبعضها مناطا للافادة تحكم بحت ويجوز ان يكون هذا وما بعده من الجملتين استينافا مبينا لتفاصيل احوالها تسقى من عين آنية اى متناهية فى الحر كما فى قوله تعالى وبين حميم آن ليس لهم طعام الا من ضريع بيان لطعامهم اثر بيان شرابهم والضريع يبيس الشبرق وهو شوك ترعاه الابل ما دام رطبا واذا يبس تحامته وهو سم قاتل وقيل هو شجرة نارية تشبه الضريع وقال ابن كيسان هو طعام يضرعون عنده ويذلون ويتضرعون الى الله تعالى طلبا للخلاص منه فسمى بذلك وهذا طعام لبعض اهل النار والزقوم والغسلين لآخرين لا يسمن ولا يغنى من جوع اى ليس من شانه الاسمان والاشباع كما هو شان طعام الدنيا وانما هو شئ يضطرون الى اكله من ان يكون له دفع لضرورتهم لكن لا على ان لهم استعدادا للشبع والسمن الا انه لا يفيدهم شيئا منهما بل على انه لا استعداد من جهتهم ولا افادة من جهة طعامهم وتحقيق ذلك ان جوعهم وعطشهم ليسا

من قبيل ما هو المعهود منهما في هذه النشاة من حالة عارضة للانسان عند استدعاء الطبيعة لبدل ما يتحلل من البدن مشوقة له الى المطعوم والمشروب بحيث يلتذ بهما عند الاكل والشرب وتستغنى بها عن غيرهما عند استقرارهما في المعدة ويستفيد منهما قوة وسمنا عند انهضامهما بل جوعهم عبارة عن اضطرارهم عند اضطرام النار في احشائهم الى ادخال شيء كثيف يملؤها ويخرج ما فيها من اللهب واما ان يكون لهم شوق الى مطعوم ما او التذاذ به عند الاكل واستغناء به عن الغير واستفادة قوة فهيهات وكذا عطشهم عبارة عن اضطرارهم عند اكل الضريع والتهابه في بطونهم الى شيء مائع بارد يطفئه من غير ان يكون لهم التذاذ بشربه او استفادة قوة في الجملة وهو المعنى بما روى انه تعالى يسلط عليهم الجوع بحيث يضطرهم الى اكل الضريع فاذا اكلوا يسلط عليهم العطش فيضطرهم الى شرب الحميم فيشوي وجوههم ويقطع امعاءهم وتنكير الجوع للتحقير اى لا يغنى من جوع ما وتاخير نفي الاغناء منه لمراعاة الفواصل والتوسل الى التصريح بنفي كلا الامرين اذ لو قدم لما احتيج الى ذكر نفي الاسمان ضرورة استلزام نفي الاغناء عن الجوع اياه بخلاف العكس ولذلك كرر لا لتاكيد النفي وقوله تعالى وجوه يومئذ ناعمة شروع في رواية حديث اهل الجنة وتقديم حكاية حال اهل النار لانه ادخل في تهويل الغاشية وتفخيم حديثها ولان حكاية حسن حال اهل الجنة بعد حكاية سوء حال اهل النار مما يزيد المحكى حسنا وبهجة والكلام في اعراب الجملة كالذي مر في نظيرتها وانما لم تعطف عليها ايذانا بكمال تباين مضمونيهما ومعنى ناعمة ذات بهجة وحسن كقوله تعالى تعرف في وجوههم نضرة النعيم او متنعمة لسعيها راضية اى لعملها الذي عملته في الدنيا حيث شاهدت ثمرته في جنة عالية مرتفعة المحل او علية المقدار لا تسمع اى انت او الوجوه فيها لاغية لغوا او كلمة ذات لغو او نفسا تلغو فان كلام اهل الجنة كله اذكار وحكم وقرئ لا تسمع على البناء للمفعول بالياء والتاء ورفع لاغية فيها عين جارية اى عيون كثيرة تجرى مياهها كقوله تعالى علمت نفس فيها سرر مرفوعة رفيعة السمك او المقدار واكواب جمع كوب وهو اناء لا عروة له موضوعة اى بين ايديهم ونمارق وسائد جمع نمرقة بالفتح والضم مصفوفة بعضها الى بعض وزرابي اى بسط فاخرة جمع زربية مبثوثة اى مبسوطة افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت استئناف مسوق لتقرير ما فصل من حديث الغاشية وما هو مبني عليه من البعث والذي هم فيه مختلفون بالاستشهاد عليه بما لا يستطيعون انكاره والهمزة للانكار والتوبيخ والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وكلمة كيف منصوبة بما بعدها كما في قوله تعالى كيف تكفرون بالله معلقة لفعل النظر والجملة في حيز الجر على انها بدل اشتمال من الابل اى اينكرون ما ذكر من البعث واحكامه ويستبعدون وقوعه من قدرة الله عز وجل فلا ينظرون الى الابل التي هي نصب اعينهم يستعملونها كل حين الى انها كيف خلقت خلقا بديعا معدولا به عن سنن خلقة سائر انواع الحيوانات في عظم جثتها وشدة قوتها وعجيب هيئاتها اللائقة بتاتي ما يصدر عنها من الافاعيل الشاقة كالنوء بالاوقار الثقيلة وجر الاثقال الفادحة الى الاقطار النازحة وفي صبرها على الجوع والعطش حتى ان اظماءها لتبلغ العشر فصاعدا واكتفائها باليسير ورعيها لكل ما تيسر من شوك وشجر وغير ذلك مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم وفي انقيادها مع ذلك للانسان في الحركة والسكون والبروك والنهوض حيث يستعملها في ذلك كيفما يشاء ويقتادها بقطارها كل صغير وكبير والى السماء التي يشاهدونها كل لحظة بالليل والنهار كيف رفعت رفعا سحيق المدى بلا عماد ولا امساك بحيث لا يناله الفهم والادراك والى الجبال التي ينزلون في اقطارها وينتفعون بمياهها واشجارها كيف نصبت نصبا رصينا فهي راسخة لا تميل ولا تميد

الى الارض

الى الارض التي يضربون فيها ويتقلبون عليها كيف سطحت سطحا بتوطئة وتمهيد وتسوية وتوطيد حسبما يقتضيه صلاح امور ما عليها من الخلائق وقرئ سطحت مشددا وقرئ الافعال الاربعة على بناء الفاعل للمتكلم وحذف الراجع المنصوب والمعنى افلا ينظرون نظر التدبر والاعتبار الى كيفية خلق هذه المخلوقات الشاهدة بحقية البعث والنشور ليرجعوا عما هم عليه من الانكار والنفور ويسمعوا انذارك ويستعدوا للقائه بالايمان والطاعة والفاء في قوله تعالى فذكر لترتيب الامر بالتذكير على ما ينبئ عنه الانكار السابق من عدم النظر اى فاقتصر على التذكير ولا تلح عليهم ولا يهمنك انهم لا ينظرون ولا يتذكرون وقوله تعالى انما انت مذكر تعليل للامر وقوله تعالى لست عليهم بمصيطر تقرير له وتحقيق لمعنى الانذار اى لست بمتسلط عليهم تجبرهم على ما تريد كقوله تعالى وما انت عليهم بجبار وقرئ بالسين على الاصل وبالاشمام وقرئ بفتح الطاء قيل هي لغة بني تميم فان سيطر عندهم متعد ومنه قولهم تسيطر وقوله تعالى الا من تولى وكفر استثناء منقطع اى لكن من تولى منهم فان لله تعالى الولاية والقهر فيعذبه الله العذاب الاكبر الذي هو عذاب جهنم وقيل استثناء متصل من قوله تعالى فذكر اى فذكر الا من انقطع طمعه من ايمانه وتولى فاستحق العذاب الاكبر وما بينهما اعتراض ويعضد الاول انه قرئ الا على التنبيه وقوله تعالى ان الينا ايابهم تعليل لتعذيبه تعالى بالعذاب الاكبر اى ان الينا رجوعهم بالموت والبعث لا الى احد سوانا لا استقلالا ولا اشتراكا وجمع الضمير فيه وفيما بعده باعتبار معنى من كما ان افراده فيما سبق باعتبار لفظها وقرئ ايابهم على انه فيعال مصدر فيعل من الاياب او فعال من اوب كقتال من قتل ثم قيل ايوابا كديوان في دوان ثم قلبت الواو ياء فادغمت الياء الاولى في الثانية ثم ان علينا حسابهم في المحشر لا الى غيرنا وثم للتراخي في الرتبة لا في الزمان فان الترتب الزماني بين ايابهم وحسابهم لا بين كون ايابهم اليه تعالى وحسابهم عليه تعالى فانهما امران مستمران وفي تصدير الجملتين بان وتقديم خبرها وعطف الثانية على الاولى بكلمة ثم المفيدة لبعد منزلة الحساب في الشدة من الانباء عن غاية السخط الموجب لتشديد العذاب ما لا يخفى عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الغاشية يحاسبه الله حسابا يسيرا

سورة الفجر مكية وهي ثلثون آية بسم الله الرحمن الرحيم

والفجر اقسم سبحانه بالفجر كما اقسم بالصبح حيث قال والصبح اذا تنفس وقيل المراد به صلوته وليال عشر هي عشر ذي الحجة ولذلك فسر الفجر بفجر عرفة او النحر او العشر الاواخر من رمضان وتنكيرها للتفخيم وقرئ وليال عشر بالاضافة على ان المراد بالعشر الايام والشفع والوتر اى الاشياء كلها شفعها ووترها او شفع هذه الليالي ووترها وقد روى ان النبي صلى الله عليه وسلم فسرهما بيوم النحر ويوم عرفة ولقد كثرت فيهما الاقوال والله تعالى اعلم بحقيقة الحال وقرئ بكسر الواو وكسر التاء والليل اذا يسر اى يمضي كقوله تعالى والليل اذ ادبر والليل اذا عسعس والتقييد لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة او يسرى فيه من قولهم صلى المقام اى صلى فيه وحذف الياء اكتفاء بالكسرة وقرئ باثباتها على الاطلاق وبحذفها في الوقف خاصة وقرئ يسر بالتنوين كما قرئ والفجر والوتر وهو التنوين الذي يقع بدلا من حرف الاطلاق هل في ذلك قسم لذي حجر تحقيق وتقرير لفخامة شان المقسم بها وكونها امورا جليلة بالاعظام والاجلال عند ارباب العقول وتنبيه على ان الاقسام بها امر معتد به خليق بان يؤكد بها الاخبار على طريقة قوله تعالى وانه لقسم لو تعلمون عظيم وذلك اشارة اما الى الامور المقسم بها والتذكير بتاويل ما ذكر كما مر تحقيقه او الى الاقسام بها اياما كان فما فيه من معنى البعد للايذان

سورة الفجر

بعلو رتبة المشار اليه وبعد منزلته فى الشرف والفضل اى هل فيما ذكر من الاشياء قسم
اى مقسم به لذى حجر يراه حقيقا بان يقسم به اجلالا وتعظيما والمراد تحقيق ان الكل
كذلك وانما اوثرت هذه الطريقة هضما للحق وايذانا بظهور الامر او هل فى اقسامى
بتلك الاشياء اقسام لذى حجر مقبول عنده يعتد به ويفعل مثله ويؤكد به المقسم عليه
والحجر العقل لانه يحجر صاحبه اى يمنعه من التهافت فيما لا ينبغى كما سمى عقلا ونهية لانه
يعقل وينهى وحصاة ايضا من الاحصاء وهو الضبط قال الفراء يقال انه لذو حجر اذا
كان قاهرا لنفسه ضابطا لها والمقسم عليه محذوف وهو ليعذبن كما ينبئ عنه
قوله عز وجل الم تر كيف فعل ربك بعاد فانه استشهاد بعلمه عم بما يدل عليه
من تعذيب عاد واضرابهم المشاركين لقومه عم فى الطغيان والفساد على
طريقة قوله تعالى الم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه الاية وقوله الم تر انهم فى
كل واد يهيمون كانه قيل الم تعلم علما يقينيا كيف عذب ربك عادا ونظائرهم فيعذب
هؤلاء ايضا لاشتراكهم فيما يوجبه من الكفر والمعاصى والمراد بعاد اولاد عاد بن
عوص بن ارم بن سام بن نوح عم وقوم هود عليه السلام سموا باسم
ابيهم كما سمى بنو هاشم هاشما وقد قيل لاوائلهم عاد الاولى ولاواخرهم
عاد الاخرة قال عماد الدين بن كثير كلما ورد فى القرآن خبر عاد الاولى الا ما فى سورة
الاحقاف وقوله تعالى ارم عطف بيان لعاد للايذان بانهم عاد الاولى بتقدير
مضاف اى سبط ارم او اهل ارم على ما قيل من ان ارم اسم بلدتهم او
ارضهم التى كانوا فيها ويؤيده القراءة بالاضافة واياما كان فامتناع صرفها للتعريف و
التانيث وقرئ ارم باسكان الراء تخفيفا كما قرئ بورقكم ذات العماد صفة لارم
اى ذات القدود الطوال على تشبيه قاماتهم بالاعمدة ومنه قولهم رجل عمد
وعمدان اذا كان طويلا او ذات الخيام والاعمدة حيث كانوا بدويين اهل عمد او ذات
البناء الرفيع او ذات الاساطين على ان ارم اسم بلدتهم وقرئ ارم ذات العماد
باضافة ارم الى ذات العماد والارم العلم اى بعاد اهل اعلام ذات العماد على انها
اسم بلدتهم وقرئ ارم ذات العماد اى جعلها الله تعالى رميما بدل من
فعل ربك وقيل هى جملة دعائية اعترضت بين الموصوف والصفة وروى انه كان
لعاد ابنان شديد وشداد فملكا وقهرا ثم مات شديد وخلص الامر لشداد فملك
الدنيا ودانت له ملوكها فسمع بذكر الجنة فقال ابنى مثلها فبنى ارم فى بعض
صحارى عدن فى ثلاث مائة سنة وهى مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة
واساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها اصناف الاشجار والانهار المطردة ولما
تم بناؤها سار اليها باهل مملكته فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالى عليهم
صيحة من السماء فهلكوا وعن عبد الله بن قلابة انه خرج فى طلب ابل له فوقع عليها
فحمل ما قدر عليه مما ثمة وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه فبعث الى
كعب فسأله فقال هى ارم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك احمر اشقر
قصير على حاجبه وعلى عقبه خال يخرج فى طلب ابل له ثم التفت الى ابن قلابة
فقال هذا والله ذلك الرجل التى لم يخلق مثلها فى البلاد صفة اخرى لارم اى لم
يخلق مثلهم فى عظم الاجرام والقوة حيث كان طول الرجل منهم اربعمائة ذراع
وكان يأتى الصخرة العظيمة فيحملها ويلقيها على الحى فيهلكهم او لم يخلق مثل مدينة
شداد فى جميع بلاد الدنيا وقرئ لم يخلق على اسناده الى الله تعالى وثمود عطف
على عاد وهى قبيلة مشهورة سميت باسم جدهم ثمود اخى جديس وهما ابنا عابر
ابن ارم بن سام بن نوح عليه السلام وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر
بين الحجاز وتبوك وكانوا يعبدون الاصنام كعاد الذين جابوا الصخر بالواد
اى قطعوا صخر الجبال فاتخذوا فيها بيوتا نحتوها من الصخر كقوله وتنحتون
من الجبال بيوتا قيل هم اول من نحت الجبال والصخور والرخام وقد بنوا الفا و

سبعمائة

سبعمائة مدينة كلها من الحجارة وفرعون ذى الاوتاد وصف بذلك لكثرة جنوده و
خيامهم التى يضربونها فى منازلهم او لتعذيبه بالاوتاد الذين طغوا فى البلاد
اما مجرور على انه صفة للمذكورين او منصوب او مرفوع على الذم اى طغى كل
طائفة منهم فى بلادهم وكذا الكلام فى قوله تعالى فاكثروا فيها الفساد اى بالكفر و
سائر المعاصى فصب عليهم اى انزل انزالا شديدا على كل طائفة من اولئك الطوائف
عقيب ما فعلت من الطغيان والفساد ربك سوط عذاب اى عذابا شديدا لا
يدرك غايته وهو عبارة عما حل بكل منهم من فنون العذاب التى شرحت فى سائر
السور الكريمة وتسميته سوطا للاشارة الى ان ذلك بالنسبة الى ما اعد لهم
فى الاخرة بمنزلة السوط عند السيف والتعبير عن انزاله بالصب للايذان بكثرته
واستمراره وتتابعه فانه عبارة عن اراقة شئ مائع او جار مجراه فى السيلان كالرمل
والحبوب وافراغه بشدة وكثرة واستمرار ونسبته الى السوط مع انه ليس من ذلك
القبيل باعتبار تشبيهه فى نزوله المتتابع المتدارك على المضروب بقطرات الشئ المصبوب
وقيل السوط خلط الشئ بعضه ببعض فالمعنى ما خلط لهم من انواع العذاب
وقد فسر بالنصب وبالشدة ايضا لان السوط يطلق على كل منها لغة فلا حاجة
حينئذ لتشبيهه بالمصبوب الا باعتبار تكرر تعلقه بالمعذب كما فى المعنى الاول
فان كل واحد من هذه المعانى مما يقبل الاستمرار فى نفسه وفى قوله تعالى ان ربك لبالمرصاد
تعليل لما قبله وايذان بان كفار قومه صلى الله عليه وسلم سيصيبهم مثل ما اصاب
المذكورين من العذاب كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى
ضميره عليه السلام وقيل هو جواب القسم وما بينهما اعتراض والمرصاد المكان
يترقب فيه الرصد مفعال من رصده كالميقات من وقته وهذا تمثيل لارصاده
تعالى بالعصاة وانهم لا يفوتونه وقوله تعالى فاما الانسان الخ متصل بما قبله كانه
قيل انه تعالى بصدد مراقبة احوال عباده ومجازاتهم باعمالهم خيرا وشرا فاما
الانسان فلا يهمه ذلك وانما مطمح انظاره ومرصد افكاره الدنيا ولذائذها اذا
ما ابتلاه ربه اى عامله معاملة من يبتليه بالغنى واليسار والفاء فى قوله تعالى
فاكرمه ونعمه تفسيرية فان الاكرام والتنعيم عين الابتلاء فيقول ربى اكرمن
اى فضلنى بما اعطانى من الجاه والمال حسبما كنت استحقه ولا يخطر بباله انه فضل
تفضل عليه ليبلوه أيشكر ام يكفر وهو خبر للمبتدأ الذى هو الانسان والفاء لما فى اما من
معنى الشرط والظرف المتوسط على نية التاخير كانه قيل فاما الانسان فيقول ربى
اكرمن وقت ابتلائه بالانعام وانما تقديمه للايذان من اول الامر بان الاكرام
والتنعيم بطريق الابتلاء ليتضح اختلال قوله المحكى واما اذا ما ابتلاه اى واما
هو اذا ما ابتلاه ربه فقدر عليه رزقه حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على
الحكم البالغة فيقول ربى اهانن ولا يخطر بباله ان ذلك ليبلوه ايصبر ام
يجزع مع انه ليس من الاهانة فى شئ بل التقتير قد يؤدى الى كرامة الدارين و
التوسعة قد تفضى الى خسرانهما وقرئ فقدر بالتشديد وقرئ اكرمنى واهاننى
باثبات الياء واكرمن واهانن بسكون النون فى الوقف كلا ردع للانسان عن مقالته
المحكية وتكذيب له فيها فى كلتا الحالتين قال ابن عباس رضى الله عنهما المعنى لم ابتله بالغنى
لكرامته على ولم ابتله بالفقر لهوانه على بل ذلك لمحض القضاء والقدر وحمل
الردع والتكذيب الى قوله الاخير بعيد وقوله تعالى بل لا تكرمون اليتيم انتقال
من بيان سوء اقواله الى بيان سوء افعاله والالتفات الى الخطاب للايذان باقتضاء
ملاحظة جنايته السابقة لمشافهته بالتوبيخ تشديدا للتقريع وتاكيدا للتشنيع والجمع
باعتبار معنى الانسان اذ المراد هو الجنس اى بل لكم احوال اشد شرا مما ذكر وادل على
تهالككم على المال حيث يكرمكم الله بكثرة المال فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من اكرام اليتيم
بالمبرة به وقرئ لا يكرمون ولا يحاضون بحذف احدى التاءين من تتحاضون

اى لايحض بعضكم بعضًا على طعام المسكين اى على اطعامه وقرئ تحاضّون من المحاضّة وقرئ يحضّون بالياء والتاء وتأكلون التراث اى الميراث واصله وراث أكلًا لمًّا اى ذا لمّ اى جمع بين الحلال والحرام فانهم كانوا لايورثون النساء والصبيان ويأكلون انصباءهم اويأكلون ماجمعه المورث من حلال وحرام عالمين بذلك وتحبون المال حبًّا جمًّا كثيرًا مع حرص وشره وقرئ ويحبون بالياء كلّا ردع لهم عن ذلك وقوله تعالى اذا دكت الارض دكًّا دكًّا الخ استيناف جئ به بطريق الوعيد تعليلا للردع اى اذا دكت الارض دكًّا متتابعًا حتى انكسر وذهب كل ما على وجهها من جبال وابنية وقصور حين زلزلت وصارت هباء منبثًّا وقيل الدكّ حطّ المرتفع بالبسط والتسوية فالمعنى اذا سوّيت تسوية بعد تسوية ولم يبق على وجهها شئ حتى صارت كالصخرة الملساء وايًّا ما كان فهى عبارة عمّا عرض لها عند النفخة الثانية وجاء ربك اى ظهر آيات قدرته وآثار قهره مثّل ذلك بما يظهر عند حضور السلطان من احكام هيبته وسياسته وقيل جاء امره وقضاؤه على حذف المضاف للتهويل والملك صفًّا صفًّا اى مصطفين او ذوى صفوف فانه ينزل يومئذ ملئكة كل سماء فيصطفون صفًّا بعد صف بحسب منازلهم ومراتبهم محدقين بالانس والجن وجئ يومئذ بجهنم كقوله تعالى وبرزت الجحيم قال ابن مسعود رضى الله عنه ومقاتل تقاد جهنم بسبعين الف زمام كل زمام معه سبعون الف ملك يجرّونها حتى تنصب عن يسار العرش لها تغيظ وزفير وقد رواه مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود مرفوعًا يومئذ بدل من اذا دكت والعامل فيهما قوله تعالى يتذكر الانسان اى يتذكر ما فرط فيه بتفاصيله بمشاهدة آثاره واحكامه او بمعاينة عينه على ان الاعمال تتجسّم فى النشاءة الاخرة فيبرز كل من الحسنات والسيئات بما يناسبها من الصور الحسنة والقبيحة او يتعظ وقوله تعالى وانّى له الذكرى اعتراض جئ به لتحقيق انه ليس بتذكر حقيقة لعرائه عن الجدوى بعدم وقوعه فى اوانه وانّى خبر مقدم والذكرى مبتداء وله متعلق بما تعلق به الخبر اى ومن اين يكون له الذكرى وقد فات اوانها وقيل هناك مضاف محذوف اى وانّى له منفعة الذكرى والاستدلال به على عدم وجوب قبول التوبة فى دار التكليف ممّا لا وجه له على ان تذكره ليس من التوبة فى شئ فانه عالم بانها انما تكون فى الدنيا كما يعرب عنه قوله تعالى يقول ياليتنى قدّمت لحياتى وهو بدل اشتمال من يتذكر او استيناف وقع جوابًا عن سؤال نشاء منه كانه قيل ماذا يقول عند تذكره فقيل يقول ياليتنى عملت لاجل حياتى هذه او وقت حياتى فى الدنيا اعمالا صالحة انتفع بها اليوم وليس فى هذا التمنى شائبة دلالة على استقلال العبد بفعله وانما الذى يدل عليه ذلك اعتقاد كونه متمكنًا من تقديم الاعمال الصالحة واما ان ذلك بمحض قدرته او بخلق الله تعالى عند صرف قدرته الكاسبة فكلا واما ما قيل من ان المحجور قد يتمنى ان كان ممكنًا منه فربما يتوهم ان من صرف قدرته الى احد طرفى الفعل يعتقد انه محجور من الطرف الاخر وليس كذلك بل كل احد جازم بانه لو صرف قدرته الى اىّ طرف كان من افعاله الاختيارية يحصل وعلى هذا يدور فلك التكليف والزام الحجة فيومئذ اى يوم اذ يكون ما ذكر من الاحوال والاقوال لايعذب عذابه احد ولايوثق وثاقه احد الهاء لله تعالى اى لايتولى عذاب الله تعالى ووثاقه احد سواه اذ الامر كله له او للانسان اى لايعذب احد من الزبانية مثل ما يعذبونه وقرئ الفعلان على البناء للمفعول والضمير للانسان ايضًا وقيل المراد به ابى بن خلف اى لايعذب احد مثل عذابه ولا يوثق بالسلاسل والاغلال مثل وثاقه لتناهيه فى الكفر والعناد وقيل لايحمل عذاب الانسان احد كقوله تعالى ولاتزر وازرة وزر اخرى وقوله تعالى يا ايتها النفس المطمئنة حكاية لاحوال من اطمأن بذكر الله عز وجل وطاعته اثر حكاية احوال من اطمأن بالدنيا وصفت بالاطمئنان لانها تترقى فى معارج الاسباب والمسببات الى المبدء المؤثر بالذات فتستقر دون معرفته وتستغنى به فى وجودها

وسائر

وسائر شؤنها عن غيرها بالكلية وقيل هى النفس المؤمنة المطمئنة الى الحق الواصلة الى ثلج اليقين بحيث لايخالجها شك ما وقيل هى الامنة التى لايستفزها خوف ولا حزن ويؤيده انه قرئ يا ايتها النفس الامنة المطمئنة اى يقول الله تعالى ذلك بالذات كما كلم موسى عليه السلام او على لسان الملك عند تمام حساب الناس وهو الاظهر وقيل عند البعث وقيل عند الموت ارجعى الى ربك اى الى موعده او الى امره راضية بما اوتيت من النعيم المقيم مرضية عند الله عز وجل فادخلى فى عبادى فى زمرة عبادى الصالحين المختصين بى وادخلى جنتى معهم او انتظمى فى سلك المقربين واستضئ بانوارهم فان الجواهر القدسية كالمرايا المتقابلة وقيل المراد بالنفس الروح والمعنى فادخلى اجساد عبادى التى فارقت عنها وادخلى دار ثوابى وهذا يؤيد كون الخطاب عند البعث وقرئ فادخلى فى عبدى وقرئ فى جسد عبدى وقيل نزلت فى حمزة ابن عبد المطلب وقيل فى خبيب بن عدى رضى الله عنهما والظاهر العموم عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفجر فى الليالى العشر غفر له ومن قرأها فى سائر الايام كانت له نورًا يوم القيمة

سورة البلد مكية وهى عشرون اية بسم الله الرحمن الرحيم

لا اقسم بهذا البلد اقسم سبحانه بالبلد الحرام وبما عطف عليه على ان الانسان خلق مغمورًا بمقاساة الشدائد ومعاناة المشاق واعترض بين القسم وجوابه بقوله تعالى وانت حلّ بهذا البلد اما لتشريفه صلى الله عليه وسلم بجعل حلوله به مناطًا لاعظامه بالاقسام به او للتنبيه من اول الامر على تحقق مضمون الجواب بذكر بعض مواد المكابدة على نهج براعة الاستهلال وبيان انه عليه السلام مع جلالة قدره وعظمة حرمته قد استحلوه فى هذا البلد الحرام وتعرضوا له بالاخرفية وهمّوا بما لم ينالوا عنه شرحيل يحرمون ان يقتلوا بها صيدًا او يعضدوا بها شجرة ويستحلون اخراجك وقتلك او لتسلية عم بالوعد بفتحه على معنى وانت حلّ به فى المستقبل كما فى قوله تعالى انك ميت وانهم ميتون تصنع فيه ما تريد من القتل والاسر وقد كان كذلك حيث احلّ له عليه السلام مكة وفتحها عليه وما فتحت على احد قبله ولا احلّت له فاحلّ عليه السلام فيها ما شاء وحرّم ما شاء قتل ابن خطل وهو متعلق باستار الكعبة ومقيس ابن صبابة وغيرهما وحرّم دار ابى سفيان ثم قال ان الله حرّم مكة يوم خلق السموات والارض فهى حرام الى ان تقوم الساعة لم تحلّ لاحد قبلى ولن تحلّ لاحد بعدى ولم تحلّ لى الا ساعة من نهار فلا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحلّ لقطتها الا لمنشد فقال العباس يارسول الله الا الاذخر فانه لقيوننا وقبورنا وبيوتنا فقال عم الا الاذخر ووالد عطف على هذا البلد والمراد به ابراهيم وبقوله تعالى وما ولد اسمعيل والنبى صلوات الله عليهم حسبما ينبئ عنه المعطوف عليه فانه حرم ابراهيم ومنشاء اسمعيل ومسقط راس رسول الله صلى الله عليه وسلم والتعبير عنها بما دون من للتفخيم والتعظيم كتنكير والد وايرادهم بعنوان الولادة لترشيح لمضمون الجواب وايماء الى انه محقق فى حالتى الوالدية والولدية وقيل آدم عم ونسله وهو انسب لمضمون الجواب من حيث شموله للكل الا ان التفخيم المستفاد من كلمة ما لابد فيه من اعتبار التغليب وقيل كل والد وولده لقد خلقنا الانسان فى كبد اى تعب ومشقة فانه لايزال يقاسى الشدائد من وقت نفخ الروح الى حين نزعها وما وراءه يقال كبد الرجل كبدًا اذا وجعت كبده واصله كبده اذا اصاب كبده ثم اتسع فيه حتى استعمل فى كل نصب ومشقة ومنه اشتقت المكابدة كما قيل كبته بمعنى اهلكه وهو تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ممّا كان يكابده من كفار قريش والضمير فى قوله تعالى ايحسب لبعضهم الذى كان عليه السلام يكابد منهم ما يكابد كالوليد بن المغيرة واضرابه وقيل هو ابو الاشد بن كلدة الجمحى وكان شديد القوة مغترًّا بقوته وكان يبسط له الاديم العكاظى فيقوم عليه ويقول من ازالنى عنه

ابو الاشد
الجمحى

فله كذا فينجذب به عشرة فينقطع ولا تزال قدماه اى ايظن هذا القوى المارد المتضعف للمؤمنين ان لن يقدر عليه احد ان مخففة من ان واسمها الذى هو ضمير الشان محذوف انه لن يقدر على الانتقام منه احد يقول اهلكت مالا لبدا يريد كثرة ما انفقه فيما كان اهل الجاهلية يسمونها مكارم ويدعونها معالى ومفاخر ايحسب ان لن يره احد حين كان ينفق وانه تعالى يسئل عنه ولا يجازيه عليه الم نجعل له عينين يبصر بهما ولسانا يترجم به عن ضمائره وشفتين يستر بهما فاه ويستعين بهما على النطق والاكل والشرب وغيرها وهديناه النجدين اى طريقى الخير والشر او الثديين واصل النجد المكان المرتفع فلا اقتحم العقبة اى فلم يشكر تلك النعمة الجليلة بالاعمال الصالحة وعبر عنها بالعقبة التى هى الطريق فى الجبل الصعوبة سلوكها وقوله تعالى وما ادريك ما العقبة اى اى شئ اعلمك ما اقتحام العقبة لزيادة تقريرها وكونها عند الله تعالى بمكانة رفيعة فك رقبة اى هو اعتاق رقبة او اطعام فى يوم ذى مسغبة اى مجاعة يتيما ذا مقربة اى قرابة او مسكينا ذا متربة اى افتقار وحيث كان المراد باقتحام العقبة هذه الامور حسن دخول لا على الماضى فانها لا تكاد تقع الا مكررة اذ المعنى فلا فك رقبة ولا اطعم يتيما او مسكينا والمسغبة والمقربة والمتربة مفعلات من سغب اذا جاع وقرب من النسب وترب اذا افتقر وقرئ فك رقبة او اطعم على الابدال من اقتحم ثم كان من الذين امنوا عطف على المنفى بلا وثم للدلالة على تراخى رتبة الايمان ورفعة محله لاشتراط جميع الاعمال الصالحة وتواصوا بالصبر عطف على امنوا اى اوصى بعضهم بعضا بالصبر على طاعة الله تعالى وتواصوا بالمرحمة بالرحمة على عباده او بموجبات رحمته من الخيرات اولئك اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز صلته وما فى من معنى البعد مع قرب المشار اليه للايذان ببعد درجتهم فى الشرف والفضل اى اولئك الموصوفون بالنعوت الجليلة المذكورة اصحاب الميمنة اى اليمين او اليمن والذين كفروا باياتنا بما نصبناه دليلا على الحق من كتاب وحجة او بالقران هم اصحاب المشئمة اى الشمال او الشوم عليهم نار مؤصدة مطبقة من اصدت الباب اذا اطبقته واغلقته وقرئ موصدة بغير همزة من اوصدته عن النبى صلعم من قرأ سورة لا اقسم بهذا البلد اعطاه الله تعالى الامان من غضبه يوم القيمة

سورة الشمس مكية وهى خمس عشرة آية بسم الله الرحمن الرحيم

والشمس وضحاها اى ضوئها اذا اشرقت وقام سلطانها وقيل الضوء ارتفاع النهار والضحى فوق ذلك والضحاء بالفتح والمد اذا امتد النهار وكاد ينتصف والقمر اذا تلاها بان طلع بعد غروبها وقيل اذا تلى طلوعها وقيل اذا تلاها فى الاستدارة وكمال النور والنهار اذا جلاها اى جلا الشمس فانها تتجلى عند انبساط النهار فكانه جلاها مع انها التى تبسطه او جلا الظلمة او الدنيا او الارض وان لم يجر لها ذكر للعلم بها والليل اذا يغشاها اى الشمس فيغطى ضوءها او الآفاق او الارض حيث كانت الواوات العاطفة نوائب للواو الاولى القسمية القائمة مقام الفعل والباء سادة مسدهما معا فى قولك اقسم بالله حقق ان يعمل عمل الفعل والجار جميعا كما تقول ضرب زيد عمروا وبكر خالدا والسماء وما بناها اى ومن بناها وايثار ما على من لارادة الوصفية تفخيما كانه قيل والقادر العظيم الشان الذى بناها وجعلها مصدرية مخل بالنظم الكريم وكذا الكلام فى قوله تعالى والارض وما طحاها اى بسطها من كل جانب كدحاها ونفس وما سواها اى انشاها وابدعها مستعدة لكمالاتها والتنكير للتفخيم على ان المراد نفس آدم عم او للتكثير وهو الانسب للجواب فالهمها فجورها وتقويها اى افهمها اياهما وعرفها حالهما من الحسن والقبح وما يؤدى اليه كل منهما ومكنها من اختيار ايهما شاءت وتقديم الفجور

لمراعاة الفواصل قد افلح من زكاها اى فاز بكل مطلوب ونجى من كل مكروه من انماها واعلاها بالتقوى فهو جواب القسم وحذف اللام لطول الكلام وتكرير قد فى قوله تعالى وقد خاب من دساها لابراز الاعتناء بتحقيق مضمونه والايذان بتعلق القسم به ايضا اصالة اى خسر من نقصها واخفاها بالفجور واصل دسى دسس كتقضى وتقضض وقيل هو كلام تابع لقوله تعالى فالهمها فجورها وتقويها بطريق الاستطراد وانما الجواب ما حذف ثقة بدلالة قوله تعالى كذبت ثمود بطغويها عليه كانه قيل ليدمدمن الله تعالى على كفار مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دمدم على ثمود لتكذيبهم صالحا عم وهو على الاول استيناف وارد لتقرير مضمون قوله تعالى وقد خاب من دسيها والطغوى بالفتح الطغيان والباء للسببية اى فعلت التكذيب بسبب طغيانها كما تقول ظلمنى بجراته على الله تعالى او صلة للتكذيب اى كذبت بما اوعدت به من العذاب ذى الطغوى كقوله تعالى فاهلكوا بالطاغية وقرئ بطغويها بضم الطاء وهو ايضا مصدر كالرجعى اذ انبعث اشقاها منصوب بكذبت او بالطغوى اى حين قام اشقى ثمود وهو قدار بن سالف او هو ومن تصدى معه لعقر الناقة من الاشقياء فان افعل التفضيل اذا اضيف يصلح للواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث وفضل شقاوتهم على من عداهم لمباشرتهم العقر مع اشتراك الكل فى الرضى به فقال لهم اى لثمود رسول الله اى صالح عليه السلام عبر عنه بعنوان الرسالة ايذانا بوجوب طاعته وبيانا لغاية عتوهم وتماديهم فى الطغيان وهو السر فى اضافة الناقة اليه تعالى فى قوله تعالى ناقة الله اى ذروا ناقة الله وسقياها ولا تذودوها عنها فى نوبتها فكذبوه اى فى وعيده بقوله تعالى ولا تمسوها بسوء فياخذكم عذاب اليم وقد جوز ان يكون ضمير لهم للاشقين ولا يلائمه ذكر سقياها فعقروها اى الاشقى والجمع على تقدير وحدته لرضى الكل بفعله قال قتادة بلغنا انه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكورهم واناثهم وقال الفراء عقرها اثنان والعرب تقول هذان افضل الناس فدمدم عليهم ربهم فاطبق عليهم العذاب وهو من تكرير قولهم ناقة مدمومة اذا لبسها الشحم بذنبهم بسبب ذنبهم المحكى والتصريح بذلك مع دلالة الفاء عليه للانذار بعاقبة الذنب ليعتبر به كل مذنب فسويها اى الدمدمة بينهم لم يفلت منها احد من صغير وكبير او فسوى ثمود بالارض او سويها فى الاهلاك ولا يخاف عقبيها اى عاقبتها وتبعتها كما يخاف سائر المعاقبين من الملوك فيبقى بعض الابقاء وذلك انه تعالى لا يفعل فعلا الا بحق وكل من فعل بحق فانه لا يخاف عاقبة فعله وان كان من شانه ذلك لعدم الخوف والواو للحال او للاستيناف وقرئ فلا يخاف وقرئ ولم يخف عن رسول الله صلعم من قرأ سورة والشمس فكانما تصدق بكل ما طلعت عليه الشمس والقمر

سورة الليل مكية وهى احدى وعشرون آية بسم الله الرحمن الرحيم

والليل اذا يغشى اى حين يغشى كقوله تعالى والليل اذا يغشاها والنهار او كل ما يواريه بظلامه والنهار اذا تجلى ظهر بزوال ظلمة الليل او تبين وتكشف بطلوع الشمس وما خلق الذكر والانثى اى والقادر العظيم القدرة الذى خلق صنفى الذكر والانثى من كل ما له توالد وقيل هما آدم وحوا وقرئ والذكر والانثى وقرئ والذى خلق الذكر والانثى وقيل ما مصدرية ان سعيكم لشتى جواب القسم وشتى جمع شتيت اى ان مساعيكم لاشتات مختلفة وقوله تعالى فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى الخ تفصيل لتلك المساعى المشتتة وتبيين لاحكامها اى فاما من اعطى حقوق ماله واتقى محارم الله تعالى التى نهى عنها وصدق بالخصلة الحسنى وهى الايمان او بالكلمة الحسنى وهى كلمة التوحيد او بالملة الحسنى وهى ملة الاسلام او بالمثوبة الحسنى وهى الجنة فسنيسره لليسرى فسنهيئه للخصلة التى تؤدى الى يسر وراحة كدخول الجنة ومباديه من يسر الفرس للركوب

اذا اسرجها والجمها واما من بخل اى بماله فلم يبذله فى سبيل الخير واستغنى اى زهد
فيما عنده تعالى كانه مستغن عنه فلم يتقه او استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الاخرة
وكذب بالحسنى اى بما ذكر من المعانى المتلازمة فسنيسره للعسرى اى للخصلة المؤدية الى
العسر والشدة كدخول النار ومقدماته لاختياره لها ولعل تصدير القسمين بالاعطاء و
البخل مع ان كلا منهما ادنى رتبة مما بعدهما فى استتباع التيسير لليسرى والتيسير للعسرى
للايذان بان كلا منهما اصيل فيما ذكر لا تتمة لما بعدهما من التصديق والتقوى والتكذيب و
الاستغناء ولتفسير الاول باعطاء الطاعة والثانى بالبخل بما امر به مع كونه خلاف الظاهر باباه
قوله تعالى وما يغنى عنه ماله اى ولا يغنى او اى شئ يغنى عنه ماله الذى يبخل به اذا
تردى اى هلك تفعل من الردى الذى هو الهلاك او تردى فى الحفرة اذا قبر او تردى
فى قعر جهنم ان علينا للهدى استئناف مقرر لما قبله اى ان علينا بموجب قضائنا
المبنى على الحكم البالغة حيث خلقنا الخلق للعبادة ان نبين لهم طريق الهدى وما يؤدى
اليه من طريق الضلال وما يؤدى اليه وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه حيث بينا حال
من سلك كلا الطريقين ترغيبا وترهيبا ومن ههنا تبين ان الهداية هى الدلالة على ما
يوصل الى البغية لا الدلالة الموصلة اليها قطعا وان لنا للاخرة والاولى اى التصرف
الكلى فيهما كيف ما نشاء فنفعل فيهما ما نشاء من الافعال التى من جملتها ما وعدنا من
التيسير لليسرى والتيسير للعسرى وقيل ان لنا كل ما فى الدنيا والاخرة فلا يضرنا توككم الاهتداء
بهدانا فانذرتكم نارا تلظى بحذف احدى التائين من تتلظى اى تتلهب وقرئ على الاصل
لا يصليها صليا لازما الا الاشقى الا الكافر فان الفاسق لا يصليها صليا
لازما وقد صرح به وقوله تعالى الذى كذب وتولى اى كذب بالحق واعرض عن
الطاعة وسيجنبها اى سيبعد عنها الاتقى المبالغ فى اتقاء الكفر والمعاصى فلا يحوم
حولها فضلا عن دخولها وصليها الابدى واما من دونه ممن يتقى الكفر دون المعاصى
فلا يبعد عنها هذا التبعيد وذلك لا يستلزم صليها بالمعنى المذكور فلا يقدح فى
الحصر السابق الذى يؤتى ماله يعطيه ويصرفه فى وجوه البر والحسنات وقوله تعالى
يتزكى اما بدل من يؤتى داخل فى حكم الصلة لا محل لها او فى حيز النصب على انه حال
من ضمير يؤتى اى يطلب ان يكون عند الله زكيا ناميا لا يريد به رياء ولا سمعة وما
لاحد عنده من نعمة تجزى استئناف مقرر لكون ايتائه للتزكى خالصا لوجه الله تعالى
اى ليس لاحد عنده نعمة من شانها ان تجزى وتكافأ فيقصد باتيان ما يؤتى مجازاتها
وقوله تعالى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى استثناء منقطع من نعمة وقرئ بالرفع على البدل
من محل من نعمة فانه الرفع اما على الفاعلية او على الابتداء ومن مزيدة ويجوز ان يكون
مفعولا له لان المعنى لا يؤتى ماله الا ابتغاء وجه ربه لا لمكافاة نعمة والآيات نزلت
فى حق ابى بكر الصديق رضه حين اشترى بلالا فى جماعة كان يؤذيهم المشركون
فاعتقهم ولذلك قالوا المراد بالاشقى ابو جهل او امية بن خلف وقد روى عطا
والضحاك عن ابن عباس رضهما انه عذب المشركون بلالا وبلال يقول احد احد فمر
به النبى صلى الله عليه وسلم فقال احد يعنى الله تعالى ينجيك ثم قال لابى بكر ان بلالا
يعذب فى الله فعرف مراده عليه السلام فانصرف الى منزله فاخذ رطلا من ذهب
ومضى به الى امية بن خلف فقال له اتبيعنى بلالا قال نعم فاشتراه فاعتقه فقال
المشركون ما اعتقه ابو بكر الا ليد كانت له عنده فنزلت وقوله تعالى ولسوف يرضى
جواب قسم مضمر اى وبالله لسوف يرضى وهو وعد كريم بنيل جميع ما يبتغيه على اكمل
الوجوه واجملها اذ به يتحقق الرضى وقرئ يرضى مبنيا للمفعول من الارضاء عن
رسول الله صلعم من قرا سورة والليل اعطاه تعالى حتى يرضاه وعافاه من العسر ويسر له اليسر

سورة الضحى مكية وهى احدى عشر آية بسم الله الرحمن الرحيم

والضحى هو وقت ارتفاع الشمس وصدر النهار قالوا تخصيصه بالاقسام لانها الساعة

فجعلت قريش يقولون فيما بينهم ودعه ربه وقلاه معناه اقسم
بقدرته على خلق الليل المظلمة ما تركك وما خذلك سيد كريم بعد
ما اختارك فاكرمك وما ابغضك بعدما احبك حقى

التى

التى كلم فيها موسى عليه السلام والقى فيها السحرة سجدا لقوله تعالى وان يحشر الناس ضحى
وقيل اريد به النهار كما فى قوله تعالى ان ياتيهم باسنا ضحى فى مقابلة بياتا والليل
اى جنس الليل اذا سجى اى سكن اهله او ركد ظلامه من سجى البحر سجوا اذا سكنت
امواجه ونقل عن قتادة ومقاتل وجعفر الصادق ان المراد بالضحى هو الضحى الذى
كلم الله فيه موسى عليه السلام وبالليل ليلة المعراج وقوله تعالى ما ودعك ربك
جواب القسم اى ما قطعك قطع المودع وقرئ بالتخفيف اى ما تركك وما قلى اى و
ما ابغضك وحذف المفعول اما للاستغناء عنه بذكره من قبل وللقصد الى نفى
صدور الفعل عنه تعالى بالكلية مع ان فيه مراعاة للفواصل روى ان الوحى تاخر عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم اياما لتركه الاستثناء كما مر فى سورة الكهف او لزجره
سائلا ملحا فقال المشركون ان محمدا ودعه ربه وقلاه فنزلت ردا عليهم وتبشيرا
له عليه السلام بالكرامة الحاصلة والمترقبة كما يشعر به ايراد اسم الرب المنبئ عن
التربية والتبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضميره عليه السلام وحيث تضمن ما سبق
من نفى التوديع والقلا انه تعالى يواصله بالوحى والكرامة فى الدنيا بشر عليه السلام
بان ما سيؤتيه فى الآخرة اجل واعظم من ذلك فقيل وللاخرة خير لك من الاولى
لما انها باقية صافية عن الشوائب على الاطلاق وهذه فانية مشوبة بالمضار وما اوتى
عليه السلام من شرف النبوة وان كان مما لا يعادله شرف ولا يدانيه فضل لكنه
لا يخلو فى الدنيا من بعض العوارض القادحة فى تمشية الاحكام مع ان عند ما اعد
له عليه السلام فى الاخرة من السبق والتقدم على كافة الانبياء والرسل يوم الجمع
يوم يقوم الناس لرب العالمين وكون امته شهداء على سائر الامم ورفع درجات
المؤمنين واعلاء مراتبهم بشفاعته وغير ذلك من الكرامات السنية التى لا تحيط
بها العبارة بمنزلة بعض المبادى بالنسبة الى المطالب وقيل المراد بالاخرة عاقبة امره
عليه السلام اى لنهاية امرك خير من بدايته لا يزال يتزايد قوة ويتصاعد رفعة
وقوله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى عدة كريمة شاملة لما اعطاه الله فى
الدنيا من كمال النفس وعلوم الاولين والآخرين وظهور الامر واعلاء الدين بالفتوح
الواقعة فى عصره عليه السلام وفى ايام خلفائه الراشدين وغيرهم من الملوك
الاسلامية وفشو الدعوة فى مشارق الارض ومغاربها ولما ادخر له من الكرامات
التى لا يعلمها الا الله عز وجل وقد انبأ ابن عباس رضهما عن شمة منها حيث قال
له عليه السلام فى الجنة الف قصر من لؤلؤ ابيض ترابه المسك واللام للابتداء
دخلت الخبر لتاكيد مضمون الجملة والمبتدا محذوف تقديره ولانت سوف يعطيك
الخ لا للقسم لانها لا تدخل على المضارع الا مع النون المؤكدة وجمعها مع سوف للدلالة
على ان الاعطاء كائن لا محالة وان تراخى لحكمة وقيل هى للقسم وقاعدة التلازم
بينها وبين نون التاكيد قد استثنى النحاة منها صورتين ان يفصل بينها وبين الفعل
بحرف التنفيس كهذه الآية وكقوله لساعطيك والثانية ان يفصل بينها بمعمول
الفعل كقوله تعالى لالى الله تحشرون وقد قال ابو على الفارسى ليست هذه اللام هى
التى فى قولك ان زيدا لقائم بل هى التى فى قولك لاقومن ونابت سوف عن احدى
نونى التوكيد فكانه قيل وليعطينك وكذلك فى قوله تعالى وللاخرة الخ وقوله تعالى الم
يجدك يتيما فآوى تعديد لما افاض عليه عم من اول امره الى ذلك الوقت من
فنون النعماء العظام ليستشهد بالحاضر الموجود على المترقب الموعود فيطمئن قلبه
وينشرح صدره والهمزة لانكار النفى وتقرير المنفى على ابلغ وجه كانه قيل قد وجدك
الخ والوجود بمعنى العلم ويتيما مفعوله الثانى وقيل بمعنى المصادفة ويتيما حال
من مفعوله روى ان اباه مات وهو جنين قد اتت عليه ستة اشهر وماتت امه
وهو ابن ثمان سنين وكفله عمه ابو طالب وعطفه الله تعالى عليه فاحسن تربيته
وذلك ايواؤه وقرئ فاوى وهو اما من اواه بمعنى آواه او من اوى له اذا رحمه وقوله تعالى

و وجدک ضالاً عطف على ما يقتضيه الانكار السابق كما اشير اليه او الى المضارع المنفي بلم داخل في حكمه كانه قيل ما وجدك يتيما فآوى و وجدك غافلا عن الشرائع التى لا تهتدى اليها العقول كما في قوله تعالى ما كنت تدرى ما الكتاب وقيل ضل في صباه في بعض شعاب مكة فرده ابو جهل الى عبد المطلب وقيل ضل مرة اخرى وطلبوه فلم يجدوه فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعا وتضرع الى الله فسمعوا مناديا ينادى من السماء يا معشر الناس لا تضجوا فان لمحمد ربا لا يخذله ولا يضيعه وان محمدا بوادى تهامة عند الشجر المثمر فصار عبد المطلب وورقة بن نوفل فاذا النبى صلى الله عليه وسلم قائم تحت شجرة يلعب بالاغصان والاوراق وقيل اضلته مرضعته حليمة عند باب مكة حين فطمته وجاءت به لترده على عبد المطلب وقيل ضل في طريق الشام حين خرج ابو طالب يروى ان ابليس اخذ بزمام ناقته في الليلة الظلماء فعدل به عن الطريق فجاء جبريل عليه السلام فنفخ ابليس نفخة وقع منها الى ارض الهند ورده الى القافلة فهدى فهداك الى مناهج الشرائع المنطوية في تضاعيف ما اوحى اليك من الكتاب المبين وعلمك ما لم تكن تعلم او ازال ضلالك عن جدك وعمك و وجدك عائلا اى فقيرا وقرئ عيلا وقرئ عديما فاغنى فاغناك بمال خديجة او بما حصل لك من ربح التجارة او بما افاء عليك من الغنائم قال عليه السلام جعل رزقى تحت ظل رمحى وقيل قنعك واغنى قلبك فاما اليتيم فلا تقهر فلا تغلبه على ماله وقال مجاهد لا تحتقر وقرئ فلا تكهر اى فلا تعبس في وجهه واما السائل فلا تنهر فلا تزجر ولا تغلظ له القول بل رده ردا جميلا قال ابراهيم بن ادهم نعم القوم السؤال يحملون زادنا الى الآخرة وقال ابراهيم النخعى السائل بريد الآخرة يجئ الى باب احدكم فيقول ابعثون الى اهليكم بشئ وقيل المراد بالسائل ههنا الذى يسأل عن الدين واما بنعمة ربك فحدث بشكرها واشاعتها واظهار آثارها واحكامها اريد بها ما افاضه الله عليه صلى الله عليه وسلم من فنون النعم التى من جملتها النعم المعدودة الموجودة منها والموعودة والمعنى انك كنت يتيما وضالا وعائلا فآواك الله وهداك واغناك فمهما يكن من شئ فلا تنس حقوق نعمة الله عليك في هذه الثلاث واقتد بالله تعالى واحسن كما احسن الله اليك فتعطف على اليتيم فآوه وترحم على السائل وتفقده بمعروف ولا تزجره عن بابك وحدث بنعمة الله كلها وحيث كان معظمها نعمة النبوة فقد اندرج تحت الامر هدايته عليه السلام للضلال وتعليمه للشرائع والاحكام حسبما هداه الله تعالى وعلمه من الكتاب والحكمة عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والضحى جعله الله فيمن يرضى لمحمد ان يشفع له وعشر حسنات يكتبها الله بعدد كل سائل ويتيم

سورة الانشراح مكية وهى ثمان آيات بسم الله الرحمن الرحيم

الم نشرح صدرك لملكات الصدر محلا للاحوال ومخزنا للسرائر ها من العلوم والادراكات والملكات والارادات وغيرها عبر بشرحه عن توسيع دائرة تصرفاتها بتأييدها بالقوة القدسية وتحليتها بالكمالات الانسية اى الم نفسحه حتى حوى عالمى الغيب والشهادة وجمع بين ملكتى الاستفادة والافادة فما صدك الملابسة بالعلائق الجسمانية عن اقتباس انوار الملكات الروحانية وما عاقك التعلق بمصالح الخلق عن الاستغراق في شؤن الحق وقيل اريد به ما روى ان جبريل اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في صباه او يوم الميثاق فاستخرج قلبه فغسله ثم ملأه ايمانا وعلما ولعله تمثيل لما ذكر او اغوذج جسمانى مما سيظهر له عليه السلام من الكمال الروحانى والتعبير عن ثبوت الشرح بالاستفهام الانكارى عن انتفائه للايذان بان ثبوته من الظهور بحيث لا يقدر احد على ان يجيب عنه بغير بلى وزيادة الجار والمجرور مع توسيطه بين الفعل ومفعوله للايذان من اول الامر بان الشرح من منافعه عليه السلام ومصالحه مسارعة الى ادخال المسرة في قلبه عليه السلام وتشويقا الى ما يعقبه ليتمكن عنده وقت وروده

فضل تمكن وقوله تعالى و وضعنا عنك وزرك عطف على ما اشير اليه من مدلول الجملة السابقة كانه قيل قد شرحنا صدرك و وضعنا الخ وعنك متعلق بوضعنا وتقديمه على المفعول الصريح مع ان حقه التأخر عنه لما مر آنفا من القصد الى تعجيل المسرة والتشويق الى المؤخر ولما ان في وصفه نوع طول فتأخير الجار والمجرور عنه مخل بتجاوب اطراف النظم الكريم اى حططنا عنك عبئك الثقيل الذى انقض ظهرك اى حمله على النقيض وهو صوت الانتقاض والانفكاك كما يسمع من الرحل المتداعى الى الانتقاض من ثقل الحمل مثل به حاله عليه السلام مما كان يثقل عليه ويغمه من فرطاته قبل النبوة او من عدم احاطته بتفاصيل الاحكام والشرائع او من تهالكه على اسلام المعاندين من قومه وتلهفه و وضعه عنه مغفرته وتعليم الشرائع وتمهيد عذره بعد ان بلغ وبالغ وقرئ وحططنا وحللنا مكان وضعنا وقرئ وحللنا عنك وقرك ورفعنا لك ذكرك بعنوان النبوة واحكامها اى رفع حيث قرن اسمه باسم الله تعالى في كلمة الشهادة والاذان والاقامة وجعل طاعته طاعته تعالى وصلى عليه هو وملائكته وامر المؤمنين بالصلوة عليه وسماه رسول الله ونبى الله والكلام في العطف وزيادة لك كالذى سلف وقوله تعالى فان مع العسر يسرا تقرير لما قبله و وعد كريم بتيسير كل عسير له عليه السلام وللمؤمنين كانه قيل حق لنا كرمن جلائل النعم فكن على ثقة بفضل الله تعالى ولطفه فان مع العسر يسرا وفى كلمة مع اشعار بغاية سرعة مجئ اليسر كانه مقارن للعسر ان مع العسر يسرا تكرير للتأكيد او عدة مستأنفة بان العسر مشفوع بيسر آخر كثواب الآخرة كقولك ان للصائم فرحة ان للصائم فرحة اى فرحة عند الافطار وفرحة عند لقاء الرب وعليه قوله عليه السلام لن يغلب عسر يسرين فان المعرف اذا اعيد يكون الثانى عين الاول سواء كان معهودا او جنسا واما المنكر فيحتمل ان يراد بالثانى فرد مغاير لما اريد بالاول فاذا فرغت اى من التبليغ وقيل من الغزو فانصب فاجتهد في العبادة واتعب شكرا لما اولينالك من النعم السالفة و وعدناك من الآلاء الآنفة وقيل فاذا فرغت من صلوتك فاجتهد في الدعاء وقيل اذا فرغت من دنياك فانصب في صلوتك والى ربك وحده فارغب بالسؤال ولا تسأل غيره فانه القادر على اسعافه لا غيره وقرئ فرغب اى فرغب الناس الى طلب ما عنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الم نشرح لك فكانما جاءنى وانا مغتم ففرج عنى

سورة التين مكية وهى ثمان آية بسم الله الرحمن الرحيم

والتين والزيتون هما هذا التين وهذا الزيتون خصهما الله سبحانه من بين الثمار بالاقسام بهما لاختصاصهما بخواص جليلة فان التين فاكهة طيبة لا فضل له وغذاء لطيف سريع الهضم ودواء كثير النفع يلين الطبع ويحلل البلغم ويطهر الكليتين ويزيل ما في المثانة من الرمل ويسمن البدن ويفتح سدد الكبد والطحال وروى ابو ذر رضى الله عنه اهدى الى النبى صلى الله عليه وسلم سل من تين فاكل منه وقال لاصحابه كلوا فلو قلت ان فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لان فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فانها تقطع البواسير وتنفع من النقرس وعن على بن موسى الرضا التين يزيل نكهة الفم ويطول الشعر وهو امان من الفالج واما الزيتون فهو فاكهة وادام ودواء لم يكن له سوى اختصاصه بدهن كثير المنافع مع حصوله في بقاع لا دهنية فيها لكفى به فضلا وشجرته هى الشجرة المباركة المشهود لها في التنزيل ومر معاذ بن جبل رضى الله عنه بشجرة الزيتون فاخذ منها قضيبا واستاك به وقال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيب الفم ويذهب بالحفر وسمعته يقول هو سواكى وسواك الانبياء قبلى وقيل هما جبلان من الارض المقدسة يقال لهما بالسريانية طور تينا وطور زيتا لانهما منبتا التين والزيتون وقيل التين جبال ما بين

قوله نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيب الفم ويذهب بالحفر وسمعته صح

حلوان وهمدان والزيتون جبال الشام لانهما منابتهما كانه قيل ومنابت التين والزيتون
قال قتادة التين الجبل الذي عليه دمشق والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس وقال
عكرمة وابن زيد التين دمشق والزيتون بيت المقدس وهو اختيار الطبري وقال محمد
بن كعب التين مسجد اصحاب الكهف والزيتون مسجد ايليا وعن ابن عباس رضي الله عنهما التين
مسجد نوح عليه السلام الذي بناه على الجودي والزيتون مسجد بيت المقدس وقال
الضحاك التين المسجد الحرام والزيتون المسجد الاقصى والصحيح هو الاول قال ابن عباس
هو تينكم الذي تاكلون وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت وبه قال مجاهد
وعكرمة وابراهيم النخعي وعطاء وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي وطور سينين
هو الجبل الذي ناجى عليه موسى عليه السلام ربه وسينين وسيناء علمان للموضع الذي
هو فيه ولذلك اضيف اليهما وسينون كيبرون في جواز الاعراب بالواو والياء و
الاقرار على الياء وتحريك النون بالحركات الاعرابية وهذا البلد الامين اي
الآمن من امن الرجل امانة فهو امين وهو مكة شرفها الله تعالى امانتها انها تحفظ
من دخلها كما يحفظ الامين ما يؤتمن عليه ويجوز ان يكون فعيلا بمعنى مفعول من
امنه لانه مأمون الغوائل كما وصف بالامن في قوله تعالى حرما آمنا بمعنى ذي امن ووجه
الاقسام بهاتيك البقاع المباركة المشحونة ببركات الدنيا والدين غني عن الشرح
والتبيين لقد خلقنا الانسان اي جنس الانسان في احسن تقويم اي كائنا في احسن
ما يكون من التقويم والتعديل صورة ومعنى حيث براه الله تعالى مستوي القامة
متناسب الاعضاء متصفا بالحيوة والعلم والقدرة والارادة والتكلم والسمع والبصر
وغير ذلك من الصفات التي هي انموذجات من الصفات السبحانية وآثار لهما وقد عبر
بعض العلماء عن ذلك بقوله خلق آدم على صورته وفي رواية على صورة الرحمن وبني عليه
تحقيق معنى قوله من عرف نفسه فقد عرف ربه وقال ان النفس الانسانية مجردة
ليست حالة في البدن ولا خارجة عنه متعلقة به تعلق التدبير والتصرف تستعمله كيف
ما شاءت فاذا ارادت فعلا من الافاعيل الجسمانية انهضت في القلب الى الروح الحيواني الذي
هو اعدل الارواح واصفاها واقربها منها واوفقها مناسبة الى عالم المجردات القاء
روحانيا وهو يلقيه بواسطة ما في الشرايين من الارواح الى الدماغ الذي هو منبت
الاعصاب التي فيها القوى المحركة للانسان فعند ذلك يحرك من الاعضاء ما يليق بذلك
الفعل من مباديه البعيدة والقريبة فيصدر عنه ذلك بهذه الطريقة فمن عرف نفسه
على هذه الكيفية من صفاتها وافعالها تسنى لها ان يترقى الى معارج معرفة رب العزة
عز سلطانه ويطلع على انه سبحانه منزه عن كونه داخلا في العالم او خارجا منه
يفعل فيه ما يشاء ويحكم ما يريد بواسطة ما رتب فيه من الملئكة الذين يسند
على شؤونهم بما ذكر من الارواح والقوى المترتبة في العالم الانساني الذي هو نسخة
للعالم الاكبر وانموذج منه وقوله تعالى ثم رددناه اسفل سافلين اي جعلناه من اهل
النار الذين هم اقبح من كل قبيح واسفل من كل سفل اي سافل لعدم جريانه على موجب
ما خلقناه عليه من الصفات التي لو عمل بمقتضاها لكان في اعلى عليين وقيل
رددناه الى ارذل العمر وهو الهرم بعد الشباب والضعف بعد القوة كقوله ومن نعمره
ننكسه في الخلق واياما كان فاسفل سافلين اما حال من المفعول اي رددناه حال
كونه اسفل سافلين او صفة لمكان محذوف اي رددناه مكانا اسفل سافلين
والاول اظهر وقرئ اسفل السافلين وقوله تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
على الاول استثناء متصل من ضمير رددناه فانه في معنى الجمع وعلى الثاني منقطع اي
لكن الذين كانوا صالحين من الهرمى فلهم اجر غير ممنون غير منقطع على طاعتهم
وصبرهم على ابتلاء الله بالشيخوخة والهرم وعلى مقاساة المشاق والقيام
بالعبادة على تخاذل نهوضهم او غير ممنون به عليهم وهذه الجملة على الاول
مقررة لما يفيده الاستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الرد مبينة لكيفية حالهم و

الخطاب في قوله تعالى فما يكذبك بعد بالدين للرسول عليه السلام اي فاي شيء يكذبك
دلالة او نطقا بالجزاء بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة به وقيل ما بمعنى من وقيل
الخطاب للانسان على طريق الالتفات لتشديد التوبيخ والتبكيت اي فما يجعلك كاذبا بسبب
الدين وانكاره بعد هذه الدلائل والمعنى ان خلق الانسان من نطفة وتقويمه بشرا سويا
وتحويله من حال الى حال كمالا ونقصانا من اوضح الدلائل على قدرة الله عز وجل
على البعث والجزاء فاي شيء يضطرك بعد هذا الدليل القاطع الى ان تكون كاذبا بسبب
تكذيبه ايها الانسان اليس الله باحكم الحاكمين اي اليس الذي فعل ذكر باحكم الحاكمين
صنعا وتدبيرا حتى يتوهم عدم الاعادة والجزاء وحيث استحال عدم كونه
احكم الحاكمين تعين الاعادة والجزاء فالجملة تقرير لما قبلها وقيل الحكم بمعنى
القضاء فهي وعيد للكفار وانه يحكم عليهم بما يستحقونه من العذاب عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه كان اذا قرأها يقول بلى وانا على ذلك من الشاهدين
وعنه عليه السلام من قرأ سورة والتين اعطاه الله الخصلتين العافية واليقين ما
دام في دار الدنيا فاذا مات اعطاه الله من الاجر بعدد من قرأ هذه السورة

سورة اقرأ مكية وهي عشرون آية بسم الله الرحمن الرحيم

اقرأ اي ما يوحى اليك فان الامر بالقراءة يقتضي المقروء قطعا وحيث لم يعين وجب
ان يكون ذلك ما يتصل بالامر حتما سواء كانت السورة اول ما نزل اولا والاقرب
ان هذا الى قوله تعالى ما لم يعلم اول ما نزل عليه عليه السلام كما ينطق به حديث
الزهري المشهور وقوله تعالى باسم ربك متعلق بمضمر هو حال من ضمير الفاعل اي
اقرأ ملتبسا باسمه تعالى اي مبتدئا به لتتحقق مقارنته لجميع اجزاء المقروء والتعرض
لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ الى الكمال اللائق شيئا فشيئا مع الاضافة الى
ضميره عليه السلام للاشعار بتبليغه عليه السلام الى الغاية القاصية من الكمالات
البشرية بانزال الوحي المتواتر ووصف الرب بقوله تعالى الذي خلق لتذكير اول النعماء
الفائضة عليه منه تعالى والتنبيه على ان من قدر على خلق الانسان على ما هو عليه من الحيوة
وما يتبعها من الكمالات العلمية والعملية من مادة لم تشم رائحة الحيوة فضلا عن
ساير الكمالات قادر على تعليم القراءة للحي العالم المتكلم اي الذي انشأ الخلق واستاثر
به او خلق كل شيء وقوله تعالى خلق الانسان على الاول تخصيص لخلق الانسان
بالذكر من بين خلق ساير المخلوقات لاستقلاله ببدايع الصنع والتدبير وعلى الثاني
افراد للانسان من بين ساير المخلوقات بالبيان وتفخيم لشانه اذ هو اشرفهم واليه
التنزيل وهو المامور بالقراءة ويجوز ان يراد بالفعل الاول ايضا خلق الانسان
ويقصد بتجريده عن المفعول الابهام ثم التفسير روما لتفخيم فطرته وقوله تعالى من
علق اي دم جامد لبيان كمال قدرته تعالى باظهار ما بين حالته الاولى والآخرة
من التباين البين وايراده بلفظ الجمع بناء على ان الانسان في معنى الجمع لمراعاة الفواصل
ولعله هو السر في تخصيصه بالذكر من بين ساير اطوار الفطرة الانسانية
مع كون النطفة والتراب ادل منه على كمال القدرة لكونهما ابعد منه بالنسبة
الى الانسانية ولما كان خلق الانسان اول النعم الفائضة عليه منه تعالى واقدم
الدلائل الدالة على وجوده عز وجل وكمال قدرته وعلمه وحكمته وصف ذاته
تعالى بذلك اولا ليستشهد عليه السلام به على تمكينه تعالى له من القراءة ثم كرر الامر
بقوله تعالى اقرأ اي افعل ما امرت به تاكيدا للايجاب وتمهيدا لما يعقبه من قوله
تعالى وربك الاكرم الخ فانه كلام مستانف وارد لازاحة ما بينه عليه السلام
من العذر بقوله ما انا بقارئ يريد ان القراءة شان من يكتب ويقرأ وانا امي
فقيل له وربك الذي امرك بالقراءة مبتدئا باسمه هو الاكرم الذي علم بالقلم
اي علم ما علم بواسطة القلم لا غيره فكما علم القارئ بواسطة الكتابة والقلم يعلمك

بدونها وقوله تعالى علم الانسان ما لم يعلم بدل اشتمال من علم بالقلم اي علمه به وبدونه من الامور الكلية والجزئية والجلية والخفية ما لم يخطر بباله وفي حذف المفعول اولا وايراده بعنوان عدم المعلومية ثانيا من الدلالة على كمال قدرته تعالى وكمال كرمه والاشعار بانه تعالى يعلمه من العلوم ما لا يحيط به العقول ما لا يخفى كلا ردع لمن كفر بنعمة الله تعالى بطغيانه وان لم يسبق ذكره للمبالغة في الزجر وقوله تعالى ان الانسان ليطغى اي يتجاوز الحد ويستكبر على ربه بيان للمردوع والمردوع عنه قيل هذا الى آخر السورة نزل في ابي جهل بعد زمان وهو الظاهر وقوله تعالى ان رآه استغنى مفعول له اي يطغى لان راى نفسه مستغنيا على ان استغنى مفعول ثان لراى لانه بمعنى علم ولذلك يساغ كون فاعله ومفعوله ضميري واحد كما في علمتني وان جوزه بعضهم في الرؤية البصرية ايضا وجعل من ذلك قول عائشة رضي الله عنها لقد رايتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما لنا طعام الا الاسودان وتعليل طغيانه برؤيته لا بنفس الاستغناء كما ينبئ عنه قوله تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض للايذان بان مدار طغيانه زعمه الفاسد روي ان ابا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اتزعم انه من استغنى طغى فاجعل لنا جبال مكة فضة وذهبا لعلنا ناخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك فنزل جبريل عليه السلام فقال ان شئت فعلنا ذلك ثم ان لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا باصحاب المائدة فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء ابقاء عليهم وقوله تعالى ان الى ربك الرجعى تهديد للطاغي وتحذير له من عاقبة الطغيان والالتفات للتشديد في التهديد والرجعى مصدر بمعنى الرجوع كالبشرى وتقديم الجار والمجرور عليه للقصر اي ان الى مالك امرك رجوع الكل بالموت والبعث لا الى غيره استقلالا او اشتراكا فسترى حينئذ عاقبة طغيانك وقوله تعالى ارايت الذي ينهى عبدا اذا صلى تقبيح وتشنيع لحاله وتعجيب منها وايذان بانها من الشناعة والغرابة بحيث يجب ان يراها كل من يتاتى منه الرؤية ويقضي منها العجب روي ان ابا جهل قال في ملأ من طغاة قريش لئن رايت محمدا يصلي لاطأن عنقه فرآه عليه السلام في الصلوة فجاءه ثم نكص على عقبيه فقالوا ما لك قال ان بيني وبينه لخندقا من نار وهولا واجنحة فنزلت ولفظ العبد وتنكيره لتفخيمه صلى الله عليه وسلم واستعظام النهي وتاكيد التعجب منه والرؤية ههنا بصرية واما ما في قوله تعالى ارايت ان كان على الهدى او امر بالتقوى وما في قوله تعالى ارايت ان كذب وتولى فقلبية معناه اخبرني فان الرؤية لما كانت سببا للاخبار عن المرئي اجري الاستفهام عنها مجرى الاستخبار عن متعلقها والخطاب لكل من صلح للخطاب ونظم الامر والتكذيب والتولي في سلك الشرط المتردد بين الوقوع وعدمه ليس باعتبار نفس الافعال المذكورة ومن حيث صدورها عن الفاعل فان ذلك ليس في حيز التردد اصلا بل باعتبار اوصافها التي هي كونها امرا بالتقوى وتكذيبا وتوليا كما في قوله تعالى قل ارايتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به كما مر والمفعول الاول لرايت محذوف وهو ضمير يعود الى الموصول او اسم اشارة يشار به اليه ومفعوله الثاني سد مسده الجملة الشرطية بجوابها المحذوف فان المفعول الثاني لارايت لا يكون الا جملة استفهامية او قسمية والمعنى اخبرني ذلك الناهي ان كان على الهدى فيما ينهى عنه من عبادة الله تعالى او آمرا بالتقوى فيما يامر به من عبادة الاوثان كما يعتقده او مكذبا للحق معرضا عن الصلوة كما نقول نحن الم يعلم بان الله يرى اي يطلع على احواله فيجازيه بها حتى اجترأ على ما فعل وانما افرد التكذيب والتولي بشرطية مستقلة مقرونة بالجواب مصدرة باستخبار مستانف ولم ينظمها في سلك الشرط الاول بعطفهما على كان للايذان باستقلالهما بالوقوع في نفس الامر وباستتباع الوعيد الذي ينطق به الجواب واما القسم الاول فامر مستحيل قد ذكر في حيز الشرط لتوسيع الدائرة وهو السر في تجريد الشرطية الاولى عن الجواب والاحالة به على جواب الثانية هذا وقد قيل ارايت الاول بمعنى

اخبرني عليك

اخبرني مفعوله الاول الموصول ومفعوله الثاني الشرطية الاولى بجوابها المحذوف لدلالة جواب الشرطية الثانية عليه وارايت في الموضعين تكرير للتاكيد ومعناه اخبرني عمن ينهى بعض عباد الله عن صلوته ان كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى من عبادة الله تعالى او كان آمرا بالمعروف والتقوى فيما يامر به من عبادة الاوثان كما يعتقده وكذلك ان كان على التكذيب للحق والتولي عن الدين الصحيح كما نقول نحن الم يعلم بان الله يرى ويطلع على احواله من هداه وضلاله فيجازيه على حسب ذلك فتامل وقيل المعنى ارايت الذي ينهى عبدا يصلي والمنهي على الهدى آمر بالتقوى والناهي مكذب متول فما اعجب من ذا وقيل الخطاب الثاني للكافر فانه تعالى كالحاكم الذي حضره الخصمان يخاطب هذا مرة والآخر اخرى وكانه قال يا كافر اخبرني ان كان صلوته هدى ودعاؤه الى الله امرا بالتقوى تنهاه وقيل هو امية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلوة كلا ردع للناهي اللعين وخسوء له واللام في قوله تعالى لئن لم ينته موطئة للقسم اي والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر لنسفعا بالناصية لناخذن بناصيته ولنسحبنه بها الى النار والسفع القبض على الشيء وجذبه بعنف وشدة وقرئ لنسفعن بالنون المشددة وقرئ لاسفعن وكتبته في المصحف بالالف على حكم الوقف والاكتفاء بلام العهد عن الاضافة لظهور ان المراد ناصية المذكور ناصية كاذبة خاطئة بدل من الناصية وانما جاز ابدالها عن المعرفة وهي نكرة لوصفها وقرئت بالرفع على هي ناصية وبالنصب وكلاهما على الذم والشتم ووصفها بالكذب والخطاء على الاسناد المجازي وهما لصاحبها وفيه من الجزالة ما ليس في قولك ناصية كاذب خاطئ فليدع ناديه اي اهل ناديه ليعينوه وهو المجلس الذي ينتدي فيه القوم اي يجتمعون روي ان ابا جهل مر برسول الله صلعم وهو يصلي فقال الم انهك فاغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اتهددني وانا اكثر اهل الوادي ناديا فنزلت سندع الزبانية ليجروه الى النار والزبانية الشرطة الواحدة زبنية كعفرية من الزبن وهو الدفع وقيل زبني وكانه نسب الى الزبن ثم غير كامسي واصلها زباني فقيل زبانية بتعويض التاء عن الياء والمراد ملائكة العذاب عن النبي صلى الله عليه وسلم لو دعا ناديه لاخذته الزبانية عيانا كلا ردع وزجر اثر زجر لا تطعه اي دم على ما انت عليه من معاصاته واسجد وواظب على سجودك وصلوتك غير مكترث به واقترب وتقرب بذلك الى ربك وفي الحديث اقرب ما يكون العبد الى ربه اذا سجد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة العلق اعطي من الاجر كانما قرأ المفصل كله

سورة القدر مكية وهي خمس آيات بسم الله الرحمن الرحيم

انا انزلناه في ليلة القدر تنويه بشان القرآن الكريم واجلال لمحله باضماره المؤذن بغاية نباهته المغنية عن التصريح به كانه حاضر في جميع الاذهان وباسناد انزاله الى نون العظمة المنبئ عن كمال العناية به وتفخيم وقت انزاله بقوله تعالى وما ادريك ما ليلة القدر لما فيه من الدلالة على ان علو قدرها خارج عن دائرة دراية الخلق لا يدريها ولا يدري بها الا علام الغيوب كما يشعر به قوله تعالى ليلة القدر خير من الف شهر فانه بيان اجمالي لشانها اثر تشويقه عم الى درايتها فان ذلك معرب عن الوعد بادرائها وقد مر بيان كيفية اعراب الجملتين وفي اظهار ليلة القدر في الموضعين من تاكيد التفخيم ما لا يخفى والمراد بانزاله فيها اما انزال كله الى السماء الدنيا كما روي انه انزل جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا واملاه جبريل عليه السلام على السفرة ثم كان ينزله على النبي صلى الله عليه وسلم نجوما في ثلاث وعشرين سنة واما ابتداء انزاله فيها كما نقل عن الشعبي وقيل المعنى انزلناه في شان ليلة القدر وفضلها كما في قول عمر رضه خشيت ان ينزل في قرآن وقول

عايشة رضى الله عنها لانا احقر فى نفسى من ان ينزل فى قرآن فالانسب ان يجعل الضمير حينئذ للسورة التى هى جزء من القرآن لا للكل واختلفوا فى وقتها فاكثرهم على انها فى شهر رمضان فى العشر الاواخر فى اوتارها واكثر الاقوال انها السابعة منها ولعل السر فى اخفائها تعريض من يريدها للثواب الكثير باحياء الليالى الكثيرة رجاء لموافقتها وتسميتها بذلك اما لتقدير الامور وقضائها فيها لقوله تعالى فيها يفرق كل امر حكيم او لخطرها وشرفها على ساير الليالى وتخصيص الالف بالذكر اما للتكثير او لما روى انه صلى الله عليه وسلم ذكر رجلا من بنى اسرائيل لبس السلاح فى سبيل الله الف شهر فعجب المؤمنون منه وتقاصرت اليهم اعمالهم فاعطوا ليلة هى خير من مدة ذلك الغازى وقيل ان الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله الف شهر فاعطوا ليلة ان احيوها كانوا احق بان يسموا عابدين من اولئك العباد وقيل ارى النبى صلى الله عليه وسلم اعمار الامم كافة فاستقصر اعمار امته فخاف الا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم فى طول العمر فاعطاه الله تعالى ليلة القدر وجعلها خيرا من الف شهر لساير الامم وقيل كان ملك سليمان خمسماية شهر وملك ذى القرنين خمسماية شهر فجعل الله تعالى العمل فى هذه الليلة لمن ادركها خيرا من ملكهما وقوله تعالى تنزل الملئكة والروح فيها استيناف مبين لمناط فضلها على تلك المدة المتطاولة وقد سبق فى سورة الانبياء ما قيل فى شان الروح على التفصيل وقيل هم خلق من الملائكة لا يراهم الملائكة الا تلك الليلة اى تتنزل الملائكة والروح فى تلك الليلة من كل سماء الى الارض او الى السماء الدنيا باذن ربهم متعلق بتنزل او بمحذوف هو حال من فاعله اى ملتبسين باذن ربهم اى بامره من كل امر اى من اجل كل امر قضاه الله تعالى لتلك السنة الى قابل كقوله تعالى فيها يفرق كل امر حكيم وقرئ من كل امرئ اى من اجل كل انسان قيل لا يلقون فيها مؤمنا ولا مؤمنة الا سلموا عليه سلام هى اى ما هى الا سلامة اى لا يقدر الله تعالى فيها الا السلامة والخير واما فى غيرها فيقضى سلامة وبلاء او ما هى الا سلام لكثرة ما يسلمون فيها على المؤمنين حتى مطلع الفجر اى وقت طلوعه وقرئ بالكسر على انه مصدر كالمرجع او اسم زمان على غير قياس كالمشرق وحتى متعلقة بتنزل على انها غاية لحكم التنزل اى لمكثهم فى محل تنزلهم بان لا ينقطع تنزلهم فوجا بعد فوج الى طلوع الفجر وقيل متعلقة بسلام بناء على ان الفصل بين المصدر ومعموله بالمبتدا مغتفر فى الجار عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرا سورة القدر اعطى من الاجر كمن صام رمضان واحيى ليلة القدر

سورة البينة مدنية وهى ثمان آيات بسم الله الرحمن الرحيم

لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب اى اليهود والنصارى وايرادهم بذلك العنوان للاشعار بعلة ما نسب اليهم من الوعد باتباع الحق فان مناط ذلك وجدانهم له فى كتابهم وايراد الصلة فعلا لما ان كفرهم حادث بعد انبيائهم والمشركين اى عبدة الاصنام وقرئ والمشركون عطفا على الموصول منفكين اى عما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق والايمان بالرسول المبعوث فى آخر الزمان والعزم على انجازه وهذا الوعد من اهل الكتاب مما لا ريب فيه حتى انهم كانوا يستفتحون ويقولون اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان ويقولون لاعدائهم من المشركين قد اظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وارم واما من المشركين فلعله قد وقع من متأخريهم بعدما شاع ذلك من اهل الكتاب واعتقدوا صحته بما شاهدوا من نصرتهم على اسلافهم كما يشهد به انهم كانوا يسألونهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا يغرونهم بتغيير نعوته عليه السلام وانفكاك الشئ من الشئ ان يزايله بعد التحامه كالعظم اذا انفك من مفصله وفيه اشارة الى كمال وكادة وعدهم اى لم يكونوا مفارقين للوعد المذكور بل كانوا مجمعين عليه

عازمين على انجازه حتى تأتيهم البينة التى كانوا قد جعلوا اتيانها ميقاتا لاجتماع الكلمة والاتفاق على الحق فجعلوه ميقاتا للانفكاك والافتراق واخلاف الوعد والتعبير عن اتيانها بصيغة المضارع باعتبار حال المحكى لا باعتبار حال الحكاية كما فى قوله تعالى واتبعوا ما تتلوا الشياطين اى تلت وقوله تعالى رسول بدل من البينة عبر عنه عليه السلام بالبينة للايذان بغاية ظهور امره وكونه ذلك الموعود فى الكتابين وقوله من الله متعلق بمضمر هو صفة لرسول مؤكدة لما افاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية اى رسول واى رسول كائن منه تعالى وقوله تعالى يتلو صفة اخرى له او حال من الضمير فى متعلق الجار صحفا مطهرة اى منزهة من الباطل لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه او من ان يمسه غير المطهرين ونسبة تلاوتها اليه عليه السلام من حيث ان تلاوة ما فيها بمنزلة تلاوتها وقوله تعالى فيها كتب قيمة صفة لصحفا او حال من ضميرها فى مطهرة ويجوز ان يكون الصفة او الحال الجار والمجرور فقط وكتب مرتفع به على الفاعلية ومعنى قيمة مستقيمة ناطقة بالحق والصواب وقوله تعالى وما تفرق الذين اوتوا الكتاب الخ كلام مسوق لغاية تشنيع اهل الكتاب خاصة وتغليظ جناياتهم ببيان ان ما نسب اليهم من الانفكاك لم يكن لاشتباه ما فى الامر بل كان بعد وضوح الحق وتبين الحال وانقطاع الاعذار بالكلية وهو السر فى وصفهم بايتاء الكتاب المنبئ عن كمال تمكنهم من مطالعته والاحاطة بما فى تضاعيفه من الاحكام والاخبار التى من جملتها نعوت النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذكرهم فيما سبق بما هو جار مجرى الاسم الجنس للطائفتين ولما كان هؤلاء والمشركون باعتبار اتفاقهم على الراى المذكور فى حكم فريق واحد عبر عما صدر عنهم عقيب الاتفاق عند الاخبار بوقوعه بالانفكاك وعند بيان كيفية وقوعه بالتفرق اعتبارا لاستقلال كل من فريقى اهل الكتاب وايذانا بان انفكاكهم عن الراى المذكور ليس بطريق الاتفاق على راى آخر بل بطريق الاختلاف القديم وقوله تعالى الا من بعد ما جاءتهم البينة استثناء مفرغ من اعم الاوقات اى وما تفرقوا فى وقت من الاوقات الا بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة الدالة على ان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الموعود فى كتابهم دلالة جلية لا ريب فيها كقوله وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم وقوله تعالى وما امروا الا ليعبدوا الله جملة حالية مفيدة لغاية قبح ما فعلوا اى والحال انهم ما امروا بما امروا به فى كتابهم الا لاجل ان يعبدوا الله وقيل اللام بمعنى ان اى الا بان يعبدوا الله ويعضده قراءة الا ان يعبدوا الله مخلصين له الدين اى جاعلين دينهم خالصا له تعالى او جاعلين انفسهم خالصة له تعالى فى الدين حنفاء مائلين عن جميع العقائد الزائغة الى الاسلام ويقيموا الصلوة ويؤتوا الزكوة ان اريد بهما ما فى شريعتهم من الصلوة والزكوة فالامر ظاهر وان اريد ما فى شريعتنا فمعنى امرهم بهما فى الكتابين ان امرهم باتباع شريعتنا امر لهم بجميع احكامها التى هما من جملتها وذلك اشارة الى ما ذكر من عبادة الله تعالى بالاخلاص واقامة الصلوة وايتاء الزكوة وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو رتبته وبعد منزلته دين القيمة اى دين الملة القيمة وقرئ الدين القيمة على تأويل الدين بالملة هذا وقد قيل قوله تعالى لم يكن الذين كفروا الى قوله كتب قيمة حكاية لما كانوا يقولونه قبل مبعثه عليه السلام من انهم لا ينفكون من دينهم الى مبعثه ويعدون ان ينفكوا منه حينئذ ويتفقوا على الحق وقوله تعالى وما تفرق الذين اوتوا الكتاب الخ بيان لاخلافهم الوعد وتعكيسهم الامر بجعلهم ما هو سبب لانفكاكهم عن دينهم الباطل حسبما وعدوه سببا لثباتهم عليه وعدم انفكاكهم منه ومثل ذلك بان يقول الفقير الفاسق لمن يعظه لا انفك مما انا فيه حتى اغنى فيستغنى فيزداد فسقا فيقول له واعظه لم تكن منفكا عن الفسق حتى توسر وما عكفت على الفسق الا بعد

يسار وانت خبير بان هذا يتمشى بعد التثنيا والتي تقدير ان يراد بالتفرق تفرقهم عن الحق بان يقال التفرق عن الحق مستلزم للثبات على الباطل فكانه قيل وما اجمعوا على دينهم الا من بعد ما جاءتهم البينة واما على تقدير ان يراد به تفرقهم فرقا فمنهم من آمن ومنهم من انكروا ومنهم من عرف وعاند كما جوزه القائل فتامل

ان الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين في نار جهنم بيان لحال الفريقين في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا وذكر المشركين لئلا يتوهم اختصاص الحكم باهل الكتاب حسب اختصاص مشاهدة شواهد النبوة في الكتاب بهم ومعنى كونهم فيها انهم يصيرون اليها يوم القيمة وايراد الجملة الاسمية للايذان بتحقق مضمونها لا محالة او انهم فيها الآن اما على تنزيل ملابستهم لما يوجبها منزلة ملابستهم لها واما على ان ما هم فيه من الكفر والمعاصي عين النار الا انها ظهرت في هذه النشاة بصورة عرضية وستخلعها في النشاة الآخرة وتظهر بصورتها الحقيقية كما مر في قوله تعالى وان جهنم لمحيطة بالكافرين وفي سورة الاعراف عند قوله تعالى والوزن يومئذ الحق الخ خالدين فيها حال من المستكن في الخبر واشتراك الفريقين في دخول دار العذاب بطريق الخلود لا ينافي تفاوت عذابهم في الكيفية فان جهنم دركات وعذابها الوان اولئك اشارة اليهم باعتبار اتصافهم بما هم فيه من القبايح المذكورة وما فيه من معنى البعد للاشعار بغاية بعد منزلتهم في الشر اى اولئك البعداء المذكورون هم شر البرية شر الخليقة اى اعمالا وهو الموافق لما سياتي في حق المؤمنين فيكون في حيز التعليل لخلودهم في النار او شرهم مقاما ومصيرا فيكون تاكيدا لفظاعة حالهم وقرئ بالهمزة على الاصل ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات بيان لمحاسن احوال المؤمنين اثر بيان سوء حال الكفرة جريا على السنة القرآنية من شفع الترهيب بالترغيب اولئك المنعوتون بما هو في الغاية القاصية من الشرف والفضيلة من الايمان والطاعة هم خير البرية وقرئ خيار البرية وهو جمع خير نحو جيد وجياد جزاؤهم بمقابلة ما لهم من الايمان والطاعة عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الانهار ان اريد بالجنات الاشجار الملتفة الاغصان كما هو الظاهر فجريان الانهار من تحتها ظاهر وان اريد بها مجموع الارض وما عليها فهو باعتبار الجزء الظاهر واياما كان فالمراد جريانها بغير اخدود خالدين فيها ابدا متنعمين بفنون النعم الجسمانية والروحانية وفي تقديم مدحهم بخير البرية وذكر الجزاء المؤذن بكون ما منحوه في مقابلة ما وصفوا به وبيان كونه من عنده تعالى والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضميرهم وجمع الجنات وتقييدها بالاضافة وبما يزيدها نعيما وتاكيد الخلود بالابود من الكل لاله على غاية حسن حالهم ما لا يخفى رضي الله عنهم استيناف مبين لما يتفضل عليهم زيادة على ما ذكر من اجزية اعمالهم ورضوا عنه حيث بلغوا من المطالب قاصيتها وملكوا من المآرب ناصيتها وابيح لهم ما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذلك اى ما ذكر من الجزاء والرضوان لمن خشي ربه فان الخشية التي هي من خصائص العلماء بشؤن الله عز وجل مناط لجميع الكمالات العلمية والعملية المستتبعة للسعادة الدينية والدنيوية والتعرض لعنوان الربوبية المعربة عن المالكية والتربية للاشعار بعلة الخشية والتحذير من الاغترار بالتربية عن النبي صلعم من قرا سورة لم يكن كان يوم القيمة مع خير البرية مساء ومقيلا

سورة الزلزلة مدنية وهي ثمان آيات بسم الله الرحمن الرحيم

اذا زلزلت الارض اى حركت تحريكا عنيفا متكررا متداركا زلزالها اى الزلزال المخصوص بها على مقتضى المشية الالهية المبنية على الحكم البالغة وهو الزلزال الشديد الذى لا غاية وراءه وزلزالها العجيب الذى لا يقادر قدره او زلزالها الداخل في حيز

الامكان وقرئ بالفتح وهو اسم وليس في الابنية فعلال بالفتح الا في المضاعف وقولهم ناقة خزعال نادر وقد قيل الزلزال بالفتح ايضا مصدر كالوسواس والجرجار والقلقال وذلك عند النفخة الثانية لقوله عز وجل واخرجت الارض اثقالها اى ما في جوفها من الاموات والدفاين جمع ثقل وهو متاع البيت واظهار الارض في موقع الاضمار لزيادة التقرير وللايماء الى تبدل الارض غير الارض او لان اخراج الاثقال حال بعض اجزائها وقال الانسان اى كل فرد من افراده لما يدهشهم من الطامة التامة ويبهتهم من الداهية العامة ما لها زلزلت هذه المرتبة الشديدة من الزلزال واخرجت ما فيها من الاثقال استعظاما لما شاهدوه من الامر الهائل وقد سيرت الجبال في الجو وصيرت هباء وقيل هو قول الكافر اذ لم يكن مؤمنا بالبعث والاظهر هو الاول على ان المؤمن يقوله بطريق الاستعظام والكافر بطريق التعجب يومئذ بدل من اذا وقوله تعالى تحدث اخبارها عامل فيهما ويجوز ان يكون اذا منتصبا بمضمر اى يوم اذ زلزلت الارض تحدث الخلق اخبارها اما بلسان الحال حيث تدل دلالة ظاهرة على ما لاجله زلزالها واخراج اثقالها واما بلسان المقال حيث ينطقها الله تعالى فتخبر بما عمل عليها من خير وشر وروى عن النبي صلعم انها تشهد على كل احد بما عمل على ظهرها وقرئ تنبئ اخبارها وقرئ تنبئ من الانباء بان ربك اوحى لها اى تحدث اخبارها بسبب ايحاء ربك لها وامره اياها بالتحديث على احد الوجهين ويجوز ان يكون بدلا من اخبارها كانه قيل تحدث باخبارها بان ربك اوحى لها لان التحديث يستعمل بالباء وبدونها واوحى لها بمعنى اوحى اليها يومئذ اى يوم اذ وقع ما ذكر يصدر الناس من قبورهم الى موقف الحساب اشتاتا متفرقين بحسب طبقاتهم بيض الوجوه آمنين وسود الوجوه فزعين كما مر في قوله تعالى فتاتون افواجا وقيل يصدرون عن الموقف اشتاتا ذات اليمين الى الجنة وذات الشمال الى النار ليروا اعمالهم اى اجزية اعمالهم خيرا كان او شرا وقرئ ليروا بالفتح وقوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره تفصيل ليروا وقرئ يره والذرة النملة الصغيرة وقيل ما يرى في شعاع الشمس من الهباء واياما كان فمعنى رؤيته ما يعاد لها من خير وشر اما مشاهدة جزائه فمن الاولى مختصة بالسعداء والثانية بالاشقياء كيف لا وحسنات الكافر محبطة بالكفر وسيئات المؤمن المجتنب عن الكبائر معفوة وما قيل من ان حسنة الكافر تؤثر في نقص العقاب يرده قوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا واما مشاهدة نفسه من غير ان يعتبر معه الجزاء ولا عدمه بل يفوض كل منهما الى سائر الدلائل الناطقة بعفو صغائر المؤمن المجتنب عن الكبائر واثابته بجميع حسناته وبحبوط حسنات الكافر ومعاقبته بجميع معاصيه فالمعنى ما روى عن ابن عباس ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيرا او شرا الا اراه الله تعالى اياه واما المؤمن فيغفر له سيئاته ويثيبه بحسناته واما الكافر فيرد حسناته تحسرا ويعاقبه بسيئاته عن النبي صلعم من قرا سورة اذا زلزلت اربع مرات كان كمن قرا القرآن كله

سورة العاديات مكية وهي احدى عشرة آية بسم الله الرحمن الرحيم

والعاديات اقسم سبحانه بخيل الغزاة التي تعدو نحو العدو وقوله تعالى ضبحا مصدر منصوب اما بفعله المحذوف الواقع حالا منها اى تضبح ضبحا وهو صوت انفاسها عند عدوها او بالعاديات فان العدو مستلزم للضبح كانه قيل والضابحات او حال على انه مصدر بمعنى الفاعل اى ضابحات فالموريات قدحا الايراء اخراج النار والقدح الصك يقال قدح فاورى اى فالتي تورى النار من حوافرها وانتصاب قدحا كانتصاب ضبحا على الوجوه الثلاثة فالمغيرات وهي حال اهلها اسند اليها لانها العمدة في اغارتهم صبحا اى في وقت الصبح وهو المعتاد في الغارات يعدون ليلا لئلا يشعر بهم العدو ويهجمون عليهم صباحا ليروا ما ياتون وما يذرون وقوله تعالى فاثرن به نقعا عطف على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه فان المعنى واللاتي عدون فاورين فاغرن فاثرن اى فهيجن بذلك الوقت غبارا اسند الاغارة

نقص العمل يضعف ويرى ثم يجزى عليه ما دل عليه قوله تعالى وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى وقد قال المفسرون على وفق ما ورد به الآثار في تفسير قوله تعالى وهم يحملون اوزارهم على ظهورهم ان المؤمن اذا خرج من قبره استقبله شيء هو احسن الاشياء صورة واطيبها ريحا ويقول انا عملك الصالح طالما ركبتك في الدنيا فاركبني انت اليوم فذلك قوله تعالى يوم نحشر المتقين وفدا قالوا ركبانا وقد قالوا عظموا ضحاياكم فانها على الصراط مطاياكم وان الكافر اذا خرج من قبره استقبله شيء هو اقبح الاشياء صورة واخبثها ريحا فيقول انا عملك الفاسد طالما ركبتني في الدنيا فانا اركبك اليوم فذلك قوله تعالى وهم يحملون اوزارهم الخ فالمرئي نفس العمل ومن غفل عن هذا صرفه عن ظاهره في تفسير قوله تعالى ليروا اعمالهم وقال جزاء اعمالهم ابن كمال

التي هي بباغتة العدو للنهب والقتل والاسر ليلا لئلا يشعر بهم العدو ويهجمون عليهم صباحا
واما يأتون وما يدرون وقوله تعالى فأثرن به عطف على الفعل الذي دل عليه اسم الفاعل
اذ المعنى واللاتي عدون فاورين فاغرن فأثرن به اي فهيجن بذلك الوقت نقعا اي
غبارا وتخصيص اثارته بالصبح لانه لا يثور او لا يظهر ثورانه بالليل وبهذا ظهر ان الايراء
الذي لا يظهر في النهار واقع في الليل ولله در شأن التنزيل وقيل النقع الصياح والجلبة
وقرئ فأثّرن بالتشديد بمعنى فاظهرن به غبارا لان التأثير فيه معنى الاظهار فوسطن
به اي توسطن بذلك الوقت او توسطن ملتبسات بالنقع جمعا من جموع الاعداء
والفاءات للدلالة على ترتب ما بعد كل منها على ما قبلها كما في قوله يا لهف زيابة
للحارث الصابح فالغانم فالآيب فان توسط الجمع مترتب على الاثارة المترتبة على
الاغارة المترتبة على الايراء المترتبة على العدو وقوله تعالى ان الانسان لربه لكنود
اي لكفور من كند النعمة كنودا جواب للقسم والمراد بالانسان بعض افراده روي ان
رسول الله صلعم بعث الى اناس من بني كنانة سرية واستعمل عليها المنذر بن عمرو
الانصاري وكان احد النقباء فابطأ عليه عم خبرها شهرا فقال المنافقون انهم قتلوا
فنزلت السورة اخبارا للنبي صلى الله عليه وسلم بسلامتها وبشارة له باغارتها على
القوم ونعيا على المرجفين في حقهم ما هم فيه من الكنود وفي تخصيص خيل الغزاة
بالاقسام بها من البراعة ما لا مزيد عليه كانه قيل وخيل الغزاة التي فعلت كيت وكيت
وقد ارجف هؤلاء في حق اربابها ما ارجفوا انهم مبالغون في الكفران وانه على ذلك
اي وان الانسان على كنوده لشهيد يشهد على نفسه بالكنود لظهور اثره عليه وانه
لحب الخير اي المال كما في قوله تعالى ان ترك خيرا لشديد اي قوي مطيق مجد في طلبه
وتحصيله متهالك عليه يقال هو شديد لهذا الامر وقوي له اذا كان مطيقا له ضابطا
وقيل الشديد البخيل اي لانه لاجل حب المال وثقل انفاقه عليه لبخيل ممسك ولعل وصفه
بهذا الوصف القبيح بعد وصفه بالكنود للايماء الى ان جملة الامور الداعية للمنافقين
الى النفاق حب المال لانهم بما يظهرون من الايمان يعصمون اموالهم ويحوزون من
الغنائم نصيبا وقوله تعالى افلا يعلم اذا بعثر ما في القبور الخ الى تهديد ووعيد و
الهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام اي ايفعل ما يفعل من القبائح او
الا يلاحظ فلا يعلم حاله اذا بعث من في القبور من الموتى وايراد ما لكونهم اذ ذاك
بمعزل من رتبة العقلاء وقرئ بحثر وبحث وبحثر وبحث على بنائهما للفاعل وحصل اي
جمع محصلا او ميز خيره من شره وقرئ حصل مبنيا للفاعل وحصل مخففا ما في الصدور
من الاسرار الخفية التي من جملتها ما يخفيه المنافقون من الكفر والمعاصي فضلا عن
الاعمال الجلية ان ربهم اي المبعوثين كني عنهم بعد الاحياء الثاني بضمير العقلاء بعد
ما عبر عنهم قبل ذلك بما بناء على تفاوتهم في الحالين كما فعل نظيره بعد الاحياء
الاول حيث التفت الى الخطاب في قوله تعالى وجعل لكم السمع والابصار الاية بعد
قوله ثم سواه ونفخ فيه من روحه ايذانا بصلاحيتهم للخطاب بعد نفخ الروح
وبعدمها قبله كما اشير اليه هناك بهم بذواتهم وصفاتهم واحوالهم بتفاصيلها
يومئذ يوم اذ يكون ما ذكر من بعث ما في القبور وتحصيل ما في الصدور لخبير
اي عالم بظواهر ما عملوا وبواطنه علما موجبا للجزاء متصلا به كما ينبئ عنه تقييده
بذلك اليوم والا فمطلق علمه سبحانه محيط بما كان وما سيكون وقوله تعالى بهم ويومئذ
متعلقان بخبير قدما عليه لمراعاة الفواصل واللام غير مانعة من ذلك وقرأ ابن السماك
ان ربهم بهم يومئذ خبير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة
والعاديات اعطي من الاجر عشر حسنات بعدد من بات بمزدلفة وشهد جمعا

سورة القارعة مكية وهي ثمان آيات بسم الله الرحمن الرحيم

القارعة القرع هو الضرب بشدة واعتماد بحيث يحصل منه صوت شديد وهي القيامة التي
مبدؤها النفخة الاولى ومنتهاها فصل القضاء بين الخلائق كما مر في سورة التكوير

سميت بها لانها تقرع القلوب والاسماع بفنون الافزاع والاهوال وتخرج جميع الاجرام العلوية
والسفلية من حال الى حال السماء بالانشقاق والانفطار والشمس والنجوم بالتكوير
والانكدار والانتثار والارض والجبال بالدك والنسف وهي مبتدأ خبره قوله تعالى
ما القارعة على ان ما الاستفهامية خبر والقارعة مبتدأ لا بالعكس لما مر غير مرة
ان محط الافادة هو الخبر لا المبتدأ ولا ريب في ان مدار افادة الهول والفخامة ههنا هو كلمة
ما لا القارعة اي اي شيء عجيب هي في الفخامة والفظاعة وقد وضع الظاهر موضع الضمير
تاكيدا للتهويل وقوله تعالى وما ادراك ما القارعة تاكيد لهولها وفظاعتها ببيان خروجها
عن دائرة علوم الخلق على معنى ان عظم الشأن ومدى شدتها بحيث لا تكاد تناله
دراية احد حتى يدريك بها وما في حيز الرفع على الابتداء وادراك هو الخبر ولا مساغ
الى العكس ههنا وما القارعة جملة كما مر محلها النصب على نزع الخافض لان ادرى
يتعدى الى المفعول الثاني بالباء كما في قوله تعالى ولا ادراكم به فلما وقعت الجملة
الاستفهامية معلقة له كانت في موقع المفعول الثاني له والجملة الكبيرة معطوفة على ما قبلها
من الجملة الواقعة خبرا للمبتدأ الاول اي واي شيء اعلمك ما شأن القارعة ولما كان
هذا منبئا عن الوعد الكريم باعلامها انجز ذلك بقوله تعالى يوم يكون الناس كالفراش المبثوث
على ان يوم مرفوع على انه خبر مبتدأ محذوف وحركته الفتح لاضافته الى الفعل وان كان
مضارعا كما هو رأي الكوفيين اي هي يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث في الكثرة والانتشار
والضعف والذلة والاضطراب والتطاير الى الداعي كتطاير الفراش الى النار او منصوب
باضمار اذكر كانه قيل بعد تفخيم امر القارعة وتشويقه عم الى معرفتها اذكر يوم
يكون الناس الخ فانه يدريك ما هي هذا وقد قيل انه ظرف ناصبه مضمر يدل عليه القارعة
اي تقرع يوم يكون الخ وقيل تقديره ستأتيكم القارعة يوم يكون الخ وتكون الجبال
كالعهن المنفوش اي كالصوف الملون بالالوان المختلفة المندوف في تفرق اجزائها
وتطايرها في الجو حسبما نطق به قوله تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر
السحاب وكلا الامرين من آثار القارعة بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق يبدل الله
عز وجل الارض غير الارض ويغير هيئاتها ويسير الجبال عن مقارها على ما ذكر
من الهيئات الهائلة ليشاهدها اهل المحشر وهي وان اندكت وتصدعت عند النفخة
الاولى لكن تسييرها وتسوية الارض انما يكونان بعد النفخة الثانية كما ينطق به قوله
ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا
ولا امتا يومئذ يتبعون الداعي وقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات
وبرزوا لله الواحد القهار فان اتباع الداعي الذي هو اسرافيل عم وبروز الخلق
لله سبحانه لا يكون الا بعد البعث قطعا وقد مر تمام الكلام في سورة النمل وقوله
تعالى فاما من ثقلت موازينه الخ بيان اجمالي لتحزب الناس الى حزبين وتنبيه على كيفية
الاحوال الخاصة بكل منهما اثر بيان الاحوال الشاملة للكل والموازين اما جمع موزون
وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله كما قاله الفراء او جمع ميزان قال ابن عباس
انه ميزان له لسان وكفتان لا يوزن فيه الا الاعمال قالوا توضع فيه صحائف الاعمال
فينظر اليه الخلائق اظهارا للمعدلة وقطعا للمعذرة وقيل الوزن عبارة عن
القضاء السوي والحكم العادل وبه قال مجاهد والاعمش والضحاك واختاره
كثير من المتأخرين قالوا ان الميزان لا يتوصل به الا الى معرفة مقادير الاجسام فكيف
يمكن ان يعرف به مقادير الاعمال التي هي اعراض منقضية وقيل ان الاعمال الظاهرة
في هذه النشأة بصور عرضية تبرز في النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها
في الحسن والقبح وقد روي عن ابن عباس انه يؤتى بالاعمال الصالحة على صور حسنة
وبالاعمال السيئة على صور قبيحة فتوضع في الميزان اي فمن ترجحت مقادير حسناته
فهو في عيشة راضية اي ذات رضى او مرضية واما من خفت موازينه بان لم
يكن له حسنة يعتد بها او ترجحت سيئاته على حسناته فامه اي فمأواه هاوية هي من

النار سميت بها لغاية عمقها وبعد مهواها روي ان اهل النار يهوي فيها سبعين خريفا و
قيل انها اسم للباب الاسفل منها او عبر عن المأوى بالام لان اهلها يأوون اليها كما يأوي
الولد الى امه وعن قتادة وعكرمة والكلبي ان المعنى فام رأسه هاوية في قعر جهنم
لانه يطرح فيها منكوسا والاول هو الموافق لقوله تعالى وما ادراك ماهيه نار حامية
فانه تقرير لها بعد ابهامها والاشعار بخروجها عن المعهود للتفخيم والتهويل
وهي ضمير الهاوية والهاء للسكت واذا وصل القارى حذفها وقيل حقه ان لا يدرج لئلا
يسقطها الادراج لانها ثابتة في المصحف وقد اجيز اثباتها مع الوصل عن النبي
صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القارعة ثقل الله تعالى بها ميزانه يوم القيمة

سورة التكاثر مكية وهي ثمان آيات بسم الله الرحمن الرحيم

الهاكم التكاثر اي شغلكم التغالب في الكثرة والتفاخر بها روي ان بني عبد مناف وبني
سهم تفاخروا وتعادّوا وتكاثروا بالسادة والاشراف في الاسلام فقال كل من الفريقين
نحن اكثر سيدا واعز عزيزا واعظم نفرا فكثرهم بنو عبد مناف فقال بنو سهم ان البغي
افنانا في الجاهلية فعادّونا بالاحياء والاموات فكثرهم بنو سهم والمعنى انكم تكاثرتم بالاحياء
حتى زرتم المقابر اي حتى اذا استوعبتم عددهم صرتم الى التفاخر والتكاثر بالاموات
فعبر عن بلوغهم ذكر الموتى بزيارة القبور تهكما بهم وقيل كانوا يزورون المقابر فيقولون
هذا قبر فلان وهذا قبر فلان يفتخرون بذلك وقيل المعنى الهاكم التكاثر بالاموال والاولاد
الى ان متم وقبرتم مضيعين اعماركم في طلب الدنيا معرضين عما يهمكم من السعي لآخرتكم
فيكون زيارة القبور عبارة عن الموت وقرئ أألهاكم على الاستفهام التقريري
كلا ردع وتنبيه على ان العاقل ينبغي ان لا يكون معظم همه مقصورا على الدنيا فان عاقبة
ذلك وخيمة سوف تعلمون سوء عاقبة ما انتم عليه اذا عاينتم عاقبته ثم كلا
سوف تعلمون تكرير للتاكيد وثم للدلالة على ان الثاني ابلغ من الاول او الاول عند
الموت او في القبر والثاني عند النشور كلا لو تعلمون علم اليقين اي لو تعلمون ما بين
ايديكم علم الامر اليقين اي كعلمكم ما تستيقنونه لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه فحذف
الجواب للتهويل وقوله تعالى لترون الجحيم جواب قسم مضمر اكد به الوعيد وشدد
به التهديد واوضح به ما انذروه بعد ابهامه تفخيما ثم لترونها تكرير للتاكيد
او الاولى اذا رأوها من مكان بعيد والثانية اذا وردوها او المراد بالاولى المعرفة
وبالثانية المشاهدة والمعاينة عين اليقين اي الرؤية التي هي نفس اليقين فان علم المشاهدة
اقصى مراتب اليقين ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم اي عن النعيم الذي الهاكم
الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه فان الخطاب مخصوص بمن عكف همته على استيفاء
اللذات ولم يعش الا ليأكل الطيب ويلبس اللين ويقطع اوقاته باللهو والطرب لا يعبأ
بالعلم والعمل ولا يحمل نفسه مشاقهما فان من تمتع بنعمة الله تعالى وتقوى بها على طاعته
وكان ناهضا بالشكر فهو من ذلك بمعزل بعيد وقيل الآية مخصوصة بالكفار عن النبي صلعم
من قرأ سورة التكاثر لم يحاسبه الله بالنعيم الذي انعم به عليه في دار الدنيا واعطي
من الاجر كانما قرأ الف آية

سورة العصر مكية وهي ثلث آيات بسم الله الرحمن الرحيم

والعصر اقسم سبحانه بصلوة العصر لفضلها او بالعشي الذي هو ما بين الزوال والغروب
كما اقسم بالضحى او بعصر النبوة لظهور فضله على سائر الاعصار او بالدهر لانطوائه
على تعاجيب الامور القارة والمارة ان الانسان لفي خسر اي خسران في متاجرهم
ومساعيهم وصرف اعمارهم في مباغيهم والتعريف للجنس والتنكير للتعظيم الا الذين
امنوا وعملوا الصالحات فانهم في تجارة لن تبور حيث باعوا الخسيس واشتروا الباقي
النفيس واستبدلوا الباقيات الصالحات بالغاديات الرائحات فيا لها من صفقة ما
اربحها وهذا بيان لتكميلهم لانفسهم وقوله تعالى وتواصوا بالحق الخ بيان لتكميلهم لغيرهم

اى

اي وصى بعضهم بعضا بالامر الثابت الذي لا سبيل الى انكاره ولا زوال في الدارين لمحاسن
اثاره وهو الخير كله من الايمان بالله عز وجل واتباع كتبه ورسله في كل عقد
وعمل وتواصوا بالصبر اي عن المعاصي التي تشتاق اليها النفس بحكم الجبلة البشرية
وعلى الطاعات التي يشق عليها اداؤها وعلى ما يبلو الله عز وجل عباده وتخصيص
هذا التواصي بالذكر مع اندراجه تحت التواصي بالحق لابراز كمال العناية به او لان
الاول عبارة عن رتبة العبادة التي هي فعل ما يرضى به الله تعالى والثاني عن
رتبة العبودية التي هي الرضى بما فعل الله تعالى فان المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما
تتشوق اليه من فعل وترك بل هو تلقي ما ورد منه تعالى بالجميل والرضى به ظاهرا و
باطنا عن رسول الله صلعم من قرأ سورة العصر غفر الله له وكان ممن تواصى بالحق وتواصى بالصبر

سورة الهمزة مكية وهي ثمان آيات بسم الله الرحمن الرحيم

ويل مبتدأ خبره لكل همزة لمزة وساغ الابتداء به مع كونه نكرة لانه دعاء عليهم
بالهلكة او شدة الشر والهمز الكسر كالهزم واللمز الطعن كاللهز شاعا في الكسر من اعراض
الناس والطعن فيهم وبناء فعلة للدلالة على ان ذلك منه عادة مستمرة قد ضري بها
وكذلك اللعنة والضحكة وقرئ لكل همزة لمزة بسكون الميم وهو المسخرة الذي يأتي
بالاضاحيك فيضحك منه ويستهزأ به وقيل نزلت في الاخنس بن شريق فانه كان ضارا
بالغيبة والوقيعة وقيل في امية بن خلف وقيل في الوليد بن المغيرة واغتيابه
لرسول الله صلعم وغضه من جنابه الرفيع واختصاص السبب لا يستدعي خصوص
الوعيد بهم بل كل من اتصف بوصفهم القبيح فله ذنوب منه مثل ذنوبهم الذي
جمع مالا بدل من كل او منصوب او مرفوع على الذم وقرئ جمّع بالتشديد للتكثير وتنكير
مالا للتفخيم والتكثير الموافق لقوله تعالى وعدده وقيل معنى عدده جعله عدة لنوائب
الدهر وقرئ وعدده اي جمع المال وضبط عدده او جمع ماله وعدده الذين ينصرونه
من قولك فلان ذو عدد وعدد اذا كان له عدد وافر من الانصار والاعوان وقيل هو
فعل ماض بفك الادغام يحسب ان ماله اخلده اي يعمل عمل من يظن ان ماله يبقيه
حيا والاظهار في موقع الاضمار لزيادة التقرير وقيل طول المال امله ومناه الاماني
البعيدة حتى اصبح لفرط غفلته وطول امله يحسب ان المال تركه خالدا في الدنيا لا يموت
وقيل هو التعريض بالعمل الصالح والزهد في الدنيا وانه هو الذي اخلد صاحبه في الحيوة
الابدية والنعيم المقيم فاما المال فليس بخالد ولا بمخلد وروي ان الاخنس كان له
اربعة الاف دينار وقيل عشرة الاف والجملة مستأنفة او حال من فاعل جمع كلا
ردع له عن ذلك الحسبان الباطل وقوله تعالى لينبذن جواب قسم مقدر والجملة
استيناف مبين لعلة الردع اي والله ليطرحن بسبب تعاطيه للافعال المذكورة في الحطمة
اي في النار التي شانها ان تحطم وتكسر كل ما يلقى فيها كما ان شانه كسر اعراض الناس
وجمع المال وقوله تعالى وما ادراك ما الحطمة لتهويل امرها ببيان انها ليست
من الامور التي تنالها عقول الخلق وقوله تعالى نار الله خبر مبتدأ محذوف والجملة
بيان لشأن المسؤول عنها اي هي نار الله الموقدة بامر الله عز سلطانه وفي اضافتها اليه
سبحانه ووصفها بالايقاد من تهويل امرها ما لا مزيد عليه التي تطلع على الافئدة
اي تعلو وساط القلوب وتغشاها وتخصيصها بالذكر لما ان الفؤاد الطف ما في
الجسد واشده تألما بادنى اذى يمسه او لانه محل العقائد الزائغة والنيات الخبيثة
ومنشأ الاعمال السيئة انها عليهم مؤصدة اي مطبقة من اوصدت الباب واصدته
اي اطبقته في عمد ممددة اما حال من الضمير المجرور في عليهم اي كائنين في عمد ممددة
اي موثقين فيها مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص او خبر مبتدأ مضمر اي هم في عمد
او صفة لمؤصدة قاله ابو البقاء اي كائنة في عمد ممددة بان توصد عليهم الابواب
وتمدد على الابواب العمد استيثاقا في استيثاق اللهم اجرنا منها يا خير مستجار وقرئ

عند بعضهن عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الهمزة اعطاه الله عشر حسنات بعدد
من استهزأ بمحمد صلى الله عليه وسلم واصحابه

سورة الفيل مكية وهي خمس آيات بسم الله الرحمن الرحيم

الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والهمزة لتقرير
رؤيته عليه السلام بانكار عدمها وكيف معلقة لفعل الرؤية منصوبة بما بعدها و
الرؤية علمية اى الم تعلم علما رصينا متاخما للمشاهدة والعيان باستماع الاخبار المتواترة
ومعاينة الآثار الظاهرة وتعليق الرؤية بكيفية فعله عز وجل لا بنفسه بان يقال الم تر
ما فعل ربك الخ لتهويل الحادثة والايذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئة عجيبة دالة على عظم
قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته وعزة بيته وشرف رسوله صلى الله عليه وسلم فان ذلك من
الارهاصات لما روى ان القصة وقعت في السنة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفصيلها
ان ابرهة بن الصباح الاشرم ملك اليمن من قبل اصحمة النجاشي بنى بصنعاء كنيسة وسماها
القليس واراد ان يصرف اليها الحاج فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلا فاغضبه ذلك
وقيل اججت رفقة من العرب نارا فحملتها الريح فاحرقتها فحلف ليهدمن الكعبة فخرج
مع الحبشة ومعه فيل له اسمه محمود وكان قويا عظيما واثنى عشر فيلا غيره وقيل ثمانية
وقيل الف فيل وقيل كان معه وحده فلما بلغ المغمس خرج اليه عبد المطلب وعرض
عليه ثلث اموال تهامة ليرجع فابى وعبأ جيشه وقدم الفيل فكان كلما وجهوه الى
الحرم برك ولم يبرح واذا وجهوه الى اليمن او الى غيره من الجهات هرول فارسل الله طيرا
سودا او قيل خضرا وقيل بيضا مع كل طائر حجر في منقاره وحجران في رجليه اكبر
من العدسة واصغر من الحمصة فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره وعلى كل حجر
اسم من يقع عليه ففروا وهلكوا في كل طريق ومنهل ودوى ابرهة فتساقطت انامله
وآرابه وماتت حتى انصدع صدره عن قلبه وانفلت وزيره ابو يكسوم وطائر يحلق
عليه فوقه حتى بلغ النجاشي فقص عليه القصة فلما اتمها وقع عليه الحجر فخر ميتا
بين يديه وقيل ان ابرهة اخذ لعبد المطلب مائتى بعير فخرج اليه في شأنها فلما رآه ابرهة
عظم في عينه وكان رجلا وسيما جسيما وقيل هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذي يطعم
الناس في السهل والوحوش في رؤس الجبال فنزل ابرهة عن سريره وجلس على بساطه وقيل
اجلسه معه على سريره ثم قال لترجمانه قل له ما حاجتك فلما ذكر حاجته قال سقطت
من عيني حيث جئت لاهدم البيت الذي هو دينك ودين آبائك وعصمتكم وشرفكم في
قديم الدهر لا تكلمني فيه الهاك عنه ذود اخذت لك فقال عبد المطلب انا رب الابل
وان للبيت ربا يحميه ثم رجع واتى باب الكعبة فاخذ بحلقته ومعه نفر من قريش
يدعون الله عز وجل فالتفت وهو يدعو فاذا هو بطير من نحو اليمن فقال والله انها لطير
غريبة ما هي بنجدية ولا تهامية فارسل حلقة الباب ثم انطلق مع اصحابه ينتظرون
ماذا يفعل ابرهة فارسل الله تعالى عليهم الطير فكان ما كان وقيل كان ابرهة جد النجاشي
الذي كان في زمن النبي صلعم وعن عائشة رضي الله عنها رأيت قائد الفيل وسائسه
اعميين مقعدين يستطعمان وقرئ الم تر بسكون الراء للجد في اظهار اثر الجازم وقوله
تعالى الم يجعل كيدهم في تضليل الى بيان اجمالي لما فعل الله تعالى بهم والهمزة للتقرير
كما سبق وذلك عطف على الجملة الاستفهامية ما بعدها كانه قيل قد جعل كيدهم في تعطيل
الكعبة وتخريبها في تضييع وابطال بان دمرهم اشنع تدمير وارسل عليهم طيرا ابابيل
اى طوائف وجماعات جمع ابالة وهي الحزمة الكبيرة شبهت بها الجماعة من الطير في
تضامها وقيل ابابيل مثل عباديد وشماطيط لا واحد لها ترميهم بحجارة صفة
لطيرا وقرئ يرميهم بالتذكير لان الطير اسم جمع وتانيثه باعتبار المعنى من سجيل من طين
متحجر معرب سنك كل وقيل كانه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار كما ان سجينا علم
للديوان الذي يكتب فيه اعمالهم كانه قيل بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون و
اشتقاقه من الاسجال وهو الارسال فجعلهم كعصف مأكول كورق زرع وقع فيه الاكال وهو

ان تأكله الدود او كاجته فبقى صفرا منه او كتبن اكلته الدواب وراثته اشير اليه بأول
حاله عن النبي صلعم من قرأ سورة الفيل اعفاه الله ايام حياته من الخسف والمسخ

سورة قريش مكية وهي خمس آيات بسم الله الرحمن الرحيم

لايلاف قريش متعلق بقوله تعالى فليعبدوا والفاء لما في الكلام من معنى الشرط اذ المعنى ان نعم
الله تعالى عليهم غير محصورة فان لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة
وقيل بمضمر تقديره فعلنا ما فعلنا من اهلاك اصحاب الفيل لايلاف الخ وقيل تقديره
اعجبوا لايلاف الخ وقيل بما قبله من قوله تعالى فجعلهم كعصف مأكول ويؤيده انهما
في مصحف ابى سورة واحدة بلا فصل والمعنى اهلك من قصدهم من الحبشة ليتسامع
الناس بذلك فيتهيبوا لهم زيادة تهيب ويحترموهم فضل احترام فينتظم لهم الامن
في رحلتهم فلا يجترئ عليهم احد وكانت لقريش رحلتان يرحلون في الشتاء الى اليمن
وفي الصيف الى الشام فيمتارون ويتجرون وكانوا في رحلتيهم آمنين لانهم اهل
حرم الله تعالى وولاة بيته العزيز فلا يتعرض لهم والناس بين متخطف ومنهوب والايلاف
من قولك آلفت المكان ايلافا اذا ألفته وقرئ لالاف قريش اى لمؤالفتهم وقيل يقال
ألفته الفا والافا وقرئ لالف قريش وقريش ولد النضر بن كنانة سموا بتصغير القرش
وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن ولا تطاق الا بالنار والتصغير للتعظيم و
قيل من القرش وهو الكسب لانهم كانوا كسابين بتجاراتهم وضربهم في البلاد
وقوله تعالى ايلافهم رحلة الشتاء والصيف بدل من الاول ورحلة مفعول لايلافهم
وافرادها مع ان المراد رحلتي الشتاء والصيف لامن الالباس وفي اطلاق الايلاف
عن المفعول اولا وابداله هذا منه تفخيم لامره وتذكير لعظيم النعمة فيه وقرئ ليألف
قريش الفهم رحلة الشتاء والصيف وقرئ رحلة بالضم وهي الجهة التي يرحل اليها
فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم بسبب تينك الرحلتين تمكنوا منهما بواسطة
كونهم من جيرانه من جوع شديد كانوا فيه قبلهما وقيل اريد به القحط الذي اكلوا
فيه الجيف والعظام وآمنهم من خوف عظيم لا يقادر قدره وهو خوف اصحاب الفيل
او خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم وقيل خوف الجذام فلا يصيبهم في بلدهم عن النبي
صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة قريش اعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها

اى اخبرنا ما جزاء من يكذب بالايمان والتوحيد والنبوة وهو عاص بن وائل قال الكلبي ... سورة الماعون ... آيات

ارايت الذي يكذب بالدين استفهام اريد به تشويق السامع الى معرفة من سيق له الكلام
والتعجيب منه والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل لكل عاقل والرؤية بمعنى المعرفة
وقرئ ارايتك بزيادة حرف الخطاب والفاء في قوله تعالى فذلك الذي يدع اليتيم جواب شرط
محذوف على ان ذلك مبتدأ والموصول خبره والمعنى هل عرفت الذي يكذب بالجزاء او بالاسلام
ان لم تعرفه او ان اردت ان تعرفه فهو الذي يدع اليتيم دفعا عنيفا ويزجره زجرا قبيحا
ووضع اسم الاشارة المتعرض لوصف المشار اليه موضع الضمير للاشعار بعلة الحكم
والتنبيه بما فيه من معنى البعد على بعد منزلته في الشر والفساد قيل هو ابو جهل كان وصيا
ليتيم فاتاه عريانا يسأله من مال نفسه فدفعه دفعا شنيعا وقيل ابو سفيان نحر جزورا
فسأله يتيم لحما فقرعه بعصاه وقيل هو الوليد بن المغيرة وقيل هو العاص بن وائل
السهمي قيل هو رجل بخيل من المنافقين وقيل الموصول على عمومه وقرئ يدع اليتيم
اى يتركه ويجفوه ولا يحض اى اهله وغيرهم من الموسرين على طعام المسكين
واذا كان حال من ترك حث غيره على ما ذكر فما ظنك بحال من تركه مع القدرة عليه والفاء
في قوله تعالى فويل للمصلين اما لربط ما بعدها بشرط محذوف كانه قيل اذا كان ما ذكر من عدم
المبالاة باليتيم والمسكين من دلائل التكذيب بالدين وموجبات الذم والتوبيخ فويل
للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون غافلون غير مبالين بها الذين هم
يراؤن اى يرون الناس اعمالهم ليروهم الثناء عليها ويمنعون الماعون اى الزكوة

ثم وصفهم الله تعالى بانهم يصلون لاى شئ فقال الذين هم يراؤن يعنى اذا رآهم الناس صلوا ...

او ما يتعاور عادةً فان عدم المبالاة بالصلوة التي هي عماد الدين والرياء الذي هو شعبة من الكفر ومنع الزكوة التي هي قنطرة الاسلام وسوء المعاملة مع الخلق احق بذلك واما الترتيب الدعاء عليهم بالويل على ماذكر من قبايحهم ووضع المصلين موضع ضميرهم ليتوسل بذلك الى بيان ان لهم قبايح اخر غير ما ذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الدين غفر له ان كان للزكوة مؤديًا

سورة الكوثر مكية وهي ثلث ايات بسم الله الرحمن الرحيم

انا اعطيناك وقرئ انطيناك الكوثر اى الخير المفرط الكثرة من شرف النبوة الجامعة لخيري الدارين والرياسة العامة المستتبعة لسعادة الدنيا والدين فوعل من الكثرة وقيل نهر في الجنة وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه قرأها فقال اتدرون ما الكوثر انه نهر في الجنة وعدنيه ربي فيه خير كثير وروي في صفته احلى من العسل واشد بياضا من اللبن وابرد من الثلج والين من الزبد حافتاه الزبرجد واوانيه من فضة عدد نجوم السماء وروي لا يظمأ من شرب منه ابدًا اول وارديه فقراء المهاجرين الدنسو الثياب الشعث الرؤس الذين لا يزوجون المنعمات ولا يفتح لهم ابواب السدد يموت احدهم وحاجته تتلجلج في صدره لو اقسم بالله لابره وعن ابن عباس انه فسر الكوثر بالخير الكثير فقال له سعيد بن جبير فان ناسا يقولون هو نهر في الجنة فقال هو من الخير الكثير وقيل هو حوض فيها وقيل اولاده واتباعه او علماء امته او القرآن الحاوي لخير الدنيا والدين والفاء في قوله تعالى فصل لربك وانحر لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان اعطاءه تعالى اياه عليه الصلوة والسلام ما ذكر من العطية التي لم يعطها ولن يعطها احدا من العالمين مستوجب للمأمور به اى استيجاب اى فدم على الصلوة لربك الذي افاض عليك هذه النعمة الجليلة التي لا يضاهيها نعمة خالصة لوجهه خلاف الساهين عنها المرائين فيها اداء لحقوق شكرها فان الصلوة جامعة لجميع اقسام الشكر وانحر البدن التي هي خيار اموال العرب باسمه تعالى وتصدق على المحاويج خلافا لمن يدعهم ويمنع منهم الماعون وعن عطية هي صلوة الفجر بجمع والنحر بمنى وقيل صلاة العيد والتضحية وقيل هي جنس الصلوة والنحر وضع اليمين على الشمال وقيل هو ان يرفع يديه في التكبير الى نحره هو المروى عن النبي صلعم وعن ابن عباس استقبل القبلة بنحرك وهو قول الفراء والكلبي وابي الاحوص ان شانئك اى مبغضك كائنًا من كان هو الابتر الذي لا عقب له حيث لا يبقى منه نسل ولا حسن ذكر واما انت فتبقى ذريتك وحسن صيتك واثار فضلك الى يوم القيمة ولك في الاخرة ما لا يندرج تحت البيان وقيل نزلت في العاص بن وائل واياما كان فلا ريب في عموم الحكم عن النبي صلعم من قرأ سورة الكوثر سقاه الله من كل نهر في الجنة ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قربه العباد في يوم النحر

سورة الكافرون مكية وهي ست ايات بسم الله الرحمن الرحيم

قل يا ايها الكافرون هم كفرة مخصوصون قد علم الله تعالى انه لا يتأتى منهم الايمان ابدا روى ان رهطا من عتاة قريش قالوا لرسول الله صلعم هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك تعبد آلهتنا سنة ونعبد الهك سنة فقال معاذ الله تعالى ان اشرك بالله غيره فقالوا فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد الهك فنزلت فغدا الى المسجد الحرام وفيه الملاء من قريش فقام على رؤسهم فقرأها عليهم فايسوا لا اعبد ما تعبدون اى فيما يستقبل لان لا لا تدخل غالبا الا على مضارع في معنى الاستقبال كما ان ما لا تدخل الا على مضارع في معنى الحال والمعنى لا افعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة الهتكم ولا انتم عابدون ما اعبد اى ولا انتم فاعلون فيه ما اطلب منكم من عبادة الهي ولا انا عابد ما عبدتم اى وما كنت قط عابدا فيما سلف ما عبدتم فيه اى لم يعهد مني عبادة صنم في الجاهلية فكيف ترجى مني في الاسلام ولا انتم عابدون ما اعبد اى وما عبدتم في وقت من الاوقات ما انا على عبادته وقيل هاتان الجملتان لنفي العبادة حالا كما ان الاوليين لنفيها استقبالا وانما لم يقل ما عبدت ليوافق ما عبدتم لانهم كانوا موسومين قبل البعثة

بعبادة

بعبادة الاصنام وهو عليه السلام لم يكن حينئذ موسوما بعبادة الله وايثار ما في ما اعبد على من لان المراد هو الوصف كانه قيل ما اعبد من المعبود العظيم الشان الذي لا يقادر قدر عظمته وقيل ان ما مصدرية اى لا اعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي وقيل الاوليان بمعنى الذي والاخريان مصدريتان وقيل قوله ولا انا عابد ما عبدتم تاكيد لقوله لا اعبد ما تعبدون وقوله ولا انتم عابدون ما اعبد ثانيا تاكيد لمثله المذكور اولا وقوله تعالى لكم دينكم تقرير لقوله لا اعبد ما تعبدون وقوله ولا انا عابد ما عبدتم كما ان قوله تعالى ولي دين تقرير لقوله ولا انتم عابدون ما اعبد والمعنى ان دينكم الذي هو الاشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه الى الحصول لي ايضا كما تطمعون فيه فلا تعلقوا به اماتيكم الفارغة فان ذلك من المحالات وان ديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي لا يتجاوزه الى الحصول لكم ايضا لانكم علقتموه بالمحال الذي هو عبادتي لالهتكم او استلامي اياها ولان ما وعدتموه عين الاشراك وحيث كان مبنى قولهم تعبد آلهتنا سنة ونعبد الهك سنة على شركة الفريقين في كلتا العبادتين كان القصر المستفاد من تقديم المسند قصر افراد حتما ويجوز ان يكون هذا تقريرا لقوله ولا انا عابد ما عبدتم اى ولي ديني لا دينكم كما هو في قوله تعالى ولكم ما كسبتم وقيل المعنى اني نبي مبعوث اليكم لادعوكم الى الحق والنجاة فاذا لم تقبلوا مني ولم تتبعوني فدعوني كفافا ولا تدعوني الى الشرك فتامل عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكافرين فكانما قرأ ربع القرآن وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرئ من الشرك وتعافى من الفزع الاكبر

سورة النصر مدنية وهي ثلث اية بسم الله الرحمن الرحيم

اذا جاء نصر الله اى اعانته تعالى واظهاره اياك على عدوك والفتح اى فتح مكة وقيل جنس نصر الله ومطلق الفتح فان فتح مكة لما كان مفتاح الفتوح ومناطها كما ان نفسها ام القرى واما مها جعل مجيئه بمنزلة مجيء سائر الفتوح وعلق به امره عم بالتسبيح والحمد والتعبير عن حصول النصر والفتح بالمجيء للايذان بانهما متوجهان نحوه عليه السلام وانهما على جناح الوصول اليه عليه السلام عن قريب روى انها نزلت قبل الفتح وعليه الاكثر وقيل في ايام التشريق بمنى في حجة الوداع فكلمة اذا حينئذ باعتبار ان بعض ما في حيزها اعني رؤية دخول الناس الخ غير منقض بعد وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان ومع النبي صلعم عشرة آلاف من المهاجرين والانصار وطوائف العرب واقام بها خمس عشرة ليلة وحين دخلها وقف على باب الكعبة ثم قال لا اله الا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده ثم قال يا اهل مكة ما ترون اني فاعل بكم قالوا خيرا اخ كريم وابن اخ كريم قال اذهبوا فانتم الطلقاء فاعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان الله تعالى امكنه من رقابهم عنوة وكانوا له فيئا ولذلك سمى اهل مكة الطلقاء ثم بايعوه على الاسلام ثم خرج الى هوازن ورأيت الناس اى ابصرتهم او علمتهم يدخلون في دين الله اى ملة الاسلام التي لا دين يضاف اليه تعالى غيرها والجملة على الاول حال من الناس وعلى الثاني مفعول ثان لرأيت وقوله تعالى افواجا حال من فاعل يدخلون اى يدخلون فيه جماعات كثيفة كاهل مكة والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب وكانوا قبل ذلك يدخلون فيه واحدا واحدا واثنين اثنين روى انه عم لما فتح مكة اقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا اذا ظفر باهل الحرم فلن يقاومه احد وقد كان الله تعالى اجارهم من اصحاب الفيل وعن كل من ارادهم بسوء فكانوا يدخلون في دين الاسلام افواجا من غير قتال وقرئ فتح الله والنصر وقرئ يدخلون على البناء للمفعول فسبح بحمد ربك فقل سبحان الله حامدا له اى فتعجب لتيسير الله تعالى ما لم يخطر ببال احد من ان يغلب احد على اهل حرمه المحترم واحمده على جميل صنعه هذا على الرواية الاولى ظاهر واما على الثانية فلعله عليه السلام امر بان يداوم على ذكر استعظاما لنعمة لا باحداث

التعجب لما ذكر فانه انما يناسب حالة الفتح او فاذكره مسبحا حامدا زيادة في عبادته و
الثناء عليه لزيادة انعامه عليك او فصل له حامدا على نعمه روي انه لما فتح باب الكعبة
صلى صلوة الضحى ثمان ركعات او فنزهه عما يقوله الظلمة حامدا له على ان صدق وعده
او فاثن على الله تعالى بصفات الجلال حامدا له على صفات الاكرام واستغفره هضما لنفسك
واستقصارا لعملك واستعظاما لحقوق الله تعالى واستدراكا لما فرط منك من ترك الاولى
عن عايشة رضي الله عنها انه كان عليه السلام يكثر قبل موته ان يقول سبحانك اللهم وبحمدك
استغفرك واتوب اليك وعنه عليه السلام اني لاستغفر الله في اليوم والليلة مائة
مرة روي انه لما قراها النبي صلى الله عليه وسلم على اصحابه استبشروا وبكى العباس رضي الله
عنه فقال عليه السلام ما يبكيك يا عم قال نعيت اليك نفسك قال عليه السلام انها
لكما تقول فلم ير عليه السلام بعد ذلك ضاحكا مستبشرا وقيل ان ابن عباس هو الذي
قال ذلك فقال عليه السلام لقد اوتي هذا الغلام علما كثيرا ولعل ذلك للدلالة على تمام
امر الدعوة وتكامل امر الدين كقوله تعالى اليوم اكملت لكم دينكم وروي انه لما نزلت
خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان عبدا خيره الله بين الدنيا وبين لقائه
فاختار لقاء الله تعالى فعلم ابو بكر رضي الله عنه فقال بانفسنا وآبائنا واولادنا وعنه عليه
السلام انه دعى فاطمة رضي الله عنها فقال يا بنتاه انه نعيت الي نفسي فبكت فقال
لا تبكي فانك اول اهلي لحوقا بي وعن ابن مسعود رضي الله عنه ان هذه السورة تسمى سورة
التوديع وقيل هو امر بالاستغفار لامته انه كان توابا منذ خلق المكلفين اي
مبالغا في قبول توبتهم فليكن كل تائب مستغفر متوقعا للقبول عن النبي صلعم من قرأ
سورة النصر اعطي من الاجر كمن شهد مع محمد يوم فتح مكة

سورة لهب مكية وهي خمس آيات بسم الله الرحمن الرحيم

تبت اي هلكت يدا ابي لهب هو عبد العزى بن عبد المطلب وايثار التباب على
الهلاك واسناده الى يديه لما روي انه لما نزل وانذر عشيرتك الاقربين رقي رسول الله
صلعم الصفا وجمع اقاربه فانذرهم فقال ابو لهب تبا لك الهذا دعوتنا واخذ
حجرا ليرميه عليه السلام وتب اي وهلك كله وقيل المراد بالاول هلاك جملته
كقوله ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة ومعنى وتب وكان ذلك وحصل كقول من قال
جزاني جزاه الله شر جزائه جزاء الكلاب العاويات وقد فعل ويؤيده قراءة من قرأ
وقد تب وقيل الاول اخبار عن هلاك عمله لان الاعمال تزاول غالبا بالايدي والثاني اخبار
عن هلاك نفسه وقيل كلاهما دعاء عليه بالهلاك وقيل الاول دعاء والثاني اخبار وكنيته
للتعريض بكونه جهنميا ولاشتهاره بها او لكراهة ذكر اسمه القبيح وقرئ ابو لهب كما
قيل علي ابن ابو طالب وقرئ ابي لهب بسكون الهاء ما اغنى عنه ماله وما كسب اي لم
يغن عنه حين حل به التباب على ان ما نافية او اي شيء اغنى عنه على انها استفهامية
في معنى الانكار منصوبة بما بعدها اصل ماله وما كسبه به من الارباح والنتايج والمنافع
والوجاهة والاتباع او ماله الموروث من ابيه والذي كسبه بنفسه او عمله الخبيث
الذي هو كيده في عداوة النبي صلعم او عمله الذي ظن انه منه على شيء كقوله تعالى
وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وعن ابن عباس ما كسب ولده
وروي انه كان يقول ان كان ما يقول ابن اخي حقا فانا افتدي منه نفسي بمالي وولدي
فاستخلص منه وقد خاب مرجاه وما حصل ما تمناه فافترس ولده عتبة اسد في
طريق الشام بين العير المكتنفة به وقد كان صلعم دعا عليه وقال اللهم سلط عليه
كلبا من كلابك وهلك نفسه بالعدسة بعد وقعة بدر لسبع فاجتنبه اهله مخافة
العدوى وكانت قريش تتقيها كالطاعون فبقي ثلاثا حتى انتن ثم استاجروا بعض السودان
فاحتملوه ودفنوه فكان الامر كما اخبر به القرآن سيصلى بفتح الياء وقرئ بضمها وفتح
اللام بالتخفيف والتشديد والسين لتاكيد الوعيد وتشديده اي سيدخل لا محالة بعد
هذا العذاب العاجل في الآخرة نارا ذات لهب اي نارا عظيمة ذات اشتعال وتوقد

المكتنفة

وهي

وهي نار جهنم وليس هذا نصا في انه لا يؤمن ابدا حتى لا يلزم من تكليفه الايمان بالقرآن ان يكون
مكلفا بان يؤمن بانه لا يؤمن ابدا فيكون مامورا بالجمع بين النقيضين كما هو المشهور
صلي النار غير مختص بالكفار فيجوز ان يفهم ابو لهب من هذا ان دخوله النار لفسقه
ومعاصيه لا لكفره فلا اضطرار الى الجواب المشهور من ان ما كلفه هو الايمان بجميع
ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم اجمالا لا الايمان بتفاصيل ما نطق به القرآن حتى يلزم
ان يكلف الايمان بعدم ايمانه المستمر وامرأته عطف على المستكن في سيصلى لمكان
الفصل بالمفعول وهي ام جميل بنت حرب اخت ابي سفيان وكانت تحمل حزمة من الشوك
والحسك والسعدان فتنثرها بالليل في طريق النبي صلى الله عليه وسلم وكان عليه السلام
يطؤه كما يطؤ الحرير وقيل كانت تمشي بالنميمة ويقال لمن يمشي بالنمائم ويفسد بين الناس
يحمل الحطب بينهم اي يوقد بينهم النائرة حمالة الحطب بالنصب على الشتم
والذم وقيل على الحالية بناء على ان الاضافة غير حقيقية اذ المراد انها تحمل يوم القيمة
حزمة من حطب جهنم كالزقوم والضريع وعن قتادة انها مع كثرة مالها كانت تحمل
الحطب على ظهرها لشدة بخلها فعيرت بالبخل فالنصب حينئذ على الشتم حتما وقرئ بالرفع
على انه خبر وامرأته مبتدأ وقرئ حمالة للحطب بالتنوين نصبا ورفعا وقرئ مريئته
بالتصغير للتحقير في جيدها حبل من مسد جملة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والجملة
حالية وقيل الظرف خبر لامرأته وحبل مرتفع به على الفاعلية وقيل هو حال من امرأته
على تقدير عطفها على ضمير سيصلى وحبل فاعل كما ذكر والمسد ما يفتل من الحبال فتلا شديدا
من ليف المقل وقيل من اي ليف كان وقيل من لحاء شجر باليمن وقد يكون من جلود
الابل واوبارها والمعنى في عنقها حبل مما مسد من الحبال وانها تحمل تلك الحزمة
من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطابون تخسيسا بحالها وتصويرا لها بصورة
بعض الحطابات من المواهن لتمتعض من ذلك ويمتعض بعلها وهما في بيت العز والشرف
قال مرة الهمداني كانت ام جميل تاتي كل يوم باتالة من حسك فتطرحها على طريق المسلمين
فبينما هي ذات ليلة حاملة حزمة اعيت فقعدت على حجر لتستريح فجذبها الملك من خلفها
فاختنقت بحبلها عن النبي صلعم من قرأ سورة تبت رجوت ان لا يجمع بينه وبين ابي لهب في دار واحدة

سورة الاخلاص وهي اربع آيات بسم الله الرحمن الرحيم

قل هو الله احد الضمير للشان ومداره وضعه موضعه مع عدم سبق ذكره الايذان بانه
من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل احد واليه يشير كل مشير واليه يعود كل ضمير كما
ينبئ عنه اسمه الذي اصله القصد اطلق على المفعول مبالغة ومحله الرفع على الابتداء خبره الجملة
بعده ولا حاجة الى الرابط لانها عين الشان الذي عبر عنه بالضمير والسر في تصدير الجملة
به التنبيه من اول الامر على فخامة مضمونها وجلالة حيزها مع ما فيها من زيادة تحقيق
وتقرير فان الضمير لا يفهم منه من اول الامر الا شان مبهم له خطر جليل فيبقى الذهن
مترقبا لما امامه مما يفسره ويزيل ابهامه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن وهمزة احد
مبدلة من الواو واصله وحد لا كهمزة ما يلازم النفي ويراد به العموم كما في قوله تعالى
فما منكم من احد عنه حاجزين وما في قوله عليه السلام ما احلت الغنايم لاحد سود الرؤس
غيركم فانها اصلية وقال المكي اصل احد واحد فابدلت الواو همزة فاجتمع الفان لان الهمزة
تشبه الالف فحذفت احداهما تخفيفا وقال ثعلب ان احدا لا يبنى عليه العدد ابتداء
فلا يقال احد واثنان كما يقال واحد واثنان ولا يقال رجل احد كما يقال رجل واحد
ولذلك اختص به تعالى او هو لما سئل عنه اي الذي سألتم عنه هو الله اذ روي ان
قريشا قالوا صف لنا ربك الذي تدعونا اليه وانسبه فنزلت فالضمير مبتدأ والله
خبره واحد بدل منه او خبر ثان او خبر مبتدأ محذوف وقرئ هو الله احد بغير قل وقرئ
الله احد بغير قل هو وقرئ قل هو الواحد وقوله تعالى الله الصمد مبتدأ وخبر والصمد
فعل بمعنى مفعول من صمد اليه اذا قصده اي هو السيد المصمود اليه في الحوايج المستغني
بذاته وكل ما عداه محتاج اليه في جميع جهاته وقيل الصمد الدائم الباقي الذي لم يزل

ما يلازم

ولا يزال وقيل الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وتعريفه لعلمهم بصمديته بخلاف احديته و
تكرير الاسم الجليل للاشعار بان من لم يتصف بذلك فهو بمعزل من استحقاق الالوهية
وتعرية الجملة عن العاطف لانها كالنتيجة للاولى بيّن اولا الوهيته عز وجل المستتبعة لكافة
نعوت الكمال ثم احديته الموجبة لتنزهه عن شائبة التعدد والتركيب بوجه من الوجوه
وتوهم المشاركة في الحقيقة وخواصها ثم صمديته المقتضية لاستغنائه الذاتي عما سواه
وافتقار جميع المخلوقات اليه في وجودها وبقائها وسائر احوالها تحقيقا للحق وارشادا
لهم الى سننه الواضح ثم صرح ببعض احكام جزئية مندرجة تحت الاحكام السابقة
فقيل لم يلد تنصيصا على ابطال زعم المفترين في حق الملئكة والمسيح ولذلك ورد النفي
على صيغة الماضي اى لم يصدر عنه ولد لانه لا يجانسه شيء ليمكن ان يكون له من جنسه
صاحبة فيتوالد كما نطق به قوله تعالى انى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ولا يفتقر الى ما
يعينه او يخلفه لاستحالة الحاجة والفناء عليه سبحانه ولم يولد اى لم يصدر عن شيء
لاستحالة نسبة العدم اليه سابقا ولاحقا والتصريح به مع كونهم معترفين بمضمونه
لتقرير ما قبله وتحقيقه بالاشارة الى انهما متلازمان اذ المعهود ان ما يلد يولد وما لا فلا
ومن قضية الاعتراف بانه لم يولد الاعتراف بانه لا يلد فهو قريب من عطف لا يستقدمون
على لا يستأخرون كما مر تحقيقه ولم يكن له كفوا احد اى لم يكافئه احد ولم يماثله
ولم يشاكله من صاحبة وغيرها وله صلة لكفوا قدمت عليه مع ان حقها التاخر عنه
للاهتمام بها لان المقصود نفي المكافاة عن ذاته تعالى وقد جوز ان يكون خبرا لا صلة ويكون كفوا
حالا من احد وليس بذاك واما تاخير اسم كان فلمراعاة الفواصل ووجه الوصل بين هذه الجمل
غني عن البيان وقرئ بضم الكاف والفاء مع تسهيل الهمزة وبضم الكاف وكسرها مع
سكون الفاء هذا ولانطواء السورة الكريمة مع تقارب قطرها على اشتات المعارف الالهية والرد
على من الحد فيها ورد في الحديث النبوي انها تعدل ثلث القران فان مقاصده منحصرة في بيان
العقائد والاحكام والقصص ومن عدلها بكله اعتبر المقصود بالذات منه روى عن النبي صلعم انه
قال اسست السموات السبع والارضون السبع على قل هو الله احد اى ما خلقت الا لتكون دلائل
على توحيد الله ومعرفة صفاته التي نطقت بها هذه السورة وعنه عم سمع رجلا يقرا قل هو
الله احد فقال وجبت فقيل وما وجبت يا رسول الله قال وجبت له الجنة

سورة الفلق مختلف وهي خمس ايات بسم الله الرحمن الرحيم

قل اعوذ برب الفلق الفلق الصبح كالفرق لانه يفلق عنه الليل ويفرق فعل بمعنى مفعول فان كل واحد
من المفلوق والمفلوق عنه مفعول وقيل هو ما انفلق من عموده وقيل هو كل ما يفلقه الله تعالى
كالارض عن النبات والجبال عن العيون والسحاب عن الامطار والحب والنوى عما يخرج منهما وغير ذلك
وفي تعليق العياذ باسم الرب المضاف الى الفلق المنبئ عن النور عقيب الظلمة والسعة بعد
الضيق والفتق بعد الرتق عدة كريمة باعاذة العائذ مما يعوذ منه وانجائه منه وتقوية لرجائه
بتذكير بعض نظائره ومزيد ترغيب في الجد والاعتناء بقرع باب الالتجاء اليه تعالى واما الاشعار
بان من قدر ان يزيل ظلمة الليل من هذا العالم قدر ان يزيل عن العائذ ما يخافه كما قيل فلا ارتياب للعائذ
في قدرته تعالى على ذلك حتى يحتاج الى التنبيه عليها من شر ما خلق اى من شر ما خلقه من
الثقلين وغيرهم كائنا ما كان من ذوات الطبائع والاختيار وهذا كما ترى شامل لجميع الشرور
فمن توهم ان الاستعاذة ههنا من المضار البدنية وانها تعم الانسان وغيره مما ليس بصدد
الاستعاذة ثم جعل عمومها مدارا لاضافة الرب الى الفلق فقد نأى عن الحق بمراحل واضافة الشر
اليه لاختصاصه بعالم الخلق المؤسس على امتزاج المواد المتباينة وتفاعل كيفياتها المستتبعة
للكون والفساد واما عالم الامر فهو خير محض منزه عن شوائب الشر بالمرة وقوله تعالى ومن
شر غاسق تخصيص لبعض الشرور بالذكر مع اندراجه فيما قبله لزيادة مساس الحاجة الى الاستعاذة
منه لكثرة وقوعه ولان تعيين المستعاذ منه ادل على الاعتناء بالاستعاذة وادعى الى الاعاذة
اى ومن شر ليل معتكر ظلامه من قوله تعالى الى غسق الليل واصل الغسق الامتلاء يقال غسقت
العين اذا امتلأت دمعا وقيل هو السيلان وغسق الليل انصباب ظلامه وغسق العين سيلان

دمعها

دمعها واضافة الشر الى الليل لملابسته له بحدوثه فيه وتنكيره لعدم شمول الشر لجميع افراده
ولا لكل اجزائه وتقييده بقوله تعالى اذا وقب اى دخل ظلامه في كل شيء لان حدوثه فيه
اكثر والتحرز منه اصعب واعسر ولذلك قيل الليل اخفى للويل وقيل الغاسق هو القمر اذا امتلاء
ووقوبه دخوله في الخسوف واسوداده لما روى عن عائشة رضها انها قالت اخذ رسول الله
صلعم بيدي فاشار الى القمر فقال تعوذي بالله من شر هذا فانه الغاسق اذا وقب وقيل التعبير
عن القمر بالغاسق لان جرمه مظلم وانما يستنير بضوء الشمس ووقوبه المحاق في اخر الشهر والمنجمون
يعدونه نحسا ولذلك لا يشتغل السحرة بالسحر المورث للتمريض الا في ذلك الوقت قيل وهو المناسب
لسبب النزول وقيل الغاسق الثريا ووقوبها سقوطها لانها اذا سقطت كثرت الامراض
والطواعين وقيل هو كل شر يعتري الانسان ووقوبه هجومه ومن شر النفاثات في العقد
اى ومن شر النفوس او النساء السواحر اللاتي يعقدن عقدا في خيوط وينفثن عليها والنفث
النفخ مع ريق وقيل بدون ريق وقرئ النافثات كما قرئ النفثات بغير الف وتعريفها اما
للعهد او للايذان بشمول الشر لجميع افرادهن وتمحضهن وتخصيصه بالذكر لما روى ابن عباس
وعائشة رضي الله عنهم انه كان غلام من اليهود يخدم النبي صلى الله عليه وسلم وكان عنده
اسنان من مشطه عليه السلام فاعطاها اليهود فسحروه عليه السلام فيها وتولاه لبيد
بن الاعصم اليهودي وبناته وهن النافثات في العقد فدفنها في بئر اريس فمرض النبي صلعم
فنزل جبريل عم بالمعوذتين واخبره بموضع السحر وبمن سحره وبم سحره فارسل عليه السلام
عليا كرم الله وجهه والزبير وعمارا رضي الله عنهم فنزحوا ماء البئر فكانه نقاعة الحناء
ثم رفعوا راعونة البئر وهي الصخرة التي توضع في اسفل البئر فاخرجوا من تحتها الاسنان ومعها
وتر قد عقد فيه احدى عشر عقدة مغرزة بالابر فجاؤا بها النبي صلعم فجعل يقرأ المعوذتين
عليها فكان كلما قرأ اية انحلت عقدة ووجد عليه السلام خفة حتى انحلت العقدة الاخيرة
عند تمام السورتين فقام عليه السلام كانما انشط من عقال فقالوا يا رسول الله افلا نقتل
الخبيث فقال عليه السلام اما انا فقد عافاني الله عز وجل واكره ان اثير على الناس شرا قالت
عائشة رضها ما غضب النبي صلعم غضبا ينتقم لنفسه قط الا ان يكون شيئا هو لله تعالى فيغضب
لله وينتقم وقيل المراد النفث في العقد ابطال عزائم الرجال بالحيل مستعار من تليين العقدة
بنفث الريق ليسهل حلها ومن شر حاسد اذا حسد اى اذا اظهر ما في نفسه من الحسد
وعمل بمقتضاه بترتيب مقدمات الشر ومبادي الاضرار بالمحسود قولا او فعلا
والتقييد بذلك لما ان ضرر الحسد قبله انما يحيق بالحاسد لا غير عن النبي صلعم من قرأ
المعوذتين فكانما قرأ الكتب التي انزلها الله تعالى

سورة الناس مدنية وهي ست ايات بسم الله الرحمن الرحيم

قل اعوذ وقرئ في السورتين بحذف الهمزة ونقل حركتها الى اللام برب الناس اى مالك
امورهم ومربيهم بافاضة ما يصلحهم ودفع ما يضرهم وقوله تعالى ملك الناس
عطف بيان جيء به لبيان ان تربيته تعالى اياهم ليست بطريق تربية سائر الملاك لما تحت
ايديهم من مماليكهم بل بطريق الملك الكامل والتصرف الكلي والسلطان القاهر وكذا قوله
تعالى اله الناس فانه لبيان ان ملكه تعالى ليس بمجرد الاستيلاء عليهم والقيام بتدبير امور
سياستهم والتولي لترتيب مبادي حفظهم وحمايتهم كما هو قصارى امر الملوك بل
هو بطريق المعبودية المؤسسة على الالوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلي
فيهم احياء واماتة وايجادا واعداما وتخصيص الاضافة بالناس مع انتظام جميع
العالمين في سلك ربوبيته وملكوته والوهيته للارشاد الى منهاج الاستعاذة المرضية
عنده تعالى الحقيقة بالاعاذة فان توسل العائذ بربه وانتسابه اليه تعالى بالمربوبية
والمملوكية والعبودية في ضمن جنس هو فرد من افراده من دواعي مزيد الرحمة والرافة وامره
تعالى بذلك من دلائل الوعد الكريم بالاعاذة لا محالة ولان المستعاذ منه شر الشيطان
المعروف بعداوتهم ففي التنصيص على انتظامهم في سلك عبوديته تعالى وملكوته
رمز الى انجائهم من ملكة الشيطان وتسلطه عليهم حسبما ينطق به قوله تعالى ان عبادي

اى قل لا ... معناه اعتصم بملك الناس الذي يملكهم من يشاء ... الوسواس الخناس ... على قلبي ... قلبه وبه ... خنس واذا ... فقال الذي يوسوس في صدور الناس ... الاو معه ملك ... وشيطان ...

ليس لك عليهم سلطان فمن جعل مدار تخصيص الاضافة مجرد كون الاستعاذة من المضار المختصة
بالنفوس البشرية فقد قصر في توفية المقام حقه واما جعل المستعاذ منه فيما سبق المضار البدنية
فقد عرفت حاله وتكرير المضاف اليه لمزيد الكشف والتقرير والتشريف بالاضافة من شر
الوسواس هو اسم الوسوسة وهي الصوت الخفي كالزلزال بمعنى الزلزلة واما المصدر فبالكسر
والمراد به الشيطان سمي بفعله مبالغة كانه نفس الوسوسة الخناس الذي عادته ان يخنس
اي يتأخر اذا ذكر الانسان ربه الذي يوسوس في صدور الناس اذا غفلوا عن ذكر ربهم
ومحل الموصول اما الجر على الوصف واما الرفع او النصب على الذم من الجنة والناس بيان
للذي يوسوس على انه ضربان جني وانسي كما قال عز وجل شياطين الانس والجن او متعلق
بيوسوس اي يوسوس في صدورهم من جهة الجن ومن جهة الناس وقد جوز ان يكون بيانا للناس
على انه يطلق على الجن ايضا حسب اطلاق النفر والرجال عليهم ولا تعويل عليه واقرب منه
ان يراد بالناس الناسي وقد يجعل سقوط الياء كسقوطها في قوله تعالى يوم يدع الداع ثم
يبين بالجنة والناس فان كل فرد من افراد الفريقين مبتلى بنسيان حق الله تعالى الا من تداركه
سوابغ عصمته وتناوله واسع رحمته عصمنا الله تعالى من الغفلة عن ذكره ووفقنا
لاداء حقوق شكره قال العبد الذليل متضرعا الى ربه الجليل اللهم يا ولي العصمة و
الارشاد وهادي الغواة الى سنن الرشاد بارئ البرية مالك الرقاب عليك توكلي
واليك متاب انت المغيث لكل حائر ملهوف والمجير من كل هائل مخوف الوذ بجهك
المأمون من غوائل ريب المنون والتجأ الى حرزك الحريز واوي الى ركنك العزيز
واستمد من خزائن برك المخزون في مكامن سرك المكنون خير ما جرى به قلم التكوين من امور
الدنيا والدين واعوذ بك من فنون الفتن والشرور لاسيما الاطمئنان بدار الغرور والاغترار
بنعيمها وزهرتها والافتتان بزخارفها وزينتها فاعذني بحمايتك واعتني بعنايتك
وافض علي من شوارق الانوار الربانية وبوارق الآثار السبحانية ما يخلصني من
العوائق الظلمانية ويجردني من العلائق الجسمانية وهذب نفسي الآبية من دنس
الطبائع والاخلاق ونور قلبي القاسي بلوامع الاشراق لتسعد للعثور على سرائر
الانس وتتهيأ للحضور في حظائر القدس وثبتني على مناهج الحق والهدى وارشدني
الى مسالك البر والتقى واجعل اعز مرامي ابتغاء رضاك واشرف ايامي يوم القاك يوم يقوم
الناس لرب العالمين فريقا فريقا واحشرني مع الذين انعمت عليهم من النبيين و
الصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا اتفق الفراغ

تم الكتاب بكاملت • نغم السرور لصاحبه •
وعفى الاله بجوده • ويفضله عن كاتبه •

اللهم يا خالق المخلوقات ويا عالم الخفيات ويا سامع الاصوات ويا مجيب الدعوات اسألك ان تفقهنا
في الدين وان تعلمنا التأويل وان تجعل ما نحن فيه خالصا لوجهك الكريم اللهم انصر سلطان
المسلمين واعل كلمة الموحدين واخذل الكفرة الطغاة المنافقين المشركين اللهم شتت شملهم
وفرق جمعهم واردهم على اعقابهم ناكصين وانصر عليهم اولياء دينك المؤمنين وايدهم
بالملائكة المتقين كما ايدت بذلك سيد المرسلين اللهم اخرج حب سواك من قلوبنا واغفر
جميع خطايانا وعيوبنا اللهم من كادنا فكده ومن بغى علينا فخذه واقصمه يا قاصم الجبابرة يا
مالك الدين والدنيا والآخرة يا رب العالمين اللهم لا تجعل حوائجنا الا اليك ولا اعتمادنا فيما اهمنا الا عليك